

عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فريد زفاعي

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الأول

(حقوق الطبع محفوظة للأولف)

[الطبعة الثالثة]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٢٨ - ١٣٤٦ هـ

فهرس

المجلد الأول من عصر المأمون

صفحة	
(ط)	كلمة العمد الأصفهاني
(ك)	إهداء الكتاب
(م)	المقدمة

الكتاب الأول - عصر بني أمية

الفصل الأول - تحول المدنية الاسلامية :

١	توطئة
٤	نظام الحكم في عهد الصحابة
٥	حكومة عثمان ونظر الجماعات العربية اليها

الفصل الثاني - الجهاد بين الخلافة والملك :

١٠	توطئة
١١	كلبتنا عن على رضى الله عنه
١٣	تحول الرأى العام
١٥	معارية
١٥	سياسة معاوية
١٦	مميزات معاوية
١٨	معاوية والسياسة الميكافيلية

الفصل الثالث - سياسة معاوية وخلفائه :

٢٠	توطئة
٢٢	اصطناع الأحزاب بالمال
٢٥	العمال
٢٨	الوجهة الدينية
٣٥	التعسف المذهبي

فهرس المجلد الأول

(د)

صفحة	
	الفصل الرابع — ولاية العهد :
٣٨	نظام ولاية العهد وابن خلدون
٣٩	خطر نظام ولاية العهد وأثر البطاقات
٤٣	نظام ولاية العهد وعلاقته بالعصبية العربية
	الفصل الخامس — الحياة العلمية والأدبية للعصر الأموى :
٤٥	توطئة
٤٦	آثار الآداب والعلوم الفارسية واليونانية في العصر الأموى
٤٧	حركة النقل
٤٩	الخطابة ومميزاتها
٥١	الكتابة
٥٣	حالة الشعر في العصر الأموى وتحوله
٥٦	الغزل
٥٩	الشعر السياسى

الكتاب الثانى — عصر بنى العباس

الفصل الأول — الوجهة السياسية :

٦٩	توطئة
٦٩	دور الانتقال
٧١	الشيعة العلوية

الفصل الثانى — العصبية والموالى فى الدولة العباسية :

٧٤	توطئة
٧٥	العصبية
٧٩	الموالى

الفصل الثالث — الدولة العباسية :

٨٢	توطئة
٨٢	تأليف الجمعيات السرية
٨٤	الدعوة العباسية وأبو مسلم الخراسانى
٨٨	الفصل الرابع — أبو العباس السفاح

(٥)

فهرس المجلد الاول

صفحة	
٩٢	الفصل الخامس — أبو جعفر المنصور
١٠١	الفصل السادس — المهدي
١٠٧	الفصل السابع — الهادي
١١٤	الفصل الثامن — هارون الرشيد :
١٢٢	(١) السياسة الداخلية
١٢٨	(٢) السياسة الخارجية
١٣٠	(٣) التكلم عن البيعة
١٣٥	(٤) الدولة البرمكية والنكبة البرمكية
	الفصل التاسع — الحياة العلمية في العصر العباسي :
١٦٠	توطئة
١٦١	حركة النقل
١٦٤	العلوم القرآنية واللغوية والفقهية
	الفصل العاشر — الحالة الأدبية في صدر عصر بني العباس :
١٦٦	توطئة
١٦٧	الخطابة والخطباء
١٧٢	الكتابة
١٧٤	مجالس الخلفاء والمنظرة
١٨٢	الشعر

الكتاب الثالث — عصر المأمون

الفصل الاول — محمد الأمين :

١٨٩	توطئة
١٩١	مولده
١٩٢	نشأته وأخلاقه

الفصل الثاني — المأمون :

٢١٠	توطئة
٢١٠	مولده
٢١١	نشأته وأخلاقه

فهرس المجلد الأول

(و.)

صفحة

الفصل الثالث - النزاع بين الامين والمأمون :

٢١٩	توطئة
٢٢٠	بيعة الأمين وخلافته
٢٢٢	مبدأ النزاع وكيف تحول
٢٢٨	الوفود السياسية
٢٣٦	نفور الرأي العام واستمرار الوفود السياسية
٢٤٥	إعلان الحرب
٢٤٨	انتصار الجيوش المأمونية ومقولات الشعراء
٢٥٢	عود على بدء ، جهود الأمين في سبيل الفوز
٢٥٤	مظاهر الثورة وخطابها
٢٥٥	قتل الامين

الفصل الرابع - الخليفة المأمون :

٢٥٧	توطئة
٢٥٨	السياسة الداخلية
٢٥٨	ملخص الحالة العامة في المدة انخراسانية
٢٦٩	المدة البغدادية
٢٧٣	ثورة نصر بن شيبث
٢٧٧	الزط
٢٧٨	ثورة مصر
٢٨١	بابك الخرمي
٢٨٦	ملهاه ونحل
٢٨٧	افراضات
٢٨٨	السياسة الخارجية
٢٩٠	غزوة المأمون للروم
٢٩٢	كلمة ختامية

الفصل الخامس - الوزارة والأعمال الحكومية في عصر المأمون ، تاريخ الوزارات المأمونية :

٢٩٦	توطئة
٢٩٦	وزارتا الفضل بن سهل وأخيه الحسن
٣٠٤	وزارة أحمد بن أبي خالد

(ز)

فهرس المجلد الأول

صفحة	
٣٠٨	وزارة أحمد بن يوسف
٣٠٨	وزارة يحيى بن أكرم
٣٠٨	وزارات أخرى
٣٠٩	الجنند والقواد في عصر المأمون
٣٠٩	ديوان القضاء والمظالم والحسبة
	الفصل السادس — خلاصة الحياة السياسية والاجتماعية :
٣١١	توطئة
٣١١	نكبة الوزراء
٣١٢	الاستصفاء
٣١٧	ثروة الخلفاء ورجال الدولة وبذخهم
٣٢٠	الخراج في عهد المأمون
٣٢٣	الخراج في عهد المعتصم
٣٢٧	السعيات والجاسوسية
٣٢٨	الدعاية (البروباغندا)
٣٣٠	صعوبة مهمة المؤرخ
	الفصل السابع — شخصية المأمون :
٣٣١	توطئة
٣٣١	كرمه وسخاؤه
٣٣٧	كيف تملك المأمون قلوب بطانته
٣٤٠	قدره لرجال دولته
٣٤٢	قدره للشجاعة الادبية
٣٤٥	عدله وإنصافه
٣٤٩	عفووه
٣٥٢	احماله
٣٥٣	بصره بالأدب
٣٥٩	علم المأمون
٣٦٢	احترامه للدين
٣٦٤	سياسته
٣٦٧	مذهبه الديني
٣٧٢	كلمة ختامية عن المأمون

فهرس المجلد الأول

(ح)

صفحة

الفصل الثامن — الحياة العلمية في عصر المأمون :

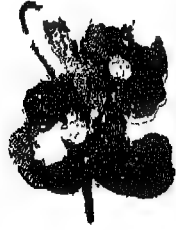
٣٧٥	توطئة
٣٧٩	حركة الترجمة والنقل
٣٨١	كتب العصر
٣٩٤	آثار النهضة المأمونية
٣٩٥	القول بخلق القرآن

الفصل التاسع — الحياة الأدبية في عصر المأمون :

٣٩٩	توطئة
٤٠٢	المحاضرة أولغة التخاطب
٤٠٣	الخطابة
٤٠٥	الكتابة
٤٠٦	مجالس المناظرة وأهواء الأدب
٤٠٦	الشعر

الفصل العاشر — نماذج لبعض الشخصيات البارزة في العصر المأموني :

٤١٧	توطئة
٤١٧	جبرائيل بن يحيى بن جبرائيل
٤٢٠	الملاحظ
٤٢٩	أبان بن عبد الحميد اللاحق
٤٣٤	أحمد بن يوسف الكاتب
٤٤٠	يحيى بن أكثم
٤٥٢	إسحاق بن إبراهيم



« إِنِّي رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَكْتُبُ إِنْسَانٌ كِتَابًا فِي يَوْمِهِ إِلَّا قَالَ »
« فِي غَدِهِ : لَوْ غُيِّرَ هَذَا لَكَانَ أَحْسَنَ ، وَلَوْ زِيدَ كَذَا لَكَانَ »
« يُسْتَحْسَنُ ، وَلَوْ قُدِّمَ هَذَا لَكَانَ أَفْضَلَ ، وَلَوْ تُرِكَ هَذَا لَكَانَ »
« أَجْمَلَ . وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَرِ ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِيلَاءِ »
« النِّقْصِ عَلَى جَمَلَةِ الْبَشَرِ » .

العماد الاصفهاني

الى حضرة صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا

مولاي

لله على نعمة التوفيق الى الاتصال بك، والانقطاع لخدمتك،
والاستغلال بظلك؛ فأنا أحد هؤلاء الكثيرين الذين تعهدهم فضلك،
وثقفهم نصحك، وهذبهم أدبك . أولئك الذين أنت لهم أبٌ برٌّ،
ومثقف حكيم، وأستاذ رشيد .

وكنْتُ قد أخذتُ نفسي بأن أقفَ على خدمتك ما أملك من
وقتٍ وجهْد، ولكن الإنسان طُلعةً بطبعه، فإذا اتصل بك فلا حدَّ
لرغبته في البحث، وحرصه على الجِدِّ، وطُمُوحه الى الكمال .
وكذلك أراد الله أن أقطعَ من هذا الوقت الذي وهبهُ لك خالصاً
ما امكنتني من وُضْع هذا الكتاب .

فهل تأذن لي يا مولاي أن أرفع اليك ”عصر المأمون“ على
أنه أثرٌ يَهْدِي الى مُنشئه، وحقُّ يُرَدُّ الى أهله، واعترافٌ بالجميل من
رجلٍ مَهْمَا يَفْعَل ومَهْمَا يَقُول فلن يُوَفِّيكَ بعض ما يَدِينُ به ضميره لك
من حبٍّ وإجلال .

مدد الله في حياة مولاي، وجعل مستقبلها كحاضيتها حافلاً بالجِدِّ
والتوفيق في خدمة أمته وعصره ومليكاه

أحمد فريد رفاعي

أقرل يونيه سنة ١٩٢٧

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ — الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسل الله . وبعد فإني أتعلم بهذا الأثر الضئيل من "عصر المأمون" الى أمي ، والى الناطقين بالضاد من أبناء لغتي . وأمل بفضل إرشاد العلماء والنقاد أن يوفقني الله الى إكمال النقص ، وإصلاح الخطأ ، وتلافي التقصير في الطباعات القادمة . معترفاً ، في صدق وإخلاص ، بأن طبعتي هذه لا تعدو أن تكون "محاولة" ، لكتابة التاريخ العربي على النظم العلمية الحديثة . وأنت تعلم أن تاريخنا العربي لا يزال ، بلا مبالغة ولا إغراق ، تُعوّزُه شتى المصادر كما يُعوّزُه التنظيم والترتيب والتحقيق والاستقراء . وإني أسأله تعالى أن يجعلني ممن يُدعّنُ لكلمة الحق . فيرعى حرمتها ، ويمتدّى بهديها ، غير مفتونٍ بمدح المادح ، ولا مُبتئسٍ بقبح القادح . كما أسأله أن يُرشدني الى المضيّ موقفاً مسدداً فيما أخذتُ به نفسي من البحث عن عصور "معاوية" و "المنصور" و "الرشيد" و "عبد الرحمن الأندلسي" . وأملُ بمعاونته تعالى ، وإرشاد العلماء والأدباء ، ومُعونة المستشرقين والباحثين ، وبما يهبُّ لي الله من صبر وجلد ، ومواظبةٍ ومُتَابَرةٍ ، ومُتَابَعَةٍ للدرس والاستقراء ، وبما أوفّق اليه من مصادر ونصوص ، ومراجع ومطالّ ، أن أكون — عند الانتهاء من كتابة ما ارتهنتُ به ، لو كان في العمر بقية — قد وفّقتُ الى تنظيم دراسة تلك البحوث تنظيماً جزئياً ، يتفق ووسائل ومقدوري ، ويتشّى — الى حدّ ما — والطريقة التحليلية الحديثة في كتابة التاريخ ، وأن يكون عملي حين ذاك مما يسمح لي أن أقول ، في ثقة وإيمان ، إني قد قمت

حقاً "بمحاولة" ذات أثر نافع تمكن ضيري من اتخاذها أساساً لكتابة تاريخ المديّنات العربية الواسعة المدى ، البليغة الأثر في الثقافات الإنسانية عامة ، كتابةً تاريخيةً صحيحة .

٢ - وقد وقع "عصر المأمون" في مجلدات ثلاثة ، خصصت. أولها بالتاريخ ومال إلى التاريخ ، وثانيها وثالثها بالأدب وما إلى الأدب ، وأعطت في تلخيص للشعراء فيهما على أهميات المظان الأدبية لا سيما كتاب الأغاني ، وأعترف - في صديق وإخلاص - أن مهمتي في المجلدين الآخرين لم تخرج عن مهمة المتخير لي في تلك العصور الزاهية من عُمر ودُرر ، المنقّب عما فيها من طُرف ومَلَح ، المايخص لحياة أدبائها وشعرائها ، المحتفظ بعبارات المعاصرين وشيوخ المؤلفين عنها . وقسمت المجلد الأول إلى كتب ثلاثة . عالجته فيها البحث عن عصور بني أمية وبني العباس والمأمون . وقد توخّيت الإيجاز في فذلكتي التاريخية عن عَصْرِي الأمويين والعباسيين لأنهما بمثابة تُكَاةٍ وأساس لموضوعنا ، كما لاحظت الاستمسك بالحيّدة التامة وعدم التطوح مع أولئك المؤرّخين والرواة الذين تأثروا بأهوائهم السياسية ومعتقداتهم المذهبية والذين نكّبت بهم عن حجة الصواب مغالاًتهم في الانتصار لفكرتهم الحزبية . وقسمت المجلدين الثاني والثالث إلى ملحقات للكتب الثلاثة عن العصور الثلاثة ، نشرت فيها ما وسّعه المقام من المنثور والمنظوم والنصوص الطويلة والمقالات المستفيضة . وعُنيّت عنايةً خاصة إلى جانب ذلك بذكر جملة صالحة من آثار كاتب خاص وشاعر خاص على أنهما نموذجان لتمثيل عصرهما . واتخذت من عبد الحميد الكاتب وعمر بن أبي ربيعة نموذجاً أمويّاً ، ومن أبي الربيع محمد بن الليث وبنّار بن بُرد مثلاً عباسيّاً ، ومن عمرو ابن مسعدة وأبي نَواس نموذجاً لتصور الحياة الكتابية والشعرية في عصر الأمين والمأمون ، إلى غير ذلك من النماذج والآثار مما يستدعيه المقام ، فجاء المجلدان الثاني والثالث بذلك مكملين للمجلد الأول .

وأعتقد اعتقاداً راسخاً أنه لن يعترض علىّ معترض لعنايتي بالعصر العباسي من وجهتيه التاريخية والأدبية ، فلم يعد "عصر المأمون" عن كونه شطراً يُحفل به من العصر العباسي ، كما أعتقد أنه مما لا مندوحة لنا عنه لتفهم العصر العباسي أن نصوّر لك العصر الذي قبله

(س)

مقدمة الكتاب

بما يسهل المقام . وهذا ما عالجناه لك في كتابنا بصورة متواضعة نأمل أن تكون فيها الغنية والكفاية لما نروم تصويره .

ولقد عدلت عما كنتُ ذهبتُ اليه من بيان المصادر والمراجع في نهاية كل صفحة ، رغبة في ألا أشغل نظر القارئ بما لا يُجدي عليه ، وحرصا على توحيد مجهوده في استيعاب الموضوع وتفهم شتى مناحيه ، مُلحِّقا في الوقت نفسه نهاية المجلد الثالث ببيان مصادر الكتاب لمن أراد توسعا فُتراجع ثمة .

٣ — وأحمد الله أن أبرز كتابي هذا في عصر النهضة الاستقلالية المصرية التي ازدانت برعاية مولانا المليك "فؤاد الأول" حفظه الله . كما ازدانت بناصعة خدم أقطابنا وزعمائنا ، ذوى الصُّحف البيضاء ، والآثار الخالدات الباقيات ، وعلى رأسهم أصحاب الدولة الأجلاء ، فقيدنا المرحوم المبرور "سعد زغلول باشا" والقُطبان الخطيران "عدلى يكن باشا" و"عبد الخالق ثروت باشا" . فهؤلاء الثلاثة ، قد وهب الله لهم أصالة الرأي ، ونبالة القصد ، وثروة الذهن ، وغنى العقل ، وحباهم سدادا في سياسة ، وتواضعا مع رئاسة ، وحكمة في سياسة ، ونبوغا مع ثقافة ، وحرما في حصافة . وأمتعهم بثقوب النظر ، ورجاحة الفكر ، وأفاض على أشخاصهم ليئا ودماثة ، وسماحة وداعة ، حتى أجمع القوم على حبهم إجماعهم على الاعتراف بوافر فضيلتهم ، والإشادة بعطر ذكركم ، وتسابقوا الى الاستفادة من سديد مواقفهم ، وحكيم صنعهم ، ونزاهة أعمالهم ، استفادتهم من أفأويقي عرفانهم ، وفَيْض بيانهم ، ومُقتنع برهانهم . وهؤلاء الثلاثة قد نجحوا في تكوين الأمة من الوجهة السياسية ، نجاحهم في تكوينها من الوجهة القومية . فاللهم رحمة واسعة لزعيمنا الراحل الكريم ، وعوضنا اللهم من خسارتنا الفادحة في فقد ، أحوج ما كنا الى عظيم جهوده ، وهب اللهم حياة طويلة لقطيبتنا محط الآمال ومعقد الرجاء .

وأحمد الله تعالى على أن دخلت البلاد عهدا جديدا من حياتها العلمية ، برعاية وزير معارفنا الهام ، مُرْهَف العَزمات ، مسدّد الوثبات ، صاحب المعالي "على الشمسي باشا" ومدير

جامعتنا المصرية العالم الجليل الأستاذ "أحمد لطفى السيد بك" وغيرهما من رجالات العلم والأدب فى هذا الجيل .

٤ - وإننى أتمنى هذه الفرصة لأشيد بما لارحوم الأستاذ محمد الخضرى بك من فضل عظيم ، ومعترفا بما لصديقى الدكتور طه حسين الأستاذ بالجامعة المصرية من مَعونة قيمة فى غير موضع من الكتاب ، كما أتمنىها لأشكر لسادق العلماء والأدباء ، ورجال الصحافة والمجلات حسن استقبالهم لكتابى . كما أحمد لحضرات النقاد الأجلاء جميل تشجيعهم وحكيم أخذهم الأمور بهوادة ورفق . معترفاً بصداق رغبتهم فى الأخذ بناصر العلم والعلماء قادرا أعظم قدر روحهم العالية فيما ديجوه فأجادوه ، وكتبوه فارتفعوا بعلم النقد عندنا عما وُصِم به أخيرا من التَّطاحن والرماء ، والجلال والشحناء ، والعمل على الهدم لا على البناء ، كما أشكر لسادق الأستاذين الجليلين محمد عبد الوهاب النجار وعبد الخالق عمر والكاتبين الأديبين محمد المهياوى ومحمد صادق عنبر ، حُسن صنيعهم فى تهذيب "عصر المأمون" معترفا بعظيم جهد ثانيهما اللغوى أحسن الله جزاءهم .

وإنى أخص بالشكر رجال دار الكتب المصرية وعلى رأسهم حضرات الأساتذة محمد أسعد برادة بك مدير الدار ذى الخلق الوديع والهمة الشَّماء . وأحمد زكى العدوى افندى رئيس القسم الأدبى بالدار وصاحب الهوامش الحسان . وعبد الرحيم محمود افندى ومحمد عبد الجواد الأصمى افندى المصححين به وصاحبى الأثر الطيب الجليل . ورجال هذا القسم كافة فلهم الفضل الكثير، بهمة رئيسهم الفاضل ، فى ضبط الكتاب وتصحيح مسودَّاته . كما أشكر حضرة الفاضل محمد نديم افندى ملاحظ الطباعة بالدار المشهور بالدقة والإتقان . ويلوح لى أن الله تعالى أحسن جزاء المأمون على حدِّيه وكبير عنايته بدور الحكمة (دور الكتب) العديدة فى عصره ، بأن وفق دار الحكمة فى مصر، فى هذا العصر، الى رعاية عصره، بهمة وإخلاص ، وتدقيق وتحقيق ما

أحمد فريد رفاعى

الكتاب الأول

عصر بني أمية

الفصل الأول

تحول المدينة الإسلامية

توطئة — نظام الحكم على عهد الصحابة — حكومة عثمان ونظر الجماعات العربية إليها .

(١) توطئة :

حمل الفتح الإسلامي الذي فتحه الخلفاء الراشدون في سبيل الدعوة الدينية من العناصر المادية والاجتماعية والسياسية ما كانت له نتائج وآثاره ، فبعد أن كانت الأموال في أيام النبي صلى الله عليه وسلم نحو أربعين ألفاً بين أبيل وخيل ، وبعد أن كان عمر بن الخطاب دهباً مراً حينما أبلغه أبو هريرة عند قدومه من البحرين أنه أتى بخمسمائة ألف درهم فاستكثرها عمر وقال : أتدرى ما تقول ؟ قال : نعم ، مائة ألف خمس مرات . فصعد عمر المنبر وقال : «أيها الناس ، قد جاءنا مالٌ كثيرٌ ، فإن شئتم كلنا لكم كيلاً ، وإن شئتم عدنا لكم عدداً» — بعد أن كان دهباً من هذه الثروة أصبحنا نرى ، بعد عهده بقليل ، جساماً الهبات مما لا تُعد هذه الأموال في جانبه شيئاً مذكوراً .

ونحن لا نعريض الآن للقول فيما وصلت إليه الثروة الإسلامية في أيام المأمون ، ولا نعريض لفنون المديّنات العديدة التي سادت في عهده ، لأننا رسمنا لأنفسنا خطة من لا يريد

استبأق الحوادث وآثارها ، ولا التاريخ ونتائجه . وإنا نجترئ الآن بكلامنا عن عصر قريب من عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، القريب العهد بتأثر الأذهان بالمثل العليا : من أبي بكر الذي مات ولم يحدوا عنده من مال الدولة إلا ديناراً واحداً سقط من غرارة ، والذي أوصى حينما دنا أجله بأن تُباع أرض كانت له ويُدفع ثمنها بدلاً مما أخذه من مال المسلمين ، ومن عمر بن الخطاب الذي حرّم على المسلمين اقتناء الضياع والزراعة ، لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم وما يملكون من عبيد وموَالٍ ، كلّ ذلك يدفعه لهم من بيت المال ، فما بهم إلى اقتناء المال من حاجة ، وليس للمال في نفوسهم من إغراء ولا إلى ضمائرهم من إفساد .

هذه حال المسلمين المادية والمعنوية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه ، نظر بينهما وبين ما جدّ بعد ذلك من كثرة في المال وإسراف في الترف مما كان له أعمق الأثر في تغير أحوال المسلمين الاجتماعية والمعيشية والخلقية . يحدثنا ابن خلدون عن عامل أموي ، ليس بملك ولا خليفة ، يحدثنا عن خالد القسري أمير العراق في أيام هشام فيقول : إن غلته بلغت ثلاثة عشر ألف ألف درهم . ويثبت لنا ابن الأثير دليلاً ليس بأقل مما ذهب إليه ابن خلدون قيمة وخطراً ، إذ يقول ما نصه : « إن طارقاً خليفة خالد على الكوفة لما ختن ولده أهدى إليه خالد ألف وصيف ووصيفة سوى الأموال والثياب » . وذكر اليعقوبي : أن خالدًا فرق أموالاً عظيمة مبلغها ستة وثلاثون ألف ألف درهم .

أجل ! لقد تحولت الاعتبارات الاجتماعية وفقاً للتغيرات المادية ، فبعد أيام الروع وغبلة سلطان الدين والعدل في أعطيات المسلمين ، بعد أيام عمر وصحابة عمر التي نعلم الشيء الكثير من وجهة نظر محمد الدين الإسلامي فيها إلى المال — وهو عنصر حيوي شديد الأثر في تحول النظم المعيشية والاجتماعية والسياسية أيضاً — وإلى ضرر اختراجه ، فقد قال قائل لعمر بن الخطاب : « يا أمير المؤمنين ، لو تركت في بيوت الأموال شيئاً يكون عُدّة لحادث إذا حدث ! » فزجره عمر وقال له : « تلك كلمة ألقاها الشيطان على فبك وقاني الله شرّها ! » وهي فتنة لمن بعدى . إنّي لا أعتدّ للحادث الذي يحدث سوى طاعة الله ورسوله ، وهي

عُدَّتْنا التي بلغنا بها ما بلغنا» — بعد هذه النظراتِ التقشُّقية البريئة، نظراتِ الورع والزهد، سرعانَ ما حملت الفتوحُ معها ومع تلك الثروات الطائلة التي أتت بها ما غيرَ عناصرِ عدَّةٍ، فاختزنَ المالُ، وكانت الفتنةُ كما تنبأتْ نظراتُ عمر الصائبةُ إلى المال واختزانه، وذهبت في آثارها إلى ما هو أعمق وأخطر، ذهبت إلى اليكَّانِ الخلقِ للعرب، فبدلت من سيرة قادتهم وسيرة شعبيهم : كانت سيرة قادتهم عدلاً وإنصافاً، وسيرة شعبيهم أنفةً وانتصافاً، فتبدل الحال غير الحال، حتى أُتيَحَ لمصعب بن الزبير مثلاً، وهو من بيت يُنْساوَى بنى أمية وينافسهم في الملك، أن يبدل ألف ألف درهم في زواجه من سُكينة بنت الحسين، ومثلها في زواج عائشة بنت طلحة، في حين كان جنودُ المسلمين يتضورون مسغبةً وجوعاً. حتى كتب عبد الله ابن مُصعب إلى عبد الله بن الزبير لمناسبة ما يعانيه الجندُ وترَفِ شقيقه زعيم الجند :

بَلِّغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رِسَالَةً * مِنْ نَاصِحٍ لَكَ لَا يَرِيدُ خِدَاعاً
بُضْعُ الْفَتَاةِ بِأَلْفِ أَلْفٍ كَامِلٍ * وَتَبِيتُ سَادَاتُ الْجُنُودِ جِيعاً
لَوْلَا بِي حَفِيفُ أَقُولُ مَقَالَتِي * وَأُبْثِ مَا سَابَقَكُمْ لَأَرْتَاعاً

صدق الشاعرُ في قوله، إن تلك الحالَ ليرتاع منها عمرُ حقاً، وليفرق من ذكرها أبو بكر، ويلتاع من سماعها على. ولكن الحال تغيرت إلى مدى بعيد، حتى أصبح المالُ غرضاً تشرَّبَ لحيازته الأعناقُ، وتزع نحو تملكه النفوسُ، إلى أن رأينا فيما بعد أن الحاج بن يوسف لما حاصر الكعبة، وفيها ابنُ الزبير، وتردد جنده في ضربها بالمنجنيق جاء بكريسي وجلس عليه وقال : «يا أهل الشام، قاتلوا على أعطيات عبد الملك»، ففعلوا.

ذلك هو أثرُ المالِ في الأخلاق والأحوال والنفوس طبقاً للتغيرات الاجتماعية .

(١) هذه الأبيات من عروض الكامل وتفاعليه :

متفاعان متفاعان متفاعان

مرتين

وفي قوله : "لولا بى" زحاف يقال له : الخزل، وهو سكون التاء وسقوط الألف من متفاعان كما هو ظاهر في "لولا بى" فيبقى متفاعان وهذا البناء غير مقول فيصرف إلى بناء مقول وهو مفتعلن ؛ والخزل في الكامل قبيح .

ولنحاول فيما سنعقده من الفصول الآتية تبيان حال الدولة العربية أيام عثمان، وكيف وصل الأمر إلى معاوية، وكيف خرج الملك من بني أمية حتى وصل إلى بني العباس . ولنحاول بعد هذه التقديمية دراسة الحياة الأدبية إلى جانب دراستنا السياسية الاجتماعية؛ فإن ذلك ينفعنا كثيرا فيما نرومه من التكلم ببساطة في القول وتصوير صحيح لعصر المأمون الذهبي ولا سيما الحياة الأدبية والعلمية فيه، ملاحظين في ذلك كله جانب القصيد والإيجاز، مآزين سريعا على جُلّ الحوادث السَّجَّار في ذاتها، والتي لا تعيننا كثيرا في موضوعنا، مثل عصر معاوية، مما نرجو أن نُوفِّق في المستقبل القريب فنكتب عنه وعمائمه من أسرار وثورات .

(ب) نظام الحكم في عهد الصحابة :

الناس من حيث ميولهم ومعتقداتهم، دينية كانت أو سياسية، لا يكادون يعدُّون طبقة من ثلاث : محافظين، ومعتدلين، ومتطرفين . ولسنا آخذين بسبيل من التوضيح لأحكام هذه الجماعات أو الأحزاب في حياة عثمان، ولا نظير كل فئة منهم إلى سياسة حكومته، وإنما يكفي أن نقول : إن هذه الفئات التي تكون دائما قوة الرأي العام الذي كان له في حكومات الصحابة صوتٌ يُؤبَّه له وإرادةٌ تُحترم، مع مراعاة طبيعة النفسانية العربية البدوية الشديدة الإباء والألفة — هذه الفئات لم يكن شبابها ولا كهولها، زهادها ولا النفعيون فيها، برايين عن حكومة عثمان .

كان نظام الحكم في عهد الصحابة من حيث توزيع السلطات نظاما ثيوقراطيا — إذا صح لنا هذا التعبير، وهو صحيح لا محالة — ذلك لأنهم بإيمانهم وتقواهم وكامل إسلامهم، جعلوا الله تعالى مصدر السلطات الدينية والدينية، فكل شيء لله : المال مال الله، والحدُّ جندُ الله . ومن هذه الناحية توافرت الشورى وتوافرت البرامة الدينية . وربما كان المحافظون من رجال الدين يتبرمون من هذه الناحية أيضا بمنهج حكومة عثمان، التي لا نشك أن حزبها أيام عثمان لم يكن بذي خطر، اللهم في ماضيه من حيث الزعامة والسيادة

وما إلى ذلك في العصر الجاهليّ . ولكنه فاز أخيراً ، ولعبت الجماعة العثمانية ومنهم الأمويون دورهم المعروف ذا الأثر الكبير في العقلية العربية والمدنية الإسلامية .

(ج) حكومة عثمان ونظر الجماعات العربية إليها :

وبعد ، فماذا نَقَمَ الشبابُ والشيوخُ من حكومة عثمان ؟

أما نحن فلا يُطَلَبُ منا أن نُبْدِيَ رأينا في عثمان ، فهو صحابيٌّ جليل ، وله أثره الخالد في جمع القرآن وغير القرآن ، وله دينه السَّمُحُ الذي لا تشوبه شائبةٌ . وما كان الدينُ لِيُحْتَمَّ على الناس جميعاً أن يكونَ نظرُهم إلى الحياة الدنيا نظراً التَّقْشُفِ والزهد . ولا يُطَلَبُ منا أن تُثَبَّتَ ضَعْفُ الحكومة العثمانية ، وإنما يُطَلَبُ مِنَّا أن نُسَرِّدَ الحوادثَ بإيجازٍ ؛ ولنا في تسلسل هذه الحوادثِ ودراستها وتقييدها آثارها ما قد يسمحُ لنا بالتعرُّضِ له حين معالجتنا الكلامَ عن عصرنا فيما بعدُ .

نعودُ فنتساءلُ : ماذا نَقَمَ الشبابُ والشيوخُ من حكومة عثمان ؟

يقول اليعقوبيّ : « إن عثمان آثر القرباء ، وحَمَى الحمى ، وبَنَى الدارَ ، واتَّخَذَ الضِّيَاعَ والأموالَ بِمالِ الله والمسلمين ، ونَفَى أبا ذرَّ صاحبَ رسولِ الله وعبدَ الرحمن بن حنبل ، وآوى الحَكَمَ بن أبي العاص وعبدَ الله بن سَعْدِ بن أبي سرح طَرِيدَي رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وأهدَرَ دَمَ الْأُرْمُرَازِقِ ولم يَقْتُلْ عُبيدَ الله بنَ عمرَ به ، وولى الوليدَ بنَ عُقْبَةَ الكوفةَ ، فأحدثَ في الصلاة ما أحدثَ ولم يمنعه ذلك من إعادته إياه » .

ويذكر اليعقوبيّ في مكان آخر ما كان من إغضاب عثمان لعائشة أم المؤمنين ، ومكانة عائشة مكانتها ، وأنه نقص ما كان يعطيها عمرُ بن الخطاب ، وأنها تربّصت بعثمان حتى رآته يخطبُ الناسَ فدلّت قبيصَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ونادّت : « يا معشرَ المسلمين ، هذا جلبابُ رسولِ الله لم يَبَلْ وقد أبلى عثمانُ سَنَّتَهُ » . وليس أدلّ على شدّة حفيظتها عليه من امتناعها أن تقومَ بالصلحِ بينه وبين الخارجين عليه حين اشتدّ عليه الأمرُ وصار إليها

مروان فقال لها : يا أم المؤمنين ، لو قُتيت فأصاحبت بين هذا الرجل وبين الناس ! قالت : قد فرغت من جهازى وأنا أريد الحج ، قال : فيدفعُ اليك بكلّ درهم أنفقته درهمين ، قالت : « لعلك ترى أنى فى شك من صاحبك ! أما والله لو دِدْتُ أنه مُقَطَّعٌ فى غِرَارَةٍ من غرائى ، وأنى أُطيق حمله فأطرحه فى البحر » .

قلنا : إن نظام الحكم فى عهد الصحابة من حيث توزيع السلطات كان نظاماً ثيوقراطياً فى إجماعه كلِّ شيء الى الله تعالى ، وأن المال مألٌ الله ، والجند جندُ الله ، وأن الحكم لله لا للناس ، . ويقول لنا التاريخ : إنه كان بين عثمان وخازن بيت المال فى عهده مُشَادَّةٌ ومناوَرَةٌ ، وأن جُلَّ النُّقَادِ اتخذوا من هذه المُشَادَّةِ مَطْعَناً فى سياسته المالية ، وتُلمَّةً يتهجَّوْنَ منها عليه . وكانت هذه المُشَادَّةُ بينه وبين خازن بيت المال فى أمر عطائه ، حتى قال له عثمان : « إنما أنت خازنٌ لنا إذا أعطيناك نَخْداً ، وإذا سَكَنَّا عنك فاسْكُتْ » . فقال : « كَذَبْتَ والله ! ما أنا لك بخازنٍ ولا لأهل بيتك إنما أنا خازنُ المسلمين » . وجاء بالمفتاح يومَ الجمعة وعثمانُ يخطبُ فقال : « أيها الناس ، زعم عثمانُ أنى خازنٌ له ولأهل بيته ، وإنما كنتُ خازناً للمسلمين ، وهذه مفاتيحُ بيت مالكم » ورمى بها . فأخذها عثمانُ ودفعها الى زيد بن ثابت .

وليس من شكٍّ فى أن شبابَ العرب عامةً وقريشَ خاصةً لهم آمالهم ولهم مطامعهم وهم فى مُقْتَبَلِ عمرهم حين يكون الطموحُ الى اعتلاء المراتب الرفيعة مُصْطَديماً بالوازع الدينى ، وأنهم تألموا أن ينال عبدُ الله بنُ خالد بن أسيدَ خمسين ألف درهم ، ومروانُ بن الحكم خمسة عشر ألفاً مع أن عثمانَ استردّها . فهما لما عُوتِبَ ونُوقِشَ ، وتألموا أن يذهب آل عثمانُ بمناصبِ الدولة وهم يرون فى أنفسهم من الكفايات والمواهب ، ومن الحسب والنسب ما لا يقلُّ عما لهؤلاء .



وما لنا نذهب بعيداً فى الاستدلال على نظريتنا هذه والنفْسُ الإنسانيةُ هى الطُّمُوحُ الى زينة العاجلة وزُخْرِفِهَا . وقد جاء فى الأغانى فى معرض كلامه عن أبى قَتَيْفَةَ الشاعر :

وأن ابن الزبير مضى الى صفيّة بنت أبي عبيد زوجة عبد الله بن عمر، فذكر لها أن خروجَه كان غضبا لله تعالى ورسوله عليه السلام والمهاجرين والأنصار من أثر معاوية وأبنيه وأهله بالفى وسألها مسألتَه أن يُبايعه . فلما قدّمت لزوجها عشاءه ذكرت له أمرَ ابنِ الزبير واجتهاده وأثنت عليه وقالت : ما يدعو إلّا الى طاعة الله جلّ وعزّ، وأكثرت القول في ذلك ؛ فقال لها : أما رأييتِ بغلاتِ معاوية اللواتي كان يحجّ عليهنّ الشُّهب ! فإن ابن الزبير ما يريد غيرهنّ .

هذا رأى كبير من رجال العصر في خروج ابن الزبير يكشف لك ما كان يخالج نفوس الشباب من طُموح الى السلطان ولذاته . مع أنّ ابن الزبير كان خارجا على أهل بيت يرى جلّ الناس في ذلك العصر أنهم اغتصبوا الملك من أهله اغتصابا . ويظهر أن معاوية نفسه كان قد اقتنع بأنه لم يكن على الحق حتى كاد يتجنّب مناقرةً على الحرب والعداء حين ذكره على بكلام للرسول صلى الله عليه وسلم ، لولا مقالةٌ ولده له : « كلا ! ولكك رأيت سيوف بنى هاشم حديدًا تجملها شداد » ، فنارت ثائرته وقال : « ويلك ! ومثلي يُعيرُ لجبن ! هلم الى الرمح ! » وأخذ الرمح وحمل على أصحاب على .

فمعهقول أن يغضب هؤلاء الشباب وأمثالهم من حكومة عثمان وهم يرون الغنائم والثروات تكتسح بلادهم ، وللال حكمه وسلطانه . ومعهقول أيضا أن يغضب منها أمثال عمرو بن العاص الذي قال له عثمان ، يوم ندبه ليُعذّره عند الناس فما كان منه إلا أن أضرم جذوة الحقد عليه : « يابن النابغة ، والله ما زدت أن حرّضت الناس على... يابن النابغة ، قتل درعك مذ عزّلتك عن مصر » .

هذا من ناحية النفعيين وفيهم المتطرفون . وهناك المعتدلون ، وهؤلاء قد نأوا بجناهم عن الفتنة واعتزلوا الناس من شرّها وآثارها ، وهم لها كارهون ومنها نافعون . وهناك المحافظون الأتقياء حقا أمثال أبي ذر ورافع بن خديج وغيرهما من صحابة الرسول الذين نعلم من تقواهم وزهداهم ومن حبّهم للائحة وإعلاء كلمة الدين الشئ الكثير ، والذين

يقول فيهم الجاحظ في رسالته عن بني أمية : « إنهم كانوا على التوحيد الصحيح والإخلاص المحض » . ولنوضح قليلا هذا النوع من المتقشفين حقا والمخلصين في عقيدتهم الدينية صدقا ، ولنضرب مثلا بأبي ذر الغفاري ولننظر ما يحكيه لنا ابن الأثير في هذا السبيل ، فهو معتدل مُستقر للحقيقة أكثر من سواه . يقول ابن الأثير : إن أبا ذر كان يذهب الى أنَّ المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شيء ينفعه في سبيل الله أو عبادة لكريم ، وكان يأخذ بظاهر القرآن : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فكان يقوم بالشام ويقول : " يا معشر الأغنياء ، واسوا الفقراء ، بشر الذين يكتُمون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تُكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم " ، فما زال حتى ولَّع الفقراء بمثل ذلك وأوجبه على الأغنياء ، وشكا الأغنياء ما يلقونه منهم ، فأرسل معاوية اليه بألف دينار في جُنج الليل فأنفقها ، فلما صلى معاوية الصبح دعا رسوله الذي أرسله اليه ، فقال : اذهب الى أبي ذر فقل له : أنقذ جسدِي من عذاب معاوية فإنه أرسلني الى غيرك وإني أخطأت بك ، ففعل ذلك . فقال أبو ذر : يا بني ، قل له : والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار ولكن أنحرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها . فلما رأى معاوية أنَّ فعله يُصدِّق قوله كتب الى عثمان : إن أبا ذر قد ضيق على ، وقد كان كذا وكذا : للذي يقوله الفقراء . فكتب اليه عثمان : " إن الفتنة قد أخرجت خُطمها وعينها ولم يبق إلا أن تئب ، فلا تنكأ القُرَحَ وجهُز أبا ذر الى وأبعث معه دليلا وكُفِّفَ الناس ونفسك ما أستعطت " . وبعث اليه معاوية بأبي ذر ، فلما قَدِمَ المدينة ورأى المجالس في أصل جبل سلَّع قال : بَشِّرْ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِغَارَةِ شِعْوَاءٍ وَحَرِّ مَذَكِيرٍ . ودخل على عثمان ، فقال له : ما لأهل الشام يشكون ذَرْبَ لِسَانِكَ ، فأخبره ، فقال : يا أبا ذر ، على أنَّ أفضى ما علىَّ وأن أدعو الرعيَّة إلى الاجتهاد

(١) راجع رسالة الجاحظ في بني أمية في باب المنثور من ملحق الكتاب الثالث في المجلد الثاني .

(٢) الخطم : الأنف . (٣) ذرب اللسان : حدته .

والاقتصاد، وما على أن أجبرهم على الزهد؛ ثم انتهت المحاجة إلى أن خرج أبو ذر من المدينة ونزل الرَبْذَة^(١).

فهذا النوع من النقش المتبرم بحكومة عثمان، وذلك النوع من الشباب الطامح بعينيه إلى ما أصاب سواه منها، وتلك الجماعة المعتزلة التاركة الحبل على الغارب — كل هذه العوامل تجعلنا نقنع بنجاح الفتنة ضد حكومة عثمان وانتهائها بتلك المأساة المروعة التي كان فيها ما كان مما يحكيه لنا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: من قتل عثمان رضى الله عنه، وما انتهك منه، ومن خبطهم إياه بالسلاح، وبعج بطنه بالحراب، وفرى أوداجه بالمشاقص^(٢)، وشدخ هامته بالعمد، مع ضرب نسائه بحضرته وإلحاق الرجال على حرمة، مع انقاء نائلة^(٣) بنيت القرافصة^(٤) عنه بيدها حتى أطنوا^(٤) أصبعين من أصابعها.

كانت تلك المأساة المروعة التي تُفثت القلوب الجلامد، وتنفجر لها العيون الجوامد؛ فلنقف عند ذكرها وألهين أسفين.

(١) الربذة: من قرى المدينة على ثلاثة أميال قريبة من ذات عرق وبها قبر أبي ذر الغفاري.

(٢) المشاقص: جمع مشقص وهو نصل عريض وقيل سهم. (٣) الفرصبة بفتح الفاء لا غير. وليس في العرب ما يسمى بالفرافصة بالألف واللام غيره كما أن أبا على القالى ذكر أن كل ما في العرب فرافصة بضم الفاء إلا فرافصة هذا أبا نائلة امرأة عثمان رضى الله عنه. (٤) أطنوا: قطعوا.

الفصل الثاني

الجهاد بين الخلافة والملك

توطئة — كلمتنا عن على رضى الله عنه — تحوّل الرأى العام — معارضة — سياسة معارضة — مميزات معارضة — معارضة والسياسة المكافئة .

(١) توطئة :

نحن الآن مقبلون على فترة جهادٍ عنيفٍ بين الخلافة والملك ، فترة لا يصح أن نعتبر الجهاد فيها جهادا بين على ومعاوية ، أو بين على وغير معاوية من منافسيه في الخلافة أو من الخارجين عليه ، وإنما يخلق بنا أن نعتبرها بمثابة جهاد عنيف بين وجهات النظر العربية في الحياة ؛ فإن موت عثمان رضى الله عنه لم يمت الفتنة بل أذكاه وزادها ضراما واشتعالا .

ولمّا لم الميسور للناقد أن يلتمس العسلة في أن الأحراب العربية حين ذاك لم تجتمع على سيدنا على ؛ ذلك بأن الجماعة الراغبة في الوظائف والأموال لم تجد فيه طليتها وسؤلها ، ولم تعثر فيه على أنشودتها ورجلها ، بل على النقيض قد لقيت منه حاكما صلبا لا تلين قناته ، سار فيهم سيرة الحق لا تأخذه في الله لومة لائم ، وكانت حركاته وسكناته رضى الله عنه جميعها لله وفي الله لا يغمط بها حق أحد ، وكان لا يأخذ ولا يعطى إلا بالحق والعدل ، حتى إن أخاه عقيلا ، وهو ابن أبيه وأمه ، طلب من بيت المال شيئا لم يكن له بحق ، فمنعه رضى الله عنه وقال : يا أخى ، ليس لك في هذا المال غير ما أعطيتك ، ولكن أصبر حتى يحىء مالى واعطيك منه ما تريد فلم يرض عقيلا هذا الجواب وفارقه وقصد معاوية بالشأم . وكان لا يعطى ولديه الحسن والحسين أكثر من حقهما . فأنظر الى رجل حمله ورعه على هذا الصنيع بولديه وبأخيه من أبويه ! فلما سار فيهم هذه السيرة ثقل على بعض الناس فعله وكرهوا مكانه .

هذه خُطَّةٌ هؤلاء معه . أما خُطَّةُ الشيوخ فمنهم مَنْ آثر العزلة وترك حبل الأمة على غاربها ، لتطاحنُ أحرابها بين طُلاب الخلافة ، ومنهم الخوارج الذين غضبوا على عليّ كما غضبوا على معاوية ، وندبوا من بينهم عبد الرحمن بن ملجم ليقتل عليا ، والبرك بن عامر ليخلصهم من معاوية ، وعبد الله بن مالك الصيداوي ليُرِيحَهُمْ من حليف معاوية عمرو بن العاص . هؤلاء الخوارج كانت كلمتهم : « الحكم لله لا للناس » فنقموا من عليّ خضوعه للتحكيم ، وما خضع إلا مكرها مُعْتَبًا .

(ب) كلمتنا عن عليّ رضي الله عنه :

كان عليّ إماما دينيا ؛ كان مَوْثِلًا للشريعة ومثالا للورع والاستمسك بأحكام الكتاب ، كان مَصْدَرًا خَصِيصًا من مصادر الفقه والتشريع ، وكان في حكمته وحروبه على السوء مُؤَثِّرًا رضا الله ومُغَضِّبًا شهوات الناس وقادعًا أطعاعها ، وكان عنوانا كاملا لأسمى صفات الخُلُقِ الإسلامي من حيث النجدة والشجاعة لا الخدق والسياسة ؛ كان مُصْلِحًا دينيا على أتم ما يكون عليه مصلح ديني ، يتفانى في هذا الإصلاح ويؤثر الآخرة على الأولى فيعمل لإرضاء الله لا إرضاء الناس ، وكان كما وصفه عدي بن حاتم لمعاوية : « يقول عدلا ويحكم فصلا ، تتفجر الحكمة من جوانبه والعلم من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ، وكان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يحاسب نفسه إذا خلا ، ويُقَلِّبُ كفيه على ما مضى ، يُعْجِبُهُ من اللباس القصير ، ومن المعاش الخشن ، وكان فينا كأحدنا كان يعظم أهل الدين ويحبُّ إلى المساكين ، لا يخاف القوى ظلمه ولا يأس الضعيف من عدله ؛ فأقسم لقد رأيته ليلةً وقد مثّل في محرابه وأرنى الليل سرباله وغارت نجومه ؛ ودموعه تُحَادِرُ على لحيته وهو يتأمل تأمل السليم ويبكي بكاء الحزين ، فكأنني الآن أسمعُه وهو يقول : يا دنيا ألتى تعرّضتِ أم ألتى أقبلت ! غرّى غبرى لا حان حينك ، قد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها » .

هذا هو عليّ حقا ، عليّ الذي بالغ في التدقيق في محاسبة عمّاله حتى أغضب أكثرهم وحتى خسر نصرتهم ، وفي حملتهم مصقلة بن هبيرة الشيباني وابن عمه عبد الله بن عباس

بعد أن كان أكبر نصير له ، والذي أغضب الزبير وطلحة وكان في مقدوره أن يضمهما إليه ، والذي لم يكتسب الى جانبه عمرو بن العاص ، ولم يقبل نصيحة ابن العباس ولا المغيرة ابن شعبة في إقرار معاوية وابن عامر وعمّال عثمان على أعمالهم حتى تأتيه بيعتهم ويسكن الناس ثم يعزل منهم من يشاء ، وقال « لا أداين في ديني ولا أعطى الدنيا في أخرى » ، فقبل له : انزع من شئت وأترك معاوية ، فإن في معاوية جرأة وهو في أهل الشام يستمع منه وله حجة في إثباته ، ما كان من عمر بن الخطاب إذ قد ولاه الشام ؛ فأبى وقال : لا والله لا أستعمل معاوية يومين . فلم تكن الحيل والحدع من مذهبه ، ولم يكن عنده غير ممر الحق ؛ والذي يقول لأصحابه بعد أن أئخنوا في أعدائه : « لا تتبعوا مؤلّيا ، ولا تُجهزوا على جريح ، ولا تنهبوا مالا » فجعلوا يملأون بالذهب والفضة في معسكرهم فلا يعرض له أحد ، إلا ما كان من السلاح الذي قاتلوا به والدواب التي حاربوا عليها . فقال بعض أصحابه : يا أمير المؤمنين ، كيف حلّ لنا قتالهم ولم يحلّ لنا سبيهم وأموالهم ! فقال على رضي الله عنه : « ليس على الموحدين سبي ولا يُغنم من أموالهم إلا ما قاتلوا به وعليه ، فدعوا ما لا تعرفون والزمو ما تؤمرون » .

أجل ! هذا هو على حقا ، الذي أبت رأفته وأبى دينه أن يمنع أهل الشام من الماء كما منعه أثناء منازلتهم حتى كاد يهلك جنده عطشا ، والذي منع شيعته وأنصاره من شتم معاوية ، ضاربا صفحا عن آثار استغلال ذلك في الدعوة السياسية لتأييد خلافته والخط من ملك منافسه ؛ فإنه لما بلغه أن حُجْر بن عدي وعمرو بن الحقيق يُظهريان شتم معاوية ولعن أهل الشام أرسل إليهما : أن كُفّا عما بلغني عنكما ، فأتياه فقالا : « يا أمير المؤمنين ، ألسنا على الحق وهم على الباطل ! قال : كرهت لكم أن تكونوا شتامين لعائين ، ولكن قولوا : اللهم أحقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، وأهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوى عن الغي من لهج به » .

هذا هو على حقا ، الشديد في محاسبة نفسه وعمّاله . أما محاسبة نفسه فظاهرة حليّة واضحة الوضوح كله . وأما محاسبته عمّاله فإن تاريخه مُفعم بمئات الأدلة والشواهد مما

أفاد منه معاوية أيمًا فائدة . وكان من آثار هذه المحاسبة هرب مصقلة بن هيرة الشيباني من على وانضمامه الى معاوية ، وكذلك يزيد بن حجة التيمي الذي كان قد استعمله على الرى فكسر من خراجها ثلاثين ألفاً ، فكتب اليه على يستدعيه فحضر ، فسأله عن المال قال : أين ما غلبت من المال ؟ قال : ما أخذت شيئاً ، فحققه بالدرة خفقات وحده . ووكّل به سعداً مولاه ، فهرب منه يزيد الى الشام ، فسوّغه معاوية المال ، فكان ينال من على ؛ وبقى بالشام الى أن اجتمع الأمر لمعاوية ، فسار معه الى العراق فولاه العراق . فهذه الشواهد وأمثالها فيها أقطع الدلالات على شدة محاسبتها لعماله وإغضابه آل بيته تدنيا وورعا ، وعملا للآخرة ، لا لبناء ملك في الدار الأولى .

فلنحفظ هذه الصورة جيّداً ، ولنذكر أنها لم يتح لها الفوز والنجاح في ذلك الجهاد السياسى ، وأن الكفة الراجحة في سياستنا الدنيوية كانت لمنازله الذى يحذر بنا أن ندرسه بايجاز واقتضاب .

(ج) تحوّل الرأى العام :

صوّر الشاعر العبرى "شكسبير" فى روايته "يوليوس قيصر" تأثر الرأى العام ببلاغة زعمائه التى يستغلون بها سذاجة موقفه ، ويتملكون بها عقول قومهم التى بها يفكرون ، ويسحرون بها عيونهم التى بها يبصرون ، فلا يصدّرون إلا عن إرادتهم ، ولا يفكّرون إلا بعقولهم . وقد أبدع أيمًا إبداع فى موقفى "بروتس" قاتل قيصر ومنقذ الرومان ، و"أنطونيوس" مؤبته ورائيه ، وأظهر الى أى مدى آفتن بهما الجمهور ، الى أى مدى تناقض فى حبه وبغضه ولمكباره وتآلبه .

شكر الرومان "بروتس" قاتل قيصر لأجل الرومان وفى سبيل الرومان ، فأسلس له قيادهم وطلبوا منه أن يتبوأ العرش مكانه ، وحمل على الأعناق بعد أن تبوأ منهم حبات القلوب ؛ ثم استمعوا الى "أنطونيوس" يرثى قيصر ، وما استمعوا له لأن "بروتس" طلب منهم أن

يَنْصِتُوا لِأَن قِصْرًا طَاعِيَةً غَيْرُ قِصْرِ الرَّاحِلِ؛ فَأَنْصِتُوا وَتَكَلَّمُوا «أَنْطُونْيُوس» فَخَرَّكَ مِنْ شُرُونِهِمْ وَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ، وَأَسْتَغْلَى فِي مَوْقِفِهِ مَا بَثَّابَ قِصْرٍ مِنْ دِمَاءٍ وَثَقُوبٍ، وَمَا بِجِسْمِهِ مِنْ طَعْنَاتٍ وَجُرُوحٍ، حَتَّى اضْطَرَمَّتِ الْفِتْنَةُ، وَكَانَ نَصِيبُ «بِرُوتِس» مَا تَعْلَمُ بَعْدَ حِمْلِهِ عَلَى الْأَعْنَاقِ !

هكذا فعل معاوية في جهاده وجلاده عليا ؛ فقد صدع بما أشار به عليه عمرو ابن العاص إذ طلب اليه لإظهار قميص الدم الذي قُتِلَ فيه عثمان وأصابع زوجته وأن يُعَلِّقَ ذلك على المنبر ثم يجمع الناس ويبيح عليه عازيا قتل عثمان الى علي مطالباً بدمه مستميلاً بذلك أهل الشام وغيرهم من عامة المسلمين . أخرج معاوية القميص والأصابع وعلقه على المنبر وبكى واستبكى الناس وذكروهم بمصائب عثمان ، فانتدب أهل الشام من كل جانب وأيدهم الأشراف وذوو النفوذ كشرحبيط بن السميط وسواه ، وبذلوا له الطلب بدم عثمان والقتال معه على كل من آوى قتلته . ثم خلق لعل مَعْضِلَةً سياسية لا يهون على السياسى حلها ؛ ذلك بأن بعث برسالة الى جماعة على ، وهذه الرسالة تحتوى على أسس المبادئ العثمانية وتقول : « أما بعد ، فإنكم دعوتكم الى الطاعة والجماعة ؛ أما الجماعة التي دعوتكم اليها فمعنا ؛ وأما الطاعة لصاحبكم فلا نراها ؛ إن صاحبكم قتل خليفتنا وفزق جماعتنا وآوى ثأرنا وقتلنا ؛ وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله ، فنحن لا نرد ذلك عليه ؛ أرايتم قتل صاحبنا ؛ ألسن تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم ؛ فليدفعهم الينا فلتقتلهم به ، ثم نحن نجيبكم الى الطاعة والجماعة » . وكيف يستطيع علي أن يدفع الى معاوية قتل عثمان ! وماذا يكون موقفه أمام ذلك الحزب القوى الناقم على الخليفة المقتول ! فلذلك كان من المعقول أن يقف رده أمام هذه المشكلة السياسية عند قوله : « أما ما سألت من دفعي اليك قتلته فأني لا أرى ذلك ، لعلمي بأنك إنما تطلب ذلك ذريعة الى ما تأمله ومراقبة الى ما ترجوه ، وما الطلب بدمه تريد » .

(د) معاوية :

لسنا نتعرض للحكم على دين معاوية ومبلغ تمثيه في تصرفاته السياسية وإقامته لحدود الله مع أحكام الشرع؛ فقد تكلم في ذلك فيه الشافعي والحسن البصري، وإنما نريد أن نُمثل معاوية مؤسس الملكية في الإسلام، وواضع أسس السياسة الدنيوية، والذي قال فيه عمر بن الخطاب بلجائه : "تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية !".

(هـ) سياسة معاوية :

كان معاوية ذا مواهب سياسية كبيرة، وكان داهية، ذهنا، بعيد مدى العقل، ما لكا قياد أهوائه، كان "ذا مكر وذا رأي وحزم في أمر دنياه، اذا رأى الفرصة لم يبق ولم يتوقف، واذا خاف الأمر توارى عنه، واذا خوصم في مقال ناضل عنه وقطع الكلام على مناظره". كان يعمل جهده ليشترى ضمائر القبائل العربية، وكان كثير البذل في العطاء. وقد ذكر الطبري حادثة نستطيع أن نستنبط منها نظر معاوية الى المال والى مبلغ استعماله لياه ليملك به ضمائر أهل المكنة والنفوذ من معاصريه : ذكر أن أبا منازل قال له حينما أعطاه معاوية سبعين ألفا بينما أعطى جماعة من الزعماء ممن في مرتبته مائة ألف : فضحتني في بني تميم، أما حسبي فصحيح ! أولست ذا سن ! أولست مطاعا في عشيرتي ! فقال معاوية : بلى، قال : فما بالك خستت بي دون القوم ! فقال : إني اشتريت من القوم دينهم ووكلتك الى دينك ورأيك في عثمان بن عفان - وكان عثمانيا - فقال : وأنا فاشتري مني ديني، فأمر له بتمام جائزة القوم .

كان سياسيا بطبيعته، معطاء وهوبا بسجيته؛ وقد صدق في صفته أبو الجهم الشاعر إذ قال :

نميل على جوانبه كأننا * نميل ولا نمين على أيلنا
نقلبه لنخبر حالتيه * فنخبر منها كرمًا ولينا

ولما نستطيع أن نفهم فهما صحيحا : أكانت ثورة معاوية لقتل عثمان ثورة مصدرها إخلاصه العميق في العثمانية، وأنه كان يريد بها أن يُجَرِّحَ حَكَمَ الشَّرْعِ في قَتْلَةِ عثمان، أم ثورة مصدرها طُموحه إلى الملك ليغتصبه لنفسه ؟ — نستطيع أن نفهم ذلك من حديث جرى بينه وبين عائشة بنت عثمان ؛ فات التاريخ يحدثنا أن معاوية لما قدم المدينة دخل دار عثمان، فقالت عائشة بنت عثمان : وا أبتاه ! وبكت ؛ فقال معاوية : « يا بنة أخی، إن الناس أعطونا وأعطيناهم أمانا، وأظهرنا لهم حلما تحته ذُصِبَ، وأظهروا لنا طاعة تحتها حَقْدٌ، ومع كلِّ إنسانٍ سيفه وهو يرى مكانَ أنصاره، فإن نكشنا بهم نكشوا بنا، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا، ولأن تكوني بنت عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عُرُضِ المسلمين » .

وقد لا نجد تصورا أدقَّ لسياسة معاوية وطريقة حكمه من قوله : « لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أت بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت ؛ قيل : وكيف ذلك ؟ قال : كنت إذا مدوها خليتُها وإذا خلّوها مددتُها » . فهذا القول يبيِّن حلمه وطولَ باعه في السياسة، وهدوء أعصابه إذا جابهته المشكلات، أو نزلت بساحته الكوارث والمعضلات، ويُظهرُ سعةَ عطنه وحزمه . ولقد قال له يزيد يوم بويح له على عهده بفعل الناس يمدحونه ويقترظونه : « يا أمير المؤمنين، والله ما ندرى أنخدعُ الناس أم يخدعوننا ! » فقال معاوية : « كلٌّ من أردت خديعته فتخادع لك حتى تبلغ منه حاجتك فقد خدعته » .

ثم أنظر إلى مختلف تصرفات معاوية في حياته السياسية وغيرها ؛ فإنك لتفتنَّ بصدق حكم الشعبى الذى قال فيه : « كان معاوية كالجلجل الطَّبَّ إذا سُكِت عنه تقدَّم، وإذا رُدَّ تأخَّر » .

(و) مميزات معاوية :

ولقد آمتاز معاوية إلى جانب إلمامه التام بميول كلِّ من له به علاقة من الناس، وصادق تقديره مع ثقبوب بصيرته بما فيهم من نواحٍ للضعف يستطيع التسرّب اليهم منها —

امتاز الى جانب هذا كله بصفات ثلاث لها مكانتها السامية في تكوين الدهاء من ساسة الوقت الحاضر، تلك الصفات الثلاث هي : أولا إيقاع أعدائه في مشكلات لا تقوم لهم من بعدها قائمة، بأفانين طريفة طالما عمّد اليها الكثير من ساسة اليوم، مثال ذلك طريقتة في إيقاع بطارقة الروم الذين يكيدون للإسلام، وذلك بمهاداتهم ومكاتبتهم بطريقة مكشوفة، لإغراء الملك بهم .

الصفة الثانية من مميزات معاوية الخلقية هي حلمه، وهناك مئات الأمثال أثيرت بها كتبنا الأدبية والتاريخية، مشيدة بحلمه مطمينة في فضائل سعة صدره . على أننا نجترئ هنا بمثل عادي، ذلك أنه لما ألحق زيادا بأبيه دخل عليه بنو أمية وفيهم عبد الرحمن بن الحكم أخو مروان بن الحكم الأموي، فقال له : يا معاوية لو لم تجد إلا الزنج لاستكثرت بهم علينا قلة وذلة، فأقبل على أخيه مروان وقال : أخرج عنا هذا الخليع، فقال مروان : والله إنه خليع ما يطاق، فقال معاوية : والله لولا حلمي وتجاوزي لعلمت أنه يطاق ! ألم يبلغني شعره في وفي زياد ! ثم قال لمروان : أشمعية، فقال :

ألا أبلغ معاوية بن صخر * لقد ضاقت بما تأتى اليدان
أتعصب أن يقال أبوك عف * وترضى أن يقال أبوك زاني

الصفة الثالثة هي نعومته السياسية، وهي غير الحلم، وقد تُعتبر إلى حد ما من نوع المغالطات السياسية، مثال ذلك ما كان بينه وبين الحسن بن علي في شأن نزوله عن الخلافة له، إذ كتب اليه معاوية كتابا قويا جاء فيه : «أما بعد، فأنت أولى بهذا الأمر وأحق به لقربتك، ولو علمت أنك أضبط له وأحوط على حريم هذه الأمة وأكيد لبابعتك، فسل ما شئت» . وبعث اليه بصحيفة بيضاء مخنومة في أسفلها : أن أكتب فيها ما شئت . فكتب الحسن أموالا وضياعا وأمانه أشيعا على .

أضف الى هذه الصفات ما كتبت لمعاوية من توفيق وسداد في اختيار أكبر دهاء الولاة كعمرو بن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة : ممن عملوا معه على توطيد

الملك له ، والذين ارتسموا ، الى حدٍ غير قليل ، خطوات زعيمهم السياسى فى شراء الضمائر وسعة العَظَن ورُجوح حَصَاة العقل . وهذا زياد المعروف بشدّة الوطأة بلغه عن رجل يُكْنَى أبا الخير من أهل البأس والنَّجْدَة أنه يرى رأى الخوارج ، فدعاه فولّاه جُنْدَيسَابُور^(١) وما يليها ورزقه أربعة آلاف درهم كلّ شهر ، وجعل عمّالته فى كلّ سنة مائة ألف . فكان أبو الخير يقول : « مارأيت شيئا خيرا من لزوم الطاعة ، والتقلّب بين أظهر الجماعة » . كذلك فعل المغيرة بن شعبة حين حصّبه مُجْرُبُ بنِ عِدَى وهو على المنبر فى خطبة الجمعة ، فإنه نزل مُسرّعا ودخل قصر الإمارة وبعث الى حجر بنجسة آلاف درهم ترضاه بها . فقيل للمغيرة : لم فعلت هذا وفيه عليك وهنٌ وغمضاضةٌ ؟ فقال : « قد قتلته بها ! ! »

الى جانب هذه العناصر المكوّنة لتلك الشخصية البارزة التى اعتمدت فى تأسيس ملكها على ما اعتمدت عليه من ترضى الأحزاب بالمال وطاعة الناس بالطعام ، واستغلال العصبية العربية ، والتساهل فى إقامة الحدود الدينية اذا دعت الى ذلك طبيعة الأحوال السياسية ، فإن معاوية يصف بنفسه سبب نجاحه على على بقوله : « أُعِنْتُ على على بن أبى طالب بأربع خصال : كان رجلا طُهرَةً علَنَةً لا يكتم سرا ، وكنتُ كَتُومًا لسرى ؛ وكان لا يسعى حتى يُفاجئته الأمرُ مفاجأة ، وكنتُ أُبادِرُ الى ذلك ؛ وكان فى أخبث جنيدٍ وأشدّهم خلافا ، وكنتُ أحبُّ الى قريش منه ، فإلت ما شئتُ ؛ فلله من جامع الى ومُفَرِّق عنه ! » .

(ز) معاوية والسياسة المكيافلية :

وبعد ، فإن السياسة الحديثة قد أباحت لرجالها فى سبيل تحقيق غاياتهم أن ينتهجوا من الوسائل ما يكفّل لهم مُبْجَهِمُ السياسى . ويجب علينا أن نُثبت أن جُلّهم ، ولو أنهم يتظاهرون بنفورهم من مدرسة « ما كياڤلى » التى تُضَحِّى بكل شىء تسويغا للوصول الى الغاية السياسية ، يأخذون فى الواقع بتعاليمها ويعملون على برّنائجها . هذه السياسة الإيجابية فى نجاحها العملى ، السلبية فى إرضائها المناحى الخلقية ، هى التى أخرجت لنا

(١) مدينة بخوزستان بناها سابور بن أردشير فنسبت اليه ، وأسكنها سبي الروم وطائفة من جنده . انظر معجم ياقوت .

«ماتريخ» و «كافور» و «دزرائلى» و «بسمرك» و «بت» ، وهى التى كان من أبطالها «جلادستون» ذو المواقف الغربية فى الإقناع واكتساب ثقة الجمهور ولو تَحَلَّ من الشواهد واختلق من السابقات ما ليس له من وجود !

كذلك كان معاوية ، فى جُلِّ تصرفاته ، يحفلُ كثيرا بتحقيق غاياته فى تشييد الملك ، فهو يُدبرُ أمورَ الناس لهذه الوجهة ، وهو ينتج من الوسائل السياسية ما يكفلُ نجاحه فى هذه الوجهة . وإنه خَلِيقُ بنا وبسوانا ألا نعدو بعيدا عن هذه الوجهة حين نَظَرنا الى معاوية فى كتابه الى مروان بن الحكم بشأن حذّه شاعرَه الكبيرِ ابنِ سِيحان ، وحين حكم لابن الزبير بئى داره المحترقة ، وحين أرضى عَقِيلاً ، واحتمل من الأحنف بن قيس ما احتمل ، وحين تَخَلَّص من الاشر النخعى ومن عبد الرحمن بن خالد ، وحين فصل فى منازعة عمرو ابن عثمان بن عفان وأسامة بن زيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حكاية الأرض التى قيل إن الرسول صلى الله عليه وسلم أقطعها أحدهما ، وحين كان يبذل المال طبقاً لمناهجه السياسية . وإنا نبيح لأنفسنا حين ننظر الى قول زين العابدين : « إن عليا كان يقاتله معاويةُ بذهبه » أن نقول : « إن معاويةَ كان يقاتل عليا بذهبه وذهنه » .

وإنا لنظنُّ أننا قد صوّرنا معاويةَ بما هو أهله ، وأوضحنا ما كانت عليه تلك الشخصيةُ الفدّة فى مسايرة الناس واحتمال الأذى منهم ، والتى يقول صاحبها : « ما من شئ عندى أُلذَّ من غيظ أنجزه » . « وإنى لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين مُلِكنا » . والآن نستطيع ، بعد أن كشفنا القناع عن أخلاق معاوية ومميزاته ، أن نفهم قيمة قول علىّ رضى الله عنه فى كتابه الى زياد بن أبيه حينما كان من ولاته يحذره من معاوية وهو ما نختتم به كلمتنا فيه : « إنى وليّك ما وليّتك وأنا أراك له أهلا . وقد كانت من أبى سفيان فلتةٌ من أمانى الباطل وكذب النفس ، لا تُوجبُ لك ميراثا ولا تحلّ له نسباً . وإن معاويةَ يأتى الإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، فاحذّر ثم احذّر . والسلام » .

الفصل الثالث

سياسة معاوية وخلفائه

توطئة — اصطلاح الأحزاب بالمال — العمال — الوجهة الدينية — التعسف المذهبي .

(١) توطئة :

إن معاوية الذي مرّن على السياسة بنشأته وحدّقها بسجيّته وأتقنها لمختلف أدوارها التي تقلّب فيها ، فطُبع عليها وطُبعت عليه ، وأصبح منها وأصبحت منه ، لم يكن في مقدوره إلا أن يكون سياسياً فذاً موقفاً ، بل مصدر سياسات عبقرية طالما تشدّها عصره وزمانه حتى بُعث بها وبُعثت له ، وخلق منها وخلقت منه ؛ وكانت في نفسها وجوهرها خليفة للإجلال والإكبار ، كما كان صاحبها قميناً بالنجاح جديراً بالتوفيق ؛ لأنه لم يكن في وسعه ، بطبيعته واستعداده ومواهبه واستماته لأداة الحكم والسلطان ، إلا أن يوفّق مظهرًا في مختلف خطّيه التي ارتسمها سديدة ناجحة ، لأنها قطعة من نفسه ؛ وكل ما كان من نفس معاوية فهو بمثابة أصول السياسة في تشييد الملك بمنجاة من الأعاصير التي تقتلع كل ملك قائم على غير طبيعة السنن الملكية الضرورية لها ولضمان حياتها ودوام قوة بيوتاتها .

إن معاوية ومن ضرب على قلبه وجراره علموا الخفيات من أهواء النفوس ، فتم لهم تملكها وقيادتها ، واتهجوا بها من المسالك ما أشبع نهمتهم ونهمتها ، وحقّق بغيتهم وبغيتها ، وحدّوا بين تيار مصالحهم السياسية ومختلف رغباتها ومضطدم منازعها ، وقطّنوا بثقوب بصائرهم إلى استخدام كل ما فيه القوة والحياة لمليّكهم من شتى العناصر : في أنفسهم وولاتهم وسائر شعبيهم .

أما في نفوسهم فبأخذها ، مكروهة أو طائفة ، بالتزام ما فيه النجح والتوفيق مع قصد واعتدال ، فتختار من الولاة والزعماء والقواد والبطانة من فيهم الغنية والكفاية وحسن

البلاء ، يبحث عنهم أتى وجئوا ، مهما كانت عصبيتهم وخفة ظلمهم أو كثافة نفوسهم ، ويجعلون في مراكزهم بمعزل عن التغيير والتبديل ما داموا من أوتاد الدولة وأركان الملك .

وأما في ولايتهم فبعددهم عن جور الرعية وإنصافهم الناس جميعا ، فلا يصيبهم من وراء لونهم السياسي أو مذهبهم الديني عسف ولا ظلم .

ولقد سأل الوليد عامله الحجاج المعروف بعسفه وجبروته أن يكتب اليه بسيرته ، فكتب ما نثبته هنا ، وكما نود أن يكون نبراسا حقا للحجاج وغير الحجاج ، قال :

”إني أيقظت رأي وأمنت هواي ، فأدريت السيد المطاع في قومه ، ووليت الحرب الحازم في أمره ، وقلدت الخراج الموفر لأمانته ، وقسمت لكل خصم من نفسي قسما يعطيه حظا من نظري ولطيف عنايتي ، وصرفت السيف إلى النظيف المسىء ، والثواب إلى المحسن البريء ، نخاف المريب صولة العقاب ، وتمسك المحسن بحظه من الثواب “ .

وأما في سائر شعبيهم فبان يستمتعوا بكل ما يرضى العدل والحق مع طمأنينتهم على ما لهم وأنفسهم ، وأن تكون أبواب الولاة لشكايتهم مفتوحة ، وآذانهم لمطالبهم مُصغية ، وعيونهم لخيرهم ناظرة . ولم تُفقد تلك الصفات مع حزم في الولاة !

وهذا زياد بن أبيه كان مع شدته لا يحتجب عن طالب حاجة وإن أتاه طارقا بليل . وهو الذي كانت عقوبته القتل للدبح ، وأخذ المقبل بالمدير والمقيم بالطاعن . وقد وفق زياد إلى استتباب الأمن في ربوعه حتى قال المدائني : « قَدِمَ قادم على معاوية بن أبي سفيان فقال له معاوية : هل من مُعَرِّبَةٍ خَبَرٍ ؟ قال : نعم ، نزلت بماء من مياه الأعراب فيينا أنا عليه أورد أعرابي إبله ، فلما شربت ضرب على جنوبها وقال : عليك زيادا ، فقلت له : ما أردت بهذا ؟ قال : هي سُدى ما قام لي فيها راجع منذ ولي زياد . فسر ذلك معاوية وكتب به إلى زياد » ،

قلنا : إن معاوية ومن ضُربَ على قلبه وِغْراره فِطَنُوا بِقُوبِ بصائرهم الى استعمال كلِّ ما فيه القُوَّة والحياة لملكهم من شتى العناصر في أنفسهم وولاتهم وسائر شعْبهم ، والآن نريد أن ندرُسَ بِإيجازِ الأُسُسَ التي باتباعها تمَّ النجَاحُ في تشييد البيت الأمويّ ، والتي باضطرابها والتَنكُّبِ عن سنتها وطبيعتها كان ضياعُه وفناؤه .

(ب) اصطناع الأحزاب بالمال :

قال ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء : «إن أحمدَ بنَ يوسفَ الكاتبَ قال لأبي يعقوب الخُرَيْمِي : مدّأحكُ محمد بن منصور بن زياد — يعني كاتب البرامكة — أشعرُ من مرثيكَ فيه وأجودُ ، فقال : سَنا يومئذ نعمل على الرجاء ، ونحن اليوم نعمل على الوفاء وبينهما بونٌ بعيدٌ » .

واستطرد ابن قتيبة فقال : « وهذه عندي قصَّةُ الكُتَيْبِ في مدحه بنى أمية وآل أبي طالب فإنه كان يتشيعَ وينحرف عن بنى أمية بالرأى والهوى ، وشعرُه في بنى أمية أجودُ منه في الطالبين ؛ ولا أرى علَّةَ ذلك إلا قُوَّةَ أسباب الطمع وإيثارَ النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة » .

صدقَ ابنُ قتيبة فيما ذهب إليه ؛ فإن أثر المال في النفس الإنسانية غير قليل ، وإن أثره في اصطناع الأحزاب السياسية لما لا يحتاج الى تدليل ؛ وقد جُيِّلَتِ النفوسُ على حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ اليها وبغِضِ مَنْ أَسَاءَ اليها .

ولقد كان معاوية كَيْسًا فِدًّا في استعمال المال واكتساب رضا الجمهور ، وكذلك كان كل من آتَمَ بهديه وسنته ، في البذل والعطاء ، وفي التوسعة على من آزرهم ، وعَمِلَ على نصرتهم ، ومدَّ ظلمهم وتثبيت عرشهم ؛ فقد زاد معاوية في العطاء لمن شهد مواقعه ، كما فرضَ الأعطية للشعراء ، غاضًا طرفه عما في ذلك من إغضاب المحافظين من رجال الدين ، إذ كان همه أن يملك الأبواق المداحة ويسترضيها بهباته ونواله ، لتُنشَرَ في الآفاق ذكره وترفع الى السماكين فضله ، حتى قصده الشعراء والتجمعه ، وناصروه وظاهروه ، وحتى علم الخاص

والعام أنه إن مدحه أثراه، وإن استوفده أغناه، وإن ناصره رأسه وأعلى مكانه، فأضحى
نُجعة الرقاد ومقصدهم، وموئل القصد ومنهلهم. وكانت الزوجة تستحث عزمات زوجها
أن يهرع إليه ليصيب من نوافله، وليعود إليها بنوائله، كما كانت ترغب بعلمها أن يبيع إبله
وأن يفترض في العطاء بشعره.

وقد حكى لنا أبو الفرج الأصفهاني^(١) شيئا من ذلك في أخبار جبهة الأشجعي في خبر
طويل انتهى بأن قال جبهة الأشجعي قضيدته التي فيها :

قالت أنيسة دغ بلادك وألتيس * دارا بطيبة ربة الاطام
تُكتب عيالك في العطاء وتُفترض * وكذلك يفعل حازم الأقوام

وهناك مسألة مهمة من سياستهم في اصطناع الأحزاب، وإلجام الأفواه بالمال،
وفرض العطاء للشعراء الذي ظل معمولاً به إلا في أيام عمر بن عبد العزيز، ذلك أنهم
كانوا يملكون رقاب المسلمين بإقراض من شاءوا من مال الصدقة ويكتبون صكاً عليهم.
ونحن نعلم أن الدين هم بالليل ومذلة بالنهار.

ويذكر لنا الأغاني في باب أخبار جعفر بن الزبير ما فرضه له سليمان بن عبد الملك
إذ أمر له بألف دينار في دينه، وألف دينار معونة على عياله، وبرقيق من البيض
والسودان، وبكثير من طعام الجارى، وأن يَدان من الصدقة بألفي دينار.

على أنه قد يعترض علينا بأن الحادثة التي قدمناها حادثة فردية لا يصح أن تُتخذ قاعدة
عامة أو أن يُستنبط منها وقوع مثيلاتها وذبوع نظيراتها.

بيد أن الأغاني يُجهز على هذا الاعتراض، إذ يُثبت ما نصه : « كان السلطان بالمدينة
إذا جاء مال الصدقة أدان من أراد من قریش منه، وكتب صكاً عليه يستعبدهم به ويختلفون
إليه ويدارونه، فإذا غَضِب على أحد منهم استخرج ذلك منه، حتى كان هارون الرشيد،

(١) قال شارح القاموس في مادة « جبة » : جبهة الأشجعي كخمير : شاعر معروف كما في الصحاح .
وقال ابن دريد : هو جبهة الأشجعي بالتكبير .

فكلمه عبدُ الله بن مُصعب في صكوك بقيت من ذلك على غير واحد من قریش فأمر بها فأحرقت .

فمثل هذا التصرف في استرضاء الناس واستعبادهم وفي إقراضهم المال ليكونوا أولياء وتعجزهم وإرهاقهم ان جنحوا لمناوأة ولالة الأمور أو منافستهم ، له آثاره من خير وشر في المصلحة الحزبية لبیت بنی أمية ، طبقا لما يبديه الزعماء من حنكة وحزم ، وإصابة لمواقع الصواب .

وبعد ، فإن هذا السلاح الماضي في يد الأقوياء هو أشدّ مضاءً في القضاء على الضعفاء اذا أساءوا استعماله ، لأنه قد يُبدل لشراء مثل «الدلفاء» وغيرها من القيان ، ولأنه قد يبذله الشباب من الخلفاء في ضروب الخلاعة والاستهتار ، فيكون معول هدم ودمار ، كما حصل لمحمد الأمين وأمثال محمد الأمين مما سنورده عليك .

وإنا نرى في أنحريات هذا البيت ذى الأثر الكبير في تحوّل المدنية العربية أن بعض الخلفاء نقص الناس العطاء فعانوا ضيقا بعد سعة ، وشظفًا بعد رفاهة . وشرّ السياسات أن تُصيب صاحب عيش رغيد بإضاقته وحرمان ، وأن تُنزّل به غضاضة التقدير والعسر . ولننظر ما يقوله اليعقوبي عن خليفة من هذا الطراز : طراز الإضاقه في أرزاق الناس وعنوان اضمحلال الدولة اذا آذن بُجها بالأفول ؛ وآل أمرها الى الإفلاس .

يقول اليعقوبي عن يزيد بن الوليد بن عبد الملك : إنه سُمي يزيد الناقص لأنه نقص الناس من أعطياتهم واضطربت عليه البلدان ، وكان من خرج عليه العباس بن الوليد بمخص وشايعه أهل حص ، وبشر بن الوليد بقتل سيرين ، وعمر بن الوليد بالأردن ، ويزيد بن سليمان بفلسطين ، وساعد العباس أبو محمد بن عبدالله بن يزيد بن معاوية وسليمان بن هشام . يريد اليعقوبي أن يقول من غير شك : إن هؤلاء الأمراء اتتهزوا غضب الجند لنقصان الأعطية فتأروا .

ليس هذا فحسب ، بل إن سياسة بعض الخلفاء دفعتهم الى حرمان مدني مجذافيرها من عطائها ، كما حصل لأهل مكة والمدينة إذ حرّموا سنة كاملة ، في حين نرى معاوية قد زاد عطاء أهل البيت مثل الحسن والحسين وعبد الله بن عباس الى ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم في السنة فضايعها مائتي مرة عن حساب ديوان عمر بن الخطاب .

أفلا يجدر بنا بعد ما أسلفناه أن تقتنع بأن المال كان سببا قويا لبناء بيت معاوية ، وأن المال نفسه كان ، الى حدّ غير قليل ، سببا له خطرُه وقيمتُه في انهيار هذا البناء ! .

(ج) العمال :

قال زياد : ما غلبني أمير المؤمنين معاوية قط إلا في أمر واحد : طلبتُ اليه رجلا من عمالي كسر على الخراج فلجأ اليه ، فكتبت اليه : ”إن هذا فسادٌ عملي وعملك“ . فكتب إلي : ”إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة : لآتين جميعا فيمرح الناس في المعصية ، ولا نشدّ فنحمل الناس على المهالك ، ولكن تكون أنت للشدة والفظاظة والغليظة ، وأكون أنا للرافة والرحمة“ .

وكتب عبد الملك بن مروان الى الحجاج حين استأذنه في أخذ تلك الصبابة من المال التي تُترك لأصحاب الأراضى يتعلّلون بها ولتكون لهم رداء وظهيرا إذا نزلت بساقتهم النوائب والجوائح ، قال : ”لا تُكنّ على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك ، وأبقِ لهم حُوماً يعقدون بها شحوماً“ .

يمثل هذه السياسة بين العمال والخلفاء ، ويمثل اختيار معاوية وغير معاوية ، كهشام وعبد الملك ، لعمال ذوي كفاية ودهاء ، وحذق وحسن بلاء ، كزياد ومن على شاكلته ، أتيح لمعاوية وخلفاء معاوية تبوؤ عرش المملكة العربية قوى الأركان لا تهتصره العواصف والأعاصير ، ثابتا لا تُزعزعه ثورات الخوارج ولا حروب المنافسين .

كانت الدولة أيام معاوية ، أيام بنائها وتشييدها ، أيام تلك المصاعب الكداء التي اعتورت سبيلهم ، وتلك الشدائد التي تُشيب وتُفزع ، وتقض المضاجع ، وتجتث من النفوس

آمالها ، ومن العزمات مَضَاهَا : ومن القلوب بِأَسْمَا — كانت الدولة يومئذ غنيةً بالكفايات ، خِصْبَةً بِمَهَرَةِ الْعَمَالِ وَحَدَاقِ الْوَلَاةِ . ولعلها سنة طبعية أن يكون دور بناء العروش والممالك خِصْبًا بِرِجَالِهِ الْكُفَاءِ ، كما يكون دور انحلالها قاحلا عقيما في كل شيء ؛ وإن كانت الأمم ، وهي تُتَقَطَّعُ أَنْفُسُهَا ، قد لا تخلو من لا يالو جهدا في سبيل إقالتها من عثرتها ، وإنهاضها من سَقَطَتِهَا .

ألم يكن الى جانب معاوية في عصر البناء أصحاب الكفايات النادرة من العمال والولاة أمثال عمرو بن العاص وزيد بن أبيه والمغيرة بن شعبة الذين يقول فيهم بعض النقاد : « ما رأيت أثقل حِلْمًا ولا أطول أناة من معاوية ، ولا رأيت أغلب للرجال ولا أبَدُّ لهم حين يجهت معون من عمرو بن العاص ، ولا أشبه سرًّا بعلانية من زياد ، ولو كان المغيرة في مدينة لها ثمانية أبواب لا يُخْرَجُ من باب منها إلا بالمكر نخرج من أبوابها كلها » .

على أنه يجدر بنا أن نصوِّر حالة الولاة الكُفَاءِ أيام القوة ، وما آل اليه أمرهم بعد ذلك حتى أضْحَوْا يَتَقَرَّبُونَ الى الخلفاء بالهدايا والألطف والرِّشَاءِ مع عَسْفِ الرعية والكيدها . ولنترك لليعقوبيّ التكلّم عن الحالة الأولى ، ولابن الأثير بيان الثانية ، ثم تُرَدِّفُ ذلك ببعض الحقائق التاريخية لكي يُتَّاحَ لنا بعدئذ أن نطمئن الى تقدير هذا العنصر — عنصر العمال — وأنه لا يقلّ عن المال قوّة وأثرا ، سواء أكان ذلك في البناء أم في الهدم ، أما البناء فبحسن اختيار العمال وكفاياتهم ، وأما الهدم فبعسف الولاة ونُحْرَقِهِمْ ، وسوء اختيارهم وقلة بضاعتهم في تدبير الممالك وسياسة الناس .

قال اليعقوبيّ في معرض كلامه عن زياد بن أبيه بعد أن وصف ماله من دهاء وحيلة وصوله : « كان زياد يقول : مَلَأْتُ السُّلْطَانَ أَرْبَعُ خَلَال : العَفَافُ عن المال ، والقُرْبُ من المحسن ، والشَّدَّةُ على المسيء ، وصدقُ اللسان . وكان زياد أوّل من بسط الأرزاق على عمّاله أَلْفَ درهم أَلْفَ درهم ولنفسه خمسة وعشرين ألف درهم . وكان يقول : ينبغي للوالي أن يكون أعلم بأهل عمله منهم بأنفسهم » . وبعد أن ضرب اليعقوبيّ الأمثال

على معرفة زياد بدخائل رعيته قال مصوراً رأى زياد فيما يتطلبه بعض الشؤون العامة من الصفات فيمن يتولاه : كان زياد يقول : « أربعة أعمال لا يليها إلا المسن الذي قد عض على ناجذه : الثغر، والصائفسة، والشرط، والقضاء . وينبغي أن يكون صاحب الشرط شديد الصولة قليل الغفلة، وينبغي أن يكون صاحب الحرس مسناً عفيفاً مأموناً لا يطعن عليه . وينبغي أن يكون في الكاتب خمس خلال : بعد غور، وحسن مداراة، وإحكام للعمل، وألا يؤخر عمل اليوم لغد، والنصيحة لصاحبه . وينبغي للحاجب أن يكون عاقلاً فطنا قد خدم الملوكة قبل أن يتولى حجابهم » .

ثم أنظر ما آل إليه الأمر أيام الوليد بن يزيد الذي رغب في اكتساب قلوب الناس بعد نفورهم، وإرضائهم بعد تبرمهم، وإيناسهم بعد وحشتهم، بأن يزيد في أعطياتهم ويضاعف أرزاقهم . بيد أن معين المال قد نصب أكاد، والخزانة قد استنزفتها الملائد وحروب الخوارج وإخماد الفتن، فعمد إلى بيع الولايات . وإن ابن الأثير ليخبرنا، في حوادث سنة خمس وعشرين ومائة، أن الوليد قد ولي نصر بن سيار خراسان كلها وأفرده بها، ثم وقد يوسف بن عمر على الوليد فاشترى منه نصراً وعماله، فرد إليه الوليد ولاية خراسان، وكتب يوسف إلى نصر يأمره بالقدوم ويحمل معه ما قدر عليه من الهدايا والأموال وأن يقدم معه عماله أجمعين . ثم قال : وكتب الوليد إلى نصر يأمره أن يتخذ له برابطاً وطناير وأباريق ذهب وفضة، وأن يجمع له كل صناعة بخراسان، وكل بايز وبردون فار، ثم يسير بكل ذلك بنفسه في وجوه أهل خراسان .

ثم انظر ما يقوله الأغاني من عامل لعبد الملك بن مروان على خراسان، وهو أمية ابن عبد الملك الذي كتب إليه يقول : « إن نراج خراسان لا يفي بمطبخي »، وما أثبتته القاضي ابن خللكان في تاريخه عن أبي خالد يزيد بن أبي المثني عمر بن هبيرة وإلى مروان ابن محمد على العراق : من أن رزقه كان ستمائة ألف درهم .

هذا إلى ما نزل بأهل الذمة وغيرهم من العسف وزيادة الضرائب، وما كان من تخليئة أصحاب الأراضي لها بغير حرث ولا زرع، وما كان من مبالغة العمال في إهداء الخلفاء،

وزرعهم الى جمع الثروة واختزان المال؛ فإنك بعد كل هذا تطمئن متى الى الاقتناع بأن العمل الكفافة مصدر قوة في بناء الممالك وعُصْرُ يُحْفَلُ به في مادة حياتها، وأنهم عنوان مهابتها وصولتها، وأن الولاة الظلمة الضعاف مصدر ويل وثبور، وأداة هدم وتخريب وانتثار وفناء .

وإننا نسوق هنا كلمة لبعض بنى أمية حين سُئل عن سبب زوال ملكهم لا تخلو من عظة واعتبار، قال : « ... قِلَّةُ التيقظ، وشغلنا بذاتنا عن التفريغ لمهماتنا، ووثقنا بكفائتنا فأثروا مرافقهم علينا، وظلم عمالنا رعيتنا ففسدت نيائهم لنا، وحمل على أهل خراجنا فقلل دخلنا، وبطل عطاء جنودنا فزال طاعتهم لنا، واستدعاهم أعداؤنا فأعانوهم علينا، وقصدنا بغائنا فعجزنا عن دفعهم لقلة أنصارنا، وكان أول زوال ملكنا استتار الأخبار عنا، فزال ملكنا عنا بنا » .

(د) الوجهة الدينية :

إنَّ سُنَّةَ معاوية في بناء دولته لم تكن، مع ما نعلمه من ترخصه في إقامة الحدود في بعض الأحوال لضرورات سياسية، سُنَّةَ استهانة بالدين ولا إمعان في ازدرائه أو الخروج عن جُلِّ مظاهر الاحتشام الديني، الخليفة بن يسوس أمور الدين والدنيا، هذه سُنَّةُ معاوية وطريقته في سياسة الملك . أما خلفاؤه فقد تنكَّب جُلُّهم سنته الحكيمة، وأطلقوا لشهواتهم العنان فيما ينبغي أن يكون خلفاء المسلمين وأئمتهم بنجوة منه . وقد كان لذلك آثاره في الدولة من حيث تأثر أخلاقها القومية، وما أصابها من انحلال وضعيف، ومن تفكك وفطور . وسنعالج تصوير هذه العوامل بأيجاز واقتضاب في كلمتنا هذه، فلا نُفَرِّدُ لكل منها بابا، وإن كنا نعلم أنه يترتب على توضيحنا لهذه الأصول فائدة جُلِّي، بيد أن اتساع نواحي الموضوع وتشعب فروعه ومختلف أبوابه — كل ذلك يُلْزِمُنَا إلزاما اتباع ما رسمناه لأنفسنا من القصد والاعتدال .

لسنا بحاجة، على ما نظن، الى تصوير أخلاق من فيهم الكفاية من خلفاء معاوية من ناحية الدين والخلق العام، لأن فيما جالحناه من تحليل أخلاق معاوية الغنية والكفاية .

ونريد الآن أن ندرس تلك الناحية العكسية ، ناحية أولئك الخلفاء الذين لم يبالوا التقاليد الدينية فازدروا طقوسها ، مع ما كان فيهم من ضعف وما بهم من عُرق .

إن أماننا يزيد بن معاوية ، ويزيد بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد ، أما ابن معاوية فقد أصاب اليعقوبي سُدرة الصواب حين وصفه بأنه حُلُفُ نسوةٍ وصاحبُ مَلَاةٍ . ويكفي أن ندرس حياته — مع أن الدولة كانت في لبّان قوتها ومِعة شبابها — لنقتنع بأنها كانت بمثابة معاوية هديم وتخريب ، وإن في المأمن بما كان من مسلم بن عقبة الذي انتهك المدينة لمقنعةً بما نقول . لقد كان جنّد يزيد بعد واقعة الحرة وغيرها يطلبون إلى الرجل القرشي أن يبايع ليزيد ، لا من ناحية اقتناعه الديني طبعاً ، ولا بدافع الترغيب والمال ، ولا بسياسة الرقة والطف التي قد يُنال بها أكثر مما يُنال بالشدة والعنف ، بل من ناحية السيف والإرهاب ، يجب أن يبايع وأنفه راغمٌ ، ويجب أن يبايع مع ما يرى من انتهاكهم المدينة . كانت جنّد يزيد تقول للقرشي : بايع على أنك عبد قن ليزيد ، فإن أبي ضرب عنقه ، فكانت مقتلة ذريعة . ثم انظر ما كان من حصارهم مكة التي إذا قال قائلها : « يا أهل الشام ، هذا حرم الله الذي كان مأمناً في الجاهلية يأمن فيه الطير والصيد فاتقوا الله يا أهل الشام » ، صاح الشاميون « الطاعة الطاعة » .

لترك يزيد جانباً ، محيلين القارئ إلى ما في الأغاني وغيره من كتب الأدب والتاريخ ولنردّد الطرف في حياة يزيد بن عبد الملك ، فنجد أبا الفرج الأصفهاني يذكر لنا ، في غير موضع من حياة سلامة القس ، وحبابة وغيرهما ، شيئاً لا يستهان به عن إسرافه في تهنّكه ، فينقل لنا عن المدائني قوله : قدّم يزيد بن عبد الملك المدينة في خلافة سليمان ، فتزوج سعدة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان على عشرين ألف دينار ، ورُبيحة بنت محمد بن علي بن عبيد الله ابن جعفر على مثل ذلك ، واشترى الغالية بألف دينار . وفي رواية محمد بن سلام أنه اشتراها بأربعة آلاف دينار . ويقول في موضع آخر : إن رُسُل يزيد بن عبد الملك قدّمت المدينة فاشتروا سلامة المغنّية من آل رُمّانة بعشرين ألف دينار .

ولعلك تميل الى مقابلة هذه الروايات مع تعدد روايتها بتحفظ المؤرخ العلمى الذى لا يقنعهُ إلا الوسائل التحليلية المؤيدة لصديق الرواية . على أنك تستطيع ذلك باطلاعك على ما يقوله اليعقوبى مثلاً عن طريقة جباية المال ، وعلى ما كتبه يزيد بن عبد الملك الى عمر ابن هبيرة ، وهو عامله على العراق ، يأمره : أن يمسح السواد فمسحه سنة ١٠٥ ولم يمسح السواد منذ مسحه عثمان بن حنيف فى زمن عمر بن الخطاب حتى مسحه عمر بن هبيرة فوضع على النخل والشجر وأضرّ بأهل الخراج ووضع على الثانية^(١) وأعاد السخر والهدايا وما كان يؤخذ فى النيروز والمهرجان . ليس هذا فحسب بل أنظر الى تعلقه فى فرض الغرامات المالية على كبار رجال الدولة لا بحرّم إلا أن نفوسهم حدّتهم أن يتروّجوا بعض آل البيت ؛ فإن عبد الله بن الضحّاك بن قيس الفهرى عامله على المدينة كان قد خطب لنفسه فاطمة بنت الحسين بطريقة جافة ، فعزله يزيد عن المدينة وولاهها عبد الواحد بن عبد الله النصرى ، وكتب اليه أن يأخذه بأربعين ألف دينار ويعدّبه ، ففعل ذلك . ويقول المؤرخ الذى نقلنا عنه : إن عبد الله بن الضحّاك قد رأى وفى عنقه خرقه صوف يسأل الناس .

ولم يكتفِ يزيد بن عبد الملك بهذا ، بل عزّل عمّال عمر بن عبد العزيز جميعاً . ونحن نعلم من هو عمر وما عدله وما رقابته عمّاله . ويكفيّنا أن نذكر ما كان منه مع يزيد ابن المهلب عامله على خراسان ، فقد قال له عمر : «إنى وجدت لك كتاباً الى سليمان تذكر فيه أنه اجتمع قبلك ألف ألف ، فأين هى ؟ فأنكرها ثم قال : دعنى أجمعها ؛ قال : أين ؟ قال : أسعى الى الناس ؛ قال : تأخذها منهم مرة أخرى ! » . ثم ولّى خراسان الجراح بن الحكي . وإنه لمن المتعج حقا تلك المناقشة الوردية الهادئة التى دارت بين عمر ويزيد ، وبين عمر ومخلد بن يزيد ، وتلك الصرامة التى لا تعرف فى سبيل المحافظة على مال المسلمين إيماناً ولا هواة ، وقد أثبتنا ابن الأثير فى كامله ولا حاجة بنا هنا الى الاستطراد بذكرها .

(١) الثانية : الجماعة المقيمون فى البلاد الذين لا يفرون مع الغزاة . أنظر اللسان مادة «تأ» .



فمن أمثال ما قدمناه نستطيع أن نقنع بأن روايات صاحب الأغاني عن إسرافه قريبة من الواقع ، إن لم تكن صحيحة لا مبالغة فيها ولا غبار عليها . ثم لننظر الآن الى أى مدى كان هذا الصنف من الخلفاء تحت تأثير عشيقاتهم من القيان والمغنيات ، وما كان لهن من سلطان في أمور الدولة وتولية العمال وعزلهم ؛ فإن ذلك يفيدنا في تفهمننا دور الانتقال الذى نحن فيه تفههما هو في نظرنا أشد اعتبارا من الاعتماد على رأى المؤرخين وسردهم للحوادث بغير عناية ولا استقراء للنفسية العربية وخاصة في أبهاء الخليفة . وحبذا العناية بها ، سواء أكانت في بيت الخليفة أم في بيت العامل أم عند الرعية ، فإن لدراستها ومراقبة تحولاتها نفعا وكبير جدوى .

ينقل لنا أبو الفرج الأصفهاني عن المدائني أن حبابة ، وهى عالية القينة ، « غلبت على يزيد وتبني بها عمر بن هبيرة ، فعلت منزلته حتى كان يدخل على يزيد فى أى وقت شاء . وحسد ناس من بنى أمية مسلمة بن عبد الملك على ولايته وقدحوا فيه عند يزيد ، وقالوا : إن مسلمة إن اقتطع الخراج لم يحسن يا أمير المؤمنين أن يعيشه ، وأن يستكشف عن شىء لسنه وخفته ، وقد علمت أن أمير المؤمنين لم يدخل أحدا من أهل بيته فى الخراج ، فوقر ذلك فى قلب يزيد وعزم على عزله . وعمل ابن هبيرة فى ولاية العراق من قبل حبابة فعملت له فى ذلك . وكان بين ابن هبيرة والقعقاع بن خالد عداوة ، وكانا يتنازعا ويتحاسدان ، فقبل للقعقاع : لقد نزل ابن هبيرة من أمير المؤمنين منزلة ، إنه لصاحب العراق غدا ، فقال : ومن يطيق ابن هبيرة ؟ حبابة بالليل وهدايا بالنهار ! مع إنه وإن كان بلغ فانه رجل من بنى سكين . فلم نزل حبابة تعمل له فى العراق حتى وليها . »

مثل هذا الخبر له قيمته التاريخية فى تعريف حال الدولة العربية فى ذلك الحين . ولو جاز لنا أن نحلل لنظرنا طويلا فى قول القعقاع بن خالد : « ومن يطيق ابن هبيرة ، حبابة بالليل وهدايا بالنهار مع أنه وإن كان بلغ فانه رجل من بنى سكين » فانه لا يفيدنا

في تفهم وقوع الخليفة تحت سلطان عشيقته ، ولا في قبوله للرّشاً فحسب بل يفيدنا فهم تحوّل العصبية العربية الأخيرة ومبلغ نظر العربيّ الى سواه .

أما استخفاف الوليد بن يزيد بالدين ، ونحرياته التي فاقت نحريات يزيد بن معاوية ، والتي نرى أن لها أثراً كبيراً في أبي نؤاس وحسين بن الضحاك ، وبركة النمر التي احتواها قصره ، فإن أمهات كتب الأدب العربيّ ومظان التاريخ مُفَعِّمَةٌ من ذلك بما لا نتعرّض له في هذه العجالة بأكثر من إحالة القارئ على ما قاله الوليد في القرآن ، وما أحصاه بعضهم له من عدد الأقداح التي شربها في ليلةٍ من ليالي شربه ، إذ أثبت صاحب الأغاني أنها سبعون قدحا وإن كنا نفترض في مثل هذه الأحوال جنوح الرواة الى المبالغة والإغراق . ثم لننظر معنا فيما يقوله ابن الأثير عنه حين ولّاه هشام الحج ، فإنه يخبرنا : أنه لما أراد هشام أن يقطع عنه ندماءه ولّاه الحج سنة ست عشرة ومائة ، فحمل معه كلاباً في صناديق وعمل قبةً على قدر الكعبة ليضعها على الكعبة ، وحمل معه النمر وأراد أن تُنصب القبة على الكعبة وتشرب فيها النمر . وقد أيد المؤرخون هذه الحادثة . ويقول البعقوبيّ : إن الوليد بعث مهندسا ليقوم بذلك .

ثم أنظر الى بيعه خالدا القسريّ الى يوسف بن عمر بنخسين ألف ألف ، وما رواه المؤرخون من إرساله الى خالد قائلاً له : « انّ يوسف يشترىك بنخسين ألف ألف ، فإن كنت تضمّنها وإلا دفعتك اليه » فأجابه خالد بأحسن جواب إذ قال له : ما عهدت العرب تباع ، والله لو سألتني أن أضمن عوداً ما ضمّته » ومع ذلك فقد دفعه الى يوسف فعذبه وقتله !

ثم لننظر الى نظر الرأى العام اليه والى تصرّفاتة . وأمامنا من ذلك شعر حمزة بن بيض فيه إذ يقول :

يا وليد انلنا تركت الطريقاً * واضحا واركتبت نجفا عميقاً

وَمَادَيْتَ وَاعْتَدَيْتَ وَأَسْرَفْتَ * مَتَّ وَأَغْوَيْتَ وَانْبَعَثْتَ فَسَوْفَا
أَبْدَا هَاتِ ثُمَّ هَاتِ وَهَاتِ * ثُمَّ هَاتِ حَتَّى تَحْصِرَ صَعِيقَا
أَنْتَ سَكْرَانُ مَا تُفِيْقُ فَاتَرَ * تُقِيْقُ فَتَقَا وَقَدْ فَتَقْتَ فَتُسَوِّقَا

ولما ثبت هنا أيضا ما دار بين الوليد بن يزيد حين حوصره في قصره ويزيد بن عنبسة السكسكي، فقد قال له الوليد : «يا أخا السكاسك، ألم أزد في أعطياتكم ! ألم أرفع المؤن عنكم ! ألم أعط فقراءكم ! ألم أخدم زمناكم !» قال : «إنا ما ننقم عليك في أنفسنا، ولما ننقم عليك في انتهاك ما حرم الله، وشرب الخمر، ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله !» .

ولتنظر معي أيضا الى عبد الملك بن مروان، وهو من الخلفاء الثلاثة المعدودين أقطاباً لهذه الدولة، والى ما كان من جبروته وضعف الوازع الديني عنده، حتى استباح لنفسه أن يقول وهو على المنبر : «مَنْ قَالَ لِي بَعْدَ مَقَامِي هَذَا أَتَقِي اللَّهَ ضَرْبَتْ عَنْقَهُ» .

وبعد، فإنه ليخيلُ لي أن فيما قدّمناه بعض المقنع، بما كان من استهانة الخلفاء بالدين ومن إمعانهم في التهلك والخروج عليه . ونريد الآن أن ندرّس تأثر الخلق العربي بما كان للخلفاء من تنكّب عن سنن الدين وإمعان في التهلك والاستمثار . والناس على دين ملوكهم، والملوك على سنة رعيّتهم، أو كما يقول عبد الملك بن مروان : «تطلبون منا أن نسير فيكم بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر ولا نسيرون أتم بسيرة الناس أيام أبي بكر وعمر !» . على أنا نرغم أنفسنا إرغاما على أن نكتفي في هذا الفصل، الذي كادت لتشعب علينا فروعه ونواحيه، وكدنا نضلّ في مهامه وبواديّه، بمثلين قد لا يخلوان من النفع . وعمدنا في ذلك الأغاني، وعيون الأخبار لابن قتيبة، وإن كان المثل الأخير هو الى الأدب والعظة، أقرب منه الى التاريخ والتحليل العلمي . بيد أنا آثرنا إيرادَه لأنه حسن في نفسه، ومصيب بحجّة الصواب في جملة .

يقول أبو الفرج : إنه لما قدم عثمان بن حيان المزي والى يزيد بن عبد الملك المدينة قال له قوم من وجوه الناس : إنك وليت على كثرة من الفساد، فإن كنت تريد

أن تُصالحَ فطهرها من الغناء والزنا الخ . ونفهم من جملة الرواية أنه لم يفز في مهمته بطلال ولم يُوفق إلى ما كان يرجوه للناس من صلاح وتقويم .

أما ما يرويه لنا ابن قتيبة في عيون أخباره فيها هو ذا بنصه وعبارته ، وهو ختام هذا الفصل بعد أن كدنا نطيل .

قال : « سَمَرَ المنصور ذات ليلة فذكر خلفاء بني أمية وسيَرهم ، وأنهم لم يزالوا على استقامة حتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترفين ، فكانت همهم من عِظَم شأن الملك وجلالة قدره قصَدَ الشهوات وإيثارَ اللذات والدخولَ في معاصي الله ومساخطة ، جهلا منهم باستدراج الله وأمناء لمكره ، فسأبهم الله العزَّ وتقلَّ عنهم النعمة . فقال له صالح بن علي : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الله بن مروان لما دخل أرض النوبة جازبا فيمن معه سأل ملكُ النوبة عنهم فأخبر ، فركب إلى عبد الله فكلَّمه بكلام عجيب في هذا النحو لا أحفظه ، وأزعجه عن بلده ؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يدعو به من الحبس بحضرتنا في هذه الليلة ويسأله عن ذلك ! فأمر المنصور بإحضاره ، وسأله عن القصة ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، قدمت أرض النوبة بأثاثٍ سلِّم لي فافتششتُ بها وأقمتُ ثلاثا ، فأتاني ملكُ النوبة ، وقد خبر أمرنا ، فدخل على رجل أفنى طوالَّ حسن الوجه ، فقعده على الأرض ولم يقرب الثياب ، فقلتُ له : ما يمنعك أن تقعد على ثيابنا ؟ قال : لأني ملكٌ ، وحقُّ على كلِّ ملكٍ أن يتواضع لعظمة الله إذ رفعه ! ثم قال لي : لم تشربون الخمر وهي محرمةٌ عليكم ؟ قلتُ : اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا لأن الملك زال عنا ؛ قال : فلم تطؤون الزروع بدوابكم والفسادُ محرمٌ عليكم في كتابكم ؟ قلتُ : يفعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم ؛ قال : فلم تلبسون الديباجَ والحريرَ ، وتستعملون الذهبَ والفضةَ ، ذلك محرمٌ عليكم ؟ قلتُ : ذهبَ الملك منا وقلَّ أنصارنا ، فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا ، فليسوا بذلك على الكره منا ؛ قال : فأطرق مليا وجعل يُقلِّبُ يديه وينكتُ في الأرض ويقول : عبيدنا وأتباعنا ! دخلوا في ديننا ! وزال الملك عنا ! يردده مرارا ؛ ثم قال : ليس ذلك كما ذكرت ، بل أتم قوم استحلتم ما حرم الله

عليكم وركبتهم ما عنه نهاكم، وظلمتم فيما ملكتم، فسلبكم الله العزَّ وألبسكم الذلَّ بذنوبكم، والله فيكم نقمةٌ لم تبلغ غايتها، وأخاف أن يحلَّ بكم العذابُ وأنتم ببلدى فيصيبني معكم وإنما الضيافة ثلاثة أيام، فتزودوا ما احتجتم اليه وارتحلوا عن بلدى، ففعلت ذلك» .

(هـ) التعسف المذهبي :

نريد أن ننظر الآن نظرةً تجلّي في أمر التعسف المذهبي . ونحن نعلم ما أصاب جماعة على أيام معاوية وهو هو في حكمه وحلمه ومرورته، نعلم ما أصاب حُجْرَ بنِ عديّ الـيـكـنديّ وجماعته، كما نعلم ما أصابها أيام يزيد من قتل هاني بن عروة ومسلم بن عَقيـل والحسين ابن علي وزيد بن علي الذي صُلبَ على شاطئ الفرات وذُرّي رمّأده في الماء . ولننظر نظرة خاصة الى حياة بُسر بن أبي أرطاة وقَتله الأطفال والرجال والنساء، ولنترك معاوية هنا يصوّر لنا مبلغَ تأثير نفوس بني هاشم من خُطّة التعسف المذهبيّ هذه؛ فإن أبا الفرج الأصفهانيّ يقول في كتابه : لما كانت الجماعة واستقرّ الأمر لمعاوية، دخل عليه عبيد الله ابنُ العباس وعنده بُسر بن أبي أرطاة، فقال له عبيد الله : أنت قاتلُ الصبيّين أيها الشيخ ؟ قال بُسر : نعم أنا قاتلُهما، فقال عبيد الله : أما والله لو دِدْتُ أن الأرض كانت أنبتني عندك ! فقال بسر : فقد أنبتك الآن عندي، فقال عبيد الله : ألا سيف ؟ فقال له بسر : هاك سيفي، فلما أهوى عبيد الله الى السيف ليتناولَه أخذه معاوية ثم قال لبسر «أخزأك الله شيخا ! قد كبرتَ وذهب عقلُك ! وذلك رجل من بني هاشم قد ورّته وقتلت أبنيه، تدفع اليه سيفك ! إنك لغافلٌ عن قلوب بني هاشم ! ولو تمكّن منه لبدأ بي قبلك» . قال عبيد الله : «أجل ! وكنتُ أثني به» .

ثم انظر كيف انتقم من بسر رجلٌ من اليمن اتصل به حتى وثق به، ثم احتال لقتل ابنه فخرج بهما الى وادي أوطاس فقتلها وهرب .

(١) أوطاس : واد في ديار هوازن فيه كانت واقعة حنين ويومئذ قال النبي صلى الله عليه وسلم : «حي أوطاس» وهو أول من قال ذلك . انظر معجم ياقوت في أوطاس .

على أنه يجدر بنا أن نصوّرَ الى أيّ مدى بلغت نتائج خطط الأمويين السياسية ، من حيث بثّهم البغضاء في النفوس لعلّ وشيعته ، وصرف الناس عن ذكّهم ، وما كان من لعنهم على المنابر من تأثير خليقي بعنايتنا . ومراجعنا في هذه الناحية عدّة مصادر ، بيد أنّنا نجترئ اجتراء ، ونُحيل القارئ الى ما رواه ابن عائشة عن شعور رجل من الشام نحو حفيد عليّ وقد نقل ذلك المبرّد في الكامل .

ولننظر كذلك الى مدى الأحزاب الدينية وأضدادها التي كانت نتيجة لازمة لآثار التعسف المذهبيّ والتحزّب الدينيّ ، وقد ذكر البيروني في «الآثار الباقية» طرفاً من ذلك . ونجترئ هنا بشيء مما جاء في «المواهب الفتحية» لأستاذنا المرحوم الشيخ حمزة فتح الله . قال : ما أحسن قول أبي الحسين الجزار خصوصاً في بيتيه الثالث والخامس :

ويعود عاشوراء يذكّرني * رزء الحسين فليت لم يعد
أم ليت عينا فيه قد تحلّت * بإثمٍ لم تحل من رمد
ويدا به لشماتة خُصِبَتْ * مقطوعة من زندها بيدي
يوم سبيل حين أذكره * ألا يدور الصبر في خلدي
أما وقد قُتل الحسين به * فأبو الحسين أحقّ بالكمد

ولبعض الهاشميين معتذراً من الكحل يوم عاشوراء :

لم أكتحل في صباح يوم * أهريق فيه دم الحسين
إلا لحزني وذاك أني * سودت حتى بياض عيني

الى غير ذلك مما أثبتته المؤلف لعامة اليمنى والإمام ابن الجوزيّ مما لا سبيل الى الاستطراد فيه ههنا .

ولننظر الى حادثة رواها المسعوديّ في «مروج الذهب» قال : «لما طاب عبد الله ابن عليّ مروان ونزل بالشام ، وجه الى أبي العباس أشياخا من أهل الشام من أرباب النعم والرياسة ، فحلفوا لأبي العباس السفاح ما علموا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية حتى وليتم الخلافة ! فقال في ذلك إبراهيم بن المهاجر :

أيها الناس اسمعوا أخبركم * عجباً زاد على كلِّ العجب
عجباً من عبد شمس إنهم * فتحو للناس أبواب الكذب
ورثوا أحمد فيما زعموا * دون عباس بن عبد المطلب
كذبوا والله ما نعلمه * يُحرز الميراث إلا من قُرب

ولنلم الآن المسألة عجلى بما كان للتعسف المذهبي من الأثر في نفوس الخوارج، فحيلين إلى الكامل للبرد من أراد توسعاً وتبصراً، ونكتفى هنا بنقل مثلي من الطبري يظهر لنا مقدار استماتتهم في سبيل نصرة مذهبهم مهما نالهم من تقصير. وأما ما حدث سنة خمسين التي يقول فيها الطبري: إن عبيد الله بن زياد اشتد فيها على الخوارج فقتل منهم صبراً جماعة كثيرة وفي الحرب جماعة أخرى. ويقول عنهم في موضع آخر: خرج مرداس أبو بلال، وهو من بني ربيعة بن حنظلة، في أربعين رجلاً إلى الأهواز فبعث إليهم ابن زياد جيشاً عليهم ابن حصن التيمي فقتلوا في أصحابه وهزموه، فقال رجل من بني تيم الله بن ثعلبة:

أألفا مؤمن منكم زعمتم * ويقتلهم بأسك^(١) أربعونا
كذبتم ليس ذلك كما زعمتم * ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم * على الفئة الكثيرة ينصروننا

(١) آسك: بلد من نواحي الأهواز قرب أترجان بين أترجان ورامهرمز، بينها وبين أترجان يومان وهي بلدة ذات نخيل ومياه. أنظر ياقوت في آسك وكامل المبرد (ص ٥٨٧ طبعه أوروبا).

الفصل الرابع

ولاية العهد

نظام ولاية العهد وابن خلدون — خطر نظام ولاية العهد الثنائي وأثر البطانات — نظام ولاية العهد وعلاقته بالعصبية العربية .

(١) نظام ولاية العهد وابن خلدون :

قال ابن خلدون في مقدمته : ”إن معاوية عهده إلى يزيد خوفا من افتراق الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر إلى سواهم . فلو قد عهده إلى غيره اختلفوا عليه“ ثم زاد هذا توضيحا في مكان آخر من مقدمته فقال : ”إن الذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه ، إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم ، باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية ، إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم ، وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم ، فأثره بذلك دون غيره ممن يُظن أنه أولى بها ، وعدل عن الفاضل إلى المفضل ، حرصا على الاتفاق واجتماع الأهواء“ .

لسنا هنا في موقف الراغب في تحليل أقوال مؤرخنا الكبير ، وهل أصاب محجة الصواب في تعليقه ما دفع معاوية إلى عقد البيعة ليزيد ، ولكنا صدّرنا هذا الباب بكلمة ابن خلدون لنصوّر سرّ قبول العرب ، لأول عهدهم ، نظام ولاية العهد عامة والوراثي خاصة . وما قبولهم إياه إلا لأن شوكة يزيد يومئذ مستمدة من عصابة بني أمية كلها ، وجمهور أهل الحل والعقد من قريش ، وبذلك تستمتع عصبية مضر أجمع ، وعصبيتهم أعظم من كل شوكة إذ لا تطاق مقاومتهم ، ومن هنا أقصى العرب عن يزيد وأقاموا على الدعاء بهديته والراحة منه . ولعل هذا يكشف عن سبب فشل الحسين بن علي وابن الزبير في مطالبتهم بالخلافة ، كما بين ذلك ابن خلدون مما لا حاجة بنا للتعرض له الآن .

على أن التاريخ يقنعنا أن نظام ولاية العهد لم تقبله العقلية العربية بسهولة مع اعتقادنا صحة ما ذهب إليه ابن خلدون من سبب انتصرت به فكرة ولاية العهد وهو اعتمادها على العصبية، وربما جاز لنا أن نعزو سقوطها من بعض النواحي الى هذه العصبية أيضا مما لا نعرض له هنا الآن .

أجل ، يخبرنا التاريخ بتلك الأدوار العديدة، التي مرت بها مسألة البيعة ليزيد ، وأن السياسة نهضت بنصيب غير قليل في سبيل تذليل الصعوبات التي قامت بادىء ذي بدء دون أن تجعل البيعة ليزيد سهلة ميسورة ، تؤتي ثمرها بغير عناء كبير .

يخبرنا التاريخ بما فعله المغيرة بن شعبة وغير المغيرة بن شعبة ، وإيفادهم الوفود الى معاوية . ويخبرنا بمبلغ ما أنفق معاوية من المال وما أبداه من احتمال وحزم ، وما بذله ابنه يزيد من شدة وعسف ؛ وكل هذه العوامل تستدعي دراسة دقيقة لا نعرض لها لأنها لا تعنينا في هذه المقدمة كثيرا .

نريد أن نقول شيئا واحدا ميسورا فهمه ؛ ذلك أن نظام ولاية العهد — الذي ربما كان ضروريا لا مندوحة عنه في أول عهد الدولة ، لما بينه لنا ابن خلدون — كان في نفسه سببا يعتد به من أسباب سقوط الدولة الأموية ، أو على أقل تقدير كان لنظام ولاية العهد أخيرا أثره الكبير في ضعف سلطان بني أمية وذهاب ريحهم .

(ب) خطر نظام ولاية العهد وأثر البطانات :

لننظر نظرة تجل في تاريخ هذا النظام لنقنع بما وصلت اليه بُحوثنا ، فنرى مثلا أن مروان بن الحكم جعل ولاية العهد من بعده لابنه عبد الملك بن مروان ثم من بعده لابنه عبد العزيز بن مروان ومهما يكن الباعث لمروان على أن يجعل ولاية العهد لولدين من أولاده ، فإن جلّ خلفاء بني أمية من بعده اتخذوا صليعه سنة متبعة . سرى في كلامنا عن العصر العباسي الى أى مدى كان خطر هذا النظام على حياة الدولة ، أو على الأقل ؛ مبلغ ما فيه من ضعف لها ، وإيدان باضمحلالها ، واضطراب لحبلها .

لم يكن هذا النظام شرًا مستطيرًا وعاملاً كبيراً من عوامل الضعف ؛ إلا لما يستلزمه من نكث العهد ، ثم من آتساق البيت المالِك على نفسه ، وترك المجال واسعاً لِيُوشايات تسعى بها بطانات السوء ممن نرجو أن نصوّر مَثَلهم ومَثَل صُنيعهم السيء ومَثَل خطرهم على الدولة حين نعرِضُ للكلام عن عصر المأمون وما شجر بين الأخوين من خلاف أو ما أذكتة البطانة بينهما من خلاف — هذه البطانة ترُقّب دائماً آتساق البيت المالِك أو ما هو مرْكَبٌ في الطبيعة البشرية وولاية العهد من ترُقّب لتسلّم مقاليد الأمور وتُعجّل للذّة الحكم والسلطان — فتستغله لتقضى مآربها وتستمتع بأطاعها . وسرعان ما تجد الفرصة سانحة لها ومواتية لأطاعها ، اذا صار الأمر الى وليّ العهد الأول الذي حاول ما هو طبعى من خلع من أشرك معه في ولاية العهد ، إما كراهية له ؛ أو إيثاراً لغيره عليه ، ممن هم أسس منه رحماً وأقرب مودة .

نعم قد يجد ولي العهد كثيرين من الناصحين الذين يستنكرون الخلع ؛ بيد أنه لا يعدّم أيضاً كثيرين ممن هوهم مع غير هذا الذى يراى خلعه يُزيّنون له ما يحاول ، حتى اذا صار الأمر الى من أريد خلعه كافاً كلا من الفريقين بما يستحق . وكانا أحياناً يفتك بكثير من ذوى البلاء الحسن فى تشييد الملك . وهذا الفتك على ما فيه من خسارة قوم من ذوى الرأى والتجارب ، قد كان يبدّر فى قلوب أنصارهم وعشائرهم بذور الحقد وحبّ الانتقام . وبذلك صار بنو أمية يَفْقِدُونَ العشائر عشيرة بعد عشيرة ، وأخذ ظلّ سلطانهم على النفوس ينحسر شيئاً فشيئاً ، حتى اذا قام لهم مُنافسٌ عظيم لم يجدوا لديهم من القوة والكفايات والأنصار ما يستطيعون به التغلّب عليه .

قد تطلب الى توضيح ما قدمته لك من المقدمات من حوادث التاريخ ؛ لأنك تعتبر الوشائج والصّلات التى بين مانحن بصددده وبين عصرنا المأمونى قوية من حيث ما وقع فيه الرشيد وغيره من خطأ فى نظام ولاية العهد . وقد تطلب منى أنبأ مسرعاً بحسام الحوادث التى لها آثارها ونتائجها ، وأن أكون مجيلاً لا مقصلاً وموجزاً لا مُسهباً .

على أننى سأترك الأدلة التى أفعم به الطبرى وآبن الأثير كل سنة من سنيهما تُحدّث وحدها بصدق ما ذهبْتُ اليه . وأسمح لنفسى بأن أتساءل ملياً : ماذا فعل عبد الملك لما وصل الحُكْمُ الى يده ؟ لقد حاول ما هو طبعى من عزل أخيه عبد العزيز وتحويل عهده الى الوليد . ولولا وفاة عبد العزيز لوقعت الأزمة وشجر الخلاف وعمد كل الى سلاحه وحزبه .

ثم ماذا فعل عبد الملك ؟ لقد ولى الوليد وسليمان . فحاول الوليد ما هو طبعى من عزل سليمان وتولية ابنه لولا أن عاجله القضاء .

ثم ما ذا فعل سليمان ؟ لقد ولى عهده عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك . ثم ماذا فعل عمر بن عبد العزيز ، وماذا فعل يزيد ، وماذا فعل هشام ؟ إن التاريخ وختام عهد كل ليؤيدان ، بقوة ووضوح ، ليس بعدهما من مزيد ، صحة ما ذهبنا اليه مما يُبَيِّنُ لنا أن نختصر الحوادث والأدلة اختصاراً .

على أنه قد يُطَلَّبُ منا إثبات تلك الحال المؤلمة التى تنتج عن المبايعة لأشئ بولاية العهد ، ومبلغ خسارة الدولة من رجالها المعدودين وأقطابها النادرين فى هذا السبيل ، سبيل اصطدام صاحبي ولاية العهد . وسَتُجْمَلُ ذلك إجمالاً يستدعيه مقامنا .

لأنه من الميسور أن يقرأ القارئ أن ولاية العهد كُتِبَتْ لهشام ثم للوليد من بعده مثلاً . وربما فاتته أن لكل حزباً يناصره ، وبطانة تنشر دعوته . وربما تطرقت فى منهجها السياسى ، تطرفاً يؤكد العداوة فى القلوب ، ويستثير السخائم فى النفوس . ولماذا نذهب بعيداً وأمامنا ما وقع بين هشام والوليد ، فإن هشام مات قبل أن يُكَلَّلَ بالنجاح مسعاه ، فسرعان ما تمت أقوال الوليد عن شديد مقتبه لهشام ؛ فقال مثلاً :

هلك الأحوال المشو * م وقد أرسل المطر
وملكنا من بعد ذا * لك فقد أورق الشجر
فاشكر الله إنسيه * زائد كل من شكر

ولم يكتف الوليد بالقول دون الفعل ، بل أندفع فيما يخبرنا المؤرخون مع تيار بطانته ومُشايحيه ، وشمر عن ساعد الانتقام ، ممن ناصر عمه هشاماً مثل محمد وإبراهيم ابني هشام بن اسماعيل حيث عذبهما يوسف بن محمد الثقفيّ وإلى المدينة ويوسف بن عمر حاكم العراق حتى ماتا . ولم يكتف الوليد بن يزيد بذلك بل قبض على سليمان بن هشام فضر به مائة سوط ومثّل به اذ حلق رأسه ولحيته ، كما حبس يزيد بن هشام والكثيرين من البهت المالك . لم يكتف الوليد بن يزيد بذلك بل أخرج خالد القسريّ ، وهو من زعماء اليمن ورؤسائها ، بأن يبيع لابنه الحكم وعثمان بولاية العهد من بعده ، فلما أبى عليه ذلك بعث به الى والي العراق يوسف بن عمر الثقفيّ ففرع ثيابه وعذّبه عذاباً مهزّحاً ، وهو يحتمل ذلك كله بصمت وإباء ، ثم حمله الى الكوفة الى من أنزلوا به كلّ لون من ألوان العذاب حتى مات . وما مات إلا بثمن باهظ دفعه الوليد . ذلك أنه كتب على نفسه عداوة قضاة اليمن ، وجلّ جند الشام من قضاة اليمن ، وهم هم الذين مثّلوا دورهم الخطير أخيراً مع الوليد ، إذ بايعوا يزيد وثاروا معه ، فكانت خاتمة الوليد ما قد علمناه من احتمائه بقصره وتقحّمهم عليه داره ، وفعلهم به ما أصاب عثمان من مأساة اذ حرّوا رأسه وهو يتلو القرآن ثم نصبوه على ربح وطيف به في دمشق .

على أنّا نفترض المبالغة فيما ينسبه الرواة الى هذا الخليفة المغلوب على أمره ، ولكننا نؤمن مع ذلك إيماناً صادقاً بالنتائج السيئة لنظام ولاية العهد الثنائي أو الثلاثي .

وإننا نظنّ أنّ فيما قدّمناه لك غنيّة وكفاية . وإن أردت منا مزيداً فانظر ما نال به سليمان قادة الدولة أمثال محمد بن القاسم بن محمد الثقفيّ وقتيبة بن مسلم الباهليّ وموسى بن نصير ، وما كان يعدّ للنجاج وغيره : ممن قلّ أن يجتمع أمثالهم في عصر واحد . وإننا نحيل القارئ الى آبن الأثير ليقدر معنا الأسس التي بنينا عليها رأينا فيهم ، وليقف بنفسه على كبريات فتوحهم وجسام أعمالهم التي كانت غزوة في جبين عصرهم ، بل في جبين تاريخ الدولة الأموية .

وبعد، أفليس من العدل أن يستنبط القارئُ معنا ما يصيبُ الدولةَ من المنازعات والشقاق، ومن الضعف والإفلاس السياسى، من جرّاء ذلك النظام الممقوت، نظام ولاية العهد على هذا النحو فى غير قانون ولا سنة، وأن يعدّه معنا سببا لا يستهان به، من أسباب سقوط البيت الأموى !

(ج) العصبية العربية :

الذى يهمنى الآن هو أن نوجّه النظرَ الى تأثير نظام ولاية العهد فى صورته التى سوّناها لك من حيث مسّاسه بالعصبية العربية التى كانت، كما تعلم، عنيفةً محتدمةً بين المضرية واليمينية . وأنت تعلم أن الخلفاء من بنى أمية كانوا يُصهرون الى قبائل مضر كما كانوا يصهرون الى قبائل اليمن، فكانت هذه القبائل تجدد فى تأييد الأمير الذى يتصل بها نسبه . وهذه الفكرة نفسها تُعيننا على أن نفهم، بنوع خاص، موقف العرب أيام يزيد بن معاوية، كما أنها تُعيننا على أن نفهم ما ثار حول هشام والوليد بن يزيد من الخصومات التى قدّمنا لك طرفا منها . ولم يكده ينتهى الأمر الى مروان بن محمد حتى كانت الخصومة بين المضرية واليمينية قد انتهت الى أقصاها بحيث عجز هذان الفريقان من العرب عن أن يكونا وحدةً قويةً تثبتُ للطوائى، فلم يظهر أمر الموالى حتى كان العرب مُفترقين متخاذلين ، لا يستطيعون عن أنفسهم دفاعا . وسنتكلم على العصبية وآثارها بسطية فى القول أكثر مما تكلمنا هنا فى موضعها الطبيعى من الكتاب الثانى .

ولما كانت الدولة العباسية قد قامت بالموالى وبأسنتهم، ومحاولتهم الانتقام لأنفسهم وكرامتهم من بنى أمية الذين ساموهم سوء العذاب وساسوهم شرّ سياسة فإننا نرجى كلامنا عن هذا العنصر القوى من أسباب اعتلاء الدولة الأموية سلطان الحكم وأسباب سقوطها الى موضعه الطبيعى من تنظيم كتابنا ؛ وحين ذاك، يَحِقُّ لنا أن نبين تحوّل العصبية العربية الى تلك النواحي الشائكة الوعرة التى قضت على الدولة الأموية وأقامت دولة بنى العباس والتى أدالت منها هى أيضا . وحين ذاك أيضا يحق لنا أن ندرّس نظراً

العربيّ إلى غير العربيّ في العصر الأمويّ وفي غير العصر الأمويّ مما كانت له نتائج خطيرة في حياة العرب وفي تحوّل مدنيّات العرب .

فلنتريث إذاً، وخير لنا وللتاريخ أن يكون موضعُ هذا الباب في كلامنا على الدولة العباسية . وخير لنا أيضاً أن ننقلَ الآن إلى تصوير الحياة الأدبية : من نثر وشعر وخطابة ، وإلى تصوير الحياة العلمية بضروبها لذلك العصر الأمويّ ، الذي كان بحق نواة طيبة للعصر العباسيّ ، متوخّين في ذلك الإيجاز والإجمال . ولعلنا نُوفِّقُ إلى حسن الإصاغة فيما نريد .

الفصل الخامس

الحياة العلمية والأدبية للعصر الأموي

توطئه — آثار الآداب والعلوم الفارسية واليونانية في العصر الأموي — حركة النقل — الخطابة وميزاتها —
الكتاب — حالة الشعر في العصر الأموي وتحوله — الغزل — الشعر السياسي .

(١) توطئة :

لسنا نريد أن نُسمِّبَ في بيان الحياة العلمية والأدبية في العصر الأموي ، لأن ذلك يكاد يخرج بنا عن مقصدنا الأساسي ، من اقتصار مقدماتنا هذه على توضيح موجز؛ من غير إسراف ولا تطويل ، للعصر السابق لعصرنا المأموني الذي كان نتيجة لازمة لما تقدمه واكتسفه من عوامل متعددة، توضيحاً معتدلاً يجعلنا نطمئن ، بعد تفهمنا للآداب العباسية ، إلى تبيين الفروق والمميزات والآثار التي خلفها لتاريخ المدنية الإسلامية ، بل لتاريخ المدنية الإنسانية ذلك العصر الذهبي وهو عصرنا المأموني الخالد .

لقد تغيرت حالة اللغة وآدابها في العصر الأموي عما كانت عليه في الدور الجاهلي تغيراً عظيماً ، إذ رقت الأساليب وقلَّ الحوشيُّ والمتناهُرُ ، وَاُتْسَعَتِ الْأَغْرَاضُ وكثرت باتساع مطالب الحياة الجديدة وفُورَتْها . وهذا يتمشى بوجه عام مع تغيير حياة العرب الاجتماعية والدينية والسياسية ، وبعبارة أخرى : تغيرت حياة الآداب والعلوم في ذلك العصر طبقاً لما أفادته العربُ في فتوحهم ومغازيهم في غنائم وأموالٍ ، ووقوفهم على آثار المدينيات لأُمِّ ذات حظ من العلم غير قليل . ولقد كان لكتاب الله ، المعجز بآياته وسحر بلاغته (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) أثره في فتق أذهانهم وصقل عباراتهم وتوحيد لهجاتهم ، بل كان الكنز الذي يلجئون إلى ما فيه من أدب جم وعظمة بالغة وأساليب رائعة ، ويستمدون منه ما ينفعهم في معاشهم وحياتهم الدنيا والآخرة .

وإنه ليجدر بنا أن نتساءل عن مدى ما أصاب الآداب العربية من تغيير في العصر الأموي، وهو تغير خطير يستدعي درسه عنايةً ودقيقاً ملاحظةً، وتعرفاً غير قليل لما كانت عليه الآداب في العصر الجاهليّ.



إن تحول الآداب العربية في ذلك العصر أصاب التراث الجاهليّ القديم، من لغة وخطابة وشعر وأمثال، وما كان للقوم من علم بشؤون الحياة والوجود، كما أنه أحدث علوماً وآداباً اقتضاها الإسلام. وقد كان لكتاب الله وسنة رسوله، وما للأئمة من تأويل في فهمهما، كان لذلك كله أثره في خلق علوم شرعية لم يكن للعرب منها حظ من قبل، فنشأ في هذا العصر علم التفسير ورواية الحديث وعلوم اللغة كالنحو وما إلى النحو. على أن هذه العلوم الإسلامية المحدثّة، التي كانت وليدة العصر الأموي خاصة وعصر صدر الإسلام عامة، لم تكن مولوداً هذا العصر الوحيد الذي أصبحت فيه البصرة داراً للعلم والعرفان والمدنية ومسرحاً للهو والافتتان، والشأم مقرّ الملك والسلطان؛ بل كان إلى جانبها مولود آخر كان من شأنه وضع التاريخ والجغرافيا وغيرهما، واتخاذ ديوان الخاتم، ونقل الدواوين من لغة إلى أخرى. وقد كان هذا المولود الآخر نتيجة الفتوح الإسلامية وخاصة تلك الأفطار التي كانت متأثرة بآداب الفرس والرومان واليونان، وبعبارة أدق: تلك العلوم التي أفادتها العرب أو الدولة الإسلامية من اعتناق الفرس وأهل الشأم ومصر وغيرهم من أسرى الروم للإسلام. وقد تستدعي هذه النقطة توضيحاً، ونظن أننا إذا ما فسرناها بعض التفسير نتعجل بموضوعنا الذي سنقبل عليه أخيراً، وخاصة إذا علمنا أن عصر المأمون وما فيه من فلسفة وعلم ومن أدب وفن كان متأثراً بحركة النقل والترجمة، وأن تأثره هذا كان إلى مدى كبير يطبعه بطابع المدنية اليونانية والفارسية؛ ولكن هذا لا يمنعنا أن نلّم به المأما.

(ب) آثار الآداب والعلوم الفارسية واليونانية في العصر الأموي

كانت آداب الفرس قبيل الإسلام آداباً يونانية في جملتها لأن التاريخ يُحدثنا أن آدابهم الفنية القديمة التي كانت مجموعة طيبة لتتاج العقل الفارسي والهندي والأشوري —

هذه الآداب قد نقلها الاسكندر الأكبر الى بلاده؛ ثم تقلبت حياة الفرس بين ضعف وقوة وجهل وعلم، الى أن تسلم كسرى صولجان ملكه ولعب دوره العظيم في تاريخ بلاده. ولعل الأحوال العالمية عهدئذ ساعدته على مهمته في النهوض بالعقلية الفارسية وفي تجديد بعثها. ويقول لنا «چيون»: «إمك «يوستينيان» قيصر الروم حين اضطهد الفلسفة الأفلاطونية الجديدة أو الوثنية، أقفل الهياكل والمدارس وطارد العلماء المفكرين، فأضطرب جماعة من هؤلاء الفلاسفة، الى الرحيل الى بلاد الفرس حيث وجدوا من كسرى أنوشروان من قدرهم قدرهم. ويقول لنا الأستاذ «برون» في كتابه القيم عن تاريخ أدب الفرس حين تعرض لرأى المستشرق (نولدكه Noldké) في هذا الصدد: «إن شغف كسرى بالبحوث الدينية والمناظرات الفلسفية وما كان يجد في ذلك من لذة وإمتاع ليعيد لنا ذكرى المأمون والأمبراطور الأكبر مما نمسك عنه الآن».

على أنامع إمسنا عن التبسط في القول لا يسعنا إلا أن نذكر في هذا المقام أن أنوشروان كان قد أسس مدرسة للطب والفلسفة في جنديسابور كانت لها شهرة مدرسة الإسكندرية. وإنه ليجدر بنا هنا أن ننظر هل استفاد العرب حقاً من علوم الفرس عند ظهور الإسلام؟ وهل استفادوا من غزوهم مصر وفيها مدرسة الإسكندرية؟ ومن إخضاعهم الشام المتأثرة بآثار العقلية الرومانية؟ وهل وجدت حركة نقل في العصر الأموي؟ لأن في توضيحنا ذلك بعض النفع لنا في دراسة التحول العلمي والأدبي في تاريخ التمدن الإسلامي الذي وصل الى درجة خليقة بالإجلال والإكبار في عصر المأمون، العصر الذي نضج فيه مختلف الفنون والآداب. فلنحاول توضيح شيء من ذلك متوخين حد القصص والإيجاز.

(ج) حركة النقل في العصر الأموي :

يخبرنا ابن أبي أصيبعة في الباب الذي أفرد لأطباء العرب في إبان الإسلام : أن «الحارث بن كلدة» تعلم الطب بناحية فارس وتميز هناك وعرف الداء والدواء. ويخبرنا

أيضا أن عبد الملك بن أبحر الكفائي، الذي أسلم على يد عمر بن عبد العزيز حينما كان اميرا على مصر، كان طبيبا عالما ماهرا، وأنه كان في أول أمره في الاسكندرية لأنه كان المتولى التدريس بها من بعد العلماء الاسكندريين، وزاد بأن عمر بن عبد العزيز لما أفضت الخلافة إليه، نقل التدريس الى أنطاكية وحرّان وتفرّق في البلاد. ثم ذكر ابن أثال طبيب معاوية، وتكلم عن علمه بالأدوية المفردة والمركبة، وذكر أبا الحكم «وتماذوق» طبيب الحجاج. وحسبنا هذا دلالة على ما أفاد العرب أو ما يمكن أن يُفيدوا من علم الطب. فلننتقل من هذا الى التكلم عن حركة النقل والترجمة. ويكفيها الآن أن ننظر فيما رواه صاحب الفهرست عن ذلك إذ يقول :

«كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان، وكان فاضلا في نفسه، وله همة ومحبة للعلوم، خطر بباله الصنعة، فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر، وقد تفصّح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى العربي، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة الى لغة، ثم نقل الديوان وكان باللغة الفارسية الى العربية في أيام الحجاج والذي نقله صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم، وكان أبو صالح من سبى سِجِسْتَان، وكان يكتب لزاد انفروخ بن يبري كاتب الحجاج يخط بين يديه بالفارسية والعربية خفف على قلب الحجاج، فقال صالح لزاد انفروخ : إنك أنت سبى الى الأمير، وأراه قد استخفى ولا آمن أن يُقدّمنى عليك وأن تسقط منزلتك، فقال : لا تظنّ ذلك هو الى أحوج مني اليه لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيري، فقال : والله لو شئت أن أحول الحساب الى العربية لحولته، قال : فحول منه أسطرا حتى أرى، ففعل، فقال له : تمارض، فتمارض، فبعث الحجاج اليه تبادروس طبيبه فلم يربه علة، وبلغ زادانفروخ ذلك فأمره أن يظهر. واتفق أن قُتِل زادانفروخ في فتنة ابن الأشعث وهو خارج من موضع كان فيه الى منزله، فاستكتب الحجاج صالحا مكانه، فأعلمه الذي كان جرى بينه وبين صاحبه في نقل الديوان، فعزم الحجاج على ذلك وقلّده صالحا، فقال له مردانشاه

ابن زاذانفروخ : كيف تصنع بدهويه وششويه ؟ قال : أكتب عشرا ونصف عشر ؛ قال : فكيف تصنع بويد ؟ قال : أكتب وأيضا قال : والويد : النيف والزيادة تزداد ؛ فقال له : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية . وبذلت له الفرس مائة ألف درهم على أن يُظهر العجز عن نقل الديوان ، فأبى إلا أن ينقله فنقله . فكان عبد الحميد بن يحيى يقول : لله درُّ صالح ! ما أعظم منته على الكتاب . وكان الحجاج أجله أجلا في نقل الديوان .

فأما الديوان بالشام فكان بالرومية ، والذي كان يكتب عليه سرجون بن منصور لمعاوية ابن أبي سفيان ، ثم منصور بن سرجون . ونقل الديوان في زمن هشام بن عبد الملك نقله أبو ثابت سليمان بن سعد مولى حسين وكان على كتابة الرسائل أيام عبد الملك . وقد قيل : إن الديوان نُقل في أيام عبد الملك ، فإنه أمر سرجون ببعض الأمر فترأى فيه فأحفظ ذلك عبد الملك فاستشار سليمان ؛ فقال له : أنقل الديوان وأرتجل منه .

ثم نجده يتكلم في مكان آخر عن أصطفن القديم وأنه نقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصنعة وغيرها . فنحن نجد من هذا وغيره أن اللغة العربية أخذت تجرى أشواطاً في حلبة العلوم في هذا العصر .



ونريد أن نشرح شرحاً بسيطاً حال الخطابة والكتابة في العصر الأموي متوخين الاختصار على قدر الطاقة فنقول :

(د) الخطابة ومميزاتها :

لم تزدهر الخطابة في عصر من عصور الآداب العربية ، كما ازدهرت في هذا العصر ، لاعتماد الناس عليها في السياسة والدين . وقد جعلها الدين الإسلامي فرضاً من الفروض في الدعوة إليه ، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد كانت الوسيلة في قمع الفتن ورد البدع ، وكانت لسان القائد في جنده يستنهض بها عزماتهم ، والوالى في رعيته يستفز بها

جميعهم، والزعيم في شعبه يجمع بها شتاتهم، اذ لم يكن غيرها من وسائل التبليغ ميسورا،
لذيق الأمية وفقدان وسائل النشر .

وقد وجدت بعد مقتل عثمان رضى الله عنه، بسبب اختلاف المسلمين، وتعدد الفرق
واختلاف الأحزاب، مجالا واسعا للرق والسبق، لاعتماد كل حزب عليها في نشر نحلته،
وتأييد دعوته .

يميز الخطابة في هذا العصر ما يميز الآداب عامة فيه : من نخامة الألفاظ ومثانة
التركيب، والتباعد عن حوشي الكلام . ويميزها أيضا أنها اقتبست من القرآن كثيرا،
ونهجت نهجه في الارشاد والافتاح، وأنها تبدأ بحمد الله والصلوة على رسوله، حتى قيل
لخطبة زياد المشهورة التي خطبها في العراق : "الخطبة البتراء" اذ لم يحمده الله ولم يصل
على نبيه فيها . وقد كان هذا العصر أحفل العصور بالخطباء، فقد كان جل الخلفاء والقواد
وولاة الأمصار وزعماء الأحزاب المختلفة خطباء مصاقيع . وفيما يحفظه تاريخ الآداب من
آثار الخلفاء، ولا سيما الإمام علي، ومن خطب الحجاج بن يوسف، وزيايد بن أبيه، وطارق
ابن زياد، مصداق ما نقول .

ولنتقل هنا خطبة الحجاج في أهل العراق بعد دير الجماجم فهي خير مثال لنضج الخطابة.
في العصر الأموي . قال :

« يا أهل العراق، إن الشيطان قد استبطنكم فغالط اللحم والدم، والعصب والمسامع
والأطراف والشغاف، ثم مضى الى الأنحاح والأصمخ، ثم ارتفع فعشش، ثم باش وفرخ،
فحشاكم نفاقا وشقاقا، وقد اتخذتموه دليلا تتبعونه، وقائدا تطيعونه، ومؤمرا تستشيرونه،
فكيف تنفعكم تجربة أو تعظكم وقعة أو يحجزكم إسلام أو يردكم إيمان ! أستم أصحابي
بالأهواز حيث رتم المكر، وسعيتم بالعدر، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته، وأنا أرميكم
بطرفي وأتم تتسللون لوإذا وتنهزمون سراعا . ويوم الزاوية وما يوم الزاوية ! بها كان
فشلكم وتنازعكم، وبراءة الله منكم ونكوص وليه عنكم، اذ وليتم كالإبل الشوارد الى أوطانها،

النوازع الى أعطانها ، لا يسأل المرء منكم عن أخيه ولا يلوى الشيخ على بنيه ، حتى عَضَّكم السلاح وقصَّمتكم الرماح . يوم دير الجماجم ، وما دير الجماجم ! بها كانت المعارك والملاحم بضرب يزيل الهام عن مقيله ، ويذهل الخليل عن خليله^(١) .

«يا أهل العراق أهل الكفريات والغدرات ، والثورة بعد الثورات ، إن أبعثكم الى ثغوركم علام وختم ، وإن أمنت أرجفتكم ، وإن خفتم نافقتم لا تذكرون خشية ولا تشكرون نعمة ، هل استخفكم ناكث ، واستغواكم غاو ، واستنصركم ظالم ، واستعبدكم خالغ ، إلا وثقتموه وآويتموه ونصرتموه ورضيتموه ! . هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو نعق ناعق أو زفر زافر إلا كنتم أشياعه وأنصاره ! ألم تنهكم المواعظ ! ألم تر جرحم الوقائع ! » .

ثم نظر إلى أهل الشام فقال :

«يا أهل الشام إنما أنا لكم كالظلم الذاب عن فراخه ، ينفي عنها المدر ويبعد عنها الحجر ، ويكنها من المطر . يا أهل الشام أتم الجنة والرداء ، وأتم العدة والغطاء » .
وقد يكون من المفيد حقاً أن ترجع الى «صبح الأعشى» وغيره من المظان الأدبية ، لتقف بنفسك على خطب القوم المتمتع بأسلوباً ، الفخمة لفظاً ، الغنية معنى ، في ذلك العصر الزاهر .

(هـ) الكتابة :

الكتابة — سواء أكانت في تدوين العلوم والفنون وضبط الشؤون العامة أم في إنشاء الرسائل ومعالجة الكلام المنشور — لا ترقى بل لا تكون إلا في الأمم التي أخذت بتسسط من الحضرة ، فكانت لها حكومة منظمة ، ودواوين معددة ، وصناعة متنوعة ، وزراعة نامية ، وتجارة رائجة ، لذلك لم يكن لأحد من الشعوب العربية في الجاهلية حظ من الكتابة إلا بمقدار ماله من حظ من الحضارة .

(١) هاتان الفقرتان مقتبتان من قصيدة لسيدنا عبد الله بن رواحة التي أنشدتها بن يدي النبي صلى الله عليه وسلم عند دخوله مكة في عمرة القضاء ، وأصل البيت :
ضرباً يزيل الهام عن مقيله * ويذهل الخليل عن خليله
اهـ من سيرة ابن هشام .

وقد كانت الكتابة معروفة عند التبابعة جنوباً ، والمناذرة والغساسنة في الشمال ، حين كان لأولئك وهؤلاء من الحضارة نصيب . أما البدو من سكان أواسط الجزيرة فلم يعرفوا الكتابة إلا حين عرفوا الخط في أواخر العصر الجاهلي . وقد كان حفظ الكتابة فيهم حفظاً في أمة بادية قليلة الشؤون ، لذلك لم ينلها في الرق ما نال أخويها الشعر والخطابة . فلما جاء الإسلام وصار للعرب حكومة منظمة وفتح الله عليهم أقطار الأرض ، اشتدت حاجتهم الى الكتابة ، فأخذت سبيلها الى الرق والكال ، حين صارت حاجة من حاجات الدولة .

بيد أن الكتابة لم تبلغ كمالها الممكن ، في التنسيق وإبلاغ الحاجة ، وفي اتساع ما تناولته من شؤون الدولة والناس ، إلا بعد أن نُقلت الدواوين التي كانت بالفارسية في فارس ، والرومية في الشام ، والقبطية في مصر ، الى العربية في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، وإلا بعد أن ظهر في العربية كتاب صقلهم الاطلاع على آداب الفرس وغير الفرس من الأمم التي كانت لها قدم راسخة في الحضارة : كابن المقفع وعبد الحميد الكاتب .

على أنا لسنا نرمي بذلك الى أن لا بلاغة في ذلك العصر بغير اطلاع على بلاغة الأمم الأخرى ، لأن في بلاغة القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وخطب الخلفاء وثرات الجاهلية ، الكثر الذي لا ينضب ، والمعين الذي ينهل من أفوايقه كتاب العصر غير منازع ولا مدافع . وإنا لنعثر في مظان الأدب العربي على أمثلة ناضجة لما نقول . فهذا كلام أم الخير والزرقاء وعكرشة بنت الأطرش ، فإنه لما يتخذ خير مثال للنثر في العصر الأموي .

وسنثبت لك في باب المنشور من الكتاب الأول في المجلد الثاني رسالتين ممتعتين نعتبرهما بحق من خير المنشور العربي ، إحداهما تلك الرسالة المنسوبة لأبي بكر الصديق والتي قيل إنه كتبها لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه فهي تمثل عصرها بلاغة ونفاسة . والثانية رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب قيل إنه كتبها عن مروان بن محمد لعبد الله ابن مروان حينما أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي ، فهي فريدة في نوعها رشاقة أسلوب وسمو معنى .

(١) أنظر باب المنشور من ملحق الكتاب الأول في المجلد الثاني .

(و) حالة الشعر في العصر الأموي وتحوّله :

لكي نلمس بأيدينا صحة قول أولئك الذين يذهبون الى أن العصر الأمويّ، كان عصر تجديد في الآداب العربية، وأنه كان عصر تجديد قوى ظاهر في اللفظ والمعنى، يلزمنا أن نفهم فهما أوليا سذاجة الشعر الجاهليّ وصادق تعبيره عن الحياة الجاهلية .

نعلم أن العصر الجاهليّ للعرب كان في مجموعه، ككل العصور الأولية للعقل البشريّ، ساذجاً فطرياً في علومه ونظمه وعاداته ولكنّه لم يكن كذلك في آدابه، فإنّ عرب الجاهلية بدءوا في شعرهم وآدابهم، في ذلك الطور الأول، بما كان عليه غيرهم من الأمم السامية وكثير من الأمم الأخرى في أطوارها الأولى وعصورها الجاهلية، مع ملازمتهم للفطرة، ونفورهم من التكلف، وبعدهم عن الصنعة الكلامية .

إنّ العرب في جاهليّتهم نظموا الشعر في كل حاجاتهم وأبدعوا فيه بسليقتهم . ومع أنهم كانوا في دور فوضاهم فقد نضجت لهم أفانين كانت آية في بلاغة اللسان العربيّ . وكان الأدب الجاهليّ فطرياً مُثَلّاً خُلِقَ العصر مبيناً استقلال الفكرة البدوية؛ وكان في ضروبه كلفة من وصف ومدح ورناء وهجاء ناطقاً بما يجيش في نفس قائله حقاً، كما كان في بلاغة تركيبه وبعده عن الأوضاع المدرسية من تكلف للبيان والبدع آية في بلاغة الفطرة وشاهدنا في مجموعه على مبلغ أثر بلاغة الفطرة المرسلة عن شعور صاحبها في النفوس والأفهام .

على أنه يجدر بنا أن نقول : إنّ المعلقات وغيرها من آثار العقل العربيّ الجاهليّ، قد لا تتأثر بها نفوس العصر الحاضر، لتغير اللغات والأفكار والمعتقدات، ولتشتب المدينيات والأدبيات، ولأن آذاننا وأذواقنا قد تحكمت بنو ألفاظها وخشوتها، فكما أن الأدب الانكليزيّ قد لا يستعمل اليوم ألفاظاً كان يستعملها شيوخ العقل الانكليزي « كما كون » و « شكسبير » و « ملتون » من خيرة نتاج عصر اليزابث الذهبيّ وقبلهما « شوسر » وشعراء المغاني، ويعتبرها البعض نابية جافية، وأنها بمثابة ألفاظ مدرسية تاريخية، كما هي الحال في نظر أدب العصر

الانكليزي أو الفرنسي أو الألماني في تراجمهم عن الكتاب المقدس ، وإلى شعرائهم وأدبائهم المتقدمين ، كذلك هو الحال في أحكامنا عن نتاج العصر العربي الجاهلي .



إنّ المدينة ما وُتّ ساعة ولا يوما ، ولكن عاطفة الانسان تكاد تكون هي بنفسها في كل العصور : يحترق لواعجه الجمال ، ويفطر قلبه ريب الزمان ، ويبتش شكاته الى أترابه وإخوانه ، ويحاول أن يتبوأ حبات الأفتدة بسحر بيانه ، فهو يفخر ويشدو ، وهو يمدح ويهجو ، وهو يخطب وينظم ويضرب الأمثال . وهو صادق في ترجمة مشاعره ، وتبيان مقاصده ما كان في دور سذاجته بعيدا عن ضروب المدينيات التي كثيرا ما تُلَازِمُها تقاليد خاصة وتصحبها آداب تُعَوِّفُ عليها ثقل صراحته وتقل من حدة شبّاته ، وتجعل له سلطانا على ميوله وأهوائه . واللسان علنة مصفاح إن تركت له عنانه ، كتممة مضلل إن جعلت العقل والتقليد ميزانه .

من هنا نستطيع أن نفسر سذاجة العربي الجاهلي وجنوحه الى صوت الطبيعة ، على العكس من حال زميله الاسلامي الذي قد صقلته بلاغة القرآن وتعاليمه ، وشدّته سنة الرسول وصحابه ، وأفسح المجال لخياله ما وقف عليه أثناء الفتوح العربية من تراث المدينيات الفارسية في العراق وفارس ، والرومانية في الشام ومصر ، وناهيك بآثار الفرس والرومان الى ما خلف له آباؤه العرب من حكمة وبيان .



كان شعراء الجاهلية يُسدّدون قولهم نحو كبد الحقيقة فلا يُخطئونها ، ويقولون الشعر عن شعور حي ، ولا يتخطون الى ما وراء مشهودهم ومعقولهم ، بخفاء شعرهم مثلا صادقا لبدائتهم وحضارتهم ، حتى لو اندثرت جميع أخبارهم وآثارهم ولم يبق إلا شيء من شعرهم لتيسر للباحث أن يستخرج منه وصفا كاملا لجميع أحوالهم ، كما استخرج الباحثون كثيرا من غوامض جاهلية اليونان من شعر «هوميرس» .

واليك مثالا قول المهلهل بعد وقعة السلان اذ حضرها مع أخيه كليب وفرّ ابن عنق الحية من وجههما :

لو كان ناهٍ لأبْن حِيَّةَ زاجراً * لنهأه ذا عن وقعة السلان
يَوْمٌ لَنَا كَانَتْ رِيَا سَةً أَهْلُهُ * دُونَ الْقَبَائِلِ مِنْ بَنِي عَدْنَانَ
غَضِبَتْ مَعْدُ غُثًّا وَنَمِيْنًا * فِيهِ مَمْلَأَةٌ عَلَى غَسَّانٍ
فَازَالَهُمْ عَنَّا كَلِيْبٌ بِطَعْنَةٍ * فِي عُمْرِ بَابِلَ مِنْ بَنِي قَطَّانٍ
وَلَقَدْ مَضَى عَنْهَا ابْنُ حِيَّةٍ مَدْبَرًا * تَحْتَ الْعَجَاجَةِ وَالْخُتُوْفِ دَوَانِي
لَمَّا رَأَانَا بِالْكَلاَّبِ كَأَنَّا * أَسَدٌ مَلَاوِيْثُهُ عَلَى خَفَّانٍ
رَكَ الَّتِي سَحَبَتْ عَلَيْهِ ذِيوْهَا * تَحْتَ الْعَجَاجِ بِذَلَّةٍ وَهَوَانٍ
وَنَجَا بِمَهْجَتِهِ وَأَسْلَمَ قَوْمَهُ * مَتَسَرِّبِينَ رَوَاعِفَ الْمُرَّانِ
يَمْشُونَ فِي حَلَقِ الْحَدِيدِ كَأَنَّهُمْ * جُرْبُ الْجَمَالِ طُلَيْنَ الْقَطِرَانِ
نَعَمْ الْفَوَارِسُ لَا فَوَارِسُ مَذِيحٍ * يَوْمَ الْهِيَاجِ وَلَا بَنُو هَمْدَانَ
هَزَمُوا الْعُدَاةَ بِكُلِّ أَسْمَرٍ مَارِيْنٍ * وَمَهْنَدٍ مِثْلَ الْغَدِيرِ يَمَانِي

وبعد، فإننا بعد ما قدّمنا من موجز كلامنا عن تصوير حالة الشعر في الجاهلية توطئة لبحثنا عن حالته في العصر الأموي، لا نرى مندوحة من الإشارة هنا الى أننا سنغنى عنانية، خاصة، بفرعي الغزل والشعر السياسي، لأنهما بحالتيهما الأموية يكادان يكونان وليدَي العصر ونتأججه .

وليس معنى ذلك أننا ننكر تلك المعاني الجديدة التي دخلت على الوصف والمدح والثناء والهجاء، ولكننا نلاحظ أنّ الفرق لا يعدو ملتزمات المدنية، مع رقة اكتسبتها العصور الإسلامية، القريبة العهد من نزول القرآن واشتغال الناس بتلاوته وإقبالهم على دراسته، حتى انطبوعوا على بلاغته وبيانه .

على أنه من المفيد أن نُشير الى شيء جديد أصاب فنّ المديح في العصر الأموي، لأنه خاص بهذا العصر دون سواه .

قال ابن قتيبة في كتابه القيم «الشعر والشعراء» : أتى بعض الرّجّازِ نصر بن سيار وإلى خراسانَ لبني أمية، فمدحه بقصيدة تشبّيهُ مائة بيتٍ ومدّيحُها عشرة أبيات، فقال نصر : « والله ما بقيت كلمةٌ عذبةٌ ولا معنى لطيفٌ إلا شغلّته عن مدّحي بتشبيك، فان أردت مدّحي فاقصد في النسيب، فأتاه فأنشد :

هل تعرف الدارَ لأم الغمر * دع ذا وجهرٍ مدحةً في نصر

فقال نصر : لا ذاك ولا هذا، ولكن بين الأمرين .

(ز) الغزل :

كان غَزَلُ الجاهلية من عفو الخاطر وفيض البديهة، ناطقاً بصفاء قريحتهم، وكامل حريتهم، وتوقّد أذهانهم وثائر طباعهم، وكان بريئاً من الصنعة والكُلفة .

ومع أنى ممن يذهبون إلى أنّ الشاعر الجاهليّ، كان يعالج الفنون الشعرية كافة غير مقصور على النسيب بالذات، بيد أنى ممن يقول إن المعاني الغزلية وألفاظها تكاد تكون مُعاداةً فيما بعد العصر الجاهليّ، بتوسع تقضييه المدنية، وطلاوة اكتسبتها الألفاظ من بلاغة القرآن، وعذوبة أنتجتها ثروة الأذهان من أفاريق العرفان .
ولقد صدق زهير إذ يقول :

ما أَرانا نقول إلا مُعَاراً * أو مُعاداً من لفظنا مكروراً

أجل، لقد كان الغَزَلُ الأمويّ غنياً بما هو أكثر من ذكر الأطلال والديار، إذ أنّا نجد فيه لوائح الحبّ ولفحاته، وشكايات الصبّ وأناته، وزفرات العاشق وعبراته .

ألسنا نلمس التوجّع والأسى في قول ابن الدمينّة الخثعميّ :

ألا يا صبا نجد متى هجيت من نجد * لقد زادني مسرّك وجداً على وجد

وفي قول الصمّة بن عبد الله بن طفيل :

حنّنت إلى رَيّا ونفُسك باعدت * مَرّارك من رَيّا وشعباً كُجا معاً

نريد أن ندرّس حالة الغزل في العصر الأموي الذي هو عصر الترف والفن والثروة، عصر القصور والملاذ، عصر الاندماج في غير العرب واتخاذ السراى والسبايا، تكاد مات ووصيفات وزوجات .

لقد كثر الترف كثرة حمل معها الاندفاع مع الغزل وما يجزه الغزل، وخلق أنواعا صريحة من المناحى الشعرية في الحب والتشبيب بالنساء، رغبة في الحب من حيث هو، وفي التشبيب من حيث هو : بمعنى أنا كنا في العصر الجاهلي قلما نجد شاعرا وقف حياته الشعرية على معالجة فن الغزل فحسب، لا يتكلف غيره ولا يعنى بسواه، فإذ بنا في العصر الأموي نجد من الشعراء من يتخذ من الغزل صناعة وفنا .

وظاهرة أخرى نلاحظها في الغزل الأموي تظهر بجلاء مقدار اختلافه عما كان عليه في العصر الجاهلي، تلك أنواعه المتباينة التي يصح لنا أن نقسمها الى أربعة أبواب : غزل إباحي، ويصح لنا أن نتخذ من عمر بن أبي ربيعة زعيما لهذا النوع الذي يجمع الى وصف المرأة والتشبيب بها، معانى العبث بها والاستمتاع باللذة المادية مما ينفرد منه الأدب الجاهلي وما حظره عليه الكثيرون من خلفاء الإسلام وأئمة .

ولقد صدق ابن جريج إذ يقول : "مادخل على العواتق في خدورهن شيء أضر عليهن من شعر ابن أبي ربيعة" . ونحيل القارئ الى حديث الزبير بن بكار عن عمه مضعب في صفة هذا الشاعر الكبير، على أن نكتب الأغاني وغيره من أمهات كتب الأدب العربي مترعة بشعره وتشبيهه مما لا يدع مجالا للشك في أنه كان تبع نساء وحلس غانيات، وصافا لأحاديثهن، واقفا على دخائلهن، مطلعا على هوى نفوسهن . ولا حاجة بنا الى التطويل هنا فيما هو مشهور متعارف، خصوصا أنك ستجد طرفا من شعره، في باب المنظوم من الكتاب الأول في المجلد الثاني، فراجعه ثمة .

على أنه مع ذلك يذوب رقة وحنانا في بعض مقطعاته، ولا سيما مع الثريا بنت علي، فإنه يلوح لنا أنه لم يفتح قلبه لأحد سواها .

كتب ابن أبي ربيعة الى الثريا وهي باليمن يقول :
كتبْتُ إليك من بلدي * كتاب موله كَمِيد

ولقد كانت مكة والمدينة مسرَّحاً لهذا النوع في العصر الأموي . وسبب ذلك ميسور
فهمه ، معقول تعاليله ، ذلك أن الخلفاء تعتمد جلهم الإغداق على أهل الججاز وأبناء المهاجرين
والأنصار بالأموال والهدايا فوق ما ورَّثهم آباؤهم ، ليحولوا بينهم وبين ما يطمحُ اليه أمثالهم
من منافسة في الملك ، أو مشاكسة للسلطان ، وليشغلوهم عن أمور الدولة بإرخاء العنان لهم
في لذاتهم ومناعهم .

وهناك الغزل العُدريُّ البريء ، غَزَلَ الحب الصادق ، والعواطف المتأججة ، والنفس
المتألمة المعناة ، تلك النفس التي تجدد لذتها في الكلف بمن تحب والتعلق به والشعور
بالسعادة في الغناء بحبه ، حباً يملك عليه لبه ويعذب رُوحه ويفنى جسمه كغزل جميل .
وليس أدلَّ على صدق حبه مما أثبتته صاحب الأغاني في الجزء السابع ، اذ حاول أبوه أن يصرفه
عن حبه وحاجته في ذلك أجهل مُحاجة ، فكان من جميل ما كان مما نجده مفصلاً
في موضعه .^(١)

وغزل صناعى بين هذا وذاك ، همه الإجادة في الشعر من حيث هو شعر ، لا في الحب
من حيث هو حب ، ولنا في كثير عنزة زعيم لهذا النوع الثالث^(٢) .

وغزل قصاصي ، خلقه الرواة لأنهم رأوا ميل الناس الى الغزل والى حياة القصف
وما يتبع حياة القصف ، فنظموا قصائد نخلوها لشعراء لانستطيع أن نحتمل تبعه القول
بوجودهم في الحياة أو القول بأنهم أشخاص خياليون خلقهم الرواة أو زادوا من عندهم
مقطعات نسبوها لهم وأضافوها الى شعرهم . وزعيا هذا النوع . قيس بن الملوَّح وليلاه ،
وقيس بن ذريح ولُبناه .^(٤)

(١) و(٢) و(٣) و(٤) أنظر باب المنظوم من ملحق الكتاب الأول في المجلد الثاني .

(ح) الشعر السياسي .

بداية عصر بني أمية معركة سياسية ، لعب فيها معاوية وأنصاره دوراً متميزاً طريفاً في سبيل استلاب الخلافة من عليّ ، وتأسيس ملك بني أمية ، على قواعد وسنن تخالف قليلاً أو كثيراً ما كانت عليه الحال في عصر الخلفاء الراشدين .



الإنسان في سبيل تحقيق أطماعه السياسية ، هو بعينه في عصر معاوية ، وفي عصر يوايوس قيصر ، وفي عصر بونابرت ، وفريدريك الأكبر أول عاهل لألمانيا ، هو بعينه إنسان اليوم ، هو بعينه كرئيس الولايات المتحدة وغيرها ، يستعمل المال في شراء الضمير الإنساني ، ويعمل جهده على إذاعة دعوته ، وتبيان فضائله ، وتصويب خطته ، بالتخاذ الحملات الصحفية والخطابية وغيرها من وسائل الدعوة التي وصلت إليها المدنية الحديثة ، والتي كانت في عصر معاوية وخلفاء معاوية وفي عصر المأمون وخلفاء المأمون ، تستخدم السنة الشعراء ، وهي أسرع انتشاراً ، وأعمق أثراً ، وأكثر رواية ، وأطول عمراً ، مما يكتب اليوم ، فلا يرويه من الناس إلا قليل .

إنك لتعلم ما لاستخدام الشعر من أثر في كثير من الحركات السياسية ، وأستحضات العزمات وإنهاض الهمم في الانقلابات الاجتماعية ، وما « للرسليين » من أثر في نفوس الجند الفرنسيين ، إذا حمى وطيس الحرب واشتد أوارها . وأنت جدد عالم بما كان لقصائد « اللورد بيرن » ، الواحدة تلو الأخرى ، في سبيل استقلال اليونان الحديثة ، وفي سبيل اجتذاب عطف أوروبا وساستها وجماهيرها وملوكها ونوابها وصحفها ، ليأخذوا بناصر أمة مهينة غلبت على أمرها .

أنت جدد عالم بأن قصائد « بيرن » هذه فعّالت في المعركة السياسية ما لم تفعله جيوش مصر وأساطيلها وذخيرة الترك وانتصارها ، فكان الحكم « لبيرن » وكان الانتصار لشعره .



كذلك كان الحال في عصر بني أمية، وكذلك كان أثر الشعر إن لم يكن أبلغ وأوسع نطاقاً . ألم يُوعِز معاوية ، في رواية يزيد ابنه ، الى مسكين الدارمي أن يقول أبياتاً في معنى المباينة ليزيد وينشدّها إياه في مجلسه وهو حافل بالوجوه والأشراف ! .

وتقول رواية الأغاني : إن معاوية لما أراد البيعة ليزيد ، تهيّب ذلك وخاف ألا يمالئه عليه الناس لحسن التقيّة فيهم وكثرة من يُرتجّ للخلافة ، وبلغه في ذلك ذرو^(١) كلام ، كرهه من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر ، فأمر يزيد مسكيناً ، وكان يؤثّر ويصله ويقوم بحاجاته عند أبيه ، أن يقول أبياتاً وينشدّها معاوية في مجلسه إذا كان حافلاً وحضره وجوه بني أمية ؛ فلما اتفق ذلك دخل مسكين اليه وهو جالس وأبّنه يزيد عن يمينه وبنو أمية حواليه وأشراف الناس في مجلسه ، فثّل بين يديه وأنشأ يقول :

إن أدّع مسكيناً فإني أبنُ معشير * من الناس أحبّ عنهم وأدودُ
اليك أمير المؤمنين رحلتها * تشير القطا ليلاً وهن هجودُ
وهاجرة ظلت كأن ظباءها * إذا ما آتقتهم بالقرون سجودُ
ألا ليت شعري ما يقول ابنُ عامر * ومروانُ أم ماذا يقول سعيدُ
بني خلفاء الله مهلاً فإنما * يبوّئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبرُ الغربيّ خلاه ربه * فإنّ أمير المؤمنين يزيدُ
على الطائر الميمون والجدّ صاعد * لكل أناس طائرٌ وجدودُ
فلا زلت أعلّ الناس كعباً ولا تزل * وفودٌ تُساميها اليك وفودُ
ولا زال بيتُ الملك فوقك عالياً * تُسيّدُ أطنابُ له وعُمودُ
قدورُ ابنِ حرب كالجوابي وتحتها * أثاف كأمثال الرمال رمودُ

(١) ذرو كلام : طرف منه .

فقال له معاوية: «ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله». قال: ولم يتكلم أحد من بني أمية في ذلك إلا بالإقرار والموافقة، وذلك الذي أراده يزيد، ليعلم ما عندهم، ثم وصله يزيد ووصله معاوية فأجزلا صلبته اه .

وأظنك لا تطلب منا حين مطالعتك لهذه القصيدة تحليلها لإقامة الدليل على صدق ما ذهبنا إليه؛ فيما أسلفناه لك من القول بأن شعر العصر الأموي عربي جاهلي في منحا وأسلوبه، وأنه يتميز بروح جديدة، ويختلف بأغراض ومقاصد تكاد تكون جديدة بالنسبة للعصر الجاهلي. وذلك لوضوح التحليل وخوف الإطالة فيما لا يعنيننا كثيرا .

على أنه لزام في عنقنا أن نصور، الى مدى أوسع، استخدام الشعر الأموي في الأغراض السياسية، لأن لهذا النوع الطريف نتائجه وآثاره في هذا العصر والعصور التي تلتها، ولأن لهذه الميزة ميزة اصطباغ الشعر بالغرض السياسي واندفاع صاحبه في سبيل نصرته دعوته معبدا ما قد يعثور طريقه من صعاب، مُدلا ما يعترضه من عقاب، منتهكا حرمة التقاليد والأشخاص، بل خارجا الى حيز لا يرضى عنه فقهاء الدين كثيرا، وربما لا يرضى عنه الشرع حقا، نزع أن لهذه الميزة آثارها ونتائجها. ولسنا بسبيل تفصيل ذلك الآن، ولكننا بموقف المقيّد للحوادث فحسب، المثبت لمبدأ وقوعها، ولها مع الزمن وتكرر وقوعها ونشاط مبدانها ما سيتاح لنا تفصيله فيما بعد، من اتساع نطاق السياسة الشعرية خاصة، ودولة الأدب عامة، وتهديدها حرمة العادة والخلق والدين .



مثل آخر ذكره صاحب كتاب الأخبار الطوال وهو بمثابة معركة مذهبية سياسية بين نصير معاوية ونصير علي، بين كعب بن جُعيل والنجاشي. وهالك قصيدة كل منهما، قال كعب بن جُعيل:

أرى الشام تكره مُلك العِرا * ق وأهل العراق لهم تاركونا
وكلّ لصاحبه مُبغض * يرى كلّ ما كان من ذاك دينا

وقالوا على إمام لنا * فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا لنا * فقلنا لهم لا نرى أن نديننا
وكلُّ يُسرُّ بما عنده * يرى غث ما في يديه سميناً
وما في على بمستعيب * منال سوى ضمه المحدثينا
وليس براض ولا ساخط * ولا في النهاية ولا الآمرينا
ولا هو ساء ولا هو سَرُّ * ولا بد من بعد ذا أن يكونا
فلما قرأه على رضى الله عنه قال للنجاحي أجب ؛ فقال :

دع معاوى ما لن يكونا * فقد حقق الله ما تحذرونا
أناكم على بأهل العرا * ق وأهل الجحاز فاصنعونا
يرون الطعان خلال العجا * ج وضرب القوانيس في النقع دينا^(١)
هم هزموا الجمع جمع الزير * وطلحة والمعشر الناكثينا
فان يكره القوم ملك العراق * فقدما رضينا الذي تكرهونا
فقولوا لكعب أخى وإيل * ومن جعل الغث يومنا سميناً
جعلتم علينا وأشياءه * نظير ابن هند ألا تستحونا

* *

وهالك مثلاً آخر ذكره صاحب الأغاني في ترجمة النعمان بن بشير قال : تشبب عبد الرحمن
ابن حسان برملة بنت معاوية فقال :

رمل هل تذكرين يوم غزال * إذ قطعنا مسيرنا بالتمنى
إذ تقولين عمر لك الله هل شئ * ء وإن جلّ سوف يسليك عني
أم هل أطمعت يا ابن حسان في ذا * لك كما قد أراك أطمعت مني

قال : فبلغ ذلك يزيد بن معاوية فغضب ، ودخل على معاوية فقال : يا أمير المؤمنين ،
ألا ترى الى هذا العليج من أهل يثرب يتهمكم بأعراضنا ويُشَبِّب بنسائنا ! فقال : ومن هو ؟

(١) القوانس : جمع قونس وهو أعلى الرأس ، وأعلى بيضة الحديد أو مقدها .

قال : عبد الرحمن بن حسان فأنشده ما قال ؛ فقال ، يا يزيد ليست العقوبة من أحد أقبج منها بذوى المقدره ، ولكن امهل حتى يقدم وفد الأنصار ثم ذكرني به ؛ فلما قدموا ذكره به ؛ فلما دخلوا قال : يا عبد الرحمن ، ألم يبلغني أنك تُسببُ برملة بنت أمير المؤمنين ! قال : بلى ولو علمت أن أحداً أشرف بشعري منها لذكرته ؛ قال : أين أنت عن أختها هند ! . قال : وإن لها لأختا يقال لها هند ؟ قال : نعم ! وإنما أراد معاوية أن يشببَ بهما جميعاً فيكذب نفسه ؛ فلم يرض ذلك يزيد بن معاوية وما كان منه معه ، فأرسل الى كعب بن جعيل فقال له : أئج الأنصار ؛ فقال : أفرق من أمير المؤمنين ، ولكن أدلك على الشاعر الكافر المساهر الأخطل ؛ قال فدعاه فقال له ؛ أئج الأنصار ؛ فقال : أفرق من أمير المؤمنين ؛ قال : لا تخف شيئاً أنا لك بذلك ؛ فهجاهم فقال :

واذا نسبت ابن القريرة خلتة * كالجحش بين حمارة وحمار
لعن الاله من المهوور عصابة * بالخنز بين صليصل وصذار
قوم اذا هدر العصير رأيتهم * حمرا عيونهمو من المصطار
خلو المكارم لستموا من أهلها * وخذوا مساحيكم بنى النجار
إن الفوارس يعرفون ظهورهم * أولاد كل مقبج أكار
ذهبت قريش بالمكارم كلها * واللؤم تحت عمائم الأنصار

فبلغ ذلك النعمان بن بشير ، فدخل على معاوية ففسر عمائمته عن رأسه وقال : يا أمير المؤمنين ، أنزى لؤما ؟ قال : لا بل أرى كرماً وخيراً ، فإذا ؟ قال : زعم الأخطل أن اللؤم تحت عمائم الأنصار ! قال : أو فعل ذلك ؟ قال : نعم ، قال : لك لسانه ، وكتب فيه أن يؤتى به ، فلما أتى به سأل الرسول أن يدخله الى يزيد أولاً ، فأدخله عليه ، فقال : هذا الذى كنت أخاف ؛ قال : لا تخف شيئاً ، ودخل على معاوية فقال : علام أرسل الى هذا الذى يمدحنا ويرينى من وراء حجرتنا ؟ قال : هجا الأنصار ؛ قال : ومن زعم ذلك ؟ قال : النعمان بن بشير ؛ قال : لا تقبل قوله وهو المدعى لنفسه ، ولكن تدعوه بالبينة وإن أثبت شيئاً أخذت له ؛ فدعاه بالبينة فلم يأت بها فخلاه ؛ فقال الأخطل :

وإني وإن استعبرت أم مالك * لراض من السلطان أن يتهددا
ولولا يزيدُ ابنُ الملوِك وسعيُه * تحللتُ جرباًذا من الشر أنكدا

أما ردّ النعمان على الأخطل فهأكه كما نقله أبو الفرج الأصبهاني عن خالد بن كلثوم :
مُعاوِيَ إلّا تعطينا الحقّ تعترف * لِحَى الأزْد مشدودا عليها العائمُ
حتى قوله :

اليهم يصير الأمر بعد شتاته * فن لك بالأمر الذي هو لازم
بهم شرع الله الهدى فاهتدى بهم * ومنهم له هادٍ إمامٌ وخاتمُ

وإنّا نحيل القارئ إلى الكتاب الأول من المجلد الثاني ليقف على قصيدة النعمان
هذه، وليقف كذلك على قصيدته الرائية الأخرى التي أنشدها معاوية لما ضرب
مروان بن الحكم، عبيد الرحمن بن حسان الحدّ ولم يضرب أخاه حين تهاجيا وتقاذفا .
وتحرير الخبر فيها : أنه لما كثرا الهجاء بين عبد الرحمن بن حسان وعبيد الرحمن بن الحكم
ابن أبي العاصي وتفاحشا، كتب معاوية إلى سعيد بن العاصي، وهو عامله على المدينة،
أن يجلد كلّ واحد منهما مائة سوط . وكان ابن حسان صديقاً لسعيد وما مدح أحداً
غيره قط، فكره أن يضرب أو يضرب ابن عمه فأمسك عنهما، ثم ولّى مروان، فلما قدّم
أخذ ابن حسان فضربه مائة سوط ولم يضرب أخاه، فكتب ابن حسان إلى النعمان
ابن بشير وهو بالشام، وكان كبيراً أثيراً مكيّاً عند معاوية، قال :

ليت شعري أغائب أنت بالشد * مام خليلي أم راقدٌ نعمانُ
أية ما يكن فقد يرجع الغد * نائب يوما ويوقظ الوسنانُ
إن عمرا وعامرا أبويننا * وحراماً قدما على العهد كانوا
أفهم ما نعوذك أم قلّة الكف * ناب أم أنت عاتبٌ غضبانُ
أم جفاء أم أعوزتك القراطيد * س أم أمري به عليك هوانُ
يوم أنبت أن ساقى رُضت * وأنتكم بذلك الركبانُ

ثم قالوا إن ابن عمك في بلد - سوى أمور أتى بها الحدّانُ
فنسيت الأرحام والودّ والصحة. * سبة فيما أتت به الأزمانُ
إنما الرّيح فأعلمن قنأة * أو كبعض العيدان لولا السنّانُ

وهي قصيدة طويلة . فدخل النعمان بن بشير على معاوية فقال : يا أمير المؤمنين ، إنك أمرت سعيدا بأن يضرب ابن حسان وابن الحكم مائة سوط فلم يفعل ، ثم وليت مروان فضرب ابن حسان ولم يضرب أخاه ! قال : فتريد ماذا ؟ قال : أريد أن تكتب إليه بمثل ما كتبت إلى سعيد ، فكتب إليه معاوية يعزم عليه أن يضرب أخاه مائة ، فضربه خمسين وبعث إلى ابن حسان بحلة وسأله أن يعفو عن خمسين ، ففعل وقال لأهل المدينة : إنما ضربني حدّ الحز وضربه حدّ العبد خمسين ، فشاعت الكلمة حتى بلغت ابن الحكم ، فجاء إلى أخيه فأخبره وقال : « لا حاجة لي فيما عفا عنه ابن حسان » ، فبعث إليه مروان : « لا حاجة لنا فيما تركت ، فهلم فاقتص من صاحبك » . فحضر فضربه مروان خمسين أخرى اه .



ويجدر بنا الآن ، بعد أن أوضحنا ميزة استعمال الشعر في الأغراض السياسية في الدولة الأموية ، أن نسمح لأنفسنا بتقييد ملاحظة قد لا تخلو من نفع فيما سنعالجه ، وهي أن تلك الأغراض السياسية سمحت للشعراء بما لم تسمح به لسواهم من إعفائهم من إقامة الحدود . وقد سبق لنا أن أشرنا إلى كتاب معاوية إلى مروان بن الحكم في صدد حدّ للشاعر المناصر للسياسة بنى أمية وهو عبد الرحمن بن أرطاة المعروف بأبي سيجان وكان حدّه لشره الخمر . وابن سيجان هذا هو الذي قال في صفته أبو الفرج الأصفهاني : « كان عبد الرحمن شاعرا مقلّا إسلاميا ، ليس من الفحول المشهورين ، ولكنه كان يقول في الشراب والغزل ومدح أحلافه من بنى أمية ، وهو أحد المعاقرين للشراب والمحدودين فيه ، وكان مع بنى أمية كواحد منهم ، إلا أن اختصاصه بآل أبي سفيان وآل عثمان خاصة كان أكثر ، وخصّوصه بالوليد ابن عثمان ومؤانسته إياه أزيد من خصوصه بسائرهم ، لأنهما كانا يتناوبان على الشراب » .

ونريد الآن أن نفسر هذه الحادثة تفسيراً معتدلاً لنخرج منها بما عساه يمدنا وينفعنا فيما سنقدم عليه من مناقشة العصور التي تلت هذا العصر، تلك العصور التي تغذت، من غير شك، بأفاريق العصر الأموي الذي تقدّمها، فثبتت فيها بذوره حتى كادت تنمو في حديقته الأنف الحسّانة دوحات خطيرة على الاعتبارات الخلقية التي توضع عليها .

ولمّا إذا رجعت إلى كتاب معاوية، ورجعت إلى كتاب الأغاني نفسه، ومولفه أموي كما تعلم، وجدته قد أقام الحجة في غير موضع على أن هذا الشاعر عاقر الخمر . وهالك ما يؤيد ذلك ويعزّزه :

قال : « كان الوليد بن عثمان، ذا غلّة في الجواز، يخرج إليها في زمان الثربنفر من قومه، يجنون له ويعاونونه، فكان إذا حضر خروجهم دفع إليهم نفقات لأهلهم إلى رجعتهم؛ فخرج بهم مرة كما كان يخرج وفيهم ابن سيحان، فأقى ابن سيحان كتاباً من أهله يسألونه القدوم لحاجة لا بد منها، فاستأذنه فأذن له، فقال له ابن سيحان : زودوني من شرابكم هذا، فزودوه إداوة ملاءها له من شرابهم، فكان يشربها في طريقه حتى قدم على أهله، فألقاها في جانب بيته فارغة، فمكث زماناً لا يذكرونها حتى كنسوا البيت فراها ملقاة في الكساسة فقال :

لا تَبْعِدْ إداوة مطروحة * كانت حديثاً للشراب العاتق
إن تُصْبِحَ لا شيء فيك فربما * أترعت من كأس تلذذ لذائق
بأبي الوليد وأتم نفسي كلّها * بدت النجوم وذقرون الشارق
كم عنده من نائل وسماحة * وشمائل مميونة وخلائق
وكرامية للعتفين إذا اعتفوا * في ماله حقاً وقول صادق
أثوى فأكرم في الثواء وقضيت * حاجتنا من عند أروع بأسق
لما أتيناه أئينا ما جدد الـ * أخلاق سباقاً لقرم سابق
قال الوليد يدي لكم رهن بما * حاولتمو من صاميت أو ناطق
فإلى الوليد اليوم حنت ناقي * تهوى بمغبر المتون سمالي
حنت إلى برق فقلت لها قري * بعض الحنين فإن شجوك شاتي

فهذا اعتراف صريح بمعاقرته للخمر . ثم لُتِثِتْ هنا قصيدته التي مدح بها معاوية :

إني أمرؤ أنمى إلى أفضل الورى * عديدا إذا رفضت عصا المتخلف
إلى نضد من عبد شمس كأنهم * هضاب أجأ أركانها لم تُقَصِّف
ميامين يرضون الكفاية إن كفوا * ويكفون ما وُلُوا بغير تكلف
غَطَّارْفَةٌ ساسوا البلاد فأحسنوا * سياستها حتى أقرت لمردف
فمن يك منهم موسرا يُغش فضله * ومن يك منهم معسرا يتعفف
وإن تبسط النعمى لهم بسطوا بها * أكفأ سباطا نفعها غير مُقْرِف
وإن تُزَوَّعْ عنهم لا يضحجوا وتلفهم * قليل التشكى عندها والتكلف
إذا انصرفوا للحق يوما تصرفوا * إذا الجاهل الحيران لم يتصرف
سموا فعلا فوق البرية كلها * ببنيان عالٍ من مُنِيف ومُشْرِف

وكان من حظها أن كتب معاوية أن يعطى أربعمائة شاة وثلاثين لقة ، مما يوطن
السيالة غير ما أعطاه سواه .

وبمهما يكن الواقع الذي حداً ابن الحكم إلى حده فإن السياسة الحزبية ومدائح
ابن سيحان في معاوية ، واستعمال الأخير الشعراء في مناصرة بيته — كل ذلك دفع بمعاوية
إلى كتابة ما كتب لابن الحكم أولاً ، ثم للوليد بن عتبة ثانية ، حتى اضطره لرفده بخمسمائة دينار
مما وصفه صاحب الأغاني ؛ فكانت الغلبة للشعر لا للشرع ، وللغاية السياسية لا الدينية ،
فلنقيد هذه الملاحظة فقط ، بلا توسع ولا إسهاب .

* *

وبعد ، فلنلخص ما تقدم عن شعراء السياسة ، وهم العنصر الهام الذي لعب دوراً
بارزاً في الأدب العربي في العصر الأموي ، والذي كان له أثره ونتائجه في العصر العباسي ،
في كلمة ختامية في هذا الموضوع نبين فيها جماعة الشعراء السياسيين وألوانهم السياسية .

كان جلُّ شعراء هذا الدور أمويين ؛ فانا نجد الى جانب شعراء الدور الأول من أنصار بني أمية شعراء آخرين أخذوا بناصرهم ودافعوا عن يكانهم مثل أبي العباس الأعمى وهجاء ابن الزبير، وأبي قطيفة طريد ابن الزبير، وأبي صخر الهذلي المتعصب لآل مروان وهجاء ابن الزبير، وصدى بن الرقاع، والوليد بن أمية بن عائذ الهذلي ، وجبيهاء الأشجعي والحكم بن عهيد الأسدي، والسلولي، وموسى شهوات، وغيرهم .

والشعراء العلويون، وفي طليعتهم النعمان بن بشير الأنصاري، والكُميت بن يزيد، وأمين ابن نعيم . على أن الآخرين اضطروا الى امتداح بني أمية ومسايرتهم ؛ فانا نجد الكميث قد مدح هشاما، كما نجد أمين مدح عبد الملك . ثم نجد شعراء دون ذلك مثل أنصار آل المهلب ابن أبي صفرة كزياد الأعجم وثابت قُطنة وحسنة بن بيض وكعب الأشقر وغيرهم . وأخيرا نجد حزب آل الزبير ومن شعرائه عبد الله بن الزبير الأسدي .

وصفوة القول أن المعركة السياسية بين بني أمية ومنافسيهم في الملك أوالجاء وما يتبعهما : من إغداق الأموال والعطايا على أنصار كل فريق، جعلت هوى الشعراء مع من أحسن اليهم، واللّهُمَّ تَفْتَحُ اللّهُمَّ .

* *

من كل هذا يتبين ما اتسع أمام الآداب العربية من ميدانٍ فسيح في ضروب شتى من ألوان الحياة لم تكن تعرفها من قبل .

وقد آن لنا أن ننتقل الى الكتاب الثاني من موضوعنا، ونرجو أن نُوفّق الى إيضاح ما أوجزناه، وبسط ما أجمالناه، مبتهلين الى الله ألا نضلّ في شُعبه ومهامهه ، وبهمه ومفاوزه، بمنه وكرمه .

الكتاب الثاني

عصر بني العباس

الفصل الأول

الوجهة السياسية

توطئة — دور الانتقال — الشيعة العلوية .

(أ) توطئة :

رأينا كيف كانت الحياة السياسية والعلمية والأدبية في العصر الأموي، وكيف ظهرت مواطن الضعف وعوامل الانحطاط، وكيف وقع بنو أمية بين الساخطين من العرب والثائرين من الموالي، وكيف انحرف خلفاء معاوية عن خطته السياسية، وكيف عُرف فريق منهم بالدين وشغل آخرون بالعبث والمجون . ونريد الآن أن نلمّ بالمائة قصيرة بدور الانتقال الى العصر العباسي، قبل التكلم عن العصر نفسه، لنرى كيف كان اتجاه الأفكار في ذلك الحين .

(ب) دور الانتقال :

إن الذي ينظر في كتب التاريخ الإسلامي عامة، ثم يراجع ما كتبه المستشرقون خاصة عن الدولة الفارسية في دور انحطاطها وضباب استقلالها وفناء أهلها في الإسلام، مع رسوخهم في المدنية وسبقهم الى العلوم الاجتماعية وسياسة الشعوب، ليذكر حياة اليونان وعلماء اليونان، حين دالت دولتهم وحضارتهم للرومان وهم دونهم في العلوم والفنون،

ولسنا هنا بصدد الإفاضة في بيان المناحي التي تغلب فيها الموالي على العرب فإن لذلك مكانه الطبيعي في هذا الكتاب . وقصّارنا الآن أن نحيل القارئ الى الجزء الأول من كتاب الأستاذ «ادوارد برون» الذي وضعه عن التاريخ الأدبي للفرس ، وهو من مجلدات «مكتبة تاريخ الآداب» فإن فيه الكفاية لمن يريد تفصيل .

أذعن الموالي صاغرين لغلبة العرب عامة والأمويين خاصة ، وذاقوا ماذاقوا من الذلة والمسكنة ، وعانوا ما عانوا من ضروب الهوان ، فكان من المعقول أن يترقبوا الفرص لينقضوا على سادتهم العرب ، وأن ينتظروا أول بارقة تلوح في أفق السياسة ليناصروا الناقمين على المملكة الأموية : فقد كانت دولة بني أمية مكروهة عند الناس ، ملعونة مذمومة ثقيلة الوطأة ، مستهترّة بالمعاصي والقبائح ، فكان الناس من أهل الأمصار ينتظرون زوال هذه الدولة صباح مساء .



أضف الى ما تقدم أن الشيعة كانت ، الى جانب قوة الحجة في أنها أحق بالخلافة ، إذ كان أنصارها يدعون الى بيعه صهر النبي أو أبناء بنت النبي ، تضم الى رجالها شخصيات بارزة في الدين والكفاية والصلاح ، فكان خيار الناس يطيعونها تدينًا ، وكان غيرهم يطيعها رغبة أو رهبة . وكان العلويون لا يفترون عن بث دعائهم في العراق وفارس وخراسان وغيرها من البلاد النائية عن مركز الخلافة التي انفصمت عروشها وكان من انحلالها ما وصفناه . وكان الفرس يستخدمون زملاءهم المنتشرين في البقاع العربية في الدعوة الى مبايعة خصوم الأمويين ومناصرتهم ، رغبة في التخلص من ظلم بني أمية وعسفهم ، وطمعا في أن يكون لهم من تبدل الحال حظ من العزة والسلطان .

ولنذكر مع هذا ثورة الممالك الإسلامية عامة على الأمويين ، تلك الثورة الهائلة الخفية ، التي كان من آثارها أن قُتل بعض ولائهم في الأمصار وأن خرج فريق على الخليفة . ولنذكر كذلك انشقاق البيت الأموي نفسه وتصدع أركانه ، فإن لذلك أثره الفعال في نيل عرش الأمويين . وقد كانت بداية ذلك الانشقاق ، خروج يزيد بن الوليد على

عمه الوليد بن يزيد وتشهيره إياه أسوأ تشهير ووصمه بأقبح الوصمات ، حتى تمثل بعض
بنى أمية بقول الشاعر :

إني أعيدكم بالله من فتن * مثل الجبال تسمى ثم تسدفع
إلى البرية قد ملت سياستكم * فاستسكوا بعمود الدين وأرتدعوا
لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم * إن الذئاب إذا ما ألحمت رُتُع
لا تنقرن بأيديكم بطونكم * فثم لا حسرة تُغنى ولا جزع

ولما تمّ ليزيد الأمرُ خرج عليه مروان بن محمد ، وكان أمير الجزيرة وأرمينية ، ومعه
جيش جرار يأتمر بأمره ، ومعه الغمر بن يزيد للطالبة بدم أخيه ، فغلب يزيد على أمره
وانبسطت في البيت المالك يد الفرقة والانشقاق .

(ج) الشيعة العلوية :

لم تصل الخلافة إلى معاوية إلا بدعائه وسعة حيلته وبعد نظره وحسن تصرفه
للأُمُور ، وإلا فقد كان هناك حزب قوى الشكيمة عزيز المكانة ، يرى على بن أبي طالب
أحق بالخلافة : ولولا دعاء معاوية ما نزل الحسن بن علي ولا أخلى لخصمه الميدان
في سنة ٤١ هجرية ، وقد كان من نتيجة ذلك أن سخطت الأحزاب العلوية من تصرفه ،
بجمعوا الجموع وجندوا الجنود ، وثاروا على أمير الكوفة الأموي وهو زياد بن أبيه —
وكان يد معاوية التي بها يصول — ولكن زيادا يعرف كيف يُخذ الفتنه ، وتُطفا الثورة ،
فبادر إلى استئصال الداء ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، أشهرهم محمد بن عدي وأصحاب حجر
ابن عدي . بيد أن إراقة الدماء تهيج الحساسة وتؤجج نار العداوة والبغضاء في قلوب
المغلوبين ، وكذلك ظلت الفتنة تُبذر بالشر المستطير .

رأى الدعاة العلويون أنه لا قبل لهم بمعاوية ولا برجاله ، فتربصوا بهم ريب المنون
وعلموا النفس بتقلبات الحوادث وعنت الأيام ، راجين أن تعود الخلافة إلى بيت النبي .

ولكن شدّ ما فزعوا يوم أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد المعروف بالميل الى اللهو والقصف والتلّهي بالصيد عن شؤون المسلمين . وفيه يقول عبد الله بن همام السلوي :

حُسَيْنَا الْغِيْظَ حَتَّى لَوْ شَرَبْنَا * دِمَاءَ بَنِي أُمَيَّةَ مَا رَوَيْنَا
لَقَدْ ضَاعَتْ رَعِيَّتُكُمْ وَأَنْتُمْ * تَصِيدُونَ الْأَرْنَابَ غَافِلِينَ

وإنّا لنعلم أنه لما مات معاوية سنة ٦٠ هـ . وتولى بعده ابنه يزيد ، أبى الحسين أن يسارع له بالخلافة ، بل رأى أكثر أهل التقى في مبايعة يزيد تحرقاً لحرمه الدين . ثم قُتِلَ الحسين في كربلاء سنة ٦١ هـ . فألّفت الشيعة «حزب التّوابين» بعد وفاة يزيد وبيعة مروان ابن الحكم سنة ٦٤ هـ ، وأخرجوا الى الكوفة الأمويّ عبيد الله بن زياد ، وولّوا عليهم رجلاً منهم . ثم تألف حزب «شُرط الله» بزعامة المختار بن أبي عبيد الله الثّقفى . وانقسمت الشيعة العلوية الى فرقتين عدوّتين ، أهمها الفرقة الإمامية ، وهى التى ترى أن أحقّ الناس بالخلافة هم ولد على من فاطمة بنت النّبي ، والأئمة فى نظرهم اثنا عشر إماماً ، وهم : على ، والحسن ، والحسين ، وزين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعلى الرضا ، ومحمد التّقى ، وعلى التّقى ، وحسن العسكرى ، ومحمد المهدي . ومنها الفرقة الكيسانية ، وهى التى تقول بتحوّل الخلافة بعد الحسن والحسين الى أخيهما محمد بن الحنفية . ومنها الفرقة الزيدية نسبة الى زيد بن على بن الحسين . والفرقة الاسماعيلية نسبة الى إسماعيل ابن جعفر الصادق . وفرقتان أخرى أصغر من تلك شأناً وأقلّ أثراً .



على أنه كان يوجد بجانب أولئك الولاة المخلصين لبني أميّة والمسرفين فى مطاردة الحزب العلويّ ، فريق آخر ، على رأسه خالد القسرى ، يعمل لمناصرة العلويين سرّاً لا علانيةً ، كما يعمل ، فى العادة ، فريق من موظفى الحكومة لحزب الأقلية المضطهد طمعاً فى المناصب ، أو بصراً لمقاومة سياسيتها ، أو إيماناً بالمعادلة الإصلاحيّة ،

على أن الدعوة العلوية كانت فاترةً ضعيفةً ، إذا قُورنت بالدعوة العباسية التي سنتكلم عليها في الكلمة الآتية . ولعلّ من أكبر أسباب ضعف الدعوة العلوية مبايعة زعماء العباسيين محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية ، فقد بايعه أبو العباس السفاح كما بايعه أبو جعفر المنصور وغيرهما من أئمة الحزب العباسي .

وكذلك سارت الدعوة لآل محمد شوطاً بعيداً ، وظاهرت فيها شخصيات بارزة ، قوية الشوكة ، وفيرة المال والجاه : أمثال أبي سلمة الخلال الفارسي المعروف ، وسترى كيف تحوّلت الدعوة العلوية إلى وجهة أخرى ، وكيف استغلّت لمصاحبة العباسيين .

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار فيما ذهبنا إليه ويرى : « أن العلويين كانوا يتنافون على الخروج على الخلفاء فكثّر القتل فيهم فقتلوا بخلاف أولاد علي بن عبد الله ، فقد كثروا ولم يتنازل القتل منهم أحداً إلى ذلك العهد ، عهد القيام بالدعوة » .

الفصل الثاني

العصبية والموالى فى الدولة العباسية

توطئة — العصبية — الموالى .

(١) توطئة :

لقد مرّت بك إشارةً بسيطةً حين تكلمنا عن العصر الأموى الى حَقِّ الموالى الذين نالهم فى ذلك العصر من الاحتقار والزرايةِ حظٌّ غيرُ قليل ، وبيننا لك أن هذه الناحية من المعاملة ، التى لا تنطبق على المذهب الحديث « حرية . إخاء . مساواة » كانت عاملاً قوياً من عوامل الضعف والانحطاط فى دولتهم ، ووعداك أن ندرّس حال العصبية والموالى فى هذا الفصل من الكتاب ، تمثيلاً مع النظام الذى وضعناه له .

والآن تعرض عليك حال الشعوب التى كانت خاضعةً لسلطان بنى أمية حتى نُبَيّن أحوالها النفسية والأهواء التى كانت غالباً عليها . فإنه لا يكفى فى انتقال الملك من شخص الى شخص أو من بيت الى بيت بث الدعوة وتنظيمها وحزم القائمين بها وإخلاص المشيرين وكفاية القوادى ، بل لابد مع هذه الأمور أن تصادف الدعوة الجديدة نفوساً مستعدة لها ، رغبةً فيها ، عاملةً على إنمائها ، لى تُزهِرَ وتُؤتَى ثمارها .

والحق أن الدعوة العباسية قامت فى وقت كانت قد توزعت فيه الحواضر الإسلامية أهواءً مختلفةً ، وتقسمت القبائل العربية عوامل العصبية ، وأخذت الشعوب المغلوبة على أمرها والتى أصبحت خاضعةً للنفوذ العربى ، تستفيق من الدهشة التى استولت عليها من الفورة العربية التى أخضعتها لسلطان العرب المسلمين .

أما الحواضر الإسلامية فكان قد غاب على كل حاضرة هوى أسرى أو شخص معين ، ولم تكن لتخضع للسلطان العربى الأموى لولا القوة القاهرة ، ولهذا لم يكد يضطرب أمر

بنى أمية فى الأطراف، ويظهر الخارجون من الدعاة على ولايتهم، حتى أخذت هذه الحواضر تنسأل عن طاعة بنى أمية واحدة بعد أخرى . وتستطيع أن تلتبس هذه الظاهرة بئنة واضحة من تقاعد الولايات عن نصرة آخر خلفاء بنى أمية عند ما حربه الأمر وتعقبه مطاردوه .

(ب) العصبية :

العصبية هى مناصرة من يمت اليك بصلة من صلات الحياة : كأن تجمعك ربح قرية أو بعيدة، أو عقيدة دينية، أو هوى سياسى . فيظهر أنها من طبيعة الوجود، اذ لا تختص بها قبيلة دون قبيلة، ولا أمة دون أمة، ولا جنس دون جنس، ولا عصر دون عصر . وكما توجد فى الأمم البادية، كذلك توجد فى الأمم الحاضرة . وما الدعوات القومية والنعرات الجنسية إلا نوع من العصبية بمعنى أوسع .

والعصبية العربية، التى نحن بسبيل القول فيها، والتى كانت من الأسباب التى اضمحلت بها سلطان بنى أمية، قديمة فى القبائل العربية : كانت فى الجاهلية قبل الإسلام، وكانت تضيق وتوسع بحسب الظروف والمناسبات، فبينما نراها بين العدنانية والقحطانية، وهو أوسع معانيها من الوجهة التاريخية العربية، نراها بين ربيعة ومزروهى قبائل عدنانية، ونراها بين بنى أمية وبنى هاشم، وقد يكون هذا من أضيق ميادينها . وكانت هذه العصبيات تستند حيناً وتفتر آخر .

فلما جاء الإسلام ودخل الناس فيه أفواجا وتم له السلطان فى جزيرة العرب، ألف بين القبائل وأزال ما فى صدورهم من أحقاد، وذلك ما يشير اليه قول الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْأَفَافَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ . ألف الإسلام بين قلوب العرب، وأزال كل أثر للعصبية القديمة فى نفوسهم، ولكنه استبدلها بعصبية واسعة شاملة هى عصبية الإسلام، وجعل المؤمنين جميعاً إخوة .

وبقي أمرُ العرب كذلك الى عهد الخلفاء الراشدين ، وذلك راجع لا محالة الى عواملٍ شديدةٍ الأثر في نفوسهم ، كهيمنةِ الروح الدينية عليهم ، وكانشغالهم بالفتح وما استتبع الفتح من غنائم ، وكجزم الخلفاء وحكمتهم وشدة الولاة وقسوتهم .

فلما كان العصرُ الأمويّ واستقرّ الناس في الحواضر الإسلامية وشغلوا بعض الشيء عن الفتوح ، راجعتهم الشنشنة القديمة ، فأخذ بعضهم يفتخر على بعض بما كان لأبائهم من مجيد في الجاهلية وبلاء في الإسلام ، وما لقبائلهم من قوة وأيد . وقد أدرك بعض شعرائهم النتائج السيئة لذلك ، فقال الحارث بن عبد الله بن الحشرج بن المغيرة بن الورد الجمدي :

أبيتُ أرعى النجومَ مرتفعاً * اذا استقلتُ تجرى أوائلها
من فتنةٍ أصبحت مجلّةً * قد عمّ أهل الصلاة شاملها
من بخراسانَ والعراق ومن * بالشأم كل شجاء شاغلها
فالناس منها في لون مظلمةٍ * دهماء ملتجة غياطلها
يُمسى السفية الذي يعنفها بال * جهل سواء فيها وعافها
والناس في كربة يكاد لها * تنبذ أولادها حواملها
يغدون منها في كل مبهمةٍ * عمياء تمنى لهم غوائلها
لا ينظر الناس في عواقبها * إلا التي لا يبين قائلها
كرغوة البكر أو كصيحة حب * على طرقت حوّلها قوابلها
بغاء فينا أزرى بوجهته * فيها خطوبٌ حرز لازلها

ولقد زاد في إذكاء العصبية بين القبائل العربية حمقُ بعض الولاة ، وعدم أخذهم الأمور التي تقع بين أيديهم بالحزم والحكمة ، وأيضا استهانةُ بعض الخلفاء الأمويين ببعض الأمور وغرورهم بما لهم من سلطان ، فكانوا لا يباليون شعور الناس في تعيين الولاة عليهم ، مما كان له أهد أثر في صرف النفوس عنهم واستعجالهم لكل ما يقع في طريقهم ، وهم يجهلون

أن ترى هشام بن عبد الملك ، مع حزمه وبعده نظره ، يُعين نصر بن سيار والياً على خراسان ، وهو يعلم أن عصبية بها ضعيفة ، فإنه لما استشار فيمن يوليه خراسان بعد أسد بن عبد الله القسرى ، كان مستشاره يُسمى له أشخاصاً بما لهم من محامد ومذام ، فلما جاء ذكر نصر بن سيار قال : إن اغتفرت له واحدة فإنه عفيف مجرب عاقل ، قال هشام : وما هي ؟ فقال المشير : عشيرته بها ضعيفة ، فقال هشام : «أَو تريدُ عشيرة أقوى منى ! أنا عشيرته !» .

على أن كلمة هشام قد تُخفف من آثارها السيئة متانة حكومته ، ونفاذ صولته ، وقوة شوكته ، ولكن الخلفاء جميعاً ليسوا كهشام حزمًا واقتداراً ، وليست أيامهم كأيام هشام نجاحاً وانتصاراً .

ومهما يكن من شيء فإن تولية نصر بن سيار على خراسان ، كانت فى الواقع شؤماً على بنى أمية .

وقد بلغت العصبية بين مُصر واليمن فى خراسان طوراً عنيقاً ، جعل التراوح بين الفريقين موضع اضطهادٍ وسخريةٍ وازدراء .

ولقد قالت أم كثير الضبيّة لما هدم اليمينيون دُور المضرية أثناء الحروب التى كانت بين نصر والكرمانى بسبب العصبية :

لا بارك الله فى أنثى وعدّها * تزوجت مُصرباً آخر الدهر
أبلغ رجال تميم قول موجهية * أحللتهموها بدار الذل والفقر
إنا أنتم لم تكروا بعد جولتكم * حتى تُعيدوا رجال الأزد والظهر
إنى استحييت لكم من بذل طاعتكم * هذا المزونى ينجيكم على قهر

وقال شاعر آخر :

ألا يا نصر قد برح الخفاء * وقد طال التنى والرجاء
وأصبحت المزون بأرض مرو * تُقضى فى الحكومة ما تشاء
يجوز قضاؤها فى كل حكم * على مُصير وإن جار القضاء

وَحَيْرٌ فِي مَجَالِسِهَا قَعُودٌ * تَرَفَّرُ فِي رِقَابِهِمُ الدَّمَاءُ
فَإِنْ مُضِرٌّ بِذَا رِضِيَتْ وَذَلَّتْ * فَطَالَ لَهَا الْمَذَلُّ وَالشَّقَاءُ
وَإِنْ هِيَ أَعْتَبَتْ فِيهَا وَإِلَّا * فَخَلَّ عَلَى عَسَاكِرِهَا الْعَفَاءُ

ولقد استغلَّ الدعاةُ العباسيونُ العصبيةَ ، التي فُتَّتْ في عضدِ الأمويين ومزقتهم أشدَّاتِ وطرائقٍ قِدْدًا ، خيرَ استغلالٍ ، وهو ما كان له أبلغُ أثرٍ في القضاء على سلطان بني أمية . ذلك أن نصر بن سيار ، وهو عامل نخراسانَ ، قد تحامل على اليمن وربيعه وقدم المضربةَ فوثبَ به جديعُ بن علي الكرماني الأزدي ، وكان رئيسَ الأزدي يومئذٍ ورجلهم ، وقال له : ندعك وفعلك ومالت معه اليمانيةُ وربيعه فأخذه نصر وحبسَه ، فأنتِ اليمنُ وربيعه حتى أخرجوه من بحرى كنيف ! ثم اجتمعوا . ورأى نصر أن يخذله فيصير اليه ، فلم يفعل . وكان في نصر بعضُ الخُرْقِ . فلما علم جديعُ أن اليمنَ وربيعه قد اجتمع رأيهما معه على نصر وثبَ فخار به ، وكان له العلوُ على نصر ، قال أبو مسلم إلى الكرماني فقال : ادعُ إلى آل محمد ، وجعل يُمايل أصحابه ويدعوهم إلى ذلك ، حتى أظهروا دعوة بني هاشم بنخراسانَ .

هذا ما كان من أمر العصبية بين العرب واستغلالها في إظهار الدعوة لبني العباس .

على أنه يجدرُ بك ، أبلًا يعزَّب عن ذهنك ، أن العصبية وإن كانت قد خدمت العباسيين أجلَّ الخدم فكانت معولَ هذيم وغامِلَ فناء في صرح الأموية ، كان ضرامُها وأجيجُها وحروبُها وفتنُها لم تُنمَّدْ سراعًا ، ولم ترجعْ أمورُ العباد إلى نصابِها من المصادمة وحسن المصانعة بتيسير حال ، بل أخذت دورها المحتوم ، وكانت حسَّكًا وقتادًا ، الفينة بعد الفينة ، في بعض الولايات والأمصار ، لبني العباس أنفسهم ، كما ستقف عليه فيما سنسرده عليك ، من خلاصة أخبارهم ، وبجمل تاريخهم .

(ج) الموالى :

لما أفضت الخلافة الى الأمويين ، كان عدد الموالى أخذاً فى الازدياد ، بسبب ما جلبته الفتوح الإسلامية من الأسرى ، وما كان يهديه الولاة الى الخلفاء من الرقيق ، فإن الولاة كثيراً ما كانوا يبعثون الى الخليفة بمئات أو ألوف من الرقيق الأبيض أو الأسود هدية أو بدلاً من الخراج أو نحوه .

ومن كان يحتر من هؤلاء بعث أو مكتبة أو تدير يصير مولى ، وينسب الى أسرة معتقه أو قبيلته ، مع ملاحظة عدم أهليته للبناء على قرشية أو عربية .

كثرت عدد الموالى جداً ، فانصرف فريق منهم الى الصناعة ، وآخر الى الزراعة أو غيرها من شؤون الحياة ، وانصرف فريق آخر الى العلوم والفنون والآداب ، فكان منهم حلة الفقهاء ورواة الحديث ، كما كان منهم الشعراء والكُتاب والمغنون ، وتولت طائفة منهم المناصب السامية فى الدولة كالقضاء والحجابة وما الى ذلك .

على أنه مع ما كان لكثير من الموالى من قديم راسخة ، ومنزلة رفيعة ، فى العلم والأدب والفنون ، كان العرب ينظرون اليهم دائماً نظرة احتقار وازدراء .

وكان هذا الاحتقار والازدراء . يظهر فى معاملة العرب للموالى وأحاديثهم عنهم . ولما كان الموالى أهل علم وأدب ، وينتمى كثير منهم الى دول كان لها من السلطان ومظاهر الحضارة حظ عظيم ، بل كان للفرس وجل الموالى منهم سيادة ظاهرة على العرب قبل الإسلام — لما كان كل هذا عظم على الموالى أن يحتملوا كل هذا الضيم من العرب فاندفعوا يذودون عن شرفهم وكرامتهم . ومن هنا نشأت الشعوبية . والشعوبية مذهب من يرى تفضيل العجم على العرب أو التسوية بين الفريقين . ثم أخذ الشعراء وغير الشعراء من الفريقين يتبارون فى إكبار كل لفريقه والخط من الفريق الآخر .

وكان نصيب الموالى فى حالة تمدحهم لقومهم من الخلفاء الأمويين مدعاة الى زيادة مقتهم لهم وزيادة السخيمة فى قلوبهم عليهم . ولما ثارت لك هنا مثلاً استشهاد به الأستاذ

«برون» في كتابه عن أدب الفرس نقلاً عن الأغاني قال : «إن إسماعيل بن يسار دخل على هشام بن عبد الملك في خلافته، وهو بالرصافة جالس على بركة له في قصره، فاستنشدته وهو يرى أنه ينشد مديحاً له، فأشده قصيدته التي يفتخر فيها بالعجم :

ياربع رامة بالعلياء من ريم * هل ترجعن إذا حيئت تسليمي
ما بال حتى غدت بزل المطى بهم * تحدى لغربتهم سيرا بتقجيم
كأنني يوم ساروا شارب سلبت * فؤاده قهوة من نمر دارؤيم
حتى انتهى الى قوله :

إني وجدك ما عودى بذي خور * عند الحفاظ ولا حوضي بمهدوم
أصلي كريم ومجدي لا يقاس به * ولي لسان كحد السيف مسموم
أحمي به مجد أقوام ذوى حسب * من كل قرم بتاج الملك معوم
بحاج سادة بلج مراربة * جرد عتاق مسامح مطاعيم
من مثل كسرى وسابور الجنود معا * وأهزمزان لفخري أو لتعظيم
أسد الكتائب يوم الروح إن زحفوا * وهم أذلوا ملوك الترك والروم
يمشون في حلق الماذى سابعة * مشى الضراغة الأسد اللهاميم
هناك إن تسألني أني أن لنا * جرثومة قهرت عن الجرائم

قال : فغضب هشام وقال له : يا عاص بطير أمه، أعلت تفخرك، وإياي تنشد قصيدة تمجد بها نفسك وأعلاج قومك ! غطوه في الماء، فغطوه في البركة، حتى كادت نفسه تخرج، ثم أمر بإخراجه وهو يشتر، ونفاه من وقته، فأخرج من الرصافة منفياً الى الحجاز. قال : وكان مبتلياً بالعصبية للعجم والفخر بهم، فكان لا يزال محروماً مطروداً .

ولما كان شأن الخلفاء الأمويين شأن سائر العرب في التعصب على الموالى حتى كانوا يستعملونهم في الحروب مشاة ولا يعطونهم شيئاً من الغنائم والفيء، نفرت نفوسهم منهم

وأصبح سلطانهم بغيضاً إليهم، وصاروا عوناً لكل من خلع الطاعة، أو طلب الخلافة من العلويين أو الخوارج .

ولقد كان العباسيون يُدركون هذا الشعور فى الموالى، فاستغلّوه خيراً استغلالٍ، إذ اتخذوا حيلةً المبشرين بدعوتهم منهم، واعتمدوا كلّ الاعتماد عليهم . ورأى الموالى فى الدعوة الجديدة شفاءً لما فى صدورهم من حقدٍ على بنى أمية خاصة وعلى العرب عامةً، فأخلصوا للدعوة الجديدة، وبذلوا فى تحقيقها كلّ ما يملكون من نفوس وأموال .

على أن لهذا الموضوع نواحٍ متشعبة، يحول دون التحدّث فيها ما رسمناه لأنفسنا من التزام القصد والإيجاز .

الفصل الثالث

الدعوة العباسية

توطئة — تأليف الجماعات السرية — الدعوة العباسية وأبو مسلم الخراساني .

(١) توطئة :

كانت الدعوة العلوية تسير جنباً الى جنب مع الدعوة العباسية ، فقد كان الفريقان مضطهدين مغلوبين على أمرهما ، وكان من المعقول والطبيعي أن ظلم بني أمية لهؤلاء وهؤلاء يجمع ما تفرق من أهوائهم ويقل حدة ما بينهم من عوامل التنافس والخلاف . وقد كان بنو هاشم أعداء للأُمويين قبل الإسلام بسبب التراحم على السيادة في قريش . ولشد ما كان طلبُ السيادة والزعامة مدعاةً الى العداوة والشحناء وسبباً الى التناحر والتقاتل بين بني الإنسان !

جد العباسيون في دعوتهم السياسية وهم في الحُجْمَةِ من أعمال البقاء بالشأم ، وزادوا حِمِيَّةً وحماسةً بتزل أبي هاشم بن محمد بن الحنفية العلويّ زعيم الحزب الكيساني لمحمد بن علي بن عبد الله بن عباس حين دس اليه سليمان بن عبد الملك من سَمِّه ، إذ رأى فيه من المهابة والوقار ما يؤهله للخلافة ويقربه من قلوب الجماهير . وقد كان في تنزل أبي هاشم هذا لصاحب الدعوة العباسية توحيداً لحزبين قويين : هما الحزب العباسي^(١) والشَّيعة الكيسانية ، وهذا التوحيد أو التقريب بين الحزبين كانت ثمرة الحزب العباسيين .

(ب) تأليف الجماعات السرية :

عمل العباسيون في تأليف الجماعات السرية للدعوة ، واختاروا من الدعاة اثني عشر نقيباً وهم : سليمان بن كثير الخزازي ، ومالك بن الهيثم ، وطلحة بن زريق ، وعمر بن أعين ،
(١) هذا رأينا ويرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : « أنه لم يكن لبني العباس حزب قبل أبي هاشم » .

وعيسى بن أعين، وخطبة بن شبيب الطائي، ولاهر بن قريظ التميمي، وموسى بن كعب، والقاسم بن مجاشع، وأبو داود خالد بن إبراهيم الشيباني، وأبو علي الهروي شبل ابن طهمان الحنفي، وعمران بن اسماعيل المعيطي .

واختار محمد بن علي سبعين رجلاً يأتمرون بأمر هؤلاء الدعاة . وكتب اليهم كتاباً يُوصيهم فيه بما يرجو أن يُوفقوا إلى العمل به وهم يوجهون الدعوة ويحاورون الأحزاب .

وهذا الكتاب يدل على ما كان عليه هذا الزعيم العباسي من علم بأحوال الناس في عصره، وبصير بأخلاق الشعوب التي كانت خاضعة للسلطان الاسلامي، وبما كانت تجيش به النفوس في كل صقع وحاضرة . وبمثل هذا الزعيم الداهية ومن اجتباهم للدعوة العباسية، قد كُتِبَ الفوز لهذه الدعوة آخر الأمر . ومما قاله هذا الزعيم في كتابه :

« أما الكوفة وسوادها فشيعة عليّ وولده . وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف تقول : كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل . وأما الجزيرة فخرورية مارقة وأعراب كأعلاج ومسلمون في أخلاق النصارى . وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان، وعداوة راسخة وجهلا متراكما . وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة، وقلوب فارغة لم تنقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدفئل، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات وليّ وشوارب، وأصوات هائلة، ولغات نفمة تخرج من أجواف منكزة ... وبعد، فإنّي أتفائل إلى المشرق، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق » .



(ج) الدعوة العباسية وأبو مسلم الخراساني :

كان الدعاة العباسيون يتنقلون في مختلف الأمصار ، وكانوا في ظاهر الأمر طلاب رزقي يزاولون التجارة ، وكانوا في الواقع رجال سياسة ودهاء يبتون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويدعون الناس الى مناصرتهم بشئ الأساليب .

وظلوا كذلك الى أن توفى محمد بن علي ، وعهد بالأمر من بعده الى ابنه ابراهيم الإمام . فكتب هذا مشايخ خراسان ودهاقينها ، وبعث اليهم الدعاة ، وأرسل أبا مسلم خراسان لبحث الدعوة هناك ، فكان يدعو الى آل محمد ، يريد أهل البيت ، من غير أن يعين العباسيين ولا العلويين .

وقد كان أبو مسلم من أبطال الحرب والسياسة ، شديد الإخلاص للعباسيين ، مسرفاً في خدمتهم ، كثير الدماء ، واسع الخيلة ، خبيراً بما يقتضى عمله من الحزم والقسوة ، فلا تعرف الرحمة قلبه ، ولا يتناول الأمور إلا بالحزم والبأس الشديد .

ونستطيع أن نتبين مرمى السياسة العباسية من الكتاب الذي بعث به ابراهيم الإمام الى أبي مسلم الخراساني ، فيما يرى أن يعمل لتأييد الدولة الجديدة . قال : « إنك رجل منا أهل بيت ، احفظ وصيتي : انظر هذا الحى في اليمن فالزمهم وأسكن بين أظهرهم ، فإن الله لا يؤتم هذا الأمر إلا بهم . وأتمهم ربعة في أمرهم . وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار . وأقتل من شككت فيه . وإن استطعت ألا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل . وأيم غلام بلغ خمسة أشبار تهمه فأقتله » .

وقد حرص أبو مسلم على تنفيذ هذه الوصية ، فكان يسرع الى قتل كل من يتهمه ، ويقضى على كل من يرتاب في أمره ، حتى بلغت ضحايا هذه الخطة فيما يقول المؤرخون العرب ، ستمائة ألف نفس قُتلت صبرا .

ومهما افترضت المبالغة والغلو في إيرادهم هذا العدد، فإن الواقع أن أبا مسلم قد أسرف أَيْمًا إسراف في القتل وسفك الدماء تنفيذاً لوصية الإمام .

حلّ أبو مسلم خراسان سنة ١٢٨ هـ فساسها بحزمه ودهائه وقوته، وأقام بقرية من قرى مرو يقال لها "سفيدنج"، وقد كثّر أنصاره وأنشأ الناس عليه من كل صوب، فأعلن فيهم لبس السواد واتخذ شعارا للعباسيين، ثم غيّر شكل صلاة العيدين بأن بدأ بها قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة، وكانت بنو أمية تبدأ بالإقامة كصلاة يوم الجمعة، وأمر بأن يكبر ست تكبيرات تباعا، وكاتب نصر بن سيار الوالي الأموي . ولما ضاقت "سفيدنج" عليه ولم تتسع لأنصاره، رحل إلى الماخوان، وكانت عدّة رجاله، فيما يقول المؤرخون، سبعة آلاف رجل . ثم احتال في التفرقة بين نصر ورجاله، حتى أخذ بناء خصمه ينهار، ويتخلى عنه أنصاره واحدا بعد واحد . وفي هذا يقول نصر شعرا بعث به إلى مروان الحمار الخليفة الأموي :

أرى بين الرّادِ وميضِ نارٍ * ويوشكُ أن يكون لها ضرامُ
فإن لم تُطفِها عقلاء قوم * يكون وقودها جُثثُ وهامُ
فإن النار بالعودين تُدسّى * وإنّ الحرب أوقها كلامُ
فقلت من التعجب ليت شعري * أأيّ قاطِ أميّة أم نيامُ

فلما ورد هذا الشعر على مروان لم يُحبّ عليه بما يجب أن يُحبّ به الملك الحازم الحريص على ملكه المبقى على عرشه : من مبادرته بإرسال الكائب والخيوش لجمع الثائرين على الملك أو لإعداده المعدات لإرسالها، وإنما كتب إلى نصر كتابا يمثل الضعف والاستسلام، ويُنبئُ بجنوحه إلى سياسة القول والكلام، في موضع يتطلب تقلد الرمح والحسام، يقول فيه :

(١) الماخوان بضم الخاء المعجمة وآخره نون : قرية كبيرة ذات منارة وجامع من قرى مرو ومنها خرج أبو مسلم صاحب الدعوة إلى الصحراء .

« إن الحاضر يرى ما لا يرى الغائب ، فاحسب أنت هذا الداء الذي قد ظهر عندك »
فقال نصر لأصحابه : « أما صاحبكم فقد أعلمكم أنه لا نصر عنده » .



يجب ألا يفوتنا أن نُشير هنا الى ناحية مهمّة في خُلق أبي مسلم تُمثل ما يجب على
القوادر من الحزم والكتمان ، فقد جاء في « كتاب المحاسن والمساوى » للبيهقي ما نصه :
« قيل لأبي مسلم صاحب الدولة : بأي شيء أدركت هذا الأمر ؟ فقال : أردتُ
بالكتمان ، وأُتررت بالحزم ، وحالفت الصبر ، وساعدت المقادير ، فأدركت ظني وحرزْتُ حدَّ
بُغيتي . وأشد :

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت * عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا
ما زلت أسعى عليهم في ديارهم * والقوم في غفلة بالشام قد رقدوا
حتى ضربتهم بالسيف فانتبهوا * من نومة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى غنما في أرض مسبعة * ونام عنها تولى رعيها الأسد اه

على أن مروان استيقظ أخيراً من غفوته ، وانتبه من غفلته ، وأمر بأخذ إبراهيم بن
محمد . فلما قُبِض عليه في الحيمة بالبلقاء أوصى بالأمر الى أخيه أبي العباس ، وأمر أهله
وأنصاره بالمسير الى الكوفة ، وحضهم على السمع والطاعة لأبي العباس .

وقد حبس إبراهيم في سجن « حران » مع جماعة من خصوم مروان من بني أمية ، وظلَّ
في سجنه حتى مات . وقد اختلف المؤرخون في كيفية موته ، فمنهم من قال : إنه سُقِيَ سُمّاً ،
ومنهم من قال : هُدِمَ عليه بيت فمات .

على أن المؤرخين وإن اختلفت أقوالهم في كيفية موته قد أجمعوا على أنه قد مات
غيلةً وانتقاماً ، وقد رثاه بعض الشعراء فقال :

قد كنتُ أحسبني جلدًا فضعفني * قبرٌ بجزائٍ فيه عصمة الدين
فيه الإمام وخير الناس كلهم * بين الصفائح والأحجار والطين

فيه الإمام الذي عمّت مصيبتُهُ * وَعَيَّتْ كُلَّ ذِي مَالٍ وَمُسْكِينٍ
فلا عفا الله عن مروان مظلمةً * لكن عفا الله عن قال آمين

ثم انتقل الأنصار إلى الكوفة، وقد ساعدتهم أبو سلمة الخلال المعروف "بوزير آل محمد"،
ولكنه عدل عنهم أخيراً. وقيل: إنه كاتب ثلاثة من أعيان بني عليّ: يعرض الخلافة
على أحدهم وهم: جعفر الصادق بن محمد الباقر، وعبد الله المحض بن حسن، وعمر الأشرف
ابن زين العابدين، وكانت خاتمة حياته القتل.

ونريد بعد الذي قدّمناه أن نلمّ بحياة الخلفاء العباسيين الذين سبقوا المأمون، لنرى كيف
كانت الحياة السياسية في عهدهم الذي كان بلا شك نواةً صالحةً لعصر المأمون. وإنا
لنرجو، إذا وفقنا إلى بيان المناحي التي امتاز بها هؤلاء، أن ينكشف الغطاء عن حقيقة
أمرهم ومكانتهم التاريخية، كما نرجو أن نظفر من وراء تفهم أقدارهم وحقيقة عصورهم
بتفهم الأصول التي كوّن العصر الذي من أجله وُضِعَ هذا الكتاب.

الفصل الرابع

أبو العباس السفاح

كان أبو العباس السفاح أول من تولى الخلافة العباسية ونقل الملك من بني أمية الى بني العباس . وقد أجمع المؤرخون على أنه كان وافر الكرم ، ظاهر المروءة ، جليل الوقار ، كثير الحياء ، حسن الأخلاق ، وصوِّلاً لدوى الأرحام .

وكان الى جانب هذه الأخلاق السمجة الرضية ، يجمع قلباً ذكياً وأنفاً حمياً ، في تعقب الأمويين وتبديد شملهم ، في كل بقعة يخشى أن تُسمع لهم فيها كلمة ، أو يطاع لهم رأى ، أو يؤثر عنهم صنيع . وكانت هذه الدولة الناشئة تحتاج الى مثل هذه القسوة من مثل أبي العباس السفاح .

ويجب أن نذكر ، دائماً في مثل هذه الظروف ، أن جلّ الملوك الذين بُعِثوا لإنشاء دولٍ جديدة ، وممالك جديدة ، وأسرار ملكية جديدة ، مثل أبي العباس السفاح وغيره ، هم مُكرهُون لا محالة على استعمال القسوة وأخذ الأمور بالحزم والشدة ، دون إغفالهم المودعة والملاينة فيما لا يهدد عروش ملكهم وصروح سلطانهم .

قالوا : إنه كان في بعض أيامه جالسا في مجلس الخلافة وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وقد أكرمه وتبسط معه حتى دخل عليه سديف الشاعر وأنشده :

لا يفرّتك ما ترى من رجال * إن تحت الضلوع داءً دويّاً
فضع السيف وأرفع السوط حتى * لا ترى فوق ظهرها أمويّاً

فقال له سليمان : قتلتنى يا شيخ ! ودخل السفاح وأخذ سليمان فقتل .

وهذا الذى صنعه السفاح أصبح سنةً عباسيةً في تأييد الملك . وكان قليل من الإغراء كافياً في محق من تقع عليه العين من خصوم الخلافة ، فقد دخل شبل بن عبد الله مولى

بنى هاشم على عبد الله بن عليّ، وعنده من بنى أمية نحو تسعين رجلا على الطعام، فأقبل عليه فقال :

أصبح الملكُ ثابتَ الأساس * بأهلِ ليلٍ من بنى العباس
طلبوا وترَ هاشم فشقّوها * بعد ميلٍ من الزمان وياس
لا تُقبلُ عبدَ شمسٍ عثارا * واقطعن كلَّ رقلة وغراس
خوفُهم أظهرَ التودّدَ منهم * وبهم منكم كثرَ المواسي
ولقد ساءنى وساء قبيلي * قرهم من تمارقٍ وكراشي
أزّلوها بحيثُ أزّلتها الله * بدار الهوان والإعاس
واذكروا مصرعَ الحسين وزيد * وقتيلًا بجانب المهراس
والقتيل الذي بحوّل أمسي * رهن ريس في غربة وتنامي

فأمر بهم عبد الله فضرّوا بالعمد حتى قُتلوا، وبسط النطوع عليهم، فأكل الطعام عليها وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعا .

ولم تقف هذه الوحشية عند حدّ التشكيل بالأحياء، بل تعدّتهم إلى الأموات، فقد ذكّر أن عبد الله بن عليّ أمر بنهش قبور بنى أمية بدمشق، فُنِشَ قبر معاوية بن أبي سفيان فوجِدَتْ فيه عظام كأنها الرماد . ونُشَ قبر عبد الملك بن مروان فوجِدَتْ فيه جمجمته . وكان لا يوجد في القبر إلا العضو بعد العضو، غير هشام بن عبد الملك فقد وُجِدَ صحيحًا لم يبل منه إلا أرنبة أنفه، فضرّبه بالسياط وصلبه وأحرقه وذراه في الريح . ثم تعقب أولاد الخلفاء من بنى أمية فلم يُفْلِتْ منهم إلا من كان في المهدي صبيًا . وأدرك بعض الهاريين إلى الأندلس فقتلهم بنهر أبي فطرُس، وكان فيمن قتل محمد بن عبد الملك بن مروان، والغمر

(١) نهر أبي فطرُس بضم الفاء وسكون الطاء وضم الراء وسين مهملة : موضع قرب الرملة من أرض فلسطين به

كانت وقعة عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن العباس مع بنى أمية فقتلهم في سنة ١٣٢ هـ .

ابن يزيد بن عبد الملك ، وعبد الواحد بن سليمان ، وسعيد بن عبد الملك ، واستصفي بعد ذلك ما كانوا يملكون من نَسَبٍ ومال ؛ فلما فرغ منهم تغيّ بهذه الأبيات :

بنى أمية قد أفنيت جمعكم * فكيف لي منكوب بالأول الماضى
يُطَيِّبُ النفس أن النار تجعكم * عُوْضُكُمُ من لظاها شرُّ مُعْتَاضِ
مُنَيْتُمُو - لا أقال الله عثرتكم - * بليت غاب الى الأعداء نهاض
إن كان غيظي لفوت منكوفلقد . * مُنَيْتُ منكم بما ربي به راضى

قلنا : إن السفاح كان الى جانب هذه القسوة برّاً بذوى رحمه ، وصُولاً لهم . ولنذكر مثالا لذلك : تصرفه مع آل الحسن بن عليّ الذين بايع بعضُ العباسيين رجلاً منهم هو محمد ابن عبد الله كما بينا من قبل ؛ فقد روى عبد العزيز بن عبد الله البصرى عن عثمان بن سعيد ابن سعد المدنى : أنه لما وَلِيَ الخلافة أبو العباس السفاح قدم عليه بنو الحسن بن علي بن أبي طالب فأعطاهم الأموال وقطع لهم القِطائع ، ثم قال لعبد الله بن الحسن : احتكم على ؛ قال : « يا أمير المؤمنين بألف ألف درهم ، فإنى لم أرها قط » ، فاستقرضها أبو العباس من ابن مُقرن الصيرفى وأمر له بها . قال عبد العزيز : لم يكن يومئذ بيت مال . ثم إن أبا العباس أُتِيَ بجوهر مروان فجعل يقلّبه وعبد الله بن الحسن عنده فبكى عبد الله ؛ فقال له : ما يُبكىك يا أبا محمد ؟ قال : هذا عند بنات مروان وما رأيت بنات عمك مثله قط ! قال : فخباه به ، ثم أمر ابن مُقرن الصيرفى أن يصل اليه ويبتاعه منه فاشتراه منه بثمانين ألف دينار .

على أن هذا الرفق واللين ، وهذه السياسة والحكمة ، لم تُنسِ أبا العباس السفاح ما يجب عليه من مراقبة الطالبين ، والتسمّع لما قد يَجِيشُ في خواطرهم ، من الخروج عليه أو الكيد له ؛ فإن صلة الرحم من مثل السفاح لا تكون ظاهرة حُلُقِيَّةً بقدر ما تكون حيلةً سياسيةً ؛ وكذلك رأيناه يقول لبعض ثقاته وقد خرج من عنده بنو الحسن : « قُمْ بإزائهم ولا تأل في إلفاتهم ، وأظهر الميل اليهم والتحامل علينا وعلى ناحيتنا ، وأنهم

أحَقُّ بالأمر منا كلما خلوت بهم، وأَحِصَّ لِي ما يقولون وما يكون منهم في مسيرهم ومَقْدِمِهِمْ» .

ومما ذكرناه يرى القارئ معنا أن السفاح قد جمع حقًّا بين القسوة واللين، وأنه لم يكن في عُنْفِهِ بأخطر منه في رِقَّتِهِ، وإنما كان يلين ليستلَّ سَخِيمَةً مدفونةً أو ليستدرجَ بعض الحاقدين؛ ويقسوليرى أعداءه أن لا أمل لهم في الكيد لذلك السيف المسلول .

ومهما يكن من شيء، فإن خلافة أبي العباس كانت أقصرَ من أن تسمحَ لخصاله وأخلاقه بالظهور والتأثير القويّ في سياسة الدولة وسيرة خلفائها .

ولو عُمِّرَ السفاح لكان من الممكن أن يرسمَ لخلفائه خُطَّةً تُجَنِّبُهُمْ بعضَ ما تورطوا فيه من الاضطراب .

الفصل النخبي

أبو جعفر المنصور

كان المنصور ملكاً ، سديدَ الرأي ، مُحْكَمَ التدبير ، وكان قوياً العزيمة ، جرىء القلب ، يمضى الى غايته مَضًى السهم الى الرميَّة لا يَتْنِيهِ عنها شيء . سياسياً حاذق لا يقبل أن تتدخل في سياسته عاطفةٌ ولا خُلُقٌ ولا اعتبار آخر إلا فوزه السياسى ليس غير . وهو الى ذلك داهية ، وربما اضطره الدهاء الى شيء إن لم يكن الإثم الخلقى فهو يشبهه فى كثير من الأحيان .

وهو من هذه الناحية أحد أولئك الساسة الذين عَرَفَهُم التاريخ من حين الى حين بالإقدام فى غير ترددٍ ولا لينٍ ولا تَهَيُّبٍ للوسائل ، والذين مثَّلَهُم «مكيافلى» أحسن تمثيل . فقد ذكر ابن الأثير أنه أحضر مرةً ابن أخيه عيسى بن موسى وأمره بالمسير الى المدينة لقتال محمد بن عبد الله ، فقال : شاورْ عموماًك يا أمير المؤمنين ، قال المنصور : فأين قول ابن هرمة :

نُزورُ أمراً لا يَخْضُ القومُ سِرَّهُ * ولا يَنْتَجِى الأذنين فيما يحاولُ
إذا ما أتى شيئاً مضى كالذى أتى * وإن قال إني فاعلٌ فهو فاعلُ

ثم قال : امض أيها الرجل ! فوالله ما يراد غيرى وغيرك ، وما هو إلا أن تشخص أنت أو شخص أنا ، فسار وسيّر معه الجنود . وقال المنصور لما سار عيسى : « لا أبالى أيهما قتل صاحبه ! » .

وكان الى جانب ذلك ، كما قال الجاحظ ، : مُقَدِّماً فى علم الكلام ومُكثِّراً من كتاب الآثار ، ولكلامه كتاب يدور فى أيدي العارفين والوزّاقين معروف عندهم .

وفي وصف المنصور يقول يزيد بن هبيرة : « ما رأيت رجلا قط في حرب ولا سمعت به في سلم أمكرو ولا أبدع ولا أشد تيقظا من المنصور، لقد حصرنى في مدينتي تسعة أشهر ومعى فرسان العرب، فجهدنا كل الجهد أن ننال من عسكره شيئا نكسره به فها تهيأ ، ولقد حصرنى وما في رأسى بيضاء، فخرجت إليه وما في رأسى سوداء » .

وكان المنصور يعطى في موضع العطاء ويمنع في موضع المنع، ولكن المنع كان أغلب عليه، حتى ضرب المثل بشحه وسمى « أبا الدوانيق » ، لشدة في محاسبة العمال والصناع على الحبة والدانق .

وقد يكون من المستطرف أن نذكر شيئا مما رواه الطبرى في تمثيل هذه الناحية من أخلاق المنصور، فقد جاء فيه : أن واحدا مولاه قال : « إني لواقف يوما على رأس أبى جعفر إذ دخل المهدي وعليه قباء أسود جديد، فسلم وجلس، ثم قام منصرفا وأتبعه أبو جعفر بصره، لحبه له وإعجابه به، فلما توسط الرواق عثر بسيفه فتخزق سواده، فقام ومضى لوجهه غير مكترث لذلك ولا حافل به، فقال أبو جعفر : ردوا أبا عبد الله فرددناه، فقال : يا أبا عبد الله، أستقلالا للواهب ! أم بطرا بالنعمة ! أم قلة علم بالمصيبة ! كأنك جاهل بما لك وما عليك ! » .

فانظر إليه كيف لام ابنه وولى عهده، وقد كان عنده أثيرا، ولامه بحضير من حاشيته في شيء ليس ذا بال عند أوساط الناس فضلا عن الخلفاء ! .

ومهما يُعْتَذَرُ للمنصور بحرصه على الاقتصاد في أموال دولة ناشئة، وأخذ ولى العهد بتجنب الإسراف والإهمال، فقد نرى أن هذه الحادثة وأمثالها مما سنرويها لك، تُظهِرُ ناحية صغيرة من نفسية المنصور، فقد كانت أمامه جلائل الأعمال في النبوة يستطيع أن يُظهِرَ فيها ميله إلى الحرص والاقتصاد، دون أن يُسَيِّفَ إلى هذه الصغائر .



على أننا لا نستطيع أن نمتنع عن ذكر معاوية مؤسس الدولة الأموية والمقارنة بينه وبين المنصور مؤسس الدولة العباسية حتما من هذه الناحية، فقد كان معاوية، كما رأيت،

أكرم الناس ، وأشدّهم تسخيـراً للأموال العامة والخاصة ، في الأغراض السياسية . وكان المنصور أشح الناس بالأموال العامة والخاصة ، يُؤثر التضحية بالدماء والكفايات في سبيل أغراضه السياسية على التضحية بالأموال .

ولعل من الإنصاف أن نلاحظ الفرق بين العصرين ، وبين الدعائم التي اعتمد عليها الرجلان في إقامة ملكهما . فقد كان معاوية في بيئة عربية ، لم تخلص بعد من البداوة ولا من سماحة الدين ، فكان الحلم والكرم أليق به وأنفع ، بينما كان المنصور في بيئة من الفرس والموالي ، تأثرها بالحضارة شديد ، وحظها من الدين قليل .

ولو بسط معاوية سلطانه بالسيف لفشل ؛ ولكننا نرى أن لو بسط المنصور سلطانه بالمال في شيء من الحزم لوفق ولحقن الدماء ولرسم خلفائه خطة أقرب الى اللين والعافية من هذه الخطة العنيفة التي سترها في سيرة أكثرهم .

وحدث الوضين بن عطاء قال : « استزارني أبو جعفر ، وكانت بيني وبينه خالة قبل الخلافة ، فصرت الى مدينة السلام ، فخلونا يوما فقال لي : يا أبا عبد الله ، ما مالك ؟ فقلت : الخير الذي يعرفه أمير المؤمنين ؛ قال : وما عيالك ؟ قلت : ثلاث بنات والمرأة وخادم لمن ؛ فقال لي : أربع في بيتك ؟ قلت : نعم . قال : فوالله لردد ذلك على حتى ظننت أنه سيمولني . قال : ثم رفع رأسه الى فقال : أنت أيسر العرب ، أربع مغازل يدرن في بيتك ! »

على أن شح المنصور لم يكن يخلو أحيانا من بعض الظرف والفكاهة ؛ فقد ذكر إبراهيم ابن عبد الرحمن أن أبا جعفر كان نازلا على رجل يقال له أزهر السمان قبل خلافته ، فلما ولي الخلافة زاره الرجل وطلب صلاته ، فوصله ثم عاوده فوصله ، وجاءه في الثالثة فقال له المنصور : يا أزهر ما جاء بك ؟ قال : دعاء سمعته منك أحببت أن آخذه عنك ؛ قال : لا ترده فإنه غير مستجاب ، لأني قد دعوت الله أن يرخصني من خلقك فلم يفعل ! وصرفه ولم يعطه شيئا .

وربما كان من العدل التاريخي أن نحتاط أمام هذه الروايات الكثيرة التي أسرف المؤرخون في روايتها إثباتاً لبخل المنصور وشحّه ؛ فقد يكون مصدرها ما ألقوه من إسراف الخلفاء ، ولعل المنصور لم يبلغ أكثر من أنه كان شديد الميل الى الحرص والتدبير ، والنفرة من الملحفين ، وأخذ أهل بيته بذلك كله .

ولم يفت المنصور أن يعلّل ذلك البخل ؛ فقد جاء في عيون الأخبار أنه قال في مجلسه لقواده : « صدق الأعرابي حيث يقول : أَجْعُ كَلْبَكَ يَنْبَعَكَ » فقام أبو العباس الطوسي وقال : « يا أمير المؤمنين ، أخشى أن يلقح له غيرك برغيف فيتبعه ويدعك ! » . وقد كان أبرويز أحكم من المنصور ، إذ قال لابنه شيرويه وهو في حبسه « لا تُوسّعن على جندك فيستغنوا عنك ولا تُضيّقن عليهم فيضجّوا منك ، أعطهم عطاء قصدا ، وأمنعهم منعاً جميلاً ، ووسّع عليهم في الرجاء ، ولا تُسرف عليهم في العطاء » .



وليس أدل على الشخصية السياسية لهذا الخليفة من سيرته مع ثلاثة ، هم في حقيقة الأمر أكبر زعماء الدولة في عصره . فهذه السيرة تبين لك ، في وضوح وجلاء ، ما قدّمناه من أن المنصور كان « ميكافلي » السياسة ، لا يُحجّم عن الفدر وقطع الرحيم وكفر النعمة ، إذا رأى منفعتة في ذلك .

وهؤلاء الزعماء هم أولاً : أبو مسلم الذي أخلص في نُصرة المنصور والسهر على ملكه ، فلم يأل جهداً في تعقب الخارجين على الملك ، لا يفرق في ذلك بين أشياع المنصور وأهله من بني العباس ، ولا خصومه الذين يكيدون له في السرّ أو في العلانية ، فقتل الشيباني والكرماني وأبا سلامة الخلال ، وحارب عم المنصور عبد الله بن علي واستولى على ما في عسكره من الغنائم والأسلحة ، وثانياً : عمه عبد الله بن علي ، وهو الذي فعل ما فعل في نُصرة الدعوة العباسية وتفتيل خصومها من بني أمية ، فضلاً عن حروبه الموفقة في صدّ جيوش مروان ؛ ومع ذلك فقد سلط عليه المنصور أبا مسلم فخاربه وقهره ، ولمّا لم يصل إلى قتله ، كلف ابن عمه عيسى

ابن موسى الى الكوفة أن يقتله ، فلما لم يقتله ، تولّى المنصور قتله بنفسه ، ليأمن ما قد يحدثه من الثورة والاضطراب . وثالثا : ابن عمه ووليّ عهده عيسى بن موسى ، وقد رأيت كيف أشخصه المنصور لقتال محمد بن عبد الله ملاحاً في ذلك ، حتى إذا أشخص قال المنصور : « لا أبالي أيهما قتل صاحبه ! » ثم ما زال المنصور يكيّد لهذا الأمير حتى خلعه من ولاية العهد ، وبايع مكانه لابنه المهدي ، ثم مضى في الكيد له . وقد يكون من المفيد أن ننقل ما جاء في المستطرف عن خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد بمعرفة المنصور ، وما قاله ابن الأثير عن قتل عمه عبد الله بن علي ، فإن فيما قاله تصويراً دقيقاً لسياسة المنصور ، وتمثيلاً لحرصه على الملك الذي كان لا يبالي في سبيل توطيده أن ينكث بما عقد من عهد ، أو ينقض ما أبرم من ميثاق .

جاء في المستطرف : أن عيسى بن موسى لما غدر به المنصور ونقل ولاية العهد منه الى المهديّ ابنه أنشد :

أينسى بنو العباس ذبيّ عنهمو * بسيفي ونار الحرب زاد سعيها
ففتح لهم شرق البلاد وغربها * فذلّ معاديا وعزّ نصيرها
أقطع أرحاما على عزيزة * وأبدى مكيدات لها وأثيرها
فلما وضعت الأمر في مستقره * ولاحت له شمس تلالاً نورها
دفعت عن الأمر الذي أستهقه * وأوسق أوساقا من الغدر عيرها

وجاء في ابن الأثير : أن المنصور أحضر عيسى بن موسى بعد أن خلع نفسه وسلم اليه عمه عبد الله بن علي وأمره بقتله وقال له : إن الخلافة صائرة اليك بعد المهديّ فاضرب عنقه ، وإياك أن تضعف فتتقصّ على أمرى الذي دبرته . ثم مضى الى مكة وكتب الى عيسى من الطريق يستعلم منه عما فعل في الأمر الذي أمره ، فكتب عيسى : « قد أنفذت ما أمرت به » ، فلم يشك في أنه قتله . وكان عيسى حين أخذ عبد الله من عند المنصور دعا كاتبه يونس بن فروة وأخبره الخبر ، فقال : أراد أن يقتله ثم يقتلك ، لأنه أمر بقتله

سرّاً ثم يدّعيه عليك علانية ، فلا تقتله ولا تدفعه اليه سرّاً أبداً وأكتم أمره ؛ ففعل ذلك عيسى . فلما قدم المنصور وضع على أعمامه من يحترّكهم على الشفاعة في أخيهام عبد الله ففعلوا وشفّعوا ، فشفعهم ، وقال لعيسى : إني كنتُ دفعتُ اليك عمي وعمك ليكونا في منزلك وقد كُتِبَني عمومك فيه ، وقد صفحتُ عنه فأتنا به ؛ قال : يا أمير المؤمنين ، ألم تأمرني بقتله فقتلته ؛ قال : ما أمرتك ؛ قال : بل أمرتني ؛ قال : ما أمرتك إلا بحبسه وقد كذبت . ثم قال المنصور لعمومته : إن هذا قد أقرب بقتل أخيك ؛ قالوا : فادفعه إلينا نقيده به ؛ فسأله اليهم وخرجوا به الى الرحبة واجتمع الناس وشهر الأمر وقام أحدهم ليقته ، فقال عيسى : أفاعُل أنت ؟ قال : إني والله ! قال : رُدوني الى أمير المؤمنين ، فردّوه اليه ؛ فقال له : إنما أردت بقتله أن تقتلني ، هذا عمك حتى سوى ؛ قال : آتتنا به فاتاه به ؛ قال : يدخل حتى أرى رأيي ، ثم انصرفوا فأمر بفعل في بيت أساسه ملح ، وأجرى الماء في أساسه فسقط عليه فمات . »

وهذه الرواية يؤيدها أكثر المؤرخين من العرب . وقد فعل أبو مسلم مع سليمان بن كثير ، وكان من أركان هذه الدولة ، ما يُضيف حلقة ، الى سلسلة الاضطهادات التي ارتكبت تأييداً لهذا الملك ، فقد أحضره اليه وقال له : أتحفظ قول الإمام لي : « من اتهمته فاقتله ؟ » قال : نعم ؛ قال : فإني قد اتهمتك ؛ فخاف سليمان وقال : أناشدك الله ! قال : لا تشايدني فأنت منطوي على غش الإمام ، وأمر بضرب عنقه .

وقد سمّ الناس هذه الحالة ، وثار بعض أمراء بني العباس أنفسهم احتجاجاً على ما أريق من الدماء ، فقد جاء في الأغاني في أخبار عبد الله بن عمر العقيلي الشاعر المخضرم : أن محمد ابن عبد الله لما سمع للعقيلي قصيدته التي مطلعها :

تقول أمامة لما رأت * تُشوزي عن المضجع الأنفيس

والتي ختامها :

فما أنس لا أنس قُتِلَهم * ولا عاش بعدهم من نبي

بكى واستعبر؛ فقال له عمه الحسن بن الحسن بن علي : أتبكي على بنى أمية ، وأنت تريد بنى العباس ما تريد ! فقال : « والله يا عم لقد كنا نَقَمُّنا على بنى أمية ما نَقَمُّنا ، فما بنو العباس إلا أقلُّ خوفاً لله منهم ، وإنَّ الحجَّةَ على بنى العباس لأوجبُّ منها عليهم ، ولقد كانت للقوم أخلاقٌ ومكارمٌ ليست لأبي جعفر » . وذكر الأصفهاني^(١) أيضاً : أن محمدا وآله وهبوا للشاعر مالا لمُدَحِّته تلك ، وهكذا تغيَّرت نفوس آل البيت من إسراف العباسيين في الفتك والقتل .



وماذا كان حظُّ أبي مسلم وكيف كان جزاؤه على ذلك الإخلاص الدموي ؟

كان جزاؤه أن قُتِلَ بيد الخليفة نفسه عملاً بسنته المعروفة : « أقتل من آتَمَّته » ، مع أنه كان لا يقطع أمراً دونه .

وقد ذكر الجاحظ : أنَّ المنصور لما هم بقتل أبي مسلم ، سقط بين الاستبداد برأيه والمشاورة فيه ، فأرقَّ في ذلك ليلته ، فلما أصبح ، دعا باسحاق بن مسلم العقيلي ، فقال له : حدِّثني حديثَ الملك الذي أخبرني عنه بجرَّان ؛ قال : أخبرني أبي عن الحصين بن المنذر : أن ملكاً من ملوك فارس ، يقال له سابور الأكبر ، كان له وزير ناصح ، قد اقتبس أدبا من آداب الملوك ، وشابَّ ذلك بفهم في الدين ، فوجهه سابور داعيةً إلى خراسان ، وكانوا قوماً عجماً يُعَظِّمون الدين جهالةً بالدين ، ويُحِلُّون بالدين استكانةً لقوة الدنيا وذُلًّا لجبارتها ، فجمعهم على دعوة من الهوى يكيد به مطالب الدنيا ، واعتزَّ بقتل ملوكهم لهم وتحوَّلهم إليهم ؛ وكان يقال لكلِّ ضعيف صَوْلَةٌ ، ولكلِّ ذليل دولةٌ . فلما تلاحمت أعضاء الأمور التي لفتح ، استحالت حرباً عواناً ، شالت أسافلها بأعاليها ، فانتقل العزَّ إلى أرضهم ، والنباهة إلى أنحسهم ، فأشربوا له حبًّا مع خفض من الدنيا افتتح بدعوة من الدين ، فلما استوسقت له البلاد ، بلغ سابور أمرهم وما أحال عليه من طاعتهم ، ولم يأمن زوال القلوب وغدريات الوزراء ، فأحتال في قطع رجائه عن قلوبهم ، وكان يقال :

وما قُطِعَ الرجاء بمثل ياس * تُبَادِه القلوب على اغترار

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار في هذا الرأي بقوله : (أحسب أن تغير آل البيت على بنى العباس إنما كان سببه أنهم نفسوا عليهم ما أتيح لهم من ملك مع اعتقادهم أنهم أحقُّ بذلك منهم) .

فصمّ على قتله عند وروده عليه برؤساء أهل نهرسان وفُرسانهم، فقتله فبغتهم بحدث فلم يرعهم إلا ورأسه بين أيديهم، فوقف بهم بين الغربية، ونأي الرجمة، وتخطّف الأعداء، وتفترق الجماعة، واليأس من صاحبهم، فأروا أن يستتموا الدعوة بطاعة سابور، ويتعوضوه من الفرقة، فأذعنوا له بالملك والطاعة، وتبادروه بمواضع النصيحة، فملكهم حتى مات حتف أنفه . فأطرق المنصور ملياً ثم رفع رأسه وهو يقول :

لذي الحلم قبل اليوم ما تُقرعُ العصا * وما عُلمَ الإنسان إلا ليعلم

وأمر إسحاق بالخروج، ودعا بأبي مسلم فلما نظر إليه داخلا قال :

قد اكتنفتك ثلاثٌ ثلاث * جلبن عليك محذور الحمام

خلافك وامتنأوك ترميني * وقودك للجواهر العظام

ثم وثب إليه ووثب معه بعضُ حشمه بالسيوف، فلما رآهم وثب فبدره المنصور فضربه ضربة طوحه منها، ثم قال :

إشرب بكأس كنت تسقى بها * أمرت في الحلق من العلقم

زعمت أن الدين لا يُقتضى * كذبت فاستوف أباً مجرم

ثم أمر فحز رأسه وبعث به إلى أهل نهرسان وهم ببابه، فقالوا حوله ساعة ثم ردّهم عن شغبهم انقطاعهم عن بلادهم وإحاطة الأعداء بهم، فذلّوا وسلموا له . فكان إسحاق إذا رأى المنصور قال :

وما ضربوا لك الأمثال إلا * لتحدّوإن حدّوت على مثال

وكان المنصور إذا رآه قال :

وخلفها سابور للناس يُقتدى * بأمثالها في المعضلات العظام

وما أجمل تلك الجملة التي قالها محمد بن عبد الله العلوي حين أتمنه المنصور على نفسه

فقد قال : أيّ أمان تعطيني : أمان ابن هبيرة، أم أمان عمك عبد الله، أم أمان أبي مسلم !

ولقد تنفس المنصور حين قتلَ أبا مسلم، حتى قال له بعض أقربائه ساعة قتله : عُدَّ هذا اليومَ أولَ يومٍ من خلافتك !



على أنه من الحق أن نقرّر أن عدوان المنصور وإسرافه في التنكيل بخصومه له قيمته في الدلالة على عرفانه بحق الملك وحرصه على نجاة الدولة من أخطار البغي، والخروج على النظام، ففي سبيل هذه الغاية أسرف في سفك الدماء وتقطيع الأرحام وقتل أمثال بني الحسن والحسين، والديباج الأصفر، والنفس الزكية، وقتل عمه وقائده، وترك خزانة رءوس فيما ترك ميراثا لابنه المهدي .

ولقد كان مع هذه القسوة ثاقب الرأي محكم التدبير، وهو الذي يقول لابنه المهدي : «يا أبا عبيد الله، ليس العاقل الذي يحتال للأمر الذي وقع فيه حتى يخرج منه، ولكنه الذي يحتال للأمر الذي غشيه حتى لا يقع فيه» .

وقد ذكر المؤرخون أنه كان إذا جنى على أحد جنائياً أو أخذ من أحد مالا جعله في بيت المال مفردا وكتب عليه اسم صاحبه، فلما أدركته الوفاة قال لابنه المهدي : «يا بني إني قد أفردت كل شيء أخذته من الناس على وجه الجناية والمصادرة، وكتبت عليه أسماء أصحابه، فإذا وليت أنت فأعده على أربابه، ليُدعوا لك الناس ويحبوك» . وفي عهد المنصور أنشئت «بغداد» موئل العلم ودار السلام .

الفصل السّادس

المهـدى

عيناي واحدة تُرى مَسْرورة * بأمرها جَدَلَى وأخرى تُدْرِفُ
تبكى وتضحك تارة ويسوءها * ما أنكرت ويسرّها ما تعرّفُ
فيسوءها موتُ الخليفة مُحَرِّمًا * ويسرّها أن قام هذا يخلُفُ
ما إن رأيتُ كما رأيتُ ولا أرى * شعرا أُسرّحه وآخر أنيفُ
هذا حباه الله فضلَ خلافةٍ * ولذلك جناتُ النعيم تُزحرفُ

بهذه الأبيات الرقيقة كان أبو دُلّامة أوّل من تقدّم بتعزية المهديّ بوفاة والده المنصور
وتهنئته بارتقاء عرش الخلافة سنة ثمان وخمسين ومائة للهجرة .

وقد كان المهديّ ، فيما أجمع عليه الرواة ، شهماً فطناً كريماً ، شديد البأس في تعقب
الملحدين والزنادقة ، لا تأخذه في إهلاكهم لومة لائم .

وكان كثيراً ما يجلس لردّ المظالم . وقد عُرِفَ عنه أنه كان إذا جلس للظالم قال :
«أدخلوا على القضاة ، فلم يكن ردّي للظالم إلا للحياء منهم لكفى» . وروى الطبريّ
في حوادث سنة تسع وستين ومائة أنّ مسور بن مساور قال : «ظلمني ويكل للمهديّ
وغصبني ضيعة لي ، فأثبّت سلّاماً صاحب المظالم فتظلمت منه ، وأعطيت رُقعة مكتوبة
فأوصل الرقعة الى المهديّ وعنده عمه العباس بن محمد وابنُ علاثة وعافية القاضي ، قال
فقال لي المهديّ : أدّنه فدنوت ، فقال : ما تقول ؟ قلت : ظلمتني ؛ قال : فترضى بأحد
هذين ؟ قلت : نعم ؛ قال : فادّن منّي ؛ فدنوت منه ، حتّى الترفت بالفراش ؛ قال : تكلم
قلت : أصالح الله القاضي ، إنه ظلمني في ضيعتي هذا ؛ فقال القاضي : ما تقول يا أمير المؤمنين ؟
قال : ضيعتي وفي يدي ؛ قال : قلت أصالح الله القاضي ، سله صارت الضيعة اليه قبل

الخليفة أوبعدها؛ قال : فسأله ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال : صارت إلى بعد الخلافة؛ قال : فأطلقها له؛ قال : قد فعلت؛ فقال العباس بن محمد : والله يا أمير المؤمنين لهذا المجلس أحب إلى من عشرين ألف ألف درهم !

أما كرمه فسجية قديمة فيه، وبسببه نال عتب المنصور غير مرة . وقد ذكر الطبري أن المؤمل بن أميل قال : قدمت على المهدي بالري وهو ولي عهد، فأمر لي بعشرين ألف درهم لأبيات امتدحته بها، فكتب بذلك صاحب البريد إلى المنصور، وهو بمدينة السلام، يخبره أن المهدي أمر لشاعر بعشرين ألف درهم؛ فكتب إليه المنصور يعذله ويقول له : إنما كان ينبغي لك أن تعطى الشاعر بعد أن يُقيم ببابك سنة أربعة آلاف درهم . قال المؤمل : فكتب إلى كاتب المهدي أن يوجه إليه الشاعر، فطلب فلم يُقدّر عليه، فكتب إليه : إنه قد توجه إلى مدينة السلام، فوجه المنصور قائدا من قواده، فأجلسه على جسر النهروان، وأمره أن يتصفح الناس رجلا رجلا ممن يمر به حتى يظفر بالمؤمل، فلما رآه قال له : من أنت؟ قال : أنا المؤمل بن أميل من زوار الأمير المهدي؛ قال : ليالك طلبت؛ قال المؤمل : فكاد قلبي ينصدع خوفا من أبي جعفر، فقبض على ثم أتى بي باب المقصورة وأسلمني إلى الربيع، فدخل إليه الربيع فقال : هذا الشاعر قد ظفّرنا به؛ فقال : أدخلوه علي؛ فأدخلت عليه، فسلمتُ فردّ علي السلام، فقلت : ليس هاهنا إلا خير؛ قال : أنت المؤمل بن أميل؟ فقلت : نعم، أصلح الله أمير المؤمنين؛ قال : هيه ! أتيت غلاما غرا نخدعته، فقلت : نعم، أصلح الله أمير المؤمنين، أتيت غلاما كريما نخدعته فانخدع، قال : فكأن ذلك أعجبه فقال : ألسدني ما قلت فيه؛ فألسدته :

هو المهدي إلا أن فيه * مشايه صورة القمر المنير

تشابه ذا وذا فهما إذا ما * أنارا مشكلان على البصير

فهذا في الظلام سراج ليل * وهذا في النهار سراج نور

ولكن فضل الرحمن هذا * على ذا المنابر والسريـ
وبالملك العزيز فذا أمير * وما ذا بالأمر ولا الوزير
ونقص الشهر يمد ذا وهذا * منير عند نقصان الشهر
فيا بن خليفة الله المصطفى * به تعملو مفاخرة الفخـ
لئن فت الملوك وقد توافوا * إليك من السهولة والوعـ
لقد سبق الملوك أبوك حتى * بقوا من بين كاب أو حسيـ
وجئت وراءه تجرى حثيثا * وما بك حين تجرى من فتور
فقال الناس ما هذان إلا * بمنزلة الخلق من الجـ
لئن سبق الكبير فأهل سبق * له فضل الكبير على الصغـ
وإن بلغ الصغير مدى كبير * لقد خلق الصغير من الكبير

فقال : والله لقد أحسنت ! ولكن هذا لا يساوى عشرين ألف درهم ! ثم قال لى :
أين المال ؟ قلت : ها هو ذا ، قال : يارببع أنزل معه فأعطه أربعة آلاف درهم ، وخذ
الباقى ، قال : فخرج الربيع فخط ثقلى ووزن لى أربعة آلاف درهم وأخذ الباقى . فلما
صارت الخلافة الى المهدى ولّى ابن ثوبان المظالم ، فكان يجلس للناس بالرصافة . فاذا ملأ
كساءه رقاعا رفعها الى المهدى ، فرفعت اليه يوما رقعة أذكره قصتى ، فلما دخل بها
ابن ثوبان جعل المهدى ينظر فى الرقاع ، حتى اذا نظرتى رقعتى ضحك ، فقال له ابن ثوبان :
أصالح الله الأمير ! ما رأيتك ضحكت من شىء من هذه الرقاع إلا من هذه الرقعة ! قال :
هذه رقعة أعرف سببها ، ردوا اليه العشرين ألف درهم ، فردت الى وانصرفت .

ولترك هذه الساحة فى إجازة الشعراء لنرى كيف كانت أريحية المهدى فى الإحسان
الى الجماهير ، فقد ذكر الطبرى فى حوادث سنة ستين ومائة أن المهدى قسم فى تلك السنة
مالا عظيما فى أهل مكة وفى أهل المدينة كذلك ، وأنه نظر فيما قسم فى تلك السفرة ، فوجد
ثلاثين ألف ألف درهم حملت معه ، ووصلت من مصر ثلثمائة ألف دينار ، ومن اليمن
مائتا ألف دينار ، فقسّم ذلك كله ، وفرّق من الثياب مائة ألف ثوب وخمسين ألف ثوب .



وكان المهديّ الى جانب جوده وبخائه حييّا نجولا وبرّا رحيا . دخل عليه رجل فقال :
« يا أمير المؤمنين ، إن المنصور شتمني وقذف أمي ، فإما أمرتني أن أحله ، وإما عوّضتني
وأسغفرتُ الله له ؛ قال المهديّ : ولم شتمك ؟ قال : شتمتُ عدوّه بحضرته فغضب ؛ قال :
ومن عدوّه الذي غضب لشمته ؟ قال : ابراهيم بن عبد الله بن حسن ؛ قال : إن ابراهيم
أمس به رجما ، وأوجب عليه حقّا ، فإن كان شتمك كما زعمت فمن رجمه ذبّ ، وعن عريضه
دفع ، وما أساء من انتصر لابن عمه ؛ قال : إنه كان عدوا له ؛ قال فلم ينتصر للعداوة وإنما
انتصر للرحم ؛ فأسكت الرجل ؛ فلما ذهب ليؤلّي قال : لعلك أردت أمرا فلم تجد له ذريعة
عندك أبلغ من هذه الدعوى ! قال : نعم ، قال : فتبسم المهديّ وأمر له بخمسة آلاف
درهم » .

ولننظر الى ما يرويه الربيع عنه ، قال : رأيت المهديّ يصلّي في بهو له في ليلة مُمَرّة
فما أدرى أهو أحسن أم الهو أم القمر أم ثيابه ! قال : فقرأ هذه الآية : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ
تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطُّوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ قال : فأتتم صلاته والتفت الى فقال :
يا ربيع ! قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ؛ قال : عليّ بموسى ؛ وقام الى صلاته قال : فقلت
من موسى ؟ أبنته موسى أم موسى بن جعفر وكان محبوبا عندي ، قال : فجعلت أفكر قال
فقلت : ما هو إلا موسى بن جعفر . قال : فأحضرتّه ، قال : فقطع المهديّ صلاته وقال :
يا موسى ؛ إني قرأت هذه الآية : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطُّوا
أَرْحَامَكُمْ ﴾ فخفتُ أن أكون قطعْتُ رحمك ، فوثّق لي أنك لا تخرج عليّ ؛ قال : فقال نعم ؛
فوثّق له وخلاه » .

ومثل هذا ما حدث به علي بن صالح قال : غضب المهديّ على بعض القواد ، وكان
عتب عليه غير مرّة فقال له : الى متى تُذنبُ اليّ وأعفو ! قال : الى أبد نسيءٍ ويُيقك
اللهُ فتمفؤ عنا ؛ فكررها عليه مرات ، فاستحي منه ورضى عنه .

ثم لنتنقل الى حوادث سنة ثمان وخمسين ومائة فبرى النوفلى يحدّثنا عن البيعة للمهدى
وما كان من أمر الربيع فيها فيقول : إن الربيع تناول يد الحسن بن زيد فقال : قم يا أبا محمد
فبايع ، فقام معه الحسن فانتهى به الربيع الى موسى فأجلسه بين يديه ، فتناول الحسن يد موسى
ثم التفت الى الناس فقال : يا أيها الناس ، إن أمير المؤمنين المنصور كان ضربى واستصغى
مالى ، فكلّمه المهديّ فريضى عني وكلّمه فى ردّ مالى على فأبى ذلك ، فأخلفه المهديّ من ماله
وأضعفه مكان كلّ علقى علقين ، فن أولى بأن يبايع لأمر المؤمنين بصدر منشرح ونفس
طيبة وقلب ناصح منى ، ثم بايع موسى للمهدى ثم مسح على يده .



وبعد ، فالمهدىّ من الخلفاء العباسيين فى الذّوبة . وقد صدق الأستاذ «ميور» اذ يقول :
إن المهديّ كان فى إدارته لشؤون رعيته كن يعمل بوجه عام على رفاهة الأمة وإسعادها ،
وكان معيّناً ومعجّلاً للعصر الذهبىّ الذى تلا أيامه . وما أخذ عليه من بعض الهتات لا يمنع
المؤرخ المنصف أن يرى فى عصره ترفيهاً للناس ، مما كانوا يعانون من الشدّة أيام المنصور .
كان المهديّ موفقاً فى اختيار وزرائه ، وإن كانت السّعاية أحلت ببعضهم العذاب
وسوء المصير ، وكان دقيقاً فى نظره للأمر . وقد بدأ خلافته بإطلاق من كان فى سجن
المنصور ، إلا من كان قبله تباعاً من دم أو قتل ومن كان معروفاً أنه يسعى فى الأرض بالفساد
أو كان لأحد قبله مظلمة ، وإنما أطلق من كان جرهم سياسياً .

وكان محبا للأدب ، مشجّعا على التأليف فيه ، جاداً فى طلب الزنادقة والبحث عنهم
فى الآفاق ، محبا للغزوات والفتوح . وقد قيل : إنه كان لا يشرب النبيذ وإن كان ثماره
يشربونه فى مجلسه ، وكان محبا للسمع ، ويخبرنا الطبرىّ فى حوادث سنة تسع وستين ومائة ،
أن المهديّ مات مسموماً وقد لست عليه قيّانه المسوخ ، فقال أبو العتاهية فى ذلك :

رُحْنٌ فى الوشى وأصبح
من عيّن المسوخ
كلّ نطّاح من الدهر * بر له يوم نطّوح

لَسْتُ بِالْبَاقِي وَلَوْ عُثِّرَ * رَتَّ مَا عَمَّرَ نَوْحُ
فَعَلَى نَفْسِكَ نُحْ إِنْ * كُنْتَ لَا بَدَّ تَنْوُحُ

✱ ✱

والظاهر مما قدَّمناه أن المهديَّ كان يخالف أباه المنصورَ مخالفةً شديدةً من بعض النواحي، ويلائمه مُلاءمةً ما من نواحٍ أُخرى : كان كريماً مُهيئاً للال، بينما كان أبوه بخيلاً شحيحاً، ولكنه ورثَ عن أبيه بعضَ القسوةِ والميل إلى سفك الدماء .

ولم تكن السياسةُ لُتُعينه على ذلك، فقد ثَبَّتَ له المنصورُ أركانَ الملكِ فالتمس الدماءَ في تلعب الزنادقة والفتك بهم، وأسرف في ذلك، حتى قَتَلَ بعضَ الأبرياء في قسوةٍ تُمثِّلُها قصته مع ابن وزيره أبي عبيد الله .

وفي المهديَّ ناحيةٌ جديدةٌ في خلفاء العباسيين، هي الميلُ إلى الاعتدال السياسيِّ في معاملة الطالبين، فقد كان على شيء من الرفقِ بهم والعطفِ عليهم، لا يمتنع من اتِّقاءهم والإشفاق منهم .

وهذه السياسةُ الرقيقةُ الحازمةُ تذكِّرنا بعضَ التذكير بما سيكونُ من سياسة المأمون . ومن أظهر خصال المهديَّ الشخصيةَ غيرته على النساء . تلك التي أغرته بِبشارٍ فضربه حتى مات، متعللاً بزندقته، وإن كانت العلةُ الحقيقية هي استهتار بِبشارٍ بالغزل^(٢) . وقد أورث المهديَّ غيرته هذه ابنه الهادي كما سترى .

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار في هذا الرأي بقوله : «قسوة المهدي في سفك الدماء، لم تكن عامة وإنما كان ذلك في الزنادقة خاصة» .

(٢) يرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : «أن قتل بشار لم يكن سببه الغيرة على النساء وإنما كان بتدبير يعقوب بن داود الوزير ودسيسته . وبشار هو الذي يقول :

بني أمية هبوا طال نومكم * إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم باقوم فاتموا * خليفة الله بين النأي والعود

وكانت حيلة يعقوب بن داود على الخليفة أن أخبره بأن بشاراً وقع في الخليفة وهجاه . فاستنشد المهدي هجاءه فامتنع فعزم عليه فأشده :

خليفة يزني بهاته * يضرب بالدف وبالصولجان
أبد لنا الله وغيره * ودس موسى في حر الخيزران

الفصل السابع

الهادي

قال محمد بن علي بن طهّاط في كتاب «الآداب السلطانية»: كان الهادي مُتَيْقِظًا غيورًا كريمًا شديد البطش جرىء القلب، مجتمّع الحسّ ذا إقدام وعزيم وحزم . ونحن نخشى أن يكون في هذا الشئاء إسراف كثير، فلم يطل عهد الهادي بالخلافة يميكن الحكم له أو عليه، وإنما مرّ بها مرور الطيف . ومع ذلك فقد أكثر المؤرّخون من التحدّث عنه بالخير . وليس يستوقفنا من سيرته كلّها إلا ثلاثة أمور :

الأول ما ذكره عنه عبد الله بن عبد الملك قال : كنتُ أتولّي الشرطّة للمهدّي وكان المهدّي يبعث إلى ندماء الهادي ومُغنيّه ، ويأمرني بضربهم ، وكان الهادي يسألني الرفق بهم والترفيه لهم ، ولا ألتفتُ إلى ذلك ، وأمضي ليأمرني به المهدّي . قال : فلما ولي الهادي الخلافة أيقنتُ بالتلف ، فبعثتُ إلى يوماء ، فدخلتُ عليه متكفّنًا متحنّطًا ، وإذا هو على كرسيّ ، والسيفُ والنّطعُ بين يديه ، فسألتُ : فقال : لا سلّم الله على الآخر ! تذكرُ يومَ بعثتُ اليك في أمر الحزانى وما أمر أمير المؤمنين به من ضربه وحبسهِ فلم تُجِبني ؟ وفي فلان وفلان ، وجعل يُعَدّد ندماءه ، فلم تلتفتِ إلى قولي ولا أمرى ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، أفتأذن لي في استيفاء الحجّة ؟ قال : نعم ، قلت : ناشدتك بالله يا أمير المؤمنين ، أيسرك أنك وليتني ما ولّاني أبوك ، فأمرتني بأمر فبعثتُ إلى بعض بنيك بأمر يخالف به أمرك ، فاتبعتهُ أمره وعصيتُ أمرك ؟ قال : لا ؛ قلت : فكذلك أنا لك وكذا كنتُ لأبيك ، فاستبدناني فقبّلتُ يديه ، فأمر يخلع فصبّتهُ على ، وقال : قد وليتُك ما كنتُ لتولاه فامض راشدًا ، فخرجت من عنده فصرت إلى منزلي ، مفكرًا في أمرى وأمره ، وقلت : حدّث يشرب ، والقوم الذين عصيته في أمرهم ندماءؤه ووزراءؤه وكّابه ، فكأنني بهم حين يغلب

عليهم الشراب قد أزالوا رأييه فيّ وحملوه من أمرى على ما كنت أكره وأتخوف . قال :
فإني بطالس وبين يديّ بُيُوتٌ لي ، في وقتي ذلك ، وكانون بين يديّ ، ورقائق أشطره بكاخ
وأصنعه وأضعه للصبيّة ، وإذا ضجّة عظيمة ، حتى توهمت أن الدنيا قد اقتلعت وتزلزلت ،
بوقع الحوافر وكثرة الضوضاء ، فقلت : هاه ! كان والله ما ظننت ووافاني من أمره
ما تخوفت ، فإذا الباب قد فُتِحَ ، وإذا الخدم قد دخلوا ، وإذا أمير المؤمنين الهادي على حمّار
في وسطهم ، فلما رأيته ، وثبتت عن مجلسي مُبادراً ، فقبلت يده ورجله وحافر حمّاره ،
فقال لي : يا عبد الله ، إني فكرت في أمرك ، فقلت يسبق إلى قلبك أنى إذا شربت وحولى
أعدائك ، أزالوا ما حسّن من رأيي فيك ، فأقلقك وأوحشك ، فصرت إلى منزلك لأونسك
وأعلمك أن السخيمة قد زالت عن قلبي لك ، فهات فأطعمني مما كنت تأكل فأفعل فيه
ما كنت تفعل ، لتعلم أنى قد تحزمت بطعامك ، وأنست بمنزلك ، فيزول خوفك ووحشتك ،
فأدنيت إليه ذلك الرقاق والسُّكَّرَ التي فيها الكافح فأكل منها ، ثم قال : هاتوا الزُّلَّة التي
أزلتها لعبد الله من مجلسي فأدخلت إلى أربعائة بغلة موقرة دراهم ، وقال : هذه زلتك
فاستعين بها على أمرك ، واحفظ لي هذه البغال عندك ، لعلّي أحتاج إليها يوماً لبعض أسفاري ،
ثم قال : أظلك الله بخير ، وانصرف راجعاً . ونحن وإن كنا نفترض في هذه الرواية وأمثالها
المبالغة نرى أنها تدلّ في جهتها على بصير بالسياسة ، وفطنة في العلم بالناس ، والانتفاع بكفائاتهم .

الأمر الثاني وقوفه موقف حزم نعتقد أنه أنقذ القصر العباسي ، من شرّ عظيم ، أفسد
على ملوك الفرس قصورهم ، كما أفسد على العباسيين أنفسهم أمور الخلافة بعد عصر المأمون ،
ذلك هو تدخل النساء في أمور الدولة .

فقد ذكر الطبري أن الخيزران والدّة الهادي ، كانت في أول خلافته ، تفتّت عليه
في أموره ، وتسلّك به مسلّك أبيه من قبله ، في الاستبداد بالأمر والنهي ، فأرسل إليها :
ألا تخرجي من خفير الكفاية إلى بدائة التبذل ، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض
في أمر الملك ، وعليك بصلاتك وتسيحك وتبتلك ، ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك .

قال : وكانت الخيزرانُ في خلافة موسى كثيراً ما تكلمه في الحاجات ، فكان يجيبها الى كلِّ ما تسأله ، حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته ، وانتال الناس عليها وطمعوا فيها ، فكانت المواكبُ تغسِدو الى بابها ؛ قال : فكلمته يوماً في أمر لم يجد الى إجابتها اليه سهيلاً فاعتلَّ بعلَّةٍ ؛ فقالت : لا بد من إجابتي ؛ قال : لا أفعل ؛ قالت : فإنى قد تضمنتُ هذه الحاجة لعبد الله بن مالك ؛ قال : فغضب موسى وقال : ويلٌ على ابنِ الفاعلة ! قد علمتُ أنه صاحبها ، والله لا قضيتها له ! قالت : إذا والله لا أسألك حاجة أبداً ؛ قال : إذا والله لا أبالي ، وحى وغضب ؛ فقامت مُغضبةً ؛ فقال : مكانك تستوعى كلامى ، والله وإلا فانا نفي من قرايى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحدٌ من قوادى أو أحد من خاصتى أو خدعى لأضربن عنقه ولأقبضن ماله ، فمن شاء فليزِم ذلك ! ما هذه المواكبُ التى تغسِدو وتروحُ الى بابك فى كل يوم ! أما لك مغزلٌ يَسْغَلُك ، أو مُصْحَفٌ يَدَّكَّرُك ، أو بيتٌ يصوِّنُك ! إياك ثم إياك ما فتحت بابك لى "أولدى" ! فانصرفت ما تعقل ما تطأ ، فلم تنطق عنده بجُلوة ولا مُرَّة بعدها .

ولم يكتف الهادى بكلامه معها ، بل جمع قواده يوماً وقال لهم : أيما خير أنا أم أنتم ؟ قالوا : بل أنت يا أمير المؤمنين ؛ قال : فأيما خير أمى أم أمهاتكم ؟ قالوا : بل أمك يا أمير المؤمنين ؛ قال : فأيكم يحب أن يتحدث الرجلُ بخبر أمه فيقولوا فعلتُ أم فلان وصنعتُ أم فلان وقالت أم فلان ؟ قالوا : ما أحدٌ منا يحب ذلك ؛ قال : فما بال الرجالِ يأتون أمي فيتحدثون بحديثها ! فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها آلبتة ، فشق ذلك عليها ، فاعتزلته وحلفت لا تكلمه ، فما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة . وقد قالوا : إن الهادى حاول ستمها فلم يُفلح . على أن الخيزرانَ أفلحت في القضاء عليه حين مرض ، فقد ذكروا أنها دسَّت اليه من جواربها من قتلته بالجلوس على وجهه .

لنتنقل الآن الى الأمر الثالث وهو محاولته الغدر بأخيه الرشيد .

ولننظر في حوادث سنة سبعين ومائة، لنرى كيف أخلص آل برمك للرشد، فقد هم الهادي بتحويل الخلافة عنه لابنه جعفر، ولكن يحيى بن خالد ثبت في المحافظة على ولاية هارون، محتملاً في ذلك كل مكروه. وكان لبطانة الهادي أثر سيء في تشجيعه على خلع الرشيد ومبايعة جعفر، وكان فيمن بايعه يزيد بن مزيد وعبد الله بن مالك وعلى بن عيسى، ومن أشبههم، من أصحاب الأغراض.

ولم تزد الحوادث يحيى بن خالد إلا حرصاً على حق الرشيد، فصار يعلله ويسرى عنه، ولولاه لخلع الرشيد نفسه، بعد أن تنقصوه في مجلس الجماعة، وقالوا لا نرضى به، وصعب أمرهم حتى ظهر، وأمر الهادي ألا يسار قدام الرشيد بحرية، فاجتنبه الناس.

أما الأخبار عن كرمه فكثيرة. فمن ذلك ما رواه الطبري في حوادث سنة سبعين ومائة أنه أمر ذات ليلة بثلاثين ألف دينار لعيسى بن دأب أحد جلسائه وكان — كما وصفه الطبري — لذيذ الفكاهة، طيب المسامرة، كثير النادرة. ويقول على بن صالح: إنه كان يوماً على رأس الهادي وهو غلام، وقد كان جفاً مظالم عامة ثلاثة أيام، فدخل عليه الخزان فقال له: يا أمير المؤمنين إن العامة لا تنقاد على ما أنت عليه، لم تنظر في المظالم منذ ثلاثة أيام، فالتفت إلى وقال: يا على! ائذن للناس على الجفلى لا بالنقري، فخرجت من عنده أظير على وجهي، ثم وقفت فلم أدري ما قال لي، فقلت: أراجع أمير المؤمنين فيقول: أتخجبنى ولا تعلم كلامي! ثم أدركني ذهني، فبعثت إلى أعرابي كان قد وفد، وسألته عن الجفلى والنقري فقال: الجفلى جفالة، والنقري بنقر خواصهم، فأمرت بالستور فرفعت، وبالأبواب ففتحت، فدخل الناس على بكره أبيهم، فلم يزل ينظر في المظالم إلى الليل، فلما تقوَّض المجلس مثلت بين يديه، فقال: كأنك تريد أن تذكر شيئاً يا على؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، كتمتني بكلام لم أسمع قبل يومى هذا، وخفت مراجعتك فتقول أتخجبنى وأنت لم تعلم كلامي! فبعثت إلى أعرابي كان عندنا ففسر لي الكلام، فكأنه عني يا أمير المؤمنين، قال: نعم، مائة ألف درهم تُجمل إليه. قال: فقلت يا أمير المؤمنين،

لأنه أعرابي جُلْفٌ وفي عشرة آلاف درهم ما أغناه وكفاه ! فقال : ويلك يا علي
أجودُ وتبخل !

* *

وكان المهادي شديد الغيرة، ظاهر الشهامة . وهالك حديثاً لا يخلو من الأدب والفكاهة،
حدث به السندی بن شاهك قال : كنت مع موسى بجرجان، فأناه نعي المهادي والخلافة،
فركب البريد الى بغداد ومعه سعيد بن سلم ووجهني الى نراسان، فحدثني سعيد بن سلم
قال : سرنا بين أبيات جرجان وبساتينها قال فسمع صوتاً من بعض تلك البساتين من
رجل يتغنى، فقال لصاحب شرطته : علي بالرجل الساعة، قال : فقلت يا أمير المؤمنين
ما أشبه قصة هذا الخائن، بقصة سليمان بن عبد الملك ! قال : وكيف ؟ قال : قلت له :
كان سليمان بن عبد الملك في متنزّه له ومعه حرمة، فسمع من بستان آخر صوت رجل
يتغنى، فدعا صاحب شرطته فقال : علي بصاحب الصوت فأتي به، فلما مثل بين يديه
قال له : ما حملك على الغناء وأنت الى جنبي ومعى حرمة، أما علمت أن الرماك إذا تمت
صوت الفحل حنت اليه ! يا غلام جبّه ! فغضب الرجل، فلما كان في العام المقبل، رجع
سليمان الى ذلك المتنزه فجلس مجلسه الذي جلس فيه، فذكر الرجل وما صنع به، فقال
لصاحب شرطته : علي بالرجل الذي كذا جبيناه، فأحضره، فلما مثل بين يديه قال له :
إما بعث فوفيناك، وإما وهبت فكافأناك ؟ قال : فوالله ما دعاه بالخلافة ولكنه قال له :
يا سليمان ! الله الله ! إنك قطعت نسل فذهبت بماء وجهي، وحرمتني لذتي، ثم تقول :
إما وهبت فكافأناك وإما بعث فوفيناك ! لا والله ! حتى أقف بين يدي الله ! قال : فقال
موسى : يا غلام رد صاحب الشرطة فردّه، فقال : لا تعرض للرجل .

* *

وأما حبه للنجدة فيحدثنا به عمر بن شبة، إذ ذكر أن علي بن الحسين بن علي بن الحسين
ابن علي بن أبي طالب، وكان يلقب بالجزري، تزوج رقية بنت عمرو العثمانية، وكانت تحت

(١) الزمك : جمع زمكة بفتحين وهي الأنثى من البراذن .

المهدي؛ فبلغ ذلك موسى الهادي في أول خلافته، فأرسل اليه بفعله وقال: أعيالك النساء إلا امرأة أمير المؤمنين! فقال: ما حرم الله على خلقه إلا نساء جدى صلى الله عليه وسلم، فأما غيرهن فلا ولا كرامة؛ فشجه بمخضرة كانت في يده وأمر بضربه خمسمائة سوط فضرب، وأراد أن يطلقها فلم يفعل، فحمل من بين يديه في نطح فألقي ناحية، وكان في يده خاتم سري، فراه بعض الخدم وقد غشي عليه من الضرب، فاهوى إلى الخاتم فقبض على يد الخادم فدقها، فصاح وأتى موسى فأراه يده؛ فاستشاط وقال: يفعل هذا بخادمي مع استخفافه بأبي وقولي لي! وبعث اليه: ما حملك على ما فعلت؟ قال: قل له وسله ومره أن يضع يده على رأسك وليصدقك؛ ففعل ذلك موسى فصدقه الخادم؛ فقال: أحسن والله! أنا أشهد أنه ابن عمي لو لم يفعل لانتفيت منه وأمر بإطلاقه.

✱

وقد كان الهادي مثل أبيه محباً للآداب مشجعاً للشعراء، وكان على سنته في بغض الزنادقة ومقتهم، موقفاً في اختيار الوزراء، مصاباً كأبيه ببطانة سوء، همها الوقعة والوشاية وإغراء الخليفة والبيت المسالك باجتراح المآثم وأقتراف المظالم.

قال الطبري: إن عبد الله بن محمد المنقري حدث عن أبيه قال: دخل عيسى بن دأب على موسى بن عيسى عند منصرفه من نطح^(١) فوجده خائفاً يلتمس عذراً من قتل من قتل فقال له: أصلح الله الأمير، أنشدك شعرا كتب به يزيد بن معاوية إلى أهل المدينة يعتذر فيه من قتل الحسين بن علي رضي الله عنه؟ قال: أنشدني، فأنشده:

يا أيها الراكب الغادي لطيفه * على عذافيرة في سيرها حقم^(٢)

(١) نطح بفتح أوله وتشديد ثانيه: وادى الزاهر، ويوم نطح كان أبو عبد الله الحسين بن علي بن الحسن بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه خرج يدعو إلى نفسه في ذي القعدة سنة ١٦٩ هـ وبايعه جماعة من العلويين بالخلافة في المدينة وخرج إلى مكة فلما كان بفتح لقيته جيوش بني العباس وعليهم العباس بن محمد بن عبد الله بن عباس وغيره فالتقوا يوم التروية سنة ١٦٩ هـ فقتلوا جماعة من عسكره وأهل بيته، ولم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأبلغ من نطح وفيه دفن عبد الله بن عمر ونفر من الصحابة الكرام ما لم يخلص من ياقوت مادة «نطح».

(٢) العذافرة: الناقة الشديدة الامانة الوثيقة الظهيرة، أنظر لسان العرب مادة «عذفر».

أبلغ قريشاً على شحط المزار بها * بنى وبين حسين الله والرحم
وموقف بفناء البيت أشده * عهد الاله وما تُرعى له الذم
عنقتم قوهكم نخرا بأمكم * أتم حصاناً لعمري برة كرم
هي التي لا يُداني فضلها أحد * بنت النبي وخير الناس قد علموا
وفضلها لكم فضلٌ وغيركم * من قومكم لهم من فضلها قسم
إني لأعلم أو ظناً كعالمه * والظن يصدق أحياناً فيتنظم
أن سوف يترككم ما تطلبون بها * قتلى تهادا كم العقبان والرخم
يا قومنا لا تشبهوا الحرب اذ تحدث * ومسكوا بحبال السلم واعتصموا
لا تركبوا البغي إن البغي مصرة * وإن شارب كأس البغي يتنخم
قد جرب الحرب من قد كان قبلكم * من القرون وقد بادت بها الأمم
فأنصفوا قومكم لا تهلكوا بذخا * فرب ذي بذخ زلت به القدم

قال : فسرى عن موسى بن عيسى بعض ما كان فيه .

وإذا لم يكن بد من اختصار حياة الهادي في كلمة جامعة فنقل : إنه ورث عن أبيه
المهدي كرمه وغيرةه وحبّه للأدب ، وورث عن جدّه المنصور حزمه وشيئاً من ميله إلى الغدر .

الفصل الثامن

هارون الرشيد

يَا خَيْرَانَ هَذَا هَذَا * أَمْسَى يَسُوسُ الْعَالَمِينَ أَبَاكَ

بهذا يُعَانُ مروان بن أبي حفصة الشاعر الباهُ تَبَوُّاً الرشيد عرش الخلافة ، بعد أخيه الهادي ، بعهد من أبيه سنة سبعين ومائة هجرية . وبهذا يَهَيُّ الشاعرُ الخيزرانَ يَتَوَقَّلُ الرشيد لعرش كانت الخيزرانُ معذبةً مُعَنَّاةً بمن كان يعتليه قبل الرشيد . وقد يكون من المستصوب أن تترك ليوسف بن القاسم بن صبيح كاتب الرشيد ، يُعلنُ لنا ما أعلَنَهُ بنفسه الى العالم العربيّ ، من خبر اعتلاء الرشيد للخلافة ؛ فإنه ، بأسلوبه الرشيقيّ وبلاغته السهلة ومكانته من الرشيد ، أحقُّ بذلك وأجدرُّ ، ولا سيما وقد طُيِّرَتْ قطعته للخافقين ، مُنبئةً بموت خليفة وتويج خليفة .

قال يوسف بن القاسم بعد حمد الله عز وجل والصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم : «إن الله بمنّه ولطفه ، منّ عليكم معاشر أهل بيت نبيه ، بيت الخلافة ومعدن الرسالة ، وآتاكم أهل الطاعة ، من أنصار الدولة وأعوان الدعوة ، من نعمه التي لا تُحصى بالعدد ، ولا تُقضى مدى الأبد ، وأياديه التامة إذ جمع أُلُفَّتْكُمْ ، وأعلى أَمْرَكُمْ ، وشَدَّ عَضْدَكُمْ ، وأوهنَ عَدُوَّكُمْ ، وأظهرَ كلمة الحقّ ، وكنتم أولى بها وأهلها ، فأعزّكم الله وكان الله قوياً عزيزاً ؛ فكنتم أنصار دين الله المرتضى ، والذابين بسيفه المنتضى ، عن أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم . وبكم استنقذهم من أيدي الظلمة أئمة الجور ، والناقضين عهد الله ، والسافكين الدم الحرام ، والآكلين الفىء ، والمستأثرين به . فاذكروا ما أعطاكم الله من هذه النعمة ، واحذروا أن تُغَيِّرُوا فِيهِ بكم . وإن الله جل وعز استأثر بخليفته موسى الهادي الإمام فقبضه إليه ، وولى بعده رشيداً مرضياً أمير المؤمنين بكم رؤوفاً رحيماً ، من مُحْسِنِكُمْ قبولاً ،

وعلى مسيئكم بالعفو عَطُوفاً . وهو — أمتعه الله بالنعمة ، وحفظ له ما استترعه إياه من أمر الأمة ، وتولاه بما تولى به أوليائه وأهل طاعته — يَعدكم من نفسه ، الرأفة بكم والرحمة لكم ، وقَسَمَ أعطياتكم فيكم ، عند استحقاقكم ، ويبدل لكم من الجائزة مما أفاء الله على الخلفاء مما في بيوت الأموال ، ما ينوب عن رزق كذا وكذا شهرا غير مُقَاصٍّ لكم بذلك فيما تستقبلون من أعطياتكم ، وحاملاً باقى ذلك للدفع عن حريمكم ، وما لعله أن يحدث في النواحي والأقطار من العصاة المارقين الى بيوت الأموال ، حتى تعود الأموال الى حاميها وكثرتها والحال التي كانت عليها . فاحمدوا الله وجددوا شكرا يوجب لكم المزيد من إحسانه اليكم بما جدد لكم من رأى أمير المؤمنين وتفضل به عليكم أيده الله بطاعته ، وأرغبوا الى الله له في البقاء ، ولكم به في إدامة النعماء ، لعلكم تُرحمُون : وأعطوا صفقة إيمانكم وقوموا الى بيعتكم ، حاطكم الله وحاط عليكم ، وأصاح بكم وعلى أيديكم ، وتولاكم ولاية عباده الصالحين » .



بهذا الكتاب القيمّ البليغ ، أشعر العالم العربيّ بابتداء خلافة هارون الذي نستطيع بحقي أن نقول إنه أضخمُ الخلفاء المسلمين اسماً ، وأبعدهم صوتاً ، وأشدُّهم في الخيال تأثيراً ، فأنت لا تستطيع أن تسمع اسم هارون الرشيد ، حتى يُحدث في نفسك صورة خياليةً ، مختلفة النوع ، ولكنها متفكّكة في القوة ، فهو يُنشئ في نفسك حيناً صورة الخليفة المترّف ، المسرف في الترف ، الذي بلغ منه ما لم يبلغه أحدٌ قبله ولا بعده . وينشئ في نفسك حيناً آخر صورة الخليفة القوى ، الذي أذلّ أعداء الإسلام وبسط سلطان الخلافة على أطراف الأرض ، وأخذ ملوك الروم بدفع الجزية . وينشئ فيها مرّةً أخرى صورة الخليفة الحذر ، الذي بث الجواسيس ، ليعرف من أمر الناس ما ظهر وما خفى ، ثم لم يكتف بذلك بل استحال هو جاسوساً ، يطوف في الأسواق ، ويوغل في البيوت ، ويغشى المجالس والأندية ، حتى ألم بكل شيء ، وأحاط بكل خفية ، ثم بطش بأعدائه والمؤتمرين به بطشاً لم يستطع التاريخ أن ينساه . ثم يُنشئ في نفسك صورة الخليفة العالم الأديب ، الفقيه بألوان

العلم والدين والأدب ، المشجع للفقهاء والعلماء والشعراء والكُتّاب تشجيعاً أصبح فيه مثلاً لمن جاء بعده من الخلفاء والملوك في الشرق والغرب . ويُنبئ في نفسك أيضاً صورة الخليفة الوريث الزاهد ، المتهايك نُسكاً وطاعةً وتبلاً لله ، كما ينبئ في صورة الخليفة الذي لا يكاد يخلو إلى نفسه ويسدل الستار بينه وبين رعيته حتى يأخذ مع المجان في مجونهم ، فيُخيل اليك أنه لا يدع من سُبُل اللذة سبيلاً إلا سلكها وجنى ثمارها ، فمن غناء ، إلى شراب ، إلى عبث ، إلى استمتاع بالنساء ، من حرائر وإماء ، وهو بعد هذا كله سياسياً ، ماهراً ، بعيد النظر في تصرفه الأمور ، فيه حزم المنصور وعنفه وميله إلى الغدر والأثرة ، وكل ما يُشخص سياسة « ميكافلي » ، وفيه حلم معاوية ودهاؤه اللين المرن ، وسخاؤه بالمال واصطناعه الناس .

ومن غريب الأمر أن كل هذه الصور المتناقضة التي نلتابن أشد التباين ، قد اجتمعت حقاً في شخص هذا الخليفة ، لا كما يصورها المؤرخون والرواة والقصاص وأصحاب الأساطير ، بل اجتمعت اجتماعاً يختلف قوة وضعفاً باختلاف الظروف والمؤثرات الكثيرة التي كوّنت مزاجه وشخصيته ، وقصره ، وبيئته السياسية العامة ، فليس الرشيد في حقيقة الأمر ، شخصاً كغيره من الأشخاص يمثل نفسه وما ورث عن أسرته ، ولكنه امرأة اجتمعت أمامها صور مختلفة من الناس والكفايات والظروف فانعكست فيها هذه الصور .

فالرشيد يمثل كل هؤلاء الناس ، وكل هذه الأشياء ، وكل هذه الظروف التي شهدتها بغداد قرب آخر القرن الثاني للهجرة . ومن هنا كان من العسير جداً أن نستخلص منه صورة تاريخية صادقة ، بريئة من الغلو والإسراف .

فأما المؤرخون من العرب فقد تأثروا حين كتبوا عن الخلفاء وخاصة أصحاب الشخصيات البارزة منهم بكل ما عرفت أنهم تأثروا به ، من الإغراق والمبالغة والغلو في المدح تخليصين في أكثر الأحيان .

وأما المؤرخون من الفرنج فلم يسلم أشدُّهم احتياطا من التأثير بهذه الطائفة الضخمة من الأساطير التي بثها في نفوس الجماعات كتاب "ألف ليلة وليلة" منذ زمن طويل . وقد ظهر هذا التأثير مظهرين مختلفين ، مظهر المدح والإسراف فيه عند قوم ، ومظهر الذم والإغراق فيه عند قوم آخرين . وأولئك وهؤلاء يندفعون عن أنفسهم واحتياطهم ، بكل هذه المبالغات التي أحاطت بإحسان الرشيد وإساءته .

ونحن مجتهدون — لا في أن نعطيكم هذه الصورة الصادقة من الرشيد التي لا يزال التاريخ محتاجا إليها ، فليس ذلك غرضنا في هذا البحث ، وليس في هذا الكتاب مُتَّسَعٌ له ، بل في أن نُعطيكم صورة صادقة من فهم المؤرخين من العرب والفرنجة لعصر الرشيد ، غير مُهمِّلين مع ذلك أن نُسجِّل آراء لنا هنا وهناك حين نشعر بالحاجة الى ذلك ، لتوضيح مذهبنا في فهم عصر المأمون الذي نضع فيه هذا الكتاب .



يجمع المؤرخون العرب على ورع الرشيد وفضله وأدبه ، وسطة يده بالخير والعطاء ، وانطوائه على الجود والسخاء ، فقد ذكروا : أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة الى أن فارق الدنيا إلا أن تعرض له علة ، وكان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم بعد زكاته . وكان اذا حجَّ حجَّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم ، واذا لم يحجَّ حجَّ ثلاثمائة بالفقة السابغة والكسوة الباهرة . وكان يقتنى آثار المنصور ويطلب العمل بها إلا في بذل المال ، فانه لم ير خليفة قبله كان أعطى منه لئال ثم المأمون من بعده . وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخر ذلك في أول ما يجب ثوابه . وكان يحب الشعراء والشعر ، ويميل الى أهل الأدب والفقهاء ، وبكره المرء في الدين ويقول هو شيء لا نتيجة له وبالحرى ألا يكون فيه ثواب . وكان يحب المديح ولا سيما من شاعر فصيح ، ويشتره بالثمن الغالي .

ولقد كانت دولة الرشيد — كما يقول الفخرى — : دولة من أحسن الدول وأكثرها وقارا وروفا وخيرا وأوسعها رقعة مملكة ، جى الرشيد معظم الدنيا . ولم يجتمع على باب

خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقضاء والكتاب والندماء والمغنين من اجتمعوا على باب الرشيد، وكان يصل كل واحد منهم أجرل صلة ، ويرفعه أعلى درجة . وكان فاضلا شاعرا راوية للأخبار والآثار والأشعار، صحيح الذوق والتميز ، مهيبا عند الخاصة والعامة .



ولقد حاول الهادي أن يرغم الرشيد على خلع نفسه من الخلافة بعده ، وأن يكتب بولاية العهد لابنه جعفر، وقد تم له شيء من ذلك . وإنما لتجد في حوادث سنة سبعين ومائة هجرية الشيء الكثير من إخلاص آل برمك للرشيد لا سيما شدة محافضة يحيى البرمكي على حقوق الرشيد في ولاية العهد، فعذب وحبس وأودى في هذا السبيل إيذاء شديدا .

ولقد أظهر الرشيد، وهو ولي عهد، من الجرأة ومثانة الأخلاق والصرامة، ما هو حقيق بالإنعجاب . ولسنا نرى مندوحة من ذكر الرواية التي ذكرها محمد بن عمر الرومي ، فهي تعطينا صورة دقيقة لما نحن بسبيله، فقد حدث عن أبيه قال : جلس موسى الهادي بعد ما ملك في أول خلافته جلوسا خاصا، ودعا إبراهيم بن جعفر بن أبي جعفر وإبراهيم بن سلم ابن قتيبة والحزاني فجلسوا عن يساره، ومعهم خادم له أسود يقال له أسلم ويكنى أبا سليمان، وكان يثق به ويقدمه، فبينما هو كذلك، إذ دخل صالح صاحب المصلى فقال : هارون بن المهدي، فقال : آذن له ، فدخل فسلم عليه وقبل يديه وجلس عن يمينه بعيدا من ناحية، فأطرق موسى ينظر إليه وأدمن ذلك ثم التفث إليه فقال : يا هارون كأني بك تحدث نفسك بآام الرؤيا، وتؤمل ما أنت منه بعيد ، ودون ذلك نحرط القتاد ، تؤمل الخلافة ! قال : فبرك هارون على ركبتيه وقال : يا موسى إنك إن تجبرت وضعت ، وإن تواضعت رفعت ، وإن ظلمت خلت ، وإني لأرجو أن يفيض الأمر إلى ، فأضيف من ظلمت ، وأصل من قطعت ، وأصير أولادك أعلى من أولادي ، وأزوجهم بناتي ، وأبلغ ما يجب من حق الإمام المهدي . قال : فقال له موسى : ذلك الظن بك يا أبا جعفر! أدن مني ، فدنا

منه فقبل يديه ثم ذهب يعود الى مجلسه ؛ فقال له : لا والشيخ الجليل ، والملك النبيل ، أعني أبالك المنصور ، لا جلست إلا معي ! وأجلسه في صدر المجلس معه . ثم قال : يا حتراني إحمل الى أنحى ألف ألف دينار ، وإذا افتتح الخراج فاحمل اليه النصف منه وأعرض عليه ما في الخزائن من مالنا ، وما أخذ من أهل بيت اللعنة ، فيأخذ جميع ما أراد ؛ قال : ففعل ذلك . ولما قام قال لصاح : أدن دابته الى البساط .

قال عمرو الرومي : وكان هارون يأنس بي فقامت اليه فقلت : ياسيدي ما الرؤيا التي قال لك أمير المؤمنين ؟ قال : قال المهدي : أريت في منامي كاني دفعت الى موسى قضيباً والى هارون قضيباً ، فأورق من قضيب موسى أعلاه قليلاً ، فأما هارون فأورق قضيبه من أوله الى آخره ، فدعا المهدي الحكم بن موسى الضمري ، وكان يكنى أبا سفيان ، فقال له : عبر هذه الرؤيا ؛ فقال : يملكان جميعاً ، فأما موسى فتقل أيامه ، وأما هارون فيبلغ مدى ما عاش خليفة وتكون أيامه أحسن أيام ، ودهره أحسن دهر . قال ولم يلبث إلا أياماً يسيرة ثم اعتل موسى ، ومات وكانت علته ثلاثة أيام .

قال عمرو الرومي : أفضت الخلافة الى هارون فزوج حمدونة من جعفر بن موسى ، وفاطمة من إسماعيل بن موسى ، ووفى بكل ما قال ، وكان دهره أحسن الدهور .



ولقد كان الرشيد مشغولاً بالفنون والعلوم ، وكان قصره الزاهي الزاهر مركزاً لمختلف الثقافات . وأما ولعه بالشعر وضروب الآداب وإجازته الشعراء بسخاء فالحديث في ذلك طويل المنحى .

وكان الرشيد ، مع استمتاعه بمرافة الحياة ومناعمها : تزوج ست زوجات وتسرى عشرين أمة ذكر أسماءهن الطبري وأسماء أولاده منهن ، وكان ، مع تبرج المدنية في أيامه ، ومع إحيائه أندية اللغة والآداب والمنادمة ، ورعاً متأثراً بالمواعظ والزهديات . وسند ذكر لك طرفاً من مواقفه الدالة على خشيته لله ، وأدبه ، وورعه ، وتواضعه .

أما خشيتته لله وأدبه ؛ فقد ذكر بعضهم أنه كان من صحابة الرشيد بالرقّة بعد أن شخص من بغداد، فخرج معه يوما الى الصيد، فعرض له رجل من النساء فقال : يا هارون اتق الله ، فقال لإبراهيم بن عثمان بن نهيك : خذ هذا الرجل اليك حتى أنصيرف ، فلما رجع دعا بغداده ، ثم أمر أن يطعم الرجل من خاص طعامه ؛ فلما أكل وشرب دعا به فقال : يا هذا أنصيفني في المخاطبة والمساءلة قال : ذاك أقل مما يجب لك ؛ قال : فأخبرني أنا شر وأخبرت أم فرعون ؟ قال : بل فرعون ، قال : ((أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى)) وقال : ((مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)) . قال : صدقت ، فأخبرني : فمن خير : أنت أم موسى بن عمران ؟ قال : موسى كليم الله وصفيه اصطفاها لنفسه وأتمنه على وحيه وكلّمه من بين خلقه ؛ قال : صدقت ، أها تعلم أنه لما بعثه وأخاه الى فرعون قال لهما : ((فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)) . — ذكر المفسرون أنه أمرهما أن يكتنياه — هذا وهو في عتقه وجبروته ، على ما قد علمت ؛ وأنت جئتني ، وأنا بهذه الحالة التي تعلم أؤدى أكثر فرائض الله عليّ ، ولا أعبد أحدا سواه ، أقف عند أكبر حدوده وأمره ونهيه ، فوعظتني بأغلاظ الألفاظ وأشنعها ، وأخشين الكلام وأقظعه ، فلا بأدب الله تأدبت ، ولا بأخلاق الصالحين أخذت ، فما كان يؤمنك ، أن أسطوبك ، فاذا أنت قد عرضت نفسك لما كنت عنه غنيا ؛ قال الزاهد : أخطأت يا أمير المؤمنين وأنا أستغفرك ؛ قال : قد غفرك الله ، وأمر له بعشرين ألف درهم ؛ فأبى أن يأخذها وقال : لا حاجة لي في المال ، أنا رجل سائح ؛ فقال هزيمة ونحره : تردّ على أمير المؤمنين يا جاهل صلتك ! فقال الرشيد : أميك عنه ، ثم قال له : لم نُعطِكَ هذا المال لحاجتك اليه ، ولكن من عادتنا أنه لا يخاطب الخليفة أحد ليس من أوليائه ولا أعدائه إلا وصلته ومنعه ، فاقبل من صلتنا ما شئت وضعها حيث أحببت ؛ فأخذ من المال ألفي درهم وفزقها على الحجاب ومن حضر الباب .

وأما ورعه فقد ذكر ، أن أبا مريم المدني كان مع الرشيد وكان مضحكا له محذرا فكمها ، فكان الرشيد لا يصبر عنه ولا يميل محادثته ، وكان ممن قد جمع الى ذلك المعرفة

بأخبار أهل الحجاز، وألقاب الأشراف ومكاييد الحجاج، فبلغ من خاصته بالرشيد أن بؤاه منزلاً في قصره؛ وخطه بحرمه وبطانته ومواليه وغلماؤه؛ بغاء ذات ليلة وهو نائم وقد طلع الفجر وقام الرشيد إلى الصلاة فألفاه نائماً، فكشف الخفاف عن ظهره ثم قال له: كيف أصبحت؟ قال: يا هذا ما أصبحت بعد، اذهب إلى عملي؛ قال: ويلك! قم إلى الصلاة؛ قال: هذا وقت صلاة أبي الجارود، وأنا من أصحاب أبي يوسف القاضي، فمضى وتركه نائماً وتأهب الرشيد للصلاة، بغاء غلامه فقال: أمير المؤمنين قد قام إلى الصلاة، فقام فالتقى عليه ثيابه ومضى نحوه، فاذا الرشيد يقرأ في صلاة الصبح، فانهى إليه وهو يقرأ: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فقال ابن أبي مرزوق: لا أدري والله! فما تمالك الرشيد أن صحك في صلاته، ثم ألتفت إليه وهو كالمغضب فقال: يا ابن أبي مرزوق في الصلاة أيضاً! قال: يا هذا وما صنعت! قال: قطعت على صلاتي؛ قال: والله ما فعلت، إنما سمعت منك كلاماً غمى حين قلت: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فقلت: لا أدري والله، فعاد فضحك وقال: إياك والقرآن والدين ولك ما شئت بعدهما.

وأما تواضعه فترك الكلمة فيه لأبي معاوية الضرير، وهو من علماء دولته، فإنه يقول: أكلت مع الرشيد يوماً، فصب على يدي الماء رجلاً فقال: يا أبا معاوية أتدري من صب الماء على يديك؟ فقلت: لا يا أمير المؤمنين؛ قال: أنا؛ فقلت: يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا إجلالاً للعلم؛ قال: نعم. فتصور إلى أي حد بلغ صليعه!



ترك جانباً الآن التكلم عن البرامكة ونكبة البرامكة إلى فصل مستقل. وربما كان من المصلحة الفنية للكتاب أن يُفرد لكل بحث من بحوثه باب خاص، نستوعب فيه ما يجدر بنا استيعابه من تلك النواحي الهامة الشديدة الصلة بموضوعنا.

والآن نرى في عتقنا أن نتحدث إليك في أمور أربعة قد تفيدك في عهد الرشيد عامة وربما أفادت في تفهيم عصر المأمون خاصة وهي: (١) حقيقة السياسة الداخلية في عصر الرشيد؛ (٢) السياسة الخارجية؛ (٣) التكلم عن بعة الرشيد للأميين والمأمون والقاسم؛

(٤) التكلم عن الدولة البرمكية والنكبة البرمكية . وسنتوحي الإيجاز المقتنع من غير إخلال بما لا يليق بنا الإخلال به ، ولا سيما باب بيعات الرشيد ، فإننا لا نرى مندوحة من إثبات نصوصها لما لها من الخطر من حيث إنها أثر تاريخي خلاق بالدراسة والبحث .

١ - السياسة الداخلية

أنت جِدُّ عالم بما كان من تطّلع الطالبين للخلافة . وقد مرّ بك القول في تحفّزاتهم وخروجهم وحروبهم للخليفة العباسي ، الجالس على العرش ، كلّما واتهم القُرص وأمكنهم الأحوال .

وأنت جِدُّ عالم أن الخلفاء ما كانوا يركنون إلى جانبهم نفاساً وتباغضاً ، واصطداماً للصالحية الخاصة وتعارضاً . بيّد أن الرشيد وهو الرعوم بسجيته ، المحبّول على الخير بنزعتة ، رأى في أول عهده ، أن يحيدّ عليهم ويستلّ سخيمة العداوة من قلوبهم ، فرفع الحجر عن كان منهم ببغداد ، وسيرهم إلى المدينة ، ما عدا العباس بن الحسن بن عبد الله ، وكان أبوه مع ذلك فيمن أنشخص إلى المدينة .

لم يُشجع الطالبيون الرشيد على الاستمرار على خطّته تلك ، بل كان من بعضهم ما دفعه إلى تغيير خطّته السديدة ، إذ خرج عليه يحيى بن عبد الله أحد الناجين من وقعة « نخ » التي كانت في أيام الهادي ، ونزح إلى بلاد الديلم ، حيث قويت شوكتُه واشتدّ ساعده ، وهرع إليه الناس من الأمصار والكُور ، فاغتم الرشيد لذلك أيّما اغتنام وترك ، فيما يقول الرواة ، شرب النبيذ ، ثم ندب إلى قتاله الفضل بن يحيى بن خالد بن خمسين ألفاً ، ومعه من القوّاد صناديدهم ومن الجند شجعانهم ، فسار ستمت يحيى ، فمكاتبه ورفق به واستماله وبسط أمله ، وكاتب صاحب الديلم وجعل له ألف ألف درهم على أن يُسهّل له خروج يحيى ومحمّلت إليه ، فأجاب يحيى إلى الصلح والخروج ، على أن يكتب له الرشيد أمناً بخطه ، فبادر الفضل برفع ذلك إلى الرشيد ، فأثلج فؤاده وعظّم موقعه لديه ، وكتب أمناً ليحيى بن عبد الله وأشهد عليه القضاة والفقهاء وجملة بني هاشم ومشايخهم ، منهم عبد الصمد بن علي والعباس بن محمد ومحمد بن

ابراهيم ومن أشبههم ، ووجه به مع جوائز وكرامات وهدايا ، فوجه الفضل بذلك اليه فقدم يحيى بن عبد الله عليه .

وفي رواية أخرى أن يحيى بن عبد الله لما رأى الرشيد قد كتب الى صاحب الديلم يطلبه منه ويتهدده ، وأنه قد اشتد في مطاردته ، واقتفاء أثره ، طلب الأمان من الفضل ، فأمنه وحمله الى الرشيد .

ويحدثنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في حوادث سنة ست وسبعين ومائة : أنه لما ورد الفضل بن يحيى البرمكي يحيى بن عبد الله العلوي بغداد ، لقيه الرشيد بكل ما أحب ، وأمر له بمال كثير ، وأجرى عليه أرزاقاً سنوية ، وأنزله منزلاً سرّياً بعد أن أقام في منزل يحيى بن خالد أياما ، وكان يتولى أمره بنفسه ولا يكل ذلك الى غيره ، وأمر الناس بإتيانه بعد انتقاله من منزل يحيى والتسليم عليه ، وبلغ الرشيد الغاية في إكرام الفضل ؛ وفي ذلك يقول مروان ابن أبي حفصة :

ظَفِرَتْ فَلَا شَلَّتْ يَدُ بَرْمَكِيَّةٍ * رَتَقَتْ بِهَا الْفَتْقَ الَّذِي بَيْنَ هَاشِمٍ
عَلَى حِينَ أَعْيَا الرَّاثِقِينَ التَّنَائِمُ * فَكَفُّوا وَقَالُوا لَيْسَ بِالْمُسْلِمِ
فَأَصْبَحَتْ قَدْ فَازَتْ يَدَاكَ بِحُطَّةٍ * مِنَ الْمَجْدِ بَاقٍ ذِكْرُهَا فِي الْمَوَاسِمِ
وَمَا زَالَ قِدْحُ الْمَلِكِ يَخْرُجُ فَائِزًا * لَكُمْ كُلُّهَا صُتِمَتْ قِدَاحُ الْمُسَاهِمِ

ونوجه النظر هنا الى ظاهرة في شعر مروان وأبي قحافة الخطيب الذي أنشد في هذا المعنى أبياتاً له يُستدلُّ منها على اغتباط الشاعر ، وجمهرة الناس طبعاً ، بالوفاق بين العلويين والعباسيين والإشادة بذلك ، مفعرة للعاملين على رتق الفتق والتئام الصّدد . ولكن وأسفاه ! فإن للوجهة النفعية خطرَها بين الملوك وبين السّعاة بالنعيم ، ولها أثرها السيء في إلصاق تُهمّ بالأبرياء ، ولها مَغْبِطُها الضّارة في بذور الكراهية والبغضاء ، بين الملوك والزرعما .

وقد بينا لك أن الأمان الذي كتبه الرشيد ليحيى بن عبد الله قد أشهد عليه الفقهاء والقضاة وزعماء الشعب . وقد يكون من المفيد في تصوير ناحية من نواحي العصر أن نذكر

لك هنا نصيب هذا الأمان وحظه من بعض الفقهاء ، في الفتيا بنقضه وآخرين بالوفاء له . ولندع لأبي خطاب أحد المعاصرين الكلمة قال : إن جعفر بن خالد حدّثه ليلة وهو في سمره قال : دعا الرشيدُ اليومَ يحيى بن عبد الله بن حسن ، وقد حضره أبو البختريّ القاضي ، ومحمد بن الحسن الفقيه صاحب أبي يوسف ، وأحضر الأمان الذي كان أعطاه يحيى ، فقال لمحمد بن الحسن : ما تقول في هذا الأمانِ أصحّح هو ؟ قال : هو صحيح ؛ فحاجّه في ذلك الرشيدُ ؛ فقال له محمد بن الحسن : ما تصنع بالأمان لو كان محاربا ثم ولى كان آمنا ! فاحتلمها الرشيدُ على محمد بن الحسن ؛ ثم سأل أبا البختريّ أن ينظر في الأمان ؛ فقال أبو البختريّ : هذا الأمان مُنتَقَضٌ من وجه كذا وكذا ! فقال الرشيدُ : أنت قاضي القضاة وأنت أعلمُ بذلك ! ومزّق الأمان وتفل فيه أبو البختريّ !!

ولك أن تُعلّق ما شئت على تصرف أبي البختريّ ، الفقيه الدينيّ ، الذي أصبح بفتياه تلك قاضي القضاة ، ولك أن تستنبط ما أحببت في موقفه ومرونته حين مزّق الأمان ؛ ولم تزد قيمته في نظره على "قصاصات الورق" حتى تفل فيه . ولك أن تقول ما أردت في موقف زميله محمد بن الحسن الفقيه صاحب أبي يوسف وعدم ترخصه أو جوده .

أما نحن فإننا لا نعدو حُطَّتَنَا التي رسمناها لأنفسنا ، في مثل هذه المواقف ، من التزام الحيدة التامة وعدم الزج بأنفسنا في المزالق الخطورة ، والاكتفاء من ناحيتنا بتقييد الحوادث لا أكثر ولا أقل .

ولقد سعى بالنخبة بين الرشيد ويحيى بن عبد الله الساعون ، وكلما رق الرشيدُ له أثاروا في نفسه السخيمة عليه ، فقد ذكروا أن يحيى بن عبد الله قال للرشيد : يا أمير المؤمنين ، إن لنا قرابةً ورَحْمًا ولسنا بترك ولا ديلم ، يا أمير المؤمنين ، إنا وأنتم أهل بيت واحد ، فأذكرك الله قرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، علام تحببني وتعدبني ! قال : فرق له هارون ، ولكن الزيرى — وكان حاكما للمدينة أيام الرشيد ، وهو يعد من الأحزاب المعادية للعلويين واشتهر بنسبة البغض لهم ، وكان حاضرا مجلّهما — أقبل على الرشيد فقال : « يا أمير المؤمنين لا يترك كلام هذا ، فإنه شاق عاص ، وإنما هذا منه مكر وخبث ، إن هذا أفسد علينا مدينتنا ، وأظهر

فيها العصيان؛ قال : فأقبل يحيى عليه ، فوالله ما استأذن أمير المؤمنين في الكلام حتى قال : أفسد عليكم مدينتكم ! ومن أنتم عافاكم الله ! قال الزبيرى : هذا كلامه قدأمك ، فكيف إذا غاب عنك ! يقول : ومن أنتم استخفافا بنا ، قال : فأقبل عليه يحيى فقال : نعم ومن أنتم عافاكم الله ! المدينة كانت مهاجرة عبد الله بن الزبير أم مهاجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ومن أنت حتى تقول : أفسد علينا مدينتنا ! وإنما بأبائى وآباه هذا هاجر أبوك الى المدينة . ثم قال : « يا أمير المؤمنين إنما الناس نحن وأنتم ، فان خرجنا عليكم قلنا : أكلتم وأجعمتمونا ولبستم وأعريتمونا وركبتم وأرجلتمونا ، فوجدنا بذلك مقالاً فيكم ، ووجدتم بخرجنا عليكم مقالاً فينا ، فتكافأ فيه القول ، ويعود أمير المؤمنين على أهله بالفضل ، يا أمير المؤمنين فلم يجترئ هذا وضرباًؤه على أهل بيتك يسمي بهم عندك ! إنه والله ما يسعى بنا اليك نصيحة منه لك ، وإنما يأتينا فيسمى بك عندنا عن غير نصيحة منه لنا ، إنما يريد أن يباعد بيننا ، ويستغنى من بعض ببعض ، والله يا أمير المؤمنين لقد جاء الى هذا حين قُتِلَ أخى محمد بن عبد الله فقال : لعن الله قاتله ! وأنشدنى فيه مرثية قالها نحو من عشرين بيتاً ، وقال : إن تحزكت في هذا الأمر فأنا أول من يبايعك ، وما يمنعك أن تلحق بالبصرة فأيدينا مع يدك ! فنغدير وجه الزبيرى وأسود ، فأقبل عليه هارون فقال : « أى شيء يقول هذا؟ » قال : كاذب يا أمير المؤمنين ما كان مما قال حرف ! قال : فأقبل الرشيد على يحيى بن عبد الله وقال : تروى القصيدة التى رثاها بها؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين أصلحك الله ! وأنشدها إياه ، فقال الزبيرى : والله يا أمير المؤمنين الذى لا إله إلا هو — حتى أنى على آخر اليمين الغموس — ما كان مما قال شيء ، ولقد يقول على ما لم أقل . قال : فأقبل الرشيد على يحيى بن عبد الله فقال : قد حلف فهل من بينة سمعوا هذه المرثية منه؟ قال ، لا يا أمير المؤمنين ، ولكن أستحلفه بما أريد ، قال فاستحلفه ، قال : فأقبل على الزبيرى فقال : قل أنا برئ من حول الله وقوته موكل الى حولى وقوتى إن كنت قلته ، فقال الزبيرى : يا أمير المؤمنين أى شيء هذا من الحلف ! أحلف له بالله الذى لا إله إلا هو ويستحلفنى

بشيء لا أدرى ما هو ! قال يحيى بن عبد الله : يا أمير المؤمنين إن كان صادقاً فما عليه أن يحلف بما أستحلفه به ! فقال له هارون : إحلف له ويلك ! قال : فقال : أنا برىء من حول الله وقوته موكل الى حولى وقوتى . ويقول الطبرى : إنه اضطرب منها وأرعد ، فقال : يا أمير المؤمنين ما أدرى أى شيء هذه اليمين التى يستحلفنى بها وقد حلفت له بالله العظيم أعظم الأشياء . قال : فقال هارون له : لتحلفن له أو لأصدقن عليك ولا عاقبتك ! فقال : أنا برىء من حول الله وقوته موكل الى حولى وقوتى إن كنت قلتة ؛ قال : فخرج من عند هارون فضربه الله بالقالج فمات من ساعته .

وقد روى المؤرخون العرب فى صدد موت ذلك الزيرى روايات لا نرى بأسا بإيرادها ؛ فقد ذكر الفخرى أنه ما انقضى النهار حتى مات ؛ فحملوه الى القبر وحطّوه فيه وأرادوا أن يطمّوا القبر بالتراب فكانوا كلما جعلوا التراب فيه ذهب التراب ولا ينظم القبر فعلموا أنها آية سماوية ، فسقفوا القبر وراحوا . والى ذلك أشار أبو فراس بن حمدان فى ميمته اذ يقول :

يا جاهلداً فى مساوئهم يُكْتَمُّها * غدر الرشيد يحيى كيف ينكتم
ذاق الزيرى غيب الحنث وانكشف * عين فاطمة الأقوال واللهم

قالوا : ومع ظهور مثل هذه الآية العظيمة قُتل يحيى فى الحبس شر قتلة . على أن هناك رأياً آخر فى موت يحيى بن عبد الله ، وهو أن الموكل به فى الحبس منعه الأكل فمات .

ولننظر ما يرويه لنا معاصر وهو عباس بن الحسن عما كان من الرشيد بعد ما أصاب الزيرى مما أجمع رواة العرب على إصابته به لمركّذه فى قسيمه ؛ فقد قال : دخلنا على الرشيد ، فلما نظر إلينا قال يا عباس بن الحسن أما علمت بالخبر ؟ فقال أبى : بلى يا أمير المؤمنين ، فالحمد لله الذى صرعه بلسانه ، ووقاك الله يا أمير المؤمنين قطع أرحامك ؛ فقال الرشيد : الرجل والله سليم على ما يحب ، ورفع الست فدخل يحيى وأنا والله أتينا الارتياح فى الشيخ ؛ فلما نظر إليه الرشيد صاح به : يا أبا محمد ، أما علمت أن الله قد قتل عدوك الجبار ! قال : الحمد لله

الذى أبان لأمر المؤمنين كذب عدوه علىّ ، وأعفاه من قطع رحمه ، والله يا أمير المؤمنين لو كان هذا الأمر مما أطلبه وأصلح له وأريده - فكيف ولست بطالب له ولا مریده - ولم يكن الظفر به إلا بالاستعانة به ، ثم لم يبق في الدنيا غيرى وغيرك وغيره ، ما تقويت به عليك أبدا ، وهذا والله من إحدى آفاتك - وأشار الى الفضل بن الربيع - والله لو وهبت له عشرة آلاف درهم ثم طمع معى في زيادة ثمرة لباعك بها ، فقال : أما العباسى فلا تقل له إلا خيرا وأمر له في هذا اليوم بمائة ألف دينار ، وكان حبسه بعض يوم . قال أبو يونس : كان هارون حبسه ثلاث حبسات مع هذه الحاسة وأوصل اليه أربع مائة ألف دينار .

✽

وبعد ، فقد عُنِينَا بِإثبات الروايات فيما كان من سيرة هذا الخليفة العباسى مع علوى من رجالات عصره لتبيين نفسية المعاصرين والولاة ، وما انطوت عليه صدورهم من حب لآل علىّ وتوقير لأشخاصهم ، وعتهم بالكرامات والمعجزات . وإذا اعتبرت أن هذا كله قد حصل في عهد خليفة عظيم بسخائه وفواضله ، محبوب لماثره ونوافله ، قوى في مملكته ، كثير الأنصار في شيعته ، أيقنت أن للحزب العلوى أنصارا يُعتدُّ بهم ، ومكانة في النفوس يُحفلُ بها . وهذا معقول جدا ، وإنك لتستسيغه من نفسك وفهمك اذا ذكرت أن أنصار هذه الدولة هم من الفرس . وأنت تعلم ما كان بين الفرس والعرب عامة وبين الموالى وبني أمية خاصة من عدا وشتجار ، ومقت وكرهية ، وأنت تعلم أن الدعوة في بداية أمرها كانت للعلويين دون غيرهم ، وأن القائمين بها كانوا من الفرس ، فمن المعقول أن تُشرب قلوبهم حب هذه الدعوة وأفراد هذه الدعوة ، والتغنى بمذهب هذه الدعوة ، منذ الساعة الأولى ، ولا يزيد مرور الزمان كل دعوة أو مذهب حزبي إلا قوة وانتشارا وكثرة أنصار ورسوخ عقيدة . فلنلاحظ ذلك جيدا ، فإنه قد يفيدنا في تعليل بعض أفعال البرامكة .

ولنرجع الى التحدث معك باختصار عن بقية الحوادث الداخلية في عصر الرشيد ، ولنقسم القول الى ناحيتين : أولاها ثورات ناتجة عن العصبية ، وثانيتهما فتوق وثورات في شتى ولاياته .

أما الحوادث العصبية بين النزارية واليمينية وغيرهما ، فإن ابن جرير الطبري يحدّثنا أن قد وقع هياج في الشام سنة ست وسبعين ومائة بين النزارية واليمينية ، ورأس النزارية يومئذ أبو الهيثم ، فولى الرشيد موسى بن يحيى بن خالد ، وضم إليه القواد والأجناد ومشايخ الكتاب ، فذهب اليهم وأصلح بينهم حتى سكنت الفتنة .

وأما الثورات الأخرى فإنا نجد في أخبار سنة ثمان وسبعين ومائة ، وسنة ثمانين ومائة ، وسنة سبع وثمانين ومائة ، ما يدل على حصول فتن وحروب من جرّاء المصيبة أيضا . ولقد حصلت حروب في نجران والطالقان وحوران والجزيرة واليمن ومصر وأرمينية وحمص لرافع بن ليث ، وكان النصر في أكثرها لحليف جيوش الرشيد وولاته . على أن جل هذه الثورات ناجم في الواقع عن اتساع رقعة المملكة ، وسرعة تبديل الولاة ، وسوء تصرف بعض هؤلاء الولاة ، ولا سيما في جباية الأموال ، ومحاولة إرضاء الخليفة من جهة ، ومطامعهم الخاصة من جهة أخرى .

وإنما لنجتري بما قد مناه لك عن السياسة الداخلية أيام الرشيد ونتقدم الآن الى الكلام عن السياسة الخارجية .

٢ السياسة الخارجية :

أما ملخص السياسة الخارجية أيام الرشيد فيمكن تقسيمه الى نقطتين : الأولى علاقته بالروم ، والثانية علاقته بالأندلس .

فأما علاقته بالروم فقد أشارت دائرة المعارف الإسلامية ، في مبحثها عن الرشيد ، الى أن حروبا بلغت نهاية الشدة قد وقعت بين الرشيد والبنظيين . وقالت : إن ولاية الرشيد عملوا منذ بداية عهده على تقوية الحصون التي على الحدود ، وأنهم كانوا يقومون بغزوات في البقاع المعادية من غير أن يربحوا غنائم مستديمة ، وأن الرشيد غزاهم بنفسه سنة ١٨١ هـ (٧٩٧-٧٩٨ م) ، بيد أنه عجل بعودته ، ثم شبت حرب في السنة التالية كالعادة ، وإذا كانت الأمباطورة إيرين كانت تعاني متاعب داخلية فقد عجلت بالصلح على أن تدفع الجزية .

على أن هذا الصلح لم يدم إلا ريثما تنبأ الأمبراطور نيقفور أريكته سنة ١٨٦ هـ (٨٠٢ م) فقد بعث الى الخليفة بكتاب مهيّن طلب فيه أن يُعيد اليه الجزية التي أدّيت من قبل ، فلم يحفل الخليفة بشروط الصلح فعادت الحروب .

وفي سنة ١٩٠ هـ (٨٠٦ م) استولى هارون على "هَرَقلَة" واضطر الأمبراطور الى أن يدفع جزية جديدة ، عن نفسه وعن أسرته ، فوق الجزية العامة . وفي السنة التالية هزم البزنطيون يزيد بن مقلد ، وكانت أغلاط هرثمة معهم مماثلة لأغلاط « ابن مقلد » .

ويقول بعض المؤرخين الغربيين : إن هارون كان على علاقة حسنة بـشـلـمـان ، وقد ذكر أن كليهما كان يبعث سفيرا عند الآخر . على أنه لم يرد ذكر لذلك في المراجع العربية ، وإنه ليشك كثيرا في صحة هذه الرواية . وأما علاقته بالأمويين في الأندلس ، فلم يكن مرجحوا أن تكون علاقة صفاء ومودة ، فقد كان العباسيون يعدونهم خارجين على سلطانهم ، ولا يرون في دولتهم نظيرا يستحق أن يعيش وإياهم في سلام وهدوء .

وقد ظهرت أيام الرشيد دولة الأدارسة في المغرب الأقصى ، وذلك أن إدريس بن عبد الله كان ممن هرب من وقعة « فتح » وهو أخو يحيى بن عبد الله ، فسار الى مصر وشخص منها الى بلاد المغرب الأقصى ، حيث التفت حوله جماعة أوربة ، فأنشأ هناك أول خلافة للعلويين وهي دولة الأدارسة .

وظهرت كذلك أيام الرشيد دولة الأغالبة في إفريقية ، فإنه ولّاها إبراهيم بن الأغلب التميمي ، ليجعل من مملكته حاجزا منيعا بين الخلافة العباسية والأدارسية الذين بالمغرب الأقصى ، وكذلك بينه وبين الأندلسيين ، وكانت توليته سنة أربع وثمانين ومائة ، فعظم أمره ، وصار كملك مستقل ، إلا أنه كان يخاطب للرشيد .

٣ - التكلم عن البيعة

والآن نتحدث اليك عن أكبر أغلاط الرشيد، وأبعدها أثراً في حياته وفي الدولة العباسية؛ بل في حياة المسلمين السياسية بوجه عام، وهي بيعته بولاية العهد الثلاثية لأبنائه الأمين والمأمون والقاسم .

وقد قدمنا لك في الكتاب الأول رأينا في هذا النوع من احتياط الخلفاء لأنفسهم ولأبنائهم ، وما كان له من الأثر السيئ في حياة القصور خاصة وفي السياسة عامة ، ولا سيما البيعة بولاية العهد لأكثر من واحد ، فقد كان ذلك ينشئ بطانات مختلفة ، ويكوّن أحزاباً لا تلتف حول مبدأ أو فكرة وإنما تلتف حول الأشخاص والمنافع التي تنتظر منهم .

وهذه البطانات والأحزاب ، تتنافس في القصر ، فتفسد على الخليفة والأمراء حياتهم الخاصة ، وتقطع ما بينهم من صلوات كان يجب أن تُرعى حرمتها . كما أنها تتنافس خارج القصر ، فتفسد على الدولة سياستها العامة فتصرفها عن مرافقها الداخلية ، كما تصرفها عن الاحتياط لحماية الثغور والاحتفاظ بمهابتها الخارجية .

ومع أن هذا النوع من البيعة بولاية العهد الثنائية أو الثلاثية سُنّة أموية ، آتت ثمرها الخبيث ، وجرّت على الأمويين أنواع الوبال فزقّتهم وأضاعَت ملكهم ، كما قدمنا ، وكان المعقول أن يستفيد العباسيون من هذا الدرس ، ويعرضوا عن سُنّة منكّرة في نفسها ، وقد سنّها أعداؤهم السياسيون — مع هذا كله تورّط الرشيد فيما تورّط فيه عبدُ الملك ، وخلفاء عبد الملك ، وتعرّضت الدولة العباسية لما تعرّضت له الدولة الأموية ، بل كان خطر هذه السُنّة على العرب أيام بنى العباس أشدّ منه أيام بنى أمية . ذلك أن سقوط الدولة الأموية قد نقل السلطان من أُسرة إلى أُسرة واحتُفيظ به لقريش . فإما أثر هذه السنة أيام بنى العباس فهو نقل السلطان الفعلي من العرب إلى الفرس ثم إلى الترك ، وجعل الخلافة نوعاً من العبث والسخرية في أيدي المتغلبين من القواد والخدم والرقيق .

ومهما نلتبس الأسباب لتورط الرشيد في هذه السنة التي كان يجب أن يتجنبها فلن نستطيع أن نهمّل سببين أساسيين : أحدهما تأثر القصر العباسي بسنن الملك الفارسي القديم وسياسته . والآخر تأثر الخلفاء بما كان للنساء، حرائهن وإمائهن، من سلطان ونفوذ . فلولا هذان السببان لما تورط الرشيد في هذه السنة التي تورط فيها أبوه المهدي ، وذاق هو غير قليل من ثمرها .

ستقول : ولكن الرشيد احتاط ، فأخذ على أنبائه العهود والمواثيق أن يفى بعضهم لبعض ، ويبر بعضهم ببعض . ولكن ما قيمة هذا الاحتياط أمام سطوة الملك وسلطانه ، ومطامع الإنسان التي لا حد لها ؟ وما قيمة هذه العهود والمواثيق وقد أثبت التاريخ في جلّ مراحلها أنها لا تُعتبر عهودا ومواثيق إلا عند الضعفاء من الأمم والأفراد ، أما الأقوياء وذوى السلطان والبطش فهي عندهم ليست بعهود ولا مواثيق ، إنما هي « قَصَاصَاتُ وَرَقٍ » لا أكثر ولا أقل ؛ وقد يُقَيُّ بأنها « قصاصات ورق » أولئك الذين وكّدوها وشهدوا على صحتها ، وتضامنوا في البرّ بها والوفاء لأصحابها !

وقد كان الخلفاء قبل الرشيد يحنطون لكلبيعة فيها أخذ للعهد والمواثيق . ومع ذلك لم ينفع هذا الاحتياط أيام بني أمية ولا أيام بني العباس .

وليك الآن أحاديث المؤرخين من العرب وغير العرب في هذا الموضوع :

لما لاحظ الفضل بن يحيى سنة خمس وسبعين ومائة أن جماعة من بني العباس قد مدّوا أعناقهم إلى الخلافة بعد الرشيد لأنه لم يكن له وليّ عهد ، أجمع على البيعة لمحمد ، ولما صار الفضل بن يحيى إلى خراسان فزق في أهلها أموالا وأعطى الجند أعطيات متتابعات ، ثم أظهر البيعة لمحمد بن الرشيد ، فبايع الناس له وسماه الأمين . وفي ذلك يقول النمرى :

أمسى بمرو على التوفيق قد صَفَقْتُ * على يد الفضل أيدي العُجم والعرب
بيعة لوليّ العهد أحكمها * بالنصح منه وبالإشفاق والحَدَب
قد وكّد الفضل عقدا لا انتقاض له * لمصطفى من بني العباس مُتَخَب

ولما تنهى الخبر الى الرشيد بذلك وباع له أهل المشرق بايع ، وكتب الى الآفاق
فبُوع له في جميع الأمصار . فقال أبانُ الاحقّ في ذلك :
عَزَمْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الرُّشْدِ * بِرَأْيِ هَدَى فَالْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي الْحَمْدِ

ويقول لنا اليعقوبى في هذا الصدد : إن هارون بايع لابنَه محمد بالعهد من بعده
سنة ١٧٥ هـ ومحمد ابن خمس سنين ، وأعطى الناس على ذلك عطايا جمّة ، وأخرج محمد الى
القواد ، فوقف على وسادة لحمد الله وصلى على نبيه ، وقام عبد الصمد بن علي ، فقال :
أيها الناس لا يغرنكم صغر السن ، فإنها الشجرة المباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء .
وجعل الرجل من بنى هاشم يقول في ذلك حتى انقضى المجلس ، وثُرت عليهم الدراهم والدنانير
وفار المسك وبيض العنبر .

ويقول لنا الطبرى في حوادث سنة اثنتين وثمانين ومائة : أن فيها كان انصراف الرشيد
من مكة ، ومسيره الى الرقة ، وبيعه بها لابنه عبد الله المأمون بعد ابنه محمد الأمين ، وأخذ
البيعة له على الجند بذلك بالركة ، وضمه إياه الى جعفر بن يحيى وأنه قد بوع له بمدينة السلام
حين قدمها ، وولاه أبوه خراسان وما يتصل بها الى همدان ، وسماه المأمون . وقد قال
في ذلك سلم بن عمرو الخاسر :

بايع هارونُ إمامَ الهدى * لِذِي الْجَبَا وَالْخُلُقِ الْفَاضِلِ
الْمُخْلِيفِ الْمُتَلَفِ أَمْوَالَهُ * وَالضَّامِنِ الْأَنْتِقَالِ لِلْعَامِلِ
وَالْعَالِمِ النَّاقِدِ فِي عِلْمِهِ * وَالْحَاكِمِ الْفَاضِلِ وَالْعَادِلِ
وَالرَّاتِقِ الْفَاتِقِ حَلِيفِ الْهَدَى * وَالْقَائِلِ الصَّادِقِ وَالْفَاعِلِ
نَحِيرِ عَبَّاسٍ إِذَا حَصَّلُوا * وَالْمُفْضِلِ الْمَجْدَى عَلَى الْعَائِلِ
أَبْرَهُمْ بَرًّا وَأَوْلَاهُمْ * بِالْعُرْفِ عِنْدَ الْحَدَثِ النَّازِلِ
لِمَشْيِهِ الْمَنْصُورِ فِي مَلِكِهِ * إِذَا تَدَجَّتْ ظِلْمَةُ الْبَاطِلِ
فَتَمَّ بِالْمَأْمُونِ نُورُ الْهَدَى * . . . وَانْكَشَفَ الْجَهْلُ عَنِ الْجَاهِلِ

وفي سنة تسع وثمانين ومائة بايع الرشيد لابنه القاسم بعد المأمون ، وجعل أمر القاسم في خلعه وإقراره الى عبد الله إن أفضت الخلافة اليه .

وأراد الرشيد أن يؤثّق الأمر بين بنيه في ولاية العهد ، حتى يسدّ دونهم باب الفتنة ، فرأى أن خير وسيلة لذلك هي ما يحدثنا عنها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في حوادث سنة ست وثمانين ومائة إذ يقول : حج هارون ومحمد وعبد الله معه وقواده ووزرائه وقضاؤه في سنة ١٨٦ هـ ، وخلف بالرقّة إبراهيم بن عثمان بن نهيك العكي على الحرم والخزائن والأموال والعسكر ، وأشخص القاسم ابنه الى منبج ، فأنزله إياها بمن ضمّ اليه من القواد والجنود ، فلما قضى مناسكّه ، كتب لعبد الله المأمون ابنه كتابين جهده الفقهاء والقضاة آراءهم فيهما : أحدهما على محمد بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه من تسليم ما وليّ عبد الله من الأعمال وصير اليه من الضياع والغلات والجواهر والأموال . والآخر نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله على محمد وعليهم ، وجعل الكتابين في البيت الحرام ، وبعد أخذه البيعة على محمد وإشهاده عليه بها الله وملائكته ومن كان في الكعبة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتابه وغيرهم ، وكانت الشهادة بالبيعة والكتاب في البيت الحرام ، وتقدّم الى المحبة في حفظهما ومنع من أراد إخراجهما والذهاب بهما ، فذكر عبد الله بن محمد ومحمد بن يزيد التميمي وإبراهيم الحنفي : أن الرشيد حضر وأحضر وجوه بني هاشم والقواد والفقهاء وأدخلوا البيت الحرام وأمر بقراءة الكتاب على عبد الله ومحمد وأشهد عليهما جماعة من حضر ، ثم رأى أن يعلّق الكتاب في الكعبة . فلما رفع لعلّق وقع فقيل : إن هذا الأمر سريع انتقاضه قليل تمامه . وقد أثبتنا الكتابين ، لعظيم خطرهما التاريخي ، في باب المنشور في الكتاب الثاني من المجلد الثاني .

وبعد ، فإن لعصر الرشيد مكانته وقدره ، فقد ازدهرت فيه الحضارة الإسلامية أيما ازدهار ، وظهرت فيه آثار تحول المدنية في العصور التي سبقتها ، كما أثره في العصور التي تلتها . ولقد صدق صاحب «النجوم الزاهرة» فيما رواه عن أبي علي صالح بن محمد الحافظ ،

قال : «اجتمع للرشيـد ما لم يجتمع لغيره : وزراؤه البرامكة ، وقاضيه أبو يوسف ، وشاعره مروان بن أبي حفصة ، ونديمه العباس بن محمد عم أبيه ، وحاجبه الفضل بن الربيع أنه الناس وأعظمهم ، ومغنيه إبراهيم الموصلي ، وزوجته زبيدة بنت عمه جعفر»

ولنا لخير مبحثنا في حياة الرشيد وعصره ، بكلمة تبين وجهة نظر مؤرخ كبير المكانة في الشـرقيات وهو الأستاذ «ميور» ، ونتقدم بملاحظة واحدة وهي شدته على هارون الرشيد . وقد يكون الذي دفعه الى ذلك تأثره بمرجعه العظيم الذي وضعه الأستاذ «ويل» . وقد اعترف «ميور» نفسه بأن «ويل» كان بالغاً في قسوته على هارون مبالغاً عظيماً على نقيض ما عهد فيه من الحيدة والهدوء في أحكامه ، فقد اعتبره من الظلم في الذروة ، ولم يكن الرشيد من الرداءة بمبلغ من سبقه ومن أتى بعده . ويظهر أن الفاجعة البرمكية هي التي أعطته هذه الأسبقية التي لا يُغبط عليها في حكاية الشرق وتاريخه .

وسنرى مع محاولة الأستاذ «ميور» الرد على الأستاذ «ويل» في حاشية كتابه ، أن كتابته عن الرشيد ، مع حظها العظيم من المتانة والإنصاف ، لا تزال عليها غلالة من صرامة «ويل» وقواعد تقده .

ترجم لك رأى «ميور» ، لأنه يكاد يكون صورة صحيحة للرأى العلمى الأخير في الرشيد ، فهو لا يعدو الرأى الذى أبداه الأستاذ ك . ف . «زتوستين» في العدد الثانى والعشرين من دائرة المعارف الإسلامية . ونحن جد عاين بخطر المراجع العديدة التي استند عليها «زتوستين» في رأيه في الرشيد . فلننقل لك الآن كلمة «ميور» فهي مثل الأخرى إن لم تكن أوسع وأبلغ .

قال الأستاذ «ميور» في كتابه عن الخلافة : «إن مكانة هارون الرشيد وأبنه المأمون في التاريخ لم تسمى مكانة بلغها الخلفاء العباسيون ، وإن هارون لقمين بأن يكون في الذروة مع الخيرة من أفاضل ملوك أسرة بنى أمية ، لولا شائبة الفسادة المنطوية على الختل التي وصمت سيرته بجماء .

لقد كان الرشيد في قصوره محوطاً بضروب الرفاهية والرغد، وكان ملكاً في مكارمه وجوده، ومع ذلك قد ترك في أقبائه خزائن عامرة بلغت تسعمائة مليون، جمعت بوسائل العسف وعدم التدقيق. وإذا استثنينا ما ذكرناه فإن إدارته كانت عادلة موفقة.

ولما كان الرشيد قد اعتاد منذ ميعة شبابه الحياة الحربية فإنه كثيراً ما شاطر جنده ميدان القتال. وقد كان من جرّاء انتصاراته العديدة، لا سيما على اليونان (الروم)، أن طبع عصره بطابع المحيد والصبيت.

ولم يظهر خليفة من قبل أو بعده، ما أظهره الرشيد من الهمة والنشاط في مختلف حركاته، سواء أكانت في سبيل الحج أم الإدارة أم الحرب.

على أن أصل شهرة هذا الخليفة، ومصدر صيته، راجع إلى أن حكمه عجل بدخول عصر الآداب، فقد كان قصره المثابة التي يهرع إليها الحكماء والعلماء من أنحاء العالم، وكانت سوق البلاغة والشعر والتاريخ والفقه والطب والموسيقى والفنون نافقة، إذ يقابلها الخليفة مقابلة من في سجيته النبيل والكرم، كل ذلك مما آتى أكله وثمره الناجح في العصور الآتية.

لقد كان الرشيد يجيز العلماء في كل فن جوائز ملكية نبيلة، على أن الشعراء كانوا موضع كرمه الخاص. وهالك مثلاً ما أجاز به مروان بن أبي حفصة حين مدحه بمدحته فيه، فرفده الرشيد بكيس فيه خمسة آلاف دينار وكساه خلعتاه تشريقاً له، وأمر له بعشرة من رقيق الروم، وحمله على برذون من خاص مراكبه. ١٥

٤ — الدولة البرمكية والنكبة البرمكية

صدق الفخرى إذ يقول: إن دولة البرامكة كانت غمرة في جبهة الدهر، وتاجاً على مفرق العصر، ضربت بمكارمها الأمثال، وشدت إليها الرحال، ونيطت بها الآمال، وبذلت

لها الدنيا أفلاذ أكبادها، ومنحتها أوفر إسماعداها، فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة، والبحور زاهرة، والسيول دافعة، والحيث ماطرة، أسواق الآداب عندهم نافقة، ومراتب ذوى الحرمات عندهم عالية، والدنيا في أيامهم عامرة، وأبهة المملكة ظاهرة، وهم ملجأ اللهيئ ومعتصم الطريد، ولهم يقول أبو نواس :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم * بنى برمك من راحين وغاد

ويؤخذ من المباحث التاريخية الحديثة للشرقين : أن البرامكة هم أسرة فارسية أنتجت أول الوزراء الفرس للخلافة . وليست لفظة برمك باسم لشخص ، وإنما تدل على رتبة وراثية خاصة برئيس الكهّان بمعبد «نوبهار» ببلخ . وكانت البرامكة تملك الأراضي التابعة للمعبد، ويبلغ طولها ثمانية فراسخ وعرضها أربعة، فكانت مساحتها أربعين وسبعائة ميل مربع . ولم تزل هذه الممتلكات أو بعضها في حوزة البرامكة في الأيام التالية . ويقول ياقوت : إن قرية « روان » — الكبيرة الغنية — وهى شرق بلخ كانت في حوزة يحيى ابن خالد .

ومعنى الاسم بالسنسكريتية : الدير الحديد . وكان هذا الدير عبارة عن دير بوذى . وقد وُصف كذلك بوساطة حاج صينى اسمه «هوان شانج» فى القرن السابع للمسيح فى كتاب اسمه «ذكريات على البقاع الشرقية» وقد ترجمه الى الفرنسية «سنت جوليان» . على أن هذا المعبد كان معروفا لبعض الجغرافيين من العرب أمثال ابن الفقيه (أنظر طبعة جوج ص ٣٢٢) إذ قُدر أن النوبهار كانت مخصصة لعبادة الأوثان لا النار . وإذا تركنا جانبا بعض المبالغات فى وصف ابن الفقيه، فإننا نجد وصفه مطابقا للبودية .

فلنلاحظ هذه العبادة لأقطاب من زعماء الفرس لعبوا دورا هاما فى التاريخ العباسى . ولنلاحظها جيدا، فربما أفادتنا فى إمطة اللثام قليلا عن عبادات لغات عديدة اعتبرت زنادقة أو مانية أو ملحدية . ومهما كانت هذه الفئات موضع اضطهاد من خلفاء العصر، فإنه من المبالغة الكتابية التى لا تُرضى العلم ولا التاريخ فى شيء، ألا يُحفل بها

أولا يشار إليها إشارة طفيفة، اذا لم يكن لدينا من المواد ما يسمح لنا بأن نُقَرِّد لدراستها باباً، كما حفل بها الخلفاء فأفردوا لها إدارة أسموا رئيسها «صاحب الزنادقة» .

ولعل أول ذكرٍ لبرمكي حفل به التاريخ واعتبره مؤسساً لتلك الأسرة البرمكية التي نبغت في تلك الأيام الزاهية الزاهرة والتي امتدت الى أن انقضت في أيام الرشيد، ونُظِرَ اليه باعتباره جد البرامكة، هو خالد بن برمك الذي استوزره السفاح بعد أبي سلمة الخلال وأبي الجهم . كان خالد بن برمك من رجالات الدولة العباسية، فاضلاً جليلاً كريماً حازماً يقطاً، استوزره السفاح وخف على قلبه، وكان يسمى وزيراً . وقيل : إن كل من استوزر بعد أبي سلمة كان يتجنب أن يسمى وزيراً، تطيراً مما جرى على أبي سلمة، ولقول من قال :
إن الوزير وزير آل محمد * أودى فن يشناك كان وزيراً

قالوا : فكان خالد بن برمك يعمل عمل الوزراء ولا يسمى وزيراً . كان خالد عظيم المنزلة عند الخلفاء . قيل : إن السفاح قال له يوماً : يا خالد ما رضىبت حتى استخدمتنى ؟ ففرع خالد وقال : كيف يا أمير المؤمنين وأنا عبدك وخادمك ! فضحك وقال : إن ربطة أبتى، تنام مع ابنتك في مكان واحد، فأقوم بالليل فأجدهما قد سرح الغطاء عنهما، فأردّه عليهما، فقبل خالد يده وقال : مولى يكتسب الأجر في عبده وأميته .

وكثير الوافدون على باب خالد بن برمك، ومدحه الشعراء، وانتجعه الناس . وكان الوافدون يسمون سُؤْالاً، فقال خالد : إني أستعجب هذا الاسم لمثل هؤلاء وفيهم الأشراف والأكابر، فسماهم الزوّار، وكان خالد أول من سماهم بذلك، فقال له بعضهم : والله ما ندرى أى أياديك عندنا أجل، أصلتنا أم تسميتنا ! .

ولقد مدحه بشار بن برد فقال فيه :

لعمري لقد أجدى على ابن برمك * وما كل من كان الغنى عنده يُجدي
حلبت بشمرى راحتيه فدرت * سمّا كما در السحاب مع الرمد
إذا جئت له للحمد أشرق وجهه * اليك وأعطاك الكرامة بالحمد

لَهْ نَعَمٌ فِي الْقَوْمِ لَا يَسْتَشِيرُهَا * جزاءً وكيلاً التاجر المذموم بالمد
مُفِيدٌ وَمِتْلَافٌ سَبِيلُ ثَرَايِهِ * إذا ما غدا أوراخ كالجَزْرِ والمذ
أَخَالِدُ إِنِّ الْجَمْدَ يَبْقَى لِأَهْلِهِ * جمالا ولا تبقى الكنوز على الكد
فَأَطِيعْ وَكُلْ مِنْ عَارَةِ مَسْتَرْدَةٍ * ولا تُبْقِهَا إِنِّ الْعَوَارِيَّ لِلرَّدِّ

فأعطاه خالد ثلاثين ألف درهم، وكان قبل ذلك يعطيه في كل وفادة خمسة آلاف درهم،
وأمر خالد أن يكتب هذان البيتان، الأخيران، في صدر مجلسه الذي كان يجلس فيه.
وقال أبنته يحيى: آخر ما أوصاني به أبي العمل بهذين البيتين.

ولقد أشرنا في كلمتنا عن الهادي إلى مبلغ إخلاص يحيى بن خالد البرمكي للرشيـد،
في أيام الهادي حينما شرع في خلع هارون من ولاية العهد، وإن الأخبار التي رواها الطبري
في سنة سبعين ومائة ناطقة بولاء يحيى وصدق إخلاصه.

ويجدر بنا هنا أن تقتطف موقفين كمثال لمواقف يحيى مع الهادي ذوداً عن الرشيد
وحقوق الرشيد، فإنهما يعطيناننا صورة من إخلاص آل برمك للرشيد ومبلغ ما رُوِّعَ به
يحيى في سبيل الرشيد.

ذكر أبو حفص الكرماني أن محمد بن يحيى البرمكي حدثه قال: بعث الهادي إلى يحيى
ليلاً فأيس من نفسه وودع أهله وتحنط وجدد ثيابه ولم يشك في أنه يقتله؛ فلما أدخل عليه
قال: يا يحيى مالي ولك! قال: أنا عبدك يا أمير المؤمنين، فما يكون من العبد إلى مولاه
إلا طاعته! قال: فلم تدخل بيني وبين أنحى تفسده علي؟ قال: يا أمير المؤمنين من أنا
حتى أدخل بينكما! إنما صيرني المهدي معه، وأمرني بالقيام بأمره، ففقت بما أمرني به،
ثم أمرتني بذلك فأنتهيت إلى أمرك؛ قال: فما الذي صنع هارون؟ قال: ما صنع شيئاً
ولا ذلك فيه ولا عنده؛ قال: فسكن غضبه. وقد كان هارون طاب نفساً بالخلع فقال لـ
يحيى: لا تفعل؛ فقال: أليس يترك لي الهنيء والمرئى فهما يسعاني وأعيش مع أبنته عمو،

وكان هارون يجهدُ بأم جعفر وجهدًا شديدًا، فقال له يحيى: وأين هذا من الخلافة! ولعلك ألا يترك هذا في يدك حتى يخرج أجمع، ومنعه من الإجابة.

وذكر الكرماني أيضًا عن نزيمة بن عبد الله قال: أمر الهبدي بحبس يحيى بن خالد، على ما أرادته عليه من خلع الرشيد، فرفع اليه يحيى رقعة: إن عندي نصيحة؛ فدها به؛ فقال: يا أمير المؤمنين أخاني فأخلاه؛ فقال: يا أمير المؤمنين أرايت إن كان الأمر — أسأل الله ألا نبلغه وأن يقدمنا قبله — أتظن أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحلم، ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزروهم! قال: والله ما أظن ذلك؛ قال: يا أمير المؤمنين أفتأمن أن يسموا إليها أهلك وجلتهم مثل فلان وفلان ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك! فقال له: نهتني يا يحيى. قال وكان يقول: ما كنت أجد من الخلفاء كان أعقل من موسى. قال وقال له: لو أن هذا الأمر لم يُعقد لأخيك أما كان ينبغي أن تعقده له! فكيف بأن تحل عقده وقد عقده المهدي! ولكن أرى أن تُقر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله، فإذا بلغ جعفر وبلغ الله به آيته بالرشيد فخلع نفسه وكان أول من يبايعه ويعطيه صفقة يده؛ فقال: فقبل الهادي قوله ورأيه، وأمر بإطلاقه.

ولما ولي الرشيد الخلافة قلد يحيى بن خالد الوزارة، وقال له: قد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقك إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، وأعزل من رأيت، وأمض الأمور على ما ترى. ودفع إليه خاتمه. ففى ذلك يقول ابراهيم الموصلي:

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة * فلما ولي هارون أشرق نورها .

بين أمين الله هارون ذى الندى * فهارون واليها ويحيى وزيرها

وليس في مقدورنا أن نصور شخصية يحيى بن خالد بن برك بأحسن من إثبات رأيه في الأخلاقيات، فقد قيل له: أى الأشياء أقل؟ قال: قناعة ذى الهمة البعيدة بالعيش الدون، وصديق كثير الآفات قليل الإمتاع، وسكون النفس الى المدح. وقيل له:

مَا الْكَرَمُ؟ فَقَالَ : مَلِكٌ فِي زِيٍّ مَسْكِينٍ . وَقِيلَ لَهُ : مَا الْجُودُ ؟ فَقَالَ : عَفْوٌ بَعْدَ قُدْرَةٍ .
وَقَالَ مَرَّةً : إِذَا فَتَحْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَحَدٍ بَابًا مِنَ الْمَعْرُوفِ فَاحْذَرُ أَنْ تُغْلَقَهُ وَلَوْ بِالْكَلِمَةِ
الْجَمِيلَةِ . وَقَالَ : « أَحْسَنُ جَمَلَةِ الْوَلَاةِ إِصَابَةُ السِّيَاسَةِ ، وَرَأْسُ إِصَابَةِ السِّيَاسَةِ الْعَمَلُ بِطَاعَةِ
اللَّهِ ، وَفَتْحُ بَابَيْنِ لِلرَّعِيَّةِ ، أَحَدُهُمَا رَأْفَةٌ وَرَحْمَةٌ وَبَذْلُ وَتَحَنُّنٍ ، وَالْآخَرُ غِلْظَةٌ وَمُبَاعَدَةٌ
وَأَمْسَاكٌ وَمَنْعٌ » .

وَيُرَوَّى لَنَا "يَا قُوتُ الرُّومِيِّ" فِي "مُعْجَمِهِ" عَنْهُ : أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى وَالْيَا عَلَى
نَحْرَاسَانَ ، كَتَبَ صَاحِبُ الْبَرِيدِ إِلَى الرَّشِيدِ كِتَابًا يَذْكُرُ فِيهِ : أَنَّ الْفَضْلَ تَشَاغَلَ بِالصَّيْدِ وَاللَّذَاتِ
عَنِ النَّظَرِ فِي أُمُورِ الرِّعِيَّةِ ، فَلَمَّا قَرَأَ الرَّشِيدُ رَمَى بِهِ لِيَحْيَى وَقَالَ لَهُ : يَا أَبْتَ اقْرَأْ هَذَا الْكِتَابَ
وَإَكْتُبْ إِلَى الْفَضْلِ كِتَابًا يردِّعُهُ عَنْ مِثْلِ هَذَا ، فَدَفَعَ يَحْيَى يَدَهُ إِلَى دَوَاةِ الرَّشِيدِ وَكَتَبَ إِلَى
ابْنِهِ عَلَى ظَهْرِ الْكِتَابِ الَّذِي وَرَدَ مِنْ صَاحِبِ الْبَرِيدِ :

"وَحَفِظْتُكَ اللَّهُ يَا بَنِيَّ وَأَمْتَعَكَ بِكَ . قَدْ انْتَهَى إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ التَّشَاغُلِ
بِالصَّيْدِ وَمُدَاوِمَةِ اللَّذَاتِ ، عَنِ النَّظَرِ فِي أُمُورِ الرِّعِيَّةِ مَا أَنْكَرَهُ ، فَعَاوَدُ مَا هُوَ أَزِينُ بِكَ ، فَإِنَّهُ
مِنْ حَادٍ إِلَى مَا يَزِينُهُ لَمْ يَعْرِفْهُ أَهْلُ زَمَانِهِ إِلَّا بِهِ وَالسَّلَامُ" وَكَتَبَ تَحْتَهُ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ :

لَانْصَبَّ نَهَارًا فِي طَلَابِ الْعَلَا * وَأَصْبِرْ عَلَى فَقْدِ لِقَاءِ الْحَبِيبِ
حَتَّى إِذَا اللَّيْلُ بَدَأَ مُقْبِلًا * وَغَابَ فِيهِ عَنْكَ وَجْهُ الرَّقِيبِ
فَبَادِرِ اللَّيْلَ بِمَا تَشْتَمِي * فَإِنَّمَا اللَّيْلُ نَهَارُ الْأَرِيبِ
كَمْ مِنْ فِتْنٍ تَحْسِبُهُ نَاسِكًا * يَسْتَقْبِلُ اللَّيْلَ بِأَمْرِ عَجِيبِ
أَلْقَى عَلَيْهِ اللَّيْلُ أَسْتَارَهُ * فَبَاتَ فِي لَهْوٍ وَعَيْشٍ خَصِيبِ
وَلَذَّةِ الْأَحْمَقِ مَكْشُوفَةً * يَسْمَعِي بِهَا كُلَّ عَدُوٍّ مَرِيبِ

هَذَا هُوَ يَحْيَى الَّذِي يَقُولُ عَنْهُ الْمَأْمُونُ : « لَمْ يَكُنْ كِيَحْيَى بْنُ خَالِدٍ وَكَوْلَهُ أَحَدٌ فِي الْبَلَاغَةِ
وَالْكَفَايَةِ وَالْجُودِ وَالشَّجَاعَةِ » . وَهَذَا هُوَ يَحْيَى الَّذِي كَانَ يُجَرِّى عَلَى سَفِينَانِ الثَّوْرَى رَضَى

الله عنه ألف درهم في كل شهر ، فكان اذا صلى سفيان يقول في سجوده : « الله إن يحيى كفافاً أمرَ دنيائى فأكفه أمرَ آخرته » .

هذا ، واذا علمت أن أم الفضل بن يحيى ، وهى زينب بنت منير ، كانت ظئراً للرشيد فأرضعته بلبان الفضل وأرضعت الخيزران ، والدة الرشيد ، الفضل بلبان الرشيد ، استطعت أن تقدر الى أى مدى كانت علاقة الرشيد بآل برمك ، وهو لم يدرج في مهده ، ولم يفرق بين أمسه ويومه .

ونجد في أخبار سنة ست وسبعين ومائة أن الرشيد ولّى الفضل بن يحيى كور الجبال وطبرستان وثنابوند وقومس وأرمينية وأذربيجان ، ونذبه لحرب يحيى بن عبد الله الطالبي حين نحروجه بالديلم ، فوفق الفضل لأخذ أمان له من الرشيد وأصلح أيماناً إصلاحاً ونجح النجاح كله في غزواته وحروبه ، حتى قال فيه أبو ثمامة الخطيب :

للفضل يوم الطالقان وقبله * يوم أنانخ به على خاقان
ما مثل يوميه اللذين تواليا * في غزوتين توالتا يومان
سد الثغور ورد ألفة هاشم * بعد الشتات فشعبها متدان
عصمت حكومتها جماعة هاشم * من أن يجرّد بينها سيفان
تلك الحكومة لا التي عن لبسها * عظم النبا وتفزق الحكمان
فأعطاه الفضل مائة ألف درهم وخلع عليه .

ونجد في أخبار السنة نفسها أن الفتنة هاجت بالشام بسبب العصبية التي بين النزارية وإيمانية ، فولى الرشيد موسى بن يحيى بن خالد الشام ، فهرع اليها موسى وأقام بها ، حتى أصلح بين أهلها وسكنت الفتنة واستقام أمرها ، فمدحه الشعراء . ومن قول بعضهم فيه :

قد هاجت الشام هيجاً * يُشيبُ رأس وليده
فصّب موسى عليها * بخيله وجنوده
فدانت الشام لما * أتى نسيجٌ وحيد

هو الجواد الذي بسدّ كلّ جودٍ بجوده
أعداه جودُ أبيه * يحيي وجودُ جندوده
بفادِ موسى بن يحيى * بطارفٍ وتليده
ونال موني ذرى الحج * يد وهو حشو مهوده
خصمته بمديحي * مشوره وقصمده
من البرامك عود * له فأكرم بعوده
حووا على الشعر طرا * خفيه ومديده

وقد مدحه بمثل ذلك اسحاق بن حسان الخريبي .

ويقول الطبري في أخبار سنة ثمان وسبعين ومائة : إن الرشيد فوّض أموره كلها الى يحيى ابن خالد بن برمك ، وقد ذكر فيها شخوص الفضل بن يحيى الى خراسان والياً عليها ، فأحسن السيرة بها ، وبني بها المساجد والرباطات ، وغزا ما وراء النهر ، ونخرج اليه خاراخره ملك أشروسنة ، وكان ممتنعاً . وقد مدحه مروان بن أبي حفصة وغيره بقصائد عدة ، وقد ذكر محمد ابن العباس أنه سمع مروان يقون : إنه أصاب في قدمته تلك على الفضل سبعمائة ألف درهم .

وقد مدحه سلم الخاسر فقال :

وكيف نخاف من بؤس بدار * تكنفها البرامكة البحور
وقوم منهم الفضل بن يحيى * نفير ما يوازنه نفير
له يومان يوم ندى وبأس * كائن الدهر بينهما أسير
إذا ما البرمكي خدا ابن عشر * فیهجته وزير أو أمير

ولننظر الى مكانة الفضل وآل برمك من الرشيد ؛ فإن أبا جعفر محمد بن جرير الطبري يحدثنا أنه لما قدم الفضل بن يحيى من خراسان نرج الرشيد الى بستان أبي جعفر يستقبله ،

وتلقاه بنو هاشم والناس من القواد والكتاب والأشراف، بفعل يصل الرجل بألف الألف
ونعمسائة الألف . ومدحه مروان بن أبي حفصة فقال :

حَمِدْنَا الَّذِي أَدَّى أَبْنَ يَحْيَى فَأَصْبَحَتْ * بِمَقْدَمِهِ تَجْرَى لَنَا الطَّيْرُ أَسْعَدَا
وَمَا هَجَمَتْ حَتَّى رَأَتْهُ عُيُونُنَا * وَمَا زَلَّ ، حَتَّى آبَ ، بِالْذَّمِّعِ حُشْدَا
نَفَى عَنْ نُرَاسَانَ الْعَدُوِّ كَمَا نَفَى * صُحَّى الصَّبِيحِ جِلْبَابَ الدَّجَى فَتَعَزَّدَا
لَقَدْ رَاعَ مِنْ أَمْسَى بِرَوْسِيهِ * إِلَيْنَا وَقَالُوا شَعْبُنَا قَدْ تَبَدَّدَا
عَلَى حِينٍ أَلْقَى قُفْلَ كُلِّ ظَلَامَةٍ * وَأَطْلَقَ بِالْعَفْوِ الْأَسِيرَ الْمَقِيدَا
وَأَفْشَى بِلَا مَنْ مَعَ الْعَدْلِ فِيهِمْ * أَيَادَى عُرْفٍ بَاقِيَاتٍ وَعُودَا
فَأَذْهَبَ رَوَاعِي الْمَخَافِ عَنْهُمْ * وَأَصْدَرَ بَاغِيَ الْأَمْنِ فِيهِمْ وَأُورَدَا
وَأَجْدَى عَلَى الْإِيْتَامِ فِيهِمْ بُعْرَفَهُ * فَكَانَ مِنَ الْآبَاءِ أُخْنَى وَأُعُودَا
إِذَا النَّاسُ رَامُوا غَايَةَ الْفَضْلِ فِي النَّدَى * وَفِي الْبَاسِ أَلْفَوْهَا مِنَ النَّجْمِ أَبْعَدَا
سَمَا صَاعِدًا بِالْفَضْلِ يَحْيَى وَخَالِدٌ * إِلَى كُلِّ أَمْرٍ كَانَ أَسْنَى وَأَجْمَدَا
يَلِينُ لِمَنْ أَعْطَى الْخَلِيفَةَ طَاعَةً * وَيُسْقِي دَمَ الْعَاصِي إِنْ سَامَ الْمَهْنَدَا
وَشَدَّ الْقُوَى مِنْ بَيْعَةِ الْمُصْطَفَى الَّذِي * عَلَى فَضْلِهِ عَهْدَ الْخَلِيفَةِ قُلْدَا
سَمِيَ النَّبِيُّ الْفَاتِحَ الْحَاتِمَ الَّذِي * بِهِ اللَّهُ أَعْطَى كُلَّ خَيْرٍ وَسَدَّدَا
أَبْجَتْ جِبَالَ الْكَأْبِلِيِّ وَلَمْ تَدَّغْ * بِهِنَّ لِنِيرَانِ الضَّلَالَةِ مُوقَدَا
فَاطْلَعَتْهَا خَيْلًا وَطَائِرٌ جَمُوعُهُ * قَتِيلًا وَمَاسُورًا وَفَلًا مُشْرَدَا
وَعَادَتْ عَلَى ابْنِ السَّبَرِ نِعْمًا كَبَعْدَمَا * تَحْوِبَ مَخْذُولًا يَرَى الْمَوْتَ مُفْرَدَا

وفي أخبار سنة ثمانين ومائة، هاجت العصية بالشام، ونفاقم أمرها، واغتم الرشيد
بذلك، فعقد لجعفر بن يحيى على الشام، وقال له : إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا ؛
فقال له جعفر : بل أيقك بنفسى . وشخص اليهم جعفر في جملة القواد والكراع والسلاح،

فأصلح بينهم ، وقتل زواقيلهم والمتلصصة منهم ، فعادوا الى الأمن والطمانينة ، وأطفأ تلك
النائرة . وقد مدحه منصور النمرى بقصيدة مطاها :

لقد أوقدت بالشام نيران فتنة * فهذا أوان الشام تُنخد نارها
إذا جاش موج البحر من آل برمك * عليها خبت شهبانها وشرارها

ولما عاد جعفر موقفا من سفرته هذه ، وقد استخلف على الشام مكانه عيسى بن
العكي ، دخل على الرشيد فزاده إكراما وإجلالا .

وانا لننقل لك هنا ما قاله جعفر للرشيد ، حين مَثَلَ بين يديه ، لأنه يُعتبر أثرا قيما من
ناحية تحليل نفسية الطرفين ، ولروعته وبلاغته في أدب العصر ، ولأنه في الوقت نفسه بمثابة
نص تاريخي للعصر الذي ندرسه .

قال الطبري : لما دخل جعفر على الرشيد قَبْلَ يديه ورجليه ، ثم مَثَلَ بين يديه فقال :
الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي آنس وحشتي ، وأجاب دعوتي ، ورحم تضرعتي ، وأنسأ
في أجلي حتى أراني وجه سسيدي ، وأكرمني بقربه ، وأمنَّ عليّ بتقبيل يده ، وردني الى
خدمته ، فوالله إن كنت لأذكرك غيبتي عنه ومخرجي ، والمقادير التي أزعجتني ، فأعلم أنها كانت
بمعاصي لحقتني ، وخطايا أحاطت بي ، ولو طال مُقَامِي عنك يا أمير المؤمنين ، جعلني الله
فداءك ، لحفت أن يذهب عقلي ، إشفاقاً على قربك ، وأسفاً على فراقك ، وأن يُعجِّلَ بي عن
إذلك الاشتياق الى رؤيتك . والحمد لله الذي عصمني في حال الغيبة ، وأمتني بالعافية ،
وعرّفتني الإجابة ، ومسكني بالطاعة ، وحال بيني وبين استعمال المعصية ، فلم أشخص إلا عن
رأيك ، ولم أقدم إلا عن إذكك وأمرك ، ولم يخترمني أجلٌ دونك ، والله يا أمير المؤمنين ،
نلا أعظم من اليمين بالله ، لقد عاينتُ فلو تُعرض لي الدنيا كلها ، لاخترت عليها قربك ولمّا
رأيتها عوضاً من المقام معك . ثم قال له بعقب هذا الكلام في هذا المقام : إن الله
يا أمير المؤمنين لم يزل يُبليكَ في خلافتك ، بقدر ما يعلم من نيّتك ، ويُريك في رعيتك ، غاية

(١) الزراقيل : هم اللصوص ، كما في القاموس وشرحه في مادة «زقل» .

أمتيتك، فيصلحك لك جماعتهم، ويجمع ألفتهم، ويلم شعبتهم، حفظاً لك فيهم، ورحمة لهم، وإنما هذا للتمسك بطاعتك، والاعتصام بحبل مرضاتك . والله المأمود على ذلك، وهو مستحقه . وفارقت يا أمير المؤمنين أهل كور الشام وهم منقادون لأمرك، نادمون على ما فرط من معصيتهم لك، متمسكون بحبلك، نازلون على حكمك، طالبون لعفوك، واثقون بحكمك، مؤمنون بفضلك، آمنون بأمرتك، حالمون في اتلافهم كالحلم كانت في اختلافهم، وحالمون في ألفتهم كالحلم كانت في امتناعهم . وعفو أمير المؤمنين عنهم، وتعمده لهم سابق لمعذرتهم، وصلة أمير المؤمنين لهم وعطفه عليهم متقدم عنده لسألتهم . وأيم الله يا أمير المؤمنين لئن كنت قد شخضت عنهم، وقد أحمد الله شرارهم وأطفا نارهم ونفى مرقهم وأصلح دماءهم وأولاني الجميل فيهم ورزقني الانتصار منهم، فما ذلك كله إلا ببركتك ويمك وريحك، ودوام دولتك السعيدة الميمونة الدائمة، وتخوفهم منك ورجائهم لك . والله يا أمير المؤمنين ما تقدمت إليهم إلا بوصيتك، وما عامتهم إلا بأمرك، ولا سرت فيهم إلا على حد ما مثله لي ورسمته، ووقفني عليه . والله ما اتقادوا إلا لدعوتك وتوحيده الله بالصنيع لك، وتخوفهم من سطوتك . وما كان الذي كان مني، وإن كنت قد بذلت جهدي وبلغت مجهودي، قاضياً ببعض حقتك عليّ، بل ما ازدادت نعمتك عليّ عظماً إلا ازدادت عن شكر عجزاً وضعفاً . وما خلق الله أحداً من رعيته، أبعد من أن يطمع نفسه في قضاء حقتك مني، وما ذلك إلا أن أكون باذلاً مهيجاً في طاعتك، وكل ما يقرب إلى موافقتك، ولكنني أعرف من أياديك عندي ما لا أعرف مثلها عند غيري، فكيف بشكري وقد أصبحت واحد أهل دهرى فيما صنعتته في وبي ! أم كيف بشكري وإنما أقوى على شكر بأكرامك إياي ! وكيف بشكري ولو جعل الله شكرى في إحصاء ما أوليتني لم يأت على ذلك عدى ! وكيف بشكري وأنت كهفي دوت كل كهفي لي : أو كيف بشكري وأنت لا ترضى لي ما أرضاه لي ! وكيف بشكري وأنت تجدد من نعمتك عندي ما يستغرق كل ما سلف عندك لي ! أم كيف بشكري وأنت تيسيني ما تقدم من إحسانك بما تجدد لي !

أم كيف بشكرى وأنت تُقَدِّمْنِي بِطَوْلِكَ عَلَى جَمِيعِ أَكْفَائِي ! أم كيف بشكرى وأنت وليّ !
أم كيف بشكرى وأنت المكرم لى ! وأنا أسأل الله ، الذى رزقنى ذلك منك من غير استحقاق
له ، إذ كان الشكر مُقَصَّرًا عَنْ تَأْدِيَةِ بَعْضِهِ ، بل دون شَقْصٍ مِنْ عَشْرِ عَشِيرِهِ ، أن يتولى
مكافأتك عني ، بما هو أوسع له وأقدر عليه ، وأن يقضى عَنِّي حَقُّكَ وَجَلِيلَ مَتَكَ ، فإن ذلك
بيده وهو القادر عليه” .

وفى أخبار سنة ثمانين ومائة نفسها ولّى الرشيدُ جعفرَ بن يحيى الحَرَسَ . وهكذا تجدد
فى أخبار كلِّ سنة نبأ عن آل برمك ، وتُمدّاحًا لآل برمك وأثرًا جليلًا فى خدمة الدولة من
آل برمك ، ومكانة سامية تبوّأها آل برمك من الرشيد .

وإنا لا نرى ندحة من إيراد واقعة حال رواها الفخرى بين جعفر بن يحيى البرمكى
وعبد الملك بن صالح الذى سعى به كاتبه قمامة وابْنُه عبد الرحمن عند الرشيد بتهمة طلبه
الخليفة لنفسه ، حتى حبسه الرشيد عند الفضل بن الربيع ، وهو منافس لآل برمك ، وكثيرًا
ما سعى الساعون بين صالح والرشيد . فاذا ما تعرّض البرمكيون بالخير لرجل من كبار
رجال الدولة ، المتهمين بالتطلع الى الخلافة ، واذا ما نجح البرمكيون فى إيصال الخير لهم ،
وفى إرضاء قلب الرشيد عليهم ، كان فى ذلك أصدق دليل على مكانتهم الرفيعة من الرشيد ،
فما بالك اذا ما وصلوا الى أن يبنى أحد أولاد صالح على إحدى بنات الرشيد ، واذا
ما اقتطعوا له الولايات ورّفدوه بأجرل الأموال ! .

على أنا نترك الكلمة لابن طباطبّا ليقصّ عليك ما يرويه فيما نحن فى صدده — قيل : إن
جعفر بن يحيى البرمكى جلس يوما للشرب ، وأحبّ الخلوة ، فأحضر ندماء الذين يأنس
بهم ، وجلس معهم وقد هُيئَ المجلس ولبسوا الثياب المصبغة ، وكانوا اذا جاسوا فى مجلس
الشراب واللّهو ، لبسوا الثياب الحمر والصفّر والخضر . ثم إن جعفر بن يحيى تقدّم الى
الحاجب ألا يأذن لأحد من خلق الله تعالى سوى رجلٍ من الندماء كان قد تأخر عنهم
اسمه عبد الملك بن صالح ، ثم جلسوا يشربون ، ودارت الكاسات ، وخفقت العيذان ،

وكان رجل من أقارب الخليفة يقال له عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس، وكان شديد الوقار والدين والحشمة، وكان الرشيد قد التمس منه أن ينادمه ويشرب معه، وبذل له على ذلك أموالاً جليلاً فلم يفعل، فانفق أن عبد الملك بن صالح حضر الى باب جعفر بن يحيى ليخاطبه في حوائج له، فظن الحاجب أنه هو عبد الملك بن صالح الذي تقدم جعفر بن يحيى بالإذن له وألا يدخل غيره، فأذن الحاجب له، فدخل عبد الملك ابن صالح العباسي على جعفر بن يحيى؛ فلما رآه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء، وفطن أن القضية قد اشتبهت على الحاجب، بطريق اشتباه الاسم، وفطن عبد الملك بن صالح أيضاً للقصة وظهر له الخجل في وجه جعفر بن يحيى، فانبسط عبد الملك وقال: لا بأس عليكم، أحضروا لنا من هذه الثياب المصبغة شيئاً، فأحضر له قميص مصبوغ، فلبسه وجلس يباسط جعفر بن يحيى ويمزحه، وقال: اسقونا من شرابكم، فسقوه رطلاً وقال آرققوا بنا فليس لنا عادة بهذا، ثم باسطهم ومازحهم، وما زال حتى انبسط جعفر بن يحيى وزال انقباضه وحيائه، ففرح جعفر بذلك فرحاً شديداً وقال له: ما حاجتك؟ قال: جئت، أصلحك الله، في ثلاث حوائج أريد أن تخاطب الخليفة فيها: أولها أن عليّ دينا مبلغه ألف ألف درهم أريد قضاءه، وثانيتهما أريد ولاية لأبني يشرف بهم قدره، وثالثتها أريد أن تزوج ولدي بابنة الخليفة فإنها بنت عمه وهو كفاء لها؛ فقال له جعفر بن يحيى: قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث. أما المال ففي هذه الساعة يُحمل الى منزلك، وأما الولاية فقد وليت أبنك مصر، وأما الزواج فقد زوجته فلانة ابنة مولانا أمير المؤمنين على صداق مبلغه كذا وكذا، فأنصرف في أمان الله. فراح عبد الملك الى منزله فرأى المال قد سبقه. ولما كان من الغد، حضر جعفر عند الرشيد وعرفه ما جرى وأنه قد ولّاه مصر، وزوجه ابنته؛ فعجب الرشيد من ذلك، وأمضى العقد والولاية، فما خرج جعفر من دار الرشيد حتى كتب له التقليد بمصر، وأحضر القضاة والشهود وعقد العقد.

أرأيت كيف لم ينقض الرشيد ما أبرمه جعفر في مسألة خطيرة الخطركه، لأنها تتعلق بكرامة الرشيد، وأسرة الرشيد، وشؤون الرشيد الخاصة ! !

أليس في ذلك ما يقطع برفيع مكانة القوم وكبير قدرهم وسامى منزلتهم ، عند الرشيد وفى الذؤلة التى هم مفزع رجالاتها وموئل زعمائها ؟ .

وأرجو ألا يفوتك فى المثل المتقدم ، ما جاء فيه خاصا بالملابس فإنه قد يعطيك فكرة مما عن تخصص بعضها للسهرات والرداهات والمنادمات مما لا يختلف عن نظام اليوم من « رندنجوت » و « سموكنج » و « فراك » الى غير ذلك مما يدل على مبلغ الثروة واستفحال أمر المدنية ، عند القوم فى تلك الأيام الخاليات ، فتأمل ... !

*
*

ربما تطلب الى مثالا على جودهم وتعلق الناس بهم ، فأبلك ، أرشدك الله ، أن كتب الأدب مُترعةً بالمئات من ذلك ، بلا مبالغة ولا غلو ولا تهويل ولا اغراق .

وسنترك الكلمة فى هذا الباب لمعاصرين : أحدهما إسحاق الموصلى ، والآخر الاتليدى فيما يرويه من حديث جرى بين المأمون والمنذر بن المغيرة . ولنا نكتفى بإيراد هذين المثلين للإفصاح عن جود البرامكة وبيان ما جُبلت عليه نفوسهم من المروءة وبعْدِ الحمة وجبّ الخير .

أما مسألة إسحاق الموصلى فتفصيل الخبر فيها أن الفضل بن الربيع دعا أحمد بن يحيى الحكىّ وعلويّه ومخارقا للاجتماع عنده ، وذلك أيام المأمون بعد رجوعه ورضاه عنه ، إلا أن جملة الفضل كانت ناقصة متضعضعة ، فلما اجتمعوا عنده كتب الى إسحاق الموصلى يسأله أن يصير اليه ، ويُعلمه الحال فى اجتماعهم عنده ، فكتب إسحاق اليهم بحضوره ولكن جاءهم متأخرا ، وكان علويّه يغنى فأخطأ ، فقال له إسحاق : أخطأت ، فغضب علويّه وعاتبه بكلام طويل ، ومنه قوله له : إنه من صنعة البرامكة ، فقال إسحاق : أما البرامكة وملازمى لهم فأشهر من أن أجمده ، وإنى لحقيق فيه بالمعذرة ، وأخرى أن أشكرهم على صنيعهم وبأن أذيعه وأنشره ، وذلك والله أقل ما يستحقونه منى . ثم أقبل على الفضل ، وقد غاظه مدحه لهم ، فقال : أسمع منى شيئا أخبرك به مما فعلوه ، وليس هو بكبير فى صنائعهم عندى ولا عند

أبي قبل؟ فان وجدت لي عذرا وإلا فلم . كنت في ابتداء أمرى نازلا مع أبي في داره ، فكان لا يزال يحرق بين غلماني وغلمايه وجواري وجواريه الخوصومة ، كما يحرق بين هذه الطبقات ، فيشكونهم اليه ، فأتين الضجر والتكر في وجهه ، فاستأجرت دارا بقربه ، وانتقلت إليها أنا وغلماي وجواري ، وكانت دارا واسعة ، فلم أرض ما معي من الآلة لها . ولا لمن يدخل الى من إخواني أن يروا مثله عندي ، ففكرت في ذلك وكيف أصنع ، وزاد فكري حتى خطر بقلبي قبض الأحدث من نزول مثلي في دار بأجرة ، وإني لا آمن في وقت أن يستأذن علي ، وعندي من أحشاشه ولا يعلم حالي ، فيقال صاحب دارك ، أو يوجه في وقت فيطلب أجرة الدار وعندي من أحشاشه ، فضايق بذلك صدرى ضيقا شديدا ، حتى تجاوز الحد ، فأمرت غلامي بأن يسرج لي حمارا كان عندي لأمضى الى الصحراء ، أفتتح فيها ممنا دخل على قلبي ، فأسرجه وركبت برداء ونعل ، فأفضى بي المسير ، وأنا مفكرا لا أميز الطريق التي أسلك فيها ، حتى هجم بي على باب يحيى بن خالد ، فتواثب غلمانه إلى وقالوا : أين هذا الطريق ؟ فقلت : الى الوزير ، فدخلوا فاستأذنوا لي ، وخرج الحاجب فأمرني بالدخول ، وبقيت نجيلا قد وقعت في أمرين فاضحين : إن دخلت اليه برداء ونعل وأعلمته أني قصده في تلك الحال كان سوء أدب ، وإن قلت له كنت مجنازا ، ولم أقصدك ، فجعلت طريقا ، كان قبيحا ، ثم عزمت فدخلت ، فلما رآني تبسم وقال : ما هذا الزي يا أبا محمد ؟ احتبستنا لك بالبر والقصد والتفقد ثم علمنا أنك جعلتنا طريقا ، فقلت : لا والله ياسيدي ، ولكنني أضدقك ، قال : هات ، فأخبرته القصة من أولها الى آخرها ، فقال : هذا حق مستوف هذا شغل قلبك ؟ قلت : إني والله ، وزاد فقال : « لا تشغل قلبك بهذا ، يا غلام ردوا حماره ، وهاتوا له خلعة » ، فجاءوني بخلعة تامة من ثيابه فلبستها ، ودعا بالطعام فأكلت ، ووضع النبيذ فشربت وشرب فغنيته ، ودعا في وسط ذلك بدواة ورقعة وكشب أربع رقاع فظننت بعضها توقيعا لي بجائزة ، فاذا هو قد دعا بعض وكلائه فدفع اليه الرقاع وسأله بشيء فزاد طمعي في الجائزة ، ومضى الرجل وجلسنا نشرب ، وأنا أبتظر شيئا فلا أراه الى العتمة ثم اتكأ يحيى

فنام، ففقت وأنا منكسر خائب، فخرجتُ وقُدِّم لي حماري، فلما تجاوزتُ الدارَ قال لي غلامي:
الى أين تمشي؟ فقلت: إلى البيت، قال: قد والله بيعت دارك وأشهد على صاحبها
وأتبيع الدرب كله ووُزِنَ ثمنه، والمشتري جالسٌ على بابك ينتظرك ليعرفك، وأظنه اشترى
ذلك للسلطان، لأنني رأيتُ الأمر في استعجاله واستحثائه أمراً سلطانياً؛ فوقعْتُ من ذلك
فيما لم يكن في حسابي، وجئتُ وأنا لا أدري ما أعمل، فلما نزلت على باب داري إذا أنا
بالوكيل الذي سارته يحبي قد قام إلى، فقال لي: ادخل أيدك الله دارك حتى أدخل إلى
مخاطبتك في أمر أحتاج إليك فيه، فطابت نفسي بذلك، ودخلتُ ودخل إلى فأقراني
توقيع يحيى: يُطلق لأبي محمد إسحاق بمائة ألف درهم يُبتاعُ له بها داره وجميع ما يجاورها
ويلاصقها، والتوقيع الثاني إلى ابنه الفضل: قد أمرتُ لأبي محمد إسحاق بمائة ألف
درهم يُبتاعُ له بها داره، فأطلق إليه مثلها لينفقها على إصلاح الدار كما يريد وبنائها على
ما يشتهي. والتوقيع الثالث إلى جعفر: قد أمرتُ لأبي محمد إسحاق بمائة ألف درهم
يبتاعُ له بها منزل يسكنه، وأمر له أخوك بدفع مائة ألف درهم لينفقها على بنائها ومرتتها
على ما يريد، فأطلق له أنت مائة ألف درهم يُبتاعُ بها فرشا لمنزله. والتوقيع الرابع إلى
محمد: قد أمرتُ لأبي محمد إسحاق أنا وأخوكم بثلاثمائة ألف درهم لمنزل يبتاعه ونفقة ينفقها
عليه وفرش يبتذله، فمر له أنت بمائة ألف يصرفها في سائر نفقته. وقال الوكيل: قد حملتُ
المال واشتريتُ كل شيء جاورك بسبعين ألف درهم، وهذه كتب الابتاعات باسمي
والإقرار لك، وهذا المال بورك لك فيه فاقبضه، فقبضته وأصبحتُ أحسن حالا من
أبي في منزلي وفرشي وآلتي، ولا والله ما هذا بأكبر شيء فعلوه لي، أفألام على شكر هؤلاء!
فبكي الفضل بن الربيع وكل من حضره، وقالوا: لا والله لا تُلام على شكر هؤلاء!

أرأيتَ إلى أي مدى بلغت مكانة البرامكة من رجالات العصر وأدبائه، حتى تملكوا
من القلوب أعنتها، ومن النفوس أزمتها، وكيف استحوذوا على السويداء والمهجع، ولم
لهجتِ الألسنة بتداحيمهم والإشادة بذكورهم!

أما حديث المأمون والمغيرة بن المنذر الذي رواه لنا الاتليديّ فهناكه بحذافيره : قال خادم المأمون : طلبني أمير المؤمنين ليلةً وقد مضى من الليل ثلثه ، فقال لي : خذ معك فلانا وفلانا ، سماهما لي : وأحدهما علي بن محمد والآخر دينار الخادم ، وأذهب مسرعا لما أقول لك ، فإنه بلغني أن شيخا يحضر ليلا الى آثار دور البرامكة ويُنشد شعرا ويذكّرهم ذكرا كثيرا ويندبهم ويبكي عليهم ثم ينصرف ، فامض أنت وعليّ ودينار ، حتى تردّوا تلك الخرابات ، فاستروا خلف بعض الجدر ، فاذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد أبياتا ، فأتوني به ، قال : فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرابات ، فاذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسی حديد ، واذا شيخ قد أتى وله جمالٌ وعليه مهابةٌ ولطفٌ ، بفلس على الكرسيّ وجعل يبكي وينتحب ويقول هذه الأبيات .

ولما رأيْتُ السيفَ جدلَ جعفرًا * ونادى منادٍ للخليفةِ في يحيى
بكيتُ على الدنيا وزاد تأسفِي * عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها . فلما فرغ قبضنا عليه وقلنا له : أجب أمير المؤمنين ، ففرغ فزطاً شديداً وقال : دعوني حتى أوصي بوصية ، فإنّي لا أوقن بعدها بحياة ، ثم تقدّم الى بعض الدكاكين ، واستفتح وأخذ ورقةً وكتب فيها وصيةً وسلمها الى غلامه . ثم سرنا ، فلما مثّل بين يدي أمير المؤمنين قال : من أنت ؟ وبما استوجبت منك البرامكة ما تفعله في خرائب دُورهم ؟ قال الشيخ : يا أمير المؤمنين إن للبرامكة أيادي خضرةً عندي ، أفأذن لي أن أحدثك بحالي معهم ؟ قال : قل ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك ، وقد زالت عني نعمتي ، كما تزول عن الرجال ، فلما ركبني الدين واحتجت الى بيع ما على رأسي ورءوس أهلي ، وبيتني الذي ولدت فيه ، أشاروا عليّ بالخروج الى البرامكة ، فخرجتُ من دمشق ومعى ثلاثون رجلا ونيفٌ من أهلي وولدي ، وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب ، حتى دخلنا بغداداً ونزلنا في بعض المساجد ، فدعوتُ ببعض ثياب كنت أعددتها لأستتر بها ، فلبستها ونحرت ، وتركتمهم جياعاً لا شيء عندهم ، ودخلت شوارع

بغداد سائلا عن البرامكة، فاذا أنا بمسجد مزخرف، وفي جانبه شيخٌ بأحسن زىٍّ وزينة، وعلى الباب خادمان، وفي الباطن جماعةٌ جلوس، فطمعت في القوم، ودخلت المسجد وجلست بين أيديهم، وأنا أقدم رجلا وأخر أخرى والعرق يسيل مني لأنها لم تكن صناعتي، وإذا الخادم قد أقبل ودعا القوم فقاموا وأنا معهم، فدخلوا دار يحيى بن خالد فدخلت معهم، وإذا يحيى جالس على دكة له وسط بستان، فسامنا وهو يعدنا مائة وواحدا وبين يديه عشرة من ولده، وإذا بمائة وأثنى عشر خادما قد أقبلوا ومع كل خادم صينيةٌ من فضة على كل صينية ألف دينار، فوضعوا بين يدي كل رجلٍ صينيته، فرأيت القاضي والمشايخ يضعون الدنانير في أكمامهم، ويعملون الصواني تحت آباطهم، ويقوم الأول فالأول، حتى بقيت وحدي لا أجسر على أخذ الصينية، فغمزني الخادمُ بخسرت وأخذتها، وجعلت الذهب في كمي والصينية في يدي، وقتت وجعلت أتلفت ورأى مخافة أن أمتع من الذهاب، فوصلت وأنا كذلك إلى صحن الدار ويحيى يلاحظني، فقال للخادم: ائتنى بهذا الرجل: فأتاه بي فقال: مالي أراك لتتلفت هينا وشمالا؟ فقصصت عليه قصتي، فقال للخادم: ائتنى بولدى موسى، فأتاه به، فقال: يا بني هذا رجل غريب، نخذه إليك، واحفظه بنفسك ونعمتك؛ فقبض موسى ولده على يدي، وأدخلني إلى دار من دوره، فأكرمني غاية الإكرام، وأقامت عنده يومى وليلى في الدار عيش وأتم سروري، فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال له: الوزير أمرني بالعطف على هذا الفتى، وقد علمت اشتغالي في بيت أمير المؤمنين، فأقبضه إليك وأكرمه؛ ففعل ذلك وأكرمني غاية الإكرام، ثم لما كان من الغد تسلمني أخوه أحمد. ثم لم أزل في أيدي القوم يتبادلونني مدة عشرة أيام، لا أعرف خبر عيالي وصبيانى أفي الأموات هم أم في الأحياء!، فلما كان اليوم الحادى عشر جاءني خادم ومعه جماعة من الخدم فقالوا: قم فانحرج إلى عيالك بسلام، فقلت: واويلاه! سلّيت الدنانير والصينية وأخرج على هذه الحالة! إنا لله وأنا إليه راجعون! فرفع الستر الأول ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع، فلما رفع الخادم الست الأخير قال لى: مهما كان لك من الحوائج فارفعها إلى، فإنى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به، فلما رفع الست

الأخير، رأيتُ حجرة كالشمس حسناً ونوراً ، واستقبلني منها رائحةُ الندِّ والعود ونفحاتُ المسك ، وإذا بصلياني وعيالي يتقلبون في الحرير والديباج ، وحمل إلى مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ، ومنشور بضيعتين وتلك الصينية التي كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق ، وأقيمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب ، فلما جاءتهم البلية ، ونزل بهم يا أمير المؤمنين من الرشيد ما نزل ، أبحفني عمرو بن مسعدة ، وألزمي في هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفي دخلهما به ، فلما تحامل على الدهر كنتُ في آخر الليل أقصدُ خراباتِ دورهم ، فأندبهم وأذكر حسنَ صنيعهم إليّ وأبكي على إحسانهم ، فقال المأمون : على بعمرو بن مسعدة ! فلما أتيتُ به قال له : تعرف هذا الرجل ؟ قال : يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة ؛ قال : كم ألزمتَه في ضيعته ؟ قال : كذا وكذا ؛ فقال له : ردَّ اليه كلَّ ما أخذت منه في مدته وأفرغهما له ، ليكونا له ولعقبه من بعده ؛ قال : فعلا نحب الرجل ؛ فلما رأى المأمون كثرة بكائه ، قال له : يا هذا قد أحسنا إليك فما يبكيك ؟ قال : يا أمير المؤمنين وبهذا أيضاً من صنيع البرامكة ! لو لم أت خراباتهم فأبكيهم وأندبهم حتى أتصلَ خبري إلى أمير المؤمنين ففعل بي ما فعل ، من أين كنتُ أصل إلى أمير المؤمنين ! قال إبراهيم ابن ميمون : فرأيت المأمون وقد دمعت عيناه وظهر عليه حزنه ، وقال : « لعمري هذا من صنائع البرامكة فعليهم فأبكي ، وإياهم فاشكر ، ولهم فأوف ، وإياهم فاحسبهم فاذكر » .

مما يدل على تقدير المأمون للبرامكة ما رواه القاضي يحيى بن أكثم قال : سمعت المأمون يقول : لم يكن كيجي بن خالد وولده أحدٌ في الكفاية والبلاغة والجلود والشجاعة ؛ قال القاضي : فقلتُ يا أمير المؤمنين أما الكفاية والبلاغة والسماحة فنعرفها فيهم ، ففيمن الشجاعة ؟ فقال : في موسى بن يحيى ، وقد رأيت أن أوليه نغر السند .



مكانة عالية بلا ريب مكانة آل برمك، وسلاطان لا حد له سلطنتهم، وغنى فاحش قبل الاسلام، وصوله ونفوذه قول في دولة الرشيد، فما الذي يا ترى غير قلب الرشيد عليهم حتى نكسهم ؟

لنذكر ما يقوله المعاصرون ونعقب عليه بكلمة هادئة حكيمة لابن خلدون .

أما بحثشوع الطبيب المأموني، فانه يقول نقلا عن أبيه جبريل : إنه لقاعد في مجلس الرشيد، إذ طاع يحيى بن خالد، وكان فيما مضى يدخل بلا إذن، فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم، رد عليه رداً ضعيفاً، فعلم يحيى أن أمرهم قد تغير . قال : ثم أقبل على الرشيد فقال : يا جبريل يدخل عليك وأنت في منزلك أحد بلا إذنك ! فقلت : لا ولا يطعم في ذلك ؟ قال : فما بالناس يدخل علينا بلا إذن ! فقام يحيى فقال : يا أمير المؤمنين قدمني الله قبلك، والله ما ابتدأت ذلك الساعة، وما هو إلا شيء كان خصني به أمير المؤمنين ورفع به ذكرى، حتى إن كنت لأدخل وهو في فراشه مجزداً حيناً وحيناً في بعض إزاره، وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب، وإذ قد علمت فاني أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثة إن أمرني سيدي بذلك ؟ قال : فاستحيا الرشيد، وكان من أرق الخلفاء وجهاً، وعيناه في الأرض ما يرفع اليه طرفه، ثم قال : ما أردت ما تكره ولكن الناس يقولون ؟ قال جبريل : فظننت أنه لم يسبح له جواب يرتضيه، فأجاب بهذا القول، ثم أمسك عنه وخرج يحيى .

أما أحمد بن يوسف كاتب عصرنا المأموني النابغة، فانه يتحدثنا عن ممامة بن أشرس بحديث سئلته لك . وقبل إيراد هذا الحديث نوّد أن نذكر بأن محمد بن الليث الذي سيرد فيه هو محمد بن الليث الذي اختاره المهدي كاتباً للسر في مجلس مشاورته لتدبير رأى في حرب خراسان، وأمره بحفظ مراجعة أعضاء المجالس وإثبات مقالاتهم في كتاب .

وربما كان من المفيد أن نزيد القارئ بمحمد بن الليث معرفةً ، لا لأنه من رجالات عصرنا ومن ذوى الأثر الأدبي القيم فيه ، ولا لأنه صاحب تلك الرسالة الشائقة التي بُعث بها من الرشيد الى ملك الروم التي أثبتناها في المجلد الثاني من هذا الكتاب ، بل لانا نرى في توضيح قدره وتوضيحا لقدرة البرامكة ، ولأنك حينما ترى الرشيد يقبض على محمد بن الليث بسبب البرامكة وكرامتهم ومنزلتهم من نفسه ، لنصح له بأن يضع حدا لاستفحال شأن البرامكة ، وللرجل قدره ومنزلته ، تستطيع أن تتصور تصورا صميا مكانة البرامكة من الرشيد ومن الدولة ومن العصر الذي هم فيه ، ولأنك حينما تعلم أن الرشيد أطلق محمد بن الليث من حبسه واعتذر له قبيلا نكبة البرامكة تستطيع أن تعلم اذا مقدار التحول الذي نال نفسية الرشيد .

سنرى في مشاورة المهدي التي ذكرها ابن عبد ربه في العقد والتي أثبتناها لك في المجلد الثاني أن محمد بن الليث يتكلم في المجلس — وكان الرشيد بلا شك ولى العهد — كلاما يرضى الرشيد . اذا فمحمد بن الليث كان الى جانب وظيفته كأمير لمجلس المشاورة ، صاحب رأي في مجلس الاستشارة نفسه يعتد به . فهو ذو شخصية عظيمة من ذوى شخصيات الدولة الذين لكلامهم خطرهم ولقولهم أثره .

قال : أول ما أنكر يحيى بن خالد من أمره أن محمد بن الليث رفع رسالة الى الرشيد يعظه فيها ، ويذكر أن يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيئا ، وقد جعلته فيما بينك وبين الله ، فكيف أنت اذا وقفت بين يديه ، فسألك عما عملت في عبادته وبلاده ، فقلت : يارب إني استكفيت يحيى أمور عبادك ، أترك تحتج بحجة يرضى بها ! مع كلام فيه توبيخ وتقريع ، فدعا الرشيد يحيى ، وقد تقدم اليه خبر الرسالة ، فقال : تعرف محمد بن الليث ؟ قال : نعم ؛ قال فأى الرجال هو ؟ قال : متهم على الإسلام ، — لاحظ كيف يتهمون في الدين — فأمر به الرشيد فوضع في المطبق دهره . فلما شكر الرشيد للبرامكة ، ذكره فأمر بإخراجه

فأخضر، فقال له بعد مخاطبة طويلة: يا محمد، أنتحبي؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين؛ قال: تقول هذا!! قال: نعم وضعت في رجلي الأكل وحلت بيني وبين العيال، بلا ذنب أتيت ولا حدث أحدثت، سوى قول حاسد يكيد للإسلام وأهله، ويحب الإلحاد وأهله، فكيف أحبك!! قال: صدقت، وأمر باطلاقه؛ ثم قال: يا محمد أنتحبي؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين ولكن قد ذهب ما في قلبي؛ فأمر أن يعطى مائة ألف درهم فأخضرت؛ فقال: يا محمد أنتحبي؟ قال: أما الآن فنعم! قد أنعمت علي وأحسنتم إلي؛ قال: انتقم الله ممن ظلمك وأخذ لك بحقك ممن بعثني عليك؛ قال ثمامة: فقال الناس في البرامكة فأكثروا، وكان ذلك أول ما ظهر من تغير حالهم.

فماذا حدث بعد ذلك؟

حدث — كما نخبرنا أحد المعاصرين، وهو محمد بن الفضل بن سفيان مولى سليمان بن أبي جعفر — أن يحيى بن خالد دخل دار الرشيد في الآونة التي نحن في صدها، فقام الغلمان إليه احتراماً وإجلالاً، فلما كان من الرشيد إلا أن قال لمسرور الخادم: مري الغلمان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار؛ قال: قدخل فلم يقد له أحد فأربد لونه؛ قال: وكان الغلمان والحجاب بعد إذا راوه أعرضوا عنه؛ قال: فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو غيره فلا يسبقونه، وبالخرى إن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعوها مرارا.

ولننظر في سبب آخر يرويه لنا أحد المطلعين على أخبار ذلك العصر، وهو أبو محمد الزيدى، قال: من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله بن حسن فلا تصدقه؛ وذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه، ثم دعا به ليلة من الليالي، فسأله عن شيء من أمره فأجابه، إلى أن قال: اتق الله في أمري ولا تتعرض أن يكون خصمك غداً فحمد الله صلى الله عليه وسلم، فوالله ما أحدثت حدثاً، ولا آويت محدثاً؛ فرق عليه وقال له: اذهب حيث شئت من بلاد الله؛ قال: وكيف أذهب ولا آمن أن أؤخذ بعد قليل فأردك إليك أو إلى غيرك! فوجه معه من أذاه إلى مأمنه. وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين

كانت له عليه من خاص خدمه ، فبلا الأمر فوجده حقا وانكشف عنده ، فدخل على الرشيد فأخبره فأراه أنه لا يعبأ بخبره ، وقال : وما أنت وهذا ! لا أم لك ! ففعل ذلك عن أمرى ! فانكسر الفضل وجاءه جعفر فدعا بالغداء فأكلوا ، وجعل يلقمه ويحادثه ، الى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال : ما فعل يحيى بن عبد الله ؟ قال : بحاله يا أمير المؤمنين فى الحسين الضيق والأكل ؛ قال : بحياتى ؟ فأحجم جعفر ، وكان من أدق الخلق ذهنا وأصحهم فكرا ، فوهجس فى نفسه أنه قد علم بشيء من أمره ، فقال : لا وحياتك ياسيدى ، ولكن أطلقته وعلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده ؛ قال : نعم ما فعلت ، ما عدوت ما كان فى نفسى ؛ فلما خرج أتبعه بصره ، حتى كاد يتوارى عن وجهه ثم قال : قتلى الله بسيف الهدى على عملي الضلالة إن لم أقتلك ! فكان من أمره ما كان .

سبب رابع رواه أحمد بن زهير ، ونذكره لك هنا على علته ؛ استكبالا لموضوع من كل نواحيه . يقول الطبرى : إنه يظن أن المصدر للرواية هو زاهر بن حرب ، قال : « إن سبب هلاك جعفر والبرامكة أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عباسنة بنت المهدي ، وكان يحضرهما اذا جلس للشرب ، وذلك بعد أن أعلم جعفرا قلة صبره عنه وعنهما ، وقال لجعفر تزوجها ليحل لك النظر اليها اذا أحضرتها مجلسي ، وتقدم اليه ألا يمسها ولا يكون منه شيء مما يكون للرجل الى زوجته ، فزوجه منها على ذلك ، فكان يحضرهما مجلسه اذا جلس للشرب ، ثم يقوم عن مجلسه ويخليهما ، فيتملان من الشراب ، وهما شابان فيقوم اليها جعفر فيجامعها ، فحملت منه وولدت غلاما ، فخافت على نفسها من الرشيد إن علم بذلك ، فوجهت بالمولود مع حواضن له من ممالكها الى مكة ، فلم يزل الأمر مستورا عن هارون ، حتى وقع بين عباسنة وبعض جوارىها شر ، فأنهت أمرها وأمر الصبي الى الرشيد وأخبرته بمكانه ومع من هو من جوارىها وما معه من الحلوى الذى كانت زينته به أمه ؛ فلما حج هارون هذه الحجة سنة سبع وثمانين ومائة — أرسل الى الموضع الذى كانت الحارية أخبرته أن الصبي به ، من يأتيه بالصبي ، ومن معه من حواضنه ، فلما أحضروا

سأل اللواتي معهنّ الصبيّ ، فأخبرنه بمثل القصة التي أخبرته بها الرافعة على عباسيّة ، فأراد ، فيما زعم ، قتل الصبيّ ثمّ تحوّل عن ذلك ، وكان جعفر يتخذ للرشيّد طعاما كلما حجّ بعُسفان فيقريه إذا أنصرف شاخصا من مكة الى العراق ، فلما كان في هذا العام اتخذ الطعام جعفر كما كان يتخذه هنالك ، ثم استتره فاعتلّ عليه الرشيّد ولم يحضّر طعامه ؛ ولم يزل جعفر معه حتى نزل منزله من الأنبار ، فكان من أمره وأمر أبيه ما كان .

أما نحن فلا نريد القطع بأنّ نكبة البرامكة كانت أثرا لسبب بعينه من هذه الأسباب ، وربما كانت نتيجة لطائفة من الأسباب مجتمعة ، منها ما نعرفه ، ومنها ما لم نعرفه بعد ، ونحب ألا يفوتنا هنا أنّ نفترض فرضا نعتزّ بأنّه فرض لا أكثر ولا أقل ، ونعترف بأنّه في حاجة الى التحقيق العلميّ ، ولكنّا نعتزّ أيضا أنّ عرضه على علانته لا يخلو من النفع ، وهو أنّ البرامكة كانوا فيما يظهر متأثرين بالناحية السياسيّة لمذهب المعتزلة ^(١) ، وهي الاعتدال بين أهواء الأحزاب السياسيّة المتطرفة وتلطيف الخصومة بين جناحي الحزب الهاشميّ فلم يرض الرشيّد عن هذا النحو من السياسة ، ومالاه على ذلك النفعيون من أنصار الجناح العباسيّ . وسنرى بعد قليل أنّ المأمون كان يرى رأى البرامكة ، في هذا النحو من السياسة المعتدلة ، الموفّقة بين وجهات النظر المختلفة .



أما كيفية القبض على البرامكة ، واحتياط الرشيّد وحذره قبل قتلهم ، ومصادرتهم لأموالهم ، وما قالته الشعراء في رثائهم ، فحديث طويل يتطلّب رسالة خاصة ، وفقنا الله لدراسة موضوع البرامكة ونكبتهم وأثرهم في الدولة العباسيّة في موضوعنا (عصر الرشيّد) في القريب العاجل إن شاء الله .

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار في هذا بقوله : " ليس الاعتدال مذهبا سياسيا ولم ترج سوق الاعتدال في زمن الرشيّد ولم يكن شيئا يعتد به على عهده " .

على أننا نرى من المستصوب قبل أن تم هذه الفذلكة الموجهة أن نختمها بكلمة لابن خلدون ، لا تخلو من تحايل صحيح ، ومذهب في الموازنة رجيع ، وباب في التاريخ جميل المنهج ، معقول التعليل .

قال ابن خلدون : إنما نكّب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجائهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه ، فغلبوه على أمره وشركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه ، فعظمت آثارهم وبعُد صيبتهم وعَمَّروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عن سواهم : من وزارة وكتابة وقيادة وحجابه وسيف وقلم . يقال : إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم ، زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح ، لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون ولي عهد وخليفة ، حتى شب في حجره ، ودرج من عُسّه ، وغلبه على أمره ، وكان يدعوهُ يَأبْت ، فتوجه الإيثار من السلطان اليهم ، وعظمت الدالة منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوه ، وخضعت لهم الرقاب ، وقُصِرَتْ عليهم الآمال ، وتخطت اليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتُحَفُ الأمراء ، وتسربت الى خزائهم ، في سبيل التزلف والاستمالة . وأل الجباية ، وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القراية العطاء وطوقوهم المنن ، وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم ، وفكوا العاني ، ومُدِّحُوا بما لم يُمدح به خليفَتهم ، وأسَنُوا لعُقَاتِهِم الجوائز والصلوات ، واستولوا على القرى والضِّياع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك ، حتى آسفوا البطانة وأحققدوا الخاصة ، وأغصوا أهل الولاية ، فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ، ودبت الى مهادهم الوثيرة من الدولة عقارب السعاية ، حتى لقد كان بنو خطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم ، لم تعطفهم ، لما وقر في نفوسهم من الحسد ، عواطف الرِّحم ، ولا ورعَتهُم أواصر القراية ، وقارن ذلك عند مخدومهم نواشئ الغيرة والاستنكاف من المنجر والأنفة وكامن الحقوق التي بعثها منهم صغائر الدالة ، وانتهى بهم الإصرار على شأنهم الى بكاير المخالفة .

الحياة العلمية في العصر العباسي

توطئة — حركة النقل — العلوم القرآنية واللغوية والفقهية .

(١) توطئة :

هذه فذلكة بمشابة توطئة لما سنعرض له بما يقتضيه المقام من شرح وإيضاح في العصر المأموني . فمهمتنا الآن أن نلمّ ببيان العناصر المهمة في الحياة العلمية العباسية .

نعلم من تاريخ اليونان القديم أن أثر اليونان في الثقافة الإنسانية عظيم عميق ، لأنه إلى جانب إمداد العالم بمنتجات فلاسفتهم وعلمائهم وكتّابهم ومفكرهم قد أمّدوه أيضاً بالنُخب والمُليح مما وقف عليه اليونان من زُبدة علوم الأثوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفارس واليونان والرومان . فإذا ما قلنا : إن العرب وقفوا على الفلسفة اليونانية ، ومُنتجات العقول اليونانية ، فكأننا نقول ضمناً إنهم وقفوا على آثار العقليات الإنسانية العامة ، وآثار الثقافة القديمة والحضارات السالفة .

ونعلم أن الدولة العباسية كانت فارسيةً إلى حدّ ما ، أو على الأقل كانت مُتسمةً بالطابع الفارسيّ متأثرةً به . ونعلم من تاريخ سقوط الدولة الرومانية للأستاذ «جبون» أن «جستينيان» اضطرهد مبداءرس أمينا ، لأنه كان خصماً للفلسفة الوثنية ، وكانت الفلسفة الأفلاطونية حينذاك قد آتت ثمرتها ونضجت ، ثم هرع أصحابها إلى الفرس ، واتصل بأنوشروان سبعةً من علماء اليونان فأكرم وقادتهم ، وأفسح لهم مجال التأليف والنقل فيما هم أهلهم وأصحاب القُدح المعلى فيه . ويقول ابن النديم في الفهرست : إن الفرس نقلت في القديم شيئاً من كتب المنطق والطب إلى اللغة الفارسية ، فنقل ذلك إلى اللسان العربيّ عبد الله بن المقفع . فمن المعقول إذاً أن يكون

العرب حين اتصلت ثقافتهم بالثقافة الفارسية وتأثروا بها ، تأثروا في الوقت نفسه بالثقافة اليونانية أيضا . ولم تكن الثقافة الفارسية مما يُستهان بأمره أو يُعْمَطُ قدره ، لأنك اذا استقصيت تاريخ ملوكهم الكبار ، مثل سابور بن أردشير ، تجد أنه في خلال عهده بعث الى بلاد اليونان ، وجلب كتب الفلسفة ، وأمر بنقلها الى الفارسية ، واحترنها في مدينته وأخذ الناس في نسخها وتدارسها وهكذا . فالثقافة العربية أفادت أيما إفادة من منتجات الفرس وآثارهم وتراجمهم .

(ب) حركة النقل :

لنتدرج الآن الى شيء من التوضيح ، فننقل لك ما يقوله ابن صاعد الأندلسي في هذا الباب ، لأنه مختصر عما تعرض له أمثال الأستاذة « نلينو » و « ابن أبي أصيبعة » « والقفطي » « وابن النديم » وغيرهم ممن سيكونون عدتنا ومؤلنا حين نعرض لهذه البحوث في العصر المأموني .

يقول ابن صاعد : « إن أول علم أعطني به من علوم الفلسفة علم المنطق والنجوم . فأما المنطق فأقول من اشتهر به في هذه الدولة عبد الله بن المقفع الخطيب الفارسي ، فإنه ترجم كتب أرسطاطاليس المنطقية الثلاثة التي في صورة المنطق ، وهي كتاب « قاطاغورياس » وكتاب « باري أرمنياس » وكتاب « أتولوجيا » وذكر أنه لم يترجم منه الى وقته إلا الكتاب الأول ، وترجم ذلك المدخل الى كتاب المنطق المعروف « بإيساغوجي » « لفرفوريوس الصوري » ، وعبر عما ترجم من ذلك عبارة سهلة قريبة المأخذ ، وترجم مع ذلك الكتاب الهندي المعروف بكليلة ودمنة ، وهو أول من ترجم من اللغة الفارسية الى اللغة العربية

وأما علم النجوم فأقول من عني به في هذه الدولة محمد بن ابراهيم الفزاري ، وذلك أن الحسين بن حميد المعروف بابن الأدمي ذكر في تاريخه الكبير المعروف بنظام العقد : « أنه قدم على الخليفة المنصور سنة ست وخمسين ومائة رجل من الهند عالم بالحساب المعروف

بالسند هندی فی حرکات النجوم مع تعادیل معلومة على كُردجات محسوبة لنصف نصف درجة مع ضروب من أعمال الفلك ومع كسوفین ومطالع البروج وغير ذلك ، فی كتاب یحتوی على آثنی عشر بابا ، وذكر أنه اختصره من كُردجات منسوبة الى ملك من ملوك الهندیسمی قنبر؛ وكانت محسوبةً لدقیقة؛ فأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب الى اللغة العربیة ، وأن یؤلف منه كتابٌ یتخذ العرب أصلاً فی حرکات الكواكب ؛ فتولى ذلك محمد بن ابراهیم الفزاری ، وعمل منه كتاباً یسمیه المنجمون "بالسند هند الكبير" وتفسیر السند هند باللغة الهندیة : الدهر الداهر . »

وقد یكون من المستصوب أن نفهم حقيقة وجهة نظر العرب حین ذاك الى علم الفلك ؛ فهم كالیونانیین فی زمن "بطليموس" كان غرضهم فی الهیئة تبیین الحركات السماویة مع كل اختلافاتها المرئیة ، بأشكال هندسیة ، تمكنهم من حساب أوضاع الكواكب لأی وقت فُرض ، فإن كانت تلك الأشكال تصلح لحساب الظواهر رؤوا بها وما اهتموا بالبحث فی حقيقة حرکات الأجرام السماویة ، وذلك لظنهم أن البحث عن حقيقة الحركات وعلاها یكون على المشتغلین بالحكمة والطبیعة والحكمة الالهیة .

ونحن نجد ، بقطع النظر عن أحكام النجوم التي صارت غیر مقبولة فی أيامنا ، أن الهیئة عند العرب كما یقول الأستاذ «نلینو» ، قد اشتملت على علم الهیئة الكروی والعملى ، وقسم صغیر من النظری ینخص الكسوفات واستتارات الكواكب السیارة ، مع علم التاریخ الریاضی وعلم أطوال البلدان وعروضها على طريقة كتاب الجغرافیة لبطليموس ، فقد خرج من علم الهیئة عند العرب علم المیکانیكا الفلكیة وعلم طبیعة الأجرام السماویة وأكثر علم الهیئة النظری ، إذ إنه یبحث عن حقيقة حرکات الكواكب .

فلا یرى أذا فی أن العرب ، الى جانب وقوفهم على الفلاسفة الفارسیة والحكمة الیونانیة ، قد وقفوا أيضاً على آخر الاراء العلمیة الخاصة بعلم الفلك فی ذلك الحین ، وأنهم وقفوا على آراء بطليموس فیا وقفوا علیه من الآراء . وبطليموس — كما قال البتانی — قد تقصى

علم الفلك من وجوهه ، ودلّ على العلل والأسباب العارضة فيه بالبرهان الهندسي والعدديّ الذي لا تُدفع صحته ولا يُنكّر في حقيقته ، فأمر بالحنة والاعتبار بعده ، وذكر أنه قد يجوز أن يُستدرك عليه في أرصاده على طول الزمان ، كما استدرك هو على أبرخس وغيره من نظرائه ، بلحالة الصناعة ، ولأنها سماوية جسيمة لا تُدرك إلا بالتقريب .

ولا يفوتنا أن نشير هنا الى ترجمة كتاب زيج بطليموس المقول بأن أيوب وسمعان فسرهما محمد بن خالد البرمكي . وزجوا حين تعرّضنا لهذه الموضوعات في العصر المأمونيّ أن نلم بها لما أَدق وأوسع .

على أنه يجدر بنا في هذه الفذلكة أن نشير الى الكتب البهلوية الثلاثة التي استطاع الأستاذ « نلينو » أن يكتشف أثر نقلها فيما قبل انتهاء القرن الثاني للهجرة . فواحد منها في علم الهيئة الحقيقيّ وهو زيج الشاه أو زيج الشهر يار ، والآخران في صناعة أحكام النجوم وهما المبريزج في المواليذ المنسوب الى بُزْجَهْر ، وكتاب صور الوجوه لتنكلوس ؛ وكذلك يجدر بنا أن نشير الى أن كتاب المجسطي نقل في أيام الرشيد .

وإنما نلخص لك هنا ما لا يحظه المرحوم جورجى بك زيدان في أمر النقل من أن العرب ، مع كثرة ما نقلوه عن اليونان ، لم يتعرّضوا لشيء من كتبهم التاريخية أو الأدبية أو الشعر ، مع أنهم نقلوا ما يقابلها عند الفرس والهنود ، فقد نقلوا جملةً صالحة من تاريخ الفرس وأخبار ملوكهم وترجموا الشاهنامه ، ولكنهم لم ينقلوا تاريخ هيرودوتس ولا جغرافية استرابون ولا إلياذة هوميروس ولا أوديسسته . وسبب ذلك أن أكثر ما بعث المسلمين على النقل رغبته في الفلسفة والطب والنجوم والمنطق ^(١) .

(١) ويرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : « أنه يمكن ارجاع ذلك الى سبب براه أمّ . وهو أن الراحلين من اليونان أيام الاضطهاد الى حران لم يكونوا أدباء ولا مؤرخين وإنما كانوا فلاسفة وأطباء . فأسسوا في تلك البلاد مدرستهم وأخذ أهل البلاد عنهم ما يعرفون . فالأدب والتاريخ والجغرافيا لم يهاجروا الى البلاد التي أخذ عنها العرب وإنما هاجر الطب والفلسفة والهندسة والرياضة » .

ولا يُستخَفُّ بما اقتضاه ذلك النقل، عن أشهر أُم الأرض في ذلك العصر، من التأثير في الآداب الاجتماعية والآراء العامة ولا سيما ما نقل عن الفارسية، لأن معظمه في الأدب والتاريخ؛ فدخل الآداب العربية كثير من آداب الفرس الساسانية وأفكارهم، اقتبسها العرب من الكتب التي نُقلت عنهم، ولم يبق منها إلا ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، وتنف متفرقة في بعض الكتب. وقد درس في هذا الموضوع المُتَشَرِّق «اينواسترانشتيف» الروسي ووضع فيه كتاباً طبع في بطرسبرج سنة ١٩٠٩ م.

على أنا نلاحظ أن تأثير هذا النقل عن الفرس لا يزال قائماً الى الآن في بعض الكتب العربية التي وُضعت في عصور قريبة من عصر المأمون. نذكر منها، على طريق التمثيل، كتاب «عيون الأخبار» لأبن قتيبة، و«التاج» المنسوب للمحافظ. فعلى هذه المنقولات وأمثالها بنى المسلمون ما ألفوه في هذه العلوم أثناء تمدنهم غير ما اختبروه وأضافوا إليها من عند أنفسهم.

وإن المطلع على ما جاء بالفهرست لأبن النديم خاصة بتلك المنقولات يعلم، مع شديد الأسف، أن جلّها قد ضاع، على أنه كان للقليل الباقي منها أثره الفعّال في نهضة أوروبا. وأهم ما بقي من ذلك التراث القيم هو كتاب المجسطي لبطليموس، ترجمه الجحاج بن يوسف وكتاب السياسة في تدبير الرياسة، ترجمه يوحنا بن البطريق، وبعض آثار لقسطا بن لوقا البعلبيكي وغيرها.

(ج) العلوم القرآنية واللغوية والفقهية :

كان المؤرّخون القدماء يقولون في العلوم القرآنية إنه قد تفرّع عن القرآن نحو ثلثمائة علم. ونحن نحيلك على أمثال «مفتاح السعادة» لأحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زاده المطبوع بمطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدرآباد، ومقدمة آبن خلدون و«مفاتيح العلوم» وغيرها. وأما النحاة وطبقاتهم واللغة وما دخلها من الألفاظ المستحدثة في العصر العباسي، فأماك أمثال «شفاء الغليل» فيما في كلام العرب من الدخيل، لشهاب الدين

الخفاجي "ودرة الغواص" للحريري، وكتاب "المعرب من الكلام الأعجمي" لأبي منصور الجواليقي المتوفى في منتصف القرن السادس وطبع في ليبسك سنة ١٨٩٧ م وكتاب «طبقات النجاة» المعروف «بزهة الألباء في طبقات الأدباء» لأبي البركات عبد الرحمن ابن محمد الأنباري، وغيرها مما لا يقع تحت حصر.

وحسبنا أن نقول لك : إنه لم يكن في الجاهلية ولا في صدر الإسلام ذلك التراث العظيم من الألفاظ الطبية وأسماء الأدوية والجراحة وأسماء الأمراض والاصطلاحات الفلسفية وغير ذلك مما وُضع في العصر العباسي خاصة أمثال قوطم صيدلية ، وتشريح ، ونبض ، وهضم ، ومبرّدات ، وقابض ، ومسهل ، وتشنّج ، وذات الرئة ، وبنج ، والهيولى ، والقاموس ، والقانون ، الى مئات الألفاظ من أمثال ذلك النوع الذي تجده في مظانه ، ولا نرى حاجة بنا الى الاستطراد فيه .

ويجدر بنا هنا أن نشير الى أثر من أجل الآثار الاقتصادية للدولة الإسلامية في بداية العصر العباسي . ويمكن النظر اليه كما ينظر الاسكتلنديون الى كتاب "جون سنكلر" عن تاريخهم الاقتصادي . وهذا الأثر القيم الخالد الذي نظم جباية الدولة أجمّل تنظيم وأدقه ، هو كتاب الخراج للفقهاء الكبار أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري صاحب الإمام أبي حنيفة النعمان .

الفصل العاشر

الحالة الأدبية في صدر عصر بني العباس

توطئة — الخطابة والخطباء — الكتابة — مجالس الخلفاء والمناظرة — الشعر .

(١) توطئة :

أسلفنا لك القول في الحالة الأدبية في عصر بني أمية التي كانت في الواقع، الى جانب ما يئناه لك من اختلافها عن العصر الجاهلي، قريبة في حملتها من غضاضة البدو وخشونة المدر، فلم تتسع لها الاغراض ولم تنفرج لها الجوانب إلا بقدر ما تنطبق عليه جزيرة العرب وبادية الشام من الأفكار والأخيلة، وما تُوحى به غياض دمشق ونبرات معبد، من صفاء الفكر ووضوحه، وجللاء المعنى واقترايه، لا يبالي القوم الإمعان في الآراء البعيدة والأفكار الدقيقة، وإنما كان همهم، كما يقول الرواة : أن تُجود ألفاظهم، وتجلّ تراكيبهم . وفي الحقيقة أنهم قد اقتعدوا في ذلك من البلاغة ذروتها، وبلغوا من الجزالة غايتها، فكان الرجل منهم يضع لسانه حيث أراد ومتى شاء . وحسبك أن تنظر الى ما جاء به زياد وعبد الملك والمجناح، وما أرسله جرير والأخطل والفرزدق، لتعرف أين كان القوم من البلاغة، وكيف تملكوا أعينها في أيديهم . فلما جاءت دولة العباسيين وقامت أركانها على سواعد العجم، ودلّف إليها السريان واليهود والفرس، وضمّتهم الدولة الى أحضانها، وأفرجت لهم بين ذراعيها، وأنزلتهم في كثير من أمور الدولة وشؤونها، وأجرت عليهم من الأرزاق والخيرات، وتقدّموا لها بتراث آبائهم وعصارة قرائح علمائهم، وحولوا ميراثهم الى ميراثها، أفادت لغة العرب، وأمتزجت المدنية السامية بالآرية، وآتسعت دائرة المعارف، وتشتعت أغراض اللغة، وشتمر كل ذي فضل في تدوين العلوم وأستنباط أحكامها ووضع الفنون واصطلاحاتها وترتيب الدواوين ومراسيمها، وترجموا كتب الحكمة والمنطق، وازدهرت الآداب ازدهار

الفتاء والقوة، فانتظمت رخاء الدنيا وسعادة الإنسان، وأزّينت بالمجج الحكيم والبراهين العقلية. وتولّى كبر ذلك بشار وأبن المقفع وأبو نواس وأضرابهم، وأدخلوا إليها الحديد عن طريق المجاز والقياس والاشتقاق، ولم يتحرجوا من استعمال الألفاظ الأعجمية في أسماء الألوان والانية والفرش، وتأنقوا في صوغ العبارات وإحكامها، حتى مال بعضهم إلى السجع والأزدواج. ومن أمثلة ذلك ما كتبه أبو شراعة إلى سعيد بن مسلم إذ يقول: "أَسْتَسِيءُ اللهَ أَجْلَكَ، وَأَسْتَعِيدُهُ مِنَ الْآفَاتِ لَكَ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى شُكْرِ مَا وَهَبَ مِنَ النِّعْمَةِ فَيْكَ لِمَهْ لَذَلِكَ وَلِيٍّ، وَبِهِ مَلِيٍّ. أَنَا نِي غَلَامُكَ الْمَلِيحُ قَدَّهُ، السَّعِيدُ بِمَلِكِكَ جَدَّهُ، بِكُتَابِ قُرْآنِهِ، غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ اللَّفْظَ وَلَا مُزَوَّرٍ عَنِ الْقَصْدِ، يَنْطِقُ بِحِكْمَتِكَ وَيُبَيِّنُ عَنْ فَضْلِكَ".

وجملة القول أن اللغة قد تجدد إهابها، وانفرجت شعابها، ونوّعت أساليبها، بما دخل عليها من نعيم الدولة وترف الحضارة، وما آحتوته من العلوم والفنون، حتى كانت سيدة لغات العالم جميعا.

(ب) الخطابة والخطباء :

كانت الداعية إلى الخطابة في العصر العباسي قوية متوافرة بليغة. كانت قوية لأن طبيعة الانقلابات السياسية الخطيرة، والدعوات المذهبية الحادة، والتورات الاجتماعية العنيفة، من شأنها خلق مجالات التكلم وتقوية الملكات الخطابية وتخيّمها وزيادة ثروتها والعمل على صقلها وبلاغتها. وكانت متوافرة لتعدد موضوعاتها وتشعب مناحيها ولانكباب الدعاة والنفعيين عليها لا تنهاز أمثال تلك المواقف. وكانت بليغة لقرب العصر العباسي من عصر البلاغة الإسلامية الأموية من ناحية الحرارة والتشجيع إلى بني العباس، وقوة الحاجة في إنكار ما آتته الأمويون من حرّمات الدين، ولتعدد أسباب التفاضل بين آل العباس والعلويين.

وإن نظرة تحليلية إلى خطبة المنصور التي خطبها حينما أخذ عبد الله بن الحسن وإخوته والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته، تُعزز قولنا وتؤيد حكمتنا. قال: «أهل حُرّاسان

أتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خيرٌ منا ، وإن أهل
 يبقى هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب تركناهم ، والله الذي لا إله إلا هو ، والخلافة فلم نعرض
 لهم فيها بقليل ولا بكثير ، فقام فيها علي بن أبي طالب فتطخَّ وحكم عليه الحكمان ،
 فافترقت عنه الأمة ، واختلفت عليه الكلمة ، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه
 وبطانته وثقاته فقتلوه . ثم قام من بعده الحسن بن علي فوالله ما كان فيها برجل ! قد عَصِرَتْ
 عليه الأموال فقبلها فُدِّسَ إليه معاوية : إني أجعلك وليَّ عهدي من بعدى ، نخدعه
 فانسلخ له مما كان فيه وسلمه إليه ، فأقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة فيطلقها غدا ،
 فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه . ثم قام من بعده الحسين بن علي نخدعه أهل العراق
 وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق والإغراق في الفتن أهل هذه المدرة السوداء — وأشار
 إلى الكوفة — فوالله ما هي بحرب فأحاربها ولا سلِّم فأسلمها ، فزق الله بيني وبينها ، فخذلوه
 وأسلموه ، حتى قُتِلَ . ثم قام من بعده زيد بن علي نخدعه أهل الكوفة وغرَّوه فلما أخرجوه ،
 وأظهروه أسلموه ، وكان قد أتى محمد بن علي فناشده في الخروج وسأله ألا يقبل أقاويل
 أهل الكوفة وقال له : إنا نجد في بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يُصَلَّبُ بالكوفة وأنا أخاف
 أن تكون ذلك المصلوب ، وناشده عمي داود بن علي وحذَّره غدر أهل الكوفة ، فلم يقبل
 وتم على نروجه فُقِّتِلَ وَصُلِبَ بالكُفَّاسَةِ^(١) . ثم وثب علينا بنو أمية فأما توار شرفنا وأذلوا
 عزنا ، والله ما كانت لهم عندنا ترة يُطلبونها وما كان ذلك كما إلا فيهم وبسبب نروجهم
 عليهم ، فنحنونا من البلاد فصرنا مرَّةً بالطائف ومرَّةً بالشام ومرَّةً بالشرقة حتى آبتعتكم الله لنا
 شيعة وأنصارا ، فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل نراسان ودمغ بحقكم أهل الباطل وأظهر حقنا
 وأصار إلينا ميراثنا عن نينا صلى الله عليه وسلم ، ففزع الحق مقزّه وأظهر مناره واعزَّ أنصاره
 وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ، فلما استقرت الأمور فينا على قرارها

(١) الكُفَّاسَةُ بالضم : محلة بالكوفة .

من فضيل الله فيها وحكمه العادل لنا وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا وبغيا لما فضلنا الله به عليهم وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم .

جهلاً على وجبنا عن عدوهم * لبئست الخلفتان الجهل والجهن

فإني والله يا أهل نحرسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة . بلغني عنهم بعض السقم والتعزم ، وقد دسست لهم رجالا فقلت : قم يا فلان ، قم يا فلان نخذ معك من المال كذا ، وحذوت لهم مثالا يعملون عليه ، فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة فدسوا اليهم تلك الأموال ، فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم بيعة استحلّت بها دمائهم وأموالهم وحلّت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي وطابهم الفتنة والتاسم الخروج على فلا يرون أني أتيت ذلك على غير يقين . ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾ .

ولقد يلاحظ على الخطابة العباسية اتساعها بطابع النعرة الدينية لمباهاتهم بصلتهم من النبي ، كما يلاحظ عليها اللغة « الأنوقراطية » التي لا تختلف في شيء عن لغة باباوات رومة في العصور الوسطى ولغة الملوك الذين يدينون بنظرية « حقوق الملك المقدسة » وأنهم ورثة الله في أرضه وممثلوه بين خلقه ...

خطبة للنصور الخليفة العباسي

خطب في مكة فقال :

أيها الناس ، إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوقيعه وتسديده وتأيديه ، وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته وإرادته وأعطيه بإذنه ، فقد جعلني الله عليه قفلا إن شاء أن يفتحني فتحني لإعطاءكم وقسم أرزاقكم ، وإن شاء أن يقفلني عليها أقفلني ، فارغبوا إلى الله وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم من فضله ما أعلمكم به في كتابه إذ يقول : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ أن يوفقني للرشاد والصواب ، وأن يلهمني الرأفة بكم والإحسان اليكم . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم »

خطبة للخليفة المهدي

الحمد لله الذي ارتضى الحمد لنفسه ، ورضى به من خلقه ، أحمدته على آلائه وأمجده لبلائه ، وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه توكل راض بقضائه وصابر لبلائه . أوصيكم عباد الله بتقوى الله فإن الاقتصار عليها سلامة ، والترك لها فساد . وأحثكم على إجلال عظمتهم وتوقير كبريائهم وقدرتهم ، والالتناء إلى ما يقرب من رحمته ، وينجي من سخطه ، ويُنال به ما لديه من كريم الثواب ، وجزيل المآب . فاجتنبوا ما خوفاكم الله من شديد العقاب وأليم العذاب ووعيد الحساب ، يوم تُوقفون بين يدي الجبار ، وتعرضون فيه على النار . يوم لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فمنهم شقي وسعيد . يوم يفر المرء من أخيه وأمه وبنيه لكل أمرئ يومئذ شأن يغنيه . يوم لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها صدق ولا تنفعها شفاعَةٌ ولا هم ينصرون . يوم لا يجزى والدٌ عن ولده ولا مولودٌ هو جاز عن والده شيئا ، إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . فإن الدنيا دارٌ غرور وبلاء وشروير وأضمحلال وزوال ونقلب وانتقال . قد أفنت من كان قبلكم وهي عائدة عليكم وعلى من بعدهم . من ركن إليها صرعت ، ومن وثق بها خانت ، ومن أملها كذبت ، ومن رجاها خذلت . عزها ذل ، وغناها فقر . والسعيد من تركها والشقي من آثرها . والمغبون فيها من باع حظَّه من دار آخرته بها . فالله عباد الله ! والتوبة مقبولة والرحمة مبسوطة : وبادروا بالأعمال الزكية في هذه الأيام الخالية قبل أن يؤخذ بالكظم وتندموا فلا تتالون الندم يوم حسرة وتأسف ، وكآبة وتلهف . يوم ليس كالأيام وموقف ضحك المقام .

خطبة لهارون الرشيد

الحمد لله الذي نحمده على نعمه ، ونستعينه على طاعته ، ونستنصره على أعدائه ونؤمن به حقًا ونتوكل عليه مَفُوضين إليه . أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن في التقوى تكفير السيئات وتضعيف الحسنات ، وفوزًا بالجنة ونجاةً من النار ، وأحذركم يومًا تشخص فيه

الأبصار وتبلى فيه الأسرار . يوم البعث ويوم التغاين ويوم التلاقى ويوم التنادى . يوم لا يُستعتب من سيئة ولا يُرداد في حسنة . يوم الآزفة اذ القلوب لدى الخناجر كاظمين ، ما للظالمين من حيم ولا شفيع يطاع ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ... فاتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت . حصنوا إيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع وصلاتكم بالزكاة . وإياكم والأمانى فقد غررت وأردت وأوبقت كثيرا حتى أكلت بهم مناياهم ، فتناوشوا التوبة من مكان بعيد وحيل بينهم وبين ما يشتهون . فرغب ربكم عن الأمثال والوعد وقدم اليكم الوعيد . وقد رأيتم وقائعهم بالقرون الخوالى جيلا بغيلا ، وعهدتم الآباء والأبناء والأحبة والعشائر باختطاف الموت إياهم من بيوتكم ومن بين أظهركم لاتدفعون عنهم ولا تحولون دونهم ، فزالت عنهم الدنيا وانقطعت بهم الأسباب ، فأسلمتهم الى أعمالهم عند الموقف والحساب ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

وإن نظرة تجلّ الى النخب الصغيرة التي اختارها لك عن المنصور والمهدى والرشيد تعطيك فكرة صحيحة بأننا لم نعد لباب الصواب فيما ذهبنا اليه من "أتوقراطيتها" و"بابويتها" في طبيعة متحاشا ، وطلاوتها وبلاغتها في مبنائها .



على أن الخطابة العباسية لم تستمر على القوة التي كانت عليها في صدر تلك الدولة حينما استقرت ورسخت ، اذ فترت عند ذلك الدواعي وهذأت الدوافع ، وأخذت حالتها في الاضمحلال لاشتداد اختلاط العرب بالأعجم ولأن الشخصيات البارزة في الدولة كانت في الغالب من الفرس وغيرهم من الموالي الذين لم تتجرد ألسنتهم بالخطابة لما يصيبها أحيانا من لكنة العجى وحصر المعجمة وإن سميت معلومتهم وارتقت في البلاغة أساليبهم .

وربما كان من المعقول أن نقول : إن الخطابة في العصر العباسي كانت بوجه عام أقل منها في العصر الأموي من ناحية البلاغة والأسلوب ، مع وجود بعض خطباء مصّافح

لا يقلّون عن إخوانهم الأمويين بلاغة واقتداراً، بيد أنها كانت متعدّدة الأبواب، لتشعب ما بيناه لك من الوجوه والمناحى ..

(ج) الكتابة :

جرت الكتابة في العهد الأول من عصر العباسيين على ما كانت عليه عند بني أمية : من جودة اللفظ، ومثانة الأسلوب، وجلاء المعنى، ووضوح القصد وبساطته، فلم يكن القوم يُعِينُوا في التّصوّر والتّفكير، أو ينظروا الى السماء فيستوَحُّوها، أو الى الطبيعة فيستنطقوها، أو يستشِفُّوا ما وراء العالم، فإن الأفكار كانت لا تزال سهلة يرمون فيها عن حاضر البديهة وعقود الخاطر، فلم يشارِكوا الحكماء في تفكيرهم، ولا المناطقة في حججهم، اذا استثنينا نفراً قليلاً أمثال ابن المقفع، وإنما كانوا يدورون حول ما ترك آباؤهم من بيتٍ بديع، أو مثل سائر، أو حكمة رائعة، أو فكرة سامية، أو معنى يصل الى القلب بلا استئذان، وأوفّلوا في ذلك حتى صاروا فصحاء الناس وأمرآء البيان. فكان الأديب منهم يُرسل الرسالة أمام مَقْصِدِهِ فتعمل في النفوس ما لا تعمله الأسنّة والرمائح. وناهيك بما كانت تفعله تلك الرسائل في نفوس القوم ! ..

فلما حَفَّت بغداد، وأقبلت الدنيا وأنسع السلطان وامتدت أطرافه، وضمّت الدولة الى أحضانها أبناء الفرس والسريان، وكانوا يحملون ثراث آباؤهم وطُرف علمائهم، وأوسع الخلائف رحابهم لكل ذى فضل من رجال الدولة، وعرفوا للعلم مقامه فرفعوه، وللأدب صوته فأكرموه، وقربوا العلماء والأدباء، وعقدوا مجالس للناظرة والمنادمة — كما سنبين لك — وأكبّ الناس على العلم والتأليف والترجمة، وتكشف كل ذلك عن علوم وفنون لا عهد للعربية بها، فنقلوا اليها الطب والسياسة والحكمة والفلك والمنطق والتنجيم، وألف المسلمون في الفقه والنحو والحديث والتفسير — كان لكل ذلك أثره في أخيلة الكتّاب وأساليب الأقلام ووَخِي القرائح، فتعددت الأغراض، ونوعت الأساليب، ومال الكتّاب الى السهولة في العبارة، والتأنق في اللفظ، والجودة في الرصف، وأطالوا في المقدمات، ونوعوا البدء

والحنان والألقاب والدعاء، ومالوا إلى الغلو والمبالغة؛ وهالك ممشلاً ما كتب ابن سيابة إلى يحيى بن خالد من رسالة يقول فيها : «لأَصِيدَ الجواد ، الوارى الزناد، الماسجد الإجداد ، الوزير الفاضل ، الأشم البازل ، اللباب الحلاليل ، من المستكين المستجير ، البائس الضير ، فإنى أحمد الله ذا العزة القدير ، اليك وإلى الصغير والكبير ، بالرحمة العامة ، والبركة التامة . أما بعد ، فأغنم وأسلم وأعلم ، إن كنت تعلم ، أن من يرحم يرحم ، ومن يجرم يجرم ، ومن ينجس ينجس ، ومن يصنع المعروف لا يعدم ، قد سبق إلى تفضيحك على ، وأطرائحك لى ، وفضلتك عني بما لا أقوم له ولا أقعد ، ولا أنتبه ولا أرقد ؛ فلست بحى صحيح ، ولا بميت مستريح ؛ فرتت بعد الله منك إليك ، وتحملت بك عليك ... » .

أما الإطناب في الكتابة فكان صفة غالبية في كل ما شمل بيعة ، أو عهداً ، أو احتجاجاً أو انتصاراً ، أو تقريراً للمذهب أو استهواء ، أو دفعا لشبهة أو طلباً للنعمة ، أو ما يقوم نصلاً أو ما يدعو نزلاً . وتستجد طرفاً من رسائل القوم في ذلك العصر الزاهى الزاهر في باب المنثور بالكتاب الثانى من المجلد الثانى .

وقد بالغوا في تمداح ممدوحهم وذم مذمومهم . وحسبك من ذلك أن ترى ما دار بين المنصور العباسى والنفس الزكية ؛ فقد جاء مما كتبه الأول قوله : «أما بعد ، فقد أتانى كتابك وبلغنى كلامك ، فاذا جلّ فخرك بالنساء لتفضل به الحفاة والغوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة ، ولا الآباء كالعصبة والأولياء . وقد جعل العم أباً . وبدأ به على البوالد الأدنى ، فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه السلام : «وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ - وَيَعْقُوبَ» . ولقد جأبت أن الله تبارك وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم وعمومته أربعة ، فأجابه اثنان أحدهما أبى ، وكفر به الشان أحدهما أبوك . فأما ما ذكرت من النساء وقرباتهن فلو أعطين على قرب الأسلاب ، وحق الأحساب لكان الخير كله لآمنة بنت وهب ، ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه ... » .

غير أن ذلك لم يكن ليمنع أن الميل إلى الإيجاز له في نفوس القوم مقامه، وفي قلوب
البلغاء عزه وسلطانه، لا سيما ما كان من قبيل التوقيع من أمير أو وزير أو ذي جاه
وسلطان، فقد رُفِعَ إلى المنصور شكاة من أهل الكوفة لأعوجاج في عاملهم، فوقع عليها
« كيفما تكونوا يؤلّ عليكم ». وكتب جعفر إلى عامل شيك له منه : « قد كثرت شاكوك وقل
شاكوك، فأما أعتدلت وأما أعتلت » .

وقد أجمع الرواة أن الحال قد بقيت على ذلك من المتانة وحسن الإشارة ولطف المدخل
وفراة المعنى وحسن الابتداع، حتى خلف من بعدهم خلف ضعفت فيهم ملكة اللغة
وأعوزهم البيان، فمالوا إلى الألفاظ وصناعتها، والأشجاء (وزخرفتها)؛ وبقيت الكتابة تتقلب
في أكفهم وتدور حول نفسها حتى مال رأسها مع رأس العباسيين في القرن السابع الهجري .

(د) مجالس الخلفاء والمناظرة :

للخلفاء العباسيين بحكم طبيعة دعوتهم السياسية واستفحال أمر المدنية في أيامهم مجالس
حافلة بالأدباء والشعراء والمغنين والمندمين قد أترعت بذكرها كتب الآداب واستوعب
الشيء الكثير منها أبو الفرج الأصفهاني في أغانيه .

وكانوا يجلبون العلماء، كما يبنّاك في موقف الرشيد مع أبي معاوية الضرير، ويعتنون
بالشعر واللغة، ويحرصون على تعليم أولادهم بوساطة نخبة من رجال عصرهم؛ فالمنصور ضم
الشرقي بن القطامي إلى ابنه المهدي وأوصاه أن يعلمه أخبار العرب ومكارم الأخلاق وقراءة
الأشعار . والرشيد عهد بتعليم ابنه الأمين إلى الأحمر النحوي ثم الكسائي، وعهد بتأديب
المأمون إلى اليزيدي وسبويه وغيرهما . وللرشيد وصية يقال إنه أوصى بها الأحمر حينما عهد إليه
بتأديب الأمين، ونحن نشهد هنا لتقف منها على نوع التربية التي كان يتطلبها خلفاء ذلك
العصر لأبنائهم، ولأنها تدل في الوقت نفسه على مبلغ التحول الذي وصلت إليه المدنية العربية
في العصر العباسي وكيف استفادت من نظم اليونان والفرس وغيرهم من وقف العسر على
آرائهم ومؤلفاتهم .

• أما الوصية فهي : « يا أحمراً، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين . أقرئه القرآن وعرفه الأخبار، وروّه الأشعار، وعلمه السنن، وبصّرهُ بمواقع الكلام وبدنه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه . ولا تميز بك ساعة إلا وأنت مغنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتيميت ذهنه، ولا تميز في مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه . وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة . »



وكانوا يعنون بالمسائل اللغوية واللفظية عناية عظيمة كما كانوا يعنون أيما عناية بحفظ الأشعار وروايتها، ويعتبرون عدم حفظها مصيبةً وكارثةً؛ فقد روى الهيثم بن عدي عن ابن عياش قال: لما مات جعفر المنصور بن الأكبر مشى المنصور في جنازته من المدينة الى مقابر قريش ومشى الناس أجمعون معه حتى دفنه ثم أنصرف الى قصره، ثم أقبل على الربيع فقال: يا ربيع أنظر من في أهلي ينشدني :

* آمِنَ المنون وريها لتوجع *

حتى أتسلى بها عن مصيبتى؛ قال الربيع: فخرجت الى بني هاشم وهم بأجمعهم حضور، فسألتهم عنها فلم يكن فيهم أحد يحفظها، فرجعت فأخبرته فقال: والله لمصيبتى بأهل بيتي ألا يكون فيهم أحد يحفظ هذا لقلة رغبتهم في الأدب، أعظم وأشد على من مصيبتى بابني . ثم قال: أنظر هل في القواد والعوام من الجند من يعرفها، فإني أحب أن أسمعها من إنسان ينشدها؛ فخرجت فاعترضت الناس فلم أجد أحداً ينشدها إلا شيخاً كبيراً مؤدباً قد انصرف من موضع تأديبه، فسألته هل تحفظ شيئاً من الشعر؟ فقال: نعم شعر أبي ذؤيب فقلت: أبشِدني، فابتدأ هذه القصيدة العينية، فقلت له: أنت بغيتي، ثم أوصلته الى المنصور فاستنشدته إياها، ثم أجازته بمائة درهم .



أما التحول العظيم الذي حصل في أبهاء "صالحون" الخلفاء الخاصة بالمندامة، فالحديث عنه يطول . وحسبك في ذلك ما يدل به إسحاق بن إبراهيم أحد المعاصرين العباسيين ، فإنه يتحدث بما يقع الغلة إذ قد سئل عن أحوال الأمويين في الشراب واللهو فتكلم بإيجاز عن خاتمهم ؛ وسئل عن العباسيين فوصف وأجاد وصور وأفاد قال :

« أما معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد فكان بينهم وبين الندماء ستار، وكان لا يظهر أحد من الندماء على ما يفعله الخليفة إذا طرب للغنى والتذوّ حتى ينقلب ويمشي ويحسرك كتفيه ويرقص ويتجرد حيث لا يراه إلا خواص جواريه ، إلا أنه كان إذا ارتفع من خلف الستار صوت أو نغمة طرب أو حركة بغير تجاوز المقدر قال صاحب الستار : حسبك يا جارية كفى ! انتهى ! أقصري ! يوهم الندماء أن الفاعل لذلك بعض الجوارى . فأما الباقيون من خلفاء بني أمية ، فلم يكونوا يتحاشون أن يرقصوا ويتجردوا ويحضروا عراة بحضرة الخلفاء والمغنيين ، ومع ذلك لم يكن أحد منهم في مثل حال يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد في المجون والرفث بحضرة الندماء والتجرد ما يباليان ما صنعنا .

قلت : فعمر بن عبد العزيز ؟ قال : ما طن في سمعه حرف غناء منذ أفضت الخلافة إليه الى أن فارق الدنيا ، فأما قبلها ، وهو أمير المدينة ، فكان يسمع الغناء ولا يظهر منه إلا الأمر الجميل . وكان ربما صفق بيديه ، وربما تترغ على فراشه وضرب برجليه وطرب ، فأما أن يخرج عن مقدار السرور الى السخف فلا .

قلت : خلفاؤنا (خلفاء بني العباس) .

قال : كان أبو العباس في أول أيامه يظهر للندماء ثم احتجب عنهم بعد سنة ، أشار بذلك عليه أسيد بن عبد الله الخراعي . وكان يطرب ويتنهج ويصيح من وراء الستار :

« أحسنت والله ! أعد هذا الصوب » فيعاد له مراراً ، فيقول في كلها : « أحسنت » . وكانت فيه فضيلة لا تجدها في أحد ، كان لا يحضره نديم ولا مغل ولا مغل فينصرف إلا بصلة أو كسوة قلت أو كثرت ، وكان لا يؤخر إحسان محسن لغد ، ويقول : « العجب من يفرح إنسانا فيتعجل السرور ويجعل ثواب من سره تسويفا وعدة » فكان في كل يوم ليلة يقعد فيه لشغله لا ينصرف أحد من حضره إلا مسرورا ، ولم يكن هذا العربي ولا عجمي قبله . غير أنه يحكى عن بهرام جور ما يقارب هذا .

” فاما أبو جعفر المنصور فلم يكن يظهر لنديم قط ، ولا رآه أحد يشرب غير الماء . وكان بينه وبين الستار عشرون ذراعا ، وبين الستار والندماء مثلها . فاذا غناه المغني فأطربه حركت الستار بعص الجوارى ، فأطلع اليه الخادم صاحب الستار فيقول : قل له « أحسنت بارك الله فيك » وربما أراد أن يصفق بيديه فيقوم عن مجلسه ويدخل بعض حجر نسائه فيكون ذاك هناك . وكان لا يشيب أحدا من ندمائه وغيرهم درهما فيكون له رثما في ديوان . ولم يقطع أحدا ممن كان يضاف الى ملة أو صبح أو هنزل موضع قديم من الأرض ، وكان يحفظ كل ما أعطى واحدا منهم عشرين ويحسبه ويذكره له .

” وكان المهدي في أول أمره يحتجب عن الندماء متشبها بالمنصور نحواً من سمة ثم ظهر لهم ، فأشار عليه أبو عؤن بأن يحتجب عنهم فقال : « إليك عني يا جاهل ! إنما اللذة في مشاهدة السرور وفي الدنو من سرتي ، فاما من وراء وراء فما خيرها ولذتها ! ولو لم يكن في الظهور للندماء والإخوان إلا أني أعطيهم من السرور بمشاهدتي مثل الذي يعطوني من فوائدهم لحملت لهم في ذلك حظا موقرا » . وكان كثير العطايا يواترها ، قل من حضره إلا أغناه ، وكان لين العريكة ، سهل الشريعة ، لذيذ المنادمة ، قصيرا المناومة ، لا يميل دائما ولا يتركه إلا عن ضرورة ، قطع الخنا ، صبرا على الجلوس ، ضاحك السن قليل الأذى والبذاء .

« وكان الهادي شَكِسَ الأخلاق، صَعَبَ المرام، قَلِيلَ الإغضاء، سَيِّءَ الظَّنِّ، قَلَّ مَنْ تَوَقَّاه وعرف أخلاقه إلا أغناه، وما كان شيء أبغض إليه من ابتدائه بسؤال، وكان يأمر للغنى بالمال الخطير الخزيل فيقول: « لا يُعطيني بعدها شيئاً » فيعطيه بعد أيام مثلاً تلك العطية .

« ويقال: لأنه قال يوماً وعنده ابن جامع وإبراهيم الموصلي ومُعَاذُ بن الطيب — وكان أول يوم دخل عليه مُعَاذُ وكان حاذقاً بالأغاني عارفاً بها — : مَنْ أطربني اليوم منكم فله حُكْمُهُ فغناه ابن جامع غناء لم يحتره . وكان إبراهيم قد فهم غرضه فغناه :
سُلَيْمَى أَجْمَعَتْ بَيْنَا * فَأَيْنَ تَقُولُهَا أَيْنَا

فطرب حتى قام عن مجلسه ورفع صوته وقال: « أَعِدْ بالله وبحياتي ! » فأعاد فقال: « أنت صاحبي فاحْتِكِمْ » . فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين، حائطُ عبد الملك بن مروان وعينه الخزانة بالمدينة؛ قال: فدارت عيناه في رأسه حتى صارتا كأنهما جمرتان. ثم قال: « يا ابن الخناء! أردت أن تَسْمَعَ العامة أنك أطربتني، وأنى حَكَمْتُكَ فأقطعْتُكَ، أما والله لولا بادرَةُ جهلك التي غلبت على صحيح عقلك وفكرك، لضربتُ الذي فيه عيناك! » ثم سكت هنيهة . قال إبراهيم: فرأيتُ مَلَكَ الموت قائماً بيني وبينه ينتظر أمره. ثم دعا إبراهيم الخزانة، فقال: « خُذْ بيد هذا الجاهلِ فأدْخِلْهُ بيتَ المالِ فليأْخُذْ منه ما شاء! » . فأخذ الخزانة بيدي حتى دخل بي بيتَ المالِ، فقال كم تأخذ؟ فقلت مائة بَدْرَةٍ، فقال: دعني أوامرَه؛ قلت: فأخذُ تسعين؛ قال: حتى أوامرَه؛ قلت: فثمانين؛ قال: لا؛ فأبى إلا أن يؤامرَه، فعرفتُ غرضَه، فقلت له: آخذ سبعين لي ولك ثلاثون؛ قال: شَأْنُكَ؛ قال: فانصرفْتُ بسبعين ألفاً وانصرف مَلَكُ الموت عن الدار .

قال: وكان الرشيد في أخلاق أبي جعفر المنصور يتثلها كلها إلا في العطايا والصلوات والخلع . فانه كان يَقْفُو فَعَلَ أبي العباس والمهدي، وَمَنْ خَبَرَكَ أنه رآه قط وهو ينسرب

إلا المراء فكذبهُ ، وكان لا يمحصرُ شربهُ إلا خاصَّ جواريه ، وربما طربَ للغناء فتحرَّك حركةً بين الحركتين في القلة والكثرة .

«وهو من بين خلفاء بني العباس من جعلَ للمغنين مراتبَ وطبقاتٍ ، على نحو ما وضعهم أَرْدَشِير بن بابك وأنوشروان ، فكان إبراهيم الموصليّ ، وإسماعيل أبو القاسم بن جامع ، وزلز منصور الضارب في الطبقة الأولى ، وكان زلز يضرب ويُغني هُذَانٍ عليه . والطبقة الثانية سُليم بن سلام "أبو عبيد الله الكوفي" ، وعمرو الغزال ومن أشبههما . والطبقة الثالثة أصحاب المعازف والصنج والطناير . وعلى قدر ذلك كانت تخرج جوائزهم وصيالاتهم . وكان إذا وصلَ واحد من الطبقة الأولى بالمال الكثير الخطير جعل لصاحبه اللذين معه في الطبقة نصيباً منه ، وجعل للطبقتين اللتين تليانه منه أيضاً نصيباً . وإذا وصلَ أحد من الطبقتين الآخرين بصلة لم يقبل واحدٌ من الطبقة العليا منه درهماً ، ولا يجترئ أن يعرض ذلك عليه .

« قال : فسأل الرشيد يوماً برصوما الزامر ، فقال له : يا إسحاق ! ما تقول في ابن جامع ؟ فترك رأسه وقال : تحمرُّ قُطْرَبِلُ يعقل الرجل ويذهب العقل . قال : فما تقول في إبراهيم الموصليّ ؟ قال : بستانٌ فيه خوخ وكُثْرَى وتُفّاح وشوكٌ وحرنوبٌ . قال : فما تقول في سُليم بن سلام ؟ فقال : ما أحسنَ خضابه . قال : فما تقول في عمرو الغزال ؟ قال : ما أحسنَ بنانه . قال : وكان منصور زلز من أحسن وأحذق من برأ الله بالحس . فكان إذا جسَّ العودَ فلو سمعه الأحنف ومن تحالم في دهره كله لم يملك أن يطرب .

« قال إبراهيم : فغنيْتُ يوماً على ضربه ، فخطأني ، فقلتُ لصاحب الستار : هو والله أخطأ . قال : فرفع الستار ثم قال : يقول لك أمير المؤمنين أنت والله أخطأت ! فغني زلز وقال : يا إبراهيم فخطأني ! . فوالله ما فتح أحد من المغنين فاه بغير لفظ إلا عرفتُ غرضه .

(١) قطربل بالصم ثم السكون ثم فتح الراء وباء موحدة مشددة مضمومة ولام : اسم قرية بين بغداد وكمبرا ينسب إليها الخمر وما زالت منزلها للبطالين وحانة للممارين وقد أكثر الشعراء من ذكرها . أنظر ياقوت في قطربل .

فكيف أخطأ وهذه حالى ! فأذاها صاحب الستار . فقال الرشيد : قل له صدقت ، أنت كما وصفت نفسك وكذب ابراهيم وأخطأ ، قال ابراهيم : فغمنى ذلك ، فقلت لصاحب الستار : أبلغ أمير المؤمنين سيدي ومولاي ، أن بفارس رجلا يقال له سديد ، لم يخلق الله أضرب منه بعود ولا أحسن بحس ، وإن بعث اليه أمير المؤمنين لخملة عرف فضله وتغيبت على ضربه ؛ فإن زلزلا يكادنى مكيدة القصاص والقرادين . قال : فوجه الرشيد الى الفارسي فحمل على البريد فأقلق ذلك زلزلا وغمة . فلما قدم الفارسي ، أحضرنا وأخذنا مجالسنا وجاءوا بالعيدان قد سويت ، وكذلك كان يفعل في مجلس الخلافة ليس يدفع الى أحد عوده فيحتاج الى أن يحركه لأنها قد سويت وعلقت مثلها مشاكلة للزيرة على الدقة والغلط . قال : فلما وضع عود الفارسي في يديه ، نظر اليه منصور زلزل ، فأسفر وجهه وأشرق لونه ، فضرب وتغنى عليه ابراهيم . ثم قال صاحب الستار لزلزل : يا منصور اضرب ! قال : فلما جس العود ما تمالك الفارسي أن وثب من مجلسه بغير إذن حتى قبل رأس زلزلي وأطرافه ، وقال : مثلك ، جعلت فداك ! لا يمتن ويستعمل ، مثلك يعبد . فعجب الرشيد من قوله وعرف فضيلة زلزل على الفارسي . فأمر له بصلة وردة الى بلده . « وكان منصور زلزل من أسخى الناس وأكرههم ، نزل بين ظهراني قويم وقد كان يحل لهم أخذ الزكاة لما مات حتى وجبت عليهم الزكاة .

« وكان اسحاق برصوما ، في الطبقة الثانية . قال : فطرب الرشيد يوما لزمره ، فقال له صاحب الستار : يا اسحاق أزمري على غناء ابن جامع . قال : لا أفعل . قال : يقول لك أمير المؤمنين ولا تفعل ! قال : إن كنت أزمري على الطبقة العليا رفعت اليها ، فأما أن أكون في الطبقة الثانية وأزمري على الأولى فلا أفعل ! فقال الرشيد لصاحب الستار : ارفعه الى الطبقة الأولى ، فاذا قمت فادفع البساط الذي في مجلسهم اليه . فرفع اسحاق الى الطبقة العالية وأخذ البساط وكان يساوي ألفي دينار . فلما حمله الى منزله استبشرت به أمه وأخواته وكانت أمه نبطيئة لكاء نفرج برصوما عن منزله لبعض حاجاته ،

(١) كذا ضبطه صاحب القاموس « كفدند » وضبطه ابن خلكان « كهدهد » .

وجاء نساء جيرانه يهنّئنه أمه بما خُصَّ به دون أصحابه ويدعون لها ، فأخذت سكيناً وجعلت تقطّع لكل من دخل عليها قطعةً من البساط حتى أتت على أكثره . فجاء برصوماً فاذا البساط قد نُقِّسَ بالسكاكين . فقال : ويلك ما صنعتِ . قالت : لم أدر ، ظننتُ أنه كذا يقسم . فحدث الرشيد بذلك فضحك ووهب له آخر .

«وزعم سعيد بن وهب أن ابراهيم الموصلي غنى أمير المؤمنين هارون صوتاً فكاد يطير طرباً فاستعاد عاقمة ليله ، وقال : ما رأيتُ صوتاً يجمع السخاء والطرب وجودة الصنعة والخفة غير هذا الصوت ، فأقبل ابراهيم فقال : يا أمير المؤمنين ، لو وهب لك إنسان مائة ألف درهم أو لو وجدت مائة ألف درهم مطروحة ، كنت أسرّ بها أو بهذا الصوت ؟ قال : والله لأنا أسرّ بهذا الصوت منى بألف ألف وألف ألف . قال : فلو فقدت من بيت مالك مائة ألف كان أشدّ عليك أو لو فقدت هذا الصوت وفاتك هذا السرور ؟ قال : بل ألف ألف وألف ألف أهون عليّ . قال : فلم لا تهب مائة ألف أو مائتي ألف لمن أذاك بشيء فقد ألفي ألف أهون عليك منه ! فأمر له بمائتي ألف درهم .



امتاز العصر العباسي بتقدّم مجالس المناظرة ورونقها وتنظيمها وقيد المناقشات فيها . وقد يكون من المفيد إعطاؤك صورةً صحيحةً للمناظرة وعظيمها ، واهتمامهم بترويق عبارتها ، وطلاوة أساليبها ، وبلاغة تراكيبها ، وملاحظة قوة الحجّة فيها ، بأن ننقل إليك مشاورة المهدي لأهل بيته . وهي إن صحت تعتبر أثراً أدبياً له قيمته وخطره ، وأثراً سياسياً لمنقاشات القوم السياسية ولتضمنها خططاً ونصائح لا يزيد عليها إلا تلك النصائح التي تضمنها كتاب طاهر بن الحسين القائل المأموني لأبنة عبد الله ، وستراه في موضعه من باب المنشور بالكتاب الثالث في المجلد الثالث من هذا الكتاب . أما المشاورة فستجدها في الكتاب الثاني من المجلد الثاني .

(هـ) الشعر :

لا يُقدِّسُ العرب من علوم الحياة وفنونها شيئاً أكثر من تقديمهم الشعر الذى استودعوه أفكارهم وأخبارهم ، وحفظوا به نغمهم ومناسبتهم وساقوا به الحيوش والمخافل ، فدكَّت عروشاً وأبادت ممالك ، وضمنوه من أخلاقهم وعاداتهم وشؤون حياتهم ما جعله مكان نغمهم ومفزع أمرهم ؛ فكنت نجد العربى يسمع البيت من الشعر فيتربح ترنج النشوان ، ويثور حتى كأنه جبل نار وكثيراً ما سجدوا أمامه ، لمكانه من نفوسهم . وقد روى الأصمعى وغيره من ذلك شيئاً كثيراً .

وقد بقيت للشعر هذه المكانة في كلِّ عصوره العربية ، ولم يتل منه ان دولة العباسيين قامت على سواعد الفرس ، وحلوا منها مكان الصدور والحكام ؛ فإن الخلفاء والسادة وجمهرة الأمراء والأدباء ، كانوا يحملون فوق أكتافهم رؤساً عربية حفظوا فيها ثراث آبائهم ومفاخر أجدادهم ، وأقبلوا على الشعر وإنشاده ، وكانوا هم أنفسهم يقرضون الشعر . واليك ما جاء في عيون الأخبار عن المنصور قال : " كان عمرو بن عبَّيد اذا رأى المنصور يطوف حول الكعبة في قرطين يقول : إن يُرد الله بأمة مجد خيراً يول أمرها هذ الشاب من بنى هاشم . وكان له صديقاً . فلما دخل عليه بعد الخلافة وكلمه وأراد الانصراف قال : يا أبا عثمان ، سل حاجتك ؛ قال : حاجتى ألا تبعث الىّ حتى آتيك ، وألا تعطينى حتى أسألك . ثم نهض فقال المنصور :

* كلهم ماشى رويد * * كلهم خاتل صيد *

* غير عمرو بن عبَّيد *

فلما مات عمرو رثاه المنصور فقال :

صلى الاله عليك من متوسد * قبرا مررت به على حراب

قبر تضمن مؤمناً متحنفا * صدق الاله ودان بالقرآن

واذا الرجال تنازعوا في سنة * فصل الحديث بحكمة وبيان

فلو أن هذا الدهر أبى صالحا * أبى لنا حياً أبا عثمان



ولقد أحضروا لأبنائهم المؤدبين يقفونهم على الشعر وأستظفها، وجلسوا للشعراء مجالس أثابوا فيها وأعطوا، ووهبوا من المنج ما وهبوا . روى الفضل بن الربيع : « أن مروان بن أبي حفصة دخل على المهدي بعد وفاة معن بن زائدة الشيباني في جماعة من الشعراء فيهم سلم الخاسر وغيره، فأنشد مديحاً فيه ؛ فقال له : ومن أنت ؟ قال : شاعرُك يا أمير المؤمنين وعبدُك مروانُ بن أبي حفصة ؛ فقال له المهدي : ألسنت القائل :

أقننا باليامة بعد معن * مُقَاماً لا يزيدُ به زوالا
وقلنا أين نرحل بعد معن * وقد ذهب النوالُ فلا نوالا

قد ذهب النوال فيما زعمت ، فلم جئت تطلب نوالنا ! لاشيء لك عندنا ، جروا برجله فجروا برجله حتى أُخرج . فلما كان من العام المقبل تَلَطَّف حتى دخل مع الشعراء فمثل بين يديه وأنشد :

طرقتك زائرة فخي خيالها * بيضاء تخلط بالجمال دلالها
قادت فؤادك فاستقادت ومثالها * قاد القلوب الى الصبا فأمالها
قال : فأنصت له الناس حتى بلغ قوله :

هل تطمسون من السماء نجومها * بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تجحدون مقالة عن ربكم * جبريل بلغها النبي فقالت
شهدت من الأنفال آخر آية * بترائهم فأردتمو إبطالها

قال : فرأيت المهدي قد زحف من صدر مُصَلَّاه حتى صار على البساط إعجاباً بما سمع ؛ ثم قال : كم هي ؟ قال : مائة بيت ؛ فأمر له بمائة ألف درهم .

هذه القصة وأمثالها وقعت لكثير من الأمراء والوزراء الذين عرفوا للشعر منزلته ، فاستعانوا به على أغراضهم السياسية ، كما كان الأمويون يستعينون به فيها . وحسبك أن نقول لك : إنهم استعملوه في المفاخرة وفي إثارة العصبية واستحقاق الخلافة ، وفي الهجاء

والتحريض ؛ فقد دخل سديف على عبد الله بن علي العباسي وعنده جماعة من بني امية
فأنشده قوله :

لا يغررك ما ترى من أناس * إن تحت الضلوع داءً دويًا
فَضِعَ السيفَ وارفع السوطَ حتى * لا ترى فوق ظهرها أمويًا
فأمر عبد الله فذهبت أرواحهم هباء .

وكثيرا ما كانوا يستشفعون بالشعر والشعراء ويحتالون به على قضاء حاجاتهم ، ويُقدّمونه
أمامهم لمخاطبة الملوك والأمراء عند الغضب ؛ فقد روي أن الرشيد عند رجوعه من حرب
الروم أتاه كتاب ، وهو في الطريق ، من ملك الروم ”نقفور“ يفيد نقض الصلح الذي عقد
معه ، فهاب القوم إخبار الرشيد وامتنعوا عن مكاشفته ، وقدموا لمكلمته من الشعراء
الحجاج بن يوسف التميمي واسماعيل بن القاسم أبا العتاهية وغيرهما ، فأنشده الحجاج بن
يوسف :

نقض الذي أعطيتَه نقفور * وعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه * عَمَّ أناك به الاله كبير
فلقد تبشرت الرعيّة ان أتى * بالنقض عنه وافدٌ وبشير
ورجت يمينك أن تُعجل غزوة * تشفى النفوس مكانها مذكور
أعطاك حزيته وطاطا خده * حذر الصوارم والردى محذور
فأجرتَه من وقعها وكأنها * بأكفنا شعل الضرام تطير
وصرفتَ بالطول العساكر قافلا * عنه وجارك آمنٌ مسرور
نقفور إنك حين تغدر أن نأى * عنك الإمام لجاهل مغرور
أظننت حين غدرت أنك مُفلت * هيلتك أمك ما ظننت غرور
ألقاك حينك في زواجر بحره * فطممت عليك من الإمام بحور
إن الإمام على اقتسارك قادر * قربت ديارك أم نأت بك دور

ليس الإمام وإن غفلنا غافلاً * عما يسوس بحزمه ويدير
ملك تجرد للجهاد بنفسه * فعدوه أبداً به مقهور
يا من يريد رضا الاله بسعيه * والله لا يخفى عليه ضمير
لا نصبح ينفع من يغش إمامه * والنصح من نصحاته مشكور
نصح الإمام على الأنام فريضة * ولأهلها كفارة وطهور

فكر الرشيد راجعاً في أشد محنة وأغلظ كلفة حتى أناخ بفنائها ، فلم يبرح حتى رضى وبلغ
ما اراد . فقال أبو العتاهية :

ألا نادى هرقلةً بالخراب * من الملك الموفق بالصواب
غدا هارون يُرعدُ بالمنايا * ويُرَقُّ بالمدكرة القضاء
وريات يحل النصر فيها * تمر كأنها قطع السحاب
أمير المؤمنين ظفرت فاسلم * وأبشر بالغنيمة والإياب



وكان الشعراء يلعبون دوراً هاماً في الحياة الحزبية . وحسبك أن تعلم أن الخلفاء شعراء
اختصوا بهم كأبي دلامة ، وحماد مجرد ، وبشار بن بُرد ، ومروان بن أبي حفصة ، وسلم
الخالس ، وأبي نواس ، ومنصور النمرى ، وغيرهم . وللبرامكة شعراء أمثال أبان بن عبد الحميد ،
وأبن مناذر والرقاشي وغيرهم ، وللسائر الأمراء شعراء . وهناك شعراء لم يكتسبوا بالشعر
كصالح بن عبد القدوس ، وشعراء للشيعنة كالسيد الحميري وسليمان قتة ودعبل ، وشعراء
لم يتحضروا كربيعة الرقي وكلثوم بن عمرو العتابي وغيرهم . وإنا نحيلك هنا الى ما أثبتناه
لك من منظوم العصر العباسي ، في الكتاب الثاني من المجلد الثاني .

وجمّاع المقال أن الشعر العباسي قد تضمّن فنونا عديدة ، ولكنه لا يحتاج به في اللغة
كلاموى مثلاً ، لأن النّقد في الشعر والأدب جعلوا حادهم بشاراً ولم يتعدوه بسبب
نفشى اللحن واستفحال اختلاط الأعجام بالعرب .

على أن الشعراء العباسيين قد نفنوا في أنواعه أيما تفنن من قول في المهاجاة إلى قول في الأخلاق، إلى مُلح إلى تَضَرُّع، إلى وصف، إلى هجاء الخلفاء برضاهم إلى مدحهم . وعلى الجملة فقد استعملوه في كل غرض من أغراض الحياة من مُفانحة ونعريات وزهریات وثناء، كما أن منهم من ذكر الوقائع العربية في شعره ؛ فأثرى الشعراء وأترفوا . وحسبك أن تعلم أن سلمًا الخاسر خلف ثروة مقدارها ٥٠,٠٠٠ دينار، ٥٠٠,٠٠٠ درهم غير الضياع . ومثله مروان بن أبي حفصة وغيرهما . وسكن الشعراء الاطام والقصور ، وآفتنوا الأنف الحسَّانة من الحدائق وشاهقات الدور ، واستخدموا الجوارى والعلمان ، وأمعنوا في شهواتهم ولذاتهم وتعموا بحطام الدنيا ومرافقها، فسَهَلَتْ أَلْفَاظُهُمْ ، ورَقَّتْ طباعهم ، وقَلَّ اقْتِضَابُهُمْ ، وحاولوا الخروج على الطريقة القديمة ، وأرادوا أن يستبدلوا الخمر وساقية من الدار وبانيها . وتقدّم في ذلك النواصي يحمل علمهم فقال :

صِفَةُ الطَّلُولِ بِلَاغَةُ الْقُدَمِ * فاجعل صفاتك لأبنية الكرم

وقد بالغ في ذلك حتى سجنه الخليفة وأخذ عليه ألا يذكر الخمر في شعره، فقال :
أَعِزَّ شِعْرَكَ الْأَطْلَالُ وَالْمَنْزَلُ الْقَفْرَا * فقد طالما أزرى به نعتك الخمر
دعاني إلى نعت الطلول مُسَلِّط * تضيق ذراعي أن أردله أمرا
فسمعا أمير المؤمنين وطاعة * وإن كنت قد جشمتني مرجا وغرا

ونجح كثير من الشعراء نهج أبي نواس، وركبوا مركبه، وإن كان للطريقة القديمة محبوها حتى الآن .

*
*

هذا الترف الذي شمل القوم، يضاف إليه اختلاطهم بالأعاجم، وما كان لهم في ذلك الوقت من حرية في التصور والتفكير، جعلهم يفتحون في اللغة العربية فتحا جديدا يتناولون فيه أفكار الفرس واليونان، فيدخلونها في أشعارهم وآثارهم، وتمتد أيديهم إلى كثير من اللفظ الإعجمي يصورون ما جاد به النعيم وما استلزمته الحضارة . فيقول أبو نواس في ذلك :

وذا ت خد مُورَّد * قُوْهيَّة المتجرَّد
تأملُ العين منها * محاسناً ليس تنفد
بعضها قد تناهى * وبعضها يتولد
والحسنُ في كل عضو * منها معاد مُرَدَّد

ولم يقفوا عند هذا، بل وصفوا مناظر الطبيعة ورغد العيش ونعيمه، وصحبة الإخوان
وغيانة القيان، ومصايد الوحش والطير، ومجالس الأيس والسرور، وأبتسعدوا كثيراً من
المعاني الجديدة، كقول بشار :

يا قوم أذني لبعض الحيّ عاشقة * والأذنُ تعشّق قبل العين أحياناً
قالوا بمن لا ترى تهدي فقلت لهم * الأذنُ كالعين تُوفي القلب ما كانا
وقال أبو تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة * طويت أتاح لها لسان حَسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت * ما كان يُعرف طيبُ عَرِف العُود

بقيت هنالك أمور جديدة بالاهتمام، كان يصح أن نقف عندها قليلاً، فقد بالغوا
في الوصف، وفتحوا باب القصص، وتغزلوا بالعلماء، ولكن المقام يضيق عن ذلك .

الكتاب الثالث

عصر المأمون

الفصل الأول

محمد الأمين

توطئة — مولده — نشأته وأخلاقه .

(١) توطئة :

في التاريخ الأمويّ مأساة مروعة، وهي أن جند الوليد بن يزيد بن عبد الملك قتلوا خليفتهم، وحزوا رأسه، وذهبوا به الى يزيد، فنصبه على ربح وطيف به في دمشق ! كانت تلك المأساة المروعة نتيجة دعوة سياسية حادة، على الخليفة الوليد الذي تُسبِه حالته السياسية من جلّ وجوهها حالة الأمين؛ فقد كان من ضحايا نظام ولاية العهد الثنائي، ذلك بأن والده يزيد بن عبد الملك أراد أن يجعله خليفة بعده، فاضطر الى تولية أخيه هشام، ثم ابنه الصغير الوليد بعد هشام . فحاول هشام أن يولي ابنه مسامة بدل الوليد، كما حاول يزيد من قبل تولية ابنه الوليد؛ فلم يُفلح هذا ولا ذاك . وكانت النتيجة المعقولة لخطتهما السياسية : من محاولة كليهما خلع وليّ العهد والبيعة لولده، أن انضم الى كلّ بعض القوّاد والزعماء والأنصار، تأييدا له فيما يريد . وكان هؤلاء القوّاد والزعماء والأنصار يصبّحون موضع المقت والاضطهاد من وليّ العهد المضطهد متى وليّ الخلافة وصار الأمر

إليه . فإذا ما اضْطُهِدَ الخليفةُ نفسه وحيطتْ خُطَّتُهُ كان نصيبُ سيرته من الرواة نصيبَ الوليد بن يزيد، وهو نصيب محمد الأمين .

نريد أن نقول، إرضاءً للعلم والتاريخ والمنطق، أن الرواة إذا قالوا مثلاً : إن الوليد كان كافراً أو كان مجموعة قبائح، أو أنه سلم يوسف الثقفيّ كلا من محمد وإبراهيم ابني اسماعيل الخزوميّ موثقين في عباةيين، وأن يوسف أقامهما للناس وجلدهما وعذبهما وأماتهما؛ أو قالوا : إنه حبس يزيد بن هشام، وفرق بين رَوْح بن الوليد وبين امرأته؛ أو ذكروا أنه عذَّب خالد بن عبد الله القسريّ سيّد اليمن وأنه سلمه للثقفىّ فنزع ثيابه وعذبه مرَّ العذاب حتى أماته؛ أو وصفوا مُتَأَفِّسَهُ يزيدَ بالنسك والورع — فإن من واجب المؤرخ المنصف، المتحرّى للحقائق التاريخية، والراغب في النصفة العلمية، والمتمشي في أناة وترو وحكمة مع الافتراضات التحليلية، والخاضع لأحكام المنطق والحيدة والتعقل، أن ينظر بتحفّظ وتحزّز كبير، الى مثل تلك الروايات التي يوصفُ بها الخليفة المضطَّهَدُ والمغلوبُ على أمره، وكل من أنشَلَ عرشه وضاع ملكه، وخُتِمَتْ بالقتل أو الحرمان حياته .

على أنه يجدر بنا أن نتساءل، قبل أن نقنعهم موضوعنا في هدوء وسكون : ما هو الروح الذي يغلب على الرواة المعاصرين، والشعراء المعاصرين، والكتّاب المعاصرين، والمُحدِّثين المعاصرين؟ وما النهج الذي تسلكه الصحافة المعاصرة؟ أليس هو الى حدّ غير قليل، مُنَاصَرَةُ الحزبِ القويّ أو الزعيمِ القويّ مناصرةً حارّةً قويةً حادّةً، وقد لا تخلو من مبالغة في تمديحها بحاسنه، وإغراق في زرايتها على خصمه بنقائصه .

فهمة المؤرخ إذاً — حين يعرض حياة خليفة مضطَّهَدٍ انتهت حياته بحزّ رأسه : مثل حياة الوليد بن يزيد الأمويّ، ومحمد الأمين العباسيّ، وحين يعرض لتحليل حياة خليفة منتصر : مثل حياة يزيد خصم الوليد في العصر الأمويّ، وحياة عبد الله المأمون خصم محمد الأمين في العصر العباسيّ — ليست ميسورةً معبّدة بل هي جدّ شائكة .

وقد يكون من الحصافة والنصافة العلمية أن يُعرَض ما يرويه الرواة المعاصرون من مَدْحٍ للغالب وانتقاصٍ للغلوب ، على بساط البحث التحليلي . ولأسنا نرى بذلك إلى أن تُرَفِّص مقولاتهم وتُنقِص بلا حق وجاهة رواياتهم ، وإنما نوصي بالحيلة والاحتباس لا أكثر ولا أقل .



(ب) مولده :

بعد هذه التوطئة الوجيزة التي لم نَرُدِّحَ عن إثباتها في هذا الموضع ، نبدأ كلمتنا عن محمد الأمين ، من الناحية التحليلية لأخلاقه . أما ناحية النزاع الذي شجر بينه وبين أخيه المأمون ، فلها موضعها التاريخي من كتابنا :

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد ، ولد سنة سبعين ومائة هجرية ، وهي السنة التي استُخْلِفَ فيها والدُه الرشيدُ . وكان مولده بعد مولد أخيه عبد الله المأمون بستة أشهر . وولِدَ المأمون في الليلة التي استُخْلِفَ فيها والدُه .

وأم الأمين أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، فهو هاشمي الأب والأم . وقيل إن ذلك لم يتفق لخليفة عباسي غيره .

وإذ كان أحواله هاشميين ولهم في الدولة نفوذٌ قويٌّ وكلمةٌ مسموعةٌ ، فقد سَعَوْا ، فيما يحدثنا التاريخ ، حين مَدَّ جماعةٌ من بني العباس أعناقهم إلى الخلافة ، إلى أن يكون الأمرُ إلى ابن أختهم ، وقد نجحوا .

سعى خالُ الأمين عيسى بن جعفر بن المنصور إلى الفضل بن يحيى الذي بعثه الرشيد على رأس جيش إلى نحرسان ، لمحاربة بعض الخارجين على الخلافة ، وتسكين الاضطراب في تلك النواحي ، وقد كان التوفيق حليفه في ذلك الوجه ، فقال عيسى للفضل : «أَنْتَ سَدُّكَ اللَّهُ لِمَا عَمِلْتَ فِي الْبَيْعَةِ لِابْنِ أَخْنَى ، فإِنَّهُ وَلَدَكَ وَخِلَافَتَهُ لَكَ» ، فوعده الفضل أن يفعل .

فلما كان الفضل بخراسان ، يُدِل بما واثاه فيها من ظهور على الخارجين ، وهو بعدُ من آل برمك وزراء الرشيد ، وأصحاب السلطان العظيم في الدولة ، بايع لمحمد الأمين هو ومن معه من القواد والجند ، بعد أن فرق أموالاً عظيمةً ، وأعطى أعطيات كثيرةً . وتغنى بذلك شعراء العصر ، أمثال أبان بن عبد الحميد اللاحقي ، والنمريّ وسلم الخاسر وغيرهم . ولييان وجهية نظيرهم في البيعة تقتطف لك شيئاً مما قاله سلم والنمريّ .

قال سلم :

قد وفق الله الخليفة إذ بنى * بيت الخليفة للهجان الأزهر
فهو الخليفة عن أبيه وجده * شهدا عليه بمنظرٍ وبخبر
قد بايع الثقلان في مهد الهدى * لمحمد بن زبيدة أبنة جعفر

وقال النمريّ :

أمست بمرو على التوفيق قد صفت * على يد الفضل أيدي العجم والعرب
ببيعة لولى العهد أحكمها * بالنصح منه وبالإشفاق والحدب
قد وكّد الفضل عقداً لا أنتقاض له * لمصطفى من بنى العباس منتخب
فلما تنهى أمر البيعة الى الرشيد ، ووجد نفسه أمام «الأمر الواقع» ، إذ قد بايع لمحمد أهل المشرق ، بايع له بولاية العهد ، وكتب الى الآفاق فبويع له في جميع الأمصار . ومن هذا تعلم ما يصح أن يعتبر سرّاً في أن الأمين كان ولى عهد الرشيد ، دون أن يكون أكبر ولده سناً .



(ج) نشأته وأخلاقه :

تقرأ ما سطره أمثال "كارليل" عن "كرومول" و "فردريك الأكبر" وما كتبه "ترويان" عن "ماكولى" و "بزول" عن "جونسون" و "اللورد مورلى" عن

”جلادستون“، وغيرهم من الكتاب الذين يعرضون لكتابة تاريخ حياة الملوك أو السياسة أو العبقريين، فتلاحظ، في جل كتبهم، وفي الدقيق المستوفى منها على الأخص، أنهم يحفلون أيما احتفال، بقيد ملاحظاتهم عن تاريخ بطلم في طفولته، وكيف كانت ثقافته في ميعه شبابه وطراوة إهابه، وما هي الأوابد والغرائب أيام كان حداثاً صغيراً. وقد لا تُدهشك متانة ”ما كولي“ وقوة سبكه وارتفاعه إلى ذروة البلاغة في أساليبه، ولا يهولك كثرة ما حفظ ووفرة ما أطلع، اذا علمت مثلاً أنه وهو لم يعد السادسة أو السابعة كانت محفوظاته في طفولته، تبشر بعبقريته في رجولته. وكذلك يقال عن ”شارلس دكنز“ وسبع الاطلاع في صباه على جل ما سطر وكتب، حتى صار في مستقبل حياته وقد ملك ناصية البلاغة، وتسلم الذروة في تعرف النفسيات وتحليل روح الطبقات كافة: من بائسين معوزين إلى أشراف مترفين. وكذلك يقال عن ”سبنسر“ الفيلسوف العظيم والمربي النابه الذي كان يحفل في مبدأ نشأته، وهو لم يعد العاشرة مثلاً، بالدويبات وغريب الهوام التي كانت على شاطئ النهر، فعكف على دراستها، فتولدت في نفسه صفات الجلد والأناة والمواظبة، حتى أصبحنا نراه، وهو في شيخوخته، يخرج للناس المعجز المطرب في علم النفس، وعلم الحياة، وعلم الأخلاق، وعلم التربية، وهكذا مما لا حد له ولا حصر. كذلك يقال عن ”جونسون“ في صباه، وكيف كان يغالب المرض والمرض يغالبه، وكيف كانت أحاديثه في مطامعه، وكيف كان سحر بيانه وتدقيقه في مجالسه، وكيف كان ألباً عيوفاً، مترفعاً أنوفاً، فرفض في شتم وإباء حذاءً جديداً اشتراه له من لاحظ تخزق حذائه وقصر يده عن جديد... إلى آخر ما يقبده كتاب العصر عن نشأة أبطالهم، مما نمسك القلم عن الاسترسال في إثبات شبيهه ومثيله، مما يفيد في تعرف أحوالهم، ويساعد على تفهم حقيقة أمورهم. لأن القارئ اذا زامل الزعيم في طفولته وصباه، ووقف على عبثه وجده، وجلده أو تبرمه، وتعلمه أو تعزمه، ونشاطه أو جموله، ووزانتة أو تبدله، ووقف كذلك

على نقائصه وفضائله ، وهو حَدَّثُ بعد ، يستطيع أن يفهمَ فهما صحيحا ، حكمة تصرفاته في مستقبل حياته ، كما يفهم الصديق صديقه والحدنُ خَدَنَه .

ولنتساءل الآن . هل سَجَّلَ لنا التاريخ شيئا قيِّما عن نشأة الأُمِين وطفولته ؟

أظن أنني لا أعدو الحق كثيرا اذا قلت لا ؛ إذ قلما يعرض المؤرخون القدماءُ لشيء من طفولة العظماء ورجال التاريخ .

على أننا قد وقفنا من طفولة الأُمِين على شذرات ليست بذات غناء كبير ، نثبتها لك وندرسها معك ، فربما ساعدتنا بعض المساعدة على تفهم حدائثه الأُمِين ، وأستخلاص بعض الحقائق عنه .

يحدثنا البيهقي في «المحاسن والمساوى» بما سنلخصه لك خاصا بنشأة الأُمِين التعليمية ، لتقف على البيئة التي كان فيها الأُمِين ، ولأن روايته ، خصوصا ما جاء عن حلم زبيدة وفزعها منه ، مما رواه المسعودي في «مروجه» أيضا ، قد تجعلنا نعلل بحق أثر الوسط والوراثة في خلق ما كان بالأُمِين من استعداد لحب الاستخارة ، مما كانت له نتائج السيئة ، ولأنه يفهمنا بوجه عام لم كان الأُمِين فصيحاً ، أدبياً ، بليغاً ، ولم كان عابثاً مستهتراً ؛ ولم كان وادعا متبها من الدماء ؛ ولأنه يفسر نشأته في ترف الخلافة ونعيمها ، ومزج الحدائث ونهزها ، والاستمتاع بما ل زبيدة والإدلال بها شتيها !



أنت جَدُّ عالم أن الرشيد جعل الأُمِين في حجر الفضل بن يحيى ، والمأمون في حجر جعفر بن يحيى . وأنت جَدُّ عالم أن الفضل بن يحيى قال لهشيم بن بشر الواسطي : «ليكن أكثرُ ما تأخذ به ولي العهد الأُمِين تعظيم الدماء ، فإنني أحب أن يُشربَ الله قلبه الهيبة لها ، والعفاف عن سفكها» . وأنت جَدُّ عالم بوصية الرشيد للأحمر النحوي بأخذ الأُمِين بالشدّة ، إن لم تنفع الملاينة في تقويمه . وقد آن لنا أن نترك للأحمر فرصة التكلّم ، فيروى لك ما كان من أمره مع تلميذه الأُمِين .

يقول الأحمر : « كنت كثيراً ما أشتد على الأمين في التأديب ، وأمنعه الساعات التي يتفرغ فيها للهو واللعب ، فشكا ذلك الى خالصة — ولعلها كانت كبيرة وصيفات أو أمينات القصر الزبيدي — فالتقى برسالة من أم جعفر تعزم على بالكف عنه ، وأن أجعل له وقتاً أحبه فيه لتوديع بدنه ، فقلت : الأمير قد عظم قدره وبعده صوته ، وموقعه من أمير المؤمنين ومكانه من ولاية العهد ، لا يحتملان التقصير ، ولا يقبل منه الخطأ ، ولا يرضى منه بالزلل في المنطق ، والجهل بالشرائع ، والعمى عن الأمور التي فيها قوام السلطان وإحكام السياسة ، قالت : صدقت ، غير أنها والدته لا تملك نفسها ولا تقدر على كفى إشفاقها ، ومع حذرهما أمران شئت حدثتك به ، فقلت : وما ذاك ؟ قالت : حدثتني السيدة أنها رأت في الليلة التي حملت فيها به كأن ثلاث نسوة دخلن عليها ، فقعدت منهن ثنتان ، واحدة عن يمينها ، وواحدة عن يسارها ، فأمرت إحدى الثلاث يدها على بطنها ، ثم قالت : ملكٌ رجُلٌ ، عظيم البذل ، ثقیل الحمل ، سريع الأمر ! وقالت الثانية : ملك قصير العمر ، سليم الصدر ، منهتك الستر ! وقالت الثالثة : ملك قصاب ، عظيم الإلتاف ، يسير الخلاف ، قليل الإنصاف ! فانتبهت وأنا فزعاً فلم أحسّ لهن أثراً ، حتى كانت الليلة التي وضعته فيها ، أتيتني في الخلق الذي رأيتن فيه ، فقعدن عند رأسه ، وأطلعن جميعاً في وجهه ، ثم قالت واحدة منهن : شجرة نضرة ، وريحانة جنية ، وروضة زاهرة ، وعين غدقة ، قليل لبثها ، عجل ذهابها ! وقالت الثانية : سفيه غارم ، طالب للغارم ، جسور على المخاصم ! وقالت الثالثة : احفروا قبره ، وشقوا لحده ، وقربوا أكفانه ، وأعدوا جهازه ، فإن موته خير له من حياته ! قالت : فبقيت متحيرة ، وبعثت الى المنجمين والمعبرين ومن يزجر الطير ، فكل يبشرنى بطول عمره ، ويعدني بقاءه وسعاده ، وقلبي يأبى إلا الحذر عليه ، والتهمة لما رأيت في منامي . وبكت خالصة وقالت : يا أحمر وهل يدفع الإشفاق والحذر والاحترق واقع القدير ، أو يقدر أحد على أن يدفع عن أحبائه الأجل ! . قلت : صدقت ، إن القضاء لا يدفعه شيء . »

ويحدثنا التاريخ أن الرشيد اتخذ فيمن اتخذ لتربية الأمين وتعليمه ، قطرباً النحوى . وكان حمادٌ مجرد يتعشق الأمين ، ويطمع أن يتخذ الرشيد عليه مؤدباً . فلم يتهماً له ذلك لتهتكه وقبيح ذكره في الناس ؛ وقد كان رام ذلك فلم يُحب إليه . فلما سمع أن قطرباً قد استلوى أمره وأجيب الى ذلك استمر وعفاهه ، أخذ حماداً المقيم المقعد ، حسداً على ما ناله قطرب من ذلك وبلغه من المنزلة الرفيعة والدرجة السلية ، فأخذ رقعةً وكتب فيها أبياتاً ، ودفعها الى بعض الخدم ، الذين يقومون على رأس الرشيد ، وجعل له على ذلك جُعللاً ، وسأله أن يُودع الرقعة دواة أمير المؤمنين ، ففعل . فما كان بأسرع من أن دعا الرشيد بالدواة ، فاذا فيها رقعة فيها هذه الأبيات :

قل للإمام جزاك الله مغفرةً * لا يُجمع الدهر بين السَّخِلِ والذَّيْبِ
السَّخِلُ غِرٌّ وهَمُّ الذَّيْبِ غَفْلَةٌ * والذَّيْبُ يعلم ما بالسَّخِلِ من طيبِ

فلما قرأ الرشيدُ الرقعة قال : أنظروا ألا يكون هذا المعلم لوطياً ! أنفوه من الدار ، فأخرجوه عن تأديب الأمين . قيل : ثم جعل الرشيد على الأمين حراساً ، واتخذ عليه حماداً . وكان عليه رقباء سبعين أو ثمانين !

ربما كان من الحق أن نقول : إن هذه النشأة كانت لها آثارها السيئة ، خصوصاً أنا نلاحظ ، أنَّ الأمين تنقصه الدربة السياسية . وأنت تعلم أنَّ الدربة السياسية هي ناحية يُؤبَّه لها كثيراً ، في تنمية روح الحكم ، وتقوية المواهب الإدارية ، وتنظيم ملكات السلطان في وليّ العهد ، خصوصاً ذلك العصر الذي لم تكن فيه وسائل الثقافة الملكية متوافرة نوافرها اليوم . من سياحة لوليّ العهد الى الممالك المتمدنية ، ووقوف على مبلغ الحضارة العالمية ، كما هي حال وليّ عهد إنجلترا ونظرائه مثلاً ؛ مع أن الحاجة الى الثقافة السياسية في ذلك العصر كانت أشدَّ منها اليوم ، لأن الملك حين ذاك كان صاحب سلطان فعلي مطلق ، غير مقيد بقانون أو دستور إلا ما يرجع الى دينه وورعه .

نريد أن نقول إنه إذا كان نَدْبُ الهادي للرشيدي، حين ولاء قيادة الجند لحرب الروم، قد أوجد الرشيد في مركز القيادة العامة، وفيها من الشيوخ المحنكين والقادة المدربين والزعماء المنظمين، مجموعة صالحة للثقافة السياسية، وفرص تسنح، في الفينة بعد الفينة، للرأية السياسية والتخريج خليفة مُدَرَّب في فنون الملك، وإذا كان المأمون قد نَدَبَ للحكم في نراسان وغير نراسان، حتى نكبت به ظروف الأحوال عن مفاسد مال الخلافة ونعمة ابن زبيدة ودلال الهاشميين - نريد أن نقول إنه إذا كان ذلك كذلك، وكانت هذه هي نتائج الدربة السياسية، فمن الميسور أن نفهم مغبة افتقادها، كما أنه من الميسور أن نستنبط أن عنصرًا هامًا من عناصر تكوين رجال السياسة والحكم كان ينقص الأمين الذي لم تستطع غاشيته من الخدم وبطانته من الموالى وأخواله من الهاشميين وأسائيد من المربين، أن يحولوا بينه وبين ما تشتهيه نفسه وتهوى طفولته .

وهل تظن أنهم يستطيعون أن يكرهوه على أن يأخذ نفسه بحزم في أموره، وبسداد في تصرفه، وقمع لميوله، وتقويم لأعوجاجه، وبما يجعله رجلاً كاملاً ! أظن لا، وأظن أنك محق في نفيك هذا عن كان في ظروفه وبيئته .

على أنه من العدل والحق، أن نقرر أن الأمين لم يكن بليد الذهن أو ثقیل الظن، بل كان نقيض ذلك على حفظ من توقد الذهن وفصاحة اللسان، وخفة الروح والظلمة، وحسبك أن ترى شيئاً مما كان ينضح به في مجالس اللهو والمناذمة : من سرعة اليدية، وظرافة النكتة، وحلاوة التندر، ورقة الدعابة، وعذوبة الفكاهة، لتؤمن بما نقول .

وكل ما أجمع عليه المؤرخون الفريجة « كيبور » وكتاب دائرة المعارف الإسلامية، وافقت عليه كلمة المؤرخين العرب جميعاً، أنه كان مستمراً، مسرفاً، مع خور خلق، وعدم تبصير في العواقب، ولا ترو في مهمات الأمور، مما يرجع في الواقع إلى عدم العناية بثقافته السياسية، كما أسلفنا .

ولمّا محقّون إذا ما قررنا أنّه لو وجد الأمين يدًا حكيمة تقسو عليه أحيانًا فتفلّ من شبابة نفسه العابثة المريحة ، وتقوّم اعوجاج خلقه الرخو ، وتقوى سجاياه المنحلة ، وتبعث به الى الحروب ، ليضمّر بلطى أوارها ، ويصقل من جلادها وسجاها ، ويفيد نفسه من خبرة كُتّاتها ، ودربة شيوخها ، ويخدع مديريها ، ويخطّط مشيرها ، وتوليه حكم صقع من الأصقاع ، للرائنة فيه على معضلات الحكم ومشكلاته ، والاحتكاك بقادته وقضاياه ، إذا لكان للمأمون منه خصم لا يستهان به ولا تلين قناته لغامر .

على أنّا وإن قلنا إن الأمين كان مستهترا ، لا نستطيع مع ذلك أن نستسيغ الخبر الذى رواه الطبرى وغيره والذى ضربه الفخرى مثلا على إهمال الأمين وغفلته وجهله ، إلا بشيء من التحفظ كثير . وهالك خلاصة الخبر لى تقدّر معنا ما لهذه الملاحظة من وجاهة وقيمة :

لما اشتدّ الخلاف بين الأمين والمأمون ، حتى انتهى الى غايته ، أرسل الأمين لمحاربة أخيه جيشا ، لم ير فى بغداد قبل ذلك أكتف منه ، قوامه أربعون ألفا وقيل خمسون ، وزوّده بالسلاح الكثير والأموال الوفيرة ، وعلى رأسه شيخ من شيوخ الدولة ، جليل القدر ، مهيب الجانب ، هو على بن عيسى بن ماهان . وقد خرج معه الأمين الى ظاهر المدينة مشيعا مودعا . وكان فى حكم اليقين أن الظفر سيكون حليفه ، لكثرة عدده ، ووفرة سلاحه وذخيرته . فلما التقى بجيش طاهر بن الحسين قائد المأمون — وعسكره فى حدود أربعة آلاف — ثم كانت الغلبة لطاهر ، وورد الخبر بنعى على بن عيسى الى الأمين وهو يصيد ، قال للذى أخبره بذلك : دعى فإن كوثرا قد اصطاد سمكتين وأنا الى الآن ما اصطدت شيئا ! وكان كوثر هذا خادما من الخصيان ، قيل إن الأمين كان يحبه كثيرا .

نقول — ولعلك توافقنا فيما نذهب اليه — إننا لا نستطيع أن نقبل هذا الخبر وأمثاله ، إلا بشيء من التحفظ كثير . فإن خليفة يسمع مثل هذا النبأ العظيم ويعلم أن وراء الفصل في مصير سلطانه ثم لا يأبه له ، لا يكفي أن يوصف بالإهمال والجهل ، بل هو جدير بما فوق ذلك ، بالسفه والبلاهة . والسفيه الأبله أولى بالجر عليه منه بأن يكون ذا سلطانٍ مطلقٍ في دولةٍ بعيدة الأطراف والنواحي . ومحالٌ على الرشيد الذي عيرف بالحزم ، وجودة الحديس ، والثاني في الأمور ، أن يُسند هذا السلطان العظيم من بعده لسفيه أبله .

لهذا تميلُ الى الافتراض كثيرا ، بل الى الترجيح ، بأن هذا الخبر ، والكثير من أمثاله ، ليس إلا أثرًا من آثار الدعوة المأمونية التي كان لها من الأثر في ثل عرش الأمين ، وتثبيت سلطان المأمون ، ما لا يقل عن أثر عساكر المأمون وحزم قواده وحكمة مشيريه .

ويقول "ميور" : إن أهل بغداد قد ندموا ، وأُسقط في أيدي جنودها ، نفثورهم في الدفاع عن الأمين وعدم استسالمهم في الذود عنه . ويعزو مؤرخه الأستاذ "ويل" أسباب ندمهم هذا الى سخاء الأمين وإسرافه فيما كان يُغدق عليهم من الأموال والخيرات .

أما أنه كان سخيا بل مسرفا في السخاء فما لا ريب فيه . ومهما افترضتِ المبالغة فيما سنرويهِ لك نقلا عن المطاآت الأدبية والمصادر التاريخية ، فإن الصورة التي ستقع من نفسك ، مهما جعلتها متواضعةً مقتصدةً — وهذا ما نوصيك به دائماً — كافيةٌ للاقتناع بأنه كان سخيا ، بل مسرفا في السخاء .

يقول الأصفهاني في أغانيه : غنى إبراهيم بن المهدي ليلة محمد الأمين صوتا في شعر أبي نواس :

يا كثير النوح في الدّمن * لا عليها بل على السكين
سبينة العشاق واحدة * فإذا أحبت فاستكين

ظَنَّ بِي مَنْ قَدْ كَلَّفْتُ بِهِ * فَهُوَ يَجْفُونِي عَلَى الظَّنِّ
رِشَاءً لَوْلَا مَلَا حَتَّهُ * خَلَّتِ الدُّنْيَا مِنْ الْفَتَنِ

فأمر له بثلاثمائة ألف دينار؛ فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، قد أجزتني الى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم ، فقال الأمين : هل هي إلا خراج بعض الكُور ! . هكذا ذكر إسحاق :

أما محمد بن الحارث فقد روى لنا هذه الحكاية عن إبراهيم فقال : لما أردت الانصراف قال : أوقروا زورقي عمي دنائير! فانصرفت بمال جزيل .
ثم تعال ، أرشدك الله ، لننظر معاً فيما يرويه أحد المعاصرين ، وهو سعيد بن حميد فإنه يقول :

لما ملك محمد وجهه الى جميع البلدان في طلب الملهين وضمهم اليه ، وأجرى عليهم الأرزاق ، ونافس في ابتياع قُرهِ الدواب وأحد الوحوش والسباع والطيور وغير ذلك ، واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم ، وقسم ما في بيوت الأموال وما بحضرته من الجوهر ، في خصيانه وجلسائه ومحدثيه ، وحمل اليه ما كان في الرقة من الجوهر والخزائن والسلاح ، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولطوه ولعبه ، بقصر الخلد والخيزرانية ، وبستان موسى ، وقصر عبدويه ، وقصر الملعلي ، ورقة كلواذى ، وباب الأنبار ، وتبارى والهوب ، وأمر بعمل خمس حراقات في دجلة ، على خلقة الأسد ، والفيل ، والعقاب ، والحية ، والفرس ، وألفق في عنائها مالا عظيماً . فقال أبو تواس يمدحه :

تَخَرَّ اللَّهُ لِلْأَمِينِ مَطَايَا * لَمْ تُسَخَّرْ لِمُصَاحِبِ الْحَرَابِ
فَإِذَا مَا رَكَابُهُ نَسَرَ بَرًّا * سَارَ فِي الْمَاءِ رَأً كَمَا لَيْثٌ غَابِ
أَسَدًا بِأَسْطَا ذِرَاعِيهِ يَهْوَى * أَهْرَتَ الشَّدَقِ كَالْحِ الْإِنْيَابِ
لَا يَمَانِيَهُ بِالْجَبَامِ وَلَا السَّوْ * ط وَلَا غَمَزَ رَجُلُهُ فِي الرِّكَابِ
عَجَبَ النَّاسُ إِذْ رَأَوْكَ عَلَى صَو * رَةٍ لَيْثٍ تَمَرُّ مِنَ السَّحَابِ

سَبَّحُوا إِذْ رَأَوْكَ سِرْتَ عَلَيْهِ * كَيْفَ لَوْ أَبْصَرُوكَ فَوْقَ الْعُقَابِ
ذَاتِ زَوِيرٍ وَمُنْسَرٍ وَجَنَاحِيَّةٍ * تَشُقُّ الْعُبَابَ بِمَسَدِ الْعِبَابِ
تَسْبِقُ الطَّيْرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا مَا أَسْرَتْ * تَعَجَّلُوهَا بِجَيْئَةٍ وَذَهَابِ
بَارِكِ اللَّهُ لِلْأَمِيرِ وَأَبْقَا * هَ وَأَبْقَى لَهُ رِءَاءُ الشَّهَابِ
مَلِكٍ تَقْصُرُ الْمَدَائِحُ عَنْهُ * هَاشِمِيٌّ مُوَفَّقٌ لِلصَّوَابِ

على أنه يصح التساؤل : من أين للخليفة ما يكفيه من الأموال الطائلة ، والثروات الوفيرة لسد مطامعه وإلجأته الى شتى مناعمه ؟ .

وإنا نظن أنه يكفيك أن تنظر أيضا ، فيما تنتظر اليه من مختلف مصادر المال : من خراج ربما كان ظالما ، وجبايا هائلة مرقوعة ، وموازين غنيّة ، وضرائب مبالغ في فرضها ، الى باب الاستصفاء وحده وما ينجم عنه وعن نكبة الوزراء والكبراء . وجبذا لو وفق لإدراسته بعض الباحثين في التاريخ الاسلامي فهو هام وهو خطير .

ثم انظر ما ذكره الحسين بن الضحّاك ، وهو شاعر الأمين كما تعلم ، قال : ابنتي الأمير سفينة عظيمة أنفق عليها ثلاثة آلاف ألف درهم ، وأتخذ أخرى على خلقة شيء يكون في البحر يقال له « الدلفين » . فقال في ذلك أبو نواس :

قَدْ رَكِبَ الدَّلْفِينَ بَدْرُ الدَّجَى * مَقْتَحِمًا فِي الْمَاءِ قَدْ بَلَغَا
فَأَشْرَقَتْ دِجْلَةٌ فِي حُسْنِهِ * وَأَشْرَقَ السُّكَّانُ وَأَسْتَبْهَجَا
لَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَهُ مَرْكَبًا * أَحْسَنَ لِمَنْ سَارَ وَإِنْ أَحْنَجَا
إِذَا اسْتَحْتَتَهُ بِجَاذِبُفِهِ * أَعْنَقَ فَوْقَ الْمَاءِ أَوْ هَمَلَجَا
خَصَّ بِهِ اللَّهُ الْأَمِينَ الَّذِي * أَحْضَى بَتَاجَ الْمَلِكِ قَدْ تُوجَا

ثم لتتدبر معي ما يرويه لنا أحد الأمناء بقصر الرشيد ، وهو حسين خادم الرشيد ، فإنه يقول : إن الخلافة لما صارت الى محمد هُيَّءَ له منزل من منازل علي الشط بفريش أجود ما يكون من فرش الخلافة وأسواه ، فقال : ياسيدي ، لم يكن لأبيك فرش يباهى

به الملوك والوفود الذين يردون عليه أحسن من هذا، فأحببتُ أن أفرشه لك ؛ قال :
فأحببتُ أن يُفرش لي في أول خلافتي المسردراج ! ! وقال : مَرَّقوه ! قال : فرأيتُ
والله الخدمَ الفَرَّاشين قد صبروه ممزقا وفَرَّقوه .

وهناك مئات من الشواهد التي يرويها المعاصرون ، أمثال مخارق المغني ، وأبي عبادة
البحترى عن مشيخته ، والعباس بن الفضل بن الربيع ، وكوثر وغيرهم ، عن سَرَف الأُميين
وبذخه وطوه وعيئه ، يصح أن ترجع إليها في مظانها ، وكلها تؤيد صدق اللباب والجوهر .
فمن ذلك ما يرويهِ لنا حميد بن سعيد ، من أن محمدا الأُميين لما ملك ، وكاتبه عبد الله
المأمون ، وأعطاه بيعته ، طلب الخَصِيانَ وأبتاعهم ، وغالى بهم ، وصيرهم لخلوته ، في ليلته
ونهاره ، وقوام طعامه وشرابه ، وأمره ونهيه ، وفرض لهم فرضا ، سماهم الجرادية ، وفرضا
من الحبشان ، سماهم الغرابية ، ورفض النساء الحرائر والإماء ، حتى رمى بهم ، وحتى قال
في ذلك بعضُ شعراء العصر ، وقد ذكر أسماء بعضهم وحال الأُميين معهم :

ألا يا مُزْمَنَ المُنْوى بطوس * غَرِيبًا ما يَفَادَى بالنفوس
لقد أبقيتَ للخَصِيانِ بَعْلًا * تَحْمَلُ منهمُ شَوْمَ البُسُوسِ
فأما نُوْفُلُ فالشأنُ فيه * وفي بَدْرِ فيا لك من جَلِيسِ
وما العُصْمَى بَشَّارٌ لديه * إذا ذَكَرُوا ذِي سَهْمِ خَسِيسِ
وما حَسَنُ الصَّغِيرِ أخسُ حالًا * لديه عِنْدَ مَخْزِقِ الكُثُوبِ
لهم من عُمرِهِ شَطْرٌ وشَطْرٌ * يعاقرُ فيه شَرِبَ الخَنْدَرِيسِ
وما للغانياتِ لديه حَظٌّ * سوى التَّقْطِيبِ بالوجه العَبُوسِ
إذا كانَ الرِّئِيسُ كذا سَقِيًّا * فكيف صَلاحُنا بَعْدَ الرِّئِيسِ
فلو عَلمَ المَقْسيمُ بدارِ طُوسِ * لَعَزَّ على المَقْسيمِ بدارِ طُوسِ



وفي الحق أن قصف الأمين، وأنهما كآه في لهوه، وغلوّه في عبثه، وأستمتاره في مرحه، وأشتغاله بوجه خاص بخدمه، قد جرّ عليه وبالأكثر، وشراً مستطيراً، ونقر منه قلوب العقلاء من مشايعه ومناصريه، والأقوياء من مؤيديه وذويه .

من أمثال ذلك ما ذكره عن العباس بن عبد الله بن جعفر، وهو من رجالات بني هاشم، جلدًا وعقلًا، وصنيعًا، وكان يتخذ الخدم، كطبيعة حياة المترفين في ذلك العصر، قالوا : كان له خادمٌ من آثر خدمه عنده، يقال له منصور، فوجد الخادم عليه فهرج إلى محمد، وأتاه وهو بقصر أمّ جعفر المعروف بالقرار، فقبله محمد أحسن قبول، وحظي عنده حظوةً عجيبه . فركب الخادم يوما، في جماعة خدم كانوا لمحمد يقال لهم السيفاء، فتر باب العباس بن عبد الله، يريد بذلك أن يرى خدم العباس هيئته وحاله التي هو عليها، وبلغ ذلك الخبر العباس فخرج اليه، وقامت معركة وكادوا يحرقون دار العباس، وقبض الأمين على العباس، وهم أن يقتله، لولا وساطة أمّ جعفر من ناحية، وأشتغاله بخروج الحسين بن عليّ بن ماهان عليه وأنضمامه إلى المأمون من ناحية أخرى .

ولموضوع خدم الخليفة وضايفته، ذوى السلطان، من المقربين والزملاء، والقادة والوزراء، بل الخدم والأمناء، أسوأ أثر في تاريخ المدينة الإسلامية .



وهناك ظاهرة خُلقية في أخلاق الأمين، وهي حبه للاستخارة واحتفاله بالبحث عن أمر طالعه، وركونه، حتى في آخر لحظة من حياته وهي لحظة التقرير في مصيره أيستلم نفسه إلى طاهر أم إلى هرثمة، إلى منام رآه . وربما كانت هذه الخلطة فيه، من أثر البيئة، كما أسلفنا، أو من روح العصر نفسه، وإن كان أبْنُ ماهان قائده يحتقرها . وسنرى أن المأمون كان على عكس الأمين لا يحفل في مهام أموره بالاستخارة ووحى الأحلام، بل كان يجعل جلّ اعتماده على مشورة رجالاته وذوى النصيحة من أنصاره .

على أنه ليس معنى ذلك أن الأمين لم يكن يستشير، ولكنه كان في كل شأنه يغلبه هواه على وجه الصواب من أمره . وكان لرياء حاشيته وتأثير بطانته فيه النتيجة السيئة، فكان لا يعمل بما يدل به إليه من نصيح . وحسبك دليلا على ظهور هذه الخلة فيه ما رواه عمرو بن حفص مولى محمد، إذ يقول: «دخلت على محمد في جوف الليل، وكنت من خاصته، أصل إليه حيث لا يصل أحد، من مواليه وحشمه، فوجدته والشمع بين يديه، وهو يفكر، فسألت عليه، فلم يرد عليّ، فعلمت أنه في تدبير بعض أموره، فلم أزل واقفا على رأسه، حتى مضى أكثر الليل، ثم رفع رأسه إلىّ فقال: أحضرنى عبد الله بن خازم؛ فضيت إلى عبد الله فأحضرتة، فلم يزل في مناظرته، حتى انقضى الليل . فسمعت عبد الله وهو يقول: «أنشدك الله يا أمير المؤمنين! أن تكون أول الخلفاء نكت عهده، وتقض ميثاقه، وأستخف يمينه، ورد رأى الخليفة قبله .» فقال: «أسكت لله أبوك! فعبد الله كان أفضل منك رأيا وأكمل نظرا، حيث يقول: لا يجتمع خلان في هجمة .» ثم جمع وجوه القواد، فكان يعرض عليهم واحداً واحداً ما أعترفه فيأبونه، وربما ساعده قوم؛ حتى بلغ إلى نزيمة بن خازم، فشاورة في ذلك؛ فقال: «يا أمير المؤمنين لم ينصحك من كذبك، ولم يغشك من صدقك، لا تجرئ القواد على الخلع فيخلعوك، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدهك وبيعته، فإن الغادر مخذول، والنالك مفلول!» .

ولكن الأمين — كما قلنا — كان هواه يعمى عليه وجه الصواب من أمره، وكان واقفا تحت سلطان الفضل بن الربيع وعلى بن عيسى بن ماهان وغيرهما من بطانته، وهم الذين كان رياؤهم سما زعافاً، ونفاقهم وباء فتاكاً، ولين كلامهم حسكا وقتاداً، والذين لم يخلصوا لمليكتهم أو بلادهم، فيما يدلون به من الآراء، وما يقدّمونه من النصائح، وإنما يخلصون لعاجل مصالحهم، فزينوا له نكث العهد، وسهلوا له أمره، حتى أقدم عليه، لو كان ما كان من النزاع على ما سنصفه لك في بابيه .

على أنا لا نعى بما ذكرناه لك الآن ، أن الأمين كان بليد الذهن ، وإنما نعى أنه كان ضعيف الإرادة ، عديم الدربة . ونكرر لك هنا ما أسلفنا قوله لك : من اعتقادنا بتوقد ذهنه ، وفصاحة لسانه ، ونقرر أيضا ، إحقاقا للحق وإنصافا للتاريخ ، أنه كان بليغا ، متعهدا ، الى حد غير قليل ، قواده بالنصح والرأى ، فقد ذكر أحد معاصريه ، وهو عمرو ابن سعيد ، أن محمدا الأمين لما جاز باب خراسان ترجل وأقبل يوصى على بن عيسى بن ماهان : «امنح جندك من العبت بالرعية ، والغارة على أهل القرى ، وقطع الشجر ، واتهاك النساء ، وول الرى يحيى بن على ، وأضم اليه جندا كشيفا ، ومُرّه ليدفع الى جنده أرزاقهم ممبا يحيى من خراجها . وول كل كورة ترحل عنها رجلا من أصحابك . ومن خرج اليك من جند أهل خراسان وجوهها فأظهر إكرامه ، وأحسن جائزته ، ولا تعاقب أخا بأخيه ، وضع عن أهل خراسان ربع الخراج ، ولا تؤمن أحدا رماك بسهم ، أو طعن فى أصحابك بريح » .

ولم تكن هذه الوصية هى الوصية الوحيدة للأمين فنقول : فلتة من عابث ، فإن هناك ثمانية وثلاثة وهلم جرا . وما هوذا أحمد بن مزيد أحد قواده يخبرنا أنه لما أراد الشخصوص فى مهمته ، دخل على محمد الأمين فقال : أوصنى أكرم الله أمير المؤمنين ! ، فقال : «أوصيك بخصال عدة : إياك والبغى ، فإنه عقال النصر ، ولا تقدم رجلا إلا باستخارة ، ولا تشهر سيفك إلا بعد إعدار ، ومهما قدرت عليه باللين ، فلا تتعدّه الى الخرق والشر ، وأحسن صحابة من معك من الجند ، وطالعنى بأخبارك فى كل يوم ، ولا تخاطر بنفسك طالب الزلفة عندى ، ولا تستقها فيما تخاف رجوعه على ... » الى آخر نصيحته .

ومن العدل أن نقرر أيضا أنه كان الى آخر لحظة من حياته محاولا الانتصار ، باذلا مقدوره فى الحرب ، ولكن عبثه ولهوه كانا يقعدان به .

وكان طيب القلب ، يعفو حتى عن الخارجين عليه ، والمسيئين اليه . وإن موقفه مع حسين بن على بن ماهان لمعروف مشهور . وكذلك موقفه مع أسد بن يزيد أحد قادته ، حينما حُلب اليه أن يدفع له ولدى عبد الله المأمون ليكونا أسيرين فى يده ، فإن أعطاه المأمون

الطاعة فيها، وإلا عمل فيهما بحكمه وأنفذ فيهما أمره! فقال له الأمين: « أنت أعرابي مجنون، أدعوك الى ولاء أعنة العرب والعجم، وأطعمك حراج كور الجبال الى خراسان، وأرفع منزلتك عن نظرائك، من أبناء القواد والملوك، وتدعوني الى قتل ولدي، وسفك دماء أهل بيتي! إن هذا للخرق والتخليط! !

هذا الموقف النبيل، دليل على سلامة طويته، وطهر سجيته. ولكن حظه الحالك، ونجته الآفل، ورياء مشيريه، وضعف إرادته، وخور عزمته، وهواه وعيته، ونصيب المغلوب من الدعوة عليه، والحملة الموجهة اليه، قد ضربت بجرانها على سيرته، فاذا بها شواء مُزريّة، واذا بها مقبحة منفرة، حتى قيل فيه ما قيل مما يجدر بنا ألا نخلى كتابنا من إثبات بعضه:

جاء في الجزء السادس من كتاب بغداد لأحمد بن أبي طاهر طيفور: « قال المأمون لطاهر بن الحسين: يا أبا الطيب! صف لي أخلاق المخلوع، قال: كان يا أمير المؤمنين واسع الطرب، ضيق الأدب، يبيع نفسه ما تعافه هم ذوى الأقدار! قال: فكيف كانت حروبه؟ قال: كان يجمع الكتائب ويفضها بسوء التدبير، قال: فكيف كنتم له؟ قال: كنا أسدا تبيت وفي أشداقها أعناق الناكثين، وتصبح وفي صدورهم قلوب المارقين، قال: أما إنه أول من يؤخذ بدمه يوم القيامة ثلاثة، لست أنا ولا أنت رابعهم ولا خامسهم، وهم الفضل بن الربيع، وبكر بن المعتز، والسندی بن شاهك! هم والله ثار أخى وعندهم دمه...! »

وقال المسعودي في التنبيه والإشراف: « إن الأمين كان باسطاً يده بالعطاء، قبيح السيرة، ضعيف الرأي، سفاكاً للدماء، يركب هواه، ويهمل أمره، ويتكل في جليلات الخطوب على غيره، ويثق بمن لا ينصحه، واستوزر الفضل بن الربيع، الى أن استتر الفضل لما تبين من اختلال أمر محمد، وهوى أمره، فقام بوزارته من حضر من كتابه كإسماعيل بن صبيح، وغلب عليه عدة من الأولياء منهم علي بن عيسى، والسندی

ابن شاهك ، وسليمان بن أبي جعفر المنصور . وقال غيره : « إنه كان كثير اللهو واللعب ، منقطعاً الى ذلك مشغلاً به ، عن تدبير مملكته .

ويقول ابن الأثير : « لم نجد للأمين شيئاً من سيرته ، نستحسنه فنذكره » . وهذا حق في حملته عن الأمين كمدير مملكة وخليفة ، فإن فتي غراً ، لم يُثَقِّف الثقافة السياسية اللازمة ، ثم يصبح ذا سلطان مُطَّاقٍ ، في ملك كبير يشبع ذوى المطامع النهمة ، ثم تحوطه حاشية من الدهاة ، ذوى المطامع الواسعة ، والأغراض الكبيرة : كالفضل بن الربيع ، الذي أفسد ما بينه وبين أخيه ، وبكر بن المعتمر الذي زين له خالعه ، ثم هو فوق ذلك ، ينصرف الى حد كبير ، عن معالجة تدبير الملك ، الى اللهو ، والى اللهو بكل ألوانه وضروبه ، فقد ذكر الطبري في حوادث سنة ثلاث وتسعين ومائة عن علي بن إسحاق أحد معاصريه : أنه لما أفضت الخلافة الى محمد ، وهذا الناس ببغداد ، أصبح صبيحة السبت ، بعد بيعته بيوم ، فأمر ببناء ميدان حول قصر أبي جعفر في المدينة للصوابجة واللعب ، فقال في ذلك شاعر من أهل بغداد :

بني أمين الله ميداناً * وصير الساحة بُستاناً

وكانت الغزلان فيه بآناً * يهْدَى اليه فيه غزلاناً

نقول إن مثل هذا الفتي الذي يولى وجهه منذ الساعة الأولى الى مثل هذه الشؤون التي كان يجدر به ومن كان في مكانه ألا تكون صاحبة النصيب الأول من عنايته واهتمامه ، خليق ألا يجد المؤرخ له عملاً صالحاً في شأن من شؤون الدولة ، وقمين ، على ذلك أن يكون موضع استغلال كبير للدعوة المأمونية .

وقال غير ابن الأثير : « كان الأمين فصيحاً بليغاً كريماً » . وكيف لا يكون تلميذ الأحرار والكسائي وقطرب وحماد وغيرهم من فحول اللغة وجهابذة البيان وأساتذة الأدب من منشور ومنظوم فصيحاً بليغاً ! .

على أنه من الحق والعدل ، أن نقرر أيضاً ، أن هذه الصفات ، تكاد تكون من سجايا كل ناجم من هذه الأسرة الباسقة الفينانة . ومن أجل هذا ، ذهبنا الى ما ذهبنا اليه ، من

أن الأمين لم يكن كما صوّروه لنا من البله والسُخف ، ومن الخمول والبلادة . ومحال أن يكون كذلك ، وتصرفاته في بعض شؤون الدولة على ما وصفنا . ومحال أن يكون بليداً بفطرته وأستعداده ، أوجاهلاً غيبياً ، لأنه في الذروة من الهاشمية . وأنت تعلم مقدار آهتمام الخلفاء العباسيين ، والأمراء الهاشميين ، بالثقافة الأدبية ، كما بينا لك ذلك في كلمتنا عن الحياة الأدبية والعلمية في العصر العباسي . وإنما ظروف حياة الأمين ، والبيئة التي أحاطت به ، نوما الى ذلك مما فصلناه لك ، جعلت صورة الأمين كما أراناها التاريخ ، ثم هي في الوقت نفسه جنحت به الى الاستهتار والى العبث والمجانة .

وقد يكون أحسن ما نختم به كلمتنا عن تحليل الأمين وسيرته ، وأصدق وصف له ، ما ذكره الفضل بن الربيع ، وزيره ووزير أبيه من قبله ، والذي سنعرض لشيء من دقيق تصرفاته ، وحكيم تدبيراته ، عند ما نعرض لتفصيل النزاع بين الأمين والمأمون ، فهذا الوصف ربما كان أقل تحاملاً من غيره على الأمين ، وربما كان خيراً من سواه في تصوير الأمين وتحليل أخلاقه ونفسيته .

ذكر الطبري : «أن أسد بن يزيد بن مزيد حدثه أن الفضل بن الربيع بعث إليه بعد مقتل عبد الرحمن بن جبلة الأنباري ، قال : فأتيته ، فلما دخلت عليه ، وجدته قاعداً في صحن داره ، وفي يده رقعة قد قرأها ، وأحمرت عيناه ، وأشدت غضبه ، وهو يقول : ينام نوم الظربان ، لا يفكر في زوال نعمة ، ولا يتروى في إمضاء رأي ولا مكيدة ، قد ألهاه كأسه ، وشغله قدحُه ، فهو يجرى في لهوه ، والأيام تسرع في هلاكه ، قد شمرَّ عبدُ الله له عن ساقه ، وفوق له أصيب أسمه ، يرميه على بعد الدار بالختف النافذ والموت القاصد ، قد عي له المنايا على متون الخيل ، وناط له البلاء في أسنة الرماح وشفار السيوف ، ثم استرجع وتمثل بشعر البعيت :

وَجَدَوْلَةٌ جَدِّي الْعِنَانِ خَرِيدَةٌ * لَهَا شَعْرٌ جَعْدٌ وَوَجْهٌ مَقْسَمٌ
وَتَغْرُنُقِي اللَّوْنِ عَذْبٌ مَدَاقُهُ * تُضِيءُ لَهُ الظُّلُمَاءُ سَاعَةً يَنْسِمُ

وثديان كالحقين والبطن ضامر * نحيص وجهه ناره تتضمر
 لهوت بها ليل التمام ابن خالد * على بمرور الروذ غيظا تجمر
 اطل أناغيها وتحت ابن خالد * أمية نهى المرككين عثم
 طواها طراد الخيل في كل غارة * لها عارض فيه الأسنة ترزم
 يقارع أتراك ابن خاقان ليله * الى أن يرى الإصباح لا يتلهم
 فيصبح من طول الطراد وجسمه * نحيل وأصحي في النعيم أصم
 فشتان ما بيني وبين ابن خالد * أمية في الرزق الذي الله قاسم

ثم التفت إلى فقال : « يا أبا الحارث ، إنا وإياك لنجری الى غاية ، إن قصرنا عنها
 دُمننا ، وإن اجتهدنا في بلوغها انقطعنا ، وإنما نحن شعب من أصل ، إن قوى قويننا ، وإن
 ضعف ضعفنا ، إن هذا قد ألقى بيده ، إلقاء الأمة الوكلاء ، يشاور النساء ويعتزم على
 الرؤيا ، وقد أمكن بمسامعه ما معه من أهل اللهو والفسادة ، فهم يعدونه الظفر ، ويمنونه
 عقب الأيام ، والهلاك أسرع اليه من السيل الى قيعان الرمل . وقد خشيت والله أن
 نهلك بهلاكه ونعطب بعطبه ! » .

الفصل الثاني

المأمون

توطئة — مولده — نشأته وأخلاقه .

(أ) توطئة :

لننتقل الآن الى حادثة المأمون ، ولننتبع في دراستنا له نفس الطريقة التي ترسمناها حين دراستنا لحادثة الأمين ، فتكلم عن مولده ، كما نتكلم عن نشأته وأخلاقه ، محاولين أن نجعل شتات المعلومات التاريخية في هذا الصدد ، وأن ننظر فيها نظرة تفهم واستيعاب وإمعان ومقارنة وموازنة بما يقتضيه المقام من إجمال وإيجاز .

(ب) مولده :

ولد عبد الله المأمون ، لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، سنة سبعين ومائة هجرية ، وهي التي استخلف فيها الرشيد ، فلما بُشِّرَ بمولده سرَّ به سروراً عظيماً ، وسماه المأمون تيمناً بذلك . وأمه أُم ولد باذغشية تسمى «مرآجل» ويقال : إنها تمتُّ الى أسرة عربية في المجد من الأسر الفارسية .

نشأ المأمون في حجر الخلافة وتهاً له من وسائل التربية والتثقيف ما لم يتهاً إلا لأخيه الأمين . وكانت ظاهرةً عليه مخايلُ النجابة والذكاء وبعدُ الهمة والتعالى بنفسه عن سفاسف الأمور .

ومع كبر سن المأمون ، وظهور هذه الخلال فيه ، وثقة الرشيد به ، ومحبة له لم يُتَّحَ له ما أُتَّحَ للأمين ، من البيعة بولاية العهد ، إذ كان لأم الأمين من المكانة لدى الرشيد ، وهي زوجه ، ما لم يكن لأم المأمون . وقد سبق أن بينا لك ، في كلامنا على الأمين ، ما قام به أحواله من المسعى الموفق ، في أن يكون أمر الدولة من بعد الرشيد ، لابن أختهم ،

وما قام به الفضل بن يحيى فى خراسان : من البيعة للأمين بولاية العهد، حتى أصبح الرشيد أمام الأمر الواقع، فأعلن بولاية العهد للأمين راضياً أو مُكرهاً .

(ج) نشأته وأخلاقه :

وكل الرشيد بكفالة المأمون، والنظر فى شؤونه، ومراقب أحواله، جعفر بن يحيى وزيره، كما جعل الأمين، فى كفالة الفضل أنى جعفر . ونحن نحس، عند ذكر كفالة الفضل للأمين، إحساساً قد لا يعدو الواقع كثيراً، أن بين هذه الكفالة، وبين إعلان الفضل، بولاية العهد للأمين فى خراسان، صلة .

فلما نما المأمون وترعرع، أخذ المؤرخون يذكرون لنا من مظاهر نجاحه وحزمه، وتقديره لنفسه وللناس، ومعرفته بمن كانت أهواؤهم معه أو عليه، ووقوفه على ما يجرى حوله من شؤون وأحوال، مما سنقصه عليك، ما ينبئ بما سيكون لهذا الغلام من شأن عظيم . ولعل أظهر ما يدل على نجابة المأمون فى صباه ما يقصه علينا التاريخ عن أبى محمد اليزيدى مؤدبه الذى يقول : « كنت أؤدب المأمون، وهو فى كفالة سعيد الجوهري، فحُثت دار الخلافة، وسعيد قادم إليها، فوجهت إلى المأمون بعض خدمه يعلمه بمكانى، فأبطأ على، ثم وجهت آخر فأبطأ، فقلت لسعيد : إن هذا الفتى ربما تشاغل بالبطالة وتأنر؛ فقال : أجل ! ومع هذا فإنه إذا فارقك ^{سليطاً} تعمر على خدمه، ولقوا منه أذى شديداً، فقومه بالأدب . فلما خرج تناولته ببعض التأديب؛ فإنه ليدلُّك عينيه من البكاء، إذ قيل : جعفر بن يحيى الوزير قد أقبل؛ فأخذ مندبلاً فمسح عينيه وجمع ثيابه، وقام إلى فراشه فقعده عليه متربعا، ثم قال : ليدخل . فقممت عن المجلس، وخفت أن يشكونى إليه، فألقى منه ما أكره . قال : فأقبل عليه بوجهه وحدته حتى أضحكه، وضحك إليه . فلما هم بالحركة، دعا المأمون بدابة جعفر ودعا غلماناًه فسعروا بين يديه، ثم سأل عنى فحُثت؛ فقال : خذ على بقية حزبي ! فقلت : أيها الأمير، أطال الله بقاءك ! لقد خفت أن تشكونى إلى جعفر

ابن يحيى ، ولو فعلت لَتَنَكَّرَ لى ، فقال : تُرَأْنى يا أبا محمد كنت أطلع الرشيد على هذه ! فكيف يجعفر بن يحيى حتى أطلعه على أننى أحتاج الى أدب ! خذ فى أمرك ، عافاك الله ! فقد خطر ببالك ما لا تراه أبدا ، ولو عدت الى تأديبى مائة مرة !

وكذلك مما يدل على ذكاء المأمون ، وثقوب بصيرته ، وأصالته وخصالته ، منذ نعومة أظفاره ، وميعة صباه ، ما يحكى من أن أم جعفر عاتبت الرشيد ، فى تقيظه للمأمون ، دون الأيمن ولدها ، فعدا خادماً وقال له : وَجَّهْ الى الأيمن ، والمأمون خادماً ، يقول لكل واحد منهما على الخلو : ما تفعل اذا أفضت الخلافة اليك ؟ فأما الأيمن فقال للخادم : أَقِطْعُكَ وَأُعْطِيكَ ، وأما المأمون فانه قام الى الخادم بدواة كانت بين يديه وقال : أُنْساْنى عما أفعل بك يوم يموت أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين ! لى لأرجو أن نكون جميعا فداءً له ! فقال الرشيد لأم جعفر : كيف ترين ؟ فسكتت عن الجواب .

وأعدل الشواهد على تقدير هذا الغلام لنفسه ، كأمره وأبن خليفة ، وشعوره بما له من منزلة اجتماعية خاصة ، وبما ينبغى أن يكون له ، فى نفوس الناس من إجلال واحترام ، وما يجب لمثله ، فى آداب التحية وحسن الخطاب ، ما جبه به الحسن اللؤلؤى ، وهو الذى اتخذ الرشيد مؤدباً للمأمون ، بعد أبى محمد اليزيدى ، حين كان يطارحه شيئاً من الفقه ، وأخذت المأمون سنةً من النوم ، فقال له اللؤلؤى : نمت أيها الأمير ؟ فقال المأمون : سوقى ورب الكعبة خذوا بيده ! بقاء الغلمان فأقاموه . فلما بلغ الرشيد ماصنع قال متثلاً :

وهل يُنْبِتُ الخَطِّىُّ إلا وشيجه * وتُغْرِسُ إلا فى منابتها النخل

ويحدثنا التاريخ أيضاً عن المأمون صبياً ، أن الرقاشى هجاه حين مدح الأيمن بقوله :

لم تلده أمةٌ تعترِفُ فى السوق التجارا

لا ولا حد ولا خا * ن ولا فى الخزى جارا

يعترض بالمأمون ، لأن الرشيد كان قد حدثه فى جارية أو فى نحر .

ومهما يكن من شىء ، فى صبا المأمون ، فقد كانت ظاهرة فيه ، مخايل النجابة والذكاء

والحزم ، وحسن التدبير وجودة الحدس ، والطموح الى الكمال .

وقد يحد الذين يذهبون ، الى أن في تلقيح الأجناس تحسیناً للنوع ، حجة ظاهرة في المأمون لمذهبهم ، إذ لا تُعوّزهم الوسيلة في أن يرجعوا نجابته الى أنه من أم فارسية وأب عربي ، أو بعبارة أخرى : الى أنه قد جمع بين الدم الاربي والدم السامي^(١) .

هذه الخاييل حبيته الى الرشيد ، وجعلته يقدره قدره ، بفعله ولي عهد الخلافة بعد أخيه الأمين ، وجمعت حوله طائفة من ذوى الهمم الشماء الذين توسموا فيه محققا لأطباعهم الواسعة .

ومن أظهر هؤلاء الذين التفوا حوله ، لتحقيق مطامعهم ، الفضل بن سهل الذى اتخذ يحيى بن خالد البرمكى وسيلة الى الرشيد ، فى أن يكون فى خدمة المأمون . وحسبك أن تعلم من أمر الفضل هذا ، أنه القائل حين سئل عن السعادة : إنها أمر جائز وكلمة نافذة ! . وأنه الذى قال له مؤدب المأمون يوماً فى أيام الرشيد : إن المأمون لجميل الرأى فىك ، وإنى لا أستبعد أن يحصل لك من جهته ، ألف ألف درهم ، فاغناظ من ذلك وقال له : ألك على حقد ! الى اليك إساءة ! فقال المؤدب : لا والله ما قلت هذا إلا محبة لك ! فقال : أتقول لى : إنك تحصل منه ألف ألف درهم ! والله ما صحبته لأكتسب مالا قل أو جل ، ولكن صحبتته ينضى حكم خاتمى هذا فى الشرق والغرب ! قال : فوالله ما طالت المسدة حتى بلغ ما أمل .

حسبك أن تذكر لك هذا ، من أمر الفضل بن سهل ، لتعلم ما لهذا الرجل من همة وثابة ، وعزيمة مرفهة مضاءة ، ومطالع واسعة . وحسبك أن تذكر لك ما وصفه به أحد معاصريه وهو إبراهيم بن العباس لتقدر الرجل وتقدر كفايته . قال :

يمضى الأمور على بديته * وتريه فكرته عواقبها

فيظل يصيرها ويوردها * فيعم حاضرها وغائبها

(١) كتب أستاذنا الشيخ عبدالوهاب النجار عن هذا مانصه : « كذلك كان الرشيد ، كان يجمع بين الدم الاربي والدم السامي . فهل التحسين يجمع فى الطبقة الأولى فقط و يفسد فى الثانية ؟ ومع هذا فان جوزتاف لوبون يخالف هذا الرأى على اطلاعه . يقول : إن أمة كل أفرادها ولدون لانساس و عمل ذلك بتضارب السجايا والخصال والعقائد التى يرثها من أبويه واضطرابها فى نفسه » .

وَإِذَا أُلْمِتْ صَعْبَةً عَظُمَتْ * فِيهَا الرِّزْيَةُ كَانَ صَاحِبَهَا
 الْمُسْتَقْلُ بِهَا وَقَدْ رَسَبَتْ * وَلَوْتُ عَلَى الْأَيَّامِ جَانِبَهَا
 وَعَدَلْتَهَا بِالْحَقِّ فَاعْتَدَلْتُ * وَوَسِعَتْ رَاغِبَهَا وَرَاهِبَهَا
 وَإِذَا الْحُرُوبُ يَدَّتْ بَعَثَتْ لَهَا * رَأْيَا تَقُلُّ بِهِ كَاثِبَهَا
 رَأْيَا إِذَا نَبَتِ السُّيُوفُ مَضَى * عَزَمُ بِهَا فَشَفَى مَضَارِبَهَا
 وَإِذَا الْخُطُوبُ تَأَلَّتْ وَرَسَتْ * هَدَّتْ فَوَاضِلَهُ نَوَائِبَهَا
 وَإِذَا جَرَتْ بِضَمِيرِهِ يَدُهُ * أَبَدَتْ بِهِ الدُّنْيَا مَنَاقِبَهَا

يقول الفخرى : قالوا لما رأى رأى الفضل بن سهل نجابة المأمون في صباه ، ونظر في طالع ، وكان خبيراً بعلم النجوم ، فدلته النجوم على أنه سيصير خليفة ، لزم ناحيته وخدمه ودبر أموره ، حتى أفضت الخلافة إليه فاستوزره .

وسواء أكان مرجع اتصاله بالمأمون ، إلى خبرته بالنجوم ، أم إلى جودته حذسه ، فقد اتصل بالمأمون وهو صبي ، وكان الحامل له على أن يكون في خدمته تحقيق آمال كبار ، رأى بكياسته وحذقه في نجابة المأمون خير كفيل بتحقيقها .

ولقد كان استعداد المأمون الفطري منذ نشأته أن يكون رجل جماعة ، وقائد أمة ، إذ قد حَبَبَتْهُ الطَّبِيعَةُ فِيمَا حَبَبَتْهُ مِنْ شَتَّى الْمَوَاهِبِ مَوْهَبَةُ الْخُطَابَةِ وَالتَّبَرُّزِ فِيهَا . فقد أخبرنا محمد بن العباس اليزيدي قال : حدثني عمي عبد الله وأخي أحمد قالا : لما بلغ المأمون وصار في حدِّ الرجال ، أمرنا الرشيد أن نعمل له خطبةً يقوم بها يوم الجمعة ، فعملنا له خطبته المشهورة ، وكان جهير الصوت ، حسن اللهجة ، فلما خطب بها رَقَّتْ لَهُ قُلُوبُ النَّاسِ ، وَأَبْكَى مَنْ سَمِعَهُ ، فَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْيَزِيدِيُّ يَمْدَحُ الْمَأْمُونَ :

لَتَهْنِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَرَامَةً * عَلَيْهِ بِهَا شُكْرُ الْإِلَهِ وَجُوبُ
 بَأَنَّ وَلِيَّ الْعَهْدِ مَأْمُونَ هَاشِمٍ * بَدَأَ فَضْلُهُ إِذْ قَامَ وَهُوَ خَطِيبُ
 وَلَمَّا رَمَاهُ النَّاسُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * بِأَبْصَارِهِمُ وَالْعُودُ مِنْهُ صَلِيبُ

رَمَاهُمْ يَقُولُ انصَبُوا عَجَبًا لَهُ * وَفِي دُونِهِ لِلسَّامِعِينَ عَجِبُ
وَلَا وَعَتَ آذَانُهُمْ مَا أَتَى بِهِ * أَنَابَتْ وَرَقَتْ عِنْدَ ذَلِكَ قُلُوبُ
فَأَبْكَى عَمُونَ النَّاسِ ابْلُغْ وَاعِظْ * أَغْرَى بِطَاحِي النَّجَارِ نَجِيبُ
مَهْيَبٌ عَلَيْهِ لِلوقَارِ سَكِينَةٌ * جَرَى جَنَانٍ لَا أَكْعُ هَيُوبُ
وَلَا وَاجِبٌ فَوْقَ الْمَنَابِرِ قَلْبُهُ * إِذَا مَا اعْتَرَى قَلْبَ النَّخِيبِ وَجِيبُ
إِذَا مَا عَلَا الْمَأمُونُ أَعْوَادَ مِنْبَرٍ * فَلَيْسَ لَهُ فِي الْعَالَمِينَ ضَرِيبُ
تَصَدَّعَ عَنْهُ النَّاسُ وَهُوَ حَدِيثُهُمْ * تَحَدَّثَ عَنْهُ نَارِجٌ وَقَرِيبُ
شَبِيهُهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَرَامَةٌ * إِذَا وَرَدَتْ يَوْمًا عَلَيْهِ خُطُوبُ
إِذَا طَابَ أَصْلٌ فِي عُرُوقِ مِشَاجِهِ * فَأَغْصَانُهُ مِنْ طَيِّبِهِ سَتِطِيبُ
فَقُلْ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي بِهِ * يَقْدَمُ عَبْدُ اللَّهِ فَهُوَ أَدِيبُ
كَانَ لَمْ تَغِبْ عَنْ بَلَدِهِ كَانَ وَالِيَا * عَلَيْهَا وَلَا التَّدِيرُ مِنْكَ يَغِيبُ
تَتَّبِعَ مَا يُرْضِيكَ فِي كُلِّ أَمْرِهِ * فَسِيرَتُهُ شَخْصٌ إِلَيْكَ حَبِيبُ
وَرِثْتُمُ بَنِي الْعَبَّاسِ إِرْثَ مُحَمَّدٍ * فَلَيْسَ لِحَيٍّ فِي التَّرَاثِ نَصِيبُ

فلما وصلت هذه الأبيات الى الرشيد أمر لأبي محمد بخمسين ألف درهم ، ولابنه محمد
ابن أبي محمد بمثلها .



« وبعد ، » فليس من شك في نجابة المأمون وتبريزه . ولعل هذه النجابة الخارقة ،
كانت من الأسباب التي حملت الرشيد ، على أن يستوثق له الأمر في ولاية العهد من أخيه ،
ولأخيه منه ؛ فجمعتهما في بيت الله الحرام ، حين حج عام ست وثمانين ومائة ، ومعه كبار
رجال الدولة ، وجلّ الظاهرين من الأسرة المسالكة ، واستكتب كليهما عهداً بماله وعليه
قبل الآخر ، وأشهد عليهما جماعة من ذوى المكانة والنفوذ ، ثم علّق العهدين في الكعبة ،
ليكونا في مكان الاحترام الديني . وقد أثبتنا لك العهدين في باب المشور من الكتاب الثالث
في مجلدنا الثالث .

نقول : لعل هذه النجاة الخارقة كانت من الأسباب التي حملت الرشيد على أن يفعل ما فعل ، من استيثاق الأمر بين الأخوين ، خوفاً على المأمون ومنه . ولسنا ننكر أن من جملة تلك الأسباب ما يصح افتراضه : من أن الرشيد كان يُقدّر قوة حزبي المأمون والأمين ، وبعبارة أخرى ، حزبي الفرس والعرب ، أو العلوية والهاشمية ، أو الشيعة والسنية .

ونحن لا نستطيع أن نرجع مظاهر العطف المختلفة ، وفي مناسبات كثيرة من الرشيد على المأمون ، إلى الأثرة وحدها ؛ فإن للرشيد أولاداً غير المأمون ، وغير الأمين ، لم ينالوا شيئاً من هذه الخطوة العظيمة لديه . لذلك نرى — وقد ترى معنا رأينا — أن هذه الخطوة ، التي ينالها المأمون من الرشيد ، في مناسبات كثيرة ، دون إخوته ، ترجع إلى ما امتاز به المأمون ، من نجابة خارقة ، وميل إلى جد الأمور ، وترفع عن سفاسفها ، وسمو عن دناباها ، واضطلاع بما يكلف القيام به من أعباء ومهام .

ولعل أظهر مظاهر العطف من الرشيد على المأمون ، ما فعله الرشيد حين وافته منيته "بطوس" ، من وصيته بجميع ما كان معه ، من جنود وسلاح ومال للمأمون ، دون أن يكون لخليفته من بعده ، لبشّة بذلك من أزر المأمون ، ويقوى من جانبه . وأنت جد عالم بما قدّمناه لك من الكلام في العصر الأموي ، عن أثر المال فتقدّر معنا ما كان يرومه الرشيد ، ولست في حاجة لأن أقول لك ، إن أثر المال وسلطانه في نفوذ الكلمة ، وقوة الشوكة ، دونه كل أثر وكل سلطان !

ولعلنا لا نعدو الواقع كثيراً ، حين نذهب إلى القول بأن الرشيد كان يحذر الخلاف بين الأخوين ، ويخاف كليهما على الآخر : يخاف الأمين على المأمون ، لأن الأمين سيُصبح الخليفة الذي بيده قوة الدولة من جنود ومال ، وتصحبه مزايها من عظم الهيبة ونفوذ الكلمة ، وسيكون مطمح آمال الآملين وموضع رجاء الراجين .

ومن شأن كل هذا أن يجعل الناس جميعاً ، أو الأكثرية الساحقة منهم يلتفتون نحوه ، رغبة أو رهبة . وجدير بمن كان هذا شأنه أن يُخشى ويُتقى .

ويخاف المأمون على الأمين ؛ لأن ما امتاز به المأمون ، من نجابة خارقة ، وجدد وحكمة ، وعرفان بشؤون الحياة واضطلاع ، واعتداد بنفسه ، يجعل منه خطراً شديداً على الأمين جديراً بأن يخشى ويتقى أيضاً . ويظهر أن كل هذا وقر في نفس الرشيد الذي كان معروفاً بالحزم وجودة الحدس ، وقوة البصير بالعواقب ، فأراد أن يتقيه ، ورأى أن خير وسيلة لاتقائه ، أن يستكتبهما العهدين ، كما قدمنا ، فيقطع بذلك أسباب الخلاف بين الأخوين ، ويحول دون دس الدسائسين ، وسعاية الساعين ، ويفهم أنصار الفريقين ما للبيعة بين الأميرين من حرمة وتوقير .

غير أن تصرفات الأيام ، وآثار البطانة ، ونتائج السعاية ، ومغبات الرءاء والنفاق ، كانت فوق ما كان يقدر الرشيد ، فوقع الخلاف بين الأخوين أعنف ما يكون . ولم يكن ما اتخذ الرشيد من وقاية وحيلة ليصد تياره الجارف .

وكان المأمون الشاب حسن التوفيق في اختيار حاشيته ومشيريه ، بجمع حوله طائفة ، من ذوى الدهاء والحنكة ؛ وهؤلاء وإن كانوا من ذوى المطامع والأغراض ، قد أخلصوا له النصيح ، وثقفوه التثقيف الذى يكفل له النجاح ، فإن تحقيق أطماعهم الواسعة ، موقوف على نجاحه . فأخلصهم له إخلاص فى الواقع لأنفسهم أيضاً . ولما كانت أم المأمون فارسية فربما جاز لنا أن نقول : لعل لكونها فارسية أثرا فى أن يخلص له هؤلاء المشيرون إذ كانوا كلهم من الفرس واذ كانت له بهم هذه القرابة .

وهذا يفسر لنا عاطفة من عواطف المأمون ، وهى ميله الى خراسان ، وتعصبه بعض التعصب للخراسانيين ، إذ يحدثنا التاريخ أن رجلا من الشام اعترض طريقه مرارا وقال : « يا أمير المؤمنين ، انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان ، فقال له : أكرت على والله ما أنزلت قبسا عن ظهور خيوطها إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد ، يعنى فتنة ابن العامرى ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحببتى قط ، وأما قضاة فساداتها تلتظر السفىاني حتى تكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على ربهى

مذبح الله نبيه من مضر، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شاربيا . اعرف ! فعل الله بك ! »

وإنه ليجوز لنا أن نرجع هذا الميل، لا الى ما ذكره المأمون وحده، بل الى التربية وأثر البيئة الفارسية في نفسه ، والى مقابلة حسن الصنيع بمثله ، فأم المأمون فارسية ، والذين كفّلوه وقاموا بثقافته فارتسيون ، والذين أحاطوا به ونصروه فارسيون . ومن هنا نستطيع أن نفهم الرأي الذي يقول به بعض المؤرخين الفرنجة : إن انتصار المأمون على الأمين كان أيضا انتصارا للفرس على العرب ، كما كان انتصارا للفرس على العرب انتصارا العباسيين على الأمويين . ومن هنا نستطيع أن نعلل أيضا ، ما ذهب اليه ، بعض الباحثين ، من أن المأمون كان شيعيا وهو عباسي ، لأن البيئة الفارسية التي نشأ فيها كانت إلى حد غير قليل مهتمة التشيع للعلويين ، فيجوز أن تكون قد صبغت المأمون بشيء من ألوانها ، وقد كان لذلك آثاره ، لا في السياسة ونظام الملك فحسب ، بل في الآراء والمذاهب مما سندكره حين نعرض للكلام على الخليفة المأمون .

ولعلنا نكون بما قدمناه لك عن نشأة المأمون وصباه ، قد رسمنا لك صورة واضحة لهذا الأمير الذي سيكافح كفاحا شديدا في سبيل الملك ، والذي كان له أكبر أثر في الحضارة الإسلامية .

أما شتى مواهب المأمون وآراؤه ، وما اشتهر به من الحلم والعفو والكرم والبصر بالسياسة ، وجودة الخدس ، وكفاية البطانة ، وشغفه بالعلم والأدب والجدال ، وما كان لهذا الشغف من ثورة علمية وفكرية وكلامية في عصره ، فسندرجي الكلام فيها الى موضعها من كتابنا ، وهو الكلام على الخليفة المأمون ، بعد أن استقر له الأمر في بغداد ، وحين فضجت فيه هذه الحلال وآتت كل ما لها من ثمرات .

(١) في ابن الأثير (سائسا) وهو غلط ، والصحيح ما أئبناه عن أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار . والشرارة هم الخوارج .

الفصل الثالث

النزاع بين الأُميين والمأمون

توطئة — بيعة الأُميين وخلافته — مبدأ النزاع وكيف تحوّل — الوفود السياسية — نفور الرأى العام واستمرار الوفود السياسية — اعلان الحرب — انتصار الجيوش المأمونية ومقولات الشعراء — عود على بدء : مجهودات الأُميين في سبيل الفوز — الثورة وخطابها — قتل الأُميين .

(١) توطئة :

عرفت مما ذكرناه لك في مجمل كلامنا عن الرشيد والأُميين ، أن الرشيد أعلن ولاية العهد للأُميين في سنة ١٧٥ هجرية ، وسنّ الأُميين فيما قيل وقتئذ خمس سنين ، ثم أشرك معه المأمون في ولاية العهد سنة ١٨٣ هجرية ، ثم استتبق لكليهما من أخيه سنة ١٨٦ هجرية وهو عام حج الرشيد : بأن استكتب كلا منهما عهداً بما عليه وله قبل الآخر ، وعلق العهدين بالكعبة كما قدّمنا .

ويؤخذ من نصوص العهدين ، وما تبودل بعد ذلك من الرسائل بين الأُميين والمأمون ، مما سنورد لك بعضه لما تضمنته من «الديبلوماسية العباسية» : وهى لينٌ في حزم ، وتلبّيس في تأميل طويل الأجل ، — ويؤخذ منها أن خراسان ونواحيها الى الرى كانت تحت إمرة المأمون ، يتصرف في جميع شؤونها ، من سياسية وحربية واقتصادية وقضائية تصرفاً تاماً ، لا تربطه بماضرة الخلافة إلا رابطة الدعاء للخليفة . وقد صارت اليه إمرة هذه النواحي في عهد الرشيد ، وهى من الأمور التى أخذ الأُميين بالوفاء بها ، فيما أخذه من عهود ومواثيق .

وكان الرشيد قد أشرك في سنة ١٨٨ هجرية ولده القاسم مع أخويه في ولاية العهد ، وجعل من نصيبه العمل على الشام وقنّسرين والعواصم والثغور .

وكانت الأمور جارية مجرادا الطبيعي آنرا أيام الرشيد، ثم شطراً كبيراً من السنة الأولى من خلافة الأمين، إلا ما كان من أشياء، طوى عليها المأمون كشحاً، دُرْبَةً منه وسياسة، وحصافة وكياسة، وتريثاً وتعقلاً، وحزامة وتمهلاً.

ولم تنقض السنة الأولى من خلافة الأمين حتى كانت الدسائس قد فعلت فعلها، وحتى كانت المنافسة العنيفة بين الباطنيين قد بلغت غايتها، وأخذ كل من الأخوين يحذر أخاه ويتقيه، وأمتلأت الصدور حفاظاً وإحناً، ولم يبق إلا أن تلمس فتنة فجر. وسنفصل لك كل ذلك تفصيلاً.

*
* *

(ب) بيعة الأمين وخلافته :

لما خرج رافع بن الليث بن نصر بن سيار بخراسان، وكنف أنصاره، وقويت شوكته، وعظم خطره، رأى الرشيد أن يخرج إليه بنفسه لمحاربتة وتسكين حبل الأمن الذي اضطرب في تلك النواحي. فأصابه من مشاق السفر، وتغير الطقس، وشدة التفكير، ما أعلّ صحته. وبدا له من ظروف الأحوال ما حمله على تجديد البيعة للمأمون، الذي كان بمرء، وأوصى بأن يصير ما معه، من قواد وجند وسلاح ومال إلى جانبه، وأخذ المواثيق على من معه بأن يوفوا بهذه الوصية.

ثم أخذت تشتد به العلة، حتى وافته منية بطوس سنة ١٩٣ هجرية. وبويع لأمين بالخلافة، في عسكر الرشيد، ووصله نعي الرشيد في بغداد يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة، خلت من جمادى الآخرة، وقيل ليلة النصف من هذا الشهر، فكتب الخبر بقية يومه وليلته، ثم أظهره يوم الجمعة.

(١) هو حفيد نصر بن سيار آنوال لبنى أمية بخراسان إذ دالت بعد ذلك دولتهم. وسبب خروج رافع هذا أنه طمع في زواج امرأة يحيى بن الأشعث بن يحيى الطائي لشرفها ومالها وكانت مغاضبة لزوجها، فعملها على أن تعلن الكفر لتطلق ثم تزوج منها. فبلغ أمره الرشيد الذي كلف عامله أن يفرق بينهما وأن يعاقب رافعا ويحمله الحد ويقبده ويطوف به في مدينة سمرقند مقيدا على حمار حتى يكون عظة لغيره. فدرأ عنه العامل الحد وطاف به ثم سجنه فهرب من الحبس فطارده عمال الرشيد. وما زال أمره يشتد حتى اضطرب الرشيد إلى الذهاب إليه بنفسه.

ويحدثنا التاريخ أن الأمين لما بلغه اشتداد المرض على الرشيد، وتوقع وفاته، بعث بركن المعتمر رسولا الى مقر الخليفة، ليوافيه بالأخبار كل يوم . وكتب معه كتابا، وجعلها في قوائم صناديق منقورة، ألبسها جلد البقر، ليخفى أمرها، وكلفه ألا يظهر أحدا على شيء من أمره، وما توجه فيه ولو قتل، حتى اذا نفذ أمر الله في الرشيد، دفع الى كل من له كتاب كتابه . فلما وصل رسول الأمين، راب الرشيد قدومه، فسأله عما جاء به، فلما لم يجد في جوابه ما يُزيل ريبه، أمر بتفتيشه وحبسه . ولما تصيب لباب الصواب، أولا تعدوه كثيرا، اذا افترضت أن هذا الريب الذي خامره من رسول الأمين، كان من العوامل التي حملته على تجديد البيعة للمأمون، وأن يوصى له بما معه من جنود وسلاح ومال .

لبث رسول الأمين في الحبس شهرا، إذ تاريخ الكتب التي يحملها الى من أرسلت اليهم شوال سنة ١٩٢ هـ . و وفاة الرشيد كانت في جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ . ثم بدا للرشيد أن يحمل بركا على الإقرار، فكلف الفضل بن الربيع ذلك، وأن يهدده بالموت اذا لم يقر . وقد حالت وفاة الرشيد في ذلك اليوم، دون تمام هذا الإقرار . ثم لما وثق الرسول من وفاة الرشيد دفع الى كل كتابه .

وقد أثبتنا لك من هذه الكتب كتابه الى أخيه المأمون و كتابه الى أخيه صالح في موضعهما من المجلد الثالث من هذا الكتاب، لما لها من خطر في موضوع النزاع، فانهما يدلان على أن الأمين لم يكن لينكت ما عقد من عهود ومواثيق، وإنما بطانة السوء هي التي زينت له أن يفعل ما فعل، فراجعهما ثمة . وتأمل طويلا فيما لبطانات السوء من وخيم العواقب بين الأشقاء، والزعماء، والأمراء، وما تجرّه على البلاد من انتشار العقد وتشنيت الشمل، وتشعث الألفة، وفرقة الجماعة، وسريان الفتن وذبوع الفوضى، وانتشار الاضطرابات، واندلاع نيران الثورات، ومن ترجيح كفة الأشرار على الأبرار، الى غير ذلك من شتى النتائج السيئة، والعواقب المهلكة، التي سنحدثك عنها، وستراها واضحة جلية في كلمتنا الآتية .



(ج) مبدأ النزاع، وكيف تقلب، ونتيجته :

قد تطالب الى ، وفكك الله ، أن تقف على ما كان لتلك الكتب ، من أثر في نفوس من أرسلت اليهم ، وإني شاف غلتك ، مجيبك الى سؤالك ، محيلك الى الطبرى في هذا الصدد إذ يقول :

”لما قرأ الذين وردت عليهم كتب محمد بطوس ، من القواد والجند وأولاد هارون ، تشاوروا في الخاق بمحمد ، فقال الفضل بن الربيع : لا أدع مذكاً حاضراً لا تحراً يذرى ما يكون من أمره ، وأمر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك ، محبة منهم للحوق بأهلهم ومنازلهم ببغداد ، وتركوا اليهود التي كانت أخذت عليهم للمأمون “ .

أما المأمون - بعد أن انتهى إليه بمرور نكت القوم لليهود التي أخذت عليهم ، وفرارهم الى بغداد بما كان الرشيد أوصى بأن يكون له ، من جنيد ومال وسلاح - فقد اجتمعت كلمة الرواة على حسن تيقظه وسرعة مبادرته لشق أموره ، وأنه شد لها حيازيمه ، وحسرها عن ساقه . ويحدثنا التاريخ أنه قد جمع من معه من قواد أبيه ، وأخبرهم الخبر وشاورهم في الأمر ، فأشاروا عليه أن يلحق القوم في أفنى فارس ، ويحول بينهم وبين ما أرادوا .

ولكن المأمون عمل بمشورة الفضل بن سهل ، الذي كان يثق به وبكفايته ، ويؤمن بكياسته وحسن سياسته ، ويقتنع بثقوب بصره وصدق نظره ، فقد قال له الفضل : إن فعلت ما أشاروا به عليك جعلت هؤلاء هدية الى محمد ، ولكن الرأي أن تكتب اليهم كتاباً ، وتوجه اليهم فتذكركم البيعة ، وتسألهم الوفاء ، وتحذرهم الحنث وما يلزمهم في ذلك في الدنيا والدين ، وإن كتابك ورسلك تقوم مقامك ، فتستبرئ ما عند القوم . وتوجه سهل ابن صاعد - وكان يظلي قهرمته - فانه يأملك ، ويرجو أن ينال أمله ، فان يألوك نصيحا ، وتوجه معه نوفلا الخادم مولى موسى أمير المؤمنين ، وكان عاقلاً . فلم ير المأمون ، وهو

الحاذق الفطن، ندحة دون صدوره عن رأى ابن سهل، فكتب كتاباً ووجه من أشار بهما الفضل الى القوم فالحقاهم بنيسابور؛ فقال الفضل بن الربيع لما وصله كتاب المأمون معتذرا متعللا: "إنما أنا واحد منهم" ! وقد نال بعضهم من المأمون وأغلظ لرسوليته؛ ثم رجع الرسولان بالخبر.

وكان ممكناً، بعد أن طوى المأمون كشفاً على ما وقع من القوم من نكث للعهود واغتصاب لما أوصى به الرشيد له: من جنيد ومال وسلاج، وبعد أن أخذ يهتدي الى أخيه خير ما وصلت اليه يميناه من تحيف نراسان ونفائسها، أن تبسير الأمور في مجراها الطبيعي، وأن يستقر الأمر بين الأخوين على ما أراد الرشيد، لولا أن بطانة الأمين أوعزت صدره على أخيه، ولولا أن بطانة المأمون حفزته الى مقابلة العدوان بمثله، وأفعمت قلبه ثقة بالغلبة والظفر وإيماناً بالفوز والنجاح.

وإن كلمة الفضل بن الربيع "لا أدع ملكاً حاضراً لآخر لا يدرى ما يكون من أمره!" فيها الغنية والكفاية في تفهيمنا الأساس الذى بُنيت عليه تصرفاته بين الأخوين، فهو ينظر لمصلحة من بيده الملك اليوم، لا يحفل ببيعة ولا عهد، ولا يكثرث لوحدة قومية ولا يحفل بإحلال الوفاق بين العباد، ولا يعمل على مضافة ولا وداية، وإنما همه الملك الحاضر، والإمعان في إرضاء الملك الحاضر.

كذلك كانت حال الفضل بن سهل في موقفه مع عبد الله المأمون! ومهما كانت صورة المأمون التى صورتها لنا التاريخ بأنه المغلوب على أمره، فى النزاع الذى نشب بين الأخوين، وأن الأمين هو الناكث الغادر. ومهما كانت القلوب الإنسانية تحنو على المظلوم وتعطف على المغلوب — مهما كان كل ذلك، مما يجعلنا نستسيغ تصرفات الفضل بن سهل مع المأمون، بل مما يدفعنا الى الافتتان بها وعزو الحصافة، والأصالة، والكياسة، الى صاحبها، وأن ليس هناك من هو أنهد منه فى مثل مواقفه ولا أجزى، ولا أحكم من تدبيراته ولا أوفى، ولا أرهف غرراً من عزيماته ولا أمضى، ولا أقدر منه

في حُطَّطِهِ وَلَا أَغْنَى، بَيَّدَ أَنَا مَعَ ذَلِكَ، إِذَا جَرَّدْنَا النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ مِنْ بَعْضِ صِفَاتِهَا، وَنَظَرْنَا "بِرُودٍ" — عَلَى حَدِّ التَّعْبِيرِ الْإِنْجَائِزِيِّ — وَبِحَيْدَةٍ وَنَصْفَةٍ مِنْهُ وَلَهُ، فَاثْنَا نَقْزَرُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ نَعْدُوَ الْحَقَّ وَالْوَاقِعَ، أَنَّ الْفَضْلَ بْنَ سَهْلٍ لَعِبَ مَعَ الْمَأْمُونِ، ذَلِكَ الدَّورَ الْخَطِيرَ. ذَاتَهُ الَّذِي لَعِبَهُ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ مَعَ الْأَمِينِ، وَأَنَّ كَلًّا قَدْ تَوَكَّأَ عَلَى أَمِيرِهِ لَغَايَتِهِ، وَاسْتَعْلَهُ فِي سَبِيلِ نُجْحِ سِيَاسَتِهِ، وَدَفَعَ بِهِ إِلَى حَيْثُ يَرِيدُ ! .

أَنْظُرْ إِلَيْهِ، وَقَدْ عَادَتْ وَفُودَ الْمَأْمُونِ مِنْ مَقَابِلَةِ الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ وَمِنْ لَحْقِ بِهِ مِنْ جَنْدٍ وَسِلَاحٍ، تَرَاهُ يَصَارِحُ الْمَأْمُونُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ : أَعْدَاءُ قَدْ اسْتَرَحَتْ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ أَفْهَمَ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ : إِنَّ هَذِهِ الدَّوْلَةَ لَمْ تَكُنْ قَطُّ أَعَزَّ مِنْهَا أَيَّامَ أَبِي جَعْفَرٍ، فَخَرَجَ عَلَيْهِ "الْمَقْنَعُ" وَهُوَ يَدْعَى الرُّبُوبِيَّةَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : طَلَبَ بَدْمَ أَبِي مُسْلِمٍ، فَتَضَعُضَعَ الْمَعْسَكَ، بِخُرُوجِهِ بِخِرَاسَانَ، فَكَفَى اللَّهَ الْمُؤْنَةَ، ثُمَّ نَخَرَجَ بَعْدَهُ يُوسُفُ الْبَرَمِ، وَهُوَ عِنْدَ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ كَافِرٌ، فَكَفَى اللَّهَ الْمُؤْنَةَ، ثُمَّ نَخَرَجَ أَسْتَاذُ سَيْسٍ، يَدْعُو إِلَى الْكُفْرِ، فَسَارَ الْمَهْدِيُّ مِنَ الرِّيِّ إِلَى نَيْسَابُورَ فَكَفَى اللَّهَ الْمُؤْنَةَ . وَلَكِنْ مَا أَصْنَعُ أَكْبَرُ عَلَيْكَ، أَخْبَرَنِي كَيْفَ رَأَيْتَ النَّاسَ حِينَ وَرَدَ عَلَيْهِمْ خَبَرُ رَافِعٍ؟ قَالَ الْمَأْمُونُ : "رَأَيْتُهُمْ اضْطَرَبُوا اضْطِرَابًا شَدِيدًا" فَقَالَ لَهُ الْفَضْلُ : وَكَيْفَ وَأَنْتَ نَازِلٌ فِي أَخْوَالِكَ وَبِيعَتِكَ فِي أَعْنَاقِهِمْ، كَيْفَ يَكُونُ اضْطِرَابُ أَهْلِ بَغْدَادِ؟ أَصْبِرْ وَأَنَا أَضْمِنُ الْخِلَافَةَ! قَالَ الْمَأْمُونُ : "قَدْ فَعَلْتُ وَجَعَلْتُ الْأَمْرَ إِلَيْكَ فَقُمْ بِهِ" .

عَلَى أَنَّهُ إِذَا صَدَقَ الرِّوَاةُ فِيمَا يَرُودُهُ لَنَا : مِنْ أَنَّ الْفَضْلَ بْنَ سَهْلٍ قَالَ لِلْمَأْمُونِ فِي حَدِيثِهِ مَعَهُ : "لَأَصْدُقَنَّكَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَالِكٍ، وَيَحْيَى بْنَ مَعَاذٍ، وَمَنْ سَمِينَا مِنْ أَمْرَاءِ الرُّؤَسَاءِ، إِنْ قَامُوا لَكَ بِالْأَمْرِ كَانَ أَنْفَعَ مِنِّي لَكَ، بِرِيَاسَتِهِمْ الْمَشْهُورَةِ، وَلَمَّا عِنْدَهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْحَرْبِ، فَمَنْ قَامَ بِالْأَمْرِ كُنْتُ خَادِمًا لَهُ، حَتَّى تَصِيرَ إِلَيَّ مَحَبَّتُكَ، وَتَرَى رَأْيَكَ فِيَّ" . وَصَدَقُوا فِي أَنَّ الْفَضْلَ بْنَ سَهْلٍ لَقِيَ هَؤُلَاءِ الزَّعَمَاءَ فِي مَنَازِلِهِمْ، وَذَكَرَ لَهُمُ الْبَيْعَةَ الَّتِي فِي أَعْنَاقِهِمْ، وَمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْوَفَاءِ، وَأَنَّ الْخِيَةَ كَانَتْ نَصِيبَ دَعْوَتِهِ لَهُمْ وَتَذَكِيرِهِ لِيَاكُمُ، وَأَنَّهَا مَعَ ذَلِكَ لَمْ تَصْدِفْهُ عَنْ قَصْدِهِ الَّذِي نَهَدَ إِلَيْهِ، وَلَمْ تَحُلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَضِيَّةٍ قُدِّمًا فِي سَبِيلِ غَايَتِهِ، الَّتِي

تأدى لها بأداته ، وتذرع لها بذرائعه ، وأخذ لها عدته ، وأرهف لها عزمته . وأنه قال للمأمون :
 «لقد قرأت القرآن ، وسمعت الأحاديث ، وتفقهت في الدين ، فالرأى أن تبعث الى من
 بالحضرة من الفقهاء ، فتدعوهم الى الحق والعمل به ، وإحياء السنة ، ونقعد على اللبود ، وترد
 المظالم» . وصدقوا حقاً في أن المأمون والفضل فعلاً ذلك ، وأنهما بعثا الى الفقهاء ، وأكرما
 القواد والملوك وأبناء الملوك . وصدقوا في أن الفضل كان يقول للشمسي : «تقيمك مقام
 موسى بن كعب ، ولربيعي مقام أبي داود خالد بن إبراهيم ، ولليافي مقام خطبة ومالك
 ابن الهيثم . وصدقوا في أنهما كانا يدعوان كل قبيلة ، الى نقباء ورؤساء الدولة ، كاستمالتهم
 الرؤوس . وصدقوا في أن المأمون والفضل قد حطا عن خراسان ربع الخراج حتى حسن
 موقع ذلك من الخراسانيين وسروا به وقالوا : «ابن أختنا وابن عم نينا صلى الله عليه وسلم»
 وصدقوا في أن المأمون تواترت كتبه الى أخيه محمد الأمين ، بالتعظيم والهدايا اليه من
 طرف خراسان ، من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح ، حتى أوائل سنة أربع
 وتسعين ومائة التي عزل فيها الأمين أخاه القاسم عما كان أبوه ولاء من عمل قنشرين
 والشام والعواصم والنفور ، وولى مكانه خزيمه بن خازم ، والتي أمر فيها بالدعاء لابنه
 موسى على المنابر بالإمرة ، وحتى مكر كل واحد منهما بصاحبه وظهر بينهما الفساد — اذا
 صدق الرواة في كل ذلك ، فانا نرى من النصفة العلمية والتاريخية ، أن نقرر حينئذ أن
 الفضل بن سهل كان دهيئاً حقاً ، وممعنا في الديبلوماسية ، وكان موقفه لا يقل عن موقف
 «وارن هاستنج» و «كليف» في الهند ، وغيرهما من جهابذة السياسة ، وأقطاب الدهاء .
 وربما كانت مكانته أسمى منهما وأرفع وأخلق بمقارنتها بمن يشار اليه بالبنان من ساسة هذا الزمان !

ولننظر معاً ، وهبنا الله وإياك الجسد والأناة ، ووفقنا الى ما نرومه من تمحيص
 وتحقيق ، وتفهم وتدقيق ، في حوادث سنة أربع وتسعين ومائة لتكون لملمين بتحول النزاع
 الذي شجريين الأخوين ، ولتؤمن الإيمان كله أن البطانة قد لعبت دوراً شليعا ، في إشعال
 جذوة الحقد والسخيمة بينهما ، وعملت على إضرام أوارها ، وسعت جهدها في توسيع مسافة

الخلف بين الأخوين حتى كان ما كان، نجد أن الفضل بن الربيع، فيما يرويهِ لنا المؤرخون، سعى بعد مَقْدَمِهِ العراقَ على محمد، منصرفاً عن طُوسَ، وناكحاً للعهود التي كان الرشيد أخذها عليه لأبْنِهِ عبد الله، وعلم أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون يوماً وهو حتى لم يُنْقِ عليه، وكان يترقب في ظفَرِهِ به عَطَبَهُ — سعى جُهْدَهُ في إغراء محمد به، وأعمل قريحته في حثه على خلعه، وزيّن له، بما في مقدوره، أن يصرف ولاية العهد من بعده إلى أبْنِهِ موسى. ولم يكن ذلك من رأى محمد ولا عزمه، بل كان عزمه، فيما ذكر الرواة عنه، الوفاء لأخويه عبد الله والقاسم بما كان أخذ عليه لهما والدّه من العهود والشروط. فلم يزل به الفضل ابن الربيع يُصَغِّرُ في عينيه شأنَ المأمون، ويُزَيِّنُ له خلعه، حتى قال له: "ما تنتظر يا أمير المؤمنين بعبد الله والقاسم أخويك، فإن البيعة لك كانت متقدّمة قبلهما، وإنما أدخلنا فيها بعدك، واحداً بعد واحد!" . قال ذلك ابن الربيع، وضم إلى رأيه معه على بن عيسى ابن ماهان والسندی وغيرهما ممن بحضرته .

ومن المعقول أن تفترض أن الفضل مضى في الإيقاع على هذه النعمة، ثنياً بعد ثنى ومرة إثر أخرى، وقدح في ذلك قريحته، وأستخدم شتى وسائل أمثاله ونظرائه، حتى أزال محمداً عن رأيه . وقد ذكر المؤرخون: أن أول ما بدأ به محمد عن رأى الفضل بن الربيع فيما دبر من ذلك، أن كتب إلى جميع العمال في الأمصار كلها، بالدعاء لأبْنِهِ موسى بالإمرة بعد الداء له وللمأمون والقاسم بن الرشيد .

والآن، بعد أن وقفت على تصرف محمد وجماعة محمد مع المأمون وجماعة المأمون، لك أن تستنبط ما يفعله الفريق الآخر، إجابةً على تصرف الفريق الأول . ولك أن تنتظر من المأمون أن يدبر أمره تديراً من يرى أن أخاه يدبر عليه خلعه . ولك أن تنتظر مثل ذلك من جماعة المأمون وأنصاره .

وهكذا تنبئنا حوادث السنة نفسها، إذ ينبئنا الطبري أن فيها قطع المأمون البريد عن محمد، وفيها أسقط اسمه من الطرز، وفيها لحق رافع بن الليث بالمأمون، وهو من سلالة

نصر بن سيار، لما انتهى إليه من الخبر عن المأمون، وحسن سيرته في أهل عمله، وإحسانه إليهم، فيما يرويه المؤرخون، أوسى المأمون ورجالاً المأمون، كهرثمة وطاهر، في إصلاح ما بينه وبين المأمون، وطلب الأمان له ليكون عُدَّةً وظهيراً للحزب المأموني، كما نستطيعه نحن ونستخلصه؛ وفيها وثى المأمون هرثمةً رياسةً الحرس، وهرثمة مكانته وشهرته، وله سيرته ونجدته، ولرافع بيته وأنصاره، وكاتبه وفرسانه، كما أن لطاهر ابن الحسين حزمه وشجاعته وفروسته وممرانه، ولابن سهل بلا ريب جدته في تصرفاته التي بمثلها تُردُّ الأهواء الشاردة، وتُستصرف الأبصار الطامحة. وعلى رأسهم، أو إلى جانبهم إن شئت المأمون، وقد تسربل بالشوب الذي نُصِّح إليه بلبسه، فأخفى محمود الشيم مرضى الخلال، وهو باستعداده وزعته ذلك الرجل السياسى، المعتدل المزاج، الهادئ الأعصاب، السديد التصرف، السمع الأخلاق، اللين العريكة، الكريم المهزة، مع أناةٍ وجلدٍ وعزم وحزم، ونفاذ ومضاء.

ومن المعقول أيضاً أن ينكر الأئمين ذلك من ناحيته أيضاً. والمعقول أن يبدأ بالتدبير على المأمون ليصدف عنه قلوب رجاله، وأن تتسلسل الحلقات، وتستطرد الإجراءات، المحتومة الوقوع، في مثل هذه الحالات!

وربما كنا على حق، إذا قلنا: إن التزاع أضفى بين الفضلين ابن سهل وابن الربيع. وأنقلاب عنيفاً أعظم العنف فقد كان بين كفايتين لا يعرفان الونية والتضجيع، ولهما من الحصافة وثقوب البصيرة، ومن سعة الحيلة وقدح الختل، ومن وفرة الحنكة وغناء الاختبار، ومن مضاء العزيمة وثروة الذهن. لهما من ذلك كله، وما إلى ذلك من شتى الصفات السياسية، ما لا قبل لأحدهما به من صاحبه، فلكل من صاحبه بواء ونديد، ومنازل عنيدي، وكفى صنديدي!

أنظر إلى الأئمين، قد كتب إلى العباس بن عبد الله بن مالك، وهو عامل المأمون على الرى، وأمره بأن يبعث إليه بغرائب غروس الرى؛ فبعث إليه المسكين بما أمره، به غير

عالم أن للمأمون ورجاله عيوناً وأرصداً، ولهم، قبل ذلك، يَفْقَهُهُمْ التي لا تَنى ولا تَغْفُل .
فماذا كان من المأمون ؟

بلغ المأمون ما كان من عامله الساذج المسكين، فعزله . ووجه مكانه الحسن بن عليّ المأمونيّ، وأردفه بالرُّسْنِيّ، على البريد . وهكذا حاولت الديبلوماسية "الربيعية" أن تصرف قلبَ عاملٍ كبيرٍ عن أمر المأمون، والقضية المأمونية، نكاية بالديبلوماسية "السبيلية" التي آكثسبت رافعاً وضمت الى حزبها بيتَ ابنِ سيار . وناهيك ببيت ابنِ سيار! ولتتطرق الآن الى التكلم عن الحرب الكلامية التي نشبت بين الأخوين، والتي كانت، بلا ريب، مقدمة لوقوع الحرب العامة . وبعبارة أدق لتكلم عن الوفود السياسية محاولين، على قدر استطاعتنا، وأستناداً الى ما بين أيدينا من مصادر ووثائق، وصف الكفايات السياسية في ذلك العصر الغنيّ حقاً برجالاته ودهاته .

* *

(د) الوفود السياسية :

لنتساءل أولاً ماذا حدث في السنة التي نحن في صدددها وهي سنة أربع وتسعين ومائة، فانها مليئة، والحق يقال، بمنتجات هاتين العقليتين، العاتيتين حقاً، الجبارتين بلا مبالغة ولا إغراق، ونعني بهما عقليتي الفضل بن الربيع، والفضل بن سهل .

حدث أن وجه الأمين وفدًا سياسيًا الى المأمون، قوامه العباس بن موسى، وصالح صاحب المصلى، ومحمد بن عيسى بن نهيك، وطلبوا اليه تقديم موسى بن الأمين الذي سماه "الناطق بالحق" على نفسه . وقد يكون من الطريف المتسع حقاً، أن نوصّح ما كان من أمر هذا الوفد، وهل وُفق الحزب المأموني فيما حاول من الأخذ بقلوب رجاله، أو بعضهم على الأقل، فإن في توضيحنا لذلك ما يمدّنا بصورة لا بأس في جملتها، من صور الديبلوماسية في ذلك العصر، وإن في تفهمنا هذه الصورة ووقوفنا عليها، نفعا عظيماً يعيننا، بلا ريب، على تفهم العصر وروح سياسته .

يحدثنا التاريخ أن العباس بن موسى أحد رجال الوفد الأميني قال للمأمون : ”وما عليك أيها الأمير من ذلك — أى من تقديم موسى عليه — فهذا جدى عيسى بن موسى قد خلع ، فما ضره ذلك ! “ ويحدثنا أيضا بأن الفضل بن سهل كان موجوداً ، كما هو المنتظر ، في ذلك المؤتمر السياسي ، وأنه لما سمع كلمة العباس هذه صاح به : ”أسكت بخذلك كان في أيديهم أسيراً وهذا بين أخواله وشيعته ! “ .

أنعرف ما ذا كان من أمر الوفد ؟ .

لأنه قد أنصرف ، ولكن لا إلى الأمين ، بل إلى منازل خصصها لهم المأمون ، حيث أفرد لكل واحد من أعضاء الوفد منزلاً ، وأكرمهم مثل ذلك النوع من الإكرام السياسي الذي نلتقي به الحكومات الحاضرة الوفود السياسية . فتأمل ! .

ثم لننظر معاً — معتصمين بالأناة والصبر قليلاً — في تصرف الفريق الآخر في السنة عينها . فنرى أن الوفد قد عاد إلى الأمين ، وأخبره بامتناع المأمون ، فألح عليه الفضل بن الربيع وعلى بن ماهان ، في البيعة لابنه موسى ”الناطق بالحق“ وخلع المأمون ، فأجاب الأمين إلى ذلك ، وأحضر ابنه على بن موسى الذي ولّاه العراق ، وتسارع بعض ولاية الأمين في آتهاز الفرصة ، للتقرب منه والتعجب إليه ، بالمبادرة بأخذ البيعة له قبلهم . وقد كان أول من فعل ذلك بشر بن السعيد الأزدي ، وصاحب مكة وصاحب المدينة .

لم يكتف الفضل بهذا ، ولا بالكثير من أمثاله ، مما ينتظر من مثله في مثل تلك الظروف ، من نهيه عن ذكر عبد الله المأمون والقاسم بن الرشيد ، وحظر الدعاء لهما على شيء من المنابر ، بل دس من ذكر المأمون بسوء ، وحط من قدره ، ولصق به أقبح النقائص والمثالب ، ووصمه بأشنع الوصمات والمعائب .

ولم يكتف الفضل بهذا . بل وجه إلى مكة كتاباً مع محمد بن عبد الله ، أحد سدنة البيت الحرام ، فأتاه بالكثابين اللذين كان الرشيد كتبهما لعبد الله المأمون على محمد الأمين ،

وكان حُظُّهما من الأمن ، لما صارا اليه ، حُظَّ غيرهما من العهود في ذلك العصر ، ”والمعاهدات“
و ”قصاصات الورق“ في عصرنا الحاضر فزَقَهما وأبطلَهما ، وأجاز سارقَهما !

ثم تعال معي لننظر معا ، نظرة إنعام وترق ، في مشاورة المأمون لشيعته ، حينما حزبه
الأمر ، وضاق به السبيل ، فهي ، أعمرك ، آية في الحكمة والمهارة السياسية .

يقول الطبري : ”كان محمد ، فيما ذكر ، كتب الى المأمون ، قبل مكاشفة المأمون إياه
بالخلاف عليه ، يسأله أن يتجافى له عن كور من كور نحرسان سماها ، وأن يوجه العمال اليها
من قبل محمد ، وأن يحتمل توجيه رجل من قبله ، يوليه البريد عليه ليكتب اليه بخبره .
فلما ورد الى المأمون الكتابُ بذلك ، كبر ذلك عليه واشتد ، فبعث الى الفضل بن سهل
والى أخيه الحسن ، فشاورهما في ذلك ؛ فقال الفضل : ”الأمر خطير ، ولك من شيعتك
وأهل بيتك بطانة ولهم تأنيسٌ بالمشاورة ، وفي قطع الأمل دونهم وحشة وظهورُ قلةٍ ثقة ،
فراى الأمير في ذلك“ ، وقال الحسن : كان يقال ”شاور في طلب الرأى من تثق بنصيحتك ،
وتألف العدو فيما لا آكتنام له بمشاورته“ . فأحضر المأمون الخاصة من الرؤساء والأعلام ،
وقرأ عليهم الكتاب ؛ فقالوا جميعا له : ”أيها الأمير ! تشاور في مخطر ، فاجعل لبديتنا حظاً
من الروية“ ، فقال المأمون : ذلك هو الحزم ؛ وأجلهم ثلاثا . فلما اجتمعوا بعد ذلك قال
أحدهم : ”أيها الأمير قد حملت على كرهين ، ولست أرى خطأ مدافعة بمكروه أو ظم مخافة
مكروه آخرهما“ . وقال آخر : ”كان يقال ، أيها الأمير أسعدك الله ، اذا كان الأمر مخطراً
فإعطائك من نازعك طرفاً من بغيته أمثل من أن تصير بالمنع الى مكاشفته“ . وقال آخر :
”لأنه كان يقال : اذا كان علم الأمور مغيباً عنك ، فخذ ما أمكنك ، من هدية يومك فانك
لا تأمن أن يكون فسادُ يومك راجعاً بفسادِ غدك“ . وقال آخر ؛ ”لئن خفت للبدل عاقبة ،
إن أشد منها لما يبعث ألا تأمن الفرقة“ . وقال آخر : ”لا أرى مفارقة منزلة سلامة ، فلعللى
أعطى معها العافية“ . فقال الحسن : فقد وجب حقكم باجتماعكم ، وإن كنت من الرأى
على مخالفتكم . قال المأمون : فناظرهم ؛ قال : لذلك ما كان الاجتماع . وأقبل الحسن

عليهم فقال : هل تعلمون أن محمدا تجاوز الى طلب شيء ليس له بحق؟ قالوا : نعم ، ويحتمل ذلك لما نخاف من ضرر منعه . قال : تثقون بكفه بعد إعطائه إياها فلا يتجاوز الطلب الى غيرها؟ قالوا : لا ، ولعل سلامة تقع من دون ما نخاف ونتوقع . قال : فان تجاوز بعدها بالمسألة أفما ترونه قد توهن بما بذل منها في نفسه؟ قالوا : ندفع ما يعرض له في عاقبته بمدافعة ما تتجزون في عاجله . قال : فهذا خلاف ما سمعناه من قول الحكماء قبلنا ، قالوا : أستصالح عاقبة أمرك باحتمال ما عرض من كره يومك ، ولا تلتبس هدية يومك بإخطار أدخلته على نفسك في غدك . قال المأمون للفضل : ما تقول فيما آختلفوا فيه؟ قال : ”أيها الأمير! أسعدك الله : هل يؤمن محمد أن يكون طالبك بفضل قوتك ، ليستظهر بها عليك غدا على مخالفتك ! وهل يصير الحازم الى فضلة من عاجل الدعة ، بخطري تعرض له في عاقبته ! بل إنما أشار الحكماء بحمل ثقل فيما يرجون به صلاح عواقب أمورهم“ . فقال المأمون : ”بل بآثار العاجلة صار من صار الى فساد العاقبة ، في أمر دنيا وآخرة“ . قال القوم : قد قلنا ببلغ الرأي ، والله يؤيد الأمير بالتوفيق . فقال : اكتب يا فضل اليه فكتب“ .

ويستطرد الطبري بعد ذلك في القول بأن المأمون أملى على الفضل هذا الكتاب ليبعث به الى أخيه وهو : ”قد بلغني كتاب أمير المؤمنين ، يسأل التجاني عن مواضع سماها ، مما أثبتته الرشيد في العقد ، وجعل أمره الى ، وما أمر رآه أمير المؤمنين أحد يجاوز أكثره ، غير أن الذي جعل الى الطرف الذي أنا به لاطنين في النظر لعامته ، ولا جاهل بما أسند الى من أمره ، ولو لم يكن ذلك مثبتا بالمهود والمواثيق المأخوذة ، ثم كنت على الحال التي أنا عليها : من إشراف عدو مخوف الشوكة ، وعامة لا تتألف عن هضمها ، وأجناد لا يستتبع طاعتها إلا بالأموال ، وطرف من الإفضال ، لكان في نظر أمير المؤمنين لعامته ، وما يجب من لم أطرافه ، ما يوجب عليه أن يقسم له كثيرا من عنايته ، وأن يستصاحبه ببذل كثير من ماله ، فكيف بمسألة ما أوجبه الحق ، ووكدته مأخوذة العهد . وإني لأعلم أن أمير المؤمنين

لو علم من الحال ما علمتُ لم يطلع ما كتب بمسألته إلى . ثم أنا على ثقة من القبول بعد البيان إن شاء الله .

ألا يحذر بنا — وقد آطلعنا على تلك المشاورة السياسية ، التي يجوز لك أن تقول عنها ، بالنسبة لوقتها وجيلها ، وموضوعات وقتها وجيلها ، إنها لا تقل في دقتها ، وحذقها ، وقوة مناجيها ، عما يجري حول المائدة الخضراء ، بين ساسة اليوم — أن نقول : إن المأمون قد حصّن بساسة عتاة ومشيرين دهاة ! .

ثم أنظر الى مبالغة المأمون في حدره ، أو مبالغة حزبه في الحيلة والحذر ، فقد أثبت المؤرخون أنهم قد وجهوا حُرَّاسًا من قبلهم على الحدود ، حتى لا يتركوا للأمين أو لرجاله فرصة الاتصال برعية المأمون . وبالغوا أيما مبالغة في تديبرهم ، حتى جاء ، كما يقول الرواة ، « تديبرًا مؤيدًا ، وعقدًا مستحصدًا متأكدًا » ، فضمنوا بذلك ألا تحمل رعيته على منوال خلاف أو مفارقة .

وهنا لا نرى مندوحة ، من إثبات ذلك المجهود العظيم ، الذي بذله الفضل بن الربيع أو الأمين ، كيفما شئت التعبير ، في استمالة القلوب النافرة من الجاعة المأمونية ؛ فقد كان ، والحق يقال ، طلق اليدين ، ندى الكفين ؛ كثيرة جدواه ، وافرة حُذياه ، عظيمة عطاياه ، ولم يأل جهدًا في إرسال دعائه وأنصاره ، لبث الدعوة الأمينية في العامة وإظهارهم على رجائها وحقها وعدلها ، وإظهار الحجة المفارقة ، والدعاء لأهل القوة الى المخالفة . وكان هؤلاء الدعاة يبذلون المال ، ويضمنون للأنصار معظم الولايات والقطائع . وصفاوة القول أن تصرف الأمين وجماعته ، من هذه الناحية ، كان قريب الشبه بتصرف المأمون وجماعته .

ولكن هؤلاء الدعاة وجدوا جميع ذلك ممنوعا محسوما ، حتى صاروا الى باب المأمون . وهنا يجب أن نقول : إن الحرب الكلامية قد بدأت تشتد بين الأخوين ، والحرب الكلامية ، أيديك الله ، هي مئة هامة من ميزات العصر العباسي . وقد صدق « كشاجم » في قوله مشيرا الى عداوة أصحاب الأقلام في تلك الدولة ومهادنة أصحاب السيوف :

هنيئاً لأصحاب السيوف بَطَالَةٌ * تقضى بها أوقاتهم في التنعم
فكم فيهم من وادع العيش لم يهج * لحرب ولم ينهد لقرن مصمم
يروح ويفسدو عاقداً في نجاهه * حساماً سليم الحد لم يتسلم
ولكن ذوو الأقدام في كل ساعة * سيوفهم ليست تجف من الدم

وإن المطلع على تاريخ العصر، المستقصى لدقائقه وجلالته، الواقف على أسريه وخفياته وآدابه ومشاوراته، ليوافق أولئك الذين يذهبون في القول بأن قوام السياسة في هذه الدولة كان على التحيل والخدعة، أكثر مما كان على القوة والشدة .

لنتنقل الآن الى ذكر الكتاب الذي بعث به الأمين الى أخيه، مع رسله الذين بعثهم للدعوة، وإثارة رجالات المأمون، قبل كل اعتبار، فهناك : « أما بعد، فإن أمير المؤمنين الرشيد، وإن كان أفرّدك بالطرف، وضم ما ضم اليك من كور الجبل، تأبيداً لأمرك، وتحصينا لطرفك، فإن ذلك لا يوجب لك فضلة المال عن كفايتك، وقد كان هذا الطرف ونحاجه، كافياً لحدته ثم يتجاوز بعد الكفاية الى ما يفضل من رده . وقد ضم لك الى الطرف كورا من أمهات كور الأموال، لا حاجة لك فيها، فالحق فيها أن تكون مردودة في أهلها ومواضع حقها . فكتبت اليك أسألك ردّ تلك الكور، الى ما كانت عليه من حالها، لتكون فضول ردها مصروفة الى مواضعها، وأن تأذن لقائم بالخبر، يكون بحضرتك يؤدى اليها علم ما نعى به، من خبر طرفك، فكتبت تلط دون ذلك، بما إن تم أمرك عليه، صيرنا الحق الى مطالبتك، فأنش عن همك أنش عن مطالبتك، إن شاء الله . »

وردّ الكتاب على المأمون، وقرأه المأمون وجماعته، فسرعان ما ردّ المأمون وحزبه عليه بهذا الكتاب : « أما بعد، فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين، ولم يكتب فيما جهل فأكشف له عن وجهه، ولم يسأل ما لا يوجبه حق فيلزمى الحجة بترك إجابته، وإنما يتجاوز المناظران منزلة النصفة ما ضاقت النصفة عن أهلها، فتي تجاوزها متجاوز، وهى موجودة الوسع، لم يكن تجاوزها إلا عن نقصها، وأحتمل ما فى تركها، فلا تبعثنى يابن أبى على مخالفتك،

وأنا مُدْعِن بطاعتك ، ولا على قطيعتك وأنا على إيثار ما تحب من صلتك ، وأرض بما حكم به الحق في أمرك ، أكن بالمسكان الذي أنزلني به الحق فيما بيني وبينك . والسلام .

ثم انظر الى نعومة المأمون السياسية — ونشأ أنها ستروقت كثيرا ، وأنت ستشهد بعلمك كعب صاحبها في الفنون السياسية — فان التاريخ يحدثنا أنه أحضر رسل أخيه ، وقال لهم : « إن أمير المؤمنين ، كتبت اليه ، في أمر كتب اليّ جوابه ، فأبلغوه الكتاب ، وأعلموه أني لا أزال على طاعته ، حتى يضطرني بترك الحق الواجب الى مخالفته . فأراد أعضاء الوفد الأميني أن يذهبوا في أفانين القول ، وأرادوا المحاجة والمدافعة ، وأرادوا المفاوضة والمناقشة ، ولكن المأمون ، السياسي المتيقظ جبار العقل ، قطع عليهم سبيل القول وسبيل التفكير اذ جابههم بقوله : « قفوا أنفسكم حيث وقفنا بالقول بكم ! وأحسنوا تأدية ما سمعتم ، فقد أبلغتمونا من كتابنا ما لا عسى أن تقولوه لنا » .

انصرف أعضاء الوفد ، ولم يستطيعوا أن يثبتوا لأنفسهم حجة قبل المأمون ، ولم يوقفوا الى حمل خبر يؤدونه الى صاحبهم ، ورأوا من المأمون وجماعة المأمون ، كما يقول الطبري ، « جدّا غير مشوب بهزل ، في منع ما لهم من حقهم الواقع بزعمهم » .

وصل الخبر الى الأمين فأرغى وأزبد . واستمرت الحرب الكلامية على حدتها بين الأخوين ، بشأن المال الذي تركه الرشيد ، وبشأن غير المال ، مما يصح الاطلاع عليه ، وعلى مارواه سهل بن هارون وأضرابه وصفاً لذلك في مظانه .

على أنه يجدر بنا هنا أن نشير الى ما كان من نصيحة قدمها للأمين ، أحد رجالات عصره ، المشهود لهم بالحزم ونضوج الرأي ، وهو يحيى بن سليم ، حينما عزم على خلع أخيه ، لعلاقتها بما نحن في سبيل القول فيه من ناحية ، ولأنها تساعدنا فوق ذلك على تفهم "الدبلوماسية العباسية" في ذلك العصر من ناحية أخرى ، وأخيرا لأنها تبين لنا فرق ما بين الأمين والمأمون في تقدير المشورة والأخذ بالنصيحة .

قال يحيى بن سليم للأمين حين مشاورته له في خلع المأمون : «يا أمير المؤمنين، كيف بذلك لك ! مع ما قد وكد الرشيد من بيعته ، وتوثق بها من عهده ، والأخذ للإيمان والشرائط في الكتاب الذي كتبه » فقال له محمد : «إت رأى الرشيد كان فلتة ، شبهها عليه جعفر بن يحيى بسحره ، وأستماله برقاه وعُقدته ، فغرس لنا غرسا مكروها ، لا ينفعنا ما نحن فيه معه إلا بقطعه ، ولا تستقيم لنا الأمور إلا باجتثاثه والراحة منه » ؛ فقال : «أما اذا كان رأى أمير المؤمنين خلعه ، فلا تجاهره بمجاهرة ، فيستنكرها الناس ، ويستشنعها العامة ، ولكن تستدعى الجند بعد الجند ، والقائد بعد القائد ، وتؤنسه بالالطاف والهدايا ، ونفترق في ثقاته ومن معه ، وترغبهم بالأموال ، وتستميلهم بالأطاع ، فاذا وهنت قُوته وآسفرغت رجاله ، أمرته بالقدوم عليك ؛ فان قدم صار الى الذي تريد منه ، وإن أبى كنت قد تناولته ، وقد كَلَّ حُدّه ، وهيض جناحُه ، وضعف ركنه ، وأنقطع عزّه » . فقال محمد : «ما أقطع أمرا كصريمة ! أنت مهذار خطيب ، ولست بذى رأي ، فزل عن هذا رأى الى الشيخ الموفق والوزير الناصح ، قم فالحق بمدادك وأقلامك ! »

ونرى من المستصوب ، بعد هذا الاستطراد ، أن نشير هنا الى ما رواه الطبرى من أن الفضل بن سهل ، كان قد دسّ قوما اختارهم ممن يثق بهم من القواد والوجوه ببغداد ، ليكتبوه بأخبار الأمين وجماعته ، يوما فيوما . وكانت التجسس لذلك العهد فنا منظما متقدما ؛ فكان للأمين ، وهو ولىّ عهد ، على والده الرشيد عيون ، وكان لأخيه حين ذاك عيون ، وكان للخليفة على ولاته وعماله وأولاده عيون ، ولولاته وعماله عليه عيون ، وكان للوزراء والكبراء والزملاء وغيرهم مثل ذلك من العيون والأرصاد بعضهم على بعض ، وكانت روح العصر تساعد على ذبوع الجاسوسية وأستفحال أمرها . فمن المعقول اذا شاور الأمين أو الفضل بن الربيع أحدا ، وقال بما فيه مصلحة القضية المأمونية ، أن يصل خبر ذلك من فوره الى المأمون ، فيقف بذلك المأمون وجماعته ،

على جلية الخبر وحقيقة الحال عند خصومهم السياسيين . ونكاد نرجح من ناحيتنا أن لتقدم فنّ الجاسوسية عند المأمون أثره العظيم في غلبته وظهوره على أخيه . ولنتقل الآن الى أخبار سنة خمس وتسعين ومائة ، ولننظر في حوادثها إحصاء نظرة تجلّي فيما يهتّمنا مما نحن في صدد من بحوثنا هذه ، فنجد أن الخصومة السياسية بين الأخوين حملت الأمين على أن يأمر بإسقاط ما كان ضرب لأخيه عبد الله المأمون من الدنانير والدرهم بخراسان في السنة التي قبلها ، وذلك لأن المأمون كان أمر ألا يُثبت فيها اسم محمد . وقال بعض المؤرخين : إن تلك الدنانير والدرهم كانت لا تجوز في بعض الأحيان وكانت تدعى بالرباعية .

وقد سبق لنا القول إن الأمين أمر بالامتناع عن الدماء لأخويه : المأمون والقاسم ، وإنه أمر بالداء لنفسه ولطفله الصغير من بعده ، وإنه صدر في ذلك كله عن رأى الفضل ابن الربيع وجماعة الفضل بن الربيع ، مما كان من نتائجه نشوب الحرب الكلامية بين الأخوين ، وإنذارها بوقوع شرّ مستطير بين الأميرين .



(هـ) نفور الرأى العام وآثار الوفود السياسية :

ونريد الآن أن نقفك على مبلغ نفور الرأى العام من فعل الأمين وجماعته ، مما رواه لنا المؤرخون ، وسنلخصه لك كطريقتنا ، التي أخذنا بها أنفسنا ، والتي لم نَحِد عنها ، إلا إذا دعت الضرورة والمصلحة الى تصوير امر هام يحتاج الى الشرح والإيضاح . ونعتمد في تلخيصنا هذا على مصادر عدة ، منها الطبرى وآبن الأثير واليعقوبى وغيرهم من الفرنجة الذين كتبوا في التاريخ الاسلامى في العصر الذى نحن بسبيل القول فيه .

روى المؤرخون أن محمدا الأمين عقد في السنة التي نسرده عليك مجمل أخبارها لعلّ بن عيسى بن ما هان على كور الجبل كلها : نهاوند ، وهمدان ، وُقْم ، وأصفهان ، حريها وخارجها ، وضمّ اليه جماعة من القواد وأمر له ، فيما ذكر بمائتى ألف دينار ، ولولده

بمخسین ألف دينار، وأعطى الجند مالا عظيما، وأمر له بألفي سيف من السيوف المحلاة وستة آلاف ثوب للخلع . وقيل : إن محمدا الأمين أحضر بعد ذلك رجال بيته ومُشِيرِيه، وتكلم فيهم بما كان بين الأخوين، وكان من المنتظر، لو أن للأمين ظهيراً من الرأي العام، أن يجد من يمدح فعلته، أو يخطب في نشر الدعوة له ويبيان أنه على حق فيما يريد أن يفعل، ولكننا نجد أنه انتهى إلى آخر كلامه فلم يتكلم بعده إلا ثلاثة من جماعته الظاهرين، من عرفنا مصالحتهم في الزلّقى اليسه والتقرب منه، وهم سَعِيد بن الفضل الخطيب، ومحمد بن عيسى ابن نهيك، والفضل بن الربيع .

على أن يجب أن نقول : إن الفضل بن الربيع كان ما كرا أعظم ما كر، ولكن مكره كان مفضوحا في هذا الموقف ؛ فقد قال في معرض كلامه : « إن الأمير موسى ابن أمير المؤمنين قد أمر لكم يا معاشر أهل خراسان من صُلب ماله بثلاثة آلاف درهم تقسم بينكم ! » .

نقول : إن مكره كان مفضوحا، لأننا نعلم أن موسى كان طفلا غيّرًا، لا يفهم هذه الأمور ولا يعقلها، ولكن الفضل أراد أن يُقَرِّعَ الأمين، ولا يمكن أن يكون جادًا في رغبته في إثارة الخراسانيين بهذه الطريقة المكشوفة، ولكنها البطانة، يأبى عليها رباؤها ونفاقها وتزلفها إلا أن تصوّر لولى نعمتها أمير المؤمنين أنه الحكمة والعدل، وأنه النباغة والعبقرية، وأن سلالاته قد جمع أحداثها مرانة الشيوخ وكفايتهم، وأصالة المجربين ودرايتهم، وذكاء النوايع ومواهبهم . وهكذا تستمر البطانة على نعمتها هذه، لاصفة بمن عداه وعدا حامّيته وخاصّته، ما شاء هوى الخليفة، حتى يقع في رُوعه أن حاشيته لا تنطق إلا حقًا ولا تقول إلا صدقا ! .

ولنتساءل الآن : ماذا كان من المأمون إزاء تصرفات أخيه ؟ .

لأنه لم يتهاون ألبتة في أموره : صغيرها وكبيرها، وكان يقابل كل تصرف من أخيه بمثيله ونظيره، مع وضع كل شيء موضعه، واستقصاء المصالح والصواب في تصرفه .

وقد تراسل الأخوان بعد ذلك بكتب عدة . وإنا نشبت هنا نص كتاب المأمون ردًا على كتاب بعث به اليه الأمين مع وفد سياسى فى شأن البيعة لابنه موسى ، قال : « أما بعدُ فقد آتتهى إلى كتاب أمير المؤمنين منكرا لإبائى منزلة تهضمنى بها وأرادنى على خلاف ما يعلم من الحق فيها . ولعمري ان أورد أمير المؤمنين موارد النصفة ، فلم يطالب إلا بها ولم يوجب نكرة تركها ، لأنبسطت بالحجة مطالع مقالته ، ولكنك محجوجًا بمفارقة ما يوجب من طاعته . فأما وأنا مدعٍ بها ، وهو على ترك أعمالها ، فأولى به أن يدير الحق فى أمره ، ثم يأخذ به ويعطى من نفسه ، فان صرت الى الحق فرغت عن قلبه ، وإن أبنت الحق قام بمعذرتة . وأما ما وعد من بر طاعته وأوعد من الوطأة بخالفته ، فهل أحد فارق الحق فى فعله ، فأبقى للتبيين موضع ثقة بقوله ! والسلام » .

ولقد كان من تصرفات المأمون إزاء تصرفات أخيه وحاشيته ، أن كتب الى على بن عيسى ، قائد الجيوش الأيمانية ، لما بلغه ما عزم عليه :

”أما بعدُ ، فإنك فى ظل دعوة لم تزل أنت وسلفك بمكان ذب عن حريمها ، وعلى العناية لحفظها ، ورعاية لحقها ، توجبون ذلك لأنفسكم ، وتعصمون بحبل جماعتكم ، وتعطون بالطاعة من أنفسكم ، وتكونون يدا على أهل مخالفتكم ، وحزبا وإخوانا لأهل موافقتكم ، تؤثرونهم على الآباء والأبناء ، وتصرفون فيما تصرفوا فيه من منزلة شديدة ورخاء ، لا ترون شيئا أبلغ فى صلاحكم من الأمر الجامع لألفتكم ، ولا أجرى لبواركم مما دعا بشتات كلمتكم ؛ ترون من رغب عن ذلك جائزا عن القصد ، ومن أمة على منهاج الحق . ثم كنتم على منهاج الحق ، ثم كنتم على أولئك سيوفًا من سيوف نغم الله . فكم من أولئك قد صاروا وديعة مسبغة وبحرًا جامدة ، قد سفت الرياح فى وجهه ، وتداعت السباع الى مصرعه ، غير ممهدة ولا موسدة ، قد صار الى أمة ... وغير عاجل حفظه . ممن كانت الأئمة تنزلكم لذلك بحيث أنزلتم أنفسكم من الثقة بكم فى أمورها ، والتقىمة فى آثارها . وأنت مستشعر دون كثير من ثقاتها وخاصتها ، حتى بلغ الله بك فى نفسك

أن كنت قريع أهل دعوتك ، والعالم القائم بمعظم أمر أمتك ، إن قلت ادنوا دنوا ، وإن أشرت أقبلوا أقبلوا ، وإن أمسكت وقفوا وقفوا ، وإن أمتك وأستنصاحا ، وتزداد نعمة مع الزيادة في نفسك ، ويزدادون نعمة مع الزيادة لك بطاعتك ، حتى حلت المحل الذي قربت به من يومك ، وأنقرض فيما دونه أكثر مدتك ، لا ينتظر بعدها إلا ما يكون ختام عملك : من خير فيرضى به ما تقدم من صالح فعلك ، أو خلاف فيضل له متقدم سميك . وقد ترى يا أبا يحيى حالا عليها جلوت أهل نعمتك ، والولاية القائمة بحق إمامتك ، من طعن في عقدة كنت القائم بشدها ، وبمهور توليت معاقدها ، يبدأ فيها بالأخصيين ، حتى أفضى الأمر الى العامة من المسلمين ، بالأيمان المحرجة والمواثيق المؤكدة ، وما طلع مما يدعو الى شركية ، وتفريق أمة ، وشت جماعة ، وتعرض به لتبديل نعمة ، وزوال ما وطأت الأسلاف من الأئمة . ومتى زالت نعمة من ولاية أمركم ، وصل زوالها اليكم في خواص أنفسكم ، ولن يغير الله ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وليس الساعى في نشرها بسايع فيها على نفسه ، دون السعى على حمايتها القائمين بحرمتها ، قد عرضهم أن يكونوا جزأ لأعدائهم ، وطعمة قويم ، تنتظر محالهم في دمائهم . ومكانك المكان الذي إن قلت رجع الى قولك ، وإن أشرت لم تتم في نصيحتك . ولك مع إثارة الحق الخطوة عند أهل الحق ، ولا سواء من حظى بعاجل مع فراق الحق فأوبق نفسه في عاقبته ، ومن أعان الحق فأدرك به صلاح العاقبة مع وفور الخط في عاجلته . وليس لك ما تستدعى ، ولا عليه ما تستعطف ، ولكنه حق من حق أحسابك يجب ثوابه على ربك ثم على من قمت بالحق فيه من أهل إمامتك . فإن أعجزك قول أو فعل ، فصر الى الدار التي تأمن فيها على نفسك ، وتحكم فيها برأيك ، وتجاوز الى من يحسن تقبلا لصالح فعلك ، ويكون مرجعك الى عقدك وأموالك ، ولك بذلك الله . وكفى بالله وكبلا . وإن تعذر ذلك بقية على نفسك فإمساك بيدك وقولا بحق ، ما لم تخف وقوعه بكركك ، ففعل مقتديا بك ، ومغتبطا بنهيك . ثم أعلمني رأيك ، أعرفه إن شاء الله .

على أن ما يرى إليه الرواة من تحقير شأن الأمين، لا يحول بينك وبين تبيين حقيقة الأمين ورجاله، لأنك ستلاحظ بلا ريب، في شيايا سطورهم، وقلتات الحوادث التي يروونها لك، ما قد يتيح لك أن تؤمن أن عند الأمين بعض رجاليت أفذاذ، فان الطبرى يتحدثنا في حوادث سنة خمس وتسعين ومائة: أن ابن الربيع أشار على الأمين، بأن يكتب لأخيه كتاباً، تستطيب به نفسه، وتسكن وحشته، فان ذلك أبلغ في التدبير، وأحسن في القالة، من مكاتبة بالجنود، ومعاجلته بالكيد، وإنه لذلك أحضر له إسماعيل بن صبيح، للكتابة الى عبد الله، قال: «يا أمير المؤمنين، إن مسألتك الصفع عما في يديه، توليد للظن، وتقوية للتهمة، ومدعاة للخذل، ولكن آكتب اليه فأعلمه حاجتك اليه، وما تحب من قربه والاستعانة برأيه، وسأله القدوم اليك فإن ذلك أبلغ وأحرى أن يبلغ فيما يوجب طاعته وإجابته»^(١).

فقال الفضل: القول ما قال يا أمير المؤمنين.

قال: فليكتب بما رأى. قال: فكتب اليه: «من عند الأمين محمد أمير المؤمنين، الى عبد الله بن هارون أمير المؤمنين.

أما بعد، فإن أمير المؤمنين، رأى في أمرك والموضع الذى أنت فيه من تغرك، وما يؤمل في قربك من المعاونة والمكانفة على ما حملة الله وقلده من أمور عبادته وبلاده، وفكر فيما كان أمير المؤمنين الرشيد أوجب لك من الولاية، وأمر به من إفرادك على ما يصير اليك منها، فرجا أمير المؤمنين ألا يدخل عليه وكف في دينه ولا نكت في يمينه، إذا كان لشخصه إياك فيما يعود على المسلمون نفعه، ويصل الى عامتهم صلاحه وفضله.

(١) يرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار: «أن هذه المكيدة التي دبرها الفضل بن الربيع جاءت مفضوحة مهتوكة الأسرار. وكان أجدر بكياسته أن يرسل ذلك الخطاب أول الأمر بعد أن يرد على المأمون ما أوصى به الرشيد من مال وكراع وسلاح — فأما بعد تكث الجنود والوزير والأمراء. وبعد طلب الكور. وبعد طلب تقديم القائم على المأمون وبعد تلك الوفود السياسية وتمزيق اليهود التي كانت في نظرهم مقدسة ومؤكدة بأخذها وتعليقها في جوف الكعبة، فإن الأمر أفي بعد أوانه ولا ينتظر منه سوى الخيبة والفشل».

وعلم أمير المؤمنين أن مكانك بالقرب منه أسدٌ للشغور، وأصلحُ للجنود، وآكدُ للنفي، وأردُّ على العامة، من مُقامِك ببلاد خُراسان مَقطَعاً عن أهل بيتك، متغيباً عن أمير المؤمنين، وما يجب الاستماع به من رأيك وتديرك. وقد رأى أمير المؤمنين أن يولّي موسى ابن أمير المؤمنين، فيما يقلّده من خلافتك، ما يحدث اليه من أمرِك ونهيك، فاقدم على أمير المؤمنين على بركة الله وعونه، بأبسط أمل، وأفسح رجاء، وأحمد عاقبة، وأنفذ بصيرة، فإنك أولى من استعان به أمير المؤمنين على أموره، واحتمل عنه النصب فيما فيه صلاح أهل بيته وذمته. والسلام“.

ولننظر الى ما يرويه لنا ابن جرير الطبري عن أعضاء هذا الوفد، فإنه يقول :

لما وصلوا الى عبد الله اذن لهم، فدفَعوا اليه كتاب محمد، وما كان بعث به معهم، من الأموال والألطاف، ثم تكلم العباس بن موسى بن عيسى فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : أيها الأمير ! لب أخاك قد تمحل من الخلافة ثِقْلاً عظيماً، ومن النظر في أمور الناس عبثاً جليلاً، وقد صدقت نيته في الخير فأعوزه الوزراء والأعوان والكُفّة على العدل، وقليل ما يأنس بأهل بيته، وأنت أخوه وشقيقه، وقد فرج اليك في أموره، وأتمك للوزارة والمكافئة، ولسنا نستبطئك في ربه اتهاماً لنصرك له، ولا نخضك على طاعته نخوفاً لخلافك عليه، وفي قدومك عليه أنسٌ عظيم وصلاح لدولته وسلطانه، فأجب أيها الأمير دعوة أخيك، وأثر طاعته، وأعنه على ما استعانك عليه في أمره، فإن في ذلك قضاء الحق، وصلة الرحم، وصلاح الدولة، وعزّ الخلافة. عزم الله للأمير على الرشد في أموره، وجعل له الخيرة والصلاح في عواقب رأيه.

وتكلم عيسى بن جعفر بن أبي جعفر فقال : إن الإكثار على الأمير، الله ! الله ! في القول تحرق، والاقتصار في تعريفه ما يجب من حق أمير المؤمنين تقصير، وقد غاب الأمير، أكرمه الله، عن أمير المؤمنين، ولم يستغن عن قرّبه من شهد غيره من أهل بيته، ولا يجد عنده غنى، ولا يجد منه خلفاً ولا عوضاً. والأمير أولى من برّ أخاه

وأطاع إمامه ، فليعمل الأمير فيما كتب به اليه أمير المؤمنين بما هو أرضى وأقرب ، من موافقة أمير المؤمنين ومحبة ، فإن القدوم عليه فضـلٌ وحظ عظيم ، والإبطاء عنه وكـفٌ في الدين ، وضرر ومكروه على المسلمين .

وتكلم محمد بن عيسى بن نبيك فقال : أيها الأمير ! أنا لا نزيدك بالإثـار والتطويل فيما أنت عليه من المعرفة بحق أمير المؤمنين ، ولا نُسـحـدُ نيتك بالأساطير والخُطـب فيما يلزمك من النظر والعناية بأمور المسلمين . وقد أعوز أمير المؤمنين الكُفـاة والنصحاء بحضرته ، وتناولك فزعاً اليك في المعونة والتَّقوية له على أمره . فان تُجـبُ أمير المؤمنين فيما دعاك اليه فنعمة عظيمةٌ يَتـَـلافى بها رعيـتـك وأهل بيتك ، وإن تقعد يُغـيـن الله أمير المؤمنين عنك ، وإن يضعه ذلك مما هو عليه من البرِّ بك ، والاعتماد على طاعتك ونصيحتك .

وتكلم صالح صاحب المصـلـى ، فقال : أيها الأمير ، إن الخلافة ثـقـيلةٌ ، والأعوان قليل ، ومن يَكـيـد هذه الدولة وينطوى على غشها والمعادنة لأوليائها من أهل الخلاف والمعصية كثير . وأنت أخو أمير المؤمنين وشقيقه ، وصالح الأمور وفسادها راجعٌ عليك وعليه ، إذ أنت وليّ عهده والمشارك في سلطانه وولايته ، وقد تناولك أمير المؤمنين بكتابه ، ووثق بمعاونتك على ما استعانك عليه من أمور ، وفي إجابتك إياه الى القدوم عليه صلاحٌ عظيم . في الخلافة ، وأنس وسكونٌ لأهل الملة والذمة ، وفق الله الأمير في أمره ، وقضى له بالذي هو أحب اليه وأنفع له .

ثم انظر ، رعاك الله ، الى مبلغ دهاء الفضل ، ودقة سياسته ، ومُحـكـم أمره ، وما يرويه بنفسه عن صـبـيـعه مع أحد أعضاء الوفد ، في إحدى الدفـعـات التي أُرسل فيها الى المأمون ، لأننا نلاحظ وفود الأمين قد أُرسلت الى أخيه المأمون أكثر من مرة — قال : « أعجبني ما رأيـت من ذكاء العباس بن موسى ، نخلوت به فقلت : يذهب عليك بعقلك وسنك ، أن تأخذ بحظك من الإمام ! — أى المأمون ، اذ سُمي بذلك بسبب خلع الأمين له — فقال له العباس : قد سَمِيتُموه بالإمام ! فأجابه الفضل : « قد يكون إمام المسجد والقبيلة !

فان وقَّيتُم لم يضرَّكم، وإن غدرتُم فهو ذاك» . ثم وصل الى أن قال للعباس : « لك عندى ولاية الموسم ، ولا ولاية أشرف منها ، ولك من مواضع الأعمال بمصر ما شئت ... » .
وصل الفضل الى ذلك القوي وما برح به حتى أخذ عليه البيعة للمأمون بالخلافة .
وتحوَّل الأمر الى أن أصبح للحزب المأمونى من العباس العين التى تبلَّغهم الأخبار ، والمتفانى فى المأمونية يمدِّهم بالأفكار ويشير عليهم بالآراء ، وحتى أضحى منه الشخص الذى يقول لعلى بن يحيى السرخسى : إن ذا الرباستين أكبر مما وصفت ، وإنه قد صالح المأمون الإمام ، وإنه لذلك يسمح يده على رأس على بن يحيى لتناوله البركة والخير . فتأمل ! .

وإنه جميلٌ حقاً أن نرى المأمون يترث العاقل الحكيم ، لما جاءه الوفد الأمينى ، ويتصرف تصرف الكيس الحاذق ، إذ قال لهم ، فيما أثبت الرواة ، بعد أن حاجوه وناقشوه فى أمر الأمين : قد عرفتُمونى من حق أمير المؤمنين ، أكرمه الله ، مالا أنكره ، ودعوتُمونى من الموالاة والمعونة الى ما أوثره ولا أدفعه ، وأنا لطاعة أمير المؤمنين مقدم ، وعلى المسارعة الى ما سرّه ووافقه حريص ، وفى الروية تبيان الرأى ، وفى إعمال الرأى نصيح الاعتزام . والأمر الذى دعانى اليه أمير المؤمنين أمرٌ لا أناخر عنه تنبُّها ومدافعة ، ولا أتقدم عليه اعتسافاً وعجلة ، وأنا فى نغور من نغور المسلمين كليب عدوه شديد شوكته ، وإن أهملتُ أمره لم آمن دخول الضرر والمكره على الجنود والرعية ، وإن أقيمت عليه لم آمن فوت ما أحب من معونة أمير المؤمنين ومؤازرته وإيثار طاعته . فانصرفوا حتى أنظر فى أمرى ونصح الرأى فيما أعترم عليه من مسيرى ان شاء الله ، ثم أمر بإتزالهم وإكرامهم والإحسان اليهم .

ترث المأمون مع الوفد ترث العاقل الحكيم ، وإن كان فى الواقع قد هاله الأمر وخشى سوء مغبته . ويذكر لنا أحد المعاصرين ، وهو سُفيان بن محمد ، أن المأمون لما قرأ الكتاب سقط فى يده ، وتعاظمه ما ورد عليه منه ، ولم يدر ما يرد عليه ، فدعا الفضل بن سهل فأقرأه الكتاب ، وقال : ما عندك فى هذا الأمر ؟ قال : أرى أن نلتصك بموضعك ، ولا

تجعل علينا سبيلا وأنت تجد من ذلك بُداً . قال : وكيف يمكنني التمسك بموضعي ومخالفة محمد وعظم القواد والجنود معه ، وأكثر الأموال والخزائن قد صارت إليه ، مع ما قد فترق في أهل بغداد من صلاته وفوائده ، وإنما الناس مائلون مع الدراهم منقادون لها ، لا ينظرون إذا وجدوها حفظ بيعة ولا يرغبون في وفاء عهد ولا أمانة ! . فقال له الفضل : إذا وقعت التهمة حق الاحتراس ، وأنا لغير محمد متخوف ، ومن شره إلى ما في يديك مُشفق ، ولأن تكون في جُندك وعِزتك مقيماً بين ظُهراني أهل ولايتك أخرى ، فإن دهمك منه أمرٌ جرّدت له ونابرتة وكايدته ، فلما أعطاك الله الظفر عليه بفوائك ونيتك ، أو كانت الأخرى فمت محافظاً مكرماً ، غير مُلتي بيدك ولا ممكن عدوك من الاحتكام في نفسك ودمك . قال : إن هذا الأمر لو كان أتانى ، وأنا في قوّة من أمرى وصلاحي من الأمور ، كان خطبه يسيراً والاحتياط في دفعه ممكناً ، ولكنه أتانى بعد إفساد خراسان ، واضطراب عامريها وغامرها ، ومفارقة جيغويه الطاعة ، والتواء خاقان صاحب التبت ، وتهيؤ ملك « كابل » للغارة على ما يليه من بلاد خراسان ، وامتناع ملك أترابنده بالضريبة التي كان يؤدّيها ، وما لي بواحدة من هذه الأمور يد . وأنا أعلم أن محمداً لم يطلب قُدومي إلا لشرير يريده ، وما أرى إلا تخلية ما أنا فيه والحقاق بخاقان ملك الترك والاستجارة به وببلادته ، فبالحرى أن آمن على نفسي وأمتنع ممن أراد قهري والغدر بي . فقال له الفضل : أيها الأمير ، إن عاقبة الغدر شديدة ، وتبعة الظلم والبغي غير مأمون شرها ، ورُب مستدّل قد عاد عزيزاً ، ومقهوّر قد عاد قاهراً مستطيلاً ، وليس النصر بالقلة والكثرة ، وخرج الموت أسلم من حرج الذل والضميم ، وما أرى أن تفارق ما أنت فيه ، وتصير إلى طاعة محمد ، منجزداً من قوادك وجندك كالرأس المختزل عن بدنه ، يجري عليك حكمه ، فتدخل في جملة أهل مملكته ، من غير أن تُبلي عذرا في جهاد ولا قتال ، ولكن اكتب إلى جيغويه وخاقان ، فوهما بلادهما ، وعدهما التقوية لهما في محاربة الملوك ، وابعث إلى ملك كابل بعض هدايا خراسان وطرقها وسله الموادعة تجده على ذلك حريصاً ، وسلم لملك أترابنده ضريبتة في هذه السنة ، وصيرها صلة منك وصانته بها ، ثم اجمع إليك أطرافك ، واضمم إليك من شدّة من جندك ، ثم

اضرب الخيل بالخييل والرجال بالرجال ، فان ظفرت ، وإلا كنت على ما تريد من الخاق
بحاقان قادرا . فعرف عبد الله صدق ما قال ، فقال : اعمل في هذا الأمر وغيره من
أمرى بما ترى ! فتسدر ، وفقك الله ، هذا التفكير الدقيق ، وهذه السياسة الحكيمة
الأطراف من كليهما .

ثم انظر الى تصرف المأمون الحكيم ، بعد ما قدمناه لك ، فانه أنفذ الكتب الى رجاله
وأنصاره ، وعمل على لم شعثه ورأب صدعه ، واستقدم طاهر بن الحسين ، دام له على الرى ،
ليعهد اليه فى قيادة جنده ، ثم مكث يدبر الرأى فيما يجيب به أخاه ، واستقر رأيه على مناجرة
أخيه ومنازلته ، بعد أن أعلمه ابن سهل أن النصر له وأن النجوم تنبئ بذلك . وانظر
ما يرويه لنا المؤرخون من أنه كتب الى الأمن : « أما بعد ، فقد وصل الى كتاب أمير
المؤمنين ، وإنما أنا عامل من عماله وعون من أعوانه ، أمرنى الرشيد ، صلوات الله عليه ،
بلزوم هذا الثغر ، ومكايده من كايده أهله من عدو أمير المؤمنين . ولعمري إن مقامى به أرد
على أمير المؤمنين ، وأعظم غناء عن المسلمين من الشخصوس الى أمير المؤمنين ، وإن كنت
مغتبطا بقربه ، مسرورا بمشاهدة نعمة الله عنده . فان رأى أن يقرنى على عملى ويعفينى
من الشخصوس اليه فعل ان شاء الله والسلام » . ثم دعا العباس بن موسى ، وعيسى بن
جعفر ، ومحمدا ، وصالحا ، فدفع اليهم الكتاب ، وأحسن اليهم فى جوائزهم ، وحمل الى محمد
ما تهبأ له من أطاف خراسان ، وسألهم أن يحسنوا أمره عنده وأن يقوموا بعذرته لديه .



(و) إعلان الحرب :

ولنتقل الآن الى الكلام عن الحرب العملية التى تلت هذه الحرب الكلامية ، كما
هو المنتظر : إن التاريخ يحدثنا أن الأمن ورجال الأمن ، بدءوا فى تعبئة الجنود ، كما بدأ
المأمون ورجال المأمون فى حشد الكتائب . وإنا لثرتاب كثيرا ، فى صحة ما ذكره الرواة : من
أن طاهر بن الحسين القائد العام للجيش المأمونية كان فى جيش عدته ثمانمائة وثلاثة آلاف ،

بينما كان عليّ بن عيسى بن ماهان القائد العام للجيش الأمينية في زهاء أربعين ألفاً ! ونرجح كثيراً أن الرواة قد نقصوا عدد الجنود المأمونية، ليُظهروا للناس مبلغ كفاية طاهر، وأنه استطاع بجندٍ قليلٍ عددهم أن يُنازل جيوشاً جرّارة ويغلبها على أمرها، لأنهم كثيراً ما يمتحنون إلى الإغراق والمبالغة في مثل هذه المواقف: من مظاهرتهم للأقوياء، وانتفاصهم للضعفاء كما أسلفنا .

نشك في صحة ذلك كثيراً . ونشك كذلك فيما يروونه : من أن الجيش المأمونية قد عثرت في عسكر ابن ماهان على سبعمائة كيس ، في كل كيس ألف درهم ، وأنها عثرت كذلك على صناديق عدّة فيها نحر سوادى وقنانيّ عدّة !

قد يكون أمر الأموال صحيحاً ، ولكننا نميل إلى الافتراض بأن أمر الصناديق العدّة ، إن لم يكن مكذوباً في جملته ، بقصد الزّاية بالجماعة الأمينية ، فهو مغالٍ فيه كثيراً .

ويذهب ابن الأثير في بيان غرور عليّ بن عيسى بن ماهان إلى أنه ، لما قرب من الرّى ، ظنّ أن طاهر بن الحسين قائد القوات المأمونية لا يثبت له ، وإن عليّ قال : « ما طاهر إلا شوكة من أغصاني وشرارة من ناري ، وما مثل طاهر يؤمر على جيش ، وما بينه وبين الأمين إلا أن تقع عينه على سوادكم ، فإن السّخال لا تقوى على نطاح السّكّاش ، والشعالب لا تقوى على لقاء الأسد ، وأن عليّ بن عيسى بن ماهان قال لابنه ، لما أشار عليه بأن يبعث طلائع ويرتاد موضعاً اعسكره : ليس طاهر يُستعدّ له بالأسكايد والتحفظ ، إن حال طاهر يؤدّي إلى أمرين : إما أن يتحصّن بالرى ، فيذبّ به أهلها ، ويكفوننا مؤونته ، أو يخليها ويُدبر ! . فقال له ابنه : إن الشرارة ربما صارت ضراً ما ! » فأجابه : « إن طاهراً ليس قرناً في هذا الموضع ، وإنما تحترس الرجال من أقرانها ! » .

ونحن نقول : إن من الجائز أن يكون شيء من هذا قد وقع . ومن الجائز أن يكون بعليّ بن ماهان زهو وغرور ، وقصر نظره وسوء تدبير . وقد يكون تلى حين المقارنة والموازنة

(١) أى إلا أن يؤخذ أسيراً عند الأمين .

أقل شأنًا من مَنَازِلِه وخصمِه طاهر بن الحسين . ولكننا مع ذلك نُحس إحساسًا لا يعدو الواقع كثيرًا أن هذا الحديث المَعزُوق إليه من قبيل الروايات المَنحُولَة ، والقِصَص المختَرَة ، التي كثيرًا ما تُختَرَع وتُتَحَلَّل في مثل تلك الظروف .

على أنا مع ذلك نقرّر أن الجيوش المأمونية كانت على أتم تعبئة ، وأكمل كِفَايَة ، وأدقّ نظام ، وأحسن حال ، وأن خديعة طاهر وقواد طاهر : من حَمَل صورة البيعة على أسنّة رِمَاحهم ^(١) تُعيد إلى الأذهان ما كان بين جند معاوية وجند عليّ من حمل جند معاوية المصاحف على الرماح .

لننتقل الآن إلى مسألة أخرى لها علاقة بعليّ بن عيسى بن ماهان من ناحية ، كما أن لها علاقات بما يقع فيه القُصَص والمؤرخون والرواة من تناقض من ناحية أخرى . تلك المسألة هي ما يُعزى إلى زُبَيْدَة من نصيححتها لابن ماهان باحترام المأمون وإجلاله ، وأنها قالت له : « يا عليّ ! إن أمير المؤمنين وإن كان ولدى ، إليه تناهت شفقتي ، وعليه تكامل حذري ، فإني على عهد الله متعطّقة مُشفقة ، لما يحدثُ عليه من مكروهٍ وأذى ، وإنما ابني ملكٌ نافس أخاه في سلطانه ، وغاره على ما في يده ، والكريم يأكل لحمه ويمنعه غيره ، فاعرف لعبد الله حقّ والده وإخوته ، ولا تُجهّبه بالكلام ، فانك لستَ نظيره ، ولا تقتسره اقتسار العبيد ، ولا تُرهقه بقيد ولا غُلٍّ ، ولا تمنع منه جارية ولا خادما ، ولا تعنف عليه في السير ، ولا تُساوّه في المسير ، ولا تركب قبله ، ولا تستقلّ على دابتك حتى تأخذ بركابه ، وإن شئتَ فاحتملْ منه ، وإن سَفِهَ عليك فلا تُرأده » .

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار في هذا بقوله : « لم يكن كل الجند المأمونى حاملًا صورة البيعة ولا كثير منهم ولكن الأمر في ذلك أن أحمد بن هشام علق البيعة للمأمون على رمحهِ وكان علي بن عيسى هو الذي أخذها للأمرن على أهل نراسان أيام كان واليا بها ليقم بذلك الحجّة على علي بن عيسى فدنا منه أحمد بن هشام بعد أن طلب الأمان وأمنه على بن عيسى وقال له أحمد : ألا تنقذ الله عز وجل ؟ أليس هذه نسحة البيعة التي أخذتها أنت خاصة اتقى الله فقد بلغت باب قبرك ؟ فلم يأبه له علي بن عيسى بل قال : من أتاني به فله ألف درهم فشتته أصحاب أحمد ... الخ من ابن الأثير » .

معقول أن يكون ذلك من زبيدة لابن زوجها الرشيد . ولكن التاريخ يحدثنا
عن قيد من الفضة قيل إنها أعدته ليقيد به المأمون ، كما يحدثنا أن المأمون نفسه اعترف
بمسألة هذا القيد . بيد أن نص النصيحة ، وما اشتملت عليه من الأوامر ، وما جليات عليه
نفسية السيدة زبيدة ، مما يرجح عدم صحة القول بإعدادها قيد فضة أو ذهب ، ليقيد به
المأمون .



(ز) انتصار الجيوش المأمونية ومقولات الشعراء :

وقد كتب الله للجيوش المأمونية الفلاح والنصر على الجيوش الأئمنية . وترك هنا
الكلمة لطاهر بن الحسين قائد المأمون ، فإنه ينبغي لخليفته عن ذلك الانتصار بقوله :
«أطال الله بقاءك ، وكبت أعدائك ، وجعل من يشنوك فداك ، كتبت إليك ورأس على»
ابن عيسى بين يدي ، وخاتمته في أصبعي ، والحمد لله رب العالمين» .

وذكر بعض أهل خراسان أن المأمون لما أتاه كتاب طاهر بن خنبر على بن عيسى بن
ماهان ، وما نالته جيوشه من فوز وانتصار ، وما أوقع الله بجند خصمه من قتل وانكسار ،
قعد للناس ، فكانوا يدخلون عليه فيهنثونه ويدعون له بدوام العز والنصر ، وأن المأمون ،
في ذلك اليوم ، أعلن خلع محمد ، كما أعلن خلافته في جميع كور خراسان وما يابها ، وسر
بذلك أهل خراسان ، وخطبت الخطباء ، وأنشدت الشعراء . وفي ذلك يقول الشاعر :

أصبحت الأمة في غبطة * من أمر دنياها ومن دينها
اذ حفظت عهد إمام الهدى * خير بني حواء مأمونها
على شفا كانت ، فلما وقت * تخلصت من سوء تحيينها
قامت بحق الله اذ دبرت * في ولده كتب دواوينها
ألا تراها كيف بعد الردى * وفقها الله لترينها

وهي أبيات كثيرة .

وذكر عليّ بن صالح الحرّبيّ أنّ عليّ بن عيسى لما قُتل ، أَرْجَفَ النَّاسُ ببغداد إرجافاً شديداً ، وندم محمد عليّ ما كان من نكثه وغدره ، ومشى القوّاد بعضهم الى بعض ، وذلك يوم الخميس للنصف من شوال سنة ١٩٥ ، فقالوا : ان عليا قد قتل ، ولسنا نشك أن محمداً يحتاج الى الرجال واصطناع أصحاب الصنائع ، وإنما يترك الرجال أنفسهم ، ويرفعها بأسها وإقدامها ، فليأمر كل رجل منكم جنده بالشَّعب وطلب الأرزاق والجوائز ، فلعلنا أن نصيب منه في هذه الحالة ما يصلحنا ويصلح جندنا .

خبرني ، لَعَمْرُكَ ! أليست هذه بوادر الفوضى وعلامات الانتفاض ! أوليست هذه هي هي بعينها مبادئ الثورة وأمارات زوال الملك وسقوط العروش ، وأقول نجم أصحابها ! أجل ! إنها لكذلك ، وإن في آنقسام كلمة الزعماء ، وإثارتهم النفوس بالاضطراب والقلق ، وإضرارهم نيران الفتن ، وتحريكهم الجند وما الى الجند للشَّعب والهيّاج ، تقطيعاً لأوصال البلاد ، ونذيراً بالهدم والقضاء .

ولننظر ماذا كان من حماقات رجال الأيمن ؟

إن التاريخ ليحدثنا أن رأيهم قد اجتمع على الشَّعب والاصطياد في الماء العكر ، وأنهم أصبحوا فتوافوا الى باب الجسر وكبروا ، فطلبوا الأرزاق والجوائز ، وبلغ الخبر عبد الله بن خازم ، فركب اليهم في أصحابه وفي جماعة غيره من قوّاد الأعراب ، فتراموا بالنشاب والحجارة واقتتلوا قتالا شديداً ، وسمع محمد التكبير والضجيج ، فأرسل بعض مواليه أن يأتيه بالخبر ، فرجع اليه فأعلمه أن الجند قد اجتمعوا وشَّعَبُوا لطلب أرزاقهم ؛ قال : فهل يطلبون شيئاً غير الأرزاق ؟ قال لا ؛ قال : ما أهون ما طلبوا ! ارجع الى عبد الله ابن خازم فمرّه فليصرف عنهم ، ثم أمر لهم بأرزاق أربعة أشهر ، ورفع من كان دون الثمانين الى الثمانين ، وأمر للقوّاد والخواصّ بالصَّلات والجوائز !

ولنتساءل الآن ، إزاء إجابة الأيمن لسؤال القادة والجند ، ومبادرته الى رَفْدِهِم ، وإسراعه بمنحهم الأعطيات والهبات ، والجوائز والصَّلات ، أكان في تصرفه حِكْماً ، وفي عمله مسدداً ، وفقاً ؟ .

لا نطق ذلك . وكان الخزمُ به أولى ، ليقْدَعَ الفتنة ، وليَضَعَ حدًا صارما لشهوات
ذوى الغايات والمتفعين الذين يكثرون وجودهم وتوافر جماعتهم في إبانها وفتراتها .



وقد كان اختيار الأمين اعلى بن عيسى بن ماهان ، خطأ سياسيا ؛ لأن سابقة
ابن ماهان في خراسان أيام الرشيد كانت سابقة سوء ، فهو ممقوت أشد المقت عندهم .
ونقتر هذه المناسبة ، أنه يخيل لنا ، الى حد غير قليل ، اختلاق تلك القصة التي تعزى
الى الفضل بن سهل : من أنه كتب الى الدسيس الذي كان ممن يشاورهم الفضل بن الربيع
في أمره : أنه ان أبى جماعة الأمين إلا عزيمة في الخلاف ، فالطف لأن تجعل أمرهم
لعلى بن عيسى . وقال الطبري : وإنما خصّ ذو الرياستين عليا بذلك ، لسوء أثره في أهل
خراسان ، واجتماع رأيهم على كرهه ، وأن العامة قائمة بحربه . فشاور الفضل الدسيس
الذي كان مشاوره ؛ فقال : على بن عيسى ! وإنه إن فعل فلم يرمهم بمثله في بعد صومعة ،
وسخاوة نفسه ، وكان في بلاد خراسان في طول ولايته وكثرة صنائعه ، ثم هو شيخ الدعوة
وبقية أهل المشايعة . فأجمعوا على توجيهه .

نميل الى القول بأن نسبة اختيار ابن ماهان الى تدبير ابن سهل ، وإسناد كل فضل
اليه ، من باب الدعوة لابن سهل . ونحن ممن يقترب بكائه وسعة حيلته ، كما أسلفنا . ولكننا
نقتر أيضا أن صلة ابن ماهان بالأمين ، وبدولة الأمين ، ووابن الربيع ، كانت مما يحتم على
الأمين لا محالة تقليده أمر جيوشه وتفضيله على غيره من القادة ، لا أن دسيس جماعة
المأمون هو الذي أشار بنده واختياره . فلنحتس كثيرا من مبالغة المؤرخين والرواة ،
ولنجعل من عقولنا ومنطقنا محكما وحكما .

ولقيت النظر هنا الى تناقض وقع فيه الرواة من الحزب المأموني ، فبينما نراهم يقررون
أن جيش المأمون عثر على صناديق عدّة من الخمر ، فيما غنمه من على بن عيسى بن همام ،
إذ بالدسيس يصفه بقوله : « ليس مثله في بعد صومعة وسخاوة نفسه ! » .

ومهما قيل بأن وصفه كذلك من باب الختل والحدیعة ، وبأنه كان في حقیقة الأمر
سَكْبَرًا مُعَرِّدًا ، فإننا نرى أثر التألیف القصصی في الروایتین ظاهرًا جلیًا .

وسبق لنا أن قد قَدَدْنَا ، حينما كنا بسبیل القول في الأئمين ، ما رواه محمد بن یحیی بن
عبد الملك النیسابوری من أن الأئمين قال لما نَعَى الناعی الیه قائده : « ويلك دعني فإن
كوثرًا قد اصطاد سمكتين ، وأنا ما اصطدت شيئًا بعد ! » . وترك الناعی وخبره ، وأقبل
على الصيد وكوثره ، فلنضم هذه الى تلك .



ويحذر بنا الآن أن نطلعك على بعض مقولات الشعراء في موقف الأخوين ، مع
ملاحظة ما لاحظناه من مبالغتهم في تمداحهم للقوى ، وغلوهم في ذرايتهم على الضعيف .
قال أحد الشعراء البغداديين :

أضاع الخليفة غش الوزير * وفسق الإمام وجهل المشير
ففضل وزيرٌ وبكرٌ مشيرٌ * يُريدان ما فيه حُتف الأئمر
وما ذاك إلا طريقُ غرورٍ * وشُرُّ المسالك طرُقُ الغرورِ
لواطُ الخليفةِ أعجوبةٌ * وأعجبُ منه خَلأُ الوزيرِ
فهذا يدوسُ وهذا يداسُ * كذلك لعمري اختلافُ الأئمر
فلو يستعينان هذا بذاك * لكانا بَعْرَضَةِ أُمِّ سَتِيرِ
ولكن ذاك جَلَّ في كوثرٍ * ولم يَشِفْ هذا دِعاسُ الحميرِ
فشُنعَ فعلاهما منهما * وصارا خِلافًا كَبَوِيَ البعيرِ
وأعجبُ من ذا وذا أننا * نباع للطفلِ فينا الصغيرِ
ومن ليس يُحسنُ غسلَ آستيه * ولم يخلِ مَتْنَهُ من حَجَرِ ظيرِ
وما ذاك إلا بفضلٍ وبكرٍ * يريدان نقضَ الكتابِ المنيرِ
وهذان لولا انقلابُ الزمانِ * أفي العيرِ هذان أم في النِّفيرِ

ولكنها فتن كالجبال * ترفع فيها الوضع الحقيير
فصبرا فنى الصبر خير جميل * وإن كان قد ضاق صبر الصبور
فيارب فاقبضهما عاجلا * اليك وأورد عذاب السعير
ونكّل بفضل وأشياءه * وصلّهم حول هذى الجسور

*
*

(ح) عود على بدء ، مجهودات الأمين في سبيل الفوز :

ولقد سبق أن قلنا لك : إنه مع ما يرى اليه الرواه من تحقير شأن الأمين
ورجالات الأمين ، يمكننا مع ذلك تبين حقيقة أمره ، مما يلاحظ في ثنايا السطور
وفلوات الحوادث ، وقلنا : إن تلك الفلوات قد تتيح لنا أن نؤمن بأن عند الأمين
بعض رجاليت أفذاذ . ونريد الآن أن نثبت لك ذلك . وهذا الطبري يتحدثنا ،
في حوادث سنة ست وتسعين ومائة ، أنه لما قوى طاهر واستعلى أمره ، وهزم
من هزم من قواد محمد وجيوشه ، دخل عبد الملك بن صالح على محمد — وكان عبد الملك
محبوسا في حبس الرشيد ، فلما توفى الرشيد وأفضى الأمر إلى محمد ، أمر بتخليه سبيله ،
وذلك في ذى القعدة سنة ١٩٣ ، فكان عبد الملك يشكر ذلك لمحمد ، ويوجب به على نفسه
طاعته ونصيحته — فقال : ” يا أمير المؤمنين ! إني أرى الناس قد طمعوا فيك ، وأهل
العسكرين قد اعتمدوا ذلك ، وقد بذلت سماحتك ، فان أتممت على أمرك أفسدتهم
وأبطرتهم ، وإن كففت أمرك عن العطاء والبذل لمخططهم وأغضببتهم ، وليست تملك الجنود
بالإمسالك ولا تبقى بيوت الأموال على الإنفاق والسرف ، ومع هذا فان جندك قد رعبتهم
الهزائم ، ونهكتهم وأضعفتهم الحرب والوفائع ، وامتلاّت قلوبهم هيبّة لعدوهم ، ونكولا عن
لقائهم ومناقضتهم ، فإن سيرتهم إلى طاهر ، غلب بقليل من معه كثيرهم ، وهزم بقوة نيته
ضعف نصائحهم ونياتهم . وأهل الشام قوم قد صرستهم الحروب ، وأدبتهم الشدائد ،
وجلّهم منقاد إلى مسارع إلى طاعتي ، فان وجهي أمير المؤمنين ، اتخذت له منهم جندا ،

التزاع بين الأمين والمأمون

٢٥٣

نعظم نكايتهم في عدوه و يؤيد الله بهم أوليائه وأهل طاعته . فقال محمد : فإنى مؤيّدك أمرهم ، ومُؤيّدك بما سألت من مالٍ وعدّة ، فعبّجِل الشخوص الى ما هنالك ، فاعمل عملا يظهر أثره ، وتُحمد بركته ، برأيك ونظرك فيه ، ان شاء الله . فولّاه الشام والجزيرة واستحثّه بالخروج استحثاثا شديدا ، ووجه معه كنفًا من الجند والأبناء .

حاول الأمين بعد ذلك أن ينتصر على أخيه بكل ما في مقدوره ، وبعث له الجند تلو الجند . وإنا مع اعترافا بكفاية قادته ، أمثال عبد الرحمن بن جبلة الذي ندب أهل البأس والنجدة والغناء ، نفرر أن طريقة الإرجاف وبثّ الدعاة التي اتبعها القادة المأمونيون كانت خِطَرَةً جدّا .

انظر الى من يقول لأهل حمص : ” يا أهل حمص ! الهربُ أهون من العطب ، والموتُ أهون من الذلّ ! إنكم بعدتم عن بلادكم ، وخرجتم من أقاليمكم ، ترجون الكثرة بعد القلة ، والعزة بعد الذلّة ، ألا وفي الشرِّ وقعتم ، والى حومة الموتِ أنختم . إن المنايا في شوارب المسوّدة وقلائسهم ، النفيرَ النفير ! قبل أن ينقطع السبيل ، ويتزل الأمر الجليل ، ويفوت المطالب ، ويعسر المذهب ، ويبعد العمل ، ويقترّب الأجل ! “ ، وقام رجل من كلب في غرز ناقته ثم قال :

شؤبوبُ حربٍ خاب من يَصَلّاها * قد شرعت فرسانها قناها
فأوردَ الله لظى لظّاها * إن عمّرت كلبٌ بها لحاها

ثم انظر لمن يقول : ” يا معشر كلب ! إنها الراية السوداء ، والله ما ولّت ولا عدّلت ، ولا ذلّ نصيرها ، ولا ضعف وليها ، وإنكم لتعرفون مواقع سيوف أهلِ نُرّاسان في رقابكم ، وآثار أسنّتهم في صُدُوركم ، إعتلوا الشرّ قبل أن يعظّم ، وتخطّوه قبل أن يضطرم ، شأمكم داركم داركم ! الموتُ الفلّسطينيّ خيرٌ من العيش الجَزَريّ ! ألا وإني راجعٌ فمن أراد الانصراف فلينصرف معي ! “ ثم سار وسار معه عامة أهل الشام .

أرأيت الى أىّ مدى كان أثر الدعاية المأمونية ؟ .

لقد كان المأمون موفقاً بلا ريب ، وكانت ظروف النصر والاقبال تُؤاتيهِ من هنا ومن هناك ، وتُظاھره على النجاح من جِراء حِكمته وكفاية رجالاته ، كما كانت تُظاھره من جِراء حِمَاقة خصومه وقلة غنائمهم .

ثم انظر ما كان من أمر العصبيّة في حوادث سنتي خمس وتسعين ومائة وست وتسعين ومائة ، وما كان من اشتطاط جنود الأُميين في طلب المال ، وما كان من عدم قدرته على إجابة طلبات القادة الحكّاء ، أمثال أسد بن يزيد ، وما كان من تقلّب الحسين ابن عليّ معه وعليه ، وما كان من ليّان الأُميين معه بعد أن حبسه ، فان التاريخ يحدثنا بأن كل ما فعله الأُميين معه ، هو أن لآمه على خلافه ، وقال له : ” ألم أقدم أباك على الناس ! وأولّه أعنة الخيل ! وأملأ يده من الأموال ! وأشرف أقداركم في أهل نراسان ! وأرفع منازلكم على غيركم من القواد ! “ . فقال له : بلى ! قال : ” فما الذي استحققت به منك أن تخلع طاعتي وتؤلب الناس عليّ “ ، وتندبهم الى قتالي ؟ ” قال : الثقة بعفو أمير المؤمنين ، وحسن الظن بصفحه وتفضله . قال : ” فان أمير المؤمنين قد فعل ذلك بك ، وولاك الطلب بشارك ومن قتل من أهل بيتك ! “ ثم دعا له بخلعة نخلعها عليه ، وحمله على مراكب ، وأمره بالمسير الى حُلوان ، وولاه ما وراء بابه .

أنظر الى ذلك كله ، فانك تستطيع أن تقتنع معنا ، بأن اسوء التدبير حظاً غير قليل في خذلان الأُميين وضياع ملكه .



(ط) مظاهر الثورة وخطبائها :

على أن هناك ظاهرة في الجيش الأُميني والأطراف الأُمينية ، مثل ظاهرة الثورة الفرنسية من بعض وجوهها ، يجدر بنا أن نقيسها لك ، ولو « على الهامش » كما يقولون . ذلك أن الزواقيـل ، والاصـوص ، والثـوار ، لعبوا دورهم الخطير ، كما أن الفوضى ضربت

بجوانها على كل البقاع الأمينية ، ولم يكن ثمة من طاعة ولا نظام ، لا في الجند الأميني ولا في قادة الجند الأميني !

وقد كان هناك خطباء ، كما كان في الثورة الفرنسية . وإن الطبرى ليحدثنا أن محمد بن أبي خالد قام بباب الشام ، فقال : أيها الناس ! والله ما أدرى بأى سبب يتأمر الحسين بن عليّ علينا ! ويتولى هذا الأمر دوننا ! ما هو بأكبرنا سناً ، ولا أكرمنا حسباً ، ولا أعظمنا منزلةً . وإن فينا من لا يرضى بالدينية ولا يُقاد بالمخادعة ! وإني أولكم نقضاً لعهد ، وإظهاراً للتغيير عليه والانكار لفعله ، فمن كان رأيُه رأيي ، فليعتزل معي . وقام أسد الحربى فقال : يامعشر الحربية ! هذا يومٌ له ما بعده ، إنكم قد نمتُم وطال نومكم ، وتأنَّحتم فقدم عليكم غيركم ، وقد ذهب أفرؤمٌ بذكر خلع محمد وأسرِه ، فأذهبوا بذكر فكِّهِ وإطلاقهِ . يحدثنا التاريخ عن ذلك كله ، كما يحدثنا بأن شيخاً كبيراً ، من أهل الكفاية ، قد أقبل على فارس ، فصاح بالناس : اسكتوا ! فسكتوا ؛ فقال : أيها الناس ! هل تعتدُّون على محمد بقطع منه لأرزاقكم ؟ قالوا : لا ! قال : فهل قَصَّرَ بأحدٍ منكم أو من رؤسائكم وكبرائكم ؟ قالوا : ما علمنا ! قال : فهل عَزَلَ أحدًا من قُوداكم ؟ قالوا : معاذ الله أن يكون فعل ذلك ! . قال : فما بالكم خَدَلْتُمُوهُ وأعنتُم عدوهُ على اضطهادهِ وأسرِهِ ! أمَّا والله ما قَتَلَ قومٌ خليفَتَهُمْ قطُّ إلا سَلَطَ الله عليهم السيفَ القاتِلَ والحنفَ الجارف ! إنهمضوا إلى خليفَتكم وادفعوا عنه ، وقَاتِلُوا من أراد خَلْعَهُ والفتكَ به ! — .

أما ما أصاب بغداد من سَلْبٍ ونهبٍ ، وتَحْرِيقٍ وتَخريبٍ ، وفتنة شعواء ، وقتل ودماء ، فإننا نترك الكلمة في ذلك لشعراء العصر ، مما أثبتناه لك في باب المنظوم من الكتاب الثالث من المجلد الثالث ، فلترجع ثمة .

(ي) قتل الأمين :

ولقد ضَيَّقَ طاهرٌ وهرثمة على الأمين الخنَّاق ، وفكَّرَا فيمن يتسلَّم الأمين ليكون له قَصَبُ السَّبْقِ . ولأنه لمن المؤلم حقاً أن ترى الأمين وهو يقبل أولاده . ومن المؤلم أن

تسمعه وهو يقول : «وددت أن الله قتل الفريسين جميعا ! . فما منهم إلا عدو من معي ومن عليّ ، أما هؤلاء فيريدون مالي ، وأما أولئك فيريدون نفسي ! » وقال :

تفرّقوا ودعّوني * يا معشر الأعوان
فكلّكم ذو وجوه * كثيرة الألوان
وما أرى غير إفك * وثرهات الأمانى
ولست أملك شيئا * فسائلوا خزّانى
فالويل لى ما دهّانى * من نازب البستان

وانه لمن المؤلم حقا أن يتفقا على أن يأخذ أحدهما بدنه ، والآخر خاتم الخلافة وشاراتها ! ومن المؤلم حقا أن تختتم حياته بمأساته المروعة .

الفصل الرابع

الخليفة المأمون

توطئة — السياسة الداخلية — ملخص الحالة العامة في المدة الخراسانية — المدة البغدادية : ثورة نصر ابن شبيب ، الزط ، ثورة مصر ، بابك الخرمي ، مذاهب ونحل ، افتراضات — السياسة الخارجية : عزرة المأمون للروم — كلمة ختامية .

(١) توطئة :

من تحصيل الحاصل أن نقول ما يقوله الفخري وغيره : من أن المأمون كان من أفاضل الخلفاء وعلمائهم ، وحكامهم وحكائهم ، أو أنه كان ديناً ، عارفاً بالعلم ، فيه دهاء وسياسة أو أنه كان فيطناً ذكياً ، أو أنه كان كاملاً عالماً جواداً ، عظيم العفو ، ميمون النقيبة ، حسن التدبير ، جليل الصنائع ، لا تتخذه الأمانى ، ولا تجوز عليه الخدائع ، علمه بما بعد عنه كعلمه بما حضر ، أو أنه كان متصفاً بالعدل والحلم .

من تحصيل الحاصل أن نقول ذلك لأنه معلوم متعارف من ناحية ، ولأن خطتنا في كتابتنا ، ومنهجنا في بحثنا ، أن نترك للحوادث الكلمة الفاصلة في تحليل صفاته ، اتباعاً للطريقة التحليلية التي اتبعناها فيما كتبناه عن سواه .

وقد أسلفنا لك القول في بيان حياة المأمون قبل الخلافة ، وفصلنا لك ما كان من أمر النزاع بين الأخوين ، ووصلنا بك الى مأساة تلك الحرب الشعواء والفتنة العمياء ، ألا وهى قتل محمد الأمين في ٢٥ محرم سنة ثمان وتسعين ومائة والآن نتقدم الى القول بأن المأمون بُويع له بالخلافة العامة في ذلك التاريخ ، واستمر كذلك الى أن توفى غازياً في ١٩ رجب سنة ٢١٨ هـ . فتكون خلافته ، قد أنافت على عشرين سنة . أقام منها في خراسان حتى منتصف صفر سنة ٢٠٤ ، حين انتقل الى بغداد ، مقر الخلافة العباسية .

فيمكننا إذا أن نقسم كلامنا عن حكم المأمون الى مديتين: المدة الخراسانية، والمدة البغدادية. وفي بيان هاتين المديتين، بيان للحالة السياسية الداخلية في عصره؛ وهو ما سنعالج الكلام فيه الآن:



(ب) السياسة الداخلية:

١ — ملخص الحالة العامة في المدة الخراسانية

اطلعنا في دور النزاع بين الأخوين على شيء غير قليل من تصرفات الفضل بن سهل وتديراته، ووقفنا على أثره العظيم في الدولة؛ كما اطلعنا على ما كان من نجاح طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين، في حروبهما للجيش الأمينية.

ونتساءل الآن، بعد أن تم الأمر للمأمون وحزبه، وخلا الجؤالى حد كبير للفضل ابن سهل، أمن المعقول أن تستطيع هذه الشخصية البارزة، الفارسية المنيّة والنزعة، ذات البيت الكبير، والحماة والأصدقاء، والعفاة والأنصار، أن تحتل أن يكون الى جانبها شخصيات بارزة من العرب كهرثمة بن أعين، وأبطال من ذوى الفضل العظيم والدور الأوفى في النجاح كطاهر بن الحسين؟

نحن نعلم ما كان من أبي مسلم الخراساني مع أمثاله من القادة والحكام، كما نعلم ما كان نصيبه من الخليفة المنصور. نعلم ذلك، كما نعلم الكثير من أمثال ذلك. وإنه يلوح لنا، من غير أن نعدو الصواب كثيرا، أنه في مقدورنا أن نجيب عن تساؤلنا هذا. إن المعقول، في طبيعة هذه الشخصيات الفذة، في تلك الأزمان المطلقة الحكم، أنها تعمل على إزالة كل الشخصيات البارزة من طريقها، ليكون ذلك لأطاعها مهيّدا، ولخطّطها معبّدا.

يلوح لنا أنا لا نعدو الصواب اذا قلنا ذلك. اذ أن هذا هو ما فعله الفضل بن سهل مع الظاهرين وأصحاب الكلمة في الدولة؛ فإن التاريخ يثبتنا أنه رأى مستقبله ومستقبل حزبه، يكون مهيّدا، اذا بقي طاهر وهرثمة في العراق، فاستصدر أمرين

ملكيين : أولها بتولية شقيقه الحسن بن سهل جميع ما فتح بجهود طاهر ، وقيادته الحكيمة ، وإخلاصه للقضية المأمونية . ينبئنا بأنه نصّب على كور الجبال وفارس ، وعلى الأهواز والبصرة ، وعلى الكوفة والحجاز واليمن ؛ كما ينبئنا بأنه ولّى طاهرا الموصل والحزيرة والشام والمغرب . ولكي يتم الأمر بإبعاده ، كتب إليه أن يسلم الحسن بن سهل جميع ما بيده من الأعمال ، وأن يبادر في الشخوص الى الرقة لمحاربة نصر بن شهبث . وثانيهما الى هرثمة ابن أعين يكلفه به أن يشخص الى نحرسان .

ولنتساءل الآن : هل كان من المصلحة السياسية ، هذه الصدمة العنيفة لزعيمين قويين ، أحسنا البلاء في الدولة ، ولها مكائدهما ، ولها حزبهما ؟ وهل كانت من المصلحة السياسية إخلاء العراق ، وهو مصدر الشقاق والنفاق والعصيان والعدوان ، من هرثمة وطاهر ؟ وهل كان من المصلحة السياسية ، أن يترك المأمون مسألة ، كمسألة تعيين الحسن ابن سهل وإقصاء هرثمة وطاهر ، تمر هكذا ، فيستغلها الدعاة على ملكه من بنى هاشم ممن لم يكن لهم حظ في دولته ، ومن غير بنى هاشم ممن يودون زوال الملك الهاشمي ، فيقول — فيما يقولون عنه — إنه غلب على أمره ، أو أن الفرس ملكوا زمانه ، أو أن الفضل بن سهل أنزله قصرا فججبه عن رجال دولته ، وأن السلطان ومقاليده السلطان ، قد نُزِعَت منه ؟

نعود نتساءل : أكان ذلك كله من مصلحته السياسية ؟

لم يكن ذلك من المصلحة السياسية طبعاً ، لا سيما أنه لم تسكن الفتن والثورات بعد في الأقطار المأمونية . ولكننا نميل الى اعتقاد أن المأمون كان مرغماً على الوقوع في هذه الغلطة السياسية ، وهو ذلك السياسي المحنك والداهية القدير ، كما رأيت وكما ستري في موضعه ؛ لأن لظروف الأحوال نصيبها في ذلك التصرف منه ومن غيره ممن يكون في مكانه ؛ ولأنه ربما تحاشى بتصرفه ذلك خطراً أجسم ، وأوسع نطاقاً ، وأبعد مدًى ، وهو خطر إغصاب الفضل بن سهل وجماعة الفضل بن سهل .

ومهما يكن من شيء، فإن هذه التصرفات التي كانت من الفضل بن سهل، وإقرار المأمون لها، وبقاء المأمون، بعد أن تمّ له الأمر، في مرو دون بغداد عاصمة الخلافة العباسية، كانت لها نتائجها السيئة في شيعة المأمون وأنصاره من جهة، وفي أعدائه والراغبين عن سلطانه من جهة أخرى. ذلك بأن أنصار المأمون وقواده، ونخص بالذكر منهم طاهر ابن الحسين وهرثمة بن أعين، قد كسّر قلوبهم وقلّ من عزائمهم، أن يكون خزائهم على فوزهم وحسن بلائهم وإخلاصهم، تلك التصرفات السيئة التي كانت نصيبهم من المأمون ومن حاشية المأمون.

هذا كان أثرها في شيعة وخاصة أنصاره. وأما غير هؤلاء، فقد جمعت هذه التصرفات الستة تطلق بآتمام المأمون بأنه يميل إلى الخراسانيين، وأنه أصبح آله في أيديهم يحتركون كما يشاءون وقد حدث من جرّاء هذه الإشاعات وفتور همة أنصار المأمون الذين لم يجازوا الجزاء الأوفى، أن اضطربت الأمور، وكثرت الفتن، ووجد أعداء المأمون الفرصة سانحة لتحقيق أطماعهم. ومن تلك الفتن ما يحدثنا التاريخ عنه: من خروج محمد بن إبراهيم العلوي المعروف بابن طباطبا بالكوفة، وقد قام بتدبير أمره رجل من رجالات هرثمة بن أعين وكبار أنصاره، وقد خرج لأنه حبس عنه ما كان يُعطاه من رزق: هذا الرجل هو أبو السرايا السريّ بن منصور، وكان هو الخارج على المأمون في الواقع لا ابن طباطبا وقد بلغ من أمره أن ضرب الدراهم وجنّد الجنود، حتى اضطّر الحسن بن سهل أن يسترضى هرثمة، ويستعينه، ليكفيّه شر هذا الخارج القوي.

ويظهر أنّ موت الزعماء، كان طمساً من الطلسم، أو سرّاً من الأسرار، أو صناعةً من الصناعات الخفية فإننا نجد أن محمد بن إبراهيم هذا، الذي سمّت منزلته بين أتباعه، وعظمت طاعتهم له، قد مات، بعد أن كُتب النصر للقائم بتدبير أموره على سليمان بن جعفر وإلى الكوفة من قبل المأمون، ثم نرى هذا المنتصر يولّي مكانه غلاماً أمرداً حدثاً، هو محمد بن محمد بن زيد العلوي.

وَتَعَالَ مَعِيَ لِنَنْظُرَ فِي حَوَادِثِ سَنَةِ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَةً ، فَفِيهَا مَا يَكْشِفُ
الْفِتَاحَ عَنْ أُمُورِ جِسَامٍ ، تُفِيدُنَا فِي تَفْهَمِ الرُّوحِ الحَزْبِيَّةِ بَيْنَ الْعُلُوِّينَ وَالْعَبَاسِيِّينَ وَتُفِيدُنَا
أَيْضًا فِي إِمَاطَةِ اللَّثَامِ عَنْ سَبَبِ هَامٍّ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا تَبَرُّمُ بَعْضِ الْوُلَاةِ الْكَفَّاءَةِ
بِدَوْلَةِ الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ وَانْفِرَادِهِ هُوَ وَجَمَاعَتُهُ بِمِرَاتِبِ الدَّوْلَةِ وَوُظَائِفِهَا .

تَعَالَ نَنْظُرَ فِي حَوَادِثِ تِلْكَ السَّنَةِ ، فَنَجِدُ فِيهَا أَنَّ هَرِثْمَةَ جَدِّ فِي طَابِ أَبِي السَّرَايَا صَدِيقَهُ
بِالْأَمْسِ وَمُنَازِلَهُ الْيَوْمَ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى قَصْرِ ابْنِ هُبَيْرَةَ ، فَكَانَتْ بَيْنَهُمَا وَقْعَةٌ شَدِيدَةٌ ، قُتِلَ
فِيهَا مِنْ أَصْحَابِ أَبِي السَّرَايَا خَلْقٌ كَثِيرٌ ، أَلَيْسَ فِي هَذَا مَا يَقْنَعُكَ بِأَنَّ إِمَامَضَةً رَصًا وَابْتِسَامَةً
تَشْجِيعٌ ، لِرَجُلٍ مِنْ رَجَالَاتِ الدَّوْلَةِ ، كَافِيَةٌ لِأَنْ يَنْهَضَ فِيحَارِبَ زَمِيلِهِ وَيَقَاتِلَ خِذْلَهُ . ثُمَّ نَجِدُ
فِي تِلْكَ السَّنَةِ فِيهَا أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ مُحَمَّدٍ وَثَبَ ، وَمَعَهُ الْحَزْبُ الطَّالِبِيُّ ، عَلَى دُورِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَدُورِ
مَوَالِيهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ بِالْكُوفَةِ ، فَانْتَهَبُوهَا وَخَرَّبُوهَا ، وَأَخْرَجُوهُمْ مِنَ الْكُوفَةِ ، وَاسْتَخْرَجُوا الْوُدَّاعِ
الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ عِنْدَ النَّاسِ فَأَخَذُوهَا ، وَعَمِلُوا فِي ذَلِكَ عَمَلًا قَبِيحًا . وَتَجِدُ كَذَلِكَ فِيهَا أَنَّ
مَسْرُورًا الْكَبِيرَ الْخَادِمَ الرَّشِيدِيَّ ، قَدْ حَجَّ تِلْكَ السَّنَةِ فِي مَائَتِي فَارِسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَأَنَّهُ عَبَّى
لِحَرْبٍ مِنْ يَرِيدِ دُخُولِ مَكَّةَ وَأَخَذَهَا مِنَ الطَّالِبِيِّينَ ، وَأَنَّهُ قَالَ لِعَامِلِ مَكَّةَ دَاوُدَ بْنَ عَيْسَى :
أَقِمْ لِي شَخْصًا أَوْ شَخْصَيْنِ بَعْضُ وَلَدِكَ وَأَنَا أَكْفِيكَ قِتَالَهُمْ ! فَقَالَ لَهُ دَاوُدُ : لَا أَسْتَخِلُّ
الْقِتَالَ فِي الْحَرَمِ ، وَاللَّهِ لَئِنْ دَخَلُوا مِنْ هَذَا النَّجْعِ ، لَأُخْرِجَنَّ مِنَ النَّجْعِ الْآخَرِ . فَقَالَ لَهُ
مَسْرُورٌ : تُسَلِّمُ مَلِكُكَ وَسُلْطَانُكَ إِلَى عَدُوِّكَ وَمَنْ لَا تَأْخُذُهُ فَيْكَ لَوْمَةٌ لِأَنْتُمْ فِي دِينِكَ
وَلَا حُرْمَكَ وَلَا مَالِكَ ! قَالَ لَهُ : أَيْ مَلِكٍ لِي ! وَاللَّهِ لَقَدْ أَقَمْتُ مَعَهُمْ حَتَّى شِخْتُ ، فَمَا
وَأَرْنِي وَلَايَةً ، حَتَّى كَثُرَتْ سَقَى ، وَفَنِي عَمْرِي ، فَوَلُونِي مِنَ الْحِجَازِ مَا فِيهِ الْقُوَّةُ ، إِنَّمَا هَذَا
الْمَلِكُ لَكَ وَلَا شِبَاهَكَ ! فَقَاتَلَ إِنْ شِئْتَ أَوْ دَعُ !

هَذِهِ حَالَةُ نَفْسِيَّةٍ لِبَعْضِ الْوُلَاةِ الْعَرَبِ ، قَدْ يَكُونُ مِنَ النِّفْعِ أَنْ تُنَاقِظَ تَبَرُّمَهَا
وَيُخْطِطَ مِنْ سِيَاسَةِ الْعَصْرِ ، أَوْ مِنَ الْهَيْمَنَةِ الْفَارْسِيَّةِ عَلَى شَيْءٍ أُمُورِ الدَّوْلَةِ عَامَةً وَالْحَسَنِيَّاتِ
مُتَمَّا خَاصَّةً فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ . وَرَبَّمَا كَانَتْ هَذِهِ الْحَالَةُ النِّفْسِيَّةُ تُمَثِّلُ لَكَ حَالَاتٍ كَثِيرَةً مِنْ
نَفْسِيَّاتِ الْعَرَبِ لِذَلِكَ الْعَهْدِ .

ثم لننظر في حوادث سنة مائتين ، فنجد أن زيد بن موسى الطالبيّ المعروف "زيد النار" كان بالبصرة ، وإنما سُمّي "زيد النار" لكثرة ما حرقه من دور العباسيين وأتباعهم في البصرة . وكان إذا أُتيَ برجل من المسوّدّة العباسيّة ، كانت عقوبته عنده أن يُحرق بالنار . ونجد فيها أن ابراهيم بن موسى الطالبيّ قد خرج باليمن . ونجد أيضا أن الكعبة وخزائنها وأحجارها الكريمة ، لم تسلم من أبي السرايا وأتباعها العلويين ، وكَم حبس من العباسيين وكَم أذى ! حتى ندب محمد بن مسلمة الكوفيّ لتولّي عذاب العباسيين ، فأشرف في ذلك ، حتى سُميت داره "بدار العذاب" . ونجد أيضا أن خارجيّاً آخر ، وهو حسن ابن حسين ، أراد اقتفاء ما رسمه أبو السرايا ، فذهب الى علوىّ وداع محبّ معروف في مكة والمدينة ، وهو محمد بن جعفر ، ونصّبه خليفةً اسماً ، وجعل السلطان بيده فعلاً . ونجد فيها قبائح وفضائح لحسن بن حسين هذا ، مع زوجة قرشيّة من بنى فهر ، وزوجها من بنى مخزوم ، ولها جمالٌ بارعٌ ، فاغتصبها من زوجها . ونجد فيها مثل ذلك الصنيع المعيب من عليّ بن محمد الخليفة المنصوب ، مع ابن القاضي إسحاق بن محمد ، وكان جميلاً بارعاً في الجمال .

نجد ذلك كله ، ونجد الكثير من أمثاله ، مما أدى الى إثارة الرأي العام في مكة ، فاحتجوا ، حتى ردّ الصبيّ لأبيه مكرهاً مرغماً ! ونجد فيها أمثلة عدّة لاستلاب أموال الناس ، كما نجد فيها رجلاً عباسياً موتوراً من العلويين ، وهو محمد بن الحكيم ، ممن كان الطالبيّون قد انتهبوا داره وعذبوه عذاباً شديداً ، عثر على محمد بن جعفر الطالبيّ الخليفة المنصوب ، وقد طُرِدَ شراً طردة ، وكان في مقدوره أن يقتله فلم يفعل . فلنقيّد هذه الحادثة ، فإنها تنفعنا في تفهّم السر الذي كان كثيراً ما يحسدو بالمأمون الى احترام العلويين ، وتقدير مكانتهم والعمل على إرضائهم لأن لهم حرمة في نفوس حزب غير قليل من الشعب . ونجد في السنة ذاتها أن الحج قد تولاه أكثر من شخص ، لتعديّ السلطات . فندب المأمونُ أبا إسحاق بن هارون الرشيد . ووجه ابراهيم بن موسى الطالبيّ ، الذي خرج

اليمن ، رجلا من ولد عقيل بن أبي طالب ، كما وجه غيره من يمثله ، مما يدل على الفرقة والانقسام ، وعلى الفوضى والاضطراب . فلتعترف ذلك جيدا .

ويجدر بنا هنا أن نبين نتائج الحالة الحزبية بين الفريقين ، فقد بلغ أبا اسحاق بن الرشيد أن الجماعة الطالبية التي أتت من اليمن للحج ، قد مرّت بها قافلة من الحاجّ والتجار ، وفيها كسوة الكعبة وطيبها ، فاستلبت أموالهم وطيبهم ، فندّب لهم محمد بن عيسى بن يزيد الجلوديّ الذي أحرق بهم فأسر أكثرهم ، وهرب من هرب منهم ، وأخذ منهم الطيب وأموال التجار والحاجّ ، فوجه به إلى مكة ، ودعا بمن أسر من أصحاب العقيلي العلويّ ، فأمر بهم فقتل كل رجل منهم عشرة أسواط ، ثم قال لهم : ” أعزّبوا يا كلاب النار ! فوالله ما قتلكم وعمر ، ولا في أسركم جمال “ . وخلق سبيلهم . ولنا لحظ تسميته لهم ” بـكلاب النار “ !

ولنا تلخص لك الحوادث التي وقعت بعد أن قمع هرثمة ثورة أبي السرايا ، التي انتهت بقتله عام ٢٠٠ هـ . واتحاد فتنته ، معتمدين في ذلك على الطبريّ والأستاذ «ميور» خاصة :

لما قمع هرثمة ثورة أبي السرايا ، عاد إلى نهروان ، دون أن يعرج على والي بغداد ، وهناك وافاه أمر الخليفة بتوليّه حكم سوريا وبلاد العرب ، وكان قد اعترم الذهاب بعد ذلك إلى « مرو » مباشرة ، ليكشف للخليفة عن حقيقة الموقف وحرجه ، الذي يخفيه عنه وزيره الفضل ، بسبب بقاء الخليفة في « مرو » وأن الغرب سيقتض عليه سرّيا ، ويخرج من يده إذا هو لم يبادر إلى العودة إلى بغداد . فلما أحس الفضل عزم هرثمة على القدوم فطن إلى ما ينويه ، فدس له عند المأمون ، حتى أوغر صدره عليه ، وكادت السنة تنتهي قبل أن يذهب هرثمة إلى « مرو » . فلما ذهب خشي أن يكتّم الفضل خبر قدومه عن المأمون ، فدقّ الطبول عند دخوله المدينة . فلما علم الخليفة الموغر الصدير بقدومه أمر باحضاره ، فلما مثّل بين يديه بالغ في تقريره وتأييده على توانيه في تسكين ثورة أبي السرايا ، وفي مخالفة ما أصدره إليه من أمره بالذهاب إلى ما ولّاه من أعمال

وما كاد هذا القائد يهيم بالكلام ويشرح لمولاه الحالة ، حتى هجم عليه الحرس الذين أسر اليهم الفضل أن يغفلوا في تعذيبه ، فأنهالوا عليه ضرباً وكباً ، على وجهه وجسمه ، ثم سحبوه بسرعة الى السجن حيث مات به بعد زمن قصير ، متأثراً بجراحه . ولقد اعتقد عاقبة الناس أن الذي أماته هو الفضل .

وهكذا انطوت صحيفة هذا الباسل العظيم الذي ذب عن ملك المأمون ، وكالغ في توطيد دعائم الدولة ، من أفريقية الى خراسان ، والذي يرجع اليه الفضل الأكبر في انتصار المأمون على أخيه المخلوع . ومات هذا القائد العظيم ضحيةً للسعاية ونكران الجميل ، كما مات أمثاله من قبل من صناديد هذه الدولة من جراء السعاية والمنافسة ، ومن جراء أعمال البطانة ودسائس الخاشية .

ولنتساءل ما ذا كانت نتيجة قتل هرثمة ؟

يحدثنا التاريخ أن هرثمة كان محبوباً في الغرب ، وأن موته أحدث فتناً وقلقاً في بغداد ، وثارَت الجنود في وجه الحسن بن سهل ، إذ عدّوه آله في يد أخيه الفضل الذي كانوا ينعته بالمجوس . وبعد قتال دام ثلاثة أيام طردوا الحسن من المدينة ، فلبّوا الى « المدائن » ثم ارتدّ الى « واسط » . واستمرت الفتن والقلق بعد ذلك قائمة ببغداد شهوراً عدّة ، نشطت في خلالها عصابات اللصوص وشرذمة الصعاليك ، وثمرت عن ساعدها في أعمال النهب والسلب ، حتى طغى سيل غاراتهم على تلك المدينة المنكودة ، التي أصبحت تحت رحمتهم . ويحدثنا التاريخ أنهم قد أسرفوا في ذلك لإسرافاً عظيماً ، مما فزع له أعيان المدينة ووجهائها ، فأجمعوا أمرهم على صدّ هؤلاء السفلة الأشرار ودفع غائلتهم عن المدينة وأهلها . ولما تمّ لهم ما أرادوا ، اختاروا من بينهم رجلين من ذوى الفضل والمكانة فيهم ، وولّوها تدبير الحكم ، ريثما تستقر الحال ويعود الأمن الى نصابه . ثم عرّضوا عرش الخلافة على المنصور بن المهدي والبيعة له ، فتأبى عليهم ، ولكنه عاد وقيل أن يتولّى الحكم باسم الخليفة المأمون . ولم تؤشك هذه السنة أن تلتهى حتى كان قواد الجند في بغداد قد سموا القتال ،

فاتفقوا مع الحسن بن سهل الوالى فعاد الى بغداد بعد أن أصدر عفوا عاما ، ووعد بأنه يدفع للجنود رواتبهم عن ستة أشهر، وبأن يدفع كذلك لذوى المعاشات أرزاقهم حسبما هو مُدرج بقوائمهم .



ولنتساءل الآن ما ذا حدث بعد ذلك ؟ .

حدث أنه ما كاد الأمر ينتهى على هذه الشروط ، حتى عادت الفتنة والاضطراب أشد مما كانا عليه . ذلك بأن المأمون ، لغرض سياسى ، أو لزعمة شيعية ، أو لتقدير كفاية خاصة ، استدعى واحداً من سلالة سيدنا علىؑ ، وهو «على الرضا» رضى الله عنه ، وهو ثامن أئمة الشيعة أو حزب العلويين ، الى «مرو» ، وأختاره ولياً لعهد الخلافة ، مع أنه يكبره باثنتين وعشرين سنة . وربما كان المأمون فى رأيه هذا صادرا عن رأى وزيره الفضل الذى زين له أن هذه أنجح وسيلة لتسكين ثورة العلويين فى الغرب . وربما كانت تنجح هذه الوسيلة فى التوفيق بين البيتين العلوى والعباسى ، قبل استفحال الخُلف بينهما . أما وقد استطار الشر بينهما ، وقلب بعضهم لبعض ظهر الحجت ، ولبسوا جلد النمر ، وتحفّزوا للقتال ، وتداعوا للجلاء ، فإن أمر الوفاق بينهم صار حُلما ، وعاد الإقدام عليه سخفا وحماقة مهلكة ! .

وما ذا ترتب على إسناد ولاية العهد لفرد من العلويين ؟ .

إن التاريخ يحدثنا أنه ترتب على إسناد ولاية العهد لعلى الرضا أن أمر الخليفة ولاته فى جميع أنحاء الدولة بأخذ البيعة لولى عهده . ولكى يجعل المأمون الدولة تصطبغ بصبغة العلويين ، خلع الشعار الأسود ، شعار العباسيين ، وأرتدى الشعار الأخضر ، شعار الشيعة ، وأمر عماله بالاعتداء به . وفى أواخر هذه السنة تلقى الحسن بن سهل من أخيه الفضل أمرا بإعلان ذلك وتنفيذه ، فكان لذلك الأمر أسوأ أثر فى أهل بغداد ، إذ وقع عليهم كالصاعقة ، لأن أهلها كانوا يخافون الشيعة ويمقتونهم ، وكذلك شعر العباسيون بأن الضربة موجّهة للفضاء على خلافهم ، فشتموا عصا الطاعة ، وهبوا بخلع المأمون واختيار خليفة

سواه ، ولم يعارض زعماء البيت المملوك من العباسيين في ذلك . فلم تأت آخر جمعة من هذه السنة حتى دعى لإبراهيم بن المهدي على المنابر خليفة بدلاً من المأمون ، وسرعان ما أُوبع له بالخلافة . وكان إبراهيم بارعا في الموسيقى والغناء والشعر ، ولكن كانت تنقصه المؤهلات التي يستطيع بها أن يضطلع بأعباء الملك التي ألقيت على عاتقه ، والتي ناء بمجملها مدّة سنتين .

ثم ماذا كان بعد ذلك ؟

نشب القتال بين جنود المأمون وجنود إبراهيم المغتصب للخلافة ، فاضطر الحسن بن سهل نائب المأمون أن يترد إلى واسط مرة أخرى ، وخيّل إليه أنه إذا جرى أهل الكوفة في ميولهم الشيعية ، يستطيع أن يضمّها إليه ، وبدأ ذلك بأن ولى عليها أحد إخوة عليّ الرضا ولم يدر أن التوفيق بين عاتليّ عليّ والعباس في مدينة كهذه متقلبة الأهواء ، ضرب من المستحيل ، فإن أهلها كانوا على استعداد ، في أول أمرهم ، للقاء الحسن كقائد من صميم العلويين ، ولكنهم انتفضوا عليه باعتباره الوالي الفارسيّ من قبل المأمون ، وعلى ذلك قامت الثورات في هذه المدينة أيضا كما قامت في غيرها .

ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟

إن التاريخ يحدثنا أنه بينما كان الغرب غارقا في لُجج هذه الفوضى ، حدث في مرو تغييرٌ جديد ذو شأن : ذلك أن المأمون قد تنبّه في آخر الأمر ، لخرج الموقف ، وخطورة الحالة ، ومن الغريب أن أول من نبّه الخليفة إلى هذا الخطر المُخْدِق به ، وعرش آبائه وأجداده ، هو عليّ الرضا نفسه ، فتبين المأمون أنّ ولايته للعهد كانت شؤما على الدولة ، إذ سارت الأمور فيها من سيء إلى أسوأ ، زهاء عام منذ توليه .

ويحدثنا التاريخ أن عليّا الرضا خلا بالخليفة ، وكاشفه أن الفضل وزيره يُكَاثِمُهُ حقيقة الحال ، ويخفي عنه أمور الدولة ، وأن أهل العراق يقولون عنه (أى الخليفة) : إنه مجنون أو مسجون ، وأن الخلافة توشك أن تُفلت من يده بين إبراهيم والعلويين ، وأن الحسين

أخا الفضل يعمل في القضاء على الغرب ، بينما طاهر ذلك الفائد الباسل الذي يستطيع أن يقود سفينة الدولة الى شاطئ النجاة منبذ في سوريا .

وقد أيد هذه الحقائق للمأمون جماعة من قواد الدولة وزعمائها ، بعد أن أتمنهم المأمون من غضب وزيره ، ونصحوا اليه بأن خير علاج لسلامة الدولة أن يجعل بالعودة الى بغداد ، وقالوا له : إن هذه كانت نصيحة هـرثمة ، التي جاء من أجلها منذ سنتين لبسرها اليه لو أنه أمهله واستمع له ! .

فأيقن المأمون أخيرا أن استسلامه للفضل وانقياده له ، كانا سببا لكل ما حدث من الفتن والثورات ، فأمر بانتقال بيت الخلافة الى بغداد ، وما كادوا يحلّون بسرّخس وهم في طريقهم الى بغداد ، حتى وجدوا الفضل قتيلا في حمامه ، وكان الفضل ، قبل ذلك قد اضطهد جماعة القواد والزعماء الذين تشفوا أمره عند الخليفة ، فوعد الخليفة بمكافأة لمن يأتيه بالقتلة ، ولما قبض عليهم دافعوا عن أنفسهم بأنهم إنما قتلوه بأمر مولاهم الخليفة ، ولكن لم يغنهم دفاعهم شيئا ، وضربت أعناقهم ، وبعث الخليفة براء وسهم الى الحسن بن سهل مشفوعة بكتاب تعزية منه ، ووعد فيه بأنه سيستوزره خلفا من أخيه ، وبلغ من عطف الخليفة عليه ، أو من سياسته وحكيم تدبيره ، أن عقد زواجه من ابنته بوران ، التي كانت اذ ذاك فما قيل طفلة في الحول العاشر من عمرها ، ولم يدخل بها إلا بعد ثمان سنين بعد ذلك . وفي الوقت نفسه زوج إحدى بناته لعلّي الرضا الذي كان في ذلك الوقت قد بلغ الرابعة والخمسين من عمره ، كما زوج بنتا له أخرى من ابن علي الرضا ، وكذلك ولّى أحد إخوة علي الرضا لامرأة الحج . وبهذه المصاهرة تمت مظاهر حسن العلاقات وتوثيق العرا بينه وبين الحزب العلوي . وكانت هذه المصاهرة في ذاتها تصرفا سياسيا آية في الحكمة والسداد .

لم يمض بعد ذلك غير قليل حتى حدث حادث آخر لم يكن متوقعا : ذلك انه في أثناء سفر الخليفة الى بغداد نزل بطوس في فصل الخريف ، وهناك مات علي الرضا بفاة ، وقيل : إن

موته كان بسبب إفراطه في أكلة عنب، فدفنه المأمون بجوار قبر أبيه الرشيد، فاهترت الدولة لموته المفجأ الذي جاء عقب مقتل الفضل، وإنه لمن المعقول في مثل هذه الأحوال أن تنتشر الإشاعات، وتكثر الأراجيف في سبب موته. كما أنه من المعقول أيضا في مثل هذه الأحوال أن يصعب الوقوف على الحقيقة لتضارب الإشاعات وتناقض الأراجيف واختلاف وجهات النظر، وقد قيل فيما قيل: إن المأمون دس له السم في العنب، بيد أن الرعاية التي أظهرها المأمون لعلّ الرضا، خصوصا بعد توثيق عرا العلاقات بعد المصاهرة، قد تدفع هذه الشبهة عن الخليفة.

إننا لا نمنعك من أن تفترض من جهة أخرى: أن الفضل وعليما كانا عقبة كاداء في سبيل المأمون، لا يزيلها من سبيله إلا موتهما، ويجوز لك أن تذهب في التدليل على أن المأمون كان يعدّ عليا عقبة في سبيل إرضاء أهالي بغداد، إلى أنه في الوقت الذي كتب فيه كتاب تعزية إلى الحسن بن سهل ينعي فيه موت علي أرسل كتابا آخر إلى أهل بغداد يقول لهم فيه: إن عليا الذي أظهرنا سخطهم وتبرئهم من إسناد ولاية العهد له قد قضى، فلا شيء إذاً بينهم الآن من العودة إلى طاعته وموالاته.

على أنا لا نجاريك في هذا الافتراض، لما بيناه لك من ناحية، ولأن نفسية المأمون وخلقه، مما ستقف عليه قريبا، لما يجعل هذا الافتراض واهنا ضعيفا.

أما فيما يخص بكتاب المأمون إلى البغداديين بشأن موت علي الرضا فمقول لك: إنه وإن لم يُحدث أثره المطلوب تماما في نفوس البغداديين، لأنهم اجابوا عنه بكتاب جاف نأثر، إلا أنه قد خطا به خطوة ما في سبيل استئالة أهل بغداد، وفي هذا الوقت أخذ أنصار إبراهيم القلائل ينفضون من حوله، لضعفه وسوء تديره في إدارة الحكم، وتخلّى عنه جنوده، ولم يتقدموا لمداغة جنود المأمون، وسقطت المدائن التي كان فيها مقر خلافتهم، في أيدي جنود المأمون، وساءت أحواله، واضطرب نظام ملكه في فصل الشتاء. ولمّا دنا قواد المأمون وجنوده للعاصمة لمهاجمتها، خرج اليهم قواد المدينة وزعمائها، يُظهرون ولاءهم وطاعتهم للمأمون.

وما كادت تنصف السنة حتى استولى قواد المأمون على المدينة ، وحتى اختفى إبراهيم كما اختفى غيره ، ممن كانوا قد خرجوا على المأمون ، وذلك بعد أن عانت ماعانت من ضروب الفوضى واختلال الأمن وسقم الحال مدة سنتين تقريبا ، وبقي محتفيا فيما يقال ثمانى سنين ثم قبض عليه متنكرا فى زى امرأة ، ثم عفا عنه المأمون وسندكر ذلك فى موضعه .

٢ — ملخص الحالة العامة فى المدة البغدادية — دخول المأمون بغداد

فى صفر سنة ٢٠٤ هـ (أغسطس سنة ٨١٩ م)

لما نحدث ثورة بغداد ، وفر إبراهيم بن المهدي محتفيا ، واستتقر النظام وعاد أهلها الى الطاعة والولاء لخليفتهم ، تقدم اليها المأمون متبدا فى سيره ، إذ كان يقف فى أثناء سفره بالمداين التى يمر بها كي يعيد اليها الأمن ويقر فيها النظام ، فأقام فى جرجان شهرا كما أقام فى النهروان ثمانية أيام ، فخرج لاستقباله أهل بغداد ، يتقدمهم أهل بيته وقواده ووجوه المدينة احتفاء بقدمه اليهم .

وكان المأمون قد كتب فى أثناء سفره ، الى طاهر وهو فى الرقة أن يوافيه فى النهروان فوافاه بها ، ثم تقدم بعد ذلك ودخل بغداد فى صفر سنة ٢٠٤ هـ (أغسطس سنة ٨١٩ م) .

وكان لا يزال الشعار الأخضر ، شعار العلويين الذى اتخذته المأمون وهو فى مرو ، شعار الدولة ، فلما زال به كبار قواده وأهل بيته حتى طرحه ، واستبدل به الشعار الأسود . شعار العباسيين . ويحدثنا يحيى بن الحسن : أن المأمون لبس الخضر بعد دخوله بغداد تسعة وعشرين يوما ثم مرقق ، ثم خلع الخلع السدي على من حضر من القواد والأشراف ورجالات الدولة ، وعفا عن الفضل بن الربيع وزير الأمين ، الذى كان اختفى بعد مقتله ، ثم ظهر مساعدا لإبراهيم بن المهدي فى ثورته ، وكذلك عفا عن عيسى وزير إبراهيم ، مع انهما كانا رأسى الفتن والفساقل التى أثيرت على حكم المأمون ، فكان موقف المأمون معهما غاية فى التسامح والكرم .

ولم يكن قد استقر الأمر والنظام في جميع أنحاء الدولة، بدخول المأمون بغداد، فقد كان لا يزال نصر بن سبث خارجا في سوريا، وكانت لا تزال مصر مسرحا للفتن والقلاقل، وبابك الحرّمي يعظم خطره في شمال فارس، والزط لا يزالون يعيشون في الأرض فسادا على الخليج الفارسي. وسنقص عليك في موضعه ما وصلت إليه هذه الثورات وكيف أُخمدت.

ثم ولي المأمون طاهرا حاكما على بغداد، وأقام ابنه عبد الله واليا على الرقة خلفا من أبيه. غير أن المأمون لم يلبث أن تنكر لظاهر وأظهر له الجفوة. ثم نرى بعد قليل أن طاهرا ولي حاكما على خراسان.

وقد كما نكون في حيرة من أمر هذا التنكر الفجائي من الخليفة على رجله العظيم من غير سبب ظاهر، ثم ينتهي ذلك بأن يكون حاكما على خراسان، لولا أن ابن طيفور يروي لنا أسباب كل هذا في قصة مُمتعة مخصصة: أن طاهرا دخل على المأمون ذات يوم في حاجة، وكان المأمون فيما قيل في مجلس شراب، فأمر له برطلين من النبيذ ثم بكى المأمون وتغرّغرت عيناه، فقال له طاهر: يا أمير المؤمنين لم تبكي لا أبكي الله عينك! فوالله لقد دانت لك البلاد، وأذعن لك العباد، وصرت إلى المحبة في كل أمر، فقال: أبكي لأمرٍ ذكره ذل، وستره حزن، وإن يخلو أحد من شجن: فتكلم بحاجة إن كانت لك. فما زال طاهر بعد ذلك يتخذ الوسائل إلى معرفة السبب حتى وفق بالمال إلى إغراء ساقى المأمون أن يتعرف كنه ذلك السبب. فلما تغدى المأمون ذات يوم قال لساقيه: يا حسين، اسقني، قال: لا والله لا أسقيك أو تقول لم بكيت حين دخل عليك طاهر! قال: يا حسين، وكيف عُنيت بهذا حتى سألتني عنه؟ قال: لغمي بذلك، قال: هو أمر إن خرج من رأسك فتلتك، قال: ياسيدي، ومتى أخرجت لك سرا! قال: إني ذكرت محمدا أُنحى، وما ناله من الذلة فخنقتني العبرة، فاسترحت إلى الإفاضة. ولن يفوت طاهرا مني ما يكره. قال: فأخبر حسين طاهرا بذلك، فركب طاهر إلى أحمد

ابن أبي خالد — وهو وزير المأمون — فقال له : إن الشئ مني ليس برخيص ، وإن المعروف عندي ليس بضائع ، فغيّني عن عينه . فقال له : سأفعل فبكّر عليّ غدا . قال وركب ابن أبي خالد إلى المأمون ، فلما دخل عليه قال له : ما نمت الليلة ؟ فقال له : ولم ويحك ! قال : لأنك وليت غسان خراسان ، وهو ومن معه آكلة رأس^(١) ، فأخاف أن يخرج عليك خارجة من الترك فيصطلمه ، قال : لقد فكرت فيما فكرت فيه ، قال : فن ترى ؟ قال : طاهر بن الحسين ، قال : ويلك يا أحمد ! أهو والله خالع ! قال : أنا الضامن له ، قال له : فأنفذه ، قال : فدعا بطاهر من ساعته .

ويظهر أن المأمون ، فيما ذكر الرواة ، لم يكن مطمئنا ، مع ضمان وزيره لطاهر ، إلى تعيينه حاكما على خراسان ، فان بعض الرواة يقول : ات المأمون أسر إلى خصى له أمين يرافقه طاهر ، حتى اذا رأى منه خروجا دس له السم .

ثم لم يلبث طاهر بعد أن تولّى شؤون خراسان ، وأدارها بحزم وسداد رأى ، حتى ظهر منه ما كان يخشاه المأمون ، من خروج وعصيان ، فقد أسقط اسم المأمون من خطبة الجمعة ، وذكر دعاء مبهما لنصرة الدين ، فأنفذ عين المأمون عامل البريد فورا بكاب إلى المأمون ، يخبره فيه بما وقع من طاهر ، ثم نرى المأمون يتوقع مجي كتاب آخر وينظره بفارغ الصبر في اليوم التالي لورود الكتاب الأول ، وقد جاءه هذا الكتاب فعلا ينعى طاهرا الذي وجد ميتا في فراشه .

ونحن نرى بعد أن ذكرنا ما ذكرنا أنه لم يبق شيء من الغموض في هذه الناحية من عصر المأمون ، وأن تصرفات المأمون مع طاهر ، ثم خروج طاهر عليه ثم موت طاهر بعد ذلك ، كلها حوادث واضحة الأسباب معقولة النتائج . ولا نستطيع أن نمشي الأستاذ « ميور » الذي يرى أن على هذه الحوادث جميعها غشاء من الغموض كثيفا .

(١) يريد أنهم قليل عددهم يشبههم رأس واحد .

ثم رأى المأمون بعد موت طاهر أن يولّي مكانه ابنه طلحة، وأن يستبق ابنه عبد الله واليا على الجانب الغربي من الخلافة، ليقمّ ما فيه من ثورات، ويسكن مابه من اضطراب. ثم أرسل وزيره مع طلحة ليقوّى دعائم سلطانه في ولايته، فشخص الوزير الى ما وراء النهر، وقام بجملته موفقة على بعض العصاة، ثم قفل راجعا الى بغداد مزقدا — فيما يقول الرواة — هدية نفيسة له من طلحة مقدارها ثلاثة آلاف ألف درهم ولكاتبه بأخرى مقدارها خمسمائة ألف درهم.

أما طاهر الذي توفي في فراشه، وربما كان الذي يعلم سرّ وفاته قبل سواء هو المأمون وبطانتة، فقد قدّمنا لك شيئا من كلمتنا عن النزاع بين الأخوين عن عظيم خطره، وحسن بلائه وخبرته بالحروب، ولا يقلّ خطره في تدبير الحكم وشؤون السياسة عن خطره في الحرب، وكان مع ذلك مشغوبا بالعلم والأدب، مشجعا لأربابهما، حاثا على تعلمهما. وليس أدلّ على تميزه في العلم والأدب، وخبرته بشؤون السياسة، وبصره بتصرف الأيام، من عهده الذي كتبه الى ابنه عبد الله. ولسنا نرى ما تقدّم به اليك هذا العهد، خيرا من وصف المأمون له حين بلغه، وتقديره له، واحتفائه به، واستنساخه، ثم ارساله الى عماله في الولايات. قال ابن طيفور: لما عهد طاهر بن الحسين الى عبد الله ابنه هذا العهد، تنازعه الناس، وكتبوه ونداسوه، وشاع أمره، حتى بلغ المأمون فدعا به، وقرئ عليه وقال: ما بقى أبو الطيب شيئا من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ البيعة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا أحكمه وأوصى به وتقدّم فيه، وأمر أن يكتب بذلك الى جميع العمال في نواحي الأعمال.

وكانت كتابة هذا العهد من طاهر لابنه عبد الله حين اختار المأمون عبد الله لولاية مصر ومحاربة نصر بن شيبث لما رآه فيه من حزم وفطنة وكفاية وحسن بلاء. وكان عهد أبيه اليه قانونا يطبّقه على نفسه أحزم تطبيق، وكان لا يُورد شيئا في شأن من شؤونه أو يُصيّره إلا على منهجه وفي حدود إرشاداته.

ولما كان هذا العهد من الوثائق التاريخية التي لها قيمتها العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية آثرنا ذكره، وقد أثناه في باب المنشور من الكتاب الثالث في المجلد الثالث فراجعوه .

٣ - ثورة نصر بن شبيب

أما نصر بن شبيب ، الذي وجهه عبد الله بن طاهر لمحاربته بعد أن وجه إليه أبوه ، فقد كان ممن خرجوا حين اضطرب نظام الدولة ، وكثرت الأراجيف ، ونشط أعداء المأمون خاصة والعباسيين عامة لبقاء المأمون في مرو بعيدا عن عاصمة الملك وحاضرة الخلافة . وكان من الممكن أن يكون مصير ثورة نصر مصير غيرها من الثورات ، التي تمحلت بسرعة ، لولا أن طاهرا لم يجد في محاربته . وقد ذكر أنه قال للحسن بن سهل حينما ندبه للخروج الى محاربة نصر بن شبيب : حاربت خليفة ، وسقت الخلافة الى خليفة ، وأؤمر بمثل هذا ! وإنما كان ينبغي أن توجه لهذا قائدا من قوادى ! وذكر بعض المؤرخين أن طاهرا فزك المنزوم أمام نصر بعد معارك حامية بين جنديهما ولكنه حرص بعد ذلك على ما بقي في يده من البلاد أن يغير نصر عليها .

ويظهر أن ما يقوله بعض المؤرخين من أن فتور طاهر في محاربة نصر بن شبيب ، يرجع الى الصدمة التي صدمه بها آل سهل : حين حرموه من ثمار فتوحه في العراق ، له حظ كبير من الحق ؛ فأننا لا نسيغ عجز طاهر عن مناهضة نصر ، واخضاعه ، مع ما هو معروف عنه من الدهاء ، والبصر بالحرب ، وحسن تعبئته للجيش ، ووضع أدق الخطط لحملاتها ، ومع أن وراء الدولة ثمة بما يحتاج اليه من جند وسلاح ومال .

ومهما يكن من شيء فقد كُف أنصار نصر وعظم خطره ، حتى ذهب اليه نفر من شيعة الطالبيين فقالوا له : قد وترت بنى العباس وقتلت رجالهم ، فلو بايعت لخليفة لكان ذلك أقوى لأمرك ! فقال : من أى الناس ؟ فقالوا : تباع لبعض آل على بن أبى طالب ؛

فقال : أبايح بعض أولاد السُّوداوات فيقول إنه خلقتني ورزقني ! قالوا : فتبايح لبعض بنى أمية ، قال : أولئك قوم قد أدبر أمرهم ، والمُدبر لا يُقيل أبدا ، ولو سَلَّم على رجل مدبر لأعداني إداره ، وإنما هوأى فى بنى العباس ، وإنما حاربهم محاماة عن العرب ، لأنهم يقدِّمون عليهم العجم : فتأمل قوله هذا طويلا ، فهو يُميط لنا اللثام عن حقائق يجب أن نقف عليها .

يروى لنا التاريخ أن عبد الله بن طاهر ، الذى نهد لمحاربة نصر بن شُبَّهت كتب الى المأمون يعلمه أنه حصَّره ، وضيق عليه ، وقتل رؤساء من معه ، وأنه قد عاذ بالأمان وطلبه ، فأمره أن يكتب له كتاب أمان ، فكتب اليه أمانا نسخته : «أما بعد ، فإن الإعذار بالحق حجةُ الله المقرون بها النصر ، والاحتجاج بالعدل دعوة الله الموصول بها العز . ولا يزال المُعذِّر بالحق ، المحتجَّ بالعدل ، فى استفتاح أبواب التأييد ، واستدعاء أسباب التمكين ، حتى يفتح الله وهو خير الفاتحين ، ويمكِّن وهو خير الممكِّنين . ولست نعدو أن تكون فيما لهجت به ، أحدَ ثلاثة : طالب دين ، أو ملتمس دنيا ، أو متهورا يطلب الغلبة ظلما ، فإن كنت للدين تسعى بما تصنع فأوضح ذلك لأمر المؤمنين يغتنم قبوله إن كان حقا ، فلعمري ما همته الكبرى ولا غايته القصوى إلا الميل مع الحق حيث مال ، والزوال مع العدل حيث زال . وإن كنت للدنيا تقصد ، فأعلم أمير المؤمنين غايتك فيها ، والأمر الذى تستحقها به ، فإن استحققتها وأمكنه ذلك فعله بك ، فلعمري ما يستجيز منع خلق ما يستحقه وإن عظم . وإن كنت متهورا فسيكفى الله أمير المؤمنين مؤنتك ، ويعجل ذلك كما عجل كفايته مؤنَّ قوم سلكوا مثل طريقك ، كانوا أقوى يدا ، وأكثر جنندا ، وأكثر جمعا وعددا ونصرا منك ، فيما أصارهم اليه من مصارع الخاسرين ، وأنزل بهم من جوائح الظالمين . وأمير المؤمنين يختم كتابه بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم ، وضمانه لك فى دينه وذمته الصفح عن سوائف جرائمك ، ومتقدِّمات جرائمك ، وإنزالك ما تستأهل من منازل العز والرفعة ، إن أنبت وراجعت إن شاء الله ، والسلام .»

وقد ذهب عبد الله بن طاهر إلى وجهه في محاربة نصر، ولبث في مناهذته، حتى اضطره إلى التسليم نحو خمس سنين، وفي أثناء هذه المدة سعى المأمون إلى إخماد الثورة من طريق الصلح، فمدب جعفر بن محمد العامري، ليؤدى رسالة منه إلى نصر، يطلب منه فيها ترك الحرب والجنوح إلى السلم.

وقد كاد يتم الصلح بين الفريقين، وتُحقن الدماء، ويذهب عن الناس في تلك النواحي ما أصابهم من فزع وهلع، لولا خنزوانة^(١) في رأس نصر قابلتها أخرى، فيما يقول الرواة، في رأس المأمون، حالتا دون هذه الغاية السامية: ذلك بأن نصرا قبل ما اقترحه المأمون، لكنه شرط ألا يطاء بساطه. فلما بلغ المأمون هذا الشرط قال: لا أجيبه والله إلى هذا أبدا ولو أفضيت إلى بيع قيصي حتى يطاء بساطي! ثم كتب إليه المأمون بعد ذلك كتابا هذه نسخته:

أما بعد، فانك يا نصر بن شبت قد عرفت الطاعة وعزها وبرد ظلها وطيب مرتعها، وما في خلافتها من الندم والخسار. وإن طالت مدة الله بك، فإنه إنما يُعْلِي لمن يلمس مظاهره الحجة عليه، لتقع عبرة بأهلها على قدر إصرارهم واستحقاقهم، وقد رأيت إذ كارك وتبصيرك، لما رجوت أن يكون لما أكتب به إليك موقع منك، فإن الصديق صديق والباطل باطل، وإنما القول بخارجته وأهله الذين يُعَنُون به، ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أنفع لك في مالك ودينك ونفيسك، ولا أحرص على استنقاذك^(٢) والانتياش لك، من خطائك مني، فبأي أول أو آخر أو سيطرة أو إمرة إقدامك يا نصر على أمير المؤمنين، تأخذ أمواله، وتتولى دونه ما ولاه الله، وتريد أن تبيت آمنا أو مطمئنا أو وادعا أو ساكنا أو هادئا، فوعالم السر والجهر، لئن لم تكن للطاعة مراجعا، وبها خانعا، لتستويلا وخم العاقبة، ثم لا بد أن بك قبل كل عمل، فإن قرون الشيطان إذا لم تقطع،

(١) الخنزوانة: الكبر.

(٢) استنقاذك من الهلكة.

كانت في الأرض فتنة وفسادا كبيرا، ولأطأت بمن معي من أنصار الدولة كواهل رجاج أصحابك^(١)، ومن تأشبت إليك من أداني البلدان وأقاصيها، وطغامها وأوباشها^(٢)، ومن انضوى الى حوزتك من حُرَّاب الناس^(٣)، ومن انطه بلده ونفثه عشيرته لسوء موضعه فيهم، وقد أعذر من أنذر، والسلام.

ثم أخذ عبد الله ييجد في محاربتة وحصره حتى ضيق عليه، واضطره الى طلب الأمان، وقد احتفى بنصره، وهو ذاهب الى بغداد خاضعا للخليفة، احتفاء عظيما، بيد أن جماعة ممن كانوا ناقلين على المأمون، لم يرقهم أن ينتهي الخلاف بينه وبين تائرقوى، فأرادوا أن يكدروا صفاء السرور فدبروا مؤامرة، وهي أن يقطعوا جسر الزوارق، عند اقتراب نصر بموكبه الحافل، فقبض عليهم، ولأمر بما كان المأمون، على غير عادته، قاسيا في عقابهم. فقد جاء بزعيمهم ابن عائشة، فيما قال الرواة، وهو من بنى العباس، ووضع على باب داره، في أشعة الشمس المحرقة ثلاثة أيام، ثم أمر بضربه بالسياط ثم أمر بضرب عنقه مع كثير ممن كانوا معه.

نقول لأمر بما كان المأمون قاسيا في عقابهم، لأن الرجل الذي يصل به عفوه وحلمه الى أن يعفو عن ابراهيم بن المهدي والفضل بن الربيع وغيرهما، من أصحاب الكجائر ومن كادوا له حقا، وسعوا في ضياع ملكه، وأستلاب عرشه، لا بد أن يكون الدافع له الى القسوة في عقاب هؤلاء الأشخاص حاجة في نفسه عميت علينا. ونحن نعترف بأن المصادر التي بين أيدينا لم تفسر لنا تفسيرنا مقنعا، السر في هذا الاستطاط وهذه المبالغة في العقوبة من المأمون الوديع الحليم.

على أن هذه الحادثة تحتاج الى تحقيق دقيق ولم تُسح لنا المصادر الحاضرة القيام بتعريف وجه الحق فيها. ولا يستبعد البتة أن يكون المأمون منها برآء. وليت أعضاء المجمع العلمي العربي وغيرهم من رجال العلم والتاريخ والأدب يعنون بتحقيق مثل هذه النقاط المهمة في تاريخ أزهى عصورنا الاسلامية.

(١) أى اختلط بك وانضم إليك. (٢) الطغام: أرواد الناس. (٣) جمع خارب وهو اللص. وخصه الأصمى بسارق الأبل.

٤ - الزط

أما الزط، فهم المعروفون بالثورة^(١)، وقد قال ابن خلدون عنهم : إنهم قوم من أخلاق الناس غلبوا على طريق البصرة، وعاثوا فيها، وأفسدوا البلاد .

أما نحن فلا نستطيع من ناحيتنا أن نسلك هؤلاء القوم في سلك أصحاب الثورات ، أو الخارجين على الخليفة، لنحلة دينية، أو مذهب سياسي، وإنما هم طائفة من هنود آسيا كانوا يسكنون شواطئ الخليج الفارسي، قد وجدوا به حين اضطراب الأمن في أطراف الدولة، وضعف سلطان الحكومة، وانصراف القائمين بتسيير الشؤون العامة ، الى أمر الفتنة القائمة بين الأميين والمأمون، التي انتهزها الزط وأمثال الزط فرصة للسلب والنهب والعيث في الأرض فسادا، فتجمعوا واستولوا على طريق البصرة ، فهم بقرصان البحر وقطاع الطرق أشبه منهم بالثائرين وأصحاب المبادئ ! .

ويظهر أنهم، كما يقول الأستاذ المرحوم محمد الخضرى بك، كانوا اذا أخرجهم الجند، تفرقوا في تلك الفيا في ، فاننا نرى المأمون يكلف غير مرة أكثر من قائد أمر القضاء عليهم، ثم نراهم لا يزالون يعيشون في الأرض فسادا، حتى السنة الأولى من عهد المعتصم، الذي كلف أحد قواده : مُجَيْفَ بْنَ عَنَسَةَ القضاء عليهم ، فاهتم تُجَيْفٌ بحربهم، وضيق عليهم طريق البر والبحر ، وحصرهم من كل وجه، ثم حاربهم وأسر منهم نحو خمسمائة رجل ، وقتل منهم نحو ثلاثمائة ، وقطع رؤوس الأسرى وبعث بالرؤوس جميعا الى المعتصم، وجدّ في حربهم حتى اضطروهم الى التسليم، فاذا عدّتهم سبعة وعشرون ألف شخص بين رجل وامرأة وصبي، وكان من هذا العدد اثنا عشر ألف مقاتل ، ثم حملهم في السفن

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : « إن النور قبيلة من القبائل الأسوية كالقاجار الذين سميهم الغجر والتاتار أو التتر، وهم يعرفون بالشلخت في النمسا وألمانيا، وفي بلاد الانكليز اسمهم جبسون، ويسمى الترك باسم (قبط) وفريق منهم يسمى سنجانه وهم سكان تراقيا، وفي مصر يسمون تارة غجرا وتارة حلبا . »

الى بغداد، فمزوا على المعتصم بأبواقهم وهيئتهم الجربية، ثم نُقلوا آخر الامر الى قرية تسمى عين زربة^(١).

وقد ذكر ابن الاثير في حوادث سنة ٢٤١ هـ في عهد المتوكل أن الروم أغارت على عين زربة هذه، فأخذت من كان فيها أسيرا من الزط مع نسائهم وذرائعهم وذويهم.

٥ - ثورة مصر

أما مصر، فقد كانت مسرحا للقلقل والفتن، وكان رأس الفتنة وزعيمها عبيد الله ابن السريّ بن الحكم الذي عظم خطره باشتغال عبيد الله بن طاهر بخاربة نصر بن شيث وإخضاعه، وما زاد في اضطراب النظام في مصر قدوم جماعة من أفاق الأندلس الى الاسكندرية، يتحدثنا عنهم الطبري بقوله: حدثني غير واحد من أهل مصر أن مراكب أقبلت من بحر الروم، من قبل الأندلس، فيها جماعة كبيرة، أيام شغل الناس قبلهم بفتنة الجروى وابن السريّ، حتى أرسوا مراكبهم بالاسكندرية، ورئيسهم يومئذ يدعى أباحفص، فلم يزالوا بها مقيمين، حتى قدم عبد الله مصر.

ويحدثنا عن الفتنة التي كانت بمصر بقوله: قال لي يونس بن عبد الأعلى: قدم علينا من قبل المشرق فتى حدث — يعنى عبد الله بن طاهر — والدنيا عندنا مفتونة، قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالب، والناس منهم في بلاء، فأصلح الدنيا، وأمن البرىء، وأخاف السقيم، واستوثقت له الرعية بالطاعة.

أما ما كان من أمر عبد الله بن طاهر في مصر، فإن التاريخ يحدثنا أنه لما انتهى أمر نصر بن شيث، كما قدمنا، كتب المأمون الى عبد الله يأمره بالتوجه الى مصر لإنقاذ ما فيها من فتنة، فذهب اليها، وجاد الثائرين القتال، حتى اضطرتهم جميعا الى طلب الأمان، فأجابهم اليه.

(١) ضبطها ياقوت بفتح الزاي وسكون الراء وباء موحدة وألف مقصورة وقال إنها بلد بالنسر من فواحي المصينة بناها الرشيد سنة ١٨٠ هـ ونذب اليها ندبة من أهل نراسان وغيرهم وأقطعهم إياها.

وأما الأندلسيون الذين حضرت جماعة كبيرة منهم إلى الإسكندرية ، فقد طلبوا الأمان ، على أن يتحلوا عنها إلى بعض أطراف الروم ، فرحلوا إلى جزيرة إقريطش (كريت) فاستوطنوها وأقاموا بها .

وأما ما كان من ابن السري ، فإنه طالب الأمان إلى عبد الله وذلك بعد قتال عنيف ، وانتهز به شر هزيمة .

ولما أجمعت الفتنة في مصر ، وبلغ المأمون الخبر ، كتب إلى عبد الله يهنئه ، وجعل في أسفل كتابه أبياتا من الشعر ، إن ثبت صدورها من المأمون حقا ، ولم تكن من وضع القصاص والرواة ، فإنها تعتبر آية في كرم أخلاق المأمون . وقد ذكرناها في علاقة المأمون مع عماله .

وقد كتب إليه أحمد بن يوسف وزير المأمون يهنئه بهذا الفوز كتابا بليغ اللفظ ، رشيق الأسلوب ، هذه نسخته : بلغني ، أعز الله الأمير ، ما فتح الله عليك ، وخروج ابن السري إليك . فالحمد لله الناصر لدينه ، المعز لدولة خليفته على عباده ، المذل لمن عند^(١) عنه وعن حقه ، ورغب عن طاعته ، ونسأل الله أن يظهر له النعيم ، ويفتح له بلدان الشرك ، والحمد لله على ما وليك مذ طعنت لوجهك ، فإننا ومن قبلنا نتذكر سيرتك في حربك وسلمك ، وكثير التعجب لما وفقت له من الشدة واللبان في مواضعهما ، ولا نعلم سائس جند ورعية عدل بينهم عدلك ، ولا عفا بعد القدرة عمن آسف^(٢)ه وأضعفه عفوكم ، ولقلما رأينا ابن شرف لم يلقى بيده متيلا على ما قدمت له أبوته ، ومن أوتي حظا وكفاية وسلطانا وولاية ، لم يُخلد إلى ما عفا له حتى يُخل بسأمة ما أمامه ، ثم لا نعلم سائسا استحق النجح لحسن السيرة ، وكف معزة الأتباع استحقاقك ، وما يستجيز أحد من قبلنا أن يقدم عليك أحدا يهوى عند الحاققة والنازلة المعضلة ، فليمنك منة الله ومزيده ، ويُسوفك

(١) عند عن الشيء : مال عنه وعذر .

(٢) آسف : أغضبه .

الله هذه النعمة التي حواها لك ، بالمحافظة على ما به تمت لك ، من التمسك بمجل إمامك ، ومولاك ومولى جميع المسلمين ، وملاك وإيانا العيش ببقائه ، وأنت تعلم أنك لم تزل عندنا وعند من قبلنا مكرماً مقدماً معظماً ، وقد زادك الله في أعين الخاصة والعامة جلاله وبجلاله ، فأصبحوا يرجونك لأنفسهم ويعمدونك لأحداثهم ونوائبهم ، وأرجو أن يوفقك الله لمحابة ، كما وفق لك صنعه وتوفيقه ، فقد أحسنت جوار النعمة ، فلم تُطغيك ولم تزد إلا تذلاً وتواضعاً ، فالحمد لله على ما أنالك وأباك وأودع فيك ، والسلام .

وقد خرج المأمون الى مصر في ١٦ الحجة سنة ٢١٦ هجرية ، أثر شخصه الى دمشق للمرة الثانية . وكان خروجه الى مصر ، فيما يقول الرواة ، لإنقاذ ما قام فيها من فتن واضطرابات ، وذلك أن أهالي الوجه البحري خرجوا معهم أقباط البلاد على عيسى بن منصور عامل مصر ، لسوء سيرته فيهم ، ولتصبح صنيعة معهم .

ويحدثنا التاريخ أن عيسى هذا قد بذل ما في مقدوره لإنقاذ الفتنة والقضاء على الثورة ، فلم يحالفه الظفر ، وأخرجه الثوار أقيح مُحرج من البلاد ، فقدم القائد التركي المعروف بالأفشين وعمل على قمع الفتنة وإنقاذ الثورة ، وقتل مقتلة ذريعة من الأهليين ، فسكنت الفتنة الى حين .

ثم عادت الفتنة ثانية واندلع لهيها ، واستدعت خطورتها قدوم المأمون الى مصر ، بغاء اليها ، ونظر في شكاة الأهليين ، وعمل على إنصافهم ، وتخط على عيسى بن منصور ، ونسب اليه الى سيء أعماله كل ما حدث في طول البلاد وعرضها من فتن وثورات .

ويظهر أن الثورة المصرية لم تُحمد تماماً ، وأنها تطلبت من المأمون ، الى جانب ما أظهره من رغبة في إحقاق الحق وإجراء العدل ، شيئاً من الحزم واستعمال القوة ، بغاة الثائرين القتال ، حتى أذعنوا أخيراً : ويقول المؤرخون : إنه لبث في مصر أربعين يوماً أو يزيد ، إذ قدمها في الخامس من محرم سنة ٢١٧ هـ وبقي بها الى الثامن عشر من صفر .

ويظهر أنه قضى هذه المدة، الى جانب اشتغاله بحرب أهلها، بالتنقل بين العاصمة وبعض الأعمال مثل (سِنْجَار وحُلوان وغيرهما) .
ومن أعماله في مصر تعمير مقياس النيل، وبعض إصلاحات أخرى بالجزيرة تجاه القسطنطينية . وعاد المأمون أخيرا الى دمشق بعد أن شهد المصريين وحرّبتهم وعدم احتماطهم ظلم الحكام والولاة .

٦ - بابك الخرمي

يخبرنا المؤرخون أن بابك الخرمي، قد ظهر من كورة في شمال بلاد فارس تُسمى «البند»، وقد كان خروجه للدعوة الى مذهبه الإباضي سنة ٢٠١ هـ، وكان المأمون لا يزال في «مرو» قبل أن ينتقل الى عاصمة ملكه بغداد . وقد امتدت فتنة بابك عنيفة، طوَالَ عهد المأمون، وصدرًا من عهد المعتصم .

وقال أبو سعيد عبد الكريم بن محمد السمعاني المروزي، في كتاب الانساب^(١) هذه النسبة الى طائفة من الباطنية، يقال لهم : الخرمدينية، قوم يدينون بما يريدون ويشتهون، وإنما لقبوا بذلك لباحثهم المحرمات من الخمر وسائر اللذات ونكاح ذوات المحارم وفعل ما يتلذذون به، فلما شابهوا في هذه الاباحة المزدكية من المجوس، الذين خرجوا في أيام قباد وأباحوا النساء كلهن وأباحوا سائر المحرمات، الى أن قتلهم أنوشروان بن قباد، قيل لهم بهذه المشابهة خرمدينية كما قيل لازديكية .

وقبل أن نخوض في تفصيل حوادث هذا الرجل، وما بذله المأمون، ثم المعتصم في قتاله، ثم ما كان من مصيره بعد ذلك على يد الأفشين قائد المعتصم التركي سنة ٢٢١ هـ - قبل كل هذا، نحب أن نورد لك ما ذكره ابن التديم في فهرسته عن مذهب الخرمية^{*} الباطنية وما يتعلق به، لتكون على بصيرة من مذهب الرجل، وما كان يدعو اليه من تحلة وبذعة .

(١) جاء في القاموس وشرحه : « خرمة » كسكرة قرية بعارس منها بابك الخرمي الطاغية الذي كاد أن يستول على المسالك زمن المعتصم . ثم قال : وتخزم الرجل دان بدين الخرمية أصحاب التناج والخلول والاباحة .

قال محمد بن إسحاق : « الخزمية صنفان : الخزمية الأولون ، ويُسمون الحمرة ، وهم منتشرون بنواحي الجبال فيما بين أذربيجان وأرمينية ، وبلاد الديلم ، وهمذان ، ودينور ، وفيما بين أصفهان وبلاد الأهواز . وهؤلاء أهل مجوس في الأصل ثم حدث مذهبهم . وهم ممن يعرف باللقطة ، وصاحبهم مزدك القديم ، أمرهم بتناول اللذات ، والانعكاف على بلوغ الشهوات ، والأكل والشرب ، والمواساة والاختلاط ، وترك الاستبداد بعضهم على بعض ، ولهم مشاركة في الحريم والأهل لا يمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعه . ومع هذه الحال فيرون أفعال الخير وترك القتل وإدخال الآلام على النفوس . ولهم مذهب في الضحايا ليس هو لأحد من الأمم : إذا أضافوا الإنسان لم يمنعه من شيء يلتمسه كائناً ما كان . وعلى هذا المذهب مزدك الأخير الذي ظهر في أيام قباد بن فيروز وقتله أنوشروان وقتل أصحابه . وخبره مشهور معروف . وقد استقصى البلخي أخبار الخزمية ، ومذاهبهم ، وأفعالهم ، في شربهم ولذاتهم وعبادتهم ، في كتاب "عيون المسائل والجوابات" ولا حاجة بنا إلى ذكر ما قد سبقنا إليه غيرنا . »

«فأما الخزمية البابكية، فإن صاحبهم بابك الخزمي . وكان يقول لمن استغواه : إنه إله . وأحدث في مذاهب الخزمية القتل والغصب والحروب والمثلة ، ولم يكن الخزمية يعرفون ذلك .

ثم ذكر صاحب الفهرست بعد ذلك نسأته وما وقع له في بدء أمره حتى صار إمام هذه النحلة التي تنسب إليه نقلاً عن واقد بن عمرو التميمي الذي عمل أخبار بابك ، فقال : وكان أبوه رجلاً من أهل المدائن دهاناً ، نزع إلى نغرا أذربيجان ، فسكن قرية تدعى «بلال آباد» من رستاق (ميمند) ، وكان يحمل دهنه في وعاء على ظهره ويطوف في قرى الرستاق ، فهوى امرأة عوراء ، وهي أم بابك ، وكان يفجر بها برهة من دهره ، فبينما هي وهو متبذنان عن القرية ، متوحذان في غيبة ، ومعهم شراب يعتكفان عليه ، إذ خرج من القرية نسوة يستقين الماء من عين في الغيبة ، فسمعن صوتاً نبطياً يُترنم به فقصدن إليه ، فهجمن عليهما ، فهرب

عبد الله وأخذن بشعر أم بابك، وجئن بها الى القرية وفضحنها فيها . قال واقد : ثم إن ذلك الدهان رغب الى أبيها، فزوجه منها فأولدها "بابكا". ثم خرج في بعض سفراته الى جبل سيلان واعترضه من استقفاه وجرحه فقتله، فمات بعد مدّة. وأقبلت أم بابك تُرضع للناس بأجرة، الى أن صار لبابك عشر سنين، فيقال : أنها خرجت في يوم من الأيام تلتمس بابكا، وكان يرعى بقراً لقوم، فوجدته تحت شجرة قائلاً وهو عُريان، وإنها رأت تحت كل شعرة من صدره ورأسه دماً؛ فانتبه من نومه، فاستوى قائماً وحال مارأت من الدم فلم تجده قالت : فعلمت أنه سيكون لابني نبأ جليل .

«قال واقد : وكان أيضا بابك مع الشبل بن المنقي الأزدي برستاق سراة، يعمل في سياسة دوابه، وتعلم ضرب الطنبور من غلمانة، ثم صار الى تبريز من عمل أذربيجان، فاشتغل مع محمد بن الرقاد الأزدي نحو سنتين، ثم رجع الى أمه، وله ثمان عشرة سنة، فأقام عندها . قال واقد بن عمرو : وكان يجبل البذ وما يليه من جباله رجلا من العلوج، متحزمين ولها جدّة وثروة، وكان متشاجرين في التملك على من يجبال البذ من الخويزة ليتوحد أحدهما بالرياسة، يقال لأحدهما «جاويدان بن سهرک»، والآخر غلبت عليه الكنية يعرف «بأبي عمران» وكانت تقوم بينهما الحرب في الصيف، وتحول بينهما الثلوج في الشتاء لانسداد العقاب . فإن جاويدان، وهو أستاذ بابك، خرج من مدينته بألف شاة، يريد بها مدينة رنجان من مدائن ثغور قزوین، فدخلها وباع غنمه وانصرف الى جبل البذ، فأدركه الثلج والليل برستاق مميد، فعاج الى قرية "بلال أباد"، فسأل بحريها إنزله، فمضى به، بالاستخفاف منه بجاويدان، فأنزله على أم بابك وما تستبیت من ضنك وعدم، فقامت الى نار فأحجتها، ولم تقبدر على غيرها، وقام بابك الى غلمانة ودوابه فخدمهم وأسقى لهم الماء، وبعث به نجاويدان، فابتاع له طعاما وشرابا وعلفاً واتاه به، وخاطبه وناطقه، فوجده، على رداءة حاله وتعقّد لسانه بالأعجمية، فهما، وراه خبيثا شهما، فقال لأمه : أيتها المرأة! أنا رجل من جبل البذ، ولي به حالٌ ويسار، وأنا محتاج

الى ابنك هذا ، فادفعه الى الأُمضى به معي ، فأوكله بضياعى وأموالى ، وأبعث بأجرته اليك فى كل شهر خمسين درهما ، فقالت له : انك لشبيه بالخير ، وان آثار السبعة عليك ظاهرة ، وقد سكن قباى اليك ، فأنهضه معك اذا نهضت . ثم إن أبا عمران نهض من جبله الى جاويدان فخاربه فهزيم ، فقتل جاويدان أبا عمران ، ورجع الى جبله وبه طعنة أخافته ، فأقام فى منزله ثلاثة أيام ثم مات . وكانت امرأة جاويدان تتعشق بابكا ، وكان يفجر بها ، فلما مات جاويدان ، قالت له : إنك جلدُ شهم ! وقد مات ! ولم أرفع بذلك صوتى الى أحد من أصحابه ، فتهيا لعد ، فانى جامعهم اليك ، ومعلمتهم أن جاويدان قال : انى أريد أن أموت فى هذه الليلة ، وإن روى تخرج من بدنى وتدخل فى بدن بابك . وتشترك مع روحه ، وانه سيبلغ بنفسه وبكم أمرا لم يبلغه أحد ولا يبلغه بعده أحد ، وانه يملك الأرض ، ويقتل الجسارة ، ويرد المزدكية ، ويعز به ذليلكم ، ويرتفع به وضعيكم ، فطمع بابك فيما قالت له ، واستبشر به وتهيا له . فلما أصبحت ، تجع اليها جيش جاويدان ، فقالوا : كيف لم يدع بنا ويوص إلينا ! قالت : ما منعه من ذلك إلا أنكم كنتم متفرقين فى منازلكم من القرى ، وأنه إن بعث وجمعكم انشر خبره ، فلم يأمن عليكم شرّة العرب ، فعهد الى بما أنا أوّديه اليكم ان قبلتموه وعلمتم به ، فقالوا لها : قولى ما عهد اليك ، فانه لم تكن منا مخالفة لأمره أيام حياته ، وليس منا مخالفة له بعد موته ، قالت : قال لى : إنى أموت فى ليلتى هذه ، وان روى تخرج من جسدى وتدخل بدن هذا الغلام خادمى ، وقد رأيت أن أملكه على أصحابى ، فاذا مت فاعلمهم ذلك ، وإنه لا دين لمن خالفنى فيه واختار لنفسه خلاف اختيارى ، قالوا : قد قبلنا عهدك اليك فى هذا الغلام ! فدعت ببقرة فأمرت بقتلها وساخها وبسط جلدھا ، وصيرت على الجلد طستاً مملوءاً حمرا وكسرت فيه خبزا ، فصيرته حوالى الطست ، ثم دعت برجل رجل فقالت : طأ الجلد برجلك ، وخذ كسرة واغمسها فى الخمر وكُلها ، وقل : آمنت بك يا روح بابك كما آمنتُ بروح جاويدان ، ثم خد بيد بابك فكفر عليها وقبلها ، ففعلوا ذلك الى وقت ما نهيا لها فيه طعام ، ثم أحضرتهم

الطعام والشراب ، وأقعدته على فراشها وقعدت معه ظاهرة لهم ، فلما شربوا ثلاثاً ثلاثاً ، أخذت طاقة ريحان ، فدفعتها الى بابك ، فتناولها من يدها ، وذلك تزويجهم ، فنهضوا وكفروا لها رضا بالتزويج ، والمسلمون غريبتهم ومواليهم .



وبعد ، فانا نستطيع أن نقول ، مستندين الى ما ذكره ابن النديم وغيره ، عن نشأة بابك ومذهبه وتعاليمه : إن الباعث الذي دفعه الى الخروج ، غير البواعث التي دفعت نصر ابن سبث في الشام ، وابراهيم بن المهدي في بغداد ، ومحمد بن ابراهيم المعروف بابن طباطبا في الكوفة ، وغيرهم : ممن كانوا متقادين بفكرة سياسية أو عامل جنسي ، وانما كان خارجا على النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية في ذلك العصر ، وكذلك كانت وجهة نظر بغداد في قتاله ومطاردته .

أجل ! لم تكن الغاية في نظر بغداد من قتاله ، إخضاعه لسلطان الخلافة ، حتى اذا أتيج لها إخضاعه رضيت عنه وكففت القتال دونه ، وانما كانت الغاية التي ترمى إليها القضاء على مذهبه وتعاليمه الضارة بنظم الحياة والاجتماع .

وربما جاز لنا أن نقول : إن موقفه من الخلافة الاسلامية في ذلك العصر أشبه شيء بموقف البلاشفة من الأمم المتحضرة في عصرنا الحاضر .

وهاك ما فعله الخليفة المأمون مع بابك والبابكيين ، بعد ما عاثوا في الأرض فسادا وأخافوا السبل وأثاروا الاضطراب : بعث المأمون لمحاربتهم ، بعد أن انتقل الى بغداد ، يحيى بن معاذ ، فكانت بينهما وقعة ، لم يَتَجَّ الفوز فيها لأحدهما على الآخر . ثم اختار المأمون قائدا آخر هو عيسى بن محمد ، فولاه أرمينية وأذربيجان ومحاربة بابك ، فَنَكَبَ وَثُشِلَ . ثم وجه إليه صدقة بن علي المعروف بزريق ، وندب للقيام بأمره أحمد بن الجعيد الاسكافي ، فأمره بابك . ثم بعث اليه محمد بن حميد الطوسي ، فقتله بابك سنة ٢١٤ هـ بهشتادسر وفض عسكره ، وقتل جمعا كثيرا ممن كان معه .

وهكذا كان أمر بابك : كلما وُجِّهت إليه حملة هزَمَها ! لمكانه الحصين ، وقوته الكبيرة ، وشدة تأثيره في قلوب أتباعه وأنصاره . وأخيرا انصرف عنه المأمون لانشغاله بمناوأة الروم ، حتى اذا شعر بدنو منيته كتب في وصيته الى المعتصم بشأن بابك يقول : « والخزمية فأغزهم ذا حزيمة وصرامة وجَلَدٍ ، واكثُفْهُ بالأموال والسلاح والجنود ، من الفرسان والرجالة ، فان طالَت مدَّتْهم ، فتجَرَّدَ لهم بن معك من أنصارك وأولياك ، واعْمَلْ في ذلك مقدِّم النية فيه ، راجيا ثواب الله عليه » .

وقد عظم خطر بابك ، وكثر الداخلون في مذهبه ، في أوَّل عهد المعتصم (سنة ٢١٨ هـ) . وما زال به المعتصم يجرِّد اليه الحملات تلو الحملات ، حتى انتهى أمره في سنة ٢٢١ هـ بأسره وقتله « بسرَّ من رأى » ، هو ورهطا من أتباعه ، على يد قائد المعتصم التركي العظيم حيدر بن كاوس الأشروسي المعروف بالأفشين .



٧ - مذاهب ونحل

ويحسن بنا أن نشير هنا الى أن هذا العصر من العصور الإسلامية ، قد كثرت فيه الاختلاط بين أمم الشرق والغرب ، فظهرت في العالم الاسلامي مقالات دينية وفلسفية كثيرة غريبة ، أشار اليها مؤرِّخو الآراء والمذاهب ، تجدد طرفا منها في فهرست ابن النديم ، وطرفا في كتب « الملل والنحل » ، وطرفا في كتاب الأستاذ « برون » الذي وضعه عن « تاريخ الفوس الأدبي » ففيه شيء عن المانية^(١) وغيرها . وقد وقف أبو العلاء المعري عند هذه الآراء والمذاهب في « رسالة الغفران » وقفة ممتعة .

١) المانية واتباعها يقال لهم المانوية هي النحلة التي أتت بها ماني من وجود إلهين إله الخير وإله الشر ، وكان وجوده قبل الاسلام بمدة طويلة ، وقد اعتبر زنديقا وقتل وحنى جلده وعلق على أحد أبواب نيسابور ويعرف باباب ماني ، ولكن نحلته لم تكن تعد أنصارا بعد موته ، فكانت تظهر وينبها أناس في فترات مختلفة :

وكم لظلام الليل عندك من يد * تحقّق أنّ المانوية تكذب

وقاك ردى الأعداء تسرى إليهم * وزارك فيه ذو الدلال المحجب

على أنا لانبج أن نعريض لهذه المقالات بشرح أو تفصيل ، لأنا نحس إحساسا صادقا ، وربما كما فيه على حق ، أن الكثير من هذه الآراء والمذاهب لا يزال غامضا ، لقلة النصوص وعدم غناء المصادر وكفايتها . ونظن أن الاحتياط في مثل هذا الموقف أسلم وأبقى . وكل ما نأمله هنا ونرجوه حقا ، أن يتجرد لمثل هذا البحث المتع النافع ، بعض الذين يُعنون بتاريخ الآراء والمذاهب الفلسفية والدينية في الاسلام .



٨ - افتراضات

أما وقد انتهينا من كلمتنا الموجزة عن السياسة الداخلية في عصر المأمون ، فقد حق علينا أن نتساءل : لماذا مكث المأمون شطراً طويلاً من سنى حكمه في خراسان دون بغداد عاصمة الخلافة الاسلامية ؟

أما أن نزع لك أنا سنجيبك إجابة دقيقة مقنعة ، فهذا ما لا نقبله لك ولا لأنفسنا . لأن المصادر التي بين أيدينا لم تكشف لنا القناع عن وجه الصواب في ذلك . إذن فسنقدم لك آراء لنا في هذا الصدد ، يجدر بنا أن نعتبرها بمثابة افتراضات لا أكثر ولا أقل .

نفترض أن الفضل بن سهل وجماعة الفضل بن سهل ، وحوطهم حوهم وسلطانهم سلطانهم ، آثروا بقاء المأمون في "مرو" عاصمة خراسان حيث تجبى أموال الدولة اليه ، ليكون نصيب البقاع الفارسية والشيعة الفارسية من هذه الأموال أوفر .

ونفترض أن المأمون وجماعته كانوا يحسون إحساسا ، ربما كان صادقا ، أن كبار رجال الدولة من العرب القاطنين بغداد ، لم يكن هواهم مع دولته الفارسية الطابع والميول ، وأنهم كانوا لذلك يخشون النزوح الى بغداد قبل لم شعهم وتقوية سلطانهم . ونفترض أنهم آثروا الغرب من الولايات التي تدمم بجندها ورجالها ، كما آثروا أن يكونوا في أوساطهم الفارسية التي من مصالحها نصرة المأمون وتوطيد دعائم ملكه ، والعمل على خذلان منائيه .

هذه افتراضات رأينا أن نقيدها لك لتأمل فيها . فربما كان بعضها سائفا معقولا ، على أن تكون جذرا كل الحذر ، فلا نتورط في اعتبار كل فرض سائغ معقول ، لازم الوقوع في التاريخ . فكثيرا ما يقع في التاريخ غير المعقول من الحوادث !



(ج) السياسة الخارجية :

. نعتقد أن الوقت لم يأن بعد ، لدرس السياسة الخارجية في أيام المأمون وغيره من خلفاء المسلمين ، دراسة علمية محققة . ذلك لأن كل ما نعرف من أمر هذه السياسة إنما هو الروايات العربية التي تناقلها المؤرخون ، متأثرين بأشياء كثيرة . فقد كان الكثيرون من هؤلاء الرواة يجهلون لغات الأمم الأجنبية التي كانت العلاقات متصلة بينها وبين المسلمين ، كما كانوا متأثرين بالحرص على رفع شأن الدولة الإسلامية ، والتنويه بجدها وسلطانها ، فاضطررها هذا كله الى الغلو حيناً ، وإلى التقصير حيناً آخر .

ولم يظفر البحث بعد بنصوص تاريخية واضحة معاصرة ، كتبت في غير اللغة العربية . ومع أن الباحثين في تاريخ الامبراطورية البيزنطية (الروم) جادون في التنقيب على النصوص والآثار التي تجلوا تاريخ هذه الدولة في القرون الوسطى فهم لم يصلوا بعد ، الى شيء ذي غناء فيما يمس علاقتها بالدول الإسلامية . فأما الأمم الشرقية الأخر التي كانت على اتصال بالمسلمين ، فلم تترك لنا شيئاً ، أولم نظفر من آثارها التاريخية بشيء ذي قيمة . وإذا فنحن مضطرون الى أن نعلم اعتماداً مؤقتاً ، ملؤه الاحتياط والتحفظ ، على ما كتبه العرب .

ونحن نعلم أن السياسة الخارجية في عصر المأمون كانت تنقسم الى قسمين متمايزين : الأول سياسته مع دول إسلامية مستقلة عن الخلافة . والثاني سياسته مع دول أجنبية غير إسلامية .

وليس هناك شك في أن سياسة المأمون، مع الدول الإسلامية المستقلة، كانت واضحةً بيّنة الأسلوب، فقد اعتقدت الخلافة العباسية دائماً أن المسلمين جميعاً يجب أن يُدعوا لسلطانها، وإذا فلم تعترف، في وقتٍ من الأوقات، باستقلال الأمويين في الأندلس، ولا الأدارسة في المغرب الأقصى، وإنما اعتبرتهم بُغاةً، وعجزت مع ذلك عن إخضاعهم لسلطانها، فعلاً أو اسماً، فاضطرت إلى أن تُقيمهم من ناحية، وتؤلّب عليهم من ناحية أخرى.

على ذلك نستطيع أن نفهم تشجيعها دولة بني الأغلب في إفريقية وعطفها عليها، فقد كانت هذه الدولة تستمتع بشيءٍ من الاستقلال غير قليل، وتظفر بحماية الخلافة، لأنها كانت بمثابة الحرس الأمامي الذي يردّ عن الخلافة غارات هؤلاء البُغاة، ويحول بينهم وبين التوسع على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

نستطيع أن نفهم هذا، وأن نفهم أيضاً ما نلمحه لحماً في القصص من اتصال علاقات ودية بين بغداد وملوك الفرنج الذين كانوا يناوئون بني أمية في الأندلس.

: أما القسم الثاني من السياسة الخارجية، فينقسم أيضاً إلى قسمين: أحدهما سياسة الخلافة مع أهل الشرق الذين لم يخضعوا لسلطان المسلمين، كالترك والديلم. وهذه السياسة واضحة أيضاً، على قلة النصوص، فقد كانت سياسة توسع وبسط للسلطان، ولكن في احتياطٍ وتحفظٍ ومصانة. وكانت بغداد تعتبر كل هذه الناحية من الشرق منطقة نفوذ، تسلك في استغلالها واتقائها عند الحاجة، طريقاً كلها حكمة وفطنة. فبينما نراها تهاجم فتفتح وتأسر، نراها مرة أخرى موادعة محالفة مستخدمة. وهي تستفيد في الحالين. ولكك تعلم حق العلم ما أنتجته هذه السياسة، آخر الأمر، حين ضعف الخلفاء، من تسلط أهل هذه المنطقة على أمور الدولة، وعبيهم بعظمة الخلافة.

والقسم الثاني هو سياسة الخلافة مع قياصرة «قسطنطينية». وهذا القسم هو الذي نستطيع أن نقول، في غير تردّد، أنه احتاج حقاً إلى جهود الخلفاء وكفائاتهم. فقد كانت

العلاقة بين «قسطنطينية» و«دمشق» أيام الأمويين وبينها وبين «بغداد» أيام العباسيين ، شديدة الاضطراب والتعقيد ، لا تكاد تستقر على حال ، وإنما هي حربٌ حيناً وسلمٌ حيناً آخر . ومهما يكن من شيء ، فقد كانت القاعدة الأساسية لهذه السياسة ، أن الحرب هي الحال الطبيعية بين الدولتين ، فأما السلم فحال عارضة ؛ ولذلك كانت تسمى دائماً هدنةً . وربما كان من المعقول أن نقول : إن أصحاب «قسطنطينية» و «بغداد» كانوا يضطرون إليها اضطراباً .

غزو المأمون للروم

قدّمنا لك في الكلام عن بابك الخزيمى أن المأمون أرسل إليه آخر حملة ، بقيادة محمد ابن حميد الطوسى سنة ٢١٢ هـ ، وأن هذه الحملة باءت بالهزيمة والفشل ، كما باء غيرها ، مما سبقها من حملات ، وأن المأمون انصرف عن بابك مؤقتاً ، لأشغاله بغزو الروم الذين يعلل بعضهم سبب تحفز المأمون الى غزوهم ، بعد أن ظل السلم المسلح بينه وبينهم زهاء ست عشرة سنة ، بما تأكده المأمون من مشايعتهم لبابك وإمدادهم إياه بالمعونة .

ويقول الأستاذ «ميور» ، في بيان سبب هذه المهادنة الطويلة بين الخلافة والروم ، وعدم انتهاز المسلمين فرصة الثورة ، التى نشبت في بلاد الروم بين «توماس» و«ميخائيل» لغزو آسيا الصغرى : "إنه لا شك أن تريث العرب عن اقتحام بلاد الروم ، في ذلك الوقت ، يرجع الى أن بطريق أنطاكية ببلاد سوريا ، كان قد توجج توماس امبراطوراً ، ولونجح في تأميره وسلطانته ، لكفى العرب مؤونة القتال ، ولكان توماس هذا تابعا لخليفة المأمون " .

على أن المأمون قد شخّص سنة ٢١٥ هـ الى بلاد الروم ليغزوها سالكا إليها طريق الموصل ، ثم منبج ، ثم دابق ، ثم أنطاكية ، ثم المصيصة ، ومنها خرج الى طرسوس ، وهى الثغر الاسلامى ، ومن طرسوس دخل بلاد الروم ، فى منتصف جمادى الأولى (يوليو سنة ٨٣٠ م) ، ففتح وغنم كثيراً من الحصون ، ثم شخّص الى الشام . وورد عليه

في دمشق الخبر بأن ملك الروم قتل قوماً من أهل طرسوس والمصيصة، فأعاد الكرة إلى بلاد الروم، وكان الظفر والتوفيق حليفه في هذه الكرة أيضاً .

وفي المدة التي قضاها المأمون بين مصر ودمشق، بدأت المناوشات بين عماله وملك الروم، ثم اشتدت حتى اضطرت إلى أن يشخص إلى بلاد الروم للمرة الثالثة، وهي المرة التي توفي فيها .

وفيا هو سائر إليها، معترفاً بتحقيق خطئه رسمياً لنفسه، إذ يقول : أوجه إلى العرب، فأتى بهم من البوادي، ثم أنزلهم كل مدينة أفنتحها، حتى أضرب إلى القسطنطينية، إذ جاءه رسول ملك الروم يحمل إليه كتاب مولاه، يطلب فيه الصلح والمهادنة . وهذه نسخته، فيما يقول الرواة العرب : ”أما بعد، فإن اجتماع المختلفين على حظهما، أولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما . ولست حرياً أن تدع لحظ يوصل إلى غيرك حظاً تحوزه إلى نفسك، وفي علمك كاف عن إخبارك . وقد كنت كتبت إليك، داعياً إلى المسالمة، راغباً في فضيلة المهادنة، لتضع أوزار الحرب عنا، ونكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزباً، مع اتصال المرافق، والفسح في المتاجر، وفك المستأسر، وأمن الطرق والبيضة . فان أبيت، فلا أدب لك في الخمر^(١)، ولا أنزف لك في القول، فإني لخائض إليك غمارها، آخذ عليك أسداها، شأن خيلها ورجالها . وإن أفعل فبعد أن قدمت المعذرة، وأقمت بيني وبينك علم الحجة . والسلام“ .

أما رد المأمون عليه فيقول المؤرخون العرب إن نسخته كانت : ”أما بعد، فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة، ودعوت إليه من المودعة، وخلطت فيه من اللين والشدّة، مما استعطفت به من شرح المتاجر، واتصال المرافق، وفك الأسارى، ورفع القتل والقتال . فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالخط في قلب الفكرة، وألا اعتقد

(١) الخمر : (بالعريك) ما وارى الشخص من شجر وغيره . يقال : دب له في الخمر إذا تخفى له ليعنله .

الرأى فى مستقبله إلا فى استصلاح ما أُوْثِر فى مُعْتَبِه ، لجلتْ جواب كتابك خيلاً تمحل رجالاً من أهل البأس والنجدة والبصيرة ، ينازعونكم عن نُكلكم ، ويتقربون الى الله بدمائكم ، ويستقلون فى ذات الله ما نالهم من ألم شَوْكتكم ، ثم أُوصل اليهم من الأمداد ، وأُبلغ لهم كافيًا من العُدَّة والعَتَاد ؛ هم أظمأ الى موارد المنايا منكم الى السلامة من مخوف معتزتهم عليكم ، موعدهم إحدى الحُسَيْنَيْن : عاجلُ غَابَةِ ، أو كريم مُنْقَلَب . غير أنى رأيت أن أتقدم اليك بالموعظة التى يُثَبِّت الله بها عليك الحجمة من الدعاء لك ولمن معك الى الوجدانية ، والشريعة الحنيفية ؛ فان أبيت ، ففدية توجب ذمة ، وتثبت نظرة . وان تركت ذلك ، ففى يقين المعايضة لنعوتنا ما يغنى عن الإبلاغ فى القول والإغراق فى الصفة ، والسلام على من اتبع الهدى .



(د) كلمة ختامية عن وفاة المأمون ورجالاته ومعاصريه ووصيته :

لقد عاجلت المنية المأمون ، دون تحقيق خطته ، بموضع يقال له « البدنون » بين « لؤلؤة » و « طرسوس » . وكانت وفاته لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢١٨ هـ وسنه ثمان وأربعون سنة وأربعة أشهر .

أما عن كبار رجالات المأمون وولاته ، فيقول اليعقوبى : وكان الغالب عليه فى خلافته ذو الرياستين ثم جماعة : منهم الحسن بن سهل ، وأحمد بن أبى خالد ، وأحمد بن يوسف . وكان على شرطته العباس بن المسيب بن زهير ، ثم عزله وولى طاهر بن الحسين ، ثم عبد الله بن طاهر الذى استخلف اسحاق بن ابراهيم ببغداد ، فوجه اسحاق بأخيه خليفة له على شرطته . وكان على حرسه شيب بن حميد بن قُطَبة ، ثم عزله وولاه قُومَس ، واستعمل مكانه هرثمة بن أعين ، ثم عبد الواحد بن سلامة الطحلاوى ، قرابة هرثمة ، ثم على بن هشام ، ثم قتله وولى عُجَيف بن عَنَسَة . وكانت حجابته الى أحمد ابن هشام ، وعلى بن صالح صاحب المصلى . قال : وخلف من الولد المذكور ستة عشر

ذكرا، وهم محمد، واسماعيل، وعلي، والحسن، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى،
واحمد، والعباس، والفضل، والحسين، ويعقوب، وجعفر، ومحمد الأكبر، وهو ابن
معللة وتوفي في حياته، ومحمد الأصغر، وعبيد الله، أمهما أم عيسى بنت موسى الهادي.

أما صاحب « نهاية الأرب »، فقد ذكر في الجزء العشرين من كتابه : أن حُجَّابه هم
عبد الحميد بن شَبَّث، ثم محمد وعلي ابنا صالح مولى المنصور، ثم اسماعيل بن محمد بن
صالح. وذكر أن قضاياه هم : محمد بن عمر الواقدي، ثم محمد بن عبد الرحمن المخزومي، ثم بشر
ابن الوليد. وكان نقش خاتمه، فيما ذكره المسعودي في التنبيه والإشراف : « الله معه
عبد الله به تؤمن ».



وقد يكون من المفيد لنا، من وجهة نظر التاريخ المصري، أن نقف على ولادة مصر
وقضايتها في عهد المأمون، وذلك بيسره لنا كتابان مُتمِّعان وافيان في هذا الموضوع،
وهما كتاب « النجوم الزاهرة » لابن تغري بردى الأتابكي وكتاب « الولاة والقضاة »
الذين ولوا أمر مصر وقضاءها للكيندي. ونحن ذاكرون لك هؤلاء الولاة والقضاة على
وجه الاختصار :

أما الولاة فهم : مالك بن دهم، وحاتم بن هرثمة، وجابر بن الأشعث، وعبد بن محمد،
والمطلب بن عبد الله، والعباس بن موسى، والسري بن الحكم، وسليمان بن غالب، ومحمد
ابن السري، وعبيد الله بن السري، وعبد الله بن طاهر، وعيسى بن يزيد، وعمير بن الوليد،
وعبدويه بن جبلة.

ولقد حدثنا المؤرخون في أيامه عما سمي في مصر بالبدع المأمونية الأربع : فالبدعة
الأولى منها هي لبس الخُضرة وتقريب العلوية وإبعاد بني العباس. والثانية القول بخلق
القرآن. والثالثة ما كتبه المأمون إلى نائبه ببغداد أن يأخذ الجند بالكبير إذا صلوا الجمعة وبعد

الصلوات الخمس . ثم أباح المأمون في هذه السنة وهي سنة ٢١٥ هـ «المتعة» فقال الناس :
هذه بدعة رابعة ، وبعد ولاية ابن جبلة هذا ، ولاية عيسى بن منصور ، ونصر بن
عبد الله ، وشهرته كيدر ، والمظفر بن كيدر .

أما قضاة مصر في عهده فهم : عبد الرحمن العمري ، وهاشم بن أبي بكر البكري ،
وابراهيم بن البكاء ، ولطيفة بن عيسى الحضرمي ، والفضل بن غانم ، وابراهيم بن اسحاق
العارى ، وعطاف بن غزوان ، وجعله عبد الله بن طاهر على المظالم ، وبعدئذ ولى القضاء
من قبله عيسى بن المنكدر ، وأخيرا هارون بن عبد الله .

أما معاصروه ، فقد كان يعاصره في الأندلس الحكم بن هشام ، ثالث أمراء بني أمية ،
ثم ابنه عبد الرحمن . وفي عهدهما سمعنا رأى الأندلس ، في القول بخلق القرآن ، فقد قال
أبو خلف المعافري :

لَا وَالَّذِي رَفَعَ السَّمَاءَ بِأَعْمَادٍ لِلنَّظَرِ
مَا قَالَ خَلَقَ فِي الْقُرْآنِ * نَبِيًّا بِخَلْقِهِ الْكَافِرِ
لَكِنْ كَلَامٌ مِثْلُ * مِنْ عِنْدِ خَلْقِ الْبَشَرِ

وكان يعاصر المأمون في بلاد المغرب الأقصى : ادريس بن ادريس بن عبد الله ، ثم ابنه
محمد بن ادريس . ويعاصره في إفريقيا من بنى الأغلب : عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب ،
ثم ابنه زيادة الله بن ابراهيم ، فاتح صقلية . ويعاصره في فرنسا « شارلمان » صديق أبيه ثم
« لويز الأول » الملقب باللين . ويعاصره في القسطنطينية « ليون الأرمني » و « ميخائيل »
الملقب بالتمتام ، ثم ابنه « توفيل » .

أما صفته فهي ، كما ذكرها صاحب « نهاية الأرب » ، « كان المأمون ربعة ، أبيض ،
طويل الخامة ، رقيقها قد وخطه الشيب . وقيل : كان أسمر ، تعلوه صفرة ، أجنى ، أعين ،
ضيق الجبهة ، بخده خال أسود » وكذلك وصفه الطبري وغيره .

ولما حضرته الوفاة أوصى لأخيه المعتصم من بعده . وعلل بعضهم أن الوصية كانت
للمعتصم دون ابنه العباس بأن الثاني كان متغيبا عنه ساعة وفاته .

ولقد أثبتنا لك في باب المنشور من الكتاب الثالث في مجلدنا الثالث وصيته التي
أوصى بها حين مماته ، لقيمتها التاريخية ، ولأنها توضح بعض آرائه ، وتفصح عن السر
في بعض تصرفاته ، فراجعها ثمة .

الفضل بن يحيى

الوزارة والأعمال الحكومية في عصر المأمون تاريخ الوزارات المأمونية

توطئة عن تاريخ الوزارات المأمونية — وزارات الفضل بن سهل وأخيه الحسن — وزارة أحمد بن أبي خالد —
وزارة أحمد بن يوسف — وزارة يحيى بن أكثم — وزارات أخرى — الجند والقواد في عصر المأمون —
القضاة وديوان المظالم .

(١) توطئة :

لسنا نريد أن نتكلم عن تاريخ الوزارة ، ومكانتها في العصر العباسي ، فقد تعرض
لدرسها كثيرون ، نذكر منهم على سبيل التمثيل الأستاذ «برون» في كتابه تاريخ الفرس الأدبي ،
والمؤرخ ابن طباطبا في الآداب السلطانية ، وانما قصارى ما نرمي إليه ، كتابة فذلكمة موجزة
عن حياة البارزين من وزراء المأمون ، حتى نقف بذلك على صورة كاملة قدر المستطاع ،
عن العصر الذي تصدّرنا للكتابة عنه ، ومكانة رجالاته البارزين فيه ، فنقول :

١ و ٢ — وزارات الفضل بن سهل وأخيه الحسن

يحدثنا التاريخ أن أول وزراء المأمون الفضل بن سهل ، وهو من رجال جعفر البرمكي ،
فلا غرو إذا نزع في سياسة الملك منزع البرامكة ، ولا غرو إذا ائتم بهم وتلا تلّوهم
في تدبير أمور السلطان ، ولا غرو إذا كانت دولة بني سهل غرة في جبين الدهر ، ودرة
على مفريق العصر ، لأنها كانت ، كما يقول الفخري ، مختصرة الدولة البرمكية .

أما طريقة اتصاله بالمأمون ، فإن المظان التاريخية والأدبية تحدثنا أن جعفر البرمكي
لما عزم على استخدامه للمأمون ، وصفه يحيى بن خالد بحضرة الرشيد ، فقال له الرشيد :
أوصله إلى ، فلما وصل إليه أدركته حيرة فسكت ، فنظر الرشيد إلى يحيى نظر منكّر

لاختياره ، فقال ابن سهل : يا أمير المؤمنين ، إن من أعدل الشواهد على فَرَاهة المملوك أن يملك قلبه هيبته سيده ، فقال الرشيد : لئن كنت سكتَ لتصوغ هذا الكلام ، فلقد أحسنت ، وإن كان بديهته إنه لأحسن وأحسن . ثم لم يسأله بعد ذلك عن شيء إلا أجابه بما يصدق وصف يحيى له .

ويروى لنا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وهو كما تعلم ، شيخ من مشيخة الأدب والبيان في عصرنا المأموني ، في كتابه «الحيوان» : أن جعفرًا الضبي ، وصف الفضل بن سهل بقوله : أيها الأمير ، أسكتني عن وصفك تَسَاوَى أفعالك في السؤدد ، وحيرني فيها كثرة عددها ، فليس إلى ذكر جميعها سبيل ، وإن أردتُ وصفَ واحدة ، اعترضتُ أختها إذ لم تكن الأولى أحق بالذكر ، ولستُ أصفها إلا باظهار العجز عن وصفها .

ويقول ابن طباطبا : إن الفضل كان سخيا كريما ، يجارى البرامكة في جوده ، شديد العقوبة ، سهل الانعطاف ، حليما بليغا ، عالم بآداب المملوك ، بصيرا ، جيد الحديث ، محصلا للأموال ، وكان يقال له الوزير الأمير .

وكان الفضل بن سهل يتشيع كذهب غالب الفرس ، وكانت له إصابة حسنة ، بعلم النجوم كما أسلفنا لك القول في كلمتنا عن المأمون في صباه ، ومما يؤيد ذلك ما رواه أبو الحسين علي بن أحمد السلامي في تاريخ ولاية خراسان : أن المأمون لما عزم على إرسال طاهر بن الحسين إلى محاربة أخيه محمد الأمين ، نظر الفضل بن سهل في مسألته ، فوجد الدليل في وسط السماء ، وكان ذا يمينين ، فأخبر المأمون بأن طاهرا يظفر بالأمين ويلقب بذي اليمينين ، فتعجب المأمون من إصابة الفضل ولقب طاهرا بذلك .

وكان الفضل بن سهل شبيها بأساتذته البرامكة في رفد الشعراء ، وتشجيع الشعر ، وكان منتجعا القصد منهم قبل وزارته ، فان كتب الأدب تحدثنا أن مسليما بن الوليد ، قال فيه حين ذاك ، وكان من ندمائه وسماره :

وقائل ليست له همّة * كلا ولكن ليس لي مأل
وهمة المُقترِأُمْنِيَّة * عَوْنٌ على الدهر وأُنْقَالُ
لا جِدَّةٌ يَنْهَضُ عِزِّي بها * والناس سُؤَالُ وَبُحَالُ
فاصبر على الدهر الى دولة * يرفع فيها حالك الحالُ

ويقول لنا الفخرى : إن الفضل لما علتْ حاله وتولّى الوزارة ، قصده مسلم بن الوليد ، فلما رآه سرّ به ، وقال له : هذه الدولة التي يرفع فيها حالك الحال ، وأمر له بثلاثين ألف درهم ، وولاه بريد جرجان ، فاستفاد من ثمّ مالا طائلا .

ويحدّثنا ابن خلكان : أن الفضل بن سهل ، قال يوما لثُمَامَةَ بن الأشرس المتكلم المعروف : ما أدرى ما أصنع بطلاب الحاجات ، فقد كثروا علىّ وأضجروني ! فقال له : زُلْ عن موضِعِكَ ، وعلىّ ألاّ يَأْتِيَاكَ أَحَدٌ منهم ! فقال : صدقت ! وانتصب لقضاء أشغالهم ، وكان قد مرض بخراسان وأشفى على التّلف ، فلما أصاب العافية ، جلس للناس فدخلوا عليه وهنّوه بالسلامة وتصرّفوا في الكلام ، فلما فرغوا من كلامهم أقبل على الناس وقال : إن في العِلَالِ لِنِعْمًا لا يَنْبَغِي للعقلاء أن يجهلواها : تمحيص الذنوب ، والتعرّض لشواب الصبر ، والإيقاظ من الغفلة ، والإذكار بالنعمة في حال الصحة ، واستدعاء التوبة ، والخصّ على الصدقة .

وقد مدحه جماعة من أعيان الشعراء ، وفيه يقول ابراهيم بن عباس الصُّوليّ :

للفَضْل بن سهل يدٌ * تقاصر عنها المثلُ
فنائلها للغنى * وسَطُوتُها للأجلُ
وباطنها للنّدى * وظاهرها للقُبَلُ

ويقول ابن خلكان : إن ابن الروميّ أخذ من قول الصُّوليّ هذا مدحته التي صاغها في الوزير القاسم بن عبّيد الله التي فيها :

أصبحت بين خصاصة وتجل * والحر بينهما يموت هزيلة
فامدد إلى يدا تعود بطنها * بذل النوال وظهرها التقيلا
وفيه يقول آخر:

لعمرك ما الأشراف في كل بلدة * وان عظموا للفضل إلا صنائع
ترى عطاء الناس للفضل خشعا * اذا ما بدا والفضل لله خاشع
تواضع لما زاده الله رفعة * وكل جليل عنده متواضع

وحكى الجهشيارى : أن الفضل بن سهل أصيب بآبن له يقال له العباس فجزع عليه
أشد الجزع ، فدخل عليه ابراهيم بن موسى بن جعفر العلوى وأنشده :
خير من العباس أجرك بعده * والله خير منك للعباس

وقال فيه مسلم بن الوليد من قصيدة له :
لو نطق الناس أو أثنوا بعلمهم * ونبتأت عن معالي دهر ك الكتب
لم يبلغوا منك أدنى ما يمت به * اذا تفاخرت الأملاك وانتسبوا
فأمر له عن كل بيت من هذه القصيدة بألف درهم .

وانه ليلوح لنا من قراءتنا الطويلة لكتب الأدب والتاريخ أن جماعة الشعراء الذين
كانوا يمتدحون البرامكة — وما أكثرهم — هم بأنفسهم الذين امتدحوا آل سهل ، واتخذوا
منهم برامكة آخرين . كما يلوح لنا أن لمقولاتهم وقصائدهم في امتداحهم واطهار قوتهم
واستفحال سلطانهم ، بعض الأثر في نكبتهم ، لأنه غير معقول ألينة أن يتر على المأمون قول
مثل قول القائل :

أقت خلافة وأزلت أخرى * جليل ما أقت وما أزلنا

من غير أن يترك في نفسه بعض ما كانت تتركه على البرامكة ، أمثال تلك الأقوال في نفس
الرشيد ، ومهما قيل عن حلم المأمون وعفوه واعتدال مزاجه وسعة صدره فان النفس
الانسانية هي هي .

وقد مرّت بك فيما أجملت لك من الحوادث التي وقعت في حكم المأمون، أنه جعل في سنة ٢٠١ هـ عليّ بن موسى العلوي وليّ عهد المسلمين والخليفة من بعده، وسماه الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه أمر جنده بطرح السواد ولبس الخضره وبيّن ما كان لذلك من ثورات وفتن لم تهدأ إلا بعد أن عاد إلى مقرّ ملكه، وأعلم آلّه وأنصاره بوفاة الرضا، وغاد إلى لبس السواد وهو شعار العباسيين .

ونريد الآن أن نشير هنا إلى ما كان من الفضل بن سهل فيما نحن في صدره ، ونعتمد على ما رواه الطبريّ ، قال : إن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد العلويّ أخبر المأمون بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قُتل أخوه ، وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من الأخبار، وإن أهل بيته والناس قد تقمّوا عليه أشياء ، وإنهم يقولون : إنه مسحور مجنون ، وإنهم لما رأوا ذلك بايعوا لعمّه ابراهيم بن المهدي بالخلافة ، فقال المأمون : انهم لم يبايعوا له بالخلافة ، وإنما صيروه أميراً يقوم بأمرهم ، على ما أخبر به الفضل ، فأعلمه أن الفضل قد كذّب وغشّه ، وأن الحرب قائمة بين ابراهيم والحسن ابن سهل ، وأن الناس يتقمّون عليك مكانه ومكان أخيه ، ومكانى ومكان بيعتك لي من بعدك ، فقال : ومن يعلم هذا من أهل عسكرى ؟ فقال له : يحيى بن معاذ ، وعبد العزيز ابن عمران ، وعدّة من وجوه أهل العسكر ، فقال له : أدخلهم عليّ حتى أسألهم عما ذكرت ، فأدخلهم عليه ، وهم يحيى بن معاذ ، وعبد العزيز بن عمران ، وموسى ، وعلى بن أبي سعيد ، وهو ابن أخت الفضل ، وخالف المصرى ، فسألهم عما أخبره ، فأبوا أن يخبروه حتى يجعل لهم الأمان من الفضل بن سهل ، ألاّ يعرض لهم ، فضمن ذلك لهم ، وكتب لكل رجل منهم كتاباً بخطّه ودفعه إليهم ، فأخبروه بما فيه الناس من الفتن ، وبيّنوا ذلك له ، وأخبروه بغضب أهل بيته ومواليه وقوّاده عليه في أشياء كثيرة ، وبما موّه عليه الفضل ، من امر هرثمة ، وأن هرثمة إنما جاء لينصحه وليست له ما يعمل عليه ، وأنه ان لم يتدارك أمره خرجت الخلافة منه ومن أهل بيته ، وإن الفضل دسّ إلى هرثمة قتله ، وأنه

أراد نصحه ، وأن طاهر بن الحسين قد أبلى في طاعته ما أبلى ، وافتتح ما افتتح ، وقاد إليه الخلافة مزمومة حتى إذا وطأ الأمر أخرج من ذلك كله ، وصير في زاوية من الأرض بالرقة ، قد حُطرت عليه الأموال حتى ضُغف أمره ، فشغِب عليه جنده ، وأنه لو كان على خلافتك ببغداد لضبط الملك ولم يُجتأ عليه بمثل ما اجتئى به على الحسن بن سهل ، وإن الدنيا قد تفتقت من أقطارها ، وإن طاهر بن الحسين قد تُتوسى في هذه السنين ، منذ قُتل محمد في الرقة ، لا يستعان به في شيء من هذه الحروب ، وقد استعين بمن هو دونه أضعافاً ، وسألوا المأمون الخروج إلى بغداد ، فإن بنى هاشم والموالى والقواد والجنود لو رأوا غمركم سكنوا إلى ذلك ، وجمعوا بالطاعة لك . فلما تحقق ذلك عند المأمون ، أمر بالرحيل إلى بغداد . فلما أمر بذلك علم الفضل بن سهل ببعض ذلك من أمرهم ، فتعنتهم حتى ضرب بعضهم بالسياط وحبس بعضاً وتنفّ لحي بعض ، فعاوده على بن موسى في أمرهم ، وأعلمه ما كان من ضمانه لهم ، فأعلمه أنه يُدارى ما هو فيه ، ثم ارتحل من مرو ، فلما أتى سرخس ، شدّ قوم على الفضل بن سهل وهو في الحماة فضر به بالسيوف حتى مات ، وذلك يوم الجمعة لليلتين خلتا من شعبان سنة ٢٠٢ هـ فأخذوا ، وكان الذين قتلوا الفضل من حشم المأمون ، وهم أربعة نفر : غالب المسعودى الأسود ، وقسطنطين الرومى ، وفرج الديلمى ، وموفق الصقلى ، وقتلوه وله ستون سنة وهربوا ، فبعث المأمون في طلبهم وجعل لمن جاء بهم عشرة آلاف دينار ، فجاء بهم العباس بن الهيثم بن زُرْجَمهر الدّينورى ، فقالوا للمأمون : أنت أمرتنا بقتله ، فأمر بهم فضربت أعناقهم ، وقد قيل : إن الذين قتلوا الفضل ، لما أخذوا سألهم المأمون ، فمنهم من قال : إن على بن أبى سعيد بن أخت الفضل دسهم ، ومنهم من أنكز ذلك . وأمر بهم فقتلوا ، ثم بعث إلى عبد العزيز بن عمران وعلى وموسى وخلف ، فسألهم فأنكروا أن يكونوا علموا بشيء من ذلك ، فلم يقبل ذلك منهم ، وأمر بهم فقتلوا ، وبعث برءوسهم إلى الحسن بن سهل في وآسـط ، وأعلمه ما دخل عليه من المصيبة بقتل الفضل ، وأنه قد صيره مكانه . وتزوج المأمون من ابنته بُوران ، وأظهر الحسن في حفلة

زواجهما من الكرم الخارق ، والحدود الخاتمي ، ما دعا المأمون الى أن نسبه فيه الى السرف ،
ولقد قدّم على الحسن بن سهل شاعر يلمس صلبه وعارفته ، فاشتغل عنه مديدة فكتب اليه :

المال والعقل مما يُستعان به * على المقام بأبواب السلاطين
وأنت تعلم أنّي منهما عطل * اذا تأملتني يابن الدهاقين
أما تبذلّك أنوابي على عدي * والوجه أني رئيس في المجانين
والله يعلم ما للملك من رجل * سواك يصلح للدنيا وللدن

فقيل : إن الحسن أمر له ، بعشرة آلاف درهم ، ووقع في رقعة :

أعجلتني فأناك عاجل برّنا * قلّا ولو أنظررتنا لم يقلل
نخذ القليل وكن كأنك لم تنل * ونكون نحن كأننا لم نسال

ويظهر لنا مما قرأناه عن الحسن بن سهل في أمالي أبي عليّ القالي وغيره من مظان
الكتب الأدبية ، أن له بصرا بالأدب عظيم ، ومكانة في الكتابة سامية ، وحظا بأفانين القول
ومناحيه وفيرا .

فقد روى عنه أنه كتب الى محمد بن سماعة القاضي : « أما بعد ، فاني احتججت لبعض
أموري الى رجل جامع لخصال الخير ، ذي عفة ونزاهة طعمية^(١) ، قد هدّبه الأخلاق ،
وأحكته التجارب ، ليس بظنين في رأيه ، ولا بمطعون في حسبه ، إن آؤتمن على الأسرار
قام بها ، وإن قلّد مهّما من الأمور أجزأ فيه ، له سنّ مع أدب ولسان ، تُقَعِّده الرزانة ،
ويسكنه الحلم ، قد فُتّر عن ذكاء وفطنة ، وعصّ على قارحة من الكمال ، تكفيه اللحظة ، وترشده
السكينة ، قد أبصر خدمة الملوك وأحكها ، وقام في أمورهم فُحْمَد فيها ، له آناة الوزراء ،
وصولة الأمراء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، وجواب الحكماء ، لا يبيع نصيب يومه
بحرمان غده ، يكاد يستريق قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه ، دلائل الفضل عليه

(١) الطعمة بضم الطاء وكسرهما : وجه الدسب الطيب أو الخبيث .

لأئمة ، وأمارات العلم له شاهدة ، مضطجعا بما استنص ، مستقلا بما حمل ، وقد آثرتك بطلبه ، وحبوتك بارتياحه ، ثقة بفضل اختيارك ، ومعرفة بحسن تأتيك .

ويقول ابن طباطبا : إن الحسن بن سهل كان أعظم الناس منزلة عند المأمون ، وكان المأمون شديد المحبة لمفاوضته ، فكان إذا حضر عنده طاوله في الحديث ، وكلما أراد الانصراف منعه ، فانقطع زمان الحسن بذلك وثقت عليه الملازمة ، فصار يتراخى عن الحضور بمجلس المأمون ، ويستخلف أحد كتابه ، كأحمد بن أبي خالد وأحمد بن يوسف وغيرهما ، ثم عرّضت له سوداء كان أصلها جَزَعَه على أخيه ، فكانت سبب انقطاعه في داره واحتجابه عن الناس ، وقد هجاه حين ذاك بعض الشعراء فقال :

تولّت دولة الحسن بن سهل * ولم أبُلْ لها تيّ من نذاها

فلا تجزع على ما فات منها * وأبكى الله عيني من بكها

وقد قرأنا في كتاب الأغاني ما يستدل منه على أن الحسن بن سهل هو صاحب الوساطة في العفو عن إبراهيم بن المهدي ، وذلك يختلف مع ما رواه البعض من أن بوران ابنته هي التي طلبت العفو عنه ، وما رواه البعض الآخر من أن طاهر بن الحسين هو صاحب الوساطة . وتفصيل الرواية : أن الحسن بن سهل دخل على المأمون ، وهو يشرب فقال له : بحياتي وبحقّ عليك يا أبا محمد إلا شربت معي قدحا ، وصب له من نبيذه قدحا ، فأخذه بيده وقال : من تحب أن يغنيك ؟ فأومأ إلى إبراهيم بن المهدي ، فقال له المأمون : غنّه يا عم ، فغنّاه : * تسمع للحليّ وسواسا إذا انصرفت * يعرض به ، لما كان لحقه من السوداء أو الاختلاط ، فغضب المأمون حتى ظن إبراهيم أنه سيوقع به ، ثم قال له : أبيت إلا كُفرا ، يا أكفر خلّو الله لنعمه ، والله ما حقن دمك غيره ، ولقد أردت قتلك ، فقال لي : ان عفوت عنه فعلمت فعلا لم يسبقك إليه أحد ، فعفوت والله عنك لقوله ، فحقّه أن تعرّض به ! ولا تدع كيدك ولا دغلك ! أو أنفت من إيمائه إليك بالغناء ! فوثب إبراهيم قائما وقال : يا أمير المؤمنين ، لم أذهب حيث ظننت ولست بعائد ، فأعرض عنه .



٣ - وزارة أحمد بن أبي خالد

يظهر أن المأمون كان قد صدم صدمة عنيفة ، من وزارة الفضل بن سهل ومن أخيه ، لاستبدادهما بحلّ الأمور من دونه ، ويظهر أنه فكر جدياً في ألا يستوزر بعد الفضل أحداً ، ويقال : إنه لما دعا إليه أحمد بن أبي خالد - وكان أبوه كاتب سرّ ابن عبيد الله ، كاتب المهدي ووزيره - قال له : إني كنت عزمت ألا أستوزر أحداً ، ثم عرض عليه الوزارة ، فتنصل أحمد منها ، وقال يا أمير المؤمنين : أعفني من التسمي بالوزارة ، وطالني بالواجب فيها ، واجعل بني وبين العامة منزلة يرجوني لها صديق ، ويخافني لها عدوى ، فما بعد الغايات إلا الآفات .

وتدل هذه المناقشة ، وإن كانت قصيرة ، على أن أحمد بن أبي خالد قد وجد العبرة في تاريخ الفضل بن سهل ، وأمثاله ، فرأى أن يكون مقتصدًا في مكانته وسلطانته ، وقد اعجب المأمون بكلامه واستوزره .

وسترى في كلمتنا المجملّة التي عقدناها عن تقدير المأمون للشجاعة الأدبية ، طرفًا من تصرفات أحمد بن أبي خالد ، وحسن تخلصه ، في حادثة عمرو بن مسعدة ، وكيف كان شجاعاً وصادقاً ، وكيف كان مخلصاً للمأمون ، عاملاً على إصلاح ما بينه وبين رجاله دولته .

ويقول صاحب الآداب السلطانية والدول الإسلامية : إن المأمون لما ولي طاهر ابن الحسين نراسان ، استشار فيه أحمد بن أبي خالد ، فصوّب أحمد الرأي في تولية طاهر ، فقال المأمون لأحمد : إني أخاف أن يغدر ويخلع ويفارق الطاعة ، فقال أحمد : الدرك في ذلك على - ويجب أن نشير هنا إلى ما جاء بكاتب عيون الأخبار عن دقة المأمون في مثل هذا الموقف ، فإن المعلى بن أيوب أحد المعاصرين يحدّثنا عن ذلك بقوله : سمعت المأمون يقول : من مدح لنا رجلاً ، فقد تضمّن عيبه - فوله المأمون ، فلما كان

بعد مدة، أنكر عليه المأمون أمورا، وكتب اليه كتابا يتهدده فيه؛ فكتب طاهر جوابا، أغلظ فيه للمأمون، ثم قطع اسمه من الخطبة ثلاث جمع، فبلغ ذلك المأمون، فقال لأحمد ابن أبي خالد: أنت الذي أشرت بتولية طاهر، وضمنت ما يصدر منه، وقد ترى ما صدر منه من قطع الخطبة ومفارقة الطاعة، فوالله لئن لم تتلطف لهذا الأمر وتصلحه كما أفسدته وإلا ضربت عنقك؛ فقال أحمد: يا أمير المؤمنين، طِبْ نفساً، فبعد أيام يأتيك البريد بهلاكه. ثم إن أحمد بن أبي خالد أهدى لطاهر هدايا، فيها كَوَامِيخُ مَسْمُومَةٌ، — وكان طاهر يحب الكَاخَ^(١) — فأكل منها فمات من ساعته^(٢).

فان صحت هذه الرواية دلت على أن المأمون ورجاله لم يَكُونُوا قد صرفوا أنفسهم يومئذ عن التذرع الى الخلاص من بعض رجال الدولة بالقضاء على حياتهم.

قال المصخرى: إن أحمد بن أبي خالد لما تولى طاهر خراسان، حسب هذا الحساب، فوهب له خادما وناولته سماً، وقال له: متى قطع خطبة المأمون فاجعل له هذا السم في بعض ما يجب من المأكَل، فلما قطع طاهر خطبة المأمون جعل الخادم له السم في كَاخ، فأكل منه فمات في ساعته، ووصل الخبر على البريد بموته الى المأمون بعد أيام، فكان ذلك مما عظم به أمر أحمد بن أبي خالد. فتأمل طريقة التخلص من الرعماء في ذلك الحين، ولا حظ كيف كانت عندهم خاتمة الحياة لمن يتبرمون لهم من كبار القواد والوزراء. ولتأمل بعد ذلك لم أفقرت البلاد من قادتها وكُتَّابها، ولم أَصَحَّت الكلمة النافذة فيما بعد للعلامة الأتراك وغيرهم من الغرباء!

وكان أحمد بن أبي خالد، الى جانب كفايته، وبصره بالأمر مصابا بالشَّيْء. وقد قال أحد المعاصرين — لما ناقب المأمون أحمد بن أبي خالد هذا —: ما أظن أن الله خلق

(١) هو إدام يؤتد به وقيل هو خبز بخل. معرب كاهم بالفارسية وخصه بعضهم بالمخللات التي تستعمل لتشهى الطعام.
(٢) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار: «يلوح لي أن هذه الحكاية مصنوعة فكيف يجترئ أحمد بن أبي خالد على هذا الأمر وهو يعلم مكانة عبد الله بن طاهر ومكيدته وألفته وحسن تأتبه للأمر. فهل يأمن أن يعثره عبد الله بما يوبقه ويعجل هلاكه. وبعد فهذه الرواية تناقض الرواية الأخرى. وهي أن صاحب البريد كتب الى المأمون بما كان من طاهر من ترك الدعاء له وكتب إليه في اليوم الثاني بموته»

في الدنيا نفساً أنبل ولا أكرم من نفس المأمون ، فلما سئل لماذا ؟ قال : لأنه عرف نفس الرجل — يعني أحمد بن أبي خالد — وشهره فكان اذا وجهه الى رجل برسالة أوفى حاجة ، قال : انتبه بالغداة واحلّ ثيابك واطمئنّ عنده ، فان انصرفت وقد قمت فاكسب الى بجواب ما جئت به في رُقعة وادفعها الى فتح يوصلها الى .

ومما ينسب اليه أنه ولّى رجلاً كورة عظيمة القدر يخوّان فالوذج أهده اليه . وقيل : إن جماعة من أهل كورة الأهواز شكوا عاملاً كان عليهم ، فعزل وصار الى مدينة السلام ، فتكلموا فيه ، فأنهى خبرهم الى المأمون ، فأحضرهم وخصمهم ، وأمر أحمد بن أبي خالد بالنظر في أمورهم ، فقال رجل من خصوم العامل : يا أمير المؤمنين ، جعلني الله فداءك ، تقدّم الى أحمد ألا يقبل من هذا الفاجر هدية حتى يقطع أمرنا ، فوالله لئن أكل من طعامه رغيفاً ومن فالوذج جأماً ، ليدحضن الله حجّتنا على يديه ، وليبطلن حقنا على يديه . فكان من جرّاء ما قاله متكلم الجماعة أن المأمون طلب اليهم أن يحضروا اليه يوم الأربعاء ، لينظر في شكايتهم بنفسه ، وكان من جرّاء مثل هذه الشكاوى وما قيل في ابن أبي خالد من أنه « يقتل المظلوم ويعين الظالم بأكلة » أن أجرى المأمون عليه في كل يوم ألف درهم لمائدته ، لثلاث يشره الى طعام أحد من بطانته أو من طعام الناس .

ومن طريق حوادثه مع المأمون — وهي تؤيد لنا صحة ما يرمى به من هذه الناحية وتدل على اقتناع المأمون بإصابته بها — ما يرويه لنا ابن طيفور في تاريخه ، قال : « حدثني بعض أصحابنا قال : قال المأمون يوماً لأحمد بن أبي خالد : أغدُ عليّ باكراً لأخذ القصص التي عندك ، فانها قد كثرت لنقطع أمور أصحابها ، فقد طال انتظارهم إياها . فبكر ، وقعد له المأمون ، بفعل يعرضها عليه ويوقع عليها ، الى أن مرّ بقصة رجل من اليزيديين يقال له فلان اليزيدي فصحّف ، وكان جائعاً فقال : اليزيديّ ؛ فضحك المأمون ، وقال : يا غلام ! تريد ضحمة لأبي العباس ، فانه أصبح جائعاً ! فنجّل أحمد ، وقال : ما أنا بجائع يا أمير المؤمنين ، ولكن صاحب هذه القصة أحمق ، وضع نسبته ثلاث

نقط، قال : دَعُ هذا عنك فالجوع أضرَّ بك حتى ذكرت الزيد، فجاءوه بصَحْفَةٍ عظيمة، كثيرة العراق^(١) والودك، فاحتشم أحمد، فقال المأمون : بحياتي عليك ! لمَّا عدَلت نحوها، فوضع القصص ودال الى الزيد، فأكل حتى انتهى والمأمون ينظر اليه، فلما فرغ دعا بِطَسْتٍ فغسل يده ورجع الى القصص، فترت به قصة فلان الخبيص^(٢)، فقال : فلان الخبيص ! فضحك المأمون، وقال : يا غلام ! جَآمًا ضَخْمًا فيه خبيص^(٣)، فان غَدَاءَ أبي العباس كان مبتورا، نفجل أحمد، وقال : يا أمير المؤمنين، صاحب هذه القصة أحق ! فتح الميم فصارت كأنها سِنَّان ! قال : دَعُ عنك هذا، فلولا حمقه وحق صاحبه لمت جوعا، فجاءوه بحام خبيص، نفجل، فقال له المأمون : بحياتي عليك إلا لمت اليها ! فانحرف فأنثى عليه، وغسل يده، ثم عاد الى القصص، فما أسقط حرفا حتى أتى على آخرها .

«وبعد» فانا نستنبط — من هذه الرواية ومما جرى من الحديث بينه وبين المأمون في شأن أكلة ابن أبي خالد عند دينار بن عبد الله التي كلفت المأمون ألف ألف — شَرَه هذا الوزير^(٣) الجليل . ويجدر بنا أن نقيد هنا ملاحظة أخرى، وهى طول احتمال المأمون، وكبير جلده، وقوة اضطباره، على مطالعة شكاوى الجمهور ومظالمهم، غير مكترث لألم الجوع ولا جانح الى الرغد والراحة، فى سهيل نظرها وإنصاف أصحابها .

على أن هذه الهنة فى هذا الوزير وإن كانت عاتبة للرجل ناقصة من كرامته، فكفايته مقطوع بها . وليس أدل على عظيم قدره، وسمو مكانته، من حضور المأمون جنازته، وصلاته بنفسه عليه، وقوله عنه، بعد أن دُلَّ فى حُفْرته وتُرحم عليه، أنت والله كما قال القائل :

أخو الخلد إن جد الرجال وشمروا * وذو باطل إن كان فى القوم باطل

(١) العراق : جمع عرق وهو القطاعة من اللحم وهو أحد الجوع النادرة (وقد عدَّ هذه الجوع ابن السكيت فى لسان العرب مادة عرق فراجعها) . والودك : الدسم .

(٢) نوع من الحلوى .

(٣) أنظر هذه الحكاية فى تاريخ بغداد لابن طيهور ص ٢٢٢ — ٢٢٤



٤ - وزارة أحمد بن يوسف

وقد استوزر المأمون بعد ابن أبي خالد أحمد بن يوسف الكاتب . ولما تمَّ سنعه قد له
بمنا خاصا في قسم الآداب والعلوم ، فستجد ثمة طرفا عن حياته وأثره .



٥ - وزارة يحيى بن أكثم التميمي

استوزر المأمون بعد أحمد يحيى بن أكثم . وهو من أصحاب ثمانية بن أشرس المتكلم
المعروف ، ولأه المأمون وظيفتي الوزارة وقاضي القضاة .

ولم أجد اختلافا قويا ، هو اختلاف النقيضين ، كاختلاف القدماء في يحيى بن أكثم .
ولما كان له مظهر بارز في الدولة المأمونية من الوجهة العلمية والأدبية — لأنه كان ،
كما يقول أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، متفنا فيها : فكان اذا نظر الى رجل يحفظ الفقه سأله
عن الحديث ، واذا رآه يحفظ الحديث سأله في النحو ، واذا رآه يعلم النحو سأله عن الكلام ،
ليقطعه ويُجبله — آثرا أن نلمَّ بحياته وأقوال الناس فيه من قادح ومادح ، ونبين قدره على
وجه الإجمال لا التفصيل . وسنورد كلامنا فيه أيضا في قسم العلوم والآداب من هذا الكتاب .



٦ ، ٧ ، ٨ - وزارات أخرى

وقد ذكر أن المأمون استوزر ، بعد من قدمناه لك ، أبا عباد ثابت بن يحيى بن يسار ،
وأبا عبد الله بن يزيد ، وقد آثمنا في سيرتهما بمن سبقهما ، كما أنه ذكر أنه استوزر
عمرو بن مسعدة وهو صنو أحمد بن يوسف نباهة وكفاية وكتابة . وإنا لا نرى مدعاة
لإثبات ما هو من لون واحد ، ففي ذلك إضاعة للوقت وتكرار للقول .



(ب) الجند والقواد في عصر المأمون :

لا نريد هنا أن نتكلم عن ديوان الجند وتاريخه ، ولا عن مرتبات الجند وتحولهم ، منذ العهود الأولى ، فان ذلك يطول كثيرا . على أن نحيلك مع ذلك الى ما جاء بالجزء الأول من تاريخ التمدن الاسلامي في هذا الباب . وقصارى ما نريد قوله الآن أن راتب الجندى الراجل ، وهو مثل « النفر » في النظام العسكرى الحديث ، هو ٢٤ درهما في السنة ، فضلا عن حصته في الغنائم عند الغزوات . ويظهر أن حصصة الجنود من الغنائم كانت قد حُيست عنهم ، حتى رُدّها عليهم الأمين سنة ١٩٨ هجرية ، فأصاب الرجل ستة دنانير .

ولما قام النزاع بين الأمين والمأمون جعل المأمون راتب الجندى ثمانين درهما في الشهر ، على أن هذا الراتب عاد الى ما كان عليه بعد انتهاء الفتنة . أما القواد العظام في هذا العصر ، فانا نكتفى بما وقفت عليه أثناء النزاع بين الأخوين ، لأن من التكرار في القول أن نعيد هنا ما قلناه هناك .



(ج) ديوان القضاء والمظالم والحسبة :

ستقف من بحوثنا التي أفردناها لتحليل أخلاق المأمون على شيء من سلطان القضاة في ذلك العهد . ونحيلك ها الى المحاضرة القيمة التي ألقى في المجمع العلمى بدمشق عن تاريخ القضاء في الاسلام ، كما نحيلك الى الفصل المُسَمَّي الذي أفرد في هذا الموضوع صاحب التمدن الاسلامي .

ويكفيها هنا أن نقول : إن نظام الحكم أو الفصل في الدعاوى ، في ذلك العهد ، كان متشعبا بقدر ما كان محكما ، إذ قد كان يوجد الى جانب ديوان القضاء : ديوان المظالم وديوان نظر الحسبة ، وهذه الدواوين كلها كانت تنظر فيما يرفع اليها من دعاوى .

ويطول بنا الحديث، في هذا المقام لو أردنا استيعاب بيان كل نوع من هذه الدواوين وما يختص بالنظر فيه .

على أنه يجوز لك، أن تفترض إلى حد ما، أن ديوان المظالم كان يشبه في بعض نظامه وسلطته المحاكم العليا كمحاكم الاستئناف والنقض والابرار، كما يشبه إلى حد غير قليل المجالس التأديبية .

وانا نحيلك هنا إلى الفصول المتممة التي أفردتها أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي في كتابه القيم "الأحكام السلطانية" فقد عالج فيها الكلام عن القضاة وما يختصون به من الدعاوى، وعن ولاية المظالم وما يختصون به أيضا، وكذلك عن ولاية الحسبة وحدود سلطانهم، وقد نقل عنه صاحب نهاية الأرب في نهاية الجزء السادس جملة صالحة منه فراجعها .

أما راتب القضاة فنقول : إن راتب القاضي بلغ في أيام المأمون ٤٠٠٠ درهم في الشهر، أى حوالى ٢٧٠ ديناراً . وهذا الراتب في ذاته يدل على ما وصلت إليه الثروة في ذلك العصر . وقد كما نود أن نختص الولاية وراتبهم بكلمة لولا أن المصادر في ذلك تنقصنا . وفيما بيننا عن القضاة مقياس لمن كان في مكانهم ولمن كان أرفع منهم أو أقل مرتبة . فعليك أن تفكر وتقرن .

افضل السباوس

خلاصة الحياة السياسية والاجتماعية

توطئة — نكبة الوزراء — الاستصفا — ثروة الخلفاء ورجال الدولة وبذخهم — الخراج في عهد المأمون — الخراج في عهد المعتصم — السعيات والجلوسية — الدعاوة (البرهاجنندا) — صموبة مهمة المؤرخ .

(أ) توطئة :

أما أثر المال في النفوس ، وأثر الأحزاب السياسية ، وكيف تغيرت وجهات النظر في كثير من الأمور الدينية ، فانك قد وقفت على شيء من ذلك فيما سردناه لك .

على أنا نظن أنه قد آن لنا أن ندون بعض ملاحظاتنا في هذا العصر ، وأن لنا أن نتكلم عن نصيب الوزراء والقواد والزعماء في هذه الدولة ، التي كان للوزراء والقواد والزعماء الأثر الكبير في تدعيم بنيانها ، وتقوية أركانها ، وتشديد سلطانها .

(ب) نكبة الوزراء :

نريد أن نلاحظ أن حياة الوزراء وحياة القواد والزعماء كانت تنتهي ، في الغالب ، بنكبتهم في حياتهم ، أو استصفا أموالهم .

ومع أنا نحيلك الى بعض المصادر القيمة في هذا الموضوع ، مثل كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، لأبي الحسن الهلالي بن المحسن بن ابراهيم الصابي الكاتب ، والى ما كتب من الفصول في غيره ، نريد أن نلاحظ أن جلهم قد نكبه خليفته ، مثل نكبة المنصور لأبي مسلم ، وعبد الله بن علي ، وأبي سلمة الخلال ، وأبي الجهل ، ونكبه لأبي أيوب المورياني ، ونكبة الربيع بن يونس الذي سمّه الهادي ، ونكبة المهدي ليعقوب ابن داود ، ونكبة الرشيد للبرامكة ، والمأمون لمن رأيت .

نلاحظ ذلك . ونلاحظ أن غدر الخلفاء بوزرائهم في ذلك العهد قد لاكتته الألسنة وتكلمت فيه الشعراء ؛ فقد قال بعضهم حينما قتل المتوكل وزيره محمد بن عبد الملك الزيات :

يكاد القلبُ من جزع يطيرُ * إذا ما قيلَ قد قُتِلَ الوزيرُ
أميرَ المؤمنين قتلَ شخصا * عليه رَحَاكمُ كانت تدور
فمهلاً يا بني العباس مهلاً * لقد كُويْتُ بغدركم الصدورُ

كما نلاحظ أيضا تتصل شخصيات عظيمة من قبول الوزارة في ذلك العهد ، لما عهدوه من وخيم عواقبها ، وسوء مَغَبَّةِ الاضطلاع بها . فقد ذكر ابن طيفور أن ثُمَامَةَ ابن أَشْرَسَ المتكلم المعروف ، قال : لما قُتِلَ الفضلُ بن سهل بعث الى المأمون وكنت لا أنصرفُ من عنده إلا الوقعة الى منزلي ، ثم يأتيني رسوله في جَوْفِ الليل فأتية ، وكان قد أهَّأني لمكان الفضل بن سهل من الوزارة ، فلما رأيته قد ألحَّ علي في ذلك تعاللتُ عليه ؛ فقال لي : إنما أردت لك لكنا وكذا ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، أتى لا أقوم بذلك ، وأحرى بي أن أضنَّ بموضعي من أمير المؤمنين وحالي أن تزولَ عنده ، فاني لم أر أحدا تعرَّض للخدمة والوزارة ، إلا لم يكن لتسالم حاله ولا تدوم منزلته . ورشح له أحمد بن أبي خالد الأحول . ثم انظر الى اعتلاله عليه مرة أخرى حينما رشح له يحيى بن أكرم ؛ فانك توقن معنا بنفور رجال الدولة من الوزارة ، وهرهبهم من شَرَكها وسوء عُقباها .

(ج) الاستصفاء :

هم ينفرون من الوزارة ، لأن خاتمة حياتهم كانت التقتيل كما رأيت . وينفرون منها ، لأن مصير أهوالهم وأموال ذويهم كان ، في الغالب ، الى الاستصفاء والاعتصاب . ولقد عمَّ الاستصفاء سائر رجال الحكومة حتى الرعية ، وأصبحت ، بتوالي الأيام ، المصدر الأول لتحصيل المال .

فالعامل يستصفي مما للرعية ، والوزير يستصفي مما للعال ، والخليفة يستصفي مما للوزراء ، ومما للناس على اختلاف طبقاتهم ، حتى لقد أنشؤوا للاستصفاء ديوانا خاصا مثل سائر دواوين الحكومة ، فكان المال يتداول بالاستصفاء كما يتداول بالمتاجرة .

أما أنواع الاستصفاء ومقاديره في ذلك العصر ، فنترك الكلمة في هذا للوزير ابن الفرات قريب العهد بالمأمون ، قال : « تأملت ما صار الى السلطان من مالى ، فوجدته ١٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، وحسبت ما أخذته من الحسين بن عبدالله الجوهرى بن الحصص فكان مثل ذلك . فكأنه لم يحسر شيئا ، لأنهم كانوا يقبضون بالاستصفاء ويدفعون بالاستصفاء . وإذا استصفي أحدهم من مال لم يكن في وسعه أدائه كله معجلا ، أجלוه بالباقي وساعده على تحصيله أو جمعه برّد جأه وتغيير زيّه ، وإنزله في دار كبيرة فيها الفرش والآلة الحسنة ، ليستطيع التدخل في جمع الأموال من الناس .

وتعددت أسباب الاستصفاء وجهاته ، حتى أصبح كل صاحب مال أو منصب عرضة له . وهالك بيانا لما قبضه ابن الفرات من الاستصفاء ، على أيام الراضى بالله ، نشروها لك لتكون أنموذجا لأنواع الاستصفيات ومقاديرها :

دينار
٧٣٠٠ من أحمد بن محمد بن ابراهيم البسطامي ، عن النصف مما بقى عليه من استصفاؤه في سنة ٣٠٠ هـ .

١١٠٠٠	من على بن الحسين الباذينى الكاتب ، عما تولاه من الموصل .
٣٠٠٠٠	» محمد بن عبدالله الشافعى ، عما تصرف فيه لعل بن عيسى .
٨٠٠٠٠	» محمد بن على بن مقلّة ، عما تصرف فيه .
١٠٠٠٠٠	» محمد بن الحسن المعروف بأبى طاهر .
١٣٠٠٠	» الحسن بن أبى عيسى النافذ ، عما ذكر أنه ودّعة لعل بن عيسى .
٤٠٠٠	ومنه أيضا صاحبا عن نفسه .
٢٠٠٠٠	من ابراهيم بن أحمد المكارم .
٢٦٥٣٠٠	

عصر المأمون

٣١٤

دينار	ما قبله
٢٦٥٣٠٠	من عبد الواحد بن عبيد الله بن عيسى ، عن بقيقه استصفاء والده .
٣٦٣٣٠	أحمد بن يحيى بن حانى الكاتب عن مصلحة وجبت .
١٠٠٠٠	ابراهيم بن أحمد بن أدريس الجتهيد ، عن صلحه .
٦٠٠٠	محمد بن عبد السلام بن سهل ، عما عنده من الوديعة لمحمد بن على وابراهيم بن أحمد المادرائى .
٤٠٠٠	عبد الوهاب بن أحمد بن ما شاء الله ، عن صلحه .
٤٠٠٠٠	محمد بن عبد الله بن الحارث ، عن صلحه .
١٠٠٠٠	محمد بن أحمد بن حماد ، عما تصرف فيه بالموصل وغيرها .
٢٥٠٠٠٠	ابراهيم بن أحمد المادرائى ، عن الباقي عليه من جملة خمسين ألفا .
١٥٠٠٠	أبى عمر محمد بن أحمد الصباح الجرجارى ، عن ضمانه الباقي على أبى العباس أحمد بن محمد بن على المعروف بقرقر .
٣٠٠٠	على بن محمد بن الحوارى وقتل .
٧٠٠٠٠٠	هارون بن أحمد الهمذانى .
٧٠٠٠	عبد الله بن زيد بن ابراهيم .
٢٠٥٠	عبد الله بن زيد ، صلحا عن نفسه .
١٥٠٠٠	على بن مأمون بن عبد الله الاسكافى كاتب ابن الحوارى وقتل .
٦٠٠٠٠	يحيى بن عبد الله بن إسحاق ، عما تصرف فيه مع حامد .
٧٠٠٠٠٠	حامد بن العباس ، وقتل .
١٣٠٠٠٠٠	محمد بن محمد بن حمدون الواسطى .
١٥٠٠٠٠	أبى الحسن على بن عيسى .
٣٢١٠٠٠	ابراهيم بن يوحنا جهيد حامد بن العباس .
١٠٠٠٠٠	أبى محمد الحسن بن أحمد المادرائى .
١٢٠٠٠٠٠	
٥,٢٩٤,٦٨٠	

دينار	ما قبله	٥٢٩٤٦٨٠
ومنه أيضا .		١٠٠٠٠٠
من أبي بكر محمد بن علي المادرائي .		١٠٠١٠٠٠
ومنه ايضا .		١٠٠٠٠
		<u>٧,٣٠٥,٦٨٠</u>
درهم	من أبي الفضل محمد بن أحمد بن بسطام .	٥٠٠٠٠
٢٠٠٠٠٠	» علي بن الحسن الباذينى، صلحا عما تصرف فيه بالموصل وقتل .	
١٠٠٠٠٠	» أبي عمر محمد بن أحمد بن الصباح الجرجاني ، عن ضمان الباقي من استصفاء أبي ياسر إسحاق بن أحمد .	
١٠٠٠٠٠	» عبيد الله بن أحمد اليعقوبي .	
١٠٠٠٠٠	» الحسن بن ابراهيم الخرائطي، صلحا عما اقتطعه من مال الرئيس .	
١٠٠٠٠٠	» الحسين بن علي بن نصير أنحى نصير بن علي .	
٢٥٠٠	» علي بن محمد بن أحمد بن السمان، عن ورثة قرقر .	
١٠٠٠٠	» أبي بكر أحمد بن القاسم الأزرق الجرجاني، عن ضياع علي بن عيسى .	
١٣٠٠٠٠	» الحسين سعد بن القطريلي .	
١٥٠٠٠٠٠	» محمد بن أحمد .	
٣٠٠٠٠٠٠	» أبي الحسن محمد بن أحمد بن بسطام .	
٥٠٠٠٠	» أحمد بن محمد بن حامد بن العباس .	
١٣٠٠٠٠	» سليمان بن الحسن بن محمد .	

ومن المعقول أن نستنبط من ذلك أن الوزير أو العامل ، لابد أن يمتنع الى الرشوة ، فيعوض المال الذي سيستصفي منه ، والثروة التي ستغتصب منه . ومن المعقول أيضا أن نعلل لم تعددت الثورات في بعض الولايات ، ولم كثرت الشكايات من بعض الولاة في ذلك العهد . وإنه وإن لم يهتم المؤرخون القدماء بإثبات شكايات العامة

وأَسباب ثوراتهم، فقد عثرنا بين السطور على العبارة الآتية في الجزء الثاني من اليعقوبي^(١)، نثبتها لك بنصها : « أخذ الرشيد العمال والتَّناء^(٢) والدهاقين^(٣) وأصحاب الضياع والمبتاعين للغلات والمُقبِلين^(٤)، وكان عليهم أموال مجتمعة، فولّى مطالبهم عبد الله بن الهيثم ابن سام، فطال بهم بصنوف من العذاب، وكان ذلك سنة ١٨٤ واعتل الرشيد في تلك السنة حملة شديدة وشفى منها، فدخل إليه الفضيل، فرأى الناس يعدّون في الخراج، فقال : ارفعوا عنهم، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من عذب النفس في الدنيا عذبه الله يوم القيامة" فأمر بأن يرفع عن الناس، فارتفع العذاب من تلك السنة^(٥) » .

ويحوز لنا أن نستدل من هذه العبارة ومما ذكره الطبري وسواه : من تخفيض بعض الخلفاء لخراج بعض البلدان عقب ثورة من الرعية أو زيارة مديكية، على أن العمال كانوا يجنحون إلى الشدة والعسف وجمع المال بشقّ الوسائل، وكل ذلك من جزاء النظام المتبع معهم كما أسلفنا . فتأمل كيف يكون عسف الولاة للرعية بسبب عسف الملوك للولاة والعمال .

^(٥) يعسّفون ويظلمون، والرعية وحدها هي التي تحتل وتصبر . بيد أن التاريخ يحدّثنا دائماً، في كافة الدول وكافة الأجيال، أن نهاية هذا الاحتمال وذلك الصبر هي يقظة الأمم وانتباهها، ونهضة الشعوب ونضوجها، ورفضها في إباء وشيم وفي عقيدة وإيمان، وفي شجاعة وحرية، وفي تصميم وقوة إرادة، احتمال أمثال هذه الأدران والمآثم، وتلك الإساءات والمظالم، ممن تسلموا مقابليد الرعية : من الحكام وذوى السلطان .

(١) البناء (وزان سكان) جمع تاني، والثاني : الدهقان . أنظر القاموس . (٢) الدهاقين جمع دهقان وهو التاجر ورئيس الاقليم وهو فارسي معرب . (٣) هم ملتزمو جاية الخراج للولاة . (٤) يرى الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار أن عمل الرشيد هذا لم يكن من قبيل الاستصفاة وإمسا هو من قبيل الإعانات في استيفاء الحقوق . (٥) يلاحظ الأستاذ النجار أيضا أن كل ما ذكر في هذا الباب لا يتناول زمن المأمون وإنما كان ذلك بعده . والرشيد لم يحفظ عليه إلا استصفاة البرامكة حين تكلمهم وأن المأمون رعت إليه رقعة فيها أن فلانا مات وترك لورثته كذا وكذا وكان المال يبلغ الملايين من الدراهم فتكتب في الرقعة : هذا قليل لمن تقلب في دولتنا وطالت خدمته لنا فبارك الله، لورثته فلما ترك لهم .

(د) ثروة الخلفاء ورجال الدولة وبذخهم :

نريد أن نقيّد ملاحظة أخرى ، وهى نتيجة لازمة من نتائج الاستصفاء والاغتصاب . تلك الملاحظة هى استفحال ثروة الخلفاء طبعاً ، واستفحال ثروة كبار رجالاتهم والمقرّين من أفراد البيت الملكى من بطانة وحاشية ، واستفحال بذخهم ، واستفحال أعطياتهم . ونحن وإن كنا لم نجد مصدراً منظم فى هذا الموضوع ، وخاصة فى العصر المأمونى ، فقد عثرنا فى كتاب لطائف المعارف للثعالبي ، أن « المكنتى » وهو قريب الصلة بعصر المأمون ، قد خلف مائة مليون دينار ! وهذا تفصيلها :

دينار

٣٠,٠٠٠,٠٠٠ من العين والورق والأوانى المعمولة .

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ » الفرش .

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ » الكراع والسلاح والغلمان .

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ الضياع والعقار والأملأ .

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ الجوهر والطيب وما يجرى معهم .

ومن المعقول أن نتخذ من حالة هذا الخليفة العباسىّ مقياساً لغيره ، وإن كنا نعلم أن غيره مثل الرشيد والمأمون كانا أبسط منه سلطاناً وأكثر أعواناً ، فهما إن لم يكونا أرفع منه شأنًا ، ليسا بأقل منه بالثروة مكاناً !

أما ثروة كبار رجالهم ، فإننا نذكر لك هنا على سبيل المثال نصّاً هاماً ، يصح أن نتخذه أساساً لتقدير ثروة أسرة الفضل بن سهل ، أو أسرة طاهر بن الحسين ، أو غيرهما من أساطين الدولة وأقطاب المملكة . وهو النص الذى رواه سهل بن هارون أحد المعاصرين خاصاً بثروة البرامكة . وكلامه حجة لا محالة ، لأنه إلى جانب كونه من المعاصرين الواقفين على ما جرىأت الأمور وبواطنها فى ذلك العهد ، فقد كان يشغل وظيفة خازن دار الحكمة فى أيام المأمون . قال : « ... وأمر الرشيد بضم أموالهم ، فوجد من العشرين ألف ألف

التي كانت مبلغ جبايتهم ، اثني عشر ألف ألف مكتوب على يدها صكوك مخسومة
تفسيرها رقيا ، حبواها ، فما كان منها حياء على غريبة أو استطراف ملحة تصدق به
يحيي ، وأثبت ذلك في ديوانها ، على تواريج أيامها ، فكان ديوان إنفاق واكتساب فائدة ،
وقبض من سائر أموالهم ثلاثين ألف ألف وستمائة ألف وستة وسبعين ألفا ، الى سائر
ضياعهم وغلاتهم ودورهم ورياشهم والدقيق والخليل من مواعينهم ، فانه لا يصف أقله ،
ولا يعرف أيسره ، إلا من أحصى الأعمال ، وعرف منتهى الآجال .

ويحوز لنا كذلك أن نستخلص مما صرف على زواج بوران بالمأمون ، مبلغ ثروة
الحسن بن سهل . كما يحوز لنا أن نتبين مقدار ثروة عبد الله بن طاهر من رواية
صاحب النجوم الزاهرة الخاصة بإحدى مواقفه في الكرم . ومؤداها : أنه افتدى الأسرى
من الترك بنحو ألفي ألف درهم . ثم أنظر ما رواه المسعودي في مروجيه خاصا بما
فعله ابراهيم بن المهدي ، في زيارة للرشيد له ، اذ اصطنع له طاهيه جملة أطعمة نفحة ،
وكان من جملة ما سلكه من قطع ، فاستصغر الرشيد قطعه ، واستفسر منه عن حقيقتها ،
فأجابه ابراهيم بن المهدي : يا أمير المؤمنين ، هذه السنة السمك . وقدّرت نفقة ما في ذلك
الجام بألف درهم !

ثم أنظر بدّخهم في لباسهم . وقد سبق لنا أن أشرنا الى ما كانوا يلبسونه في المنادمة ،
من مختلف الثياب ونالها . ونريد أن نبين هنا ما وقفنا عليه من مخلفات بعض المعاصرين
من الخلفاء والقواد ، ليكون مثلا تقريبيا لحالة من لم يصل الى علمنا خبره . فقد ذكر أن
ما خلفه المكتفي من الألبسة هو :

عدد

٤٠٠٠٠٠ من الثياب المقصورة سوى الخلمات .

٦٣٠٠٠ » الأثواب الخراسانية المروية .

٨٠٠ » الملاءات .

عدد	العائم المروية .	١٣٠٠٠
١٨٠٠	الحلل الموشاة اليمنية وغيرها منسوجة بالذهب .	
١٨٠٠٠٠	البطائن التي من كرماني في أنابيب القصص .	
١٨٠٠٠	الأبسطة الأرمنية .	

وذكروا أن ذا اليمينين توفي وفي خزانته ألف وثلثمائة سراويل ديبقي لم يستعملها . وقيل
لأنهم وجدوا في كسوة بختيشوع الطبيب ٤٠٠ سراويل ديبقي .

وقد اطلعنا في الجزء العشرين من « كتاب نهاية الأرب » على أن ملك التبت قديم
على المأمون ، ومعه صنم من ذهب على سرير من ذهب مرصع بالجوهر ، فأسلم الملك ،
وأخذ المأمون الصنم وأرسله الى الكعبة . وطالعا فيه أيضا أن ملك الهند أهدى اليه
هدية نفيسة ، وكتب اليه معثدا أمواله وثروته ، مما يدل على بذخ العصر وثروة الملوك فيه .

وقد استفحل أمر البذخ في ذلك العصر ، حتى أصبحنا نرى أبا العتاهية مثلا ، وهو
المعروف ببخله ، يهدي الى الرشيد ، في سبيل طلبه لعتبة ، ثلاث مراح ، وكان العباسيون
قد تفننوا فيها وفي المذاب التي اخترعت في أيامهم ، وكتب على كل مروحة بيتا ، قال
في مجموعها :

ولقد تنسّمت الرياح لحاجتي * فاذا لها من راحتيه شميم
أعلقت نفسي من رجائك ماله * عنق يحث اليك بي ورسيم
ولربما استياست ثم أقول لا ، * إن الذي ضمن الرياح كريم

ولعلك اذا تذكرت أمر سُفن الأمين وبذخه وإسرافه مضافا اليه ما ذكرنا هنا وغيره ،
تؤمن بما نقول من بذخ العصر واستفحال ثروته . على أنا قد عثرنا على مصدرين ، نشرهما
مع الحبيطة والحذر ، لبيان ثروة العصر . يتضمن الاول بيان الجباية في أيام المأمون ،
ويتضمن الثاني حالتها في أيام أخيه المعتصم . مفترضين في كلتا الحالتين جواز المبالغة

عصر المأمون

٣٢٠

في التقدير ، ذلك لأن ديدن المؤرخين القدماء ، أن يَنْحُوا في الغالب الى المبالغة والفاق .
وإننا مع افتراضنا المبالغة في التقدير في المصدرين ، نرى مع ذلك أن أىّ تقدير متواضع
للخراج ، في ذلك العصر ، لابد أن يكون عظيماً ودالاً على الثروة والغنى والبذخ .

(هـ) الخراج في عهد المأمون :

يمتاز عهد المأمون بوجود أثر تاريخي يدل على مقدار الجباية الخراجية في جميع
الأقاليم التي كانت تحت حكم الدولة العباسية ، وهو الثبت الذي نقله العلامة ابن خلدون
في تاريخه ، وقد أحببنا ، لما في ذلك الثبت من الفائدة ، أن ننقله عنه . وها هو ذا :

الإقليم	الجبائية من الدراهم والدينار	الجبائية من العروض
السواد	درهم ٢٧٨٠٠٠٠٠	٢٠٠ } حلة نجرانية
كسكر	١١٦٠٠٠٠٠	٢٤٠ } رطلا من طين الختم
كور دجلة	٢٠٨٠٠٠٠٠	
حلوان	٤٨٠٠٠٠٠	
الأهواز	٢٥٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠ } رطل سكر
فارس	٢٧٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠ } قارورة ماء ورد
كرمان	٤٢٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠ } رطل زيت أسود
مكران	٤٠٠٠٠٠٠	٥٠٠ } ثوب متاع يماني
		٢٠٠٠٠ } رطل تمر
السند وما يليه	١١٥٠٠٠٠٠	١٥٠ } رطل عود هندي
سجستان	٤٠٠٠٠٠٠	٣٠٠ } ثوب معين
		٢٠ } رطل من الفانيد

(تابع) الخراج في عهد المأمون

الإقليم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض
	درهم	
خراسان	٢٨٠٠٠٠٠٠	نقرة فضة ٢٠٠٠ برذون ٤٠٠٠ رأس رقيق ١٠٠٠ ثوب متاع ٢٠٠٠٠ رطل إهليلج ٣٠٠٠٠
حرجان	١٢٠٠٠٠٠٠	شقة إبريسم ١٠٠٠
قومس	١٥٠٠٠٠٠	نقرة فضة ١٠٠٠
طبرستان والريان ودماوند	٦٣٠٠٠٠٠	قطعة فرش طبرى ٦٠٠ كساء و ٥٠٠ ثوب ٢٠٠ منديل و ٣٠٠ جام ٣٠٠
الري	١٢٠٠٠٠٠٠	رطل عسل ٢٠٠٠٠
همدان	١١٣٠٠٠٠٠	رطل رب الزمانين ١٠٠٠ رطل عسل ١٢٠٠٠
ماها البصرة والكوفة	١٠٧٠٠٠٠٠	
ماسبدان والريان	٤٠٠٠٠٠٠	
شهرزور	٦٧٠٠٠٠٠	
الموصل وما يليها	٢٤٠٠٠٠٠٠	رطل عسل ٢٠٠٠٠
أذربيجان	٤٠٠٠٠٠٠	
الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات	٣٤٠٠٠٠٠٠	رأس رقيق ١٠٠٠ زق عسل ١٢٠٠٠ بزاة ١٠ كساء ٢٠

عصر المأمون

٣٢٢

(تابع) الخراج في عهد المأمون

الجباية من الدراهم والدينار	الإقليم
الجباية من العروض	
قسط محفور ٢٠	
رطل رقم ٥٣٠	
رطل من المسايح ١٠٠٠٠	
السرماهي	أرمينية
رطل صونج ١٠٠٠٠	
بغل ٢٠٠	
مهر ٣٠	
	برقة
بساط ١٢٠	إفريقية
درهم ٣١٨٦٠٠٠٠٠	المجموع
من الدينار	
قنشرين ٤٠٠٠٠٠	قنشرين
دمشق ٤٢٠٠٠٠	دمشق
الأردن ٩٧٠٠٠	الأردن
فلسطين ٣١٠٠٠٠	فلسطين
مصر ٢٩٢٠٠٠٠	مصر
اليمن ٣٧٠٠٠٠	اليمن
الحجاز ٣٠٠٠٠٠	الحجاز
دينار وتساي ٧٢٢٥٥٠٠٠ درهم	
باعتبار الدينار ١٥ درهما وهو تقديره في ذلك العصر	
٧٢٢٥٥٠٠٠	فيكون المجموع بالدراهم
٣١٨٦٠٠٠٠٠	يضاف اليه جباية الأقاليم المذكورة أعلاه
٣٩٠٨٥٥٠٠٠ درهم	الجملة



(و) الخراج في عهد المعتصم :

أما جباية الدولة في أيام المعتصم فهالك هي نقلا عن قدامة بن جعفر ؛ كانت جباية السواد معظمها من الخنطة والشعير ، وقد ذكر قدامة مقدار كل منهما مفصلا باعتبار طساسيج السواد ، أى نواحيه في الشرق والغرب :

اسم الناحية	مقدار الخنطة بالكتر	مقدار الشعير بالكتر	الدراهم
طساسيج السواد في الجانب الغربي :			
الأنبار ونهر عيسى	١١٨٠٠	٦٤٠٠	٤٠٠٠٠٠
طسوج مسكن	٣٠٠٠	١٠٠٠	١٥٠٠٠٠
» قطربل	٢٠٠٠	١٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
» بادوريا	٣٥٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠
بهر سبر	١٧٠٠	١٧٠٠	١٥٠٠٠٠
الرومقان	٣٣٠٠	٣٣٠٠	٢٥٠٠٠٠
كوئى	٣٠٠٠	٢٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
نهر درقيط	٢٠٠٠	٢٠٠٠	٢٠٠٠٠٠
نهر جوبر	١٥٠٠	٦٠٠٠	١٥٠٠٠٠
باروسما ونهر الملك	٣٥٠٠	٤٠٠٠	١٢٢٠٠٠
الزواى الثلاثة	١٤٠٠	٧٢٠٠	٢٥٠٠٠٠
بابل وخطرنية	٣٠٠٠	٥٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
الفلوجة العليا	٥٠٠	٥٠٠	٧٠٠٠٠
الفلوجة السفلى	٢٠٠٠	٣٠٠٠	٢٨٠٠٠٠

(تابع) الخراج في عهد المعتصم

اسم الناحية	مقدار الخنطة بالكتر	مقدار الشعير بالكتر	الدراهم
-------------	------------------------	------------------------	---------

(تابع) طساسيج السواد في الجانب الغربي :

طسوج النهرين	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
» عين التمر	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
» الحبة والبداة	١٥٠٠	١٦٠٠	١٥٠٠٠٠
سورا ورنسيا	١٥٠٠	٤٥٠٠	٢٥٠٠٠٠
البرس الأعلى والأسفل	٥٠٠	٥٥٠٠	١٥٠٠٠٠
فوات بادقلى	٢٠٠٠	٢٥٠٠	٦٢٠٠٠
طسوج السيلحين	١٠٠٠	١٥٠٠	١٤٠٠٠٠
روذستان وهرمزجرد	٥٠٠	٥٠٠	٢٠٠٠٠
تستر	٢٢٠٠	٢٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
ايغار يقطين	١٢٠٠	٢٠٠٠	٢٠٤٨٠٠
كسكر	٣٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	٢٧٠٠٠٠

طساسيج السواد في الجانب الشرق :

طسوج بزر جسابور	٢٥٠٠	٢٢٠٠	٣٠٠٠٠٠
» الراذانيين	٤٨٠٠	٤٨٠٠	١٢٠٠٠٠
» نهر بوق	٢٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠
كلواذى ونهرين	١٦٠٠	١٥٠٠	٣٣٠٠٠٠
جازر والمدينة العتيقة	١٠٠٠	١٥٠٠	٢٤٠٠٠٠
روستقباد	١٠٠٠	١٤٠٠	٢٤٦٠٠٠
سلسل ومهروذ	٢٠٠٠	١٥٠٠	١٥٠٠٠٠
جلولا وجلالتا	١٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠

(تابع) الخراج في عهد المعتمد

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكتر	مقدار الشعير بالكتر	الدرهم
(تابع) طساسيج السواد في الجانب الشرقى :			
الذيين	١٩٠٠	١٣٠٠	٤٠٠٠٠
الدسكرة	١٨٠٠	١٤٠٠	٦٠٠٠٠
البندنجين	٦٠٠	٥٠٠	٣٥٠٠٠
طسوج براز الروذ	٣٠٠٠	٥١٠٠	١٢٠٠٠٠
النهروان الأعلى	١٧٠٠	١٨٠٠	٣٥٠٠٠٠
النهروان الأوسط	١٠٠٠	٥٠٠	١٠٠٠٠٠
بدرايا وبكسايا	٤٧٠٠	٥٠٠٠	٣٣٠٠٠٠
كور دجلة	٩٠٠	٤٠٠٠	٤٣٠٠٠٠
نهر الصلوة	١٠٠٠	٣١٢١	٥٩٠٠٠
النهروان الأسفل	١٧٠٠	١٣٠٠	٥٣٠٠٠
مجموع خراج السواد	١١٥٦٠٠	١٢٣٩٢١	٨٨٢١٨٠٠

فمجموع جباية السواد باعتبار نواحيه ١١٥٦٠٠ كتر حنطة و ١٢٣٩٢١ كتر شعير و ٨٨٢١٨٠٠ درهم . على أن هذا المجموع يختلف عما قاله قدامة المذكور بعد أن أورد نخراج كل ناحية بالتفصيل كما تقدم ، فقد قال في إيراد المجموع « ذلك ارتفاع السواد سوى صدقات البصرة من الحنطة ١٧٧٢٠٠ كتر ومن الشعير ٩٩٧٢١ كتر ومن الورق ٨٠٩٥٨٠٠ درهم » وقد قال المرحوم جرجي بك زيدان : وأصل سبب هذا الفرق خطأ في قراءة بعض الأعداد ، على أن الفرق على كثرته لا يعتد به فيما نحن فيه . بقى علينا أن نحول الحنطة والشعير الى دراهم ، وقد فعل جعفر ذلك فحولها باعتبار ثمن الكرين المقروين من الحنطة والشعير ٦٠ دينار والدينار على صرف ١٥ درهما يدينار فيبلغ ذلك

عصر المأمون

٣٣٦

١٠٠٣٦١٨٥٠ درهما وقال : إن صدقات البصرة ترتفع في السنة ٦٠٠٠٠٠٠ درهم ، فإذا جمعت ذلك كله ، بلغ ١١٤٤٥٧٦٥٠ درهما على هذه الصورة :

الدراهم المجموعة ورقا	٨٠٩٥٨٠٠
قيمة الحنطة والشعير بالدرهم	١٠٠٣٦١٨٥٠
صدقات البصرة	٦٠٠٠٠٠٠
درهما	<u>١١٤٤٥٧٦٥٠</u>

هذا هو ارتفاع السواد ، فلتتقدم إلى إيراد جبايات سائر الأقاليم بالمشرق والمغرب وهي مع السواد :

أقاليم المشرق	درهم	أقاليم المشرق	درهم
السواد	١١٤٤٥٧٦٥٠	ما قبله	٢٤٢٢٥٧٦٥٠
الأهواز	٢٣٠٠٠٠٠٠	الري ودماوند	٢٠٠٨٠٠٠٠
فارس	٢٤٠٠٠٠٠٠	قزوين وزنجان وأبهر ...	١٨٢٨٠٠٠٠
كرمان	٦٠٠٠٠٠٠٠	قوس	١١٥٠٠٠٠٠
مكران	١٠٠٠٠٠٠٠	جرجان	٤٠٠٠٠٠٠٠
أصبهان	١٠٥٠٠٠٠٠	طبرستان	٤٢٨٠٧٠٠
سجستان	١٠٠٠٠٠٠٠	تكريت والطبرهان	٩٠٠٠٠٠٠٠
خراسان	٣٧٠٠٠٠٠٠	شهرزور والصامغان	٢٧٥٠٠٠٠٠
حلوان	٩٠٠٠٠٠٠٠	الموصل وما يليها	٦٣٠٠٠٠٠٠
ماه الكوفة	٥٠٠٠٠٠٠٠	قردي وبزدي	٣٢٠٠٠٠٠٠
ماه البصرة	٤٨٠٠٠٠٠٠	ديار ربيعة	٩٦٣٥٠٠٠٠
همدان	١٧٠٠٠٠٠٠	أرزن وميافارقين	٤٢٠٠٠٠٠٠
ماسبدان	١٢٠٠٠٠٠٠	طروند	١٠٠٠٠٠٠٠
مهرجان قنق	١١٠٠٠٠٠٠	آمد	٢٠٠٠٠٠٠٠
الايغارين	٣١٠٠٠٠٠٠	ديار مضر	٦٠٠٠٠٠٠٠
قم وقاشان	٣٠٠٠٠٠٠٠	أعمال طريق الفرات ...	٢٩٠٠٠٠٠٠
أذربيجان	٤٥٠٠٠٠٠٠	المجموع	<u>٣١١٥٨١٣٥٠</u>
نقل بعده	<u>٢٤٢٢٥٧٦٥٠</u>		

(تابع) ارتفاع السواد وإيراد جبليات سائر الأقاليم

أقاليم المغرب	دنانير	أقاليم المغرب	دنانير
قنسرين والعواصم	٣٦٠٠٠٠	ما قبله ...	٣٥٩٢٠٠٠
جند حص	٢١٨٠٠٠	الحرمين	١٠٠٠٠٠
» دمشق	١١٠٠٠٠	اليمن	٦٠٠٠٠٠
» الأردن	١٠٩٠٠٠	اليمامة والبحرين	٥١٠٠٠٠
» فلسطين	٢٩٥٠٠٠	عمان	٣٠٠٠٠٠
مصر والاسكندرية	٢٥٠٠٠٠٠	المجموع	٥١٠٢٠٠٠
نقل بعده ...	٣٥٩٢٠٠٠		

وإذا ما حولنا هذه الدنانير الى دراهم ، باعتبار الدينار ١٥ درهما فانها تساوى ٧٦٧١٠٠٠٠ درهم وبإضافتها الى مجموع جبليات أقاليم المشرق والجزيرة ، يكون مجموع ذلك كله ٣٨٨٢٩١٣٥٠ درهما وهو ارتفاع الخراج على تقدير قدامة .

*
* *

(ز) السعيات والجاسوسية :

وهناك ملاحظة أخرى جديرة بالقيّد ، وهى انتشار السعيات والدسائس فى ذلك العصر انتشارا مرقعا . وأهل سبب ذلك جنوح العباسيين الى استعمال الجواسيس والرقباء بكثرة هائلة . فانظر مثلا ما جاء فى الجزء العشرين من كتاب « نهاية الأرب » عن المأمون إذ يقول : إنه كان يحب سماع أخبار الناس حتى جعل يرسم الأخبار ببغداد ألف عجز وسبعائة عجز . فنأمل جاسوسية العصر التى لا يبعد البتة أن تكون لها يومئذ إدارات خاصة !

وبعد ، فهما يكن من افتراضك للبالغة والغلو فيما يرويه لنا صاحب نهاية الأرب ، فان اطلاعك على كتاب ابن طيفور الذى كان معاصرا لكثير من رواة ، والذى كان

قريب العهد بالمأمون وعصره ، يقنعك بكثرة العيون وكثرة الأرصاد، كثرة قد تهلك حقا
وتدهشك صدقا ! ! .

وقد سبق أن قلنا إن جل الساسة العباسيين كانوا يوصون بحفظ الأسرار، ويحبون
الرجل الكئمة القفلة . وكان لحفظ الأسرار عندهم مكانة عظيمة . واثق اذا نظرت
الى قول المأمون : « تحتل الملوك كل شيء إلا ثلاثة : إفشاء السر، والقدح في الملك،
والتعرض للحرم » علمت حينئذ مكانة حفظ السر عندهم، وأنها في المنزلة الأولى من اعتبارهم،
واستطعت أن تعلل لم كانت خططهم غير واضحة ولا جلية، وربما كانت معمة مبهمة .



(ح) الدعاوة " البرويأيندا " :

وهناك مسألة أخرى نحدثك بها ، وهي جدية بالملاحظة قينة بالبحث، تلك هي
عنايتهم بأمر الدعاوة وتقويتهم حملاتهم فيما يريدون الدفاع عنه . فقد كان إلتفاتهم لأمرها
وعلمهم بأفانيتها ووقوفهم على نظمها ، بالغاً مبلغاً عظيماً ، إذ كان في مكنتهم وطوع
بنانهم ، أن يصوروا الحق باطلاً والباطل حقاً . وإن فيما رواه الطبري وغير الطبري عن
سنى حياة المأمون ، واستخدامه للرقاع تعلق على ظهر من يقتل أو يُعاقب من رجالات
دولته ، الغنية والكفاية فيما نحن بسبيل القول فيه .

وأنا نسوق اليك مثلين لتأيد ما ذهبنا اليه :

فقد ذكر الطبري أن المأمون لما قتل على بن هشام أمر أن تكتب رقعة وتعلق على
رأسه ليقرأها الناس ، فكتب - وقد ذكرنا هذا الكتاب فيما سبق لمناسبة أخرى - :
« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين كان دعا على بن هشام فيمن دعا من أهل خراسان ،
أيام المخلوع ، الى معاونته والقيام بحقه ، وكان فيمن أجاب وأسرع الإجابة ، وعاون
فأحسن المعونة ، فربح أمير المؤمنين ذلك له ، واصطنعه . وهو يظن به تقوى الله

وطاعته ، والانتهاه الى امر أمير المؤمنين في عمل إن أسند اليه في حسن السيرة وعفاف الطَّعْمة . وبدأه أمير المؤمنين بالإفضال عليه ، فولّاه الأعمال السنية ، ووصله بالصلوات الجزيلة التي أمر أمير المؤمنين بالنظر في قدرها ، فوجدها أكثر من خمسين ألف ألف درهم ، فمّده الى الخيانة والتضييع لما استرعاه من الأمانة ، فباعده عنه وأقصاه ، ثم استقال أمير المؤمنين عَثْرَتَهُ ، فأقاله إياها ، وولاه الجبل وأذْرَيجان وكور أَرْمِينِيَّة ، ومحاربة أعداء الله الخونة ، على ألا يعود لما كان منه ؛ فعاود أكثر ما كان بتقديمه الدينار والدراهم على العمل لله ودينه ، وأساء السيرة ، وعَسَفَ الرعية ، وسفك الدماء المحرّمة ، فوجه أمير المؤمنين عُجَيفَ بن عَنَسَةَ مباشرة لأمره ، وداعيا الى تلافى ما كان منه ، فوثب بعجيف يريد قتله ، فقوى الله عجيفا بنيتسه الصادقة في طاعة أمير المؤمنين حتى دفعه عن نفسه . ولو تم ما أراد بعجيف لكان في ذلك ما لا يُستدرك ولا يُستقال ، ولكن الله اذا أراد أمرا كان مفعولا . فلما أمضى أمير المؤمنين حكم الله في عليّ بن هشام ، رأى ألا يؤاخذه من خلفه بذنبه ، فأمر أن يجري لولده ولعياله ولمن اتصل بهم ومن كان يجري عليهم ، مثل الذي كان جاريا لهم في حياته . ولولا أن عليّ بن هشام أراد العُظْمَى بعجيف لكان في عداد من كان في عسكره ممن خالف وخان ، كهيسى بن منصور ونظرائه والسلام .

فأنت ترى من هذا الى أية درجة من العناية والاهتمام وصلت الدعاة « البروباجنده » المأمونية !

ولا غرو فقد أفادت المأمون أيما إفادة . وقد كان المسلمون ، بسبب نشاط العباسيين في الدعوة لأنفسهم ، أطوع لهم مما كانوا لبني أمية ، واعتقدوا أن خلافتهم تبقى أبد الدهر حتى يأتي السيد المسيح . وغُرسَ في أذهان الناس ، بتوالي الأزمان ، أن الخليفة العباسي اذا قُتل اختلّ نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القطر وجفّ النبات ! كل ذلك من أثر عناية العباسيين بالدعاة لأنفسهم ، واهتمامهم أيما اهتمام بتبوير تصرفاتهم وتركيز أعمالهم .

ثم أنظر ماذا حصل لأبراهيم بن المهدي، تر أن الدعوة المأمونية أثبت إلا أن يقعد في دار المأمون لينظر اليه بنو هاشم والقواد والجند، وصير الدعاة المقتعة التي كان متعقبا بها في عنقه، والملحفة التي كان ملتحقا بها في صدره، ليراه الناس ويعلموا كيف أخذ.

وانظر أخيرا — رعاك الله ووفقك — الى ما يحدثنا به أحمد بن أبي دؤاد عن كلمة المأمون في هذا الصدد، قال: «قال لي المأمون: لا يستطيع الناس أن ينصفوا الملوك من وزرائهم، ولا يستطيعون أن ينظروا بالعدل بين الملوك وحماتهم وكفاتهم، وبين صنائعهم وبطانتهم، وذلك أنهم يرون ظاهرا حرمة وخدمة واجتهاد ونصيحة، ويرون إيقاع الملوك بهم ظاهرا، حتى لا يزال الرجل يقول ما أوقع به إلا رغبة في ماله أو رهبة في بعض ماله تجود النفوس به، ولعل الحسد والملااة وشهوة الاستبدال اشتركت في ذلك. وهناك خيانات في صاب الملك أو في بعض الحرم، فلا يستطيع الملك أن يكشف للعامة موضع العورة في الملك، ولا أن يحتج لتلك العقوبة بما يستحق ذلك الذنب، ولا يستطيع الملك ترك عقابه، لما في ذلك من الفساد على عامه بأن عذره غير مبسوط للعامة، ولا معروف عند أكثر الخاصة».



(ط) صعوبة مهمة المؤرخ:

والحق أنها مهمة صعبة أن تستكشف حقيقة الظالم من المظلوم، والغالب من المغلوب، والهادي والضال، في هذه الدولة التي لعبت فيها الأفلام والألسنة دورا عظيما. ولولا ما جنحنا اليه من الاطلاع على شتى المصادر، وقضينا في ذلك تمهيدا طويلا ودرسا مملا متعبا، فطالعنا أقوال الأحزاب المتضاربة، ووازننا بين كلمة هذا ودفاع ذاك، لما كنا بالعين بعض ما بلغناه من إمالة اللثام عن بعض الحقائق التاريخية. وفي هذا القدر الكفاية عن حياة المأمون الخليفة، وأن لنا أن نتكلم عن نواحيه الخلقية.

الفصل السابع

شخصية المأمون

توطئة — كرمه وسخاؤه — كيف ملك المأمون قلوب بطانته — قدره لرجال دولته — قدره للشجاعة الأدبية — عدله وانصافه — عفوه — بصره بالأدب — علم المأمون — احترامه للدين — سياسته — مذهبه الديني — كلمة ختامية .

(١) توطئة :

نريد هنا أن نحلل أخلاق المأمون ، ونريد أن نستقصى كل ما قيل عنه وأن ندرس شتى نواحيه الخلقية بما تستحقه من العناية والتعليق والتوضيح . وسنعمد فيما سنكتبه على الحوادث وما رواه المعاصرون عنه . ونرجو أن نوفق فيما سنعانية .

(ب) كرمه وسخاؤه :

يقول صاحب النجوم الزاهرة : انه لم يفرق ملك ولا سلطان في يوم واحد مثل ما فرقه المأمون يوم ولى ولده العباس على الجزيرة ، اذ أمر لكل من المعتصم والعباس بنجسمائة ألف دينار ، وأمر بمثل ذلك لعبد الله بن طاهر .

وقد يكون من نافلة القول أن نذكر أن المأمون كان من أكثر حلفاء العباسيين جوداً وأبسطهم يداً ، وأسخاهم نفساً ، بعد أن نرى كتب التاريخ والأدب مفعمة بما كان له من حوادث غريبة في السخاء والجود .

والذي يتتبع ما ذكره المؤرخون من حوادث جوده وفيض إنعامه ، يرى أن كرم المأمون وسخاؤه يرجع الى عناصر مختلفة في نفسه ، فمنها ما يرجع الى ما في فطرته من أريحية واهتزاز للعروف ، ومنها ما يرجع اليه كسياسي يريد أن يظفر ويملك القلوب ، ويوطد أركان سلطانه بالمال .

ونحن اذا نظرنا الى الدوحة الهاشمية التي تفرع عنها المأمون ، وأنه نشأ في حجر الخلافة في النعيم والترف ، ومن هذا شأنه قل حرصه على المال ، واذا نظرنا أيضا الى أنه خاض معجزة سياسية وحربية كان المال من أفعال آلتها وأبعدها أثرا — وقد بينا لك في العصر الأموي ما كان لئال من أثرقوى في إقامة سلطان بني أمية وتوطيده — لم نرغوا كبيرا فيما أترعت به كتب الأدب والتاريخ من حوادث جود المأمون وكرمه . ولننظر فيما يرويه لنا ابن طيفور في هذا السبيل ، فانه قال : إن المأمون لما فتح « حصن فزة » وغنم ما فيه اشترى السبي بستة وخمسين ألف دينار ، ثم حلى سبيلهم وأعطاهم دينارا دينارا .

وهاك مثالا مما يصح أن يكون من آثار أريحية المأمون وإرادته توطيد سلطانه :

يحدثنا ابن الأثير والطبري ، أن العيسى صاحب اسحاق بن ابراهيم قال : كنت مع المأمون بدمشق ، وكان قد قل المال عنده حتى أضاق وشكا ذلك الى أبي اسحاق المعتصم ، فقال له : يا أمير المؤمنين ^(١) ، كأنك بالمال وقد وافاك بعد جمعة ، وكان قد حمل اليه ثلاثين ألف ألف درهم من خراج ما يتولاه له . قال : فلما ورد عليه ذلك المال ، قال المأمون ليحيى بن أسكتم : أخرج بنا ننظر الى هذا المال ، قال : فخرجا حتى أصبحنا ووقفنا ينظرانه ، وكان قد هني بأحسن هيئة وحللت أباعره وألبست الاحلاس الموشاة والجلال المصبغة وقُلدت العهن ، وجُعلت البدر بالحرير الصبني الأحمر والأخضر والأصفر ، وأبديت رؤوسها ، قال : فنظر المأمون الى شيء حسن ، واستكثر ذلك فعظم في عينه ، واستشرفه الناس ينظرون اليه ويعجبون منه ، فقال المأمون ليحيى : يا أبا محمد ، ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين تراهم الساعة خائنين الى منازلهم ، وينصرف بهذه الأموال وقد ملكوها دونهم ، إنا إذا للثام ! ثم دعا محمد بن يزداد ، فقال له : وقّع لآل فلان بألف ألف ، ولآل فلان بمثلها ، ولآل فلان بمثلها ، قال : فوالله إن زال كذلك حتى فرق أربعة وعشرين ألف ألف درهم ، ورجلُه في الركاب ، ثم قال : ادفع الباقي الى المعلى يعطى جنودنا . قال العيسى : بخت

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : « أحسب أن ألقا زائدة في عباراتهم المنقولة لأن حساب ذلك يؤول الى مليارين من الدنانير ، وعلّة بنى العباس في عشر سنوات لا تفي بذلك ، فكيف بمصر وحدها » .

حتى قمتُ نُصب عينه ، فلم أردَ طرفي عنها لا يحظني إلا رآني بتلك الحال ، فقال
يا أبا محمد : وقّع لهذا بخمسين ألف درهم من ستة آلاف الألف ؛ قال : فلم يأت عليّ
ليلتان حتى أخذت المال » .

ومما يدل على كرم نفس المأمون وحُسن تبسّطه ، ما رواه القاسم بن محمد الطيفوري ،
قال : «وشكا اليزيديّ الى المأمون خلةً أصابته ودنيًا لحقه ؛ فقال : ما عندنا في هذه الأيام
ما إن أعطيناكه بلغت به ماتريد ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الأمر قد ضاق عليّ ، وإن
عُرمائي قد أرهفوني ؛ قال : « فُرِّمَ لنفسك أمرًا تنل به نفعاً ؛ فقال : لك منادمون فيهم
من إن حركته نلت منه ما أحبّ ، فأطلق لي الحيلة فيهم ؛ قال : قل ما بدا لك ؛ قال :
فاذا حضروا وحضرت فُسرّ فلانا الخادم أن يُوصّل اليك رقعتي ، فاذا قرأتها فأرسل اليّ :
«دخولك في هذا الوقت متعذر ، ولكن اختر لنفسك من أحببت » . قال : فلما علم أبو محمد
بجلوس المأمون واجتماع ندمائه اليه وتيقن أنهم قد تملّوا من شرهم ، أتى الباب فدفّع
الى ذلك الخادم رقعةً قد كتبها ، فأوصلها الى المأمون ، فقرأها فاذا فيها :

يا خير إخواني وأصحابي * هذا الطُفيليّ لدى الباب
خُبّر أنّ القوم في لذة * يصبو اليها كلّ أوّاب
فصيروني واحدًا منكم * أو أخرجوا لي بعض أترابي

قال : فقرأها المأمون على من حضره ؛ فقالوا : ما ينبغي أن يدخل هذا الطُفيليّ على مثل
هذه الحالة ؛ فأرسل اليه المأمون : « دخولك في هذا الوقت متعذر ، فاختر لنفسك من
أحببت تناديه » . فقال : ما أرى لنفسى اختياراً غير عبدالله بن طاهر ؛ فقال له المأمون :
قد وقع اختياره عليك فسرّ اليه ؛ قال : يا أمير المؤمنين ، فما أكون شريك الطُفيليّ ؛ قال :
ما يمكن ردّ أبي محمد عن أمرين ، فإن أحببت أن تخرُج وإلا فافتد نفسك . فقال :
يا أمير المؤمنين ، له عليّ عشرة آلاف درهم ! قال : لا أحسبُ ذلك يُقنعه منك ومن
بجاستك ؛ قال : فلم يزل يزيده ، عشرة عشرة ، والمأمون يقول له : لا أرضى له بذلك ،

حتى بلغ مائة ألف . قال : فقال له المأمون : فعَجَّلْها له ؛ قال : فكتب له بها الى وكيله ، ووجه معه رسولا . فأرسل اليه المأمون : « قَبْضُ هذه في هذه الحال أصلح لك من منادمته على مثل حاله ، وأنفع عاقبة » .

ويُتَخَلَّى سخط المأمون ، مع الوفاء وطيب النفس ، في موقفه مع غلام سَعِيدِ الجوهريّ الذي كان قد لَزَّ بالمسأمون في الكُتَّاب ، فكان اذا احتاج المأمون الى مَحْوِ لَوْحِه بادر اليه فأخذ اللوح من يده فمحاه وغلب على غلمان المأمون ومسحّه وجاء به فوضعه على المنديل في حجره . فلما سار المأمون الى نحرسان وكان من أخيه محمد الأمين ما كان ، خرج اليه غلام سعيد هذا فوقف بالباب حتى جاء أبو محمد اليزيديّ ، فلما رآه عرفه ، فدخل فأخبر المأمون ؛ فقال له مستبسرا بقدمه : لك البشرى ! ثم أذن له فدخل عليه ؛ فضحك اليه حين رآه ، ثم قال : أتذكر وأنت تبادر الى محو لوحى ! قال : نعم يا سيدي . فوصله بخمسة ألف درهم .

وانظريا يحدثنا به الطبريّ عن محمد بن أيوب ، قال : إنه كان بالبصرة رجل من بني تميم وكان شاعرا ظريفا ، خبيثا ماكرا ، وكنت أنا وإلى البصرة آنس به وأستحليه ، فأردت أن أخدعه وأستنزه ، فقلت له : أنت شاعر ، وأنت ظريف ، والمأمون أجود من السحاب الحافل والريح العاصف ، فما يمنعك منه ؟ قال : ما عندي ما يُقَلَّتِي ، قلت : فأنا أعطيك نجيبا فارها ونفقةً سابغةً وتخرج اليه وقد امتدحته ، فانك إن حَظِيتَ بلقائه ، صُرْتَ الى أُمْنِيَّتِكَ ؛ قال : والله أيها الأمير ، ما إخالك أبعدت ، فأعد لي ما ذكرت ؛ قال : فدعوت له بنجيب فاره ، فقلت : شأنك به فأمّطه . قال : هذه إحدى الحُسَيْنَيْنِ ، فما بال الأخرى ؟ فدعوت له بثمائة درهم ، وقلت : هذه نفقتك ، قال : أحسبك أيها الأمير قصرت في النفقة ، قلت : لا ، هي كافية إن قصرت عن السرف ، قال : ومتى رأيت في أكابر سعد سرفا حتى تراه في أصاغرها ! فأخذ النجيب والنفقة ، ثم عمل أرجوزة ليست بالطويلة ، فأنشدنيها وحذف منها ذكرى والثناء على ، وكان ماردا ، فقلت له : ما صنعت شيئا ؛ قال :

شخصية المأمون

٣٣٥

وكيف؟ قلت: تأتي الخليفة ولأنتني على أميرك! قال: أيها الأمير أردت أن نخدعني فوجدتني خداعا! أما والله ما لكرامتي حملتني على نحيبك ولا جُدت لي بمالك الذي ما رame أحد قط إلا جعل الله خده الأسفل، ولكن لأذكرك في شعري وأمدحك عند الخليفة، افهم هذا؛ قلت: قد صدقت؛ فقال: أما اذ أبديت ما في ضميرك، فقد ذكرتك وأشبيت عليك؛ قلت: فأنشدني ماقلت، فأنشدني، فقلت: أحسنت، ثم ودعني وخرج، فأتى الشام وإذا المأمون «بسلغوس». قال: فأخبرني، قال: «بيننا أنا في غزاة قُرة، قد ركبْتُ نجيبِي ذاك، ولبست مُفطَّعاتي وأنا أروم العسكر، فإذا أنا بكهيل على بغل فار، ما يقترقاره ولا تدرك خطاه، قال: فتلفاني مكافئة ومواجهة وأنا أردد نسيب أربوزتي، فقال: سلام عليكم! بكلام جهوريّ ولسانٍ بسيط؛ فقلت: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته! قال: قف إن شئت، فوقف، فتضوّعت منه رائحة العنبر والمسك الأذفر؛ فقال: ما أولك؟ قلت: رجلٌ من مضر؛ قال: ونحن من مضر. ثم قال: ثم ماذا؟ قلت: رجل من بني تميم؛ قال: وما بعد تميم؟ قلت: من بني سعد؛ قال هيه! فما أقدمك هذا البلد؟ قال: قصدت هذا الملك الذي ما سمعت بمثله أندى رائحة، ولا أوسع راحة، ولا أطول باعا، ولا أمد يفاعا؛ قال: فما الذي قصدته به؟ قلت: شعر طيب يلذ على الأفواه وتفتفيه الرواة ويحلون في آذان المستمعين؛ قال: فأنشدني، فغضبتُ وقلت: ياريك! أخبرتك أنني قصدت الخليفة بشعر قلته ومديح خبرته، تقول أنشدني! قال: فتغافل والله عنها وتطأ من لها وألغى عن جوابها؛ قال: وما الذي تأمل منه؟ قلت: أن كان على ما ذكر لي عنه، فألف دينار قال: فأنا أعطيك ألف دينار إن رأيت الشعر جيّدا والكلام عذبا، وأضع عنك العناء وطول التردد، ومتى تصل إلى الخليفة وبينك وبينه عشرة آلاف راخ ونابل! قلت: فلي الله عليك أن تفعل؛ قال: نعم، لك الله على أن أفعل؛ قلت: ومعك الساعة مال؟ قال: هذا بغلي، وهو خير من ألف دينار، أنزل لك عن ظهره؛ قال: فغضبت أيضا وعارضني نزع سعد وخفة أحلامها، فقلت: ما يساوي

هذا البغل هذا النجيب ، قال : فدع عنك البغل ، ولك الله على أن أعطيك الساعة ألف دينار ، قال : فألشدته :

مأمونُ ياذا المِنَنِ الشَّرِيفِ * وصاحبَ المَرْتَبَةِ المُنِيفِ
وقائدَ الكَتِيبَةِ الكَثِيفِ * هَلْ لك في أَرْجُوزَةٍ طَرِيفِ
أَخْرَفَ من فَقه أبي حَنِيفِ * لا والذي أَنْتَ له خَلِيفِ
ماظَلِمْتُ في أرضنا ضَعِيفِ * أَمِيرنا مُؤَنَّتَه خَفِيفِ
وما أَجَبْتِي شَيْثا سِوَى الوَظِيفِ * فالذُّبُ والنَّعْجَةُ في سَقِيفِ
* واللصُّ والتَّاجِرُ في قَطِيفِ *

قال : فوالله ما عدا أن أنشدته ، فاذا زهاء عشرة آلاف فارس قد سدّوا الأفق ، يقولون : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ! قال : فأخذني أَفْكُلُ^(١) ، ونظر الى بتلك الحالة فقال : لا بأس عليك أى أنحى ؛ قلت : يا أمير المؤمنين ، جعلنى الله فداءك ، أتعرف لغات العرب ؟ قال إى لَعَمْرُ الله ! قلت : فن جعل الكاف منه مكان القاف ؟ قال : هذه حمير ؛ قلت : لعنما الله ولعن من استعمل هذه اللغة بعد اليوم ! فضحك المأمون وعلم ما أردت ، وألثفت الى خادم الى جانبه فقال : أعطه ما معك ، فأخرج الى كيسا فيه ثلاثة آلاف دينار ، فقال : هالك ، ثم قال : السلام عليك ومضى ، فكان آخر العهد به .

أما عن كرم نفسه فان ابن طيفور يحدثنا أن مُحَارِقا قال : كنا عند المأمون أنا والمغنون بدمشق وعَرِيبُ معنا ، فقال : غَنِّ يا مُحَارِقُ ؛ فقلت : أنا محوم ؛ فقال : يا عَرِيبُ جُسيه ، فرفعت يدها الى عضدى ، فقال لها المأمون : قد اشتيتيه ، تحمين أن أزواجكِ ؟ قالت : نعم ! فقال مَنْ تريدِينَ ؟ قالت : هذا ، وأومأت الى محمد بن حامد ، فقال : اشهدوا أنى قد زوجتها منه . ثم انظر ما يستطرد به مُحَارِقُ من أن المعتصم لها وَلِيّ ، كتب الى اسحاق ابن ابراهيم : أن مُرَّ محمد بن حامد أن يُطَلَّقَ عَرِيبا ، فأمره فتأبى ، فكتب اليه : أن

(١) أفكل : رعدة وقشعريرة .

شخصية المأمون

٣٣٧

آضره، فضربه بالمقارع حتى طلقها . ففي هذه الرواية ما يساعد على الوصول الى تنظير في هذه الناحية بين المأمون وأخيه المعتصم .

أما كرم بطانته واقتفاؤهم أثره، وترسمهم خطواته ، فإن الحديث في ذلك يطول ، وقصارانا أن نحيل الى ما فعل طاحه بن طاهر وعبد الله بن طاهر وغيرهما ، فاطلب ذلك في مظانه .

« وبعد » فانه لمن الجميل المتع حفا أن يكون الملك كريما بسجيته ، جوادا بنزعه ، وقد يكون أجمل وأمتع ، وأبلغ وأوقع ، أن يكون من وراء فواضله وإنعاماته تشجيع الكفائيات على الظهور ، واستحثاث أصحاب الهمم والعزمات ، والمواهب والعقريات ، على التبريز والإحسان ، والإجادة والإتقان ، خدمة لبنى الإنسان ، ورفعة للأوطان .



(ج) كيف تملك المأمون قلوب بطانته :

نريد أن نترك الكلمة في تصوير هذه الناحية ، لما يرويه لنا ولادة المأمون أنفسهم ، فقد قال رجل من إخوة المأمون للمأمون : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الله بن طاهر يميل الى ولد أبي طالب ، وكذا كان أبوه قبله ، فدفع المأمون ذلك وأنكره ، ثم عاد بمثل هذا القول . فدرس اليه رجلا ثم قال له : امض في هيئة القراء والنساء الى مصر ، فادع جماعة من كبرائها الى الفاسم بن ابراهيم بن طباطبا ، وأذكر مناقبه وعلمه وفضائله ، ثم صر بعد ذلك الى بعض بطانة عبد الله بن طاهر ، ثم ائته فادعه ورغبه في استجابته له ، والبحث عن دفين نيتة بحثا شافيا ، وأتني بما تسمع منه . قال : ففعل الرجل ما قال له وأمره به ، حتى اذا دعا جماعة من الرؤساء والأعلام ، قعد يوما بباب عبد الله بن طاهر ، وقد ركب الى عبيد الله بن السري بعد صلحه وأمانه ، فلما انصرف قام اليه الرجل فأخرج من كبه رقعة فدفعها اليه ، فأخذها بيده ، فلما أن دخل نفرج الحاجب اليه ، فأدخله عليه ، وهو قاعد على بساطه ما بينه وبين الأرض غيره ، وقد مدّ رجله وخفاه فيهما ، فقال له : قد فهمت ما في رقتك

من جملة كلامك ، فهات ما عندك ؛ قال : ولى أمانك وذمة الله معك ؟ قال : لك ذلك . قال : فأظهر له ما أراد ودعاه الى القاسم فأخبره بفضائله وعلمه وزهده ؛ فقال له عبد الله : أتنصني ؟ قال نعم ؛ قال : هل يجب شكر الله على العباد ؟ قال نعم ؛ قال : فهل يجب شكر بعضهم لبعض عند الإحسان والمنّة والتفضل ؟ قال نعم ؛ قال : فتجىء الى وأنا فى هذه الحال التى ترى : لى خاتم فى المشرق جائز وفى المغرب كذلك ، وفيما بينهما أمرى مطاع وقولى مقبول ، ثم ما التفت يمينى ولا شمالى وورائى وقدامى ، إلا رأيت نعمة لرجل أنعمها علىّ ومنّة ختم بها رقبتى ويدا لا تحمّة بيضاء ابتدأت بها تفضلاً وكرماً ، فتدعونى الى الكفر بهذه النعمة وهذا الاحسان ! وتقول اغدر بمن كان أولاً لهذا وآخر ! واسع فى إزالة خيط عنقه وسفك دمه ! تراك لو دعوتنى الى الجنة عياناً من حيث أعلم أكان الله يحب أن أغدر به وأكفر إحسانه وممته ، وأنكث بيعته ! فسكت الرجل ؛ فقال له عبد الله : أما إنه قد بلغنى أمرك ، وتالله ما أخاف عليك إلا نفسك ، فارحل عن هذا البلد ، فإن السلطان الأعظم إن بلغه أمرك ، وما آمن ذلك عليك ، كنت الجانى على نفسك ونفس غيرك . فلما أيس الرجل مما عنده جاء الى المأمون فأخبره الخبر ؛ فاستبشر وقال : ذلك غرس يدي ، وإلف أدبى ، وثرب تلقى ، ولم يظهر من ذلك لأحد شيئاً ولا علم به عبد الله إلا بعد موت المأمون .

وانظر الى تلك النصيحة التى تقدّم بها عبد الله بن طاهر لمنصور بن طاحه ، ينهاه عن الكلام فى الإمامة اذ يقول : " إنما نبت شعراً على رءوسنا ببنى العباس " . ثم انظر الى ما كتبه المأمون الى عبد الله المذكور :

أمنى أنت ومولاى * ومن أشكر نعماء
فما أحببت من أمر * فلأنى الدهر أهواه
وما تكره من شئ * فأنى لست أرضاه
لك الله على ذاك * لك الله لك الله

وانظر الى ما رواه الطبري عما قاله عبد الله بن طاهر وهو مُحاصر بمصر عُبيد الله ابن السري إذ قال :

بَكَرْتُ تُسِيلُ دَمْعًا * أَنْ رَأْتُ وَشَكَ بَرَّاحِي
وَتَبَدَّلْتُ صَقِيلًا * يَمْنِيَا بِيُشَاحِي
وَتَمَادَيْتُ بِسِيرٍ : لِغَدَوْ وَرَوَّاح
زَعَمْتُ جَهْلًا بَانِي * تَعَبُّ عَيْرُ مُرَّاح
أَقْصِرِي عَنِّي فَإِنِّي * سَالِكُ قَصْدِ فَلَاحِي
أَنَا لِلْمَأمُونِ عَبْدٌ * مِنْهُ فِي ظِلِّ جَنَاح
إِنْ يُعَافِ اللَّهُ يَوْمًا * فَفَرِيبٌ مُسْتَرَّاحِي
أَوْ يَكُنْ هُلُكٌ فُقُولِي * بَعْوِيلٌ وَصِيَّاح
حَلَّ فِي مَصْرَ قَتِيلٌ * وَدَعَى عَنْكَ التَّلَاحِي

ألا يجوز لنا أن نستخلص مما قدّمناه لك أن المأمون كان محبوباً عند بطانته ! ولستنا نفى بذلك أن الأمين لم يكن محبوباً ، وأن موته ألم أهل بغداد وجندها ، ولا ننكر أن بعضاً من جند طاهر بن الحسين انضمّ الى الأمين طمعاً في ماله وحبا في سخائه مما بيّناه لك في موضعه ، ولكننا الآن بموقف الذين يحلون أخلاق المأمون ، وفي عنقنا ألا نترك ناحية من نواحيه من غير أن نفحص حقيقتها من البحث ، ونعطيها نصيبها من الاستقراء .

« وبعد » فانه مما لا مندوحة لليلك عنه أن يكون وادماً محبباً الى بطانته وحاشيته ، باحسانه اليهم ، وتعهدده إياهم بعطفه ورعايته ، وأن يحذب عليهم ويرعاهم بعناية تشملهم ألفتافها وتقلد أعناقهم منها ، وتكون أشمل للرعية وأرعى للأفراد لحقهم من شخصه الجليل ، إذ هو ملك للرعية جميعها ، على اختلاف ألوانها وتباين مراتبها ، وهو عظيم التبعة أمام الله والتاريخ عن تملك عليهم وتولّى أمر دنياهم وآخرتهم .



(د) تقديره لرجال الدولة :

كان المأمون أكثر توفيقاً من أخيه الأمين ، في كفاية بطانته ، وقُدرة قادته ، وحزم مشيريه ، وبَصَرُ ولاته . وكان ، مع ظفيره بالناحسين من خاصته ، كثير التأمل لما يجري في ملكه من مظاهر الضعف والقوة ، حريصاً على تدبر ما يمر به من مختلف الشؤون ، في تعرّف الشخصيات القوية التي يرجو أن يستند إليها الملك ويتأيد بها النظام .

ولقد حدّثنا الطبري في تاريخه عن إسحاق بن إبراهيم أن المعتصم قال له : يا إسحاق في قلبي أمرٌ أنا مفكر فيه منذ مدّة طويلة ، وإنما بسطتك في هذا الوقت لأفشيّه اليك ؛ فقلت : قل يا سيدي يا أمير المؤمنين ، فإنما أنا عبدك وابن عبدك ؛ قال : نظرت الى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا ، واصطنعت أنا أربعة لم يُفْلِح أحدٌ منهم ؛ قلت : ومن الذين اصطنعهم أخوك ؟ قال : طاهر بن الحسين ، فقد رأيت وسمعت ، وعبدُ الله ابن طاهر ، فهو الرجل الذي لم يَرِ مثله ، وأنت ، فأنت والله الذي لا يعتاض السلطان منك أبداً ، وأخوك محمد بن إبراهيم ، وأين مثل محمد ! وأنا فاصطنعتُ الأفشين ، فقد رأيت الى ما صار أمره ، وإشناس ففشل رأيه ، وإيتاخ فلا شيء ، ووصيفا فلا مُغني فيه . فقلت : يا أمير المؤمنين ، جعلني الله فداك ، أجيّب عن أمان من غضبك ؟ قال : قل ؛ قلت : يا أمير المؤمنين ، أعزك الله ، نظر أخوك الى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها ، واستعمل أمير المؤمنين فروعاً لم تُنجب ، إذ لا أصول لها . فقال : يا إسحاق ، لمقاساة ما مرّ بي في طول هذه المدّة أسهلّ علىّ من هذا الجواب .

ولقد كان المأمون ، الى جانب هذه الخبرة بما يحتاج اليه من صفوة الرجال ، بصيراً بما في مملكته من ألوان المكر وصنوف الرياء . فقد حدّثنا ابن طيفور عن إبراهيم بن المهدي ، قال : قال المأمون يوماً ، وفي مجلسه جماعة ، هاتوا من عسكرنا من يطلب ما عندنا بالرياء ؛ قال : فقال كل واحد بما عنده : إما أن يقول في عدوِّه بما يقدّح فيه ، أو يقول

شخصية المأمون

٣٤١

بما يعلم أنه يسرّ خليفته ، فلما قالوا ذلك ، قال : ما أرى عند أحد منكم ما يبلغ إرادتي ، ثم أنشأ يحدث عن أهل عسكره أهل الرياء ، حتى والله لو كان قد أقام في رجل كل واحد منهم حولاً محرماً ما زاد على معرفته . قال : فكان مما حفظت عنه في تلّب أصحابه أن قال ، حين ذكر أهل الرياء وما يعاملون به الناس : تسبيح حميد الطوسي ، وصلاة قحطبة ، وصيام الموشجاني ، ووضوء المربسي ، وبناء مالك بن شاهي المساجد ، وبكاء إبراهيم بن بريهة على المنبر ، وجمع الحسن بن قريش اليتامي ، وقصص منجا ، وصدقة علي بن الجنيد ، وحملا ن إسحاق بن إبراهيم في السبيل ، وصلاة أبي رجاء الضحى ، وجمع علي بن هشام القصاص ، قال : حتى عددنا جماعة كثيرة ، فقال لي رجل من عطاء العسكر ، حين خرجنا من الدار ، بالله هل رأيت أو سمعت بملك قط أعلم برعيته ولا أشد تنقيراً من هذا ؟ قلت : اللهم لا ! فحدث بهذا الحديث رجلاً من أصحاب الأخبار والعلم ، فقال : وما نصنع بهذا ، قد شهدت رسالته إلى إسحاق بن إبراهيم في الفقهاء ، يخبر بمعاييرهم رجلاً رجلاً ، حتى لهو بها أعلم منهم بما في منازلهم . وإن في ذبوع هذه الأخبار عن المأمون دليلاً على عنايته بنشر دعوة الملك الموطد الذي يبتس المخاتلون من التنكر له والخروج عليه ، فإن ظهور المملوك بالنفاذ إلى سرائر الرعية ، يزيدهم قوة إلى قوة ، وسلطاناً إلى سلطان .

وإنا إذا نظرنا إلى من استوزره وأعلى مكانه واستخلصه لنفسه من رجالات دولته وقواد ملكه ، لم تزد في الحكم للمأمون ، وأنه كان الموفق المسدد في اختيار أهل الكفايات والنبوغ .

وقد كان ، إلى جانب هذا ، يقدر الكفاية في خصومه . ونظرة فيما رواه ابن طيفور عن الحسن بن عبيد الخالق خاصاً برأى المأمون في الفضل بن الربيع ، وهو الذي تعلم مقدار إساءته إليه ، تدل على هذا ، فقد قال المأمون في معرض الحديث عن الفضل : « كان يدبر الخطأ فيقع صواباً ، ويبعث بالخييش الضعيف فيقع به النصر ، وأدبر أنا فيقع بغير ذلك . فلما وقفت على البصيرة من أمرى ، وفكرت في نفسى ، وعملت بالأخزم

في ذلك، مِلت الى الحزم فوردتُ العراقَ . وإن الفضلَ بن الربيع بقيّة الموالى . فلا تخبره بذلك عني، فاني أكره أن يباغته عني ما يسره .

ويؤيد صحة هذه الرواية ما ذكره يشر السّلمانيّ من المعاصرين اذ يقول : «سمعت أحمد ابن أبي خالد يقول : كان المأمون اذا أمرنا بأمر فظهر من أحدنا فيه تقصيرٌ، يقول : «أترون أني لا أعرف رجلاً ببابي ، لو قلدته أموري كلّها لقام بها ! » فقال بسر: فقلت لأحمد بن أبي خالد : يا أبا العباس، مَنْ يعني؟ قال : الفضل بن الربيع .

ويظهر أن خطة المأمون في تفدير الكفایات أتى وُجدت، قد اتبعها قادة المأمون نفسه . فان ابن طيفور يحدثنا أنه لما وُلّي طاهر بن الحسين على شرطة المأمون سنة أربع ومائتين، وكان عليها من قبل العباس بن المسيّب بن زهير، كتب طاهر الى الفضل ابن الربيع : «إني في رأيك البركة، وفي مشورتك الصواب، فان رأيت أن تختار لي رجلين للجسر!» فكتب اليه ابن الربيع : «قد وجدتهما لك، وهما خيار السندي بن يحيى وعيّاش ابن القاسم» . فولاهما طاهر الجسرين .

«وبعد» فانا نظن أن في هذا القدر الكفاية لاثبات ما كان من تقدير المأمون ورجاله ، لأهل الكفاية والافتدار ، وحرصهم على استعمال أصحاب المواهب ، والاستعانة بهم وبكفائاتهم، في خدمة الدولة .



(هـ) قدره للشجاعة الأدبية :

كان المأمون يرضيه أن يكون الرجل نقي السريّة ، رابط الخاش ، يُقدّم على كلمة الحق غير هيّاب . وقد حدثنا ابن أبي طاهر طيفور عن روى عنه قال : « حدثني أحمد بن أبي خالد الأحول بخراسان ، فيما كان يخبرني به عن كرم المأمون وفضله واحتماله وحسن معاشرته ، أنه سمع المأمون يوماً، وعنده عليّ بن هشام وأخواه أحمد والحسين، ذكر عمرو بن مسعدة فاستبطأه، وقال : أبحسبُ عمرو أني لا أعرف أخباره

شخصية المأمون

٣٤٣

وما يُجِبِّي إليه وما يعامل به الناس ! بلى والله ! ثم بعثه ألا يسقط على منه شيء ! ونهض وانصرفنا فقصصدت عمرا من ساعتي ، فخبرت به بما جرى ، وأنسيت أن أستحلّه من حكايته عني . فراح عمرو الى المأمون ، فظن المأمون أنه لم يحضر إلا لأمر مهم ، لموقعه من الرسائل والمظالم والوزارة ، فأذن له . فخبرتني عمرو أنه لما دخل عليه وضع سيفه بين يديه ، وقال يا أمير المؤمنين ، أنا عائد بالله من سخطه ، ثم عائد بك من سخطك يا أمير المؤمنين ، أنا أقل من أن يشكوني أمير المؤمنين الى أحد أو يُسَرَّ على ضغننا بيعته بعض الكلام على إظهاره ما يظهر منه ! فقال لي : وما ذاك ؟ فخبرت به بما بلغني ولم أسم له تخبري ، فقال لي : لم يكن الأمر كما بلغك ، وإنما كانت جملة من تفصيل كنت على أن أخبرك به ، وإنما أخرج مني ما أخرج معني تجاريناه ، وليس لك عندى إلا ما تحب ، فليفرخ روعك وليحسن ظنك ، فأعدت الكلام ، فما زال يسكن مني ويطيب من نفسي ، حتى تحلل بعض ما كان في قلبي ، ثم بدأ فضمني الى نفسه ، وقبّلت يده ، فاهوى ليعانقني فشكرته ، وتليت في وجهه الحياء والنجلى مما تأدى الى . قال أحمد : فلما غدوت على المأمون ، قال لي : يا أحمد أما لمجلسي حرمة ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، وهل الحرم إلا لما فصل عن مجلسك ! قال : ما أراكم ترضون بهذه المعاملة فيما بينكم ! قلت : وأية معاملة يا أمير المؤمنين ؟ هذا كلام لا أعرفه ، قال : بلى ، أما سمعت ما كنا فيه أمس من ذكر عمرو ! ذهب بعض من حضر من بنى هاشم فخبّره به ، فراح الى عمرو مُظْهِراً منه ما وجب عليه أن يُظهره ، فدفعته منه ما أمكن دفعه ، وجعلت أعتذر اليه منه بعذر قد تبين في النجلى منه ! وكيف يكون اعتذار انسان من كلام قد تكلم به إلا كذلك يتبين في عينيه وشفتيه ووجهه ، ولقد أعطيتُه ما كان يقنع مني بأقل منه ، وما حداني عليه إلا ما دخلني من الحساسة ، وإنما كان نطق به اللسان عن غير روية ولا احتمال مكروه به ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنا أخبرت عمرا به لا أحد من ولد هاشم ، فقال : أنت ! قلت أنا ! فقال : ما حملك على ما فعلت ؟ فقلت : الشكر لك والنصح والمحبة لأن تتم نعمتك على أوليائك وخدمك ، أنا أعلم أن أمير المؤمنين يحب أن يصلح له الأعباء

والبعداء، فكيف الأولياء والأقرباء، ولا سيما مثل عمرو في دنوه من الخدمة وموقعه من العمل ومكانه من رأى أمير المؤمنين، أطل الله بقاءه! سمعت أمير المؤمنين أنكر منسه شيئاً، فخبرته به ليصلحه ويقوم من نفسه أودها لسيده ومولاه، ويتلافى ما فرط منه ولا يفسده مثله ولا يبطل العناء فيه، وإنما كان يكون ما فعلت عيباً، لو أشعت سرّاً فيه قدح في السلطان، أو نقص تدبير قد استتب، فأذا مثل هذا فما حبهته يبلغ أن يكون ذنباً على، فنظر الى ملياً ثم قال: كيف قلت؟ فأعدت عليه، ثم قال: أعد، فأعدت الثالثة، فقال: أحسنت والله يا أحمد! لمّا خبرتني به أحبّ الى من ألف ألف وألف ألف وألف ألف، وعقد خنصره وبصره والوسطى، ثم قال: أما ألف ألف فلنفيك عني سوء الظن وأطلق وسطاه، وأما ألف ألف فلصديقك إياي عن نفسك، وأطلق البنصر، وأما ألف ألف فلحسن جوابك، وأطلق الخنصر، وأمر لي بمال.

وهذه الشجاعة من أتباع المأمون تدلنا على ما كان فيه من الاستعداد لقدر كرائم الخلال. فلو أنه كان معروفاً بالاستعداد لما أمكن هذه النفوس أن تبلغ ما كانت تطمح اليه من النبل والكرامة. وفي استماعه لاحتجاج جليسه حرص على استبقائه واستكناه ما في نفسه، فضلاً عما يتوقعه من عواقب هذا التشجيع المقصود، من النفاق حول شخصه، وتفان في الوفاء له، وإمعان في خدمته وخدمة بلاده، خدمة الحق للحرّ بباعث وجداني، لخدمة العبد للسيد بعامل الإرهاب والإكراه. وإن تكون الخدمة الخالصة للبلاد بالارهاب والاكراه، وإن تكون خدمة المملوك على وجهها الصحيح بدافع العسف والإعنات، وإنما يكون ذلك جميعه بحسن الصنيع وجميل الأثر، والإحسان بالقول والفعل، وصفاء النفوس من عوامل البغضاء والغل والعدوان.

ثم انظر فيما يرويه لنا أبو الشياخ، قال: "قال لي المأمون وعنده الزيدى والقفني مولى الخيزران، واسماعيل بن نوح، وثداكروا الشعراء، فقالوا: النابغة، وقالوا: الأعشى، وخاضوا فيهم، فقال: لا أشعرهم إلا واحداً كان خليعاً: الحسن بن هاني، فقالوا:

صدق أمير المؤمنين ؛ قال : الصدق على المناظرة أحسن من الصدق على الهيبة ؛ فقالوا :
فبم قدمته ؟ قال بقوله :

يا شقيق النفس من حكم * نمت عن ليل ولم أنم

ثم لم يسبقه الى هذا البيت أحد :

ثم دبّت في عروقهم * كديب البرء في السفيم

وفي عبارة «الصدق على المناظرة أحسن من الصدق على الهيبة» دلالة على رغبته
في إحياء الغرائز الأدبية التي تُثَمِّتُها المصانعة، ويُقَبِّرُها الرياء . ولا يفوتنا أن نشير الى أن
تقديمه ابن هاني ، لتجويده في وصف الراح ، له دلالة وله مغزاه ؛ فهو يدلّ ، الى حد
غير قليل ، الى جانب ما علمناه عن المأمون ، أصيدَ الهمة ، مستحصداً العزم ، على أنه كان
في أوقات أنسه ومرحه الرجل المرح الطروب ، الذي يتذوق المعاني الفرحة ، ومالها من
مجاملات وأفانين .

« وبعد » فإن تربية الشعوب على قدر كرامتها الخاصة ورفعة شأنها بين الأمم ،
لتنطّلب تعهداً خاصاً ممن يتولّى أمرها في هذا السبيل ، فيعمل على أن يُحَسِّسَ الافراءُ
والحكامُ ، ممن هم في عنقه وتحت هيمنته ، ما لهم من مكانةٍ ومنزلةٍ ، وما لآرائهم وتصرفاتهم
من احترام وقدر ، أخذوا لهم بالشجاعة في المجاهرة بمعتقداتهم ، وتنميةً للروح الذي تفيده
هذه الألفاظ : « حرية . إخاء . مساواة » في نفوسهم . وإن في آتِهاجهم هذا السبيل
لأجل خدمةٍ لمالكهم وشعوبهم وعروشهم .

* *

(و) عدله وإنصافه :

كان المأمون عدلاً منصفاً الى حد بعيد . وقد عرّف فيه الناس هذه الخلّة ، فكانوا
يطعمون في أنصاره والمقترين اليه ، ويجهرون بالشكوى من كل من يسوءهم طمعه أو ينقذ
اليهم عدوانه .

حدث بعض المعاصرين قال : « شهدت المأمون وقد ركب بالشَّيْءِسيَّة وخلف ظهره أحمد بن هشام ، فصاح به رجلٌ من أهل فارس : الله الله يا أمير المؤمنين ! فان أحمد بن هشام ظلمني واعتدى عليّ ! فقال : كن بالباب حتى أرجع ، ثم مضى ؛ فلما جاز الموضع بعدوة التفت الى أحمد ؛ فقال : ما أقبح بنا وبك أن تقفك وصاحبك هذا رؤوس هذه الجماعة ، ويقعد في مجلس خصمك ، ويُسمع منه كما يُسمع منك ، ثم تكون محقاً ، ثم تكون مبطلاً ، فكيف إن كنت في صفتك لك ، فوجه اليك من يحوله من بابنا الى رحلك ، وأنصفه من نفسك وأعطه ما أنفق في طريقه الينا ، ولا تجعل لنا ذريعة الى ما تكره من لائمتك ، فوالله لو ظلمت العباس ابني كنت أقل نكيراً عليك من أن تظلم ضعيفاً لا يحدني في كل وقت ، ولا تجلّوا له وجهي ، وسما من تجسم السفر البعيد وكابد حرّ الهواجر وطول المسافة » . قال المحدث المعاصر : فوجه اليه أحمد بخاء به وكتب الى عامله يرد عليه ما أخذ منه ، ويشتمه ويعنفه ، ووصل الرجل بأربعة آلاف درهم ، وأمره بالخروج من يومه .

وهناك الكثير من هذا المثل ، كوقفه مع موسى بن الحسن ، وإنصافه بأن أخذ حقه من محمد بن أبي العباس الطوسي ، وموقفه مع النصراني الذي من أهل كَشْكِر^(١) .

ثم انظر موقفه المشرف له وللقضاء في أيامه ؛ فقد قالوا : إن رجلاً دخل على المأمون ، وفي يده رقعة فيها مظلمة من أمير المؤمنين ، فقال : أمظلمة مني ؟ فقال الرجل : أفأخاطب يا أمير المؤمنين سواك ! قال : وما هي ظلامتك ؟ قال : إن سعيداً ويكلك اشترى مني جواهر بثلاثين ألف دينار ؛ قال : فإذا اشترى سعيد منك الجواهر تشكو الظلامة مني ! قال نعم ، اذ كانت الوكالة قد صحّت له منك ! قال : لعل سعيداً قد اشترى منك الجواهر وحمل اليك المال أو اشتراه لنفسه ، وعليه فلا يلزمني لك حق ولا أعرف لك ظلامة ؛ فقال له (بعد كلام طويل) : إن في وصية عمر بن الخطاب لقضاتكم "البينة على من ادعى ، وإيمين على من أنكر" قال المأمون : إنك قد عدمت البينة ؛ فما يجب لك إلا حلفه ، ولئن حلفتها لأنا

(١) أنظر هذه الحكاية في الجزء السادس من تاريخ بغداد ص ١٠١

صديق اذ كنت لا أعرف لك حقاً بلزمني ؛ قال : فإذا أدعوك الى القاضى الذى نصبتَه لرعيتهك ؛ قال : نعم ! يا غلام ، على يحيى بن أكرم ، فاذا هو قد مثّل بين يديه ؛ فقال له المأمون : اقض بيننا ! قال : فى حكم وقضية ! قال نعم ؛ قال : إنك لم تجعل ذلك مجلس قضاء ؛ قال : قد فعلت ؛ قال : فانى أبدأ بالعامّة أولاً ليصلح المجلس للقضاء ، قال : افعل ؛ ففتح الباب وقعد فى ناحية من الباب واذن للعامّة ، ثم دعى بالرجل المتظلم ، فقال له يحيى : ما تقول ؟ قال : أقول أن تدعو بخصمى أمير المؤمنين المأمون ؛ فنادى المنادى ، فاذا المأمون قد نخرج ، ومعه غلام يحمل مصلياً حتى وقف على يحيى وهو جالس ، فقال له : اجلس ، فطرح المصلي ليقعد عليها ؛ فقال له يحيى : يا أمير المؤمنين ، لا تأخذ على خصمك شرف المجلس ، فطرح له مصلياً آخر ، ثم نظّر فى دعوى الرجل ، وطالب المأمون باليمين خلف ، ووثب يحيى بعد فراغ المأمون من يمينه فقام على رجله ؛ فقال له المأمون : ما أقامك ؟ فقال : إني كنت فى حق الله جل وعز حتى أخذته منك ، وليس الآن من حق أن أتصدّر عليك ، ثم أمر المأمون أن يحضر ما آدعى الرجل من المال ، فقال له : خذه اليك ، والله ما كنت أحلف على بقرّة ثم أسمح لك فأفسد دينى ودينائى ، والله يعلم ما دفعْتُ اليك هذا المال إلا خوفاً من هذه الرعيّة ، لعلها ترى أنى تناولتُك من وجه القدرة ، وإنها لتعلم الآن أنى ما كنت أسمح لك باليمين وبالمال .

ويحق لنا أن نستنبط من هذا الموقف قيمة القضاء فى تلك الأيام ، واحترام الخلفاء أو من يمت الى الخلفاء لشعائره وأحكامه . ولا نستبعد البتة صحة تلك الرواية ، لأن تصرفات المأمون العباسي تجعلنا نفقروا ونؤمن بصدقها من جهة ، ولأننا قرأنا شبيهاتها من جهة أخرى ؛ فقد قيل : إن ابراهيم بن المهدي تنازع وأبن بختيشوع الطيب ، بين يدي أحمد بن أبي دؤاد فى مجلس الحكم فى عقار بناحية السواد ، فأربنى عليه ابراهيم وأغلظ ، فأحفظ ذلك أبن أبي دؤاد ؛ فقال : يا ابراهيم اذا نازعت فى مجلس الحكم بحضورنا امراً فلا أعلن أنك رفعت عليه صوتاً ولا أشريت بيد ، وليكن قصدك أتماً وريحك ساكنة ، وكلامك

معتدلاً ، وَوَفَّ مجالس الخليفة حقوقها : من التعظيم والتوقير ، والاستكانة والتوجه الى الواجب ؛ فان ذلك أشكلُ بك وأشمل لمذهبك في محنتك وعظيم خطره ، ولا تعجلَنَّ فربَّ عَجَلَةٍ تَهْبُ رَيْنًا ، والله يعصمك من خطل القول والعمل ، وأن يتم نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل إن ربك حكيم عليم ؛ فقال ابراهيم : أصلحك الله تعالى ، أمرت بسداد وحضضت على رشاد ، ولست عائدا لما يتلُم مُروءتي عندك ويُسقطني من عينيك ويُخرجني من مقدار الواجب الى الاعتذار ، فهأنذا معتذر اليك من هذه البادرة اعتذار مقرر بذنبه معترف بجُرمه ، ولا يزال الغضب يستفزني بمواده فيردني مثلك بحلمه وتلك عادة الله عندك وعندنا منك ، وقد جعلتُ حقِّي من هذا العَقَار لابن بختيشوع فليت ذلك يكون وافيًا بأرشي الجناية عليه ، ولم يتلقَ مألُ أفاد موعظة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل !

فترى مما قد مناه لك مبلغ سلطان القضاء وحرمة عند البيت المسالك .

وقد يكون أبجل من هذا كله — فيما لو صح — ذلك الموقف الروائي الذي تقدمت الى المأمون فيه امرأة تشكو ظلم ابنه العباس فقد شكت اليه بأبيات رقيقة فلم يسعه إلا أن يعدها الإنصاف بأبيات رقيقة على الوزن والقافية ؛ وكانت تلك الأبيات في خفتها وجودة الخاطر بها في ساعتها بردا وسلاما على قلب تلك المرأة المظلومة .

قال الشَّيبَانِي : جلس المأمون يوما للظالم ، فكان آخر من تقدّم اليه ، وقد همّ بالقيام ، امرأة عليها هيئة السفر ، وعليها ثياب رثة ، فوقفَت بين يديه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فنظر المأمون الى يحيى بن أكثم ، فقال لها يحيى : وعليك السلام يا أمة الله ، تكلمِي في حاجتك ، فقالت :

يا خيرَ متصِفٍ يُهْدِي له الرِّشْدُ * ويا إماماً به قد أشرق البلدُ
تشكو اليك حميدَ القومِ أرملةً * عدا عليها فلم يُترك لها سببُ
وابترَّ مني ضياعي بعدُ منعها * ظلمًا وفُرق مني الأهلُ والولدُ

فأطرق المأمون حيناً ثم رفع رأسه إليها وهو يقول :

فِي دُونِ مَا قَلَيْتَ زَالَ الصَّبْرُ وَالْجَلْدُ * عَنَّ وَأُقْرِحَ مَنِّي الْقَلْبُ وَالْكَبْدُ
هَذَا أَذَانُ صَلَاةِ الْعَصْرِ فَانصُرْفِي * وَأَحْضِرِي الْخَصَمَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي أُعِدُّ
وَالْمَجْلِسُ السَّبْتُ إِنْ يُقَضَّ الْجُلُوسُ لَنَا * نُنْصِفُكَ مِنْهُ وَالَا الْمَجْلِسُ الْأَحَدُ

فلما كان اليوم الأحد جلس، فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال : وعليك السلام، أين الخصم ؟ فقالت الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين ، وأومت إلى العباس ابنه ، فقال لأحمد بن أبي طالب : خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم ، فجعل كلامها يعلو كلام العباس ، فقال لها أحمد ابن أبي طالب : يا أمة الله ، إنك بين يدي أمير المؤمنين ، وإنك تكلمين الأمير ، فأخفي من صوتك ، فقال المأمون : دعها يا أحمد ، فإن الحق أنطقها وأخرسه ! ثم قضى لها برء ضيعتها إليها ، وظلم العباس بظلمه لها ، وأمر بالكتاب لها إلى العامل ببلدها ، أن يوفرها ضيعتها ويحسن معاونتها وأمر لها بنفقة .

وبعد فإن المؤرخ المنصف ، لجدير به أن يقف أمام هذه المثل العليا وقفة احترام وإجلال ، وعظمة واعتبار ، وأن يرغب رغبة صادقة في إذاعة هذه المثل ونشرها ، والعمل على تداولها وذكرها ، لأنها قدوة صالحة لحمة التيجان ، في إنصاف زميلهم الانسان . وإن قدس العدالة لواجب احترامه ، وأحق الناس باحترامه هم الولاة وحملة التيجان ، وإن في شعور الرعية وعامة الناس بأنهم وحكامهم سواسية ، لدعاة للرضا والاعتباط ، والإمعان في خدمة الأوطان ، والذب بأرواحهم وقلوبهم عن الملوك وأصحاب السلطان .

(ز) عفو :

كان المأمون مضرب المثل في العفو ، حتى لقد كان يخشى أن لا يؤجر عليه ، إذ صار فطرة فيه ، وأطرف أنواع عفو تغاضيه عما كان يحدث في قصره .

قالت سُكْرُ مَوْلَاةٍ أم جعفر بنت جعفر بن المنصور، سمعت المأمون أُمير المؤمنين :
وكانت عنده أم جعفر، فدعا بِمَقَارِيضٍ^(١)، فقال الغلام : قد ذُهِبَ بِالمَقَارِيضِ الى الشَّامِ، ثم
قال يا غلام : بَلِّ لنا الخيشَ فَوْقَ^(٢)، فقال الغلام : لا، قال : يُبَلِّ، فقالت أم جعفر : سبَّحَانَ الله
يا أُمير المؤمنين ! ، ما هذا ! وأنكرت أن يكون سأل عن شئئين فلم يُعْمَلَا، فقال المأمون :
من قدرت على عقوبته ، لسوء فعله ، وقبيح جُرمه ، فقد تركت عليه كافيتهُ نصرًا لك منه ،
ولا معنى لعقوبة بعد قدرة ، الحلمُ عن الذنب أبلغ من الأخذ به .

وهو هنا يعلل العفو تعليلًا مقبولًا جديرًا بأن يكون درسًا في الأخلاق .

ثم انظر مبلغ عفوهِ وحلمهِ وسماحةِ نفسه ، فيما يرويهِ أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر
طيفور في كتابهِ ، قال : « كان للمأمون خادم يتولَّى وضوءه ، فكان يسرق طَسَاسَه ، فبلغ
ذلك المأمون فعاتبه ، ثم قال له يوما وهو يوضئه : وَيَحْك ! لِمَ تسرق هذه الطَّسَاسَ ،
لو كنتَ اذا سرقتها أتيتني بها اشتريتها منك ، قال : فاشتري هذا الذي بين يديك ، قال : بِكُمْ؟
قال بدينارين ، قال المأمون : أعطوه دينارين ، قال : هذا الآن في الأمان .

ومهما يكن على هذه الرواية من مَسْحَةِ المبالغة ، أو أنها أقصُوصة أكثر منها حقيقةً ،
فإن طبيعة المأمون وسجيته ، وجُنبهِ الى العفو ، وأخذهِ بالحلم ، لِمَا يُؤَيِّدُ لُبَّاءَهَا وعُصَارَتَهَا ،
ويقرّر جوهرها وخلاصتها ، ولمّا بصَدَفٍ فيه قول مَنْ قال له :

أُمير المؤمنين عفوتَ حتى * كأن الناس ليس لهم ذنوبُ

أما حديث حمله مع عمه ابراهيم بن المهدي فتعارف مشهور ، ومُذَاع مذكور ، فقد
أبى ابراهيم أن يبايعه ، ثم ذهب الى الرِّيّ ، وأدعى فيها الخلافة لنفسه ، وأقام ممالكها سنة
وأحد عشر شهرًا واثنى عشر يومًا ، والمأمون يتوقع منه الانقياد الى الطاعة ، والانتظام

(١) جمع مقراض وهو ما يقطع به الثوب أو غيره وهو المعروف بالمقص .

(٢) العادة كانت جارية في العراق أن يوضع الخيش فوق سطح المنزل ويبل وقت الحر ليكون تأثير الشمس واقعا عليه دون السقف وهكذا كانت تفعل ملوك فارس . فلب كان زمن المأمون عمل بطانة للسفوف استغنى بها عن الخيش وبهله وهي ما تسمى (بغدادلى) وفي بعض البلاد يسمى المأمونى .

في سلك الجماعة ، حتى يئس من عَوْدِهِ ، فركب بِحَيْلِهِ وَرَجُلَهُ ، وذهب الى الرىّ وحاصر المدينة وافتتحها ، فهرب ابراهيم وتكرّم أخذ بعد لَأْيٍ ، وقدم الى المأمون في زىّ امرأة . فلما مثل بين يديه ، سلّم عليه بالخلافة ، فقال المأمون : لاسلّم الله عليك ، ولاحيّاك ولا رعاك ! فقال ابراهيم : مهلاً يا أمير المؤمنين ! ان ولىّ النار محكّم في القصاص ، ولكن العفو أقرب للتقوى ، ومن تناوله الاعتراض بما مدّه من أسباب الشقاء ، أمكن عَادِيَةِ الدهر من نفسه ، وقد جعلك الله فوق كلّ ذى ذنب ، كما جعل كلّ ذى ذنب دونك ، فان أخذت بهحقك ، وإن عفوت فبفضلك ، ثم أنشد :

ذَنْبِي إِلَيْكَ عَظِيمٌ * وَأَنْتَ أَعْظَمُ مِنْهُ
خَفِضْتُ بِحَقِّكَ أَوْلاً * فَاصْفَحْ بِفَضْلِكَ عَنْهُ
إِنْ لَمْ أَكُنْ فِي فِعَالِي * مِنَ الْكَرَامِ فَكُنْهُ

فقال المأمون : شاورت أبا اسحاق والعبّاس في قتلك ، فأشارا به ، فقال : فما قلت لها يا أمير المؤمنين ؟ قال المأمون : قلت لها : نبدؤه باحسان ، ونستأمره فيه ، فإن غير فأنه يغبر ما به . قال : أمّا أن يكونا قد نصحا في عظيم بما جرت عليه السياسة فقد فعلا ، وبَلَّغَا ما يلزمهما ، وهو الرأى السديد ، ولكنك أبيت أن تستجلب النصر إلّا من حيث عودك الله ، ثم استعبر باكيًا ، فقال له المأمون : ما يُبْكِيكَ ؟ قال : جَدَلًا اذ كان ذنبى الى من هذه صفته في الإنعام . ثم قال : إنه وإن كان قد بلغ جرمي استحلال دمي ، فلم أمير المؤمنين وفضله يبلّغانى عفوه ، ولى بعدهما شفاعة الاقرار بالذنب ، وحق الأوبة بعد الأب ، فقال المأمون : يا ابراهيم ، لقد حبّبت الى العفو حتى خفّت آلاؤجر عليه . أمّا لو علم الناس ما لنا في العفو من اللذة ، لتقرّبوا الينا بالحنايات ! لا تُثْرِبْ عَلَيْكَ ، يغفر الله لك . ولو لم يكن في حقّ نسبك ، ما يبلغ الصفح عن جرمك ، لبأفك ما أملت حسن تفضلك ولطف توصلك . ثم أمر برّد ضياعه وأمواله ، فقال ابراهيم :

(١) التّريب : اللوم والتعير بالذنب .

رددت ما لي ولم تجل علي به * وقبل ردك ما لي قد حقنت دمي
وقام علمك بي فاحتج عندك لي * مقام شاهد عدل غير متهم
فلو بذلت دمي أبني رضاك به * والمال حتى أسل النعل من قدمي
ما كان ذاك سوى عارية سلفت * لو لم تهبها لكنت اليوم لم تلم

« وبعد » فشدد ما يحتاج الولاة والقادة والزعماء ، الى خلة العفو والاحسان ، في حزم
وحسن مواناة ، ليستأثروا من القلوب عداوتها ، وليستأصلوا من النفوس سخطتها ، وليضمنوا
من الرعية والاتباع الاخلاص المحض والود الصحيح .



(ح) احتماله :

ومن الدلائل على صلاحية المأمون لما أعدته له الأيام اتصافه بالاحتمال الذي
لا يقوم الملك إلا به ، ولا تسير الأمور بدونه ، وهو خلق يراه البعض سمحة ، ونراه من
المأمون سياسة ، هي من الصميم في آداب الملوك ، وإنه ليحتمل ، حتى لتحسبه من الغافلين ،
ولكن الرجل كان يعرف أن للكم مصاعب ومتاعب ، أقلها مداراة الناس ، والنزول لهم
عن بعض ما يشتهون .

روى بعضهم عن قثم بن جعفر أنه قال : قال المأمون في يوم الخميس ، وقد حضر
الناس الدار لعلي بن صالح : ادع اسماعيل قال : فخرج ابن صالح ، فأدخل اسماعيل بن جعفر ،
وأراد المأمون اسماعيل بن موسى ، فلما بصُر به من بعيد ، وكان أشد الناس له بغضا ، رفع
يديه مآذهما الى السماء ، ثم قال : اللهم أبدلني من ابن صالح مطيعا فانه لصداقته لهذا أثر هواه
على هواي ، قال : فلما دنا اسماعيل بن جعفر ، سلم فودّ عليه ثم دنا فقبل يده ، فقال : هات
حوائجك ، قال : ضيعتي بالمغيثة ، غصبتها وقهرت عليها ، قال : تأمر بردها عليك ، ثم قال :
حاجتك ، قال : يأذن لي أمير المؤمنين في الحج ، قال : قد أذنّا لك ، ثم قال : حاجتك ، قال : وقف
أبي أخرج من يدي وصار الى قثم والقاسم أبني جعفر ، قال : فتريد ماذا ؟ قال : يرتد الى ، قال :

أما ما كان يُمْكِنُنا من أمرك فقد جُذِنَا لك به ، وأما وقفُ أبيك فذاك الى ورثته ومواليه ، فان رَضُوا بك واليا عليهم وقيّما لهم رَدَدْنَاهُ اليك ، وإلا أقرنناه في يد من هو في يده ، ثم خرج ، فقال المأمون لعلّ بن صالح : مالي ولك عافاك الله ، متى رأيتني نَسِطْتُ لاسماعيل بن جعفر وعُنيبت به وهو صاحبي بالأمس بالبصرة ! قال : ذهب عن فكري يا أمير المؤمنين ، قال : صدقت ، لعمري ذهب عن فكري ما كان يجب عليك حفظه ، وحفظ فكري ، ما كان يجب عليك ألا يخطر به ، فأما اذْ أخطأت فلا تُعلم إسماعيل ما دار بيني وبينك في أمره . فظنّ على أنه عني بقوله هذا اسماعيل بن موسى ، فأخبر اسماعيل بن جعفر القصة حرفا حرفا ، فأذاعها ، وبلغ الخبر المأمون فقال : الحمد لله الذي وهب لي هذه الأخلاق ، التي أصبحت أحتمل بها على بن صالح وابن عمران وابن الطوسي ومحمد بن عبد الحميد ومنصور ابن النعمان ورعامش .

« وبعد » فالاحتمال خلة محببة الى النفوس ، تدعو الى الوفاق والوئام ، وهي بالملوك أولى وأجدر لمكانهم من الزعامة والقيادة ، ولمنزلتهم من الرياسة والسلطان . ولأنهم أحق الناس بكل سجية تحببهم الى الناس ، وتكون قدوة يرثسها من عداهم من يتصرفون في شؤون العباد ومستقبل البلاد .



(ط) بصره بالأدب :

سترى فيما نعرض له ، في القسم الأدبي ، من آثار المأمون وكتابته ، مبلغ تميزه في الفنون الأدبية ، وتملكه أعنة البلاغة ، وحسن تصريفه لكل أفانين الثقافة العربية ، الى جانب حسن تصريفه ، لشقّ أمور ملكه .

والآن — وسبيلنا تحليل شخصية المأمون ، نرى من الواجب لتوفية البحث حقه من مختلف وجوهه ، أن نشير الى كلفه بالأدب ، مفترضين على كل حال ، ما قد يكون بمثابة ، من تشيع المغالين من الولاء له ، وما قد يضاف اليه من الآثار .

ولكن ذلك كله ، لن يؤثر في اللب والجوهر ، وهو أن المأمون كان أديبا ، عالما بأفانين القول ومناحيه ، وليس ذلك ببعيد ، على من نتلمذ على شيوخ الأدب العربي ، كسيبويه واليزيدي ويحيى بن المبارك بن المغيرة ، الذي أخذ العربية عن أمثال أبي عمرو ابن العلاء وابن أبي اسحاق الحصري ، وأخذ اللغة والعروض عن الخليل بن أحمد ، والذي ألف كتابا في النحو لبعض أولاد المأمون .

فقد أفاد المأمون من هؤلاء وأمثالهم من رجال الأدب والكفاية أيما إفادة .
قال عمارة بن عقيل : أنشدت المأمون قصيدة مائة بيت ، فأبتدئ بصدر البيت ،
فبيادرنى الى قافيته كما قفّيته ، فقلت : والله يا أمير المؤمنين ، ما سمعها منى أحد قط ! فقال
هكذا ينبغي أن يكون ، ثم قال لى : أما بلغك أن عمر بن أبى ربيعة أنشد عبد الله بن عباس
قصيدته التى يقول فيها * تَشْطُ غداً دارُ جيراننا * فقال ابن عباس * وللدأر بعد غدٍ أبعدُ *
حتى أنشده القصيدة يققها ابن عباس ثم قال : أنا أبى ذاك . ورووا أن المأمون قال :
بعثتُك مُرْتادا ففزتَ بنظرة * وأغفلتني حتى أسأتُ بك الظنَّ
فناجيتَ مَنْ أهوى وكنتُ مباحدا * فيا ليت شعرى عن دنوك ما أغنى
أرى أثرا منه بعينيك بيّنا * لقد أخذتُ عينك من عينه حسنا
ومهما قيل إن المأمون أخذ هذا المعنى من العباس بن الأخنف الذى يقول :
إن تَشَقَّ عيني بها فقد سَعِدَتْ * عينُ رسولٍ وفزتُ بالخبر
وكَلَّمَا جاءنى الرسولُ لها * رَدَدْتُ عهدا فى عينه نظرى
خذ مقلتي يا رسولَ عاريةً * فانظرُ بها وأحسَّكم على بصرى
فإن شعر المأمون يدل فى جملة ، على تذوقه الحسنى ، بالشعر الحسنى ، والخيال الحسنى .
ثم لتنظر معى فى الحديث الذى دار بين عبد الله بن أبى السمط وعمارة بن عقيل ، فإن
أوطأ يقول لعمارة : أعلمت أن المأمون لا يبصر الشعر ؟ فقال عمارة : ومن يكون أعلم منه ؟
فوالله إنا لننشده أول البيت فيسبِّقنا الى آخره ، قال عبد الله : إني أنشدته بيتا أجدتُ
فيه فلم يتحرك له ، فقال عمارة : وما هو ؟ قال :

أضحي إمام الهدى المأمونُ مشغلاً * بالدين والناس بالدنيا مشاغِلُ
فقال عماره : والله ما صنعتَ شيئاً ! هل زدتَ على أن جعلته عجوزاً في محرابها ، فإذا مَن
الذي يقوم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها ، وهو المطوق بها ؟ ألا قلت كما قال جدى جرير
في عبد العزيز بن الوليد :

فلا هو في الدنيا مضيعٌ نصيبه * ولا عَرَضُ الدنيا عن الدين شاغلُه

فقال عبد الله : الآن علمتُ أنى قد أخطأت .

واقعد كان المأمون واقفاً أتم وقوف وأكمله على شعر العصر ، ومقولات الشعراء ، مع
حسن بصر ، وأتم حذق ، وأدق تفهم ، يدلك على ذلك ، ما ذكره أبو نزار الضيرير الشاعر قال :
قال لى على بن جبلة : قلت لحُميد بن عبد الحميد : يا أبا غانم ، قد امتدحتُ أمير المؤمنين
بمدح لا يُحسِّن مثله أحد من أهل الأرض ، فاذكرنى له ، فقال : أنشدنيه ، فأنشدته ، فقال :
أشهد أنك صادق ، فأخذ المديح فأدخله على المأمون ، فقال : يا أبا غانم ، الجواب فى هذا واضح ،
إن شاء عفونا عنه ، وجعلنا ذلك ثواباً لمديحه ، وإن شاء جمعنا بين شعره فيك وفى أبى دلف
القاسم بن عيسى ، فإن كان الذى قال فيك وفيه أجود من الذى مدحنا به ، ضربنا ظهره
وأطلقنا حبسه ، وإن كان الذى قال فينا أجود أعطيته بكل بيت من مديحه ألف درهم ،
وإن شاء أفلنناه ، فقلت : ياسيدى ، ومن أبو دلف ومن أنا حتى يمدحنا بأجود من مديحك !
فقال : ليس هذا الكلام من الجواب عن المسألة فى شيء ، فاعرض ذلك على الرجل . قال
على بن جبلة : فقال لى حميد : ما ترى ؟ قلت : الإقالة أحبّ الى ، فأخبر المأمون ، فقال :
هو أعلم ، قال حميد ، فقلت لعلى بن جبلة : الى أى شيء ذهب فى مدحك أبا دلف
وفى مدحك لى ؟ قال : الى قولى فى أبى دلف :

إنما الدنيا أبو دلف * بين مُبداه ومُخْضَره

فإذا ولّى أبو دلف * ولّت الدنيا على أثره

والى قولى فيك :

لولا حميد لم يكن * حسب يعد ولا نسب
يا واحد العرب الذى * عزت بعزته العرب

ثم انظر سعة عطفه ، وكثير تسامحه ، وما جبلت عليه نفسه من العفو والحلم ، فيما رواه
أحد قرابة دعبل الشاعر ، حيث قال : إن دعبلا هجا المأمون بقوله :

أيسومنى المأمون خطاة داجز * أو ما رأى بالأمس رأس محمد
يوفي على هام الخلائف مثل ما * توفى الجبال على رؤوس القرد^(١)
ويحسّل فى أخفاف كل ممنع * حتى يذلّ شاهقا لم يصعد
إن الترات مسهد طلابها * فاكفّف لعباك عن لعب الأسود

فلم يتقدم المأمون بإيذاء دعبل ، وكل ما فعل أن قال : هو يهجو أبا عبّاد ، ولا يهجونى .
يريد حدة أبى عبّاد .

وكان بصيرا بأخبار العرب ، واقفا على تاريخ مجاويدهم وغطاريقهم ، فقد ذكر عمارة
ابن عقيّل قال : « قال لى المأمون يوما ، وأنا أشرب عنده ، ما أخبتك يا أعرابى ، قال
قلت : وما ذاك يا أمير المؤمنين ، وهمتنى نفسى ، قال كيف قلت :

قلت مُفْتَدَاة لما أن رأيت أرقى * والهم يعتاده من طيفه لم
نهيت مالك فى الأدنين أصرة * وفى الأبعاد حتى حَقَّك العدم^(٢)
فاطلب اليهم ثرى ما كنت من حسن * تُسدى اليهم فقد بات لهم صرم^(٣)
فقلت عَذْلِك قد أَكْثَرْتِ لائمتى * ولم يمت حاتم هزلا ولا هيرم

فقال لى المأمون : أين رميت بنفسك الى هيرم بن سنان سيد العرب ، وحاتم الطائى .
فعلا كذا وفعلا كذا وأقبل يَنْتَالُ^(٤) على بفضلها ، قال : فقلت يا أمير المؤمنين : أنا خير منهما ،
أنا مسلم وكانا كافرين وأنا رجل من العرب .

(١) القردد : ما ارتفع وغلظ من الأرض . (٢) الصرم : جمع صرمة وهى القطعة من الإبل نحو الثلاثين .
(٣) يعدد محاسنها ويذكرها .

ثم انظر بلاغته ومتانة عبارته ، في مشافهاته ومبادهاته . فقد روى ابراهيم بن عيسى قال : لما أراد المأمون الشخصَ الى دمشق هيأتُ له كلاما ، مكثت فيه يومين وبعض آخر ، فلما مثلتُ بين يديه ، قلت : أطل الله بقاء أمير المؤمنين في أدوم العزِّ وأسبغ الكرامة ، وجعلني من كل سوءٍ فداه ، إنَّ مَنْ أَمسى وأصبح يتعزف من نعمة الله — له الحمد كثيرا — عليه برأى أمير المؤمنين أيده الله فيه ، وحسن تأنيسه له ، تحقيقُ بأن يستديم هذه النعمة ، وليتمس الزيادة فيها ، بشكر الله ، وشكر أمير المؤمنين — مدَّ الله في عمره — عليها . وقد أحبُّ أن يعلم أمير المؤمنين أيده الله ، أني لا أرغب بنفسى عن خدمته ، أيده الله بشيء من الخلفِ والذَّعة ، إذ كان هو أيده الله ، يتجشَّم خشونة السفر ، ونصبَ الظَّعن ، وأولى الناس بمواساته في ذلك ، وبذل نفسه فيه أنا ، لِمَا عرَّفني الله من رأيه ، وجعل عندي من طاعته ، ومعرفة ما أوجب الله من حقه ، فان رأى أمير المؤمنين أكرمه الله ، أن يكرمني بلزوم خدمته ، والكيونة معه فعل . فقال لى المأمون مبتدئا من غير تروية : لم يعزم أمير المؤمنين في ذلك على شيء ، وإن آستصحب أحدا من أهل بيتك ، بدأ بك وكنت المقدم عندك في ذلك ، ولا سيما إذ أنزلت نفسك بحيث أنزلك أمير المؤمنين من نفسه ، وإن ترك ذلك فن غير قَلِّ لمكانك ، ولكن بالحاجة اليك . قال ابراهيم : فكان والله ابتداءه أكثر من ترويتي .

قال أبو العتاهية : وجه الى المأمون يوما ، فصرتُ اليه ، فألفينه مطيرقا ، ففكرا ، فأجمعت عن الدنو منه في تلك الحال ، فرفع رأسه ، فنظر الى ، وأشار بيده أن آدنُ ، فدنوت . ثم أطرق ملها ، ورفع رأسه ، فقال : يا أبا اسحاق ، شأن النفس الملل ، وحب الاستطراف ، تأنس بالوحدة كما تأنس بالألفة . قلت : أجل يا أمير المؤمنين . ولى في هذا بيت قال : ما هو ؟ قلت :

لا يُصْلِح النفس إذ كانت مدبرة * إلا التَّنَزُّلُ من حالٍ الى حال

ثم انظر الى بلاغة المأمون ، التي كانت سليقة فيه ، وإن نزلت بساحته المهموم والفوادح ، فقد ذكر المؤرخون أنه أصيب بابنة له ، كان يحدُّ عليها وجدا شديدا . فجلس وأصر أن

يؤذن لمن بالبَاب ، فدخل عليه العباس بن الحسن العلويّ ، فقال له : يا أمير المؤمنين إنا لم نأتك معزّين ، ولكن أتيناك مقتدين . ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إن لسانى ينطق بمدحك غائباً . وأحبّ أن يتزيّد عنك حاضراً ، أفأذن فأقول ، قال المأمون : قل فانك تقول فتعجب ، وتشهد فتزّين ، وتغيب فتؤتمن ، فقال العباس له ، وصدق فيما يقول ، يا أمير المؤمنين ما أقول بعد هذا ! لقد بلغت من مدحى مالا أباهه من مدحك .

وانظر الى حلاوته في بلاغته ، وفراسته في طلاوته ، ومتانته في عبارته ، حين نصح لابنه العباس فقال له : ينبغي يا بنيّ لمن أسبغ الله عليه نعمه ، وشركه في ملكه وسلطانه ، وبسط له في القدرة ، أن ينافس في الخير ، بما يبقى ذكره ، ويجب أجره ، ويرجى ثوابه . وأن يجعل همته في عدل ينشره ، أو جور يدفنه ، وسنة صالحة يحميها أو بدعة يمتتها . أو مكربة يعتقدها ، أو صنعة يسديها ، أو يد يودعها ويوليها ، أو أثر محمود يتبعه .

ويقول لنا الباحث في البيان والتبيين : كان سهل بن هارون شديد الإطناب في وصف المأمون بالبلاغة والجهارة ، وبالحلاوة والفخامة ، وجودة اللهجة والطلاوة . ويقول ثمامة بن أشرس النخريّ : ما رأيت رجلاً أبلغ من جعفر بن يحيى والمأمون . وإن فيما ذكره ابن الجوزي والعاملي وغيرهما في طرب المأمون للطرف واللغة ، لما يثبت بصره بالأدب وحذقه للغة ، وبممكنه في النحو . وإنا نختتم كلمتنا هذه بما قاله المأمون لولده وعنده عمرو بن مسعدة ويحيى بن أكثم فإنها في السماء بلاغة ودقة معنى وحلاوة أسلوب وسمو سجايا وحسن تدبير ونضوج ذرّة ، ولا يقولها إلا من كان الى جانب ما وصفناه حمال أعباء ، نهاضاً ببزلاء قصيا مرعى همته ، رفيعاً منأط عزمته ، وهى مع كل ذلك من عفو الخاطر ، ونتاج البديهة .

قال : « اعتبروا في علو الهمة بمن ترون من وزرائى وخاصتى ، لأنهم والله ما بلغوا مراتبهم عندى إلا بأنفسهم . إنه من تبع منكم صغار الأمور ، تبعه التصغير والتحقير وكان

(١) يقال : هو نهاض ببزلاء أى صاحب همة يقوم بالأمور العظام .

قليل ما يفتقد من كبارها أكثر من كثير ما يستدرك من الصغار ، فترفعوا عن دناءة الهمة ،
وتفزعوا لجلال الأمور والتدبير ، واستكفوا الثقات ، وكونوا مثل كرام السباع التي
لا تشتغل بصغار الطير والوحش بل بجليها وكبارها . واعلموا أن أقدامكم ان لم تتقدم بكم ،
فإن فائتكم لا يقدمكم ولا يغني الولي عنكم شيئا ما لم تعطوه حقه . وأنشده :

نحن الذين اذا تمحط عصبه * من معشركم لها أنكالا
ونرى القروم محالة لقرومنا * قبل اللقاء تقطر الأبوالا
نريد المنية لا نخاف ورودها * تحت العجاجة والعيون تالالا
نعطى الحزيل فلا تمن عطاءنا * قبل السؤال ونحمل الأثقالا
واذا البلاد على الأنام تزلزلت * كنا لزلزلة البلاد جبالا

«وبعد» فشد ما يروق الرعية تبريزولاتها في البلاغة والبيان ، وشدة ما يثلج الأفئدة
ويقتز العيون تملكهم لأعنة القول ، وإطلاعهم على الغرر والمُلح وتشجيعهم لذوى
الاحسان .

وجميل جدا أن تنشر الكفايات ، وأن يتخذ الولاة من كلمة المأمون : « إن وزرائي
والله ما بلغوا مراتبهم عندي إلا بأنفسهم » سنة يترسمونها ، وقاعدة يتبعونها ، وحكمة
يذيعونها لترتفع النفوس وتسمو النزعات ولينال الاحسان أهل الاحسان .

(ى) علم المأمون :

كان المأمون وأفر العلم ، غزير الإطلاع وليس ذلك بعزير على خليفة ملاء عصره
بأنواع المعارف الانسانية ، ونفع فيه من روحه القوى ، حتى استطاع الباحث أن يسميه
بسميته ، وأن يرجع فضل الحضارة العباسية اليه .

ولكن المأمون في علمه وثقافته لم يقف عند حد الثقافة الذاتية ، وإنما وجه حرصه
الى أن يثير في نفوس أصحابه كوامن الرغبة الى التعمق في الدرس ، والشوق الى إدراك
حقائق الأشياء ، وكانت له في ذلك طريقة معروفة ، هي توجيه السمر والحديث الى فنون

العلم، وضروب العرفان، فكان حديث الليل وحديث المائدة يفتح جلساته أبواباً من القول . ما كانت تخطر لهم ببال .

قال جعفر بن محمد الأنماطي : إن المأمون لما دخل بغداد، وقَرَّبها قراره، وأمر أن يدخل تاليه من الفقهاء والمتكلمين وأهل العلم جماعةً، يختارهم لمجالسته ومحادثته، وكان يقعد في صدر نهاره على لبوٍ في الشتاء وعلى حصير في الصيف، ليس معها شيء من سائر الفرش، ويقعد للظالم في كل جمعة مرتين، لا يمتنع منه أحد، قال : واختير له من الفقهاء لمجالسته، مائة رجل، فما زال يختارهم، طبقة بعد طبقة، حتى حصل منهم عشرة، كان أحمد بن أبي دؤاد أحدهم، وبشر المريسي . قال جعفر بن محمد الأنماطي : وكنتُ أحدهم، قال : فتغدينا يوماً عنده، فظننت أنه وضع على المائدة أكثر من ثمانمائة لون، فكلما وضع لون، نظر المأمون إليه، فقال : هذا يصلح لكذا، وهذا نافع لكذا، فمن كان منكم صاحب بلغم ورطوبة، فليجتنب هذا، ومن كان صاحب صفراء فليأكل كل من هذا، ومن غلبت عليه السوداء فليأكل كل من هذا، ومن أحب الزيادة في لحمه فليأكل كل من هذا، ومن كان قصده قلة الغذاء فليقتصر على هذا، قال : فوالله إن زالت تلك حاله في كل لون يقدم، حتى رُفِعَت الموائد . قال فقال له يحيى بن أكرم : يا أمير المؤمنين، إن خضنا في الطب كنت جالينوس في معرفته ! أو في النجوم كنت هيرميس في حسابه ! أو الفقه كنت علي بن أبي طالب صلوات الله عليه في علمه ! أو ذكرنا السخاء فأنت فوق حاتم في جوده ! أو ذكرنا صدق الحديث كنت أبا ذرٍّ في صدق لهجته ! أو الكرم كنت كعب بن مامة في إيثاره على نفسه ! قال : فسرّ بذلك الكلام، وقال : يا أبا محمد، إن الإنسان إنما فُضِّل على غيره من الهوام بفعله وعقله وتمييزه، ولولا ذلك لم يكن لحم أطيب من لحم، ولا دم أطيب من دم . وإنك إذا قلت : إن يحيى بن أكرم، قد بالغ في تحايل المأمون، وغلا في صفتيه، فأنا معك في ذلك، ولكنني ألاحظ أن هذا الغلو لا يخلو من آثارٍ من حق وصدق .

ولتنظر معى نظرة مُستَقْصِص لاطلاع المأمون ، وتدقق المعانى اليه ، وهواناة الأفكار له حينما ارتدّ رجل من أهل خراسان ، وأمر المأمون بحمله الى مدينة السلام ، فلما أُدخل عليه أقبل بوجهه اليه ، ثم قال له : « أخبرنى : ما الذى أوحشك مما كنت به آنسا من ديننا ، فوالله لأن أستحييك بحق أحب الىّ من أن أقتلك بحق ، وقد صرت مسلما بعد أن كنت كافرا ثم عدت كافرا بعد أن صرت مسلما . فإن وَجَدْتَ عندنا دواء دائك ، تعالجت به اذ كان المريض يحتاج الى مُشَاوَرَةِ الأطباء . فان أخطأك الشفاء ونبا عن دائك الدواء ، كنت قد أعذرت ولم ترجع على نفسك بلائمة ، فان قتلناك بحكم الشريعة ترجع أنت فى نفسك الى الاستبصار والثقة ، وتعلم أنك لم تُقَصِّرْ فى اجتهاد ، ولم تدع الأخذ بالحزم » . فقال المرتد : « أوحشنى ما رأيتُ من كثرة الاختلاف فى دينكم » فقال المأمون : « فإن لنا اختلافين : أحدهما كالاختلاف فى الأذان وتكبير الجناز، والاختلاف فى التشهد وصلاة الأعياد، وتكبير التشريق ووجوه القراءات ، واختلاف وجوه الفُتُيا ، وما أشبه ذلك ، وليس هذا باختلاف إنما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من المحنة ، فمن أَدَنَ مَنًى وأقام فُرَادَى لم يُؤَثِّمْ من أَدَنَ مثنى وأقام مثنى ، لا يتعايرون ولا يتعاليون ، أنت ترى ذلك عيانا ، وتشهد عليه بيانا ، والاختلاف الآخر كمنحو الاختلاف فى تأويل الآية من كتابنا ، وتأويل الحديث عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، مع إجماعنا على أصل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر ، فان كان الذى أوحشك هذا حتى أنكرت كتابنا ، فقد ينبغى أن يكون اللفظ بجميع ما فى التوراة والإنجيل متفقا على تأويله ، كالاتفاق على تنزيله ، ولا يكون بين الملتين من اليهود والنصارى اختلاف فى شىء من التأويلات ، وينبغى لك ألا ترجع إلّا الى لغة لا اختلاف فى ألفاظها ، ولو شاء الله أن ينزل كتبه ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا تحتاج الى تفسير لفعل ، ولكنا لم نر شيئا من الدين والدنيا دُفع الينا على الكفاية ، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البُلُوى والمحنة ، وذهبت المسابقة

والمناصفة ولم يكن تفاضل ، وليس على هذا بنى الله جل وعز الدنيا » فقال المرتد : « أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن المسيح عبد الله ورسوله ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق ، وأنت أمير المؤمنين حقا » قال : فأنحرف المأمون نحو القبلة فخر ساجدا ، ثم أقبل على أصحابه فقال : « وقروا عليه عرشه ، ولا تبرؤوه في يومه ، ريثما يعتق إسلامه ، كيلا يقول عدوه إنه يسلم رغبة ، ولا تنسوا نصيبكم من بره ونصرتة وتأييده والفائدة عليه » .

وهذا المنحى الذى نحاه المأمون ، فى إقناع ذلك المرتد يدلنا على ناحيتين من نواحي تفكيره :

الأولى : بصره بأسرار الشريعة ، وعلمه بدقائق الدين ، وتدقيقه فى فهم أنواع الخلاف بين المسلمين ، ويكاد هذا التقسيم يقضى على كل شبهة ، عند من يربطهم هذا النزاع الذى طال بين الفرق الإسلامية ، وتشعبت به مذاهب الفقهاء .

الثانية : تعمقه فى درس النفسيات ، واستقصاء خلجات القلب ، وهجسات الضمير ، وذلك ظاهر فى مراجعته لحياة الرجل الروحية ، وتأمله لما ألفت نفسه وسكن إليه وجدانه قبل إسلامه ، فقد بنى على هذه السابقة طريقة التألف والتسامح التى قضى بها على ما مئى به الرجل من الكفر بعد الإيمان .

« وبعد » فإن المأمون فى علمه وعرفانه أهل للاحتذاء والارتسام من أقرانه ، قين بالتأمل به والاقتفاء من أخدانه ، ليكون زناهم غرة فى جبين الدهر كرمانه ، ويكون نصيبهم نصيبه فى مهابته ورفعة شأنه ، ورسوخ عرشه وقوة بنيانه .



(ك) احترامه للدين :

كان المأمون شديد الاحترام للتقاليد الدينية ، يرى فيها صيانة لنفسه ، واستبقاء لقلوب رعيته ، ولكنه كان يتسخط فى ذلك ، فيعاقب على حقوة مرت عليها عشرات السنين ، وسنقص عليك حادثة ، هى دلالة على هذا الإسراف ، وهى أيضا عنوان على ذوقه فى نقد

الشعر ، وإنا لنرجح أن للظرف الذي وقعت فيه هذه الحادثة تايلا ميا اجتريح فيها ،
فلولا مجلس الغناء ولعبه بالنفس ، لما عزل قاض لطفوة لفظية ، طال على عهدا الزمان ،
واليك الحديث :

ذكر أحد المعاصرين وهو أبو حشيشة محمد بن علي بن أمية بن عمرو قال : كما أقام
أمير المؤمنين المأمون بدمشق ، فغنى علويّه :

برئت من الإسلام إن كان ذا الذي * أذاك به الواشون عني كما قالوا
ولكنهم لما رأوك سريعة * إلى توأصوا بالنيمة وأحتالوا

فقال : يا علويّه ، لمن هذا الشعر؟ فقال : للقاضي ، قال : أي قاض ويحك؟ قال : قاضي
دمشق . فقال : يا أبا اسحاق ، اعزله ، قال : قد عزلته ، قال : فيحضر الساعة ،
قال : فأحضر شيخ مخضوب قصير ، فقال له المأمون : من تكون؟ قال : فلان بن
فلان الفلاني ، قال : تقول الشعر؟ قال : قد كنت أقوله ، فقال : يا علويّه ، أنشد الشعر
فأنشده ، فقال : هذا الشعر لك؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، ونسأله طواني وكل ما يملك
في سبيل الله ، إن كان قال الشعر منذ ثلاثين سنة إلا في زهد ، أو معاتبة صديق ، فقال :
يا أبا اسحاق ، اعزله ، فما كنت أولى رقاب المسلمين من يبدأ في عزله بالبراءة من الإسلام...
ثم قال : يا علويّه ، لا تقل برئت من الإسلام ، ولكن قل :

حرمت مناي منك إن كان ذا الذي * أذاك به الواشون عني كما قالوا

وهذا الموقف من المأمون شبيه كل الشبه بموقفه مع يحيى بن أكثم وزيره وقاضيه ،
حيث قال له المأمون : « لا أترك قاضيا يشرب النبيذ » .

ثم لننظر ما يروى عن سعيد بن زياد أحد المعاصرين ، فإنه يدلّك على تقديس المأمون
لآثار النبي واحترامه لها ، وتيمنه بها ، مع ورع وخشوع ، فقد قيل : إنه لما دخل المأمون
دمشق قال له : « أرنى الكتاب الذي كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لكم ، فأراه سعيد إياها ،
فقال له : « إني لأشتهي أن أدرى أي شيء هذا الغشاء على هذا الخاتم » فقال له أبو اسحاق :

حُلَّ الْعُقْدَةُ حَتَّى تَرَى مَا هُوَ فَقَالَ الْمَأْمُونُ : مَا أَشْكُ أَنْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَقَدَ هَذَا الْعَقْدَ ، وَمَا كُنْتُ لِأَحْلَ عَقْدًا عَقَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ لِلْوَائِقِ : خُذْهُ فَضَعْهُ عَلَى عَيْنَيْكَ ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَنْشِفِكَ ، وَجَعَلَ الْمَأْمُونُ يَضَعُهُ عَلَى عَيْنَيْهِ وَيَبْكِي .

على أنا نرى من الوفاء للنقد العلمى أن نحيل القارئ هنا الى كلمتنا عن سياسة المأمون ، والى مذهبه الدينى فى الاعتزال ، كما نحيله الى مبحثنا فى الحياة العلمية والأدبية فى عصره ، ونظن أنه سيلاحظ معنا أن هذه السداجة الطيبة ، وذلك الإيمان الجليل فى تقدير المأمون للآثار النبوية لا تتفق فى حقيقة جوهرها مع ما أجمع عليه المؤرخون فى سياسته ، ولا مع اعتزاله أو توغله فيما تركه الفلاسفة الأولون^(١) ؛ ولا مع ما أخذ به المأمون بعض معاصريه من ألوان النقد فى شؤون دينهم ودنياهم .

والمأمون عند صحة هذه الرواية بين الثنتين : إما أن يكون قوى العاطفة الدينية ، رقيق الحس ، يخضع لوجدانه وإيمانه ؛ وإما أن يكون فى مثل هذه الأحوال رجل سياسة ودهاء ، يحسب ألف حساب لعواطف الجماهير ويحترم ميول الجماعات الدينية .

« وبعد » فالدين للديان جلّ جلاله ، وأنعم بالولاة الذين يحترمون ما للجماعات من آراء ومعتقدات وديانات .



(ل) سياسته :

ولقد كان المأمون سياسياً فذاً ، وليس أدل على « دبلوماسيته » ، من خطته التى لا نجد لها فى عصره ما هو أحكم منها ولا أسد ، مع ركونه الى مشاوره شيعته وأنصاره اذا حَزَبَهُ أمر . ولا أدل على كياسته وكبير مهارته من تصرفاته مع سفراء أخيه الأمين مما وقفك على طرف منه ، فى فصل النزاع بين الأخوين .

(١) يقول الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار : « الاعتزال مذهب من مذاهب التوحيد أراد القامون به تنزيه الله عن الأشباه فنفوا أن يكون لله صفات لئلا يتبدد القدماء ، ثم انتقلوا الى الأفعال فنفوا أن يكون لله أثر فى فعل الشر فقالوا إن الله منزّه عن الشر وإن الانسان يخلق أفعال نفسه الاختيارية بقدره أودعها الله فيه الخ ما قالوا . وليس فى هذا ما ينافى لإجلال المأمون لآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وكان سياسياً فذاً ، في تزوجه من بُورَان بنت الحسن بن سهل ليكتسب الحزب الفارسيّ ، وفي تزويجه عليّ بن موسى الرضا ابنته أم حبيب ، ومحمد بن علي بن موسى ابنته أم الفضل ليكتسب الحزب العلويّ ، رامياً بذلك كله الى ضمان تأييد الأحزاب له ، عارفاً لنفسيات الجمهور وأمزجة الجماعات .

وكان سياسياً فذاً ، مصيباً لباب الصواب في قوله لأحمد بن أبي دواد عن أهل بغداد : « الناس على طبقات ثلاث في هذه المدينة ، ظالم ، ومظلوم ، ولا ظالم ولا مظلوم ، فأما الظالم فليس يتوقع ألا عفونا وإمساكنا ، وأما المظلوم فليس يتوقع أن ينصف إلا بناً ، ومن كان لا ظالماً ولا مظلوماً فبيته يسعه » .

وكان سياسياً فذاً ، في مداراته عماله ، وليس أدلّ على ذلك من تصرفه مع إبراهيم بن السنديّ صاحب الأخبار ، وقد رفع إليه خبراً عن حادثة بمصر ، فكذّبه عبدالله بن طاهر ، فعنف المأمون السنديّ ألم التعنيف ، أمام ابن طاهر ثم بعث إليه ، وقال له : « إني أمر وأداري عمالي وعماهم ، مداراة الخائف ، والله ما أجد الى حملهم على المحجة البيضاء سبيلاً ، فاعمل لي على حسب ما تراني أعمل ؛ وإن لهم تسلم لك أيامك ، ويغض دينك » .

وكان سياسياً فذاً ، حينما رفع اليه صاحب خبره « إنا أصبحنا يا أمير المؤمنين ريقاً ، فيها كلام السفهاء والسفلة ، وفيها تهديد ووعيد ، وبعضها عندنا محفوظ ، الى أن يأمر أمير المؤمنين فيها بأمره ، فكتب المأمون بخطه : « هذا أمر إن أكبرناه كثر غمنا به ، واتسع علينا خرقه ، فمر أصحاب أخبارك ، متى وجدوا من هذه الرقاع رقعة أن يمزقوها ، قبل أن ينظروا فيها ، فانهم اذا فعلوا ذلك لم يرّ لها أثر ولا عين » ففعلوا ذلك فكان الأمر كما قال .

وتعال ننظر نظرة تحليلية قصيرة ، فيما يرويهِ لنا زيد بن علي بن الحسين ، قال : « لما كان في العيد ، بعد قدوم المأمون سنة أربع ومائتين والمأمون يتغدى ، وعلى مائدته طاهر بن الحسين وسعيد بن سلم وحميد بن عبد الحميد وعلى رأسه سعيد الخطيب وهو يقرظه ، ويدكر مناقبه ، ويصف سيرته ومجاسه ، اذ أنهملت عينا المأمون بالدموع ، فرفع يده عن الطعام ، فأمسك القوم حين رأوه بتلك الحال ، حتى اذا كَفّ ، قال لهم : كلوا ، قالوا : يا أمير

المؤمنين ، وهل تُسيغ طعاما أو شرابا وسيّدنا بهذه الحال . قال : أما والله ما ذلك من حَدَث ولا لمكروه هَمَّتْ به بأحد ، ولكنه جنس من أجناس الشكر لله اعظمته ، وذكر نعمته التي أتمّها علىّ ، كما أتمّها على أبويّ من قبليّ ، أما ترونّ ذلك الذي في صحن الدار ، يعني الفضل بن الربيع — قال : وكانت الستور قد رفعت ، ووُضعت الموائد للناس على مراتبهم ، وكان يجلس الفضل مع أصحاب الحرس — وكان في أيام الرشيد وحالُه حاله يرانى بوجه أعيرف فيه البغضاء والشّنائف ، وكان له عندي كالذى لى عنده ، ولكنى كنت أدأريه خوفا من سِعايته وحَدَرًا من أكاذيبه ، فكنت اذا سلّمت عليه ، فردّ علىّ أطلّ لذلك فرحا ، وبه مبتهجا ، وكان صغوه الى الخلوغ ، فعمله على أن أغراه بى ، ودعاه الى قتلى ، وحرك الآخر ما يحرك القربة والرحم الماسّة ، فقال : أمّا القتل فلا أقتله ، ولكنى أجعله بحيث اذا قال لم يُطع ، واذا دعا لم يُجب ، فكان أحسن حالاتى عنده ، أن وجه مع علىّ بن عيسى قيد فضة ، بعد ما تنازعا فى الفضة والحديد ليقيّدنى به ، وذهب عنه قول الله جلّ وعزّ : ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴾ فذاك موضعه من الدار بأخس مجالسها ، وأدنى مراتبها ، وهذا الخطيب على رأسى ، وكان بالأمس يقف على هذا المنبر ، الذى بإزائى مرّة ، وعلى المنبر الغربىّ أنحرى ، فيزعم أنّى المأمون ولست بالمأمون ، ثم هو الساعة يقترظنى تقرّظّه المسيح ومحمدا عليهما السلام ، فقال طاهر بن الحسين : ياسيّدنا ، فما عندنا فيهما وقد أباحك الله إراقة دماهما ، فخصمتّهما بالعفو والحلم ! قال : فعلت ذلك لموضع العفو من الله . ثم قال المأمون : مُدّوا أيديكم الى طعامكم ، فأكل وأكلوا .

ألا يسوغ لنا أن نستنبط مما قدّمناه لك أن المأمون كان سياسيا ذهنا ، حاذقا فى تصرفه مع الفضل ؟ ألم يكن للفضل مكانة عند الرشيد ، ونفوذ بعيد المدى فى الدولة ؟ ألا يجوز أن سِعايته بالمأمون وأكاذيبه عليه ، إن لم يُداره ، تجد آذانا مُصغية . وأنها قد تجرّ عليه من الشرور ما ليس فى حاجة اليه ؟

ألم يكن خير سبيل لا تقاء شائئته أن يداريه ، عملا بقول أبي الدرداء «إنا لننبشّ فى وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم» ؟

فهـل ترى سياسة أحكم ، وبصرا بالأُمور أتمّ ، من تصرف المأمون ومدارانه ، ثم انظر ما كان من مداراته للفضل بن سهل ، كما صرح بذلك لولىّ عهده علىّ بن موسى الرضا ، ومداراته لظاهر بن الحسين قاتل أخيه ، وما كان من تصرفاته مع الوفود الأُمينية ، تؤمن معنا أن المأمون كان سياسيا ، ولعل لأطلاعه على ما تُرجم من المؤلفات اليونانية والفارسية ، مع استعداده الخاص ونزوعه الى البحوث الكلامية عاقبةً ، وجهه للمشاورة واكتنافه بالروس المفكرة الناصجة ، لعل لهذا وأمثاله الفضل في تكوين المأمون على ما رأيت ، وتخريره على ما شاهدت .

« وبعد » فإن للحياة تقاليدها ، وإن لسياسة الشعوب أسرارها ، كما أن للصراحة محامدها ، وللدارة ضرورتها ، وأنعم بمن يضع الأمور في مواضعها ، ويزن المواقف بميزانها ، ويطبّ لكل حاجة دواءها وعلاجها .



(م) مذهب المأمون الديني :

أما مذهب المأمون الديني أو السياسي إن شئت ، وهل كان يميل للفرس حقا ويؤثرهم على غيرهم من العرب في خدمة الدولة ، وهل كان شيعيا علويا ، أو معتدلا في التشيع ؛ أو معتزيا ، فهذا بابٌ يستفيض القول في شئ نواحيه ، وتزدحم معانيه ، لاختلاف وجهات النظر فيه . ولعلك تبينت مما كتبناه عن المأمون السياسي ، بعض ما يُساعدك على تفهم مذهبهم الديني .

ولما كنا قد أرجأنا الكلام في موضوع المحنسة والقول بخلق القرآن الى قسم العلوم والآداب ، فنحن نلّف النظر هنا الى ذلك .

بيدَ أنا نرى من واجبنا أن نسير هنا ، الى أن المأمون كان مُحوطا بشيوخ الاعتزال والكلام ، أمثال ثمامه بن أشرس ويحيى بن المبارك وغيرهما . ويجوز لنا أن نفترض أن المأمون قد أخذ مذهب الاعتزال من يحيى بن المبارك مؤدبه ؛ فان ياقوتا الرومي قد ذكر

عنه ، في الجزء السابع من معجمه ، : أنه كان يُتهم بالميل الى الاعتزال ، فلا يستبعد أذاً ، وصلته بالمأمون صلة الأستاذ بتلميذه ، أن يكون المأمون قد تأثر بميله خصوصاً ، أنه اتصل به منذ صباه في أيام الرشيد . وكذلك كان محوطاً بشيوخ آخرين ، لهم آثارهم ومكانتهم في الدولة ، مثل يحيى بن أكثم وغير يحيى بن أكثم .

وكان على ذلك ، متأثراً بما تُرجم من أخلاقيات فلاسفة اليونان وعلومهم ، وآداب الفرس وفنونهم . كما كان ، الى حدٍّ غير قليل ، تحت سلطان الفرس ووزرائهم أمثال الفضل بن سهل . وكان يحسب للعلويين حسابهم ، وللعباسيين حسابهم . فلا غرو إذاً أن يكون لكل هذه العوامل أثر غير قليل في تشكيل مزاجه الديني . وقد يفتّر بعض هذه العوامل حيناً وقد يشتد حيناً آخر ، طبقاً للأحوال .

هذا هو رأينا في مذهبه الديني أو السياسي على وجه عام . على أن هذا لا يمنعنا ، وقد اتخذنا لأنفسنا خطة الحيدة في تدوين التاريخ ، من أن نُثبت آراء القدماء فيه ، وأن نذكر طرفاً مما جاء منها في هذا الصدد .

قال ابن الأثير في كامله : « قال أبو العباس أحمد بن عبد الله بن عمار : كان المأمون شديد الميل الى العلويين ، والإحسان اليهم ، وخبره مشهور معهم ، وكان يفعل ذلك طبعاً لا تكلفاً ، فمن ذلك أنه توفى في أيامه يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين العلوي ، فحضر الصلاة عليه بنفسه ، ورأى الناس عليه من الحزن والكآبة ما تعجبوا منه ، ثم إن ولدًا لزينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس ، وهي ابنة عم المنصور توفى بعده ، فأرسل له المأمون كفتاً ، وسير أخاه صالحاً ليصل عليه ويعزي أمه ، فانها كانت عند العباسيين بمنزلة عظيمة ، فأتى اليها وعزّاها عنه واعتذر عن تحلقه عن الصلاة عليه ، فظهر غضبها وقالت لابن ابنها : تقدّم فصل على أبيك ، وتمثلت :

سَبَّكَاهُ وَنَحَسَّاهُ بِحَيَاتِي * فَأَبْدَى الْكَبِيرُ عَنْ خَبَثِ الْحَدِيدِ

ثم قالت لصالح : قل له يا بنَ مَراجِل ، أما لو كان يحيى بن الحسين بن زيد لو وضعتَ ذلك على فيك ، وعدوت خلف جنازته .

ثم تعالَ معي نتدبر ما يرويه لنا التغلبيّ أحد المعاصرين ، قال : سمعت يحيى بن أكرم^(١) يقول : أمرني المأمونُ عند دخوله بغداد ، أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلاً وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل ، وأفاض في فنون الحديث والعلم ، فلما انقضى ذلك المجلس ، الذي جعلناه للنظر في أمر الدين ، قال المأمون : يا أبا محمد ، كره هذا المجلس الذي جعلناه للنظر طوائف من الناس ، بتعديل أهوائهم وتركيز آرائهم ، فطائفة عابوا علينا ما نقول في تفضيل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وظنوا أنه لا يجوز تفضيل علي إلا بانتقاص غيره من السلف ! والله ما أستجيز أن أنتقص المجآج فكيف السلف الطيب ! وإن الرجل ليأتيني بالقطيعة من العود أو بالخشب أو بالشئ الذي لعل قيمته لا تكون إلا درهماً أو نحوه ، فيقول : إن هذا كان للنبي صلى الله عليه وسلم قد وضع يده عليه أو شرب فيه أو مسّه ، وما هو عندي بثقة ولا دليل على صدق الرجل ، إلا أتى بفرط النية والمحبة أقبل ذلك فأشتريه بألف دينار وأقل وأكثر ، ثم أضعه على وجهي وعيني ، وأتبرك بالنظر إليه وبمسّه ، فأستشفى به عند المرض يُصيبني أو يُصيب من أهتم به ، فأصونه كصيانتي نفسي ، وإني ما هو عود لم يفعل شيئاً ، ولا فضيلة له يستوجب المحبة ، إلا ما ذكر من مس رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، فكيف لا أرعى حق أصحابه وحرمة من قد صحبه ، وبذل ماله ودمه دونه ، وصبر معه أيام الشدة وأوقات العُسرة ، وعادى العشائر والعاهل والأقارب ، وفارق الأهل والأولاد ، وأغترب عن داره ليعز الله دينه ويُظهر دعوته ، يا سبحان الله ! والله لو لم يكن هذا في الدين معروفاً ، لكان في الأخلاق جميلاً ! وإن من المشركين لمن يرتع في دينه من الحرمة ما هو أقل من هذا . معاذ الله مما نطق به الجاهلون . ثم لم ترّض هذه الطائفة بالعيب لمن خالفها ، حتى نسبته إلى البدعة في تفضيله رجلاً على أخيه ونظيره ومن

(١) هذه القطعة منقولة كما هي عن تاريخ بغداد ج ٦ ص ٧٥ وما بعدها .

يقاربه في الفضل ، وقد قال الله جل من قائل : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ثم وسّع لنا في جهل الفاضل من المفضول ، فما فرض علينا ذلك ولا ندبنا إليه ، إذ شهدنا لجماعتهم بالنبوة ، فن دون النبيين من ذلك بعد إذ شهد لهم بالعدالة والتفضيل أمرؤ لوجهله جاهل رجونا ألا يكون اجترح إثماً . وهم لم يقولوا بدعة فيمن قال بقول واحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وشك الآخر واحتج في كسره وإبطاله من الأحكام في الفروج والدماء والأموال التي النظر فيها أوجب من النظر في التفضيل . فيغلط في مثل هذا أحد يعرف شيئاً ، أوله روية أو حسن نظر ، أو يدفعه من له عقل ، أو معاند يريد الإلطاط^(١) ، أو متبع لهواه ، ذاب عن رياسة اعتقدها . وطائفة قد اتخذ كل رجل منهم مجلساً ، اعتقد به رياسة ، لعله يدعو فئة إلى ضرب من البدعة ، ثم لعل كل رجل منهم يُعادي من خالفه في الأمر الذي قد عقد به رياسة بدعة ، ويشيط بدمه ، وهو قد خالفه من أمر الدين فيما هو أعظم من ذلك ، إلا أن ذلك أمر لا رياسة له فيه ، فسالمه عليه وأمسك عنه ، عند ذكر مخالفته إياه فيه ، فإذا خولف في نخلته ، ولعلها تم وسع الله في جهله بها ، أو فيما اختلف السلف في مثله ، فلم يُعاد بعضهم بعضاً ، ولم يروا في ذلك إثماً ، ولعله يكفر مخالفه ، أو يُبدعه أو يرميه بالأمور التي حرمها الله عليه من المشركين دون المسلمين ، بغياً عليهم ، وهم المترقبون الفتن ، والراسخون فيها ، لينهبوا أموال الناس ويستحلوها بالغلبة ، وقد حال العدل بينهم وبين ما يريدون ، يزأرون على الفتنة زئير الأسد على فرائسها . وإني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا — بتوفيق الله وتأييده ، ومعونته على إتمامه — سبباً لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أَرْضَى وأصلح للدين ، إما شاك فيبتين ويتثبت فينقاد طوعاً ، وإما معاند فيرد بالعدل كرهاً .

ولقد هم في سبيل علويته هذه أن يلعن معاوية ، وأن يكتب بذلك كتاباً ، يُقرأ يوم الدار ، وحفل الناس ، فشناه عن ذلك يحيى بن أكرم ، وقد يكون من الممتع الطريف حقاً أن نذكر لك ما قاله يحيى وغيره ، لتبين نفسية الزعماء فيما نحن بسبيله .

(١) الإلطاط : الاشتداد في الأمر والخصومة . (٢) يشيط بدمه : يهدره .

قال يحيى بن أكثم : يا أمير المؤمنين ، إن العامة لا تحتل هذا ، ولا سيما أهل
نُحْرَاسَانَ ، ولا تأمن أن تكون لهم نفرة وإن كانت لم تدّر ما عاقبتما ، والرأى أن تدع الناس
على ما هم عليه ، ولا تُظهر لهم أنك تميل الى فرقة من الفرق ، فإن ذلك أصلح في السياسة ،
وأحرى في التدبير . فركن المأمون الى رأيه ، ثم دخل عليه ثُمَامَةُ أحد المعاصرين ؛ فقال له
المأمون : يا ثُمَامَةُ ، قد علمت ما كنا دبرناه في معاوية ، وقد عارضنا رأى هو أصلح في تدبير
الملكمة ، وأبقى ذكراً في العامة ، ثم أخبره أن ابن أكثم خُوفه إياها ، وأخبره بنفورها عن
هذا الرأى ؛ فقال ثُمَامَةُ : يا أمير المؤمنين ، والعامة في هذا الموضع الذى وصفها به
يحيى ! والله او وجهت إنسانا على عاتقه سواد ، ومعه عصا لساق اليك بعصاه عشرة آلاف
منها ! والله يا أمير المؤمنين ، ما رضى الله جلّ شأنه أن سواها بالأنعام ، حتى جعلها أضلّ
منها سبيلا ؛ فقال تبارك وتعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ . إِنْ هُمْ
إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ والله يا أمير المؤمنين ، لقد مررت منذ أيام في شارع
الخلد ، وأنا أريد الدار ، فإذا إنسان قد بسط كساءه ، وألقى عليه أدوية ، وهو قائم ينادى
عليها : هذا الدواء لبياض العين والعشا والغشاوة والظلمة وضعف البصر ، وإن إحدى
عينيه لمطموسة ، وفي الأخرى مؤسّى له ، والناس قد انثالوا عليه وأجفلوا اليه يستوصفونه ،
فنزلت عن دابتي ناحية ودخلت في عُمار تلك الجماعة فقلت : يا هذا ، أرى عينك أحوج
هذه العين الى العلاج وأنت تصف هذا الدواء وتخبر أنه شفاء لوجع العين ، فلم
لا تستعمله ؟ فقال : أنا في هذا الموضع منذ عشرين ما مر بي شيخ أجهل منك ،
فقلت له : وكيف ؟ قال : يا جاهل ، أين اشتكت عيني ؟ قلت : لا أدري . قال :
بمصر ، فأقبلت على تلك الجماعة فقالوا : صدق الرجل ، أنت جاهل ، وهما بي ، فقلت :
لا والله ، ما علمت أن عينه اشتكت بمصر ، فما تخلصت منهم إلا بهذه الحجة .

نريد بعد ما قدّمناه لك أن نقول لك : إن مذهب المأمون الدينى كان متمشيا تماما
مع مذهبه السياسى ، وإنه اذا كان يريد من وراء خطته السياسية من التزّوج من هذا

الحزب وذلك ، ومن إرضاء هذا الطرف وذلك ، أن يظفر بتكوين وحدة سياسية من شتى الأحزاب ولو أدى ذلك أن يكون من العلويين خليفة ، ثم من العباسيين خليفة ما دامت بغيته متحققة من استتباب الأمن ، وامتزاج الأحزاب ، وتوحيد القوى ، فكذا كان يريد أن يتخذ من مذهبه الديني مذهباً وسطاً . ويخيّل إلينا من النتائج التي وقفنا عليها من دراسة هذا العصر أن المأمون لم يظفر بغايته لا من الوجهة السياسية كما علمت من انتهاء حياة الرضا من آل محمد ، ولا من الوجهة الدينية .

وبعد ، فقد قلنا لك : إن الدين للديان جل جلاله ، وأكبرنا وأكبرت معنا أولئك الولاة الذين يحترمون ما للجماعات من آراء ومعتقدات وديانات ، ويظهر أن المأمون لم يكن فيما رامه في هذا السبيل موفقاً توفيقه فيما عداه ، وأن له زلةً كان يجدر ألا يقع مثله في مثلها ، وسترى ذلك موضحاً في الفصل الذي عقدناه عن « محنة القرآن » .



(ن) كلمة ختامية عن المأمون :

ولما بعد أن حللنا شخصية المأمون بما يجب من التفصيل والتوضيح ، نرى من المستصوب أن نضم إلى آراء المؤرخين العرب وروايات المعاصرين للمأمون التي لا تخلو من مبالغة في تمديحهم بفضائله ، رأى مؤرخ مشرق عكف على دراسة عصر المأمون وهو السيروليم موير ، فربما أفادنا كثيراً من ناحية استيعاب وجهات النظر عند الفرنجة من المؤرخين ، ذلك لأن الحقيقة العلمية لا تُخدم بمثل ما يُخدمها تبأين الآراء واختلاف المصادر وتناقض الروايات . وليس من مهمتنا أن نعرض للرد على « السير موير » وإنما نحن بسبيل إثبات وجهات النظر المختلفة كما قلنا .

قال الأستاذ موير في كتاب الخلافة في مخنم بحثه عن المأمون ما ترجمه لك بنصه :
« فمما لا نزاع فيه أن المأمون كان على وجه العموم متصفاً بالعدل والحلم ، وإنما يؤخذ بأنه كان مُتقلباً في آرائه وشعوره ، سواء أكان ذلك في المسائل السياسية أم الدينية .

ويرجع السبب في ذلك الى نزعتيه الفارسية التي ورثها عن أمه ، والبيئية التي رُبِّي فيها من جهة ، وإلى غريزة حبه للاستسلام بتأثير من حوله كما كان حاله مع الفضل من جهة أخرى . على أننا مع اعترافنا بعدله ، لا نستطيع أن ننزهه عن الجنوح في بعض الأحيان الى الجور واستعمال القسوة من غير مسوّغ ، فإنه قد تصرف في بعض الحوادث تصرف الجبارة والقساة من أسلافه الذين أتوا من المنكرات ما سؤدوا به صحائف تاريخهم . وسأذكر على سبيل المثال حادثة استعمل فيها المأمون وحشية غريبة ، ذلك أن أبا دلف — وكان بطالا من أشرف العرب وزعيما لإمارة همدان ، إذ كان من أسرة كريمة نالت شهرة عظيمة وصيتا واسعا بين عشائرها وذوى البيوتات فيها — كان من الذين انضموا الى نصرة الأمين وشايعوه ، فلما قُتل وأستقل المأمون بالخلافة ، أبى أبو دلف أن يدخل في طاعته ، وآثر العودة الى مسقط رأسه في فارس ، فمدحه شاعر أعمى بقصيدة رائعة ، وغالى في مدحه وإطرائه ، ووصفه بأنه أشرف العرب والمقدم عليهم ، فاغتاظ المأمون من الشاعر غيظا شديدا ، إذ ظن أن الشاعر يقصد إهانته ، فأمر بتعذيبه وقتله شرّ قتل ، ولكن لم يمض على ذلك غير قليل من الزمن حتى دخل أبو دلف في طاعة المأمون فاحتفل به وقربه اليه ، فان كان تجاوزه عن أبي دلف وسعة حلمه عليه مما يعظم شأن المأمون ويدل على رحابة صدره ، فهذا التجاوز لا يغيّر حكمنا عليه بالقسوة الوحشية في قتل ذلك الشاعر الأعمى ، ولو أغضينا عن الشبهات التي حامت حول مقتل الفضل وموت عليّ الرضا غدرًا وغيبةً ، فاننا لا نستطيع أن نغضى عن معاملته الجائرة لابن عائشة ، وما لقيه هزيمة وطاهر مع تفانيهما في نصرته وتوطيد حكمه ، واضطهاده لكثير من أجلاء المفكرين ، وأصحاب الآراء المخالفة لرأيه في بعض مسائل الدين ، في مجلس المناظرة ، مما يدل على قسوته ، إلا أننا اذا راعينا طول مدّة حكمه وموقفه النبيل في عفوه عن الخارجين عليه في بغداد ، نرى كفة عدله وحلمه أرجح من كفة جوره وقسوته ؛

وقصارى القول أن عصر خلافته كان بوجه الإجمال من أزهى عصور التاريخ
الإسلامي» اهـ .

* *

وبعد ، فلقد حللنا شخصية المأمون الفذة البارزة بما استحقته من الاستقصاء
والاستيعاب ، والدرس والتحليل ، وأعقبنا كل كلمة عن سجاياه ما نعتبه موضع العظة
والاعتبار من دراسة هذا العصر المترع بالمثُل العليا . ونأمل أن تكون قد وفّقنا فيما
رُمناه من إصابة شاكلة الحق ولُبّاب الصواب .

الفصل الثامن

الحياة العلمية في عصر المأمون

توطئة — حركة النقل — الترجمة — كتب العصر — آثار النهضة المأمونية — القول بخلق القرآن .

(١) توطئة :

قيل : إن سهل بن هارون كان يتولى الهيمنة على إدارة دار الكتب الخاصة بالدولة المأمونية في بغداد، وكانت تعرف ببيت الحكمة، كما كان يتولى تنظيم خزانة المأمون .
وقيل : إن بيت الحكمة هذا أنشئ في الغالب أيام الرشيد، حيث قد جمع له فيه البرامكة من الكتب ما وقَّفوا إليه، هندية كانت أو فارسية أو يونانية .

وقيل : إن يحيى بن أبي منصور الموصلي المنجم المعروف وأحد أصحاب الأرصاد في العصر المأموني ، ومحمد بن موسى الخوارزمي صاحب الأزياج وصورة الأرض، كانا من خزنة دار الحكمة المأمونية، كما كان جدُّ أحمد الطيبي المعروف بالصنوبري الحلبي والفضل ابن توجُّت وأولاد شاكر وغيرهم من رجالات بيت الحكمة في العصر المأموني ، أو ممن كان يتردد على هذه الدار للعمل فيها بصفة رسمية أو للطالعة أو النسخ أو الترجمة أو التأليف .

وقيل : إن الراوية النسابة المعروف علان الشعوبي الفارسي الأصل، كان ممن ينسخ في بيت الحكمة ، أو في أحد بيوت الحكمة هذه، إذ يلوح لنا أنها كانت على الأرجح أكثر من بيت، للرشيد والبرامكة والمأمون .

وقيل : إن المأمون بعث إلى حاكم صقلية المسيحي أن يبادر بأن يرسل إليه مكتبة صقلية الشهيرة الغنية بكتبها الفلسفية والعلمية الكثيرة، وإن الحاكم تردّد في إرسالها، وكان بين الضنّ بها والحِرص عليها والخوف من القوّة المأمونية والهيبة المأمونية، ومن أجل ذلك جمع كبار رجالات الدولة وأدلى إليهم بطلب المأمون، فأشار عليه المطران الأكبر بقوله :

« أرسلها إليه ، فوالله ما دخلت هذه العلوم في أمة إلا أفسدتها » فأذن الحاكم لمشورته وعمل بها .

ويقول الأستاذ كرد علي : إن المأمون هو الذي جمع بعض حكماء عصره على صنعة الصورة التي نسبت إليه ، ودُعيت الصورة المأمونية ، صُوروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبرّه وبحره وعامره وغامره ومساكن الأمم والمدن الى غير ذلك ، وهي أحسن مما تقدمها من جغرافية بطليموس ، وجغرافية مارينوس ، وقد وضع له علماء رسم الأرض - وقال الزهرى : إنهم كانوا سبعين رجلا من فلاسفة العراق - كتابا في الجغرافية أعان عمال الدولة على التعرف الى البلاد والأمم ، التي أظلتها الراية العباسية ، هذا الى عنايته بالفلك ، وفلكية الفزارى أول من استعمل الأسطرلاب من العرب ، وعنى بالطبيعة والرياضيات فوق عنايته بالطب ومعرفة العقاقير والنبات والحيوان ، الى ما شاكل تلك العلوم مما كان له الأثر المحسوس في إدخال المدنية على دولة العرب ، وفتح به المأمون باب العقل على مضراعيه في كل مطالب وشأن .

قيل هذا ، وقيل أكثر من هذا ، مما يدلنا دلالة صحيحة أو دلالة تقرينية على كثرة الكتب في العهد المأموني ، ومما يشير الى عدم قلتها في أيام من سبقه من الخلفاء العباسيين . والان يحق لنا أن نتساءل ، هل أفاد المأمون من هذه الكتب ؟ وماذا أفادنا المأمون خاصة ؟ وما هي الحركة العملية المأمونية ، ومن هم رجالها وما هي مؤلفاتها ؟ ؟ يحق لنا أن نتساءل عن ذلك ، وعن مثل ذلك ، ويحق لنا أن نعرض لهذه البحوث ، وأن نوضح بعض ما كنا أجهلناه في كلمتنا عن الحياة العلمية في العصر العباسي .

أما أن المأمون أفاد من كتب عصره ، سواء أكانت مترجمة عن اليونانية أو الفارسية ، أو غيرهما ، أم كانت مؤلفة موضوعة ، فهذا ما لا شك فيه مما قد تبينته فيما وضخناه لك عند تعرضنا لتحليل شخصية المأمون ، وحين تكلمنا عنه تلميذا ، وولى عهد ، وخليفة ، وأديبا ، وعالما ، وسياسيا ، وباحثا دينيا .

وأما أن المأمون أفاد عصره بمؤلفاته الخاصة ، فهذا مالا ريب فيه أيضا ، وهالك ابن النديم يحدثنا في فهرسته أن المأمون من الكتب كتاب جواب ملك البرغر فيما سأل عنه من أمور الاسلام والتوحيد . ورسائله في إعلان النبوة .

وأما عن الحركة العلمية المأمونية ورجالها ومؤلفاتهم فهذا ما نحن مقبلون على بحثه . يحدثنا ابن أبي أصيبعة في طبقاته عن أوكد الأسباب عند المأمون لاستخراج الكتب فيقول : قال يحيى بن عدى : قال المأمون : رأيت فيما يرى النائم : كأن رجلا على كرسى جالسا في المجلس الذى أجلس فيه فتعاطمته وتهايتته وسألت عنه ، فقيل لى هو أرسطوطاليس . فقلت : أسأله عن شىء ، فسألته . فقلت : ما الحسن ؟ فقال : ما استحسنته العقول ، فقلت : ثم ماذا ؟ قال : ما استحسنته الشريعة ، قلت : ثم ماذا ؟ قال : ما استحسنته الجمهور . قلت : ثم ماذا ؟ قال : ثم لا ثم . فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إنحراج الكتب . فان المأمون ، كان بينه وبين ملك الروم مراسلات . وقد استظهر عليه المأمون . فكتب الى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة في بلد الروم . فأجاب الى ذلك بعد امتناع . فأخرج المأمون لذلك جماعة ، منهم التجاج بن مطر ، وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا . فلما حملوه اليه أمرهم بنقله فنقل ، وقد قيل : إن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ الى بلد الروم . وأحضر المأمون أيضا حنين بن إسحاق وكان فقي السن وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين الى العربى وإصلاح ما ينقله غيره فامتلأ أمره .

ومما يحكى عنه أن المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى العربى مثلا بمثل . وقال أبو سليمان المنطقى : إن بنى شاكر ، وهم محمد ، وأحمد ، والحسن ، كانوا يرزقون جماعة من النقلة . منهم حنين بن إسحاق ، وحبيش بن الحسن ، وثابت ابن قرة وغيرهم ، فى الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة .

ويقول القاضي صاعد بن أحمد الأندلسي : إن العرب في صدر الإسلام لم تكن بشيء من العلوم ، إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها ، حاشا صناعة الطب . فانها كانت موجودة عند أفراد منهم غير مشكورة عند جماهيرهم ، لحاجة الناس طرأ اليها . فهذه كانت حال العرب في الدولة الأموية . فلما أدال الله تعالى للهاشمية ، وصرف المثلث اليهم ثابت الهمم من غفلتها ، وهبت الفطن من موتها ، فكان أول من عني منهم بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور ، وكان مع براعته في الفقه ، كلفا بالفلسفة وعلم النجوم . ثم لما أفضت الخلافة فيهم الى الخليفة السابع عبد الله المأمون بن هارون الرشيد ، تم ما بدأ به جده المنصور ، فأقبل على طلب العلم في مواضعه ، ودأخل ملوك الروم وسألم صلاته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا اليه بما حضرم من كتب أفلاطون وأرسطو طاليس وأبقراط وجالينوس وأوقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة ، فاستجاد لها مهرة الترجمة وكلفهم لإحكام ترجمتها . فترجمت له على غاية ما أمكن ، ثم حضّ الناس على قراءتها ورغبهم في تعليمها . وكان يخلو بالحكماء ويأئس بمنابرتهم ، ويلتذ بمذاكراتهم ، علما منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ، وتُحِبُّه من عباده ، وأنهم صرفوا عنايتهم الى نيّيل فضائل النفس الناطقة وزهدوا فيما يرغب فيه الصّين والترك ومن نزع منزعهم من التنافس في دقة الصناعة العمليّة ، والتباهى بأخلاق النفس والتفاخر بالقوى . إذ علموا أن البهائم تشركهم فيها وتفضّلهم في كثير منها . فلهذا السبب كان أهل العلم مصابيح الدجى ، وسادة البشر وأوحشت الدنيا لفقدهم .

فهذا الحلم الذي قيل إنه دفع بالمأمون الى الاستهامة بأرسطو ومؤلفات أرسطو ، أو بعبارة علمية أدق ، هذا الميل الى الفلسفة والمنطق عند المأمون ، كان من آثاره حركة نقل وتأليف عنيفة قوية . ويخيّل اليّنا أن المأمون لا تساع دائرة معارفه العامة ، ورغبته في القياس العقلي ، وتأثره بمذهب الاعتزال كما ستري في كلمتنا التي عقدناها لك في القول بخلق القرآن ،

كان لذلك كله وأمثاله أكبر رجل عمل في انتشار حركة الترجمة والتأليف، وخاصة في مؤلفات أرسطو، وكان من نتائج إقبال العرب وغيرهم على تلك المؤلفات وأمثالها أن تولد عندهم علم الكلام والفلسفة الأفلاطونية الجديدة .

(ب) حركة الترجمة والنقل :

يقول الأستاذ «سنتلانه» في مفتتح محاضراته في تاريخ المذاهب الفلسفية بالجامعة المصرية : إن تاريخ الترجمة في عهد آل عباس على ثلاثة أدوار : فالدور الأول من خلافة أبي جعفر المنصور الى وفاة هارون الرشيد ، أى من سنة ١٣٦ الى سنة ١٩٣ وهى الطبقة الأولى من المترجمين ، منهم يحيى بن البطريق مترجم المجسطى فى أيام المنصور . وجورجيس بن جبرئيل الطيب عاش سنة ١٤٨ . وعبد الله بن المقفع الذى مات نحو سنة ١٤٣ وترجم بعض الكتب المنطقية لأرسطوطاليس . ويوحنا بن ماسويه ، وكان فى أيام الرشيد ، وقد أدرك أيام المتوكل ، واعتنى فى الأغلب بالكتب الطبية . وسلام الأبرش ، وكان فى أيام البرامكة . وباسيل المطران .

والدور الثانى ، من ولاية المأمون سنة ١٩٨ الى سنة ٣٠٠ ، وهى الطبقة الثانية من المترجمين ، منهم يوحنا بن البطريق . والحجاج بن مطر الذى عاش سنة ٢١٤ . وقسطا ابن لوقا البعلبكي وعاش سنة ٢٢٠ . وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي وعاش سنة ٢٢٠ . وحسين بن اسحاق وتوفى سنة ٢٦٠ وقبل سنة ٢٦٢ . وابنه اسحاق بن حنين ، وتوفى سنة ٢٩٨ . وثابت بن قرة الصابي المتوفى سنة ٢٨٨ . وحبيش بن الحسن ، ويدعى حبش الأعسم ابن أخت حنين ، وتوفى سنة ٣٠٠ ، ومما ترجم فى هذا العصر أغلب كتب أبقراط وجالينوس وأرسطوطاليس وشيء من كتب أفلاطون ومن التفاسير على الكتب المذكورة .

والدور الثالث من سنة ثلاثمائة للهجرة ، وهى تاريخ وفاة حبيش ، الى منتصف القرن الرابع ، ومن مترجمي هذه الطبقة ، متى بن يونس ، وتاريخ وفاته مجهول إلا أنه

يُذكر عنه أنه كان ببغداد بين سنة ٣٢٠ وسنة ٣٣٠ . ومنهم سنان بن ثابت بن قُرة ، المتوفى سنة ٣٢٠ . ويحيى بن عدى وتوفى سنة ٣٢٤ . وأبو علي بن زرعة ، من سنة ٣٣١ الى سنة ٣٩٨ . وهلال بن هلال الحمصي . وعيسى بن سهرنجت ، وكان أكثر اشتغالهم بالكتب المنطقية والطبيعية لأرسطو ، وبالمفسرين كالاسكندر الأفروديسي ويحيى النحوي وغيرهما اه .

وبعد ، فقد سبق لنا أن بينّا لك طرفاً عن الحياة العلمية في العصر الأموي وفي صدر العصر العباسي ، وأن لنا الآن أن نذكر لك بعض أسماء أقطاب الحركة العلمية سواء أكانت في علم الفلك أم الطب أم الفلسفة ، ترجمة وتأييلاً في العصر المأموني ، معتمدين في ذلك على الفهرست لابن النديم ، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ، وكتاب أخبار الحكماء للقفطي . وهاك جملة منهم وهم : أحمد بن محمد بن كثير الفرغاني أحد منجمي المأمون ، وبختيشوع جورجيس ، وجبرائيل بن بختيشوع ، وجبرائيل الكمال المأموني ، والدارك المنجم صاحب الحسن بن سهل ، والحسن بن سهل بن نوبخت ، وزكريا الطيفوري ، وسهل بن سابور ابن سهل المعروف بالكوتج الذي كان يجتمع مع يوحنا بن ماسويه وجورجيس بن بختيشوع وعيسى بن الحكم وزكريا الطيفوري ، ثم سند بن علي المنجم المأموني ، وسلمويه بن بنان صاحب المعتصم ، وصالح بن بهلة الهندي صاحب الرشيد ، والعباس بن سعيد الجوهري المنجم صاحب المأمون ، وعبد الله بن سهل بن نوبخت المنجم المأموني ، وأبو حفص عمر ابن الفرخان الطبري أحد رؤساء الترجمة والمتحققين بعلم النجوم ، وموسى بن شاكر وبنوه محمد وأحمد والحسن من منجمي المأمون ، وكان بنوه الثلاثة فيما ذكره القفطي من أبصر الناس بالهندسة وعلم الحيل ، وموسى بن إسرائيل صاحب أبي اسحاق بن ابراهيم بن المهدي ، وما شاء الله المنجم اليهودي ، وميخائيل بن ماسويه ، ويحيى بن أبي منصور المنجم المأموني ، ويعقوب بن اسحاق وتلاميذه : حسويه ونهطويه وسلمويه ورحمويه وأحمد بن الطيب ، ثم يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون ، ويوحنا بن ماسويه النصراني السرياني ،

وأبو قريش المعروف بعيسى الصيدلاني وغيرهم كآل ثابت وماسرجويه ، وآل الكرخي ، وابن دهن الهندي مدير بیمارستان البرامكة ، وكان فيما يذكره ابن النديم ينقل من الهندية الى العربية ، ومنكه طبيب الرشيد الهندي ، وكان ينقل من الهندية (السنسكريتية) وعشرات غيرهم ممن لا يقع تحت حصر .

ولو أردنا أن نكتب عن واحد واحد من رجال هذه الحركة العلمية العنيفة لخرجنا عن وضع كتاب في العصر المأموني ، الى وضع موسوعة أو معجم ، وإذا لم نكتب عنهم فقد رُمينا بالتقصير المعيب ولم نصور العصر بما ينبغي أن يصور به ، لذلك آثرنا أن نكتب كلمة عن جبرائيل بن بختيشوع ، وقدره في العصر قدره ومثلته منزله ، لتكون مثالا وتوضيحا لسواه من رجال العلم في ذلك العصر الغني حقا ، والغني برجاله صدقا ، وستقف على هذه الكلمة في موضعها من الفصل العاشر من هذا الكتاب .

(ج) كتب العصر :

وإنا ننقل لك هنا طرفا من أسماء الكتب التي تُرجمت في ذلك العصر من اليونانية ، والفارسية ، والهندية ، والقبطية ، والعبرانية ، واللاتينية ، والنبطية ، معتمدين في ذلك على البحث الطريف الذي كتبه صاحب التمدن الاسلامي ، ونلخص فيه ما كتبه ابن النديم ، وصاحب الطبقات ، وتراجم الحكماء ، متوهين بجهده أمانة للعلم واعترافا بالفضل .

أولا - الكتب المنقولة عن اليونانية

(١) كتب الفلسفة والأدب

كتب أفلاطون :

(١) كتاب السياسة نقله حنين بن إسحاق

(٢) » المناسبات يحيى بن عدي

(٣) » النواميس حنين ويحيى

(٤) » طيماوس ابن البطريق وأصلحه حنين

- (٥) كتاب أفلاطن الى أقرطن... نقله يحيى بن عدى
 (٦) » التوحيد ... » » »
 (٧) » الحس واللذة ... » » »
 (٨) » أصول الهندسة ... » قسطا بن لوقا

كتب أرسطوطاليس :

- (١) قاطيغورياس (المقولات) ... نقله حنين بن إسحاق
 (٢) كتاب العبارة ... » الى السريانية وإسحاق الى العربية
 (٣) تحليل القياس ... » ثيادورس وأصلحه حنين
 (٤) كتاب البرهان ... » إسحاق الى السرياني ومتى الى العربي
 (٥) » الجدل ... » » » ويحيى »
 (٦) » المغالطات أو الحكمة الموهبة » ابن ناعمة وأبو بشر الى السرياني ويحيى الى العربي
 (٧) » الخطابة ... » إسحاق وأبراهيم بن عبد الله
 (٨) » الشعر ... » أبو بشر من السرياني الى العربي
 (٩) » السماع الطبيعي ... » أبو روح الصابي وحنين ويحيى وقسطا وابن ناعمة
 (١٠) » السماء والعالم ... » ابن البطريق وأصلحه حنين
 (١١) » الكون والفساد ... » حنين الى السرياني وإسحاق والدمشقي الى العربي
 (١٢) » الآثار العلوية ... » أبو بشر ويحيى
 (١٣) » النفس ... » حنين الى السرياني وإسحاق الى العربي
 (١٤) » الحس والمحسوس ... » أبو بشر متى بن يونس
 (١٥) » الحيوان ... » ابن البطريق
 (١٦) » الحروف أو الإلهيات ... » إسحاق ويحيى وحنين ومتى
 (١٧) » الأخلاق ... » إسحاق

(١٨) كتاب المرأة نقله المجاج بن مطر

(١٩) » أثولوجيا » » »

ولكتب أرسطو شروح وتعليق لبعض تلامذته ، أو من جاء بعده ، كثاوفرستس ،
وديدوخس برقلس ، والاسكندر الافروديسي ، وفرفوريوس ، وأمونيوس ، وتامسطيوس
ونيقولاوس ، وفلوطرخس ، ويحيى النحوى وغيرهم . ول بعض هؤلاء مؤلفات خاصة ،
وكلها في الفلسفة وفروعها ، وقد نقل كثير منها الى العربية ولم يعلم ناقلها ، فأغضينا عن
ذكرها وقد ذكرها صاحب الفهرست .

وذكروا بحالينوس في جملة كتبه الطبية الآتى بيانها بضعة كتب في الفلسفة والأدب ،
وهى كتاب ما يعتقد رأيا ، ترجمه ثابت ، وكتاب تعريف المرء عيوب نفسه ، نقله توما
وأصلحه حنين ، وكتاب الأخلاق نقله حبيش ، وكتاب انتفاع الأخيار بأعدائهم ، نقله
حبيش ، والمحرك الأول لا يتحرك ، نقله حبيش وعيسى ، وغير ذلك .

(٢) كتب الطب وفروعه

كتب أبقرط :

(١) كتاب عهد أبقرط نقله حنين الى السريانية وحبيش وعيسى الى العربية

(٢) » الفصول حنين لمحمد بن موسى

(٣) » الكسر » » » » »

(٤) » مقدمة المعرفة » » وعيسى بن يحيى

(٥) » الأمراض الحادة » عيسى بن يحيى

(٦) » أبذيما » » » » »

(٧) » الأخلاط » » » » » لأحمد بن موسى

(٨) » قاططيون » حنين لمحمد بن موسى

(٩) » الماء والهواء » » وحبيش

(١٠) » طبيعة الانسان » » وعيسى

كتب جالينوس :

وأشهر كتب جالينوس الكتب الستة عشر وهي : كتاب الفرق، الصناعة، كتاب النبض، شفاء الأمراض، المقالات الخمس، الاسطقصات، كتاب المزاج، القوى الطبيعية، العلل والأمراض، تعرف علل الأعضاء الباطنة، كتاب النبض الكبير، كتاب الحمايات، البُحران، أيام البُحران، تدير الأصحاء، حيلة البرء، وقد نقلها كلها حنين بن إسحاق الى العربية إلا كتاب العلل الباطنة، وكتاب النبض الكبير، وكتاب تدير الأصحاء، وكتاب حيلة البرء فقد نقلها حبش، أما ما بقي من كتب جالينوس الطبية، فإليك أسماءها مع أسماء ناقليها :

(١٧) الحث على تعليم الطب حبش الأعم	(١) التشريح الكبير
(١٨) قوى النفس ومزاج البدن » »	(٢) اختلاف التشريح
(١٩) حركات الصدر } نقله أصطفان وأصلحه حنين	(٣) تشريح الحيوان الحى
(٢٠) علل النفس أصطفان وأصلحه حنين	(٤) » » الميت
(٢١) حركة العضل » »	(٥) علم أبقرات بالتشريح
(٢٢) الحاجة الى النفس » »	(٦) الحاجة الى النبض
(٢٣) الامتلاء » »	(٧) علوم أرسطو
(٢٤) المزة والسوداء » »	(٨) تشريح الرحم
(٢٥) علل الصوت حنين	(٩) آراء أبقرات وأفلاطون
(٢٦) الحركات المجهولة » »	(١٠) العادات
(٢٧) أفضل الهيئات » »	(١١) خصب البدن
(٢٨) سوء المزاج المختلف » »	(١٢) المنى
(٢٩) الأدوية المفردة » »	(١٣) منافع الأعضاء
(٣٠) المولود لسبعة أشهر » »	(١٤) تركيب الأدوية
(٣١) رداءة التنفس » »	(١٥) الرياضة بالكرة الصغيرة
	(١٦) » » الكبيرة

(٣٢) الذبول	حنين	(٤١) أفلاطون في طياوس	حنين واسحاق
(٣٣) قوى الأغذية	»	(٤٢) مقدمة المعرفة	عيسى
(٣٤) التدبير الملطف	»	(٤٣) الفصد	عيسى وأصطفان
(٣٥) مداواة الأمراض	»	(٤٤) صفات لصبي يصرخ	ابن الصلت
(٣٦) أبقرات في الأمراض الحادة	»	(٤٥) الأورام	»
(٣٧) الى تراسوبولوس	»	(٤٦) الكيموس	ثابت وحبيش
(٣٨) الطبيب والفيلسوف	»	(٤٧) الأدوية والأدواء	عيسى
(٣٩) كتب أبقرات الصحية	»	(٤٨) الترياق	ابن البطريق
(٤٠) محنة الطبيب	»		

وهناك كتب في الطب وتوابعه ذكرها صاحب الفهرست ولم يذكر ناقلها .
وأما مؤلفوها فمنها بضعة وعشرون كتابا لروفس من أهل أفسس كان قبل جالينوس ،
ولعلها لم تنقل كلها . ومما ذكر ناقلوه بضعة كتب لأوريباسيوس ، وهي كتاب الأدوية
المستعملة ، نقله أصطفان بن باسيل . وكتاب السبعين مقالة نقله حنين وعيسى بن يحيى الى
السريانية ، وكتاب الى ابنه أسطاث نقله حنين ، وكتاب الى أبيه أونافيس نقله حنين .
ولديسقوريدس العين زربي ، ويقال له السائح في البلاد لسياحته في طلب العقاقير
والخشائش ، كتاب في الخشائش سيأتى تاريخ نقله . ولاسكندروس كتاب البرسام نقله ابن
البطريق . وغير هذه مما لم يعرف ناقلوها .

٣ - كتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم

ويشتمل النظر في ذلك على علم النجوم والهندسة والحساب والموسيقى والميكانيكات ،
وهالك خلاصة الكلام فيها :

(١) كتب أقليدس ، منها أصول الهندسة ، نقله الحجاج بن مطر نقليين الهاروني
والمأموني ، ونقله اسحاق بن حنين ، وأصلحه ثابت بن قرة ، ونقله أبو عثمان الدمشقي ،
ولا يزال هذا الكتاب باقيا الى الآن . ومن كتب أقليدس التي لم يعرف مترجموها كتاب

الظواهرات ، وكتاب اختلاف المناظر، وكتاب الموسيقى ، وكتاب القسمة ، وكتاب القانون ، وكتاب الثقل والخفة .

(٢) كتب أرخميدس ، وهى عشرة ولم يعرف ناقلوها .

(٣) ابلونيوس ، صاحب كتاب المخروطات ، وكتاب قطع السطوح ، وقطع الخطوط ، والنسبة المحدودة ، والدوائر المماسية ، ولم يعرف ناقلوها .

(٤) منالوس ، له كتاب الأشكال الكروية ، وكتاب أصول الهندسة ، نقله الى العربى ثابت بن قرة .

(٥) بطليموس القلوذى ، صاحب كتاب المجسطى الشهير ، وقد تقدم خبر نقله وتفسيره على يد يحيى البرمكى . ولبطليموس أيضا كتاب الأربعة ، نقله ابراهيم بن الصلت وأصلحه حنين ، وكتاب جغرافيا المعمور وصفة الأرض ، نقله ثابت الى العربى نقلا جيدا ، ولبطليموس ١٥ كتابا أخر فى الجغرافيا وغيرها ، لم يعرف ناقلوها .

(٦) أبرخس ، له كتاب صناعة الجبر ويعرف بالحدود ، وكتاب قسمة الأعداد لم يعرف ناقلهما .

(٧) ذيوفنطس ، له كتاب صناعة الجبر ، لم يعرف ناقله .

وهناك كتب عديدة فى الرياضيات والهيئة والأزياج ونحوها ذكرها ابن النديم ولم يذكر ناقلها ، منها : كتاب العمل بالأسطرلاب المسطح لأبيون البطريق ، وكتاب جرم الشمس والقمر لأرسطرخس ، وكتاب العمل بذات الخلق ، وكتاب جداول زيج بطليموس المعروف بالقانون المسير ، وكتاب العمل بالاسطرلاب ، وكلها لثاؤن الاسكندرى .

أضف الى ذلك كتب الرياضة التى تقدم ذكرها أثناء ذكر كتب الفلسفة رغبة فى إيرادها لأصحابها مع سائر مؤلفاتهم . وقد نُقل للمسلمين من كتب الموسيقى عن اليونانية كتاب الموسيقى الكبير لنيقوماخس الجهراسينى ، وكتاب الموسيقى المنسوب لأقليدس ، وقد تقدم ذكره ،

ومقالات في الموسيقى لفيثاغورس وغيره، وكتاب الريموس، وكتاب الايقاع لأرسطكاس، وكتاب الآلات المصنوعة المسماة بالأرغن البوق، والأرغن الزمرى، لمورطس .
ونقل لهم من كتب الميكانيكات غير ما جاء في كتب أرنيميدس، كتاب الحيل الروحانية، وكتاب رفع الأثقال لأيرن، وكتاب استخراج المياه لبادروغوغيا، وكتاب الآلات المصنوعة على ستين ميلا لمورطس .



ثانياً - الكتب المنقولة عن الفارسية

أكثر الكتب المنقولة عن الفارسية في النهضة العباسية من قبيل الآداب والأخبار والسير والأشعار وبعضها في النجوم مما نقله آل نوبخت وعلى بن زياد التميمي وغيرهم .
أما ما بقي من كتبهم المنقولة الى العربية فهي مع أسماء ناقلها .

- (١) كتاب رسم وأسفنديار جبلة بن سالم
- (٢) » بهرام شوس »
- (٣) » خدائنامة في السير عبد الله بن المقفع
- (٤) » آيين نامه »
- (٥) » كليلة ودمنة »
- (٦) » مزدك »
- (٧) » التاج في سيرة أنوشروان »
- (٨) » الأدب الكبير »
- (٩) » الأدب الصغير »
- (١٠) » القيمة »
- (١١) » هزار أفسانه لم يذكر ناقله
- (١٢) » شهر يزداد مع أبرويز »

- (١٣) كتاب الكارناج أنوشروان... لم يذكرناقله
- (١٤) » دارا والصنم الذهب... »
- (١٥) » بهرام وزمى... »
- (١٦) » هنزاردستان... »
- (١٧) » الدب والثعلب... »
- (١٨) سير ملوك الفرس ، وهى غير كتاب ، ترجم أحدها محمد بن جهم البرمكى ، وآخر ترجمه زادويه بن شاهويه الأصفهاني ، وآخر محمد بن بهرام بن مطيار الأصفهاني .
- ومما يجب ذكره من مترجمات الفرس — وان كان من مؤلفاتهم بعد نشوء التمدن الاسلامي — كتاب « شاهنامه » التي نظمها الفردوسي للسلطان محمود الغزنوي سنة ٣٨٤ هـ في نحو ٦٠,٠٠٠ بيت على نسق إلياذة هوميروس ، وقد تضمنت تاريخ الفرس القديم ، نقلها الى العربية الفتح بن علي البنداري الأصفهاني ثرا للملك المعظم عيسى الأيوبي . أتم ترجمتها سنة ٦٩٧ هـ . ولا ريب أن العرب نقلوا من اللغة الفارسية كتباً أخرى تاريخية وأدبية وخصوصاً مما يتعلق بالمذاهب القديمة ونحوها .



ثالثاً — الكتب المنقولة عن اللغة الهندية

نقل العرب عن اللغة الهندية (السنسكريتية) كثيراً من كتب الطب والنجوم والرياضيات والحساب والأسماء والتواريخ . والكتب الطبية المنقولة عنها كثيرة وإن لم يصل إلينا من أخبارها إلا القليل ، لأن بغداد كانت في إبان الزهو العباسي ، كعبة العلماء والأطباء والتجار والسياح من كل الملل . وكان للبرامكة عناية باستقدام أطباء الهند إليها . وقد بعث يحيى بن خالد فاستقدم بضعة صالحة منهم : « كنكه » و « بازيكر » و « قليرفل » و « سندهاز » وغيرهم .

ويظهر مما كتبه المسلمون بعد العصر العباسي في الأدب أو الطب أو الصيدلة أو السير أنهم اعتمدوا في جملة مصادرههم على كتب هندية الأصل ، فانك اذا راجعت مثلاً قانون ابن سينا

أو المملوكي للرازي أو غيرهما من كتب الطب الكبرى ، رأيتم يذكرون بعض الأمراض ويشيرون إلى أن الهنود يسمونها مثلاً كذا وكذا أو يعالجونها بكذا وكذا . وإذا قرأت العقد الفريد لابن عبد ربه أو سراج المملوك للطبرطوشي أو غيرهما من كتب الأدب المهمة ، رأيتم مؤلفيها إذا ذكروا بعض الآداب أو الأخلاق أو نحوها قالوا : « وفي كتاب الهند كذا وكذا » .

كتب الطب وفروعها

على أننا نعلم مما كتبه صاحب طبقات الأطباء أنه اشترح حوالي العصر العباسي جماعة من علماء الهند في الطب والنجوم والفلسفة وغيرها ، منهم كنيكه الهندي ، وهو من متقدميهم وأكابرهم ، وخصوصاً في علم النجوم فضلاً عن الطب ، وله مؤلفات كثيرة منها : كتاب النموذار في الأعمار ، وكتاب أسرار المواليد ، وكتاب القرانات الكبير والصغير ، وكتاب في الطب يجرى مجرى الكاش ، وكتاب في التوهم ، وكتاب في إحداث العالم والدور في القرآن ، ومنهم أيضاً صنيجل وباكهري ، وغيرهما .

وقد نقل كثير من مؤلفاتهم في النجوم والطب إلى اللغة العربية ، إما رأساً أو بوساطة اللغة الفارسية ، بأن ينقل الكتاب من الهندي إلى الفارسي ، ثم ينقل من الفارسي إلى العربي ، منها كتاب سيرك الهندي ، وقد نقله من الفارسي إلى العربي عبد الله بن علي . وكتاب آخر في علامات الأدوية ومعرفة علاجها ، أمر يحيى بن خالد البرمكي بنقله . وكتاب فيما اختلف فيه الروم والهند في الحار والبارد ، وقوى الأدوية . وكتب أخرى في فروع الطب .

ومن مشهورهم منك الهندي المتقدم ذكره بين المترجمين ، وقد أتى بغداد بإشارة يحيى ابن خالد لمعالجة الرشيد فشفاه فأجرى عليه الرشيد رزقا واسعا . وكان منك يعرف الفارسية أيضاً ، فكان ينقل من الهندي إلى الفارسي ، وله حديث طويل ذكره صاحب طبقات الأطباء . ومنهم صالح بن بهلة الهندي ، جاء العراق في أيام الرشيد أيضاً ، ونال شهرة واسعة

وخالط أطباءها يومئذ واختلطوا به ، فان لم يكونوا نقلوا شيئاً من كتبه فلا بد أن يكونوا قد اقتبسوا شيئاً من آراء الهند فيه .

ومن مشهورهم أيضاً شاناك ، وله كتاب في السموم خمس مقالات ، نقله من اللسان الهندى الى الفارسى منكه الهندى ، وأوعز يحيى بن خالد الى رجل يعرف بأبى حاتم الباكى بنقله الى العربى ، ثم نُقل للمأمون على يد العباس بن سعيد الجوهري مولاه . وبلودر الحكيم كتاب في المواليذ نقل الى العربى أيضاً .

ومن الكتب الطبية التى نقلت من الهندية الى لسان العرب فى العصر العباسى غير ما تقدّم ذكره :

- (١) كتاب سسردي الطب نقله منكه .
- (٢) « أسماء عقاقير الهند نقله منكه لاسحق بن سليمان .
- (٣) « استانكر الجامع » ابن دهن .
- (٤) « صفوة النجیح » »
- (٥) « مختصر الهند فى العقاقير لم يذكر ناقله .
- (٦) « علاجات الحبالى للهند » »
- (٧) كتاب روسا الهندية فى علاجات النساء لم يذكر ناقله
- (٨) « السكر للهند » »
- (٩) « التوهم فى الأمراض والعلل » »
- (١٠) « رأى الهند فى أجناس الحيات وسمومها » »

كتب النجوم والرياضيات

أما الرياضيات والكواكب فللهند شأن كبير فيه ، وقد ذكرنا خبر السندهند فيما تقدّم ، وكان لنقل هذا الزيج تأثير فى علم النجوم عند العرب ، وقد قلّدوه وألّفوا على مذهبه . فمن ألّف على هذا المذهب محمد بن ابراهيم الفزارى ، وحش بن عبد الله البغدادى ،

ومحمد بن موسى الخوارزمي وغيرهم . والفزاريّ أول من عمل إسطرلابا في الاسلام . وما من فلكيّ من فلكيّ المسلمين أراد التوسع في علم النجوم إلا طالع كتبهم ، إما في اللغة الهندية أو في ترجمتها الى العربية . وأكثر المسلمين عناية في ذلك واطلاعا على آداب الهند وعلومهم ، أبو ریحان البيرونيّ المتوفى سنة ٤٤٠ هـ فإنه طاف بلاد الهند واطلع على علومهم وآدابهم ، ثم ألف كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ، وله من المؤلفات ما يعدّ بالعشرات ، ومنها كثير في علوم الهند إما ترجمة أو تصحيحا أو نقدا .

ومما ذكره من كتبه التي ألفها في هذا الصدد قوله : وعملت في السند هند كتابا سميته جوامع الموجود لخواطر الهند في حساب التنجيم جاء ما تم منه ٥٥٠ ورقة . وهذبت زييج الاركنند وجعلته بألفاظي اذ كانت الترجمة الموجودة منه غير مفهومة وألفاظ الهند فيها متروكة لحالها . وعملت كتابا في المدارين المتحددين والمتساويين ، وسميته بخيال الكسوفين عند الهند ، وهو معنى مشتهر فيما بينهم لا يخلو منه زييج من أزياجهم وليس بمعلوم عند أصحابنا . وعملت تذكرة في الحساب والعد بأرقام السند والهند في ٣٠ ورقة وكيفية رسوم الهند في تعلم الحساب ، وتذكرة في أن رأى العرب في مراتب العدد أصوب من رأى الهند فيها . وفي راسيكات الهند وترجمة ما في ابرهم سدهاند من طرق الحساب . ومقالة في تحصيل الآن من الزمان عند الهند . ومقالة في الجوابات على المسائل الواردة من منجمي الهند . ومقالة في حكاية طريقة الهند في استخراج العمر . وترجمة كلب باره ، وهي مقالة للهند في الأمراض التي تجري مجرى العفونة وغير ذلك .

فيؤخذ من هذا أن الهند أهل علم ورأى في النجوم وعلومها وأن المسلمين نقلوا عنهم شيئا كثيرا .

كتب الأدب

وأما ما نقل الى العربية فمنها : كتب الهند في الأدب والتاريخ والمنطق والأسماء والخرافات :
(١) كتاب كليلة ودمنسة ، وقد نُقل عن طريق الفارسية كما تقدّم ، وبعد نقله الى العربية

نظموه شعرا كما نظمهم الفرس من قبلهم . ومن نظمهم في العربية أبان بن عبد الحميد ابن لاحق بن عفير الرقاشي وعلى بن داود . (٢) كتاب سندباد الكبير (٣) كتاب سندباد الصغير (٤) كتاب البدد (٥) كتاب يوذاسف (٦) يوذاسف مفرد (٧) كتاب أدب الهند والصين (٨) كتاب هابل في الحكمة (٩) كتاب الهند في قصة هبوط آدم (١٠) كتاب طرق (١١) كتاب ديك الهندى في الرجل والمرأة (١٢) كتاب حدود منطق الهند (١٣) كتاب ساديرم (١٤) كتاب ملك الهند القتال والسباح (١٥) كتاب بيدبا في الحكمة .

ومما نقله العرب عن الهنود: كتاب في الموسيقى اسمه في الهندية «بيافر» ومعناه ثمار الحكمة ، وفيه أصول الألحان وجوامع تأليف النغم .



رابعاً - الكتب المنقولة عن النبطية

قد رأيت فيما تقدم كتباً كثيرة فلسفية وطبية نُقلت من اليوناني إلى العربيّ بوساطة اللغة السريانية أخت النبطية أو هي عينها فلا نتعرض لذكرها ، وإنما نريد هنا الكتب التي كانت مكتوبة في اللغة الكلدانية أو النبطية ، ونُقلت إلى العربية رأساً ، ولولا نقلها لضاعت . وأهم تلك الكتب : (١) كتاب الفلاحة النبطية ، فإنه فريد في بابهِ ، وقد نقله إلى العربية أحمد بن عليّ بن المختار النبطيّ ، المعروف بابن وحشية سنة ٢٩١ هـ وظل معتمداً أهل الزراعة إلى أمّ غير بعيد ، وقد نُقل إلى اللغات الأفرنجية ، ولولا نقله إلى العربية لضاع وخسر العالم كلُّ يؤخذ من مطالعة مقدمته ، فقد قال ابن وحشية ، وهو يملّي الكتاب على عليّ بن محمد بن الزيات سنة ٣١٨ هـ : «إعلم يا بنيّ أني وجدت هذا الكتاب في كتب الكسديانيين (الكلدان أو النبط) يترجم معناه في العربية كتاب فلاحة الأرض وإصلاح الزرع والشجر والثمار ودفع الآفات عنها ، وكان هؤلاء الكسدانيون أشدّ غيرةً عليها ، لئلا يظهر هذا الكتاب ، فكانوا يخفونه بجهدهم ، وكان الله عز وجل قد رزقني المعرفة بانتمهم ولسانهم ، فوصلت إلى ما أردت من الكتب بهذا الوجه . وكان هذا الكتاب عند رجل

متميز، فأخفى عنى علمه، فلما اطلعت عليه لمته في إخفاء الكتاب عنى، وقالت له: إنك إن أخفيت هذا العلم دثر ومضى ولا يبقى لأسلافك ذكر، وما يصنع الإنسان بكتب لا يقرؤها ولا يدع من يقرؤها، فهي عنده بمنزلة الحجارة والمدرب؛ فصدقنى في ذلك وأخرج المنة الكتب، فعملت أنقل كتابا بعد كتاب، فكان أول كتاب نقلته كتاب دوانى البابلى في معرفة أسرار الفلك والأحكام على حوادث النجوم، وهو كتاب عظيم المحل، ونقلت كتاب الفلاحة هذا بتمامه، الخ... (٢) كتاب طرد الشياطين، ويعرف بالأسرار (٣) كتاب السحر الكبير (٤) كتاب السحر الصغير (٥) كتاب دوار على مذهب النبط (٦) كتاب مذاهب الكلدانيين فى الأصنام (٧) كتاب الإشارة فى السحر (٨) كتاب أسرار الكواكب (٩) كتاب الفلاحة الصغير (١٠) كتاب فى الطلسمات (١١) كتاب الحياة والموت فى علاج الأمراض (١٢) كتاب الأصنام (١٣) كتاب القرايين (١٤) كتاب الطبيعة (١٥) كتاب الأسماء، وأكثرها من نقل ابن وحشية، غير ما لا بد من نقله من كتب الذين وأخبار الكلدان القدماء.



خامسا - الكتب المنقولة عن العبرانية واللاتينية والقبطية

لا ريب أن كثيرا من تعاليم اليهود وآدابهم المدونة فى التلمود وغيره من كتبهم قد نُقل إلى العربية، وإن كنا لا نرى شيئا منها مدقنا على أنه مترجم، لأنهم كانوا ينقلونها شفاهيا للصحابة وغيرهم على ما تقدم، وربما دونوا منها شيئا وضاع، وأما ما وصل إلينا خبره من المنقول عن العبرانية، فترجمة أسفار التوراة، نقلها سعيد الفيومى المتوفى سنة ٣٣٠ هـ، وهو أقدم من نقل التوراة إلى العربية، مما وصل إلينا خبره، وله أيضا شروح وتفسير عليها. ولا يبعد أن يكون قد نُقل إلى العربية بعض الكتب عن اللاتينية، لأنها كانت تحوى كثيرا من العلوم الفلسفية والتاريخية والشرعية وغيرها، وربما فاتت نقل الأخبار ذكر ما نقل عنها، وقد رأينا فى جملة المترجمين يحيى بن البطريق لا يعرف غير اللغة اللاتينية، وأنه ترجم عدة كتب، فالظاهر أنه ترجمها عن اللاتينية.

وأما القبطية فإذا لم ينقل العرب عنها رأساً ، فلا نشك في أنهم نقلوا كثيراً من علوم المصريين بواسطة اللغة اليونانية ، وخصوصاً صناعة الكيمياء القديمة وغيرها مما برع فيه المصريون ، وأما الكيمياء فقد نقلت عن القبطى واليونانى معا بأمر خالد بن يزيد .

(د) آثار النهضة المأمونية :

هذه هى بعض كتب العصر وكانت لها آثارها ونتائجها فى العقلية العربية أولاً ، وفى المدنية العربية ثانياً ، حتى أصبحنا نرى المأمون يُضرب به المثل فى عِظَم الحركة العلمية ، وحتى نرى «نولدكا» ومحرمى دائرة المعارف البريطانية وغيرهم ، يمثلون المأمون بأوشروان وغيره من حَمدَةِ الإنسانية ورُسل الثقافة العامة .

والحق أن المأمون وعصر المأمون كانا متقدمين عن زمنهما ، إذ كانت حالة المأمون وحالة المملكة المأمونية فى ذلك الحين ، أرقى بمراحل من حالة ملوك أوروبا وبمالك أوروبا . ويقول الدكتور «طوطح» فى رسالته الانجليزية عن حالة التعليم عند العرب : «إنه بينما كان شارلمان يتعلم القراءة مكباً على مطالعة رسائله مع أتزابه فى مدرسة القصر كان المأمون يعالج الفلسفة ومناقشة أقضيئها هناك فى بغداد» . ويقول فى مكان آخر من رسالته القيمة : «إن المأمون أوفد عميد بيت الحكمة الى بلاد اليونان لنقل حكمة اليونان وعلوم اليونان الى اللغة العربية» . وهناك أقوال كثيرة عن آثار النهضة المأمونية ، وهى لا تخرج عما قدّمناه لك من رأى السير وليام ميور عن ازدهار العلوم والمعارف فى عصر المأمون . فنكتفى بما قدّمناه عن التبسط فى القول فى هذه الناحية الهامة حقاً .

على أن هذه النهضة المأمونية آثارها ونتائجها أيضاً فى زيادة الثروة اللفظية فى اللغة العربية ، وقد بينا لك طرفاً منه فى كلمتنا عن حالتها فى الصدر العباسى ، فلا حاجة أذاً بنا الى تكراره هنا ، وقصارى ما نقوله أننا نحيلك الى بعض المصادر القيمة فيما نحن فى صددده من بيان تأثير اللغة بهذه النهضة التى تشبه فى كل وجوهها حركة التجديد «رينساينس» فى أوروبا ، وهى : كتاب خطى منسوب للمحافظ عن الألفاظ الفارسية فى اللغة العربية ، وبحوث العلامة

أنستانس الكرملّي البغدادى في السنة الأولى من المشرق عن الكلم اليونانية في اللغة العربية ، كما أحيلك الى بحوث «مجلة المجمع العلمى» في شأن تفسير الألفاظ العباسية الواردة في كتاب «نشوار المحاضرة» .

أما فن التاريخ والجغرافيا ، فلم تبدأ العناية الجدية بهما إلا منذ أيام يعقوبى ، وابن خرداذية في نهاية القرن الثانى .

وأما العلوم القرآنية وما تفرّع عنها ، فقد سبق أن أشرنا إليها في بابها من العصر العباسى . ويظهر أن عناية المأمون بها لم تكن مثل عنايته بالفلسفة اليونانية ، وما إليها ، اللهم اذا كانت موجهة الى الناحية الاعتزالية الكلامية .

وقد آن لنا الآن أن نتكلم عن القول بخلق القرآن لاتصاله وكبير أثره في الحياة العلمية والعقلية في عصر المأمون .

(هـ) القول بخلق القرآن :

يقول ابن الأثير في تاريخه عن هشام بن عبد الملك : إن الجعد بن درهم قد أظهر مقالته بخلق القرآن أيام هشام ، فأخذه وأرسله الى خالد القسرى ، وهو أمير العراق ، وأمره بقتله ، فحبسه خالد ولم يقتله ، فبلغ الخبر هشاماً فكتب الى خالد يلومه ويعزم عليه أن يقتله ، فأخرجه خالد من الحبس في وثاقه ، فلما صلب العيد يوم الأضحى ، قال في آخر خطبته : انصرفوا وضجوا يقبل الله منكم ، فإنى أريد أن أضحي اليوم بالجعد بن درهم ، فانه يقول : ما كلم الله موسى ، ولا اتخذ إبراهيم خليلاً ، تعالى الله عما يقول الجعد عاواً كبيراً ، ثم نزل وذبحه . ويقول ابن الأثير في حياة مروان بن محمد : إن سبب تسميته بالجعدى ، ذهابه مذهب الجعد بن درهم في القول بخلق القرآن ، والقدر ، وغير ذلك .

ومن هذا تعلم أن القول بخلق القرآن ، بدعة نبتت في العصر الأموى ، ثم لم تجد الحق الذى تنمو فيه وترعرع ، حتى كان عصر المأمون فوجدت من شخصيته العالمية ومن نفوذه العظيم ونفوذ علمائه ، خير متعهد لنمائها ، حريص على نصرتها ، شديد اليد بالبطش على مخالفيها .

(١) أظن القاموس وشرحه في مادة «درهم» فانه ضبطه بالياء المثناة بعد الدال المعجمة وبعد الياء هاء .

ولعلك تساءل لم وجد القول بخلق القرآن من المأمون الصدر الرحب والعامل على نصرته ؟ وهل كان مؤقفا فيما أخذه على عاتقه أو قد اشتد به الغلو في تأييد وجهة نظره حتى خرج به عن القصد ؟ .

ونحن قبل أن نجيبك عن هذه الأسئلة ، وقبل أن نعريض للوضوح من وجهاته المختلفة ، نريد أن ننقل لك كلمة للأستاذ «ميور» في هذا الصدد ، وهي وإن لم تكن تتفق مع وجهة نظرنا في هذا المبحث ، تبين لنا وجهة نظر متشركي بحثة كبير فيما نحن بصددده .

يقول الأستاذ «ميور» في الفصل الذي عقده عن المأمون في كتابه المتع «الخلافه» : «وفي الحق أن المأمون كان متعصبا لفارس مسقط رأس أمه وزوجه ، شديد الميل الى العلويين ، ونشأ عن ذلك في السنوات الأخيرة من حكمه ، مزيج من حرية الأفكار والتعصب . وكان المأمون في بعض هذه المسائل واسع الحزيرة حفا لدرجة مدهشة . وقد ألغى من بضع سنوات مضت ، الامر الذي كان أسلافه قد أصدروه ، يحزمون فيه ذكر معاوية أو أحد الأمويين بخير ، وأباح للسيحيين حرية المناقشة في أي الدينين أفضل : الإسلام أم المسيحية . غير أن ميوله الفارسية التي كان يمنح اليها دائما ، دفعته أخيرا أن يتناقش بحماسة في نظريات المعتزلة الذين أباحوا حرية التفكير . ثم أحاط المأمون نفسه بالفقهاء وعلماء الدين من كل فئة ، وأباح لهم المناقشة في حضرة في نظريات كان البحث ممنوعا فيها ، كعلاقة الانسان بخالقه ، وطبيعة الألوهية وغير ذلك . وأخيرا أعلن تحوله الى عقائد تحالف تعاليم الدين الصحيحة ، فمن ذلك أنه كان يعتقد بمذهب الذين يقولون بالاختيار لا بالجبر ، وأن القرآن وإن كان وحيا إلا أنه مخلوق ، بدلا من العقيدة التي كانت لا تُزاع وهي أن القرآن أزل»

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : « ما كان عند المسلمين عقيدة بهذا الوصف ولكن القول بخلق القرآن جاء بكرا لم يكن لرسول الله ولا لأصحابه ولا للتابعين قول ينافية أو يوافقه فلما أغرم المأمون بهذه المقالة وعرضها على العلماء لجأوا الى كتاب الله ينظرون فيه حكم المقالة التي لا عهد لهم بها فلم يجدوا . فنظروا الى السنة فلم يجدوا . والقوم في ذلك العهد يردون كل شيء الى الكتاب والسنة . فلما لم يجدوا فيهما حكما توقفوا في هذا القول آحتياطاً لدينهم أن يقولوا على الله ما لا يعلمون . فلم يرض المأمون هذا التوقف واعتقدوا أنهم يرمون بهذا الى اعتقاد أن مع الله قديما سواء وأنه يوجد موجود ولا أثر لله في إيجادهم وبلج في إهانتهم وتناوهم بالحبس والإيذاء . »

غير مخلوق . وأعلن المأمون أيضا أن عليا أشرف الخلق بعد النبي ، وعلى هذه النظرية بُنيت نظرية الإمامة المقدسة أو الزعامة الدينية التي كانت تنتقل من عضو الى آخر من بيت علي . وبدأ في تلقين الناس أنه يوجد مصادر أخرى غير القرآن والحديث يمكن الاسترشاد بها في مسائل الدين ، وفسّر القرآن تفسيراً من غير تقييد بلفظه ، وبذلك دُلّت صعوبات كثيرة كانت تعترض حرية التفكير أو تقف عثرة في تقدّم العمران ، كإباحة شرب الخمر (كذا !) وزواج المتعة ^(١) . وعلى ممرّ السنين تحوّلت فكرة المأمون في خلق القرآن من مجرّد رأى الى إعلانه المشعوم الذي حَمَل فيه رعاياه بالاضطهاد والعقوبات على اتخاذ عقيدة لهم . وقد أرسل الى والى بغداد ، وهو في حملته الأخيرة على الروم ، أمرا بأن يجمع كبار العلماء والفقهاء ويمتحنهم في هذه المسألة الخطيرة ويرسل اليه إجاباتهم ، وقد تأثر كثير من العلماء في مجلس المناظرة الذي كان أشبه بمحكمة التفتيش ، حتى أظهروا القول بخلق القرآن ، إلا أن البعض بقي ثابتا على عقيدته بأن القرآن غير مخلوق ، كأحمد بن حنبل صاحب المذهب الحنبلي ، الذي حملوه منكبلا بالحديد الى معسكر الخليفة . ولقد ذكر التاريخ أن اثنين من هؤلاء المخالفين هُذّا بالقتل ، وأُرسل عشرون منهم تحت خفّارة حُرّاس لِيَتَنظَرُوا في "طَرَسُوس" عودة الخليفة من حروبه ، ولكن جاءتهم الأنباء في أثناء سيرهم في الطريق بموت المأمون . ولقد سوّدت أمثال هذه الفظائع سُمعة المأمون في سنوات كثيرة » اه .

ذلك هو رأى المشرق « ميور » . ولنرجع الآن الى معالجة الإجابة عما تساءلت عنه ، فنقول : إنك جدّد عالم بأن المأمون كان تلميذا ليحيى بن المبارك الزيّديّ المتهم بالاعتزال . جدّد عالم بصلته بتمامة بن أشرس ، زعيم المذهب الثماني في الاعتزال ، وإعجابه به ، حتى عرض

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : « قد رجّع المأمون عن هذه المقالة بعد أن أقام أحمد بن دواد الحجة عليه في ذلك بما مآخضه : أن زوجة المتعة ليست الزوجة التي يجب نفقتها وترث ويثبت نسب الولد منها كما هو شأن الزوجة الشرعية فهي ليست زوجة وليست ملك يمين والله تعالى يقول : (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) فهي بما وراء ذلك و يكون زواج المتعة زنا — وعامة أهل الاسلام على هذا سوى الشيعة الرافضة » .

عليه الوزارة مرتين، كما أسلفنا لك القول في باب الوزارة . جَدُّ عالم بأن المأمون كان يعقد مجالس للكلام في مختلف البحوث، وكان من نتائج هذه المجالس أن قَرَّب إليه كل متكلم حاذق، أو مُفَكِّر بصير بمدخل القول ومخارجه، مثال أبي الهذيل العلاف، وإبراهيم ابن سيَّار وغيرهم . وأنت جَدُّ عالم بأن ثَمَامَةَ والعلاف وإبراهيم كانوا من مشيخة الاعتزال . أنت جَدُّ عالم بهذا كله، فلا غرو أن حَبَّب هؤلاء القوم إلى المأمون مذهبهم، ولا غرو أن كانت مهمتهم ميسورة معبَّدة، لأنهم وجدوا من المأمون ذلك التلميذ المتأثر بمذهب أستاذه ابن المبارك .

كل هذه العوامل كانت في الواقع ناحية واحدة، ولها أثرها القويّ في تنمية النزعة، الاعتزالية في نفس المأمون . بيد أن هنالك ناحية قوية أخرى لها أثرها القويّ أيضاً، تلك الناحية هي حركة النقل والترجمة، تلك الحركة التي حَبَّبت إلى المأمون الفلسفة وما إلى الفلسفة، ووجهت عنايته إلى المنطق وما إلى المنطق، وبعثت في نفسه حبَّ أرسططاليس، حتى أصبح موضع تفكيره في يقظته ونومه . وصفوة القول أن الناحية الثانية لم تكن لتقلّ عن الأولى أثراً، فقد هيأت منه ذلك التسامح الذي يتبع ما توحى به سلسلة أفكاره .

وسترى في أخذه بالقول بخلق القرآن إلى أيّ مَدَى دفعت به حرية التفكير حتى وصلت به إلى ما يناقض حرية التفكير؛ لأنه ليس من حرية التفكير في شيء تلك الطريقة الشاذة في إلزام العلماء وجملة الفقهاء الأخذ بمذهبه . وليس من حرية التفكير في شيء تلك النتائج السيئة التي انتهت إليها مأساة القول بخلق القرآن، في أيام المعتصم وأيام غير المعتصم . وقد أثبتنا لك في باب المنشور في الكتاب الثالث من مجلدنا الثالث مثلاً مما كتبه المأمون إلى ولاته في الأخذ بمذهبه في القول بخلق القرآن، وهو كتابه إلى إسحاق بن إبراهيم؛ كما أثبتنا لك ما رواه لنا الطبري مما حصل وقتئذ . فراجعهما مَمَّة .

الفصل الرابع

الحياة الأدبية في عصر المأمون

توطئة : المحادثة أو لغة التخاطب ، الخطابة ، الكتابة ، مجالس المناظرة وأهواء الأدب ، الشعر .

(١) توطئة :

لكتاب الخلافة «للسير وليام ميور» ، مكانة رفيعة في التاريخ العربي ، ولا سيما عصرنا المأموني ، بناحيته العلمية والأدبية . ذلك لأن الرجل ، الى جانب دراسته الدقيقة لمؤلفات العرب وكتابات العرب وبحوث المؤرخين العرب ، لم يترك مصدرا من مصادر المتشركين أمثال : «نولدكه» و«كريم» و«هرزلد» و«أمرز» و«بربياد» و«مينارد» و«چوج» وغيرهم من عشرات المؤرخين إلا وقد استوعبه واستقصى البحث فيه . كذلك لم يترك مصدرا من مصادر التاريخ الفارسي ، وهو كما نعلم ، شديد الصلة بعصرنا المأموني ، من غير أن يدرسه حق دراسته ويفهمه حق فهمه ، فطالع فيما طالع به في ذلك الباب ، آثار «ماكولم» و«فرازر» و«برون» و«سيكس» و«جوجينس» وغيرهم .

من أجل هذا ومن أخذ ذلك المؤرخ البحاثة بالدقة في كل ما تصدر له ، جاءت جلُّ بحوثه أفضل من سواء وأرفع مكانة من غيره . ونحن نستطيع لأنفسنا أن ننقل اليك ما ذكره في هذا الباب . قال : «كان حكم المأمون مجيدا عادلا ، وكان عصره مزدهرا بأنواع العلوم والفنون والفلسفة ، وكان أدبيا مولعا بالشعر متمكنا منه . ولقد حدث مرة أن شاعرا كان ينشد بين يديه قصيدة من مائة بيت ، فكان الشاعر كلما أنشد شطر بيت بادره المأمون بشطره الآخر ، حتى دهش الشاعر وحار في سرعة بديهته . وكان مجلسه حافلا بالعلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة ، إذ كان يقرهم اليه ويحزل لهم العطاء ، وكما كان عصره عامرا بالعلماء والأدباء والنحاة فإنه كان كذلك حافلا بجماعة المحققين والمؤرخين والفقهاء

(١)
كالبخاريّ، والواقديّ، الذي نحن مدينون له بأوثق السّير عن حياة النّبّيّ، والشافعيّ وابن حنبل . وكان المأمون يُجِلّ علماء اليهود والنصارى، ويحتفي بهم في مجلسه، لالعلمهم فحسب، بل لثقافتهم في لغة العرب وحذقهم في معرفة لغة اليونان وآدابها . ولقد أخرجوا من أديرة سوريا وآسيا الصغرى وسواحل الشّام وفلسطين، كتباً خطية في الفلسفة والتاريخ وعلم الهندسة لعلماء اليونان وفلاسفتهم، ثم ترجموها الى العربية بدقة وعناية عظيمة . وبهذه الوسيلة انتقلت علوم الغرب الى العالم الإسلاميّ . ولم تقتصر جهود هؤلاء الجهابذة على نقل هذه الكتب القديمة الى اللغة العربية، بل توسعوا وأضافوا اليها ما اكتسبوه من مباحثهم واطلاعتهم . وأقاموا مرصداً في «سهل تدمر» مجهّزاً بجميع الآلات التي تمكنهم من النجاح في دراسة علمي الفلك والهندسة والتوسّع فيهما . وقد صنفوا كتباً في الرحلات والتاريخ، ولا سيما كتب الطب، وعُنُوا بعناية كبيرة ببعض علوم تافهة، إلا أنها كانت أكثر ذيوفاً وانتشاراً، كالتنجيم والكيمياء . وكان لمجهود هؤلاء العلماء الأثر الأكبر في نهضة أوروبا التي كانت غارقة في بحار الجهالة في العصور الوسطى، حيث أيقظتهم من غفلتهم وأنارت لهم سبل علومهم التي كانوا أغفلوها، وهي علوم اليونان وفلسفتها» اهـ .

ويقول الأستاذ الباحثة «كرد علي» في بحث طريف له : إن عصر المأمون قد ازدان بكثير من حملة الشريعة والأدب، منهم : يحيى بن أكثم، وأبو محمد اليزيديّ، والحسن ابن زياد، وأبو داود الطيالسيّ، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وابن الأعرابيّ، والنضر ابن شميل، وأبو عمرو الشيباني، ومحمد بن عمر الواقديّ، وأبو عبيدة، والفراء، والأخفش، والأصمعيّ، والصغانيّ، والضبيّ، والشافعيّ، وابن سعد، وأبو داود، وابن أبي داود، وابن حرب، وابن حنبل، والجاحظ، والفواريريّ، وقتيبة، وسعدويه الواسطيّ، وابن الجعد، وابن عُلَيّة الأكبر، وأبو نصر التمار، وأبو مَعْمَر القَطِيبيّ، وأبو العوّام البرّاز، وابن شجاع، وبشر المبريسيّ، وبشر بن الوليد، وبتجّادة، ومحمد بن نوح، وأبو هارون

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : « لم يكن للشافعيّ لمّ اتصال بالمأمون » .

ابن الهكّاء، والهمذيل محمد بن الهمذيل، وأبو زكريا المُرّي ومحمد بن مبشر، الى مئات غيرهم، كانوا نَحْرَ الدولة وعنوانَ نبوغ الأُمة . أما الشعراء والكتاب فكانوا طبقة عالية، كثيرة العدد كالخصى، جيّدة المتّحى والأسلوب، تغلب الرّقة والجزالة على أهل هاتين الصناعتين . تأثروا كلهم بالحضارة الجديدة، حتى غدا الشعر الممدنى البديع ظاهرة الاختلاف عن الشعر الجاهليّ، بعيدا عن وصف الأطلال والدّمّن والركاب، وطلب النار، والمفاحرات الفارغة . هذا، وكان الجمهور يُشارك الأدباء في فهم الشعر، وقدّر الخطب والرسائل قدرها، فلم يكن الشعراء في وادٍ والأُمة في آخر، بل كان الشاعر أو الكاتب، اذا قرّض شعرا أو حبر خطابا، تُنقلقه الأُرى في الحال، وتُعاوره الرواة فيفشوا في الأمصار. وهذا ما كان يزيد في طلاوة أدب الأديب وشعر الشاعر وخطبة الخطيب، ويحمّته على تجويد مقاله . اهـ

وبعد، فقد بيّنا في كلمتنا عن الحياة الأدبية في صدر العصر العباسيّ ما أخذت تتحوّل اليه الآداب العربية عامة في الألفاظ والأساليب والمعاني والأغراض، وبيّنا لك الأسباب التي كانت تبعث على هذا التحوّل، من شدة الامتزاج بين العناصر المختلفة التي خضعت لسلطان العرب بالغرب، وما آستتبعه هذا الامتزاج من إضافة ثقافات ومدنيّات جديدة، الى ما كان للعرب من ثقافة ومدنية، ومن اتساع السلطان، وامتداد أطرافه، ومن تشجيع الخلفاء لأهل العلم وإكرامهم لرجال الأدب، ومن انصراف همهم أولى الفضل الى التأليف والترجمة، ومن كثرة حاجات الناس وتنوّعها، حتى اضطرت اللغة أمام هذه العوامل وغيرها، مما سبق أن بيّناه لك، أن تنفّرج جوانبها، لتسع هذه الأغراض، ولتقوم بحاجات الناس، طبقاً لمقتضيات العصر، وخضوعاً لسنة التحوّل .

بيّنا لك كلّ هذا . وقد يكون من التّعسف أن نعرّض لتحوّل الآداب في أيام المأمون خاصّة، فانه اذا افترضنا أن الآداب تحوّلت تحوّلا خاصّا في أيام المأمون، فقد يكون من العسير تبين هذا التحوّل وتحديد مداه، ذلك بأن تحوّل الآداب بطيء، ولا يمكن

تبيينه إلا بعد ظهور آثاره ظهوراً لا سبيل إلى الشك فيه ، بخلاف الحوادث السياسية ، فانك تستطيع أن تؤقت الحوادث السياسية بالسنة بل بالشهر بل باليوم ، ولا تستطيع ذلك في الآداب إلا بعشرات السنين .

إذا رأينا في الآداب لعصر المأمون هو رأينا في الآداب لصدر العصر العباسي . وإنما الذي حدث أن السبيل التي سلكتها الآداب في صدر العصر العباسي قد بلغت غايتها في أيام المأمون ، فعصر المأمون إذاً هو الثمرة الناضجة لتغير الآداب في العصر العباسي ، أو بعبارة أخرى : يعتبر عصر المأمون العصر الذي بلغت فيه الآداب العربية الذروة من الكمال المقدور لها .

وسبيلنا الآن أن نورد لك من آثار عصر المأمون ما يقوم لديك دليلاً على هذه النتيجة . وقد أوردنا من هذه الآثار في المجلد الثالث ما فيه الكفاية .

(ب) المحادثة أو لغة التخاطب :

بدأت لغة التخاطب تتحدرد مدارجاً عن الفصحى منذ الفتوح الإسلامية ، بسبب اتصال العرب بغير العرب ، ممن دان لسلطانهم وانتظم في ملكهم .

ولقد لا حظنا أثناء مطالعتنا في الطبري وفي غير الطبري في الفترة المأمونية ، أن بعض جُند خراسان كانوا لا يفهمون العربية فيقولون مثلاً (پسر زبیده) (وممكن) وغيرها من الألفاظ الفارسية التي أثبتها المؤرخون .

وقد يكون من الممتع حقاً أن يُخصص باحث ممن لهم اطلاع على لغات البلدان التي فتحتها العرب كتاباً لدراسة مبلغ تأثير اللغة العربية بلغات من خضع لسلطان العرب في الأرجاء المختلفة . وقصارى ما نقره هنا أن اللغة العربية تأثرت حقاً من أثر الفتوح سواء أكانت فتوح سيف أم فتوح ثقافات وترجمات قد أضعفت من بلاغة اللسان ومثانة اللفظ بقدر ما أغنت من ثروة ذهنية عظيمة .

ولأنك إذا ذكرت ما كتبناه في الفصل السادس وفي نظيره من كتابنا عن الصدر العباسي في شأن ما زيد في الألفاظ العربية، من ألفاظ العلوم المترجمة في ذلك العصر، وذكرت أن الموالى الفرس وغيرهم، هم الذين قد عهد إليهم بالترجمة والنقل والتحرير، إذا ذكرت هذا، إلى جانب ما قدمناه لك، فإنك تسوق معنا ما نذهب إليه من القول بتأثر اللغة في ذلك العصر.

وفي هذا القدر الكفاية، ولنتدرج إلى ذكر كلمة عن الخطابة.

(ج) الخطابة :

قلنا فيما سبق: إن عصر المأمون كان الثمرة الناضجة لاداب العربية في العصر العباسي، فهل كان الأمر كذلك في الخطابة أيضا ؟

أنت تعلم أن قوة الشيء ترجع إلى قوة عوامله وأسبابه . ونحن نرى، معتمدين على ما لدينا من آثار خطابية لهذا العصر، أن أسباب الخطابة وعواملها، كانت ضعيفة ضعفا نسبيا، ومن ثم لم تُنمَّش الخطابة سائر أنواع الآداب في سبيلها إلى الكمال المقدور لها. ولعل ذلك يرجع إلى ضيق مجالها وضعف الحاجة إليها، فبعد أن كنا نراها في العصر الأموي، الوسيلة إلى قمع الفتن وردِّ البدع، ولسان الخليفة في رعيته، والقائد في جنده، والزعيم في أتباعه، وبعد أن كنا نرى حظها في عصر الانتقال وصدر العصر العباسي لا يقل عن حظها في العصر الأموي، لحاجة الدعاية والزعماء إليها، أصبحنا نرى مجالها في عصر المأمون يضيق، حتى كادت تُقصر على التهنئة والتعزية والخطب الدينية كالجمعة والعيد . وضيق مجالها يرجع إلى استغناء الخلفاء العباسيين وعملهم وقوادهم عنها بالمنشورات العامة، حيث يتسبطون فيها ويضمنونها ما يريدون من أغراض، ثم تُتلى على من يُراد أن تُتلى عليهم. ولعل ذلك لاصطباج الخلافة العباسية بالصبغة الفارسية، واحتجاب الخلفاء عن مخالطة الجماهير، ولأن جُلَّ عمال بني العباس في ذلك العصر كانوا من الموالى وهؤلاء وإن أُوتوا

حُظًا عظيمًا من بلاغة القول وحسن البيان ، فقد كانت لا تزال بالسنتهم لُوثَةً من العُجْمَة ، تحول بينهم وبين ما تقتضيه الخطابة من اندفاع الألفاظ وتدفعها .

لعل لكل هذا أو بعضه أثرًا ما في تضيق مجال الخطابة والاستغناء عنها بالرسائل والمنشورات العامة . ومهما يكن من شيء ، فقد أُلْقِيَتْ في عصر المأمون خُطَبٌ قليلة القَدْر والقيمة ، ننشر لك منها على سبيل المثال خطبتين : إحداهما للمأمون في عيد الفطر ، والأخرى تهنئة بمقدم المأمون الى بغداد .

خطبة المأمون :

ألا وإن يومكم هذا يوم عيد وسنة وآبتهال ورغبة ، يوم ختم به الله صيام شهر رمضان ، وافتتح به حج بيته الحرام ، بفعله أول أيام شهور الحج ، وجعله مُعَقَّبًا لمفروض صيامكم ومُنْتَقَلًا قيامكم ، فاطلبوا الى الله حوائجكم واستغفروه لتفريطكم ، فانه يقال : لا كثير مع ندم واستغفار ، ولا قليل مع تماد وإصرار . اتقوا الله عباد الله ، وبادروا الأمر الذي لم يحضر الشك فيه أحدا منكم ، وهو الموت المكتوب عليكم ، فانه لا يستقال بعده عثرة ، ولا يُحْطَرُّ قبله توبة . واعلموا أنه لا شيء بعده الا فَوْقُهُ ، ولا يُعِين على جَزَعِهِ وَعَلَزِهِ وَكُرْبِهِ ، وعلى القبر وظلمته ، ووحشته وضيقه ، وهول مطلعه ومسألة ملكيه ، إلا العمل الصالح الذي أمر الله به ، فمن زالت عند الموت قدمه ، فقد ظهرت ندامته وفانته استقالته ، ودعا من الرجعة مالا يُجَابُّ اليه ، وبذل من الفدية مالا يُقْبَلُ منه ، فالله الله عباد الله ، كونوا قوما سألوا الرَّحْمَةَ فَأَعْطَوْهَا إِذْ مَنَعَهَا الَّذِينَ طَلَبُوهَا ، فانه ليس يَتَّقِيَ الْمُتَقَدِّمُونَ قَبْلَكُمْ ، إلا هذا الأجل المبسوط لكم . فاحذروا ما حذركم الله منه ، واتقوا اليوم الذي يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم ، ونشر صحفكم الحافظة لأعمالكم . فليُنْظَرِ عَبْدٌ مَا يَضَعُ فِي مِيزَانِهِ مما يثقل به ، ومما يُثَلِّى فِي صَحِيفَتِهِ الحافظة لما عليه . واستُأْنِهَاكم عن الدنيا بأكثر مما نهتكم به الدنيا عن نفسها ، فان كل ما بها يُحَدَّرُ منها وَيَنْهَى عنها ، وكل ما فيها يدعو الى غيرها . وأعظم ما رآته أعينكم من بخائنها وزوالها ذم الله لها والنهي عنها ، فانه يقول تبارك

وتعالى : ﴿فَلَا تَغْرِبْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرِبْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ وقال ﴿لَا تَمَسَّ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعَبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ . نانتفموا بمعرفةكم بها وبإخبار الله عنها . واعلموا أن قوما من عباد الله ، أدركتهم عصمة الله ، فحذروا مصارعها ، وجانبوا خدائعها وآثروا طاعة الله فيها وأدركوا الجنة بما يتكون منها .

خطبة التهنية :

قال ابن أبي طاهر : دخل المأمون بغداد فتلقاء وجوهها ، فقال له رجل منهم : يا أمير المؤمنين ، بارك الله لك في مَقْدَمِكَ ، وزاد في نعمتك ، وشكرك عن رعيته ، تقدمت من قبلك ، وأتعبت من بعدك ، وأياست أن يعان مثلك ، أما فيما مضى فلا نعرفه ، وأما فيما يبقى فلا نرجوه ، فبحن جميعا ندعو لك ونُذِنِي عليك . خصب لنا جنابك ، وعذب ثوابك ، وحسنت نظرتك ، وكُرمت مقدرتك ، جبرت الفقير ، وفككت الأسير ، والخير بفنائك ، والشر بساحة أعدائك ، والنصر متوط بلوائك ، والخذلان مع ألوية حسادك ، والبر فعلك ، قد طحطح عدوك غضبك ، وهزم مغايهم مشهدك ، وسار في لباس عدك ، وشسع بالنصر ذكرك ، وسكن قوارع الأعداء ظفرك ، الذهب عطاؤك ، والدواة رمزك ، والأوراق لحظك وأطرافك .



(د) الكتابة :

قلنا في كلمتنا عن الكتابة في صدر العصر العباسي : إن أسبابا كثيرة وقوية — ذكرناها هناك — دفعت الكتابة فتعددت أغراضها ، وتنوعت أساليبها ، ومال الكتاب الى السهولة في العبارة ، والتأنق في اللفظ ، والجودة في الرصف ، وأطالوا في المقدمات ، وتوعوا المبدأ والختام ، والألقاب والدعاء ، ومالوا الى الغلو والمبالغة . ثم قلنا بعد كلام : أما الإطناب في الكتابة فكان صفة غالبية في كل ما شمل بيعة ، أو عهدا ، أو احتجاجا ، أو انتصارا ، أو تقريرا لمذهب ، أو استهواء أو دفعا لشبهة ، أو طلبا لنعمة ... الخ . وقد أثبتنا لك جملة صالحة

من آثار العصر المأموني مما يقوم حجة على ما ذهبنا اليه . ونحيلك الى رسالة أبي الربيع محمد بن الليث ، الى قُسطنطين ملك الروم ، والى رسالة يحيى بن زياد الحارثي في تقييد أمير المؤمنين الرشيد ، وقد أثبتناهما لك — نقلا عن النسخة الخطية من كتاب المنظوم والمنثور لابن طيفور — في باب المنشور في الكتاب الثاني من المجلد الثاني ، كما أثبتنا لك في الكتاب الثالث من المجلد الثالث رسالة قيِّمة للمأمون تسمى رسالة الخليس ، كان بعث بها الى أهل نُجَاسان كمنشور من الخليفة ، ورسالة مُتمِّمة لسهل بن هارون خازن بيت الحكمة في عهده ، فراجع ذلك ثمة .

ولو قد ذهبنا نورد لك من آثار عصر المأمون الكتابية لعدّونا القصص وأملنا ، فحسبنا ما أحلناك الى مراجعته الآن ، وهو فيه الكفاية لاثبات ما ذهبنا اليه . وقد أوردنا هذه الرسائل من غير أن نعرض لها بتحليل أو بيان . فهي في وضوحها ودلالاتها على ما أردنا من إيرادها غير محتاجة الى شيء .



(هـ) مجالس المناظرة و ”أهباء” الأدب والغناء والمناذمة :

أما مجالس المناظرة ومكاتها السامية في العصر المأموني ، فقد وقفت على طرف عظيم منه في الفصول التي عقدناها لك عن المأمون وعلمه ، وأدبه ، ودينه ، وسياسته . فمن نافلة القول وتكراره أن ننقلها لك هنا . وقصارانا أن نقول : إن المناقشات الحادة بين سيبويه واليكسائي في شأن مسألة نحوية ، وبين الشعراء والأدباء في تفضيل شاعر على شاعر ، وبين السُنيّين والمعتزلة في القول بخلق القرآن ، وأهباء الأدب عند الأميين والمأمون وأنصارهما ، وأمراء العرب كابن دُلْف وعبد الله بن طاهر وغيرهما ، لتدل أوضح الدلالة على ما كان للمناظرة في هذا العصر من مكانة ، حتى أصبحت من أهم مميزاته وكُبريات آثاره .

وأما المناذمة والغناء ، فقد سبق أن نقلنا لك ما رواه صاحب «التاج» عن حالة المناذمة في الصدر العباسي . وقد آن لنا أن نُتمّ لك القول في حالتها في العصر المأموني ،

ومُحَمَّدٌكَ في الوقت نفسه الى كتاب حَلَبَةُ الكُمَيْتِ ، والأغاني ، ونهاية الأَرَبِ ، وغيرها من كتب الأدب ، فهي مُتَرَعَّةٌ بأخبار الغناء والمنادمة ، غنيَّةٌ بأخبار المنادمين والمغنين .

سئل إسحاق بن إبراهيم الموصلي عن رأيه في حال المنادمة في تلك الأيام ، فقال عن الأمن : ما كان أعجب أمره كلّه ، فأما تبدُّله فما كان يُبالي أين قَعَدَ ومع من قَعَدَ ، وكان لو كان بينه وبين ندمائه مائة حجابٍ خَرَقَهَا كُلُّهَا وألقاها عن وجهه ، حتى يقعد حيث قعدوا ، وكان من أعطى الخَلْقَ لذهبٍ وفضيةٍ ، وأنهبهم للأموال اذا طَرِبَ أو هَمَّ . وقد رأيتُه وقد أمر لبعض أهل بيته في ليلةٍ بوقر زُورَقٍ ذهباً فانصرف به ، وأمر لي ذات ليلةٍ بأربعين ألف دينار فحُمِلَتْ أُمَامِي . ولقد غَنَّاها إبراهيم بن المهدي غَنَاءً لم أرتضه ، فقام عن مجلسه فأكبَّ عليه فقبل رأسه ، فقام إبراهيم فقبل ما وطئت رجلاه من بساطه فأمر له بمائتي ألف دينار . ولقد رأيتُه يوماً وعلى رأسه بعض غلمانته فنظر اليه ؛ فقال : ويلك ! ثيابك هذه تحتاج الى أن تُغسل ، انطلق فخذ ثلاثين بَدْرَةً فاغسل بها ثيابك .

ولقد حدثني علويُّه الأعسر ، وهو أبو الحسن علي بن عبد الله بن سيف عنه قال : لما أُحيطَ به وبلغت حجارةُ المُنَجِّينِقِ بساطه ، كنا عنده ، ففتته جارية له بغناء تركت فيه شيئاً لم تُجِدْ حكايته ، فصاح : يا زانية ، تُغَنِّينِني الخطأ ! خذوها فحُمِلَتْ ، وكان آخر العهد بها .

وسئل عن حال المنادمة عند المأمون ، فقال : أقام بعد قدومه عشرين شهراً ، لم يسمع حرقاً من الغناء ، ثم سمعه من وراء حجابٍ متشبهاً بالرشيد ، فكان كذلك سبع حجج ، ثم ظهر للندماء والمغنين . قال : وكان حين أحب السماع ظاهراً بعينه ، أكبر ذاك أهل بيته وبنو أبيه .

ويقال إنه سأل عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، فغمره بعض من حضر وقالوا : ما يغادر تيباً وبأوا ، فأمسك عن ذكره . قال بخاءه زُرُّرُ يوماً ، فقال له : يا إسحاق نحن اليوم عند أمير المؤمنين ، فقال إسحاق : فنته بهذا الشعر :

يَاسْرَحَةَ الْمَاءِ قَدْ سُدَّتْ مَوَارِدُهُ * أَمَّا إِلَيْكَ طَرِيقٌ غَيْرُ مَسْدُودٍ
لِحَاثِمٍ حَامٍ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ * مُحَايِلٍ عَنْ سَبِيلِ الْمَاءِ مَطْرُودٍ

فلما غنّاه به زُرْزُرُ أَطْرَبَهُ وبهجه، وحرك له جوارحه، وقال: ويلك! من هذا؟ قال:
عبدك المحفوق المَطْرَحُ. ياسيدي إسحاق! قال يحضر الساعة! بخاءه رسوله، وإسحاق مستعِدّ،
قد علم أنه إن سمع الغناء من مُجِيدٍ مُؤَدٍّ أنه سيبعث إليه، بخاءه الرسول، فحدث أنه لما دخل
عليه، ودأ منه، مَدَّ يده إليه، ثم قال: اذُنْ مِنِّي فَأَكْتُبْ عَلَيْهِ، واحتضنه المأمون وأدناه،
وأقبل عليه بوجهه مُضْغِيًا إِلَيْهِ، مسرورا به.

وحسبنا هذا القدر. وإن أردت زيادة وإفاضة فانا نُحْيِيكَ إِلَى بَعْضِ أَخْبَارِهَا فِي الْجُزْءِ
السادس من كتاب بغداد مع ما ذكرناه لك من المراجع.



(و) الشـــــعر :

أشرنا في كلمتنا عن حالة الشعر وفنونه في صدر العصر العباسي، إلى ما أخذ يتحول هو
إليه أيضا، تبعا لمقتضيات العصر وظروف الزمان، ومسيرةً للحياة الاجتماعية والاقتصادية،
ولما جدّ على أحوال الناس ومعايشهم من الغنى والتّرف، وما يستلزمه الغنى والتّرف من
الاستمتاع باللون اللّهُو واللذات، والافتنان في بناء القصور والسفن وإنشاء الحدائق
والمتنزهات. ولقد كان في مرجونا أن نفرد لك فصلا خاصا نضمّنه ما كان من الخلفاء
في إقامة مباه وقصور وحدائق ودُور، لم يكن للعرب بها ولا بنظيراتها سابقة عهد، وإنما
أجلّاهم إليها المدنية والبَدَخ، وما أصابوه فيها من رفاة عيش، وسعة يد، ووفرة غنى.
بيد أن ذلك يطول، ويخرج بنا عما رسمناه لأنفسنا من القصد والإيجاز، مع الإلمام
بكافة النواحي لهذا العصر.

على أنه من الميسور لك أن تتصور مبلغ ما وصل إليه الخلفاء العباسيون وأسرار البيت المالِك ورجال الدولة من الثروة والبذخ، بما أوَّمانا اليه في كلمتنا عن نجاج الدولة، وما كان فيها من استصفاٍ وأعطيات عظيمة .

وقد كانت أيضا الحياة السياسية والفكرية حادثةً عنيفةً، فقد اشتدت الملاحاةُ بين شيعة العلويين والعباسيين، وبلغ النزاع غايته بين أصحاب المذاهب وزعاء الآراء . ولا تنس أن تضيف الى ما تقدّم ما كان لترجمة العلوم اليونانية وغير اليونانية من أثر بعيد في أفكار الناس وأخيلتهم وأساليبهم، والدقة في تعبيراتهم، والتنظيم فيما لهم من آثار .

وقد كانت الآثار الشعرية لهذا العصر، الى حدّ ما، مرآة صادقة لأحواله وما كان يجري فيه من شؤون .

أسرف الناس في شرب الخمر فافتنّ الشعراء في وصف الخمر ووصف كؤوسها . وتخيّر الناس السقاة من الغلمان ومن في زيّ الغلمان، فوصف الشعراء السقاة وتغزلوا في الغلمان . وولّع الناس بالصيد، فوصف الشعراء الصيد وما يجري في مجال الصيد . وآفتنّ الناس كما قلنا في بناء القصور وغير القصور، ففتحو المجال واسعا لخيال الشعراء في شتى الأبواب . واشتدت المنافسة السياسية بين شيعة العلويين والعباسيين، فأخذ شعراء كل فريق ينضجون عن رأيهم ويؤيدون مذهبهم . وألّف العلماء في الفقه والأخلاق والكلام، فأخذ الشعراء يعالجون نظم الفقه والأخلاق والكلام . وهكذا تعددت أغراض الشعر وتنوعت ألوانه . وتحضّر الناس في بغداد وغير بغداد من الحواضر الإسلامية، فرقت طباعهم، ولانت أخلاقهم، ونبت عن الحوشية أذواقهم، فرق شعراء أهل الحواضر، وسليست ألفاظه، وبعدت من الحوشية . وترجمت العلوم اليونانية وغير اليونانية، من فلسفة ومنطق وأخلاق، فكان لهذه العلوم أثرها في تنظيم أفكار الشعراء ودقّة خيالهم .

ولو ذهبنا نورد لك شواهد على كل هذا وغيره، لأطلنا وأملنا . وإنما نخيلك على آثار شعراء هذا العصر، كأبي نؤاس في الخمر وكؤوسها، وأوقات شربها وسقاتها، والغزل

بالعلماء، والصيّد، والطرّد، ووصف مظاهر الحضارة العباسية، وكِدْعِيل الخُرَاعِيّ والسيد الحِمَيْرِيّ في النزاع السياسي بين العلويين والعباسيين . وكأبى العتاهية في الأخلاق، وأبان ابن عبد الحميد في نظم العلوم كالفقه وغير الفقه . وهذه الإحالة لا تمنعنا أن نورد لك أمثالا من آثار هذا العصر الشعرية .

وهنا تعرض لنا ملاحظة نرى إيرادها حتما علينا ، وهذه الملاحظة هي أن الشعر في عصر المأمون كان مرآة صادقة للحياة وما يجري فيها من شؤون الى حد ما .

نقول «الى حد ما» . ويدفعنا الى هذا القول مُعْتَقَدُنَا القويّ الذي تكوّن لما من دراستنا لروح هذا العصر . ذلك بأننا نرى كثيرا من شعراء الحضارة المجيدين في هذا العصر وفي العصر الذي قبله ، يَحْلُون نتائج أفكارهم وما تجود به قرائحهم ، شعراء الجاهلية وأعراب البادية . ونرى أيضا أن كبار الرواة وأهل الأدب ، يُنشدون الشعر الجيد مُحدث ، فيعجبون به على أنه قديم أو لأعرابي ، حتى اذا تبين لهم أنه مُحدث أنكروه وأزوروا عنه .

هذا يدلنا على أن جماعة قوية يُعتد بها في هذا العصر، كانت تميل الى إثارة الشعر القديم وشعر أعراب البادية على الشعر الجديد ورجال الشعر الجديد . واذا كان هذا حقا كان من الطبيعي أن يعيش الشعراء من الناحية الشعرية في غير عصرهم ، وأن يكونوا بأخيلتهم في غير حاضرتهم ، لكي يَمْلَقُوا الروح الغالبة وَيَظْفَرُوا برضا العلماء . وقد يكون لهؤلاء العلماء والرواة حظ كبير في صرف أذهان الناس الى الشعر القديم .

وليس معنى ذلك أن شعر المحدثين لم تكن له مكانة رفيعة عند القوم ، بل على النقيض كانت له منزلة رفيعة في النفوس .

لذلك نحن نميل الى القول بأن خير من يمثّل هذا العصر أولئك المجددون الذين لم يتقيدوا ببكاء الأطلال ، والحنين الى الرسوم ، كأبى نواس وأضراب أبي نواس .

على أنه يجدر بنا أن نورد لك مثلين مما كانوا يتذوقونه في هذا العصر من شعر المحدثين ، وما قاله أبو دُلف ناعيا منهج التقعر ، بعد إيرادنا لك ما وعدناك بإيراده من شعر لهذا العصر في شتى الأنحاء .

وقد نشرنا لك في باب المنظوم من الكتاب الثالث من المجلد الثالث أمثلة من شعر هذا العصر كما نشرنا لك تلك القصيدة التي أنشدها محمد بن عبد الملك للمأمون يحرضه فيها على قتل إبراهيم بن المهدي حين ظفر به ، فقال المأمون : لا ! والله أُشْمِتُهُ به بل أعفو عنه . وانظر الى مطلع القصيدة ، ترالفاسفة اليونانية جاثمة فيه :

ألم تر أن الشيءَ للشيءِ علَّةٌ * يكون له كالنار تُقْذَحُ بالزَّندِ

وكان للمأمون جارية تسمى عريب ، كانت تعشق جعفر بن حامد ، وكان يتعشقها ، فلما وجدت من المأمون غفلةً ، وضعت على فراشها مثال رخام ، يحسب من رآه من بعيد أنها نائمة . وكان جعفر بن حامد قد نزل الى جانب قصر المأمون . فصعدت الى السطح ونزلت في زنبيل ، فلما قضى نهمته منها قعدت في الزنبيل فصعدت ورجعت الى مكانها . وطلبها المأمون قبل أن ترجع الى فراشها فلم يجدها ، فعلم الى أين صارت . فقال أبو موسى حاكيا لهذه القصة :

قاتل الله عَريبًا * فعالت فعلا عجيبًا

ركبت والليل داج * مركبا صعبا مهيبا

فارتقت متصلا بالنجم أو منه قريبا

صبرت حتى اذا ما * أقصد النوم الرقيب

مثلت بين حشايا * ها لكي لا يستريا

خلف منها اذا نو * دى لم يلف مجيبا

ومضت يحملها الخو * ف قضيبا وكثيبا

محملة لو حركت خفتت عليها أن تدوبا

فتدللت المحب * فتلقاها حبيبا

جذلا قد نال بالد * نيا من الدنيا رغبيا

أيها الظبي الذي تسحر عيناه القلوبا

والذي يأكل بعضا * بعضه حسنا وطيبا

كنت نهباً لذئاب * فلقد أطمعت ذيباً
وكذا الشاة إذا لم * يك راعيها لبيباً
لا يبالى وباً المر * عى إذا كان خصبياً
ولقد أصبح عبداً * الله كشخاً حريياً
قد أعمري لطم الخلد * وقد شق الجيوباً
وجرت منه دموع * بليت الذقن الخصبياً

ومما يعتبر من الهجاء السياسي قصيدة بحشويه الشاعر في يحيى بن أكثم قاضي المأمون
بالبصرة، إذ فيه أيضاً هجواً لآل العباس وخلافهم . قال :

أنطقني الدهر بعد إخراس * بمحادثات أطلن وسواي
يا بؤس للدهر لا يزال كما * يرفع ناساً يحط من ناس
لا أفاحت أمة وحق لها * بطول لعين وطول إتعاس
ترضى يحيى يكون سانسها * وليس يحيى لها بسواس
قاضي يرى الخلد في الزناء ولا * يرى على من يلوط من بأس
يحكم للأمرد الظريف على * مثل جوين ومثل عداس^(٢)
فالحمد لله قد ذهب الـ * وجود وقلّ الوفاء في الناس
أميرنا جائر وقاضينا * يلوط والرأس شر ما راس
لو قصد الرأس واستقام لقد * قام على القصد كل مرتاس
ما حسب الجور ينقضي وعلى الناس أمير من آل عباس

وقد أثبتنا لك في باب المنظوم من الكتاب الثالث في مجلدنا الثالث مثلاً آخر من
الهجاء قاله بعض الشعراء في يحيى بن أكثم، فراجعه ثمة .

(١) الكشخان بفتح الكاف وبكسر : الديوث .

(٢) كذا في تاريخ بغداد وفي ابن خلكان ج ٢ ص ٣٢٦ : « مثل جرير مثل عباس » .

وهناك نوع من الشعر يمثل لك ناحية من نواحي العصبية بين القبائل وهو الى حد ما يعتبر من الشعر السياسي . وهذا النوع مثل ما قاله مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ في هجاء قريش والافتخار بالأنصار، ورد ابن قنبر عليه . وإنا نحيلك على موضع ذلك من مجلدنا الثاني للاطلاع عليه، لضيق المقام عن إيراد هـ .

وفي هذه القصة الآتية طرافة من الفراسة في العصر، آثرنا إثباتها لذلك وهي :

قال أبو السَّمْرَاءِ : خرجنا مع الأمير عبد الله بن طاهر متوجهين الى مصر ، حتى اذا كنا بين الرملة ودمشق ، اذ نحن بأعرابي قد اعترض ، فاذا شيخ فيه بقية ، على بعير له أَوْرَقٌ ، فسلم علينا فرددنا عليه السلام ، قال أبو السمرء : وأنا وإسحاق بن إبراهيم الرافقي ، وإسحاق بن أبي ربيع ، ونحن نُسَير الأمير ، وكنا يومئذ أفرة من الأمير دَوَابٍّ ، وأجود منه كُسا . قال : بفعل الأعرابي ينظر في وجوهنا ، قال : فقلت : يا شيخ ، قد ألحمت في النظر ! أعرفت شيئا أم أنكرته ؟ قال : لا والله ما عرفتم قبل يومى هذا ، ولا أنكركم لسوء أراه فيكم ، ولكنى رجل حسن الفراسة فى الناس جيد المعرفة بهم ؛ قال : فأشرت له الى إسحاق بن أبي ربيع ، فقلت : ما تقول فى هذا ؟ فقال :

أرى كاتباً داهى الكتابة بين * عليه وتأديب العراق منير
له حركات قد يشاهدن أنه * عالم بتقسيم الخراج بصير

ونظر الى إسحاق بن إبراهيم الرافقي فقال :

ومظهر نسل ما عليه ضميره * يحب الهدايا بالرجال مكور
أخال به جبناً وبجلاً وشمة * تخبر عنه إنه لوزير

ثم نظر الى أنسأ يقول :

وهذا نديم للأمير ومؤنس * يكون له بالقرب منه سرور
وأحسبه للشعر والعلم راوياً * فبعض نديم مرة وسيمير

ثم نظر الى الأمير وأنشأ يقول :

وهذا الأمير المرتجى سيبُ كَفَدُ * فما لب له فيمن رأيتُ نظيرُ
عليه رداء من جمال وهيبه * ووجهٌ بإدراك النجاح بتسير
لقد عَصِمَ الاسلامُ منه بذائد * به عاش معروف ومات تكبيرُ
ألا إثمًا عبدُ الاله بن طاهر * لسا والدُ برُّ بنا وأميرُ

قال : فوقع ذلك من عبد الله أحسن موقع ، وأعجبه ما قال الشيخ ، فأمر له بخمسمائة دينار وأمره أن يصحبه .

هذا ، وقد حدث بعضهم قال : احتج أصحاب المأمون عنده يوما ، فأفاضوا في ذكر الشعر والشعراء ، فقال بعضهم : أين أنت يا أمير المؤمنين من مُسلم بن الوليد حيث يقول ؛ قال : ماذا قال ؟ قال : حيث يقول ورثى رجلا :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه * فطيبُ ترابِ القبرِ دلَّ على القبر
وهجا رجلا بقبح الوجه والأخلاق فقال :
قُبِحتَ مناظره فحين خبرته * حُسنتَ مناظره لقبح المخبر
ومدح رجلا بالشجاعة فقال :
يجود بالنفس إن ضنَّ الجوادُ بها * والجود بالنفس أقصى غاية الجود
وتغزل فقال :

هوَى يَجِدُ حبيبٌ يلعبُ * أنت لقيَ بينهما مُعَدِّبُ ^(١)

ومما كان يستحسنه المأمون من دُعيل الخزاعي هجاء المأمون المعروف قوله :

ألم يأنٍ للسَّفر الذين تَحْمَلُوا * الى وطنٍ قبل الممات رجوعُ
فقلتُ ولم أملك سوا بقِ عَبرَةٍ * نَطَقَنَ بما ضُمَّت عليه ضلوعُ

(١) اللقي : الملقى المطروح .

تَبَيَّنَ فَمَكِّ دَارٍ تَفْتَرَّقَ تَمَلُّهَا * وَشَمَلُ تَسْتَيْتِ عَادَ وَهُوَ جَمِيعُ
طَوَالِ اللَّيَالِي صَرَفُهُنَّ كَمَا تَرَى * لِكُلِّ أَنَاسٍ جَدِيدُهُ وَرَبِيعُ

وقد حدث ابن طيفور عن مشيخته أن منصوراً النمرى، والحسن بن هانيء، وأبا العتاهية^(١) وأبا زغبة اجتمعوا فتذاكروا أبياتاً على وزن واحد، ففضل أبو العتاهية عليهم. فقال النمرى:

أَعْيِرُ كَيْفَ بِحَاجَةٍ * طَلَبْتُ إِلَى صَمِّ الصَّيْخُورِ
لَهُ دَرَّ عُدَاتِكُمْ * كَيْفَ انْتَسَبَ إِلَى الْغُرُورِ
وَلَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَا مَلَى * يَجْنِينَ رُمَانَ النُّحُورِ

وقال أبو العتاهية:

لَهْفِي عَلَى الزَّمَنِ الْقَصِيرِ * بَيْنَ الْخَوَرَنَقِ وَالسَّيْرِ
إِذْ نَحْنُ فِي غُرَفِ الْجَنَّا * نَ تَعُومُ فِي بَحْرِ السَّرُورِ

وقال الحسن بن هانيء:

وَعَظَمْتُكَ وَاعْظَةُ الْقَتِيرِ * وَعَظَمْتُكَ أَهْمَةُ الْكَبِيرِ^(٢)
وَرَدَدْتَ مَا كُنْتَ آسْتَعِرُ * تَ مِنْ الشَّبَابِ إِلَى الْمُعِيرِ
وَلَقَدْ تَحَلَّ بِعُقُودِ السَّالْبَابِ مِنْ بَقَرِ الْقُصُورِ^(٣)
صُورُ إِلَيْكَ مَوْثَا * تَ الدَّلَّ فِي زَيْ الذِّكُورِ
أُرْهِفْنَ إِرْهَافَ الْأَعْنَتِ * وَالْجَمَائِلِ وَالسُّيُورِ
أَصْدَاغُهُنَّ مَعْقَرَا * تَ الشَّوَارِبِ مِنَ عَيْبِ

قال المحدث: ولا أحفظ ما قال أبو زغبة، ففضلوا أبا العتاهية، وأبو نؤاس عندي

أشعرهم.

(١) كذا في تاريخ بغداد، وعلق عليه ناشره بأنه في ديوانه: «ابن زغبة».

(٢) القتير: الشيب.

(٣) العقوة: ساحة الدار.

وقد روى ابن طيفور أن عامل أبي دلف قد قصر في أمره ، فبعث إليه من عزله
وقيده وحبسه ؛ فكتب الى أبي دلف من السجن كتابا تنطع فيه وقعر وطول ؛ فكتب
إليه أبو دلف :

يا صاحب التطويل في كُتبه * وصاحب التقصير في فعله
وراكب الغامض من جهله * وتارك الواضح من عقله
لم يُحِط من ألزمه قيده * بل صير القيد الى أهله
قيده للحبس تقعيه * فالقيد لن يخرج من رجله
والله لا فارقه قيده * أو يقطع التقير من أصله

وفي الختام نرى لزأماً في عنقنا ، أن نحيلك على ما قاله الشعراء وصفاً لثورة بغداد
وحريقها ، وعلى رثائهم للأئمة ونماذج أخرى لمختلف مقلاتهم في مختلف المناحى .
وقد نشرنا لك من هذا جملة صالحة في باب المنظوم من الكتاب الثالث من مجلدنا الثالث ،
فإنها تعطيك صورة صادقة لدرجة الشعر في ذلك العصر ، فراجعهُ ثمة .

الفصل العاشر

نماذج لبعض الشخصيات البارزة في العصر المأموني

توطئة — جبرائيل بن بختيشوع — الجاحظ — أبان بن عبد الحميد اللاحق — أحمد بن يوسف الكاتب — يحيى بن أئثم القاضي — اسحاق بن ابراهيم .

(١) توطئة :

أعترف أنه من الصعوبة بمكان أن أختار لك أشخاص هذه النماذج . لأن الكثرة من رجالات العصر من النباهة والكفاية بمكان ، وقد كان يحلوا لي حقا ويسرني أيما سرور لو اتسعت رسالتي للكتابة عن رجالات العصر من وزراء وعلماء وقضاة وشعراء وكتاب وأطباء ومغنين ونُدماء ، بيد أن ذلك يتطلب سعة لا يحتملها هذا المقام .

على أننا قد رأينا أن نكتب لك كلمات مجملة عن « جبرائيل بن بختيشوع » من أطباء العصر ، وعن « الجاحظ » من مالوك الكتاب ورؤساء الاعتزال ، وعن « أبان اللاحق » الشاعر وصاحب نظم كِلَيْسَة وِدْمَة ، وعن « أحمد بن يوسف » الوزير المأموني ومدبج رسالاته ، وعن « يحيى بن أئثم » قاضي قضااته وأخيرا عن « اسحاق بن ابراهيم » وهو مجموعة هؤلاء .

ونعترف لك بأن في كتابنا شيئا من التقصير نحسّه ، وسببه حاجة هذه الموضوعات الى الإفاضة في الشرح والبيان وإلى التحليل والإسهاب مما لا قبل لرسالتنا به .

« وبعد » فلنبدا بهذه النماذج فنقول :

(ب) جبرائيل بن بختيشوع الطبيب النسطوري :

لستنا نريد أن نستطرد في الحديث عن بختيشوع الطبيب الشهير وإنما نريد أن نلمّ بالمهمة به يتعزف منها القارئ ما كان للرجل من أثر في عصره فنقول : إن هذه

الأُسرة هي الأُسرة الوحيدة النَّسْطُورِيَّة، التي استقام دور عَمرَها ثلاثة قرون، كان لها خلاها حفظ وجاه، وكانت لأفرادها حُظوة، فاستعملهم الخلفاء العباسيون، فانتفعوا من الخلفاء، ونفعوا الطب وغير الطب من العلوم بآثارهم ومُنتجات عقولهم .

أما هذه التسمية فسرانية، وهي مركبة من لفظتين سريانيَّتين، بُحَّت ومعناه العبد، ويُسُوع ومعناه يسوع أى عبد يسوع، وكانت هذه الأُسرة من مدينة جُنْدَيْسَابُور، وأول من عرفه التاريخ منها هو ديورجيس بن جبرائيل بن بختيشوع وكان يزاول مهنة الطب فبرع فيها، وَبَّه ذكره، وأقيم رئيساً لمستشفى مدينته حتى إن أبا جعفر المنصور قد أرسل وفدا من قبيله الى جنديسابور يستدعيه إليه إذ كان قد انتابه مرض فعجزت عن شفائه تُطس الأطباء فتأبى بختيشوع بادئ الرأي حتى اعتقله العامل، ولكن أعيان بلده من مَطَارَنِيَّة وقَسَاوِسَة وغير هؤلاء نصحوا له بأن يمثّل للأمر، فانقاد لنصيحتهم وولى وجهه شطر دار السلام، ثم كانت له حُظوة عند المنصور . وما كذا لنستطرد في الحديث عن هذه الأُسرة، وإتّما سقنا هذه الكلمة لنأتى على شيء من أخبار أسرة جبرائيل، نُظْهِر ما لهذا الرجل من المسكنة في عالم الطب، وأنه من سُلالة كانت لتوارث أخلافها عن أسلافها هذه الصناعة .

نقول : إن جبرائيل هذا، قد نبغ على مثال ذويه، وظهرت فيه عوامل الوراثة، فورث عن آبائه الصفات الأدبية، وبرع في صناعة الطب، وكان الى جانب هذا وديع الخلق، لطيف المخضر، كريم السجايا، عُرف في جو الطب سنة ١٧٥ هـ — سنة ٧٩١ م . ذلك بأن جعفر بن خالد بن برمك، بعد أن أبلى من مرضه باعتناء ببختيشوع، رغب اليه أن يبقى معه طبيباً له، فاعتذر وأتاب عنه ابنه جبرائيل هذا، فلقى منه كل رعاية . وكاشفه جعفر بداء خفى كان قد أصابه، فعالجه جبرائيل في ثلاثة أيام، وشفى جعفر فزادت مكانة جبرائيل عنده، وقربه منه فكان جليسه، وكان نديمه، وكان لا يفارقه ساعة واحدة . وحدث أن جارية من جوارى هارون الرشيد قد دبست ذراعها، فأبرأها جبرائيل بحيلة لطيفة بعد أن

أخفق الأطباء في معالجتها، فحباه بخمسين ألف درهم، وقد عظم شأنه حتى قال الرشيد لأصحابه : كل من كانت له الـ حاجة فليخاطب بها جبرائيل لأني أقبل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني، وكان في صحبة الرشيد أينما حلّ وحيثما ارتحل، فقد ذهب معه الى الرقة وصار معه الى الحجاز .

ولما تولى الأمين الخلافة عرض جبرائيل على الخليفة أن يكون له خادماً، فقبله ورحّب به، ولم يكن يأكل شيئاً إلا باذنه، ولما بلغ ذلك المأمون اعتقل جبرائيل ولم يُطابق سراحه حتى شَفَعَ فيه الحسن بن سهل . وفي سنة ٢١٠ هـ - ٨٢٦ م مرض المأمون مرضاً أعجز أطباءه وكان في مقدّمتهم ميخائيل صهر جبرائيل، فأخذ جبرائيل على نفسه شفاء المأمون، وكان مُوفقاً، فلم تمض أيام حتى شفى المأمون، فغمره بنعمائه واتخذة أنيساً ونديماً، ولم يَقيف احترام المأمون لجبرائيل وإكرامه له عند هذا الحد بل قد عدّاه الى غيره من عمال الدولة، فقد أصدر المأمون أمره الى الموظفين والعمال والقوّاد، بأن يوقروا جبرائيل ويُجلّوه، وكان الرجل يتدخّل في شؤون طائفته كلها، حتى الشؤون الكنسيّة، وتأييره اُنتخب البطريرك جيورجيس المعروف بأبن الصباغ فتولّى الرئاسة الدينيّة في طائفته وهو في سنّ الشيخوخة . ولما كانت سنة ٢١٣ هـ - ٨٢٨ م . مرض جبرائيل، واتفق أن الخليفة المأمون كان في ذلك العهد قد سافر الى بلاد الروم، فأقعد المرض جبرائيل عن ملازمته، ولكنّه أناب عنه ابنه بختيشوع، ولم يرجع المأمون وبختيشوع من رحلتها حتى كان جبرائيل قد توفى . فأقيم له مأتم حافل، فلما كان ليلته في ذلك العصر . ودفن في مدفن القديس سرجيس بالمدينة، وترك مالا كثيراً، وملكاً واسعاً، فكانت له ضياع يُجنّد نيسابور والسوس والبصرة والسّواد . حصل عليها بما ناله من الخلفاء من التخصيصات الجزيلة، والهدايا الكثيرة في المواسم والمعاشات . وله من الكتب رسالة في المطعم والمشرب قدّمها الى المأمون، وكتاب المدخل الى صناعة المنطق، ورسالة مختصرة في الطب وهي مختصر تأليف ديروكوريدس وجالينوس وبولس الايجيني، وله أيضاً كتاب في صناعة البخور وقد نسب اليه السمعاني في مكتبته الشرقية معجماً سريانياً على أن هذا مشكوك في روايته .



(ج) الجاحظ :

«الكتاب وعاءٌ ملىءُ علماً، وظرفٌ حُشِي ظُرفاً؛ وبستانٌ يُجمل في رُدنٍ، وروضةٌ تقلّب في حجرٍ، ينطق عن الموتى، ويترجم كلامَ الأحياء، ولا أعلم جارا أبرّ، ولا خليطاً أنصف، ولا رفيقاً أطوع، ولا معلماً أخضع، ولا صاحباً أظهر كفاية، وأقل جنابةً، ولا أقل إملاً وإبراماً، ولا أقل خلافاً وإجراماً، ولا أقل غيبةً، ولا أبعد من عَضية^(١)، ولا أكثر أعجوبة وتصرفاً. ولا أقل صلفاً وتكلفاً، ولا أبعد من مراء، ولا أثرك لشغب، ولا أزهد في جدال، ولا أكف عن قتال من كتاب. ولا أعلم قريناً أحسن مواتاةً، ولا أعجل مكافأةً، ولا أحضر معونةً، ولا أقل مؤونةً، ولا شجرة أطول عمراً، ولا أجمع أمراً، ولا أطيب ثمرة، ولا أقرب مُجْتَنًى، ولا أسرع إدراكاً في كل أوان، ولا أوجد في غير إبان من كتاب. ولا أعلم نتاجاً في حادثة سنه، وقرب ميلاده، ورخص ثمنه، وإمكان جوده، يجمع من التداير الحسنة، والعلوم الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومجمود الأخبار اللطيفة، ومن الحكم الرقيقة، ومن المذاهب القويمة، والتجارب الحكيمة، والأخبار عن القرون الماضية، والبلاد المتراخية، والأمثال السائرة، والأهم البائدة ما يجمع الكتاب» .

بهذا الأسلوب الحسن في منناه، الناصع البيان في مَبْنَاهِ؛ الداني القطوف، السديد في منهجه، العذب في مورده : يخاطبنا شيخ الكتاب غير مدافع، والمتفنن في الرسائل غير منازع؛ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بعبارات تُستساغ في غير مؤونة ولا كدّ ذهن، وتُستوعب بلا إرهاق خاطر ولا إعنات روية. والجاحظ أيدك الله ليس وراء كتاباته — كما تعلم — مذهب لمستفيد، ولا مَرَادٍ لراغب يقرأها متناسبة متراصفة، وألفاظها متنخلة متخيّرة. وعباراتها مُطَرّدة منسجمة؛ وجملها مما يُوطأ له مَهَادُ الطبع، ويرتفع له حجاب السمع، وهي — وأنت جدّ عليم — من ذلك النوع الذي يدخل الآذان بلا استئذان، لمكانها

(١) الكذب والنميمة .

من الأبواب ، وهو من أجل ذلك يتطلب منا درسا تحليليا مطولا ، وليس هذا في مقدورنا لتعدد الموضوعات التي نعالجها ، ولأنها تستلزم عناية بعمها ، والاشارة اليها ، بقدر ما يتطلبه الجاحظ من عناية ودرس ، فلنكتفِ بالمعامة موجزة عن حياة هذا النابغة القذ الذي تسم ذروة الكمال ، وبلغ غاية النضج في الأدب العربي وفنونه ، وكان الى جانب هذا صاحب مذهب في الاعتزال ، هو المذهب الجاحظي ، معتمدين فيها على ما كتبه ابن خلكان وصاحب معجم الأدباء ومؤلفات الجاحظ نفسه .

نشأته :

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ . ولم تكن أسرته برفيعة القدر ولا سامية المسكنة ، بل على النقيض كانت خدما وخولا لمولاهم أبي القاسم عمرو بن قلع السكاني ثم الفقيمي النسب . وقد قيل : إن فزارا جد الجاحظ كان جمالا ، وإن الجاحظ نفسه كان يبيع الخبز والسمك بسيحان .

قال الجاحظ : أنا أسن من أبي نؤاس بسنة ، ولدت في أول سنة ١٥٠ هـ وولد في آخرها . وانكب الجاحظ على العلم منذ طفولته انكبابا عظيما ، وشغف بالمطالعة والقراءة ، وعكف على الدرس والحفظ . وقد قال عنه أبو هفان أحد معاصريه : لم أرقط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فانه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كأنما ما كان ، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت للنظر فيها ، ثم ثنى أبو هفان بالفتح بن خاقان ، وذكر بعده اسماعيل بن إسحاق القاضي .

سمع الجاحظ من أبي عبيدة ، والأصمعي ، وأبي زيد الأنصاري . وأخذ النحو عن صديقه أبي الحسن الأخفش . وأخذ الحديث عن يزيد بن هارون ، والسري بن عبدويه ، وأبي يوسف القاضي ، والحجاج بن محمد بن حماد بن سلمة . والكلام عن أبي إسحاق ابراهيم بن سيار النظام المعتزلي النابه الذكر ، وبه تأثر ، وعليه تخرج في مذهبه في الكلام والاعتزال .

وإذ كانت ميوله الى الاطلاع واستيعاب ما يقع تحت يديه من المؤلفات على ما وصفنا ، وكان قُصَارَى همه ، في مَعْدَاتِهِ وَمَرَاحَتِهِ وَبُكُورِهِ وَأَصَالِهِ ، أن يحفظ كتاباً أو يفهم باباً ، وكان العصر الذى فيه دَرَج ونما على ما علمت من غزارة المادة ، وتعدد التأليف ، وازدهار المعارف ، ووفرة مختلف الثقافات ، فلا غرو اذا أخبرنا الجاحظ عن نفسه بقوله : «لقد نسيتُ كنييتي ، لقد تغيبت ثلاثة أيام حتى أتيت أهلي فقلت لهم : بِمَ أُكْنَى؟ فقالوا : بأبى عثمان» . ولا غرو اذا كان الجاحظ قد اتصل بكثير من علماء ونوابغ عصره ، وشهيري الكتاب والمترجمين من فرس وسُريان ، فتأثر بلا ريب ذكاؤه بهذا الاختلاط ، وطالعَ جماعَ ما تُرجم في أزمان المنصور والرشيد والمأمون ؛ فما كان يقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته كأنما كان ، حتى إنه كان يكتري دكاكين الورتاين ويبيت فيها للنظر — كما قلنا آنفاً — فكان لذلك من نوابغ العالم .

وغلب عليه أمران اثنان : الكلام على طريقة المعتزلة ، والأدب ممزوجاً بالفلسفة والفكاهة . ولقد قضى عاقبة عمره بالبصرة موفور الكرامة ، محبوباً من خلائق الله ، سيما رؤساء الموالى وأعيان الهاشمية والعثمانية بالعطايا والمنح ، لما كان يصنّفه لهم من الرسائل التي كان يتعمد في كتابتها التشيع لمذهبهم ومعاودة مزاعمهم ونقض أقوال مخالفيهم . وكانت له مهارة في التلاعب بعقولهم وابتزاز أموالهم ، واقتدارٌ على التعبير في كل ما يعالجه وفي كل موقف . وكان يحجج كثيراً الى بغداد في أواخر عصر المأمون وغيره ، فكان المأمون يُرفّده . ثم انقطع الى الانتجاع الى محمد بن الزيات طَوَالَ وزاراته الثلاث ، ثم أقام بعد موت ابن الزيات بالبصرة حتى أُصيب بالفالج ، فبقي مفلوجاً حتى أسلم الروح .

ذكاؤه وخالقه :

كان له حظ كبير وقسط وفير من الذكاء ورقة الشعور ودقة العاطفة . وله في ذلك نواذر هي من خوارق الطبيعة . وكان غريب الأطوار ، به شذوذ في أحواله وأطواره . ذلك لأنه كان يجمع بين الجِدِّ والفكاهة ، حاضر النكتة ، حاضر البديهة ، سريع

الخاطر . وكانت به دُعاة وتظرف وتماجن . وكان لا يحتفل لما يأخذ الناس به أنفسهم وما يتواضعون عليه من العادات والرسوم وأنواع العصبية والمذهبية والجنسية . وكان كريم الأخلاق ، كريم اليد ، سخياً سَمحاً ، ولطيف المحضّر ، خفيف الروح ، وكان على ما به من دَمامة ، غايةً في الظُرف وحلاوة اللفظ ، وهو من أجل ذلك كان يجمع بين الضدين :

اعتقاده ومذهبه :

قلنا إنه تخرّج على أبي اسحاق إبراهيم بن سيار النّظام زعيم الفرقة التي تنسب إليه من المعتزلة ، وكان يلزم أستاذه هذا ويتوفّر على دروسه . فن أجل ذلك كان الجاحظ معتزلياً ، وزعيم الفرقة الجاحظية في الاعتزال . وقد انتفع مواهبه وما حباه الله من فصاحة الكلام وطلاقة اللسان وحسن البيان ، في ترويح مذهبه والدّعاوة له ، فكان لسان المعتزلة الناطق ، وسلاحهم القاطع . وبرع في الكلام ، وخطه بالفلسفة اليونانية . ويرميه كثيرون بالضلالة ، وأنه مَاجِنٌ مَهْذَار ، متناقض نقال ، يتلاعب بالناس ، وينقض اليوم ما بناه أمس . وقد دافع عنه أبو الحسن الخياط في كتابه "الانتصار" على انتقادات ابن الرّاوندي العنيفة المثرة التي تناول فيها عقيدة الجاحظ بالتجريح الشديد .

ومما قاله أبو الحسن الخياط فيما يفتّنه به هجمات ابن الرّاوندي : « وأما رميك للجاحظ ببغض الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو دليل على أنك لا تعرف المحب من المبغض ، ولا الولي من العدو ، لأنه لا يعرف المتكلمون أحداً منهم نصر الرسالة واحتج للنبوّة ، بلغ في ذلك ما بلغه الجاحظ ، ولا يُعرف كتابٌ في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه ؛ وأنه حجة لمحمد صلى الله عليه وسلم على نبوته غير كتاب الجاحظ . وهذه كتبه في إثبات الرسالة ، وكتبه في تصحيح مجيء الأخبار مشهورة . وهل يُستدلّ على حب الرسول صلى الله عليه وسلم والإيمان به وتصديقه فيما جاء به بشيء أؤكد مما يستدل به على حب الجاحظ الرسول وتصديقه إياه ! » .

وقد تناول كبار المؤلفين من العرب : كابن قتيبة ، والأزهري ، والمسعودي ،
والبيديع الهمداني ، وأبي العباس أحمد بن يحيى ، وأبي العباس محمد بن يزيد المبرّد ،
والفتح بن خاقان ، والرئيس أبي الفضل بن العميد وغيرهم شخصية الجاحظ بما تستحقه
من العناية والدرس ومن النقد والتقريظ ، مما لا ننبهته لك هنا مخافة الإطالة والملل ،
فلتراجع في مظانها ومواضعها .

عليه :

يقول صاحب المعجم : « كان الجاحظ من الذكاء وسرعة الخاطر والحفظ بحيث
شاع ذكره ، وعلا قدره ، واستغنى عن الوصف » . وقال غيره : إنه كان واسع العلم بفنون
الكلام ، كثير التبخر فيه ، شديد الضبط لحدوده ، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم
الدين والدنيا . ولا غرو فإن مؤلفاته العديدة تشهد بأنه كان واسع الاطلاع حقاً ، غزير
المادة ، خصّب ذهنه ، كثير المحصول العقلي ، وقد أكثر التصنيف في الأدب واللطائف
والفكاهات ، وأتيح له أن يكون من أئمة الدين وكبار السّما .

ويقول الفتح بن خاقان في كتاب له الى الجاحظ : « إن أمير المؤمنين يجلّد بك ، ويهشّ
عند ذكرك ، ولولا عظمته في نفسه ، لعلمك ومعرفتك ، لحال بينك وبين بعدك عن
مجلسه ، ولغصبك رأيك وتديرك فيما أنت مشغول به ومتوفّر عليه . ولقد كان ألقى الى
من هذا عنوانه ، فزدتك في نفسه زيادة كف بها عن تجشيمك ، فأعرف لي هذه الحال
واعتقد هذه المنّة على كتاب « الردّ على النصاري » وأفرغ منه وعجل به الى ، وكُنْ ممن
جدا به على نفسه ، وتنازل مشاهرتك . قد استطلقت له مضي ، واستسلمت لك لسنة
كاملة مستقبله ، وهذا مما لم تحتكم به نفسك . وقد قرأت رسالتك في « بصيرة غنام » ،
ولولا أني أزيد في خيالتك لعرفتُك ما يعتريني عند قراءتها ، والسلام » .

رسائله :

لجاحظ كثير من قصار الرسائل وطوالها ، منها : أنه كتب الى عبد الله بن خاقان في يوم
عيد : « أترتني العلة عن الوزير ، أعزّه الله ، فحضرت بالدعاء في كتابي لينوب عني ،

وَيَعْمُرُ مَا أَخْلَفْتَ الْعَوَائِقُ مِنِّي ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعِيدَ أَكْثَمَ الْأَعْيَادِ السَّالِفَةِ بَرَكََةً عَلَى الْوُزَيْرِ ، وَدُونَ الْأَعْيَادِ الْمُسْتَقْبَلَةِ فِيمَا يُحِبُّ وَيُحِبُّ لَهُ ، وَيَقْبَلُ مَا مَا نَتَوَسَّلُ بِهِ إِلَى مَرْضَاتِهِ ، وَيَضَاعِفُ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِ عَلَى الْإِحْسَانِ مِنْهُ ، وَيَمْتَنِعَهُ بِصَحَّةِ النِّعْمَةِ وَلِبَاسِ الْعَافِيَةِ ، وَلَا يُرِيهِ فِي مَسَرَّةِ نَقْصَا ، وَلَا يَقْطَعُ عَنْهُ مَزِيدًا ؛ وَيَجْعَلُنِي مِنْ كُلِّ سُوءٍ فِدَاءً ، فَيَصْرِفَ عَيْنَ الْغَيْرِ عَنْهُ وَعَنْ حَظِّي مِنْهُ .

وكتب إلى محمد بن عبد الملك الزيات يستعطفه : «أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجح في قلبك إيثار الأمانة ، فقد خفت ، أيدك الله ، أن أكون عندك من المنسويين إلى تزق السفهاء ، ومجانبة الحكماء . وبعد ، فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وإن أمراً أُمسى وأصبح سالماً * من الناس إلا ما جنى لسعيد

وقال الآخر :

ومن دعا الناس إلى ذمه * ذموه بالحق وبالباطل

فإن كنت اجتأرت عليك ، أصلحك الله ، فلم أجترئ إلا لأن دوام تغافلك عني شبيه بالإهمال الذي يورث الإغفال ، والعفو المتتابع يؤيس من المكافأة . ولذلك قال عيينة ابن حصن بن حذيفة لعمان رحمه الله : عمر كان خيراً لي منك ! أرهني فائقاتي ، وأعطاني فأغواني . فإن كنت لا تهب عقابي ، أيدك الله ، لخدمة سلفت لي عندك ، فهبه لأياديك عندي ؛ فإن النعمة تشفع في النقمة . وإلا تفعل ذلك لذلك ، فعُد إلى حسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحداث ، وإلا فأنت ما أنت أهلُه من العفودون ما أنا أهلُه من العقوبة . فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد ، وتنجأني عن عقاب المصّر ، حتى إذا صرت إلى من هفوته ذكرٌ ، وذنبه نسيان ومن لا يعرف الشكر إلا لك ، والانعام إلا منك ، هجمت عليه بالعقوبة . واعلم ، أيدك الله ، أن شين غضبك عليّ ، كرين صفحك عني ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سببي منك ، حياة ذكرى مع اتصال سببي بك . واعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم . والسلام .

وللحافظ رسائل في الاستعطاف وشكوى الزمان آية في البلاغة أثبتناها في المجلد الثالث من هذا الكتاب .

وقد قال فيه بديع الزمان الهمذاني في المقامة الجاحظية : «إن الجاحظ في أحد شقي البلاغة يَقِطِفُ ، والآخري يقف ، والبالغ من لم يُقَصِّرْ نظمُه عن نثره ، ولم يُزِرْ كلامُه بشعره ، فهل تَرَوْنَ للجاحظ شعراً رائئاً؟ قلنا : لا . قال : فَهَاتُمُوا الى كلامه ، فهو بعيدُ الاشارات ، قريبُ العبارات ، قليلُ الاستعارات ، منقادٌ لعُرْيَانِ الكلامِ يستعملُه ، نُفُورٌ من مُعْتَصَمِهِ يُهْمِلُه ، فهل سمعتم له لفظةً مصنوعة أو كلمةً غير مسموعة ؟ ” .

شعره :

قيل : إن للجاحظ شعراً ؛ ولكنا نظرنا فيما ينسب له يموت بن المَرْزُوع وأبو العيَّان وأبو الحسن البرمكي وغيرهم فوجدناه أقل طبقة من بلاغته . فما يُنسب اليه قوله :

يَطِيبُ العيش أن تَلْقَى حَكِيماً * غِذَاهُ العِلْمُ والفهمُ المصِيبُ
فِيكشِفُ عَنْكَ حَيْرَةَ كُلِّ جَهِلٍ * وَفَضْلُ العِلْمِ يَعْرِفُهُ اللَّيِّبُ
سَقَامُ الحِرْصِ ليس له شِفَاءٌ * وَدَاءُ الجَهْلِ ليس له طِيبُ

مصنفاته :

صنف الجاحظ أكثر من مائتي كتاب . قال المسعودي : وكتب الجاحظ مع انحرافه تجلو صداً الأذهان ، وتكشِفَ واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أحسن وأجزل لفظ . وكان اذا تخوَّفَ ملل القارئ وسامة السامع ، خرج من جدِّ الى هزل ، ومن كلمة بليغة الى نادرة طريفة . وله كتبٌ حسان : فمنها «البيان والتبيين» وهو أشرفها ، لأنه جمع فيه من المنشور والمنظوم ، وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار وبلغ الخطب ، ما لو اقتصر عليه مُقْتَصِرٌ لَأَكْتَفَى ؛ «وكتاب الحيوان» و«كتاب الطفيليين» و«كتاب البخلاء» . وسائر كتبه في نهاية الكمال ما لم يقصد منها الى تصعيب ولا الى دفع حق . ولا يُعَلِّمُ مَنْ سَلَفَ وخَلَفَ أَفْصَحُ منه .

وقال ابن العميد : كتب الجاحظ تعلِّمُ العقلَ أولاً والأدبَ ثانياً .

أخباره :

حدثنا أبو معاذ عبد الله الحولي المتطبيب قال : دخلنا يوما «بُسْرَمَنْ رَأَى» ، على عمرو بن بجر الجاحظ نعوذه وقد فُلِجَ ، فلما أخذنا مجالسنا ، أتى رسول المتوكل فيه ، فقال : وما يصنع أمير المؤمنين بشيئ مائل ، ولعاب سائل . ثم أقبل علينا فقال : ما تقولون في رجل له شقان ، أحدهما لو غُرِرَ بالمسأل ما أحس ، والشق الآخر يتر به الذباب فيُعَوِّث ، وأكثر ما أشكوه الثمانون . ثم أنشدنا أبياتا من قصيدة عوف بن محم الخزاعي . قال أبو معاذ : وكان سبب هذه القصيدة أن عوفا دخل على عبد الله بن طاهر ، فسلم عليه عبد الله فلم يسمع ، فأعلم بذلك ، فزعموا أنه ارتجل هذه القصيدة ارتجالا :

يابن الذي دَانَ له المشرقان * طُرّاً وقد دان له المغربان
لَبَّ الثمانينَ وبلغتها * قد أحوجت سمعي الى ترجمان
وبدلتنى بالشطاط انحنأ * وكنت كالصعدة تحت السنان
وبدلتنى من زماع الفتى * وهمتي همّ الجهبان الهدان
وقاربت متى خطا لم تكن * مقاربات وثنت من عنان
وأنشأت بيني وبين الورى * عناية من غير نسج العنان
ولم تدع في المستمتع * إلا لسانى ، وبحسبي لسان
أدعو به الله واثني به * على الأمير المصعبي الهجان
فقرّبانى ، بأبى أنتمنا ، * من وطنى قبل آصفرار البنان
وقبل منعاى الى نسوة * أوطانها حران والرقتان

والجاحظ ، أيدك الله ، قد جمع الى مواقفه الكبار فى الجدل والتناظر ، ومتانة الأسلوب وتدقيقه ، وسمو المنهج وبلاغته ، وقوة اللفظ ونظامته ، جنوحاً عظيماً الى الدعابة واللطائف والتندر والطرائف ، والملح والنخب ، والنكت مع الأدب ، مع خفة ظل ، وظرف روح حياء الى النفوس ، ومع نباعة وعبقرية جعلته فوق الهام والرؤوس ، وعذوبة عبارة ، ومائية أسلوب ، كأنهما الراح فى الكؤوس !

ومن جملة أخباره أنه قال : ذُكرت للتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رأى استبشع
منظرى ، فأمر لى بعشرة آلاف درهم وصرفنى ، فخرجت من عنده ، فلقيتُ محمد بن إبراهيم ،
وهو يريد الانصراف الى مدينة السلام ، فعرض على الخروج معه والانحدار فى حرّاقته ،
وكنا بسرّ من رأى ، فركبنا فى الحرّاقة ، فلما انتهينا الى فم نهر القاطول ، ضرب ستاراً وأمرنا
بالغناء ، فاندفعت عوادة فغنت :

كَلَّ يَوْمَ قَطِيعَةً وَعِتَابُ * يَنْقُضُ دَهْرُنَا وَنَحْنُ غَضَابُ
لَيْتَ شَعْرَى أَنَا خُصِمْتُ هَذَا * دُونَ ذَا الْخَلْقِ أَمْ كَذَا الْأَحْبَابُ
وسكتت ، فأمر الطنبورية فغنت :

وَأَرْحَمَتَا لِلْعَاشِقَيْنَا * مَا إِنْ أَرَى لَهُمْ مُعِينَا
كَمْ يَهْجَرُونَ وَيُصْرَمُونَ * نَوْيُقَطُّعُونَ فَيُصْبِرُونَا

قال : فقالت لها العوادة : فيصنعون ماذا؟ قالت : هكذا يصنعون ، وضربت بيدها
الى الستار فهتكته ، وبرزت كأنها فلقة قمر ، فألقت نفسها فى الماء ، وعلى رأس محمد
غلامٌ يضاهيها فى الجمال وبهده مدّبة ، فألقى الموضع ونظر اليها وهى بين الماء وأنشد :

أَنْتِ الَّتِى غَرَّقْتِنِى * بَعْدَ الْقَضَا لَوْ تَعْلَمِينَا

وألقى نفسه فى أثرها ، فأدار الملاح الحرّاقة ، فاذا بهما متعانقان ، ثم غاصا فلم يريا ،
فاستعظم محمد ذلك وهاله أمرهما ، ثم قال : يا عمرو لتحدثنى حديثاً يُسَلِّينِ عن فعل هذين
وإلا ألحقك بهما ؛ قال : فحضرنى حديثُ يزيد بن عبد الملك وقد قعد للظالم يوماً ، وعُرضت
عليه القصص ، فموت به قصةٌ فيها : « إن رأى أمير المؤمنين أن يُخرج إلى جاريته فلانة
حتى تغنّى ثلاثاً أصوات فعل » فاغتاظ يزيد من ذلك وأمر من يخرج اليه ويأتيه برأسه ،
ثم أتبع الرسول رسولاً آخر ، يأمره أن يدخل اليه الرجل فأدخله ، فلما وقف بين يديه قال له :
ما الذى حملك على ما صنعت ؟ قال : الثقة بحملك والاتكال على عفوكم ؛ فأمره بالجلوس

حتى لم يبق أحد من بني أمية إلا أخرج، ثم أمر فأخرجت الجارية ومعهما عودها، فقال لها
الفتى غنى :

أفأطعم مهلاً بعض هذا التدليل * وإن كنت قد أزمعت صرعى فأجمل
فغنته، فقال له يزيد : قل، فقال : غنى :

تألق البرق نجدياً فقلت له * يا أيها البرق إني عنك مشغول

فغنته، فقال له يزيد : قل، فقال : يا مولاي، تأمر لي برطل شراب ! فأمر له به،
فما استتم شربه حتى وثب وصعد على أعلى قبة يزيد فرمى نفسه على دماغه فمات، فقال
يزيد : (لانا لله وانا إليه راجعون) أترأه الأحق الجاهل ظن أني أخرج إليه جاريتي وأردها
إلى ملكي ! يا غلمان، خذوها بيدها وأحملوها إلى أهله إن كان له أهل وإلا فبيعوها
وتصدقوا بثمنها، فانطلقوا بها إلى أهله، فلما توسطت الدار نظرت إلى حفيرة في وسط دار
يزيد قد أعدت للطير، فخذبت نفسها من أيديهم وأنشدت :

من مات عشقاً فليمت هكذا * لا خير في عشق بلا موت

فألقت نفسها في الحفيرة على دماغها فماتت، فسرى عن محمد وأجزل صلاتي .

«وبعد» فان رسالتنا لاتسع التبسط في القول، ولا سيما شخصية بارزة كشخصية الجاحظ،
التي تطالب كما قلنا رسالة مُسمَّية، لمكانة الرجل، ففيما قدمناه لك عنه الغنية والكفاية. ونرى
واجبا علينا قبل أن نختم كلمتنا أن نحيلك هنا، على رسالة خطية منسوبة إليه عثرنا عليها
بدار الكتب المصرية، قيل إنه كتبها عن بني أمية : وسبق أن أشرنا إليها في كلمتنا عن
العصر الأموي . وهي وحدها تنطق بوجهة نظر الرجل ومذهبه في الاعتزال، وتشهد بطول
بأه في التبسط والإسهاب، مع نخامة اللفظ وحلاوته، وفراة الأسلوب وطلاوته، وسمو البيان
ومكانته . وقد أثبتناها لك في باب المنشور من الكتاب الثالث من المجلد الثالث، فراجعها ثمة .

(د) أبان بن عبد الحميد اللاحق :

هو أبان بن عبد الحميد بن لاحق بن عفر مولى بني رقاش . كان بالبصرة، ثم رحل
إلى البرامكة ببغداد، فاتصل بهم ومدحهم ونال جوائزهم، ثم قويت الصلة بينهم

وبينه حتى اتخذوه لهم معلماً ونصيحا، يستشيرونه في مهام أمورهم وتدير شؤونهم .
 وبلغ من حفاوتهم به وإكرامهم له ، أن جعلوا اليه امتحان الشعراء وتقدير ما يستحقون
 من الجوائز والصلوات لكن هذا المنصب . جعله غرضاً لهجو الشعراء وذمهم ، لأنه
 ليس في مقدوره أن يرضيهم جميعاً من جهة ، ولأنهم كانوا يرونه دون أن يكون لهم حكماً
 من جهة أخرى .

وكان أبو نواس من أشد هؤلاء الشعراء نقمةً على أبان ، فان أبا الفرج الأصبهاني
 يحدثنا أن أبا نواس لم يرض المرتبة التي جعله فيها أبان ، فقال يهجو هذه الأبيات :

جالستُ يوماً أبانا * لادّر دّر أبان
 ونحن حضر رواق الـ * أمير بالنهروان
 حتى اذا ما صلاة الـ * أولى دنت لأوان
 فقام مُنذر ربّي * بالسِرِّ والإحسان
 فكلما قال قلنا * الى آتقضاء الأذان
 فقال كيف شهدتم * هذا بغير عيان
 لا أشهد الدهر حتى * تُعاين العينان
 فقلت سبحان ربّي * فقال سبحان ماني^(١)

وبقية القصيدة في ديوان أبي نواس .

فقال أبان يجيبه : —

ان يكن هذا النوا * سيّ بلا ذنب هجاناً
 فلقد ... حيناً * وصَفَعناه زماناً
 هاني الجؤن أبوه * زاده الله هواناً
 سائل العباس وأسمع * فيه من أمك شاناً
 عجنوا من جُلنار * ليكيذك عجاناً

(١) اسم لصاحب طائفة من الملحدين .

وَجَلَّ نَارَ هَذِهِ هِيَ أُمُّ أَبِي نُؤَاسٍ ، كَانَ قَدْ تَزَوَّجَهَا الْعَبَّاسُ بَعْدَ أَبِيهِ . وَرَبَّمَا كَانَ لِبَاعِثِ هَذِهِ الْمُهَاتَرَةِ بَيْنَ أَبِي نُؤَاسٍ وَأَبَانَ أَثَرُ كِبَرٍ فِيمَا كَانَ بَيْنَ أَبِي نُؤَاسٍ وَالْبَرَامِكَةِ مِنْ كِرَاهِيَّةٍ وَبَغْضَاءٍ ، فَإِنَّ أَبَا نُؤَاسٍ كَانَ مَعْرُوفًا بِسَمَقِ الْمَكَانَةِ فِي الشَّعْرِ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ مِثْلَ أَبَانَ أَنْ يُنْزِلَهُ عَنْ مَنْزِلَتِهِ الَّتِي هُوَ جَدِيرُهَا ، إِلَّا إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ هَوًى لِلْبَرَامِكَةِ ، وَقَدْ يَكُونُ بَوَاحٍ مِنْهُمْ . لَكِنَّ أَبَا نُؤَاسٍ لَمْ يَجِدْ مَصْدَرًا لِلْحُكْمِ غَيْرَ أَبَانَ فَهَجَّاهُ ، وَلَمْ يَكُنْ هَجْوُهُ أَبَانَ لِيَشْفَى غَلِيلَهُ وَإِنَّمَا يَشْفَى غَلِيلَهُ لَوْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنَالَ بِالْهَجْوِ مَنْ يَرَاهُمْ خَلِيقِينَ بِهَجْوِهِ ، وَهُمْ الْبَرَامِكَةُ ! وَلَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنَالَهُم بِالْهَجْوِ ، وَهُمْ أَصْحَابُ الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ .

كَانَ أَبَانَ شَدِيدَ الْإِعْجَابِ بِنَفْسِهِ ، مُدَلًّا بِعِلْمِهِ وَأَدَبِهِ . وَالْقَصِيدَةُ الَّتِي قَدَّمَهَا لِلْبَرَامِكَةِ ، حِينَ حَاوَلَ أَنْ يَتَّصِلَ بِهِمْ ، عَلَى زَعْمٍ أَنْ يَكُونُ لَهُ شَفِيعٌ مِنْ تَرْغِيهِمْ فِيهِ ، تُعْطِينَا صُورَةً وَاضِحَةً عَنْهُ . وَهَذِهِ هِيَ الْقَصِيدَةُ : —

أَنَا مِنْ بَغِيَّةِ الْأَمِيرِ وَكَثُرَ * مِنْ كُنُوزِ الْأَمِيرِ ذَوَارِبُهَا
كَاتِبٌ حَاسِبٌ خَطِيبٌ أَدِيبٌ * نَاصِحٌ زَائِدٌ عَلَى النَّصَاحِ
شَاعِرٌ مُفْلِقٌ أَخْفَ مِنَ الرِّيشَةِ مِمَّا يَكُونُ تَحْتَ الْجَنَاحِ
لِي فِي النَّحْوِ فُطْنَةٌ وَاتِّقَادٌ * أَنَا فِيهِ قِلَادَةٌ بِوَشَاحِ
ثُمَّ أَرَوَى مِنْ ابْنِ سَيْرِينَ لِلْعِلْمِ * بِقَوِيٍّ مِنْوَرِ الْإِفْصَاحِ
ثُمَّ أَرَوَى مِنْ ابْنِ سَيْرِينَ لِلشَّعْرِ وَقَوْلِ النَّسِيبِ وَالْأَمْدَاحِ
وَنَظْرِيْفُ الْحَدِيثِ فِي كُلِّ فَنٍّ * وَبَصِيرٌ بِتُرَاهَاتِ الْمَلَاحِ
كَمْ وَكَمْ قَدْ خَبَّاتُ عِنْدِي حَدِيثًا * هُوَ عِنْدَ الْمُلُوكِ كَالْتَفَاحِ
فَبِمِثْلِي تَحَلُّوْا الْمُلُوكَ وَتَلْهُوْ * وَتَنَاجَى فِي الْمُسْكِ الْفَدَاحِ
أَيْمَرُنُ النَّاسَ طَائِرًا يَوْمَ صَيْدٍ * لِفِدْوٍ دُعِيْتُ أَوْ لِرَوَاحِ
أَبْصُرُ النَّاسَ بِالْجَوَاهِرِ وَالْخَيْلِ * وَبِالْحُرِّدِ الْحَسَانِ الصَّبَاحِ
كُلُّ ذَا قَدْ جَمَعْتُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى أَنْتَى ظَرِيفِ الْمَزَاحِ

لست بالناسك المشمر ثوبيه ولا الماجن الخليج الوقاح
لورى بن الأمير أصلحه الله رماحا تلئت حد الرماح
ما أنا واهب ولا مستكين * لسوى أمر سيدى ذى السباح
لست بالضخم يا أميرى ولا القز * م ولا بالمجذر الدخاح
حياة جعدة ووجه صبيح * واتقاد كسيلة المصباح
إن دعانى الأمير عاين متى * شمرياً كالبلبل الصياح

على أن أبان ، مع إعجابه بنفسه ، وإدلاله بعلمه وأدبه ، لم يكن فى مقدوره أن يساير
جكار معاصريه من الشعراء ، كأبى نؤاس وأضرابه ، فى قوة الشعر واختلاف فنونه ،
وحسن لفظه ، ورقة معانيه .

ولعل ذلك يرجع الى أنه كان ينقصه خصب النفس ، وقوة الحس ، والخيال
المبدع للصور الشعرية ، أى قوة الابتكار والاختراع ، فان هذه القوى جميعا لا بد منها
للشاعر ، لكي يحس وينتزع ويصور . وهذا يفضى بنا الى إحدى نتيجتين : إما أن نشك
فيما وصف به نفسه : من جمال الظرف ، وخفة الروح ، واتقاد الذهن ، نشك فى آتصافه
حقا بهذه الصفات ، التى تملأ النفس شعورا بما فى الحياة من صور للشعر ، وإما أنه
كان قصير الباع فى تصوير ما يحسه نفسه . وكلا الأمرين يبعد البون بينه وبين أبى نؤاس
وأضراب أبى نؤاس . ولئن نقصته القوى التى تمدّه بالصور الشعرية ، فقد وفق إلى
فن جديد نحسب أنه لم يسبق إليه ، وهذا الفن لا يضطره الى كد القريحة وإعمال الفكر
فى تصيّد المعانى الجميلة ، وإبرازها فى أثواب زاهية جذابة ، بل لا يحتاج معه الى أكثر من
أن تكون لديه ملكة النظم ووزن الكلام ، اذ المعانى بين يديه ، لا يتكلف فى سبيلها
سعيًا ، أو كد قريحة . وهذا الفن الجديد هو النظم التعليمي ، وهو أن يعتمد الشاعر
الى كتاب معروف منشور فينظمه ، أو الى قواعد عامة فى الشريعة أو فى اللغة أو فى فرع
من فروعها ، فينظمها أيضا ، ليسهل حفظها ويقرب تناولها . وهذا ما فعله أبان ،

وما جعلنا نُؤثِّره بالكلام؛ فإن هذا النوع من النِّظم، يُمثِّل ناحية طَرِيفَةً من نَوَاحِي الأدب الجديدة في عصرنا المأمونيّ. فقد نكونُ مُقَصِّرِينَ كُلَّ التَّقْصِيرِ، إذا أغفلنا ذكر مُبْدِعه ومُبْتَكِرِهِ. نقول « وهذا ما فعله أَبَان » فإن الصُّوليَّ وأبا الفرج الأصفهانيَّ يحدِّثاننا بأنَّ أَبَانًا نَظَّمَ للبرامكة كِتَابَ كَلِيلَةٍ وِدْمَنَةٍ، لِيُسْمَلَ عليهم حفظه، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار، وأعطاه الفضل بن يحيى خمسة آلاف دينار، ولم يعطه جعفر شيئا، وقال له: يكفيك أن أحفظه فأكونَ رَاوِيَتَكَ. وقد نقل الأصفهانيُّ من هذا الكتاب بيتين هما:

هذا كتاب أدبٍ ومَحْنَةٍ * وهو الذي يُدْعَى كَلِيلَهُ دِمْنَةٍ
فيه أَحْتِيَالَاتٌ وفيه رُشْدٌ * وهو كتاب وضعته الهِنْدُ

وقد أبادت الأيام هذا الكتاب، كما أبادت كثيرا غيره من الكتب العربية القيِّمة، حتى يَلْسَ الأُدباء والمؤرِّخون في العصر الحديث، من العثور على شيء منه. وقد يكون من حسن الحظ أن نعلن سرورنا بأننا قد وُفِّقْنَا إلى جزء كبير من هذا الكتاب، في جزء أو أوراق من جزء من كتاب الأوراق المنسوب للصُّولي، إذ عثرنا عليه بدار الكتب المصرية منذ أمد طويل حينما كنا نبحث فيها عما وضعه العرب من الموسوعات والمعالمات. وسندكر في المجلد الثاني ما وجدناه فيه.

ويحدِّثنا أبو الفرج بأنه عمل أيضا القصيدة التي ذكر فيها مبدأ الخلق وأمر الدنيا ونشئها من المنطق، وسمَّاها ذات الحُلُل، ومن الناس من يَنسُبُها إلى أبي العتاهية، والصحيح أنها لأَبَان. وسياق أبي الفرج هذا، لا يدع سبيلا إلى الشك في وجود هذه القصيدة، ومع الأسف لم ينقل إلينا منها شيئا.

ويحدِّثنا الصُّولي بسنده أنَّ أَبَانًا، لما عَمِلَ كتابَ كَلِيلَةٍ وِدْمَنَةٍ شعرا، في قصيدته المزدوجة أعطاه البرامكة على ذلك مالا عظيما، فقيـل له بعد ذلك: ألا تعمل شعرا في الزهد؟ فعَمِلَ قصيدةً مزدوجةً في الصيام والزكاة، وقد وجدت هذه القصيدة،

وترجمتها « قصيدة الصيام والزكاة نقل أبان من فم الرواة » ثم ذكر القصيدة . وقد نشرنا ذلك كله في موضعه من المجلد الثاني .



(ه) أحمد بن يوسف الكاتب :

هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن القاسم بن صُبَيْح الكاتب من أهل الكوفة ومن موالى بني عَجَل . كان مذهبه الرسائل والإنشاء ، وزّره المأمون بعد أحمد بن أبي خالد ، فقد كان يتولى ديوان الرسائل له ، وكان معروفاً بين أهل عصره بسموّ المكانة في العلم والأدب ، والكتابة والشعر . حكى عن المأمون ، وعبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وحكى عنه ابنه محمد بن أحمد بن يوسف ، وعلى بن سليمان الأخفش ، وغيرهما .

كتابه :

أما مكانته في الكتابة فرسائله وتوقيعاته التي تحلت بها صدور الأدب ، وتريّنت بها كتب التاريخ ، تجعله في مقدمة الكتاب ومن أتمتهم ، وهي بما فيها من جودة وإحكام ، وتخيراً للآفاظ ، وسلاسة في المعاني ، تدل على أنه كان خصيب النفس ، سريع الخاطر ، وعلى أنه مالك أعنة المعاني ونواصي الكلام . ولقد شهد له بالسبق في الكتابة والرسائل بكار رجال عصره ومن جاء بعده .

قال الصولي : لما مات أحمد بن أبي خالد الأحول ، شاور المأمون الحسن بن سهل فيمن يكتب له ويقوم مقامه ، فأشار عليه بأحمد بن يوسف ، وبأبي عباد ثابت بن يحيى الرازي ، وقال : هما أعلم الناس بأخلاق أمير المؤمنين ، وخدمته ، وما يرضيه ، فقال له : اختر لي أحدهما ، فقال الحسن : إن صبر أحمد على الخدمة ، وجفا لذته قليلاً ، فهو أحبهما إليّ ، لأنه أعرف في الكتابة وأحسنهما بلاغة ، وأكثر علماً ! فاستكتبه المأمون .

وروى الصولي بسنده : أن الكتاب اجتمعوا عند أحمد بن إسرائيل ، فذكروا الماضين من الكتاب ، فأجمعوا أن يكتب من كان في دولة بني العباس : أحمد بن يوسف ،

وابراهيم بن العباس ؛ وأن أشعر كتاب دولتهم : ابراهيم بن العباس ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ؛ فابراهيم أجودهما شعرا ، ومحمد أكثرهما شعرا ، ثم الحسن بن وهب ، وأحمد ابن يوسف .

فأنت ترى — أعزك الله — أن هؤلاء الكتاب لم يقدموا أحدا من كتاب دولة بني العباس على أحمد بن يوسف في الكتابة ، وإن قدموا عليه في الشعر . والحق أن نبوغه في الكتابة هو الذي كان سببا الى ظهوره ورفعته ؛ فقد روى العلماء أنه لما قُتل الأمين ، أمر طاهر بن الحسين الكتاب أن يكتبوا الى المأمون فأطالوا ، فقال طاهر : أريد أقصر من هذا ! فوصف له أحمد بن يوسف فأحضره لذلك ، فكتب :

« أما بعد ، فإن المخلوع ، وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النسب والجمعة ، فقد فرق حكم الكتاب بينه وبينه في الولاية والحُرمة ، لمفارقته عصمة الدين ، وخروجه عن إجماع المسلمين ؛ قال الله عز وجل لنوح عليه السلام في آنبه : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ ولا صلة لأحد في معصية الله ، ولا قطيعة ما كانت في ذات الله ؛ وكتبت الى أمير المؤمنين ، وقد قتل الله المخلوع وأحصد لأمر المؤمنين أمره ، وأنجز له وعده ، فالأرض بأخافها أوطأ مهاد لطاعته ، وأتبع شيء لمشيتته ؛ وقد وجهت الى أمير المؤمنين بالدنيا وهو رأس المخلوع ، وبالأخرة وهي البردة والقضيب ؛ والحمد لله الآخذ لأمر المؤمنين بحقه ، والكائد له من خان عهده ونكث عقده ، حتى رد الألفة ، وأقام به الشريعة . والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .

قيل : فرضى طاهر ذلك وأنفذه ، ووصل أحمد بن يوسف وقدمه .

وقيل : إن المأمون لما حُمل رأس المخلوع اليه ، وهو بمرو ، أمر بإنشاء كتاب عن طاهر ابن الحسين ، ليقرأ على الناس فكتبت عدة كتب لم يرضاها المأمون ولا الفضل بن سهل ، فكتب أحمد بن يوسف هذا الكتاب ، فلما عرضت النسخة على ذى الراسيتين ، رجع نظره فيها ، ثم قال لأحمد بن يوسف : ما أنصفناك ، ودعا بقهرمانه ، وأخذ القلم والقرطاس ،

وأقبل يكتب بما يُفرِّغ له من المنازل ، ويعتد له فيها من القُرُش ، والآلات ، والكسوة ،
والكرَاع ، وغير ذلك ؛ ثم طرح الرقعة الى أحمد بن يوسف وقال له : اذا كان في غد ، فاقعد
في الدبوان ، وليقعد جميع الكتّاب بين يديك ، واكتب الى الآفاق .

قيل : وما كتبه للمأمون حين كثر الطلاب للصلوات ببابه : «داعى نذاك يا أمير المؤمنين ،
ومنادى جدّوك ، جمعا الوفود ببابك يرجون نائلك المعهود ، فمنهم من يمتّ بحُرمة ، ومنهم
من يُبدّل بخدمة ، وقد أبحف بهم المقام ، وطالت عليهم الأيام ؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن
يُنعمهم بسببه ، ويحقق حُسن ظنهم بطوّله ، فعل إن شاء الله تعالى » . فوقع المأمون : « الخير
مُتبع ، وأبواب الملوك مغانٍ لطالبي الحاجات ، ومواطن لهم ؛ ولذلك قال الشاعر :

يَسْقُطُ الطَيْرُ حَيْثُ يَلْتَقِطُ الْحَبَّ وَتُغْشَى مَنَازِلُ الْكِرْمَاءِ

فاكتب أسماء من ببابنا منهم ، وأحك مراتبهم ، ليصل الى كل رجل قَدْرُ استحقاقه ،
ولا تكدر معروفنا عندهم بطول الحجاب ، وتأخير الثواب ؛ فقد قال الشاعر :

فإنك لن ترى طردًا حُرَّ * كالصاق به طَرَفَ الهوان »

وقال ابراهيم بن العباس : سمعت أحمد بن يوسف يقول : أمرني المأمون ، أن أكتب
الى السواحى فى الاستكثار من القناديل فى المساجد ، فبت لا أدرى كيف أفتتح الكلام ،
ولا كيف أخذ به ، فأتى آت فى منامى ، فقال : قل : فإنّ فى ذلك أنسا للسابلة ، وإضاءة
للمهجدة ، ونفيا لمكامن الرّيب ، وتزيتها لبيوت الله عن وحشة الظلم ، فانتبهت وقد أنفتح لى
ما أريد ، فابتدأت بهذا وأتممت عليه .

ومن رسائله أيضا : "لقد أحلك الله فى الشرف أعلى ذروته ، وبلغك من الفضل أبعد
غايتة ؛ فالآمال اليك مصروفة ، والأعناق اليك معطوفة ؛ عندك تنتهى الهجم السامية ،
وعليك تقف الظنون الحسنة ، وبك تُتلى الخناصر ، وتُسْتَفْتَح أغلاق المطالب ؛ ولا يُستَترِث
التُّجّح من رجالك ، ولا تعروه النوائب فى دارك " وإنا نحملك على ما شبتناه لك فى المجلد
الثالث من آثاره الممتعة .

شعره :

كان أحمد بن يوسف شاعرا مُعرقاً في الشعر كما كان مُعرقاً في الكتابة، إلا أن حظّه من الشعر كان دون حظّه من الكتابة، فإن نُقاد عصره لم يقدّموا عليه أحداً في الكتابة من كتّاب بني العباس ووزرائهم، وقد قدّموا عليه كثيراً في الشعر. وقد ذكرنا فيما سبق من ترجمته إجماع فريق من الكتّاب على سبقه في الكتابة دون الشعر. وقد روى الصولي بسنده أن قَعْنَب بن مُحَرَّر الباهليّ قال: كنا نقول لم يل الوزارة أشعر من أحمد بن يوسف، حتى وليّ محمد بن عبد الملك، فكان أشعر منه!

ولم يكن المدح كثيراً في شعر أحمد بن يوسف، فإنه كان بحكم مركزه كوزير للأُمون ورئيس ديوان رسائله، غير محتاج إلى أن يتكسّب بشعره، أو يمدح الناس، ولذلك لا نرى في شعره مدحا لغير المأمون وليّه وربّ نعمته. وكذلك كان هجاؤه قليلا، فإن مروءته، وأدبه، ومركزه، واعتداده بنفسه، كل ذلك كان يرفعه عن أن يكون هجاء مُقذفا، وإنما كان يُضطر أحيانا إلى ذم أعدائه ومنافسيه، في غير إقذاع ولا فحش. فمن ذلك قوله في سعيد بن سالم الباهلي وولده — وقد كانت بينهم وبينه عداوة — فذكرهم يوما فقال: "لولا أن الله عز وجل ختم رسالته بمحمد صلى الله عليه وسلم، وكُتِبَ بالقرآن، لبعث فيكم نبيّ نَقْمَة، وأنزل عليكم قرآن خُدر، وما عَسَيْتُ أن أقول في قوم، محاسنهم مساوئ السّفَل، ومساوئهم فضائح الأُمم". وقال يهجوهم:

أَبْنَى سَعِيدٍ لَكُمْ مِنْ مَعْشَرٍ * لَا تُحْسِنُونَ كَرَامَةَ الْأَضْيَافِ
قَوْمٌ لِبَاهِلَةٍ بَنَ أَعْصَرَ إِنْ هُمُوهُ * نَخَرُوا حُسْبِيَتَهُمْ وَلَعَبَدَ مَنَافِ
مَطَلُّوا الْغَدَاءَ إِلَى الْعِشَاءِ وَقَتَرُوا * زَادَا لَعَمْرُؤُا أَيْبَكَ لَيْسَ بِكَافِ
بَيْنَا أَتَاكَ أَتَاهُهُمْ كِبَرَاؤُهُمْ * يَلْحَوْنَ فِي التَّبْذِيرِ وَالْإِسْرَافِ
وَكَا نَنِي لَمَّا حَطَطْتُ إِلَيْهِمْ * رَخَلِي حَطَطْتُ بِأَبْرِقِ الْعِزَافِ

اخلاقه وسيرته :

كان أحمد بن يوسف فطنا ، بصيرا بأدوات الملك وآداب السلاطين ، ذكيا سريعا الخاطر ذا مروءة وكرم ، وكان مع ذلك يضرب في المحجون واللهو بسهم . ومما يدل على عظيم مروءته ما قاله عبد الله بن طاهر حين خرج من بغداد الى خراسان لابنه محمد ، وما وقع بين محمد وهذا وبينه بعد ذلك . قال عبد الله لابنه : إن عاشرت أحدا بمدينة السلام فعليك بأحمد بن يوسف الكاتب فإن له مروءة . فلما عرج محمد حين أنصرف من توديع أبيه على شيء حتى هم على أحمد بن يوسف في داره ، فأطال عنده ، ففطن له أحمد فقال : يا جارية غدينا ، فأحضرت طبقا وأرغفة نقيّة وقدمت ألوانا يسيرة وحلاوة وأعقب ذلك بأنواع من الأشربة في زجاج فاحروآنية حسنة وقال : يتناول الأمير من أيها شاء . ثم قال : إن رأى الأمير أن يشرف عبده ويحييه في غد فأنعم بذلك . فنهض وهو متعجب من وصف أبيه له ، وأراد فضيخته ، فلم يترك قائدا جليلا ولا رجلا مذكورا من أصحابه إلا عرفهم أنه في دعوة أحمد بن يوسف وأمرهم بالغدومعه ، فلما أصبحوا قصدوا دار أحمد بن يوسف وقد أخذ أهبطه وأظهر مروءته ، فرأى محمد من النضائد والفُرُش والستور والغلمان والوصائف ما أدهشه ، ونصب ثلثائة مائدة وقد حُفّت بثلاثائة وصيفة ، ونقل الى كل مائدة ثلثائة لون في صحاف الذهب والفضة ومثارد الصين ، فلما رفعت الموائد قال ابن طاهر : هل أكل من الباب؟ فنظروا ، فاذا جميع من الباب قد نُصبت لهم الموائد فأكلوا ، فقال : شتان بين يوميك يا أبا الحسن ! (كذا في هذه الرواية كناه بأبي الحسن) فقال : أيها الأمير ، ذاك قوتي وهذه مروءتي .

أما اللهو والمجون فقد كان حظّه منهما غير قليل . وحسبنا أن نذكر ما قاله الحسن ابن سهل ، حين شاوره المأمون فيمن يختاره ، بعد أحمد بن أبي خالد ، فأشار عليه بأحمد بن يوسف وبأبي عباد ثابت بن يحيى الرازي ، فقال له : اختر لي أحدهما ، فقال الحسن : إن صبر أحمد وجفا لذته قليلا فهو أحبهما اليّ .

ولقد كان به ما كان ببعض معاصريه ، من الكتاب والشعراء والادباء ، من ميل الى الغلمان ... ! لذلك لم يكن غزله بريئا ، ولم يعالجه على أنه فن من فنون الشعر ، وإنما كان غزله يترجم ترجمة صادقة عن شعوره ونوازع نفسه ، فإنك لا تستطيع أن تسمع ما كان بينه وبين موسى بن عبد الملك ثم تحكم له بأنه اصطنع الغزل فنا من فنون الشعر ، فقد كان موسى هذا في ناحيته ، وهو الذي قدمه وخرجه ، وكان يرى بما كان يرى به مما نمسك عن ذكره .

حدث موسى نفسه ، فقال : وهب لي أحمد بن يوسف ألف ألف درهم في مرات .

وقد لامة محمد بن الجهم على تقديمه موسى بن عبد الملك على صباه ، فكتب اليه أحمد ابن يوسف شعرا يلتمس اليه فيه أن يكف عن عدله . وقد أمسكا عن ذكره أيضا لما فيه من مجون .

ومن غزله ما قاله في محمد بن سعيد بن حماد الكاتب ، وكان يميل اليه ، وقيل عنه .

إنه كان صبيا مليحا :

صَدَّ عَنِّي مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ * أَحْسَنُ الْعَالَمِينَ ثَانِي جِدٍ

صَدَّ عَنِّي لَغَيْرِ جُرْمٍ إِلَيْهِ * لَيْسَ إِلَّا حُسْنُهُ فِي الصَّدُودِ

وكان محمد بن سعيد يكتب بين يديه ، فنظر الى عارضه قد آخطت في خده ، فأخذ رقعة وكتب فيها :

لَحَاكَ اللَّهُ مِنْ شَعْرٍ وَزَادَا * كَمَا أَلْبَسَتْ عَارِضَهُ الْحَدَادَا

أَغْرَتْ عَلَى تَوَرَّدِ وَجْنَتَيْهِ * فَصَيَّرَتْ أَحْمَارَهُمَا سَوَادَا

ورمى بها الى محمد بن سعيد ، فكتب مجيبا : عَظَّمَ اللَّهُ أَجْرَكَ فِي يَاسِيدِي وَأَحْسَنَ لَكَ الْعَوْضُ مِنِّي !!

وكان لظرفه وفطنته وبصره بالأمور موضعا لرضا المأمون وعطفه عليه ، ويظهر أن علاقته بالمأمون وثقته به وملء يديه منه جعلته لا يتحزّز في كلامه كثيرا ، فكان يسقط السقطة بعد السقطة حتى أ تلف نفسه في بعض سقطاته ، فقد حكى : أن المأمون كان اذا تجرّ

طُرح له العود والعنبر، فاذا تَجَرَّأَ أمر بإخراجِ الحِجْمَرَةِ ووَضَعَهَا تحت الرجل من جلسائه إكراما . له . وحضر أحمد بن يوسف وتَجَرَّأَ المأمون على عادته ، ثم أمر بوضع الحِجْمَرَةِ تحت أحمد بن يوسف ؛ فقال : هانوا ذا المروءة ! فقال المأمون : ألنا يقال هذا ؟ ونحن نَصِلُ رجلا واحدا من خدمنا بستة آلاف دينار ! إنما قصدنا إكرامك ، وأن أكون أنا وأنت قد اقتسمنا بخورا واحدا ؛ يُحْضَرُ عَنْبر! فأحضر منه شيء في الغاية من الجودة ، في كل قطعة ثلاثة مثاقيل ، وأمر أن تُطرح القطعة في الحِجْمَرَةِ يتَجَرَّأَ بها أحمد بن يوسف ، ويدخل رأسه في زِيَقِهِ حتى يَتَفَدَّ بخورها ، ويُعْمَلُ به ذلك بقطعة ثانية وثالثة ، وهو يستغيث ويصيح ، وانصرف الى منزله وقد أحترق دماغه ، وأعتل ومات سنة ٢١٣ و قيل سنة ٢١٤ هـ .

وكانت له جارية يقال لها نَسِيمٌ ، لها من قلبه مكان خطير، فقالت ترثيه :
ولو أن مَيِّتًا هَابَهُ الموتُ قبلَه * لما جاءه المِقْدَارُ وهو هَيُّوبُ
ولو أن حَيًّا قبله هَابَهُ الرَدَى * إذًا لم يكن للارض فيه نصيبُ
وقالت أيضا ترثيه :

نَفْسِي فِدَاؤُكَ لَوْ بِالنَّاسِ كُلِّهِمْ * ما بي عليك تَمَنَّوْا أنهم ماتوا
وَلِلْوَرَى مَوْتُهُ فِي الدَّهْرِ وَاحِدَةٌ * وَلِي مِنَ الهمِّ وَالْأَحْزَانِ مَوَاتُ

(و) يحيى بن أكرم القاضي :

هو أبو محمد يحيى بن أكرم بن محمد بن قَطَنٍ ينتهي نسبه الى أكرم بن صَيْفِي التميمي
حكيم العرب المعروف .

عرف التاريخ يحيى بن أكرم حَدَّثَنَا في مجلس سَفِيَّانَ بن عُيَيْنَةَ ، المعروف بعلمه
وَوَرَعِهِ ونفوذه ؛ اذ يقول ابن خَلِّكَانَ في كتابه ”وفيات الأعيان“ : ورأيت في بعض
المجاميع أن سفيان خرج يوما الى من جاءه يسمع منه وهو حَجَّيرٌ ، فقال : أليس من الشقاء
أن أكون جالستُ صَخْرَةً بن سعيد وجالس هو أبا سَعِيدٍ الخدرى ، وجالست عمرو
ابن دينار ، وجالس هو عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، وجالست الزُّهْرِيَّ وجالس

هو أنس بن مالك ، حتى عد جماعة ، ثم أنا أجالسكم ! فقال له حدث في المجلس : انتصف
يا أبا محمد ، قال : إن شاء الله تعالى ؛ فقال : والله أشقاء أصحاب رسول الله بك
أشد من شقائك بنا ! فاطرق سفيان وأنشد قول أبي نؤاس :

خَلَّ جَنَيْبِكَ لِرَامٍ * وَأَمِضْ عَنْهُ بِسَلَامٍ
مُتَّ بَدَاءَ الصَّمْتِ خَيْرٌ * لَكَ مِنْ دَاءِ الْكَلَامِ
إِنَّمَا السَّالِمُ مِنَ الْكَلَامِ فَاهُ بِلْجَامٍ

فتمترق الناس وهم يتحدثون برجاجة الحديث ، وكان ذلك الحدث يحيى بن أكرم القيمي ،
فقال سفيان : هذا الغلام يصلح لصحبة هؤلاء ، يعنى السلاطين . اهـ

هذا كل ما نعلمه عن حادثة يحيى بن أكرم . وهى حادثة تبشر بما سيكون لهذا
الناشئ من مكانة ونفوذ جديرين بما وهبه الله من ذكاء وسرعة خاطر ، وقوة قلب وسلاطة
لسان . تلك المخايل كانت واضحة فيه ، وقد جعلته حديث حاضرى مجلس سفيان ، وحملت
سفيان على أن يقول عنه : هذا الغلام يصلح لصحبة هؤلاء (مشيرا الى ولاية الأحكام) !
لقد صدقت الأيام حدس سفيان فيه ، فقد انحدر يحيى فى سلك القضاة صغيرا
لنجايته ، ثم درج فى مناصب القضاء حتى تبوأ أسمى مناصب الدولة ؛ تبوأ منصب قاضى
القضاة ، ومنصب الوزارة للأُمون ، منظورا اليه فى كل ما تولاه من المناصب بالتجلة
والإكبار من الخاصة والعامة .

ونحن ذاكرون لك حياته وما تولاه من مناصب ، ومكانته العلمية والأدبية ، وما كان
متصفا به من الحزم وحسن السياسة ، وأقوال الناس فيه وفى أخلاقه ، ووجهة نظر كل
فريق من الناس فيه ، معتمدين فى ذلك على ما بين أيدينا من مصادر تاريخية وأدبية ،
منبهين على ما يمكن أن يقع بينها من خلاف كثير أو قليل .

أول عمل تولاه :

أما أول عمل تولاه فيحدثنا عنه ابن طيفور بقوله : « قال حدثني أحمد بن صالح الأضخيم ،
قال : هل تدري ما كان سبب يحيى بن أكرم ؟ قلت : لا وإنى أحب أن أعرفه .

قال : يحيى بن خاقان هو وَصَّله بالحسن بن سهل وقربه من قلبه وكثره في صدره ، حتى ولّاه قضاء البصرة ثم استوزره المأمون فغلب عليه . وحديثي عبس الله بن أبي مروان الفارسي ، قال : كان ثَمَامَة سبب يحيى بن أكرم في قضاء البصرة مرتين وسبب تخليصه من الخادم الذي أمر بتكشيفه بالبصرة ، ويقال : إنه قطع خُصِيَّته في تعذيبه بالقصب اه .

ويقول ابن خلكان في سبب اتصاله بالقضاء : أراد المأمون أن يُولّي رجلا القضاء ، فوصّف له يحيى بن أكرم فاستحضره ، فلما حضر دخل عليه ، وكان دَمِيم الخلق فاستحقّره المأمون لذلك ، فعلم ذلك يحيى فقال : يا أمير المؤمنين سلّني إن كان القصد علمي لا خَلْقِي ، فسأله المأمون المسألة المعروفة في الميراث بالمسئلة المأمونية ، وهي أبوان وبنتان لم تُقسَم التركة حتى ماتت إحدى البنّتين وخَلَقَت من في المسألة ، فقال يحيى : يا أمير المؤمنين ، الميت الأول رجل أم امرأة ؟ فعرف المأمون أنه قد عرف المسألة فقلّده القضاء .

ثم يذكر لنا ابن خلكان بعد ذلك نقلا عن تاريخ بغداد للخطيب : أن يحيى بن أكرم ولى قضاء البصرة وسننه عشرون سنة أو نحوها ، فاستصغره أهل البصرة فقالوا : كم سنّ القاضي ، فعلم أنه قد استصغر فقال : أنا أكبر من عتّاب بن أُسيد الذي وجّه به النبيّ صلى الله عليه وسلم قاضيا على مكة يوم الفتح ، وأنا أكبر من معاذ بن جبّل الذي وجّه به النبيّ صلى الله عليه وسلم قاضيا على اليمن ، وأنا أكبر من كعب بن سور الذي وجّه به عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قاضيا على أهل البصرة ، بفعل جوابه احتجاجا .

قد عرّفت مما ذكرناه عن ابن طيفور المعاصر ليحيى وعن ابن خلكان أن بين روايتي المؤرخين في سبب اتصال يحيى بالقضاء خلافا ، فابن طيفور يروى لنا أنه اتصل أولا بالحسن بن سهل نائب الخليفة المأمون في بغداد ثم ولّاه قضاء البصرة . وابن خلكان يروى لنا أنه اتصل بالمأمون وبعد أن امتحنه وعرف فضله ولّاه القضاء . فهل يمكن التوفيق بين روايتيهما .

يُخَيَّلَ إلينا أنَّ كلَّتا الروايتين صحيحة، خصوصًا إذا ذكرنا مارواه ابن طيفور من أن ثَمَامَةَ كان سبب يحيى بن أكرم في قضاء البصرة مرتين، إذ يمكن أن تكون توليته قضاء البصرة في المرة الأولى كانت عن طريق اتصاله بالحسن بن سهل، وأن توليته في المرة الثانية كانت عن طريق اتصاله بالخليفة المأمون، وأن ما ذكره ابن خلكان في تاريخه من استصغار أهل البصرة له ثم احتجاجه عليهم بما فعله النبي صلى الله عليه وسلم وبما فعله عمر رضى الله عنه كان في المرة الأولى .

وبهذا التحليل نستطيع أن نفهم ما يذكره المؤرخون من أنه عُزل من قضاء البصرة لأمره بتعذيب خادم بالقصب بعد تكشيفه حتى قطعت خصيته، ثم ما يذكرونه من أنه عُزل لقوله أبياتا من الشعر تغزلا في ابني مسعدة، وكانا على نهاية الجمال .

ومهما يكن من شيء، فنحن نرجح أنه تولى قضاء البصرة مرتين : الأولى عن طريق الحسن بن سهل ثم عزل لأحد السببين المذكورين أو غيرهما مما لا تقطع به، والثانية عن طريق المأمون .

بقى شيء آخر فيما يرويه ابن خلكان نريد أن نلفت النظر إليه، فقد يكون فيه شيء من التناقض أو السهو . ذلك بأنه يروى لنا أن يحيى حين وُلِّيَ قضاء البصرة كانت سنه نحو عشرين سنة وأن أهل البصرة استصغروه فاحتج عليهم بما فعله النبي وعمر . وسواء أكانت توليته عن طريق الحسن بن سهل أم عن طريق المأمون فهي لا بعدو أوائل القرن الثالث الهجرى، ثم يذكر بعد ذلك أنه توفى بالربذة سنة اثنتين وأربعين ومائتين وقبل غرة ثلاث وأربعين وعمره ثلاث وثمانون سنة، إذ مهما بالغنا في سنه متمشين مع رواية ابن خلكان نقلا عن تاريخ بغداد من أنه تولى قضاء البصرة وسنه نحو العشرين فلن نعدو به الستين إلا قليلا، فكيف يمكن التوفيق بين هذا وبين ما يقوله ابن خلكان من أنه توفى وعمره ثلاث وثمانون سنة! ولو فرضنا صحة ما يقوله ابن خلكان في عمره حين الوفاة، وفرضنا أيضا صحة ما نقله عن تاريخ بغداد من أنه تولى قضاء البصرة وسنه نحو

العشرين لكانت توليته قضاء البصرة في النصف الأول من عهد الرشيد لا في عهد المأمون ، وهو خلاف المجمع عليه وخلاف ما ينقله هو أيضا من أن توليته البصرة كانت سنة اثنتين ومائتين .

ثم نرى يحيى بعد أن عُزل من قضاء البصرة في بغداد ثاويا في دار شادها له صديقه الحميم ثمامة بن أشرس بحضرته ، وكان ثمامة بن أشرس هذا عالما متكلمًا سليط اللسان قوى الحجّة ذا آراء في الاعتزال واليه تنسب الطائفة الثمامية من المعتزلة ، وكان متصلا بالمأمون ، محببا اليه ، موثوقا به منه ، فكان خير وسيلة لاتصال صديقه يحيى بالخليفة المأمون ، ثم عرف المأمون ما في يحيى من علم وذكاء وحزم فأدناه اليه وقربه منه وخصّه برعايته وعطفه حتى غلب عليه دون الناس جميعا .

ويحدثنا ابن طيفور أن يحيى بن أكرم قال للمأمون : أظهر لكل قاضٍ ما تريد أن توليه إياه وأمره بكتمانه ، ثم أنظر أيفعل أم لا ، وضمّ عليهم أصحاب أخباره فقال له المأمون : أولئك قضاء القضاة ، وقال لغيره ما يريد أن يوليه ، فشاع ذلك كله إلا خبر يحيى فإنه أتاه أن الناس ذكروا أنه يريد الخروج الى البصرة على قضائهما ، فذمهم وقال له : كيف شاع هذا وأمرت باكتراء السفن الى البصرة ؟ قال يحيى : يا أمير المؤمنين ، ليس يستقيم كتمان شيء إلا بإذاعة غيره وإلا وقع الناس عليه ، قال : صدقت وحمده .

من المجمع عليه أن يحيى بن أكرم كان قاضى القضاة للخليفة المأمون ، ولكن هل تَوَزَّر له ؟ لم يذكره الفخرى في وزراء المأمون ، لكن ابن طيفور ذكر فيما نقلناه عنه أن المأمون استوزره . فهل يمكن أن يكون المراد من استينار المأمون له ما ذكره طلحة بن محمد بن جعفر إذ يقول في آخر وصفه لفضل يحيى بن أكرم وعلمه وأخلاقه : وكان المأمون ممن برع في العلوم فعرف من حال ابن أكرم وما هو عليه من العلم والعقل ما أخذ يجامع قلبه حتى قلّده قضاء القضاة وتدير أهل مملكته ، فكانت الوزراء لا تعمل في تدبير الملك شيئا إلا بعد

مطالعة يحيى بن أكرم . ليس يبعد أن يكون هذا هو المراد . على أن قد عددناه من وزراء المأمون في كلمتنا المجملية عن وزرائه .

ومهما يكن من شيء ، فقد كان يحيى بن أكرم قاضي القضاة وصاحب الكلمة العليا والأمر النافذ في الدولة ، وكانت مكانته من المأمون لا تدنو منها مكانة . ولكي تقدّر حظوته لدى المأمون وأدب المأمون معه نورد لك ما يروى عن يحيى بن أكرم نفسه . قال :

«بِت ليلة عند المأمون فانتبه في بعض الليل فظنّ أني نائم ، فعمّش ولم يدع الغلام لئلا أنتبه ، وقام متسللاً خائفاً هادئاً في خطاه حتى أتى البرادة ، فشرّب ثم رجع وهو يخفى صوته كأنه لصّ حتى اضطجع ؛ وأخذهُ سُعال فرأيتُه يجمع كفه في فمه كي لا أسمع سُعاله ؛ وطلع الفجر فأراد القيام وقد تناومت فصصّبر إلى أن كادت نفوت الصلاة ، فتحرّكت ، فقال : الله أكبر ، يا غلام نبّه أبا محمد . فقلت : يا أمير المؤمنين رأيت بعيني جميع ما كان الليلة من صنيعك وكذلك جعلنا الله لكم عبيداً وجعلكم لنا أرباباً » .

وهالك حكاية أخرى تدلّ على أدب المأمون وحُظوة يحيى لديه ، وهي مَرْوِيَةٌ عن ثُمّامة ابن أشرس صديق يحيى وثقة المأمون . قال ثُمّامة : « كان يحيى بن أكرم يمشي المأمون يوماً في بستان موسى والشمس عن يسار يحيى والمأمون في الظل ، وقد وضع يده على عاتق يحيى وهما يتحدّثان حتى بلغ حيث أراد ، ثم كرّ راجعاً في الطريق التي بدأ فيها ، فقال ليحيى : كانت الشمس عليك لأنك كنت عن يساري وقد نالت منك ، فكان الآن حيث كنت وأتحول أنا إلى حيث كنت ؛ فقال يحيى : والله يا أمير المؤمنين لو أمكنني أن أقبلك هؤل المطلع بنفسى لفعلت ؛ فقال المأمون : لا والله ما بدُّ من أن تأخذ الشمس مني مثل ما أخذت منك ، فتهوّل يحيى وأخذ من الظل مثل الذي أخذ منه المأمون » اهـ .

ولم يزل في هذه الرعاية من المأمون والخطوة لديه ، يفوّض إليه المأمون جليل الأعمال ويرسله في مهامّ الأمور ، حتى كانت سنة ٢١٦ هـ إذ نرى المأمون بمصر يسخط على يحيى بن أكرم الذي كان في حاشيته ويرسله مغضوباً عليه إلى العراق ؛ ثم يبلغ من حنقه عليه أن يكتب

في وصيته الي ولى عهده المعتصم محذرا إياه من اصطناع الوزراء والركون اليهم ضاربا بيحيى ابن أكرم مثلاً في سوء السيرة وقبيح الفعال . ونحن نلقى على مسامعك ما كتبته في وصيته متعلقا بيحيى : «ولا نتخذن بعدى وزيرا تلقى اليه شيئا ، فقد علمت ما نكبنى به يحيى بن أكرم في معاملة الناس وخبث سيرته ، حتى أبان الله ذلك منه في صحة منى ، فصرت الى مفارقتها قاليا له غير راض بما صنع فى أموال الله وصدقاته ، لا جزاه الله عن الاسلام خيرا » .

ثم لم تزل تختلف الأحوال على يحيى بن أكرم بعد ذلك ، وتقلب به الأيام حتى أيام المتوكل على الله ، فلما عزل القاضي محمد بن القاضى أحمد بن أبى دؤاد قوض ولاية القضاء الى القاضى يحيى وخلع عليه خمس خلع ، ثم غضب عليه المتوكل وعزله سنة أربعين ومائتين وأخذ أمواله وألزم منزله . ثم حج بعد ذلك وأخذ معه أخته واعتزم أن يجاور ، ثم بلغه رضا المتوكل عنه ورجوعه له ، فبدأ له فى المجاورة ورجع يريد العراق ، فلما كان بالربذة فى طريقه الى العراق وافته المنية يوم الجمعة منتصف ذى الحجة سنة أربعين ومائتين ، وقيل غرة ثلاث وأربعين ومائتين ودفن هناك . وقد قدمنا لك ما ذكره ابن خلكان فى عمره حين الوفاة وشفعناه بما يمكن أن يكون فى كلامه من تناقض أو سهو أو تحريف .

كان يحيى بن أكرم فقيها عالما بالفقه ، بصيرا بالأحكام ، وقد عده الدارقطنى فى أصحاب الشافعى رضى الله عنه ، راويا للحديث ، أخذنا بحظ كبير من كل فن ، سمع الحديث عن عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة وغيرهما ، ويروى عنه الترمذى وغيره من رجال السنة وحفظ الحديث . وكانت له منزلة سامية لدى رجال الدين وعلماء الجماعة . ومما رفع منزلته لدى الناس جميعا موقفه المشهور ، مع المأمون مما يدل على سعة علمه وقوة حجته وعظيم جراته . ذلك بأن المأمون رأى وهو فى طريقه الى الشام جواز نكاح المتعة فوقف له يحيى موقفا أكسبه حمد أئمة الدين وثناءهم عليه . ونحن نرجى اليك هذا الحديث نقلا عن ابن خلكان . قال : «حدث محمد بن منصور قال : كنا مع المأمون فى طريق الشام فأمر فنودى بتحليل المتعة ، فقال يحيى بن أكرم لى ولأبى العيناء : بكرا غدا اليه فإن رأيتما للقول

وجها فقولا وإلا فأمسكا إلى أن أدخل ، قال : فدخلنا عليه وهو يستاك ويقول وهو مغتاظ :
 متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى عهد أبي بكر رضى الله عنه وأنا
 أنهى عنها ! ومن أنت يا جعل حتى تنهى عما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر
 رضى الله عنه ! فأوما أبو العيناء إلى محمد بن منصور وقال : رجل يقول في عمر بن الخطاب
 ما يقوله نكلمه نحن ! فأمسكا . فجاء يحيى بن أكثم بفلس وجلسنا . فقال المأمون ليحيى : مالى
 أراك متغيرا ؟ فقال : هو غم يا أمير المؤمنين لما حدث في الإسلام ، قال : وما حدث
 فيه ؟ قال : النداء بتحليل الزنا ، قال : الزنا ؟ ! قال : نعم ، المتعة زنا ، قال : ومن أين قلت
 هذا ؟ قال : من كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال
 الله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ
 أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنْ أَتَبَتَّى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾
 يا أمير المؤمنين ، زوجة المتعة ملك يمين ؟ قال : لا ، قال : فهى الزوجة التى عند الله ترث
 وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها ؟ قال : لا ، قال : فقد صار متجاوز هذين من العادين ؛
 وهذا الزهرى . يا أمير المؤمنين روى عن عبد الله والحسن أبى محمد بن الحنفية عن أبيهما
 عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن
 أنادى بالنهى عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها ، فالتفت إلينا المأمون فقال :
 أمحفوظ هذا من حديث الزهرى ؟ فقلنا : نعم يا أمير المؤمنين رواه جماعة منهم مالك
 رضى الله عنه ، فقال : أستغفر الله ! نادوا بتحريم المتعة فنادوا بها . ” اه

أما آراء يحيى الكلامية فإن المؤرخ يقف أمامها موقف حيرة وإحجام ، ويحتاج إذا أراد
 أن يبدى رأيا فيها إلى شيء غير قليل من الأناة والروية . ذلك بأن يحيى كان يقف موقفا
 قريبا من الفتنة العنيفة التى كانت مضطربة فى وقته ، فهو قاضى قضاة المأمون ، ومنزله منه
 منزلة يُغبط عليها ، والمأمون زعيم القائلين بخلق القرآن ، وهى بدعة اعتزالية ، ثم هو فى الوقت
 نفسه مرضى عنه من الجماعة وأهل السنة ، ثم نراه حينما يقف موقف المعارضة من صديقه

وحيمه ثَمَامَة بن أَشْرَس المَعْتَرِيّ وزعيم الطائفة الثمّامية، معارضة تشدّد في بعض الأحيان الى المخاشنة والمهاترة . وأنت تعلم مَنْ هو ثَمَامَة وما علاقته بالمأمون وثقة المأمون به ، ثم تعلم ما كانت علاقته بيحيى نفسه وكم له من يدٍ عليه . أضف الى كل هذا ما يرويّه ابن خلكان من أنه كان يقول : القرآن كلام الله ، فمن قال : إنه مخلوق يستتاب ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه . ولاحظ أنّ المأمون زعيم القائلين بذلك .

فهل يمكن مع ذلك إبداء رأى في عقيدة يحيى الكلامية ؟ وهل يمكن أن تكون كل هذه الروايات صحيحة مع ما يبدو عليها من شبه تناقض ؟

نظن أنه باستعمال شيء من التحليل يمكن إبداء الرأى ، ويمكن التوفيق أيضا . ذلك بأن يحيى بن أَكْثَم كان كَيْسًا حازمًا ، خفيف الروح حُلُو اللسان ، فاستطاع بذلك أن يدارى الناس جميعا ، خاصّتهم وعامتهم ، وأن يكتسب رضاهم جميعا . فاذا حُورِرَ وجُودِلَ فاشتدّ أحيانا فإنما يكون ذلك الى الحدّ الذى لا يمسّ مكانته ونفوذه ؛ فبقى فى حُطُوة لدى المأمون وإخوان المأمون دونها كل خطوة ، وكان فى الوقت نفسه بموضع الكرامة والرضا من أهل السنة والجماعة .

الى هنا لم نستطع أن نبدى شيئا فى رأيه . وكل ما يمكن أن يستنبط مما تقدّم أنه كان حسن التقية ؛ بارطا فى المداواة والمصانعة والرّياء . وكانت هذه الخلّة من أظهر مُميّزات العصر ؛ فالخليفة يدارى فيقابل قاتل أخيه بالترحاب ، فاذا ما خرج القائد القاتل وسئل المأمون عن صَبْرَة استعبرها كانت إجابته : «قتلنى الله إن لم أقتل طاهرا» ، ثم هو بعدُ يوصى صاحب أخباره بالرّياء ، ويعتدّ لنا أهل الرّياء فى عصره ؛ وهالك مثلا قاضى قضائه كماترى من سيرته .

ولكن هل من الممكن أن نستسيغ مشادّته العنيفة أحيانا فى محاوره صديقه ومصطنعه ثَمَامَة بن أَشْرَس ، مع ما فى هذه المشادّة من نُكْران للجميل ومن تعريض نفوذه للضياع ، دون أن يكون على خُلف معه فى الرأى ، ودون أن يميل الى صحة ما يرويّه المؤرخون من أنه كان سليما من البدعة ، ينتحل مذهب أهل السنة ؟

هذا ما يمكن أن تؤدى اليه المقدمات وإن كانت حياة يحيى والبيئة التى تحيط به تجعله الى الجانب الآخر أقرب . نريد من كل هذا أن نستنبط رأى يحيى الكلامى وإن كان وهو قاضى القضاة حريصا على أن يكون بنجوة عن منازعات الأحزاب الكلامية ، إذ نطن أن الذى ينصح الى المأمون حين أراد أن يلعب معاوية ، وأن يكتب بذلك كتابا يقرأ فى حفل من الناس بقوله : «يا أمير المؤمنين إن العامة لا تحتمل هذا ، ولا سيما أهل نراسان ، ولا تأمن أن تكون لهم نفرة ، وإن كانت لم تدر ما عاقبتها ، والرأى أن تدع الناس على ما هم عليه ، ولا تظهر لهم أنك تميل الى فرقة من الفرق ، فإن ذلك أصلح فى السياسة ، وأحرى فى التدبير» . نطن أن الذى يفعل ذلك هو من أحرص الناس .

هذا كله كان فى الفترة التى كان فيها متصلا بمناصب الدولة أو على أمل الاتصال بها . أما بعد أن سخط عليه المأمون وأقصاه من مناصب الدولة ، وأوصى الى المعتصم بأن يتدبر بالحذر منه ومن أمثاله ، فقد ظهر يحيى بن أكرم معارضا عنيفا لبدعة خلق القرآن . ومن هنا نميل الى أن نفترض أن الجملة التى رواها ابن خلدان صحيحة النسبة اليه ، وأنها من آثاره بعد غضب المأمون عليه .

أدبه :

ذكر أن يحيى بن أكرم كان فقيها بصيرا بالأحكام ، راويا للحديث ، أخذنا من كل فن بطرف ، ويظهر أن حفظه من الأدب الإنشائى لم يكن كحظه من غيره ، فإنه لم يؤثر عنه فى المصادر التى بين أيدينا من القطع الرائعة النثرية أو الشعرية إلا أبيات من الشعر نسبت اليه فى الغزل بالمذكر . من ذلك ما عرى اليه حين دخل عليه ابنا مسعدة ، وكانا فى نهاية الجمال ، وكانا كلما يمشيان فى الصبح أنشد قوله :

يا زائرينا من الخيام * حياكم الله بالسلام

(١) هذه السياسة حازمة وهى التى يجرى عليها الملوك فى الدول التى فيها أحزاب مختلفة يكون الملك فوق الأحزاب متزاعها ولا يظهر ميله لحزب دون حزب .

لم تأتني وبى نهوض * الى حلال ولا حرام
يحزنى أن وقفنا بى * وليس عندى سوى الكلام
ويقال : إن هذه الأبيات كانت سببا لعزله كما قدمنا .

ومما ينسب اليه من الشعر قوله فى غلام جميل كان يكتب بين يديه ، فقرص القاضى
خده ، فحجل الغلام وطرح القلم من يده ، فأملى عليه هذه الأبيات :

أيا قمرًا جَمَشْتُهُ فَنَغَضَّهَا * وَأَصْبَحَ لى مِنْ تِيَمِهِ مُتَجَنِّبًا
إذا كُنْتَ لِلتَّجْمِيشِ وَالْعَضِّ كَارِهَا * فَكُنْ أَبَدًا يَاسِيدَى مُتَنَقِّبًا
ولا تَظْهَرِ الْأَصْدَاغَ لِلنَّاسِ فِتْنَةً * وَتَجْعَلْ مِنْهَا فَوْقَ خَدِّكَ عَقْرَبًا
فَتَقْتُلَ مَسْكِينًا وَتَفْتَنَ نَاسِكًا * وَتَتْرِكَ قَاضِي الْمُسْلِمِينَ مَعَذَّبًا

وقيل : إن هذه الأبيات قالها فى الحسن بن وهب وهو صبي ، وقد لاعبه وجمسه
فغضب الحسن .

أخلاقه :

حسبنا أن نذكر لك دلالة على ما لهذا الرجل من فطنة وحزم وتدبير وحسن سياسة
أنه تملك قلب المأمون ، الذى قدمنا لك عنه ما قدمنا ، حتى غلب عليه دون الناس جميعا
وكان مع ذلك مهيبا ، خفيف الروح ، سليط اللسان ، قوى القلب ، سريع الخاطر .
وحسبك دلالة على قوة قلبه وسرعة خاطره ما روى من أن المأمون قال له معرضا به :
من الذى يقول :

قَاضٍ يَرَى الْحَدَّ فى الزَّناءِ ولا * يَرَى على مَنْ يُلَوِّطُ مِنْ بَاسٍ ؟ -

قال : أو ما يعرف أمير المؤمنين من القائل ؟ قال : لا ، قال : يقوله الفاجر أحمد بن
بن نعيم الذى يقول :

لا أَحْسَبُ الْجَوْرَ يَنْقِضِي وَعَلَى الْأَمَةِ وَالِ مِنْ آلِ عَبَّاسٍ

فألهم المأمون نجلا وقال : ينبئني أن يُنفى أحمد بن أبي نعيم الى السند . وهذان البيتان من
قصيدته التى قد ذكرناها فى الحياة الأدبية لعصر المأمون .

وقد جعل العلماء مقارنة بين أحمد بن أبي دؤاد ويحيى بن أكرم في أخلاقهما وآرائهما ونفوذهما لدى الملوك فيقال: إن كليهما غلب على سلطانه في عصره . ووصفهما بعض البلغاء وقد سئل عن أيهما أنبل فقال : كان أحمد يجيّد مع جاريته وأبنته ، ويحيى يهزل مع خصمه وعدوه .

سيرته :

أما سيرته فلم نر رجلا في مركزه الديني والاجتماعي حامت حوله الرّيب والإشاعات مثّل ما حامت حول هذا القاضي ، ومع هذه الرّيب والإشاعات فقد كان مرعى الجانب ، موفور الكرامة . ويظهر أن جلّ الناس حتى أخصّ أصدقائه به ، كانوا يتنجحون الى تصديق هذه الإشاعات ، إلا أئمة الدين فقد كانوا يكبرونه وينكرون أن يكون لهذه الإشاعات ظلّ من الحق ، فقد سئل أحمد بن حنبل عن هذه الإشاعات فأنكرها إنكارا .

ولعل الذي يفسر موقف رجال الدين منه هذا الموقف ، وإنكارهم ما ينسب اليه من إشاعات ، موقف يحيى من المأمون يوم (المتعة) وغير يوم المتعة ، مما جعله في نظرهم بطلا من أبطال الدين ، وحليفا بمثله أن يكون بنجوة من كل منكر .

أما يحيى نفسه فيحدثنا ابن خلكان نقلا عن ابن الأنباري أنه قال لرجل كان يأنس به ويمارحه : ما تسمع الناس يقولون في ؟ . قال : ما أسمع إلا خيرا ، قال : ما أسألك لتزكيني . قال : أسمعهم يرمون القاضي ... قال : فضحك وقال : اللهم غفرا المشهور عنا غير هذا .

ويقال : إن المأمون لما تواترت هذه الإشاعات أراد أن يمتحنه فأخلى له مجلسا وأستدعاه ، وكان قد أسر الى غلام نحريّ أن يكون في خدمتهما وحده ، حتى اذا خرج المأمون عابث القاضي ، فلما استقروا بهم المقام وخرج المأمون ، أخذ الغلام يعابث القاضي ، فسمع المأمون — وكان يستمع حديثهما — القاضي يقول : ” لولا أتم لكنا مؤمنين “ فدخل عليهما منشدًا قول أبي حكيمة راشد بن اسحاق الكاتب :

وَكَمَا تُرَجَى أَنْ نَرَى الْعَدْلَ ظَاهِرًا * فَأَعْقَبْنَا بَعْدَ الرِّجَاءِ قُنُوطُ
مَتَى تَصْلُحُ الدُّنْيَا وَيَصْلُحُ أَهْلُهَا * وَقَاضَى قَضَاةَ الْمَسَامِينِ يَلُوطُ

وقد قلنا : إنَّ أخصَّ أصدقائه به كان يجمع الى تصديق هذه الإشاعات ، فقد قيل : إن صديقه : أبا عبد الله الحسين بن عبد الله بن سعيد اشتكى بعد أن مات يحكي أن يراه في المنام ليعلم ما فعل الله به ! فأوحى اليه الأحلام أن الله غفر له بعد أن وبَّخه على تخليطه ، وأن يحيى حاجَّ ربه بالحديث المشهور : "إني لأستحي أن أعذب ذا شيبة بالنار" فهل يستوحى الأحلام ليعلم ما فعل الله بصديقه من يعتقد براءته ! .

تأليفه :

يحتسب المؤرخون أن يحيى بن أكرم ألف كتباً في الفقه ، وأخرى في الأصول ، وله كتاب أورده على العراقيين أصحاب أبي حنيفة سماه : « كتاب التنبيه » . وهذا يؤيد ما قاله الدارقطني من أنه كان من أصحاب الشافعي .

✱ ✱

(ز) إسحاق بن إبراهيم الموصلي :

قد يكون حظُّ المغنين وأهل الموسيقى المسلمين من عناية المؤرخين في العصور الإسلامية أكثر من حظِّ غيرهم ، وقد عني المؤرخون بتسجيل حوادثهم وأحوالهم وإيقاعاتهم ، وما كان يقع بينهم من خلاف منشؤه المنافسة والحسد ، أو التقرب الى ذوى السلطان ، وما كان يتفق لهم من مفاكهات لطيفة ، وبكات طريفة . وهذه العناية ظاهرة من الكتب الكثيرة التي أرصدت لهذه الناحية من تاريخ الحضارة الإسلامية ، وقد عمت الدهر يُجَلُّ هذه الكتب ، ولم يبقَ منها إلا القليل ، وعلى رأس هذا القليل الباقي ، وهو المحجة في هذا الموضوع « كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني » .

وقبل أن نعرض للكلام على إسحاق وتفصيل حياته ، نقرّر أننا عاجزون كلَّ العجز عن أن نجلِّو الناحية الفنية من شخصيته ، فإن جلاء هذه الناحية وكشفها لا يتسقى إلا لرجل أوتي حظاً كبيراً من الموسيقى ، يستطيع به أن يقدر مواهب أهل الفن وما وفَّقوا اليه من إجادة ، ونرجو أن يتاح لإسحاق من يتوافر له هذا الحظ ، فيجلِّو لنا شخصيته الفنية ، ومبلغ

المدى الذى قطعه فى سبيل الكمال الموسيقى ، كما أُتيح "لبتهوفن" وغير "بتهوفن" من أصحاب المواهب الكبيرة فى الموسيقى ، من أبرز شخصياتهم الفنية للناس ، وأبان ما لعبقرياتهم من آيات خالدات فى الفن .

ولن يستطيع أحد مهما أُوتى من مواهب ، وأتخذ من أسباب أن يحلوا شخصية إسحاق الفنية ، ما بقيت مصطلحات الموسيقى العربية مغلقة لم تفتح ، وما بقيت تعاليمها الغازا لم تُحل .

واذ كان هذا هو موقفنا من الناحية الفنية إزاء شخصية إسحاق ، فلنكن مؤرخين ليس غير . نُورد لك الحوادث كما رواها المؤرخون ، مع تحليل ما نُوفق الى تحليله من أخلاقه وأعماله ، فنقول :

هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن ميمون بن بهمن بن نسيك . ووالده إبراهيم وهو ماهان ، وسبب نسبته الى ميمون أنه كتب كتابا الى صديق له فعنونه : من إبراهيم بن ماهان ... فقال بعض إخوانه من فتيان الكوفة : أما تستحي من هذا الاسم ؟ قال : هو اسم أبى قال : فغيره ، قال : فكيف غيره ، فأخذ الفقى الكوفى الكتاب فحما ماهان ؛ وكتب ميمونا فصار من ذلك الحين إبراهيم بن ميمون .

وأصل أسرة إسحاق من فارس ، من بيت شريف فى العجم ، كان هرب جده ماهان من جور بعض عمال بنى أمية لخراج طولب بأدائه ، فنزل الكوفة . وأم إبراهيم والد إسحاق من بنات الدهاقين الذين هربوا كما هرب ماهان ، وتزوجها ماهان بالكوفة ، فولدت له إبراهيم ثم مات وسن إبراهيم ستتان أو ثلاث فكفل إبراهيم آل خزيمة بن خازم ، ومن هذا صار ولأؤه الى تميم .

وقد سأل الرشيد إبراهيم عن السبب بينه وبين تميم فقال له : ربونا يا أمير المؤمنين ، فأحسنوا تربيتنا ، ونشأت فيهم وكان بيننا وبينهم رضاع فتولونا بهذا السبب . وقال إسحاق يفتخر بأصله وبيته وكافلى أبيه :

إذا كانت الأشرافُ أصلي ومنصبى * ودافع ضبى حازم وأبن حازم
عَطَسْتُ بأنفٍ شاخ وتناولت * بَدَايَ الثُّرَيَّا قَاعًا غَيْرَ قَائِمِ

وسبب قولهم الموصلى أنه لما اشتد إبراهيم وأدرك صحب الفتيان واشتهى الغناء وطلبه ، فاشتد أخواله عليه في ذلك ، وبلغوا منه ، فهرب إلى الموصلى ، وأقام بها سنة ، فلما رجع إلى الكوفة قال له إخوانه من الفتيان : مرحبا بالفتى الموصلى ؛ فغلبت عليه .

ثم ما زال إبراهيم يأخذ بأسباب الغناء حتى حذقه ، وآنصل بأحد عمال المهدي ، ثم بلغ المهدي أمره ، فطلبه إليه ، وبقي بعد ذلك متصلا بالخلفاء ورجالات الدولة حتى توفى في عهد الرشيد سنة ١٨٨ هـ .

أما ابنه إسحاق الذى عقدنا هذا الفصل لتحليل شخصيته ، وللكشف عن مواهبه وأخلاقه ، فوُلِدَ سنة ١٥٠ هـ . ولم يظهر شأنه ، وتتم منزلته إلا في أيام الرشيد ، ثم أخذ نجمه يتألق في سماء الخلافة العباسية أيام الرشيد والأمين والمأمون والمعتمد والوائق ، ثم توفى سنة ٢٣٥ هـ في صدر أيام المتوكل . وكان يحل من هؤلاء الخلفاء جميعا بموضع العطف والتجلة ، وسند ذكر شيئا من صلته بكل خليفة ، وما كان يُغدقه عليه كل خليفة من عطف ومال .

نشأته :

كان حظ إسحاق من وسائل التهذيب والتثقيف خيرا من حظ والده إبراهيم ، فإن والده نشأ يتيما فكفله غير أبيه حتى إذا شب وترعرع ، وظهر ميله إلى نوع خاص من الفنون ، لم يجد من القائمين بأمره ومن لهم سلطان عليه من يقدر استعدادة الفطرى ، ونزعاته النفسية ، حتى اضطرب من إلحاح ضغط أخواله عليه ، ومطالبتهم إياه أن يترك الغناء ، وألا يأخذ في شيء من أسباب الموسيقى أن يهيم على وجهه في الأرض ، في سبيل تحقيق ما تميل إليه نفسه ، ويهيئه له استعدادة .

(١)
أما إسحاق فقد نشأ في بيت أبيه، وشب وترعرع بعينه، وقد وجد من أبيه الذي
فهم الحياة ولدعته آلامها، من يهتم بثقافته، ويحترم نزعاته الفطرية، وميوله النفسية .
وإسحاق يعد ابن رجل أمير عند الخلفاء، مُقَدَّم لدى رجال الدولة، وفي وفرة من الثراء،
وحظ عظيم من الترف، مما يصله به الخلفاء وغير الخلفاء؛ فاستطاع إسحاق لجاء أبيه وماله
أن يختلف إلى جلة العلماء، ويكابر رجال الفن، وأن يرتاد خير البيئات والأوساط التي
لا يقل أثرها في تهذيب النفوس عن أثر التعليم، وقد كان من حظ الموسيقى والآداب أن
تنهيا الأسباب وتستوى الوسائل لرجلها الفذ ونابتها العظيم .

ويحدثنا إسحاق عن شيء من تربيته وثقافته، فيقول : «أقمت دهرًا أُغْلِسُ كُلَّ يوم
إلى هشيم، فأسمع منه ثم أصير إلى الكسائي أو إلى الفراء فأقرأ عليه جزءًا من القرآن،
ثم آتي منصور زلز، فيضاربني طريقتين أو ثلاثًا، ثم آتي عائكة بنت شهدة، فأخذ منها
صوتا أو صوتين، ثم آتي الأضمي وأبا عبيدة، فأناشدهما وأحادهما وأستفيد منهما،
ثم أصير إلى أبي، فأعلمه بما صنعت وأخذت، وأتغدى معه وأروح معه عشاء إلى
أمير المؤمنين» .

فأنت ترى من حديث إسحاق عن فترة من فترات نشأته وثقافته، أنه كان يختلف
كل يوم إلى رجال الحديث، ثم رجال القرآن والنحو، ثم أهل الفن الضاريين على الآلات
والمُحَنِّين، ثم يذهب بعد ذلك إلى أهل الأدب والرواية، فيناشدهم ويحادثهم، ويستفيد
منهم؛ ثم يجتمع بأبيه بعد ذلك كله يخبره بما صنع وأخذ، حتى إذا جاء المساء ذهب مع أبيه
إلى دار الخلافة، وهي — أي ذلك الله — خير مُتَدَيِّ لرجال العلم والأدب والسياسة في الدولة .

هذه التربية المنظمة، والبيئات الراقية، أخرجت من طفل إبراهيم الموصلي: ذلك
الطفل الذكي النشيط، رجلاً يصفه صاحب الأغاني بقوله : «موضعه من العلم، ومكانه

(١) أي تحت رعايته وعنايته .

من الأدب ، ومحلّه من الرواية ، وتقدّمه في الشعر ، ومنزلته في سائر المحاسن ، أشهر من أن يُدَلَّ عليها بوصف ، وسترى في مطاوي ما نوره عليك من أحاديثه ، ونوادره أنه ما عالج عالمنا من العلوم ، أو فنا من الفنون ، إلا برّع فيه وبرّز .

فأما الغناء ، فحدثنا أبو الفرج صاحب الأغاني : أنه كان أصغر علومه ، وأدنى ما يؤم به ، وإن كان الغالب عليه وعلى ما كان يُحسّنه ، فإنه كان له في سائر أدواته ، نظراء وأكفاء ، ولم يكن له في هذا نظير يخلق بمن مضى فيه ، وسبق من قد بقي ، وسهل طريق الغناء وأثارها ، فهو إمام أهل صناعته جميعا ، وقدوتهم ورؤسهم ومعلمهم ، يعرف ذلك منه الخاص والعام ، ويشهد له الموافق والمفارق ، على أنه كان أكره الناس للغناء ، وأشدّهم بغضا له ، لثلاث يدعى عليه ويُسمّى به .

وهذه الجملة الأخيرة ، وهي أنه كان من أكره الناس للغناء ... الخ ، تدلنا بوضوح على نفسية إسحاق ومطامحه من جهة ، وعلى ما كان للمغنين وأهل الموسيقى عامة من قيمة ومنزلة من جهة أخرى ، كما تدلنا على أن المغنين وأهل الموسيقى ، كانت منزلتهم مهما نالوا من حظوة لدى الخلفاء وأرباب السلطان دون منزلة الرّواة وأهل الأدب ، من الفقهاء ورجال الحديث ، وتدلنا أيضا على أن إسحاق كان على النفس ، بعيد الهمة ، يكره أن يتصل بفنّ يقع به دون ما هو خليف به من منزلة ومكانة ، وماذا يصنع إسحاق وقد أُوتِيَ موهبة لم يُؤْتها أحد غيره ، وهي موهبة تأبى إلا أن تعلن نفسها ، كما يعلن الزهر نفسه بأريجِه ، والقمرى بهديله ، وماذا يُجدي عليه كرهه للغناء وبغضه له ، وقد يطالبه به من لا يرى سبيلا الى مخالفته ؟

ولقد كان إسحاق في كراهيته للغناء صادق الشعور ، صادق الحسّ ، فإنه لم يحل بين المأمون وبين أن يؤكّيه أسمى المناصب إلا شهرته بالغناء ، إذ يقول المأمون : « لولا ما سبق لإسحاق على ألسنة الناس وشهرته عندهم بالغناء ، لوليتُ القضاء بحضرتي ، فإنه أولى به وأعف وأصدق وأكثر دينا وأمانة من هؤلاء القضاة » . وقد يكون من حق إسحاق أن يكره الغناء ، ويألم لاتصاله به ، إذ يرى المناصب السامية في الدولة ، يتبوّؤها قوم

هم دونهم فيما وصلوا إليها به ، وهم وصلوا إليها بالعلم ، وقد كان هو عالماً بالفقه والحديث وعلم الكلام ، وباللغة والشعر وأخبار الشعراء وأيام الناس ، وكان لا يدع فرصة دون أن يعلن سُخْطَهُ وما ناله من ظلم ، فقد حدثنا ابن خلكان أن محمد بن عطية العَطَوِيّ الشاعر قال : كنت في مجلس القاضي يحيى بن أكثم ، فوافى إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، وأخذ يناظر أهل الكلام ، حتى انتصف منهم ثم تكلم في الفقه فأحسن ، وقاس واحتج ، وتكلم في الشعر واللغة ففاق من حضر ، ثم أقبل على القاضي يحيى فقال : أعز الله القاضي ، أفي شيء مما ناظرت فيه وحكيته نقض أو مطعن ، قال : لا ، قال : فما بالي أقومُ بسائر هذه العلوم قيام أهلها ، وأنسب إلى فن واحد ، قد اقتصر الناس عليه ، يعني الغناء ، قال العَطَوِيّ : فالتفت إلى القاضي يحيى ، وقال لي : الجواب في هذا عليك ، وكان العَطَوِيّ من أهل الجدل ، فقال للقاضي يحيى : نعم — أعز الله القاضي — الجواب على ، ثم أقبل على إسحاق فقال : يا أبا محمد ، أنت كالفرّاء والأخفش في النجوى؟ فقال : لا ، فقال : أنت في اللغة ومعرفة الشعر كالأصمعيّ وأبي عبيدة؟ قال : لا ، قال : فأنت في علم الكلام كأبي الهذيل العلاف والنظام البليخي؟ قال : لا ، قال : فأنت في الفقه كالقاضي ؟ — وأشار إلى القاضي يحيى — فقال : لا ، قال : فأنت في قول الشعر كأبي العتاهية وأبي نؤاس؟ قال : لا ، قال : فمن هاهنا تُسبِت إلى ما تُسبِت إليه ، لأنه لا نظير لك فيه ، وأنت في غيره دون رؤساء أهله ، فضحك وقام وانصرف ، فقال القاضي يحيى للعَطَوِيّ : لقد وفيت الحجة حقها ، وفيها ظلم قليل لإسحاق ، وإنه ممن يقل في الزمان نظيره . اهـ .

ومهما يكن من شيء فقد اشتهر إسحاق بالغناء دون غيره ، مما كان يُحسنه من سائر العلوم ، وقد كان إسحاق مع ذكائه وعلمه ، وعلو نفسه ، وبُعد همته ، مهيباً كريماً ، جَمّ الأدب ، عفيف اللسان . أما عن كرمه فيروى لنا صاحب الأغاني ، أنه كان يُجْزِي على أبي عبيد الله الأعرابي في كل سنة ثلاثمائة دينار ، وأن ابن الأعرابي هذا وقف على

المداثنيّ يوماً؛ فقال له المداثنيّ : الى أين يا أبا عبد الله ؟ فقال : أمضى الى رجل هو كما قال الشاعر :

نُرِي بِأَشْبَاحِنَا إِلَى مَلِكٍ * نَأْخُذُ مِنْ مَالِهِ وَمِنْ أَدِيهِ

قال : ومن ذلك ؟ قال : إسحاق بن إبراهيم ! .

وإنا نسوق اليك قصةً أخرى وهي مع دلالتها على شَغَفِ إِسْحَاقَ بِالْعِلْمِ ، وَالْحِرْصِ عَلَى اسْتِثْبَاتِهِ ، تَدُلُّ أَيْضًا عَلَى بَخَاءِ نَفْسِهِ وَكِرَمِهِ .

قال إسحاق : جئت يوماً الى أبي معاوية الضمير، ومعي مائة حديث ، فوجدت حاجبه يومئذ رجلاً ضريراً ، فقال لي : إن أبا معاوية قد ولّاني حجابته لينفعني ، فقلت له : معي مائة حديث ، وقد جعلتُ لك مائة درهم إذا قرأتها ، فاستأذن لي ، فدخلتُ على أبي معاوية فلما عَرَفَنِي دَعَا ، فَقَالَ لَهُ : أَخْطَأْتُ ، إِنَّمَا جَعَلْتُ لَكَ ذَلِكَ عَلَى الضَّعْفَاءِ مِنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ ، فَأَمَّا أَبُو مُحَمَّدٍ وَأَمْسَأَلُهُ فَلَا ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ يُرَغِّبُنِي فِي الْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَيَذْكُرُ ضَعْفَهُ ، وَعَنَانِيَّتَهُ بِهِ ، فَقُلْتُ لَهُ : احْتَكِمْ فِي أَمْرِهِ ، فَقَالَ : مائة دينار ، فأمرتُ الغلام بإحضارها ، وقرأتُ عليه ما أردتُ وانصرفت . وهذه القصة تدلُّ على أريحيته الى جانب دلالتها على علمه .

قال أحمد بن الهيثم : كنتُ يوماً جالسا «بُسْرَمَنْ رَأَى» عند إخوان لي ، وكان طريق إسحاق في مضيئه الى دار الخليفة ، ورجوعه علينا ، فجاءني الغلام يوماً ، وعندي أصدقائي ، فقال : إسحاق بن إبراهيم الموصليّ بالباب ، فقلتُ : يدخل ، أوفى الأرض من يُسْتَأْذَنُ عَلَيْهِ لِإِسْحَاقَ ، فَذَهَبَ الْغُلَامُ يَأْذُنُهُ ، وَبَادَرْتُ إِلَى تَلْقِيهِ ، فَدَخَلَ وَجَلَسَ مُنْهَسِطًا آتِسًا ، فَعَرَضْنَا عَلَيْهِ مَا عِنْدَنَا ، فَأَجَابَ إِلَى الشَّرَابِ ، فَأَحْضَرْنَا نَبِيذًا مُشَمَّسًا ، فَشَرِبَ مِنْهُ ، ثُمَّ قَالَ : أَتُحِبُّونَ أَنْ أُغْنِيَكُمْ ؟ فقلنا : إِي وَالله ! أطال الله بقاءك ، إنا نُحِبُّ ذَلِكَ ؛ قَالَ : فَلِمَ لَا تَسْأَلُونَنِي ؟ قلنا : هِبْنَاكَ ، قَالَ : فَلَا تَفْعَلُوا ، ثُمَّ دَعَا بَعُودًا ، فَأَحْضَرَنَاهُ فَاذْذَعُ يُغْنِي ، فَشَرِبْنَا وَطَرَبْنَا ، فَلَمَّا قَرَعَ قَالَ : أَحْسَنْتُ أَمْ لَا ؟ فَقُلْنَا : يُبْلَى وَالله ! جعلنا فداك ، لقد أحسنت ، قَالَ : فَمَا

منعكم أن تقولوا لي أحسنت؟ قلنا : الهيبة والإجلال لك ، قال : فلا تفعلوا هذا فيما تستأنفون ، فإن المغنى يحب أن يقال له : أحسنت ، ثم غنى :

خليلى هباً نصطريح بسواد * ونزى قلوباً هامهت صوادي
وقولا لساقينا زياد يرقها * فقد هدد بعض القوم سقى زياد

فقلت : يا أبا محمد ، فمن هو زياد؟ قال : غلامى الواقف على الباب ، أدعه يا غلام ، فدخل فإذا هو غلامٌ خلّاسي^(١) ، قيمته عشرون ديناراً أو نحوها ، فقال : أتسألونى عنه ، فأعرفكم إياه ، وأدخله اليكم ، ويخرج كما دخل ! وقد سمعتم شعري فيه وغنائى ! أشهدكم أنه حر لوجه الله تعالى ، وقد زوجته أختى فلانة ، فأعينوه على أمره ، قال : فلم يخرج حتى أوصلنا إليه عشرين ألف درهم . ولعل فى هذه القصة المتقدمة أيضاً ، مقنعاً لك بما كان لإسحاق فى نفوس الناس من هيبة وكرامة .

منزلة إسحاق فى الغناء :

قدّمنا لك أننا نعتزّ بالعجز عن أن نجلو الناحية الفنية من حياة إسحاق ، وأن ذلك لا يتسق إلا لرجل أوتي من المواهب الفنية حظاً عظيماً ، وقدّمنا لك أن إسحاق كان يُحسن كثيراً من العلوم إحساناً ، قل أن يتسقى لغيره ، وأنه كان مع إجادته الغناء وتبريزه فيه ، وسبقه أقرانه ، يكره أن ينتسب إليه أو يُسمّى به ، لأنه كان على النفس ، بعيداً مراعى الهمة ، ويرى أن انتسابه الى الغناء يقصر به عن بلوغ مراعى همته . والآن نقول : إنه كان مع هذا شديد الغيرة على الغناء ، كثير الذب عنه ، وله العذر ، فإن صاحب الفن أيا كان الفن ، لا يجد الى الصبر سبيلاً ، اذا عيث بفته العابثون أو تمجّم عليه المتهمجون .

واذا كنا نعتزّ بالعجز عن أن نجلو الناحية الفنية لإسحاق ، فإن ذلك لا يمنعنا من أن ننقل اليك شيئاً مما رواه المؤرخون ، لتعلم ما كان يُحيط به من إكبار وإعجاب من الخلفاء ، ورجال الدولة ، وأصحاب الفن ، لنبوغه فى فنه ، وتبريزه فيه ، ولتعلم — أيضاً مما كان

(١) الخلاسى : الولد بين أبوين أسود وأبيض .

يُبدية من ملاحظات — مبلغ ما كان له من دقة حس ، وقوة ذوق ، وحيدة شعور ، وسلامة فطرة .

ويعدو بنا الكلام عن القصد ، لو أطلقنا لأنفسنا العنان ، في إيراد كل ما نراه حسنا وظريفا من أحاديث إسحاق ومجالسه ، وما كان يتفق له من مفاكهات ونوادر ؛ لذلك نكتفى بإيراد بعض حوادثه ، مما يتصل بالخلفاء الذين عاشهم ، وما كانوا يحيطونه به من عطف ورعاية .

وقدّمنا لك أن إسحاق ظهر في عهد الرشيد ، وتوفي في صدر أيام المتوكل ، فلنذكر لك شيئا من تاريخه ، ونوادره مع كل خليفة من خلفاء هذه الفترة من العصر العباسي .

أما الرشيد فقد كان يلقبه من إعجابه به ، بأبي صفوان ، ولقبه «إسحاق أبو محمد» كما رأيت ، وقد بلغ من إعجابه به أن استأثر به لنفسه ، ونهاه عن أن يغني أحدا غيره ، ويحدثنا إسحاق عن هذا بقوله : نهاني الرشيد أن أغني أحدا غيره ، ثم استوهبني جعفر بن يحيى ، وسأله أن يأذن له في أن أغنيه ففعل ، واتفقنا يوما عند جعفر وعنده أخوه الفضل ، والرشيد يومئذ عقيب علة قد عوفي منها ، وليس يشرب ، فقال لي الفضل : انصرف الليلة ، حتى آهب لك مائة ألف درهم ، فقلت له : إن الرشيد نهاني أن أغني إلا له ولأخيك ، وليس يخفى عنه خبري ، وأنا منهم بالميل اليكم ، ولست أتعرض له ولا أعرضك ، فلما نكبهم الرشيد ، وقال : إيه يا إسحاق تركتني بالرقعة ، وجلست ببغداد تغني الفضل بن يحيى ، خلفت بحياته إنني ما جالسته قط إلا على الحديث والمذاكرة ، وإنه ما سمعني قط إلا عند أخيه وحلقته بترية المهدي أن يسأل عن هذا في دارهم من نسائهم ، فسأل عنه فحدث بمثل ما ذكرته وعرف خبر المائة ألف درهم التي بذلها لي ورددتها ، فلما دخلت عليه ضحك ، ثم قال : سألت عن أمرك فعرفته مثل ما عرفتني ، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم ، عوضا عما بذله لك الفضل .

ويقول الأصمعي^(١) : دخلت أنا وإسحاق بن إبراهيم الموصلي يوما على الرشيد، فرأيناه لقس^(٢) النفس فأنشده إسحاق :

وأمرية بالبخل قلت لها أقصري * فذلك شيء ما اليه سبيل
أرى الناس خلان الكرام ولا أرى * بخيلا له حتى المات خليل
ولمّا رأيت البخل يُزري بأهله * فأكرمت نفسي أن يُقال بخيل
ومن خير حالات الفتي لو علمته * إذا نال خيرا أن يكون يُنيل
فعالي فعّال المُكثرين تجملا * ومالي كما قد تعلّمت قليل
وكيف أخاف الفقر أو أحرّم الغنى * ورأى أمير المؤمنين جَمِيل

قال فقال الرشيد : لا تخف إن شاء الله، ثم قال : لله در أبيات تأتينا بها، ما أشدّ أصولها، وأحسن فصولها، وأقل فصولها، وأمر له بنجسين ألف درهم، فقال له إسحاق : وصفتك والله يا أمير المؤمنين أحسن منه ، فعلاّم أخذ الجائزة؟ فضحك الرشيد، وقال : أجعلوها مائة ألف درهم؛ قال الأصمعي : فعلمت يومئذ أن إسحاق أحذق بصيد الدراهم مني ! .

وكان من أشد منافسي إسحاق في الغناء إبراهيم بن المهدي أخو الرشيد الذي كان يعتز عليه بجاهه، وبماله من حظّ في الفن كبير؛ ومن أشد الملاحاة التي حدثت بينهما، ما كانت في مجلس الرشيد . قال إسحاق : كنت عند الرشيد يوما، وعنده ندامؤه وخاصته، وفيهم إبراهيم بن المهدي، فقال الرشيد غنّ :

أعادل قد مُهِيتُ فما انتهيتُ * وقد طال العتاب فما آرعويتُ
أعادل ما كبرتُ وفيّ ملهٌ * ولو أدركت غايتهك أنتهيتُ
شربتُ مدامةً وسقيتُ أخرى * وراح المنشئون وما أنشيتُ

(١) اقتست نفسه عن الشيء : خبثت وعتت .

فغنيته ، فأقبل على إبراهيم بن المهدي فقال لي : ما أصبت يا إسحاق ولا أحسنت ، فقلت له : ليس هذا مما تعرفه ولا تحسنه ، وإن شئت فقل ، فإن لم أجذك أنك مخطئ فيه منذ ابتدائك الى انتهائك ، فدمى حلال ! ثم أقبلت على الرشيد فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذه صناعتى ، وصناعة أبى ، وهى التى قربتنا منك ، وأوطأنا بساطك ، فاذا نازعنا أحد بلا علم ، لم نجد بداً من الإيضاح والذنب ، فقال : لا لوم عليك ، وقام الرشيد ليقول فأقبل إبراهيم بن المهدي على وقال لي : ويلك يا إسحاق ، أتجترئ على وتقول ما قلت يا ابن الزانية ! فداخلى ما لم أملك نفسى معه ، فقلت له : أنت تشتمنى ، ولا أقدر على إجابتك وأنت ابن الخليفة ، وأخو الخليفة ، ولو لا ذلك لقلت لك : يا ابن الزانية ، كما قلت لي يا ابن الزانية ، أو ترانى لا أحسن أن أقول لك يا ابن الزانية ، ولكن اقولى لك ذلك ينصرف الى خالك ، ولو لا ذلك لذكرت صناعته ومذهبه ، قال : وكان بيطاراً ، ثم سكنت ، وعلمت أن إبراهيم سيشكونى الى الرشيد ، وسوف يسأل من حضر عما جرى ، فيخبرونه فتلافيت ذلك بأن قلت : أنت تظن أن الخلافة لك ، فلا تزال تهتدنى بذلك ، وتعادينى كما تُعادى سائر أولياء وغلمان أخيك حسداً له ولولده على الأمر ، وأنت تضعف عنه وعنهم وتستخف بأوليائهم تشفياً ، وأرجو ألا يخرجها الله تعالى عن الرشيد ولا عن ولده ، وأن يقيمك دونها ، فإن صارت اليك — والعياذ بالله تعالى — فخرام على العيش حينئذ ! والموت أطيب من الحياة معك ، فأصنع حينئذ ما بذاك ! فلما خرج الرشيد وثب إبراهيم بفلس بين يديه فقال : يا أمير المؤمنين ، شمتنى وذكرى واستخف بي ! فغضب الرشيد ، وقال لي : ويلك ما تقول ؟ قلت : لا أعلم ، فسأل من حضر ، فأقبل على مسرور وحسين ، فسألها عن القصة ، فجعلت يُخبرانه ووجهه يتربد الى أن انتهيا الى ذكر الخلافة ، فسرى عنه ورجع لونه ، وقال : لا ذنب له ، شمتته فعرفك أنه لا يقدر على جوابك ، ارجع الى موضعك ، وأمسك عن هذا ! فلما انقضى المجلس وانصرف الناس ، أمر بالآبرج ، وخرج كل من حضر حتى لم يبق غيرى ، فساء ظنى وأوهمتى نفسى ، فأقبل على

وقال : يا اسحاق اتراني لم أفهم قولك ومرادك ! وقد زينت ثلاث مررات ، اتراني لا أعرف وقائعك وإقدامك وأين ذهبت ! ويلك لا تعد ! حدثني عنك : لوضربك ابراهيم أكنت أضربه وهو أنى يا جاهل ! أتراه لو أمر غلماناه فقتلوك أكنت أقتله بك ! فقالت : والله يا أمير المؤمنين ، قتلتي بهذا الكلام وإن بلغه ليقتلني ، فما أشك في أن بلغه الآن ، فصاح بمسرور وقال : على ابراهيم ، فأحضر فقال لي : قم فانصرف فقلت لجماعة من الخدم — وكلهم كان لي حُبًّا ، وإلى ماثلا ، ولي مطيعا — : أخبروني بما يجري ، فأخبروني من غد ، أنه لما دخل عليه وبخه وجهه وقال له : ألتستخف بخادمي وصنيعتي ، وابن خادمي وصنيعتي ، وصنيعة أبي في مجلسي ! وتقدم على وتستخف بمجلسي وحضرتي ! هاهاه ! وتقدم على هذا وأمثاله ! وأنت مالك وما للغناء ! وما يدريك ما هو ؟ ومن أخذك به وطاركك إياه حتى تُتهم أنك تبلغ فيه مبلغ اسحاق الذي غدى به وعلمه ، وهو من صناعته ؟ ثم تظن أنك تُخطئه فيما لا تدريه ويدعوك الى إقامة الحجّة عليه ، فلا تثبت لذلك ، وتعتصم بشتمه ، هذا مما يدل على السقوط وضعف العقل ، وسوء الأدب ، من دخولك فيما لا يشبهك وغلبة لذلك على مروءتك وشرفك ، ثم إظهارك إياه ولم تُحكمه ، وإدعائك ما لا تعلمه حتى يسبك الى إفراط الجهل ، ألا تعلم أن هذا سوء أدب ، وقلة معرفة ، وعدم مبالاة للخطأ والرد القبيح والتكذيب ثم قال : والله العظيم ، وحق رسوله ، وإلا فأنا برىء من المهدى إن أصابه أحد بمكروه ، أو سقط عليه حجر من السماء أو وقع من دابته ، أو سقطت عليه سقيفة ، أو مات بغاة ، لأقتلك به ، والله والله وأنت أعلم . قم الآن فانخرج ولا تعرض له . فخرج وقد كاد أن يموت ، فلما كان بعد ذلك ، دخلت عليه و ابراهيم عنده ، بفعل ينظر اليه مرّة ، وإلى مرّة ، ويضحك ، ثم قال له : إني لأعلم شيتك لاسحاق وميلك اليه ، وإلى الأخذ عنه ، وإن هذا لا يحميك من جهته كما تُريد إلا بعد أن يرضى ، والرضا لا يكون بمكروه ، ولكن أحسن اليه وأكرمه ، وأعيرف حقه ويصله ، فاذا فعلت ذلك ، وخالف ما تهواه ، عاقبتك بيد

مستطيلة ولسان منطوق، ثم قال لى : قم الآن الى مولاك، وابن مولاك، فقبّل رأسه، فقامت اليه، وقام الى واصطلحنا .

ولعل ما قدّمناه لك يعطيك صورة واضحة، عما كان لإسحاق من مكانة لدى الرشيد، وما كان للرشيد من حدب عليه وير به .

أما مكانة إسحاق عند الأمين وبطانته، فإنها لا تقل، أيدك الله، عن مكانته عند الرشيد وبطانة الرشيد، ولا ترى خيرا فى اللبالة على هذه المكانة، من كلام إسحاق نفسه قال إسحاق : استدانى الأمين يوما، وهو مُستلقٍ على فراش، حتى صارت ركبتى على الفراش، ثم قال : يا إسحاق، أشكو اليك أصحابي، فعلتُ بفلان كذا ففعل كذا، وفعلتُ بفلان كذا ففعل كذا، حتى عدّ جماعة من خواصه، فقلت له : أنت يا سيدى تفضل علىّ وتحسن رأيك فىّ! ظننت أنى ممن يُشاور فى مثل هذا الحديث، تجاوزت بى حدى ومقدارى، وهذا رأى يجل ولا يبلغه قدرى، فقال : ولم ؟ أنت عندى عالم عاقل ناصح . قلت : هذه المتزلة عند سيدى ! علمتني ألا أقول إلا ما أعرف، ولا أطلب إلا ما أنال، فضحك وقال : بلغنى أنك عملت فى هذه الأيام لحناً فى شعر الراعى، فلم أسمع منك، فقلت : يا سيدى ما سمعه أحد إلا جوارى، ولا حضرتُ عندك منذُ صنعته . فقال : غنّه فقلت : الهيبة والصّحوة يمتنعان من أن أؤديه كما أريد، فلو أنس أمير المؤمنين عبده بشيء يُطربه ويُقوى طبعه كان أجود . قال : صدقت، ثم أمر بالغداء فتغدينا، وأمر بالسائر فُتّت، وغنى من وراءها وشربنا أفداحا، فقال : يا إسحاق، ما جاء أوان الصوت؟ فقلت : بلى يا سيدى، وغنيتُ فى شعر الراعى :

ألم تسأل بعارمة الديار * عن الحى المفارق أين سارا

بلى ساءلها فأبت جواباً * وكيف تسائل الدمن القفارا

فاستحسنه وطرب عليه، وقال : يا إسحاق، لا تطلب بعد البغية ووجود المنية، وما أشرب بقية يومى إلا على هذا الصوت، ووصلنى وخلع علىّ من ثيابه .

ومما حدث بين الأمين وإسحاق أن الأمين اصطحب ذات يوم ، وأمر بالتوجيه الى إسحاق ، فوجه اليه عدة رُسل كلهم لا يصادفه ، حتى جاء أحدهم به ، بغناء مُنشياً ومحمد مُغضب ، فقال له : أين كنت ؟ ويلك ! قال : أصبحتُ يا أمير المؤمنين نسيطا ، فبكرتُ الى بعض المنزهات ، فاستطبتُ الموضع فأقمت فيه ، وسقاني زياد فذكرتُ أبياتا للأخطل وهو يسقيني ، فدارك فيها لحنٌ حسن ، فصنعتُه وقد جئتُك به ، فتبسّم وقال : هاته ، فما تزال تأتي بما يرضى عنك عند السُّخط ، فغنّاه :

إذا ما زيادٌ علّني ثم علّني * ثلاث زجاجات لهنّ هديرٌ
نرجتُ أحرّ الذيل حتى كائنّي * عليك أمير المؤمنين أميرٌ

فقال : بل على أبيك قبح الله فعلك ! فما زال إحسانك في غنائك يحو إساءتك في فعلك ، وأمر له بألف دينار . وأصل قول الأخطل :

* إذا ما نديمي علّني *

وزياد هذا غلام لإسحاق . وقد ذكرنا فيما سبق أنه أعتقه وزوجه من أخته بدافع من أريحيته وأثر الشراب فيه .

أما عبد الله المأمون ، فيحدثنا إسحاق عن ناحية من شخصيته ، وهي موقفه من الغناء وسماحه ، وقد ألعنا إليها حين عرضنا للكلام عن المنادمة في عصره ، ثم نسوق اليك بعد هذا الحديث ما كان لإسحاق من مكانة لدى المأمون أيضا .

قال إسحاق : أقام المأمون بعد قدومه بغداد عشرين شهرا لم يسمع حرفا من الأغاني ، ثم كان أول من تغنى بحضرته أبو عيسى بن الرّشيد ، ثم واطب على السماع مُستترا ، متشبها في أول أمره بالرّشيد ، فأقام على ذلك أربع حجج ، ثم ظهر للندماء والمغنين . وكان حين أحبّ السماع سأل عني ، فخرجتُ بحضرته ، وقال الطاعن عليّ : ما يقول أمير المؤمنين في رجل يتيه على الخلافه ، وما أبقى من التّيه شيئا حتى استعمله ! فأمسك المأمون عن ذكرى ، وجفاني من كان يصلي لسوء رأيه فيّ ، فأضّر ذلك بي ، حتى جاءني علّويه يوما فقال لي :

أتأذن لي في ذكرك عند المأمون؟ فإننا قد دُعينا اليوم؛ فقلتُ: لا ولكن غنّه بهذا الشعر، فإنه سيبعته على أن يسألك لمن هذا الشعر، فإذا سألك فتح لك ما تريد، وكان الجواب أسهل عليك من الابتداء؛ فقال: هات؛ فألقيت عليه لحن في شعري:

يأسرحة الماء قد سدت موارده * أما اليك طريق غير مسدود

لحائم حام حتى لا حراك به * محلاً عن طريق الماء مطرود

ومضى علويّه، فلما استقرّ به المجلس غناه، فما عدا المأمون أن يسمع الغناء حتى قال: ويحك يا علويّه! لمن هذا الشعر؟ قلتُ: ياسيدي لعبد من عبيدك جفوتّه وأطرحته بغير جرم، فقال: إسحاق تنفي؟ فقلت: نعم، فقال: يحضر الساعة، بخاءني رسوله، فحضرت فلما دخلت، قال: أدن فدنوت، ورفع يديه مادّهما إليّ، فأكبّيت عليه فاحتضنني بيديه، وأظهر من يرّى ما لو أظهره صديق مؤانس لصديقه لسره^(١).

ثم ما زالت تعظم مكانته عند المأمون، حتى سأله يوماً أن يكون دخوله مع أهل العلم والأدب والرواة لا مع المغنين، فاذا أراد الغناء غناه؛ فأجابه إلى ذلك. ثم سأله بعد مدة طويلة أن يأذن له بالدخول مع الفقهاء فأذن له، فدخل يوماً مع يحيى بن أكثم متماسكين، وعلويّه ومخارق في حجرة لهما جالسين ينتظران جلوس المأمون، فرأياهما وقد دخلا حتى جلسا بين يدي المأمون، فكاد علويّه أن يُجثّ، وقال: يا قوم سمعتم بأعجب من هذا! يدخل قاضي القضاة ويده في يد مغنٍّ حتى يجلسا بين يدي الخليفة! ثم مضت مدة فسأل إسحاق المأمون في لبس السواد يوم الجمعة والصلاة معه في المقصورة، فضحك المأمون وقال: ولا كلّ هذا يا إسحاق! وقد اشتريت منك هذه المسألة بمائة ألف درهم، وأمر له بها. وهذا الخبر يؤيد ما ذكرناه في أوّل كلامنا على إسحاق من أنه كان يطمح إلى أن يكون في مرتبة غير مرتبة المغنين.

(١) أنظر كتاب بغداد (ج ٦ ص ٣٢٨) وقد سبق أن ذكرنا هذه القصة في فصل المنادمة بصيغة أخرى، نقلاً عن كتاب التاج.

وانظر الى دقة احساس اسحاق وقوة ذوقه في تبيينه الخطأ في وتر واحد بين ثمانين وترًا، وكان ذلك في مجلس المأمون، قال اسحاق : دعاني المأمون يوما، وعنده ابراهيم بن المهدي، وفي مجلسه عشرون جارية، قد اجلس عَشْرًا عن اليمين وعَشْرًا عن يساره، فلما دخلت، سمعتُ من الناحية اليسرى خطأً فأنكرته؛ فقال المأمون : أسمعَ خطأ؟ فقلتُ : نعم يا أمير المؤمنين، فقال لإبراهيم بن المهدي : هل تسمعُ خطأ؟ قال لا؛ فأعاد على السؤال فقلت : بل يا أمير المؤمنين، فإنه لفي الجانب الأيسر؛ فأعاد إبراهيم سمعه الى الناحية اليسرى، ثم قال : لا، والله يا أمير المؤمنين ما في هذه الناحية خطأ! فقلتُ : يا أمير المؤمنين مَرَّ الحوارى الآلى على اليمين يُمسِكَنَّ، فأمرهنَّ فأمسكنَّ، ثم قلتُ لإبراهيم : هل تسمع خطأ؟ فتسمع ثم قال : ما ها هنا خطأ؛ فقلتُ : يا أمير المؤمنين، يُمسِكَنَّ وتضرب الثامنة، فأمسكن وضربت الثامنة، فعرف إبراهيم الخطأ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين ها هنا خطأ؛ فقال المأمون عند ذلك لإبراهيم ابن المهدي : لا تُمارِ اسحاق بعدها، فان رجلا عرف الخطأ بين ثمانين وترًا وعشرين حلقة بلحديراً أَلَا تُمارِيه ! قال : صدقت يا أمير المؤمنين؛ وكان في الأوتار كلها مَنَى فاسدُ التسوية، فطرب المأمون وقال : لله درك يا أبا محمد ! فكأنى يومئذ .

وخبّر آخر يدل على حذق اسحاق بفنه في مجلس آخر للمأمون، قال اسحاق : دخلت على المأمون يوما، وعقيد يُغَنِّيهِ مُرْتَجِلاً وغيره يضرب عليه، فقال : يا اسحاق كيف تسمعُ مَغْنِيًا هذا؟ فقلت : هل سأل أمير المؤمنين غيري عن هذا؟ فقال : نعم، سألت عمي ابراهيم فقرّطه، واستحسنه؛ فقلت : يا أمير المؤمنين — أدام الله سرورك، وأطاب عيشك — إن الناس قد أكثروا في أمرى، حتى نسبَتْنِي فرقة الى التريُّد في علمي؛ قال : فلا يمنعك ذلك من قول الحق اذا لزِمَكَ؛ فقلت لعقيد : أردد الصوت الذي غَنَّبْتَهُ، فردّه وتحفّظ فيه وضرب عليه ضاربُهُ، فقلت لإبراهيم بن المهدي : كيف رأيته؟ فقال : ما رأيتُ شيئاً أنكرهُ مما سمعته، فأقبلتُ على عقيد، وقلتُ له لما استوفاه : في أىّ طريقة غَنَّبْتَ؟ فقال : في الرَّمَل؛ فقلت للضارب : في أىّ طريقة ضربت؟ فقال : في الهَزَج الثقيل؛ فقلت : يا أمير المؤمنين، ما عسى أن أقول

في صوت يُغنيهِ مُغنيهِ رَمَلًا ، ويضربه ضاربه هَزَجًا ثَقِيلًا ، وليس هو صحيحًا في إيقاعه الذي ضُرب عليه ؟ قال وتفهمه إبراهيم بن المهديّ ، فقال : صدّق يا أمير المؤمنين ، والأمر فيه بين ! فعجب المأمون من ذلك كيف خفيّ على كل من حضر .

أما منزله عند الواثق ، فيقول ابن حمدون : سمعت الواثق يقول : ما غنّاني إسحاق قط إلا ظننت أنه قد زيد في ملكي ، ولا سمعته قط يُغني غناء ابن سريج إلا ظننت ابن سريج قد نُسِر ، وإني ليحضرني غيره إذا لم يكن حاضرًا فيتقدمه عندي بطيب الصوت ، حتى إذا اجتمع عندي رأيت إسحاق يعلو رأيت من ظننت أنه يتقدمه ينقص ، وإن إسحاق لنعمة من نعم الملوك التي لم يحظ أحد بمثلا ، ولو أن العمر والشباب والنشاط مما يُشترى لاشتريتن له بشطر ملكي .

أما المتوكل الذي تُوفي إسحاق في أول عصره ، فيحدثنا ابن حمدون أنه سأل عن إسحاق ، فعرف أنه كُف وأنه بمنزله ببغداد ، فكتب في إحضاره ، فلما دخل عليه رفعه حتى أجلسه قدام السرير ، وأعطاه محبّة ، وقال : بلغني أن المعتصم دفع إليك في أول يوم جلست بين يديه محبّة ، وقال : إنه لا يستجلب ما عند حرمثل إكرامه . ثم سأله : هل أكل ؟ فقال : نعم ، فأمر أن يُسقى ، فلما شرب أقداحا قال : هاتوا لأبي محمد عودا ، فغنى به فاندفع يُغني بشعره :

ما علة الشيخ عيناه بأربعة * تغرورقان بدمع ثم تنسكب

قال ابن حمدون : فباقي غلام من الغلمان الوقوف إلا وجدته يرقص طربًا ، وهو لا يعلم بما يفعل ، فأمر له بمائة ألف درهم . ثم انحدر المتوكل إلى الرقة ، وكان يستطيها لكثرة تغريد الطير فيها ، فغناه إسحاق :

أن هتفت ورقاء في رونق الضحى * على فنّ غضّ النبات من الرند

بكيت كما يبكي الوليد فلم تكن * جليدا وأبديت الذي لم تكن تُبدي

فضحك المتوكل ، ثم قال : يا إسحاق ، هذه أخت فلتك بالواثق لما غنيته بالصالحية :

طربت إلى أصبيبة صغار * وذكري الهوى قرب المزار

فكم أعطاك لما أُذِن لك في الانصراف؟ قال : مائة ألف دينار؛ فأمر له بمائة ألف دينار وأُذِن له بالانصراف .

ولمّا أَوْ ذَهَبْنَا نَذْكُرُكَ مِنْ أَخْبَارِ إِسْحَاقَ ، وَمَا كَانَ لَهُ مِنْ نَوَادِرٍ فِي مَجَالِسِ الْخُلَفَاءِ وَغَيْرِ مَجَالِسِ الْخُلَفَاءِ مِنْ رَجَالَاتِ الدَّوْلَةِ لَعَدُونَا حَدَّ الْقَصْدِ ، وَلَمْ نَمَّا نُحِيلَ مَنْ يَرِيدُ التَّرِيدَ مِنْ أَمْرِ إِسْحَاقَ عَلَى كِتَابِ الْأَغَانِي . وَتَحْتِمُ هَذَا الْفَصْلُ مِنْ أَخْبَارِ إِسْحَاقَ بِمَا قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عِمْرَانَ الْجُرْجَانِيَّ ، حِينَ ذُكِرَ عِنْدَهُ . قَالَ : كَانَ وَاللَّهِ إِسْحَاقُ غُرَّةً فِي زَمَانِهِ ، وَوَاحِدًا فِي عَصْرِهِ ، عِلْمًا وَفَهْمًا ، وَأَدْبًا وَوَقَارًا ، وَجَوْدَةً رَأَى ، وَصِحَّةَ مَوَدَّةٍ ، وَكَانَ وَاللَّهِ يُحْرَسُ النَّاطِقُ إِذَا نَطَقَ ، وَيُخَيَّرُ السَّامِعُ إِذَا تَحَدَّثَ ، لَا يَمْلُ جُلُوسُهُ فِي مَجْلِسِهِ ، وَلَا تَمُجُّ الْأَذَانُ حَدِيثُهُ ، وَلَا تَنْبُو النَّفْسُ عَنْ مَطَاوِلَتِهِ ، إِنْ حَدَّثَكَ أَلْهَاكَ ، وَإِنْ نَاطَرَكَ أَفَادَكَ ، وَإِنْ غَنَّاكَ أَطْرَبَكَ ، وَمَا كَانَتْ خَصْلَةٌ مِنَ الْأَدَبِ وَلَا جِنْسٌ مِنَ الْعِلْمِ ، يَتَكَلَّمُ فِيهِ إِسْحَاقُ فَيُقَدِّمُ أَحَدًا عَلَى مُسَاجَلَتِهِ أَوْ مَنَاوَأَتِهِ فِيهِ !

قال إسحاق بن إبراهيم : رأيتُ في منامِي جَرِيرًا جَالِسًا يُنْشِدُ وَأَنَا أَسْمَعُ ، فَلَمَّا فَرَغَ أَخَذَ كُبَّةً مِنْ شَعْرَى فَأَلْقَاهَا فِي فِيَّ فَابْتَلَعْتُهَا ، فَأَوَّلَ ذَلِكَ بَعْضُ مَنْ ذَكَرْتُهُ لَهُ أَنَّهُ وَرَثَتِي الشَّعْرَ . قَالَ زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمُهَلَّبِيُّ : وَكَذَلِكَ كَانَ ، لَقَدْ مَاتَ إِسْحَاقُ وَهُوَ أَشْعَرُ أَهْلِ زَمَانِهِ .

وقال أبو الفرج الأصفهاني : وكان إسحاق جيّد الشعر ، كان يقول ويُنسِبُه للعرب ، فمن ذلك قوله :

لَفَظَ الْخُدُورُ عَلَيْكَ حُورًا عَيْنًا * أُنْسَيْنِ مَا جَمَعَ الْكَأْسُ قَطِيبًا
فَإِذَا بَسَمَنَ فَعَنْ كَمَثَلِ غَمَامَةٍ * أَوْ أُلْحُوانِ الرَّمْلِ بَاتَ مَعِينًا
وَأَصَحَّ مَا رَأَيْتُ الْعَيُونَ مُحَاجِرًا * وَلَهْنُ أَمْرُضٍ مَا رَأَيْتَ عَيُونًا
فَكَأَنَّمَا تِلْكَ الْوَجْوهُ أَهْلَةٌ * أَقْرَنَ بَيْنَ الْعَشِيرِ وَالْعَشِيرِينَ
وَكَأَنَّهُنَّ إِذَا نَهَضْنَ لِحَاجَةٍ * يَنْهَضْنَ بِالْعَقَدَاتِ مِنْ يَبْرِينَا

وأشعاره في هذا النوع كثيرة. ولعل الذي كان يدفع أولئك الشعراء الى أن ينسبوا خير ما تجود به قرائحهم الى العرب الجاهليين أو أعراب الصحراء، رُوح ذلك العصر، وأنها كانت رُوحاً تميل الى القديم، ولا سيما اذا زُين هذا القديم بإطار من خيال الرواة والقصاصين ويظهر أن ما كانوا يظفرون به رِوَاةً للشعر العربي أكثر مما كانوا يظفرون به شعراء مجيدين، وإلا فهل يتصور أن ينسب المرء نبتج قريحته الى غيره، ما لم يكن ممن ذلك عظيماً ؟ .

ومن شعر إسحاق ما اعتذر به الى الواثق حين عتبَّ عليه في تأخره عنه، وهو قوله :

أشْكُو الى الله بُعدى عن خليفته * وما أعالجُ من سُقمٍ ومن كِبَرٍ
لا أستطيع رَحِيلاً إن هَمَّمتُ به * اليه يوماً ولا أقوى على السَّفرِ
أنوى اليه رَحِيلاً ثم يَمْنَعُنِي * ما أحدث الدهرُ والأيامُ في بَصْرِى

ومن شعره أيضاً عند علاؤ سنة :

سَلَامٌ على سَيْرِ القِلاصِ مع الزَّكَبِ * ووصل الغواني والمدامة والشَّربِ
سَلَامٌ امرئ لم يبق منه بقية * سوى نظير العينين أو شهوة القلبِ

ومن جيد شعر إسحاق ما كان يستحسنه ابن الأعرابي ويعجب به أيما إعجاب، وهو قوله :

هَلْ الى أن تنام عيني سبيلُ * إنَّ عهدي بالنوم عهدٌ طويلُ
غاب عني من لا أسمى فعبني * كلَّ يوم وجداً عليه تسيلُ
إنَّ ما قل منك يكثر عِنْدِي * وكثيرٌ ممن تُحبُّ القليلُ

وكان إسحاق اذا غنى هذه الأبيات تفيض عيناه . ولما سُئِلَ عن بُكائه أجاب :
تَعَشَّيْتُ جارية فقلت لها هذه الأبيات، ثم ما كنتُ بها، فكنت مشغُوفاً بها، حتى كبرتُ
واعتلت عيني، فإذا غنيت هذا الشعر ذكرت أيامي المتقدمة، وأنا أبكي على دهرى
الذي ركنْتُ فيه .

وقال إسحاق: أنشدت الأصمعيّ الأبيات الثلاثة، فجعل يعجب بها ويرددها، فقلت له: إنما بنت ليبتها، فقال: لا جرم أن أثر التوليد فيها ظاهر، فقال إسحاق: ولا جرم أن أثر الحسد فيك ظاهر! ولعل هذا هو سبب الجفوة التي كانت بين إسحاق والأصمعيّ. فإن ابن منظور يروي لنا في مختصره: أن إسحاق كان يأخذ عن الأصمعيّ ويذكر عنه الروايات، ثم فسد ما بينهما، فهجاه إسحاق وتلبّه، وذكر عند الرشيد أنه قليل الشكر، بخيل، ساقط النفس، لا تزكو الصنيعة عنده، وذكر له أبا عبيدة معمر بن المثنى بالثقة والصدق والسماحة، واشتماله على جميع علوم العرب، وفعل مثل ذلك عند الفضل بن الربيع، ولم يزل بهما حتى وضع منزلة الأصمعيّ عندهما، ثم أنفذا إلى أبي عبيدة مالا جليلا واستقدماه، فكان إسحاق سبب ذلك. وكان إسحاق قليل الهجو، فإذا هجا رأيت في هجوه عفة اللسان، وبجمال التعريض. وزيد أن نذكر لك من هذا الباب قوله في أحمد بن هشام، وكان إسحاق يالف أحمد هذا وأخاه عليا وسائر أهله إلفا شديدا، ف وقعت بينهم نبوة ووحشة فهجاهم. وهذا مما قاله في أحمد:

وصافية تُعشى العيون رقيقة * رهينة عام في الدنانير وعام
أدركنا بها الكأس الروية موهنا * من الليل حتى أنجأ كل ظلام
فما ذر قرن الشمس حتى كأننا * من العي نحكي أحمد بن هشام

ويقال إن أحمد سأل ما ذنبى؟ فقال: لأنك قعدت على طريق القافية...

وكان إسحاق يسأل الله ألا يتلي به بالقولنج، لما رأى من صعبته على أبيه، فرأى في منامه كأن قائلا يقول: قد أجيبك دعوتك، ولست تموت بالقولنج، ولكك تموت بضده، ثم أصابه ذرب في شهر رمضان سنة ٢٣٥ هـ فكان يتصدق في كل يوم يمكنه صومه بمائة درهم، ثم ضعف عن الصوم فلم يطقه ومات في الشهر.

ولما نُعي إلى المتوكل عمه وحزن عليه، وقال: ذهب صدر عظيم من جمال الملك

وبهائه وزينته!

مؤلفاته :

علمت مما أوردناه لك في الكلام على إسحاق أنه كان يحسن كل ما كان عاجله من العلوم إحساناً قل أن يستوى لغيره، ولكنه قصر تأليفه على ما قصرته عليه وظيفته، وعمله، فألف في الأغاني، والإيقاع والنغم، وآداب الشراب، والندماء. والمناذمات، وأخبار الشعراء، وأهل الفن من المغنين والمغنيات. فمن مؤلفاته : كتاب الأغاني الكبير، وكتاب المحظ والإشارات، وكتاب الرقص والزفن، وكتاب النغم والإيقاع، وكتاب الندماء والمناذمات. وله مؤلفات عمن سبقه من أهل الفن، رجالاً ونساء، أمثال : معبد، وابن مسجج، وعزرة الميلاء، وغيرهم. وله أيضاً كتاب الهدليين، وكتاب تفضيل الشعر، وكتاب أخبار ذي الرمة، وكتاب جواهر الكلام. وله كتاب منادمة الإخوان، وتسامر الخلائ، وكتاب القيان، وغير ذلك مما ينطق بعلو كعبه في شتى الفنون، ويشهد بأنه دائرة معارف عاقمة.

عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فريد زفاعي

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الثاني

(حقوق الطبع محفوظة للأولف)

[الطبعة الثالثة]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٢٨ هـ - ١٣٤٦ م

فهرس

المجلد الثاني من عصر المأمون

ملحق الكتاب الأول - عصر بني أمية

باب المنشور :	صفحة
رسالة أبي بكر على	١
كلام عائشة رضي الله عنها في الانتصار لأبيها	١٢
كلمة أم الخير بنت الحريش	١٤
كلمة الزرقاء بنت عدى	١٧
كلمة عكرشة بنت الأطرش	١٨
رسالة لعبد الحميد الكاتب كتبها عن مروان بن محمد لبعض من ولاء	٢٠
رسالة ثانية لعبد الحميد الكاتب أوصى فيها الكتاب	٥٣
رسالة ثالثة لعبد الحميد الكاتب في الشطرنج	٥٧
رسالة رابعة لعبد الحميد الكاتب وصف بها الصيد	٦٠

باب المنظوم :

أنواع الغزل وزعم كل نوع	٦٣
الغزل الإباحي - عمر بن أبي ربيعة	٦٤
الغزل العذري - جميل	١٠٣
الغزل الصناعي - كثير	١٢٤
الغزل القصصي - قيس بن الملقح (المحنون)	١٣٨
قيس بن ذريح	١٥٢
الشعر السياسي - النعمان بن بشير	١٦٤

ملحق الكتاب الثاني - عصر بني العباس

باب المنشور :

مشاورة المهدي لأهل بيته في حرب خراسان	١٦٩
رسالة أبي الربيع محمد بن الليث التي كتبها للرشد إلى قسطنطين ملك الروم	١٨٨

فهرس المجلد الثاني

(د)

صفحة	
٢٣٧	رسالة يحيى بن زياد في تقرير الرشد
٢٤٤	كتب الرشد
٢٤٤	كتاب عهد البيعة
٢٤٧	نسخة الشرط الذي كتب عبد الله بن أمير المؤمنين بخط يده في الكعبة
٢٤٩	نسخة كتاب الرشد الى العمال
	باب المنظوم :
٢٥٢	بشار بن برد
٢٧٧	حماد بن محمد
٢٨٧	مروان بن أبي حفصة
٣٠٠	أبو دلالة
٣١٧	أبان بن عبد الحميد اللاحق
٣٢٦	أخبار حمدان بن أبان
٣٣٣	منصور النخري
٣٣٩	السيد الحميري
٣٤٩	سلم بن عمرو الخاسر
٣٥٤	ربيعة الرقي
٣٥٩	الرقاشي
٣٦١	أبو العتاهية
٣٧٤	مسلم بن الوليد
٣٩٣	العباس بن الأحنف
٤٠٠	ابن مناذر
٤٠٣	صالح بن عبد القدوس
٤٠٧	سعيد بن وهب
٤١١	الحسن بن وهب
٤١٩	أهيج السلي
٤٢٣	علي بن الجهم
٤٣١	علي بن جبلة

مُلْحَقٌ الكتاب الأول

باب المنشور

ذكرنا في مقدمة المجلد الأول من "عصر المأمون" أننا قسمنا المجلد الثاني الى ملحقات للكتب الثلاثة عن العصور الثلاثة، وعُنيّا عناية خاصة الى جانب ذلك بذكر جملة صالحة من آثار كاتب خاص وشاعر خاص لتمثيل عصرهما . وآنخذنا من عبد الحميد الكاتب وعمر بن أبي ربيعة أنموذجا أمويًا ، ومن أبي الربيع محمد بن الليث وبشار بن بُردٍ مثالا عباسيا ، ومن عمرو بن مسعدة وأبي نُوَاس أنموذجا لتصوير الحياة الكتابية والشعرية في عصر الأمين والمأمون، الى غير ذلك من النماذج والاثار مما يستدعيه المقام، وقد أوردناها من غير أن نعرض لها بتحليل أو بيان - اللهم إلا تفسير بعض ألفاظها الغريبة وشرح كلماتها الغامضة - فهي في وضوحها ودلالاتها على ما أردنا من إيرادها غير محتاجة الى شيء .
وها نحن أولاء نذكر ما وعدناك به .

١ - رسالتا أبي بكر وعليّ

(١) قال أبو حيان علي بن محمد التّوحيديّ البغداديّ : سَمَرْنَا لَيْلَةً عند القاضي أبي حامد أحمد بن إِسْرَ المَرُورُودِيّ ببغداد، فتصرف في الحديث كلّ متصرفٍ، وكان غزير الرواية،

(١) انظر كتاب صبح الأعشى ص ٢٣٧ ج ١

لطيف الدراية، بخرى حديث السقيفة، فركب كلُّ مركبا، وقال قولا، وعرض بشيء،
وترجع الى فن. فقال: هل فيكم من يحفظ رسالة لأبي بكر الصديق^(١)، رضى الله عنه، الى
على بن أبي طالب كرم الله وجهه، وجواب على عنها، ومبايعته إياه عقيب تلك المناظرة؟
فقال الجماعة: لا والله؛ فقال: هي والله من بنات الحقائق، ومخبآت الصنادق، ومنذ
حفظتها ما رويتها إلا لأبي محمد المهلب في وزارته، فكتبها عني بيده. وقال: لا أعرف
رسالة أعقل منها ولا أئين؛ وإنما لتدل على علم وحلم، وفصاحة ونباهة، وبعد غور، وشدة
غوص، فقال له العباداني: أيها القاضي، فلواتممت المنية علينا بروايتها! أسمعناها،
فنعن أوعى لك من المهلب، وأوجب ذمًا ما عليك؛ فاندفع وقال:

حدثنا الخزاعي بمكة عن أبي ميسرة، قال حدثنا محمد بن أبي فضال عن عيسى بن
دؤب بن المتاح، قال سمعت مولاي أبا عبيدة يقول: لما استقامت الخلافة لأبي بكر
رضي الله عنه بين المهاجرين والأنصار، بعد فتنة كاد الشيطان بها، فدفع الله شرها ويسر

(١) هو أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة صاحب رسول
الله وأول خليفة له في الإسلام وخطيب يوم السقيفة.

ويجتمع نسبه مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرة بن كعب. ولد بعد مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم
بسنتين وبضعة أشهر. ونشأ من أكرم قریش خلقا، وأرجحهم حلما، وأسماهم بدا، وأشدهم حفة. وكان أغلبهم بالأنساب
وأيام العرب ومفاخرها. صحب رسول الله قبل النبوة. وكان أول من آمن به من الرجال وصدقه في كل ما جاء به،
ولذلك سمي الصديق، وأنفق أمواله في تأييد دعوته، وهاجر معه الى المدينة مؤثرا صحبته على كل أهله وولده، وشهد معه
أكثر الغزوات. وما زال ينفق ماله وقوته في معاضدة رسول الله حتى انتقل صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى.
واختلفت العرب، وارتدت عن الإسلام، ومنعت الزكاة إلا أهل المدينة ومكة وثقيف بالطائف، بلجؤد عليهم
الجيش حتى قمهم، وجمع العرب على الإسلام، وساقهم قوا إلى فتح ممالك كسرى وقبصر. وما مات إلا وجيشه
تهزم جيوش الفرس والروم وتستولى على مدائنهم وحصونهم. وكان رحمه الله فصيحًا بليغًا، خطيبًا موقوفا، حاضر
البدية، قوى الحجّة، شديد التأثير، يشهد بذلك خطبته يوم السقيفة، وذلك أنه لما مات رسول الله اختلفت الصحابة
فيمن يبايعونه خليفة له عليهم؛ فأبى الأنصار إلا أن يكون الخليفة منهم، وأبى المهاجرون من قریش إلا أن يكون
منهم. واشتد النزاع حتى كادت تقع الفتنة، فخطبهم خطبة لم يلبث الجميع بعدها أن بايعوه خليفة. وكانت وفاته
سنة ١٣ هـ ومدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال.

ملحق الكتاب الأول

٣

خيرها ، بلغ أبا بكر عن عليّ ^(١) تلكم ^(٢) وشماس ، وتهم ^(٣) ونفاس ، فكره أن يتماذى الحال فتبدو العورة ، وتشتعل الجرة ، وتنفرد ذات البين ؛ فدعاني بحضرته في خلوة ، وكان عنده عمر ابن الخطّاب رضى الله عنه وحده ، فقال : يا أبا عبيدة ، ما أئمن ناصيتك ، وأئمن الخير بين عينيك ، وطالما أعزّ الله بك الإسلام وأصلح شأنه على يديك ، ولقد كنت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحرّط ، والمحّل المغبوط ؛ ولقد قال فيك في يوم مشهود : " لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة " ، ولم تزل للدين ملتجأ ، وللؤمنين مُرتجى ؛ ولأهلك رجا ، ولاخوانك ردا . قد أردتُك لأمرٍ خطره مخوف ، وإصلاحه من أعظم المعروف ، ولئن لم يندمل جرحه بيسارك ويرفك ، ولم ^(٤) تجب حيتته برقيتك ، وقع اليأس ، وأعضل البأس ؛ واحتيج بعد ذلك الى ما هو أمر منه وأعلق ، وأعسر منه وأغلق ؛ والله أسأل تمامه بك ، ونظامه على يديك . فتأت له أبا عبيدة وتلطّف فيه ، وأنصح لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ولهذه العصابة غير آل جهدا ، ولا قال حمدا ، والله كالثك وناصرك ، وهاديك ومبصرك ، ان شاء الله . امض الى عليّ واخفّض له جناحك ، وأغضض عنده صوتك ، واعلم أنه سلالة أبي طالب ، ومكانه ممن فقدناه بالأمس — صلى الله عليه وسلم — مكانه ، وقل له : البحر مغرقة ، والبر مفرقة ، والجو أكلف ، ^(٥) والليل أغدق ، ^(٦) والسماء جلواء ، ^(٧) والأرض صلاء ، ^(٨) والصعود متعذر ، والهبوط متعسر ، والحق عطوف رءوف ، والباطل عنوف عسوف ، والعجب قداحة الشر ، والضغن رائد البوار ، والتعريض شجار الفتنة ، والحيحة ثقب العداوة ، وهذا الشيطان متكى على شماله ، متحيل بيمينه ، نافع حُصْنِيهِ ^(٩) لأهله ، ينتظر الشتات والفرقة ، ويدب بين الأمة بالشحناء والعداوة ، عنادا لله عز وجل

(١) الشماس : المعادة والمعادنة . (٢) تهم الشيء : طلبه وتحسسه . (٣) نافس في الشيء منافسة : رغب فيه على وجه المباراة والمفاخرة . (٤) تجب : تقطع . (٥) تأتي فلان للأمر : تهيأ له وأتاه من وجهه . (٦) الجوا أكلف : أسود تعلوه حمرة . (٧) الليل أغدق : مريخ سدولة مظلم . (٨) السماء جلواء : مصحبة . (٩) خالية لا شجر فيها . (١٠) أى مستعد لأن يعمل عمله من الشر .

أولاً، ولآدم ثانياً، ولنبيه — صلى الله عليه وسلم — ودينه ثالثاً، يوسوس بالقُجور، ويُذلي بالغرور، ويمني أهل الشرور. يوحى الى أوليائه زُخرف القول غُروراً بالباطل، دأباً له منذ كان على عهد أبينا آدم صلى الله عليه وسلم، وعادة له منذ أهانه الله تعالى في سالف الدهر، لا منجى منه إلا بعض الناجذ على الحق، وغض الطرف عن الباطل، ووطء هامئة عدو الله بالأشد فالأشد، والآكد فالأكد، وإسلام النفس لله عز وجل في آبتغاء رضاه. ولا بد الآن من قول ينفع إذا ضرَّ السكوت وخيف غيبه، ولقد أرشدك من أفاء ضالَّتكَ^(١)، وصافاك من أحيا مودته بعتائك، وأراد لك الخير من أثر البقاء معك، ما هذا الذي تُسَوِّل لك نفسك، ويدوى به قلبك، ويلتوى عليه رأيك، ويتخاوض دونه طرفك، ويسرى فيه طعنك، ويتراد معه نفسك، وتكثر عنده صعداؤك، ولا يفيض به لسانك. أعجبتك بعد إفصاح! أتليس بعد إفصاح! أدين غير دين الله! أخلق غير خلق القرآن! أهدي غير هدي النبي صلى الله عليه وسلم! أمثلي^(٢) تمثلي له الضراء وتدب له النمر! أم مثلك ينقبض عليه الفضاء، ويكشف في عينه القمر! ما هذه القعقة بالشنان! وما هذه الوعوعة باللسان! إنك والله جد عارف باستجابتنا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وبخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحببتنا، هجرة الى الله عز وجل، ونصرة لدينه في زمان أنت فيه في كن الصبا، وخذر الغرارة، وعنفوان الشيبية، غافل عما يسبب ويريب، لا تبي ما يراد ويُسَاد، ولا تحصل ما يساق ويقاد، سوى ما أنت جار عليه الى غايتك التي اليها عدل بك، وعندها حط رحلك، غير مجهول القدر ولا مجهود الفضل، ونحن في أثناء ذلك نعانى أحوالاً تُزِيل الرؤاسى، ونُقَايى أحوالاً تُسبب النواصى، خائضين غمارها، راكبين تيارها، نتجزع صابها، ونُشْرِج عيابها^(٣)، ونُحْكِم آسائنا، ونبرم

(١) أفاء: أربح. (٢) يتخاوض: يفض من بصره. (٣) الضراء: الاستخفاء. وانظر: ما واراك من شجر، وهو مثل يضرب لمن يخضع صاحبه. (٤) الشنان جمع شن وهو القرية الخلق الصغيرة. والقعقة: الصوت، يريد أنه لا يخوف بمثل هذا. (٥) نُشْرِج عيابها: ننفضها ونضم بعضها الى بعض. والعياب: جمع عبة، وهي زنبيل من آدم تجعل فيه الثياب.

أَمْرَاسَهَا^(١)، والعيونُ تُخْدِجُ بالحسد ، والأنوفُ تَعْطِسُ بالكِبَرُ ، والصدورُ تَسْتَعِرُ بِالغَيْظِ ،
والأعناقُ تُتَطاوَلُ بالفخر ، والشِّفَارُ تُشْحَذُ بِالْمَكْرِ ، والأرضُ تَمِيدُ بالخوف ؛ لا نَنْظُرُ عِنْدَ
المساءِ صَبَاحًا ، ولا عِنْدَ الصَّبَاحِ مَسَاءً ، ولا نَدْفَعُ فِي تَحْرِيرِ أَمْرٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ نَحْشُوَ الْمَوْتَ
دُونَهُ ، ولا نَبْغُ مُرَادًا إِلَّا بَعْدَ الْإِيَّاسِ مِنَ الْحَيَاةِ عِنْدَهُ ؛ فَادِينَ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْأَبِ وَالْأُمِّ ، وَالْحَالِ وَالْعَمِّ ، وَالْمَالِ وَالنَّشَبِ ، وَالسَّيِّدِ وَاللَّبْدِ^(٢) ،
وَالْهَيْلَةِ وَالْبَيْلَةِ^(٣) ، بِطَيْبِ أَنْفُسٍ ، وَقُرَّةِ أَعْيُنٍ ، وَرَحْبِ أَعْطَانٍ ، وَثَبَاتِ عِزَائِمٍ ، وَصِحَّةِ عَقُولٍ ،
وَطَلَّاقَةِ أَوْجُهٍ ، وَذَلَّاقَةِ أَلْسُنٍ ؛ هَذَا مَعَ خَفِيَّاتِ أَسْرَارٍ ، وَمَكْنُونَاتِ أَخْبَارٍ ، كُنْتُ عَنْهَا
غَافِلًا ، وَلَوْلَا سِنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا نَاسِكًا ، كَيْفَ وَفَوَادُكَ مَشْهُومٌ ، وَعُودُكَ مَعْجُومٌ ! .
وَالْآنَ قَدْ بَلَغَ اللَّهُ بِكَ وَأَنْهَضَ الْخَيْرَ لَكَ ، وَجَعَلَ مَرَادَكَ بَيْنَ يَدَيْكَ ، وَعَنْ عِلْمِ أَقُولُ
مَا تَسْمَعُ ؛ فَارْتَقِبْ زَمَانَكَ ، وَقَلِّصْ أَرْدَانَكَ ، وَدَعِ التَّقَعُّسَ وَالتَّجَسُّسَ لِمَنْ لَا يَطْلُعُ لَكَ إِذَا
خَطَا ، وَلَا يَتَرَحَّجْ عَنْكَ إِذَا عَطَا^(٤) ؛ فَالْأَمْرُ غَضٌّ ، وَالنَّفْسُ فِيهَا مَضٌّ ، وَإِنَّكَ أَدِيمٌ هَذِهِ
الْأُمَّةَ فَلَا تَحْلُمَ بِلَحَاجَا ، وَسَيْفُهَا الْعَضْبُ ، فَلَا تَنْبُ أَعْوِجَاجَا ، وَمَاؤُهَا الْعَذْبُ فَلَا تَحُلْ أَجَاجَا .
وَاللَّهُ لَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ ، فَقَالَ لِي : « يَا أَبَا بَكْرٍ
هُوَ لِمَنْ يَرْغَبُ عَنْهُ لَا لِمَنْ يُجَاحِشُ عَلَيْهِ^(٥) ، وَلِمَنْ يَتَضَاعَلُ عَنْهُ لَا لِمَنْ يَنْتَفِجُ إِلَيْهِ^(٦) ، هُوَ لِمَنْ يَقَالُ
هُوَ لَكَ لَا لِمَنْ يَقُولُ هُوَ لِي » .

وَلَقَدْ شَاوَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْعَهْرِ ، فَذَكَرْتُ نِيَانًا مِنْ قُرَيْشٍ ،
فَقُلْتُ : أَيْنَ أَنْتَ مِنْ عَلِيٍّ ! فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنِّي أَكْرَهُ لِفَاطِمَةَ مِيعَةً شَبَاهِيهَ ،
وَحَدَاثَةَ سَنَةٍ . فَقُلْتُ لَهُ : مَتَى كُنْفَتُهُ يَدُكَ ، وَرَعَّتْهُ عَيْنُكَ ، حَقَّتْ بِهِمَا الْبَرَكَةُ ، وَأُسْغِغَتْ عَلَيْهِمَا
النِّعْمَةُ ؛ مَعَ كَلَامٍ كَثِيرٍ خَاطِبَتُهُ بِهِ رَغْبَةً فِيكَ ، وَمَا كُنْتُ عَرَفْتُ مِنْكَ فِي ذَلِكَ لَا حَوَاجَا^(٧) .

(١) جمع مرس ككتف وهو الحبل . (٢) السيد : الشعر . واللبد : الصوف . (٣) يقال : جاءنا
فلان فلم يأتنا بهلة ولا بلة أى لم يأتنا بشيء ، فاهلة من الفرح والاستهلال ، والبهلة من البلب والخير . (٤) مشهور
(بالشين المعجمة) : ذكى متوقد . (٥) عطا : مَدَّ اليك عِقه وأقبل نحوك . (٦) حلم الجلد
(من باب فرح) : فسد وتثقب . (٧) أى بطله ويدافع عنه . (٨) يتطلع اليه ويفتخر به .
(٩) أى ما كنت عرفت منك شيئاً .

ولا لوجاء، فقلت ما قلت وأنا أرى مكان غيرك، وأجد رائحة سواك؛ وكنت إذ ذاك خيراً لك منك الآن لى . ولئن كان عرض بك رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر، فلم يكن معرضاً عن غيرك: وإن كان قال فيك فما سكت عن سواك؛ وإن تلجلج في نفسك شيء فهلم، فالحكم مرضى، والصواب مسموع، والحق مطاع . ولقد نُقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل، وهو عن هذه العصابة راض، وعليها حذر، يسره ما سرها ويسوءه ما ساءها، ويكيده ما كادها، ويرضيه ما أرضاها، ويُسيّطه ما أسيّطها. أمّا تعلم أنه لم يدع أحداً من أصحابه وأقاربه وسُجرائه، إلا أبانه بفضيلة، وخصّه بمزية، وأفرده بحالة! أتظن أنه صلى الله عليه وسلم ترك الأمة سُدىً بدداً، عباهل مباهل، طَلّاحى مفتونة بالباطل، مغبونة عن الحق، لا رائد ولا ذائد، ولا ضابط ولا حائط، ولا ساقى ولا واقى، ولا هادى ولا حادى! كلا! والله ما أشتاق إلى ربه تعالى ولا سأله المصير إلى رضوانه وقربه، إلا بعد أن ضرب المدى، وأوضح الهدى، وأبان الصوى، وأمن المسالك والمطارج، وسهل المبارك والمهايج، وإلا بعد أن شدخ يافوخ الشرك بإذن الله، وشرم وجه النفاق لوجه الله سبحانه، وجَدَعَ أنف الفتنة في ذات الله، وتفل في عين الشيطان بعون الله، وصَدَعَ بملء فيه ويده بأمر الله عز وجل .

وبعد، فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك في بقعة واحدة ودار جامعة، إن استقالوني لك وأشاروا عندى بك، فأنا واضع يدي في يدك، وصائر إلى رأيهم فيك . وإن تكن الأخرى فادخل فيما دخل فيه المسلمون، وكن العون على مصالحتهم، والفاتح لمغالقتهم، والمرشد لضلالتهم، والراصد لغوايتهم . فقد أمر الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى، والتناصر على الحق . ودعنا نقضى هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغل، ونلقى الله تعالى بقلوب سليمة من الضغن .

(١) سجنائه: أصدقائه . (٢) عباهل مباهل (بالياء الموحدة في الكلمتين): مهجلة . (٣) الصوى:

الأعلام . (٤) المهايج: الطرق . (٥) اليافوخ (يهمز ولا يهمز) جزء الرأس الذي يجرك في الطفل .

(٦) في صبح الأعشى: «فهذه» .

وبعد، فالناس ثُمَامَةٌ فارقُ بهم وأحنُ عليهم ولينُ لهم، ولا تُشَقِّ نفسك بنا خاصة فيهم،
وأترك ناجمَ الحقد حصيدا، وطائرَ الشرِّ واقعا، وبابَ الفتنة مُغلَقا، فلا قال ولا قيل ولا لوم
ولا تبيح، والله على ما نقول شهيد، وبما نحن عليه بصير.

قال أبو عبيدة : فلما تأهبتُ للنهوض، قال عمر رضى الله عنه : كُنْ لَدَى الباب
هَنِيئَةً فلي معك دورٌ من القول ؛ فوقفتُ وما أدرى ما كان بعدى ، إلا أنه لحقنى بوجه
يَسْدَى تهللاً، وقال لى : قل لعلّى : الرقادُ مُحَلَمَةٌ، والهُوى مَفْحَمَةٌ، ومامنّا إلا له مقامٌ
معلوم، وحق مشاعٌ أو مقسوم، ونبا ظاهر أو مكتوم ؛ وإن أكيس الكيس من منَح
الشارد تألُفا، وقاربَ البعيدَ تَلَطُّفا، ووزنَ كلَّ شئٍ بميزانه، ولم يخطِ خبره بعيانه،
ولم يجعلِ قُتره مكانَ شِبره، ديناً كان أو دُنيا، ضاللاً كان أو هدى . ولا خير في علم
مستعملٍ في جهل، ولا خير في معرفة مَشُوبَةٍ بُنكر . ولسنا بجلدة رُفَع البعير بين العجان
والذنب . وكلُّ صالٍ فيناره، وكل سِلٌّ فإلى قراره . وما كان سكوت هذه العصابة الى
هذه الغاية لى وشى^(٢)، ولا كلامها اليوم لفرقٍ أوفى . وقد جدد الله بحمد
صلى الله عليه وسلم أنف كل ذى كبر، وقصم ظهر كل جبار، وقطع لسان كل
كذوب، فإذا بعدَ الحق إلا الضلال . ما هذه الخنزوانة التى فى قَرَّاشِ رأسك ! ما هذا
الشَّجَا المعترض فى مَدَارِجِ أنفاسك ! ما هذه القَدَاة التى تَغَشَّتْ ناظرَكَ ! وما هذه
الوَحْرَةُ^(٣) التى أَكَلَتْ شَرَّاسِيْفَكَ ! وما هذا الذى لَيْسَتْ بسببه جلدَ النِّمْرِ، وأَشْثَلَتْ عليه
بالشَّحْنَاء والنُّكْر ! ولسنا فى كِسْرِيَّة كِسْرَى، ولا فى قيصريَّة قيصر ! تأمل لإخوان فارس
وأبناء الأصفر ! قد جعلهم الله جَرّاً لسيوفنا، ودريئةً لرماحنا، ومرمىً لإطعانا، وتبعاً
لسلاطيننا ؛ بل نحن فى نور نبوة، وضياء رسالة، وثمره حكمة، وأثرة رحمة، وعنوان نعمة،

(١) الرفغ : أصل الفخذ من باطن . والعجان : الامت . يريد أن منزلتهم بين الأحياء والعشار ليست
حقيرة مهينة . (٢) الشىء بالكسر اتباع لى . (٣) الخنزوانة : الكبر . (٤) الوحرة
(بالفتح يك) : والحقد العداوة والشراسيف : جمع شرسوف، والشرسوف مقط الضلع .

وظلَّ عَصْمَةٌ ، بين أمة مهديَّة بالحق والصدق ، مأمونة على الرِّثْقِ والفتق ، لها من الله قلبٌ
أبى ، وساعدٌ قوى ، ويدٌ ناصرة ، وعينٌ باصرة . أنظنُّ ظنا ياعلى أن أبا بكر وثب على هذا
الأمر مُفتاتاً على الأمة خادعاً لها أو متسلطاً عليها ! أترأه حلَّ عقودها وأحال عقولها ! أترأه
جعل نهارها ليلاً ، ووزنها كيلاً ، ويقظتها رقاداً ، وصلاحها فساداً ! لا والله ! سلا عنها فولهت
له ، وتطامن لها فليصقت به ، ومال عنها فالت إليه ، وأشمأز دونها فأشتملت عليه ، حبوةٌ
حباه الله بها ، وعاقبةٌ بلغه الله إليها ، ونعمةٌ سرَّبله جمالها ، ويدٌ أوجب الله عليه شكرها ،
وأمةٌ نظر الله به إليها . والله أعلم بخلقه ، وأراف بعباده ، يختار ما كان لهم الخيرة . وإنك
بحيث لا يُجهل موضعك من بيت النبوة ، ومعدن الرسالة ، ولا يُحمد حقك فيما آتاك الله ،
ولكن لك من يزاحمك بمنيكٍ أضخم من منبك ، وقُرب أمس من قرابتك ، وسنُّ أعلى من
سنك ، وشيئةٌ أروع من شبيبته ، وسيادةٌ لها أصلٌ في الجاهلية وفرعٌ في الإسلام ،
ومواقفٌ ليس لك فيها جملٌ ولا ناقة ، ولا تُذكر منها في مقدمة ولا ساقية ، ولا تضرب فيها
بذراع ولا إصبع ، ولا تخرج منها بيازٍ ولا هبع . ولم يزل أبو بكر حبة قلب رسول الله
صلى الله عليه وسلم وعلاقة نفسه ، وعيَّة سره ، ومقرع رأيه ومشورته ، وراحة كفه ،
ومرمق طرفيه . وذلك كله بحضرة الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار ، شهرته مغنيةٌ
عن الدليل عليه . ولعمري إنك أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابةً ، ولكنه
أقرب منك قربةً ، والقرابةُ لحم ودم ، والقربةُ نفس وروح . وهذا فرق عرَّفه المؤمنون ،
ولذلك صاروا إليه أجمعون . ومهما شككت في ذلك ، فلا تشك أن يد الله مع الجماعة ،
ورضوانه لأهل الطاعة . فادخل فيما هو خير لك اليوم وأنفع لك غداً ، وألفظ من فيك
ما يعلق بلهاتك ، وأنفت سخيمة صدرك عن ثقاتك ، فإن يك في الأمد طولٌ ، وفي الأجل
فُسحة ، فستأكله مريضاً أو غير مريض ، وستشربه هنيئاً أو غير هنيء ، حين لا رادَّ لقولك إلا
من كان آيساً منك ، ولا تابع لك إلا من كان طامعاً فيك ، يمض إهابك ، ويعرك أديمك ،

(١) البازل : الجمل القوى الذى دخل في سنه التاسعة . والهبج : الفصيل الذى ينتج في الصيف فيكون ضعيفاً .

(٢) يمض إهابك : يحرق جلدك . (٣) يعرك : يدلك .

وَيُزَيِّرِي عَلَى هَدْيِكَ . هُنَاكَ تَقَرَّعَ السِّنُّ مِنْ نَدَمٍ ، وَتَجَرَّعَ الْمَاءُ مَزْجَا بَدَمٍ ، وَحِينَئِذٍ تَأْسَى عَلَى مَا مَضَى مِنْ عَمَلِكَ وَدَارِجِ قَوْلِكَ ، فَتَوَدُّ أَنْ لَوْ سُقِيَتْ بِالْكَأْسِ الَّتِي أَبَيْتَهَا ، وَرُدِدَتْ إِلَى حَالَتِكَ الَّتِي آسَفْتَ عَلَيْهَا . وَلِلَّهِ تَعَالَى فِينَا وَفِيكَ أَمْرٌ هُوَ بِالْغَيْبِ ، وَغَيْبٌ هُوَ شَاهِدُهُ ، وَعَاقِبَةُ هُوَ الْمَرْجُو لِسَرَّائِهَا وَضَرَّائِهَا ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ، الْغَفُورُ الْوَدُودُ .

قال أبو عبيدة : فَنَمَشَّيْتُ مَتَرَمَّلاً أَنْوَأَ كَأَنَّمَا أَخْطُو عَلَى رَأْسِي ، فَرَقًّا مِنَ الْفُرْقَةِ ، وَشَفَقًا عَلَى الْأُمَّةِ ، حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي خَلَاءٍ ، فَأَبْتَمَثُهُ بِثِيَّ كُلِّهِ ، وَبَرَّيْتُ إِلَيْهِ مِنْهُ ، وَرَفَقْتُ بِهِ . فَلَمَّا سَمِعَهَا وَوَعَاها ، وَسَرَّتْ فِي مَفَاصِلِهِ حُمَيَّاهَا ، قَالَ : «وَحَلَّتْ مُعَلَّوْطَةً»^(١) ، وَوَلَّتْ مُخْرُوطَةً^(٢) ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

إِحْدَى لِيَالِيكَ فِيهِسِي هَيْسِي * لَا تَنْعَمِي اللَّيْلَةَ بِالتَّعْرِيسِ^(٣)

نَعَمْ يَا أَبَا عبيدة ، أَكُلُّ هَذَا فِي أَنْفُسِ الْقَوْمِ ، وَيُحْسِنُونَ بِهِ ، وَيَضْطَغِنُونَ عَلَى ! قَالَ أَبُو عبيدة : فَقُلْتُ : لَا جَوَابَ لَكَ عِنْدِي ، إِنَّمَا أَنَا قَاضٍ حَقَّ الدِّينِ ، وَرَاتِقٌ فَتَقِ الْمُسْلِمِينَ ، وَسَادُّ ثُلُمَةِ الْأُمَّةِ ، يَعْلَمُ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ جُلْجُلَانِ قَلْبِي ، وَقَرَارَةِ نَفْسِي .

(١) هو أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب . وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وزوج ابنته . ورابع الخلفاء الراشدين . وإمام الخطباء من المسلمين .

ولد رحمه الله بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم باثنتين وثلاثين سنة . وهو أول من آمن من الصبيان . وكان شجاعاً لا يشق له غبار . أيداً جليداً . شهد الغزوات كلها مع النبي إلا غزوة تبوك . وأبلى في نصرته رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يبيله أحد . ولما قتل عثمان بايعه الناس بالجهاز وامتنع عن بيعته معاوية وأهل الشام شيعة بنى أمية غضباً منهم لمقتل عثمان وقلة عنايته بالبحث عن القتلة على حسب اعتقادهم ، فحدث من جراء ذلك الفتنة العظمى بين المسلمين واقتراحهم إلى طائفتين فتعارىوا مدة من غير أن يستتب الأمر لعل أو معاوية حتى قتل أحد الخوارج علياً غيلة بمسجد الكوفة . وكان كرم الله وجهه أفصح الناس بعد رسول الله . وأكثرهم علماً وزهداً وشدة في الحق : وهو إمام الخطباء من العرب على الإطلاق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكانت وفاته سنة ٤٠ هـ ومدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر .

(٢) معلوطة : مقتحمة من غير روية . (٣) مخروطة : مسرعة . (٤) هيسي : سيري أي سريكان .

(٥) أي ينطون على الضغن وهو الخلد . (٦) جلجلان قلبي ، أي حبه .

فقال عليّ رضي الله عنه : والله ما كان قُعودي في كِنِّ هذا البيت قصداً للخلاف ، ولا إنكاراً للعروف ، ولا زِريّةً على مسلم ، بل لما قد وقّدتني به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فراقه ، وأودعني من الحزن لفقده . وذلك أنني لم أشهد بعده مَشْهداً إلا جدد عليّ حزناً ، وذكّرني شجناً . وإن الشوق إلى الخلق به كافٍ عن الطمع في غيره . وقد عكفتُ على عهد الله أنظر فيه ، وأجمع ما تفرّق ، رجاء ثواب مُعدٍّ لمن أخلص لله عمله ، وأسلم لعلمه ومِشيتّه ، وأمره ونهيّه . على أني ما علمت أن التظاهر عليّ واقع ، ولا عن الحق الذي سيق إلى دافع . وإذ قد أُفيم الوادي بي ، وحشد النّادي من أجلي ، فلا مرحباً بما ساء أحدًا من المسلمين وسرتني . وفي النفس كلامٌ لولا سابق عقد وسالف عهد ، أشفيتُ غيظي بخنصرى وبنصرى ، وخضتُ لجُتّه بأخصى ومفرق ، ولكنني ملّجتم إلى أن ألقى الله ربي ، وعنده احتسب ما نزل بي . وإني غادٍ إلى جماعتكم ، فبايع صاحبكم ، صابرٌ على ما ساءني وسرتكم ، ليَقْضَى الله أمرا كان مفعلاً .

قال أبو عبيدة : فعدتُ إلى أبي بكر رضي الله عنه فقَصَصْتُ عليه القول على غره^(١) ، ولم أحتزل شيئاً من حُلوه ومُره ، وبكرتُ غُدوةً إلى المسجد ، فلما كان صباح يومئذ وإذا عليّ مخترق الجماعة إلى أبي بكر رضي الله عنهما فبايعه ، وقال خيراً ، ووصف بهيلاً ، وجلس زميناً^(٢) ، وأستاذن للقيام فمضى وتبعه عمر مُكرماً له ، مستأثراً لما عنده .

فقال عليّ رضي الله عنه : ما قعدتُ عن صاحبكم كارهاً ، ولا أتيتُهُ فِرْقاً ، ولا أقول ما أقول تَعَلّةً . وإني لأعرف منتهى طرفي ، ومحطّ قَدَمي ، ومنزَع قوسي ، وموقع سهمي ؛ ولكن قد أزمْتُ على فائِسِي ثِقَةٍ بربي في الدنيا والآخرة .

فقال له عمر رضي الله عنه : كَفَيْكَ غَرْبَكَ ، وأستوفى سِرْبَكَ ، ودع العيصي بلحائها ، والدلاء على رِشائها . فإنّا من خَلْفِها وورائها ، إن قدَحنا أَوْرَيْنَا ، وإن مَتَحنا أَرْوَيْنَا ،

(١) على غره ، أي كما هو وكما قص عليّ . (٢) زميناً : حلياً وقوراً . (٣) يقال :

أزم الفرس على فأس الحمام إذا عضها رقبض عليها . وفأس الحمام : الحديد المَعْرَضَة منه في الحنك . يريد أنه ألجم نفسه ثقة الخ .

وإن قَرَحْنَا أَدَمِينَا . ولقد سمعتُ أمائِكَ التي لَغَزَتْ بها عن صدرِ أِكِلٍ بالحوَى ، ولو شئتُ
لقلْتُ على مقالَتِكَ ما إن سمعته تَدِمْتَ على ما قلت . وزعمتُ أنك قعدت في كَنِّ بيتِكَ
لما وَقَدَكَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فقيده ، فهو وَقَدَكَ ولم يَقْدِ غيرَكَ ! بل
مصابه أعظم وأعم من ذلك ، وإن من حق مُصابه ألا تصدع شَمْل الجماعة بفرقة لا عصام
لها ، ولا يؤمن كيدُ الشيطان في بقائها . هذه العرب حولنا ، والله لو تداعَتْ علينا في صبح
نهار لم نلتقي في مسائه . وزعمتُ أن الشوق إلى اللُحاق به كافٍ عن الطمع في غيره ! فن
علامة الشوق إليه نصرته دينه ، ومؤازرة أوليائه ومعاونتهم . وزعمتُ أنك عَكَفْتَ على
عهد الله تجمع ما تفرق منه ؛ فن العكوف على عهد الله النصيحة لعباد الله ، والرأفة على خلق
الله ، وبذل ما يصباحون به ، ويرشُدون عليه . وزعمتُ أنك لم تعلم أن التظاهر واقعٌ عليك ،
وأى حقٍّ لَطُّ دونك ! . قد سمعت وعلمت ما قال الأنصار بالأمس سرًّا وجهرًا ، وتقلبَتْ
عليه بطنًا وظهرا ، فهل ذكرتُ أو أشارتُ بك ، أو وجدتُ رضاهم عنك ؟ هل قال أحد منهم
بلسانه إنك تصلح لهذا الأمر ؟ أو أوما بعينه أو هم في نفسه ؟ أنظن أن الناس ضلُّوا من
أجلِكَ ، وعادوا كفارًا زهدًا فيكَ ، وباعوا الله تحاملاً عليك ؟ . لا والله ! لقد جاءني عَقِيل
ابن زيَاد الخَزْرَجِي في نَفَرٍ من أصحابه ومعهم شُرْحِيل بن يعقوب الخَزْرَجِي وقالوا : إن
علياً ينتظر الإمامة ، ويزعم أنه أولى بها من غيره ، ويُكر على من يعقد الخلافة ؛ فأنكرتُ عليهم ،
ورددتُ القول في نحرهم حيث قالوا : إنه ينتظر الوحي ويتوكف^(٢) مناواة الملك ؛ فقلت :
ذاك أمر طواه الله بعد نبية محمد صلى الله عليه وسلم أكان الأمر معقوداً بأنشودة^(٣) ،
أو مشدوداً بأطراف لِيطة^(٤) ؟ كلاً ! والله لا عجماء بحمد الله إلا أفصححتُ ، ولا شوكة إلا وقد
تفتّحت . ومن أعجب شأنك قولك : « ولولا سالف عهد وسابق عقد ، لشفيتُ غيظي »
وهل ترك الدين لأهله أن يَشْفُوا غيظهم بيد أو بلسان ؟ تلك جاهلية وقد استأصل الله شأفتها
وأقتلع جُرمومتها ، وهو رليتها ، وغور سيلها ، وأبدل منها الروحَ والريحان ، والهدى والبرهان .

(١) لَط : جحد . (٢) يتوكف : ينتظر . (٣) الأنشودة : عقدة يسهل انحلالها ،
إذا أخذ بأحد طرفيها انفتحت . (٤) الليطة قشرة القصبه التي تليط بها أى تلزق .

وزعمت أنك مُلجَمٌ ؛ ولعمري إن من أتق الله ، وآثر رضاه ، وطلب ما عنده ، أمسك لسانه وأطبق فاه ، وجعل سعيه لما وراءه .

فقال على رضى الله عنه : مهلاً يا أبا حفص ، والله ما بذلت ما بذلت وأنا أريد نكثته ، ولا أقررت ما أقررت وأنا أبتغي حولا عنه . وإن أخسر الناس صفقة عند الله من أثر النفاق ، وأحتضن الشقاق ، وفي الله سلاوة عن كل حادث ، وعليه التوكل في جميع الحوادث . ارجع يا أبا حفص الى مجلسك نافع القلب ، مبرود الغليل ، فسيح اللبان^(١) ، فصيح اللسان ، فليس وراء ما سمعت قلت إلا ما يشد الأزر ، ويحط الوزر ، ويضع الإصر ، ويجمع الألفة بمشيئة الله وحسن توفيقه .

قال أبو عبيدة رضى الله عنه : فانصرف على وعمر رضى الله عنهما . وهذا أصعب ما مرّ على بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* *

٢ - ومن كلام عائشة رضى الله عنها في الانتصار لآبيها

يروى أنه بلغ عائشة رضى الله عنها أن أقواما يتناولون أبا بكر رضى الله عنه ، فأرسلت الى أزفلة^(٢) من الناس ، فلما حضروا ، أسدلت أستارها ، وعالت يسادها ، ثم قالت : أبى ، وما أبيه ! أبى والله لا تعطوه الأيدي ، ذلك طود منيف ؛ وفرع مديد ، هيبات ، كذبت الظنون ! أنجح إذ أكديتم ، وسبق إذ وثيتم ؛ سبق الجواد إذا استولى على الأمد . فتي

(١) اللبان : الصدر . (٢) هى عائشة بنت أبى بكر الصديق بن أبى خافة ، عقد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وهى بنت ست سنين ، ودخل بها فى المدينة وهى بنت تسع ، وكان مولدها سنة أربع من النبوة ، وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر ، وكان صداقها أربعائة درهم ، وكانت أحب نسائه إليه ، وكنتها أم عبد الله ، كنيته بابن أختها أسماء ، ولها خطب ووقائع . وكانت من أكبر العاملات فى وقعة الجمل المشهورة فى الاسلام صحبة الزبير وطاعة . وكانت أفصح أهل زمانها وأبينهم منطقاً وحفظهم للحديث وأفقههم . توفيت سنة سبع وخمسين ودفنت ليلاً بالبقيع وصلى عليها أبو هريرة رضى الله عنه . راجع ترجمتها فى طبقات ابن سعد (ج ٨ ص ٣٩) . (٣) الأزفلة : الجماعة . (٤) لا تعطوه : لا تناله .

قربيت ناشئا، وكهفها كهلا، يَفُكْ عَانِيهَا، وَيَرِيشُ مُمْلَقَهَا، وَيَرَابُ شَعْبَهَا، وَيَلْمُ شَعْمَهَا، حَتَّى حَالَيْتَهُ قَلُوبَهَا، ثُمَّ اسْتَشْرَى فِي دِينِ اللَّهِ هَا بَرَحْتُ شَكِيمَتُهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ عِزُّ وَجَلِ حَتَّى اتَّخَذَ بِفِنَائِهِ مَسِجِدًا يُحْيِي فِيهِ مَا أَمَاتَ الْمُبْطِلُونَ . وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ غَيْرَ الدَّمْعَةِ، وَقَيْدَ الْجَوَانِحِ، شَيْخِي النَّسِيحِ، فَانْقَضَتْ إِلَيْهِ نِسْوَانُ مَكَّةَ وَوُلْدَانُهَا يَسْخَرُونَ مِنْهُ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ (لِلَّهِ يُسْتَهْزِئُ يَوْمَ وَيَدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) فَكَبُرَتْ ذَلِكَ رِجَالَاتُ مِنْ قَرِيشٍ لَحْنَتْ قِسِيَهَا، وَفُوقَتْ سَهَامَهَا، وَانْتَلَوْهُ غَرَضًا، فَمَا فَلُّوا لَهُ صَفَاةَ، وَلَا قَصَفُوا لَهُ قَنَاةَ، وَمَرَّ عَلَى سَيْسَانِهِ (١) حَتَّى إِذَا ضَرَبَ الدِّينُ بِجِرَانِهِ، وَرَسَتْ أَوْتَادُهُ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِيهِ أَفْوَاجًا، وَمِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ أَرْسَلَا وَأُشْتَاتَا، اخْتَارَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ مَا عِنْدَهُ، فَلَمَّا قَبِضَ اللَّهُ نَبِيَّهَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَرَبَ الشَّيْطَانُ رَوَاقَهُ، وَمَدَّ طُنْبُهُ، وَنَصَبَ حَبَائِلَهُ، وَأَجْلَبَ بَحْيِلَهُ وَرَجَلَهُ، وَأَضْطَرَبَ حَبْلُ الْإِسْلَامِ، وَمَرَجَ عَهْدُهُ وَمَاجَ أَهْلُهُ، وَبُغِيَ الْغَوَائِلُ، وَظَنَّتْ رِجَالٌ أَنْ قَدْ أَكْثَبَتْ أَطْعَامُهُمْ نَهْرَهَا، وَلَاتَ حِينَ الَّذِي يَرْجُونَ، وَأَتَى وَالصَّدِيقِ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ ! فَقَامَ حَاسِرًا مَشْمُرًا، جَمَعَ حَاشِيَتَيْهِ وَرَفَعَ قُطْرِيَهُ، فَرَدَّ رَسْنَ الْإِسْلَامِ عَلَى غَرْبِهِ، وَلَمْ شَعْنَهُ بِطَبِّهِ، وَأَنْتَاشَ الدِّينَ فَنَعَشَهُ، فَلَمَّا أَرَاكَ الْحَقُّ عَلَى أَهْلِهِ، وَقَرَّرَ الرُّءُوسَ عَلَى كَوَاهِلِهَا، وَحَقَّنَ الدَّمَاءَ فِي أَهْلِهَا، أُنْتَهَ مِنْبَتُهُ، فَسَدَتْ نُهُمَتُهُ بِنَظِيرِهِ فِي الرَّحْمَةِ، وَشَقِيقُهُ فِي السَّيْرِ وَالْمَعْدَلَةِ، ذَلِكَ ابْنُ الْخَطَابِ، لِلَّهِ دَرَّ أُمُّ حَمَلَتْ بِهِ وَدَثَّرَتْ عَلَيْهِ ! لَقَدْ أَوْحَدَتْ بِهِ، فَفَنِّخَ الْكَفْرَةَ وَدَيَّحَهَا، وَشَرَّدَ الشَّرْكَ شَدَّرَ مَدَّرَ، وَبَعَجَ الْأَرْضَ وَبَجَعَهَا، فَقَاءَتْ أَكْلَهَا، وَلَفَظَتْ خَبَأَهَا (٢) تَرَامَهُ وَيَصِيدُ عَنْهَا، وَتَصِيدُ لَهُ وَيَأْبَاهَا . ثُمَّ وَزَعَ فِيهَا فَيْئًا وَوَدَّعَهَا كَمَا صَحَّيَهَا . فَأَرُونِي مَاذَا تَرْتُئُونَ، وَأَيُّ يَوْمٍ أَيْ تَنْقِمُونَ : أَيُّ يَوْمٍ إِقَامَتُهُ إِذْ عَدَلْتُ فِيكُمْ، أَمْ يَوْمَ طَعْنَهُ إِذْ نَظَرْتُ لَكُمْ؟ أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ . ثُمَّ أَقْبَلْتُ عَلَى النَّاسِ بَوَاجْهِهَا فَقَالَتْ : أَلَسْتُ كُمْ اللَّهُ هَلْ أَنْتُمْ كُمْ مَا قُلْتُ شَيْئًا؟ قَالُوا : أَلَلَّهِمَّ لَا .

(١) عَلَى سَيْسَانِهِ، أَيْ عَلَى دَأْبِهِ وَعَادَتِهِ . (٢) فَنِّخَ : غَلَبَ وَفَهَرَ . (٣) خَبَأَهَا :

مَآعَابَ عَنْهَا .



٣ - كلمة أم الخير بنت الحريش^(١)

ومن كلام أم الخير بنت الحريش البارقية يوم صفين في الانتصار لعلي رضي الله عنه :
يُروى أن معاوية كتب إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أم الخير بنت الحريش البارقية برحلهما ، وأعلمه أنه مجازيه بقولها فيه بالخير خيرا وبالشرا . فلما ورد عليه كتابه ، ركب إليها فأقرأها الكتاب ، فقالت : أنا أنا فغير زائغة عن طاعة ولا معتلة بكذب ! ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمر تختلج في صدرى . فلما شيعها وأراد مفارقتها قال لها : يا أم الخير ، إن أمير المؤمنين كتب إلى أنه يجازيني بقولك في بالخير خيرا وبالشرا ؛ فما عندك ؟ قالت : يا هذا لا يطعمنك ربك بي أن أسرك بباطل ، ولا تؤيسك معرفتي بك أن أقول فيك غير الحق . فسارت خير مسير حتى قدمت على معاوية ، فأزلهما مع حريمه ثلاثا ، ثم أدخلها عليه في اليوم الرابع ، وعنده جلساؤه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ؛ قال لها : وعليك السلام يا أم الخير ، وبالرغم منك دعوتني بهذا الاسم ؛ قالت : مه يا أمير المؤمنين ! فإن بدية السلطان مدحضة لما يجب علمه ولكل أجل كتاب ؛ قال : صدقت ، فكيف حالك يا خالة ؟ وكيف كنت في مسيرك ؟ قالت : لم أزل في عافية وسلامة حتى صرت إليك فأنا في مجلس أنيق ، عند ملك رقيق ؛ قال معاوية : بحسن بيتي ظفرت بكم ؛ قالت : يا أمير المؤمنين أعيذك بالله من دحض المقال وما تُردى عاقبته ، قال : ليس هذا أردنا ، أخبريني كيف كان كلامك يوم قُتل عمار بن ياسر ؟ قالت : لم أكن والله زورته قبل ولا رويته بعد ، وإنما كانت كلمات نقهن لساني حين الصدمة ، فان شئت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت ؛ قال : لا أشاء ذلك . ثم التفت إلى أصحابه فقال : أيكم يحفظ كلام أم الخير ؟ فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظي سورة الحمد ؛ قال : هايت ؛ قال : نعم كأي بها يا أمير المؤمنين في ذلك اليوم عليها

(١) منقولة عن صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٨ (٢) زور الكلام في نفسه : هياه .

برّد زبیدی کشف الحاشیة، وهی علی جمل اَرَمَكْ وقد اَحيط حولها، وبیدها سوط منتشر الضفر، وهی کالفحل یهدر فی شِقْشِقَتِهِ تقول :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾! ان الله قد أوضح الحق، وأبان الدليل، ونور السبيل، ورفع العلم، فلم يدعكم في عمياء مُبْهِمَة! ولا سوداء مُدْهِمَة، فإلى أين تريدون رحمكم الله! أفراراً عن أمير المؤمنين، أم فراراً من الزحف، أم رغبة عن الاسلام، أم ارتداداً عن الحق! أما سمعتم الله عز وجل يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾.

ثم رفعت رأسها الى السماء وهی تقول :

قد عِيلَ الصبر، وضعف اليقين، وانتشر الرعب، وبیدك يا ربّ أزمّة القلوب، فاجمع الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى. هلموا رحمكم الله الى الإمام العادل، والوصى الوفي، والصدّيق الأكبر! إنما إحسن بديريه، وأحقاد جاهليّه، وضغائن أُحديّه، وثب بها معاوية حين الغفلة ليُذرك بها ثارات بنى عبد شمس.

ثم قالت : قَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يُتَّقُونَ . صبراً معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم، وثبات من دينكم، وكأني بكم غداً قد لقيتم أهل الشام كُفْرٍ مُسْتَنْفِرَة، فَوْت من قسورة، لا تدري أين يُسَلَكُ بها من فجّاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى، وعم قليل ليُصْبِحُ نادمين، حين تُحَلَّ بهم الندامة، فيطلبون الإقالة! إنه والله من ضلّ عن الحق وقع في الباطل، ومن لم يسكن الجنة نزل في النار. أيها الناس، إن الأيكاس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها واستبطئوا مادة الآخرة فسعوا لها. والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق، وتُعطل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان، لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه، فإلى أين تريدون — رحمكم الله — عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم

وزوج ابنته وأبى آبلية؟ خلق من طينته، ونفّرع عن نبعته، وخصّسه بسره، وجعله باب مدينته، وأعلم بحبه المسلمين، وأبان ببغضه المنافقين. فلم يزل كذلك يؤيده الله بمعونته، ويمضى على سنن استقامته، لا يعترج لراحة اللذات. وهو مُفلق الهام، ومكسر الأصنام، إذ صلى والناس مشركون، وأطاع والناس مرتابون. فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزى بدر، وأفى أهل أحد، وفزق جمع هوازن، فيا لها وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقاً، وردة وشقاقاً. وقد آجتهدت في القول، وبالغت في النصيحة، وبالله التوفيق. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقال معاوية: والله يا أتم الخير ما أردت بهذا إلا قتلى! والله لو قتلتك ما حرّجت في ذلك.

قالت: والله ما يسوءنى يابن هند أن يُجرى الله ذلك على يدى من يُسعدنى الله بشقائقه؛ قال: هيات يا كثيرة الفضول، ما تقولين فى عثمان بن عفان؟ قالت: وما عسيّت أن أقول فيه، استخلفه الناس وهم كارهون، وقتلوه وهم راضون؛ فقال: إيه يا أم الخير، هذا والله أصلك الذى تبين عليه؛ قالت: لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدا، ما أردت بعثمان نقصاً، ولقد كان سباقاً إلى الخيرات، وإنه لرفيع الدرجة. قال: فما تقولين فى طلحة بن عبيد الله؟ قالت: وما عسى أن أقول فى طلحة، اغتيل من مأمنه، وأتى من حيث لم يحدّر، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة. قال: فما تقولين فى الزبير؟ قالت: يا هذا لا تدعى كرجيع الصبيغ يُعرك في المرنج^(١)؛ قال: حقاً لتقولن ذلك وقد عزمت عليك؛ قالت: وما عسيّت أن أقول فى الزبير ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، ولقد كان سباقاً إلى كل مكرمة فى الإسلام. ولانى

(١) المرنج: الإجانة وهى إناه تفسل فيه الثياب. ويعرك: يحك. والرجيع المردود، أى لا تجعلى كالزوب المصبوغ يحك فى الإناه مرة بعد أخرى لإخراج صبه منه: تشبه محاورة معاوية إياها وسؤاله لها مرة بعد مرة لاستخراج ما فى نفسها بما يفسل من الثياب المصبوعة لاستخراج صبه منها.

أسألك بحق الله يا معاوية ، فإن قریشا تحدّث أنك من أحابها ، أن تسعني بفضل حاكمك ، وأن تُعفيني من هذه المسائل ، وأمض لما شئت من غيرها ؛ قال : نعم وكرامة ، قد أعفيتك ، وردّها مكرّمة إلى بلدها .



٣ - كلمة الزرقاء بنت عدی

ومن كلام الزرقاء بنت عدی بن قيس الحمدانية ما قالته يوم صفين أيضا :

يروى أنها دكرت عند معاوية يوما ، فقال لجلسائه : أيكم يحفظ كلامها ؟ قال بعضهم : نحن نحفظه يا أمير المؤمنين ؛ قال : فأشيروا عليّ في أمرها ؛ فأشار بعضهم بقتلها ، فقال : بئس الرأي ! أيحسُنُ بمثل أن يقتل امرأة ! ثم كتب إلى عامله بالكوفة أن يوفدها إليه مع ثقة من ذوى محرميها وعدّة من فرسان قوميها ، وأن يمهّد لها وطاءً لنا ، ويسترها بستر خفيف ، ويوسّع لها في النفقة . فلما دخلت على معاوية ، قال : مرحباً بك وأهلاً ! قدِمَت خير مقدّم قدّمه وافد ، كيف حالك ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، أدام الله لك النعمة ! قال : كيف كنت في مسيرك ؟ قالت : ربيبة بيت أو طفلاً ممهداً ؛ قال : بذلك أمرناهم . أتدريين فيم بعثت إليك ؟ قالت : وأني لى بعلم ما لم أعلم ؟ وما يعلم الغيب إلا الله عز وجل ؛ قال : ألسيت الراكبة الجمل الأحمر ، والواقفة بين الصفين بصفين تحضين الناس على القتال ، وتوقدين الحرب ؟ فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، مات الرأس ، وبتر الذنب ، ولن يعود ما ذهب ؛ والدهر ذو غير ، ومن تفكّر أبصر ، والأمر يحدث بعسده الأمر ؛ قال

(١) هي الزرقاء . بنت عدی بن غالب بن قيس الحمدانية ، كانت من أهل الكوفة ، وكانت ذات شجاعة فائقة ، وبلاغة نادرة ، شهدت مع قومها واقعة صفين ، وطاعة خطب تحرض الناس فيها على القتال ضد معاوية . وبعد أن تم لمعاوية ما أراد كتب إلى عامله بالكوفة باستدعائها ، فأحضرت إليه ، وبعد محادثة بينه وبينها سألها حاجتها ، فقالت : « يا أمير المؤمنين ، آليت على نفسي ألا أسأل أميراً أعنت عليه أبداً » ثم انصرفت ، وبعد ذلك أرسل لها معاوية جائزة .

(٢) خفيف : عليل .

لها معاوية: أتحفظين كلامك يومئذ؟ قالت: لا والله، ولقد أنسيته؛ قال: لكني أحفظه،
لله أبوك حين تقولين:

أيها الناس، إرعوا وأرجعوا! إنكم أصبحتم في فتنه غشتكم جلايب الظلم، وجارت
بكم عن قصد المحجة. فيها فتنه عمياء، صماء بكاء، لا تسمع لناعقها، ولا تسأس لقائدها.
إن المصباح لا يضيء في الشمس، والكواكب لا تُثير مع القمر، ولا يقطع الحديد
إلا الحديد. ألا من أسترشد أرشدناه، ومن سألنا أخبرناه.

أيها الناس، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها! فصبرا يامعاشر المهاجرين والأنصار
على الغصص؛ فكان قد أندمل شعب الشتات، وألتأمت كلمة التقوى، ودمغ الحق باطله!
فلا يجهلن أحد فيقول: كيف العدل وأنى! ليقضى الله أمرا كان مفعولا. ألا وإن خضاب
النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء! ولهذا اليوم ما بعده، والصبر خير في عواقب
الأمر. أيها إلى الحرب قدما غير ناكسين ولا متشاكسين.

ثم قال لها: يازرقاء، لقد شرتك عليا في كل دم سفكه؛ قالت: أحسن الله بشارتك،
وأدام سلامتك؛ فمثلك من بشر بخير وسر جليسه؛ قال: ويسرك ذلك؟ قالت: نعم سرت
بالخبر فأنى لي بتصديق الفعل! فضحك معاوية وقال: لوفاءكم له بعد موته أعجب عندي
من حبكم له في حياته! أذكرى حاجتك؛ قالت: يا أمير المؤمنين، آليت على نفسي ألا
أسأل أميرا أعنت عليه أبدا، ومثلك من أعطى من غير مسألة، وجاد من غير طلبه؛ قال:
صديقت، وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكسا.

٤ — عكرشة بنت الأطرش

ومن كلام عكرشة بنت الأطرش ما قالته يوم صفتين أيضا:

يُروى أنها دخلت على معاوية متوكئة على عكاز لها، فسأمت عليه بالخلافة ثم جلست؛
فقال لها معاوية: الآن صرت عندك أمير المؤمنين؟ قالت: نعم إذ لا على حي! قال:

ألسيت المتقلدة حاملي السيف بصفيين وأنت واقفة بين الصفيين تقولين : أيها الناس ، عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا أهديتكم . إن الجنة لا يحزن من قطنها ، ولا يهرم من سكنها ، ولا يموت من دخلها ، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصرم همومها . وكونوا قوماً مستبصرين في دينهم ، مستظهِرين على حقهم ؛ إن معاوية دلف إليكم بعجم العرب ، لا يفقهون الإيمان ، ولا يدرون ما الحكمة . دعاهم إلى الباطل فأجابوه ، واستدعاهم إلى الدين فلبّوه . فالله الله عباد الله في دين الله ! وإياكم والتواكل فإن ذلك ينقض عُمرى الإسلام ، ويُطفئ نور الحق . هذه بذرة الصغرى ، والعقبة الأخرى . يامعشر المهاجرين والأنصار ، أمضوا على بصيرتكم ، وأصبروا على عزيمتكم ، فكأنى بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كالحمر الناهقة تقصع تقصع البعير^(١) .

ثم قال : فكأنى أراك على عصاك هذه قد انكفأ عليك العسكران يقولون هذه عكرشة بنت الأطرش ، فإن كدت لتفليين أهل الشام لولا قدر الله ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، يقول الله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدِّلْ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ﴾ الآية ، وإن اللبيب إذا كره أمراً لا يحب إعادته ؛ قال : صدقت ، فذكرى حاجتك ؛ قالت : كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا فتُرد على فقرائنا ، وقد فقدنا ذلك ، فما يُجبر لنا كسير ، ولا يُنعش لنا فقير ؛ فإن كان عن رأيك فمثلك من أنتبه من الغفلة وراجع التوبة ، وإن كان عن غير رأيك فما مثلك من استعان بالخونة ، ولا استعمل الظلمة ؛ قال معاوية : يا هذه ، إنه ينبؤنا من أمور رعييتنا نغور نتفتق ، وبحور نتدقق ؛ قالت : سبحان الله ! والله ما فرض الله لنا حقاً بفعل فيه ضرراً لغيرنا وهو علام الغيوب ؛ قال معاوية : هيات يا أهل العراق ، نبهكم على فلن تطأقوا . ثم أمر برّد صدقاتهم فيهم وإنصافهم .

(١) يقال : قصع البعير بحجته يقصع قصعا : مضطرباً .

٦ - رسالة لعبد الحميد الكاتب^(١)

كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب عن مروان بن محمد لبعض من ولّاه^(٢) :

أما بعدُ ، فإنّ أمير المؤمنين - عند ما اعتزّم عليه من توجيهك الى عدوّ الله الحلف الجافي الأعرابي ، المتسكّع في حيرة الجهالة ، وظلم الفتنه ، ومهاوى الملكة ، ورعايه الذين عاثوا في أرض الله فساداً ، وآتتهوا حرمة الإسلام استخفافاً ، وبدلوا نعمة الله كفراً ، وأسّحلوا دماء أهل يسلمه جهلاً - أحبّ أن يعهد اليك في لطائف أمورك ، وعوامّ شؤونك ، ودخائل أحوالك ، ومضطّرف تنفلك عهداً يملك فيه أدبه ، ويشرع لك به

(١) هذه الرسالة منقولة عن صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٩٥ . (٢) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامريّ ولّاه ، الشامي داراً ، شيخ الكتّاب الأرائل ، وأول من أطال الرسائل .

كان عبد الحميد من أهل الشام من موالى بنى عامر ، وتخرج في البلاغة والكتابة على خنته أبي العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك ، كاتب دولته وأحد بلغاء العالم والنقلة من اليونانية . وكان عبد الحميد في أول أمره معلّم صبيان يتنقل في البلدان حتى فطن له مروان بن محمد أيام توليته أرمينية وانتدابه لتسكين فتنها ، فكتب له مدّة ولايته ، حتى إذا بلغه مبايعة أهل الشام له بالخلافة سجد مروان لله شكراً وسجد أصحابه إلا عبد الحميد ، فقال له مروان لم لا تسجد؟ فقال : ولم أسجد؟ أعلّ أن كنت معاً فطرت عنا ! قال : إذا تطير معي ؟ قال : الآن طاب لي السجود وسجد ، فاتخذ مروان كاتب دولته ، فصدر عنه من الرسائل ما صار نموذجاً يحاكيه من بعده من البلغاء .

ولما دهمت مروان جيوش خراسان أنصار الدعوة العباسية وتوالت عليه الهزائم كان عبد الحميد يلازمه في كل هذه الشدة ؟ فقال له مروان : قد احتجت أن تصير مع عدوّي وتظهر الغدر بي ، فإن إعجابهم بأدبك ، وحاجتهم إلى كتابتك ، تحوّلهم إلى حسن الظن بك ؛ فإن استطعت أن تنفّس في حياتي وإلا لم تعجز عن حفظ حرمي بعد وفاتي ؟ فقال له : إن الذي أشرت به على أنقع الأمرين لك وأقبحهما بي ، وما عندي إلا الصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك . وأنشد :

أسرّ وفاء ثم أظهر غدره * فن لي بعدد يوسع الناس ظاهره

وبقي معه حتى قتل مروان سنة ١٣٢ هـ ففروا خائبين عند صديقه ابن المنفع ففاجأه الطلب وهو في بيته ، فقال الذين دخلوا عليهم : أيكأ عبد الحميد ؟ فقال كل منهما : أنا ، خوفاً على صاحبه ، وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المنفع فقال : ترفقوا بنا فإنّ كلامنا له علامات ، فوكّلوا بنا بعضهم ويمضى بعض آترو يذكر تلك العلامات لمن وجهكم ففعلوا وأخذ عبد الحميد إلى السفاح فقتله سنة ١٣٢ هـ . انظر ترجمته في ابن خلدون (ج ١ ص ٤٣٦) . (٣) هو عبد الله بن مروان أرسله لقتال الضعّاك بن قيس الشيباني الخارجي .

عِظَتَهُ ، وإن كنت بحمد الله من دين الله وخلافته بحيث أصطنعك الله لولاية العهد مختصاً لك بذلك دون لُحمتك وتبني أبيك . ولولا ما أمر الله تعالى به دالاً عليه ، وتقدمت فيه الحكماء أميرين به : من تقديم العِظَةِ ، والتذكير لأهل المعرفة ، وإن كانوا أولى سابقة في الفضل وخصيصاء في العلم ، لأعتمد أمير المؤمنين على أصطناع الله إياك وتفضيله لك بما رآك أهله في محلك من أمير المؤمنين ، وسبقك الى رغائب أخلاقه ، وانتزاعك محمود شيمه ، وأستبلائك على مشايه تدبيره . ولو كان المؤدبون أخذوا العلم من عند أنفسهم ، أو لقنوه إلهاماً من تلقائهم ولم نصحبهم تعلموا شيئاً من غيرهم ، انحلتهم علم الغيب ، ووضعناهم بمنزلة قصر بها عنهم خالقهم المستأثر بعلم الغيب عنهم بوحدايته في فردانيته وسابق لاهوتيته ، احتجاجاً منهم لتعقيب في حكمه ، وثبت في سلطانه وتنفيذ إرادته ، على سابق مشيئته . ولكن العالم الموفق للخير ، المخصوص بالفضل ، المحبوب بمزية العلم وصفوته ، أدركه معاناً عليه بلطف بحثه ، وإذلال كنفه ، وصحة فهمه ، وهجر سأمته .

وقد تقدم أمير المؤمنين إليك ، آخذاً بالحمية عليك ، مؤدياً حق الله الواجب عليه في إرشادك وقضاء حَقِّك ، وما ينظر به الوالد المعنى الشفيق لولده . وأمير المؤمنين يرجو أن ينزهك الله عن كل قبيح يهش له طمع ، وأن يعصمك من كل مكروه حاق بأحد ، وأن يحصنك من كل آفة استولت على أمرئ في دين أو خلق ، وأن يبلغه فيك أحسن ما لم يزل يعودّه ويؤريه من آثار نعمة الله عليك ، سامية بك الى ذروة الشرف ، متجسدة بك بسطة الكرم ، لائحة بك في أزهر معالي الأدب ، موروثة لك أنفس ذخائر العز ، والله يستخلف عليك أمير المؤمنين ويسأل حياتك ، وأن يعصمك من زيف الهوى ، ويحضرك داعي التوفيق ، معاناً على الإرشاد فيه ، فإنه لا يعين على الخير ولا يوفق له إلا هو .

اعلم أن الحكمة مسالك تفيض مضائق أوائلها بمن أمها سالكا ، وركب أخطارها قاصدا ، الى سعة عاقبتها ، وأمن سرحها ، وشرف عزها . وأنها لا تُعار بسُخف الخفة ، ولا تُنشأ بتفريط الغفلة ، ولا يُتعدى فيها بامرئ حده . وربما أظهرت بسطة القى

مستور العيب . وقد تلقّيتك أخلاق الحكمة من كل جهة بفضلها ، من غير تعب البحث في طلبها ، ولا مُتطاوّل لمناولة ذروتها ؛ بل تأثّلت منها أكرم نبّعاتها ، واستخلصت منها أعتق جواهرها ؛ ثم سموت الى لباب مُصاصها ^(١) ، وأحرزت مُنفس ذخائرها ، فأقتعد ما أحرزت ، ونافس فيما أصبت .

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَحْتَوَاكَ عَلَى ذَلِكَ وَسَبَقَكَ إِلَيْهِ بِإِخْلَاصِ تَقْوَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ أَمُورِكَ مُؤَثِّرًا لَهَا ، وَإِضْمَارِ طَاعَتِهِ مَنْطَوِيًّا عَلَيْهَا ، وَإِعْظَامِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ شَاكِرًا لَهُ ، مَرْتَبطًا فِيهِ لِلزَّيْدِ بِحَسَنِ الْحَيَاةِ لَهُ وَالذَّبِّ عَنْهُ مِنْ أَنْ تَدْخُلَكَ مِنْهُ سَامَةٌ مَلَالٌ ، أَوْ غَفْلَةٌ ضَيَاعٌ ، أَوْ سِنَةٌ تَهَاوُنٌ ، أَوْ جَهَالَةٌ مَعْرِفَةٍ ، فَإِنْ ذَلِكَ أَحَقُّ مَا يُدْئِي بِهِ وَنُظَرُ فِيهِ ، مَعْتَمِدًا عَلَيْهِ بِالْقُوَّةِ وَالآلَةِ وَالْعُدَّةِ وَالْأَنْفَرَادِ بِهِ مِنَ الْأَصْحَابِ وَالْحَامَةِ . فْتَمَسَّكَ بِهِ لِاجْتِنَاءِ إِلَيْهِ ، وَاعْتَمِدَ عَلَيْهِ مُؤَثِّرًا لَهُ ، وَالتَّيَجَّى إِلَى كَنْفِهِ مَتَحِيّزًا إِلَيْهِ : فَإِنَّهُ أَبْلَغُ مَا طُلِبَ بِهِ رِضَا اللَّهِ وَأَنْجَحُهُ مَسْأَلَةٌ ، وَأَجْزَلُهُ ثَوَابًا ، وَأَعْوَدُهُ نَفْعًا ، وَأَعَمَّهُ صَلَاحًا ، أَرْشَدَكَ اللَّهُ لِحُظِّكَ ، وَفَهَّمَكَ سَدَادَهُ ، وَأَخَذَ بِقَلْبِكَ إِلَى مَحْمُودِهِ . ثُمَّ أَجْعَلَ اللَّهُ فِي كُلِّ صَبَاحٍ يُنْعِمُ عَلَيْكَ بِبَلُوغِهِ ، وَيُظْهِرُ مِنْكَ السَّلَامَةَ فِي إِشْرَاقِهِ ، مِنْ نَفْسِكَ نَصِيبًا تَجْعَلُهُ لَهُ شُكْرًا عَلَى إِبْلَاغِهِ إِيَّاكَ يَوْمَكَ ذَلِكَ بِصِحَّةِ جَوَارِحِ وَعَافِيَةِ بَدَنٍ ، وَسُبُوغِ نَعَمٍ ، وَظُهُورِ كَرَامَةٍ ، وَأَنْ تَقْرَأَ فِيهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ — تَبَارَكَ وَتَعَالَى — جَزْأً تُرَوِّدُ رَأْيَكَ فِي آيِهِ ، وَتُرْتِّلُ لَفْظَكَ بِقِرَائَتِهِ ، وَتُحْضِرُهُ عَقْلَكَ نَاطِرًا فِي مُحْكَمِهِ ، وَتُتَفَهِّمُهُ مَفْكَرًا فِي مُتَشَابِهِهِ : فَإِنْ فِي الْقِرَاءَانِ شِفَاءَ الصَّدُورِ مِنْ أَمْرَاضِهَا ، وَجِلَاءَ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ وَصَعَاعِصِهِ ^(٢) ، وَضِيَاءَ مَعَالِمِ النُّورِ ، تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهْدَى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . ثُمَّ تَعَهَّدُ نَفْسَكَ بِمُجَاهَدَةِ هَوَاكَ ، فَإِنَّهُ مَغْلَاقُ الْحَسَنَاتِ ، وَمِفْتَاحُ السَّيِّئَاتِ ، وَخَصَمُ الْعَقْلِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ أَهْوَاكَ لَكَ عَدُوٌّ يَحَاوِلُ هَلَكَتِكَ ، وَيَعْتَرِضُ غَفْلَتَكَ ، لِأَنَّهَا خُدْعُ إِبْلِيسَ ، وَخَوَاتِلُ مَكْرِهِ ، وَمَصَائِدُ مَكِيدَتِهِ ؛ فَاحْذَرِهَا بِجَانِبِهَا ، وَتَوَقَّهَا بِمَحْتَرِسِهَا مِنْهَا ؛ وَاسْتَعِذْ

(١) المصاص : خالص كل شيء .

(٢) كَذَا فِي صَبِيحِ الْأَعَشَى فِي مِفْتَاحِ الْأَفْكَارِ (ص ٢٨٢) وَغَيْرِهِ « وَتَرِينَ » . (٣) الصعاصع :

جَمْعُ صَعَصَعَ وَهُوَ طَائِرٌ أَشْبَهَ بِصَيْدِ الْجَنَادِبِ ، شَبَّهَ وَسُوسَةَ الشَّيْطَانِ بِهِ . وَفِي بَعْضِ الْمَوْلُفَاتِ « وَسَفَاسَفُهُ » .

بأنه عز وجل من شرها، وجاهدها إذا تناصرت عليك بعزم صادق لا وتية فيه، وحزم نافذ لا مثنوية لرأيك بعد إصداره، وصدق غالب لا مطمع في تكذيبه؛ ومضاه صارمة لا أناة معها، ونية صحيحة لا خلجة شك فيها: فإن ذلك ظهري صادق لك على ردها عنك، وقمعها دون ما لتطلع إليه منك؛ فهي واقية لك سُخْطَة ربك، داعية إليك رضا العاقبة عنك، ساترة عليك عيب من دونك؛ فازدُنْ بها متحلياً، وأصِبْ بأخلاقك مواضعها الحميدة منها، وتوقَّ عليها الآفة التي تقتطعك عن بلوغها، وتقصّر بك دون شأوها: فإن المؤونة إنما آشتدت مستصعبة، وقدحت باهظة أهل الطلب لأخلاق أهل الكرم المتحليين سمو القدر، بجهالة مواضع ذميم الأخلاق ومجودها، حتى فترط أهل التقصير في بعض أمورهم، فدخلت عليهم الآفات من جهات أمئوها، فَنَسَبُوا إلى التفريط، ورضوا بذلك المنزل، فأقاموا به جاهلين بموضع الفضل، عَمِيهِين عن درج الشرف، ساقطين دون منزلة أهل الجحا. فحاول بلوغ غاياتها مُحِرِّزاً لها بسبق الطلب إلى إصابة الموضع، محصّناً أعمالك من العُجب: فإنه رأس الهوى، وأول الغواية، ومَقَادِ الهلكة؛ حارساً أخلاقك من الآفات المتصلة بمساوي الألقاب وذميم تنابُزها، من حيث أتت الغفلة، وانتشر الضياع، ودخل الوهن. فتوقَّ غُلُوب الآفات على عقلك، فإن شواهد الحق ستُظهر بآماراتها تصديق آرائك عند ذوى الجحا حال الرأي وتخصيص النظر. فاجتنب لنفسك محمود الذكر وباقي لسان الصّدق بالحذر لما تقدّم إليك فيه أمير المؤمنين، متحزّزاً من دخول الآفات عليك من حيث أمنك وقلة ثقتك بمحكمها: من ذلك أن تملك أمورك بالقصد، وتدارى جُندك بالإحسان، وتصون سرّك بالكتمان، وتداوى حقدك بالإنصاف، وتذلّل نفسك بالعدل، وتخصّن عيوبك بتقويم أودك، وتمنّع عقلك من دخول الآفات عليه بالعُجب المُرْدِي. وأتاك فوقها الملال وفوت العمل، ومضاءت فدرعها روية النظر وأكثفها بأناة الحليم. وخلوتك فأحسها من الغفلة واعتماد الراحة، وصمتك

فأنف عنه عيَّ اللفظ ، وخفَّ سوء القالة ؛ وأستماعك فأزعه حُسن التفهيم ، وقوّه بإشهاد
الفكر ؛ وعطاءك فأَمهد له بيوتاتِ الشرف وذوى الحسب ، وتحزُّز فيه من السرف وأستطالة
البذخ وأمتنانِ الصنيعة ؛ وحياءك فأمنعه من المنجمل وبلادةِ الحصر ؛ وحلمك فزعه عن
التهاون وأحضره قوّة الشكيمة ؛ وعقوبتك فقصر بها عن الإفراط ، وتعمد بها أهل
الاستحقاق ؛ وعفوك فلا تُدخِله تعطيلَ الحقوق ، وخذ به واجبَ المقترض ، وأقيم به أود
الدين ؛ وأستئناسك فأمنع منه البداء وسوء المناقضة ^(١) . وتعهّدك أمورك فحُدّه أوقاتا ، وقُدّره
ساعات لا تستفرغ قوتك ، ولا تستدعي سامتك ؛ وعزّ ماتك فأنف عنها عجلة الرأي ،
ولحاجة الإقدام ؛ وفرحاتك فأشكّها عن البطر ، وقسّدها عن الزهو ، وروعاتك فخطّها من
دهش الرأي وأستسلام الخضوع ؛ وحدّراتك فأمنعها من الجبن ، وأعمد بها الحزم ؛
ورجاءك فقيّده بخوف الفات ، وأمنعه من أمنِ الطلب .

هذه جوامعُ خلال ، دخّالُ النقص منها واصلٌ إلى العقل بلطائفُ أبنه ، وتصارييف ^(٢)
حويله ، فأحكّمها عارفاً بها ، وتقدّم في الحفظ لها ، معترّما على الأخذ بمراشدها والانتهاى منها
إلى حيث بلغت بك عظةُ أمير المؤمنين وأدبه إن شاء الله .

ثم اتكن بطانتك وجلسائك في خلواتك ودخلائك في سرك ، أهلَ الفقه والورع من
خاصّة أهل بيتك ، وعامة قوادك ممن قد حنّكته السنُّ بتصارييف الأمور ، وخبّطته فصالحها
بين فراسن البزل منها ، وقلّبتهم الأمور في فنونها ، وركب أطوارها ، عارفاً بحاسن الأمور ^(٣)
ومواضع الرأي وعين المشورة ؛ مأمونَ النصيحة ، منطويَ الضمير على الطاعة . ثم أحضرهم
من نفسك وقاراً يستدعي لك منهم الهيبة ، وأستئناساً يعطف إليك منهم المودة ، وإنصابتا
يقلّ لإفاضتهم له عندك بما تكره أن يُنشر عنك من سخافة الرأي وضياح الحزم . ولا يغلبن
عليك هواك فيصرفك عن الرأي ويقتطعك دون الفكر . وتعلّم أنك وإن خلوت بسير

(١) يقال : نأث فلان فلانا بالكلام : آذاه . (٢) الحويل : الحذق والقدرة على التصرف .

(٣) الفرسان : واحداً فرسن وهو طرف خف البعير .

فألقيتَ دونه سُتورك، وأغلقتَ عليه أبوابك، فذلك لا محالة مكشوفٌ للعامة، ظاهرٌ عنك وإن استترتَ برّبما واملّ وما أرى إذاعة ذلك وأعلم، بما يرون من حالاتٍ من ينقطع به في تلك المواطن. فتقدّم في إحكام ذلك من نفسك، وأسدد خالله عنك: فإنه ليس أحدٌ أسرعُ إليه سوء القالة ولغط العامة بخيرٍ أو شرٍّ من كان في مثل حالِك ومكانِك الذي أصبحتَ به من دينِ الله والأملِ المرجوِّ المستظيرِ فيك. وإياك أن يغمزَ فيك أحدٌ من حامتِك وبطانةِ خدَمَتِك بضعفٍ يجد بها مساعا إلى النطق عندك بما لا يعترِك عيبه، ولا تخلو من لائمتِه، ولا تأمنُ سوء الأحداثِ فيه، ولا يرخصُ سوء القالة به إن نجمَ ظاهرا أو علَنَ باديا، ولن يجترئوا على تلك عندك إلا أن يروا منك إصغاء إليهما وقبولا لها وترخيصا لهما في الإفاضة بها. ثم إياك وأن يُفاض عندك بشيءٍ من الفكاهات والحِكَايات والمزاح والمضاحك التي يستخفُّ بها أهلُ البطالة، ويتسرع نحوها ذوو الجهالة؛ ويجد فيها أهلُ الحسد مقالا لعيب يُذيعونه، وطعنا في حقٍّ يجحدونه؛ مع ما في ذلك من نقصِ الرأي، وذرَبِ العرض، وهذمِ الشرف، وتأثيلِ الغفلة، وقوةِ طباعِ السوءِ الكامنة في بني آدم ككُمُونِ النارِ في الحجرِ الصلْد، فاذا قُدِح لاح شرُّه، وتلهَّب وميضُه، ووقد تضمره. وليست في أحدٍ أقوى سطوةً، وأظهرَ توقُّدا، وأعلى كُونا، وأسرعُ إليه بالعيب وتطرق الشَّين منها لَمَن كان في مثل سنِّك: من أغفال الرجال وذوى العُنُوفان في الحدائث الذين لم يقع عليهم سِمَاتُ الأمور، ناطقا عليهم لائِحُها، ظاهرا فيهم وضمُّها، ولم تمحضهم شهامتُها، مظهرةً للعامة فضلهم، مُذِيعَةً حسنَ الذِكر عنهم؛ ولم يبلغَ بهم الصَّيت في الحُتْكة مستمعا يدفعون به عن أنفسهم نواطِقَ ألسُنِ أهلِ البغي، وموادَّ أبصارِ أهلِ الحسد.

ثم تعهَّد من نفسك لطيفَ عيبٍ لازمٍ لكثيرٍ من أهلِ السلطان والقدرة: من
(٢) إبطارِ الذرع ونخوةِ الشرف والتَّيِّه وعيبِ الصِّلَف؛ فإنما تُسرِّع بهم إلى فسادٍ وتهجينِ

(١) الأغفال جمع غفل وهو الذي لم يجرب الأمور. (٢) يقال: أبطره ذرعه إذا حمله فوق ما يطبق. وفي صحيح الأعشى (ج ١٠ ص ٢٠١) «أبطال الذرع». وقد توقف فيها مصححه.

عقولهم في مواطن جمّة ، وأنحاء مضطربة ، منها قلة أقتدارهم على ضبط أنفسهم في مواكبتهم ومسايرتهم العامة : فن مقلقل شخصه بكثرة الالتفات عن يمينه وشماله ، تزديده الخفة ، ويضطره لإجلاب الرجال حوله ؛ ومن مقلقل في موكله على مداعبة مسائره بالمفاكهة له والتضاحك إليه ، والإيجاف في السير مرّحاً ، وتحريك الجوارح متسرّعاً يخال أن ذلك أسرع له وأحث لمطيطه . فلتحسن في ذلك هيئتك ، ولتجمل فيه دعتك ؛ وليقل على مسائك إقبالك إلا وأت مطرق النظر ، غير ملتفت إلى محدث ، ولا مقبل عليه بوجهك في موكلك لمحدثه ، ولا موجب في السير مقلقل لجوارحك بالتحريك والاستنهاض ؛ فإن حسن مسيرة الوالى وأتداعه في تلك الحالة دليل على كثير من غيوب أمره ومستتر أحواله .

وأعلم أن أقواما يتسرعون إليك بالسعاية ، ويأتونك على وجه النصيحة ، ويستميلونك بإظهار الشفقة ، ويستدعونك بالإغراء والشبهة ، ويوطئونك عشوة الخيرة : ليجعلوك لهم ذريعة إلى استئكال العامة بموضعهم منك في القبول منهم والتصديق لهم على من قرفوه بتهمة ، أو أسرعوا بك في أمره إلى الظنّة ؛ فلا يصل^(١) إلى مشافهتك سابع شبهة ، ولا معروف بتهمة ، ولا منسوب إلى بدعة فيعرضك لإيتاغ دينك ، ويحملك على رعيته^(٢) بما لا حقيقة له عندك ، ويلجئك أعراض قوم لا علم لك بدخلهم ، إلا بما أقدم به عليهم ساعيا وأظهر لك منهم منتصحا . وليكن صاحب شرطتك المتولى لإنهاء ذلك هو المنصوب لأولئك ، والمستمع لأقوالهم ، والفاحص عن نصائحهم ؛ ثم لينه ذلك إليك على ما يرفع إليه منه لتأمره بأمرك فيه ، وتقفه على رأيك من غير أن يظهر ذلك للعامة : فإن كان صوابا نالتك خيرته ، وإن كان خطأ أقدم به عليك جاهل ، أو قرطه سعى بها كاذب ، فنالت الساعى منها أو المظالم عقوبة^(٣) ، أو بدر من واليك إليه عقوبة ونكال ، لم يعصب ذلك الخطأ بك ولم تنسب إلى تفريط ، وخلوت من موضع الذم فيه محضرا إليه ذهناك وصواب رأيك .

(١) ارتفع دينه بالإثم : أفسده . (٢) ألجمه عرض فلان : أمكنه منه يشتمه . (٣) دخل الرجل (بالفتح والكسر) : نيته ومذهبه . (٤) لم يعصب أى لم يلحق .

وتقدّم الى من توتّى ذلك الأمر وتعيّد عليه فيه ألا يُقدّم على شيء ناظرًا فيه ، ولا يحاول أخذ أحد طارقًا له ، ولا يعاقب أحدًا مُنكلاً به ، ولا يُخلّي سبيل أحد صالحًا عنه لإضجار^(١) براءته وصحّة طريقته ، حتى يرفع إليك أمره ، ويُنبئ إليك قضيته على جهة الصّدق ، ومنحى الحق ، ويقين الخبر ؛ فإن رأيت عليه سبيلا تحبس أو مجازًا لعقوبة ، أمرته بتوتّى ذلك من غير إدخاله عليك ، ولا مشافهة لك منه ؛ فكان المتوتّى لذلك ولم يجر على يدك مكروه رأى ولا غلظة عقوبة . وإن وجدت إلى العفو عنه سبيلا ، أو كان مما قُرب به خليًا ، كنت أنت المتوتّى للإنعام عليه بتخليّة سبيله ، والصفح عنه بإطلاق أمره ؛ فتولّيت أجزالك واستحققت دُخره ، وأنطقت لسانه بشكرك ، وطوّقت قومه حمدك ، وأوجبت عليهم حقك ؛ فقرّنت بين خصّلتين ، وأحرزت حُطوتين : ثواب الله في الآخرة ، ومحمود الذكر في الدنيا .

ثم إليك أن يصلّ إليك أحدٌ من جنّدك وجلسائك وخاصّتك ويطائيك بمسألة يكشفها لك ، أو حاجة يبدّك بطلبها ، حتى يرفعها قبل ذلك إلى كاتبك الذى أهدفته لذلك ونصبته له ، فيعرضها عليك مُنبها لها على جهة الصّدق عنها ، وتكون على معرفة من قدرها : فإن أردت إيسافه بها ونجاح ما سأل منها ، أذنت له فى طلبها ، باسطًا له كنفك ، مُقبلاً عليه بوجهك ؛ مع ظهور سرورك بما سالك ، وفُسحة رأى وبسطة ذرع ، وطيب نفس . وإن كرهت قضاء حاجته ، وأجبت رده عن طلبته ؛ وثقل عليك إجابته إليها وإيسافه بها ، أمرت كاتبك فصّفحه عنها ، ومنعه من مواجهتك بها ؛ ففقت عليك فى ذلك المؤونة ، وحسن لك الذكر ، ولم يُشّر عنك تجهّم الرد ، وينالك سوء القالة فى المنع ، ومُحمل على كاتبك فى ذلك لائمة أنت منها برىء الساحة .

وكذلك فليكن رأيك وأمرك فيمن طرأ عليك من الوفود وأتاك من الرّسل ، فلا يصلّ إليك أحد منهم إلا بعد وصول علمه إليك ، وعلم ما قدّم له عليك ، وجهة ما هو مكّلك

(١) أى لوضوح براءته ، فى حديث على : فأصهر لعدوك ، أى كن من أمره على أمر راضع .

(٢) صفحه عنها ، رده عنها .

به ، وقدر ما هو سائلك إياه إذا هو وصل إليك ، فأصدرت رأيك في حوائجه ، وأجّلت فكرك في أمره ، واخترت معتزماً على إرادتك في جوابه ، وأنفذت مصادور رأييتك في مرجوع مسألته قبل دخوله عليك ، وعلمه بوصول حاله إليك ، فرفعت عنك مؤونة البديهة ، وأرخيت عن نفسك خناق الروية ، وأقدمت على ردّ جوابه بعد النظر وإزالة الفكر فيه . فإن دخل إليك أحد منهم فكلمك بخلاف ما أنهى إلى كاتيك وطوى عنه حاجته قبلك ، دفعته عنك دفعا جميلا ، ومنعته جوابك منعاً وديعاً ؛ ثم أمرت حاجتك بإظهار الجفوة له والغلظة عليه ، ومنعه من الوصول إليك ؛ فإن ضبطك لذلك مما يحكم لك تلك الأسباب ، صارفاً عنك مؤونتها ، ومسهلاً عليك مستصعبها .

احذر تضییع رأيك وإهمالك أدبك في مسالك الرضا والغضب واعتوارهما إليك ، فلا يزدھینک إفراط عجب تستخفك روائعه ، ويستهيوك منظره ، ولا يبدرك منك ذلك خطأ وتزق خفة لمكروه إن حلّ بك ، أو حادث إن طرأ عليك . وليكن لك من نفسك ظهريّ ملجأً تتحرّز به من آفات الردى ، وتستعصده في مهمّ نازل^(١) ، وتتعقب به أمورك في التدبير . فإن احتججت إلى مادة من عقلك ، وروية من فكرك ، أو أنيساط من منطقك ، كان أنحيأزك إلى ظهريّك مُزداداً مما أحببت الأمتياح منه والامتيار ؛ وإن استبدرت من أمورك بواذر جهل أو مضى زلل أو معاندة حق أو خطل تدبير ، كان ما احتججت إليه من رأيك عذراً لك عند نفسك ، وظهرياً قوياً على ردّ ما كرهت ، وتخفيفاً لمؤونة الباغين عليك في القالة وانتشار الذكر ؛ وحصناً من غلوب الآفات عليك ، وأسّعلامها على أخلاقك .

وأمنع أهل بطانتك وخاصة خديك من استلحام أعراض الناس عندك بالغيبة ، والتقرب اليك بالسعاية ، والإغراء من بعض ببعض ؛ أو النجاسة اليك بشيء من أحوالهم

(١) في صبح الأعشى : « وتستعصد في موهم النازل » . وفي رسائل البغاء : « وتستعده في مهم نازل » .
 واختارنا من العبارتين ما يناسب المقام . (٢) كذا في صبح الأعشى والمفتاح ورسائل البغاء ، ولعله وإن ابتدرت ... الخ .

المستترة عنك ، أو التحميل لك على أحد منهم بوجه النصيحة ومذهب الشفقة : فإن ذلك أبلغ بك سموًا الى منالة الشرف ، وأعوذ بك على محمود الذكر ، وأطلق لعنان الفضل في بحالة الرأي وشرف الهمة وقوة التدبير .

وأملك نفسك عن الإنبساط في الضحك والانفهاق ، وعن القطوب بإظهار الغضب وتخله : فإن ذلك ضعف عن ملك سورة الجهل ، ونروج من آتجال أسم الفضل .
وليكن ضحكك تبسمًا أو كشرًا في أحيان ذلك وأوقاته ، وعند كل رافع مستخف مطرب ، وقطوبك إطرًا في مواضع ذلك وأحواله ، بلا حجة الى السطوة ، ولا إسراع الى العيرة ، دون أن تكشفها روية الحلم ، وتملك عليها بادرة الجهل .

إذا كنت في مجلس مائك ، وحيث حضور العامة مجلسك ، فإياك والرعى بنظرك الى خاص من قوادك ، أو ذى أثره عندك من حشمك . وليكن نظرك مقسومًا في الجميع ، وإراعتك سمعك ذا الحديث بدعة هادئة ، ووقار حسن ، وحضور فهم مجتمع ، وقلة تضجر بالحدث . ثم لا يرح وجهك الى بعض حرسك وقوادك متوجها بنظر ركين ، وتفقد محض . وإن وجهك إليك أحد منهم نظره محققًا ، أو رماك ببصره ملجًا ، فاحفض عنه إطرًا جميلًا باتداع وسكون . وإياك والتسرّع في الإطراق ، والخفة في تعريف النظر ، والإلحاح على من قصدك في مخاطبته إياك راقًا بنظره .

واعلم أن تصفحك وجوه جلسائك وتفقدك مجالس قوادك من قوة التدبير ، وشهادة القلب ، وذكاء الفطنة ، وانتباه السنة . فتفقد ذلك عارًا بمن حضرك وغاب عنك ، عالمًا بمواضعهم من مجلسك ، ثم أعد بهم عن ذلك سائلًا لهم عن أشغالهم التي منعتهم من حضور مجلسك ، وعاقبتهم بالتخلف عنك .

إن كان أحد من حشمك وأعوانك يثق منه بغيب ضمير ، وتعرف منه لين طاعة ، وتكثيف منه سلب صحة رأى ، وتأمينه على مشورتك ، فإياك والإقبال عليه في كل حادث يرد عليك ، والتوجه نحوه بنظرك عند طوارق ذلك ، وأن تزيه أو أحدا من أهل مجلسك أن

بك حاجةً اليه مُوحِشة ، أو أن ليس بك عنه غنى في التدبير، أو أنك لاتقضى دونه رأيا ،
إشراكا منك له في رويته ، وإدخالاً منك له في مشورتك ، وأضطراباً منك الى رأيه
في الأمر يعرّوك : فإن ذلك من دخائل العيوب التي ينتشر بها سوء القالة عن نظرائك ، فانفها
عن نفسك خائفاً لاعتلاقها ذكرك ، وأحجبها عن رويته قاطعاً لأطاع أوليائك عن مثلها
عندك ، أو غلّوبهم عليها منك .

وأعلم أن للمشورة موضع الخلوة وأنفراد النظر ، ولكل أمرٍ غاية تُحيط بمحدوده ، وتجمعُ
معامله . فابغها مُحِرْزاً لها ، ورُمها طالباً لئليها ؛ وإيّاك والقصورَ عن غايتها أو العجزَ عن
دركها ، أو التفريط في طلبها . إن شاء الله تعالى .

إيّاك والإغرامَ عن حديثٍ ما أعجبك ، أو أمرٍ ما أزدهاك بكثرة السؤال ، أو القَطْعَ
لحديثٍ من أرداك بحديثه حتى تنقُضه عليه بالخوض في غيره أو المسألة عما ليس منه : فإن
ذلك عند العامة منسوب الى سوء الفهم وقصر الأدب عن تناول محاسن الأمور والمعرفة
بمساوئها ، ولكن أنصت لمحدثك وأرعه سمعك حتى يعلم أن قد فهمت حديثه ، وأحطت
معرفته بقوله ؛ فإن أردت إجابته فعن معرفةً بحاجته وبعد علم بطليته ؛ وإلا كنت عند
أنقضاء كلامه كالمتعجب من حديثه بالتهسّم والإغضاء ، فأجزى عنك الجواب ، وقطع عنك
ألسن العتب .

إيّاك وأن يظهر منك تبرّم بطول مجلسك ، أو تضجّر ممّن حضرك ؛ عليك بالنهت
عند سورة الغضب ، وحميّة الأنف ، ومَلال الصبر : في الأمر تستعجل به والعمل تأمّر
بإنفاذه ؛ فإن ذلك سُخف شائن ، وخفة مُردية ، وجهالة بادية . وعليك بثبوت المنطق ،
ووقار المجلس ، وسكون الريح ، والرّفض لحشو الكلام ، والترك لفضوله والإغرام
بالزيادات في منطقتك ، والترديد للفظك : من نحو أسمع ، وأفهم عني ، ويا هناه ، وألا ترى ،
أو ما يُلْهَج به من هذه الفضول المقصّرة بأهل العقل ، الشائنة لذوى الحجا في المنطق ،
المنسوبة إليهم بالعي ، المُردية لهم بالذكر . وخصالٌ من معائب الملوك ، والسُّوقَة عنها غيبة

النظر إلا من عرفها من أهل الأدب ، وقلمها حامل لها ، مضطجع بها ، صابر على ثقلها ،
أخذ لنفسه بجوامعها ، فأنفها عن نفسك بالتحفظ منها ، وأملك عليها أعتيادك إياها معتنيا
بها ، منها كثرة التنخيم ، والتبصق ، والتنخع ، والثوباء ، والتمطى ، والجشأ ، وتحريك
القدم ، وتنقيض الأصابع ، والعبث بالوجه واللحية أو الشارب أو المحصرة أو ذؤابة السيف ،
أو الإيماض بالنظر ، أو الإشارة بالطرف إلى بعض خدامك بأمر إن أردته ، أو السرار
في مجلسك ، أو الاستعجال في طعمك أو شربك . وليكن طعمك متدعا ، وشربك أنفاسا ،
وجرعك مصا . وإياك والتسرع إلى الإيمان فيما صغر أو كبر من الأمور ، والشئمة بقول :
يأبن الهناه ؛ أو الغمزية لأحد من خاصتك بتسويغهم مقارفة الفسوق بحيث محضرك
أودارك وفناؤك : فان ذلك كله مما يقبح ذكره ، ويسوء موقع القول فيه ، وتحمّل عليك
معايبه ، وينالك شينه ، وينتشر عليك سوء النبأ به . فاعرف ذلك متوقيا له ، وأحذر
مجانبا لسوء عاقبته .

أستكثر من فوائد الخير : فانها تنشر المحمدة ، وتقبل العثرة ، وأصبر على كظم الغيظ :
فانه يورث الراحة ، ويؤمن الساحة ، وتعهد العامة بمعرفة دخلهم ، وتبطن أحوالهم ،
وأستثارة دفاتنهم ؛ حتى تكون منها على رأي عين ، ويقين خبرة ؛ فتنتعش عديمتهم ، وتجبر
كسبرهم ، وتقيم أودهم ، وتعلم جاهلهم ، وتستصلح فاسدهم : فان ذلك من فلك بهم
يورثك العزة ، ويقدمك في الفضل ، ويبقى لك لسان الصدق في العاقبة ، ويحيز لك ثواب
الآخرة ، ويرد عليك عواطفهم المستنفرة منك ، وقلوبهم المتنحية عنك .

قس بين منازل أهل الفضل في الدين والحجج والرأي والعقل والتدبير والصيت
في العامة ، وبين منازل أهل النقص في طبقات الفضل وأحواله ، والحوال عند مباحة
النسب ؛ وأنظر بصحبة أيهم تنال من مودته الجميل ، وتستجمع لك أقاويل العامة على
التفضيل ؛ وتبلغ درجة الشرف في أحوالك المتصرف بك . فاعتمد عليهم مديخلا لهم
في أمرك ، وآثرهم بحالستك لهم مستمعا منهم ؛ وإياك وتضيقهم مفترطا ، وإيهاهم مضيقا .

(١) يقال : أنقض أصابعه : صوت بها وليس في كتب اللغة نقض بالتضعيف . (٢) الغيرة : المطن .

هذه جوامع خصال قد نلخصها لك أمير المؤمنين مفسراً ، وجمع لك شواذها مؤلفاً ، وأهداها إليك مُرَشِّداً ، فقف عند أواميرها ، وتناه عن زواجرها ، وثبتت في مجاميعها ، وخُذْ بوثائق عُمرَها ، تسلم من معاطب الردى ، وتنل أنفُسَ الحظوظ ورغيب الشرف ، وأعلى دَرَجَ الذِّكر ، وتأثُل سَطْرَ العِزِّ . والله يسأل لك أمير المؤمنين حُسْنَ الإرشاد ، وثنايَ المَزِيد ، وبلوغَ الأمل ، وأن يجعل عاقبة ذلك بك الى غِبْطَةِ يُسُوغُك إياها ، وعافية يُحِلُّكَ أَكْثَافَها ، ونعمة يُلْهِمُكَ شُكْرَها : فإنه الموفق للخير ، والمعِينُ على الإرشاد ، منه تَمُّ الصالحات ، وهو مُؤَيِّد الحسَنات ، عنده مفاتيحُ الخير ، وبيده المُلْك وهو على كلِّ شيء قدير .

فاذا أفضيت نحو عُدُوك ، وأعزمت على لقاءهم ، وأخذت أُهْبَةَ قتالهم ، فاجعل دِعَامَتَكَ التي تلجأ إليها ، وثِقَتَكَ التي تأمل النجاة بها ، ورُكْنَكَ الذي ترتجى منالَةَ الظَّفَر به وتكتشف به (٢) لمعالي الخذر ، تقوى الله مستشعراً لها بمراقبته ، والاعتصام بطاعته متبعاً لأمره ، محتنباً لسُخْطه ، محتذياً سُنَّتَه ، والتوقى لمعاصيه في تعطيل حدوده ، أو تعدى شرائعه ، متوكلاً عليه فيما صمدت له ، واثقاً بنصره فيما توجهت نحوه ، متبرئاً من الحول والقوة فيما نالك من ظُفَر وتلقاك من عِزٍّ ، راغباً فيما أهاب بك أمير المؤمنين إليه من فضل الجهاد ، ورمى بك اليه محمود الصبر فيه عند الله من قتال عِدِّو المسلمين ، أكلَّهم عليه وأظهره عداوة لهم ، وأفدحه ثِقلاً لعانتهم ، وآخذه بريقهم ، وأعلاه عليهم بغياً ، وأظهره عليهم فسقا وبخوراً ، وأشدَّه على فيئهم الذي أصاره الله لهم وفتحهم عليهم مؤونةً (٣) وكلاً . والله المستعان عليهم ، والمستنصر على جماعتهم ، عليه يتوكل أمير المؤمنين ، وإياه يستصيرخ عليهم ، وإليه يفوض أمره ، وكفى بالله ولبياً وناصراً ومُعِيناً ، وهو القوى العزيز .

ثم خُذْ من معك من تُبَاعِكَ وجندك بكف معرفتهم ، وردّ مشتعل جهلهم ، وإحكام ضياع عملهم ، وضمّ منتشر قواصيمهم ، ولمّ شعث أطرافهم ، وتقييدهم عمن مروا به من

(١) تأمل : ثبت . (٢) اكتشف الكهف : دخله . (٣) أهاب بك : دعاك .

(٤) من فوطم كلب الدهر على أهله اذا اتتد وألح . (٥) الكل : النقل .

أهل ذِمَّتِكَ وملتكَ بحُسن السيرة، وعفافِ الطُّعْمَةِ، ودَعَةِ الوَقَارِ، وهُدَى الدَّعَةِ، وِحَامِ
المستحجَمِ، محكماً ذلك منهم، متفقداً لهم تفقُّدَكَ إِيَّاهُ من نفسك، ثم أحمَدُ لعدوك المتسمي
بالإسلام، الخارج من جماعة أهله، المتحلِّحِ ولايةَ الدينِ مستحلاً لدماء أوليائه، طاعناً
عليهم، راغباً عن سُنَّتِهِمْ، مفارقاً لشرائعِهِمْ، يَنَغِيهِمُ الغوائلُ، وَيَنُصِبُ لهم المكايِدَ؛ أَضْرَمَ
حِقْداً عليهم، وأرصدَ عداوةً لهم، وأطلبَ لِفِرَاقِ فِرَاصِهِمْ من التُّركِ وأُمِّ الشُّركِ وطواغِي
الليلِ؛ يدعو إلى المعصية والفُرقة، والمُرُوقِ من دينِ الله إلى الفِتْنَةِ، مخترعاً بهوَاهُ للأديانِ
المتحلِّحَةِ والبدعِ المتفرقة خَسَاراً وتَحْسِيراً، وضاللاً وتَضَلُّلاً، بغير هُدًى من الله ولا بيان.
ساء ما كسبت له يداهُ وما الله بظلام للعبيد، وساء ما سَوَّلَتْ له نفسه الإمارةُ بالسوء،
والله من ورائهِ بالمِرصادِ: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

حَصَّنَ جَنَدَكَ، وَأَشْكَمَ نَفْسَكَ بطاعةِ الله في مجاهدةِ أعدائِهِ، وأرجُ نصرَهُ، وتنجِزُ
موعودِهِ، متقدِّماً في طلبِ ثوابِهِ على جهادِهِمْ، معترِفاً في آبتغاءِ الوسيلةِ إِلَيْهِ على لقائِهِمْ:
فإن طاعتكَ إِيَّاهُ فيهِمْ، ومرَاقبتَكَ لَهُ ورجاءَكَ نصرَهُ مسهلٌ لك وَعُورَهُ، وعاصِمٌك من كلِّ
سُبَّةٍ، ومُنَجِّيك من كلِّ هُوَةٍ، وناعِشٌك من كلِّ صَرَعَةٍ، ومُقيِّلٌك من كلِّ كَبُوءَةٍ، ودارِيٌّ
عَنكَ كلَّ شَبْهَةٍ، ومُدْهِبٌ عَنكَ لَطَافَةَ كلِّ شَكٍّ، ومُقَوِّيك بكلِّ أَيْدٍ ومَكِيدَةٍ، ومُعِزُّكَ
في كلِّ مُعْتَرِكٍ قِتَالٍ، ومؤيِّدٌك في كلِّ تَجَمُّعٍ لِقَاءٍ، وكالِثٌك عند كلِّ فِتْنَةٍ مُغْشِيَةٍ، وحائِطٌك
من كلِّ شَبْهَةٍ مُرِيدَةٍ، واللهُ وَلِيُّكَ ووليُّ أميرِ المؤمنينَ فيكَ، والمستخلفُ على جَنَدِكَ
ومن مَعَكَ.

إِعلم أن الظَّفَرَ ظَفَرَان: أحدهما — وهو أعمُّ منفعةً، وأبلغُ في حَسَنِ الذِّكْرِ قَالَةً، وأحوطُهُ
سلامةً، وأتمُّهُ عافيةً، وأحسُّهُ في الأمورِ وأعلاهُ في الفضلِ شرقاً، وأصحُّهُ في الرِّوْيَةِ حَزْماً،
وأسلمُهُ عندَ العاقبةِ مَصْدَراً — ما نبيلُ بِسلامَةِ الجنودِ، وحُسْنِ الحيلةِ، ولُطْفِ المَكِيدَةِ
ويُمنُّ النِّقِيبةِ، وآسِئِنزَالِ طاعةِ ذِي الصُّدُوفِ بغيرِ إخطارِ الجيوشِ في وَقْدَةِ جَمْرَةِ الحربِ،

(١) الأيد: القوَّة. (٢) أي مدلهمة سوداء، من قرطم: أعشى الليل إذا أظلم.

ومبارزة الفرسان في معترك الموت ؛ وإن ساعدتك طُلُوق الظفر، وذلك مزيد السعادة في الشرف، ففي مخاطرة التلّف مكروه المصائب، وعضاض السيوف وألم الجراح، وقصاص الحروب وسجّالها بمُغاورَة^(١) أبطالها . على أنك لا تدري لأى يكون الظفر في البديهة، ومن المغلوب بالدولة، ولعلك أن تكون المطلوب بالتحيص . فحاول إصابة أبلغيهما في سلامة جندك ورعيّتك، وأشهرهما صيتاً في بدؤ تدبيرك ورأيك، وأجمعهما لألفة وليك وعدوك، وأعوّنهما على صلاح رعيّتك وأهل مملّتك، وأقوَاهما شكيمة في حزمك، وأبعدهما من وشم عزمك، وأعلقهما بزمام النجاة في آخرتك، وأجزلها ثواباً عند ربك .

وأبدأ بالإعذار إلى عدوك، والدعاء لهم إلى مراجعة الطاعة وأمر الجماعة وعزّ الألفة، آخذاً بالحنة عليهم، متقدماً بالإعذار لهم، باسطاً أمانك لمن لجأ إليك منهم، داعياً لهم إليه بألن لفظك وألطف حيلك، متعطفاً برأفتك عليهم، مترقفا بهم في دعائك، مشفقاً عليهم من غلبة الغواية لهم وإحاطة الهلكة بهم، منفذا رُسلك إليهم بعد الإنذار : تعدّهم إعطاء كلّ رغبة يهش إليها طمعهم في موافقة الحق، وبسط كل أمان سألوه لأنفسهم ومن معهم ومن تبعهم ؛ موطناً نفسك فيما تبسط لهم من ذلك على الوفاء بعهدك، والصبر على ما أعطيتهم من وثائق عقدك ؛ قابلاً توبة نازعهم عن الضلالة، ومراجعة مسيئتهم إلى الطاعة ؛ مُرصداً للنجاة إلى فئة المسلمين وجماعتهم إجابةً إلى مادعوتة إليه وبصرته إياه من حقك وطاعتك، بفضل المنزلة، وإكرام المثوى، وتشريف الجاه . وليظهر من أثرك عليه وإحسانك إليه ما يرغب في مثله الصادق عنك، المُصرُّ على خلافك ومعصيتك ؛ ويدعو إلى اعتلاق حبل النجاة وما هو أملك به في الاعتصام عاجلاً، وأنجي له من العقاب آجلاً، وأحوطه على دينه ومهجته بدءاً وعاقبة ؛ فإن ذلك مما يستدعى به من الله نصره عليهم، ويعتضد به في تقديمه الحجة إليهم، مُعذراً أو مُنذراً، إن شاء الله .

(١) المغاورَة : المقاتلة . (٢) كذا في صبح الأعشى ويظهر أن السياق يقتضى معمولاً لهذا الفعل

أما ضميراً أو اسماً ظاهراً .

ثم أذك عيونك على عدوك متطلعا لعلم أحوالهم التي يتقلبون فيها، ومنازِلهم التي هم بها، ومطامِعهم التي قد مدّوا أعناقهم نحوها، وأى الأمور أدعى لهم إلى الصّلاح، وأقوُّها لرضاهم إلى العافية، وأسهلها لاستئصال طاعتهم، ومن أى الوجوه مأتاهم : أمن قبل الشدة والمنافرة والمكيدة والمباعدة والإرهاب والإبعاد، أم التّريغيب والإطاع، متنبها في أمرك، متخيرا في رويّتك، مستميكًا من رأيك، مستشيرا لذوى النصيحة الذين قد حنّكتهم السنّ، وخبطتهم التجربة، ونجّذتهم الحروب، متشزّزا في حرك، آخذًا بالحزم في سوء الظن، مُعدّا للمخدر، محترسا من الغرة، كأنك في مسيرك كلّه ونزولك أجمع مواقف لعدوك رأى عين تنتظر حملاتهم، وتخشو كراتهم، مُعدّا أقوى مكائيدك، وأرهب عتادك، وأنكأ جندك، وأجدّد تسخيرك، معظما أمر عدوك لأعظم مما بلغك، حذرا يكاد يفريط : لتعد له من الاحتراس عظيما، ومن المكيده قويا، من غير أن يفشاك ذلك عن إحكام أمورك، وتدير رأيك، وإصدار رويّتك، والتأهب لم يحزبك، مصغرا له بعد استشعار الحذر، واضطار الحزم، وإعمال الزّوية، وإعداد الأهبة . فإن ألفت عدوك كليل الحد، وقم الحزم، نضيب الوفّر، لم يضرك ما اعتدّت له من قوة وأخذت له من حزم، ولم يزدك ذلك إلا جرأة عليه، وتسرعا إلى لقائه . وإن ألفتته متوقّدا الحرب، مستكينف الجمع، قوى التّبع، مستعلي سورة الجهل، معه من أعوان الفتنة وتبع إبليس من يؤقّد لهب الفتنة مسعرا، ويتقدّم إلى لقاء أبطالها متسرعا، كنت لأخذك بالحزم، واستعدادك بالقوة، غير مهين الجند، ولا مفرط في الرأى، ولا متلهّف على إضاعة تدبير، ولا محتاج إلى الإعداد وعجلة التأهب مبادرة تدهشك، وخوفا يقلبك . ومتى تغترّ بترقيق المرققين، وتأخذ بالهويناء في أمر عدوك لتصغير المصغرين، ينتشر عليك رأيك، ويكون فيه أنتقاض أمرك وهنّ تدبيرك، وإهمال للحزم في جندك،

(١) تشزن للأمر : استعده له .

(٢) يفشاك (بالفاء والياء المثلثة) أى يكسرک ويؤخرک . (٣) كذا في صبح الأعشى . ولعلها . وقوم الحزم أى مقهوره أو لعلها محرفة عن كلمة أخرى بمعنى الضعف أو القلة . (٤) نضيب : قليل . والوفّر : المال .

ونضيق له وهو ممكن الإصحاح، رَحْب المَطْلَب، قَوِي العِصْمَة، فسيح المضطرب، مع ما يدخل رعيّتك من الأغترار والغفلة عن إحكام أحراسهم، وضبط مراكرهم، لما يرون فيه من استئناسك إلى الغزاة، ورؤيتك إلى الأمن، وتهاونك بالتدبير، فيعود ذاك عليك في انتشار الأطراف، وضياح الأحكام، ودخول الوهن بما لا يستقال محذوره، ولا يدفع محضوفه.

احفظ من عيونك وجواسيسك ما يأتونك به من أخبار عدوك. وإياك ومعاينة أحد منهم على خبر إن أذاك به آتئمته فيه أو سؤدت به ظناً وأذاك غيره بخلافه، أو أن تكذبه فيه فترده عليه، ولعله أن يكون قد مخضك النصيحة وصدقك الخبر وكذبك الأول، أو نخرج جاسوسك الأول متقدماً قبل وصول هذا من عند عدوك، وقد أبرموا لك أمراً، وحاولوا لك مكيده وأرادوا منك غيرة فازدلفوا إليك في الأهبة، ثم انتقض بهم رأيهم واختلف عنه جماعتهم، فأرادوا رأياً، وأحدثوا مكيده، وأظهروا قوة، وضربوا موعداً، وأموا مسلكاً لمديد أناهم، أو قوة حدثت لهم، أو بصيرة في ضلالة شغلهم، فالأحوال بهم متنقلة في الساعات، وطوارق الحادثات. ولكن ألهمهم جميعاً على الانتصاح، وأرضع لهم بالمطامع، فإنك لن تستعبدهم بمثلها. وعدهم جزالة المئاب، في غير ما استئناسك منك إلى ترفيقهم أمر عدوك، والاغترار إلى ما يأتونك به دون أن تعمل رويتك في الأخذ بالحزم، والاستكثار من العدة. وأجعلهم أوثق من تقدر عليه، وآمن من تسكن إلى ناحيته، ليكون ما يبرم عدوك في كل يوم وليلة عندك إن استطعت ذلك، فتتقض عليهم برأيك وتدبيرك ما أبرموا، وتأثيرهم من حيث أمنوا، وتأخذ لهم أهبة ما عليه أقدموا، وتستعد لهم بمثل ما حذروا.

وأعلم أن جواسيسك وعيونك ربما صدقوك وربما غشوك، وربما كانوا لك عليك: فنصحوا لك وغشوا عدوك، وغشوك ونصحوا عدوك، وكثيراً ما يصدقونك ويصدفونك. فلا تبهترت منك فرطة عقوبة إلى أحد منهم، ولا تعجل بسوء الظن إلى من آتئمته على

ذلك ؛ وأستنزِل نصحهم بالمِياحة^(١) والمثالة ، وأبسُط من آمالهم فيك من غير أن يرى أحدٌ منهم أنك أخذت من قوله أخذَ العامل به والمتَّبِع له ، أو عملت على رأيه عمَل الصادر عنه ، أو ردّدته عليه ردّ المكذّب به ، المتهم له ، المستخفّ بما أنك منه ، فتفسدَ بذلك نصيحته ، وتُستدعى غشّه ، وتجتَرّ عداوته . وأحذر أن يُعرفوا في عسكرك أو يُشار إليهم بالأصابع . ولكن منزّلهم على كاتب رسائلك وأمين سرك ، ويكون هو الموجه لهم ، والمُدخل عليك من أردت مشافهته منهم .

وَأَعْلَمْ أن لعدوك في عسكرك عيوناً راصدة ، وجواسيس متجسّسة^(٢) ، وأنه لن يقع رأيه^(٣) عن مكيدتك بمثل ما تكايد به ، وسيحتال لك كاحتيالكَ له ، ويُعدّ لك كأعدادك فيما تُراوله منه ، ويُحاولك كحاولتكَ إياه فيما تقارعه عنه ؛ فأحذر أن يُشهر رجلٌ من جواسيسك في عسكرك فيبلغ ذلك عدوك ويعرف موضعه ، فيُعدّ له المراسد ، ويحتال له بالمكايد . فإن ظفر به فأظهر عقوبته ، كسر ذلك ثقات عيونك ، وخذّهم عن تطلّب الأخبار من معادنها ، وأستقصائها من عيونها ، وأستعذاب أجتنائها من ينابيعها ، حتى يصيروا إلى أخذها مما عَرَض من غير الثقة ولا المعايّة ، لقطاً لها بالأخبار الكاذبة ، والأحاديث المُرجفة . وأحذر أن يعرف بعض عيونك بعضاً : فإنك لا تأمن تواطؤهم عليك ، ومُالائتهم عدوك ، واجتماعهم على غشك ، وتطابقهم على كذبك ، وإصفاقهم^(٤) على خيانتك ، وأن يورط بعضهم بعضاً عند عدوك . فأحكم أمرهم فإنهم رأس مكيدتك ، وقوام تدبيرك ، وعليهم مدار حركك ، وهو أول ظفرك . فاعتمَل على حسَب ذلك وحيث رجاؤك به ، تنسَل أملك من عدوك ، وقوّتك على قتاله ، واحتيالكَ لإصابة غرائته وانتهاز فرصه ، إن شاء الله .

فإذا أحكمت ذلك وتقدّمت في إتقانه ، وأستظهرت بالله وعونه ، فولّ شُرطتك وأمر عسكرك أوثق قوادك عندك ، وأظهرهم نصيحة لك ، وأنفذهم بصيرة في طاعتك ، وأقواهم

(١) المياحة : الإغطاء .

(٢) في مفتاح الأفكار ورسائل البلغاء : « كامنّة » . (٣) في رسائل البلغاء : « وأن رأيه

في مكيدتك مثل ما تكايد به » . (٤) إصفاقهم : اجتماعهم .

شكيمة في أمرك، وأمضاهم صريمة^(١)، وأصدقهم عفافا، وأجزأهم غناء، وأكفاهم أمانة، وأصحهم ضميرا، وأرضاهم في العامة ديناً، وأحمدهم عند الجماعة خلقاً، وأعطفهم على كافيتهم رافة، وأحسنهم لهم نظراً، وأشدهم في دين الله وحقه صلابة. ثم فوض إليه مقبولا له، وأبسط من أمله مظهرها عنه الرضا، حامداً منه الابتلاء. وليكن عالماً بمراكر الجنود، بصيراً بتقدم المنازل، مجرباً، ذا رأى وحزم في المكييدة؛ له نباهة في الذكر، وصيت في الولاية؛ معروف البيت، مشهور الحسب. وتقدم إليه في ضبط معسكره، وإذكاء أحراسه في آناء ليله ونهاره؛ ثم حذره أن يكون منه إذن لجنوده في الانتشار والاضطراب، والتقدم لطلائعك، فتصاب لهم غزوة يجترئ بها عدوك عليك، ويسرع إقداما إليك، ويكسر من إيراد جندك ويوهن من قوتهم: فإن الصوت في إصابة عدوك الرجل الواحد من جندك أو عبيدهم مطمع لهم فيك، مقو لهم على شخذ أتباعهم عليك وتصغيرهم أمرك، وتوهينهم تديريك. فحذره ذلك وتقدم إليه فيه؛ ولا يكون منه إفراط في التضيق عليهم، والخصم لهم، فيعمهم أزل^(٢)، ويشملهم صنك؛ وتسوء عليهم حاله، وتشتد به المؤونة عليهم، وتخبث له ظنونهم. وليكن موضع إنزاله إياهم ضاماً لجماعتهم، مستديراً بهم جامعاً لهم؛ ولا يكون منبسطاً منتشراً متبدداً، فيشق ذلك على أصحاب الأحراس، وتكون فيه التهرة للعدو، والبعد من المساعدة إن طرقت طارق في فجاء الليل وبغائاته. وأوعز إليه في أحراسه، وتقدم إليه فيهم كأشد التقدم وأبلغ الإيعاز. ومرة فليول عليهم رجلاً ركيناً مجرباً جرىء الإقدام، ذا كي الصرامة، جلد الجوارح، بصيراً بمواضع أحراسه، غير مصانع ولا مشفع للناس في التمنحى إلى الرفاهية والسعة، وتقدم العسكر والتأثر عنه، فإن ذلك مما يضعف الوالى ويوهنه لأستنامته إلى من ولّاه ذلك وأمنه به على جيشه.

وأعلم أن مواضع الأحراس من معسكرك، ومكانها من جندك، بحيث الغناء عنهم والرد عليهم، والحفظ لهم، واليكلاء لمن بغتهم طارقاً، أو أرادهم خائلاً؛ ومراصد المُنسَل

(١) الصريمة: العزيمة. (٢) في مفتاح الأفكار وغيره: «أفئدة». وإياد كل شيء: ما يقوى به من جانبه ومنه إيادا العسكر وهما ميته وميسرته. (٣) الصوت: كالصيت والصات: الذكر والشهرة. (٤) الأزل: الضيق والشدة. (٥) المساعدة: كل مدد تستعين به في حرب أو غيره.

منها والآبق من أرفائهم وأعبدهم ، وحفظها من العيون والجواسيس من عدوهم . وأحذر أن تضرب على يديه أو تشككه عن الصرامة بمؤامرتك في كل أمر حادٍ وطارئ إلا في المهمّ النازل والحدّث العام : فإنك إذا فعلت ذلك به ، دعوته إلى نصحك ، وأستوليت على محصول ضميره في طاعتك ؛ وأجهد نفسه في ترتيبك ، وأعمل رأيه في بلوغ موافقتك وإعانتك ؛ وكان يفتك ويدّاك وقوّتك ودعامتك ، وتفترغت أنت لمسايدة عدوك ، مريحا لنفسك من همّ ذلك والعناية به ، ملقيا عنك مؤونة باهظة وكلفة فادحة .

وأعلم أن القضاء من الله بمكانٍ ليس به شيء من الأحكام ، ولا بمثل محلّه أحدٌ من الولاية : لما يجرى على يديه من مغالط الأحكام ومجاري الحدود . فليكن من تولى القضاء في عسكريك [من ذوى] الخير والقناعة والعفاف والنزاهة والفهم والوقار والعصمة والورع ، والبصر بوجوه القضايا ومواقعها ، قد حنّكته السنّ وأيدته التجربة وأحكته الأمور ، ممن لا يتصنّع للولاية ويستعدّ للنزوة ، ويحتريء على الحُباة في الحكم ، والمداهنّة في القضاء ، عدلّ الأمانة ، عفيف الطعمة^(٢) ، حسن الإنصاف ، فهم القلب ، ورع الضمير ، متخشّع السمّت ، بادى الوقار ، محتسبا للخير . ثم أجز عليه ما يكتفيه ويُسّعه ويصلحه ؛ وفرّغ لما حملته ، وأعنه على ما وليته : فإنك قد عرضته لهلكة الدنيا وبوار الآخرة ، أو شرف الدنيا وحظوة الآجلة ، إن حسنت نيّته ، وصدقت رويّته ، وصحّت سريرته ، وسلّط حكم الله على رعيّته ، مُطلقا عِنايه ، متّظّدا قضاء الله في خلقه ، عاملا بسنّته في شرائعه ، آخذًا بحدوده وفرائضه .

وأعلم أنه من جندك بحيث ولايتك^(٣) ، الجارية أحكامه عليهم ، النافذة أقضيّته فيهم ؛ فأعير من تولّيه ذلك وتُسِنده إليه . ثم تقدّم في طلائعك فإنها أوّل ميكيدتك ، ورأس حرك ، ودعامة أمرك ، فأنتخب لها من كلّ قادة وصحابة رجالا ذوى نجدة وبأس ، وصرامة وخبرة ، حُماة كُفّاة ، قد صلّوا بالحرب وذاقوا سبّاها ، وشربوا مرار كؤوسها ، وتجرّعوا

(١) الزيادة عن مفتاح الأفكار (ص ٢٥٠) وغيره . (٢) الطعمة بالضم والكسر وجه الكسب

الطيب أو الخبيث . (٣) في مفتاح الأفكار وغيره : « بحيث ولايتك وفي الموضع الجارية » الخ .

غَصَصَ دِرَّتِيهَا ؛ وَزَبَنَتْهُمْ بِتَكَارٍ عَوَاطِفُهَا ، وَحَمَلَتْهُمْ عَلَى أَصْعَبِ مَرَاكِهَا ، وَذَلَّلَتْهُمْ بِثِقَافٍ
أَوْدَهَا . ثُمَّ آتَتْهُمْ عَلَى عَيْنِكَ ، وَأَعْرِضْ كُرَاعَهُمْ بِنَفْسِكَ ؛ وَتَوَخَّ فِي آتِقَائِكَ ظُهُورَ الْجَلَدِ ،
وَسَهَامَةَ الْخُلُقِ ، وَكَمَالَ الْآلَةِ . وَإِيَّاكَ أَنْ تَقْبَلَ مِنْ دَوَابِّهِمْ إِلَّا الْإِنَاثَ مِنْ الْخَيْلِ الْمَهْلُوبَةِ ،
فَإِنَّهُنَّ أَسْرَعُ طَلِبًا ، وَأَنْجَى مَهْرَبًا ، وَأَلَيْنَ مَعْطَفًا ، وَأَبْعَدُ فِي الْخُوقِ غَايَةً ، وَأَصْبَرُ فِي مَعْتَرِكِ
الْأَبْطَالِ إِقْدَامًا . وَخُذْهُمْ مِنَ السَّلَاحِ بِأَبْدَانِ الدَّرُوعِ ، مَازِيَّةِ الْحَدِيدِ ، شَاكَّةِ النَّسِجِ ، مُتَقَارِبَةِ
الْحَلِاقِ ، مَنَاحِيَةِ الْمَسَامِيرِ وَأَسْوَقِ الْحَدِيدِ ، مُمَوَّهَةِ الرِّكَبِ ، مُحْكَمَةِ الطَّبْعِ خَفِيفَةِ الصَّوْغِ ؛
وَسَوَاعِدَ طَبْعُهَا هِنْدِيٍّ ، وَصَوُغُهَا فَارِسِيٍّ ؛ رِقَاقِ الْمَعَاطِفِ بِأَكْبَفِ وَاقِيَةٍ وَعَمَلِ مُحْكَمِ .
وَيَلْمِيقِ الْبَيْضِ مُدْهَبَةٍ وَمَجْرَدَةٍ ، فَارِسِيَّةِ الصَّوْغِ ، خَالِصَةِ الْجَوْهَرِ ، سَابِغَةِ الْمَلْبَسِ ، وَاقِيَةٍ
الْجُنَنِ ، مُسْتَدِيرَةِ الطَّبْعِ ، مُبْهَمَةِ السَّرْدِ ، وَاقِيَةِ الْوِزْنِ كَثْرِيكَ النِّعَامِ فِي الصَّنْعَةِ وَأَسْتَدَارَةِ
التَّقْطِيبِ ، وَأَسْتَوَاءِ الصَّوْغِ ، مُعَلَّمَةِ أَصْنَافِ الْحَرِيرِ وَأَلْوَانِ الصَّبْغِ ؛ فَإِنَّهَا أَهْيَبُ لِعَدُوِّهِمْ ،
وَأَفْتَى لِأَعْضَادِ مَنْ لَقِيَهُمْ ، وَالْمُعَلَّمُ مَحْشَى مُحْذَرٍ ، لَهُ بَدِيهَةٌ رَادِعَةٌ ، وَهَيْبَةٌ هَائِلَةٌ ؛ مَعَهُمُ
السَّيُوفُ الْهِنْدِيَّةُ ، وَذُكُورُ الْبَيْضِ الْيَمَانِيَّةُ ؛ رِقَاقُ الشَّفَرَاتِ ، فَسْنُونَةُ الشَّحْدِ ، مَشْطَبَةُ
الضَّرَائِبِ . مَعْتَدِلَةُ الْجَوَاهِرِ ، صَافِيَةِ الصَّفَائِحِ ؛ لَمْ يَدْخُلْهَا وَهْنُ الطَّبْعِ ، وَلَا عَابَهَا أَمْتُ
الصَّوْغِ ، وَلَا شَانِهَا خِفَّةُ الْوِزْنِ ، وَلَا فَدَحَ حَامِلَتِهَا بُهْرُ الثَّقَلِ ؛ قَدْ أَشْرَعُوا لَدُنَّ الْقَنَاءِ ،
طَوَالَ الْمَوَادِي ، مُقَوِّمَاتِ الْأَوْدِ ، زُرْقُ الْأَسِنَّةِ ، مُسْتَوِيَّةُ الثَّعَالِبِ ؛ وَمِيضُهَا مُتَوَقِّدٌ ،
وَسِنْخُهَا مُتَلَهَّبٌ ، مَعَاقِصُ عُقْدَتِهَا مَنَحُوتَةٌ ، وَوُصُومُ أَوْدِهَا مَقَوِّمَةٌ ، وَأَجْنَاسُهَا مُخْتَلِفَةٌ ،
وَكُتُوبُهَا جَعْدَةٌ ، وَعُقْدَتُهَا حَبْكَةٌ ؛ شَطْبَةُ الْأَسْنَانِ ، مُمَوَّهَةُ الْأَطْرَافِ ، مُسْتَحِدَّةُ الْجَنَابَاتِ ،
دِقَاقُ الْأَطْرَافِ ، لَيْسَ فِيهَا آلَتَاءُ أَوْدٍ ، وَلَا أَمْتُ وَصْمٍ ، وَلَا بِهَا مَسْتَقْطُ عَيْبٍ ، وَلَا عَمَّا

(١) المهلوبة : المنتوفة الخلب ، وهو شعر الذنب أو الشعر كله . (٢) أى خالصة وحيدته .

(٣) اليليق : القباء المحشو . (٤) التريك : بيضة النعام خاصة ، ومنه قوله :

* وتلقى بها بيض النعام تراككا *

(٥) سيف شطب : ذو شطب وهو طراقة التي في منته . (٦) الأمت : العوج والاختلاف .

(٧) الثلب : طرف الرمح الداخل في جبة السنان . (٨) في مفتاح الأفكار وغيره : «وشحدها مثلهب»

وسنخ الزمل : الحديدية التي تدخل في رأس السهم . (٩) المعاقص : السهام المعوجة .

وقوع أمنية ؛ مُسْتَحَقِّي كَثَائِنِ النَّبْلِ وَقِسِي الشُّوْحَطِ^(١) والنَّبْعِ ؛ أَعْرَابِيَّةِ التَّعْقِيبِ ، رُومِيَّةِ النَّصُولِ ، مَسْمُومَةِ الصَّوْغِ ؛ وَلَتَكُنْ سِهَامُهَا عَلَى نَحْمِيسِ قَبَضَاتِ سِوَى النَّصُولِ ، فَإِنِهَا أَبْلَغُ فِي الْغَايَةِ ، وَأَنْفَذُ فِي الدَّرُوعِ ، وَأَشَكَّ فِي الْحَدِيدِ ؛ سَامِطِينَ^(٢) حَقَائِمَهُمْ عَلَى مُتُونِ خِيُولِهِمْ ، مُسْتَحَقِّينَ مِنَ الْآلَةِ وَالْأَمْتَةِ وَالزَّادِ ، [إِلَّا مَا لَا غَنَاءَ بِهِمْ عَنْهُ] .

وَأَحْذَرُ أَنْ تَكِلَ مَبَاشِرَةَ عَرَضِهِمْ وَآخِثَابِهِمْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ أَعْوَانِكَ وَتَكَايِكَ : فَإِنَّكَ إِنْ وَكَلْتَهُ إِلَيْهِمْ أَضَعْتَ مَوَاضِعَ الْحَزْمِ ، وَفَرَّطْتَ حَيْثُ الرَّأْيِ ، وَوَقَفْتَ دُونَ عِزِّمِ الرُّيَّةِ ، وَدَخَلَ عَمَلُكَ ضِيَاعُ الْوَهْنِ ، وَخَلَصَ إِلَيْكَ عَيْبُ الْحَابَةِ ، وَنَالَهُ فَسَادُ الْمُدَاهَنَةِ ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ مِنْ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ طَلِيعَةً لِلْمُسْلِمِينَ وَلَا عُذَّةً وَلَا حِصْنًا يَدَّرُونَ بِهِ ، وَيَكْتَفُونَ بِمَوْضِعِهِ . وَالطَّلَائِعُ حِصُونُ الْمُسْلِمِينَ وَعِيُونُهُمْ ، وَهُمْ أَوَّلُ مَكِيدَتِكَ ، وَعُرْوَةُ أَمْرِكَ ، وَزِمَامُ حَرْبِكَ . فَلْيَكُنْ آعْتِنَاؤُكَ بِهِمْ ، وَآتِنَاؤُكَ لِيَاكُمُ بِحَيْثُ هُمْ مِنْ مِهْمٍ عَمَلِكَ ، وَمَكِيدَةِ حَرْبِكَ ؛ ثُمَّ آتِنَاؤُكَ لِلْوِلَايَةِ عَلَيْهِمْ رَجُلًا بَعِيدَ الصَّوْتِ ، مَشْهُورَ الْأِسْمِ ، طَاهِرَ الْفَضْلِ ، نَبِيهَ الذِّكْرِ ؛ لَهُ فِي الْعَدُوِّ وَقَعَاتُ مَعْرُوفَاتٍ ، وَأَيَّامُ طَوَالٍ وَصَوْلَاتُ مُتَقَدِّمَاتٍ ؛ قَدْ عُرِفَتْ نَكَائِثُهُ ، وَحُذِرَتْ شَوْكَتُهُ ، وَهَيْبَ صَوْتِهِ ، وَتَشَكَّبَ لِقَاؤُهُ ؛ أَمِينَ السَّرِيرَةِ ، نَاصِحَ الْجَنِّيبِ ؛ قَدْ بَلُوتَ مِنْهُ مَا يُسَيِّئُكَ إِلَى نَاحِيَّتِهِ : مِنْ لَيْنِ الطَّاعَةِ ، وَخَالِصِ الْمَوَدَّةِ ، وَرَكَائِنِ الصَّرَامَةِ ، وَغُلُوبِ الشَّمَامَةِ ، وَاسْتِجْمَاعِ الْقُوَّةِ ، وَحَصَافَةِ التَّنْذِيرِ . ثُمَّ تَقَدَّمْ إِلَيْهِ فِي حَسَنِ سِيَاسَتِهِمْ ، وَاسْتَنْزَالِ طَاعَتِهِمْ ، وَاجْتِلَابِ مَوَدَّاتِهِمْ وَاسْتِعْذَابِ ضَمَائِرِهِمْ ؛ وَأَجْرِ عَلَيْهِمْ وَعَلَيْهِ أَرْزَاقًا تَسَعُّهُمْ ، وَتُمَدِّ مِنْ أَطْعَامِهِمْ سِوَى أَرْزَاقِهِمْ فِي الْعَائِمَةِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْقُوَّةِ لَكَ عَلَيْهِمْ ، وَالْإِسْتِنَامَةِ إِلَى مَا قَبْلَهُمْ .

وَأَعْلَمْ أَنَّهُمْ فِي أَهَمِّ الْأَمَاكِنِ لَكَ ، وَأَعْظَمِهَا غَنَاءً عَنْكَ وَعَمَّنْ مَعَكَ ، وَأَقْمِعِهَا كَيْتًا مُحَادِّدًا ، وَأَشْبِهَا غَيْظًا لَعْدُوكَ : وَمَنْ يَكُنْ فِي الثَّقَةِ ، وَالْجَلَدِ ، وَالْبَاسِ ، وَالطَّاعَةِ ، وَالْقُوَّةِ ، وَالنَّصِيحَةِ وَالْعُدَّةِ ، وَالنَّجْدَةِ حَيْثُ وَصَفَ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَمْرَكَ بِهِ ، يَقْضِعْ عَنْكَ مَوْؤَنَةَ الْهَمِّ ، وَيُرِيخُ

(١) الشُّوْحَطُ : شَجَرٌ تَخْلُدُ مِنْهُ الْقَنَى . (٢) الزِّيَادَةُ عَنْ مِفْتَاحِ الْأَفْكَارِ (ص ٢٥١) .

(٣) يُقَالُ : فَلَانٌ نَاصِحٌ الْجَنِّيبِ يَرَادُ بِذَلِكَ قَلْبُهُ وَصَدْرُهُ أَيْ أَمِينٌ .

من خناقك روع الخوف ، وتلتجئ إلى أمرٍ منيع ، وظهر قوًى ، ورأيٍ حازم ، تأمن به بجاتٍ عدوك ، وغبراتٍ بقاتهم ، وطوارق أحداثهم ؛ ويصيرُ إليك علم أحوالهم ، ومتقدّمات خيولهم ؛ فأتخبرهم رأي عين ، وقوهم بما يُصالحهم من المنالآت والأطاع والأرزاق ، وأجعلهم منك بالمنزل الذى هم به من محارز علاقتك ، وحصانة كهوفتك ، وقوة سياراة عسكريك . وإليك أن تدخل فيهم أحدا بشفاعة ، أو تحتمله على هواة ، أو تقدّمه لأثرة ؛ أو أن يكون مع أحدٍ منهم بغلٌ نفلٌ ، أو فضلٌ من الظُّهر ، أو ثقلٌ فادح ، فتشتدّ عليهم مؤونة أنفسهم ، ويدخلهم كلال السامة فيما يعالجون من أنقاهم ، ويشغلون به عن عدوهم إن دهمهم منه رافع ، أو يخافهم منه طليعة . فتفقد ذلك محكماً له ، وتقدم فيه أخذا بالحزم فى إرضائه ؛ أرشدك الله لإصابة الخط ، ووفّقك ليمن التدبير ، وقصد بك لأسهل الرأى وأعوذه نفعا فى العاجل والآجل ، وأكتبه لعدوك وأشجاء لهم ، وأردعه لعاديتهم .

ولّ دراجة عسكريك وإخراج أهله إلى مصافهم ومراكبهم رجالاً من أهل بيوتات الشرف ، محمود الخبرة ، معروفاً بالنجدة ، ذا سنٍّ وتجربة ، لينّ الطاعة ، قديم النصيحة ، مأمون السرية ، له بصيرة بالحق نافذة تقدّمه ، ونية صادقة عن الإدهان تحجزه . وأضّم إليه عدّة نفر من ثقات جنديك وذوى أسنانهم يكونون شُرطة معه ؛ ثم تقدّم إليه فى إخراج المصاف ، وإقامة الأحرار وإذكاء العيون ، وحفظ الأطراف ، وشدة الحذر ؛ ومُره فليضج القوَاد بأنفسهم مع أصحابهم فى مصافهم ، كلُّ قائدٍ بإزاء مكانه ، وحيث منزله ، قد سدّ ما بينه وبين صاحبه بالرماح شارعة ، والترسة موضونة ، والرجال راصدة ، ذاكية الأحرار ، وجيلة الرّوع ، خائفة طوارق العدو وبيّاته . ثم مُره فليخرج كلّ ليلة قائداً فى أصحابه أو عدّة منهم إن كانوا كثيراً ، على ضلوة أو اثنتين من عسكريك ، متنبّداً عنك محيطاً بمنزلك ، ذاكية أحراسه ، قلقلة التردّد ، مُفِرطة الحذر ، مُعدّة للزّوج ، متأهبة للقتال ، أخذة على أطراف المعسكر ونواحيه ، متفرّقين فى اختلافهم كُردوساً كُردوساً ؛ يستقبل بعضهم بعضاً

(١) النفل محرّكة : الغنيمة والهبة . (٢) الثقل : متاع المسافرين . (٣) الإدهان : المداينة وهى أن يظهر

الإنسان خلاف ما يبطن . (٤) الترسة موضونة ، أى منسوجة حلقتين حلقتين . (٥) أى كتيبة كتيبة .

[في الاختلاف^(١)] وَيَكْسَع تَالٍ مُتَقَدِّمًا فِي التَّرَدُّدِ ؛ وَاجْعَلْ ذَلِكَ بَيْنَ قُودَاكَ وَأَهْلِ عَسْكَرِكَ نُوبًا مَعْرُوفَةً ، وَحِصَصًا مَفْرُوضَةً ، لَا تُعْرِ مِنْهَا مُزْدَلِفًا مِنْكَ بِمَوَدَّةٍ ، وَلَا لِيُحْمَلَ فِيهِ عَلَى أَحَدٍ بِمَوْجِدَةٍ . إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

فَوَضَّ إِلَى أَمْرَاءِ أَجْنَادِكَ وَقُودَاكَ خَيْلِكَ أُمُورَ أَصْحَابِهِمْ ، وَالْأَخَذَ عَلَى قَافِيَةِ أَيْدِيهِمْ ، رِيَاضَةً مِنْكَ لَهُمْ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِأَمْرَائِهِمْ ، وَالْإِتِّبَاعِ لِأَمْرِهِمْ ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ نَهْمِهِمْ ؛ وَتَقَدَّمَ إِلَى أَمْرَاءِ الْأَجْنَادِ فِي النُّوَابِ الَّتِي أَلْزَمْتَهُمْ لَهَا ، وَالْأَعْمَالِ الَّتِي أَسْتَنْجَدْتَهُمْ لَهَا ، وَالْأَسْلِحَةِ وَالْكِرَاعِ الَّتِي كَتَبْتَهَا عَلَيْهِمْ ؛ وَاحْذَرِ اعْتِلَالَ أَحَدٍ مِنْ قُودَاكَ عَلَيْكَ بِمَا يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ تَأْدِيبِ جُنْدِكَ ، وَتَقْوِيمِهِمْ لَطَاعَتِكَ ، وَقَسْعِهِمْ عَنِ الْإِخْلَالِ بِمَرَآكِهِمْ لَشَيْءٍ مِمَّا وَكَلَّابَهُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ؛ فَإِنْ ذَلِكَ مَفْسُودَةٌ لِلْجُنْدِ ، مَقْتَنَةٌ لِلْقُودَا^(٢) عَنِ الْجِدِّ وَالْإِيثَارِ لِلنَّاصِحَةِ ، وَالتَّقَدُّمِ فِي الْأَحْكَامِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ فِي اسْتِخْفَافِهِمْ بِقُودَاهُمْ وَتَضْيِيعِهِمْ أُمُورَ رُؤَسَائِهِمْ دُخُولًا لِلضِّيَاعِ عَلَى أَعْمَالِكَ ، وَاسْتِخْفَافًا بِأَمْرِكَ الَّذِي يَأْتُمُّونَ بِهِ وَرَأْيِكَ الَّذِي تَرْتَضِي . وَأُوْعِزُّ إِلَى الْقُودَا أَلَّا يُقَدِّمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى عَقُوبَةِ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، إِلَّا عَقُوبَةً تَأْدِيبٍ فِي تَقْوِيمِ مَيْلٍ ، وَتَنْقِيفِ أَوْدٍ ؛ فَأَمَّا عَقُوبَةٌ تَبْلُغُ تَلْفَ الْمُهْجَةِ ، وَإِقَامَةُ حَدٍّ فِي قَطْعٍ ، أَوْ إِفْرَاطٍ فِي ضَرْبٍ ، أَوْ أَخْذُ مَالٍ ، أَوْ عَقُوبَةٌ فِي شَعَرٍ ، فَلَا يَلِيَنَّ ذَلِكَ مِنْ جُنْدِكَ أَحَدٌ غَيْرُكَ ، أَوْ صَاحِبُ شُرْطَتِكَ بِأَمْرِكَ وَعَنْ رَأْيِكَ وَإِذْنِكَ ؛ وَمَتَى لَمْ تُدَلِّلِ الْجُنْدَ لِقُودَاهُمْ ، وَتُضَرِّعَهُمْ لِأَمْرَائِهِمْ ؛ تُوجِبْ لَهُمْ عَلَيْكَ الْحِجَّةَ بِتَضْيِيعِ — إِنْ كَانَ مِنْهُمْ — لِأَمْرِكَ ، أَوْ خَلَلٍ — إِنْ تَهَاوَنُوا بِهِ — مِنْ عَمَلِكَ ، أَوْ عَجْزٍ — إِنْ فَرَطَ مِنْهُمْ — فِي شَيْءٍ مِمَّا وَكَلَّابْتَهُمْ بِهِ أَوْ أَسْنَدْتَهُ إِلَيْهِمْ ؛ وَلَا تَجِدْ إِلَى الْإِقْدَامِ عَلَيْهِمْ بِاللُّومِ وَعَضِّ الْعُقُوبَةِ عَلَيْهِمْ حِجَازًا تَصِلُ بِهِ إِلَى تَعْنِيفِهِمْ ، بِتَفْرِيطِكَ فِي تَذْلِيلِ أَصْحَابِهِمْ لَهُمْ ، وَإِفْسَادِكَ لِيَاھِمَ عَلَيْكَ وَعَلَيْهِمْ . فَأَنْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظْرًا مُحْكَمًا ، وَتَقَدَّمَ

(١) الزيادة عن مفتاح الأفكار (ص ٢٥٢) . (٢) أى يقعد بهم عن الجِدِّ الخ .

فيه برّقتك تقدّما بليغا ، وإياك أن يدخل حرّمك وهنّ ، أو يشوب عزّمك إيثار ، أو يخالط رأيك ضيّاع ، والله يستودع أمير المؤمنين نفسك ودينك .

إذا كنت من عدوّك على مسافة دانية وسنّ لقاء مختصر ، وكان من عسكريك مقترباً قد شامت طلائعك مقدّمات ضلّالته وحماة فتنته ، فتأهب أهبة المناجز ، وخُذ أعتداد الحذر ، وكتب^(١) خيولك ، وعبّ جندك . وإياك والمسير إلا في مقدّمة وثمينة وميسرة وساقية ، قد شهروا الأسلحة ، ونشروا البنود والأعلام . وعرف جندك مراكرهم بساثرين تحت ألويتهم قد أخذوا أهبة القتال ، واستعدّوا للقاء ، ملتجئين إلى مواقفهم ، عارفين بمواضعهم في مسيرهم ومعسكرهم . وليكن ترحّلهم وتنزّلهم على راياتهم وأعلامهم وفي مراكرهم ، قد عرف كلّ قائد منهم أصحابه مواقفهم : من الميمنة والميسرة والقلب والساقية والطليعة ، لازمين لها ، غير مُخلّين بما استنجدوا له ، ولا مُتهاولين فيما أهيّب بهم إليه ، حتى تكون عساكرُك في منهل تصل إليه ، ومسافة تختارها ، كأنها عسكرٌ واحد في اجتماعها على العدو ، وأخذها بالحزم ، ومسيرها على راياتها ، ونزولها في مراكرها ، ومعرفتها بمواضعها : إن ضلّت دابةً من مواضعها ، عرف أهل العسكر من أيّ المراكز هي ، ومن صاحبها ، وفي أيّ المحلّ حلوله منها ، فُرِدت إليه ، هداية معروفة بسمت صاحب قيادتها ، فإن تقدّمك في ذلك وإحكامك له طارحٌ عن جندك مؤونة الطلب ، وعناية المعرفة ، وأبتغاء الضلالة .

ثم اجعل على ساقتك أوثق أهل عسكريك في نفسك صرامةً ونفاذاً ورضاً في العامة ، وإنصافاً من نفسه للرعية ، وأخذاً بالحق في المعدلة ، مستشعراً تقوى الله وطاعته ، أخذاً بهديك وأدبك ، واقفاً عند أمرك ونهيك ، معترفاً على مناصحتك وتزيينك ، نظيراً لك في الحال ، وشيهاً بك في الشرف ، وعديلاً في الموضع ، ومقارباً في النسب ، ثم اكثف معه الجمع ، وأيدّه بالقوة ، وقوّه بالظّهر ، وأعنه بالأموال ، وأعمده بالسلاح ، ومُرّه بالتعطف على ذوى الضعف من جندك ومن أزحفت به دابّته وأصابته نكبة : من مريض أو رجلة^(٣) أو آفة ،

(١) كتب الجيش أو الخيل : جعلها كتائب . (٢) في مفتاح الأفكار وغيره : « في الصيت » .

(٣) الرجلة بالضم : أن يشكو رجله وقد رجل كفرح أصابه في رجله ما يكره .

من خير أن يأذن لأحد منهم في التنجى عن عسكره، أو التخلّف بعد ترحله، إلا لجهود سقما، أو لمطروق باقية جائحة . ثم تقدّم إليه محدّرا، ومُره زاجرا، وأنه مُغلّظا في الشدّة على من مرّ به منصرفاً عن معسكرك من جندك بغير جوازك، شاداً لهم أسراً، وموقّره حديداً، ومُعاقبهم موجعا، وموجّههم إليك فتنبّهكهم عقوبة، وتجعلهم لغيرهم من جندك عظة .

وأعلم أنه إن لم يكن بذلك الموضع من تسكن إليه وانقأ بنصيبه قد بلوت منه أمانة تُسكّنك إليه، وصرامة تؤمّنك مهانتَه، ونفاذاً في أمرك يُرعى عنك خبايا الخوف في إضاعته — لم يأمن أمير المؤمنين تسأل الجند عنك لوإذا^(١)، ورفضهم مراكرهم، وإخلاصهم بمواضعهم، وتخلّفهم عن أعمالهم، آمين تغيير ذلك عليهم، والشدّة على من أجترمه منهم، فأوشك ذلك في وهنك، وخذل من قوتك، وقيل من كثرتك .

اجعل خلف ساقينك رجلا من وجوه قوادك، جليداً، ماضياً، عفيفاً، صارماً، شهيم الرأى، شديد الحذر، شكيمة القوة، غير مُداهن في عقوبة، ولا مهين في قوة، في خمسين فارساً يحشُر إليك جندك، ويُحقّق بك من تخلف عنك بعد الإبلاغ في عقوبتهم، والتهكّ لهم، والتنكيل بهم . وليكن بعقوتك في المنزل الذي ترحّل عنه، والمنزل الذي تتقوّض منه، مُفْرِطاً في النفيض له، والتتبع لمن تخلف عنك به؛ مشتتداً في أهل المنزل وساكين بالتقدم، موعِزاً اليهم في إزعاج الجند عن منازلهم، وإخراجهم عن مكائهم؛ وإبعاد العقوبة الموجهة والنكال المُبْسِل في الأشعار والأبشار، واستِصْفاء الأموال وهدم العقار لمن آوى منهم أحداً أو ستر موضعه، أو أخفى محله . وحدّره عقوبتك إياه في الترخيص لأحد، والمحابة لذي قرابة، والاختصاص بذلك لذي أثره وهوادة . ولكن فرسانه مستخبين في القوة، معروفين بالنجدة؛ عليهم سوايغ الدروع دونها شعار الحشو وجبب الاستيجان؛ متقلّدين سيوفهم، سامطين كائنهم^(٣)، مستعدين لهيج إن بدّهم [أو كين إن يظهر لهم^(٤)] . وإياك

(١) لوإذا : مراوغة أى مستحقين يستتر بعضهم ببعض . (٢) العقوة : ما حول الدار أو ساحته .

(٣) سامطين : معلقين . (٤) الزيادة عن مفتاح الأفكار وغيره .

أن تقبل منهم في دوابهم إلا فرسا قويا أو برذونا^(١) وثيجا : فإن ذلك من أقوى القوة لهم ، وأعون الظهري على عدوهم ، إن شاء الله .

ليكن رحيلك إباناً واحداً ، ووقتاً معلوماً : لتخفف المؤونة بذلك على جنديك ، ويعلموا أن رحيلهم ، فيقدموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم ، وأغلاف دوابهم ، وتسكن قلوبهم إلى الوقت الذي وقفوا عليه ، ويطمئن ذوو الرأي إلى إبان الرحيل . متى يكن رحيلك مختلفاً ، تعظم المؤونة عليك وعلى جنديك ولا يزال ذوو السقه [والنزق] يترحلون بالإرجاف وينزلون بالتوهم ، حتى لا ينتفع ذو رأي بنوم ولا طمأنينة .

إياك أن تظهر استقلالا ، أو تنادي برحيل من منزل تكون فيه ، حتى تأمر صاحب تعبئك بالوقوف بأصحابه على معسكرك آخذاً بحسبتي فوخته ، بأسلحتهم معدة لأمر إن حضر أو مفاجأة من طبيعة العدو إن رأت منكم نهزة ، أو لحمت عندكم غيرة . ثم أمر الناس بالرحيل وخيلك واقفة ، وأهبتك معدة ، وجنتك واقفة ، حتى إذا استقلت من معسكركم ، وتوجهتم من منزلكم ، سرتهم على تعبئتكم بسكون ريح ، وهدو حمة ، وحسن دعة . فإذا انتهيت إلى منزل أردت نزوله أو هممت بالمعسكر به ، إياك ونزوله إلا بعد العلم بأهله ، والمعرفة بمراقبه ، وممر صاحب طليعتك أن يعرف لك أحواله ، ويستشيرك علم دفينه ، ويستبطن علم أموره ثم ينهيها إليك على ما صارت إليه : لتعلم كيف احتماله لمعسكرك ، وكيف مأوه وأغلافه وموضع معسكرك منه ، وهل لك — إن أردت مقاماً به ، أو مطولة عدوك أو مكايده فيه — قوة تحملك ومدد^(٢) يأتيه ، فإنك إن لم تفعل ذلك ، لم تأمن أن تهجم على منزل يعجزك ويزعجك عنه ضيق مكانه ، وقلة مياهه ، وانقطاع موائده ، إن أردت بعدوك مكيدة ، أو أحتجت من أمورهم إلى مطولة ، فإن ارتحلت منه كنت غرضاً لعدوك ، ولم تجد إلى المحاربة والإخطار سبيلاً ، وإن أقمت به أقمت على مشقة وحصر وفي أذل

(١) برذونا وثيجا : كثير اللحم .

(٢) كذا في صبح الأعشى (ج ١٠ ص ٢٢٦) ولعل فيه تحريفاً صوابه : قوة تصلك ومدد يأتيك .

وَضِيقٌ ، فَأَعْرِفْ ذَلِكَ وَتَقَدَّمْ فِيهِ . فَإِنْ أُرِدْتَ نَزُولًا أَمَرْتَ صَاحِبَ الْخَيْلِ الَّتِي وَكَلْتَ
بِالنَّاسِ فَوَقَفْتَ خَيْلَهُ مَتْنَحِيَةً مِنْ مَعْسُكَ ، عُدَّةً لِأَمْرِ إِنْ غَالَكَ ، وَمَفْزَعًا لِبِدِيَّةِ إِنْ رَأَيْتَكَ ،
فَقَدْ أَمِنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ بِخَاطَةِ عَدُوِّكَ ، وَعَرَفْتَ مَوْقِعَهَا مِنْ حَرْبِكَ ، حَتَّى يَأْخُذَ النَّاسُ
بِمَنَازِلِهِمْ ، وَتُوضَعَ الْأَنْقَالُ مَوَاضِعَهَا ، وَيَأْتِيكَ خَبَرُ طَلَائِعِكَ ، وَتُخْرِجُ دَبَابَتَكَ مِنْ مَعْسُكَ
دَرَاجَةً وَدَبَابًا يُحِيطِينَ بِمَعْسُكَ ، وَعُدَّةً إِنْ أَحْتَجَجْتَ إِلَيْهَا . وَلَتَكُنْ دَبَابَاتُ جَنْدِكَ أَهْلَ جَلَدٍ
وَقُوَّةٍ ، قَائِدًا أَوْ اثْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً بِأَصْحَابِهِمْ ، فِي كُلِّ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ نَوْبًا بَيْنَهُمْ ، فَإِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ
وَوَجِبَ نُورُهَا ، أَخْرَجَ إِلَيْهِمْ صَاحِبُ تَعْيِينِكَ أَبْدَالَهُمْ ، عَسَسًا بِاللَّيْلِ فِي أَقْرَبَ مِنْ مَوَاضِعِ
دَبَابِ النَّهَارِ ، يَتَعَاوَرُ ذَلِكَ قَوَادُكَ جَمِيعًا بِلا مَحَابَاةٍ لِأَحَدٍ فِيهِ وَلَا إِدْهَانٍ .

إِيَّاكَ وَأَنْ يَكُونَ مَسْنَدُكَ إِلَّا فِي خَنْدَقٍ وَحِصْنٍ تَأْمَنُ بِهِ بَيَّاتُ عَدُوِّكَ وَتَسْتَنِمُّ فِيهِ
إِلَى الْحَزْمِ مِنْ مَكِيدَتِكَ . إِذَا وُضِعَتِ الْأَنْقَالُ وَحُطَّتْ أَبْنِيَةُ أَهْلِ الْعَسْكَرِ ، لَمْ يُمَدِّدْ
طَنْبٌ ، وَلَمْ يُرْفَعْ خِيَابٌ ، وَلَمْ يُنْصَبْ بِنَاءٌ حَتَّى نَقْطَعَ لِكُلِّ قَائِدٍ ذَرْعًا مَعْلُومًا مِنَ الْأَرْضِ بِقَدْرِ
أَصْحَابِهِ ، فَيَحْفِرُوهُ عَلَيْهِمْ خَنْدَقًا يُطِيفُونَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِخَنْدَاقِ الْحَسَكِ^(٢) ، طَارِحِينَ لَهَا دُونَ
أَشْجَارِ الرَّمَاحِ ، وَنَصَبِ التَّرْسَةِ ، لَهَا بَابَانِ قَدْ وَكَلْتَ بِحِفْظِ كُلِّ بَابٍ مِنْهُمَا رَجُلًا مِنْ قَوَادِكَ
فِي مِائَةِ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَإِذَا فُيِّرَ مِنَ الْخَنْدَقِ كَانَ ذَانِكَ الرَّجُلَانِ الْقَائِدَانِ بَيْنَ مَعَهُمَا مِنْ
أَصْحَابِهِمَا أَهْلُ ذَلِكَ الْمَرْكَزِ ، وَمَوْضِعِ تِلْكَ الْخَيْلِ ، وَكَانُوا هُمُ الْبُؤَايِبِينَ وَالْأَحْرَاسَ لَدَيْكَ
الْمَوْضِعِينَ ، قَدْ كَفَّوْهُمَا وَضَبَطَوْهُمَا وَأَعْفَوْا مِنْ أَعْمَالِ الْعَسْكَرِ وَمَكْرُوهِهِ غَيْرَهُمَا .

وَأَعْلَمُ أَنَّكَ إِذَا كُنْتَ فِي خَنْدَقٍ ، أَمِنْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ طَوَارِقَ عَدُوِّكَ وَبَغْتَاتِهِمْ ، فَإِنْ
رَامُوا تِلْكَ مِنْكَ ، كُنْتَ قَدْ أَحْكَمْتَ ذَلِكَ وَأَخَذْتَ بِالْحَزْمِ فِيهِ ، وَتَقَدَّمْتَ فِي الْإِعْدَادِ لَهُ ،
وَرَتَقْتَ مَخَوَفَ الْفَتْقِ مِنْهُ ، وَإِنْ تَكُنِ الْعَافِيَةُ أَسْتَحَقَّقْتَ حَمْدَ اللَّهِ عَلَيْهَا ، وَارْتَبَطَتْ شُكْرُهُ
بِهَا ، وَلَمْ يَضُرَّكَ أَخْذُكَ بِالْحَزْمِ : لِأَنَّ كُلَّ كُفْلَةٍ وَنَصَبٍ وَمُؤْنَةٍ لِإِنْفَاقٍ وَمَشَقَّةٍ عَمَلٍ مَعَ

(١) أَيْ ذَهَبَ وَغَاب . (٢) الْحَسَكُ : أَسْلَاكُ كَالشُّوْكَ تَعْمَلُ مِنَ الْحَدِيدِ تَلْقَى حَوْلَ الْمَعْسَرِ لِنَشْبِ

فِي رَجُلٍ يَدُوسُهَا مِنَ الْخَيْلِ وَالنَّاسِ الطَّارِقِينَ لَهُ ، وَهِيَ الْمَعْرُوفَةُ الْآنَ : « بِالْأَسْلَاكِ الشَّائِكَةِ » .

السلامة غمٌ وغير خطر بالعاقبة، إن شاء الله . فإن أبتليت بديات عدوك أو طرقت رايها في ليك، فليفلك حذرًا مشمرًا عن ساقك، حاسرًا عن ذراعك، منشزنا^(١) لحربك؛ قد تقدمت دراجتك إلى مواضعها على ما وصفه لك أمير المؤمنين، ودبابتك في أوقاتها التي قدر لك، وطلائعك حيث أمرك، وجندك على ما عبا لك، قد خطرت عليهم بنفسك؛ وتقدمت إلى جندك، إن طرقهم طارق أو فاجأهم عدو، ألا يتكلم منهم أحد رافعا صوته بالتكبير مفرقا في الإجلاب، مُعلنا بالإرهاب لأهل الناحية التي يقع بها العدو طارقا، وليشرعوا رماحهم ناشيين بها في وجوههم، ويرشقوهم بالنبل مكتئين بترسهم، لازمين لمراكمهم، غير مُزِيل قدم عن موضعها، ولا متجاوزين إلى غير مراكزهم، وليكبروا ثلاث تكبيرات متواليات وسائر الجند هادون، لتعرف موضع عدوك من معسكرك، فتُمد أهل تلك الناحية بالرجال من أعوانك وشرطتك، ومن آنخبت قبل ذلك عدة للشدائد بحضرتك، وتُدس إليهم النشاب والرماح .

وياك وأن يشهروا سيفا يتجادون به، وتقدم إليهم ألا يكون قتالهم في تلك المواضع لمن طرقهم إلا بالرماح مُسِندين لها إلى صدورهم، والنشاب راشقين به وجوههم؛ قد ألبدوا بالأتريسة، وأستجنوا بالبئض، وألقوا عليهم سوايغ الدروع وجباب الحشو . فإن صد العدو عنهم حاملين على جهة أخرى، كبر أهل تلك الناحية التي يقع فيها كفعل الناحية الأولى، وبقية العسكر سكوت والناحية التي صد عنها العدو لازمة لمراكمهم منتطقة الهدوء ساكنة الريح، ثم عملت في تقويتهم وإمدادهم بمثل صنيعك في إخوانهم .

وياك أن تُخذ نار رواقك؛ وإذا وقع العدو في معسكر فأججها ساعرا لها وأوقدها حطبا جزلا يعرف به أهل العسكر مكانك وموضع رواقك، فيسكن نافر قلوبهم، ويقوى واهي قوتهم، ويشتد منخل ظهورهم، ولا يرجعون بك الظنون، ويعجلون لك آراء

(١) منشزنا : منجها .

السوء، ويُرجفون بك آناء الخوف؛ وذلك من فعلك رادُّ عدوك بغظه لم يستفيل منك ظُفُرا، ولم يبلغ من نكايتك سرورا . وإن آنصرف عنك عدوك ونكل عن الإصابة من جندك وكانت بخيلك قوَّةً على طلبه أو كانت لك من فرسانك خيلٌ معدَّةٌ وكتيبةٌ منتخبةٌ، [و] قدرت على أن تركبَ بهم أكسَاءَهُمْ^(١)، وتحمِّلَهُمْ على سَنَنِهِمْ؛ فأتبعهم جريدة خيل عليها الثقاتُ من فرسانك وأولو النجدة من حمائك؛ فإنك ترهق عدوك وقد أمن من بيأتك، وشُغِلَ بكَلاله عن التحرز منك والأخذ بأبواب معسكره والضبط لمحارسه عليك، موهنةٌ حُمَاتِهِمْ لَغِيبةِ أبطالِهِمْ : لما ألقوكم عليه من التشمير والجدِّ، قد عقر الله فيهم، وأصاب منهم، وجرح من مقاتلتهم، وكسر من أمانى ضلالهم، ورد من مستعلي حماحهم .

وتقدَّم إلى من توجَّهه في طلبهم، وتُبَّعَهُ أكسَاءَهُمْ : في سكون الرمح، وقلة الرقت، وكثرة التسبيح والتهليل، وأستنصار الله عز وجل بأستنهم وقلوبهم سراً وجهراً، بلا لحَبِ ضجَّةٍ، ولا ارتفاع ضوضاء، دون أن يردوا على مطلبهم، وينتزعوا فرصتهم . ثم ليشهروا السلاح، وينتضوا السيوف، فإن لها هيبَةً رائعة، وبديهةً مخوفةً، لا يقوم لها في بهمة الليل وحندسه إلا البطل المحارب، وذو البصيرة المحامي، والمستميتُ المقاتل، وقليل ما هم عند تلك الحمية وفي ذلك الموضع .

ليكن أوَّل ما نتقدَّم به في التهيؤ لعدوك، والاستعداد للقائه، انتخابك من فرسان عسكرك وحماة جندك ذوي البأس والحُسكة والجلد والصَّرامة، ممن قد اعتاد طراد الكُماة، وكشَّروا ناجذه في الحرب، وقام على ساقٍ في منازلة الأقران، تقف الفروسية، مجتمعة القوة، مستحصدة المريبة، صبوراً على هول الليل، عارفاً بمناهرة الفُرس؛ لم تمتهن الحُسكة ضعفاً، ولا بلغت به السن كلالاً، ولا أسكرته غرَّةُ الحداثة جهلاً، ولا أبطرته نجدةُ الأغمار صلفاً، جريئاً على مخاطرة التلف، مُقديماً على أدراع الموت، مكابراً لمهيب الهول، متقهما مخشياً الخوف، خائضاً غمرات المهالك؛ برأى يؤيده الحزم، ونية لا يُخالجها الشك،

(١) الأكساء : الأبار، واحداً كس . . (٢) ترهق عدوك : تفشاه .

وأهواء مجتمعة ، وقلوب مؤتلفة ؛ عارفين بفضل الطاعة وعِزِّها وشرفها ، وحيث محل أهلها من التأيد والظفر والتمكين . ثم أعرضهم رأى عين على كُرَاعِهِمْ وأَسْلِحَتِهِمْ ، ولتكن دوابهم لِمَا نَتَّ عِثاق الخيل ، وأسلحتهم سِوَايَ الدروع وكِلَالِ آلَةِ المحارب ، متقلِّدين سيوفهم المستخلصة من جيد الجوهر وصافي الحديد ، المتخيرة من معادن الأجناس ، هندية الحديد يمانية الطبع ، رفاق المضارب ، مسمومة الشَّحْد ، مشطبة الضريبة ؛ مُلبِّدين بالترسة الفارسية ، صينية التعقيب ، مُعامة المَقَابِض بِحَاقِ الحديد ، أنحواها مربعة ، ومخارزها بالتجليد مضاعفة ، تحمَّلُهَا مستخف ؛ وكثائن النبل وجعاب القيسى قد استحقَّقوها ، وقيسى الشَّريان والنبع أعرايئة الصنعة ، مختلفة الأجناس ، مُحَكِّمة العمل ، مقومة التثقيف ؛ ونصول النبل مسمومة ، وعملها مصيصة ، وتركيبها عراقى ، وتريشها بدوى ؛ مختلفة الصوغ في الطبع ، شتى الأعمال في التشطيب والتجنيح والإسندارة . ولتكن الفارسية مقلوبة المقابض ، منبسطة السية ، سهلة الأعطاف ، مقرَّبة الانحناء ، ممكنة المرمى ، واسعة الأسهم ؛ فُرْضَها سهلة الورد ، ومعاطفها غير مقترَبة المواتاة . ثم وَلَّ على كل مائة رجل منهم رجلاً من أهل خاصتك وثقاتك ونصحاءك ، له صيت في الرياسة ، وقدم في السابقة ، وأولية في المشايعة . وتقدم إليه في ضبطهم ، وكف معرتهم ، وأستتزال نصائحهم ، وأستعداد طاعتهم ، وأستخلاص ضمائرهم ، وتعاهد كُرَاعِهِمْ وأَسْلِحَتِهِمْ : مُعْفياً لهم من النوايب التي تلزم أهل عسكرك وعامة جنديك ؛ وأجعلهم عُدَّةً لَأَمْرِ إِنْ حَزَبَكَ ، أو طارقٍ إِنْ أَتَاكَ ؛ ومرهم أن يكونوا على أهبة معدة ، وحذرناف لِسَنَةِ الغفلة عنهم ؛ فإنك لا تدري أى الساعات من ليك ونهارك تكون إليهم حاجتك . فليكونوا كرجل واحد في التشمير والترادف وسرعة الإجابة ؛ فإنك عَسَيْتَ ألا تجد عند جماعة جنديك في مثل تلك الروعة والمباغلة — إِنْ أَحْتَجَّتْ إلى ذلك منهم — معونة كافية ، ولا أهبة معدة . بل ذلك كذلك فليكن هؤلاء القوم الذين تنتخب عُدَّتَكَ وقوتك ، بعوثاً قد وظفتها على القواد الذين وليتهم أمورهم ، فسميت أولاً وثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً وسادساً ؛ إِنْ أَكْتَفَيْتَ فيما يَطْرُقُكَ وَيَسْدُكُ

(١) الشريان بفتح الشين وكسرها ؛ شجر من عصاه الجبال تعمل من القس .

بَعِثَ واحدًا، كان مُعَدًّا لم تَحْتَجِ إلى آتِخَابِهِمْ في سَاعَتِكَ تِلْكَ ، فَقَطَّعَ الْبَعِثَ عَلَيْهِمْ عِنْدَ مَا يَرَهُقُكَ . وَإِنْ أَحْتَجِجْتَ إِلَى أَثْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ ، وَجَّهْتَ مِنْهُمْ إِرَادَتَكَ أَوْ مَا تَرَى قَوْلَكَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَكُلُّ بِخَزَائِنِكَ وَدَوَاوِينِكَ رَجُلًا نَاصِحًا أَمِينًا ، ذَا وَرَعٍ حَاجِزٍ ، وَدِينٍ فَاصِلٍ ، وَطَاعَةٍ خَالِصَةٍ ، وَأَمَانَةٍ صَادِقَةٍ ؛ وَاجْعَلْ مَعَهُ خِيَلًا يَكُونُ مَسِيرُهَا وَمَنْزِلُهَا وَمَرْحَلُهَا مَعَ خِزَانَتِكَ وَحَوْلُهَا . وَتَقَدِّمْ إِلَيْهِ فِي حِفْظِهَا ، وَالتَّوَقُّعِ عَلَيْهَا ، وَأَتِّهَامِ كُلِّ مَنْ تُسْنِدُ إِلَيْهِ شَيْئًا مِنْهَا عَلَى إِضَاعَتِهِ وَالتَّهَوُّنِ بِهِ ، وَالشَّدَةِ عَلَى مَنْ دَنَا مِنْهَا فِي مَسِيرٍ ، أَوْ ضَامَّهَا فِي مَنْزِلٍ ، أَوْ خَالَطَهَا فِي مَنْهَلٍ . وَلِيَكُنْ عَامَّةُ الْجُنْدِ وَالْجَيْشِ — إِلَّا مَنْ اسْتَخْلَصْتَ لِلْمَسِيرِ مَعَهَا — مُتَنَحِّينَ عَنْهَا ، مُجَانِبِينَ لَهَا فِي الْمَسِيرِ وَالْمَنْزِلِ ؛ فَانْهَ رُبَّمَا كَانَتْ ابْجَوْلَةٌ وَحَدَّثَتِ الْفَرْعَةَ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْخِزَانَةِ مَنْ يُوَكِّلُ بِهَا أَهْلَ حِفْظِهَا وَدَبَّ عَنْهَا ، وَحِيَاطَةِ دُونِهَا ، وَقُوَّةٍ عَلَى مَنْ أَرَادَ أَتْنَابَهَا ، أَسْرَعَ الْجُنْدُ إِلَيْهَا وَتَدَاعَوْا نَحْوَهَا ، حَتَّى كَادَ يَتَرَامَى ذَلِكَ بِهِمْ إِلَى أَتْنَابِ الْعَسْكَرِ وَأَضْطِرَابِ الْفِتْنَةِ ؛ فَإِنْ أَهْلَ الْفِتَنِ وَسُوءِ السَّيْرِ كَثِيرٌ ، وَإِنَّمَا هُمُتُهُمُ الشَّرُّ ؛ فَإِيَّاكَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ فِي خِزَانَتِكَ وَدَوَاوِينِكَ [وَبُيُوتِ أَمْوَالِكَ] ^(١) مَطْمَعٌ ، أَوْ يَجِدَ سَبِيلًا إِلَى آغْتِيَابِهَا وَمَرْزَأَتِهَا .

وَاعْلَمْ أَنَّ أَحْسَنَ مَكِيدَتِكَ أَثَرًا فِي الْعَامَةِ ، وَأَبْهَدَهَا صِيئًا فِي حَسَنِ الْقَالَةِ ؛ مَا نِلْتَ الظَّفَرَ فِيهِ بِحِزْمِ الرِّيَّةِ ، وَحَسَنِ السَّيْرِ ، وَلَطْفِ الْحِيلَةِ . فَتَكُنْ رَوِيَّتُكَ فِي ذَلِكَ وَحِرْصُكَ عَلَى إِصَابَتِهِ بِالْحِيلِ لَا بِالْقِتَالِ وَأَخْطَارِ التَّلَفِ ؛ وَأَدُسُّ إِلَى عَدُوِّكَ ، وَكَاتِبُ رُؤْسَاءِهِمْ وَقَادَتِهِمْ وَعِذِّهِمُ الْمَنَالَاتِ ، وَمَنْبِهِمُ الْوَلَايَاتِ ، وَسَوْغُهُمُ الثَّرَاثِ ، وَضَعُ عَنْهُمْ الْإِحْنَ ، وَأَقْطَعُ أَعْنَاقَهُمْ بِالْمَطَامِعِ ، وَاسْتَدْعِهِمُ بِالْمَنَاقِبِ ؛ وَأَمَلًا قُلُوبَهُمْ بِالْتَرَهيبِ إِنْ أَمَكَّتَكَ مِنْهُمْ الدَّوَائِرُ ، وَأَصَارَتَهُمْ إِلَيْكَ الرُّوَايَجُ ؛ وَأَدْعُهُمْ إِلَى الْوُثُوبِ بِصَاحِبِهِمْ أَوْ أَعْتَزَلِهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِالْوُثُوبِ عَلَيْهِ طَاقَةٌ ؛ وَلَا عَلَيْكَ أَنْ تَطْرَحَ إِلَى بَعْضِهِمْ كِتَابًا كَأَنَّهَا جَوَابُ كِتَابٍ لَهُمْ إِلَيْكَ ، وَتَكْتُبَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ كِتَابًا إِلَيْكَ تَدْفَعُهَا إِلَيْهِمْ وَتَحْمِلَ بِهَا صَاحِبَهُمْ عَلَيْهِمْ ، وَتُنْزِلَهُ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ الثُّمَّةِ وَمَحَلِّ

(١) الزيادة من رسائل البلغاء .

الظُّنَّةُ ؛ ففعل مَكِيدَتَكَ في ذلك أن يكون فيها أَفْتَرَاقُ كلمتهم ، وتشتيتُ جماعتهم ، وإحْنُ قلوبهم ، وسوءُ الظن من واليهم بهم ، فيوحشهم منه خوفهم إياه على أنفسهم إذا أيقنوا بأنهم إياهم ، فان بَسَطَ يده فقتلهم ، وأولغ سيفه في دماءهم ، وأسرع الوثوب بهم ، أشعرهم جميعا الخوف ، وشملهم الرعب ، ودعاهم إليك الهرب ، فتهافتوا نحوكَ بالنصيحة وأموك بالطلب . وإن كان متأنياً محتملاً رجوت أن يستميل إليك بعضهم ، ويستدعي الطمع ذوى الشره منهم ، وتنال بذلك ما تُحب من أخبارهم ، إن شاء الله .

إذا تدانى الصفان ، وتواقف الجمعان ، واحتضرت الحرب ، وعبأت أصحابك لقتال عدوهم ، فأكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، والتوكل على الله عز وجل والتفويض إليه ، ومسأله توفيقك وإرشادك ، وأن يعزيم لك على الرشد المنجى ، والعصمة الكائلة ، والحياطة الشاملة . ومُرْ جنودك بالصمت وقلة التلفت عند المصاولة ، وكثرة التكبير في أنفسهم والتسبيح بضمائرهم ، ولا يُظهروا تكبيراً إلا في الكرات والحملات ، وعند كل زُلْفَةٍ يزدلفونها ؛ فأما وهم وقوفٌ فان ذلك من الفضل والجن ؛ وليذكروا الله في أنفسهم ويسألوه نصرهم وإعزازهم ، وليكثر من قول : ” لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، اللهم أنصُرنا على عدوك وعدونا الباغى ، وأكفينا شوكتَه المستحدة ، وأيدنا بملائكتك الغالبين ، وأعصمنا بعونك من الفضل والعجز إنك أرحم الراحمين “ .

وليكن في معسكر المكبرون في الليل والنهار قبل المواقعة ، وقومٌ موقوفون يحضونهم على القتال ويحرضونهم على عدوهم ، ويصفون لهم منازل الشهداء وثوابهم ، ويذكرونهم الجنة ودرجاتها ، ونعيم أهلها وسكانها ، ويقولون : أذكروا الله يذكركم ، وأستنصروه ينصركم ، وألنجثوا إليه يمنكم . وإن استطعت أن تكون أنت المباشرة ليلية جنودك ووضعهم مواضعهم من رأيك ، ومعك رجالٌ من ثقات فرسانك ذوو سنٍّ وتجربة ونجدة على التعبية التي أمير المؤمنين واصفها لك في آخر كتابك فافعل ، إن شاء الله تعالى .

أيذك الله بالنصر، وغلِب لك على القوّة، وأعانك على الرّشد، وعصمك من الزّيف، وأوجب لمن استشهد معك ثواب الشهداء ومنازل الأصفياء، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

وكتب سنة تسع وعشرين ومائة .

٧ - رسالة ثانية لعبد الحميد الكاتب

ومن رسائل عبد الحميد الرسالة التي أوصى فيها الكتاب^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد؛ حَفِظَكُمُ اللهُ يَا أَهْلَ صِنَاعَةِ الْكِتَابَةِ ، وَحَاطَكُمُ وَوَقَّعَكُمُ وَأَرْشَدَكُمُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ النَّاسَ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، وَمِنْ بَعْدِ الْمُلُوكِ الْمَكْرُمِينَ أَصْنَافًا ، وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ سَوَاءً ؛ وَصَرَّفَهُمْ فِي صُنُوفِ الصِّنَاعَاتِ ، وَضُرُوبِ الْمَحَاوِلَاتِ ، إِلَى أَسْبَابِ مَعَايِشِهِمْ ، وَأَبْوَابِ أَرْزَاقِهِمْ ، لِجَعْلِكُمْ مَعِشَرَ الْكُتَّابِ فِي أَشْرَفِ الْجِهَاتِ ، أَهْلَ الْأَدَبِ وَالْمُرُوءَاتِ وَالْعِلْمِ وَالرِّزَانَةِ ؛ بِكُمْ تَنْتَظِمُ لِلخَلَافَةِ مَحَاسِنُهَا ، وَتُسْتَقِيمُ أُمُورُهَا ؛ وَبِنَصَائِحِكُمْ يُصْلِحُ اللَّهُ لِلخَلْقِ سُلْطَانَهُمْ ، وَتَعْمُرُ بِلَدَانَهُمْ ؛ لَا يَسْتَغْنَى الْمَلِكُ عَنْكُمْ ، وَلَا يُوجَدُ كَافٍ إِلَّا مِنْكُمْ ؛ فَمَوْقِعُكُمْ مِنَ الْمُلُوكِ مَوْقِعُ أَسْمَاعِهِمْ الَّتِي بِهَا يَسْمَعُونَ ، وَأَبْصَارُهُمُ الَّتِي بِهَا يُبْصِرُونَ ، وَأَلْسِنَتُهُمُ الَّتِي بِهَا يَنْطِقُونَ ، وَأَيْدِيهِمُ الَّتِي بِهَا يَنْطِشُونَ ؛ فَأَمْتَعَكُمُ اللَّهُ بِمَا خَصَّكُمْ مِنْ فَضْلِ صِنَاعَتِكُمْ ، وَلَا تَزَعْ عَنْكُمْ مَا أَضْفَاهُ مِنَ النِّعْمَةِ عَلَيْكُمْ ؛ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الصِّنَاعَاتِ كُلِّهَا أَحْوَجَ إِلَى أَجْتِمَاعِ خِلَالِ الْخَيْرِ الْمَحْمُودَةِ ، وَخِصَالِ الْفَضْلِ الْمَذْكُورَةِ الْمَعْدُودَةِ مِنْكُمْ . أَيُّهَا الْكُتَّابُ إِذَا كُنْتُمْ عَلَى مَا يَأْتِي فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ صِفَتِكُمْ ، فَإِنَّ الْكَاتِبَ يَتَحَاجُّ فِي نَفْسِهِ ، وَيَتَحَاجُّ مِنْهُ صَاحِبُهُ الَّذِي يَثِقُ بِهِ فِي مُهِمَّاتِ أُمُورِهِ ، أَنْ يَكُونَ حَلِيمًا فِي مَوْضِعِ الْحُلْمِ ، فَهِيمًا فِي مَوْضِعِ الْحُسْمِ ، مُقَدِّمًا فِي مَوْضِعِ الْإِقْدَامِ ، مُجْتَمِعًا فِي مَوْضِعِ الْإِنْجَامِ ، مُؤَثِّرًا

(١) هذه الرسالة من مقدمة ابن خلدون (ص ٢٠٦ طبعة بلاق) . (٢) أضفاه : أتمه .

للعفاف والعدل والإنصاف، كتوما للأسرار، وفيما عند الشدائد، عالما بما يأتي من النوازل؛ يضع الأمور مواضعها، والطوارق في أمّاكنها؛ قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكّمه، وإن لم يحكّمه أخذ منه بمقدار ما يكتفى به؛ يعرف بغريزة عقله، وحسن أدبه، وفضل تجربته، ما يرد عليه قبل وروده، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره؛ فيعد لكل أمر عُدته وعتاده، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته، فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الاداب، وتفهموا في الدين، وأبدؤا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العربية فإنها ثقاف ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط فإنه حليّة كتبكم، وآرؤوا الأشعار وأعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها؛ فإن ذلك معين لكم على ما تسمّو اليه هممكم، ولا تضيعوا النظر في الحساب، فإنه قوام كتاب الخراج، وأرغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودنيها، وسفساف الأمور ومحارها؛ فإنها مدلّة للرقاب، مفسدة للكتاب، ونزوها صناعتم عن الدناءة، وأربؤا بأنفسكم عن السعاية والتميمة وما فيه أهل الجهالات.

ولما كنم والكبر والسخف والعظمة، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة؛ وتحابوا في الله عز وجل في صناعتم، وتواصوا عليها بالذي هو أليق لأهل الفضل والعدل والنبيل من سلفكم؛ وإن نبا الزمان برجل منكم، فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع اليه حاله، ويشوب اليه أمره، وإن أقعد أحدا منكم الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه، فزوروه وعظموه وشاوروه؛ وأستظفروا بفضل تجربته، وقديم معرفته؛ وليسكن الرجل منكم على من أضلّعه وأستظهر به ليوم حاجته اليه أحوط منه على ولده وأخيه، فإن عرّضت في الشغل تجمّدة فلا يصرفها إلا الى صاحبه، وإن عرّضت مذمة فليحملها هو من دونه؛ وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال، فإن العيب اليكم معشر الكتاب أسرع منه الى الفراء، وهو لكم أفسد منه لها؛ فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه من يئذل له من نفسه، ما يجب له عليه من حقّه؛ فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره، وأحتماله ونصيحته، وكتمان سرّ وتدبير أمره،

ما هو جزاء لحقه ، ويصدق ذلك فعله عند الحاجة اليه ، والأضطرار الى ما لديه ، فاستشعروا ذلك — وفقكم الله — من أنفسكم في حالة الرخاء ، والشدة والحزن والمواساة والإحسان والسراء والضراء ، فنعمت الشيمة هذه لمن وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة ؛ وإذا ولى الرجل منكم أو صير اليه من أمر خلق الله وعياله أمر ، فليراقب الله عز وجل وليؤثر طاعته ؛ وليكن على الضعيف رفيقا ، وللظلم منصفاً ؛ فإن الخلق عيال الله ، وأحبهم اليه أرقبهم بعياله ؛ ثم ليكن بالعدل حاكماً ، وللأشراف مكرماً ، وللغنى موفراً ، وللبسالة عامراً ، وللرعية مثاقفاً ، وعن أذاهم متخلفاً ؛ وليكن في مجاسه متواضعا حليماً ، وفي سبجات نجاهه واستقصاء حقوقه دقيقاً ؛ وإذا صحب أحدكم رجلاً فليختبر خلأقه ، فإذا عرّف حسنها وقبيحتها أعانته على ما يوافقه من الحسن ، وأحتمل على صرفه عما يهواه من القبيح بالطف حيلة وأجل وسيلة .

وقد عاينتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها التمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رموحاً لم يهيجها إذا ركبها ، وإن كانت شبوباً آتقها من بين يديها ، وإن خاف منها شرودا توقاها من ناحية رأسها ، وإن كانت حروناً قمع برفق هواها في طرقتها ، فإن استتوت عطفها يسيراً ، فيسأس له قيادها ، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن سأس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم .

والكاتب لفضل أدبه وشريف صنعيته ولطيف حيلته ، ومعاملته لمن يحاوله من الناس ويناطره ، ويفهم عنه أو يخاف سطوته ، أولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم أوده ، من سائس البهيمة التي لا تُخير جواباً ، ولا تعرف صواباً ، ولا تفهم خطاباً ، إلا بقدر ما يصيرها اليه صاحبها الركب عليها ؛ ألا فارفخوا رحمكم الله في النظر ، وأعملوا ما أمكنكم فيه من الروية والفكر ، تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النبوة والأسنة قال والحقوة ؛ ويصير منكم الى الموافقة ، وتصيروا منه الى المؤاخاة والشفقة ، إن شاء الله ؛ ولا يجاوزن الرجل منكم في هيئة مجاسه ، وملبسه وسركبه ، ومطعمه ومشربه وخدمه ، وغير ذلك من فنون أمره قدر حقه ؛ فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعكم ، خدمة لا تتحملون في خدمتكم على التقصير ، وحفظه

لا تُحْتَمَلُ مِنْكُمْ أَعْمَالُ التَّضْيِيعِ وَالتَّبْذِيرِ ؛ وَاسْتَعِينُوا عَلَى أَعْمَالِكُمْ بِالْقَصْدِ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتُمْ لَكُمْ ، وَقَصَصْتُمْ عَلَيْكُمْ ، وَأَحْذَرُوا مَتَالِفَ السَّرَفِ ، وَسُوءَ عَاقِبَةِ التَّرَفِ ؛ فَإِنَّهُمَا يُعْقِبَانِ الْفَقْرَ ، وَيُذَلِّلَانِ الرِّقَابَ وَيَفْضَحَانِ أَهْلَهُمَا ، وَلَا سِيَّما الْكُتَّابَ وَأَرْبابَ الْآدَابِ . وَلَا أُمُورَ أَشْبَاهَ وَبَعْضُهَا دَلِيلٌ عَلَى بَعْضٍ ؛ فَاسْتَدَلُّوا عَلَى مُؤْتَنَفِ أَعْمَالِكُمْ ، بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَجَرُّبَتُكُمْ ؛ ثُمَّ اسْلُكُوا مِنْ مَسَالِكِ التَّدْبِيرِ أَوْصَحَّهَا حُجَّةً ، وَأَصْدَقَهَا حُجَّةً ، وَأَحْمَدُهَا عَاقِبَةً .

وَأَعْلَمُوا أَنَّ لِلتَّدْبِيرِ آفَةً مُتَلَفَةً ، وَهُوَ الْوَصْفُ الشَّاعِلُ لِصَاحِبِهِ ، عَنْ إِنْفَازِ عِلْمِهِ وَرَوِيَّتِهِ ؛ فَلْيَقْصِدِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي مَجْلِسِهِ ، قَصْدَ الْكَافِي فِي مَنَظِقِهِ ؛ وَلْيُوجِزْ فِي أَبْتِدَائِهِ وَجَوَابِهِ ، وَلْيَأْخُذْ بِجَمَاعٍ حُجَّجِهِ ؛ فَإِنْ ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ لِفَعْلِهِ ، وَمَدْفَعَةٌ لِلشَّاعِلِ مِنْ إِكْثَارِهِ ؛ وَلْيَضْرَعْ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَاةِ تَوْفِيْقِهِ ، وَإِمْدَادِهِ بِتَسْدِيدِهِ ؛ مَخَافَةً وَقُوعِهِ فِي الْغَلَطِ الْمُضَرِّ بِبَدَنِهِ ، وَعَقْلِهِ وَأَدَبِهِ ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانًّا أَوْ قَالَ قَائِلًا : إِنَّ الَّذِي بَرَزَ مِنْ جَمِيلِ صَنْعَتِهِ وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ ، إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ حِيلَتِهِ وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ ؛ فَقَدْ تَعَرَّضَ بِحُسْنِ ظَنِّهِ أَوْ مَقَالَتِهِ إِلَى أَنْ يَكَلِّهَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ ، فَيَصِيرَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ كَافٍ ، وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ غَيْرُ خَافٍ ؛ وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَبْصَرَ بِالْأُمُورِ ، وَأَحْمَلَ لِأَعْبَاءِ التَّدْبِيرِ ؛ مِنْ مُرَافَقِهِ فِي صِنَاعَتِهِ ، وَمُصَاحِبِهِ فِي خِدْمَتِهِ ؛ فَإِنَّ أَعْقَلَ الرَّجُلَيْنِ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ مَنْ رَمَى بِالْعُجْبِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ، وَرَأَى أَنْ أَصْحَابَهُ أَعْقَلُ مِنْهُ وَأَجْمَلُ فِي طَرِيقَتِهِ ؛ وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ نَعَمِ اللَّهِ جَلَّ شَأْنُهُ مِنْ غَيْرِ آخِرَارٍ بِرَأْيِهِ ، وَلَا تَزْكِيَةٍ لِنَفْسِهِ ؛ وَلَا يُكَاثِرَ عَلَى أَخِيهِ أَوْ نَظِيرِهِ ، وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرَتِهِ ؛ وَحَمْدُ اللَّهِ وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ .

وَذَلِكَ بِالتَّوَاضُعِ لِعَظَمَتِهِ ، وَالتَّذَلُّلِ لِعِزَّتِهِ ، وَالتَّحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ ؛ وَأَنَا أَقُولُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ : ” مَنْ تَلَزَمَ النَّصِيحَةَ يَلْزِمَهُ الْعَمَلُ ” وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكِتَابِ وَغُرَّةُ كَلَامِهِ ، بَعْدَ الَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ ، فَلِذَلِكَ جَعَلْتُهُ آخِرَهُ وَتَمَّتْ بِهِ . تَوَلَّانا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ الطَّلَبَةِ وَالْكُتَّابَةِ بِمَا يَتَوَلَّى بِهِ مَنْ سَبَقَ عِلْمُهُ بِإِسْعَادِهِ وَإِرْشَادِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَبِهِدَاهُ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ،

٨ - رسالة ثلاثة لعبد الحميد الكاتب

ومن رسائل عبد الحميد رسالة في الشطرنج^(١) :

أما بعد ، فإن الله شرع دينه بإنهاج سُبُلِهِ ، وإيضاح معالمه بإظهار فرائضه ، وبعث رسلك إلى خلقه دلالة لهم على ربوبيته ، واحتجاجاً عليهم برسالاته ، ومقدمات اليهم بإنذاره ووعيده ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة ، ثم ختم بنبيه صلى الله عليه وسلم وحيه ، ووقفى به رسلك ، وأبتعنه لإحياء دينه الدارس مرتضياً له على حين انطمست الأعلام^(٢) مخفية ، وتشئت السبل متفرقة ، وعفت آثار الدين دارة ، وسطع رَهِجُ الفتن ، وأعتلى قَتَامُ الظلم ، واستنهد الشرُّ ، وأسدف الكفر^(٣) ، وظهر أولياء الشيطان لطموس الأعلام ، ونطق زعيم الباطل بسككة الحق ، واستطرق الجور واستنكح الصُدوف عن الحق ، وأقفطر^(٤) سلَّهَبُ الفتنة ، واستضرم لِقَاحُهَا ، وطبقت الأرض ظلمة كُفْرٍ وَغِيَابَةٍ فَساد ، فصَدَعَ بالحق مأمورا ، وأبلغ الرسالة معصوما ، ونصح الإسلام وأهله ، دالاً لهم على المَرَّاشد ، وقائداً لهم إلى الهداية ، ومنيراً لهم أعلام الحق ضاحية ، مرشداً لهم إلى استفتاح باب الرحمة وإعلاق عُروَةِ النِّجاة ، موضحاً لهم سُبُلَ الْغَوَايَةِ ، زاجراً لهم عن طريق الضلالة ، محذراً لهم الهلكة ، موعزاً اليهم في التقديم ، ضارباً لهم الحدود على ما يتقون من الأمور ويخشون ، وما إليه يسارعون ويطلبون ، صابراً نفسه على الأذى والتكذيب ، داعياً لهم بالترغيب والترهيب ، حريصاً عليهم ، متحنناً على كافتهم ،

(١) هذه الرسالة من كتاب « اختيار المنظوم والمنثور » لأبن طيفور المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم (٨١٠ أ د ب) ومراجعة على نسخة أخرى منه محفوظة برقم (١٨٦٠ أ د ب) .
(٢) وردت هذه الجملة في رسائل البلغاء هكذا : « على حين انطمست له الأعلام ... » بزيادة "له" وليس لها محل من السياق فلعلها من زيادات النساخ .

(٣) أسدف الكفر : أظلم وعم النواحي والأرجاء كالليل . (٤) أقطر : اشتد .

(٥) الغياية : ما أظلم الإنسان من فوق كالسحابة والغبرة ونحوهما .

(٦) في رسائل البلغاء : إهلال بالنون بدل القاف ، وهو بحريف :

عزيزاً عليه عَثَمُهم ، رءوفاً بهم رحماً ، تقدمه شفقتهم عليهم وعنايتهم برشدتهم الى تجريد
الطلب الى ربه فيما فيه بقاء النعمة عليهم ، وسلامة أديانهم ، وتخفيف آصار الأوزار عنهم^(١) ،
حتى قبضه الله اليه - صلى الله عليه وسلم - ناصحاً متنصّحاً ، أميناً مأموناً ، قد بلغ الرسالة ، وأدى
النصيحة ، وقام بالحق ، وعادل عمود الدين ، حتى اعتدل ميله ، وأذل الشرك وأهله ، وأنجز
الله له وعده ، وأراه صدق أنبائه^(٢) في إكمالهم للمسلمين دينه ، واستقامة سنته فيهم ، وظهور
شرائعه عليهم . قد أبان لهم موبقات الأعمال ، ومفطعات الذنوب ، ومهبطات الأوزار ،
وظلم الشبهات ، وما يدعو اليه نقصان الأديان ، وتستهويهم به الغوايات . وأوضح لهم أعلام
الحق ، ومنازل المرشد ، وطرق الهدى ، وأبواب النجاة ، ومعالي العصمة ، غير مدّحٍ لهم
نصحا ولا مبتغي في إرشادهم غمّاً . فكان مما قدم اليهم فيه نهيّه ، وأعلمهم سوء عاقبته ،
وحذّرهم إضره ، وأوعز اليهم ناهياً وواعظاً وزاجراً ، الاعتكاف على هذه التماثيل .
الشّطرنج والمواصله عليها ، لما في ذلك من عظيم الإثم ، وموبق الوزر ، مع مشغلتها
عن طلب المعاش ، وإضرارها بالعقول ، ومنعها من حضور الصلوات في مواقيتها مع جميع
المسلمين .

وقد بلغ أمير المؤمنين أن ناساً ، ممن قبلك من أهل الاسلام ، قد ألهجهم الشيطان
بها ، وجمعهم عليها ، وألف بينهم فيها ، فهم معتكفون عليها من لدن صبحهم الى
مُساءهم ، مُلهية لهم عن الصلوات ، شاغلة لهم عما أمرُوا به من القيام بسُنن دينهم ،
وافترض عليهم من شرائع أعمالهم ، مع مداعتهم فيها ، وسوء لمظهم عليها . وإن ذلك من
فعلهم ظاهر في الأندية والمجالس ، غير منكّر ولا معيب ولا مُستفطع عند أهل الفقه ،
وذوى الورع والأديان والأسنان منهم ؛ فأكبر أمير المؤمنين ذلك وأعظمه ، وكرهه

(١) آصار : جمع إصر وهو النقل . وفي رسائل البلغاء واختيار المنظوم والمتنور لابن طيفور « أواصر » بدل

آصار ، وهو تحريف . (٢) في رسائل البلغاء واختيار المنظوم والمتنور لابن طيفور « أسباه » وهو تحريف .

وأستكبره ، وعلم أن الشيطان عندما يئس منه من بلوغ إرادته في معاصي الله عز وجل ، بمصر المسلمين وجمعهم صرّاحاً وجهاراً ، أقدم بهم على شبهة مهلكة ، وزين لهم ورطة موبقة ، وغرّهم بمكيذة حيله ، إرادة لاستهوائهم بالخُدع ، واجتياهم بالشبه والمراسد الخفية المشككة . وكلّ مقيم على معصية الله ، صغرت أو كبرت ، مستحلاً لها مُشيداً بها ، مظهرًا لارتكابه إياها ، غير حذير من عقاب الله عز وجل عليها ، ولا خائف مكرهاً فيها ، ولا راهب من حلول سطوته عليها ، حتى تلحقه المنية ، فتختلجه وهو مُصر عليها ، غير تائب الى الله منها ، ولا مستغفر من ارتكابه إياها ؛ فكم من أقام على موبقات الآثام وكبائر الذنوب ، حتى مدته ونحرم أيامه .

وقد أحب أمير المؤمنين أن يتقدم اليهم ، فيما بلغه عنهم ، وأن يُنذّرهم ويُوعز إليهم ، ويُعلمهم ما في أعناقهم عليها ، وما لهم في قبول ذلك من الخط ، وعليهم في تركه من الوزر ، فأذن بذلك فيهم ، وأشدّه في أسواقهم وجميع أنديةهم ، وأوعز إليهم فيه . وتقدّم الى عامل شرطتك في إنهاء العقوبة لمن رفع اليه : من أهل الاعتكاف عليها والإظهار للعب بها ، وإطالة حبسه في ضيق وصنك ، وطرح اسمه من ديوان أمير المؤمنين . وأظلمهم عما لهجوا به من ذلك . وألتمس بشدتك عليهم فيه وإنهاكك بالعقوبة عليه ، ثواب الله وجزاءه ، وأتباع أمير المؤمنين ورأيه . ولا يجحد أحد عندك هداة في التقصير في حق الله عز وجل ، والتعمد لأحكامه ، فتحل بنفسك ما يسوءك عاقبة مغبته ، وتعرض به لغير الله عز وجل ونكاله . وأكتب الى أمير المؤمنين ما يكون منك ، إن شاء الله والسلام .

(١) اجتاهم : حوّلهم عن طريق قصدهم ويحتمل أن يكون : واحتباهم ، والاحتبال : الاصططاد .

(٢) آذنه الأمر به : أعله .

رسالة رابعة لعبد الحميد الكاتب

٩ - ومن رسائل عبد الحميد هذه الرسالة التي وصف بها الصيد ^(١) :
 أطال الله بقاء أمير المؤمنين مؤيداً بالعز، مخصوصاً بالكرامة، ممتعاً بالنعمة، إنه لم يلق ^(٢)
 أحداً من المقتنين، ولا منح متطرف من المتصيدين، إلا دون ما لقانا الله به من ^(٣)
 اليمن والبركة، ومنحنا من الظفر والسعادة في مسيرنا من كثرة الصيد، وحسن المقتنص،
 وتمكين الجاسة ^(٤)، وقرب الغاية، وسهولة المورد، وعموم القدورة ^(٥)، إلا ما كان من محاولة
 الطلب، وشدة النصب، لنافر الصيد، وقائد الطريدة التي أمعنا في الطلب لها، وأعجزنا
 البهر عن اللحاق بها، لتفاوت سبقها، ومنقطع هربها، ومتفرق سبلها، ثم آل بنا ذلك إلى
 حسن الظفر، وتناول الأرب، ونهاية الطرب .

وإني أخبر أمير المؤمنين أنا خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح، وأثقف الضواري،
 أكرمها أجاساً، وأعظمها أجساماً، وأحسنها ألواناً، وأحدها أطرافاً، وأطولها أعضاءً،
 قد ثقفت بحسن الأدب، وعودت شدة الطلب، وسبرت أعلام المواقف، وخبرت المجاثم،
 مجبولة على ما عودت، ومقصورة على ما أدبت . ومعنا من نفائس الخيل المحبوبة الفراهة ^(٦)،
 من الشهيرة الموصوفة بالنجابة، والجرى والصلابة . فلم نزل بأخفص سير، وأثقف طلب،
 وقد أمطرتنا السماء مطراً متداركاً، قربت منه الأرض، وزهر البقل، وسكن القتام من مثار ^(٧)
 السناكب، ومتشعبات الأعاصير، مَهْلَةٌ أَنْ سِرْنَا عَلَوَاتٍ، ثم برزت الشمس طالعة،
 وأنكشفت [من] السحاب مسفرة، فتلاأت الأشجار، وضحك النوار، وأنجالت الأبصار،
 فلم نرمظراً أحسن حسناً، ولا مرموقاً أشبه شكلاً، من آبتسام نور الشمس عن اخضرار

(١) هذه الرسالة من كتاب « اختيار المنظوم والمنثور » لأبن طيفور .

(٢) في الأصل : " يلف " . (٣) في الأصل : " الفانا " . (٤) كذا في الأصل ولعلها

محرفة عن الحباله . (٥) القدورة : القدرة، وفي الأصل : " المقدورة " . (٦) الفراهة :

النشاط في السير . (٧) الشهيرة : البراذين . (٨) في الأصل : هكذا " مسا " ،

(٩) في الأصل " متسعات " ،

زهرة الرياض . والخليلُ تمرُّحُ بنا نشاطا ، وتجذبُنَا أعينُهَا آنسَاطا ؛ ثم لم نلبث أن عَلتنا ضبابَهُ ^(١) تقصّر طرف الناظر ، ونُخفي ^(٢) سُبُل السلام ، تغشانا تارةً وتكشف أخرى ، ونحن بأرضٍ دميثةٍ التراب ، أشبه الأُطراف ، مُغدقة الفِجَاج ، مملوءة صيدا من الطُباء والنعالب والأرانب ؛ فأدانا المسيرُ إلى غايةٍ دونها مألُف الصيد ، ومجتمع الوحش ، ونهاية الطلب ، قد جاوزناها ونحن على سبيل الطلب معنون ، وبكلِّ حرةٍ ^(٣) جونةٍ متفرِّقون ، فرجع بنا العودُ على البدء ، وقد آنجلت الضبابة ، وأمتدَّ البصر ، وأمكن النظر ، فاذا نحن برعةٍ ^(٤) من ظباء ، وخلفَةٍ آرامٍ يرتعن آنسات ، قد أحالتن الضبابة عن شخصنا ، وأذهلهن أنيق الرياض عن آسَماعِ حسنا ، فلم ننج إلا والضواري لأئحةً ^(٥) لهن من بُعد الغاية ، ومنتهى نظر الشاخص ؛ ثم مدّت الجوارحُ أجنحتَها ، وأجتنبت الضواري مقادِرها ، فأمرت بإرسالها على الثقة بحُضيرها ، وسُرعة الجوارح في طلبها ، فمزت تحفُ حفيف الريح عند هبوبها ، تُسِفُّ الأرض سقا ، كاشفةً عن آثارها ، طالبةً لخيارها ، حارشةً بأظفارها ، قد مزقتها تمزيق الريح الجراد ؛ فن صائح بها وناعر ، وهاتِف بها وناق ، يدعو الكلب باسمه ، ويفديه بأبيه وأمه ؛ وراكض تحت مُفرّه ، وخافق يطلبه الريح ، وطامح يمنعه ، وسائح قد عارضه بارح ، قد حيرتنا الكثرة ، وألهجتنا القدرة ، حتى آمتلأت أيدينا من صنوف الصيد ، والله المنعم الوهاب .

ثم ملنا يا أمير المؤمنين بهدايةٍ دليلاً قد أحكمته التجارب ، وخبر أعلام المدايب ، إلى غدير أفيح ، وروضة خِصرة ، مستأجمة بتلاوين الشجر ، ملتفة بصنوف ^(٦) الخمر ، مملوءة من أنواع الطير ، لم يذعرهن صائد ، ولا اقتنصهن قاص ، تخفق لها بطبول ، وصفر بنفير الحتف ، فثار منها ما ملأ الأفق كثرتها ، وراعت الجوارح خفقات أجنحتِها ؛ ثم آنبرت البراة

(١) في الأصل : "تقتصر" . (٢) في الأصل : "ويجي" .

(٣) الأشبة : الملتفة الشجر . وفي الأصل «أسنه» . (٤) الحرة : أرض ذات حجارة نخرة سود ،

وفي الأصل «حر» . (٥) الجونة : السوداء ، وفي الأصل هكذا : «حومة» . (٦) رعة : جماعة

متفرقة . (٧) في الأصل : «يفح» . (٨) الخمر : الشجر .

لها صائدة، والصتمور كاسرة، والشواهين ضارية، يرفعن الطلب لها، ويخفين الظفر بها،
حتى سمنا من الدج، وأمتلأنا من النصيح^(١)؛ كأننا كتيبة ظفرت ببغيتها، وسرية نصرت على
عدوها، وألحقت ضعيفها بقويها، وغلبت محسنها بسينها؛ لا نملك أنفسنا مراحا،
ولا نستفيق من الجدل بها فرحا، بقية يومنا، والله المنعم الوهاب .

ثم غدونا يا أمير المؤمنين الى أرض وُصف لنا صيدها بالكثرة، ورياضها بالنزهة،
فرل واصفها عن الطريقة، وأعتمد بنا على غير الحقيقة؛ فأتيناها فلم نر صيدا ولا عُشبا،
ولا نزهة ولا حسنا، فجعلنا نسلك منها حُزونا ووعورا، وجُدوبا وقفرا، حتى قصّر بنا اليأس^(٣)
عن الطلب، وقطع بنا عن الطمع النصيب . فبينما نحن كذلك، إذ بدا لنا جاب قد أوفى^(٤)
بنا على حائل دل على عابة من ورائها حمير وحش كثيرة، فأمتأها، فلما تطرفنا مشيا وتفرّبا^(٥)
الى عاناته، توالى نهيقه، وكثر شهيقه، فالتفتن اليه، فرمقن بأعينن منا ما استكثرن شخصه،
وآستهلن أمره، حتى اذا كنا بمرأى ومسمع آنجذبن موليات، وهربن مسيبات، فأجهدنا
الركض في طلبهن، نتبع آثارهن، ونستشف بلاء بين أحفار ودكادك^(٦) وخناذيد^(٧)، حتى أشفى^(٨)
بنا الطلب لها على وادٍ هائل سائل، بجنتيه غابة أشبه قد سبقن اليها، وآستخفين فيها،
فنظّمناها بالخيال نظم الخرز، ثم أوغلت عدّة فرسان في نفصها وعرفه أحوالها، والطبول
خافقة، والأصوات شاهقة، فكان وكان، والحمد لله على كل حال .

(١) النصيح : العرق .

(٢) في الأصل : "قلب" . (٣) الجاب : العليط من حر الوحش . (٤) في الأصل :

"مسيبا" . (٥) التقرب : ضرب من الدو . (٦) العانة : القطيع من حر الوحش .

(٧) الأحفار جمع حفر وهو التراب المخرج من المخفور . (٨) الدكادك : جمع دكدك ودكادك وهو أرض فيها

عظ . (٩) الخناذيد : جمع خنذيد وهو رأس الجبل المشرف ، والذي يتفق والسباق "أخاديد" ،

وهي جمع أخدود : الحفرة المستطيلة في الأرض .

باب المنظوم الغزل

ذكرنا في المجلد الأول حالة الغزل في العصر الأموي، وكثرة ما نجد فيه من لوائح الحب ولفحاته، وشكايات الصب وأناته، وزفرات العاشق وعبراته. وبيننا أنواعه المتباينة التي قسمناها الى أربعة أقسام:

(أ) غزل إباحي: ويصح لنا أن نتخذ من عمر بن أبي ربيعة زعيمًا لهذا النوع الذي يجمع الى وصف المرأة والتشبيب بها، معاني العبث والاستمتاع باللذة المادية مما يفر منه الأدب الجاهلي، ومما حظره عليه الكثيرون من خلفاء الاسلام وأئمة. وقد كانت مكة والمدينة مسرحًا لهذا النوع في العصر الأموي. وقد شرحنا سبب ذلك في المجلد الأول فراجعهُ شمة.

(ب) غزل عُذري: وهو غزل الحب الصادق، والعواطف المتأججة، والنفس المتألمة المعناة، تلك النفس التي تجد لذتها في الكلف بمن تحب والتعلق بها والشعور بالسعادة في الفناء في حبها، حبًا يملك عليه لبه ويعذب روحه ويُفنى جسمه، كغزل جميل زعيم هذا النوع. وليس أدل على صدق حبه مما أثبتناه عن كتاب الأغاني اذ حاول أبوه أن يصرفه عن حبه وحاجته في ذلك أجمل مُحاجة، فكان من جميل ما كان مما تجده مفصلاً في هذا الباب.

(ج) غزل صناعي: بين هذا وذاك، همُّ الإجادة في الشعر من حيث هو شعر، لا في الحب من حيث هو حب، ولنا في كثيرٍ عزة زعيم لهذا النوع الثالث.

(د) غزل قصصي: خلقه الرواة لأنهم رأوا ميل الناس الى الغزل والى حياة القصف وما يتبع حياة القصف، فنظموا قصائد نحلوها لشعراء لا نستطيع أن نختل تبة

القول بوجودهم في الحياة، أو القول بأنهم أشخاص خياليون خلقهم الرواة، أو زادوا من عندهم مقطعات نسبوا لهم وأضافوها إلى شعرهم . وزعياً هذا النوع : قيس بن الملوّح وليلاه، وقيس بن ذريح ولبناه .

ولإبقاء بما وعدناك به نذكر زعيم كل نوع من هذه الأنواع مع ذكر ترجمته والمختار من شعره .

(١) الغزل الاباحيّ

عمر بن أبي ربيعة^(١)

« راق عمر بن أبي ربيعة الناس وفاق نظراءه وبرّعهم بسمولة الشعر وشدّة الأسر، وحسن الوصف، ودقة المعنى، وصواب المصدر، والقصد للحاجة، واستنطاق الربع، وإنطاق

(١) هو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة القرشي الخزومي، أشعر قريش وأرق أصحاب الغزل، وأوصف الشعراء لأحوال النساء .

ولد بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطاب رضوان الله عليه، وكانت أمه نصرانية، وكان أبوه تاجراً موسراً، وعاملاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللخلفاء الثلاثة من بعده، فشب في نعيم وترّف، وقال الشعر صغيراً، وسلك فيه طريق الغزل، ووصف أحوال النساء وتزاورهنّ ومداعبتهنّ بعضهنّ لبعض، وما يعتدل قوله من الكلام، مما يتوقر الشعراء الفحول عن الخوض فيه، ولذلك لم يحتفلوا بشعره وعدوه من هذيان خلعاء المدينة، فأزال يعالج الشعر والشعرين تقادله، حتى ملك ناصيته، وقبض على زمامه، وبرّ الشعراء، وقال رائيته المشهورة على طريقته المتبكرة وهي التي أولها :

أمن آل نعم أنت غاد فبكر * غداة غد أم رأنح فهجر

والتي قال فيها جرير حين سمعها : ما زال هذا القرشيّ يهذي حتى قال الشعر .

ثم استطار شرّه في التشبيب بالنساء : من يعرفها ومن لا يعرفها، وتعرض للحصنات المتعففات من نساء قومه ومن غيرهنّ، فوقع منسه في بلاء عظيم وصرن يخفن الخروج إلى الحج لأنه كان يتلقاهن بمكة، وينزقن خروجهن للطواف والسعي ويصفهنّ وهنّ محرمات . وحلبت عليه رجالات قريش لمساكنة نسبه منهم ولترقب توبته وإقلاعه، فلما تمادى في أمره وشبب بنات السادات والخلفاء، غضب عليه عمر بن عبد العزيز ونفاه إلى دهلك : (وهي جزيرة أمام مدينة مصر) ، ثم رأى ابن أبي ربيعة أن يكهر عن سيئاته بالتوبة والجهاد فعزا في البحر فاحترقت السفينة التي كان فيها واحترق هو أيضاً سنة ٩٣ هـ وقد اقتبسنا تصدير بحثنا عنه عن أبي الفرج الأصفهاني وتجد ترجمته مطبولة في الأغاني ج ١ ص ٦١ — ٢٤٨ (طبعة دار الكتب المصرية) والشعر والشعراء ص ٣٤٨ وابن خلكان (ج ١ ص ٧٨٣) والدميري (ج ١ ص ٣٢٦) والعقد الفريد (ج ٣ ص ١٣٢) وله ديوان مطبوع في ليبزج سنة ١٨٩٣ وفي مصر سنة ١٣١١ ومنه نسختان خطيتان بدار الكتب المصرية .

القلب ، وحسن العزاء ، ومخاطبة النساء ، وعفة المقال ، وقلة الانتقال ، وإثبات الحجّة ، وترجيح الشك في موضع اليقين ، وطلاوة الاعتذار ، وفتح الغزل ، ونهج العِلل . وعطف المساءة على العُدّال ، وحسن التفجّع ، وبُحُل المنازل ، واختصار الخبر ، وصدق الصّفاء ، إن قدح أَوْرى ، وإن اعتذر أبرّ ، وإن تشكّى أنجى ، وأقدم عن خبرة ، ولم يعتذر بفترة ، وأسر النوم ، وغمّ الطير ، وأغدّ السير ، وحير ماء الشّباب ، وسهل وقول ، وقاس الهوى فأزبى ، وعصى وأخلى ، وحالف بسمعه وطرفه ، وأبرم نعت الرّسل وحذر ، وأعلن الحب وأسرّ ، وبطن به وأظهر ، وألح وأسف ، وأنكح النوم ، وجنى الحديث وضرب ظهره لبطنه ، وأذلّ صعبه ، وقنع بالرجاء من الوفاء ، وأعلى قاتله ، وأستبكي عاذله ، ونفض النوم ، وأغلق رهن منى وأهدر قتلاه ؛ وكان بعد هذا كله فصيحاً .

فمن سهولة شعره وشدة أسره قوله ^(١) :

فلما تواقفنا وسلمت أشرقت * وجوه زهاها الحسن أن نتقنا
تبألن بالعرفان لما رأيته ^(٢) * وقُلن أمرؤ باغ أكل وأوضعا

ومن حسن وصفه قوله :

لها من الرّيم عيناه ولفتته ^(٣) * ونحوه السابق المختال إذ صهلا

ومن دقة معناه وصواب مصادره قوله :

عوجاً نحى الطلل المحولاً ^(٤) * والرّبع من أسماء والمترلا
بسايغ البوابة ^(٥) لم يعدّه * تقادّم العهد بأن يؤهلا

(١) المراد من شدة الأسر هنا إحكام النسيج ومثانة التركيب . (٢) أكل : أعبأ وأوضع : أسرع

في السير . (٣) الرّيم : الظبي . (٤) عرجا : قفا . (٥) المحول والمحيل : الذى أتت

عليه أحوال كثيرة فغيرته . (٦) البوابة : الفلاة واسم لصحراء بأرض تهامة إذا خرجت من أعلى

وادی النخلة إيمانية وهى بلاد بنى سعد بن بكر بن هوازن . (معجم البلدان لباقوت) .

ومن قصيده للحاجة قوله :

أيها المنكح الثريا سهيلا * عمرك الله كيف يلتقيان
هي شامية إذا ما استقلت * وسهيل إذا استقل يمانى

ومن أسنطاقه الربع قوله :

سائلا الربع بالبلى وقولا * هجت شوقا لى الغداة طويلا
أين حى حلوك إذ أنت محفو * ف بهم أهل أراك جميلا
قال ساروا فامعنوا واستقلوا * وبرغى ولو وجدت سهيلا
سمونا وما سمننا جوارا * وأحبوا دمانه وسهولا

قال إسحاق : أنشد جرير هذه الأبيات فقال : إن هذا الذى كنا ندور عليه فأخطأناه .

ومن إنطاقه القلب قوله :

قال لى فيها عتيق مقالا * بخرت مما يقول الدموع
قال لى ودع سليمى ودعها * فأجاب القلب : لا أستطيع

ومن حسن عزائه قوله :

أألق إن دار الرباب تباعدت * أو أنبت جبل أن قلبك طائر
أفق قد أفاق العاشقون وفارقوا * بهوى واستمرت بالرجال المرائر
زع النفس واستبقي الحياء فإتما * تباعد أو تئدى الرباب المقادير
أمت حبها وأجعل قديم وصالها * وعشمتها كمثل من لا تعاشر

- (١) هي الثريا ابنة عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر بن عبد شمس بن عبد مناف الأموية . تزوجها سهيل ابن عبد الرحمن بن عوف الزهرى رضى الله عنه ونقلها الى مصر فقال عمر هذا الشعر . (٢) البلى — بضم وفتح ويا مشددة — : تل قصير أسفل حادة بينها وبين ذات عرق (ياقوت) . (٣) استقلوا : واصلوا السير وجدوا فى الارتحال . (٤) يقال : دمنت الأرض دمانا : سملت ولانت . (٥) انبت : انقطع . (٦) المراد أن الرجال قد أفاقوا واستحكمت عزائمهم وهوى يد أن يسلو سلوهم . (٧) زع النفس : أى أزجرها وكفها عن هواها .

وهبها كشيء لم يكن أو كالأرج * به الدار أو من غيبته المقابر
وكالناس علقت الرباب فلا تكن * أحاديث من يبدو ومن هو حاضر^(١)
وهذه الأبيات يرويها بعض أهل الحجاز لكثير، ويرويها الكوفيون للكثير بن معروف
الأسدي ، وذكر بعضها الزبير بن بكار عن ابن عبيدة لكثير في أخباره .
ومن حسن غزله في مخاطبة النساء - قال مصعب الزبيري : وقد أجمع أهل بلدنا
ممن له علم بالشعر أن هذه الأبيات أغزل ما سمعوا - قوله :

تقول غداة التقينا الرباب * أياذا أفلت أفلول السماء
وكففت سوابق من عبدة * كما أرفض نظم ضعيف السلا
فقلت لها من يطع في الصديق أعداءه * يجتنبه كذاك
أغرك أتى عصيت الملا * م فبك وأب هوانا هواك
وأب لا أرى لذة في الحياة * تفر بها العين حتى أراك
فكان من الذنب لي عندهم * مكارتي وأتباعي رضاك
فليت الذي لأم في حبكم * وفي أن تباري بقرب وقال^(٢)
هموم الحياة وأسقامها * وإن كان حثف جهيز فذاك^(٣)
ومن عقة مقاله قوله :

طال ليلى وأعتادني اليوم سقم * وأصابت مقاتل القلب نعم
حره الوجه والشمائل والحو * هير تكليمها لمن نال غنم
وحديث بمنزله نزل العص^(٤) * هم رخييم يشوب ذلك حلم
هكذا وصف ما بدا لي منها * ليس لي بالذي تغيب علم
إن تجودي أو تخلي فبحمد * لست يا نعم فيهما من يدم

(١) أي من يقيم في البدو والحضر . (٢) المراد به قرن المنازل ، وكثيرا ما يذكره في شعره .

(٣) جهيز : سريع . (٤) المصم : جمع أعصم وهو من الغباء والوعول مافي ذراعيه بياض ،

وهي تمتص غالبا بقن الجبال .

ومن قلة انتقاله قوله :

أيها القائل غير الصواب * أمسيك النصيح وأقل عتاي
وآجتني وأعلم أن ستعصى * وخير لك طول آجتني
إن تقل نصحا فغن ظهر غش * دائم الغمر بعيد الذهاب^(١)
ليس بي عي بما قلت لاني * عالم أفعه رجع الجواب
إنما قرّة عيني هواها * فدع اللوم وكفي ليالي
لا تلمني في الرباب وأمست * عدلت للنفس برد الشراب^(٢)
هي والله الذي هو ربّي * صادقاً أحلف غير الكذاب
أكرم الأحياء طراً علينا * عند قرب منهم وآجتني
خاطبتني ساعة وهي تبكي * ثم عزت خلقي في الخطاب^(٣)
وكفي بي مدرهاً لخصبوم * لسواها عند حدّ تبائي^(٤)

ومن إثباته الجملة قوله :

خليل بعض اللوم لا تحلا به^(٥) * رفيقاً حتى تقولاً على علم
خليل من يكف بأثر كالذي * كلفت به يدمل فؤاداً على سقيم^(٦)
خليل ما كانت أصاب مقاتلي * ولا غرتي حتى وقعت على نعيم
خليل حتى لف حبل بخادع^(٧) * موق إذا يرعى صبود إذا يرعى^(٨)
خليل لو يرق خليل من الهوى * رقيت بما يذني النوار من العضم^(٩)
خليل إن باعدت لانت وإن ألن * تباعد فلم أنبل بحزب ولا سلم

- (١) الغمر (بكسر الغين) : الحقد والغل . والغمر (بفتح الغين) : الماء الكثير ، وكلا المعنيين يحتمله البيت .
(٢) عدلت : ساوت . (٣) أي غلبتني صدقتي في الخطاب قال تعالى : (وعزني في الخطاب) .
(٤) يريد : حسبي غالباً لكل خصم سواها إلى حدّ هلاك . (٥) يقال : رحل فلان فلانا بما يكره ، والمراد أنه يتفلسه باسماعه إياه . (٦) يدمل : يطوى . قال في اللسان : ويقال : آدمل القوم ، أي أطوهم على ما فهم . (٧) يعني بهذا عن الوقوع في شركها . (٨) النوار : النافرة من الظباء .
(٩) لم أنبل : لم أصب ، أو لم أحسن الرمي .

ومن ترجيحه الشك في موضع اليقين قوله :

نظرتُ إليها بالمُحَصَّب من مَيَّ * ولي نظراً لولا التحرُّج عارِمُ^(١)
فقلت : أشمسُ أم مصابيحُ بيعة * بدتْ لك خَلَف السَّجَفِ أم أنتَ حالمُ^(٢)
بعيدةٌ مهوى القُرْطِ إتما لنوفل * أبوها وإما عبدُ شمسٍ وهاشمُ^(٣)
ومدَّ عليها السَّجَف يسومُ لقيمتها * على عَجَلٍ تُبَاعُها والخِوادمُ
فلم أستطعُها غيرَ أنْ قد بدا لنا * عشيةً راحتْ وجهُها والمعاصمُ
معاصمُ لم تضربْ على البهمِ بالضحى * عصاها ووجهه لم تلحه السَّامُ^(٤)
نُصارُكُ ترى فيه أساريكُ مائه * صبيحُ تُفاديه الأكفُ الشَّواعمُ
إذا مادعتْ أترابها فأكتنفنها * تمايلنَّ أو مالتْ بهنَّ الملائكُ^(٥)
طلبنَّ الصَّبَا حتى إذا ما أصبته * نزعنَّ وهنَّ المسيلاتُ الظَّوالمُ

ومن طلاوة اعتذاره قوله :

عاودَ القلبَ بعضُ ما قد شجَّاه * من حبيبٍ أمسى هواناً هواهُ
بالقَّومى فكيف أصبرُ عمن * لا ترى النفسُ طيبَ عيشٍ سِواه
أرسلتُ إذ رأيتُ رِعادى ألا * يقبلنَّ بى محرَّشاً إنْ أناه
دونَ أنْ يسمعَ المِقالَةَ منَّا * وليُطعني فإنَّ عندى رِضاه
لا تُطعْ بى قدَّتْكَ نفسى عدواً * لحديثٍ على هواه أفتراه
لا تُطعْ بى من لو رآنى ولياً * لك أسيرى ضرورةً ما عناه
ما ضرايرى نفسى بهجرى من ليد * سسُ مُسيئاً ولا بعيداً ثراه^(٦)
وأجتنابى بيتَ الحبيب وما الخلدُ * مدُّ بأشهى إلىَّ من أنْ أراه

(١) عارم : حاد . (٢) السجف : الستر . (٣) تنجية عن طول العلق ، وبه فسر في المثل
الساثر (طبعة بولاق ص ٣٨٣) . (٤) البهم : جمع بهمة ، وهى الصغير من أولاد الضأن والمعز والبقر .
(٥) لم تلحه : لم تغيره . (٦) أساريكُ المَاء : طرائقه . والمراد أنه يترقق فيه ماء الشباب .
(٧) الملائك : جمع مأكَّة وهى العجيزة . (٨) المحرَّش : المقرى ، من التحريش وهو الاغراء والافساد .
(٩) الثرى : الخير .

ومن نهجه العَلَلُ قوله :

وَآيَةُ ذَلِكَ أَنْ تَسْمَعِي * إِذَا جِئْتُكُمْ نَاشِدًا يَنْشُدُ
فُرْحَنَا سَرَّاعًا وَرَاحَ الْهَوَى * دَلِيلًا إِلَيْهَا بِنَا يَقْصِدُ
فَلَمَّا دَنَوْنَا لِحَرْسِ النَّبَا^(١) * ح وَالصُّوْتِ، وَالْحَى لَمْ يَرْقُدُوا
بَعَثَا لَهَا بَاغِيًا نَاشِدًا * وَفِي الْحَى بُغْيَةً مِنْ يَنْشُدُ

ومن فتحة الغزل قوله :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعَشَّقِي وَلَمْ تَدْرِ مَا أَهْوَى * فَكُنْ حَجْرًا مِنْ يَابِسِ الصَّخْرِ جَاهِدًا

ومن عطفه المساءة على العُدَالِ قوله :

لَا تَلْمِئِي عَتِيقُ حَسْبِيَ الَّذِي بِي * إِنَّ بِي يَاعَتِيقُ مَا قَدْ كَفَّانِي
لَا تَلْمِئِي وَأَنْتَ زَيْتَنًا لِي * أَنْتَ مِثْلُ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ

ومن حُسن تَفْجِيعِهِ قوله :

هَجَرْتَ الْحَبِيبَ الْيَوْمَ مِنْ غَيْرِ مَا أَجْتَرَمُ * وَقَطَّعْتَ مِنْ ذِي وَدَّكَ الْحَبْلَ فَأَنْصَرَمُ
أَطَعْتَ الْوُشَاةَ الْكَاشِحِينَ وَمَنْ يُطْعُ * مَقَالَةً وَأَيْشَ يَقْرِعُ السَّنَّ مِنْ نَدَمُ
أَنَا رَسُولٌ كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّهُ * شَفِيقٌ عَلَيْنَا نَاصِحٌ كَالَّذِي زَعَمُ
فَلَمَّا تَبَاثُنَا الْحَدِيثَ وَصَرَّحْتُ * سَرَّاءُ عَنْ بَعْضِ مَا كَانَ قَدْ كَتَمْتُ
تَبَيَّنَ لِي أَنَّ الْمُحَرَّشَ^(٢) كَاذِبٌ * فَعِنْدِي لَكَ الْعُتْبَى عَلَى رَغَمٍ مِنْ رَغَمُ
فِيهِ لَأَنْ لُمْتُ النَّفْسَ بَعْدَ الَّذِي مَضَى * وَبَعْدَ الَّذِي آلَتْ وَأَلَيْتُ مِنْ قَسَمُ
ظَلَمْتُ وَلَمْ تُعْتَبْ وَكَانَ رَسُولُهَا * إِلَيْكَ سَرِيعًا بِالرِّضَا لَكَ إِذَا ظَلَمْتُ

(١) الجرس : الصوت . (٢) بث الحديث : إفشاؤه . (٣) المحرّش : المغرّ، يقال :

حرّش بن القوم : أفسد بينهم .

ومن تخیله المنازل قوله :

ألم تسأل الأطالالَ والمتربعا * ببطر حليات دوارس بلقعا^(١)
إلى السرح من وادی المغميس بدت^(٢) * معالمها وبلا ونكباء زعزعا^(٣)
فبيخلن أو يخيرون بالعلم بعد ما * نكان فؤادا كان قدما منهجعا^(٤)

ومن اختصاره الخبر قوله :

أمن آل نعيم أنت غاد فبكر * غداة غد أم رائح فهجرجر
بحاجة نفس لم تقل في جوابها * فتبلغ عذرا والمقالة تغذر
أشارت بمدراها وقالت لترها^(٥) * أهذا المغيرى الذى كان يدكر
لئن كان إياه لقد حال بعدنا * عن العهد والإنسان قد يتغير

قال الزبير حدثني إسحاق الموصلي قال : قلت لأعرابي : ما معنى قول ابن أبي ربيعة :

بحاجة نفس لم تقل في جوابها^(٦) * فتبلغ عذرا والمقالة تغذر

فقال : قام كما جلس .

ومن صديقه الصفاء قوله :

كل وصل أمسى لديك لأننى * غيرها وصلها إليها أداء
كل أننى وإن دنت لوصول * أو نأت فهى للرباب الفداء

- (١) حايات (بضم الحاء المهمله وفتح اللام وتشديد الباء) : اسم موضع ذكره البكري وياقوت ولم يبيناه ، ولعله موضع قرب مكة بقرينة ذكره مع المغمس الوارد في البيت بعده .
(٢) السرح : موضع .
(٣) المغمس (بتشديد الميم وفتحها كما في ياقوت ، وضبطه البكري في معجمه بكسر الميم وتشديدها) : موضع قرب مكة في طريق الطائف ، مات فيه أبو ذغال وقبره يرجع لأنه كان دليل أبرهة صاحب الفيل .
(٤) النكباء : الريح التي تنكب عن مهاب الرياح .
(٥) يقال : ريح زعزع ، أى شديدة ، وكذلك زعزاع وزعزوع .
(٦) يقال : نكا الجرح : قشره قبل أن يلتئم .
(٧) المدرى والمدرة : حديدة يحك بها الرأس .
(٨) أى هى في غاية من السر لا يجاب عليها إذا سئل عنها ، والإعذار : نفي العذر .

وقوله :

أَحِبُّ لِحُبِّكَ مَنْ لَمْ يَكُنْ * صَفِيًّا لِنَفْسِي وَلَا صَاحِبًا
وَأَبْذُلُ مَالِي لِمَرْضَاكُمْ * وَأُعْتَبُ^(١) مِنْ جَاءِكُمْ عَاتِبًا
وَأَرْغَبُ فِي وُدِّ مَنْ لَمْ أَكُنْ * إِلَى وُدِّهِ قَبْلَكُمْ رَاغِبًا
وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ فِي جَانِبِ * مِنَ الْأَرْضِ وَأَعْتَلَّتْ جَانِبَا
يَمِينُ طَيْبَتِهَا^(٢) إِنْسِي * أَرَى قُرْبَهَا الْعَجَبَ الْعَاجِبَا

ومما قَدَحَ فِيهِ فَأَوْزَى قَوْلُهُ .

طَالَ لَيْسِي وَتَعَنَانِي^(٣) الطَّرِبُ^(٤) * وَأَعْتَزَانِي طَوْلُ هَمٍّ وَوَصَبُ
أَرْسَلْتُ أَسْمَاءَ فِي مَعْتَبَةٍ * عَتَبَتْهَا وَهِيَ أَحْلَى مِنْ عَتَبِ
أَنَّ أَتَى مِنْهَا رَسُولٌ مُوَهَّنًا^(٥) * وَجَدَ الْحَيَّ نِيَامًا فَأَنْقَلَبُ
ضَرَبَ الْبَابَ فَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ * أَحَدٌ يَفْتَسِحُ بَابَا إِذْ ضَرَبَ
قَالَ : أَيَقَاطُ، وَلَكِنْ حَاجَةٌ * عَرَضْتُ تُكَلِّمُنَا فَأَحْتِجِبُ
وَلَعَمْرُؤُا رَدَدْنِي، فَاجْتَهَدْتُ * يَمِينُ حَلْفَةٍ عِنْدَ الْغَضَبِ
يَشْهَدُ الرَّحْمَنُ لَا يَجْمَعُنَا * سَقْفُ بَيْتٍ رَجَا بَعْدَ رَجَبِ
قُلْتُ حَلًّا فَأَقْبَلِي مَعْدِرَتِي * مَا كَذَا يَجْزِي مُحِبٍّ مِنْ أَحَبِّ
إِنْ كَفَى لَكَ رَهْنٌ بِالرُّضَا * فَأَقْبَلِي يَا هِنْدُ، قَالَتْ قَدْ وَجَبَ

قالوا : ومن شعره الذي اعتذر فيه فأبرأ قَوْلُهُ :

فَالْتَقَيْنَا فَرَحَّبْتُ حِينَ سَلَّمَ * تَوَكَّفْتُ دَمْعًا مِنَ الْعَيْنِ مَا رَأَى^(٦)
ثُمَّ قَالَتْ عِنْدَ الْعِتَابِ رَأَيْنَا * مِنْكَ عَنَّا تَجَلُّدًا وَأَزْوَارًا^(٧)

(١) يقال : أعته إذا أعطاه العني وأرضاه . (٢) طيبها : ناحيتها وقصدها . (٣) تعناني : أوقعني في العناء . (٤) الطرب : خفة تعرى الإنسان عند شدة الفرح أو الحزن والهم . (٥) الموهن : نحو من نصف الليل . (٦) ما : حرى وسال . (٧) الأزوار : الإعراض .

قلتُ كَلَّا لَأَهْ أَنْ عَمَّكَ بِلِخْفٍ * سَنَا أُمُورًا كُنَّا بِهَا أَعْمَارًا^(٢)
 بفعلنا الصَّدودَ لِمَا خَشِينَا * قَالَتِ النَّاسُ لِلْهَوَى أَسْتَارَا
 لَيْسَ كَالْعَهْدِ إِذْ عَهِدْتَ وَلَكِنْ * أَوْقَدَ النَّاسُ بِالنِّيمَةِ نَارَا
 فَلِذَاكَ الْإِعْرَاضُ عَنْكَ وَمَا آ * تَرَقَّلِي عَلَيْكَ أُخْرَى اخْتَارَا
 مَا أَبَايَ إِذَا النَّوَى قَرَّبْتُكُمْ * فَدَنُوتُمْ مَنْ حَلَّ أَوْ مَنْ سَارَا
 فَالْيَسَالَى إِذَا نَأَيْتَ طِسْوَالُ * وَأَرَاهَا إِذَا قُرْبِتَ قِصَارَا

وَمَنْ تَشْكِيهِ الَّذِي أُشْجِي فِيهِ قَوْلُهُ :

لَعَمْرُكَ مَا جَاوَرْتُ عُمْدَانُ طَائِعًا * وَقَصَّرَ شَعُوبُ^(٥) أَنْ أَكُونَ بِهِ صَبًّا
 وَلَكِنْ حُمِيَّ أَضْرَعْتَنِي ثَلَاثَةً^(٦) * مَجْرُمَةً^(٧) ثُمَّ أَسْتَمَرْتُ بِنَا غِيَا^(٨)
 وَحَتَّى لَوْ أَنَّ الْخُلْدَ يَعْرِضُ إِنْ مَشَتْ * إِلَى الْبَابِ رِجْلِي مَا نَقَلْتُ لَهَا لِمَارِبًا^(٩)
 فَإِنَّكَ لَوْ أَبْصَرْتَ يَوْمَ سَوِيقَةٍ^(١٠) * مُنَانِيَّ وَحَبْسِي الْعَيْسَ دَامِيَةً حَدْبًا^(١١)
 وَمَضَرَغَ إِخْوَانٍ كَأَنَّ أُنْيَتَهُمْ * أَنِينُ مَكَاكِي فَارَقْتُ بَلَدًا خُضْبًا^(١٢)
 إِذَا لَأَقْشَعَرَّ الْخُلْدُ مِنْكَ صَبَابَةً * وَلَا سَتَفَرُغْتَ عَيْنُكَ مِنْ عِبْرَةٍ سَجْبًا

وَمَنْ لِمَقْدَامِهِ عَنْ خِيَرَةٍ وَلَمْ يَعْتَذِرْ بِغُرَّةٍ قَوْلُهُ :

صَرَمْتُ وَوَاصَلْتُ حَتَّى عَرَفْتُ * سِتُّ أَيْنَ الْمَصَادِرُ وَالْمَوْرِدُ
 وَجَرَّبْتُ مِنْ ذَاكَ حَتَّى عَرَفْتُ * سِتُّ مَا أَتَوَّقُ وَمَا أَعْمَدُ

- (١) لاه بمعنى لله . (٢) الغمر (بضم الغين وفتحها مع سكون الميم ، وفتحين ، وفتح فكسر) :
 الغمر الجاهل الذي لم يجزب الأور . (٣) أى ليس الأمر كما تعهدين من قبل .
 (٤) عُمْدَانُ : قصر باليمن بناء « يشرح بن يحصب » . (٥) قصر شعوب : قصر عال مرتفع باليمن .
 (٦) أضرعتنى : أضعفتنى وأذلتنى . (٧) مجرمة كمطلحة : تامة ، يريد ثلاثة أحوال كاملة .
 (٨) الغب من الحى : ما تأخذ يوما وتدع يوما . (٩) أى ما حركت له عضوا . (١٠) سويقة :
 موضع . (١١) حدبا جمع حدباء ، وأصل الحدب : ما أرتفع من الأرض ، يريد أنه أعيهاها السير فهى دامية
 متقوسة الظهور من الال . (١٢) المكاكى : جمع مكاء ، وهو طير يشبه القبرة إلا أن فى جناحيه بلقا ، وهو حسن
 الصوت فى تغريده .

ومن أسره النوم قوله :

نام صَحِيٍّ وِبات نومي أَسِيرًا * أَرَقُبُ النَجْمَ مَوْهِنًا أَنْ يَغُورَا

ومن غمّه الطير قوله :

فَرَحْنَا وَقَانَا لِلْغَلَامِ أَقْضَى حَاجَةً * لَنَا ثُمَّ أَدْرَيْنَا وَلَا نَتَغَيَّرُ
سِرَاعًا نَغْمُ الطَّيْرِ إِنْ سَمَحَتْ لَنَا * وَإِنْ تَلَقَّيْنَا الرُّجَانُ لَا نَتَّخِذُ^(٢)

لتغبر من قولهم : غبوا فلان، أى لبث .

ومن إغذاؤه السير قوله^(٣) :

قُلْتُ سِيرًا وَلَا تُقِيمَا بِبَصْرَى * وَخَفِيرٍ^(٥) فَمَا أَحَبَّ خَفِيرًا^(٤)
وَإِذَا مَا مَرَرْتُمَا بِمَعَانٍ * فَأَقِيلَا بِهِ التَّوَاءَ وَسِيرًا^(٦)
إِنَّمَا قَصَرْنَا إِذَا حَسَرَ السَّيْرُ * رُبُّ بَعِيرًا أَنْ تَسْتَجِدَّ بَعِيرًا^(٧)^(٨)

ومن تحييره ماء الشباب قوله :

أَبْرَزُوهَا مِثْلَ الْمَهَاةِ تَهَادَى * بَيْنَ نَحْسٍ كَوَاعِيهِ أَتْرَابِ
ثُمَّ قَالُوا تَحْبُّهَا قُلْتُ بَهْرًا * عَدَدَ الْقَطْرِ وَالْحَصَى وَالتَّرَابِ
وَهِيَ مَكْنُونَةٌ تَحْيِرُ مِنْهَا * فِي أَدِيمِ الْخَدَّيْنِ مَاءُ الشَّبَابِ

ومن تقويله وتسميله قوله :

قَالَتْ عَلَى رِقْبَةٍ يَوْمًا لِجَارَتِهَا * مَا تَأْمُرِينَ فَإِنَّ الْقَلْبَ قَدْ تَبَلَا^(٩)
وَهَلْ لِي الْيَوْمَ مِنْ أُخْتٍ مُوَاخِيَةٍ * مِنْكَ أَشْكُو إِلَيْهَا بَعْضَ مَا فَعَلَا

- (١) لعله يريد : يحزنها بالسبق ، أو بهرها ونغلها ، من قولهم : غم القمر النجوم : بهرها وكاد يسترضوها .
(٢) التغبر : السؤال عن الخبر . (٣) أغل السير وأغذ فيه : أسرع . (٤) بصرى : بلد بالشام .
(٥) خفير : نهر بالأردن ببلاد الشام . (٦) معان : مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي
البلقاء . (٧) قصرنا ، أى قصارانا وغايتنا . (٨) حسر السير بعيرا : أجهده وأعياه .
(٩) المتبول : من أسقمه الهوى وغلبه الحب على أمره .

فراجعتها حصاناً غير فاحشية * برجع قول ولُب لم يكن خطلاً^(٢)
لا تذكري حبه حتى أراجعه * إني سأكفيك إن لم أمت عجلاً
فأفنى^(٣) حياءك في ستر وفي كرم * فليسيت أول أنى علقت رجلاً
وأما ما قاس فيه الهوى فقولهُ :

وقربن أسباب الهوى لمنيم * يقيس ذراعاً كلما قسن إصبعاً
ومن عصيانهِ وإخلائه قولهُ :

وأنص^(٤) المطي يتبعن بالركب * سب سراً نوايم الأظعان
فنصيد^(٥) الغرير من بقر الوح * ش ولهو بلذة الفتيان
في زمان لو كنت فيه ضجيجي * غير شك عرفت لي عصيانِي
وتقلبتي في الفراش ولا تد * رين إلا الطنون أين مكاني
ومن مخالفته بسمعه وطرفه قولهُ :

سمعي وطرفي حليفاً على جسدي * فكيف أصبر عن سمعي وعن بصري
لو طواعاني على ألا أكلمها * إذا لقضيت من أوطارها وطري
ومن إبرامه نعت الرسل قولهُ :

فبعثت كاتمة الحديد * رقيقة بجوارها
وحشية إنسية * نرجاة من بايها
فرقت فمهلت المعاً * رض من سبيل نقايها
ومن تحذيره قولهُ :

لقد أرسلت جاري * وقلت لها خذي حذرَكَ
وقولي في ملاطفة * لزينب نولي عُمَرَكَ

(١) حصان : عفيفة . . (٢) الخطل : الفاسد المضطرب . (٣) أفنى حياءك : الزميه .
(٤) نص المطي : استخراج أقصى ما عندها من السير . (٥) الغرير : الغافل .

فإن داويت ذا سقيم * فأخزى الله من كفرك

فهزّت رأسها عجباً * وقالت من بدأ أمرك

أهذا يحرك النساء * ن، قد خبرني خبرك

وقلن إذا قضى وطراً * وأدرك حاجة هجرك

ومن إعلانه الحب وإسرايه قوله :

شكوت إليها الحب أعلن بعضه * وأخفيت منه في الفؤاد غليلاً

ومما أبطن فيه وأظهر قوله :

حبكم يا آل ليلى قاتلي * ظهر الحب بجسمى وبطن

ليس حب فوق ما أحببتكم * غير أن أقتل نفسي أو أجن

ومما آلت فيه وآسف قوله :

ليت حظي كطرفه العين منها * وكثير منها القليل المهني

أوحديث على خلاء يسلي * ما يجزئ الفؤاد منها ومنا

كبرت ربّ نعمة منك يوماً * أن أراها قبل المات ومنا

ومن إنكاحه النوم قوله :

حتى إذا ما الليل جنّ ظلامه * ونظرت غفلة كاشع أن يعقلا

واستنبح النوم الذين تخافهم * وسقى الكرى بوابهم فاستنقلا^(١)

خرجت تاطر في الثياب كأنها * أيم يسهب على كتيب أهلا^(٢)

ومن جنّيه الحديث قوله :

وجوار مساعفات على اللهـ * ومسرّات باطن الأضغان

صبيد للرجال يرشقن بالطر * في حسان نكذل الغزلان^(٣)

(١) يقال : أثقله النوم فهو مستثقل بصيغة المفعول . (٢) تاطر أصله تاطر فحذفت إحدى تاءيه ومعناه

نشئ . والأيم : الأفي . ويسيب : يمشي . والكتيب الأهيل : الرمل المنال . (٣) الخذل : جمع

خاذل وهي الفلية تخاف من صواحباتها أو أولادها .

قد دَعَانِي وقد دَعَاهُنَّ لِلَّهِ * وَتُجُونَ مُهِمَّةَ الْأَشْجَانِ
فَأَجْتَنَيْنَا مِنَ الْحَدِيثِ ثِمَارًا * مَا جَنَى مِثْلَهَا لِعَمْرُكَ جَانِي
ومن ضربه الحديث ظهره لبطنه قوله :

فِي خَلَاءٍ مِنَ الْأَيْسِ وَأَمْنٍ * فَبَثْنَا غَلِيلًا وَأَشْتَفَيْنَا
وَضَرْبَنَا الْحَدِيثَ ظَهْرًا لِبَطْنٍ * وَأَتَيْنَا مِنْ أَمْرِنَا مَا أَشْتَهَيْنَا
فَمَكَّنَا بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ * فَقَضَيْنَا دِيُونَنَا وَأَقْتَضَيْنَا

ومن إذلاله صعب الحديث قوله :

فَلَمَّا أَفْضَيْنَا فِي الْهَوَى نَسْتَبِينُهُ * وَعَادَ لَنَا صَعْبُ الْحَدِيثِ دُلُولًا
شَكُوتُ إِلَيْهَا الْحَبِّ أَظْهَرُ بَعْضُهُ * وَأَخْفَيْتُ مِنْهُ فِي الْفَوَادِ غَلِيلًا

ومن قنَاعَتِهِ بالرجاء من الوفاء قوله :

فَعِيدِي نَائِلًا وَإِنْ لَمْ تُنِيلِي * لَإِنَّهُ يَنْفَعُ الْحَبَّ الرَّجَاءُ

قال الزبير : هذا أحسن من قول كثير :

وَلَسْتُ بِرَاضٍ مِنْ خَلِيلٍ بِنَائِلٍ * قَلِيلٌ وَلَا أَرْضَى لَهُ بِقَلِيلٍ

ومن إعلائه قاتله قوله :

فَبَعَثْتُ جَارِيَتِي وَقُلْتُ لَهَا أَذْهَبِي * فَأَشْكِي إِلَيْهَا مَا عَلِمْتِ وَسَائِي
فَقُولِي يَقُولُ تَخْرُجِي فِي عَاشِقٍ * كَلِّفَ بِكُمْ حَقِّي الْمَمَاتِ مُتِيمٍ
وَيَقُولُ لَأَنْكَ قَدْ عَلِمْتِ بِأَنْكُمْ * أَصْبَحْتُمْ يَا بَشَرُ أَوَجَهَ ذِي دِمٍ
فَكُنِّي رَهِيئَةً فَإِنْ لَمْ تَفْعَلِي * فَأَعْلِي عَلَى قَتْلِ ابْنِ عَمِّكَ وَأَسْلَمِي
فَتَضَاهَكْتُ عَجَبًا وَقَالَتْ حَقُّهُ * أَلَا يَعْلَمُنَا بِمَا لَمْ نَعْلَمِ

(١) أى مثيرة الأشجان . (٢) أى كفى عن الحرج والاثم .

(٣) أى أحق إنسان آخذ منه بدمى .

علمى به والله يغفر ذنبه * فيما بدا لى ذوهوى متقسم
(١) طرف ينازعه الى الأدنى الهوى * ويئت خلة ذى الوصال الأقدم
ومن تنفيذه النوم قوله :

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت * مصابيح شبت بالعشاء وأنور
وغاب قمر كنت أرجو غيوبه * وروح رعيان ونوم سمر
ونفضت عني النوم أقبلت مشية الـ * حجاب وركني خشية القوم أزور
ومن إغلاقه رهن منى وإهداره قتلاه قوله :

فكم من قتييل ما بيا به دم * ومن غالي رهنًا إذا لقه فني
ومن مالى عنيه من شيء غيره * إذا راح نحو الجمره البيض كالدمى
وكان بعد هذا كله فصيحًا شاعرًا مقولاً (٢) :

ومن شعره المشهور قوله :
أمن آل نعيم أنت غاد فمبكر * غداة غيد أم راح فمبكر
لحاجة نفس لم تقل في جوابها * فتبلغ عذرا والمقالة تعذر
أشارت بمندراها وقالت لأختها * أهذا المغيري الذي كان يذكر
فقلت نعم لا شك غير لونه * سرى الليل يطوى نصه والتمجر
رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت * فيضحي وأما بالعشي فيخصر

- (١) الطرف : من لا يثبت على امرأة ولا صاحب . (٢) روح من الرواح وهو وقت العشي . والرعيان : جمع راع كالرعاة والرعاة والرعاة . ونوم الرجل تنويما : مبالغة في نام . (٣) الحباب : الحية . وأزور كآحسن : ماثل من زور يزور إذا مال . (٤) يقال : أبا القاتل بالقتيل : قتله به ، والمراد هنا : فكم من قتييل يطل دمه ولا يؤخذ له بثأر . (٥) يقال : غلق الرهن في يد المرتين يغلط قلعا : لم يقدر الراهن على أفتكاكه في الوقت المشروط . يريد : وكمن قلوب أسيرة لا يقدر أصحابها على أفتكاكها . (٦) الدمى : جمع دمية وهى الصورة المنقشة من العاج ونحوه . (٧) المقول : الحسن القول المفصح المبين . (٨) نص السرى : لإسراعه ، وأصله حث الدابة واستخراج أقصى ما عندها من السير .

أخا سفر جَوَّابَ أَرْضٍ تَقَاذَفْتُ * بِهِ فَلَوَاتٌ فَهَوَّ أَشْمَتْ أَغْبَرُ
 قَلِيلًا عَلَى ظَهْرِ الْمَطِيَّةِ ظِلُّهُ * سِوَى مَا نَقَى عَنْهُ الرِّدَاءُ الْمُحْبَرُ^(١)
 وَأَعْجَبَهَا مِنْ عَيْشِهَا ظِلُّ غُرْفَةٍ * وَرِيَانُ مُنْتَفِئِ الْحِدَائِقِ أَخْضَرُ
 وَوَالِ كَفَّاهَا كُلِّ شَيْءٍ يَهْمُهَا * فَلَيْسَتْ لَشَيْءٍ آخَرَ اللَّيْلِ تَسْهَرُ
 وَلَيْلَةٌ ذِي دَوْرَانَ جَشْمَنِ السُّرَى * وَقَدْ يَجْشَمُ الْهَوْلُ الْحُبَّ الْمَغْرَرُ^(٢)^(٣)

ومن شعره قوله في فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندي :

تَسْطُ غَدًا دَارُ جِيرَانِنَا * وَلِلدَّارِ بَعْدَ غَدٍ أَبْعَدُ^(٤)
 إِذَا سَلَكَتْ غَمْرُ ذِي كِنْدَةٍ * مَعَ الرِّكْبِ قَصْدُهَا الْفَرْقَدُ^(٥)^(٦)
 وَحَثَّ الْحِدَادَةَ بِهَا عَيْرَهَا * سِرَاعًا إِذَا مَا وَتَتْ تُطْرَدُ^(٧)
 هِنَالِكَ إِمَّا تُعَزَّى الْفُؤَادُ * وَإِمَّا عَلَى إِثْرِهَا تَكْمَدُ
 وَلَيْسَتْ بِسِدْجٍ إِذَا دَارُهَا * نَأَتْ وَالْعَزَاءُ إِذَا أَجْلَدُ
 صَرَمْتُ وَوَأَصَلْتُ حَتَّى عِلْمٍ * سَتُ أَيْنَ الْمَصَادِرُ وَالْمَوْرِدُ
 وَجَرَّبْتُ مِنْ ذَاكَ حَتَّى عَرَفُ * سَتُ مَا أَتَوَقَّى وَمَا أَحْمَدُ
 فَلَمَّا دَتَوْنَا بِالْجَرَسِ النَّبَا^(٨) * جِ وَالضُّوْءِ وَالْحَى لَمْ يَرْفُودَا
 نَأَيْنَا عَنْ الْحَى حَتَّى إِذَا * تَوَدَّعَ مِنْ نَارِهَا الْمَوْقِدُ^(٩)
 وَنَامُوا بَعَثْنَا لَهَا نَاشِدًا * وَفِي الْحَى بَغِيَّةٌ مِنْ يَنْشُدُ

- (١) المحبر : المزين الحسن . (٢) ذودوران — بفتح أوله وبعد الواو راء مهملة وآخره نون — : موضع بين قديد والجلفة (ياقوت) . (٣) أى كلفني السير ليلا .
 (٤) تسط : تبع . (٥) غمردى كندة : موضع وراء واحة بينه وبين مكة مسيرة يومين .
 (٦) كذا في ديوانه ، وفي الأعاني « الصبح » . (٧) الفرقد : نجان في السماء من نجوم الدب الأصغر وهي في الشمال ، ويقال لها : الفرقد بالإفراد ، والفرقدان بالثنائية . ولعله يريد أنها تسير جهته ، لأن العراق التي تقصده في الشمال الشرقي من مكة . (٨) الحداة : جمع حاد وأصله المعنى للابل لتشط في السير ، وقد يراد به الزاجر والسائق . والعرير : الإبل ، ولا واحد له من لفظه . وونت : ضمفت وتباطأت . وتطرد : تساق .
 (٩) الجرس : الصوت . (١٠) تودع : سكنت ناره وأنطفأت .

أَلْتَنَّا تَهَادَى عَلَى رِقَبَةٍ^(٢) * من الخوف أحشاؤها تُرَعِدُ^(٣)
تَقُولُ وَتُظْهِرُ وَجْداً بِنَا * وَوَجِدَى وَإِنْ أَظْهَرْتُ أَوْجَدُ^(٤)
لَمَّا شَقَائِي تَعَلَّقْتُكُمْ * وَقَدْ كَانَ لِي عَنْكُمْ مَقْعَدُ^(٥)
وَكَفَّتْ سَوَائِقَ مِنْ عَبْرَةٍ * عَلَى الْخَدِّ جَالٌ بِهَا الْإِمْدُ^(٦)
فَإِنَّ الَّتِي شَبَّعْتَنَا الْغَدَاةَ * مَعَ الْفَجْرِ قَلْبِي بِهَا مُقْصَدُ^(٧)

وَشَبَّ عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ بَزِينَبَ بِنْتِ مُوسَى الْجَحِيَّةِ فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

يَا خَلِيلِي مِنْ مَلَامٍ دَعَانِي * وَالْمَا الْغَدَاةَ بِالْأُظْعَانِ
لَا تَلُومَا فِي آلِ زَيْنَبَ إِنِّ أَلِ * بَقْلَبَ رَهْنُ بَالِ زَيْنَبَ عَانِي
مَا أَرَى مَا بَقِيْتُ أَنْ أَذْكُرَ الْمَوِ * قَفَّ مِنْهَا بِالْخَيْفِ إِلَّا شَجَانِي^(٨)
لَمْ تَدْعُ لِلنِّسَاءِ عِنْدِي حُظًّا * غَيْرَ مَا قُلْتُ مَارِحًا بِلِسَانِي
هِيَ أَهْلُ الصَّمَاءِ وَالْوُدِّ مَنَى * وَإِلَيْهَا الْهَوَى فَلَ تَعْدُلَانِي
حِينَ قَالَتْ لِأَخْتِهَا وَلِأُخْرَى * مِنْ قَطِينٍ مُوَلَّدٍ : حَدَّثَانِي^(٩)
كَيْفَ لِي الْيَوْمَ أَنْ أَرَى عُمَرَ أُمُرُ * سِلَّ سِرًّا فِي الْقَوْلِ أَنْ يَلْقَانِي
قَالَتَا : نَبْتَسِي رَسُولًا إِلَيْهِ * وَنُمِثُ الْحَسِيدَ بِالِكْتَانِ
إِنَّ قَلْبِي بَعْدَ الَّذِي نَلْتُ مِنْهَا * كَالْمَعْمَى^(١٠) عَنْ سَائِرِ النَّسْوَانِ

- (١) تهادى : تمشى فى تمايل وسكون . (٢) الرقبة : التحفظ والفرق . (٣) الوجد : الشغف والشوق الشديد . (٤) المراد : قد كان لى غنى عن حبهكم . (٥) الإيتمد : هجر للكحل وأجوده بأصهبان . (٦) أقصده : رماه بسهم فقتله . (٧) الخيف : ما ارتفع عن مجرى السيل وأتجدد عن غلط الجبل . قال ابن سيدة : وخيف مكة موضع فيها عند منى ، سمي بذلك لأنجداره عن الغلط وأرتفاهه عن السيل . (٨) القطين : الخدم والأتباع والحشم ، والمولد من العبيد والإماء : من ولد بين العرب ونشأ مع أولادهم . (٩) كذا فى الأغاني . وفى ديوانه "كالمعنى" أى المأسور المحبوس عن صرها .

وكان سبب ذكره لها أن ابن أبي عتيق ذكرها عنده يوما فأطراها ووصف من عقلها وأدبها وجمالها ما شغل قلب عمر وأماله إليها ، فقال فيها الشعر وشبب بها ، فبلغ ذلك ابن أبي عتيق ، فلامه فيه وقال له : أتتطرق الشعر في أبنية عمي ؟ فقال عمر :

لا تلمني عتيق حسبي الذي بي * إن بي يا عتيق ما قد كفاني
لا تلمني وأنت زيتها لي * أنت مثل الشيطان للإنسان
إن بي داخلا من الحب قد أبى * لي عظامي مكنونه وبراني
لو بعينيك يا عتيق نظرتنا * ليللة السفح فزت العينان
إذ بدا الكشح والوشاح من الد * وفصل فيه من المرجان^(١)
وقلى قاي النساء سواها * بعد ما كان مغرما بالغواني
لم تدع للنساء عندي نصيبا * غير ما قلت مازحا بلساني

وأنشد ابن أبي عتيق قول عمر :

من لستقيم يكتُم الناس ما به * لزينب تجوى صدره والوساوس^(٢)
أقول لمن ينبغي الشفاء متى تجي * بزينب تدرك بعض ما أنت لايس
فإنك إن لم تشف من سقمي بها * فإني من طب الأطباء آيس
ولست بناس ليللة الدار مجلسا * لزينب حتى يعلو الرأس راس^(٣)
خلأ بدت قراؤه وتكشفت * دجته وذاب من هو حارس^(٤)
وما نلت منها محرما غير أننا * كلانا من الثوب الموردي لايس^(٥)
تجيب نقضي اللهو في غير مأثم * وإن رغمت الكاشحين المعاطس

(١) الكشح : ما بين الحبة — وهي رأس الورك الذي يشرف على الخاصرة — إلى الإبط . والوشاح :

شبه قلادة ينسج من أديم عريض يرصع بالجواهر ، تشده المرأة بين عاتقها .

(٢) هذا البيت دخل عليه الخرم وهو حذف الفاء من فعولن . (٣) الرأس : الدافن في الرمس وهو القبر .

(٤) المورّد : الذي صيغ على وزن الورد .

قال : فقال آبنُ أبي عتيق : أمتاً يسخرُ آبنُ أبي ربيعة ؟ فأى محرم بقي ! ثم أتى عمرَ فقال له : يا عمرُ، ألم تُخبرني أنك ما أتيت حراماً قط ؟ قال : بلى ، قال : فأخبرني عن قولك :

* كَلَانَا مِنَ الثَّوْبِ الْمُرْدِّ لَا بَسْ *

ما معناه ؟ قال : والله لأخبرتك : خرجتُ أريد المسجدَ وخرجتُ زينبُ تريده ، فالتقينا فاتعدنا لبعض الشعاب ، فلما توسطنا الشعب أخذتنا السماء ، فكريهتُ أن يرى بثيابها بللُ المطر ، فيقال لها : ألا استترتِ بسقائفِ المسجد إن كنتِ فيه ! فأمرتُ غلمانِي فسترونا بكساء نخر كان على ، فذلك حين أقول :

* كَلَانَا مِنْ أَثْوَابِ الْمَطَارِفِ لَا بَسْ *

فقال له : آبنُ أبي عتيق : يا عايمُ ! هذا البيت يحتاج الى حاضنة ! .

ومن جيد شعره قوله في زينب بنت موسى :

يَا مَنْ لَقِيتُ مُتَمِّمٍ كَلِيفَ * يَهْدِي بِجُودِ مَرِيضَةِ النَّظِيرِ^(١)
تَمْشِي الْهُوَيْنَا إِذَا مَشَتْ فُضْلًا * وَهِيَ كَبِيلُ الْعُسْلُوجِ فِي الشَّجَرِ^(٢)
مَا زَالَ طَرَفِي يَحَارُ إِذْ بَرَزْتُ * حَتَّى رَأَيْتُ النِّقْصَانَ فِي بَصَرِي
أَبْصَرْتُهَا لَيْلَةً وَنُسُوتَهَا * يَمْشِينَ بَيْنَ الْمَقَامِ وَالْمَجَرِ^(٣)
مَا إِنْ طَمِعْنَا بِهَا وَلَا طَمِعْتُ * حَتَّى آتَقَيْنَا لَيْلًا عَلَى قَدَرِ^(٤)
يَيْضًا حِسَانًا نَحْرًا إِذَا قُطِفَا * يَمْشِينَ هَوْنًا كِشِيَةَ الْبَقْرِ^(٥)
قَدْ أَفْزَنَ بِالْحَسَنِ وَالْجَمَالَ مَعًا * وَفُزْنَ رِسَالًا بِالْذَّلِّ وَالْخَفَرِ^(٦)

(١) انخود : الفتاة الحسنة الخلق الشابة ما لم تصر نصفاً ، والنصف : المرأة بين الحدة والمسنة .

(٢) الفضل بضمين : المختالة التي تفصل من ذيلها . ويرى : « قطفا » والمراد به تقارب الخطو .

(٣) العسلوج : الفصن اللين الأخضر . (٤) على قدر : على غير موعد . والوجه فيه أن التقاءهما كأنه مقدر في الأزل لا علم له به ولا سعى إليه كما قيل :

جاء الخلقة أو كانت له قدرا * كما أتى ربه موسى على قدر

(٥) جمع قطوف وهي البطيئة في السير . (٦) الرسل بالكسر : الرقق والثؤدة . والخفر : شدة الاستحياء .

يُنِصِتْنَ يَوْمًا لَهَا إِذَا نَطَقَتْ * كَيْمَا يُشْرِفُنَهَا عَلَى الْبَشَرِ
قَالَتْ لَتُرِبَ لَهَا تُحْدِثُهَا * لَتُنْفِسِدَنَّ الطَّوَافَ فِي عُمَرِ
قُومِي تَصَدِّئِي لَهُ لِيَعْرِفُنَا * ثُمَّ آغْمِزِيهِ يَا أُخْتُ فِي خَفِيرِ
قَالَتْ لَهَا قَدْ غَمَزْتُهُ فَأَبِي * ثُمَّ أَسْبَطْتُ^(١) تَسْعَى عَلَى أَثَرِي
مَنْ يُسْقَ بَعْدَ الْمَنَامِ رِيْقَتَهَا * يُسْقَ بِمِسْكٍ وَبَارِدِ خَصِيرِ^(٢)

وقوله فيها أيضا :

أَلَيْمٌ بَزِينَبَ إِنْ الْبَيْنَ قَدْ أَفْدَا * قَلَّ الثَّوَاءُ لَئِنْ كَانَ الرَّحِيلُ غَدَا
قَدْ حَلَفْتُ لَيْلَةَ الصُّورَيْنِ^(٤) جَاهِدَةً * وَمَا عَلَى الْمَرْءِ إِلَّا الْحِلْفُ بِجَهْدَا
لَاخْتِهَا وَلَا أُخْرَى مِنْ مَنَاصِفِهَا^(٥) * لَقَدْ وَجَدْتُ بِهِ فَوْقَ الَّذِي وَجَدَا
لَوْ جَمَعَ النَّاسُ ثُمَّ آخْتِيرَ صَفُوهُمْ * شَخْصًا مِنَ النَّاسِ لَمْ أُعْدِلْ بِهِ أَحَدَا

ومن شعر عمر في تشوقه الى مكة بعد أن خرج منها الى اليمن قوله :

هِيَا تَ مِنْ أَمَةِ الْوَهَّابِ مَنْزِلُنَا * إِذَا حَلَلْنَا بِسَيْفِ الْبَحْرِ مِنْ عَدَنِ^(٦)
وَأَحْتَلَّ أَهْلُكَ أَجْيَادًا^(٧) وَلَيْسَ لَنَا * إِلَّا التَّذَكُّرُ أَوْ حِطُّ مِنْ الْجَزَنِ
لَوْ أَنَّهُ أَبْصَرْتُ بِالْجَزَعِ عَبْرَتَهُ * مِنْ أَنْ يُغَرِّدَ قُمْرِيٌّ عَلَى فَنَنِ
إِذَا رَأَتْ غَيْرَ مَا ظَنَنْتُ بِصَاحِبِهَا * وَأَيَقِنْتُ أَنْ لِحْجًا لَيْسَ مِنْ وَطَنِي
مَا أَتَسَّ لَا أَتَسَّ يَوْمَ الْخَيْفِ مَوْقِفُهَا^(٨) * وَمَوْقِفِي وَكَلَانَا ثُمَّ ذُو شَجَنِ^(٩)
وَقَوْلُهَا لِلثُّرَيَّا وَهِيَ بِاِكْيَةِ * وَالْدَمْعُ مِنْهَا عَلَى الْخَلْدَيْنِ ذُوسُنَنِ

(١) اسبطرت : أسرعت . (٢) انخصر : البارد . (٣) أفد كفرح : عجل وأسرع .

(٤) الصوران : موضع بالمدينة بالبقيع ، وقد ذكره ياقوت وأستشهد بالبيت . (٥) المنصف كمنبر ومقعد : الخادوم ، والأثني بالهاء ، جمعه مناصف .

(٦) سيف البحر : ساحله . (٧) أجساد : موضع بمكة ، سمي بذلك لأن تبعاً لما قدم مكة ربط

خيله فيه فسمى بذلك ، وهما موضعان : أجساد الكبير وأجساد الصغير . (٨) الخيف : موضع بني وبه

سمى مسجد الخيف . (٩) ذوسنن : ذوطرائق .

بالله قولى له فى غير معتبة * ماذا أردت بطول المكث فى اليمن
إن كنت حاولت دنيا أو ظفرت بها * فما أخذت بترك الحج من ثمين
وقال أيضا :

خليلى ما بأل المطايا كأما * نراها على الأذبار بالفوم تنكص^(١)
وقد قطعت أعناقهن صبا به * فأفئسنا مما يلاقين شخص
وقد أتعب الحادى سراهن وأنتهى * بهن فما يألو عجول مقلص^(٢)
يزدن بنا قربا فيزداد شوقنا * إذا زاد طول العهد والبعد ينقص
ومن شعره قوله :

جرى ناصح بالود بينى وبينها * فقرئنى يوم الحصاب إلى قتلى^(٣)
فطارت بحد من فؤادى وقارنت * قرينتها حبل الصفاء إلى حبل
فلما توافقنا عرفت الذى بها * كمثل الذى بى حدوك النعل بالنعل
فقلن لها هذا عشاء وأهلنا * قريب الما تسامى مراكب البغل
فقالبت فما شئت قلن لها أنزلى * فلأرض خير من وقوف على رجلي
فجؤم درارى تكنفن صورة^(٤) * من البدر وامت غير هوج ولا غجل^(٥)
فسلمت وأستأنست خيفة أن يرى * عدو مقامى أو يرى كاشع فعلى
فقالبت وأرخت جانب السرانما * معى فتكلم غير ذى رغبة أهلى
فقلت لها ما بى لهم من ترقب * ولكن سرى ليس يمسله مثل
فلما اقتصرنا دونهن حديثنا * وهن طبيبات بحاجة ذى الشكى
عرفن الذى تهوى فقلن آئذنى لنا * نطف ساعة فى برى ليل وفى سهل

(١) تنكص : ترجع وتولى وتنجم . (٢) مقلص : مشرجاد فى السير . (٣) الحصاب
كالخصب : موضع رى الجمار . (٤) درارى بمنوعة من الصرف وتؤنت لضررة الشعر . (٥) هوج :
جمع هوجاء وهى المتعجلة فى السير كان بها هوجا وحقا .

فقلت فلا تلبثن قُلْنَ لِحَدِيثِي * أَتَيْنَاكِ، وَأَنْسَبَنَّ أَنْسِيَابَ مَهَا الرَّمْلِ
فَقَمْنَنَ وَقَدْ أَفْهَمْنَ ذَا اللَّبِّ أَمَّا * أَتَيْنَ الَّذِي يَأْتِيَنَّ مِنْ ذَاكَ مِنْ أَجْلِي
وقد كان عمر حين أَسَنَّ حَلَفَ أَلَّا يَقُولَ بَيْتَ شعراً إِلَّا أَعْتَقَ رَقَبَةً، فانصرف عمرُ
إلى منزله يحدث نَفسَهُ، فجعلت جارية له تكلمه فلا يرد عليها جواباً، فقالت له : إن لك
لأمرأاً، وأراك تريد أن تقول شعراً، فقال :

تَقُولُ وَلِيَدَتِي لَمَّا رَأَيْتُنِي * طَرِبْتُ وَكُنْتُ قَدْ أَقْصَرْتُ حِينَا
أَرَاكَ الْيَوْمَ قَدْ أَحْدَثْتَ شَوْقًا * وَهَاجَ لَكَ الْهَوَى دَاءً دَفِينَا
وَكُنْتُ زَعَمْتُ أَنَّكَ ذُو عَزَاء * إِذَا مَا شِئْتَ فَارَقْتَ الْقَرِينَا
بِرَبِّكَ هَلْ أَتَاكَ لَهَا رَسُولٌ * فَشَاكَ أُمَ لَقِيَتْ لَهَا خَدِينَا^(١)
فَقُلْتُ شَكَا إِلَى أَخٍ حُبٍ * كَبَعُضَ زَمَانِنَا إِذْ تَعَامِينَا
فَقَصَّ عَلَيَّ مَا يَلْقَى بَهْنَد * فَذَكَرَ بَعْضَ مَا كُنَّا نَسِينَا
وَذُو الشَّوْقِ الْقَدِيمِ وَإِنْ تَعَزَّى * مَشُوقٌ حِينَ يَلْقَى الْعَاشِقِينَا
وَكَمْ مِنْ خُلَّةٍ^(٢) أَعْرَضَتْ عَنْهَا * لِغَيْرِ قَلْبِي وَكُنْتُ بِهَا ضَمِينَا
أَرَدْتُ بِعَادَهَا فَصَدَدْتُ عَنْهَا * وَلَوْ جُنَّ الْفَوَادُ بِهَا جُنُونَا
ثم دعا تسعة من رقيقه فأعتقهم بكل بيت واحدًا .

وله :

يَقُولُونَ : إِنِّي لَسْتُ أَصْدُوكَ الْهَوَى * وَإِنِّي لَا أَرَاكَ حِينَ أُغِيبُ
فَمَا بَالُ طَرَفِي عَفَّ عَمَّا تَسَاقَطْتُ * لَهُ أَعْيُنٌ مِنْ مَعْشَرٍ وَقُلُوبُ
عَشِيَّةٍ لَا يَتِمُّنَّ كَيْفَ الْقَوْمُ أَنْ يَرَوْا * سَفَاهَ أَمْرِي مِمَّنْ يُقَالُ لِبَيْبُ

(١) الخدين : الصديق الذي يتخاطبك فيكون معك في كل أمر ظاهر وباطن ، ومنه خدن الجارية : محبتها ،
وكان العرب في الجاهلية لا يمتنعون من خدن يحدث الجارية بغاء الاسلام بهدمه . وفي النزول العزيز : (اليوم أحل
لكم العليات) الى قوله : (والحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آوتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين
ولا متخذين أخدان) الآية . (٢) الخلة : الخلية .

ولا فتنة من ناسك أو مضت له ^(١) * بعين الصبا كسلى القيام لعوب
تروح يرجو أن تحط ذنوبه * فآب وقد زيدت عليه ذنوب
وما النك أسلاني ولكن للهوى * على العين منى والفؤاد رقيب
وله :

ألم تسأل المنزل المقفرا * بياناً فيكم أو يحبراً
ذكرت به بعض ما قد شجأك * وحق لذي الشجر أن يذكراً
مبيت الحبيبين قد ظاهراً ^(٢) * كساء وبردين أن يظفراً
ومشى الثلاث به موهناً * خرجن إلى زائر زوراً
إلى مجلس من وراء القبا * ب سهيل الربى طيب أعفراً ^(٣)
غفلن عن الليل حتى بدت * تباشير من واضح أسفراً
فقمن يعقبن آثارنا * بأكسية الخزان تقفراً ^(٤)
مهاتنا شيعتنا جؤذراً ^(٥) * أسيلاً مقلده أخوراً
وقن وقن لو أن النها * رمد له الليل فاستأخراً
قضينا به بعض أشجاننا * وكان الحديث به أجدرأ

وله :

أفى رسم دار دمعك المترق ^(٦) * سفاهاً ! وما استنطاق ما ليس ينطق !
بجيت التقي وجمع ^(٨) وأقصى ^(٩) ومحسّر
ذكرت به ما قد مضى من زماننا * وذكرك رسم الدار مما يشوق

(١) أو مضت له : سارقه النظر .

(٢) يقال : ظاهر بين الثوبين إذا لبس أحدهما على الآخر . (٣) أعفر : ذى رمل أحمر .

(٤) يقال : ففر الاثرقفرا : اقتفاه وتبعه . (٥) الجؤذر (نظم أوله وضم الذاو وفتحها) : ولد البقرة .

والررب : القطيع من بقرا الوحش وقيل من الطباء ، ولا واحد له من لفظه . (٦) المقلد : موضع القلادة

ويراد به الجيد . (٧) ترقق الدمع : سال . (٨) جمع ، هى المزدلفة . (٩) محسر : موضع

بين منى والمزدلفة .

ليالى من دهرٍ إذ الحى جيرة * وإذ هو مأهولُ الخيلة مؤنق
مقاماً لنا عند العشاء ومجلساً * به لم يكدره علينا معوق^(١)
ومشى فتاة بالكساء تكئنا * به تحت عَيْنِ برقها يتألق^(٢)
يبلُ أعالى الشوبِ قَطْرٌ وتحتَه * شعاعٌ بدا يعشى العيونَ ويشرقُ
فأحسنُ شئاً بدءُ أولِ ليلنا * وآخره خُزْنٌ إذا نتفَرَّقُ

وروى أن ليلي كانت جالسةً في المسجد الحرام، فرأت عمر بن أبي ربيعة فوجهت
إليه مولى لها بغاءها به، فقالت له : يابن أبي ربيعة، حتى متى لا تزال سادراً في حرم الله^(٣)
تُسبَّبُ بالنساء وتُشيد بذكرهن ! أما تخاف الله ! قال : دعيني من ذلك وأسمعي ما قلتُ ،
قالت : وما قلتُ ؟ فأنشدها الأبيات المذكورة، فقالت له القول الذي تقدّم أنها أجابته به .
قال : وقال لها : اسمعي أيضاً ما قلتُ فيك، ثم أنشدها قوله :

أمنَ الرسمِ وأطلالِ الدَّمَنِ * عادلى وجدي وعاديتُ الحَزَنِ
إن حبي آل ليلى قاتلى * ظهر الحبُّ بجسمى وبطنِ
يا أبا الحارث قلبى طائرٌ * فأتمِرْ أمرَ رشيدٍ مؤتمِنِ^(٤)
التيس للقلب وصلّا عندها * إن خير الوصل ما ليس يمينِ^(٥)
علّق القلبُ، وقد كان صحّا، * من بنى بكى غزالاً قد شدن^(٥)
أحور المقلّة كالبدر، إذا * قلّد الدرّ قلبي مُمتحنِ^(٦)
ليس حبٌ فوق ما أحببتكم * غير أن أقتل نفسى أو أجنّ
خلقت للقلب مئى فننة * هكذا يخلق معروض الفتن

(١) معوق : عائق ومانع . (٢) العين : السحاب .

(٣) السادر : الذى لا يهتم ولا يبالى ما صنع .

(٤) كذا فى الديوان ، ومعناه ما ليس يقطع ، ومنه قوله تعالى : (وإن لك لأجراً غير ممنون) .

(٥) شدن : شب وترعرع . (٦) متحن : واقع فى محنة .

وفيها يقول :

إِنَّ لَيْلَى وَقَدْ بَلَغَتْ الْمَشْيَا * لَمْ تَدْعُ لِلنِّسَاءِ عِنْدِي نَصِيْبًا
هَاجِرٌ بَيْتَهَا لِأَنْفِي عَنْهَا * قَوْلَ ذِي الْعَيْبِ إِنْ أَرَادَ عِيوبًا

وله في النّوَار وقد شغلت قلبه :

عَلِقَ النَّوَارَ فَوَادُهُ جَهْلًا * وَصَبَا فَلَمْ تَتْرِكْ لَهُ عَقْلًا
وَتَعَرَّضْتُ لِي فِي الْمَسِيرِ فَمَا * أَمْسَى الْفَوَادُ يَرَى لَهَا مِثْلًا
مَا نَعَجَةٌ مِنْ وَحْشِ ذِي بَقَرٍ ^(١) * تَغْدُو بِسَقَطِ صَرِيمَةٍ طِفْلًا ^(٢)
بِأَلَدٍّ مِنْهَا إِذْ تَقُولُ لَنَا * وَأَرَدْتُ كَشْفَ قِنَاعِهَا مَهْلًا
دَعْنَا فَإِنَّكَ لَا مُكَارِمَةَ * تَجْزِي وَلَسْتَ بِوَاصِلِ حَبْلًا
وَعَلَيْكَ مَنْ تَبَلَّ الْفَوَادَ وَإِنْ * أَمْسَى لِقَلْبِكَ ذِكْرُهُ شُغْلًا
فَأَجِبْتُهَا إِنْ الْحَبَّ مَكْلَفٌ ^(٣) * فَدَعِيَ الْعَتَابَ وَأَحْدَثِي بَدْلًا

اجتمع نسوة من أهل المدينة من أهل الشرف فتذاكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره
وظرفه وحسن حديثه فتشوقن إليه وتمنينه ، فقالت سَكِينَةُ بنت الحُسَيْن عليهما السلام :
أنا لكنن به ، فأرسلت إليه رسولا وواعدته الصَّوْرَيْنِ ، وسمت له الليلة والوقت وواعدت
صواحباتها ، فوافاهن عمر على راحلته ، فحدثهن حتى أضاء الفجر وحان أنصرفهن ، فقال لهن :
والله إني لمحتاج الى زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصلاة في مسجده ولكن
لا أخاطب بزيارتكن شيئا ، ثم أنصرف الى مكة وقال :

(١) ذو بقر : موضع . (٢) سقط الصريمة : منتهىها . والصريمة : الزملة المنصرمة من الرمال ذات
الشجر . (٣) مكاف : لهج بالحب ، يقال : كاف بالشئ كافا ، أى لهج به فهو كاف ومكاف ، والأبيات
من الكامل الأحذ ، وهو ما حذف من عروضه وضربه الوند المجموع «علن» من «متغاهلن» . وقد جاء عروض
هذا البيت تاما على خلاف بقية الأبيات ، وظاهر أن حذف الوند في اصطلاح علماء العروض علة ، والعللة إذا لحقت
بعروض أو ضرب لزم استعمالها في سائر الأبيات ولو قال : * فأجبتها إني بكم كاف * نخلت القصيدة
من هذا العيب .

قالت سَكِينَةُ والدموعُ ذَوَارِفٌ * منها على الخدين والحلباب^(١)
 ليت المُغِيرَى الذى لم أجْزِه * فيما أطال تصيُّدى وطَلَابِى
 كانت تُرَدُّ لنا المُنَى أيا مَنّا * إذ لا نُلاَمُ على هوى وتَصَابِى
 حُبَّتْ ما قالت فَبِتْ كأنما * رُئِيَ الحَشَا بنوافذ النُّشَابِ^(٢)
 أُسْكِنَ ما ماء الفَرايِ وطيبُه * مَنى على ظمئٍ وفقد شَرَابِ
 بالذِّ منك وإن نأيتَ وقَلما * ترى النساءُ أمانةَ الغِيَابِ

وقال فيها :

أُحِبُّ لِحَبِّكَ من لم يكن * صَفِيًّا لنفسى ولا صاحِبًا
 وأبْذُلُ نفسى لمرْضاتِكُم * وأُعْتَبُ^(٣) من جاءكم عَاتِبًا
 وأرْغَبُ فى وُدٍّ من لم أكن * الى وُدِّه قبائِكم راغِبًا
 ولو سَلَكَ النَّاسُ فى جانبِ * من الأرضِ وأَعْتَلَّتْ جانِبًا
 لَيَمَّمتُ طِيطَها ، لِنَسِى * أرى قَرَبَها العَجَبُ العاجِبًا
 فما ظُليمةٌ من ظُباءِ الأَرَا * لك تَقْرُو دَمِيتِ الرُّبَى عاشِبًا^(٤)
 بأَحْسَنَ منها غَدَاةَ الغَمِيمِ * وقد أبدتِ الخَدَّ والحاجِبًا^(٥)
 غَدَاةٌ تقولُ على رِقَبَةٍ * لخادِمَها : يا أَحْبَسِى الرَّاكِبًا^(٦)
 فقالت لها : فيمَ هذا السِّكْلَامُ * وأبدتُ لها عابِسًا قاطِبًا^(٧)
 فقالت كَرِيمٌ أتى زائِرًا * يُمرُّ بكم هكْذا جانبًا
 شَرِيفٌ أتى رُبْعًا زائِرًا * فأَكرَهُ رَجْعَتَه خائِبًا^(٨)

- (١) الحلباب : القميص أو هو الخمار ، وهو ما تغطى به المرأة رأسها . (٢) النشاب : النبل .
 (٣) أعتب : أزال سبب العتب ، فاهتمزة للسلب . والمعنى أعذر . (٤) قراءه يقرؤه : تتبعه .
 (٥) دميث الربى : سهلها ولينها . (٦) الغميم كأمير : موضع بين مكة والمدينة . (٧) الخادم :
 واحد الخدم غلاما كان أو جارية . (٨) قاطبا من القطوب : وهو تزرى ما بين العينين من العيوس .

وقال في جاريته بَعُوم :

صَرَمْتُ حَبْلَكَ الْبَعُومُ وَصَدَّتْ * عَنْكَ فِي غَيْرِ رِيَّةِ أَسْمَاءُ
وَالْعَوَانِي إِذَا رَأَيْتُكَ كَهَلًا * كَانَ فِيهِنَّ عَنْ هَوَاكَ الْتَوَاءُ
حَبْدًا أَنْتِ يَا بَعُومُ وَأَسْمَا * ؤُ وَعِيصُ يَكُنُّنَا وَخَالَءُ
وَلَقَدْ قُلْتُ لَيْلَةَ الْجَزْلِ لِمَا * أَخْضَلْتُ رَيْطَقِي عَلَى السَّمَاءِ^(١)
لَيْتَ شَعْرِي - وَهَلْ يَرُدُّنَّ لَيْتَ - * هَلْ لِهَذَا عِنْدَ الرَّبَّابِ جَزَاءُ
كُلِّ وَضَلٍ أَمْسَى لَدَى لَأْنِي * غَيْرِهَا وَضَلُهَا إِلَيْهَا أَدَاءُ
كُلِّ خَلْقٍ وَإِنْ دَنَا لَوْضَال * أَوْ نَأَى فَهُوَ لِلرَّبَّابِ الْفِدَاءُ
فَعِيْدِي نَائِلًا وَإِنْ لَمْ تُنِيل * إِنَّمَا يَنْفَعُ الْمَحَبَّ الرَّجَاءُ

وكان يهوى حميدة جارية ابن تَفَاحَةَ، وفيها يقول :

حَمَلْتُ الْقَلْبُ مِنْ حَمِيدَةٍ نَقَلًا * إِنْ فِي ذَاكَ لِلْفُؤَادِ لَشُغْلًا
إِنْ فَعَلْتُ الَّذِي سَأَلْتَ فَقُولِي * حَمْدُ خَيْرًا وَأَتَّبِعِي الْقَوْلَ فَعْمَلًا
وَصَلِّبِي وَأَشْهَدُ اللَّهَ أَنِّي * لَسْتُ أَصْفِي سِوَاكَ مَا عَشْتُ وَضَلًا

وفيها يقول :

يَا قَلْبُ هَلْ لَكَ عَنْ حَمِيدَةٍ زَاجِرُ * أَمْ أَنْتِ مُدَّكِرُ الْحَيَاءِ فَصَابِرُ
فَالْقَلْبُ مِنْ ذِكْرِي حَمِيدَةٌ مُوجِعُ * وَالْدمْعُ مِنْ حَمْدِي فَاتِرُ
قَدْ كُنْتُ أَحْسِبُ أَنْنِي قَبْلَ الَّذِي * فَعَلْتُ عَلَى مَا عِنْدَ حَمْدَةٍ قَادِرُ
حَتَّى بَدَأَ لِي مِنْ حَمِيدَةٍ خُلَّتْ * بَيْنَ وَكُنْتُ مِنَ الْفِرَاقِ أَحَاذِرُ

(١) الجزل : موضع قرب مكة . وأخضلت : بل . والريطة : ملاء كلها نسج واحد وقطعة واحدة .

وله في هند :

أَرَبْتُ إِلَى هِنْدٍ وَتَرَيْنِ مَرَّةً * لَهَا إِذْ تَوَاقَفْنَا بَفَرْعِ الْمُقَطَّعِ
لِتَعْرِيجِ يَوْمٍ أَوْ لَتَعْرِيسٍ لِسِلَهِ * عَلَيْنَا يَجْمَعُ الشَّمْلُ قَبْلَ التَّصَدُّعِ
فَقُلْنَا لَهَا لَوْلَا أَرْتَابُ صَحَابَةِ * لَنَا خَلَقْنَا عُجْنًا وَلَمْ نَتَوَرَّعِ
فَقَالَتْ فَتَاةٌ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّهَا * مُغْفَلَةٌ فِي مَثَرٍ لَمْ تُدْرِعِ^(٣)
لَهْنٍ - وَمَا شَاوَرْتَهَا - لَيْسَ مَا أَرَى * بِحُسْنِ جَزَاءٍ لِلْغَيْبِ الْمَوَدِّعِ
فَقُلْنَا لَهَا لَا شَبَّ قَرْنُكَ فَافْتَحِي * لَنَا بَابَ مَا يَخْفَى مِنَ الْأَمْرِ تَسْمَعِ^(٥)

- (١) يقال : أرب بكذا : كلف به ، وأرب الى كذا : احتاج اليه . ولعل المراد : دعاني الشوق اليهن .
(٢) التعريس : قيل هو نزول القوم في السفر آخر الليل يستريحون قليلا ثم يرحلون مع الصبح . وقيل : هو النزول أول الليل . وقيل : النزول في أى وقت كان من ليل أو نهار . والمراد هنا : لإقامة يوم أو لإقامة ليلة .
(٣) لم تدرع : لم تلبس الدرع ، يقال : درعت الصبية اذا ألبست الدرع ، والدرع : جبة مشقوقة المقدم .
(٤) قال الأصمعي : يقال أشبه الله وأشبه الله قرنه بمعنى واحد (وهو الدعاء له بأن يشب ويكبر) ، والقرن زيادة في الكلام اهـ . والقرن : الضفيرة . والمراد التعجب من حديثها كما يقال في هذا المقام : فأتاك الله .
(٥) البابة : الوجه والطريق ، قال تميم بن مقبل :

بني عامر ما تأمرون بشاعر * تخير بابات الكتاب هجائيا

أى تخير هجائى من وجوه الكتاب ، كما فسره صاحب اللسان . والباباة معان أخرى لا بأس من إيرادها وهى : القيل والنوع - كما قال الجاحظ في «كتاب الحيوان» ج ٢ ص ٥٤ : «فليس الديك من بابة الكتاب لأنه إن ساروه قتله قتلا ذريعا» وقال أيضا في ج ٧ ص ٣٤ : «وقد أبقنا أنهما ليسا من بابته» . وقال في كتاب البهلاء ص ٥٤ ، ٥٣ : «أنت من ذى البابة ... وأما سائر حديث هذا الرجل فهو من هذه البابة» . ومثل ذلك في نفع الطيب ج ١ ص ٥٩ طبع ليدن ، ج ١ ص ٣٩٨ طبع بولاق سنة ١٢٧٩ هـ قول القاضي محمد بن بشير الأندلسي :

لأنما أرى بقدرى أننى * لست من بابة أهل البلد

واذا قال الناس : «من باقى» فعناه من الوجه الذى أريده ويصلح لى .

والشرط - ومثله ما فى «تاج العروس» : هذا بابته أى شرطه .

والغاية - ويستعمل ذلك فى الحساب والحدود . وفى «شفاء الغليل» أنهم يقولون للعب خيال الظل بابة فيقولون : بابات خيال الظل ، وعلى ذلك قول ابن أبياس المؤرخ المصرى : فكانوا مثل بابات خيال الظل فشىء يحيى . وشىء يروح (بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ١ ص ٣٤٧) .

ويجوز أن يسمى به كل فصل من فصول التمثيل المسماة الآن فصول الرواية . (انظر كتاب التاج للجاحظ ص ٣٨

و ٣٩) .

وله :

لَيْتَ هَذَا أَتَجَزَّئُ مَا تَعَسَدَ * وَشَفَّتْ أَنْفَسَنَا مِمَّا تَجَسَّدَ^(١)
وَأَسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً * لِمَا الْعَاجِزُ مِنْ لَا يَسْتَبَدُّ^(٢)
وَلَقَدْ قَالَتْ بِحَارَاتِهَا * ذَاتَ يَوْمٍ وَتَعَرَّتْ تَبَسَّرِدُ^(٣)
أَكَّا يَنْتَعِنِي تَبَصَّرَنِي * عَمَرَكُنَّ اللَّهُ أَمْ لَا يَقْتَصِرُ^(٤)
فَتَهَانَنُ وَقَدْ قُلْنَ لَهَا * حَسَنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مِنْ تَوَدُّ^(٥)
حَسَدًا حَمَلَنَهُ مِنْ أَجْلِهَا * وَقَدِيمًا كَانَ فِي النَّاسِ الْحَسَدُ

وله :

يَا مَنْ لِقَابٍ دَنِيْفٍ مُغَرِّمٍ * هَامٌ إِلَى هِنْدٍ وَلَمْ يَظْلِمِ^(٦)
هَامٌ إِلَى رِيمٍ هَضِيمٍ الْحَشِيِّ * عَذِبِ الثَّنَائِيَا طَيِّبِ الْمُبْسَمِ^(٧)
لَمْ أَحْسِبِ الشَّمْسَ بَلِيلَ بَدَتْ * قَبْلِي لِذِي لَحْمٍ وَلَا ذِي دَمٍ^(٨)

(١) وحده به يحسد وحده : أحبه حبا شديدا ، ووحيد عليه يوجد وحده : حزن . (٢) تبترد : تفنسل بالماء البارد . (٣) كذا في الكامل للبرد طبع ليبرج ص ٥٩٤ وهي رواية جيدة . والتهايف كالاهايف والمهايفة : ضحك فيه فتور كضحك المستهزئ . وفي الأغاني والديوان : « فتضاكن » . وقد رجحنا الرواية الأولى لأنها تؤدي تمام المعنى المراد . (٤) هام تتهدى بالباء وقد ضمنت هنا معنى صبا ولهذا تعدت بالي . (٥) كذا في الأغاني ، وفي ديوانه : « رثم » بالهمز . والرثم : الظبي الأبيض الخالص البياض ، وقيل ولد الظبي ، يهز ولا يهز . (٦) كذا في الأغاني ، وبين هذا البيت والذي قبله في ديوانه :

كالشمس بالأسعد إذ أشرقت * في يوم دجج بارد مقسم

يريد بالأسعد هنا سعد النجوم ، وهي عشرة : أربعة منها في برج الجدى والدلو ينزلها القمر وهي سعد الداجج وسعد بلع وسعد الأخبية وسعد السعود وهو كوكب منفرد نير . وأما الستة التي ليست من المنازل فسعد ناشرة وسعد الملك وسعد النهام وسعد الهام وسعد البارح وسعد مطر . وكل سعد من هذه الستة كوكبان بين كل كوكبين في رأى العين قدر ذراع وهي متناسقة . وأما سعد الأخبية فتلاثة أنجم كأنها أثنى ورابع تحت واحد منهم . أنظار المرتضى والمقاصد النحوية في شرح شواهد الألفية للإمام العيني المطبوع بهاءش الخزائن ح ١ ص ٨٠ في الكلام على البيت :

إذا دبران منسك يوما لقيته * أؤقل أن ألقاك غدوا بأسعد

وقال في اللسان في مادة «سعد» بعد أن ذكر هذه السعود : فأحسن ما تكون الشمس والقمر والنجوم في أيامها لأنك لا ترى فيها غبرة ، وقد ذكرها النابغة الذبياني فقال :

قامت تراءى بين سحبي كلة * كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

وقال : وقد ضبط خطأ في اللسان بفتح العين . وقال :

بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها * لم تؤذ أهلا ولم تفحش على جار

قالت آلا إنك ذو مَسَلَّةٍ * يَصْرِفُكَ الأدنى عن الأَقْدَمِ
قلتُ لها بل أنتِ معْتَلَّةٌ * في الوَصْلِ ياهندُ لكي تَهْزِي

بينما عمر بن أبي ربيعة يطوف بالبيت إذ رأى عائشة بنت طلحة بن عبيد الله ،
وكانت من أجمل أهل دهرها ، وهي تريد الركن تستلمه ، فُبِيتَ لما رآها ورأته ، وعلمتُ
أنها قد وقعت في نفسه ، فبعثت إليه بجمارية لها وقالت : قولي له : أتني الله ولا تقل هجراً ،
فإن هذا مقام لا بد فيه مما رأيت ، فقال للجمارية : أقرئها السلام وقولي لها : ابن عمك
لا يقول إلا خيراً ، وقال فيها :

لعائشة ابنة التيمي عندي * يحيى في القلب ، لا يُرعى حماتها
يذكركي ابنة التيمي ظبي * يرود بروضة سهل ربها
فقلتُ له وكاد يُراع قلبي * فلم أرقط كالיום أستبأها
سوى حميش بساقك مستبين ^(١) * وأن شواك لم يُشبه شواها
وأنت عاظم عارٍ وليست * بجمارية ولا عظمي يداها
وأنت غير أفرع ^(٢) وهي تُدلي * على المتنين ^(٣) أنعم قد كساها
ولو قعدت ولم تكلف بود * سوى ما قد كلفت به كفاها
أظّل إذا أكلها كائي * أكلم حية غلبت رقاها
تبيت إلى بعد النوم تسري * وقد أمسيت لا أخشى سراها

وله :

إني وأول ما كلفتُ بحبها * عجب وهل في الحب من متعجب
نعت النساء فقلتُ لست بمُبْصِرٍ * شهباً لها أبداً ولا بمُقَرَّبٍ

(١) الجمش : دقة الساقين . (٢) الشوى : الأطراف . (٣) الأفرع : طويل شعر الرأس .

(٤) الأنعم : الأسود ، يريد به الشعر .

فَكَثُنَ حِينًا ثُمَّ قُلْنَ تَوَجَّهَتْ * لِلْحَجِّ ، مَوْعِدُهَا لِقَاءُ الْأَخْشَبِ^(١)
أَقْبَلْتُ أَنْظُرَ مَا زَعَمَنَ وَقُلْنَ لِي * وَالْقَلْبُ بَيْنَ مُصَدِّقٍ وَمُكَذِّبٍ
فَلَقِيْتُهَا تَمْشِي بِهَا بَغْلَانُهَا * تَرِي الْجِمَارَ عَشِيَّةً فِي مَوْكِ
غَرَاءٍ يُعْشَى النَّاطِرِينَ بِيَاضُهَا * حَوْرَاءَ فِي غُلُوَاءٍ عَيْشٍ مُعْجِبٍ^(٢)
إِنَّ الَّتِي مِنْ أَرْضِهَا وَسَمَائِهَا * جَلِبَتْ لِحَيْنِكَ لَيْتَهَا لَمْ تُجَلِبْ

وكان عمر بن أبي ربيعة يهوى كاتمة بنت سعد المخزومية، فأرسل إليها رسولا فضربتها وحلفتها وأحلفتها ألا تعاود، ثم أعادها ثانية ففعلت بها مثل ذلك، فتعاهما رسوله، فابتاع أمة سوداء لطيفة رقيقة وأتى بها منزله فأحسن إليها وكساها وآنسها. وعرفها خبره وقال لها: إن أوصلت لي رقيقة إلى كاتمة فقرأتها فأنت حرة ولك معيشتك ما بقيت، فقالت: اكتب لي مكتبة^(٣) وأكتب حاجتك في آخرها، ففعل ذلك، فأخذتها ومضت بها إلى باب كاتمة فاستأذنت فخرجت إليها أمة لها فسألتها عن أمرها، فقالت: مكتبة لبعض أهل مولاتك جئت أستعينها في مكاتبي، وحادثتها وناشدتها حتى ملأت قلبها، فدخلت إلى كاتمة وقالت: إن بالباب مكتبة لم آر قط أجمل منها ولا أكل ولا آذب، فقالت: إنئذني لها، فدخلت، فقالت: من كاتبك؟ قالت: عمر بن أبي ربيعة الفاسق! فافرني مكاتبي، فهدت يدها لتأخذها فقالت لها: لي عليك عهد الله أن تقرئها، فإن كان منك شيء مما أحبه وإلا لم يلحقني منك مكروه، فعاهدتها وفطنت وأعطتها الكتاب، فإذا أوله:

من عاشق صب يسر أهوى * قد شقه الوجد إلى كلثم
رأتك عيني فدعاني أهوى * إليك للحين ولم أعلم

(١) الأخشب: مفرد الأخشين وهما جبلان بمكة أحدهما أبو قيس والآخر قعيقان، ويقال: هما أبو قيس والجبل الأحمر المشرف هنالك، وقد انفرد هذه التثنية فيقال لكل واحد منهما: الأخشب، قال ساعدة بن جؤية.
ومقامهن إذا حبسن بمازم * ضيق ألف وصدهن الأخشب
(٢) في غلواء عيش: في أنصره وأرضه. (٣) المكتبة: أن يكتب الرجل عبده على مال يؤديه إليه منجاً (مقسطاً) فإذا أذاه صار حراً، وسميت كذلك لأنه يكتب على نفسه لمولاه ثمته، ومولاه يكتب له عليه عتقه.

قَتَلْتُنَا ، يَا حَبِّذَا أَنْتُمْ * فِي غَيْرِ مَا جُرِّمَ وَلَا مَأْتُمْ
وَاللَّهُ قَدْ أَنْزَلَ فِي وَحْيِهِ * مُبَيِّنًا فِي آيِهِ الْمُحْكَمِ
مَنْ يَقْتُلِ النَّفْسَ كَذَا ظَالِمًا * وَلَمْ يَقْدُهَا نَفْسَهُ يَظْلِمِ
وَأَنْتِ تَأْرِي فَنَلَا فِي دَمِي * ثُمَّ أَجْعَلِيهِ نِعْمَةً تُنْعِمِي
وَحَكْمِي عَدْلًا يَكُنْ بَيْنَنَا * أَوْ أَنْتِ فِيمَا بَيْنَنَا فَأَحْكُمِي
وَجَالِسِيْنِي مَجْلِسًا وَاحِدًا * مِنْ غَيْرِ مَا عَارٍ وَلَا مُحَرَّمِ
وَحَبْرِي مَا الَّذِي عِنْدَكُمْ * بِاللَّهِ فِي قَتْلِ أَمْرِي مُسْلَمِ

فلما قرأت الشعر قالت لها : إنه خداعٌ مَلَقٌ وليس لما شكاه أصلٌ ؛ قالت : يا مولاتي ،
فما عليك من امتحانه ؟ قالت : قد أذنتُ له وما زال حتى ظفرَ بِبُغْيَتِهِ ! فقولِي له : إذا كان
المساء فليجلس في موضع كذا وكذا حتى يأتيه رسولي ؛ فأنصرفَت الجارية فأخبرته فتأهب لها ،
فلما جاءه رسولها مضى معه حتى دخل إليها وقد تهيأت أجمل هيئة ، وزينت نفسها ومجلسها
وجلسَت له من وراء ستر ، فسلم وجلس ، فتركته حتى سكن ثم قالت له : أخبرني عنك
يا فاسق ! ألسنت القائل :

هَلَّا أَرْعَوَيْتِ قَتْرَحِي صَبًا * صَدْيَانِ لَمْ تَدْعِي لَهُ قَلْبًا
جَسَمَ الزَّيَارَةِ فِي مَوَدَّتِكُمْ * وَأَرَادَ إِلَّا تُرْهِقِي ذَنْبًا
وَرَجًا مُصَالِحَةً فَكَانَ لَكُمْ * سَلَامًا وَكُنْتَ تَرَيْنَهُ حَرَبًا
يَا أَيُّهَا الْمُصْطَفَى مَوَدَّتَهُ * مَنْ لَا يَرَاكَ مُسَامِيًا خُطْبًا^(١)
لَا تَجْعَلْنَ أَحَدًا عَلَيْكَ إِذَا * أَحْبَبْتَهُ وَهَوَيْتَهُ رَبًّا
وَصِلِ الْحَبِيبَ إِذَا شَغِفَتْ بِهِ * وَأَطْوِ الزَّيَارَةَ دُونَهُ غَيْبًا
فَلَذَّكَ أَحْسَنُ مِنْ مُوَاطَّئَةٍ * لَيْسَتْ تَزِيدُكَ عِنْدَهُ قُرْبًا
لَا بَلْ يَمْلِكُ عِنْدَ دَعْوَتِهِ * فَيَقُولُ هَاهُ وَطَالَمَا لَبِيَّ^(٢)

(١) الخطب : الخطاب . (٢) وهاه : كلمة وعيد ، وحرك لضرورة الشعر وقد روى البيت في ديوانه :

لا بل يملك ثم تدعو باسمه * فيقول هاه وطالما لي

ورأى عمرُ لُبَّابَةَ بنتَ عبدِ الله بنِ العباسِ امرأةَ الوليدِ بنِ عُتبَةَ بنِ أبي سفيانَ تطوفُ بالبيتِ فرأى احسنَ خلقِ الله ، فكاد عقلُه يذهبُ ، فسألَ عنها فأخبرَ بنسبِها ، فنسبَ بها وقالَ فيها :

ودَّعَ لُبَّابَةَ قَبْلَ أَنْ تَتَرَحَّلَا * وَاسْأَلْ فَإِنَّ قُلَّالَهُ أَنْ تَسْأَلَا
الْبَثَّ بِعَمْرٍكَ سَاعَةً وَتَأْتِيَا * فَعَلَلْ مَا بَخَلْتُ بِهِ أَنْ يُبَدَّلَا
قَالَ أَتَيْتُمَا مَا شِئْتُمْ غَيْرَ مُخَالِفٍ * فِيمَا هَوَيْتُمَا فَإِنَّا لَنْ نَعْجَلَا
لَسْنَا نُبَالِي حِينَ تَقْضِي حَاجَةً * مَا بَاتَ أَوْ ظَلَّ الْمِطْيُ مُعَقَّلَا
حَتَّى إِذَا مَا اللَّيْلُ جَنَّ ظَلَامُهُ * وَرَقَبْتُ غَفْلَةً كَأَشْيَحَ أَنْ يُحْجَلَا
خَرَجْتُ تَأْطُرُ فِي الثِّيَابِ كَأَنَّمَا * أَيْمٌ يَسِيْبُ عَلَى كَثِيْبٍ أَهْيَلَا
رَحَبْتُ حِينَ رَأَيْتُهَا فَتَبَسَّسْتُ * لَتَحِجِّي لَمَّا رَأَيْتُنِي مُقْبِلَا
وَجَلَّ الْقِنَاعُ بِحَابَةٍ مَشْهُورَةٍ * غَرَّاءُ تُعْشِي الطَّرْفَ أَنْ يَتَأَمَّلَا
فَلَبِثْتُ أَرْقِيهَا بِمَا لَوْ عَاقِلٌ * يُرْقِي بِهِ مَا أَسْطَاعَ إِلَّا يَنْزَلَا
وَحَجَّتْ رَمْلَةً بَنَتْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَلْفٍ الْحَزَاعِيَّةُ فَقَالَ فِيهَا :

أَصْبَحَ الْقَلْبُ فِي الْجِبَالِ رَهِينًا * مُقْصِدًا يَوْمَ فَارَقَ الظَّاعِنِينَ
عَجِلْتُ حُمَّةُ الْفِرَاقِ عَلَيْنَا * بِرَحِيلٍ وَلَمْ نَخَفْ أَنْ تَبْهِنَا
لَمْ يَرْعُنِي إِلَّا الْفِتْنَةُ وَالْإِلَا * دَمْعُهَا فِي الرِّدَاءِ سَحَابُ سَنِينَا
وَلَقَدْ قُلْتُ يَوْمَ مَكَّةَ سِرًّا * قَبْلَ وَشِكٍ مِنْ بَيْنِكُمْ نَوَلِينَا
أَنْتِ أَهْوَى الْعِبَادِ قُرْبًا وَدَلًّا * لَوْ تُنِيلِينَ عَاشِقًا مُحْزُونَا
قَادَهُ الطَّرْفُ يَوْمَ مَرٍّ إِلَى الْحَيَةِ * مِنْ جِهَارًا وَلَمْ يَخْفَ أَنْ يَحِينَا

(١) القلال كغراب وسحاب : القليل . (٢) ائتمر ما شئت : افعل ما شئت فإننا لا نعصى لك أمرا .

(٣) تأطر : محذوفة إحدى تاءيه ، أى تثنى . (٤) الأيم : الحية . (٥) يقال : عقل الوعل

يعقل عقولا : امتنع في الجبل ، وبه سمى الوعل عاقلا على حد التسمية بالصفة ، ومنه المثل : « إنما هو كجارح

الأروى قليلا ما يرى » . والأروى : جمع أروية وهى تيوس الجبل البرية .

فاذا نعيجه تراعى نعاجا * ومها بهج المناظر عينا
قلت من أتم فصدت وقالت * أميد سؤالك العالمينا
قلت بالله ذى الحلالة لما * أن تبليت الفؤاد أن تصدقينا
أى من تجمع المواسم قولى * وأينى لنا ولا تكثمينا
نحن من ساكنى العراق وكما * قبله قاطنين مكة حينا
قد صدقناك إذ سالت فمن أند * ست عسى أن يجر شأن شؤنا
ونرى أننا عرفناك بالنعمة * ست بظن وما قتلنا يقيننا
بمسوادر الثنيتين ونعت * قد نراه لناظير مستبيننا
وقال فى الثريا وقد صرمته .

من رسولى إلى الثريا فأتى * ضقت ذرعا بهجرها والكتاب
سلبتى مجاجة المسك على * فسألوها ماذا أحل أغنصابى
وهى مكنونة تحير منها * فى أديم الخدين ماء الشباب
أبرزوها مثل المهابة تهادى * بين خميس كواعب أثراب
ثم قالوا نحبها قلت بهرا * عدد القطر والخصى والتراب
أزهقت أم نوفل إذ دعيتها * مهجتي ، ما لى لى من متاب
حين قالت لها أجبى فقالت * من دعاني قالت أبو الخطاب
فاستجابت عند الدعاء كما لى * رجال يرجون حسن الثواب

(١) قال فى اللسان مادة بدد «أن أورد هذا الشطر : «معناه أمقسم أنت سؤالك على الناس واحدا واحدا حتى تعيهم» . من البداد وهو أن يبد المال القوم فيقسم بينهم ، رأبدهم المال والعطاء : فرقه فيهم ، والمراد : لماذا تسألنا ! ألك حق السؤال على جميع الناس ! . أو معناه : «أأنت ملزم سؤالك الناس ، من قولهم : مالك منه بد» ، والمراد : أنت ملزمنا الإحانة عن سؤالك ! إنا لانجيبك . (٢) مجاجة المسك ، يريد بذلك وصفها بطيب ريقها وبأنه كالمسك . (٣) تهادى ، يريد يهدى بعضها بعضا فى شيتها (الكامل للبرد طبع ليزج ص ٣٧٩) . (٤) فى الكامل للبرد طبع ليزج ص ٣٧٩ : أزهقت : أبطلت وأذهبت قال الله عز وجل : (فيدمعه فاذا هو زاهق) ه . يريد : أذهبت أم نوفل نفسى إذ دعت الثريا لوصالى فلم تجبها .

ومن شعره :

كُتِبَتْ إِلَيْكَ مِنْ بِلَدِي * كَتَابُ مُوَلَّهِ كَيْدِ
كَيْبِ وَأَكَيْفِ الْعَيْنِ * مِنْ بِالْحَسَرَاتِ مَنْفَرِدِ
يُورِقُهُ لَيْبُ الشَّو * قِي بَيْنَ السَّحْرِ وَالْكَدِ
فِيْمَسِكَ قَلْبَهُ بِيَدِ * وَيَمْسَحُ عَيْنَهُ بِيَدِ

لما تزوج سُمَيْلُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الثُّرَيَّا ونقلها الى الشام ، بلغ عمر بن أبي ربيعة الخبر ،
فأتى المنزل الذي كانت الثريا تنزله ، فوجدها قد رحلت منه يومئذ ، فخرج في أثرها فلحقها
على مرحلتين ، وكانت قبل ذلك مهاجرة لأمر أنكره عليه ، فلما أدركهم نزل عن فرسه
ودفعه الى غلامه ومشى متنگرا حتى مر بالخيمة ، فعرفته الثريا وأثبتت حركته ومشيته ،
فقال لحاضتها : كلمه ، فسألت عليه وسأله عن حاله وعائنته على ما بلغ الثريا عنه ،
فاعتذر وبكى ، فبكت الثريا ، فقالت : ليس هذا وقت العتاب مع وشك الرحيل ، فحادثها
الى وقت طلوع الفجر ثم ودعها وبكى طويلا ، وقام فركب فرسه ووقف ينظر اليهم وهم
يرحلون ، ثم أتبعهم بصره حتى غابوا ، وأنشأ يقول :

يا صاحبي قفا نسئخِرِ الطَّلَلَا * عن حالٍ من حاله بالأمس ما فعلا
فقال لي الرِّيعُ لما أن وقفتُ به * إنَّ الخَلِيطَ أجَدَ البَيْنِ فاحتملا
وخادعتك النوى حتى رأيتهم * في الفجرِ يَحْتَثُّ حَادِي عَيْسِمِ زَجَلَا

- (١) يقال : وكفت العين : سالت دموعها . (٢) السحر : الرثة .
(٣) أى عرقتهما حق المعرفة . (٤) لحاضتها : لمريتها . (٥) يرحلون يشدون على إبلهم
الرجال . (٦) أجَدَ البين : اعترمه . (٧) احتمل : ارتحل . (٨) النوى : الفراق
والبعد . ويحث : يسوق . وزجلا : رافعا صوته في حذاء الإبل لتسرع في السير ، وأصل الزجل الجلبة ورفع
الصوت وخص به التطريب ، وأنشد سيدي في وصف حمار وحش :

له زجل كأنه صوت حاد * اذا طلب الوسيقة أو زمير

وذكره في باب ما يحتمل الشعر من استباحة الضرورة ، وهى هنا حذف الواو المبينة لحركة الهاء في قوله : كأنه .
والوسيقة : أنثاء التي يضمها ويجمعها ، من وسقت الشيء : جمعه .

لما وقفنا نحيمهم وقد صرخت * هوانف البين وأستولت بهم أصلاً^(١)
صددت بعداً وقالت لاتي معها * بالله لوميته في بعض الذي فعلاً
وحدثيه بما حدثت وأستعي * ما ذا يقول ولا تعي به جدلاً^(٢)
حتى يرى أن ما قال الوشاة له * فينا لديه إلينا كله نُقلاً
وعرفيه به كالمزب وأخفي * في بعض معتبة أن تُفضي الرجل
فإن عهدي به والله يحفظه * وإن أتى الذنب ممن يكره العذلاً
لو عندنا أغتیب أو نيك نقيصته * ما أب مغتابه من عندنا جدلاً
قلت أستمعي فلتد أبلغت في لطف^(٣) * وليس يخفي على ذي اللب من هزلاً
هذا أرادت به بخلاً لعذرهما * وقد أرى أنها لن تقدم العلاً
ما سمي القلب إلا من تقلبه * ولا الفؤاد فؤاداً غير أن عقلاً^(٤)
أما الحديث الذي قالت أثبت به * فما عبأت به إذ جاني حولا
ما إن أطعت بها بالغيب قد علمت * مقالة الكاشح الواشي إذا محلاً
إني لأرجعه فيها بسخطه * وقد يرى أنه قد غرنى زلاً
وهي قصيدة طويلة مذكورة في شعره .

(١) في ديوانه :

لما وقفنا نحيمهم وقد شحطت * نعمة البين فاستولت بهم أصلاً
وشحطت نعمة البين : ارتحلوا وفرقهم البين ، وفي اللسان مادة نعم وشال : يقال للقوم إذا ارتحلوا عن منزلهم
أو تفرقوا : قد خفت نعماتهم وشالت نعماتهم ، والأصل : جمع أصيل وهو العشي وقيل هو مفرد ، أشد نعلب :
وتعمدنت نفسي لذلك ولم أزل * بدلا نهاري كله حتى الأصل
فقوله : بدلا نهاري كله ، يدل على أن الأصل هاهنا واحد . (٢) لا تعي به جدلاً : لا تعجزى في مجادلتها .
(٣) اللطف لغة في اللطف . (٤) قال في اللسان : والتفؤد : التوقد ، والفؤاد : القلب لتفؤده
وتوقده . وقال في القاموس وشرحه : التفؤد : التحزف والتوقد ، ومنه الفؤاد للقلب ، لأن عقل الفؤاد للعلومات
نتيجة اشتغاله وتوقده وتحركه وجولته فيها حتى يحصها ، ويميز الصحيح من الفاسد والحق من الباطل .

وله :

هل تعرف الدار والأطلال والدهنا * زينت الفؤاد على علايته حزنا^(١)
 داراً لأسماء قد كانت تحل بها * وأنت إذ ذاك قد كانت لكم وطناً
 لم يحب القلب شيئاً مثل حبكم * ولم تر العين شيئاً بعدكم حسناً
 ما إن أبالي أدام الله قربكم * من كان شطاً من الأحياء أو طعناً
 فإن نأيت أصاب القلب نأيتكم * وإن دنت داركم كنتم لنا سحناً
 إن تجللى لا يسئل القلب بجلكم * وإن تجودى فقد عنتني زمناً
 أمسى الفؤاد بكم يهنئ مرثناً * وأنت كذبت الهوى والهوى والوسناً
 إذ تستيك بمضقول عوارضه * ومقلتي جؤذير لم يعد أن شدناً

وقال :

أعبدة ما ينسى مودتك القلب * ولا هو يسليه رخاء ولا كرب
 ولا قول وإش كاشح ذى عداوة * ولا بعد دار إن نأيت ولا قرب
 وما ذاك من نعمي لذك أصابها * ولكن حباً ما يقاربه حب
 فإن تقبلي يا عبد توبة تأيب * يتب ثم لا يوجد له أبداً ذنب
 أذل لكم يا عبد فيما هويتم * وإني إذا ما رامني غيركم صعب
 وأعد نفسي في الهوى فتعوقني * ويأصرنى قلب بكم كلّف صب
 وفي الصبر عمن لا يؤاتيك راحة * ولكنّه لا صبر عندي ولا لب
 وعبد بيضاء المحاجر طفلة * منعمة تصبي الحليم وما تصبو
 قطوف من الحور الأوانس بالضحي * متى تمش قيس الباع من بهرها تربو
 فلست بناس يوم قالت لأريج * نوايم غمر كلّه لها ترب
 ألا ليت شعري فيم كان صدوده * أعلق أخرى ! أم على به عتب

(١) كذا في ديوانه وفي الأغانى ج ١ ص ٢٧٩ « على ما عنده » .

وقال :

إِنَّ طَيْفَ الْخَيْالِ حِينَ أَلَمَّا * هَاجَ لِي ذُكْرَةٌ وَأَحَدَتْ هَمًّا
جَدَّدِي الْوَصْلَ بِأَسْكِينٍ وَجُودِي * يُحِبُّ رَحِيلَهُ قَدْ آتَمَّا
لَيْسَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ إِلَّا * أَنْ يَرُدُّوا جَمَاهُمْ فُتْرَمَّا
وَلَقَدْ قُلْتُ مُخْفِيًا لَغَرِيضٍ * هَلْ تَرَى ذَلِكَ الْغَزَالَ الْأَحْمَا
هَلْ تَرَى فَوْقَهُ مِنَ النَّاسِ شَخْصًا * أَحْسَنَ الْيَوْمِ صُورَةً وَأَتَمَّا
إِنْ تُنِيلِي أَعِشْ بِخَيْرٍ وَإِنْ لَمْ * تَبْدُلِي الْوَدَّ مَتٌ بِالْهَمِّ غَمًّا

وله أيضا :

أَيَا مَنْ كَانَتْ لِي بَصَرًا وَتَمَعًا * وَكَيْفَ الصَّبْرُ عَنْ بَصَرِي وَسَمِي
وَعَمَّنْ حِينَ يَذْكُرُهُ فُؤَادِي * يَفِيضُ كَمَا يَفِيضُ الْغَرْبُ دَمِي
يَقُولُ الْعَاذِلُونَ نَأَتْ قَدَعَهَا * وَذَلِكَ حِينَ تَهَيَّأِي وَوَلِي
أَأَهْجُرُهَا فَأَقْعُدَ لَا أَرَاهَا * وَأَقْطَعُهَا وَمَا هَمَّتْ بِقَطْعِي
وَأَصِيرُ حَبَاهَا لِمَقَالٍ وَاشِ * وَأَجْمَعُهَا وَمَا هَمَّتْ بِفَجْعِي
وَأُقْسِمُ لَوْ خَلَوْتُ بِهِ جِرْ هَنِيْدٍ * لَصَاقَ بِهِ جِرْهَا فِي النَّوْمِ ذَرْعِي

وهو القائل :

مَا كُنْتُ أَشْعُرُ إِلَّا مُدَّ عَرَفَتُكُمْ * أَنَّ الْمَضَاجِعَ تُنْمِي تُنْهِي الْإِبْرَا
لَقَدْ شَقِيقْتُ وَكَانَ الْحَيْنُ لِي سَبَبًا * أَنْ عُلِقَ الْقَلْبُ قَلْبًا يُنْشِئُ الْجَمْرَا
قَدْ كُنْتُ قَلْبِي فَأَعْيَانِي بِوَاحِدَةٍ * وَقَالَ لِي لَا تَلْنِي وَأَذْفَعِ الْقَدْرَا
إِنْ أَكْرِهَ الطَّرْفَ يَحْسَرُونَ غَيْرِي * وَلَسْتُ أَحْسِنُ إِلَّا لِنَحْوِكَ النَّظْرَا
قَالُوا صَبَوْتَ فَلَمْ أَكْذِبْ مَقَالَتَهُمْ * وَلَيْسَ يَنْسَى الصَّبَا إِنْ وَالَهُ كَثْرَا

وقال أيضا :

أَلَا لَيْتَ قَبْرِى يَوْمَ تُقْضَى مَنِيَّتِي * بَتَلِكِ الَّتِي مِنْ بَيْنَ عَيْنَيْكَ وَالْفَمِ
وَلَيْتَ طَهْوَرِي كَانَ رِيْقِكَ كُلَّهُ * وَلَيْتَ حَنُوطِي مِنْ مُشَاشِكَ وَالْدَّمِ
أَلَا لَيْتَ أُمِّ الْفَضْلِ كَانَتْ قَرِيْنَتِي * هُنَا أَوْ هُنَا فِي جَنَّةٍ أَوْ جَهَنَّمِ

نظر عمر بن أبي ربيعة في الطواف إلى امرأة شريفة فرأى أحسن خلق الله صورة،
فذهب عقله عليها وكلمها فلم يجبه، فقال فيها :

الرَّيْحُ تَسْحَبُ أَذْيَالًا وَتَنْشُرُهَا * يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مِّنْ تَسْحَبِ الرِّيحِ
كَيْمَا تَجْرُبُنَا ذِيلاً فَتَطْرَحُنَا * عَلَى الَّتِي دُونَهَا مَغْبِرَةٌ سَوَّحٌ
أَنْتِ بَقَرِيكُمُ أَمْ كَيْفَ لِي بِكُمْ * هَيَّاتِ ذَلِكَ مَا أَمَسَتْ لَنَا رُوحُ
فَلَيْتَ ضِعْفَ الَّذِي أَلْفَى يَكُونُ بَهَا * بَلْ لَيْتَ ضِعْفَ الَّذِي أَلْفَى تَبَارِيحُ^(٤)
إِحْدَى بُنْيَاتٍ عَمَّى دُونَ مَنَزَلِهَا * أَرْضُ بَقِيْعَاتِهَا الْقَيْصُومُ وَالشَّيْخُ^(٥)

فبلغها شعره فجزعته منه، فقليل لها : اذكر به لزوجك، فإنه سينكر عليه قوله، فقالت :
كلّا والله لا أشكوه إلا إلى الله، ثم قالت : اللهم إن كان نوه بأشني ظالمًا فاجعله طعامًا
للريح، فضرَب الدهر من ضربه، ثم إنه غدا يوماً على فرس فهبت ريح فنزل فاستتر
بأسامة، فعصفت الريح فخدشه غصنٌ منها، فديعى وورم به ومات من ذلك .

(١) هذا أحد الوجهين في الفعل الواقع بعد كذا : الرفع على أن ما كافته لها عن العمل، والنصب على أن
ما زائدة وكى عاملة فيما بعدها، وقد روى الوجهين :

إذا أنت لم تنفع فضرر فلانما * يرجى العنى كيا يضر وينفع

(٢) مغبرة، يريد بها الغلاة المجذبة . (٣) سوح : جمع ساحة وهي الفضاء . (٤) تباريح
الشوف : توهجه، قال السيد محمد مرتضى : قال شيخنا وهو من الجموع التي لا مفرد لها وقيل : مفردة تباريح
وأسعمله المحذون وليس ثبت . (٥) قال في اللسان : القيصوم : ما طال من العشب، ثم قال :
والقيصوم من نبات السهل قال أبو حنيفة : القيصوم من الذكور ومن الأمراء وهو طيب الرائحة من رياحين البر
ورقه هذب وله نورة صفراء وهي تنهض على ساق وتطول .

(ب) الغزل العذري

جميل^(١)

قال نُصَيْب مولى عبد العزيز بن مروان: قَدِمْتُ المدينة فسألتُ عن أعلم أهلها بالشعر، فقيل لي: الوليد بن سَعِيد الأَشْجَعِي، فوجدته بِشِعْب سَلْع مع عبد الرحمن بن حَسَّان وعبد الرحمن بن أَزْهَر، فَإِنَّا بِخُلُوسٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ طَوِيلٌ بَيْنَ الْمُنْتَكِبِينَ يَقُودُ رَاحِلَةً

(١) هو جميل بن عبد الله بن معمر من عذرة، وكان شاعرا فصيحاً مقدّماً جامعاً للشعر والرواية. اشتهر بحبه بشيئة ابسة عمه، ولذلك عرف بجميل بشيئة، وكانا يقفان في وادي القرى، وكان أول عهده بها وهي صغيرة. ومن أوائل نظمه فيها قوله:

وأول ما قاد المودّة بيننا * بوادي بغض يا بشين سباب

وقلت لها قولاً بجأمت بمثله * لكل كلام يا بشين جواب

ولم يكن يراها حتى صارت شابة، فأخذ ينظم القصائد فيها حتى اشتهر أمره. وآتق مرة أن توبة بن الحجير صاحب ليلى مر بنى عذرة فرأته بشيئة فجعلت تنظر إليه وجميل حاضر فنارت الغيرة في قلب جميل، فقال لتوبة: من أنت؟ قال: أنا توبة بن الحجير، قال: هل لك في الصراع؟ قال: ذلك إليك؛ فأعطته بشيئة ملاءة حمراء فأزر بها، ثم صارعه فصصره جميل. ثم قال: هل لك في النضال؟ قال: نعم، فناضله فنضله جميل. ثم قال: هل لك في السباق؟ قال: نعم. فسابقه فسابقه جميل. فقال له توبة: يا هذا، إنما تفعل ذلك بريح الجالسة، ولكن اهبط بنا الوادي، فهبط، فصصره توبة ونضله وسبقه.

وكان عند بشيئة مثل ما عند جميل، ولما رأت مناصلته عنها زادت شغفا به، ولكنهما لم يكونا يجتمعا إلا حلوسة على موعد. ولم يكن جميل يخلو من الرقباء، لكنهم لم يستطيعوا رميه بريئة. وأخباره معها كثيرة لا يسعها هذا المقام. ولم يزل يجتمع بها سرا عن أهلها، فألحوا بالسكوى منه إلى العالم، ففرّ إلى اليمن حتى عزل العالم. وانزعج أهل بشيئة الشام، فرحل جميل إليهم، فترصدوه وشكوه إلى عشيرته، فغلبه أهله وهددوه، فانقطع عنها، وأخيراً بلغا إلى مصر، وعاملها عبد العزيز بن مروان، فأحسن وفادته، ومرض هناك ومات. وكان طويل القامة عريض بين المنتكبين جميل الخلقة حسن البزة، توفي سنة ٨٢ هـ.

وجميل ديوان شعر كبير كان مشهوراً في أيام ابن خلكان ولم تقف على خبره، ولكن منه أشعاراً مجموعة في كتاب منه نسخة خطية في مكتبة برلين.

أنظر الكلام على جميل في الأعاني ج ٧ ص ٧٧ وج ١ ص ٨٠ وابن خلكان ج ١ ص ١١٥ ونزاة الأدب ج ١ ص ١٩١ والشعر والشعراء ص ٢٦٠

عليها بزة حسنة، فقال عبد الرحمن بن حسان لعبد الرحمن بن أزهري : يا أبا حنبره، هذا جميل فادعه لعله يُنشدنا ؛ فصاح به عبد الرحمن : هيا جميل ؛ فالتفت فقال : من هذا ؟ فقال : أنا عبد الرحمن بن أزهري ؛ فقال : قد علمت أنه لا يجترئ على إلا منك ، فأتاه ، فقال له : أنشدنا ؛ فأنشدهم :

ونحن مَنَعْنَا بومَ أَوَّلِ نِسَاءَنَا * ويوم أُنْفِئْ والأُسْنَةَ تَرَعُفُ^(١)
يُحِبُّ الغَوَانِي البِيضُ ظِلَّ لَوَائِنَا * إذا مَا أَتَانَا الصَارِخُ المَتَلَهِّفُ
نَسِيرُ أَمَامَ النَّاسِ والنَّاسُ خَلَقْنَا * فإن نحن أَوَمْنَا إلى النَّاسِ وَقَفُّوا
فَأَيَّ مَعَدٍّ كَانَ قَدْرُ رِمَاحِهِ * كَمَا قَدْ أَفْأْنَا والمَفَارِئُ يُنْصَفُ
وَكُنَّا إِذَا مَا مَعَشَرٌ نَصَبُوا لَنَا * وَمَرَّتْ جَوَارِي طَيْرِهِمْ وَتَعَفُّوا^(٢)
وَضَعْنَا لَهُمْ صَاعَ القِصَاصِ رَهِينَةً * بِمَا سَوْفَ نُوفِيهَا إِذَا النَّاسُ طَفَفُوا^(٣)
إِذَا اسْتَبَقَ الْأَقْوَامُ مَجْدًا وَجَدْتَنَا * لَنَا مَعْرَفًا مَجِيدٌ وَلِلنَّاسِ مَعْرَفُ

ثم قال له : أنشدنا هزجاً ؛ قال : وما الهزج ؟ لعله القصير ! قال : نعم ، فأنشده :

رَسْمٌ دَارٍ وَقَفْتُ فِي طَلَلِهِ * كِدْتُ أَقْضِي الحَيَاةَ مِنْ جَلَلِهِ^(٤)
مُوحِشًا مَا تَرَى بِهِ أَحَدًا * تَنْسِجُ الرِّيحُ تَرْبَ مَعْتَدِلِهِ
وَصَرِيحًا بَيْنَ التَّمَامِ تَرَقَّى * طَازِفَاتُ المَدَبِّ فِي أَسَلِهِ
بَيْنَ عَلِيَاءِ رَائِشِ فُبُلَى * فَالْغَمِيمِ الَّذِي إِلَى جَبَلِهِ
وَاقِفًا فِي دِيَارِ أُمِّ جُسَيْرٍ * مِنْ صُحْحَى يَوْمِهِ إِلَى أُصْلِهِ
يَا خَلِيلَ أُمِّ جُسَيْرٍ * حِينَ يَدُنُو الضَّجِيعِ مِنْ غُلَلِهِ^(٥)
رَوْضَةُ ذَاتِ حَنَوِيٍّ وَخَرَامِي * جَادَ فِيهَا الرِّبْعُ مِنْ سَبَلِهِ^(٦)
بَيْنَمَا نَحْنُ بِالْأَرَاكِ مَعًا * إِذْ بَدَأَ رَاكِبٌ عَلَى جَمَلِهِ

(١) ترعف : تقطردما . (٢) تعفوا : من العيافة ، وهي زجر الطير والاعتبار بأسمائها ومساكنها

وأصواتها ، فينشد أو يتشاهم . . (٣) التطفف : نقص الكيل . (٤) من أجله .

(٥) الغلل : جمع غلة ، وهي ما يتوارى فيه أشعار تحت التوب . (٦) السبل : المطر .

فَتَأْطَرْتُ ثُمَّ قُلْتُ لَهَا * أَكْرَمِيهِ حُبِّي فِي نَزْلِهِ
فَطَالَمْنَا بِنَعْمَةٍ وَأَتَكْنَا * وَشَرِبْنَا الْحَلَالَ مِنْ قُلْلِهِ
قَدْ أَصَوْنُ الْحَدِيثَ دُونَ أَخِي * لَا أَخَافُ الْأَذَاةَ مِنْ قَبْلِهِ
غَيْرَ بَغْضٍ لَهُ وَلَا مَلِي * غَيْرَ أَنِّي أَتَحْتُ مِنْ وَجَلِهِ
وَخَلِيلٌ صَافِيَةٌ مَرْضِيَا * وَخَلِيلٌ فَارَقْتُ مِنْ مَلَلِهِ

ثم اقتاد راحلته موليا ، فقال ابن الأزهري : هذا أشعر أهل الإسلام ، فقال ابن حسان :
نعم والله وأشعر أهل الجاهلية ، والله ما لأحد منهم مثل هجائه ولا نسيبه ، فقال عبد الرحمن
ابن الأزهري : صدقت .

قال محمد بن سَلَام : كان لكثير في النسيب حظا وافر ، وجميل مقدم عليه وعلى
أصحاب النسيب في النسيب ، وكان جميل صادق الصباية والعشق ، ولم يكن كثير بعاشق
ولكنه كان يتقوّل ، وكان الناس يستحسنون بيت كثير في النسيب ، وهو :

أُرِيدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا فِكَا نَمَا * تَمَثَّلُ لِي لَيْسَ بِكُلِّ سَبِيلِ

ورأيت من يفضل عليه بيت جميل :

خَلِيلِي فَيَا عَشْتَا هَلْ رَأَيْتَا * قَتِيلًا بَكَى مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي

قيل إن بثينة واعدت جميلا أن يلتقيا في بعض المواضع ، فأتى لوعدها ، وجاء أعرابي
يستضيف القوم ، فأنزاهه وقرّوه ، فقال لهم : قد رأيْتُ في بطن هذا الوادي ثلاثة نفر متفرقين
متوارين في الشجر وأنا خائفٌ عليكم أن يسلبوا بعض إبلكم ، فعرفوا أنه جميل وصاحباه ،
فخرسوا بثينة ومنعوها من الوفاء بوعدده ، فلما أسفر له الصبح انصرف كئيها سيئ الظن بها
ورجع إلى أهلها ، فجعل نساء الحى يقرّعنّه بذلك ويقولن له : إنما حصات منها على الباطل
والكذب والغدر ، وغيرها أولى بوصلك منها ، كما أن غيرك يحظى بها ، فقال في ذلك :

فأجبتها بالقول بعد تسرُّ * حَيِّ بُيْنَةَ عَنْ وَصَالِكَ شَاغِلِ
أُبَيْنَ إِنَّكَ قَدْ مَلَكَتِ فَاسْجِحِي ^(١) * وَخُذِي بِحِطِّكَ مِنْ كَرِيمٍ وَاصِلِ
فَلَرَّبِّ عَارِضَةٍ عَلَيْنَا وَصَلْهَا * بِالْحَدِّ تَخْلِطُهُ بِقَوْلِ الْهَازِلِ
لَوْ كَانَ فِي صَدْرِي كَقَدْرِ قُلَامَةٍ * فَضْلًا وَصَلْتِكَ أَوْ أُنْتِكَ رَسَائِلِي
وَيَقُلْنَ إِنَّكَ قَدْ رَضَيْتَ بِبَاطِلِ * مِنْهَا فَهَلْ لَكَ فِي اجْتِنَابِ الْبَاطِلِ
لِيُرْلَنَ عَنْكَ هَوَايَ ثُمَّ يَصِلَنِي * وَإِذَا هَوَيْتُ فَمَا هَوَايَ بِزَائِلِ
صَادَتْ فَوَادِي يَا بُيْنِ جِبَالِكُمْ * يَوْمَ الْحُجُونِ وَأَخْطَأْتُكَ جِبَالِي
مَنْتَبِيْنِي فَلَوَيْتُ مَا مَنَّتَنِي * وَجَعَلْتِ عَاجِلَ مَا وَعَدْتِ كَاجِلِ
وَتَنَاقَلْتُ لَمَّا رَأَتْ كَلْفِي بِهَا * أَحْبَبْتُ إِلَىٰ بَذَاكَ مِنْ مَتَنَاقِلِ
وَأَطَعْتِ فِي عَوَازِلَ فَهَجَرْتَنِي * وَعَصَيْتُ فَيْكَ وَقَدْ جَهَدَنْ عَوَازِلِي
حَاوَلْتَنِي لِأُبْتُ حَبْلَ وَصَالِكُمْ * مَنِّي وَلَسْتُ وَإِنْ جَهَدَنْ بِفَاعِلِ
فَرَدَدْتُهُنَّ وَقَدْ سَعَيْنَ بِهَجْرِكُمْ * لَمَّا سَعَيْنَ لَهُ بِأَفُوقِ نَاصِلِ ^(٢)
يَعْضَضْنَ مِنْ غِيْظٍ عَلَىٰ أَنَامِلَا * وَوَدِدْتُ لَوْ يَعْضَضْنَ صُمَّ جَنَادِلِ
وَيَقُلْنَ إِنَّكَ يَا بُيْنِ بَخِيلُهُ * نَفْسِي فِدَاؤُكَ مِنْ ضَمَنِينِ بَاخِلِ

وقال جميل في وعد بئينة بالتلاقي وتأثرها قصيدة أولها :

يَا صَاحِبَ عَنْ بَعْضِ الْمَلَامَةِ أَقْصِرْ * إِنِ الْمُنَى لِفَاءُ أَمْ الْمُسْوِرِ

ومنها :

وَكُنْتُ طَارِقَهَا عَلَى عِلَلِ الْكَرَى * وَالنَّجْمُ وَهْنًا قَدْ دَنَا لَتَغَوَّرِ
يَسْتَفْأِبُ رِيحَ مَدَامَةٍ مَعْجُونَةٍ * بِذِكْرِ مَسِيكِ أَوْ يَتَحَيَّقِ الْعَنْبَرِ ^(٣)

(١) أسجحي : أحسن العفو . (٢) الأفوق : السهم الذي كمر فوقه ، وهو مشق رأس السهم حيث يقع الوز . وناصل : لا نصل فيه . (٣) يستأف : يشم .

ومنها :

إني لأحفظ غيبكم ويسرني * اذ تذكرين بصالح أن تذكرى
ويكون يوم لا أرى لك مرسلاً * أو نلتقى فيه على كاشهر
يا ليتنى ألقى المنية بغتة * إن كان يوم لقائكم لم يقدر
أو أستطيع تجلداً عن ذكركم * فيفوق بعض صباهي ونفكري

وفيه يقول :

لو قد تجن كما أجن من الهوى * لعذرت أو لظلمت إن لم تعذر
والله ما للقلب من علم بها * غير الظنون وغير قول الخير
لا تحسب أنى هجرتك طائفاً * حدثك لعمرك رائع أن تهجري
فلتبيكين الباقيات وإن أبح * يوما بسررك معلناً لم أعذر
يهواك ما عشت الفؤاد فإن أمت * يتبع صدأى صدك بين الأفر
إني إليك بما وعدت لناظر * نظرت الفقير إلى الغنى المكسر
يعد الديون وليس يُنجز موعداً * هذا الغريم لنا وليس بمعسر
ما أنت والوعد الذى تعدينى * إلا كبرق سحابة لم تمطر
قلبي نصحت له فرد نصيحتي * فتى هجرتيه فنه تكثري

وقال فى إخلافاً لما به هذا الموعد :

ألا ليت ريعان الشباب جديداً * ودهراً تولّى يا بُنَيْن يعود
فنفنى كما كنا نكون وأنتم * قريباً واذ ما تبدل بين زهيد
وما أنس مألوساً لا أنس قولها * وقد قربت نصوى أمصر تريد
ولا قولها لولا العيون التى ترى * أتيتك فاعذرني فدتك جود
خليلى ما أخفى من الوجد ظاهر * ودمعى بما قلت الغداة شهيد

(١) النضو : المهزول من الابل وغيرها .

أَلَا قَدْ أَرَى وَاللَّهِ أَنَّ رَبَّ عَبْرَةٍ * إِذَا الدَّارُ شَطَّتْ بَيْنَنَا سَتْرِيَد
 إِذَا قُلْتُ مَا بِي يَا بَشِينَةً قَاتِلِي * مِنَ الْحَبِّ قَالَتْ ثَابِتٌ وَيَزِيدُ
 وَإِنْ قُلْتُ رُدِّي بَعْضَ عَقْلِي أَعِشْ بِهِ * مَعَ النَّاسِ قَالَتْ ذَاكَ مِنْكَ بَعِيدُ
 فَلَا أَنَا مُرْدُودٌ بِمَا جِئْتُ طَالِبًا * وَلَا حُبُّهَا فِيمَا يَبِيدُ يَبِيدُ
 جَزَيْكَ الْجَوَازِي يَا بَشِينُ مَلَامَةٌ * إِذَا مَا خَلِيلُكَ بَانَ وَهُوَ حَمِيدُ
 وَقُلْتُ لَهَا بَنِي وَبَيْنِكَ فَاعْلَمِي * مِنَ اللَّهِ مِيثَاقٌ لَهُ وَعَهْدُ
 وَقَدْ كَانَتْ حُبِّكُمْ طَرِيفًا وَتَالِدًا * وَمَا الْحُبُّ إِلَّا طَارِفٌ وَتَلِيدُ
 وَإِنْ عَرَّوْضُ الْوَصْلِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا * وَلَمَنْ سَهَّلَتْهُ بِالْمَنَى لَصَعُودُ
 فَأَفْنَيْتُ عَيْشِي بَانْتِظَارِي نَوَاحِي * وَأَبْلَيْتُ ذَاكَ الدَّهْرَ وَهُوَ جَدِيدُ
 فَلَيْتَ وَشَاةَ النَّاسِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا * يَدُوفُ لَهُمْ سُمًّا طَاطِمٌ سُودُ^(٢)
 وَلَيْتَ لَهُمْ فِي كُلِّ مُنْمَسَى وَشَارِقٍ * تَضَاعَفُ أَكْبَالُ لَهُمْ وَقِيُودُ
 وَيَحْسَبُ نِسْوَانٌ مِنَ الْجَهْلِ أَنَّنِي * إِذَا جِئْتُ لِإِيَّاهُنَّ كُنْتُ أُرِيدُ
 فَأَقْسِمُ طَرَفِي بَيْنَهُنَّ فَيَسْتَوِي * وَفِي الصَّدْرِ بَوْتُ بَيْنَهُنَّ بَعِيدُ
 أَلَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً * بَوَادِي الْقُرَى لَنِي إِذَا لَسَعِيدُ
 وَهَلْ أَهْبَطَنُ أَرْضًا تَظَلُّ رِيَا حُهَا * لَهَا بِالشَّيَا الْقَاوِيَاتِ وَثِيدُ^(٣)
 وَهَلْ أَلْقَيْنَ سَعْدِي مِنَ الدَّهْرِ مَرَّةً * وَمَا رَتَّ مِنْ حَبْلِ الصَّفَاءِ جَدِيدُ
 وَقَدْ تَلْتَقَى الْأَهْوَاءُ مِنْ بَعْدِ يَأْسِيَةٍ * وَقَدْ تُطَلَّبُ الْحَاجَاتُ وَهِيَ بَعِيدُ
 وَهَلْ أَزْجُرُنَّ حَرْفًا عِلَالَةً شِمْلَةً * بِحَرْقِ ثُبَارِيهَا سَوَاهِمُ قُودُ^(٤)
 عَلَى ظَهْرِ مَرْهَوْبٍ كَأَنَّ نَشْوَرَهُ * إِذَا جَازَ هُلَاكَ الطَّرِيقِ رُقُودُ

(١) العروض : الطريق في عرض الجبل في مضيق ، يريد الطريق الى وصلها . (٢) يدوف :
 يخلط . وطاطم : جمع ططم وهو من في لسانه عجمة ، وأراد بالطاطم هنا : الموالي . (٣) القاويات :
 الخاليات . (٤) الوثيد : الصوت العالي الشديد . (٥) الحرف : الناقة الضامرة الصلبة . والعلاة :
 المشرفة الصلبة . والشملة : السريعة . والحرق : الأرض الواسعة . والساهمة : الناقة الضامرة .

سَبَتْنِي بِعَيْنِي جُؤَذِرَ وَسَطَ رَبِّبِ * وَصَدِرَ كِفَاثُورُ اللَّجِينِ وَجِيدِ^(٢)
 تَزَيْفُ^(٣) كَمَا زَاغَتْ إِلَى سِلَافَاتِهَا * مُبَاهِيَةً طَيًّا الْوِشَاجَ مِيدُودِ
 إِذَا جُمْتُهَا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ زَائِرًا * تَعَرَّضَ مَنْقُوضُ الْيَدَيْنِ صَدُودِ
 يَصُدُّ وَيُغْضِي عَنْ هَوَايَ وَيَحْتَنِي * دُنُوبًا عَلَيْهَا إِنَّهُ لَعَنُودِ
 فَأُضِرُّهَا خَوْفًا كَأَنِّي مُجَانِبٌ * وَيَغْفُلُ عَنَّا مَرَّةً فَنَعُودِ
 فَمَنْ يُعْطَى فِي الدُّنْيَا قَرِينًا كَمَثَلِهَا * فَذَلِكَ فِي عَيْشِ الْحَيَاةِ رَشِيدِ
 يَمُوتُ الْهَوَى مَتَى إِذَا مَا لَقِيَتْهَا * وَيَحْيَا إِذَا فَارَقَتْهَا فَيَعُودِ
 يَقُولُونَ جَاهِدْ يَا حَمِيلُ بَغْزُوهُ * وَأَيَّ جِهَادٍ غَيْرَهُنَّ أُرِيدِ
 لِكُلِّ حَدِيثٍ بَيْنَهُنَّ بَشَاشَةٌ * وَكُلِّ قَتِيلٍ بَيْنَهُنَّ شَهِيدِ
 وَمَنْ كَانَ فِي حَبِيٍّ بُتَيْنَةً يَمْتَرِي * فَبِرُقَاءِ ذِي ضَالٍّ عَلَى شَهِيدِ
 أَلَمْ تَعْلَمْ يَا أُمَّ ذِي الْوَدَعِ أَنِّي * أَضَاحَكَ ذَكَرًا كَمْ وَأَنْتِ صَالُودِ

بعثت أمة لبثينة إلى أبيها وأخيها وقالت لهما: إن حميلا عندها الليلة، فأتياها مشتملين على سيفين، فرأياه جالسا منها حجرة يحادثها ويشكو لها بشه، ثم قال لها: يا لبثينة، أرايت ودي إياك وشغفي بك ألا تجزيينيه؟ قالت: بماذا؟ قال: بما يكون من المتحايين، فقالت له: يا حميل، أهذا تبغي! والله لقد كنت عندي بعيدا منه، ولئن عاودت تعريضا بريئة لا رأيت وجهي أبدا! فضحك وقال: والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم ما عندك فيه، ولو علمت أنك تجيئيني لعلمت أنك تجيئين غيري، ولو رأيت منك مساعدا لضربتك بسيفي هذا ما استمسك في يدي، ولو أطاعتني نفسي لهجرتك هجرة الأبد، أو ما سمعت قولي:

وإني لأرعى من بُثينة بالذي * لو أبصره الواشي لَقَرَّتْ بِلَايِلُهُ
 بلا وبألا أستطيع وبألئني * وبالأمل المرجو قد خاب أمله
 وبالظرة العجل وبالحول ينقضي * وأوانحه لا نلتقي وأوائله

(١) الفاثور: الخوان من رخام أوفضة أذهب. (٢) في البيت إناؤه، وهو اختلاف حركة الزوى

بالرفع والاسر. (٣) زاف: تبحتر. (٤) أي ناحية.

فقال أبوها لأخيها : قم بنا ، فما ينبغي لنا بعد اليوم أن نمنع هذا الرجل من لقاءها ،
فانصرفا وتركاهما .

ومن قول جميل :

إنَّ المنازلَ هيجتْ أطراي * وأسْتَعْجَمَتْ آياها بجواي
قَفَرًا تُلَوِّحُ بِذِي الْجُبَيْنِ كَأَمَّا * أنضاءَ رَسِيمٍ أَوْ سَطُورُ كِتَابٍ
لما وَقَفْتُ بِهَا الْقُلُوصَ تبادرتْ * مني الدُمُوعُ لِفُرْقَةِ الْأَحْبابِ
وذَكَرْتُ عَصْرًا يَا بَشِينَةَ شَاقِي * وذَكَرْتُ أَيَّامِي وَشَرَحَ شَبَابِي

لما نذر أهل بَشِينَةَ دَمَ جَمِيلٍ وأهدره لهم السلطان ضاقت الدنيا بجميل ، فكان يصعد
بالليل على قُوز رمل يتنسم الريح من نحو حَيِّ بَشِينَةَ ويقول :

أَيَا رِيحَ الشَّامِلِ أَمَا تَرَيْنِي * أَهْمِي وَأَنْتِي بِأَدَى النِّحُولِ
هَيَّ لِي نَسْمَةً مِنْ رِيحِ بَنِي * وَمُنَى بِالْهُبُوبِ إِلَى جَمِيلِ
وَقُولِي يَا بَشِينَةَ حَسْبُ نَفْسِي * قَلِيلُكَ أَوْ أَقْلُ مِنْ الْقَلِيلِ

ومن قوله :

يَقِيكَ جَمِيلٌ كُلُّ سَوْءٍ أَمَّا لَهُ * لَدَيْكَ حَدِيثٌ أَوْ إِلَيْكَ رَسُولُ
وَقَدْ قُلْتُ فِي حُبِّي لَكُمْ وَصَبَابِي * مُحَاسِنَ شَعِيرٍ ذَكَرْهُنَّ يَطُولُ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَوْلِي رِضَاكَ فَعَلَّامِي * هُبُوبَ الصَّبَا يَابِثُنْ كَيْفَ أَقُولُ
فَمَا غَابَ عَنْ عَيْنِي خَيَالُكَ لِحْظَةً * وَلَا زَالَ عَنْهَا وَالْخِيَالُ يَزُولُ

ومنه :

خَلِيلِي عُوجًا الْيَوْمَ حَتَّى تُسَلِّمًا * عَلَى عَذْبَةِ الْأَنْيَابِ طَيِّبَةِ الدَّشِيرِ
أَلَمَّا بِهَا ثُمَّ اشْفَعَا لِي وَسَلِّمًا * عَلَيْهَا سَقَاهَا اللَّهُ مِنْ سَائِغِ الْقَطْرِ

(١) القوز : المستدير من الرمل ، وقال الأزهري : إنه الكتيب المشرف .

إذا ما دنت زدت اشتياقا وان نأت * جَزَعْتُ لِمَاى الدار منها وللبعد
أبى القلب إلا حبّ بنسة لم يرد * سواها وحبّ القلب بنسة لا يجدى

وفيها يقول :

سلى الركب هل نُجْنَا لَمَغْنَاكِ مَرَّةً * صُدُورَ المَطَايَا وهى مُوقَرَةٌ تُحْدِي^(١)
وهل فاضت العينُ الشُّرُوقُ بِمَاءِهَا * مِنْ أَجْلِكَ حَتَّى أَخْضَلَّ مِنْ دَمْعِهَا بُرْدِي
وإنى لَأَسْتَجِرِي لَكَ الطَّيْرَ جَاهِدًا * لَتَجْرِي بِمَنْ مِنْ لِقَائِكَ أَوْ سَمِعِدِ
وإنى لَأَسْتَبْكِي إِذَا الرُّكْبُ غَرَّدُوا * بِذِكْرِكَ أَنْ يَحْيَا بِكَ الرُّكْبُ إِذْ يَحْدِي
قَهْلَ تَجْزِيئِي أَمْ عَمِيْرُو بَوْدِهَا * فَانَّ الَّذِي أَخْفَى بِهَا فَوْقَ مَا أَبْدَى
وَكَلَّ مُحِبٌّ لَمْ يَزِدْ فَوْقَ عَهْدِهِ * وَقَدْ زِدْتَهَا فِي الْحَبِّ مَنَى عَلَى الْعَهْدِ

ومن قوله فيها :

لَهَا فِي سَوَادِ الْقَلْبِ حُبٌّ وَمَنْعَةٌ * هِيَ الْمَوْتُ أَوْ كَادَتْ عَلَى الْمَوْتِ تُشْرِفُ
وَمَا ذَكَرْتُكَ النَّفْسُ يَا بَشْرُ مَرَّةً * مِنْ الدَّهْرِ إِلَّا كَادَتْ النَّفْسُ تَلْتَفُ
وإلا اعترننى زَفْرَةٌ وَاسْتَكَاثَةٌ * وَجَادَ لَهَا سَجَلٌ مِنَ الْعَيْنِ يَذْرِفُ
وَمَا اسْتَطَرَفَتْ نَفْسِي حَدِيثًا لِحُلَّةٍ * أَسْرُّهُ إِلَّا حَدِيثُكَ أَطْرَفُ

وأول هذه القصيدة :

أَمِنْ مَنْزِلٍ قَفِيرٍ تَعَفَّتْ رِسْمُهُ * شَمَّالٌ تُغَادِيهِ وَنَجَاءٌ حَرْجَفٌ^(٢)
فَأَصْبَحَ قَفْرًا بَعْدَ مَا كَانَ أَهْلًا * وَجُمْلُ الْمُنَى تَشْتَوِي بِهِ وَتُصَيِّفُ
ظَلَلْتُ وَمُسْتَنٌّ مِنَ الدَّمْعِ هَامِلٌ * مِنَ الْعَيْنِ لَمَّا عَجَّتْ بِالْدارِ يَتَرَفُ
أُمْنِصَفَقِي جَمَلٍ فَتَعْدِلَ بَيْنَنَا * إِذَا حَكَمْتُ وَالْحَاكِمُ الْعَدْلُ يُنْصَفُ
تَعَلَّقْتُهَا وَالْجَسْمُ مَنَى مَصْحَحٌ * فَمَا زَالَ يَنْمِي حُبُّ جَمَلٍ وَأَضْعُفُ

(١) موقرة : محملة الوقور وهو الحمل . وخدى البعير يحدى : أسرع وزج بقوامه .

(٢) الحرجف : الريح الباردة الشديدة الهبوب .

الى اليوم حتى سُلَّ جسمي وشَفَّني * وأكثرتُ من نفسي الذي كنتُ أعرف
قَنَاءَةً من المُرَانِ ما فوق حَقْوِها ^(١) * وما تحته منها نَقًّا يتَقَصَّف ^(٢)
لها مُقَلَّتَا رِيمٍ وجيْدُ جَدَايَةٍ ^(٣) * وكَشَّحَ كَطَيَّ السَابِرِيَّةِ أَهْيَفُ
ولستُ بناسِ أَهْلِهَا حينَ أَقْبَلُوا * وجالُوا علينا بالسيوفِ وطَوَّفُوا
وقالوا جَمِيلٌ بات في الحَيِّ عِنْدَهَا * وقد جَرَّدُوا أَسِيافَهُمْ ثم وَقَفُوا
وفي البيتِ لَيْثُ الغَابِ لولا مَخَافَةٌ * على نفسِ جَمِيلٍ والإلهِ لِأُرْعَفُوا
هَمَمْتُ وقد كادت مرارًا تَطْلُعُ * الى حَرَبِهِمْ نَفْسِي وفي الكَفِّ مُرْهَفُ
وما سَرَنِي غيرُ الذي كانَ مِنْهُمْ * ومَنى وقد جاءوا اليَّ وأَوْجَفُوا
فكم مُرْتَجِحُ أَمْرًا أُتِيحَ لَهُ الرَّدَى * ومن خَائِفٍ لم يَنْتَقِصْهُ التَّخَوُّفُ
ومنها :

أَنْ هَتَفْتُ ورَقَاءُ ظَلَّتْ سَفَاهَةً * تُبَكِّي على جَمِيلٍ لورِقَاءِ تَهْتِفُ
فلو كان لي بالصَّرْمِ يَصَاحُ طَاقَةٌ * صَرَمْتُ ولكنني عن الصَّرْمِ أَضْمِفُ

قيل : إن مروان طلب الى جميل أن ينزل فيرجز به ، وهو يريد أن يمدحه ، فنزل

جميل فقال :

أنا جميلٌ في السَّنَامِ الأعْظَمِ * الفَارِجِ النَّاسِ الأعْزِ الأَكْرَمِ
أَحْمِي ذِمَارِي ووجدتُ أَقْرَمِي ^(٥) * كانوا على غَارِبِ طَوْدٍ خَضْرَمِ ^(٦)
* أَعْيَا على النَّاسِ فلم يَهْتَمِ *

فقال : عَدَّ عن هذا ؛ فقال جميل :

لُفَّا على البيتِ المَعْدِي لُفًّا * من بَعْدِ مَا كَانَ قد اسْتَكْفَا
ولو دَعَا اللَّهَ وَمَدَّ الكَفَّ * لَرَجَّفتُ مِنْهُ البِلَادُ رَجْفَا

(١) الحقو : الخصر . (٢) يتقصف : يتهلل ويتقطع بعضه عن بعض . (٣) الجداية :
الغزالة . والسابري : ثوب من أجود الثياب منسوب الى سابور على غير قياس . (٤) يرجزه : يئشده
أرجوزة . (٥) أقرم : جمع قرم (بالفتح) وهو السيد العظيم . (٦) خضرم : عظيم .

وطلب ذلك اليه الوليد فقال :

أنا جميل في السَّنام من مَعَدُّ * في الذروة العليا والركن الأشدُّ
والبيت من سعد بن زيد والعدد * ما يتنقى الأعداء مني ، ولقد
أضيرى بالشَّتم لساني ومرد * أقود من شئت وصعب لم أقد
فقال له الوليد : إركب لاحملك الله ! وما مدح جميل أحدا قط .

ومن قول جميل في مُراجة جَؤاس بن قُطَبة ، وكان ذلك بوادي القُرى :

يا أُم عبد الملكِ أصيرمِني * فَيُفِيَّ صرِمِي أو صِلِي
أبكي وما يُدريك ما يُبكي * أبكي حِذارَ أن تُفارِقيني
وتجعلني أبعَدَ مني دوني * إن بني عَمِّكَ أوصدوني
أن يقطعوا رأسي إذا لَقُونِي * ويقتلونني ثم لا يَدُونِي^(١)
كلا ورب البيت لو لَقُونِي * شَقَعًا وَوَرًّا لَتَوَاكَلُونِي^(٢)
قد علم الأعداء أن دوني * ضربًا كإِزَاغِ الخَاضِ الجُونِ^(٣)
ألا أسبَّ القومَ إذ سَبُونِي * بَلَى وما مرَّ على دفين
وساحباتِ بِلَوَى المَجُونِ * قد جرَّبُونِي ثم جرَّبُونِي
حتى إذا شابوا وشَبَّيُونِي * أخزاهمُ الله ولا يَخْزُونِي
أشبهاء أعيارٍ على مَعِينِ * أَحَسَّنَ حِسِ أسيدِ حَرُونِ
فهَنَ يَضِرُّنَّ من اليَقِينِ * أنا جميل فتَعَرَّفُونِي
وما تَقَنَّنْتُ فَتُنْكَرُونِي * وما أَعْنَيْكُمْ لَتَسْأَلُونِي

(١) يدوني : من الدية وهي ما يعطى لولي القتل من المال بدل النفس . (٢) تواكلوني : تركوني .

(٣) أوزغت الناقة ببوها : رمت به دفعة دفعة . ومنه الطهنة توضع بالدم أي ترمى به كذلك .

أُتْمَى إِلَى عَادِيَّةٍ طَحُونٍ * يَنْشَقُّ عَنْهَا السَّيْلُ ذُو الشُّؤُونِ
عُمَرُ يَرْفُ رُوحَ السَّفِينِ * ذُو حَدَبٍ إِذَا يُرَى حُجُونٌ^(٢)
* تَحُلُّ أَحْقَادُ الرِّجَالِ دُونِي *^(٣)

وَمِنْ قَوْلِهِ يَمْدَحُ أَخْوَالَهُ مِنْ جُذَامٍ :

جُذَامُ سَيُوفُ اللَّهِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ * إِذَا أَرِزْتَ يَوْمَ اللَّقَاءِ أَرَامٍ
هُمْ مَنَعُوا مَا بَيْنَ مِصْرَ فَنَذَى الْقُرَى * إِلَى الشَّامِ مِنْ حِلٍّ بِهِ وَحَرَامٍ
بَضْرِبٍ يُزِيلُ إلهَامَ عَنْ سَكَنَاتِهِ * وَطَعْنٍ كَأَيَّازِغِ الْخَاضِ تَوَامٍ
إِذَا قَصُرَتْ يَوْمًا أَكُفُّ قَبِيلَةٍ * عَنْ الْمَجْدِ نَالَتْهُ أَكُفُّ جُذَامٍ

اجْتَمَعَ جَمِيلٌ وَعُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ بِالْأَبْطَحِ ، فَأَنشَدَهُ جَمِيلٌ قَصِيدَتَهُ :

لَقَدْ فَرِحَ الْوَاشُونَ أَنْ صَرَمْتَ حَبْلِي * بُشَيْنَةً أَوْ أَبَدْتَ لَنَا جَانِبَ الْبُخْلِ
يَقُولُونَ مَهْلًا يَا جَمِيلُ وَإِنِّي * لَا أَقْسِمُ مَا بِي عَنْ بُشَيْنَةٍ مِنْ مَهْلٍ
أَحَلَمَّا فَقَبِلَ الْيَوْمَ كَانَ أَوَانُهُ * أَمْ آخَشَى فَقَبْلَ الْيَوْمِ أُوعِدْتُ بِالْقَتْلِ
لَقَدْ أَنْكَحُوا حَرْبِي بُنْيَمًا طَعِينَةً * لَطِيفَةً طَى الْبَطْنِ ذَاتَ شَوَى جَزْلِ
وَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا سَاعِيًا بِنَيْمَةٍ * لَا تَحْرُمُ يَعْمِدُ بِكَفٍّ وَلَا رَجَلٍ
إِذَا مَا تَرَا جَعْنَا الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا * جَرَى الدَّمْعُ مِنْ عَيْنِي بُشَيْنَةً بِالْكُحْلِ
كَلَانَا بَنَى أَوْ كَادَ يَنْبِكِي صَبَابَةً * إِلَى الْإِلْفِ وَأَسْتَعَجَلْتُ عَهْرَةَ قَبْلِي
فَلَوْ تَرَكْتُ عَقْلِي مَعِيَ مَا طَلَبْتُهَا * وَلَكِنْ طَلَا بِهَا لِمَا فَاتَ مِنْ عَقْلِي
فَيَا وَجْهِ نَفْسِي حَسْبَ نَفْسِي الَّذِي جَاءَ * وَيَا وَجْهِ أَهْلِي مَا أُصِيبَ بِهِ أَهْلِي
وَقَالَتْ لَا تُرَاقِبْ لَهَا لَا زَعَانِفَ * قِصَارٌ وَلَا كُؤُسُ الثَّنَايَا وَلَا تُعْلِلُ^(٥)

- (١) يَرْفُ : يَجْعَلُهَا تَسْرِعُ . (٢) ذُو حَدَبٍ : ذُو مَوْجٍ . (٣) حُجُونٌ : مَوْجٌ .
(٤) أَرِزْتَ : أَشْنَدْتَ . (٥) الْكُؤُسُ : مَحْرُكَةٌ : قَصَرَ الْأَسْنَانُ أَوْ صَفَرَهَا أَوْ لَصِقَ بِهَا بِسُوءِهَا .
وَعَلَّتْ سَنَهُ وَلْتَهُ فَهِيَ تَعْلَاهُ : تَرَكَبْتَ أَسْنَانَهَا .

إذا حَمِيتْ شمسُ النهارِ آتَقِيَتْهَا * بأَكْسِيَةِ الدِّيَاجِ والخَزْذَى الخَمَلِ
تَدَاعَيْنِ فَاسْتَعْجَمْنَ مَشِيًّا بِذَى الْغَضَى * دَرِيبَ الْقَطَا الكُدْرَى في الدَّمِثِ السَّهْلِ
إذا آرَتْنِ أَوْ فُزَعْنَ فَمَنْ حَوَّالَهَا * قِيَامَ بَنَاتِ الْمَاءِ في جَانِبِ الضُّحَلِ^(٢)
أَجِدَّكَ لَا أُلْقَى بُثْنَةً مَرَّةً * مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا خَائِفًا أَوْ عَلَى رَجُلٍ
خَلِيلٍ فَمَا عَشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا * قَتِيلًا بَكَى مِنْ حَبٍّ قَاتِلَهُ قَبْلَى
أُيِّتُ مَعَ الْمَلَأِ ضَيْفًا لِأَهْلِهَا * وَأَهْلَى قَرِيبٍ مُوسِعُونَ ذُو وَفَضْلِ
أَلَا أَيُّهَا الْبَيْتُ الَّذِي حَمِلَ دُونَهُ * بِنَا أَنْتَ مِنْ بَنِي وَأَهْلِكَ مِنْ أَهْلَى
ثَلَاثَةِ أَيْبَاتٍ فَبَيْتُ أَحَبِّهِ * وَبَيْتَانِ لَيْسَا مِنْ هَوَايَ وَلَا شَكْلَى

وقال في هجرة هجرته إياها بشينة :

أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبْعَ الْقَوَاءَ فَيَنْطِقُ * وَهَلْ تُخْبِرُنِيكَ الْيَوْمَ بَيْسَاءُ سَمَلِقُ^(٤)
وَقَفْتُ بِهَا حَتَّى تَجَلَّتْ عَمَائِي * وَمَلَّ الْوُقُوفَ الْأَرْحَى الْمُنَوَّقُ^(٥)
تَعَزَّوْا وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْكَ كَرِيمَةٌ * لَعَلَّكَ مِنْ رِقِّ لَبَنَةٍ تُعْتَقُ
لَعَمْرُكَ إِنْ الْبِعَادَ لَشَائِقُ * وَبَعْضُ بَعَادِ الْبَيْنِ وَالنَّأَى أَشَوْقُ
لَعَلَّكَ مَحْزُونٌ وَمُمِدَّ صَبَابَةٍ * وَمُظْهِرُ شَكْوَى مِنْ أَنْاسٍ تَفَرَّقُوا
وَبَيْضُ غَيْرَاتٍ تُثْنِيْ خُصُورَهَا * إِذَا فُئِنَ أَعْجَازُ نِقَالٍ وَأَسْوَاقُ
عَزَائِرُ لَمْ يَلْقَيْنِ بَوْسَ مَعِيشَةٍ * يُجِنُّ بَيْنَ النَّاسِطِرِ الْمُنَوَّقِ
وَضَلَعْتُ مِنْ وَجَدٍ لِيَهِنٍ بَعْدَ مَا * سَرَيْتُ وَأَحْشَأْنِي مِنَ الْخَوْفِ تَخْفُقُ
مَعِيَ صَارْمٌ قَدْ أَخَاصَ الْقَيْنُ صَقْلَهُ * لَهُ حِينَ أُغْشِيهِ الضَّرْبِيَّةَ رَوْنَقُ
فَلَوْلَا أَحْتِيَائِي ضِمْنِ ذَرْعَا بَزَائِرِ * بِهِ مِنْ صَهَابَاتِ الْيَهِنِ أَوْلَقُ^(٦)

(١) بنات الماء : ما يَأْلَفُ الْمَاءُ مِنَ السَّمَكِ وَالطَّيْرِ وَالضَّفَادِعِ (أَنْظُرِ الْمَضَافَ وَالْمُضَافَ إِلَيْهِ) .

(٢) الضحل : الماء القليل على الأرض لا عمق له . (٣) الهلاك : الصعاليك . (٤) السملق :

القاع الصفصف . (٥) الأرحى : الفحل النجيب نسبة إلى أرحب وهي قبيلة من همدان تنسب

إليها النجائب الأرحبية . والمنوق : المحسن المزين . (٦) أولق : جنون .

تَسُوكُ بِقُضْبَانِ الْأَرَاكِ مُفَاجَا * يُسْمَعُ شِعْرُ فِيهِ الْفَارِسِيُّ الْمُرَوِّقُ
أَبْنَةُ لَلْوَصَلُ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا * نَضًا مِثْلَ مَا يَنْضُو الْخَضَابُ فَيَخْلُقُ
أَبْنَةُ مَا تَنَائِيَنَّ إِلَّا كَأَنِّي * بِنَجْمِ الثَّرِيَا مَا نَأَيْتِ مُعَلَّقُ
قال الرشيد لإسحاق الموصلي : أنشدني أحسن ما يُحِبُّ في عتابٍ مُحِبٍّ وهو ظالم
مَتَعَبٌ ، فَأَنشده قول جميل :

رِدِّ الْمَاءَ مَا جَاءَتْ بِصَفْوِ ذَنَائِبِهِ * وَدَعَهُ إِذَا خِيَضَتْ بِطَرَقِ مَشَارِبِهِ
اعَاتِبْ مَنْ يَحْلُو لَدَى عَتَابِهِ * وَأَتْرُكْ مَنْ لَا أَشْتَهِي وَأُجَانِبُهُ
وَمَنْ لَذَّةِ الدُّنْيَا وَإِنْ كُنْتَ ظَالِمًا * عَنَّا قُلْ مَظْلُومًا وَأَنْتَ تَعَاتِبُهُ
وَمَنْ قَوْلُهُ فِي زِيَارَةِ لَهُ :

زُورًا بِنَهْنَةٍ فَالْحَبِيبُ مَرْوَرُ * إِنِ الزِّيَارَةُ لِلْحَبِيبِ يَسِيرُ
إِنِ التَّرَحُّلُ أَنْ تَلْبَسَ أَمْرُنَا * وَأَعْتَقْنَا قَدَرًا أَحْمَ بَكُورُ
إِنِّي عَشِيَّةٌ رُحْتُ وَهِيَ حَزِينَةٌ * تَشْكُو إِلَى صَبَابَةٍ لَصَبُورُ
وَتَقُولُ بِي عِنْدِي فَدَيْتُكَ لَيْلَةً * أَشْكُو إِلَيْكَ فَإِنْ ذَاكَ يَسِيرُ
غَرَاءُ مُبْسَامٍ كَأَنْ حَدِيثَهَا * دُرٌّ تَحْدَرُ نَظْمُهُ مِنْشُورُ
مَحْطُوطَةُ الْمُتَنِينَ مُضْمَرَةُ الْحَشَى * رِيًّا الرَّوَادِفُ خَلْفُهَا مَمْكُورُ
لَا حُسْنَهَا حُسْنٌ وَلَا كَدْلَاهَا * دَلٌّ وَلَا كَوَقَارُهَا تَوْقِيرُ
إِنِ اللِّسَانُ بِذِكْرِهَا لَمَوْكَلٌ * وَالْقَلْبُ صَادٍ وَالْحَوَاطِرُ صُورُ
وَلَيْتَ بَحْرِيَّتِ الْوَدَّ مَنَى مِثْلَهُ * إِنِّي بِذَلِكَ يَا بُيَّتِينَ جَدِيرُ
وَعَدْلُهُ فِيهَا أَبْنُ عَمِّهِ رَوْقٌ ، فَقَالَ :

لَقَدْ لَامَنِي فِيهَا أَخٌ ذُو قَرَابَةٍ * حَبِيبٌ إِلَيْهِ فِي مَلَامَتِهِ رُشْدِي
وَقَالَ أَفَنِي حَقِّي مَتَى أَنْتَ هَائِمٌ * بِنَهْنَةٍ فِيهَا قَدْ تُعِيدُ وَقَدْ تُبْهِدِي

(١) الطرف : الماء الذي خوضته الابل وبقات فيه وبهرت .

(٢) محطوطة المتنين : ممدودتهما ، والممكورة : المطوية الخلق .

فقلتُ له فيها قضي اللهُ ما ترى * علىَّ وهل فيما قضي اللهُ من ردِّ
فإن يكُ رُشدًا حبَّها أو غَوَايَةً * فقد جئتُها، ما كان مني على عهد
لقد جَلَّ ميثاقُ من الله بيننا * وليس لمن لم يُوفِّ الله من عهد
فلا وأبيها الخَيْرُ ما خنتُ عهدَها * ولا لي علمٌ بالذي فعلتُ بعدى
وما زادها الواشُونَ إلا كرامةً * علىَّ وما زالت مودَّتُها عندي
أفي الناس أمثالي أحبُّ بفاطِم * كحالي أم أحبَّت من بينهم وحدي
وهل هكذا يلقى المحبُّون مثل ما * لقيتُ بها أم لم يجد أحدٌ وجدى

وقال فيها :

خليلىَّ عوجا اليومَ حتى تُسَلِّما * على عَذْبَةِ الأنيابِ طيِّبَةِ النَّشْرِ
أليَّا بها ثم أشفعا لي وسَلِّما * عليها سَقَّاهَا اللهُ من سائغِ القطرِ
وَبُوحَا بذكرى عند بَشَّةٍ وأنظرا * أترتاح يوما أم تهشَّ إلى ذكرى
فإن تلك لم تقطع قُوى الودِّ بيننا * ولم تنس ما أسلفتُ في سالف الدهرِ
فكيف يرى منها أشتياقٌ ولوعةٌ^(١) * بينَ وغربٌ من مدامعها يجرى
وإن تك قد حَالَتْ عن العهد بعدنا * وأصغتُ إلى القولِ المؤنبِ والمُزرى
فسوف يرى منها صُدودٌ ولم تكن * - بنفسي - من أهل الخيانة والغدرِ
أعودُ بك اللهم أن تَشحطَ النوى * ببشَّةٍ في أدنى حياتي ولا حَشْرَى
وجاورُ إذا ما مِتُّ بيني وبينها * فيا حبذا موتي إذا جاورتُ قبري
عِدْمَتِكَ من حبٍّ أَمَّا منك راحةٌ * وما بك عني من تَوَانٍ ولا فترِ
ألا أيها الحبُّ المبرِّحُ هل ترى * أخوا كَلَفٍ يُغري بحبٍّ كما أُغري
أجددك لا يَبْلَى وقد بَلَى الهوى * ولا يَنْتَمي حبي ببشَّةٍ للزجرِ

(١) هكذا وردت « فكيف » ولعلها فسوف ليستقيم بها السياق .

ومن قوله فيها :

قَفِي تَسْلُ عَنْكَ النَّفْسُ بِالْخُطَّةِ الَّتِي * تُطِيلُنِ تَخْوِيفِي بِهَا وَوَعِيدِي
فَقَدْ طَالَمَا مِنْ غَيْرِ شَكْوَى قَبِيحَةٍ * رَضِينَا بِحُكْمِ مَنْكَ غَيْرِ سَادِدِ
ومنه :

بُشَيْنَ سَلِينِي بَعْضَ مَالِي فَإِنَّمَا * يَبِينُ عِنْدَ الْمَالِ كُلِّ بِخِيلِ
فَإِنِّي وَتَكَرَّرَ الزِّيَارَةُ نَحْوَكُمْ * لَبِينُ يَدِي هَجْرُ بُشَيْنَ طَوِيلِ
فِيَالَيْتَ شَعْرِي هَلْ تَقُولِينَ بَعْدَنَا * إِذَا نَحْنُ أَزْمَعْنَا غَدًا لِرَحِيلِ
أَلَا لَيْتَ أَيَّامَا مَضَيْنِ رَوَائِعُ * وَلَيْتَ النَّوَى قَدْ سَاعَدَتْ بِجِيلِ
ومنه :

أَتَعْجَبُ أَنْ طَرِبْتُ لَصَوْتِ حَادٍ * حَدَا بُزْلًا يَسْرُنُ يَبْطِنُ وَادٍ
فَلَا تَعْجَبُ فَإِنَّ الْحَبَّ أَمْسَى * لَبَثْنَةُ فِي السَّوَادِ مِنَ الْقَوَادِ
ومنه :

خَلِيلٌ عَوَجًا بِالْمَحَلَّةِ مِنْ جُمُلِ * وَأَتْرَايَهَا بَيْنَ الْأَصْفِيفِ وَالْخَلِيلِ
نَقِفُ بِمَغَانٍ قَدْ مَحَا رَسْمَهَا إِلَيَّ * تُعَاقِبُهَا الْأَيَّامُ بِالزَّيْجِ وَالْوَبْلِ
فَلَوْ دَرَجَ النَّمْلُ الصِّغَارُ بِجِلْدِهَا * لِأَلَدَبِ أَعْلَى جِلْدِهَا مَدْرَجُ النَّمْلِ
وَأَحْسَنُ خَلَقَ اللَّهُ جَيِّدًا وَمُقَلَّةً * تُشَبِّهُ فِي النَّسْوَانِ بِالشَّادِنِ الطُّفْلِ^(١)
ومن قوله :

أَمِنْكَ سَرَى يَا بَنِي طَيْفٍ تَأْوَبَا * هُدُّوْا فَهَاجَ الْقَلْبَ شَوْقًا وَأَنْصَبَا
عَجِبْتُ لَهُ أَنْ زَارَ فِي النَّوْمِ مَضْجَعِي * وَلَوْ زَارَنِي مُسْتَبْقِظًا كَانَتْ أَعْجَابَا

لَمَّا قَدِمَ جَمِيلٌ مِنَ الشَّامِ بَلَغَ بِشَيْئَةِ خَبَرِهِ ، فَأَرْسَلَتْهُ مَعَ بَعْضِ نِسَاءِ الْحَيِّ تَذَكُّرُ شَوْقِهَا
إِلَيْهِ وَوَجَدَهَا بِهِ ، وَطَلَبَهَا لِلْحَيْلَةِ فِي لِقَائِهِ ، وَوَعَدَتْهُ لِمَوْضِعٍ يَلْتَقِيَانِ فِيهِ ، فَسَارَ إِلَيْهَا وَحَدَّثَهَا

(١) الطفل : الرخص الناعم من كل شيء .

طويلاً وأخبرها خبره بعدها ، وقد كان أهلها رَصَدوها ، فلما فَقَدوها تَبِعَها أبوها وأخوها
حتى هجا عليهما ، فوثب جميلٌ فانتضى سيفه وشد عليهما ، فاتقياه بالحرب ، وناشدته بشينة
الله إلا أنصرف ، وقالت له : إن أقمت فضحتني ، ولعل الحى يُلحقونك ، فأبى وقال :
أنا مقيم وأمضى أنت وليصنعوا ما أحبوا ، فلم تزل تناشده حتى آنصرف وقال في ذلك ،
وقد هجرته وأتقطع التلاقي بينهما مدة :

هى البدرُ حُسْنًا والنساءُ كواكبٌ * وشَتان ما بين الكواكب والبدر
لقد فضلتُ حسناً على الناس مثل ما * على ألف شهرٍ فضلت ليلةً القدر

وقال :

لقد خفتُ أن يغتالني الموتُ عَنوةً * وفى النفس حاجاتُ اليك كما هيأ
وإني لتُثني الحفيظةُ كلما * لقيتُك يوماً أن أبئك ما يبى
ألم تعلمي يا عذبة الرِّيق أننى * أطلّ اذا لم أُسقى ريقك صاديا
ورحل الى مصر فأدركته بها منبته ، فزعموا أنه قال حين حضرته الوفاة :

صَدَعَ النَّبِيُّ وما كُنَى بجميل * وثوى بمصر ثواء غير قُفُول
واقعد أجرّ الذيل في وادى القرى * تشوان بين مزارع ونخيل
قوى بشينة فاندبى بعويل * وابكى خليلك دون كل خليل

ولما أنشدت بشينة قول جميل قالت :

وإن سلوى عن جميل لساعة * من الدهر ما حانت ولا حان حينها
سواء علينا يا جميل بن معمر * اذا مت بأساء الحياة ولينها

وقال :

رحل الخليطُ جهلهم بسواد * وحداً على أثر البخيلة حادى
ما إن شعرت ولا سمعت ببينهم * حتى سمعت به الغراب ينادى

لَمَّا رَأَيْتُ الْبَيْنَ قُلْتُ لِصَاحِبِي * صَدَعْتُ مُصَدَّعَةَ الْقُلُوبِ فَوَادِي
بَانُوا وَغُودِرَ فِي الدِّيارِ مُتَمِّمٌ * كَلَّفَ بِذِكْرِكَ يَا بُشَيْنَةُ صَادِي

وقال أيضا :

خَلِيلِي هَلْ فِي نَظْرَةِ بَعْدِ تَوْبَةٍ * أَدَاوِي بِهَا قَلْبِي عَلَى بَحُورِ
إِلَى رُجَحِ الْأَكْفَالِ هَيْفَ خُصُورُهَا * عَذَابِ النَّسَايَا رِيْقُهُنَّ طُهُورِ
تَذَكَّرْتُ مَنْ أَحْصَحْتُ قُرَى اللَّذْدُونَةِ * وَهَضْبُ لَيْتِيَا وَالْهَضَابُ وَعُورِ
فَظَلْتُ لِعَيْنَيْكَ الْجُلُوجِينَ عَبْرَةً * يَهِيْجُهَا بَرْحُ الْهَوَى فَتَمُورِ
عَلَى أَنْيِّ بِالْبَرْقِ مِنْ تَحْوِ أَرْضِهَا * إِذَا قَصَرَتْ عَنْهُ الْعَيُونُ بِصَيْرِ
وَلَمَّا إِذَا مَا الرِّيحُ يَوْمًا تَنَسَّمَتْ * شَامِيَّةً عَادَ الْعِظَامُ قُتُورِ
أَلَا يَا غُرَابَ الْبَيْنِ لَوْ أَنَّكَ شَاحِبٌ * وَأَنْتَ بَرَوَاتِ الْفِرَاقِ جَدِيرِ
فَإِنْ كَانَ حَقًّا مَا تَقُولُ فَأَصْبَحْتُ * هُمُومُكَ شَقِيٍّ وَالْجَنَاحُ كَسِيرِ
وُدُرْتُ بِأَعْدَاءِ حَبِيبِكَ فِيهِمْ * كَمَا قَدْ تَرَانِي بِالْحَبِيبِ أَدُورِ
وَكَيْفَ بِأَعْدَاءِ كَأَنَّ عَيُونَهُمْ * إِذَا حَانَ لِمُتَيَّانِي بُشَيْنَةُ عُورِ
فَإِنِّي وَإِنْ أَصْبَحْتُ بِالْحَبِّ عَالِمًا * عَلَى مَا بَعَيْنِي مِنْ قَدَى نَحِيرِ

وله أيضا :

فَلَوْ أَرْسَلْتُ يَوْمًا بُشَيْنَةَ تَبْتَغِي * يَمِينِي وَلَوْ عَزَّتْ عَلَى يَمِينِي
لَأَعْطَيْتُهَا مَا جَاءَ يَبْتَغِي رَسُولُهَا * وَقُلْتُ لَهَا بَعْدَ الْيَمِينِ سَلِينِي
سَلِينِي مَا لِي يَا بُشَيْنُ فَإِنَّمَا * يُبَيِّنُ عِنْدَ الْمَالِ كُلِّ صَبِينِ
فَمَا لَكَ لَمَّا خَبَّرَ النَّاسُ أَنِّي * أَسَأْتُ بِظَهْرِ الْغَيْبِ لَمْ تَسَلِينِي
فَأُبَيِّ عُدْرًا أَوْ أَجَىءَ بِشَاهِدٍ * مِنَ النَّاسِ عَدْلٍ أَنَّهُمْ ظَالِمُونِي
وَلَسْتُ وَإِنْ عَزَّتْ عَلَى بَقَائِلِ * لَهَا بَعْدَ صَرِيمِ يَا بُشَيْنُ صِلِينِي

وَنَبِّئْتُ قَوْمًا فِيكَ قَدْ نَذَرُوا دِمِي * فليْتَ الرجال المُوْعِدِينَ لِقَوْنِي
إِذَا مَا رَأَوْنِي مُقْبِلًا عَنْ جَنَابِي * يقولون مَنْ هَذَا وَقَدْ عَرَفُونِي

وله أيضا :

تَنَادَى آلُ بَنْدَةِ بِالرَّوَّاحِ * وقد تَرَكُوا فُؤَادَكَ غَيْرَ صَاحِ
فِيَا لَكَ مَنَظَرًا وَمَسِيرَ رَكْبٍ * تَشْجَانِي حِينَ أَمَعَنَّ فِي الْفَيَاحِ
وِيَا لَكَ خُلَّةً ظَفِرْتُ بِعَقْلِي * كَمَا ظَفِرَ الْمُقَامِرُ بِالْقِدَاحِ
أُرِيدُ صِلَاحَهَا وَتُرِيدُ قَتْلِي * فَشَتَّى بَيْنَ قَتْلِي وَالصَّلَاحِ
لَهْمُ رَأْبِيكَ لَا تَجِدِينَ عَهْدِي * كَعَهْدِكَ فِي الْمَوْدَةِ وَالسَّامِحِ
وَلَوْ أُرْسَلَتْ تَسْتَهْدِينَ نَفْسِي * أَنَا لِكَ بِهَا رَسُولُكَ فِي سَرَاحِ

وله أيضا :

فَإِنْ يَكُ جُثْمَانِي بَارِضٍ سِوَاكُمْ * فَإِنَّ فُؤَادِي عِنْدَكَ الدَّهْرَ أَجْمَعُ
إِذَا قُلْتُ هَذَا حِينَ أُسْلُو وَأَجْتَرِي * عَلَى صِرْمِهَا ظَلَّتْ لَهَا النَّفْسُ تَشْفَعُ
وَإِنْ رُمْتُ نَفْسِي كَيْفَ آتَى لَصْرْمَهَا * وَرُمْتُ صِدُودًا ظَلَّتْ الْعَيْنُ تَسْمَعُ

وله أيضا :

أَلَمْ تَعْلَمِي يَا عَذْبَةَ الْمَاءِ أَنِّي * أَظَلُّ إِذَا لَمْ أُسْقَ مَاءِيكَ صَادِيَا
وَمَا زِلْتِ بِي يَا بَنُّنُ حَتَّى لَوْ أَنِّي * مِنَ الْوَجْدِ اسْتَبَيْكِي الْحَمَامُ بَكِي لِيَا
وَدِدْتُ عَلَى حُبِّ الْحَيَاةِ لَوَأْنَهَا * يُزَادُ لَهَا فِي عَمْرِهَا مِنْ حَيَاتِيَا

وله أيضا :

وَقُلْتُ لَهَا أَعْتَلَّتْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ * وَشَرُّ النَّاسِ ذُو أَعْلَالٍ الْبَخِيلُ
فَقَالَتْنِي إِلَى حَكَمٍ مِنْ أَهْلِي * وَأَهْلِكَ لَا يَحِيفُ وَلَا يَمِيلُ
فَقَالَتْ أُنَبِّئُ حَكَمًا مِنْ أَهْلِي * وَلَا يَذْرَى بِنَا آلُ وَاشِي الْحَوْلُ
فَوَلَّيْنَا الْحُكُومَةَ ذَا سُجُوفٍ * أَخَا دُنْيَا لَهُ طَرَفٌ كَلِيلُ

فقلنا ما قَضَيْتَ به رَضِينَا * وَأَنْتَ بِمَا قَضَيْتَ به كَفِيل
 قضاؤك نافذ فأحكم علينا * بما تهوى ورأيك لا يفيل
 فقلت له قُتِلْتُ بغير جُرم * وَغِبُّ الظلم مَرْتَعَهُ وَيَسِيل
 فَسَلْ هَذِي مَتَى تُقْضَى دُيُونِي * وهل يقضيك ذو العَلَلِ المَطُول
 فقالت إن ذا كَذِبٌ وَبُطْلٌ * وَشَرٌّ من خُصومته طَوِيل
 أَقْتُلْهُ وَمَالِي من سَلاح * وما بِي لو أَقَاتِلْهُ حَوِيل^(١)
 ولم أَخْذْ له مالا فَيُلْفَى * له دَيْنٌ عَلَى كَمَا يَقُول
 وعند أميرنا حُكْمٌ وَعَدْلٌ * ورأى بعد ذلكمُ أصِيل
 فقال أميرنا هاتوا شهودا * فقلت شهيدنا الملك الجليل
 فقال يَمِينُها وبذاك أَقْضَى * وكلُّ قضاائه حَسَنٌ جَمِيل
 فَبَتَّتْ حَلْفَةً ما لى لديها * نَقِيرُ أَدْعِيه ولا فَتِيل
 فقلت لها وقد غُلِبَ التَّعَزَّى * أما يُقْضَى لَنَا يا بَثْنُ سُؤْلُ
 فقالت ثم زَجَّتْ حاجبيها * أَطَلَّتْ وَلَسْتُ في شَيْءٍ تُطِيل
 فلا يَجِدَنَّكَ الأعداءُ عَسَدِي * فَتَشْكَلَنِي وَإِيَّاكَ الشُّكُول

وله أيضا :

حَلَفْتُ يَمِينًا يا بُشِينَةُ صادقا * فإن كنتُ فيها كاذبا فَعَمِيْتُ
 إذا كان جِلْدٌ غير جِلْدِكَ مَسْنِي * وبأشْرِي دُونَ الشُّعارِ شَرِيْتُ^(٢)
 ولو أن راقِي الموت يَرَقِي جَنَازَتِي * بِمَنْطِقِها في النَّاظِقِينَ حَيَّتْ

وقال أيضا :

فقد لَانَ أَيَّامُ الصَّبَا ثُمَّ لم يَكَدْ * مِنَ الدَّهْرِ شَيْءٌ بَعْدَهُنَّ يَكِينُ
 ظُعائن ما في قُرْبَيْنٍ لَذِي هَوَى * مِنَ النَّاسِ إِلَّا شِقْوَةٌ وَفُتُونُ

(١) الحويل : القوة والخذق والقدرة على التصرف . (٢) يقال : شرى جلده : حرج عليه الشرى ، وهو بشور صغار حمر حكاكة مكرهة تحدث دفعة واحدة غالبا وتشتد ليلا لبخار حارٍ يشور في البدن دفعة .

وواكلنه والههم ثم تركنه * وفي القلب من وجد بهن رهين
 فواحسرتا إن حيل بيني وبينها * وياحين نفسي كيف فيك تحين
 فشيب روعات الفراق مفارق * وأنشزن نفسي فوق حيث تكون
 شهدت بأنني لم تغير مودتي * وأنى بكم حق المات ضنين
 وأن فؤادي لا يلين الى هوى * سواك وإن قالوا بلى سيلين
 وإنى لأستغشى وما بى نعمة * لعل لقاء في المنام يكون
 ولما علوت اللابتين تسوقت * قلوب الى وادي القرى وعيون
 كأن دموع العين يوم تحمات * بشينة يسقيها الرشاش معين
 ورحن وقد ودعن عندي لبانة * لبنة سر في الفؤاد كمين
 كسير الثرى لم يعلم الناس أنه * نوى في قرار الأرض وهو دفين
 فإن دام هذا الصرم منك فإني * لأعبر هاري الجانيين رهين
 لكما يقول الناس مات ولم آهن * عليك ولم تنهت منك قرون

(ج) الغزل الصناعي

(١)
كثير

قال أبو الفرج قال محمد بن عبد العزيز: ما قصّد القصيدة ولا نعت الملوكة مثل كثير. وقال إبراهيم بن سعد: إني لأروى لكثير ثلاثين قصيدة أو رُقي بها مجنون لأفاق، وكان بعض أصحاب الحديث يأتونه، وهو خبيث النفس، فيسألونه عن شعر كثير فتطيب نفسه ويحدثهم. وقال عبد الله بن أبي عبيدة: من لم يجمع من شعر كثير ثلاثين لامية فلم يجمع شعره. وكان ابن أبي عبيدة يملئ شعره بثلاثين ديناراً. وسئل مضعب: من أشعر الناس؟ فقال: كثير بن أبي جهم، وقال: هو أشعر من جرير والفرزدق والرأعي وعامتهم، يعني الشعراء. ولم يدرك أحد في مديح الملوكة ما أدرك كثير. وقال محمد بن سلام: كان كثير شاعراً أهل الججاز، وهو شاعر فحل ولكنه منقوص حظّه بالعراق. وقال يونس النحوي: كثير أشعر

(١) هو كثير بن عبد الرحمن من خزاعة، ويعرف بكثير عزة، نسبة إلى عشيقته التي كان يشب بها. وكان يدخل على عبد الملك وينشده، وكان رافضياً شديد التعصب لآل أبي طالب، وكان عبد الملك يعرف ذلك فيه فلا ينكره، فإذا أراد أن يصدقه بشيء، حلفه على. وكان له صديق اسمه خندق الأسدي، شديد التشيع مثله، وبلغ من جرأة خندق هذا أنه وقف مرة في الموسم والناس مزدحمون وقال: «أيها الناس، إنكم على غير حق، قد تركتم بيت نبيكم والحق لم وهم الأئمة» فوثب عليه الناس، فضر به ورموه حتى قتلوه، ودفن خندق بقنونا، فقال إذ ذاك كثير يرثيه.

أصادرة ججاج كعب ومالك * على كل عجلي ضامر البطن محقق

بمريثه فيها ثناء محبر * لأزهر من أولاد مرة مرق

والقصيدة طويلة. أما معشوقته عزة فهي بنت حميد بن وقاص من ضمرة، وكانت من أحمل النساء وآدبهن وأعقلهن. ويقال إنه لم ير لها وجهاً إلا أنه آسبهم بها قلبه لما ذكر له عنها. وعاتبه بعض أهلها فقالوا: «قد شهرت نفسك وشهرت صاحبتنا فأكفف نفسك» فقال: «إني لا أذكرها بما نكرهون».

وأتفق خروجهم إلى مصر في عام الجلاء، فنبههم على راحلته فزجروه فأبى إلا أن يلحقهم، فتربص له بعضهم في بعض الطريق وقبضوا عليه وجعلوه في جيفة حمار وربطوها عليه فز به صديقه خندق فأطلقه وألحقه ببلاده. وكان كثير دميماً قليلاً حراً فيشر عظيم الهامة قبيحاً. وأكثر أشماره في عزة هذه. توفي سنة ١٠٥ هـ، وأخباره كثيرة نجدها في الأغاني (ج ١١ ص ٤٦) و(ج ٨ ص ٢٧) و(ج ٧ ص ٧٨) والشعر والشعراء (ص ٣١٦) وابن خلكان (ج ١ ص ٣٣) والعقد الفريد (ج ١ ص ١١٥ و ٢٠٣) وخرانة الأدب (ج ٢ ص ٣٨١) وله ديوان شرحه أبو عبد الله الرشيدى منه نسخة خطية في الاسكوريال.

أهل الإسلام، وكان ابن أبي حَفْصَةَ يعجبه مذهبه في المديح جدا، ويقول: كان يستقصي المديح، وكان فيه مع جودة شعره خَطلٌ وعُجْب. وقال المِسُور بن عبد الملك: ما ضَرَّ مَنْ يروى شعر كثيرٍ وبَحِيلُ ألا تكون عنده مغنيتان مطربتان.

وكان قصيرا، قال الواقسي: رأيتُ كثيرا يطوف بالبيت، فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فكذب به. وكان إذا دخل على عبد العزيز بن مروان يقول: طَاطِءُ رَأْسِكَ لَا يُصِيبُهُ السَّقْفُ. وقال كثير: في أي شيء أعطى هؤلاء الأخوص عشرة آلاف دينار؟ قالوا: في قوله فيهم:

وما كان مالى طارفاً من تجارة * وما كان ميراثا من المسال مُتَسَلِّداً
ولكن عطايا من إمامٍ مبارك * مَلَأَ الأَرْضَ مَعْرِفاً وجُوداً وسُودداً
فقال كثير: إنه لَضَرِعٌ قَبَّحَهُ اللهُ! ألا قال كما قلت:

دع عنك سَأَمِي إذ فات مَطْلَبُهَا * وأذ كر خَلِيلِيكَ من بني الحَكَمِ
ما أعطيتاني ولا سَأَلْتَهُمَا * أَلَا وَإِنِّي لِحَاكِمِي صَكْرِي
إني متى لا يَكُن نَوَاطِلُهَا * عندي بما قد فعلتُ أَحْتَشِمُ
مُبْدِي الرِّضَا عنهما ومنصِرْفٌ * عن بعض ما لو فعلتُ لم أَلِمُ
لَا أَنْزِرُ النَّائِلَ الخَلِيلَ إذا * ما أَعْتَلَّ نَزْرُ الظُّؤُودِ لم تَرَمُ
وطلب من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أرضاً له يقال لها: غُرَب، وقدم بين يدي طلبه تلك الأبيات:

جَرَّتْكَ الجَوَازِي عن صديقك نَهْمَةً * وأدناكَ رَبِّي في الرفيقِ المَقْرَبِ
فإنك لَا يُعْطَى عَلَيْكَ ظُلَامَةٌ * عدُوٌّ وَلَا تَتَأَيَّ عَنِ المُنْتَقِرِ
وإنك ما تَمْنَعُ فإنك ما نَسِعُ * بحَقِّ وما أعطيتَ لم تَتَعَقَّبِ
فقال له: أترغب غُرَباً؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: آكتهوها، ففعلوا.

(١) يقول: لا أحم عليه بالمسألة، يقال: نزرته أنزره إذا أهدت عليه، والظُّؤُود: العاطة على أولاد غيرها. ولم ترم: لم ترم.

وُسِبَ كثيرٌ لكثرة نسبه بَعْرَة الصَّمْرِيَّة إليها، وعُرف بها فقيلاً : كثير عِزَّة، وهى عِزَّة أبنه حميد بن وقاص. وكان ابتداء عشقه إياها أنه مر بنسوة من بنى صَمْرَة ومعه جَلَب غنم، فأرسلن إليه عِزَّة وهى صغيرة، فقالت : يقلن لك النسوة : بعنا كبشاً من هذه الغنم وأنسئنا بمنه الى أن ترجع، فأعطاها كبشاً، وأعجبته، فلما رجع جاءت امرأة منهن بدراهمه؛ فقال : وأين الصبيبة التى أخذت منى الكبش ؟ قالت : وما تصنع بها وهذه درايمك ؟ قال : لا آخذ درايمى إلا ممن دفعت الكبش إليها، وخرج وهو يقول :

قَضَى كُلُّ ذِي دِينَ فَوْقَ غَرِيمَةٍ * وَعِزَّةٌ مَمْلُوءٌ مَعْنَى غَرِيمِهَا
فكان أول لقائه إياها . ثم قال فيها :

نَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظْرَةً وَهِيَ عَاتِقٌ * عَلَى حِينِ أَنْ شَبَّتْ وَبَانَ نُحُودُهَا
وَقَدْ دَرَعُوهَا وَهِيَ ذَاتُ مَوْصِدٍ * مَجُوبٌ وَلَمَّا يَلْبَسُ الدَّرْعَ رِيْدُهَا
مِنَ الْخَيْفَرَاتِ الْبَيْضِ وَدَّ جَلِيسُهَا * إِذَا مَا أَنْقَضَتْ أَحْدُوْتَهُ لَوْ تَعِيْدُهَا
نَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظْرَةً مَا يَسْرُنِي * بِهَا مُحْرَأْنَعَامُ الْبِلَادِ وَسُودُهَا
وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ سَعْدِي بِأَرْضِهَا * أَرَى الْأَرْضَ تَطْوِي لِي وَيَدْنُو بَعِيدُهَا
ثم أحبه بعد ذلك عِزَّة أشد من حبه إياها .

قال محمد بن صالح الأسلمى : دخلت عِزَّة على عبد الملك بن مروان وقد عَجَزَتْ ؛ فقال لها : أأنت عِزَّة كثير؟ فقالت : أنا عِزَّة بنت حميد؛ قال : أنت التى يقول لك كثير : لَعِزَّة نَارٌ مَا تَبُوحُ كَأَنهَا ^(٢) * إِذَا مَا رَمَقْنَاهَا مِنَ الْبَعْدِ كَوُكْبُ

فما الذى أعجبه منك ؟ قالت : كلا يا أمير المؤمنين، لقد كنت فى عهده أحسن من النار فى الليلة القَرَّة . ويروى أنها قالت له : أعجبه منى ما أعجب المسلمين منك حين صيرونك خليفةً، وكانت له سن سوداء يخفيها، فضحك حتى بدت، فقالت له : هذا الذى أردت أن أبديه؛ فقال لها : هل تروين قوله :

(١) مؤصد : ألبس الأصداء (بالضم) وهى قبص صغير يلبس تحت الثوب . والمجوب : القميص ذو الجيب .
والرند (يهمز ولا يهمز) : الترب . (٢) تبوخ : يخذل .

وقد زَعَمْتُ أُنَى تَغَيَّرَتْ بَعْدَهَا * وَمَنْ ذَا الَّذِي يَأْخُذُ لَا يَتَغَيَّرُ
تَغَيَّرَ جِسْمِي وَالْخَلِيقَةُ كَالْتِي * عَهْدِي وَلَمْ يُخْبَرْ بِسِرِّكَ مُخْبَرٌ

قالت : لا أروى هذا، ولكنى أروى قوله :

كَأَنِّي أَنَادِي صَخْرَةً حِينَ أُعْرِضْتُ * مِنْ الصُّمِّ لَوْ تَمْشِي بِهَا الْعُصْمُ زَلَّتْ
صَفُوحًا فَمَا تَلْقَاكَ إِلَّا بِخَيْلَةٍ * فَمَنْ مَلَّ مِنْهَا ذَلِكَ الْوَصْلَ مَلَّتْ

فأمر بها ، فأدخلت على عاتكة بنت يزيد ، فقالت لها : أرايت قول كثير :

قَضَى كُلَّ ذِي دَيْنٍ فَوْقِي غَرِيمَهُ * وَعَزْرَةٌ مُمَطُولٌ مَعْنَى غَرِيمُهَا

ما هذا الذي ذكره ؟ قالت : قُبْلَةٌ وَعَدْتُهُ إِيَّاهَا ، قالت : أنجزها وعلى إثمها .

ومما قال فيها

خَلِيلِي هَذَا رَسْمُ عَزْرَةٍ فَأَعْقِلَا * قُلُوصِيكُمَا شِمَّ أَبْكَا حَيْثُ حَلَّتْ
وَمَا كُنْتُ أَدْرِي قَبْلَ عَزْرَةٍ مَا الْبُكََا * وَلَا مُوجِعَاتِ الْقَلْبِ حَتَّى تَوَلَّتْ
فَقَدْ حَلَفْتُ جَهْدًا بِهَا نَحَرْتُ لَهُ * قَرِيشُ غَدَاةِ الْمَأْزَمِينَ وَصَلَتْ ^(١)
أُنَادِيكَ مَا حَجَّ أَرَبِيجُ وَكَبَّرْتُ * بَنِيْفَا غَزَالٍ رُفْقَةً وَأَهَلَّتْ ^(٢)
وَكُنْتُ لَقَطْعِ الْحَبْلِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا * كَنَازِدَةٍ نَذْرًا وَفَتْ فَأَحَلَّتْ
فَقُلْتُ لَهَا يَا عَزْرُ كُلِّ مَصِيبَةٍ * إِذَا وَطَنْتَ يَوْمًا لَهَا النَّفْسُ ذَلَّتْ
وَلَمْ يَلْقَ إِنْسَانٌ مِنَ الْحَبِّ مَيْعَةً * تَعْمُ وَلَا غَمَاءَ إِلَّا تَجَلَّتْ
كَأَنِّي أَنَادِي صَخْرَةً حِينَ أُعْرِضْتُ * مِنْ الصُّمِّ لَوْ تَمْشِي بِهَا الْعُصْمُ زَلَّتْ
صَفُوحًا فَمَا تَلْقَاكَ إِلَّا بِخَيْلَةٍ * فَمَنْ مَلَّ مِنْهَا ذَلِكَ الْوَصْلَ مَلَّتْ ^(٣)
أَبَاحْتُ حِمِّي لَمْ يَرَعَهُ النَّاسُ قَبْلَهَا * وَحَلَّتْ تِلَاعًا لَمْ تَكُنْ قَبْلُ حُلَّتْ

(١) المأزمان : بين عرفة والمزدلفة . (٢) فيما غزال : بمكة حيث ينزل الناس فيها

الى الأبطح . وأناديك : أجالسك ، مأخوذ من الندى والادى جميعا وهما المجلس .

(٣) الصفوح : المعرصة .

فليت قُلوصى عند عَزَّة قَيْدَت * بجبل ضعیف عُرٍّ منها فَصَلَّت
وَعُودِر في الحَيِّ المقيمين رَحْلُهَا * وكان لها بايغ سِوَاي قَبِلَت^(١)
وَكنت كذى رَجَلَيْن رَجُلٍ صَحِيحَةٍ * ورجل رَمَى فيها الزهَانُ فَشَلَّت
وَكنت كذات الظَّلَع لَهَا تَحَامَلَت * على ظَلْعِهَا بعد العِثَارِ اسْتَقَلَّت
أريد الشَّوَاءَ عِنْدَهَا وَأَطْمَأ * إذا مَا أَطْلَنَّا عِنْدَهَا الْمَكْثَ مَلَّت
فَمَا أَنْصَفَتْ، أَمَا النِّسَاءَ فَبَغَضَتْ * الى وَأَمَا بِالنِّسْوَالِ فَضَنَّت
يُكَلِّفُهَا الْغَيْرَانُ شَتَّى وَمَا بَهَا * هَوَانِي وَلَكِنْ لِيكَ اسْتَدَانَتْ
هَبِيثًا مَرِيئًا غَيْرَ دَاءٍ مُخَامِرٍ * لعَزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَالَتْ
فَوَاللَّهِ مَا قَارَبْتُ إِلَّا تَبَاعَدْتُ * بَصْرِيْمٍ وَلَا أَكْثَرْتُ إِلَّا أَقَلْتُ
فَإِنْ تَكُنِ الْعَتْبَى فَأَهْلًا وَمَرْحَبًا * وَحَقَّتْ لَهَا الْعَتْبَى لَدَيْنَا وَقَلْتُ
وَأِنْ تَكُنِ الْآخَرَى فَإِنَّ وَرَاءَنَا * مَنَادِيحَ^(٣) لَوْ سَارَتْ بِهَا الْعَيْسُ كَلَّتْ
خَلِيلِي إِنْ الْحَاجِيَّةَ طَلَحْتُ^(٤) * قُلُوصِيكَ وَنَاقَتِي قَدْ أَكَلَتْ
فَلَا يَتَعَدَّنْ وَصْلُ لَعَزَّةٍ أَصْبَحَتْ * بِعَاقِبَةِ أَسْبَابِهِ قَدْ تَوَلَّتْ
أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةٍ * لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٍ إِنْ تَقَلَّتْ
وَلَكِنْ أُنَيْلِي وَأَذْكُرِي مِنْ مَوْدَةٍ * لَنَا خُلَّةٌ كَانَتْ لَدَيْكُمْ فَطُلَّتْ^(٥)
فَإِنِّي وَإِنْ صَدَّتْ لَمْ تُنْ وَصَادِقُ * عَلَيْهَا بِمَا كَانَتْ لَيْنَا أَزَلْتُ^(٦)
فَمَا أَمَا بِالْدَاعِي لَعَزَّةٍ بِالْجَوَى * وَلَا شَامِتٌ إِنْ نَعَلُ عَزَّةٍ زَلَّتْ
فَلَا يَحْسِبُ الْوَاشُونَ أَنَّ صَبَابَتِي * بِعَزَّةٍ كَانَتْ غَمْرَةً فَتَجَلَّتْ
فَأَصْبَحْتُ قَدْ أَبْلَأْتُ^(٧) مِنْ دَنَيفِهَا * كَمَا أُذِنَفْتُ هَيَاءً ثُمَّ اسْتَبَلَّتْ

(١) بلت : ذهبت . (٢) العتبي : الإعتاب ، يقال : عاتبني فلان فأعتبته إذا نعت عما عاتبك عليه ،
والعتبي الاسم والإعتاب المصدر (٣) المنادح : المفاوز . (٤) الطلح : المعى الذى سقط من الأعياء .
(٥) طلت : هدرت . (٦) أزلت : اصططعت . (٧) يقال : بل من مرضه وأبل راسه إذا
برأ . والهياء : التى أصابها داء الهيام ، وهو داء يصيب الإبل من ماء تشربه مستنقعا فتم فى الأرض لا ترضى .

فوالله ثم الله ما حَلَّ قبلها * ولا بعدها من خُلَّةٍ حيث حَلَّت
وما مَرَّ من يومٍ على كيومها * وإن عَظُمَت أيامُ أخرى وجَلَّت
وأصَحَّت بأعلى شاهيقٍ من فؤاده * فلا القلبُ يَسْلَها ولا العين مَلَّت
فيا عَجَباً للقلب كيف اعترَفه^(١) * وللنفس لما وُطِنَتْ كيف ذَلَّت
ولماني وتَهَيَّأ بي بعزّة بعد ما * تخَلَّيت مما بيننا وتَحَلَّت
لكالمُرْتَجَى ظِلُّ الغمامة كلها * تَبَوَّأ منها للقيل أَصْحَلَّت
كأنى وإياها سَحَابَةٌ مُجَحَل * رَجَّاهَا فلما جَاوَزَتْه أَسْتَهَلَّت
فإن سأل الوأشون فيم هَجَرَتها * فَقُلْ نَفْسُ حُرٍّ سَلَّيْتُ فَتَسَلَّت
قال ابنُ سَلام : كان كثير مدّعياً ولم يكن عاشقاً، وكان جميل صادق الصباية والعشق .
وأخبرته عزّة ذات مرّة فوجدت علامة ذلك، وكانت متقبلة فأسفرت، فأبلس^(٢) ولم ينطق
وبُهِتَ، فلما مضت أنشأ يقول :

ألا ليتني قبل الذي قلت شِيبَ لي * من السم خَضَخَاضَ بماء الدّراح^(٣)
فمت ولم تعلم على خيانتة * وكَم طالِب للريح ليس براح
أبوؤ بذنبي ، إنني قد ظلمتُها * وإني بيباق سرّها غير بأح
ومن قوله يمدح عمر بن عبد العزيز :

وَلَيْتَ فلم تَشْتُم عَلَيَّ ولم تُخِف * بَرِيّاً ولم تَتَّبِع مَقَالَةَ مُجَرِّم
وَقَاتَ فصَدَّقَت الذي قلت بالذي * فَعَلْتَ فأَصْحَى راضياً كُلُّ مُسْلِمٍ
ألا إنما يَكْفِي الفَقِي بعد زَافِه * من الأَوَد الباقي ثِقَافُ المَقُومِ
لَقَدْ لَيْسَتْ لَيْسَ الهُلُوكُ بِبَاهِيا * تَرَأَى لك الدُّنْيَا بِكَفٍّ وَمِعْصَمٍ
وَتُؤَمِّضُ أحياناً بعين مريضَةٍ * وَتَبْسِمُ عن مثل الجُحْنانِ المُنْظَمِ

(١) اعترافه : اصطباره ، يقال : نزلت به مصيبة فوجد عروفاً ، أى صبوراً .

(٢) أبلس : انكسر وزن . (٣) الدراح : دويبة حمراء ، بقطة بسواد تطير ، وهي من السحوم

القاتلة ، والدراح جمع . والخضخاض : فقط أسود لا خنورة فيه تنها به الإبل الجرب .

فأَعْرَضَتْ عَنْهَا مُشْمِزًا كَانِمًا * سَقَّتْكَ مَدُودًا مِنْ سِمَامٍ وَعَلَقَمَ
وقد كُنْتَ مِنْ أَجْبَاهَا فِي مُنْبَجٍ * وَمِنْ بَحْرَهَا فِي مُزِيدِ الْجَوْدِ مُقَمَّ
وَمَا زِلْتَ سَبَاقًا إِلَى كُلِّ غَايَةٍ * صَعِدَتْ بِهَا أَعْلَى الْبِنَاءِ الْمَقْدَمِ
فَلَمَّا أَتَاكَ الْمُلْكُ عَفَّوْا وَلَمْ يَكُنْ * لَطَالِبِ دُنْيَا بَعْدَهُ مِنْ تَكَلُّمِ
تَرَكْتَ الَّذِي يَفْنَى وَإِنْ كَانَ مُوتِقًا * وَآثَرَتْ مَا يَبْقَى بِرَأْيِ مُصَمِّمِ
فَأَضْرَرْتَ بِالْفَانِي وَشَمَّرْتَ لِلذَى * أَمَامَكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الْهَوْلِ مَظْلَمِ
وَمَا لَكَ أَنْ كُنْتَ الْخَلِيفَةَ مَانِعٌ * سِوَى اللَّهِ مِنْ مَالٍ رَغِيبٍ وَلَا دَمِ
سَمَا لَكَ هَمٌّ فِي الْفُؤَادِ مُؤَرِّقٌ * صَعِدَتْ بِهِ أَعْلَى الْمَعَالِي بِسُلْمِ
فَمَا يَنْ شَرْقِ الْأَرْضِ وَالْغَرْبِ كُلِّهَا * مُنَادٍ يَنَادِي مِنْ فَصِيحٍ وَأَعْجَمِ
يَقُولُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ظَلَمْتَنِي * بِأَخْذِ لَدِينَارٍ وَأَخْذِ لَدَرْهَمِ
وَلَا بَسِطَ كَفٌّ لَأَمْرِيءَ ظَالِمٍ لَهُ * وَلَا السَّفِكُ مِنْهُ ظَالِمٌ مَلَأَ نَحْمِجِ
فَلَوْ يَسْتَطِيعُ الْمُسْلِمُونَ نَفْسَهُمْ * لَكَ الشَّطْرُ مِنْ أَعْمَارِهِمْ غَيْرَ نَدَمِ
فَعِشْتَ بِهِ مَا حَجَّ لِلَّهِ رَاكِبٌ * مُغْدٍ مُطِيفٌ بِالْمَقَامِ وَزَمْرِمِ^(٢)
فَارْجُحْ بِهَا مِنْ صَفْقَةٍ لِمُبَايَعٍ * وَأَعْظِمْ بِهَا أَعْظَمَ بِهَا ثُمَّ أَعْظِمِ
وَمِنْ نَسِيْبِهِ بَعْرَةٌ لَمَّا أُخْرِجَتْ إِلَى مِصْرَ :

لَعَزَّةٌ مِنْ أَيَّامِ ذِي الْغَصَنِ شَاقِفِي * بِضَاحِي قَرَارِ الرُّوضَتَيْنِ رُسُومِ
هِيَ الدَّارُ وَحَشًا غَيْرَ أَنْ قَدْ يَحْتَلُّهَا * وَيَغْنَى بِهَا شَخْصٌ عَلَى كَرِيمِ
فَمَا يَرِسُومُ الدَّارَ لَوْ كُنْتَ عَالِمًا * وَلَا بِالَّتِلَاعِ الْمُقَوِيَّاتِ أَهْمِ^(٣)
سَأَلْتَ حَكِيمًا أَيْنَ شَطَطُهَا النَّوَى * أَخْبَرَنِي مَا لَا أَحَبَّ حَكِيمِ
أَجَدُّوا فَمَا آلَ عَزَّةٍ غُدُوَّةٌ * فَبَانُوا وَأَمَّا وَاسِطُ فَهَقِيمِ
لَعَمْرِي لَئِنْ كَانَ الْفُؤَادُ مِنَ الْهَوَى * بَقَى سَقَمًا إِنِّي إِذَا لَسَقِيمِ

(١) مدرفا : مخلوطا ، داف الدواء والزعفران يدور : خلطه . (٢) مفد : مسرع .

(٣) أقوت الدار : خلعت من ساكنها . (٤) هو أبو السائب بن حكيم .

ومنها :

ولستُ بِرَأْيٍ نَحْوِ مَصْرِ سَحَابَةٍ * وَإِنْ بَعُدْتُ إِلَّا قَعْدْتُ أَشِيمٍ
فَقَدْ يَقْعُدُ النُّكْسُ الدَّيْثُ عَنِ الْهَوَى * عَزُوفًا وَيَصْبُو الْمَرْءُ وَهُوَ كَرِيمٍ
وَقَالَ خَلِيلِي مَا لَهَا إِذْ لَقِيْتَهَا * غَدَاةَ السَّنَا فِيهَا عَلَيْكَ وَجُومٍ^(١)
فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ الْمَوْدَةَ بَيْنَنَا * عَلَى غَيْرِ حُشٍ وَالصَّفَاءُ قَدِيمٍ
وَإِنِّي وَإِنْ أَعْرَضْتُ عَنْهَا تَجَلَّدَا * عَلَى الْعَهْدِ فِيمَا بَيْنَنَا لِمَقِيمٍ
وَإِنَّ زَمَانًا فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا * وَبَيْنَكُمْ فِي صَرْفِهِ لَمَشُومٍ
أَفِي الْحَقِّ هَذَا أَنْ قَلْبِكَ سَالِمٌ * صَحِيحٌ وَقَلْبِي فِي هَوَاكِ سَقِيمٍ
وَأَنْ يَجْسَمِي مِنْكَ دَاءٌ مُخَامِرًا * وَجَسَمُكَ مَوْفُورٌ عَلَيْكَ سَلِيمٍ
لَعَمْرُكَ مَا أَنْصَفْتَنِي فِي مَوَدَّتِي * وَلَكِنِّي يَا عَزَّ عَنْكَ حَلِيمٍ
فَمَا تَرَيْتَنِي الْيَوْمَ أَبْدَى جَلَادَةً * فَإِنِّي لَعَمْرِي تَحْتَ ذَاكَ كَلِيمٍ
وَلَسْتُ أَبْنَةَ الضَّمْرِى مِنْكَ بِنَاقِمٍ * ذَنْبَ الْعَدَى إِنِّي إِذَا لَظَالُومٍ
وَإِنِّي لَذُو وَجَدٍ إِذَا عَادَ وَصُلُّهَا * وَإِنِّي عَلَى رَبِّي إِذَا لَكَرِيمٍ

ومن نسيبه بها :

لَعَزَّةٌ أَطْلَلْتُ أَبْتَ أَنْ تَكَلَّمَا * تَهِيَجُ مَغَانِيهَا الْفَوَادَ الْمُكَلَّمَا
وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ أَجْلَلْنَ مَجْلِسِي * وَأُظْهَرْنَ مِنِّي هَيْبَةً لَا تَجْهَمَا
يُحَاذِرْنَ مِنِّي غَيْرَةً قَدْ عَرَفْنَهَا * قَدِيمًا فَا يَضْحَكُنْ إِلَّا تَبْسُمَا

ومنه :

خَلِيلِي عَوْجًا مِنْكَ سَاعَةً مَعِي * عَلَى الرَّبْعِ نَقْضُ سَاعَةٍ وَنَوْدَعٍ
وَلَا تُعِجِلَانِي أَنْ أَلِمَّ يَدْمَنَةً * لَعَزَّةٌ لَاحَتْ لِي بِبَيْدَاءَ بَلَقَعٍ
وَقَوْلَا لِقَلْبٍ قَدْ سَلَا رَاجِعِ الْهَوَى * وَلِلْعَيْنِ أَذْرَى مِنْ دُمُوعِكَ أَوْدَعِي
فَلَا عَيْشَ إِلَّا مِثْلَ عَيْشِ مَضَى لَنَا * مَصِيفًا أَقْنَا فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَرْبَعٍ

(١) وَجَم : سَكَتَ عَلَى عَيْظِ .

ومنه :

بليلى وجارات ليلي كأنها * نَعَاجُ الفِلا تُنْجِدِي بَيْنَ الأَبَاعِرُ
أَمْتَقَطِعُ يَاعِزَّ مَا كَانَ بَيْنَنَا * وشَاجِرُنِي يَاعِزَّ فَيْكَ الشَّوَابِرُ
إذا قِيلَ هَذَا يَبْتُ عِزَّةً قَادِنِي * إِلَيْهِ الْهَوَى وَأَسْتَعْجِلْتَنِي الْبَوَادِرُ
أَصْدُوبِي مِثْلَ الْجَنُونِ لَكِي يَرَى * رُؤَاةُ الْخَلَا أَنِي لِبَيْتِكَ هَاجِرُ
أَلَا لَيْتَ حَقِّي مِنْكَ يَاعِزَّ أَنِّي * إذا بِنْتُ بَاعَ الصَّبْرِ لِي عَنْكَ تَاجِرُ

ومنه :

وما زلتُ من ليلي لَدُنْ طَرَّ شَارِبِي * إِلَى الْيَوْمِ أُخْفِي حَبَّي وَأُدَاجِنُ
وَأَحْمِلُ فِي لَيْلِي ضَغَائِنَ مَعَشَرٍ * وَنُحْمَلُ فِي لَيْلِي عَلَى الضَّغَائِنِ

ومنه :

وإِنِّي لَأُرْعَى قَوْمَهَا مِنْ جَلَالِهَا * وَإِنْ أَظْهَرُوا غِشًّا نَصَبْتُ لَهُمْ جَهْدِي
وَلَوْ حَارَبُوا قَوْمِي لَكُنْتُ لِقَوْمِهَا * صَدِيقًا وَلَمْ أَحْمِلْ عَلَى حَرْبِهَا حَقْدِي

ومنه :

هَلَّا سَأَلْتَ مَعَالِمَ الْأَطْلَالِ * بِالْجَزَعِ مِنْ حُرْضٍ وَهْنٍ بَوَالِ^(١)
سَقِيًّا لِعِزَّةٍ خُلَّةٍ سَقِيًّا لَهَا * أَذِنَ بِنَحْنٍ بِالْهَضَبَاتِ مِنْ أَمَلَالِ^(٢)
إِذَا لَا تَكَلَّمْنَا وَكَانَ كَلَامُهَا * نَفْلًا نُوْمِّلُهُ مِنَ الْأَنْفَالِ

ومنه :

أَلَا حَيًّا لَيْلِي أَجَدَّ رَحِيلِي * وَأَذِنَ أَصْحَابِي غَدًا بِقُفُولِ^(٣)
تَبَدَّتْ لَهُ لَيْلِي لَتَذْهَبَ عَقْلُهُ * وَشَاقَتْكَ أُمُّ الصَّلْتِ بَعْدَ دُحُولِ
أُرِيدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكُنَّا * نَمْتَلُّ لِي لَيْلِي بِكُلِّ سَبِيلِ
إِذَا ذِكْرَتْ لَيْلِي تَغَشَّيْتُكَ عَهْرَةً * تُعَلِّبُهَا الْعَيْنَانِ بَعْدَ هُجُولِ

(١) حرَض : راد من وادى قناة ، من المدينة على ميلين .

(٢) أراد ملأ ، وهو منزل على طريق المدينة من مكة . (٣) قفول : رجوع .

وكم من خليل قال لى هل سألتها * فقلت له لىلى أضرت خليل
 وأبعده نيلًا وأوشكه قلى^(١) * وإن سئلت عرقًا فشر مسؤل
 حلفت برب الراقصات الى منى^(٢) * خلال الملا يمددن كل جديل
 تراها رفاقًا بينهم تقاوت^(٣) * ويمددن بالإهلال كل أصيل^(٤)
 تواهقن بالحجاج من بطن نخلة * ومن عزور والخبث خبت طفيل^(٥)
 بكل حرام خاشع متوجه * الى الله يدعوه بكل تقيل^(٦)
 على كل مبدعان الروح مبيدة * ومخشيه ألا تعيد هزيل^(٧)
 شوامد قد أرتجن دون أجنة * وهويج تبارى فى الأزقة حول^(٨)
 يمين امرئ مستغلظ من آلية^(٩) * ليكذب قىلا قد ألح يقيل^(١٠)
 لقد كذب الواشون ما بحث عندهم * بليل ولا أرسلهم برسول^(١١)
 فإن جاءك الواشون عنى بكذبة * فروها ولم يأتوا لها بحويل^(١٢)
 فلا تعجل ياليل أن تتفهى * بنصح أتى الواشون أم يحبول^(١٣)
 فإن طببت نفسا بالعطاء فأجرى * وخير العطا ياليل كل جزيل^(١٤)
 ولما فاجألى الى فإنى * أحب من الأخلاق كل جميل^(١٥)
 وإن تبذلى لى منك يوما مودة * فقدما تتحدث القرض عند بذول^(١٦)
 ومان تجلى ياليل عنى فإنى * تؤكلى نفسى بكل بئيل^(١٧)
 ولست براى من خليل بنائل * قليل ولا راض له بقليل^(١٨)

- (١) أوشكه : أسره . والقلى : البض . (٢) الراقصات : الابل ، والملا : الفضاء ، والجديل : زمام مجدول أى مضفور . (٣) الأصيل : العشى . (٤) تواهقن : تبارين ، وبطن نخلة : بستان بنى عامر ، وعزور : نيسة الخفصة . والخبث : المطعنين من الأرض ، وطفيل : موضع . (٥) النقييل : الطريق . (٦) المذعان : المدلة . ومعبدة : قد عادت السفر . (٧) الشوامد : الشائعات الأذنب ، وأرتجن : أعلقن أرحامهن على أولادهن ، والحول : جمع حائل وهى التى لا تفلح . (٨) الألية : اليمين . (٩) فروها من المبرية : يقال فرى يفرى . والحويل : المحاول . (١٠) ليكذب : المحاول . (١١) أرسلهم : أبعدهم . (١٢) فإنى : فإنى . (١٣) بنصح : بنصح . (١٤) فإنى : فإنى . (١٥) أحب : أحب . (١٦) فقدما : فقدما . (١٧) بئيل : بئيل . (١٨) بقليل : بقليل .

وليس خليلي بالملول ولا الذي * اذا غبت عنه باعنى بخليل
 ولكن خليلي من يديم وصاله * ويحفظ سرى عند كل دَخِيل^(١)
 ولم أرَ من ليلي نوالا أعدّه * ألا ربما طالبت غير مُنِيل
 بلومك في ليلي وعقلك عندها * رجالٌ ولم تذهب لهم بعقول
 يقولون ودّع عنك ليلي ولا تهم * بقاطعة الأقران ذات خليل
 فما نَقَعْتَ^(٢) نفسي بما أمروا به * ولا عَجْتُ من أقوالهم بفتِيل
 تذكّرت أترابا لعزة كالمها * حِينِ يَلِيْطُ^(٣) ناعم وقبول
 وكنتُ اذا لا قِيَمَتِ^(٤) كائني * مُحَالِطَةً^(٥) عقلي سلاف شمول
 تأطرتُ حتى قلتُ لسنّ بوارحا * رجاء الأمانى أن يقلن مَقِيل
 فأبدى لي من بينهنّ تجهّما * وأخلفن ظنّي إذ ظننت وقيلي
 فالأيا^(٦) بلأبي ما قضين لبانة * من الدار وأستقلان بعد طويل
 فلما رأى وأستيقن البين صاحبي * دعا دعوةً يا حَبْتَرَبَنَ^(٧) سلول
 فقلتُ وأسررتُ الندامة ليتني * وكنتُ أمراً أغتَشَّ كل عدول
 سلكتُ سبيل الرائحات عشية * مخارم^(٨) نصع أو سلكن سبيل
 فأسعدت نفسا بالهوى قبل أن أرى * عوادى^(٩) نأى بيننا وشغول
 ندمنتُ على ما فاتني يوم بنم * فياحسرتنا ألا يرين عويل
 كأن دموع العين وإهية الكلى^(١٠) * وعَت ماء غُرب يوم ذاك سجيل

- (١) الدخيل : الذى ينسب الى قوم وليس منهم . (٢) أى ماروبت . (٣) الأتراب : الأقران . والليط : اللون وهو الجلد أيضا . (٤) تأطرت : تلذّنت ، وأصل التأطر : التعطف . (٥) اللأى : البطء . واللبانة : الحاجة . (٦) المخارم : جمع نحر وهو منقطع أنف الجبل . نصع : جبل أسود بين الصفراء ويبلغ . (٧) العوادى : الصوارف . (٨) الكلى : جمع كاية وهى الرقعة تكون فى أصل عروة المزاد . والغرب : الدوا العظيمة . (٩) عوادى : عوادى . (١٠) الكلى : جمع كاية وهى الرقعة تكون فى أصل عروة المزاد . والغرب : الدوا العظيمة .

ملحق الكتاب الأول

١٣٥

تَكْنَفَهَا نُحْرُقُ تَوَاكُلْنَ نَحْرَهَا * فَأَجْلَنَّهُ وَالسَّيرُ غَيْرُ بِجِيلِ^(١)
أَقِمْ فَاِنَّ الْعَوْرَ يَعَزُّ بِعَدَمِ * اِلَى اِذَا مَا بِنْتَ غَيْرَ بِجَمِيلِ
كُنْى حَزَنَا لِلْعَيْنِ اَنْ رَدَّ طَرْفَهَا * لَعَزَّةٌ عَيْرٌ آذَنْتُ بِرَحِيلِ
وَقَالُوا نَأَتْ فَاخْتَرَ مِنَ الصَّبْرِ وَالْبُكََا * فَقُلْتُ الْهَكَأُشْفَى اِذَا لَغْلِيلِ
تَوَلَّيْتُ مُحْزُونًا وَقُلْتُ لَصَاحِبِ * أَفَاتَلْتِى لَيْلَى بِغَيْرِ قَتِيلِ
لَعَزَّةٌ اِذْ يَحْتَلُّ بِالْخَيْفِ أَهْلُهَا * فَأَوْحَشَ مِنْهَا الْخَيْفُ بَعْدَ حُلُولِ
وَبَدَّلَ مِنْهَا بَعْدَ طَوْلِ إِقَامَةٍ * تَبَعْتُ نَكَبَاءَ الْعِشَى جَفُولِ^(٢)
لَقَدْ أَكْثَرَ الْوَاشُونَ فِينَا وَفِيكُمْ * وَمَالُ بَنَى الْوَاشُونَ كُلِّ مَيْمِلِ
وَمَا زِلْتُ مِنْ لَيْلٍ لَدُنْ طَرْ شَارِبِي^(٣) * اِلَى الْيَوْمِ كَلْمُفَصَّى بِكُلِّ سَبِيلِ

وله :

اِذَا مَا أَرَادَ الْغَزْوَ لَمْ تَنْ هَمَّهُ * حَصَانٌ عَلَيْهَا نَظْمٌ دُرٌّ زَيْنُهَا
نَهْتُهُ فَلَمَّا لَمْ تَرَ النَّهْيَ عَاقَهُ * بَكَتْ فَبَكَى مِمَّا شَجَّاهَا قَطِينُهَا^(٤)
وَلَمْ يَنْتَهِ يَوْمَ الصَّبَابَةِ بَنُهَا * غَدَاةٌ اسْتَهَاتَ بِالدَّمُوعِ شُؤْنُهَا
وَلَكِنْ مَضَى ذُو مِرَّةٍ مُتَثَبْتُ * بِسُنَّةٍ حَقٍّ وَاضِحٍ مُسْتَبِينُهَا

وله فى مدح عبد الملك بن مروان :

أَحَاطَتْ يَدَاهُ بِالْخِلَافَةِ بَعْدَ مَا * أَرَادَ رِجَالُ آخِرُونَ اغْتِيَابَهَا
فَمَا أَسْلَمُوهَا عَنَوَةً عَنْ مَوَدَّةٍ * وَلَكِنْ يَحْدُ الْمَشْرِفُ اسْتِقْلَالَهَا^(٥)
وَكُنْتُ إِذَا نَابَتْكَ يَوْمًا مُلِمَّةٌ * نَبَلْتُ لَهَا أَبَا الْوَلِيدِ نِيَابَهَا
سَمَوْتُ فَأَدْرَكْتَ الْعَلَاءَ وَإِنَّمَا * يُلْقَى عَالِيَاتِ الْعُلَا مَنْ سَمَا لَهَا
وَصَلَّتْ فَنَالَتْ كَفْكَ الْمَجْدِ كُلَّهُ * وَلَمْ تَبْلُغِ الْأَيْدَى السَّوَامِي مَصَالَهَا

(١) خرف : جمع خرقاء . وهى التى لا تحسن العمل . وأجْلَنَهُ : أوسعه . والبجِيل الغليظ : يريد أنهم

أغلظن الإشبلى رَأْدَقْن السير . (٢) النجاء : الريح اى تهب بين مهبي ريحين ، والجهول : التى تذهب التراب .

(٣) طرود الشارب : نجاته . (٤) القطيع : الخدم . (٥) نبليت : أعدمته .

وله أيضا :

أَهَاجَكَ بَرْقُ آخِرِ اللَّيْلِ وَاصْبُ * تَضَمَّنَهُ قَوْشُ الْجَبَا فَلَمْسَايَرُ
 بَجْرٌ وَيَسْتَأْنِي نَشَاصًا كَأَنَّهُ ^(١) * بَغِيقَةً حَادٍ جَلَجَلُ الصَّوْتِ جَالِبُ
 تَأَلَّقَى وَأَحْمَوَى وَخَيَّم بِالرُّبَا * أَحْمُ الذَّرَى ذُو هَيْدَبٍ مُتْرَاكِبُ
 إِذَا حَرَّكَتْهُ الرِّيحُ أَرْزَمُ ^(٢) جَانِبُ * بَلَا هَزَقٍ مِنْهُ وَأَوْمَضَ جَانِبُ
 كَمَا أَوْمَضَتْ بِالْعَيْنِ ثُمَّ تَبَسَّمَتْ * خَرِيعٌ ^(٣) بَدَا مِنْهَا جَبِينٌ وَحَاجِبُ
 يَمِجُّ النَّدَى لَا يَذْكُرُ السَّيْرَ أَهْلُهُ * وَلَا يَرْجِعُ الْمَاشِي بِهِ وَهُوَ جَادِبُ

وله أيضا :

سَيِّلُكَ فِي الدُّنْيَا شَفِيقٌ عَلَيْكُمْ * إِذَا غَالَهُ مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ غَائِلُهُ
 وَيُخْفِي لَكُمْ حُبًّا شَدِيدًا وَرَهْبَةً * وَلِلنَّاسِ أَشْغَالٌ وَحُبٌّ شَاغِلُهُ
 وَحُبُّكَ يُنْسِينِي مِنَ الشَّيْءِ فِي يَدِي * وَيُذْهِلُّنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ أَزَاوِلُهُ
 كَكَرِيمٍ يُمِيتُ السَّرَّ حَتَّى كَانَهُ * إِذَا اسْتَبَحَّثُوهُ عَنْ حَدِيثِكَ جَاهِلُهُ
 يَوَدُّ بَأْسَ يُمِيسِي سَقِيًّا لَعَلَّهَا * إِذَا سَمِعَتْ عَنْهُ بِشَكْوَى تُرَاسَلُهُ
 وَيُرَتَّاحُ لِمَعْرُوفٍ فِي طَلَبِ الْعِلَا * لِيُحْمَدَ يَوْمًا عِنْدَ لَيْلٍ شَمَائِلُهُ
 فَلَوْ كُنْتُ فِي كِبَلٍ وَبُحْتُ ^(٤) بَلَوَعَتِي * إِلَيْهِ لِأَنْتَ رَحْمَةً لِي سَلَايِلُهُ

وله أيضا :

أَقُولُ لِمَاءِ الْعَيْنِ أَمِينٌ لَعَلَّهُ * بِمَا لَا يُرَى مِنْ غَائِبِ الْوَجْدِ يَسْهَدُ
 فَلَمْ أَدْرَأَنَّ الْعَيْنَ قَبْلَ فِرَاقِهَا * غَدَاةَ الشُّبَا مِنْ لَاجِجِ الْوَجْدِ تَجَسَّدُ
 وَلَمْ أَرِ مِثْلَ الْعَيْنِ ضَمَنْتُ بِمَاءِهَا * عَلَى وَلَا مِثْلِي عَلَى الدَّمْعِ يُحْسَدُ

(١) النشاص : الصحاب المار ترفع بعضه فوق بعض . (٢) أرزم : سوت . (٣) الخزي :
 شدة صيرته الرعدة . (٤) خرييع : امرأة مجنونة . (٥) كجل : لعمري شديد

وله أيضا :

تَسْمَعُ الرِّعْدَ فِي الْمُخِيلَةِ مِنْهَا * ^(١) مِثْلَ هَزْمِ الْفُرُومِ فِي الْأَشْوَالِ ^(٢)
وَتَرَى الْبَرْقَ عَارِضًا مُسْتَطِيرًا * مَرَحَ الْبُلْبُلِ جُلْنَ فِي الْأَجَالِ
أَوْ مَصَابِيحَ رَاهِبٍ فِي يَفَاجٍ * سَغَمَ الزَّيْتِ سَاطِعَاتِ الدُّبَالِ

وله أيضا :

فِيَا عَزَّ إِنِّ وَايْشَ وَشَى بِي عِنْدَكُمْ * فَلَا تُكْرِمِيهِ أَنْ تَقُولِي لَهُ أَهْلَا
كَمَا لَوْ وَشَى وَايْشَ بَعْرَةً عِنْدَنَا * لَقُلْنَا تَرْحَحْ لَا قَرِيْبًا وَلَا سَهْلًا

(١) القروم : الفحول التي أعفيت من الحمل عليها وتركزت للفحلة .

(٢) الأشوال : الإبل التي مضى على حملها أو وضعها سبعة أشهر فارتفع ضرعها وجف لبنها .

(د) الغزل القصصي

١ - أخبار قيس بن الملقح (المجنون)^(١)

قال الأصفهاني عن محدثيه عن ابن دأب قال : قلتُ لرجل من بني عامر : أنعرف المجنون وتروى من شعره شيئاً؟ قال : أوقد فرغنا من شعر العقلاء حتى تروى أشعار المجانين ! إنهم لكثير ! فقلتُ : ليس هؤلاء أعني ، إنما أعني مجنون بني عامر الشاعر الذي قتله العشيقُ ، فقال : هيهات ! بنو عامر أغلظُ أجاداً من ذلك ، إنما يكون هذا في هذه اليمانية الضعافِ قلوبها ، السخيفة عقولها ، الصَّعْلَةُ^(٢) رؤوسها ، فأما نزارُ فلا .

وقال الرِّياشي سمعت الأصمعي يقول : رجلاً ما عُرِفَ في الدنيا قط إلا بالاسم : مجنون بني عامر ، وابنُ القرية^(٣) ، وإنما وضعهما الرواة .

وقال المدائني : المجنون المشهورُ بالشعر عند الناس صاحبُ ليلى قيس بن معاذ من بني عامر ، ثم من بني عَقِيل ، أحد بني مُيمر بن عامر بن عَقِيل ، قال : ومنهم رجل آخر يقال له : مَهْدِي بن الملقح من بني جَعْدَةَ بنِ كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة .

وقال ابن الكلبي : حَدَّثْتُ أن حديثَ المجنون وشعره وضعه فتى من بني أمية كان يهوى أبنَةَ عم له ، وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديثَ المجنون وقال الأشعار التي يروها الناس للمجنون ونسبها إليه .

(١) هو قيس بن الملقح ، ويقال : ابن معاذ بن مزاحم من بني عامر بن صعصعة ، ويعرف بمجنون ليلى ، نسبة إلى ليلى التي كان يتمشقها وهو مشهور ، ولكن بعض أهل النقد من علماء الشعريون أن قصته موضوعة ، وضعها رجل من بني أمية كان يحب أبنَةَ عم له ويكره أن يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديثَ المجنون وقال الأشعار التي يظنها الناس للمجنون ، وقد زاد الناس فيه بعدئذ . ويؤيد ذلك أن كثيراً مما ينسب إليه من الأشعار رويت لغيره ، فقصته إذا من قبيل الشعر التمثيلي (درام) الذي يراد به تمثيل بعض الفضائل . وهي تمثل العشيق مع التعفف ، أو لعل لها أصلاً قديماً زاد فيه الرواة كما فعلوا بقصة عنترة التي تمثل الشجاعة والعشق ، وعلى كل حال فإن بين الأشعار المنسوبة إلى المجنون طائفة تمثل شعائر المحبين كما هي على طبيعتها . وأخبار المجنون في الأغاني (ج ١ ص ١٦٧) والشعر والشعراء (ص ٣٥٥) ونزاعة الأدب (ج ٢ ص ١٧٠) . (٢) الصعلة : صغر الرأس . (٣) هو أدهب ابن زيد بن تميم القرية أمه قتله الجاهل لاتهامه بالولاء لابن الأشعث .

وعن حماد بن طالوت بن عباد : أنه سأل الأصمعي عنه ، فقال : لم يكن مجنوناً ، بل كانت به لؤنة أحدثها العشق فيه ، كان يهوى امرأة من قومه يقال لها ليل ، واسمه قيس ابن معاذ .

وذكر عمرو بن أبي عمرو الشيباني عن أبيه أن اسمه قيس بن معاذ .
وذكر شعيب بن السكّن عن يونس النخوي أن اسمه قيس بن الملوّح ، قال أبو عمرو الشيباني : وحدثني رجل من أهل اليمن أنه رآه ولقيّه وسأله عن اسمه ونسبه ، فذكر أنه قيس بن الملوّح .

وذكر هشام بن محمد الكلبي أنه قيس بن الملوّح ، وحدث أن أباه مات قبل اختلاطه ، فعقر على قبره ناقته وقال في ذلك :

عقرتُ على قبر الملوّح ناقتي * بذى السرح لما أن جفاه الأفاربُ
وقلتُ لها كوني عقيراً فإني * غداً راجلاً أمشي وبالأمس راكبُ
فلا يُبعدنك الله يا بن مزاحم * فكل بكأس الموت لا شك شاربُ

وقال الأصمعي : سألت أعرابياً من بني عامر بن صعصعة عن المجنون العامري فقال :
عن أيهم تسألني ؟ فقد كان فينا جماعة رموا بالجنون ، فعن أيهم تسأل ؟ فقلت : عن الذي كان يُشَبَّب بليلى ، فقال : كلهم كان يُشَبَّب بليلى ، قلت : فأنشدني لبعضهم ، فأنشدني لمزاحم بن الحارث المجنون :

ألا أيها القلبُ الذي لجَّ هائمًا * بليلى وليدًا لم تُقطع تمائمُهُ
أفوق قد أفاق العاشقون وقد أنى * لك اليوم أن تلقَ طبيباً تلامئُهُ
أجِدْكَ لا تُنسيك ليلى ملامئُهُ * تلمُّ ولا عهدٌ يطول تقادُئُهُ

(١) يقال : احتلط عقسه إذا تغير وفسه .
(٢) ذو السرح : واد بأرض نجد .
(٣) عقيراً ، أى معقورة ، وأصل العقر : قطع القوائم ثم أطلق بمعنى النحر . قال ابن الأثير : كانوا يعقرون الإبل على قبور الموتى أى ينحرونها ويقولون : إن صاحب القبر كان يعقر للأضياف أيام حياته فنكافته بمثل صنيعه بعد وفاته . وإنما أطلق العقر على النحر لأنهم كانوا إذا أرادوا نحر البعير عقروه لتلا يشرد عند النحر اه من اللسان مادة عقر .
(٤) أنى : حان وقرب .

قلت : فأنشدني لغيره منهم ، فأنشدني لمعاذ بن كليب المجنون :

ألا طامأ لأعبت ليلي وقادني * إلى اللهو قلباً للحسان تبوع
وطال أمتراء الشوق عيني كلما * نرفت دموعاً تستجد دموع
فقد طال إمساكي على الكيد التي * بها من هوى ليلي الغداة صدوع

قلت : فأنشدني لغير هذين ممن ذكرت ، فأنشدني لمهدي بن الملوح :

لو أن لك الدنيا وما عداك به * سواها وليس بائن عنك بينهما^(٢)
لكنت إلى ليل فقيراً وإنما * يقود إليها ود نفسك حينها

قلت له : فأنشدني لمن بقى من هؤلاء ، فقال : حسبك ! فوالله إن في واحد من هؤلاء
من يؤزن بعقلاكم اليوم .

وقال الجاحظ : ما ترك الناس شعراً مجهول القائل قيل في ليلي إلا نسبوه إلى المجنون ،
ولا شعراً هذه سبيله قيل في لبني إلا نسبوه إلى قيس بن ذريح .

قال أبو الفرج : وأنا أذكر مما وقع إلى من أخباره جملاً مستحسنة ، متبرئاً من العهدة
فيها ، فإن أكثر أشعاره المذكورة في أخباره ينسبها بعض الرواة إلى غيره وينسبها من
حكيت عنه إليه ، وإذا قدمت هذه الشريطة برئت من عيب طاعن ومتبع للعيوب .

أخبرني بخبره في شغفه بلسي جماعة من الرواة ، ونسخت ما لم أسمع من الروايات
وجمعت ذلك في سياقة خبره ما آتسق ولم يختلف ، فإذا اختلفت نسبت كل رواية
إلى راويها .

فمن أخبرني بخبره أحمد بن عبد العزيز الجوهري وحبيب بن نصر المهلب ، قالوا :
حدثنا عمر بن شبة عن رجاله وإبراهيم بن أيوب عن ابن قتيبة ، ونسخت أخباره من
رواية خالد بن كلثوم وأبي عمرو الشيباني وابن دأب وهشام بن محمد الكلبي وإسحاق بن
الحصّاص وغيرهم من الرواة .

(١) الامتراء : الاستعداد . (٢) بينهما هنا معناه وصلها لأنه من أسماء الأضداد ، يطلق على الرصيرص والفرافير .

قال أبو عمرو الشيباني وأبو عبيدة : كان المجنون يهوى ليلي بنت مهدي بن سعد بن مهدي بن ربيعة بن الحارث بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وتكنى أم مالك ، وهما حينئذ صبيان ، فعلق كل واحد منهما صاحبه وهما يرعيان مواشي أهلها ، فلم يزالا كذلك حتى كبرا فحُجبت عنه ، قال : ويدل على ذلك قوله :

تعلقت ليلي وهي ذات ذؤابة^(١) * ولم يند للأتراب من نديها حجم
صغيرين زعى البهم ياليت أنا * إلى اليوم لم تكبر ولم تكبر البهم

وقال ابن الكلبي : كان سبب عشق المجنون ليلي ، أنه أقبل ذات يوم على ناقة له كريمة وعليه حلتان من حلل الملوك ، فتر بأمرأة من قومه يقال لها : كريمة ، وعندها جماعة نسوة يتحدثن ، فيهن ليلي ، فأعجبهن جماله وكأله ، فدعونه إلى الزور والحديث ، فنزل وجعل يتحدثن وأمر عبداً له كان معه فعقرهن ناقته ، وظل يتحدثن بقية يومه ، فبينما هو كذلك ، إذ طلع عليهم فتى عليه بردة من برد الأعراب يقال له : "منازل" يسوق معزى له ، فلما رأيته أقبلن عليه وترك المجنون ، فغضب وخرج من عندهن وأنشأ يقول :

أعقر من جراً كريمة ناقتي * ووصل مفروش لوصول منازيل
إذا جاء قعقن الحلي ولم أكن * إذا جئت أرضى صوت تلك الخلايل

مق ما آتتظننا بالسهم نضلته^(٢) * وإن نرم رشقاً عندها فهو ناضل
قال : فلما أصبح ليس حلتته وركب ناقة له أخرى ومضى متعرضاً لهم ، فالتى ليلي قاعدة بفناء بيتها وقد علق حبه بقلبها وهويته ، وعندها جواريات يتحدثن معها ، فوقف هن وسلم ، فدعونه إلى الزور وقلن له : هل لك في محادثة من لا يشغلها عنك منازل ولا غيره ؟ فقال :

(١) الذؤابة : شعر الناصية .

(٢) أى من أجل ، يقال : فعلت ذلك من حراك أى من أجلك ربما أنشد على هذا :

أمن جراً بن أسد عضبتم * ولو شئتم لكان لكم جوار

(٣) أى ترمينا بالسهم ، ونضلته : غلبته . (٤) الرشق : رمى أهل النضال ما معهم من السهام

في جهة واحدة .

إلى لعمري ، فنزل وفعل مثل ما فعله بالأمس ، فأرادت أن تعلم ، هل لها عنده مثل ما له عندها ، ففعلت تعرض عن حديثه ساعة بعد ساعة وتحدث غيره ، وقد كان علق بقلبه مثل حبها إياه وشغفته وأستلحها ، فبينما هي تحدثه ، إذ أقبل فتى من الحى فدعته وسأته سراً طويلاً ، ثم قالت له : انصرف ، ونظرت إلى وجه المجنون قد تغير وأنتقع لونه وشق عليه فعلها ، فأنشأت تقول :

كلانا مظهر للناس بغضاً * وكل عند صاحبه مكي

تبلغن العيون بما أردنا * وفي القلبين ثم هو دفين

فلما سمع البيتين شفق شهقة شديدة وأغمى عليه ، فكث على ذلك ساعة ، ونصحواء الماء على وجهه حتى أفاق وتمكن حب كل واحد منهما في قلب صاحبه حتى بلغ منه كل مبلغ .

وعن أبي الهيثم العقيلي قال : لما شمر أمر المجنون ولبى وتناشد الناس شعره فيها ، خطبها وبذل لها خمسين ناقة حمراء ، وخطبها ورد بن محمد العقيلي وبذل لها عشرين من الإبل وراعيها ، فقال أهلها : نحن نخيروها بينكما ، فمن آخترت تزوجته ، ودخلوا إليها فقالوا : والله لئن لم تختارى ورداً لئمتن بك ، فقال المجنون :

ألا يا ليل إن ملكت فينا * خيارك فانظري لمن الخبار

ولا تستبدلي مني دنياً * ولا برماً إذا حث القطار^(١)

يهزول في الصغير إذا رآه * وتجزه ملبات بكار

فشل تأيم منه نكاح * ومثل تمول منه افتقار

فاختارت ورداً فزوجته على كره منها .

وقال :

أيا ويح من أمسى تحاس^(٢) عقله * فأصبح مذهباً به كل مذهب

خليلاً من الخلال^(٣) إلا معذراً * يضاحكني من كان يهوى تجني

(١) البرم : الثقيل . (٢) القطار : ربح اللحم المشوى . (٣) تحلس : سلب .

(٤) هو المقصر الذي لا عذره ولكنه يتكلف العذر ، ومنه قوله تعالى : (وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم) .

إذا ذُكِرْتُ لَيْلٍ عَقَلْتُ وَرَاجَعْتُ * رَوَائِعُ عَقْلِي مِنْ هَوَى مُتَشَعِّبٍ
 وَقَالُوا صَحِيحٌ مَا بِهِ طَيْفُ جَنَّةٍ * وَلَا أَلْهَمُ إِلَّا بِافْتِرَاءِ التَّكْذِيبِ
 وَشَاهِدُ وَجْدِي دَمْعُ عَيْنِي وَحُبُّهَا * بَرَى الْحَمَمَ عَنْ أَحْنَاءٍ عَظُمَى وَمِنْكِبِي
 تَجَنَّبْتُ لَيْلِي أَنْ يَلْسَجَ بَكَ الْهَوَى * وَهِيَّاتَ كَانَ الْحَبُّ قَبْلَ التَّجَنُّبِ
 أَلَا إِنَّمَا غَادَرْتُ يَا أُمَ مَالِكٍ * صَدَى إِنَّمَا تَذْهَبُ بِهِ الرِّيحُ يَذْهَبُ
 فَلَمْ أَرَ لَيْلَى بَعْدَ مَوْقِفِ سَاعَةٍ * بِخَيْفٍ مَنَى تَرْمِي جِمَارَ الْمُحْصَبِ
 وَيُبْدِي الْحَصَى مِنْهَا إِذَا قَذَفَتْ بِهِ * مِنَ الْبُرْدِ أَطْرَافَ الْبَنَانِ الْمُخْضَبِ
 فَأَصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الْغَدَاةَ كَنَاطِيرٍ * مَعَ الصَّبْحِ فِي أَعْقَابِ نَجْمٍ مُغْرَبٍ

قال أبو الفرج : أنشدني الأخفش عن أبي سعيد السُّكْرَى عن محمد بن حبيب

للجنوب :

فوالله ثم الله لئن لدائب * أفسر ما ذنبي لئليها وأعجب
 ووالله ما أدري علام قتليني * وأى أمورى فيك ياليل أركب
 أأقطع حبل الوصل فالموت دونه * أم أشرب رنقا منكم ليس يشرب
 أم أهرب حتى لا أرى لى مجاورا * أم أصنع ماذا أم أبوح فأغلب
 فأيهما ياليل ما ترتضينه * فإنى لمظلوم وإنى لمعتب

وقال :

عرّضت على قلبى العزاء فقال لى * من الآن فأياش لا أعزك من صبر
 إذا بان من تهوى وأصبح نائيا * فلا شئ أجدى من حلوك فى القبر

(١) الروائع : جمع رائعة ، أى مرتاعة . (٢) الأحناء : جمع حنو وهو كل شئ فيه أعوجاج كعظم
 الحاج (العظم الذى ينبت عليه الحاجب) والحنى والضماع . (٣) الصدى : الجسد من الآدى بعد موته ،
 ويطلق على الرجل النحيف الجسد ، كما أنه يطلق على الصوت الذى يسمعه المصوت عقب صياحه راجعا اليه من
 نحو الجبل والبناء المرتفع .

وداع دعا لاذنن بالخيف من من * فهِيجَ أطراب الفؤاد وما يدرى
دعا باسم ليلي غيرها فكأثما * أطار بليلي طائرا كان في صدرى
دعا باسم ليلي ضلل الله سعيه * وليلى بأرض عنه نازحة قفر

وقال :

أيا جبالى نعمان بالله خلياً * سبيل الصبا يخلص إلى تسيماً
أجد بردها أو تشفى منى حرارة * على كعبيد لم يبق إلا صميمها^(٢)
فان الصبا ريح إذا ما تنسمت * على نفيس محزون تجلت همومها

وقال :

أيا حرجات الحى حيث تجلوا * يذى سيلم لا جادكن ربيع^(٤)
وخياتك اللاتى بمنعرج اللوى * يلين بلى لم تبلى ربيع^(٣)
ندمت على ما كان منى ندامة * كما يندم المغبون حين يبيع^(٦)
فقدت من نفيس شعاع فإنى^(٥) * نهيتك عن هذا وأنت جميع^(٧)
فقتربت لى غير القريب وأشرفت^(٨) * إليك ثانيا ما لهن طلوع^(٩)

وله :

يا صاحبي ألياً بى بمنزلة * قد مرّ حين عليها أيما حين
لانى أرى رجعات الحب تفتلنى * وكان فى بدنها ما كان يكفينى^(٩)
لا خير فى الحب ليست فيه قارعة * كأت صاحبها فى نزع موتون

- (١) الأطراب : جمع طرب وهو خفة تعترى الشخص من شدة الفرح أو الحزن . (٢) صميمها : أصلها .
(٣) الحرجات : جمع حرجة وهى القصة ، وسميت بذلك لضيقها ، وقيل : الشجر الملتف ، وهى أيضا الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها الآلة وهى ما رعى من المال .
(٤) ذر سيلم : موضع بالحجاز .
(٥) يقال : نفس شعاع إذا انتشروا بها فلم تنجح لأمر جزم . (٦) الجميع : ضلة المتفرق .
(٧) أشرفت : ظهرت وأرتفعت . (٨) الثنايا : جمع ثنية وهى الطريقة فى الجبل ، وقيل : هى العقبة ، وقيل : هى الطريق العالى فيه ، يريد أن الوصول الى ليل صعب لا يستطيعه . (٩) الموتون : المضروب على الوتين ، وهو عرق معلق بنياط القلب .

إِنْ قَالَ عُدَّاهُ مَهْلًا فَلَا نَ لَهُمْ * قَالَ الْهَوَىٰ غَيْرُ هَذَا الْقَوْلِ يَعْنِينِي
أَلْقَىٰ مِنَ الْيَاسِ تَارَاتٍ فَتَقْتُلُنِي * وَلِلرَّجَاءِ بَشَاشَاتٌ فَتُخَيِّبُنِي

وله :

أُمْسَقُ بِلِي نَفْحِ الصَّبَا ثُمَّ شَائِقِي * يَبْرِدُ شَتَايَا أُمِّ حَسَّانَ شَائِقِي
كَأَنَّ عَلَىٰ أُنْيَابِهَا الْخَمْرَ شَجِيحًا * بِمَاءِ الْهَدَىٰ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ عَائِقِي^(١)
وَمَا شِئْتُهُ إِلَّا بَعِيسِي تَفَرُّسًا * كَمَا شِيمَ فِي أَعْلَى السَّحَابَةِ بَارِقُ

وروى الأصمعيُّ له قوله :

أَخَذْتُ مُحَاسِنَ كُلِّ مَا * ضَمَنْتُ مُحَاسِنُهُ بِحُسْنِهِ
كَادَ الْغَزَالُ يَكُونُهَا * لَوْلَا الشَّوَىٰ وَشُورُ قَرْنِهِ

قال : وهو القائل :

وَلَمْ أَرِ لَيْلَىٰ بَعْدَ مَوْقِفِ سَاعَةٍ * بِجَنَافٍ مِّنِي تَرْمِي جِمَارَ الْمُخَضَّبِ
وَيُبْدِي الْخَصِي مِنْهَا إِذَا قَدَفَتْ بِهِ * مِنَ السُّبُرِ أَطْرَافَ الْبَنَانِ الْمُخَضَّبِ
فَأَصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الْغَدَاةَ كَنَاطِرٍ * مَعَ الصَّبَحِ فِي أَعْقَابِ نَجْمٍ مُّغْرِبٍ
أَلَا إِنَّمَا غَادَرْتِ يَا أُمَّ مَالِكٍ * صَدَىٰ أَيْمَانَا تَذْهَبُ بِهِ الرِّيحُ يَذْهَبُ

وقال :

يَقُولُ أَنَاسٌ عَلَىٰ مَجْنُونٍ عَامِرٍ * يَرُومُ سُؤْلُوا قُلْتُ أُنَّىٰ لِمَا يَبَا
وَقَدْ لَامَنِي فِي حُبِّ لَيْلَىٰ أَقَارِبِي * أَخِي وَأَبْنُ عَمِّي وَأَبْنُ خَالِي وَخَالِيَا
يَقُولُونَ لَيْلَىٰ أَهْلُ بَيْتِ عَدَاوَةٍ * بِنَفْسِي لَيْلَىٰ مِنْ عَدُوٍّ وَمَالِيَا
وَلَوْ كَانَ فِي لَيْلَىٰ شَدَا مِنْ خَصْمَةٍ * لَلَّوَيْتُ أَعْنَاقَ الْمَطِيِّ الْمَلَاوِيَا^(٣)

(١) شجها : مزجها . (٢) العائق : البكر التي لم تبن عن أهلها ، والظاهر أنها ليست مرادة

هنا وأن كلمة « عائق » مخوِّفة عن « غابق » وهو الساق في الغبوق أى العشى .

(٣) الملاوى : جمع ملوى وهو مصدر ميمى من لوى بمعنى خلف .

وقال :

ألا ما ليلي لا ترى عند مضجعي * بليلى ولا يحسرى بذلك طائرُ
 بلى إن عجم الطير تجرى إذا جرت * بليلى ولكن ليس للطير زاجرُ
 أزلت عن العهد الذى كان بيننا * بذى الأثل أم قد غيرتها المقادرُ
 فوالله ما فى القرب لى منك راحة * ولا البعد يُسلينى ولا أنا صابرُ
 ووالله ما أدرى بأية حيلة * وأى مرام أو خطارٍ أخطارُ^(١)
 وتالله إن الدهر فى ذات بيننا * على لها فى كلِّ حايٍ لجائرُ
 فلو كنت إذ أزمعت هجرى تركتني * جميع القوى والعقل منى وافرُ^(٢)
 ولكن أياي يحفل عناية * وبالرزم أيام جناها التجاورُ^(٣)
 وقد أصبح الود الذى كان بيننا * أمانى نفس والمؤمل حائرُ
 لعمري لقد رنقت يا أم مالك * حياتي وساقطني إليك المقادرُ^(٤)

وقال :

يا للرجال لهم بات يعرفونى * مستطرف وقديم كان يعينى
 على غريم مليء غير ذى عدم * يابى فيمطئني ديني ويلويني^(٥)
 لا يذكر البعض من ديني فينكره * ولا يحدثني أن سوف يقضيني
 وما ككشكرى شكر لو يوافقني * ولا منى كمناه إذ يميني^(٦)

(١) الخطار : مصدر من خاطر بمعنى راهن .

(٢) جميع : مجتمع . (٣) الحقل : المزرعة يطلق على الموضع البكر الذى لم يزرع فيه قط .
 وعنزة : موضع بين البصرة ومكة . والرزم : موضع على سبعة أميال من زبالة ، وزبالة : منزل معروف بطريق
 مكة من الكوفة . (٤) رنقت : كدرت ، والترنق كما يطلق على التكدير يطلق على ضده الذى هو النصفية .
 (٥) مليء بالهز أى ثقة غنى . قال صاحب اللسان : وقد أولع فيه الناس بترك الهمز وتشديد الياء .
 (٦) عدم أى فقره . ثله عدم بضم العين وسكون الدال . قال صاحب اللسان : اذا ضمت أوله خففت فقلت :
 عدم واذا فتحت أوله ثقلت فقلت : عدم . (٧) يلوينى : يطلنى ، يقال : لواء دينه وبدينه : مطله .

أطعته وعصيتُ الناسَ كُلَّهُمْ * في أمره ثم يَأْبَى فهو يَعِصِبُنِي
خَيْرِي لمن يَبْتَغِي خيري ويَأْمُلُهُ * من دونَ شَرِّي وشَرِّي غيرُ مَأْمُونٍ
وما أَشَارِكُ في رأيي أَخَا ضَعِيفٍ ^(١) * ولا أَقُولُ أَحِي مَنْ لا يَوَاتِينِي ^(٢)

وله :

ألا أَيُّهَا البيتُ الذي لا أَزُورُهُ * وإنَّ حَلَهْ شَخْصٌ إلى حَبِيبُ
هَجَرْتُكَ إِسْهَافًا وزرْتُكَ خَائِفًا * وفيكَ على الدَّهْرِ مِنْكَ رَقِيبُ
سَأَسْتَعِيبُ الأَيَّامَ فيكَ لَعَلَّهَا * بيومٍ سُورِي في الزَّمانِ تَوُوبُ

وبلغ المجنون أن أهل ليل يريدون نقلها إلى النَّقْفِيّ فقال :

كَأَنَّ القلبَ لَيْلَةً قِيلَ يُغْدَى * بَلَيْلى العامريَّةِ أو يَرَأُ
قَطَاةً عَزَّهَا شَرُّكَ فَبَاتَتْ * تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ

فلما نُقِلَتْ لَيْلٌ إلى النَّقْفِيّ قال :

طَرَبَتْ وشَاقَتِكَ الحُجُولُ ^(٣) الدَّوَاغُ * غَدَاةُ دَعَا بِالْبَيْنِ أَسْفَعُ نَازِعُ ^(٤)
شَحَا ^(٥) فَاهُ نَعْبًا بالفراقِ كَأَنَّهُ * حَرِيبٌ سَلِيبٌ ^(٦) نَازِحُ الدَّارِ جَازِعُ ^(٧)
فَقُلْتُ أَلَا قَدْ بَيْنَ الأَمْرِ فَانْصَرَفَ * فَقَدْ رَاعَنَا بِالْبَيْنِ قَبْلَكَ رَائِعُ
سُقِيتَ سُمُومًا من غَرَابٍ فُإِنِّي * تَبَيَّنْتُ مَا خَبَّرْتَ مَذْأَنْتَ وَاقِعُ

(١) الضعف هكذا بالتحريك : لغة في الضعف بالفتح والسكون . ويستعمل في ضعف الزأى والعقل ،

وأشدد عليه ابن الأعرابي هذا البيت . ويستعمل في ضعف الجسم وأشد عليه :

ومن يلق خيرا يغمز الدهر عظمه * على ضعف من حاله وفنور

(٢) يواتيني : يساعدي .

(٣) الحمول في الأصل : الهودج واحدها حمل ثم اتسع فيها وصارت تستعمل في الإبل التي عليها الهودج .

والدواغ : المندفعة في السير . (٤) كذا في أغلب النسخ وتزيين الأسواق . وفي ب ، س :

« أسهم » والأسفع والأسهم معناهما واحد وهو الأسود . والنازع : المسرع . والمراد بالأسفع النازع « الغراب » .

(٥) شحاف يشحوه ويشحاه : فتحه . (٦) نعبا : صياحا وتصويتا . (٧) الحريب : من

سلب حريته وهى ماله الذي يقوم به أمره . (٨) بين بمعنى تبين ، ومنه المثل : « قد بين الصبح لذي عينين » .

ألم تَرَ أُنِّي لَا يُحِبُّ الْوُؤَه * وَلَا يَبْدِيلُ بَعْدَهُم أَنَا قَانِع
 أَلَمْ تَر دَارَ الْحَيِّ فِي رَوْنِقِ الضَّحَى * بِحَيْثُ أُنْحَنَتْ لِلْهَضْبَتَيْنِ الْأَجَارُعُ^(١)
 وَقَدْ يَتَنَاءَى الْإِلْفُ مِنْ بَعْدِ أُلْفَةٍ * وَيَصْدَعُ مَا بَيْنَ الْخَلِيطَيْنِ صَادِعُ
 وَكَمْ مِنْ هَوَى أَوْ جِيرَةٍ قَدْ أَلْقَتْهُمْ * زَمَانًا فَلَمْ يَمْنَعَهُمُ الْبَيْنَ مَانِعُ
 كَأَنِّي غَدَاةَ الْبَيْنِ مَيِّتٌ جَوْبِيَّةٌ * أَخَوْظَمًا سُدَّتْ عَلَيْهِ الْمَشَارِعُ
 تَخْلُسُ مِنْ أَوْشَالٍ مَاءٍ صُبَابَةٍ * فَسَلَا الشَّرْبُ مَبْذُولٌ وَلَا هُوَ نَاقِعُ^(٢)
 وَبَيْضٌ تَطَلَّى بِالْعَبِيرِ كَأَنهَا * نِعَاجُ الْمَلَا جِيَّتْ عَلَيْهَا الْبَرَاقِعُ^(٣)
 تَحْمَلْنَ مِنْ وَادِي الْأَرَاكِ فَأَوْمَضَتْ * لَهْنٌ بِأَطْرَافِ الْعَيُونِ الْمَدَامِعُ
 فَمَا رَمَنَ رِبْعَ الدَّارِ حَتَّى تَشَابَهَتْ * هِجَائِنُهَا وَالْجُؤُنُ مِنْهَا الْخَوَاضِعُ^(٤)
 وَحَتَّى حَمَلْنَ الْخُورَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * وَخَاضَتْ سُدُولَ الرَّقْمِ مِنْهَا الْأَكَارِعُ^(٥)

(١) الهضبتان : منى هضبة وهى الرابية أو الجبل المنبسط على الأرض أو الجبل المحلوق من صخرة واحدة ، والأجارع : جمع أجرع ، والأجرع كالجرعاء : الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل أو الرملة السهلة المستوية أو القطعة من الرمل لا تنبت شيئاً (انظر اللسان في مادّة هضب وجرع) . (٢) الهوى بمعنى المهوى وهو المحبوب ، ومنه قول الشاعر :

هَوَايَ مَعَ الرِّكَبِ الْيَمَانِينَ مُصْعِدٌ * جُنَيْبٌ وَجُنَائِي بِمَكَّةَ مُوْتِقٌ

(٣) الجسوبة : فضاء أملس سهل بين أرضين . (٤) تخلس الشيء : انته به وأخذه خلسة . (٥) الأوشال : جمع وشل وهو الماء القليل . والصبابة : بقية الماء تبقى في الأثاء والسقاء . (٦) هو من نفع بمعنى روى . (٧) الملا : الصحراء . (٨) أى قطعت . (٩) هو واد قرب مكة . (١٠) معناه ما برحن . يقال : ما رام المكان أى ما برحه . (١١) الهجائن : الإبل البيضاء الكريمة واحداها هجان . والجئون : جمع جون بفتح الجيم وهو الأسود المشرب بحمرة ، ويطلق على الأسود البيحموى وعلى الأبيض فهو من أسماء الأضداد . (١٢) الخواضع : الإبل وإنما يقال لها خواضع لأنها تخضع أعناقها حين يجتد بها السير ، قال جرير :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالْمَطَى خَوَاضِعٌ * وَكَأَنَّهُنَّ قَطَاً فَلَا تَلَاةَ يَجْهَلُ

(١٣) الخور : جمع حوراء وهى البيضاء أو من فى عينها حور وهو شدة سواد المقلّة فى شدة بياضها . (١٤) السدول : جمع سديل وهو ما يجلل به الهودج من الثياب . (١٥) الأكارع : جمع أكرع والأكرع جمع كراع ، أو الأكارع كما يقول سيويه جمع كراع على غير قياس . والكراع من الإنسان : مardon الركبة الى الكعب ، ومن الدابة قوائمها مطلقاً .

فلما آستوت تحت الخدور وقد جرى * عسير ومسك بالعرانين رادع^(١)
 أشرن بأن حثوا الجمال فقد بدا * من الصيف يوم لاخ الحمر مائع^(٢)
 فلما لحقنا بالجمول تباشرت * بنا مقصرات غاب عنها المطامع^(٣)
 يعرضن بالدل المليح وإن يرد * جناهن مشغوف فهن موانع^(٤)
 فقلت لأصحابي ودمعي مسبل * وقد صدع الشمل المشتت صادع^(٥)
 أليل بأبواب الخدور تعرضت * لعيني أم قرن من الشمس طالع^(٦)
 وروى أن أبا المجنون حج به ليدعو الله عز وجل في الموقف أن يعافيه، فسار ومعه ابن
 عمه زياد بن كعب بن مزاحم، فترجمامة تدعو على أئكة فوق يميني، فقال له زياد:
 أى شيء هذا؟ ما يبيحك أيضا؟ سر بنا نلحق الرفقة، فقال:

أأن هتفت يوما بواحد حمائم * بكيت ولم يعذر بك بالجهل عاذر^(٧)
 دعت ساق حر بعد ما علت الضحى * فهاج لك الأحران أن ناح طائر^(٨)
 تغنى الضحى والصبح في مرجحة^(٩) * كفاف الأعالي تحتها الماء حائر^(١٠)
 كأن لم يكن بالغيل أو بطن أئكة^(١١) * أو الجزع من تول الأشاء حاضر^(١٢)

- (١) المراد بالرادع هنا المردوع به الجسد أو الثوب وهو العير والمسك . وأصل الردع اللطخ بالطيب والزعفران ، يقال : قبض رادع ومردوع أى فيه أثر الطيب والزعفران ، وفي حديث ابن عباس رضى الله عنهما : « لم ينه عن شيء من الأدوية الا عن المزعفرة التى تردع الجلد » أى تنفض صبغها عليه . (٢) المائع : الطويل . (٣) مقصرات : جمع مقصرة أى داخلة فى القصر وهو العشى ، يقال : أتته قصرأ أى عشيا ، وأقصرنا أى دخلنا فى قصر العشى ، كما تقول أمسينا من المساء من أعصرت الجارية اذا بلغت عصر شبابه ، أو من أعصرت أى دخلت فى العصر (انظر لسان العرب مادة قصر) . (٤) تدعو : تصوت وتنوح . (٥) ساق حر : أصله صوت القارى ويطلق على الذكر من القارى تسمية له باسم صوته وهو المراد هنا (انظر اللسان مادى سوق وحر) . (٦) المرجحة : المهترئة المتأيلة . (٧) حائر : متردد . (٨) الغيل : اسم لعدة مواضع والظاهر أن المراد هنا واد لبنى جملة وهم قوم المجنون . (٩) الأئكة : الفيضة الملتفة الأشجار ولم نجد فى الكتب التى بأيدينا « أئكة » ولا « بطن أئكة » اسما لموضع خاص كما هو المناسب للسياق . (١٠) الجزع : منعطف الوادى ولعله هنا اسم لموضع خاص وقد يكون جزع بنى جواز وهو واد باليمامة . (١١) الأشاء : موضع باليمامة فيه تحيل . ولعل كلمة « تول » محرفة عن « تال » والتال : صغار النخل واحده تالة .

يقول زيادٌ لما رأى الحىَّ هَجَرُوا^(١) * أرى الحىَّ قد ساروا فهل أنت سائرٌ
وإنى وإن غَالُ^(٢) التقادُّمُ حاجتى * مُلِمٌّ على أوطانٍ لَيْلَى فَنَاطِرُ

كان المجنونُ وليلى وهما صبيَّانِ يرعيانِ غنما لأهلها عند جبلٍ فى بلادهما يقال له التوباد، فلما ذهب عقله وتوحَّش، كان يحمى إلى ذلك الجبل فيقيمُ به، فإذا تذكَّر أيام كان يُطيف هو وليلى به جزع جزعاً شديداً وأستوحش فهام على وجهه حتى يأتى نواحي الشام، فإذا ثاب إليه عقله رأى بلداً لا يعرفه فيقول للناس الذين يلقاهم : أبى أتم، أين التوباد من أرض بنى عامر ؟ فيقال له : وأين أنت من أرض بنى عامر ! أنت بالشام عليك بنجم كذا فأتمه، فيمضى على وجهه نحو ذلك النجم حتى يقع بأرض اليمن، فيرى بلاداً يُنكرها وقوماً لا يعرفهم فيسألهم عن التوباد وأرض بنى عامر، فيقولون : وأين أنت من أرض بنى عامر ! عليك بنجم كذا وكذا، فلا يزال كذلك حتى يقع على التوباد، فإذا رآه قال فى ذلك :

وأجْهَشْتُ^(٤) للتوباد حين رأيته * وكَبَّرَ^(٥) للرحمن حين رآنى
وأذريتُ دمعَ العين لما عرفتُه * ونادى بأعلى صوته فدعانى
فقلتُ له قد كان حولك جيرةٌ * وعهدى بذاك الصرم منذ زمان
فقال مَضُوا^(٦) وأستودعُونى بلادهم * ومن ذا الذى يبقَى على الحدَّتانِ
وإنى لأبكى اليومَ من حدَّرى غداً * فِرَاقَكَ^(٧) والحيَّانِ مُجْتَمَعانِ
سَجَّالاً^(٨) وتَهْتاناً^(٩) ووبلاً^(١٠) وديمةً * وسحاً^(١١) وتسجماً^(١٢) الى همَّلائِ^(١٣)

- (١) هجروا : ساروا فى وقت الهجرة . (٢) عال الشىء : ذهب به . (٣) التوباد (بالدال المهملة) وهو الموافق لما فى معجم ما أستعجم للبكرى إذ قال فى ضبطه : هو بفتح أوله و باء معجمة بواحدة ودال مهملة وأنشد عليه : * وأجهشت للتوباد حين رأيته * البيت .
وضبطه ياقوت بالدال المعجمة فقال فى معجمه : « توباذ » بالفتح ثم السكون والباء موحدة وآخره ذال معجمة : جبل بنجد . (٤) أجهشت : تهيات للبكاء . (٥) يقال : هنتت السماء تهتن هتنا وتهتنا أى صبت . (٦) يقال : سجمت السحابة مطرها تسجياً وتسجماً إذا صنته . (٧) الهملان : فيض العين بالدموع .

وكان المجنون يسير مع أصحابه فسمع صائحا يصيح : يا ليلي في ليلةٍ ظلماء أو توهم ذلك ، فقال لبعض من معه : أما تسمع هذا الصوت ؟ فقال : ما سمعت شيئا ، قال : بلى ، والله هاتف يهتف بليلى ، ثم أنشأ يقول :

أَقُولُ لِأَدْنَى صَاحِبِي كَلِمَةً * أُسِرْتُ مِنَ الْأَقْصَى أُجِبْ ذَا الْمُنَادِيَا
إِذَا سِرْتُ فِي الْأَرْضِ الْفَضَاءِ رَأَيْتُنِي * أَصَانِعُ رَحِيْرُ^(١) أَنْ يَمِيلَ حِيَالِيَا
يَمِينًا إِذَا كَانَتْ يَمِينًا وَإِنْ تَكُنْ * شِمَالًا يُنَارِعُنِي الْهُوَى عَنْ شِمَالِيَا

خطب ليلي صاحبة المجنون جماعة من قومها فكبرتهم ، فخطبها رجل من ثقيف مؤسر^٢ فرضيته ، وكان جميلا فتزوجها وخرج بها ، فقال المجنون في ذلك :

أَلَا إِنَّ لِيلى كَالْمَنِيحَةِ أَصْبَحَتْ * تَقَطَّعُ إِلَّا مِنْ ثَقِيفٍ حَبَالُهَا
فَقَدْ حَبَسُوهَا مَحْبَسَ الْبُذْنِ وَأَبْتَنَى * بِهَا الرِّيحَ أَقْوَامٌ تَسَاحَتْ مَا^(٣)هَا
خَلِيلِي هَلْ مِنْ حِيلَةٍ تَعْلَمَانِيهَا * يَدُنِي لَنَا تَكْلِيمٌ لَيْلَى أَحْتِيَالُهَا
فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَعْلَمَاهَا فَلَسْتُ * بِأَقْوِي بَاغٍ حَاجَةً لَا يَنَالُهَا
كَأَنَّ مَعَ الرِّكْبِ الَّذِينَ أَغْتَدَوْا بِهَا * غَمَامَةٌ صَيِّفٍ زَعَزَعَتْهَا شَمَالُهَا
نَظَرْتُ بِمُقْضَى سَبِيلٍ جَوْشَنُ^(٤) إِذْ غَدَا * تَحُبُّ بِأَطْرَافِ الْخَارِمِ^(٥) آهَا
بِشَافِيَةِ الْأَحْزَانِ هَيْجَ شَوْقِهَا * مُجَامَعَةُ الْأَلْفِ ثُمَّ زِيَالُهَا
إِذَا آلَتْ فَتَتْ مِنْ خَلْفِهَا وَهِيَ تَعْتَلَى * بِهَا الْعَيْسُ جَلِيَّ عِبْرَةِ الْعَيْنِ حَالُهَا

(١) الرجل : ما يوضع على البعير للركوب ثم يعبر به عن البعير .

(٢) المنيحة في الأصل : الشاة أو الناقة يعطيها صاحبها رجلا يشرب لبنها ثم يردّها إذا انقطع اللبن ، ثم كثر استعمالها في كل موهوب . (٣) يقال أصبحت ماله : استأصله وأفسده ، ومال مسحوت ومسحت أى مذهب . وأصبحت تجارته : خبثت وحرمت ، ولم نجد في كتب اللغة « تساحت » على وزن تفاعل من هذه المادة

(٤) لم نجد في بلاد العرب ما يسمى جوشن الا جبالا في غربي حلب . (٥) الخارم (بالراء المهملة) : جمع مخرم وهو الطريق في الحبل أو الرمل .

وله :

وَأَحْيَسُ عَنْكَ النَّفْسَ وَالنَّفْسُ صَبَّةٌ * بِذِكْرِكَ وَأَلْهَمْتَنِي إِلَيْكَ قَرِيبُ
خَافَةَ أَنْ تَسْمِيَ الْوُشَاةُ بَطْنِيَّةً * وَأَحْرُسُكُمْ أَنْ يَسْتَرِيبَ مُرِيبُ
فَقَدْ جَعَلْتُ نَفْسِي - وَأَنْتِ أَجْتَرِمْتِي * وَكَذَبْتَ أَعْرَنَ النَّاسِ - عَنْكَ تَطِيبُ
فَلَوْ شِئْتُ لَمْ أَغْضَبْ عَلَيْكَ وَلَمْ يَزَلْ * لَكَ الدَّهْرُ مِنِّي مَا حَيْثُ نَصِيبُ
أَمَّا وَالَّذِي يَبْلُغُ السَّرَائِرَ كُلَّهَا * وَيَعْلَمُ مَا تُبْدِي بِهِ وَتَغِيبُ
لَقَدْ كُنْتُ مِنَ تَصْطَفِي النَّفْسُ خُلَّةً * لَهَا دُونَ خُلَانِ الصَّفَاءِ مُحْجُوبُ

٢ - قيس بن ذريح^(١)

من شعر قيس :

يَقُولُونَ لُبْنَى فِتْنَةٌ كُنْتُ قَبْلَهَا * بِخَيْرٍ فَلَا تَسَدَّمْ عَلَيْهَا وَطَلَّقِ
فَطَاوَعْتُ أَعْدَائِي وَعَاصَيْتُ نَاصِحِي * وَأَقْرَرْتُ عَيْنَ الشَّامِتِ الْمُتَخَلِّقِ
وَدِدْتُ وَبَيْتَ اللَّهِ أَنِّي عَصَيْتُهُمْ * وَحُمِلْتُ فِي رِضْوَانِهَا كُلِّ مُوَبِقِ
وَكُلِّفْتُ خَوْضَ الْبَحْرِ وَالْبَحْرُ زَاخِرٌ * أَيْدِي عَلَى أَشْبَاجِ مَوْجٍ مَغْرَقِ

(١) هو قيس بن ذريح الكنانى من ليث بن بكر كان منزل قومه بظاهر المدينة . من لبعض حاجته بخيام بنى كعب بن خزاعة فرأى لبنى بنت الحباب الكعبية ، وكانت فتاة جميلة ، فعلقها ، فطلبها من أبيه فنبهه لإياها لمكانه من الثروة ، وكان يريد أن يزوجه من بنات عمومته حتى يحفظ تراثه فى أهله ، فطار لب قيس وتقسمت نفسه وذهب ، فاستشنع بأخيه من الرصاع ، الحسين بن على ، فوجد ما أحب وترجىها ومكثا زمنا ولم يعقبا ، وشغل قيسا حب لبنى عن مواصلة أمه فاضطفت على زوجها وسعت بها عند أبيه متخذة عدم الولد سلبا ترقى به الى شرها ، فطلب اليه أبوه أن يطلقها فأبى ، فزال به بالوعد والوعيد حتى أجابه الى طلبته ، وكان فى ذلك القضاء الأخير على ما لقيس من حفظ وعقل فى هذه الحياة ولم ياتفع بزوجيه غيرها ، وطارت نفسه شعاعا وذهب على وجهه يتشم أخبار لبنى ويمرغ خذه فى آثارها ، وبقى طول حياته يساقط من نفسه على شعره غير عابى بشقاء بذنه وإهدار دمه حتى لفظ النفس الأخير . وأخبار قيس كشيرة فى الأعافى (ج ٨ ص ١١٢) والشعر والشعراء (ص ٣٩٩) وله ديوان مشروح ، ومنه نسخة فى مكتبة الإسكوبر بالى وغيرها فى برلين .

كأني أرى الناس المحبين بعدها * عصارة ماء الحنظل المتفلق
فتنكر عيني بعدها كل منظر * ويكره سمي بعدها كل منطوق

وخرج قيس في فتية من قومه واعتل على أبيه بالصيد ، فأتى بلاد لبني ، فجعل يتوقع
أن يراها أو يرى من يرسل إليها ، فأشتغل الفتیان بالصيد ، فلما قضوا وطهرهم منه رجعوا إليه
وهو واقف ، فقالوا له : قد عرّفنا ما أردت بإخراجنا معك وأنت لم تُرد الصيد وإنما أردت
لقاء لبني وقد تعذّر عليك ، فانصرف الآن ؛ فقال :

وما حائمت حُمن يوماً وليلة * على الماء يغشين العيصي حوائى
عوائى لا يصدرن عنه لوجهة * ولا هن من برد الحياض دوائى
يرين حباب الماء والموت دونه * فهن لأصوات السقا روائى
بأجهد منى حر شوق ولوعة * عليك ولكن العدو عدائى
خليلى إنى ميت أو مكلّم * لبني بصرى فأمضيا وذرائى
أنل حاجتى وحدى ويارب حاجة * قضيت على هول وخوف جنان
فإنى أحق الناس ألا تحاورا * وتطرحا من لويشاء شفائى
ومن قادنى للوت حتى إذا صفت * مشاربه السم الذعاف سقائى
فأقاموا معه حتى لقيها .

لما ألح ذريح على ابنه قيس في طلاق لبني فأبى ذلك قيس ، طرح ذريح نفسه
في الرمضاء وقال : لا والله لا أرى هذا الموضع حتى أموت أو يُحلبها ، فجاءه قومه من كل
ناحية فعظموا عليه الأمر وذكروه بالله وقالوا : أتفعل هذا بأبيك وأمك ! إن مات شيخك
على هذه الحال كنت مُعيناً عليه وشريكاً في قتله ، ففارق لبني على رغم أنه وقلة صبره
وبكاء منه حتى بكى لهما من حضرمها ، وأنشأ يقول :

أقول خلّيتي في غير حريم * ألا لبني ، بنفسى أنت ، ببنى
فوالله العظيم لتزع نفسي * وقطع الرجل مني واليمين

أحِبُّ إِلَى يَا بُنَيَّ فِرَاقًا * فَبَكَى لِلْفِرَاقِ وَأَسْعَدَنِي
ظَلْمَتِكَ بِالطَّلَاقِ بَغِيرِ جُرْمٍ * فَقَدْ أَذْهَبْتَ آخِرَتِي وَدِينِي

قال : فلما سمعت بذلك لبني بكت بكاء شديداً ، وأنشأت تقول :

رَحَلْتُ إِلَيْهِ مِنْ بَلَدِي وَأَهْلِي * بَخَازَانِي جِزَاءَ الْخَاشِيئِينَ
فَمَنْ رَأَى فَلَا يَغْتَرَّ بَعْدِي * بِحُلُوِّ الْقَوْلِ أَوْ يَتَلَوِّ الدِّفِينِ

فلما آنقضت عِدَّتَهَا وأرادت الشَّخْوَصَ إِلَى أَهْلِهَا أُتِيَتْ بِرَاحِلَةٍ لَتُحْمَلَ عَلَيْهَا ، فلما رَأَى ذَلِكَ قَيْسٌ دَاخِلَهُ أَمْرٌ عَظِيمٌ وَأَشَدُّ لُطْفِهِ ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

بَانَتْ لُبْنَى فَأَنْتَ الْيَوْمَ مَتَبُولٌ * وَإِنَّكَ الْيَوْمَ بَعْدَ الْحَزْمِ مَخْبُولٌ
فَأَصْبَحْتَ عَنْكَ لَبْنَى الْيَوْمَ نَازِحَةً * وَدَلَّ لَبْنَى - لَهَا الْخِيَرَاتُ - مَعْسُولٌ
هَلْ تَرْجِعِينَ نَوَى لَبْنَى بِعَاقِبَةٍ * كَمَا عَهَدْتُ لِيَالِي الْعَشَقِ مَقْبُولٌ
وَقَدْ أَرَانِي بِلَبْنَى حَقٌّ مَقْتَنِجٌ * وَالشَّمْلُ مَجْتَمِعٌ وَالْحَبْلُ مَوْصُولٌ
فَصِرْتُ مِنْ حَبِّ لَبْنَى حِينَ أَذْكُرُهَا * الْقَلْبُ مَرَّتَيْنِ وَالْعَقْلُ مَدْخُولٌ
أَصْبَحْتُ مِنْ حَبِّ لَبْنَى بَلْ تَذْكُرُهَا * فِي كُرْبَةٍ فَقَوَادِي الْيَوْمِ مَشْغُولٌ
وَالْجَسْمُ مَتَّى مِنْهُوْكَ لِفِرْقَتِهَا * يَبْرِيهِ طَوَّلُ سَقَامٍ فَهُوَ مَنْحُولٌ
كَأَنِّي يَوْمَ وَلَّيْتُ مَا تَكَلَّمَنِي * أَخُو هَيَّامٍ مَصَابُ الْقَلْبِ مَسْلُولٌ
أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ لَبْنَى إِذَا تَفَارَقَنِي * عَنْ غَيْرِ طَوِيلٍ وَأَمْرُ الشَّيْخِ مَفْعُولٌ

ثم آرتحلت لبني ، فجعل قيس يقبل موضع رجلها من الأرض وحول خباياها ، فلما رأى ذلك قومه أقبلوا على أبيه بالعدل واللوم ، فقال ذريح لما رأى حاله تلك : قد جنيت عليك يا بُنَيَّ ؛ فقال له قيس : قد كنت أخبرك أني مجنون بها فلم ترض إلا بقتلي ، فأن الله حسبك وحسب أمي . وأقبل قومه يعدلون له في تقبيل التراب ، فأنشأ يقول :

فَمَا حَبِّي لِطَيْبِ تَرَابِ أَرْضٍ * وَلَكِنْ حَبِّ مَنْ وَطِئَ التُّرَابَا
فَهَذَا فَعَلَّ شَيْخَيْنَا جَمِيعًا * أَرَادَا لِي الْبَلِيَّةَ وَالْعَذَابَا

وله قصيدة طويلة في تطليقه لبني يقول فيها :

فَوَاكَيْدِي وَعَاوَدَنِي رُدَايِي ^(١) * وَكَانَ رَأَى لَبْنِي كَالْجَدَايِ ^(٢)
تَكْتَفِي الْوُشَاةُ فَازْجُونِي * فَيَا لَيْلِي لِلْوَاشِي الْمَطَاعِ
فَأَصْبَحْتُ الْغَدَاةَ الْيَوْمُ نَفْسِي * عَلَى شَيْءٍ وَلَيْسَ بِمُسْتَطَاعِ
كَمَغْبُورٍ يَعْصُ عَلَى يَدِيهِ * تَبَيَّنَ غَبْنَهُ بَعْدَ الْبَيْعِ
بَدَارَ مِضِيعَةٍ تَرَكْتُكَ لُبْنِي * كَذَلِكَ الْحَيْنُ يُهْدَى لِلضَّاعِ
وَقَدْ عَشْنَا نَلَّةَ الْعَيْشِ حِينًا * لَوْ أَنَّ الدَّهْرَ لِلْإِنْسَانِ وَاعِي
وَلَكِنَّ الْجَمِيعَ إِلَى اقْتِرَاقٍ * وَأَسْبَابُ الْخَوْفِ لَهَا دَوَاعِي

واجتمع إليه نسوة فأطْلَنَ الجلوسَ عنده وحادثته وهو ساهٍ عنهنَّ، ثم نادى : يا لبني،
فقلن له : ما لك ويحك ؟ فقال : خَدَرْتُ رجلى « ويقال : إن دعاء الانسان باسم أحبَّ
الناس إليه يذهب خَدَرُ الرجل ، فناديتها لذلك . وقال :

إِذَا خَدَرْتُ رَجْلِي تَذَكَّرْتُ مِنْهَا * فَنَادَيْتُ لُبْنِي بِاسْمِهَا وَدَعَوْتُ
دَعْوَتِ الَّتِي لَوْ أَنَّ نَفْسِي تُطِيعُنِي * لَفَارَقْتُهَا مِنْ حَبِّهَا وَقَضَيْتُ
بَرَّتْ نَبْلَهَا لِلصَّيْدِ لُبْنِي وَرَيْسَتْ * وَرَيْسَتْ أُخْرَى مِثْلَهَا وَهَرَيْتُ
فَلَمَّا رَمَتْنِي أَقْصَدْتَنِي بِسَهْمِهَا * وَأَخْطَأْتُهَا بِالسَّهْمِ حِينَ رَمَيْتُ
وَفَارَقْتُ لُبْنِي ضَلَّالَةً فَكُنْتُ ^(٣) * قَرَبْتُ إِلَى الْعَيُوقِ ثُمَّ هَمَوَيْتُ
فِيَالَيْتَ أَنِّي مِتُّ قَبْلَ فِرَاقِهَا * وَهَلْ تَرْجِعُنْ فَوْتَ الْقَضِيَّةِ لَيْتُ
فَصِرْتُ وَشَيْخِي كَالَّذِي عَثَرْتُ بِهِ * غَدَاةَ الْوَعَى بَيْنَ الْعُدَاةِ كُنَيْتُ
فَقَامْتُ وَلَمْ تَضُرْهُ زِلَالُ سَوِيَّةٍ * وَفَارَسُهَا تَحْتَ السَّنَابِكِ مَيْتُ
فَأَنْ يَكْ تَهْيَأِي بِلُبْنِي غَوَايَةً * فَقَدْ يَا ذَرِيحُ بَنَ الْحَبَابِ غَوَيْتُ

(١) الرداع : النكس ، وهو رجوع المرض . (٢) الجداع : الموت . (٣) هونجم أحمر مضيئ
في طرف المحبرة الأيمن يتلو اثر يا لا يتقدمها .

فلا أنت ما أتمت في رأيته * ولا أنا لبني والحياة حويت
فوطن لهلك منك نفساً فإني * كأنك بي قد يا ذريح قضيت
ومرض قيس ، فسأل أبوه فتيات الحى أن يعذنه ويحدثنه أو يعلق بعصن ، ففعلن
ذلك ، ودخل اليه طبيب ليداويه والفتيات معه ، فلما اجتمعن عنده جعل يحدثنه وأطلن
السؤال عن سبب علته ، فقال :

تعلق روى روحها قبل خلقنا * ومن بعد ما سخا نطافاً وفي المهيد
فزاد كما زدنا فأصبح نامياً * وليس اذا متنا بمنصرم العهد
ولكنه باق على كل حادث * وزائرنا في ظلمة القبر والحد

فقال له الطبيب : إن مما يسليك عنها أن تذكر ما فيها من المساوى والمعايب ،
فان النفس تنبو حينئذ وتسلو ويخف ما بها .

فلما طال على قيس ما به أشار قومه على أبيه بأن يزوجه امرأة جميلة فلعله يسلو بها
عن لبني ، فدعاه الى ذلك فأباه وقال :

لقد خفت ألا تقنع النفس بعدها * بشيء من الدنيا وإن كان مقنعاً
وأزجر عنها النفس اذ حيل دونها * وتأبى اليها النفس ألا تطلعا
ولما تزوجت لبني بأخرأتى موضع خباثتها فنزل عن راحلته وجعل يتعمك موضعها^(١)
ويتزعج خذه على ترابها ويبكى أحراً بكاء ثم قال :

الى الله أشكو فقد لبني كما شكا * الى الله فقد والدين يتيم
يتيم جفاه الأقربون بجسمه * نحيل وعهد والدين قديم
بكت دارهم من نايهم فتهلت * دموى فأى الجازعين ألوم
أمستعبريكي من الشوق والهوى * أم آخر يبكى شجوه ويهيم
تهيضني من حب لبني علائقي * وأصناف حب هوطن عظيم

(١) يتعمك : يتزعج في التراب .

ومن يتعلّق حبُّ لُبْنَى فؤادَه * يمتّ أو يعشّ ما عاش وهو كليمُ
فإني وإن أجمعتُ عنك تجلّدا * على العهد فيما بيننا لمقسيمُ
وإن زمانا شتّت الشملَ بيننا * وبينكم فيه العدا لمشومُ
أفي الحق هذا أنّ قلبك فارغ * صحيحٌ وقلبي في هسّوك سقيمُ

وقال في رحيل لُبْنَى عن وطنها وانتقالها الى زوجها بالمدينة وهو مقيم في حيّها :
بانت لُبْنَى فهاج القلب من بانا * وكان ما وعدتُ مطلا وليانا^(١)
وأخلفتك متى قد كنت تأملها * فأصبح القلب بعد البين حيرانا
الله يدرى وما يدرى به أحد * ماذا أجمع من ذكرك أحيانا
يا أكل الناس من قرن الى قديم * وأحسن الناس ذا ثوب وعريانا
نعم الضجيع بعيد النوم تجلبه * اليك ممتلئا نوما ويقظانا
لا بارك الله فيمن كان يحسبكم * إلا على العهد حتى كان ما كانا
حتى استفقت أخيرا بعد ما نكحت * فبت للشوق أذرى الدمع تهتنا
إن تصرى الحبل أو تمسى مفارقة * فالدهر يحدث للإنسان ألوانا
وما أرى مثلكم في الناس من بشير * فقد رأيتُ به حيا ونسيوانا

وشكا أبو لبني لمعاوية تعرّض قيس لأبنته بعد طلاقها، فكتب معاوية الى الأمير
يهدر دمه إن ألم بها، وأن يشتد في ذلك؛ فكتب مروان في ذلك الى صاحب الماء الذي
ينزله أبو لبني كتابا وكيدا، ووجهت لبني رسولا الى قيس تُعلمه ما جرى وتحدّره؛ وبلغ أباه
الخبر، فعاتبه وتجهّمه، وقال له : انتهى بك الأمر الى أن يهدر السلطان دمك؛ فقال :
فان يحجبوها أو يحلّ دون وصلها * مقالةً وإش أو عيّد أمير
فلن ينعوا عيني من دائم البكا * وإن يذهبوا ما قد أجنت ضميري
الى الله أشكو ما ألقى من الهوى * ومن حرق تعادني وزفير

(١) الليان : اللّي والمطل، قال أبو الهيثم : لم يبيّن من المصادر على فعلان إلا ليان .

ومن حرقٍ للحبِّ في باطن الحشى * وليلٍ طويلٍ الحزن غير قصيرٍ
سأبكي على نفسى بعينٍ غزيرةٍ * بكاءً حزينٍ في الوثاق أسيرٍ
وكنا جميعاً قبل أن يظهر الهوى * بأنعم حالي غبطة وسرورٍ
فما يرح الواشون حتى بدت لهم * بطون الهوى مقلوبةً لظهورٍ
لقد كنت حسب النفس لودام وصلنا * ولكنا الدنيا متاع غرورٍ
وقال في إهدار معاوية دمه إن هو زارها :

إن تك لبني قد أتى دون قربها * حجاب منيع ما إليه سبيلُ
فإن نسيمَ الخو يجمع بيننا * ونُبصر قرنَ الشمس حين تزولُ
وأرواحنا بالليل في الحى تلتقى * ونعلم أياً بالنهار نَقِيلُ
وتجمعنا الأرضُ القرار وفوقنا * سماء نرى فيها النجوم تجولُ
إلى أن يعود الدهر سَلماً وتنقضى * ترات بغهاها عندنا وذُحولُ^(١)

ولما أنصرف الناس من الحج مرض قيس مرضاً شديداً فلم يأته رسولها عائداً، فقال :

ألبني لقد حلت عليك مصيبتى * غداة غداً حل ما أتوقعُ
تُمنّيني نَيْلاً وتلويني قَلِي * فنفسى شوقاً كل يوم تقطعُ
وقلبك قط لا يلين لما يرى * فواكيدى قد طال هذا التضرعُ
ألومك في شأني وأنت مُليمةٌ * لعمرى وأجنى للحب وأقطعُ
أخبرت أنى فيك ميتٌ حسرتى * فما فاض من عينيك للوجد مدمعُ
ولكن لعمرى قد بكيتك جاهداً * وإن كان دائى كله منك أجمعُ
صبيحةً جاء العائدات يُعدننى * فظلت على العائدات تفجعُ
فقائلةً جئنا إليه وقد قضى * وقائلةً لا بل تركناه ينزعُ
فما غشيت عينيك من ذاك عبرةٌ * وعينى على ما بى بذكرائك تدمعُ
إذا أنت لم تبكى على جنازة * لديك فلا تبكى غدا حين أرفعُ

(١) ذحول : جمع ذحل وهو النار .

ومن شعره قوله :

أَتَبْكِي عَلَى لُبْنَى وَأَنْتِ تَرَكْتَهَا * وَكُنْتَ عَلَيْهَا بِالْمَلَأِ أَنْتِ أَقْدَرُ
فَإِنْ تَكُنِ الدُّنْيَا بِلُبْنَى تَقَلَّبْتُ * عَلَى فَلَدُنْيَا بِطَوْنٍ وَأُظْهَرُ
لَقَدْ كَانَ فِيهَا لِلْأَمَانَةِ مَوْضِعٌ * وَلِلْكَفِّ مُرْتَادٌ وَلِلْعَيْنِ مَنْظَرُ
وَلِلْهَائِمِ الْعَطَشَانِ رِيٌّ بِرِيقِهَا * وَلِلرَّيحِ الْخَيْتَالِ نَحْرٌ وَمُسْكِرُ
كَأَنِّي لَهَا أُرْجُو حُجَّةً بَيْنَ أَحْبَلٍ * إِذَا ذُكِرَتْ مِنْهَا عَلَى الْقَلْبِ تَحْطَرُ

وقوله :

لَقَدْ عَدَّ بَنَتِي يَا حَبِيبِي * فَفَقَعَ إِذَا بِمَوْتٍ أَوْ حَيَاةٍ
فَإِنَّ الْمَوْتَ أَرْوَحُ مِنْ حَيَاةٍ * تَدُومُ عَلَى التَّبَاعُدِ وَالشَّيْءِ
وَقَالَ الْأَقْرَبُونَ تَعَزَّ عَنْهَا * فَقُلْتُ لَهُمْ إِذَا حَانَتْ وَفَاتِي

وقالت له لبني : أُنْشِدْنِي مَا قُلْتَ فِي عِلَّتِكَ ، فَأُنْشِدَهَا قَوْلَهُ :

أُعَاجِلُ مَنْ نَفْسِي بِقَايَا حُشَاةٍ * عَلَى رَمَقٍ وَالْعَائِدَاتُ تَعُودُ
فَإِنْ ذُكِرْتُ لِبْنَى هَشَشْتُ لَذِكْرَهَا * كَمَا هَشَّ لِلشَّدَى الدَّرُورُ وَلِيَدُ
أُجِيبُ لِبْنَى مَنْ دَعَانِي تَجَلُّدًا * وَبِي زَفَرَاتُ نَجْلِ وَتَعُودُ
تُعِيدُ إِلَى رُوحِي الْحَيَاةَ وَإِنِّي * بِنَفْسِي لَوْ عَايَنْتَنِي لِأَجُودُ

وفيها يقول :

أَلَا لَيْتَ أَيَّامًا مَضَيْنَ تَعُودُ * فَإِنْ عُدْنَ يَوْمًا إِنِّي لَسَعِيدُ
سَقَى دَارَ لِبْنَى حَيْثُ حَلَّتْ وَخِيَمَتْ * مِنْ الْأَرْضِ مِنْهُلُ الْغَمِّ رَعِيدُ
عَلَى كُلِّ حَالٍ إِنْ دَنْتُ أَوْ تَبَاعَدْتُ * فَإِنْ تَدَبَّرْتُ مِنْهَا فَالْدَنُ مَزِيدُ
فَلَا الْيَأْسُ يُسْلِنُنِي وَلَا الْقُرْبُ نَافِعِي * وَلِبْنَى مَنْوَعٌ مَا تَكَادُ تَجُودُ
كَأَنِّي مِنْ لِبْنَى سَلِيمٍ مَسْهُدٌ * يَظَلُّ عَلَى أَيْدِي الرِّجَالِ يَمِيدُ
رَمَنِي لِبْنَى فِي الْفَوَادِ بِسَهْمِهَا * وَسَهْمُ لِبْنَى لِلْفَوَادِ صَيُودُ

سلا كل ذي شجر علمت مكانه * وقلبي للبنى ما حيت ودود
وقائلة قد مات أو هو ميت * وللنفس منى أن تفيض رصيد

وعاتبته على تزوجه ، خلف أنه لم ينظر إليها ملء عينيه ، ثم قال :

ولقد أردت الصبر عنك فعاقني * علق بقلبي من هوائك قديم
يبقى على حدّ الزمان ورّيته * وعلى جفائك إنه لكريم
فصرمته وصححت وهو بدائه * شتان بين مصحح وسقيم
وأريته زمناً فعاد بحلمه * إن الحب عن الحبيب حليم

فلم يزل معها يتحدثها ويشكو إليها حتى أمسى ، فانصرفت ووعده الرجوع إليه من غد
فلم ترجع ، وشاع خبره ، فلم ترسل إليه رسولا ، فكتب هذين البيتين :

بنفسى من قلبى له الدهر ذاكر * ومن هو عني معرض القلب صابر
ومن حبه يزداد عندى جدّة * وحيّ لديه مخلق العهد دائر

وقال ابن أبى عتيق لقيس يوما : أنشدنى أحرا ما قلت فى لبنى ، فأنشده :

وإنى لأهوى النوم فى غير حينه * لعل لقاء فى المنام يكون
تحدثنى الأحلام أنى أراكم * فبالت أحلام المنام يقين
شهدت بأنى لم أحل عن مودة * وأنى بكم لو تعلمين ضنين
وأن فؤادى لا يلين إلى هوى * سواك وإنت قالوا بلى سيلين

وقال عبد الملك بن عبد العزيز : أنشدت أبا السائب المخزومي قول قيس :

أحبك أصنافا من الحب لم أجد * لها مثالا فى سائر الناس يوصف
فمن حب للحبيب ورحمة * بمعرفى منه بما يتكلف
ومنهن ألا يعرض الدهر ذكرها * على القاب إلا كادت النفس تلتف
وحب بدا بالجسم واللون ظاهر * وحب لدى نفسى من الروح أطف

وقصيدة قيس العينية من جيد شعره وهى :^(١)

عَفَا سِرْفٌ مِنْ أَهْلِهِ فُسْرَاوِعُ * بَحْنَبَا أَرِيكَ فَالتَّلَاعُ الدَّوَاغُ^(٢)
فَغَيْقَةُ فَالْأَخْيَافُ أَخْيَافُ طَبِيَّةٍ * بِهَا مِنْ لَبْنِي مَحْرَفٌ وَمَرَابِعُ^(٣)
لَعَلَّ لُبْنِي أَنْ يُجَمَّ لِقَاؤُهَا * بِبَعْضِ الْبِلَادِ إِنْ مَا حَمَّ وَاقِعُ^(٤)
بِجَزَعٍ مِنَ الْوَادِي خَلَاءَ أَنْيُسِهِ * عَفَا وَتَحَطَّطَتِ الْعَيُونُ الْخَوَادِعُ^(٥)
وَلَمَّا بَدَا مِنْهَا الْفِرَاقُ كَمَا بَدَا * بَظْهَرِ الصَّفَا الصَّلْدِ الشَّقِيقُ الشَّوَانِعُ^(٦)
تَمَنَّيْتُ أَنْ تَلْقَى لِبَهْنَاكَ ، وَالْمُنَى * تُعَاصِيكَ أَحْيَانًا وَحِينًا تُطَاوِعُ
وَمَا مِنْ حَبِيبٍ وَامِقٍ لِحَبِيبِهِ * وَلَا ذِي هَوًى إِلَّا لَهُ الدَّهْرُ فَاجِعُ
وَطَارَ غَرَابُ الْبَيْنِ وَأَنْشَقَّتِ الْعَصَا^(٧) * بَيْنَ كَمَا شَقَّ الْأَدِيمَ الصَّبَاغُ
أَلَا يَا غَرَابَ الْبَيْنِ قَدْ طَرَتَ بِالذِّى * أَحَازِرُ مِنْ لَبْنِي فَهَلْ أَنْتَ وَاقِعُ
وَلِمَا نَكَ لَوْ أَبْلَغْتَهَا قَيْمَكَ اسْلَهِي * طَوْتُ حَرَّتًا وَأَرْفَضُ مِنْهَا الْمَدَامُ^(٨)
أَتَبْكِي عَلَى لَبْنِي وَأَنْتِ تَرْكُتَهَا * وَكُنْتَ كَأَتٍ غِيَّهَ وَهُوَ طَائِعُ
فَلَا تَبْكِينَ فِي إِثْرِ شَيْءٍ نَدَامَةً * إِذَا نَزَعْتَهُ مِنْ يَدِكَ النَوَازِعُ
فَلَيْسَ لِأَمْرِ حَاوِلِ اللَّهِ جَمْعَهُ * مُشِتٌ وَلَا مَا فَتَرَكَ اللَّهُ جَامِعُ^(٩)
كَأَنَّكَ لَمْ تَغْنَهُ إِذَا لَمْ تُلَاقِهَا * وَإِنْ تَلَقَّهَا فَالْقَلْبُ رَاضٍ وَقَانِعُ

(١) وردت هذه القصيدة برمتها في كتاب الأمل لأبي على القتالي (ج ٢ ص ٣١٤ — ٣١٨ طبعة دار الكتب المصرية) .
(٢) سرف وسراوع وأريك : مواضع . والتلاع واحدتها تلعة وهى مسيل ما ارتفع من الأرض الى بطن الوادى . والدوافع : جمع دافعة وهى التى تدفع الماء .
(٣) أخيف : ظبية : موضع . والمخرف : المنزل الذى يقام فيه فى الخريف . والمرايع : جمع مربع وهو الموضع الذى يقام فيه فى الربيع . (٤) حم : قدر . (٥) جنع الوادى : منعطفه . وعفا : درس . والخوادم واحدتها خادمة وهى التى لا تنام ، يقال : خدعت عينه تخدع إذا لم تنم ، وأتيناهم بعد ما خدعت العين .
(٦) الصفا : الصخر . والصلد : الصلب الذى إذا أصابه شيء صلد أى صوّت . والشوانع : جمع شائعة وهى الظاهرة . (٧) أى تفرقت الجماعة . (٨) أرفض : سال ولا يكون إلا سيالا مع تفرق .
(٩) مشت : مفرق .

فياقلبُ خبرني، اذا شطت^(١) النوى * بلُبني وصدت عنك، ما أنت صانع
 أتصبر للبين المِشت مع الجوى * أم أنت أمرؤ نايي الحياء بفازع
 فما أنا إن بانت لُبني بهاجع * اذا ما استقلت بالنيام المضاجع
 وكيف ينام المرء مستشعر الجوى * ضجيج الأسى فيه نكاس روادع^(٢)
 فلا خير في الدنيا اذا لم تواتنا * لُبني ولم يجع لنا الشمْل جامع
 أليست لبني تحت سَقف يُكنها * وإياي هذا إن نأت لي نافع
 ويلبسنا الليل البهيم اذا دجا^(٣) * ونُبصر ضوء الصبح والفجر ساطع
 تطأ تحت رجليها بساطاً وبعضه * أطاه برجلي ليس يطويه مانع^(٤)
 وأفرح إن تُمسي بخير وإن يكن * بها الحدُّ الغادي ترعى الروائع^(٥)
 كأنك يدع لم تر الناس قبلها * ولم يطالعك الدهر فيمن يطالع
 فقد كنت أبكى والنوى مطمئنة * بنا وبكم من علم ما بين صانع
 وأهجر كم هجر البغيض وحبكم * على كبدى منه كلوم صوادع
 وأعجل للإشفاق حتى يشفني * مخافة شحط الدار والشمْل جامع
 وأعيد للأرض التي من ورائكم * ليرجعني يوماً عليك الرواجع
 فيا قلب صبراً واعترافاً^(٦) لما ترى * وياحبها قع بالذي أنت واقع
 لعمري لمن أمسى وأنت ضجيعه * من الناس ما أخبرت عليه المضاجع
 ألا تلك لبني قد ترأخى مزارها * وللبين غم ما يزال ينازع
 اذا لم يكن إلا الجوى فكفى به * جوى حرق قد صمئت الأضالع
 أبائنة لبني ولم تقطع المدى * بوصيل ولا صريم فيأس طامع

(١) شطت : بعدت . (٢) المستشعر : الذي لبس الشعار وهو الثوب الذي يلي الجسد . والجوى : الهوى الباطن . والأسى : الحزن . ونكاس : جمع نكس بالضم . روادع : جمع رادعة وهي التي تردعه عن الحركة والتصرف . (٣) دجا : ألبس بظلمته كل شيء . (٤) البساط : ما بسط من الفرش . (٥) ترعى : تفرغى . (٦) اعترف : ذل وانقاد .

يَظُلُّ نَهَارَ الْوَاهِلِينَ نَهَارُهُ ١ وَتَهْدِيهِ^(١) فِي النَّائِمِينَ الْمُضَاجِعُ
 سِوَايَ فَلْيَلِي مِنْ نَهَارِي وَإِنَّمَا * تُقَسِّمُ بَيْنَ الْهَالِكِينَ الْمَصَارِعُ
 وَلَوْلَا رَجَاءُ الْقَلْبِ أَنْ تَعِطِفَ النَّوَى * لَمَّا حَمَلْتَهُ بَيْنَهُنَّ الْأَصَابِعُ
 لَهُ وَجَبَاتٌ^(٢) لِأَثَرِ لُبِّي كَأَنَّهَا * شَقَائِقُ بَرِّقَ فِي السَّحَابِ لَوَامِعُ
 نَهَارِي نَهَارُ النَّاسِ حَتَّى إِذَا دَجَا * لِي اللَّيْلُ هَزَّتَنِي إِلَيْكَ الْمُضَاجِعُ
 أَقْضَى نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وَبِالْمُنَى * وَيَجْمَعُنِي بِاللَّيْلِ وَالْهَمُّ جَامِعُ
 وَقَدْ نَشَأْتُ فِي الْقَلْبِ مِنْكَ مَوَدَّةً * كَمَا نَشَأْتُ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ
 أَبَى اللَّهُ أَنْ يَلْقَى الرِّشَادَ مَتِّيمٌ * إِلَّا كُلُّ أَمْرٍ حُمٌّ لَا بَدَّ وَاقِعُ
 هُمَا بَرَّحَا بِي مُعْوَلِينَ كِلَاهُمَا * فَوَادَّ وَعَيْنٌ مَا قَهَا الدَّهْرُ دَامِعُ
 إِذَا نَحْنُ أَنْفُسُنَا الْبِكَاءَ عَشِيَّةً * فَمَوْعِدُنَا قَرْنٌ مِنَ الشَّمْسِ طَالِعُ
 وَلِلْجِبِّ آيَاتٌ تَبَيَّنُ بِالْفَقَى * شُحُوبٌ وَتَعَرَّى مِنْ يَدَيْهِ الْأَشَاجِعُ
 وَمَا كُلُّ مَا مَتَّعَكَ نَفْسُكَ خَالِيًا * تَلَاقَى وَلَا كُلُّ الْهَوَى أَنْتَ تَابِعُ
 تَدَاعَتْ لَهُ الْأَحْزَانُ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ * خَفْنٌ كَمَا حَرَّ الظُّوَارُ السَّوَابِعُ
 وَجَانِبَ قُرْبِ النَّاسِ يَخْلُو بِهِمْ * وَعَاوَدَهُ فِيهَا هَيْأَمٌ مُرَاجِعُ
 أَرَاكَ اجْتَنَبْتَ الْحَيَّ مِنْ غَيْرِ بَغْضَةٍ * وَلَوْ شِئْتَ لَمْ تَجْنَحِ إِلَيْكَ الْأَصَابِعُ
 كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ مَا لَمْ تَكُنْ بِهَا * وَإِنْ كَانَ فِيهَا الْخَلْقُ قَفَرٌ بِلَاقِعُ
 إِلَّا إِنَّمَا أَبْكَى لَمَّا هُوَ وَاقِعٌ * وَهَلْ جَزَعٌ مِنْ وَشَسِكَ بَيْنَكَ نَافِعُ
 أَحَالَ عَلَى الدَّهْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * وَدَامَتْ وَلَمْ تُقْلِعْ عَلَى الْفَوَاجِعِ
 فَمَنْ كَانَ مَحْزُونًا غَدًا لِفِرَاقِنَا * قَلِيلًا فَلْيَبْكِي لَمَّا هُوَ وَاقِعُ

(١) تَهْدِي : تَسْكِنُهُ . (٢) وَجَبَات : خَفَقَات . (٣) الْمَاقُ مِنْ الْعَيْن : الْجَانِبُ الَّذِي يَلِي
 الْأَنْفَ . (٤) الْأَشَاجِع : عُرُوقُ ظَاهِرِ الْكَفِّ . (٥) الظُّوَارُ : جَمْعُ ظَاوٍ وَهِيَ الَّتِي عَطَفَتْ عَلَى
 وَلَدٍ غَيْرِهَا . وَالسَّوَابِعُ : جَمْعُ سَاجِعَةٍ وَهِيَ الَّتِي تَمُدُّ حَنِينَهَا عَلَى جِهَةٍ وَاحِدَةٍ .

الشعر السياسي

أوضحنا لك في المجلد الأول ما لاستعمال الشعر من أثر في كثير من الحركات السياسية وأستحداث العزّات وإنهاض الهمم في الانقلابات الاجتماعية، وبيّنا ميّزة استعمال الشعر في الأغراض السياسية في عصر الدولة الأموية، وذكرنا عدّة أمثلة تبين ما وصل إليه هذا النوع الطريف، ووجدناك بذكر قصيدة النعمان بن بشير في هذا الباب. وها هي ذى :

النعمان بن بشير^(١)

قال أبو الفرج الأصفهاني :

لما كثر الهجاء بين عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن الحَكَم بن أبي العاصي وتخاصّسا، كتب معاوية إلى سَعِيد بن العاصي، وهو عامله على المدينة، أن يَمْلِك كل واحد منهما مائة سوط، وكان ابن حسان صديقاً لسعيد وما مدح أحداً غيره قط، فكره أن يضربه أو يضرب ابن عمه، فأمسك عنهما؛ ثم ولي مرءاً، فلما قدّم أخذ ابن حسان فضربه مائة سوط ولم يضرب أخاه، فكتب ابن حسان إلى النعمان بن بشير وهو بالشام، وكان كبيراً أثيراً^(٢) ميكياً عند معاوية، قال :

(١) هو النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري، من الخزرج أهل يثرب، لكنه ساير معاوية، فكان معه في راقعة صفين، ولم يكن مع معاوية في تلك الواقعة من الأنصار سواء. وقد اجتذبه بسخائه ودهائه وكان يراعى جانبه، وكثيراً ما سمع توسّطه للأنصار عنده. وعاش النعمان المذكور إلى خلافة مروان بن الحكم، وكان يتولى حصص، فلما أفضت الخلافة إلى مروان دعا إلى ابن الزبير وخالف على مروان بعد قتل الضحاك، فلم يجبه أهل حصص إلى ذلك، فهرب منهم فقبوه وأدركوه وقتلوه. وكان على مسيرته بنى أمية شديد التعصب للأنصار، ولذلك عند ما علم بقصيدة الأخطل في الطعن عليهم رد عليه. والنعمان بن بشير من العريقين في الشعر خلفاً عن سلف فإن جده وأباه وعمه وأولاده وأحفاده كلهم شعراء. وهو أول ولود ولد في الإسلام من الأنصار، وآخر من ولي الكوفة لمعاوية بن أبي سفيان. وله ديوان مطبوع في الهند، توفي سنة ٦٥ هـ. وترى أخبار النعمان بن بشير في الأغاني (ج ١٤ ص ١١٩) وأمالى القالى (ج ٣ ص ٨) والعقد الفريد (ج ٣ ص ١١٢ طبع مصر سنة ١٣٠٥ هـ) وفي سيرة ابن هشام وابن خلكان وابن الأثير وغيرها. (٢) أثيراً : مكرماً.

ليت شعري أغائب أنت بالشا * م خليلي أم رافد نعيم
أية ما يكن فقد يرجع الغا * نب يوما ويوقف الوسنان
إن عمرا وعامرا أبوين * وحراما قدما على العهد كانوا
أفهم ما نعوك أم قلة الكتف * أب أنت عاتب غضبان
أم جفاء أم أعوزتك القرايط * أم أمرى به عليك هوان
يوم أنبت أن ساقى رضى * وأنتكم بذلك الركب
ثم قالوا إن ابن عمك في بلوى * أمور أتي بها الحدان
فنسيت الأرحام والود والصحة * فيما أتت به الأزمان
إنما الرمح فاعلمن قنائة * أو كبعض العيدان لولا السنان

قال أبو الفرج الأصمهاني :

دخل النعمان بن بشير على معاوية لما هجا الأخطل الأنصار ، فلما مشى بين يديه

أنشأ يقول :

معاوي إلا تُعطينا الحق تعترف * لحي الأزد مشدودا عليها العائم
أيشمنا عبد الأراقم ضلة^(١) * وماذا الذي تُجدي عليك الأراقم
فما لي تأرؤن قطع لسانه * فدونك من يرضيه عنك الدراهم
وراج رويدا لا تسمننا دنية * لعلك في غب الحوادث نادم
مق تلق منا عصابة خزرجية * أو الأوس يودا تخترمك المحارم
وتلقاك خيل كلقط مستطيرة * شاطئ^(٢) أرسل عليها الشكائم^(٣)
يسومها العمران : عمرو بن عامر * وعمران حتى تستباح المحارم
ويدو من الخود العزيرة مجلها * وتبيص من هول السيوف المقادم
فتطلب شعب الصدع بعد ألتئامه * فتغريه فالآن والأمر سالم

(١) الأراقم : حى من بن تغلب . (٢) شاطئ : متفرقة . (٣) الشكائم : جمع

شكيمة وهى الحديد المعتبرة فى فم الفرس .

وإلا فنوبى لأمة تبعية * تواريت آباءى وأبيض صارم
 وأسر خطي كأن كعوبه * نوى الفسب فيها لهدمي خثارم
 فإن كنت لم تشهد بدير وقبعة * أذات قریش والأوف رواجم
 فسائل بنا حيي لوى بن غالب * وأنت بما يخفى من الأمر عالم
 ألم تبدر يوم بدر سيوفنا * وليك عما ناب قومك قاتم
 ضربناكم حتى تفرق جمعكم * وطارت أكف منكم وجماعم
 وعاذت على البيت الحرام عرائس * وأنت على خوف عليك التمام
 وعصمت قریش بالأنامل بغضة * ومن قبل ماضت عليك الأدهم
 فكنا لها في كل أمر نكيده * مكان الشجاء والأمر فيه تفاقم
 فما إن رمى راي فأوهى صفاتنا * ولا ضامنا يوماً من الدهر ضائم
 ولاني لأغضى عن أمور كثيرة * سترقى بها يوماً إليك السالام
 أصانع فيها عبد شمس ولاني * لتلك التي في النفس منى أكتام
 فما أنت والأمر الذي لست أهله * ولكن ولي الحق والأمر هاشم
 إليهم يصير الأمر بعد شتاته * فمن لك بالأمر الذي هو لازم
 بهم شرع الله الهدى فأهتدى بهم * ومنهم له هادي إمام وخاتم

فلما بلغت القصيدة معاوية أمر بدفع الأخطل إليه ليقطع لسانه ، فاستجار يزيد
 ابن معاوية ، فمنعه منه ، وارضى النعمان حتى كف عنه .

وقال عمرو بن أبي عمرو الشيباني عن أبيه : لما ضرب مروان بن الحكم عبد الرحمن
 ابن حسان الحد ، ولم يضرب أخاه حين تهاجيا وتقاذفا ، كتب عبد الرحمن الى النعمان
 ابن بشير يشكو اليه ، فدخل الى معاوية ، وأنشأ يقول :

يابن أبي سفيان ما مثلنا * جار عليه ملك أو أمير
 أذكر بنا مقدم أفراسنا * بالحنو إذ أنت الينا فقير

واذ كر غداة الساعدي الذي * آثركم بالأمر فيها بشير
 فاحذر عليهم مثل بذير وقد * مر بكم يوم بيدر عمير
 إن ابن حسان له نائر * فأعطه الحق يصيح الصدور
 ومثل أيام لنا شئت * ملكا لكم أمرك فيها صغير
 أما ترى الأزد وأشياءها * تجول خزا كاظبات تزيير
 يصول حولى منهم معشر * إن صلت صالوا وهم لى نصير
 يابى لنا الضيم فلا يعتلى * عز منيع وعدي كغير
 وعنصر فى عز جرثومة * عادية تنقل عنها الصخور

مُلْحَقٌ الكتاب الثاني

باب المنشور

شرحنا لك في المجلد الأول ما كانت عليه الكتابة في عصر العباسيين من جَوْدَةِ اللفظ، ومتانة الأسلوب، وجلاء المعنى، ووضوح القصد وبساطته. ووعدناك بذلك كَرِّطَرَفٍ من رسائل القوم في ذلك العصر الزاهي الزاهر؛ وإليك ما وعدناك به :

١ — مُشَاوَرَةُ المهديّ لأهل بيته في حرب خراسان

قال ابنُ عبد ربّه في العقد الفريد :

هذا ما تراجع فيه المهديّ ووزرائه وما دار بينهم من تدبير الرأي في حرب خراسان أيامَ تحاملت عليهم العمالُ وأعنفَت، فحملتهم الدالّة وما تقدّم لهم من المسكنة على أن نكثوا ببيعَتهم، ونقضوا موثقتهم، وطرّدوا العمال، وآلّثوا بما عليهم من الخراج؛ وحمل المهديّ ما يجب من مصابحتهم ويكره من عنّتهم على أن أقال عنّتهم، وأغفر زلّتهم، وأحتمل دالّتهم، تطوّلاً بالفضل وأنّاساً بالعفو، وأخذوا بالهجرة ورفقا بالسياسة؛ ولذلك لم يزل مدّحّله الله أعباء الخلافة وقلّده أمور الرعيّة رفيقا بمدار سلطانه، بصيرا بأهل زمانه، باسطاً للمعدّلة في رعيّته، تسكن الى كنفه وتأنّس بعفوه وثيق بحلمه؛ فإذا وقعت الأقضية اللازمة والحقوق الواجبة، فليس عنده

هَوَادَة وَلَا إِغْضَاء وَلَا مُدَاهَنَة ، أَثَرَةً لِحَقِّ وَقِيَامَا بِالْعَدْلِ وَأَخْذًا بِالْحَزْمِ ؛ فَدَعَا أَهْلَ خِرَاسَانَ الْإِغْتِرَارُ بِجَاهِهِمِ وَالثَّقَّةُ بِعَفْوِهِ أَنْ كَسَرُوا الْخِرَاجَ وَطَرَدُوا الْعَالِ وَسَلُّوا مَا لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْحَقِّ ، ثُمَّ خَلَطُوا أَحْتِجَاجًا بِاعْتِذَارٍ ، وَخُصُومَةً بِإِقْرَارٍ ، وَتَنَصُّلاً بِاعْتِلَالٍ ؛ فَلَمَّا آتَمَتِ ذَلِكَ إِلَى الْمَهْدِيِّ خَرَجَ إِلَى مَجْلِسِ خَلَّائِهِ وَبَعَثَ إِلَى نَفَرٍ مِنْ لُجَّتِهِ وَوُزَرَائِهِ ، فَأَعْلَمَهُمُ الْحَالَ وَاسْتَنْصَحَهُمُ لِلرَّعِيَّةِ ، ثُمَّ أَمَرَ الْمَوَالِي بِالْإِبْتِدَاءِ ، وَقَالَ لِلْعَبَّاسِ بْنِ مُحَمَّدٍ : أَيُّ عَمٍّ تَعَقَّبُ قَوْلَنَا وَكُنْ حَكَمًا بَيْنَنَا ؛ وَأَرْسَلَ إِلَى وَلَدَيْهِ مُوسَى وَهَارُونَ ، فَأَحْضَرَهُمَا الْأَمْرَ وَشَارَكَهُمَا فِي الرَّأْيِ ، وَأَمَرَ مُحَمَّدُ بْنُ اللَّيْثِ بِحِفْظِ مَرَاجِعِهِمْ ، وَإِثْبَاتِ مَقَالَتِهِمْ فِي كِتَابٍ .

فَقَالَ سَلَامٌ صَاحِبُ الْمِظَالِ (٢) :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، إِنَّ فِي كُلِّ أَمْرٍ غَايَةً ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ صِنَاعَةً ؛ أَسْتَفْرَغْتَ رَأْيَهُمْ ، وَأَسْنَفَرْتَ أَشْغَالَهُمْ ، وَأَسْتَنْفَدْتَ أَعْمَارَهُمْ ، وَذَهَبُوا بِهَا وَذَهَبَتْ بِهِمْ ، وَعُرِفُوا بِهَا وَعُرِفَتْ بِهِمْ ؛ وَلِهَذِهِ الْأُمُورُ الَّتِي جَعَلْتَنَا فِيهَا غَايَةً ، وَطَلَبْتَ مَعُونَتَنَا عَلَيْهَا أَقْوَامٌ مِنْ أُنْبَاءِ الْحَرْبِ وَسِيَاسَةِ الْأُمُورِ وَقَادَةِ الْجُنُودِ وَفُرْسَانِ الْهَزَاهِزِ وَإِخْوَانِ التِّجَارِبِ ، وَأَبْطَالِ الْوَقَائِعِ ؛ الَّذِينَ رَشَّحْتَهُمْ سِجَالَهَا ، وَقَيَّامَتَهُمْ ظِلَالُهَا ، وَعَضَّضْتَهُمْ شِدَائِدُهَا ، وَقَرَّمْتَهُمْ نَوَاجِدُهَا ؛ فَلَوْ عَجَّمتَ مَا قَبْلَهُمْ ، وَكَشَفْتَ مَا عِنْدَهُمْ ؛ لَوَجَدْتَ نِظَائِرَ تَوْيْدٍ أَمْرَكَ ، وَتِجَارِبَ تَوَافِقٍ نَظَرَكَ ، وَأَحَادِيثَ تَقَوَّى قَلْبَكَ ؛ فَأَمَّا نَحْنُ مَعَايِرُ عَمَالِكَ ، وَأَصْحَابُ دَوَاوِينِكَ ، فَخَسِّنْ بِنَا وَكثِيرٌ مِنَّا أَنْ نَقُومَ بِثِقَلِ مَا حَمَلْتَنَا مِنْ عَمَلِكَ ، وَأَسْتَوْدَعْتَنَا مِنْ أَمَانَتِكَ ، وَشَغَلْتَنَا بِهِ مِنْ إِمْضَاءِ عَدْلِكَ ، وَإِنْفَازِ حُكْمِكَ ، وَإِظْهَارِ حَقِّكَ .

فَأَجَابَهُ الْمَهْدِيُّ : إِنَّ فِي كُلِّ قَوْمٍ حِكْمَةً ، وَلِكُلِّ زَمَانٍ سِيَاسَةً ، وَفِي كُلِّ حَالٍ تَدْبِيرًا يَبْطُلُ الْآخِرُ الْأَوَّلَ ، وَنَحْنُ أَعْلَمُ بِزَمَانِنَا وَتَدْبِيرِ سُلْطَانِنَا .

(١) كَسَرُوا الْخِرَاجَ أَيُّ كَفُّوا عَنْ أَدَائِهِ . (٢) هُوَ ابْنُ اللَّيْثِ بْنِ نَصْرٍ بَنِي سَيَّار . وَكَانَ أَرْسَلَ الْمَهْدِيَّ إِبَاهُ اللَّيْثَ لِحَارِبَةِ الْمُقَنِّعِ فَلَمْ يَتِمَّكَ مِنْهُ . وَكَانَ أَبْنَاهُ مُحَمَّدٌ هَذَا مِنْ كِتَابِ الْمَهْدِيِّ وَلَمْ تَعْرِفْ سَنَةَ وَفَاتِهِ . (٣) هُوَ سَلَامُ بْنُ الْأَبْرَشِ ، أَسْتَعْمَلَهُ الْمَنْصُورُ ثُمَّ تَوَلَّى الْعُقُوبَاتِ فِي أَيَّامِ الْمَهْدِيِّ . (٤) الْهَزَاهِزُ : صَوْرَتُكَ الْبَلَايَا وَالْحُرُوبُ فِي النَّاسِ .

قال : نعم أيها المهديّ، أنت مُتَّبِعُ الرَّأْيِ، وَثَبِيقُ الْعُقْدَةِ، قَوِيّ الْمُنَّةِ^(١)، بَلِغُ الْفِطْنَةِ، مَعْصُومُ النَّيَّةِ، مَحْضُورُ الرُّوْيَةِ، مُؤَيَّدُ الْبَدِيَّةِ، مُوَفَّقُ الْعَزِيمَةِ، مُعَانٌ بِالْطَّقَرِ، مَهْدِيّ إِلَى الْخَيْرِ، إِنْ هَمَمْتَ نَفَى عَزْمِكَ مَوَاقِعَ الظَّنِّ، وَإِنْ أَجْتَمَعْتَ صَدْعَ فَعْلِكَ مُلْتَبَسَ الشَّكِّ؛ فَاعْزِمِ يَهْدِيَّ اللَّهُ إِلَى الصَّوَابِ قَلْبَكَ، وَقُلْ يُنْطِقَ اللَّهُ بِالْحَقِّ لِسَانَكَ؛ فَإِنَّ جُنُودَكَ جَمَّةٌ، وَخِزَانَتُكَ عَامِرَةٌ، وَنَفْسُكَ سَخِيَّةٌ، وَأَمْرُكَ نَافِذٌ.

فأجابه المهديّ : إِنْ الْمُشَاوَرَةُ وَالْمُنَاطَرَةُ بِآبَاءِ رَحْمَةٍ، وَمِفْتَاحُ بَرَكَةٍ؛ لَا يَهْلِكُ عَلَيْهِمَا رَأْيٌ، وَلَا يَتَغَيَّرُ^(٢) مَعَهُمَا حَزْمٌ، فَأَشِيرُوا بِرَأْيِكُمْ، وَقُولُوا بِمَا يَحْضُرُكُمْ؛ فَإِنِّي مِنْ وَرَائِكُمْ، وَتَوْفِيقُ اللَّهِ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ.

قال الربيع :

أيها المهديّ، إِنْ تَصَارِيفُ وُجُوهِ الرَّأْيِ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّ الْإِشَارَةَ بِبَعْضِ مَعَارِضِ الْقَوْلِ يَسِيرَةٌ؛ وَلَكِنْ خَرَّاسَانُ أَرْضٍ بَعِيدَةِ الْمَسَافَةِ، مُتَرَاخِيَةِ الشُّقَّةِ، مُتَفَاوِتَةِ السَّبِيلِ؛ فَإِذَا أَرْتَأَيْتَ مِنْ مُحْكَمِ التَّدْيِيرِ، وَمُبَرَّمِ التَّقْدِيرِ، وَلُبَّابِ الصَّوَابِ، رَأْيًا قَدْ أَحْكَمَهُ نَظْرُكَ، وَقَلْبُهُ تَدْبِيرُكَ، فَلَيْسَ وَرَاءَهُ مَذْهَبٌ طَاعِنٌ، وَلَا دُونَهُ مَعْلَقٌ لْخُصُومَةٍ عَائِبٌ؛ ثُمَّ أَجَبْتَ الْبُرْدَ بِهِ، وَأَنْطَوَتْ الرُّسُلُ عَلَيْهِ، كَانَ بِالْحَرَى أَلَّا يَصِلَ إِلَيْهِمْ مُحْكَمُهُ إِلَّا وَقَدْ حَدَثَ مِنْهُمْ مَا يَنْقُضُهُ؛ فَمَا أَيْسَرَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْكَ الرُّسُلَ، وَتَرُدَّ عَلَيْكَ الْكُتُبُ بِحَقَائِقِ أَخْبَارِهِمْ، وَشَوَارِدِ آثَارِهِمْ، وَمَصَادِرِ أُمُورِهِمْ؛ فَتُحَدِّثَ رَأْيَا غَيْرَهُ وَتَبْتَدِعَ تَدْبِيرًا سِوَاهُ؛ وَقَدْ أَنْفَرَجَتْ الْحِلَاقُ، وَتَحَلَّلَتْ الْعُقْدُ، وَأَسْتَرْنَحِيَ^(٣) الْحِقَابَ، وَأَمْتَدَّ الزَّمَانُ، ثُمَّ لَعَلَّمَا مَوْقِعَ الْآخِرَةِ كَمَصْدَرِ الْأُولَى؛ وَلَكِنْ الرَّأْيُ لَكَ أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ — وَفَقَّكَ اللَّهُ — أَنْ تَصْرِفَ إِجَالَةَ النَّظَرِ، وَتَقْلِبَ الْفِكْرَ، فِيمَا جَمَعْتَنَا لَهُ، وَأَسْتَشِرَّتْنَا فِيهِ مِنَ التَّدْبِيرِ لِحَرْبِهِمْ، وَالْحَيْلِ فِي أَمْرِهِمْ، إِلَى الطَّلَبِ لِرَجُلٍ ذِي دِينٍ

(١) المنّة : القوة . (٢) لا يتغير : لا يضعف . (٣) معارضة الكلام ما عارض يد

ولم يصرّح وهي التورية بالشئ عن الشئ . (٤) القاب : شئ. تتخذ المرأة تعلق به معاليق الحلى تشده على وسطها .

فاضل، وعقل كامل، وورع واسع، ليس موصوفاً بهوى في سواك، ولا متبهما في أثره عليك، ولا ظنيناً على دُخْلَةٍ مكروهة، ولا منسوباً إلى بدعة محدورة؛ فيَقْدَحَ في مُلْكِكَ، وَيُرْبِضُ^(٢) الأمورَ لغيرك؛ ثم تُسْنِدُ إليه أمورهم، وتفوض إليه حربهم، وتأمره في عهدك ووصيتك إياه بلزوم أمرك ما لزمه الحزم، وخلاف نهيك إذا خالفه الرأي عند استحالة الأمور، واشتداد الأحوال التي يُنْقَضُ أمر الغائب عنها، ويثبت رأي الشاهد لها؛ فإنه إذا فعل ذلك فوائب أمرهم من قريب، وسقط عنه ما يأتي من بعيد، تمت الحيلة وقويت المكيدة، ونفذ العمل وأحْدَ النظر، إن شاء الله.

قال الفضل بن العباس :

أيها المهدي، إن ولي الأمور وسائس الحروب ربما نَحَى جنوده، وفترق أمواله في غير ماضيق أمرٍ حربه، ولا ضَغْطَةٍ حال اضطرتته؛ فيَقْعُدُ عند الحاجة إليها، وبعد التفرقة لها عديماً منها فاقدا لها، لا يثق بقوة، ولا يصول بُعداً، ولا يفرج إلى ثقة؛ فالرأى لك أيها المهدي — وفكك الله — أن تُعْغِي خرائتك من الإنفاق للاموال، وجنودك من مكابدة الأسفار، ومقارعة الأخطار، وتغيير القتال، ولا تُسْرِعَ للقوم في الإجابة إلى ما يطلبون، والعطاء لما يسألون؛ فيفسد عليك أدبهم، وتجرى من رعيّتك غيرهم؛ ولكن أغرهم بالحيلة، وقائلهم بالمكيدة، وصارعهم باللين، وخاتلهم بالرفق، وأبرق لهم بالقول، وأرعد نحوهم بالفعل؛ وأبعث البعوث^(٤)، وجند الجنود، وكتب الكتاب، وأعقد الأولوية، وأنصب الرايات، وأظهر أنك موجه إليهم الجيوش مع أحنق قوادك عليهم، وأسويهم أثراً فيهم؛ ثم أدس الرسل، وأثبت الكتب، وضع بعضهم على طمع من وعدك، وبعضاً على خوف

(١) ظنينا : متبهما . ودخلة مكروهة : أى نية سيئة . (٢) ربه أى أثبتته .

(٣) أبرق وأرعد بمعنى تهدد وتوعد . (٤) البعوث : الجيوش .

من وعيدك؛ وأوفد بذلك وأشباهه نيران التحاسد فيهم ، وأغرس أشجار التنافس بينهم ، حتى تُمَلَأَ القلوب من الوحشة ، وتنطوى الصدور على البغضة ، ويدخل كلاً من كل الحذر والهيبة ؛ فإن مرام الظفر بالغيلة ، والقتال بالحيلة ، والمناسبة بالكتب ، والمكيدة بالرسل ، والمقارعة بالكلام اللطيف المدخل في القلوب ، الموى الموقوع من النفوس ، المعقود بالتحجج ، الموصول بالحيل ، المبنى على اللين الذي يستميل القلوب ؛ ويستترق العقول والآراء ، ويستميل الأهواء ، ويستدعي المواتاة ، أنفسد من القتال بظبات السيوف وأسنة الرماح ؛ كما أن الوالى الذى يستنزل طاعة رعيته بالحيل ، ويفرق كلمة عدوه بالمكيدة ، أحكم عملاً وألطف منظرًا وأحسن سياسة من الذى لا ينال ذلك إلا بالقتال ، والإتلاف للأموال والتغريب والخطار^(١) .

وليعلم المهدي أنه إن وجه لقتالهم رجلا لم يسر لقتالهم إلا بجنود كشيعة ، تخرج عن حال شديدة ، وتقدم على أسفار ضيقة ، وأموال متفرقة ، وقواد غششية ؛ إن أنتمهم استنفدوا ماله ، وإن استنص جهم كانوا عليه لا له .

قال المهدي : هذا رأى قد أسفر نوره ، وأبرق ضوءه ، وتمثل صوابه للعيون ، ومجد حقه في القلوب ، ولكن فوق كل ذى علم عليم ؛ ثم نظر الى ابنه على فقال : ما تقول ؟ قال على :

أيها المهدي ، إن أهل خراسان لم يخلعوا عن طاعتك ، ولم ينصبوا من دونك أحداً يقدر في تغيير ملكك ، ويربض الأمور لفساد دولتك ؛ ولو فعلوا لكان الخطب أيسر ، والشأن أصغر والحال أدل ، لأن الله مع حقه الذى لا يخدله ، وعند مواعده الذى لا يخلفه ، ولكنهم قوم من رعييتك ، وطائفة من شيعتك الذين جعلك الله عليهم ولياً ، وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً ، طلبوا حقاً ، وسألوا إنصافاً ، فإن أجبت الى دعوتهم ونفست عنهم^(٢)

(١) الخطار : الاشراف على هلكة .

(٢) نفست عنهم : فرجت عنهم .

قبل أن يتلاحم منهم حال، أو يحدث من عندهم فتق، اطعت أمر الرب، وأطفأت نائرة الحرب، ووقرت خزائن المال، وطرحت تغريير القتال، ومثل الناس تحمل ذلك على طبيعة جودك، وسجية حلمك، وإسباح خليقتك، ومعدلة نظرك، فأمنت أن تنسب إلى ضعف، وأن يكون ذلك فيا بقي دربة، وإن منعتهم ما طلبوا ولم تجبهم إلى ما سألوا، أعندلت بك وبهم الحال، وساويتهم في ميدان الخطاب، فما أرب المهدى أن يعمد إلى طائفة من رعيته، مقرين بمملكته، مدعين لطاعته، لا يخرجون أنفسهم عن قدرته، ولا يبرئونها من عبوديته، فيملكهم أنفسهم ويحل نفسه عنهم، ويقف على الحيل معهم، ثم يجازيهم سوء في حد المنازعة ومضمار المخاطرة، أريد المهدى - وفقه الله - الأموال؟ فلمعري لا ينالها ولا يظفر بها إلا بالإنفاق أكثر منها، مما يطلب منهم وأضعاف ما يدعى قبلهم، ولو نالها لحملت إليه، أو وضعت بخرائطها بين يديه، ثم تجأف لهم عنها وطال عليهم بها، لكان مما إليه ينسب وبه يعرف من الجود الذي طبعه الله عليه، وجعل قوة عينه ونهمة نفسه فيه، فإن قال المهدى: هذا رأى مستقيم سديد في أهل الخراج الذين شكوا ظلم عمالنا، وتحامل ولاتنا، فأما الجنود الذين نقضوا موثيق العهود، وأنطقوا لسان الإرجاف وفتحوا باب المعصية، وكسروا قيد الفتنة، فقد ينبغي لهم أن أجعلهم نكالا لغيرهم وعظة لسواهم، فيعلم المهدى أنه لو أتى بهم مغلولين في الحديد، مقرين في الأصفاد، ثم أوسع لحقن دماهم عفو، وإقالة عثرتهم صفحة، وأستبقاهم لما هم فيه من حربه، أو لمن بإزائهم من عدوه، لما كان بدعا من رأيه، ولا مستنكرا من نظره، لقد علمت العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عفوا، وأشدّها وقعا، وأصدقها صولة، وأنه لا يتعاطمه عفو،

(١) نائرة الحرب : ما اشتعل واتقد منها .

(٢) الإسباح : مصدر أصبح الوالى . اذا أحسن العفو .

(٣) الخريطة : وعاء من آدم وذيره .

(٤) الارجاف : مصدر أرجف القوم اذا خاضوا في أخبار الفتن على أن يقعوا في الناس الاضطراب من غير أن

يصح عندهم شئ .

ولا يَتَكَادَهُ صَفْحُ^(١)، وإن عظم الذنب وجَلَّ الخطب، فالرأى للمهدى — وفقه الله تعالى — أن يَحُلَّ عُقْدَةُ الْغِيْظِ بِالرَّجَاءِ لِحَسَنِ ثَوَابِ اللَّهِ فِي الْعَفْوِ عَنْهُمْ، وأن يَذْكَرُ أَوَّلَى حَالَاتِهِمْ وَضَيْعَةَ عِيَالِهِمْ، يرأى بهم ونوْسُعا لهم؛ فإنهم إخوان دولته، وأركان دعوته، وأساس حقّه الذين بعزّتهم يصول، وبحجّتهم يقول؛ وإنما مثلهم فيما دخلوا فيه من مَسَاخِطِهِ، وتعرضوا له من معاصيه، وأنطوا فيه عن إجابته، ومثله في قلة ما غيّر ذلك من رأيه فيهم، أو نُقِلَ من حاله لهم، أو تغيّر من نعمته بهم، كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ أَخَوَيْنِ مُتَنَاصِرَيْنِ مُتَازِرَيْنِ، أصاب أحدهما خَبَلٌ عَارِضٌ، وَهَبُو حَادِثٌ، فَنَهَضَ إِلَى أَخِيهِ بِالْأَذَى، وَتَحَامَلَ عَلَيْهِ بِالْمَكْرُوهِ، فلم يَزِدْ أَخُوهُ إِلَّا رِقَّةً لَهُ وَلُطْفًا بِهِ، وَاحْتِيَالًا لِمُدَاوَاةِ مَرَضِهِ وَمَرَاجَعَةِ حَالِهِ؛ عَطْفًا عَلَيْهِ وَرَأً بِهِ وَمَرْحَمَةً لَهُ.

فقال المهدى: أما عليّ فقد كوى سَمَتَ اللَّبَانِ، وَفَضَّ الْقُلُوبَ فِي أَهْلِ خِرَاسَانَ، وَلِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٍّ، ثم نال: ما ترى يا أبا محمد؟ يعني موسى أبنه.

فقال موسى:

أيها المهدى، لَا تَسْكُنْ إِلَى حَلَاوَةِ مَا يَجْرِي مِنَ الْقَوْلِ عَلَى أَسْلَمَتِهِمْ، وَأَنْتَ تَرَى الدَّمَاءَ تَسِيلَ مِنْ خَلَلِ فَعْلِهِمْ؛ الْحَالُ مِنَ الْقَوْمِ يَنَادِي بِمُضْمَرَةٍ شَرٍّ، وَخَفِيَّةٍ حَقْدٍ؛ قَدْ جَعَلُوا الْمَعَاذِيرَ عَلَيْهَا سِتْرًا، وَاتَّخَذُوا الْعِلَالَ مِنْ دُونِهَا حِجَابًا؛ رَجَاءً أَنْ يُدَافِعُوا الْأَيَّامَ بِالتَّأْخِيرِ، وَالْأُمُورَ بِالتَّطْوِيلِ؛ فَيَكْسِرُوا حَيْسِلَ الْمُهْدَى فِيهِمْ، وَيُفْنُوا جُنُودَهُ عَنْهُمْ حَتَّى يَتَلَاخَمَ أَمْرُهُمْ، وَتَتَلَحَّقَ مَادَّتُهُمْ، وَتُسْتَفْجَلَ حَرْبُهُمْ، وَتُسْتَمَرَّ الْأُمُورُ بِهِمْ؛ وَالْمُهْدَى مِنْ قَوْلِهِمْ فِي حَالِ غَيْرَةٍ وَلِبَاسِ أَمْنِيَّةٍ، قَدْ قَتَرَهَا وَأَنَسَ بِهَا وَسَكَنَ إِلَيْهَا؛ وَلَوْلَا مَا أَجْتَمَعَتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ، وَبَرَدَتْ عَلَيْهِ جُلُودُهُمْ مِنَ الْمُنَاصَبَةِ بِالْقِتَالِ، وَالِإِضْمَارِ لِلِقِرَاعِ عَنْ دَاعِيَةِ ضَلَالٍ، أَوْ شَيْطَانِ فَسَادٍ، لَرَهَبُوا عَوَاقِبَ أَخْبَارِ الْوَلَاةِ، وَغَبَّ سَكُونُ الْأُمُورِ؛ فَلْيَشْدُدِ الْمُهْدَى — وفقه الله —

(١) لا يشكاه ده: لا يشق عليه.

أزّره لهم ويكتب كتابه نحوهم ، وليضع الأمر على أشد ما يحضره فيهم ، وليؤقّب أنه لا يعطيهم خطة يريد بها صلاحهم إلا كانت ذريعة إلى فسادهم ، وقوة على معصيتهم ، وداعية إلى عودتهم ؛ وسبباً لفساد من يحضرته من الجنود ، ومن يباه من الوفود ، الذين إن أقزهم تلك العادة ، وأجراهم على ذلك الأرب ، ولم يبرح في فتق حادث وخلاف حاضر ، لا يصلح عليه دين ، ولا تستقيم به دنيا ؛ وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة ، واستمرار التربية ، لم يصل إلى ذلك إلا بالعقوبة المفرطة ، والمؤونة الشديدة ، والرأى للمهدى وفقه الله — ألا يقبل عثرتهم ، ولا يقبل معذرتهم ، حتى تطأهم الجيوش ، وتأخذهم السيوف ، ويستحرّجهم^(١) القتل ، ويحدق بهم الموت ، ويحيط بهم البلاء ، ويطبق عليهم الذل ؛ فإن فعل المهدى بهم ذلك ، كان مقطعة لكل عادة سوء فيهم ، وهزيمة لكل بادرة شر منهم ، وأحتمال المهدى مؤونة غزوتهم هذه يضع عنه غزوات كثيرة ، ونفقات عظيمة .

قال المهدى : قد قال القوم فأحكم يا أبا الفضل .

فقال العباس بن محمد :

أيها المهدى :

أما الموالى فأخذوا بفروع الرأى ، وسلّكوا جنّبات الصواب ، وتعدّوا أمورا قصّر بنظرهم عنها أنه لم تأت تجارتهم عليها .

وأما الفضل فأشار بالأموال ألا تُنفق ، والجنود ألا تفرق ، وبألا يعطى القوم ما طلبوا ، ولا يبدل لهم ما سألوا ، وجاء بأمر بين ذلك استصغاراً لأمرهم واستهانة بحرّهم ؛ وإنما يبيع جسيمات الأمور صغارها .

(١) يستحرّج : يشتد ويقوى .

وأما علىّ فأشار بالّين وإفراط الرّفق، وإذا جرّد الوالى لمن غمط أمره وسفه حقه^(١)،
الّين بحتّا والخير محضًا، لم يخلطهما بشدّة تعطف القلوب عن لينه، ولا يشرّ يحبسهم إلى
خير، فقد ملكهم الخلق لعذرهم^(٢) وسّع لهم الفرجة لئلى أعناقهم؛ فإن أجابوا دعوته وقبلوا
لينه من غير خوف اضطهرهم ولا شدّة، فنزوة في رؤوسهم يستدعون بها البلاء إلى أنفسهم،
ويستصرخون بها رأى المهديّ فيهم؛ وإن لم يقبلوا دعوته ويسرعوا لإجابته بالّين المحض
والخير الصّراح، فذلك ما عليه الظنّ بهم والرأى فيهم، وما قد يشبه أن يكون من مثلهم،
لأن الله تعالى خلق الجنّة وجعل فيها من النعيم المقيم والمكّ الكير ما لا يخطر على قلب
بشر ولا تدركه الفكرة ولا تعامسه نفس؛ ثم دعا الناس إليها ورغبهم فيها، فلو أن خلق نارًا
جعلها لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجنّة، لما أجابوا ولا قبلوا.

وأما موسى فأشار بأن يعصبوا بشدّة لا لين فيها، وأن يرموا بشرّ لا خير معه، وإذا
أضمر الوالى لمن فارق طاعته، وخالف جماعته، الخوف مفردًا، والشرّ مجرّدًا، ليس معهما
طمع ولا لين يثنيهم، آشتدت الأمور بهم، وأنقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين: إما أن
تدخلهم الحيّة من الشدّة، والأنفة من الدّلة، والامتعاض من القهر؛ فيدعوهم ذلك إلى
التمادى فى الخلاف، والاستبسال فى القتال، والاستسلام للوت؛ وإما أن ينقادوا بالكروه،
ويذعنوا بالقهر على بغضه لازمة، وعداوة باقية، توريث النّفاق وتُعقب الشّقاق؛ فإذا
أمكنهم فرصة، أو ثابت لهم قدرة، أو قويّت لهم حال؛ عاد أمرهم إلى أصعب وأغلظ
وأشدّ مما كان.

(١) غمط الأمر: ازدراه. وسفه حقه: امتهنه وبخسه.

(٢) العذر جمع عذار.

(٣) النزوة: الوثوب إلى الشرّ.

(٤) عصب الشىء: لواه وشدّه.

وقال في قول الفضل :

أيها المهديّ، أكفّ دليل، وأوضح برهان، وأبينّ خبر بان؛ قد أجمع رأيّه وحزّم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش اليهم، وتوجيه البعث نحوهم، مع إعطائهم ماسألوا من الحق، وإجابتهم الى ما سألوه من العدل .
قال المهديّ : ذلك رأيّ .

قال هارون :

ما خلطت الشدة أيها المهديّ باللين، وانتظم أمر الدنيا بالدين، فصارت الشدة أمر^(١) فطام لما تكره، وعاد اللين أهدى قائد الى ما تُحبّ؛ ولكن أرى غير ذلك .

قال المهديّ :

لقد قلت قولاً بديعاً، خالفت فيه أهل بيتك جميعاً؛ والمرء مؤتمن بما قال، وظنين^(٢) بما ادعى حتى يأتي بيينة عادلة، وحجة ظاهرة، فأخرج عما قلت .

قال هارون :

أيها المهديّ، إن الحرب خدعة، والأعاجم قوم مكرّة؛ وربما اعتدلت الحال بهم، وآتفت الأهواء منهم؛ فكان باطن ما يُسرّون على ظاهر ما يُعلنون، وربما آفترقت الحالان، وخالف القلب اللسان، فانطوى القلب على محجوبة تُبطن، وأسْتَسرّ بمدخولة لا تُعلن؛ والطبيب الرفيق يطبّه، البصير بأمره، العالم بمقدّم يده وموضع ميسمه؛ لا يتعجل بالدواء، حتى يقع على معرفة الداء، فالرأى للمهديّ — وفقه الله — أن يفتر باطن أمرهم فتر المسنة^(٤)، ويخصّ ظاهر حالهم مخض السقاء بتابعة الكتب، ومظاهرة الرسل، ومؤالة

(١) الفطام هنا : القطع والاستئصال .

(٢) ظنين بما ادعى : متهم بدعواه .

(٣) الميسم : المكواة يوسم بها الحيوان .

(٤) فتر الدابة : فتح فاهها وكشف عن أسنانها ينظر ما سنها . والمسّ من الدواب ما دخل في الثامة .

العيون ، حتى تَهتِك حُجُبَ عيونهم ، وتُكشَف أغْطِيَةُ أمورهم ؛ فإن أنْفَرَجَتِ الحال ، وأفضَّتِ الأمور به الى تَغْيِيرِ حال أو دَاعِيَةِ ضَلال ، أَشْتَمَلَتِ الأهواءُ عليه ، وأنقاد الرجال اليه ، وامتدَّتِ الأعناقُ نحوه بدين يعتقِدونه ، وإثمٌ يَسْتَحِلُّونه ، عَصَبَهُمْ بِشَدَّةٍ لا يَن فيهما ، ورماهم بعقوبة لا عفو معها ، وإن أنْفَرَجَتِ العيون ، وأهْتَصَرَتِ الستور ، ورُفِعَتِ الحُجُبُ ، والحالُ فيهم مَرَبَعَةٌ ، والأُمُورُ بهم معتدلةٌ في أرزاقٍ يَطْلُبُونَهَا ، وأعمالٍ يُنْكَرُونَهَا ، وظُلُماتٍ يَدْعُونَهَا ، وحقوقٍ يَسْأَلُونَهَا ، بِمِثْلِ سابِقَتِهِمْ ، ودَالَّةٌ مُنَاصِحَتِهِمْ ؛ فالرأى للمهدى — وقَّعَهُ اللهُ — أن يَتَسَّعَ لهم بما طَلَبُوا ، وَيَتَجَبَّأَ لهم عما كَرِهُوا ، وَيَشْعَبَ من أمرهم ما صَدَعُوا ، وَيَرْتَقِ من فَتَقِهِمْ ما قَطَعُوا ، وَيَوَلَّى عليهم من أَحَبُّوا ؛ ويدأوى بذلك مرض قلوبهم ، وفساد أمورهم ؛ فإنما المهدى وأُتَمَّتْهُ ، وسوادُ أهل مملكته ، بمنزلة الطَّبيبِ الرقيق ، والوالدِ الشفيق ، والراعى المحبِّبِ الذى يَحْتالُ لمرايضِ غنمه ، وضَوَّالٌ رعيته ، حتى يُبْرِئَ المريضةَ من داءِ عِلَّتِها ويردِّدَ الصَّحِيحَةَ الى أُنْسٍ جاعِتها ؛ ثم إن خراسانَ بِخَاصَّةِ الدِّينِ لهم دَالَّةٌ مَحْمُولَةٌ ، ومِائَةٌ مَقْبُولَةٌ ، ووسيلةٌ معروفةٌ ، وحقوقٌ واجبةٌ ؛ لأنهم أيدى دولته ، وسيوفُ دعوته ، وأنصارُ حقِّه ، وأَعوانُ عدله ؛ فليس من شأن المهدى الاضْطِغَانُ عليهم ، ولا المُؤَاخَذَةُ لهم ، ولا التَّوْغِيرُ بهم ، ولا المكافأةُ بِإِسَاءَتِهِمْ ، لأنَّ مبادِرَةَ حَسَمِ الأُمُورِ ضَعِيفَةٌ قَبْلَ أن تَقْوَى ، ومحاوَلَةُ قَطْعِ الأَصُولِ ضَيْئِلَةٌ قَبْلَ أن تَغْلُظَ ، أَحْزَمُ فى الرأى ، وأصحُّ فى التَّديبِ من التَّأخِيرِ لها والتَّهَانِ بها ، حتى يَلْتَمَّ قَلِيلُهَا بِكَثِيرِها ، وتَجْتَمِعَ أَطْرَافُها الى جُمُهورِها .

قال المهدى : ما زال هارونُ يَقَعُ وَقَعَ الحَيَا حتى خرجَ خَروجَ القِدْحِ من الماءِ ، وأنْسَلَّ أنْسَلالَ السيفِ فيما آدَعى ، فَدَعُوا ما سَبَقَ موسى فيه أَنَّهُ هو الرأى ، وثنى بعده هارونُ ، ولكن من لَأَعْنَةُ الخليلِ وسياسةِ الحربِ وقادةِ الناسِ إن أَمَعَنَ بهم الجَّلاجُ ، وأَفْرَطَتْ بهم الدالَّةُ ؟ .

(١) المسألة : الحرمة والوسيلة .

(٢) التَّوْغِيرُ بهم : التشديد عليهم .

قال صالح :

لسنا نبغ أيها المهديّ بدوام البحث وطول الفكر أدنى فِرَاسَةٍ رأيك ، وبعضَ لحظّاتٍ نظرك ؛ وليس يَنْفُضُ عنك من بيوتات العرب ورجال العجم ذو دين فاضل ، ورأى كامل ، وتدير قوى ؛ تقلّده حربك ، وتستودعه جنّدك ، ممن يَحْتَمِلُ الأمانةَ العظيمةَ ، ويضطّلع بالأعباء الثقيلةَ ؛ وأنت بحمد الله مميون النّقيبة^(١) ، مبارك العزيمةَ ، مخبّر التجارب ، محمود العواقب ، معصوم العزم ؛ فليس يقع اختيارُك ، ولا يقف نظرك على أحدٍ تولّيه أمرك ، وتُسند إليه نِعرك ، إلّا أراك الله ما تحبّ ، وجمع لك منه ما تريد .

قال المهديّ : إني لأرجو ذلك لقديمِ عادةٍ الله فيه ، وحسينِ معونته عليه ؛ ولكن أُحِبّ الموافقة على الرأي ، والأعتبار للشّاورة في الأمر المهم .

قال محمد بن اللَّيث :

أهلُ حراسان أيها المهديّ ، قوم ذوو عِزّةٍ ومَنعةٍ ، وشياطين خَدَعَةٍ ؛ زُرُوع الحِمِيّةِ فيهم نابتةٌ ، وملايس الأنفة عليهم ظاهرة ؛ فالروية عنهم عازبةٌ ، والعجلة فيهم حاضرة ؛ تسبق سيوطهم مطرهم ، وسيوفهم عدّتهم^(٢) ، لأنهم بين سيفلة لا يعدو مَبْلَغُ عقولهم منظرَ عيونهم ، وبين رؤساء لا يُجْمُون إلا بشدّةٍ ، ولا يَفْطُمُونَ إلا بالمرّة ؛ وإن ولّى المهديّ عليهم وضيعا لم تنقذ له العظاءُ ، وإن ولّى أمرهم شريفاً تحامل على الضعفاء ؛ وإن أخر المهديّ أمرهم ، ودافع حربهم ، حتى يُصيب لنفسه من حَشَمِهِ ومواليه ، أو بنى عمّه أو بنى أبيه ؛ ناصحا يتفق عليه أمرهم ، وثقةً تجتمع له أملأؤهم بلا أنفة تلزمهم ، ولا حميّة تدخلهم ، ولا مصيبة تنفرهم ؛ تنفّست الأيام بهم ، وتراخت الحال بأمرهم ؛ فدخل بذلك من الفساد الكبير ، والضّياح العظيم ، ما لا يتلافاه صاحبُ هذه الصّفة وإن جدّ ، ولا يستصاحبه وإن جهّد ،

(١) مميون النّقيبة : أي مبارك النفس ينجح فيما يحاول . ومخبّر التجارب : خبير بها .

(٢) العازب : الغائب .

(٣) العذل : اسم مصدر من العذل بمعنى اللوم ومنه المثل "سبق السيف العذل" يصرّب لما قد فات .

إلا بعد دهر طويل وشركير ؛ وليس المهديّ — وفقه الله — فاطماً عاداتهم ، ولا قارعا صفاتهم ، بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما ، ولا عدل في ذلك بهما :

أحدهما لسان ناطق موصول بسمعك ، ويد ممثلة لعينك ، وصخرة لا تززع ، وبهمة لا يُنقى ؛ وبازل لا يُفزع صوت الجاهل ، نقي العرض ، نزيه النفس ، جليل الخطر ، قد اتّضعت الدنيا عن قدره ، وسما نحو الآخرة بهمة ، فجعل الغرض الأقصى لعينه نصباً ، والغرض الأدنى لقدمه موطناً ؛ فليس يقبل عملاً ، ولا يتعدى أملاً ؛ وهو رأس مواليك ، وأنصح بنى أبيك ؛ رجل قد غذى بلطيف كرامتك ، ونبت في ظل دولتك ، ونشأ على قوائم أدبك ؛ فإن قلده أمرهم ، وحمّله ثقلهم ، وأسندت إليه ثغرهم ؛ كان قفلاً فتحة أمرك ، وباباً أغلقه نهيك ؛ فجعل العدل عليه وعليهم أميراً ، والإنصاف بينه وبينهم حاكماً ؛ وإذا حكم النصفة وسلك المعدلة ، فأعطاهم ما لهم وأخذ منهم ما عليهم ، غرس في الذي لك بين صدورهم ، وأسكن لك في السويداء داخل قلوبهم ، طاعة راسخة العروق ، باسقة الفروع ، متائلة في حواشي عوامهم ، متمكنة من قلوب خواصهم ؛ فلا يبقى فيهم ريب إلا نفوذه ، ولا يلزمهم حق إلا أدوّه ؛ وهذا أحدهما .

والآخر عود من غيضة ؛ ونبتة من أرومتك ، فتي السن كهل الحلم راجح العقل محمود الصرامة مأمون الخلاف ؛ يجرد فيهم سيمه ، ويسط عليهم خيره بقدر ما يستحقون ، وعلى حسب ما يستوجبون ؛ وهو فلان أيها المهديّ ، فسلطه — أعزك الله — عليهم ، ووجهه بالجيوش اليهم ، ولا تمنعك ضراعة سنه ^(١) ، وحداثة مولده ؛ فإن الحلم والثقة مع الحداثة ، خير من الشك والجهل مع الكهولة ؛ وإنما أحداثكم أهل البيت فيما طبعكم الله عليه ، واختصكم به من مكارم الأخلاق ، ومحامد الفعال ، ومحاسن الأمور ، وصواب التدبير ، وصرامة الأنف ؛ كفراخ عتاق الطير ^(٢) المحيكة لأخذ الصيد بلا تدريب ، والعارفة

(١) ضراعة سنه : شبابه وحداثة سنه .

(٢) عتاق الطير : كرام الطير .

لوجوه النَّفع بلا تأديب ؛ فالحلم والعلم والعزم والحزم والجلود والتؤدة والرفق ثابت في صدوركم ،
مزروع في قلوبكم ، مستحکم لكم ، متكامل عندكم ، بطائع لازمة ، وغرائز ثابتة .

قال معاوية بن عبد الله :

إفتاء أهل بيتك أيها المهدي في الحلم على ما ذكر . وأهل خراسان في حال عز على
ما وُصف ، ولكن إن ولي المهدي عليهم رجلا ليس بقديم الذكر في الجنود ، ولا بنبيه
الصوت في الحروب ، ولا بطويل التجربة للأمر ، ولا بمعروف السياسة للجيش والهيبة
في الأعداء ؛ دخل ذلك أمران عظيمان وخطران مهولان ، أحدهما : أن الأعداء يفتيمزونها
منه ويحتقرونها فيه ، ويجترئون بها عليه في النهوض به والمقارعة له ، والخلاف عليه ، قبل
الاختبار لأمره ، والتكشّف لحاله والعلم بطباعه . والأمر الآخر : أن الجنود التي يقود
والجيش التي يسوس إذا لم يحتيروا منه البأس والنجدة ، ولم يعرفوه بالصيت والهيبة ،
أنكسرت شجاعتهم ، وماتت نجبتهم ، واستأخرت طاعتهم إلى حين اختبارهم ، ووقوع
معرفتهم ؛ وربما وقع البوار قبل الاختبار ؛ وبباب المهدي — وفقه الله — رجل مهيب
نبه حنيك صيت ؛ له نسب زالك وصوت عال ، قد قاد الجيوش وساس الحروب ، وتألف
أهل خراسان ، واجتمعوا عليه بالحق ، ووثقوا به كل الثقة ؛ فلو ولّاه المهدي أمرهم ،
لكفاه الله شرهم .

قال المهدي : جانبت قصد الرمية ، وأبئت إلا عصية ؛ إذ رأيت الحدّث من أهل
بيتنا ، كراي عشرة حُلَماء من غيرنا ؛ ولكن أين تركتم ولي العهد .

قالوا :

لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيه جدّه ، ونسيج وحده ؛ ومن الدين وأهله ، بحيث يقصّر
القول عن أدنى فضله ؛ ولكن وجدنا الله عز وجل يحبّ عن خلقه ، وستر من دون عباده
علم ما تختلف به الأيام ، ومعرفة ما تجرى عليه المقادير ، من حوادث الأمور ورأي المتون

المُخْتَرِمَةُ لِحَوَالِي الْقُرُونِ وَمَوَاضِي الْمُلُوكِ ، فَكَرِهْنَا سُسُوعَهُ ^(١) عَنْ مَحَلَّةِ الْمَلِكِ وَدَارِ السُّلْطَانِ وَمَقَرِّ
الإِمَامَةِ وَالْوِلَايَةِ وَمَوْضِعِ الْمَدَائِنِ وَالْخِزَائِنِ ، وَمُسْتَقَرِّ الْجُنُودِ وَمَعْدِنِ الْجُودِ ؛ وَجَمَعَ الْأَمْوَالَ
الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ قُطْبًا لِدَارِ الْمَلِكِ وَمِصِيدَةً لِقُلُوبِ النَّاسِ وَمَثَابَةً لِإِخْوَانِ الطَّمَعِ وَتُؤَارِ الْفِتَنِ ،
وَدَوَاعِيَ الْبِدَعِ وَفِرْسَانَ الضَّلَالِ وَأَبْنَاءَ الْمَوْتِ . وَقُلْنَا : إِنْ وَجَّهَ الْمَهْدِيُّ وَلِيَّ عَهْدِهِ فَحَدَّثَ
فِي جِيُوشِهِ وَجُنُودِهِ مَا قَدْ حَدَثَ بِجُنُودِ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ ، لَمْ يَسْتَطِعِ الْمَهْدِيُّ أَنْ يُعْقِبَهُمْ
بِغَيْرِهِ إِلَّا أَنْ يَنْهَدَ إِلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ ؛ وَهَذَا خَطَرٌ عَظِيمٌ وَهَوْلٌ شَدِيدٌ ، إِنْ تَنَفَّسْتَ الْأَيَّامَ بِمَقَامِهِ ،
وَأَسْتَدَارْتَ الْحَالَ بِإِمَامِهِ ، حَتَّى يَقَعَ عِوَضٌ لَا يُسْتَفْنَى عَنْهُ ، أَوْ يَحْدُثَ أَمْرٌ لَا يَدُّ مِنْهُ ،
صَارَ مَا بَعْدَهُ مِمَّا هُوَ أَكْثَرُ هَوْلًا وَأَجَلٌ خَطَرًا لَهُ تَبَعًا وَبِهِ مُتَّصِلًا .

قال المهدي :

الْخُطْبُ أَيْسَرُ مِمَّا تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ ، وَعَلَى غَيْرِ مَا يَصِفُونَ الْأَمْرَ عَلَيْهِ ؛ نَحْنُ أَهْلُ الْبَيْتِ
نَجْرِي مِنْ أَسْبَابِ الْقَضَايَا وَمَوَاقِعِ الْأُمُورِ ، عَلَى سَابِقِ مِنَ الْعِلْمِ وَمَحْتَوِيٍّ مِنَ الْأَمْرِ ؛ قَدْ
أَنْبَأَتْ بِهِ الْكُتُبُ ، وَنَبَأَتْ عَلَيْهِ الرُّسُلُ ؛ وَقَدْ تَنَاهَى ذَلِكَ بِأَجْمَعِهِ الْبِنَاءُ وَتَكَامُلَ بِحَذَائِرِهِ
عِنْدَنَا ؛ فِيهِ نُدَبِّرُ وَعَلَى اللَّهِ تَتَوَكَّلْ . إِنَّهُ لَا يَدُّ لَوْلَى عَهْدِي وَلَوْلَى عَهْدِ عَقِيٍّ بَعْدِي أَنْ يَقُودَ
إِلَى خِرَاسَانَ الْبُعُوثِ ، وَيَتَوَجَّهَ نَحْوَهَا بِالْجُنُودِ .

أَمَّا الْأَوَّلُ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ إِلَيْهِمْ رِسْلَهُ ، وَيُعْمِلُ فِيهِمْ حِيلَهُ ؛ ثُمَّ يَخْرُجُ نَشِيطًا إِلَيْهِمْ حَنِقًا
عَلَيْهِمْ ، يَرِيدُ أَلَّا يَدَعَ أَحَدًا مِنْ إِخْوَانِ الْفِتَنِ وَدَوَاعِيَ الْبِدَعِ وَفِرْسَانَ الضَّلَالِ ، إِلَّا تَوَطَّاهُ
يَحْتَرِ الْقَتْلَ ، وَأَلْبَسَهُ قِنَاعَ الْقَهْرِ ، وَقَلَّدَهُ طَوْقَ الذِّلَّةِ ؛ وَلَا أَحَدًا مِنَ الَّذِينَ عَمِلُوا فِي قِصِّ
جَنَاحِ الْفِتْنَةِ ، وَإِحْمَادِ نَارِ الْبِدْعَةِ ، وَنُصْرَةِ وُلَاةِ الْحَقِّ ، إِلَّا أَجْرَى عَلَيْهِمْ دِيمَ فَضْلِهِ ، وَجَدَّاهُ
نَهْلِهِ ؛ فَإِذَا خَرَجَ مُزْمِعًا بِهِ مُجْمَعًا عَلَيْهِ ، لَمْ يَسِرْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى تَأْتِيَهُ أَنْ قَدْ عَمِلَتْ حِيلُهُ ،
وَكَدَحَتْ كُتُبُهُ وَنَفَذَتْ مَكَائِدُهُ ؛ فَهَدَأَتْ نَافِرَةَ الْقُلُوبِ ، وَوَقَعَتْ طَائِرَةُ الْأَهْوَاءِ ، وَاجْتَمَعَ ^(٢)

(١) سُسُوعُهُ : ابْتِعَادُهُ .

(٢) سَمِعَتْ وَدَأَبَتْ حَتَّى أَثَرَتْ .

(٣) وَقَعَتْ طَائِرَةُ الْأَهْوَاءِ : نَحِمَتْ غَضَبُهَا وَسَكَنَ رَوْعُهَا .

عليه المختلِفون بالرضا ؛ فيميل نظراً لهم ، ويرأ بهم ، وتعطفاً عليهم ، الى عدو قد أخاف سبيلهم ، وقطع طريقهم ، ومنع حُجَّاجهم بيت الله الحرام ، وسلب تُجارهم رِزق الله الحلال .

وأما الآخر فانه يوجّه اليهم ، ثم تُعْتَقَد له الحُجَّة عليهم ، بإعطاء ما يطلبون ، وبذل ما يسألون ؛ فاذا سمحت الفِرَق بقراباتنا له ، وجنح أهل النواحي بأعناقهم نحوه ؛ فأصغَتْ اليه الأفتدة ، واجتمعت له الكلمة ؛ وقدمت عليه الوفود قصداً لأول ناحية تجعت بطاعتها وألقت بأزمته ؛ فأنبأها جناح نعمته ، وأنزلها ظل كرامته ، وخصها بعظيم حبانته ؛ ثم عم الجماعة بالمعدلة ، وتعطف عليهم بالرحمة ؛ فلا تبقى فيهم ناحية دانية ولا فرقة قاصية ، إلا دخلت عليها بركته ، ووصلت اليها منفعتُه ؛ فأغنى فقيرها ، وجبر كسيرها ، ورفع وضعيها ، وزاد ريعها ما خلا ناحيتين ؛ ناحية يغلب عليها الشقاء ، وتستميلهم الأهواء ، فتستخف بدعوتها ، وتبطئ عن إجابته ، وتتناقل عن حقه ، فتكون آخر من يبعث وأبطأ من يوجه ؛ فيضطل عليها موجدة ويتغنى لها علة ، لا يلبث أن يجتد بحق يلزمهم وأمر يجب عليهم ، فتستلحمهم الجيوش ، وتأكلهم السيوف ، ويستحز بهم القتل ، ويحيط بهم الأسر ، ويفنيهم التبع ؛ حتى يخرب البلاد ، ويؤتم الأولاد ؛ وناحية لا يسطط لهم أمانا ، ولا يقبل لهم عهدا ولا يعمل لهم ذمة ؛ لأنهم أول من فتح باب الفرقة ، وتدرع جباب الفتنة ، وربض في شق العصا ؛ ولكنه يقتل أعلامهم ، ويأسر قوادهم ؛ ويطلب هُربهم في لجج البحار ، وقُلل الجبال ، وتحمل الأودية ، وبطون الأرض ، تفتيلا وتغليلا وتنكيلا ؛ حتى يدع الديار خرابا ، والنساء أياى ؛ وهذا أمر لا نعرف له في كُتُبنا وقتنا ، ولا نصحيح منه غير ما قلنا نفسيرا .

وأما موسى ولى عهدى فهذا أوان توجهه الى خراسان ، وحلوله بِجُرْجَان ؛ وما قضى الله له من الشخوص اليها ، والمقام فيها ، خيرٌ للمسلمين مَغَبَّة ، وله بإذن الله عاقبةٌ من المُقام ، بحيث يُغمر في لجج بحورنا ، ومدافع سيولنا ، وبمجامع أمواجنا ؛ فيتصاغر عظيم فضله ،

وَيَتَذَأَبُ^(١) مشرق نوره ، ويتقلل كثير ما هو كائن منه ؛ فمن يصحبه من الوزراء ويختار له من الناس .

قال محمد بن الليث :

أيها المهديّ : إنّ وليّ عهدك أصبح لأمتك وأهل ملّتك عالمًا ، قد تَنَتَّ نحوه أعناقُها ، ومَدَّتْ سَمْتَهُ أَبْصَارُهَا ؛ وقد كان لقرب داره منك ، ومحلّ جواره لك ، عَطَلَ الحال عَقْلَ الأمر واسِعَ العُدْرَ ؛ فأما إذا انفرد بنفسه وخلا بنظره وصار الى تديره ، فإن من شأن العامة أن^(٢) تَنفَقْدَ تَخَارِجَ رأيه ، وتَسْتَنِيصَ لمواقع آثاره ، وتَسْأَلَ عن حوادث أحواله في برّه ومرحمته وإقساطه ومعدّلاته وتديره وسياسته ووزرائه وأصحابه ؛ ثم يكون ما يسيق اليهم أغلب الأشياء عليهم وأملك الأمور بهم^(٣) وألزمها لقلوبهم ، وأشدّها استمالةً لرأيهم وعطفًا لأهوائهم ؛ فلا يفتأ المهديّ — وفقه الله — ناظرًا له فيما يقوى عُمد مملكته ، ويُسدّد أركان ولايته ، ويستجميع رضا أمته بأمرٍ هو أزين لحاله وأظهر لجماله ، وأفضل مغبةً لأمره ؛ وأجل موقعاً في قلوب رعيّته ، وأحمد حالًا في نفوس أهل ملّته ؛ ولا أدفع مع ذلك باستجاع الأهواء له ، وأبلغ في استعطاف القلوب عليه ، من مرحمة تظهر من فعله ، ومعدلة تنتشر عن أثره ومحبة للخير وأهله ، وأن يختار المهديّ — وفقه الله — من خيار أهل كل بلدة ، وفقهاء أهل كل مِصر ؛ أقواما تُسْكُنُ اليهم العامة إذا ذُكروا ، وتأنس الرعيّة بهم إذا وُصِفوا ؛ ثم تُسهّل لهم عمارة سُبل الإحسان وفتح باب المعروف ، كما قد كان فُتِحَ له وسُهِّلَ عليه .

قال المهديّ : صدقت ونصحت ، ثم بعث في ابنه موسى فقال :

أَيُّ بُحْيٍ ، إِنَّكَ قَدْ أَصْبَحْتَ لِسَمْتِ وجوه العامة نُصْبًا ، وَلِيَتْنِي^(٤) أعطاف الرعيّة غاية ؛ فَسَمَّتْكَ شاملةً ، وإساءتك نائيةً ، وأمرك ظاهر ؛ فعليك بتقوى الله وطاعته ، فاحتمل

(١) يتذأب : يخبث . (٢) تنفقد تخرج رأيه : أي تفحص عن وجوه رأيه وتديره . (٣) أملك

الأمور : أضبطها . (٤) السمت : المذهب والقصد . (٥) الأعطاف : جمع عطف وهو الجانب .

سُخِّطَ النَّاسُ فِيهِمَا ، وَلَا تَطْلُبُ رِضَاهُمَا بِخِلَافِهِمَا ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَافِيكَ مِنْ أَسْخَطِهِ عَلَيْهِكَ إِثَارُكَ رِضَاهُ ، وَلَيْسَ بِكَافِيكَ مِنْ يُسْخِطُهُ عَلَيْكَ إِثَارُكَ رِضَا مَنْ سِوَاهُ . ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي كُلِّ زَمَانٍ فِتْرَةً مِنْ رُسُلِهِ ، وَبَقَايَا مِنْ صَفْوَةِ خَلْقِهِ وَخَبَايَا لِنُصْرَةِ حَقِّهِ ، يَجِدُّ حَبْلَ الْإِسْلَامِ بِدَعْوَاهُمْ ، وَيُسَيِّدُ أَرْكَانَ الدِّينِ بِنُصْرَتِهِمْ ؛ وَيَتَّخِذُ لِأَوْلِيَاءِ دِينِهِ أَنْصَارًا ، وَعَلَى إِقَامَةِ عَدْلِهِ أَعْوَانًا ؛ يَسْتَدُونَ الْخَلَلَ وَيَقِيمُونَ الْمِيلَ ، وَيُدْفَعُونَ عَنِ الْأَرْضِ الْفَسَادَ ؛ وَإِنَّ أَهْلَ خِرَاسَانَ أَصْبَحُوا أَيْدِي دَوْلَتِنَا ، وَسَيُوفُ دَعْوَتِنَا الَّذِينَ نَسْتَدْفِعُ الْمُسْكَارَةَ بِطَاعَتِهِمْ ، وَنَسْتَصْرِيفُ نَزُولِ الْعِظَائِمِ بِمُنَاصَحَتِهِمْ ؛ وَنُدَافِعُ رَيْبَ الزَّمَانِ بِعِزَائِمِهِمْ ، وَنُزَاحِمُ رُكْنَ الدَّهْرِ بِبَصَائِرِهِمْ ؛ فَهَمَّ عِمَادُ الْأَرْضِ إِذَا أُرْجِفَتْ كُنْفُهَا^(١) ، وَخَوْفُ الْأَعْدَاءِ إِذَا بَرَزَتْ صَفْحَتُهَا ، وَحَصُونُ الرِّعْيَةِ إِذَا تَضَايَقَتْ الْحَالَ بِهَا ؛ قَدْ مَضَتْ لَهُمْ وَقَائِعُ صَادِقَاتٍ ، وَمَوَاطِنُ صَالِحَاتٍ ؛ أَتَّخَذَتْ نِيرَانَ الْفِتَنِ ، وَقَسَمَتْ دَوَاعِيَ الْبِدْعِ ، وَأَذَلَّتْ رِقَابَ الْجَبَّارِينَ وَلَمْ يَنْفَكُوا كَذَلِكَ مَا جَرَوْا مَعَ رِيحِ دَوْلَتِنَا ، وَأَقَامُوا فِي ظِلِّ دَعْوَتِنَا ، وَاعْتَصَمُوا بِحَبْلِ طَاعَتِنَا ؛ الَّتِي أَعَزَّ اللَّهُ بِهَا ذِلَّتَهُمْ وَرَفَعَ بِهَا ضَعْفَتَهُمْ ؛ وَجَعَلَهُمْ بِهَا أَرْبَابًا فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، وَمُلُوكًا عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ بَعْدَ لِبَاسِ الذِّلِّ ، وَقِنَاعِ الْخَوْفِ ، وَإِطْبَاقِ الْبَلَاءِ وَمَحَالِفَةِ الْأَسَى ، وَجَهْدِ الْبَأْسِ وَالضَّرْبِ ؛ فَظَاهَرُوا عَلَيْهِمْ لِبَاسُ كِرَامَتِكَ ، وَأَنْزَلَهُمْ فِي حَدَائِقِ نِعْمَتِكَ ؛ ثُمَّ أَعْرِفْ لَهُمْ حَقَّ طَاعَتِهِمْ ، وَوَسِيلَةَ دَائِلَتِهِمْ ، وَمِائَةَ سَائِقَتِهِمْ ، وَحُرْمَةَ مَنَاصِحَتِهِمْ ؛ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، وَالتَّوَسُّعِ عَلَيْهِمْ ، وَالْإِثَابَةِ لِحُسْنِهِمْ ، وَالْإِقَالَةَ لِمُسِيئَتِهِمْ .

أَيُّ بُنَى ، ثُمَّ عَلَيْهِ الْعَامَّةُ فَاسْتَدْعَ رِضَاهَا بِالْعَدْلِ عَلَيْهَا ، وَاسْتَجَلَبَ مَوَدَّتَهَا بِالْإِنْصَافِ لَهَا ؛ وَتَحَسَّنَ بِذَلِكَ لِرَبِّكَ ، وَتَوَثَّقَ بِهِ فِي عَيْنِ رِعْيَتِكَ ، وَاجْعَلْ عَمَالَ الْعُدْرِ وَوَلَاةَ الْحُجَّجِ مُقَدِّمَةً بَيْنَ عَمَلِكَ ، وَنَصِيفَةً مِنْكَ لِرِعْيَتِكَ ، وَذَلِكَ أَنْ تَأْمُرَ قَاضِيَ كُلِّ بَلَدٍ ، وَخِيَارَ أَهْلِ كُلِّ مِصْرٍ ، أَنْ يَخْتَارُوا لَأَنْفُسِهِمْ رِجَالًا تَوَلَّيَهُ أَمْرَهُمْ ، وَتَجْعَلَ الْعَدْلَ حَاكِمًا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ ؛ فَإِنْ أَحْسَنَ حُدُودَهُ ، وَإِنْ أَسَاءَ عُذْرَتْ . هَؤُلَاءِ عَمَالُ الْعُدْرِ وَوَلَاةُ الْحُجَّجِ ، فَلَا يَسْقُطَنَّ عَلَيْكَ

(١) الكنف : جمع كنف وهو الجانب . وأرجعت : زلزلت .

ما في ذلك اذا أنتشر في الآفاق ، وسبق الى الأسماع ، من أنعقاد ألسنه المُرْجفين ، وَكَبَّتْ قلوب الحاسدين ، وإطفاء نيران الحروب ، وسلامة عواقب الأمور ؛ ولا يَنْفَكَنَّ في ظِلِّ كرامتك نازلا ، وبِعْرًا حبلك متعلِّقا رَجُلان : أحدهما كريمة من كرائم رَجالات العرب ، وأعلام بيوتات الشرف ؛ له أدبٌ فاضل ، وحلم راجح ، ودين صحيح . والآخر له دين غير مغموز ، وموضع غير مدخول ، بصير بتقليب الكلام وتصريف الرأي وأنحاء العرب ووضع الكتب ، عالم بحالات الحروب وتصاريف الخطوب ؛ يضع آدابا نافعة وآثارا باقية ، من محاسنك وتحسين أمرك وتحلية ذكرك ؛ فستشيره في حربك ، وتُدْخِلُه في أمرك ؛ فَرَجُلٌ أَصْبَهَ كذلك فهو يأوى الى محلتى ، ويرعى في خُصرة جنانى ؛ ولا تَدْعُ أَنْ تَخْتَارَكَ من فقهاء البلدان ، وخيار الأمصار ، أقواما يكونون جيرانك وُثْمَانِكَ ، وأهل مُشاوَرَتِكَ فيما تُورِدُ ، وأصحاب مناظرتك فيما تُصِدر . فسر على بركة الله ، أصحبك الله من عونهِ وتوفيقهِ دليلا يَهْدِي الى الصواب قلبك ، وهاديا يُنْطِقُ بالخير لسانك . وكتب في شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد .

(١) الكريمة : صاحب الكرم . وكرائم الرجال : أحابر رجال العرب وأحاسنهم . (٢) غير مغموز : غير مطعون : وغير مدخول : لا يداخله فساد .

٢ - رسالة أبي الربيع محمد بن الليث التي كتبها للرشيد الى قُسْطَنْطِين ملك الروم

من عبد الله هارون أمير المؤمنين الى قسطنطين عظيم الروم: سلامٌ على من أتبع الهدى ،
فإني أحمد الله الذي لا شريك معه ، ولا ولد له ، ولا إله غيره ، الذي تعالى عن شبه
المحدودين بعظمته ، واحتجب دون المخلوقين بعزته ، فليست الأبصار بمُدْرِكَة له ، ولا
الأوهام بواقعة عليه ، انفراداً عن الأشياء أن يُشَبَّه بها ، وتعالى أن يشبهه شيء منها ، وهو
الواحد القهار ، الذي ارتفع عن مبالغ صفات القائلين ، ومذاهب لغات العالمين ، وفكر
الملائكة المقربين ، فليس كمثله شيء ، وله كل شيء ، وهو على كل شيء قدير .

أما بعد ، فإن الله جلّ ثناؤه وتباركت أسماؤه ، قال لنبيه صلى الله عليه وسلم فيما أنزل
من آيات الوحي اليه : ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي
هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ . فرأى
أمير المؤمنين من أحسن قوله وأفضل فعله ، أن يكون الى سبيل ربه داعياً ، وبرسوله
صلى الله عليه وسلم متأسياً ، ولقوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَنَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ
إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ موافقاً . وكنت من كتب الله المنزلة ، وآياته المفسرة ، وخلفه الكثير
بحيث رجا أمير المؤمنين استماعك لموعظته ، وانتفاعك بمجادلته انتفاع بشير كثير وخلق
عظيم قد بُؤت بأوزارهم مع وزيرك ، واحتملت من آثامهم الى إثمك ، فأحب أن يدعوك
ومن رجا أن ينتفع بدعوته معك ، الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نُشْرِك به
شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن توليتم عن ذلك رغبة عنه ،
أو تركتموه زهادة فيه ، فأشهدوا بأننا مسلمون . وأستمعوا ما أمير المؤمنين واصلف لكم ،
ومحتاج به إن شاء الله عليكم ، بقلوب شاهدة وآذان واعية ، ثم أتبعوا أحسن ما تسمعون .
ولا قوة إلا بالله .

فان الله عز وجل يقول فيما أنزل من كتابه وأَقْتَصَّ على عباده : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ . إن الله تبارك اسمه وتعالى جده ، وصَفَ فيما أنزل من آياته ، وشرح من بَيِّنَاتِهِ ، الأُمَمَ الْمَاضِيَةَ ، وَالْقُرُونِ الْحَالِيَةَ ، وَالْمَالِ الْمُنْفَرِقَةَ ، الذين يجعلون مع الله آلهةً أُخْرَى لا بُرْهَانَ لَهُمْ فِيهَا ، وَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهَا ، فقال : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

قالت العرب الذين يعبدون الملائكة وأهل الكتاب الذين يقولون ثالث ثلاثة بأَيِّمَا آيَةٍ يَأْمُرُ أَنْ يَجِدُ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ إِلَهُ وَاحِدٌ ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ آيَةً تَشْهَدُ لَهَا الْعُقُولُ ، وَتُؤْمِنُ بِهَا الْقُلُوبُ ، وَتَعْرِفُهَا الْأَلْبَابُ ، فَلَا تَسْتَطِيعُ لَهَا رَدًّا ، وَلَا تُطِيقُ لَهَا جَحْدًا ، ذَكَرَ فِيهَا اتِّصَالَ خَلْقِهِ وَاتِّفَاقَ صُنْعِهِ ، لِيُوقِنَ الْجَاهِلُونَ مِنَ الْعَرَبِ ، وَالضَّالُّونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، أَنَّ اللَّهَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ ، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْهَوَاءِ وَالْخَلْقِ ، وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ ، خَالِقٌ لَشَيْءٍ مَعَهُ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّا فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ . فَتَفَكَّرْ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ كَلَامِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ ، وَمَا أَوْضَحَ فِيهَا مِنْ بَيَانِ الْخَلْقِ ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ مُفَكِّرٍ يَنْظُرُ فِي مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِيهَا مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، إِلَّا رَأَى مِنْ اتِّصَالِ بَعْضِ ذَلِكَ بِبَعْضٍ ، مِثْلَ مَا رَأَى فِي تَدْيِيرِهِ نَفْسَهُ ، وَعَرَفَ مِنْ اتِّصَالِ خَلْقِهِ ، فِيمَا بَيْنَ ذَوَائِبِ شُؤْنِ رَأْسِهِ إِلَى أَطْرَافِ أَنْامِلِ قَدَمِهِ . وَفِي ذَلِكَ أُوتِيَتْ آيَةٌ وَأُيِّنَ دَلَالَتُهُ ، عَلَى أَنَّ الَّذِي خَلَقَهُ وَصَنَعَهُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ مَعَهُ ، وَلَا مِنْ شَيْءٍ أَتَدَعُهُ ، وَلَا عَلَى مِثَالِ صُنْعِهِ . قَدْ تَرَوْنَ بَعْيُونَكُمْ وَتَعْلَمُونَ بِعُقُولِكُمْ ، أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ لِلْأَنْامِ الْأَرْضَ ، وَجَعَلَهَا مُوَصُولَةً بِالْخَلْقِ ، فَلَيْسَ يَذْهَبُهَا إِلَّا لَهُمْ ، وَلَا يُدِيمُهَا إِلَّا مَعَهُمْ ، وَجَعَلَ ذَلِكَ الْخَلْقَ مُتَصِلًا

بالتَّبَتِّ ، لا يقوم إلا به ، ولا يصلح إلا عليه . وجعل ذلك التَّبَتِّ الذى جعله متاعاً لكم ومَعاشاً لأنعامكم ، متصلاً بالماء الذى ينزل من السماء بقَدَرٍ معلوم ، لمعاشٍ مقسوم ؛ فليس يَنْجُمُ التَّبَتُّ إلا به ولا يَنْجِيَا إلا عنه . وجعل السحاب الذى يبسطه كيف يشاء متصلاً بالريح المسخَّرة فى جَوْ السماء تُثيره من حيث لا تعلمون ، وتُسَوِّقه وأتم تنظرون ؛ كما قال عز وجل : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَدْيِ مِيتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ ووصل الرياح التى يصرفها فى جَوْ السماء بما يؤثّر فى خلق الهواء من الأزمنة التى لا تثبت أهواجرُ إلا بنبأتها ، ولا يزول عنه بردٌ إلا بزوالها ؛ ولولا ذلك لظلَّ راكدا بالحرِّ المميت ، أو مائلا بالبرد القاتل . ووصل الأزمنة التى جعلها متصرفة متلوّنة بمسير الشمس والقمر الدائنين لكم المختلفين بالليل والنهار عليكم . وجعل مسيرهما الذى لا تعرفون عدد السنين إلا به ، ولا مواقع الحساب إلا من قبَلِه ، متصلاً بدوران الفلك الذى فيه يسبحان ، وبه يأفلان ؛ ووصل مسير الفلك بالسماء للناظرين سواء . فهذا خَلَقَ الله عز وجل ، ما فيه تباينٌ ولا تزايلٌ ولا تفاوت ؛ كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ ﴾ . ولو كان لله شريكٌ أو معه ظهير عليه ، يُمسك منه ما يُرسل ، ويرسل منه ما يمسك ، أو يؤخّر شيئاً من ذلك عن وقت زمانه ، أو يعجله قبل تحيىء آياته ، لتفاوت الخلق ، ولتباين الصنع ، ولفسدت السموات والأرض ، ولذهب كل إله بما خلق ، كما قال عز وجل — وكذب المبطلين — : ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ .

والعجب : كيف يَصِفُ مخلوقُ ربّه ، أو يجعل معه إلها غيره ، وهو يرى فيما ذكر الله من هذه الأشياء صنعة ظاهرة ، وحكمة بالغة ، وتأليفاً متفقاً ، وتديراً متصلاً ، من السماء والأرض ، لا يقوم بعضه إلا ببعض ، مُتَجَلِّياً بين يديه ، مائلاً نُصِبَ عينيه ، يناديه الى صانعه ، ويدلّه على خالقه ، ويشهد له على وحدانيته ، ويهديه الى ربوبيته ، ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ

عَمَّا يُشْرِكُونَ أَشِيرُكُمْ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ . حَقًّا مَا كَرَّرَهُؤَلاءِ الجاهلون
بربهم الضالون عن أنفسهم ، في خلق الله النظر ، ولا رجعوا كما قال الله عز وجل
الفكر . ولو أعملوا فكرهم وأجهدوا نظرهم ، فيما تسمع آذانهم وترى أبصارهم ، من
حوادث حالات الخلق ، وعجائب طبقات الصنع ، لوجدوا في أقرب ما يرون بأعينهم :
من التأليف لتركيب خلقهم ، والأثر في التدبير بصنعهم ، ما يدبهم على توحيد ربهم ،
ويقف بهم على انفراده بخلقهم . فانهم يرون في أنفسهم بأعينهم ويجدون بقلوبهم ، أنها مخلوقة
صنعة بعد صنعة ، ومحولة طبقة عن طبقة ، ومنقولة حالاً إلى حال : سُلالة من طين ، ثم
نُطفة من ماء مهين ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظام ، كساه الله عز وجل لحماً ، ونفخ فيه روحاً ،
فإذا هو خلق آتحر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، الذى خلق في قرار مكين ، من ماء قليل
ضعيف ذليل ، خلقاً صوره بتخطيط ، وقدره بتركيب ، وألفه بأجزاء متفقة ، وأعضاء
متصلة ، من قديم الى ساق الى نخد الى ما فوق ذلك : من مفاصل ما يعلن أو عجائب
ما يُبطن ، ليعلم الجاهلون ويوقن الجاحدون ، أن الذى صنع ذلك وخلق به ودبره وقدره
وهياً ظاهره وباطنه إله واحد لا شريك معه . فلا يذهبن ذكر هذا صفحاً عنكم ، ولا تسقط
حكمته جهلاً به عليكم ، وفكروا في آيات الرسل وبيّنات النذر ، فإن في ذلك فكراً للبصيرين ،
وبصراً للعتيرين ، وذِكْرَى للعابدين ، والحمد لله رب العالمين .

وأمر المؤمنين واصف لكم ، ومقتض من ذلك إن شاء الله عليكم ، ما فيه شهادات
واضحات ، وعلامات بيّنات ، ومبتدئ بذكر آيات نبينا صلى الله عليه وسلم فيما أنزل الله
منها في الوحى اليه ، فإنه ما أحد يقارع بآيات النبوة قلبه ، ويحصن ببيّنات الهدى عقله ، إلا
قادته حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لا يجد الى إنكار ما جاء به من الحق سبيلاً .
فأردت أن تكونوا على علم ومعرفة ويقين وثقة من أمر محمد صلى الله عليه وسلم وحقه ،
وما أنزل اليه من ربه عز وجل . فأحضرت كتاب أمير المؤمنين فهمك ، وألقي الى ما هو واصف
إن شاء الله سمعك . إن الله عز وجل أصطفى الإسلام لنفسه ، وأختار له رُسلاً من خلقه ،
وأبعث كل رسول بلسان قومه ، ليمين لهم ما يتبعون ، ويعلمهم ما يتجهلون : من توحيد

الرب وشرائع الحق ﴿لَيْسَ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ . فلم تزل رسل الله قائمة بأمره ، متواليّة على حقّه ، في مواضع الدهور ، وخواريّ القرون ، وطبقات الزّمان ، يصدّق آخرهم بنبوة أولهم ، ويصدّق أولهم قول آخرهم ؛ ومفاتيح دعوتهم واحدة لا تختلف ، ومجاميع ملّتهم ملتزمة لا تفترق ، حتى تناهت الولاية والوراثة التي بنى عيسى عليه السلام عليها وبشّرها ، الى النبي الأمّي الذي انتخبه الله لوحيه ، واختاره بعلمه ؛ فلم يزل ينقله بالآباء الآخيار ، والأمّهات الطّواهر ، أمة فائمة ، وقرنا فقرنا ، حتى استخرجه الله في خير أوان ، وأفضل زمان ، من أثبت محاتد أرومات البرية أصلا ، وأعلى ذوائب نبغات العرب قرعا ، وأطيب مآب آعياص قریش مغرسا ، وأرفع ذرى مجد بنى هاشم سميكا : محمد صلى الله عليه وسلم خيرها عند الله وخلقه نفسا ، على حين أوحشت الأرض من أهل الإسلام والإيمان ، وأمتلأت الآفاق من عبدة الأصنام والأوثان ، واشتعلت البدع في الدين ، وأطبقت الظلم على الناس أجمعين ؛ وصار الحق رثما عافيا ، خلقا باليا ، ميتا وسط أموات ، ما إن يحسّون للهدى صوتا يسمعون ، ولا للدين أثرا يتبعونه . فلم يزل صلى الله عليه وسلم قائما بأمر الله الذي أنزل إليه ، يدعوهم الى توحيد الرب عز وجل ، ويحذّرهم عقوبات الشرك ، ويجادهم بنور البرهان ، وآيات القرآن ، وعلامات الإسلام ، صابرا على الأذى ، محتملا للكره ؛ قد أطمه الله عز وجل أنه مظهر دينه ، ومُعزّ تمكينه ، وعاصمه ومستخلفه في الأرض ، فليس يثنيه ريب ، ولا يلوّيه هيب ، ولا يعنيه أذى ؛ حتى اذا قهرت البيّنات ألبابهم ، وبهرت الآيات أبصارهم ، وخصم نور الحق حجّتهم ، فلم تمنع القلوب من المعرفة بدون صدقه ، ولم تجد العقول سبيلا الى دفع حقه . وهم على ذلك مكذبون بأقوالهم ، وجاحدون بأقوالهم ؛ كما قال الله عز وجل العليم بما يُسرّون ، الخابر بما يُعلنون : ﴿ فَأَنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ بغيا وعداوة ، وحسدا وبلحاجة ، افترض

(١) محاتد : جمع محند ، وهو الأصل . (٢) أرومات : جمع أرومة ، وهي الأصل . (٣) نبغات : أصول كريمة . (٤) أعياص قریش : أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر ، وهم : العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص والعويص . (٥) في الأصل : "فلا" .

الله عليه قتلهم ، وأمره أن يجرد السيف لهم ، وهم في عصابة يسيرة ، وعدة قليلة ، مستضعفين مستدلين ، يخافون أن يخطفهم العرب ، وتداعى عليهم الأمم ، وتستحملهم^(٢) الحروب ، فأواهم في كنفه ، وأيدهم بنصره ، وأنذرهم بمقدمة من الرعب ، ومشغلة من الحق ، وجنود من الملائكة ، حتى هزم كثيرا من المشركين بقائهم ، وغاب قوة الجنود بضعفهم ، إنجازا لوعده ، وتصديقا لقوله : ﴿وَإِنَّ جُنُدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ فأحسن النظر وقلب الفكر في حالات النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي قائما لله ، لتجد لمذاهب فكره وتصاريه نظرك ، مضطربا واسعا ، ومعتمدا نافعا ، وشعوبا جمّة ، كلّها خير يدعوك الى نفسه ، وبيان ينكشف لك عن مخضه . وأخير أمير المؤمنين ما كنت قائلا لو لم تكن البعثة للنبي — صلى الله عليه وسلم — بلغتك ، ولم تكن الأنبياء بأموره تفرزت قبلك ، ثم قامت الحجة بالاجتماع عندك ، وقالت الجماعة المختلفة لك : إنه نجم بين ظهرائي مثل هذه الضلالات المستأصلة ، والجماعات المستأسدة^(٣) ، التي ذكر أمير المؤمنين : من قبائل العرب ، وجاهلير الأمم ، وصناديد الملوك ، ناجم قد نصب لها وغيرى بها ، يجهل أحلامها ، ويكفر أسلافها ، ويفرق ألقافها ، ويلعن آباءها ، ويضلل أديانها ، وينادي بشهاب الحق بينها ، ويجهز بكلمة الإخلاص الى من ترائى عنها ، حتى حميت العرب ، وأنفت العجم ، وغضبت الملوك ، وهو على حال ندائه بالحق ودعائه اليه ، وحيدا فريدا ، لا يحفل بهم غضبا ، ولا يرهّب عنتا ، يقول الله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أكنت تقول فيما تجرى الأقاويل به وتقع الآراء عليه ، إلا أنه أحد رجلين : إما كاذب يجهل ما يفعل ويعمى عما يقول ، وقد دعا الختف الى نفسه ، وأذن الله لقومه في قتله ، فليست الأيام بمادة ولا الحال بثابتة له إلا ريثما تستلحمه^(٤) أسبابهم ، وينهض به حامواهم ، غضبا لربهم ، وأنفة لدينهم ، وحمية لأصنامهم ، وحسدا من عند أنفسهم . وإما صادق

(١) أصله تداعى لحذفت إحدى تاءيه ، ومعناه يجتمعون عليهم ويتألبون بالعداوة .

(٢) تستحملهم : تلقى عليهم حملها وعباها . (٣) المستأسدة : القوية . (٤) استلحمه :

تعلق به وتلشب .

بصير بموضع قدمه ومرتى نبه ، قد تكفل الله عز وجل بحفظه ، وصحبه بعزه ، وجعله في حرزه ، وعصمه من الخلق ، فليست الوحشة بواصلة مع صحبة الله إليه ، ولا الهيبة بداخلة مع عصمة الله عليه ، ولا سيوف الأعداء بماذون لها فيه . ثم ان آيتكم^(١) يا أهل الكتاب لو قيل لكم : إن الرجل الذى يدعى العصمة ويتنحل المنعة ، قد نجت الأمور به على ما قال ، وسلمت الحال له فيما ادعى ، حتى نصب لعمارات العرب ، وجماعات الأمم ، يقاتل بمن طأوعه من خالفه ، ومن تابعه من عانده ، جادا مشمرا ، محتسبا واثقا بموعد الله ونصره ، لا تأخذه لومة لائم في ربه ، ولا يوجد لديه غميرة^(٢) في دينه ، ولا يلفته خذلان خاذل عن حقه ، حتى أعز الله دينه ، وأظهر تمكينه ، وأنقادت الأهواء له ، واجتمعت الفرق عليه ، ألم يكن ذلك يزيد حقه يقينا عندكم ، ودعوته ثبوتا فيكم ، حتى تقول الجماعة من حلمائكم وأهل الحنكة من ذوى آرائكم : ما كان الرجل ، اذ كان وحيدا فريدا قليلا ضعيفا ذليلا معروفا بالعقل منسوبا الى الفضل ، ليجتري أن يقول : إن الله عز وجل أوحى اليه فيما أنزل من الكتاب عليه أن يعصمه من العرب جميعا ويمنعه من الأمم طرا ، حتى يبلغ رسالات ربه ، ويظهره على الدين كله ، ويدخل الناس أفواجا في دينه ، إلا وهو على ثقة من أمره ، ويقين من حاله .

فسبحان الله ! يا أهل الكتاب ما أبين حق النبي صلى الله عليه وسلم لمن طلبه ، وأسهله لمن قصد له . وأستعملوا في طلبه ألبابكم ، وأرفعوا ... أبصاركم ، تنظروا بعون الله اليه ، وتيقنوا ان شاء الله عليه ؛ فإن علامات نبوته وآيات رسالته ، ظاهرة لا تخفى على من طلبها ، جملة لا يحصى عددها ، منها خواص تعرفها العرب ، وعوام لا تدفعها الأمم ؛ فأما الخواص المعروفة لدينا ، المعلومة عندنا ، التى أخذتها الأبناء عن الآباء ، وقبيلها الأتباع عن الأسلاف ، فأمر قد كثرت البينات فيها ، وتداولت الشهادات عليها ، وثبتت الحجج بها ، وتراخت الأيام ببعضها ، حتى رأينا عيانا ، وقيلناه إيقانا ؛ فهى أظهر فينا من الشمس ،

(١) كذا في الأصل . (٢) عمارات العرب : أحيائها العظيمة . (٣) غميرة : مطعن . (٤) بياض فى الأصل بمقدار كلمة .

وأين لدينا من النهار؛ ولكن غيبت الأزمان عنكم أمرها، ولم ينقل الآباء اليكم علمها، وما لا يدرك إلا بالسمع موضوع الحجة عن العقل، فليس أمير المؤمنين بحاجة لكم، ولا قاصد اليكم من قبيلها. وأما الآيات العوام والدلالات الظاهرة في آفاق الأرضين، القاطعة لمُجج المبطلين، التي لا تنكر عقول الأمم وجوب حَقِّها، ولا تدفع البابُ الأعداء صحة أمرها، فسَيُوجِّها أمير المؤمنين مسالك أسماكم، ويُعيد بها حجة الله في أعناقكم، من وجوه جمّة وأبواب كثيرة، إن شاء الله: منها أنه لم تزل الشياطين، فيما خلا من فترات الرسل وتدارات النذر، تصعد إلى سماء الدنيا، وتُنصت للأعلى فتسرق السمع وتحتفظ العلم، وتنزل به إلى كلِّ أَفَّاكٍ أَيْمٍ، يَنْبُؤُ أَكَاذِبَهُمْ على واضح صدقه، ويُفَقِّقُونَ أَباطيلَهُمْ بحسب حَقِّه، خلطاً للباطل فيه، وسوماً للعباد عليه. فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم وأنزل آيات القرآن إليه، حُرِسَت السماء بالنجوم، ورُميت الشياطين بالشُّبُه، وأنقطعت الأباطيل، وأضحلت الأكاذيب، وخلص الوحي، فبطلت الكُفَّان، وضلت السُّحَّار، وكذبت الأحلام، وتحيرت الشياطين، فكانت آيةً بينة، وعلامةً واضحة، وحجةً بالغة، تهرق قرائح العقول، وتخرق مُجَبِّ الغيوب، فلا يقوم مع ضيائها ظلمة، ولا يثبت عند مُحْكَمِها شُبُهة، ولا يُقيم معها في محمداً صلى الله عليه وسلم شك، لا من أصحابه خاصة ولا ممن جاء بعده عامة. وإنما جعلها الله عز وجل آيةً باقيةً في الغارين، وجراسةً ثابتةً من الشياطين، لأن الله جل وعلا جعل نبيها صلى الله عليه وسلم آخر النبيين؛ فليس باعثاً بعده نبياً يكذب أقاويل الكهنة، ويقطع أخاير الجنة.

وستقول، فيما يذهب إليه الظن ويقع عليه الرأي، أنت ومن عقل من أمتك وأهل ملتك: هذه آية حاسمة وحجة قاطعة بينة قائمة، مستعيلة لأمرها، مستغنية بنفسها، لا تحتاج إلى ما قبلها، ولا يُشكَل على ما بعدها، إن أقرت العقول بما تقول، أو قامت البينة على ما تدعى، بلى؛ ثم تقول: وأنت لك بالهينة، ولسنا نُقر بكتابك، ولا نُؤمن برسولك،

ولا نقبل قولك فيما قد سبقنا وإياك زمانه ، وحجبت الغيوب عنا وعنك علمه ، فأرجع اليكم إن قلتم ذلك ؛ فإن وجدنا القضاة قبل طلب البنات .

وليس يجعل أمير المؤمنين فيما يُبَارِعُك ويُحَاجُّك فيه حاكما غير عقلك ، ولا قاضيا سوى نفسك ؛ ولكنه يذكرك الله الذي إليه معادك وعليه حسابك ، لما جعلت التفهيم لمسألته من بالك ، وركبت حدودها في جوابك ، عادلا بالقسط ، قاضيا بالحق ، قائلا بالصدق ولو على نفسك ، ناظرا بالآثرة لدينك ؛ فلقد وفق الله لك آية ، وأهدى إليك بينة ، لا تستطيع دفعها تحجها عن عقلك ، ولا حجابا لنورها دون بصرك ، فلا تدفع الآية بقولك ، والبينة بلسانك ، بحجدا بقطع وصول الحجج اليك ، ويد تغلق أبواب الفهم عنك ؛ فإن اللسان لك مداوُل حيث شئت ، ومنقاد تُصَرِّفه فيما هويت ؛ ولكن أنصب نفسك للفهم وأنت شهيد ، وأريد الحق وقبوله فيما تريد . فاذا تصوَّرت البنات مجسدة في قلبك ، وتبينت الحُجج ممثلة لنظرك ، قد أضاء صوابها لك وفرَّع حقها قلبك ، فاجعل القول بها شعارا للسان به متصلا . وأفهم المسئلة فهمك الله الحق ، وجنبك الجحد ، ما تقول أنت ومن قبلك في رجل كان يتيما ضعيفا أجيرا ساهيا لاهيا عائلا خاملا ، لم يتل كتابا ، ولم يتعلم خطا ، ولم يك في محلة علم ، ولا إرث مُلك ، ولا معدن أدب ، ولا بيت نبوة ، فترافيت الأيام به ، واتصلت الحال بأمره ، حتى خرج الى العرب عامة والقبائل كافة ، وحيدا طريدا شريدا ، مخدولا مجهولا ، مجفوا مرميا بالعقوق لآهتهم ، مقدوفا بالكذب على أصنامهم ، منسوب الى الهجر لأديانهم ، وهم مُجمعون على دعوة العصبية ، وحمية الجاهلية ، متعادون متباغون ، مختلفه أهواؤهم ، متفرقة آملاؤهم ، يتسافكون الدماء ، ويتناوحن النساء ، ويستحلون الحرم ، لا تمنعهم ألفة ، ولا تعصمهم دعوة ، [ولا] يحجزهم بر ، فألف قلوبها ، وجمع شتيها ، حتى تناصرت القلوب ، وتواصلت النفوس ، وتزافدت الأيدي ؛ ثم اجتمعت الكلمة ، واتفقت الافئدة ، حتى صار غاية الملق رحالهم ، ونهاية المستجمع

(١) لعله : ولا تغلق . (٢) في الأصل : لا .

أسفارهم ، وصاروا له حِزْبًا متفقين ، وجندًا مُطيعين ، بلا دُنْيَا بَسْطَها لهم ، ولا أُمُوالٍ أَفاضَها بينهم ، ولا سلطانٍ له عليهم ، ولا مُلْكٍ سَلَفَ لآبائِهِمْ ، ولا نِباهَةٍ كانت له بين ظَهْرَانِهِمْ .
أقول إنه [ما] قال ذلك كلّه إلا بَوَحْيٍ عَظِيمٍ ، وَتَنْزِيلِ كَرِيمٍ ، وَحِكْمَةٍ بِالْغَةِ ! فَإِنْ قُلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ أَقْرَرْتَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولٌ ، وَتَرَكْتَ مَا كُنْتَ تَقُولُ إِنَّهُ لَمْ يُدْرِكْهُ وَلَمْ يَبْلُغْهُ إِلَّا بِعَقْلِ سَيِّدٍ ، وَنَظَرِ بَعِيدٍ ، وَرِفْقٍ لَطِيفٍ ، وَرَأْيٍ وَثِيقٍ ، اسْتَبَى بِهِ عُقُولَ الرِّجَالِ ، وَاسْتَمَالَ عَلَيْهِ أَفْئِدَةَ الْعَوَامِ . فَإِنْ قُلْتَ ذَلِكَ فَأَنَا سَأَلْتُكُمْ بِالْحَكْمِ الَّذِي تَعْبُدُونَ ، وَدِينِكُمُ الَّذِي تَتَحَلَّوْنَ ، لَمَّا صَدَقْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَجَنَّبْتُمْ الْهَوَى عَنْكُمْ : أَتُؤْمِنُ قُلُوبُكُمْ ، وَتَقَرَّرَ عُقُولُكُمْ ، وَيَحْتَمِلُ نَظَرُكُمْ ، أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي وَصَفْتُمُوهُ بِكُلِّ الْعَقْلِ ، وَبَيَانِ الْفَضْلِ ، وَرِفْقِ التَّدْبِيرِ ، كَانَ يَقُولُ لِرِجَالِ الْعَرَبِ ، وَجَمَاعَاتِ الْأُمَمِ ، [و] دُهَاةِ قَرِيْشٍ : إِنْ مِنْ آيَاتِ نَبَوْتِي ، وَدِلَالَاتِ رِسَالَتِي ، وَعَلَامَاتِ زَمَانِي ، أَنَّ الشَّيَاطِينَ تُرْمَى بِخُيُومِ السَّمَاءِ ، وَلَمْ تَكُنْ تُرْمَى بِهَا فِيمَا خَلَا ؛ ثُمَّ يَجْعَلُ ذَلِكَ كِتَابًا يُقْرَأُ ، وَقُرْآنًا يُتْلَى ، وَهُوَ كَاذِبٌ فِيمَا تَلَا ، وَمُبْطَلٌ فِيمَا ادَّعَى ، إِبْطَالًا تَدْرِكُهُ عَيُونُ النَّاطِرِينَ ، وَكَذِبًا يَظْهَرُ لْجَمِيعِ الْعَالَمِينَ ! سُبْحَانَ اللَّهِ ! أَرَأَيْتُمْ أَنْ لَوْ كَانَ فِيمَا قَالَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ، وَعَلَى مَا ادَّعَى مِنَ الْإِثْمِينَ ، ثُمَّ حَاولَ إِبْعَادَ الْقُلُوبِ ، وَإِغْثَالَ الصَّدُورِ ، وَإِنْفَارَ النُّفُوسِ ، وَتَفْرِيقَ الْجُمُوعِ ، أَكُنْ يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ !

فِيَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا يَجْلِسْكُمْ الْإِلْفُ لَدَيْنَكُمْ عَلَى اللَّعِبِ بِتَوْحِيدِكُمْ ! فَلَعَمْرُ اللَّهِ لَنْ تَدَارِكْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَنَاصِحْتُمْ نَظَرَكُمْ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ حَاولَ الْكَذِبَ أَوْرَامَ الْإِفْكَ ، لَمَا كَانَ يُتْرَكُ جَمِيعَ الْأَرْضِ ، وَمَا يَغِيبُ عَنْ بَعْضِ الْخَلْقِ وَيَظْهَرُ لِبَعْضٍ ، وَيَقْصِدُ السَّمَاءَ الْمُتَّصِلَةَ بِالْبَصَرِ ، الْبَارِزَةَ لِلنَّظَرِ ، الَّتِي لَا تَخْفَى عَلَى بَشَرٍ ، وَلَا تَغِيبُ عَنْ أَحَدٍ ، فَيَدَّعِي فِيهَا كَذِبًا ظَاهِرًا ، وَإِفْكًَا بَارِزًا مَكْشُوفًا ، لَا يَبْقَى صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ وَلَا ذَكَرٌ وَلَا أُنْثَى ، إِلَّا عَرَفَ أَنَّهُ إِفْكَ وَزُورٌ ، وَكَذِبٌ وَغُرُورٌ ، وَلَا سِيَّأًا إِذَا كَانَ يُلْقَى ذَلِكَ إِلَى أَقْوَامٍ أَكْثَرُهُمْ أَعْرَابٌ ، لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ حِجَابٌ ؛ إِنَّمَا يُرَاعُونَ الْكَوَاكِبَ وَيَتَفَقَّدُونَ الْغَيُومَ ، فَأَبْعَدُ عَهْدٍ آخِرِهِمْ بِهَا تَفَقُّدَها وَنَظَرَها إِلَيْهَا ، سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ ، أَوْ لَيْلَةً أَوْ لَيْلَتَيْنِ .

لعمرك الله لو عثرت العرب من أمر النبي صلى الله عليه وسلم على كذب لكان أول من يؤايبه به ويجادله فيه أعداؤه من قريش عامة، وحساده من جبرته خاصة، ونظراؤه من أهل بيته دنية الذين كانوا يستعبرونه لكل طريق، ويقعدون له على كل سبيل، ويتساءلون من أمره عن كل ذي حادث، فيتلقون بالحروف المشككة، والآيات المشبهة، جدلاً وخصومة بها، وطعنًا وإلحادًا ومنازعة فيما، حتى لقد وصفهم الله بفعالهم، وأخبر عن ذلك من أمرهم، فقال عز وجل: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خِصْمُونَ﴾ وما كان الله عز وجل ليقول ذلك ولا لأحد أن يقوله على الله في أمرهم إلا عن خصومة شديدة، ومنازعة بليغة، ومجادلة معروفة. فأحسن النظر لنفسك، ولا تهلكن شفقة على ملكك؛ فأيم الله لئن قلت إن النجوم شيء كانت العرب تراه بعينها وتعرفه بقلوبها، فما كان محمد صلى الله عليه وسلم، وهو عارف بها غير جاهل لها، ليقول فيها إلا حقًا، وينتحل فيها إلا صدقًا، لقد ثبتت فروع كلامك فيها على أسسه، ووصلت آخر قولك له بأوله، ثبوتًا على ما ذكرت من عقيدته، ولزوما لما قرطت من نظره، ولكك لا تجد مع الإقرار بذلك بدءًا من التصديق برسائله، ولا مذهبا عن الإيمان بنبوته.

ولئن زعمت أنه ادعى أمر النجوم كذبا وانتحلها باطلا، عارفا كان بها أم جاهلا، لقد نسبته من الخطأ الذي لا يعنى عن بصره إلى ما يخطئ فيه بشرًا، فأكذبت نفسك، وتركت قولك: إنه لم يكن التأليف لقلوب العرب والجمع لشتيت القبائل، إلا برأى سديد، وعقل أصيل، ورفق بالغ، إلى أحد أمرين لا تجد لكلامك وجهًا تذهب إليه غيرهما، ولا تحملا تضعه عليه سواهما: إما أن تقول: إنه ألف قلوب العرب، وفترق جموع الأمم بتنزيل الوحي، فتؤمن أنه نبي، وإما أن تقول: فعل ذلك بجهل، وهذا قول لا يقبل. كيف يصفه أحد من الجاحدين به المكذبين له بغاوة، أو يرمونه بجهالة، وهم يحوزون به حدود الأنبياء، ويرفعونه فوق أمور العلماء، ويتخطون به مراتب الحكماء، ومنازل الناس

تكثر علمه ، وتسديداً لعقله ، وتثبيتاً لفضله ، فيما لا يقدر الخلق عليه ولا تهتدى الألسن إليه ؛ حتى لقد تحلوه فعل الرب الذي لا يقدر عليه الخلق في وجوه كثيرة وأنحاء جملة : من ذلك أنه اذا قالت البقايا من أمتنا : كان محمد صلى الله عليه وسلم يُخبرنا بالغيوب قبل ظهورها ، ويصف الأمور قبل حلولها ، ويتجاوز [ما يكون] في زمانه من ذلك الى ما يكون في زماننا غيباً أطلعه الله عز وجل عليه ، أضافوا ذلك علماً إليه ، فقالوا : كان أعلم الناس بمواقع النجوم ، وأبصرهم بمنازل البروج ، وأنظرهم في دقائق الحساب . كيف ولم يكن الحجاز دار نجوم ولا محل حساب ولا معدن أدب ! بل كيف والمنجم يقيس وينحط ، ويشك فيما يدعى ، وهو أخو صواب لا شك فيه ، وفارس صدق لا قياس معه .

ومن ذلك أنه اذا قالت العلماء من المسلمين : كان نبينا صلى الله عليه وسلم [علما] بباطن أخبار النبيين ، وخفي قصص القرون الأولين ، قالوا : كان أحياء الناس قلباً ، وأوسعهم سرباً ، وأسرعهم أخذاً ، يتبع ذلك ويحبه ، وقد رواه وعلمه . سبحان الله ! أولاً يعلمون أن المتعلم معروف المعلم ، متفاوت الحالات ، متنقل الطبقات ، وأنه ما أحد يؤدب صغيراً أو يطلب العلم كبيراً ، إلا وله درجات في علمه ، وتارات في أخذه ، ومنازل في تعلمه ، تارة تلميذ ، وتارة مقارب ، وأخرى حاذق ، وبكل ذلك موصوف من أهله ، معروف عند قومه ، ظاهر لخيرته ، مستفيض في عشيرته ، لا يجهل أمره ، ولا يخفى ذكره ، ولا ينسى عند مواضع الحاجة إليه ، وتارات الاحتجاج به عليه . ولو كان ذلك معروفاً فيهم ، أو موجوداً لديهم ، أو ظاهراً عندهم ، لما أمره الله عز وجل أن يحتج عليهم ويقول في ذلك لهم : لقد لبثت فيكم عمراً من قبله ، لا أتلو قرآناً ، ولا أدعى وحياً ، أفلا تعقلون !

وأي الله ! لو كانوا يعقلون أو ينظرون ، لعلموا أن معلمه على غير الملة التي يعرفون ، لأنه لهم من المخالفين ، وعليهم من الطاعين ، يذكر فضائح قولهم ، ومغايب أمرهم ، ويحازي أسلافهم ، وعوائل أديانهم ؛ وإنه لو كان معلمه نصرانياً لدعا الى النصرانية ، أو يهودياً

لدعاه إلى اليهودية ، أو مجوسياً لدعاه إلى المجوسية . ولو لم يكن له معلّم لمّا وقع على الحقيقة هدايةً من تلقاء نفسه ومعرفةً بقوة عقله . ولو كان معلمه الشيطان لمّا دعاه إلى عبادة الرحمن ، ولا أمره بهجر الأوثان ، وكسر الأصنام ، وصلة الأرحام ، والإصلاح في الأرض ؛ كيف [و] كان الشيطان يصدّ الناس عن سبيله ، ويُرْهِدُهُمْ في دينه ، وينهاهم عن طاعته ، ويخرجهم من عبادته ، ويدخلهم في مَسَاخِطِهِ ، ويحلبهم على مَعَاصِيهِ ! إنه إذا لرحيمٌ بهم ، ناظرٌ لهم ، شفيقٌ عليهم ، كأنه هو المبعوث اليهم ؛ كلا ! ما كان لينقذهم من حَبَائِلِهِ ، ويخلصهم من مَصَائِدِهِ ، ويخرجهم من ولايته وطاعته وسلطانته وخُدَعِهِ وفتنته وحزبه ، إلى غير ذلك من أمره . وما كان لينهى العرب أن يقتلوا أنفسهم ، ويتناحوا حرّهم ، ويؤذوا ذريّتهم ، ولا يقول لهم : لم تعبدون نحيّت الحجارة التي جعلها الله لكم عارا ، وتدّرون عبادة الربّ الذي خلقكم أطوارا ! هيّات ! لقد ذهبتُم بالشيطان الرجيم إلى صراط العزيز الحكيم ، فقلتم قولاً تُنكره العقول ، وتدفعه القلوب ، وتستوحش منه النفوس . أَلَا تَسْمَعُونَ إلى قول الله عز وجل : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴾ فما كان الشيطان ليرضى للعرب باللغنة والبكم والعمى والصمم ؛ فاتّقى الله ولا تكن من الجاحدين .

ومنها أنه إذا قالت الفقهاء والحكماء : أمانا محمد — صلى الله عليه وسلم — بكلام لم تسمع الآذان بمثله ، ولم تقع القلوب على لُغَتِهِ ، له رَوْنُقٌ حَبَابُ الماء ، وزَرْجٌ يعلو ولا يُعَلَى وعجائب لا تبلى ولا تَفْنَى ، وجِدَّةٌ لا تتغير ، [قالوا] : كان محمد — صلى الله عليه وسلم — أبلغهم قولاً ، وأحسنهم وصفاً . فيا سبحان الله ! ألا يعلمون أن لو كان القرآن كلاماً للعباد لما أقترت الأعداء من بفضلِهِ ، ولا تجزّت القبائل طُرّاً عن مثله ، وهو يناديهم في الكتاب ويتحدّاهم في الوحى ، بصوت رفيع ، ونداء سميع ، فيقول : هَاتُوا سَوَاقاً مِنْ مِثْلِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، وهم فرسان الكلام ، وإخوان البلاغة ، وأبناء الخطب ، وأهل عداوة له وبغى

(١) بياض في الأصل بمقدار كلمة .

عليه ، فتستحسر الأبصار ، وتثقل الأسماع ، وتنعقد الألسن ، وتتحرس الخطباء ، وتعجز البلغاء ، وتبحر الشعراء ، وتستسلم الكُهان . ثم لقد قايسَت البصراء بالكلام والعلماء بالمنطق ، بين ما بأيدينا من كلام النبي — صلى الله عليه وسلم — وما جاء به من كلام الوحي ، فإذا بينهما بون بعيد وتفاوت شديد ، ليس ينسبه له ولا مدان ولا قريب . وكذلك ينبغي الكلام الرب عز وجل أن يعلو كلام الخلق ، وألا يشبه قول العباد في تأليفه وأحاديثه ومعانيه وجميع ما فيه ؛ لأن الله عز وجل لا يشبهه شيء من ذلك أنه إذا قال المسلمون : كان محمد — صلى الله عليه وسلم — يرى ماضي أسلافنا وصلح آبائنا من العجائب العظام ، والآيات الجبار ، ما هو جديد عندنا ، بين قبائنا فلم يعف أثره ، ولم يدرس خبره ، ولم يتقدم عهده : من شجرة ناداها فأقبلت ثم أمرها فرجعت ، ومن نحو بعير تظلم ، وذئب تكلم ، وأشباه ذلك كثيرة ، ونظائر له عجيبة ، قالوا : كان محمد — صلى الله عليه وسلم — كاهنا حاذقا ، وساحرا ماهرا ، يُشبه بالخيال ، يأخذ بالأبصار . كيف والجموع الكثيرة تصدرون الأطعمة اليسيرة والمياه القليلة ، شباعا رواء ، أيكون ذلك والسحر سواء ؟ والأخذ بالعيون لا يجري في البطون ! لو كانوا ينظرون لدينهم وينصفون من أنفسهم ، لعلموا أن أمر الساحر يدور على إفك وغرور ، وأن لمحمد — صلى الله عليه وسلم — آثارا قائمة ، ومنافع دائمة . ثم لو كانت الكهانة والسحر يبلغان مثل هذا من الأمر ، لبطلت آيات الكتب ، وعلامات الرسل ، ولعلت الشبهة ، وسقطت الحجّة ، وكذبت النبوة ، وبطل ما كان ^(١) [يفعله] عيسى عليه السلام : من إبرائه الأكمة والأبرص وإحيائه الموتي . فلا يكون التقليد للرجال مبلغ علمك ، ولا القبول لدعواهم بلا بينة .

ومن ذلك [أنه] إذا قالت البصراء من أمتنا والعلماء بملتنا : كان النبي — صلى الله عليه وسلم — أميا لا يحسن الكتاب وحافظا لا ينسى القرآن ، وقلمما يجتمع العقل السديد والحفظ السريع والذسيان البطيء ، قالوا : كان أخط الناس يدا ، وأذكاهم حفظا ، كان يكتب بالنهار ، ويدرس بالليل .

(١) زيادة يقتضيها السياق .

ولعمر الله أن لو كانت الحال كما يقولون والأمر كما يصفون ، لما خفيت الصحف له ، ولا اكتنيت الدراسة عليه ، ولما كان يطبق سترها عن أهله ، ولا حجابها دون قومه . وكيف نُؤمن القلوب وتُقرّ العقول أن رجلا كبيرا حمل علما كثيرا وحكما جمّا : من آيات متشابهة ، وسور متوالية ، وهو صاحب أسفار مترامية ، وأخو حرب دائمة ، لا يبطئ لفظه ، ولا يسقط حفظه ! لولا أن الله عز وجل كفّاه أن يُحرّك به لسانه ، وضمّن له جمعه وقرآنه ، فقال عز وجل : ﴿ سَمِعْتُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ فلم يكن يسقط واو ولا ألفا ، ولا ينسى كلمة ولا حرفا . ما أبين هذا وأعجبه ! وأعجب منه المنكر له .

وأما قولهم في الخط وإثارتهم في الكتاب ، فإن الله عز وجل جعله أمياً ليثبت حجته ، ويصدق مقالته ، ولئلا يشك المبطون في أمره ، ويقولون : تعلمه من غيره ؛ فإنه قد قال ذلك بطائن من منافقة العرب وطوائف من كفارة العجم ، فنطقت [به] الأعداء من جبرته ، والحسدة من عشيرته ، الذين بلغوا [ما بلغوا] من مجادلة حقه ، ومخاصمة ربه ، كفاة لمن قرب ، ووكلاء لمن بعد ، فيما لم تكن العرب واقعة عليه ، ولا الأمم مهتدية إليه ؛ لأنهم قد أحاطوا من علم خبره ، وخفي أثره ، بما كان عن غيرهم محتجبا ، ومن سواهم مكتنبا . وقالوا : لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يتعلم من بشر أو يختلف إلى أحد ، لما خفي عنا واسقط علينا . وحقا لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يختلف إلى أحد صغيرا ، أو يتعلم من بشر كبير ، لعرف ذلك أثره المختلفون معه ورفقاؤه والمقتدون ، ولما جهل ذلك من حوله من جبرته نصره ، ولا من معه من أهل بيته دنياه ، الذين عليهم يورد ومن قبلهم يُصير ، ولما كان شائعا عند حشم معلمه وجيرة موضعه الذين كان يختلف إليهم ، ويتأذب بين ظهرانيهم . ولو كانوا بذلك عالمين ، أو فيه من أمره شاكين ، ثم بلغهم وتقرّر قبلهم أنه يقول : إن الله عز وجل أوحى إليه ، فيما أنزل من الكتاب عليه : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَسْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْكَاءَ لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ لخاصمه منهم من كفر ،

(١) في الأصل : « متراخية » . (٢) في الأصل : « ... ولا يسقط حقه ولولا أن ... الخ » .

(٣) زيادة يطلبها الكلام . (٤) في الأصل : « لا أنهم ... » . (٥) في الأصل : « ولا سقط » .

ولكفر به منهم من آمن . ثم يدعى ذلك قرآنا ، وينتعله وحيا ؟ أما كان يهَبُ أن ينتشر في الأقربين ، ويخرج الى الأبعدين ، فتبطل حجته ، وتنتقض دعوته ، وتسقط نبوته ، وينفِر أصحابه الذين لم يصبروا معه في المجاهدة أنفسهم ، ويذُلوا عند الشدائد مهجهم ، ويُنفقوا فيه على الحاجة أموالهم ، مُنَاصِبِينَ لأهل الشرق والغرب والعجم وكل الأمم ، وهم قليلون مُستضعِفون عائلون جائعون ، لا طلبا لدنيا ولا طمعا في منال ، إلا لما تعقبوا من قوله ، وعرفوا من صدقه . ولولا أنه أخبرهم ووعدهم أن يغلب كسرى وقصرهم ، فصَدَّقوا بقوله ، وآمنوا بوعده ، حتى قويت البصائر ، وصُرِّمَت العزائم ، وقويت النيات ، فَتَشَطَّت النفوس ، وَتَشَجَّعَت القلوب ، وحملت الأبدان ، لما وَقَعَ لهم طمع فيه ، ولا ذهب لهم وَهْلُ^(٢) إليه . فكان ذلك على يقين لا يخلجه شك ، ومعرفة لا يخالطها ريب ، إن شاء الله .

ومن ذلك أنه اذا قال المسلمون : ما من فعّال مجود ، ولا مقال معروف ، ولا خالق كريم ، ولا أدب فاضل ، إلا وقد أدب الله عز وجل به محمدا صلى الله عليه وسلم وأنزله في الكتاب اليه ، فكان يأمر بالمكارم ، ويحض على المحامد ، ويعمل بالمحاسن التي ليس فيها مدخل لشبهة طاعين ، ولا معلق لحجة قائل ، ولا مغمز لبصيرة عائب ، ولا موضع لخصومة بشر ، في وعد أو عهد ، أو حل أو عقد ، أو مقال أو فعال ، أو غير ذلك من الأمور — قالوا : أمور حمل عليها نفسه ، ودعاها اليها عقله ، وصبر عليها ، لما أقبل ورجا فيها . سبحانه الله ! وما أقبل بها وأرتجى منها ؟ إن قالوا : الدنيا ، فلقد أكذبهم إداره عنها ، حيث أمكنته القدرة منها ، وأعثرته الحال عليها . وإن قالوا : حب الآخرة ، فقد جعل نفسه للمسلمين أسوة : في سبامهم وقصاصهم ، وحُدودهم وحقوقهم ، وغير ذلك من أمورهم . وإن قالوا : الملوك ، فلقد كان أشد الناس لربه تواضعا ، وأعظمهم في جنبه تصاعضا ، ما إن أكل متكئا قط إلا مرة ، ثم قعد كهيئة الفَرِيع لها النادم عليها ، فقال :

(١) صبر نفسه : حبسها . (٢) وهل : فزع .

”اللهم إني عبدك ورسولك“ . وإن قالوا : النعيم ، فمن كان أبيض منه معاشاً ، وأخشنَ ريشاً ، وأغلظ مأكلاً ! وكيف يذوق العيش أو يجد لذيق النعيم ، من حرم السكر والخمر ، ونهى عن الديباج والقز ، وكان أكثر دهره صائماً ، وأطول ليله قائماً ! فإن قالوا : طلب الصوت ورغب في الدين ، فذلك ما لم يطلبه أحد في حب الصوت وآلتها من الحمد لما صبر مغاضب قومه ، وملاوم أهله ، وشتائم العرب وتوعد العجم ، وأستهزاء قريش ؛ يرمونه بالعقوق ، ويقذفونه بالجنون ، ويهتونه بالسحر ، وليس يدرى ما يهجم به الأمر .

أم يقولون طلب تأثيل الملك لقومه ، وأراد توطئة الولاية لأقاربه فكيف يطلب لقومه ما قد زهد فيه لنفسه ! أم كيف يطلب لهم عز الملك وقد أوطأهم الذل ثم القتل . لعمرك الله أن لو أراد الملك لأقاربه ، وأراد طلب السلطان لذوى رحمه ، لوكد لهم عقداً لا يُحل ، ولا يرم لهم أمراً لا يُنقض ، ولا نل لهم في عنفوان أمره ملكاً لا يخرج من أيديهم ، ولا يبرح أبداً فيهم ، امتثالاً لصنيعكم واحتذاءً على مثالكم ؛ مع أقاويل جمّة ونظائر كثيرة ، لا يستقيم لهم معها أن يقولوا إن محمداً صلى الله عليه وسلم غلب العرب وقهر العجم ؛ أو قال في أمر السلطان والنجوم بكذب .

فإن قلتم إن محمداً صلى الله عليه وسلم كان في قوة عقله وبيان فضله ، على ما قلنا وقلتم وصدقنا به نحن وأنتم ، ولكن هفت العلماء وزلت الحكما وأخطأت القلوب ؛ فقد يعلم أمير المؤمنين — وأتم بذلك من العالمين — أن خطأ قلوب العلماء خطأ دائرة الرجا ، ليست العلماء بخطئة إلا المزة والثنتين ، كما لا تخطئ الرجا إلا الحبة والحبين . ومثل الذي نسبتم الى النبي صلى الله عليه وسلم من الخطأ عندكم والجهل في أنفسكم ، كثير لا يحصىه أحد ، ولا يبلغه عدد . وأمير المؤمنين واصف بعضه لكم ، ومورد ما حضر كتابه إن شاء الله لكم . وآيم الله على ذلك لو قالت العلماء من المسلمين هبوا محمداً صلى الله عليه وسلم كان

(١) الصوت : الذكر الحسن كالصيت . (٢) كذا وردت هذه الجملة في الأصل وهي مضطربة .

(٣) في الأصل : ”ولا ينوح ...“ .

في أمر النجوم من المخطئين، فكيف أخطأت العرب وهفت الأمم في ترك مجادلته ورفض منازعته، وكيف لم تقل العلماء من إفدائه والحكماء من حكمائهم، توبيخاً منهم له، وتعبيراً لمن آمن معه: هذا أمر من أوضح الأكاذيب وأبطل الأباطيل؛ فلا يثبت مع قولهم إيماناً، ولا يُقيم على شرحهم لإنسان. فإن قلت: فلعل ذلك قد كان، ولكنه درج على طول الأزمان، فكيف إذا صدقت العرب بنبوته، ولم تكفر القبائل برسالاته، وهم يسمعون كذباً لا ينفع معه صدق كان قبله، وباطلاً لا يعصم معه حق حدث بعده. وإن قلت: أدخلهم بالقهر وضبطهم بالقتل وأكرههم بالسيف، فما بال القليل من المسلمين الذين قهرهم الكثير من المشركين، ما بالهم آمنوا وصدقوا، وصبروا وصبروا، وجَدُّوا وجاهدوا، كيف لم تنكسر عزائمهم، وتَهِنَ بصائرهم، ويرجعوا إلى دينهم، ويهربوا عن توحيدهم! كلا! لو كان الأمر على ما تقول، لأرفض القوم عن الرسول، ولكان صلى الله عليه وسلم أوَّل مقتول أو مخذول. فأحسن النظر فيما تذهب الأهواء برأيك إليه من آيات النبي صلى الله عليه وسلم. وإن جمحت الدعوى بكم، فقائل: قد مالت به الأهواء في الباطل، فقال: إنه إلا يكن الأنبياء ذكرى النجوم في صُحفها بينت الحكماء منها ذكرًا في كُتبها، فجعلت المنقُص من الكواكب بين الأعوام، دليلاً على أمر يحدث تلك الأيام، ولا ما هذا الاختلاق يُلط به الجاهل للفساق. ما ان وضعت الحكماء ذلك في الكتب، إلا ليالى ملئت السماء من التهب. وبالله لو آدعيت غير ذلك فكان حقاً، وكانت القالة منكم صدقا، لما كانت الدعوى بناقضية لآية النجوم حجة، ولا مدخلة على أحد فيها شبهة؛ لأن رميا يقع قرط السنين من الكواكب، لا يُبطل رَجماً قد ملأ السماء من كل جانب. ثم لو لم تكن النجوم آية دامغة، وحجة بالغة، ودلالة قاهرة، وعلامة باهرة، وأمارة ظاهرة، وشهادة قاطعة، وبينة عادلة، وداعية قائمة، تُبطل أطانين المشركين، وتردع أقاويل المناققين، لما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليعظم أمرها، ولا ليكرر في آي القرآن ذكرها، رهبة

(١) كذا في الأصل. (٢) في هذا الموضع اضطراب. (٣) في الأصل "دافعة..."

لمناهضة أحياء العرب ، ومعرفةً بمجادلة إخوان الكتب ، الذين لو وجدوا فيما كتب به اليك أمير المؤمنين من أمر النجوم واحتج [به] عليك من ذكر الرجوم ، موقعاً لظن أو معلماً بطعن أو مغمراً لقول ، لناصبوه اذا بالمجادلة ، وكاشفوه بالمنازعة ، وجاهره بالقول الذي لا يستطيع له ردًا ، ولا يطيق له بحمداً ، ولكنها آية مآلت الأقطار كثرةً ، وحسرت الأبصار قوة ، قد وجأت العقول ، ووهت القلوب ، ومآلت النفوس جزاً ووجعا ، وفزعاً شغلهم عن الأولاد ، وأذهلهم عن البلاد ، حتى بلغ أمير المؤمنين وتقرر عند فقهاء المسلمين أن الله عز وجل ، لما ملأ السماء حرساً ، وأحدث لها رصداً ، وخلق فيها شهباً ، ذكرت العقلاء من العرب ، وقعات الله عز وجل في الكتب ، بقوم نوح وعاد وثمود ، وأشباههم من مؤلفي تلك الجنود ، الذين كانوا أشد بطشاً ، وأكثر جمعا ، فانفجرت أيديهم عن كرائم أموالهم ، وأرسلت أنفسهم متائن عقديهم . وإن أهل الطائف لما فعلوا ذلك بأموالهم ، وأجمعوا فيه الخروج الى فقرائهم ، قام فيهم رجل منهم ذوسن وعقل فقال :

يا معشر العرب ، لا تهلكوا أنفسكم قبل أن تهلكوا ، ولا تخرجوا من أموالكم قبل أن تخرجوا ، تفقدوا مواقع نجوم السماء ، وكواكب بدور الدجى ، فإن كانت النجوم التي حدث الرمي بها والنجوم التي أخليتم الأموال لها ، هي لبروج الشمس والقمر ومساي الحيوان والشجر ، فهي جوائح الاستئصال ، المتلفة الأنفيس والأموال ؛ وإن كانت النجوم التي حدث القذف بها ، إنما هي نجوم خلقت اليوم ، فليست المعرفة بواقعية على مبتدأها ، ولا الأبصار باللاحقة منتهاها ، فأيسكوا العقد^(٢) عليكم والأموال ، فإنه أمر يحدث في إحدى هذه الليال .

فإن قلت : وكيف وقعت الأمور في هذا الرجل كالعيان ، وصارت المقالة منه كوني الأذان ، أنباك أمير المؤمنين أن أوعية الفقه من المسلمين ، الذين حملوا الينا سنن الدين ، هم

(١) كذا في الأصل . (٢) العقد : جمع عقدة وهي الضيقة أو العقار الذي اقتناه صاحبه .

أَدَّوْا ذَلِكَ إِلَيْنَا ، وَأَبْقَوْهُ خَفْرًا^(١) ... عَلَيْنَا ، فَمَا إِنْ يَتَّفَكَ مِنْهُمْ مَفْتَحُ يَقُول : أَبُونَا الَّذِي حَبَسَ عَلَى الْعَرَبِ الْأَمْوَالَ وَالْعَقْدَ ، فَمَا إِنْ يَدْفَعُ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ مِنَّا أَحَدٌ . هِيَهَاتَ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ لِيُتَقَرَّ عِنْدَ الْفَخَارِ ، إِلَّا بِطَوِيلٍ هُوَ أَيْنُ فِيهَا مِنْ ضَوْءِ النَّهَارِ . فَافْهَمْ مَا كَتَبَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذَا إِلَيْكَ ، وَلَا يَكُنِ التَّعَلُّلُ فِيهَا بِالشُّبُهَاتِ أَوْثَقَ مَا لَدَيْكَ ، فَإِنَّهُ قَلَّ حُجَّةٌ إِلَّا إِلَى جَنْبِهَا شَبَهَةٌ تَحْيِلُ لِلْعَقُولِ ، وَتَعَرِّضُ لِلْقُلُوبِ ، وَتَجَلَّجُلُ فِي الصَّدُورِ ، فَلَا يَثْبُتُ مَعَهَا تَحْيُلُهَا ، وَلَا يُقِيمُ لَتَعْرِضُهَا بَشَرٌ إِلَّا مِنْ وَزَنِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِمِيزَانٍ عَادِلٍ ، لَا يَمِيلُ إِلَى تَفْرِيطٍ ، وَلَا يَنْحَطُّ فِي تَقْصِيرٍ . وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ الْعُقُولَ مُوَازِينَ لِلْأُمُورِ ، فَرِزُوا مَا سَمِعْتُمْ مِنْ حُجَجِ كَلَامِ الرَّبِّ عِزَّ وَجَلَّ بِمَا تَتَّفُونَ بِهِ الشَّبَهَةَ عَنِ الْحَقِّ ، وَلَا تُثْمِلُوا اللِّسَانَ ، فَتُخَسِّرُوا الْمِيزَانَ . وَسَيَعْلَلُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِمَا جَاءَ عَنْ ذِكْرِ مَا كَتَبَ بِهِ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِ النُّجُومِ وَالرُّجُومِ وَالشُّبُهَاتِ فِي الْقُرْآنِ وَالرِّوَايَةِ وَالْكِتَابِ ؛ فَالْطَّفُوا النَّظَرَ فِي صِحَّةِ مَعَانِيهِ ، وَتَحَوُّوا الْهَوَى عَنْ شَبَهَةٍ مَا وَقَعَتْ فِيهِ : قَالَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾^(٢) وَقَالَ : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا زِينَةَ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ . وَإِنْ شَطَبَ عَنِ الْحَقِّ شَاطِبٌ ، أَوْ ذَهَبَ إِلَى الْبَاطِلِ ذَاهِبٌ ، لَا يَعْرِفُ مَذَاهِبَ كَلَامِ الْعَرَبِ ، وَلَا وَجْهَ مَعَانِي الْكِتَابِ ، وَلَا تَفْسِيرَ آيِ الْقُرْآنِ ، فَقَالَ : إِنَّمَا جُعِلَتْ الْكَوَاكِبُ وَالْمَصَابِيحُ حِفْظًا مِنْ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ لِلسَّمَاءِ ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْدِّينِ .

فَإِنْ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ مَا فِيهِ بَيَانٌ مِمَّا يُطِيلُ دَعْوَاهُ الَّتِي لَا بَيِّنَةَ عَلَيْهَا ، وَيَكْذِبُ مَقَالَتَهُ الَّتِي لَا شُهُودَ لَهَا ، فَقَالَ الْجَنُّ — بَفَعَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَوْلَهَا وَحْيًا — وَبِهِ مِنْهَا صِدْقًا : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ . أَلَا تَرَوْنَ أَنَّهَا كَانَتْ الْجَنُّ لَمَسَتْ السَّمَاءَ فَلَمْ تَجِدْهَا مَائَتَ حَرَسٍ شَدِيدٍ وَشُهُبًا ، وَقَعْدَتِ الشَّيَاطِينُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلْسَّمْعِ

(١) بِيَاضٍ بِالْأَصْلِ بِمَقْدَارِ كَلِمَةٍ . (٢) فِي الْأَصْلِ « عَنْ شَبَهَةٍ إِنَّمَا الْخ » .

فلم تجد شهباً ولا رصداً، أو لا يسمعون إلى ما يحقق ذلك ويسدده ويصدقه ويشهد له من قول الله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ مع قول الجن أبام حُرست السماء ورُميت الشياطين: ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرَ أَرِيدَ يَمْنًا فِي الْأَرْضِ أَمْ آرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾. فاذا أعملتم في ذلك فكركم، وقلبتهم فيه نظرهم، فكنتم على برهان يقين، ونور مستبين، من استطاعة الجن للاستماع، وقدرة الشياطين على الاستراق، وإمكان السماء للعود في تلك الحال الأولى، ففكروا في الحال الأخرى حيث حرست الآيات أن تعارض باطلاً بحق، ومنعت الشياطين أن تنزل بصدق، وأمتنعت السماء أن يصعد إليها شيطان، فقال الله عز وجل: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ إِنْهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴾. قالت الجن: ﴿ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَهِنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا ﴾ إن في قولهم الآن لأعظم نور وبيان. وأبين من ذلك لكم وأصح لمن عقل إن شاء الله منكم، إخبار الله عز وجل حين جعلت الكواكب حفظاً من كل شيطان مارد، أنهم ﴿ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ ﴾ مع إخباره في الحال الأولى أنهم يسمعون ويقعدون ويتزلزلون ويستطيعون ويتلون على ملك سليمان، فكن لهذا من الحافظين، وفيه من المفكرين.

ومن آيات النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما نفرت القبائل من أعلام الشرك بجمعها، وتداعت القادة من صناديد الكفر باتباعها حذراً على غير لها أقبلت من الشام بصنوف رغائب أموال عظام، فكانت العير والنفير طائفتين: طائفة ذات عدة كثيرة وشوكة شديدة، وطائفة ذات أموال رغبية ورجال قليلة وفرصة ممكنة، أخرج الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم ووعده ومن معه من المسلمين إحداهما، فكره المؤمنون جموع المشركين، وأراد الله عز وجل أن يقطع دابر الكافرين، ويشيد بذلك أركان الدين، فلما تراءت الفئتان، وتناوشت الفرسان، وتلاقى الناس، وقبل ذلك ما قال الله عز وجل:

(١) كذا وردت هذه الجملة في الأصل وهي غير واضحة.

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ قبض النبي صلى الله عليه وسلم قبضةً [من تراب] حثاها في وجوههم ، فلم يتناه دون مناخرهم وعيونهم ، فانصرفوا منهزمين بلا كثير قتال من المسلمين . يا أهل الكتاب ، فأيُّكم آية أعظم حجة وأوضح بيّنة وأقهر غلبةً من هذه التي لو صدرت الأمور بلا تحقيق لها ، لانفضت الجموع من المسلمين كفاراً بها . أبشارة الله المسلمين بإمداد الملائكة المقتربين ، وهزيمة نفيير المشركين ، التي فجعت الأمور عليها ، وتناهت الحال بهم إليها . أم قبضةً من تراب يسير ، ما ملأ المناخر من عدد كثير .

فلئن قلتم : إن هذه آيات بينات ، وعلامات وانصحات ، ولكلّا [لا] نفر لكم بها ولا تؤمن بقولكم فيها .

أفتؤمنون أن محمداً صلى الله عليه وسلم مع ما نسبتموه من الفضل إليه ، كان يختلقها كذبا من تلقاء نفسه ، ثم يدعيها وحياً من عنده ، وهو لا يدري لعل الأمور [تقع] بخلاف ما يقول ، فيظهر كذبه ، ويرفض تبعه . وإن تزعم أن أصحابه كانوا كثيراً أقوياء ، نشاطاً جلداء ، فكان على معرفة بقوتهم وبقين من غلبتهم ؛ فقد قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّ قَرِيْقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاِرُهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ . ولم يكن الرسول ولا غيره ليُخبر أصحابه من أمورهم بما يجهلون من أنفسهم ، ثم يدعي ذلك تنزيلاً من ربهم . هذا لا تقبله الآراء ، ولا يُقرّ به الحكماء ، ولا يحده النظر .

أم تقولون : إنما أراد محمداً صلى الله عليه وسلم ببشارته لهم وإخباره ما أخبرهم من هزيمة الله عدوهم ، أن يشجع جبينهم ويقوّي ضعفهم ، فكيف إذا لم يبق لمسا كان يرى من كثرة المشركين وقوتهم ، وضعف المسلمين وقوتهم ، بظهور الأنبياء على خلاف قوله ، وأن محال الخبر على غير ظنه ، فيقع ظفر يكذب نبوته ، ويقطع حجته ، ويكون له ما بعده ! وكيف إذا لم ينسب الأمر إلى نفسه ويُبيح الخبر عن ربه ، ليكون الخطر أصغر والشأن أيسر ، إن جرت الأقدار بما يحذر ، أو وقعت الأمور على ما يكره . ولكنه أثبت في كتاب .

(١) في الأصل « ويزعم أن أصحابه ... » والكلام عليه غير واضح . (٢) هكذا في الأصل .

مسطور، ورق منشور . فعِلْ لعمر الله يدلّ على النبوة التي كان بها واثقاً، ويهْدِي إلى الوحي الذي كان إليه سائلاً .

وإن عَرَضَ لنظرك، أو وقع في خَلْدك، أن الله عز وجل عَوَّدَ محمداً صلى الله عليه وسلم الغلبةَ وأجراه على المَنعة ، فكان يجري على عادةٍ قد عَرَفَهَا ، ويسلُكُ جادةً قد خَبَرَهَا ؛ فلقد كانت الهزيمة في أوَّلِ وَقْعَةٍ أوقعها الله ، ثم لقد دالت الحربُ فيما بعدُ سِجَالاً فيما بينه وبينهم : تارةً عليه لهم ، وأخرى له عليهم . فَنَاصِحُوا اللهَ عز وجل في نظركم ، وَقَبَلُوا فيما يقول أمير المؤمنين فكمركم . فلعمُرُ الله ما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليقول للملوك المشركين : إن الله هَزَمَكُمْ بِرَمِيَةٍ من تراب وهو يعلم أنه عنده من الكاذبين . فأحضر كتابي هذا فهمك ، وأصبر له وإن خَصَمَكَ ؛ فإن هذه آية عظيمة ، وحجة بليغة ، وبَيِّنَةٌ عجيبية ، في غلبة العرب .

وأعجب من هذه والطف ، وأكثر منها وأعظم ، الآية في غلبة العجم . وأسْتَعِجْ : أمر الله نبيّه — صلى الله عليه وسلم — أن يقول للمؤمنين — وكانوا كما قال الله عز وجل قليلاً مستضعفين — : إن قبائل العرب ستتحزّب عليكم ، وإن الله سيمزّمهم لكم ، وحيّاً أنزله في الكتاب ، فقال : ﴿ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ ؛ فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما نزل هذا القول عليه بدهور طويلة وسنين كثيرة ، محبوسين محصورين في حومة الموت وعسكر الخوف وخندق القهر وذل الحصر ، سوادهم الأعمّ وجلّهم الأعظم حُفَاةٌ عُرَاةٌ عَالَةً ، إخوان دير ، وأصحاب وبرّ ، لا قوّة بهم ، ولا منعة لهم ، ولا أسلحة عندهم ، ولا عدّة معهم ، قد أحذقت العربُ بعسكرهم وأحاطت القبائلُ بخندقهم ، وسالت الأحزابُ تصديقا لحتم الله عليهم ، تريد أن تزلزل أقدامهم وتُهْرِيقَ دماءهم ؛ فكان المؤمنون كما وصف الله عز وجل من سوء الحال ، وضيق المال ، وشدة الكِظَاظِ ؛ فإن الله قد وصف لهم حالهم ، وأذكرهم فعلهم ؛ ولم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم ليصف لهم عن الله ما يجهلون ، ولا ليزكرهم من أمره ما لا يعرفون ؛ حَذَاراً أن تنكسر

(١) في الأصل : "فيما بعد ... " . (٢) الكِظَاظ : التّعب والشدّة .

عزائمهم وتغير بصائرهم ، فتنهزم أفئدتهم وتموت نجديتهم ، وتختلف كلمتهم ؛ فقال الله عز وجل : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَا لِكَ آتِيَتِ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ حتى قالت طائفة منهم لأهل المدينة : ﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ وقالت طائفة أخرى : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة ، فأذن لنا . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ . فبيناهم على تلك الحال قد أجمعت العرب بتفريقهم في الجبال ، وتقسيمهم بالقيح ، وأخذهم بالأيدي ، إذ قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما ينهضهم به من علم الغيوب ، ويبشرهم به من أمر الفتوح : " إِنْ اللَّهَ سَيَنْصُرُكُمْ عَلَى جَمْعِ الرُّومِ وَيَغْلِبُ لَكُمْ جُنُودَ فَارَسَ فَيَهْزِمُ لَكُمْ جُنُودَهُمْ وَيُورِثُكُمْ قُصُورَهُمْ وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ وَيَبَدِّلُكُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِكُمْ أَمْنًا " . وَعَدَا صَدَقَهُ الْكِتَابُ ، وَإِشَارَةُ نَطَقَ بِهَا الْوَحْيُ ، فَقَالَ : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَآمَنُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ . فقال أقوام وأناس آرتابوا حين تضايقت الحال ، وتزلزلت الأقدام ، وطارت القلوب ، ودارت العيون ، وأشرف الموت : مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا أَيْعَدُنَا هَزِيمَةً جَمُوعِ الْأَحْزَابِ ، وَفَتَحَ قُصُورَ الشَّامِ ، وَغَلَبَةَ جُنُودَ كِسْرَى ، وَقَدْ سَالَتِ الْقِبَالُ عَلَيْنَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَأَحْدَقَ الْمَوْتُ بِنَا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَبَقِينَا فِي مَسْغَبَةٍ مِنَ الْجُوعِ ، وَجَهْدَةٍ مِنَ الْخَوْفِ ، وَضَنْكٍ مِنَ الْحَالِ ، مَقْهُورِينَ مَقْمُوعِينَ . وَقَالَتِ الْخَاصَّةُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حِينَ عَانُوا الْجُمُوعَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَذَكَرُوا مَا خَبَّرَهُمُ اللَّهُ مِنْ تَحْزِينِهِمْ عَلَيْهِمْ وَمُسِيرِهِمُ إِلَيْهِمْ : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ . فَبَيْنَا أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَضَابِقِ تِلْكَ الْحَالِ ، وَشِدَّةِ ذَلِكَ الْخِلْصَالِ ، وَعُمُومِ تِلْكَ الْبَلَايَا الْبَاهِظَةِ ، وَالْأُمُورِ الْفَادِحَةِ ، الَّتِي قَدْ أَخَذَتْ بِأَنْفُسِهِمْ غَمُّهَا ، وَبَلَغَ

مجهودهم كرمها ، رافعين الى الله عز وجل أيديهم ، يقابون في السماء أعينهم ، إذ أرسل الله على تلك الجنود الكثيفة والجموع العظيمة والأحزاب المقتدرة ، ريحاً من الأرض وجنوداً من السماء ، ففطعت الأبنية ، وطيرت الأمتعة ، وسفت التراب في العيون ، وقذفت الرعب في القلوب ، فولّوا مُدْبِرِينَ ، وخرجوا منهزمين ، لا يُلَوِي والدُّ على ولد ، ولا مولودٌ على أحد . أمرُ صَدَقَ الله فيه قوله ، وأنجز به وعده ، وهزَمَ الأحزابَ وحده ، وذَكَرَ المؤمنين نعمته فيهم ، وعَرَّفَهم منته بهم ، فقال : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ ما كان الله عز وجل ليقصص على المسلمين في أنفسهم ، إلا ما قد راوه بأعينهم .

لولا أن هذا ما لا ينكره عقلك ولا يدفعه نظرك ، لما جادلتك بالكتاب ، ولا نازعتك بالتنزيل . وإني لأترك من آيات النبي صلى الله عليه وسلم وعلامات الوحي ، ما هو أعظم من هذا وأبين وأجل وأوضح . ولكن ليس لي أن أحاجك من آيات القرآن ، إلا بما عليه شاهدٌ من برهان ، ومخبر من بيان ؛ لا يستطيع عقلك ردّاً له ولا قلبك بحجداً له . وكيف ينهسط لسانك أو يجترئ قلبك أن يقول : إن محمداً صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابه بالكذب وهم يعلمون ، فاقصص عليهم من أمورهم ما لا يعرفون ! لا ! ما يسوغ لك ولا يتجمل بك ، ولا يُقبل منك أن محمداً صلى الله عليه وسلم يقول من تلقاء نفسه ؛ كيف ! أما كان يخاف أن يكذبه أصحابه ، وتنتقل أحواله ، وتنتقص أموره ! لعمر الله لو وصفت بهذا من لا يعرف بفضل ولا ينسب إلى عقل ، لما كان سائغاً لك ولا جائزاً منك ، فكيف تصف به من يرفع عن الناس قدره ، ويفضل عليهم عقله ! وتقرُّ أنك لم ترفى الدنيا أحداً صنع [ما صنع] وبلغ ما بلغ ! فأيتما آية فيما اقتص عليك أمير المؤمنين أعظم أو بينة أعجب : أما كان يتلى على المؤمنين في الكتاب من اجتماع قبائل الأحزاب بجنود عظيمة قبل اجتماعهم بسنين

كثيرة ، أم ما كان يُنَادِي به القرآن من الهزيمة لهم وينطق به الوحي من الفتح عليهم ، أم قول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : ^(١) « إن الله عز وجل يُؤْمِنُ خَوْفَكُمْ وَيُعِزُّ نَصْرَكُمْ عَلَى الْأَعْتَمِ » وهو على تلك الحال ثم نَجَتْ الأمور على ما قال ، أم عسكران مطابقان وجيشان متقابلان ، باتت الريح تحوس أحدهما حتى انهزموا ، وبات الآخرون منها في عافية وغفلة ^(٢) حتى أصبحوا ؟ فأحسن النظر في أمرك ، والتثبت في دينك إن شاء الله .

وأعلم أن من أعظم الآيات وأبين الدلالات ، على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وحقه ، وأن ليس يتقول شيئا من تلقاء نفسه ، أنه قال في عُقُوفَان أمره : ^(٣) « إن الله عز وجل سَيُظْهِرُ دِينِي عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ » وجاء مع ذلك بأثره عن ربه ، في كتاب مخطوط وتنزيل محفوظ . فأى أمرٍ به لك أدل ، أو أيهما عندك أعجب ، إذ كنت بنبوته مصدقا ، ولرسالته محققا : الخبر الذي أخبره ، أم الفعل الذي صدقه ؟ لئن نظرت بعقلك وقلت في نفسك : كيف تَرَقَّتْ إلى هذا نيته وارتفعت نحوه هِمَّتُهُ ، أم كيف أمتدت إليه طنته وقويت عليه رَوِيَّتُهُ ؟ بل كيف دعت إليه نفسه ، وشجعه عليه قلبه ، ودخل فيه طمعه ، وطاوعه فيه لسانه ، وهو يذكر جنود كسرى ، وجموع الروم ، وملوك الترك ، وملوك الشرك ، وقبائل اليمن ، وصناديد الأمم ؟ إن هذا لعجبٌ ، ولا سيما إذا لم يكن في ارت مُلْكٍ قاهر ، ولا كَيْفٍ عزٍّ غالب ، ولا معِينٍ عليم سالف .

ولئن أعدت النظر وكررت ، فقلت : كيف وافق خبره أثره ، وكيف صدق فعله قوله ، حتى غلب الشرق والغرب ! إن هذا لعجبٌ ! وأعجب من هذا أمرُ يَدْلِكُ أمير المؤمنين عليه ، ويهديك إن شاء الله إليه : لو قلت لأهل مملكتك ومن قبلك من أمتك : هل بَلَّغَكُمْ أو تَقَرَّرَ قِبَلَكُمْ ، أنه كان في الدهر الأول ، والعصر الخالي ، أحد مثل محمد - صلى الله عليه وسلم - بدأت الأمور به مثل حاله من الوحدة والضعف والذلة والقلة ، وصدرت الحال به كفعاله في العلة والمنعة ، والقهر والظهور ، وغير ذلك ؟ لقالوا لا .

(١) في الأصل : « أما كان ... » . (٢) تحوس أحدهما : تفشاه وتهبه . وفي الأصل « تحوش ... » بالشين المعجمة وهو تحريف . (٣) في الأصل : « فأى أمر بذلك ... » .

ثم أنت لا تؤمن بآلاته ، ولا تُقرّ برسالاته ، إلّا لدينك ، وضناً بملكك ، وطمعاً في قليل من الدنيا قد نَعَاه الله إليك ، ورغبةً في صُبابَةٍ عيشٍ غيرِ باقيةٍ في يدك ؛ فهذا عَجَبٌ .
وأعجبٌ من هذا أَمْرٌ يَقُفُّكَ أميرُ المؤمنين على نورِ حقّه ، ويُوضِّحُ لك إن شاء الله بيانَ أمره : أصبحت العربُ طُرّاً والأُممُ جميعاً في مجدٍ صلى الله عليه وسلم ثلاثةً لا رابعَ لهم ولا تَحْرَجُ للحق من بينهم : رجلٌ مصدِّقٌ به من المؤمنين ، ورجلٌ مكذِّبٌ به من الكافرين ، ورجلٌ شاكٌّ فيه من المنافقين .

فأما الشاكُّ فلَمَّا قيل له : أخرجتَ نفسك من الحق ، وأبرأتها من الصواب ، وأقررتَ عليها بالخطأ ، لقولك : لا بدّ أن يكون الحقُّ في التصديق أو التكذيب ، ولستَ على واحدٍ منهما ، اعترل عنها .

وأما المكذِّبُ فلَمَّا قيل له : أنت مُنْكَرٌ والمنكرُ ليس بمدّعٍ ، ومن لم يدّعٍ لم يلزمه بينةٌ ولا يسأل عن حجةٍ ، اتبع صاحبه . وأيم الله على ذلك ، لو سُئِلَ هذا المدّعي عن بيّنته وكشِفَ حُجَّتُهُ ، ففيل له : من أين عَرَفَ قلبك ، وأيقنتَ نفسك إيقاناً لا يخالجه شكٌّ ، ومعرفةٌ لا يشوبها ريبٌ ولا ينازعها شبهةٌ ، أن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس برسولٍ ، لمّا دَرَى ما يقول ؛ لأنه لا يستطيع أن يتقولَ على الرسل ، ولا أن يتكذّبَ على الكتب ، فيقول : قد أخبر الله فيها أنه لا يبعثُ نبياً ، ولا يُنزلُ وحياً في كتابٍ مسطورٍ ، بعد التوراة والإنجيل والزبور . بل قد يجد أهلُ الكتاب في أقاويل رسلهم وأخبار كتّابهم ، أن الله تبارك وتعالى يُنزلُ كتاباً جديداً أو كلاماً حديثاً ، بعد خراب بيت المقدس في آخر الزمان ، ولم يُنزل بعد ذلك كتاباً إلا القرآن .

وأما الرجل المصدِّقُ بمحمد صلى الله عليه وسلم ففيل له : أمّا أنت فقد أدّعت ، والمدّعي يُسأل عن الحجة ويُقبل منه البيّنة ، فما بيّنتك ومن يشهد لك ؟ فقال : ألم تقولوا : إن الحق لا يخرج من بيننا ، ولا بدّ أن يكونَ مع بعضنا ؟ قالوا بلى ! قال : فأية بيّنة أحق وأعدل ، وأي شهودٍ أذكى وأفضل من شهادتكم بسقوط صاحبي وثبوت

الحق من بعدهما في يدَي؟ قالوا : إن الأمرَ لكما تقول ، ولكنَّ البينةَ أشفى للصدور؛ فأقام بينةً من الكتاب ، وشهوداً من الوحي ، وآياتٍ سوى ذلك عظاماً ، وبيِّناتٍ عوامٍ ، من كلامٍ لا يقدر عليه الخلق ، وصديقٍ لا يكون إلا من قبل الرب ، شهيماً بما أورده أمير المؤمنين عليكم ، وكتبَ به في صدر كتابه هذا اليكم ، مما قد تشهد له قلوب الأمم ، ويُزكِّيه فعالُ العرب .

فلما أقام بينته ، وثبتت حجته ، ووجب حقه ، وقضى به له ، قيل له : وكيف توسعت الأمور عليك ، وضاعت المقالة لك ، أن تقول : إن الله لا يبعث نبيا بعد محمد — صلى الله عليه وسلم — ولا وحيا ينزل غير القرآن ، فأبطلت الكتب المحدثّة ، وأكذبت الوثيقة ، ولم تترك وحيا غير القرآن ، ولم يجوز للنصارى أن تقول : لا نبي بعد عيسى عليه السلام ، ولا كتاب خلف الإنجيل ؛ وعن ذلك من أخبار الكتب ما قلنا كل متنبئ بعد نبينا كذاب ، فشاعت وجازت الحجّة ، ووضع العذر . وأما النصارى فيجدون في أواخر كتبهم ، وأقاويل رسلهم ، أن الله عز وجل ، يبعث نبيا حديثا ، وينزل كتابا جديدا ، فليس لهم أن يكذبوا نبينا — صلى الله عليه وسلم — ولا أن يردّوا كتابنا .

فهؤلاء الثلاثة . أما الشاك فسقط ، وأما المنكربطل ، وأما المصدق فثبت ثبوتا ليس فيه مدخل شبهة ، ولا موضع لحجة ، ولا معلق لمنازعة . وذلك أن المنكربلوجوب حقه ، والشاك في ثبوت صدقه ، لا يجد بدا من أن يُنحى الصديق عن الخلق ، ويحلّ الدنيا من الحق ، وهذا قول المكذبين برههم ، الشاكين في بعثهم ، فأحسن النظر في معانيه يتكشف لك عما فيه ، إن شاء الله .

ومن أبين آياته وأدلّ علاماته — صلى الله عليه وسلم — ووسع له فيما صدر إليه : أنه لما أخبرت النصارى واليهود أنهم لم يجدوا محمداً — صلى الله عليه وسلم — في التوراة والانجيل موصوفاً مكتوباً ، تجمّعت العلماء منهم ، وتدارست الكتب فيما بينهم ؛ فلما نظروا

(١) في هذه الجملة غموض لم نوفق الى كشف سببه وان كان المراد منها راضحاً .

إلى أسمه وعائنه بنهته ، وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ويستفتنهم بذكره على من سواهم ، [كفرت] طائفة حسدا من عند أنفسهم ، وجمدا من بعد ما تبين لها ، وآمنت طائفة ، تصديقا بكتابها ، وخوفا من ربها .

فلعمرو الله لو [لا] أن الذين آمنوا بحقه وصدقوا بأمره ، رأوا صفته عيانا ، وقيلوا نعتة ليقاتنا ، لما فارقوا أديانهم ، ولا جادلوا إخوانهم ، حتى وقفوهم على أسمه ونسبه ، وصفته وعلامته ، وهم علماء بني إسرائيل ، وحملة الإنجيل : من أهل الكتاب الذين احتج الله عز وجل بهم على العرب ، فقال عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ . ولعمرو الله إنها لآية عظيمة ، وحجة بليغة ، ذكرها الله في كتابه ، وجعلها على العرب من بيناته ، فقال لهم : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجِرُونَ لِلَّذِينَ سُبْحًا يَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ . يقولون : وعدنا أن يرسل رسولا ، فمقد أرسله ، وحقق قوله ، وصدق وعده . واحتج النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وذكره . ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليُجادل ويحتج في أمرهم بكذب وباطل ، ولم يكن ليقول للنصارى واليهود ، فيما ذكر الله من صدق الموعود : إنه في التوراة والإنجيل مكتوب موجود ، إلا وهو من ذلك على حق يقين ، ونور مستبين . وكيف كان يستشهد من التوراة والإنجيل بكذب ، ويتقول عليهم الباطل ، مع حرصه على تصديق أهل الكتاب ليستدعى به إيمان أحياء العرب . أما كان يعلم أنه إذا قال لهم : إنه موجود في مثنى كتبهم ، وسمى على أفواه رسلهم ، فلم يجدوا خبره يقينا ، ولا وصفه مستبينا ، أنهم سيُدبرون عنه إدارا ، تزداد به العرب نفارا ، إلا أن يقولوا خطأ من علمه ، وهواء من خبره ، فكيف لم يخط إذا في كتبهم حرفا غيره ، ولم يخالف منها شيئا سواه ، سبحان الله ! لقد أكثر المؤمنون العجب من ذهاب الأساقفة بكم ، فاتم إن تنكر ما يقولون لكم ، مما ليس لدى لب أن يأذن له أن يؤمن به ، ولا أن ينبذ إليه .

(١) سمعه ، يقولون : إن أنبياء الله ورسله ، المبعوثين بالرحمة الى خلفه ، لطفت النبوة منهم ، ووقعت الأخبار المنزلة عليهم ، على صغائر الأمور ، وغوامض الخطوب ، فسار الناس عليها ، وأشاروا لهم الى طلبها ، فهي مكررة في مثاني كتبهم ، وبطون صحفهم ، وأقويل رسلهم ، وتركوا من كلام الله النبأ العظيم ، والأمر الكبير ، والذي ذكر الحكيم ، الذي ملك آفاق الأرضين ، واستفاض على جميع العالمين ، لم يذكره بخير يأترون به ، ولا بشرية تنون عنه ، كلا ! ما ترك الله على هذا خلقه ، ولا بهذا وصف "بارك وتعالى نفسه ؛ إنه لأرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين .

ولئن رجعت الى قلبك ، لتقولن في نفسك : لعمر الله لو كان هذا الأمر الذي طلع طلوع الشمس ، وأمتد امتداد النهار فبلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وسهول الآفاق وحزوتها ، حقاً وصدقاً وعدلاً ، لبشرت الكتب به ، وتنبأت الرسل عليه ، ودعت النذر اليه ، تزيينا له وترغيباً فيه ، وأمرأ به . ولو كان ضلالةً وجهالةً وعمايةً ، لتقدموا في التحذير منسه ، والترهيد فيه ، والتنبيط به ؛ فيدعو ذلك الى أن تنظروا الى كتب الأنبياء وأقويل الرسل . فإيم الله لئن طلبت لتجدن ، وائن آجتهدت لتوقفن . وما الصواب بمنوع ، ولا الخير بمحذور . ولقد كانت العساء بالكتب والبصراء بالتأويل تجده ، ولكنها كانت تكتمه بتحريف كلام الكتب عن مواضعه ، وصرف تأويل الحكم الى أشباهه ، حسداً من عند أنفسهم وبغياً بعد ما تبين لهم . ثم لقد آقتديتم بهم وحرّيتهم وأخذتم عنهم ، بلا حجة لكم ، ولا قوة معكم إلا الاقتداء بالآباء والأئباع للآثار . فأتق الله في نفسك ، وأتقهم الرجال على دينك ، ولا تجعل النظر الى غيرك من ذوى الشك في القلوب ، والفسخ في ... والثهم في التعطيل ، الذين لعلهم يعرض لآرائهم ويقع في أوهامهم أن يقولوا : فلعل ما يتلو عليكم أمير المؤمنين من آيات القرآن ، ويقرعه لكم من حجج الوحي شيء زيد

(١) هكذا في الأصل . (٢) في الأصل «أن ينظروا...» بياء الغيبة . (٣) كذا في الأصل .

وظاهر أن كلمة بعد «في» سقطت من النسخ سوا .

في المصاحف بعد النبي صلى الله عليه وسلم . وهذا ما لا يحتمله عقل صحيح ولا نظر قوى ، وذلك الشك في شهادات الرجال ، متفقة من بلدان وأمصار مختلفة ، وشعوب وقبائل متفرقة ، ليس يدعوهم الى ما شهدوا ديناً ، ولا يحملهم على ما اتفقوا عليه دنيا ، لا يستقيم له أن يؤمن^(١) بما لم تدركه جوارحه وتحيط به حواسه ؛ لإسقاطه حجة الإجماع وإبطاله شهادة العوام . واتفق المختلفين دلالة واضحة . فهو سائلكم عن المجعة في الإنجيل والبينة على التوراة ، شكاً في الرب وتكذيباً بالرسول ، فما كنت قائله له أو يجيبه به في كتابكم ، فأجبه بمثله في كتابنا وإن كانت الأحوال منها غير معتدلة ولا مؤلفة ولا مرتفة ولا واحدة ، تعتدل حالاهما ، ويتفق أمرهما ، من كتابكم ما لم تنزل به الملائكة وحيا كالقرآن ، ولم يشافه المسيح به أصحابه باللسان ، إنما كان فعلاً أثبت من بعده ، ولم يكن الفعال موضوعاً بعده^(٢) . وليس يكتب أمير المؤمنين بهذا اليكم شكاً فيه ، ولا يورده عليكم مرية به .

ولقد علم أمير المؤمنين أن كتب الله عز وجل محفوظة ، وأن محججه مخزونة ، لا يزداد فيها على تقادم عهد ، ولا ينقص منها على تقارب دهر ، وأن ذلك ثبت في الإنجيل من بعد عيسى عليه السلام ، وأنه قال لمن اجتمع اليه من الحواريين : ” بالوحي أكلتمكم ، والأمثال أضرب لكم “ . فأمثاله المضروبة كلام ، وكلامه الرائع وحى . ولكن ما بال الشك يُنفى عن كتابكم ، بحجة الاجتماع عليه عندهم ، وهو على ما وصف أمير المؤمنين لكم ، وسيان في تنزيل كتابنا ، وقد أدرك شهادة دينه ، إما ما قربا من عهده ومعاينة وحيه واجتماع على حفظه ، هذا حكم مختلف .

فقل للذين يشكون فيه ويرتابون به : أوقعوا أوهامكم على حالات الأوقات التي تعرفون وهوما بطبقات الرجال الذين يهتمون .

فإن قالوا : أمّا طبقات الرجال التابعين ، وحالات زمان أمير المؤمنين ، فذلك ما لا يسوغ الأفاويل فيه ، ولا تدخل الشبهة عليه ، لانتشار القرآن وامتداد الزمان ،

(١) في الأصل : « لا يستقيم له أن يؤمن له بما ... » . بزيادة ” له “ . وهي فلتة في موضعها فلعلها زيدت من النسخ . (٢) في هذا الموضع اضطراب في الكلمات ، والمراد واضح . (٣) كذا في الأصل .

وكثرة الحملة لآياته فيهم ، والحفظة لسانه منهم ؛ ولكن الدين الذي نزل به القرآن ، وقبض النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم . وكيف بوقوع تهمة أو دخول شبهة ، على أقوام [لبث] النبي صلى الله عليه وسلم عشرين حجة فيهم يتلو كتاب الله عز وجل في كل عام عليهم ، حتى تحملوه في صدورهم ، وحفظوه في قلوبهم ، وكرّر في آذانهم مسموعاً ، وأمر على أبصارهم مكتوباً ، وجرى على ألسنتهم متلوّاً ، وجمعه كثير منهم محفوظاً ، ثم توارثوه فيهم وتداولوه فيما بينهم ، حتى أدّوه إلينا ، وأوفوا به عندنا ، من مواضع متفاوتة ، وأصناف وأجناس متباينة ، على كلمة واحدة ! .

فإن قالوا : اتفقت الرجال على الزيادة فيه وأمكنتم الحال من الحمل عليه ، فليعلموا أن المؤمنين المخلصين ليسوا في الزيادة متهمين ، وأن المنافقين الملحدين ليسوا على ذلك بقادرين . وكيف يقدر القليل من المنافقين على مخالفة الجمع من المؤمنين ، بعد ما حفظته قلوبهم ، ووعته أسماعهم ، ثم تكتم القدرة لهم وتستر الزيادة منهم ! هذا ما لا يقدر عليه منافق ، ولا يطيقه مشرك ولا فاسق . وأيم الله أن لو قدرت اليهود على الزيادة في الإنجيل ، لأفسدوا كتابكم وغيروا دينكم ؛ ولو جعل الله المنافقين على الزيادة في كتابه قادرين ، لبدلوا ديننا وغيروا حالنا . ولو كانوا لذلك مُقرّين وعلى ذلك مقتدرين ، لكان الذي كتّب به أمير المؤمنين اليكم ، وأورده من حجج الله عليكم ، أولى ما تلقون ، ورأس ما تقرّون ، فلا تلقين إلى ما قاله [المضل] سمعك ، ولا تُنصت الدهر إليه ذهنبك ، فإنه اتّخذ الشك في كتابنا ذريعة إلى الإخلال بكتابك ، وسلمّا إلى الشك في دينك وعلّة في الطعن على ملّتك ؛ ولكن قل يا وليّ الشيطان : أتى وقع لك إيمان بأنك من ولد فلان ؟ أتعول : شهدت الجيرة ، واجتمعت العشيرة ، وآتفق المختلفون ، فذهب الشك ، وزال الريب ، ووقع الإيقان ، من غير العيان ؟ صدقت . فما بال الشك فيما آجتمعت العائمة على القول به ، وآتفت الجماعة^(٢) في الشهادة عليه من آيات الكتب وبينات الرسل ! وإن ذهب بهذا عن أمره ، وباعده

(١) في الأصل " في دينه ... " . (٢) كذا بالأصل .

عن شبهه ، فنؤمن أنه من نطفة خلق ، ومن رَجِيم نَحْرَج ، فإن جحدوا بي ألا يؤمن بما لا يرى ، فقل : أرايت لو كنت سميعاً أعمى ، أكنت تُؤمن بشيء مما في الدنيا : من سماء أو هواء ، أو بحر أو سبع ، أو أرض أو جبل ، أو شبه ذلك مما لم يدركه العيان ولم يقبله إلا عن الناس ؟ فإن قال نعم ، فقل : فهل لك إلا بالاجتماع الكفر بالرب^(١) ، وما لدائه دواء غير الصلب . فأثبني الله إذ كنت إماماً وقائداً لأهل ملكك ، لا تقدمهم الى النار فتحمل أوزارهم مع وزرك .

فإن من آيين آيات الوحي ، وأدلل علامات النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يبتدع في الدين أمراً من تلقاء نفسه ، ولا يتقدم في الأمور بين يدي ربه . والله أظهر فيما أنزل من الكتاب أموراً كان يحسبها صلى الله عليه وسلم مستورة ، فقال تأديباً له ، وإخباراً لمن آمن من بعده : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ . وقال : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكِّي أَوْ يَكْفُرُ فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَإِنَّ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَإِنَّ عَنْهُ تَلَهَّى كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً ﴾ . وقال له حين صرف قلبه عن بيت المقدس الى البلد الحرام حين سكنت القلوب اليها ، وألست النفوس بها : ﴿ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ . وكانت القبلة التي صرفه الله اليها وأمره بها عظيمة على المنافقين واقعة بخلاف الكافرين ، كبيرة^(٢) إلا على الذين هدى الله من المؤمنين ؛ فإنهم قالوا : اذا اختلفت القبلتان واختلفت الجهتان ، كانت الطاعة فيهما واحدة لا اختلاف فيها ولا افتراق عليهما . وكيف تختلف الطاعة من رجلين بآمر الله عز وجل ثم هدم بوحى الله .

(١) كذا في الأصل . (٢) في الأصل : "لمن آمن من بعده إذ يقول ... " وظاهر أن كلمة

"إذ يقول" غير مفيدة هنا . فلعلها زيدت سهواً من النسخ . (٣) في الأصل : "كثيرة ... " .

فإن قلت : إن الله حَوَّلَهُ عن أفضل القبليتين وأقوم الجهتين ، فلا سواء في الفضل البين والخير السرّ : قبلة سَاطَطَ الله عليها الكافرين ولم يَمْنَعْها من الظالمين ، وقبلة مَنَعْها بجنود من عنده ، وعَصَمَها بغير ما حَوَّلَ من خَلْقِهِ ولا حرمة يدعيها أحدٌ من فيها ؛ فأرسل طيراً أبابيل تَرْمِي الأعداءَ بحجارة من سِجِّيلٍ ، بفعلهم كعَصْفٍ ما كُول . فإن تقل : هذا خبرٌ نُشْكِرُهُ ، وقول لا نعرفه ؛ فبأى حديث بعد هذا تؤمن ، وتشهد لله عز وجل أنه من قبيلة ، وأنتم تعلمون أنه أنزل الله عز وجل سورة الفيل على قوم أدركه منهم بشر كثير .

فإن قلت : إن محمدا صلى الله عليه وسلم أخبرهم بما عاينوه وأدركوا خلافه ، نقل : إنه أراد أن يفرّقهم عنه ويوحشهم منه ، وأحب أن يرموه بالكذب ، ويقذفوه بالحق ، ويصمّوه بالحنون ، ويظنون به الظنون ، كلا ! ما كان نبى ولا غير نبى ليجاهد أقواما بخلاف ما رأت أبصارهم وشاهدت آباؤهم ، فيخبرهم بخلاف ما شهدوا ، وتكذب ما عاينوا . فلا تكونن في هذا من המתرين ، ولا بأمر الفيل من المكذّبين .

فلعمركم لو كان من أمر النبي صلى الله عليه وسلم ما تُلْحَدُ أنت وقومك إليه لما قام معه رجالان ولا اختلف فيه سيفان . وإن فيما صنع الله عز وجل بالفيل وأتباعه ، دلالة على قبلة الله وأنبيائه . فأتق الله ! فقد شرح أمير المؤمنين علامات النبي صلى الله عليه وسلم وكشّف الأغطية لك عن النور بآيات الوحي . فإن مالت الأهواء بك ، وغلبت الأساقفة عليك ، وحضرك الرؤساء الذين يعملون مع الله آلهة أخرى بلا حجة عندهم ، ولا سلطانٍ أتاها فقل : أنبؤنى عما آجتمعت عليه النصرانية وذهبت إليه بهم المعانى من تشقيق الكلام وتصريف الكتب : أحروف تتعسفونها ، أم لغة تعرفونها ؟ فإن قالوا : إنهم بغير لغة يتكلمون ، فهم إذا قوم يلعبون . وإن قالوا : إنهم يتكلمون بلغة معروفة ومعانٍ معلومة ، فقل : أخبرونى عن قولكم : أب وآبن ، أهما ما تعترف العقول من المنطق ويقع في القلوب من المعنى أم لا ؟ فإن قالوا : لا ، ليس ذلك بالذى

تذهب أوهام العباد اليه ، ولا بالذى تقع الحقائق فى الآباء والأبناء عليه ، إنما هو كقول الله عز وجل فى التوراة لإسرائيل : ”بكرى“ لا يعنى ولادة الرحم ؛ وكقول المسيح عليه السلام للحواريين : ”أنتم إخوانى“ لا يعنى أخوة النسب ، فذلك قول لا يبيدون معه بدءاً من أن ينسبوا عيسى عليه السلام عبداً . وإن قالوا : بل هو ما تجرى به ألسن العباد ، ويقع فى قلوب الخلق من الولادة المعروفة والأبوة المعلومه ، فليخبرونا متى كان الأب والدا ، والأبْن مولودا : أقبل الولادة أم بعدها ؟ فإن قالوا : قبلها ، رجعوا عن القول الأول بتثبيت الأبوة . إلا أن ذلك ليس بالشئ الذى تذهب إليه الأوهام ، ولا بالمعنى الذى يقع فى قلوب الأنام .

ولا بد إذا سقطت الولادة المعروفة وبطلت الأبوة الموجودة ، أن يقولوا : إن الأب والأبْن آسمان عُلِّقا على غير معنى ، ونَسَبَانِ أَضِيفَا إلى غير حق ؛ فيقرّون أن عيسى عليه السلام خُلِقَ مثلهم ، وأنهم يتكلمون بغير لغة أحد منهم .

وإن قالوا : إنما كان الأبْن مولودا والأب والدا بعد الولادة ، فقد أقرّوا بأن الأبْن حَدَثَ مخلوق وعبد مرئوب ، لقوْطَمَ لأنه لم يكن حتى وُلِدَ ، ولم يُولَدَ حتى خُلِقَ . وقل لمن يقول الزور العظيم ، ويقذف بالإفك المبين : أليس الأبُّ أباً على حياله ولم يزل ، والأبْن أبنا يُجِلُّ ، وروح القدس كذلك ؟ فإن قالوا : نعم ، فقد أقرّوا بأنهم ثلاثة متباينة ، وقعت عليهم ثلاثة أسماء متفاوتة ، وتركوا قوْلَهم : إنهم ثلاثة أصلهم واحد .

وإن قالوا : الأب والأبْن وروح القدس واحد ، ولكن بعضه أبٌ وبعضه ابن وبعضه روح القدس ، فقد دخلوا فى التحديد الذى هو عيب عندهم ، وقالوا فى التبعض بما هو كفرٌ قبلهم . وإن قالوا : ليس مُبْعَضاً ، ولا مجزأ ، ولا محدودا ، ولا ثلاثة متباينين ، فإذا هم قوم يلعبون : الأبُّ ابْنٌ ، والأبْن أبٌ ، والوالد مولود ، والمولود والد ، والكبير صغير ، والصغير كبير ، والقليل كثير ، والكثير قليل . وهذا من أبين المحال وأخلف المقال . وليس من المنطق ما لا يوجد فى لغة عرب ولا عجم ، ولا لسان أمة من الأمم . وإنما

أرسل الله عز وجل كل نبي بلسان قومه ليبيّن لهم ، فيُضِلّ الله الظالمين . ولولا ذلك لَمَا فُهِمَت الأُمَمُ مذاهبَ أقاويل الرسل ولا معانى أحاديث الكتب . فلا تُطِيع الذين يلبعون بأنفسهم ، ويتكلمون بغير لغتهم ، ويقولون : الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة ؛ وهذا محالٌ فى تجارى المقال ، ومعانى الفِعال .

لعمركم لئن آتَهمت عقولَ الأساقفة على دينك ، وأهتَمَّت بالنظر فى توحيدك ، لتعلمن أن الواحد لا يكون ثلاثة وأن الثلاثة لا تكون واحداً ، إلا على وجه ماله ثلث يقول به ، ولا منه مخرجٌ تستريح اليه . فألقى نحوه سمعك ، وأنصت اليه فهمك ؛ فإن أمير المؤمنين وإصْفَه لك ، وليس واقعاً إلا على المخلوقين ، ولا لازماً غير المحدودين ، ولا داخلاً على رب العالمين : وهو أن يكون الشئ أصله واحد وأجزأه كثيرة ، من نحو الانسان ، وهو أصل يجمع اسم ، وله أجزأ تلتزمها أسماء ؛ فليس الجزء بالأصل ، ولا الأصل بالجزء ، ولكن الجزء بعض الأصل . فإذا أردت الجزء ، قلت يد الانسان وتنع الانسان . ولولا أنه محدود مخلوق مجزأ مبعّض لما جاز هذا القول فيه ولا دخل هذا المثل عليه ؛ وكذلك الشمس : الأصل واحد ، وهى شمس ، والأجزاء كثيرة وهو عينُ الشمس وضوءُ الشمس وشُعاعُ الشمس ودقيقُها وغليظها وحرورها وأعلاها وأسفلها وأشباه ذلك .

فلئن قلت : سميتُ كلَّ جزء من الأجزاء على حياله إنساناً ، وكلَّ جزء من الشمس دون أصله شمساً ، ونسبتُ فعلَ الأصل الى بعض أجزأه ، وتركنت أن تنسب الأصل فاعلاً ببعض الأجزاء ، كما تقول : بسط الانسان يده ، ومشى برجله ، ونظر بعينه ، ثم ضربت ذلك لله عز وجل مثلاً وجعلت الله له قياساً ، فقلت : الأصل واحد ، وهو الله عز وجل ، والأجزاء كثيرة وهى أب وآبن وروح القدس ، وكل جزء منها إله على حياله وربٌ دون غيره ، لم تجد بداً أن تُلحق اليد والعين والنفْس بالأب والآبن وروح القدس ، فتكثيرَ آلهتك ، وتحدّد ربك ، وترك قولك : إن الله ليس محدوداً ولا مجزأ ولا مبعّضاً ؛ إلا أن يكون إنما تريد مذاهب الأسماء فتقول : المعنى واحد ، وهو الله عز وجل ، والأسماء أب وآبن وروح القدس .

فإن كنت تقول هذا وكنت إنما تعبد أسماء، فما تجد بداً من أن تعبد الأسماء كلها وتقول : إنها آلهة على حيالها ، حتى تقول باسمي أرجني ، وبثاني اغفر لي . فاتقوا الله يا أهل الكتاب ؛ فإن الله عز وجل ليس بأب ولا أبن ولا أسم، ولكن له الأسماء الحسنى فادعوه بها، وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون .

فإن أشارت الأساففة إلى بعض الإنسان باليد والرجل وأشبه ذلك وقالوا ليس إنساناً، فقل لا ، ولكنه للإنسان ، وقل هو إنسان بكالهما . وكذلك إن أشاروا إلى بعض الشمس فقالوا : أليس هذا الشمس طالعا، فقل لا، ولكنه بعضها ، ولو كانت الأسماء التي تقع أبصاركم عليها وتشير أيديكم إليها من الشمس والسماء والهواء شمساً وهواءً وسماءً لكانت الشمس والهواء والسماء أكثر مما يبلغه الإحصاء . ولو قصدت بالإجابة لمسالك هذه الأودية ، لبطلت الحجج الداحضة وأنقطعت الأفاويل المناقضة . وسل من قبلك من أساقف أمثك وتمايسة أهل ملتك الذين يزعمون أن عيسى المسيح، ويرفعونه أن يكون عبداً : على أي شيء وقع اسم المسيح من عيسى : على الروح أم الجسد أم على كليهما؟ فإن قالوا : وقع على الروح نفسه ، لأن الروح إله دون غيره ، فقد أقرروا بأن إلههم يأكل ويشرب ، ويمشي ويركب ، لأنهم يجدون ذلك من فعل عيسى مبيناً قبَلهم ، موصوفاً عندهم . فإن قالوا : وقع اسم المسيح على الجسد بعينه ، فكان الجسد هو المسيح إذا دون غيره، والمسيح إذا مخلوق عندهم ، والإله إنساناً إذا مثلهم ، فلم يعبدون المخلوق ويدعون من خلقه وبرآه . وإن قالوا : وقع الاسم على الروح والجسد جميعاً، فلم يجدوا مخرجاً ولا بداً ولا محيصاً، إذا أوقعوا الاسم عليهما، من أن يضيفوا الأعمال إليهما، فيقولوا : إن الجسد المخلوق هو خلقهم ، وإن الروح الخالقة قد ماتت قبَلهم ، وذلك لما يجدون من ذكر موت عيسى عليه السلام في الكتب عندهم وفي الإنجيل الذي قبَلهم . وسل من قبلك عن الأب والأبن ، فقل أيهما أعظم وأيهما أصغر؟ فإن قالوا : الأب أعظم والأبن أصغر ، فقد جعلوهما متباينين . وإن قالوا : هما واحد وكلاهما عظيم ، وليس الأب بأعظم من الأبن ،

ولا الابن بأصغر من الأب، فقد نُقض حينئذ جوابهم، وأكذب المسيح عليه السلام كلامهم، حيث يقول: ^(١) «لو كنتم تحبوننى لفرحتم حيث أذهب الى إلهي فإن إلهي أعظم مني» فلم يقل أعظم مني، إلا وهو مقرباً أنه أصغر منه. وسلمهم عن قول المسيح: ^(٢) «أنا أذهب الى إلهي وإلهكم»، فقل: من هذا الإله الذي ذهب عيسى اليه صلى الله عليه وسلم: إله في السماء متباين منه منقطع عنه؟ فهما اذا اثنان متباينان، أم إله كان به متصلاً وكانا جميعاً واحداً؟ فكيف اذا يجوز له أن يقول اذا أذهب اليه! إلا أن يقولوا: إن بعضه ذهب الى بعض! وهذا مما لا يجوز عندهم في صفة الرب عز وجل.

وسئل من قبلك: أخرج المسيح من بطن أمه مريم بكاله حتى كان البطن منه فارغاً وكان هو منه بكاله خارجاً؟ فإن قالوا: نعم، فقد آنكسر قولهم: إن الله بكل مكان. وإن قالوا: لم يخرج المسيح ولم يخل البطن، فقد كذبوا اذاً في قولهم: إنه قد خرج، وأقروا أنه قد ولد. فتعالى الله عما يصفون، وتنزه عما يشركون. وسلمهم لم يبط عيسى الى بطن مريم، وتجسد باللحم والدم، فإن قالوا: ليمحق الخطايا من الأرض ويربط الشيطان عن الخلق، فقل: كيف اذا لم يربطه عن نفسه! وكيف جلاباه من اليهود بصلبه! ولم سلط على أهل دينه يتبعون في كل شعب ويُقتلون بكل واد!

وقل للذين يقولون: إن الخالق في كل مكان من السماء والأرض وغير ذلك: أيهما أعظم: المحيط المشتمل، أم المحاط المشتمل عليه كما يقولون؟ تعالى الله عما يشركون. فإن قالوا: إنما ألحم بعضه دون بعض، فتمدحوا وبعضوا ونقصوا وانتقصوا، وإما قالوا فلن يجدوا بداً من أن يقولوا: إن بعض المسيح الذي جعلوه ربهم، وهو إله عندهم، ميت بعضه جيفة، وإن بعضه حي طيب؛ لأنهم زعموا أنه ألحم يجسد حي فيه

(١) الوارد في إنجيل يوحنا (فصل ١٤ آية ٢٨ ج ٣ ص ١٨٦ من الكتاب المقدس طبعة بيروت سنة ١٨٨٢م):

«فلو كنتم تحبوننى لكنتم تفرحون بأنى ماض الى الأب لأن الأب هو أعظم مني».

(٢) الوارد في إنجيل يوحنا (فصل ٢٠ آية ١٧ ج ٣ ص ١٩٦ من الكتاب المقدس): «إني صاعد الى

أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم».

(٣) كذا بالأصل

رُوح، فلا بدّ إذاً أن يدخل عليه ما يدخل على الأجسام الحية من الخوف والفرح والعطش وأشباه ذلك، وهو عندهم كفر عظيم وإفكّ مبین . فاتّني عقوبة الله ربك، ولا تمش مَكْبًا على وجهك، ولكن اطلب وأتمس وأبحث؛ فقد قال عيسى عليه السلام في الإنجيل: ^(١) «مَنْ سَأَلَ أُعْطِيَ وَمَنْ طَلَبَ وَجَدَ وَمَنْ اسْتَفْتَحَ فَتُحِلَّ لَهُ» .

اجمع العلماء والبصراء [الذين] عندك، والأساقفة والرهبان الذين قبلك، فقل: لأى شيء نسبتهم المسيح إلهًا وجعلتموه ربًّا؟ ونجد الله سمًا في الكتاب ابنًا، وقد تجدونه قال: «إني أذهب إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم أيضًا». وهذا كلامٌ يحتمل وجهين أحدهما أولى به، وقولٌ لا يحتمل إلا وجهًا وهو الرُبوبية . أم كيف تنظرون إلى كلامه: «أذهب إلى أبي وأبيكم» . فتفردونها في نفسه وقد قالها فيه وفي غيره !

فاتق الله وكن من القائمين بالحق، الموحدين للرب . إن أمير المؤمنين قد ضرب لك أمثالا جمة، وصرف إليك مسائل كثيرة، وبين لك من آيات النبي صلى الله عليه وسلم وعلامات الوحي قليلا من كثير، واضحًا من تفسير، لا تمتنع العقول من التصديق به، ولا القلوب من الإقرار به .

وسيدكر لك أمير المؤمنين من علامات النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل، ما يُكْتَفَى به، إن شاء الله، وباليسير منه؛ لأن كتب الله عز وجل محفوظة، وحججه محروسة، لا يزداد فيها ولا ينقص منها . وإذا وجدت فيها كلمة تدلّك على حق وتهديك إلى رشد، فليست واجداً أخرى تصدك عنه وتشككك فيه، إذا تلى ذلك بالحق ووضع على الصدق . ولكن ضلت اليهود والنصارى بتحريف تأويل الكلام، وتصريف تفسير الكتب . وأمير المؤمنين يسأل الله العزيمة والتوفيق .

(١) الوارد في إنجيل متى (فصل ٥ آية ٢ ج ٣ من الكتاب المقدس): «من سأل فاعطه . ومن أراد أن يقترب منك فلا تمنعه» . والوارد في إنجيل لوقا (فصل ١١ آية ١٠ ج ٣ من الكتاب المقدس): «من يسأل يعطى ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له» .

من ذلك ما قد شهد به عيسى عليه السلام عندكم وبينه فى الإنجيل لكم ، إذ قال للحواريين : ^(١) «أنا أذهبُ وسيأتىكم البار قليط روح الحق الذى لا يتكلم من قبل نفسه إنما يقول كما يُقال له ، وهو يشهد علىّ وأنتم تشهدون لأنكم معى من قبل الناس بالخطيئة ، وكل شيء أعد الله لكم يخبركم به » . وترجمة البار قليط : أحمد . هذا ما لا شك ولا مرية فيه ، وهو الذى يُخبر بما وعد الله المؤمنين وصالحى الحواريين فى القرآن ؛ ولستم تجدون ذلك فى التوراة ولا فى الإنجيل .

ومن ذلك قول أشعيا ^(٢) النبى عليه السلام : «قيل لى : اقم بطارا ما ترى بخبرى ؟ قال : ^(٣) أرى راكبين بعيرين مقبلين أحدهما يقول لصاحبه : سقطت بابل وأصنامها المنحوتة ^(٤) » . ولسنا نعلم نبيا ركب بعد موسى صلى الله عليه وسلم بعيرا إلا محمدا صلى الله عليه وسلم كثيرا . ومن ذلك قول داود عليه السلام : ^(٥) «اللهم ابعث جاعل السنة كى يعلم الناس أنهم بشر» يقول : كى يتبين الناس أن عيسى عليه السلام لإنسان . ولسنا نعلم نبيا وضع سنة تُنسب إليه إلا محمدا صلى الله عليه وسلم . أما عيسى فإنه نصب سنة موسى عليه السلام .

ومن ذلك قول حبقوق ^(٦) النبيء فى زمان دانيال : ^(٧) «جاء الله من السماء والقديس من جبال فاران ، وأمتلأت السماء من تمجيد أحمد وتقديسه ، ومسح الأرض بيمينه ، ومَلَك رقاب الأمم » . وقال أيضا ^(٨) : «تضىء لنوره الأرض ، وتُحمَل خيلُه فى البحر» . فالى من

(١) راجع إنجيل يوحنا (فصل ١٤ آية ٢٦ وفصل ١٥ آية ٢٦ وفصل ١٦ آية ١٣ ج ٣ ص ١٨٨ من الكتاب المقدس) .

(٢) راجع نبوءة أشعيا (فصل ٢١ آية ٩ ج ٢ ص ٣٤٨ من الكتاب المقدس) . (٣) كذا بالأصل ، ولم نوفق الى تصحيحه . (٤) فى الأصل : «المنحرة» وقد استأنسنا فى إثبات ما أثبتناه بالكتاب المقدس .

(٥) راجع سفر الزمير (فصل ٩ آية ٢١ ج ٢ ص ٥٢ من الكتاب المقدس) . (٦) راجع نبوءة

حبقوق (فصل ٣ آية ١٥ ج ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدس) . (٧) فى الأصل : «من السماء ...» .

(٨) راجع نبوءة حبقوق (فصل ٣ آية ١٥ ج ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدس) .

ينحو هذا القول ، والى أين يُذهَبُ بهذا المعنى ؟ لئن ذُهِبَ به إلى غير الذى [تعمل] خيلُهُ
فى البحر ، وبدأ من جبال فاران أمره ، رَغَلَبَ على الأرض ومسحها ، ومَلَكَ رِقَابَ الأُمَمِ
كلها ، لقد تركتم الحق وأنتم تعلمون .

ومن ذلك قول داود عليه السلام فى الزُّبُور : ^(٣) ” صَدَّقُوا وَسَبِّحُوا الرَّبَّ تَسْبِيحًا حَدِيثًا .
سَبِّحُوا الَّذِى هَلَكَ الصَّالِحُونَ . ليفرَحَ إِسْرَائِيلُ بِخَالِقِهِ ويتوب صَهِبُونَ من أجل أن الله
اصطفى له أُمته ، وأعطاه النصر وسَدَّدَ الصَّالِحِينَ بِالكَرَامَةِ ، يسبِّحونه على مَضَاجِعِهِمْ ،
ويكبرون الله بأصواتٍ عالية ، بأيديهم سيوفٌ ذاتُ شَفَرَتَيْنِ ، لينتقم الله من الأُمَمِ الذين
لا يعبدونه ، ثم يقيد ملوكهم بالقيود وأشرفهم بالأغلال ” . فأتينا أُمَّةٌ يكبرون الله بأصواتٍ
وأذان الصلوات الدائمة وعلى كل شَرَفٍ وعند كل حرب ، وأتينا أُمَّةٌ كانت سيوفُها ذاتُ
شَفَرَتَيْنِ إلا أُمَّةٌ محمد صلى الله عليه وسلم !

ومن ذلك قول أشعيا ^(٥) : ” سَبِّحُوا الرَّبَّ تَسْبِيحًا حَدِيثًا ، ويسبِّحه من آفاق الأرض
فرح يكون فى بنى فيار ” . وبنو فيار قريش أهل فاران الذى نزل فيه القرآن . وأتينا أُمَّةً
تسبح من آفاق الأرض إلا أُمَّةٌ محمد صلى الله عليه وسلم . عدى أكدي ^(٧) .

ومن ذلك قول أشعيا ^(٨) : ” عبدى الذى وجب به حَبِّي الذى بشرت به نفسى أفيض
عليه رُوحى ، يُوصى الأُمَمَ بالوصايا ، لا يضحك ولا يُسَمِعُ صَوْتَهُ فى الأسواق ، ويفتح العيون
العُور ، ويُسمع الآذان الصَّمَمَ ، ويُخَيِّ القلوب الغُلف ، وما أُعطيهِ لا أُعطي غيره ، أحمد
يحمد الله حمدًا حَدِيثًا ، تهليلُهُ يأتى من أقصى الأرض ، يجوز الماء بشدة أمواجه ، ويفرح
وكورها ، سكانها يحمدون الله على كل شَرَفٍ ، ويكبرونه على كل رابية ” . ^(٩)

(١) زيادة يدل عليها ما قبلها . (٢) فى الأصل : ” ومنحها ... ” . (٣) راجع سفر المزامير
(فصل ١٤٩ آية ١ — ٩ ج ٢ ص ١٥٧ من الكتاب المقدس) . (٤) فى الأصل ” هللكه الصالحون ... ”
(٥) راجع نبوة أشعيا (فصل ٤٢ آية ١٠ ج ٢ ص ٣٧٦ من الكتاب المقدس) . (٦) كذا
فى الأصل ، ولعله محرف عن «فوج» . والفوج : الجماعة من الناس . (٧) كذا بالأصل ، ولم ندر لهاتين
الكلمتين ولا لذكرهما معنى . (٨) راجع نبوة أشعيا (فصل ٤٢ آية ١ — ١٠ ج ٢ ص ٣٧٦ من
الكتاب المقدس) . (٩) كذا بالأصل .

(١) ومن ذلك قول داود عليه السلام فى المزمور الخامس والأربعين ، يقول الله عز وجل
لحمد فى الزبور : ” انصبت رحمى على شفيتك من أجل ذلك باركتك الدهر “ ، تقلد^(٣)
السيف على الأمم ، أيها الجبار على الأمم بالقتل والأسر والسبأ بهاك وحمدك أحمد بعل
الرمك كلمة الحق وذللت لك الأشياء سيفك بحسمه يمينك ونبالك مسمومة وسقط
عند الأمم “ . فأى نبى كان على الأمم جبارا ولهم بإذن الله قتالا إلا نبينا صلى الله عليه وسلم .

(٤) ومن ذلك فى آخر التوراة : ” جاء الله تبارك وتعالى من سيناء وأشرف من ساعير
واستبان واستعلن من جبال فاران ، وجاء عن يمينه ربوات القديسين “ . وتفسير هذا
أن الله عز وجل أنزل التوراة على موسى فى طور سيناء ، وأنزل الإنجيل على عيسى عليه
السلام فى جبل ساعير وهو جبل بالشام ، وأنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم فى جبال
فاران وهى بلاد مكة . وأنتم تجدون ذلك فى كتبكم مكررا وتعرفونه جميعا بلغتم .

(٥) ومن ذلك قول الله عز وجل لموسى عليه السلام « سَأَقِيمُ لَهُمْ مِنْ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ أَجْعَلُ
كَلَامِي عَلَى فَهْمِهِ وَلَا يَتَكَلَّمْ إِلَّا بِمَا أَمَرُهُ بِهِ » . فَمِنْ إِخْوَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا بَنُو إِسْمَاعِيلَ !
أَمَّا تَعْلَمُ أَنَّ لَوْ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَعْنِي أَحَدًا مِنْهُمْ لَقَالَ لَهُمْ : أَقِيمْ لَكُمْ نَبِيًّا مِنْكُمْ ! .

فإن قلتم إنما قال من إخوانكم ، وهو يريد من أنفسكم ، فهب أمير المؤمنين قَبْلَ هذا
الْخُلُفَ مِنْكُمْ وَوَسَّعَ فِي هَذَا الْمَجَالِ لَكُمْ ، فكيف تصنعون بقول الله عز وجل فى التوراة :
” مِثْلُ مُوسَى فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يَقُومُ “ فهل تجدون من هذا مَخْرَجًا ، ومن الإيمان أن المعنى
وقع على محمد صلى الله عليه وسلم بدأ .

(١) راجع سفر المزمور (فصل ٤٤ : « وفى بعض النسخ ٤٥ » آية ٣ — ٨ ج ٢ ص ٧٩ من الكتاب

المقدس) . (٢) فى الأصل : « فى خمسة وأربعين زمورا » . (٣) فى الأصل : « من

أجل ذلك باركك الدهر . واستعنا فى تصحيحها بالكتاب المقدس الذى وردت فيه الجملة هكذا : « وقد انسكبت
النعمة على شفيتك فلذلك باركك الله الى الأبد » . أما الباقي فلم نوفق الى تصحيحه فأثبتناه كما وردت بالأصل . .

(٤) راجع سفر ثنية الاشتراع (فصل ٣٣ آية ٢ ج ١ ص ٤٤ من الكتاب المقدس) .

(٥) راجع سفر ثنية الاشتراع (فصل ١٨ آية ١٥ ج ١ ص ٣١٨ من الكتاب المقدس) .

ألا تسمع قول الله عز وجل : " أَجْعَلُ كَلَامِي عَلَى فَمِهِ كى يُعْنَى بِهِ ، أَمْىَّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ " .

أوليس قد أمر عيسى عليه السلام حَوَارِيَّيه أن يقولوا في صَلَوَاتِهِمْ : ^(١) « يَا أَبَانَا الذى فى السماء تَقْدُسُ أَسْمُكَ » . كيف صار عيسى دونهم ابناً ، وصار له دونهم أباً ، وهم يقولون : يَا أَبَانَا ! أم كيف لم يُجْعَلْ سَلِيحُ بن داود إلهاً وقد قال الله عز وجل لداود : ^(٢) « يُؤَدِّ لَكَ غَلَامٌ يُسَمِّى لى وَأُسَمِّى لَهُ » ! ولم لا يجعلون إِسْرَائِيلَ إلهاً وقد قال الله عز وجل له : ^(٣) « أَنْتَ بِكَرِّى » ! بل لم لا يُسَمُّونَ الْمُؤْمِنِينَ عَامَّةً وَالْحَوَارِيَّينَ خَاصَّةً [آلهة] ، وقد قال المسيح للحواريين : أَنْتُمْ إِخْوَتى ، وقد قال فى الانجيل : ^(٤) « أُعْطِ كُلَّ مَنْ آمَنَ بى سُلْطَانًا يُدْعَى لَهُ » . وإن كان هؤلاء كلهم للمسيح إِخْوَةٌ أَفْلا تَجْعَلُونَهُمْ كُلَّهُمْ آلهة ! وكيف يقولون : إِنَّ عيسى ابن الله ، وهو يقول فى مواضع جَمَّةٍ وَأَمَا كُنْ كَثِيرَةً إِنَّهُ ابْنُ الْإِنْسَانِ ! فكيف يكون ابْنُ الْإِنْسَانِ ابْنُ اللَّهِ ؟ ومتى كان ذلك ؟ لئن قالوا : إِنَّ عيسى لم يزل ابْنُ الْإِنْسَانِ ، لقد جعلوا مع الله إِنْسَانًا قَدِيمًا وجعلوا الله إِنْسَانًا حَدِيثًا ، وجعلوا المسيح ابْنُ اللَّهِ لم يزلْ ، وَابْنُ الْإِنْسَانِ فَمَا حَدَثَ . وهذه أُمُورٌ مُتَنَاقِضَةٌ ، وَحُجَجٌ دَاحِضَةٌ ، وَأَقَاوِيلٌ فَاحِشَةٌ .

فإن قالوا : إِنَّمَا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ لِأَنَّهُ رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ ، فَلْيَعْبُدُوا الْمَلَائِكَةَ فَإِنَّهُمْ فى السَّمَاءِ قَبْلَهُ ، وَإِدْرِيسَ فَقَدْ رَفَعَهُ اللَّهُ وَغَيْرَهُ . وَإِنْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْمَسِيحَ لِأَنَّهُ لَمْ يُخْلَقْ مِنْ ذَكَرٍ ، فَآدَمُ وَحَوَّاءُ لَمْ يُخْلَقَا مِنْ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى ، وَلَمْ يَقَعَا مِنْ غَمِّ الرَّحْمِ وَضَيْقِ الْبَطْنِ وَحَالِ الصَّبَا فَمَا [وَقَعَ] فِيهِ الْمَسِيحُ .

وإن قالوا : إِنَّمَا نَعْبُدُ عيسى لِأَنَّهُ أَحْيَا الْمَوْتَى ، فَمَا أَحْيَا حَزَقِيلَ أَكْثَرَ ، وَمَا كَانَ مِنَ الْيَسَّعِ تَلْمِيذَ إِيْلَاسَ عَجَبٌ ؛ لِأَنَّهُ أَحْيَا الْمَوْتَى بَعْدَ مِائَتِينَ مِنَ السَّنِينَ . وَإِنْ طَلَبْتُمْ ذَلِكَ فى سِيرِ الْمَلُوكِ عِنْدَ قِصَّةِ الْيَسَّعِ أَصْبَهْتُمُوهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

(١) راجع إنجيل متى (فصل ٦ آية ٩ ج ٣ ص ١٠ من الكتاب المقدس) . (٢) فى الأصل : « وَصَارَ دُونَهُ أَبَا ... » . (٣) لم نجد هذا فى الإنجيل . (٤) حَزَقِيلَ نَبِيٌّ بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى بَنَى إِسْرَائِيلَ ، وَهُوَ الَّذِى أَحْيَا اللَّهُ بِهِ الْقَوْمَ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ، فَأَحْيَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ مَوْتِهِمْ بِدَعْوَتِهِ . وَهُوَ مَا يَشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (أَلَمْ تَرَأِ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ) الْآيَةُ .

وإن كانوا إنما يعبدون المسيح من أجل الأسقام التي أبرأ والعجائب التي أَرَى ، فعجائب موسى أعجب وآياته أعظم . أين ما ذكرت لك من [عجائب] عيسى من عجائب موسى : من أنقلاب البحر له ، وسلوك الجيش معه ! أم أين ذلك من حجر يضربه فيتفجر بعيون المساء ، ويحمله معه حيث شاء ! بل أين تلك وهذه وغير هذه من الآيات من حبس يوشع^(١) الشمس ثلاث ساعات ! وكل ما صنع موسى وعيسى وغيرهما بإذن الله وأمره وقدره وقضائه . فأتق الله وكن من القائلين بالحق ، الموحدين للرب ، ولا تقل على عيسى ما لم يقل ؛ فإنكم لا تجدونه قال لكم في شيء من كتبكم : اعبدوني فإني ربكم . تعالى الله عما يقول الظالمون ، ويذهب إليه الجاحدون .

وإن أمير المؤمنين قد أحب أن ينصح لك ، في أولى دأرك بك وأهم شأنك لك ، فدعاك إلى الإسلام وأمرك بالإيمان الذي به تدخل الجنة وتتجو من النار . فإن قبلت حفظك أصبت ، ونفستك أحرزت ، ولك ما للمسلمين ، وعليك ما عليهم . وإن رددت نصيحة أمير المؤمنين فيما فيه الخط في آخرتك ، فإن أمير المؤمنين ينصح لك فيما فيه الصلاح في عاجلتك : من إعطاء الجزية التي يحقن الله بها دماءكم ويحزم بها سبائككم ، ويجعلها قواماً لمعاشكم ، وصلاًحاً لبلادكم ، وتوفيراً لأموالكم ، وأمناً لجنابكم ، وسعةً لسريركم^(٢) ، وبركةً على فقراءكم ، وغنى لأهل الحاجة والفاقة والمسكنة منكم .

ولن يذكر أمير المؤمنين في الجزية لكم من حلول الأمن فيكم ، وعموم العافية إياكم ، واستقامة البركة عليكم ، وكف أيدي المسلمين عنكم ، وبسطها على الأعداء منكم ، شيئاً إلا وفي قليل ما كان من أشباه ذلك أيام تلك الفدية التي كان الله أجرى نعمتها لكم على يده ، وفتح بركتها عليكم من قبله ، ما يدللكم على صدق أمير المؤمنين فيما يذكر ، ويشهد له على حقه فيما يقول إن شاء الله . فقد تعلمون أن الله قد أدخل على كل طرف من أطرافكم ،

(١) إشارة إلى قصة يوشع بن نون فنى موسى عليهما السلام واستيقافه الشمس ؛ فقد روى أن يوشع قاتل الجبارين يوم الجمعة ، فلما أدبرت الشمس للغروب خاف أن تغيب قبل فراقه ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم فيه ، فدعا الله تعالى ، فرد له الشمس حتى فرغ من قتالهم . (٢) السرب : الطريق .

وصنّف من أصنافكم، بتلك الفدية، أموراً عظيمة البركة، واسعة المنفعة، في أمور غير واحدة :

منها : أن قادة جنودكم وساسة حربكم، كانوا بعد وقوع أمرها وأستحكام عقدها، فراغاً لمحاربة أعدائكم ومناصبية من ناوأكم، بين أن يستعجموهم في بلادهم^(١) وينزلوا عليهم في ديارهم، ولا يهربون تعقب بشرين ساروا في أرضهم، ولا يتخوفون طراداً إن اجتمعوا لقتالهم أن يقيموا في خفيض ودعة، وأمن وسعة، مع الأزواج والأولاد والعيال والأوطان والرباع والمحال، وهم اليوم يترقبون الجيوش من كل شعيب ويتخوفون الخوف في كل وقت، لا يهدأ لهم جأش^(٢)، ولا يسكن لهم قزع، ولا ينأى لهم ليل، ولا يأمن فيهم حال، قد قطعت الهموم دابرهم، وأضمرت المخاوف جنوبهم، وأستأصلت الجنود أموالهم .

ومنها : أن أهل الحرّانة وإخوان العارة، في بلادك وأطراف أرضك، كانوا سراعاً إلى عمارة أرضهم وإصلاح ما تحت أيديهم، فيما لا قوام لهم ولا معاشهم إلا به، ولا بقاء لدينهم إلا معه، قد أمنوا الجيوش ومعرّتها، والجنود وبادرتها، وانتشروا للعارة، وأبتكروا في الزراعة، فارقوا رؤوس الجبال وإقسام الغياض، وراحوا في أوساط أوطانهم وظلال محالهم، يشقّقون الأنهار، ويغرسون الأشجار، ويهجرّون العيون، حتى تمت الأموال، وأخضرت الحال، وأخصب الجنب، وأصبحوا اليوم عن الزراعة ممسكين، ولحرّانة تاركين، وبغيرها مشغولين في إصلاح آلات الحرب، وإحراز العيال في الحصون، ورمّ القلاع للجلاء، وتحريش الحصون للبلاء، قد آنتقلوا عن منابت البر وكرائم الأرض، ومجارى المياه، الى أوشال الجبال، وأشجار الغياض، وبطون الأودية، فليس يبلّغون من عمارة بلادهم، ولزوم أوطانهم، [و] من تناول ثمارهم وقوام معاشهم مثل ما كانوا يبلّغون، ولا ينالون من خفض العيش وطيب الأمن ولذة الدعة، قريباً مما كانوا ينالون .

(١) كذا في الأصل . (٢) في الأصل : « لا سكن لهم الخ » .

ومنها : أن إخوان التجارات ، وأصحاب الأموال وأهل الظُّلف والخافر، كانوا يتناولون ما شارفهم من بلادنا وما قاربهم من أسواقنا، فينفقون تجارتهم ويُغسلون بضائهم، فتعظم الأرباح وتضعف الأثمان . وكانت الباعة من تجار المسلمين وغيرهم من الذميين، يتناولونهم للبيع لهم ويتناولونهم للشراء منهم، فعمت البركة وسهلت المنفعة، حتى نالت الرءاء في جبالها وأهالها ، والنساء في غزوطن وعمل أيديهن فضلا عن غيرهن .

ومنها : أنك ومن قبلك من ذوى العبادة والزهادة والتأله والنسك والنيات ، كنتم على عافية من أيام الرضا بالحرب، وسلامة من أوزار الحص على قتال الخوف؛ قد تجوتم من معصية المسيح في الدنيا التي نهاكم عنها، والأموال التي أمركم بها، من نحو قوله : ^(٣) "مَنْ لَطَمَ خَدَّكَ الْيَمِينَ فَأَمَكْنَهُ مِنَ الْأَيْسَرِ، وَمَنْ آتَرَغَ قَبِيضَكَ فَأَعْطَاهُ كَسَاءَكَ ، وَمَنْ لَطَمَكَ فَاعْفُ" .

ومنها : أن من بأقاصى بلادك ونواحي حوزتك، قد ذاقوا تلك الأيام من لذة الخلفض، ودعة الحال ، وحلاوة الأمن، ورفاهية العيش، وسعة العافية من سبأ أزواجهم، وهيض أولادهم، وحطم معاشهم، وأسر رجالهم، وغنمة بقرهم وغنمهم، وإفساد شجرهم وثمارهم، وإجلاء عن مساكنهم وأوطانهم، ما لم يكن لهم رأى يعرفه ، ولا ظن يبلغه ، ولا طمع يُقاربه ، ولا أمل يذهب إليه . وما قد عرفت الخاصة من بطارقتكم ، والعامة من أهل ملككم به : من رأفتكم بهم ، ورحمتكم لهم ، وشفقتكم عليهم ، وأثرتكم إياهم، وبركة ولايتكم ملكهم ، ومنفعة سياستكم أمرهم، ما قد أزدادوا لكم به محبة، وفي بقائكم رغبة، ولأمركم طاعة، وعلى ملككم شفقة، وفيما نابكم نصيحة؛ مع ما قد أزددتم بذلك من الهيبة في صدور الأعداء ، والشرف في قلوب النظراء ، والعظم في عيون الأئمة ، حتى أقروا لكم بقوة عزائم العقول ، وفضل سياسة الأمور ، وصحة تدبير الملك ، وصدق النية ، ولطف الحيلة التي

(١) في الأصل : "من بلادهم ... " . (٢) كذا في الأصل . (٣) راجع للإنجيل متى (فصل ٥ آية ٣٩ ج ٣ ص ٩ من الكتاب المقدس) .

جعلوا نسبة عملكم بها ، وعمل رأيكم فيها ؛ على أنكم نظرتُم لضعفاتكم حتى قُوتوا ، ولفقرائكم حتى استَغْنَوْا ، ولقراكم حتى بدوا وحيو وفووا المسلمين من أيام الحروب وأوزار القتال ، ومعصية المسيح عليه السلام ، ولأعدائكم الأبعدين وجيرتكم الأقربين ، حتى كنتم من فراغكم لهم ، واشتغالكم من أمركم بها ما أوطأتموه لحر بخر القتل ، وذلل الأسر وغلبة القهر ، والإذعان والاستسلام . وإما كفيتموهم بالصالح ، واستوثقت منهم بالرهن .

فإذا ذكرت ما كان من هذا وأشباهه وأمثاله في الفدية ، فاعلموا أن أمثاله وأضعافه مقيم معكم في الجزية ، فلا يكون لك رأى غيرها ولا أمر سواها ؛ فلقد أكثر أمير المؤمنين العجب من أمركم ، وأطال تقليب الفكرة في بعضكم ، فظن أن إخراجكم من جميع ما كنتم فيه الى خلافه مما أصبحتم عليه من انتظار وقعات الحروب ، وصولات الجنود وأكل الحدود ، وتوقع الجلاء والسباء والقتل ، والأسر والحصار ، شيئا آخذتكم الله عز وجل فيه عن أنفسكم وكيدا استدرككم به لما علم من قلوبكم .

ألا إن أعجب عذركم وأفظعه كان عند أمير المؤمنين إذ بلغه جرأتكم على الله عز وجل في نقض عهده ، واستخفافكم بحقه في خفر ذمته ، وتهاونكم بما كان منكم ، وأتتم تعلمون أن موثيق العهود ونذور الأيمان الذي وضعه الله عز وجل حرما بين ظهراني خلقه ، وأمانا أفاضه في عبادته ، لتسكن اليه نفوسهم ، وتطمئن به قلوبهم ، وليتعاملوا به فيما بينهم ، وقيموا به من دنياهم ودينهم ؛ فما من ملك من الملوك ولا أمة من الأمم ، تبيح حمى الله عز وجل ، تهاونا به وجرأة عليه ، إلا أجرى الله عليهم دائرة من دول الأعداء ، وأنزل عليهم عذابا من السماء . وقد رجا أمير المؤمنين أن يُجرى الله نقمته منكم بأيدي المسلمين ، بعد إذ كان اعتقد عهدكم ، وأخذ ميثاقكم بالإيمان المغلظة ، والعهود الموكدة ، التي قد اعتقدها في رقابكم ، وحملها على ظهوركم ، فأشهدتم الله بها على أنفسكم ، وتسامع بها من حولكم ، وحكم بها بطارقتكم وأساقفتكم . فلا الله آتقيتم ، ولا من الناس استحييتم ، نكثا للعهد ، وبغضا للمسلمين ،

وَحَتَرًا بِالْأَمَانَةِ، وَإِبَاحَةً لِلْحُمَى . فتوقعوا العقوبة، وانتظروا الغيب؛ فلقد وثق أمير المؤمنين أن من عذاب الله ما هو حال إن شاء الله بكم .

ومن أسباب ما يريد الله من الانتقام منكم ، ما قد أزمع أمير المؤمنين وعزم عليه ، وقذف الله في قلبه : من الإرادة والنية والرغبة في إبطاء الجيوش بلادكم ، واستبَاء المقاتلة أرضكم ، والتفرغ لكم من كل شغل ، والإيثار للجهادكم على كل عمل ، حتى تؤمنوا بالله وأتم طائعون أو كارهون ، وتؤدوا الجزية عن يدي وأنتم صاغرون . فكونوا على عدة من الجزية ، ويقين من الاتِّجاع الذي لا طاقة لكم إن شاء الله به ، ولا صبر لكم بإذن الله عليه ؛ فان جنود أمير المؤمنين فارغة كثيرة ، ونزائنه عامرة وافرة ، ونفسه سخية بالإفناق ، ويده مطلقة بالبذل ، والمسامون نشاط اليكم ، منقلبون عليكم ، قد عودهم الله في لقاءكم عادة يرجون انتظار مثلها ، وأبلاهم في قتالكم بلاء من أمثالها ، إن شاء الله .

وكتاب أمير المؤمنين نذيره بين يدي جنوده ، ومُقدمه إن شاء الله من جيوشه ، إلا أن تؤدوا الجزية عن التي دعاك أمير المؤمنين إليها ، وحداك ومن قبلك عليها ، رحمة للضعفاء الذين لا ترحمهم ، وتوجعاً للمساكين مما لا توجع منه لهم من الجلاء والسبأ والقتل والأسر والقهر ، وقساوة من قلوبكم ، وأثرة لأنفسكم ، واعتصاما بخواصكم ، وإجلاء لعوامكم الضعفاء الفقراء المساكين الذين لا تمنعونهم بقوة ، ولا تدفعون عنهم بحيلة ، ولا تراقبون في الرحمة لهم والتعطف عليهم ، أدب المسيح إياكم ، وقوله في الكتاب^(١) لكم : ” طوبى للذين يرحمون الناس ؛ فإن أولئك أصفياء الله ونور بني آدم “ .

وأيما الله لو يعلم من قبلك من المساكين والزراعيين والفقراء والضعفاء والعملة بأيديهم ، ما لهم عند أمير المؤمنين لتحذروا عليه وأقبلوا إليه ، من إيوائهم ، وإنزالهم الأرض الواسعة ، وإمكانهم من مسايل المياه السائحة ، والعدل عليهم بما لا تباغته أنت ولا تقاربه ، رفقا بهم ونظرا لهم وإحسانا إليهم ؛ مع تخليته إياهم واديائهم ، لا يُكرههم على خلافها ولا يجبرهم على

(١) راجع لمجمل متى (فصل ٥ آية ٧ ج ٣ ص ٧ من الكتاب المقدس) .

غيرها ، لأختاروا قرب أمير المؤمنين - على قربك ، وجواره على جوارك ، ولأنقذوا أنفسهم^(١) وأموالهم وأولادهم وأزواجهم وعيالاتهم ، مما يحل بهم في كل عام ويلقون من كل غزاة . فأتفق الله وأقبل ما عُرِض عليك من الجزية ، ولا يمنعك ما فيه الحظ لك ولأهل مملكك . ونحن على رجاء أن الله لا يؤخر ذلك منكم ويدفعه عنكم ، إلا ليجمعه على يد أهل بيت النبوة والرحمة ، ولأهل الورثة فيهم للكتاب والحكمة ، الذين لا يدخل عليكم في الإذعان [لهم] وأداء الجزية إليهم حمية ولا تقيصة ولا عار ، والذين يَقُون لكم بما يعقدون ، ويتبعون فعلهم ما يقولون .

ثم أمير المؤمنين بخاصة لما جعل الله عليه رأيه وفيه نظره من البر والرحمة والإفراط والوفاء بالعقود والعهود والشروط ، نظراً لدينسه وخوفاً من ربه ، ولما قذف الله في قلبه وقلوب المسلمين من المحبة والطاعة والأثرة ، ولما جعلهم الله عليه من آجتماع الكلمة ، وآتفاق الأئمة ، والنصائح في السر والعلانية ، وما عوده الله ممن نصب له بمجاذبة ورماء بمكيدة ، وعراه بحيلة : من النصر العزيز ، والفتح القريب ، والظفر المبين . فابذل من الجزية ما شئت ، وسَم منها ماهويت . وأعلم أن أمير المؤمنين ليس يحذوك عليها حاجة به إليها ولا للمسلمين ، ولكن طاعة لربه وأثرة لحقه ، وليجعلها سبباً لما يريد أن يجري فيما بينه وبينكم . وإنه إنما كان قبول المهدي - رحمه الله - الفدية منكم ، بطلبه أمير المؤمنين كانت إليه ، والحاجة كانت فيها عليه ؛ ولم يكن من رغبة فيها ، ولا حاجة إليها ، ولا استعظام لها ، ولقد كان يعطى في المجلس الواحد مراراً أمثالها ، ولكن ذلك كان رأى أمير المؤمنين يومئذ فيكم . فأما اليوم إذ استبان له غدركم ونقضكم ونكثكم واستخفافكم بدينكم وجرأتكم على ربكم ، فليس بين أمير المؤمنين وبينكم ، إلا الاسلام أو الحرب المجلية ، ان شاء الله . ولا حول بأمير المؤمنين ولا قوة إلا بالله ؛ عليه يتوكل وبه يثق وإياه يستعين . والسلام على من أتبع الهدى .

(١) في الأصل : " ولأبتدلوا ... " . (٢) كذا في الأصل وهو غير واضح ولعل أصل الجملة " ولا يمنعك الشيطان ما فيه ... الخ " فسقط هذا وأرخوه سهواً من النسخ . (٣) كذا في الأصل :

٣ - رسالة يحيى بن زياد في تقرير الرشيد

أما بعد، فإنني أسأل الله لأمر المؤمنين في غير أمورهم، أحسن ما عودته في سالفها من السلامة التي حرسه بها من المكاره، والعز الذي قهره به الأعداء، والنصر الذي مكن له في البلاد، والهدى الذي وهب له به المحبة، والرفق الذي أدركه به الحلب، والاستصلاح الذي آتت له به الرعية، حتى يكون بما أعطاه من ذلك، وما هو مستقبل به منه، أبعد خلفائه في الخير ذكراً، وأبقاهم في العدل أثراً، وأطولهم في العمر مدّة، وأحسنهم في المعاد منقلباً.

ثم بحمد الله الذي جعل نعمته على أمير المؤمنين شواهد منه على منزلته منه ومكانه عنده، لا يحتاج معها إلى شهادات المؤمنين، ولا صفات المقرّطين، ثم جعل ذكر نعمته على أمير المؤمنين ومناصحتها والمجاهدة لمن كادها فريضة أوجبها على العباد، ومحبة امتحنهم بها، وفرقانا ميز به بينهم، فمن أصبح من رعيته أكثر شغله أن يستعمل لسانه في صفته، ويذكر محاسنه وفضائله، ووجوب حقه وطاعته، فقد أصبح أثراً أولى الأمور وأحسنها مغبة في دنياه ودينه، ومن بدل ذلك عن قدره عليه، ودفعه بعد معرفة، فلم يدعه إلا عن خذلان حاق به، أو بدعة آسألت به، كانت حجة الله لأمر المؤمنين عليه هي الكافية لمؤنته. وقد كان علماء الناس وجّهاتهم يسوون في عام المعرفة بفضل أمير المؤمنين، فأما الخاص فالأهل الفضل فيه فضلهم، غير أنه مهما كان من ذلك فقد أصبحوا وهم فيه على منازل ثلاث: حاسدٌ يحجب الحسد بصره عن مواقع الصواب أن يراه، والنعمية أن يشكرها، والحق أن يؤدبه، وكانت معرفته عليه وبالا، وحسده إلى الضربة قائداً. أو ذو هوى. قاده الهوى إلى البدعة وأخرجته الضلالة من الجماعة، فهو عرضة لسوء الأدب أو سيف النكال، لم يؤحش الله أحداً يفقده، ولم يعز أحدًا بمآلاته. وموفق معصوم استنقذه [الله]

(١) في الأصل: «الغير». (٢) في الأصل: موفق معصوم ثم استنقذه بمولاه الخ.

بمؤالة أمير المؤمنين من غل الحسد ويدع الآراء وجبهه على صحة الهوى ، فهو إن نظر فبعينه ينظر ، وإن قال فبلسانه يقول ، لا يأمن حتى يعلم أن أمير المؤمنين قد استوطأ مهاد الخفض ، ولا يزال له طليعة رأي توفى على خطة حزم وغامض فطنة ، تغلغل الى لطيف منفعتة و [تكون] سهم مكيدة نحو عروة ، قد علم أن يوم أمير المؤمنين يومه ، وأن غده غده ، فهو وإن تعرض لأداء الحق في نصيحته ينظر لنفسه نظر من لا يأمل السلامة إلا بسلامته ، ولا البقاء إلا ببقائه . وقد رجوت بالفراية التي جعلها الله لي به ، والواجب الذي عرفت من حقه ، والعظيم الذي حملته من معرفته ، ألا يكون أحد ينظر اليه بعين الإشفاق أقوم ما جعله الله أهله مني ، فإن أبلغ الذي أردت فتوفيق الله ، وإن أقصر فعن مثل ما حاولت قصر المجتهد .

فأول ما أنا ذا ذكره من فضله : أن الله قدم له الصنع في سابق علمه ، بفعل محتده خير المحتاد عنصراً ، ثم اختار له أباً فأباً لا ينقله من أب الى أب إلا نقل معه وإليه فضيلة العنصر الذي هو منه حتى صيره بعد فضائل آبائه الى أفضل بدنة ، فكان خير خليف من خير سلف ، وأفضل ولد من أفضل أبوة ، وأرضى إمام من أركى أئمة ؛ ثم اختار له مكارم الأخلاق ، وألبسه جمال الصورة ، فلا نعلم نحن ولا آباؤنا خليفة أبعد في حلمه من ذل ، ولا في هيئته من تجبر ، ولا في شدته من عنف ، ولا في لينه من وهن ، ولا في أناته من غفلة ، ولا في اقتصاده من بخل ، ولا في بذله من إضاعة ، ولا أرق وجهاً عند لقاء ، ولا أحسن بشراً عند تحية ، ولا أغزر دمعاً عند موعظة ، ولا ألين قياداً عند تذكير بالله منه .

(٢) ثم أفضت اليه الخلافة وفي المال ما فيه من القلة ، وفي الناس ما فيهم من الإحراج ، فما دفع عن مال يعطيه عن قلة ، ولا قطع عادة توسعة على رعيته ؛ ثم استدر الحلب برفقه ، فكلمنا دثر له منه شخب فوقه طائفة من جنده حتى سقاهم بعد التفويق رياً ، وبعد النهل

(١) في الأصل : "عرة" . (٢) الإحراج : الضيق وفي الأصل . "الاستخراج" .

(٣) الشخب (بالضم) : ما خرج من تحت يد الحالب عند كل غزوة وعصرة للضرع . (٤) فوقه الشيء : أعطاه إياه قليلاً قليلاً .

عللاً؛ ثم ساس رعيته بألین السياسة فعفا عن مذنبها ولو شاء لعاقب، وآمن خائفها ولو طلب لأدرك، ودفع بالحسنة السيئة ولو كافأ لقدّر، فما برح صنع الله له يفرض مجموع الضلالة بلا قتال، ويعزله النصر بلا مكاثرة، حتى فرغ بشغله من كان لا يفرغ من الوزراء، ونام بسره من كان لا ينام من العامة، وأطمأنت بنا آتة للأسفار دار من كان لا ينال انخفاض من الجنود حتى استوطئوا مركب الأمن فكلمهم صنيين بمفارقة. أما ذو النية فركن الى النقص. وأما من لا يبدله ففعل ما كان يؤخذ به من الاستكراه. وأما الحشر من الجنود والرعا عفلت عليهم عادة الهويناء، حتى لو رأيناه يجذبهُ الأمر فما يجد له الأمر غناءً عنده ولا نشاطاً ولا حداً إن وكله الى قوته، وقواه بماله ^(٢).

فلما رأى ما رأى من تحاذل العامة، وتواكل الجنود، ونزور الفئء، ومجود الخلب، واستكلاي العال على الخيانة، وجراة الرعية على منع الحق، ومال الفراغ بكثير من الناس عن القصد، فتحركت الأهواء، واستعرت نيران العصبية، وجاشت صدور الحسدة وأشياءهم بالأمانى، وظنوا أن لا شدة معه، وأن عفو لا تكبر بعده، وأمير المؤمنين يرمقهم بعين بصيرة، وأذن مصيخة، وقلب يقظان؛ وقد وقر الحلم أن يخف لأول بوادر السفهاء، فهو ينتظر بالمُدبر أن يقبل، وبالمسائد أن يعتدل، وبالمغلوب على رأيه أن يتذكر فيصير، ثم في إثرهم تسمير من قدم الروية قبل العجلة، والعفو قبل العقوبة، والتثبت قبل الإقدام، فاتخذ روابطاً تنجها على الجسد والنشاط، ليست لهم سوايق تدعوهم الى الإدلال، وتسمو بهم الى كثير لم ينالوه؛ إنما همهم أن يتفاضلوا في النجدة، ويستوجبوا بالغناء، ثم فرقهم على خواص خدمه، فإذا أراد أن يتناول بهم فرصة ممكنة، أو عدواً غاط، أو راتق فتق قبل الساعة، يغمس يديه الى أيهم أراد، فينفذ لأمره ولم يشركه فيه مشير، ولم يخرج به توقيع، ولم يخص فيه عاقبة، ولم يطلع منه على مكيدة، فلم نعلم أننا رأينا جنداً

(١) في الأصل: «مفاآته». (٢) في الأصل: «إن وكله الى قوته ولا نشاطاً ولا حداً وقواه

بماله». (٣) غاط: دخل.

أسرع نهضةً إذا مروا ، وأحسن إجابةً إذا دُعوا ، وأفضل غناءً إذا استكفوا من جُنده .
ثم قصّد بنفسه حتى مثل بين النواحي الى أهمّها له فساداً في البيضة ، وانتقاصاً من
الأطراف ، فأتى ناحية الشام فوطّئها وطأة جمع الله بها لهم شتات الفرقة ، وأحمد بها بينهم
نار الفتنة .

وأما الجزيرة فإنه ألفاها وهي كالجرح النمل ، فاستأصل الله به منها شاة الداء ، وأطفأ به
عنها بواذر السفهاء ، وخير أمير المؤمنين من منزله الذي هو به منزلاً جمع من بسطته
في الموضع ، ورفاهيته في المعاش ، أنه حامل للجنود ، جامع للرافق ، فباشراً أمره أمراً ،
حتى إذا استدير له منها مبرم ، استقبل بعده جسماً متقيضاً ، وإذا أشحن من ثغوره ثغراً
لم يرض حتى يفتتح من حصون أعدائه حصناً ، وإذا قضى الله عنه حجة ، وصل خطوه
منها عزّاً ، ثم رأينا ما عزم الله به عليه من ترك الصوائف^(١) مراقباً للذي كان من غموط
أهل الشام لما كانوا فيه من النعمة ، فلم تتشكك في أنه توفيق من الله له وافق سُخطاً
عليهم حتى استباحوا الحرم ، وتسافكوا الدماء ، ونقضوا ما بينهم من مبرم حبلى الإسلام .

ومن ذلك أن أرمينية كانت فيها جنودٌ تُخرج عليهم أطماع تحمل اليها ، بعد اعترافهم
بإخراجهم الأموال من كور الشام ، فلما رأى ذلك فعل كذا وكذا ، فلم يتوكل على الله في أمر
فوكّه الى نفسه ، ولم يكتف به في حفظ طرف أو قاصية تغير إلا كفاه مؤنته ، وعلم أن
ما يدخل من أضعاف العافية من عوارض العلل ، إنما هو بتقدير من الله لا يمتنع بعذر ،
ولا يُستطاع دفعه بحيلة ، يصيب فيه أقواماً بالبلايا والتحصيص ، ويقسم فيه لأقوام الأجر
والجهاد والسعادة ، فرأى أن في عاجل ما يرفع عن أهل أرمينية من ضرر مؤنتهم
وغمطهم نفعا للرعية ، وإجمالا للنفى ، ورفقا بالعامة مع اقتصاده في الأبواب على أكاف
تجيتها ، وفي سائر أرمينية على المقاتلة من أهلها ، ولم يزل منذ أراه الله ذلك ، يكفيه مؤونة
ذاك الثغر ، ويكف عنه بوائقه ، حتى كأنه في هدوء الأحداث عنه ، وسكون الأفتدة من

(١) الصوائف : جمع صائفة وهي الغزوة في الصيف .

رَوَعَاتِهِ مِضْرَمِ الْأَمْصَارِ، وَاسِطُ الْحَمَلَةِ مَأْمُونُ النَّارِ . فَلَمَّا آغْتَمَ خَاقَانُ مَا آغْتَمَ، وَاتَّهَزَ
الْفُرْصَةَ مُبَادِرًا، لَمَّا قَدْ اِيقَنَ مِنْ مَعَالِجَةِ الْمُؤْمِنِينَ إِيَّاهُ، فَكَأَنَّهُ حِينَ بَلَغَهُ ذَلِكَ مِنْ إِعْظَامِهِ
إِيَّاهُ بِسَبَبِهِ لَهُ، وَمَا أَنْصَبَ فِيهِ مِنْ بَدَنِهِ، وَأُسْهِرَ فِيهِ مِنْ لَيْلِهِ، وَأَنْصَبَ فِيهِ مِنْ نَهَارِهِ، لَمْ يَعْلَمْ
الَّذِي يَكُونُ مِنْ أَشْتَبَاهِهِ فِي الْأَزْمِنَةِ الْمَاضِيَةِ قَبْلَهُ، وَأَنَّهُ بِذَلِكَ لِحْدُ عَالَمٍ، غَيْرَ أَنَّ حِمِيَّتَهُ
لِلْإِسْلَامِ وَشَفَقَتَهُ عَلَيْهِ وَأَمْتَعَاظُهُ مِنْ أَنْ يُتَنَاوَلَ شَيْءٌ مِنْ أَطْرَافِهِ، قَدْ زَادَ ذَلِكَ عِنْدَهُ قَدْرًا
فِي الْعِظَمِ، وَتَفَاقَمًا فِي الْخَطْبِ، حَتَّى أَكَلَ الْبَعَثُ بِأَكْثَرِ الْعَدَدِ، وَأَكَلَ الْعُدَّةَ، وَأَسْتَقْبَلَ
أَهْلَ الْكُورِ وَالْأَمْصَارِ، وَنَدَبَ لَهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ مَنْ لَمْ يَتْرِكْ بَعْدَهُ نَهَايَةً فِي التَّخْيِيرِ، وَكَانَ
قَدْ صَرَفَ بَالَهُ إِلَى هَٰذَيْنِ الثَّغْرَيْنِ مِنَ الْخَزَرِ وَالرُّومِ، وَإِلَى هَٰذَيْنِ الْعَدُوِّينِ الْمُحَارِبِينَ لَهُ مِنَ
الْمَسْرِقَةِ الْمُتَعَصِّبَةِ .

فَلَمَّا بَلَغَ اللَّهُ فِي إِحْكَامِ أَمْرِهِمَا مَا بَلَغَ، لَمْ يَسْتَغْنِ عَنْ إِعَادَةِ النَّظَرِ فِي أَمْرِ غَيْرِهِمَا مِنْ
نَوَاحِيهِ لِيَسْتَبْرَأَ بِهِ، وَإِرَادَتِهِ فِي أَقْوَامٍ يُدَافِعُ ظُنُونَهُمْ بِهِ فِي أُخْرَى، وَعَلِمَ غَيْرُهُمَا أَنَّ مَا تَمِيلُ
مَنْ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ مِنَ الْأَمْنِ وَالْفَرَاغِ نَتِيجَةُ مَكْرُوهُةٍ، فَشَخَّصَ عَنْهَا لِتَحْقِيقِ ذَلِكَ مُؤَيَّرًا
لَا بُقْصَ وَطَنِيَّةٍ عَلَى أَحَبِّهِمَا وَأَخْشَنَ عَيْشِيَّةٍ عَلَى أَلْيَنِهِمَا، فَلَمَّا ظَهَرَتْ لَهُ الْعَوْرَةُ أَقْدَمَ لِإِقْدَامِ
ذِي الْمُجَّةِ، فَلَمْ يَرْمِثْهَا نَارًا خَبَتْ، وَسَحَابَةً أَفْشَعَتْ، لَمْ يَسْفِكْ بِهَا دَمَ أَمْرِيٍّ مُسْلِمٍ صَبْرًا،
وَلَمْ يَنْتَهِكْ فِيهَا حُرْمَةَ مُحَرَّمٍ لِإِبَاحَةٍ .

وَذَلِكَ أَنَّهُ بَسَطَ يَدَهُ بَسْطَ مَنْ يُرِيدُ الْإِسْتِصْلَاحَ لَا مَنْ يُرِيدُ الْإِنْتِقَامَ، فَلَمْ يَلْبَثِ الظَّالِعُ
أَنْ رَجَعَ عَنْ ظَلَمِهِ، وَالنَّاطِقُ أَنْ صَمَّتْ عَنْ يَدَعَتِهِ، وَالنَّائِكُ أَنْ رَجَعَ إِلَى قَصْدِهِ، وَأَزْدَادُ
الْبِرِّ عَلَى الْبِرَاءَةِ فَرِحُوا، وَالسَّالِمُ بِالسَّلَامَةِ آغْتَبَاطًا، وَلَمْ تَزَمْ ثَمَلَهُ فِيمَا أَفْضَى اللَّهُ بِهِ إِلَيْهِ مِنْ
خِلَافَتِهِ، وَحَمَلَهُ مِنْ أُمُورِ عِبَادِهِ، أَمَّا لَيْلُهُ بِمُنَاجَاةِ رَبِّهِ فِيهَا وَأَسْتَعَانَتِهِ إِيَّاهُ عَلَيْهِمَا فَسَاهَرُ،
وَأَمَّا نَهَارُهُ فِي حَلَبِ فَيْئِهِ وَإِحْكَامِ أُمُورِهَا فَتَعَبٌ، وَأَمَّا صَدَقَاتُهُ عَلَى فَقَرَائِهَا وَأَهْلِ الْحَاجَةِ
بِخَارِيَّةٍ، وَأَمَّا مَجَاسُسهُ مِنْ فُقَهَائِهَا وَصُلَحَائِهَا فَعَاقَصٌ، وَأَمَّا غِلْظَتُهُ عَلَى ظَالِمِهَا فَعَمِيدَةٌ، وَأَمَّا
أَفْضَالُهُ لِمُظْلَمِهَا فَبَسُوطَةٌ، وَلَئِنْ كَانَ الْحَقُّ أَلَزَمَ أَقْوَامًا اسْتَوْجَبُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ،

إنّا لنعلم أنّ ما ترك أكثر، وأنه لولا ما خفف من الوطأة على أقوام لحمل الواحد منهم مثل الذى حمّله للجميع ، ولكنه رضى بالعفو، وسمحاً لنفساً عن الاستقصاء، فأوجب أن يبسط يداً بغلظة ويتبعها أخرى بلين؛ فكان من ذلك نظره فى هذه البقايا التى هى فى المسلمين ومأل الله ، غير أن الله جعله قيّمه فيه ، وفى أخذه وصرفه فى وجوهه ؛ فلما رأى ضراوة العمال بها ومصانعتهم دونها ، وأن قد صارت كالسنة اللازمة لا يدعها عفيهم تورّعاً ، ولا شريفهم تنزّهاً ، أحبّ مع توفيره للمسلمين فيهم ، أن يحدث لهم أدباً يفيهم به عنهم أهل الضراوة ، ويعرف به ذوو الاستخفاف بالأمانة ، والأمر للتبعية ؛ أن عليهم من تفقده وأدبه عينا ترمق ، ويداً تقبض ، ولو أنه حين هم بأخذ تلك البقايا حمل على المؤسّر بقدر يساره ، وأخذ المعسر بطاعته ، كان قد أنصف ، كلا ! ولكنه أحبّ أن يستبقى قوّة ، ولا يبلغ من المكثّر جهداً ، وأقتصر بهم على العشر من ذلك ، كرمّاً فى القدرة حين رأى موضع الرفق ، ونجّافى عن العلة حين عرف مكان الغدر؛ فأىّ نعمة أعظم ، وأىّ بلاء أحسن من هذه البقايا ! كانت فى أيديهم جُماماً ، فلما أطلع طلعها ، وأخذ ما أخذ ، وترك ما ترك ، محلاً مع ما جعل الله فى ذلك من [كلمات]^(٣) المقصّر من العمال المؤذية التى لم تكن تعدّو أفواههم ، فليس منهم أحدٌ إلا وكان منه له واعظ ألا يكسر شيئاً من الخراج تضيقاً ، أو يأخذه غلواً أو يُنفقه إسرافاً ، أو يتركه إرهاباً .

فلما تفرّغ من علاج الداء المخوف واستأصله ، ومن الفئ المتفرّق بجمعه ، ومن الأمور المعطّلة فأحكّمها ، استخلف على القيام بذلك من يحويه عقله عن حذر ، ولا إضاعة عن حفظ ، ولا لين عن تشدّد ، ولا يستحل الأ كف عن نقض ما أبرم ، ولا مُزاولة ما أحكم ، ولا فتح ما أغلق ، ولا إغلاق ما فتح ، فلان خيرة أبويه ، ومحّ بيضته ، وجوهر أرومته ، الفاتّ سبّقا ، البين عدوّا ، الراسخ عرقاً ، المنفجر بحرّاً ، المحمود أمراً ، القائل فصلاً ،

(١) الضراوة : اللهج بالثى والإغراء به . (٢) فى الأصل : « لهم » والسياق يقتضى ما أثبتناه .

(٣) وضعنا هذه الكلمة لأنها تنفق والسياق ، ومكانها فى الأصل بياض . (٤) الغلول : الطعام أو الشراب

الذى يدخل فى الجوف .

الحاكم عدلاً، ثم أنصرف بما أفاده الله من الأجر إلى جناحه الذي كان مده على من خلف من الأهل والأموال والرعايا والجنود، فلان سبيلة صلبه، وثمره قلبه، المحتك مع فتاة سنة عقلا، والمأمون مع شدة شكيمة حملا، والمحصد مع لينه وتعطفه أمرا، الشبيه بأمير المؤمنين إن نطق نطقا، وإن نظر لحظا، وإن سئل جودا، وإن اهتصر عودا، وإن ساس رفقا، وإن غضب حلما، وإن وصف علما، وإن كلم فهما، وإن قدر عفوا، وإن لقي بشرا، وإن نازع فلجا، وإن قارع ظفرا، فكان عند ظنه به، رعاية للحرمة، وحرما في المكيدة، وحلما للفيء، وحيطة للغائب، ومباشرة للشاهد، هذا قليل من كثير. مما جعلك الله أهله، وإنما اقتصررت عليه لأنى رأيت المتكلمين من الخطباء تركوه، وأن ما سمعت من الكتب المقروءة لم تنظمه، فأحببت أن يعلم أمير المؤمنين أن له في كل أمر عمل به في رعيته حجة واضحة، وعذرا معروفا، إن قام به متكلم في خاصية حسن موقعه، وإن قرئ به كتاب في عامة، قويت به حجته.

والحمد لله الذي جعله وذريته أولياء هذه النعم، والمخصوصين بهذه الفضائل، ونسأله أن يبيحهم لإياهم للدين الذي سدد بهم عورته، والحق الذي أقر بهم جادته، والعدل الذي أوضح بهم أعلامه، حتى يكونوا ورثة هذه الأمة وخلفاءها في غابر الدهر، وباقيات الأيام؛ مستقلين بالعدل، موفقين للسداد، معصومين من الشبهات، مستوجبين مع فضائل الدنيا لأفضل كرامات المعاد. والسلام.

(١) هذه الرسالة ورسالة أبي الربيع محمد بن الليث السابقة من كتاب اختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور.

كتب الرشيد

١ - كتاب عهد البيعة^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه محمد بن هارون أمير المؤمنين في صحبة من عقله ، وجواز من أمره ، طائفاً غير مكره ؛ إن أمير المؤمنين ولاني العهد من بعده ، وصير البيعة لي في رقاب المسلمين جميعاً ، وولي عبد الله بن هارون أمير المؤمنين العهد والخلافة ، وجميع أمور المسلمين بعدى ، برضا منى وتسليم ، طائفاً غير مكره . وولاه خراسان وثغورها ، وكورها وحربها ، وجندتها وخراجها ، وطرارها وبريدها ، وبيوت أموالها وصدقاتها ، وعشورها وعشورها ، وجميع أعمالها في حياته وبعده ؛ وشرطت لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، برضا منى وطيب نفس ، أن لا أنحى عبد الله بن هارون على الوفاء بما عقد له هارون أمير المؤمنين : من العهد والولاية والخلافة ، وأمور المسلمين جميعاً بعدى ، وتسليم ذلك له وما جعل له من ولاية خراسان وأعمالها كلها ، وما أقطعه أمير المؤمنين من قتيعة ، أو جعل له من عقدة أو ضيعة من ضياعه ، أو ابتاع من الضياع والعقد ، وما أعطاه في حياته وصحته من مال ، أو حلي أو جوهر ، أو متاع أو كسوة ، أو منزى أو دواب ، أو قليل أو كثير ؛ فهو لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، مؤفراً عليه مسلماً له . وقد عرفت ذلك كله شيئاً شيئاً ، فإن حدث بأمر المؤمنين حدث الموت ، وأفضت الخلافة الى محمد بن أمير المؤمنين ، فعلى محمد إنفاذ ما أمره به هارون أمير المؤمنين ، في تولية عبد الله بن هارون أمير المؤمنين خراسان وثغورها ، ومن ضم اليه من أهل بيت أمير المؤمنين بقرماسين^(٢) ، وأن يمضى عبد الله بن أمير المؤمنين الى خراسان والرى ، والكور

(١) هذا العهد ورد في تاريخ يعقوبى (ج ٢ ص ٥٠٢ طبعة لندن) وفيه عبارات تخالف ما أثبتناه هنا

عن الطبرى . (٢) قرماسين : موضع بين الزبيدية ومكة .

التي سماها أمير المؤمنين حيث كان عبد الله ابن أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وغيره ،
 من سلطان أمير المؤمنين ، وجميع من ضم إليه أمير المؤمنين حيث أحب من لدن الرى
 الى أقصى عمل خراسان ، ليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحول عنه قائدا ولا مقودا
 ولا رجلا واحدا ممن ضم إليه من أصحابه الذين صمهم اليه أمير المؤمنين ؛ ولا يحول
 عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولّاه إياها هارون أمير المؤمنين : من ثغور خراسان
 وأعمالها كلها ، ما بين عمل الرى مما يلي همدان الى أقصى خراسان ، وثغورها وبلادها ،
 وما هو منسوب إليها ولا شخصه اليه ؛ ولا يفرق أحدا من أصحابه وقواده عنه ، ولا يؤلى
 عليه أحدا ، ولا يبعث عليه ولا على أحد من عماله وولاة أموره ^(١) بُندارا ولا محاسبا ولا عاملا ،
 ولا يُدخل عليه في صغير من أمره ولا كبير ضررا ، ولا يحول بينه وبين العمل في ذلك كله
 برأيه وتدييره ، ولا يعرض لأحد ممن ضم إليه أمير المؤمنين من أهل بيته وصحابة ، وقضاته
 وعماله ، وكتابه وقواده ، وخدمه ومواليه وجنده ، بما يلتمس لإدخال الضرر والمكروه عليهم
 في أنفسهم ، ولا قراباتهم ولا مواليتهم ، ولا أحد يتنسل منهم ؛ ولا في دمايتهم ولا في أموالهم ،
 ولا في ضياعهم ودورهم ، ورباعهم وأمتعتهم ، ورقيقهم ودوابهم ، شيئا من ذلك صغيرا
 ولا كبيرا ؛ ولا أحد من الناس بأمره ورأيه وهواه ، وبترخيص له في ذلك ، وإدهان منه
 فيه لأحد من ولد آدم ، ولا يحكم في أمرهم ، ولا أحد من قضاته ومن عماله ، ومن كان
 بسبب منه ، بغير حكم عبد الله ابن أمير المؤمنين ورأيه ورأى قضاته ؛ وإن زرع اليه أحد
 ممن ضم أمير المؤمنين الى عبد الله ابن أمير المؤمنين ، من أهل بيت أمير المؤمنين وصحابة ،
 وقواده وعماله وكتابه وخدمه ومواليه وجنده ، ورفض أسمه ومكتبته ومكانه مع عبد الله
 ابن أمير المؤمنين ، عاصيا له ، أو مخالفا عليه ، فعلى محمد ابن أمير المؤمنين رده الى عبد الله
 ابن أمير المؤمنين ، بصغيره ^(٢) وقماء ، حتى يُنفذ فيه رأيه وأمره ؛ فإن أراد محمد ابن أمير المؤمنين
 خلع عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده ، أو عزل عبد الله ابن أمير المؤمنين

عن ولاية خراسان ، وثغورها وأعمالها ، والذي من حدّ عملها مما يلي همدان ، والكور التي سماها أمير المؤمنين في كتابه هذا ، أو صرّف أحد من قواده الذين ضمّهم أمير المؤمنين إليه ، ممن قدّم قزماسين ، أو أن ينقصه قليلا أو كثيرا ، مما جعله أمير المؤمنين له ، بوجه من الوجوه ، أو بحيلة من الحيل ، صغرت أو كبرت ، فاعبد الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافة بعد أمير المؤمنين ، وهو المقتدّم على محمد بن أمير المؤمنين ، وهو ولي الأمر من بعد أمير المؤمنين ، والطاعة من جميع قواد أمير المؤمنين هارون ، من أهل خراسان وأهل العطاء ، وجميع المسلمين في جميع الأجناد والأمصار لعبد الله بن أمير المؤمنين والقيام معه ، والمجاهدة لمن خالفه ، والنصر له والدّب عنه ، ما كانت الحياة في أبدانهم ، وليس لأحد منهم جميعا من كانوا أو حيث كانوا أن يخالفه ولا يعصيه ، ولا يخرج من طاعته ، ولا يطيع محمد بن أمير المؤمنين في خلع عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، وصرّف العهد عنه من بعده إلى غيره ، أو تنقصه شيئا مما جعله له أمير المؤمنين هارون ، في حياته وصحته ، واشترط في كتابه الذي كتبه عليه في البيت الحرام ، وفي هذا الكتاب ، وعبد الله بن أمير المؤمنين المصدق في قوله ، وأتم في حلّ من البيعة التي في أعناقكم لمحمد بن أمير المؤمنين هارون ، إن نقص شيئا مما جعله له أمير المؤمنين هارون ، وعلى محمد بن هارون أمير المؤمنين أن ينقاد لعبد الله بن أمير المؤمنين هارون ، ويسلم له الخلافة ، وليس لمحمد بن أمير المؤمنين هارون ، ولا لعبد الله بن أمير المؤمنين ، أن يتخلعا القاسم بن أمير المؤمنين هارون ، ولا يقدّما عليه أحدا من أولادهما وقرابتهما ، ولا غيرهم من جميع البرية ، فإذا أفضت الخلافة إلى عبد الله بن أمير المؤمنين ، فالأمر إليه في إمضاء ما جعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده ، أو صرّف ذلك عنه إلى من رأى من ولده وإخوته ، وتقديم من أراد أن يقدم قبله ، وتصيير القاسم بن أمير المؤمنين بعد من يقدم قبله ، يحكم في ذلك بما أحبّ ورأى ، فعليكم معشر المسلمين إنفاذ ما كتب به أمير المؤمنين في كتابه هذا ، وشرط عليهم وأمر به ، وعليكم السمع والطاعة لأمر المؤمنين فيما ألزمكم وأوجب عليكم لعبد الله بن أمير المؤمنين ؛

وعهد الله وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذم المسلمين ، واليهود والمواثيق التي أخذ الله على الملائكة المقررين والنبیین والمرسلين ، ووكدتها في أعناق المؤمنين والمسلمين ، لتفنن لعبد الله أمير المؤمنين بما سمى ، ولحمد وعبد الله والقاسم بنى أمير المؤمنين بما سمى ، وكتب في كتابه هذا وأشترط عليكم ، وأقرتم به على أنفسكم ، فإن أنتم بدلت من ذلك شيئا ، أو غيرتم أو نكثتم ، أو خالفتم ما أمركم به أمير المؤمنين ، وأشترط عليكم في كتابه هذا ، فبرئت منكم ذمة الله ، وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وذم المؤمنين والمسلمين ، وكل مال هو اليوم لكل رجل منكم ، أو يستيفيده إلى خمسين سنة فهو صدقة على المساكين ، وعلى كل رجل منكم المشى إلى بيت الله الحرام الذى بمكة خمسين حجة ، نذرا واجبا ، لا يقبل الله منه إلا الوفاء بذلك ، وكل مملوك لأحد منكم ، أو يملكه فيما يستقبل إلى خمسين سنة حر ، وكل امرأة له فهي طالق ثلاثا البتة ، طلاق الحرج لا مثنوية فيها ، والله عليكم بذلك كفى وراج ، وكفى بالله حسيبا .

٢ — نسخة الشرط الذى كتب عبد الله بن أمير المؤمنين

بخط يده فى الكعبة

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، فى حجة من عقله ، وجواز من أمره ، وصدق نية فيما كتب فى كتابه هذا ، ومعرفة بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين .

إن أمير المؤمنين هارون ولانى العهد والخلافة ، وجميع أمور المسلمين فى سلطانه ، بعد أنى محمد بن هارون ؛ ولانى فى حياته ثغور خراسان وكورها وجميع أعمالها ، وشرط على محمد بن هارون الوفاء بما عقد لى من الخلافة ، وولاية أمور العباد والبلاد بعده ، وولاية خراسان وجميع أعمالها ، ولا يعرض لى فى شىء مما أقطعت أمير المؤمنين ، وأبتاع لى من الصبياع والعقد والرابع ، وأبتعت منه من ذلك ، وما أعطانى أمير المؤمنين من الأموال ، والجواهر والكساء ، والمتاع والدواب ، والرقيق وغير ذلك ؛ ولا يعرض لى ولا لأحد من

عَمَّ إِلَى وَكُتَابِي بِسَبَبِ مُحَاسِبَةٍ ، وَلَا يَتَّبِعْ لِي فِي ذَلِكَ ، وَلَا لِأَحَدٍ مِنْهُمْ أَبَدًا ، وَلَا يُدْخِلْ عَلَيَّ وَلَا عَلَيْهِمْ ، وَلَا عَلَى مَنْ كَانَ مَعِيَ ، وَمَنْ أَسْتَعْنَتْ بِهِ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ مَكْرُوهًا فِي نَفْسٍ وَلَا دِيمٍ وَلَا شَعِيرٍ وَلَا بَشِيرٍ وَلَا مَالٍ ، وَلَا صَغِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ وَلَا كَبِيرٍ ، فَأُجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ وَاقْتَرَبَهُ ، وَكُتِبَ لَهُ كِتَابًا أَكَّدَ فِيهِ عَلَى نَفْسِهِ ، وَرَضِيَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هَارُونُ ، وَقِيلَ لَهُ وَعَرَفَ صَدَقَ نَيْتُهُ فِيهِ ، فَشَرَطْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَجَعَلْتُ لَهُ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَسْمَعَ لِمُحَمَّدٍ ، وَأَطِيعَ وَلَا أُعْصِيهِ ، وَأَنْصَحَهُ وَلَا أَغْشَهُ ، وَأَوْفَى بِبَيْعَتِهِ وَوَلَايَتِهِ ، وَلَا أَغْدِرُ وَلَا أُكْثِرُ ، وَأَنْقُذَ كُتْبَهُ وَأُمُورَهُ ، وَأُحْسِنَ مُؤَاوَزَتَهُ وَجِهَادَ عَدُوِّهِ فِي نَاحِيَّتِي ، مَا وَفَّقَ لِي بِمَا شَرَطْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَمْرِي ، وَسَمَّيْتُ فِي الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبْتُهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَرَضِيَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَمْ يَتَّبِعْنِي بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَنْقُضْ أَمْرًا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي شَرَطْتُهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لِي عَلَيْهِ ، فَإِنْ أَحْتَاجَ مُحَمَّدُ ابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى جُنْدٍ ، وَكُتِبَ إِلَيَّ بِأَمْرِي بِإِشْخَاصِهِ إِلَيْهِ ، أَوْ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ النَّوَاحِي ، أَوْ إِلَى عَدُوٍّ مِنْ أَعْدَائِهِ خَالَفَهُ ، أَوْ أَرَادَ تَقْصُصَ شَيْءٍ مِنْ سُلْطَانِهِ أَوْ سُلْطَانِي الَّذِي أَسْنَدَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْنَا ، وَوَلَّانَا إِيَّاهُ ، فَعَلَى أَنْ أَنْقُذَ أَمْرَهُ ، وَلَا أَخَالَفَهُ وَلَا أَقْصُرَ فِي شَيْءٍ كُتِبَ بِهِ إِلَيَّ ، وَإِنْ أَرَادَ مُحَمَّدُ أَنْ يُوَلِّيَ رَجُلًا مِنْ وَلَدِهِ الْعَهْدَ وَالْخِلَافَةَ مِنْ بَعْدِي ، فَذَلِكَ لَهُ مَا وَفَّقَ لِي بِمَا جَعَلْتُهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيَّ ، وَأَشْتَرَطُهُ لِي عَلَيْهِ ، وَشَرَطَ عَلَى نَفْسِهِ فِي أَمْرِي ، وَعَلَى لِمَنْفَذٍ ذَلِكَ وَالْوَفَاءُ لَهُ بِهِ لَا أَنْقُصُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أُغَيِّرُهُ وَلَا أَبَدِلُهُ وَلَا أَقَدِّمُ قَبْلًا أَحَدًا مِنْ وَلَدِي وَلَا قَرِيبًا وَلَا بَعِيدًا مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا أَنْ يُوَلِّيَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هَارُونُ أَحَدًا مِنْ وَلَدِهِ الْعَهْدَ مِنْ بَعْدِي ، فَيُلْزِمَنِي وَجَمَدًا الْوَفَاءَ لَهُ ، وَجَعَلْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمُحَمَّدٍ عَلَى الْوَفَاءِ بِمَا شَرَطْتُ وَسَمَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا ، مَا وَفَّقَ لِي مُحَمَّدٌ بِجَمِيعِ مَا اشْتَرَطْتُ لِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِي ، وَمَا أَعْطَانِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ الْمُسَمَّاةِ فِي هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبْتُهُ لِي ، وَعَلَى عَهْدِ اللَّهِ وَبَيْتِاقِهِ ، وَذِمَّةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَذِمَّتِي ، وَذِمَّةِ آبَائِي وَذِمَّةِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَشَدُّ مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ مِنْ خَلْقِهِ أَجْمَعِينَ ، مِنْ عَهْدِهِ وَمَوَائِقِهِ ، وَالْإِيمَانُ الْمَوْكَدَةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِالْوَفَاءِ بِهَا ، وَنَهَى عَنْ تَقْضِهَا وَتَبْدِيلِهَا ، فَإِنْ أَنَا تَقَضَّيْتُ شَيْئًا بِمَا شَرَطْتُ

وسميت في كتابي هذا، أو غيرت أو بدلت أو نكثت أو غدرت، فبرئت من الله عز وجل، ومن ولايته ودينه، ومجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقيت الله يوم القيامة كافراً مشركاً، وكل امرأة هي لي اليوم، أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً البتة، طلاق الحرج، وكل مملوك هو لي اليوم، أو أملكه إلى ثلاثين سنة، أحرار لوجه الله، وعلى المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجة، نذراً واجبا على في عنقي، جافياً راجلاً لا يقبل الله مني إلا الوفاء بذلك، وكل مال لي أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدى بالغ الكعبة، وكل ما جعلت لأمر المؤمنين، وشرطت في كتابي هذا لازم لي، لا أضمر غيره، ولا أنوي غيره. وشهد سليمان بن أمير المؤمنين، وفلان وفلان. وكتب في ذي الحجة سنة ست وثمانين ومائة.

٣ - نسخة كتاب الرشيد الى العمال

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فإن الله ولي أمير المؤمنين وولي ما ولّاه، والحافظ لما آسترعه، وأكرمه به من خلافته وسلطانه، والصانع له فيما قدّم وأتخر من أموره، والممعم عليه بالنصر والتأييد في مشارق الأرض ومغاربها، والكأل والحافظ والكافي من جميع خلقه، وهو المحمود على جميع آلائه، المسؤول تمام حسن ما أمضى من قضائه لأمر المؤمنين وعادته الجميلة عنده، وإلهام ما يرضى به ويوجب له عليه أحسن المزيد من فضله، وقد كان من نعمة الله عز وجل عند أمير المؤمنين وعينك وعند عوام المسلمين ما تولى الله من محمد وعبد الله أخي أمير المؤمنين من تبليغه بهما أحسن ما أقامت الأمة ومدت اليه أعناقها، وقذف الله لهما في قلوب العاتمة من المحبة والمودة والسكون اليهما والثقة بهما لإعاد دينهم وقوام أمورهم وجمع ألفتهم وصالح دهمائهم ودفع المحذور والمكروه من الشتمات والفرقة عنهم حتى ألقوا اليهما أزمئتهم، وأعطوهما بيعتهم، وصفقات أيمانهم بالعهود والمواثيق ووكيد الإيمان المغلظة عليهم، أراد الله فلم يكن له مرد، وأمضاه فلم يقدر أحد من العباد على نقضه ولا إزالته، ولا صرف له عن محبته ومشيتته، وما سبق في علمه منه، وأمير المؤمنين يرجو تمام النعمة

عليه وعليهما في ذلك، وعلى الأمة كافة لآعاقب لأمر الله ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه؛ ولم يزل أمير المؤمنين منذ أجمعت الأمة على عقد العهد لمحمد ابن أمير المؤمنين من بعد أمير المؤمنين، ولعبد الله ابن أمير المؤمنين من بعد محمد ابن أمير المؤمنين يعمل فكره ورأيه ونظره ورويته، فيما فيه الصلاح لها ولجميع الرعية؛ والجمع للكلمة، واللهم للشعث، والدفع للشقات والفرقة، والحسم لكيد أعداء النعم من أهل الكفر والنفاق، والغيل والشقاق، والقطع لآمالهم من كل فرصة يرجون إدراكها وأتهازها منهما بانتقاص حقهما، ويستخير الله أمير المؤمنين في ذلك ويسأله العزيمة له على مافيه الخيرة لها، ولجميع الأمة والقوة في أمر الله وحقه وأتتلاف أهوائهما، وصلاح ذات بينهما، وتحصينهما من كيد أعداء النعم، ورد حسدكم ومكرهم وبغيهم وسعيهم بالفساد بينهما، فعزم الله لأمر المؤمنين على الشخوص بهما إلى بيت الله وأخذ البيعة منهما لأمر المؤمنين بالسمع والطاعة والإنفاذ لأمره، واكتتاب الشرط على كل واحد منهما لأمر المؤمنين ولها بأشد المواثيق والعهود، وأغلظ الأيمان والتوكيد، والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما ألتبس به أمير المؤمنين اجتماع ألقتهما ومودتهما وتواصلهما ومؤازرتهم ومكاتفتهما على حسن النظر لأنفسهما، ولرعيتهما أمير المؤمنين التي أسترعاها، والجماعة لدين الله عز وجل وكتاب الله وسنن نبيه صلى الله عليه وسلم، والجهاد لعدو المسلمين من كانوا وحيث كانوا وقطع طمع كل عدو مظهر للعداوة ومسر لها، وكل منافق ومارق، وأهل الأهواء الضالة المضلة من فرقة تكيد بكيد توقعه بينهما، وبدحس يدحس به لها، وما يلتبس أعداء الله وأعداء النعم وأعداء دينه من الضرب بين الأمة والسعي بالفساد في الأرض، والدعاء إلى البدع والضلالة، نظراً من أمير المؤمنين لدينه ورعيته، وأمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ومناجحة لله ولجميع المسلمين، ودباً عن سلطان الله الذي قدره وتوحد فيه للذي حمّله إياه؛ والاجتهاد في كل ما فيه قربة إلى الله، وما يُنال به رضوانه والوسيلة عنده.

فلما قَدِمَ مَكَّةَ أَظْهَرَ لِمُحَمَّدٍ وَعَبْدَ اللَّهِ رَأْيَهُ فِي ذَلِكَ وَمَا نَظَرَ فِيهِ لَهَا، فَقَبِلَا كُلُّ مَادَاهُمَا إِلَيْهِ مِنَ التَّوَكُّيدِ عَلَى أَنْفُسِهِمَا بِقَبُولِهِ، وَكَتَبَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي بَطْنِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ بِخُطُوطِ أَيْدِيهِمَا بِمَحْضَرِ مَنْ شَهِدَ الْمَوْسِمَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَقَوَادِهِ، وَصَحَابَتِهِ وَقُضَاتِهِ، وَحُجَّاتِهِ الْكُتُبَةِ وَشَهَادَتِهِمْ عَلَيْهِمَا، كَتَّابِينَ اسْتَوْدَعَهُمَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْحُجَّاتُ، وَأَمَرَ بِتَعْلِيْقِهِمَا فِي دَاخِلِ الْكُتُبَةِ؛ فَلَمَّا فَرَغَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ فِي دَاخِلِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ وَبَطْنِ الْكُتُبَةِ؛ أَمَرَ قُضَاتَهُ الَّذِينَ شَهِدُوا عَلَيْهِمَا وَحَضَرُوا كِتَابَهُمَا أَنْ يُعْلِمُوا جَمِيعَ مَنْ حَضَرَ الْمَوْسِمَ مِنَ الْحَاجِّ وَالْعُمَرَاءِ وَوُفُودِ الْأَمْصَارِ، مَا شَهِدُوا عَلَيْهِ مِنْ شَرْطِهِمَا وَكِتَابِهِمَا وَقِرَاءَةِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، لِيُفْهَمُوهُ وَيَعْلَمُوهُ وَيَعْرِفُوهُ وَيَحْفَظُوهُ وَيُؤَدُّوهُ إِلَى إِخْوَانِهِمْ وَأَهْلِ بِلَادِهِمْ وَأَمْصَارِهِمْ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، وَقُرِئَ عَلَيْهِمُ الشَّرْطَانِ جَمِيعًا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ؛ فَانصَرَفُوا وَقَدْ أَشْتَهَرَتْ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ، وَأَثْبَتُوا الشَّهَادَةَ عَلَيْهِ، وَعَرَفُوا نَظَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَنَائَتَهُ بِصِلَاحِهِمْ، وَحَقَّقَ دِمَائِهِمْ وَلَمْ شَعْنَهُمْ، وَإِطْلَافَ جَمْرَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَاءِ دِينِهِ وَكِتَابِهِ وَجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ عَنْهُمْ، وَأَظْهَرُوا الدُّعَاءَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَالشُّكْرَ لِمَا كَانَ مِنْهُ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ نَسَخَ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ذَيْنِكَ الشَّرْطَيْنِ اللَّذَيْنِ كَتَبَهُمَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبْنَاهُ مُحَمَّدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ فِي بَطْنِ الْكُتُبَةِ فِي أَسْفَلِ كِتَابِهِ هَذَا؛ فَاحْمَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَا صَنَعَ لِمُحَمَّدٍ وَعَبْدِ اللَّهِ وَلِيِّ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ حَمْدًا كَثِيرًا، وَأَشْكِرُهُ بِبِلَائِهِ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعِنْدَ وَلِيِّ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ وَعِنْدَكَ وَعِنْدَ جَمَاعَةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثِيرًا؛ وَأَقْرَأَ كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَنْ قَبْلَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأُفِيحُهُمْ لِيَأَيَّاهُ، وَقُمَّ بِهِ بَيْنَهُمْ وَأَثْبَتَهُ فِي الدِّيْوَانِ قَبْلَكَ، وَقَبْلَ قَوَادِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَرِعِيَّتِهِ قَبْلَكَ، وَأَكْتُبُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَبِهِ الْحَوْلُ وَالْقُوَّةُ وَالطَّوْلُ. كَتَبَهُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ صَبِيحٍ يَوْمَ السَّبْتِ لِسَبْعِ لَيَالٍ بَقِيْنَ مِنَ الْمُحَرَّمِ سَنَةِ سِتٍّ وَثَمَانِينَ وَمِائَةٍ.

باب المنظوم

صوّرنا لك بالمجلد الأول حالة الشعر في صدر الدولة العباسية وذكرنا لك جملة صاحبة من شعراء ذلك العصر ووعدناك بذكر مختارات من شعرهم ، وإليك ما وعدناك به .

١ - بَسَّارُ بْنُ بُرْدِ الْعُقَيْلِيِّ^(١)

سأله المهدي لما دخل عليه فقال له : فيمن تُعَتِّدُ يا بَسَّارُ؟ فقال : أُمَّا اللِّسَانُ وَالزُّرِّيُّ
فَعَرَبِيَّانِ ، وَأُمَّا الْأَصْلُ فَعَجَمِيٌّ ، كَمَا قُلْتُ فِي شِعْرِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ :
وَنَبَيْتُ قَوْمًا بِهِمْ جَنَّةٌ * يَقُولُونَ مَنْ ذَا وَكُنْتُ الْعَلَمُ
أَلَا أَيُّهَا السَّائِلِي جَاهِدْنَا * لِيَعْرِفَنِي أَنَا أَنْتُ الْكَرَمُ

(١) هو أبو معاذ بشار المرث بن برد ، أشعر نخصري، الدولتين ، ورأس الشعراء المحدثين ، ومحمد طريق الاختراع ، والبدیع للتفننين ، وأحد البلغاء المكفوفين . وأصله من فارس طحارستان من سبي المهلب بن أبي صفرة ، ووقع ملك أبويه لبني عقيل بن كعب ، فنشأ بشار فيهم وترى في منازلهم ، واختلف إلى الأعراب الضاريين بالبصرة حتى خرج ناهقة زمانه في الفصاحة والشعر . وكان أ كنه مجدور الوجه ، قبيح المنظر ، مفرط الطول ، ضخم الجثة ، متوقد الذكاء ، صادق الحس ، لطيف الدراية ، شديد المجور والاستخفاف بالناس ، كثير الاستهتار بالدين ، قليل المبالاة للوقوع فيه ، متها بالزندقة شعوبيا ، متمصبا على العرب ، شديد التبرم بالناس ، نهاشا لأعراسهم ، لا يسلم من لسانه خليفة ولا سوقة ، وكان من سعادة الرجل من أهل البصرة ألا يعرف بشارا ولا بشار يعرضه ، فإنه إن لم يصبه في عرضه أصابه في ماله . وقال بشار الشعر ولم يبلغ عشرين ، وما بلغ الحلم إلا وهو مخشى معزة لسانه . وقد أجمع رواة الشعر ونقدته على أن بشارا هو رأس المحدثين وأسبقهم إلى معاواة البديع ، وطرق أبواب المجون والخلاعة والغزل الرقيق الحضري ، والهجاء المقلدع .

وأنه أول من جمع في شعره بين جزالة العرب ورقة المحدثين ، وفتى عن المعاني الدقيقة ، والأخيلة اللطيفة ، حتى عد شعره برزخا بين الشعر القديم والحديث ، ومجازا يعبر عليه الشعر من مرايع البداوة إلى مقاصير الحضارة . وقد طرق كل باب من أبواب الشعر التي عرفت قبله وأراني عليها ، وغلب عليه الهجاء والتشبيب بالنساء والخروج به عن الحد المألوف عند أهل زمنه ، حتى أنكزه عليه العلماء والمتورعون لما رأوا من سوء أثره في شبان البصرة . وقد نهاه المهدي عن التشبيب ، فكان إذا مالت له نفسه يذكر منه ما يشاء ويقول : إن الخليفة منعه من كذا وكذا وأنه له مطيع .

وضمن ذلك بعض قصائد مدح بها الخليفة ، فلم يزد على أن حرره الجائزة ، وشجعه على ذلك وزيره يعقوب بن داود ، وكان متورطا ، فهجاها ، فكان ذلك إلى زندقته سبب قتله . توفي سنة ١٦٧ هـ وقد نيف على التسعين . وتجد ترجمته في الأغاني (ج ٣ ص ١٩ وج ٦ ص ٧) وابن خلكان (ج ١ ص ٨٨) والشعر والشعراء (ص ٤٧٦) والفهرست (ص ١٥٩) .

نَمَتْ فِي الْكَرَامِ بَنِي عَامِرٍ * فَرُوعِي وَأَصْلِي قُرَيْشُ الْعَجَمِ
فَإِنِّي لِأُغْنِي مَقَامَ الْفَسَقِ * وَأُصْغِي الْفَتَاةَ فَمَا تَعْتَصِمِ

وكان أبو دلامة حاضراً ، فقال : كَلَّا ! لَوَجْهُكَ أَقْبَحُ مِنْ ذَلِكَ ، وَجْهِي مَعَ وَجْهِكَ ،
فقال بشار : كَلَّا ! وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَصْدَقَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَكْذَبَ عَلَى جَلِيسِهِ مِنْكَ ، وَاللَّهِ
إِنِّي لَطَوِيلُ الْقَامَةِ ، عَظِيمُ الْهَامَةِ ، تَامُّ الْأُلُوحِ ، أَصْبَحُ الْخَلْدَيْنِ ، وَلَرُبُّ مُسْتَرْثَى الْمَزُورِينَ
لِلْعَيْنِ فِيهِ مُرَادٌ . ثُمَّ قَالَ لَهُ الْمُهْدِي : مِنْ أَيِّ الْعَجَمِ أَصْلُكَ ؟ فَقَالَ : مِنْ أَكْثَرِهَا
فِي الْفُرْسَانِ وَأَشَدَّهَا عَلَى الْأَقْرَانِ ، أَهْلُ طَخَارِيسْتَانَ ؛ فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ : أَوْلَيْكَ الصُّغْدُ ،
فَقَالَ : لَا ! الصُّغْدُ تَجَارُ ، فَلَمْ يَرُدُّ ذَلِكَ الْمُهْدِي .

وكان بشار كثير التلؤن في ولّائه ، شديد التشيع والتعصب للعجم ، مرّة يقول يفتخر
بولائه في قيس :

أَمِنْتُ مَضَرَّةَ الْفُحْشَاءِ إِنِّي * أَرَى قَيْسًا تُسَبُّ^(١) وَلَا تُضَارُ
كَانَ النَّاسُ حِينَ تَغِيْبُ عَنْهُمْ * نَبَاتُ الْأَرْضِ أَخْطَاهُ الْقَطَارُ
وَقَدْ كَانَتْ يَتَدُمَّرُ خَيْلُ قَيْسٍ * فَكَانَ لَتَدْمُرَ فِيهَا دِمَارُ
بِحَيٍّ مِنْ بَنِي عَيْلَانَ شُوسٍ * يَسِيرُ الْمَوْتُ حَيْثُ يُقَالُ سَارُوا
وَمَا نَلْقَاهُمْ إِلَّا صَدْرَنَا * يَرَى مِنْهُمْ وَهُمْ حِرَارُ

ومرة يتبرأ من ولاء العرب فيقول :

أَصْبَحْتُ مَوْلَى ذِي الْجَلَالِ وَبَعْضُهُمْ * مَوْلَى الْعَرِيبِ بَخْدُ بَفْضِكَ فَانْخِرْ
مَوْلَاكَ أَوْ كَرُمَ مِنْ تَمِيمٍ كُلُّهَا * أَهْلُ الْفِعَالِ وَمِنْ قُرَيْشِ الْمَشْعَرِ
فَارْجِعْ إِلَى مَوْلَاكَ غَيْرَ مُدَافِعٍ * سَبِيحَانَ مَوْلَاكَ الْأَجَلِّ الْأَكْبَرِ

وقال يفتخر بولاء بني عَقِيل :

إِنِّي مِنْ بَنِي عَقِيلِ بْنِ كَعْبٍ * مَوْضِعُ السِّيفِ مِنْ طَلِّ الْأَعْنَاقِ

(١) تشب : تزداد وترتفع .

وُلِدَ بشارُ أعمى ، فما نظر إلى الدنيا قط ، وكان يشبه الأشياء بعضها ببعض في شعره ،
فياقنى بما لا يقدر البصراء أن يأتوا بمثله ؛ فقليل له يوما وقد أنشد قوله :
كأن مثار النقع فوق رؤوسنا * وأسياقنا ليل تهاوى كواكبها

ما قال أحد أحسن من هذا التشبيه ، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط ولا شيئا فيها ؟
فقال : إن عدم النظر يقوى ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر اليه من الأشياء ،
فيتوفر حسه وتذكرو قريحته ؛ ثم أنشدهم قوله :

عميت جنينا والذكاء من العمى * بغيت عجب الظن للعلم مؤثلا
وغاص ضياء العين للعلم رافدا * بقلب اذا ما ضيع الناس حصلا
وشعر كنور الروض لآء مت بينه * بقول اذا ما أحن الشعر أسهلا

وكان من أشد الناس تبرا بالناس . وكان يقول : الحمد لله الذى ذهب ببصرى .
فقليل له : ولم يا أبا معاذ ؟ قال : لئلا أرى ما أبغض .

قال الأصمعي : بشار خاتمة الشعراء ، والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم .
وقيل لأبي عبيدة : أمرؤ أن شعر أم بشار ؟ فقال : حكم بشار لنفسه بالاستظهار ،
لأنه قال ثلاثة عشر ألف بيت جيد ، ولا يكون عدد الجيد من شعر شعراء الجاهلية
والإسلام هذا العدد ، وما أحسبهم برزوا في مثلها ، ومروان أمدح للوك .

وسئل الأصمعي عن بشار ومروان أيهما أشعر ؟ فقال : بشار ؛ فسئل عن السبب لذلك ؛
فقال : لأن مروان سلك طريقا أكثر من يسلكه ، فلم يلحق بمن تقدمه وشركه فيه من كان
في عصره ، وبشار سلك طريقا لم يسلكه وأحسن فيه وتفرد به ، وهو أكثر تصرفا وفنون
شعرا ، وأغزر وأوسع بدعا ، ومروان لم يتجاوز مذهب الأوائل .

وقيل لبشار : ليس لأحد من شعراء العرب شعرا ولا وقد قال فيه شيئا استنكرته العرب
من ألفاظهم وشك فيه ، وأنه ليس في شعرك ما يسلك فيه ؛ قال : ومن أين يأتيني الخطأ ؟
وولدت ها هنا ، ونشأت في مجور ثمانين شيخا من فصحاء بني عكيل ما فيهم أحد يعرف كلمة

من الخطأ، وإن دخلت إلى نسائهم ففسادهم أفصح منهم، وأيقنت فأبديت^(١) إلى أن أدركت،
فمن أين يأتي الخطأ ؟ .

كان جرير بن المنذر السدوسي يفاحر بشارا، فقال فيه بشار :

أمثل بنى مضر وأئلل * فقدتكم من فاحر ما أجن
أفى النوم هذا أبا منذر * نحيراً رأيت وخيراً يَكُنْ
رأيتك والفخر فى مثاها * كعاجنة غير ما تطرح

كان بشار يهوى امرأة من أهل البصرة، فراسلها يسألها زيارته، فوصدته بذلك ثم
أخلفته، وجعل ينتظرها ليلته حتى أصبح، فلما لم تأت أرسل إليها ليعاتنها فاعتذرت بمرض
أصابها، فكذب إليها بهذه الأبيات :

يا ليلات ترداد تُكُرا * من حُب من أحببت يَكُرا
حوراء ان نظرت الي * لك سَقَتُك بالعينين نَحُرا
وكان رَجَعَ حديثها * قَطَعَ الرياض كُسين زَهرا
وكان تحت لسانها * هاروت ينفث فيه سَحرا
وتخال ما جُمِعَت عليه * ثيابها ذَهَباً وعِطرا
وكانها بَرْدُ الشِّرا * بَصَفَا وصادف منك فِطرا
جَنِيَّةٌ لِنِسِيَّةٍ * أو بين ذاك أجل أمرا
وكفاك أنى لم أُحِط * بشكاة من أحببت خُبرا
إلا مقالة زائِر * نثرت لى الأحران نثرا
متخششا تحت الهوى * عَشرا وتحت الموت عَشرا

وكان إصحاق الموصلي لا يعتد بشار ويقول : هو كثير التخليط فى نثره، وأشعاره مختلفة

لا يشبه بعضها بعضاً، أليس هو القائل :

(١) أبديت أى أخرجت إلى البادية .

إنما عَظُمُ سُليْمَى حُبِّي * قَصَبُ السُّكَّرِ لَا عَظَمَ الْجَمَلِ
وإذا أَدْنَيْتَ مِنْهَا بَصَلاً * غَلَبَ الْمِسْكُ عَلَى رِيحِ الْبَصَلِ

لو قال : كلُّ شَيْءٍ جَيِّدٌ ثُمَّ أُضِيفَ إِلَيْهِ هَذَا لَزَيَّفَهُ . وَكَانَ يُقَدِّمُ عَلَيْهِ مِرْوَانَ وَيَقُولُ : هُوَ أَشَدُّ أَسْتَوَاءَ شَعْرَمَنِهِ ، وَكَلَامُهُ وَمَذْهَبُهُ أَشْبَهُ بِكَلَامِ الْعَرَبِ وَمَذَاهِبِهَا ، وَكَانَ لَا يَبْعُدُ أَبَانُؤَاسَ الْبَيْتَةِ وَلَا يَرَى فِيهِ خَيْرًا .

قال الجاحظُ : كَانَ بَشَّارَ خَطِيْبَا صَاحِبِ مَشْتُورٍ وَمَزْدُوجٍ وَتَبَجٍّ وَرِسَائِلٍ ، وَهُوَ مِنَ الْمَطْبُوعِينَ أَصْحَابِ الْإِبْدَاعِ وَالْإِخْتِرَاعِ ، الْمُتَفَنِّينَ فِي الشَّعْرِ ، الْقَائِلِينَ فِي أَكْثَرِ أَجْنَاسِهِ وَضُرُوبِهِ . وَقَالَ الشَّعْرَ فِي حَيَاةِ جَرِيرٍ وَتَعَرَّضَ لَهُ ، وَحَكَى أَنَّهُ قَالَ : هَجُوتُ جَرِيرًا فَأَعْرَضَ عَنِّي ، وَلَوْ هَاجَانِي لَكُنْتُ أَشْعَرَ النَّاسِ ، وَكَانَ يَدِينُ بِالرَّجْعَةِ ، وَيَكْفُرُ بِجَمِيعِ الْأُمَّةِ ، وَيَصُوبُ رَأْيَ إِبْلِيسَ فِي تَقْدِيمِ النَّارِ عَلَى الطِّينِ ، وَذَكَرَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي شَعْرِهِ فَقَالَ :

الْأَرْضُ مُظْلِمَةٌ وَالنَّارُ مُشْرِقَةٌ * وَالنَّارُ مَعْبُودَةٌ مُذْكَاتُ النَّارِ

وقال بعضُ الرُّوَاةِ لِأَبِي عَمْرٍو : مَنْ أَبْدَعَ النَّاسُ بَيْتًا؟ قَالَ الَّذِي يَقُولُ :

لَمْ يَطُلْ لَيْلَى وَلَكِنْ لَمْ أَنْمَ * وَفَقَى عَنِّي الْكَرَى طَيْفُ الْأَنْمِ
وَإِذَا قُلْتُ لَهَا جُودَى لَنَا * نَحَرَجْتُ بِالصَّمْتِ عَنْ لَا وَنَعَمَ
رَوْحِي يَا عَبْدَ عَنِّي وَأَعْلَمِي * أَنِّي يَا عَبْدَ مَنْ لَحْمٍ وَدَمٍ
إِنِّي فِي بُرْدَى جَسْمَا نَاحِلًا * لَوْ تَوَكَّأْتُ عَلَيْهِ لَأَنْهَدَمَ

وهذه الأبيات لبشار .

قال : مَنْ أَمْدَحَ النَّاسُ؟ قَالَ الَّذِي يَقُولُ :

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ أَبْتغَى الْغَنَى * وَلَمْ أَذِرْ أَنَّ الْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدَى
فَلَا أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ ذُووُ الْغَنَى * أَفَدْتُ وَأَعْدَانِي فَأَتَلَقْتُ مَا عِنْدِي

وهذه الأبيات لبشار .

ودخل بشارٌ على إبراهيم بن عبد الله بن حسن ، فأنشده قصيدةً يحجو فيها المنصور
ويشير عليه برأى يستعمله في أمره ، فلما قُتِل إبراهيم خاف بشار ، فقلب الكُنية وأظهر أنه
كان قالها في أبي مسلم ، وحذف منها أبياتا ، وأولها :

أبا جعفرٍ ما طولُ عيشٍ دائمٍ * ولا سألُ عمّا قليلٍ بسالمٍ
قلب هذا البيت فقال : أبا مسلم :

على الملك الجبار يفتحم الردى * ويصرعه في المأزق المتلاحم
كأنك لم تسمع بقتل متوج * عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم
تقسم كسرى رهطه بسيوفهم * وأمسى أبو العباس أحلام نائم

يعنى الوليد بن يزيد

وقد كان لا يخشى انقلاب مكيدة * عليه ولا جرى النحوس الأشائم
مقيماً على اللذات حتى بدت له * وجوه المنايا حاسرات العائم
وقد ترد الأيام غراً وربما * وردت ككوحاً بإديات الشكائم
ومروان قد دارت على رأسه الرحا * وكان لما أجمت نزر الجرائم
فأصبحت تجرى سادراً في طريقهم * ولا تبقى أشباه تلك النقايم
تجردت للإسلام تعفو سبيله * وتُغري مطاه^(١) لليون الضراغم
فما زلت حتى استنصر الدين أهله * عليك فعادوا بالسيوف الصوارم
فرم وزراً يُحيك يا بن سلامة * فليست بناج من مضيم وضائم

جعل موضع "يا بن سلامة" "يا بن وشيكة" وهي أم أبي مسلم

لحاً الله قوما رأسوك عليهم * وما زلت مرءوساً خبيث المطاعم
أقول لبسام عليه جلاله * غدا أزيحاً عاشقاً للكارم
من الفاطميين الدعاة إلى الهدى * جهارا ومن يهديك مثل ابن فاطم

(١) مطاه : ظهره .

هذا البيتُ حذفه بشار من الأبيات :

سِرَاجٌ لَعِينٌ الْمُسْتَضَى وَتَارَةً * يكون ظلاماً للعدو المُنْزَاحِمِ
إذا بلغ الرأي المشورة فاستعين * برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غَضَاضَةً ^(١) * فإن الخِصَافِي قُوَّةٌ للقوادم ^(٢)
وما خيرُ كُفٍّ أَمْسَكَ الْغُلَّ أَخْتَهَا ^(٣) * وما خيرُ سَيْفٍ لم يُؤَيِّدْ بَقَائِمِ
وخلّ الهَوَيْنَا للضعيف ولا تكن * تَوْمًا فإن الحزم ليس بناثم
وحارب إذا لم تُعْطَ إِلَّا ظُلَامَةً ^(٤) * شِبَا الْحَرْبِ خَيْرٌ مِنْ قَبُولِ الْمَظَالِمِ
وأذن على القُرْبَى الْمُقَرَّبِ نَفْسَهُ * ولا تُشْهِدِ الشورى أمراً غيرَ كَاتِمِ
فإنك لا تَسْتَطِردُ الْهَمَّ بِالْمُنَى * ولا تَبْلُغُ الْعَلِيَا بِغَيْرِ الْمَكَارِمِ
إذا كنتَ فَرْدًا هَرَّكَ الْقَوْمَ مُقْبِلًا * وإن كنتَ أَدْنَى لم تُفْزَ بِالْعِزَائِمِ
وما قَرَعَ الْأَقْوَامَ مِثْلُ مُشِيعٍ ^(٥) * أَرِيْبٍ وَلَا جَلَى الْعَمَى مِثْلُ عَالِمِ

قال أبو عبيدة : ميمية بشار هذه أحبّ إلى من ميمية جرير والفرزدق . وقال الأصمعي لبشار : يا أبا معاذ ، إن الناس يُعْجَبُونَ مِنْ أَيْبَاتِكَ فِي الْمَشُورَةِ ؛ فقال له : يا أبا سعيد ، إن المُشَاوِرِينَ صَوَابٌ يَفُوزُ بِمُثْمَرَتِهِ ، أَوْ خَطَأٌ يُشَارِكُ فِي مَكْرُوهِهِ ؛ فقال له : أنتَ في قولك هذا أشعر منك في شعرك .

توفى ابن لبشار بخرع عليه ، فقيل له : أجزقَ دَمَتَهُ ، وفَرَطَ أَفْطَرَطَهُ ، وذُحِرَ أَرْزَنَتَهُ ؛ فقال : وَلَدٌ دَفَنْتُهُ ، وَكُلٌّ تَعَجَّلْتُهُ ، وَغَيْبٌ وَعِدَّتُهُ فَاَنْتَظَرْتُهُ ، وَاللَّهِ لَئِنْ لَمْ أَجْزَعْ لِلنَّقْصِ لَا أَفْرَحَ لِلزِّيَادَةِ . وقال يرثيه :

(١) الغضاضة : المنقصة . (٢) الخوافي : الريشات الصغيرات التي في جناح الطائر إذا ضمها خميت ، واحدها خافية صد القوادم . (٣) الغل بالضم : الحديد التي تجمع بين يد الأسير وعنقه وتسمى الجماعة . (٤) الشبا بالفتح جمع شبة وهي من كل شيء ، حده . (٥) المشيع : الشجاع .

أَجَارَتْسَا لَا تَجْزَعِي وَأَيْبِي * أَتَانِي مِنَ الْمَوْتِ الْمُطْلُ نَصِيبِي
بُنَى عَلَى رَغْمِي وَنُخْطَى رُزْنُهُ * وَبُدِّلَ أَجَارًا وَجَالَ قَلِيبُ^(١)
وَكَانَ كَرِيمَانِ الْعُرُوسِ تَخَالُهُ * ذَوِي بَعْدَ إِشْرَاقِ يَسْرٍ وَطِيبِ
أَصْبَتْ بِهِ فِي حِينَ أَوْرَقَ غَصْنُهُ * وَأَلْقَى عَلَى الْهَمِّ كُلِّ قَرِيبِ
عَجِبْتُ لِإِسْرَاعِ الْمَنِيَّةِ نَحْوَهُ * وَمَا كَانَ لَوْ مُلِّتُهُ بِعَجِيبِ

قيل لبشار : إنك لتجىء بالشئ الهجين المتفاوت ؛ قال : وما ذاك ؟ قيل : بينما تقول شعرا يثير النقع وتُخلع به القلوب مثل قولك :

إِذَا مَا غَضَبْنَا غَضَبَةً مُضْمرِيَّةً * هَتَكَ حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ تُمِطَرَ الدَّمَ
إِذَا مَا أَعْرَنَّا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ * ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَ

تقول :

رَبَابَةُ رَبَّةُ الْبَيْتِ * تَصُبُّ الْخَلَّ فِي الزَّيْتِ
لَهَا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ * وَدِيكَ حَسَنُ الصَّوْتِ

فقال : لكل وجه ، فالقول الأول جد ، وهذا قلته في ربابة جاريتي ، وأنا لا آكل البيض من السوق ، وربابة لها عشر دجاجات وديك ، فهي تجمع لي البيض ، فهذا عندها أحسن من « قِفَانَبِيك » عندك . وسألتها جارية مَغْنِيَةً لبعض ولد سليمان بن علي ، وكانت محسنة بارعة الظرف ، أن يذكرها في قصيدة ولا يذكر فيها اسمها ولا اسم سيدها ويكتب بها إليها ، فانصرف وكتب إليها :

وَذَاتِ دَلٍّ كَانَ الْبَدْرُ صَوْرَتُهَا * بَاتَتْ تَغْنِي عَمِيدَ الْقَلْبِ سَكْرَانَا
« إِنَّ الْعَيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ * قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا »
فَقُلْتُ أَحْسَنْتِ يَا سَوْدَى وَيَا أُمْلَى * فَأَسْمِعِينِي جَزَاكَ اللَّهُ إِحْسَانَا
« يَا حَبَّذَا جَبَلُ الرِّيَّانِ مِنْ جَبَلِ * وَحَبَّذَا سَاكِنُ الرِّيَّانِ مَنْ كَانَ »
قَالَتْ فَهَلَّا فَدَتْكَ النَّفْسُ أَحْسَنُ مِنْ * هَذَا لِمَنْ كَانَ صَبَّ الْقَلْبِ حَيْرَانَا

(١) الجبال : حافة القبر ونواحيه .

« يا قوم أذني لبعض الحى عاشقة * والأذن تعشق قبل العين أحيانا »
 فقلت أحسنت أنت الشمس طالعة * أضربت في القلب والأحشاء نيرانا
 فما سمعني صوتا مطربا هزجا * يزيد صبا محبا فيك أشجانا
 يا ليتني كنت ثفاحا مفلجة * أو كنت من قضب الرنحان رنحانا
 حتى إذا وجدت ريحي فأعجبها * ونحن في خلوة مثلت لإنسانا
 فتركت عودها ثم أنثت طربا * تشدو به ثم لا تحفيه كتمانا
 « أصبحت أطوع خلق الله كلهم * لأكثر الخلق لى في الحب عصيانا »
 فقلت أطربتنا يازين مجلسنا * فهات إنك بالإحسان أولانا
 لو كنت أعلم أن الحب يقتلني * أعددت لى قبل أن ألقاك أكفانا
 فغنت الشرب صوتا موتقا رملا * يذكي السرور ويبيكي العين ألوانا
 « لا يقتل الله من دامت مودته * والله يقتل أهل الغدر أحيانا »

كان الزوار يُسمون في قديم الدهر الى أيام خالد بن برمك السُّؤال ، فقال خالد : هذا والله أسم أستثقله لطلاب الخير ، وأرفع قدر الكرم عن أن يُسمى به أمثال هؤلاء المؤمنين ، لأن فيهم الأشراف والأحرار وأبناء النعم ، ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل أدبا ، ولكننا نسميهم الزوار ، فقال بشار يمدحه بذلك :

حدا خالد فى فعله حدو برمك * فمجد له مستطرف وأصيل
 وكان ذوو الآما يدعون قبله * بلفظ على الإعدام فيه دليل
 يسمون بالسؤال فى كل موطن * وإن كان فيهم نايه وجليل
 فسماهم الزوار سثرا عليهم * فاستأره فى المهتدين سُدول

وقال بشار هذا الشعر فى مجلس خالد فى الساعة التى تكلم خالد بهذا فى أمر الزوار ، فأعطاه لكل بيت ألف درهم .

دخل بشار على عَقْبَةَ بن سَلَمَ فأَنشده بعض مدائمه فيه ، وعنده عَقْبَةُ بن رُوْبَةَ يَنشده
رَجَزًا يمدحه به ، فسمعه بشار وجعل يستحسن ما قاله الى أن فرغ ، ثم أقبل على بشار
فقال : هذا طراز لا تُحْسِنُه أنت يا أبا مُعَاذٍ ، فقال بشار : أَلِي يَقَالُ هذا ! أنا والله أَرَجَزُ منك
ومن أبيك وجدك ؛ فقال له : عَقْبَةُ أنا وأبي فَتَحَنَّا للناس بابَ الغريب وبابَ الرَّجَزِ ، وإني
لخليقٌ أن أَسُتدَّ عليهم ؛ فقال بشار : أَرَحِمَهُم رَحِمَكَ اللهُ ، ولما كان من غَدٍ غدا على عَقْبَةَ
أَبْنِ سَلَمَ وعنده عَقْبَةُ بن رُوْبَةَ ، فأَنشده أَرَجُوزته التي مَدَحَها فيها :

يا طَلَّالَ الحَيِّ بذات الصَّمَدِ * بالله خَبَّرَ كَيْفَ كُنْتُ بعدى
أَوْحِشْتُ من دَعْدٍ وَتَرَبَّ دَعْدِ * سَقِيًّا لَأَسْمَاءِ ابْنَةِ الْأَشَدِّ
قَامَتْ تَرَاى إِذْ رَأَتْنى وَحْدَى * كالشَّمْسِ تَحْتَ الزُّبُرِجِ الْمُنْقَدِّ^(١)
صَدَّتْ بِحَدِّ وَجَلَّتْ عَن حَدِّ * ثُمَّ انْثَلَتْ كَالنَّفْسِ الْمُزْتَدِّ
عَهْدِي بِهَا سَقِيًّا لَهُ مِنْ عَهْدِ * تُخْلِفُ وَعْدًا وَتَنْفِي بِوَعْدِ
فَنَحْنُ مِنْ جَهْدِ الْهَوَى فِي جَهْدِ * وَزَاهِرٍ مِنْ سَيْطٍ وَجَعْدِ
أَهْدَى لَهُ الدَّهْرُ وَلَمْ يَسْتَهْدِ * أَفْوَافُ نَوْرِ الْحَبْرِ الْمَجْدِ
يَلْقَى الضَّحَى رِيحَانَهُ بِسَجْدِ * بُدِّلْتُ مِنْ ذَاكَ بُكِّي لَا يُجْدِي
وَافِقَ حُظًّا مِنْ سَعَى بِجَدِّ * مَا ضَرَّ أَهْلَ النُّوْكِ ضَعْفُ الْجَدِّ
الْحَزْرُ يُلْحَى وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ * وَلَيْسَ لِلْإِحْفِ مِثْلُ الرَّدِّ
وَالنَّصْفُ يَكْفِيكَ مِنَ التَّعْدَى * وَصَاحِبُ كَالِدُمِّلِ الْمُتَدِّ
حَمَلْتُهُ فِي رَقْعَةٍ مِنْ جِلْدِي * أَرْقُبُ مِنْهُ مِثْلَ يَوْمِ الْوَرْدِ
حَتَّى مَضَى غَيْرَ فَقِيدِ الْفَقْدِ * وَمَا دَرَى مَا رَغِبِي مِنْ زُهْدِ
لِاسْلَمَ وَحَيَّتْ أَبَا الْمُلْدِ * مِفْتَاحُ بَابِ الْحَدَثِ الْمُنْسَدِّ
مُسْتَرَكَّ النَّيْلِ وَرَى الزُّنْدِ * أَغْمَرَ لِبَاسَ ثِيَابِ الْحَدِّ

(١) الزبرج : الزينة من وثى أو جواهر .

ما كان متى لك غير الود * ثم شاء مثل ريح الورد
 نسجته في محكمات الند * فالبس طرازي غير مستترد
 لله أيامك في معد * وفي بني قحطان غير عد
 يوماً بذى طخفة^(١) عند الحد * ومثله أودعت أرض الهند
 بالمرفقات والحديد السرد * والمقربات^(٢) المبيعات الجرد
 إذا الحيا أكدى بها لا تكدي * تلحم أمراً وأمورا تسدي
 وابن حكيم إن أذاك يردى * أصم لا يسمع صوت الرد
 حيتته بخفة المعد * فانهت مثل الجبل المنهد
 كل أمرئ رهن بما يؤدى * ورب ذى تاج كريم الحد
 كال كسرى وكال برد * أنكب جاف عن سبيل القصد
 * فصلته عن ماله والولد *

فطرب عقبة بن سلم وأجزل صلاته ، وقام عقبة بن ربيعة فخرج عن المجلس يخزي وهرب
 من تحت ليلته فلم يعد إليه .

قال الجاحظ : فانظر الى سوء أدب عقبة بن ربيعة وقد أجمل بشار مخضره وعشرته ،
 فقابل بهذه المقابلة القبيحة ، وكان أبوه أعلم خلق الله به ، لأنه قال له وقد فآخه بشعره :
 أنت يابني ذهبان الشعر ، اذا مت مات شعرك معك ، فلم يوجد من يرويه بعدك ، فكان
 كما قال له ، ما يعرف له بيت واحد ولا خبر غير هذا الخبر القبيح الإخبار عنه ، الدال على
 سخفه وسقوطه وسوء أدبه .

وقال بشار في هوى له كانت بالبصرة ، ثم خرجت مع زوجها الى عمان :
 هوى صاحبي ريح الشمال اذا جرت * وأشفى قلبي أن تهب جنوب
 وما ذاك إلا أنها حين تنتهى * تنأى وفيها من عبدة طيب

(١) طخفة : موضع بعد النجاج وبعد إمرة في طريق البصرة الى مكة ، ومنه يوم طخفة لبني يربوع على قابوس
 ابن المنذر بن ماء السماء . (٢) المقربات : الخيل التي يقرب مربطها ومعلقها لكرامتها .

عَذِيرى مِنَ الْعُدَّالِ إِذْ يَعْدُونَنِى * سَفَاهَا وَمَا فِى الْعَاذِلِينَ لِيُب
يَقُولُونَ لَوْ عَزَّيْتَ قَلْبَكَ لَأَرْعَوَى * فَقُلْتُ وَهَلْ لِلْعَاشِقِينَ قُلُوبُ
إِذَا نَطَقَ الْقَوْمُ الْجُلُوسُ فَإِنِّى * مُكِبٌّ كَأَنِّى فِى الْجَمِيعِ غَرِيبُ
جاء أَبُو الشَّحْمَقِ إِلَى بَشَّارٍ يَشْكُو إِلَيْهِ الضِّيقَ وَيَحْلِفُ لَهُ أَنَّهُ مَا عِنْدَهُ شَيْءٌ ، فَقَالَ لَهُ
بَشَّارٌ : وَاللَّهِ مَا عِنْدِي مَا يَغْنِيكَ ، وَلَكِنْ قُمْ مَعِيَ إِلَى عُقْبَةَ بْنِ سَلَمٍ ، فَقَامَ مَعَهُ ، فَذَكَرَ لَهُ
أَبَا الشَّحْمَقِ وَقَالَ : هُوَ شَاعِرٌ وَلَهُ شُكْرٌ وَثَاءٌ ، فَأَمَرَ لَهُ بِخَمْسَائَةِ دِرْهَمٍ ، فَقَالَ لَهُ بَشَّارٌ :
بِأَوَّاحِدِ الْعَرَبِ الَّذِى * أَمْسَى وَلَيْسَ لَهُ نَظِيرُ
لَوْ كَانَتْ مِثْلُكَ آخِرًا * مَا كَانَ فِى الدُّنْيَا فَقِيرُ
فَأَمَرَ لِبَشَّارٍ بِأَلْفَى دِرْهَمٍ ، فَقَالَ أَبُو الشَّحْمَقِ : نَفَعْتَنَا وَنَعَمْنَاكَ يَا أَبَا مَعَاذٍ ، بِفَعْلٍ
بَشَّارٍ يَضْحَكُ .

دَخَلَ يَزِيدُ بْنُ مَنْصُورِ الْحِمَيْرِىَّ عَلَى الْمَهْدِىِّ وَبَشَّارٍ بَيْنَ يَدَيْهِ يُنْشِدُهُ قَصِيدَةً أَمْتَدَحَهُ
بِهَا ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ يَزِيدٌ ، وَكَانَتْ فِيهِ غَفْلَةٌ ، فَقَالَ : يَا شَيْخُ ، مَا صَنَعْتُكَ ؟ فَقَالَ :
أَتَقْبُ اللَّوْلُو ، فَضَحَكَ الْمَهْدِىُّ ، ثُمَّ قَالَ لِبَشَّارٍ : أَغْرُبُ وَيْلَكَ ! أَلْتَنَادَرُ عَلَى خَالِى ؟
فَقَالَ لَهُ : وَمَا أَصْنَعُ بِهِ ؟ يَرَى شَيْخًا أَعْمَى يُنْشِدُ الْخَلِيفَةَ شِعْرًا وَيَسْأَلُهُ عَنْ صِنَاعَتِهِ .
وَقَفَّ عَلَى بَشَّارٍ بَعْضُ الْحُجَّانِ ، وَهُوَ يُنْشِدُ شِعْرًا ، فَقَالَ لَهُ : أَسْتَرْ شِعْرَكَ هَذَا كَمَا تَسْتَرْ
عَوْرَتَكَ ، فَصَفَّقَ بَشَّارٌ بِيَدَيْهِ وَغَضِبَ ثُمَّ قَالَ لَهُ : وَمَنْ أَنْتَ ؟ وَيْلَكَ ! قَالَ : أَنَا — أَعَزُّكَ اللَّهُ —
رَجُلٌ مِنْ بَاهِلَةَ ، وَأَخْوَالِى سَالُونَ ، وَأَصْهَارِى عُكْلٌ ، وَأَسْمَى كَلْبٌ ، وَمَوْلَدِى بِأَضَاخٍ ^(١) ،
وَمَنْزَلِى بِظَفَرِ بِلَالٍ ، فَضَحَكَ بَشَّارٌ ، ثُمَّ قَالَ : أَذْهَبُ وَيْلَكَ ! فَأَنْتَ عَتِيقٌ لَوْمِكَ ، قَدْ عَلِمَ اللَّهُ
أَنَّكَ آسْتَرْتَ مَنِّى بِمَحْصُونٍ مِنْ حَدِيدٍ .

مَرَّ بَشَّارٌ بِرَجُلٍ قَدْ رَحَّمَتْهُ بَغْلَةٌ وَهُوَ يَقُولُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا ، فَقَالَ لَهُ : بَشَّارُ أَسْتَرِدَّهَ يَزِيدُكَ .
وَمَرَّ بِهِ قَوْمٌ يَحْمِلُونَ جَنَازَةً وَهُمْ يُسْرِعُونَ الْمَشَى بِهَا ، فَقَالَ : مَا لَهُمْ مُسْرِعِينَ ؟ أَتَرَاهُمْ سَرَقُوهُ
فَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ يُلْحَقُوا فَيُؤْخَذَ مِنْهُمْ .

(١) مِنْ قَرَى الْيَمَامَةِ لِبْنِ مِير .

رفع غلامٌ بشار إليه في حساب نفقته جلاءَ امرأةٍ عشرةَ دراهم، فصاح به بشار وقال :
والله ما في الدنيا أعجب من جلاء امرأةٍ أعمى بعشرة دراهم، والله لو صَدِثْتُ دَيْنُ الشمس
حتى يبقى العالمُ في ظُلْمَةٍ ما بلغت أجرةً من يحلوها عشرة دراهم .

قال قدامةُ بن نوح : كان بشارٌ يحشو شعره إذا أُعوزته القافية والمعنى بالأشياء التي
لا حقيقة لها ؛ فمن ذلك أنه أُنشِد يوما شعرا له فقال فيه : « غنّى للغريض يا بن قنان »
فقال له : من ابن قنان هذا ؟ لسنا نعرفه من معنى البصرة ، قال : وما عليكم منه ؟ أَلَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ
دين فتنطالبوه به ، أو ثارٌ تريدون أن تُدركوه ، أو كَفَلْتُ لَكُمْ به ، فإذا غاب طالبتُموني
بإحضاره ؛ قالوا : ليس بيننا وبينه شيء من هذا ، وإنما أردنا أن نعرفه ، فقال : هو رجل
يغنى لي ولا يخرج من بيتي ، فقالوا له : إلى متى ؟ فقال : مذ يوم وُلِدَ وإلى أن يموت . وذكر
أيضا في هذه القصيدة « البردان » فقال له : يا أبا معاذ ، أين البردان هذا ؟ لسنا نعرفه
بالبصرة ، فقال : هو بُيت في بيتي سَمِيَتْه بالبردان ، أفعليكم من تسميتي داري وبيوتها شيء
فتسألوني عنه ؟ .

قالت امرأةٌ لبشار : أى رجل أنت لو كنت أسود اللحية والرأس ، قال : أما علمت
أن بيض البزاة أشهر من سود الغربان ؟ فقالت له : أما قولك فحسن في السمع ، ومن لك
بأن يحسن شبيب في العين كما حسن قولك في السمع ؟ فكان بشار يقول : ما أخصني قط غير
هذه المرأة .

دعاه رجل إلى منزله فأكل وشرب ، ولما أراد الانصراف فامت جارية للرجل وأخذت
بيده ، فلما صار بالصبحن أوما إليها ليُقبَلها ، فأرسلت يدها من يده ، بفعل يعول في العرصة
ونخرج مولى الجارية فقال : مالك يا أبا معاذ ؟ فقال : أذنبْتُ ذنبا ولا أبرح أو أقول شعرا ،
فقال :

أَتُوبُ إِلَيْكَ مِنَ السَّيِّئَاتِ * وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ فَعَلَتِي
تَناوَلْتُ ما لم أَرِدْ نَيْلَهُ * على جهل أُمْرِي وفي سَكْرَتِي

ووالله والله ما جئته * لِعَمْدٍ ولا كان من همتي
ولا قَتْتُ إِذَا ضائعاً * وعَدَبني الله في مِيتي
فمن نال خيراً على قُبلةٍ * فلا بارك الله في قُبلي

لما كثر استهتار نساء البصرة وشبَّانها بشعر بشار، وقال سوار بن عبد الله ومالك بن دينار: ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى، وما زالا يعطانه وكان وإصل بن عطاء يقول: إن من أخدع حبايل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى المُنْجِد، فلما كثر ذلك وأنهى خبره إلى المهديّ نَهَاهُ عن ذِكر النساء وقول التشبيب، وكان المهديّ من أشد الناس غيرةً، فقال في ذلك:

يا مَنْظَرًا حَسَنًا رَأَيْتُهُ * في وجه جارية فَدَيْتُهُ
بَعَثْتُ إِلَى تَسْوُمِي * ثَوْبَ الشَّبابِ وَقَدْ طَوَيْتُهُ
وَاللَّهِ رَبِّ مُحَمَّدٍ * ما لَنْ غَدَرْتُ وَلَا نَوَيْتُهُ
أَمْسَكْتُ عَنْكَ وَرَبِّمَا * عَرَّضَ الْبَلَاءُ وَمَا آبَتُغِيَّتُهُ
إِنَّ الْخَلِيفَةَ قَدْ أَبَى * وَإِذَا أَبِي شَيْئًا أَبَيْتُهُ
وَمُحَضَّبٍ رَخِصَ الْبَنَى * بَكَى عَلَىَّ وَمَا بَكَيتُهُ
وَيُسْوَقي بَيْتُ الْحَبِيدِ * بِي إِذَا أَذْكَرْتُ وَأَيْنَ بَيْتُهُ
قَامَ الْخَلِيفَةُ دُونَهُ * فَصَبَرْتُ عَنْهُ وَمَا قَلَيْتُهُ
وَنَهَانِي الْمَلِكُ الْهَمَامَا * مِمنَ عَنِ النِّسَاءِ وَمَا عَصَيْتُهُ
لَا بَلَّ وَفِيْتُ فَلَمْ أُضِعْ * عَهْدًا وَلَا رَأْيَا رَأَيْتُهُ
وَأَنَا الْمُطَلَّ عَلَى الْعِدَا * وَإِذَا فَلَا الْحَمْدُ أَشْتَرَيْتُهُ
أُضْفِي الْخَلِيلَ إِذَا دَنَا * وَإِذَا نَأَى عَنِّي نَأَيْتُهُ
وَأَمِيلُ فِي أُنْسِ النَّدِيدِ * مِمَّنْ مِنَ الْحَيَاءِ وَمَا أَشْتَهَيْتُهُ
وكان الخليل بن أحمد ينشد هذه الأبيات ويستحسنها ويعجب بها .

وكان لبشار خمسة نُدَماء، فمات منهم أربعة وبقى واحد يقال له : البراء، فركب في زورق يُريد عبور دجلة العُوراء فغرق، فكان بشار يقول : ماخير في الدنيا بعد الأصدقاء، ثم رثى أصدقاءه بقوله :

يا بن موسى ماذا يقول الإمام * في فتاة بالقلب منها أَوَامُ
بِتْ مِنْ حَبِّهَا أَوْقَرُ بِالْكَأ * س وَيَهْفُو عَلَى فَوَادِي الْهِيَامِ
لَمْ يَكُنْ بَيْنَهَا وَبَيْنِي إِلَّا * كُتُبُ الْعَاشِقِينَ وَالْأَحْلَامِ
يا بن موسى أَسْقِنِي وَدَعْ عَنْكَ سَلَمِي * إِن سَلَمِي حَيٌّ وَفِيَّ أَحْتِشَامِ
رَبِّ كَأْسٍ كَالسَّلْسِيلِ تَعَلَّدَ * تَبْتُهَا وَالْعِيُونُ عَنِّي نِيَامِ
حُبِسْتُ لِلشُّرَاةِ فِي بَيْتِ رَأْسٍ * عَتَقْتُ عَائِيسًا عَلَيْهَا الْخِتَامِ
نَفَحْتُ نَفْحَةً فَهَزَّتْ نَدِيمِي * بِنَسِيمٍ وَأَنْشَقَّ عَنْهَا الزُّكَامِ
وَكَأَنَّ الْمَعْلُولَ مِنْهَا إِذَا رَأَى * حَ شَجَّ فِي لِسَانِهِ رِيسَامِ^(٢)
صَدَمْتُهُ الشَّمُولُ حَتَّى بَعِينِي * ه أَنْكَسَارٌ وَفِي الْمَفَاصِلِ خَامِ
وَهُوَ بَاقِي الْأَطْرَافِ حَيْثُ بِهِ الْكَأُ^(٣) * سُ وَمَاتَتْ أَوْصَالُهُ وَالْكَلَامِ
وَفَتَى يَشْرَبُ الْمُدَامَةَ بِالْمَا * لَ وَيَمْشِي يَرُومُ مَا لَا يُرَامِ
أَنْفَدْتُ كَأْسَهُ الدَّنَانِيرَ حَتَّى * ذَهَبَ الْعَيْنُ وَأَسْتَقَرَّ السَّوَامِ
تَرَكَهُ الصَّهْبَاءُ يَرْنُو بَعِينِ * نَامَ الْإِنْسَانُهَا وَلَيْسَتْ تَنَامِ
جُنَّ مِنْ شَرِّبَةٍ تُعَلَّلُ بِأُخْرَى * وَبَكَى حِينَ سَارَ فِيهِ الْمُدَامِ
كَانَ لِي صَاحِبًا فَأَوْدَى بِهِ الدَّهْمَ * رُ وَفَارَقْتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامِ
بَقِيَ النَّاسُ بَعْدَ هُلُوكِ نَدَامَا * يَ وَقُوعًا لَمْ يَشْعُرُوا مَا الْكَلَامِ
بَحَزُّورِ الْإِنْسَارِ لَا كَيْدٌ فِيهِ^(٤) * مَا لِيَاغٍ وَلَا عَلَيْهَا سَنَامِ

(١) بيت رأس : قرية بالشَّام من قرى حلب ينسب إليها الخمر .
(٢) البرسام : علة يهذى فيها وهو ورم حار يعرض للهباب الذي بين الكبد والأمعاء ثم يتصل إلى الدماغ .
(٣) حيث بالإدغام لغة في حتى كرضى .
(٤) الأيسار : جمع يسر، وهو اللاعب بالقِداح .

يا بن موسى فقد الحبيب على العي * بن قداة وفي الفؤاد سقام
كيف يصفو لي النعيم وحيداً * والأخلاء في المقابر هام
نفسهم على أم المنايا * فأنامتهم بعنف فناموا^(١)
لا يغيض السجّام عيني عليهم * إنما غاية الحزين السجّام
وقال في نهى الخليفة إياه عن ذكر النساء :

والله لولا رضا الخليفة ما * أعطيت ضيماً على في شجن
وربما خير لأبن آدم في الـ * كره وشقّ الهوى على البدن
فاشرب على أبنية الزمان فما * تلقى زماناً صفا من الأبن^(٢)
الله يعطيك من فواضله * والمرء يغيض عينا على الكمن^(٣)
قد عشت بين الریحان والزّاح والزّ * هر في ظل مجلس حسن
وقد ملأت البلاد ما بين يغب * ور الى القيروان فالين
شعراً تصلّ له العوائق والشّد * يب صلاة الغواة للوثن
ثم نهاني المهدي أنصرف * نفسي صنيع الموفق اللّين
فالحمد لله لا شريك له * ليس بباقي شيء على الزمن

وأنشد المهدي قصيدته التي أولها :

تجاللت عن فيهر وعن جارتى فهر * وودعت نعا بالسلام وبالبشر^(٣)
وقالت سليمي فيك عنا جلادة * محلك دان والزيارة عن عفر^(٣)
أخي في الهوى مالى أراك جفوتنا * وقد كنت تقفونا على العسر واليسر
تأقلت إلا عن يد أستفيدها * وزورة أملاك أشد بها أزرى
وأخرجني من وزر خمسين حجة * فتى هاشمي يقشعر من الوزر

(١) نفسهم : حسدتهم . (٢) الكمن واحداً كمنة وفي جرب وحجرة تبقى في العين من رمد يساء علاجه .

(٣) العفر : قلة الزيارة ، يقال : ما تأتينا الا عن عفر أي بعد قلة زيارة وطول عهد .

دَفَنْتُ الهوى حَيًّا فَلَسْتُ بِزَائِرٍ * سَلِمَى وَلَا صَفراءَ مَا قَرَّرَ الْقُمْرَى
وَمُصَفَّرَةً بِالزَّعْفَرَانِ جَلُودُهَا * إِذَا أَجْتَلَيْتُ مِثْلَ الْمَفْرَطِحةِ الصَّفَرَى
فَرَبِّ تَقَالِ الرَّذِفِ هَبَّتْ تَلُومُنِي * وَلَوْ شَهِدْتُ قَبْرِي لَصَلَّتُ عَلَى قَبْرِي
تَرَكْتُ لِمَهْدَى الْأَنَامِ وَصَالِهَا * وَرَاعَيْتُ عَهْدًا بَيْنَنَا لَيْسَ بِالْخَائِرِ
وَلَوْلَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ * لَقَبَلْتُ فَاهَا أَوْ لَكَانَ بِهَا فِطْرِي
لِعَمْرِي لَقَدْ أَوْقَرْتُ نَفْسِي خَطِيئَةً * فَا أَنَا بِالْمُزْدَادِ وَقُرَا عَلَى وَقُرِ
تَسَلَّى عَنِ الْأَحْبَابِ صَرَامُ خُلَّةٍ * وَوَصَّالِ أَنْحَرَى مَا يُقِيمُ عَلَى أَمْرِ
وَرَكَّاضِ أَفْرَاسِ الصَّبَابَةِ وَالْهَوَى * بَحْرَتِ حِجْبًا ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ فَلَا تَجْرَى
فَأَصْبَحْنِ مَا يُرَكِّبُنِ إِلَّا إِلَى الْوَعَى * وَأَصْبَحْتُ لَا يُزْرَى عَلَى وَلَا أُزْرَى
فَهَذَا وَإِنِّي قَسَدٌ شَرَعْتُ مَعَ التَّقَى * وَمَاتَتْ هُمُومِي الطَّارِقَاتِ فَمَا تَسْرَى

ثم قال يصف السفينة :

وعذراء لا تجرى بلحج ولا دم * قليلة شكوى الآئِنِ مُلْجَمَةِ الدُّبْرِ
إِذَا ظَعَنْتُ فِيهَا الْفُلُولُ تَشَخَّصَتْ * بُقْرَسَانِهَا لَا فِي وُعُوثٍ وَلَا وَغْرِ
وَإِنْ قَهَصَدْتُ زَلْتُ عَلَى مِتْنَصِبٍ * ذَلِيلِ الْقَوَى لَا شَيْءَ يَفْرَى كَمَا تَفْرَى
تُلَايِبُ تَيَّارِ الْبُحُورِ وَرَبِّهَا * رَأَيْتَ نَفُوسَ الْقَوْمِ مِنْ جَرِيهَا تَجْرَى
إِلَى مَلِكٍ مِنْ هَاشِمٍ فِي نُبُوءَةٍ * وَمِنْ حَمِيرٍ فِي الْمُلْكِ وَالْعَدَدِ الدُّثْرِ^(١)
مِنَ الْمُشْتَرَيْنِ الْحَمْدَ تَنْدَى مِنَ النَّدَى * يَدَاهُ وَيَنْدَى عَارِضَاهُ مِنَ الْعِطْرِ
فَأَلْزَمْتُ حَبْلِي حَبْلَ مَنْ لَا يُغَيِّمُهُ * عَفَاةُ النَّدَى مِنْ حَيْثُ يَدْرَى وَلَا يَدْرَى
بَنَى لَكَ عَبْدُ اللَّهِ بَيْتَ خِلَافَةٍ * نَزَلَتْ بِهَا بَيْنَ الْفَرَاقِدِ وَالنَّسْرِ
وَعِنْدَكَ عَهْدٌ مِنْ وَصَاةِ مُحَمَّدٍ * فَرَعَتْ بِهِ الْأَمْلَاكُ مِنْ وَلَدِ النَّظْرِ

(١) كان قد قال : نبتان البحور، فعابه بذلك سيبويه ، فجعله تيار البحور .

(٢) الدثر : الكثير .

ولما أنشد الوليد بن يزيد قولَ بشار :

أيها السَّاقِيانِ صُبَا شَرَابِي * وَأَسْقِيَانِي مِنْ رِيْقِ بَيْضَاءِ رُودِ^(١)
إِنْ دَائِي الظَّأْوَانِ دَوَائِي * شَرِبْتُ مِنْ رُضَابِ تَغْيِيرِ بَرُودِ
وَلَهَا مَضْحَكُ كَفْزِ الْأَقَاحِي * وَحَدِيثُ كَالْوَشْيِ وَشْيِ الْبُرُودِ
نَزَلَتْ فِي السَّوَادِ مِنْ حَبَّةِ الْقَدِ * بِبِ وَنَالَتْ زِيَادَةَ الْمُسْتَرِيدِ
ثُمَّ قَالَتْ نَلْقَاكَ بَعْدَ لَيْسَ * وَاللَّيَالِي يُبَايِنُ كُلَّ جَدِيدِ
عِنْدَهَا الصَّبْرُ عَنْ لِقَائِي وَعِنْدِي * زَفَرَاتُ يَأْكُنَّ قَلْبَ الْحَدِيدِ

طَرِبَ الْوَلِيدُ وَقَالَ : مَنْ لِي بِمَزْجِ كَأْسِي هَذِهِ مِنْ رِيْقِ سَلَمَى ، فَيُرْوَى ظِمْمِي ، وَتَطْفَأُ غَلَّتِي ،
ثُمَّ بَكَى حَتَّى مَزَجَ كَأْسَهُ بِدَمْعِهِ ، وَقَالَ : إِنْ فَاتَنَا ذَلِكَ فَهَذَا .

مَدَحَ بَشَارَ خَالِدَ بْنَ بَرْمَكٍ فَقَالَ فِيهِ :

لَعَمْرِي لَقَدْ أَجْدَى عَلَى ابْنِ بَرْمَكٍ * وَمَا كُلُّ مَنْ كَانَ الْغَنَى عِنْدَهُ يُجْدَى
حَلَبْتُ بِشَعْرِي رَاحَتِيهِ فَدَرَّتَا * سَمَاحًا كَمَا دَرَّ السَّحَابُ مَعَ الرَّعْدِ
إِذَا جِئْتَهُ لِلْحَمْدِ أَشْرَقَ وَجْهُهُ * إِلَيْكَ وَأَعْطَاكَ الْعِزَّ وَالْكَرَامَةَ بِالْحَمْدِ
لَهُ نِعَمٌ فِي الْقَوْمِ لَا يَسْتَنْبِهَا * بَرَاءً وَيَكِلُ التَّاجِرُ الْمُدَّ بِالْمُدِّ
مُفِيدٌ وَمِثْلُ سَبِيلِ ثُرَاثِهِ * إِذَا مَا غَدَا أَوْ رَاحَ كَالْخَزَرِ وَالْمَدِّ
أَخَالِدُ ابْنَ الْحَمْدِ يَبْقَى لِأَهْلِهِ * بِحَمَالَا وَلَا تَبْقَى الْكَنُوزُ عَلَى الْكَدِّ
فَأَطْعِمْ وَكُلْ مِنْ عَارِيَةِ مُسْتَرْدَّةٍ * وَلَا تُبْقِهَا ابْنَ الْعَوَارِي لِلرَّدِّ

فَأَعْطَاهُ خَالِدُ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ يُعْطِيهِ فِي كُلِّ وَفَادَةٍ خَمْسَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ ،
وَأَمَرَ خَالِدُ أَنْ يُكْتَبَ هَذَانِ الْبَيْتَانِ فِي صَدْرِ مَجْلِسِهِ الَّذِي كَانَ يُجْلِسُ فِيهِ ، وَقَالَ أَبْنَةُ يَحْيَى
ابْنِ خَالِدٍ : آخَرُ مَا أَوْصَانِي بِهِ أَبِي الْعَمَلُ بِهِذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ .

(١) الرِّيدُ : الشَّابَّةُ الْحَسَنَةُ النَّاعِمَةُ .

وكان إسحاق الموصلي يطعن على شعر بشار ويضع منه ، ويذكر أن كلامه مختلف لا يشبه بعضه بعضا ، ف قيل له : أتقول هذا لمن يقول :

إذا كنت في كل الأمور معاتباً * صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعيش واحداً أو وصل أخاك فإنه * مقاريف^(١) ذنب مرة ومجانبة
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى * ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه^(٢)

وهي من غرر قصائده ، مدح بها عمر بن هبيرة ، ومنها قوله :

يخاف المنيا إن ترحلت صاحبي * كأن المنيا في المقام تناسبه
فقلت له إن العراق مقامه * وخيم إذا هبت عليك جنائبه
لألقى بني عيلان إن فعالمهم * تزيد على كل الفعال مراتبه
أولئك الألى شقوا العمى بسيوفهم * عن العين حتى أبصر الحق طالبه
وجيش كنجح الليل ينحف بالحصا * وبالشوك والخطى حمراً تغالبه
غدونا له والشمس في خدر أمها * تطالعنا والطل لم ينجر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه * وتذكر من تجي الفرار مثالبه
كأن مئثار النقع فوق رؤوسنا * وأسياقنا ليل تهاوى كواكبها^(٣)
بعثنا لهم موت الفجاءة إننا * بنو الموت حقائق علينا سبابه
فراحوا فريق في الإسار ومثله * قتل ومثل لاذ بالبحر هاربه

ومنها :

إذا الملك الجبار صغر خده * مشينا إليه بالسيوف نعاتبه
رويداً تصاهل بالعراق جيادنا * كأنك بالضحالك قد قام ناديه
وسام لمروان ومن دونه الشجاء * وهول كلج البحر جاشت غواربه

(١) مقاريف ذنب : مخالطة ومركبة من قارف الخطيئة إذا خالطها . (٢) القذى : ما يسقط

في الشراب من ذباب أو غيره . (٣) السباب : جمع سببية ، وهي شقة من الشجان رقيقة يريد بها الألوية .

أَحَلَّتْ بِهِ أُمُّ الْمَنَايَا بِنَاتِهَا * بِأَسْيَافِنَا إِمَّا رَدَى مَنْ نَحَارِبُهُ
وَكَمَا إِذَا دَبَّ الْعَدُوُّ لِسَخَطِنَا * وَرَاقِبْنَا فِي ظَاهِرٍ لَا نَرِاقِبُهُ
رَكِبْنَا لَهُ جَهْرًا بِكُلِّ مُتَقِفٍ * وَأَبْيَضَ تَسْتَسْقِي الدَّمَاءَ مَضَارِبُهُ
ومنها :

فَلَمَّا تَوَلَّى الْحَيَّ وَأَعْتَصَرَ الثَّرَى * لَطَى الصَّيْفَ مِنْ نَجْمٍ تَوَقَّدَ لِأَهْبِهِ
وَطَارَتْ عَصَافِيرُ الشَّقَائِقِ وَأَكْتَسَى * مِنْ آلَالِ أَمْثَالِ الْحَجَرَةِ نَاضِبِهِ
ضَدَّتْ عَانَهُ تَسْكُو بِأَبْصَارِهَا الصَّدَى * إِلَى الْجَلْبِ إِلَّا أَنَّهُ لَا تَخَاطِبُهُ
ومن حسن شعره :

لَوْ كُنْتُ تَلْقَيْنَ مَا نَلَقَى قَسَمْتُ لَنَا * يَوْمًا نَعِيشُ بِهِ مِنْكُمْ وَنَبْتَهِجُ
لَا خَيْرَ فِي الْعِيشِ إِلَّا كَذَا أَبَدًا * مَا فِي التَّلَاقِ وَلَا فِي قُبْلَةِ حَرَجٍ
مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ * وَفَارَ بِالطَّيِّبَاتِ الْفَنَائِكُ اللَّهِجِ
أَشْكُو إِلَى اللَّهِ هُمَا مَا يَفَارِقُنِي * وَشُرَّةً فِي فَوَادَى الدَّهْرِ تَعْتَلِجُ
وقال يهجو عبيد الله بن قزعة :

خَلِيلِي مِنْ كَعْبٍ أَعِينَا أَخَاكَ * عَلَى دَهْرِهِ إِنْ الْكَرِيمَ مُعِينُ
كَأَنَّ عَبِيدَ اللَّهِ لَمْ يَلْقَ مَا جَدَا * نَخَافَةُ أَنْ يَرْجُو نَدَاءَ حَزِينِ
وَلَا تَجْلَا بِحُلِّ ابْنِ قَزْعَةَ إِنَّهُ * وَلَمْ يَدْرُ أَنَّ الْمَكْرَمَاتَ تَكُونُ
فَقُلْ لِأَبِي يَحْيَى مَتَى تُذْرِكُ الْعَلَا * وَفِي كُلِّ مَعْرُوفٍ عَلَيْكَ يَمِينُ
إِذَا جِئْتَهُ فِي حَاجَةٍ سَدَّ بَابَهُ * فَلَمْ تَمْلِكْهُ إِلَّا وَأَنْتَ كَيِّينُ
وفد على خالد بن برمك فأنشده :

أَخَايَ لَمْ أَخْطِ إِلَيْكَ بِذِمَّةٍ ^(٢) * سِوَى أُنْخِي عَافٍ وَأَنْتَ جَوَادُ
أَخَالِدُ بَيْنَ الْأَجْرِ وَالْحَمْدِ حَاجَتِي * فَأَيُّهُمَا تَأْتِي فَأَنْتَ عِمَادُ

(١) العانة : القطعة من الجبر . والجلباب : ذكرها ، ومعنى شكروها الصدى بأبصارها أن العطش قد تبين في أحلافها
فغارت ، وهذا من أحسن ما وصف به الجار والأتان . (٢) أى لم اطلب معروفك متوسلا اليك بمهد أو قرابة .

فإن تُعْطِنِي أَفْرِغْ عَلَيْكَ مَدَائِحِي * وإن تَأْبَ لم يُضْرَبْ عَلَى سِدَادُ
رُكَابِي عَلَى حَرْفٍ وَقَلْبِي مَشِيْعٌ * ^(١)ومالِي بِأَرْضِ الْبَاخِلِينَ بِإِلَادِ
إذا أَنْكَرْتَنِي بِمِلْدَةٍ أَوْ نَكِرْتُنْهَا * نَحَرَجْتَ مَعَ الْبَازِي عَلَى سَوَادِ

فدعا خالد بأربعة آلاف دينار في أربعة أكياس، فوضع واحدا عن يمينه، وواحدا عن شماله،
وآخرين يديه، وآخر خلفه، وقال: يا أبا معاذ، هل استقلَّ العباد؟ فلمس الأكياس ثم قال:
استقلَّ والله أيها الأمير.

قال أبا ن بن عبد الحميد: نزل في ظاهر البصرة قوم من أعراب قيس بن عيلان،
وكان فيهم بيان وفصاحة، فكان يبشرون بآياتهم وينشدون أشعاره التي يمدح بها قيسا، فيجلونه
لذلك ويعظمونه، وكان نساؤهم يجلسن معه ويتحدثن اليه وينشدن أشعاره في الغزل،
وكنت كثيرا ما آتى في ذلك الموضع فأسمع منه ومنهم، فأتيتهم يوما فاذا هم ارتحلوا، فبحثتُ
إلى بشار فقلت: يا أبا معاذ: أعلمت أن القوم قد ارتحلوا؟ قال: لا، فقلت: فاعلم، قال:
قد علمت لا علمت، ومضيتُ، فلما كان بعد ذلك بأيام سمعتُ الناس ينشدون:

دعا بفراق من تهوى أبا ن * ففاض الدمع وأحترق الجنانُ
كأن شرارةً وقعت بقلبي * لها في مقلتي ودمى أسننان
إذا أنشدتُ أو نسمتُ عليهما * رياح الصيف هاج لها دُخان

فعلمت أنها لبشار، فأتيته فقلت: يا أبا معاذ، ما ذنبُ إليك؟ قال: ذنبُ غراب البين،
فقلت: هل ذكرتني بغير هذا؟ قال: لا، فقلت: أنشدك الله ألا تزيد، فقال: أمض
لشأنك فقد تركتك.

مدح بشار المهدي فلم يُعطه شيئا، فقبل له: لم يستجد شعرك، فقال: والله لقد
قلت فيه شعرا لوقيل في الدهر لم يُحشَّ صرْفُه على أحد، ولكننا نكذب في القول فيكذب
في الأمل.

(١) الحرف: الناقة المهزولة.

مدح بشّار سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان مقياً بجرّان ونحرج اليه ، فأثبده قوله فيه :

نَأْتِكَ عَلَى طُولِ التَّجَاوُرِ زَيْنَبُ * وما شعرت أن النوى سوف تُشعَبُ
يرى الناسُ ما تلقى بزَيْنَبٍ إِذْ نَأَتْ * عَجِيباً وما تُخْفِي بزَيْنَبٍ أُعْجَبُ
وقائلةٌ لى حينٍ جَدَّ رَحِيلُنَا * وأجفانُ عَيْنِهَا تَجُودُ وتُسْكَبُ
أَغْلِدِ إِلَى حَرَّانٍ فِي غَيْرِ شِيعَةٍ * وذلكَ شَأْنٌ عَنْ هَوَاهَا مُغْتَرَبُ
فَقُلْتُ لَهَا كَلَفْتَنِي طَلَبَ الْغَنَى * وليس وراءَ ابْنِ الْخَلِيفَةِ مَذْهَبُ
سَيَكْفِي قَتَّى مِنْ سَعْيِهِ حَدُّ سَيْفِهِ * وَكَوْرٌ عَلَاقِي ^(١) وَوَجْنَاءُ ذِعْلِبِ ^(٢)
إِذَا اسْتَوْغَرْتُ دَارَ عَلَيْهِ رَمَى بِهَا * بَنَاتُ الصُّوَى مِنْهَا رُكُوبٌ وَمُضْعَبُ
فَعَسَدَى إِلَى يَوْمٍ أَرْتَحِلْتَ وَسَائِلِي * بَزُورِكَ وَالرَّحَالُ مِنْ جَاءٍ يَضْرِبُ
لَعَلَّكَ أَنْ تَسْتَيْقِنِي أَنْ زَوْرَقِي * سُلَيْمَانَ مِنْ سِيرِ الْهَوَا جَرُّ تَعْقِبُ
أَغْرَى هِشَامِي الْقَنَاةَ إِذَا آتَنِي * نَمَتْهُ بُدُورٌ لَيْسَ فِيهِنَّ كَوْكَبُ
وَمَا قَصَدْتُ يَوْمًا خَيْلِينَ خَيْلُهُ * فَتَصَرَّفَ إِلَّا عَنْ دِمَاءٍ تَصَهَّبُ

فوصله سليمان بخمسة آلاف درهم ، وكان يَحُلُّ ، فلم يَرْضَهَا وَأَنْصَرَفَ عَنْهُ مُغَضَّباً ،

فقال :

إِنْ أَمَسَ مِنْقَبُضُ الْيَدَيْنِ عَنِ النَّدَى * وَعَنِ الْعَدُوِّ مَخِيسُ الشَّيْطَانِ
فَلَقَدْ أَرُوحَ عَلَى اللَّئَامِ مَسْلُطًا * تَلْجُ الْمَقِيلُ مُنْعَمَ النَّدَمَانِ
فِي ظِلِّ عَيْشٍ عَشِيرَةٍ مَحْمُودَةٍ * تَنْدَى يَدِي وَيُخَافُ فَرْطُ لِسَانِي
أَزْمَانِ خَيْبِنِي الشَّابُّ مَطَاوِعَ * وَإِذَا الْأَمِيرُ عَلَى مَنْ حَرَّانِ
رِيمٍ بِأُخُوِيَّةِ الْعِرَاقِ إِذَا بَدَا * بَرَقَتْ عَلَيْهِ أَكِلَةُ الْمَرْجَانِ
فَاتَّحَلَّ بِعَبْدَةِ مَقْلَتِكَ مِنَ الْقَدَى * وَبِوَشَاكَ رُؤْيَاهَا مِنَ الْهَمَلَانِ
فَلَقَرْتُ مِنْ تَهْوَى وَأَنْتَ مَتِيمٌ * أَشْفَى لِدَائِكَ مِنْ بَنِي مِرْوَانَ

(١) العَلَاقي : الرَّحْلُ الْعَظِيمُ . (٢) وَجْنَاءُ ، ذُعْلِبُ أَيُّ نَاقَةٍ شَدِيدَةٍ سَرِيعَةٍ .

قديم بشار على المهديّ بالرصافة فدخل عليه في البستان، فأنشده مديحا فيه تشبيب
حسن، فنراه عن التشبيب لغيره شديدة كانت فيه، فأنشده مديحا يقول فيه :

كأنما جئتُه أبشُرُه * ولم أجيء راغبا ومُحتابا
يزين المنبر الأثم بعطفه * به وأقواله إذا خطب
تُسَمّ نعلاه في الندي كما * يُسمّ ماء الرياح مُتّهباً

قال : وقد طلب منه أن يُنشده شيئاً من غزله :

وقائل هات شوقنا فقلتُ له * أنائم أنت يا عمرو بن سَمعان
أما سمعت بما قد شاع في مَضير * وفي الحليفين من بكرٍ وخطان
قال الخليفة لا تنسب بجارية * إياك إياك أن تُسقى بعصيان

وقال له المهديّ : قل في الحب شعرا ولا تُطل، وأجعل الحب قاضيا بين المحبين
لا تُسمّ أحدا، فقال :

أجعل الحب بين حبي وبنِي * قاضيا إنني به اليوم راض
فاجتمعنا فقلت يا حب نفسي * إن عيني قايلةُ الإغماض
أنت عذبتني وأنحلت جسمي * فأرحم اليوم دائم الأمراض
قال لي لا يحلّ حكي عليها * أنت أولى بالسقم والإعراض
قلت لما أجابني بهواها * شمل الجور في الهوى كل قاض

فبعث اليه المهديّ : حكمت علينا ووافقنا ذلك، فأمر له بألف دينار .

وقال بشار في عشق السَّمع :

يا قوم أذني لبعض الحى عاشقة * والأذن تُعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهدي فقلت لهم * الأذن كالعين تُوفي القلب ما كانا
هل من دواء لمشغوف بجارية * يلقى بلقيانها رَوْحاً وريحانا

وقال في مثل ذلك :

قالت عُقَيْلُ بن كعب إذ تعلقها * قلبي فأضحى به من حبها أثرُ
أنى ولم ترها تهذى فقلتُ لهم * إن الفؤاد يرى مالا يرى البصرُ
أصبحتُ كالحائم الحيران مجتنباً * لم يقض وردا ولا يُرجى له صدرُ

وقال :

يزهدنى في حبّ عبدة معشر * قلوبهم فيها مخالفة قلبي
فقلتُ دعوا قلبي وما أختار وأرتضى * فبالقلب لا بالعين يُبصر ذو الحبّ
فما تبصر العينان في موضع الهوى * ولا تسمع الأذنان إلا من القلب
وما الحسن إلا كلّ حسن دعا الصبا * وألف بين العشق والعاشق الصبّ

وقال :

يا قلب مالى أراك لا تقِرُ * إياك أعنى وعندك الخبرُ
أذعت بعد الألى مضوا حرقاً * ما ضاع ما استودعوك إذ بكرُوا

وقال :

إن سَلَيْمى والله يكلوها * كالسكر يزداد على السكر
بلغتُ عنها شكلا فأعجبني * والسمع يكفيك غيبة البصر

وقال وقد مدح المهديّ فخرمه :

خليلي إن العسر سوف يُفِيق * وإن يسارا في غد نخليق
وما كنتُ إلا كالزمان اذا صحا * صحوْتُ وإن ماق الزمان أموق^(١)
أدّماء لا أسطيع في قلّة الثرا * نُحُوزاً ووَشْياً والقليل محيق
خذى من يدى ما قل إن زماننا * شَمُوسٌ ومعروفُ الرجال رقيق
لقد كنتُ لأرضى بأدنى معيشة * ولا يَشْتكى بخلاً على رقيق

(١) ماق : حق في عبارة .

خَلِيلِيَّ إِنِّ الْمَالُ لَيْسَ بِنَافِعٍ * إِذَا لَمْ يَنْلُ مِنْهُ أَخٌ وَصَدِيقٌ
وَكُنْتُ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيَّ مَحَلَّةٌ^(١) * تَيَمَّمْتُ أُخْرَى مَا عَلَيَّ تَضْيِيقٌ
وَمَا خَابَ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ عَامِلٌ * لَهُ فِي التَّقَى أَوْفَى الْمَحَامِدِ سُوقٌ
وَلَا ضَاقَ فَضْلُ اللَّهِ عَنْ مُتَعَفِّفٍ * وَلَكِنْ أَخْلَاقَ الرِّجَالِ تَضْيِيقُ

هجا بشار يعقوب بن داود وزير المهدي فقال :

بَنِي أُمَيَّةَ هُبُوا طَالَ نَوْمُكُمْ * إِنَّ الْخَلِيفَةَ يَعْقُوبُ بْنُ دَاوُدَ^(٢)
ضَاعَتْ خِلَافَتُكُمْ يَا قَوْمَ فَاتَّبِعُوا * خَلِيفَةَ اللَّهِ بَيْنَ النَّاسِ وَالْعُودِ

فاتهمه عند المهدي بالزندقة وقال : إنه قد هجا المهدي ، فأمر ، فُضِرَبَ بالسياط حتى مات .

(١) المحلة : منزل القوم . (٢) أصله من الموالي ، وقد استوزره الخليفة المهدي وسلبه الأمور كلها وأشتغل هو باللهو .

٢ - حماد بن عمار^(١)

«ولو أتى أحببت أن أشخص حمادا لوصفته قبل كل شيء بحدة الطبع، وسوء الخلق، وحب الانتقام، والإسراع إليه، ثم بالصراحة في القول، والملاءمة بينه وبين العمل، وبكره النفاق والأنصاف عنه، لا يعنيه أرى الناس عنه أم يخطوا عليه، ثم بحدة اللسان ومضيئه وإقداعه وكلفه بفاحش القول وبجته عن أسويه وأقبحه، ثم بالسخرية من الناس وأزدرائهم، لا على أنه يتخذ ذلك فلسفة وأصلا من أصول الحياة كالوليد ومطيع وأبى نواس، بل على أنه يتخذ ذلك وسيلة من وسائل الشعراء يختص بها كلما ضاقت عليه المذاهب وأخذت عليه، أو دعت إلى ذلك حاجة. لم يكن حماد يحفل بما يحفل به الناس من الوفاء والأنصاف عن التناقض، وإنما كان صديقا مخلصا حتى تبدو له حاجة أو تسنح له فرصة أو تضطره ضرورة، فإذا صداقته قد استحالت إلى عدا، وإذا هو ليس أقل صدقا وإخلاصا في العدا منه في المودة والحب: فقد مدح يحيى بن زياد وأخذ صديقا ونال جوائزه، ثم كان الخلاف فهجاه. وصادق بتبارا وصافاه، ثم أختصا فلم يعرفا في الحصومة رحمة ولا رفقًا. وصافي مطيعا وأحبه ومدحه وأكثر في الثناء عليه، ثم أختصا في امرأة مرة وفي غلام مرة أخرى، فهجاه وأقذع في هجائه. وكان على هذا كله يؤثر شعره وضروراته على البر بالناس في معاملتهم: هجا ذات يوم رجلا يقال له حشيش وجعل اسمه قافية لهذا الشعر وأراد أن يبالغ في ذمه فشبهه بحشيش، وكان بحشيش هذا رجلا من أهل البصرة

(١) هو حماد بن يحيى بن عمرو مولى عامر بن صعصعة. نشأ في الكوفة ثم واسط. وعاصر الدوليين، لكنه نبغ في الدولة العباسية بعد أن نادى الوليد بن يزيد الأموى. وجاء بغداد أيام المهدي ومعه مطيع بن أباس ويحيى بن زياد، وكلهم من المتهمين في دينهم. وحماد من الشعراء المجيدين، وكان ماجنا ظاريا خليعا متبعا في دبه مرصيا بالزندقة. وأدرك بشار بن برد وله معه أهاج فاحشة، ولم يكن يهاب كبيرا ولا صغيرا، عالما كان أو خليفة. توفي سنة ١٦١ هـ. وتجد ترجمته في الأغاني (ج ١٣ ص ٧٣) وابن خلكان (ج ١ ص ١٦٥) والشعر والشعراء (ص ٤٩٠) والفهرست (ص ٩١). (٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

وإدعاً لا يعرف حماداً ولا يعرفه حمادٌ، فلما قرأ الرجل هذا الشعر جزع له وسافر من البصرة حتى بلغ الكوفة فعاتب حماداً، فقال له حماد ضاحكاً معتذراً: لا بأس عليك فإن هذا من آثار القافية ولن أعود إليه .

وكان السبب في مهاجمة حماد وبشّار أن حماداً كان نديماً لنايف بن عتبة، فسأله بشّار تخبّر حاجة له من نافع فأبطأ عنها، فقال بشّار فيه :

مَوَاعِيدُ حَمَادٍ سَمَاءٌ حِمْلَةٌ * تَكْشِفُ عَنْ رَعْدٍ وَلَكِنْ سَتَبْرِقُ
إِذَا جِئْتَهُ يَوْمًا أَحَالَ عَلَى غَيْدٍ * كَمَا وَعَدَ الْكَمُونُ مَا لَيْسَ يَصْدُقُ
وَفِي نَافِعٍ عَنِّي جَفَاءٌ وَإِنِّي * لِأُطْرِقُ أَحْيَانًا وَذُو اللَّبِّ يُطْرِقُ
وَلِلنَّقَرِ قَوْمٌ فَلَوْ كُنْتُ مِنْهُمْ * دُعِيتُ وَلَكِنْ دُونِي الْبَابُ مُغْلَقُ
وَمَا زِلْتُ أَسْتَأْنِيكَ حَتَّى حَسَرْتَنِي * بَوَعْدِ بَكَارَى الْآلِ يَخْفَى وَيَخْفُقُ

فغضب حمادٌ وأنشد نافعاً الشعر فمنع بشّاراً، فقال بشّار :

أَبَا عُمَرَ مَا فِي طَلَابِيكَ حَاجَةٌ * وَلَا فِي الذِّى مَنِّتَنَا ثُمَّ أَصْبَحْنَا
وَعَدْتَ فَلَمْ تَصْدُقْ وَقُلْتَ غَدًا غَدًا * كَمَا وَعَدَ الْكَمُونُ شَرَبًا مَوْخَرًا

فكان ذلك سبب التهاجي بين بشّار وحماد . وكان بشّار يرمى حماداً بالزندقة ، وفي ذلك يقول :

إِبْنُ نَهْيٍ رَأْسٌ عَلَى ثَقِيلٍ * وَأَحْتِمَالُ الرُّعُوسِ خَطْبٌ جَلِيلُ
أُدْعُ غَيْرِي إِلَى عِبَادَةِ الْإِلَهِ * مِنْ فُلَانِي بَوَاحِدٍ مَشْغُولُ
يَا بْنَ نَهْيٍ بَرِئْتُ مِنْكَ إِلَى اللَّهِ جَهَارًا وَذَاكَ مِنِّي قَلِيلُ

فأشاع حمادٌ هذه الأبيات لبشّار، وجعل فيها مكان : « فُلَانِي بَوَاحِدٍ مَشْغُولُ » « فُلَانِي عَنْ وَاحِدٍ مَشْغُولُ » ليصبح عليه الزندقة والكفر بالله تعالى . فما زالت الأبيات تدور في الناس حتى انتهت إلى بشّار، فاضطرب منها وجزع وقال : أشاط ابنُ الفأصلة يَدِمِي، والله ما قلتُ إلا « فُلَانِي بَوَاحِدٍ مَشْغُولُ » فغيرها حتى شُهِرت في الناس .

كان رجلٌ من أهل البصرة يدخل بين حماد وبشار على اتفاقٍ منهما ورضا بأن ينقل
إلى كل واحد منهما وعنه الشعرُ، فدخل يوماً إلى بشار فقال له : إيه يا فلانُ ، ما قال ابن
الفاعلة؟ فأَنشده :

إن تاهَ بشارٌ عليكم فقد * أمكنتُ بشاراً من التيه
فقال بشار : بأى شئٍ ويحك؟ فقال :

وذاك إذ سمَّيته باسمه * ولم يكن حراً تُسميه
قال : سَمَّيْت عِيْنَهُ ، فأبى شئٌ كنتُ أعرفُ ! إيه ، فقال :
فصار إنساناً بذكري له * ما يدعى من بعد ذكريه !
فقال : ما صنعَ شيئاً ، إيه ويحك ! فقال :

لم أُنحُ بشاراً ولكننى * هجوتُ نفسى بهجائيه
فقال : على هذا المعنى دار وحوله حام . وتأم الأبيات :

لم آت شيئاً قط فيما مضى * ولست فيما عشتُ آتية
أسوأ لى فى الناس أهدوثة * من خطأ أخطأته فيه
فأصبح اليوم لِسبى له * أعظم شأنًا من مواليه

وقال بشارُ لراوية حماد : ما هجانى به اليوم حماد؟ فأَنشده :

ألا من مبلِّغ عني الـ * لذى والدُه بُردُ

فقال : صدق ابنُ الفاعلة فما يكون؟ فقال :

إذا ما نُسِبَ الناسُ * فلا قَبْلُ ولا بَعْدُ

فقال : كَذَب ، أين هذه العرصاتُ من عُقيلٍ ! فما يكون؟ فقال :

وأعمى قَلْطَباتٌ^(١) ما * على قاذِفِه حَدُّ

(١) القلطان : الذى لا يبار.

فقال : كذب ، بل عليه ثمانون جلدًا ، هيه ، فقال :

وأعنى يُسبِّهُ القِرْدَ * إذا ما عَمِيَ القِرْدُ

فقال : والله ما أخطأ حين شَبَّهني بِقِرْدٍ ، حَسْبُكَ حَسْبُكَ ! ثم صَفَّقَ بيديه وقال :

ما حِيلَتي ! يراني فَيُشَبِّهني ولا أراه فَأُشَبِّهه . وتَمَامُ الأبيات :

دَنِيٌّ لَمْ يَرْخُ يَوْمًا * إِلَى تَجْدٍ وَلَمْ يَغْدُ

وَلَمْ يَخْضُرْ مَعَ الْخَضَا * رِي فِي خَيْرٍ وَلَمْ يَبْدُ

وَلَمْ يُخْشَ لَهُ ذَمٌّ * وَلَمْ يُرْجَ لَهُ حَمْدُ

جَرَى بِالنَّحْسِ مُدَّكَانَ * وَلَمْ يُجْرِلْهُ سَعْدُ

هُوَ الْكَلْبُ إِذَا مَاتَ * فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ فَقْدُ

وقال علي بن مهدي : أجمع علماء البصرة أنه ليس في هجاء حماد تجرد لبشار إلا أربعون بيتًا معدودة ، ولبشار فيه من الهجاء أكثر من ألف بيت جيد . وكل واحد منهما هو الذي هتك صاحبه بالزندقة وأظهرها عليه ، وكانا يجتمعان عليها ، فسقط حماد وهتك بفضل بلاغة بشار وجودة معانيه ، وبقي بشار على حاله لم يسقط ، حتى عُرف مذهبُه في الزندقة فقتل به .

ومن أغلظ ما هجا به حماد بشارًا :

نَهَارُهُ أَخْبَثُ مِنْ لَيْلِهِ * وَيَوْمُهُ أَخْبَثُ مِنْ أَمْسِهِ

وَلَيْسَ بِالْمُقَالِجِ عَنْ غَيْهِ * حَتَّى يُوَارَى فِي ثَرَى رَمْسِهِ

كان حماد صديقًا ليحيى بن زياد ، فأظهر يحيى تورعًا وقراءةً ونزوعًا عما كان فيه وهجر حمادًا وأشباهه ، فكان إذا ذكر عنده ثلثه وذكر تهتكه ومجونه ، فبلغ ذلك حمادًا فكتب إليه :

هَلْ تَذْكُرُنِي دَلِيلِي إِلَيْهِ * مَكَ عَلَى الْمُضْمَرَةِ الْقَلَاصِ

أَيَّامَ تُعْطِيَنِي وَتَأْ * حُمْدٌ مِنْ أَبَارِيقِ الرِّصَاصِ

إِنْ كَانَ سُكُّكَ لَا يَتِي * سَمٌ بغير شَمْتِي وَأَنْتَقَاصِي

أَوْ كُنْتَ لَسْتَ بِغَيْرِذَا * لَكَ تَسَالُ مَنَزَلَةُ الْخَلَاصِ

فعلبك فاشتمُ آمِنًا * كَلَّ الأمان من القصاص
وأفعد وقمُ بي ما بدا * لك في الأداني والأقاصي
فلطالما زكَّيتني * وأنا المقيمُ على المعاصي
أيامَ أنت إذا ذُكر * تُ مُناضلٌ عني مُناصي^(١)
وأنا وأنت على آرتكا * بالمؤبقات من الحِراس
وبنا مواطنُ ما بنا * في البرِ أهلةُ العِراس

فاتصل هذا الشعرُ بجي بن زياد ، فنسب حمادا الى الزندقة ورماه بالخروج عن الإسلام ؛
فقال حماد فيه :

لا مؤمنٌ يُعرفُ إيمانه * وليس يجي بالفتى الكافر
منافقٌ ظاهره ناسكٌ * مخالفُ الباطن للظاهر

كان حماد صديقا لحرب بن أبي الصلت الثَّقَفِيّ ، وكان يعيبه بالبخل ، وفيه يقول :

حريثُ أبو الفضل ذو خيرة * بما يُصلحُ المعدّ الفاسده
تخوفُ ثُجّة أضيافه * فعودهم أكلةً واحده

ومن قوله :

ألا قُلْ لعبد الله إنك واحدٌ * ومثلُك في هذا الزمان كثيرُ
قطعت إخائي ظالماً وهجرتني * وليس أنى من في الإخاء يجور
أديم لأهل الودّ ودّى وإني * لمن رام هجرى ظالماً لهجور
ولو أن بعضي رآبني لقطعته * وإني يقطع الرائيين جدير
فلا تحسبن منحي لك الودّ خالصا * لعزّ ولا أتى إليك فقير
ودودك حظي منك لست أريده * طوأل الليالي ما أقام بُير^(٢)

(١) مناص : مدافع ، من قولهم ناصاه مناصاة : أخذ كل بناصره صاحبه . (٢) ثبير : اسم جبل .

كَانَ حَمَّادٌ صَدِيقًا لِحَفْصِ بْنِ أَبِي بَرْدَةَ ، وَكَانَ حَفْصٌ أَعْمَشَ أَفْطَسَ أَعْصَبَ مُقَبِّحَ
الْوَجْهِ ، فَاجْتَمَعُوا يَوْمًا عَلَى شَرَابٍ وَجَعَلُوا يَتَنَاشَدُونَ وَيَتَحَدَّثُونَ ، فَأَخَذَ حَفْصٌ يَطْمُنُ عَلَى
مُرْقَشٍ وَيَعِيبُ شِعْرَهُ وَيُلَحِّنُهُ ، فَقَالَ لَهُ حَمَّادٌ :

لَقَدْ كَانَ فِي عَيْنِكَ يَا حَفْصُ شَاغِلٌ * وَأَنْفٍ كَكَيْلِ الْعَوْدِ عَمَّا تَتَّبِعُ
تَتَّبِعُ لَحْنًا فِي كَلَامِ مُرْقَشٍ * وَوَجْهٌ مَبْنِيٌّ عَلَى الْخَبِّ أَجْمَعُ
فَأَذْنَاكَ إِقْوَاءٌ وَأَنْفُكَ مُكْفَأٌ * وَعَيْنَاكَ إِيطَاءٌ فَأَنْتَ الْمُرْقَعُ

وَمِنْ قَوْلِهِ :

لَأَنْيَ أَحْبَبُ فَاعَلِمِي * إِنْ لَمْ تَكُونِي تَعَلِّمِينَا
حُبًّا أَقْلُ قَلِيلِهِ * بِكَمِيعِ حُبِّ الْعَالَمِينَا

وَأَنْشَدَ بِشَارٌ قَوْلَ حَمَّادٍ عَجْرَدَ :

أَنْحَى كُفٌّ عَنْ لَوْمِي فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي * بِمَا فَعَلَ الْحُبُّ الْمُبَرِّحُ فِي صَدْرِي
أَنْحَى أَنْتَ تَلَحَّنَانِي وَقَلْبُكَ فَارِغٌ * وَقَلْبِي مَشْغُولُ الْجَوْلَانِجِ بِالْفِكْرِ
دَوَائِي وَدَائِي عِنْدَ مَنْ لَوْ رَأَيْتَهُ * يَقْلُبُ عَيْنِيهِ لِأَفْصَرْتَ عَنْ زَجْرِي
فَأَقْسَمَ لَوْ أَصْبَحْتَ فِي لَوْعَةِ الْهَوَى * لِأَفْصَرْتَ عَنْ لَوْمِي وَأُطْنَيْتَ فِي عُذْرِي
وَلَكِنْ بَلَانِي مِنْكَ أَنْتَ نَاصِحٌ * وَأَنْتَ لَا تَدْرِي بِأَنَّكَ لَا تَدْرِي

فَطَرِبَ بِشَارٌ قَالًا : وَيَلَكُمْ أَحْسَنُ وَاللَّهِ ! مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا : حَمَّادٌ عَجْرَدٌ ، قَالَ : أَوَّهَ وَكَثُمُونِي
وَاللَّهِ بَقِيَّةَ يَوْمِي لِمُمْ طَوِيلٍ ، وَاللَّهِ لَا أَطْعَمُ بَقِيَّةَ يَوْمِي طَعَامًا ، وَلَا أَصُومَنَّ غَمًّا بِمَا يَقُولُ
النَّبِيطُ مِثْلَ هَذَا .

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ السَّلُولِيُّ : لَقِيتُ حَمَّادَ عَجْرَدَ بِوَاسِطٍ وَهُوَ يَمْشِي وَأَنَا رَاكِبٌ ، فَقُلْتُ
لَهُ : أَنْطَلِقْ بِنَا إِلَى الْمَنْزِلِ ، فَإِنِ السَّاعَةُ فَارِغٌ لِنَتَحَدَّثَ ، وَحَبَسْتُ عَلَيْهِ الدَّابَّةَ ، فَقَطَعَ شُغْلُ
عَرَضَ لِي لَمْ أَقْدِرْ عَلَى تَرْكِهِ ، فَهَضِمْتُ وَأَنْسَيْتُهُ ، فَلَمَّا بَلَغْتُ الْمَنْزِلَ خِفْتُ شَرَّهُ فَكَبِهْتُ إِلَيْهِ :

(١) الثَّيْلُ : رِجْلُ قَضِيبِ الْبَعِيرِ ، وَالْعَوْدُ : الْبَعِيرُ .

أَبَا عُمَرَ أَغْفِرْهَا هُدَيْتَ فَإِنِّى * قَدْ أَذْنَبْتُ ذَنْبًا مَخِطًا غَيْرَ عَامِدٍ
فَلَا تَجِدَنَّ فِيهِ عَلَى فَإِنِّى * أَقِرُّ بِإِجْرَائِى وَلَسْتُ بِعَائِدٍ
وَهَبْهُ لَنَا تَقْصِدِيكَ نَفْسِى فَإِنِّى * أَرَى نِعْمَةً أَنْ كُنْتُ لَسْتُ بِوَاجِدٍ
وَعُدْ مِنْكَ بِالْفَضْلِ الَّذِى أَنْتَ أَهْلُهُ * فَإِنَّكَ ذُو فَضْلٍ طَرِيفٍ وَتَالِدٍ

فأجابه عن الأبيات :

مُحَمَّدُ يَا أَبَا الْفَضْلِ إِذَا الْحَامِدِ * وَيَا هِجَةَ النَّادِى وَزَيْنَ الْمَشَاهِدِ
وَحَقِّكَ مَا أَذْنَبْتُ مِنْذَ عَرَفْتَنِى * عَلَى خَطَا يَوْمًا وَلَا تَعْمِدِ عَامِدِ
وَلَوْ كَانَتْ مَا أَلْقَيْتَنِى مُتَسَرِّعًا * إِلَيْكَ بِهِ يَوْمًا تَسْرَعُ وَإِجِدِ
وَلَوْ كَانَ ذُو فَضْلٍ يُسَمَّى لَفَضْلُهُ * بِغَيْرِ اسْمِهِ سُمِّيَتْ أُمُّ الْقَلَائِدِ

فبينما رقعته فى يدي وأنا أقرؤها اذ جاءنى رسوله برقعة فيها :

قَدْ غَفَرْنَا الذَّنْبَ يَا بَنَ الْ * فَضْلِ وَالذَّنْبُ عَظِيمُ
وَمُسَىءٌ أَنْتَ يَا بَنَ الْ * فَضْلِ فِي ذَاكَ مُلِيمُ
حِينَ تَخْشَانِى عَلَى الذَّنْ * سٍ كَمَا يُخْشَى اللَّئِيمُ
لَيْسَ لِي إِنْ كَانَ مَا خُفِّ * سَتٌ مِنَ الْأَمْرِ حَرِيمُ
أَنَا وَاللَّهِ وَلَا أَفُ * خَرُّ لِلْغَيْظِ كَطُومُ
وَبِأَصْحَابِى وَلَا رِي * بَةَ بَرٍّ وَرَحِيمِ
وَبِمَا يُرْضِيهِمْ عِنْدَ * سِى وَيُرْضِينِى عَلِيمِ

كان عثمان بن شيبة مبغضًا وكان حماد يهجوهُ ، بقاء رجل كان يقول الشعر الى حماد

فقال له :

أَعِنِّى مِنْ غِنَاكَ بِبَيْتِ شِعْرِ * عَلَى فَقْرِى لِعُثْمَانَ بْنِ شَيْبَةَ

فقال :

فإِنَّكَ إِنْ رَضِيتَ بِهِ خَلِيلًا * مَلَأْتَ يَدِيكَ مِنْ فَقْرِ وَخِيَةِ

(١) أى لو كان لك ذنب ما صادفتنى مسرعا اليك بالمكافاة .

فقال له الرجل : جَزَاكَ اللهُ خيراً فقد عرّفتني من أخلاقه ما قطعني عن مدحه وصلت وجهي عنه .

لما مات محمد بن أبي العباس طلب محمد بن سليمان حمادَ عجرد لما كان يقوله في أخيه زينب من الشعر ، فعلم أنه لا مقام له معه بالبصرة ، فاستجار بقبر أبيه سليمان بن علي وقال فيه :

مِنْ مُقَرٍّ بِالذَّنْبِ لَمْ يُوجِبِ اللَّهُ * لَهُ عَلَيْهِ نَسِيٌّ إِقْرَارًا
لَيْسَ إِلَّا بِنُضْلٍ حَلَمَكَ يَعْدُ * تَدَّ بِلَاءٌ وَمَا يَعُدُّ اغْتِرَارًا
يَا ابْنَ بَنَاتِ النَّبِيِّ أَحْمَدَ لَا أَجِدُ * عَمَلٌ إِلَّا إِلَيْكَ مِنْكَ الْفِرَارُ
غَيْرَ أَنِّي جَعَلْتُ قَبْرَ أَبِي أَيُّو * بَلَى مِنْ حَوَادِثِ الدَّهْرِ جَارًا
وَحَرِيٌّ مِنْ اسْتِجَارِ بِذَلِكَ أَلْ * قَبْرِ أَنْ يَأْمَنَ الرَّدَى وَالْعِثَارُ
لَمْ أَجِدْ لِي مِنَ الْعِبَادِ مُجِيرًا * فَاسْتَجَرْتُ التُّرَابَ وَالْأَحْجَارَ
لَسْتُ أَعْتَاضُ مِنْكَ فِي بُغْيَةِ الْعِزَّةِ خَطَّانَ كُلِّهَا أَوْ زَارًا
فَأَنَا الْيَوْمَ جَارٌ مِنْ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ * ضِيقٌ مُجِيرٌ أَعَزُّ مِنْهُ جَوَارًا
يَا ابْنَ بَنَاتِ النَّبِيِّ يَا خَيْرَ مَنْ حَطَّ * نَتَّ إِلَيْهِ الْغَوَارِبُ الْأَكْوَارُ
إِنْ أَكُنْ مَذْنِبًا فَأَنْتَ أَبْنُ مِنْ كَأَنَّ * نَ لِمَنْ كَانَ مَذْنِبًا غَفَّارًا
فَأَعْفُ عَنِّي فَقَدْ قَدَّرْتَ وَخَيْرُ أَلْ * عَفْوٌ مَا قَلَّتْ : كُنْ ، فَكَانَ اقْتِنَادًا
لَوْ يُطِيلُ الْأَعْمَارَ جَارٌ لَعَزَّ * كَانَ جَارِي يُطَوِّلُ الْأَعْمَارَ

فقال : والله لأبْلُغَنَّ قَبْرَ أَبِي مِنْ دَمِهِ ، فهرب حماد إلى بغداد ، فعاد بجعفر بن المنصور فأجاره ، وقال : لا أرضى أوتيهجو محمد بن سليمان ، فقال يهجو :
فأجاره ، وقال : لا أرضى أوتيهجو محمد بن سليمان ، فقال يهجو :

قُلْ لَوَجْهَ الْخَصِيِّ ذِي الْعَارِ لَأَنِي * سَوْفَ أَهْدِي لَزَيْنَبَ الْأَشْعَارُ
قَدْ لَعَمْرِي فَرَزْتُ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْ * فِي وَأَنْكَرْتُ صَاحِبِي نَهَارًا
وَوَظَنْتُ الْقُبُورَ تَمْنَعُ جَارًا * فَاسْتَجَرْتُ التُّرَابَ وَالْأَحْجَارَ

كسْتُ عند استجارتى بأبى آية * وب أبنى ضلالة وخسارا
لم يُجِرْنى ولم أجد فيه حظاً * أضرم الله ذلك القبر ناراً
فبلغ هجاؤه محمد بن سليمان فقال : والله لا يُفْلِتْنى أبداً، وإنما يزداد حَتَفًا بلسانه ! ولا والله
لا أعفو عنه ولا أتغافل أبداً .

ومن قوله :

إن الكريم ليخفى عنك عُسرته * حتى تراه غنياً وهو مجتهد
وللبخيل على أمواله عِلٌّ * زُرُقُ العيون عليها أوجه سود
إذا تكّمت أن تُعطى القليل ولم * تقدر على سعة لم يظهر الجود
أبرق بخير تُرجى للنوال فما * تُرجى الثمار إذا لم يُورق العود
بُتَّ النوال ولا تمنعك قِلَّتُه * فكُلُّ ما سدّ فقراً فهو محمود

وقال أيضاً :

كَمْ من أخ لك لست تُنكره * ما دمت من دنياك في يسر
متصنّع لك في مودته * يلقاك بالترحيب والبشر
بطرى الوفاء وذا الوفاء ويد * يحى الغدر مجتهدا وذا الغدر
فإذا عدا، والتهرؤ ذو غير، * دهر عليك عدا مع الدهر
فارفض بإجمال مودة من * يقبل المقل ويعشق المثرى
وعليك من حاله واحدة * فى العسر إما كنت واليسر
لا تحايطنهم بغيرهم * من يحايط العقيان بالصفراء!

وهو القائل فى محمد بن طلحة :

زرتُ أمراً فى بيته مرة * له حياءُ وله خير
يكراه أن يُنغم إخوانه * إن أذى التُّخمة محذور
ويستبى أن يُجروا عنده * بالصوم والصائم مأجور
يا ابن أبى شهدة أنت أمرؤ * بصحة الأبدان مسرور

وهو القائل في محمد بن أبي العباس السفاح :

أرجوك بعد أبي العباس إذ بآنا * يا أكرم الناس أعراقا وأغصانا
لوجَّ عودٌ على قوم عَصارتَه * لمجَّ عودك فينا المسك والبانا

قيل : إن حمادا مضى الى الأهواز ، فأقام هناك مُستترا ، وبلغ محمدا خبره فأرسل مولى له الى الأهواز ، فلم يزل يطلبه حتى ظفِر به فقتله غيلة^(١) . وقيل : إنه خرج من الأهواز يريد البصرة ، فمر بسيراز في طريقه ، ففرض بها ، فأضطُر الى المقام بسبب علته ، فأشئت مرضه فمات هناك ودُفن على تلعة . وكان بشار بلغه أن حمادا عليل ، ثم نُعي اليه قبل موته ، فقال بشار :

لو عاش حماد لهُونا به * لَكِنَّه صار الى النار

فبلغ هذا البيت حمادا قبل أن يموت وهو في السَّياق^(٢) ، فقال يردّ عليه :

نُبئتُ بشارا نَعَانِي ولَا * حَمَوِ بَرَانِي الخَالِقُ البَارِي
يَا لَيْتَنِي مِتُّ وَلَمْ أَهْجِه * نَعَمْ وَلَوْ صِرْتُ إِلَى النَّارِ
وَأَيُّ نَحْيٍ هُوَ أُخْرَى مِنْ أَنْ * يُقَالَ لِي يَا سَبَّ^(٣) بَشَار

فلما قتل المهديّ بشارا بالطيحة اتَّفَقَ أنْ حُمِلَ الى منزله مَيِّتًا ، فدُفِنَ مع حماد على تلك التلعة ، فترها أبو هشام الباهليّ الشاعر البصري الذي كان يُهاجى بشارا ، فوقف على قبريهما فقال :

قَدْ تَبَعَ الْأَعْمَى قَفَا عَجْرِدٍ * فَأَصْبَحَا جَارَيْنِ فِي دَارِ
قَالَتْ يَقَاعُ الْأَرْضِ لَا مَرْحَبًا * بِقُرْبِ حَمَادٍ وَبَشَارِ
تَجَاوَرَا بَعْدَ تَنَائِيهِمَا * مَا أَبْغَضَ الْجَارَ إِلَى الْجَارِ
صَارَا جَمِيعًا فِي يَدَيِّ مَالِكٍ * فِي النَّارِ وَالْكَافِرُ فِي النَّارِ

(١) السَّيَاق : الاحتضار . (٢) السَّبَّ : الكثير السباب .

٣ - مروان بن أبي حفصة^(١)

« لم يكن مروان متصرفاً في فنون الشعر، ولعله لم يعد منها فناً أو فنين؛ فلسنا نعرف له غزلاً إلا هذا الغزل الذي تعود الشعراء أن يبدؤوا به مدائحهم؛ ولسنا نعرف له هجاء إلا هذا النحو من الهجاء الذي يضطر إليه الشعراء السياسيون حين يدافعون عن مذهبهم ويهاجمون خصومهم. على أن موقف مروان كان في هذا دقيقاً جداً، فهو لم يكن ينصر بني العباس على بني أمية فيبلغ منهم ما يريد، ويهجوهم في حرية؛ وإنما كان السيف هو الذي انتصر للعباسيين من بني أمية، وكان العباسيون في حاجة إلى من ينصرهم على العلويين وأتباعهم من بني هاشم، ولم يكن هجاء العلويين يسيراً! كان الدين يأباه في ذلك الوقت، وكانت كرامة الخلافة العباسية نفسها تأباه أيضاً، فالعلويون من بني هاشم وهجأهم هجاء للعباسيين؛ ومن هنا سلك مروان وأمثاله من الشعراء السياسيين الذين ناضلوا عن حقوق العباسيين مسلك الدفاع والمناظرة الشريفة البريئة من الشتم والقذف، فكان دفاعهم أبلغ، وكانت مناظراتهم أحسن وقعاً من هجاء أولئك الشتامين المسرفين في الشتم؛ ثم لا نعرف

(١) هو من الشعراء الموالى أصل جده من سبي اصطخر، وكان غلاماً اشتراه عثمان بن عفان ووهبه لمروان بن الحكم، وأقام بعدئذ باليمامة، وقد اختلفوا في حقيقة نسبة شبيب مروان على كره الشيعة لأنه من موالى بني أمية وقد حارب معهم، وكان شجاعاً مجزاً، فلما نبغ في الشعر قدم بغداد ومدح المهدي ثم الرشيد، وكان يتقرب إليه بهجاء العلويين، وهو من الفحول المقسدين، أول من شهره ونوّه به معن بن زائدة الجواد المشهور بقصيدة نونية مدحه بها، مطالعها:

معن بن زائدة الدقي زيدت به * شرفاً على شرف بنو شيبان

ولكنه اشتهر على الخصوص بقصيدة لامية مدح بها معناً مطالعها:

بنو مطريوم اللقاء كأنهم * أسود لهم في بطن خفان أتبيل

فأجازه عليها ببال كثير، فكانت كلما زاده معن عطاء زاده مروان مدحا. توفي سنة ١٨١ هـ. ونجد أخباره في الأغاني (ج ٩ ص ٣٦) وابن حلكان (ج ٢ ص ١٣٠) والشعر والشعراء (ص ٤٨١) ونزاة الأديب (ج ١ ص ٤٧) والفهرست لابن النديم (ص ١٦٠).

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

لمروان مُجُونًا ولا عَبَثًا ، فلم يكن كما قلنا ماجنا ولا عابثًا وإنما كان بخيلا ، والبخل والعيبث شيثان لا يتفقان ، ومن ضنَّ على نفسه باللحم وطيبات الطعام لم يستبج لنفسه نحرًا ولا ما تستبجه النحر . ثم لا نعرف لمروان نحرًا وما تحسب أنه فاجر أو مال إلى الفخر ، فقد كان رجلاً عملياً يعنيه أن يظفر بالمكانة والثروة وكان يضمن بوقته وجهده على الفخر الذي لا يفيد . لم يعرض إذن إلا لفنَّين آثنين : المدح والرثاء ، وهو في المدح أشعر منه في الرثاء وهذا طبعي ، فهو راغب حين يمدح ، يطلب المال ويحرص على أن يظفر به ، فمعقول أن يُحيد وأن يبلغ من الإجادة حظاً عظيماً ؛ أما في الرثاء فهو لا يرغب ولا يطلب مالا وإنما يفي بعهد ويشكر صنعة . ومعقول أن موقفه هذا لا يدفعه إلى الإجادة إلا أن يكون حساساً دقيق الشعور راقى النفس ، ولم يكن مروان من هذا كلة في شيء ، وإنما كان كما قلت لك رجلاً عملياً يريد المال . على أن رثاءه لمعني ليس بالردىء وكذلك رثاؤه للهدى ، وهل نستطيع أن نعد رثاءه للهدى رثاءً ! هو مدح لأنه عزاء للخليفة الجديد ، ففيه ذِكْر للخليفة الراحل ، والثناء على وارثه ، وفيه المثوبة والعطاء . فهو إلى المدح أقرب منه إلى الرثاء .

أما مدح مروان فن آيات المدح العربي ، ونحن لا نحفظ منه إلا متفرقات قليلة ولكنها تكفي لنحكم أن مروان كان قد أتقن المدح وبرع فيه ، بل نحسب أنه برز في هذا الفن على غيره من المعاصرين ، ولكن مدح مروان ينقسم إلى قسمين متميزين : أحدهما المدح بالمعنى الشائع المعروف ، وهو موجه لمعن بن زائدة ، فهو يفتن في وصف معن بالجوّد والكرم والشجاعة والحب ، ثم يفتن في مدح بني شيبان الذين ينتمى إليهم معن ، وهو لا يخرج في مدحه هذا عن سُنّة الشعراء من قبله ، ولكنه جيّد المعاني مُتقاهاً ، حسن الألفاظ صافياً .

وأما القسم الثاني فهو هذا المدح السياسي الذي كان يُنشد الخلفاء من بني العباس ، وهو مدح إن شئت ولكنه يمتاز عن المدح المعروف بما فيه من هذا النضال السياسي

الذى كان يحتاج الى مهارة وفطنة ودقة وخفة ، والذى كان يضطر صاحبه الى أن يقهر العلويين دون أن يؤذيهم ، والى أن ينصر العباسيين دون أن يزدري خصومهم ، وقد بلغ مروان من ذلك ما أراد ، فقد أغضب العلويين لا لأنه آذاهم أو هجاهم فيما نعتقد ، بل لأنه كان خصما قويا عنيدا ماهرا في الخصام .

ثم هناك شيثان لا بد من الإشارة اليهما ليُكَلَّ رأينا في مروان ، ولنستطيع أن نحكم على شعره حكما معلا إن صحَّ هذا التعبير :

الأول : أن مروان لم يكن عراقيا ولم يرض الإقامة في العراق ولم يُطَلَّ عشرة العراقيين من أهل الجُبُون والعَبَث ، وإنما كان من أهل اليمامة أقام فيها لا يبرحها إلا وافدا على أمير أو وزير أو خليفة ، فاذا أنشد قصيدته وظفر بجائزته عاد الى اليمامة وأقام فيها عامه ثم استأنف الرحلة . ولهذا أثره في شعر مروان ، فهو أقرب الى شعر الجاهليين والإسلاميين منه الى شعر المُحدَثين من شعراء الحضارة العباسية ، تقرأه فتجد عليه هذه المسحة التي تخلو أو تكاد تخلو من الدُّعابة والحِقة ، وتمتاز بشيء من الجلال والرصانة ، يُمثِّلُ البادية تمثيلا صحيحا ؛ ولهذا أثره من وجهة أخرى ، فقد رضى علماء اللغة جميعا عن مروان وأحبوه من هذه الناحية ، وما أشك أنا في أنهم كانوا يودّون لو استطاعوا إثارة على بشار وأبي نُوَّاس ، لأنه كان أقرب منهما الى الأسلوب البدوي القديم ، ولكن أنى لهم ذلك ! وقد سلَّط الله عليهم لسان بشار وأبي نواس فاضطروا الى أن يحابوا هذين الشعارين ويمثِّقوهما ، وأجمعوا أو كادوا يُجمعون على تقديم بشار وإيثارة على مروان . ومع ذلك فليس الى المقارنة سبيل بين الشعارين اذا آتخذنا وجهة البحث والنقد ، هذه الوجهة التي كان يُعْنَى بها علماء اللغة وهى وجهة المتانة والرصانة في اللفظ والأسلوب ، لا يُقَاس الى مروان في هذا أحدٌ من شعراء العراق ، أما اذا آتخذنا وجهة أخرى للنقد ، اذا آتخذنا اختلاف الفنون التي طرَّقها الشاعر ، وقُرَّب المأخذ ، والدنو من أذهان الناس والقدرة على تمثيل حياتهم ، فليس مروان يُقَاس الى بشار ولا الى أبي نُوَّاس بنوع خاص ؛ على أن من علماء اللغة من استطاع أن يكون شجاعا شريفا في فنّه لا يخاف

ولا يهاب فصّدق نفسه وصّدق الناس، وآثر مروان على غيره من الشعراء المعاصرين، وهذا العالم اللغويّ هو ابن الأعرابيّ الذي ختم الشعر بمروان وأبى أن يدون لأحد من المحدثين بعده، والذي كان يُشدد مع الإعجاب الشديد هذه الأبيات الجيدة من شعر مروان، وهي:

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ * أَسْوَدُّ لَهَا فِي بَطْنِ خَفَّانٍ أَشْبَلُ
هُمْ يَمْنَعُونَ الْجَارَ حَتَّى كَأَنَّمَا * لِجَارِهِمْ بَيْنَ السَّمَاءِ كَيْنٍ مَنَزِلُ
لَهَا مِيمٌ فِي الْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ * كَأَوْطَمٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هُمْ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا * أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطُوا أَطَابُوا وَأَجْرُوا
وَلَا يَسْتَطِيعُ الْفَاعِلُونَ فَعَالَهُمْ * وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي النَّاتِبَاتِ وَأَجْمَلُوا

وكان ابن الأعرابيّ يقول: لو أنّ معنّا أعطى مروان كلّ ما يملك بهذه الأبيات لمّا بلغ حقه.

الثاني: أنّ مروان لم يكن سريعاً في الشعر ولا متعجلاً ولا مسترسلاً مع الطبع وإنما كان بطيئاً متمهلاً. كان يجيد الشعر لأنه كان يُجودّه. كان يسلك هذه الطريقة التي يزعم الرواة أنّ زهيراً كان يسلكها في هذه القصائد التي يُسمونها الحموليات، كان يُنفق أشهراً في إنشاء القصيدة وأشهرها في إصلاحها وأشهرها في عرضها حتى إذا استقام له هذا كله أنشد قصيدته لمُدوّحه خليفة كان أوزيراً أو أميراً، فليس عجيباً مع هذه الأناة أن يخلو شعره مما يُستنكر وأن يبرأ من الضعف والوحشية معا. ولقد يُحدثنا الرواة بطائفة من أخبار مروان مع اللغويين والشعراء الذين كان يعرض عليهم شعراً قبل أن يُنشده الخلفاء. ولست أُشير إلا إلى سيرته مع بشار فلها معناها. كان مروان يعرض القصيدة على بشار ويسأله رأيَه فيها فلا يجيبه بشار بأنها جيّدة أو بأنها رديئة، بل يُقدّر له قيمة القصيدة مالياً، فيقول: سيعطونك عليها كذا وكذا... وقد صدق بشار مرّتين فأظهره مروان العجب من ذلك، فقال بشار: ألم أقل لك إني أعلم الغيب! ولم يكن يعلم الغيب،

(١) طاميم واحداً لموم، وهو العظيم الكثير الخير.

وإنما كان يفهم مروان ويفهم الخلفاء ويفهم الميول السياسية التى كان من شأنها أن تُجْزَلَ
حظّ مروان من العطاء .

كان مروان متناقضا ولكنه تناقض مفهوم، كان شديد الحرص على الإجابة، فكان
يشكّ فى شعره، ويستشير فيه الشعراء والنحاة، ولكنه كان مع ذلك مُعجبا بنفسه لا يقدم
عليها أحدا بعد هؤلاء الشعراء الثلاثة : الأخطل والفرزدق وجريز . وأسمع رأيه فيهم
وفى نفسه، فقد عَقَدَهُ شعرا لَيْثُتَ كما يقول :

ذَهَبَ الْفَرَزْدَقُ بِالْفَخَّارِ وَإِنَّمَا * حُلُو الْقَرِيضِ وَمُرُهُ يَجْرِي
ولقد هَجَا فَا مَضَّ أَخْطَلُ تَغْلِبَ * وَحَوَى اللَّهُمَّ بَيَانَهُ الْمَشْهُور
كُلُّ الثَّلَاثَةِ قَدْ أَجَادَ فِدْحَهُ * وَهَجَاؤُهُ قَدْ سَارَ كُلِّ مَسِيرِ
ولقد جَرَيْتُ فُتْتُ غَيْرَ مَهْلَلٍ * بِجَرَاءٍ لَا قَرِيفَ وَلَا مَبْهُورِ
إِنِّى لَأَنْفَ أَنْتَ أَحَبُّ مِدْحَةٍ * أَبَدًا لَغَيْرِ خَلِيفَةِ وَوَزِيرِ
ما ضَرَّنِى حَسَدُ اللَّئَامِ وَلَمْ يَزَلْ * ذُو الْفَضْلِ يَحْسُدُهُ ذُو الْتَقْصِيرِ

أما رأى مروان فى النقد فبديع، كان يُنشد الشعر لأمرئ القيس ويقول : هو أشعرُ
الناس، ثم ينشد شعر الأعشى ويقول : هو أشعر الناس، ثم ينشد شعر زهير ويقول : هو
أشعر الناس، حتى إذا أُلشِدَ لطائفة كثيرة من الشعراء، فرأهم جميعا أشعر الناس، قال
ضاحكا : الناس أشعر الناس ! ولست أعرف رأيا كهذا الرأى يمثّل الشك فى نقد الناقدين
المعاصرين والسخرية بهذا النقد .

وننتقل من ذلك الوصف الرائع الى ذكر نبذة صالحة من أخباره وأشعاره .

دخل مروان بن أبى حَفْصَةَ على المهديّ بعد وفاة مَعْنٍ، فألشده مديحا فيه، فقال
له المهديّ : أَلَسْتَ الْقَائِلَ :

أَقَمْنَا بِالْمِثَامَةِ بَعْدَ مَعْنٍ * مُقَامًا لَا زَيْدُ بِهِ زَوَالَا
وَقَلْنَا أَيْنَ تَرَحُّلُ بَعْدَ مَعْنٍ * وَقَدْ ذَهَبَ النُّوَالُ فَلَا نَوَالَا

قد ذهب النوال فيما زعمت، فلم جئت تطالب نوالنا؟ لا شيء لك عندنا . فلما كان من العام المقبل تلطف حتى دخل مع الشعراء، وإنما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء كل عام مرة، فمثل بين يديه، وألشد - بعد رابع أو خامس من الشعراء - :

طَرَقْتُكَ زَائِرَةً فِي خَيَالِهَا * بِيضَاءُ تَخْلِطُ بِالْجَمَالِ دَلَالِهَا
قَادَتْ فَوَادَكَ فَاسْتَقَادَ وَمِثْلُهَا * قَادَ الْقُلُوبَ إِلَى الصَّبَا فَأَمَالِهَا
فَكَأَنَّمَا طَرَقْتَ بِنَفْحَةِ رَوْضِيَّةٍ * نَحَّتْ بِهَا دِيمُ الرِّبْعِ طِلَالِهَا
بَاتَتْ تَسْأَلُ فِي الْمَنَامِ مُعَرَّسًا * بِالْبَيْدِ أَشْعَثَ لَا يَمَلُّ سَوَالِهَا
فِي فِتْيَةٍ هَجَعُوا غِرَارًا بَعْدَ مَا * سَمِعُوا مُرَاعِشَةَ السُّرَى وَمِطَالِهَا
فَكَأَنَّ حَشَوْنِيَابِهِمْ هِنْدِيَّةٌ * نَحَلَتْ وَأَغْلَتِ الْقِيُونَ صِبْغَالِهَا
وَضَعُوا الْخُدُودَ لَدَى سَوَاهِمِ جُنْحٍ * تَشْكُرُ كَلُومَ صِفَاحِهَا وَكَلَامِهَا
طَلَبْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَوَاصِلَتْ * بَعْدَ السُّرَى بِغُدُوقِهَا أَصَالِهَا
نَزَعْتُ إِلَيْكَ صَوَادِيًا فَتَقَادَفْتُ * تَطْوِي الْفَلَاحَةَ حَزُونَهَا وَرَمَالِهَا
يَتَبَعْنَ نَاجِيَةً يَرِزُّ مِرَاحُهَا * بَعْدَ النُّحُولِ تَلْبِلُهَا ^(١) وَقَذَالِهَا
هُوَ جَاءَ تَدْرِجَ الرُّبَا وَتُسْقِهَا * شَقَّ الشَّمْسُ إِذَا تُرَاعَ جَلَالِهَا
تَنْجُو إِذَا دَفَعَ الْقَطِيعُ كَمَا نَجَتْ * خَرَجَاءُ ^(٢) بَادَرَتْ الظَّلَامَ رِثَالِهَا ^(٣)
كَالْقَوْسِ سَاهِمَةً أَنْتَكَ وَقَدْتَرَى * كَالْبُرْجِ تَمَلَّأَ رَحْلُهَا وَجِبَالِهَا
وَفِيهَا يَقُولُ هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نُجُومَهَا * بِأَكْفَكُمْ أَوْ تَسْتُرُونَ هَلَالِهَا
أَوْ تَجْحَدُونَ مَقَالَةً عَنْ رَبِّكُمْ * جَبْرِيلُ بَلَّغَهَا النَّبِيَّ فَقَالِهَا
شَهِدْتُ مِنَ الْأَنْفَالِ آخِرَ آيَةٍ * بُتْرَانِهِمْ فَأَرَدْتُمْ إِبْطَالِهَا
وَمِنْهَا أَحْيَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ * سُنَنَ النَّبِيَّ حَرَامَهَا وَحَلَالِهَا
مَلِكٌ تَفَسَّرَعَ نَبْعَةً مِنْ هَاشِمٍ * مَدَّ الْإِلَهَ عَلَى الْأَنَامِ ظِلَالِهَا
جَبَلٌ لِأُمْتِهِ تَلُودُ بَرْكَنِهِ * رَادَى جِبَالَ عَدُوِّهَا فَأَزَالِهَا

(١) التليل : العلق . (٢) تنجيو : تبرع . (٣) الخرجاء : النعامة . (٤) الرثال : فراخ النعامة واحدا رثال .

لم يَشْهَرِهَا مَا يَخَافُ عَظِيمَةً * إِلَّا أَجَالَهَا الْأُمُورَ مُجَاهَةً
 حَتَّى يُفَرِّجَهَا أَغْرُ مَهْدَب * أَلْفَى أَبَاهُ مُفَرِّجًا أُمْنَاهَا
 ثَبَّتْ عَلَى زَلَلِ الْحَوَادِثِ رَاكِبٌ * مِنْ صَرَفِهِنَّ لِكُلِّ حَالٍ حَالَهَا
 كَلْنَا يَدَيْكَ جَعَلْتَ فَضْلَ نَوَاهَا * لِلْمُسْلِمِينَ وَلِلْعَدُوِّ وَبَالَهَا
 وَقَعْتَ مَوَاقِعَهَا بِعَفْوِكَ أَنْفُسُ * أَذْهَبَتْ بَعْدَ مَخَافَةٍ أَوْجَاهَهَا
 وَنَصَبْتَ نَفْسَكَ خَيْرَ نَفْسٍ دُونَهَا * وَجَعَلْتَ مَالَكَ وَاقِيًا أُمُومَهَا
 هَلْ تَعْلَمُونَ خَلِيفَةً مِنْ قَبْلِهِ * أَجْرَى لِفَايَتِهِ الَّتِي أَجْرَى لَهَا
 طَلَعَ الدَّرُوبَ مُشْمَرًا عَنْ سَاقِهِ * بِالْخَيْلِ مُنْصَلِبًا يُجِدُّ نَعَالَهَا
 قُوْدٌ تَرِيحُ إِلَى أَغْرِ لَوَجْهِهِ * نُورٌ يُضِيءُ أَمَامَهَا وَخِلَافَهَا
 قَصُرَتْ حَمَائِلُهُ عَلَيْهِ فَقَلَصَتْ * وَلَقَدْ تَحَفَّظَ قَيْنُهَا فَأَطَاعَهَا
 حَتَّى إِذَا وَرَدَتْ أَوَائِلُ خَيْلِهِ * جِيحَانٌ بَثَّ عَلَى الْعَدُوِّ رَعَالَهَا^(١)
 أَحْمَى بِلَادَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ * وَأَبَاحَ سَهْلَ بِلَادِهِمْ وَجِبَالَهَا
 أَدْمَتْ دَوَابِرَ خَيْلِهِ وَشَكِيمَهَا * غَارَاتُهَا^(٢) وَأَحْلَقَتْ أَطَالَهَا
 لَمْ يُبْقِ بَعْدَ مُغَارِهَا وَطِرَادَهَا * إِلَّا نَحَائِزَهَا^(٣) وَإِلَّا آهَهَا
 رَفَعَ الْخَلِيفَةُ نَاطِرِيَّ وَرَاشَنِي * بِيَدِ مَبَارَكَةٍ شَكَرْتُ نَوَالَهَا
 وَحُسَيْدْتُ حَتَّى قِيلَ أَصْبَحَ بَاغِيَا * فِي الْمَشْيِ مُتَرَفٍّ شِيمَةً مُخْتَالَهَا
 وَلَقَدْ حَذَوْتَ لِمَنْ أَطَاعَ وَمِنْ عَصَى * نَعْلًا وَرِثْتَ عَنِ النَّبِيِّ مَنَالَهَا

فَزَحَفَ الْمَهْدِيُّ مِنْ صَدْرِ مُصَلَّاهُ حَتَّى صَارَ عَلَى الْإِسَاطِ إِعْجَابًا بِمَا سَمِعَ ، ثُمَّ قَالَ :
 كَمْ هِيَ ؟ قَالَ : مِائَةُ بَيْتٍ ، فَأَمَرَ لَهُ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، فَكَانَتْ أَوَّلُ مِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ أُعْطِيَهَا
 شَاعِرٌ فِي أَيَّامِ بَنِي الْعَبَّاسِ ، وَهَكَذَا فَعَلَ مَعَهُ الرَّشِيدُ لَمَّا أُنْسَدَهُ قَصِيدَتَهُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

لَعَمْرُكَ مَا أُنْسَى غَدَاةَ الْمُحْصَبِ * إِشَارَةَ سَلَمَى بِالْبَنَانِ الْمُخَضَّبِ
 وَقَدْ صَدَّرَ الْحُجَّاجَ إِلَّا أَقْلَهُمْ * مَصَادِرَ شَتَّى مَوْجِبًا بَعْدَ مَوْكِبِ

(١) الرِّعَالُ : الْقَطْعُ مِنَ الْحَبْلِ وَاحِدًا رَعْلَةً . (٢) النَّعَائِزُ : الْإِنْسَاعُ .

قال مروان : دخلتُ على المهدي في قصر السلام ، فلما سلّمت عليه وذلك يعقب
سُخطه على يعقوب بن داود ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن يعقوب رجل رافضي ، وإنه
سمعى أقول في الوراثة :

أنى يكون وليس ذاك بكائن * لىّى البنات وراثة الأعمام
فذلك الذى حمله على عداوتى ، ثم أنشدته :

كأنّ أمير المؤمنين محمدا * لرأفته بالناس للناس والد
فقال له المهدي : والله ما أعطيك إلا من صلب مالى ، فاعذرني ، وأمر لي بثلاثين ألف درهم
وكساني جبة ومطرفا ، وفرض لي على أهل بيته ومواليه ثلاثين ألفا أخرى .

لما قدّم مَعْن من اليمن دخل عليه مروان والمجلس غاص بأهله ، فأخذ يعضدني الباب
وأنشأ يقول :

أرى القلب أمسى بالأوانس مولعا * وإن كان من عهد الصبا قد تمّعا
ويقول فيها :

ولما سرى لهم الغريب قريته * قري من ازال الشك عنه وأزعما
عزمت فعتجت الرحيل ولم أكن * كذى لؤثة لا يطلع لهم مطالعا
فأمت ركابي أرض مَعْن ولم تزل * الى أرض مَعْن حيثما كان نُزدا
نجائب لولا أنها سُخّرت لنا * أبت عزة من جهلها أن تورعا
كسونا رجال الميس منها غواربا * تدارك فيها النى صيفا ومرّعا
فما بلغت صنعا حتى تواضعت * ذراها وزال الجهل عنها وأقلعا

الى أن قال :

وما الغيث اذ عمّ البلاد بصوبه * على الناس من معروف مَعْن بأوسعا
تدارك مَعْن قبة الدين بعد ما * خشيننا على أوتادها أن تُزعا

(١) الميس : شجر عظيم تخذ منه الرجال . (٢) النى : الشم .

أقام على الثَّغَرِ الخَوْفَ وهاشمٌ * تُسَاقَى سِمْامًا بِالْأُسْنَةِ مُنْقَعًا
مُقَامَ آمْرِئٍ يَأْبَى سِوَى الْخُطَّةِ الَّتِي * تَكُونُ لَدَى غَيْبِ الْأَحَادِيثِ أَنْفَعَا
وَمَا أَحْجَمَ الْأَعْدَاءُ عَنْكَ بَقِيَّةً * عَلَيْكَ وَلَكِنْ لَمْ يَرَوْا فِيكَ مَطْمَعَا
رَأَوْا مُخْذِرًا قَدْ جَرَّبُوهُ وَعَايَنُوا * لَدَى غِيْلِهِ مِنْهُمْ مَجْرًا وَمَضْرَعَا
وَلَيْسَ بِثَانِيَةِ إِذَا شَدَّ أَنْ يَرَى * لَدَى نَحْرِهِ زُرْقَ الْأُسْنَةِ سُرْعَا
لَهُ رَاحَتَانِ الْغَيْثُ وَالْحَنْتُ فِيهِمَا * أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ تَضُرَّ وَتَنْفَعَا
لَقَدْ دَوَّخَ الْأَعْدَاءَ مَعْنٌ فَأَصْبَحُوا * وَأَمْنُهُمْ لَا يَدْفَعُ الذَّلَّ مَدْفَعَا
نَجِيبٌ مِنْ جَيْبٍ وَسَيِّدٌ سَادَةٍ * ذُرَى الْمَجْدِ مِنْ فَرْعَى نِزَارٍ تَفْرَعَا
لَبَانَتْ خِصَالُ الْخَلِيرِ فِيهِ وَأَكَلَتْ * وَمَا كُنْتُ نَحْسًا سِنُوهُ وَأَرْبَعَا
لَقَدْ أَصْبَحَتْ فِي كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرَبٍ * بِسَيْفِكَ أَعْنَاقُ الْمُرِيْبِينَ خُضْعَا
وِطِئَتْ خُدُودَ الْحَضَرِيِّينَ وَطَاءَةً * لَهَا هُدًى رَكْبٌ مِنْهُمْ فَتَضَعُضَعَا
فَأَقْعَوْا عَلَى الْأَذْنَابِ إِقْعَاءَ مَعْشَرٍ * يَرُونَ لَزُومَ السَّلَامِ أَبَقَى وَأَوْدَعَا
فَلَوْ مَدَّتْ الْأَيْدَى إِلَى الْحَرْبِ كُلِّهَا * لَكَفُّوا وَمَا مَدَّوْا إِلَى الْحَرْبِ أَصْبَعَا

فَقَالَ لَهُ مَعْنٌ : احْتَكَمْ ، قَالَ : عَشْرَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ ، فَقَالَ مَعْنٌ : رَجَحْنَا عَلَيْكَ تِسْعِينَ أَلْفًا ،
قَالَ : أَقْلُنِي ، قَالَ : لَا أَقَالَ اللَّهُ مِنْ يُقِيلُكَ .

لَمَّا مَاتَ الْمَهْدِيُّ وَقَدَّتِ الْعَرَبُ عَلَى مُوسَى الْهَادِي يُهَنِّئُونَهُ بِالْخِلَافَةِ وَيُعَزِّوْنَهُ عَنِ
الْمَهْدِيِّ ، فَدَخَلَ مَرْوَانَ فَأَخَذَ بَعْضَادَتِي الْبَابَ وَقَالَ :

لَقَدْ أَصْبَحَتْ تَحْتَالُ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ * بِقَبْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُقَابِرُ
وَلَوْ لَمْ تُسَكَّنْ بَابُهُ فِي مَكَانِهِ * لَمَّا بَرَحْتُ تَبْكِي عَلَيْهِ الْمُنَابِرُ

مَرَضَ عَمْرُو بْنُ مَسْعُودَةَ فَدَخَلَ عَلَيْهِ مَرْوَانٌ وَقَدْ أَبْلَّ مِنْ مَرَضِهِ ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

صَحَّ الْجِسْمُ يَا عَمْرُو * لَكَ التَّحْيِيصُ وَالْأَجْرُ
وَلِلَّهِ عَلَيْنَا الْحَمْدُ * مَدُّ الْمِنَّةِ وَالشُّكْرِ
فَقَدْ كَانَ شَكَا شَوْقًا * إِلَيْكَ النَّهْيُ وَالْأَمْرُ

قال موسى بن يحيى : أوصلنا الى مروان بن أبي حفصة في وقت من الأوقات سبعين ألف درهم ، وجمع اليها مالا حتى تمت مائة ألف وخمسين ألف درهم وأودعها يزيد بن مزيد ، فبينما نحن عند يحيى بن خالد إذ دخل يزيد بن مزيد ، وكانت فيه دُعابة ، فقال : يا أبا علي ، أودعني مروان خمسين ومائة ألف درهم ، وهو يشتري الخبز من البقال ؛ فغضب يحيى ثم قال : على مروان ، فأتى به ، فقال له : قد أخبرني أبو خالد بما أودعته من المال وما تتبناه من البقال ، والله لمّا يرى من أثر البخل عليك أضرّ من الفقر لو كان بك . ويروى أنه قال له : والله للبخل أسوأ عليك أثرا من الفقر لو صرّت اليه فلا تبخل . وقال عمر بن شبة قال مروان : ما فِرحتُ بشيء قطُّ فرحى بمائة ألف وهبها لي أمير المؤمنين المهدي ، فوزنتها فزادت درهما ، فاشترت به لحما . وقال جهم بن خلف : أتينا اليمامة فنزلنا على مروان بن أبي حفصة فأدعانا تمرا وأرسل غلامه بفلس وسكرجة ليشتري زيتا ، فلما جاء بالزيت قال لغلامه : خُفّنِي ؛ قال : من فلس ! كيف أخونك ؟ قال : أخذتَ الفلس لنفسك وأستوهبت الزيت . وقال التوزي : مرّ مروان بن أبي حفصة في بعض سفرائه وهو يريد معنى امرأة من العرب ، فأصابته ؛ فقال : لله على إنّ وهب لي الأمير مائة ألف أن أهب لك درهما ؛ فأعطاه ستين ألف درهم ، فأعطاه أربعة دنانير . وقال أبو دامة : اشترى مروان لحما بنصف درهم فلما وضعه في القدر وكاد ينضج دعاه صديق له ، فردّه على القصّاب بنقصان دائق ، فشكاه القصّاب وجعل ينادي هذا لحم مروان ، وظنّ أنه يأنف لذلك ؛ فبلغ الرشيد ذلك فقال : ويلك ! ما هذا ؟ فقال : أكره الإسراف .

دخل مروان على موسى الهادي فأنشده قوله فيه :

تسّابه يوما بأسسه ونواله * فما أحدٌ يدري لأيهما الفضلُ

فقال له الهادي : أيّما أحبّ إليك ؟ أنلامون ألفا معجّلة ، أم مائة ألف تدوّن في الدواوين ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين ، أنت تُحسّن ما هو خير من هذا ، ولحكّك أُنسيته ، أفتأذن لي أن أذكرك ؟ قال : نعم ؛ قال : تُعجل لي الثلاثين ألفا وتدوّن المائة ألف في الدواوين ، فضحك وقال : بل يُعجلان جميعا ، فحُمِلَ اليه المال أجمع .

قال محمد التوفلي : آجتاز مروان برجل من بَاهِلَة من أهل اِيَمَامَة ، وهو يُنْشِد قوما كان جالسا اليهم شعرا مدح به مروان بن محمد ، وأنه قُتِل قبل أن يلقاه ويُشِده إياه ، أوله :

مروانُ يا بن محمد انت الذي * زيدت به شرفا بنو مروان

فأعجبته القصيدة ، فأمهل الباهلي حتى قام من مجلسه ، ثم أتاه في منزله فقال له : إني سمعت قصيدتك وأعجبني ، ومروان قد مضى ومضى أهله ، وفاتك ما قدّرت عنده . أفتبغيني القصيدة حتى أنتحلها ، فإنه خير لك من أن تبقى عليك وأنت فقير ؟ قال : نعم ، قال : بكم ؟ قال : بثلاثمائة درهم ، قال : قد آبتعتها ، فأعطاه الدراهم وحلقه بالطلاق ثلاثا وبالأيمان المخرجة ألا ينتحلها أبدا ، ولا ينسبها الى نفسه ولا ينشدها ، وأنصرف بها الى منزله فغير منها أبياتا وزاد فيها وجعلها في معن ، وقال في ذلك البيت :

معنُ بن زائدة الذي زيدت به * شرفا على شرف بنو شيبار

ووفد بها الى معن حتى أثرى وآتسعت حاله ، فكان معن أول من رفع ذكره وتوه به . وله فيه مدائح بعد ذلك شريفة ومراث حسنة . قال مروان : كان المنصور قد طلب معن بن زائدة طلبا شديدا وجعل فيه مالا ، فحدثني معن باليمن أنه أضطر لشدة الطلب الى أن قام في الشمس حتى لَوَحَتْ وجهه ، وخفف عارضيه ولحيته ، وليس جُبة صوف غليظة ، وركب جملا من الجمال الثقالة ينضى الى البادية فيقيم بها ، وكان قد أبلى في حرب يزيد ابن عمر بن هبيرة بلاء حسنا غاظ المنصور وجحد في طلبه ، قال معن : فلما خرجت من باب حرب تبغني أسود متقلدا سيفي حتى اذا غبت عن الحرس قبض على خطام جملي فأناخه وقبض علي ، فقلت له : مالك ؟ قال : أنت طلبة أمير المؤمنين ، قلت : ومن أنا حتى يطلبني أمير المؤمنين ؟ قال : معن ابن زائدة ، قلت : يا هذا ، آتق الله ، وأين أنا من معن ؟ قال : دع هذا عنك ، فأنا والله أعرف بك منك ، فقلت له : فإن كانت القصصة كما تقول ، فهذا جوهر حملته معي يفي بأضعاف ما بذله المنصور لمن جاءه بي ، فخذوه ولا تسعك دمي ، قال : هانه ، فأخرجته اليه ، فنظر اليه ساعة وقال : صدقت في قيمته ، ولست أقبله حتى أسألك

عن شيء ، فإن صدقتني أطلقتك ، فقلت : قل ، قال : إن الناس قد وصفوك بالجلود فأخبرني ، هل وهبت قط مالك كله ؟ قلت : لا ، قال : فنصفه ؟ قلت : لا ، قال : فثلثه ؟ قلت : لا ، حتى بلغ العشر ، فاستحييت ، فقلت : أظن أني قد فعلت هذا ، فقال : ما أراك فعلته ، أنا والله راجل ورزق من أبي جعفر عشرون درهما وهذا الجوهر قيمته آلاف الدنانير وقد وهبته لك ، ووهبتك لنفسك وجلودك المأثور عنك بين الناس ، ولتعلم أن في الدنيا أجود منك فلا تعجبك نفسك ، ولتحقق بعد هذا كل شيء تفعله ولا تتوقف عن مكرمة ، ثم رمى بالعقد في حجرى وخلّى خطام البعير وأنصرف ، فقلت : يا هذا ، قد والله فضحتني وأسفك دمي أهون عليّ مما فعلت ، نخذ ما دفعته اليك فإنني غني عنه ، فضحك وقال : أردت أن تكذبني في مقامى هذا ، والله لا أخذه ولا آخذ بمعروف ثمننا أبدا ومضى ، فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت وبذلت لمن جاءني به ما شاء ، فما عرفت له خبرا وكأن الأرض آبتلته . وكان سبب رضا المنصور عن معن أنه لم يزل مستترا حتى كان يوم الهاشمية^(١) ، فلما وثب القوم على المنصور وكادوا يقتلونه ، وثب معن وهو متألم فانتضى سيفه ونازل فابلى بلاء حسنا وذبح القوم عنه حتى نجا وهم يحاربونه بعد ؛ ثم جاء والمنصور راكب على بغلة ولحماها بيد الربيع فقال له : تنح فإنني أحق بالجام منك في هذا الوقت وأعظم فيه غناء ، فقال له المنصور : صدق فادفعه إليه ، فأخذه ولم يزل يقاتل حتى أنكشفت تلك الحال ، فقال له المنصور : من أنت ؟ لله أبوك ! قال : أنا طليبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة ، قال : قد أمنتك الله على نفسك ومالك ومثلك بضطنع ، ثم أخذه معه وخلع عليه وحباه وزينه ، ثم دعا به يوما فقال له : إني قد أملت لك لأمر فكيف تكون فيه ؟ قال : كما يحب أمير المؤمنين ، قال : قد وليتك اليمن فابسط السيف فيهم حتى ينقض حلف ربيعة واليمن ، وأبلغ من ذلك ما يحب أمير المؤمنين ، فولاه اليمن وتوجه إليها فبسط السيف فيهم حتى

(١) مدينة بناها السفاح بالكوفة وذلك أنه لما ولي الخلافة نزل بقصر ابن هبيرة واستم بناء وجعله مدينة وسماها الهاشمية ، فكان الناس ينسبونها إلى ابن هبيرة على العادة ، فقال : ما أرى ذكر ابن هبيرة يسقط عنها ، فرفضها وبني حياها مدينة سماها الهاشمية وزرها .

أسرف . قال مروان : وقديم معن بعقب ذلك فدخل على المنصور ، فقال له بعد كلام طويل :
قد بلغ أمير المؤمنين عنك شئء لولا مكانك عنده ورأيه فيك لغضب عليك ؛ قال :
وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : إعطاؤك مروان بن أبى حفصة ألف دينار لقوله فيك :

معنُ بنُ زائدة الذى زِيدَتْ به * شرفاً على شرف بنو شيبان
إن عُدَّ أيامَ الفِعالِ فإنما * يوماه يومُ ندى ويومُ طعان

فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أعطيتُهُ ما بَلَغَكَ لهذا الشعر ، وإنما أعطيتُهُ لقوله :

ما زِلْتَ يومَ الهاشمية مُعَانِماً * بالسيفِ دونَ خليفةِ الرحمن
فمنعتَ حوزته وكنتَ وقاءه * مِنْ وقعِ كلِّ مهتدٍ وسنان

فاستحيا المنصور وقال : إنما أعطيتُهُ ما أعطيتُهُ لهذا القول ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ؛
والله لولا مخافة الشُّعْبة لأمكتُّهُ من مفاتيح بيوت الأموال وأبجته إياها ؛ فقال له المنصور :
لله دَرَكٌ من أعرابي ! ما أهونَ عليك ما يعزُّ على الرجال وأهل الخزم !

وأختم هذه الترجمة بموت مروان يَقْصُهُ قاتله . روى صاحب الأغاني عن رجل
يقال له صالح بن عطية الأصمُّ أنه قال :

لما قال مروان :

أنى يكونُ وليس ذاكُ بكائنٍ * لبنى البناتِ ورائةِ الأعمامِ

لَزِمَتْهُ وعاهدت الله أن أغتاله فأقتله أئى وقتٍ أمكننى ، وما زلت أُلَاطِفُهُ وأُبرُّهُ ، وأكتب
أشعاره حتى خُصِصَتْ به فائِسٌ بى جدا ، وعرفتُ ذلك بنو حفصة جميعا فأنسوا بى ،
ولم أزل أطلب غيرة حتى مريض من حمى أصابته ، فلم أزل أظهر له الجزع عليه والألزمه
والأطفه حتى خلا لى البيت يوما ، فوثبتُ عليه فأخذت بحلقه فما فارقه حتى مات ، فخرجت
وتركتُه فخرج اليه أهله بعد ساعة فوجدوه ميتا وأرتفعت الصيحة ، فحضرتُ وتباكيتُ
وأظهرت الجزع عليه حتى دُفِنَ وما فِطِنَ لما فعلت أحد ولا آتهمنى به .

٤ - أبو دلامة^(١)

كان أقول ما حفظ من شعره وأسنيت الجوائز له به ، قصيدة مدح بها أبا جعفر المنصور
وذكر قتله أبا مسلم يقول فيها :

أبا مسلم خوفني القتل فانتحى * عليك بما خوفني الأسد الورث

أبا مسلم ما غير الله نعمة * على عبده حتى يغيرها العبد

أنشدها المنصور في محفل من الناس فقال له : أحكم ، فطلب عشرة آلاف درهم ،
فأمر له بها ، فلما خلا قال له : إيه ، أها والله لو تعديتها لقتلتك .

أمر أبو جعفر أصحابه لبئس السواد وقلانس طوال تدغم بعيدان من داخلها ، وأن يعلقوا
السيوف في المناطق ويكتبوا على ظهورهم : ﴿ فَسَيَكْفِيكُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فقال
أبو دلامة :

وكنّا نرجى من إمام زيادة * بخاف بطوي زاده في القلانس

تراها على هام الرجال كأنها * دنان يهود جلت بالبرانس

ودخل الى المنصور مرة فأنشده :

إن الخليط أجده البين فانتجعوا * وزودوك خبالا ، لبئسا صنعوا

والله يعلم أن كادت ليبيهم * يوم الفراق حصاة القلب تنصدع

عجبت من صبيتي يوما وأمههم * أم الدلامة لما حاجها الجزع

(١) هو زندي بن الجون ، سمي أبا دلامة نسبة إلى ابيه دلامة ، وهو كوفي المنشأ أسود اللون مولى لبني أسد ،
وكان أبوه عبدا للرجل منهم فأعتقه . أدرك أبو دلامة أواخر الدولة الأموية ، ولكنه نبغ في الدولة العباسية ، وانقطع
إلى أبي العباس السفاح والمنصور والمهدي ، وكانوا يقدّمونه ويصلونه ويستطيّبون محاسنه ونواذره ، وفيه دهابة
وظرف ، لا يخلو حديثه من نكتة أو ملحة ، وكان مع ذلك معسودا في جملة المتهمين بالزندقة وفساد الدين ،
وكان يشرب الخمر ولا يحضر صلاة ولا فريضة . توفي سنة ١٦١ هـ . وأخباره في الأغاني (ج ٩ ص ١٢٠) وابن
خلكان طبع بلاق (ج ١ ص ٢٦٧) والشعر والشعراء (ص ٨٧) والدمري (ج ١ ص ١٣٢) والمستطرف
(ج ٢ ص ٤٣) . (٢) في الشعر والشعراء : "أبا مجرم" . (٣) في الطبري ج ٢ ص ٣٧١ طبع أوربا
"فراذ الامام المصطفى" .

لا بارك الله فيها من مُنِية * هبّ تلوم عيالى بعد ما هَجَعُوا
ونحن مُشْتَهَوُ الأُلُوَانِ أَوْجُهْنَا * سُودٌ قِبَاحٌ وَفِي أَسْمَانَا شَسَعٌ
إِذَا تَشَكَّتْ إِلَى الْجُوعِ قَلْتُ لَهَا * مَا هَاجَ جُوعَكَ إِلَّا الرُّىُّ وَالشَّيْعُ
لَا وَالَّذِى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَضَى * لَكَ الْخِلَافَةَ فِي أَسْبَابِهَا الرِّقْعُ
مَا زِلْتُ أَخْلِصُهَا كَسْبِي فَتَأْكُلُهُ * دُونِي وَدُونَ عِيَالِي ثُمَّ تَضْطَجِعُ
تَسُوهُاءُ مَشْنَأَةً فِي بَطْنِهَا يَجْرُ^(١) * وَفِي الْمَفَاصِلِ مِنْ أَوْصَالِهَا قَدَعُ
ذَكَرْتُهَا بِكُتَابِ اللَّهِ حُرْمَتَنَا * وَلَمْ تَكُنْ بِكُتَابِ اللَّهِ تَنْتَفِعُ
فَانْزَطَمْتُ ثُمَّ قَالَتْ وَهِيَ مُغْضَبَةٌ * أَنْتِ لَتَلُوْ كُتَابَ اللَّهِ يَا لُكْعُ
أَخْرُجْ لَتَبْغِ لَنَا مَالًا وَمَزْرَعَةً * كَمَا لِحَيْرَانَا مَالٌ وَمُزْدَرَعُ
وَأَخَذَ خَلِيفَتُنَا عَنَّا بِمَسْأَلَةٍ * إِنَّ الْخَلِيفَةَ لِلشُّؤْلِ يَخْذِعُ
فَضَحِكَ أَبُو جَعْفَرٍ وَكَتَبَ لَهُ بِضِيعَةً .

كان واقفا بين يدي السَّفَاحِ فقال له : سألني حاجتك ، قال : كلب أتصيّد به ، قال :
أعطوه إِيَّاهُ ، قال : ودابةً أتصيّد عليها ، قال : أعطوه دابةً ، قال : وغلّام يصيد بالكلب
ويَقْوُدُهُ ، قال : أعطوه غلاما ، قال : وجارية تُصْلِحُ لَنَا الصَّيْدَ وتُطْعِمُنَا مِنْهُ ، قال :
أعطوه جارية ، قال : هؤلاء يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عبيدك ، فلا بدّ لهم من دارٍ يسكنونها ، قال :
أعطوهم دارًا تَجْمَعُهُمْ ، قال : فإن لم تكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون ؟ قال : قد أعطيتك مائة
جَرِيبِ عامرة ، ومائة جَرِيبِ عامرة ، قال : وما العامرة ؟ قال ما لا نبات فيه ، فقال : قد
أقطعُتك يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خمسمائة ألف جَرِيبِ عامرة من فَيَافِي بَنِي أَسَدٍ ، فَضَحِكَ وَقَالَ :
اجعلوها عامرة ، قال : فأذن لي أن أقبل يدك ، قال : أما هذه فدعها ، قال : والله ما منعت
عيالى شيئا أقل ضررا عليهم منها ، قال الجاحظ : فانظر الى حِدْقِهِ بِالمَسْأَلَةِ وَلُطْفِهِ فِيهَا ، ابْتَدَأَ

(١) البحر : خروج السرة ونسوها وغلظ أصلها . والقَدَعُ : أعوجاج في الرسغ من اليد أو الرجل حتى يتقلب

(٢) أى غضبت .

الكف والقدم الى أنسيما .

بكلب فسَهَّل القصة به وجعل يأتي بما يليه على ترتيب وفكاهة حتى نال ما لو سأله بديهة
لما وصل اليه .

قال علي بن سَلَّام : كنت أسقى أبا دلامة والسَّندى إذ خرجتِ نَتُّ لأبي دلامة،
فقال فيها أبو دلامة :

فما وَلَدَتِكَ مريمُ أمَّ عيسى * ولا رَبَّكَ لِقَابَ الحكيم
أَجْزُ يا أبا عطاء، فقال :

ولكنَّ قد تَضُمُّكَ أمُّ سوءٍ * الى لَبَّاتِها وأبُّ لئيم
فضحك لذلك، ثم غدا أبو دلامة الى المنصور فألقاه في الرَّحبة يُصَلِّح فيها شيئاً يريدُه، فأخبره
بقصة ابنته وأنشده البيتين، ثم أندفع فأنشده بعدهما :

لو كان يَقَعْدُ فوقَ الشمس من كَرِّم * قومٌ لَقِيلَ آفَعِدُوا يا آلَ عباس
ثم أَرْتَقُوا في شُعاعِ الشمس كلُّكم * الى السماء فأتَمَّ أَطْهَرُ الناس
وقدَّمُوا القِائمَ المنصورَ رَأْسَكُم * فالعين والأنف والأُذنان في الراس
فاستحسنها وقال : بأى شىء تحبُّ أن أُعِينَكَ على قُبْحِ ابْنَتِكَ هذه ؟ فأخرج خريطة كان
قد خاطها من الليل، فقال : تملأُ لى هذه دراهم، فمُئْتُ فَوَسَّعتُ أربعة آلاف درهم .
لما تَوَقَّى أبو العباس السَّقَّاح دخل أبو دلامة على المنصور والناسُ عنده يعزُّونه، فأنشأ
أبو دلامة يقول :

أُمِيتَ بالأنْبَارِ يا ابنَ محمِد * لم تَسْتَطِعْ عن عُقْرِها تحويلا
وويلُ عليك وويلُ أهلى كلَّهم * وَيَلًا وَعَوَّلًا في الحياة طويلا
فانْبَكَيْنَ لك النساءُ بَعْبَرَةً * وليه كَيْنَ لك الرجال عويلا
مات النَّدى إذ مُتَّ يا ابنَ محمِد * بفعلته لك في التراب عديلا
إنى سألتُ الناسَ بعدك كلَّهم * فوجدتُ أَسْمَحَ من سألتُ بخيلا
الِشَّقَوَى أنْحرْتُ بعدك للتى * تدعُ العزیزَ من الرجال ذليلا
فلا حِلْفَ يمينِ حقِّ بَرَّة * بالله ما أُعْطيتُ بعدك سُولا

فأبكى الناس قوله ، فغضب المنصور غضبا شديدا وقال : لئن سمعتك تُنشد هذه القصيدة لأقطعن لسانك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أبا العباس أمير المؤمنين كان لي مكرما ، وهو الذي جاء بي من البدو كما جاء الله بإخوة يوسف فقل كما قال يوسف لإخوته : ﴿ لَا تَزَيِّبْ عَنْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فُسِّرَى عن المنصور وقال : قد أفلناك يا أبا دلامة ، فسل حاجتك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قد كان أبو العباس أمر لي بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوبا وهو مريض ، ولم أقبضها . فقال المنصور : ومن يعرف هذا ؟ فقال : هؤلاء ، وأشار إلى جماعة ممن حضر ، فوثب سليمان بن خالد وأبو الجهم فقالا : صدق أبو دلامة نحن نعلم ذلك ، فقال المنصور لأبي أيوب الخازن وهو مغيظ : ياسليمان ، ادفعها إليه وسيِّره إلى هذا الطاغية « يعنى عبد الله بن علي » وقد كان خرج بناحية الشام وأظهر الخلاف ، فوثب أبو دلامة فقال : يا أمير المؤمنين إنني أعيدك بالله أن أخرج معهم ، فوالله أني لمشثوم ، فقال المنصور : امض ، فإن يُمنى يغلب شؤمك فأنخرج ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أحب لك أن تجزب ذلك مني على مثل هذا العسكر ، فإن لا أدري أيهما يغلب ، أيمنك أم شؤمي ، إلا أني بنفسى أوثق وأعرف وأطول تجربة ، قال : دعني من هذا فمالك من الخروج بُد ، فقال : إني أصدقك الآن ، شهدت والله تسعة عشر عسكرا كلها هُزمت وكنْتُ سببها ، فإن شئت الآن على بصيرة أن يكون عسكرك العشرين فافعل ، فاستغرب أبو جعفر ضحكا وأمره أن يتخلف مع عيسى بن موسى بالكوفة .

قال أبو دلامة : أتيت بي المنصور أو المهدي وأنا سكران ، فحلف ليُخرجني في بعث حرب ، فأنخرجني مع رَوْح بن حاتم المهلب لقتال الشُّرة ، فلما التقى الجمعان قلت لِرَوْح : أما والله لو أن تحتي فرسك ومعى سلاحك لَأَثَرْتُ في عدوك اليوم أثرا ترتضيه ، فضحك وقال : والله العظيم لأدفعن ذلك إليك ولأخذنك بالوفاء بشرطك ، ونزل عن فرسه ونزع سلاحه ودفعهما إلى ودعا بغيرهما فاستبدل بهما ، فلما حصل ذلك في يدي وزالت عني حلاوة الطمع قلت له : أيها الأمير هذا مقام العائد بك ، وقد قلت أبياتا فاسمعهما ، قال : هات ، فأنشدته :

إني استعجرتك أن أقدم في الوعى * لَتَطَاعُنِي وَتَسْأَلُنِي وَحِرَابُ^(١)
فَهَيْبُ السُّيُوفِ رَأْيُهَا مَشْهُورَةٌ * فَتَرَكْتُهَا وَمَضَيْتُ فِي الْمُسَرَّابِ
ماذا تقول لِمَا يَحْيَى، وما يُرَى * من واردات الموت في النُّشَابِ

فقال : دَع عَنْكَ هَذَا وَسَتَعَلَّمَ، وبرز رجل من الخوارج يدعو للمبارزة : فقال : اخرج
إليه يا أبا دلامة، فقلت : أَلَسْتُكَ اللَّهُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ فِي دَيْحِي، قال : والله لَتَخْرُجَنَّ، فقلت :
أَيُّهَا الْأَمِيرُ فَإِنَّهُ أَوَّلُ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ وَأَخْرُجُ يَوْمَ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا وَأَنَا وَاللَّهِ جَائِعٌ مَا شَبِعَتْ
مَنِي جَارِحَةٌ مِنَ الْجُوعِ، فُرْتُ لِي بَشْيَاءُ أَكَلُهُ ثُمَّ أَخْرَجُ، فَأَمَرَ لِي بِرُغِيْفَيْنِ وَدَجَاجَةٍ، فَأَخَذْتُ
ذَلِكَ وَبَرَزْتُ عَنْ الصَّبَفِ، فَلَمَّا رَأَى الشَّارِي أَقْبَلَ نَحْوِي وَعَلَيْهِ قُرُوقٌ أَصَابَهُ الْمَطَرُ فَأَبْتَلَّ
وَأَصَابَتْهُ الشَّمْسُ فَأَنْفَعَلَ وَعَيْنَاهُ تَقْدَانُ^(٢)، فَأَسْرَعَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ لَهُ : عَلَى رِسْلِكَ يَا هَذَا، كَمَا أَنْتَ،
فَوَقُفْ، فقلت : أَتَقْتُلُ مَنْ لَا يَقَاتِلُكَ؟ قال : لَا، قلت : أَتَقْتُلُ رَجُلًا عَلَى دِينِكَ؟ قال :
لَا، قلت : أَفَتَسْتَحِلُّ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَدْعُو مَنْ تَقَاتِلُهُ إِلَى دِينِكَ؟ قال : لَا، فَازْهَبْ عَنِّي
إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ، قلت : لَا أَفْعَلُ أَوْ تَسْمَعَ مِنِّي، قال : قُلْ، قلت : هَلْ كَانَتْ بَيْنَنَا قُطْعُ عِدَاوَةٍ
أَوْ تَرَةً أَوْ تَعْرِفُنِي بِحَالٍ تُحْفِظُكَ عَلَيَّ أَوْ تَعْلَمُ بَيْنِي وَبَيْنَ أَهْلِكَ وَتَرًا، قال : لَا وَاللَّهِ، قلت :
وَلَا أَنَا وَاللَّهُ أَضْمِرُ لَكَ إِلَّا جَمِيلَ الرَّأْيِ، وَإِنِّي لِأَهْوَاكَ وَأَتَّخِلُ مَذْهَبَكَ، وَأَدِينُ دِينَكَ، وَأُرِيدُ
السُّوءَ لِمَنْ أَرَادَهُ لَكَ، قال : يَا هَذَا جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا فَاَنْصِرْفْ، قلت : إِنْ مَعِيَ زَادًا أَحَبُّ
أَنْ أَكُلَهُ مَعَكَ وَأَحَبُّ مَوَاكِلَتِكَ لَتَأْكِدَ الْمَوَدَّةُ بَيْنَنَا وَيَرَى أَهْلُ الْعَسْكَرِ هَوَانَهُمْ عَلَيْنَا، قال :
فَأَفْعَلْ، فَتَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ حَتَّى اخْتَلَفْتُ أَعْنَاقَ دَوَابِّنَا، وَجَمَعْنَا أَرْجُلَنَا عَلَى مَعَارِفِهَا وَالنَّاسُ قَدْ غُلِبُوا
صَحِيحًا، فَلَمَّا اسْتَوْفَيْنَا وَدَعْنِي، ثُمَّ قَالَتْ لَهُ : إِنْ هَذَا الْجَاهِلُ إِنْ أَقَمْتَ عَلَى طَلَبِ الْمُبَارَاةِ
نَدَبْنِي إِلَيْكَ فَتُتَعَبْنِي وَتَتْعَبُ نَفْسُكَ، فَإِنْ رَأَيْتَ إِلَّا تَبَرُّزَ الْيَوْمِ فَأَفْعَلْ، قال : قَدْ فَعَلْتُ،
ثُمَّ أَنْصَرَفْتُ وَأَنْصَرَفْتُ فَقُلْتُ لِرَوْحٍ : أَمَا أَنَا فَقَدْ كَفَيْتُكَ قِرْنِي، فَقُلْ لَغَيْرِي أَنْ يَكْفِيكَ قِرْنَهُ
كَمَا كَفَيْتَكَ، فَأَمْسَكَ، وَخَرَجَ آخِرُ يَدْعُو إِلَى الْبِرَازِ، فَقَالَ لِي : اخْرُجْ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ :

(١) الحراب بمعنى المحاربة وفي الأغاني « ضراب » . (٢) هكذا بالأصل ولعلها : أفعل، من
قولهم أفعلت يده : تقبضت .

إِنِّى أَعُوذُ بِرَوْحِ أَنْ يَقْدَمَنِ * إِلَى الْبِرَازِ فَتَخْزَى بِي بَنُو أَسَدِ
إِنِّى الْبِرَازِ إِلَى الْأَقْرَانِ أَعْلَمُهُ * مِمَّا يَفْزُقُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ
قَدْ حَالَفْتُكَ الْمَنَابِإَ إِنْ صَمَدَتْ لَهَا * وَأَصْبَحْتُ لَجَمِيعِ الْخَلْقِ بِالرَّصَدِ
إِنْ الْمُهْلَبُ حَبَّ الْمَوْتِ أَوْ رَنَكُمْ * وَمَا وَرِثْتُ اخْتِيَارَ الْمَوْتِ عَنْ أَحَدِ
لَوْ أَنَّ لِي مُهْجَةً أُخْرَى بَلَدْتُ بِهَا * لَكُنَّهَا خُلِقْتُ فَرْدًا فَلَمْ أَجِدْ
فَضَحِكُ وَأَعْفَانِ .

قال أبو أيوب المورىانى لأبى جعفر وكان يشنأ أبا دلامة : إن أبا دلامة مُعْتَكِفٌ عَلَى
النَّهْرِ، فَمَا يَحْضُرُ صَلَاةً وَلَا مَسْجِدًا وَقَدْ أَفْسَدَ فِتْيَانُ الْعَسْكَرِ، فَلَوْ أَمَرْتَهُ بِالصَّلَاةِ مَعَكَ لَأُجِرْتَ
فِيهِ وَفِي غَيْرِهِ مِنْ فِتْيَانِ عَسْكَرِكَ بِقَطْعِهِ عَنْهُمْ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو دِلَامَةَ قَالَ لَهُ : مَا هَذَا الْمُجُونُ
الَّذِى يَبْلُغُنِى عَنْكَ ؟ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَنَا وَالْمُجُونُ وَقَدْ شَارَفْتُ بَابَ قَبْرِى ! ، قَالَ :
دَعْنِى مِنْ أَسْتِكَانَتِكَ وَتَضَرُّعِكَ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَفُوتَكَ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ فِي مَسْجِدِى ، فَلَنْ فَاتَتْكَ
لَا أَحْسَنَ أَدَبِكَ وَلَا طِيلَ نَحْسِكَ ، فَوَقَعَ فِي شَرٍّ وَلَزِمَ الْمَسْجِدَ أَيَّامًا ، ثُمَّ كَتَبَ قِصَّةً وَدَفَعَهَا
إِلَى الْمَهْدِيِّ فَأَوْصَلَهَا إِلَى أَبِيهِ وَكَانَ فِيهَا :

أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّ الْخُلِيفَةَ لَزَنِي ^(١) * بِمَسْجِدِهِ وَالْقَصِيرِ، مَالِي وَلِلْقَصِيرِ
أَصَلَّى بِهِ الْأَوَّلَى جَمِيعًا وَعَصَرَهَا * فَوَيْلٌ مِنَ الْأَوَّلَى وَوَيْلٌ مِنَ الْعَصْرِ
أَصْلِيهِمَا بِالْكُرْهِ فِي غَيْرِ مَسْجِدِى * فَمَا لِي فِي الْأَوَّلَى وَلَا الْعَصْرِ مِنْ أَجْرٍ
لَقَدْ كَانَ فِي قَوْمِي مَسَاجِدُ جَمَّةٌ * وَلَمْ يَنْشَرْحُ يَوْمًا لَغَشِيَانَهَا صَدْرِي
يَكْلَفْنِي مِنْ بَعْدِ مَا شَبَّتْ خُطَّةٌ * يُحِطُّ بِهَا عَنْ الثَّقِيلِ مِنَ الْوِزْرِ
وَمَا ضَرَّهُ وَاللَّهُ يَغْفِرُ ذَنْبَهُ * لَوْ أَنَّ ذُنُوبَ الْعَالَمِينَ عَلَى ظَهْرِى
فَقَالَ : صَدَقَ، مَا يَضُرُّنِي ذَلِكَ، وَاللَّهِ لَا يَصِلِي هَذَا أَبَدًا، فَدَعُوهُ يَعْمَلْ مَا يَشَاءُ .

(١) لَزَنَهُ بِالشَّى : أَلَزَمَهُ لِيَاة .

وقال الهيثم في خبره : قد أعفيناك من هذا الحال ، ولكن على ألا تدع القيام معنا في ليالي شهر رمضان فقد أطل ، فقال : أفعل ، قال : فإنك إن تأخرت لشرب الخمر علمت ذلك والله لئن فعلت لأحدنك ، فقال أبو دلالة : البلية في شهر أخف منها في طول الدهر ، سمعاً وطاعة ، فلما حضر شهر رمضان لزم المسجد ، وكان المهدي يبعث إليه في كل ليلة حرسياً يحى به ، فشق ذلك عليه وفزع الى الخيزران والى أبي عبيد الله وكل من يلوذ بالمهدي ليشفعوا له في الإعفاء من القيام ، فلم يجهم ، فقال له أبو عبيد الله : الدال على الخير كفاعله ، فكيف شكره ؟ قال : أتم شكر ، قال : عليك برية فإنه لا يخالفها ، قال : صدقت ، ثم رفع اليها رقعة يقول فيها :

أبلغنا ربيعة أتى * كنت عبداً لأبيها
فمضى يرحمه الله * وأوصى بي إليها
وأراها نسيبتني * مثل نسيان أخيها
جاء شهر الصوم يمشى * مشية ما أشتيتها
قائداً لي ليلة القدر * ركأني أبتغيها
تنطح القبلة شهراً * جبهتي لا تأملها
ولقد عشت زماناً * في فيافي وجيها
في ليال من شتاء * كنت شيخاً أصطليها
قاعداً أوقد ناراً * لضباب أشتويها
وصبوح وغبوق * في علاب أحتسيها
ما أبالي ليلة القدر * ر ولا تسمعنيها
فأطلي لي فرجاً من * بها وأجرى لك فيها

فلما قرأت الرقة صحت وأرسلت إليه : أصطبر حتى تمضي ليلة القدر ، فكتب اليها :
إني لم أسألك أن تكلميه في إعفائي عما قابلا ، وإذا مضت ليلة القدر فقد فني الشهر ،
وكتب تحتها أبياتا :

خافي لِهَلِكِ في نفس قد أَجْتَضِرَتْ * قامت قيامُها بين المَصَلِّينَا
ما لَيْلَةَ القَدَرِ من هَمٍّ فأَطلبها * إني أخاف المنايا قبل عشرينَا
يالَيْلَةَ القَدَرِ قد كَسَرَتْ أَرْجَلَنَا * يالَيْلَةَ القَدَرِ حقا ما تُمَنِّينَا
لا بارك الله في خير أَوَمَّلِهِ * في لَيْلَةٍ بعد ما قُتِلْنَا ثَلَاثِينَ

فلما قرأتِ الرُّقْعَةَ ضَحِكَتْ ودخلت الى المهديّ فشَفَعَتْ له اليه وأنشدته الأبيات ،
فَضَحِكَ حتى استلقى ودعا به ورِيْطَةً معه في الحِجَلَةِ ، فدخل ، فأخرج رأسه اليه وقال : قد
شَفَعْنَا رِيْطَةً فيكَ وأمرنا بك بسبعة آلاف درهم ، فقال : أما شفاعة سيدي فيّ حتى أعفيتني
فأعفاها الله من النار ، وأما السبعة الآلاف فما أعجَبَنِي ما فعلته إما أن تُتَمَّها بثلاثة آلاف
فتصير عشرة أو تُنْقِصَنِي منها ألفين فتصير خمسة آلاف ، فإني لا أحسن حساب السبعة ،
فقال : قد جعلتها خمسة ، فقال : أعيدك بالله أن تختار أدنى الحالين وأنت أنت ، فعِثْ
به المهديّ ساعة ، ثم تكلمت فيه رِيْطَةً ، فأَتَمَّها له عشرة آلاف درهم .

شَرِبَ أبو دلّامة في بعض الحانات فسكّر وأنصرف وهو يميل ، فلقِيَهِ العَسَسُ ، فأخذه
وقالوا له : من أنت ، وما دينك ؟ فقال :

ديني على دِيرِ بْنِ العَبَّاسِ * ما خُتِمَ الطينُ على القِرطاسِ
إني أصطَحَبْتُ أربعا بالكاسِ * فقد أدار شُرْبُها براسي
* فهل بما قُلْتُ لكم من باسِ *

فأخذه ومضَوْا وَخَرَقُوا ثِيَابَهُ وَسَاجَهُ^(١) ، وأُتِيَ به أبو جعفر ، وكان يُؤْتَى بكلِّ من أخذه
العَسَسُ ، فحبسه مع الدَّجَاجِ في بيت ، فلما أفاق جعل ينادي غلامه مرّة وجاريته مرّة ،
فلم يُجِبْهُ أحد ، وبينما هو في ذلك إذ سمع صوت الدَّجَاجِ وَزُقَاءَ الدُّيُوكِ ، فلما أكثر قال له
السَّجَّانُ : ما شأنك ؟ قال : ويلك من أنت ؟ وأين أنا ؟ قال : في الحبس وأنا فلان

(١) الساج : الطليسان الأخضر ، وقيل الأسود .

السَّجَّانُ ، قال : من حَبَسَنِي ؟ قال : أمير المؤمنين ، قال : ومن نَحَرَ طَيْلَسَانِي ؟ قال :
الحَرَسُ ، فطلب منه أن يأتيه دِوَاةٌ وقرطاس ، ففعل ، فكتب الى أبي جعفر :
أمير المؤمنين فذلك نفسي * علامَ حَبَسْتَنِي وَنَحَرْتَنِي ساجي
أمن صفراءَ صافيةِ المِزاج * كأن شُعاعها لَهَبُ السَّراج
وقد طُيِّخَتْ بنار الله حتى * لقد صارت من النُّطْفِ النَّضاج
تَهَشُّ لها القلوبُ وتشتبهها * اذا برزت تَرْقُرُقُ في الزَّجاج
أُقَاد الى السجون بغير جُرم * كأني بعضُ عُمالِ الحَرَّاج
ولو معهم حُبِسْتُ لكان سهلاً * ولكنِّي حُبِسْتُ مع الدَّجاج

فدعا به وقال : أين حُبِسْتُ يا أبا دلامة ؟ قال : مع الدَّجاج ، قال : فما كنت تصنع ؟
قال : أَقْوَقُ معهن حتى أَصْبَحْتُ ، فضحك وخلق سبيله وأمر له بجائزة ، فلما خرج قال له
الربيع : إنه شرب الخمر يا أمير المؤمنين ، أما سمعت قوله : وقد طُيِّخَتْ بنار الله ، يعني
الشمس ؟ فأمر برده ، ثم قال : يا خبيث ، شَرِبْتَ الخمر ؟ قال : لا ، قال : أفلم تقل : طُيِّخْتُ
بنار الله تعني الشمس ؟ قال : لا والله ما عَنَيْتُ إِلَّا نار الله الموقدة التي تَطْلِعُ على فؤاد
الربيع ، فضحك وقال : خذها ياربيع ولا تُعاود .

صام الناس في سنة شديدة الحر على عهد المهدي ، وكان أبو دلامة يَنْجِزُ جائزة أمر
له المهدي بها ، فكتب اليه أبو دلامة رقعة يشكو فيها أذى الحر والصوم ، وهي :

أَدْعُوكَ بِالرَّحِمِ التي قد جَمَعْتُ * في القرب بين قَرِينِنَا وَالْأَبْعَدِ
إِلَّا سَمِعْتَ وَأَنْتَ أَكْرَمُ مِنْ مَشَى * من مُنْشِدٍ يَرْجُو جَزَاءَ الْمُنْشِدِ
جاء الصَّيَامُ فَصُمُّهُ متعبداً * أرجو رَجَاءَ الصَّائِمِ الْمُتَعَبِّدِ
وَلَقِيتُ مِنْ أَمْرِ الصَّيَامِ وَحَرَّ * أمرين قَيْسًا بِالْعَذَابِ الْمُؤَصِّدِ
وسجَّدْتُ حتى جَبْهَتِي مشجوجةً * مما يُنَاطِخُنِي الحِصَا في المسجدِ
فأمنُ بتسريحِي بِمَظْلِكِ بالذي * أسْلَفْتَنِيهِ مِنَ الْبِئْسَاءِ الْمُرْصِدِ

فلما قرأ المهدي رُفَعَتَه غضب وقال : أى قرابة بينى وبينك ؟ قال : رحم آدم وحواء ،
أَنَسِيْتَهُمَا يا أمير المؤمنين ! فضحك وقال : لا والله ما نَسِيْتُهُمَا ، وأمر بتعجيل ما أجاز به
وزاد فيه ، وأَنَشده أيضا فى ذم الصّوم :

هَلْ فى البلاد لرزق الله مُفْتَرَش * أم لا فى جِلْدِهِ من خُشْنَةٍ بَرَش^(١)
أُضْحَى الصَّيَامُ مُنِيحًا وسط عَرَصَتِنَا * ليت الصَّيَامُ بأَرْضِ دُونِهَا جَرَشُ
إن صَمْتُ أَوْجَعَنِي بطنى وأَقْلَقَنِي * بين الجَوَاحِ مَسُّ الجُوعِ والعَطَشِ
وإن خَرَجْتُ بِليلٍ نحو مَسْجِدِهِمْ * أَضْرَنِي بَصَرٌ قد خَانَهُ العَمَشُ

دخل أبو دلامة على سعيد بن دَعْلَج مولى بنى تميم فقال :

إذا جِئْتَ الأَمِيرَ فقل سلامٌ * عليك ورحمةُ الله الرحيم
وأما بعد ذاك فلى غريمٍ * من الأعرابِ قَبَّحَ من غريمٍ
غريمٍ لازمٌ بفناء بَيْتِي * لزومَ الكلبِ أصحابَ الرِّقَمِ
له مائةٌ علىّ ونِصْفُ أُخْرَى * ونِصْفُ النِّصْفِ فى صَكِّ قديمٍ
دراهمُ ما انتفعتُ بها ولكن * وصلتُ بها شيوخَ بنى تميم
أَتَوْنِي بالعشيرةِ يسألونى * ولم أَلِكْ فى العشيرةِ بالئيمِ

فأمر له بمائتين وخمسة وسبعين درهما وقال : ما أساء من أنصف ، وقد كافأْتُكَ عن
قومك وزدْتُكَ مائة .

دخل أبو دلامة على المهدي فأنشده قصيدته فى بغلته المشهورة :

أتانى ، بغلةٌ يَسْتَامُ مِنّى ، * عَرِيقٌ فى الخَسَّارةِ والضَّلَالِ
فقال تَبِيعَهَا قلت أَرْتَبِطُهَا * بِحُكْمِكَ إِن بَيْعِي غَيْرُ غَالِ
فأَقْبَلَ ضاحكا نحوى سرورا * وقال أراك سَمِيعًا ذا جَمَالِ
هَلَمْ إِلَى يَحْلُو بِي خِداعا * وما يدرى الشَّقَى لمن يُحَالِ

(١) البرش : نقط بيض فى الجلد .

فقلتُ بأربعين، فقال أحسنُ * إلى فإِن مثلك ذو سجال
فأتزك خمسة منها لعلى * بما فيه يصيرُ من الخبال

فقال المهدي : لقد أفلتُ من بلاء عظيم ، قال : والله يا أمير المؤمنين لقد مكثت شهرا
أتوقع صاحبها أن يردها، ثم أنشده :

فأبدلني بها يا ربَّ طرِّفا * يكون جمالُ مركبِهِ جمالي

فقال لصاحب دوابه : خيِّره من الإصطبل بين مركبين ، قال : يا أمير المؤمنين إن كان
الاختيارُ لي وقعتُ في شرٍّ من البغلة ، ولكن مُره أن يختار لي ، فاختر له .

خاصم رجل أبا دلامة في داره فارتفعا الى عافية القاضي ، فأنشأ أبو دلامة يقول :

لقد خاصمتني دُهاةُ الرجال * وخاصمتُها سَنَةٌ وافيهِ
فأ أدحض الله لي حجةً * ولا خيبَ الله لي قافيهِ
ومن خفت من جورهِ في القضاء * فلست أخافكَ يا عافيهِ

فقال له عافية : والله لأشكوَنَّكَ الى أمير المؤمنين ، ولأعلمَنَّه أنك هجوتني ، قال : إذا
يعزلك ، قال : وليه ؟ قال : لأنك لا تعرف المديح من الهجاء ، فبلغ ذلك المنصور فضحك
وأمر لأبي دلامة بجائزة .

دخل أبو دلامة على المهدي وعنده إسماعيل بن محمد وعيسى بن موسى والعباس
ابن محمد ومحمد بن محمد بن إبراهيم الإمام وجماعة من بني هاشم فقال له : أنا اعطى الله عهدا
لئن لم تهجُ واحدا من في البيت لأقطعن لسانك ، فنظر اليه القوم ، فكلموا نظرا الى واحد منهم
غمزوه بأن عليه رضاه ، قال أبو دلامة : فعلمت أني قد وقعت وأنها عزيمة من عزماته لا بد
منها ، فلم أر أحدا أحق بالهجاء مني ، ولا أدعى الى السلامة من هجاء نفسي ، فقلت :

ألا أبلغ لديك أبا دلامه * فليس من الكرام ولا كرامه .
إذا لبس العمامة كان قردا * وخنزيرا إذا نزع العمامه

جَمَعْتَ دَمَامَةً وَجَمَعْتَ لَوْمًا * كَذَلِكَ اللُّؤْمُ تَتَّبِعُهُ الدَّمَامَةُ
فَإِنْ تَكْ قَدْ أَصْبَحْتَ نَعِيمَ دُنْيَا * فَلَا تَفْرَحْ فَقَدْ دَنَتْ الْقِيَامَةُ
فَضَحَكَ الْقَوْمُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَجَاذُهُ .

خرج المهديّ وعليّ بن سليمان الى الصيد، فسَمَحَ لهما قَطِيعٌ مِنَ الطَّيِّاءِ، فَأَرْسَلَتْ
الكلاب وأُجْرِيت الخيل، فرمى المهديّ ظبياً بِسَهمٍ فصرعه، ورمى عليّ بن سليمان، فأصاب
بعض الكلاب فقتله، فقال أبو دلّامة :

قَدْ رَمَى الْمَهْدِيُّ ظَبِيًّا * شَكَ بِالسَّهْمِ فُؤَادَهُ
وَعَلَى بَنِ سُلَيْمَانَ * نَ رَمَى كَلْبًا فَصَادَهُ
فَهَنِيئًا لَهَا كَلُّ * لَأَمْرِي يَأْكُلُ زَادَهُ

فضحك المهديّ حتى كاد يسقط عن سرجه وقال : صدق والله أبو دلّامة؛ وأمر له بجائزة
سَنِيَّةٍ، فَلَقَّبَ عَلِيَّ بْنَ سُلَيْمَانَ صَائِدَ الْكَلْبِ، وَعَلَقَ بِهِ .

أُنشِدَ أَبُو دِلَامَةَ الْمَنْصُورَ يَوْمًا :

هَاتِيكَ وَالِدَتِي عَجُوزٌ هِمَّةٌ ^(١) * مِثْلَ الْبَالِيَةِ دِرْعُهَا فِي الْمَشْجَبِ ^(٢)
مَهْزُولَةُ الْخَيْتَيْنِ مِنْ يَرَاهَا يَقُولُ * أَبْصَرْتُ غُولًا أَوْ خِيَالَ الْقَطَارِبِ ^(٣)
مَا إِنْ تَرَكْتُهَا وَلَا لَابْنٍ لَهَا * مَا لَا يُؤْمَلُ غَيْرَ بَكْرٍ أَجْرَبِ
وَدَجَانِجًا نَحْمَسًا يَرْحَنُ إِلَيْهِمْ * لَمَّا يَبْضُنَ وَغَيْرَ عَتَرٍ مَغْرِبِ ^(٤)
كَتَبُوا إِلَى صَحِيفَةٍ مَطْبُوعَةٍ * جَعَلُوا عَلَيْهَا طِينَةً كَالْعَقَرِبِ
فَعَلِمْتُ أَنَّ الشَّرَّ عِنْدَ فِكَا كَهَا * فَفَكَكْتُهَا عَنْ مِثْلِ رِيحِ الْجَوَرِبِ
وَإِذَا شَبِيهِه بِالْأَفَاعَى رُقِشَتْ * يُوعِدُنَنِي بِتَلْمِظٍ وَتَشَوِّبِ
يَشْكُونَ أَنَّ الْجُوعَ أَهْلَكَ بَعْضَهُمْ * لَزَبًا فَهَلْ لَكَ فِي عِيَالٍ لُزْبِ

(١) همة : همة . (٢) المشجب : خشبات موزنة منصوبة توضع عليها الثياب وتنشر.

(٣) القطرب : ذكر الغيلان . (٤) المغرب : الأبيض من كل شيء .

لا يسألونك غيرَ طَلٍّ سَحَابَةٍ * تَغْشَاهُمْ مِنْ سَيْلِكَ الْمُتَحَلِّبِ
يا باذل الخيرات يابنَ بَذُولِهَا * وَأَبْنِ الْكِرَامِ وَكُلِّ قَرِيمٍ مُنْجِبِ
أَنْتُمْ بَنُو الْعَبَّاسِ يُعَلِّمُ أَنْكُمْ * قَدِمًا فَوَارِسُ كُلِّ يَوْمٍ أَشْهَبِ
أَحْلَاسِ خَيْلِ اللَّهِ وَهِيَ مُغِيرَةٌ * يَخْرُجَنَّ مِنْ خَلَلِ الْعُبَارِ لَا كُتُوبِ

فأمر له بدار يسكنها وكسوة ودراهم، وكانت الدار قريبة من قصره، فأمر أن تزداد في قصره بعد ذلك حاجة دعتة إليها، فدخل عليه أبو دلامة فأنشده قوله :

يابنَ عَمِّ النَّبِيِّ دَعْوَةَ شَيْخٍ * قَدْ دَنَا هَدْمُ دَارِهِ وَدَمَارُهُ
فهو كلما خض التي اعتادها الطل * قُفِّقَتْ وَمَا يَقَرُّ قَرَارُهُ
إِنْ تُخْزِ عُسْرَةُ بَكْفِيكَ يَوْمًا * فَبَكْفِيكَ عُسْرُهُ وَيَسَارُهُ
أَوْ تَدْعُهُ فَلِلْبَوَارِ وَأَنْتِ * وَلِمَاذَا وَأَنْتِ حَتَّى بَوَارُهُ
هل يخاف الهلاك شاعر قوم * قُدِّمْتُ فِي مَدِيحِهِمْ أَشْعَارُهُ
لَكُمْ الْأَرْضُ كُلُّهَا فَأَعِيرُوا * شَيْخَكُمْ مَا أَحْتَوَى عَلَيْهِ جِدَارُهُ
فَكَأَنَّ قَدْ مَضَى وَخَلَّفَ فِيكُمْ * مَا أَعْرَيْتُمْ وَأَقْفَرْتُمْ مِنْهُ دَارُهُ
فاستعبر المنصور وأمر بتعويضه دارا خيرا منها ووصله .

دخل على المهدي يوما وعنده مُحَرِّزٌ وَمُقَاتِلٌ أَبْنَا دُوَالٍ يَعَانِيَانِهِ عَلَى تَقْرِيْبِهِ أَبَا دِلَامَةَ وَيَعِيْبَانِهِ عَنْده فَقَالَ :

أَلَا أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ هَلْ أَنْتَ مُحَرِّرِي * وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَهَلْ أَنْتَ سَائِلِي
أَلَمْ تَرْحَمْ الْمُحْيِينَ مِنْ لِحْيَتَيْهِمَا * وَكَلَّتَاهُمَا فِي طَوْلِهَا غَيْرَ طَائِلِي
وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَهَلْ أَنْتَ مُكْرِمِي * بِحُلُقُومِهِمَا مِنْ مُحَرِّزٍ وَمُقَاتِلِي
فَإِنْ يَأْذَنُ الْمَهْدِيُّ لِي فِيهِمَا أَقُلُّ * مَقَالًا كَوَقْعِ السِّيفِ بَيْنَ الْمُقَاتِلِ
وَلَا تَدْعُنِي وَالْهَمُّومُ تَتَوَبُّنِي * وَقَلْبِي مِنَ الْعَلْجَيْنِ جَمُّ الْبَسَائِلِ

(١) يقال : فلان من أحلاس الخيل ، أى من راضتها وساستها والملازمين ظهورها .

فقال : أوأخذ لك منهما عشرة آلاف درهم يفديان بهما أعراضهما منك ، قال :
ذلك الى أمير المؤمنين ، فأخذها له منهما وأمسك عنهما .

دخل على أم عبيدة حاضنة موسى وهارون ، فدفع اليها رقعة قد كتبها الى الخيزران فيها :

أبلغني سيدتي بالذ * به يا أم عبيده
أنها أرشدها الله * له وإن كانت رشيده
وصدتي قبل أن تح * سج للبحر وليده
فتأنيت وارسل * ست بعشرين قصيده
كلما أخلقن أخلف * ست لها أخرى جديده
ليس في بلي لتهيب * سد فراشي من قعيده
غير عجباء عجوز * ساقها مثل القديده
وجهها أقبح من حو * ست طري في عصيده
ما حياة مع أنثى * مثل عرسي بسعيده

فلما قرئت عليها الأبيات ضحكت واستعادت منها لقوله : «حوت طري في عصيدة»
وجعلت تضحك ووهبت له جارية .

دخل يوما على المهدي فخادته ساعة وهو يضحك وقال له : هل بقي أحد من أهلي لم
يصلك ؟ قال : إن أمتني أخبرتك وإن أعفيتني فهو أحب إلي ، قال : بل تخبرني وأنت
آمن ، قال : كلهم قد وصلني إلا حاتم بن العباس ، قال : ومن هو ؟ قال : عمك العباس
ابن محمد ، فالتفت الى خادم على رأسه وقال : جأ عقه ، فلما دنا منه صاح به أبو دلامة :
تتح يا عبد السوء لا تخنث مولاك وتنيكه عهده وأمانه ، فضحك المهدي وأمر الخادم
فتنحى عنه ، ثم قال لأبي دلامة : ويلك ! والله عمي أيجل الناس ، فقال أبو دلامة : بل
هو أسخى الناس ، فقال له المهدي : والله لو ميت ما أعطاك شيئا ، قال : فإن أنا أتيت به

فأجأزني ؟ قال : لك بكل درهم تأخذه منه ثلاثة دراهم ، فأنصرف أبو دلالة فخر للعباس قصيدة ، ثم غدا بها عليه وأنشده :

قف بالديار وأى الدهر لم تقف * على المنازل بين الظهر والنصف
وما وقوفك فى أطلال منزلة * لولا الذى استدرجت من قلبك الكيف
ان كنت أصبحت مشغوا بساكنها * فلا وربك لا تشفيك من شغف
دع ذا قفل فى الذى قد فاز من مضر * بالمكرمات وعز غير مقترف
هذى رسالة شيخ من بنى أسد * يهذى السلام الى العباس فى الصحف
تخطها من جوارى المصر كاتبة * قد طالما ضربت فى اللام والألف
وطالما اختلفت صيفا وشاتية * الى معلمها باللوح والكتف^(١)
حتى اذا نهى التديان وأمتلا * منها وخيفت على الإسراف والقرف
صينت ثلاث سنين ما ترى أحدا * كما يصون تجار ذرة الصدف
فبينما الشيخ يهوى نحو مجلسه * مبادرا لصلاة الصبح بالسدف^(٢)
حانت له لحظة منها فأبصرها * مطلة بين سجفها من العرف
نحر والله ما يدرى غدا تبيد * أنر منكشفا أم غير منكشف
وجاءه الناس أفواجا بمائهم * ليغسلوا الرجل المغشى بالطنف
ووسوسوا بقران فى مسامعه * نخافه الجن والإنسان لم يخف
شيئا ولكنه من حب جارية * أمسى وأصبح موقوفا على التلّف
قالوا لك الويل ما أبصرت قلت لهم * تطلعت من أعلى القصر ذى الشرف
فقلت أيكم والله يأجبره * يعين قوته فيها على ضعف
فقام شيخ بهى من رجالهم * قد طالما خدع الأقوام بالخلف
فابتاعها لى بالقى. درهم فأتى * بها الى فلقاها على كتفى

(١) الكنف : عظم عريض يكون فى أصل كنف الحيوان كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس .

(٢) السدف : الضوء واقبال الصبح .

فَبَيْنَ ذَاكَ كَذَا إِذَا جَاءَ صَاحِبُهَا * يَبْنِي الدَّرَاهِمَ بِالمِيزَانِ ذِي الكِفِّ
وَذِكْرَ حَقٍّ عَلَى زَنْدٍ وَصَاحِبِهِ * وَالْحَقُّ فِي طَرْفٍ وَالطِّينُ فِي طَرْفٍ
وَبَيْنَ ذَاكَ شُهُودٌ لَا يَضُرُّهُمْ * أَكُنْتُ مُعْتَرِفًا أَمْ غَيْرَ مُعْتَرِفٍ
فَإِنْ يَكُنْ مِنْكَ شَيْءٌ فَهُوَ حَقُّهُمْ * أَوْ لَا فَإِنِّي مُدْفُوعٌ إِلَى التَّلَفِّ

فضحك العباس وقال : ويحك ! أصادقُ أنت ؟ قال : نعم والله ، قال : يا غلام أدفع
إليه ألفي درهم ثمنها ، فأخذها ثم دخل على المهدي فأخبره القصة وما آتاه له ، فأمر له
المهدي بستة آلاف درهم ، وقال له المهدي : كيف لا يضرهم ذلك ؟ قال : لأني مُعَدِّم
لأشياء عندي .

دخل على إسحاق الأزرق يعوده ، وكان إسحاق قد مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا ثم تعافى منه
وأفاق ، فكان من ذلك ضعيفا وعند إسحاق طبيب يصف له أدوية تُقَوِّى بَدَنَهُ ، فقال
أبودلامة للطبيب : أتصف هذه الأدوية لرجل أضعفه المرض ؟ ما أردت والله إلا قتله ،
ثم آلتفت إلى إسحاق فقال : اسمع أيها الأمير مني ، قال : هات ما عندك يا أبا دلامة ،
فأنشأ يقول :

تَحَّ عَنْكَ الطَّيِّبُ وَاسْمَعْ لِنَعْتِي * إِنِّي نَاصِحٌ مِنَ النَّصَاحِ
ذُو تَجَارِيِبٍ قَدْ تَقَلَّبْتُ فِي الصَّحَرِ * لَمَّةٌ دَهْرًا وَفِي السَّقَامِ الْمُنَاحِ
غَادٍ هَذَا الْكَجَابَ كُلَّ صَبَاحٍ * مِنْ مُتُونِ الْفَتْيَةِ السَّاحِاحِ
فَإِذَا مَا عَطِشْتُمْ فَاشْرَبُوا ثَلَاثًا * مِنْ عَتِيقٍ فِي الشَّمِّ كَالْتَفَاحِ
ثُمَّ عِنْدَ الْمَسَاءِ فَأَعْكُفْ عَلَى ذَا * وَعَلَى ذَا أَبْعَظِ الْأَفْصَاحِ
فُتَقَوِّى ذَا الضَّعْفِ مِنْكَ وَتَلْقَى * عَنْ لَيَالٍ أَصَحَّ هَذِي الصَّحَاحِ

فضحك إسحاق وعُوداه وأمر لأبي دلامة بخمسمائة درهم ، وكان الطبيب نصرانياً
فقال : أعوذ بالله من شرك يارك كل «يريد يارجل» وقال الطبيب : أقبل مني أصادك الله

ولا تسألني عن شيء قدامه ، فقال أبو دلامة : أما وقد أخذت أجرة صَفَقتي وقضيت الحق في نُصح صديق فأنعمت له الآن أنت ما أحببت .

دخل على المهديّ وبين يديه سَلَمَة الوصيف واقفا ، فقال : إني أهديت اليك يا أمير المؤمنين مُهرًا ليس لأحد مثله ، فان رأيت أن تُشرفني بقبوله ، فأمر بإدخاله اليه ، فخرج وأدخل اليه دابته التي كانت تحته ، فاذا برُذُون مُحَطَّمٌ أعجُفٌ هَرِمٌ ، فقال له المهديّ : أىّ شيء هذا ؟ ألم تزعم أنه مُهر ؟ قال له : أو ليس هذا سَلَمَة الوصيف بين يديك قائمًا ، تسميه الوصيف وله ثمانون سنة ، وهو عندك وصيف ؟ فاذا كان سَلَمَة وصيفًا فهذا مُهر ، فجعل سَلَمَة يُشتمه والمهديّ يضحك ، ثم قال المهديّ لسَلَمَة : ويلك ! إن لهذه منه أخوات ، وإن أتى بها في مُحْفِلٍ فَضَحِك ، فقال أبو دلامة : والله لأفضحنّه يا أمير المؤمنين ، فليس من مَواليك أحد إلا وقد وصلني غيره ، فاني ما شربت له الماء قط ، قال : فقد حكمت عليه أن يشتري نفسه منك بألف درهم حتى يتخلص من يدك ، قال : قد فعلت على ألا يعاود ، فقال له : ما ترى ؟ قال : أفعل ، فلولا أنّي ما أخذت منه شيئًا قط ما فعلت معه مثل هذه ، فغضى سَلَمَة فحملها اليه .

٥ - أبان بن عبد الحميد اللاحق^(١)

ذكرنا في المجلد الأول أن أبان كان صديقاً للبرامكة متصلاً بهم أشد اتصال، يستشيرونه ويعتمدون عليه في تدبير أمورهم، جدها وهزلها، صعبها وهينها. وكانوا قد اتخذوه أديبهم الرسمي، وبالغوا في ذلك حتى جعلوا إليه امتحان الشعراء وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصلوات. فغضب الشعراء لذلك؛ وكان أشدهم غضباً أبو نواس الذي كان يكره البرامكة كرها شديداً، وكانت بينه وبين أبان مهاجاةً ذكرها صاحب الأغاني.

وكان أبان صديقاً للمعدّل بن غيلان، وكانا مع صداقتهما يتعابشان بالهجاء، فيهجوه المعدّل بالكفر وينسبه إلى الشؤم. ويهجوه أبان وينسبه إلى الفسّاء الذي شُجّي به عبد القيس وبالقصّر، وكان المعدّل قصيراً. فسعى في الإصلاح بينهما أبو عبيّنة المهلبّي، فقال له أخوه عبد الله وهو أسنّ منه: يا أخى إن في هذين شراً كثيراً ولا بد من أن يُخرجاه، فدعهما ليكون شرهما بينهما ولا فترقاه على الناس.

ومن قوله يهجو أبا النضير:

إذا قامت بوايك * وقد هتكن أستارك
أُثْنين على قبر * لك أم يلقن أحجارك
وما نترك في الدنيا * إذا زرت غداً نارك
ترى في سقر المثنوى * وإبليس غداً جارك
بلى تترك بايك * ودنياك وأوتارك
ونحسّام بنات اللية * بل قد أليس أطارك
تعالى الله ما أقبح * ح إذ وليت أدبارك

(١) تجد ترجمته في الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٢٩. وقد ذكرناه هنا بمناسبة ذكر ما عثرنا عليه من منظومته لكتاب كلية ودمنة. وقد أضفنا هنا ما لم نذكره في ترجمته هناك.

خرج أبان من البصرة طالبا للاتصال بالبرامكة ، وكان الفضل بن يحيى غائبا فقصده ، فأقام ببابه مدة مديدة لا يصل إليه ، فتوسل الى من وصل له شعرا اليه ؛ وقال له :

يا عزيز الندى ويا جوهر الجو * هير من آل هاشم بالبطاح
إت ظننى ، وليس يُخلف ظننى * بك فى حاجتى سبيل النجاج
إت من دونها لمصمت باب * أنت من دون قفله مفتاح
تاقت النفس يا خليل السجاج * نحو بحر الندى مجارى الرياح
ثم فكرت كيف لى وأستخرت الله * عند الإساء والإصباح
وآمدحت الأمير أصلحه الله * بشعر مشهر الأوضاح

فقال : هات مديحك ؛ فأعطاه شعرا فى هذا الوزن وقافيته ، ترى فيه أن الرجل مُعجب بنفسه ، مدلل بعلمه وأدبه ، تياه لا حد لتيهه وغروره :

أنا من بغية الأمير وكنز * من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أديب * ناصح زائد على النصاح
شاعر مُفلق أخف من الريد * شمة مما يكون عند الجناح

وهى طويلة ذكرناها فى المجلد الأول .

وكان أبان شديد الحرص على المال يُضحى فى سبيله بأشياء كثيرة ، منها العقيدة والرأى . وكان يحسد مروان بن أبى حفصة لمكانه من الرشيد ولظفره بالصلوات الضخمة والجوائز السنية ؛ فقد انتهى الأمر ببنى العباس مع مروان بن أبى حفصة الى أن كانوا يمنحونه بالبيت ألف درهم ، فغاض ذلك أبان وأراد أن يصيب من أموال الرشيد ما كان يصيب مروان ، فعاتب أبان البرامكة على تركهم إيصاله للرشيد وإيصال مديحه اليه ؛ فقالوا له : ما تريد من ذلك ؟ فقال : أريد أن أحظى منه بمثل ما يحظى به مروان بن أبى حفصة ، فقالوا : إن لذلك مذهبا فى هجاء آل أبى طالب وذمهم ، به يحظى وعليه يُعطى ، فاسلكه حتى تفعل ؛ قال : لا أستحل ذلك ؛ قالوا : فما تصنع ، لا يجيئ طلب الدنيا إلا بما لا يحل ! فقال أبان :

تَشَدَّتْ بِحَقِّ اللَّهِ مَنْ كَانَ مُسْلِمًا * أَعْمُ بِمَا قَدْ قُلْتُهُ الْعُجَمَ وَالْعَرَبَ
أَعْمُ رَسُولِ اللَّهِ أَقْرَبُ زُلْفَةً * لَدَيْهِ أُمُّ أَبْنِ الْعَمِّ فِي رُتَبَةِ النَّسَبِ
وَأَيُّهَا أَوْلَى بِهِ وَبِعَهْدِهِ * وَمَنْ ذَا لَهُ حَقُّ التَّرَاثِ بِمَا وَجَبَ
فَإِنْ كَانَ عَبَّاسٌ أَحَقُّ بِتِلْكَكُمْ * وَكَانَ عَلَى بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى سَبَبِ
فَأَبْنَاءُ عَبَّاسٍ هُمْ يَرِثُونَهُ * كَمَا الْعَمُّ لِأَبْنِ الْعَمِّ فِي الْإِرْثِ قَدْ حَجَبَ
وهي طويلة .

فقال الفضل : ما يَرِدُ على أمير المؤمنين اليوم شيء أعجب من أبياتك . فركب فأنشدها
الرشيد ، فأمر لأبان بعشرين ألف درهم . ثم اتصل مدحه للرشيد بعد ذلك وخص به .
وكان أبان هجاء قبيح اللسان ، وكان مع هذا شريفاً قاسياً يؤثر الشر ويحسد فيه لذة .
وقد روى له أبو الفرج قصة تمثل نصيبه من القسوة وحب الشر ، كما أنها تعطينا صورة
من شعره ومن الحياة في عصره . قالوا : كان يُقيم بالقرب من أبان رجلٌ ثَقَفِيٌّ يقال له : محمد
ابن خالد ، وكان عدواً لأبان ، فترجى محمد هذا ثَقَفِيَّةً معروفةً هي عمارة بنت عبد الوهاب ،
وكانت عمارة غنيمة موفورة الثروة ، فاغتاظ أبان لهذا الزواج ، وقال هذه القصيدة التي
بلغت عمارة فأفسدت زواجها :

لَمَّا رَأَيْتُ الْهَبْزَ وَالشَّارَةَ * وَالْفَرْشَ قَدْ ضَاقَتْ بِهِ الْحَارَةُ
وَاللُّوزَ وَالسُّكَّرَ يُرْمَى بِهِ * مِنْ فَوْقِ ذِي الدَّارِ وَذِي الدَّارَةِ
وَأَحْضَرُوا الْمُتْلِهِينَ لَمْ يَتْرَكُوا * طَبْلاً وَلَا صَاحِبَ زَمَارَةٍ
قُلْتُ : لِمَاذَا قِيلَ : أُعْجِبُهُ * مُحَمَّدٌ زَوْجَ عَمَّارَةٍ
مَاذَا رَأَتْ فِيهِ وَمَاذَا رَجَتْ * وَهِيَ مِنَ النِّسْوَانِ مُخْتَارَةٍ
أَسْوَدُ كَالسَّقُودِ يُنْسَى لَدَى التُّنُورِ بِلِمْحَرَاكِ قِيَارَةٍ
يُجْرَى عَلَى أَوْلَادِهِ خَمْسَةٌ * أَرْغَفَةٌ كَالرَّيشِ طَيَّارَةٍ

وأهله في الأرض من خوفه * إن أفرطوا في الأكل سيّاره
ويحك فيزي وأعصى ذا به * فهذه أختك فرّاره
إذا غفا بالليل فاستيقظي * ثم أطفري إنك طفّاره^(١)
فصعدت نائلة سلمًا * تخاف أن تصعده الفاره
«سرور» غرّتها فلا أفلحت * فإنها الخناء غرّاره
لو نلت ما أبعدت من ريقها * إن لها نفثة سحّاره

فلما بلغت هذه القصيدة عمارة هربت، فخُرم من جهتها مالا عظيما . والثلاثة الأبيات الأخيرة التي أولها * فصعدت نائلة سلمًا * زادها في القصيدة بعد أن هربت .

جلس أبا ن ليلة في قوم فتلبّ أبا عبّدة فقال : يقدح في الأنساب ولا نسب له . فبلغ ذلك أبا عبّدة فقال في مجلسه : لقد أغفل السلطان كل شيء حين أغفل أخذ الجزية من أبا ن اللاحق ، وهو وأهله يهود ، وهذه منازلهم فيها أسفار التوراة وليس فيها مصحف ، وأوضح الدلالة على يهوديتهم أن أكثرهم يدعى حفظ التوراة ولا يحفظ من القرآن ما يصلّي به . فبلغ ذلك أبا ن فقال :

لا تئمن عن صديقي حديثا * وأسعد من تسرر النّام
وأخفيض الصوت إن نطقت بليلى * وألّفت بالنهار قبل الكلام

قال عيسى بن اسماعيل : كما في مجلس أبي زيد الأنصاري فذكروا أبا ن بن عبد الحميد ، فقالوا : كان كافرا ، فغضب أبو زيد وقال : كان جاري فما فقدت قراءته في ليلة قط .



وكان أبا ن يفوق الشعراء في شيء نحسب أنه هو الذي سبق إليه ، فقد ابتكر في الأدب العربي فنّا لم يتعاطه أحد من قبله ، وهو فنّ الشعر التعليمي ، طرّق فيه فنونا مختلفة من العلم والحكمة والدين . وقد تحدّث أبو الفرج أنه نظم للبرامكة كتاب «كيلة ودمنة» ليسهل عليهم

(١) طمر : وثب في ارتفاع .

حفظه ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه الفضل بن يحيى خمسة آلاف واكتفى جعفر بأن يكون راويته . وروى أبو الفرج أبياتا أربعة من هذا النظم ، وقد عثرنا على قطعة من كتاب مخطوط يوجد في دار الكتب المصرية تحت رقم (٥٩٤) تاريخ ، وهو كتاب «الأوراق» للصولي . وفي هذا الكتاب قطعة صالحة من نظم أبان لكليلة ودمنة ، فرأينا أن نثبتها هنا ، لأن المنظومة ضاعت ولم يبق منها إلا الأبيات الأربعة التي رواها أبو الفرج . وها هي ذى :

هَذَا كِتَابُ كَذِبٍ وَمِجَنَّهُ * وَهُوَ الَّذِي يُدْعَى كَلِيلَهُ دِمْنَهُ
فِيهِ دَلَالَاتٌ فِيهِ رُشْدٌ * وَهُوَ كِتَابٌ وَضَعَهُ الْهِنْدُ
فَوَصَّفُوا آدَابَ كُلِّ عَالِمٍ * حِكَايَةً عَنِ النَّسَنِ الْبَهَائِمِ
فَالْحِكَمَاءُ يَعْرِفُونَ فَضْلَهُ * وَالسَّخَفَاءُ يَشْتَمُونَ هَزْلَهُ
وَهُوَ عَلَى ذَاكَ يَسِيرُ الْحِفْظُ * لَدَى عَلَى اللِّسَانِ عِنْدَ الْفِطْرِ
يَا نَفْسُ لَا تَشَارِكِي الْجَهْلَالَ * فِي حُبِّ مَذْمُومٍ كَأَنْ قَدْ زَالَا
يَا نَفْسُ لَا تَشْقَى وَلَا تَعْنَى * فِي طَلَبِ الدُّنْيَا وَلَا تَمْنَى
مَا لَمْ يَنْلَهُ أَحَدٌ إِلَّا نَدَمٌ * إِذَا تَوَلَّى ذَاكَ عَنْهُ وَسَدِمٌ^(١)
دُنْيَاكَ بِالْأَحْبَابِ وَالْإِخْوَانِ * كَثِيرَةُ الْآلَامِ وَالْأَحْزَانِ
وَهِيَ وَإِنْ نِيلَ بِهَا السَّرُورُ * آفَاتُهَا وَغَمُّهَا كَثِيرُ
يَا نَفْسُ لَا يَحْمِلُكَ حُبُّ أَهْلٍ * وَلَا أَذَانِيكَ عَلَى أَنْ تَهْلِكِي
فِي جَمْعٍ مَا يَرْضِيهِمْ فَإِنَّهُ * يَضْرِبُ مِنْ أَمْثَالِ ذَاكَ الدُّخْنُ^(٢)
يُنَالُ قَوْمَ عَرَفَاتِهَا وَتَحْتَرِقُ * رَأْيُ بِهِ يَرْضَى أَخُو الرَّأْيِ الْحَقُّ
وَجَدْتُ ذَا النَّسِكِ الَّذِي قَدْ فَكَّرَا * فَزَادَهُ تَفَكُّرُهُ تَوَقُّرَا
وَقُلْ لَمَّا رَضِيَ آهَتَامُهُ * وَتَمَّ مِنْ سُرُورِهِ تَمَامُهُ

(١) ندم وحن . (٢) الدخنة : نحو يدخن به الثياب أو البيت وفي الأصل : «الدخنة» بالجم وهو تحريف .

وترك الدنيا لمن يشقى بها * ومن يقاسى الكد من أنصأها
 فعندها نجا من الشرور * ونال أقصى غاية السرور
 ثم سخط عن كل فان نفسه * فلقى السعد وغاب نحسه
 وأبصر الثواب في القيامة * فأمن الحسرة والندامة
 ومثل الدنيا كبرق الخلب * من يغتر منه بسقي يكذب
 وهو قياسا مثل نوم النائم * تُفرحه أضغاث حلم الحالم
 حتى اذا استيقظ صار هما * ما كان في النوم به ألما
 فكيف بالصبر على أيام * عما قليل هن لأنصرام
 وكيف والدنيا بلاء كلها * لا يأمن الآفات فيها أهلها
 أشهد أن الله فرد واحد * أفرأوا أنكر ذاك جاحد
 ليس له كفوا ولا ندا أحد * لم يلد الله ولا له ولد
 وإننى بما عملت مرتن * ما كان منه من قبيح وحسن

من باب الأسد والثور

وإن من كان دنى النفس * يرضى من الأرفع بالأخس
 كمثل الكلب الشقى البائس * يفرح بالعظم العتيق اليأس
 وإن أهل الفضل لا يرضيهم * شيء اذا ما كان لا يعينهم^(١)
 كالأسد الذى يصيد الأرنب * ثم الى العير المجتهد هربا
 فيرسل الأرنب من أظفاره * ويتبع العير على أدباره
 والكلب من ريقه ترضيه * بلقمة تذفها في فيه
 فمن يعيش ما عاش غير خامل * له سرور دائم ونائل
 فهو وإن كان قصير العمر * أطول عمرا من حليف فقير
 ومن يعيش في وحشية وضيق * وقلة المعروف في الصديق

(١) فى الأصل "ثم للعير" والعير: الحمار .

فهو وإن عَمَّرَ طَوْلَ دَهْرِهِ * ليس بمغبوط بطولِ عمرِهِ
وقيل أيضا إنه قد ينبغى * للرجل الفاضل فيما يتبغى
أَلَّا يُرَى إِلَّا مَعَ الْأَمْلَاقِ^(١) * أو يعبد الله مع اللُّسَاكِ
كالفيل لا يصلح إلا مَرْكَبًا * لملك أو راعيًا مَسِيًّا
قال له السبع لقد سمعتُ * وكَلَّ ما تقول قد فهمتُ
لكننى لستُ أَظُنُّ ما تَظُنُّ * بالثور من غشٍّ بلى ظنِّي^(٢) حَسَنُ
قال له دمنَةُ من ثَمَّ أَتَى * وهذه مَنْ حَالُهُ هِىَ الَّتِى
رَفَعَتْهُ حَتَّى تَعْدَى طَوْرَهُ * وكان هذا لك منه شُكْرُهُ
وتلك أخلاق اللئيم الفاجر * الكافر المغرور غير الشاكر
ما إن يزال ناصحًا نَفَّاعًا * حَتَّى يَرَى مِنْ حَالِهِ أَرْتِفَاعًا
فعندها يسمو إلى ما فوقها * إلى الَّتِى لَا تَسْتَطِيعُ أَوْقَها^(٣)
وربما كان هلاكُ الشجر * فى حُسْنِ الغُصْنِ وطيب الثَمَرِ
وذنب الطاووس فهو زِينُهُ * كذاكَ أحيانًا وفيه حِينُهُ
وباذل النصيح لمن لم يشكره * كطارج فى سَبَاحِ ما يبدُرُهُ
لا خير للعاقل فى ذى المَنَظَرِ * إن هو لم يحمده عند المَحَبَرِ
وليس فى الصديق ذى الصفاء * خَيْرٌ إذا لم يك ذا وفاء
الرجلُ العاقلُ من لا تُسَكَّرُهُ * كَأْسُ سَمٍّ وَأَقْدَارُ يَبْطِرُهُ^(٤)
فالحبلُ الثابتُ فى أصولِهِ * لا تقيدُ الرِّيحُ على تحويلِهِ
والناقصُ العقلِ الذى لا رأى لَهُ * يطنى إذا ما نال أدنى منزِلِهِ
مثلُ الحشيش أَيْما رِيحٍ جَرَتْ * مالت به فاقبلتُ وأدبرتُ
الأهلُ والإخوان والأعوانُ * عند ذوى الأموال حيث كانوا

(١) الأملاك : الملوك . (٢) كذا فى الأصل ولعله : « بل الظن الحسن » .

(٣) أوقها : ثقلها . (٤) فى الأصل هكذا « منظره » .

والمال هادى الرأى والمروءة * وهو على كل الأمور قوؤه
 والمال فيه العز والجمال * والذل حيث لا يكون المال
 وربما دعا الفقير فقره * الى التى يُجَبَّطُ فيها أجره
 فيخسر الدين كما كان خسر * دنياه والخسران ما لا ينجز
 وليس من شىء يكون مدحا * لدى الغنى إلا يكون برحا
 على الفقير ويكون ذمّا * كذاك يُدعى وبه يُسمى
 فإن يكن تجداً يقولوا أهوج^(١) * كذاك عند الحرب لا يعرج
 وهو إذا كان جواداً سيّدا * سُمى للفقير مُضيعاً مُفسداً
 أويك ذا حلم يُقلّ ضعيف * أويك بسّاماً يُقلّ سخيف
 الرجل العاقل فيما يُسدى * مغتبط بكسبه للحميد
 لأنه باع قليلاً فانياً * وأعتاض من ذاك كثيراً باقياً
 فأغبط الناس الكثير نائله * ومدرك النجح لديه سائله
 فلا تعدن ذا غنى غنياً * حتى يكون ماجداً سرياً
 وأعلم بأن الملك المشاورا * ذا العقل فيما نابه المؤازرا
 فإنه يُضد بالتأييد * يغنى به عن كثرة الجنود
 والحازم التابع أمر الحزمة * النصحاء غير أهل التهمة
 يزداد حزماً بهم ورشداً * زيادة البحر إذا ما مُبداً
 بما يُصب فيه من أنهاره * حتى يهيج الموج من تياره
 والموت من مات كريماً صابراً * خير من العيش ذليلاً صاعراً

ولم ينقل لنا الصولى فى كتابه إلا هذه القطعة . ويعدّ أباى فى هذا ناظها لكتاب معروف ، ولكنه قد تجاوز نظم الكتب المعروفة الى تأليف كتب منظومة ، فنظم قصيدة طويلة فى الصوم والزكاة ، روى منها الصولى طرفاً .

(١) الهوج : الحنى . وفى الأصل : «طوج» باللام وهو تحريف .

فقل لأبان بعد أن نظم كليله ودمنة : ألا تعمل شعرا في الزهد ؟ فعمل قصيدة مزدوجة في الصيام والزكاة . وترجمتها :

”قصيدة الصيام والزكاة * نقل أبان من فم الرواة“

وها هي ذى القصيدة :

هذا كتاب الصوم وهو جامع * لكل ما قامت به الشرائع
من ذلك المنزل في القرآن * فضلا على من كان ذا بيان
ومنه ما جاء عن النبي * من عهده المتبع المرضى
صلى الله عليه وسلم * كما هدى الله به وعلمها
وبعضه على اختلاف الناس * من أثر ماض ومن قياس
والجامع الذي اليه صاروا * رأى أبى يوسف مما آخاروا
قال أبو يوسف أما المفترض * فرمضان صومه اذا عرض
والصوم في كفارة الأيمان * من حيث ما يجرى على اللسان
ومعه الحج وفي الظهار^(١) * الصوم لا يدفع بالإنكار
وخطأ القتل وحلق المحرم * لراسه فيه الصيام فافهم^(٢)
فرمضان شهره معروف * وصومه مفترض موصوف
والصوم في الظهار ان لم يقدر * مظاهره يوما على محرر
والقتل ان لم يك عمدا قتله * فان ذاك في الصيام مثله
شهران في العدة كمالان * متصلان لا مفرقان
والحنث في رواية مقبولة * ثلاثة أيامها موصولة
ومثلها في عدة الأيام * للحريم الحالق في الإحرام
ثلاثة يصومها ان حلقا * لا بأس ان تابعها أو فرقها

(١) الظهار مصدر ظاهر الرجل من امرأته اذا قال لها : أنت علي كظهر أمي ، فكفى بالظهر عن البطن تأديا .

(٢) في الأصل : ”موطوف“ .

والصومُ في المتعة ان لم يجد * هذياً وكان بالصيام يفتدى
صيامُ أيامٍ مؤقَّتاتٍ * ثلاثة في الحج مفروضاتٍ
وبعد ما يرجع صومُ سبعة * عشرة كاملة في المتعة
أما الثلاثة التي في الحج * فكان من أدركت من محتج
أو غيره ممن يرى أن يرويه * يقول يوماً قبل يوم الترويه
ويومها وصوم يوم عرفة * مؤلفات الصوم لا مختلفه
قالوا وإن أحب أن يفرقا * فذاك ما ليس عليه ضيقا
إن كان ذاك الصوم منه بعدما * يكون في عمرته قد أحرم
ولو أراد الصوم في شوال * من بعد أن يوجب بالهلال
عمرته لكان ذاك مجزيا * بذاك يُفتى من أتى مستفتيا

وهي طويلة جدًا

ونحسب أن مكانه من البرامكة هو الذي حمله على اختراع هذا الفن ؛ فقد كان مكانه
منهم مكان المؤدب لصبيانهم وشبابهم ، وكان من الحق عليه أن يسجل لهم العلم تسميلاً .
وليس من شك في أن هذه الأموال التي أصابها من البرامكة حينما نظم كليله ودمنة قد
أطعمته ، فنظم القصائد الأخرى ليصيب مثل ما أصاب .

أخبار حمدان بن أبان بن عبد الحميد بن أبان ومختار من شعره

قال أبو بكر الصولي : حدثني محمد بن زياد قال : كانت في عبد الصمد بن المعتدل عريضة
إذا سكر، فعربد يوماً في مجلس فيه حمدان بن أبان بن عبد الحميد بن أبان ، وكان أيداً^(١) ، فقال
لهم : كلوه إلى وحدي ، وأخذه وكتفه وجعله في بيت وأغلق باباً ، وقال : إذا أصبحتم
فأطلقوه ، وأنصرف ؛ فبلغه أن عبد الصمد حلف ليهجونه سنة ، فقال حمدان يهجوهم :

(١) أيداً : قويا .

قل لعبد الصمد الأح * سقم لا تغضب عليه
وعلى أمتك فاغضب * واكويها فى الهن كية
أملك العفلاء جاءت * بنى بسلمى ورقية
وهى ساقى ليلة فا * طمة أخرى اليه
فقضينا فيهم الحق * وقلبنا السوية

وقد ذكر الصولى فى كتابه الأوراق ما اختاره من قصيدة حمدان بن أبان بن عبد الحميد

ابن أبان فى وصف الحب وأهله وهى طويلة ، قال :

ما بال أهل الأدب * منا وأهل الكتب
قد وضعوا الآدابا * وأتعبوا الكتابا
لكل فن دفتر * منقط محبر
ففرقت أجناسا * وعلموها الناسا
بالحيل الرقيقه * والفطن الدقيقه
فأرشدوا الضلالا * وعلموا الجهالا
سوى المحبين فلم^(١) * يرفعوا لهم حق الذمم
فى علم ما قد جهلوا * وما به قد أبطلوا
قد غلقت رءوسهم * وأستعبرت عيوسهم
وحالفوا السهادا * وخالفوا الرقادا
فليلهم طويل * ونومهم قليل
أبدانهم نحيلة * متعبه عليه
نفوسهم حزينة * مشغوفة رزينة
ظاهرة غمومهم * باطنة كلومهم

(١) فى الأصل : "فكم" .

باكية عيونهم * قريحة جفونهم
 إن ظلموا لم يظلموا * وإن شكوا لم يرحموا
 أحبابهم في لعب * وفي دوام الطرب
 صافية ألوانهم * ضاحكة أسنانهم
 قد سكنوا القصورا * وقارنوا السوروا
 تفرغوا للهجير * وللنوى والغدير
 بعاشق يهواهم * بالله ما أفساهم
 وعدهم وعيد * إقرارهم بحود
 يؤسى لأهل العشق * أهل الضنا والرق
 ليس لهم وسيلة * ولا وجوه حيلة
 رأيت لما خذلوا * وفي هواهم وحلوا
 أن أرشد المغفلا * الجاهل المضللا
 الى الطريق الواضح * عند البلاء الفادح
 وأبتدى كتابا * للوصف بابا بابا
 يا أيها الناس قعوا * وصيتي وأستمعوا
 ففي صفاتي عجب * وفي كتابي أدب
 قصيدتي مقومة * ألفاظها منظمه
 فيها هوى العشاق * ومنية المشتاق
 وصفت أهل العشق * ولم أمل عن حق
 فاسمع مقالا صادقا * يا من يبيت عاشقا
 للحب حلتان * هما هما اللتان
 الصبر والرفق معا * يوما اذا ما اجتمعا

في عاشقٍ مهجورٍ * مباعِدٍ مغرورٍ
 قَضَى قَرِيْبًا وَطَرًا * وَبَلَّغَهُ الْوَطَرَا
 مَا الْحَسَنُ وَالْإِحْسَانُ * وَالْمَلِكُ وَالسُّلْطَانُ
 يَعْدِلُ وَصَلَ الْإِلَفِ * وَكَسَرَهُ لِلطَّرِيفِ
 مَا حَسَنٌ فِي الْعَيْنِ * أَحْسَنُ مِنَ الْفَيْنِ
 يَوْمًا إِذَا مَا اتَّقِيَا * فِي مَجْلِسٍ فَاشْتَمِيَا
 مُدَاوِمِينَ لِلنَّظَرِ * قَدْ أَمِنَا كُلَّ حَذَرِ
 يَبَادِرَانِ الْخَلْوَةَ * وَيُظْهِرَانِ الصَّبَوَةَ
 مُسَاعِدَتَيْنِ اتَّفَقَا * بَاتَا وَلَمْ يَفْتَرِقَا
 هَوَاهُمَا مَخْزُونٌ * سُرُّهُمَا مَدْفُونٌ
 مَدَارِيَيْنِ أَصْبَحَا * لِلنَّاسِ لَمْ يَفْتَضِحَا
 مَنْ جَرَّبَ الْحَبَّ عَرَفَ * مَا بَيْنَ مَلِكٍ وَأَسَفِ
 لَنْ يَبْلُغَ الصَّبُّ الْمُنَى * إِلَّا بِصَبْرِ وَعَنَى
 إِنْ الْهَوَى ضُرُوبٌ * وَأَمْرُهُ عَجِيبٌ
 وَأَهْلُهُ أَطْوَارُ * فِيهِ لَهُمُ أَوْطَارُ
 لِلْعَاقِلِ الشَّرِيفِ * وَالْأَحْمَقِ السَّخِيفِ
 فَهُمْ مُرْزُوقٌ * مُحِبٌّ مَعْشُوقٌ
 عَلَى أَضْطِرَابِ الْخَلْقِ * مِنْهُ وَسُوءُ الْخَلْقِ
 تُقْضَى لَهُ الْأَوْطَارُ * وَتُعْمَلُ الْأَشْعَارُ
 مَقْرَّبٌ مَا يُقْصَى * مَطَاوِعٌ مَا يُعْصَى
 وَمِنْهُمْ مَحْرُومٌ * مُحَارَفٌ مَشْتُومٌ

على جمال هيئته * وحسنه وبهجته
 ومنهم من يبتدا * ينال عيشا رغدا
 من غير سعى وطلب * وغير كد ونصب
 قد ذاك الأسعد * والبحث منه أجود
 إذ فاز باللدات * ودرك الحاجات
 ومنهم من يتعب * في حبه ويدأب
 أسقمه طول الهوى * وشقه وجد الجوى
 فذاك صب قد شقى * يؤسى له ما ذا لقي
 ومنهم البصير * العاقل النحرير
 يحتمل الهجرانا * ويحمل الأحزانا
 فلا يزال مبتلى * حتى ينال أملا
 ومنهم العميد * الجاهل البليد
 يحب بالتضجر * والجهل والتكبر
 يلقي الحبيب باهتا * فلا يزال ساكتا
 ومنهم من يهوى * بالغيب ياقى عفوا
 فيزرع الغموما * مستجلبا هموما
 فذاك حب الغيب * ليس به من عيب
 من دونه حجاب * ودونه أبواب
 فما لذاك لبث * وليس منه مكث
 حتى يرى مقهورا * في حبه محسورا
 ومنهم جبار * في حبه أزورا
 يزهى إذا ما عشقا * ورهنه قد غلقا

يلتزم الجَّاجَه * فليس يُبدي الحَاجَه
 فذاك حُبُّ القَوْتِ * وفيه كَرَبُ الموتِ
 ومنهم من للنظر * يهوى ولم يعد البصرُ
 اذا رأى خليله * داوى به غليله
 يكتُم ما يقاسى * من أعين الجُالِسِ
 ومنهم من اقتصر * على الحديث والنظر
 غايته السَّلام * والمخاطب والكلام
 مدافع عن حبه * يكتُم وجد قلبه
 ينفى الهوى وينكره * وبالتَّبرى يستره
 فذاك حُبُّ العاقل * حُبُّ أديب كامل
 وبعضهم لا يقنع * إلا عمود يودعُه
 قد طلب الحراما * وآتمس الأثاما
 فذاك حُبُّ التَّهيم * الماجن المغتليم
 حق له الحرمان * والمنع والخذلان
 وبعضهم مَدَّاق * معانئ مَلَّاق
 مستعمل للكذب * مُحَرَّف في الكُتبِ
 فذاك حُبُّ الزور * يلسع كالزنبور
 وبعضهم عميد * غايه ما يريد
 خلوة من يهواه * في مشيد يلقاه
 لظفته مُسارقه * مبيتُه معانقه
 مكاتم حبه * في بُعد وقربه
 فذاك حُبُّ يكيد * نيرانه لا تخبئ

وَمِنْهُمْ مَنْ يَهْتِفُ * بِالْحَبِّ حِينَ يُشَغَفُ
إِذَا الْحَبِيبُ صَدًّا * وَلَمْ يُنَلِّهِ وَدًّا
تَاهَ عَلَيْهِ وَخَزَفٌ^(١) * وَصَدَّ عَنْهُ وَحِمَقُ

وقال في آخرها :

قَدِ تَمَّ مِنِّي وَصْفٌ * وَلَمْ يَخْنِ الرِّصْفُ
وَأَنْقَضَتِ الْقَصِيدَةُ * مَحْبُوبَةً حَمِيدَةً
وَالْحَمْدُ لِلرَّحْمَنِ * ذِي الْعِزِّ وَالسُّلْطَانِ
وَالذَّمُّ لِلشَّيْطَانِ * ذِي الْعَرَمِ^(٢) وَالطُّغْيَانِ

(١) حَزَق : ضَنُّ عَلَيْهِ وَبُخْلٌ .

(٢) الْعَرَم : الشَّدَّةُ وَالشَّرَاسَةُ . وَفِي الْأَصْلِ : « الْعَزَم » .

٦ - منصور التمرى^(١)

كان ذا حيلة سياسية ، فأدرك أن الرشيد يسره أن يُمدح بنفى الإمامة عن علي والطعن عليه ، لما كان يراه من تقديم مروان بن أبي حفصة بسبب ذلك ، فسلك مذهبه ونحا نحوه — والشعراء يومئذ انما يطلبون الكسب — لكنه لم يصريح بالهجاء والسب كما فعل مروان ، ومن قوله فيه قصيدة مطلعها :

أمير المؤمنين اليك خُضْنَا * غمار الهول من بلد شَطِير
بُحُوص كالأهلة خافقات * تَلِين على السرى وعلى الهَجِير
حَمَلْن اليك أحمالاً ثَقَالاً * ومثَل الصخرة الذَّر النَثِير
فقد وَقَف المديح بِمُنْتَهَاه * وغَايَتِهِ وصار الى المَصِير
الى من لا تُشِير الى رسول * اذا ذُكِر النَّدَى كَف المَشِير

وذكر في القصيدة يحيى بن عبد الله بن حسن فقال :

يَذَلُّ من رقاب بنى علي * ومن ليس بالمتى الصغِير
مننّت علي ابن عبد الله يَحْيَى * وكان من الخُتوف على شَفِير

(١) هو منصور بن الزبرقان بن سلمة النمري الربعي ، من النمر بن قاسط ، ثم من ربيعة بن زارة شاعر من شعراء الدولة العباسية . من أهل الجزيرة ، وهو تلميذ كاثوم بن عمرو العنابي وراويه ، عنه أخذ ، ومن بحره استقى ، ومذهبه تشبهه . وصفه العنابي للفضل بن يحيى بن خالد وقرظه عنده حتى استقدمه من الجزيرة واستصحبه ، ثم وصله بالرشيد وجرت بعد ذلك بينه وبين العنابي وحشة حتى تهاجرا وتناقضا وسعى كل واحد منهما في هلاك صاحبه ، وكان النمري قد مدح الفضل بقصيدة وهو مقيم بالجزيرة ، فأوصلها العنابي اليه واسترفده له وسأله استصحابه ، فأذن له في القدوم ، فحفظ عنده ، وعرف مذهب الرشيد في الشعر وإرادته أن يصل مدحه إياه بنى الإمامة عن ولد علي بن أبي طالب عليهم السلام والطعن عليهم وعلم مغزاه في ذلك مما كان يبلغه من تقديم مروان بن أبي حفصة وتفضيله إياه على الشعراء في الجوائز ، فسلك مذهب مروان في ذلك ونحا نحوه ، ولم يصريح بالهجاء والسب كما كان يفعل مروان ولكنه حام ولم يقع وأوما ولم يحقق ، لأنه كان يتشيع ، وكان مروان شديد المداورة لآل أبي طالب وكان ينغلق عن نية قوية يقصد بها طلب الدنيا فلا يبقى ولا يذر . وتجد أخباره في الأغاني (ج ١٢ ص ١٦ ر ج ١٧ ص ٣٢ ر ١٤١) .

ولقد تخلص الى شيء ليس عليه فيه شيء وهو قوله :

فإن شكروا فقد أنعمت فيهم * وإلا فالندامة للكفور
وإن قالوا بنوبنت فحق * وردوا ما يناسب للدُّكور
وما لبني بنات من ثرائ * مع الأعمام في ورق الزُّبور

ومنها :

بني حسن ورهط بني حسين * عليكم بالسداد من الأمور
فقد دُقم قراع بني أبيكم * غداة الرُّوع بالبيض الذُّكور
أحين شفوكم من كل وتر * وصمكم الى كنفٍ وثير
وجادوكم على ظمأ شديد * سُقيتم من نوالهم الغزير
فما كان العقوق لهم جزاء * بفعلهم وآدى للشُّور
وإنك حين تُبلغهم أذاة * وإن ظلموا لمحزون الضمير

فقال له : صدقت وإلا فعلى وعلى ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وأُشيد الرشيد يوما قصيدته التي أولها :

ما تنقضى حسرة منى ولا جزع * إذا ذكرت شبابا ليس يُرجع
بان الشباب وفانتي بلذته * صرُوف دَهِير وأيام لها خدع
ما كنت أوفي شبابي كُنه غُمرته * حتى أنقضى فاذا الدنيا له تبع

فقال الرشيد : أحسن ! والله لا يتهنى أحد بعيش حتى يخطر في رداء الشباب .

ومن قوله فيها يمدح الرشيد :

أى أمرى بات من هارون في سخط * فليس بالصلوات الخمس ينتفع
إن المكارم والمعروف أودية * أحلك الله منها حيث تجتمع

إذا رَفَعْتَ أَمْرًا فَاللهُ يَرْفَعُهُ * وَمَنْ وَضَعَتْ مِنَ الْأَقْوَامِ مُتَضِعُ
نَفْسِي فِدَاؤُكَ وَالْأَبْطَالُ مُعَلِّمَةٌ * يَوْمَ الْوَعَى وَالْمَنَايَا صَابَهَا فَزَعُ

ومن قوله يمدح الرشيد :

يَا مَنْزِلَ الْحَى ذَا الْمَغَانِي * لِنَعْمِ صَبَاحًا عَلَى يَلَاتِكَ
هَارُونَ يَا خَيْرَ مَنْ يُرَجَى * لَمْ يُطِغِ اللَّهُ مِنْ عَصَاكَ
فِي خَيْرِ دِينٍ وَخَيْرِ دُنْيَا * مِنْ أَتَقَى اللَّهَ وَأَتَقَاكَ

وناهيك بقصيدته التي رفعت السيف عن ربيعة بن صبيح بعد أن جرده فيها الرشيد

وهي التي يقول فيها :

وَقَدْ عَلِمَ الْعُدُونُ وَالْجَوْرُ وَالْحَنَا * بَأَنَّكَ عَيَافٌ لِمَنْ مُزَايِلُ
وَلَوْ عَمِلُوا فِينَا بِأَمْرِكَ لَمْ يَكُنْ * يَنَالُ بَرِيًّا بِالْأَذَى مُتَنَاوِلُ
لَنَا مِنْكَ أَرْحَامٌ وَنَعْتِدُ طَاعَةً * وَبِأَسَا إِذَا أَصْطَكَ الْقَنَا وَالْقَنَابِلُ^(١)
وَمَا يَحْفَظُ الْإِحْسَانَ مِثْلَكَ حَافِظُ * وَلَا يَصِلُ الْأَرْحَامَ مِثْلَكَ وَاصِلُ
جَعَلْنَاكَ فَا مَنَعْنَا مَعَاذًا وَمَفْزَعًا * لَنَا حِينَ عَضَّتْنَا الْخَطُوبُ الْحَلَالِلُ
لَأَنْتَ إِذَا عَاذْتَ بِوَجْهِكَ عُودُ * تَطَامَنَ خَوْفٌ وَأَسْتَقَرَّتْ بِلَابِلُ

اجتمع جماعة من الشعراء ببغداد وفيهم منصور الغري، وكانوا على نبيذ، فأبى منصور
أن يشرب معهم، فقالوا له : إنما تعاف الشراب لأنك راقي، وتسمع وتُصغي إلى
الغناء، وليس تركك النبيذ من ورع، فقال :

خَلَا بَيْنَ نَدْمَانِي مَوْضِعُ مَجْلِسِي * وَلَمْ يَبْقَ عِنْدِي لِلْوَصَالِ نَصِيبُ
وَرَدْتُ عَلَى السَّاقِ تَفْيِضَ وَرَبَّمَا * رَدَدْتُ عَلَيْهِ الْكَأْسَ وَهُوَ سَلِيبُ
وَأَيُّ أَمْرِي لَا يَسْتَهْشِ إِذَا جَرَتْ * عَلَيْهِ بَنَانُ كَفُّهُنْ خَضِيبُ

(١) مفردة قبل بفتح فسكون ثم فتح : الطائفة من الناس :

قال النمرى : كنت واقفاً على جسر بغداد أنا وعبيد الله بن هشام ، وقد وخطني الشيب يومئذ ، وعبد الله شابٌ حديث السن ، فاذا أنا بقصريّة ظريفة قد وقفت ، بفعلت أنظر إليها وهي تنظر الى عبيد الله ثم انصرفت ، وقلت فيها :

لما رأيت سَوامَ الشَّيبِ منتشراً * في لَمَتي وعبيدَ الله لم يَشِبْ
سَلَّلتِ سَهَمين من عينيكَ فانتضلاً * على سَهْبَةٍ ذى الأذيال والطرب
كذا الغواني نرى منهنّ قاصدة * الى الفروع مُعَرَّاة عن الخشب
لا أنتِ أصبحت تعقدُ بيننا أرباً^(١) * ولا وعيشك ما أصبحت من أربى
إحدى ونحسين قد أنضيت جانتها * تحول بيني وبين اللّهُو واللّعب
لا تحسبيني وإن أغضيت عن بصرى * غَفَلْتُ عنكِ ولا عن شأنك العَجَب
غضب الرشيد على منصور النمرى لما أنشد قصيدته في مدح العلويين وأولها :
شاء من الناس راتِعٌ هاملٌ * يعللون النفوسَ بالباطل
وفيها يقول :

ألا مَسَاعِيرُ يغضبون لها * بسَلَّةِ البيض والقنا الذابل^(٢)
فغضب من ذلك غَضَباً شديداً وقال للفضل بن الربيع : أحضره الساعة ، فبعث الفضل في ذلك ، فوجده قد تَوَقَّى ، فأمر بنده ليُحْرِقَهُ ، فلم يزل الفضل يُلَطِّفُ له حتى كَفَّ عنه .
واليك قصيدته في مدح العلويين نقلا عن الشعر والشعراء لابن قتيبة ، لأن صاحب الأغاني أغفلها ولم يذكر منها إلا البيتين السابقين :

شاء من الناس راتِعٌ هاملٌ * يُعلِّلون النفوسَ بالباطل
تُقَتَّلُ ذُرِّيَّةُ النَّبِيِّ وَيَرُ * جونَ جَنانِ الخُلود للقاتل
وَيْلَكَ يا قاتِلَ الحسين لقد * نُوتَ بِجَمَلٍ يَنْوُءُ بالمال

(١) كذا في الأصل ولعله : * لا أنتِ أصبحت تعقد بيننا أرب * بتسكين الفعل يعقد للضرورة وتسكين الفعل في الضرورة واردة ومنه قول امرئ القيس : فاليوم أشرب غير مستحقب * أثما من الله ولا وغل
(٢) في الشعر والشعراء "مصاليح" .

أَيَّ حَبَاءٍ حَبَّوْتَ أَحْمَدَ فِي * حُفْرَتِهِ مِنْ حَرَارَةِ النَّاصِلِ
 بَأَىَّ وَجْهَ تَلَقَّى النَّبَى وَقَدْ * دَخَلَتْ فِي قَتْلِهِ مَعَ الدَّاحِلِ
 هَلُمَّ فَاطْلُبْ غَدًا شِفَاعَتَهُ * أَوْ لَا فَرِّدْ حَوْضَهُ مَعَ النَّاهِلِ
 مَا الشَّكُّ عِنْدِي فِي حَالِ قَاتِلِهِ * لَكِنِّي أَشُكُّ فِي أَخْلَازِلِ
 نَفْسِي فِدَاءَ الْحُسَيْنِ حِينَ غَدَا * إِلَى الْمَنَايَا غُدُوًّا لَا قَائِلِ
 ذَلِكَ يَوْمٌ أَنَحَى بِشَفْرَتِهِ * عَلَى سَنَامِ الْإِسْلَامِ وَالْكَاهِلِ
 حَتَّى مَتَى أَنْتِ تَعْجِبِينَ أَلَا * تَنْزِلُ بِالْقَوْمِ نِقْمَةً الْعَاجِلِ
 لَا يَعْجَلُ اللَّهُ إِنْ لَحِلَّتْ وَمَا * رَبُّكَ بِعَمَّا يَرِيدُ بِالْغَافِلِ
 وَعَاذِلِي أَنِّي أَحَبُّ بَنِي * أَحْمَدَ فَانْتَرِبْ فِي نَيْمِ الْعَاذِلِ
 قَدْ ذُقْتُ مَا دِينُكُمْ عَلَيْهِ فَمَا * وَصَلْتُ مِنْ دِينِكُمْ إِلَى طَائِلِ
 دِينَكُمْ جَفَوَةَ النَّبَى وَمَا أَلِ * جَافَى لَالِ النَّبَى كَالْوَاوِلِ
 مَظْلُومَةٌ وَالنَّبِيُّ وَالِدَهَا * نَذِيرُ أَرْجَاءِ مُقْلَةٍ حَافِلِ
 أَلَا مَصَالِيْتُ يَغْضَبُونَ لَهَا * بَسَلَّةَ الْبَيْضِ وَالْقَنَابِ الذَّائِلِ

وقال أيضا :

أَلِ النَّبَى وَمَنْ يُحِبُّهُمْ * يَتَطَامَنُونَ خَافَةَ الْقَتْلِ
 أَمِنُوا النَّصَارَى وَالْيَهُودَ وَهُمْ * مِنْ أُمَّةِ التَّوْحِيدِ فِي أَرْزِلِ^(١)
 وَأُشِيدَ الرَّشِيدُ هَذَا بَعْدَ مَوْتِهِ فَقَالَ : لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُنْبِشَهُ ثُمَّ أَحْرِقَهُ .

ومن جيد شعره قوله فى الرشيد :

يَا زَائِرِينَ مِنَ الْخِيَامِ * حَيَّا كَمَا اللَّهُ بِالسَّلَامِ
 يُحْرِتُنِي أَنْ أَطْفِئُهَا * وَلَمْ تَنَالَا سِوَى الْكَلَامِ

(١) الأزل : الضيق والشدة .

لم تَطْرُقَانِي وَبِي حَرَاكٌ * إِلَى حَالَالٍ وَلَا حَرَامٍ
 هَهْنَاتٌ لِلَّهِوِ وَالتَّصَابِي * وَلِلْغَوَانِي وَلِلْأَدَامِ
 أَقْصَرَ جَهْلِي وَثَابَ حِلْمِي * وَنَهَنَ الشَّيْبُ^(١) مِنْ عُرَامِي^(٢)
 عَمَّرُ أَبِيهَا لَقَدْ تَوَلَّتْ * سَالِمَةُ الْحَدَّةِ مِنْ عِذَامِي
 اللَّهُ حَيٌّ وَتَرَبُّ حَيِّي * لَيْلَةَ أَعْيَاهَا مَرَامِي
 أَذْنَتَانِي بِطُكُولٍ هَجِيرٍ * وَغَرَّتَانِي مَعَ السَّوَامِ
 وَأَنْطَوْنَا لِي عَلَى مَلَامٍ * وَالشَّيْبُ شَرٌّ مِنَ الْمَلَامِ
 بُورِكَ هَارُوتٌ مِنْ إِمَامٍ * بِطَاعَةِ اللَّهِ ذِي أَعْتِصَامِ
 لَهُ إِلَى ذِي الْحَالَالِ قُرْبِي * لَيْسَتْ لَعْنَدَلٍ وَلَا إِمَامِ
 يَسْبَغُنِي عَلَى أُمَّةٍ تَمَنَّى * أَنْ لَوْ تَقِيهِ مِنَ الْحِمَامِ
 لَوْ اسْتَطَاعَتْ لِقَائَتَهُ * أَعْمَارَهَا قِسْمَةُ السَّهَامِ
 يَا خَيْرَ مَاضٍ وَخَيْرَ بَاقٍ * بَعْدَ النَّبِيِّينَ فِي الْأَنَامِ
 مَا اسْتَوْدَعَ الدِّينَ مِنْ إِمَامٍ * حَامِي عَلَيْهِ كَمَا تُحَامِي
 يُؤْنَسُ مِنْ رَأْيِهِ بِرَأْيٍ * أَصْدَقَ مِنْ سَلَّةِ الْحُسَامِ

وقال :

أَعْمِيرُ كَيْفَ الْحَاجَةُ * طُلِبْتُ إِلَى صَمِّ الصُّخُورِ
 اللَّهُ دَرُّ عُدَايِكُمْ * كَيْفَ انْتَسَبَنْ إِلَى الْغُرُورِ
 أَنْ اللَّيَالِي ضَمْنِي * وَتَمَنَّى سِمَةَ الْكَبِيرِ
 أَطْفَانُ نُورٍ شَيْبَتِي * وَفَرَشَتْنِي كَنْفَ الْغَيُورِ
 وَلَقَدْ تَبَيَّتُ أَنَا مِلِي * يَحْنِيْنَ رُمَانُ التُّحُورِ

(١) العرام : الحدة . (٢) العلم الشفة كالعض بالأسنان .

٧ - السيد الحميرى^(١)

« لم يكن السيد الحميرى^(٢) من أنصار الحسن والحسين ، أو بعبارة أصح لم يكن من أنصار ولد الحسن والحسين ؛ وإنما كان من الكيسانية الذين كانوا ينصرون الابن الثالث من أبناء على : محمد بن خولة الحنفية ؛ والذين كانوا يدينون بأنه لم يمت وإنما تغيب عن الناس واحتجب عنهم حينئذ وسيعود فيملا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، فلم يكن على السيد الحميرى^(٣) بأس أن يمدح بنى العباس ويتقرب منهم مادام صاحبه محمد بن الحنفية لم يعد من غيبته بعد . ثم نستطيع أن نميز هذا الشاعر بخصلة لم نرها فى شاعر من الذين تحدّثنا عنهم ، وهى أنه كان سخيلاً ضعيف العقل شديد الإيمان بالخرافات والأوهام ، ويظهر أن هذه الخصلة جاءت من مذهبه نفسه فى الرجعة ، فقد أسرف فى هذا المذهب كما أسرف فى مدح العلويين والإيمان بهم حتى وصفهم من الخير والكرامة بما يقبل وما لا يقبل ؛ فكان كل خير يمكن أن ينسب إلى العلويين ، رضيه العقل أم لم يرضه ، وكان كل شر يمكن أن ينسب إلى خصوم العلويين ، رضيه العقل أم لم يرضه ، وكان يكفي أن يسمع رجلاً من أهل القصص ورواية الأساطير يروى كرامة من الكرامات يضيفها إلى أحد العلويين حتى ينظم فيها قصيدة طويلة جيّدة ، ويتخذ هذه القصيدة وسيلة إلى ذم السلف والنبى عليه .

(١) هو اسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى والسيد لقبه ويكنى أباهاشم ، كان شاعراً متقدماً مطبوعاً ، يقال إن أكثر الناس شعراً فى الجاهلية والاسلام ثلاثة : بشار وأبو العنابية والصديق ، فإنه لا يعلم أنه أحداً قدور على تحصيل شعر أحد منهم أجمع ، وإنما مات ذكره وهجر الناس شعره لما كان يفرط فيه من سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه فى شعره ويستعمله فى قذفهم والطعن عليهم فتحوى شعره من هذا الجنس وغيره لذلك وهجره الناس تحقوا وترقوا ، وله طراز من الشعر ومذهب قلباً يلحق فيه أو يقارب ، ولا يعرف له من الشعر كثير ، وليس يخلو من مدح بنى هاشم أو ذم غيرهم من هو عنده ضد لهم . توفى سنة ١٧٣ هـ . وتجد ترجمته وأخباره فى الأغاني (ج ٧ ص ٢) وفوات الوفيات (ج ١ ص ١٩) .

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية .

وخصلة أخرى تقربه من الزنادقة الذين عاصروه ولكنها تجعل الصلة بينه وبينهم ضعيفة واهية في الوقت نفسه .

وهي أنه كان يستبجح ضروبا من اللهو والمنكر، ويسرف في شرب الخمر وغير ذلك من ألوان العبث، لا لأنه كان يتحسد الدين أو يزدريه بل لأنه كان يدل على صاحب الدين؛ كان يحب النبي صلى الله عليه وسلم وآله ويمتدحهم مودته ونصره، ويعتقد أنهم سيعرفون له ذلك وسيشفعون له في ذنوبه وآثامه لما قدم بين يديه من مدح العلويين ونصرهم على خصومهم؛ وكان بنو هاشم وبنو علي خاصة يطعمونه في ذلك ويعترفون له به، فإذا ذكر لهم أنه يلهو ويشرب الخمر قالوا : وأى ذنب يعظم على الله أن يغفره لرجل من أنصار أهل البيت ! بل قال أحدهم : إن من أحب آل على لم تزل له قدم إلا ثبتت له أخرى ؛ وعلى هذا كان السيد الحميري يلهو آمنا في دينه ودنياه، يعتمد في دينه على العلويين، ويعتمد في دنياه على العباسيين، يقدر أن العلويين سيشفعون له عند الله، ويعلم أن العباسيين يتقون شره ويؤثرون مدحه على هجائه ؛ وكان من مفاصيره من يكره ذلك ويمقتسه كل المقت، ويضممر للسيد عداً وحقداً لا يعدها عداً ولا حقداً ؛ ومن هؤلاء سوار بن عبد الله العنبري قاضي البصرة للمنصور، فقد كان العداً بينه وبين السيد شديداً، وكان قد أجمع ألا يقبل للسيد شهادة، وكان قد سعى بالسيد عند المنصور غير مرة ؛ وكان السيد قد هاجه فأسرف في هجائه، فشكا ذلك إلى المنصور فهجاه المنصور عنه وأمره أن يذهب إلى القاضي فيعتذر إليه، وأبى القاضي أن يقبل معذرتة، فاستأنف السيد الهجاء وألح فيه . ويقال إن سواراً أعد شهوداً يشهدون على السيد بالسرقة ليقطع يده، فعلم السيد ذلك فخرع وفرغ إلى المنصور، فعزل المنصور سواراً من القضاء للسيد أو عليه، ولم يابث سوار أن مات فتبعه السيد بعدائه وبغضه وهجائه .

قال أبو جعفر الأعرج : كان السيد أسمر تام القامة، أشنب ذا وفرة، حسن الألفاظ جميل الخطاب، إذا تحدث في مجلس قوم أعطى كل رجل في المجلس نصيبه من حديثه ؛

وقال الفرزدق : إن ههنا لرجلين لو أخذَا في معنى الناس لما كُتبا معهما في شيء : السيد الحميري وعمران بن حِطَّان السَّدُوسِيّ ، ولكن الله عزَّ وجلَّ قد شَغَلَ كلَّ واحد منهما بالقول في مذهبه ؛ وقال الأصمعيّ لما أنشد شيئا من شعره : ما أسلكه لطريق الفُحول لولا مذهبه ، ولولا ما في شعره ما قدِّمتُ عليه أحدا من طبقاته ؛ وكان أبو عبيدة يقول : أشعرُ المُحدثين السيد الحميريّ وبشارٌ .

وكان السيد يذهبُ مذهب الكيسانية ويقول بإمامة محمد بن الحنفية ، وله في ذلك شعر كثير .

وقف السيد على بشار وهو يُنشد الشعر ، فأقبل عليه وقال :

أيها المادحُ العبادِ يُعطى * إنَّ الله ما بأيدي العبادِ
فاسأل الله ما طلبت اليهم * وأرجُ نفعَ المنزلِ العوادِ
لا تُثقل في الجواد ما ليس فيه * وتُسمي البخیل باسم الجوادِ

قال بشار : مَنْ هذا؟ فعرفه ، فقال : لولا أنَّ هذا الرجل قد شَغَلَ عنا بمدح بني هاشم لشغلنا ، ولو شاركنا في مذهبنا لتعبنا .

ومن قول السيد :

أتعرفُ رَسَمًا بالثَّوَيَيْنِ قد دَثُرَ * عَفَتُهُ أَهَاضِيبُ السَّحَابِ وَالْمَطَرُ
وَجَرَتْ بِهِ الْأَذْيَالُ رِيحَانِ حِلْفَةٍ * صَبَا وَدُبُورُ الْعَشِيَّاتِ وَالْبُكَرُ
مَنَازِلُ قَدْ كَانَتْ تَكُونُ بِجَوْهَا * هَضِيمُ الْحَشَى رِيَالُ الشَّوَى سَحَرُهَا النَّظَرُ
فَطُوفُ الْخُطَا نَحْصَانُهُ بِخَيْرَةٍ * كَانَتْ مُحِيَّاهَا سَنَا دَارَةِ الْقَمَرِ
رَمَتْنِي بَعِيدٍ بَعْدَ قُرْبٍ بِهَا النَّوَى * فَبَانَتْ وَلَمَّا أَفِضَ مِنْ عِبْدَةِ الْوَطَرِ
وَلَمَّا رَأَيْتِي خَشْيَةَ الْبَيْنِ مُوجَعًا * أَكْفَكُفُ مِنِّي أَدْمَعَا يَبِضْهَا دُرَرُ
أَشَارْتُ بِأَطْرَافٍ إِلَى وَدَمْعِهَا * كَنَظْمِ جُبَانِ خَانَةِ السَّلَكِ فَانْتَرُ
وَقَدْ كُنْتُ مِمَّا أَحْدَثَ الْبَيْنَ حَازِرًا * فَلَمْ يُغْنِ عَنِّي مِنْهُ خَوْفِي وَالْحَذَرُ

لما استقام الأمر لبني العباس قام السيد إلى أبي العباس السفاح حين نزل عن المنبر فقال :

دُونَكُمْوْهَا يَا بَنِي هَاشِمٍ * بِحُدُودِهَا مِنْ عَهْدِهَا الدَّارِسا
دُونَكُمْوْهَا لَا عِلَاقَةَ بَيْنَ * كَانَتْ عَلَيْكُمْ مَلِكُهَا نَافِيسَا
دُونَكُمْوْهَا فَالْبَسُوا تَاجَهَا * لَا تَعْدَمُوا مِنْكُمْ لَهُ لَابِيسَا
أَوْ خَيْرَ الْمَنْبَرِ فُرْسَانُهُ * مَا اخْتَارَ إِلَّا مِنْكُمْ فَارِيسَا
قَدْ سَاسَهَا قَبْلَكُمْ سَاسَةً * لَمْ يَتْرَكُوا رَطْبًا وَلَا يَابِيسَا
وَلَسْتُ مِنْ أَنْ تَمْلِكُوهَا إِلَى * مَهَبَّطِ عَيْسَى فَيَكُمُ آيِسَا

وبعث بهذه الأبيات إلى المهدي يسأله ألا يعطى آل بكر وعمر من مال الدولة :

قُلْ لِّأَبْنِ عَبَّاسٍ سَمِيَّ مُحَمَّدٍ * لَا تُعْطِينَ بَنِي عَدِيٍّ دَرَهْمَا
إِحْرِمْ بَنِي تَيْمٍ بِنِ مُرَّةٍ لِمَنْهُمْ * شَرَّ السَّبَرِيَّةِ آخِرًا وَمُقَدِّمًا
إِنْ تَعْطُهُمْ لَنْ يَشْكُرُوا لَكَ نِعْمَةً * وَيَكْفُرُونَكَ بِأَنْ تُدَمَّ وَتُسْتَمَّا
وَإِنْ أَتَمَّنْتَهُمْ أَوْ اسْتَعْمَاتَهُمْ * خَانُوكَ وَأَخَذُوا خَرَاجَكَ مَغْنَمًا
وَأَنْفَ مَنَعْتَهُمْ لَقَدْ بَدَأُواكُمْ * بِالْمَنْعِ إِذْ مَلَكُوا وَكَانُوا أَظْلَمَا
مَنْعُوا تُرَاثَ مُحَمَّدٍ أَعْمَامِهِ * وَبَيْتِهِ وَأَبْنَتَهُ عِدِيلَةَ مَرْيَمَا
وَتَأْمُرُوا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُسْتَخْلَفُوا * وَكَذَّبْتُمْ بِمَا فَعَلُوا هُنَاكَ مَاثِمَا
لَمْ يَشْكُرُوا لِمُحَمَّدٍ إِنْعَامَهُ * أَفَيُشْكِرُونَ لَغَيْرِهِ إِنْ أَنْعَمَا
وَإِنَّهُ مَنْ عَاقَبَهُمْ بِمُحَمَّدٍ * وَهَدَاهُمْ وَكَسَا الْجَنُوبَ وَأَطْعَمَا
يُحْمِ أَنْبَرُوا لَوْصِيَّهِ وَوَلِيِّهِ * بِالْمُنْكَرَاتِ بِفِرْعَوْنَ الْعَلَمَا

أنشد الشيخ جعفر بن محمد هذه الأبيات يذكر فيها قبر الحسين :

أَمُرُّ عَلَى جَدِّ الْحَسِيِّ * مِنْ فَقْلٍ لِأَعْظَمِهِ الزَّكِيِّ
أَعْظَمًا لَا زِلَّتْ مِنْ * وَطَفَاءَ سَاكِبَةِ رَوِيَّةِ
وَإِذَا مَرَرْتَ بِقَبْرِهِ * فَأَطْلُ بِهِ وَقَفَّ الْمَطِيَّةِ

وَأَبِكِ الْمُطَهَّرَ لُطْ * يَهْرُ الْمُطَهَّرَةِ النَّقِيَّةِ
كِبْكَاءَ مُنْوَلةٍ أَنْتِ * يوماً لواحدِها المنيَّةِ
فانحدرت دموعُ جعفر على خديهِ وارتفع الصراخُ والبكاءُ من دارهِ حتَّى أمره بالإمساكِ
فأمسك .

ومن قول السيد في إمامة ابن الحنفية :

أَلَا يَا أَيُّهَا الْجَدِيدُ الْمَعْنَى * لَنَا مَا نَحْنُ وَنَحْكَ وَالْعَنَاءُ
أَتَبَصِّرُ مَا تَقُولُ وَأَنْتَ كَهْلٌ * تَرَكَ عَلَيْكَ مِنْ وَرَيْعٍ رِذَاءُ
أَلَا إِنَّ الْأُئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ * وَلَاةُ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءُ
عَلَى وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْتِهِ ^(١) * هُمْ أَسْبَاطُهُ وَالْأَوْصِيَاءُ
فَأَنَّى فِي وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ * يَكُونُ الشُّكُّ مِنَّا وَالْمِرَاءُ
بِهِمْ أَوْصَاهُمْ وَدَعَا إِلَيْهِ * جَمِيعُ الْخَلْقِ لَوْ سَمِعَ الدُّعَاءُ
فَيَسْبِطُ سَبْطُ إِيْمَانٍ وَحِلْمٍ * وَسَبْطُ غَيْبَتِهِ كَرْبَلَاءُ
سَقَى جَدًّا تَضَمَّنَهُ مُلْكٌ * هَتَفُ الرِّعْدِ مُرْتَجِزٌ رَوَاءُ
تَظَلُّ مُظِلَّةٌ مِنْهَا عَزَالٍ ^(٢) * عَلَيْهِ وَتَغْتَدِي أُخْرَى مِلَاءُ
وَسَبْطٌ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى * يَقُودَ الْخَيْلَ يَقْدُمُهَا الْوَاءُ
مَنْ الْبَيْتِ الْمُحَجَّبِ فِي سُرَاةٍ * سُرَاةٍ لَفَ بَيْنَهُمُ الْإِخَاءُ
عَصَابُ لَيْسَ رَدُونَ أَغْرَ أَجَلٍ * بِمَكَّةَ قَائِمٌ لَهُمْ انْتِهَاءُ

وأنشد العتي قصيدته اللامية التي أولها :

هَلْ عِنْدَ مَنْ أَحْبَبْتَ تَنْوِيلُ * أَمْ لَا فَإِنَّ اللُّومَ تَضْلِيلُ
أَمْ فِي الْحَشَى مِنْكَ جَوَى بَاطِلُ * لَيْسَ تُدَاوِيهِ إِلَّا بَاطِلُ

(١) هم الحسن والحسين ومحمد . (٢) العزلاء : صلب الماء من الراية ونحوها ، ويقال : أنزلت

السما ، عزالها إشارة الى شدة وقوع المطر على التشبيه بمروله من أفواه المرادات . . .

عَلَيْتَ يَا مَعْرُورُ خَدَاعَةً * بِالْوَعْدِ مِنْهَا لَكَ تَحْيِيلُ
رِيًّا رَدَّاحَ النَّوْمِ نَحْمَصَانَهُ * كَأَنَّهَا أَدْمَاءُ عُطْبُولُ
يَسْفِيكَ مِنْهَا حِينَ تَحْلُو بِهَا * ضَمُّهُ إِلَى النُّحْرِ وَتَقْيِيلُ
وَذَوْقُ رِيْقٍ طَيِّبٍ طَعْمُهُ * كَأَنَّهُ بِالْمَسْكِ مَعْلُولُ
فِي نَسْوَةٍ مِثْلِ الْمَهَا تُخْرِدُ * تَضْيِيقُ عَيْنِ الْخَلَائِلِ

يقول فيها :

أُقْسِمُ بِاللَّهِ وَآلَائِهِ * وَالْمَرْءُ عَمَّا قَالَ مَسْئُولُ
إِنْ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ * عَلَى التَّقَى وَالْبَرِّ مَجْبُولُ

فقال : أحسن والله ما شاء ، هذا والله الشعر الذي يهجم على القلب بلا حجاب .

قيل للسيد : مالك لا تستعمل في شعرك من الغريب ما تُسأل عنه كما يفعل الشعراء ؟
قال : لأن أقول شعرا قريبا من القلوب يلذّه مَنْ سمعته ، خير من أن أقول شيئا معقدا
تضلّ فيه الأوهام .

تقدم السيد الى سوار القاضي ليشهد عنده ، فلم يرض به ، فقام مغضبا من مجلسه ،

وكتب رقعة يقول فيها :

يَا أَمِينَ اللَّهِ يَا مَنْ * صُورُ يَا خَيْرَ الْوَلَاةِ
إِنَّ سَوَّارَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ * مِنْ شَرِّ الْقُضَاةِ
نَعْنَلِيَّ جَمَلِيَّ * لَكُمْ غَيْرُ مَوَاتٍ
جَدُّهُ سَارِقُ عَتَرٍ * بِحُجْرَةٍ مِنْ بَحْرَاتٍ
لِرَسُولِ اللَّهِ وَالْقَا * ذِيهِ بِالْمُنْكَرَاتِ
وَأَبْنُ مَنْ كَانَ يُنَادِي * مِنْ وَرَاءِ الْحُجْرَاتِ
يَا هَنَاءُ أَنْخَرْجِ الْبِنَا * إِنَّا أَهْلُ هَنَاتٍ
مَدْحُنَا الْمَدْحُ وَهَنْ نَزْ * مِ يُصَبُّ بِالزَّفَرَاتِ
فَاكْفِينِيهِ لَا كِفَاهُ * اللَّهُ شَرُّ الطَّارِقَاتِ

قيل : فلما قرأها سوار وثب من مجاسه وقصد أبا جعفر المنصور، وهو يومئذ نازل بالحسرة، فسبقه السيد إليه فأنشده :

قل للإمام الذى يُنَجى بطاعته * يوم القيامة من بُحْبُوحَةِ النار
لا تَسْتَعِينُ وِجْزَاكَ اللهُ صَالِحَةً * يا خَيْرَ مَنْ دَبَّ فى حُكْمِ سَوار
لا تَسْتَعِينُ بِخَبِيثِ الرأى ذى صَافٍ * جَمَّ العيوبِ عَظِيمِ الكِبَرِ جَبَّارِ
يُضِيحِ الخِصُومَ لَدَيْهِ مِنْ تَجَبُّرِهِ * لا يَرْفَعُونَ إِلَيْهِ لَحْظَ أَبْصارِ
تِيهَا وَكِبَرًا وَلَوْلَا مَا رَفَعَتْ لَهُ * مِنْ ضَبْعِهِ كَانَ عَيْنَ الجَائِعِ العارى

ودخل سوار، فلما رآه المنصور تبسم وقال : أما بلغك خبر إياس بن معاوية حيث قبل شهادة الفرزدق واستتراد فى الشهود ؟ فأحوجك للتعرض للسيد ولسانه ! ثم أمر السيد بمصالحته .

دخل السيد على المهدي لما بايع لأبنيه موسى وهارون، فأنشأ يقول :

ما بَالُ تَجَرَّى دَمْعُكَ السَّاجِمِ * أَمِنْ قَدَى بَاتَ بِهَا لَازِمِ
أَمْ مِنْ هَوَى أَنْتَ لَهُ سَاهِرٌ * صَبَابَةٌ مِنْ قَلْبِكَ الهَائِمِ
آلَيْتُ لَا أَمْدَحُ ذَا نَائِلٍ * مِنْ مَعْشَرِ غَيْرِ بَنِي هَاشِمِ
أَوَّلِيْتُهُمْ عِنْدِي يَدَ الْمُصْطَفَى * ذَى الْفَضْلِ وَالْمَنْ أَبَى الْقَاسِمِ
فَإِنَّهَا بَيْضَاءُ مَحْمُودَةٌ * جَزَاؤُهَا الشُّكْرُ عَلَى الْعَالَمِ
جَزَاؤُهَا حِفْظُ أَبِي جَعْفَرٍ * خَلِيفَةِ الرَّحْمَنِ وَالْقَائِمِ
وِطَاعَةُ الْمَهْدِيِّ ثُمَّ أَبْنَاهُ * مُوسَى عَلَى ذَى الْإِزْبَةِ الْحَازِمِ
وَلِلرَّشِيدِ الرَّابِعِ الْمُرْتَضَى * مُقْتَرَضٌ مِنْ حَقِّهِ الْإِلَازِمِ
مُلْكُهُمْ نَحْسُونَ مَعْدُودَةٌ * بِرَغْمِ أَنْفِ الْحَاسِدِ الرَّاغِمِ
لَيْسَ عَلَيْنَا مَا بَقُوا غَيْرُهُمْ * فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ حَاكِمِ
حَتَّى يَرْدُّوَهَا إِلَى هَابِطٍ * عَلَيْهِ عَيْسَى مِنْهُمْ نَاجِمِ

ومن شعر السيد :

ما جرت خَظْرَةٌ على القلب مَنَى * فَبِكَ إِلَّا اسْتَتَرْتُ عَنْ أَصْحَابِي
من دموع تجرى فَإِنْ كُنْتُ وَحْدِي * خَالِيَا أَسْعَدْتُ دُمُوعِي انْتِحَابِي
إِنَّ حَبِّي إِيَّاكَ قَدْ سَلَّ جَسْمِي * وَرِمَانِي بِالشَّيْبِ قَبْلَ الشَّبَابِ
لَوْ مَنَحَتِ اللَّقَا شَفَى بِكَ صَبَا * هَائِمَ الْقَلْبِ قَدْ تَوَى فِي التَّرَابِ

ومما قاله في الحبس :

قِفْ بِالْديَارِ وَحْيًا يَا مَرْبُعُ * وَأَسْأَلُ وَكَيْفَ يُجِيبُ مَنْ لَا يَسْمَعُ
إِنَّ الدِّيَارَ خَلَتْ وَلَيْسَ بِجَوْهَا * إِلَّا الضَّوَائِحُ وَالْجَمَامُ الْوُقُوعُ
وَلَقَدْ تَكُونُ بِهَا أَوَانُسُ كَالدُّمَى * جُمْلٌ وَعِزَّةٌ وَالرَّبَابُ وَبَرَّوَعُ
حَبُورٌ نَوَاعِمُ لَا تُرَى فِي مِثْلِهَا * أَمْثَالُهُنَّ مِنَ الصَّيَانَةِ أَرْبَعُ
فَعَرِيْنٌ بَعْدَ تَأْلُفٍ وَتَجْمَعُ * وَالْدَّهْرُ صَاحٍ مُشْتَتٌّ مَا يَجْمَعُ
فَاسْلَمْ فَإِنَّكَ قَدْ نَزَلْتَ بِمَنْزِلٍ * عِنْدَ الْأَمِيرِ تَضَرَّرَ فِيهِ وَتَنْفَعُ
تُوْنِي هَوَاكَ إِذَا نَطَقْتَ بِحَاجَةٍ * فِيهِ وَتَشْفَعُ عِنْدَهُ فَتُشَقِّعُ
قُلْ لِلْأَمِيرِ إِذَا ظَفِرْتَ بِخَلْوَةٍ * مِنْهُ وَلَمْ يَكُ عِنْدَهُ مَنْ يَسْمَعُ
هَبْ لِي الَّذِي أَحْبَبْتُهُ فِي أَحْمَدٍ * وَبَنِيهِ إِنَّكَ حَاصِدٌ مَا تَزْرَعُ
يَخْتَصُّ آلُ مُحَمَّدٍ بِحُبَّةٍ * فِي الصَّدْرِ قَدْ طُوِيَتْ عَلَيْهَا الْأَضْلَعُ

وقال يهجو امرأة واريث موبير من خلانه ، وكانت تعذل زوجها على إسرافه :

أَقُولُ يَا لَيْتَ لَيْلِي فِي يَدَيْ حَنِيْقٍ * مِنْ الْعِذَاوَةِ مِنْ أَعْدَى أَعَادِيهَا
يَعْلُو بِهَا فَوْقَ رَعِيْنٍ ثُمَّ يُخْدِرُهَا ^(١) * فِي هُوَةٍ فَتَدَهْدِي يَوْمَهَا فِيهَا
أَوَّلَيْتَهُمَا فِي غِمَارِ الْبَحْرِ قَدْ عَصَفَتْ * فِيهِ الرِّيحُ فَهَاجَتْ مِنْ أَوَاذِيهَا ^(٢)

(١) الرعن : أنف يتقدم الجبل جمعه رعون ورماع . والجبل : الطويل ودهدى الحجر فتدهدى ، أى درجه فتدرج .
(٢) الأواذى : أمواج البحر مفردتها آذى .

أَوَلَيْتَهَا قَدَدَنْتَ يَوْمًا إِلَى فَرَسِي * قَدْ شَدَّ مِنْهُ إِلَى هَادِيهِ هَادِيهَا
حَتَّى يُرَى لِحْمُهَا مِنْ حُضْرِهِ زَيْمًا ^(١) * وَقَدْ أَقَى الْقَوْمَ بَعْدَ الْمَوْتِ نَاعِيهَا
فَمَنْ بَكَاهَا فَلَا جَفَّتْ مَدَامُعُهُ * لَا أُسَخِّنَ اللَّهُ إِلَّا عَيْنَ بَاكِهَا

وقيل : إن آخر قصيدة له هي قوله :

أَشَاقَتَكَ الْمَنَازِلُ بَعْدَ هِنْدٍ * وَتَرْبِيَهَا وَذَاتِ الدَّلِّ دَمْدَمٍ
مَنَازِلُ أَقْفَرَتْ مِنْهُمْ مَحْتٌ * مَعَالِمُهُنَّ مِنْ سَبِيلٍ وَرَعْدٍ
وَرِيحٌ حَرْجِفٌ تَسْتَنُّ فِيهَا * بِسَافَى التُّرْبِ تُلَحِّمُ مَا تُسَدِّى
أَلَمْ يَبْلُغْكَ وَالْأَنْبَاءُ تَتَمَّى * مَقَالُ مُحَمَّدٍ فِيمَا يُؤَدِّى
إِلَى ذِي عَلَيْهِ الْمَهَادَى عَلَى * وَخَوْلَةٌ خَادِمٍ فِي الْبَهْتِ تَرْدَى
أَلَمْ تَرَأْ خَوْلَةً سَوْفَ تَأْتَى * بَوَارَى الزَّيْدِ صَافِي الْحَلِيمِ تَجْدَى
يَفُوزُ بِكُنْيَتِي وَأَسْمَى لَأْتَى * نَحَاتُهُمَا هُوَ الْمَهَادَى بَعْدَى
يَغِيبُ عَنْهُمْ حَتَّى يَقُولُوا * تَضَمَّنَهُ يَطْيِيَّةٌ بِطَرْنٍ لَحْدِ
سَنِينَ وَأَثْمَرًا وَيُرَى بَرَضَوَى * بِشَعْبٍ بَيْنَ أَنْمَارٍ وَأُسْدِ
مَقِيمٌ بَيْنَ آرَامٍ وَعَيْنٍ * وَحَقَائِبُ تَرْوَحُ خِلَالِ رُبْدِ ^(٢)
تُرَاعِيهَا السَّبَاعُ وَلَيْسَ مِنْهَا * مُلَاقِيهِنَّ مُفْتَرِسًا بِحَدِّ
أَمِنْ بِهِ الرَّدَى فَرَتْنٌ طَوْرًا * بَلَا خَوْفٍ لَدَى مَرَعَى وَوَرْدِ
حَلَفْتُ بِرَبِّ مَكَّةَ وَالْمُصَلَّى * وَبَيْتِ طَاهِرِ الْأَرْكَانِ فَرْدِ
يَطُوفُ بِهِ الْحَجَّاجُ وَكُلُّ حَامٍ * يَحِيلُ لَدَيْهِ وَقَدْ بَعْدَ وَقْدِ
لَقَدْ كَانَ ابْنُ خَوْلَةٍ غَيْرِ شَكٍّ * صَفَاءَ وَلَا يَتَّى وَخُلُوصَ وَدَى
فَمَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ فِيمَا * أَسْرُّ وَمَا أَبُوحُ بِهِ وَأُبْلَى
سَوَى ذِي الْوَحَى أَحَدًا أَوْ عَلَى * وَلَا أَزْكَى وَأَطْيَبَ مِنْهُ عِنْدَى

(١) الزيم : المنفرد من اللحم . (٢) الحفان : صغار النعام .

وَمَنْ ذَا يَأْنِ خَوْلَةٌ إِذْ رَمْتَنِي * بِأَسْهَمِهَا الْمَنِيَّةُ حِينَ وَعْدِي
يُدَبِّبُ عَنْكُمْ وَيُسَدِّدُ مَا * تَسَلَّمُ مِنْ حَصُونِكُمْ كَسَدِي
وَمَا لِي أَنْ أَمُرَّ بِهِ وَلَكِنْ * أُؤَمِّلُ أَنْ يُؤَخَّرَ يَوْمُ فَقْدِي
فَأُدْرِكَ دَوْلَةً لَكَ لَسْتُ فِيهَا * بِجَبَّارٍ فَتُوصَفَ بِالْتَّعَدِي
عَلَى قَوْمٍ بَغَوْا فِيكُمْ عَلَيْنَا * لَتُعَدِّي مِنْكُمْ يَا خَيْرَ مُعَدٍ
لَتَعْمَلُ بِنَا عَلَيْهِمْ حَيْثُ كَانُوا * بِقَوَائِمٍ تَهَامَّةٍ أَوْ يَنْجِدُ
إِذَا مَا نَسَرَّتْ مِنْ بَلَدٍ حَرَامٍ * إِلَى مَنْ بِالْمَدِينَةِ مِنْ مَعَدٍ
وَمَاذَا عَزُّهُمْ وَالْخَيْرُ مِنْهُمْ * بِأَشْوَسَ أَغْصَلَ الْأَنْيَابَ وَرَدُ
وَأَنْتَ لِمَنْ بَغَى وَعَدَا وَأَذْكِي * عَلَيْكَ الْحَرْبَ وَأَسْتَرْدَاكَ مُرْدُ

٨ - سلم بن عمرو الخاسر^(١)

كان منقطعاً الى البرامكة الى الفضل بن يحيى خصوصاً من بينهم ، وفيه يقول أبو العتاهية :

إنما الفضل لسلم وحده * ليس فيه سوى سلم ذرك

وكان هذا أحد الأسباب الى فساد ما بينه وبين أبي العتاهية ، وسلم يقول أبو العتاهية وقد حجَّ مع عُتبة :

والله والله ما أبالي متى * ما مت يا سلم بعد ذا السفر
أليس قد طُفْتُ حيث طافت وقبـ * لت الذي قبلت من الحجير

وله يقول أبو العتاهية وقد حُسِّس إبراهيم الموصلي :

سَلَمُ يا سَلَمُ ليس دونك سر * حُسِّس الموصلي فإلعبش مر
ما استطاب اللذات ، مُدسكن المَطـ * بَقِ رأس اللذات والله ، حر
ترك الموصلي من خلق الله * مه جميعاً وعيشهم مُقشعر

(١) هو سلم (و يقال سالم) بن عمرو أحد موالى أبي بكر الصديق ، نشأ في البصرة ، وكان شاعراً مطبوعاً منصرفاً في فنون الشعر ، وكان متظاهراً بالخلاعة والعسوق والمجون ، وزاد شاعرية وتمرساً بالشعر على يد بشار ، لأنه كان راوياً عنه وتلميذه ، أخذ عنه واغترف من بحره ونسج على منواله ، وكثيراً ما كان يأخذ أقواله فيسلخها ويمسخها كما مسخ هذا البيت :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته * وفاز بالطيبات الفاتك اللهح

بجمعله :

من راقب الناس مات غمًا * وفاز باللذة الجسور

فبلغ بيته بشاراً فغضب وأقسم ألا يدخل عليه ولا يفيدته طادام حياً ، فاستشفع اليه بكل صديق حتى رضى ووبخه وقلعه بمخصرة كانت بيده . وكان صديقاً لابراهيم الموصلي المغنى المشهور ولأبي العتاهية . وكان يمدح البرامكة وخصوصاً الفضل بن يحيى . توفي سنة ١٨٦ هـ . وتجد ترجمته في الأغانى ح ٢١ ص ١١٠ وابن خلكان ج ١ ص ١٩٨ .

لما قال بشار قصيدته الميمية في عمر بن العلاء وهي التي يقول فيها :
 اذا نهيتك صعب الأمور * فنبه لها عمرا ثم نمت
 فقي لا يبيت على دمنية^(١) * ولا يشرب الماء إلا بدم

بحث بها مع سلم الى عمر بن العلاء، فوافاه، فأنشده إياها، فأمر لبشار بمائة ألف درهم،
 فقال له سلم : ان خادمك — يعني نفسه — قد قال في طريقه فيك قصيدة؛ قال : فإنك
 طناك ! قال : تسمع ثم تحكم؛ قال : هات، فأنشده :

قد عزني الداء فما لي دواء * مما ألقى من حسان النساء
 قلب صحيح كنت أسطوبه * أصبح من سلمى بداء عياء
 أنفاسها منك وفي طرفها * سحر وما لي غيرها من دواء
 وعدتني وعدا فأوفي به * هل تصلح الخمر إلا بماء

ويقول فيها :

كم كربة قد مسني ضرها * ناديت فيها عمر بن العلاء
 فأمر له بعشرة آلاف درهم، فكانت أول عطية سنية وصلت إليه .

ومن قوله يرثي بأقونة بنت المهدي :

أودى بأقونة ريب الزمان * مؤنسة المهدي والخيزران
 لم تَطو الأرض على مثلها * مولودة حن لها الوالدان
 بأقون يا بنت إمام الهدى * أصبحت من زينة أهل الحنان
 بكت لك الأرض وسكانها * في كل أفق بين مانس وجان

دخل سلم على الفضل بن يحيى في يوم تيزو والهدايا بين يديه، فأنشد :

أمن ربح تسائله * وقد أقوت منازل
 بقلبي من هوى الأطلا * حب ما يرزله

رَوَيْدُكُمْ عَنِ الْمَشْعُو * فِي إِنْ الْحَبِّ قَاتِلُهُ
بَلَّابِلُ صَدْرِهِ تَسْرِي * وَقَدْ نَامَتْ عَوَازِلُهُ
أَحَقُّ النَّاسِ بِالتَّفْضِي * لِمَنْ مِنْ تَرْجَى فَوَاضِلُهُ
رَأَيْتُ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ * قَدْ مَا صَمَّتْ حَمَائِلُهُ
فَلَسْتُ أَرَى قَتَى فِي النَّاسِ * سِوَا الْفَضْلِ فَاضِلُهُ
يَقُولُ لِسَانُهُ خَيْرًا * فَتَنْفَعْلُهُ أَنَا مَلِكُهُ
وَمَهْمَا يُرْجَى مِنْ خَيْرٍ * فَإِنْ الْفَضْلَ فَاعِلُهُ

وكان إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق حاضرين، فقال لإبراهيم: كيف ترى وتسمع؟ قال: أحسن مرئي ومسموع، وفضل الأمير أكثر منه؛ فقال: خذوا جميع ما أهدى إلى اليوم فاقسموه بينكم أثلاثاً إلا ذلك التمثال، فإني أريد أن أهديه اليوم إلى دنانير؛ ثم قال: لا والله ما هكذا تفعل الأحرار، يقوم ويدفع إليهم ثمته ثم يهديه، فيقوم بألفى دينار، فحملها إلى القوم من بيت ماله واقتسموا جميع الهدايا بينهم.

كان المهدي يعطي مروان وسأماً الخاسر عطية واحدة، فكان سلم يأتي باب المهدي على البرذون القاري، قيمته عشرة آلاف درهم بئرج ولحام مفضضين، ولباسه الخنز والوشى وما أسببه ذلك من الثياب الغالية الأثمان، ورائحة المسك والطيب والغالية تفوح منه، ويحيى مروان بن أبي حفصة عليه فروج^(١) وفيص^(٢) كرايس وعمامة كرايس^(٣) وخفابيل وكساء غليظ، وهو مئنت الرائحة، وكان لا يأكل اللحم حتى يفرم إليه بخلاً، فإذا قرم أرسل غلامه فاشترى له رأساً فأكله، فقال له قائل: أراك لا تأكل إلا الرأس، قال: نعم أعرف سعره فآمن خيانة الغلام ولا اشتري لحمًا فيطبخه فيأكل منه، والرأس آكل منه ألواناً: آكل من عينيهِ لوناً ومن خلصمته لوناً ومن دماغه لوناً^(٤).

(١) قصير. (٢) الكرايس: جمع كراس وهو القطن. (٣) أى خما فر كثير الصوف

غليظه. (٤). الفلصة: أصل اللسان.

كان سلم قد بُني بالكيمياء؛ فكان يذهب بكل شيء له باطلاً، فلما أراد الله عز وجل أن يصنع له عرف أن باب الشام صاحب كيمياء عجيباً، وأنه لا يصل إليه أحد إلا ليلاً، فسأل عنه، فدُلَّوه عليه . قال : فدخلت إليه الى موضع معور^(١)، فدفقت الباب فخرج إلى، فقال : من أنت عافاك الله؟ فقلت : رجل معجب بهذا العلم؛ قال : فلا تشهرنى فإنى رجل مستور إنما أعمل الفوت، قلت : إني لا أشهرك إنما أقتبس منك، قال : فاكتم ذلك، وبين يديه كوز شبه صغير^(٢)، فقال لى : اقلع عروته، فقلعتها، فقال : اسبكها فى البوتقة^(٣)، فسبكناها، فأخرج شيئاً من تحت مصلاه فقال : دَرَّه عليه، ففعلت، فقال : أفرغه، فأفرغته، فقال : دعه معك، فاذا أصبحت فأخرج فيعه وعُدْ إلى، فأخرجته الى باب الشام فبعث المتقال بأحد وعشرين درهماً ورجعت إليه فأخبرته، فقال : اطلب الآن ما شئت؛ قلت : تفيدينى؟ قال : بخمسة درهم على ألا تعلمه أحداً، فأعطيته وكتب لى صفة فامتحنها فاذا هى باطلة، فعدت إليه، فقبل لى : قد تحول وإذا عروة الكوز الشبه من ذهب مركبة عليه، والكوز شبه، ولذلك كان يدخل إليه من يطلبه ليلاً ليخفى عليه، فانصرفت وعلمت أن الله عز وجل أراد بى خيراً وأن هذا كله باطل .

قال أبو المستهل : دخلت يوماً على سلم وإذا بين يديه قراطيس فيها أشعار يرثى ببعضها أم جعفر، وبعضها جارية غير مسماة، وبعضها أقواماً لم يموتوا، وأم جعفر يومئذ باقية؛ فقلت له : ويحك ما هذا؟ فقال : تحدث الحوادث فيطالبونا بأن نقول فيما يستعجلوننا ولا يتجمل بنا أن نقول غير الجيد، فنعد لهم هذا قبل كونه، فمضى حدث حدث أظهرنا ما قلناه فيه قديماً على أنه قيل فى الوقت .

دخل سلم على الرشيد فأنشده : * حَىَّ الأَحَبَّةَ بِالسَّلام * فقال الرشيد : حياهم الله بالسَّلام؛ فقال سلم : * أَعْلَى وَدَائِعِ أُمِّ مَقَام * فقال الرشيد : حياهم الله على أى ذلك كان، فأنشده :

لم يبق منك ومنهم * غير الجلود على العظام

(١) معور : مخوف . (٢) الشبه : النحاس الأصفر . (٣) البوتقة : الوعاء الذى يذيب فيه الصائغ .

فقال له الرشيد : بَلْ مِنْكَ ، وأمر بإخراجه ، وتطير منه ومن قوله ، فلم يسمع منه باقى الشعر ولا أثابه بشيء .

استوهب استحقاق الموصلى من الرشيد تركته سلم ، وكان قد مات عن غير وارث ، فوهبها له قبل أن يتسلمها صاحبُ الموارث ، فحصل منها على خمسين ألف دينار ، وروى أنه رفع الى الرشيد أن سلمها قد توفى وخلف مما أخذته منه خاصة ومن زبيدة ألف ألف وخمسمائة ألف درهم سوى ما خلفه من عقار وغيره مما اعتقده قديماً ، فقهره الرشيد وتظلم اليه مواليه من آل أبى بكر الصديق رضوان الله عليه ، فقال : هذا خادمى ونديمى ، والذي خلفه من مالى فأنا أحق به ، فلم يعطهم إلا شيئاً يسيراً من قديم أملاكه .

(١) املكه .

٩ - ربيعة الرقي^(١)

كان منقطعاً عن الحضارة ، بعيداً عن مجالسة الخلفاء ، فأُحيل ذِكْرُه بسبب ذلك ؛ لكنهم كانوا يستقدمونه اليهم . وأول من فعل ذلك المهدي ، فدحه ونال جوائزه ؛ وكان ابن المعتز يرى ربيعة أشعر غزلاً من أبي نواس ، لأن في غزل أبي نواس برذاً كثيراً ، وغزل هذا سليمٌ عذب سهل ، ولذلك فإن شهرته بلغت إلى بلاط الخليفة . وكان يمدح غير الخلفاء وينال جوائزهم ويعود إلى بلده ، وإن قصر أحد في إعطائه هجاء ، وله في ذلك حديث مع العباس بن محمد بن علي من أمراء بني العباس .

ومن قوله يمدح يزيد بن حاتم المهلي ويهجو يزيد بن أسيد السلمي :

حلفت يميناً غير ذي مثنوية^(٢) * يمين امرئ آلى بها غير آثم
لشئان ما بين اليزيديين في الندى * يزيد سليم والأغر ابن حاتم
يزيد سليم سالم المال ، والفتى * أخو الأزدي للأموال غير مسلم
فهم الفتى الأزدي لثلاث ماله * وهم الفتى القيسي جمع الدراهم
فلا يحسب التتمائم أتى هجوت^(٣) * ولكنني فضلت أهل المكارم

قال رجل لبيعة : يا أبا أسامة ، ما حملك على أن هجوت رجلاً من قومك وفضلت عليه رجلاً من الأزد؟ فقال : أخبرك ، أملت فلم يبق لي إلا داري ، فرهنتها على خمسمائة درهم ، ورحلت إليه إلى أرمينية ، فأعلمته بمكاني ومدحتي ، وأقمت عنده حولا ، فوهب لي

(١) هو أبو أسامة ربيعة بن ثابت من موالى سليم ، ويكنى أبا شبابة ، وكان ينزل الرقة ، وبها مولده ومنشؤه ، فأشخصه المهدي إليه ، فدحه بعدة قصائد وأثابه عليها ثواباً كبيراً ، وهو من المكثريين المحبسين ، وكان ضريراً وإنما أُحيل ذكره وأسقطه عن طبقته بعده عن العراق وتركه خدمة الخلفاء ، وبحالطة الشعراء ومع ذلك فاعدم مفضلاً مقدماً له . وتجده أخباره في الأغاني (ج ١٥ ص ٣٨) ونزاعة الأدب للبغدادي (ح ٣ ص ٥٥) .

(٢) أى لا استثناء فيها .

(٣) هو يزيد بن أسيد (بضم الهمزة) من بهتة بن سليم ، وأخو الأزدي هو يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب .

نسمائة درهم ، فتحملت وصرت بها الى منزلي ، فلم يبق معي كبير شيء ، فنزلت في دار يركاء ، فقلت : لو أتيت يزيد بن حاتم ، ثم قلت : هذا ابن عمي فعل بي هذا الفعل فكيف بغيره ! ثم حملت نفسي على أن آتيه ، فأعلم بمكاني ، فتركني أشبرا حتى صخرت ، فأكرت نفسي من الجمالين . وكتبت بيتاً في رقعة فلقيته في دهبيره ، والبيت :

أَرَانِي وَلَا كُفْرَانَ لِلَّهِ رَاجِعًا * بِحُفْنِي حُفْنِي مِنْ يَزِيدِ بْنِ حَاتِمٍ

فوقعت الرقعة في يد حاجبه ، فأوصلها اليه من غير علمي ولا أمرى ، فبعث خافئ ، فلما دخلت عليه قال : هيه أنشدني ما قلت ، فتمنعت ، فقال : والله لنؤشددني ، فأنشدته ، فقال : والله لا ترجع كذلك ، ثم قال : أنزعوا حقيبه ، فنزعاً فخشاها دناير وأمر لي بغلمان وجوار وكسي ، ألا ترى لي أن أمدح هذا وأهجو ذاك ؟ قلت : بلى والله ، وسار شعري حتى بلغ المهدي ، فكان سبب دخولي اليه .

قيل لأبي زيد النحوي : إن الأصمعي قال : لا يقال شتان ما بينهما ، وإنما يقال : شتان ما هما ، وأنشد قول الأعشى : * شتان ما يؤمى على كورها * فقال : كذب الأصمعي ، يقال : شتان ما هما وشتان ما بينهما ، وأنشد لربيعه الرقي : « لشتان ما بين اليزيدين » وفي آستشهاد مثل أبي زيد على دفع قول مثل الأصمعي بشعر ربيعة كفاية له في تفضيله . أمتدح ربيعة العباس بن محمد بن علي بقصيدة لم يسبق إليها حسناً ، وهي طويلة ، يقول فيها :

لو قيل للعباس يابن محمد * قل « لا » وأنت تحلد ما قالها

ما إن أعد من المكارم خصلة * إلا وجدتك عمها أو خالها

وإذا الملوك تسايروا في بلدة * كانوا كواكبها وكنتم هلالها

إن المكارم لم تزل معقولة * حتى حلت براحتك عقلاها

فبعث اليه بدينارين ، وكان يُقدَّر فيه ألفين ، فلما نظر الى الدينارين كاد يُجنَّ غيظاً وقال للرسول : خذ هذين الدينارين فهما لك على أن ترد الرقعة الي من حيث لا يدري العباس ، ففعل الرسول ذلك ، فأخذها ربيعة وأمر من كتب في ظهرها :

مدحتك مدحة السيف المحلّي * لتجري في الكرام كما جريت
فهبها مدحة ذهب ضياء * كذبت عليك فيها وأفريت
فأنت المرء ليس له وفاء * كأني إن مدحتك قد زليت

ثم دفعها الى الرسول وقال : ضعتها في الموضع الذي أخذتها منه ، فردّها الرسول ؛ فلما كان من الغد أخذها العباس فنظر فيها ، فلما قرأ الأبيات غضب وقام من وقته فركب إلى الرشيد ، وكان أميراً عنده يُجَلِّه ويقدمه ، وكان قد همّ أن يخطب إليه آلبته ، فرأى الكراهة في وجهه ، فقال : ما شأنك ؟ فقال : هجاني ربعة الرقي ، فأحضر ، فقال له الرشيد : تهجو عمي وآثر الخلق عندي ؟ لقد هممت أن أضرب عنقك ، فقال : والله يا أمير المؤمنين لقد مدحتك بقصيدة ما قال مثلها أحد من الشعراء في أحد من الخلفاء ، ولقد بالغت في الثناء وأكثر في الوصف ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمره بإحضارها ! فلما سمع الرشيد ذلك منه سكن غضبه وأحب أن ينظر الى القصيدة ، فأمر العباس بإحضار الرقعة ، فتلكأ عليه العباس ، فقال له الرشيد : سألتك بحق أمير المؤمنين ألا أمرت بإحضارها ، فعلم العباس أنه قد أخطأ وغلط ، فأمر بإحضارها ، فأحضرت ، فأخذها الرشيد وإذا فيها القصيدة بعينها ، فاستحسنها واستجادها وأعجب بها وقال : والله ما قال أحد من الشعراء في أحد من الخلفاء مثلها ، لقد صدق ربعة وبر ، ثم قال للعباس : يم أثبتته عليها ؟ فسكت العباس وتغير لونه وجرى بريقه ، فقال ربعة : أثابني عليها يا أمير المؤمنين بدينارين ، فتوهم الرشيد أنه قال ذلك من المودة على العباس ، فقال : بجياتي يا رقي بك أثابك ؟ قال : وحياتك يا أمير المؤمنين ما أثابني عليها إلا بدينارين ، فغضب الرشيد غضباً شديداً ونظر في وجه العباس وقال : سوءة لك ! أي حال قعدت بك عن إثابته ؟ الأموال ؟ فوالله لقد مؤلّك جهدي ، أم أنقطع المادّة عنك ؟ فوالله ما آتت طعنت ، أم أصلك ؟ فهو الأصل لا يُدانيه شيء ، أم نفّسك فعلت ذلك بك حتى فضحت آباءك وأجدادك وفضحتني

(١) أنيرا : مكرّما . (٢) جرض بريقه : ابتلعه بالجهل على هم وحن .

وَنَفْسِكَ ؟ فَتَنَكَّسَ الْعَبَّاسُ رَأْسَهُ وَلَمْ يَنْطِقْ ، فَقَالَ الرَّشِيدُ : يَا غَلَامُ ، أُعْطِ رُبْعَةَ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَخِلْعَةً وَأَحْمِلْهُ عَلَى بَغْلَةٍ ، فَلَمَّا حُمِلَ الْمَسْأَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالْأَيْسَ الْخُلْعَةُ قَالَ : بِحَيَاتِي يَارُقٍ لَا تَذْكُرْهُ فِي شِعْرِكَ لَا تَعْرِضْهُ وَلَا تَصْرِيحًا ، وَقَرَّرَ الرَّشِيدُ عَمَّا كَانَ هَمُّهُ بِهِ أَنْ يَتَرَوَّجَ إِلَيْهِ ، وَظَهَرَ لَهُ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ جَفَاءٌ كَثِيرٌ وَأَطْرَاحٌ لَهُ .

قال أبو بشر : كُنْتُ حَاضِرًا رُبْعَةَ الرِّقَى يَوْمًا وَجَاءَتْهُ أَمْرَأَةٌ فَقَالَتْ : تَقُولُ لَكَ فُلَانَةٌ إِنْ بَنَتْ مَوْلَايَ مَحْمُومَةً فَإِنْ كُنْتَ تَعْرِفُ لَهَا عَوْدَةً فَأَفْعَلْ ، فَقَالَ أَكُنْتُ لَهَا أَبَا بَشْرٍ هَذِهِ الْعَوْدَةُ :

تَقُولُوا تَقُولُوا بِاسْمِ إلهِي الَّذِي * لَا يَعْزِضُ السُّقْمَ لِمَنْ قَدْ شَفَى
أَعْيَدُ مَوْلَاتِي وَمَوْلَاتَهَا * وَأَبْنَتْهَا بِعَوْدَةِ الْمُضْطَفَى
مَنْ شَرٌّ مَا يَعْزِضُ مِنْ عِلَّةٍ * فِي الصَّبْحِ وَاللَّيْلِ إِذَا أَسْدَفَا
فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَبَا ثَابِتَ ، لَسْتُ أَحْسِنُ أَنْ أَكْتُبَ تَقُولُوا تَقُولُوا ، فَكَيْفَ أَكْتُبُهَا ؟ قَالَ
أَنْضَحُ الْمِدَادَ مِنْ رَأْسِ الْقَلَمِ فِي مَوْضِعَيْنِ حَتَّى يَكُونَ كَالنَّفْثِ^(٢) ، وَأَدْفَعُ الْعَوْدَةَ إِلَيْهَا فَلِئَلَّا
نَافِعَةٌ ، فَفَعَلْتُ وَدَفَعْتُهَا إِلَيْهَا ، فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ جَاءَتْ الْجَارِيَةُ وَهِيَ لَا تَتَمَلَّكَ صَحْكًَا ، فَقَالَتْ لَهُ :
يَا مَجْنُونُ مَا فَعَلْتَ بِنَا ! كِدْنَا نَفْتَضِحُ بِمَا صَنَعْتَ ! قَالَ : فَمَا أَصْنَعُ ! أَشَاعِرُ أَنَا أَمْ صَاحِبُ
تَعَاوِيذٍ ! .

وَأَتَّفَقَ لِلرَّقَى أَيْضًا مِثْلُ ذَلِكَ مَعَ مَعْنٍ بْنِ زَائِدَةَ ، وَقَدْ لَقِيَهِ فِي بَعْضِ قَدَمَاتِهِ إِلَى الْعِرَاقِ ،
فَدَحَاهُ ، فَلَمْ يَهْشَ لَهُ ، فَهَجَّاهُ بِقَصِيدَةٍ مَطْلُوعَةٍ :

مَعْنُ يَا مَعْنُ يَا بَنَ زَائِدَةَ الْكَلْبِ الَّذِي فِي الذَّرَاعِ لَا فِي الْبَنَانِ
لَا تُفَانِرْ إِذَا نَفَخْتَ بَابَا * إِنَّكَ وَأَنْفَرُ بَعْمَكَ الْخَوْفَزَانِ^(٣)

(١) العودَة : الرقية يرقى بها الإنسان من فزع أو جنون أو مرض . (٢) النفث الصاق اليسير ينفضه

الراقى في العقدة عند الرقية .

(٣) الخوفزان هو الحسار بن شريك الشيباني ، سمي بذلك لأن قيس بن عاصم التميمي حفزه بالرح حين خاف

أن يفوته ، وقد نخر بذلك سوار بن حبان المنقري فقال :

ونحن حفزنا الخوفزان بطعنة * سقته نجوما من دم الجوف أشكالاً

ومن غَزَلِه أبياتٌ يُعْنَى بها، وهى :
 وَتَزْعُمُ أَنِّي قَدْ تَبَدَّلْتُ خُلَّةً^(١) * سِوَاهَا وَهَذَا الْبَاطِلُ الْمُتَقَوِّلُ
 لِحَا اللَّهِ مِنْ بَاعِ الصَّدِيقِ بغيره * فَقَالَتْ نَعَمْ حَاشَاكَ إِنْ تَكُ تَفْعَلُ
 سَتَصِيرُ إِنْسَانًا إِذَا مَا صَرَمْتَنِي * بِحَبِّكَ فَأَنْظُرْ بَعْدَهُ مِنْ تَبَدَّلْ

(١) الخلة : الخلية .

١٠ - الرقاشى^(١)

كان سَهْلَ الشعر مطبوعاً ، وكان مُنْقَطِعاً إلى آلِ بَرَمَك ، مُسْتَفْتِياً بهم عن سواهم ،
وكانوا يَصُولُونَ به على الشعراء ، وَيُرَوُّونَ أولادهم أشعاره ، وَيُدُونُونَهَا القليل والكثير منها ،
تَعَصُّباً له ، وَحِفْظاً لخدمته ، وَتَنَوُّيهاً باسمه ، وَتَحْرِيكاً للنشاطه ، لَحَفِظَ ذلك لهم . فلما نُكِبُوا
صار إليهم فى حُبْسِهِمْ ، فأقام معهم مَدَّةَ أيامهم يُنْشِدُهُمْ وَيُسَامِرُهُمْ حتى ماتوا ، ثم رثاهم
فأكثر من رثائهم ؛ فمن ذلك قوله فى جعفر :

كَمْ هَاتِفٍ بِكَ مِنْ بَالِكَ وَبَاكِيَةٍ * يَا طِيبَ اللَّضِيفِ إِذْ تُدْعَى وَلِلْجَارِ
إِنْ يُعَدَّمُ الْقَطْرُ كُنْتَ الْمُنَزَّ بَارِقُهُ * لَمَعَ الدَّانِيرُ لَا مَا خَيْلُ السَّارِ

وقوله :

لَعَمْرُكَ مَا بِالْمَوْتِ عَارٌّ عَلَى الْفَتَى * إِذَا لَمْ تُصْبِهِ فِي الْحَيَاةِ الْمَعَارِ^(٢)
وَمَا أَحَدٌ حَىٍّ وَإِنْ كَانَ سَالِمًا * بِأَسْلَمَ مِمَّا غَيَّبَتْهُ الْمَقَابِرُ
وَمَنْ كَانَ مِمَّا يُحْدِثُ الدَّهْرُ جَارِعًا * فَلَا بَدَّ يَوْمًا أَنْ يُرَى وَهُوَ صَابِرُ
وَلَيْسَ لَدَى عَيْشٍ عَنِ الْمَوْتِ مُقَصِّرٌ * وَلَيْسَ عَلَى الْإَيَّامِ وَالْدَّهْرِ غَايِرُ
وَكُلُّ شَبَابٍ أَوْ جَدِيدٍ إِلَى الْبَلَى * وَكُلُّ أَمْرٍ يَوْمًا إِلَى اللَّهِ صَائِرُ
فَلَا يُبْعِدُنكَ اللَّهُ عَنِّي جَعْفَرَا * يَرْوِحِي وَلَوْ دَارَتْ عَلَى الدَّوَابِرُ
فَأَلَيْتُ لَا أَنْفُكَ أَبْجِكَ مَا دَعَتْ * عَلَى فَنَنِ وَرَقَاءُ أَوْ طَارَ طَائِرُ

ومن ذلك قوله لما صُلِبَ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى وَاجْتَازَ بِهِ الرِّقَاقُ ٣ وهو مصلوبٌ على

الْخُذْعِ ، فَوَقَفَ يَبْكِي ثُمَّ قَالَ :

(١) هو الفضل بن عبد الصمد مولى رقاش ، وهو من أهل البصرة . توفى سنة ٢٠٠ هـ . وتجد ترجمته

فى الأغاني (ج ١٥ ص ٣٥) ووفيات الوفيات (ج ٢ ص ١٢٥) والشعر والشعراء (ص ٥١٥) .

(٢) المعايير : المعايير .

أما والله لولا خوف وإش * وعين الخليفة لا تنام
لطفنا حول جذعك وأسئلنا * كما للناس بالبحر أسئلنا
فما أبصرت قبلك يابن يحيى * حساماً حتفه السيف الحسام
على اللذات والدنيا جميعاً * ودولة آل برمك السلام

فكتب أهل الأخبار بذلك إلى الرشيد، فأحضره فقال : ما حملك على ما قلت ؟ فقال :
يا أمير المؤمنين كان لي محسنًا ، فلما رأيته على الحال التي هو عليها حرّكني إحسانه فما ملكت
نفسى حتى قلت الذى قلته ؛ قال : ولم كان يُجرى عليك ؟ قال : ألف دينار في كلّ سنة ،
قال : إنا قد أضعفناها لك .

ومن قوله يصف جارية :

صفت وحسن أورنا القلب لوعة * تضرّم في أحشاء قلب ميم
ثمّسّ لها نفسى ابني فأنثنى * عليها بطرف الناظر المتيم
يجملي حبي لها فوق طاقى * من الشوق دأب الحائر المتقسم

١١ - أبو العتاهية^(١)

قال أحمد بن زهير : سمعت مصعب بن عبد الله يقول : أبو العتاهية أشعر الناس ،

فقلت له : بأى شيء أستحق ذلك عندك ؟ فقال بقوله :

تعلقت بآمال * طوالى أى آمال

وأقبلت على الدنيا * ملأها أى إقبال

أيا هذا تجهز * فراق الأهل والمال

فلا بد من الموت * على حال من الحال

ثم قال مصعب : هذا كلام سهل حق لا حشو فيه ولا نقصان ، يعرفه العاقل ويقر به

الجاهل . وكان الأصمعى يستحسن قوله :

(١) هو أبو إسحاق اسماعيل بن القاسم بن سويد ، أطبع أهل زمانه شعرا وأكثرهم قولاً وأسبغهم لفظاً ، وأسرعهم بديهة وأرتجالاً ، وأول من فتح للشعراء باب الوعظ والزهد في الدنيا والنهي عن الاعتزاز بها ، وأكثر من الحكمة .

ولد بعين الترسنة ١٣٠ هـ ونشأ بالكوفة في عمل أهله . وكانوا باعة جرار ، إلا أنه ربا بنفسه عن عمله وقال الشعر في صباه وامتزج بلحمه ودمه حتى صار كما قال هو عن نفسه «لوشئت أن أجعل كلامي كله شعرا لفعلت» فذاع صيته وسلك طريق خلعا الكوفة . ثم قدم بغداد وندح المهدي وتعرف ببعض خدم قصر الخلافة وجواريه فتعشق منهن فتاة تدعى عتبة ، ولما يئس منها لها عنها بعض الشيء ، ودرس كثيرا من مذاهب المتكلمين والشيعية والجبورية والزهاد فكان يسلك كل مذهب منها مدة ثم ينتقل عنه إلى الآخر حتى اختار له من كل ذلك عقيدة مختلطة أفضت به إلى العبادة والزهد في الدنيا قولاً ومعيشة على إفراط منه في حب المال واجمع له واليحل به على الأهل والولد والخدم .

ولم يأت عصر الرشد حتى أضرب عن الغزل وقصر قوله على الزهد في الدنيا والتذكير بالموت وأهواله ، وهو في خلال ذلك يمدح الخليفة وملوك الدولة يأخذ جوائزهم ، ثم عرضت له حال امتنع فيها عن قول الشعر البتة حتى حبسه الرشيد لعدم تلبية ما اقترحه عليه من القول فيه ثم أطلقه بعد أن أجاب طلبه ، وعاد إلى قول الشعر على عادته فيه وترك الغزل والهجاء ، وبقى على ذلك مدة الرشيد والأمين وأكثر أيام المأمون . توفي سنة ٢١١ هـ .

وله ديوان مطبوع في بيروت سنة ١٨٨٧ وتجمد أخباره في الأغاني ج ٣ ص ١٢٦ وج ٦ ص ١٨٦ وج ٨ ص ٢٤ وابن خلكان ج ١ ص ٧١ وطبقات الشعراء ص ٩٧ والفهرست ص ١٦٠ .

أَنْتَ مَا اسْتَغْنَيْتَ عَنْ صَا * حَيْكَ الدَّهْرَ أَخُوهُ
فَإِذَا أَحْتَجَّتْ إِلَيْهِ * سَاعَةً بَحَّكَ نُفُوهُ

وَأُنْشِدْ لَهُ سَلَّمَ الْخَاسِرَ :

سَكَنُ يَبْقَى لَهُ سَكَنُ * مَا هَذَا يُؤْذِنُ الزَّمَنُ
نَحْنُ فِي دَارٍ يَخْبِرُنَا * بِبَلَاهَا نَاطِقُ لَيْسَ
دَارُ سُوءٍ لَمْ يُمْ فَرَحُ * لِأَمْرٍ فِيهَا وَلَا حَزَنُ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْفُسُنَا * كُلُّنَا بِالْمَوْتِ مُرْتَمِنُ
كُلُّ نَفْسٍ عِنْدَ مَوْتِهَا * حَظُّهَا مِنْ مَالِهَا الْكَفَنُ
إِنْ مَالُ الْمَرْءِ لَيْسَ لَهُ * مِنْهُ إِلَّا ذِكْرُهُ الْحَسَنُ

وقال عبد الله بن عبد العزيز العمريّ : أشعرُ الناس أبو العتاهية حيث يقول :

مَا ضَرَّ مَنْ جَعَلَ التُّرَابَ مِهَادَهُ * أَلَّا يَنَامَ عَلَى الْحَرِيرِ إِذَا قَنِعَ

وقيل لأبي العتاهية : كيف تقول الشعر؟ قال : ما أردتُه قطّ إلا مثلاً لي ، فأقول
ما أريد وأترك ما لا أريد . وكان يقول : لو شئتُ أن أجعل كلامي شعراً كلّه لفعلتُ .

حُمّ الرشيد فصار أبو العتاهية إلى الفضل بن الربيع برقة فيها :

لَوْ عَلِمَ النَّاسُ كَيْفَ أَنْتَ لَهُمْ * مَا تَوَّأ إِذَا مَا أُتِيتَ أَجْمَعُهُمْ
خَلِيفَةَ اللَّهِ أَنْتَ تَرْجَحُ بَالِنَا * سِ إِذَا مَا أُوزِنْتَ أَنْتَ وَهُمْ
قَدْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّ وَجْهَكَ يُغَى * نَبِي إِذَا مَا رَأَاهُ مُعْدِمُهُمْ

فأنشدها الفضل بن الربيع الرشيد ، فأمر بإحضار أبي العتاهية ، فما زال يسأله ويحدثه
إلى أن برى ، ووصل إليه بذلك السبب مألّ جليل . وقد حدث ابن الأعرابي بهذا
الحديث ، فقال له رجل بالجلس : ما هذا الشعر يستحقّ لما قلت ؟ قال : ولم ؟ قال :
لأنه ضعيف ، فقال ابن الأعرابي ، وكان أحد الناس ، الضعيف والله عقلك لا يشعر

أبى العتاهية ، الأبي العتاهية تقول إنه ضعيف الشعر! فوالله ما رأيتُ شاعرا قطّ أطبع
ولا أفسدَ على بيت منه ، وما أحسب مذهبه إلا ضربا من السحر؛ ثم أنشد له :

قَطَّعْتُ مِنْكَ حَبَائِلَ الْأَمَالِ * وَحَطَّطْتُ عَنْ ظَهْرِ الْمَطَى رِحَالِي
وَيَسَّسْتُ أَنْ أَبْقَى لشيءٍ نِلْتُ مِمَّ * مَا فِيكَ يَا دُنْيَا وَأَنْ يَبْقَى لِي
فَوَجَدْتُ بَرْدَ الْيَأْسِ بَيْنَ جَوَانِحِي * وَأَرَحْتُ مِنْ حَلٍّ وَمِنْ تَرْحَالِ
يَأْيِمَا الْبَطْرِ الَّذِي هُوَ مِنْ عَيْدٍ * فِي قَبْرِهِ مِمَزَّقَ الْأَوْصَالِ
حَذَفَ الْمُنَى عَنْهُ الْمُشَمَّرُ فِي الْهَدَى * وَأَرَى مِنْكَ طَوِيلَةَ الْأَذْيَالِ
حَيَّلُ ابْنَ آدَمَ فِي الْأُمُورِ كَثِيرَةً * وَالْمَوْتُ يَقْطَعُ حِيَلَةَ الْمُحْتَالِ
مَالِي أَرَاكَ لِحَرْ وَجْهَكَ مُخْلَقًا * أَخْلَقْتَ يَا دُنْيَا وَجُوهَ رِجَالِ
قَسَّيْتُ السُّؤَالَ فَكَانَ أَعْظَمَ قِيمَةً * مِنْ كُلِّ عَارِفَةٍ بَحَرَتْ بِسُؤَالِ
فَإِذَا أَبْتَلَيْتَ بِبَدَلِ وَجْهَكَ سَائِلًا * فَايْذُلْهُ لِلتَّكْرَمِ الْمِفْضَالِ
وَإِذَا خَشِيتَ تَعَادُرًا فِي بَلَدَةٍ * فَاشْدُدْ يَدَيْكَ بِعَاجِلِ التَّرْحَالِ
وَأَصْبِرْ عَلَى غَيْرِ الزَّمَانِ فَإِنَّمَا * قَرَجُ الشَّدَائِدِ مِثْلُ حَلِّ عَقَالِ

ثم قال للرجل : هل تعرف أحدا يُحسِن أن يقول مثل هذا الشعر؟ فقال له الرجل :
يا أبا عبد الله ، جعلني الله فداءك ، إنني لم أَرُدُّ عليك ما قلت ، ولكن الزهد مذهبُ
أبي العتاهية ، وشعره في المديح ليس كشعره في الزهد؛ فقال : أفأليس الذي يقول في المديح :

وَهَارُونَ مَاءُ الْمُزْنِ يَشْفِي مِنَ الصَّدَى * إِذَا مَا الصَّيْدِي بِالرِّيقِ غَصَّتْ حَنَابِرُهُ
وَأَوْسَطُ بَيْتٍ فِي قَرِيشٍ لَبِيبُهُ * وَأَوَّلُ عَزٍّ فِي قَرِيشٍ وَآخِرُهُ
وَزَحْفٌ لَهُ تَحْكِي الْبُرُوقَ سَيُوفُهُ * وَتَحْكِي الرُّعُودَ الْقَاصِفَاتِ حَوَافِرُهُ
إِذَا حَمَيْتَ شَمْسُ النَّهَارِ تَضَاهَكَتْ * إِلَى الشَّمْسِ فِيهِ يَنْضِبُهُ وَمَغَافِرُهُ
إِذَا نَكَبَ الْإِسْلَامُ يَوْمًا بِنَكْبَةٍ * فَهَارُونَ مِنْ بَيْنِ الْبَرِيَّةِ نَائِرُهُ
وَمَنْ ذَا يَفُوتُ الْمَوْتَ وَالْمَوْتُ مُذِرُكَ * كَذَا لَمْ يَفُتْ هَارُونَ ضِدُّ يَنَافِرُهُ

فتخلص الرجل من شرّ ابن الأعرابي بأن قال له : القول كما قلت ، وما كنت سمعت له مثل هذين الشعرين ، وكتبهما عنه .

قال تمامة بن أشرس أنشدني أبو العنابية :

إذا المرء لم يُعَتِّقْ من المال نفسه * تملكه المأل الذي هو مالكه
ألا إنما مالى الذى أنا مُنْفِقُ * وليس لي المأل الذى أنا تاركه
إذا كنت ذا مال فبادر به الذى * يَحِقُّ وإلا آسَهَلَكَ مَهالكه

فقلت له : من أين قضيت بهذا ؟ فقال : من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيته أو لبست فألبيت أو تصدقت فأمضيت" . فقلت له : أتؤمن بأن هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه الحق ؟ قال : نعم ؛ قلت : فلم تحبس عندك سبعة وعشرين بدرة في دارك ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكي ولا تقدمها ذنرا ليوم فقرك وفاقتك ؟ فقال : يا أبا معن ، والله إن ما قلت لهو الحق ، ولكنى أخاف الفقر والحاجة إلى الناس ؛ فقلت : ويمّ تزيد حال من أفقر على حالك وأنت دائم الحرص ، دائم الجمع ، شحيح على نفسك ، لا تشتري اللّحم إلا من عيد إلى عيد ؟ فترك جواب كلامي كلّهُ ، ثم قال لى : والله لقد اشتريت في يوم عاشوراء لحما وتوابله وما يتبعه بخمسة دراهم ؛ فلما قال هذا القول أضحكني حتى أذهلني عن جوابه ومعاتبته ، فأمسكت عنه وعلمت أنه ليس ممن شرح الله صدره للإسلام .

زار مرة عمرو بن مسعدة فحجب عنه ، فلزم منزله ، فاستبطأه عمرو ، فكتب إليه :

كسلى اليأس عنك فما أر * فع طرّفى اليك من كسلى
إنى إذا لم يكن أنى ثقة * قطعت منه حبايل الأمل

وكتب إليه مرة أخرى :

مالك قد حلت عن إخالك وآس * تبدلت يا عمرو شيمة كدره
إنى إذا الباب تاه حاجبه * لم يك عنسدى في هجره نظره^(١)

(١) النظرة : التأخير والإمهال .

لستم تُرجّون للحساب ولا * يوم تكون السماء مُنفطره
لكن لدينا كالظّل بهجتها * سرية الإنقضاء مُشهره
قد كان وجهي لديك معرفة * فاليوم أضى حرًا من النكره

جاس المهدي للشعراء يوما فأذن لهم ، وفيهم بشار وأشجع ، وكان أشجع يأخذ عن بشار ويعظمه ، وكان في القوم غير هذين أبو العتاهية ، قال أشجع : فلما سمع بشار كلام أبي العتاهية قال : يا أخا سليم ، أهذا ذلك الكوفي الملقب ؟ قلت : نعم ، قال : لا جرى الله خيرا من جمعنا معه ، ثم قال له المهدي : أنشد ، فقال : ويحك ! أو يستنشد أيضا قبلنا ؟ فقلت : قد ترى ؛ فأنشد :

ألا ما لسيدي ما لها * أدلا فأجمل إذلالها
وإلا فقيم تجنت وما * جنيت سقى الله أطلالها
ألا إن جارية للإما * م قد أسكن الحسن سر بالها
مشت بين حور قصار الخطا * تجاذب في المشى أكفالها
وقد أتعب الله نفسى بها * وأتعب بالأمم عذالها

فقال بشار لأشجع : ويحك يا أخا سليم ! ما أدرى من أى أمرية أعجب ، أمن ضعف ، شعره أم من تشبيهه بجارية الخليفة وهو يسمع ذلك بأذنه ؟ حتى أتى على قوله :

أنته الخليفة مُنقادة * إليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له * ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره * لرزيت الأرض زلزالها
ولو لم تطلع بنات القلوب * لما قيل الله أعمالها
وإن الخليفة من بغض "لآ" * إليه ليُبغض من قالها

فقال بشار لأشجع وقد آهت طربا : ويحك يا أخا سليم ، أترى الخليفة لم يطرح فراشه طربا لما يأتى به هذا الكوفي !

ولما اتَّهمه منصورُ بن عَمَّارٍ بالزندقة، لأنه لا يذكر في شعره الجنة والنار وإنما يذكر الموت، قال فيه :

يا وَاَعْظَ الناسَ قد أَصْبَحْتَ مَتَّهَمًا * إِذِ عِبْتَ مِنْهُمْ أُمُورًا أَنْتَ تَأْتِيهَا
كَالْمُلُوسِ الثَّوبَ مِنْ عُرَى وَعَوْرَتِهِ * لِلنَّاسِ بَادِيَةٌ مَا لَنَا يُوَارِيهَا
فَاعْظُمُ الْإِثْمَ بَعْدَ الشَّرْكِ نَعْلَمُهُ * فِي كُلِّ نَفْسٍ عَمَّاها عَنْ مَسَاوِيهَا
عِرْفَانَهَا بَعْيُوبِ النَّاسِ تُبْصِرُهَا * مِنْهُمْ وَلَا تَبْصُرُ الْعَيْبَ الَّذِي فِيهَا

وقيل له : زعم الناس أنك زنديق، فقال : والله ما ديني إلا التوحيد ، فقليل له قل شيئاً يتحدث به عنك ، فقال :

أَلَا إِنَّا كُلُّنَا بَائِدٌ * وَأَيُّ بَنَى آدَمَ خَالِدٌ
وَبَدَّوْهُمْ كَانَ مِنْ رَبِّهِمْ * وَكُلُّ إِلَى رَبِّهِ عَائِدٌ
فِيَا عَجَبًا كَيْفَ يَعِصِي الْإِلَهَ أَمْ كَيْفَ يَجْعَلُهُ الْجَاهِلُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ * تُدَلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

وسمع الجاحظ مرة من ينشد أرجوزة أبي العتاهية التي سماها "ذوات الأمثال" حتى أتى على قوله :

يا للشباب المريح التصابي * روائح الجنة في الشباب

فقال للشيد : قف، ثم قال : أنظروا الى قوله : «روائح الجنة في الشباب» فإن له معنى كمنى الطرب لا يقدر على معرفته إلا القلوب، وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير، وخير المعاني ما كان القلب الى قبوله أسرع من اللسان الى وصفه . وهذه الأرجوزة من بدائع أبي العتاهية ، ويقال : إن فيها أربعة آلاف مثل، منها قوله :

حَسْبُكَ مَا تَبْتَغِيهِ الْقُوْتُ * مَا أَكْثَرَ الْقُوْتَ لِمَنْ يَمُوتُ
الْفَقْرُ فِيمَا جَاوَزَ الْكَفَافَا * مَنِ اتَّقَى اللَّهَ رَجَا وَخَافَا
هِيَ الْمَقَادِيرُ فَلَمْ يَنْفِ أَوْ فَدَرَ * إِنْ كُنْتُ أَخْطَأْتُ فَمَا أَخْطَا الْقَدَرُ

لكل ما يؤذى وإن قل ألم * ما أطول الليل على من لم ينم
 ما انتفع المرء بمنزل عقله * وخير دُخْر المرء حُسْنُ فعله
 إن الفساد ضدّه الصّلاح * وربّ جدّ جره المزارح
 من جعل الثّمام عينا هلكا * مُبلُغك الشرّ بكأغيه لكَا
 إن الشباب والفراغ والحده * مفسّدةٌ لمرء أى مفسّده
 يغنيك عن كلّ قبيح تركه * يرتين الرأى الأصيل شكّه
 ما عيش من آفته بقاؤه * نغص عيشا كلّه فناؤه
 ياربّ من استظنا بجَهْدِهِ * قد سرّنا الله بغير حمده
 ما تطلع الشمس ولا تغيب * إلا لأمرٍ شأنه عجب
 لكلّ شيء معدنٌ وجوهر * وأوسط وأصغر وأكبر
 من لك بالخصّ وكلّ مُمتزج * وسأوس في الصدر منه تعَلِج
 وكلّ شيء لاحقٌ بجوهره * أصغره مُتّصلٌ بأكبره
 ما زالت الدنيا لنا دار أذى * ممزوجة الصّفو باللون القذى
 الخير والشرّ بها أزواج * لذا نتاج ولذا نتاج
 من لك بالخصّ وليس تخصّ * يجبّ بعضُ بعضٍ ويطيّب بعض
 لكلّ إنسان طيّعتان * خير وشر وهما ضِدّان
 إنك لو نسْتَشِقّ الشّجيا * وجدته أثنى شيء رِيحا
 والخير والشرّ إذا ما عدا * بينهما بونٌ بعيدٌ جدّا
 عجبٌ حتى غمّي السُّكُوت * صرْتُ كَأَنّي حائرٌ مبهوت
 كذا قضى الله فكيف أصنع * الصّمتُ إن ضاق الكلام أوسع

ومن قول أبي العتاهية في الوحدة والتبرُّم بالناس :
 بَرِمْتُ بالناس وأخلاقهم * قَصِرْتُ أَسْتَأْنِسُ بِالْوَحْدَةِ
 مَا أَكْثَرَ النَّاسَ لِعَمْرِي وَمَا * أَقْلَهُمْ فِي حَاصِلِ الْعِدَّةِ
 قال الأصمعيّ : شِعْرُ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ كَسَاحَةُ الْمَلُوكِ ، يَقَعُ فِيهَا الْجَوْهَرُ وَالذَّهَبُ وَالتَّرَابُ
 وَالْخَزَفُ وَالنَّوَى .

كان أبو العتاهية لا يفارق الرشيد في سَفَرٍ وَلَا حَضَرَ إِلَّا فِي طَرِيقِ الْجَلِجِ ، وَكَانَ يُجْعَلُ
 عَلَيْهِ فِي كُلِّ سَنَةٍ خَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ سِوَى الْجَوَازِزِ وَالْمَعَاوِنِ ، فَلَمَّا قَدِمَ الرَّشِيدُ الرَّقَّةَ لَيْسَ
 أَبُو الْعَتَاهِيَةِ الصُّوفَ وَتَزَهَّدَ ، وَتَرَكَ حُضُورَ الْمُنَادِمَةِ وَالْقَوْلَ فِي الْغَزْلِ ، وَأَمَرَ الرَّشِيدُ بِجَبْسِهِ
 خُبُيسَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مِنْ وَقْتِهِ :

أَنَا الْيَوْمَ لِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَشْهُرُ * يَرُوحُ عَلَيَّ الْهَمُّ مِنْكُمْ وَيَبْكُرُ
 تَذَكَّرُ أَمِينَ اللَّهِ حَقِّي وَحُرْمَتِي * وَمَا كُنْتُ تُؤَلِّينِي كَذَلِكَ يُذَكِّرُ
 لِيَا لِي تُدْنِي مِنْكَ بِالْقَرَبِ مَجْلِسِي * وَوَجْهُكَ مِنْ مَاءِ الْبَشَاشَةِ يَقْطُرُ
 فَمَنْ لِي بِالْعَيْنِ الَّتِي كُنْتُ مَرَّةً * إِلَىٰ بِهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ تَنْظُرُ
 فلما قرأ الرشيد الأبيات قال : قولوا له : لَا بَأْسَ عَلَيْكَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ :

أَرِقْتُ وَطَارَ عَنْ عَيْنِي النَّعَاسُ * وَنَامَ السَّامِرُونَ وَلَمْ يُؤَاسُوا
 أَمِينَ اللَّهِ أَمْنُكَ خَيْرُ أَمِينٍ * عَلَيْكَ مِنَ التَّقَىٰ فِيهِ لِبَاسُ
 نَسَاسٍ مِنَ السَّمَاءِ بِكُلِّ بَرٍّ * وَأَنْتَ بِهِ تَسْوِسُ كَمَا تُنَاسُ
 كَأَنَّ الْخَلْقَ رَكَبَ فِيهِ رُوحٌ * لَهُ جَسَدٌ وَأَنْتَ عَلَيْهِ رَاسُ
 أَمِينَ اللَّهِ إِنْ الْحَبْسَ بَاسُ * وَقَدْ أَرْسَلَتْ : لَيْسَ عَلَيْكَ بَاسُ

وكتب إليه أيضا في الحبس :

وَكَلَّفَتْنِي مَا حُلَّتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ * وَقُلْتُ سَأَبِي مَا تُرِيدُ وَمَا تَهْوَىٰ
 فَلَوْ كَانَ لِي قَلْبَانُ كَلَّفْتُ وَاحِدًا * هَوَاكَ وَكَلَّفْتُ الْخَلْقَ لِمَا يَهْوَىٰ

فأُسر باطلاقه .

كان الهادي واجدا على أبي العتاهية لملازمته أخاه هارون في خلافة المهدي، فلما ولي موسى الخلافة قال أبو العتاهية يمدحه :

يَضْطَرِبُ الخَوْفُ والرجاءُ إذا * حَرَّكَ موسى القُضيبَ أوفَكَرَ
ما أَيْنَ الفضلَ في مَغِيْبٍ وما * أُوْرِدَ من رأيه وما أَصْدَرَ
فَكَمْ تَرى عَزَّ عند ذلك من * مَعَشَرَ قَوْمٍ وَذَلَّ من مَعَشَرَ
يُثْمِرُ من مَسِّه القُضيبُ ولو * يَمْسُهُ غَيْرُهُ لَمَّا أُنْمَرَ
مَنْ مِثْلُ موسى ومِثْلُ والدِه الـ * مَهْدَى أَوْ جَدَّه أبا جَمْعَرِ

فرضى عنه . فلما دخل عليه أنشده :

لَهْفِي على الزمانِ القَصِيرِ * بين الخَوَرَنِقِ والسَّيْدِ
إِذْ نَحْنُ في غُرْفِ الحِنا * نَ نَعُومُ في بَحرِ السُرُورِ
في فِتْيةٍ مَلَكُوا عِنا * نَ الدَّهْرِ أَمْثالُ الصُّقُورِ
ما مِنْهُمْ إِلَّا الجَسُوءُ * رُ على الهوى غيرَ الحَصُورِ
يَتَعَاوَرُونَ مُدَمَّةً * صَبَاءٍ من حَلَبِ العَصِيرِ
عِذْرَاءَ رَبَّاهَا شُعَا * عِ الشمسِ في حَرِّ الهَجِيرِ
لَمْ تَذَنْ من نارٍ ولم * يَعلَقُ بها وَضْرُ القُدُورِ
وَمُقَرَّطِي يَمْشِي أَمَا * م القومِ كالرَّشَا الغَرِيرِ
بِزَاجِيَةٍ تَسْتَخْرِجُ الـ * ر الدِّينِ من الضَّمِيرِ
زَهْرَاءَ مِثْلِ الكوكبِ الـ * دُ رَى في كَفِّ المُسْدِيرِ
رَعَّ الكَرِيمِ وَلَيْسَ يَدُ * رى ما قَيْسِلُ من دَيرِ
وَمُحَصَّراتِ زُرْنَا * بَعْدَ الهُدُوءِ من الخُدُورِ
رِيًّا رَوادِفِهِنَّ يَدُ * بَسْنَ الخَوَاتِمِ في الخَصُورِ
غُرَّ الوجوهِ مُحَجَّبا * ت قاصِرَاتِ الطُّرْفِ حُورِ

مُتَنَعِمَاتٍ فِي النَّعْمِ * يَمِ مُضَمَّخَاتٍ بِالْعَبِيرِ
يَرْفُلْنَ فِي حُلَلِ الْحَمَا * سِنَ وَالْمَجَاسِدِ وَالْحَرِيرِ
مَا إِنْ يَرَيْنَ الشَّمْسُ إِلَّا الْقُرْطَ مِنْ خَلِّ السُّتُورِ
وَالِي أَمِينِ اللَّهِ مَهْ * رَبُّنَا مِنَ الدَّهْرِ الْعَثُورِ
وَالِيهِ أَنْعَبْنَا الْمَطَا * يَا بِالرَّوَّاحِ وَبِالْبُكُورِ
صُعْرُ الْخُدُودِ كَأَنَّمَا * جُنَحْنُ أَجْنَحَةِ النُّسُورِ
مُسْتَرْبِلَاتٍ بِالْظِلَالِ * مِ عَلَى السُّهُولَةِ وَالْوُغُورِ
حَتَّى وَصَلْنَ بِنَا إِلَى * رَبِّ الْمَدَائِنِ وَالْقُصُورِ
مَا زَالَ قَبْلَ فِطَامِهِ * فِي سِنِّ مُكْتَرِلِ كَبِيرِ

استنشدته المأمون أحسن ما قال في الموت فأنشده :

أُنْسَاكَ مَحْيَاكَ الْمَوْتَا * فَطَلَبْتَ فِي الدُّنْيَا الثَّبَاتَا
أَوْثَقْتَ بِالْدُّنْيَا وَأَنْد * تَ تَرَى جَمَاعَتَهَا شَتَاتَا
وَعَزَمْتَ مِنْكَ عَلَى الْحَيَا * وَطَوَّلَهَا عَزْمًا بَتَاتَا
يَا مَنْ رَأَى أَبَوَيْهِ فِيهِ * حَمْنٌ قَدْ رَأَى كَانَا هَمَاتَا
هَلْ فِيهِمَا لَكَ عِبْرَةٌ * أَمْ خِلْتَ أَنَّ لَكَ أَنْفِلَاتَا
وَمَنْ الَّذِي طَلَبَ التَّفَقُّدَ * تَ مِنْ مَنِيَّتِهِ فَفَقَاتَا
كُلُّ تَصَبُّحِهِ الْمَدِينَةِ * أَوْ تَبَيَّنَتْهُ بَيَاتَا

دخل أبو العتاهية على المأمون فأنشده :

مَا أَحْسَنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالَهَا * إِذَا أَطَاعَ اللَّهَ مَنْ نَالَهَا
مَنْ لَمْ يُؤَاسِ النَّاسَ مِنْ فَضْلِهَا * عَرَضَ لِلْإِدْبَارِ إِقْبَالَهَا

فقال له المأمون : ما أجود البيت الأول ، فأما الثاني فما صنعت فيه شيئا ، الدنيا تُدِيرُ عَمَّنْ
وَأَسَى مِنْهَا أَوْضَحُّ بِهَا ، وَإِنَّمَا تُوجِبُ السَّمَاحَةَ بِهَا الْأَجْرَ وَالضَّنَّ بِهَا الْوِزْرَ ، فقال : صدقت

يا أمير المؤمنين ، أهل الفضل أولى بالفضل وأهل النقص أولى بالنقص ، فلما كان بعد أيام عاد فأنشده :

كم غافل أودى به الموت * لم يأخذ الأهبة للفت
من لم تزل نعمته قبله * زال عن النعمة بالموت

فقال له : أحسنت ، طيبت المعنى ، وأمر له بعشرين ألف درهم :

كان أبو العتاهية يُجِّج كل سنة ، فاذا قدم أهدى الى المأمون بُردًا ومُطرًا ونعلا سوداء ومساويك آراك ، فيبعث اليه بعشرين ألف درهم ، فأهدى مرة له كما كان يهدى كل سنة إذا قدم ، فلم يُثبِّه ولا بعث اليه بالوظيفة ، فكتب اليه أبو العتاهية :

خبروني أن من ضرب السنّة * جُددًا ييضوا وصُفرا حسنة
أُحدثت لكنني لم أرها * مثل ما كنت أرى كل سنة

فأمر المأمون بحمل العشرين الألف وقال : أغفلناه حتى ذكرنا .

أنشد المأمون بيت أبي العتاهية يخاطب سلماً الخاسر :

تعالى الله يا سلم بن عمرو * أدل الحرص أعناق الرجال

فقال المأمون : إن الحرص لنفسه للدين والمروءة ، والله ما عرفت من رجل قط حرصاً ولا شراً فوجدت فيه مضطجعاً ، فبلغ ذلك سلماً فقال : ويلى على الحرار الزنديق جمع الأموال وكثرها وعبأ البدور في بيته ثم ترهد مراءاة ونفاقاً ، فأخذ يهتف بي اذا تصدّيت للطلب .

كان الرشيد مما يعجبه غناء الملاحين في الزلازل اذا ركبها ، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم ، فقال : قولوا لمن معنا من الشعراء : يعملوا لهؤلاء شعرا يعنون فيه ، فقيل : ليس أحد أقدر على هذا من أبي العتاهية وهو في الحبس ، فوجه اليه الرشيد : قل شعرا حتى أسمعهم منهم ، ولم يأمر بإطلاقه ، فغاضه ذلك وقال : والله لأقولن شعرا يحزنه ولا يُسرّه ، فعمل شعرا ودفعه الى من حفظه من الملاحين ، فلما ركب الحراقه سمعه وهو :

خَانَكَ الطَّرْفُ الطَّمُوحُ * أَيُّهَا الْقَلْبُ الْجَمُّوحُ
 لدواعي الخير والشـ * دُنُوْ وَاذْوَوح
 هل لمطلوبٍ بذنب * توبته منه نصوح
 كيف إصلاح قلوب * إنما هن قُروح
 أحسن الله بنا * إن الخطايا لا تفوح
 فإذا المستور منّا * بين أوبئه فُضوح
 كم رأينا من عزيز * طُوِيَتْ عنه الكُشُوح
 صَاحَ منه برحيل * صائِحُ الدهر الصَّدُوح
 موتُ بعض الناس في الأر * ض على قوم قُروح
 سيصير المرء يوما * جَسَدا ما فيه رُوح
 بين عَيْنَيْ كُلِّ حَيٍّ * عَلمُ الموت يَلُوح
 كَلَّمْنَا فِي غَفْلَةٍ وَالـ * حَمُوتٌ يَغْدُو وَيُروح
 لَبَنِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنـ * يَبَا غَبُوقٌ وَصَبُوح
 رُحْنٌ فِي الْوَشْيِ وَأَصْبَحـ * نَ عَلَيْهِنَ الْمُسُوح
 كُلُّ نَطَاجٍ مِنَ الدَّهـ * رَ لَهُ يَوْمًا نَطُوح
 تُخِّجُ عَلَى نَفْسِكَ يَا مَسـ * يَكْنِيْنَ إِنْ كُنْتَ تَنُوح
 تَمُوتَنَّ وَإِنْ عُمـ * رْتَ مَا عُمِّرُ نُوح

فلما سمع ذلك الرشيد جعل يبكي وينتحب ، وكان الرشيد من أغزر الناس دموعا
 في وقت الموعظة ، وأشدّهم عسقا في وقت الغضب والغلظة ؛ فلما رأى الفضل بن الربيع
 كثرة بكائه أوما إلى الملاحين أن يسكتوا .

لما عقد الرشيد العهد لبنيه الثلاثة : الأمين والمأمون والمؤتمن ، قال أبو العتاهية :

رَحَلْتُ عَنْ الرَّبْعِ الْحَيْلَ قَعُودِي * إِلَى ذِي زُخُوفٍ جَمَّةٍ وَجُنُودِ
 وَرَاجٍ يُرَاعِي اللَّيْلَ فِي حَفْظِ أُمَّةٍ * يَدَافِعُ عَنْهَا الشَّرَّ غَيْرَ رُقُودِ

بِالْوَيْةِ جَبْرِيلُ يَقْدُمُ أَهْلَهَا * وَرَايَاتِ نَصْرِ حَوْلِهِ وَبُنُودِ
 تَجَافَى عَنِ الدُّنْيَا وَأَيُّقِنُ أَنَّهَا * مُفَارِقَةُ لَيْسَتْ بِدَارِ حُلُودِ
 وَشَدَّ عَصَى الْإِسْلَامِ مِنْهُ بِفَتْنَةٍ * ثَلَاثَةِ أَمَلَاكِ وَلَاةِ عُهُودِ
 هُمْ خَيْرُ أَوْلَادِهِمْ خَيْرُ وَالِدِ * لَهُ خَيْرُ آبَاءٍ مَضَتْ وَجُدُودِ
 بَنُو الْمُصْطَفَى هَارُونَ حَوْلَ سَرِيرِهِ * لَخَيْرُ قِيَامِ حَوْلِهِ وَقُعُودِ
 تَقَلَّبَ الْحَاظُ الْمَهَابَةُ بَيْنَهُمْ * عِيُونَ ظُبَاءٍ فِي قُلُوبِ أَسُودِ
 جُدُودِهِمْ شَمْسُ أُمْتُ فِي أَهْلَةٍ * تَبَدَّتْ لِرَاءِ فِي نَجُومِ سُعُودِ
 فَوَصَلَهُ الرَّشِيدُ بِصِلَةٍ مَا وَصَلَ مِثْلَهَا شَاعِرًا قَطَّ .

١٢ - مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ^(١)

أحمد الشعراء المقلقين والبلغاء المبدعين

قال الشَّعْرُ في صباه، ولم يتجاوز به الأمراء والرؤساء، مكتفياً بما يناله من قليل العطاء، ويُنفقه على ملاذّه مع إخوانه من خُلَفاء الشعراء، ثم أُنْقَطِعَ إلى يزيد بن مَزِيد الشَّيْبَانِي قائل الرشيد، ثم اتَّصَلَ بالخليفة هارون الرشيد وعُدَّ من شعرائه، ومدَّحه ومدَّح البرامكة وحسَّن رأيهم فيه . ولما أصبح الحَلَّ والعقد بيد ذى الرِّبَاسَتَيْن الفضل بن سهل وزير المأمون في أوّل خلافته قرّبه وأدناه : لأنه كان من خاصّته قبل وزارته، وولّاه أعمالاً بجرّجان اكتسب منها ألف ألف درهم ثم لزم منزله إلى أن أنفقها في اللذات ، وعاد إلى الفضل فقلّده الضياع بأصبهان فاكسب منها ألف ألف أيضاً . ولما قُتِل الفضل لزم منزله ونسك ولم يمدح أحداً إلى أن مات بجرجان .

ومسلم أول من تكلف البديع في شعره وأستكثر منه في قوله ، وسبقه بشار إلى ذلك إلا أنه لم يبلغ شأواً مسلم فيه . وقد عدّ العلماء هذا التصنّع والتكلف إفساداً للشعر، إذ قد تبعه في ذلك الشعراء مثل البحتري وأبي تمام وابن المعتز وغيرهم .

(١) هو مسلم بن الوليد، ولي الأنصار يلقب صريع الفوائ، شاعر متقدّم من شعراء الدولة العباسية، منشؤه ومولده الكوفة . وهو في زعموا أول من قال الشعر المعروف بالبديع، وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف، وتبعه فيه جماعة، وأشهرهم فيه أبو تمام الطائي، فانه جعل شعره كله مذهبا واحدا فيه، ومسلم كان متفتنا متصرفا في شعره . قال محمد بن يزيد : كان مسلم شاعرا حسن النظم، جيّد القول في الشراب، وكثير من الرواة يقرّنه بأبي نواس في هذا المعنى، وهو أول من عقد هذه المعاني الظريفة واستخرجها . وقال القاسم بن مهوريه : أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد، جاء بهذا الفن الذي سماه الناس البديع ثم جاء الطائي بعده ففتن فيه . توفي بجرجان سنة ٢٠٨ هـ وله ديوان مطبوع في لندن سنة ١٨٧٥ م. وتجد أخباره في الأغاني (ج ١٣ ص ٩) والشعر والشعراء (ص ٥٢٨) والعقد الفريد (ج ١ ص ١٤٢) .

وقد مزج مسلم كلام البدويين بكلام الحضريين ، فضمّنه المعاني اللطيفة ، وكساه الالفاظ الظريفة ، فله بزالة البدويين ، ورقة الحضريين .

لقى مسلم أبا نؤاس فقال له : ما أعرف لك بيتا إلا فيه سقط ، قال له : فما تحفظ من ذلك ؟ قال : قل أنت ما شئت حتى أريك سقطك فيه ، فأنشد :

ذَكَرَ الصَّبُوحَ بِسُحْرَةِ فَارَتَا حَا * وَأَمَلَهُ دِيكَ الصَّبَاحِ صِيَا حَا

فقال له مسلم : فلم أمله وهو الذي أذكره وبه أرتاح ؟ فقال أبو نؤاس : فأنشدني شيئا من شعرك ليس فيه خلل ، فأنشده مسلم :

عَاصَى الشَّبَابِ فَرَّاحٌ غَيْرُ مُفَنَّدٍ * وَأَقَامَ بَيْنَ عَزِيمَةٍ وَتَجَلَّدٍ

فقال له أبو نؤاس : قد جعلته رائجا مقيما في حالة واحدة وبيت واحد ، فتشاعبا وتسابا ساعة . وكلا البيتين صحيح المعنى .

أجتمع أصحاب المأمون عنده يوما ، فأفاضوا في ذكر الشعر والشعراء ، فقال له بعضهم : أين أنت يا أمير المؤمنين من مسلم بن الوليد ؟ قال : حيث يقول ماذا ؟ قال : حيث يقول وقد رقي رجلا :

أَرَادُوا لِيُخْفُوا قَبْرَهُ عَنْ عَدُوِّهِ * فَطِيبُ تَرَابِ الْقَبْرِ دَلٌّ عَلَى الْقَبْرِ

وحيث مدح رجلا بالشجاعة فقال :

يَجُودُ بِالنَفْسِ إِذَا ضَنَّ الْجَوَادُ بِهَا * وَالْجُودُ بِالنَفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ

وهما رجلا بفتح الوجه والأخلاق فقال :

قُبِحَتْ مَنَازِلُهُ لِحَيْنِ خَبَرَتِهِ * حَسُنَتْ مَنَازِلُهُ لِقُبْحِ الْخَبَرِ

وتغازل فقال :

هَوَى يَجِدَّ وَحَبِيبٌ يَلْعَبُ * أَنْتَ لَقِيَ بَيْنَهُمَا مَعْدَبُ

فقال المأمون : هذا أشعر من خضم اليوم في ذكره .

قال يزيد بن مزيّد : أرسل الى الرشيد يوما في وقت لا يرسل فيه الى مثل ، فأتيتُه
لابسًا سلاحى مستعدًا لأمر إن أرادته منى ، فلما رأى ضحك الى ثم قال : يا يزيد، خبرنى
من الذى يقول فيك :

تراه فى الأمن فى درع مضاعفة * لا يأمن الدهر أن يدعى على تجل
ضاهى العناى طموح العين همتته * فك العنة وأسر الفاتك الخطل

فقال : لا أعرفه يا أمير المؤمنين ؛ فقال : سوء لك من سيد قوم يمدح بمثل هذا
الشعر ولا يعرف قائله ، وقد بلغ أمير المؤمنين فرواه ووصل قائله ، وهو مسلم بن الوليد !
فانصرفت فدعوت به ووصلته ووليته .

وروى أنه دخل على الرشيد فقال له : يا يزيد، من الذى يقول فيك :

لا يعقب الطيب خديه ومفرقه * ولا يمسح عينيه من الكحل
إذا آتتضى سيفه كانت مسالكه * مسالك الموتى فى الأبدان والقلل
وإن خلّت بحديث النفس فكرته * حى الرجاء ومات الخوف من وجل
كالليث إن هجته فالموت راحته * لا يستريح الى الأيام والدول

فقال : لا أعرف قائله يا أمير المؤمنين ، فقال له هارون : أيقال فيك مثل هذا الشعر
ولا تعرف قائله ! فخرج من عنده تجملا ، فلما صار الى منزله دعا حاجبه فقال له : من
بالباب من الشعراء ؟ قال : مسلم بن الوليد ؛ قال : وكيف تحبته عني ، فلم تعلمنى بمكانه !
فقال : أخبرته أنك مضيق ، وأنه ليس في يدك شىء تعطيه إياه ، وسألته الإمساك والمقام
أياما الى أن تتسع ؛ فأنكر ذلك وقال : أدخله ، فأدخله اليه ، فأثبده قوله فيه :

أجريت^(١) جبل خليع فى الصبا غزير * وشمرت همم العذال فى عذلى
هاج البكاء على العين^(٢) الطموح هوى * مفرق بين توديع ومحتمل
كيف السلو لقلب راح محتبلا * يهذى بصاحب قلب غير محتبل

(١) أجريت فلانا رسنه : تركته وشأنه ، وانطبع : الذى خلغ عذاره فى الصبا . (٢) الطموح :
المرتفعة فى النظر الى الأحبة . ومفرق : مقسم .

عَاصَى العِزَاءَ غَدَاةَ الْبَيْنِ مُنْهَمِلٌ * من الدُمُوعِ جَرَى فِي إِثْرِ مُنْهَمِلِ
لَوْلَا مُدَارَاةُ دَمْعِ الْعَيْنِ لَا نَكْشَفْتُ * مَتْنِي سِرَائُرُ لَمْ تَظْهَرْ وَلَمْ تُخْلِ
أَمَا كُنْهِ الْبَيْنِ أَنْ أُرْمَى بِأَسْهُمِهِ * حَتَّى رَمَانِي بِلَحْظِ الْأَعْيُنِ النُّجَلِ
مِمَّا جَنَى لِي وَإِنْ كَانَتْ مَتْنِي صَدَقَتْ * صَبَابَةٌ خُسُوسُ التَّسْلِيمِ بِالْمُقَلِّ
مَاذَا عَلَى الدَّهْرِ لَوْلَا لَنْتَ عَرِيكَتُهُ * وَرَدَّ فِي الرَّأْسِ مَتْنِي سَكْرَةُ الْغَزَلِ
جُرْمُ الْحَوَادِثِ عِنْدِي أَنَّهَا اخْتَلَسَتْ * مَتْنِي بَنَاتِ غِذَاءِ الْكَرْمِ وَالْكِكَلِ
وَرُبَّ يَوْمٍ مِنَ اللَّذَاتِ مُحْتَضِرٌ * قَصْرُتُهُ بِلِقَاءِ الرَّاحِ وَالْخُلَّالِ
وَلَيْسَلَةُ خُلِيسَتْ لِلْعَيْنِ مِنْ سِنَةٍ * هَتَكَتْ فِيهَا الصَّبَا عَنْ بَيْضَةِ الْجَمَلِ
قَدْ كَانَ دَهْرِي وَمَا بِي الْيَوْمَ مِنْ كِبَرٍ * شُرْبَ الْمَدَامِ وَعِزْفَ الْقَيْنَةِ الْعُطْلِ
إِذَا شَكُوتُ إِلَيْهَا الْحَبَّ خَفَرَهَا * شَكَاوَى فَاحْتَرَّ خَدَاهَا مِنَ النُّجَلِ
كَمْ قَدْ قَطَعْتُ وَعَيْنُ الدَّهْرِ رَاقِدَةٌ * أَيَّامَهُ بِالصَّبَا وَاللَّهْسِ وَالْجَذَلِ
وَطَيْبُ الْفَرْعِ أَصْفَانِي مَوْدَتُهُ * كَأَفَانُهُ بِمَدِيحٍ فِيهِ مُتَخَلِّ
وَبَلَدَةُ لِمَطَايَا الرُّكْبِ مُنْضِيَّةٌ * أَنْضِيئُهَا بِوَجِيفِ الْأَيْنِقِ الدُّلِّ
فِيمَ الْمُقَامِ وَهَذَا النِّجْمُ مُعْتَرِضًا * دَنَا النَّجَاءُ وَحَانَ السَّيْرِ فَارْتَحِلْ
يَا مَائِلَ الرَّأْسِ إِنْ اللَّيْثُ مُفْتَرِسٌ * مِيلَ الْجَاهِجِ وَالْأَعْنَاقِ فَاعْتَدِلْ
حَذَارٍ مِنْ أَسَدٍ ضَرْغَامَةٍ بَطَلٍ * لَا يُؤْلِغُ السَّيْفُ إِلَّا مَهْجَةَ الْبَطَلِ
لَوْلَا يَزِيدُ لِأَخِي الْمَلِكِ مُطَرْدًا * أَوْ مَائِلَ السَّمَكِ أَوْ مُسْتَرْخِي الطُّوَلِ
سَلَّ الْخَلِيفَةُ سَيْفًا مِنْ بَنِي مَطَرٍ * أَقَامَ قَائِمُهُ مَنْ كَانَ ذَا مَيْلِ
كَمْ صَائِلٍ فِي دَرَا تَمْهِيدِ مَمْلَكَةٍ * لَوْلَا يَزِيدُ بَنَى شَيْبَانَ لَمْ يَصُلِّ

(١) أى لم تظن بي . (٢) يريد النجر والجواري . (٣) محتضر، أى حضرته اللذات . والخلل :
جمع خلة وهى الصديقة . (٤) خفرها ، أى ولد عليها الخفر وهو شدة الحياء . (٥) أى مختار .
(٦) منضية : متعبة . والوجيف : ضرب من السير . والدلل : الضامرات . (٧) يريد بالنجم :
التريا . ومعترضا : متصبا . (٨) مطردا ، أى مخدولا . وضرب السمك والطول مثلا .

ناب الإمام الذى يَفْتَرُّ عنه اذا * ما أَفْتَرَّتِ الحربُ عن أنيابها العُصْل
 من كان يَحْتَمِلُ قِرْنًا عند موقفه * فإن قِرْنَ يزيد غيرُ مُحْتَمِلِ
 سَدَّ الثغور يزيدُ بعد ما آنَفَرَجَتْ * بقائم السيف لا بالختل والحيَل
 كم قد أذاق حِمَامَ الموت من بَطَل * حامى الحقيقة لا يُؤْتَى من الوَهْل
 أغرَّ أبيضُ يُغشى البيضَ أبيضَ لا * يرضى لمولاه يومَ الرُّوع بالفشل
 يَغشى الوغى وشهابُ الموت فى يده * يرمى الفوارس والأبطال بالشُّمْل
 يَفْتَرُّ عند أَفْتَرارِ الحرب مَبْتَسِمًا * اذا تَغَيَّرَ وجه الفارسِ البطل
 مُؤَيٌّ على مَهْجٍ واليومُ ذو رَهْجٍ * كأنه أَجَلٌ يسمى الى أمل
 ينال بالرفق ما يعيا الرجالُ به * كالموت مستعجلا يأتى على مهل
 لا يُلْقِحُ الحربَ إلا رِيثَ يَنْتَجِها * من هالك وأسيرٍ غيرِ مُحْتَمِلِ
 إن شيمَ بارقهِ حالت خلائقُه * بين العطية والإمساك والعلل
 يُغشى المنايا المنايا ثم يَفْرُجُها * عن النفوس مُطَلَّاتٍ على الهَبْل^(١)
 لا يرحل الناسُ إلا نحوَ حَجْرته * كالبيت يَضْحَى إليه مُتَقَى السُّبُل^(٢)
 يَقْرِى المنيَّةَ أرواحَ الكُماةِ كما * يَقْرِى الضيوفَ شُحُومَ الكُومِ والبُزْل^(٣)
 يكسو السيوفَ دماءَ الناكثين به * ويجعل الهامَ تيجانَ القنا الذُّبُل
 يَغْدُو فتغْدو المنايا فى أَسِنَّته * شوارعا تَحْدَى الناسَ بالأَجَلِ
 إذا طَغَتْ فِتْنَةٌ عن غِبِّ طاعتها * عَيَّ لها الموتَ بين البيض والأسل
 قد عَوَّدَ الطيرَ عاداتٍ وثِقَنَ بها * فهنَّ يَتَّبَعْنَهُ فى كلِّ مُرْتَحَلِ
 تراه فى الأمن فى درعٍ مُضَاعَفَةٍ * لا يَأْمَنُ الدهرُ أن يُدْعَى على عَجَلِ
 ضافى العنان طموحَ العينِ همته * فَكَّ العُنَاةَ وأسرُ الفاتك الخطل^(٤)
 لا يَعْبَقُ الطَّيْبُ خَدَيْهِ ومَفْرِقَه * ولا يمسح عينيه من الكُحُلِ

(١) الهبل : فقدان . (٢) يعنى البيت الحرام . (٣) الكوم : العظام الأستنة واحداها كوما .

والبزل : جمع بازل وهو ماله تسمية أعوام . (٤) جمع عان وهو الأسير ، والخطل : ذر الخطل وهو الخطأ .

إذا انتضى سيفه كانت مسالكه * مسالك الموت في الأبدان والقُلل
 وإن خلت بحديث النفس فكرته * حتى الرجاء ومات الخوف من وجل
 كالليث إن هجته فالموت راحته * لا يستريح إلى الأيام والدول
 إن الحوادث لما رمن هضبه^(١) * أزمعن عن جار شيبان بمقتل
 فالدهر يغبط أولاه وأخيره * إذ لم يكن كان في أعصاره الأول
 إذا الشريك لم يفخر على أحد * تكلم الفخر عنه غير متحل
 لا تكذب فإن الحلم معدنه * ورأته في بني شيبان لم تزل
 سلوا السيوف فأغشوا من يحاربهم * خبطا بها غير ما نكل ولا وكل
 الزائدون قوم في رماحهم * خوف الخيف وأمن الخائف الوجل
 كبيرهم لا تقسوم الرأسيات له * حلما وطفاهم في هدى مكتهل
 أسلم يزيد فما في الدين من أود * إذا سلمت وما في الملك من خلل
 أثبت سوق بني الإسلام فاطادت^(٢) * يوم الخليج وقد قامت على زلل
 لولا دفاعك بأس الروم اذ بكترت * عن عترة الدين لم تأمن من الشكل^(٣)
 ويوسف البرم قد صبحت عسكه * بعسكر يلفظ الأقدار ذى زجل
 غافضته يوم عبر النهر مهنته * وكان محتجزا في الحرب بالمهل^(٤)
 والمارق ابن طريف قد دأفت له * بعسكر للنميا مسيل هطل^(٥)
 لما رآك مجدا في منيته * وأن دفعك لا يُسطاع بالحيل
 شام النزال فأبرقت اللقاء له * مقدم الخطو فيها غير متكل
 ماتوا وأنت غليل في صدورهم * وكان سيفك يستشفي من الغلل

(١) هذا ، بل ، يريد لما رامت الحوادث من استعاره . (٢) نسبة إلى شريك ، وهو أحد أجداد يزيد .
 (٣) هكذا في الأصل . وعندنا أن الكلمة محرفة عن (انطلدت) أى أثبتت ، وهى وزان أفعل من وطد .
 وكانت انطلدت ثم قلبت فاء الانفعال تاء وأدغم المثل في المثل . (٤) عترة الدين : جماعة الاسلام .
 (٥) أحد الخوارج على الرشيد . (٦) غافضه : فاحاه على غرة . (٧) هو الوليد بن طريف الشامي .

لو أنّ غير شريكٍ أطاف به * فاز الوليدُ بِقدحِ الناضلِ^(١) الخِصَلِ
وقمتَ بالدينِ يومَ الرّسِّ^(٢) فاعتدلت * منه قوائِمُ قد أوفت على مِيلِ
ما كانَ جمعُهُم لما لقيتَهُم * إلا كمثل نَعَامِ ريع مُنجِفِلِ
تابوا ولو لم يتوبوا من ذنوبِهِم * لأب جهشك بالأسرى وبالنَفَلِ
كم آمن لك نأى الدار مُمتنع * أخرجته من حصون المُلْكِ والحوَلِ
يأبى لك الدّم في يوميك إن دُرِ كرا * عَضْبُ حُسَامٍ وعرض غير مُبتَدَلِ
وما رِقِين غزاةٍ من بيوتِهِم * لا يَنكُون ولا يؤتُون من نَكَلِ
خَلَفْتَ أجسادهم والطيرُ عاكفةً * فيها وأقفلتَهُم هاما مع القَفَلِ
فانفَرَّ لها لك في شيبان من مَثَلِ * كذاك ما لى شيبان من مَثَلِ
كم مشهَدٍ لك لا تُحصى مآثرُهُ * قَسَمْتُ فيه كرزق الإنس والخبَلِ
لله من هاشم في أرضه جَبَل * وأنت وأبنك رُكننا ذلك الجبلِ
قد أعظموك فما تُدعى لهيئة * إلا لمُعْضلة تَسْتَنُّ^(٣) بالعَضَلِ
يا ربّ مكْرمة أصبحت واحدا * أعيّت صناديدَ رَأْمُها فلم تُثَلِ
تَسَاغلُ الناس بالدينِا وزُخرفها * وأنت من بَذَلِ المعروف في شُغْلِ
أقسمتُ ما دُب عن جدّواك طالبها * ولا دفعتَ اعتزامَ الحِدِّ بالهَزَلِ
يأبى لسانك منَعَ الجود سائلة * فما يُجْلِج بين الجود والبَخَلِ
صَدَقْتَ ظَنِّي وصدقت الظنونَ به * وحطّ جودك عَقْدَ الرّحْلِ عن جَحَلِ

فقال له يزيد : قد أمرنا لك بخمسين ألف درهم فاقبضها وأعذر ؛ فخرج الحاجب فقال
لمسلم : قد أمرنى أن أهرن ضيعة من ضياعه على مائة ألف درهم : خمسون ألفا منها لك
وخمسون ألفا لنفقته ، فأعطاه إياها . وكتب صاحب الخبر بذلك الى الرشيد ، فأمر ليزيد
بمائتي ألف درهم وقال : اقبض الخمسين ألفا التى أخذها الشاعر وزده مثلها ، وخذ

(١) الناضل : المصيب . والخصل مثله . (٢) الرّس : رادى أذربيجان . (٣) تستن بالعضل :
تتابع بالعسر . والمعضلة : الداهية .

مائة ألف لنفقتك ، فافتك ضيعته وأعطى مسلما خمسين ألفا أخرى . ولما أنشدته :
« لا يعبق الطيب » البيت . قال لجاريته : حرم علينا مسلم الطيب .

كان داود بن يزيد بن حاتم المهلبي يجلس للشعراء في السنة مجلسا واحدا ، فيقصدهونه لذلك اليوم وينشدونه ، فوجه اليه مسلم راويته بقصيدته التي أولها : « لا تدع بي الشوق » فقدم عليه يوم جلوسه للشعراء ولحقه بعقب خروجه عنده ، فتقدم الى الحاجب وحسرت لثامه عن وجهه ، ثم قال له : أستأذن لي على الأمير ؛ قال : ومن أنت ؟ قال : شاعر ، قال : قد أنصرم وقتك وأنصرف الشعراء وهو على القيام ؛ فقال له : ويحك ! إني قد وفدت على الأمير بشعر ما قالت العرب مثله ، وكان مع الحاجب أدب يفهم به ما يسمع ، فقال : هات حتى أسمع ، فإن كان الأمر كما ذكرت أوصلتك اليه ؛ فأنشده بعض القصيدة ، فسمع شيئا يقصر عنه الوصف ، فدخل على داود فقال له : قدم على الأمير شاعر بشعر ما قيل فيك مثله ؛ فقال : أدخل قائله ؛ فلما مثل بين يديه سلم وقال : قدمت على الأمير — أعزّه الله — بمدح يسمعه فيعلم تقدّمى على غيرى ممن أمتدحه ؛ فقال : هات ، فلما أفتتح القصيدة وقال : « لا تدع بي الشوق » استوى جالسا وأطرق حتى أتى الرجل على آخر الشعر ، ثم رفع رأسه اليه فقال : أهذا شعرك ؟ قال : نعم أيها الأمير ؛ قال : في كم قلته يا فتى ؟ قال : في أربعة أشهر أبقاك الله ؛ قال : لو قلته في ثمانية أشهر لكنت محسنا ، وقد أتممتك ، بخودة شعرك ونحول ذكرك ، فان كنت قائل هذا الشعر فقد أنظرتك أربعة أشهر في مثله ، وأمرت بالإجراء عليك ، فان جئتنا بمثل هذا الشعر وهبت لك مائة ألف درهم وإلا حرمتك ، فقال : أو الإقالة أعزّ الله الأمير ، قال : قد أقلتك ؛ قال : الشعر لمسلم بن الوليد وأنا راويته والوافد عليك بشعره ؛ فقال : أنا ابن حاتم ، إنك لما أفتحت شعره فقلت : « لا تدع بي الشوق » إني غير معمود » سمعت كلام مسلم يناديني ، فأجبت ندائه واستويت جالسا ؛ ثم قال : يا غلام ، أعطه عشرة آلاف درهم ، وأحمل الساعة الى مسلم مائة ألف درهم . وهذه هي القصيدة :

لا تَدْعُ بِي الشَّوْقَ إِلَى غير معمود * نَهَى النَّهْيَ عَنْ هَوَى الهَيْفِ الرَّعَادِيدِ^(١)
لَوْ شِئْتُ لَأَشِئْتُ رَاجِعْتُ الصَّبَا وَمَشَتْ * فِي الْعَيُونِ وَفَانَتْنِي بِجَمْلُودِ^(٢)
سَلْ لَيْلَةَ الْخَيْفِ هَلْ أَمْضَيْتُ آخِرَهَا * بِالزَّاحِ تَحْتَ نَسِيمِ الْخُرْدِ الْغَيْدِ
تَجَحَّجْتُهَا بِلُعَابِ الْمُزْنِ فَاغْتَرَلْتُ^(٣) * تَسْجِينَ مِنْ بَيْنِ مَحْلُولٍ وَمَعْقُودِ
كَلا الْجَدِيدِينَ قَدْ أُطْعِمْتُ حَبْرَتَهُ^(٤) * لَوْ آلَ حَى إِلَى عُمُرٍ وَتَخْلِيدِ
أَهْلًا بِوَأْفِدَةٍ لِلشَّيْبِ وَاحِدَةٍ * وَإِنْ تَرَأَتْ بِشَخْصٍ غَيْرِ مَوْدُودِ
لَا أَجْمَعُ الْحَلْمَ وَالصَّبَاءَ قَدْ سَكَنْتُ * نَفْسِي إِلَى الْمَاءِ عَنْ مَاءِ الْعَنَاقِيدِ
لَمْ يَنْهَنِي فَنَدُّ عَنْهَا وَلَا كِبَرُ^(٥) * لَكِنْ صَحُوتُ وَغُصْنِي غَيْرِ مَحْضُودِ
أَوْفَى بِي الْحَلْمُ وَأَقْتَادُ النَّهْيِ طَلَقَا * شَأْوَى وَعِفْتُ الصَّبَا مِنْ غَيْرِ تَفْنِيدِ
إِذَا تَحَاقَّتْ بِي إِلِهَاتُ عَنْ بِلَدِ * نَازَعَتْ أَرْضًا وَلَمْ أَحْفِلْ بِتَهْمِيدِ
لَا تَطْيِينِي الْمَنَى عَنْ جَهْدٍ مُطَلَّبِ^(٦) * وَلَا أَحُولَ لَشَيْءٍ غَيْرِ مَوْجُودِ
وَتَجَهَّلِ كَأَطْرَادِ السِّيفِ مُحْتَجِيزِ * عَنْ الْأِدْلَاءِ مَسْجُورِ الصَّبَاخِيدِ
تَمْشِي الرِّيحُ بِهِ حَسْرَى مُوَهَّةً * حَيْرَى تَلُودُ بِأَطْرَافِ الْجَلَامِيدِ
مَوْقِفِ الْمُنَى لَا تَمْضِ السَّبِيلُ بِهِ * إِلَّا التَّخْلُلَ رِيثًا بَعْدَ تَجْهِيدِ
قَرَيْتُهُ الْوَحْدَ مِنْ خَطَّارَةٍ سَرِجِ^(٧) * تَفَرَّى الْفَلَاةَ بِإِرْقَالٍ وَتَوَخِيدِ
إِيكَ بَادَرْتُ إِسْفَارَ الصَّبَاحِ بِهَا * مِنْ جُنْحِ لَيْلٍ رَحِيْبِ الْبَاعِ مَمْدُودِ
وَسَلْدَةٍ ذَاتِ غَوْلٍ لَا سَبِيلَ بِهَا * إِلَّا الظَّنُونُ وَالْأَمْسَرَحُ السَّيِّدِ
كَأَنَّ أَعْلَامَهَا وَالْأَلَّ يَرْكَبُهَا * بَدَنٌ تَوَافَى بِهَا نُزْرٌ إِلَى عِيدِ

(١) لا تدع بى الشوق، أى لا تدعى مشتاقا . وسأله دعبيل عن معنى ذلك فقال : لا تدعى صريع الغواني فليست كذلك ، وكان لهذا اللقب كارهها . ومعمود : عاشق ، والهيف : الضامرات الخصور . (٢) أى ذهبت بجملدى . (٣) اغترلت : اختلطت ، ويريد بالنسجين : ما رلى الماء من الخمر أسرع فيه الماء لخله ، وما رلى منها القاع بقى على حاله لم يخله الماء بعد . (٤) الخبرة : النعيم . (٥) الفند : اللوم . والمقصود : الواهن . (٦) أى لا تدعونى الى نفسها . (٧) الخطارة : الناقة تهرك ذنبها . والسرج : الحفيفة .

كَلَّفَتْ أَهْوَاهَا عَيْنًا مَوْزَقَةً * إِلَيْكَ لَوْلَاكَ لَمْ تُكْجَلْ بِتَسْهِيدِ
 حَتَّى أَتَتْكَ بَنَى الْأَمَلِ مُطْلَعًا * لِلْإِسْرِ عِنْدَكَ فِي سِرْبَالِ مَحْسُودِ
 مِنْ بَعْدِ مَا أَلْقَيْتَ الْأَيَّامُ لِي عَرَضًا * مُلْقَى رَهِينٍ لِحَدِّ السِّيفِ مَصْفُودِ^(١)
 وَسَاوَرَتْنِي بَنَاتُ الدَّهْرِ فَاثْمَحَنْتِ * رَبْعِي بِمُحَلَّةٍ شَهْبَاءَ جَارُودِ^(٢)
 إِلَى بَنِي حَاتِمٍ أَدَّى رُكَّائِي * خَوْضُ الدَّجَى وَسُرَى الْمَهْرِيَّةِ الْقُودِ
 تَطْوِي النَّهَارَ فَإِنْ لَيْلٌ تَحْمِطُهَا^(٣) * بَاتَتْ تَحْمِطُهَا مَاتِ الْقَرَادِيدِ
 مِثْلَ السَّمَاءِ بَعِيدَاتِ الْمَقِيلِ إِذَا * أَلْقَى الْهَجِيرُ يَدًا فِي كُلِّ صَيْخُودِ
 حَلَّتْ يَدَاوُدَ فَاثْمَحَتْ وَأَعْجَلَهَا * حَذَوُ النَّمَالِ عَلَى أَيْنٍ وَتَحْرِيدِ^(٤)
 أَعْطَى فَأَفْنَى الْمُنَى أَدْنَى عَطِيَّتِهِ * وَأَرْهَقَ الْوَعْدَ نُجْحًا غَيْرَ مَنْكُودِ
 وَاللَّهُ أَطْفَأَ نَارَ الْحَرْبِ إِذْ سُعِرَتْ * شَرْقًا بِمَوْقِعِهَا فِي الْغَرْبِ دَاوُدِ
 لَمْ يَأْبَ أَمْرًا وَلَمْ يَطْهَرْ عَلَى حَدَثٍ * إِلَّا أُعِينَ بِتَوْفِيقٍ وَتَسْدِيدِ
 مُوجِبُ الدُّرَى تَلْشَقُ الظُّنُونُ لَهُ * عَنْ كُلِّ مُلْتَبَسٍ مِنْهَا وَمَعْقُودِ
 ثُمْنَى الْأُمُورُ لَهُ مِنْ نَحْوِ أَوْجُهِهَا * وَإِنْ سَلَكَ سَبِيلًا غَيْرَ مَرُودِ
 إِذَا أَبَاحَتْ حِمَى قَوْمٍ عَقُوبَتُهُ * غَادَى لَهُ الْعَفْوَ قَوْمًا بِالْمَرَاوِدِ
 كَاللَّيْلِ بِلِ مِثْلِهِ اللَّيْلُ الْهَضُورَ إِذَا * غَنَى الْحَدِيدُ غِنَاءً غَيْرَ تَغْرِيدِ
 يَلْقَى الْمَنِيَّةَ فِي أَمْثَالِ عُدَّتِهَا * كَالسَّيْلِ يَقْدِفُ جَاهُودًا بِجَاهُودِ
 إِنْ قَصَرَ الرِّيحُ لَمْ يَمْشِ الْخَطَا عُدَا * أَوْ عَرَدَ السِّيفُ لَمْ يَهْمُ بِتَغْرِيدِ
 إِذَا رَعَى بَلَدًا دَانَى مَنَاهِلَهُ * وَإِنْ بَنِينَ عَلَى شُحْطٍ وَتَبْعِيدِ
 جَرَى فَأَدْرَكَ لَمْ يَعْنَفْ بِمَهْلَتِهِ * وَأَسْتَوْدَعَ الْبَهْرَ أَنْفَاسَ الْحَبَاوِيدِ^(٥)

(١) الرهين : الأسير . والمصفود : الموثق بالحديد . (٢) المحلّة : السنة الجلدة . والجارود :

المنجردة من النبات . (٣) تحمطها : سال بها . والقارديد : جمع قردة وهو المرتفع من الجبال .

(٤) السهام : طائر يشبه القطا . والصيخود : شدة الحر . (٥) التحريد من الحرد ، وهو داء يصيب الإبل

في قوائمها . والأين : الثعب . (٦) البهر : هو ما يعبرى الإنسان عند العدو من اللهث وتنايع النفس .

آل المهلب قوم لا يزال لهم * رِقَّ الصريح^(١) وأسلاب المداود
 مظفرون^(٢) تُصيب الحرب أنفسهم * إذا الفرار تَطَى بالمحاييد
 تجل مناجيب لم يعدم تِلادهم * فتى يُرجى لنقيض أو لتوكيد
 قوم إذا هداة^(٣) شامت سيوفهم * فإنها عَقْل الكوم المقاحيد
 نفسى فداؤك يا داود إذ عِلقت * أيدى الردى بنواصي الضمر القود
 داويت من دائها كرمات وانتصفت * بك المنون لأقوام مجاهيد
 ملائها فزعا أخلى معاقلها * من كل أبلغ^(٤) سامى الطرف صنيديد
 لما نزلت على أدنى بلادهم * ألقى إليك الأقاصى بالمقالييد
 لمستم بيد للعفو متصلي * بها الردى بين تليين وتشديد
 أتيتهم من وراء الأمن مطلعا * بالخيل تردى بأبطال مناجيد
 وطار في إثر من طار الفرار به * خوف يعارضه في كل أخذود
 فاتوا الردى وطبات الموت تنشدهم * وأنت نصب المنايا غير منشود
 ولو تلبث ديان لها رويث^(٥) * منه ولكن شأها عدو مزود
 أحرزه أجلا ما كاد يُحرزه * فمر يطوى على أحشاء مفؤد^(٦)
 ورأس مهران قد ركبته قلته * لذنّا كفاه مكان الليت والحييد
 قد كان في معزل حتى بعثت له * أم المنيّة في أبنائها الصيد
 أجنّ أم أسلمته الفاضحات الى * حصد من السيف من يعاق به يود
 ألحقته صاحبيه فاستمر بهم * ضرب يفرق ضبات^(٧) القماحيد

(١) رف الصريح، أى استعباد الحر . والمداويد : الانجاد واحده مذرد . (٢) المحاييد : الجبناء
 جمع محياد . (٣) الهداة : الفترة . (٤) الأبلغ : المتكبر .
 (٥) شأها : سبقها . ومزود : مرعوب . (٦) المفئود : الذى أصيب فؤاده . (٧) الضبات :
 أربال الرأس . والفاحيد : جمع فمودة وهى العظم الناقى فى مؤخر الرأس بين القفا وأعلى الرأس .

أَعْدَرُ مَنْ قَرَّ مِنْ حَرْبٍ صَبَرَتْ لَهَا * يَوْمَ الْحُصَيْنِ شِعَارٌ غَيْرَ مَجْهُودٍ
يَوْمَ اسْتَضَبَّتْ سِجِسْتَانُ طَوَائِفِهَا ^(٢) * عَلَيْكَ مِنْ طَالِبٍ وَثْرًا وَمَحْقُودٍ
نَاهَضَتَهُمْ ذَائِدُ الْإِسْلَامِ تَقَرَّعَهُمْ * عَنْهُ ثَلَاثَ وَمِثْقَى بِالْمَوَاحِيدِ
تَجُودُ بِالنَفْسِ إِذْ أَنْتَ الضَّيْنِ بِهَا * وَالْجُودُ بِالنَفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ
تَمَكُّ الْأَزَارِقِ إِذْ ضَلَّ الدَّلِيلُ بِهَا * لَمْ يُخْطِهَا الْقَصْدُ مِنْ أَسْيَافِ دَاوُدَ
كَانَ الْحُصَيْنُ يُرَبِّحِي أَنْ يَفُوزَ بِهَا * حَتَّى أَخَذَتْ عَلَيْهِ بِالْأَخَادِيدِ
مَا زَالِ يَعْنُفُ بِالنُّعْمَى وَيَغْمِطُهَا * حَتَّى أَسْتَقَلَّ بِهِ عَوْدٌ عَلَى عَوْدِ
وَضَعَتْهُ حَيْثُ تَرْتَابُ ^(٣) الرِّيحُ بِهِ * وَتَحْسُدُ الطَّيْرَ فِيهِ أَضْبَعُ الْيَدِ
تَعْدُو وَالضُّوَارِي فَتَرْمِيهِ بِأَعْيُنِهَا * تَسْتَنَشِقُ الْجَوَّ أَنْفَاسًا بِتَضَعِيدِ
يَتَّبَعْنَ أَفْيَاءَ ^(٤) طُورًا وَمَوْقِعَهُ * يَلْبَغْنَ فِي عَاقِي مِنْهُ وَتَجْسِيدِ
فَكَانَ فَارِطًا قَوْمٍ حَانَ مَكْرُهُمْ * بَارِضَ زَادَانَ شَقَى فِي الْمَوَارِيدِ
يَوْمَ جَرَّاشَةِ إِذْ شَبَّانَ مُوجِفَةً ^(٥) * يَجُونُ مِنْكَ إِشْلُومُنْهُ مَقْدُودِ
زَاخَفْتَهُ بَابَنَ سُفْيَانٍ فَكَانَ لَهُ * ثَنَاءُ يَوْمَ بَظْهَرِ الْغَيْبِ مَشْهُودِ
نَجَا قَلِيلًا وَوَأَى زَجْرُ عَائِفِهِ * بِيَوْمِهِ طَيْرَ مَنْحُوسٍ وَمَسْعُودِ
وَلَّى وَقَدْ جَرَعَتْ مِنْهُ الْقَنَا جُرْعًا * حَتَّى الْخَافَةِ مَيْثَا غَيْرَ مَدُودِ
زَالَتْ حُشَّاشَتُهُ عَنْ صَدْرِ مُعْتَدِلٍ * دَانِي الْكُحُوبِ بَعِيدِ الصَّدْرِ أُمْلُودِ ^(٦)
إِذَا السُّيُوفُ أَصَابَتْهُ تَقَطَّعَ فِي * سُرَادِقِ بَحْسَوَامِي الْخَيْلِ مَدُودِ
يَفْدِي بِمَا نَحَلْتُهُ مِنْ خِلَافَتِهِ * حُشَّاشَةِ الرُّكُضِ مِنْ جَرْدَاءِ قِيدُودِ ^(٧)
حَلَّ اللَّوَاءِ وَخَالَ الْخِدرَ عَائِدَهُ * فَعَاذَ بِالْخِدرِ رَبُّ الْكَعَابِ الرُّودِ

(١) أعذر : جاء بما يمدد عليه . (٢) أى أغرت طوائفها . (٣) ترتاب : أى تستنكر .

(٤) الأفياء : جمع فى، وهو الظل آخر النهار . والجسد : الدم . (٥) موجفة : سريعة .

(٦) أملود : أملس . (٧) الجرءاء : قصيرة الشعر . والقيدود : الناقة الطويلة الظهر .

(١) وإن يكن شَبها حرباً وقد نَحَدت * فنائياً حيث لا هَيْد ولا هَيْد
 كُلُّ مَثَلٍ به في مثل خُطْبِهِ * قَتَلَا وأَصْجَعَتَهُ في غير مَلْجُود
 عافُوا رِضاكَ فعاقَتَهُم بِعَقْوَتِهِمْ * ^(٢) عن الحياة مناياهم لِمَوْعُود
 وَأَنْتَ بالسَّندِ اذْهَاج الصَّرِيحُ بِهَا * وَأَسْتَفِدْتُ حَرْبُهَا كَيْدَ المَكَايِدِ
 وَأَسْتَغْزِرُ القَوْمَ كَأَسَا مِنْ دِمَائِهِمْ * وَأَحْدَقَ المَوْتَ بالكُرَّارِ والجِلْدِ
 رَدَدْتَ أَهْمَالَهَا القَصْوَى مَخِيسَةً * ^(٣) وَشِمْتَ بالبَيْضِ عَوْرَاتِ المَرَاصِيدِ
 كُنْتُ المَهْلَبَ حَتَّى شَكَّ عَالَمُهُمْ * ثُمَّ انْفَرَدْتُ وَلَمْ تُسَبِّقْ بِتَسْوِيدِ
 لَمْ تَقْبَلِ السَّلْمَ إِلَّا بَعْدَ مَقْدَرَةٍ * وَلَا تَأَلَّفْتَ إِلَّا بَعْدَ تَبَايِدِ
 حَتَّى أَجَابُوكَ مِنْ مُسْتَأْمِنٍ حَنِيرٍ * رَاجٍ وَمُتَظَرٍّ حَتْفًا وَمُتَمُودِ
 أَهْدَى إِلَيْكَ عَلَى الشَّحْنَاءِ أُلُقَتَهُمْ * مَوْتُ تَفَرَّقَ فِي شَقَى عِبَادِيدِ
 وَفِي يَدَيْكَ بَقَايَا مِنْ سَرَاتِهِمْ * هُمْ لَدَيْكَ عَلَى وَعْدٍ وَتَوْعِيدِ
 إِنْ تَعَفَّ عَنْهُمْ فَأَهْلُ العَفْوِ أَنْتَ وَإِنْ * تُمَضِّعُ العِقَابَ فَأَمْرٌ غَيْرُ مُرْدُودِ
 إِسْمِعْ فَإِنَّكَ قَدْ هَيَّجْتَ مَلْحَمَةً * وَفَدَّتْ مِنْهَا بِأَرْوَاحِ الصَّنَادِيدِ
 أَقْدِفْ أَبَا مَالِكٍ فِيهَا يَكْنُكُ بِهَا * وَيَسْعَ فِيهَا بِجَدِّكَ مِنْكَ مَجْدُودِ
 يَمْضِي بِعِزِّكَ أَوْ يَجْرِي بِشَاوِكَ أَوْ * يَفْرَى بِحَدِّكَ كُلِّ غَيْرِ مُحْدُودِ
 لَا يَبْعَثُكَ حَتَّى الْإِسْلَامَ مِنْ مَلِكٍ * أَقَمْتَ قُلَّتَهُ مِنْ بَعْدِ تَأْوِيدِ
 كَفَيْتَ فِي الْمُلْكِ حَتَّى لَمْ يَقِفْ أَحَدٌ * عَلَى ضَيَاعٍ وَلَمْ يَحْزَنْ لِمَفْقُودِ
 أَعْطَيْتَهُمْ مِنْكَ نُصْحًا لَا كِفَاءَ لَهُ * وَأَيَّدُوكَ بِرُكْنٍ غَيْرِ مَهْدُودِ
 لَمْ يَبْعَثِ الدَّهْرُ يَوْمًا بَعْدَ لَيْلَتِهِ * إِلَّا أَنْبَعَثَ لَهُ بِالْبَاسِ وَالْجُودِ
 أَجْرَى لَكَ اللَّهُ أَيَّامَ الْحَيَاةِ عَلَى * فَعَلٍ حَمِيدٍ وَجَدَّ غَيْرِ مَنْكُودِ

(١) كلتان يزجرهما الإبل . (٢) بعقوتهم ، أى بفنائهم . (٣) الأهمال : جمع همل ، وهو

الشيء المسبب ، ويراد به الصعب . ومخيسة : مذلة .

لا يفقد الدين خيالا أنت قائدها * يُعْهَدَنَّ في كل ثغر غير معهود
تَحَلَّاتٍ إذا آتَتْ غنائمها * ومُقَدَّمات على نصر وتأيد
هناك أنك مَغْدَى كُلِّ مَلْتِمِس * جُودا وأُنك مأوى كل مطرود
تستأنف الحمد في دهر أوائله * موسومة بفعال منك محمود
إذا عزمْتَ على أمر بطشت به * وإن أنَلت فيئلا غير تصريد
عُودت نفسك عادات خلقت لها * صِدْق الحديث وإنجاز المواعيد

دخل الوليد على الفضل بن سهل لينشده شعرا، فقال له : أيها الكهل ، إني أجلك
عن الشعر فسل حاجتك ؛ قال : بل لستم اليدي عندي بأن تسمع ، فألنسه :
دُموعها من حذار البين نسكب * وقلبها مغرم من حرها يجب
جَدَّ الرحيل به عنها ففارقها * لبينه الالهو واللذات والطرب
يهوى المسير إلى مرو ويحزبه * فراقها فهو ذو نفسين يرتقب
فقال له الفضل : إني لأجلك عن الشعر ؛ قال : فأغنى بما أحببت من عملك ، فولاه
البريدَ بِمُجَرَّانٍ^(١) .

هجا مسلم قریشا ونغر بالأنصار بشعر يمثل لك ناحية من نواحي العصبية بين القبائل
وهو يعتبر، الى حد ما، من الشعر السياسي، فقال :

قل لمن تاه إذ بنا عز جهلا * ليس بالثيه يفخر الأحرار
فتناهوا وأقصرُوا فلقد جا * رت عن القصد منكم الأبصار
أيُّكم حاط ذا جوارٍ بعز * قبل أن تحتويه من الدار
أورجا أن يفوت قوما بوتر * لم تزل تمتطيهم الأوتار
لم يكن ذاك فيكم فدعُوا الفخر * بر بما لا يسوغ فيه افتخار
ونزارا ففاحروا تفضُّلُهم * ودعوا من له عبيد نزار

(١) . بلدة عظيمة كانت بالقرب من بحر قزوين الى الجنوب الشرق منه .

فَبِنَا عِزَّ مَنْكُمُ الذَّلَّ وَالده. * سُرَّ عَلَيْكُمْ بِرَيْبِهِ كَزَار
حَازِرُوا دَوْلَةَ الزَّمَانِ عَلَيْكُمْ * إِنَّهُ بَيْنَ أَهْلِهِ أَطْوَار
فَتُرْتَدُّوا وَنَحْنُ لِلْحَالَةِ الْأَوَّلَى * لِي وَلِلْأَوَّلِ الْأَوَّلِ الصَّغَار
فَانْحَرَّتْنَا لِمَا بَسَطْنَا لَهَا الْفَخْرَ * رِقْرِيشٌ وَفَخْرُهَا مُسْتَعَار
ذِكْرُ عِزِّهَا وَمَا كَانَ فِيهَا * قَبْلَ أَنْ تَسْتَجِيرَنَا مُسْتَجَار
إِنَّمَا كَانَ عِزُّهَا فِي جِبَالٍ * تَرْقِيهَا كَمَا تَرْقَى الْوَبَار
أَيُّهَا الْفَاحِرُونَ بِالْعِزِّ وَالْعَدَا * زُلْفُومٌ سَوَاهِمٌ وَالْفَخَار
أَخْبَرُونَا مِنَ الْأَعْزِ الْأَمْنِ * صُورٌ حَتَّى آتَى أُمَّ الْأَنْصَار
فَلَنَا الْعِزُّ قَبْلَ عِزِّ قَرِيشٍ * وَقَرِيشٌ تِلْكَ الدَّهْرُ وَتِجَار

فَانْبَرَى لَهُ أَبْنُ قَنْبَرٍ يَحْيِيهِ فَقَالَ :

أَلَا أَمْثَلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِمُسْلِمٍ * وَأَقْلَقَ بِهِ الْأَحْشَاءَ مِنْ كُلِّ مُجْرِمٍ
وَلَا تَرْجِعَنَّ عَنْ قَتْلِهِ بِاسْتِثْنَاءٍ * فَمَا هُوَ عَنْ شَتْمِ النَّبِيِّ الْمُحْرَمِ
وَلَا عَنْ مُسَاوَاةٍ لَهُ وَلِقَوْمِهِ * قَرِيشًا بِأَصْدَاءِ لِعَادٍ وَجُرْهُمِ
وَيَفْخَرُ بِالْأَنْصَارِ جَهْلًا عَلَى الَّذِي * بَنَصْرَتِهِ فَازُوا بِحِطِّ وَمَغْنَمِ
وَسَمَّوْا بِهِ الْأَنْصَارَ لَا عِزَّ قَائِلٍ * أَرَادَ قَرِيشًا بِالْمَقَامِ الْمَذْمُومِ
وَمِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ أَزَى مَنْ آتَى * إِلَى نَسَبِ زَاكِ وَمَجْدِ مُقَدَّمِ
وَمَا كَانَتْ الْأَنْصَارُ قَبْلَ اعْتِصَامِهَا * بِنَصْرِ قَرِيشٍ فِي الْحَلِّ الْمَعْظَمِ
وَلَا بِالْأَلَى يُعْلَوْنَ أَقْدَارَ قَوْمِهِمْ * صُدَاءٍ وَخَوْلَانٍ وَلَحْمٍ وَسِلَهِمِ
وَلِكُنْهُمْ بِاللَّهِ عَادُوا وَنَصْرِهِمْ * قَرِيشًا وَمَنْ يَسْتَعِصِمُ اللَّهَ يَعْصِمِ
فَعَزَّوْا وَقَدْ كَانُوا وَفِطْيُونُ فِيهِمْ * مِنَ الذَّلِّ فِي بَابِ مِنَ الْعِزِّ مَبْهَمِ
يَسُومُهُمُ الْفِطْيُونُ مَا لَا يُسَامَهُ * كَرِيمٌ وَمَنْ لَا يُنْكَرُ الظُّلْمَ يُظْلَمِ
وَإِنْ قَرِيشًا بِالْمَآثِرِ فَضَّلَتْ * عَلَى الْحَلْقِ طَرَا مِنْ فَصِيحٍ وَأَعْجَمِ

فما بال هذا العليج ضلّ ضلاله * يمد اليهم كف أجذم أعسم
يُسامي قريشا مسلم وهم هم * بمولى يمانى وبيت مهّدم
إذا قام فيه غيرهم لم يكن لهم * مقام به من لؤم مبنى ومدّهم
جَعَسَيْسُ^(١) أشباه القروذ لو أنهم * يباعون ما أبْتِيعُوا جميعا بدرهم
وما مسلم من هؤلاء ولا ألى * ولكنه من نسل عليج ملّكم
تولى زمانا غيرهم ثم ادعى * اليهم فلم يسكروا ولما يسكروا
فإن يك منهم فالنضير ولقّهم * مواليه لا من يدعى بالترّثم
وإن تدّعه الأنصار مولى أسْمُهُم * بقافية تسكروا الجلد بالدم
عقابا لهم في إفكهم وأدعائهم * لأفلّ منقوش الذراع مؤثّم
فلا تدعوه وانتفوا منه تسلموا * بنفْيِكُوهُ من مقال ومأثم
وإلا فغضوا الطرف وانتظروا الردى * إذا اختلفت فيكم صوارد أسهمى
ولم تجحدوا عنها يحنّا يحنّاكم * إذا أطلعت من كل فج ومعلم
وأنتم بنو أذنان من أتم له * ولستم بأبناء السّام المقّدم
ولا يبنى الرأس الرفيع محله * فيسمو بكم مولى مسام ويتنمى
فكيف رضيتم أن يُسامى نبيكم * ببيتكم الرث القصير المهّدم
ساحطم من سامى النبي تطاولا * عليه وأكوى منتهاه بميسمى
أعبدل بيت بئر بى بكعبة * ثوتها قريش فى المكان المحترم
قريش خيار الله والله خصّهم * بذلك فأنعس أيها العليج وأرغم
ومن تدعى منه الولاء مؤخر * إذا قيل للجارى الى المجد أقدم

وكان مسلم قال قصيدته فى قريش وكتبها ، ف وقعت إلى ابن قنبر وأجابه عنها ، فاستعلى عليه وهتكه وأغرى به السلطان ، فلم يكن عند مسلم فى هذا جواب أكثر من الانتفاء منها

(١) الجعاسيس : اللثام فى الخلق والخلق .

ونسبته إلى ابن قنبر والادعاء عليه أنه الصقها به ونسبها إليه ليعرضه للسلطان وخافه، فقال
ينتهي من هذه القصيدة :

دعوت أمير المؤمنين ولم تكن * هناك ولكن من يخف يتجشم
وانك إذ تدعو الخليفة ناصرا * لكلمت في السماء بسلم
كذلك الصدى تدعوه من حيث لا ترى * وإن تتوهمه تمت في التوهم
هجوت قريشا عامدا وتحلتني * رؤيدك يظهر ما تقول فيعلم
إذا كان مثلي في قبيل فإنه * على ابن لوى قصرة غير منهم
سيكشفك التعديل عما قدفتني * به فتأخر عارفا أو تقدم
فإن قريشا لا يغادر ودها * ولا يستمال عهدا بالترحم
مضى سلف منهم وصلى بعقبهم * لنا سلف في الأول المتقدم
جروا بخيرنا سابقين بسبقهم * كما أتبعك كف نواشر معصم
وإن الذي يسعى ليقطع بيننا * كئتمس اليربوع في حجر أرقم
أضلك قريع الابدات طريقها * فأصبحت من عميائها في تيم
وخانتك عند الجوى لما أتبعتمها * تميم فحاولت العلاء باللقح
فأصبحت ترميني بسهمى وتنتقي * يدي بيدي أصليت نارك فاضرم

ثم هجاه ابن قنبر بقصيدة أولها :

قل لعبد النصير مسلم الوغد * مد الدين اللهم سنخ النصاب
إخس يا كلب إذ نجت فإني * لست من يجيب نبح الكلاب
أفأرضي ومنصبى منصب العز * ويبقى في ذروة الأحساب
أن أخط الرفيع من تملك بيتي * بمهاجاة أوشب الاوشاب
من إذا سبل من أبوه بدا من * به حياء يحميه رجع الجواب

واذا قيل حين يُقِيل من أند * ست ومن تعتريه في الأنساب
قلت هايجي ابن قنبر فتسر بد * ست بذكري نخرالدى اللساب
وهي قصيدة طويلة فلم يجبه عنها مسلم بشيء فقال فيه ابن قنبر أيضا :
لست أنفيك إن سوى نفاكا * عن أبيك الذي له منمكا
ولماذا أنفيك يا بن الوليد * من أب إن ذكرته أنزكا
ولو آنى طلبت الأم منه * لم أجده إن لم تكن أنت ذاك
لو سواه أبوك كان جعلنا * ه اذا الناس طاعونا أبانا
حالك دهرنا بغير حذق لبرد * وتحوك الأشعار أنت كذاكا

ثم هجاه بشعر أقذع فيه ، فمضى اليه قوم من مشايخ الأنصار وأستعانوا بمشايخه من قراء
تميم وذوى الفضل والعلم ، فمشوا معهم اليه ، فقالوا : ألا تستحي من أن تهجو من لا يبيحك !
أنت بدأت الرجل فأجابك ، ثم عدت فكف ، وتجاوزت ذلك الى ذكر أعراض الأنصار التي
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحميها ويذب عنها وبصونها لغير حال أحلت ذلك منهم ،
فما زالوا به يعظونه ويقولون له كل قول حتى أمسك عن المناقضة لمسلم فانقطعت .

ولمسلم بن الوليد :

ولاني وإسماعيل يوم وداعه * لك الغمد يوم الروع فارقه النصل
أما والحبالات الممرات بيننا * وسائل أدتها المودة والوصل
لما خنت عهدا من إخاء ولا نأى * بذكرك نأى عن ضميري ولا شغل
وأتى في مالي وأهلي كأني * لنأيك لا مال لدى ولا أهل
يذكرنيك الدين والفضل والحجا * وقيل الحنا والحلم والعلم والجهل
فألفاك عن مذمومها متنزها * وألقاك في محمودها ولك الفضل
وأحمد من أخلاقك البخل إنه * بعرضك لا بالمال حاشا لك البخل
أمتيجمعاً قروا بأثقال هممة * دغ القل وأحمل حاجة ما لها ثقل

شَاءَ كَعْرِفِ الطَّيِّبُ يُهْدِي لِأَهْلِهِ * وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا بَنَى خَالِدَ أَهْلِهِ
فَإِنْ أَغْشَى قَوْمًا بَعْدَهُمْ أَوْ أَزَوْرَهُمْ * فَكَالْوَحْشِ يَسْتَنْدِينِيهِ لِلْقَنْصِ الْمَحَلِّ

وله يرثي يزيد بن مزيد :

أَحَقُّ لِمَنْهُ أَوْ دَى يَزِيدُ * تَأْتِلُ أَيْهَا النَّاعِي الْمُسَيِّدُ
أَتَدْرِي مَنْ نَعَيْتَ فَكَيْفَ فَاهَتْ * بِهِ شَفَاتِكَ كَانَ بِهِ الصَّعِيدُ
أَحَامِي الْمَجْدِ وَالْإِسْلَامِ أَوْ دَى * فَمَا لِلْأَرْضِ وَيْحَكَ لَا تَمِيدُ
تَأْمَلْ هَلْ تَرَى الْإِسْلَامَ مَالَتْ * دَعَائُكُمْ وَهَلْ شَابَ الْوَلِيدُ
وَهَلْ شِمِيتَ سَيُوفَ بَنَى زَرَارَ * وَهَلْ وَضَعْتَ عَنِ الْخَلِيلِ الْبُودُ
وَهَلْ تَسْقَى الْبِلَادَ عِشَارَ مُزْنٍ * بِدَرَّتْهَا وَهَلْ يَخْضَرُّ عَوْدُ
أَمَّا هُدَّتْ لِمَصْرَعِهِ نَزَارَ * بَلَى وَتَقَوَّضَ الْمَجْدُ الْمَشِيدُ
وَحَلَّ ضَرِيحَهُ إِذْ حَلَّ فِيهِ * طَرِيفُ الْمَجْدِ وَالْحَسَبِ التَّلِيدُ
أَمَّا وَاللَّهِ مَا تَفَكَّ عَيْنِي * عَلَيْكَ بِدَمْعِهَا أَبَدًا تَجُودُ
فَإِنْ تَجَدَّدَ دَمُوعَ لَيْثِمِ قَوْمٍ * فَلَيْسَ لِدَمْعِ ذِي حَسَبٍ جَمُودُ
أَبْعَدُ يَزِيدُ تَحْتَرِبُ الْبَوَاكِي * دَمُوعًا أَوْ تُصَانُ لَهَا خَدُودُ
لَيْتَبَكَ قُبَّةُ الْإِسْلَامِ لِمَا * وَهَتْ أَطْنَابُهَا وَوَهَى الْعَمُودُ
وَيَبْكُ شَاعِرٌ لَمْ يُبْقِ دَهْرٌ * لَهُ نَشْبَا وَقَدْ كَسَدَ الْقَصِيدُ
فَنْ يَدْعُو الْإِمَامُ لِكُلِّ خَطْبٍ * يَنْوُبُ وَكُلِّ مُعْضِلَةٍ تَشُودُ
وَمَنْ يَحْيَى الْخَلِيسَ إِذَا تَعَايَا * بِحِيلَةٍ نَفْسُهُ الْبَطْلُ التَّجِيدُ
فَإِنْ تَهْلِكُ يَزِيدُ فَكُلِّ حَيٍّ * فَرِيْسٌ لِلنِّيَّةِ أَوْ طَرِيدُ
أَلَمْ تَعْجَبْ لَهُ أَنْ الْمُنَايَا * فَتَنْكُنَ بِهِ وَهَنْ لَهَا جُنُودُ
لَقَدْ عَزَى رُبْعَةً أَنْ يَوْمًا * عَلَيْهَا مِثْلُ يَوْمِكَ لَا يَعُودُ

١٣ - العباس بن الأحنف^(١)

قال إبراهيم بن العباس يصفه : كان والله من اذا تكلم لم يحب سماعه أن يسكت ، وكان فصيحاً جميلاً ظريف اللسان ، لو شئت أن تقول كلامه كله شعر لقلت .

وقال صالح بن عبد الوهاب : كان العباس من عرب نحرأسان ومنشؤه ببغداد ، ولم تزل العلماء تقدمه على كثير من المحدثين ، ولا تزال قد ترى له الشيء البارع جداً حتى تحقه بالمحسنين .

وقال الجاحظ : لولا أن العباس بن الأحنف أخذت الناس وأشعرهم ، وأوسعهم كلاماً وخاطراً ، ما قدر أن يكثر شعره في مذهب واحد لا يجاوز ، لأنه لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسب ولا يتصرف ، وما نعلم شاعراً لزم فناً واحداً لزومه فأحسن فيه وأكثر .

أنشد الحرمازي للعباس بن الأحنف :

لا جزى الله دمع عيني خيراً * وجزى الله كل خير لساني

تم دمي فليس يكتم شيئاً * ورأيت الأسانف ذا كتمان

كنت مثل الكتاب أخفاه طي * فاستدلوا عليه بالعنوان

ثم قال : هذا والله طراز يطلب الشعراء مثله فلا يقدر أن عليه .

(١) كان العباس شاعراً غزلاً ، طبعاً من شعراء الدولة العباسية ، وله مذهب حسن ، ولدياً جارة شعره رونق ، ولعائيه عذوبة ولطف ، ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مدح ولا هجاء ، ولا يتصرف في شيء من هذه المعاني . وقدمه أبو العباس المبرد في كتاب الروضة على نظرائه وأطرب في وصفه ، وقال : رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدمونه ، قال : وكان العباس من الطرفاء ولم يكن من الخلفاء ، وكان غزلاً ولم يكن فاسقاً ، وكان ظاهر النعمة ملوكي المذهب شديد النظرف ، وذلك بين في شعره ، وكان قصده الغزل وشغله النسيب ، وكان حلواً مقبولاً غزلاً غزير الفكر واسع الكلام كثير التصرف في الغزل وحده ، ولم يكن هجاء ولا مدحاً . وله ديوان طبع مع ديوان ابن مقارون بالآستانة سنة ١٢٩٨ هـ ويجد أخباره وأشعاره في الأعاني (ج ٨ ص ١٥) وابن خلكان (ج ١ ص ٣٤٦) والشعر والشعراء (ص ٥٢٥) .

وكان أبو الهذيل العلاف يُغضبه وياعنه لفوله :

إذا أردتُ سُلوًا كان ناصركم * قلبي وما أنا من قلبي بمتنصير
فأكثروا أو أقلوا من إساءتكم * فكل ذلك محمولٌ على القدير

فكان أبو الهذيل ياعنه ويقول : يعقِد الكفرَ والفجورَ في شعره ، فقال العباس — وقال

محمد بن يحيى : وأظن أنه يرجو به أبا الهذيل وما سمعتُ للعباس هجاء غيره — :

يامنُ يكذب أخبارَ الرسول لقد * أخطأت في كل ما تأتي وما تذر
كذبتَ بالقدر الجارى عليك فقد * أناك منى بما لا تشتهي القدر

قيل للأصمعي : ما أحسن ما تحفظ للمحدثين ؟ قال : قولُ العباس بن الأحنف :

لو كنتِ عاتبةً لسكن روعي * أملي رضاك وزرتُ غير مراقب
لكن مللت فلم تكن لي حيلة * صد الملول خلاف صد العاتب

وما أشده له إبراهيم بن العباس :

قالت ظلومُ سميةُ الظلم * مالى رأيتك ناحل الجسيم
يامن رمى قلبي فأقصده * أنت العلیم بموضع السهم

ولشعره الغزلي وقع في النفس ، فانهم كانوا يغنون كثيرا منه كقوله :

لو كنت عاتبةً لسكن روعي * أملي رضاك وزرت غير مراقب
لكن مللت فلم تكن لي حيلة * صد الملول خلاف صد العاتب

وأشده للأصمعي :

أتأذنون لصب في زيارتكم * فعندكم شهواتُ السمع والبصر
لا يضر السوء إن طال الجلوس به * عف الضمير ولكن فاسق النظر

فقال : ما زال هذا الفقي يدخل يده في جرابه فلا يُخرج شيئا حتى أدخلها فأخرج هذا ،
ومن أدمن طلب شيء ظفر ببعضه .

وقال سعيد بن جندب : ما أعرف أحسن من شعر العباس في إخفاء أمره حيث يقول :

أريدك بالسلام فأتقيهم * فأعبد بالسلام الى سواك
وأكثر فيهم ضحكى ليخفى * فسنى ضاحك والقلب باك

ومما تمثل به الواصل في شركان بينه وبين بعض جواريه :

عدل من الله أبكاني وأضحكها * فالحمد لله عدل كل ما صنعنا
اليوم أبكى على قاي وأندبه * قلب ألح عليه الحب فانصدعا

ومما تمثل به أيضا في مثل ذلك :

أما تحسبني أرى العاشقين * بللى ثم لست أرى لى نظيرا
لعل الذى بيديه الامور * سيجعل فى الكره خيرا كثيرا

وقال الزبير : ابن الأحنف أشعر الناس فى قوله :

تعتل بالشغل عنا ما تكلمنا * الشغل للقلب ليس الشغل للبدن

ويقول : لا أعلم شيئا من أمور الدنيا خيرها وشرها إلا وهو يصلح أن يتمثل فيه بهذا النصف الأخير .

وقال إسحاق : لقد ظرف ابن الأحنف فى قوله — يصف طول عهده بالنوم — :

قفا خبرانى أيها الرجال * عن النوم إن الهجر عنه نهانى

وكيف يكون النوم أم كيف طعمه * صفا النوم لى إن كنتم تصفان

على قلة إعجابه بمثل هذه الأشعار .

قال أحمد بن ابراهيم : رأيت سلمة بن عاصم ومعه شعر العباس بن الأحنف ، وقلت

مثلك أعزك الله يحمل هذا ! فقال : ألا أحمل شعر من يقول :

أسأت إذ أحسنت ظنى بكم * والحزم سوء الظن بالناس

يقاينى الشوق فأتيتكم * والقلب مملوء من الياس

وقال أحمد بن إبراهيم: أتاني أعرابي فصيحٌ ظريف، فجعلتُ أكتب عنه أشياءً حسناً، ثم قال: أنشدني لأصحابكم الحَظيريين، فأنشدته للعباس بن الأحنف:

ذَكَرْتُكَ بِالتَّفَاحِ لَمَّا سَمِعْتُهُ * وَبِالرَّاحِ لَمَّا قَابَلْتُ أَوَّجَةَ الشَّرْبِ
تَذَكَّرْتُ بِالتَّفَاحِ مِنْكَ سَوَالِفًا * وَبِالرَّاحِ طَعْمًا مِنْ مَقْبَلِكَ الْعَذْبِ

فقال: هذا عندك وأنت تكتب عني! لا أنشدك حرفاً بعد هذا.

وقال عبد الله بن العباس بن الفضل: ما أعرف في العراق أحسن من قول ابن الأحنف:

سَبَّحَانَ رَبِّ الْعَلَا مَا كَانَ أَغْفَلَنِي * عَمَّا رَمَتْنِي بِهِ الْأَيَّامُ وَالزَّمَنُ
مَنْ لَمْ يَذُقْ فِرْقَةَ الْأَحْبَابِ ثُمَّ يَرَى * آثَارَهُمْ بَعْدَهُمْ لَمْ يَدْرِ مَا الْحَزَنُ

قال حسين بن الضحَّاك: لوجاء العباس بقولٍ ما قاله في بيتين في أبياتٍ لِعُذْرٍ، وهو قوله:

لَعَمْرُكَ مَا يَسْتَرِيحُ الْحُبُّ حَتَّى يَبُوحَ بِأَسْرَارِهِ
فَقَدْ يَكْتُمُ الْمَرْءُ أَسْرَارَهُ * فَتُظْهِرُ فِي بَعْضِ أَشْعَارِهِ

ثم قال: أما قوله في هذا المعنى الذي لم يتقدمه فيه أحد فهو:

الْحُبُّ أَمْلَكَ لِلْفَوَادِ بِقَهْرِهِ * مَنْ أَنْ يُرَى لِلْسِتْرِ فِيهِ نَصِيبُ
وَإِذَا بَدَا سُرُّ اللَّيِّبِ فَإِنَّهُ * لَمْ يَسُدْ إِلَّا وَالْفَتَى مَغْلُوبُ

وقال أبو العتاهية: ما حسدتُ أحداً إلا العباس بن الأحنف في قوله:

إِذَا امْتَنَعَ الْقَرِيبُ فَلَمْ تَنَلْهُ * عَلَى قَرِيبٍ فَذَلِكَ هُوَ الْبَعِيدُ

وقال الكندي: العباس بن الأحنف مَايحٌ ظريفٌ حكيمٌ جَزَلٌ في شعره، وكان قليلاً ما يُرضيني الشعر، فكان يُنشد له كثيراً:

أَلَا تَعْجَبُونَ كَمَا أُعْجِبُ * حَبِيبٌ يُسَى وَلَا يُعْتَبُ
وَأُبْنَى رِضَاً عَلَى سُخْطِهِ * فَيَأْبَى عَلَيَّ وَيَسْتَصِيبُ
فَيَالَيْتَ حَظِي إِذَا مَا أَسَا * تَ أَنْكَ تَرْضَى وَلَا تَغْضَبُ

وكان ابراهيم الموصلي مشغولاً بشعر العباس فيغني في كثير من شعره، فما غنى فيه :
وقد ملئت ماء الشباب كأنها * قضيب من الریحان ريان أخضر
هم كتموني سيرهم حين أزمعوا * وقالوا اتعدنا للروح وبكروا
ومنه :

تمني رجال ما أحبوا وإنما * تمنيت أن أشكو اليك وتسمعا
أرى كل معشوقين غري وغيرها * قد استعدنا طول الهوى وتمنا

ومنه :

بك عيني لأنواع * من الحزن وأوجاع
ولاني كل يوم عنكم يحظى بي الساعي
أعيش الدهر إن عشت * بقلب منك مُرتاج
وإن حل بي البعد * سينعاني لك الناعي

وقال الواثق جلسائه : أريد أن أصنع لحناً في شعر معناه أن الإنسان كائناً من كان
لا يقدر على الاحتراس من عدوه، فهل تعرفون في هذا شيئاً؟ فأنتسده ضرورياً من الأشعار،
فقال : ما جئتم بشيء مثل قول العباس بن الأحنف :

قلبي الى ما ضرني داعي * يكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتراي من عدوي اذا * كان عدوي بين أضلاعي
أسلمني لللب أشياعي * لما سعي بي عندها الساعي
لقمنا أبقي على كل ذا * يوشك أن ينعاني الناعي

ومما غنى فيه من شعره :

أبي الذين أذاقوني موتهم * حتى اذا أيقظوني للهوى رقدوا

وقال ابراهيم بن العباس : ما رأيت كلاماً محدثاً أجزل في رقة ، ولا أصعب في سهولة ،
ولا أبلغ في إيجاز ، من قول العباس بن الأحنف :

تعالى نجدد دارس العهد بيننا * كلاًنا على طول الحقاء ملوم

وأنشد إبراهيم بن العباس للأحنف :

إن قال لم يفعل وإن سئل لم * يَسْأَلُ وإن عوتب لم يُعْتَبِ
صَبُّ بَعْضِيَانِي ولو قال لي * لا تشرب البارد لم أَشْرَبِ
إليك أشكو ربَّ ما حلَّ بي * من صَدِّ هذا المذنب المُغْضَبِ

ثم قال : وهذا والله الكلامُ الحسنُ المعنى ، السَّهْلُ المُرْد ، القريب المتناول ، المليح
اللفظ ، العذب المستمع .

ومما غُنِيَ فيه من شعره :

نام مَنْ أهدى لِي الأرقَا * مستريحًا سَامِيًا قَلَقَا
لو بييت الناس كلَّهم * بِسُهُادِي بَيَّضَ الحَدَقَا
كان لي قلبٌ أعيشُ به * فاصطَلَى بالحَبِّ فاحترَقَا
أنا لم أرزُق مودَّتكم * إنما للعبد ما رُزِقَا

وقال ابن المعتز : لو قيل : ما أحسن شيء تعرفه لقلت : شعرُ العباس بن الأحنف :

قد سَحَبَ النَّاسُ أَذْيَالَ الظُّنُونِ بنا * وفرَّقَ النَّاسُ فِينَا قَوْلَهُم فِرَقَا
فكاذِبٌ قد رَمَى بالحَبِّ غيرَكم * وصادقٌ ليس يَذْرى أَنَّهُ صَدَقَا

ومما تمثَّل به الفضلُ بن الرِّبيع في أمرٍ كان بينهما وبين إحدى جواريه :

تحمَّلَ عَظِيمَ الذَّنْبِ مِنْ تَحِبُّهُ * وإن كنتَ مَظْلُومًا فَقُلْ أَنَا ظَالِمٌ
فإنك إلَّا تَغْفِرُ الذَّنْبَ فِي الهَوَى * يفارِقُكَ مِنْ شَهْوَى وَأَنْفُكَ رَاغِمٌ

أنشد مُحَمَّدُ المَوْصِلِيُّ قصيدته التي يقول فيها :

كُلُّ شَيْءٍ أَقْوَى عَلَيْهِ وَلَكِنْ * لَيْسَ لِي بِالفِرَاقِ مِنْكَ يَدَانِ

بفعل يستحسنه ويردِّده ؛ فقال له عبد الله بن ربيعة الرقي : أنت الفداء لمن ابتداء هذا

المعنى فأحسن فيه حيث يقول — وهو العباس بن الأحنف — :

سلبتني من السرور ثياباً * وكستني من الهموم ثياباً
كلما أغلقت من الوصل باباً * فتحت لي الى المنية باباً
عديني بكل شيء سوى الصدق فما ذقت كالصدود عذاباً

قال الرياشي — وقد ذكر عنده العباس بن الأحنف — : والله لو لم يقل من الشعر
إلا هذين البيتين لكفياً :

أحرم منكم بما أقول وقد * نال به العاشقون من عشيوا
صرت كأتى دباله نصبت * تضيء للناس وهي تحترق

ألف الرشيد العباس بن الأحنف ، فلما خرج الى خراسان طال مقامه بها ، ثم خرج الى
أرمينية والعباس معه ، فاشتاق الى بغداد ، فعارضه في طريقه ، فأنشده :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا * ثم القفول فقد جئنا خراساناً
ما أقدر الله أن يذني على شحط * سكان دجلة من سكان جيحاناً
مضى الذي كنت أرجوه وأمله * أما الذي كنت أخشاه فقد كانا
عين الزمان أصابتنا فلا نظرت * وعدت بصنوف الهجر ألوانا

فقال له الرشيد : قد اشتقت يا عباس ، وأذنت لك خاصة ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وقال مصعب الزبيري : العباس بن الأحنف وعمر بن أبي ربيعة ما ابتذلا شعرهما
في رغبة ولا رهبة ، ولكن فيما أحباها ، فلزم فداً واحداً لولمه غيرهما ممن يكثر إكثارهما
لضعف فيه .

١٤ - ابن مَنَازِر^(١)

كان يُخَوِّنُ حَوَاصِدِيَّ بن زَيْد في شِعْرِهِ ، ويميلُ إليه ويقدمه ، وقد مدَحَ آلَ بَرْمَكٍ وغيرهم . ولما نُكِهَتْ الْبَرَامِكَةُ وآتَتْ الْوِزَارَةَ إلى عَدُوِّهِمُ الْفَضْلُ بن الرِّبِيع أصبح شعراءُ الْبَرَامِكَةِ في حَظَرٍ ، فأرادَ ابْنُ مَنَازِرٍ أن يَتَقَرَّبَ إلى الرِّشِيدِ طَلَبًا لِّلرِّزْقِ ، فَأَغْنَمَ ذَهَابَهُ إلى الْبَلْجِ وتقدَّم إليه يومَ التَّروِيَةِ بقصيدةٍ ، فَالاحَ الْبُشْرُ في وجه الرِّشِيدِ ؛ فقال الْفَضْلُ بن الرِّبِيع للرِّشِيدِ : هذا شاعرُ الْبَرَامِكَةِ ! فعَبَسَ الرِّشِيدُ ؛ فقال الْفَضْلُ : مُرْهُ أن يُنْشِدَكَ قَوْلَهُ فيهم : أَنَا بنو الْأَمْلاكِ من آلِ بَرْمَكٍ ؛ فَأَمْرَهُ ، فاعتذر ، فألح عليه ، فَأَنشَدَهُ هذه الْقَصِيدَةَ التي يُطَرِّى بها الْبَرَامِكَةَ :

أَنَا بنو الْأَمْلاكِ من آلِ بَرْمَكِ * فَيَا طَيْبَ أَخْبَارٍ وَيَا حُسْنَ مَنَظَرٍ
إِذَا وَرَدُوا بِطَجَاءِ مَكَّةَ أَشْرَقَتْ * بِيحْيَى وَبِالْفَضْلِ بنِ يَحْيَى وَجَعَفَرٍ
فَنُظِّلُ بِغَدَادٍ وَيَجْلُوْنَا الدُّجَى * بِمَكَّةَ مَا حَجَّجُوا ثَلَاثَةَ أَقْفَرٍ
فَمَا صَلَّحَتْ إِلَّا بِالْجُودِ أَكْفُهُمْ * وَأَرْجُلُهُمْ إِلَّا لِأَعْوَادِ مَنَبَرٍ
إِذَا رَاضَ يَحْيَى الْأَمْرَ ذَلَّتْ صِعَابُهُ * وَحَسْبُكَ مِنْ رَاجٍ لَهُ وَمُدَبِّرٍ
تَرَى النَّاسَ إِجْلَالًا لَهُ وَكَانَهُمْ * غَرَانِيقَ مَاءٍ تَحْتَ بَازٍ مُصْرِصِرٍ^(٢)
^(٣)

ولما فَرَّغَ مِنْهَا أَتْبَعَ ذلكَ قَوْلَهُ : « كَانُوا أَوْلِيَاءَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمَّا مَدَحْتَهُمْ » فَأَمَرَ الرِّشِيدُ أَنْ يُلَطَّمَ ، فَلَطَمُوهُ ، وَأَمَرَ أَنْ يَسْحَبَ ، فَسَحَبُوهُ وَخَرَجَ لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ ؛ فَلَقِيَهُ

(١) هو محمد بن مَنَازِر ، مولى لبني يربوع ، ويكنى أبا جعفر ، شاعر مصبح ، مقدَّم في العلم باللغة وإمام فيها ، حتى أخذ عنه أكابر أهلها . وكان في أوَّلِ أمره يتعبد ثم عدل عن ذلك ، فوهجا الناس وتهنك وخلع وقذف أعراض أهل البصرة حتى نفى عنها إلى الحجاز ، مات هناك سنة ١٩٨ هـ . وتحدَّ أخباره في الأغاني (ج ١٧ ص ٩) والشعر والشعراء (ص ٥٥٣) .
(٢) الغرائيق : جمع غرنوق ، وهو طائر مائي أسود وقيل أبيض يشبه الكركي .
(٣) مصرصر : صاح بشدة .

أبو نواس فدفع إليه صُرَّةً فيها ثلثائة دينار ، وقال له : إستمعن بهذه وأعذرني . ولم يعد
أبن مناذر يرى خيراً بعد البرامكة .

قال الحسن بن علي كما عند باب سُفيان بن عُيينة وقد هَرَبَ منا وعنده الحسن بن علي
التَّخْتَاخَ ورجلٌ من أصحاب الرشيد ، فخلا بهم وليس يأذن لنا ، بغاء أبن مناذر فقرب من
الباب ثم رفع صوته فقال :

يَعْمُرُو بِالزُّهْرَى والسَّافِ الألى * بهم تَبَتَّ رِجْلَاكَ عند المقادم
جَعَلْتَ طَوَالَ الدهرِ يوماً لصالح * ويوما لَصَبَّاحَ ويوما لحاتم
ولحسن التَّخْتَاخَ يوماً ودونهم * خَصَصْتَ حسيناً دون أهل المَوَاسِمِ
نَظَرْتُ وطَالَ الفِكرُ فيكَ فلم أجِدْ * رَحَاكَ جَرَتْ إلَّا لأخِذِ الدِّراهم

فخرج سُفيان وفي يده عصا وصاح : خذوا الفاسق ، فهرب أبن مناذر منه وأذن لنا فدخلنا .
كان الرشيد قد وصلَ أبن مناذرَ مَرَّاتٍ صِلَاتٍ سَنِيَّةً ، فلما مات الرشيدُ رنَّاه بقوله :
من كان يَبْكِي للعَلا * مَلِكًا وَلِلْهِمَ الشَّرِيفُ
فَلْيَبْكِ هَارُونَ الخليل * فةً لِلْخَلِيفَةِ لِلْخَلِيفِ

قال علي بن محمد النوفلي : رأيتُ أبن مناذر في الحج سنة ثمان وتسعين ومائة وهو قد كُفَّ
بصره تقوده جُوزِيَّةٌ حرة وهو واقف يشتري ماء قِربةً ، فرأيتُهُ وَبَحَّ الثوبَ والبدن ، فلما
صرنا الى البصرة أُننَّا وفاته في تلك الأيام .

كان يحيى بن زياد يُرمَى بالزندقة ، وكان من أطرف الناس وأنظفهم ، فكان يقال :
أطرف من الزنديق ، وكان الحاركي ، واسمه محمد بن زياد ، يُظهر الزندقةَ تَظَاهُرًا ، فقال فيه
أبن مناذر :

يا أبن زياد يا أبا جعفر * أظهرتَ ديناً غير ما تُخْفِي
مَزْنَدَقُ الظاهر باللفظ في * باطن إسلام فتى عَفَّ
لستَ يزنديق ولا كُفَّ * أردتَ أن تُوسَمَ بالطرف

ومن قوله يرى سفيان بن عيينة :

يُجَنِّي من الحكمة نُورَها * ما تشتهي الأنفس ألوانا
يا واحدَ الأُمّةِ في علمه * لقيت من ذى العرش غُفرانا
راحوا بسفيان على نعشه * والعِلمُ مَكْسُوفٌ أَكفانا
إن الذى غُوِّدِرَ بالمنحَى * هَدَّ من الإسلام أركاننا
لا يُعِدُّكَ اللهُ من مَيِّت * وَرَثَتنا عِلْمًا وأحزاننا

خطب أبو أمية امرأة من ثقيف فرد عنها ، وتصدّى للقاضى أن يضمّنه مالا من أموال
اليتامى فلم يجبه الى ذلك ولم يثق به ، فقال فيه ابن مناذر :

أبا أميّة لا تغضب علىّ * جزاء ما كان فيما بيننا الغضبُ
إن كان ردك قوم عن قناتهم * ففى كثير من الخطّاب قد رغبوا
قالوا عليك ديون ما تقوم بها * فى كل عام بها تُستحدث الكتبُ
وقد تقحم من خمسين غايته * مع أنه ذو عيال بعد ما أنشعجوا
وفى القاضى فلا تجدن * فليس فى تلك لى ذنب ولا ذنبُ
أردت أموال أيتام تُضمّنها * وما يضمّن إلا من له نسبُ

قال له جعفر بن يحيى قول فى وفى الرشيد شعرا تصف فيه الألفة بيننا ، فقال :

قد تُقطع الرّحم القريب وتكفر الله * عمى ولا كتقارب القلبين
يدنى الهوى هذا ويدنى ذا الهوى * فاذا همما نفس ترى نفسين

١٥ - صالح بن عبد القدوس^(١)

كان متهما بالزندقة ، فبلغ الى المهديّ خبرُ زندقته ، فبعث اليه يستقدمه من دِمَشق ، وكان قد رحل اليها وهو شيخ طاعن في السنّ ، فلما جاء بغداد ومثّل بين يدي المهديّ قال له المهديّ : ألسنت القائل :

والشيخ لا يترك أخلاقه * حتى يُورَى في ثرى رَمسه

قال : بلى يا أمير المؤمنين ! قال : وأنت لا تترك أخلاقك حتى تموت ، فأمر به ، فقتلَ وصُلبَ على جسر بغداد سنة ١٦٧ هـ . وأكثر شعره في الحكم الفلسفية .

ومن أحسن أقواله القصيدة التي منها ذلك البيت ، وهو يقول فيها :

لا يبلُغ الأعداء من جاهل * ما يبلُغ الجاهل من نفسه

والشيخ لا يترك أخلاقه * حتى يُورَى في ثرى رَمسه

إذا أرعوى عاد إلى جهله * كذى الضنا عاد إلى نكسه

ولمّا من أدبته في الصّبا * كالعود يُسقى الماء في غرسه

حتى تراه مُورقا ناضراً * بعد الذي أبصرت من يُبسه

وقوله :

لا يُعجّبك من يصون ثيابه * حدّر الغبار وعرضه مبدول

ولربما أفقر الفتي فرأيتَه * دَمَس الثياب وعرضه مَغسول

(١) هو صالح بن عبد القدوس بن عبد الله بن عبد القدوس ، من حكماء الشعراء ، متهم بالزندقة ، قوى الحجة ،

له منزلة سامية عند أهل مذهبه . نشأ في البصرة ، وكان يقص على الناس ويعظهم . توفى سنة ١٦٧ هـ . وتجدد

أكثر أخباره في فوات الوفيات (ج ١ ص ١٩١) والدمري (ج ١ ص ٢٦) .

وكان فيه ميل الى العزلة والاعتطاع عن الناس شأن الفلاسفة؛ ومن ذلك قوله :

أُنِسْتُ بِوَحْدَتِي وَلَزِمْتُ بَيْتِي * فَتَمَّ الْعَزْلَى وَتَمَّ السُّرُورُ
وَأَدْبَنِي الزَّمَانُ فَلَيْتَ أَتَى * هُجِرْتُ فَلَا أَزَارُ وَلَا أَزُورُ
وَلَسْتُ بِقَائِلٍ مَا دُمْتُ حَيًّا * أَقَامَ الْجُنْدُ أَمَ تَزَلَّ الْأُمِيرُ

وهو القائل :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه * وجاوزه الى ما تستطيع

وله قصيدة حكيمة أخلاقية بديعة، وهي التي يقول فيها :

الْمَرْءُ يَجْمَعُ وَالزَّمَانُ يُفَرِّقُ * وَيُظِلُّ يَرْقِعُ وَالْخُطُوبُ تُمَزِّقُ
وَلَأَنْ يُعَادِيَ عَاقِلًا خَيْرٌ لَهُ * مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَدِيقٌ أَهْمَقُ
فَارْبًا بِنَفْسِكَ أَنْ تَصَادِقَ أَهْمَقًا * إِنَّ الصَّدِيقَ عَلَى الصَّدِيقِ مُصَدِّقُ
وَزَيْنَ الْكَلَامِ إِذَا نَطَقْتَ فَإِنَّمَا * يُبْدِي عَقُولَ ذَوِي الْعُقُولِ الْمَنَاطِقُ
وَمَنْ الرِّجَالُ إِذَا آسَتُوا أَخْلَاقَهُمْ * مِنْ يُسْتَشَارُ إِذَا اسْتُشِيرَ فَيُطْرَقُ
حَتَّى يَحْلُلَ بِكُلِّ وَادٍ قَلْبُهُ * فَيَرَى وَيَعْرِفُ مَا يَقُولُ فَيَنْطِقُ
لَا أَلْفِينُكَ ثَاوِيًا فِي غُرْبَةٍ * إِنَّ الْغَرِيبَ بِكُلِّ سَهْمٍ يُرْشَقُ

وله منها :

مَا النَّاسُ إِلَّا عَامِلَاتُ فَعَائِلٍ * قَدْ مَاتَ مِنْ عَطِشٍ وَآخِرُ فَرَقٍ
وَالنَّاسُ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ وَإِنَّمَا * بِالْجَدِّ يُرْزَقُ مِنْهُمْ مَنْ يُرْزَقُ
لَوْ يُرْزَقُونَ النَّاسُ حَسَبَ عَقُولِهِمْ * أَلْفَيْتَ أَكْثَرَ مَنْ تَرَى يَتَصَدَّقُ
لَكُمْ فَضْلُ الْمَلِكِ عَلَيْهِمْ * هَذَا عَلَيْهِ مُوسَّعٌ وَمُضَيِّقُ
وَإِذَا الْجَنَازَةُ وَالْعَرُوسُ تَلَاقِيَا * وَرَأَيْتَ دَمْعَ نَوَاحٍ يَتَرَقَّرُ
سَكَتَ الَّذِي تَبْعَ الْعَرُوسَ مُبَهَّمًا * وَرَأَيْتَ مَنْ تَبْعَ الْجَنَازَةَ يَنْطِقُ
بَقِيَ الَّذِينَ إِذَا يَقُولُوا يَكْذِبُوا * وَمَضَى الَّذِينَ إِذَا يَقُولُوا يَصْدُقُوا

وله من قصيدته المعروفة بالزينية :

وابدأ عَدُوَّكَ بِالتَّحِيَّةِ وَلْتَكُنْ * مِنْهُ زَمَانُكَ خَائِفًا تَتَرَقَّبُ
 وَأَحْذَرُهُ إِنْ لَاقَيْتَهُ مَتَبَسِّمًا * فَالْلَيْثُ يَبْدُو نَابُهُ إِذَا يَغْضَبُ
 إِنْ الْعَدُوَّ وَإِنْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ * فَالْحَقْدُ بَاقٍ فِي الصَّدُورِ مُغِيبُ
 وَإِذَا الصَّدِيقُ لَقَيْتَهُ مُتَمَلِّقًا * فَهُوَ الْعَدُوُّ وَحَقُّهُ يُتَجَنَّبُ
 لَا خَيْرَ فِي وُدِّ أَمْرٍ مُتَمَلِّقٍ * حُلُوِّ اللِّسَانِ وَقَلْبُهُ يَتَلَهَّبُ
 يَلْقَاكَ يَخْلِفُ أَنَّهُ بِكَ وَائِقٌ * وَإِذَا تَوَارَى عَنْكَ فَهُوَ الْعَقْرَبُ
 يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً * وَيُرْوِغُ مِنْكَ كَمَا يُرْوِغُ الثَّعْلَبُ
 وَصِلِ الْكِرَامَ وَإِنْ رَمَوْكَ بِجُفْوَةٍ * فَالْصَّفْحُ عَنْهُمْ وَالتَّجَاوُزُ أَصْوَبُ
 وَآخِرُ قَرِينِكَ وَاصْطَفِيهِ تَفَاخُرًا * إِنَّ الْقَرِينَ إِلَى الْمُقَارِنِ يُنْسَبُ
 إِنَّ الْغَنَى مِنَ الرِّجَالِ مُكْرَمٌ * وَتَرَاهُ يُرْجَى مَا لَدَيْهِ وَيُرْهَبُ
 وَيَبْشُرُ بِالتَّرْحِيبِ عِنْدَ قُدُومِهِ * وَيُقَامُ عِنْدَ سَلَامِهِ وَيُقَرَّبُ
 وَالْفَقْرُ شَيْنٌ لِلرِّجَالِ فَإِنَّهُ * حَقًّا يَهُونُ بِهِ الشَّرِيفُ الْأَنْسَبُ
 وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْأَقَارِبِ كُلِّهِمْ * بِتَذَلُّلٍ وَأَسْمَحْ لَهُمْ إِنْ أَذْنَبُوا
 وَدَعْ الْكَذُوبَ فَلَا يَكُنْ لَكَ صَاحِبًا * إِنْ الْكَذُوبُ يَشِينُ حَرًّا يَصْحَبُ
 وَزَيْنُ الْكَلَامِ إِذَا نَطَقْتَ وَلَا تَكُنْ * ثُرَاةً فِي كُلِّ نَادٍ تَخْطُبُ
 وَأَحْفَظْ لِسَانَكَ وَأَحْتَرِزْ مِنْ لَفْظِهِ * فَالْمَرْءُ يَسْلَمُ بِاللِّسَانِ وَيَعْطَبُ
 وَالسَّرُّ فَكُتْمُهُ وَلَا تَنْطِقْ بِهِ * إِنَّ الزَّحَاجِبَ كَسَرُهَا لَا يُشْعَبُ
 وَكَذَلِكَ سَرُّ الْمَرْءِ إِنْ لَمْ يَطْوِهِ * لَشَرُّهُ أَلْسِنَةُ تَزِيدُ وَتَكْذِبُ
 لَا تَحْرِصَنَّ فَالْحِرْصُ لَيْسَ بِزَائِدٍ * فِي الرِّزْقِ بَلْ يُسْقِي الْحَرِيصَ وَيُتَيْبُ

وَاَرَعَ الْأَمَانَةَ وَالْحَيَانَةَ فَاجْتَنِبْ * وَاعْدِلْ وَلَا تَظْلِمَ يَطِبْ لَكَ مَكْسَبٌ
 وَإِذَا أَصَابَكَ نَكْبَةٌ فَاصْبِرْ لَهَا * مَنْ ذَا رَأَيْتَ مُسَلِّمًا لَا يُنْكَبُ
 وَإِذَا رُمِيتَ مِنَ الزَّمَانِ بِرِيْسَةٍ * أَوْ نَالَكَ الْأَمْرُ الْأَشَقُّ الْأَضْعَفُ
 فَاضْرَعْ لِرَبِّكَ إِنَّهُ أَدْنَى لِمَنْ * يَدْعُوهُ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ وَأَقْرَبُ
 وَأَحْذَرُ مَصَاحِبَةَ اللَّئِيمِ فَإِنَّهُ * يُعِدِّي كَمَا يُعِدِّي الصَّحِيحَ الْأَجْرَبُ
 وَأَحْذَرُ مِنَ الْمَظْلُومِ سَهْمًا صَائِبًا * وَأَعْلَمُ بَأَنِّ دُعَاةٍ لَا يُنْجَبُ
 وَلَقَدْ نَصَحْتِكَ إِنْ قَبِلْتَ نَصِيحَتِي * وَالنَّصِيحَ أَغْلَى مَا يُبَاعُ وَيُوهَبُ

١٦ - سَعِيدُ بْنُ وَهَبٍ^(١)

كان شاعراً مطبوعاً ومات في أيام المأمون، وأكثر شعره في الغزل والتشبيب بالمذكر، وكان مشغولاً بالعلمان والشراب، ثم تنسك وتاب ورجع راجلاً على قدميه ومات على توبة وإقلاع ومذهب جميل، ومات وأبو العتاهية حي وكان صديقه فرثاه .

أخبر علي بن سليمان الأخفش عن محمد بن مزيد قال : حدثت عن بعض أصحاب أبي العتاهية قال : جاء رجل إلى أبي العتاهية ونحن عنده، فسأره في شيء، فبكى أبو العتاهية، فقلنا له : ما قال لك هذا الرجل يا أبا إسحاق فأبكاك ؟ فقال - وهو يحدثنا لا يريد أن يقول شعرا - :

قال لي مات سعيد بن وهب * رحم الله سعيد بن وهب
يا أبا عثمان أبكيت عيني * يا أبا عثمان أوجعت قلبي

قال : فعجبنا من طبعه، وإنه يحدث فكان حديثه شعرا موزونا .

وكان سعيد بن وهب الشاعر البصري مولى بني سامة قد تاب وتزهد وترك قول الشعر، وكان له عشرة من البنين وعشر من البنات، فكان إذا وجد شيئا من شعره خرقه وأحرقه، وكان أمراً صديق، كثير الصلاة، يزكي في كل سنة عن جميع ما عنده، حتى إنه ليزكي عن فضة كانت على امرأته .

وكان سعيد بن وهب يتعشق غلاما ينتشر يقال له سعيد، فبلغه أنه توعد أن يجرحه، فقال فيه :

(١) هو سعيد بن وهب أبو عثمان مولى بني سامة بن لؤي بن نصر، مولده ومنشؤه بالبصرة ثم صار إلى بغداد فأقام بها . وكانت الكتابة صناعته، فتصرف مع البرامكة فاصطنعوه وتقدم عندهم . وتجد أخباره في الأغاني (ج ٢١ ص ١٠٤) .

مَنْ عَذِيرِي مِنْ سَيِّ * مَنْ عَذِيرِي مِنْ سَعِيدِ
أَنَا بِاللَّحْمِ أَجَاهُ * وَيَجَانِي بِالْحَدِيدِ^(١)

ونظر سعيد بن وهب إلى قوم من كُتّاب السلطان في أحوال جميلة، فأنشأ يقول :

مَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا لَهُ شَارَةٌ * فَتَحْنُ مِنْ نَظَارَةِ الدُّنْيَا
نَزْمُهَا مِنْ كَثَبِ حَسْرَةٍ * كَأَنَّا لَفْظٌ بِلَا مَعْنَى
يَعْلُو بِهَا النَّاسُ وَأَيَّامُنَا * تَذْهَبُ فِي الْأَرْضِ وَالْأَدْنَى

وحدث حماد بن إسحاق عن أبيه قال : كان سعيد بن وهب لى صديقا، وكان له ابن يكنى أبا الخطاب من أكيس الصبيان، وأحسنهم وجها وأدبا، فكان لا يكاد يفارقه في كل حال، لشدة شغفه به ورقته عليه، فمات وله عشر سنين، فخرج عليه جزعا شديدا وأنقطع عن لذاته، فدخلت إليه يوما لأعاتبه على ذلك وأستعطفه، فحين رأى ذلك في وجهي فاضت دموعه، ثم انتحب حتى رحمته، وأنشدني :

عَيْنِ جُودِي عَلَى أَبِي الْخَطَّابِ * إِذْ تَوَلَّى غَضًّا بِمَاءِ الشَّبَابِ
لَمْ يُقَارِبْ ذَنْبًا وَلَمْ يَبْلُغْ الْحِنْدَ * سِتُّ مَرْجَى مُطَهَّرِ الْأَنْوَابِ
فَقَدَرْتُهُ عَيْنِي إِذَا مَا سَعَى أَتَى * رَأْبُهُ مِنْ جَمَاعَةِ الْأَثْرَابِ
إِنْ غَدَا مُوَحِّشًا لِدَارِي فَقَدْ أَصَدَّ * سَبَّحَ أُنْسَ الثَّرَى وَزَيْنَ التَّرَابِ
أَحْمَدُ اللَّهِ يَا حَبِيبِي فَإِنِّي * بَكَ رَاحٍ مِنْهُ عَظِيمِ الثَّوَابِ

ثم ناشدني ألا أذكره بشيء مما جئت إليه، فقممت ولم أخاطبه بحرف .

دخل سعيد بن وهب على الفضل بن يحيى في يوم قد جلس فيه للشعراء، فجعلوا ينشدونه ويأمرهم بالجوأثر حتى لم يبق منهم أحد، فالتفت إلى سعيد بن وهب كالمستنطق، فقال له : أيها الوزير، إنى ما كنت أستعديت لهذه الحال، ولا تقدمت لها عندي مقدمة فأعيرتها،

(١) وجاءه يوجاه ويجه : ضربه باليد أو بالسكين . وخففت الهمة ها هنا للشعر .

ولكن قد حضرني بيتان أرجو أن ينوبا عن قصيدة؛ فقال : هاتيهما، فرب قليل أبلغ من الكثير؛ فقال سعيد :

مَدَحَ الْفَضْلُ نَفْسَهُ بِالْمَعَالِي * فَعَلَا عَنْ مَدِيحِنَا بِالْمَقَالِ
أَمْرُونِي بِمَدْحِهِ قُلْتُ كَلًّا * كَبُرَ الْفَضْلُ عَنْ مَدِيحِ الرِّجَالِ

قال : فطرب الفضل وقال له : أحسنت والله وأجسدت، ولئن قل القول ونزرت، لقد أتسع المعنى وكثرت، ثم أمر له بمنزل ما أعطاه كل من أنشده مديحا يومئذ، وقال : لا خير فيما يحيى بعد بيتيك، وقام من المجلس، وخرج الناس يومئذ بالبيتين لا يتداسدون سواهما .

وحدث الحرثي قال : كان الفضل بن يحيى ينافس أخاه جعفرا وينافسه جعفر، وكان أنس بن أبي شيخ خاصا بجعفر، ينادمه ويأنس به في خلواته، وكان سعيد بن وهب بهذه المنزلة للفضل، فدخلت يوما إلى جعفر ودخل إليه سعيد بن وهب فحدثه وأنشده وتنادر له، وحكى عن المتناذرين وأتى بكل ما يسر ويضطرب ويضحك، وجعفر ينظر إليه لا يزيد على ذلك، فلما خرج سعيد من عنده تجاهلت عليه وقلت له : من هذا الرجل الكثير الهديان ؟ قال : أو ما تعرفه ؟ قلت : لا؛ قال : هذا سعيد بن وهب صديق أنى أبي العباس وخلصانه وعشيقه؛ قلت : وأى شيء رأى فيه ؟ قال : لا شيء والله إلا القدر والبرد والغثاء، ثم دخلت بعد ذلك إلى الفضل، ودخل أنس بن أبي شيخ فحدث ونذر وحكى عن المضحكين وأتى بكل طريفة، فكانت قصة الفضل معه قصة جعفر مع سعيد، فقلت له بعد أن خرج من حضرته : من هذا المبرم ؟ قال : أو لا تعرفه ؟ قلت : لا؛ قال : هذا أنس بن أبي شيخ صديق أنى الفضل وعشيقه وخاصته، قلت : وأى شيء أعجبه فيه ؟ قال : لأدرى والله إلا القدر والبرد وسوء الاختيار؛ قال : وأنا والله أعرف بسعيد وأنس من الناس جميعا، ولكنى تجاهت عليهما وساعدتهما على هواهما .

وحدث عمرو بن بانه قال : كان في جوارى رجل من البرامكة، وكانت له جارية شاعرة طريفة يقال لها حسناء، يدخل إليها الشعراء ويسألونها عن المعاني، فتأتى بكل

مُسْتَحْسِنٍ مِنَ الْجَوَابِ ؛ فَدْخَلَ إِلَيْهَا سَعِيدُ بْنُ وَهْبٍ يَوْمًا وَجَلَسَ إِلَيْهَا فَخَاضَهَا طَوِيلًا
ثُمَّ قَالَ لَهَا بَعْدَ ذَلِكَ :

حَاجِيْتُكَ يَا حَسَنًا * ءُ فِي جَنِّسٍ مِنَ الشَّعْرِ
وَفِيهَا طُكُولُهُ شَبْرٌ * وَقَدْ يُوفَى عَلَى الشَّيْبِ
لَهُ فِي رَأْسِهِ شَقٌّ * تَطُوفُ بِالنَّدَى يَجْرِي
إِذَا مَا جَفَّ لَمْ يَجْرِ * لَدَى بَرٍّ وَلَا بَحْرِ
وَإِنْ بُلَّ أَتَى بِالْعَ * حَبِّ الْعَاجِبِ وَالسَّحْرِ
أَجِيسِي لَمْ أُرِدْ خُشًّا * وَرَبَّ الشَّفْعِ وَالْوَثْرِ
وَلَكِنْ صُغْتُ أَيْتًا * لَهَا حَظٌّ مِنَ الزَّجْرِ

قال : فغضب مولاها وتغير لونه وقال : أُنْفَحِشْ عَلَى جَارِيَتِي تَخَاطَبُهَا بِالْخَنَى ؟ فقالت
له : خَفِّضْ عَلَيْكَ ، فَمَا ذَهَبَ إِلَى مَا ظَنَنْتَ وَإِنَّمَا يَعْنِي الْقَلَمُ ؛ فَسَرَّى عَنْهُ ، وَضَحَكَ سَعِيدُ
وَقَالَ : هِيَ أَعْلَمُ مِنْكَ بِمَا سَمِعْتُ .

١٧ - الحسن بن وهب^(١)

حدّث ميمون بن هارون : قال : كما عند الحسن بن وهب فقال لبَنانُ : غَنّينى :
أَتَأْذِنُونِ لَصَبٍّ فى زيارَتكم * فعندكم شَهَوَاتُ السَّمْعِ والبَصَرِ
لَا يُضْمِرُ السَّوَاءَ إِنْ طَالَ الجُلُوسُ بِهِ * عَفَّ الضَّمِيرُ وَلَكِنْ فَاسَقُ النُّظَرُ
قال فضحكت ، ثم قالت : فأىّ خير فيه إِنْ كان كذا أو أَىّ معنى ؟ فخجل الحسن من
بادرتها عليه ، وتجيّنا من حدّثة جوابها وفطنتها .

وحدّث محمد بن عيسى قال : جاء عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع إلى الحسن
ابن وهب ، وعنده بنان جارية محمد بن حماد ، وهى نائمة سكرى وهوىبكي عندها ، فقال له :
مالك ؟ قال : قد كنتُ نائمًا فجاءتنى فأنبهتنى وقالت : اجلس حتى تشربَ بخلستُ ،
فوالله ما غنّتُ عشرة أصوات حتى نامت ، وما شربت إلا قليلًا ، فتذكّرت قولَ أشعر
الناس وأظرفهم العباس بن الأحنف :
أبكى الذين أذاقونى مودّتهم * حتى إذا أيقظونى للهوى رقدوا
فأنا أبكى وأنشد هذا البيت .

وحدّث محمد بن موسى بن حماد قال : دعا الحسن بن وهب إبراهيم بن العباس فقال
له : اركب وأجيئك عشياً فلا تنتظرنى بالغداة ، فأبطأ عليه ، وأسرع الحسن فى شربه فسكّر
ونام ، وجاء إبراهيم فراه على تلك الحال ، فدعا بدواة وكتب :
رُحْنَا إليك وقد راحت بك الراح * وأسرعت فيك أوتارُ وأفراح
وحدّث أيضاً محمد بن موسى قال : نظر إبراهيم بن العباس الحسن بن وهب وهو
مخمور فقال له :

عيناك قد حَمَّكَ مَيِّد * تَكْ كيف كنت وكيف كانا

ولربّ عَيْنٍ قد أرت * مَكَ مَبِيتَ صاحبها عَيْنَانَا

(١) كان الحسن بن وهب حسن الشعر والبلاغة ، جليد اللسان ، حلو البيان كأخيه سليمان ، وكان موته بالشام .
وتجد طرفاً من أخباره فى الأغاني (ج ٩ ص ٢٦ وج ٢٠ ص ٥٤) وزهر الآداب (ج ٣ ص ٤٤) .

فأجابه الحسن بن وهب بعشرين بيتاً وطالبه بمثلها ، فكتب اليه أربعة أبيات وطالبه بأربعين بيتاً . وأبيات إبراهيم :

أأبا على خيرُ قوالك ما * حصّلت أنجمه ومُختَصَره
ما عندنا في البيع من عَيْنٍ * لستقلّ بواحد عشرة
أنا أهلُ ذلك غيرُ محتشِمٍ * أرضى القديم وأقننى أثره
ها نحن وفيناك أربعة * والأربعون لديك منتظره

وقال عبيد الله بن سليمان : لعمري ما في الكتاب أشعرُ من أبي إسحاق وأبي عليّ (يعني عمه الحسن بن وهب) .

حدث عليّ بن يحيى قال : قلت لإسحاق بن إبراهيم الموصليّ ، وقد جرى ذكرُ أحمد بن يحيى المكيّ ، يا أبا محمد ، لو كان أبو جعفر أحمد بن يحيى المكيّ مملوكاً كم كان يساوي ؟ فقال : أخبرك عن ذلك ، انصرفت ليلةً من دار الوائقي ، فاجترتُ بدار الحسن بن وهب فدخلتُ إليه ، فإذا أحمد عنده ، فلما قام لصلاة العشاء الانحرة قال لي الحسن بن وهب : وكم يساوي أحمد لو كان مملوكاً ؟ قلت : يساوي عشرين ألف دينار . قال : ثم رجع فغنيّ صوتاً ، فقال لي الحسن بن وهب : يا أبا محمد ، أضعفها . قال : ثم تغنيّ صوتاً آخر ، فقلت للحسن : يا أبا عليّ أضعفها ، ثم أردتُ الانصراف فقلت لأحمد غنيّ :

لولا الحياء وأن السير من خلقي * إذا قعدتُ اليك الدهر لم أقيم
أليس عندك سُكْرٌ للتي جعلت * ما أبيض من قادمات الرأس كالحشم

فغناه أحمد بن يحيى المكيّ فأحسن فيه كلّ الإحسان ، فلما قمتُ للانصراف قلت للحسن : يا أبا عليّ ، أضعف الجميع ، فقال له أحمد : ما هذا الذي أسمعُك تقولانه ولست أدري ما معناه ؟ قال نحن نبيّعُك ونستترك منذ الليلة وأنت لا تدري .

وحدث محمد بن موسى قال : كان أبو تمام يعشق غلاماً خَرِيّاً للحسن بن وهب ، وكان الحسن يتعشق غلاماً رومياً لأبي تمام ، فرآه أبو تمام يوماً يعبث بغلامه ، فقال له :

والله إئن أعنقت^(١) الى الروم لتركضن الى الخزر؛ فقال له الحسن : لو شئت حگمتنا واحتكت به فقال له أبو تمام : أنا أشبهك بداود عليه السلام وأشبهه نفسى بخصمه ؛ فقال الحسن : او كان هذا منظوما خفناه ، وأما وهو منشور فلا ، لأنه عارض لا حقيقة له ؛ فقال أبو تمام :

أبا على بصرف الدهر والغير * وبالحوادث والأيام فاعتير^(٢)
أذكرتني أمر داود وكنت فقي * مصرف القلب في الأهواء والفكر
أعندك الشمس لم يحظ المغيب بها * وأنت مضطرب الأحشاء للقمر
إن أنت لم ترك السير الحثيث الى * جاذر الروم أعنقتا الى الخزر
إن القطوب له منى محل هوى * يحل منى محل السمع والبصر
ورب أمنع منه جانباً وحى * أمسى وتكته منى على خطير
جردت فيه جنود العزم فأنكشفت * عنه غيابه عن بحيرة هدير
سبحان من سبحته كل جارحة * ما فيك من طمجان العين بالنظر
أنت المقيم فما تغدو راحله * وفعله أبداً منه على سفر

وحدث وهب بن سعيد قال : جاء دُعيل الى الحسن بن وهب في حاجة بعد موت أبي تمام ، فقال له رجل في المجلس : يا أبا علي ، أنت الذي تطعن على من يقول : شهدت لقد أقوت مغانيكم بعدى * وتحت كما تحت وشائع من برد وأنجدتم من بعد إتهام داركم * فيادمع أنجدني على ساكني نجد فصاح دُعيل : أحسن والله ! وجعل يردد :

* فيادمع أنجدني على ساكني نجد *

ثم قال : رحمه الله ، لو كان ترك لى شيئاً من شعره لقلت : إنه أشعر الناس .

(١) أعنقت : أسرت . (٢) وردت هذه الأبيات في الأغاني وفيها بعض ألفاظ تحمل بالآداب ،

فأثبتناها هنا كما وردت في ديوان أبي تمام .

وحدث أحمد بن عبيد الله بن ناصح قال : قلت لدعبل وقد عَرَضَ عليّ قصيدة له
يمدح بها الحسن بن وهب أوقها :

* أعاذتني ليس الهوى من هوانيا *

فقلت له : ويحك أتقول فيه هذا بعد قولك :

أين محلّ الحىّ يا حادى * خبر سقاك الرائح الغادى

وبعد قولك :

قالت سَلَامَةُ أين المأل قلت لها * المال ويحك لاقى الحمد فاصطحبا

وبعد قولك :

فعلى أيماننا يجرى الندى * وعلى أسيافنا تجرى المهج

والله إني أراك لو أنشدته إياها لأمر لك بصفح ، فقال : صدقت والله ، ولقد نبتني
وحدثني ، ثم مرّ بها .

وحدث محمد بن موسى قال : أنشدني الحسن بن وهب لمحمد بن عبد الملك أبياتا

يرثي بها سكرانة أمّ أبنه عمر ، وجعل الحسن يتعجب من جودتها ويقول :

يقول لى الخللان لو زرت قبرها * فقلت وهل غير الفؤاد لها قبر

على حين لم أحدث فأجهل قدرها * ولم أبلغ السن التي معها الصبر

وحدث محمد بن يزيد قال : دامت الأمطار بـ«سُرْمَن رَأَى» ، فتأنر الحسن بن وهب

عن محمد بن عبد الملك الزيات ، وهو يومئذ وزير والحسن يكتب له ، فاستبطأه محمد ،

فكتب إليه الحسن يقول :

أوجب العذر فى تراخى اللقاء * ما توالى من هذه الأنواء

لست أدري ماذا أقول وأشكو * من سماء تعوقني عن سماء

غير أنى أدعو على تلك بالشك * لي وأدعو لهذه بالبقاء

فسلام الإله أهديه غصبا * لك منى ياسيد الوزراء

وحدث محمد بن موسى قال : اغتسل الحسن بن وهب فتأخر عن محمد بن عبد الملك أياماً كثيرة ، فلم يأته رسوله ، ولا تعرف خبره ، فكتب إليه الحسن قوله :

أيُّ هذا الوزير أيُّدك الله * له وأبقاك لي بقاء طويلاً
أجماً تراه يا أكرم الناس * يس لكيا أراه أيضاً جميلاً
إنني قد أقيمتُ عشرًا عليلاً * ما تُرى مُرسلاً إلى رسولاً
إن يكن موجبُ التعمد في الصمد * حجةً منك على منك طويلاً
فهو أولى ياسيد الناس برأ * وافتنقأدا لمن يكونُ عليلاً
فلماذا تركتني عرضة الظن * من الحاسدين جيلًا بخيلاً
أالذنب؟ فاعلمت سوى الشك * ير قريباً لنتي ودخيلاً
أم ملال؟ فما علمتُك للصدا * حب مثلي على الزمان ملولاً
قد أتى الله بالشفاء فما أع * يرف مما أنكرت إلا قليلاً
وأكلتُ الدُّرَّاج وهو غداء * أفلت علي عليه أقولاً
بعد ما كنتُ قد حملتُ من العدا * لمة عبثاً على الطَّبَّاع ثقيلاً
ولعلِّي قديمتُ قبلك آتية * لك غدا إن وجدتُ فيه سبيلاً

فأجابه محمد بن عبد الملك :

دفع الله عنك نائبة الدهر * مر وحاشاك أن تكون عليلاً
أشهد الله ما علمتُ وما ذا * لك من العذر جائزاً مقبولاً
ولعمري أن لو علمتُ فلازم * منك حولاً لكان عندي قليلاً
إنني أرتجي وإن لم يكن ما * كان مما نَقَمْتَ إلا جليلاً
أن أكون الذي إذا أضمر الإخ * لاص لم يلتبس عليه كفيلاً
ثم لا يبدلُ المسودة حتى * يجعل الجهد دونها مبدولاً
فاذا قال كان ما قال إذ كا * ن بعيداً من طبعه أن يقولاً

فاجعلن لي إلى التعلق بالعدو * رسيلا إن لم أجد لي سبيلا

فقدما ما جاد بالصفح والعفو * يوما سآح الخليل الخليلا

وكتب محمد بن عبد الملك إلى الحسن بن وهب وقد تأخر عنه :

قالوا جفاك فلا عهد ولا خبر * ما ذا تراه دهاه قلت أيلول

شهر تجدد حبال الوصل فيه فإ * عقد من الوصل إلا وهو محلول

وكان محمد قد نذبه لأن يخرج في أمر مهم فأجابه الحسن فقال :

إني بحول أمري أعليت رتبته * فخطه منك تعظيم وتجييل

وأنت عديته في نيل همتيه * وأنت في كل ما يهواه مأمول

ما غالى عنك أيلول بلدته * وطيبه ولنعم الشهر أيلول

الليل لا قصر فيه ولا طول * والجوصاف وظهر الكأس مرحول

والود مستنطق عن كل معجبة * يضحى بها كل قلب وهو متبول

لكن توقع وشك البين عن بلد * تحله فوكاء العين محلول

مالي إذا شمرت بي عنك مبتكرا * دهم البغال أو المروج المراسيل

إلا رعاياتك اللاتي يعود بها * حد الحوادث عني وهو مفلول

وكان الحسن بن وهب يسير محمدا على مسنأة^(١)، فعدل عن المسنأة لئلا يضيق لمحمد

الطريق، فظن محمد أنه أشفق على نفسه من المسنأة، فعدل عنها ولم يساعده على طريقه،

وظن بنفسه أن يصيبها ما يصيبه، فقال له محمد :

قد رأيناك إذ تركت المسنأة * وحاذيتني يسار الطريق

ولعمري ما ذاك منك وقد جد * بك الحد من فعال الشفيق

فقال له الحسن :

إن يكن خوفي الخوف أراني * أن تراني مشبها بالعقوق

فلقد جارت الظنون على المشد * وفق والظن موع بالشفيق

(١) المسنأة : ما يبنى في وجه السيل .

عَدَّرَ السَّيِّدَ الْأَجَلَ وَقَدْ سَا * رَ عَلَى الْخُوفِ مِنْ يَمِينِ الطَّرِيقِ
فَأَخَذَتْ الشَّهَالَ بُقْيَا عَلَى السَّيِّدِ * إِذْ هَانَى سُلُوكُ الْمِضْبِيقِ
إِنْ عِنْدِي مَوْدَّةٌ لَكَ حَازَتْ * مَا حَوَى عَاشِقٌ مِنَ الْمَعْشُوقِ
طَوْدٌ عِزٌّ خُصِمَتْ مِنْهُ بَيْرٌ * صَارَ قَدْرِي بِهِ مَعَ الْعَيْشِيقِ
وَبِنَفْسِي وَإِخْبَوْنِي وَأَيُّ الْبَرِّ * وَعَمِّي وَأُسْرَقِي وَصَدِيقِي
مَنْ إِذَا مَا رُوِّعْتُ أَمَّنَ رَوْعِي * وَإِذَا مَا شَرِقْتُ سَوَّغَ رَيْقِي

وحدث المبرد قال : استسقى الحسن بن وهب من محمد بن عبد الملك نبيذا ببلد الروم

وهو مع المعتصم ، فسقاه وكتب إليه :

لَمْ تَلَقْ مِثْلِي صَاحِبًا * أَنْدَى يَدًا وَأَعَمَّ جُودًا
يَسْقَى النَّدِيمَ بِقَفْرَةٍ * لَمْ يَسْقِ فِيهَا الْمَاءُ عُودًا
صَفَرَاءَ صَافِيَةً كَأَنَّ * بَكَايَهَا دُرًّا نَضِيدًا
وَأَجُودٌ حِينَ أَجُودَ لَا * حَصْرًا بِذَلِكَ وَلَا بَلِيدًا
وَإِذَا أَسْتَقَلَّ بِشُكْرَهَا * أَوْجِبْتُ بِالشُّكْرِ الْمَزِيدًا
حُذِّهَا إِلَيْكَ كَأَنَّمَا * كَسَيْتُ زُجَاجَتَهَا عُقُودًا
وَأَجْعَلْ عَلَيْكَ أَنْ تَقُو * مَ بِشُكْرَهَا أَبَدًا عُهْدًا

ومن جيد شعره قوله :

بَابِي كَرِهْتُ النَّارَ لَمَّا أُوقِدْتُ * فَعَرَفْتُ مَا مَعْنَاكَ فِي إِبْعَادِهَا
هِيَ ضَرَّةٌ لَكَ بِالتَّمْسَاعِ ضِيَائِهَا * وَبِحَسَنِ صُورَتِهَا لَدَى إِبْقَادِهَا
وَأَرَى صَنِيعَكَ بِالْقُلُوبِ صَنِيعَهَا * بِسَيِّئِهَا وَأَرَادِكُهَا وَعَرَادِهَا
شَرِّكَكَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ بِحَسَنِهَا * وَضِيَائِهَا وَصَلَاحِهَا وَفَسَادِهَا

ومات الحسن بن وهب فوئاه أخوه سليمان بن وهب :

مَضَى مَذْمُوعٌ عِزُّ الْمَعَالَى وَأَصْبَحْتُ * لِأَلِي الْجَمْعِ وَالْقُورِ لَيْسَ لَهَا نَظْمُ
وَأَضْحَى نَجِيُّ الْفِكْرِ بَعْدَ فِرَاقِهِ * إِذَا هُمْ بِالْإِفْصَاحِ مَنَظَّمُهُ كَنَظْمِ

وكتب الحسن بن وهب يشكر :

مَنْ شَكَرَكَ عَلَى دَرَجَةٍ رَفَعْتَهُ إِلَيْهَا ، أَوْ ثَرَوَةٍ أَقْدَرْتَهُ عَلَيْهَا ، فَإِنَّ شُكْرِي لَكَ عَلَى مُهِجَةٍ
أَحْيَيْتَهَا ، وَحُشَّاشَةٍ أَبْقَيْتَهَا ، وَرَمَقٍ أَمْسَكَتَ بِهِ ، وَقَمَتٍ بَيْنَ التَّلَفِ وَبَيْنِهِ ؛ فَلِكُلِّ نِعْمَةٍ مِنْ
نِعَمِ الدُّنْيَا حُدٌّ تَنْتَهِي إِلَيْهِ ، وَمَدَى يُوقِفُ عِنْدَهُ ، وَغَايَةٌ مِنَ الشُّكْرِ يَسْمُو إِلَيْهَا الطَّرْفُ ، خِلا
هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي فَاقَتْ الْوَصْفَ ، وَأَطَالَتِ الشُّكْرَ وَتَجَاوَزَتْ قُدْرَهُ ، وَأَتَتْ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ غَايَةٍ ؛
رَدَدَتْ عَنَّا كَيْدَ الْعَدُوِّ ، وَأَرْغَمَتْ أَنْفَ الْحَسُودِ ، فَنَحْنُ نَلْجَأُ مِنْكَ إِلَى ظِلِّ ظَلِيلٍ ، وَكَنْيَفِ
كَرِيمٍ ، فَكَيْفَ يَشْكُرُ الشَّاكِرُ ، وَأَيْنَ يَبْلُغُ جُهِدُهُ الْمُجْتَهِدُ ؟ — .

١٨ - أشجع السلمي^(١)

كان متصلاً بالبرامكة وله فيهم أشعار كثيرة، منها قوله في يحيى بن خالد وكان قد غاب :

قد غاب يحيى فما أرى أحداً * يأتس إلا بذكره الحسين
أوحشت الأرض حين فارقها * من الأيادي العظام والمزن
لولا رجاء الإياب لأنصدعت * قلوبنا بعده من الحزن

وقال أيضاً :

رأيت بغاة الخير في كل وجهة * لغيبة يحيى مستكينين خضعاً
فإن يمس من في الرقنين مؤملاً * لأوبة يحيى نحوها متطعاً
فما وجه يحيى وحده غاب عنهم * ولكن يحيى غاب بالخير أجمعاً

وقال فيه أيضاً :

إذا غاب يحيى عن بلاد تغيرت * وثشرق إن يحتلها فتطيب
وإن فعّال الخير في كل بلدة * إذا لم يكن يحيى بها لغريب

وقال فيه حين اعتل :

لقد قرعت شكاة أبي علي * قلوب معاشير كانت صحاحاً
فإن يدفع لنا الرحمن عنه * صروف الدهر والأجل المتاحاً

(١) هو أشجع بن عمرو من ولد الشريد بن مطرود السلمي، وكان يكنى أبا الوليد، شاعر إسلامي عباسي، نشأ بالبصرة، وقال الشعر وأجاد فيه حتى عد من الفحول، وكان الشعر يومئذ في ربيعة واليمن، ولم يكن لقيس شاعر، فلما نجم أشجع وقال الشعر افتخرت به قيس. وأنقطع إلى البرامكة ومدحهم وأخلص، بجعفر فأصفاه مدحه، فأعجب به جعفر ووصله إلى الرشيد ومدحه فأعجب به أيضاً وأمدّه بالمال فأثرى وحسنت حاله في أيامه، وتقدم عنده، وله فيه المدايح المختارة، والقصائد السائرة. وتجد أشعاره وأخباره في الأغاني (ج ١٧ ص ٣٠) والشعر والشعراء (ص ٥٦٢).

ففسد أمسى صلاح أبي علي * لأهل الأرض كلهم صلاحاً
إذا ما الموت أخطاه فلَسْنَا * نبأ الموت حيث غدا وراحاً
وهو القائل ،

ليس للحاجات إلّا * من له وجهه وقّاح
ولسان طرمدار^(١) * وغدو ورواح
إن أكنّ أبطالاً الحما * جنة عني فاللّحاح
فعلى الجهاد فيها * وعلى الله النجاح

ويستجاد له في مدح الرشيد :

وصلت يدك السيف يوم تقطعت * أيدى الرجال وزلت الأقدام
وعلى عدوك يا ابن عم محمد * رصداً ضوء الصبح والإظلام
فإذا تنبّه رُعتَه وإذا غفا * سلّ عليه سيوفك الأحلام
ويُستجاد له أيضاً قوله :

غداً يتفرّق أهل الهوى * ويكثر بالك ومسترجع
وتختلف الأرض بالطاعنين * وجوهاً تُشَدُّ^(٢) ولا تُجمّع
وتفنى الطلول ويبقى الهوى * ويصنع ذو الشوق ما يصنع
وأنت تُبشّي وهم جيرة * فكيف يكون اذا ودّعوا
أطعم في العيش بعد الفراق * فبئس لعمرك ما تطيع

وفيها يقول في جعفر بن يحيى :

بديهيته مثل تدبيره * متى همت به فهو مستجمع
إذا همّ بالأمر لم يثنه * هجوع ولا شادن^(٣) أفرع
ففى كفه للغي مطاب * وللسر في صدره موضع

(١) الطرمدار : المتكرر بما لا يفعل . (٢) تفرق .

وكم قائل إذ رأى بهجتي * وما فى فُضُولِ الغنى أصنع
غدا فى ظلالِ ندى جعفر * يُجْثِيَابَ الغنى أشجع
وما خلفه لأمرئى مطمع * ولا دونه لأمرئى مَنع

وهو القائل فى محمد بن منصور بن زياد يرثيه :

أنعى فتى الجودِ الى الجودِ * ما مثلُ من أنعى بموجود
أنعى فتى أصبح معروفته * منتشرا فى البيض والسود
أنعى فتى مصّ الثرى بعده * بقية الماء من العود
قد تلم الدهرُ به ثلمة * جانبها ليس بمسود
أنعى فتى كان ومعروفته * يملأ ما بين دُرى اليد
فأصبحت بعد تساميهما * قد جُمعا فى بطن ملحود
الآن نخشى عثراتِ السدى * وعدوة البخل على الجود

ويُستجاد له قوله فى إبراهيم بن عثمان بن نهيك وكان صاحب شرط الرشيد وكان

جبارا عبوسا :

فى سيف إبراهيم خوف واقع * بذوى النفاق وفيه أمنُ المسلم
ويبيت يكلأ والعيونُ هواجع * مال المضيع ومهجة المستسلم
جعل الخطام بأنف كل مخالف * حتى استقام له الذى لم يُخفم
لا يُصلح السلطان إلا شدة * تغشى البرى بفضل ذنب المحرم
ومن الولاة مقعّم لا يتقى * والسيفُ تقطُرُ شُفرتها من الدم
منعت مهابتك النفوسَ حديثها * بالأمر تكبره وإن لم تعلم

وقال لأخيه :

أبت غفلات قلبك أن تُروحا * وكأس لا تزالها صَبُوحا
كأنك لا ترى حسنا خميلا * بعينيك يا أنحى إلا قبيحا

ويُستجاد له قوله في الرشيد :

لا زلت تنشر أعيادًا وتطويها * تمضي بها لك أيام وتثنيها
مستقبلًا جدة الدنيا وبهجتها * أيامها لك نظم في ليا ليها
العيد والعيد والأيام بينهما * موصولة لك لا تقنى وتقنيها
وليته النصر والأيام مقبلة * إليك بالفتح معقودًا نواصيها

ويستجاد له قوله يمدح اسماعيل بن صبيح :

له نظرًا لا يغمض الأمر دونه * تكاد ستور الغيب عنه تمزق

وهو القائل :

وما ترك المداح فيك مقالة * ولا قال إلا دون ما فيك قائل

وقال أيضا :

مضى ابن سعيد حين لم يبق مشرق * ولا مغرب إلا له فيه ماذج
وما كنت أدري ما فواضل كفه * على الناس حتى غيبته الصفا^(١)
فأصبح في لحد من الأرض ميتا * وكانت به حيا تضيق الصحا^(٢)
سأبكيك ما فاضت دموعي فإن تغض * فحسبك مني ما تُجيب الجوا^(٣)
فأنا من رزء وإن جل جازع * ولا بسرور بعد موتك فارح
كأن لم يمت حتى سواك ولم يقم * على أحد إلا عليك النوا^(٤)
لئن حسنت فيك المرائي وذكرها * لقد حسنت من قبل فيك المدائح

(١) الصفا : أحجار عراض تغطي بها القبور . (٢) الصحا : جمع صحصح : وهي الأرض

الجرداء المستوية الواسعة ذات حصى صغار . (٣) الجوا : الضلوع .

١٩ - علي بن الجهم^(١)

كان علي بن الجهم قد هجا بختيشوع، فسبّه عند المتوكل فحبسه المتوكل . فقال علي بن الجهم في حبسه عدة قصائد كتب بها الى المتوكل، فأطلقه بعد سنة ثم نفاه بعد ذلك الى نحرّاسان . فقال أول ما حُيِس قصيدة كتب بها الى أخيه، أولها قوله :

توكّلنا على ربّ السماء * وسأئمنّا لأسباب القضاء
ووطّنا على غيرِ آليالي * نفوساً ساحتْ بعد الإباء
وأفنية الملوك محجّبات * وبابُ الله مبدول الفناء
هي الأيام تَكُكُلمنا وتأسو * وتأتى بالسعادة والشقاء
وما يُجدي الثراء على غنيّ * إذا ما كان محظوراً لِعطاء
حلبنا الدهرَ أضرّه ومَرّت * بنا عُقبُ الشدائد والرخاء
وجربنا وجرب أولونا * فلا شيء أعزّ من ألوفاء
ولم تدع الحياء لمسّ ضرّ * وبعض الضرّ يذهب بالحياء
ولم نحزنْ على دُنيا تولّت * ولم تُسبقْ الى حسن العزاء
توقّ النَّاسَ يا بنَ أبي وأمّي * فهم تَبِعُ الخُعاة والرجاء

(١) هو عربي قرشيّ شاعر فصيح مطبوع، وقد خصّ بالمتوكل حتى صار من جلسائه ثم أبغضه لأنه كان كثير السعاية اليه بدمائه فكان اذا خلا به عرفه أنهم يعيونه ويلبونه، فيكشف الخليفة عن ذلك فلا يجد له حقيقة، فنفاه الى نحرّاسان بعد أن حبسه مدّة . وكان مذهبه في الشعر مذهب مروان بن أبي حفصة في هجا آل أبي طالب وذمهم والإغراء بهم وهجا الشيعة كقوله :

ورافضة تقول بشعب رضوى * إمام، خاب ذلك من إمام
إمام من له عشرون ألفاً * من الأتراك مشرعة السهام

وله أقوال في الغزل والعتاب وفي الوصف، توفي سنة ٢٤٩ هـ . وتجد أخباره في الأغاني (ج ٩ ص ١٠٤)

وابن خلكان (ج ١ ص ٤٩٧) .

ولا يَغُرُّكَ مَنْ وَغِدَ إِخَاءُ * لِأُمْرِ مَا غَدَا حَسَنَ الْإِخَاءِ
أَلَمْ تَرِ مَظْهَرَيْنِ عَلَى عَتَبَا * وَهَمَّ بِالْأُمْسِ إِخْوَانُ الصِّفَاءِ
فَلَمَّا أَنْ بُلِيَتْ غَدَا وَرَاحُوا * عَلَى أَشَدِّ أَسْبَابِ الْبِلَاءِ
أَبْتُ أَخْطَارَهُمْ أَنْ يَنْصُرُونِي * بِمَالٍ أَوْ بِجَاهٍ أَوْ ثَرَاءِ
وَخَافُوا أَنْ يَقَالَ لَهُمْ خَدَاتِهِمْ * صَدِيقًا فَادَّعَوْا قِدَمَ الْجَفَاءِ
تَفَافَرَتِ الرَوَافِضُ وَالنَّصَارَى * وَأَهْلُ الْإِعْتِرَالِ عَلَى هِجَائِي
وَعَابُونِي وَمَا ذَنْبِي إِلَيْهِمْ * سِوَى عِلْمِي بِأَوْلَادِ الزِّنَاءِ
فَبَخْتِيشُوعٍ يَشْهَدُ لِبْنِ عَمْرٍو * وَعَمْرُؤُ هَارُونَ الْمُرَائِي
وَمَا آجَلُكُمْ بِنْتُ أَبِي سَمِيرٍ * بِجَذْمَاءِ أَلْسَانٍ عَلَى الْخَنَاءِ
إِذَا مَا عُدَّ مِثْلَكُمْ رَجُلًا * فَمَا فَضْلُ الرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ
عَلَيْكُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ آتِئِدَاءُ * وَعَوْدًا فِي الصَّبَاحِ وَفِي الْمَسَاءِ
إِذَا سَمِعْتُمْ لِلنَّاسِ قَالُوا * أَوْلَيْتُكَ شَرًّا مِنْ تَحْتَ السَّمَاءِ
أَنَا الْمَتَوَكِّلُ هَوَى وَرَأْيَا * وَمَا بِالْوَانِقِيَّةِ مِنْ خَفَاءِ
وَمَا حَبْسُ الْخَلِيفَةِ لِي بِعَارٍ * وَلَيْسَ بِمُؤَيِّدِي مَنْهُ التَّنَائِي

كان سبب حبس المتوكل على بن الجهم أن جماعة من الجلساء سَعَوْا به إليه وقالوا له :
لأنه يَجْمَشُ الخدم ويَغْمِزُهُمْ ، وإنه كثير الطعن عليك والعيب لك والإضرار على أخلاقك ،
ولم يزلوا به يُوعِرُونَ صدره عليه حتى حبسه ، ثم أبلغوه عنه أنه هجاه ، فنفاه الى خراسان
وكتب بأن يُصَلَّبَ اذا وردها يوماً الى الليل ، فلما وصل الى الشاذليخ حبسه طاهر بن
عبد الله بن طاهر بها ، ثم أخرج فُصِّلَ يوماً الى الليل مجتوداً ثم أُنزل ، فقال في ذلك :

لَمْ يَنْصَبُوا بِالشَّاذِلِيخِ عَشِيَّةَ الْإِثْنَيْنِ * مَسْبُوقًا وَلَا مَجْهُولًا
نَصَبُوا بِحَمْدِ اللَّهِ مِلءَ قُلُوبِهِمْ * شَرَفًا وَمِلءَ صُدُورِهِمْ تَجْهِيلًا
مَا أَزْدَادَ إِلَّا رَفْعَةً بِنُكُولِهِ * وَأَزْدَادَتِ الْأَعْدَاءُ عَنْهُ لُكُولًا

هل كان إلا الليث فارق غيله * فرأيتَه في محمل محمولا
لا يأمنُ الأعداءُ من شدَّاته * شدًّا يفصلُ هامهم تفصيلا
ما عابه أنْ بُرَّ عنه لباسه * فالسيفُ أهولُ ما يرى مسلولا
إنْ يُتَدَلَّ فالبدْرُ لا يُزرى به * إنْ كان ليله تيممه مبدولا
أو يسلبوه المالَ يُحزنُ فقده * ضيفا ألم وطارقا وزيدا
أو يحسوه فليس يُحسَّ سائرُ * من شعره يدعُ العزيز ذليلا
إن المصائب ما تعدت دينه * نعم وإن صعبت عليه قليلا
والله ليس بغافلٍ عن أمره * وكفى بربك ناصرا ووَكِيلا
ولتعلمن إذا القلوب تكشفت * عنها الأكنة من أضل سبيلا

وكتب المتوكل الى طاهر بن عبد الله بإطلاق علي بن الجهم، فلما أطلقه قال :

أطاهرُ إني عن نُرَّاسانٍ راحلُ * ومُسْتَخْبِرٍ عنها فما أنا قائل
أصدق أم أكفي عن الصدق أيما * تخبرتُ أذته اليك المحافل
وسارت به الركبَانُ وأصطفقت به * أكتف قيان وأجبتنه القبائل
وإني بعالي الحمد والذم عالمُ * بما فيهما نامى الرمية ناضل
وحقًّا أقول الصدق إني لمائلُ * اليك وإن لم يحط بالود مائل
ألا حرمة تُرعى ألا عقد ذمة * لجارٍ ألا عمل لقول مُشاكل
ألا منصف إن لم نجد متفضلا * علينا ألا قاض من الناس عادل
فلا تقطعن غيظا على ألاملا * فقلبك ما عظمت على الأامل
أطاهر إن تُحسِنَ فإني محسنُ * إليك وإن تجتدل فإني باخل

فقال له طاهر : لا تقل إلا خيرا، فإني لا أفعل بك إلا ما تحب، فوصله وحمله

وكساه .

وقال علي بن الجهم للتوكل :

عفا الله عنك ! ألا حرمه * تجود بعفوك أن أبعدا
لئن جَلَّ ذنبٌ ولم أَعتمد * لأنت أجَلُّ وأعلى يدا
ألم تر عبداً عدّا طوره * ومولى عفا ورشيداً هدى
ومُفْسِدَ أمرٍ تَلَا فَيْتَه * فعاد فأصالح ما أفسدا
أَقْلَسَ أقالك من لم يزل * يَقِيكَ وَيُضْرِفُ عنك الردى

وأحسن شعر قاله في الحبس قصيدته التي أولها :

قالوا حُبِسْتَ فَقُلْتُ ليس بضائرى * حَبْسِي وَأَيُّ مُهَنِّدٍ لَا يُعَمِّدُ
أَوْ مَا رَأَيْتَ اللَّيْثَ يَأْلَفُ غِيَالَهُ * كِبَرًا وَأَوْبَاشُ السَّبَاعِ تَرَدُّدُ
والشمس لولا أنها محجوبة * عن ناظريك لَمَا أَضَاءَ الْفَرْقَدُ
والبدر يُدْرِكُهُ السَّرَارُ فَتَجَلَّى * أَيَّامُهُ وَكَأَنَّهُ مَتَجَدَّدُ
والغيثُ يَحْصُرُهُ الْغَيْمُ فَيُرى * إِلَّا وَرَيْقُهُ يَرَاعُ وَيَرْعُدُ
والزَّاعِيَةُ لَا يُقِيمُ كَعُوبَهَا * إِلَّا التَّقَافُ وَجَدْوَةٌ نَتَوَقَّدُ
والنَّارُ فِي أَحْجَارِهَا مَخْبُوءَةٌ * لَا تُصْطَلَى إِنْ لَمْ تُثْرَهَا الْأَزْنُدُ
والحبس ما لم تَغْشَهِ لَدْنِيَّةٌ * شَنْعَاءُ نَعَمِ الْمَنْزِلِ الْمُتَوَدَّدُ
بيت يَحْدُدُ لِلْكَرِيمِ كَرَامَةً * وَيُزَارُ فِيهِ وَلَا يَزُورُ وَيُحْمَدُ
لو لم يكن في الحبس إلا أنه * لَا يَسْتَذَلُّكَ بِالْحِجَابِ الْأَعْبُدُ
كم من عليلٍ قد تَخَطَّاهُ الردى * فَنَجَا وَمَاتَ طَبِيبُهُ وَالْعُودُ
يا أَحْمَدُ بْنَ أَبِي دُوَادٍ إِنَّمَا * تُدْعَى لِكُلِّ عَظِيمَةٍ يَا أَحْمَدُ
أَبْلُغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَدُونَهُ * خَوْضُ الردى وَمَخَافُفٌ لَا تَتَفَدُّ
أَنتُمْ بَنُو عَمِّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ * أَوَّلَى بِمَا شَرَعَ النَّبِيُّ مُحَمَّدُ
مَا كَانَ مِنْ كَرِيمٍ فَأَنْتُمْ أَهْلُهُ * كَرُمْتُ مَغَارِسَكُمْ وَطَابَ الْحَيِّدُ

أَمِنْ السَّوِيَّةِ يَابْنَ عَمَّ مُحَمَّد * خَصْمٌ تُقَرِّبُهُ وَآخِرُ تَبَعِدِ
إِنْ الَّذِينَ سَعَوْا إِلَيْكَ بَاطِل * حَسَادُ نَعْمَتِكَ الَّتِي لَا تُجْهَدُ
شَهِدُوا وَغَبْنَا عَنْهُمْ فَتَحَكُّوا * يَنَا، وَلَيْسَ كِفَائِي مِنْ يَشْهَدُ
لَوْ يَجْمَعُ الْخُصَمَاءَ عِنْدَكَ مَجْلَسٌ * يَوْمَا لَبَانَ لَكَ الطَّرِيقُ الْأَقْصَدُ
فَبَأَى جُرْمٍ أَصْبَحْتَ أَعْرَاضُنَا * نَهَا تَقَسَّمَهَا اللَّئِيمُ الْأَوْغَدُ

(١) خرج على بن الجهم إلى الشام في قافلة فخرجت عليهم الأعراب في خُساف، فهرب من
كان في القافلة من المقاتلة وثبت على بن الجهم، فقاتلهم قتالا شديدا وذاب الناس إليه
فدفعهم ولم يَحْظُوا بشيء، فقال في ذلك :

صَبَرْتُ وَمِثْلِي صَبْرُهُ لَيْسَ يُنْكَرُ * وَلَيْسَ عَلَيَّ تَرْكُ التَّقَعُّمِ يُعَذَّرُ
غَرِيْبَةٌ حَرٌّ لَا اخْتِلَاقٌ تَكْلُفُ * إِذَا خَامَ فِي يَوْمِ الْوَعْيِ الْمُتَصَبِّرُ^(٢)
وَلَمَّا رَأَيْتَ الْمَوْتَ تَهْفُو بِنُودِهِ * وَبَانَتْ عَلَامَاتُ لَهُ لَيْسَ تَنْكَرُ
وَأَقْبَلْتَ الْأَعْرَابُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * وَثَارَ عَجَاجُ أَسْوَدَ اللَّوْنِ أَكْدَرُ
بِكُلِّ مُشِيحٍ مُسْتَمِيتٍ مُشْمَرٍ * يَحُولُ بِهِ طَرْفُ أَقْبُ مُشْمَرٍ^(٣)
بَارِضٍ خُسَافٍ حِينَ لَمْ يَكْ دَافِعٌ * وَلَا مَانِعٌ إِلَّا الصَّفِيحُ الْمَذْكُرُ
فَقَلَّلَ فِي عَيْنِي عَظِيمَ جَمْعِهِمْ * عَزِيمَةُ قَلْبٍ فِيهِ مَا جَلَّ يَصْغُرُ
بِمَعْتَرِكٍ فِيهِ الْمَنَایَا حَوَاسِرُ * وَنَارُ الْوَعْيِ بِالْمَشْرِفَةِ تُسْعَرُ
فَمَا صُنْتُ وَجْهِي عَنْ ظُبَاتِ سِيوفِهِمْ * وَلَا أَنْحَزْتُ عَنْهُمْ وَالْقَنَّا لَتَكْسَرُ
وَلَمْ أَكْ فِي حَرِّ الْكَرِيهِةِ مُحْجَا * إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحَرْبِ لِلْوَرْدِ مَصْدَرُ
إِذَا سَاعَدَ الطَّرْفُ الْفَقَى وَجَنَانَهُ * وَأَسْمَرُ خَطِيٌّ وَأَبْيَضُ مِبْتَرُ
فَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ الْكَرِيمُ بِنَفْسِهِ * إِذَا أَصْطَلَتْ الْأَبْطَالُ فِي النِّعْ عَسْكَرُ

(١) برية بين الس والحلب . (٢) خام : نكص وجبن .

(٣) المشيح : المانع لما وراء ظهره . والأقرب من الخليل : الدقيق الخصر الضامر البطن .

منعهم من أن ينالوا قلاماً * وكنت شجاهم والأسيئة تقطُر
وتلك سجاياها قديماً وحادثاً * بها عُرف الماضي وعزّ المؤنر
أبت لي قروم أنجبتني أن أرى * وإن جلّ خطبٌ خاشعاً أتضجر
أولئك آل الله فيهر بن مالك * بهم يُجبر العظم الكسير ويُكسر
هم المنيكب العالي على كل منكب * سيوفهم تُفني وتُفني وتُفقر

كان على بن الجهم يعاشر جماعة من فتيان بغداد لما أطلق من حبسه وردّ من النفي،
وكانوا يتقانون ببغداد ويلزمون منزل مغنٍ بالكرخ يقال له المفضل، فقال فيه على بن الجهم:

نزلنا بباب الكرخ أطبّ منزل * على مُحسنات من قِيان المفضل
فلا بن سريخ والغريص ومعبّد * بدائع في أسماعنا لم تبدل
أوانس ما للضيف منهنّ حتمّة * ولا رهنّ بالجليل المبجل
بسرّ إذا ما الضيف قلّ حياؤه * ويغفل عنه وهو غير مُعقل
ويكثر من ذمّ الوقار وأهله * إذا البضيف لم يأنس ولم يبدل
ولا يدفع الأيدي المريبة غيرة * إذا نال حظاً من لبّوس وما كل
ويطرق أطراق الشجاع مهابة * ليطلق طرف الناظر المتأمل
أشريد وأغمز بطرف ولا تخف * رقيقاً إذا ما كنت غير مُبجل
وأعرض عن المصباح وألجّ بمثله * فإن نحمد المصباح فادنّ وقبل
وسلّ غير ممنوع وقلّ غير مسكّ * وتمّ غير مذعور وقم غير مُعجل
لك البيت ما دامت هداياك جمة * وكنت مليّاً بالنبيذ المعسل
فبادر بأيام الشباب فإنها * تقضى وتفني والغواية تُجلى
ودع عنك قول الناس أتلّف ماله * فلان فاضحى مُدبراً غير مُقبل
هل الدهر إلا ليلة طرحت بنا * وأخرها في يوم لهو معجل
سقى الله باب الكرخ من مُتّره * إلى قصر وضاح فبركة زلزل

مَسَاحِبِ أَذْيَالِ الْقَيْبَانِ وَمَسْرَحِ الْـ * حَسَانٍ وَمَثْوَى كُلِّ خَرْقٍ مُعَدَّلٍ
لَوْ أَنَّ أَمْرًا الْقَيْسَ بْنَ خَجْرٍ يَحْلُهَا * لَأَقْصَرَ عَنْ ذِكْرِ الدُّخُولِ وَحَوْمَلِ
إِذَا تَرَأَى أَنَّ يَمْنَحَ الْوَدَّ شَادِنَا * مُقْصَرِ أَذْيَالِ الْقَيْبَانِ غَيْرِ مُسَيَّلِ
إِذَا اللَّيْلُ أَدْنَى مَضْجَعِي مِنْهُ لَمْ أَقُلْ * "عَقَرْتُ بَعِيرِي يَا أَمْرًا الْقَيْسَ فَأَنْزِلِي"

دخل علي بن الجهم يوما على عبد الله بن طاهر في غداة من غدوات الربيع وفي السماء
غيم رقيق، والمطريجي قليلًا ويسكن قليلًا، وقد كان عبد الله عزهم على الصبح ففاضته
حظية له، فتنقص عليه عزمه وفقره، فخر علي بن الجهم بالخبر وقيل له: قل في هذا المعنى
لعله ينشط للصبح، فدخل عليه فأنشده:

أَمَّا تَرَى الْيَوْمَ مَا أَحْلَى شِمَالَهُ * صَخْوٌ وَغَيْمٌ وَابْرَاقٌ وَإِرْعَادُ
كَأَنَّهُ أَنْتَ يَا مَنْ لَا شَبِيهَ لَهُ * وَصَلٌّ وَهَجْرٌ وَتَغْرِيْبٌ وَإِبْعَادُ
فَبَاكِرِ الْرَّاحِ وَأَشْرَبِهَا مُعْتَقَةً * لَمْ يَدْنِرْ مَثَابَهَا كَيْفِيٌّ وَلَا عَادُ
وَأَشْرَبَ عَلَى الرُّوضِ إِذْ لَاحَتْ زَخَارِفُهُ * زَهْرٌ وَنُورٌ وَأُورَاقٌ وَأُورَادُ
كَأَنَّمَا يَوْمُنَا فَعِيلُ الْجَبِيْبِ بِنَا * بَذَلٌ وَهَيْلٌ وَإِبْعَادُ وَمِيعَادُ
وَلَيْسَ يَذْهَبُ عَنِّي كُلُّ فَعَالِكُمْ * عَنِّي وَرُشْدٌ وَإِصْلَاحٌ وَإِفْسَادُ

فاستحسن الأبيات وأمر له بثلاثمائة دينار وحمله وخلع عليه .

لما أطلق عبد الله بن طاهر علي بن الجهم من الحبس أقام معه بالشاذياخ مدة، فخرجوا
يوما الى الصيد . واتفق لهم مَرَجٌ كَثِيرٌ الطير والوحش وكانت أيام الرعفران، فاصطادوا
صيدا كثيرا حسنا، وأقاموا يشربون على الرعفران، فقال علي بن الجهم يصف ذلك :

وَطَيْنَا رِيَاضَ الرَّعْفَرَانِ وَأَمْسَكْتُ * عَلَيْنَا الْهَبَاءُ الْبَيْضُ حَمْرَ الدَّرَارِجِ^(١)
وَلَمْ تَحْمِهَا الْأَدْغَالُ مِنَّا وَإِنَّمَا * أَبْجَنَّا حِمَاَهَا بِالْكَلَابِ الْبَوَارِجِ^(٢)
بِمَسْتَرَوِحَاتٍ سَابِحَاتٍ بِطُونُهَا * عَلَى الْأَرْضِ أَمْثَالُ السَّهَامِ الزَّوَالِجِ

(١) واحده دراج (بضم الدال وتشديد الراء) وهو طائر على خلقه القطا إلا أنه ألطف .

(٢) الزالج من السهام : الذي يمشى على وجه الأرض ثم يمضى .

ومستشرفات بالهوادى كأنها * وما عَقِفَتْ منها رؤوس الصَّوَابِجِ
ومن دالعاتِ السُّنَا فكأنها * لِحَى من رجال خاضعين كَوَاسِجِ
فَلَيْنَا بها الغِيْطَانُ قَلِيًّا كأنها * أَنَامِلُ لِمَاحِدَى الغَانِيَاتِ الحَوَاجِ
فَقُلْ لِبَغَاةِ الصَّيْدِ هل من مُفَاحِرٍ * بصيْدٍ وهل من وَاصِفٍ أَوْ مَخَارِجِ
قَرْنًا بُزَاةً بالصَّقُورِ وَخَوْمَتٍ * شَوَاهِيْنَا من بعد صيد الرَوَاجِ
لَمَّا فُلِجَ ابنُ أبى دَوَادٍ سَمِيتَ به على بن الجهم وأظهر ذلك له وقال فيه :
لم يَبْقَ منك سوى خَيَالِكَ لَامِعًا * فوق الفِرَاشِ مَهْمَدًا بِيَسَادِ
فَرِحْتَ بِمَصْرَعِكَ البرِيَّةُ كُلُّهَا * مَنْ كَانَ منهم مُوقِنًا بِمَعَادِ
كَمْ مَجْلَسَ لله قَدْ عَظَّمْتَهُ * كَى لَا يُحَدِّثُ فِيهِ بِالْإِسْنَادِ
ولَكُمْ مَصَابِيحُ لَنَا أَطْفَآئُهَا * حَتَّى نَزُولَ عَنِ الطَّرِيقِ أَهْلَادِ
ولَكُمْ كَرِيْمَةٌ مَعْشِرٍ أَرْمَلَتْهَا * وَمَحَدَّثَتْ أَوْثَقَتْ فِي الْأَقْيَادِ
إِنْ الْأَسَارَى فِي السَّجُونِ تَفَرَّجُوا * لَمَّا أَنْتَكَ مَوَاصِبُ الْعَوَادِ
وَعَدَا لِمَصْرَعِكَ الطَّبِيبُ فَلَمْ يَجِدْ * شَيْئًا لِدَائِكَ حَيْلَةً أَلْمَرْتَادِ
فَذُقِ الْهُوََانَ مَعْجَلًا وَمُؤَجَّلًا * وَاللهُ رَبُّ الْعَرْشِ بِالْمَرْصَادِ
لَا زَالَ فَالْجُلُوكِ الَّذِي بَكَ دَائِبًا * وَخُفِعَتْ قَبْلَ الْمَوْتِ بِالْأَوْلَادِ
ومن جيد شعره قوله :

نطق الهوى بجوى هو الحق * وملكتنى فليهنك الرق
رفقا بقساي يا معذبه * رفقًا وليس لظالم رفق
وإذا رأيتك لا تكلمنى * ضاقت على الأرض والآفاق

وله أيضا :

يا رحمةً للغريب بالبلد النَّا * زج ما ذا بنفسه صَنَعَا
فَارَقَ أَحِبَّاءَهُ فَمَا آتَتْفَعُوا * بالعِيشِ من بعده وما آتَتْفَعَا

(١) الراج : الملواح الذى يصاد به الصقور ونحوها من جوارح الطير .

٢٠ - علي بن جبلة^(١)

قال المأمون يوماً لبعض جلسائه : أقيم علي من حضر ممن يحفظ قصيدة علي بن جبلة الأعمى في القاسم بن عيسى إلا أنشدنيها ؛ فقال له بعض الجلساء : قد أقسم أمير المؤمنين ولا بد من إبرار قسمه ، وما أحفظها ولكنها مكتوبة عندى ؛ قال : قم فحُثني بها ، فحُثني وأتاه بها وأنشده إياها ، وهى :

ذادَ رَدَ النّجى عن صَدْرِهِ * وأرَعَوَى واللّهو من وَطَرِهِ
وَأَبَتْ إِلَّا البِكَاءَ لَهُ * ضَحِكَاتُ الشَّيْبِ فِي شَعْرِهِ
نَدِمَى أَنْ الشَّبَابَ مَضَى * لَمْ أَبْلُغْهُ مَدَى أَشْرِهِ
وَأَنْقَضَتْ أَيَّامُهُ سَلَمًا * لَمْ أَجِدْ حَوْلًا عَلَى غَيْرِهِ
حَسَرْتُ عَنِّي بِشَاشَتِهِ * وَذَوَى المَحْمُودُ مِنْ ثَمَرِهِ
وَدِمَ أَهْدَرْتُ مِنْ رَشَا * لَمْ يُرِدْ عَقْلًا عَلَى هَادِرِهِ
فَأَتَتْ دُونَ الصَّبَا هَنَّةٌ * قَلْبْتُ فُوقَ عَلَى وَتَرِهِ
جَارَتَا لَيْسَ الشَّبَابُ لِمَنْ * رَاحَ مَحْنِبًا عَلَى كِبَرِهِ
ذَهَبَتْ أَشْيَاءُ كُنْتُ لَهَا * صَارَهَا حَالِي إِلَى صُورِهِ^(٢)

(١) هو علي بن جبلة الأنباري والعكوك لقبه ، وهو من الموالى أبناء الشيعة الخراسانية من أهل بغداد ، ولد في الحربية منها ونشأ فيها ، وكان ضريرا منذ ولادته مثل بشار بن برد ، وهو شاعر مطبوع عذب اللفظ جزلة ، لطيف الجاني ، مداح حسن التصرف ، وقد استنفد شعره في مدح أبي دلف العجلي وأبي غانم حميد بن عبد الحميد الطوسي ، وزاد في تفضيلهما وتفضيل أبي دلف خاصة حتى فضل ربيعة على مضر ، فاستاء المأمون من ذلك وبلغه أبيات قالها العكوك في أبي دلف منها :

كل من في الأرض من عرب * بين يديه إلى حضره
مستعير منك مكرمة * يكتسبها يوم مفتره

توفي سنة ٢١٣ هـ . وتجده أكثر أخباره في الأغاني (ج ١٨ ص ١٠٠) وابن خلكان طبع بولاق (ج ١ ص ٩٥) والشعر والشعراء (ص ٥٥٠) (٢) صارها : أمالها .

دَعَجَ جَدَا لِحَطَّانٍ أَوْ مُضِيرٍ * فِي يَمَانِيهِ فِي مُضِيرِهِ
وَامْتَدَحَ مِنْ وَائِلٍ رَجُلًا * عَصُرُ الْآفَاقِ فِي عَصِيرِهِ
الْمُنَايَا فِي مَنَاقِيهِ * وَالْعَطَايَا فِي ذَرَا حُجْرِهِ
مَسَلَّكَ تَنْدَى أُنَامِلِهِ * كَانِبَ لَاجِ النَّبِيِّ عَنْ مَطَرِهِ
مُسْتَهْلٍ عَيْنَ مَوَاهِبِهِ * كَابِتْهَامِ الرُّوضِ عَنْ زَهْرِهِ
جَبَلٌ عَزَّتْ مَتَاكِبُهُ * أَمِنَتْ عَدَنَانِي فِي نُفُورِهِ
إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلْفٍ * بَيْنَ مَبْدَأِهِ وَمُخْتَصِرِهِ
فَإِذَا وَلَّى أَبُو دُلْفٍ * وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ
لَيْسْتُ أَدرَى مَا أَقُولُ لَهُ * غَيْرَ أَنَّ الْأَرْضَ فِي خَفَرِهِ
يَادَوَاءِ الْأَرْضِ إِنْ فَسَدَتْ * وَمَدِيلُ الْيُسْرِ مِنْ عُسْرِهِ
كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ * بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهِ
مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرَمَةٍ * يَكْتَسِبُهَا يَوْمَ مُفْتَخَرِهِ

وفيها يقول :

وَزُحُوفٍ فِي صَوَاهِلِهِ * كَصَبَاحِ الْحَشْرِ فِي أَثَرِهِ
قُدْرَتِهِ وَالْمَوْتَ مَكْتَمُنٌ * فِي مَذَاكِبِهِ وَمُسْتَجِرِهِ
فَرَمْتُ حَقْوِيهِ مِنْهُ يَدٌ * طَوْبُ الْمُنْشَوْرِ مِنْ نَظَرِهِ
زَرْقَهُ وَالْحَبِيلَ عَابِسَةً * تَحْمِلُ الْبُؤْسَى عَلَى عُقْبَرِهِ
خَارِجَاتٍ تَحْتَ رَايَتِهِ * تَخْرُوجُ الطَّيْرُ مِنْ وَكْرِهِ
وَعَلَى النِّعَامِ تُحْجَتُ بِهِ * عَوِجَةً ذَائِدُهُ عَنْ صَدْرِهِ
غَمَطَ النِّعَامُ صَفْوَتَهَا * فَرَدَدَتْ الصَّفْوَى فِي كَدْرِهِ
وَلَقَرَقُورٌ أَدْرَبَتْ رِجْلًا * لَمْ تَكُنْ تَرْتَدُّ فِي فَيْكَرِهِ

قد تَأْتَيْتَ البقاءَ له * فأبى المحتومُ من فَدَرِه
وطغى حتى رفعتَ له * خُطَّةً شنعاءَ من ذِكْرِه
فغضب المأمون وأغتاظ، وقال : لست لأبى إن لم أقطع لسانه أو أسفك دمه .

وكان يمدح حميد بن عبد الحميد، فلما سمع حميد هذا في أبي دلف قال : أى شىء
بَقَّيْتُ لنا بعد هذا من مدحك؟ فقال :

إنما الدنيا حميدٌ * وأياديه الجسامُ
فاذا ولَّى حميدٌ * فعلى الدنيا السلامُ

وهو القائل في حميد :

دِجْلَةٌ تَسْقِي وَأَبُو غَانِمٍ * يُطْعِمُ مَنْ تَسْقِي مِنَ النَّاسِ
وَالنَّاسُ جِسْمٌ وَإِمَامٌ هَدَى * رَأْسٌ وَأَنْتَ الْعَيْنُ فِي الرَّاسِ

وقال للحسن بن سهل :

أَعْطَيْتَنِي يَا وَلِيَّ الْحَقِّ مَبْتَدَأً * عَطِيَّةَ كَافَاتٍ مَدْحِي وَلَمْ تَرِنِ
مَا شِئْتُ بِرَقِّكَ حَتَّى نِلْتُ رَيْقَهُ * كَأَنَّمَا كُنْتُ بِالْجَدْوَى تُبَادِرُنِي

وهو القائل في حميد :

إِلَى أَكْرَمِ خَطَانٍ * وَصَلْنَا السَّهْبَ بِالسَّهْبِ
إِلَى مَجْتَمَعِ النَّيْلِ * وَوُلِّقَى أَرْحُلِ الرِّكْبِ
حَمِيدٌ مَفْزَعُ الْأُمَّةِ * فِي الشَّرْقِ وَفِي الْغَرْبِ
كَأَنَّ النَّاسَ جِسْمٌ وَهْ * وَ مِنْهُ مَوْضِعُ الْقَلْبِ
إِذَا سَآلَمَ أَرْضًا غَمَّ * يَنْبُتُ أَمْنَةً السَّرْبِ
وَإِنْ حَارَبَهَا حَلَّتْ * بِهَا رَاغِيَةُ السَّقْبِ
إِذَا لَاقَى رَعِيْلَ الْمَوِ * تِ بِالشُّطْبَةِ وَالشُّطْبِ
وَبِالْمَاذِيَةِ الْخُضْرِ * وَبِالْهِنْدِيَّةِ الْقُضْبِ

غداً مجتمع القلب * له جند من الرغب
 فيأفوز الذي وإلى * وياؤسى أذى الذنب
 أيا إذا الجود فاسلم ما * بحرث حقب إلى حقب
 فأنت الغيث في السلم * وأنت الموت في الحرب
 وأنت الجامع الفار * ق بين البعد والقرب
 بك الله تلافى النسا * س بعد العثر والنكب
 ورد البيض والبيض * إلى الأغصان والمحب
 بإقدامك في الحرب * وإطعامك في اللزب
 فكم أمنت من خوف * وكم أشعبت من شغب
 وكم أصلحت من خطب * وكم أيمت من خطب
 وما تمهـرها إلا * دراك الطعن والضرب
 تناهت بك قحطاً * إلى الغاية والحسب
 ففانت شرف الأحياء * ء قوت الرأس للعجب^(١)

وما أسرف فيه فكفر أو قارب الكفر قوله في أبي دلف :

أنت الذي تُنزل الأيام منزهاً * وتتقل الدهر من حال إلى حال
 وما مددت مدى طرف إلى أحد * إلا قضيت بأرزاق وآجال
 تزور سخطاً فتُسي البيض راضيةً * وتستهل فتبكي أوجهُ المال

وقال فيها :

كأت خيلك في أنشاء غمرتها * أرسل قطير تهاى فوق إرسال
 يخرجن من غمرات الموت ساميةً * نشر الأنامل من ذى القرة الصالى

(١) العجب : أصل الذنب .

وقال أيضا :

جلاء مشيب نزل * وأُسُّ شبابِ رحل
طوى صاحبُ صاحبًا * كذاك اختلافُ الدول
أعاذلتي أقصيري * كفاك المشيبُ العذل
بدا بدلاً بالشبا * ب ليت الشبابُ البدل
جـلالٌ ولكنه * تحاماه حورُ المقل

وقد كان حميد ركب يوم عيد في جيش عظيم لم ير مثله ، فقال على بن جبلة يصف ذلك :

غدا بأمر المؤمنين ويمنه * أبو غانم غدو الندى والسحاب
وضاقت فجأ الأرض عن كل موكب * أحاط به مستعلياً للواكب
كأن سموا النقع والبيض فوقهم * سماوة ليل قرنت بالكوكب
فكان لأهل العيد عيدٌ بنسكهم * وكان حميدٌ عيدهم بالموهب
ولولا حميد لم تبلج عن الندى * يمينٌ ولم يدرك غنى كسب كاسب
ولو ملك الدنيا لما كان سائلٌ * ولا أعتام فيها صاحبٌ فضل صاحب
له ضحكة تستغرق المال بالندى * على عبسة تشجي القنا بالترائب
ذهبت بأيام العلاء فإردا بها * وصرمت عن مسعاك شأو المطالب
وعدت ميل الأرض حتى تعدلت * فلم يئاً منها جانبٌ فوق جانب
بلغت بأدنى الحزم أبعاد قُطرها * كأنك منها شاهدٌ كل غائب

شخص على بن جبلة إلى عبد الله بن طاهر إلى خراسان ، وقد مدحه فأجرل صلته ، واستأذنه في الرجوع فسأله أن يقيم ، وكان برّه يتصل عنده ؛ فلما طال مُقامه اشتاق إلى أهله فدخل إليه فأنشده :

راعه الشيبُ إذ نزل * وكفاه من العذل
وانقضت مدة الصبا * وانقضى اللهو والغزل

قد لعمري دَمَلَتْهُ . بِخَضَابٍ فَمَا آتَدَمَلْ
 فَايَكِ لَشَّيْبٍ إِذْ بَدَا . لَا عَلَى الرَّبْعِ وَالطَّلَلْ
 وَصَلَّ اللَّهُ لِلْأَمِيهِ . بِرِعْزَى الْمَلِكِ فَاتَّصَلْ
 مَلِكٌ عَزَمُهُ الزَّمَا . نُبُّ وَأَفْعَالُهُ الدُّوَلْ
 كَسْرُوهُ، يَجِدُهُ . يَضْرِبُ الضَّارِبُ الْمَثَلْ
 وَإِلَى ظِلِّ عَزَّهِ . يَلْجَأُ الْخَائِفُ الْوَجَلْ
 كُلُّ خَلْقٍ سِوَى الْإِمَا . يَمُوتُ لِإِنْعَامِهِ خَوَلْ
 لَيْتَهُ حِينَ جَادَلِي . بِالْغِنَى جَادَ بِالْقَفَلْ
 فضحك وقال : أَيْتَ إِلَّا أَنْ تُوحِشْنَا، وَأَجْزَلِ صَلَاتَهُ وَأُذُنَ لَهُ .

دخل على بن جبلة الْعَكَّوكَ على حميد الطوسي في أول يوم من شهر رمضان ، فأنشده :
 جَعَلَ اللَّهُ مَدْخَلَ الصَّوْمِ فَوْزًا . تَحْمِيدٌ وَمُتَعَةٌ فِي الْبَقَاءِ
 فَهُوَ شَهْرُ الرَّبِيعِ لِلْقُرَّاءِ . وَفِرَاقُ النَّدَامِ وَالصَّهْبَاءِ
 وَأَنَا الضَّامِنُ الْمَلِيٍّ لِمَنْ عَا . قَرَّهَا مُفْطِرًا بِطَوْلِ الظَّهَاءِ
 وَكَأَنِّي أَرَى النَّدَامَى عَلَى الْخَسَاءِ . يَفْ يَرْجُونَ صَبْحَهُمْ بِالْمَسَاءِ
 قَدْ طَوَى بَعْضُهُمْ زِيَارَةَ بَعْضٍ . وَاسْتَعَاذُوا مَصَاحِفًا بِالْغِنَاءِ
 وفيها يقول :

بُجَيْدٌ — وَأَيْنَ مِثْلُ حَمِيدٍ — . تَفَرَّتْ طِيٌّ عَلَى الْأَحْيَاءِ
 جُودُهُ أَظْهَرَ السَّاحَةَ فِي الْأَرْضِ . ضِ وَأَغْنَى الْمُقْوَى عَنِ الْإِقْوَاءِ
 مَلِكٌ يَأْمُلُ الْعِبَادُ نَدَاهُ . مِثْلَ مَا يَأْمُلُونَ قَطْرَ السَّمَاءِ
 صَاغَهُ اللَّهُ مُطْعِمَ النَّاسِ فِي الْأَرْضِ . ضِ وَصَاغَ السَّحَابَ لِلْإِسْقَاءِ

فأمس له بخمسة آلاف درهم ، وقال : استعن بهذه على نفقة صومك ، ثم دخل إليه ثاني
 سؤال فأنشده :

عَلَّلَانِي بِصَفْوِ مَا فِي الدَّنَانِ * وَأَتْرَكَ مَا يَقُولُهُ الْعَاذِلَانِ
 وَأَسْبَقَا فَاجْعَ الْمَنِيَّةَ بِالْعِيدِ * شِيشَ فُكْلٍ عَلَى الْجَدِيدِينَ فَانِي
 عَلَّلَانِي بِشَرْبَةِ تُذْهَبُ إِلَهُ * سَمَّ وَتَشْفِي طَوَارِقَ الْأَحْزَانِ
 وَالْقِيَا فِي مَسَامِعِ سَدِّهَا الصَّو * مُرُقَى الْمَوْصَلَى أَوْ دَحْمَانَ
 قَدْ أَمَانَا شَوَّالَ فَاقْتَبَلَ الْعِيدِ * شُشْ وَأَعْدَى قَسْرًا عَلَى رَمَضَانَ
 نِعَمَ عَوْنُ الْفَقَى عَلَى نُوبِ الدَّهْرِ * يَرِ سَمَاعُ الْقِيَانِ وَالْيَعِيدَانِ
 وَكُؤُوسُ تَجْرَى بِمَاءِ كَرُومِ * وَمَطَى الْكُؤُوسِ أَيْدَى الْقِيَانِ
 مِنْ عُقَارٍ تُنْمِتُ كُلَّ احْتِشَامِ * وَتُسَرُّ النَّسْدَمَانُ بِالنَّدَمَانِ
 وَكَأَنَّ الْمِزَاجَ يَقْدَحُ مِنْهَا * شَرًّا فِي سَبَائِكِ الْعِيقَانِ
 فَاشْرِبِ الرَّاحَ وَأَعِصْ مَنْ لَمْ فِيهَا * لَهَا نِعْمَ عُدَّةُ الْفَتِيَانِ
 وَأَصْحَبِ الدَّهْرَ بَارْتِحَالٍ وَحِلٍّ * لَا تَخَفُ مَا يَجْرُهُ الْحَادِثَانِ
 حَسْبُ مُسْتَظْهِرٍ عَلَى الدَّهْرِ رَكْنًا * بِجَيْدِ رَدْعَا مِنْ الْحَدَثَانِ
 مَلِكٌ يَقْتَنِي الْمَكَارِمَ كَثْرًا * وَتَرَاهُ مِنْ أَكْرَمِ الْفَتِيَانِ
 خُلِقَتْ رَاحَتَاهُ لِلْجُودِ وَالْبَأْسِ * سِيسَ وَأَمْوَالُهُ لَشُكْرِ اللَّسَانِ
 مَلِكُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَعْدُ * وَأَقْوَمَ لَهُ بَنُو قَطَانِ
 أُرِيحِي النَّدَا جَمِيلُ الْحَيَا * يَدُهُ وَالسَّمَاحُ مَعْتَقِدَانِ
 وَجْهَهُ مُشْرِقٌ إِلَى مُعْتَفِيهِ * وَيَدَاهُ بِالْغَيْثِ تَنْفَعِرَانِ
 جَعَلَ الدَّهْرَ بَيْنَ يَوْمِيهِ قَسْمِي * بَيْنَ عُرْفِ جَزَلٍ وَحَرِّ طَعَانِ
 فَإِذَا سَارَ بِالْخَيْسِ لِحَرْبٍ * كَلَّ عَنْ نَصِّ بَحْيِهِ الْخَافِقَانِ
 وَإِذَا مَا هَزَزَتْهُ لِنَوَالٍ * ضَاقَ عَنْ رَحْبِ صَدْرِهِ الْأُفُقَانِ
 غَيْثٌ جَدِبٌ إِذَا أَقَامَ رَيْبِعٌ * يَتَغَشَّى السَّيْبُ كُلَّ مَكَانِ
 يَا أَبَا غَاثٍ بَقِيَّتْ عَلَى الدَّهْرِ * يَرِ وَخُلِّدَتْ مَا جَرَى الْعَصْرَانِ

ما تُبَالِي إِذَا عَدَّتْكَ الْمُنَايَا * مَنْ أَصَابَتْ بِكَ كُلِّ وَجْهَانِ
 قَدْ جَعَلْنَا إِلَيْكَ بَعَثَ الْمَطَايَا * هَرَبًا مِنْ زَمَانِنَا الْخَوَانِ
 وَحَمَلْنَا الْحَاجَاتِ فَوْقَ عِتَاقِي * ضَامِنَاتِ حَوَائِجِ الرِّجَالِ
 لَيْسَ جُودٌ وَرَاءَ جُودِكَ يُنْتَا * بٌ وَلَا يَعْتَنِي لَغَيْرِكَ عَانِي

فأمر له بعشرة آلاف درهم، وقال: تلك كانت للصوم تخففت وخففنا، وهذه للفطر
 فقد زدتنا وزدناك .

ولما مات حميد الطوسي رثاه بفصيدته العينية المشهورة التي تُعد من نادر الشعر
 وبديعه، وهي :

أَلَدَّهِرٍ تَبْكِي أُمَ عَلَى الدَّهْرِ تَجَزَّعُ * وَمَا صَاحِبُ الْأَيَّامِ إِلَّا مُقَجَّعُ
 وَلَوْ سَهَلَتْ عَنْكَ الْأَسَى كَانَ فِي الْأَسَى * عِزَاءُ مَعِزِّ اللَّيْلِ وَمَقْنَعُ
 نَعَزَّ بِمَا عَزَّيْتَ غَيْرَكَ لِإِنِّهَا * سِهَامُ الْمُنَايَا حَائِمَاتٌ وَوَقْعُ
 أُيُوهِنَا بِيَوْمٍ فِي حُمَيْدٍ لَوْ أَنَّهُ * أَصَابَ عُرُوشَ الدَّهْرِ ظَلَّتْ تَضَعُّعُ
 وَأَدْبَنَا مَا أَدَّبَ النَّاسَ قَبْلَنَا * وَلَكِنَّهُ لَمْ يَبْقِ لِلصَّبْرِ مَوْضِعُ
 أَلَمْ تَرِ لِلْأَيَّامِ كَيْفَ تَصَرَّمَتْ * بِهِ ، وَبِهِ كَانَتْ تُذَادُ وَتُدْفَعُ
 وَكَيْفَ التَّقَى مَثْوًى مِنَ الْأَرْضِ ضَيْقُ * عَلَى جَبَلٍ كَانَتْ بِهِ الْأَرْضُ مُنْعُ
 وَلَمَّا أَنْقَضَتْ أَيَّامُهُ أَنْقَضَتْ الْعَلَا * وَأَضْحَى بِهِ أَنْفُ النَّدَى وَهُوَ أَجْدَعُ
 وَرَاحَ عِدْوُ الدِّينِ جَذْلَانِ يَتَحَيَّ * أُمَانِيَّ كَانَتْ فِي حَشَاهُ تَقَطُّعُ
 وَكَانَ حُمَيْدٌ مَعْقِلًا رَكْعَتْ بِهِ * قَوَاعِدُ مَا كَانَتْ عَلَى الضَّمِيمِ تَرْكُعُ
 وَكُنْتُ أَرَاهُ كَالرِّزَايَا رُزِئَتْهَا * وَلَمْ أَدْرَأَنَّ الْخَلْقَ تَبْكِيهِ أَجْمَعُ
 حِمَامٌ رَمَاهُ مِنْ مَوَاضِعِ أَمْنِهِ * حِمَامٌ، كَذَاكَ الْخَطْبُ بِالْخَطْبِ يُقَدِّعُ
 وَلَيْسَ بَغَرِي أَنْ تُصِيبَ مَنِيَّةُ * حِمَى أَخْتَهَا أَوْ أَنْ يَذِلَّ الْمُنْعُ
 لَقَدْ أَدْرَكْتُ فِينَا الْمُنَايَا بِثَارِهَا * وَحَلَّتْ بِخَطْبٍ وَهَيْبِهِ لَيْسَ يُرْقِعُ

نَعَاءٍ حَمِيدًا لِلسَّرايا إِذَا غَدَتْ * تَذادُ بِأَطرافِ الرِّماحِ وتُوزَعُ
 ولُذْرَهَقِ المَكْرُوبِ ضاقتْ بِأمره * فلم يدر في حوماتها كيف يصنعُ
 وللبَيْضِ خَلَّتْها البَعُولُ ولم يدع * لها غيرةَ داعي الصِّباحِ المُفزعُ
 كأنَّ حَميدًا لم يُقَدِّ جيشَ عسكِ * إلى عسْكَرِ أَشْباعِه لا تروَعُ
 ولم يَبْعَثِ الخَيْلَ المَغيرةَ بالضَّحَى * مِرْاحًا ولم يرجعْ بها وهى ظُلُعُ
 رواجعَ يَحْمِلنَ النَّهَبَ ولم تَكُنْ * كَنائِبُهُ إِلَّا على النَّهَبِ تَرجعُ
 هوى جَبَلُ الدُّنيا المَنِيعُ وَغَيْثُها الـ * مَرِيعُ وحامِيها العَكْمِيُّ المُشيعُ
 وسيفُ أميرِ المُؤمِنينَ ورُحْمُه * ومُفتاحُ بابِ الخُطْبِ والخُطْبُ أَفْطعُ
 فأفْنَعُه من مُلكِه ورِباعُه * ونائِلُه قَفَرٌ من الأرضِ بَلَقعُ
 على أَى شَجْوٍ تَشْتَكِي النَفْسُ بَعْدَه * إلى شَجْوِه أُوذِنَ الدَّمْعُ مَدَمْعُ
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ حَالَ ضِياؤِها * عليه وأَضْحى لَوْنُها وهو أَسْفَعُ
 وأَوْحَشَتِ الدُّنيا وأودى بهاؤُها * وأَجْدَبَ مَرعَها الذى كان يَمْرُغُ
 وقد كانت الدُّنيا به مَطْمَئِنَّةً * فَقَدْ جَعَلَتْ أوتادُها نُتْقَلَعُ
 بَكَى فَقَدَه رُوحُ الحِياةِ كَمَا بَكَى * نَدَاهُ النَّدَى وَأَبْنُ السَّبِيلِ المُدْفَعُ
 وفارَقَتِ البَيْضُ الخُذورَ وأُبْرِزَتْ * عَواطِلَ حَسْرَتى بَعْدَه لا تَقْنَعُ
 وأَيَّقُظْ أَجْفانًا وكانَ لها الكرى * وَنامَت عِيونٌ لَمْ تَكُنْ قَبْلَ تَهَجُّعُ
 وَلَكِنَّه مَقْدارُ يَوْمٍ نَوَى بِهِ * لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُ نِهاالٌ وَمَشْرَعُ
 وَقَدْ رَأَى اللهُ المَلّا بِمُحَمَّدٍ * وبالأَصْلِ يَتْنى فِرْعُه المُتَفَرِّعُ
 أَغْرَى، على أَسِيفِه ورِماحِه * تُقَسِّمُ أنْفالُ الخَمِيسِ وتُجْمَعُ
 حَوَى عن أَيْهَ بَدَلٍ راحَتِه النَّدَى * وَطَعَنَ الكُلَى والزَّاعِيَّةُ شُرْعُ

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥٤٩/١٩٢٧/٢٠٠٠)

عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فرید زفاعی

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الثالث

(حقوق الطبع محفوظة للزاف)

[الطبعة الثالثة]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٢٨ - ١٣٤٦ م

فهرست

المجلد الثالث من عصر المأمون

ملحق الكتاب الثالث — عصر الأمين والمأمون

باب المنتهـور :

صفحة

١	نصوص كتب الأمين والمأمون — نص كتاب الأمين الى المأمون
٢	نص كتاب الأمين الى أخيه صالح
٥	القول بخلق القرآن (ما كتبه المأمون الى ولاته)
١٧	عهد طاهر بن الحسين
٢٦	رسالة الخبـيس (ما كتبه المأمون الى أهل خراسان) ..
٣٨	ما كتبه السيدة زبـدة الى المأمون — ما كتبه المأمون اليها
٣٩	رسالة أحمد بن يوسف

رسائل سهل بن هارون :

٤٨	وصفه وتاريخ حياته — ما حكاه الجاحظ عنه
٤٩	ما حكاه دعبـل الخزاعي الشاعر عنه
٥٠	كتبه وطريقة كتبه في التأليف
٥٢	من كلام له في كتابه ثعلـة وعفرة
٥٣	ما كتبه الى صديق له أهل من ضعف — رسالته في البهل
٥٧	شيء من شعره

رسائل عمرو بن مسعدة :

٥٩	وصفه وتاريخ حياته
٦١	من كلام له — ما كتبه الى الحسن بن سهل — ما كتبه الى المأمون
٦٢	من حكمه

فهرس المجلد الثالث

(د)

صفحة	
٦٤	ما كتبه الى بعض الرؤساء
٦٥	شيء من شعره
٦٦	حكاية له
٧٠	ما قاله أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمي فيه

رسائل الجاحظ :

٧٢	وصفه وتاريخ حياته — رسالته في بنى أمية
٨٠	ما كتبه الى بعض إخوانه في ذم الزمان
٨٢	وصفه لقريش وبنى هاشم
٨٣	ما كتبه في الاعتذار — ما كتبه في الاستعطاف
٨٤	ما كتبه في ذم الحسد — دفاعه عن مؤلفاته
٩٢	ما كتبه في أخذ البرى بذنب المذنب
٩٨	ما كتبه في أقسام البيان
١٠١	ما كتبه في مدح الكتب
١١٥	ما كتبه في الترغيب في اصطلاح الكتب

باب الرسائل :

١٢٨	الفصول المنتخبة من الرسائل المختارة في كل فن — كتب رجل الى صديق له
١٣١	فصل لسعيد بن حميد
	فصل في هدية — فصل في شفاعه — فصل لرجل ميمى — فصل لأحمد بن يوسف
١٣٣	فصل في الصفيح لأبي علي — فصل لأحمد بن يوسف
١٣٤	فصل لعقال بن شبة — فصل في التوديع — فصل في الصفيح — جواب في فتح
١٣٥	فصل في الصفيح عن الجفاء — فصل في الاعتذار
١٣٦	الى المأمون من عامل — فصل لابن الكلبي
١٣٧	فصل لابراهيم بن اسماعيل بن داود
١٣٨	فصل لعمر بن مسعدة
١٣٨	فصل لعيسى بن واضح الى الفضل بن ربيع — فصل لجبل بن يزيد
١٣٩	وله في المطر — وله الى بعض إخوانه
١٤٠	فصل لابن أعين كاتب الخيزران — فصل لابن الكلبي — فصل لعلي بن غنيدة الى ابن الكلبي
١٤١	فصل لعامة — فصل لسعيد بن عبد الملك

(هـ) فهرس المجلد الثالث

صفحة	
١٤٢	فصل لجبل بن يزيد الى بعض اخوانه — وله الى بعض اخوانه أيضا
١٤٤	فصل في شكر... ..
١٤٥	فصل في صفة الجند
	ما كتبه جعفر بن محمد الأشعث الى رجل لم يكتبه — ما كتبه الفضل بن يحيى الى رجل
١٤٦	يشاوره في أمر حدث — ما كتبه أحمد بن يوسف الى اسحاق بن ابراهيم الموصلي — توسل
	ما كتبه طاهر بن الحسين الى الفضل بن سهل — ما كتبه محمد بن الجهم — ما كتبه
١٤٧	محمد بن مسعر — ما كتبه ابن وهب في الاعتذار

تتأميميد :

١٤٨	التحميد الأول — التحميد الثاني
	صدر تحميد مفرد — صدر تحميد آخر — تحميد مختار لكاتب خزيمة بن خازم في فتح
١٤٩	الصنارية — تحميد لأحمد بن يوسف الى الولاة عن الخليفة
	تحميد لابراهيم بن العباس في فتح اسماعيل بن اسحاق — التحميد الثاني — تحميد له مبتدأ
١٥٠	مقام بين يدي الخليفة
١٥١	تحميد ثان — تحميد ثالث
١٥٣	تحميد في فتح لابن العباس
١٥٣	وله في فتح ابن البغيث لما ظفربه
١٥٤	وله صدر كتاب الخيس في تحميد الله وتحميده
١٥٥	تحميد لأحمد بن يوسف في صدر رسالة الخيس التي كانت تقرأ بخراسان
١٥٦	تحميد للعباس في مقام له بين يدي المأمون — تحميد لعبد الحميد في أبي العلاء الحروري
	تحميد في فتح الى أمير لقمامة — صدر تحميد لفسان بن عبد الحميد في خطبة موجزة — تحميد
١٥٧	لعبد الحميد في فتح
١٥٨	تحميد ثالث
١٥٩	تحميد لأنس بن أبي شينخ — تحميد لعبد الحميد في فتح يعظم فيه أمر الاسلام
١٦٠	تحميد لعبد الحميد أيضا
١٦١	تحميد لقمامة — تحميد لزيد بن علي — تحميد في الاسلام
١٦٢	تحميد لأبي عبيد الله
١٦٣	صدر رسالة في الخيس لابراهيم بن المهدي
١٦٤	تحميد في الاسلام وما امتن به على أهله
١٦٥	تحميد في الجهاد وما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم

فهرس المجلد الثالث

(و)

صفحة	
١٦٨	تحميد في فتح لسعيد بن حميد
١٦٩	تحميد لابن المقفع
١٧١	تحميد لفسان بن عبد الحميد — تحميد لأحمد بن يوسف في فتح السند
١٧٢	تحميد لأبي عبيد الله — تحميد لسعيد بن حميد
١٧٣	فيما يقترظ به الخليفة
١٧٧	تحميد لأبي عبيد الله
١٨٠	ما يكتب به في الخالعين وقت الهزيمة
١٨١	ما يكتب به في صفة الخالعين
١٨٤	ما يكتب به في العصاة — ما يكتب به في مدح قواد الجيوش وصفة الأولياء في أحوالهم
١٨٧	رصف الأولياء في الكتب
١٨٨	ما يقترظ به أمير المؤمنين في أواخر الكتب — سعيد بن حميد
	التحاميد في أواخر الكتب :

١٨٨	تحميد لسعيد بن نصر — تحميد لإبراهيم بن العباس — تحميد لأبي عبيد الله
١٩٢	الدعاء لأمر المؤمنين في أواخر الكتب

مختار ما كتب من باب التهاني في كل فن :

	تهنئة خليفة بظفر — ما كتبه إبراهيم بن المهدي إلى المعتصم يهنئه بخروجه عن أرض الروم
١٩٣	بعد فتح عمورية
١٩٤	ما كتبه أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر يهنئه بظفر — تهنئة خليفة بجحج
١٩٥	تهنئة بولاية — تهنئة لسعيد بن حميد إلى بعض أخوانه
١٩٧	ما كتبه محمد بن مكرم إلى أحمد بن دينار
١٩٨	تهنئة بعزل عامل عن عمله
١٩٩	ما كتبه محمد بن مكرم إلى إبراهيم بن المدبر
٢٠٠	تهنئة بزويج وبناء بأهل
٢٠١	تهنئة بولود كتبها العباس بن الحسن الطالبي إلى المأمون
٢٠٤	ما كتبه ابن المقفع إلى صديق له ولدت له جارية
٢٠٥	تهنئة لمحمد بن مكرم إلى نصراني أسلم

باب المنظوم :

٢٠٦	أبونواس
٢٤٩	العنابي

فهرس المجلد الثالث (ز)

صفحة	
٢٥٥	دعبل
٢٦٥	حسين بن الصالح
٢٧٨	محمد بن عبد الملك الزيات
٢٨٣	ابن البواب
٢٨٦	الخريجي
٢٩٥	عبد الله بن طاهر
٢٩٨	ما قبل في هجاء الأمين ورثائه
٣٠٣	هجاء يحيى بن أكرم
٣٠٥	وصف ثورة بغداد وحرقها

مُلْحَقُهُمْ

الكتاب الثالث

باب المنشور

(١) نصوص كتب الأمين والمأمون

١ — نص كتاب الأمين الى المأمون؛ وهو الكتاب الذى أشرنا اليه فى الجزء الأول .
 إذا ورد عليك كتاب أخيك — أعاده الله من — فقدك — عند حلول ما لا مرد له
 ولا مدفع ، مما قد أخلف وتناخ الأئم الخالية ، والقرون الماضية ، بما عزاك الله به .
 وأعلم أن الله جلّ شأنه ، قد اختار لأمير المؤمنين أفضل الدارين ، وأجزل الخطين ،
 فقبحه الله طاهراً زاكياً ، قد شكر سعيه ، وغفر ذنبه ، إن شاء الله . فقم فى أمرك قيام
 ذى الحزم والعزم ، والناظر لأخيه ونفسه ، وسلطانه وعامة المسلمين . وإياك أن يغلب
 عليك الجزع ، فإنه يُحيط الأجر ، ويُعقب الوزر ، وصلوات الله على أمير المؤمنين حياً وميتاً ،
 وإنا لله وإنا إليه راجعون . وخذ البيعة على من قبلك ، من قوادك وجندك ، وخاصتك
 وعامتك ، لأخيك ثم لنفسك ، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين ، على الشريطة التى جعلها لك
 أمير المؤمنين : من نسخها له وإثباتها ، فإنك مُقلد من ذاك ، ما قللك الله وخليفته .
 وأعلم من قبلك رأى فى صلاحهم ، وسد خلتهم ، والتوسعة عليهم ؛ فن أنكرته عند
 بيعته ، أو آتته على طاعته ، فابعث الى برأسه مع خبره . وإياك وإقالتة ، فإن النار أولى

به . وأَكْتُبُ الى عُمَالِ ثُغُورِكَ ، وَأَمْرَاءِ أَجْنَادِكَ ، بِمَا طَرَقَكَ مِنَ الْمَصِيبَةِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَعْلَمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْضَ الدُّنْيَا لَهُ ثَوَابًا ، حَتَّى قَبَضَهُ إِلَى رُوحِهِ وَرَاحَتِهِ وَجَنَّتِهِ ، مَغْبُوطًا مَحْمُودًا ، قَائِدًا لِجَمِيعِ خُلَفَائِهِ إِلَى الْجَنَّةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَمُرَّهْمُ أَنْ يَأْخُذُوا الْبَيْعَةَ عَلَى أَجْنَادِهِمْ ، وَخَوَاصِّهِمْ وَعَوَامَّتِهِمْ ، عَلَى مِثْلِ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ ، مِنْ أَخْذِهَا عَلَى مَنْ قَبْلَكَ ، وَأَوْعِزْ إِلَيْهِمْ فِي ضَبْطِ ثُغُورِهِمْ ، وَالْقُوَّةِ عَلَى عَدُوِّهِمْ ، إِنِّي مُتَّفَقٌ حَالَتِهِمْ ، وَلَا أُمُّ شَعَثَتِهِمْ ، وَمُوسَّعٌ عَلَيْهِمْ ، وَلَا آئِينَ فِي تَقْوِيَةِ أَجْنَادِي وَأَنْصَارِي . وَلَتَكُنْ كُتُبُكَ إِلَيْهِمْ كُتُبًا عَامَةً لَتُقْرَأَ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَا يَسْكَنُهُمْ ، وَيُسَبِّطُ أَمْلَهُمْ . وَأَعْمَلْ بِمَا نَأْمُرُ بِهِ لِمَنْ حَضَرَكَ ، أَوْ نَأَى عَنْكَ مِنْ أَجْنَادِكَ عَلَى حَسَبِ مَا تَرَى وَتُشَاهِدُ . فَإِنْ أَخَاكَ يَعْرِفُ حَسَنَ اخْتِيَارِكَ ، وَصَحَّةَ رَأْيِكَ ، وَبُعْدَ نَظْرِكَ ، وَهُوَ يَسْتَحْفِظُ اللَّهَ لَكَ ، وَيَسْأَلُهُ أَنْ يَشُدَّ بِكَ عَضْدَهُ ، وَيَجْمَعَ بِكَ أَمْرَهُ ، إِنَّهُ لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ . وَكَتَبَ بِكَرْبَنِ الْمُعْتَمِرِينَ يَدِي وَإِمْلَائِي فِي شَوَّالِ سَنَةِ ١٩٢ هـ

٢ — وهذا كتاب محمد الأمين الى أخيه صالح .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَرَدَ عَلَيْكَ كِتَابِي هَذَا ، عِنْدَ وَقُوعِ مَا قَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ ، وَنَفَذَ مِنْ قَضَائِهِ ، فِي خُلَفَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ ، وَجَرَتْ بِهِ سُنَّتُهُ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَالْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ، فَقَالَ : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . فَأَحْمَدُوا اللَّهَ عَلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، مِنْ عَظِيمِ ثَوَابِهِ وَمُصْرَافَةِ أَنْبِيَائِهِ ، صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ؛ وَإِيَّاهُ نَسْأَلُ أَنْ يُحْسِنَ الْخِلَافَةَ عَلَى أُمَّةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَقَدْ كَانَ لَهُمْ عِصْمَةٌ وَكَهْفًا ، وَبِهِمْ رِءُوفًا رَحِيمًا .

فَشَمَّرَ فِي أَمْرِكَ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُلْقَى بِيَدَيْكَ ، فَإِنْ أَخَاكَ قَدْ اخْتَارَكَ لِمَا أَسْتَنْهَضَكَ لَهُ ، وَهُوَ مُتَّفَقٌ مَوَاقِعَ فَقْدَانِكَ ، لِحَقِّقِ ظَنَنَهُ ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ التَّوْفِيقَ . وَخَذَ الْبَيْعَةَ عَلَى مَنْ قَبْلَكَ ، مِنْ وَلَدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَمَوَالِيهِ وَخَاصَّتِهِ وَعَامَّتِهِ لِمُحَمَّدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ أَحْبَدَ اللَّهُ ابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ لِلْقَاسِمِ ابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَلَى الشَّرِيطَةِ الَّتِي جَعَلَهَا

أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — من فسخها على القاسم أو إثباتها . فإن السعادة واليمن في الأخذ بعهد والمضي على مناهجه .

وأعلم من قبلك من الخاصة والعامة رأي في استصلاحهم ، ورد مطالبهم ، وتفقد حالاتهم ، وأداء أرزاقهم ، وأعطياتهم عليهم . فإن شغب شاغب ، أو نعر ناعر ، فاستط به سطوة تجعله نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للتقين . وأضمت إلى الميمون ابن الميمون الفضل بن الربيع ولد أمير المؤمنين وخدمه وأهله ، ومُره بالمسير معهم فيمن معه ، وجنده ورباطته ، وصير إلى عبد الله بن مالك أمر العسكر وأحداثه ، فإنه ثقة على ما يلي ، مقبول عند العامة ، وأضمت إليه جميع جد الشرط ، من الروابط وغيرهم ، إلى من معه من جنده ، ومُره بالحد واليقظ ، وتقديم الخزم في أمره كله ، ليله ونهاره . فإن أهل العداوة والنفاق لهذا السلطان يَغْتَنِمُونَ مثل حلول هذه المصيبة ، وأقر حاتم بن هرثمة على ما هو عليه ، ومُره بحراسة ما يحفظ به قصور أمير المؤمنين ، فإنه من لا يعرف إلا بالطاعة ، ولا يدين إلا بها ، بمعاقدة من الله ، مما قدم له من حال أبيه المحمود عند الخلفاء ، ومُره الخدم بإحضار روابطهم ، من يسد بهم وبأجنادهم مواضع الخلل من عسكرك ، فإنهم حُد من حدودك ، وصير مُقَدِّمَتَكَ إلى أسد بن يزيد بن مزيدي ، وسأقتك إلى يحيى بن مُعَاذ ، فيمن معه من الجنود ، ومُرهما بمناوبتك في كل ليلة .

وأزِم الطريق الأعظم ، ولا تَعُدُّوْنَ المراحل ، فإن ذلك أرفق بك ، ومُره أسد بن يزيد ، أن يَخْتِيار رجلا من أهل بيته أو قواده ، فيصير إلى مُقَدِّمته ، ثم يصير أمامه ، لتهيئة المنازل ، أو بعض الطريق ، فإن لم يَحْضُرْكَ في عسكرك بعض من سميت ، فاختر لمواضعهم من تثيق بطاعته ، ونصيحتته وهيئته ، عند العوام ، فإن ذلك لن يُعْوزَكَ ، من قوادك وأنصارك ، إن شاء الله .

وليك أن تُثَبِّدَ رأيا ، أو تُبْرَمَ أمرا ، إلا برأي شيخك ، وبقية آبائك ، الفضل بن الربيع ، وأقرر جميع الخدم على ما في أيديهم من الأموال والسلاح والخزائن وغير ذلك ؛

ولا تُخْرِجَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ ، مِنْ ضَمْنِ مَا يَلِي ، إِلَى أَنْ تَقْدُمَ عَلَيَّ . وَقَدْ أَوْصَيْتُ بِكَرْبَنِ الْمُعْتَمِرِ
بِمَا سَيُبَلِّغُكَ ؛ وَأَعْمَلُ فِي ذَلِكَ بِقَدْرِ مَا تَسَاهَدُ وَتَرَى . وَإِنْ أَمَرْتُ لِأَهْلِ الْعَسْكَرِ بِعَطَاءٍ
أَوْ رِزْقٍ فَلْيَكُنِ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ الْمُتَوَلَّى لِإِعْطَائِهِمْ ، عَلَى دَوَاوِينَ يَتَّخِذُهَا لِنَفْسِهِ ، بِمَحْضَرٍ
مِنْ أَصْحَابِ الدَّوَاوِينَ ؛ فَإِنَّ الْفَضْلَ بْنَ الرَّبِيعِ لَمْ يَزَلْ مِثْلَ ذَلِكَ لِمَهْمَاتِ الْأُمُورِ . وَأَنْفِذْ
إِلَيَّ عِنْدَ وَصُولِ كِتَابِي هَذَا إِلَيْكَ إِسْمَاعِيلَ بْنَ صَبِيحٍ ، وَبَكَرَ بْنَ الْمُعْتَمِرِ ، عَلَى مَرَكَبَيْهِمَا
مِنَ الْبَرِيدِ ؛ وَلَا يَكُنْ لَكَ عُرْجَةٌ وَلَا مُهْلَةٌ ، بِمَوْضِعِكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ ، حَتَّى تُوجِّهَ إِلَى
بَعْسُوكَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْخِزَانِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . أَخُوكَ يَسْتَدْفِعُ اللَّهُ عَنْكَ ، وَيَسْأَلُهُ لَكَ
حَسَنَ التَّأْيِيدِ بِرَحْمَتِهِ . وَكُتِبَ بِكَرْبَنِ الْمُعْتَمِرِ بَيْنَ يَدَيَّ وَإِمْلَأْنِي فِي شَوَّالِ سَنَةِ ١٩٢ هـ .

(ب) القول بخلق القرآن

وهالك مثلاً مما كتبه المأمون إلى ولاته في الأخذ بمذهبه في القول بخلق القرآن، وهو ما أرسله إلى عالمه إسحاق بن إبراهيم وما يرويه لنا الطبري مما حصل .
أما الكتاب فهو :

أما بعد، فإن حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد في إقامة دين الله الذي استحفظهم، وموارث النبوة التي أورثهم، وأثر العلم الذي استودعهم، والعمل بالحق في رعيته، والتشهير لطاعة الله فيهم، والله يسأل أمير المؤمنين، أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريته، والإقسط فيما ولّاه الله من رعيته، برحمته وميثه، وقد عرف أمير المؤمنين أن الجهور الأعظم، والسواد الأكبر، من حشو الرعية، وسفلة العامة، ممن لا نظر له ولا روية، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته، ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه، في جميع الأقطار والآفاق، أهل جهالة بالله وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به، ونكوب عن واضحات أعلامه وواجب سبيله، وقصور أن يقدرُوا الله حق قدره، ويعرفوه كنه معرفته، ويفرقوا بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم، ونقص عقولهم، وجفائهم عن التفكير والتذكر، وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى، وبين ما أنزل من القرآن، فأطبقوا مجتمعين، وآتفقا غير متعاجمين، على أنه قديم أول، لم يخلفه الله، ويحدثه ويحدثه، وقد قال الله عز وجل في مُحْكَم كتابه، الذي جعله لنا في الصدور شفاء، وللمؤمنين رحمةً وهدى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ . فكل ما جعله الله فقد خلقه، وقال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ . وقال عز وجل : ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاء مَا قَدْ سَبَقَ﴾ . فأخبر أنه قصص لأُمُور أحدثه بعدها، وتلا به مُتَقَدِّمَهَا ، وقال : ﴿الْكِتَابُ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ . وكل مُحْكَم مُفَصَّل، فله مُحْكَم مُفَصَّل، والله مُحْكَم كتابه ومفصَّله، فهو خالقُه ومُبتدعه،

ثم هم الذين جادلوا بالباطل ، فدعوا إلى قوهم ، ونسبوا أنفسهم إلى السنة ، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته ، مبطل قوهم ، ومكذب دعواهم ، يرد عليهم قوهم ويخلفهم ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ؛ فاستطالوا بذلك على الناس ، وغرّوا به الجهال ، حتى مال قوم من أهل السميت الكذب ، والتخشع لغير الله ، والتعسف لغير الدين إلى موافقتهم عليه ، ومواطبتهم على سيئ آرائهم ، تزيّناً بذلك عندهم ، وتصنعاً للرياسة والعدالة فيهم ، فتركوا الحق إلى باطلهم ، واتخذوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم ، فقيلت بتركيتهم لهم شهادتهم ، ونفذت أحكام الكتاب بهم ، على دغل دينهم ، ونغل أديهم ، وفساد نيّاتهم و يقينهم ؛ وكان ذلك غايتهم التي إليها جروا ، وإياها طلبوا في متابعتهم ، والكذب على مولاهم ، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب ، ألا يقولوا على الله إلا الحق ، ودرسوا ما فيه ، أولئك الذين أصمهم الله ، وأعمى أبصارهم ، ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ، أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالًا ﴾ . فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ، ورعوس الضلالة ، المنقوصون من التوحيد حظاً ، والمخسوسون من الإيمان نصيباً ، وأوعية الجهالة وأعلام الكذب ، ولسان إبليس اللاطق في أوليائه ، والهائل على أعدائه ، من أهل دين الله ، وأحق من يُتهم في صدقه ، وتُطرح شهادته ، ولا يؤثّق بقوله ولا عمله ، فإنه لا عمل إلا بعد يقين ، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام ، وإخلاص التوحيد ؛ ومن عمى عن رشده وحظه ، من أهل الإيمان بالله وبتوحيده ، كان عمّا سوى ذلك من عمله ، والقصد في شهادته ، أعمى وأضلّ سبيلاً ، ولعمر أمير المؤمنين أن أحجى الناس بالكذب في قوله ، وتخص الباطل في شهادته من كذب على الله ووحيه ، ولم يعرف الله حقيقة معرفته ، وأن أولاهم بردّ شهادته ، في حكم الله ودينه من ردّ شهادة الله على كتابه ، وبهت حق الله بباطله ، فاجمع من بحضرتك من القضاة ، وأقرا عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، فأبدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون ، في خلق الله القرآن وإحداثيه ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ، ولا واثق

فيا قلده الله ، وأستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه ، وخُلوص توحيدهِ وبقينه ، فإذا أقروا بذلك ، ووافقوا أمير المؤمنين فيه ، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة ، فُرِّمَ بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ، ومسألتهم عن علمهم في القرآن ، وترك إثبات شهادة من لم يُقر أنه مخلوق مُحدث ولم يره ، والامتناع من توقيعها عنده ؛ وأكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك ، عن قضاة أهل عملك في مسألتهم ، والأمر لهم بمثل ذلك ، ثم أشرف عليهم ، ونفقد آثارهم ، حتى لا تُنفذ أحكام الله ، إلا بشهادة أهل البصائر في الدين ، والإخلاص للتوحيد ؛ وأكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله . وكتب في شهر ربيع الأول سنة ٢١٨ هـ .

وكتب المأمون ، إلى إسحاق بن إبراهيم ، في إشخاص سبعة نفر ، منهم : محمد بن سعد كاتب الواقدي ، وأبو مسلم مستعمل يزيد بن هارون ، ويحيى بن معين ، وزهير بن حرب أبو خيثمة ، وإسماعيل بن داود ، وإسماعيل بن أبي مسعود ، وأحمد بن اللُّورقي ، فأشخصوا إليه ، فامتحنهم ، وسألهم عن خلق القرآن ، فأجابوا جميعاً أن القرآن مخلوق ، فأشخصهم إلى مدينة السلام ، وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم داره ، فشر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء ، والمشايخ من أهل الحديث ، فأقروا بمثل ما أجابوا به المأمون فخلّى سبيلهم ، وكان ما فعل إسحاق بن إبراهيم من ذلك بأمر المأمون .

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحاق بن إبراهيم :

أما بعد ، فإن من حق الله على خُلفائه في أرضه ، وأمنائه على عبادِهِ ، الذين آرتضاهم لإقامة دينه ، وحملهم رعاية خلقه ، وإمضاء حكمه وسُننه ، والائتمام بعبادته في بريته ، أن يجاهدوا لله أنفسهم ، وينصَحوا له فيما أَسْتَحْفَظُهُمْ وقلدهم ، ويدُلُّوا عليه — تبارك اسمه — وتعالى — بفضل العلم الذي أودعهم ، والمعرفة التي جعلها فيهم ، ويهدوا إليه من زاغ عنه ، ويردوا من أدبر عن أمره ، ويتَّهَجوا لرعاياهم سبب نجاتهم ، ويقفوه على حدود إيمانهم ، وسبيل فوزهم وعصمتهم ، ويكشفوا لهم عن مغطيات أمورهم ، ومشتبهاتها

عليهم ، بما يدفعون الريب عنهم ، ويعود بالضياء والبيدة على كافتهم ؛ وأت يؤثر ذلك من إرشادهم وتبصيرهم ، إذ كان جامعا لفنون مصانعهم ، ومستظما لحظوظ عاجلتهم وأجلتهم ، ويتذكروا أن الله مُرْصِدٌ من مساءلتهم عما حُمِلوه ، ومجازاتهم بما أسلفوه ، وقدموا عنده ؛ وما توفيق أمير المؤمنين ، إلا بالله وحده ، وحسبه الله وكفى به . ومما يُلَنه أمير المؤمنين برويته ، وطالعه بفكره ، فتبين عظيم خطره ، وجليل ما يرجع في الدين من وكفه وضرره ما ينال المسامون بينهم من القول في القرآن الذي جعله الله إماما لهم ، وأثرا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصفه محمد صلى الله عليه وسلم بأفيا لهم ، وأشتباهه على كثير منهم ، حتى حُسِنَ عندهم ، وتزين في عقولهم ، ألا يكون مخلوقا ، فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله ، الذي بان به عن خلقه ، وتفرد بجلالته من ابتداع الأشياء كلها بحكمته ، وإنشائها بقدرته ، والتقدم عليها بأوليته ، التي لا يُبلَغُ أولاهها ، ولا يدرك مداها ، وكان كل شيء دونه ، خلقا من خلقه ، وحدثا هو المُحدث له ، وإن كان القرآن ناطقا به ، ودالا عليه ، وقاطعا للاختلاف فيه ، وضاهوا به قول النصارى ، في آدعائهم في عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق ، إذ كان كلمة الله ، والله عز وجل يقول : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ . وتأويل ذلك : إنا خلقناه ، كما قال جل جلاله : ﴿ وَجَعَلْ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ . ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ . فسوى عز وجل ، بين القرآن ، وبين هذه الخلائق ، التي ذكرها في شية الصنعة ، وأخبر أنه جاعله وحده ، فقال : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي آوَجٍ مَحْفُوظٍ ﴾ . فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ، ولا يُحاط إلا بمخلوق ، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ . وقال : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ ﴾ . وقال : ﴿ قَنَ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ . وأخبر عن قوم ذمهم بكذبهم ، أنهم قالوا : ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشِيرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ . ثم أكذبهم على لسان رسوله ، فقال لرسوله : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى ﴾ . فسجى الله تعالى القرآن قرآنا وذكرا ، وإيمانا ونورا وهدى ومباركا وعربيا

وقصصا، فقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ .
 وقال : ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ .
 وقال : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ . وقال : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ
 وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ . فجعل له أولا وآخرأ، ودل عليه ، أنه محدود مخلوق ، وقد عظم هؤلاء
 الجهلة بقولهم في القرآن ؛ التلم في دينهم ، والخرج في أمانتهم ، وسهلوا السبيل لعدو
 الإسلام ، وأترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم حتى عرفوا ، ووصفوا خلق الله وفعله
 بالصفة التي هي لله وحده وشبهوه به ، والإشباه أولى بخلقه ، وليس يرى أمير المؤمنين ،
 لمن قال بهذه المقالة حظا في الدين ، ولا نصيبا من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يحصل
 أحدا منهم محل الثقة في أمانة ولا عدالة ولا شهادة ، ولا صدق في قول ولا حكاية ، ولا تولية
 لشيء من أمر الرعية ؛ وإن ظهر قصد بعضهم ، وعُرف بالسداد مُستد فيهم ، فإن الفروع
 مردودة الى أصولها ، ومحمولة في الحمد والذم عليها ، ومن كان جاهلا بأمر دينه ، الذي
 أمره الله به ، من وحدانيته ، فهو بما سواه أعظم جهلا ، وعن الرشد في غيره أعمى وأضل
 سبيلا .

فاقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق القاضي كتاب أمير المؤمنين ، بما
 كتب به إليك ، وانصصهما عن علمهما في القرآن ، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين
 على شيء من أمور المسلمين ، إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده ، وأنه لا توحيد لمن لم يُقر
 بأن القرآن مخلوق ، فإن قالوا بقول أمير المؤمنين في ذلك فتقتسم البها في امتحان من يحضر
 مجالسهما ، بالشهادات على الحقوق ، ونصهم عن قولهم في القرآن ، فن لم يقل منهم أنه
 مخلوق ، أبطلا شهادته ، ولم يقطعا حكما بقوله ، وإن ثبت عفاقه بالقصد والسداد في أمره ،
 وأفعل ذلك بمن في سائر عملك من القضاة ، وأشرف عليهم إشرافا يزيد الله به ذا البصيرة
 في بصيرته ، ويمنع المرتاب من إغفال دينه ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك
 في ذلك إن شاء الله .

ثم لئنظر ما حصل بعد ذلك مما يرويه لنا الطبري قال :

فأحضر إسحاق بن إبراهيم لذلك جماعة من الفقهاء والحكام والمحدثين ، وأحضر أبا حسان الزياتي ، وبتربن الوليد الكندي ، وعلى بن أبي مقاتل ، والفضل بن غانم ، والذبال بن الهيثم ، وبتجادة ، والقواريري ، وأحمد بن حنبل ، وقتيبة ، وسعدويه الواسطي ، وعلى بن الجعد ، وإسحاق بن أبي إسرائيل ، وآبن الهرش ، وآبن عليّة الأكبر ، ويحيى ابن عبد الرحمن العمري ، وشيخا آخر من ولد عمر بن الخطاب ، كان قاضي الرقة وأبا نصر التمار وأبا معمر القطيعي ، ومحمد بن حاتم بن ميمون ، ومحمد بن نوح المضروب ، وآبن الفرخان ، وجماعة منهم النضر بن شميل ، وآبن علي بن عاصم ، وأبو العوام البزاز ، وآبن شجاع ، وعبد الرحمن بن إسحاق ، فأدخلوا جميعا على إسحاق ، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتين ، حتى فهموه ، ثم قال لبشر بن الوليد : ما تقول في القرآن ؟ فقال : قد عرفت مقاتلي لأمر المؤمنين غير مرة ، قال : فقد تجد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى ، فقال : أقول القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا ، أخلق هو ؟ قال : الله خالق كل شيء ، قال : ما القرآن شيء ؟ قال : هو شيء ، قال : فخلق ؟ قال : ليس بخلق ، قال : ليس أسألك عن هذا ، أخلق هو ؟ قال : ما أحسن غير ما قلت لك ، وقد آستعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلّم فيه ، وليس عندي غير ما قلت لك ، فأخذ إسحاق بن إبراهيم رقعة كانت بين يديه ، فقرأها عليه ، ووقفه عليها ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله أحدا فردا لم يكن قبله شيء ، ولا بعده شيء ، ولا يشبهه شيء من خلقه ، في معنى من المعاني ، ولا وجه من الوجوه ، قال : نعم ، وقد كنت أضرب الناس على دون هذا ، فقال للكاتب : أكتب ما قال .

ثم قال لعل بن أبي مقاتل : ما تقول يا علي ؟ قال : قد سمعت كلامي لأمر المؤمنين في هذا غير مرة ، وما عندي غير ما سمع ، فامتحنه بالرقعة ، فأقر بما فيها ، ثم قال : القرآن مخلوق ؟ قال : القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا ، قال : هو كلام الله وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا ، فقال للكاتب : أكتب مقالته .

ثم قال للذيال نحووا من مقالته لعلي بن أبي مقاتل ، فقال له مثل ذلك . ثم قال لأبي حسان الزياتي : ما عندك ؟ قال : سأل عما شئت ، فقرأ عليه الرقعة ، ووقفه عليها فأقر بما فيها . ثم قال : من لم يقل هذا القول فهو كافر ، فقال : القرآن مخلوق هو ؟ قال : القرآن كلام الله والله خالق كل شيء ، وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين إمامنا وبسببه سمعنا عامة العلم ، وقد سمع ما لم نسمع ، وعلم ما لم نعلم ، وقد قلده الله أمرنا ، فصار يُقيم حجتنا وصلاتنا ، ويُؤدى إليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه ، ونرى إمامته إمامة ، وإن أمرنا ائتمرنا ، وإن نهانا آتينا ، وإن دعانا أجبنا ، قال : القرآن مخلوق هو ؟ فأعاد عليه أبو حسان مقالته ، قال : إن هذه مقالة أمير المؤمنين ، قال : قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس ، ولا يدعوهم إليها ، وإن أخبرني أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلت ما أمرتني به ، فإنك الثقة ، المأمون عليه ، فيما أبلغتني عنه من شيء ، فإن أبلغتني عنه بشيء صرت إليه ، قال : ما أمرني أن أبلغك شيئا ، قال علي بن أبي مقاتل : قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفرائض والمواثيق ، ولم يحسبوا الناس عليها ، قال له أبو حسان : ما عندي إلا السمع والطاعة ، فربي آتيمر ، قال : ما أمرني أن آمرك ، وإنما أمرني أن أمتحنك .

ثم عاد إلى أحمد بن حنبل ، فقال له : ما تقول في القرآن ؟ قال : هو كلام الله ، قال : أم مخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله لا أزيد عليها ، فامتنع بهما في الرقعة ، فلما أتى إلى ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)) وأمسك عن لا يُشَبِّهه شيء من خلقه ، في معنى من المعاني ، ولا وجه من الوجوه ، فاعترض عليه ابن البكاء الأصغر ، فقال — أصلحك الله — : إنه يقول : سميع من أذن ، بصير من عين ، فقال إسحاق لأحمد بن حنبل : ما معنى قوله سميع بصير ؟ قال : هو كما وصف نفسه ، قال : فما معناه ؟ قال : لا أدرى هو كما وصف نفسه ، ثم دعا بهم رجلا رجلا كلهم يقول : القرآن كلام الله ، إلا هؤلاء نفر : قتيبة ، وعبيد الله بن محمد بن الحسن ، وابن علية الأكبر ، وابن البكاء ، وعبد المنعم بن إدريس

ابن بنت وهب بن مُنْبَه ، والمُظَفَّر ابن مُرَجَّا ، ورجلا ضريرا ليس من أهل الفقه ، ولا يُعرف بشيء منه إلا أنه دُسَّ في ذلك الموضوع ، ورجلا من ولد عمر بن الخطاب قاضي الرقة ، وابن الآخر ، فأما ابن البكاء الأكبر فإنه قال : القرآن مجعول لفول الله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ ، والفرآن مُحَدَّث لقوله : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ ﴾ قال له إسحاق : فالمجعول مخلوق؟ قال : نعم ، قال : فالقرآن مخلوق؟ قال : لا أقول مخلوق ولكنه مجعول ، فكتب مقالته ، فلما فرع من امتحان القوم وكتب مقالاتهم اعترض ابن البكاء الأصغر فقال — أصلحك الله — : إن هذين القاضيين أئمة ، فلو أمرتهما فأعادا الكلام ! قال له إسحاق : هما من يقوم بحجة أمير المؤمنين ، قال : فلو أمرتهما أن يُسمِعانا مقالتهما لِصَحِيحِي ذلك عنهما ! قال له إسحاق : إن شهدتهما عندهما بشهادة فستعلم مقالتهما إن شاء الله ، فكتب مقالة القوم رجلا رجلا ووجهت الى المأمون ، فكثت القوم تسعة أيام ثم دعا بهم . وقد ورد كتاب المأمون ، جواب كتاب إسحاق بن إبراهيم في أمرهم . وهاك هو ما يجعله ختاماً لكلماتنا .



بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك جواب كتابه ، كان إليك فيما ذهب إليه مُتَصَنِّعة أهل القبلة ، ومُتَمَسِّسو الرياسة فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة ، من القول في القرآن ، وأمرك به أمير المؤمنين ، من امتحانهم ، وتكشيف أحوالهم ، وإحلالهم محالهم ، تذكر إحضارك جعفر بن عيسى ، وعبد الرحمن بن إسحاق ، عند ورود كتاب أمير المؤمنين ، مع من أحضرت ممن كان ينسب الى الفقه ، ويعرف بالجلوس للحديث ، وينصب نفسه للفتيا بمدينة السلام ، وقراءتك عليهم جميعاً كتاب أمير المؤمنين ، ومسألتك إياهم عن اعتقادهم في القرآن ، والدلالة لهم على حظهم ، وإطباقيهم على نفى التشبيه ، واختلافهم في القرآن ، وأمرك من لم يقل منهم إنه مخلوق بالإمساك عن الحديث والفتوى ، في السر والعلانية ، وتقديمك الى السُّنْدِي ، وعباس مولى أمير المؤمنين بما

تقدّمت به فيهم الى القاضي بمثل ما مثل لك أمير المؤمنين، من امتحان من يحضر
بجالتهم من اليهود، وبث الكتب الى القضاة في النواحي من عملك بالقدوم عليك،
لتحليلهم وتمنحهم على ما حده أمير المؤمنين، وتثبيتك في آخر الكتاب أسماء من حضر
ومقاتلتهم، وفهم أمير المؤمنين ما اقتضت به، وأمير المؤمنين يمد الله كثيرا كما هو أهله،
ويسأله أن يصلي على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ويرغب الى الله في التوفيق
لطاقته، وحسن المعونة، على صالح نيته برحمته.

وقد تدبر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسماء من سألت عن القرآن، وما رجع
اليك فيه كل امرئ منهم، وما سرحت من مقاتلتهم، فأما ما قال المغرور بشر بن الوليد
في نفى النشبية، وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق، وأدعى من تركه الكلام في ذلك
وأستعاده أمير المؤمنين، فقد كذب بشرفي ذلك وكفر، وقال الزور والمنكر، ولم يكن
بحري بين أمير المؤمنين وبينه في ذلك، ولا في غيره، عهد ولا نظرا أكثر من إخباره
أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الإخلاص والقول بأن القرآن مخلوق، فادّعى به إليك،
وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك، وانصحه عن قوله في القرآن، واستتبته منه،
فإن أمير المؤمنين يرى أن تستتب من قال بمقاتلته إذ كانت تلك المقالة الكفر الصراح والشرك
المحض عند أمير المؤمنين، فإن تاب منها فأشهر أمره، وأمسك عنه، وإن أصرّ على شركه،
ودفع أن يكون القرآن مخلوقا بكفره وإلحاده، فاضرب عنقه، وأبعث الى أمير المؤمنين
برأسه، إن شاء الله، وكذلك إبراهيم بن المهدي فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشرا، فإنه كان
يقول بقوله، وقد بلغت أمير المؤمنين عنه بالغ، فإن قال إن القرآن مخلوق، فأشهر أمره
وأكشفه، وإلا فاضرب عنقه، وأبعث الى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله.

وأما علي بن أبي مقاتل فقل له: ألسنت القائل لأمر المؤمنين إنك تحلل ونحرم
والمكلم له بمثل ما كلمته به، مما لم يذهب عنه ذكره، وأما الديال بن الهيثم، فأعلمه أنه
كان في الطعام الذي كان يسيرقه في الأنبار، وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين

أبى العباس ما يشغله ، وأنه لو كان مقتنياً آنار سلقه ، وسالكا مناهجهم ، ومُتخذيا سبيلهم ، لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه ؛ وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبى العوّام ، وقوله إنه لا يُحسّن الجواب في القرآن ، فأعلمه أنه صبيٌّ في عقله ، لا في سنه ، جاهل ، وأنه إن كان لا يُحسّن الجواب في القرآن فسيُحسّنه ، إذا أخذه التأديب ، ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء الله .

وأما أحمد بن حنبل ، وما تكتب عنه ، فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرّف فحوى تلك المقالة ، وسبيله فيها ، وأستدلّ على جهله ، وآفته بها ، وأما الفضل بن غانم ، فأعلمه أنه لم يُخَفّ على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر ، وما آكتسب من الأموال في أقلّ من سنة ، وما شَجَرَ بينه وبين المطّلب بن عبد الله في ذلك ، فإنه من كان شأنه شأنه ، وكانت رغبته في الدينار والدرهم رغبته ، فليس بمُسْتَكْرَأٍ يبيع إيمانه طمعا فيهما ، وإيثارا لعاجل نفعهما ، وإنه مع ذلك القائل لعلّ بن هشام ما قال ، والمخالف له فيما خالفه فيه ، فما الذي حال به عن ذلك ، ونقله إلى غيره ؛ وأما الزيّادي ، فأعلمه أنه كان مُتَحِلًّا لأوّل دعى كان في الإسلام خولف فيه حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان جديرا أن يسلك مسلكه فأنكر أبو حسان أن يكون مولى لزياد ، أو يكون مولى لأحد من الناس ، — وذكر أنه لما نُسِبَ إلى زياد لأمر من الأمور — وأما المعروف بأبى نصير الثمار ، فإن أمير المؤمنين شبه خساسة عقله بخساسة متجّره ؛ وأما الفضل بن الفرّخان ، فأعلمه أنه حاول بالقول الذي قاله في القرآن أخذَ الودائع التي أودعها لِيّاه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره ، ترَبّصا بمن استودعه ، وطمعا في الاستكثار لما صار في يده ، ولا سهيل عليه عن تقادم عهده ، وتطاول الأيام به ، فقل لعبد الرحمن بن إسحاق لا جزاك الله خيرا عن تقويتك مثل هذا ، وإثمتانك لِيّاه ، وهو معتقّد للشرك ، منسلخ من التوحيد .

وأما محمد بن حاتم ، وابن نوح ، والمعروف بأبى معمر ، فأعلمهم أنهم مشاغل بأكل الربا ، عن الوقوف على التوحيد ، وأن أير المؤمنين أو لم يستحلّ محاربتهم في الله ومجاهدتهم ،

إلا لإربائهم، وما نزل به كتاب الله في أمثالهم، لاستعمل ذلك، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركا، وصاروا للنصارى مثالا؛ وأما أحمد بن شجاع، فأعلمه أنك صاحبُه بالأمس، والمستخرج منه ما استخرجناه من المال الذي كان استعمله من مال علي بن هشام، وأنه ممن الدينار والدرهم دينه؛ وأما سعدويه الواسطي فقل له: قبح الله رجلا بلغ به التصنع للحديث، والتزين به، والحرص على طلب الرئاسة فيه، أن يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقرب بها: متى يمتحن فيجلس للحديث؛ وأما المعروف بسجادة، وإنكاره أن يكون سمع من كان يجالس من أهل الحديث، وأهل الفقه، القول بأن القرآن مخلوق، فأعلمه أنه في شغله بإعداد النوى، وحكمه لإصلاح سجادته، وبالودائع التي دفعها إليه علي بن يحيى وغيره ما أذهله عن التوحيد وأهله، ثم سأل عما كان يوسف بن أبي يوسف، ومحمد بن الحسن، يقولانه إن كان شاهدهما وجالسهما؛ وأما القواريري ففما تكشف من أحواله، وقبوله الرشأ والمصانعات ما أبان عن مذهبه، وسوء طريقته، وسخافة عقله ودينه، وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أنه يتولى لجعفر بن عيسى الحسني مسائله، فتقدم إلى جعفر بن عيسى في رفضه، وترك الثقة به، والاستئمان إليه.

وأما يحيى بن عبد الرحمن العمرى، فإن كان من ولد عمر بن الخطاب بخوابه معروف؛ وأما محمد بن الحسن بن علي بن عاصم فإنه لو كان مقتديا بمن مضى من سلفه لم ينتحل النحلة التي حكيت عنه، وإنه بعد صبي يحتاج إلى تعلم، وقد كان أمير المؤمنين وجه إليه المعروف بأبي مسهر، بعد أن نصبه أمير المؤمنين عن محنته في القرآن، بجمجم عنها، وبتلج فيها، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف، فأقر ذميا، فانصبه عن إقراره، فإن كان مقيما عليه فأشهر ذلك وأظهره إن شاء الله؛ ومن لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمر المؤمنين في كتابك، وذكره أمير المؤمنين لك، أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا، ولم يقل إن القرآن مخلوق، بعد بشر بن الوليد، وإبراهيم بن المهدي، فاحملهم أجمعين، مؤثمين

الى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم ، وحراستهم في طريقهم ، حتى يؤدّتهم الى
عسكر أمير المؤمنين ، ويسلمهم الى من يؤمر بتسليمهم اليه ، لينصّبهم أمير المؤمنين ، فإن لم
يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعا على السيف إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله ، وقد أنفذ
أمير المؤمنين كتابه هذا في خريطة بُندارية ، ولم ينظر به اجتماع الكتب الخرائطية مُعجّلا
به ، تقربا الى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ، ورجاء ما أعتمد ، وإدراك ما أمل ،
من جزيل ثواب الله عليه ، فأنفذ لما أذاك من أمر أمير المؤمنين ، وعجل إجابة أمير المؤمنين
بما يكون منك في خريطة بُندارية مفردة عن سائر الخرائط ، لتعرف أمير المؤمنين ما يعملونه
إن شاء الله . وكتب سنة ٢١٨ هـ .

(ج) عَهْد طاهر بن الحسين

قال ابن طيفور : ولما عَهِد طاهرُ بن الحسين الى عبدالله أبنه هذا العهد ، تنازعه الناس وكتبوه وتدارسوه ، وشاع أمره حتى بلغ المأمونَ ، فدعا به وقرئ عليه ، وقال : ما أبقى أبو الطيب شيئاً من الدين والدنيا ، والتدبير والرأى ، وإصلاح الملك والرعية ، وحفظ البيعة ، وطاعة الخلفاء ، وتقويم الخلافة الا وقد أحكمه ، وأومى به ، وتقدم فيه . وأمر أن يُكتب بذلك الى جميع العمال في نواحي الأعمال . ولما كان هذا العهد من الوثائق التاريخية التي لها قيمتها العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية آثرنا ذكره على ما فيه من طول رغبة منا في ألا يخلو كتابنا من هذا الأثر العظيم القيمة والخطر ، وهآكه :

« عليك بتقوى الله وحده لا شريك له ، وخشيته ومراقبته ومزايلة سخطه ، وحفظ رعيته ، وألزم ما ألبسك الله في العافية بالذكر لمعادك ، وما أنت صائر اليه ، وموقوف عليه ، ومسؤول عنه ، والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله ويُنجيك يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه ، فإن الله قد أحسن اليك ، وأوجب عليك الرُفَّة بمن استرعاك أمرهم من عباده ، وألزمك العدل عليهم ، والقيام بحقه وحدوده فيهم ، والذب عنهم ، والدفع عن حريمهم وبضمتهم ، والحقن لدمائهم ، والأمن لسبلهم ، وإدخال الراحة عليهم في معاشهم ، ومؤاخذك بما فرض عليك من ذلك ، وموقفك عليه ، ومُسائلك عنه ، ومُثيبك عليه بما قدمت وأخرت ، وفرغ لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورويتك ، ولا يُذهلك عنه ذهل ، ولا يَسْغَلُكَ عنه شغل ، فإنه رأس أمرك وملاك شأنك ، وأول ما يوفقك الله به لرشدك ، وليكن أول ما تُلزم به نفسك وتُنسب اليه فعالك ، المواظبة على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس ، والجماعة عليها بالناس قبلك في مواقيتها على سنننا في إسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله فيها ، وترتل في قراءتك ، وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك ، وتصدق فيها لربك نيتك ، وأحضض عليها جماعة من معك وتحت يدك ، وآداب عليها فإنها كما

قال الله تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر ، ثم أتبع ذلك الأخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمثابرة على خلائقه ، وأقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله وتقواه ، ولزوم ما أنزل الله في كتابه ، من أمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، وإتمام ما جاءت به الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قم فيه بما يحق لله عليك ، ولا تمل عن العدل فيما أحببت أو كرهت ، لقريب من الناس أو بعيد ، وأثر الفقه وأهله ، والدين وحملته وكتاب الله والعاملين به ، فان أفضل ما تزين به المرء الفقه في دين الله ، والطلب له والحث عليه ، والمعرفة بما يتقرب به إلى الله ، فإنه الدليل على الخير كله ، والقائد له ، والأمر به ، والنهي عن المعاصي والموبقات كلها ، وبها مع توفيق الله تزداد العباد معرفة بالله ، عز وجل ، وإجلالا له ودركا للدرجات العلى في المعاد ، مع ما في ظهوره للناس من التوقير لأمره والهيبة لسلطانه ، والأئمة بك والثقة بعدلك . وعليك بالاعتصام في الأمور كلها فليس شيء أبين نفعاً ولا أحضر أمناً ولا أجمع فضلاً من القصد ، والقصد داعية إلى الرشده ، والرشد دليل على التوفيق ، والتوفيق منقاد إلى السعادة ، وقوام الدين والسنن الهادية بالاعتصام ، فأثره في دنياك كلها ، ولا تُقصر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة ، والسنن المعروفة ومعالم الرشده ، فلا غاية للاستكثار من البر والسعي له ، اذا كان يُطلب به وجه الله ومريضاته ، ومرافقة أوليائه ، في دار كرامته .

وأعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز ، ويحصن من الذنوب وأنت لن تحوط نفسك ومن يليك ، ولا تستصليح أمورك ، بأفضل منه ، فأته ، وأهتد به تتم أمورك ، وتزد مقدرتك ، وتصلح خاصيتك وعاقبتك ، وأحسن الظن بالله عز وجل ، تستقم لك رعيته ، والنس الوسيلة إليه في الأمور كلها ، تستدم به النعمة عليك ، ولا تُهض أحدا من الناس ، فيما توليه من عملك ، قبل تكشف أمره بالتهمة ، فإن إيقاع التهم بالبراء والظنون السيئة بهم مأثم ، وأجعل من شأنك ، حسن الظن بأصحابك ، وأطرد عنك سوء الظن بهم ، وأرفضه عنهم ، يُعنك ذلك على أصطناعهم ورياضتهم ، ولا يحدث عدو الله الشيطان في أمرك مغمراً ،

فإنه إنما يكتفى بالقليل من وَهْنِكَ فَيَدْخُلُ عَلَيْكَ مِنَ الْغَمِّ ، فِي سُوءِ الظَّنِّ ، مَا يُنْقِصُ عَلَيْكَ لَذَاذَةَ عَيْشِكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ تَجِدُ بِحَسَنِ الظَّنِّ ، قُوَّةَ وَرَاحَةٍ ، وَتَكْفِي بِهِ مَا أَحْبَبْتَ كِفَايَتَهُ مِنْ أُمُورِكَ ، وَتَدْعُو بِهِ النَّاسَ إِلَى مَحَبَّتِكَ ، وَالْإِسْتِقَامَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا لَكَ . وَلَا يَمْنَعُكَ حَسَنُ الظَّنِّ بِأَصْحَابِكَ ، وَالرَّأْفَةُ بِرَعِيَّتِكَ ، أَنْ تَسْتَعْمَلَ الْمَسْئِلَةَ وَالْبَحْثَ عَنْ أُمُورِكَ وَالْمُبَاشَرَةَ لِأُمُورِ الْأَوْلِيَاءِ ، وَالْحَيَاطَةَ لِلرَّعِيَّةِ ، وَالنَّظَرَ فِيمَا يُقِيمُهَا وَيُصْلِحُهَا ، بَلْ لَتَكُنِ الْمُبَاشَرَةُ لِأُمُورِ الْأَوْلِيَاءِ ، وَالْحَيَاطَةُ لِلرَّعِيَّةِ ، وَالنَّظَرُ فِي حَوَائِجِهِمْ ، وَحَمْلُ مَوْثِقَاتِهِمْ ، آثَرًا عِنْدَكَ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ أَقْوَمُ لِلدِّينِ ، وَأَحْيَا لِلسَّنَةِ ، وَأَخْيَاصُ نَيْتِكَ فِي جَمِيعِ هَذَا ، وَتَفُزُّ بِتَقْوِيمِ نَفْسِكَ ، تَفُزُّ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَسْئُولٌ عَمَّا صَنَعَ ، وَمُجْزَى بِمَا أَحْسَنَ ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الدِّينَ حِرْزًا وَعِزًّا ، وَرَنَعَ مَنْ أَتْبَعَهُ وَعِزَّزَهُ ، فَاسْأَلْكَ بِمَنْ تَسُوسُهُ وَتَرْعَاهُ ، نَهْجَ الدِّينِ ، وَطَرِيقَةَ الْهُدَى ، وَأَقِمْ حَدُودَ اللَّهِ فِي أَصْحَابِ الْجَرَائِمِ عَلَى قَدَرِ مَنَازِلِهِمْ ، وَمَا اسْتَحَقُّوه ، وَلَا تُعْطِلْ ذَلِكَ وَلَا تَهَآوِنْ بِهِ ، وَلَا تُؤَخِّرْ عِقَابَهُ أَهْلَ الْعُقُوبَةِ ، فَإِنْ فِي تَفْرِيطِكَ فِي ذَلِكَ ، لَمَّا يُفْسِدُ عَلَيْكَ حَسَنَ ظَنِّكَ ، وَاعِزِّمْ عَلَى أَمْرِكَ فِي ذَلِكَ بِالسَّنَنِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَجَانِبِ الشُّبْهِ وَالْبِدْعَاتِ ، يَسْلَمْ لَكَ دِينُكَ ، وَتَقُمْ لَكَ مَرْوَةٌ ، وَإِذَا عَاهَدْتَ عَهْدًا فِيفَ بِهِ ، وَإِذَا وَعَدْتَ الْخَيْرَ فَأَنْجِزْهُ ، وَأَقْبَلِ الْحَسَنَةَ ، وَادْفَعْ بِهَا ، وَأَغْمِضْ عَنْ عَيْبِ كُلِّ ذِي عَيْبٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، وَاشْدُدْ لِسَانَكَ عَنْ قَوْلِ الْكَذِبِ وَالزُّورِ ، وَأَبْغِضْ أَهْلَهُ ، وَأَقْصِ أَهْلَ النِّيمَةِ ، فَإِنْ أَقُولُ فُسَادَ أَمْرِكَ فِي عَاجِلِ الْأُمُورِ وَآجِلِهَا ، تَفْرِيبُ الْكَذُوبِ ، وَالْجَرَاءُ عَلَى الْكَذِبِ ، لِأَنَّ الْكَذِبَ رَأْسُ الْمَآثِمِ ، وَالزُّورِ وَالنِّيمَةِ خَاتِمُهَا ، لِأَنَّ النِّيمَةَ لَا يَسْلُمُ صَاحِبُهَا ، وَقَائِلُهَا لَا يَسْلُمُ لَهُ صَاحِبٌ وَلَا يَسْتَقِيمُ لِمَطِيعِهَا أَمْرٌ ، وَأَحَبُّ أَهْلِ الصَّدَقِ وَالصَّلَاحِ ، وَأَعَنَ الْأَشْرَافَ بِالْحَقِّ ، وَوَاوَصِلِ الضَّعَفَاءَ ، وَصِلِ الرَّحِمَ ، وَابْتَغِ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ ، وَعِزَّةَ أَمْرِهِ ، وَالْتَمِسْ فِيهِ ثَوَابَهُ وَالْدَارَ الْآخِرَةَ ، وَاجْتَنِبِ سُوءَ الْأَهْوَاءِ وَالْجُورَ ، وَأَصْرِفْ عَنْهُمَا رَأْيَكَ ، وَأُظْهِرْ مِنْ ذَلِكَ لِرَعِيَّتِكَ ، وَأَنْعِمْ بِالْعَدْلِ سِيَاسَتِهِمْ ، وَقُمْ بِالْحَقِّ فِيهِمْ ، وَبِالْمَعْرِفَةِ الَّتِي تَنْهَى بِكَ إِلَى سَبِيلِ الْهُدَى ، وَأَمْلِكْ نَفْسَكَ عِنْدَ الْغَضَبِ ، وَآثِرِ الْوَقَارَ وَالْحِلْمَ ، وَإِيَّاكَ وَالْحِدَّةَ وَالطَّيْشَ وَالْغُرُورَ فِيمَا أَنْتَ بِسَبِيلِهِ ، وَإِيَّاكَ أَنْ

تقول : إني مُسَلِّطُ أفعال ما أشاء فإن ذلك سريعٌ فيك إلى نقص الرأي ، وقلة اليقين بالله وحده لا شريك له ، وأخيلُ لله وحده النية فيه ، واليقين به ، وأعلم أن الملكَ لله ، يعطيه من يشاء ، وينزعه ممن يشاء وإن نَجَدَ تَغْيِيرَ النعمة ، وحلولَ النعمة ، إلى أحدٍ أسرعَ منه ، إلى حَمَلَةِ النعمة ، من أصحاب السلطان ، والمبسوط لهم في الدولة ، إذا كفروا بنعم الله وإحسانه وأستطالوا بما آتاهم الله من فضله ، ودع عنك شره نفسك ، ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تدخر وتكثر ، البر والتقوى ، والمعدلة ، وأستصلاح الرعية وعمارة بلادهم ، والتفقد لأموالهم ، والحفظ لدمائهم ، والإغاثة للمهوفهم ، وأعلم أن الأموال إذا كثرت وذُخِرَتْ في الخزائن ، لا تُنْمَرُ ، وإذا كانت في إصلاح الرعية ، وإعطاء حقوقهم ، وكف المؤونة عنهم ، نمت وربت ، وصَلَحَتْ به العامة ، وتزينت به الولاة ، وطاب به الزمان ، وأعتقد فيه العز والمنفعة ، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله ، ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم ، وأوف رعيّتك من ذلك حصصهم ، وتعهد بما يصلح أمورهم ومعايشهم ، فإنك إذا فعلت ذلك قوت النعمة عليك ، وأستوجبت المزيد من الله ، وكنت بذلك على جباية خراجك ، وجمع أموال رعيّتك وعملك أقدر ، وكان الجميع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلَسَ لطاعتك ، وأطيب نفسا بكل ما أردت ، فاجهد نفسك ، فيما حدّدت لك في هذا الباب ، ولتَعْظُمَ حُسْبُنتُك فيه ، فإنما يبقى من المال ، ما أنفق في سبيل حقه ، وأعرِفَ للشاكرين شكرهم ، وأثبهم عليه ، وإياك أن تُنْسِيكَ الدنيا وضرورها هَوْلَ الآخرة ، فتتاهون بها يحقّ عليك ، فإن التهاون يوجب التفريط والتفريط يورث البوار ، وليكن عملك لله ، وفيه تبارك وتعالى ، وأرجُ الثواب ، فإن الله قد أسبغ عليك نعمته في الدنيا ، وأظهر لديك فضله ، فاعتصم بالشكر ، وعليه فاعتمد ، يزدك الله خيرا وإحسانا . فإن الله يشب بقدر شكر الشاكرين ويرة المحسنين ، وقضاء الحق فيما حمل من النعم ، وآلبس من العافية والكرامة ، ولا تحتقرن ذنبا ، ولا تمالئن حاسدا ، ولا ترحمن فاجرا ، ولا تصلن كفورا ، ولا تداهنن عدوا ، ولا تصدقن نماما ، ولا تأمنن غدارا ، ولا توالين فاسقا ، ولا تتبعن غاويا ، ولا تعمدن

مُرائياً ، ولا تحقرن إنساناً ، ولا تزدن سائلاً فقيراً ، ولا تجيبن باطلاً ، ولا تلاحظن مضحكا ، ولا تُخلفن وعدا ، ولا تذهبن نخرا ، ولا تظهرن غضبا ، ولا تأتين بدخا ، ولا تمشين مَرَحاً ، ولا تركبن سفهاً ، ولا تُفِرطن في طلب الآخرة ، ولا تدفع الأيام عياناً ، ولا تُغِمِضن عن الظالم رهبة منه ، أو مخافةً ، ولا تطلبن ثواب الآخرة في الدنيا ، وأكثر مشاورة الفقهاء ، واستعمل نفسك بالحلم ، وخذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ، ولا تُدْخِلن في مشورتك أهل الدقة والبخل ، ولا تسمعن لهم قولا ، فإن ضررهم أكثر من منفعتهم ، وليس شيء أسرع فسادا لما استقبلت في أمر رعيّتك من الشُّح ، وأعلم أنك اذا كنت حريصا ، كنت كثير الأخذ ، قليل العطية ، واذا كنت كذلك لم يَسْتَقِمْ لك أمرك إلا قليلا ، فإن رعيّتك انما تعتقد على محبتك بالكف عن أموالهم ، وترك الجور عليهم ، ويدوم صفاء أوليائك لك ، بالإفضال عليهم ، وحسن العطية لهم ، فاجتنب الشُّح ، وأعلم أنه أول ما عصى به الانسانُ ربّه ، وإن العاصي بمنزلة نحرى ، وهو قول الله عز وجل ، ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فسهّل طريق الجود بالحق ، وأجعل للمسلمين كلهم من نيتك حفظا ونصيبا ، وأيقن أن الجود من أفضل أعمال العباد ، فأعده لنفسك خُلُقاً ، وأرض به عملا ومذهبا ، وتفقد أمور الجند في دواوينهم ، ومكاتبتهم ، وأدير عليهم أرزاقهم ، ووسّع عليهم في معاشهم ، ليذهب بذلك الله فاقمتهم ، ويقوم لك أمرهم ، ويزيد به قلوبهم في طاعتك وأمرك ، خُلوصا وانشراحا ، وحسب ذى سلطان من السعادة ، أن يكون على جنده ورعيّته ، رحمة في عدله وحيطته وإنصافه وعنايته ، وشفقته وبرّه وتوسّعته ، فزایل مكروه البليّتين ، باستشعار تكملة الباب الآخر ولزوم العمل به تلقى ان شاء الله نجاحا وصلاحا وفلاحا .

وأعلم ان القضاء من الله ، بالمكان الذى ليس مثله شيء من الأمور ، لأنه ميزان الله الذى تعتدل عليه الأحوال في الأرض ، وبإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية ، وتؤمن السبل ، وينتصف المظلوم ، يأخذ الناس حقوقهم ، وتحسن المعيشة ، ويُؤدّى حق

الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة، ويقوم الدين، وتجري السنن والشرائع، وعلى تجارها يُنتج الحق والعدل في القضاء. وأشتد في أمر الله ونور عن النطف وأمض لإقامة الحدود، وأقل العجلة، وأبعد من الضجر والقلق، وأقنع بالقسم، ولتسكن ريحك، ويقتر جدك، وانتفع بتجربتك، وانتبه في صمتك، وأسدد في منطقك، وأنصف الخصم، وقف عند الشبهة، وأبلغ في الحجّة، ولا يأخذك في أحد من رعيّتك مُحاباة ولا مُجاملة، ولا لوم لائم، وتثبت وتأنّ، وراقب وأنظر، وتدبر وتفكر، واعتبر وتواضع لربك، وأراف بجميع الرعيّة، وسأط الحق على نفسك، ولا تسرعنّ الى سفك دم، فإن الدماء من الله بمكان عظيم انتهاكها بغير حقها، وأنظر هذا الخراج الذي استقامت عليه الرعيّة، وجعله الله للإسلام عزاً ورفعة، ولأهله سعة ومنعة، ولعدوه وعدوهم كبتاً وغيظاً، ولأهل الكفر من معاهدتهم ذلاً وصغاراً، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية، والعموم فيه، ولا تدفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه، وعن غنى لغناه، ولا عن كاتب لك، ولا أحد من خاصّتك، فلا تأخذن منه، فوق الاحتمال له، ولا تكلفن أمراً فيه شطط، وأحمل الناس كلهم على مرّ الحق، فإن ذلك أجمع لألفتهم، وألزم لرضى العامة، واعلم أنك جعلت بولايتك خازناً وحافظاً، وراعياً، وإنما سمى أهل عملك رعيّتك، لأنك راعيهم، وقيّمهم، تأخذ منهم ما أعطوك، من عفوهم ومقدرتهم، وتشفق في قوام أمرهم وصلاحهم، وتقويم أودهم، فاستعمل عليهم في كور عملك، ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل، والعلم بالسياسة والعفاف، ووسّع عليهم في الرزق، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت، وأسند اليك، ولا يشغلنك عنه شاغل، ولا يصرفنك عنه صارف، فإنك متى آثرته، وقمت فيه بالواجب، استدعيت به زيادة النعمة من ربك، وحسن الأحدثة في عملك، واستجرت به المحبة من رعيّتك، وأعنت على الصلاح، فدرت الخيرات ببلدك، وقشت العمارة بناحيّتك، وظهر الخصب في كورك، وكثر خراجك، وتوفرت أموالك، وقويت بذلك على ارتباط جنسك، وإرضاء العامة، بإفاضة العطاء فيهم من

نفسك ، وكنت محمود السياسة ، مرض العدل في ذلك عند عدوك ، وكنيت في أمورك كلها ، ذا عدل وقوة ، وآلة وعدة ، فنافس في هذا ، ولا تقدم عليه شيئاً ، ثم مد مغبة أمرك ، ان شاء الله ، وأجعل في كل كورة من عملك أمينا ، يخبرك أخبار عمالك ، ويكتب اليك بسيرتهم وأعمالهم ، حتى كأنك مع كل عامل في عمله ، معين لأمره كله ، وإن أردت أن تأمره بأمر ، فانظر في عواقب ما أردت من ذلك ، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ، ورجوت فيه حسن الدفاع ، والنصح والصنيع فأمضه ، وإلا فتوقف عنه ، وراجع أهل البصر والعلم ، ثم خذ فيه عدته ، فإنه ربما نظر الرجل في أمر من أمره ، قد واتاه على ما يهوى ، ففوّاه على ذلك وأعجبه ، وإن لم ينظر في عواقبه أهلكه ، ونقض عليه أمره ، فاستعمل الحزم في كل ما أردت وباشره بعد عون الله بالقوة ، وأكثر استخارة ربك ، في جميع أمورك ، وأفرغ من عمل يومك ، ولا تؤخره لغيرك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لغد أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي أنخرت ، وأعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، وإذا أنخرت عمله أجمع عليك أمر يومين ، فشغلك ذلك حتى تعرض عنه ، فاذا أمضيت لكل يوم عمله ، أرحت نفسك وبدنك ، وأحكمت أمور سلطانك ، وانظر أحرار الناس وذوى الشرف منهم ، ثم استيقن صفاء طوبيتهم ، وتهذيب مودتهم لك ، ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك ، فاستخلصهم ، وأحسن إليهم ، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة ، فاحتمل مؤونتهم وأصالح حالهم ، حتى لا يجدوا خللتهم مساً ، وأفرد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مظلمة إليك ، والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه ، فاسأل عنه أخفى مسألة ، ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيّتك ، ومُرهم برفع حوائجهم وحالاتهم اليك ، لتنظر فيها بما يصلح الله به أمرهم ، وتعاهد ذوى البأساء ويتأملهم وأراملهم ، وأجعل لهم أرزاقاً من بيت المال اقتداءً بأمير المؤمنين أعزّه الله في العطف عليهم والصلة لهم ، ليُصلح الله بذلك عيشتهم ، ويرزقك به بركة وزيادة ، وأجر لآمرائك من بيت المال ، وقدم حيلة

القرآن منهم، والحافظين لأكثره، في الحراية على غيرهم، وأنصب لمرضى المسلمين دوراً
تؤويهم، وقواماً يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم، وأسعفهم بشمواتهم، ما لم يؤد ذلك
إلى سرف في بيت المال، وأعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم، وأفضل أمانهم لم يرضهم
ذلك، ولم تطب أنفسهم، دون رفع حوائجهم إلى ولايتهم، طمعا في نيل الزيادة، وفضل
الرفق منهم، وربما يرم المتصفح لأمر الناس لكثرة ما يرد عليه، ويشغل فكره وذممه، ومنها
ما يناله به مؤونة ومشقة، وليس من يرضى في العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل
وفضل ثواب الآجل، كالذي يستقبل ما يقرب به إلى الله، ويلتمس رحمته به، وأكثر الإذن
للناس عليك، وأبرز لهم وجهك، وسكن لهم أحراسك، وأخف لهم جناحك، وأظهر لهم
بشرك، ولن لهم في المسألة والمنطق، وأعطف عليهم بجلودك وفضلك، وإذا أعطيت فأعط
بسماحة وطيب نفس، وألتبس الصنعة والأجر، غير مكدر ولا متأن، فإن العظيمة على ذلك
تجارة مريحة إن شاء الله، وأعتبر بما ترى من أمور الدنيا، ومن مضى من قبلك، من أهل
السلطان والرياسة، في القرون الخالية والأئم البائدة، ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله،
والوقوف عند محبته، والعمل بشريعته وسنته وإقامة دينه وكتابه، واجتنب ما فارق ذلك
وخالفه، ودعا إلى سخط الله، وأعرف ما تجمع عمالك من الأموال، وينفقون منها،
ولا تجمع حراما، ولا تنفق إسرافا، وأكثر مجالسة العلماء، ومشاورتهم ومخالطتهم، وليكن
هواك اتباع السنن وإقامتها، وإيثار مكارم الأمور ومعاليتها، وليكن أكرم دخلائك وخاصتك
عليك من إذا رأى عيبا فيك لم تمنعه هيئتك من إنهاء ذلك اليك، في سر، وإعلامك
ما فيه من النقص، فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك، وأنظر عمالك الذين بحضرتك،
وكتائبك فوق لكل رجل منهم في كل يوم وقتا يدخل عليك فيه بكتبته ومؤامراته
وما عنده من حوائج عمالك وأمر كورك ورعيتك، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك
سمعك وبصرك، وفهمك وعقلك، وكرر النظر إليه والتدبير له، فما كان موافقا للحزم والحق
فامضه وأسخر الله فيه، وما كان مخالفا لذلك فاصرفه إلى التثبت فيه والمسألة عنه،

ولا تمنن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه اليهم ، ولا تقبل من أحد منهم إلا
 الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المؤمنين ، ولا تضع المعروف إلا على ذلك ،
 وتفهم كتابي اليك ، وأكثر النظر فيه ، والعمل به ، وأستعن بالله على جميع أمورك وأستخره ،
 فإن الله مع الصالح وأهله ، وليكن أعظم سيرتك ، وأفضل رغبتك ، ما كان لله رضا ،
 ولدينه نظاما ، ولأهله عزّا وتمكيناً ، وللذمة وإلّة عدلا وصلاحا ، وأنا أسأل الله أن يحسن
 عونك وتوفيقك ، ورشدك وكلاءك ، وأن ينزل عليك فضله ورحمته ، بتمام فضله عليك ،
 وكرامته لك ، حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيبا ، وأوفرهم حظا ، وأسناهم ذكرا وأمرا ، وأن
 يهلك عدوك ومن تأواك وأنغي عليك ، ويرزقك من رعيتك العافية ، ويحجز الشيطان
 عنك ووساوسه ، حتى يستعلي أمرك بالعزّ والقوة والتوفيق ، إنه قريب مجيب .

(د) رسالة الخميس

من عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين، الى المبشرين على الحق، والناصرين للدين، من أهل خراسان وغيرهم من أهل الإسلام : سلام عليكم ، فإن أمير المؤمنين يحمّد اليكم الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله .

أما بعد، فالحمد لله القادر القاهر، الباعث الوارث، ذى العز والسلطان، والنور والبرهان، فاطر السموات والأرض وما بينهما، والمتقدم بالمن والطول على أهلها، قبل استحقاقهم لمثوبيته، بالمحافظة على شرائع طاعته، الذى جعل ما أودع عباده من نعمته، دليلاً هادياً لهم الى معرفته، بما أفادهم من الأبواب، التى يفهمون بها فصل الخطاب، حتى آفتنوا علم موارد الاختبار، وثقفوا مصادر الاعتبار، وحكوا على ما بطن بما ظهر، وعلى ما غاب بما حضر، واستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته، ومثقفين صنعته، وحاجة مترايل خلقه ومتواصله، الى القوم بما يلزمه ويصاحبه، على أن له بارئاً أنشأه وأبدأه، ويسر بعضه لبعض . فكان من أقرب وجودهم، ما يباشرون به من أنفسهم فى تصرف أحوالهم، وفنون آنتقالهم، وما يظهرون عليه من العجز عن التأتى لما تكاملت به قواهم، وتمت به أدواتهم، مع أثر تدبير الله عز وجل وتقديره فيهم، حتى صاروا الى الخلقة المحكمة، والذرة المعجبة، ليس لهم فى شئ منها تلطف يتمونه، ولا مقصد يعتمدونه من أنفسهم، فإنه قال تعالى ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبَّكَ إِلَهُكَ الْكَرِيمُ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَجَبَكَ﴾ . ثم ما يتفكرون فيه من خلق السموات، وما يجرى فيها من الشمس والقمر والنجوم مسخرات، على مسير لا يثبت العالم إلا به من تصارييف الأزمنة التى بها صلاح الحرث والنسل، وإحياء الأرض، وإفاح النبات والأشجار، وتعاور الليل والنهار، وصر الأيام والشهور والسنين التى تُخصى بها الأوقات، ثم ما يوجد من دلائل التركيب فى طبقات السقف المرفوع، والمهاد الموضوع، باختلاف أجزائه وألثامها، ونحو الأنهار، وإرساء

(١) القوم كالقيام مصدر قام .

الجبال . ومن البيان الشاهد ما أخبر الله عز وجل به من إنشائه الخلق ، وحدوثه بعد أن لم يكن مترقياً في النماء ، وثباته إلى أجله في البقاء ، ثم محاربه مُنْقِضِيَا إلى غاية الفناء . ولو لم يكن له مُفْتَتِحُ عدد ولا مُنْقَطِعُ أمد ، ما ازداد ينشوء ، ولا تخيفه نقصان ، ولا تفاوت على الأزمان ؛ لأت ما لا حد له ولا نهاية ، غير ممكن الاحتمال للنقص والزيادة . ثم ما يوجد عليه منفعة من ثبات بعضه لبعض ، وقوام كل شيء منه بما يسر له ، في بدء استمداده إلى منتهى نفاده ؛ كما احتج الله عز وجل على خلقه ، فقال : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ كُلُّ مَن عَلَيْهَا فَإِنَّ وَيَقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ . وكل ما تقدم من الأخبار عن آيات الله عز وجل ودلالاته في سمواته التي بنى ، وأطباق الأرض التي دحا ، وآثار صنعه فيما برأ وذراً ، ثابت في فطر العقول ، حتى يسخر أولى الزرع ما يدخلون على أنفسهم من الشبهة فيما يجعلون له من الأضداد والأنداد . جل عما يشركون . ولولا توحده بالتدبير ، عن كل معين وظهير ، لكان الشركاء جُدراء أن تختلف بهم إرادتهم فيما يخلقون ، ولم يكن التخلف في إثباته وإزالته ليخلو من أحد وجهيه ، وأيهما كان فيه فالعجز والنقص مما أتاه وبرأه . جل البديع خالق الخلق ومالك الأمر عن ذلك وتعالى علواً كبيراً ؛ كما قال سبحانه : ﴿ مَا آتَاكَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ . ثم من عظيم نعمة الله عز وجل على خلقه آفتهاده إياهم ، وأنه يستددهم ويُدِّههم على منافعهم ، ويُنَجِّبهم مضارهم ، ويهديهم لما فيه صلاحهم ، ويُرَغِّبهم في المحافظة على التمسك بدين الله عز وجل ، الذي جعله عصمة لهم وحاجزاً بينهم .

ولولا ما تقدم به من تلافيمهم وأستدراكهم بفضل رحمته ، لاجتاحهم التلف ، لقصور معرفتهم عن التأني لأقواتهم ومعايشهم ، ولم يكونوا لبقَّتصروا على حظوظهم وأقسامهم عما بنوا عليه من الجمع والرغبة ، ولتألكوا بغير بعضهم على بعض ، وعدوان قوتهم على ضعيفهم ، ولكنه بعد تعريفه إياهم مُلك قدرته وجلالة عزته ، بعث إليهم أنبياء ورسله مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ،

بِالْآيَاتِ الَّتِي لَا تَنَالُهَا أَيْدِي الْمَخْلُوقِينَ ؛ فَرَضُوا بِمَا قُيِّسَ بِهِمْ ، وَارْتَدَعُوا عَنِ التَّبَاغِي وَالتَّظَالُمِ ،
لَمَّا وَعَدُوا مِنَ الثَّوَابِ الْجَسِيمِ وَخُوفُوا مِنَ الْعِقَابِ الْأَلِيمِ ؛ وَلَمْ يَكُونُوا لِيُطِيعُوا أَمْرًا
لَا مَرَّ وَلَا نَهْيًا لِنَاسٍ ، إِلَّا بِحُجَّةٍ يَتَّبِعِينَ بِهَا الْحَقُّ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ مِنَ الْمُبْطِلِينَ ، وَتَخْوِيفِ
يَتَّقُونَ بِهِ مُقَارَفَةَ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ ، وَرَجَاءِ يَتَجَشَّمُونَ لَهُ مَوْثِقَةً مَا تُعْبَدُوا بِهِ . فَافْتَتَحَ اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ بِأَبِيهِمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَعَلَّمَهُ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ —
كَمَا أَقْنَصَ فِي وَحْيِهِ الْمَنْزِلَ — وَكَرَّمَ وَلَدَهُ وَفَضَّلَهُمْ ، فَقَالَ جَلَّ وَعَزَّ : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ
وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوُجُوهِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ .
وَجَعَلَ مَا فَطَرَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْعُطْفِ عَلَى ذُرَارِيهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ سَبَبًا لَمَّا أَرَادَ مِنْ بَقَائِهِمْ وَتَنَاسُلِهِمْ ،
وَمَا اخْتَصَّ بِهِمْ مِنَ الْعِلْمِ وَالْفَهْمِ حِجَّةً عَلَيْهِمْ ، لِيَمْتَحِنَ طَاعَتَهُمْ ، وَيَبْلُغَهُمْ أَيْهَمُ أَحْسَنُ
عَمَلًا . وَلَمْ تَزَلْ رُسُلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى خَلْقِهِ تَتَرَى بِالنُّورِ السَّاطِعِ ، وَالْبِرْهَانِ الْقَاطِعِ ،
لَا يَجِدُونَ لَمَّا يُورِدُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَقِّ الْقَاهِرِ مَرَدًّا وَلَا مَدْفَعًا ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ بِخَبَرِهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ
حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ . فَلَمْ يَجِدِ الْمَكْذُوبُونَ مَسَاغًا إِلَى دَفْعِ مَا أَقِيمَ عَلَيْهِمْ مِنْ لَازِمِ الْحُجَّةِ ،
إِلَّا الْمَعَانِدَةَ وَالْمُجَاحَدَةَ . وَكَانَ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، يُعْتَشُونَ فِي أَعْصَارِ الْحَقِّبِ ،
نُذْرًا لِلْأَمَمِ ، حَتَّى خَتَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَبَيَّنَّهِ فَرْدًا
وَحِيدًا لَا عَاضِدَ لَهُ وَلَا رَافِدَ ، إِلَى قَوْمٍ يَعْبُدُونَ أَصْنَامًا بُكْجًا ، وَحِجَارَةً صَمًّا ، فَكَذَّبَ بِهِ
الْقَوْمُ الَّذِينَ يُعِثُّ فِيهِمْ أَوَّلَ مَا دَعَاهُمْ ، وَرَامَهُ مَلُوكُ أَقْطَارِ الْبِلَادِ بِتَوْجِيهِهِ الْأَجْنَادَ ،
وَمُرَافِدَةِ الْقُوَّةِ وَالْعِتَادِ وَبَنَى الْغَوَائِلَ ، وَنَصَبَ الْحَبَائِلَ ، وَهُوَ يَدْعُو إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ
بِمَا أَمَرَهُ بِهِ ، إِذْ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ . ثُمَّ جَاهَدَ بَيْنَ أَطَاعِهِ مَنْ عَصَاهُ ، وَبَيْنَ اتِّبَاعِهِ مَنْ خَالَفَهُ ، حَتَّى
أَعَزَّ اللَّهُ كَلِمَتَهُ ، وَأَظْهَرَ دَعْوَتَهُ ، وَأَكَلَ لِعِبَادِهِ دِينَهُمُ الَّذِي أَرْضَى لَهُمْ . فَلَمَّا اخْتَارَ اللَّهُ لَهُ
مَا لَدَيْهِ ، وَاخْتَصَّ بِهِ عِنْدَهُ : مِنَ النِّعَمِ الْمُقِيمِ ، وَالْجَزَاءِ الْكَرِيمِ ، بَعْدَ اسْتِقَامَةِ الدِّينِ

ودخول الناس فيه أفواجا، خلفه، إذ ختم به الأنبياء، بالبررة النجباء من أدانيه ومُحمّته، لإقامة الشرائع المُفترضة، وإنفاذ حكم الله المنزل، وأقتفاء السنّة الماثورة وحفظها له في قرابته ومحبي دعوته، وإتمام ما أوجب له من الفضيلة، وقريب الوسيلة، وإنجازا لما وعده من إظهار ما بعثه به، من دينه الذي أصطفاه وأرتضاه. وكان اختيار أولى الفضل من مُحمّته وعصيته لإرث خلافته، ومن عظيم الزلف التي رغب الى الله فيها أنبيأؤه، وبما اقتص في مُنزل وحيه، واختص تبارك وتعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بما أمره به من مسألة أمته تصيير مودته في القربى جزاءه ممن تبعه على الرسالة، وهداه من الضلالة؛ فكانت فضيلتهم عزيزة من الله عز وجل، دون طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألزمه تأديته الى خلقه وألزمهم أداءه، فقال عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾. ودل بما أخبر به وأظهره من تطهيره إياهم وإذهايه الرجس عنهم، على أصطفائه لهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. وكان مما أوجب لهم به حقّ الوراثية في محكم تنزيله قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾. ثم قرن طاعتهم بطاعته، فقال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. وأحلهم من النباهة والصيت بالحمل الذي أعلى به أمرهم ورفع به ذكركم، لما أحب من النبيين في الدلالة عليهم، والهداية إليهم، فإنه يقول عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. ولو كان الائمة المُقلدون أمر عباده خاملة أنسابهم، متقطعة أسابهم، غير مخصوصين بفضيلة يرونهم بها دون غيرهم، لم تعد طليبتهم عقد الخلافة لهم، وأن تكون من المُفترضات على كافة الأمة، أو على بعض دون بعض؛ فإن كان لأهل الشرق والغرب من ذوى النقص والكمال أن يختاروا لأنفسهم، فليس في اجتماع آرائهم مع تفرقهم وأخلافهم طمع آخر أيام الدهر. وإن كان الى خاصية دون عامة، فستحتاج العامة من طلب معرفة تلك الحال الى مثل ما احتاجوا اليه في أئمتهم، إذ لم يكن أهل الأرتياب والطلب من أعلام الآفاق ليتواطأوا على اتفاق،

لنفاد آجالهم قبل بلوغهم غاية الاجتهاد في الفحص والتكشيف ، وحاجتهم الى اختبار البلدان ، وتمحيص أولى الفضائل بالامتحان ، وما هو حاق عليهم من الشبه في اختيارهم ، والاختلاف فيمن عَسَوْا أن يَحْتَبُوهُ وَيُقَدِّمُوهُ ، حتى تهالك الرعية بتظالمها بينها ، ويَطْرُق من يليها من الأمم إياها ؛ إذ لا ذائد عنها ولا مُحامى . فإذا ألزمت الأمة الحاجة إلى نصب الحكام لإقامة الدين ، وتقسيم الحقوق من المسلمين ، ومجاهدة عدوهم من المشركين ، لم يكن لهم في الإمام عليهم تجاز إلى التخلص من حقه إليهم ، ولا ريب عند المعرفة برأفة الله ورحمته ، ولطفه وحكمه ، في دفعه عن عباده ما لم يجعل في حيلتهم له وسعاً ، ولا في حيلتهم له دركاً ، وكفايته إياهم ما يُعجزهم من البحث والتنقيب عن ولاية أمرهم ، بنصبه إياهم ، وما رفعهم إليه من الدرجة التي أعلاها وأسناها ، إذ وصل نسبهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقرض مودتهم على خلقه ، ولم يشنهم جهلهم للغرض الذي لزمهم له ، ولم يجب عليهم فرض في معرفة من سواهم . ولم يزل سيأتى أئمة الهدى مطّرداً ، ونظامهم متصلاً ، يتلقاه كابر عن كابر ، ويؤديه أول الى آخر ، حتى تنسأ الى أمير المؤمنين ، وهو حال دار دعوته ، وبين أنصاره من أهل حراسان ، فنظر به خيرهم ، وعرفوا ما تصرفت به أحوالهم ، وظهر لهم من بيان حجته على من نازعه في الأمر ، وشاهدوا من إبلاغه في العذر ، وأستظهاره بالتأني والصبر ، ما أزاح عنهم الشبهة وكشط الحيرة ، حتى استزلوا نهوضه بحقه ، وخافوا الزيف على أديانهم فيما أعطوه من صفة أيمانهم ؛ وهو ماض على عادته ، مستديم للوادة ، متلوم على المراجعة ، بالغ غابة ما في وسعه من الرخصة في دفع الولاية التي نهته بها الرعية ، حتى ضاق عليه في دينه ترك القيام بما أنهضه الله به من ثقلها وقلده من حملها ، وخاف المخلوع فانبعث بالشر والغرة ، فتناول أولياء الحق باغيا طاغيا ، لما أراد الله من تأييدهم عليه بالبيان والحجة التي يجب لها قلبه ، ويقت بها في عضده ، ويقبل الله ما شرفكم به من النصر والغلبة فيه التي جعلها الله للتمقين . فاجتمع

لكم معشر أهل نُرسان في دولة أمير المؤمنين ثلاث خلال آخَصَّكم الله بفضيلتها ، وسنيّ مراتبها ، دون ثلاث شَمِلَتْكم وغيركم .

أما الأولى من اللواتي خَصَّكم الله بهنّ ، فإتقدّم لأسلافكم من نُصرة أهل بيت النبيّ ، والقائمين بميراثه من آباء أمير المؤمنين .

وأما الثانية ، فما آثركم الله به من نُصرته في دعوته النانية .

وأما الثالثة ، فما تقدّمتم به من صحة ضمائرکم ، ومحض مُناصحتكم .

وأما الثلاث اللواتي هنّ لكم ولغيركم :

فمنهنّ ما أكّد الله لأُمير المؤمنين في أعناق المسلمين : من العهد الذي أخذ إصره ، وألهمهم الوفاء به والتمسك بوثائق عصمته ، عند محاولة الخلويع بإحاول من الإعلان بالردة ، والتمس من تبديل معالم الدين وتغفية آثاره ، فلم يُلَفِ الرعية سُدى مهملين ، لا جامع لأمرهم ، ولا ضامّ لنثرهم .

ومنهنّ ما أفادكم الله وإياهم من العبر ، عند حلول الغيّر بمنّ غدر وختر ، تذكرة لأولى النّبيّ ، وحجة بالغة على من أدبر وتولّى ، ليهتدى متحيّر ويتعظ مُزدرج ، ﴿ وَلِيَمَّحَصَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَحَقِّقَ الْكَافِرِينَ ﴾ . ومنهنّ آجتاع أهل الفضل من المسلمين : ممن لم يكن له نُصر ولا أزر في الدعوة الأولى على المشايعة في الدعوة الثانية ؛ فأصبح دُعاة أمير المؤمنين من أهل الحرمين والمُصّرين ومدينة السلام والمشرق والمغرب ممن غار أو أنجد من المتمسكين بدمهم المُوفين بنذورهم ، من إخوانكم ؛ وإن كان الله قد قدّمكم في الأمرين جميعا بتفوّق حالكم على غيركم ، يعتدّون من معاضدكم ومكانفتكم بما جعله الله عز وجل ألفة لكم ومودة بينكم ، يبید بها ما كان الشيطان يترغ به بين أهل التباعد في الأنساب ، والتثنائي في الأوطان من إيقاع العداوة والبغضاء ، والأنطواء على الأحقاد والدّمن ، وطلب تقديم الإحن ، وصار أهل السموّ الى الدرجة العليا والاعتصام بالعروة الوثقى من أولياء أمير المؤمنين وشيعته ، منشرحة صدورهم بمكانفته ، مُنبسطة أيديهم بمعاونته على حقّه ،

منفسحة آمالهم في إذكاء ناره على عدوه والإثخان في بلاده وأفتتاح ممتنع حصونه ، بما جمعهم الله عليه من الألفة ، ورفع عنهم من الحمية والعصبية ؛ راجين عودتهم الى أحسن ماضى عليه سلفهم ، في عهد نبيه صلى الله عليه وسلم ، من سلامة الصدور ، وصلاح ذات البين ، واجتماع القوى على مجاهدة من شاقهم ؛ قد أفرد الله عنهم نفرة التحارب والتجاذب ، وجعل ما كان يسعى به بعضهم من الإعداد لبعض ، زيادة في ريحهم ، وحدا في شوكتهم ، لائتلافهم في دولة أمير المؤمنين المحدودة المؤيدة بصديق الضمائر ، ونفاذ البصائر . والى الله يرغب أمير المؤمنين في إعانتته على صالح نيته ، وتبليغه منتهى سؤله وغاية همته ، في اعزاز دينه وإذلال من صدد عن سبيله ؛ إنه سميع قريب .

ومن أقوى الأسباب الى استدعاء الشكر على النعمة تذكّر ما كانت عليه الحال قبلها ، فاستدعوا الإفاضة فيما رفع الله من خصاصتكم وأعلى من أقداركم ، بنصرة أهل بيت نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وما أبلاكم الله في الدعوة الأولى مما لا يؤدى حقه إلا بعون الله وتوفيقه ، فإنه ارتاح لهم بلطفه وتوفيقه ، فأنا لهم رغائب الأقسام وسنى الحظوات ، ورفع درجاتهم ودرج خلوهم وأعقابهم من بعدهم ، بعد إذ هم مستضعفون يخافون أن يخطفهم الناس ، مدّعون بقهر عدوهم واستثنائه عليهم ، ثم لم يلبثوا أن صاروا الى الحال التي يرونها بها من الغلبة والبهجة ، إلا أنهم أخذوها بحقها ، وكانت في أيدي الظلمة من أهل بيت اللعنة وأتباعهم بحمد الباطل ومحنة الابتلاء ، ﴿ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ . وليس أحد منكم بخارج من المحنة بما أليس من النعمة ، وإن كنتم أهلها الآخذين لها بحقها ، بل الذى يلزمكم استدائها والقيام بحفظها ، على حسب ما أولاكم الله منها ، وربما كان الذى يعقب أهلها من الغفلة والاعتثار ويُلهمهم بها من حبورها وسرورها ، أعظم إثما وحوبا مما يخاف على أهل البطالة والصبر من ضعف العزم وقلة الصبر ، لما يستولى عليهم من استكانة الذلة ، والاعتثار بالتقصير ، والفرع الى ربهـم في تنفيس كُرهم ، فإنه

تبارك وتعالى قد وصف أهل الطبقتين فقال : ﴿ وَإِذَا نَعَّمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ اعْرِضْ وَنَأْيْ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٌ ﴾ . فحاجتكم اذا أنجح الله سعيكم وأظهركم بطليبتكم ، الى حياطة ما أودعكم الله من مننه وكرامته ما آتاكم من فضله ، بالشكر المتري للزيد . فتعهدوا معشر شيعة أمير المؤمنين أنفسكم بتذكّر ما سهل لكم من الحزونة ، وذلك لكم من الصعوبة ، وحكم لكم به من النصر ، على مُراق الملة ومُحافى أهل القبلة ، وأباحكم من ديارهم وأموالهم ؛ فأصبحتهم بمنّ الله عليكم حُماة الدين ، وأنصار الأئمة الراشدين ، وحصون كافة المسلمين ، بعد ما أجتت الله بكم قُرونَ التفاق ، وأباد بكم صناديد الضلالة ، وشرد من لم تستحمله سيوفكم ، وأضرع اليكم من أذعن وأستسلم ، وقد استشر فكم معشر شيعة أمير المؤمنين أهل الشنآن ، ولاحظوكم بأعين الحسد والمنافسة ، فبين ذلك مجهرٌ معالين ، ومُستسرّ مداهن ، ودخل في عدادكم ، ووالج في سوادكم ، يرى أمانه بين ظهوركم ، فطعمه عليكم في دولكم بريية التوييه وخُدع التشبيه ، أيسر عليه كُلفة وأعظم فيكم خراجا ونكايه ؛ فتوقوا هذه الطبقة أشد التوقي ، فإن أكثر من يلجأ الى استباحة الحيلة ، من عز عن المبدأة والإصهار ، وعند ظهور الحازم وغلبته يَحْتَرِز من لطيف الخُدع وخفي الاستدراج .

وأحذروا معشر شيعة أمير المؤمنين من استمراء الطراء ، والركون الى راحة الدعة ما قد رأيتم وباله عاد على أهله ، وأورثتهم عواقبه طول الندم والحسرة ؛ فإنكم قد كنتم في حال المراقبة لعدوكم ، والخريف لبائقة متيقظين متحفّظين لما كان يرومكم به من ختله وحيله ، ثم أفضيتم الى الجحيم وقد جهدكم السعي ومسكم النصب ، وسيلقي الشيطان في أمانيتكم أن قد اكتفيتم بسالف ما قاسيتم ، ويجد من ضعف العزائم معينا داعيا الى اغتنام الخفض ، والإخلاد الى الأرض ، ما لم تعتصموا بما عايتم من الاعتبار ، وتمثلوا مواضى الآثار فيمن سلف من القرون الخالية ، وما أفضت به اليه العزة من زوال النعم ووقوع الغير ، فإن جميع ما خولكم الله وأفادكم مُرَتَّين بما أزركم من حياطة واستمائه ؛ فقد وجبت عليكم الحجة بما حصّكم الله

عليه ، وعظمت عليكم المنّة بما هداكم اليه ، وأراكم من آياته ومُثَلّاته فيمن خلا قبلكم ما فيه أبلغ الإعذار والإنذار لكم . ومن اجتمع له اقتناء صواب من تقدّمه الى ما يتبع من نفسه ، فكأنّه قد آخبر بالتجربة ، مع استمداده بما يستفيد ، ويستزيد ما يفتح لبّه ورأيه ، وأيقنوا أنّكم لن تصلوا الى من سواكم ، ممن هو أعرس طاعة عليكم وأعدر بمعصيتكم ، حتّى تبدوا باستصلاح أنفسكم ، وأنّه لن يرجى لكم القوّة على مجاهدة عدوّكم حتّى تقووا على مجاهدة أهوائكم ، فإنّ على كل امرئ رية من أمره ، وغطاء من غيبه ، لا يكشفه إلا صحّة المعرفة ، والإذعان بالنصفه ؛ فهناك يؤمن عليه الجهل والمعانده ، وإذا أمنت هاتان الخلتان آسدت بإذن الله ثلم الآفات ، وفُتق المكاره ، فإنّه لا يخاف الضلال على من آهتدى ، ولا اعتماد الجور على من انتصف من هوى .

ولكن أؤل ما تتعهدون به أنفسكم ، وتنابرون عليه من صالح أدبكم تناصف الحق بينكم ، بتقديم أهل الفضائل والآثار المحموده منكم وتفخيم أمركم ؛ فقد علمتم أنّ منكم المبرز الفات الذي لا يدرك شأوه ولا يوازي بلاؤه ، حين كشف الإبلاء ضمائر القلوب وجلا مُشَبّهات الظنون ، فصرّح بالمحاربة بعد التقدّم في الحجّة ، وفاء بمؤكّد العهد وركوبا منه لهائل الخطر ، غير هائب مع صحبة الحق ما برق لديه الناكس المخلوع ورعد ، ولا مُستوحش فيما تفرد به الى من تولى وأدبر ، حتّى أتى الغاية التي أجزى إليها في الله عز وجل وفي خليفته ، ثم لرؤسائكم من أهل المشايعة والمكائفة والنصرة والحظ الجزيل والأثر المبين ، ثوابهم واجب وحقهم لازم ؛ ثم منكم من يُحفظ لسلفه وأوله من الآباء الذين يحفظون ولايتهم ، فإن الله عز وجل يقول في ذكر اليتيمين : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ الآية . وقال على لسان يعقوب لابنه يوسف : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ الآية . وأمير المؤمنين يرى توريث الحكمة والذمام سنة عليه في أخلاقه التي يراها ويحافظ عليها ؛ كما أنّه يرى وراثه التركة فريضة واجبة ، فيخلف السلف الصالح عنده من المزية والفضل ما يتلون به أهل الغناء بأنفسهم ، ثم

يتلوهم من آقتدى [بهم] وأهتدى بهديهم . والسابق المتقدم من أعتد ببلاء نفسه الى بلاء سلفه ، ثم يتبعه بعد المبلى بنفسه ، ثم يتلوها المتوسل بأبائه ، ثم الصاعد به هواه ورأيه ، طبقةً فطبقة ، فليقتصر كل امرئ منكم على المرتبة التي أحلها بها سعيه ، وليسلك الى الازدياد فيها بالزيادة من نفسه ، فإن من الفتوق العظيمة على أهل الدول ما يترغ به الشيطان بينهم ، ويكثر عندهم ما يكون منه ، فيوافق من الحيف للأُنفس ما يجد به مساغاً الى ما يروم من إيقاع الشحنة بينهم ، وتثبيت الإحن في صدورهم ، بعد التآزر والتناصر . ومتى يجمع المرء لمزية من فوقه ، واغترباط من دونه كُفِيَ ما ترك . وان تخلص نيّاتكم . وتسلم ضمائرکم ، حتى تمحضوا شكر ما أوليه إخوانكم ، وتعندوا ما نالهم شاملاً لكم ، وتُجانبوا طريقة من اقتصر بأمنيته على خاصته ، وتعتب فيما أُوثر به أهل الفضل دونه . وكفى عِظَةً فيما نهاكم الله عنه من ذلك ؛ يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَمْنُوا مَّا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ الآية . ولا يلتبس أحد مودته عن سوء نية بحسن مداراة في ظاهره ، فإن الله مقلد كل امرئ ربقة عمله ومطوقه طوق سيرته . ولا يغدر في ما يلزمه لإمامه ؛ فإنه إنما يغدر في حظّه ويخس قسمه ، ويخس نفسه . ثم لا يقتصر على استصلاحها حتى يتناول من كانت مته عليه من أقربيه وحسويه ، فإن يسير ما هو معانٍ من تأديتهم لا ينشأ أن يتجاوز أدنى المراتب الى أقاصيها ، وقربها الى مُتَنَاهِيها ، حتى يستفيض شاملاً عاملاً ، بعد أن بدا محلاً خاصاً .

واعلموا أن أمير المؤمنين متفقد من تثقيفكم وتقويمكم على صالح الأدب ومحمود السيرة ، ما لا يتفقد به من سواكم ؛ فإنه إن كان يُوجب على نفسه استصلاح الرعية وحملهم على ما فيه رشدهم وقوامهم ، لما يلزمه من فضل العناية بالأخص والأولى فالأولى ، فإن في أخلاكم من التقديم في التأديب والتعهد ، وجوها من الضرر : منها : أنكم أولى بحسن الطاعة وسرعة الإجابة ، للطف محلّكم وقرب مكانكم عند أمير المؤمنين .

ومنها : أنكم يأنس بكم المؤمنون ويقتدي بكم التابعون ؛ فمضى قصرتم وأخلتكم ، أقتضى
أثركم من نصبتهم له أعلاما ، ثم لم يكن لكم أن تزدوا عليه ، ولا أن تأخذوا فوق يده ، بل كان
قينا أن يكون يسومكم الرضا بمنزل ما سمعتموه ، ثم تجرى هذه العادة في الطبقات ، حتى يطرد
السياق ، الى أن يستفيض الفساد في حشوا الناس وعامتهم ، فلا تُغني قوة ولا حزم ولا
شدة ، إلا العجز والاضاعة ؛ ثم يجد الأعداء مساعا الى الطعن والعيب ، فلا يملكون أن
يرهبوكم ويستولي عليكم الفشل ؛ فإن الأيدي إنما تُبسط بنفاد العزائم ، والعزائم إنما تُنفذ
بثبات الحجّة ، والحجّة إنما تثبت إذا كانت عن الحق . وإذا أضيع أول هذه الرسوم ، التي
رسم لكم أمير المؤمنين ، تبعته تواليه وشفعته لواحقه ، ووجد العدو الملاحظ مكان العورة ،
مطمعا في إهمال ما كان يُعد له من الغرة ، ويتوقى به من مناهزة الفرصة ، وليكن ما تُفيضون
فيه وتعدونه ظهيرا على طاعين إن طعن في دولتكم ، ما ألهم الله أمير المؤمنين : من شمول
رعيته بالعدل ، وفرش الأمر في مضمراتها ومقلبيها ، ورفع به عنهم من سير الجود ، وبسط
به يده من إثابة أهل البلاء ، وتغمّد الجرائم لأولى الزلل ، والإبلاغ في دعاء من عاند وشاق
الى التوبة والإنابة ، وإقالة العثرة بعد القدرة ، والحقن لمباح الدماء ، فلم تعلموه صبر محملا ،
ولا هتك لأحد ممن أظفره الله به ستر ، ولا وقفه على عورة . ثم تولى الله أمير المؤمنين ،
في حروبه شرقا وغربا ، التي أغناه الله عن الإطناب في وصف صنع الله لكم فيها ،
لاستفاضة أخبارها في دهمائكم ، مع ما أحب من مطالعته إياكم ببالغ أدبه وشافي
عطفه ، أن يتكب من الإسهاب ، في غير ما صمد له ورأى من تفرّيع أسماكم وأذهانكم ،
لوعى ما التمس أن تعوه من تبصيركم حظكم ، وتنبيهكم على رشدكم . وحسب أمير المؤمنين
في نفسه وفيكم الله ، وكفى به مبينا .

وإن أمير المؤمنين مع ما تقدّم به اليكم لعلّ ثقة من حيابة الله خلافته التي جعلها
عزرا لدينه وقواما لخلق ، وأنه ليس بها ممن أدبر عن حقها آفتلال بل من خلع
ربقتها وأضاع حفظه منها ، جلب الخلّة والحاجة وخسران الدنيا والآخرة . وإنما أتى

المُقَصِّرُونَ فِي إِعْظَامِ حَقِّهَا مِنْ ضَعْفِ الرِّوَايَةِ عَنْ بُلُوغِ مَا تُقْضَى بِهِمْ إِلَيْهِ مَصَادِرُ
الْعَوَاقِبِ ، وَتُؤَدِّيهِمْ إِلَيْهِ رَوَاجِعُ مَا قَدَّمُوا ، فَلَا يَكُونُونَ بِعَمَلِهِمْ غَيْرَ مُتَجَاوِزِينَ بِهِمْهُمْ ،
وَفِيهِمْ الَّذِي هُمْ فِيهِ إِلَى مَا يَنْمُنَعُهُ ^(١) .

وَأَسْتَدِيمُوا مَعَشَرَ الْمُسْلِمِينَ سَابِغَ النِّعْمَةِ بِحَسَدِ مُوَلِيهَا وَالْمُنْطَوَّلِ بِهَا . وَقَدْ تَرَوْنِ مَا كُنْتُمْ
فِيهِ قَبْلُهَا وَمَا آلَتْ إِلَيْهِ حَالٌ مِنْ سُلْبِهَا ، ثُمَّ يُعْقِبُ النَّدَامَةَ حِينَ لَا مُسْتَعْتَبٌ وَلَا نِظَرَةٌ يُمْكِنُ
فِيهَا اسْتِقَالَةُ الْفَارِطِ بِتَقْصِيرٍ وَلَا هَفْوَةٍ زَلَل . وَثَقُوا مِنْ رِعَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِمُحُودِ آثَارِكُمْ ،
وَمَا مَضَى مِنْ بَلَاءٍ كُلِّ أَمْرٍ مِنْكُمْ ، بِمَا تَطْمَئِنُّونَ إِلَيْهِ وَتَتَوَقَّعُونَ عَادَتَهُ ، بِأَسْنَى مَا تَرْتَفِعُ إِلَيْهِ
أَمَالِكُمْ وَتَسْمُو إِلَيْهِ هِمَمُكُمْ ، إِلَى مَا يَنْدَحِرُ اللَّهُ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِدَاهُ ، وَاعْتَصَمَ بِتَقْوَاهُ ، وَجَاهَدَ
عَنْ حَقِّهِ ، وَافِيَا بِأَمْرِ عَهْدِهِ مِنْ جَزِيلِ ثَوَابِهِ وَكَرِيمِ مَأْبِهِ ، إِلَى الدَّارِ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ :
وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا .

أَحَبُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَعَهَّدَ بِعِظَةِ تَنْبِيهِكُمْ عَلَى حِطِّكُمْ ، وَتُشَبِّهَ مِنْ بَصَائِرِكُمْ ،
وَتَقْطَعَ مِنْ طَمَعِ الشَّيْطَانِ وَحَزَنِ فِيكُمْ ، لِيَأْجِبَ عَلَيْهِ مِنْ إِرْشَادِكُمْ ، وَيَرْجُو مِنْ تَأْدِيَةِ
حَقِّ اللَّهِ عَنْزَ وَجَلِّ فِيكُمْ ، وَلِيَأْخُذَ مِنْ أَتِّصَالِكُمْ بِحَبْلِهِ ، وَمَا يَشْمَلُهُ مِنَ الصَّنِيعِ فِيمَا وَلَّاكُمْ
اللَّهُ بِهِ ، وَتَوَلَّاهُ لَكُمْ .

وَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَسْأَلُ اللَّهُ الَّذِي دَلَّ عَلَى الدَّعَاءِ تَطَوُّلًا ، وَتَكْفُلُ بِالْإِجَابَةِ حَتْمًا ، فَقَالَ
عَنْ وَجَلِّ : «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» ، أَنْ يَجْمَعَ عَلَى رِضَاهِ أَلْفَتِكُمْ ، وَأَنْ يَصِلَ عَلَى الطَّاعَةِ
حَبْلَكُمْ ، وَأَنْ يُتِمَّعَكُمْ بِأَحْسَنِ مَا أَوْدَعَكُمْ مِنْ مَنَّةٍ ، وَيُوزِعَكُمْ عَلَيْهَا مِنْ شُكْرِهَ ، مَا يُوَاصِلُ
لَكُمْ مَزِيدَهُ ، وَأَنْ يَكْفِيَكُمْ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ، وَحَسْبُ الْبَاغِينَ ، وَيَحْفَظُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيكُمْ بِأَفْضَلِ
مَا حَفِظَ بِهِ أَمَامَ هَدَى فِي أَوْلِيَائِهِ وَشِيعَتِهِ ، وَيَجْلُ عَنْهُ ثَقَلُ مَا حَمَلَهُ مِنْكُمْ . وَبِاللَّهِ يَسْتَعِينُ
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، عَلَى مَا يَنْسَوِي مِنْ جَزَائِكُمْ بِالْحُسْنَى ، وَحَمَلِكُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُنْتَلَى ، وَبِهِ يَرْضَى
نَاصِرًا وَوَلِيًّا ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ .

وللأُمون — لما كتبت اليه السيِّدة زُبَيْدة بعد مقتل ولدها الأيمن خطابها
الآتي تستعطفه :

كُلُّ ذَنْبٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ عَظُمَ صَغِيرٌ فِي جَنْبِ عَفْوِكَ . وَكُلُّ زَلٍّ وَإِنْ جَلَّ
حَقِيرٌ عِنْدَ صَفْحِكَ . وَذَلِكَ الَّذِي عَزَدَكَ اللَّهُ ؛ فَأُطَالَ مَدَّتَكَ ، وَتَمَّ نِعْمَتَكَ ، وَأَدَامَ بِكَ الْخَيْرَ ،
وَرَفَعَ بِكَ الشَّرَّ .

هذه رُقعة الوَالِيَةِ التي ترجوك في الحياة لنوائب الدهر ، وفي الممات بلجمل الذكر . فإن
رَأَيْتَ أَنْ تَرْحَمَ ضَعْفِي ، وَأَسْتَكَانِي ، وَقَلَّةَ حِيلَتِي ، وَأَنْ تَصَلَ رَحِمِي ، وَتَحْتَسِبَ فِيمَا جَعَلَكَ
اللَّهُ لَهُ طَالِبًا وَفِيهِ رَاغِبًا فَا فَعَلَ ، وَتَذَكَّرَ مَنْ لَوْ كَانَ حَيًّا لَكَانَ شَفِيعِي إِلَيْكَ .

فكتب اليها المأمون :

وَصَلَّتْ رُقْعَتُكَ يَا أُمَامَه ، أَحَاطَ اللَّهُ وَتَوَلَّىكَ بِالرَّعَايَةِ ، وَقَفَّتْ عَلَيْهَا وَسَاءَنِي — شَهِدَ
اللَّهُ — جَمِيعُ مَا أَوْضَحْتَ فِيهَا ، لَكِنَّ الْأَقْدَارَ نَافِذَةٌ ، وَالْأَحْكَامَ جَارِيَةٌ ، وَالْأُمُورَ مُتَصَرِّفَةٌ ،
وَالْمَخْلُوقُونَ فِي قَبْضَتِهَا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى دِفَاعِهَا ، وَالدُّنْيَا كُلُّهَا إِلَى شَتَاتٍ ، وَكُلُّ حَيٍّ إِلَى مَمَاتٍ ،
وَالْغَدْرُ وَالْبَغْيُ حَتْفُ الْإِنْسَانِ ، وَالْمَسْكُورُ رَاجِعٌ إِلَى صَاحِبِهِ . وَقَدْ أَمَرْتُ بِرَدِّ جَمِيعِ مَا أُخِذَ
لَكَ ، وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى مَضِيهِ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ إِلَّا وَجْهَهُ . وَأَنَا بَعْدَ ذَلِكَ لَكَ عَلَى أَكْثَرِ مِمَّا
تُخْتَارِينَ ، وَالسَّلَامُ .

(هـ) أحمد بن يوسف^(١)

رسالة ممتعة لأحمد بن يوسف ذكرها ابن طيفور في اختيار المنظوم والمنثور وهي :

أما بعد فالحمد لله القاهر القادر، الخالق الرازق، فاطر السموات والأرض، الذي أحاط بكل شيء علما، ونطق به خبرا، وأتقنه حكمة وعلما، وألف بين مختلفه ومختلفه، ليدل بقوام بعضه على بعض، على اتصال تدبير مشيئته ومبتدعه، وأنه أحد صمد، لا ضد له ولا ند، إذ قدر له حاجته ثم شدها ببلاغها إلى الغاية التي جعلها، فقال جل وعز ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ وحكى عن نجيبة موسى عليه السلام، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، وقال الله تعالى ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانُهُ تَفْصِيلاً﴾ ثم لم يكلف العباد من شكره كفاء نعمته، بل رضى منهم باليسير، وقبل منهم العفو، وجعل طاعتهم إياه عائدة عليهم بجزيل الخلف في دينهم ودنياهم، لغناه عن عبادتهم، وأتساع قدرته بالتطول عليهم، مُنْتَبِحا وخاتما، وبإدئا وعائدا .

والحمد لله الذي أصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم، نبيا لرسالته، وأتمنه على وحيه، وأنزل عليه كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فأدّى إلى خلقه الرسالة، وأسنتهم من الضلالة، وصدع بأمر ربه وجاهد في سبيله، ونصح لأئمة حتى أتاه اليقين من ربه، بعد استنارة الحق، وظهور الحقبة، فصلى الله عليه بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا قد تلافى من الهلكة، وجمع الألفة بعد الفرقة، وأوضح الهدى بعد الدُّرُوس، ومعلم الرشد بعد الطُّمُوس، وكان بالمؤمنين رحما .

والحمد لله الذي قفى على آثار المرسلين، والأئمة الراشدين، الهادي التقي، الطاهر الزكي، الإمام المأمون أمير المؤمنين، أعز الله نصره، فسد ثلثتهم، ورأب صدعهم وقلده خلافتهم، وجعله لكافة المسلمين غيانا ورحمة، وجعل ما أئمه من العدل والإحسان

(١) راجع ما كتبناه عنه في الفصل العاشر من الكتاب الثالث في المجلد الأول .

اليهم ، مِنَّةً عَلَيْهِ وَرَحْمَةً ذَخَّرَهَا لَهُ ، دُونَ الْخُلَفَاءِ قَبْلَهُ ، فِيمَا أَظْهَرَ مِنْ فَضْلِ زَمَانِهِ عَلَى الْأَزْمَنَةِ ،
وَسِيَاسَةِ مَنْ تَقَدَّمَه ، وَمَنْحِ الرِّعْيَةِ مِنْ عَطْفِهِ وَنَظَرِهِ ، مَا لَا يَجْمَلُ عَنْهُمْ أَوْ بِهِ وَلَا يُؤْدَى عَنْهُمْ
شُكْرُهُ ، إِلَّا هُوَ لَا شَرِيكَ لَهُ ؛ وَأَحْسَنَ اللَّهُ جَزَاءَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَثُوبَتَهُ ، عَلَى صَلَّةِ رَحِمِ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، الَّتِي هِيَ رَحِمُهُ وَقَرَابَتُهُ ، وَاخْتِيَارِهِ لِوِلَايَةِ عَهْدِهِ الْأَمِيرِ الرَّضِيِّ
عَلَى بْنِ مُوسَى ، حَفِظَهُ اللَّهُ ، حِينَ أَحْمَدَ سِيرَتَهُ ، وَرَضِيَ مُحَبَّتَهُ ، وَعَرَفَ اسْتِقْلَالَهُ ، بِمَا قَلَّدَهُ
فِي هَدْيِهِ ، وَدِينِهِ وَوَفَائِهِ ، بِمَا أَكَّدَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ ، مِنْ عَهْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَّدَهُ اللَّهُ ، فِي أَعْيَانِهِ
مِنْ أَزْرِهِ وَأَسَاةٍ بِمَا شَفَعَ رَأْيُهُ ، وَأَنْفَذَ تَدْبِيرَهُ ، حِينَ هَمَّ لِمُتَصَلِّحٍ مَا اسْتَسْرَعَا اللَّهُ ، مِنْ
أُمُورِ عِبَادِهِ ، لِمَا آتَتْهُ الْقَائِمُ بِدَعْوَتِهِ ، وَرئيسَ شَرِيعَتِهِ ، الْأَمِيرَ ذَا الرَّبَاسَتِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ ،
فَاتَّخَذَهُ مَكَانًا ظَهِيرًا وَوَزِيرًا دُونَ مَنْ سِوَاهُ ، فَاتَّبَعَ مِنْهَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَّدَهُ اللَّهُ ، وَسَارَ بِسِيرَتِهِ ،
شَرْقًا وَغَرْبًا ، وَغَوْرًا وَنَجْدًا ، مُوفِيًا بِعَهْدِهِ ، قَائِمًا بِدَعْوَتِهِ ، مُقْتَفِيًا لِأَثَرِهِ وَسُنَّتِهِ ، فَحَسَمَ اللَّهُ بِهِ
الْأَدْوَاءَ ، وَقَعَ بِهِ الْأَعْدَاءَ ، مِنْ عُتَاةِ الْأُمَمِ ، وَطَوَاغِيتِ الشَّرْكِ ، وَأَبَادَ عَلَى يَدِهِ ، أَهْلَ الشَّقَاقِ
وَالنِّفَاقِ ، فِي كُلِّ أَفْقٍ وَطَرَفٍ ، بِجِدِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَعَزَّهُ اللَّهُ ، وَبَرَكَتِ سِيَاسَتِهِ وَدَوْلَتِهِ ، وَنُجْحِ
سَعْيِهِ مِنْ قَامَ بِبُصْرَةٍ مِنْ قَامَ بِحَقِّهِ ، وَأَنَارَ بَرَهَانَهُ ، حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ ، حِينَ بَلَغَ هِمَّتَهُ
وِغَايَتَهُ ، وَحُكْمَ أَجَلِهِ ، وَأَنْقَطَعَتْ مَدَّتُهُ ، سَعِيدًا حَمِيدًا ، شَهِيدًا فَقِيدًا ، عِنْدَ إِمَامِهِ أَكْرَمَهُ اللَّهُ ،
وَعِنْدَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ ، وَكَانَ مِنْ إِجْلَالِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، الْحَادِثُ الَّذِي نَزَلَ بِهِ ، فَأَحْيَا آثَارَهُ ،
بِوَصْفِ مُحَاسِنِهِ ، فِي مَشَاهِدِهِ وَجَمَاعَتِهِ ، وَتَرَحُّمِهِ عَلَيْهِ عِنْدَ ذِكْرِهِ ، وَحِفْظِهِ فِي حُكْمَتِهِ ، وَأَهْلِ
حُرْمَتِهِ ، وَفِيمَنْ كَانَ يَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى طَاعَتِهِ وَنَصِيحَتِهِ ، مَا أَتَمَّ بِهِ نِعْمَتَهُ ، عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ مَعِشَرَ
الشَّيْعَةِ ، فَقَدْ أَصْبَحَ أَمْرُهُ بِكُمْ مُتَّصِلًا ، وَمَوْقِعُهُ مِنْ جَمَاعَتِكُمْ مُمْتَكِنًا ، يَقْبِضُكُمْ مَا قَبِضَهُ ،
وَيَبْسُطُكُمْ مَا بَسَطَهُ مِنْ أُوْمَةِ الْمَدِينَةِ ، وَحَسَنَ الْعُقْبَى ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَعِشَرَ أَهْلِ الْحِجَا وَالنَّهْجِ ،
وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ عِزَّ وَجَلَّ وَخَلِيفَتِهِ ، وَذَوَى الْغَنَاءِ وَالْبَلَاءِ فِي دَعْوَتِهِ مِنْ أَهْلِ خِرَاسَانَ وَغَيْرِهِمْ
مَنْ حَضَرَ مَنْ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِوَفَاءِ الْعَهْدِ وَالِاسْتِبْصَارِ فِي حَقِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبْقَاهُ اللَّهُ ،
وَالْمُجَاهِدَةَ دُونَهُ ، وَالصَّبْرَ عَلَى سِوَاظِنِ الصَّدِّقِ وَالْأَدْوَاءِ ، وَالذَّبَّ عَنِ الْبَيْضَةِ وَالْحَرِيمِ ،

والمتحمّلين للنَّصَب، والمصائب التي آنَحَت، حتى كأن لم تكن، وبقي أجرها على الله عز وجل، ومحمودُ ذكرها شائعاً في الناس، إن نِعَمَ الله، قد جَلَّتْ وَلَطُفَتْ، وَخَصَّتْ وَعَمَّتْ، وعلتْ وسمتْ، وتمت ودامت، حتى قصّرنا عن موازينها، والإحاطة بأدائها، فإذا لم يكن لنا معشر إخواننا سببٌ إلى مكافأة بلاءه بالعمل، فمن جُدَّراء أن نجتهد في القول، ونُظِنَب في الوصف إن شاء الله جلَّ وعزَّ، فقد جعل ذكر النِّعم من أسباب الشكر، وقد جدّد لنا أمير المؤمنين أيّده الله من الحياة والكرامة، وجزيل الحبيطة، وسنّي الرتبة التي قرئ بها عليكم كتابه ما يستغريق جهدها، ويستفرغ وسعنا، فرغب إلى الله عز وجل، ولي الرغبة، ومُؤثي السُّؤل والطَّلبة، في إمانتنا على تأدية ما وجب له، فيما منحنا من فوائده ونحوه، ثم نستفيدكم ونستعينكم على شكره، وإمدادنا بما بلغته طاقتكم في السعي له فقد آدنا بقُل ما حملنا، وثقل ما طوقنا، وعظمت فاقتنا إلى استعمال القوي من الأنفس والحامّة، والخاصّة والعامة، في جزاء ما جَلَّل أمير المؤمنين فينا من سُنَّه، وشيئنا من تالذ أياديهِ وطارفها، وفادير وحديثها، وكيف يُوجد إلى موازاة أمير المؤمنين سبيل ببذل جهده، أو بلوغ حشده، فإنما تقتدى بهداه، ونعشو بنوره في ديننا، وليس نَحْزُنَا عن أن نجزي حقّه، بواضع عنا مؤونة الدُّؤوب في التَّحزّي لتأديته، فإن الله عز وجل، قد أخبر بفضائل الشكر ومناقبته، وجعله من أسمائه، ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، وقد قال تعالى ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾. وقال تعالى ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾. ولولا أن الله عز وجل رَضِيه لنفسه، لأجللناه عن التسمية إذ كان أكثر ما نستعمله، ونعرفه في مكافأة من منَّ وتَطَوَّل، ثم ثنى بذكر فضله في العباد، فإن الله تبارك وتعالى أفتح أول ما علّم خلقه بالحمد، وجعله بدء كتابه، وخاتمة دعوة أهل جنّته، فقال عز وجل، ﴿وَأَحِرْدَعُواهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وخلق الله السموات والأرض، ومن برأ ودرا في الحياة لِيُبَلِّغُوا عِبَادَهُ بِشُكْرِهِ، وأعد الجنة في الآخرة لمن شكره، والنار لمن كفره، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لِلْكَافِرِينَ﴾.

كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۖ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتَمَ إِذْ لَقُوا فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ۖ ﴾ ، بفعل التفوى واقعة ، والشكر مرجو ليدل على ارتفاع رتبته ، وعلو درجته عنده ، وقال لبعجه موسى عليه السلام : ﴿ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي لَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۖ ﴾ . فلم يكلفه الا أخذ ما أعطاه ، والشكر على ما أتاه ، وأخبر بعزته في العباد ، فقال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ۖ ﴾ ، فأية نعمة أجل قدرا ، وأسى أمرا ، معشر الشيعة من نعمة أمير المؤمنين ، أيده الله ، عند الأمير ذى الرياستين ، ومراتبه التي رتبها ، فإنه أعطاه رياسة الحرب ، ورياسة التدبير ، وعقد له على رأسهما علما في رواية دعوته ، وقلده سيفهما وختمه بحاتم الخلافة ، وخاتم الدولة ، وجعل صلاته بين صاحب حرسه ، وصاحب شرطته ، ومسيره بين أمير المؤمنين وبينهما ، أمامه وخلفه ، وصيره الجلوس على الكرسي بحضرته ، في صدر كل مجلس جلس ، الا أن يؤثر به من أحب من أبناء الخلفاء ، وقدمه في دخول دار الأمير راجعا الى أقصى مكان يتنهي إليه أحد من بني هاشم ، لأنه منهم ، وأعظمهم غناء عنهم ، فسماه صاحب دعوته وسيفه على عدوه وبابه الذي يدخل اليه منه ، وولاه خيوله في أقطار الأرض ، ومقدمته بحضرته ، وقلده من الثغور ما قد علمت ، بما أفردته في عهده ، الى ما أنفذه من أمره ، في جميع سلطانه ومملكه ، من مشارق الأرض ومغاربها ، وأين يأتي الوصف على ما فضله به ، وقدمه وشرفه على الناس كافة ، ولكنا نخطئ بذكره ، ثم نكل السامعين الى ما يرجعون إليه من المعرفة التي لا تبلغها الصفة ، ثم لم يكن ما أكرمه به في حياته بأعلى مما أكرمه به في وفاته ، تولى غسله وتكفينه ، ومباشرته لجهازه ، الى حفرة بيده ، وقاسى من الغصص ، وبرحاء الحزن ، وإدراء العبرة ، وإراقة الدمة ما حال بينه وبين الكلام ، وكاد يمنعه من القول والدعاء في صلاته عليه ، من الحكم ، وحفظ أهل الحرمه ، به رعاية له فيهم ، ووفاء بعهد من بعده ، وأقر خاصته ، وقواده وعمله . وكتابه على مراتبهم ، وحيد بحده ، وذم بذمه ، وجدد لحنده ، وتل كريتته ، نظرا وعظما ، فلم يبق عليه في إحياء ذكره ، وبلوغ كل ما يحبه في حياته غاية الا أتى من ورائها ،

(١) كذا في الأصل .

وأمر بقراءة فتوحه ، كما كانت تُقرأ على عهدِهِ ، وأضاف كل ما حَدَّث من بعده الى ما تقدّم من سَعْيِهِ ، وأخبر أنه كان سببَهُ ، والمفتّح بِهِ ، وولّى محمد بن الحسن خلافتَهُ ، ونَصَبَهُ مَنَصِبِهِ ، وأقامه مُقامه الى أن جَدَّد العهد لى ، فاستخلفته على ما ولى بحضرته ، ثم تَتَابَعَت كَتَبُ أمير المؤمنين ، أكرمهُ الله بعد مصاب الأمير ذى الرّياستين ، بما لا يقارب التفضيل ، والإطلاق والتفويض الذى كنتم سمعتم بِهِ وبلغكم ، فلم يكن يرى وراءه مجاراة ، ولا فوقه مَصْعَدًا ، حتى جَدَّد لنا من كرامته ، ما قد قُرئ عليكم فى كتابه ، فبلغ بنا ما لم تكن الهمم تبلغه ، والأمانى لِيُحِيط بِهِ ، لولا ما منحنا الله عز وجل من الترقى فى الفضل ، الى ما تَحْتَسِر من دونه الأبصار ، وتنقطع دونه الآمال ، وإنما أقتصصناه وذكرنا ما أبلانا وأصطحع عندنا من بلائه بدعائنا الى الله عز وجل ، والى طاعته بالعدل والإحسان الى رعيته والنظر بالصفح ، والأخذ بالفضل ، والأمر بالمعروف ، وصِلَة المروءة بالوفاء بالعهد ، والشكر للئن ، ورعاية الأخلاق الحمودة ، وإحطاء أهلها ، وإقامة سوقها ، حتى تنافسوها وتَنَافَحُوا فيها ، وصارت هى الذرائع اليه ، والوسائل عنده ، فلو تأمل متأمل أهل الرُّفْقَةِ ، والأثرة لديه ، لوجد الأَخْصَ فالأَخْصَ ، والأعلى قدرا عنده هو الأفضل ديناً ومروءة ، فلو لم يكن فى الحُظُوءِ عنده إلا إيجابها لصاحبها صحّة المحبة ، والنزاهة عن كل ظَنّة ، لكان فيها أعظم الغبطة ، وأعدل الشهادة والدلالة ، وسنْقُصَ عليكم بما أخبرناكم عنه مالا سبيل الى تحمّده وإنكاره ، بوضوح معالِمِهِ وَمَنَائِرِهِ ، أو ليس المجاهد عن دين الله ، والمحامى عن بَيْضَةِ المسلمين ، والمؤاتى لأغلظ عدوهم شوكة ، وأخوفهم عداوة ، والمُنَجِّح فى بلادهم ، بمن كان لا يرام ، ولا يُحاول لاستصعابه وشِدَّة مَقَاسَاتِهِ ، حتى أذعن جيعويه بالعبودية له ، ثم أباح حريمه حين تمرد عليه ، حتى بلغ السبى الى ولده ، وحاربونا بِهِ ، وتغلغلت خيولُهُ ، حتى توصلت الى قُبْتِهِ ، ومنتهى عِزُّهُ ، أو ليس مُسَكِّن التَّهْيِجِ بالمشرق ، حتى حَبَّت النيران فيه ، وأذهن رؤسائها وقادتها . أو ليس غازى بلادِ بابل حين طغى أميرها ، وبَدَّلَ وَتَكَثَّ ونَقُصَّ ، حتى أَجْبَتِ أرومته ، وأباح حريمه ، وأراح المسلمين من مَعْرَتِهِ ، أو ليس سَادُّ الثغور ، ومُحَصِّن

عَوْرَاتِهَا ، والمباشر لتدبيرها ، والمُسْعِدَا مُسْكِيْدَةِ الْمُتَجَحِّحِ فِيمَنْ أَرَادَهَا ، وَقَالَ الْعَمَاءُ ، مِنْ رِقِّ
الإِسَارِ ، وَنَاشِرِ الرَّحْمَةِ عَلَى فَقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَضُعَفَائِهِمْ وَأَهْلِ الْمَسْكَنَةِ ، وَالْخَلَّةِ مِنْهُمْ ، وَقَاسِمِ
الصَّدَقَاتِ فِي أَهْلِهَا ، وَعَاصِرِ الْمَوْسَمِ وَمَحْصَنِهِ مِنَ الْآفَاتِ حَيَاةً لِلْمُسْلِمِينَ فِي حُجَّتِهِمْ ،
وَمَا يَنْتَقِرُونَ بِهِ إِلَى رَهْمِهِمْ ؛ وَهَلْ أَقْتَرْنَ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمَةِ مَا أَقْتَرْنَ لَهُ فِي الْمُلْكِ وَالْدِّينِ وَالْعِزِّ ،
وَالْتَوَاضِعِ وَالسَّعَةِ ، وَالْبَذْلِ وَالْقُدْرَةِ ، وَالْعَفْوِ وَالْغُلْظَةِ ، وَاللِّيَانِ فِي مَوَاضِعِهَا ، وَالنُّسْكِ مَعَ
الْهَمَّةِ ، وَالسُّطُوَةِ مَعَ الْإِقَالَةِ ، وَهَلْ تَرَكَ مَعْتَرِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْإِخْوَانَ فِي الدِّينِ غَايَةً لَمْ يَنْتُمْ بِهَا إِلَى
شَرَفِهَا ، وَعَلَى مَرَاتِبِهَا ، وَمُسْتَرَادِ الْحِظِّ فِي عَاجِلٍ وَأَجَلٍ ، لَمْ يَبْلُغْنَاهُ وَنَخْتَارُ لَنَا خَاصَّ مَكْرَمَتِهِ ،
وَمُدْنَحَ عَاقِبَتِهِ ؛ أَرْشَدْنَا إِلَى الدِّينِ ، وَسَلَّكَ بِنَا سُبُلَ الْجَنَّةِ ، حَازَلْنَا الْمُلْكَ ، فَلَمْ يَبْقَ وَرَاءَ
مَا مَلِكُنَا غَايَةً ، وَوَرَدَ بِنَا الْحُرُوبَ وَسَاسَهَا لَنَا ، فَلَمْ يَدَعْ غَايَةً لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّوْبِيَةِ ، سُلَّطَ عَلَيْنَا
بِسُلْطَانِ اللَّهِ الَّذِي أَتَاهُ فَلَمْ يَدَعْ غَايَةً فِي التَّقْلِيدِ وَالْفَقْهِ ، فَكَمْ عَلَمْنَا الْفَضَائِلَ ، ثُمَّ فَضَّلْنَا بِهَا ،
غَلَبَ لَنَا الْأَمَمُ ، ثُمَّ خَوَّلَنَاهَا . عَلَمْنَا طَرَائِقَ الشَّرَفِ ، ثُمَّ شَرَّفْنَا بِهَا . أَخْبَرْنَا عَنِ الْأَنْبَاءِ فَكَفَّفْنَا
مُؤْوَنَةَ التَّمَاثِيلِ ، وَأَغْنَانَا بِمَا عِنْدَهُ فِيهَا ، أَخَذَ عَلَى أَيْدِينَا الْخَيْرَ لِلرَّعِيَّةِ ، فَوَهَّبَ لَنَا شُكْرَهَا ، وَصَدَّقَ
مَقَالَتَنَا عِنْدَ الشُّبُهَةِ ، وَأَنْفَذَ أَمْرَنَا فِي التَّدْبِيرِ .

فِيَا أَيُّهَا الْإِمَامُ الْمَنْصُورُ الْمَهْدِيُّ الرَّشِيدُ حُزَّتْ فَضَائِلُ الْآبَاءِ ، وَأَهْتَدَيْتَ بِهَدْيِ
الْأَنْبِيَاءِ ، أَنْشَكَرَكَ عَنِ الْإِسْلَامِ ، فَأَنْتَ الْقَائِمُ بِهِ الدَّاعِي لَهُ ، وَالنَّاصِرُ لِحَقِّهِ ، أَمْ نَشْكُرُكَ
عَنِ الْأَمْصَارِ ، فَأَنْتَ الْمُفْتِيحُ لِمَتْنَمِهَا عَنُودَ ، وَالْمُتَطَوِّلُ عَلَى أَهْلِهَا بِالرَّحْمَةِ ، وَالْمَنْعُطِفُ عَلَيْهِمْ
بِحَسَنِ الْفَائِدَةِ بَعْدَ مَا هَيَّجَتْ مِنْكَ سُورَةُ الْغَضَبِ ، فَاطْفَأْتَ نَارَهَا ، وَأَنْجَدْتَ لَهَا بِهَا ،
وَعُدْتَ عَلَى مَنْ سَفِهَ ، وَأَضَاعَ حِظَّهُ ؛ أَمْ نَشْكُرُكَ عَلَى الْمَسَاجِدِ ، فَأَنْتَ الَّذِي أَسَّسْتُمْهَا عَلَى
التَّقْوَى ، وَعَمَّرْتُمْهَا بِتَبْلَاوَةِ الْقُرْآنِ ، وَطَهَّرْتَ الْمَنَابِرَ وَرَكِبْتُمْهَا ، نَعْلُوهَا صَائِمًا ، وَتَنْطِقُ عَلَيْهَا
صَادِقًا ، وَتَدْعُو إِلَى الرُّشْدِ عَلَيْهَا نَاصِحًا ، وَتَحْتَمُّ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ مُحْسِنًا ، وَتَتَلَوْنَ مِنْ قَوَارِعِهِ ،
مَا تَصِيخُ لَهُ الْأَسْمَاعُ وَتَلِينَ لَهُ الْقُلُوبُ ؛ أَمْ نَشْكُرُكَ عَلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، وَالرَّكْنِ وَالْمَقَامِ ،
وَالْحَجَرِ وَزَمْرَمِ ، وَمَشَاعِرِ الْحَجِّ ، وَأَنْتَ ذَبَبْتَ عَنْهَا ، وَأَعَدْتَ إِلَيْهَا عَهْدَهَا ، فِي مَبْعَثِ نَبِيِّهَا ،

صلى الله عليه وسلم ، فأمنت النازع إليها ، من كل فج عميق ، والحالين بها من الركوع
والسجود ، أم نشرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما حفظت فيه من عثرته ،
بعفوك عن مجرمهم ، ومضاعفتك نواب مجسّمهم ، وإحيائك من أمرهم ، ما كان قد أندرس
وأنطمس ، بعد اللفاء بنبي الله صلى الله عليه وسلم ، وقد راعيت منه في قرابته وقرابتك ،
وذوى رحمه ورحمك ، ماضية الناس . ووصلت منهم ما كان وصله ، إذ كان الله عز وجل ،
قد فرض صلة الأرحام ، فكان أطوع خلق الله عز وجل فيما فرض عليه . أم نشرك
عن العوام ، فقد ألبست المسلمين ثوب الأمن ، وأذقتهم طعم السعة والرفاهة ، وعدلت
بينهم بالإنصاف ، وتوليت دونهم النصيب ، وآثرتهم الراحة . أم نشرك عن الملوك والقواد
والأجناد ، فأنت الذي رفعت منازلهم ، ووقرت عددهم ، فلم يكن في دهر أحد من الخلفاء
أسعد ولا أحظى منهم في سلطانك ، بما بذلت لهم من معاون ، وليتهم من الثغور
والأمصار ، وأدررت عليهم من الأرزاق والخواص ، أم نشرك عن الأحكام والسّنن ، فأنت
الذي أنهجت سبيلها ، فأوجبت فرضها ، ونافست في أهلها ، أم نشرك عن الأعداء فأنت
الذي بدأتهم بالهجرة ، ودعوتهم إلى القيّة والإناية ، ثم شيت معقبا بالعفو ، ونعشتهم بعد
البؤس ، وآستهم من الوحشة ، أم نشرك على مكارم الأخلاق ، وأنت الذي ثبت وطأتها ،
ونقيت عنها أضدادها ، ولو نطق بالفضل ، لنطقت بشركك ، في إزالته إياها عن اللثام ،
وإخطائك من آعترى إليها . أم نشرك عن الثغور ، فأنت الذي تممتها ، وحصنت عورتها ؛
أم نشرك عن السلف ، فأنت الذي أشدت بفعالهم ، وحفظتهم في أبنائهم ؛ أم نشرك عن
برّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن القضييب الذي شخّص به ، حتى جعلتهما زينتك ،
وسموت بهما في أعيادك ، عند حشدك ، على الطهر والزكاة ، والنسك والتقوى ؛ أم نشرك
عن المسلمين في رعايتك إياهم ، وما ترعّيهم من جنابك ، وتنفي عنهم من الآفات ، وتعمل
عنهم من جبايرة الكفر ، وتفضّ من جيوش الشرك والنكث ، وتفتح من الحصون
المستضعبة ، وتسهّل من الطرق الوعرة ، أم نشرك عن تواضعك لله عز وجل وإصلاح

المسلمين طلبا للرفعة عند الله ، أم نشكرك عن الدين وقد جعلت السلطان عبدا وقائدا ومنقذا ،
 وكان مأهورا بجماعة أمراء ، وآلة للموت فجعلت القوة له آلة ، فبما من اتصل شكره بشكر الله عز
 وجل ، ونعمته بنعمة الله تعالى وطاعته ، بطاعة الله فوهب الله لك شرف المنازل ، ورقاك
 دَرَجَ الفضائل ، وجزاك الله عنا وعن غيرنا ، مما شكر من ناطق أو صامت ، جزيل الثواب
 ورفيع الدرجات ، وأمتعك ما أتاك وأمتع الأمة ما آتاهم منك ، والحمد لله ذي الرغبات ،
 ومتم الصالحات ، شكرا لرب العالمين ، فإنه مَبْلَغُ طاقتنا ، ومُنْتَهَى جَهْدنا ، وبه نستعين
 على تأدية فرائضه ، أنه لا يعين على ذلك الا هو ، أحببتُ أن نشكر اليكم أمير المؤمنين
 أيده الله ، إذ ورد على من أنعمه وأفضاله ، مالا أبلغه بالفعل ، وأن يكون ما اقتضينا
 عليكم ، داعيا لكم ، الى أن تشكروه عنا ، وعن أنفسكم ، وعن الإسلام والمسلمين ، ورجوت
 بما وفقنا الله له ، فيما شرحنا وأوضحنا ، من الدلالة والبيان أن يكون مجتمعا ينتفع به من
 حضرنا ، ومن عسى أن يؤدّي اليه الخبرُ عنا ، أو حدث بعدنا ، وضمنت بهذه المكرمة الرائعة ،
 والمائزة البارعة ، التي آدتها الله لأمر المؤمنين ، أعز الله نصره ، وأفرده بها ، دون الأئمة
 والخلفاء ، أن تمر بالأسماع صفحا ، وتجتاز على القلوب سهوا ، حتى تؤكد بالشواهد والبرهان ،
 لبيق ذكراها ونفعها في الخُلوْف والأعقاب ، ونحن نسأل الله عز وجل الذي جمع بأمر المؤمنين
 — مد الله في عمره — ألفتنا ، وعلى طاعته أهواءنا وضماثرنا ، وأنالنا من الغبطة في دولته
 وسلطانه ، ما لم تحوهِ شيعة إمام ، ولا أنصار خليفة ، أن يتم نور أمير المؤمنين ، ويعلى كعبه ،
 ويمتدنا ببقائه ، حتى يبلغه سؤله وهمته في الاستكثار من البرِّ وآدخار الأجر ، وأستبجاب
 الحمد والشكر ، وأن يلم به الشعب ، ويرأب به الصدع ، ويصلح على يديه الفساد ويرتق
 به فتوق هذه الأمة ، ويؤخّن بسياسة ونكايته في عدوها ، ويتابع الفتوح في بلدانهم حتى
 يؤتبه من مُنْجِح السعي ، ورغائب الحظ في الدنيا ، ما يُجزل عليه ثوابه في الآخرة ، وأرشد
 نجباءه واصفياءه ، الذين يقول لهم ، ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ

بُحْسُ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

ومن توقيعاته نقلاً عن كتاب الصولى .

وقع الى عامل ظالم « الحق طريق واضح لمن طلبه تهديده محجته ولا تخاف اثره
وتؤمن في السر مغبته فلا تستقل منه ولا تعذل عنه فقد بالغت في مناصحتك فلا تحوجنى
الى معاودتك فليس بعد التقدمة اليك إلا سطوة الإنكار عليك » .

ووقع في عناية بإنسان الى بعض العمال « أنا بفلان تام العناية وله شديد الرعاية وكنت
أحب أن يكون ما أريته طرفك من أمره في كتابي مستودعاً سمعك من خطابي فلا تعذل
بعنايتك الى غيره ولا تمنحن بعقدك سواء حتى تنيله إرادته وتجاوز به أمنيته إن شاء الله » .

وفي كتاب ابن طيفور من توقيعات أحمد بن يوسف الشيب الكثير فارجع اليه
إن شئت .

(و) رسائل سهل بن هارون^(١)

من كلامه :

حكى الجاحظ قال : — لقي رجل سهل بن هارون فقال : هب لي ما لا ضرر به عليك ؛ فقال : وما هو يا أخى ؛ قال : درهم ؛ قال : لقد هونتَ الدرهم وهو طائع الله في أرضه

(١) هو من أبناء المرس وكان من رجالات البلاغة والعلم والحكمة في دولتي الرشيد والمأمون ، وقد وضع كتابا حاكى به كتاب كاتبة ودسة وسماه « ثعلبة وعفرة » . وكان قيم بيت الحكمة (مدير دارالكتب) في عهد المأمون . ولد سهل بن هارون في مدينة ميسان بين واسط والبصرة ، وفي رواية في دسيمان كورة بين الأهواز وواسط والبصرة ، في أواخر النصف الأول من القرن الثاني تقديرا ، ولا يعرف من نسبه إلا أنه سهل بن هرون بن راهبون (راهبون) وكنيته أبو عمرو ، فارسي الجنس ، أهوازي أو خوزي المولد ، عراقي المنشأ ، تحول إلى البصرة . سبق لم تعرف ، وكانت البصرة إذ ذاك مدينة العلم في الدولة الإسلامية ، بل مدينة العلم في العالم كله ، أو كما قيل فيها : « نية الإسلام ، وخزانة العرب » حوت من العلم الانساني أصوله وفروعه ، ومن القاميين على تيممه مصافحه وخفوله ، فغذى روحه بلان مجالسها ومجامعها ، واستنار عقله بما اقتبس من نور معارفها فتخرج بعلمائها ، ولا شك أنهم كانوا طبقة عالية جدا ، في كل مطلب من مطالب الآداب . وقيل : أن سهل بن هارون كان شيعيا ، وشيعة العراق في زمنه كانوا على الإطلاق معتزلة ، ولم يؤرعه أنه تنقص أحدا من الصحابة الكرام ، بل عرف بالاعتدال مع الأموات ، باعتداله مع الأحياء ، وما أثر عنه أنه خاض غمار مباحث الكلام التي كانت على أشد حرارتها إذ ذاك ولا سيما في البصرة ودار السلام بغداد ، وآتهموه بأنه كان مع الشعوبين الذين يصغرون شأن العرب ، ولا يرون لهم على العمى فضلا ، وإذا صححت هذه التهمة فن الصعب التوفيق بين مذهب من يقول بالشعبية ومن يقول بالتشيع ، على المعنى الذي فسر به بعد قرون .

وصفه الجاحظ فقال : « كان سهل سهلا في نفسه ، عشيق الوجه ، حسن الشارة ، بعيدا من الفدامة (العي) معتدل القامة ، مقبول الصورة ، يقضى له بالحكمة ، قبل الخبرة ، ورفقة الذهن ، قبل المخاطبة ، وبدقة المذهب ، قبل الامتحان ، وبالنبيل ، قبل الكشف (الظهور) » . وكان الجاحظ مازجه وثافته . وقيل للحراني ولعله إبراهيم بن ذكوان كاتب الهادي ووزيره : بينك وبين سهل بن هارون صداقة فأنته لنا كي نعرف ، فقال : « هو كالخير ، وازن العلم ، واسع الحلم ، إن حودث لم يكذب ، وإن موزح لم ينصب ، كالغيث أين وقع ، نفع ، وكالشمس حيث أولت ، أحييت ، وكالأرض ما حملتها حمت ، وكالماء طهورا لمنسسه ، ونافع لعله من أحر إليه ، وكالهواء الذي تقطف منه الحياة بالنفس ، وكالنار التي يعيش بها الموقرور ، وكالسماء التي قد حسنت بأصناف النور » . ١٠ هـ . صورتان جميلتان في وصف سهل صورهما مصوران مبدعان عاتبا بقرينه ، وفنهما بخلقه وخلقه .

وآتهموا سهل بن هارون بالبخل وأوردوا له قصصا ونوادير ، وربما كان آتهما بالبخل مبالغا فيه . تراد به التكنة والنادرة . ١٠ هـ . من محاضرة للاستاذ الباحث السيد محمد كرد علي ألقاها بالجمع العلمي العربي بدمشق ونشرها بمجلتي الجمع والمقتطف .

لا يعصى ، وهو عُشْر العشرة ، والعشرةُ عشر المائة ، والمائةُ عشر الألف ، والألف دية المسلم ، ألا ترى الى أين انتهى الدرهم الذى هَوَّنْتَهُ ، وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم ! فانصرف الرجل ؛ ولولا أنصرافه لم يسكت .

وحكى دِعْبِل الخزاعى الشاعر قال : أقمتا يوما عند سهل بن هارون ، وأطلنا الحديث حتى أضرب به الجوع ، فدعا بغذائه فَأُتِيَ بِصَحْفَةٍ فيها مَرَقٌ تحته ديك هَرَمٌ ، فأخذ كسرةً وتفقد ما فى الصحفة فلم يجد رأس الديك فبقى مطرقا ، ثم قال للغلام : أين الرأس ؟ قال : رميت به ، قال : ولم ؟ قال : لم أظنك تأكله ؛ قال : ولم ظننت ذلك ! فوالله إني لأمقت من يرمى برجله فكيف برأسه ! ولو لم أكره ما صنعت إلا للطيرة والفأل لكِرهته ، أما علمت أن الرأس رئيس يُتَفَاعَلُ به ، وفيه الحواس الخمس ، ومنه يصبح الديك ، ولولا صوته ما أريد ، وفيه فرقه الذى يُتَبَرَّكُ به ، وعينه التى يضرب بصفائها المتل فيقال : شراب كعين الديك ، ودماغه عجب لوجع الكلىة ، ولم أرَ عظمًا قطُّ أهش تحت الأسنان منه ، وإن كان بلغ من نُبُك أنك لا تأكله ، فعندنا من يأكله ، أو ما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن رأس العُنُق ! أنظر أين رميته ؛ فقال : والله ما أدرى ؛ قال : أنا والله أدرى ! إنك رميت به ، والله فى بطنك ، فوالله حسبيك .

ومن مؤلفاته كتابُ البخلاء .

ولما صنف سهل كتابه فى البخل أهداه الى الحسن بن سهل وأستماحه ، فكتب إليه الحسن : قد مدحت ما ذمّه الله ، وحسنت ما قبّحه الله ، وما يقوم بفساد معنك صلاح لفظك ، قد جعلنا ثواب مدحك فيه قبول قولك ، فما نُعطيك شيئا .

وآتهم سهل بن هارون بالبخل وأورد له فى ذلك قصص ونوادر وعده الجاحظ من دُمُتَعَالَى البخلاء وأشجاء العلماء ، قال : ما علمت أن أحدا جرّد فى البخل كتابا إلا سهل بن هارون ، وأبا عبد الرحمن الثورى ، والبخل فى الفرس غالب فى الجملة ، غلبة الكرم على

طبائع العرب ، فاقتضى ذلك التفريط الذى رآه سهل فى تبذير العرب ، أن يبدى لقومه بأرائه المفرطة فى الاقتصاد والإمساك . وما شُهد قط تفريطاً إلا وإلى جانبه إفراط .

كتبه وطريقته فى التأليف :

كان سهل بن هارون مُتقطع القرين فى صنوف العلم والآداب ، وناهيك بعالم كبير كالجاحظ كان يؤلف الكتاب الكثير المعانى ، الحسن النظم ، فينسبُه الى نفسه فلا يرى الأسماع تُصْنَعُ اليه ، ولا القلوب تَيَمُّ نحوه ثم يؤلف كما قال عن نفسه ، ما هو أنقصُ منه مرتبةً وأقل منه فائدةً ، فيحصله عبد الله بن المقفع ، أو سهل بن هارون ، فيقبل الناس عليها ، ويسارعون الى نسخها .

ويقال إن طريقة سهل فى كتابته طريقة أمير المؤمنين على بن أبى طالب لا يتكلف الكلام ، فلا يُشاهد فيه الناقد أثر التعمُّل ، بل لا يكلف بغير إرسال النفس على سيجتها ، فهو وأبن المقفع والجاحظ على غير واحد .

وقيل إن سهلاً كاتب سلاطين ، والجاحظ مؤلف دواوين . وكان كلامه نعمةً موسيقيةً تعرف آتِهاً جملته من رتتها بعد أن ملكت عليك مشاعرك ، لا يحفل بالأصباح إلا إذا جاءت عفوَ الخاطر ، شأنُ بلغاء الصدر الأول . وكان يقول الشعر وأكثرُ شعره ممَّا أملاه قلبه ، فى غرض من أغراض المجتمع . وعده الجاحظ من الخطباء والشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار ، والكتب الكبار والمجدة ، والسير الحسان المولدة ، والأخبار المدونة . ولقبه مرةً بالكاتب ، ولعل لقب الكاتب فى شرفه أكبر من عالم . وذكره ابن النديم فى البلغاء وقال : إنه شاعرٌ مُقلٌّ ، وعده فى الشعراء الكتاب . وقال : إنه كان ممن يعمل الأستمار والخراقات على ألسنة الناس والطير والبهايم هو وعبدُ الله بن المقفع وعلى بن داود كاتب زبيده . وشعره خمسون ورقةً . أما الدهشة ففى تأليفه ، فله ديوان رسائله ، وكتاب النمر والشعب ، وكتاب اسباسيوس (أسانوس) فى اتخاذ الإخوان ، كتاب أسد بن أسد ، كتاب سحرة العقل ، كتاب تدبير الملك والسياسة ، كتاب الى عيسى بن أبان

في القضاء، كتاب الفرس، كتاب الغزالين، كتاب ندود وودود ولدود، كتاب الرياض، كتاب نعلة وعفراء، (وفي رواية نعلة وعفرة) على مثال كتاب كليلة وديمثة، قلده في أبوابه وأمثاله .

وقال المسعودي : يزيد عليه أى على كليلة وديمثة في حسن نظمهم وقد صنفه للمأمون .
ومن تأليفه : كتاب الهزلية والمخزومي ، كتاب الوامق والعذراء الى غير ذلك من المصنفات التي لم تبق الايام وبالألسف على واحد منها فيما علمنا .

دخل سهل على الرشيد وهو يضاحك المأمون ؛ فقال : اللهم زده من الخيرات ، وأبسط له من البركات ، حتى يكون في كل يوم من أيامه شيئاً على أمسه ، مقصراً عن غده ، فقال الرشيد : يا سهل ، من روى من الشعر أحسنه وأرصفه ، ومن الحديث أفصحه وأوضحه ، إذا رام أن يقول لا يعجزه القول ؟ فقال سهل : يا أمير المؤمنين ، ما ظننت أن أحداً تقدمنى الى هذا المعنى ، قال بل أعشى همدان حيث يقول :

رأيتك أمس خير بنى لوى * وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غداً تزيد الخير ضعفاً * كذلك تزيد سادة عبد شمس

وقد شهد مقتل البرامكة في سنة ١٨٧ هـ وحدث فيما كان عليه يحيى وجعفر من البلاغة فقال : إن سبجاً على الخطب ، ومجبرى القريض عيال على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيى ، ولو كان كلام يتصور دراً ، ويحمله المنطق السرى جوهراً ، لكان كلامهما ، والمستقى من لفظهما ، ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد في بديته وتوقعاته في كتبه ، فدين عيين ، وجاهلين آميين ، ولقد عثرت معهم ، وأدركت طبقة المتكلمين في أيامهم ، وهم يرون أن البلاغة لم تستكمل الا فيهم ، ولم تكن مقصورة إلا عليهم ، ولا أنقادت الا لهم ، وأنهم محض الأنا ، ولباب الكرام ، وملح الأيام ، عشق منظر ، وجوده مخبر ، وجرالة منطق ، وسهولة لفظ ، ونزاهة نفس ، واكتمال خصال ، حتى لو فاحت الدنيا بقليل أيامهم ، والمأثور

من خصالهم ، كثير أيام من سواهم من لدن آدم أبيهم الى النفخ في الصور ، وأبتعات أهل القبور ، حاشا أنبياء الله المكرمين ، وأهل وحيه المرسلين ، لما باهت إلّا بهم ، ولا عوّلت في الفخر إلّا عليهم ، ولقد كانوا مع تهذيب أخلاقهم ، وكريم أعراقهم ، وسعة آفاقهم ، ورفق ميثاقهم ، ومعسول مذاقهم ، وبهاء إشراقهم ، ونقاوة أعراضهم ، وتهذيب أغراضهم ، واكتمال خلال الخير فيهم ، الى ملء الأرض مثلهم في جنب محاسن المأمون كالنقشة (التفلة) في البحر ، والحدّلة في المهمّة القفر .

قيل : وهذا الكلام على ما فيه من حقيقة في بيان سجايا البرامكة والرشيد والمأمون لم يختتم بالنصفة الحقة ، ومال به سهل الى المصانعة ، وخرجه على نحو مبالغة القُرس ، في الإطراء والمآلق لولى الأمر .

وروى بعض الرواة أن المأمون كان آستقل سهل بن هارون ؛ وقد دخل عليه يوما والناس على مراتبهم ، فتكلم للمأمون بكلام ذهب فيه كلّ مذهب ، فلما فرغ من كلامه أقبل سهل بن هارون على الجمع فقال : ما لكم تسمعون ولا تعون ، وتُشاهدون ولا تفقهون ، وتفهمون ولا تتعجبون ، وتتعجبون ولا تُصِفون ! والله إنه ليقول ويفعل في اليوم القصير ما فعل بنو مروان في الدهر الطويل ، عربكم كعجمكم ، وعجمكم كعبيدكم ، ولكن كيف يُعرّف بالدواء من لا يشعرُ بالداء . فرجع المأمون فيه الى الرأي الأوّل ؛ وعرف أنه الرجل كلّ الرجل ، فقرّ به وأدناه على النحو الذي كان عليه في عهد والده .

ومن كلام له في كتابه ثعلبة وعفرة :

”اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مُقسّما قبل الذي تجودون به من تفضلتكم ، فإنّ تقديم النافلة مع الإبطاء في الفريضة شاهدٌ على وهن العقيدة ، وتقصير الروية ، ومُضِرٌّ بالتدبير ، ومُحِلٌّ بالاختيار ، وليس في نفع تمجّد به عوض من فساد المروءة ، ولزوم النقيصة “ .

وهذا مأخوذ من قوله في يحيى بن جعفر :
عَدُوُّ نِلَادِ الْمَالِ فِيمَا يَنْوِبُهُ * مَنُوعٌ إِذَا مَا مَنَعَهُ كَانَ أَحْرَمًا
مُدَّالٌّ نَفْسٍ قَدْ أَبَتْ غَيْرَ أَنْ تَرَى * مَكَارِهِ مَا تَأْتِي مِنَ الْعَيْشِ مَغْنَمًا
وكتب الى صديق له أبل من ضعف :

” بلغنى خبر الفترة في الماسها وأنحسارها ، والشكاة في حلولها وأرتحالها ، فكاد يشغل
القلق بأوله عن السكون لآخره ، وتذهل الحيرة في آتئدائه ، عن المسرة في آتئائه ، وكان
تغيري في الحالين بقدرهما آرتبأاً للأولى ، وآرتياحا للآخرى “ .



وكتب في البخل :

بسم الله الرحمن الرحيم

أصالح الله أمركم وجمع شملكم وعلمكم الخير وجعلكم من أهله . قال الأحنف بن قيس :
يا معشر بني تميم ، لا تُسرِعوا الى الفتنة فإن أسرع الناس الى القتال أقلهم حياء من الفرار .
وقد كانوا يقولون : اذا أردت أن ترى العيوب جمّة فتأمل عيآباً فإنه إنما يعيب الناس
بفضل ما فيه من العيب . ومن أعيب العيب أن أعيب ما ليس بعيب . وقبيح أن تنهى
مرشداً وأن تُغري بمُشفيق . وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم ، وإصلاح فاسدكم ،
وابقاء النعمة عليكم . وما أخطأنا سبيل حُسن النية فيما بيننا وبينكم . وقد تَهَلَّوْنا
أنا ما أوصيناكم إلا بما آخترناه لكم ، ولأنفسنا قبلكم ، وشُهرنا به في الآفاق دونكم ؛ ثم نقول
في ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : ((وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَأَكُمْ عَنْهُ إِنْ أَرِيدُ
إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)) فما كان أحقنا
منكم في حرمتنا بكم أن ترعوا حق قصدينا بذلك اليكم على ما رعيناه من واجب حقكم ؛
فلا العُدْرَ المبسوط بلَغْتُم ولا بواجب الحرمة مُنْتَم . ولو كان ذكر العيوب يُرادُ به نقر لرأينا
في أنفسنا من ذلك شغلا .

وعبتموني بقولي لخادمي : أجيدي العجين فهو أطيب لطفمه وأزيد في ريعه ^(١) . وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أمليكو العجين فإنه أحد الربعين ^(٢) .

وعبتموني حين ختمت على ما فيه شيء ثمين من فاكهة رطبة نقيصة ومن رطبة غريبة على عبد نرس وصبي جشع وأمة لكهاء وزوجة ضيعة ^(٣) .

وعبتموني بالتحم وقد ختم بعض الأئمة على مزود سويق وعلى كيس فارغ ^(٤) . وقال : طينه خير من طية ، فأمسكتهم عن ختم على لا شيء وعبتم من ختم على شيء .

وعبتموني أن قلت للغلام : إذا زدت في المرق فزد في الإنضاج ليجمع مع التاديم باللحم طيب المرق .

وعبتموني بخصف النعل ^(٥) وبتصدير القميص ^(٦) وحين زعمت أن المخصوفة من النعل أبقى وأقوى وأشبه بالشدة وأن الترقيع من الخزم والتفريط من التضييع ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله ويرقع ثوبه ويقول : لو أهدى إلى ذراع لقبلت ، ولو دُعيت إلى كراع لأجبت . وقالت الحكماء : لا جديد لمن لم يلبس الخلق . وبعث زياد رجلا يرتاد له محدثا واشترط عليه أن يكون عاقلا فأثابه به موافقا فقال له : أكنت به ذا معرفة ؟ قال : لا ، ولكني رأيته في يوم قانظ يلبس خلقا ويلبس الناس جديدا ، فتفرست فيه العقل والأدب . وقد علمت أن الخلق في موضعه مثل الجديد في موضعه . وقد جعل الله لكل شيء قدرا وسمما به موضعا كما جعل لكل زمان رجالا ولكل مقام مقالا . وقد أحيانا الله بالسهم وأمات بالدواء وأغص بالماء . وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكاسين كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين . وقد جبر الأحنف بن قيس يد عز وأمر مالك بن أنس

(١) الريع : النماء والزيادة . (٢) إهلاك العجين : إناعام بعينه . (٣) الكهاء : الحقاء . (٤) المزود : وعاء الزاد . والسويق : طعام يخذ من الخبطة أو الشعير . (٥) = نعل النعل : خرزها . (٦) تصدير القميص : أن يجعل لصدرة بطانة .

يَفْرَكُ النَّعْلَ . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من أكل بَيْضَةً فقد أكل دَجَاجَةً .
ولبس سالم بن عبد الله جِلْدَ أَصْحِيَّةٍ . وقال رجل لبعض الحكماء : أريد أن أهْدِيَ إليك
دَجَاجَةً . فقال : إن كان لابد فاجعلها بَيْوْضًا .

وعبتمونى حين قلتُ : من لم يعرف مواضع السَّرَفِ في الموجود الرخيص لم يعرف
مواضع الاقتصاد في المُنْتَعِ الغالى . ولقد أثبتُ بماء للوضوء على مبلغ الكِفَايَةِ وأَشَدُّ من
الكِفَايَةِ ، فلما صرت الى تفريق أجزائه على الأعضاء والى التَّوْفِيرِ عليها من وَضِيعَةِ الْمَاءِ^(١)
وجدتُ في الأعضاء فَضْلاً عن الماء ، فعلمتُ أن لو كنتُ سَلَكْتُ الاقتصادَ في أوائله
لخرج آخره على كِفَايَةِ أوله ولكن نصيبُ الأول كنصيب الآخر ، فعبتمونى بذلك وشنَّعتم
عليّ ؛ وقد قال الحسن وذَكَرَ السَّرَفَ : أما إنه ليَكُونُ في الماء والكَلَالِ فلم يَرْضَ بذكر
الماء حتى أَرَدَ الكَلَالَ .

وعبتمونى أن قلت : لَا يَغْتَرِّكُ أَحَدُكُمْ بطول عمره وتقويس ظهره وِرْقَةً عَظْمِهِ ووهن
قُوَّتِهِ وأن يرى نحوه أَكْثَرَ ذُرِّيَّتِهِ ، فيدعوه ذلك الى إخراج ماله من يده وتحويله الى مَلِكٍ
غيره والى تحكيم السَّرَفِ فيه وتسليط الشهوات عليه ، فلعله يَكُونُ مُعَمَّرًا وهو لا يدرى ،
وممدودًا له في السِّنِّ وهو لَا يَشْعُرُ ، ولعله أن يُرْزَقَ الْوَلَدَ على اليأس وَيُحْدِثَ عليه من آفات
الدَّهْرِ ما لَا يَحْطُرُ على بال ولا يُدْرِكُهُ عقل ، فيستردّه من لا يَرُدُّهُ وَيُظْهِرُ الشُّكُوى الى من
لا يرحمه أَصْعَبَ ما كان عليه الطَّلَبُ وأقبح ما كان به أن يَطْلُبَ ، فعبتمونى بذلك ؛
وقد قال عمرو بن العاص : ” إِعْمَلْ لَدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا ، وَاَعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ
تَمُوتُ غَدًا “ .

وعبتمونى بأن قلت : بَأَنَّ السَّرَفَ والتبذير الى مال الموارِيث وأموال المملوك وأن
الحفظَ لِمَالِ الْمَكْتَسَبِ والغنى المحتلب والى من لَا يُعَرِّضُ فِيهِ نَهَابَ الدِّينِ وَاهْتِزَامَ
الْعَرَضِ وَنَصَبِ الْبَدَنِ وَاهْتِمَامِ الْقَلْبِ أَسْرَعُ وَمَنْ لَمْ يَحْسَبْ نَفَقَتَهُ لَمْ يَحْسَبْ دَخْلَهُ

(١) الوضِيعَةُ هنا : النقص .

ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع الأصل . ومن لم يعرف للغنى قدره فقد أُؤذِن بالفقر وطاب نفساً بالذل .

وعبتموني بأن قلت : إن كَسْب الحلال يضمن الإنفاق في الحلال . وإن الخبيث يَنزِع إلى الخبيث ، وإن الطيب يدعو إلى الطيب ، وإن الإنفاق في الهوى يحجب دون الهدى ؛ فعبتم على هذا القول ، وقد قال معاوية : لم أرتبذيراً قط إلا وإلى جنبه حق مُضَيِّع . وقد قال الحسن : إن أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجل ماله فانظروا فيماذا يُنفقُه فإن الخبيث إنما يُنفق في السرف . وقالت لكم بالشفقة عليكم وحسن النظر مني لكم وأتم في دار الآفات ، والجوائح غير مأمونات : فإن أحاطت بمال أحدكم آفة لم يرجع إلا إلى نفسه . فأحذروا النقم باختلاف الأمكنة فإن البلية لا تجرى في الجميع إلا بموت الجميع .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العبد والأمة والشاة والبعير : فزقوا بين المنايا . وقال ابن سيرين لبعض البحريين : كيف تصنعون بأموالكم ؟ قالوا : نُفَرِّقُها في السفن فإن عطب بعض سلم بعض . ولولا أن السلامة أكثر ما حملنا أموالنا في البحر . قال ابن سيرين : "تَحْسَبُهَا نَحْرَاءَ وَهِيَ صَنَاعٌ" ^(١) .

وعبتموني بأن قلت لكم عند إشفاق عليكم : إن للغنى أسكراً وللال تنزوة ^(٢) فن لم يحفظ الغنى من سكره فقد أضاعه ، ومن لم يرتبط المال بخوف الفقر فقد أهمله .

فعبتموني بذلك وقد قال زيد بن جبلة : ليس أحد أقصر عقلاً من غنى من الفقر ، وسكر الغنى أكثر من سكر الخمر . وقد قال الشاعر في يحيى بن خالد بن برمك :
وَهُوبٌ تِلَادُ الْمَالِ فِيمَا يَنْوِبُهُ * مَنُوعٌ إِذَا مَا مَنَعَهُ كَانَ أَحْزَمًا

وعبتموني حين زعمتم أني أقدم المال على العلم ، لأن المال به يُفَاد العلم وبه تقوم النفس قبل أن تعرف فضل العلم ، فهو أصل والأصل أحق بالفضيل من الفرع ، فقلتم :

(١) هذا مثل يضرب لمن تظن به الغفلة وهو فطن بقط . (٢) النزوة : الثروة أو الوثبة .

كيف هذا ؟ وقد قيل لرئيس الحكماء : الأغنياء أفضل أم العلماء ؟ قال : العلماء . قيل له : فما بال العلماء يأنون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتى الأغنياء أبواب العلماء ؟ قال : ذلك لمعرفة العلماء بفضل المال وجهل الأغنياء بحق العلم . فقلت : حالها هي القاضية بينهما . وكيف يستوى شيء حاجة العامة اليه وشيء يغنى فيه بعضهم عن بعض .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء بالتحاذر والفقراء بالتحاذر الدجاج . وقال أبو بكر رضى الله عنه : لاني لأبغض أهل بيت ينفقون نفقة الأيام في اليوم الواحد . وكان أبو الأسود الدؤلي يقول لولده : اذا بسط الله لك الرزق فابسط واذا قبض فاقبض .

وعبتموني حين قلت : فضل الغنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون في البيت اذا احتيج اليها استعملت وإن استغني عنها كانت عُدَّة . وقد قال الحصين بن المنذر : وددت أن لي مثل أحد ذهباً لا أنتفع منه بشيء . قيل له : فما كنت تصنع به ؟ قال : لكثرة من كان يخدمني عليه لأن المال مخدوم . وقد قال بعض الحكماء : عليك بطلب الغنى فلو لم يكن فيه إلا أنه عز في قلبك وذلل في قلب عدوك لكان الحظ فيه جسيماً والنفع فيه عظيماً .

ولسنا ندع سيرة الأنبياء وتعليم الخلفاء وتأديب الحكماء لأصحاب اللهو ؛ ولستم على تردون ولا رأي تفتنون ، فقدموا النظر قبل العزم وأدركوا مالكم قبل أن تدرِكوا مالكم . والسلام عليكم .

وسهل هو القائل :

تَقَسَّمْنِي هَمَّانٍ قَدْ كَسَفَا بِالِي * وَقَدْ تَرَكََا قَلْبِي مَحَلَّةَ رَيْبَالِ
هَما أَذْرِيَا دَمِي وَلَمْ تُدْرِ عَبْرَتِي * رَهِينَةُ خَدِّ ذَاتِ سِنْمِطٍ وَخَلْخَالِ
وَلَا قَهْوَةُ لَمْ يَبْقَ مِنْهَا سِوَى الذِي * عَلَى أَنْ تُحَايِيَ النُّورَ فِي رَأْسِ ذِيَالِ

تَحُلُّ مِنْهَا جُرْمُهَا وَتَمَاسَكَتُ * لَهَا نَفْسٌ مَعْدُومٌ عَلَى الزَّمَنِ الْخَالِي
وَلَكِنَّا أَبْيَى بَعِينٍ سَخِيَّةٍ * عَلَى حَدَثٍ تَبَيَّنَ لَهُ عَيْنُ أَمْثَالِي
فِرَاقُ خَلِيلٍ لَا يَقُومُ بِهِ الْآسَى * وَخَلَّةٌ حُرٌّ لَا يَقُومُ بِهَا مَالِي
فَوَاحِشَتِي حَتَّى مَتَى الْقَلْبُ مُوجَعٌ * لَنَفَرِ خَلِيلٍ أَوْ تَعَدُّرُ إِفْضَالِ
وَمَا الْفَضْلُ إِلَّا أَنْ تَجُودَ بِنَائِلٍ * وَإِلَّا لِقَاءَ الْخِلِّ ذِي الْخُلُقِ الْعَالِي

وهو القائل :

إِذَا أَمْرٌ ضَاقَ عَنِّي لَمْ يَضِقْ خُلُقِي * مِنْ أَنْ يَرَانِي غَنِيًّا عَنْهُ بَالِيَّاسِ
لَا أَطْلُبُ الْمَالَ كِي أُغْنَى بِفَضْلَتِهِ * مَا كَانَ مَطْلَبُهُ فَقْرًا مِنَ النَّاسِ

(ز) عمرو بن مسعدة^(١)

كان كاتباً بليغاً ، جَزَلَ العبارة وجيَّزَهَا ، سَدِيدَ المقاصد ، فضله شائع ، ونبه ذائع ؛ أشهر من أن يُنَبَّه عليه ، أو يُدَلَّ بالوصف إليه ؛ قد ولى للمأمون الأعمال الجليلة ، وألحق بذوي المراتب النبيلة . وسمَّاه بعض الشعراء وزيراً لعظم منزلته لا لأنه كان وزيراً ، وهو قوله :
لقد أسعد الله الوزير بن مسعدة * وبث له في الناس سُكْرَ ومجده

(١) هو عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول بن صول (بضم الصاد) كان رجلاً تركياً وكان ملكاً وأخوه فيروز على جرجان ومجسسا بعد التركية وتشبها بالفرس .

بدأ عمرو بن مسعدة في خدمة الدولة عاملاً من العمال فظهرت كفايته وبلاغته ، وبالبلاغة توصل إلى الخليفة فعند أحد أفراد قلائل في رجاله ، قال أحمد بن يوسف الكاتب : دخلت يوماً على المأمون وبيده كتاب يعاود قراءته تارة بعد أخرى ، ويصعد فيه ويصوب ، فلما مرت على ذلك مدة من زمانه التفت إلى وقال : يا أحمد أراك مفكراً فيما تراه منى ، قلت : نعم ، فقال : ان في هذا الكتاب كلاماً نظير ما سمعت الرشيد يقول في البلاغة ، زعم أن البلاغة إنما هي التبعاد عن الاطالة ، والتقرب من معنى البغية ، والدلالة بالقليل من اللفظ ، على الكثير من المعنى ، وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على ذلك . وقال : هذا كتاب عمرو بن مسعدة الياء ، فككته فإذا فيه : « كتابي إلى أمير المؤمنين ، ومن قبلي من قواده ، ورؤساء أجناده ، في الانقياد والطاعة ، على أحسن ما تكون طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم ، فاختلفت لذلك أحوالهم ، والتأنت معه أمورهم » . فلما قرأته قال : ان استحسانى أياك بعنى أن أمرت لجند قبله بأعطياتهم لسبعة أشهر ، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حل محله في صناعته . وفي رواية أن المأمون أمر لعمرو بن مسعدة برزق بمائة أشهر وأنه قال لأحمد بن يوسف : لله در عمرو ما أبلغه ! ألا ترى إلى إداماجه المسألة في الأخبار ، وإعفائه سلطانه من الآثار .

وكان عمرو بن مسعدة وكنيته أبو الفضل أبيض أحمر الوجه ، وكان المأمون يسميه الرومى لبياض وجهه وكان يخضب وتوفى بأذنة سنة سبع عشرة ومائتين . ولم يعرف منشأه ومولده وأسائذه وغاية ما عرفناه أنه كان أحد إخوة أربعة أحسن أبوهم — وكان كاتباً أيضاً — تربيتهم كل الإحسان حتى جاءت من أحدهم هذه البلاغة النادرة التي كان من أثرها أن أصبح عشير المأمون ، وكان هو وأبو عباد ثابت بن يحيى يكتبان بين يديه ويخسلوان معه ويمارحانه . ولكي يصل الرجل إلى هذا المقام مع مثل هذا الخليفة العظيم في كل شؤونه يجب أن ينطوى على صفات عالية يعز مثلها في الأقران والأتراب .

قال عمرو بن مسعدة : كنت أوقع بين يدي جعفر بن يحيى البرمكي فرقع إليه غلانه ورقة يستردونه في روايتهم فرمى بها إلى وقال : أجب عنها فكنتبت : « قليل دائم خير من كثير منقطع » فضرب بيده على ظهره وقال : =

فهو كما كتب الحسن بن سهل الى محمد بن سماعة القاضي وقد احتاج الى رجل يؤتيه بعض الأعمال فقال: إنه يريد رجلاً جامعاً لخصال الخير، ذا عفة ونزاهة طعمة؛ قد هدّته الآداب، وأحكمت التجارب، ليس بظنين في رأيه، ولا بمطعون في حسبه إن أوتن على الأسرار قام بها، وإن قلّد مهمّاً من الأمور أجزأ فيه، له سنٌّ مع أدب ولسان، تُعقده الرزانة، ويسكته الحلم، قد فرعن ذكاء وفطنة، وعُض على قارحة من الكمال، تكفيه اللحظة، وترشده السكينة، قد أبصر خدمة الملوك وأحكّمها، وقام في أمور فحمدها، له أنأة الوزراء، وصولة الأمراء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، وجواب الحكماء، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يكاد يستترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه، وحُسن بيانه، دلائل الفضل عليه لا تحصى، وأمارات العلم له شاهدة، مضطجلاً بما استنفض، مستقيلاً بما حمل.

== أى وزير في جلدك. وقد شهد لعمر بن مسعدة بالبلاغة أعيان البيان في عصره ومنهم الفضل بن سهل فقال فيه: إنه أبلغ الناس، ومن بلاغته أن كل أحد إذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثله فإذا رآه بعد عليه. وهذا كما قيل لأحد البلغاء: ما حد البلاغة؟ فقال: التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يقدر على مثلها، فإذا رآها استنصبت عليه.

ولم يؤثر عن عمر أنه ألف في موضوع خاص وأفرد مسألة في التأليف، وعده ابن النديم في الشعراء الكتاب ولم يذكر إلا أن له ولأخيه مجاشع خمسين ورقة من الشعر وهي من الضائع أيضاً. والغالب أن مهام الدولة لم تترك له وقتاً يصرفه في درس خاص، أو وضع كتاب أو رسالة: وما تلقاه العلماء والأدباء من كلامه، فهو مما صدر عنه بالمناسبات، ورواه له المعجبون به، وما أعظم المفقود منه. والمظنون أن لو كانت جمعت له رسائله على إنجازها لكان منها ديوان كبير، لأن من صرف أعواماً طويلة وهو قابض على براعته يعالج بها الموضوعات السياسية والإدارية في ذلك المجتمع العظيم لا شك أنه تجتمع له صفحات كثيرة مهما كان قليلاً معروفاً بالإنجاز. ١٠ هـ من محاضرة للاستاذ الباحث محمد كرد على نشرها بمجلة المجمع العلمي العربي. وفي عمر بن مسعدة قال محمد البيدق وقد اعتل:

قالوا أبو الفضل معتل فقلت لهم * نفسى الفداء له من كل محذور

يا ليت علته بي غير أمّ له * أجر العليل ولمنى غير مأجور

وتجد ترجمته في معجم الأدباء لياقوت (ج ٦ ص ٨٨) وابن خلكان (ج ١ ص ٥٥٥) والوفاى بالوفيات للصفدى (ج ٥ ص ٥٠٢) قسم ثالث من الأصل الفتوغرافى المحفوظ بدار الكتب المصرية.

(١) فى الأساس: ومن المجاز فلات طيب الطعمة وخبيث الطعمة (بالكسر) وهى الجهة التى منها يرتقى (بوزن الحرفة). (٢) أجزأنى كذا: كفاً. (٣) فرعن ذكاء، وفطنة، أى جرب واختبر فيها. (٤) وعُض على قارحة، سخاية عن بلوغه درجة الكمال.

ملحق الكتاب الثالث

٦١

ومن كلام عمرو بن مسعدة :

أعظم الناس أجراً ، وأنهم ذكراً ، مَنْ لم يَرْضَ بموت العدل في دولته ، وظهور الحق في سلطانه ، وإيصال المنافع الى رعيته في حياته ، وأسعدُ الرعاة مَنْ دامت سعادته الحق في أيامه ، وبعد وفاته وانقراضه .

وقال : انلَطَّ صُورُ الْكُتُبِ تُرِدُّ إِلَيْهَا أَرْوَاحُهَا .

وقال : انلَطَّ صُورَةُ ضَيْلَةٍ لَهَا مَعَانٍ جَلِيلَةٌ ، وَرُبَّمَا ضَافٍ عَنِ الْعَيُونِ ، وَقَدْ مَلَأَ أخطار الفنون .

وقال : لا تستصحب مَنْ يكون استمتاعه بمالك وجاهك ، أكثر من إمتاعه لك بشكر لسانه وفوائده علمه ، وَمَنْ كانت غايته الاحتيال على مالك وإطراءك في وجهك ، فإن هذا لا يكون إلا ردىء الغيب ، سريعاً الى الذم .

وكتب الى الحسن بن سهل :

أما بعد ، فإنك مَنْ إذا غَرَسَ سَقَى ، وإذا أُسِّسَ بَنَى ، ليستمَّ تشييد أُسُسِهِ ، ويحتجَّ ثَمَارَ غَرْسِهِ ، وثناؤك عندي قد شارف الدروس ، وغرسك مُشْفٍ على اليبوس ، فتدارك بناء ما أُسِّسْتَ ، وسقى ما غَرَسْتَ إن شاء الله .

وكتب الى بعض أصحابه في شخص يعز عليه :

أما بعد ، فوصل كتابي اليك سالم والسلام . أراد قول الشاعر :

يُذِيرُونِي عَنْ سَالِمٍ وَأُدِيرُهُمْ * وَجِلْدَةٌ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالْأَنْفِ سَالِمٌ
أى يحل منى هذا المحل .

وكتب الى المأمون في رجل من بني ضبة يستشفع له بالزيادة في منزلته وجعل كتابه تعريضا :

أما بعد ، فقد استشفع بى فلان يا أمير المؤمنين لتطوِّلك على ، في إلحاقه بقطرائه من الخاصة فيما يرتزون به ، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين ، وفى ابتدائه بذلك تعذى طاعته والسلام .

فكتب اليه المأمون : "قد عرفنا توطئتك له ، وتعريضك لنفسك ، وأجبنك اليهما ، ووافقناك عليهما" . وقوله : "إن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين ، وفي ابتدائه بذلك تعدى طاعته" : من الكلام السري الذي يدل على مبلغ أدب عمرو وبُعْد غوره في السياسة ووقوفه على رُوح عصره ونفسية الخلفاء .

قَدِمَ رجل من أبناء دَهَاقِين^(١) قريش ، على المأمون لِعِدَّة سلفت منه ، فطال على الرجل انظاراً خروج أمر المأمون ، فقال لعمرو بن مسعدة : تَوَصَّلْ مِنِّي رُقْعَةً إِلَى أمير المؤمنين تكون أنت الذي تكتبها تكن لك على نعمتان . فكتب : "إن رأى أمير المؤمنين أن يَفُكَّ أَسْرَ عبيده من رِبْقَةِ الْمُطَّل بقضاء حاجته ، أو يَأْذَنَ له بالانصراف الى بلده فعل إن شاء الله" .

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمراً فجعل يَعَجَب من حسن لفظها ، وإيجاز المراد . فقال عمرو : فما نتيجتها يا أمير المؤمنين ؟ قال : الكتاب له في هذا الوقت بما وعدناه ، لثلاثين آخر فضل استحساننا كلامه ، وبجائزة مائة ألف درهم ، صِلَةً عن دناءة الْمُطَّل . وسماجة الإغفال .

وهذا مما يدل على سعة عقل المأمون وولوعه بالبلاغة وقدره أهلها حتى قدرهم ، دع ما هنالك من نفس ما أحببت إلا الجود والعطاء .
ومن حَكَم عمرو بن مسعدة :

العبودية عبودية الإخاء . لا عبودية الرِّق . الود أعطف من الرِّحِم . إن الكريم ليرعى من المعرفة ما رعى الوصل من القرابة . عليكم بالإخوان فإنهم زينة في الرخاء ، وعدة للبلاء . مثل الإخوان مثل النار ، قليلها متاع ، وكثيرها بوار . النفس بالصديق ، أنس منها بالعشيق ، وغزل المودة ، أرق من غزل الصباية . من حقوق المودة ، عفو الإخوان ، والإغضاء عن تقصير إن كان . ذكر رجل رجلاً فقال : حسبك أنه خُلِقَ كما تستهي إخوانه . المودة قرابة

(١) الدهاقين : الزعماء أرباب الأملاك بالسواد ، وأحدهم دهقان (بكسر الدال معرب) .

مستفادة . ما تواصل اثنان فدام توأصلهما ، الا لفضلهما أو فضل أحدهما . أسرع الأشياء انقطاعاً مودة الأشرار . المحروم من حريم صالحى الإخوان . لقاء الخليل شفاء الغليل . قلة الزيارة ، أمان من الملالة . إخوان السوء كشجر النار يحرق بعضه بعضا . علامة الصديق اذا أراد القطيعة أن يؤخر الجواب ، ولا يتدنى بالكتاب . لا يفسدك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له . من لم يقدم الامتحان قبل الثقة ، والثقة قبل الأئس ، أثمرت مودته دما . اذا قدمت الحرمة ، تشبهت بالقربة . العتاب حياة المودة . ظاهر العتاب خير من باطن الحق . ما أكثر من يُعاتب لطلب علة ، ويبقى الود ما بقى العتاب . تكون الحقود فى الفؤاد ككجون النار فى الزناد . القريب بعيد بعداوته ، والبعيد قريب بمودته . لا تأمن عدوك وإن كان مقهورا ، واحذر وإن كان مفقودا ، فإن حد السيف فيه وإن كان مغمودا لا تتعرض لعدوك فى دولته ، فإنها اذا زالت كفتك مؤونته . نصح الصديق تأديب ، ونصح العدو تأنيب .

روى البيهقي قال : أخبرنا بعض أصحابنا قال : شهدت المأمون يوما وقد خرج من باب البستان ببغداد فصاح به رجل بصري : يا أمير المؤمنين إني تزوجت بامرأة من آل زياد وإن أبا الرازي فزق بيننا وقال : هى امرأة من قريش ؟ قال : فأمر عمرو بن مسعدة فكتب الى أبي الرازي :

إنه قد بلغ أمير المؤمنين ما كان من الزيادة وخلع إياها إذ كانت من قريش . فحق تحاكت اليك العرب ؟ لا أم لك فى أنسابها ، ومتى وكلتك قريش يابن الخناء بأن تلصق بها من ليس منها ؟ فخل بين الرجل وامرأته ، فإني كان زياد من قريش ، إنه لابن سمية بغي عاهرة ، لا يفتخر ، بقرباتها ولا يتطاول بولادتها . ولئن كان ابن عبيد ، لقد باء بامر عظيم ، اذ ادعى الى غير أبيه ، لفظ تعجله ، ومليك قهره .

وأمر المأمون عمرو بن مسعدة أن يكتب لرجل به عناية الى بعض العمال فى قضاء حقه ، وأن يختصر كتابه ما أمكنه ، حتى يكون ما يكتب به فى سطر واحد ، لا زيادة عليه . فكتب عمرو :

كتابي اليك كتاب واثق بمن كتبت اليه ، معنى بمن كتبت له ، ولن يضع بين الثقة والعناية حامله .

وكتب الى بعض الرؤساء ، وقد تزوجت أمه فساء ذلك ، فلما قرأها ذلك الرئيس تسلى بها ، وذهب عنه ما كان يجده . وقيل : إن هذه الرسالة من إنشاء ابن العميد وهي : الحمد لله الذي كشف عنا ستر الحيرة ، وهدانا لستر العورة . وجدع بما شرع من الحلال أنف الغيرة ، ومنع من عضل الأمهات ، كما منع من وأد البنات ، استنزالا للنفوس الأبية ، عن الحمية حمية الجاهلية ، ثم عرّض لجزيل الأجر ، من استسلم لواقع قضائه ، وعوّض جليل الذخر من صبر على نازل بلائه ، وهناك الذي شرح للتقوى صدرك ، ووسّع في البلوى صبرك ، وألهمك من التسليم لمشيئته ، والرضا بقضيته ، ما وفّقك له من قضاء الواجب في أحد أبويك ، ومن عظم حقه عليك ، وجعل الله تعالى جدّه ما تجرّعته من أنف ، وكظمته من أسف ، معدودا فيما يُعظم به أجرك ، ويجزل عليه ذُكر ، وقرن بالحاضر من امتعاضك بفعلها ، المنتظر من ارتماضك بدفنها ، فتستوفي بها المصيبة ، وتستكمل عنها المثوبة ، فوصل الله لسيدى ما استشعره من الصبر على عُرشها ، بما يكتسبه من الصبر على نفسها ، وعوّضه من أسرة فرشها ، أعواد نعشها ، وجعل تعالى جدّه ما يُنعم به عليه بعدها من نعمة ، معرى من نقمة ، وما يوليه بعد قبضها من منحة ، مبرا من محنة ، فأحكام الله تعالى جدّه ، وتقديست أسماؤه ، جارية على غير مُراد المخلوقين ، لكنه تعالى يختار لعباده المؤمنين ما هو خير لهم في العاجلة ، وأبقى لهم في الآجلة ، اختار الله لك في قبضها اليه ، وقُدومها عليه ، ما هو أنفع لها ، وأولى بها ، وجعل القبر ، كفوءاً لها والسلام .

وقال عبد العزيز بن يحيى المكي الذي ناظر بشر بن غياث المديني بحضرة أمير المؤمنين في مسألة خلق القرآن :

جاءني خليفة عمرو بن مسعدة ومعه جمّع من الفرسان والرجال فحمانى مكرماً على دابته حتى صار الى باب أمير المؤمنين فأوقفني حتى جاء عمرو بن مسعدة فدخل بفأس في حُجرتي

التي كان يجلس فيها ثم أذن لي بالدخول عليه فدخلت فلما صيرت بين يديه أجلسني ثم قال لي : أنت مقيمٌ على ما كنت عليه أو قد رجعت عنه؟ فقلت : بل مقيمٌ على ما كنت وقد ازدددت بتوفيق الله تعالى إياي بصيرةً في أمري ، فقال لي عمرو بن مسعدة : أيها الرجل ، قد حملت نفسك على أمرٍ عظيم ، وبلغت الغاية في مكروهاها ، وتعرضت لما لا قوام لك به في مخالفة أمير المؤمنين ، وادّعت بما لا يثبت لك به حجةٌ على مخالفتك ، ولا لأحدٍ غيرك ، وليس وراءك بعد الحجّة عليك إلا السيف ، فانظر لنفسك وبادر أمرَكَ ، قبل أن تقع المناظرة وتظهر عليك الحجّة ، فلا تنفعك الندامة ولا يقبل منك معذرةٌ ولا تُقال لك عثرةٌ ، فقد رحمتك وأشفقت عليك مما هو نازلٌ بك ، وأنا أستقبل لك أمير المؤمنين وأسأله الصبح عن جرمك ، وعظيم ما كان منك إذا أظهرت الرجوع عنه والندم على ما كان ، وأخذك الأمان منه والجائزة ، فإن كانت لك ظلامةٌ أزلتها عنك وإن كانت لك حاجةٌ قضيتها لك ، فانما جالسٌ رحمةً لك مما هو نازلٌ بك بعد ساعة إن أقمت على ما أنت عليه ورجوت أن يخلصك الله تعالى على يدَي من عظيم ما أوقعت نفسك فيه .

شعره :

نقلنا أمثلةً قليلةً من نثر عمرو بن مسعدة ، أما شعره فقليلٌ جداً . ذكر المترجمون له أنه كان له فرسٌ أدهمٌ أغرٌ ، لم يكن لأحد مثله فراهةً وحُسناً . فبلغ المأمون خبره ، وبلغ عمرو ابن مسعدة ذلك . فخاف أن يأمر بقوده إليه فلا يكون له فيه تحمّدة ، فوجه به إليه هدية وكتب معه :

يا إماماً لا يُدا * نيه إذا عدّ إمامُ
فَضَلَ النَّاسَ كما يَفْ * ضُلَّ نقصاناً تمامُ
قد بعثنا بجوادٍ * مثله ليس يُرامُ
فرسٌ يزهى به لل * يحسن سرج وجامُ
دونه الخيلُ كما مش * ملك في الفضل الأنامُ

وَجْهَهُ صُبْحٌ وَلَكِنْ * سَاثِرَ الْجَسْمِ ظِلَامٌ
وَالَّذِي يَصْلُحُ لِلَّهِ * لَيْ عَلَى الْعَبْدِ حَرَامٌ

وعمر هو القائل :

وَمُسْتَعْدِبٌ لِلْهَجْرِ وَالْوَصْلِ أَعْدَبُ * أَكَاثِمُهُ حُبِّي فَيَنْتَأَى وَأَقْرُبُ
إِذَا جَدْتُ مِنْهُ بِالرَّضَا جَادَ بِالْخَفَا * وَيَزْعُمُ أَنَّ مُدْنَبٌ وَهُوَ أَذْنَبُ
تَعَلَّمْتُ أَلْوَانَ الرِّضَا خَوْفَ هَجْرِهِ * وَعَلَّمَهُ حُبِّي لَهُ كَيْفَ يَغْضَبُ
وَلِي غَيْرُ وَجْهِ قَدْ عَرَفْتُ طَرِيقَهُ * وَلَكِنْ بَلَا قَلْبِي إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ

ووقع مرة في ظهر رُقعة لرجل :

أَعِزُّزٌ عَلَيَّ بِأَمْرِ أَنْتَ طَالِبُهُ * لَمْ يُمْكِنِ التُّجَحُّ فِيهِ وَأَنْقَضَى أَمَدُهُ

ولعمرو بن مسعدة حكايات منها ما حكاه القاضي التنوخي في كتاب الفرج بعد الشدة :
قال عمرو بن مسعدة : كنت مع المأمون عند قدومه من بلاد الروم حتى إذا نزلت الرقعة
قال : يا عمرو، ما ترى الرجحي قد احتوى على الأهواز، وهي سلة الخير وجميع المال قبله
وطمع فيها، وكتبته متصلة بجمليها، وهو يتعلل ويتربص بي الدوائر؟ فقلت : أنا أكفي
أمير المؤمنين هذا، وأنفذ من يضطره إلى حمل ما عليه، فقال : ما يقنعني هذا، فقلت :
فيأمر أمير المؤمنين بأمره، فقال : فأنرج إليه بنفسك حتى نضيقه بالحديد، فتحمله إلى
بغداد وتقبض على جميع ما في يده من أموالنا، وتنظر في أعمالنا وترتب لها عمالاً، فقلت :
السمع والطاعة، فلما كان في غد دخلت عليه فقال : ما فعلت فيما أمرتك به ؟ قلت :
أنا على ذلك، قال : أتريد أن تجيء في غد مودعاً؟ قلت : السمع والطاعة، فلمّا كان
في غد جئته مودعاً، فقال : أريد أن تحلف لي أنك لا تقيم ببغداد إلا يوماً واحداً،
فاضطربت من ذلك إلى أن حضني وأستحلفني ألا أقيم فيها أكثر من ثلاثة أيام، فخرجت

(١) راجع (ج ٢ ص ٣٥ طبعة الهلال) . والعقد الفريد لابن عبد ربه (ج ٢ ص ٢١١ طبعة بولان) .

حتى قدمت بغداد ، فلم أُقِم بها إلا ثلاثة أيام وأنحدرت في زلاليّ أريد البصرة وجعل لي في الزلاليّ خيش واستكثرت من الثلج لشدة الحرّ .

فلما صرتُ بين جُرْجَان وجَبَل سمعتُ صوتاً من الشاطئ يصيح : يا ملاح، فرفعتُ سَيْفَ الزَّلاليّ وإذا بشيخ كبير السنّ جالس حاسر الرأس حافي القدمين خالق القميص، فقلت للغلام : أجبهُ ، فأجابهُ ، فقال : يا غلام، أنا شيخ كبير السنّ على هذه الصورة التي ترى ، وقد أحرقتني الشمس وكادتُ نتلفني ، وأريد جيل ، فأحملوني معكم فإن الله يحسن أجر صاحبكم ، قال : فشتّمه الملاح وأنهره ، فأدركتني رقةٌ عليه وقلتُ : خذوه معنا ، فتقدّمنا الشطّ وصحّنا به وحملناه ، فلما صار معنا في الزلاليّ وأنحدرنا نتقدّم فدفعْتُ إليه قيصاً ومنديلاً وغسَل وجهه واستراح وكأنّه كان ميتاً وعاد الى الدنيا فحضر وقتُ الغداء وتقدّمت وقلتُ للغلام : هاتِه يا كُلّ معنا ، فجاء وقعد على الطعام ، فأكل أكل أديب نظيف غير أنّ الجوع أثّر فيه ، فلما رُفِعَت المائدة أردت أن يقوم ويغسل يده ناحية كما تفعل العامة في مجالس الخاصّة فلم يفعل ، فغسلت يدي وتذمّمتُ أن أمر بقيامه ، فقلتُ : قدّموا له الطشت فغسل يده ، وأردتُ بعدها أن يقوم لأنام فلم يفعل ، فقلتُ : يا شيخ ، أيّ شيء صناعتك؟ قال : حائك أصلحك الله ، فقلتُ في نفسي : هذه الحياكة علمته سوء الأدب ، فتناومتُ عليه ومددتُ رجلي فقال : قد سألتني عن صناعتني وأنت أعزك الله ما صناعتك؟ فأكبرتُ ذلك وقلت : أنا جئتُ على نفسي هذه الجناية ولا بدّ من احتماها ، أترأه الأحمق لا يرى زلاليّ وغلماًني ونعمتي وأن مثلي لا يقال له هذا! فقلتُ : كاتب ، فقال : كاتب كامل أم كاتب ناقص فإنّ الكتاب خمسة ، فأبهم أت ؟ فورد على قولك لئلك موردا عظيماً وسمعتُ كلاماً أكبرته وكنت متكبّاً بغلست ، ثم قلت : فصل الخمسة قال :

نعم ، كاتبٌ نَحراج يحتاج أن يكون عالماً بالشروط والطسوت والحساب والمساحة والبهوق والفتوق والرتوق . وكاتبٌ أحكام يحتاج أن يكون عالماً بالحلال والحرام

(١) في العقد الفريد : « بين دبره رقل ودبر العاقل » .

والاحتجاج والإجماع والأصول والفروع . وكاتبٌ مَعُونَةٌ يحتاج أن يكون عالماً بالقصاص والحدود والجراحات والمواثبات والسياسات . وكاتبٌ جَيْشٍ يحتاج أن يكون عالماً بِحُلَى الرجال وشيآت الدوابِّ ومُدَاراة الأولياء وشيئا من العلم بالنسب والحساب . وكاتب رسائل يحتاج أن يكون عالماً بالصدور والفصول والإطالة والإيجاز وحُسن البلاغة والخط ، قال : فقلت : إني كاتب رسائل ، قال : فأسألك عن بعضها ، قلت : قل ، فقال لى :

أصلحك الله ، لو أت رجلا من إخوانك تزوج أمك فأردت أن تكتبه مهثا فكيف كنت تكتبه ؟ فكفرت في الحال فلم يخطر ببالي شيء ، فقلت : ما أرى للتهنئة وجهاء ، قال : فكيف تكتب إليه تعزية فكفرت فلم يخطر ببالي شيء ، فقلت : اعفنى ، قال : قد فعلت ، ولكك لست بكاتب رسائل ، قلت : أنا كاتب خراج ، قال : لا بأس ، لو أت أمير المؤمنين ولأك ناحية وأمرك فيها بالعدل والإنصاف وتقضى حاجة السلطان فيظلم اليك بعضهم من مساحيك وأحضرتهم للنظر بينهم وبين رعيتك ، خلف المساح بالله العظيم لقد أنصفوا وما ظلموا ، وحلفت الرعية بالله إنهم لقد جاروا وظلموا ، وقالت الرعية : قف معنا على ما مسحوه وأنظر من الصادق من الكاذب ، فخرجت لتقف عليه ، فوقفوا على براح شكله قاتل قنا ، كيف كنت تمسحه ؟ قلت : كنت آخذ طوله على أنعراجه وعرضه ثم أضربه في مثله ، قال : إن شكل قاتل قنا أن يكون زاويتاه محدودتين وفي تحديده تقويس ، قلت : فأخذ الوَسَطَ فأضربه في العَرَضَ ، قال : إذا ينثنى عليك العمود ، فأسكتنى ، فقلت : ولست كاتب خراج ، قال : فإذا ما أنت ؟ قلت : أنا كاتب قاض ، قال : أرايت لو أت رجلا توفى وخلف امرأتين حاملتين إحداهما حرة والأخرى سريّة ، فولدت السريّة غلاما والحرة جارية ، فعادت الحرة الى ولد السريّة فأخذته ، وتركته بدله الجارية فاختصما في ذلك ، فكيف الحكم بينهما ؟ قلت : لا أدري ، قال : فلست بكاتب قاض ، قلت : فانا كاتب جيش ، فقال : لا بأس ، أرايت لو أت رجلين جاءا اليك لتطليهما وكل واحد منهما اسمه وأسم أبيه كاسم الآخر إلا أن أحدهما مشقوق الشفة العليا ، والآخر مشقوق

الشفة السفلى ؟ كيف كنت تحليهما ، قال : قلت : فلان الأفلح وفلان الأعم ، قال : إن رزقهما مختلفان وكل واحد منهما ينجى في دعوة الآخر ، قلت : لا أدري ، قال : فلست بكاك جيش ، قلت : أنا كاتب معونة ، قال : لا تبالي ، لو أن رجلين رُفعا إليك قد شج أحدهما الآخر شجةً موضحةً^(١) ، وشج الآخر شجةً مأمونة ، كيف كنت تفصل بينهما ؟ قلت : لا أدري ، قال : لست إذا كاتب معونة ، اطلب لنفسك أيها الرجل شغلا غير هذا ، قال : فصعرت إلى نفسي وغازني ، فقلت : قد سألت عن هذه الأمور ويجوز ألا يكون عندك جوابها كما لم يكن عندي ، فإن كنت عالما بالجواب فقل ، فقال .

نعم ، أما الذي تزوج أمك فتكتب إليه : أما بعد ، فإن الأمور تجري من عند الله بغير محبة عباده ولا اختيارهم ، بل هو تعالى يختار لهم ما أحب ، وقد بلغني تزويج الوالدة خا الله لك في قبضها ، وإن القبور أكرم الأزواج وأستر العيوب والسلام .

وأما براح قاتل قنا فتمسح العمود حتى إذا صار عددا في يدك ضربته في مثله ومثل ثلثه فما خرج فهو المساحة .

وأما الجارية والغلام فيوزن لبن الاثنين ، فأيهما كان أخف فالجارية له .

وأما الجنديان المتفقا الاسميين ، فإن كان الشق في الشفة العليا قيل فلان الأعم ، وإذا كان في الشفة السفلى قلت فلان الأفلح .

وأما صاحب الشجتين فلصاحب الموضحة ثلث الدية ، ولصاحب المأمونة نصف الدية ، فلما أجاب بهذه المسائل تعجبت منه وامتحنته بأشياء كثيرة غيرها فوجدته ماهرا في جميعها حاذقا بليغا ، فقلت : ألسنت زعمت أنك حائك ، فقال : أنا أصلحك الله حائك كلام ولست بحائك نساجه ، وأنشأ يقول :

ما مَرَّ بِؤْسٍ وَلَا نَعِيمٍ * إِلَّا وَلِيَ فِيهِمَا نَصِيبُ
فَذَقْتُ حُلُومًا وَذَقْتُ مُرًّا * كَذَاكَ عَيْشُ الْفَقْرِ ضُرُوبُ
نَوَائِبُ الدَّهْرِ أَدْبَتْنِي * وَإِنَّمَا يُوعَظُ الْأَدِيبُ

(١) الموضحة : الشجة التي تبدي رضح العظام .

قلتُ : فما الذى بك من سوء الحال ؟ قال : أنا رجلٌ كاتبٌ دامت عُطْقتى ، وكَثُرَتْ
عَيْتِى ، وتواصلتِ مِحْنَتِى ، وَقَلَّتْ حِيلَتِى ، خَفَرَجْتُ أَطْلُبُ تَصَرُّفاً فُقِطِعَ عَلَى الطَّرِيقِ فَصُرْتُ
كَمَا تَرَى ، فَمَشَيْتُ عَلَى وَجْهِى ، فَلَمَّا لَاحَ لَى الزَّلَالِى اسْتَفْثْتُ بِكَ ، قُلْتُ : فَإِنِ قَدْ خَرَجْتُ
إِلَى مُتَصَرِّفٍ جَلِيلٍ أَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى جَمَاعَةٍ مِثْلِكَ ، وَقَدْ أَمَرْتُ لَكَ بِخِلْعَةٍ حَسَنَةٍ تَصْلُحُ لِمِثْلِكَ
وخمسةِ آلافِ درهمٍ تُصْلِحُ بِهَا أَمْرُكَ ، وَتُنْفِذُ مِنْهَا إِلَى عِيَالِكَ ، وَتُقَوِّى نَفْسَكَ بِبَاقِيهَا ،
وَتَصِيرُ مَعِى إِلَى عَمَلِ فَأُولَئِكَ أَجَلُهُ ، فَقَالَ : أَحْسَنَ اللَّهُ جَزَاءَكَ إِذَا تَجَدُّدُنِي بِحَيْثُ أَسْرَكَ ،
وَلَا أَقُومُ مَقَامَ مُعَذِّرِ الْبَاسِكِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَأَمَرْتُ بِتَقْيِيضِهِ مَا رَسَمْتُ لَهُ قَبْضُهُ ، وَانْحَدَرْتُ إِلَى
الْأَهْوَازِ مَعِى ، فَبَعَثْتُهُ الْمُنَاطِرَ لِلرَّحْمَى وَالْحَاسِبِ لَهُ بِمَحْضَرَتِى ، وَالْمُسْتَخْرِجِ لِمَا عَلَيْهِ ، فَقَامَ
بِذَلِكَ أَحْسَنَ قِيَامٍ وَعَظَّمَتْ حَالَهُ مَعِى ، وَعَادَتْ نِعْمَتُهُ إِلَى أَحْسَنَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ .

وفى عمرو بن مسعدة يقول أبو محمد عبد الله بن أيوب التميمي :

أَعِنِّى عَلَى بَارِقِ نَاضِبٍ * خَفِئْتُ كَوَحِيكَ بِالْحَاجِبِ
كَانَ تَأَلُّفُهُ فِي السَّمَاءِ * يَدَا كَاتِبٍ أَوْ يَدَا حَاسِبِ
فَرَوَى مَنَازِلَ تَذْكَارُهَا * يَهَيِّجُ مِنْ شَوْقِكَ الْغَالِبِ
غَرِيبٌ يَحِبُّ لِأَوْطَانِهِ * وَيَبْكِي عَلَى عَصْرِهِ الذَّاهِبِ
كَفَاكَ أَبُو الْفَضْلِ عَمْرُو النَّدَى * مَطَالَعَةُ الْأُمَلِّ الْكَاذِبِ
وَصَدَقُ الرَّجَاءُ وَحُسْنُ الْوَفَاءِ * لِعَمْرُو بْنِ مَسْعَدَةَ الْكَاتِبِ
عَرِضُ الْفِنَاءِ طَوِيلُ الْبِنَا * فِي الْعِزِّ وَالشَّرَفِ الشَّاقِبِ
بَنَى الْمَلِكُ طَوْدَةً لَهُ بَيْتُهُ * وَأَهْلُ الْخِلَافَةِ مِنْ غَالِبِ
هُوَ الْمُرْتَجَى لَصُرُوفِ الزَّمَانِ * وَمُعْتَصِمُ الرَّاعِبِ الرَّاهِبِ
جَوَادٌ بِمَا مَلَكَتْ كَفُّهُ * عَلَى الضَّيْفِ وَالْجَارِ وَالصَّاحِبِ
بَادِمُ الرِّكَابِ وَوَشْيُ الثِّيَابِ * بِالْطَّرْفِ وَالطُّفْلِ الْكَاعِبِ
تَوَكَّلْهُ لِحَسَامِ الْأُمُورِ * وَنَرْجُوهُ بِالْجَلِيلِ الْكَارِبِ

خَصِيْبُ الْجَنَابِ مَطِيرُ السَّحَابِ * بِشِيْمَتِهِ لَيْْنُ الْجَانِبِ
 يَرْوِي الْقَنَّا مِنْ نَحْوِ الْعِدَا * وَيُفْرِقُ فِي الْجُودِ كَاللَّاعِبِ
 إِلَيْكَ تَبَدَّدَتْ بِأَكْوَارِهَا * حَرَاغِيْجُ فِي مَهْمَةٍ لَّاحِبِ
 كَأَنَّ نَعَامًا تَبَارَى بِنَا * بِوَاوِيلٍ مِنْ بَرْدٍ عَاصِبِ
 يَرِدُنْ نَدَى كَفِّكَ الْمُرْتَجَى * وَيَقْضِيْنَ مِنْ حَقِّكَ الْوَاجِبِ
 وَلِلَّهِ مَا أَنْتَ مِنْ خَابِرٍ * بِسَجَلٍ لِقَوْمٍ وَمِنْ خَارِبِ
 فَتَسْقِي الْعِدَا بِكُؤُوسِ الرَّدَى * وَتَسْقِيُ مَسْئَلَةَ الطَّالِبِ
 وَكَمْ رَاغِبٍ نَلْتَمِسُهُ بِالْعَطَا * وَكَمْ نَلْتَمِسُ بِالْعَطْفِ مَنْ هَارِبِ
 وَتِلْكَ الْخَلَائِقُ أُعْطِيَتْهَا * وَفَضْلٌ مِنَ الْمَنَاعِ الْوَاجِبِ
 كَسَبَتْ الثَّنَاءَ وَكَسَبُ الثَّنَا * أَفْضَلُ مَكْسَبِ الْكَاسِبِ
 يَقِيْنُكَ يَجْلُو سَتُورَ الدُّجَى * وَظَنُّكَ يُخْبِرُ بِالْغَائِبِ

رسائل الجاحظ

رسالته في بنى أمية

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ^(١) : أطال الله بقاءك ، وأتم نعمته عليك ، وكرامته لك . أعلم أرشد الله أمرك ، أن هذه الأمة قد صارت بعد إسلامها ، والخروج من جاهليتها ، الى طبقات متفاوتة ، ومنازل مختلفة : فالطبقة الأولى عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر وعمر ، رضى الله عنهما ، وست سنين من خلافة عثمان رضى الله عنه ، كانوا على التوحيد الصحيح ، والإخلاص المحض ، مع الألفة واجتماع الكلمة على الكتاب والسنة ، وليس هناك عمل قبيح ، ولا بدعة فاحشة ، ولا نزع يد من طاعة ، ولا حسد ولا غل ولا تأول ، حتى كان الذى كان : من قتل عثمان ، رضى الله عنه ، وما أنشك منه ، ومن خبطهم لآياه بالسلاح ، وبعج بطنه بالحرا ، وفرى أوداجه بالمشاقص ، وشذخ

(١) هو إمام الأدب أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الكافى البصرى صاحب التصانيف المنتعة والرسائل المبدعة . وقد تقدم الكلام عليه فى المجلد الأول من هذا الكتاب (ص ٤٢١) .

ولد حوالى سنة ١٦٠ هـ بمدينة البصرة ونشأ بها فتناول كل فن ومارس كل علم عرف فى زمانه بما وضع فى الاسلام أو نقل عن الأمم الأوائل فأصبح له مشاركة فى علم كل ما يقع عليه الحس أو يخطر بالبال فهو راوية . متكلم . فيلسوف . كاتب . مصنف . مترسل . شاعر . مؤرخ . عالم بالحيوان والنبات والموات . وصاف لأحوال الناس ووجوه معاشهم واضطرابهم وأخلاقهم وحيلهم إلا أنه غلب عليه أمران : الكلام على طريقة المعتزلة فهو بذلك إمام الطائفة الجاحظية من المعتزلة والأدب الممزوج بالفلسفة والفكاهة فهو أول من ألف الكتب الجامعة لفنونه ككتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وغيرهما .

وكان غاية فى الذكاء ودقة الحس وحسن الفراسة إلى دعاة فاشية ، وقلة اعتداد بما يأخذ به الناس أنفسهم ويتحلون من الرسوم والعادات وأنواع العصبية المذهبية وعدم مبالاة بوقوع المتوزعين فيه . وكان سمحا جوادا كثير المواساة لإخوانه وكان على دماثة خلقه وتناقض خلقه خفيف الروح ، فكاهة الخجاس ، غاية فى الظرف وطبيب الفكاهة وحلاوة الكلام وهو على الجملة أحد أفذاذ العالم وأحد حجج اللسان العربى . توفى سنة ٢٥٥ هـ ببغداد بمقبرة الخيزران . وتجد ترجمته فى معجم الادباء لياقوت (ج ٦ ص ٥٦ — ٨٠) وابن خلكان (ج ١ ص ٥٥٣) .

(٢) فى الأصل : « المخلص » .

هامته بالعمد، مع كفه عن البسط، ونهيه عن الامتناع، مع تعريفه لهم قبل ذلك : من
كم وجه يجوز قتل من شهيد الشهادة، وصلى القبلة، وأكل الذبيحة، ومع ضرب نسائه
بحضرتة، وإلحاق الرجال على حرمة، مع اتقاء نائلة بنت الفرافصة عنه بيدها، حتى أطنوا^(٢)
إصبعين من أصابعها، وقد كشفت عن قناعها، ورفعت عن ذيلها ليكون ذلك راداً لهم،
وكاسراً من غريبتهم؛ مع وطئهم في أضلاعه بعد موته، وإلقائهم على المذبة جسده مجزأ
بعد سحقه، وهى الجزرة التى جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم كفناً لبناته وأياماه وعقائله،
بعد السب والتعطيش والخضر الشديد، والمنع من النفوس، مع احتجاجه عليهم وإلحاقه لهم؛
ومع اجتماعهم على أن دم الفاسق حرام، كدم المؤمن، إلا من ارتد بعد إسلام، أوزنى
بعد إحسان، أو قتل مؤمناً على عمد، أو رجل عدا على الناس بسيفه فكان في امتناعهم
منه عطفه؛ ومع اجتماعهم على ألا يقتل من هذه الأمة، ولا يُجهز منها على جريح؛
ثم مع ذلك كله دَمَرُوا^(٣) عليه وعلى أزواجه وحرمة وهو جالس في محرابه ومُصحفه يلوح
في شجره، لن يرى أن موحداً يقدم على قتل من كان في مثل صفته وحاله .

لأجرم لقد احتلبوا به دماً لا تطير رغوته، ولا تسكن فورته، ولا يموت نائره، ولا يكمل
طالبه، وكيف يضيع الله دم ولّيه، والمتقم له، وما سمعنا بدم بعد دم يحيى بن زكريا عليهما
السلام، غلا غليانه، وقُتِلَ ساحفه، وأدرك بطائلته، وبلغ كل محبته، كدمه رحمة الله
عليه .

ولقد كان لهم في أخذه، وفي إقامته للناس، والاقتصاص منه، وفي بيع ما ظهر من
رباعه، وحدائقه، وسائر أمواله، وفي حبسه بما بقي عليه، وفي طمره حتى لا يحس،
بذكره، ما يُقْنِيهم عن قتله إن كان قد ركب كل ما قذفوه به، وأدعوه عليه، وهذا كله
بحضرة جلّة المهاجرين والسلف المقدمين، والأنصار والتابعين .

(١) قال في شرح القاموس : كل ما في العرب من هذا الاسم «فراصة» فهو بضم الفاء الا فراصة أبا نائلة

فهو بالفتح لا غير . (٢) أطنوا : قطعوا . (٣) حض بعضهم بعضاً عليه متبدين .

ولكنّ الناس كانوا على طبقاتٍ مختلفة، ومراتبٍ متباينة : من قاتلٍ ومن شادّ على
عضده، ومن خاذلٍ عن نصرته، والعاجز ناصر بإرادته، ومطيع بحسن نيته، وإثم الشك
منا فيه، وفي خاذله، ومن أراد عزله والاستبدال به، فأما قاتله، والمعين على دمه،
والمريد لذلك منه، فضلالٌ لاشكّ فيهم، ومُرائقٌ لا امتراء في حكمهم؛ على أنّ هذا
لم يعدّ منهم الفجور : إمّا على سوء تأويل، وإمّا على تعمد للشقاء، ثم ما زالت الفتن
متصلة، والحروب متراصة، كحرب الجبل، وكوقائع صفين، وكيوم النهروان، وقبل ذلك
يوم الزابوقة^(١)، وفيه أسرا بن حنيفة، وقتل حكيم بن جبلة، إلى أن قتل أسقاها على بن أبي
طالب رضوان الله عليه، فأسعد الله بالشهادة، وأوجب لقاتله النار واللعة؛ إلى أن كان من
اعتزال الحسن عليه السلام الحروب وتحلّيته الأمور، عند انتشار أصحابه، وما رأى من الخلل
في عسكره، وما عرف من اختلافهم على أبيه، وكثرة تلونهم عليه؛ فعندها استوى معاوية
على الملك، واستبدّ على بقية الشورى، وعلى جماعة المسلمين، من الأنصار والمهاجرين،
في العام الذي سَمَّوه عام الجماعة، وما كان عام جماعة، بل كان عام فرقة وقهرٍ وجبريةٍ وظلمةٍ،
والعام الذي تحوّلت فيه الإمامة ملكاً كسروياً، والخلافة غصبا قيصرياً، ولم يعدّ ذلك
أجمع الضلال والفسق. ثم ما زالت معاصيه من جلس ماحكيناً، وعلى منازب مارتبناً، حتى
ردّ قضية رسول الله صلى الله عليه وسلم رداً مكشوفاً، وجمّد حكمه جمّداً ظاهراً، في ولد
الفرّاش وما يجب للعاهر، مع اجتماع الأمة أنّ سميّة لم تكن لأبي سفيان فرّاشاً، وأنّه
إنما كان بها عاهراً. فخرج ذلك من حكم الفجار إلى حكم الكفار، وليس قتل مجرب
عديّ، وإطعام عمرو بن العاص خراج مصر، وبيعة يزيد الخليع، والاستئثار بالفئ،
واختيار الولاة على الهوى، وتعطيل الحدود بالشفاعة والقراة، من جنس محمد الأحكام
المنصوصة، والشرائع المشهورة، والسّنن المنصوبة، وسواء في باب ما يستحقّ من الكفار
بمحمد الكتاب، وردّ السنة إذا كانت السنة في شهرة الكتاب وظهوره، إلا أنّ أحدهما

(١) الزابوقة : موضع قريب من البصرة كانت فيه وقعة الجبل أول النهار .

أعظم ، وعقاب الآخرة عليه أشد ، فهذه أول كفره ، كانت من الأئمة ، ثم لم تكن إلا فمن يدعى إمامتها ، والخلافة عليها ، على أن كثيرا من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره ، وقد أربت عليهم نابتة عصرنا ، ومبتدعة دهرنا ، فقالت : لا تسبوه ، فإن له صحبة ، وسب معاوية بدعة ، ومن يغضبه فقد خالف السنة ، فرعمت أن من السنة ترك البراءة ، من جحد السنة ، ثم الذي كان من يزيد ابنه ، ومن عماله ، وأهل نصرته ، ثم غزو مكة ، ورمى الكعبة ، واستباحة المدينة ، وقتل الحسين عليه السلام ، في أكثر أهل بيته ، مصابيح الظلام ، وأوتاد الإسلام ، بعد الذي أعطى من نفسه ، من تفريق أتباعه ، والرجوع إلى داره وحرمة ، أو الذهاب في الأرض ، حتى لا يحس به أو المقيم حيث أمر به ، فأبوا إلا قتله ، والنزول على حكمهم ، وسواء قتل نفسه بيده ، أو أسلمها إلى عدوه ، وخير فيها من لا يبرد غليله إلا بشرب دمه ، فاحسبوا قتله ليس بكفر ، وإباحة المدينة ، وهتك الحرمه ، ليس بحجة ، كيف تقولون في رمي الكعبة ، وهدم البيت الحرام ، وقبلة المسلمين ؟ فإن قُلتُم ليس ذلك أرادوا بل إنما أرادوا المتحز به ، والمتحصن بحيطانه ، أفما كان في حق البيت وحرمة أن يحصروه فيه ، إلى أن يُعطى بيده ! وأى شيء بقي من رجل ، قد أخذت عليه الأرض إلا موضع قدمه ! واحسبوا ماروا عليه من الأشعار ، التي قولها شرك ، والتمثل بها كفرة ، شيئا مصنوعا ، كيف تصنع بنقر القضيب بين شينَي الحسين عليه السلام ، وحمل بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم حواسر على الأفتاب العارية ، والإيل الصعاب ، والكشف عن عورة علي بن الحسين عند الشك في بلوغه ! على أنهم إن وجدوه ، وقد أنبت قتلوه وأن لم يكن أنبت حملوه ، كما يصنع أمير جيش المسلمين ، بذراى المشركين ، وكيف تقول في قول عبيد الله بن زياد لإخوته وخاصته ، دعوني أقتله ، فإنه بقيّة هذا النسل ، فأحسب به هذا القرن ، وأميت به هذا الداء ، وأقطع به هذه المادة !

خبرونا علام تُدل هذه القسوة ، وهذه الغلظة ! بعد أن شقوا أنفسهم بقتلهم ، ونالوا ما أحبوا فيهم ، أتدل على نصب ، وسوء رأي وحقد ، وبغضاء ونفاق ، وعلى يقين مدخوب

وإيمانٍ مخروج ! أم تدلّ على الإخلاص ، وعلى حبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، والحِفْظ له ، وعلى براءة الساحة وصحة السريرة ! فإن كان على ما وصفنا لا يعدو الفسق والضلال ، وذلك أدنى منازل ؛ فالفاسق ملعون ، ومن نهى عن نهى الملعون فلعون .

وزعمت نابتة عصرنا ، ومبتدعة دهرنا ، أن سبّ ولايةِ السوءِ فتنَةٌ ، ولعنَ الجورِ بدعةٌ ، وإن كانوا يأخذون السّميّ بالسّميّ ، والوليّ بالوليّ ، والقريبَ بالقريب ، وأخافوا الأولياءَ ، وأقمنوا الأعداءَ ، وحكموا بالشفاعةِ والهوى ، وإظهارِ الغدرةِ والتهاونِ بالأُمّةِ ، والقمعِ للزّعيّةِ ، وأنهم في غيرِ مُدارةٍ ولا تقيةٍ ، وإن عدا ذلك إلى الكفر ، وجاوز الضلال إلى الجحْدِ ، فذلك أضلّ ممّن كفّ عن شتمهم ، والبراءة منهم ، على أنّه ليس ممّن استحقّ اسمَ الكفر بالقتلِ كمن استحقّه برّدِ السنةِ وهدمِ الكعبةِ ، وليس ممّن استحقّ اسمَ الكفر بذلك كمن شبه الله بخلقه ، وليس ممّن استحقّ الكفر بالتشبيه كمن استحقّه بالتجويز ، والنابتة في هذا الوجه أكفر ممّن يزيد وأبيه ، وابن زياد وأبيه ، ولو ثبت أيضا على يزيد أنّه تمثل بقول بن الرّيّ :

ليتَ اشيأني ببذرٍ شهدوا * جزعَ الخَزَجِ من وقعِ الأسَلِ
لاستطاروا واستهلّوا قَرَحًا * ثم قالوا يا يزيد لا تسَلِ
قد قتلنا الغرّ من ساداتهم * وعدلنا ببذرٍ فاعتدل

كان تجويزُ النابتِ لرَبّه ، وتشبيهه بخلقه ، أعظم من ذلك وأقطع ، على أنهم مُجْعون على أنّه ملعون من قتل مؤمنا ، متعمدا أو متأولا ؛ فإذا كان القاتل سلطانا جائرا ، أو أميرا عاصيا ، لم يستحلوا سبّه ، ولا خلعه ، ولا نفية ، ولا عيبه ، وإن أخاف الصلحاء ، وقتل الفقهاء ، وأجاع الفقير ، وظلم الضعيف ، وعطل الحدود والثغور ، وشرب الخمر ، وأظهر الفجور ؛ ثم ما زال الناس يتسكعون مرّة ، ويدهنونهم مرّة ، ويقارونهم مرّة ، ويشاركونهم مرّة إلا بقيّة من عصمه الله تعالى ذكره ، حتى قام عبد الملك بن مروان ، وابنه الوليد ،

وعاملهما الحاج بن يوسف، ومولاه يزيد بن أبي مُسلم، فأعادوا على البيت بالهدم، وعلى حرم المدينة بالغزو، فهدموا الكعبة، واستباحوا الحرم، وحولوا قبلة واسط، وأخروا صلاة الجمعة، الى مُغيّر بَنِ الشمس، فإن قال رجل لأحدهم: اتق الله فقد أخرجت الصلاة عن وقتها، قتله على هذا القول جهارا غير ختل، وعَلانية غير سر، ولا يُعلم القتل على ذلك إلا أقبح من إنكاره، فكيف يكفر العبد بشيء ولا يكفر بأعظم منه!

وقد كان بعض الصالحين ربما وعظ الجبابة، وخوفهم العواقب، وأراهم أن في الناس بقية ينهون عن الفساد في الأرض، حتى قام عبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف، فزجرا عن ذلك، وعاقبا عليه، وقتلا فيه، فصاروا لا يتناهون عن منكر فعلوه؛ فاحسب تحويل القبلة كان غلطا، وهدم البيت كان تأويلا، واحسب ما رَووا من كل وجه، أنهم كانوا يزعمون أن خليفة المرء في أهله ^(١) أرفع عنده من رسوله إليهم، باطلا ومسموعا مولدا، واحسب وسَمَ أيدي المسلمين ونقش أيدي المسلمات، وردَّهم بعد الهجرة الى قُرَاهم، وقتل الفقهاء، وسب أئمة الهدى، والتَّصَبُّ لِعِترَةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يكون كفرا؛ كيف تقول في جمع ثلاث صلوات فيمن الجمعة، ولا يُصلون أولاها، حتى تصير الشمس على أعلى الجدران، كالملاء المُعَصِّفَر، فإن نطق مسلم، خُبط بالسيف، وأخذته العمد، وشك بالزمام، وإن قال قائل: اتق الله أخذته العزة بالإثم، ثم لم يرض إلا بنثر دماغه على صدره، وبصلبه حيث تراه عياله، ومما يدل على أن القوم لم يكونوا إلا في طريق التمرّد على الله عز وجل، والاستخفاف بالدين، والتهاون بالمسلمين، والابتذال لأهل الحق، أكلُ أمرائهم الطعام، وشربهم الشراب على منابرهم أيام جمعهم وجموعهم، فعَل ذلك حُبَيْش بن دُبَلَة، وطارق مولى عثمان، والحجاج بن يوسف، وغيرهم، وذلك إن كان كفرا كله فلم يبلغ كفرا نابتة

(١) يشير بذلك الى ماورد عن الحاج انه قال في كلام له: ويحكم أخليفة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسوله اليهم، يريد بذلك تفضيل مقام الخلافة على مقام الرسالة. وبمثل هذا رمى الحاج بالكفر وقد عقد ابن عبد ربه في العقد الفريد فصلا فيمن زعم ان الحاج كان كافرا راجع العقد الفريد ج ٣ ص ٢٣

(٢) في الأصل: «حسن» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه كما في شرح القاموس والطبري.

عصرنا، وروافض دهرنا، لأن جنس كفر هؤلاء غير كفر أولئك. كان اختلاف الناس في القدر على أن طائفة تقول كل شيء بقضاء وقدر، وتقول طائفة أخرى كل شيء بقضاء وقدر إلا المعاصي، ولم يكن أحد يقول إن الله يعذب الأبناء ليغيظ الآباء، وإن الكفر والإيمان مخلوقان في الإنسان، مثل العمى والبصر، وكانت طائفة منهم تقول إن الله يرى، لا تزيد على ذلك، فإن خافت أن يُظن بها التشبيه قالت يرى بلا كيف تفرزا من التجسيم والتصوير، حتى نبئت هذه النابتة، وتكلمت هذه الرافضة، فقالت جسيا، وجعلت له صورة وحدًا، وأكفرت من قال بالرؤية على غير التجسيم والتصوير، ثم زعم أكثرهم أن كلام الله حسن وبين وحجة وبرهان، وأن التوراة غير الزبور، والزبور غير الانجيل، والانجيل غير القرآن، والبقرة غير آل عمران؛ وأن الله تولى تأليفه، وجعله برهانه على صدق رسوله، وأنه لو شاء أن يزيد فيه زاد، ولو شاء أن ينقص منه نقص، ولو شاء أن يبدله ببدله، ولو شاء أن ينسخه كله بغيره نسخ، وأنه أنزله تنزيلا، وأنه فصله تفصيلا، وأنه باليه كان دون غيره، ولا يقدر عليه إلا هو، غير أن الله مع ذلك كله لم يخلقه؛ فأعطوا جميع صفات الخلق، ومنعوا اسم الخلق.

والعجب أن الخلق عند العرب إنما هو التقدير نفسه، فلذا قالوا: خلق كذا وكذا، ولذلك قال: ((أحسن الخالقين)). وقال: ((وتخلقون إفكا)). وقال: ((وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير)) فقالوا: صنعه وجعله وقدره، وأنزله وفصله وأحدثه، ومنعوا خلقه، وليس تأويل خلقه أكثر من قدره، ولو قالوا ببدل قولهم: قدره ولم يخلقه خلقه، ولم يقدره، ما كانت المسألة عليهم إلا من وجه واحد؛ والعجب أن الذي منعه بزعمه أن يزعم أنه مخلوق، أنه لم يسمع ذلك من سلفه، وهو يعلم أنه لم يسمع أيضا من سلفه أنه ليس بمخلوق، وليس ذلك بهم، ولكن لما كان الكلام من الله تعالى عندهم على مثل خروج الصوت من الجوف، وعلى جهة تقطيع الحروف، وإعمال اللسان والشفثين، وما كان على غير هذه الصورة والصفة فليس بكلام، ولما كنا عندهم على غير هذه الصفة،

وكنا لِكلامنا غير خالقيين ، وجب أن الله عز وجل لكلامه غير خالق ؛ اذ كنا غير خالقيين
لكلامنا ، فإنما قالوا ذلك ، لأنهم لم يجدوا بين كلامنا وكلامه فرقا ، وإن لم يُقروا بذلك
بالسنتهم فذلك معناه وقصدُهم .

وقد كانت هذه الأمة لا تتجاوز معاصيها الإثم والضلال ، إلا ما حكيث لك عن بنى أمية ،
وبنى مروان ، وعملهم ، ومن لم يدن بكفارهم حتى نجت النواب ، وتابعتها هذه العوام ،
فصار الغالب على هذا القرن الكفر ، وهو التشبيه والجر ، فصار كفرهم أعظم من كفر من
مضى في الأعمال التي هي الفسق ، وشركاء من كفر منهم بتوليهم ، وترك إكفارهم ، قال
الله عز وجل من قائل : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ .

وأرجو أن يكون الله قد أغاث المحقين ، ورحمهم وقوى ضعفهم ، وكثر قلتهم ، حتى
صار ولاة أمرنا في هذا الدهر الصعب والزمن الفاسد أشد استبصارا في التشبيه من
عليتنا ، وأعلم بما يلزم فيه منا ، وأكشف للقناع من رؤسائنا ، وصارفوا الناس وقد انتظموا
معان الفساد أجمع ، وبلغوا غايات البدع ، ثم قرنوا بذلك العصبية التي هلك بها عالم بعد
عالم ، والحمية التي لا تبقى دينا إلا أفسدته ، ولا دنيا إلا أهلكتها ، وهو ما صارت اليه العجم
من مذهب الشعوبية ، وما قد صار اليه الموالى من الفخر على العجم والعرب ، وقد نجت
من الموالى ناجمة ، ونبت منهم نابتة ، تزعم أن المولى بولائه قد صار عربيا ، لقول النبي
صلى الله عليه وسلم : « مَوَلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ » ولقوله : « الْوَلَاءُ لِحُكْمَةِ النَّسَبِ لَا يُبَاعِ
وَلَا يُوهَب » .

قال : فقد علمنا أن العجم حين كان فيهم الملك والنبوة كانوا أشرف من العرب ،
ولما حوّل ذلك الى العرب صارت العرب أشرف منهم ، قالوا : فنحن معاشر الموالى
بقديمتنا في العجم أشرف من العرب ، وبالحديث الذي صار لنا في العرب أشرف من العجم ،
وللعرب القديم دون الحديث ؛ ولنا خصيلتان جميعا وافرتان فينا ، وصاحب الخصلتين

(١) كذا في الأصل ، ولعله : وصاروا شركاء الخ . (٢) معان بفتح الميم والعين : المباة والمنزل .

أفضل من صاحب الخصلة ، وقد جعل الله المولى بعد أن كان عجميا عربيا بولائه ، كما جعل حليف قريش من العرب قرشيا بحلفه ، وجعل اسماعيل بعد أن كان أعجميا عربيا ولولا قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن اسماعيل كان عربيا » ما كان عندنا إلا أعجميا لأن الأعجمي لا يصير عربيا ، كما أن العربي لا يصير أعجميا ، فإنما علمنا أن اسماعيل صيره الله عربيا بعد أن كان أعجميا ، بقول النبي صلى الله عليه وسلم ، فكذلك حكم قوله « مولى القوم منهم » وقوله : « والولاء لئمة » . قالوا : وقد جعل الله إبراهيم عليه السلام أباً لمن لم يلد ، كما جعله أباً لمن ولد ، وجعل أزواج النبي أمهات المؤمنين ، ولم يلدن منهم أحدا ، وجعل البحار والد من لم يلد في قول غير هذا كثير قد أثبتنا عليه في موضعه ، وليس أدعى إلى الفساد ، ولا أجلب للشتم من المفارقة ، وليس على ظهرها إلا نخور (إلا قليل) وأى شيء أغبط من أن يكون عبدك يزعم أنه أشرف منك ، وهو مقر أنه صار شريفا بعثتك إياه .

وقد كتبت — مد الله في عمرك — كتباً في مفارقة خطان ، وفي تفضيل عدنان ، وفي رد المولى إلى مكانهم من الفضل والنقص ، وإلى قدر ما جعل الله تعالى لهم بالعرب من الشرف ، وأرجو أن يكون عدلاً بينهم ، وداعية إلى صلاحهم ، ومنبهة عليهم ولهم ، وقد أردت أن أرسل بالجزء الأول اليك ثم رأيت ألا يكون إلا بعد استئذانك ، واستمارة ، والانتفاء في ذلك إلى رغبتك ، فأراك فيه موفق إن شاء الله عز وجل وبه الثقة .

وكتب الى بعض إخوانه في ذم الزمان

بسم الله الرحمن الرحيم

حفظك الله حفظ من وفقه للقناعة ، وأستعمله بالطاعة ؛ كتبت إليك وحالي حال من كثفت غمومه ، وأشككت عليه أموره ، وأشتبه عليه حال دهره ، ونخرج أمره ، وقيل عنده من يثق بوفائه ، أو يحمده مغبة إخوانه ، لاستحالة زماننا ، وفساد أيامنا ، ودولة أئدنا ؛ وقد ما كان من قدم الحياء على نفسه ، وحكم الصدق في قوله ، وآثر الحق في أموره ، ونبتد المشتبهات عليه من شؤونه ، تمت له السلامة ، وفاز بوفور حظ العافية ، وحمد مغبة مكروه

العاقبة ؛ فنظرنا إذ حال عندنا حكمه ، ونحولت دولته ؛ فوجدنا الحياء متصلا بالحرمان والصدق آفة على المال ، والقصد في الطلب بترك استعمال القصة ، وإخلاق العرض من طريق التوكل دليلا على سخافة الرأي ، إذ صارت الخطوة البالغة ، والنعمة السابغة ، في لؤم المشيئة ؛ وسناء الرزق من جهة محاشاة الرضاء ، وملاسة معزة العار ؛ ثم نظرنا في تعقب المتعقب لقولنا ، والكاشر لثقتنا ؛ فأقمنا له علما واضحا ، وشاهدا قائما ، ومنارا بينا ؛ إذ وجدنا من فيه السُّفولية الواضحة ، والمثالب الفاضحة ، والكذب المُبرِّح ، والخلف المصرح ، والجَهالة المُفرطة ، والركاكة المُستخففة ، وضعف اليقين والاستثبات ، وسرعة الغضب والجرأة ، قد استشكل سروره ، واعتدلت أموره ، وفاز بالسهم الأغلب ، والخط الأوفر ، والقدر الرفيع ، والجواز الطائع ، والأمر النافذ ؛ إن زلَّ قيل حكم ، وإن أخطأ قيل أصاب ، وإن هذى في كلامه وهو يقظان قيل رؤيا صادقة من نسمة مباركة ؛ فهذه مُجَّتنا والله على من زعم أن الجهل يخفى ، وأت النوك يُردى ، وأت الكذب يضُرُّ ، وأت الخلف يُزرى ؛ ثم نظرنا في الوفاء والأمانة والنبل والبلاغة وحسن المذهب وكمال المروءة وسعة الصدر وقلة الغضب وكرم الطبيعة ، والفائق في سعة علمه ، والحاكم على نفسه ، والغالب لهواه ، فوجدنا فلان بن فلان ؛ ثم وجدنا الزمان لم يُنصفه من حقه ، ولا قام له بوظائف فرضه ، ووجدنا فضائله القائمة له قاصدة به ؛ فهذا دليل أن الطَّالِح أجدى من الصَّلاح ، وأن الفضل قد مضى زمانه ، وعفت آثاره ، وصارت الدائرة عليه كما كانت الدائرة على ضده ؛ ووجدنا العقل يشقى به قرينه ، كما أن الجهل والحمق يحظى به خدينه ؛ ووجدنا الشعر ناطقا على الزمان ، ومُعربا عن الأيام حيث يقول :

تَحَامَقَ مع الحمقى إذا ما لقيتهم * ولا قِهم بالجهل فعَل أنحى الجهل
وخَلَطَ إذا لاقيت يوما مَخَلَطًا * يُخَلَطُ في قول صحيح وفي هزل
فإنى رأيت المرء يشقى بعقله * كما كان قبل اليوم يسعد بالعمل

فَبَقِيْتُ — أَبْقَاكَ اللهُ — مَثَلٌ مِنْ أَصْبَحَ عَلَى أَوْفَازٍ، وَمِنْ النُّقْلَةِ عَلَى جِهَازٍ، لَا يَسْوَعُ
لَهُ نِعْمَةً، وَلَا تَطْعَمُ عَيْنُهُ غَمَضَةً، فِي أَهْوَائِلَ يَبْأَكِرُهُ مَكْرُوهُهَا، وَيُرَاوِحُهُ عَقَائِبُهَا، فَلَوْ أَنَّ
الدَّعَاءَ أَجِيبَ، وَالتَّضَرُّعَ يُسْمِعَ، لَكَانَتِ الْعِدَّةُ الْعَظْمَى، وَالرَّحْمَةُ الْكَبْرَى، فَلَيْتَ أَيْ أُخَى
مَا أَسْتَبْطِئُهُ مِنَ النَّفْخَةِ، وَمِنْ بَحَاةِ الصَّيْحَةِ، قُضِيَ لِحَانٌ، وَأُذِنَ بِهِ فَكَانَ، فَوَاللَّهِ مَا عُدَّتْ
أُمَّةٌ بَرَجُفَةً، وَلَا رِيحٌ وَلَا سَخَطَةٌ، عَذَابَ عَيْنِي بِرُؤْيَةِ الْمُغَايَظَةِ الْمُدْمِنَةِ، وَالْأَخْبَارِ الْمَهْلِكَةِ،
كَأَنَّ الزَّمَانَ يُوَكِّلُ بَعْدَايَ، أَوْ يُنْصَبُ بِأَيَّامِي، فَمَا عِشُّ مِنْ لَا يُسَرِّبُخَ شَفِيقٌ، وَلَا يَصْطَبِخُ
فِي أَوَّلِ نَهَارِهِ، إِلَّا بِرُؤْيَةٍ مِنْ يَكْرَهُهُ، وَيَغْمَهُ بِطَلْعَتِهِ، فَقَدْ طَالَتِ الْعُمَّةُ، وَوَاطَبَتِ الْكُرْبَةُ،
وَأَدْلَهَمَّتِ الظُّلُمَةُ، وَنَحَدَ السَّرَاجُ، وَتَبَاطَأَ الْأَنْفِرَاجُ .

وصف الجاحظ لقريش وبني هاشم

قَدْ عَلِمَ النَّاسُ كَيْفَ كَرُمُ قُرَيْشٍ وَسَخَاوَتِهَا، وَكَيْفَ عَقُولُهَا وَدَهَائِهَا، وَكَيْفَ رَأْيُهَا
وَذِكَاوَتِهَا، وَكَيْفَ سِيَاسَتُهَا وَتَدْبِيرُهَا، وَكَيْفَ إِيجَازُهَا وَتَحْسِيرُهَا، وَكَيْفَ رَجَاحَةُ أَحْلَامِهَا
إِذَا خَفَّ الْحَلِيمُ، وَحِدَّةُ أَذْهَانِهَا إِذَا كَلَّ الْحَدِيدُ، وَكَيْفَ صَبْرُهَا عِنْدَ الْلِقَاءِ، وَثَبَاتُهَا فِي الْأَوَاءِ،
وَكَيْفَ وَفَاؤُهَا إِذَا اسْتُحْسِنَ الْغَدْرُ، وَكَيْفَ جُودُهَا إِذَا حُبَّ الْمَالُ، وَكَيْفَ ذِكْرُهَا
لِأَحَادِيثِ غَيْدٍ، وَقَلَّةُ صِدُودِهَا عَنْ جِهَةِ الْقَصْدِ، وَكَيْفَ إِقْرَارُهَا بِالْحَقِّ وَصَبْرُهَا عَلَيْهِ،
وَكَيْفَ وَصْفُهَا لَهُ وَدُعَاؤُهَا إِلَيْهِ، وَكَيْفَ سِمَاحَةُ أَخْلَاقِهَا، وَصَوْنُهَا لِأَعْرَاقِهَا، وَكَيْفَ وَصْلُهَا
قَدِيمَهُمْ بِحَدِيثِهِمْ، وَطَرِيفَتِهِمْ بِتَلِيدِهِمْ، وَكَيْفَ أَشْبَهَ عَلَانِيَتَهُمْ سِرَّهُمْ، وَقَوَّطَهُمْ فَعْلُهُمْ، وَهَلْ
سَلَامَةُ صَدْرِ أَحَدِهِمْ إِلَّا عَلَى قَدَرِ بُعْدِ غَدِيرِهِ، وَهَلْ غَفْلَتُهُ إِلَّا فِي وَزْنِ صِدْقِ ظَنِّهِ، وَهَلْ
ظَنُّهُ إِلَّا كَيْفَيْنِ غَيْرِهِ .

وكتب في الاعتذار :

أما بعد فنعم البديل من الزلة الاعتذار، وبئس العوض من التوبة الإصرار، وإن أحق من عطفك عليه بحلمك من لم يستشفع إليك بغيرك، وإنني بمعرفتي بمبلغ حلمك وغاية عفوك، ضمنت لنفسى العفو من زلتها عندك، وقد مسني من الألم ما لم ينصفه غير مواسلتك .

وله في الاستعطاف :

ليس عندي أعزك الله سبب ولا أفدرك على شفيح إلا ما طبعك الله عليه من الكرم والرحمة والتأمل الذي لا يكون إلا من إنتاج حسن الظن وإثبات الفضل بحال المأمول وأرجو أن تكون من الشاكرين فتكون خير مُعْتَبٍ، وأكون أفضل شاكر، ولعل الله يجعل هذا الأمر سببا لهذا الإنعام، وهذا الإنعام سببا للإنقطاع إليكم والكون تحت أجنحتكم، فيكون لا أعظم بركة، ولا أتمى بقية من ذنب أصبحت فيه، وبمثلك — جعلت فداك — عاد الذنب وسيلة، والسيئة حسنة، ومثلك من أنقلب به الشر خيرا والغرم غما .

من عاقب فقد أخذ حظه، وإنما الأجر في الآخرة، وطيب الذكر في الدنيا، على قدر الاحتمال وتجرع المرائر وأرجو، ألا أضيع وأهلك فيما بين كرمك وعقلك، وما أكثر من يعفو تمن صغر ذنبه وعظم حقه، وإنما الفضل والثناء العفو عن عظيم الجرم ضعيف الحرمة، وإن كان العفو عظيما مُسْتَطَرَفَا من غيركم فهو تِلَادٌ فيكم، حتى ربما دعا ذلك كثيرا من الناس إلى مخالفة أمركم، فلا أتم عن ذلك تتكئون، ولا على سالف إحسانكم تندمون، وما مثلكم إلا كمثل عيسى بن مريم عليه السلام حين كان لا يتربلا من بني إسرائيل إلا أسمعوه شرا وأسمعهم خيرا، فقال له تَتُومُونَ الصفا : ما رأيْتُ كالِيَوْمَ كَلَّمَا أسمعوك شرا أسمعهم خيرا فقال : كلَّ آمري يُنْفِقُ مَا عنده وليس عندكم إلا الخير ولا في أَوْعِيَتِكُمْ إلا الرحمة "وكلُّ إناءٍ بالذى فيه ينضح" .

وله في ذم الحسد :

الحسد — أبغاك الله — داء ينهك الحسد ، علاجه عسير وصاحبه صَّخِر وهو باب غامض ، وما ظهر منه فلا يُدَوَّى وما بطن منه فَيُداوِيهِ في عَناءٍ ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « دَبَّ اليكم داءُ الأُمِّ من قبلكم : الحَسَدُ والبَغْضاء » . الحسد عَقِيدَةُ الكُفْرِ ، وحليف الباطل ، وضدَّ الحقِّ منه تُتَوَلَّدُ العداوَةُ وهو سبب كُلِّ قُطِيعَةٍ ومُفَرِّقِ كُلِّ جَماعَةٍ ، وقاطع كلِّ رَحِمٍ من الأقرباء ومُحَدِّثِ التَّفَرُّقِ بين القرناء ، ومُلَقِّحِ الشَّرِّ بين الحلفاء .

دفاع الجاحظ عن مؤلفاته :

وقد ذكر الجاحظ جُلَّ مؤلَّفاته في كتاب "الحيوان" ودافع عنها بعد أن وصفها فقال: ^(١)
جَنَّبَكَ اللهُ الشَّبهة ، وعَصَمَكَ مِنَ الحَيَرة وجعل بينك وبين المعرفة نَسَبًا ، وبين الصدق سَبَبًا ، وَحَبَّبَ اليك التَّثبت ، وزَيَّنَ في عينك الإنصاف ، وأَذاقَكَ حلاوةَ التقوى ، وأشعر قلبك عِزَّ الحقِّ ، وأودع صدرَكَ بَرْدَ اليقين ، وطرَدَ عنكَ ذُلَّ الطَّمع ، وعَرَّفَكَ ما في الباطل من الدَّلَّة ، وما في الجهل من القِلَّة ، ولَعَمْرِي لقد كان غيرُ هذا الدِّعاء أَصوبَ في أمرك ، وأدَلَّ على مقدار وَزْنِكَ ، وعلى الحال التي وَضَعْتَ نفسك فيها ، ووسَّمت عِرْضَكَ بها ، ورَضِيتَها لدينِكَ حِطًّا ، ولمُرُوءَتِكَ شُكْلًا ؛ فقد انتهى إلى مِلكٍ على أبي إسحاق ، ومَمْلُوكٍ على ، وطَمَعُكَ على مَعْبَدٍ ، وتَنَقَّصُكَ له في الذي كان جرى بينهما في مَساوِي الديك ومحاسنه ، وفي ذكر منافع الكلب ومَضارِهِ ؛ والذي نَحَرَجَا إليه من آسْتَقْصَاءِ ذلك وَجَمِيعِهِ ، وَمِنْ تَتَبُّعِهِ ونَظْمِهِ ، وَمِنْ المِوازَنَةِ بينهما ، والحكمَ فيهما .

ثم عِبَتْنِي بِكُتَابِ حَيْسِلِ اللُّصُوصِ ، وَكُتَابِ غِشِّ الصَّناعات ؛ وَعِبَتْنِي بِكُتَابِ المُلَحِّ والطُّرْفِ ، وما حَرَّ مِنَ النُّوادر وَبَرْدِ ، وعادَ بَارِدُها حارًّا بفِرطِ بَرْدِهِ ، حتَّى أُمْتَعَ بِاكثرَ من أَمْتاعِ الحارِّ ؛ وَعِبَتْنِي بِكُتَابِ أَحْتِجَاجَاتِ البُخلاءِ ، ومناقضتهم لِلسُّمَحاءِ ، والقَوِيِّ في الفُرْقِ بين

(١) اعتمدنا في تصحيح هذه الفصول على الأصل الفتوغرافي المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٨٥
آداب ، لأن النسخة المطبوعة من كتاب الحيوان بمطبعة السعادة بمصر في غاية التعريف وملاى بالأخطاء .

الصدق اذا كان ضارا في العاجل ، والكذب اذا كان نافعا في الآجل ، ولم جعلنا الصدق أبدا محمودا ، والكذب أبدا مذموما ، والفرق بين الغيرة وإضاعة الحرمة ، وبين الإفراط في الحمية والأففة ، وبين التفصيل في حفظ حق الحرمة ، وقلة الأكتراث بسوء القالة ؛ وهل الغيرة آكتساب وعادة ، وبعض ما يعرض من جهة الديانة وبعض التريث فيه والتحسين به ، أو يكون ذلك شيئا في طبع الحرية وحقيقة الجوهرية ، ما كانت العقول سليمة ، والافات منفية ، والأخلاق معتدلة ؛ وعبتي بكتاب الصرحاء والهجناء ، ومفاحرة السودان والجران ، والموازنة بين حق الخؤولة والعمومة ؛ وعبتي بكتاب الزرع والنخل ، والزيتون والأعناب ، وأقسام فضول الصناعات ، ومراتب التجارات ؛ وبكتاب فضل ما بين الرجال والنساء ، وفرق ما بين الذكور والإناث ، وفي أي موضع يغلب ويفضل ، وفي أي موضع يكن المغلوبات والمفضولات ، ونصيب أيهما في الولد أوفر ، وفي أي موضع يكون حقهن أوجب ، وأي عمل هو بهن أليق ، وأي صناعة هن فيها أبلغ ؛ وعبتي بكتاب القحطانية وكتاب العدنانية في الرد على القحطانية ، وزعمت أني تجاوزت فيه حد الحمية ، الى حد العصبية ، وأنني لم أصل الى تفضيل العدنانية إلا بتهنئة القحطانية ؛ وعبتي بكتاب العرب والموالي ، وزعمت أني بحست الموالى حقوقهم ، كما أني أعطيت العرب ما ليس لهم ؛ وعبتي بكتاب العرب والعجم ، وزعمت أن القول في فرق ما بين العرب والعجم هو القول في فرق ما بين الموالى والعرب ، ونسبتني الى التكرار والترداد ، والى التكثير والجهل بما في المعاد من الخطأ ، وحمل الناس المؤن ؛ وعبتي بكتاب الأصنام ، وبذكر أعتلالات الهند لها ، وسبب عبادة العرب إياها ، وكيف اختلفا في جهة العلة مع انفاقهما على جملة الديانة ، وكيف صار عبادة البسدة^(١) والمتمسكون بعبادة الأوثان المنحوتة ، والأصنام المنجورة ، أشد الناس إلغا لما دانوا به ، وشعفا بما تعبدوا له ، وأظهروهم جدًا ، وأشدّهم على من خالفهم ضغنا ، وبما دانوا صباة وعجبا ، وما الفرق بين البد والوثن ، وما الفرق بين الوثن والصنم ، وما الفرق

(١) البسدة جمع بد ، وهو بيت فيه الصنم أو الصنم نفسه كما قال ابن دريد .

بين الدُّمِيَّة والجُنَّة ، ولم صَوِّروا في محاريبهم وبيوت عباداتهم صُور عظمائهم ورجال دعوتهم ، ولم تأتقوا في التصوير، وتجزدوا في إقامة التركيب ، وبالغوا في التحسين والتفخيم ، وكيف كانت أولية تلك العبادات ، وكيف افترقت تلك النحل ، ومن أى شئ كانت خدع تلك السدنة ، وكيف لم يزالوا أكثر الأصناف عددا ، وكيف شمل ذلك المذهب الأجناس المختلفة !

وعبتي بكتاب المعادن ، والقول في جواهر الأرض ، وفي اختلاف أجناس الفلز ، والإخبار عن ذائبها وجامدها ، ومخلوقها ومصنوعها ، وكيف يُسرع الانقلاب الى بعضها ويُبطئ عن بعضها ، وكيف صار بعض الألوان يصبغ ولا ينصبغ ، وبعضها ينصبغ ولا يصبغ ، وبعضها يصبغ وينصبغ ، وما القول في الإكسير والتلطيف ؛ وعبتي بكتاب فرق ما بين هاشم وعبد شمس ، وبكتاب فرق ما بين الجن والإنس ، وفرق ما بين الملائكة والجن ، وكيف القول في معرفة الهدد واستطاعة العفريت ، وفي الذى كان عنده علم من الكتاب ، وما ذلك العلم ، وما تأويل قولهم : كان عنده اسم الله الأعظم ؛ وعبتي بكتاب الأوقاف والرياضات ، وما القول في الأرزاق والإنفاقات ، وكيف أسباب التثمير والترقيح^(١) وكيف تجتلب التجار الحرفاء ، وكيف الاحتيال للودائع ، وكيف التَّسبُّب إلى الوصايا ، وما الذى يوجب لهم التعديل ، ويصيرف اليهم باب حُسن الظن ، وكيف ذكرنا غش الصناعات والتجارات ، وكيف التَّسبُّب الى تعرّف ما قد سترُوا ، وكشف ما مؤهوا ، وكيف باب الاحتراس منه والسلامة من أهله ! . وعبتي برسائلى ، وبكل ما كتبتُ به الى إخوانى وخلطائى من مَرَح وجَد ، ومن إفصاح وتعريض ، ومن تَغافل وتوقيف ، ومن هِجاء لا يزال وسمه باقيا ، ومدبح لا يزال أثره ناميا ، ومن مَلَح ، تُضْحِك ، ومواعظ تُبْكِي ؛ وعبتي برسائلى الهاشميات ، واحتجاجى فيها ، واستقصائى معانيها ، وتصويرى لها فى أحسن صورة ، وإظهارى لها فى أتم حليّة ، وزعمت أنى قد خرجتُ بذلك من حد المعتدلة الى حد الزائدة ،

(١) التثمير والترقيح : نمو المال وإصلاحه .

ومن حدّ الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه الى حدّ السرف والإفراط فيه، وزعمت أن مقالة الزيدية خطبة مقالة الرافضة، ومقالة الرافضة خطبة مقالة الغالية، وزعمت أن في أصل القضية، والذي جرت عليه العادة أن كلّ كبير فأوله صغير، وأن كلّ كبير فإنما هو قليل يجمع الى قليل، وأنشدت قول الراجز:

قد يلحق الصغير بالجليل * وإلما القرم من الأفيـل^(١)
* ويحق النخل من الفسيل *

وأنشدت قول الشاعر:

رُبّ كبيرٍ ها جَه صغير * وفي البحور تفرق البُحورُ
وقلت وقال يزيد بن الحكم:

وأعلم بُنى فإنه * بالعلم ينتفع العليم
إنّ الأمور دقيقتها * مما يبيح له العظيم

وقلت وقال الآخر:

صار جَدًا ما مَرَحْتُ به * رُبَّ جَدٍّ ساقه اللَّعبُ

وأنشدت قول الآخر وهو عنزة^(٢):

ما تَنظُرُونَ بِحَقِّ وَرْدَةٍ فيكُمْ * تُقْضَى الأُمُورُ وَرَهْطُ وَرْدَةٍ غُيْبُ
قد يَبْعَثُ الأَمْرَ الكَبِيرَ صَغِيرُهُ * حَتَّى تَظَلَّ لَهُ الدِّمَاءُ تَصَبُّبُ

وقالت كَبْشَةُ بنت مَعْدِيكَرَب:

جَدَعُمُ يَعْبُدُ اللهَ أَنْفَ قَوْمِهِ * بَنَى مَا زَيْنَ أَنْ سُبَّ رَايِي المُخَزَّمِ

وقال الآخر:

أَيَّةُ نَارٍ قَدَحَ القَادِحُ * وَأَيَّ جَدٍّ بَلَغَ المَارِحُ

(١) الأفيـل : صغر الإبل .

(٢) والصواب أن البيتين لطفه وهما من جملة أبيات في ديوانه .

وتقول العرب : « العَصَى من العَصِيَّة ولا تلِد الحَيَّة إلا حَيَّة » ؛ وعبت كتابي في خَلْق القرآن ، كما عبث كتابي في الرد على المُشَبَّهة ؛ وعبت كتابي في أصول الفُتْيَا والأحكام ، كما عبث كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن ، وغريب تأليفه ، وبديع تركيبه ؛ وعبت مُعَارَضِي الزُّبَيْدِيَّة ، وتفضيلي الاعتزال على كُلِّ نَحْلَةٍ ، كما عبث كتابي في الوعد والوعيد ، وكتابي على النصارى واليهود ؛ ثم عبث بِمُحَلَّة كَتَبِي في المعرفة ، وآلتست تهجينها بكلِّ حيلة ، وصغرت من شأنها ، وحططت من قدرها ، واعترضت على ناسخها والمتنفعين بها .

وعبث كتاب الجوابات وكتاب الرسائل ، وكتاب الرد على أصحاب الإلهام ، وكتاب الحجَّة في تثبيت بُرْهَانِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكتاب الأخبار ؛ ثم عبث كتابي إنكارى بِصِيرَةِ غَنَامِ الْمُرتَدِّ ، وبصيرة كُلِّ جاحد ومُؤمِّد ، وتفریق بين اعتزام الغمرويين ^(١) استبصار الحَقِّ ؛ وعبث كتاب الرد على الجَهْمِيَّة في الإدراك ، وفي قولهم في الجهالات ، وكتاب الفرق ما بين النبي والمُتَنَبِّي ، والفرق بين الحيل والمخاريق ، وبين الحقائق الظاهرة والأعلام القاهرة ؛ ثم قصدت الى سَابِي هَذَا بالتصغير لقدره ، والتهجين لنظمه ، والاعتراض على لفظه ، والتحقيق لمعانيه فزريت على نحتسه وسبكه ، كما زريت على معناه ولفظه ، ثم طعنت في الغرض الذي اليه نزعنا ، والغاية التي اليها أخرجنا ^(٢) ، وهنا كتاب معناه أنه من اسمه ، وحقيقته أنق من لفظه ، هو كتاب يحتاج اليه المتوسِّط العَامِّي ، كما يحتاج اليه العالم الخاَصِّي ، ويحتاج اليه الرِّئِض ، كما يحتاج اليه الخاذق .

أما الرِّئِض فللتعلُّم والدُّرْبَة ، وللتدريب والرياضة ، وللتمرين وتمكين العادة ، اذ كان جليله يتقدم دقيقه ، واذا كانت مُقدِّماته مُرتَّبة ، وطبقات معانيه مُنزَّلة ؛ وأما الخاذق فليكفاية المُوَؤَنَة ، ولأنَّ كُلَّ مَنْ التَّقَطَّ كِتَابًا جامعًا ، وبابًا من أمهات العلم مجموعًا كان له غُنْمُه ، وعلى مُؤَلِّفه غُرْمُه ، وكان له نفعه ، وعلى صاحبه كَدُّه ، مع تعرُّضه لمطاعن البُغَاة ، ولاعتراض

(١) الغمروية الفين : من لم يجرب الأمور ، والجاهل الأبله .

(٢) أخرجنا : قصدا .

المنافسين ، ومع عَرَضِهِ عَقْلَهُ الْمَكْدُودَ عَلَى الْعُقُولِ الْفَارِغَةِ ، وَمَعَانِيَهُ عَلَى الْجَهَابِذَةِ ، وَتَحْكِيمِهِ فِيهِ الْمُنَاوِلِينَ وَالْحَسَدَةَ ، وَمَتَى ظَفَرَ بِمِثْلِهِ صَاحِبَ عِلْمٍ ، أَوْ هَمَّ عَلَيْهِ طَالِبُ فِقْهِ ، وَهُوَ وَادِعٌ رَافِهِ ، وَنَشِيطٌ جَامٍ ، وَمُؤَلِّفُهُ مُتَعَبٌ مَكْدُودٌ ، فَقَدْ كَفَى مَوْؤُونَةً جَمْعَهُ ، وَخَزَنَةً وَتَابِعَهُ ، وَطَلَبَهُ ، وَأَغْنَاهُ ذَلِكَ عَنْ طُولِ الْفِكْرِ ، وَاسْتِنْفَادِ الْعَمْرِ ، وَقَلِّ الْحَدِّ ، وَأَدْرَكَ أَفْصَى حَاجَتِهِ ، وَهُوَ مُجْتَمِعُ الْقُوَّةِ ، وَعَلَى أَتٍ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَجْعَلَ هُجُومَهُ عَلَيْهِ ضَرْبًا مِنَ التَّوْفِيقِ ، وَظَفَرَهُ بِهِ بَابًا مِنَ التَّسَدِيدِ .

(وهذا كتاب) تستوى فيه رغبة الأمم ، ونشأ به فيه العرب والعجم ، لأنه وإن كان عربيا أعرابيا ، وإسلاميا جماعيا ، فقد أخذ من طُرَفِ الفلسفة ، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة ، وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة ، ويستتبه الفتيان كما يستتبه الشيوخ ، ويستتبه الفاتك كما يستتبه الناسك ، ويستتبه اللاعب ذو اللهو كما يستتبه الجدوى ذو الحزم ، ويستتبه الغفل كما يستتبه الاديب ، ويستتبه الغني كما يستتبه الفقير ، وعبثني بحكاية قول العثمانية والضرارية وأنت تسمعتني أقول في أول كتابي : وقالت العثمانية والضرارية ، وكما سمعتني أقول : وقالت الراضية والزريديّة ، فحكمت على بالنصب لحكايتي قول العثمانية ، فهلا حكمت على بالتشيع لحكايتي قول الراضية ، وهلا كنتُ عندك من الغالية لحكايتي مُحجج الغالية ، كما كنتُ عندك من الناصبة لحكايتي قول الناصبة ، وقد حكينا في كتابنا قول الإباضية والصُفْريّة ، كما حكينا أقاويل الأزارقة والنجدية ، وعلى هذه الأركان الأربعة بُنيت الخارجيّة ، وكل أسم سواها فإنما هو فرع ونتيجة وأشتقاق منها ، ومحمول عليها ، فهلا كما عندك من المحكّة الخارجة ، كما صرنا عندك من الضراريّة ، والناصبية ! وكيف رضيت بأن تكون الشيعة الى أعراض الناس أسرع من المارقة ! أللهم إلا أن تكون وجدت حكايتي عن العثمانية والضرارية أشيع وأجمع ، وأتم وأحكم وأجود صنعة ، وأبعد غاية ، ورأيتني قد وهنتُ حقّ أولئك بقدر ما قويتُ باطل أعدائك ، ولو كان ذلك كذلك لكان شاهدك من الكتاب حاضرا ، وبرهانك على ما آذمت واضحا .

وعبني بكباب العباسية فهلا عبني بحكاية مقالة من ادعى وجوب الإمامة ، ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذين زعموا أن ترك الناس سدى بلا قيم أرد عليهم ، وهملا بلا راي أرجح لهم ، وأجدر أن يجمع لهم ذلك بين سلامة العاجل ، وغنيمة الآجل ، وأت تركهم تشرا لا نظام لهم أبعد لهم من المفاسد ، وأجمع لهم على المرشد! بل ليس ذلك بك ، ولكنه لما بهرك ما سمعت ، وملا صدرك الذي قرأت ، وأبعك وأبطرك فلم نتجه للحجة وهي لك معترضة ، ولم تعرف المقاتل وهي لك بادية ، ولم تعرف باب المخرج إذ جهلت باب المدخل ، ولم تعرف المصادر إذ جهلت الموارد ؛ ورأيت أن سب الأولياء أشقى لداك ، وأبلغ في شفاء سقمك ؛ ورأيت أن إرسال اللسان أحضر لذة ، وأبعد من النصب ، ومن إطالة الفكرة ، ومن الاختلاف الى أرباب هذه الصناعة ؛ ولو كنت حين فطنت لعجزك وصلت نقصك بتمام غيرك ، واستكفيت من هو موقوف على كفاية مثلك ، وحبيس على تقويم أشباهك ، كان ذلك أزين في العاجل ، وأحق بالمشوبة في الآجل ، وكنت إن أخطأتك الغنيمة لم تحطئك السلامة ، ولقد سلم عليك المخالف ، بقدر ما أثبتى به منك الموافق ؛ وعلى أنه لم يثبت منك إلا بقدر ما ألزمته من مؤونة تثقيفك ، والتشاغل بتقويمك ؛ وهل كنت في ذلك إلا كما قال العربي : * وهل يضر السحاب نبح الكلاب * ؟ وإلا كما قال الشاعر :

هل يضر البحر أمسى زانرا * أن رمى فيه غلام بحجر
وهل حالنا في ذلك إلا كما قال الأول :
ما ضر تغلب وائل أهجوته * أم بليت حيث تناطح البحران
وقال حسان :

ما أبالي أتت بالحزن تيس * أم لحاني بظهر غيب لئيم
وما أشك أنك قد جعلت طول إعراضنا عنك مطية لك ، ووجهت حملنا عنك الى الخوف منك ، وقد قال زفر بن الحارث لبعض من لم يرحق الصفع بفعل العفو سببا الى سوء القول :

فَإِنْ عُدْتُ وَاللَّهِ الَّذِي فَوْقَ عَرْشِهِ * مَنَحْتُكَ مَسْنُونًا الْغَرَّارِينَ أَزْرَقًا
فَاتَّ دَوَاءَ الْجَهْلِ أَنْ تُضْرَبَ الطُّلَى^(١) * وَأَنْ يُغَمَّسَ الْعَرِيضُ^(٢) حَتَّى يُغْرِقَا

وقال الأول :

وَمَا نَفَى عَنْكَ قَوْمًا أَنْتَ خَائِفُهُمْ * كَمِثْلِ وَفِيكَ جَهَالًا بِجَهَالِ
فَاقْعَسَ إِذَا حِيدُوا وَأَحْدَبَ إِذَا قَعَسُوا * وَوَازَيْنِ الشَّرَّ مِثْقَالًا بِمِثْقَالِ

وقال الآخر :

وَضُغَائِنِي دَوَائِهَا بِضُغَائِنِ * حَتَّى يَمُتَنَّ بِالْحُقُودِ حُقُودًا
وَلَا نِي وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدِي سِنَانُ زُقَرِّ بْنِ الْحَارِثِ، وَلَا مُعَارَضَةٌ هَؤُلَاءِ : الشَّرُّ بِالشَّرِّ،
وَالْجَهْلُ بِالْجَهْلِ، وَالْحَقْدُ بِالْحَقْدِ، فَإِنْ عِنْدِي مَا قَالَ الْمَسْعُودِيُّ :

فَمَسَّ تَرَابَ الْأَرْضِ مِنْهَا خُلُقْتَا * وَفِيهَا الْمَعَادُ وَالْمَصِيرُ إِلَى الْحَشِيرِ
وَلَا تَعْجَبَا أَنْ تَرْجِعَا فُتْسَلَا * فَمَا حُشِيَ الْأَقْوَامُ شَرًّا مِنَ الْكِبَرِ
فَلَوْ شِئْتُ أَذْلَى فَيْكَا غَيْرُ وَاحِدٍ * عَلَانِيَةً أَوْ قَالَ عِنْدِي فِي سِتْرِ
فَإِنْ أَنَا لَمْ أَمْرُ وَلَمْ أَنَّهُ عُنْكَمَا * ضَحِكْتُ لَهُ حَتَّى يَلْجَ وَيَسْتَشِيرِي^(٣)

وقال الثَّوْرِيُّ بْنُ تَوَلَّبَ :

جَزَى اللَّهُ عَنِّي حَمَزَةَ بَنَةِ تَوَلِّدٍ * جَزَاءَ مُغِيلٍ بِالْأَمَانَةِ كَاذِبٍ
بِمَا خَبَرْتُ عَنِّي الْوُشَاةَ لِيَكْذِبُوا * عَلَى وَقْدِ أَوْلِيَّتِهَا فِي النَّوَائِبِ
يقول : أخرجت خبري إلى من يشتهي أن أعاب عندها .

ولو شئنا لعارضناك من القول بما هو أفصح أثرًا، وأبقى وشما، وأصدق قِيلًا، وأعدل
شاهدًا، وليس كل من ترك المعارضة فقد صفع، كما أنه ليس كل من عارض فقد انتصر،

(١) الطلى : الأعناق .

(٢) العريض : الذي يتعرض للناس بالشر .

(٣) كذا في الأصل ، وفي اللسان في مادة بلج : تضاحكت حتى يبلج ويستشيري .

وقد قال الشاعر قولاً إن فهمته كفيئنا مؤونة المعارضة ، وكفيت نفسك لزوم العار ، وهو قوله :

إِنْ كُنْتَ لَا تَرْهَبُ ذِمِّي لِمَا * تَعْرِفُ مِنْ صَفِيحِي عَنِ الْجَاهِلِ
فَاخْشَ سَكَوِي آذِنًا مُنْصِتًا * فَيْكَ لَمَسْمُوعِ خَنَا الْقَائِلِ
فَالسَامِعُ الذِّمُّ مُقَرَّبُهُ * كَالْمَطْعَمِ الْمَاكُولِ لِلْآكِلِ
مَقَالَةُ السُّوءِ إِلَى أَهْلِهَا * أَسْرَعُ مِنْ مُنْجِدِ سَائِلِ
وَمَنْ دَعَى النَّاسَ إِلَى ذَمِّهِ * ذَمُّهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ
فَلَا تَهْجُ إِنْ كُنْتَ ذَا إِرْبَةٍ * حَرْبَ أَخِي التَّجْرِبَةِ الْعَاقِلِ
فَإِنَّ ذَا الْعَقْلِ إِذَا هَجَّاهُ * هَجَّتْ بِهِ ذَا خَبَلٍ خَابِلِ
يُبْصِرُ فِي عَاجِلِ شِدَاتِهِ * عَلَيْكَ غَبُّ الضَّرْرِ الْآجِلِ

وقد يقال : إنَّ العفو يُفسدُ من اللِّيم بقدر إصلاحه من الكريم ؛ وقد قال الشاعر :

وَالْعَفْوُ عِنْدَ كَيْبِ الْقَوْمِ مَوْعِظَةٌ * وَبَعْضُهُ لَسَمِيهِ الْقَوْمِ تَذْرِيبُ

فإنَّ كما قد أسأنا في هذا التقرير والتوقيف ، فالذي لم يأخذ فينا بحكم القرآن ، ولا بأدب الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم يفرع إلى ما في الفطن الصحيحة ، أو إلى ما توجبُه المقاييسُ المطردة ، والأمثالُ المضروبةُ ، والأشعارُ السائرة ، أو إلى بالإساءة ، وأحقُّ باللائمة ، قال الله جلَّ شأوه : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : ” لا تجنَّ يمينك على شمالك ” وهذا حكم الله جلَّ وعزَّ ، وآدابُ رسوله ، والذي أنزل به الكتاب ، ودلَّ عليه في حجج العقول .

أخذ البريء بذنب المذنب

ثم قال في أخذ البريء بذنب المذنب : فأما ما قالوا في المثل المضروب ، ” رَمَيْتَنِي بِدَائِهَا وَأَنْسَلْتُ “ . وأما قولُ الشعراء وذمُّ الخطباء لمن أخذ إنساناً بذنب غيره ، وما ضربوا في ذلك من الأمثال ، كقول النابغة حيث يقول في شعره :

وَكَلَّفْتَنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ * كَذَى الْعُرْيُكُوِيَّ غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعٌ

وكانوا إذا أصاب إبلهم العُزُكُورُ السليم ليذهب العُرُّ عن السقيم فأسقموا الصحيح من غير أن يُبرِّثوا السقيم، وكانوا إذا كثرت إبلُ أحدهم فبلغت الألف ففَقَّسُوا عَيْنَ الفحل، فإن زادت الإبلُ على الألف ففَقَّسُوا عَيْنَهُ الأخرى، فذلك المُفَقِّأُ والمُعَمَّى اللذان سمعتَ بهما قال الفرزدق :

غلبْتُكَ بالمُفَقِّأِ والمُعَمَّى ^(١) * وَبَيْتِ الْمُحْتَبِي ^(٢) وَالْخَانِفَاتِ
وكانوا يرمون أن المُفَقِّأَ يَطْرُدُ عنها العينَ والسَّوْفَ والغارة فقال الأول :
فَقَّاتُ لَهَا عَيْنَ الْفَحِيلِ تَعِيفًا * وَفِيهِنَّ رَعْلَاءُ الْمَسَامِعِ وَالْحَامِ
الرَّعْلَاءُ : التي تُسَقُّ أذنُها وتترك مُدَلَّاةً لِكَرَمِهَا .

وكانوا يقولون في موضع الكفارة والأمنية، كقول الرجل إذا بلغت إبلُ كذا وكذا، وكذلك غنمى ذبخت عند الأوثان كذا وكذا عتيرة، والعتيرة : من نُسِكَ الرَّجِيَّةُ، والجمع عتائر، والعتائر من الشاء، فإذا بلغت إبلُ أحدهم أو غنمهُ ذلك العدد آستعمل التأويل وقال : إنما قلتُ :
إِنِّي أَذْبَحُ كَذَا وَكَذَا شَاءً، والظباء : شاء، كما أن الغنمَ شاءً، بفعل ذلك القُربان كله مما يصيد من الظباء، فلذلك يقول الحارث بن حِزَّاةَ اليشْكُريّ :

عَتَا بِاطْلَا سَدُوحًا كَمَا تُعَدُّ ^(٣) * سَتَرُ عَنْ مُجَرَّةِ الرَّيْبِضِ الظَّبَاءُ

بعد أن قال :

أَمْ عَلَيْنَا جُنَاحُ كِنْدَةٍ أَنْ يَغْدُ * نَمَّ غَازِيهِمْ وَمَنَا الْجَزَاءُ
وكانوا إذا أوردوا البقرَ فلم تشرب، إما لكدرِ الماء وإما لقلَّةِ العطش، ضربوا الثَّوَرِ ليقْتَحِمَ الماءَ لِأَنَّ البقرَ تَتَّبِعُهُ كما تَتَّبِعُ الشَّوْلُ الفحل، وكما تَتَّبِعُ أَتْنُ الوَحْشِ الجِمارَ، فقال في ذلك عوف بن الحرَّير :

تَمَنَّتْ طَيِّئٌ جَهْلًا وَجُبْنًا * وَقَدْ خَالَيْتُهُمْ فَأَبَوْا خِلَائِي
هَجُونِي أَنْ هَجُوتُ جِبَالَ سَلَمَى * كَضَرْبِ السَّوْرِ لِلْبَقْرِ الظَّبَاءِ

(١) في اللسان مادة « فقا » « المعنى » . (٢) كذا في الأصل وفي السات « المحبتي »

بالحاء المهملة . (٣) السواف : مرض الابل . (٤) كذا في الأصل وفي اللسان مادة عثر « وظلها » .

وقال في ذلك أنس بن مُدْرِكَةَ في قتله سُلَيْكَ بن السُّلَكَةِ :

إِنِّي وَقَتَلْتُ سُلَيْكًا ثُمَّ أَغْفَلُهُ * كَالثَّوْرِ يُضْرَبُ لِمَا عَافَتِ الْبَقْرُ
(١) أَنَفَتِ لِلدَّرِّ إِذْ تُغَشَّى حَلِيلَتُهُ * (٢) وَإِذَا يُسَدُّ عَلَى وَجْعَائِهَا الثُّفُرُ (٣)

وقال الهَيْبَانُ الْفَهْمِيُّ :

كَمَا ضُرِبَ الْيَعْسُوبُ أَنْ عَافَ بَاقِرٌ * وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتِ الْمَاءَ بَاقِرٌ

ولما كَانَ الثَّوْرُ أَمِيرَ الْبَقَرِ، وَهِيَ تَطِيْعُهُ كَطَاعَةِ إِمَائِهِ لِلنَّحْلِ لِلْيَعْسُوبِ سَمَاءَ بِأَسْمِ أَمِيرِ

النَّحْلِ .

وكانوا يزعمون أن الْخَنَّ هِيَ الَّتِي تَصِدُّ الْبَقَرَةَ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى تُنَمِّسَ الْبَقْرَ عَنِ الشَّرْبِ

حَتَّى تَهْلِكَ ؛ وَقَالَ فِي ذَلِكَ الْأَعَشِيُّ :

وإِنِّي وَإِنْ كَلَفْتُمُونِي وَرَبِّكُمْ * لِأَعْلَمُ مَنْ أَمْسَى أَحَقُّ وَأَحْوَا
لِكَالْثَّوْرِ وَالْخَنَّى يُضْرَبُ ظَهْرَهُ * وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتِ الْمَاءَ مَشْرَبَا
وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتِ الْمَاءَ بَاقِرٌ * وَمَا إِنْ تَعَافَى الْمَاءُ إِلَّا لِتُضْرَبَا

كَأَنَّهُ قَالَ : إِذَا كَانَ يُضْرَبُ أَبَدًا لِأَنَّهُ عَافَتِ الْمَاءَ، فَكَأَنَّهُ إِذَا عَافَتِ الْمَاءَ لِيُضْرَبَ ؛

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَنْصُورِ الدَّهْلِيِّ فِي ذَلِكَ :

لِكَالْثَّوْرِ وَالْخَنَّى يُضْرَبُ وَجْهَهُ * وَمَا ذَنْبُهُ إِنْ كَانَتْ الْخَنُّ ظَالِمَةً

وَقَالَ نَهْشَلُ بْنُ جَرِّ :

أَتُتْرَكُ عَارِضٌ وَبَنُو عَدِيٍّ * وَتَغْرَمُ دَارُهُمْ وَهُمْ بُرَاءُ
كَدَابِ الثَّوْرِ يُضْرَبُ بِالْهَرَاوِي * إِذَا مَا عَافَتِ الْبَقْرُ الظَّهْرَ
وَكَيْفَ تَكَلَّفُ الشَّعْرَى سَهْمِيلاً * وَبَيْنَهُمَا الْكَوَاكِبُ وَالسَّمَاءُ

(١) فِي اللِّسَانِ : « غَضِبْتُ » . (٢) فِي الْأَصْلِ « وَإِنْ » وَالنَّصُوبُ عَنِ اللِّسَانِ .

(٣) الثُّفُرُ : السِّرُّ الَّذِي فِي مُؤَخَّرِ السَّرِّجِ .

وقال أبو نُؤَيْرَةَ بن حُصَيْنٍ حين أَخَذَهُ الْحَكُّمُ بنُ أَيُّوبَ ذَنْبَ الْعَطْرَقِ :

أبا يوسُفَ لو كُنْتَ تَعْلَمُ طاعِي * ونُصَحِي إِذَا مابَعَثَنِي بِالْحُلُقِ
ولا ساقِ سَرَّاقِ العُرَافَةِ صالِحُ * بَنِيَّ ولا كُفِّتُ ذَنْبَ الْعَطْرَقِ

وقال خَدَّاشُ بن زُهَيْرٍ حين أَخَذَ بَدْمَاءَ بنِي مُحَارِبٍ :

أَكُفِّ قَتْلِي مَعْشِرَ لِسْتُ مِنْهُمْ * ولا دارَهُم دَارِي ولا نَصْرَهُم نَصْرِي
أَكُفِّ قَتْلِي الْعِيصِ عِيصِ شُواحِطِ * وذلك أَمْرٌ لَمْ تُشَفِّ لَهُ قِدرِي

وقال الآخر :

إِذَا عَرَكْتَ عَجَلُ بَنَّا ذَنْبَ طَيِّئِ * عَرَكْنَا بَنِيَّ اللَّاتِ ذَنْبَ بنِي عَجَلِ

ولما وجد اليهوديُّ أَخَا حَنِيصِ الضُّبَابِيِّ في مَنْزِلِهِ نَخْصَاهُ فَمَاتَ ، وأَخَذَ حَنِيصُ بنِي عَبَسَ
بِجَنَايَةِ الْيَهُودِيِّ قال قَيْسُ بن زُهَيْرٍ : أَتَأْخُذُنَا بِذَنْبِ غَيْرِنَا ، وَتَسْأَلُنَا الْعَقْلَ ، وَالْقَاتِلُ يَهُودِيٌّ
مِنْ أَهْلِ تَيْمَاءَ ؟ قال : وَاللَّهِ لو قَتَلَهُ هَيْفَ الرِّيحِ لَوَدِدْتُمُوهُ ، فَقَالَ قَيْسُ لَبَنِي عَبَسَ : الْمَوْتُ
فِي بَنِي دُبَيَّانَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنَ الْحَيَاةِ فِي بَنِي عَامِرٍ ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

أَكُفِّ ذَا الْخُصِيِّينَ إِنْ كَانَ ظالِمًا * وَإِنْ كُنْتُ مَظْلُومًا وَإِنْ كُنْتُ شَاطِئًا
خَصَاهُ أَمْرٌ مِنْ أَهْلِ تَيْمَاءَ طابَ * ولا يَعْدَمُ الْإِنْسِيُّ وَالْحَنُّ طابَنا
فَهَلَّا بَنِي دُبَيَّانَ أُمُّكَ هابِلُ * رَهَنْتَ يَهْيَفُ الرِّيحِ إِنْ كُنْتُ رَاهِبًا
إِذَا قُلْتُ قَدْ أَفْلُتُ مِنْ شَرِّ حَنِيصِ * أَنَا بَنِيَّ بِأُخْرَى شَرُّهُ مُتَبَاطِنًا
فَقَدْ جَعَلْتُ أَكْبَادُنَا تُجْتَوِيكُمْ * كَمَا تُجْتَوِي سُوقَ الْعِضَاهِ الْكَارِزَانَا

ولَمَّا قَتَلَ لُقْمَانَ بن عادَ ابْنَتَهُ وَهِيَ مُخَوَّرٌ بَنَتْ لُقْمَانُ قال حين قَتَلَهَا : أَلَسْتُ أَمْرَأَةً ؟
وذلك أَنَّهُ تَزَوَّجَ عِدَّةَ نِسَاءَ وَكُلُّهُنَّ خُنَّهُ فِي أَنْفُسِهِنَّ ، فَلَمَّا قَتَلَ أَنْرَاهَنَ وَنَزَلَ مِنَ الْجَبَلِ كَانَ
أَوَّلَ مَنْ تَلَقَّاهُ مُخَوَّرَ ابْنَتَهُ ، فَوَثَبَ عَلَيْهَا فَقَتَلَهَا ، وَقَالَ وَأَنْتِ أَيْضًا أَمْرَأَةٌ ؛ وَكَانَ قَدْ ابْتُلِيَ أَيْضًا
بِأَنَّ أَخْتَهُ كَانَتْ مُحَقَّقَةً ، وَكَذَلِكَ كَانَ زَوْجُهَا ، فَقَالَتْ لِأَحَدِي نِسَاءَ لُقْمَانَ : هَذِهِ لَيْلَةُ طَهْرِي

وهي ليلتك ، فدعيني أتم في مضجعك ، فإن لقمان رجلٌ مُنِجِبٌ ، فعسى أن يقع على فأُنِجِبَ ،
فوقع على أخته فحملت بُلُقِيمَ وفي ذلك قول النمر بن تولب :

لُقَيْمُ بْنُ لُقْمَانَ مِنْ أَخْسِهِ * فَكَانَ ابْنُ أَخِي لَهُ وَابْنًا
لِيَالِي حُمُقٍ فَاسْتَحْصَنْتُ * عَلَيْهِ فَعُورٌ بِهَا مُظْلِمًا
فَأَحْبَاهَا رَجُلٌ مُحْكَمٌ^(١) * بِفَاءٍ بِهِ رَجُلًا مُحْكَمًا

فضربت العرب في ذلك المثل بقتل لقمان بنده مُحْكَمًا فقال خُفَافُ بْنُ نَذْبَةَ في ذلك :
وَعَبَّاسٌ يُدِبُّ لِي الْمَنَاسِيَا * وَمَا أَذْنِبْتُ إِلَّا ذَنْبَ مُحْكَمٍ

وقال في ذلك ابنُ أُذَيْنَةَ :

أَتَجْمَعُ تَهِيَامًا بَلِيلًا إِذَا نَأَتْ * وَهَجْرَانَهَا ظُلُمًا كَمَا ظَلِمَتْ مُحْكَمُ

وقال الحارث بن عباد :

قَرَّبًا مَرْبُوطِ النِّعَامَةِ مَنَى * لَقِيعَتْ حَرْبٌ وَائِلٌ عَنْ حِيَالِ
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَّاتِهَا عِلْمُ اللَّهِ * لَهُ وَإِنِّي بِحَرْثِهَا الْيَوْمَ صَالِي

وقال الشاعر وأظنه ابنُ المَقْقَعِ :

فَلَا تِلْمِ الْمَرْءَ فِي شَأْنِهِ * فَرَبٌّ مَلُومٌ وَلَمْ يُذْنِبِ

وقال آخر :

لَعَلَّ لَهُ عَذْرَا وَأَنْتَ تَلُومُ * وَكَمْ لَائِمٌ قَدْ لَامَ وَهُوَ مُلِيمٌ

وقال بعض العرب في قتل بعض الملوك سِنْدِيارَ الرومي : فإنه لما علا الخوَرَنَقُ ، ورأى
بُنْيَانًا لم يَرِ مثله ، ورأى ذلك المستَشْرِفَ ، وخاف أن هو آستبقاه أن يموت فيبنى مثل ذلك
البُنْيَانِ لِمَلِكٍ آخَرٍ ، فأمر به فُرِّمِيَ من فوق القصر ، فقال في ذلك الكَلْبِي في شيء كان بينه وبين
بعض الملوك :

(١) وررى : تائه .

جَزَائِي جَزَاهُ اللَّهُ شَرَّ جَزَائِهِ * جَزَاءَ سِنِّارٍ وَمَا كَانَ ذَا ذَنْبٍ
 سِوَى رَصَصِهِ الْبُيَّانَ سَبْعِينَ حَجَّةً * يُعَلَّى عَلَيْهِ بِالْقِرَامِيدِ وَالسَّكْبِ
 فَلَمَّا رَأَى الْبُيَّانَ تَمَّ سَحُوقُهُ * وَأَضَّ كَيْثُ الطُّودِ ذِي الْبَاذِخِ الصَّعْبِ
 فَظَنَّ سِنِّارٌ بِهِ كُلَّ حَبْوَةٍ * وَفَازَ لَدَيْهِ بِالْمَوَدَّةِ وَالْقُرْبِ
 فَقَالَ اقْذِفُوا بِالْعُلُجِ مِنْ رَأْسِ شَاهِقِي * فَذَاكَ لَعَمْرُ اللَّهِ مِنْ أَعْظَمِ الْخَطْبِ

وجاء المسلمون يَرَوِي خَلْفٌ عَنْ سَلَفٍ ، وَتَابَعٌ عَنْ سَابِقٍ ، وَاتَّحَرُّ عَنْ أَوَّلٍ ، أَنَّهُمْ
 لَمْ يَخْتَلَفُوا فِي عَيْبِ قَوْلِ الْحَجَّاجِ : لَأَخُذْتُ ، السِّمَّى بِالسِّمَى وَالْوَلَى بِالْوَلَى ، وَالْجَارَ بِالْجَارِ ،
 وَلَمْ يَخْتَلَفُوا عَنْ لَعْنِ شَاعِرِهِمْ حَيْثُ يَقُولُ :

إِذَا أَخَذَ الْبَرِيءُ بِغَيْرِ جُرْمٍ * تَجَنَّبَ مَا يُحَادِرُهُ السَّقِيمُ

قَالَ : وَقِيلَ لِعَمْرٍو بْنِ عُبَيْدٍ إِنَّ فَلَانًا لَمَّا قَدَّمَ رَجُلًا لِيَضْرِبَ عُنُقَهُ فَقِيلَ لَهُ : إِنَّهُ
 مَجْنُونٌ ، قَالَ : لَوْلَا أَنَّ الْمَجْنُونِ يَدُ عَاقِلًا خَلَّيْتُ سَبِيلَهُ ، قَالَ فَقَالَ عَمْرٍو : وَمَا خَلَقَ اللَّهُ النَّارَ
 إِلَّا بِالْحَقِّ .

وَلَمَّا قَالَتِ التَّغْلِيَّةُ لِلْجَحَافِ بْنِ حَكِيمٍ فِي وَقْعَةِ الْإِشْرِ : فَصَّ اللَّهُ عِمَادَكَ ، وَأَطَالَ سُمَادَكَ ،
 وَأَقْلَّ رِمَادَكَ ، فَوَاللَّهِ إِنْ قَتَلْتُ إِلَّا نِسَاءَ أَصَافِلِهِنَّ دُمِّي ، وَأَعَالِيهِنَّ نَدْيِي ، فَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ : لَوْلَا
 أَنْ تَلِدَ هَذِهِ مِثْلَهَا خَلَّيْتُ سَبِيلَهَا ، فَبَلَغَ ذَلِكَ الْحَسَنَ فَقَالَ : إِنَّ الْجَحَافَ جَدُّوهُ مِنْ نَارِجِهِمْ .
 قَالَ وَذَمَّ رَجُلٌ عِنْدَ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسِ الْكَلَّاءَةِ بِالسَّمَنِ ، فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ الْأَحْنَفِ : رَبُّ
 مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ ، فَبِهَذِهِ السِّيرَةِ سَرَّتْ فِينَا ، وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
 ابْنِ حَسَّانَ :

وَإِنْ أَمْرًا يَمْسَى وَيَصْبِحُ سَالِمًا * مِنْ النَّاسِ إِلَّا مَا جَنَى لَسَعِيدُ

وَقُلْتُ : وَمَا بَالُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالنَّظَرِ ، وَأَصْحَابِ الْفِكْرِ وَالْعِبَرِ ، وَأَرْبَابِ النَّحْلِ ، وَالْعُلَمَاءِ
 بِخَارِجِ الْمَلَلِ ، وَوَرِثَةِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَعْوَانِ الْخُلَفَاءِ ، يَكْتُبُونَ كُتُبَ الظُّرْفَاءِ وَالْمُلْحَاءِ ، وَكُتُبَ
 الْفَرَاغِ وَالْخُلَعَاءِ ، وَكُتُبَ الْمَلَاهِي وَالْفُكَاهَاتِ ، وَكُتُبَ أَصْحَابِ الْخُصُومَاتِ وَالْمِزَاءِ ، وَكُتُبَ

أصحاب العصبية، وحمية الجاهلية، حتى كأنهم لا يحاسبون أنفسهم، ولا يُوازنون بين ما عليهم ولهم، ولا يخافون تصفّح العلماء، ولا لائمة الأدباء وشنّف الأكفاء، ومساءة الجلّساء؛ فهلاًّ أمسكت رحمك الله عن عيبتنا، والطعن عليها، وعن المشورة والموعظة، وعن تخويف ما فيه سوء العاقبة الى أن تبلغ حال العلماء، ومراتب الأكفاء.

أقسام البيان

وبعد أن تكلم في تقسيم العالم الى ثلاثة أقسام، وذكر أقسام الحيوان، قال في أقسام البيان :

وجدنا الحكمة على ضربين : شئٌ جعل حكمةً وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة، وشئٌ جعل حكمةً وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة، فاستوى بدن الشئ العاقل وغير العاقل في جهة الدلالة على أنه حكمة، واختلفا من جهة أن أحدهما دليلٌ لا يستدلُّ، والآخر دليلٌ يستدلُّ، فكلُّ مُستدلٍّ دليلٌ، وليس كلُّ دليلٍ مُستدلٍّ، فشارك كلُّ الحيوان سوى الإنسان جميع الجساد في الدلالة وفي عدم الاستدلال، واجتمع للإنسان بأن كان دليلاً مُستدلّاً، ثم جعل لمُستدلٍّ سببٌ يدلُّ به على وجوه استدلاله، ووجوه ما نتج له الاستدلال، وتسموا ذلك بياناً؛ وجعل ذلك البيان على أربعة أقسام : لفظٍ وخطٍ وعقدٍ وإشارة، وجعل بيان الدليل الذي لا يستدلُّ تمكينه المُستدلُّ من نفسه واقتياده كلَّ من فكر فيه الى معرفة ما استخزن من البرهان، وحشى من الدلالة، وأودع من عجب الحكمة؛ فالأجسام الخرس الصامتة ناطقة من جهة الدلالة، ومُعربةٌ من جهة صحة الشهادة، على أن الذي فيها من التدبير والحكمة تلوحان لمن استخبرهما، وينطقان لمن استنطقهما كما ينخر الهزال وبود اللون عن سوء الحال، وكما ينطق السمن والنضرة عن حسن الحال، وقد قال الشاعر :

فعاجزوا فأثنوا بالذي أنت أهله * ولوسكتوا أثنت عليك الحقائق

وقال آخر :

مَتَى تَكُ فِي عَدُوٍّ أَوْ صَدِيقٍ * تَحْبِرُكَ الْعَيُونُ عَنِ الْقُلُوبِ

وقد قال العُكْلَى في صدق شمه الذئب ، وفي شدة حسه وأسترواحه :

يستخبر الريح إذا لم يسمع * بمثل مقراع الصفا الموقع

وقال عنزة وهو يصف نعيب غراب :

حرق الجناح كأن لحيت رأسه * جالمان بالأخبار هش مولى

وقال الفضل بن عيسى بن أبان في قصصه : سل الأرض فقل : من شق أنهارك ،
وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ؛ فإن لم تجبك حوارا ، أجابتك اعتبارا ، فموضوع الجسم
ونصبتة دليل على ما فيه ، وداعية إليه ومنبهة عليه ، فالجماد الأبكم الأنخرس من هذا الوجه
قد شارك في البيان الإنسان الحي الناطق ؛ فن جعل أقسام البيان خمسة فقد ذهب أيضا
مذهبا له جواز في اللغة ، وشاهد في العقل ، فهذا أحد قسمي الحكمة ، وأحد معني
ما آستخزنها الله تعالى من الودعة .

القسم الأخرى ما أودع صدورُ صنوف سائر الحيوان من ضروب المعارف ، وفطرها
على غريب الهدايات ، وسخر حناجرها له بضرب النغم الموزونة ، والأصوات الملحنة ،
والمخارج الشجية ، والأغاني المطربة ، فقد يقال : إن جميع أصواتها معدلة ، وموزونة
موقعة ، ثم الذي سهل لها من الرفق العجيب في الصنعة مما ذلله الله تعالى لمناقيرها وأكفها ،
وكيف فتح لها من باب المعرفة على قدر ما هيأ لها من الآلة ، وكيف أعطى كثيرا منها من
الحس اللطيف ، والصنعة البديعة عن غير تأديب وثقيف ، وعن غير تقويم وتلقين ، وعن
غير تدرج وتمرين ، فبلغت بعفوها ومقدار قوَى فطرتها من البديه والارتجال ، ومن
الابتداء والاقتضاب ، ما لا يقدر عليه حدائق رجال الرأي ، وفلاسفة علماء البشر ببيد
ولا آلة ، بل لا يبلغ ذلك من الناس أكلهم خصالا ، وأتمهم حلالا ، من جهة الارتجال
والاقتضاب ولا من جهة التعسف والاقتدار ، ولا من جهة التقديم فيه ، والتأني له ،
والترتيب لمقدماته ، وتمكين الأسباب المينة عليه فصار جهد الإنسان الثاقب الحس ،
الجامع القوَى ، المتصرف في الوجوه المتقدم في الأمور يعجز عن عفو كثير منها ، وينظر إذ نظر

الى ضرور ما يبيح منها كما أعطيت العنكبوت ، وكما أعطيت السُرْفَةُ ، وكما علم النحل ، بل عرّف التَّوَطُّ من بديع المعرفة ، ومن غريب الصنعة في غير ذلك من أصناف الخلق ثم لم يوجد لهم العجز في أنفسهم في أكثر ذلك إلا عما قوى عليه الهمج والخشاش وصغار الحشرات ، ثم جعل الإنسان ذا العقل والتمكين ، والاستطاعة والتصريف ، وذا التكلف والتجربة ، وذا التآني والمنافسة ، وصاحب الأذخار والمتفقد لشأن العاقبة متى أحسن شيئا كان كل شيء دونه في الغموض عليه أسهل ، وجعل سائر الحيوان وإن كان يحسن أحدها ما لا يحسن أحذق الناس متى أحسن شيئا عجيبا لم يمكنه أن يحسن ما هو أقرب منه في الظن ، وأسهل منه في الرأي ، بل لا يحسن ما هو أقرب منه في الحقيقة ، فلا الإنسان جعل نفسه كذلك ، ولا شيء من الحيوان اختار ذلك ، فأحسنّت هذه الأجناس بلا تعلم ما يمتنع على الإنسان ، وإن تعلم فصار لا يحاوله إذ كان لا يطمع فيه ، ولا يحسدها إذ كان لا يأمل اللحاق بها ، ثم جعل تعالى وعز هاتين الحكمتين إزاء عيون الناظرين ، وتجاه أسماع المعتبرين ، ثم حث على التفكير والاعتبار ، وعلى الاعتاض والأزدجار ، وعلى التعرّف والتبيين ، وعلى التوقف والتذكّر ، بفعلها مذكّرة منبهة ، وجعل الفطر تنشئ الخواطر ، وتجول بأهلها في المذاهب ، ذلك رب العالمين ، سبحانه الله رب العالمين .

وهذا كتاب موعظة وتعريف ، وتفقيه وتبويه ، وأراك قد عبته قبل أن تقف على خدوده ، وتنفكر في فصوله ، وتذكّر آخره بأوله ، ومصادره بموارده ، وقد غلطك فيه بعض ما رأيت في أشائه من مزيج لم تعرف معانيه ، ومن بطلالة لم تدرك قورها ، ولم تدر لم آجتلبت ولأى علة تكلفت ، وأى معنى أربغ بها ، ولأى جد احتمل ذلك الهزل ، ولأى رياضة مجشمت تلك البطالة ، ولم تدر أن المزاج جد إذا آجتلب لأن يكون علة للجد ، وأن البطالة موقار وزمانة إذا تكلفت لتلك العاقبة ، ولما قال الخليل بن أحمد : لا يصل أحد من علم النحو الى ما يحتاج اليه حتى يتعلم ما لا يحتاج اليه ، قال أبو شمر : إذا كان لا يصل الى ما يحتاج اليه إلا بما لا يحتاج اليه فقد صار ما لا يحتاج اليه يحتاج اليه ، وذلك

مثل كتابنا هذا ، لأننا إن حملنا جميع من يتكلف قراءة هذا الكتاب على مَرِّ الحق ، وصُعوبة
الجد ، ونقل المؤونة وحقيقته الوفار ، لم يصبر عليه مع طوله إلا من قد تجرد للعلم وفيهم
معناه ، وذاق من ثمرته ، واستشعر من شذره ، ونال من سروره على حسب ما بورت الطول
من الكد ، والكثرة من السامة ، وما أكثر من يقاد الى حظه بالسواجير ، وبالسوق
العنيف ، وبالإخافة الشديدة .

مدح الكتب

ثم ذكر فقرات حسناً في مدح الكتب فقال :

ثم لم أرك رضيت بالطن على كل كتاب لي بعينه ، حتى تجاوزت ذلك ، الى أن عبت
وضع الكتب كيف دارت بها الحال ، وكيف تصرف بها الوجوه ، وقد كنت أعجب
من عيبك البعض بلا علم ، حتى عبت الكل بلا علم ، ثم تجاوزت ذلك الى التشنيع ، ثم
تجاوزت التشنيع الى نصب الحرب ، فعبت الكتاب ونعم الذخر والعدة ، ونعم الجليس
والعمدة ، ونعم النشوة والنزهة ، ونعم المشتغل والخرفة ، ونعم الأئیس ساعة الوحدة ، ونعم
المعرفة ببلاد الغربة ، ونعم القربين والدخيل ، ونعم الوزير والوزير ، والكتاب وعاء ملي
علم ، وظرف حثي ظرفاً ، وإناء شخن مزاحاً وجداً ، إن شئت كان أبين من سخبان
وائل ، وإن شئت كان أعيان باقل ، وإن شئت صحت من بواده ، وإن شئت عجبت
من غرائب فوائده ، وإن شئت ألهت نواذره ، وإن شئت شجبت مواعظه ، ومن لك
بواعظ مثله ، وبزاجي مفير ، وبناسك فاتك ، وبناطقي أحرس ، وببارد حار ، وفي البارد الحار
يقول الحسن بن هاني :

قل لزهير اذا أنتهى وشدا * أقلل أو أكثر فأنت مهذار
سخت من شدة البرودة حتى صرت عندي كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفتي * كذلك الثلج بارد حار

وَمَنْ لَكَ بِطَبِيبٍ أَعْرَابِيٍّ ، وَبُرُومِيٍّ هِنْدِيٍّ ، وَبِفَارِسِيٍّ يُونَانِيٍّ ، وَبِقَسَدِيمٍ مَوْلَدٍ ،
وَبِمَيْتٍ مُتَمَتِّعٍ ، وَمَنْ لَكَ بِشَيْءٍ يَجْمَعُ لَكَ الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ ، وَالنَّاقِصَ وَالْوَافِرَ ، وَالْخَفِيَّ وَالظَّاهِرَ ،
وَالشَّاهِدَ وَالْغَائِبَ ، وَالرَّفِيعَ وَالْوَضِيعَ ، وَالْعَفْثَ وَالسَّمِينَ ، وَالشَّكْلَ وَخِلَافَهُ ، وَالْجَنَسَ وَضِدَّهُ .
وبعد ، فمَنِّي رأيتُ بستاناً يُجَلُّ في رُدنٍ ، أوروْضةً تُتَقَلَّبُ في حِجْرٍ ، وناطقاً ينطق عن
المَوْتِ ، وَيُتَرَجِّمُ كَلَامَ الْأَحْيَاءِ ؛ وَمَنْ لَكَ بِمُؤْنِسٍ لَا يَنَامُ إِلَّا بِمَوْتِكَ ، وَلَا يَنْطِقُ إِلَّا بِمَا
تَهْوَى ، آمِنٌ مِنَ الْأَرْضِ ، وَأَكْتَمُ لِلسَّرِّ مِنْ صَاحِبِ السَّرِّ ، وَأَضْبَطُ لِلوَدِيعَةِ مِنْ أَرْبَابِ
الْوَدِيعَةِ ، وَاحْفَظْ لِمَا آسَتْ حِفْظُ مِنَ الْأُمَمِيِّينَ ، وَمِنَ الْأَعْرَابِ الْمُعَرَّبِينَ ، بَلْ مِنْ الصَّبِيَّانِ
قَبْلَ اعْتِرَاضِ الْأَشْغَالِ ، وَمِنَ الْعُمَيَّانِ قَبْلَ التَّمَتُّعِ بِتَمَيُّزِ الْأَشْخَاصِ ، حِينَ الْعَنَاءُ تَامَّةٌ لَمْ تَنْقُصْ ،
وَالْإِذْهَانُ فَارِغَةٌ لَمْ تُقْتَسَمْ ، وَالْإِرَادَةُ وَافِرَةٌ لَمْ تَسْتَعِبْ ، وَالطَّيْنَةُ لَيِّنَةٌ فَهِيَ أَقْبَلُ مَا تَكُونُ لِلطَّايِعِ ،
وَالْقَضِيبُ رَطْبٌ فَهُوَ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنَ الْعُلُوقِ ، حِينَ هَذِهِ الْخِصَالُ لَمْ يَتَّيَلَّ جَدِيدُهَا ،
وَلَمْ يَقْلَّ غَرَبُهَا ، وَلَمْ تَتَفَرَّقْ قُوَاهَا ، وَكَانَتْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أُعْرِفَ الْهَوَى * فَصَادَفَ قَلْبًا فَارِغًا فَتَمَكَّنَا
وَقَالَ عَبْدَةُ بْنُ الطَّبِيبِ ^(١) :

لَا تَأْمَنُوا قَوْمًا يَشِبُّ صَبِيَّهُمْ * بَيْنَ الْقَوَابِلِ بِالْعَدَاوَةِ يُنْشَعُ
هَذَا مَعَ قَوْلِهِمْ : التَّعَلُّمُ فِي الصِّغَرِ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ ؛ وَقَالَ جِرَانُ الْعَوْدِ :
تُرْكَنُ بِرِخْلَةِ الرُّوحَاءِ حَتَّى * تَتَكَرَّرَ الدِّيَارُ عَلَى الْبَصِيرِ
كَوَحْيٍ فِي الْحَجَارَةِ أَوْ وَشُومٍ * بِأَيْدِي الرُّومِ بَاقِيَةِ النُّوْرِ
النُّوْرُ : شَيْءٌ كَانَ يُعْمَلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِثْلَ الْخِصْرِ الْيَوْمِ .

وَقَالَ آخَرُهُ وَهُوَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقَدُوسِ :

وَمَنْ مَنِ أَدْبَتَهُ فِي الصَّبَا * كَالْعُودِ يُسْقَى الْمَاءَ فِي غَرَسِهِ
حَتَّى تَرَاهُ مُوْرِقًا أَخْضَرًا * بَعْدَ الَّذِي أَبْصَرْتَ مِنْ يُبْسِهِ

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَلَعَلَّهَا : «بَطْنِي» .

(٢) فِي الْأَصْلِ : «تَمِيرَةٌ» وَهُوَ خَطَأٌ صَوَابُهُ مَا أَتَيْنَاهُ عَنْ الشَّعْرِ وَالشَّعْرَاءِ لِأَنَّ قَتِيْبَةً .

وقال آخر :

يَقُومُ مِنْ مَيْلِ الْغَلَامِ الْمُؤَدَّبُ * وَلَا يَنْفَعُ التَّأْدِيبُ وَالرَّأْسُ أَشْبَبُ

وقال آخر :

أَدَّبْتُ عِرْسِي بَعْدَ مَا هِرِمْتُ * وَمِنَ الْعَنَاءِ رِيَاضَةُ الْهَرَمِ

وقد قال ذو الرمة لعيسى بن عمر : اَكْتُبْ شِعْرِي فَالْكَتَابُ أَعْجَبُ إِلَى مِنَ الْحِفْظِ ،
إِنَّ الْأَعْرَابِيَّ يَنْسَى الْكَلِمَةَ قَدْ سَهَرَتْ فِي طَلَبِهَا لَيْلَةً ، فَيَضَعُ فِي مَوْضِعِهَا كَلِمَةً فِي وَزْنِهَا
ثُمَّ يُنْشِدُهَا النَّاسَ ، وَالْكَتَابُ لَا يَنْسَى ، وَلَا يُبَدِّلُ كَلَامًا بِكَلَامٍ ؛

وعبت الكتاب ولا أعلم جارا أبرّ ، ولا خليطاً أنصف ، ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلماً
أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفايةً ، ولا أقلّ جنانيةً ، ولا أقلّ إملالاً وإبراماً ، ولا أقلّ
خلافاً وإحراماً ، ولا أقلّ غيبةً ، ولا أبعد من عِصْيَةٍ ، ولا أكثر أعجوبةً وتصرفاً ، ولا أدلّ
صلفاً وتكلفاً ، ولا أبعد من مراء ، ولا أترك شغبٍ ، ولا أزهد في جدالٍ ، ولا أكفّ
عن قتالٍ ، من كتاب ؛ ولا أعلم قريباً أحسن مواتاةً ، ولا أعجل مكافأةً ، ولا أحضر
مُعونةً ، ولا أخفّ مؤونةً ، ولا شجرة أطول عُمرًا ، ولا أجمع أمراء ، ولا أطيب ثمرةً ،
ولا أقرب مُجَنَّى ، ولا أسرع إدراكاً ، ولا أوجد في كلّ إبانٍ من كتاب ؛ ولا أعلم نتاجاً
في حَدَاثَةِ سَنَةٍ ، وقُرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكانٍ موجوده ، يجمع من التداوير
العجيبة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن
الحكم الرفيعة ، والمذاهب القديمة ، والتجارب الحكيمة ، ومن الأخبار عن القرون
الماضية ، والبلاد المتراخية ، والأمثال السائرة ، والأئم البائدة ما يجمع لك الكتاب .

وقد قال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ
بِالْقَلَمِ ﴾ وصف نفسه تبارك وتعالى جده بأن علم بالقلم ، كما وصف نفسه بالكرم ، واعتد
ذلك في نعيمه العظام ، وفي أياديه الحسام ، وقد قالت : القلم أحد اللسانين ،
وقالوا : كلٌّ مَنْ عَرَفَ فَضْلَ النِّعْمَةِ فِي بَيَانِ الْإِنْسَانِ كَانَ بِفَضْلِ النِّعْمَةِ فِي بَيَانِ الْقَلَمِ

أعرف ؛ ثم جعل هذا الأمر قرآنا ، ثم جعله في أول التنزيل ، ومُستفتح الكتاب ، ثم أعلم - يرحمك الله تعالى - أن حاجة بعض الناس الى بعض صفة لازمة لطبائعهم ، وخلقهم قائمة في جواهرهم ، وثابتة لا تزيلهم ، ومحيطة بجماعتهم ، مشتملة على أدانيهم وأقصيهم ، وحاجتهم الى ما غاب عنهم ، مما يُعيشهم ويُحييهم ، ويأخذ بأرماقهم ، ويُصلح بالهم ، ويجمع شملهم ، والى التعاون على درك ذلك ، والتوازر عليه كحاجتهم الى التعاون على معرفة ما بحضرتهم ، والتوازر على ما يحتاجون من الارتفاق في أمورهم التي لم تغب عنهم ، لحاجة الغائب موصولة بحاجة الشاهد ، لاحتياج الأدنى الى معرفة الأقصى ، واختلال الأدنى الى معونة الأقصى ؛ معاني متضمنة ، وأسباب متصلة ، وحبال متقيدة ، وجعل حاجتنا الى معرفة أخبار من كان قبلنا حاجة من كان قبلنا الى أخبار من كان قبلهم ، وحاجة من يكون بعدنا الى أخبارنا ، ولذلك تقدمت في الكتب البشارات بالرسول ، ولم يُسخر لهم جميع خلقه إلا وهم يحتاجون الى الارتفاق بجميع خلقه ، وجعل الحاجة حاجتين : إحداها قوام وقوت ، والأخرى لذة وإمتاع ، وازدياد في الآلة ، وفي كل ما أجدل النفوس ، وجمع لهم العتاد ، وذلك المقدار من جميع الصنفين وفق لكثرة حاجاتهم وشهواتهم ، وعلى قدر اتساع معرفتهم ، وبعد غورهم ، وعلى قدر احتمال طبع البشرية ، وفطيرة الإنسانية ، ثم لم يقطع الزيادة عنهم إلا لعجز خلقهم عن احتمالها ، ولم يجوز أن يفرق بينهم وبين العجز إلا بعدم الأعيان ، اذا كان العجز صفة من صفات الخلق ، ونعنا من نعوت العبيد ، ولم يخلق الله تعالى أحدا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض من يُخزله ، فأدناهم مُسخر لأقصاهم ، وأجلهم مُيسر لأدقهم ، وعلى ذلك أحوج المملوك الى السوق في باب ، وأحوج السوق الى المملوك في باب ، وكذلك الغني والفقير ، والعبد وسيده .

ثم جعل الله تعالى كل شيء للإنسان خولا وفي يده مُدالا مُيسرا ، إما بالاختيال له ، والتلطف في إراغته وآسئالته ، إما بالصولة عليه والفتك به ، وإما أن يأتيه سهوا ورهوا ، وعلى أن الإنسان لولا حاجته إليها لما احتال لها ، ولما صال عليها ، إلا أن الحاجة تفتقر

في الجنس والجهة، وفي الحظ والتقدير، ثم تعبد الإنسان بالفكر فيها، والنظر في أمورها، وبالأعتبار بما يرى، ووصل بين عقولهم، وبين معرفة تلك الحكم الشريفة، وتلك الحاجات اللازمة بالنظر والتفكير، والتنقيب، والتنقيب، والتنقيب، والتوقف، ووصل معارفهم بمواقع حاجاتهم اليها، وتشاعرهم بمواضع الحكم فيها بالبيان عنها، وهو البيان الذي جعله الله تعالى سببا فيما بينهم، ومعبرا عن حقائق حاجاتهم، ومعتزا لمواضع سد الخلة، ودفع الشبهة، ومداواة الخيرة؛ ولأن أكثر الناس عن الناس أفهم منهم عن الأشباح المسألة، والأجسام الجامدة، والأجرام الساكنة التي لا يتعرف ما فيها من دقائق الحكم وكنوز الأدب، وينابيع العلم، إلا بالعقل اللطيف الناقب، وبالنظر التام النافذ، وبالأداة الكاملة، وبالأسباب الوافرة، والصبر على مكروه الفكر، والاحتباس من وجوه الخدع، والتحفظ من دواعي الهوى، ولأن الشكل أفهم عن شكله وأمكن اليه وأصب به، وذلك موجود في أجناس البهائم وضروب السباع، والصبي عن الصبي أفهم وله آلف، وإليه أنزع، وكذلك العالم والعالم، والجاهل والجاهل، وقال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ لأن الإنسان عن الإنسان أفهم، وطبأه بطبأه آنس، وعلى قدر ذلك يكون موقع ما يسمع منه؛ ثم لم يرض من البيان لهم بصنف واحد، بل جمع ذلك ولم يفرق، وكثر ولم يقل، وأظهر ولم يخف، فجعل أصناف البيان التي بها يتعارفون معانيهم، والتزجمان الذي اليه يرجعون عند اختلافهم في أربعة أشياء وفي خمسة خامسة، وإن نقصت عن بلوغ هذه الأربعة في جهاتها، فقد تكمل بجنسه الذي وضع له، وصرف اليه.

وهذه الخصال الأربع: هي اللفظ والخط والإشارة والعقد؛ والخصلة الخامسة: ما أوجد من صحة الدلالة، وصدق الشهادة، ووضوح البرهان في الأجرام الجامدة الصامتة، والساكنة الثابتة، التي لا تتيسر ولا نفهم، ولا تحس وتترك إلا بداخل دخل عليها، أو عند ممسك حلى عنها بعد تقييده كان لها؛ ثم قسم الأقسام، ورتب المحسوسات، وحصل

الموجودات ، فجعل اللفظ للسامع ، وجعل الإشارة للناظر ، وأشرك بين الناظر واللامس ، في معرفة العقد إلا بما فضل الله به نصيب الناظر في ذلك على نصيب اللامس ، وجعل الخط دليلا على ما غاب من حوائجه عنه ، وشبها موصولا بينه وبين أعوانه ، وجعله خازنا لما لا يأمن نسيانه مما قد أحصاه وحفظه ، وأتقنه وجمعهم ، وتكلف الإحاطة به ، ولم يجعل للشام والذائق في ذلك نصيبا .

ولولا خطوط الهند لضاع من الحساب الكثير البسيط ، ولبطلت معرفة التضاعيف ، ولعمدوا الإحاطة بالباورات ، وباورات الباورات ، ولو أدركوا ذلك لما أدركوه إلا بعد أن تغلظ المؤونة ، وتنقص المنة ، ولصاروا الى حال معجزة وحسور ، والى حال مضیعة وكلال حد ، منع التشاغل بأمور لولا فقد هذه الآلة لكان أربح لهم ، وأرد عليهم أن يصرفوا ذلك الشغل في أبواب منافع الدين والدنيا ، ونفع الحساب معلوم ، والخلة في موضع فقدته معروفة ، قال الله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ ثم قال : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ وبالبيان عرّف الناس القرآن ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ فأجرى الحساب مجرى البيان وألحق البيان بالقرآن ، وبحسبان منازل القمر عرفنا حالات المد والجزر ، وكيف تكون الزيادة في الأهلة وأنصاف الشهور ، وكيف يكون النقصان في خلال ذلك ، وكيف تلك المراتب وتلك الأقدار .

ولولا الكتب المدونة ، والأخبار المخددة ، والحكم المخطوطة التي تحصر الحساب وغير الحساب ، لبطل أكثر العلم ، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر ، ولما كان للناس مفرج الى موضع استدكار ، ولو تم ذلك لحرمنا أكثر النفع ، اذ كنا قد علمنا ان مقدار حفظ الناس لعو أجل حاجاتهم وأو أجلها لا يبلغ من ذلك مبلغا مذكورا ، ولا يغني فيه غناء محمودا ، ولو كلف عامة من يطلب العلم ، ويصطنع الكتب ، ألا يزال حافظا لفهرس كتبه لا يحجزه ذلك ، ولكلف شططا ، وكشغله ذلك عن كثير مما هو أولى به ، ففهمك

لمعانى كلام الناس ينقطع قبل انقطاع فهم عين الصوت مجزدا ، وأبعد فهمك لصوت صاحبك ومعاملك ، والمعاون لك ما كان صياحا صرعا ، وصوتا مضجعا ، ونداء خالصا ، ولا يكون مع ذلك ألا وهو بعيد من المفاهمة ، وعطل من الدلالة ، بفعل الله جل وعز اللفظ لأقرب الحاجات ، والصوت لأنفس من ذلك قليلا ، والكتاب للنازح من الحاجات .

فأما الإشارة فأقرب المفهوم منها رفع الحواجب ، وكسر الأجفان ، ولئى الشفاه ، وتحريك الأعناق ، وقبض جلد الوجه ، وأبعدها أن تؤوى بثوب على مقطع جبل نجاه عين الناظر ، ثم ينقطع عملها ، ويدرس أثرها ، ويموت ذكرها ، وتصير بعد كل شىء فصل عن انتهاء مدة الصوت ، وتنتهى الطرف فى الحاجة ، الى التفاهم بالخطوط والكتب ؛ فأى نفع أعظم ، وأى مرفق أعون من الخط ، والحال فيه كما ذكرنا !

وليس للعقد حظ الإشارة فى بعد الغاية ، ولا للإشارة حظ الخط فى بعد الغاية ، فلذلك وضع الله عز وجل القلم فى المكان الرفيع ، ونزه بذكره فى المنصب الشريف حين قال : ﴿لَبَّ الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ فأقسم بالقلم كما أقسم بما يحط بالقلم إذ كان اللسان لا يتعاطى شأوه ، ولا يشق غباره ، ولا يجرى فى حلبته ، ولا يتكلف بعد غايته ، ولكن لما كانت حاجات الناس بالحضرة أكثر من حاجاتهم فى سائر الأماكن ، وكانت الحاجة الى بيان اللسان حاجة دائمة راکدة ، وراينة ثابتة ؛ وكانت الحاجة الى بيان القلم أمرا يكون فى الغيبة وعند النائية ، ألا ما خصت به الدواوين ، فإن لسان القلم هناك أبسط ، وأثره أعم ، فلذلك قدموا اللسان على القلم ، فاللسان الآن أتم هو فى منافع اليد والمرافق التى فيها ، والحاجات التى تبلغها ؛ فمن ذلك حظها وقسطها من منافع الإشارة ، ثم نصيبها فى تقويم القلم ، ثم حظها فى التصوير ، ثم حظها فى الصناعات ، ثم حظها فى العقد ، ثم حظها فى الدفع عن النفس ، ثم حظها فى إيصال الطعام والشراب الى الفم ، ثم التوضؤ والامتناسح ، ثم انتقاد الدناير والدراهم ، ثم لبس الثياب ، وفى الدفع عن النفس أصناف الرمى ، وأصناف الضرب ، وأصناف الطعن ، ثم الضرب التكن بالعود وتحريك الوتر ، ولولا ذلك لبطل الطرب كله أو عامته . وكيف

لا تكون كذلك ولها ضرب الطبل والبُف وتحرّك الصفاقيين ، وتحريكُ مخارق خروق المزامير ، وما في ذلك من الإطلاق والحبس ؛ ولو لم يكن في اليد إلا إمساك العين والزمّام والخطام ، لكان ذلك من أعظم الخطوط .

وقد اضطربوا في الحكم بين العقْد والإشارة ، ولولا أنّ مَفرّنا في هذا الكتاب سوى هذا الباب لقد كان هذا مما أحبّ أن يعرفه إخواننا وخطاؤنا ، ولا ينبغي لنا أيضا أن نأخذ في هذا الباب من الكلام إلا بعد الفراغ مما هو أولى بنا منه ، إذ كنت لم تنازعني ، ولم تعب كُتبي من طريق فضل ما بين العقْد والإشارة ، ولا في تمييز ما بين اللفظ وبينهما ؛ واتّما قصّدا بكلامنا إلى الإخبار عن فضل الكتب .

والكتاب هو الذي قيّد على الناس كُتّب علم الدين ، وحساب الدواوين ، مع خفّة نقله ، وصغر حجمه ، صامت ما أسكّته ، وبلغ إذا استنطقته ، ومن لك بمسامر لا يبتدئك في حال شُغلك ، ويدعوك في أوقات نشاطك ، ولا يحوجك إلى التجميل له ، والتذم منه ؛ ومن لك بزائران شئت جعل زيارته غيباً ، ووروده حمساً ؛ وإن شئت لزمك لزوم ظلك ، فكان منك مكان بعضك .

والقلم مكثّف بنفسه ولا يحتاج إلى ما عند غيره ، ولا بد لبيان اللسان من أمور منها : إشارة اليد ، ولولا الإشارة لما فهموا عنك خاص الخاص ، إذا كان أخص الخاص قد يدخل في باب العام ، إلا أنه أدنى طبقاته ، وليس يكتفي خاص الخاص باللفظ عمّا أداه ، كاكْتفاء عام العام ، والطبقات التي بينه وبين أخص الخاص .

والجتاب هو الجليس الذي لا يُطريك ، والصديق الذي لا يُغريك ، والرفيق الذي لا يُملّك ، والمستميج الذي لا يَسْتَرِيدك ، والجار الذي لا يَسْتَبْطِئك ، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق ، ولا يعاملك بالمرّ ، ولا يخذلك بالنفاق ، ولا يحتال لك بالكذب ..

والكتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال إمتاعك ، وشحذ طبعك ، وبسط لسانك ،
وجود بيلانك ، ونغم ألحاظك ، وبجح نفسك ، وعمر صدرك ، ومنحك تعظيم العوالم ،
وصداقة الملوك ، وعرفت به فى شهر ما لا تعرفه من أفواه الرجال فى دهر ، مع السلامة
من الغرم ، ومن كد الطلب ، ومن الوقوف بباب المبتكسب بالتعليم ، وبالجلوس بين يدي من
أنت أفضل منه خلقا ، وأكرم عرقا ، ومع السلامة من مجالسة البغضاء ، ومقارنة
الأغبياء .

والكتاب هو الذى يطيعك بالليل كطاعته بالنهار ، ويطيعك فى السفر كطاعته فى الحضر ،
ولا يعتل بنوم ، ولا يعتريه كلال السهر ، وهو المعلم الذى إن أفقرت لم يحترك ، وإن
قطعت عنه المسادة لم يقطع عنك الفائدة ، وإن عزلت لم يدع طاعتك ، وإن هبت ريح
أعاديك لم ينقلب عليك ، ومتى كنت منه متعلقا بسبب ، أو معتصما بأدنى حبل ، لم تضطرك
معه وحشة الوحدة الى جليس سوء ، ولو لم يكن من فضله عليك ، وإحسانه اليك ،
إلا منعه لك من الجلوس على بابك ، والنظر الى المازة بك ، مع ما فى ذلك من التعرض
للحقوق التى تلزم ، ومن فضول النظر ، ومن عادة الخوض فيما لا يعنك ، ومن ملابس
صغار الناس ، ومن حضور ألفاظهم السافطة ، ومعانيهم الفاسدة ، وأخلاقهم الرديئة ،
وجہالاتهم المذمومة ، لكان فى ذلك السلامة ثم الغنيمة ، وإحراز الأصل مع استفادة الفراغ ،
ولو لم يكن فى ذلك إلا أن يشغلك عن شغف المنى ، وعن اعتياد الراحة ، وعن اللعب ،
وكل ما أشبه اللعب ، لقد كان فى ذلك على صاحبه أسبغ النعمة ، وأعظم المنية ، وقد علمنا
أن أمثل ما يقطع به الفراغ نهارهم ، وأصحاب الفكاهات ساعات ليلهم ، هو الشئ الذى
لا ترى له فيهم مع النيل أثر فى ازدياد فى تجربة ولا فى عقل ، ولا فى مروءة ولا فى صون
عرض ، ولا فى إصلاح دين ، ولا فى تثير مال ، ولا فى تربية صنيعة ، ولا فى ابتداء بإنعام .

قال أبو عبيدة قال المهلب لبنيه فى وصيته : يا بني لا تقفوا فى الأسواق إلا على

زاد أوزاق .

وحدثني صديق لي قال : قرأت على شيخ شامي كتابا فيه مائت غطفان ، فقال لي : ذهبت المكارم إلا من الكتب ؛ وسمعت الحسن اللؤلؤي يقول : عبرت أربعين عاما ما قلت ولا يت التكاثر إلا والكتاب موضوع على صدرى ؛ وقال ابن الجهم : اذا غشيتي النعاس في غير وقت نوم وبئس الشيء النوم الفاضل عن الحاجة ، تناولت كتابا من كتب الحكم فأجد أهتزازي للفوائد ، والأريحية التي تعزيني عند الظفر ببعض الحاجة ، والذي يغشى قلبي من سرور الاستبانه ، وعزّ التبيين ، أشدّ إيقاظا من نهيق الحمير ، وهذه الهذم .

وقال ابن الجهم : اذا استحسنت الكتاب واستجدته ، ورجوت منه الفائدة ، ورأيت ذلك فيه ، فلو تروني وأنا ساعة بعد ساعة أبصركم ببق من ورقه مخافة استنفاده ، وأنقطاع المادة من قبله ، وإن كان المصحف في عظيم الجحم ، وكان الورق كثير العدد ، لرأيت كيف تم عيشي ، وكل سروري .

وذكر القيني كتابا لبعض القدماء فقال : لولا طوله ، وكثرة ورقه ، لنسخته ؛ قال ابن الجهم : لكنني ما رغبني فيه إلا الشيء الذي زهدك فيه ، وما قرأت كتابا قط كبيرا فأخلى من فائدة ، وما أحصى كم قرأت من صغار الكتب فخرجت منها كلها دخلت .

وقال القيني ذات يوم لابن الجهم : ألا تتعجب من فلان ! نظر في كتاب الإقليدس مع جارية سلموية في يوم واحد وساعة واحدة ، فقد فرغت الجارية من الكتاب وهو بعد لم يحكم مقالة واحدة ، على أنه حرّ مخير وتلك أمة مقصورة ، وهو أحرص على قراءة الكتب من سلموية على تعليم جاريته ؛ قال ابن الجهم : قد كنت أظن أنه لا يفهم منه شكلا واحدا ، وأراك تزعم أنه قد فرغ من مقالة ؛ قال القيني : وكيف ظننت به هذا الظن كله وهو رجل ذو لسان وأدب ؟ قال : لأني سمعته يقول لابنه : كم أنفقت على كتاب كذا وكذا ؟ قال : أنفقت كذا وكذا ؛ قال : إنما رغبني في العلم أتى ظننت أنني أنفق قليلا وأكتسب كثيرا ، فأما اذ صرت أنفق الكثير وليس في يدي منه إلا المواعيد فأنى لا أريد

العلم بشيء . والإنسان لا يعلم حتى يَكْثُرَ سماعه ، ولا بُدَّ من أن تصير كُتُبُه أكثر من سماعه ، ولا يعلم ولا يجمع ولا يختلف حتى يكون الإنفاق عليه من ماله أَلَدَّ عنده من الإنفاق من مال عدوه ؛ ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكُتُب أَلَدَّ عنده من عشاق القبان ، والمستهمتين بالبُنيان ، لم يبلغ في العلم مَبْلَغًا رَضِيًّا . وليس ينفع بإنفاقه حتى يؤثر لَدَّةُ آتخاذ الكتب إيثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله ، وحتى يُؤمَّل في العلم مالا يُؤمَّل الأعرابي في فرسه .

وقال إبراهيم بن السَّندی مرّةً : وِدِدْتُ أَنْ الزنادقة لم يكونوا حُرِّصاء على المغالاة بالورق النقي الأبيض ، ولا على تخيير الحبر الأسود البراق ، ولا على استجادة الخط والإرغاب لمن يخط ، فإني لم أرك ورق كتبهم ورقًا ، ولا كالخطوط التي فيها خطأ . وإني غير مت مالا عظيمًا مع حبِّي للمال وبغضِي للغرم ، لأنَّ سِجَاءَ النفس بالإنفاق على الكتب دليل على تعظيم العلم ، وتعظيم العلم دليلٌ على شرف النفس وعلى السلامة من سُكْرِ الآفات . وقلت لإبراهيم : إنَّ إنفاق الزنادقة على الكتب كانفاق النصارى على البيع ، ولو كانت كتب الزنادقة كُتُبَ حِكْمَةٍ ، وكتبَ فلسفة ، وكانت مقاييسَ تبيين ، أو لو كانت كتبهم كتبًا تعرّف الناس أبواب الصناعات ، أو سبيلَ التَّكْسِب والتجارات ، أو كتب إرفاق رياضات ، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفِطَن والأدب ، أو كان ذلك لا يُقَرَّب من غنى ، ولا يباعد من مأثم ، لكانوا ممن قد يجوز أن يُظَنَّ بهم تعظيم البيان والرغبة في التبيين ، ولكمهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طريق تعظيم المِلَّة ؛ فإتَّما إنفاقهم في ذلك كانفاق المجوس على بيت النار ، وكانفاق النصارى على صُلْبَان الذهب ، أو كانفاق الهند على سَدَنَةِ البُدِّ ؛ ولو كانوا العلم أرادوا لكان العلم لهم معرضًا ؛ وكتب الحكمة لهم مَبْدُولَةً ، والطُرُق إليها سهلة معروفة ؛ فما بالهم لا يصنعون ذلك إلَّا بكتب دياتهم كما يُزخرف النصارى بيوت عبادتهم ؛ ولو كان هذا المعنى مُسْتَحْسِنًا عند المسلمين ، وكانوا يرون أن ذلك داعيةٌ إلى العبادة وباعثةٌ على الخشوع ، لَبَلَّغُوا في ذلك بَعْفُوهم ما لا يبلغه النصارى بغاية الجُهد .

وقد رأيتُم مسجداً دمشق حين استجاز هذه السبيل ملك من ملوكنا ، ومن رآه فقد علم أن أحدا لا يرومه ، وأن الروم لا تسخو أنفسهم به ، فلما قام عمر بن عبد العزيز جلّه بالجلال ، وغطاه بالكرايس^(١) ، وطبخ سلاسل القناديل حتى ذهب عنها ذلك التلاؤل والبريق ، وذهب الى أن ذلك الصنيع بجانب لسنة الاسلام ، وأن ذلك الحُسن الرائع والمحاسن الدقائق مذهلة للقلوب ، مشغلة دون الخشوع ، وأن البال لا يكون مجتمعا وهناك شيء يُفترقه ويعترض عليه .

والذى يدلنا على ما قلنا أنه ليس في كتبهم مثل سائر ، ولا خبر طريف ، ولا صنعة أدب ، ولا حكمة غريزية ولا فلسفية ، ولا مسألة كلامية ، ولا تعريف صناعة ، ولا استخراج آلة ، ولا تعليم فلاحه ، ولا تدبير حرب ، ولا مقارعة عن دين ، ولا مناضلة عن نحلة ، وجله ذكر النور والظلمة ، وتنازع الشياطين ، وتسافد العفاريت ، وذكر الصنديد والتحويل بعمود السنخ ، والاخبار عن شقون وعن الهامة والهامية ، وهذري وعوى وخرافة وسخف وتكذب ، لا ترى فيه موعظة حسنة ، ولا حديثا مؤثقا ، ولا تدبير معاش ولا سياسة عامة ، ولا ترتيب خاصة ، فأى كتاب أجهل ، وأى تدبير أفسد من كتاب يوجب على الناس الطاعة والبُخوع بالديانة على جهة الاستبصار والمحبة ، وليس فيه صلاح معاش ، ولا تصحيح دين ، واللاس لا يجيبون إلا دينا أو دنيا .

فأما الدنيا فاقامة سُوقها وإحضار نفعها . وأما الدين فأقل ما يُطمع في استجابة العامة واستمالة الخاصة ، أن يصور في صورة مغلفة ، ويؤوه تمويه الدينار البهرج والدرهم الزائف الذى يغلط فيه الكثير ويعرف حقيقته القليل . فليس انفاقهم عليها من حيث ظننت . وكل دين يكون أظهر اختلافا وأكثر فسادا يحتاج من الترقيع والتمويه ومن الاحتشاد له والتغليظ فيه الى أكثر من غيره .

(١) الكرايس جمع كرايس : ثوب من القطن الأبيض وقيل : الثوب المشتمل ، فارسي معرب .

وقد علمت أن النصرانية أشد انتشاراً من اليهودية تبعاً ، فعلى حسب ذلك يكون تزيدهم في توكيده ، واحتفالهم في إظهار تعظيمه .

وقال بعضهم : كنت عند بعض العلماء فكتب أكتب عنه بعضاً وأدع بعضاً ، فقال لي : اكتب كل ما تسمع ، فات أخس ما تسمع خير من مكانه أبيض . وقال إن الخليل بن أحمد : تكثر من العلم لتعرف ، وتقل منه لتحفظ . وقال أبو إسحاق : القليل والكثير للكتب ، والقليل وحده المصدر ، وأنشد قول ابن يسير :

أما لو أعي كل ما أسمع * وأحفظ من ذاك ما أجمع
ولم أستفيد غير ما قد جمعت لقل هو العالم المقتنع
ولكن نفسي إلى كل نو * ع من العلم نسمعه تنزع
أشاهد بالعي في مجلسي * وعلمي في البيت مستودع
فلا أنا أحفظ ما قد جمعت ولا أنا من جمعه أشبع
ومن يك في علمه هكذا * يكن دهره القهقري يرجع
إذا لم تكن حافظاً وإعياً * بجمعك العلم لا ينفع

قال أبو إسحاق : كلف ابن يسير الكتب ما ليس عليها ، إن الكتب لا تُنقى الموتى ، ولا تحول الأحق عاقلاً ، ولا البليد ذكياً ، وذلك أن الطبيعة إذا كان فيها أدنى قبول فالكتب تسحق وتفتق وتُرهب وتُسفي ، ومن أراد أن يعلم كل شيء فيلبي لأهله أن يداووه ، فإن ذلك إنما تصوره له شيء اعتراه . فمن كان عاقلاً ذكياً حافظاً فليقصد إلى شيئين أو ثلاثة أشياء : فلا يتزع عن الدرس والمطاربة ، ولا يدع أن يمر على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ما قدر عليه من سائر الأصناف فيكون عالماً بخواص ويكون غير غفل من سائر ما يجري فيه الناس ويتخوضون فيه ، ومن كان مع الدرس لا يحفظ شيئاً إلا نسي أكثر منه فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعد .

وحدثني موسى بن يحيى قال : ما كان في خزانة كتب يحيى وفي بيت مدرسه كتاب إلا وله فيه ثلاث نسخ .

وقال أبو عمرو بن العلاء : ما دخلت على رجل قط ولا مررت ببابه فرأيتنه ينظر في دفتر وجليسه فارغ اليد إلا اعتقدت أنه أعقل منه وأفضل .

قال أبو عمرو وقيل لنا يوماً : إن في دار فلان ناساً قد اشتملوا على سوءة ، وهم جلوس على نعمة لهم وعندهم طنبور ، قال : فذمرنا عليهم في جماعة من رجال الحى ، فاذا فتى جالس في وسط الدار وإذا أصحابه حوله ، وإذا هم بيض الحى ، وإذا هو يقرأ عليهم كتاب شعر ، فقال الذى كان سعى بهم : السوءة في ذلك البيت ، وإن دخلتموه عثرتم بها ، قال قلت : والله لا أكشف فتى أصحابه شيوخ وفي يده دفتر علم ولو كان في ثوبه دم يحيى بن زكرياء . قال وأنشد رجل يونس النحوى قوله :

أُستودِعَ العلمُ قِرطاساً فضيعه * فبئس مُستودِعُ العلمِ القراطيسُ

قال فقال يونس : قاتله الله ، ما أشد صبايته بالعلم وأحسن صيانتة له ! إن علمك من روحك ، ومالك من بدنك ، فضعه منك بمكان الروح ، وضع مالك بمكان البدن .

وقيل لابن داحية وأخرج كتاب أبي الشمقمق^(١) وإذا هو في جلود كوفية ودفتين طائفيتين وبخط عجيب ، ف قيل له : لقد ضيع درهمه من تجود لشعر أبي الشمقمق ، قال : لا جرم والله إن العلم يُعطىكم على حساب ما تُعطونه ، ولو استطعت أن أودعه سُويداء قلبي وأجعله مخطوطاً على ناظري لفعلت .

ولقد دخلت على إسحاق بن سليمان في امرته ، فرأيت السماطين بين يديه والرجال مئولاً كأن على رؤوسهم الطير ، ورأيت فرشته^(٢) ويزته ، ثم دخلت عليه وهو معزول ، وإذا هو في بيت كتبه وحواليه الأسفاط والرفوف والقاطر والدفاتر والمساطر والمحابر ، فما رأيتنه قط أغم ولا أنبل ولا أهيب ولا أجزل منه في ذلك اليوم ، إلا أنه جمع مع المهابة المحبة ، ومع القمامة الحلاوة ، ومع السودد الحكمة .

(١) كذا في الأصل ، ولعلها زائدة . (٢) الفرشة : الهيئة .

وقال ابن داحية : كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لا يجالس الناس ، ونزل مقبرة من المقابر ، وكان لا يكاد يرى إلا وفي يده كتاب يقرؤه ، فسئل عن ذلك وعن نزوله المقبرة ، فقال : لم أر أوعظ من قبر ، ولا أمتع من كتاب ، ولا أسلم من الوحدة ، ففقد جاء في الوحدة ما قد جاء ، قال : ما أفسدها للجاهل وأصلحها للعاقل !

وضروب من الخطوط بعد ذلك تدل على قدر منفعة الخط ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ كَرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ وقال الله عز وجل : ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ وقال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ وقال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ وقال : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ .

الترغيب في أصطناع الكتب

(وبعد أن تكلم عن الخط في الأرض عند التفكير وما قيل في ذلك من الأشعار ، وذكر الخط ومقدار الحاجة إليه ، وتاريخ الشعر قبل الإسلام ، وبيان أن فضيلته مقصورة على العرب ، استطرد القول بالترغيب في اصطناع الكتب) فقال :

« إن على من شكر المعرفة بمغايي الناس ومراشدهم ومضارهم ومنافعهم ، أن يتحمل ثقل مؤونتهم في معرفتهم ، وأن يتوحن إرشادهم وأن جهلوا فضل ما يسدى إليهم . ولن يُصان العلم بمثل بذله ، ولن تُستبقى النعمة فيه بمثل نشره . على أن قراءة الكتب أبلغ في إرشادهم من تلاقيهم ، إذ كان مع التلاقي يستند التصنع ، ويكثر التظالم ، وتُفريط العصبية ، وتقوى الحمية ، وعند المواجهة والمقابلة يشتد حب الغلبة ، وشهوة المباهاة والرياسة مع الاستحياء من الرجوع ، والأنفة من الخضوع ، وعن جميع ذلك تحدث الضغائن ويظهر التباين ، فإذا كانت القلوب على هذه الصفة وعلى هذه الهيئة ، أمتنعت من التعرف ، وعميت عن موضع الدلالة ، وليست للكتب علة تمنع من درك البُغية ، وإصابة الحجة ، لأن المتوحد برسها والمنفرد

بفهم معانيها ، لا يباهي نفسه ، ولا يغالب عقله ، وقد عدم من له يباهي ، ومن أجله يغالب ؛ والكتاب قد يفضل صاحبه ويتقدم مؤلفه ، ويرجح قلمه على لسانه بأمور :

منها ، أن الكتاب يُقرأ بكل مكان ، ويظهر ما فيه على كل لسان ، ويوجد مع كل زمان على تفاوت ما بين الأعصار ، وتباعد ما بين الأمصار ؛ وذلك أمر يستحيل في واضع الكتاب ، والمنازع بالمسألة والجواب ؛ ومناقلة اللسان وهدايته لا تجوزان لمجسّس صاحبه ، ومبلغ صوته ؛ وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ، ويفنى العقل ويبقى أثره . ولولا ما تسمت لسان الأوائل في كتبها ، وغلّت من عجيب خبثتها ، ودوّنت من أنواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مُستغلق كان علينا ، بجمعنا إلى قليلنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم تكن تُدرّكه إلّا بهم ، لقد خسّ حفظنا من الحكمة ، وضعف سببنا إلى المعرفة ؛ ولو أُلحِثنا إلى قدر قوتنا ، ومبلغ خواطرننا ، ومنتهى تجربتنا لما تُدرّكه حواسنا وتشاهده نفوسنا ، لقد قلّت المعرفة ، وقصُرَت الهمة ، وانتقصت المنة ، وعاد الرأي عقيما ، والخطر فاسدا ، ولكلّ الخد ، وتبدّل العقل . وأكثر من كتبهم نفعاً ، وأشرف منها خطراً ، وأحسن موقعا ، كتب الله تعالى التي فيها الهدى والرحمة ، والإخبار عن كل عبرة ، وتعريف كل سيئة وحسنة . وما زالت كتب الله تعالى في الألواح والصحف والمهارق والمصاحف ، فقد قال الله عز وجل : ﴿ أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وقال : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ . ويقال لأهل التوراة والإنجيل : أهل الكتاب . وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا . على أننا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا ، فيما ينتظر العالم بإظهار ما عنده ، وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه ، وقد أمكن القول ، وصلح الدهر ، وهوى نجم التقيّة ، وهبت ريح العلماء ، وكسد العي والجهل ، وقامت سوق البيان والعلم . والإنسان ليس يجد في كلّ حال إنسانا

(١) المهارق جمع مهراق ، وهو ثوب حرير أبيض يسق بالصغ ويصقل ثم يكتب فيه ، فارسي معرب .

يُدرِّسه ومُقوماً يُثَقِّفه ، والصبر على إفهام الرِّبِّض شديداً ، وصرف النفس عن مُغالبة العالم أشدُّ منه هما .

والمتعلم يجد في كل مكان الكتاب عتيداً ، وبما يحتاج إليه قائماً . وما أكثر من فترط في التعلُّم أيام نحول ذكره وأيام حداثة سنِّه . ولولا جِياذ الكتب وحسنُها ، ومبينُها ومختصرُها ، ثم تحزكت همَّ هؤلاء لطالب العلم ، ونازعت إلى حب الأدب ، وأنفت من حال الجهل وأن تكون في غمار الحشو لدخل على هؤلاء من الضرر والمضرة والجهل وسوء الحال ما عسى ألا يمكن الإخبار عن مقدارهِ إلا بالكلام الكثير .

ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : تَفَقَّهوا قَبْلَ أَنْ تُسَوِّدُوا . وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين سنِّه ، ولا يعدّ فقيها ولا يجعل قاضياً ، وما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة وأشباه أبي حنيفة ، ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتُظنَّ أنه باب بعض العمال ؛ وبالحرى ألا يتر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار ، أو بلدة من البلدان .

وينبغي لمن كتب كتاباً ألا يكتبه إلا على أن الناس كلُّهم له أعداء ، وكلُّهم عالم بالأمور ، وكلُّهم مُتفرِّغ له ؛ ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه يغيب ويختبر ، ولا يثق بالرائي الفطير ؛ فإن لأبتداء الكتاب فتنَّةً وعجبا ، فإذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة ، وتراجعت الأخلاط ، وعادت النفس وافرَّة ، أعاد النظر فيه وتوقف عند فصوله توقف من يكون وزن طمعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب ، ويفهم معنى قول الشاعر :

إِنَّ الْحَدِيثَ تَغَرُّ الْقِسْمَ حَلْوَتُهُ * حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ عَيْ وَإِنْ كُنَّا

ويقف عند قولهم في المثل : "كلُّ عُجْرٍ في الخلاء يُسَرِّ" ، فيخاف أن يعتريه ما يعتري من أبحرَى فرسه وحده ، أو خلا بقلمه عند فقد خصومه وأهل المزية من أهل صناعته . وليعلم أن صاحب القلم يعتريه ما يعتري المؤدب عند ضربه وعقابه ، فما أكثر من يعزم على

عشرة أسواط فيضرب مائة، لانه ابتداء الضرب وهو ساكن الطباع فأراه السكون أن الصواب في الإقلال، فلما ضرب تحرك دمه فأشاع فيه الحرارة وزاد في غضبه، فأراه الغضب أن رأى في الإكثار؛ وكذلك صاحب القلم، فما أكثر من يتدنى الكتاب وهو يريد مقدار سطرين فيكتب عشرة. والحفظ مع الإقلال أمكن، وهو مع الإكثار أبعد.

واعلم أن العاقل إن لم يكن بالمشبع فكثيراً ما يغتر من ولده ويحسن في عينه منه القبيح في عين غيره، فليعلم أن لفظه أقرب إليه نسباً من ابنه، وحركته أمس به رجماً من ولده؛ لأن حركته شيء أحدثه من نفسه وبذاته، ومن عين جوهره فصلت، ومن نفسه كانت، وإنما الولد كالخطئة يمتخطها؛ وكالثخامة يقذفها، ولا سواء إخراجك من نفسك شيئاً لم يكن منك، وإظهارك حركة لم تكن حتى كانت منك؛ ولذلك نجد فتنة الرجل بشعره وفتنة بكلامه وكتبه، فوق فتنة بجميع نعمته.

وليس الكتاب إلى شيء أحوج منه إلى إفهام معانيه حتى لا يحتاج السامع بما فيه إلى الروية فيه. ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشو، ويحطه عن غريب الأعراب، ووحشي الكلام. وليس له أن يهدبه جداً ويُنقحه ويصقيه ويُرّقه حتى لا ينطق إلا باللبّ والسرّ، وباللفظ الذي قد حذف فضوله وتعرق زوائده، حتى عاد خالصاً لا شوب فيه؛ فإنه إن فعل ذلك لم يفهم عنه إلا بأن يجتهد لهم إفهاماً وتكراراً، لأن الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام، وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم إلا بأن تُعطس عليها وتؤخذ بها؛ ألا ترى أن كتاب المنطق الذي قد وُسم بهذا الاسم لو قرأته على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعراب لما فهموا أكثره؛ وفي كتاب إقليدس، كلام يدور وهو عربي وقد صُفّي، ولو سمعه بعض الخطباء لما فهمه، إلا بأن يفهمه من يريد تعليمه؛ لأنه يحتاج إلى أن يكون قد عمّر جبهة الأمر، وتعود اللفظ المنطقي الذي استخرج من جميع الكلام.

وقد قال معاوية بن أبي سفيان رضى الله تعالى عنهما لصحابة العبدى : ما الإيجاز ؟ قال أن تجيب فلا تُبَطِّئ ، وتقول فلا تُخْطِئ ؛ قال معاوية : أو كذلك تقول . قال صحاب : أظنني يا أمير المؤمنين ، لا تُخْطِئ ولا تُبَطِّئ . فلو أن سائلا سألك عن الإيجاز فقلت : لا تُخْطِئ ولا تُبَطِّئ وبحضرتك خالد ابن صفوان لما عرّف بالبدية وعند أول وهلة أن قولك لا تُخْطِئ مُضمّن بالقول ، وقولك لا تُبَطِّئ مُضمّن بالجواب . وهذا حديث — كما ترى — قد ارتضوه ورووه ؛ ولو أن قائلا قال لبعضنا : ما الإيجاز ؟ لظننت أنه كان سيقول الاختصار والإيجاز ، ليس يعني به قلة عدد الحروف واللفظ . وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يَسَعُ بطن طومار^(١) فقد أوجز ، وكذلك الإطالة . وإنما ينبغي أن يحذف بقدر ما لا يكون سببا لإغلاقه ولا يُرَدِّد وهو يُكْتَفَى في الإفهام بشرطه ، فما فضل عن المقدار فهو الخطل .

وقلت لأبي الحسن الأَخْفَش : أنت أعلم الناس بالنحو ، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ؟ وما بالناس نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ، وما بالك تُقدِّم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ قال : أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله ، وليست هى من كتب الدين ، ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى إليه قللت حاجتهم إلى فيه ، وأما غايى المنة ، فإذا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا ، وأنا قد كسبت فى هذا التدبير إذ كنت إلى التكبُّب ذهبت ، ولكن ما بال إبراهيم النظام وفلان وفلان يكتبون الكتب لله بزعمهم ، ثم يأخذها مثلى فى موافقته وحسن نظره وشدة عنايته ، فلا يفهم أكثرها ؟

وأقول لو أن يوسف السَّمْعِي كتب هذه الشروط أيام جالس سلمان بن ربيعة شهرين للقضاء فلم يتقدم إليه رجلا والقلوب سليمة والحقوق على أهلها موفورة ، لكان ذلك خطلا ولغوا ، ولو كتب فى دهرنا شروط دهر سلمان لكان ذلك غرارة وتقصا ،

(١) الطومار : الصحيفة .

وَجَهْلًا بِالسِّيَاسَةِ وَمَا يَصْلُحُ لِكُلِّ دَهْرٍ ، وَوَجَدْنَا النَّاسَ إِذَا خَطَبُوا فِي صَلَاحٍ بَيْنَ الْعَشَائِرِ أَطَالُوا ، وَإِذَا أُنْشِدُوا الشُّعْرَ بَيْنَ السَّمَاطِينَ فِي مَدْحِ الْمُلُوكِ أَطَالُوا ، فَلِلْإِطَالَةِ مَوْضِعٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِخَطَلٍ ، وَلِلْإِقْلَالِ مَوْضِعٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ عَجْزٍ .

ولو لا أَنِّي أَتَكَلَّمُ عَلَى أَنَّكَ لَا تَمَلُّ بِأَبِ الْقَوْلِ فِي الْبَعِيرِ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَى الْفِيلِ ، وَفِي الذَّرَّةِ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَى الْبَعُوضَةِ ، وَفِي الْعَقْرِبِ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَى الْحَيَّةِ ، وَفِي الرَّجُلِ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَى الْمَرْأَةِ ، وَفِي الذَّبَّانِ وَالنَّحْلِ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَى الْغُرْبَانِ وَالْعِقَبَانِ ، وَفِي الْكَلْبِ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَى الدِّيكِ ، وَفِي الذَّبِّ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَى الضَّبِّ ، وَفِي الظُّلْفِ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَى الْحَافِرِ ، وَفِي الْحَافِرِ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَى الْخُفِّ ، وَفِي الْخُفِّ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَى الْبُرْشِ ، وَفِي الْبُرْشِ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَى الْخَلْبِ ، وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي الطَّيْرِ وَعَامَّةِ الْأَصْنَافِ ، لَرَأَيْتَ أَنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ الْمَلَالَ ، وَيُعَقِّبُ الْفَتْرَةَ الْمَانِعَةَ مِنَ الْبُلُوغِ فِي الْفَهْمِ ، وَتَعْرِفُ مَا يُحْتَاجُ مِنْهُ إِلَى التَّعْرِفِ ، فَرَأَيْتَ أَنَّ جُمْلَةَ الْكُتُبِ وَإِنْ كَثُرَ عَدَدُ وَرَقِهِ ، أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِمَا تَمَلُّ مِنْ كَثْرَةِ قِرَاءَتِهِ أَبَدًا وَتَعْتَدُّ عَلَى فِيهِ بِالْإِطَالَةِ ، لِأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ كِتَابًا وَاحِدًا فَانَّهُ كُتِبَ كَثِيرَةً ، وَكُلُّ مَصْنُوعٍ مِنْهَا أَمٌّ عَلَى حِدَةٍ . فَإِنْ أَرَادَ قِرَاءَةَ الْجَمِيعِ لَمْ يَطَّلْ عَلَيْهِ الْبَابُ الْأَوَّلُ حَتَّى يَهْجُمَ عَلَى الثَّانِي ، وَلَا الثَّانِي حَتَّى يَهْجُمَ عَلَى الثَّلَاثِ ، فَهُوَ أَبَدًا مُسْتَفِيدٌ وَمُسْتَطَرِّفٌ ، وَبَعْضُهُ يَكُونُ جَمَاعًا لِبَعْضٍ ، وَلَا يَزَالُ نَشَاطُهُ زَائِدًا ، وَمَتَى خَرَجَ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ صَارَ إِلَى أَثَرٍ ، وَمَتَى خَرَجَ مِنْ أَثَرٍ صَارَ إِلَى خَبَرٍ ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ الْخَبَرِ إِلَى شَعْرَةٍ ، وَمِنَ الشَّعْرِ إِلَى نَوَادِرٍ ، وَمِنَ النُّوَادِرِ إِلَى حِكْمٍ عَقْلِيَّةٍ وَمُقَابِلِيسٍ سِدَادٍ ، ثُمَّ لَا يَتْرِكُ هَذَا الْبَابَ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ أَثْقَلُ ، وَالْمَلَالُ إِلَيْهِ أَسْرَعُ ، حَتَّى يُفَضِّى بِهِ إِلَى مَزْحٍ وَفُكَاكِهَةٍ وَإِلَى سُخْفٍ وَتُخْرَافَةٍ . وَلَسْتُ أَرَاهُ سَخْفًا إِذْ كُنْتُ لَأَيِّمَا اسْتَعْمَلْتُ سِيَرَةَ الْحِكَمَاءِ وَمَأْدِبَةَ الْعُلَمَاءِ ، وَرَأَيْنَا اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا خَاطَبَ الْعَرَبَ وَالْأَعْرَابَ أَنْعَجَ الْكَلَامُ مُخْرِجَ الْإِشَارَةِ وَالْوَحْيِ وَالْحَذْفِ ، وَإِذَا خَاطَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ حَكَمَى عَنْهُمْ جَعَلَهُ مَبْسُوطًا وَزَادَ فِي الْكَلَمِ . فَاصُوبِ الْعَمَلَ اتِّبَاعَ آثَارِ الْعُلَمَاءِ وَالْإِحْتِذَاءِ

مثال القدماء ، والأخذ بما عليه الجماعة . وقال ابن يسير في صفة الكتب
كلمة له :

أَقْبَلْتُ أَهْرَبَ لَا آكُو مُبْنَعَدَةً * فِي الْأَرْضِ مِنْهُمْ فَلَمْ يُخِصَّنِي الْهَرَبُ
يَقْصُرُ أَوْسٍ فَمَا وَالَتْ خَنَادِفُهُ * إِلَى النَّوَارِيسِ فَاَلْمَاخُورُ فَالْخَرِبُ
فَأَيْمًا مَوْئِلٍ مِنْهَا أَعْتَصَمْتُ بِهِ * فَرَأَيْتُ حَثِيثًا مِنْهُمْ الطَّلَبُ
لَمَّا رَأَيْتُ بَأْئِي غَيْرُ مُعْجِزِهِمْ * فَوُتًا وَلَا هَرَبًا قَسَرْتُ أُحْتَجِبُ
وَصِرْتُ فِي الْبَيْتِ مَسْرُورًا بِهِ جَدَلًا * جَارًا لِبُوءَةِ لَا شَكْوَى وَلَا شَغَبُ
فَرَدًّا تُحَدِّثُنِي الْمَوْتَى وَتَنْطِقُ لِي * عَنْ عِلْمٍ مَا غَابَ عَنِّي مِنْهُمْ الْكُتُبُ
هُمْ مُؤَسَّسُونَ وَأَلْفٌ غَنِيَتْ بِهِمْ * فَلَيْسَ لِي فِي أُنَيْسٍ غَيْرُهُمْ أَرَبُ
لِلَّهِ مِنْ جُلَسَاءٍ لَا جَالِسُهُمْ * وَلَا عَشِيرُهُمْوُ لِلْسُّوءِ مُرْتَقِبُ
لَا بَادِرَاتٍ الْأَذَى يَحْشَى رَفِيقُهُمْ * وَلَا يُلَاقِيهِ مِنْهُمْ مَنْطِقُ ذَرِبُ
أَبْقَوْا لَنَا حِكْمًا تَبَقَّى مَنَافِعُهَا * أَنْتَرَى اللَّيَالِي عَلَى الْأَيَّامِ وَأَتَشَعَّبُوا
فَأَيْمًا أَدَبٍ مِنْهُمْ مَدَدَتْ يَدِي * يَوْمًا إِلَيْهِ فَدَانٍ مِنْ يَدِي كُتُبُ
إِنْ شِئْتُ مِنْ مُحْكَمِ الْآثَارِ يَرْفَعُهَا * إِلَى النَّبِيِّ ثِقَاتٍ بِرَّةٍ تُحِبُّ
أَوْ شِئْتُ مِنْ عَرَبٍ عَلِمًا بِأَوَّلِهَا * فِي الْجَاهِلِيَّةِ أُنَبِّئُنِي بِهِ الْعَرَبُ
أَوْ شِئْتُ مِنْ سَيَرِ الْأَمْلاكِ مِنْ عَجِيمٍ * تُنْبِئُنِي وَتُخْبِرُكَ كَيْفَ الرَّأْيُ وَالْأَدَبُ
حَتَّى كَأَنِّي قَدْ شَاهَدْتُ عَصْرَهُمْ * وَقَدْ مَضَتْ دُونَهُ مِنْ دَهْرِهِمْ حَقَبُ
يَا قَائِلًا قَصَّرْتُ فِي الْعِلْمِ نَهْيَتُهُ * أَمْسَى إِلَى الْجَهْلِ فِيمَا قَالَ يَنْتَسِبُ
إِنَّ الْأَوَائِلَ قَدْ بَانُوا بِعِلْمِهِمْ * خِلَافَ قَوْلِكَ قَدْ مَاتُوا وَقَدْ ذَهَبُوا
مَا مَاتَ مِنَّا امْرُؤٌ أَبْقَى لَنَا أَدَبًا * يَكُونُ مِنْهُ إِذَا مَا مَاتَ يُكْتَسَبُ

وقال أبو وجرة وهو يصف صحيفة كُتِبَ له فيها بستان وسقا :
 راحت بستان وسقا في حقيبتها * ما حملت حملها الأدنى ولا السددا
 ولا رأيت قلوفا قبأها حملت * بستان وسقا ولا جابت بها بلدا

وقال الراجز :

تعلمن أن الدواة والقلم * تبقى ويُفنى حادث الدهر الغم

يقول كتابك الذي تكتبه على يقي فتأخذني به وتذهب غنمي فيما يذهب . ومما يدل على نفع الكتاب أنه لولا الكتاب لم يجوز أن يعلم أهل الرقة والموصل وبغداد واسط ما كان بالبصرة وحدث بالكوفة في بياض يوم ، فتكون الحادثة بالكوفة غدوة فيعلمها أهل البصرة قبل المساء .

وذلك مشهور في الحمام الهدي : اذا جعلت بردا قال الله جل وعز ، وذكر سليمان ومملكه الذي لم يؤت أحدا مثله ، فقال : « وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ » إلى قوله : « أَوَلَا ذُبْحَنُ أَوْ لَيَّا تُبْنِي سُلْطَانٍ مُبِينٍ » . فلم يلبث أن قال الهدهد : « وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بَنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرَاءَ تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » . قال سليمان : « أَذْهَبُ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفَه إِلَيْهِمْ » وقد كان عنده من يبلغ الرسالة على تمامها من عفریت ومن بعض من عنده علم من الكتاب فرأى أن الكتاب أهى وأنبل وأكرم وأنعم من الرسالة عن ظهر لسان وإن أحاط بجميع ما في الكتاب . وقالت ملكة سبأ : « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكِ كِتَابٌ كَرِيمٌ » فهذا مما يدل على قدر اختيار الكتب وقد يريد بعض الحلة الكبار وبعض الأدباء والحكام أن يدعو بعض من يجرى مجراه في سلطان أو أدب إلى مآذبة أو ندام أو خروج إلى متنزه أو بعض ما يتنبه ذلك ، فلو شاء أن يبلغه الرسول إرادته ومعناه لأصاب من يحسن الأداء ويصدق في الإبلاغ فيرى أن الكتاب في ذلك أسرى وأنه وأبلغ ولو شاء النبي صلى الله عليه وسلم ألا يكتب الكتب إلى كسرى وقيصروا والنجاشي

والمُقَوِّس وإلى بنى الجَلَنْدَى وإلى العَبَاهِلَة من حَمِير وإلى هَوْدَة بن علي وإلى الملوك العظماء والسادة النجباء لفعل ولوجد المُبَلِّغ المعصوم من الخطأ والتبديل ، ولكنه عليه السلام علم أن الكتاب أشبهه بتلك الحال ، وأليق بتلك المراتب ، وأبلغ في تعظيم ما حواه الكتاب ، ولو شاء الله أن يجعل البشارات على الألسنة بالمرسلين ولم يودعها الكتب لمفعول ولكنه تعالى وعزّ علم أن ذلك أتمّ وأكمل ، وأجمع وأنبأ ، وقد يكتب بعض من له مرتبة في سلطان أو ديانة إلى بعض من يشاكله أو يتجرى مجراه فلا يرضى بالكتاب حتى يتجزمه ويختنمه ، وربما لم يرض بذلك حتى يعنونه ويعظمه .

قال الله جل وعزّ : ﴿أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ فذكر صحف موسى الموجودة وُحُف إبراهيم البائدة المعدومة ليُعرف الناس مقدار النفع والمصاحبة في الكتب . قالوا : وكانت فلاسفة اليونانية تُورث البنات العين وتورث البنين الدين ، وكانت تصل العجز بالكفاية والمؤونة بالكلفة وكانت تقول : لا تورثوا الأب من المال إلا ما يكون عوناً له على طلب المال ، وأغذوه بحلاوة العلم وأطبعوه على تعظيم الحكمة ليصير جمع العلم أغلب عليه من جمع المال ، وليرى أنه العادة والعتاد ، وأنه أكرم مُستفاد ، وكانوا يقولون : لا تورثوا الأب من المال إلا ما يسد الخلة ، ويكون له عوناً على درك الفضول . إن كان لا بد من الفضول ، فإنه إن كان فاسداً زادت تلك الفضول في فساد ، وإن كان صالحاً كان فيما أورثتموه من العلم ، وبقيم له من الكفاية ما يكسبه الحال ، فإن الحال أفضل من المال ، ولأن المال لم يزل تابعا للحال ، وقد لا يتبع الحال المال ، وصاحب الفضول بعرض فساد وعلى شفا إضاعة مع تمام الحكمة واجتماع القوة ، فاطنكم بها مع غرارة الحداثة وسوء الاعتبار وفلة التجربة ! وكانوا يقولون : خير ميراث ما كسبك الأركان الأربعة ، وأحاط بأصول المنفعة وعجل لك حلاوة المحبة ، وبقي لك الأحداث الحسنة ، وأعطاك عاجل الخير وآجله ، وظاهره وباطنه ، وليس يجمع ذلك إلا كرام الكتب النفيسة المشتملة على ينابيع العلم ، والجامعة لكنوز الأدب ومعرفة الصناعات وفوائد الإرفاق ؛

وحجج الدين الذي بصحته وعند وضوح برهانه تسكن النفوس وتلج الصدور، ويعود القلب معمورا، والعز راسخا، والأصل فسيحا، وهذه الكتب هي التي تزيد في العقل وتشحذه، وتداويه وتصلحه، وتهذيبه وتنفي الخبث عنه، وتفيدك العلم وتصادق بينك وبين الحق، وتعودك الأخذ بالثقة وتجلب الحال وتكسب المال. ووراثه الكتب الشريفة والأبواب الرفيعة منبهة للوزر وكثر عند الوارث، إلا أنه كثر لا يجب فيه الزكاة ولا حق السلطان، وإذا كانت الكنوز جامدة ينقصها ما أخذ منها كان ذلك الكثر مائعا يزيده ما أخذ منه، ولا يزال بها المورث مذكورا في الحكماء ومنوها باسمه في الأسماء، وإماما متبوعا، وعالما منصوبا، ولا يزال الوارث محفوظا، ومن أجله محبوبا ممنوعا، ولا تزال تلك المحبة نامية ما كانت تلك الفوائد قائمة ولن تزال فوائدها موجودة ما كانت الدار دار حاجة، وإن يزال من تعظيمها في القلوب أثر ما كان من فوائدها على الناس أثر.

وقالوا: متى ورثته كتابا وأودعته علما فقد ورثته ما يغل ولا يستغل، وقد ورثته الضيعة التي لا تحتاج إلى إثارة، ولا إلى سقي، ولا إلى إسجال باغار، ولا إلى شرط ولا تحتاج إلى أكار ولا إلى أن يشار، وليس عليها عشر ولا للسلطان عليها نخرج، وسواء أفدته علما أو ورثته آلة علم، وسواء دفعك إليه الكفاية أو ما يجلب الكفاية، وأما تجرى الأمور وتصرف الأفعال على قدر الإمكان، فمن لم يقدر إلا على دفع السبب لم يجب عليه إحضار المسبب، فكتب الآباء تحبيب للأحياء، ومحيا لذكر الموتى.

وقالوا: متى كان الأب جامعا بارعا وكانت موارثه كتباً بارعة، وآدابا جامعة، كان الولد أجدر أن يرى التعلم حظا وأجدر أن يسرع التعليم إليه ويرى تركه خطأ، وأجدر أن يجري من الأدب على طريق قد أُنجز له، ومنهاج قد وُطئ له، وأجدر أن يسرى إليه عرق من نجله وسقى من غرسه، وأجدر أن يجعل بدل الطلب للكتب النظر في الكتب، فلا يأتي عليه من الأيام مقدار الشغل بجمع الكتب، والاختلاف في سماع العلم، إلا وقد بلغ بالكفاية غاية الحاجة وإنما تُفسد الكفاية من تمت آدابه، وتوافت إليه أسبابه، فأما

الحدّث الغريب، والمنقوص الفقير. نخير موارثه الكفاية الى أن يبلغ التمام، ويكفل للطلب. نغير ميراث وراث كسب وعلم، وخير المورثين من أورث ما يجمع ولا يفرك، ويصبر ولا يُعْمى، ويُعطى ولا يأخذ، ويجود بالكلّ دون البعض، ويدع لك الكثر الذي ليس للسلطان فيه حق، والركاز الذي ليس للفقراء فيه نصيب، والنعمّة التي ليس للحاسد فيها حيلة، ولا للصوص فيها رغبة، وليس للخصم عليك فيه حجة، ولا على الجار فيه مؤونة.

وأما ديمقراط فإنه قال: ينبغي أن يعرف أنه لا بد من أن يكون لكلّ كتاب علم وضعه أحد من الحكماء ثمانية أوجه، منها الهمة والمنفعة، والنسبة والصحة، والصنف والتأليف، والإسناد والتدبير، فأولها أن تكون لصاحبه همة، وأن يكون فيما وضع منفعة، وأن يكون له نسبة ينسب إليها، وأن يكون صحيحا، وأن يكون على صنف من أصناف الكتب معروفابه، وأن يكون مؤتلفا من أجزاء خمسة، وأن يكون مسندا الى وجه من وجوه الحكمة، وأن يكون له تدبير موصوف. فذكر أن أبقراط قد جمع هذه الثمانية الأوجه في هذا الكتاب وهو كتابه الذي يُسمّى «أفوريسموا» تفسيره: كتاب الفصول. وقولك وما بلغ من قدر الكلب مع لوم أصله، وخُبث طبعه، وسقوط قدره، ومهانة نفسه، ومع قلة خيره وكثرة شره، واجتماع الأمم كلّها على استسقاطه واستسفالته، ومع ضربهم المثل في ذلك كلّ به، ومع حاله التي يعرف بها من العجز عن صولة السباع، واقتدارها، ومن تمنعها وتشرفها وتوحشها، وقلة إسماعها، وعن مسالة البهائم وموادعتها، والتمكين من إقامة مصالحها، والانتفاع بها، إذ لم يكن في طبعها دفع السباع عن أنفسها، ولا الاحتيايل لمعاشها، ولا المعرفة بالمواضع الحريزة من المواضع المخوفة. ولأنّ الكلب ليس بسبع تام ولا بهيمة تامة حتى كأنه من الخلق المركب، والطباع الملققة، والأخلاق المختلطة، كالبلبل المتلون في أخلاقه الكثير العيوب المتولدة عن مزاجه، وشرّ الطباع ما تجاذبته الأعراق المتضادة والأخلاق المتفاوتة، والعناصر المتباعدة، كالراعي من الحمام الذي ذهبت عنه هداية الحمام، وشكل هديره وسرعة طيرانه، وبطل عنه عُمر الورشان، وقوة جناحه، وشدة عصبه، وحسن

صوته، وشجا حلقه، وشكل لحونه وشدة إطرابه، وأحتماله لوقع البنادق، وجرح الخالب .
وفى الراعي أنه مُسْرُولٌ مُثْقَلٌ، وحدث له عِظَمٌ بَدَنٌ وَثِقَلٌ وَزَنٌ لم يكن لأبيه ولا لأمه .
وكذلك البغل خرج من بين حيوانين يلدان حيوانا مثلهما ويعيش نتاجهما ويبقى بقاءهما،
وهو لا يعيش له ولد وليس بعقيم، ولا يبقى للبغلة ولد وليس بعاقرة، فلو كان البغل عقيما
والبغلة عاقرا لكان ذلك أزيد في قوتهما وأتم لشدهما، فع البغل من الشبق والنغظ ما ليس
مع أبيه، ومع البغلة من الشوس وطلب السّفاذ ما ليس مع أمها؛ وذلك كله قدح في القوة
ونقص في البنية، وخرج غُرمولُه أعظم من غراميل أعمامه وأخواله، فترك شبههما ونزع
الى شيء ليس له في الأرض أصل، وخرج أطول عمرا من أبويه وأصبر على الأثقال من
أبويه؛ أو كابن المذكرة من النساء، والمؤنث من الرجال، فإنه يكون أخبث نتاجا من البغل
وأفسد أعراقا من السّمع، وأكثر عيوباً من العسبار، ومن كل خلق خُلِقَ إذا تركب من
ضد، ومن كل شجرة مُطعمَةٌ بخلاف؛ وليس يعترى مثل ذلك الخلاسي من الدجاج،
ولا الورداني من الحمام، وكلّ ضَعْفٌ دخل على الخَلقة، وكلّ رِقّة عرّضت للحيوان، فعلى
قدر جنسه وعلى وزن مقداره وتمكّنه يظهر العجز والعيب . وزعم الأصمعي أنه لم يسبق
الحلبة فرس أهنم قط . وقال محمد بن سلام لم يسبق الحلبة أبلق قط ولا بقاء .

والهداية في الحمام والقوة على بعد الغاية إنما هي للضمّة من الخضر . وزعموا أنّ
الشيّات كلّها ضعف ونقص، والشّبة : كلّ لون دخل على لون . وقال الله جلّ وعزّ : ﴿قَالَ إِنَّهُ
يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةً لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ . وزعم عثمان
أبن الحكم أنّ ابن المذكرة من المؤنث يأخذ أسوأ خصال أبيه وأردأ خصال أمه فتمتجمع

(١) السمع بكسر السين وإسكان الميم والعين المهملة : ولد الذئب من الضبع وهو سبع مركب فيه شدة الضبع وقوتها وجراءة الذئب وخفته (راجع حياة الحيوان للدميري ج ٢ ص ٣٢) . (٢) العسبار بكسر العين والسين الساكنة والألف عسبارة : ولد الضبع من الذئب وجمعه عسابر (راجع حياة الحيوان للدميري ج ٢ ص ١٣٩) .
(٣) الخلاسي : الولد بين أبوين أبيض وأسود، والد يك بين دجاجتين هندية وفارسية . (٤) الورداني بالراء المهملة طائر متولد بين الورشان والحمام وله غرابة لون وظرافة قد .

فيه عظام الدواهي وأعيان المساوي ، وأنه اذا خرج كذلك لم يُجِج فيه أدب ولا يطمع في علاجه طبيب ، وأنه رأى في دور ثقيف قتيّ آجتمعت فيه هذه الخصال ، فما كان في الأرض يوم إلا وهم يتحدثون عنه بشيء يصغر في جنبه أكبر ذنب كان ينسب اليه .

وزعمت أن الكلب في ذلك كالحنثي الذي هو لا ذكر ولا أنثى ، أو كالخصي الذي لما قُطع منه ما صار به الذكر فخلان خرج من حد كمال الذكر بفقدان الذكر ، ولم يكمل لأن يصير أنثى للغريزة الأصلية وبقية الجوهرية ؛ وزعمت أنه يصير كالنبيذ الذي يفسده إفراط الحر ، فيخرجه من حد الخل ، ولا يدخله في حد النبيذ . وقال مرداس بن خدام :

سَقَيْنَا عَقَالًا بِالنَّوِيَةِ شُرْبَةً * فَمَالَتْ بَلْبُ الْكَاهِلِيَّ عِقَالٍ
فَقَلْتُ اصْطَبَحْتُهَا يَا عِقَالُ فَإِنَّمَا * هِيَ الْخَمْرُ خَبَلْنَا لَهَا بِخَيْمَالٍ
رَمَيْتُ بِأَمِّ الْخَلِّ حَبَّةَ قَلْبِهِ * فَلَمْ يَنْتَعِشْ مِنْهَا ثَلَاثَ لَيَالٍ

بفعل الخمر أم الخل قد يتولد عنها ، وقد يتولد عن الخل اذا كان نحرًا مرة الخمر .

وقال سعيد بن وهب

هَلَا وَأَنْتَ بِمَاءٍ وَجْهَكَ تُشْتَمِي * رُودُ الشَّبَابِ قَلِيلُ شَعْرِ الْعَارِضِ
فَالْآنَ حِينَ بَدَتْ بِخَدِّكَ لِحْيَةٌ * ذَهَبَتْ بِمِلْحِكَ مَلءَ كَفِّ الْقَابِضِ
مِثْلَ السُّلَافَةِ عَادَ نَحْمَرُ عَصِيرَهَا * بَعْدَ اللَّذَازَةِ خَلَّ نَحْمَرُ حَامِضِ

ويصير أيضا كالشعر الوسط والغناء الوسط ، والنادرة الفائرة التي لم تخرج من الحر الى البرد فتضحك السن ولم تخرج من البرد الى الحر فتضحك السن .

باب الرسائل

١ - الفصول المنتخبة من الرسائل المختارة في كل فن^(١)

كتب رجل الى صديق له :

إن آباءك شادوا أكارمهم بالفضائل التي كانت فيهم ، وإنك قد كنت أخذت في مدرجتهم فأوفيت على غايتهم ، ثم أختلجك الهوى ببعض جديلتك وجودك^(٢) ، من لباس فضلك الذي كنت تطول به على أكفائك ، وتملك به أعنة كافة جنودك ، وألقيت مالك على شر عواقبه عليك لا لك إن زلت مكاره بوادره عنك .

فصل - قيل : إن مروءة الرجل في نفسه تسب لقوم آخرين ، فإنه إذا فعل الخير عُرف له ، وبقي في الأعقاب والأصحاب ، ولقي يوم الحساب .

فصل - إن حق الله على المسلمين أن ينظروا في دينهم بالنصيحة لأئمتهم ، فإن الأئمة إذا صلحوا بدل الهوى بالتقوى في قلوبهم ، وماتت سورة الغضب فيهم لأحلامهم ، وسكنت العائمة الى عدلهم وذات لإنصافهم . وإذا كان للحسن من الحق ما يقنعه ، وللظلم من النكير ما يقمعه ، بذل المحسن الحق عليه رغبة ، وذلل المسيء بالحق عليه رهبة . فأقول ما أمرك به رجاء الله وتقواه . فأما رجاؤه فإن تحسن به في الصنيع إذا أطلعته ، ويكون لك وقاية إذا أثرته مطمئنا . وأما تقواه فإن تكون له فيما أمرك به ونهاك عنه مراقبا ، فإن تقية المؤمن تزيد في أنشراح صدره ، وإن شدة خوفه ترد هواه على عقله .

(١) نقلا عن اختيار المظلوم والمنثور لابن طيفور .

(٢) الجديلة : الناصية والحالة والطريقة .

فصل — تنبه اذا نهبت، وأذكر اذا ذكررت، وانتفع فقد وعظمت، وأسمع فقد
نوديت، نهك الوعيد، وحذر الزاجر، وأمرك ونهاك الكتاب، ونعتك آثار الموت،
ودعاك الى الجنة مليء جواد، فالخذ الخد، فقبل المهجرة يريح المذليج .

فصل — ما نظرت في معروفى عند أحد، فوجدته قصر عن أمله وكان
يمكننى أن يكون أكثر منه، إلا عدته سيئة لى عنده، لأنى ذوقته ما أحب، ثم منعته
إياه، وكأنى قصدت لإشخاص قلبه . ولا نظرت في معروفى عند أحد فوجدته قد تنهى
عند تنهى أمله وكان يمكننى أن يكون أكثر منه، إلا رأيته فى ذلك واثراً لنفسى، لأنه
كفى عيباً لها وإزراء بها، أن أقنع ... فضل تتخذه بمثل ما أقنع رجلاً من فضل يتخذه
عليه .

فصل — ما أنت بمن يعلم من جهل به، ولا تحس منه بادرة زلة، ولا يقابل
بين أمرين إلا عارف خيرهما فأثره، وشرهما فاجتنبه . وقد رأيت ما ساقى اليك الطاعة
من حظ العاجلة، فلا تتعرض لزوال ما أنت فيه، فتخسر الحظين، وتندم فى الدارين؛
فقد رأيت من عاند الحق كيف صرعه الله وبسط يده وليه على سفك دمه، وإحلال
القمعة به، فصار بعد أن كان فى الأمانة مثلاً، ولجميع الخلق غاية وأملاً، فكرة فى الاعتبار،
وعظة للأبصار . فلا يبعد الله إلا من ظلم وختر، وذهب عن الحق وأدبر . وأنت اليوم
محكم فى أمرك، مخير فى رأيك، تدعى الى حفظك بالخط الجزيل بتدليل . فاهتد به ما قد
هَدَف لك وهو ممكن ليدك، فإنك إن أهملت وتراخيت، لم يكن بالحق ووليّه وحشة
اليك، ومضت أحكام الله فى نصيرها وتأبيدها على أذلالها^(٢)، وصفرت يرك بما لا يشرف
لك بمثله، وأخطرت بدمك وأسأته أخبث مسيل وأضل سبيل، حيث لا تبكى عليك
السماء والأرض .

(١) بياض فى الأصل . وامله : أن أقنع نفسى بفضل أتخذه بمثل ما أقنع رجلاً الخ .

(٢) على أذلالها : على وجوها وطرقها .

فصل — الناس رجالان : عالم لا غنى به عن الازدياد، وجاهل به أعظم الحاجة الى التعلم ، وليس في كل حال يكون العالم لما يبيده من الأمور مُعِدًّا ، ولا المتعلم على ما يستفيد منه قادرا وفيًا .

فصل — إن أنت عطَّلتنا من أمورك ، وأعفيت ظهورنا من أثقالك ومؤونتك ، وتركنا أغفالا في ولايتك من تنهيك وتحريكك ، فقد أنزلتنا منزلة من لا خير عنده، وجعلت نفسك أسوة من لا معين له ، وكفى بذلك ظلما .

فصل — إن إعلامي إياك ... غير محدَّد شيئا ، ولكنه أقرب من الجميل في معرفة عذر المعتذر، وأحمل للأئمة على المسيء المقصر .

فصل — الذي أعتمدنا عليه من رأيك ، ونثق به من جميل نظرك ، قد خَطَّني بأهل صنائعك ، والخاصة من ثقاتك ، وبَسَطَ أملِي فيك الى غاية خير يُرتجى ، أو جَزَلَ حَظَّ يُؤمَل .

فصل — ليس يَسُوغ لأحد في الأمير أَمَل ، ولا يتوجَّه اليه منه رغبة ، ولا يلزمه في قضاء حقه ، وداناة مؤونته إلا وفضله مستغرق لها .

فصل — من أَحَمَدَ الأمور وأجمل المذاهب ، ما كان آخره موصولا بأقوله ، ومؤدِّيا بدوئه الى حَمْدِ عاقبته ؛ فحافظ على الأمور التي حَسُنَ فيها عند أمير المؤمنين أَثَرُكَ ، مستقِلًّا فيها لكثير ما يكون منك ، مُعْتَمِدًا بها في النعم عندهك ، والإحسان الواصل اليك ، فيما يوفِّقك الله له منها ويخصِّصك به من الفضل في اختيارها ، وأمير المؤمنين يستحفظه الله لك ، ويستمتع به في النعمة فيك .

فصل — قد كان يجب أن تجعلنا بمتابعة النعم علينا في خاصَّة الشاكرين لفضلك ، ولا تجعلنا بتواتر الإساءات إلينا في عامة الشاكرين لك .

(١) بياض في الأصل . ولعل الكلمة المتروكة «بحاجتي» . والظاهر أن كلمة «محدَّد» محرَّفة عن كلمة «مجد» .

(٢) كذا بالأصل .

فصل - علمي بما بنى الله عليه أخلاق الأمير أكرمه الله ، وجعل عليه رأيه في بسط العدل على رعيته ، وبث الفضل على مئتمسي فضله ، يبعثني على الكتاب في مثل ما كتبت إليه فيه ، من ظلامة مظلوم يستعيز فيها بعدله ، وحاجة ملهوف يرجع فيها الى فضله ؛ فأجمع الى ما ألتبس من الثواب في ذلك موافقة رأى الأمير ، وإذكاره ما يجب أن يذكر به ؛ فزاد الله الأمير من نعمه ، وأوزعه من الشكر عليها ما يوجب له لتابعها عنده ، وترادفها له .

فصل - أنت والحمد لله من آختم الصنيعة ، وقيل الأدب ، وصدق الخيلة وخلص على المحنة وحسن الظن ؛ فاستقامت طريقته وقدمه جميل مذهبه وآثاره ، وجرى على قصد السبيل طاعته ، واشتدت على السريرة والعلانية مناصحته ؛ فأصبح أمير المؤمنين لا يتناهى في برّك وتكرّمك ، إلا رآك مستحقاً لها ولياً فوقها ، ولا يرفعك الى درجة إلا رآك أهلاً لأشرف منها ، صنعا من الله لك بما وفّقك له من طاعته ، ووهب لك من جميل مراتبه ، والمكان منه والأثرة عنده .

فصل - فضل مشاركتنا إياك في محبوب الأمور ومكروها يمحّلنا في السرور بالنعمة عندك - بحمدك الله لك - ويوجب الشكر بما يكون لحقها قاضيا ، وللازيد فيها موجبا .

سعيد بن حميد - شغلك يقطعنا عن مطالبك بالحق في جوابات كتبنا اليك ، وصدق مودتنا لك يمنعنا من التقصّي في المجّة عليك ، ومن يكك الى رأيك فإنه لا يفي بك إلا لك ، صلة إخوانك والتعاهد لهم من برّك ، بما يشبه فضلك والنعمة عليهم فيك .

وفلان يفي وبينه مودة أقدمه بها على الأخوة ؛ لأنك تعلم قرب ما بين المودة والقربة ، وقد بلوته على الحالات كلّها ، فلم يزدني اختباره إلا اختيارا له ؛ ولا أعلم بالعسكر جليلا إلا وهو لي صديق ، يشكر بشكره ويوجب على نفسه المنّة فيما آتى اليه ؛ فأما من بين إخوانه فليست أعيدل عن قضاء حقّه ، ولا أتاخر عن معروف أسدى اليه ؛ فإن رأيت أن

يُحِلُّه بِالْحَلِّ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ بِنَفْسِهِ وَسَلَفِهِ ، فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ سَوْقَ الْأَحْرَارِ أَنْفَقَ مِنْهَا عِنْدَكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ؛ أَبْقَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِأَقْيَمِكُمْ وَرَحِمَ مَاضِيَكُمْ .

فصل — إِنَّ أَحَدًا لَيْسَ بِمُسْتَخْلَصٍ شَيْئًا مِنْ غَضَارَةِ عَيْشٍ إِلَّا مِنْ بَيْنِ خِلَالِ مَكَارِهِ ، فَمَنْ أَنْتَظَرَ بِعَاجِلِ الدَّرَكِ آجَلَ الْأَسْتَقْصَاءِ سَلَبَتْهُ الْأَيَّامُ فُرْصَتَهُ ، لِأَنَّ مِنْ صِنَاعَتِهَا السَّلْبَ ، وَمِنْ شَرِّطِ الزَّمَانِ الْإِفَاتَةَ .

فصل — إِنَّ الْأَمِيرَ قَدْ جَلَّ فَضْلُهُ عَنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِ وَصْفٌ ، أَوْ يَأْتِيَ عَلَى تَعْدَادِهِ اجْتِمَاعٌ ، فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ أَكْثَرَ مِنَ الشُّكْرِ لَكَانَ الْأَمِيرُ يَسْتَحِقُّهُ عَلَيْنَا ، وَيَسْتَوْجِبُهُ مِنَّا .

فصل — قَدْ أَصْبَحَ الْمُخْتَلِفُونَ مُجْتَمِعِينَ عَلَى تَقْرِيطِهِ وَمُدْحِهِ ، حَتَّى إِنْ الْعَدُوَّ يَقُولُ أَضْطَرَّارًا مَا يَقُولُهُ الْوَلِيُّ اخْتِيَارًا ؛ وَالْبَعِيدُ يَثِيقُ مِنْ لِنَاعِهِ عَلَيْنَا بِمَا يَثِيقُ بِهِ الْقَرِيبُ خَاصًّا .

فصل — الْمَائِلُونَ إِلَيْهِ بَيْنَ نَعَمٍ مُكْتَنِفَةٍ مِنْ تَالِدٍ بِهِ يَسْتَدِيمُونَهُ ، وَطَارِفٍ مِنْهُ يَسْتَعِيدُونَهُ ، وَمَوَاهِبَ مُتَجَدِّدَةٍ ، وَفَوَائِدَ مُتَرَادِفَةٍ ؛ هِيَ مَبْسُوطَةٌ بِهِ إِلَى بَرَكَةِ أَيَّامِهِ ، وَعُلُوُّ حَظِّ^(١) مَنْ أَتَصَلَ بِهِ ، فَزَادَهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَزَادَ أَوْلِيَآءَهُ بِهِ وَبِرَكَّةٍ دَوْلَتَهُ .

فصل — اعْتَمَدْتُ أَخًا لَا يُدَيِّمُ إِخَاؤُهُ ، وَلَا تُشْكِرُ أَحْوَالُهُ ، عَلَى بَعْدِ الدَّارِ وَقُرْبِهَا ، وَأَتَصَالَ الْمَكَاتِبَةُ وَأَنْقِطَاعُهَا ؛ تَجِدُهُ مُتَصَرِّفًا مَعَكَ فِي الْخُطُوبِ الَّتِي يَطْرُقُ بِهَا الزَّمَانُ ، وَيَدَا لَكَ فِي الْأُمُورِ الَّتِي يُمْتَحَنُ فِيهَا الْإِخْوَانُ .

فصل — أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مَا تَطُولُ بِهِ فِيهِ مِنَ الْجَلَالَةِ فِي الْقُلُوبِ وَالْعْيُونِ عِنْدَ الْوَلِيِّ وَالْعَدُوِّ مَوْصُولًا بِالْإِنْسَاءِ فِي مَدَّتِهِ ، وَالْإِدَامَةِ لِعَزِّهِ وَسَلَامَتِهِ ، وَالْأَعْلَاءَ لِيَدِهِ وَكَلِمَتِهِ .

أحمد بن يوسف — عِنْدِي فَلَانٌ وَفَلَانٌ ، فَإِنْ كُنَّا مِنْ شَأْنِكَ فَقَدْ آذَنَّاكَ .

في صفة حرب — كَانَتْ لَكُمْ الْكَرَّةُ ، وَعَلَيْهِمُ الدَّبْرَةُ ؛ فَعْمَلُوا حِمْلَةً كَاذِبَةً ، أَتْبَعْنَاهَا بِأُخْرَى صَادِقَةً .

(١) في الأصل : « حفة » والسياق يقتضى ما أثبتناه .

فصل في هدية — قد أهديتُ اليك من فنون كلامي وعيون مقالِي ، دفترًا ظريف المعاني ، شريف المباني ، صحيح الألفاظ ، يَلدُّ بأفواه الناطقين ، ويَلين على أسماع الصامتين .

فصل في شفاعية — لفلان قبلك حاجة ، ليس يحتاج فيها الى معدلتك ونصفتك المبسوطتين لمن لا يتوسل بخلطيك ومعرفتك ، ولكنه يريد ما في ذلك العدل والإنصاف من الرفق والإحسان المذخورين للخاصة والإخوان .

فصل لرجل تميمي — ضَعُف حالي يدعوني الى كثرة الطلب ، ومَعْرِفِي بِجَمِيل رأيك تحجزني عن الإلحاح عليك ، خوفًا أن أكون جاهلا بعنايتك ، وحسن نظرك ، والكرم يستحيي بعضه لبعض ، ويبعث بعضه بعضًا ، ودين حيلته الغير على العقود ، فبعثه كرمه للنهوض ، أودعاه هواه الى المنع ، بخاءه عقله على البذل ، وحالي جالحة لدى فضلك ونعمة الله عليك من سدّ خلتها ، ومداواة علتها بجاهك الواسع ، ورفدك النافع .

أحمد بن يوسف — قد بذلت لنا من نفسك أعزّ مَبْذُول وأنفسه ، والمودة التي كلما يُحمد من صاحبها ، فهو لها نافع . وثقتنا بك واستنأمتنا الى ناحيتك ، على أحسن ما أكد الله بيننا وبينك . وإن كان مدى اللقاء بيننا لم يطل فأثّل منه ما يراه أهل الوفاء والمخالصة ، ويقصر في المحافظة عليه وعلى أكثر منه ، من دُخِلَتْ بيته ، وضَعُفَتْ حُلَّتُهُ .

فصل — قد أصبحت للخاصة عُدّة ، وللعامّة عَصْمة ، وللأنام ثقة في مناصحتك .

فصل في الصفح لأبي علي — إن الذي فرط منك ، وإن تجاوز مني ما أرضاه لك ، لم يبلغ ما يغضبي عليك ؛ وحيث انتهى ما يخالفني من قولك وفعلك ، فإن وراءه تعمدًا مني لإساءتك وصفحًا عن زلتك ؛ فإن تأمّنًا لا تُخُنْكَ ، وإن يسؤ ظنك فأنا نحتاج الى إصلاحه منك .

أحمد بن يوسف — الى ابراهيم بن المهديّ في هدية استقلها :

بلغني استقلالك لما ألفتك ، والذي نحن عليه من الأنس سهّل علينا قلة الحشد لك في البر ، فأهدينا هدية من لا يحثّشيم الى من لا يغتم .

كتب عَقَّال بن شَبَّة — الى خالد بن عبد الله في شفاعته :

إنَّ الله انتخبك من جوهرة كرم ومنبت شرف، وقسم لك خطراً شهرته العرب وتحدثت به الحاضرة والبادية، وأعان خطرك بقُدرة مبسوطة، ومَنزلة ملحوظة؛ بجميع أكفائك من جماهير العرب، يعرف فضلك، ويسره ما خار الله لك، وليس كلهم أداله الزمان ولا ساعده الحظ؛ وأنت أحق من تعطف على أهل البيوتات، وعاد لهم بما يبقى له ذكره ويحسن به نشره، مثلك. وقد وجهت إليك فلانا، وهو من دينة قراحي، وذوى الهيئة من أسرقى، وعرف معروفك؛ وأحببت أن تلبسه نعمتك وتصرفه الى وقد أودعتني وإياه ما تجده باقياً على النشر، جميلاً في الغب.

فصل في التوديع

أستودعُ الله الأميرَ بأحسن وداعه، وأسأله أن يجعله في كنفه ويحزّه، فقد أكرم المشوى، وأحسن الابتغاء؛ فأطال الله له البقاء، وأدام عليه النعماء.

في الصفح

بلغني كتابك، تذكر كتابي إليك بوضعي عنك موجدتي، ورددي لك الى أحسن ما عهدت من منزلتك عندي؛ وقد حلت منّا المحل الذي خلطناك فيه بأنفسنا، وأدخلناك منه مداخل أهل ثقتنا؛ ولست تؤثني من جهالة بما أنت فيه، ولبعض ما أنت عليه من التجارب تُستفاد بمثلها العبر، ويُنتفع بها في عطف الأمور.

جواب في فتح

كتب سالم بن هشام الى يوسف بن عمر حين قتل زيد بن عليّ رحمة الله عليه :
قد بلغ أمير المؤمنين كتابك بما أبلى الله في مِدره السوء، وأنه لما عضبتهم الحرب، وآلمهم الحديد، عادوا بالمسجد الجامع، قد أكَذَّب الله ظنونهم، وخَذَّلَ نَحْرَهم، وقتل إمام ضلاتهم؛ وحفظ لأمر المؤمنين ما ضيعوا من حقّه، وحاط له ما أباحوا من الغدر فيه؛ وقد رأى أمير المؤمنين أن يجعل من شكر الله على نعمه، الصفح عنهم، وتغمّد حرّهم

وأن يعمهم من عدله ، بما يردّ به الجاهل عن جهله ، والغوى عن غوايته ؛ ويعلمون مكانه من الله ، واستجابته لعزّه ونصره ؛ وأنه الخليفة المتّقى ، والإمام المتألف ؛ وأنه يُقدّم العفو في الطاعة ، على الحجّة في العقوبة ، والحسبة في الاستصلاح ، على القوة في التأييد ؛ فأمسك عنهم بيدك ؛ فإن أمير المؤمنين قد وهب ذلك كلّ الله ، ورجا به ما ليس ضائعا عنده من ثوابه .

في الصفح عن الجفاء

لو كان من نازع الى الغدر ، قلّدها عنان الهجر ، لم يكن أقرب منا الى الذنب ، ونحن نردّ عليك من نفسك ، ونأخذ لنفسك منك ، حتى يكون تركنا إياك ، وعذرنا فيه وافرا .

فصل — الحمد لله على البلية التي طال أمدها ، وبعد ما بين طرفيها .

آخر — آقتفرت في التثبت أناة ذوى الحجى ، وقدمت المقدم من الأناة على العجلة ، وأطعت في أمرك النظرة ، واتهيت الى العشرة والمعرفة ، فلكمت ما ملكك ، وحكمت على الذى حكم عليك ، فأخذت مثل الذى أعطيت .

فصل — بدء أسباب الأمور دليل على عواقب الأمل فيها ، والخيرة بعد الله عزّ وجلّ .

فصل اعتذار

لو كان الناس يقضون الحقوق التي تجب عليهم ، ويحافظون على الأمور التي تلزمهم ، لقلت اللائمة ، وخلصت المودة ، وارتفعت أسباب العتاب ؛ ولكنهم عجرة منقوصون ، يضعفون عن العلم ، بأكثر ما تدركه عقولهم ، وتعوقهم عن ذلك أشغال لا يجب بها العذر ، ولا تستحقّ الإيثار ؛ ولم أزل عاتبا على نفسى فيما ضيعت من مكاتبتك ، مع معرفتى بفضلك ، وموقع ذلك عندك ، وما اعتذارى اليك ، سوء ظنّ بك ، ولا مخافة للائمك ؛ ولئن فعلت ما ظلمت ؛ غير أنّي أحببت أن أكفيك المؤونة ، فيما عسيّت أن تنقبض عنه من مقايستى ومعاتبتى ؛ وأنا أحب أن تقبل العذر ، وتعين على مستقبل البرّ .

فصل - أنت في زمان إن لم تغالط أهله ، وتختلهم على ما في أيديهم ، وتصبر على مكاره الأمور بعد المطالبة ، لم تصل الى شيء ، ولم تجد أحدا ما على فضل منك وإن عرفه فيك ، ولم يفتنه من محاسنك شيء ، إلا رأى في مساوئ غيرك عوضا منه ؛ فكان بذلك أثلج ، واليه أسكن ؛ فعليك بالصبر ، فإن غايته الى خير ، وأقل ما فيه أن صاحبه لا يلوم نفسه ، ولا يلومه أحد ، ولما يظفر أو يدل .

الى المأمون من عامل

قل من يسارع إلى بذل الحق من نفسه ، إذا كان الحق مضرا به ، وقل من يدع الاستعانة بالباطل ، إذا كان فيه صلاح معاشه ، وسبب مكتسبه ؛ وإذا تفرق الحق في أيدي جماعة فطولبت به ، تشابهت في الكثرة لبذله ، وتعاونت على دفعه ومنعه ، بالحيل والشبه قولا وفعلا ؛ واحتاج المبتلى باستخراج ذلك الحق من أيديها ، الى استعمال مجاهدتها ومصابرتها على الحيلة في مدافعتها .

ابن الكلبي

كان خبر ما أبلاك الله في فلان بعد أمانه ما عزمت عليه من الأمان ، خبرا عظم مكانه من أمير المؤمنين ، وحسن موقعه من الدين ؛ ثم ردف خبرك بإذعانه عند ما عضيه من بأسك ، ومسه من مؤلم إيقاعك للاستسلام ، وطلب عقد الأمان ؛ وإنك بذلت له ما طلب لا لرهبة بقيت في ناحيتك ، إلا الاحتذاء على مثال أمير المؤمنين وأدبه ؛ فكان إباؤه ما عرضت عليه في أول أمره ذخيرة حظ فيما كشفت عنه البلوى من محمود أثرك ، واجتمع لك في ذلك حظان : الظفر آخرا ، والدرك لما حاولته أولا ، فلا زلت على نصيبك من الحظ ، مؤيدا بالنصر والمعونة ، والحمد لله على ما حقق من الظن ... من هذه النعمة على يدك وبسعيك .

(١) بياض في الأصل . ولعل الكلمة المتركة «وآتى» .

ابراهيم بن اسماعيل بن داود الى ذى الرياستين

وصل الى كتابك بخط يدك المباركة، فلم أرق قليلا أجمع، ولا إيجازا أكفأ من إطناب، ولا اختصارا أبلغ في معرفة وفهم منه؛ وما رأيت كتابا على وجاهته، أحاط بما أحاط، وضربت ظني في فلان فعظم ذلك سرورى، وقد يُستعطف الظالم، ويُستعجب المتعجب؛ وفي رفقك وعلمك بالأمر ما يصلح الفاسد، ويُذلل الصعب، ويُقيل المدبر؛ ولا يمينتك جور من جار عليك، من الاعتقاد في الحجة عليه، والأخذ بالثقة في أمره، فإن الله عز وجل لم يجعل عليك في ذلك منقصة ولا غصاصة، بل فيه الإعذار والإنذار والاستبصار، وقضاء حاجة النفس، مع التأدية الى السلامة، والأمن من الندامة.

فصل — أنا في حال عافية، نتجاوز الى حال نعمة، والحمد لله حتى يرضى، فقد أَرْضَى؛ فاما ما أشرت به، وخبرت من إمضاء رأيك فيه، والإمساك عنه، فثلك جعل لمن نصحه شركاء في كل أمره، ولم يجعل رأيه قرضا لبعضه أن يتعدى، وذكرت أدب فلانة، وعندنا لفلانة الطمع المستقبل مع الإنعام المتقادم، مع أنه لا شيء لها عندنا قل ولا جل، ولو كان ما استحلنا حبسه صمقة كَفَّ، ولا تغميض طرف؛ وذكرت أنه لا يستغنى مثلنا عن مثلها، وأبدال الله كثيرة عتيده، وما بان علينا فقد أحد ممن كان قبلها في دارنا، فحال بيننا وبينه حائل، ولا اختلنا له مع نظر الله تبارك وتعالى وأخلافه؛ وبعد - هذا فأحسن الله جزاءك، وحاط لي فيك ما أحب منك، وكفاك المهمل وكفانيه بك، فما تقوم نفس لو كانت لي أخرى مقامك في نصيحتي وبري، والاهتمام لي، بما أنا عنه ساهية لاهية من أمرى، لا أعدمنك الله ولا النصيحة منك.

فصل — قال أبو جعفر الكرمانى للحسن بن سهل ووعده شيئا فأبطأ عليه :
أنا أعيرف تكامل الثقة فيك، ورجاحة الفضل بك؛ وأعلم أن فعلك يربى على قولك، وأن إنجازك أكثر من وعدك؛ فقدم لي من كرمك، ما أثمره إلى أن يلحقه المتأخر

(١) بياض في الأصل . وما وضعناه يناسب المقام .

عنه ، وإلا فدلّني على ما أقول اذا سألتني من بعثته على شكرك ، عما بلغه من الحظ على نيتك .
فقال الحسن : تقول ما ينبغي ، فقال : فافعل ما ينبغي أقله .

عمرو بن مسعدة

وصل الى كتابك ، على ظمأ منى اليه ، وتطلع شديد ، وبعد عهد بعيد ، ولوم منى على ما مستقى به ، من جفائك ، على كثرة ما تابعت من الكتب ، وعيدمت من الجواب ، فكان أول ما سبق الى من كتابك السرور بالنظر اليه أنسا بما تجدد لي من رأيك ، في المواصلات بالمكاتب ، ثم تضاعف المسرة ، بخبر السلامة ، وعلم الحال في الهيئة ، ورأيتك بما تظاهرت من الاحتجاج ، في ترك الكتاب ، سالكا سبيل التخلص مما أنا مُحلّصك منه ، بالإغضاء عن إلزامك المحجة ، في ترك الابتداء والإجابة ؛ وذكرت شغلك بوجوه من الأشغال كثيرة متظاهرة ممكنة ، لا أجشّمك متابعة الكتب ، ولا أحمل عليك المشاكلة بالجواب ؛ ويقنعني منك في كل شهر كتاب ، ولن [تُلزم] من نفسك في البر قليلا ، إلا ألزمت نفسي عنه كثيرا ، وإن كنت لا أستكثر شيئا منك ؛ أدام الله مودتك وثبت إخاءك ، وأستراح لي منك ؛ فرأيت في متابعة الكتب ومحادثي فيها بجزرك موقفا إن شاء الله .

عيسى بن واضح الى الفضل بن الربيع

قد أكد الله من حرمتي بك ، ووصل من الشعب ببنى وبينك ما جعله ذخيرة ليوم الحاجة ، وعُدّة عند ملء النازلة .

جبل بن يزيد

أما بعد فإن من صحب الدنيا لم يخل من تصرف أحوالها ، وكثرة معاريض فجائعها ، في احترام الأنفس في خواصها ، ومواقع البلايا بين ذلك فيما يهتدأ ، ويفر من الأشياء عليها ؛ وكان ذلك لا سبيل الى دفعه ، ولا حيلة يُستعان بها عند نزوله ، إلا الرضا عن الله عز وجل فيما قضى ، والتسليم لأمره في كلّ ما أتى ، والسكون الى الأسوة التي نهج الله سبلها ، وخفف

(١) السياق يقتضى وضع هذه الكلمة ، وهي متروكة في الاصل .

بها مواقع المصيبات على أهلها ؛ ثم الرجاء بعد ذلك لحسن ثواب الله ، [وقد] جعله الله لمن لزم أمره وأجشم نفسه مكروهها في موطن الصبر على المصيبة ، والشكر في حال العافية .

وله في المطر

قد كنتُ كتبتُ الى أمير المؤمنين أعلمه المطرة التي أصابتنا ، وما أنزل الله بها من رحمته ثم عادت لنا بعدها من الله عائدة رحمة ، بوليّ مَطَرٍ أنزله الله بأحسن ما رأينا من المطر وبالاجود ، لا يفتر غزيره ولا يرعوى جوده ، إلا الى ديمة عن ديمة ، يتراخى اليها يسيرا رئيسا تعود ، فأقامت علينا سماءه مُستَهلةً بذلك وكذلك الى غروب الشمس ؛ ثم أنقطع مطرها بسكون من الريح ، وتُتور من القرّ ، وفضل من الله عظيم ، يَشْرِبُه رحمته ، وَيَسْطُرُه رزقه ، فأسبغ النعمة ، وأوسع البركة ، وأوبق بحمد الله معارف الخصب والحي . والله محمود على آلائه ومشكور على بلائه ، وما أنزل الله من سُقياه ورحمته ، بعد الذي أقبلت به السنة البرية والقحط وعدم الإمطار ، وشدة ما بلغ الناس من القنوط وسوء الظنون .

وله الى بعض إخوانه

أما بعد ، فإن أعظم الأمور فيما بين الناس حقا أمران : منهما الإخاء في الدين ، فهو سبب وصية الله بين عباده بالألفة والمحبة التي آتقطعت بها قرائن القلوب من بعضهم الى بعض ، فاتصلت بحبائلهم مرائرُ حبلها ، وتقطعت فيما بينهم عاطفاتُ وصلها ؛ ومنهما مجاملة جميل الأعداء ، وحفظ ما يحق لأهل حسن البلاء ؛ ثم الصنائع بعد ذلك في مواقعها فضائل بقدر ما جرت به أسبابها ولطفت مداخلها .

فصل — الصناعة ليست يزيدها الأخلاق الجميلة ، ويزيد في أسبابها أواخر المودة ؛ وقد جعلك الله في صناعتك مُقدّما ، وفي مودتك مُتفضّلا ؛ فلا زالت عنك نعم الله ، ولا برحت سكتا لإخوانك ، وأنسا وموضعا لما تستميتون من معروفك ، ويستمتعون من يدبرك .

فصل - إنَّ لك من قلبى لموضعا معمورا بالموَدَّة والثَّقة ، والاسترسال
والآنسة ، فلا تُخرج فلانا من سعة جميل برك ، الى عُنْقى استحقاقه .

آخر

قد طالبت الصباية اليك ، وللدهر عَقَبَ عائدة بالنفع والصنع ، ولا سِيَّما لمن كان على
مثل شاكلتك فى أدبك وفضلك وإنصافك لإخوانك وبرك بهم ، وما توجبه على نفسك
لهم مما يُقَصِّرون عن شأوك فيه .

الكَلْبى

كان أسلافنا تقارضوا ديونا من الصفاء يَسْتَأْذِيها كَلَّ عَقِب من صاحبه ؛ وقد أورثونا
موَدَّة لا نَعِجُزُ عن اكتساب مثلها .

ابن أعين كاتب الخيزران

ليس يكون منك شيء وإن حسن ، إلا وحسن ظنى بك يبلغه ، فاستمَّ أحسن ما كان
منك ، يتم لك أحسن ما يُحِبُّ منى . ولا يَمْنَعُكَ الاكتفاء بحالك اليوم من طلب الزيادة
فى غد ؛ فإنه لقلَّ شيء لا يزيد إلا نقص ، والزمان يحق الكثير ، كما يربو على الزيادة القليل .

ابن الكَلْبى

أنت من أطول بمكانه وأثقى بجميل رأيه ، وأعتمد على رِفْده ، وأرجو دَرَك كل فضيلة
به ؛ ومما أحب علمه مَقَرَّ نعم الله عز وجل لديك .

على بن عبيدة الى ابن الكَلْبى

وصل الله أيام عُمرى باتباع موافقتك ؛ ولولا موعد أخذ على ، لأطعُتك فيما أمرت به ،
مُتَّبِعاً مع إجابتك سرور نفسى برؤيتك فى السلامة .

أما بعد ، فإنى أصبحت وقد استفرغ الأمير منى كل موَدَّة ونصيحة ، ومبلغ جهد
وطاقة فيما عرفت له فيه موافقة .

فصل - فإن الذى شَعَبَ الله بيننا من التواصل والتكاتب ، يدعونى الى متابعة الكتب اليك فى تعهد حقك ، وإن كان الخبر عن ظاهر الحال قلما يُغْنى ، فإن له من الأئس والموقع فى الكتب ما ليس مُسْتَعْرِضَات الأخبار .

فصل - قد كنتُ أعلمت الأمير انقطاع بنى فلان الى فلان ، بأهوائهم وبصائرهم وشراء ما قَبَلَه بغيره ، وما كان وصل اليها فى ذلك من الأمور التى حملوا إصرها ، وبقي لئسا أجرها وذكرها ونافلتها وسابقتها ، فنحن عدد الأمير وخباياه وذخائره ، ومن يأمل يومه وغده ، ولا مُتَخَطِّى له عنه ولا مقتصر دونه .

عُمارة

بلغنى كتابك يصف كذا . فإن رأيت ألا تعتمد على ما لصقت [به] من عذرك ، وأطعت فيه الهوى من قبول عفوك ، وتجعلنى أحد من يُسرّ بسرورك ، وتُشركه فى مهمات أمورك ، فإنى أحدهم وأوسطهم عناية بما عناك وتوسّط لما عراك ، فعلت .

فصل - والدنو من دارك إذ الدار جامعةً والحبل مُتَّصِلٌ ، إذ نحن فى الاستيفاء بالخبر والعلم بدخلة الحال ، بمنزلة من كآته يُعانى من يشاق اليه ويصوبه فى كل يوم ، حتى نأت النوى ، وأنت فى اللقاء والإنظار فى كل أمر وعلى كل حال من لا يُشكّ فى صفاء غيبه ، وصدق إخائه .

فصل - مُشاركتنا لإياك فى محبوب الأمور ومكروها يحلّنا محلّك فى السرور بالنعمة يحدّها الله لك ، ويُوجب من الشكر علينا مثل الذى يوجب عليك . فوصل الله كل نعمة يهبها لك من الشكر بما يكون لحقها قاضيا ، ولزيد فيها موجبا .

سعيد بن عبد الملك

كتبت على شغل فى قطع من القِرطاس ، ولم يقطع بى حسنُ الظن بك فى قبولك العذر ، وتحسينك ما أنت أهلّ لتحسينه ؛ فإنك تقبل دون حقك ، وتَهَبُ الذنب فيه ، فيكون شكرُك

(١) فى الأصل : « ... وسراء ما قبله ... » : (٢) فى الأصل « عليها ... » وهو لا يؤدّى الغرض المراد .

جاريا على سبيلين ، كلاهما يبين لك عن فضلك ، ويوجب لك مالا يَصْرُ معه إلا مغبون
الحظ خسيس النصيب .

فصل — وقد ظهر من أمير المؤمنين في فلان بعد وفاته ، ما هو أعدل شاهد على
حسن مُنْقَلَبِهِ ، ورَدَّ اليك من رأيه وتفقده ما أرجو أن يكون فيه أعظم العوض . والله
أسأل أن يتولى لك أمورك في السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، والشكر وحسن العزاء .

جبل بن يزيد الى بعض إخوانه

تم الله علينا وعليك النعم ، وأَجَزَلُ لنا ولك محاسن صالح القِسَم . إن الله تبارك وتعالى
أجرى بيننا وبينك لطيف مودة ، وخاص أخوة ، غير أن المعرفة قد تُنحَد بعند الخبرة ،
والنقة إنما تعرف بعد التجربة ، وقد أحببت أن أعلم من قبلك الذي أحدث الله لك من
حال دولتك ، وأن يُعَلِّم هل أبقيت لنا منك النعمة سعة ، أم تركت لنا منك صَفْحَة نعرف
بها عهدك ونأمل بها وصلك ؟ فإن أصحاب السلطان ، بحال بلوى في التغير والانتقال ،
إلا من نالته من الله تبارك وتعالى عصمة . فإن كنت على ما رجونا من الوفاء ، وحسن
الحفظ للمودة والإخاء ، فمثلك لم يرض لنفسه إلا بأجل الأخلاق وأوفقها للسداد . وإن
حجزك عن ذلك ما تأتى به الأقدار في مُتَصَرِّف الليل والنهار ، نَعْذرك بما نَعْذَر به أهل
السلطان ، اذا غيَّرتهم الحال ، وتكرت شمائلهم بين الإخوان .

وله الى بعض إخوانه أيضا :

إعلم أنى اليك مشوق ، وأن صلة الإخوان كرم ، وخير الصّلات ما لم يكن لها وجه
إلا الرجاء والحفظ وتجديد المودة وتصحيح الإخاء ، فإن الذى يكتب لإخوانه على حال
الرغبة يكفى القائل كتابه حيث شاء ، إن أحب مال به الى الصحة ، وإن شاء وضعه
للرغبة ، والرغبة أملكهما به . والذى يكتب لإخوانه على حال الضرورة ، فقد يستقطع الصلة^(٣)

(٢) فى الأصل : « ما قبلك » .

(١) فى الأصل : وأجزلنا ... » .

(٣) فى الأصل : « رأملكها ... » .

ملحق الكتاب الثالث

١٤٣

عند الحَدَث مخافة الملامة من الناس على القطيعة الشعاء المشهورة لإخوانه ؛ فإن الذى لا مودة له قد يصل ذلك فى تلك القطيعة بأهل البلاء .

والكتاب على مثل حالنا وحالك اليوم شاهدٌ على أن ذلك ليس إلا صحة الإخاء والشوق الى المحادثة بالكتاب ، حين لا يلومك اللائمون لمنزلة البلاء تلك اللائمة على التقصير ، ولا يوضع منك الرغبة فى الإطماع . إياك أن تعتل بالأشغال أن كنت فى خاصة نفسك ، فإن أداء الحق وصلة الإخوان أعظم الخاصة بك خاصة . وإنما أمرنا فى كل هذا كأمرك فى الذى يستغنى من خاصتك تلك التى لنا ، فإن لنا ما لك ، وهذه التى لنا لك ؛ ليس ماسترنا سرّك وما سلبناه . حفظا لك ، فهذه كذلك وذلك كهذى . والله يوفقنا وإياك . وأنت أبا يوسف . هكذا حال ما بيننا وبينك ما وصفت لأبى سعيد ، غير أنه سألنا أمرا لم يسألناه قط ، فله فضل السبق علينا فى المسألة ، ولنا فضل المنزلة عليك فى اللائمة . ولن أدعك والفعل ، دون أن تشفعه بالعمل الذى هو صلة القول . وسلام عليك ورحمة الله ، وقضى الله عز وجل بالحسنى لنا ولك .

فصل — أتانى كتابك ، فأنعمت أن يسرنى بسلامتك ، وما حاق فيه كرم برّك ، ولطيف عينايتك ، ما لم أفقد فى حالة من حالاتك ، فكان الكتاب مُصدقا لما سلف ، مُبشرا بما يستأنف ، مُذكرا منك عهدا موصو^(٢) مثاله طرفى وقلبي ، مُلصقا ذكره بلسانى وقلبي . فلا عديمتك ، بل أمتعنى الله بك فاطال ، وكثرنى ببقائك .

فصل — أتانى كتابك فطامن قلبى وطرفى ، بعد ما كان شاخصا اليه ، مُتسوقا الى رؤيته ، ثم ملائنى سرورا ما رأيت فيه من آثار برّك وكريم تفقّدك . وأفضل ما عندى منك قبّله ، بما إن ذكرته ، فللاستراحة الى الذكر ، وإن أمسكت ، فللعجز عن الشكر . فأما الضمير فبني على الإقرار بفضلك ، والنية خالصة بشكرك . وقليل ذلك لك ، فأعطاك الله فأطاب ، ووهب فأجزل .

(١) فى الاصل : « مخافة السلامة من الناس ... » . (٢) فى الاصل بياض . (٣) فى الأصل : « فالاستراحة » ...

فصل - وصل الى كتابك نُحْيِلْ لى حين نظرت الى أثيريك تجرى قلبك فى بطن صحيفتك ، أنك مائل بين عيني : أنظر الى شخصك وأسمع من لفظك ، فابتعت ذلك منى طربا شائقا ، وصبا به هيجت الأحران وذكرت الإخوان . وكنت من إخوانى الذين أنخر بسلامتهم للود الذى أجرى الله بيننا وبينك ، فتواصلنا بجرمته ، وتعاطفنا بوصله .

فصل - إن الله جعل عاقبة كل نعمة وإن عظمت ، نهباً لأولها ، وجعل الشكر عليها سبباً لتمامها وموجباً لأحسن الزيادة منها .

فصل فى شكر - فإن الله جعلك للخير معدينا ، وللفضل موضعاً ، فيما حملته نفسك من ثقل أعباء المروءة ، وحملتها عليه من عظام المكارم ، حتى صرت بما أنعم الله به عليك ، منتهى كل أمل وغاية كل رغبة . ثم ألبست النعمة لباس التواضع ، وناسبت فى الأخلاق من سبقت به عليك الأمور ، حتى كأنهم فى النعمة لك شركاء . وتحننت على الأقربين والمتقربين من الاخوان والأكفاء ، حتى كأنهم لك ولد ، وأجبرت نفسك حين ساعدك الدهر ، على طبيعة التقرب الى العامة ؛ فكأنهم يذبل اليك بدأو رغبته ، ويمتاح منك متاحة فضل ؛ فلا عدمت ألا تزال تُعَشِّس سقطة ، وتُقِيل عثرة ، وتُسَدُّ خلا ، وتُنِيل أملاً ؛ ولا عديم من شهد ذلك منك ، أن يَسْتَمَّ هذه النعمة عليك وعلى نفسه ؛ فإن من سعادة العامة أن يجعل سائرها عند خيارها . ومن البلاء العظيم عليها الموجع لها ، أن يُحْصَّ شرارها بموضع رغباتها .

فاسلم كلاك الله بهذه النعمة ، غير منغص بها ، ولا مُكَدِّر عليك صفوها ، حتى تُسَلِّمَ النعمة العاجلة الى النعمة الباقية ؛ فإننا وإن علمنا أن من شأن الدهر الغدران فى العواقب فقد علمنا أنك فيما أهدى الله اليك من النعمة ، قد أديت حق الله عز وجل ثم حق إخوانك فيها ، فكنت أخر من نال فضلك ، كرماً فى السناء ، ورضا فى الآثرة ، غير مُتَطَاوِلٍ لى نامل ، ولا مُتَضَعِضٍ لما تحذر ؛ فإننا نجزى شكر الماضى منك ، ورجاء الباقي ،

(١) فى الأصل : "ولا مكدر عليها صفوها ..."

فترى تضييعاً منا في عقد الرأي، وإزراء بنا في وثائق الأمور، ألا تمنحك من أنفسنا مودة الولد ورقة الوالد، وإذا أعطاك أمرؤ ثمرة فؤاده، فقد فرغ اليك من جميع حَقِّك، لأن ذات يد امرئ في البذل أهون عليه من ذات نفسه في الشكر. وكفى لامرئ من أمرئ أن يستولى عليه حتى لا يدع لغيره فيه فضلاً. وكفى بك لنا من غيرك. وكثير منا أن نقوى على أداء أدنى صنوف حَقِّك، غير أن أوثق أمورنا فيك عند أنفسنا ألا نسأَم النظر إلى فنائلك بهجين بك إن برزت، وعاذرين لك إن شُغِلت.

فصل - إن الهدى والضلالة يقتسمان دُول الأزمنة، لغير كرامة للباطل، ولا هوان للحق. وأهل الحق كيف تصرفت أحوالهم في كرامة من الله عز وجل، ونعمة بين دولة تكون لهم، يقومون لله فيها بحقه ويظهرون هداه ودينه، ودولة تكون للباطل، يكونون فيها كهوفاً للخيرات، ومعدناً للחסنات، يستكنّ الحق في صدورهم، ويأوى البر والصدق إليهم، فهم بين يوحى صبر وشكر، ليس أحدهما دون صاحبه في الفضل.

وأهل الباطل كيف تصرفت أمورهم بين سُخط الله وعقوبته، لأن الله تعالى لم يجعل في الباطل فرجاً لأهله، وإن كانت لهم دولة كانت إملاءً واستدراجاً، وكانوا فيها على مدرجة هلكة وسبيل نقمة؛ وإن كانت الدولة لأهل الحق، كانوا فيها بين ذل وضيم، وخوف وجزع، وقد سدت عليهم المطالع، وضائق عليهم الأرض بما رَجَبَتْ. ففى أى يومئهم مستراحهم: أيوم دولتهم، وهم لا يشكرون النعمة ولا يقطعون أسباب النقمة؟ أم يوم علو الحق عليهم، وهم لا يصبرون على المحنة ولا يُصبرون من العمى؟ وأهل الحق بين حالى غبطة وحسبة، وأهل الباطل بين حالى إملاء ونقمة.

فصل في صفة الجند - إن الغالب على أهواء جماعة من فئام أولياء الأمير وجنده إعظام الأمير ومعرفة فضله، والتقرب إلى الله بحبته ومناصحته وطاعته، ومُعَاداة عدوه، وتلك نعمة يعتدونها ويتقربون إلى الله بها، ويتوسلون إلى الأمير بخزى قوم خالفوا.

فصل - حل بين فلان وبين التشريد بهم والاجتياح لهم ، فإن ذلك أَرْضَى لربك ، وأجمع للألفة ، وأقومُ لعمود الخلافة الذي سَدَّدَ الله دعائم الإسلام وأَسَّ الدين به . وأعلم أنَّ مَنْ حاط الله دينه ، ورمَتْ عن فُوقه الجماعة ، وعادى أهل النقص لها ، ابتعثه الله آمناً من هول الحساب وضيق المحشر ، والله بنصره أحقُّ وأولى . وكن لله بحيث افترض عليك ، فإنه قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ ﴾ .

كتب جعفر بن محمد بن الأشعث إلى رجل لم يكتبه

لست بما صرفت إلى من معروفك بأسر مني ، بما أهديت إلى من قضاء الحق عنك ، وقلة ذوى الحرمة بك ، لأنك قد تصل من لا يثق ولا يأنس إلا بمن يعتمد عليه .

كتب الفضل بن يحيى إلى رجل يُشاوره في أمر حدث

ليس كل امرئ وإن كان ذا عزيمة في رأيه ، وأصاله في عقله ، بمستغني عن مكاشفة أهل الرأي ؛ لتوزيع الله عز وجل ، أقسام الفضل في خلقه ، وإشراكه إياهم ، في عطاياه ، فرأيك في كذا .

ركب إبراهيم بن المهدي إلى أحمد بن يوسف ، فكتب أحمد

إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلي

عندي من أنا عبده ، ومُجِّتنا عليك ، إعلامنا إياك .

توسل

توسل رجل إلى رجل بمحمد بن عبد الملك وأدعى قرابته منه ، وبلغ ذلك محمدًا فكتب إلى المتوسل إليه :

بلغني أنَّ رجلاً ادعى قرابتي ، وأورد عليك كتاباً ذكر أنه مني ، وما أنكر أن ينتفع بي من توسل بنسبي ، إلا أنه من ادعى قرابة ، ولا قرابة له ، كان استعمال الشفاعة في أمره أولى .

كتب طاهر بن الحسين الى الفضل بن سهل
أسعدك الله بحاربتك، التي بذلت فيها مجهجتك، ومهج من هو موصول بك منا .

محمد بن الجهم

وليس في جميع الناس أصدى لك : من صديق مؤمل، أو حميم راجح، إن منعتهما شتماك
وبهتانك، وإن أعنتهما الماهمة اغتلاك^(١) .

محمد بن مسعر

قال : كنت أنا ويحيى بن أئثم عند سُفيان، فبكى سُفيان، فقال له يحيى : ما يبكيك
يا أبا محمد؟ قال :

بعد مجالستي من جالس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبليتُ بمجالستكم ؛
فقال له يحيى : فخصيصة من جالست منهم بمجالستهم إياك بعد أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم أعظم من مصيبتك بنا؛ فقال : يا غلام، أظن السلطان سيحتاج اليك .

دخل ميمون بن مهران على بعض خلفاء بني أمية — وأحسبه عمر بن عبد العزيز — فقال
له وقد قعد في أحرىات مجلسه : عطني، فقال له : إنك لمن خير أهلِكَ إن وقيتَ ثلاثاً، قال :
ماهن؟ قال : السلطان وقدرته، والشباب وغرته، والمسال وفنته، فقال : أنت أولى بمكاني
منّي فارتفع إلى؛ فأجلسه معه على سريره .

ابن وهب في الاعتذار

لو لم نَعذرَكَ لم نَعذر أنفسنا بقطيعتك، فكن لنا في لائمة نفسك، كما تكألك في عذرك .

وفي مثله

ليس في الإساءة فضلٌ عن الاعتذار، وفي طائدتك فضل عن إساءتنا، فن أين يسقط
بين فضلك والاعتذار !

(١) هكذا وردت في الأصل .

آخر

فلان من حملة المعروف، يكثر عندهم قليله في شكرهم، ويقلّ لهم كثيره في عظيم حقوقهم .

فصل — لئن عميتُ عن الرأى فيك، لقد أبصرته بك .

فصل — تغيب فأشتاق، ونلتقى فلا أشتى .

٢ — فصول من رسائل مختارة في كل فن

وهي مثل مما كتب به الكتاب في أبواب لا نظير لها

فن ذلك ما كتبت به في التحميد لله عز وجلّ في أوائل الفتوح وأواخرها وأوائل الكتب التي فيها تحميد الله عز وجلّ .

التحميد الأول

الحمد لله القادر القاهر، المتوحد بالسلطان والربوبية، والمتفرد بالبقاء والقدرة، والمتجبر بالكبرياء والعظمة، ذي الجلال والإكرام، والإفضال والإنعام، والعز والبرهان، والأسماء الحسنى، والمثل الأعلى، الأول بلا غاية، والآخر بلا نهاية، الذي لا يحيط به وصف الواصفين، ولا تبلغ مدى عظمته أوهام المتوهمين، ولا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، لا يؤوده حفظ كبير، ولا يعزب عنه علم صغير، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين .

التحميد الثاني

الحمد لله الذي خلق الأشياء على غير مثال ولا رسوم، وأنشأها على غير حدود، ودبر الأمور بلا مشير، وقضى في الدهور بلا ظهير، وسمك السماء بقدرته، وبنهاها على إرادته، وأسكنها ملائكته الذين أصطفاهم لجأورته، وجبّاهم على طاعته، ونزههم عن معصيته،

وجعلهم حملة عرشه ، وسكن سماواته ، ورسله الى أنبيائه ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ؛
ودحا الأرض وبسطها لكافة خلقه ، وقسم بينهم الأرزاق ، وقدر لهم الأقوات ، فهم
في قبضته يتقلبون وعلى أفضيته يجرون ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وصدر توحيد مفرد

الحمد لله العليّ مكانه ، المنير برهانه ، النامة كلماته ، الشافية آياته ؛ والحمد لله وليّ أوليائه
وعدو أعدائه .

وصدر توحيد

الحمد لله الغالب الذي لا يُغلب ، والمُقَدِّر الذي لا يُعان ، والمنجز وعده ، والمؤيد
أوليائه ، والخاصم بالفلج^(١) والظهور لهم ، والمديل من أعدائه ، ومحيط دائرة السوء بهم .

ولكاتب خزيمة بن خازم في فتح الصنارية توحيد مختار

أما بعد ، فالحمد لله ذي الملكوت والقُدرة ، والجبروت والعِزة ، والسلطان والقوة ؛ أهل
الحامد كلها ، ومدبر الأمور ووليّها ، وخالق الخلائق وبارئها ، ومميها ومحبيها ، وباعثها ووارثها ؛
الذي أوجب على نفسه بما نفذ من مشيئته ، وسبق من علمه ، وثبت في اللوح المحفوظ
عنده إعزاز دينه ، وإظهار حقه ، وإعلاء كلمته ، وإبلاج حجته ، وإزهاق باطل أعدائه ؛
الصارفين عن طاعته ، والجاحدين لربوبيته ، المكذّبين بكتبه ورُسُله ؛ بلغ بذلك أمره ،
ونطق به كتابه ؛ فإنه يقول تبارك اسمه في المُنزل من فرقانه : ﴿ بَلْ تَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ
فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ .

وتوحيد لأحمد بن يوسف الى الولاية عن الخليفة

أما بعد ، فالحمد لله ذي المِنّ الظاهرة ، والمُجج القاهرة ؛ الذي قطع بينه وبين عباده
المُعذرة ، ورادف عليهم البينة ، ومُهلة النظرة ؛ وجعل ما أتاهم من حظوظ الدنيا بالقسم

(١) الفلج : القلب والظفر ، يقال فلج فلان على خصمه ، أي غلب وظفر .

المكتوب ، وما ذنر لهم من ثواب الآخرة بالتَّجَحُّع المطلوب ؛ فهم في العاجلة شركاء في النعمة ، وفي الآجلة شقّى في الرحمة ؛ يختص بها أهلها المنتفعين بما ضرب لهم من الأمثال ، وتصريف الحال بعد الحال ؛ المبادرين بأعمالهم الى انقضاء مدد آجالهم ، قبل حلول ما يُتَوَقَّع ، وفوت ما لا يُرْتَجَع .

وتحميد لبراهيم بن العباس في فتح اسحاق بن اسماعيل .
الحمد لله مُعزّ الحقِّ ومُديله ، وقامع الباطل ومُزِيله ، الطالب فلا يفوته مَنْ طلب ، والغالب فلا يُعْجِزه مَنْ غلب ؛ مُؤيّد خليفته وعبدّه ، وناصر أوليائه وحزبه ؛ الذين أقام بهم دعوتَه ، وأعلى بهم كلمته ، وأظهر بهم دينه ، وأدال بهم حقّه ، وجاهد بهم أعداءه ، وأثار بهم سبيله ؛ حمداً يتقبّله ويرضاه ، ويُوجب أفضل عواقب نصره ، وسوايف نجاته .

التحميد الثاني

الحمد لله الغالب ذى القُدرة ، والقاهر ذى العِزة ؛ الذى لم يقابل بالحقّ باطلا في موطن من مواطن التحاكم بين عباده ، إلّا جعل أولياء الحق منهم حُرْبه وجُنْدَه ، وجعل الباطل بهم فلا منكوبا ، ودَحِيضاً زَهُوقاً ؛ إن نهَض به أولياؤه كانت مراصد عواقبه مُفَرِّقَةً ما جُمِع ، ومُتَبَرِّقَةً ما أُعِدّ ، وفائدة باشياعه الى مَصْرَعِ الظالمين ، حتّى يكون الحقّ الطالب الأعزّ ، والباطل المطلوب الأذل ؛ وأولياء الحقّ الأعان يدا وأيدا ، وأشياح الضلال الأخسرين أعمالا وكيدا ؛ قضاء الله وسُنَّتَه ، وعادة الله وإرادته ، في الفِئَةِ المنصورة أن تعز فلا تُرام ، وأن يُمكن لها في الأرض كما مكن للذين من قبلها ؛ وفي الفِئَةِ الناكبين عنه ، أن ترل فتكون كلمتها السُفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم .

وتحميد له مبتدأ مقام بين يدى خليفة

أما بعد ، فالحمد لله الأول بلا أبدأ يُحْصَى ، والآخر بلا أمدٍ يَفْنَى ؛ الظاهر لخلقة بعزّته ، العزيز في سلطانه بعظمته ، القُرد في وحدانيّته بقدرته ، المدبّر في ملكه بجبروته ؛ الذى نأى عن الأشياء أن يكون فيها تحويّا ، واتصل بها فلم يك من علمها خليّا ، وهو فيها غير مُسْتَكِن ،

ومعها غير مُمَّاسٍ في لُحِجِ البَحر ، ومفاوز القِفار ، وشَوَاحِ الجبال ، وكُشْبَان الرمال ؛ مع كُلِّ خَلْقٍ ، وفي كُلِّ أَفْقٍ ، وعلى كُلِّ شَرَفٍ ومكان ، وفي كُلِّ وقتٍ وأوانٍ ؛ موجود إذا طَلِبَ ، وقَرِيبٌ حيثُ يُدَبُّ ؛ عالمٌ خَفِيَّاتِ الغيوب ، وخَطَرَاتِ القلوب ، وما في السموات وما في الأرض ، ما يكون من تَجَوُّى ثلاثَةِ الاهورا بُعْهَم ، ولا خَمْسَةِ الاهورا سادُسْهَم ، ولا أدنى من ذلك ولا أَكْثَرَ الا هو معهم ؛ وما تَسْقُط من ورقة ألا يعلمها ولا حَبَّة في ظُلُمَاتِ الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابس إلا في كتاب مبين .

ونحميد ثاب يتلو الأوّل

الحمد لله المُتَعَالَى عن تشبيهه الجاهلين ، وتحديد الواصفين ، وتكليف الناعتين ؛ يُوصَفُ لا بِالْعَرَضِ والطول ، وَيُنْعَتُ بغير الشبَحِ المَثُولِ ، ويُحَدِّدُ لا بِالخَلْقِ المعدود ، والجسم الموجود ؛ بل يُنْهَاهِ من وصفه ، الى ما دَلَّ عليه من صُنْعِهِ ، وَيُوقِفُ عليه من نَعْتِهِ ، على ما أَخْبَرَ به عن نفسه ؛ وكيف يُوصَفُ مَنْ لم يَرَهُ أَحَدٌ ، ويُحَدِّدُ مَنْ لم يَحْدِهِ بَلَدٌ ؛ أَوْ يُشَبَّه غير ذِي أَعْضَاءٍ ، أَوْ يُكَيَّفُ غير ذِي أَجْزَاءٍ ؛ أَوْ رُفِيَ لَوْصِفَ ، وَلَوْ وُصِفَ لِمَثَلٍ ، وَلَوْ مَثَّلَ لِمَكَانٍ لَهُ ظَلِيمٌ ؛ سُبْحَانَهُ وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كَبِيرًا ، لَا تُحِجُّهُ الْأَقْطَارُ ، وَلَا يَحْوِيهِ قَرَارٌ ؛ وَلَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ؛ لَا يوصف أولاه ، وَلَا يُدْرِكُ أَخْرَاهُ ، وَلَا يُعْرِفُ مُنْتَهَاهُ ؛ عَظُمَ أَنْ يَحْصِرَهُ وَهْمٌ ، وَجَلَّ أَنْ يُدْرِكَهُ فَهْمٌ ، وَامْتَنَعَ مَنْ أَنْ يَخَالَهُ عِلْمٌ ، وَلَا يُغَيِّرُهُ لَيْلٌ وَلَا يَوْمٌ ؛ وَلَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ .

ونحميد ثاب

الحمد لله الذى أَلْهَمَنَا مِنَ الْإِقْرَارِ بِرُبُوبِيَّتِهِ ، وَالْإِيمَانِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ ، وَأَنَّهُ غَيْرُ ذِي صَاحِبَةٍ يَسْكُنُ إِلَيْهَا مِنْ وَخْشَةٍ ، وَلَا وَلَدٍ يَتَكَثَّرُ بِهِ مِنْ ضَعْفِ قِلَّةٍ ، وَلَا شَرِيكَ يَعَاوَنُهُ مِنْ عِزِّ قُدْرَةٍ ، وَلَا ظَهِيرٍ يَكَانِفُهُ لِمَلَالِ قَتَرَةٍ ؛ مَا جَعَلَ لَنَا بِهِ أَوْثَقَ الْأَسْبَابِ لَدَيْهِ ، وَأَرْجَى الْوَسَائِلِ

اليه ؛ إذ كان من أنكر ما دللنا الإقرار به يصير يجحد ما أئعننا الاعتراف فيه ، الى أليم عقوبته بالمعصية التي استحكمت السخطة على أهلها ، وحلت النعمة بمن فارقتها ؛ ثم جعلنا تبع إشراف كثير على أنفسنا في مشيئة منه ، بسط اليها آملنا وأحسن عليها أطمانا بكرم عفوهِ ، وعظيم حلمه ، وسعة رحمته ، التي وعد أهل الإيمان بها ؛ إذ صار من فارقههم في ذلك بما استهوت عليهم ، بتربينه لهم شياطينهم ، ورائت على أفئدتهم ... وما ظلمته قواهم الى الناس من كل طمع يُجدي وخبر يُجنى ؛ جزاء بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، إن الله لا يغير أن يشرك به ، ويغير ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يُشرك بالله فقد حبط عمله ، وهو في الآخرة من الخاسرين .

وتحميد يتلو الثالث في هذا المقام

الحمد لله الذي ابتدع لا من شيء ما أنشأ ، وابتدأ على غير مثال ما ابتداء ؛ بفعل كثيرا من لطائف تقديره ، وصنوف تدبيره ، وتصاريف أموره ؛ حُججا واضحة ، وآيات بيّنة ، وعبرا شافية ؛ تشهد له بعزة القدرة ، ونفاذ الحول والقوة ؛ خلّق مدبرا بلا مشورة أحد ، سبعا دحاهن على الماء على غير سन्द ؛ مبسوطات في تكائف أجزائهن ، على معين ماء مسخر من تحتهن ، بحر خلاهن أنهارا ، وقدر فيهن من المعاش أقواتا ، وجعل هن من الجبال أوتادا ، ثم استوى الى السماء وهي دُخان ، فقال لها وللأرض آتيا طوعا أو كرها قالتا آتينا طائعين . ففطر من الدخان في خفته على الهواء سبعا ، جعل بينهن من الجح مئسعا ، سبع سموات طباقا مرفعات ، بلا دعائم قبلها ولا علاقات ، يُمكنهن بقدرة أن يرتفعن فوق ما حبسن عليه ، وأن يهوين الى قرار دون ما رفعهن اليه ؛ فأتقن صنعها ، وأوحى في كل سماء أمرها ؛ وزين السماء الدنيا بالمصابيح النيرة ، والشهب الثاقبة ، والنجوم الواضحة ؛ ونجّر الشمس والقمر علما للهتدين ، وسراجا للبصيرين ، ورجوما للشياطين ، وأوقانا باختلاف السنين ، ومعرفة لكل حين ؛ لا الشمس يأنفى لها أن تدرك القمر ولا الليل

(١) في الاصل بياض . وفي العبارة اضطراب ظاهر .

سابق النهار وكلّ في فلك يسبحون ؛ ففضاهنّ سبع سموات في يومين ، ولو شاء خلقها في أسرع من طرف العين ؛ إنّما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كنّ فيكون ؛ بلا معاناة لقول ، ولا ضعف من حول ؛ ثم أسكنهنّ من خلقه ملائكة اصطفاهم لعبادته ، واجتنبهم لتبليغ رسالته ، معصومين من أن يشركوا بالله ، ما لم ينزل به سلطانا ، وأن يقولوا على الله إفسا وبهتاناً ؛ يسبحونه بالليل والنهار لا يفترّون ولا يسأمون من عبادته ، ولا يستحسرون عن طاعته ؛ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون .

ونحميد في فتح لابن العباس

أما بعد ، فالحمد لله الذي حمد نفسه ، وفرض حمده على خلقه ، وأعزّ دينه وأكرم بطاعته أوليائه ، وأكرم طاعته بأوليائه ، بفعل جنده منهم المنصورين ، وحزبه منهم الغالبين ؛ نزع بهم سبيله ، وأقام بهم حجته ، وجاهد بهم أعداءه ، وأظهر بهم حقه ، وقمع بهم الباطل وأهله ؛ وأعلى كلمتهم ، وأيد نصرهم ، وألف لهم وبهم ، ومكّن لهم في الأرض ، فجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين .

والحمد لله المعزّ لدينه ، المظهر لحقه ، الناصر لخلفائه ، الممكّن لحزبه ؛ المنتقم بهم من صدف عنه ، مؤيدا دينه بالنصر ، ليظهره على الأديان ، وحقه بالعز ، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ وجنوده بالفلاح فهم الأعلون إن استنصر بهم ، والأعزّون إن كاد بهم ؛ والأقربون منه لإخلاصا وعملا ؛ حمدا يؤازر نعمه ، ويمتري بمثله فواضله ومزيده .

وله في فتح ابن البعيث لما ظفر به

أما بعد ، فالحمد لله ناصر أنبيائه وخلفائه ، وهادي أوليائه ، وأولياء الحق وحزب الهدى ؛ الذين أقام بهم سبيل الرشاد ، ونصب بهم مناهج الدين ، فأظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

وله صدر كتاب الخميس في تحميد الله وتمجيده

أما بعد ، فالحمد لله الذي جلت نعمه ، وتظاهرت مننه ، وتابعت أياديته ، وعم إحسانه ؛ إليه كل شيء وخالقه ، وبارئ ومصوره ؛ والكائن قبله ، والباقي بعده ، كما قال في كتابه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . العالی فی مشیئته والقاهر فوق عباده ، المتعالی عن شبه خلقه ، ليس كمثل شيء وهو السميع البصير ، خلق العباد بقدرته ، وهادهم برحمته ، وأوضح لهم السبيل الى معرفته بما نصب لهم من دلائله ، وأراهم من عبه ، وصرفهم فيه من صنعه ، كما قال جل جلاله : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ .

وذلك كله من خلقه إياهم بتمثيله ما مثل لهم من الدلائل التي نصبها لهم ، والأعلام التي جعلها إزاء قلوبهم ، وأسماعهم وأبصارهم ، ويسر لهم خواطرم وفكرهم ، والهيئة التي هيأهم لها ليقع الأمر والنهي عليهم ؛ فلا يكلفهم فوق طاقتهم ، ولا يحشهم ما يقصر عنه وسعهم ، نظرا منه تبارك وتعالى إليهم ورحمة بهم ؛ ليؤمنوا به ويعبدوه ، فيستحقوا به رحمته ورضوانه ، والخلود في النعيم المقيم ، والظل المديد ، والعيش الدائم ؛ كما قال تعالى ذكره : ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ . وكان من نظره وأفته بهم أن بعث فيهم أنبياء ورسله ، يدعونهم الى طاعته ، ويبينون لهم هدايه ، ويوضحون لهم سبيله ؛ ويهدونهم الى رحمته ، ويعيدونهم ثوابه ، ويذرونهم عقابه ، ويتسبطون لهم توبته ، ويحذرونهم سخطه ، ويبينون لهم سنته وشرائعه ، ويكشفون لهم مواعظه ، ويعلمونهم كتابه وحكمته ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ لِيَمْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ . وكان من رأفته بهم ، ونظره لهم ، أن بعثهم اليهم بالحنج الظاهرة ، والأعلام البينة ، والشواهد الناطقة ، التي أظهر بها صدقهم ، وأقام بها برهانهم ، وأوضح

بها دليلهم ، وأثابهم عمل سواهم ، ليكون أدعى لهم الى تصديقهم ، والقبول عنهم ، وأؤكد
للحجة على من أبى ذلك منهم .

ومحمد أحمد بن يوسف في صدر رسالة الخميس التي كانت تقرا بخراسان

أما بعد ، فالحمد لله القادر القاهر ، الباعث الوارث ، ذى العز والسلطان ، والنور
والبرهان ، فاطر السماء والأرض وما بينهما ، والمتقدم بالمرء والطول على أهلها ، قبل
استحقاقهم لمثوبته ، بالمحافضة على شرائع طاعته ، الذى جعل ما أودع عباده من نعمته ،
دليلا هاديا لهم الى معرفته ، بما أفادهم من الأبواب ، التى يفهمون بها فصل الخطاب ؛ حتى
أقتنوا علم موارد الاختبار ، وثقفوا مصادر الاعتبار ، وحكوا على ما بطن بها ظهر ، وعلى
ما غاب بها حضر ؛ واستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته ، ومُتَقَن صناعته ، وحاجة مُتَرَاوِل
خلقه ومُتَوَاصِله ، الى القوام بما يَلُمُّه ويُصَاحُّه ، على أن له بارئا هو أنشاءه وابتدأه ، ويسر
بعضه لبعض ، فكان من أقرب وجودهم ، ما يباشرون به من أنفسهم ؛ فى تصرف أحوالهم ،
وفنون انتقالها ، وما يُظْهَرُونَ عليه من العجز عن التأتى لما تكاملت به قواهم ، وتمت به
أدواتهم ، مع أثر التدبير والتقدير فيهم ، حتى صاروا الى الخلقة المُحَكَّمة ، والصورة المُعْجَبة ،
ليس لهم فى شئ منها تَلَطُّفٌ يَتِمُّمُونَهُ ، ولا مَقْصِدٌ يَعْتَمِدُونَهُ من أنفسهم ؛ فإنه قال تعالى
ذِكْرُهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ رَبِّكَ الْكَرِيمُ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِىٓ أَىِّ صُوْرَةٍ
مَّا شَاءَ رَجَّبَكَ ﴾ . وما يتفكرون فيه من خلق السماء ، وما يجرى فيها من الشمس والقمر ؛ والنجوم
مُسَخَّرَاتٍ على مسير لا يثبت العالم إلا به ، من تصاريف الأزمنة ، التى بها صلاح الحرب
والسُّل ، وإحياء الأرض ، وإفاح النبات والأشجار ، وتعاور الليل والنهار ، وممَرُّ الشهور
والأيام ؛ والسنين التى تُحْصَى بها الأوقات ؛ ثم ما يوجد من دليل التركيب ، فى طبقات
السقف المرفوع ، والمهاد الموضوع ، باختلاف أجزائه والثامها ، وخرق الانهار ، وإرساء
الجبال ، ومن الثام الشاهد على ما أخبر الله به من إنشائه الخلق وحدوثه بعد أن لم يكن ،
مُتَرَقِّياً فى المَاء ، وثباته الى أجله فى البقاء ، ثم تحاره مُنْقَضِياً الى آخر الفناء ؛ ولم يكن له

مُفْتَحُ عَدَدٍ ، وَلَا مُنْقَطِعُ أَمَدٍ ، وَمَا زِدَادُ بِنَشْوَى ، وَلَا تَحْيَاقَةُ تَقْصَابٍ ، وَلَا تَفَاوُتُ عَلَى
الْأَزْمَانِ ؛ لِأَنَّ مَا لَا حَدَّ لَهُ وَلَا نِهَايَةَ ، غَيْرُ مُمَكِّنٍ الْإِحْتِمَالِ لِلنَّقْصِ وَالزِّيَادَةِ ؛ ثُمَّ أَجْرَى فِيمَا ذَكَرَ
مَنْ خَلَقَ اللَّهُ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ إِلَى ذِكْرِ مَا تَفَضَّلَ اللَّهُ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَمَا اخْتَصَمَهُمْ
بِهِ مِنْ مَبْعُثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِلَى ذِكْرِ الْخُلَفَاءِ أَوَّلًا ، ثُمَّ إِلَى ذِكْرِ الْمَأْمُونِ وَدَوْلَتِهِ .

وتحميد للعباس في مقام له بين يدي المأمون

الحمد لله على نعمه علينا ، وإحسانه إلينا ، بِالْأَرْضِ الْمَبْسُوطَةِ ، وَالسَّمَاءِ الْمَرْفُوعَةِ ،
وَالرِّيَّاحِ الْمُسَخَّرَةِ ، وَالْأَمْطَارِ النَّازِلَةِ ، وَالْأَوْقَاتِ الْقَائِمَةِ ، وَالْمَنَافِعِ الدَّامَةِ ؛ وَالِدِينَ الْمُبِينِ ،
وَالْأَدَبِ الْقَوِيمِ ؛ حَمْدًا يَكُونُ إِلَيْهِ صَاعِدًا ، وَلَدَيْهِ نَامِيًا ، وَلِلْكُوتَةِ مَالثًا ؛ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
حَمْدًا يُثَبِّتُ رِضْوَانَهُ ، وَيُورِثُ إِحْسَانَهُ ، وَيُوجِبُ مَزِيدَهُ ؛ فَهُوَ الْمَنْعَمُ الْحَمُودُ ، وَالْمُتَطَوِّلُ
الْمَشْكُورُ ؛ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا شَرِيكَ لَهُ ، كَمَا شَهِدَ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

وتحميد لعبد الحميد في أبي العلاء الحروري

الحمد لله الناصر لدينه ، وَأَوْلِيَايَهُ وَخُلَفَايَهُ ، الْمُظْهِرَ لِلْحَقِّ وَأَهْلِيهِ ، وَالْمُدِلَّ لِأَعْدَائِهِ وَأَهْلِهِ
الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ ؛ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ بَيْنَ حَقٍّ وَبَاطِلٍ ، وَأَهْلِ طَاعَةٍ وَمَعْصِيَةٍ ، إِلَّا جَعَلَ النُّصْرَةَ
وَالْفَلَاحَ وَالْعَاقِبَةَ لِأَهْلِ حَقِّهِ وَطَاعَتِهِ ، وَجَعَلَ الْخِزْيَ وَالذُّلَّ وَالصَّغَارَ ، عَلَى أَهْلِ الْبَاطِلِ
وَالْإِخْلَافِ وَالْمَعْصِيَةِ ؛ حَمْدًا يَتَقَبَّلُهُ وَيَرْضَاهُ ، وَيُوجِبُ بِهِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلِ طَاعَتِهِ
الزِّيَادَةَ الَّتِي وَعَدَ مَنْ شَكَرَهُ ؛ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا يَتَوَلَّى مِنْ إِعْزَازِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَنَصْرِهِ
وِإِفْلَاجِهِ وَإِظْهَارِ حَقِّهِ ، عَلَى مَا وَقَعَ بِأَعْدَائِهِ وَأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ وَالْإِخْلَافِ عَلَيْهِ مِنْ سَطَوَاتِهِ
وَنَقَمَاتِهِ وَبَأْسِهِ ، فِيمَا وَلَّى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مُوَالَاةٍ مِنَ الْوَالِدِ ، وَعِدَاوَةٍ مِنْ بَقَى عَلَيْهِ وَعَدَاوَةٍ ؛
لَا يَكُلُّهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ إِلَى نَفْسِهِ ، وَلَا إِلَى حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ وَمَكِيدَتِهِ ، فَإِنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ
لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا بِهِ .

وتحميد في آخر فتح

الحمد لله المعز لدينه ، المظهر لحقه ، الناصر لأوليائه ، المنتقم من أعدائه أهل الكفر ؛
المُنزل بهم من بأسه ، ونَقَمته وجَوائحه ؛ الذي لم يجمع بين أهل حقه ، وباطل عدوه ، في موطن
من مواطن التحاكم ، إلّا جعل فيه لأوليائه البُظفر ، وأفرغ عليهم الصبر ، ومنحهم النصر ؛
وجعل الدائرة وسوء العاقبة على عدوه ، وأهل الكفر ؛ حمدا كثيرا يرضاه من الشكر ،
ويَحسُن به المزيد .

وتحميد في فتح الى أمير لقمامة

الحمد لله الفتح العليم ، الذي خَصَّ الأمير بأفضل الكرامة وأتمَّ النعمة ؛ وأَحْسَنَ الولاية ،
وأعظم الكفاية ؛ وحفظ ما استرعاه ، وأعزَّ أوليائه ، وقمع بالمُدَّة أعداءه ، وجعل حسن
العاقبة له ولأهل طاعته ، ودائرة السوء على أهل معاندته ؛ حمدا يحسُن به القضاء ،
وتزيد به النعماء .

وصدر تحميد لغسان بن عبد الحميد في خطبة موجزة

الحمد لله الذي لا يُدرك خيراً إلّا برحمته ، ولا يُنال الفضل إلّا بِنِعْمته ؛ وليَّ التسديد
للحسنات ، والعصمة من السيئات .

تحميد لعبد الحميد في فتح

الحمد لله العليّ مكانه ، المنير برهانه ، العزيز سلطانه ، الثابت كلمته ، الشافية آياته ، النافذ
قضاؤه ، الصادق وعده ؛ الذي قدر على خلقه بملكه ، وعزَّ في سماواته بعظمته ، ودبر الأمور
بعلمه ، وقدرها بحلمه ، على ما يشاء من عزِّمه ؛ مُبتدِئاً لها بآلائه ، وقدرته عليها ،
واستصغاره عظيمها ، نافذة إرادته فيها ، لا تجرى إلّا على تقديره ، ولا تنتهي إلّا إلى تأجيله ،
ولا تقع إلّا على سبق من حتمه ، على كلِّ ذلك بلطفه وقدرته ، وتصريف وحيه ؛ لا معدّل
لها عنه ، ولا سبيل لها غيره ، ولا عِلْمُ أحدٍ بخفاياها ومعادها إلّا هو ؛ فإنّه يقول في كتابه
الصادق : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ... ﴾ الى آخر الآية .

وتحميد ثاب

الحمد لله الذى علا بالجُحْبُ التى آستتر بها عن جميع خَلْقِهِ ، وآستغنى بها عنهم لما تَوَحَّدَ به دونهم من عبادة الذين فطرهم على المعرفة ، رءوفا عليهم بَمَنِّهِ وَمُتَطَوِّلا وهو فيما يُمِضَى من أقداره ، مفصلا لهم بابتدائه خَلْقَهُمْ فى أحسن تقويم ، وإعطائه إِيَّاهم عاجل كل خير مقسوم ، وتسخيرهم لهم جميع ما فى السموات والأرض ، وبَسْطِهِ لهم فى معاشهم أوسع الرزق ، وإسباغه عليهم فيها أفضَلَ النعم التى لَطُفَتْ فبطنت ، وعُظِّمَتْ فظهرت ، وليست فعمت ، وانتشرت فجَلَّتْ ، وكثُرَتْ فلا يحصيها عاد ، وجُرَّتْ فلا يؤدى حق ما أقترض منها شاكر ، فإنه يقول : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

والحمد لله الذى لم يَقْتَصِرْ بهم فى إكرامه وتفضيله إِيَّاهم على عاجل ، فإنه مُضْمِحِلٌّ زائل مما أعطاهم إِيَّاه ولم يكلهم فى معرفة خالقهم تبارك وتعالى ، ومُتَوَلِّى النعم عليهم ، والاحسان إليهم ، والارتياش لهم ، ولا فى مُبْتَغَى سبيل طاعته ، وأداء حقه ، وشكر نِعْمَتِهِ ، واستيجاب غِبْطَةِ ألمعاد إليه الى أن يَعُوا ذلك بعقولهم ، والنظر فيه بألبابهم ، والتصريف له على أهوائهم ؛ فإنه لو أُلْجَأَ ذلك إليهم ، وأُفْرِدَهم فيه الى أنفسهم ، ووكلهم فيما أمرهم به الى مقدرتهم ، لحارت عنه منهم الأبصار ، ولناهت فيه منهم العقول ، ولأضلَّهم عن قصده العَمَى ، ولسال بهم الى غيره الهوى ، ولاستحكم عليهم شرك الردى ؛ ولكنه بعث فيها أنبياءه الهادين ، يدعونهم الى الصراط المستقيم ، بنوره المُنْضِىء ، ودينه القويم ، وآياته البينة ، وكُتُبِهِ الفارقة التى بين فيها محابه ومكروهه ، وطاعته ومعصيته ، وثواب الفريقين فى ذلك من عباده ليحذروا ما حذرهم فيه من سُخْطِهِ ، ونزل بهم فيه من نِقْمَتِهِ ؛ وليسارعوا فيما جعل لأهله به الى أفضل المثوبة ، وأحسن العاقبة فى الدنيا والآخرة ، وكشف لهم الجهالة ، وهدى من الضلالة ، وبصرهم سبيل الحق ، وبين لهم معالم الإسلام ، ليرجع جائز ، ويقصد زائع ، ويعرف جاهل ، ويعبد الرب بما وحد به نفسه ، وليستبين العلم ، ويستضىء الحق ، وليتغنى من الله الثواب بلزوم دينه الذى شرع ، وأداء فرائضه التى قرأ ، وإيثار طاعته التى أوجب ، وليكون لله

الحجة البالغة على عباده فيما تركوا من ذلك وسفّوها بعد استبانته لهم ، واستفاضته فيهم وإعذاره اليهم ، فإنه يقول : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنْ هَٰذَا عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىٰ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ويقول ﴿ لَيَجْزِيَنَّ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ ﴾ .

لأنس بن أبي شيخ

الحمد لله الذي بالقلوب معرفته ، وبالعقول محجته ، الذي بعث محمدا صلى الله عليه وسلم أمينا فوقى له ، ومبلغا فأدى عنه فحج به المنكر ، وتألف به المدبر ، وثبت به المستبصر ، الى أن توفاه على منهاج طاعته ، وشريعة دينه ، ثم أورثكم عهدَه وخصمكم بكلمة التقوى ، وجعلكم الأمة الوسطى .

ولعبد الحميد في فتح

يُعظم فيه أمر الإسلام بمحمد صلى الله عليه وسلم

أما بعد ، فالحمد لله الذي أصطفى الإسلام ديناً رضى شرائعه ، وبيّن أحكامه ونور هُده ، ثم كنفه بالعز المؤيد ، وأيده بالظفر القاهر ، وأزره بالسعادة المتجبة ، وجعل من قام به داعيا اليه من جُنْدِه الغالبين ، وأنصاره المساطين ، كلما قهر بهم ما وناؤهم رابعهم المأمولة ، وأموالهم المثريّة ، ودارهم الفسيحة ، ودولتهم المطولة ، امرا حتمه على نفسه ، ثم جعل من عاندهم وأبتغى غير سبيلهم مسلما قد استهوته ذلة الكفر بظلمها ، وحيرة الجهالة بحوارها ، وتيه الشقاء بمغاويه ، وكلما ازدادوا لدعوة الحق إباءً ، ازداد الحق اليهم أزلافا ، وعليهم عكوفاً ، وفيهم إقامة ، الى أن يحل بهم عز الغلبة ، ونجاة المتجاوز ، راغبين فيما شوقهم اليه ، محافظين على مآندبهم له ، قد بذلوا في طاعة الله دماءهم ، وقبّلوا المعرض عليهم في مبايعة ربهم لهم بأنفسهم الجنة . محمود صبرهم ، مسهل بهم عزهم ، الى خير الدنيا والآخرة .

والحمد لله الذي أكرم محمدا صلى الله عليه وسلم بما حفظ له من أمور أمته ، أن اختار لوارث نبوته ما أصار الى أمير المؤمنين من تطويقه ما حمل بحسن نهوض به وشج عليه ، ومُنَافِسة فيه ، أن فعل وفعل . والحمد لله الذي تمّ وعده لرسوله وخليفته في أمة نبية مسددا

له فيما أعترم عليه . والحمد لله المعز لدينه ، المتولّى نصرأمرته بنبيّه المتخلّى ممن عاداهم وناوأهم ، حمدا يزيد به من رضى شكره ، وحمدا يعلو حمد الحامدين من أوليائه الذين تكاملت عليهم نعمه فلا توصف ، وجلّت أياديه فلا تُحصى ، الذى حمّلنا ما لا قوة بنا على شكره إلا بعونه ، وبأنه يستعين أمير المؤمنين على ذلك ، واليه يرغب ، إنه على كل شيء قدير .

ولعبد الحميد أيضا

أما بعد ، فالحمد لله الذى أصطفى الإسلام لنفسه ، وأرتضاه دينًا للملائكته ، وأهل طاعته من عباده ، وجعله رحمة وكرامة ونجاة وسعادة لمن هدى به من خلقه ، وأكرمهم وفضلهم وجعلهم بما أنعم عليهم منه أوليائه المقربين ، وحزبه الغالين ، وجنده المنصورين ، وتوكل لهم بالظهور والفلج ، وقضى لهم بالعلو والتمكين ، وجعل من خالفه وعزّب عنه وابتغى سبيل غيره أعداءه الأتلين ، وأوليائه الشيطان الأخسرين ، وأهل الضلالة الأسفلين ، مع ما عليهم فى دنياهم من الدل والصغار ، وما تجل لهم فيها من الخذلان والانتقام ، إلى ما أعد لهم فى آخرتهم من الخزي والهوان المقيم ، والعذاب الأليم ، إنه عزيز ذو انتقام .

وفى ذكر الإسلام وأهله وما فضلهم الله تعالى به

أما بعد ، فالحمد لله الذى عظم الإسلام تعظيما ، وفضله تفضيلا ، فلم يبق ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولا إمام لأهل حق مهتد إلا دانّ به ، واتصل الى ولاية الله بما هداه له منه ، وليس فى دين الله الذى ارتضى ، وخيرته من أهل الإسلام الذين اصطفى ، تغاشم ولا تظالم ، ولا تحاسد ، ولا تقاطع ولا تدابر ، ولكنهم كما وصفهم الله عز وجل بالتباز والتراحم ، والتواد والتناصف ، قلوبهم متفقة ، وأهوائهم مؤلفة ، وأيديهم على أهل معصيته مبسوطة ، أعوانا على الحق ، وإخوانا فى الدين ، ألفت الله بينهم ، وجعل الإسلام نسبهم ، فقال فى كتابه : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ... ﴾ الى آخر الآية . فهذه صفة الله أهل دينه فيما بينهم ، وكذلك كان أسلاف الحق قبائهم ، فى تواد وتبازهم ، وتواصلهم وتعاونهم ، وبذلك دانّ أهل السماء ، فلم يختلفوا فيه ، ولم يرغبوا عنه ، ولم يحتدوا مثالا غيره ، وبه يدين

لله الباقون من خلقه ، المتمسكون بحقه الى يوم القيامة ، سنةً مسنونةً ، وشريعةً متبوعةً ، لا يبتغون بها بدلاً ، ولا يريدون عنها حولا ، فأهل طاعة الله أهل سلامة في دنياهم ، وإخوان كما قال الله عز وجل في آخرتهم ، لم تنقطع الولاية فيما بينهم ، لانقطاع الدنيا عنهم ، ولكن الله وصلها بالآخرة لهم ، فجمعهم في داره وجواره ، كما ألف في الدنيا بين قلوبهم ، وعصم بالإسلام ألقمتهم .

تحميد

الحمد لله المُنِيب على حمده وهو ابتداءؤه ، والمنعم بشكره وعليه جزاؤه ، والمُنِبي بالإيمان وهو عطاؤه .

ولقأمه

الحمد لله الذي أكرم الإسلام وفضله ، وشرفه وعظمه ، وأعلى منزلته ، وجعل أهله القائمين به ، والحامدين عليه ، أولياءه وحزبه الذين قضى لهم بالتمكين ، والظهور على الدين كله ولو كره المشركون .

ولزيد بن علي رحمة الله عليه خطبة.

الحمد لله الواصل النعم بالشكر ، والشكر بالمزيد ، حمد من يعلم أن الحمد فريضة واجبة ، وأن تركه خطيئة مهيكة ، وأومن بالله إيمانا نفى إخلاصه الشرك ، ويقينه الشك ، وأتوكل عليه توكل الواثق به ثقة أهل الرجاء ، ومفزع أهل التوكل .

تحميد في الإسلام

الحمد لله الذي اختار الاسلام ديناً لنفسه ، وأنبيائه ورسله ، وشرفه وعظمه ، وأناره ، وأظهره ، ونزهه وأعزه ومنعه ، ولم يقبل غيره ، ولم يجعل حُسن الجزاء إلا لأهله ، الذين كتب لمن أسعده بالولاية فيه منهم الرضوان والمغفرة والرافة ، وعلى من خالفه وابتغى غير سبيله الحسرة والندامة ، والدلة والصغار في الآخرة والأولى ، والمات والحي ، إذ يقول الله عز وجل ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

والحمد لله الذي اجتبى محمداً صلى الله عليه وسلم بما اصطفاه من نبوته ، واختاره له من رسالته ، وحباه بفضيلته ، واجتبه من أفضل عمائر العرب ، وأشرفها منصباً ، وأعرقها حسباً ، وأكرمها نسباً ، وأوراهها زناداً ، وأرفعها عماداً ، فبعثه بالنور ساطعاً ، وبالحق صادعاً ، وبالهدى آسراً ، وعن الكفر زاجراً ، وعلى النبيين مهيمناً ، وإلى سبيل ربه داعياً ، وبالكتاب عاملاً ، فبلغ عن الله الرسالة ، وهدى من الضلالة ، وانتاش من الهلكة ، وأنهج معالم الدين وأدى فرائضه ، وبين شرائعه ، وأوضح سنته ، ونصح لأئمة ، وجاهد في سبيل الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، صلى الله عليه وسلم .

تحميد لأبي عبيد الله

الحمد لله الذي شرع لإظهار حقه وإنفاذ سابق قضائه فيمن ذرأ وبرا من عباده ، بإدخال من أراد أن يدخل في رحمته ، وإنجاز ما حق له من العبادة على خلقه ، بابتدائه خلقهم ، ومظاهرتهم الآلاء عليهم ، وإحسانه البلاء عندهم ، وإبلاغه في الحجج إلى عامتهم ، ديناً رضيهم لنفسه وملائكته الذين أسكن سماواته ورسله ، فأتمن على وجهه من لم يرض إلا به ، ولم يقبل إلا إياه ، ثم كان ما أعز به نفسه ، وأظهر به نوره ، وأراد أن يسلبه عباده ، تحقيقاً لما سبق به علمه ، وإنفاذاً لما جرت به مقاديره ، أن بعث لى شرع من دينه ، وأصطفى لتسبيحه وتقديسه من ملائكته المقربين ، من ارتضى واختار من أنبيائه ورسله المحبين ، لتبليغ رسالته وإظهار حقه ، واستشلاء^(١) من أراد سعادته من خلقه بالرحمة التي أطلعت عليهم وعمتهم ، ليعبد مخلصاً له ، محموداً بما استحمد به إلى خلقه ، مشهوداً له بما أشهد به من كلمة الحق ، فكان منهم التبليغ لما أرسلوا به ، والنصيحة لمن أرسلوا إليه ، غير مختلفين فيما بعثوا له ، ولا متفرقين فيما استعملوا فيه ، يدعوهم آخر إلى ما دعاهم إليه أول ، فيصدق بذلك بعضهم بعضاً ، ويهدون إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فضت رسل الله وأنبياءه على ذلك سالكين منهاج الحق وسبيله ، والدعاء إلى الله عز وجل وإلى

(١) الاستشلاء : الانقاذ .

طاعته ، هادين مهديين غير مبخوسين شيئا مما كانوا أهلّه في المنزلة عند الله ، والقربة منه ،
والوسيلة إليه ، هم ومن آمن بهم وعززهم ، وآتبع النور الذي أنزل معهم ، حتى تقضت
بهم الأعمار ، وتقطعت بهم الآثار ، وتخمرت بهم الأجال .

وكذا لأبي عبيد الله

الحمد لله الذي جعل الإسلام رحمة قدّمها لعباده قبل خلقه إياهم ، واستبجاهم إياها
منه ، فاصطفاه لنفسه وشرّعه لهم ديناً يدينون به ، ثم جعل تحديده وحيه ومتابعة رسله رحمة
تلافهم بها بعد تقديمها ، ومينة ظاهرها عليهم قبل استبجاءهم لها ، تطوّلاً على العباد بالنعماء ،
وإعذاراً إليهم بالحجج ، وتقديمة بالوعد ، وإنذاراً إليهم عواقب سيخطه في المعاد .

والحمد لله الذي ابتعث محمداً صلى الله عليه وسلم بهداه وشرّاع حقه على فترة من الرسل ،
وطمّوس من معالم الحق ، ودروس من سبل الهدى ، عند الوقت الذي بلغ في سابق علمه
ومقاديره ، أن يحتجّ لدينه الأصفياء ، ويختار له الأولياء ، الظاهرين بحقه ، القاهرين لمن
ابتغى سبيلاً غير سبيله ، فعظم حرمة ، ووسّع حوزته ، وصدّع بأمره ، وجاهد عن حقه
في حومات الصلالة وظلمات الكفر ، بالحق المبين ، والسراج المنير ، ثم جعله مصدقاً لمن
سبقه من الرسل ومجدداً لما بُعثوا له وهدى ورحمة ، ثم جعل لدينه وظائف وظفها على
أهله ، وشرّاع شرعها لهم لا يكلّ دينهم إلا بها ، وجعل أداها إليه ، واعتصامهم بها إماماً
لدينه ، ونظاماً لنوره ، وقواماً لحقه ، واستيجاباً لما وعد عليه من ثوابه ، وأمناً لما أوعده من
خالفه من عقابه ، فليس يسع أهل الإيمان بالله الذين أكرمهم به وأجزل لهم فضله وأجره ،
وجعل لهم عزّه وعلوّه ، واختار لهم الغلبة والعاقبة على من فارقهم فيه إلا معرفتها ، وأداؤها
بما يُستكمل به حدودها ، ومما لها من كذا وكذا .

إبراهيم بن المهدي — صدر رسالة له في الخميس

الحمد لله الذي اختار الإسلام ديناً لنفسه ، ورَضِيَ أن يعبدّه من في سمواته من الملائكة
المقرّين ، ومن في أرضه من النبيين والمرسلين ، ومن آمن بالنور الذي هداهم له من الثقلين ،

واختار لرسائله في سابق علمه ، والذكر الحكيم عنده ، محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليه كتابه وجعل طاعته وطاعة نبيه صلى الله عليه وسلم موصولةً بكذا فقال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ .

تحميد

الحمد لله المتكبر في جبروته المتعزّز بسلطانه ، المتعالى في سمواته ، المحتجب عن خلقه ، فلا تُدركه في الدنيا أبصار الناظرين ، ولا تُحيط به أوهام المتوهّمين ، ولا تبأغه صفات الواصفين ، الذى لا يؤوده عظيم ، ولا يفوته مطلوب ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم .

تحميد آخر

الحمد لله الحكيم العدل ، الذى فصل بين الحق والباطل ، فنفذ قضاؤه في خلقه ، وحكم فيهم بفرى حكمه على إرادته ، يقضى بالنصر والتأييد ، والعز والفلاح ، والتمكين للحق وأهله ، وبالذل والوقم والخزى والصغار للباطل وأهله ، وجعل ذلك من فضله وحكمه عادةً جاريةً باقيةً ، وسنةً ماضيةً ، لا راداً فيما قضى منه لقضائه .

، والحمد لله الذى اختص محمداً صلى الله عليه بكراماته ، واصطفيه لرسالاته ، وأنزل عليه كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، بما أحلّ وحرم ، ورضى وسخط ، وأمر به ونهى عنه ، وجعله خاتم النبيين والمهيمن عليهم ، وكتاباه الذى أنزل ، آخر الكتب المصنق بها النبي صلى الله عليه وسلم .

تحميد في الإسلام وما آمن به على أهله من مبعث النبي

صلى الله عليه وسلم ، وهو في صدر الجهاد

أما بعد ، فإنّ لدين الله الذى ارضاه لنفسه ، ولين اصطفاه من خلقه ، واجتباؤه من عباده وجعله معاماً بين الهدى والضلالة ، وفرقاً بين الحق والباطل ، وحاجزاً بين الكفر والإيمان ، وظائف وظفها على أهلها ، وشرائع شرعها لهم ، بفعل أدائها إليه ومعرفتها له ، ومحافظتهم عليها ،

واعتصم بهم بما قواما لدينه ، ونظاما لنوره وثباتا لحقه ، واستنجابا لما وعد من ثوابه ، وأما لما أوعده من عقابه ؛ فليس يسع أهل الإيمان بالله والإقامة على حقه من المسلمين الذين ستمهم المسلمين بالإسلام ، وأحرز لهم فضله وعزّه ، وأصار لهم الغلبة على من خالفهم وفارقهم بما ركنوا إليه من الصدود عن سبيله ، والتكذيب بكتبه ورسوله ، ودلتهم فيه قرباؤهم ، وقادتهم إليه أهواؤهم ، من الملل الضالة ، والأديان المجموعة ، التي لم ينزل بها من الله سلطان ، ولا كتاب ولا برهان ، إلا معرفتها وأداؤها بما يستكمل من حدودها ومعالها .

تحميد في الجهاد وما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم

أما بعد ، فإن الله خلق الخلائق بقدرته ، وقدر الأمور بعلمه ، وأنفذ على ما مضى من مشيئته ، من غير أن يكون له ظهير في ملكه ، أو معين على ما يرى من عجائب خلقه ، واحتذاء منه على سابق من صنعة غيره ، فوحد نفسه بما تفرد به دون غيره من خلقه ، ليُعبد مُخلصا مبرا من الأنداد ، إتماما لنوره ، وتعزيزا لتوحيده ، وتأيدا لدينه ، وإعلاء لمن اعتصم به ، وإقلا لمن خالاه وعند عنه وعبد غيره ، وإحقاقا لكلمته ، فإنه يقول : ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ فِي الْآيَةِ ؛ بِذَلِكَ أَنْزَلَ كُتُبَهُ ، وَأَرْسَلَ رُسُلَهُ ، وَاحْتَجَّ بِهِمْ وَبِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ عَلَى مَنْ مَضَى مِنَ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ ، وَالْأُمَمِ الْخَالِيَةِ ، يَدْعُو آخِرَهُمْ إِلَى مَا سَبَقَ إِلَيْهِ أَوَّلُهُمْ ، مِنْ عِبَادَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ ، لَا يَسْتَوْحِشُونَ مِنْ قِلَّةِ ، وَلَا يُؤْتُونَ مِنْ كَثَرَةِ ؛ يُعَزِّمُ اللَّهُ بِقُوَّتِهِ ، وَيُؤَيِّدُهُمْ بِجَنْدِهِ ، وَيَنْصُرُهُمْ وَيَنْصُرُ بِهِمْ إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا خَصَّ بِهِمْ ، وَجَعَلَهُ مُصَدِّقًا لَهُمْ ، وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِمْ ، وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ بَعْدَهُمْ ؛ يَمِضِي لِأَمْرِ اللَّهِ ، وَيُجَاهِدُ مَنْ لَمْ يُجِيبْهُ إِلَى الدُّخُولِ فِي دِينِ اللَّهِ ، فَأَظْهَرَ اللَّهُ وَأَنَارَ حَقَّهُ ، وَأَرْهَقَ عَدُوَّهُ ، وَأَنجَزَ مَا وَعَدَهُ ، وَأَتَمَّ بِذَلِكَ النِّعْمَةَ عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ اتَّبَعَهُ ، فَإِنَّهُ يَقُولُ : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ﴾ .

تحميد في فتح

الحمد لله الفتح العليم ، الرحمن الرحيم ، العزيز الحكيم ، الذي أعز الإسلام بقدرته ، وأيده بنصره ؛ فلم يُجِدْ فِيهِ مُلْحِدٌ ، وَتَسَعَّ فِي تَشْتِيتِ الْكَلِمَةِ وَشَقِّ الْعَصَا سَاعٌ ، وَيُوضَعُ

في الكفر والمعصية مَوْضِعٌ ، ويمتنع من قضائه وإرادته مُمْتَنِعٌ إِلَّا أذله الله وقصمه ، وأضرع خده ، وأنعس جده ، وضلل سعيه ، وعجل بواره واستنصاه ؛ حمدا دائما لا انقطاع له ، ولا نفاذ لمذته .

تحميد ثاب

والحمد لله الذي اختار الإسلام وشرفه ، وكرمه وطهره ، وأظهره وأعزّه ، وفطر عليه ملائكته ، وبعث به أنبياءه ورُسُلَه ، واختار له خيرته من خلقه محمدا صلى الله عليه ، فبعثه برسالته ، وأكرمه بوحيه ، وأصطفاه على خلقه ؛ يُبَشِّرُ بِالْجَنَّةِ مَنْ أَطَاعَهُ ، وَيُنْذِرُ بِالنَّارِ مَنْ عَصَاهُ ؛ وجعله دينه القيم الذي لا يقبل دينا غيره ولا يُثِيبُ أحدا إلا عليه .

تحميد في فتح

الحمد لله العزيز في ملكوته القاهر فوق بريته ، الذي خلق الخلق بقدرته ، وأنفذ فيهم إرادته ومشيئته ، وقدر كل شيء وأتقنه وأحكمه ، وأحاط علما به ؛ فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين .

صدر تحميد في فتح

الحمد لله الذي ابتدع الخلق لا من شيء ، وجعل الليل والنهار كهفا ومُسَجَّما لكل حي ؛ بقدرته تجرّت البحار ، وجرّت لمواقيتها الأنهار ؛ فدار وتطارد الليل والنهار ، لا إله إلا هو ربّ العرش العظيم .

والحمد لله الذي فات بعظمته أبصار المرتئين ، وعلا بمجده عن خطرات الحاسبين ، واحتجب بأستار جبروته عن مواقع فكر المحصلين المتعمقين ؛ فلم تحوهِ الكمية ، ولم يقع عليه أدوات التحصيل والكيفية ، ولا أدركه هاجس تبعيض ولا تُكْثِيَة ، ولم يُنْسَبْ إلى زيادة في حين ، ولا إلى تقصير في شهور ولا سنين ، فكلّ أمره — عزّ جلاله — تمام ودوام ، وكلّ صفات صنعه اعتدال وكجّل ؛ وكلّ ما دونه يحتكم فيه الفناء والزوال ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

والحمد لله الذى عرفنا ربوبيته إماماً ، ونهج لنا سبيل طاعته مناً وإكراماً ، وتعبدنا بفرضه تقويماً وتعلماً وأمتناناً ؛ فقامت علينا وعلى الخلق حجته ، بالصادق بأمره ، والمبلغ لرسالته ، والمجاهد فيه حق جهاده ، محمد صلى الله عليه وسلم . والحمد لله الذى أعز دينه ، وأظهر تمكينه ، ونصر وليه ، وخذل عدوه ، وأوقع بأسه ونقمته بحل الفرية ، وجثومة الضلالة ، ومناخ الشرك ، ومركز الكفر ؛ بعد طول الإملاء ، والاعتداء فى سفك الدماء ، والمثلة بالأسرى ، وقلة المراقبة والأرعواء .

تحميد

الحمد لله حمداً يكون رضاه منتهاه ، والمزيد من فضله جزاءه . والحمد لله حمداً إليه ينتاهى حمد الحامدين ، وشكر الشاكرين . والحمد لله الذى لا تُحصى نعمائه ، ولا تُجْزى آلاؤه ، ولا يُكافأ بلاؤه ، ولا يُبلغ شكره إلا بمته وتوفيقه ؛ حمداً يرضاه ويتقبله ، ويزكولديه ، ويوجب ما تأذن للشاكرين من يده .

تحميد على فتح

أما بعد ، فالحمد لله الواحد القهار ، العزيز الجبار ، ذى المن والإعلاء ، والجلال والإكرام ؛ الذى أصفى الإسلام ديناً ، وأصفى له من عباده أهلاً هداهم له ، وأكرمهم به وبين لهم ما يأتون ، ولم يتركهم فى ريب من أمرهم ، ولا شبهة من دينهم ؛ فله الحجة البالغة ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة ، وإك الله لسميع عليم .

والحمد لله الذى ختم بحمد صلى الله عليه وسلم النبوة ، وأتبعه لتبليغ الرسالة ، وبعثه إلى خلقه كافة ، قبل رسالته ، وصدع بأمره ، وقام فيما بعثه له بحقه ، ثم أنجز له وعده ، وأتم له كلمته ، وأظهر دين الإسلام به على الدين كله ولو كره المشركون .

تحميد فى فتح

أما بعد ، فالحمد لله الأول الآخر ، الظاهر الباطن ، الولي الحميد ، القوى العزيز ؛ الذى لا يقدر العباد قدره ، ولا يُحصون نعمه ، ولا يبلغون شكره ؛ المحيط بكل شيء علماً ،

وَالْحُصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ؛ فَلَا يُعْجِزُهُ كَبِيرٌ ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ صَغِيرٌ ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

تحميد

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُتَوَحِّدِ بِالْخَلْقِ وَالْأَمْرِ ، قَادِرًا قَاهِرًا أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ، وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ
عَدَدًا ، وَمَلَأَهُ عَظَمَةً ، وَوَسَّعَهُ عَدَلًا ، وَأَتَقَنَهُ صُنْعًا . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعَزَّ بِالْحَقِّ مَنْ أَطَاعَهُ ،
وَأَذَلَّ بِالْبَاطِلِ مَنْ عَصَاهُ ، وَجَعَلَ الطَّاعَةَ وَالْجَمَاعَةَ حِرْزًا حَرِيْزًا ، وَمَوْتَلًا مُنِيفًا ؛ فَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَ
أَهْلِ كُفْرٍ وَإِيمَانٍ ، وَطَاعَةٍ وَعِصْيَانٍ ، إِلَّا تَوَحُّدًا بِالصَّنْعِ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ ، وَأَنْجَحَ سَعْيَهُمْ ،
وَأَعْلَى كَلِمَتِهِمْ ، وَأَفْلَحَ حُجَّتَهُمْ ، وَأَنْزَلَ بِأَهْلِ الْكُفْرِ الْمُعَانِدِينَ عَنْهُ ، الرَّادِّينَ لِأَمْرِهِ الذَّلَّةَ
وَالصَّغَارَ فِي عَاجِلِهِمْ وَأَجَلِهِمْ ؛ حَمْدًا يَكُونُ لِمَزِيدِهِ مُوجِبًا ، وَلِحَقِّهِ مُؤَدِّيًا .

تحميد في فتح لسعيد بن حميد عن وصيف

أَمَّا بَعْدُ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْحَمِيدِ الْحَمِيدِ ، الْفَعَّالِ لِمَا يَرِيدُ ؛ الَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ ،
وَأَمْضَاهُ عَلَى مَشِئَتِهِ ، وَدَبَّرَهُ بِعِلْمِهِ ، وَأَظْهَرَ فِيهِ آثَارَ حِكْمَتِهِ الَّتِي تَدْعُو الْعُقُولَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ ،
وَتَشْهَدُ لَذَوِي الْأَلْبَابِ بِرَبُوبِيَّتِهِ ، وَتَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ ؛ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي مَلِكِهِ فَيُنَازَعَهُ ،
وَلَا مَعِينٌ عَلَى مَا خَلَقَ فَيَتَلَزَّمُهُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ ؛ فَلَيْسَ يَتَصَرَّفُ عِبَادَهُ فِي حَالٍ إِلَّا كَانَتْ دَلِيلًا
عَلَيْهِ ، وَلَا تَقَعُ الْأَبْصَارُ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا كَانَ شَاهِدًا لَهُ ، بِمَا رَسَمَ فِيهِ مِنْ آثَارِ صُنْعِهِ ، وَأَبَانَ فِيهِ
مِنْ دَلَائِلِ تَدْبِيرِهِ ، إِعْذَارًا بِحُجَّتِهِ ، وَتَطَوُّلًا بِنِعْمَتِهِ ، وَهَدَايَةً إِلَى حَقِّهِ ، وَإِرْشَادًا إِلَى سَبِيلِ
طَاعَتِهِ ، وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ؛ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَزِيزِ الْقَهَّارِ ، الْمَلِكِ الْجَبَّارِ ، الَّذِي أَصْطَفَى الْإِسْلَامَ وَآخْتَارَهُ ، وَارْتَضَاهُ
وَطَهَّرَهُ ، وَأَعْلَاهُ وَأَظْهَرَهُ ؛ بِفَعْلِهِ حُجَّةٌ أَهْلُهُ عَلَى مَنْ شَاقَّهُمْ ، وَوَسِيلَةٌ إِلَى النَّصْرِ عَلَى مَنْ
عَادَ فِي حَقِّهِمْ ، وَأَبْتَنَى غَيْرَ سَبِيلِهِمْ ؛ وَبَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ يَدْعُونَ إِلَى حَقِّهِ ، وَيَهْدُونَ إِلَى سَبِيلِهِ ،

بالآيات التي يبينون بها عن المخلوقين ، ويوجبون بها الحجّة على المخالفين ؛ حتى انتهت كرامة الله إلى خاتم أنبيائه ، وحامل كتابه ، ومفتاح رحمته صلى الله عليه وسلم ؛ على حين فترة من الرسل ، واختلاف من الملل ، ودثور من اعلام الحق ، واستعلاء من الباطل ؛ والناس عاندون عن سبيل ربهم ، يتسافكون دماءهم ، ويحلّون ما حرّم الله عليهم ، ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ؛ وأيده بالبرهان الواضح ، والمجّج القواطع ، والآيات الشواهد ؛ وأزل عليه كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ؛ وجعل فيه أوضح الدليل على رسالته ، وأعدل الشواهد على نبوته ؛ إذ عجز المخلوقون عن أن يأتوا بمثله على مرّ الأيام ، وكثرة الأعداء والمنازعين ؛ يتحدّاهم به في المواسم ، ويقصّدهم بحجّته في المحافل ؛ ولا يزدادون عنه إلّا حسورا وعجزا ، ولا تزداد حجة الله عليهم إلّا تظاهرا وعلوا ؛ ثمّ أيده بالنصر بأنصار ألف بينهم بطاعته ، وجمعهم على حقه ، ولمّ شعّتهم بنصرة دينه ، بعد الشقاق المتّصل بينهم ، والحرب المفرّقة لجماعتهم ؛ كما قال عزّ وجلّ : ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ يَا مُؤْمِنِينَ﴾ . وقدم اليه وعده بالنصرة والتمكين ، فجعله بشري للمؤمنين ، وحجة على الكافرين ، ودليلا على ما بعثه به من الدين ؛ فهزم بالقليل من عددهم الكثير من عدد أعدائهم ، وغلب بضغائهم أهل القوة ممّن ناوأهم ؛ فقلّ به حدّهم ، وفُضّ جموعهم ، وأفتح حصونهم ، وحرّز معاقلهم ؛ وأظهر بحجّته ونصره عليهم ، وأنجز سابق وعده لهم وفيهم ، والله لا يُخلف الميعاد .

تحميد لابن المقفع

الحمد لله ذي العظمة القاهرة ، والآلاء الظاهرة ؛ الذي لا يُعجزه شيء ولا يمتنع منه ، ولا يُدفع قضاؤه ولا أمره ؛ ﴿وَأَمَّا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ . والحمد لله الذي خلق الخلق بعلمه ، ودبر الأمور بحكمه ، وأنفذ فيما آختر وأصطفى منها عزّمه ؛ بقدرة منه عليها ، ومملكة منه لها ، لا معقب لحكمه ، ولا شريك له في شيء من الأمور ، يخلق ما يشاء ويختار ؛ ما كان للناس الخيرة في شيء من أمورهم ، سبحانه الله وتعالى عما يبتسرون .

والحمد لله الذى جعل صَفْوَةَ ما آخْتار من الأمور دينَه الذى آرتضى لنفسه ولمن أراد كرامته من عبادِه، فقام به ملائكتُه المقربون، يُعْظَمون جلاله، ويُقَدِّسون أسماءه، ويذكرون آلاءه، لا يَسْتَحْسِرُونَ عن عبادته ولا يَسْتَكْبِرُونَ، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ، وقام به مَنْ آخْتار من أنبيائه وخُلَفائِه وأوليائه فى أرضه، يُطِيعُونَ أمرَه، وَيَذُبُّونَ عن محارمه، وَيُصَدِّقُونَ بوعده، وَيُوفُونَ بعهده، ويأخذون بحقه، ويُجاهدون عدوّه؛ وكان لهم عند ما وعدهم من تصديقه قوتهم وإفلاجه حجتهم، وإعزازِه دينهم، وإظهارِه حقهم، وتمكينه لهم؛ وكان لعدوّه وعدوهم عند ما أوعدهم من نزيه، وإحلالِه بأسهم، وأنتقامه منهم، وغضبه عليهم، مضى على ذلك أمرُه، ونفذ فيه قضاؤه فيما مضى، وهو مُمِضِيه ومتفدّه على ذلك فيما بقى، ليتم نوره ولو كره الكافرون؛ ولِيُحَقِّقَ الحقَّ وَيُطْلَ الباطل ولو كره المجرمون .

والحمد لله الذى لا يَقْضِي فى الأمور ولا يُدَبِّرُها غيرُه، ابتدأها بعلمه؛ وأمضاها بقدرته، وهو وليها ومنهاها، وولى الخيرة فيها، والإمضاء لما أحب أن يُمِضِيَ منها، يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يُشْرِكُونَ .

والحمد لله الفتاح العليم، العزيز الحكيم، ذى المَنِّ والطول، والقدره والحول، الذى لا تُمَرُّ لك لما فتح لأوليائه من رحمته، ولادافع لما أنزل بأعدائه من نَقْمته، ولاراد لأمره فى ذلك وقضائه يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد .

والحمد لله المُثِيبُ بحمده ومنه ابتداءه، والمُنِيعُ بشكره وعليه جزاؤه، والمُنْثِي بالإيمان وهو عطاؤه .

لا خـ

الحمد لله الذى يَتَطَوَّلُ بالنعيم مُبتدئاً، ويُعْطِي الخير مَنْ يشاء وَيُثِيبُ عليه .

تحميد لغسان بن عبد الحميد

كاتب جعفر بن سليمان في المطر :

الحمد لله الذي نشر رحمته في بلاده ، وبسط سَعَتَه على عباده ، الذي لا يزال العباد منه في رزق يَفْتَسِحُونَهُ ، وفضل يَنْتَظِرُونَهُ ، لا يَنْقُضُهُ ما قَبْلَهُ ، ولا يَنْقُضِي ما بَعْدَهُ .

لأحمد بن يوسف في فتح السند

الحمد لله وَلِيَّ الحمد ، وأهلِ الثناء والمجد ، خالقِ الخلق ، ومُدَبِّرِ الأمر ؛ المسيح على عباده والمُوجِبِ عليهم حُجَّتِهِ ؛ فليسوا يرجون إِلَّا سَعَةَ فَضْلِهِ ، ولا يَحْذَرُونَ إِلَّا ما أَجْرَحُوا مِنْ مَعْصِيَتِهِ ؛ لما سبق من جَزِيلِ إحسانه ، وتظاهر من آمَنانِهِ ، وتَقَدَّمَ به الإِعْذارُ والإِنْذارُ اللذان لا يَسْتَحِيفُ بما عَظُمَ مِنْهُما إِلَّا مَنْ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ ، وَاسْتَوَلَى عَلَيْهِ الْخُلْدَانُ ، وقاده الحَيْنَ الى مواردِ الهَلَكَةِ .

التحميد الثاني

الحمد لله الذي أصطفى الإسلام دينا فطَّهرَهُ وأَسَّاهُ ، وأظْهَرَ وأَعْلَاهُ ؛ وزَيَّنَهُ بكلِّ حَسَنَةٍ ، ونَفَى عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ ، وجعله الى مَذْخُورِ كرامته سببا واصلا ، وسبيلا نَهْجًا ، وبعث به محمدا صلى الله عليه وسلم لِيَهْدِيَ مَنْ كان حَيًّا ، وَيَحْقِّقَ الْقَوْلَ على الكافرين .

تقريضه في الخليفة

الحمد لله الذي أصطفى أمير المؤمنين لخلافته ، وتَلَفَّقَ الأُمَّةُ بِسُلْطَانِهِ ، فجعله القائم فيهم بقسطه ، والمُسْتَفْرِغُ في التماس مصلحتهم هَمَّهُ .

لأحمد بن يوسف

عن ذى الراسيتين الى ابراهيم بن إسماعيل بن داود صدر فتح :

(١) أما بعد ، فالحمد لله الذى حَفِظَ مِنْ دِينِهِ ما ضَيَّعَ الملحدون ، ورَأَبَ مِنْهُ ما [فرقه] الصدقة ؛ وأعاد من حبلة ما حاولوا نَقْضَهُ ، حتى أعاد لعباده أحسن أَلْفَتِهِمْ ، وردَّ اليهم أجمل

(١) بياض في الأصل . وما أثبتناه يناسب المقام .

عَوْدِهِمْ ، من الاستشلاء بعد التردى فى حُجْمِ المعاطب ، والاستنقاذ بعد التوريط فى المهالك ؛ وبلغ خليفته القائم بحقه ، المؤتمم بكتابه ، الذائد عن حريم الدين ، ووراث النبيين ، أجزل ما بلغ للخلفاء الراشدين المهديين ، من إعلاء الكلمة ، وغلبة الأعداء ، والفوز بالعاقبة التى وعدّها المتقين ؛ وفرغه لما أشعر قلبه ، وشرح له صدره ، من إمضاء حكم الفرائض الموجبة ، واقتفاء السنن الهادية ، حيث سلك به من المناهج ؛ حمدا يوازى نعمه ، ويبلغ أداء شكره ، ويوجب مزيده .

والحمد لله على ما خصّصنا به من إعلاء الدرجة ، وإسناء الرتبة ، فى مشايعة أمير المؤمنين — أيده الله — والمجاهدة عن حقه ، والوفاء لله بما عقده له ؛ لا نريد بما كان منا إلا وجهه ، ولا نسعى فيه إلا لرضاه ؛ حمدا لا يحصى عدده ، ولا ينقطع أمدّه .

تحميد لأبى عبيد الله

أما بعد ، فالحمد لله ذى الآلاء والقُدرة ، والطول والعزة ؛ الذى أصطنع الإسلام دينا لنفسه ، وملائكته وأنبيائه ومن كرم عليه من خلقه ؛ فبعث به محمدا صلى الله عليه وسلم اختصاصا له فى ذلك بكراماته ، وأصطفاه له به على عباده ؛ فأعزّه ومنعه ، وكفاه وحاطه ، وتوكل لأهله بالعلم والتمكين ، والظهور والتأييد ؛ فلم يُلحد فيه ملحد ، ولم يَزغ عن قبول حقه زائغ ، بعد إعدار الله إليه ، وإعادة الحجة لله عليه ، إلا أنزل به من الذل والصغار والاجتياح والاستئصال ما يجعل له فيه قعبا ؛ حمدا كثيرا دائما مُرضيا له ، مؤمنا من غيره ، موجبا لأفضل مزيد ثوابه .

تحميد لسعيد بن حميد فى فتح

أما بعد ، فالحمد لله المنعم فلا يبلغ أحد شكر نعمته ، والقادر فلا يُعارض فى قدرته ، والعزيز فلا يُغالب فى أمره ، والحكم العدل فلا يردّ حكمه ، والناصر فلا يكون نصره إلا للحق وأهله ، والمالك لكل شىء فلا يخرج أحد عن سلطانه ، والهادى إلى سبيل رحمته فلا يضلّ من أنقاد لطاعته ، والمُقدّم إعداره ليُظاھر به مُجته ؛ الذى جعل دينه لعباده رحمة ، وخلافته عصمة ، وطاعة خلفائه فرضا واجبا على كافة الأمم ؛ فهم المستحقّون فى أرضه

على ما بعث به رُسُلُه ، وأُمنّاؤُه على خَلْقِه فيا دعاهم إليه من دينه ، والحاملون لهم على مناهج حَقِّه ، لئلا تُشْعَبَ بهم الطرق المخالفة لسبيله ، والهادون لهم إلى صراطه ليجمعهم على الجادة التي نَدَبَ إليها عبادُه ؛ بهم تُحْيى الدين من البُغاة الطاغين ، وَحُفِظَت معالم الحق من الغواية المخالفين ، مُحْتَجِّين على الأمم بِكُتَابِ الله عزَّ وجل الذي آستعملهم به ، ورُعاةً للأمر بِحقِّ الله الذي آخَنَهم له ؛ إِنْ جادلوا كانت مُجِبَّةُ الله معهم ، وإِنْ حاربوا فالنصر لهم ، وإِنْ جاهدوا كان في طاعة الله نصرُهم ، وإِنْ بغاهم عُدُوٌّ كانت نِكايةُ الله حائلةً دونهم ، ومَعْقِلًا لهم ، وإِنْ كادهم كائدُ فالله في عونهم ؛ نصيبهم الله لِإِعْزَازِ دينه ، فمن عاداهم فإِثْمًا عادَى الذين عَزَّ بهم وحُرَّسَ بهم حَقُّه ، وَمَنْ ناوَاهُمْ فإِثْمًا طعن على الحق الذي تَكَلَّوْهُ حراسُهم ، جِيوشُهم بالرَّعبِ منصورة ، وكُتائبُهم بِسُلْطَانِ الله من عُدُوِّهم مَحْوَطة ، وأيديهم بِذُبِّها عن دين الله عالية ، وأشْياعُهم بِتَنَاصُرِهِم غالبةٌ ، وأحزابُ أعدائهم بِبَغْيِهِم مَقْمُوعَةٌ ، وَتُحْجَّتْهم عند الله وَخَلْقُه داحضةٌ ، ووسائلُهم إلى النصرِ مردودةٌ ، وأحكامُ الله بِخِذلانهم واقعةٌ ، وأقدارُهم بِإِسْلامهم إلى أوليائِه جاريةٌ ، وعادئُهم فيهم وفي الأمم السالفة والقرون الخالية ماضيةٌ ، ليكون أهلُ الحق على ثِقَةٍ من إِنْجَازِ سابقِ الوعد ، وأعداؤُه مُحْجُوجِينَ بِمَا قَدَّمَ إِلَيْهِم من الإنذار ، مُعَجَّلَةً لهم نِقْمَةُ الله بِأَيْدِي أوليائِه ، مُعَدًّا لهم العذاب عند رَدِّهم إِلَيْهِ خِزْيًا موصولًا بِنِوَاسِيَتِهِمْ في دُنْيَاهُمْ ؛ وعذابُ الآخرة من ورائهم وما الله بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ . وصَلَّى الله على مُحَمَّدٍ أَمِينِهِ الْمُصْطَفَى ، وَرَسُولِهِ الْمُرتَضَى ، والمنقذ من الضلالة والعمى ، صلاةً ناميةً بِرُكَّاتِها ، دائمًا أَتْصَالُها ، وَسَلَمَ تَسْلِيمًا .

والحمد لله تَوَاضَعًا لِعَظَمَتِهِ ، والحمد لله إِقْرَارًا بِرَبوبِيَّتِهِ ، والحمد لله اعْتِرَافًا بِقُصُورِ أَقْصَى منازل الشكر عن أدنى منزلةٍ مِنْ منازل كرامته .

فِيما يُقَرَّرُ بِهِ الْخُلِيفَةُ

والحمد لله الذي حاز لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَرِائَتِهِ ، وساقِ إِلَيْهِ خِلَافَتَهُ ، بِالْحَاجَةِ مِنْهَا إِلَيْهِ ، والرَّغْبَةِ مِنْهُ عَنْهَا ، وَاسْتِخْلَاصِ مِنْ خَلْقِهِ مَنْ جَعَلَهُ ظَهِيرًا لِلْوَاقِعِ ، وَعُدَّةً لِلنَّوَازِلِ ؛ فَلَمَّا

(١) أفضت الخلافة إليه حسير أمامه أحاجلته ، وكشف قناعه لحاربه ، فالحمد لله الذى اختص أمير المؤمنين بخلافته ، وأرضاه لولاية أمر أمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، والقيام بحقه ، والذب عن حرّماته ، وحاط له ما استرعاه من ذلك ، وقلّده بحسن الولاية والكفاية ، وتوكل له بالحفظ والتأييد ، والنصر والغلبة والظهور على من عند طاعته ، وصدف عن حقه ، وآبتغى غير سبيله ، كرامة من الله تطول بها عليه ، ومنة منه توحد بها له .

والحمد لله الذى جعل نية أمير المؤمنين عزيمته ، وفكره ورويته ، منذ أفضى الله بالخلافة إليه ، وجعله القائم بإمرث نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وأستحفظه من عباده وبلاده فيما فيه عز الدين ، ونظام أمر المسلمين وترهين الشكر ، وإذلال الأعداء ، وإشجائهم ووقئهم ، وتحصين البيضة ، وإشجان الثغور ، ولم المنتشر ، وضم الأطراف ، لا يفتأه عن ذلك فائى ، ولا يدهسه عن تفقد كبير أمره وصغيره ومقابلته ذاهل ، يستقل كثير ما ينفق من الأموال فى سد الثغور ، وتحصينها وحراستها ، لما يرجو فيه من جسيم الحظ ، وجزيل الذخر ، وكثير الأجر ، تقربا الى الله وأحتسابا له فى جنب ثوابه ، وكريم مآبه ، حتى رآب به الصدع ، ورتق به الفتق ، وأمن به السبل ، وأقام به العوج ، وأفلج به الحجب ، وأعلى به الدرج ، وأزهق به الباطل ، وأحيا به الحق ، وأشام به سيوف أهل الضلالة والفتنة ، لا تأخذه فى القيام بحق الله والانتصار لدينه ، والانتصاح لأمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، والذب عن حوزتهم ، والرمي من ورائهم ، ودفع بأئمة أهل الشقاق والنفاق والخلاف والمعصية عنهم فترة ولا سامة ، توفيقا من الله ، وتسديدا لحرمته ، وتأييدا لعزمه ، إذ كان لله شاكر ، ولدينه ناصرا ، وبحقه قائما ، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله وحده ، عليه يتوكل وعليه يتوكل المتوكلون .

والحمد لله الذى لم يزل منذ أفضى الى أمير المؤمنين بخلافته ، وحيّاه بكرامته ، يَحْتَصِه بالخيرة فى كل ما أمضى من أمره ، ويتولاه بالتوفيق فى كل ما أبرم من تديره ، ويحبل عنه

(١) هكذا ردت فى الأصل . ولم نوفق الى تحقيقها .

أُعباء ما حَمَلَهُ ، وَيُعِينُهُ بِتَأْيِيدِهِ عَلَى مَا قَلَّدَهُ ، وَيَحْوَطُهُ بِجَمِيلِ الصَّنْعِ فِيمَا وَلَاهُ ، وَأَسْتَحْفَظُهُ ، وَيُلْهِمُهُ جِهَادَ عَدُوهِ ، وَيُحِبُّهُ بِنَصْرِهِ ، حَمْدًا قَاضِيًا لِحَقِّ نِعْمَتِهِ ، مُوجِبًا أَفْضَلَ مَزِيدِهِ .

والحمد لله الذي أَوْرَثَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَوَارِيثَ نُبُوَّتِهِ ، وَصَيَّرَ إِلَيْهِ مَقَالِيدَ خِلَافَتِهِ ، وَأَوْجِبَ ذَلِكَ لَهُ بِالْقَرَابَةِ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالْوَرَاثَةَ لَوَرَاثَتِهِ مِنْ عُصْبَتِهِ وَأَوَّلَى النَّاسِ بِهِ ، ثُمَّ أَعَزَّ نَصْرَهُ ، وَأَعْلَى كَلِمَتِهِ ، وَأَفْلَحَ حُجَّتِهِ ، وَأَظْهَرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، وَمَنْ حَادَّهِ وَعَانَدَهُ مِنَ النَّاكِثِينَ وَالْمَارِقِينَ ، وَالْبَاغِينَ وَالْمُلْحِدِينَ ، فَأَتَعَسَ جُدُودَهُمْ وَفَعَلَ وَفَعَلَ .

والحمد لله الذي عَرَّفَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْذُ اسْتَخْلَفَهُ فِي أَرْضِهِ ، وَأَثْمَنَهُ عَلَى خَلْقِهِ ، مِنْ عَظِيمِ نِعْمَةٍ ، وَلَطِيفِ ضَنْعَةٍ ، وَجَمِيلِ بِلَائِهِ ، وَأَعَزَّازِ نَصْرِهِ ، وَأَعْلَاءِ يَدِهِ وَكَلِمَتِهِ ، وَإِفْلَاحِ حُجَّتِهِ عَلَى مَنْ ضَادَّهُ وَحَادَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ بِعَظِيمِ طَوْلِهِ وَمَنَّةِ ارْتَضَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِدِينِهِ ، وَأَصْطَنَعَهُ لَخِلَافَتِهِ ، فَتَلَاهُ سُرْبَالَهَا ، وَرَدَّاهُ بِهَاءِهَا وَجَمَالِهَا ، فَاسْتَعْمَلَهُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْحَقِّ وَالْعَدْلِ فِيهَا ، فَأَيَّدَهُ بِقُوَّتِهِ ، وَأَعَزَّهُ بِنَصْرِهِ ، وَحَاطَهُ بِكَفَايَتِهِ ، وَتَوَلَّى الصُّنْعَ لَهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ ، فَلَمْ يَكُنْ كَائِدًا ، وَيُعَانَدُهُ مُعَانِدًا ، وَيَتَرَقَّى عَنْ طَاعَتِهِ الْوَاجِبَةَ مَارِقًا ، وَيُتَّحِدُ فِي إِمَامَتِهِ مُلْحِدًا ، مِمَّنْ يُعَالِنُ بِمَعْصِيَةٍ وَشِقَاقًا ، أَوْ يَنْطَوِي عَلَى غِلٍّ وَنِفَاقٍ ، إِلَّا أَوْهَنَ اللَّهُ كَيْدَهُ ، وَأَتَعَسَ جَدَّهُ ، وَعَاجَلَ الْمُبَادَى بَعْدَاوَتِهِ ، الشَّاهِرَ عَلَى الدِّينِ وَالْمُسْلِمِينَ سَيْفِهِ ، بِاصْطِلَامِ وَبَوَارٍ ، وَأَمَكْنَ مِنْهُ بِذُلَّةٍ وَصَغَارٍ ، وَقَتَلَ الْمُسَرَّ غَيْرَهُ ، الْمُنْطَوِي عَلَى غِلٍّ بِغَيْظِهِ وَغَمِّهِ ، وَأَمَاتَهُ بِدَائِهِ وَحَسْرَتِهِ ، إِنْجَازًا مِنْهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لَوْعَدِهِ ، وَإِتْمَامًا لِكَلِمَتِهِ فِيمَا وَعَدَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ أَسْتِخْلَافِهِمْ فِي أَرْضِهِ ، وَالْتَمَكِينَ فِي دِينِهِ ، وَلَهُ الْحَمْدُ دَائِمًا ، وَالشُّكْرُ خَالصًا ، كَمَا هُوَ أَهْلُهُ وَكَأَيِّنْ أَنْ يُنْجِدَ وَيُشْكَرَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ .

والحمد لله الذي لَمْ يَبْقَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَدُوٌّ مِنَ النَّاكِثِينَ وَالْجَاهِلِينَ ، وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، حَاوَلَ نَقْضًا لِإِمَامَتِهِ الَّتِي صَيَّرَهَا اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَقَلَّدَهُ إِيَّاهَا ، أَوْ صَاوَلَ جَيْشَنَا مِنْ جِيُوشِهِ الَّتِي أَعَدَّهَا لِلْإِهَامَةِ عَنْ دِينِ اللَّهِ وَمَحَارِمِهِ ، وَإِقَامَةِ سُنَنِهِ وَمَعَالِمِهِ ، إِلَّا أَحَلَّ بِهِ النِّقْمَةَ ، وَأَصَارَهُ إِلَى الصَّغَارِ وَالذُّلَّةِ ، وَالْبَوَارِ وَالْهَلَكَةِ ، وَعَجَّلَهُ إِلَى نَارِهِ وَعَذَابِهِ .

والحمد لله الذي لم يزل يتولى أمير المؤمنين ببياطته ، ويتوحد له من إعزاز نصره وإعلاء كلمته ، وإفلاج حُجَّتِه ، ونأييد أوليائه وأنصار حقه ؛ وأنزل البأس والنقمة والمثلثات والسطوة بمن عانده ، والذَّبَّ عن حريم المسلمين وأهله ؛ بما يُبين به عن مكانه منه ، ومنزله عنده ؛ حميدا ربنا بذلك كما هو أهله ومستحقه ، مشكورا بعظيم منته فيه وطوله ، مسؤلا لتسام أحسن عائدته وماضى سسنته ؛ فإن الله المحمود على نعمه ، المشكور بالآلته ، لم يزل ما يتوحد به لأمر المؤمنين بسلطانه من التعزيز ، وفي أوليائه من التأييد بنصره ، عادة يتبين بها برهانه ، ويُفلج بها حُجَّتِه ، ويدل بها على كرامته عليه ، ويُخبر بها عن منزلته عنده ؛ ويعمل ما نزل بأعدائه المتولين عنسه ، الراغبين إلى غيره ، الملحددين في حقه ، عظة لمن قسا قلبه ، وران عليه سوء عمله ، ليكون ما يعطيه من البسط في ملكه ، والتمهيد فيما خوله له ، ويوفقه من السطوة بعدوه ، والتنكيل بمن خالفه ، حجتين متظاهرتين ، وعبرتين بعين ؛ فيعتصم^(١) معنهم ، وينجو ناج ، وليشجب^(٢) [شاجب] ويهلك هالك ، وقد مضت من الله المشيئة ، ووضع منه الإعدار ، وكان الله بعباده عليما ، وبأعمالهم خبيرا .

والحمد لله الذي أكرم أمير المؤمنين بخلافته : وجعله وارث وحيه ، وقيمه بكتابته في عبادته ، وأكرم هذه الأمة التي جعلها خير أمة أخرجت للناس به ؛ فهو الميمون في تديره المنتجع حويله ، الميمون النية ، الموفق الرأي والسياسة ؛ فإن الله عز وجل خلق الخلائق بقدرته ، وأختارهم بعلمه ، فاختر أمير المؤمنين لخلافته ، وأصطنعه للقيام في العباد والبلاد بأمره وقسطه ، وألهمه إقامة أحكامه وفرائضه ، والعمل بحقه وعدله ، وأبلى أهل الشرك به ، وأخرها إلى أيام دولته ، وحظرها عن كان قبله ؛ حتى حازله أبحرها ، وأبقى له سناءها وذكراها ، ونشر عنه أهدوتها وسماها ؛ وفتح عليه البلدان القاصية ، والمدائن المتناحية ، التي لم تكن تُرام من أهلها ، ولا يُطمع في زوالها ؛ وذلت له الملوك القديم عتوها وعنادها ، والأئم المستصعب مراسها وجهادها ، الحامية في آباد الدهور رحاها ؛ فأنفذ فيهم مكيدته ، وأنجح

(١) كذا في الأصل ، راعها بالفتن . (٢) كذا في الأصل ، ولعلها وليشجب .

سَعِيَّةً ، ورمَاهُم بالتخويف ، ومَلَأ قلوبهم رُغْباً منه ؛ فَأَذِن مُدْعِنُوهم بطاعته ، وأنقادوا لأمره ، وصاروا يداً وأعواناً لأولياؤه على أعدائه .

أما بعد ، فَإِنَّ أعظم النعم قَدْرًا ، وأجلُّها أَمْرًا ، وأسرُّها مَوْفِعًا ، وأوجبها شُكْرًا ، ما عَمَّ الإسلامَ والمسلمين نِعْمُها ، وعادت عليهم عَائِدَتُها ، وجعل الله فيه عِزَّ الدين ، وَدَلَّ المشركين ؛ وقد جعل الله ذلك في خِلافة أمير المؤمنين أطال الله بقاءه بيمينه وبركاته ، وما أخلص الله من نَبِيَّته وطاعته ، وتَأْدِيَةِ حَقِّهِ فيما استَحْفَظَهُ من أمر دينه وعباده ، وفرغ له نَفْسَهُ ، وأنصب فيه بَدَنَهُ ، وأسهر فيه لَيْلَهُ ، من حِيَاظَةِ حَرِيمِ الإسلام ، والزيادة في حدودها مُتَّصِلًا مُتَّابِعًا ، والنعم منظاهرة ومُتَوَافِرَةٌ ، فَسَهَّلَ الصَّعْبَ ، وَدَلَّلَ لَهُ الْعَزِيزَ ، وَقَصَّمَ عُتَاةَ الْأَعْدَاءِ وَتَكَبَّرِيهِمْ ، وَالْمُسْتَعْصِينَ وَالْمُسْتَصْعِبِينَ مِنْهُمْ ، فِي آبَادِ الدُّهُورِ عَلَى مَنْ رَامَهُمْ ، وَفَتَحَ عَلَيْهِمْ حَصُونِ مَدَائِنِهِمْ ؛ وَمَتَنَعَ قِلَاعَهُمْ ، وَأَنْفَذَ مَكِيدَتَهُ فِيهِمْ ؛ فَبَيَّنَ مَقْتُولَ وَمَأْسُورَ ، وَشَرِيدَ طَرِيدٍ عَنْ مَحَلَّتِهِ ، وَمَوْضِعَ عِزِّهِ وَمَنْعَتِهِ ، مُسْتَسْلِمَ مُعْطَى قِيَادِهِ بِأَخْبَعِ بَطَاعَتِهِ ؛ وَكَذَا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَنِّهِ وَطَوْلِهِ قَدْ أَوْصَلَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ صُنْعِهِ لَهُ فِيمَا قَلَّدَهُ مِنْ خِلَافَتِهِ ، وَحَيَاظَتِهِ لِإِيَّاهَا فِيمَا يَحْوِطُهُ مِنْ دِينِهِ ، وَعَرَّفَهُ مِنْ كِفَايَتِهِ فِيمَا قَامَ بِهِ مِنْ حَقِّهِ ، وَأَيَّدَهُ مِنْ نَصْرِهِ فِيمَا جَاهَدَ عَنْهُ فِي سَبِيلِهِ ، مَا قَدْ جَعَلَ النِّعْمَةَ بِهِ عَامَةً ، وَالشُّكْرَ بِهِ لَازِمًا ، وَإِنِّةً بِهِ وَاجِبَةً ، وَالصَّنْعَ عَظِيمًا ؛ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعْمِهِ فِي ذَلِكَ كَثِيرًا .

والحمد لله الذي جعل أَجْتِهَادَ أمير المؤمنين ومُقَامَ أمره وتُدْبِيرَهُ ، فِي آثَاءِ اللَّيْلِ وَنَهَارِهِ ، فِيمَا فِيهِ صَلَاحُ عِبَادِهِ ، وَإِعْزَازُ دِينِهِ وَإِقَامَةُ حَقِّهِ .

تَحْمِيد

الحمد لله الذي لَمَّا افْتَرَضَ مِنَ الطَّاعَةِ لِرُؤُوسِ الْأُمَرَاءِ مِنْ خُلَفَائِهِ جَعَلَ أَوَائِلَهَا نَاطِقَةً عَنْ فَضْلِ أَوَاخِرِهَا ، وَبَوَادِئُهَا مُخْبِرَةٌ عَنْ حَمِيدِ عَوَاقِبِهَا ، وَمَوَارِدُهَا مُبَشِّرَةٌ بِالْعُلُوقِ فِي مَصَادِرِهَا ، بِمَا يَعْقُبُهُ أَهْلُهَا مِنَ السَّعَادَةِ فِي الْمَاضِينَ مِنْ أَوْلِيَائِهَا الْقَائِمِينَ بِحَقِّهَا ؛ وَعَادَ مِنَ الشَّقْوَةِ عَلَى مُقَارِفِ الْمَعْصِيَةِ الْمُتْلِحِينَ إِلَيْهَا ؛ حِينَ أَقْبَلَتْ بِهِمْ هَوَادِي الْفِتَنِ ، وَكَشَفَتْ لَهُمْ تَوَالِيهَا عَنِ الْبَوَارِ

والهلكة ؛ مُعتذرين حين لا عذر ولا حُجَّة ، طالين للهَارِب بعد أن كانت منازلُ السلامة بهم مُطمَئِنَّة ، وخائفين وقد كانت سُبُل الأمان لهم واضحة ؛ قد جعلتهم النِّعمة الواقعة بهم أمثالا سائرة ، وفزقت بينهم وبين النِّعم الشاملة ، وحصلت السعادة لمن آتعت بهم باقية ، سنة من الله فيهم ماضية ، وعادة جارية ، ولن تجد لِسنة الله تبديلا ولن تجد لِسنة الله تحويلا .

والحمد لله الذى آختر أمير المؤمنين لخلافته فخرس به دينه من البُغاة الناكين عنه ، واختصه بأعلاء رُتب كرامته ، وأفترض طاعته على عبادِه ، وجعلها بمواقعها في دينه نظاما لسائر فرائضه ، فتاركها مُفارق لعصمة حقه ، خارج من جملة الأُمَّة التى سبقت لها رحمة ، يستنصر أشياع الباطل والله خاذله ، ويُغالِب الحق والله غالبه ، ويطلب مالا سبيل له إليه والله طالبه ، حتى يَخْلِجه أجله عن أمَلِه ، وأقدارُ الله فيه عن تقديره ، ونفوذُ قضاء الله فيه عن نفوذ حيله ؛ فضلا من الله على أوليائه وقضاء منه عدلا فى أعدائه ، والله ذو الفضل العظيم .

والحمد لله الذى آختر أمير المؤمنين لرعاية عبادِه ، وحِفظ بلادِه ، وتنفيذ أحكامِه ، وإقامة حدودِه ؛ بجمع به الألفة ، وكف به بوائق الفتنه ، وأصلح به أمور الأُمَّة ، وسكن به الدهماء ، ودفع به عظيم البلاء ، وأنقذ به من الجُهد والآواء ؛ وجدّد لرعيته العبر الشافية ، والعظة الناهية ، وجعل همه السعى لرَبِّه ، وطلب الحق الذى أوجبه له من خلافته ، ليؤدّى فرضه فى الأمانة التى حملها ؛ فيوجب له بذلك مالا يزول ولا يَنْقُطع من ثوابه ، فأعمل رأيه فى الرأفة بمن ولّاه أمره ، والحياطة له ، والعناية بصلاحهم ؛ فأعطاه لين الموعظة فى وقت الثانى ، والنفوذ لإقامة الحُجّة والبيّنة ، وشِدّة السطوة على مَنْ غمط النعمة وعَدّ به الإصرار عن التزوع والقيّة ؛ منّا من الله ونفضلا ، وإحسانا وتطوّلا ، والله ذو فضل عظيم .

ويسأل الله أمير المؤمنين مُبتدئا ومُعقبا ، وأولا وآخرا ، وقبل كلّ مسألة ، وأمام كلّ رغبة ، ومُقدمة كلّ طَلبة ؛ أن يُصلّى على صفوته من عبادِه ، وخيرته وخاتم أنبيائه ورسله ، محمد عبده ورسوله ، أفضل صلواته ، ويُبارك أكثر بركاته ، وأن يُديم له كرامته ، ويُجرى عنده أجمل عاداته ، ويُتمّم له ما اختص به من إحسانه ؛ حتى يملأ الأرض عدلا وقسطا ،

والإسلام تأييدا وعِزًّا ، والشُّرك ذُلًّا وقُتْعًا ؛ إِنَّهُ وَلِيُّ كُلِّ نِعْمَةٍ ، ومنتهى كُلِّ رَغْبَةٍ ، وغاية كُلِّ حَاجَةٍ .

ولم يزل أمير المؤمنين منذ الوقت الذى أفضى الله اليه بخلافته ، وأكرمته برّد حقّه من إرث نُبوّته ، يتلقى عظيم النعمة فى ذلك بالإخلاص للنبيّة والطّويّة فى الصّفح عن كُلِّ زَلَّةٍ ، والإقالة لكُلِّ عَثْرَةٍ ، والتعمد للهفوة وقبول الفَيْثَةِ ، والإِنابة من عَظُم جُرْمِهِ ، وجلّ ذنبه ، وظنّ أن لا توبّة له ؛ وكلما جَدَّد الله له نعمة ، جَدَّد له فى ذلك نيّة حَسَنَةً ، شكرًا لله عزّ وجلّ على ما ابتدأه به ، وارتهانًا لِنِعْمَةٍ عنده ، واستزادة من جميل مَواهبِهِ ، وتقديم الاهتمام بما فيه صلاح رَعِيَّتِهِ ، وأستقامة أُمُورِها ، وحياطُها والدُّبُّ عنها ، وكُفُّ الأذى والمكروه عن الدانى والقاصى منها ؛ ويتخلّص إلى ذلك بكلّ ما يَجِدُّ إليه السبيلَ ويَجْتَهِدُ فيه ، ويعمَلُ لكثرة أوقات دهره فى كُلِّ ما بلغه حُبُّه نظرًا لها ، وحَدِّبًا على كافّتها ، وإشفاقًا من سوء حالها ؛ إذ كان لها والدًا بَرًّا ، وراعيا كَالثًّا ، وناظرًا لطيفًا ؛ ويستعمل كُلّ ما يرجو اتِّلافَها ، والإبقاء على أحوالها ، والسلامة لها فى دينها ودُنْيائها ؛ وينصّب لذلك ليله ونهاره ، ويُذِيبُ فيه نفسه ، ويجعله شُغْلَهُ دون غيره .

والحمد لله الذى أصطفى أمير المؤمنين بخلافته ، وأكرمته بإرث نُبوّته ، وجعل خلافته خلافة يُمْنٍ وبركة ، ولطيف وسعادة ؛ انتاش بها أوليائه من موارد الملّة فرفع منزلتهم ، وشرف درجاتهم ، وأعلى كَلِمَتِهِمْ ، وأذلّ بها أعداءَهُمْ ، وجَدَّد دِوَابِرَهُمْ ، وردّ دائرة السوء عليهم ؛ وحباه مَزِيَّةَ نَصْرِهِ وتمكينه ، وإعزازِهِ وتأْييده ، وإظهارِهِ على من ناوأه وعَنَدَ عن حقّه ، وصَدَفَ عن طاعته ؛ فَإِنَّ الله لَمَّا اختار أمير المؤمنين لخلافته فأَيَّدَهُ بها ، جعل الحقَّ نَبِيَّتَهُ ، وإِعْزَازَ الدِّينِ بُغْيَتَهُ ، ومجاهدة أعداء الله شرقًا وغربًا وبرًا وبحرًا هِمَّتَهُ وإرادته ؛ ثم يسره فى ذلك لِمَا أحسن به عونه ، على من أَسْتَحْفَظْهُ وقَلَدَهُ ، فضلًا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم .

والحمد لله الذي كان لسابق عايمه وسالف قضائه ، الذي لا يستطيع الناس رده ، ولا منعه ولا صرفه ، ما ولى أمير المؤمنين من خلافته ، وما آتبعته له من النصر لدينه ، والطلب لحقه ، والجهاد لأعدائه ، وأحسن في ذلك عونه فيسه وبلاءه ، وأيده في نفسه ، لم ينقصه خذلان خاذل ، ولا مخالفة من خالف ، ولم يزد أمره في شيء من ذلك إلا تماما وإحكاما ، حتى أظهر حقه ، وأفالج مجتته ، ومحقق باطل أعدائه ، وأدحض حججهم ، وجعل أهل طاعته حزبه الغالبين ، وجنّده المنصورين ، وجعل عدوه وعدوكم حزب الشيطان الخاسرين ، وأولياءه الأذليين ، بغير حول من أمير المؤمنين في شيء مما ولّاه وأبلاه ، ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم .

لأبي عبيد الله

والحمد لله الذي أكرم أمير المؤمنين بما أصار اليه من الخلافة وإرث النبوة ، وجعله القائم بأمر عباده وبلاده ، وألحى لسنته ، والذاب عن دينه وحقه ، والمتنصّب لأهل الشرك والجحود به ، ثم نصره وأظهر فضل أيامه ودولته ، ومكّن له في بلاد عدوه ، وجعل كلمته العليا وأنصاره الغالبين ، ومن ناواه من أهل الخلاف الأذليين المقهورين ، وعرفه من نعمته في ذلك وميته وجميل صنعه وعاداته ، أحسن ما عود أحدا من أوليائه الدائين عن الإسلام وأهله ، حمدا متّابعا لا أنقطاع له ولا أنصرام ، دون بلوغ حقه ، وقد كان كذا وكذا .

ما يكتب به في المخالفين في وقت الهزيمة

نكصوا على أديبارهم منكوبين مهزومين ، قد ضرب الله وجوههم ، وقت في أعضادهم ، ومنع الأولياء أكافهم ، فقتلوهم في كلّ فج ، وعلى رأس كلّ تلة ومهرب ومسلك ، أباد الله خضرآهم وغضراءهم ، وحصد شوكتهم ، وفلّ حدّهم ، وأباخ نيران ضلالتهم وكفرهم ، وشفّى منهم الصدور ، وأدرك منهم الإحن ، ونقل المسلمين أموالهم وذرايرهم ، وجعلهم لهم خولا وعبيدا ، وأورثهم أرضهم وديارهم ، وأحلّ الله بهم من البأس والنقمة والجائحة

والظهور والغلبة جزاءً من الله لمن أخلد إلى المعصية وأبتغى غير سبيله المسلوكة . وكذلك يفعل الله بالقوم الظالمين ، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون ، إن الله لا يخلف الميعاد . ثم أنزل الله عز وجل من صار إلى الأمصار منهم هرباً ، وأعتصم بالحصون ، وتعوذ بالجلال ، ولأذ بالقلاع ، ولجأ إلى الأودية ، من صياصيهم ، وأمكن من نواصيهم ، وأستخرجهم من أوزارهم ومعاقلهم ومتعوذهم ، وأخذ أسيراً ذليلاً منكوباً خائفاً قد نخب الوجل قلبه وملا الرعب صدره ، متوقفاً أن ينزل الله به من السمات والمثلثات مالا مرد له عن مثله من القوم الظالمين ، وفشت في الكفرة الجراحات ، وعصتتهم السيوف ، وشرعت فيهم الفنا ، وهزتهم نار الحرب ، وغالهم النزال ، ومارسهم الأبطال ، وأستحز فيهم القتل ، فصبر لهم الأولياء أحسن صبر ، فلم يطيقوا بالموت مراماً ولا على الحرب مقاماً .

في صفة الخالعين

الناصبين لدين الله ، المكذبين بآياته ، الجاحدين رسله ، الجاحلين معه إلهاً ، لا إله إلا هو ، لطول مدتهم ، وشدة شوكتهم ، وصعوبة مرامهم ، وقطعهم السبل وأتاهم المحارم وسفكهم الدماء التي أوجب الله على من سفكها بغير حلالها وأقترف وأحتمل وزرها ، أليم العذاب وشديد العقاب ، فأبوا إلا تمادياً في صلاتهم ، وعُتُوا في طغيانهم ، وشبوتوا على عصيانهم ، ومقاماً على كفرهم ، لأحداثه السالفة ، وغوائله المتقدمة ، وبوائقه المشجية ، فوقف مميلاً بين ثكل التقدم وحقيقة الأصطلام في التأخر ، دعاهم إلى الفئدة والمراجعة والإجابة وقبول الأمان والدخول في الطاعة ، أستظهاراً بالحجة عليهم ، ورجاءً لصنع الله فيهم . فلما بلغهم نزول فيمن معي ، جمع أصحابه ، وضّم جنده ، وتحرز في معسكره ، وخندق على منزله ، وأحترس بجُهدته ، فأقت معسكرى ، وأنا مع ذلك في كل يوم أوجه رُسلي وأدعوه إلى حظّه ، من طاعة أمير المؤمنين والدخول في أمانه ، وأعلمه أن له نظراء ممن عمط الطاعة ، وسيفه الجماعة ، وقد ركضوا في الفتنة عمرهم وسعوا فيه دهرهم ، فانتشر خبرهم ، وكثرتبهم ، وكبر وزرهم ، وثقل وقهرهم ، ثم أذعنوا لطاعتهم ، وأستقلوا

ناهضين من عَثَرَتِهِمْ ، ومتعشين من زَلَّتِهِمْ ، فُغْفِرَتْ ذُنُوبُهُمْ ، وقُبِلَتْ تَوْبَتُهُمْ ، وَفُسِّحَ لَهُمْ في أَمَانِهِمْ ، وَشُرِّفَتْ مَنَازِلُهُمْ ، واستبدلوا بالخوف أَمْنًا وبالذل عِزًّا ؛ فَأَبَى بِهِ مِيلَ الْهَوَى ، وَعَلَابَةُ الشَّقْوَةِ ، ومستعلَى الْغَوَايَةِ ، والقدر المحارب ، والقضاء المحتوم . وتقدَّمتُ في موافقتهم وترغيبهم ، والأخذ بالخلق منهم ، من غير قتال ، ولا تناول سلاح ، ولا تناوش صِيَالٍ^(١) ، وعرضتُ عليهم التوبة ، ودعوتهم إلى الإِنَابَةِ ، وأعطيتهم الأمان ، وأعلمتهم أنهم إن قبلوا حِمْدَتَهُمْ وأُحْمَدَتْ نَارُ الْحَرْبِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ، وإن أَبَوْا إِلَّا تَمَادِيَا في غِيْبِهِمْ ونكوصا على شِقَائِهِمْ ، وَلَيْتُ مُنَاجَرَتَهُمْ وعرفتُ من الله الْخَيْرَةَ في محاربتهم ، وأستعنته عليهم وأستكفيتها أمرهم ، ورجوت حسن عِلْدَتِهِ عند أمير المؤمنين في أمثالهم . ثم وَجَّهْتُ الْأَوْلِيَاءَ فَنَفَذُوا نَحْوَ عَسْكَرِهِمْ لَيْلًا وَهُمْ مَتَفَرِّقُونَ في رحالهم ، مغتربون في أوطانهم ، قد أَمِنُوا خَدَعَ الْحُرُوبِ ومكرها ومكيدتها ، ووقعة الْبَيَّاتِ وهولها ، إِلَّا طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَهْلُ عِدَدٍ وَعُدَّةٍ ، وبأس في أنفسهم وقوة ، اتخذوا اللَّيْلَ جَمَلًا ، وسَرَّوْا نَحْوَنَا يَرْجُونَ غِرَّتَنَا وَيَأْمُلُونَ غَفْلَتَنَا ، فوقف جندنا بمكانهم آخِذِينَ أَهْبَتَهُمْ ، متمسكين بالطاعة فيما به إِمْرَتُهُمْ ، فأسرعتُ إليهم من أَعْدَائِهِمْ طَائِفَةٌ فَنَدَفَعُوهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، ونالوهم بِجَرَاحَاتٍ مع قتلى منهم عند تناوشهم ، ثم نكصوا على أَدْبَارِهِمْ ، ورجعوا الْقَهْقَرَى على أَعْقَابِهِمْ إلى الْبَاقِينَ مِنْ سَرِيَّتِهِمْ ، فاستجاشوهم فاجأهم بِالْمَكَانِفَةِ وَالْمُؤَاوِزَةِ ، وأقبلوا بِحِمِّيَّتِهِمْ وَحَنَقِهِمْ حَتَّى حَمَلُوا حِمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وضاق الفضاء وطارت أُنْفُودُ جُنْدِنَا رُعْبًا مِنْ حِمْلَتِهِمْ ، وبلغت الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ مِنْهُمْ ، إِلَّا طَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ مِنْ لَوَاحِ الْحَرْبِ وَمَوَاضِي رَوَاسِخِهَا وَأَشْبَالِ لِبْدَتِهَا ، تَزَيَّنُوا بِالطَّاعَةِ فَأَمَّوْا حَسْنَ الْعَاقِبَةِ ، ونصروا الدِّينَ ، فوثقوا بِالْتِمَكِّينَ ، آتَدَبُوا إِلَيْهِمْ ، ووقفوا لَهُمْ ، وازدادوا بصيرة في أمرهم ، ونفاذا وَجِدًا في أَجْتِهَادِهِمْ وَمَجَاهِدَتِهِمْ ، فَنَبَّهْتُوا قَائِمِينَ بِالْقُسْطِ في أَحْوَالِهِمْ ، قَائِلِينَ بِالْعَدْلِ في أَمَلَائِهِمْ ، يسألونهم الْكَرَّةَ بعد الْكَرَّةِ ، وَيَعِدُونَهُمُ الْغَلْبَةَ ، وَيُؤْمِنُونَهُمُ السَّلَامَةَ ، ويضمنون لَهُمُ الْغَنِيمَةَ ؛ ففأوا إِلَيْهِمْ ، ورجعوا إلى الْحَقِّ لَنَاسٍ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ ، فشأنعوا ساعة بِالْقَفَى

(١) الصيال مصدر صال على قرنه : سطا عليه .

بعد تزاميهم إرشاقا . بالسهم فلما رأى أعداء الله جدّهم ، وعرفوا صدقهم ، وخافوا حدّهم ،
نكصوا على أعقابهم ، يريدون التّحاق بمعسكرهم ، وتحرك أصحابنا في طلبهم ، ورجّوا سوء
الصباح لهم ، فأمعنوا في أثرهم ؛ فلما أحسوا الفساق أعطوهم الضمة وولّوا إلى ديارهم
لا يلبى قريب على قريب ، ولا ذورحم على حبيب ؛ ونالهم القنّ فدرستهم ، وعصبت
هامهم السيوف فكلمتهم ، وحيل بينهم وبين الدخول من باب عسكرهم ، فأخذوا في غير طريقه
منهزمين ، قد فل الله حدّهم ، وقتل كثيرتهم ، وقلل كثيرتهم ؛ ورجع أصحابنا إلى معسكر أعدائهم
بعد التشريد والتفريق بجماعتهم ، فأحاطوا بهم في آخريلتهم ، فلما رأوا غفلتهم ، وأمّنوا
غريبتهم ، واتهزوا مكان الفرصة منهم أحاطوا بهم وهم نائمون ، فازّون غافلون متفرقون ،
فوضعوا السلاح فيهم ، ضرباً بالسيوف ، وطعنا بالرماح ، وضرباً بالأعمدة ، وذبحاً بالشفار ،
لا يشعرون من جرحوا ، ولا يُبقون من كلموا ، غير مدفوعين ولا ممنوعين ، حتى أنشئت
السيوف ، وتحطمت القنّ وأنذقت الأعمدة ، وكَلَّت الشفار ، وبقيت منهم عدّة يسيرة
وشريضة قليلة ممن لم ينله القتل ، فأخذوا أسرى ، وأوثقوا حديدًا ، وجكّلوا قيودًا ، وكان
أول رأس أتاني بخبره بشيئهم وأسرع به إلى ذو المعرفة منهم رأس عدوّ الله المارق^(٢)
الباغي ، الشاق لعصا المسلمين ، ملأني رئيس ضالّاتهم ، وقائد جهالتهم ، ومستغوى
جماعتهم ، فعرفته بحليته ونعته وصفته في عدد كثير من رؤوس قوّاده وأهل الفتنة وأئمة
البدعة ، فلم يلبثوا إلا ريثما تصدّعوا في كل جبل وتحرّ ، منهزمين هارين ، لا يستطيعون لما
أتاهم من عذاب الله دفعا ولا منعا بأيّ ولا قوّة ؛ ولا ياجئون إلى ركن وعصمة ، قد تشبّثت
بهم نظامهم ، وفارقهم وجوههم وأعلامهم ، فأخذهم أسرا قسرا قدمهم النصب ، وملأ
قلوبهم الرعب وتخزمتهم الوقائع ، ونخبته الهزائم ، وتخيفهم القتل ، وغلب الله عزّ وجلّ
لأمير المؤمنين على حصنه الذي كان مُناف عزّه ، وموضع منّته في نفسه ، ومجتمع مدّته ،
ومادّة قوّته ، فقوضوا عساكرهم ، وأقشعوا عن حصنهم يتبع آخرهم أولهم ، متحيرين متلذّدين ،

(١) في الأصل : «نخبهم» . (٢) في الأصل «رأس عدوّ الله» :

أذلة خاسرين ، فتفتقروا لا نظام لهم ولا جامع لشتاتهم . فلما استبحر القتل فيهم ، وقشّت الحراكات في عامتهم ، وطحنتم الحرب بكنالها ، وألما وقع حديد أنيابها ومساخرها ، قذف الله الرعب في قلوبهم وزلزل بهم أقدامهم ، فولّوا منهزمين مغلولين ، وركب المسلمون أكفاهم ، يقتلونهم في رؤوس جباههم ، وخلال غياضهم ، وبطون أوديتهم ، ومقاصي تلاعهم ، وفي كل ناحية من نواحيهم ، حتى عجز الليل دونهم ، وأعجزوهم هربا في معاقلهم .

وفي العصاة

حتى إذا ظن أن قد عزّ بضلاله ، وتحصن بمعاقله ، وأستكمل قواه ، وكشّف تدبيره ، ولجأ إلى مانع منه ودافع عنه ، عطفت عليه عواطف الخلق بأولياء الحق وأنصاره ، ناقضين ما أبرم ، ومتداولين ما سدّ ، ومتوغّلين إلى غيّه ببصائرهم ، وإلى باطله بحقهم ، فاستنزل عن موضع عزّه قسرا ، وأمكن الله أوليائه أسرا ؛ سنة الله فيمن عَنَدَ عن سبيله ، وألحد في دينه ، ومَرَّقَ عن الطاعة وثائقها ، وأستبدل بالحق ومنهاجه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ، ولن تجد من دونه مُلتَحِدا ولا نصيرا ؛ حتى إذا تراءى الجمعان تبرأ الشيطان من حزبه ، وأرهق الله باطلهم بحقه ، وجعل الفلج والظفر لأولى الخزيين به ، بذلك جرت سنة الله في الماضين من خلقه ، وذلك ما وعد من تمسك بأمره وطاعته .

وفي مدح قواد الجيوش وصفة الأولياء في أحوالهم

لما بَلَا من طاعته ، واختبر من نصيحته ، ويُنَّ نقيته ، وشدّة شكيمة ، وصحة عزمته ، وصدق نيته ، وثقل وطأته على أعداء الله وأعداء الدين والمسلمين ، وعلمه بمراوطة الحرب وممارستها ، ومكيدة الأعداء ومواقفتهم فيها ، فشمر تسمير أهل الحسبة وحسن الظن بالله من غير وثية ولا فترة ولا بقاء جد ولا اجتهاد ، راجيا أن يُخجج الله سعيه ، ويفلج حجته ، ويظهره على عدوه من الاستقلال الذي حمله ، والاضطلاع بما أسند إليه ، والامتثال لسيرته ، والانتباه إلى أمره ، والقبول لأدبه ، والخوف بما يستنصه له من حروبه وأمره مثل الذي جعل عند فلان : يفضلهم بطوله ، ويطوهم بحاسنه ، ويتفادهم بحسن بلائه وغنائه ،

ومواقفه ومساعديه، لم يختبره أمير المؤمنين في جميع خصاله إلا وجده عند الاختبار والتحصيل سالكا لمناهجه، قابلا لأمره، متبعا لأثره، ساميا بهيمته إلى أقصى الغايات وأعلى الدرجات، حتى صار عند أمير المؤمنين مقدما في القدر والرتبة، مخصوصا بالمنزلة والرفعة، يرى ذلك قليلا في كثير ما وجب بطاعته ونصيحته، فبارك الله عليه وليا ظهيرا . فأقدموا متوكلين على الله مسلمين لأمره صابرين على ما نالهم من اللأواء والجهد والتعب وكلب الشتاء وحرارة القيظ، وصعوبة المرام من أعداء الله الكفرة، يرجون نصر الله وتتجزأ مواعد الصابرين والمجاهدين في سبيله من الظفر والنصر والغلبة على عدوهم، توحد به من نصرهم وإعزازهم أن كان الله عز وجل تكفل لأوليائه بالنصر والعز والحماية، وجعل حسن العاقبة لهم، وكبت من حادهم وأخذ إلى المعصية والكفر والأسر، ليكونوا بذلك عظة ونكالا لمن أمهله الله منهم، ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم، أعظمهم غناء، وأحسنهم بلاء، وأشدهم صولة، وأقساهم نكاية، وأمنهم سريرة، وأمضاهم عزيمة، وأربطهم جاشا، وأصدقهم بأسا، وأملأهم للأقران، وأرعاهم لوثائق الإيمان، وأشدتهم تحدا على السلطان، فأزره بهم، وحصن أطراف خلافته بأيديهم، فكفوه المهمل وقاموا بدونه بالملم، غير مستطيلين بغناء، ولا متعرضين لطلب جزاء، قد تعبدهم الوفاء، وغنوا بقربة الولاء، فإن الله جعل آباءه أعلاما في الطاعة يهدون إليها وأوليئته قادة إلى سبيل النصيحة يتمسك المناصحون بآثارهم فيها، باقيا على كثر الأيام ذكر مساعيمهم، وزائدة على تصرف الأيام حقوقهم، وياديا للعيون حميد أفعالهم، لا تنصرم الأخبار عن سالف لهم إلا وصلوه بمحادث، ولا يتقدم لهم من بلائهم أول إلا أتبعه آخر. ففلان يجري في أمره على منهاج قد أوضحه له، ويسلك في الطاعة طريقا قد سهلوا له مذهبهم، ويتمسك بعرا وثيقة قد رأى آثارها على من تقدمه، والله محمود . ولم يزل الله يعزف أمير المؤمنين في كل ما أسنده إلى فلان من أعماله وقلة من أموره، المبالغة في قضاء الحق عليه ويمن النقيبة فيما يتولاه، والاجتهاد في كل ما قرب به من الله وخليفته . وأمير المؤمنين يحمّد الله على ما يخصه

به من نعمته ، وإياه يستعين على قضاء حقّه ، إنه سميع قريب . فإن كتابك ورد على أمير المؤمنين بما لم يزل يتطلّع اليه منك ويؤمله عندك ، ويرجو أن يوفّقك الله فيه لرشدك ، ويؤثرك منه بحظّك ، للذي كان يبلغه وينتهى اليه من خبرك ، في أحوالك وتصرفك في خصال الخير ، وتثقلك في درجتها ، مساميا لأهل الفضل في مراتبهم ، مترينا بصالح أفعال الملوك في قصد سيرتهم ، وحسن طريقتهم ، ولين أكافهم . فحقّق الله ظنه بك ، وأجاب دعاءه لك ، وبلغ بك أمنيته ، وأعطاه فيك رغبته . وكنت فيما هُديت له بانقيادك إليه راغبا ، ودخولك فيه محتسبا ، مستوليا على أسنى الأمور مؤونة ، وأفضلها ذخيرة ، وأعلاها درجة ، وخيرها عاقبة ، وأعمّها سلامة ، وأمنعها كهفا ، وأبقاها شرفا ، وأعدلها حكما ، وأطولها سلما ، مستحقا بذلك على الله عز وجل زيادة الملك فيها ، وبهاء الثروة ، وأنسباط القدرة ، وآتساع المملكة ، وظهور الغلبة وعزّ التمكين ، والنصرة في الدار التي حُببت فيها بقليل ما ترجو أن تصير اليه من ثواب الله عز وجل وحسن مجازاته بالنعيم المقيم في دار الأمد ، ومحلّ الأبد ، بما لا يبلغه إحصاء ، ولا يكون له انتهاء ؛ وملاؤه فرحا وآبتهاجا ، وسرورا وجذلا ، ورجاء لك من الله عز وجل حسن عونه وتوفيقيه أن يغلب لك على حظّك ، وأن يأخذ لك تقواه بقلبك ويجعل فيما عنده رغبتك ، وإلى ذلك سموك وهمّتك . وليس ينفك أمير المؤمنين مقتفرا فيك أثرا يحمّده ، ومتصقفا بخبر يبّهجه ، ومستحدا نعمة من الله عز وجل يرجو اتصالها وآتساقها لديه بك ، حتى يتناهى إلى الدرجة العليا ، والغاية القصوى ، فيما ^(١) [يتبعه] من آجتثات أرومة الفسقة وقطع دابهم . وبالله الثقة والحوّل والقوة ، متعزّفا من الله فيما فارقه من جهاد عدوّه أتمّ مصادق وعد القامين بحقه ، الصابرين في جنبه ، وأحسن ما أبلى ، ذائدا عن حريم ، ومحصّنا لبيضة ، ومدافعا عن ملة ، فشمر شاريا لله نفسه ، طارحا عنه لباس الغفلة ، متجافيا عن مهاد الوطأة ، وليس "دخله الخلة" والوحشة على من كنت قريبا منه ، ولا يمتنع لأمر المؤمنين طّرف أنت فيه ، ولا أمر يُعين عليه ويتسك بسبب من اسبابه .

(١) بياض في الأصل والسياق يقتضى ما أثبتناه .

وصف الأولياء في الكتب

وصار أهل السُّمُو إلى الدرجة العليا ، والاعتصام بالعروة الوثقى ، من أولياء أمير المؤمنين وشيعته ، مُنْشَرَحَةً صدورهم بمكانفته ، مُنْبَسِطَةً أيديهم بمعاونته ؛ وقسم لأمر المؤمنين من أولياء دينه وأنصاره ، قَوْمٌ أزرهم بالنصر ، وَكَنَفَهُم باليقين ، وألَّفَ بصائرهم على الحق ، وأَيَّدَهُم بمؤيَّدات التقوى ؛ فلَمَّا أَمَرَهُم أطاعوا أَمْرَهُ ، وَلَمَّا فَرَضُوا في ذات الله طاعته ، فرض الله نصرهم وتمكينهم ، بجَاهِدٍ مُجَاهِدُهُمْ مُسْتَبَصِّرًا مُحْتَسِبًا ، وقَامَ قَائِمُهُم بِالْحَقِّ عَلَيْهِ مُخْلِصًا مُجْتَمِعًا ؛ وقَادَهُم طلائع الدين ودواعيه أرسالا قُدُماً ، فَاتَّبَعُوا سَبِيلَهُ لَا نَاكِلِينَ عَنْ إِقْدَامِ ، وَلَا مُتَوَقِّفِينَ عَنْ آرْتَابِ ، وَلَا مُتَهَيِّبِينَ ، مع دُخَائِلِهِمْ وبصائرهم ، عدوا ولا عنادا ؛ طالبين بشار الدين بُغَايَتَهُ ، وبطوائل الإسلام عِدَاتَهُ : من صنوف أُمَمِ الكفر ومردة النفاق وأئمة المُلْحَدِينَ ؛ متقلِّدين للحق ونُصْرَتَهُ ، ولِئِنْ ثَمَّ الْحَقُّ بِهِمْ ومضى ، ولِئِنْ مع الحق مَن نَكَثَ عنه بألْسِنَتِهِمْ وأيديهم ، حتَّى فَتَحَ اللهُ عِزَّ وَجَلِّ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ معَاوِلَ الشُّرْكِ وَأُئِمَّةَ ، وَأَنَاخَ الْبَاطِلِ وَأَرْكَانَهُ ، وأَعْلَامَ الْبِدْعِ وَأَتْبَاعَهَا ، فَضْلًا مِنْ اللهِ وَنِعْمَةً ، والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ؛ إِنْ هَزَنَتْهُمْ قَطَعُوا قُطْعَ الْحُسَامِ ، وَإِنْ أَجْرَيْتَهُمْ فِي عَظِيمَةٍ وَقَعُوا وَقَعَ الْجِيَادِ ، وَإِنْ اسْتَغْنَيْتَ وَدَامَ الْغِنَاءُ لَكَ عَنْ جَمِيعِ الْعَامِلِينَ ، كَانُوا رَصْدًا لَكَ فَوْقَ أَعْنَاقِ الْحَاسِدِينَ .

ما يُقَرَّرُ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَوَانِ الْكُتُبِ

لِيَعْرِفُوا مَوْقِعَ نِعَمِ اللهِ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، يَحْوِطُهُ بِهِ فِي أَوَلِيَّائِهِ ، مِنَ النُّصْرَةِ وَالتَّمَكِينِ ، وَعَلَى أَعْدَائِهِ مِنَ الْوَقْمِ ^(١) وَالتَّوْهِينِ ؛ وَيَشْكُرُ اللهُ عَلَى النِّعْمَةِ فِي ذَلِكَ ، إِنْ الشُّكْرُ مُحْصَنٌ لِلنِّعَمِ ، وَأَمَانٌ مِنَ الْغِيَرِ ، لِيَتَحَلَّوْا مَوَاقِعَ النِّعْمَةِ عَلَيْهِمْ ، فَيَا جَمَعَ اللهُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ كَلِمَتِهِمْ ، وَيَحْوِطَ مِنْ حَرِيْمِهِمْ ، وَيُجِلَّ مِنْ بَاسِهِ وَنِقْمَتِهِ بِمَنْ صَدَفَ عَنْ سَبِيلِهِ وَحَاوَلَ تَشْتِيتَ جَمَاعَتِهِمْ وَتَوْهِينَ حَقِّهِمْ ، وَيَقَابِلُونَ ذَلِكَ بِمَا تُرْتَبِطُ بِهِ نِعْمُهُ ، وَيُسْتَدْرَ مَزِيدُهُ .

(١) الوقم : القهر والذلّة .

سعيد بن حميد

ليشكروا الله على ما منح خليفته من هؤلاء الأتراق الخارجين من جماعة المسلمين، فإن الشكر أمان من الغير ومادة للزير .

٣ - التحاميد في أواخر الكتب

تحميد لسعيد بن نصر في آخر كتاب فتح له

الحمد لله المعز لدينه، المظهر لحقه، المؤيد لأوليائه، الصانع للإسلام وأهله، الناصر لخليفته، الحافظ لما استحفظه، المتوحد بالنعمة عليه فيما حمله .

تحميد لإبراهيم بن العباس في آخر كتاب فتح

فالحمد لله المزيل لما يمهّد المبطلون، ويمكر به الماكرون، ويكيد به الملحدون، تمكيناً لعبده وخليفته، وذنباً عن دينه وحقه، وإظهاراً لأوليائه وحزبه، وإمضاءً لعزائمه وقدرته، منعماً قادراً، ومُثمناً ممهلاً، عدلاً إذا استدريج، متفضلاً إذا أنعم، حمداً يُستترزل به نصره، ويُبلغ به رضوانه، ويمتري بمثله فواضل مزريده .

تحميد في فتح لإبراهيم بن العباس

والحمد لله بجميع محامده التي تُحمد بها، على جميع آلائه وجميل بلائه، فيما ولي به خليفته، ونصر به دينه، وأقام به حقه، وأعزّ به وليه، وقمع به من ألدّ عن سبيله، حمداً يؤدّي حق نعته، ويوجب به أفضل مزريده بمنه وطوله .

تحميد لأبي عبيد الله في آخر كتاب

فالحمد لله على ما يحدث لأمر المؤمنين في دولته وسلطانه، ولعامّة المسلمين من صنعه وكراماته، في جسيم الأمور ولطيفها، وخاصها وعامها، بما يجعله للنعمة تماماً، وعلى ما يحل بعدوّه من بأسه وقوارعه، ويوقع بهم من جوائحه وأستئصاله، ما يكون لموعدده لإنجازاً، حمداً يبلغ رضاه ويستوجب مزريده .

تحميد آخر

الحمد لله الذى تمّ لأمر المؤمنين نعمته ، وأكمل دعوته ، وجعل العاقبة فيه لمن آخزاه لخلافته ، وردّ إليه من شدّ عنه من رعيته ، وأقى أمير المؤمنين بصنعه على حدّ نيته وقدر أمنيته ، ولم يُفْل رأيه ولم يُخلف ظنه ، حمدا كثيرا دائما بما يزكو عنده فيقبله ، ويرفع إليه فيبلغ رضاه ، حمدا يكون لأسبغ نعمه جزاء ، ولأفضل إحسانه كفاء ، وللزيد من فضله وإحسانه موجبا ، وإلى أعلى الدرجات عنده مؤثرا ، وللخلود في جنته وسيلة وسببا .

آخر :

الحمد لله الذى جمع لأمر المؤمنين ما حبّاه بمزية نصره وتمكينه وإعزازه وتأبيده ، وإظهاره على من ناوأه وصدّ عن حقه ، وصدّف عن طاعته ، ووقفه لأختصاص فلان بما وكلّه إليه وعصبه به من أعباء أموره وجلائل أعماله ، وأجرى بقلان وعلى يديه وبركته وسعادة جدّه ويمنّ طائرّه ، من نتائج الفتوح ، وتواتر النصر ، وإقبال الصنع ، وإعلاء الحق وإنارتته ، وإزالة الباطل وإبادته ، حمدا يؤدّى حقه ، ويرى عزه ، ويمير من أحسن مزيده ، بكرمه وجوده .

آخر :

الحمد لله الذى أكرم أمير المؤمنين بالخلافة ، وخصّه بالإمامة ، وقلّده من أمور عباده وبلاده ما تولاه بكفائته وكلاءته وتأبيده وحياطته ، حمدا يوجب المزيد من فضله .

ولإبراهيم بن العباس

الحمد لله الذى أنجز وعده ، ونصر عبده ، وأيدّ جنده ، وجعل فتوح أمير المؤمنين شرقا وغربا مشفوعة بين إقامة حق وإدالة باطل وإزالة عائد وإبادة عائد وإقالة مستقيل .

ويسأل الله أمير المؤمنين ، مسألة العبد سيده ومولاه رغبة إليه متذلّلا له أن يصلّى أفضل صلواته عنده على أكرم أنبيائه .

(١) سقطت في الأصل كلمات فاشتبهنا ما يقوم مقامها .

دعاء أمير المؤمنين في الكتب والدعاء له

وأمير المؤمنين يسأل الله ربه ووليه ، أن يكفنه فيما حباه وأستحفظه عليه بأفضل تأييده وأعز نصره، وأن يهب له مع كل نعمة يجددها له حارسا من شكرها، يتابع به أفضل مزيده، فإن النعمة منه، والشكر بتوفيقه، والمزيد لمن شكره .

وأمير المؤمنين يسأل الله ربه وربكم ووليّ النعم عليه وعليكم، أن يلهمه وإياكم أداء حقه وشكر نعمته وحمده عليها، ويطوّقه وإياكم أفضل الأعمال وأرضاها عنده وأشدّها استيجاها لما وعد الشاكرين من مزيده؛ إنه سميع قريب .

وأمير المؤمنين يسأل الله الذي ولّاه خلافته وأعلاه بها، أن يطوّقه ما حمّله، ويلهمه العادل بين رعيته، ويلهمهم نصيحتته وطاعته، ويصلح أمرهم به في ولايته وخلافته . ويرغب الى الله الذي أيدّه بنصره ومكن له بغير حول منه ولا قوة، أن يلهمه وإياكم شكره وذكره وخشيته، ويشمله وإياكم بطاعته ومَرْضاته ومحبته، وأن يعزّفه وإياكم الزيادة في نعمه والنصر على عدوّه والتمكين في بلاده؛ إنه ذو فضل عظيم .

والى الله يرغب أمير المؤمنين في إعانته على نيّته وتبليغه منتهى سؤاله وعاية همته وإعزاز دينه وإذلال من صدّ عن سبيله؛ إنه سميع قريب . وأمير المؤمنين يسأل الله الذي دلّ على الدعاء تطوّلا وتكفّل بالإجابة حتماً، فقال : ﴿أُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أن يجمع على رضاه ألفتم وأن يصل على الطاعة حبلكم، وأن يتممكم بأحسن ما عودكم من منّته، ويوزعكم عليها من شكره ما يواصل لكم به مزيده، وأن يكفيكم كيد الكائدين، وحسد الباغين؛ ويحفظ أمير المؤمنين فيكم، أفضل ما حفظ به إمام هدى في أوليائه وشيعته؛ ويحمل عنه ثقل ما حمّله من أمركم؛ وبالله يستعين أمير المؤمنين على ما ينوي من جزائكم بالحسن، وحمّلكم على الطريقة المثلى، وبه يرضى لكم ناصرا ووليا، وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا .

ويسأل الله أمير المؤمنين، أن يحسن على صلاح نيّته وعونه، وأن يتولاه فيما آسره، ولايّة جامعة، لصلاح ما قلّده، إنه سميع قريب .

ويسأل الله أمير المؤمنين الذي بيده مفاتيح مقاديره وفواضله ، أن يُصَلِّيَ أفضل صلواته على أفضل أنبيائه ، وأن يجعل ما أذخر لأمر المؤمنين الى دولته وخلافته ، وجهه به من وسائل الخير عنده ، أن يجمع الى أحسن توفيقه لما يرضى من شكره وحسن معونته على ما أصلح له ربه ، فإنه شاكر يحب من شكره ويوجب لمن وفق لشكره مزيدا بمنه وطوله وفضله وإنعامه ، إنه جواد كريم .

ويسأل الله أمير المؤمنين مبتدئا ومُعَقِّبا وأولا وآخر ، وقبل كل مسألة ، وأمام كل رغبة ومُقدِّمة كل طلب ، أن يصَلِّيَ على صفوته من عباده وخير خلقه وخاتم أنبيائه ورسوله ، محمد عبده ورسوله ، أفضل صلواته ، ويبارك عليه أكثر بركاته ؛ وأن يديم له كرامته ، ويَجْرِي عنده على أجمل عاداته ، وأن يتم له ما اختصه به من إحسانه ، حتى يملأ الأرض عدلا وقسطا ، والإسلام تأييدا وعزا ، والشرك ذللا وقَعًا ، إنه ولي نعمته ومُنْتَهَى كل رغبة ، وغاية كل حاجة ، وهو على كل شيء قدير .

وأمر المؤمنين يقول : الحمد لله طاعة لأمره ، واعتصاما من الفتنة بشكره ، وأستدامة ^(١) لنعمه المتزايدة عنده ، إنه سميع قريب .

وأمر المؤمنين ، سأل الله السامع كلام من جهرا ، والعالم بغيب من أسرا ، المطلع على ضمائر العباد وسوستهم ، والمستنقذ من يشاء برحمته ، والمُثَنَّى على من يشاء بقدرته ، أن يجمع على الحق أهواءكم وينصركم على أعدائكم ويُصْلِحَ ذات بينكم ولا يَكَلِّمَ في موطن من مواطن اللقاء ، والتحاكم والتناجز ، الى أنفسكم ، ويكفيكم ويكفي بكم إنه سميع قريب .

الدعاء لأمر المؤمنين في أواخر الكتب

ونسأل الله أن يَهَيِّئَ أمير المؤمنين ما صنع له ، ويعينه على شكر ما أولاه ، إنه ولي ذلك وإنا اليه فيه راغبون والسلام .

(١) في الأصل المنازل ، وما أثبتناه صحيح .

وله :

ونسأل الله أن يَهْتَأَ أمير المؤمنين الكراماتُ التي يُتَابِعُهَا ، والنعمُ التي يَظَاهِرُهَا عَلَيْهِ ،
والفتوحُ التي جَعَلَهَا فِي خِلَافَتِهِ ، وَوِلَايَتِهِ وَدَوْلَتِهِ ، وَيَهَبُ لَهُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِحَقِّهِ فِي ذَلِكَ وَالشُّكْرِ
لَهُ بِحَسَنِ بِلَاثِهِ فِيهِ ، مَا يَبْلُغُ أَعْظَمَ رَغْبَةٍ وَأَقْصَى أَمْنِيَةٍ ، مِنْ ذَخَائِرِ الْخَيْرِ وَفُضِيلَةِ الْأَجْرِ
وَحَسَنِ الثَّوَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

أَسْأَلُ اللَّهَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي غَابِرِ أُمُورِهِ ، أَحْسَنَ مَا عَوَّدَهُ فِي سَالِفِهَا ، مِنَ السَّلَامَةِ الَّتِي
حَرَسَهَا مِنْ الْمَكَارِهِ ، وَالْعِزِّ الَّذِي قَهَرَ لَهُ بِهِ الْأَعْدَاءَ ، وَالنَّصِيرَ الَّذِي مَكَّنَ لَهُ فِي الْبِلَادِ ،
وَالْهَدْيَ الَّذِي وَهَبَ لَهُ بِهِ الْحَبَّةَ ، وَالرِّفْقَ الَّذِي أَدْرَكَ لَهُ بِهِ الْحَلَبَ ، وَالِاسْتِصْلَاحَ الَّذِي
أَتَسَقَّتْ لَهُ بِهِ الرِّغْبَةَ ، حَتَّى يَكُونَ بِمَا أُعْطَاهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَمَا هُوَ مُسْتَقْبَلُ بِهِ ، أَبَدَ خِلَافَتِهِ
ذِكْرًا ، وَأَبْقَاهُمْ فِي الْعَدْلِ أَثْرًا ، وَأَطْوَلَهُمْ فِي الْعُمُرِ مُدَّةً ، وَأَحْسَنَهُمْ فِي الْمَعَادِ مُنْقَلَبًا .

أَسْأَلُ اللَّهَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَةً لَا تَزُولُ ، وَكَرَامَةً لَا تَنْقُذُ ، وَعِزًّا لَا يَضَامُ ، وَنَصْرًا
لَا يَغْلِبُ ، وَكَفَايَةً يَنْتَظِمُ بِهَا جَمِيعُ الصَّلَاحِ ، حَتَّى لَا يَكُونَ بِأَوَّلِ مَنْ ذَلِكَ أَسْعَدَ مِنْهُ بِآخِرِ ،
وَلَا بِمَاضٍ أَسْرَمَ مِنْهُ بِمُسْتَقْبَلِ .

أَسْأَلُ اللَّهَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي عَاقِبَةِ كُلِّ نِعْمَةٍ أَفْضَلَ مَا وَهَبَ لَهُ فِي عَاجِلِهَا ، حَتَّى يَجْعَلَ
كُلَّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِ ، وَكَرَامَةٍ حَازَهَا لَهُ ، مَوْصُولَةً بِالتَّامِّ ، مَحْوَطَةً بِالْحِفْظِ ، مَكْلُوءَةً مِنَ الْغَيْرِ ،
مَمْدُودَةً إِلَى طُولِ غَايَاتِ الْبَقَاءِ ؛ لَا يَشُوبُ صَفْوَهَا كَدْرٌ ، وَلَا سَلَامَتَهَا غَيْرٌ ، وَلَا سُرُورَهَا
تَنْغِيصٌ ؛ وَهَذَا اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْظَفَرَ ، وَأَدَامَ لَهُ عَادَةَ النَّصْرِ وَالتَّمَكُّنِ الْمَوْضِعَ ، وَحُجَّتِهِ
الْمُدْحِضَةَ لِحُجَّةِ أَعْدَائِهِ ، وَالْعَلْبَةَ الْمُظْهِرَةَ لِحَقِّهِ ، الْمُجْتَاحَةَ لِمَنْ خَالَفَهُ ؛ ثُمَّ لَا يَرِحَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ
رَاهِنَةً بِمِثْلِهِ فِي الْأَوْلِيَاءِ نَصْرًا ، وَفِي الْأَعْدَاءِ إِبَاحَةً ، وَفِي النَّكَثِينَ تَنْكِيلًا .

سَرَّ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَهْدَى لَهُ مِنْ كِفَايَتِهِ ، وَحَاطَهُ بِهِ مِنْ مَنَعَتِهِ ، وَأَيَّدَهُ بِهِ مِنْ
نَصْرِهِ ، وَجَعَلَهُ وَمَا اسْتَرْعَاهُ مِنْ دِينِهِ وَسُلْطَانِهِ ، فِي كَنْفِهِ الَّذِي لَا يُسْتَبَاحُ وَتَحْتَ يَدِهِ الْمَانِعَةُ
وَجَنَاحَهُ الْمَحْفُوظُ .

أدام الله لأمر المؤمنين السرور بما يُقْدَى به عيون أعدائه في تمكينه وتوهمهم، ونَصْرِهِ
وخِذْلَانِهِمْ، وإعزازهم والمجاهدة لهم؛ ولا زالت نِعْمَةُ الله تَزِيدُهُ في قُوَّةِ الظَّفَرِ، وعِزَّةِ النِّصْرِ،
وتَفْدٍ من آفاق الأرض بالبشارات والفتوح، حتَّى تَمَلَّأَ له ما بين طرفي مُلْكِهِ أَمْنًا وعِزًّا،
وَيَمَلَّأَ به قلوب أعدائه خوفًا ورعبًا، وَيَعِدَّهُمْ على خلافه سَطْوَةً وتَنكِيلًا .

أحمد بن يوسف

وَهَبْنَا الله أمير المؤمنين نِعْمَةً، وَمَلَأَهُ كِرَامَتَهُ، وَأَوَّلَى لَهُ فُتُوحَهُ، وَأَدَامَ إِعْزَازَهُ، وَتَوَلَّى
حَيَاتِهِ وَكَفَايَتَهُ، فِيمَا دَنَا مِنْهُ وَمَا غَابَ عَنْهُ، وَأَطَالَ بَقَاءَهُ وَالْإِمْتِنَاعَ بِهِ .

مختار ما كتب من باب التهاني في كل فن

تهنئة خليفة بظفر

الحمد لله الذي جمع لأمر المؤمنين مع الغلبة المحجَّة، ومع الظفر المعذرة، وجمع لعدوه
مع الذل السطوة، ومع دُحُوض المحجَّة النكال؛ فلم يجمعه والناكثين مَوْطِنٌ من مواطن
الصبر، إِلَّا جعل المحجَّة عليهم فيه، ولسان العذر فيه معه، وَيَدَّ الظهور فيه له؛ ثم وهب له
عند الظفر من الشكر، وعند الفلج من التواضع، وعند القدرة من العفو، ما جعله مُسْتَوْجِبًا
لِمَا أَصْفَاهُ بِهِ، مُعْرِفًا بِأَنَّ العذر مُنْقَطِعٌ مِمَّنْ نَكَبَهُ، وَأَنَّ مُسْتَرَادَّ المحجَّة وَمَطْلَبُ السَّلامَةِ،
فِي التَّمَسُّكِ بِطَاعَتِهِ وَمَنَاصِحَتِهِ، وَالْمُجَاهِدَةِ دُونَهُ .

وفي مثله :

أدام الله لأمر المؤمنين السرور بما يُقْدَى به عيون أعدائه .

وكتب إبراهيم بن المهديّ الى المعتصم يهنئه بخروجه عن أرض الروم

بعد فتح عمورية

الحمد لله الذي تَمَّ لأمر المؤمنين غَزْوَتَهُ، فَأَذَلَّ بِهَا رِقَابَ الْمُشْرِكِينَ وَشَفَى بِهَا صُدُورَ
قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ؛ ثُمَّ سَهَّلَ اللهُ لَهُ الْأَوْبَةَ سَالِمًا غَانِمًا، وَكَذَا وَكَذَا؛ وَلِيَهْنِئَتْهُ مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ، مِمَّا

أحصاه فلا ينساه ، لِيَقِفْ به موقفا يرضاه ، فإنه عز وجل يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ الآية ، فطوى الله لأمر المؤمنين نازح البعد برًا وبحرا ، ووقاه وصَب السفر سهلا ووعرا ، وحاطه بحراسته كالثا ، ودافع عنه بحفظه راعيا ؛ حتى يُؤديه الى المحل من داره ، والوطن من قراره ؛ وجزاه عن الإسلام خاصة ، وعن رعيته كافة ، بتخييره مُستخلفا عليهم ، وقائما مقامه فيهم هرونُ ابنُ أمير المؤمنين ؛ فقد استخلفه رفيقا شقيقا ، حليما وقورا ، يقظان ساكنا ؛ لم يُشَدِّب عليه أمر ، ولم يَتَنَشَّر عليه طرف ، ولم يضع معه سبيل ، ولم يُسَيِّط وليا مكافئا ، ولا عدوا مخالفا ، بلا سيف أشعره ، ولا سور أقرع به ؛ فثل جزاء أمير المؤمنين في تَخِيْرِهِ إِيَّاه ، بجزاه الله على ما حفظ من وصاته ، على محمود مقامه ، إنه مجيب الداعي .

وكتب أحمد بن يوسف الى عبد الله بن طاهر

يهتته بظفر

بلغنى — فتح الله عليك — خروجُ ابنِ السرى اليك ، فالحمد لله الناصر لدينه المعزُّ لوليّه وخليفته على عبادته ، المذل لمن صد عن حقه ورغب عن طاعته ؛ ونسأل الله أن يُظهر النعم ويفتح بلدان الشرك به ؛ والحمد لله على ما والاك منذ طعنت لوجهك ، فإننا نتذاكر سيرتك في حربك وسلمك ، ونكثير التعجب لما وُفقت له ، من وضع الشدة والليان بموضعهما ، ولا نعلم سائر جُند ولا رعية عدل بينهم عدلك ، ولا عفا بعد القدرة عن آسفه وأضعفه عفوك .

تهنئة خليفة بمحج

أصلح الله أمير المؤمنين وأراه من الزيادة في نعيمه ، ما يكون تماما لما ابتدأه به من فضله ؛ والحمد لله على ما خص به أمير المؤمنين من كرامته ، وأعطاه من الفضل في نيته ، وجعله يستعين على دينه ، بما بسط له في دنياه ، ويحمل على بدنه النصب فيما يتقرب به اليه ؛ فيجفؤ عن دعيته على لينها ، ويشخص عن طمأنينته على فضلها ، إيثارا لآخرته ، وأداء لحق ربه ؛ بادر له بذلك ليكرم به ، ثم يستعمل فيه نفسه ، تقربا اليه ، فيسعد به بالإذن

في ذلك حين كان من الله له ، وبالعَمَل فيه حين كان لله منه ؛ فيكون قبوله الخير حين يعرضه له ، دليلاً على قبوله الخير عنه حين يعمل لربه ؛ وكان من ذلك ما أذن الله لأُمير المؤمنين في زيارة نبيه صلى الله عليه وسلم العام ، وموافاة مشاعره العظام ، في وقتها من الأيام ، التي لا توافي إلا معها . ولا تكون مناسكة إلا فيها ؛ فكتب الله له في ذلك الآثار الصالحة والأعمال المبرورة ، فدخل في الإحرام له بتعظيم حقه ، وخرج منه بقضاء نسكه ، أجراً عقده الله عليه في ابتدائه ، ثم أتمه له باستيفائه .

ولمحمد بن مكرم تهنئة لحاج

بَلَّغَكَ اللهُ الرِّضَا فِي أَمَلِكَ مِنْ نُجْحِ كُلِّ حَاجَةٍ وَإِبْلَاغِ كُلِّ أُمْنِيَةٍ ، وَتَقَبُّلِ كُلِّ دَعْوَةٍ خَصَّصْتَ بِهَا نَفْسَكَ أَوْ غَمَمْتَ بِهَا أَحَدًا مِنْ أَهْلِكَ ، فِي مَجَامِعِ وَفُودِهِ ، وَمُعْتَزِلِ قَرَارِهِ ، فَكُنْتَ شَافِعَ مَنْ شَهِدَكَ ، وَوَافِدَ مَنْ غَابَ عَنْكَ ، يَسْتَفْتِحُ بِدَعَائِكَ ، وَيَرْجِي بِرُكَّةِ مُحَضَّرِكَ ، وَالْقُرْبَةَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِفَضْلِ جَاهِكَ .

تهنئة بولاية

نرى ما أحدث الله لك من الولاية ، لنا خاصاً وإلينا وإصلاً .

آخر :

وَلَمْ تَخْطِئِ النِّعْمَةَ إِذْ أَصَابَتْكَ ، وَلَمْ تَتَعَدَّنِي إِذْ دَخَلْتُ بِكَ ، وَلَمْ أَخْلُ مِنْ لَازِمِ شُكْرِهَا ، وَمَا يُنْقِلُكَ اللَّهُ مِنْهَا ، إِذْ قُلَّدَتْهَا ، اعْتِدَادًا بِكُلِّ مَا طَوَّقْتُ مِنَ الْمِنَّةِ ، وَإِيحَابًا عَلَى نَفْسِي مَا حَمَلْتُ مِنَ الشُّكْرِ .

ولسعيد بن حميد الى بعض إخوانه

سَّرَّكَ اللهُ بِتَتَابُعِ نِعَمِهِ ، وَتَرَادُفِ إِحْسَانِهِ ، وَزَادَكَ مِنْ فَوَاضِلِ أَقْسَامِهِ . بَلِّغْنِي — أكرمك الله — ما وهب الله لك من سُلْطَانِكَ ، فَقَوَّكَ اللهُ عَلَى مَا اسْتَرَاكَ . وَرَزَقَكَ الشُّكْرَ عَلَى مَا أَوْلَاكَ .

وفي مثل ذلك :

أَكَمَلُ اللهُ لَكَ السَّعَادَةَ ، وَزَادَكَ فِي الْكَرَامَةِ ، وَخَصَّصَكَ بِدَوَامِ النِّعْمَةِ . بَلَّغْنِي مَا وَهَبَ اللهُ لَكَ مِنْ سُلْطَانِكَ ، فَسُرِّرْتُ بِهِ ، وَسَأَلْتُ اللهَ إِيْتَامَ نِعَمِهِ عَلَيْكَ فِيهِ بِتَأْيِيدِكَ ، وَتَوْفِيقِكَ لِلْعَدْلِ فِي سِيرَتِكَ ، وَغَرَسَ الْمَحَبَّةَ لَكَ فِي قُلُوبِ رَعِيَّتِكَ ، وَأَنْ يُعِينَكَ عَلَيْهِ ، وَيَرْزُقَكَ السَّلَامَةَ فِي الدِّينِ وَالْدُنْيَا .

وله في مثله :

أَنَا أَهْنَيْ بِكَ الْعَمَلَ الَّذِي وَلَّيْتَهُ ، وَلَا أَهْنُكَ بِهِ ، لِأَنَّ اللهَ أَصَارَهُ إِلَى مَنْ يُورِدُهُ مَوَارِدَ الصَّوَابِ ، وَيَصْدِرُهُ مَصَادِرَ الْحُجَّةِ ، وَيَصُونُهُ مِنْ كُلِّ خَلَلٍ وَتَقْصِيرٍ ، وَيُمِيزُهُ بِالرَّأْيِ الْأَصِيلِ ، وَالْمَعْرِفَةِ الْكَامِلَةِ ، قَرَنَ اللهُ لَكَ كُلَّ نِعْمَةٍ بِشُكْرِهَا ، وَأَوْجَبَ لَكَ بِطَوْلِهِ الْمَزِيدَ مِنْهَا ، وَأَوْزَعَكَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِهَا مَا يَصُونُهَا مِنَ الْفِتَنِ ، وَيَحُوطُهَا مِنَ النِّقْصِ .

آخر :

قَدْ وَلَّيْتَ مِنَ الْعَمَلِ مَا أَسْأَلَ اللهُ عَنَّْ وَجَلَ أَنْ يَرْزُقَكَ بِرُكَّةٍ بِدَنِّهِ وَعَاقِبَتِهِ ، وَيُعْطِيكَ الرِّضَا مِنْ وَلَّيْتَ لَهُ وَعَلَيْهِ .

آخر :

هَنَّاكَ اللهُ هَذِهِ النِّعْمَةَ الْمُقْبِلَةَ ، الدَّالَّةَ أَقْوَلَهَا عَلَى تَمَامِهَا ، وَأَوْزَعَكَ شُكْرَهَا .

آخر :

أَسْعَدَكَ اللهُ بِهَذِهِ الْوِلَايَةِ وَجَعَلَهَا مَبَارَكَةً ، تَنْتَقِلُ بِظِلِّ السَّلَامَةِ مِنْهَا ، وَنَيْلِ الْكَفَايَةِ فِيهَا إِلَى أَمَلِكَ بِنَهَائِهِ وَرَجَائِكَ بِغَايَتِهِ ، وَرَزَقَكَ السَّلَامَةَ مِنْ وَلَّيْتَ لَهُ وَعَلَيْهِ .

آخر :

سَرَّكَ اللهُ بِمَا جَدَّدَ لَكَ مِنْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ ، وَفَعَّلَكَ بِهَذِهِ الْوِلَايَةِ ، وَأَرْضَى عَنْكَ مِنْ وَلَّيْتَ لَهُ وَمَنْ وَلَّيْتَ عَلَيْهِ .

وكتب محمد بن مكرم الى أحمد بن دينار :

نحن من السرور أيها الأمير بما قد استفاض من بحيل أثرك فيما تلي من أعمالك ،
وزمك إياها بحزمك وعزمك ، وأنتياشك^(١) أهلها من جور من وليهم قبلك ، وسرورهم بتطاول
أيامك والكون في ظل يدك وجناحك ، في إعانة من تحضه ونعمه نعمتك ، وتحول به
الحوول حيث حالت بك ، فالحمد لله الذي جعل العاقبة لك ، ولم يردد علينا آمالنا فيك
منكوسة ، كما ردها على غيرنا في غيرك . ولوددت أن أباك كان عين آثارك هذه ومناقبك ،
وإن كان الافتراق لم يقع بينكما حتى علم أنك خلفه ، وألقى اليك بأمره ومعاقده ثقته ،
وجعلك موضع اختصاصه وأثرته ، وصرف ذلك عن كان لا يستحقه ، وذم سالف رأيه
فيك وفيه وحيد آخره ، ثم نعمة اتصلت لك بما قبلها ، انتظمت بها أمورك فاعتدلت ،
وتلاحمت عليها وآتسقت ، ما منحت في كاتبك ، ومستقر ثقته ، وحامل أعبائك ، من
الكفاية والنصيحة ، ووضعته عن قلبك مؤونة التهمة والقص لأثره ، وإدخاله راحة الطائفة
اليه وروح الثقة به ، لا كما ابتلي أخوك ، فإنه صحبه نخلط عليه أمره ، وأفشى أسرارها الى
صاحب بريده ، فأنفل ذلك بينهم ، وقطع حبالهم ، حتى هجنت آثاره مع حسنها ووضوحها ،
وصفرت يده من حظ عمله ، ولزمه الذم من أهله ، فهذه كتبه الى ، في أطراح نصيحة له
كانت فيه ، ويسألني أن أخص اليه كاتباً يتحمل ثقله ، ويفتح له ما أرتجيه من أمره . وهذا
من سعادة جدك ، ويمن طائرک ، وإقبال الأمور اليك ، وسعيها على طريق موافقتك ،
وهنيئاً هنالك الله نعمه خاصها وعاقها ، وأوزعت شكرها ، وأوجب لك بالشكر أحسن الميز فيها .

تهنئة بعزل

كتب رجل الى مالك بن طوق لما عزل عن عمله :

أصبحت والله فاضحاً متعباً : أما فاضحاً فلكل وإل قبلك بحسن سيرتك ، وأما متعباً

فللكل وإل بعدك أن ياحقك .

(١) انتياشك أهلها : استنقاذهم .

فصل

سواء علينا أوليت أم صُرفت ، إنا لنشهد بك الولاية ، بما بَسَطَ الله من يدك ببذل العُرف ، ونهنتك بالعرف بما يلحقك من ثناء ما أسلفت من الجميل ؛ ولا نخاف عليك أن تفارق عملا وأنت محل له ، ولا أن تصحبه وليس به فاقة إليك . فهناك الله النعمة ، وأعانك على الشكر، وأيدك بالمزيد .

تهنئة بعزل عامل عن عمله

بالغنى صُرفتُك ، فخار الله لك ، وهناك لطيف نظره وجيل إحسانه ، فإنى أرى الرجل عند خروجه من العمل سالما نقياً من مآثمه ودنسسه ، أولى بالتهنئة منه عند دخوله فيه ، وأرى الدعاء له عند بدء تلبسه به بالخلاص منه معصوما بريئا من تبعاته . وراجع آثامه ، أولى بمن عُني به وأحب صلاحه ، ولذلك قدّمتُ تهنئتكَ .

ولسعید بن حمید فی مثله الى بعض إخوانه :

حفظك الله بحفظه ، وأسبغ عليك كرامته ، وأدام اليك إحسانه . إن سرورى بصرفتكَ ، أكثر من سرور أهلي عملك بما خُصّوا به من ولايتك . وقد كنت — أعزك الله — فيما يُربأ بك عنه ، بما أنت عليه فى قدرك وأستمالك ؛ ولكنا رجونا أن يكون سببا لك الى ما تستحق ، فطبنا نفسا بالذى رجونا . فالحمد لله الذى سلّمك منه ، ونسأله تمام نعيمه عليك وعلينا فيك ، بتبليغك أملك وآمالنا فيك ، وشفاع ما كان من ولايتك بأعظم الدرجات وأشرف المراتب ؛ ثم خصّك الله بجميل الصنع ، وبلغك غاية المؤمنين . إن من سعادة الوالى — حفظك الله — وأعظم ما يُخص به فى عمله وولايته السلامة من بوائق الإثم ، ونوائب الدنيا وشرها ، والعاقبة مما يُخاف منها ؛ وقد خصّك الله منها بمنه وطوله ما نرجو أن يكون سببا لك الى نيل ما تستحق من المراتب . والله نسأل لإيزاعك شكر ما من به عليك ، وتبليغك غاية أملك فى جميع أموركَ ، برحمته وفضله .

آخر :

ما أحسن ما كَشَفَتْ عَنْكَ الْوَلَايَةِ ، وَأَجَل ما أبرز منك العمل ، قد كَسِبَكَ اللهُ حَمْدَ
وَلَايَتِكَ وَعَزَلَ عَنْكَ لَأْتِمَتًا ، بما أُنْشِرَ عَنْكَ مِنْ عَدْلِكَ ، وَظَهَرَ مِنْ مَعْرِفَتِكَ ، فَاذَا سَاءَكَ
هَذَا فَلْيَسْرُرْكَ .

وكتب محمد بن مكرم الى ابراهيم بن المدبر :

الحمد لله رب العالمين حمداً يَجُوزُ حَمْدُ الْحَامِدِينَ ، الذى جعل قضاءه خَيْرَةً لَكَ ؛ فَإِنْ
زَادَكَ نِعْمَةً وَفَقَكَ لَشُكْرَهَا ، وَإِنْ أَمْتَحَنَكَ بِلُؤَى مِنْ نَفْتٍ حَاسِدٍ أَوْ كَيْدِ كَائِدٍ ، أُنَارَ
بِرْهَانِكَ وَأَفْلَحَ مُجْتَهِدِكَ وَجَمَعَ بَيْنَ وَلِيِّكَ وَعَدْوِكَ فِي الشَّهَادَةِ لَكَ ؛ وَإِنْ نَقَلَ أَمْرًا عَنْ
يَدِكَ ، فَرَبَّمَا يَرْجِعُهُ إِلَيْكَ مَخْتَلًا لِفَقْدِكَ . هَذَا إِلَى مَا جَعَلَ عِنْدَكَ مِنْ خَوَاصِّ النِّعَمِ الَّتِي إِنْ
ذَكَرْنَاهَا فَأَطْنَبْنَا أَوْ تَجَوَّزْنَا فَقَصَرْنَا ، كَانَ غَايَتُنَا إِلَى الْحُسُورِ دُونَ مَدَى غَايَتِكَ . وَقَدْ زَادَكَ
اللَّهُ بِهَذَا الْحَادِثِ فَضْلًا عَظِيمًا ؛ لَمَّا ظَهَرَ مِنْ وَلِيِّهِ الْعَامَةِ إِلَيْكَ وَتَطَلَّعَ إِلَى مَا كَانَتْ فِيهِ :
مِنْ لَيْنٍ لِنَصَافِكَ وَكَرِيمٍ أَخْلَاقِكَ ، وَوَحْشَةٍ لِنَخَاصَةِ لَمَّا فَقَدْتَ مِنْ حُسْنِ مُعَامَلَتِكَ وَكَثِيرٍ
تَفَضُّلِكَ . وَأَيُّقِنَ أَهْلُ الرَّأْيِ وَالتَّأَمُّلِ لِنَصَفَاتِ الْأُمُورِ ، أَنَّ كُلَّ مَا تَخْرُجُ عَنْكَ فَعَائِدُ
إِلَيْكَ وَتَتَصَلُّ بِهِ غَيْرُهُ ، حَتَّى تَسْتَقِرَّ فِي يَدِكَ عُرَا الْأُمُورِ وَمَعَاقِدُهَا ، وَتُنْفِجَ بِرَأْيِكَ وَتُدِيرَ
أَبْوَابَهَا وَمَعَالِقُهَا ، فَلْيَمْنِكْ أَنَّ كُلَّ مَا زَادَ غَيْرَكَ نَقَصًا زَادَكَ فَضْلًا ، وَكُلَّ مَا نَقَصَ مِنَ الرِّجَالِ
وَحَطَّهَا الْخَلْقَ بِكَ شَرَفًا . فَزَادَكَ اللَّهُ وَزَادَنَا مِنْكَ ، وَجَعَلْنَا مِنْ يَقْبَلُهُ رَأْيُكَ ، وَيَقْدِّمُهُ
أَخْتِيَارُكَ ، وَيَقَعُ مِنَ الْأُمُورِ بِمُوَافَقَتِكَ ، وَيَجْرَى مِنْهَا عَلَى سَبِيلِ طَاعَتِكَ .

وكتب سعيد بن حميد الى بعض إخوانه :

جعلني الله من السوء والمكروه فِدَاءَكَ ، وَأَطَالَ فِي الْخَيْرِ وَالسُّرُورِ بَقَاءَكَ ، وَأَتَمَّ نِعَمَهُ
عَلَيْكَ ، وَأَحْسَنَ مِنْهَا مَزِيدَكَ ، وَبَلَّغَكَ أَقْصَى أَمْنِيَّتِكَ ، وَقَدَّمَنِي أَمَامَكَ ، وَقَدْبَلَنِي مَا أَخْتَارَ اللَّهُ لَكَ ،
فُسِّرْتُ مِنْ حَيْثُ يَغْتَمُّ لَكَ مَنْ لَا يَعْرِفُ قَدْرَ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ ، وَلَا يَرَاكَ بَعِينَ اسْتِحْقَاقِكَ .

ولئن ساءنى ما ساء إخوانك من عزك ، لقد سرنى ما يسر الله لك . والحمد لله الذى جعل
انصرافك محمودا ، وقضى لك فى عاقبتك الحسنى ، وأقول :

لِيَمْنِكَ أَنْ أَصْبَحْتَ مُجْتَمَعَ الْحَمْدِ * وَرَاعَى الْمَعَالَى وَالْمَحَامَى عَنْ الْحَمْدِ
وَأَنْكَ صُنْتَ الْأَمْرَ فِيمَا وَلِيَّتَهُ * فَفَرَّقْتَ مَا بَيْنَ الْغَوَايَةِ وَالرُّشْدِ
فَلَا يَحْسِبُ الْبَاغُونَ عَزْلَكَ مَغْنَمًا * فَإِنَّ إِلَى الْإِصْدَارِ عَاقِبَةَ الْوَرْدِ
وَمَا كُنْتَ إِلَّا السِّيفَ جُرْدًا لِلْوَعَى * فَأَحْمَدَ فِيهَا ثُمَّ رُدَّ إِلَى الْغَمْدِ
وقد قال الأول :

فَمَنْ يَكُنْ بِوَرُودِ الْعَزْلِ مُكْتَنِبًا * فَإِنِّى بِوَرُودِ الْعَزْلِ مُسْرَرٌ
بَعْدَ الْوَلَايَةِ عَزْلٌ يَسْتَبِينُ بِهِ * طَوَّلُ الْوَلَاةِ وَبَعْدَ الْعَزْلِ تَأْمِيرُ

أما ما عندى مع تصوّر العاقبة لك فى نفسى ، فيمسنى فى أمرك فى حال المحنة
ما يخصنى منه فى وقت تجدد النعمة . وبحسب ضميرك الشاهد على ما عندى ما أجده لك
فى نفسى . فلا زلت فى نعيم متتابعة متجددة ، ولا عِدِمَتِ الثروة والزيادة ؛ وبلغك الله أقصى
أملك ، وأمل أخيك لك ، وكبت أعداءك ، وجعلنى وقاءك المقدم عنك . أحب أن
تشرح لى صورة الأمر إلام تأذت ، وكيف كان الابتداء ؛ فإنى لا أشك أنها حيلة
ونية من عزّ الصاحب الخليل القدر ؛ ولها عاقبة منه إن شاء الله محمودة ، وتفضى من ذلك
الى ما تسكن اليه نفسى ، إن شاء الله .

تهنئة بتزويج وبناء بأهل

بطائر اليمين فليكن هذا البناء ، وبأسباب السعادة فليتصل عقد هذا الاجتماع ، وبكل ذكاء
الولد ، وثروة العدد ، فلتجرك الأقدار ، وفى أطول غايات البقاء فلتدُم هذه الغبطة والسرور .

تهنئة بتزويج

بلغنى تزوجك من فلانة ، فبالرفاء والبنين ، تهنئة السلف الصالحين ، وبلغ سنة المجتهدين
المتبحرين ، ونقول على يمين الطائر ، وسعادة الجدد ، وتماء العدد ، وآفاق الهوى ، وطيب

المناسمة، واجتماع السَّمَل، وثبات الرِّيع، وتَمَلَّى النِّعم . أسأل الله الذى قضاهَا أن يجعلها لك سَكًا ويجعلك لها شَجَنًا ، وأن يُؤَنِّحَ حَامِهَا الى آتِهَاءِ نَفْسِكَ عنها ، وجعلك جَائِزًا تُرْبَهَا ، وَوَلِيَّتَ المَال وهناءة العيش وملاهاة الغوانى بعدها .

تهنئة لغسان بن عبد الحميد بتزويج

قد بلغنى جَمْعُ الأمير أهله على الحال التى جمعهم عليها من نعمة الله عليه . فالحمد لله على كل ما يرى الأمير فيما له فيه نعمة . فأسأل الله أن يجعل الطائر فى ذلك مَيُونًا ، والسَّمَل مجتمعا ، والبركة عظيمة ، والأُمور سليمة ؛ وكذلك فقد عَظَّمَ الله القَسَمَ منه لزوجه ، جَعَلَ الأمير سَكًا لها ، وأجرى المودة والرحمة بينهما ، فإنه يقول عز وجل : ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ . فلما كان الأمير هو المنظور اليه ، وهى المنظور اليها ، اختارها الأمير لنفسه واختار نفسه لها ، وأراد الله عز وجل أن يزيدها مع فضلها فى نفسها فضلا باختيار الأمير إياها ، وباختصاص الله لها بالأمير دون غيرها ؛ فكان ذلك فضلا من الله زِيْنَةً بفضله ، وكرامةً من الله وَصَلَ بَعْضُهَا بَبَعْضٍ . ففرغ الى الله عز وجل فى أن يزيد الأمير فى كُلِّ سَعَةٍ مبسوطة ، ونعمة مقسومة ، ويعطيه فى ذلك شكرا يكون لرضاه مُوجِبًا ، كما أعطاه فضلا كان الشكر له به واجبًا ؛ ثم يَمَلَّى الأمير ذلك بأحسن ما مَلَّى أَحَدًا من خَلْقِهِ كرامةً اصطنعها عنده .

تهنئة بمولود

كتب العباس بن الحسن الطالبى الى المأمون يهنئه بمولود له :
قد كان أجذلى ما أحدث الله لأمر المؤمنين من المَوْهبة التى ليس ، وإن كان أولى بها من غيره ، بأعظم فيها حظًا من رَعِيَّتِهِ . فعمّر الله لك يا أمير المؤمنين قلوبهم بنور الحكمة وأبصارهم حتى يَسْتَدَ بِهِمْ عَضْدُكَ ، وَيَسْتَدَ بِهِمْ نُفُوتُكَ ، وَيُبَلِّغَهُم الغاية المأمول لهم بلوغها بعدك ، غير مُقْعَد بك مهل ، ولا مُحَل بك أجل ، ولا مُكَذِّبك أمل ، ولا مُنْقَطعة أيامك ، حتى تُحْتَرَمَ أَنْفُسُنَا قَبْلَكَ .

وكتب أحمد بن يوسف الى بعض إخوانه يهنئه بمولود له :

بارك الله في مولودك الذى أتاك ، وهنالك نعمته بعطيته ، وملاك كرامته بفائده ،
وأدام سرورك بزيادته ، وجعله باراً تقياً ، ميمونا مباركا زكياً ، ممدودا له في البقاء ، مُبَلَّغا غاية
الأمَل ، مشدودا به عَضُدُك ، مُكَثِّرا به وَلَدُك ، مُداما به سرورك ، مدفوعا به الآفات عنك ،
مشفوعا بأكثر العدد ، من طيب الولد .

وله في مثل ذلك :

هنالك الله هذه الفائدة التى أفادكها ، وبارك الله في الهبة التى رزقكها ، وشفعها بإخوة
متواترين ، يَسْرُونك في حياتك وَيُخْلِفُونَكَ في عَقْبِكَ .

تهنئة بمولود

كتب رجل الى رجل يهنئه بمولود :

جُعِلْتُ فداك . للبقاء مولودك ، في السناء نباته ، وفي الأيمن شبابه ، وعلى البركة ميلاده .

تهنئة بمولود

كتب الحسن بن سهل الى ذى الرياستين :

إنه ليس من نعم الله ، وفوائد قِسْمِهِ — وإن خُصَّ موقعها ووجب شكرها — نعمة تُعَدِّلُ
النعمة في الولد ، لنائها في العدد ، وزيادتها في قوة العضد ، وما يُتَعَجَّلُ به من عظيم بهجتها ،
ويُرْجى من باقى ذكرها في الخُلُوف والأعقاب ، ولاحق بركتها في الدعاء والاستغفار . وإن
الله قد أفادك وأنالكَ غلاما سَرِيّا ، سَمِيْتَهُ فلانا ، فكان ميلاده عند فتح الله على أمير المؤمنين .
فرجوت أن تكون موافاته بالنصر الذى أظهرنا الله به على عدو الدين والمسلمين من دلائل
بركته ويُمْنِهِ ، وشواهد سعادته والسعادة به . فبارك الله لأمر المؤمنين في طارف نعمه
وتالدها ، وشَقَّعَ له قديم منته بحادثها ، ورزقه ذكورا طيبين مهذّبين ، يأنس بهم ربعة ،
ويتصل بهم نجاحه ، ويعملهم ذرية زاكية ، وبقية صالحة .

آخر :

بلغنى الذى وهب الله لك ، فجعله الله ذخرا سنيا ، وعقبا كريما .

عمرو بن مسعدة الى الحسن بن سهل

أما بعد ، فإن هبة الله لك هبة لأمر المؤمنين ، وزيادته إياك فى عدده لمحلك عنده
ومكانك فى دولتك من دولته . وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلاما سريا ، فبارك
الله لك فيه ، وجعله بارزا تقيا ، مباركا سعيدا زكيا .

تهنئة بمولود

الحمد لله الذى رضى منا بيسير القول عند عظيم النعمة ، حمدا نستوجب به بقاء هذه
الموهبة للنماء والفائدة ؛ فإن نعمة الله وإن كانت لم تزل متابعة ، فقد كان ما يقبض الأمل
منا ذكر أفراد الأمير بنفسه وقلة نسله ، وما لا يؤمن من انقطاع الذكر بفوات الأجل ،
ومن دثور الأنام ، بواقع الحما ، وقد أصبحنا من الله من يدين فى فسحة المهل ، ومدته
مواقع الأجل ، لمن أراد فيه موضع أملنا فى حسن الخلافة من الأمير وإحياء ذكره .

تهنئة بمولود

سرورك سرور يحصى منه ما يحصى ، وتلبسى فيه النعمة ما تلبسك ، والحمد لله على
النعمة فيك وعندك .

كتب أحمد بن يوسف الى بعض إخوانه يهنئه بمولود :

أما بعد ، فقد بلغنى من متجدد نعم الله عز وجل عليك ، وإحسانه اليك فيما رزقك
من الهبة ما أشتد جذلى به ، وسألت الله أن يشفعه بأمثاله ؛ ولذلك أقول :
قد شفع الواحد بالوافد * وأرغم الأنف من الحاسد
أبا حسين قر عينا بما * أعطيته من هبة الماجد

قد قلتُ لمّا بشّروني به * بُورك في المولود للوالد
إنّا لنرجو وافداً مثله * والطائر الميمون لا وافد

وله الى بعض إخوانه يهنئه بمولود :

أما بعد ، فإنه ليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورا وفرحا ، إلا كنتُ به بهجاً ، أعتدّ فيه بالنعمة من الله الذي أوجب علىّ من حقّك وعرفني من جميل رأيك . فزادك الله خيراً ، وأدام إحسانه إليك . وقد بلغني أنّ الله وهبَ لك غلاماً سريّاً ، أكمل لك صورته ، وأتمّ خلقه ، وأحسن البلاء فيه عندك ، فاشتدّ سروري بذلك ، وأكثرت حمد الله عليه . فبارك الله فيه ، وجعله باراً تقيّاً ، يَشُدَّ عَضُدَكَ ، وَيُكثِّرُ عَدَدَكَ ، وَيُقِرُّ عَيْنَكَ .

وكتب إسحاق بن يحيى الى بعض إخوانه يهنئه بابنة له :

رُبَّ مَكْرُوهٍِ أَعْقَبَ مَسْرَةً ، ومحبوب أعقب معزّة . وخالقُ المنفعة والمضرة ، أعلم بمواضع الخيرة .

كتب ابن المقفع الى صديق له ولدت له جارية :

بارك الله لك في الإنبسة المستفادة ، وجعلها لكم زينة ، واجرى لكم بها خيراً ، فلا تكرهها ، فإنهنّ الأثمات والأخوات ، والعبات والخالات ، ومنهنّ الباقيات الصالحات ، وربّ غلام ساء أهله بعد مسرتهم ، وربّ جارية فرّحت أهلها بعد مساعتهم .

وكتب عبد الحميد بن يحيى الى أخ له في مولود ولد له وهو أول

مولود كان :

أما بعد ، فإن مما أتعرف من مواهب الله ، نعمة خُصِّصْتُ بِمَزِيَّتِهِ ، وَأَصْطَفَيْتُ بِخُصِّيَّتِهِ ، كانت أسرتي من هبة الله ولداً سمّيته فلاناً ، وأملتُ ببقائه بعدى حياةً وذكرى ، وحُسن خلافتي في حرمتي ، وإشراكه بإيائي في دعائه ، شافعا الى ربه عند خلواته في صلاته وحقّه ، وكلّ موطن من مواطن طاعته ، فإذا نظرتُ الى شخصه تحوّل به وجدى وظهر به

سرورى ، وتعظمت عليه منه أنه الولد ، وتولت عنى به وحشة الوحدة ، فأنا به جَدِل
فى مَغِيبي ومشهدى ، أحوال مسّ جسده بيدى فى الظلم ، وتارة أعانقه وأرشفه ، ليس يعدله
عندى عظيمات الفوائد ، ولا منفسات الرغائب . سترنى به واهبه لى على حين حاجتى ،
فشدّ به أزرى ، وحملنى من شكره فيه ما قد آدنى بثقل حمل النعم السالفة الىّ به ، المقرونة
سراؤها فى العجب بقدر ما يدركنى به من رقة الشفقة عليه ، مخافة مجاذبة المنايا إياه ،
ووجلا من عواطف الأيام عليه . فأسأل الله الذى آمتنّ علينا بحسن صنعه فى الأرحام ،
وتأديته بالزكاء ، وحرسه بالعافية ، أن يرزقنا شكر ما حملنا فيه وفى غيره ، وأن يجعل ما يهب لنا
من سلامته والمدة فى عمره موصولا بالزيادة ، معروفا بالعافية ، محوطا من المكروه ، فإنه
المتان بالمواهب والواهب بالمنى ، لا شريك له . تحملى على الكتاب اليك لعلم ما سررت به
علمى بجالك فيه وشرّك إياى فى كل نعمة أسداها الىّ ولّى النعم . وأهل الشكر أولى
بالمزيد من الله جلّ ذكره . والسلام عليك .

تهنئة بنقلة الى دار جديدة

تناهى الىّ نُقلتك الى الدار التى أرجو أن يجعلها الله نُقلة المكروه عنك ، ونُقلة السرور
اليك ، ودوام نعمة الله عليك . جعلها الله لك أيمن دار وأعظمها بركة ، ووصل نعمه فىنا
عندك ونعمه عندنا فيك .

تهنئة لمحمد بن مكرم الى نصرانى أسلم

أنا أقول الحمد لله الذى وفقك لشكره ، وعرفك هدايته ، فطهر من الارتباب قلبك ،
ومن الإقتراء عليه لسانك . وما زالت مخايلك مُمثلة لنا بحيل ما وهب الله لك ، حتى كأنك لم
تزل بالإسلام مؤسوما ، وإن كنت على غيره مقبيا ، وكنا مؤملين لِمَا صرّت اليه ، مشفقين
لك مما كنت عليه ، واذكاد لإشفاقنا يستعملى رجاءنا ، أتت السعادة بما لم تزل الأنفس
تعد منك . فأسأل الله الذى تورك فى رأيك وأضاء لك سبيل رُشدك ، أن يوفّقك
لصالح العمل ، وأن يؤتيتك فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ويقيك عذاب النار .

باب المنظوم

١ - أبو نواس^(١)

كان أبو نواس ينادم ولد المهدى ويلازمهم فلم يُلَفَّ مع أحدٍ من الناس غيرهم ،
ثم نادى القاسم بن الرشيد ولقى منه أشياء كرهها وكُرِهَتْ له ، ففارقه .

(١) هو أبو علي الحسن بن هاني ، الشاعر المتفنن ، الجاذب الماسج ، صاحب الصيت الطائر ، والشعر السائر ، ورأس المحدثين بعد بشار . وهو فارسي الأصل . ولد بقرية من كورة خوزستان سنة ١٤٥ هـ ونشأ يتيماً فقدمت به أمه البصرة بعد سنتين من مولده ، فتعلم العربية ورغب في الأدب ، فلم تعبأ أمه بحاله وأسلمته الى عطار بالبصرة ، فكثت عنده لا يفتر عن معاناة الشعر والاختلاف الى الأدباء والمجان ، الى أن صادفه عند العطار والبة بن الحباب الشاعر الماسج الكوفي في إحدى قدماته الى البصرة ، فأعجب كل منهما بالآخر ، فأخرجه والبة معه الى الكوفة ، فبقى معه ومع ندمائه من خلعاء الكوفة وتخرج عليهم في الشعر وفاقهم جميعاً . وقدم بغداد وقد أربت سسته على الثلاثين ، فاتصل ببعض الأمراء ومدحهم ، وبلغ خبره الرشيد فأذن له في مدحه ، فدحه بقصائد طنانة وحبسه مرة على هجو مضر .

وكان يقصد بعض عمال الولايات ومدحهم ومنهم الخصب عامل مصر ، ثم انقطع الى مدح محمد الأمين ، وثبت عنده بعض ما يوجب تعزيره فسجنه ، ولم يلبث بعد خروجه من السجن أن مات ببغداد .
وكان أبو نواس جميل الصورة ، فكاهي المخضر ، كثير الدعابة ، حاضر البديهة ، مثينا في اللغة والشعر والأدب ، متعصبا لليمانية على المضرية . وأجمع أكثر علماء الشعر ونقدته وغول الشعراء على أن أبا نواس أشعر المحدثين بعد بشار وأكثرهم تفننا وأرصنهم قولاً وأبدعهم خيالاً مع دقة لفظ وبديع معنى ، وأنه شاعر مطبوع برز في كل فن من فنون الشعر .

وامتاز عن كل الشعراء بقصائده الخمرية ومقطعاته المحبوبات ، وكان شعره لقاح الفساد والقذوة السيئة ، لنقله الغزل من أوصاف المؤنث الى المذكر والخروج بذلك عن مألوف العرب وآدابهم إذ لم يكن ذلك معروفاً قبله وقبل شيطانه والبه . وزاد على ذلك انفرادة بالإبداع في وصف الخمر ، فكان نموذج سوء لمن تأخر ، فافتتن بشعره الشبان في زمانه وبعده وحاكوه وغلب عليهم هذا المذهب حتى صار الشاعر لا يعدد ظريفاً إلا اذا مزج شعره بشيء من ذلك وإن لم يقع في محظوراته .

وصفه عبد الله الجعاف فقال : كان أطراف الناس منطلقاً وأعزهم أدباً ، وأقدرهم على الكلام ، وأسرعهم جواباً ، وأكثرهم حياة ، وكان أبيض اللون ، جميل الوجه ، مليح النعمة والاشارة ، ملتف الأعضاء بين الطويل القصير ، مسنون الوجه ، قائم الأنف ، حسن العينين والمضحك ، حلو الصورة ، لطيف الكف والأطراف ، وكان فصيح اللسان ، جيد البيان ، عذب الألفاظ ، حلو الشئال ، كثير النوادر ، وأعلم الناس كيف تكلمت العرب ، =

ثم جلس أبو نواس الى الناشئ الراوية فقرأ عليه شعر ذى الرمة، فأقبل الناشئ على أبيه هانيء وقال له : إن عاش ابنك هذا وقال الشعر ليقولنه بلسان شتوم .
ثم اتصل بوالبة بن الحباب الأسدي ، لقيه بدار النجاشي الأسدي والى الأهواز
لنصور، فقال له والبة : إني أرى فيك مخايل فلاح، وأرى أنك لا تضيعها، وستقول الشعر
وتعلوفيه، فاصحبنى حتى أخرجك، فقال : ومن أنت؟ قال : أبو أسامة، قال : والبة؟ قال :
نعم، قال : أنا والله جعلت فداك في طلبك، وقد أردت الخروج الى الكوفة والى بغداد من
أجلك، قال : ولماذا؟ قال : شهوة للقاءك ولأبيات سمعتها لك، قال : وما هي؟ فألشده :

ولها ولا ذنب لها * حب كاطراف الزماج
جرحت فؤادي بالهوى * فالقلب مجروح النواحي
سل الخليفة صارماً * هو للفساد وللصلاح
أجداه كف أبي الوليد * يد مبارية الرياح
ألقي بجانب خصره * أمضى من الأجل المتاج
وكأنما ذر الهبا * ء عليه أنفاس الرياح

فمضى معه، ثم سأل أن يخرج الى البادية مع وفد بنى أسد ليتعلم العربية والغريب، فأخرجه
مع قوم منهم، فأقام بالبادية سنة، ثم قدم ففارق والبة ورجع الى بغداد .

وكان أبو نواس متكلماً جيداً راوية خفلاً، رقيق الطبع ثابت الفهم في الكلام اللطيف .

ويدل على معرفته بالكلام أشياء من شعره، منها قوله :

وذات خد مورد * ضيئة المتجرّد
تأمل العين منها * محاسناً ليس تنفد

= راوية للا شعار، علامة بالأخبار، كان كلامه شعر موزون . توفي سنة ١٩٩ هـ . وتجد ترجمته وأخباره
وأشعاره في كتاب خاص باسم « أخبار أبي نواس » لأبن منظور طبع مصر سنة ١٩٢٤ والاغانى (ج ١٨ ص ٢)
(ج ٦ ص ١١٠ ، ١٧٠ ، ١٨٦) و(ج ١٦ ص ١٤٨) وابن خلكان (ج ١ ص ١٣٥) وطبقات
الادباء (ص ٩٦) والشعر والشعراء (ص ٥٠١) والفهرست (ص ١٦٠) والعقد الفريد (ج ٣ ص ٣٣٧) .

فبعضه قد تناهى * وبعضه يتولد
والحسن في كل شيء * منها مُعاد مردّد
ومنها قوله :

يا عاقِدَ القلب عني * هلا تذكّرتَ حلاً
تركتَ غيّي قليلاً * من القليل أقلّ
يكاد لا يتجرّى * أقلّ في اللفظ من لا
ومنها قوله في امرأة أسمها حُسن :

ان اسم حُسن لوجهها صفّة * ولا أرى ذا في غيرها جُمعاً
فهى اذا سُميت فقد وُصفت * فيجمعُ الاسمَ معنيين معاً
ومن قوله فيما يتعلق بالحكمة :

قل لزهير اذا حدا رشداً * أقلّ أو أكثر فانت مهذار
سُخّنت من شدّة البرودة حتى صرت عندى كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفى * كذلك الثلج بارد حار

هذا شيء أخذه أبو نواس من مذهب حكماء الهند، فانهم يقولون : إن الشيء اذا أفرط
في البرودة انقلب حاراً، وقالوا : إن الصنّدل يحكّ منه اليسير فيبرد، فاذا أكثر منه سخّن .

قالوا : كان أبو نواس دعياً يخالط في دعوته . فمن ذلك قوله يهجو عرب البصرة :

ألا كل بصرى يرى أنما العلا * مكّهة سحق لهنّ حرين^(١)
فان تغرسوا نخلاً فان غراسنا * ضراب وطعن في النحور سخين
فان ألك بصرياً فان مهاجرى * دمسق ولكنّ الحديث فنون
بجاور قوم ليس يلى وبينهم * أوأصر إلا دعوة وظنون
اذا مادعا باسمي العريف أحبته * الى دعوة مما على تهون

(١) المكّهة : الفراس الكثيرة . والسحق : الطويلة، يريد النخل . والحرين هنا : موضع تخفيف النمر .

ثم هجا اليمن في هذه القصيدة بقوله :

لأزد عُمان بالمهلب نزوة * اذا أفنخر الأقوام ثم تلين
وبكر ترى أن النبوة أنزلت * على مسمع في الرحم وهو جنين
وقالت تميم لا زرى أن واحدا * كأحنفنا حتى الممات يكون
فما كنت قبسا بعدها في قتيبة * ونفيرا به إن الفخار فنوت
ولما نشأ أبو نواس بالبصرة وليس له بدمشق قبل ولا بعد .

ومما هجا به اليمن أيضا قوله لهاشم بن حديج :

وردنا على هاشم مصره * فبارت تجارتنا عنده

يقول فيها :

رأيتك عند حضور الخوا * ن شديدا على العبد والعبيده
وتحتد حتى يخاف الجليل * س شذاك عليه من الخده
وتختم ذاك بفخر عليه * يكندة فاسلح على كنده
فإن حديجا له هجرة * ولكنها زمن الرده
وما كان إيمانكم بالرسول * سوى قتلكم صهره بعده
تعدونها في مساعيمكم * كعد الأهلّة معتده
وما كان قاتله في الرجال * بجمل لظهر ولا يرشده
فلوشيدته قريش البطا * ح لما ششت نأركم جلده^(١)

وقوله أيضا :

ما منك سلمى ولا أطلها الدرس * ولا نواطق من طير ولا نرس
يا هاشم بن حديج لو عددت أبا * مثل القلمس لم يعلق بك الدنس
لأصبح الملك النعمان وفده * ومن قضاة أسرى عنده حنس

(١) المحش : قشراجلد عن اللحم .

فابتاعهم بإخاء الدهر ما عمروا * فلم ينل مثلها من مثلهم أنس
أورحت مثل حوى في مكارمه * هيات منك حوى حين يلتبس
أو كالسّموم اذ طاف الهام به * في بحفل لحب الأصوات يرتجس
فاختار ثكلاً ولم يفدّر بدمته * اذ قيل أشرف تر الأوداج تدجس
ما زاد ذلك على تيه خيصمت به * وكيف بعديل غير السوء الغرس
وقوله :

يا هاشم بن حديج ليس نفركم * بقتل صهر رسول الله بالسدد
أدرجتم في إهاب العير جنته * فبئس ما قدمت أيديكم لغدد
إن تقتلوا ابن أبي بكر فقد قتلت * حجراً بدارة ملحوي بنو أسد
وطردوكم الى الأجدال من أجأ * طرد النعام اذا ما تاه في البلد
وقد أصاب شراحيل أبو حنيس * يوم الكلاب فما دافعت بيد
ويوم قلتم لزيد وهو يقتلكم * قتل الكلاب لقد أبرحت من ولد
وكل كندية قالت لبحارتها * والدمع ينهل من مثنى ومنفرد
ألهى امرأ القيس تشبيب بغانية * عن ثاره وصفات النوء والوتد

وقد رنى أبو نواس خلفاً الأحمر بعد موته بقصائد من شعره، منها قصيدته التي أولها
قوله :

لو كان حي واللاً من التلّف ^(١) * لو ألت شغواء في أعلى شعف
أم فريخ أحرزته في بلّف ^(٢) * مرغب الألفاد لم يا كل بكف
كانه مستقعد من الخرف * هاتيك أو عصماء في أعلى شرف
تروغ في الطباق والتزع ^(٣) الألف * أودى جماع العلم مذ أودى خلف

(١) واللاً : ناجيا . ورألت : بلغت . والشغواء : العقاب . والشعف : روس الجبال .

(٢) اللّف : الغار في الجبل . ومرغب : صار ذا رغب، والرغب صغار الريش . والألفاد جمع للذ بالضم

وهو لمة في الحلق . (٣) الطباق والتزع : نوطان من الشجر .

من لا يَعُدَّ العَلَمَ إلا ما عَرَفَ * قَلِيلٌ مِّنَ الْعَالِمِ الْخُسُفِ^(١)
كَمَا مَتَى نَشَأُ مِنْهُ نَعْتَرِفُ * رَوَايَةٌ لَا تُجَنِّى مِنَ الصَّحْفِ
ومنها قوله يرثيه :

لَا تَقُلْ الْعَصْمُ فِي الْمَضَابِ وَلَا * شَفَوَاءُ تَغْدُو فَرْخَيْنِ فِي بَلَحِ
يَكْنُهَا الْجَوُّ فِي النَّهَارِ وَيُؤْ * وَيَا سَوَادُ الدُّجَى إِلَى شَرَفِ
تَحْنُو بِجُوشُوشِهَا عَلَى ضَيْرِمِ^(٢) * كَقَعْدَةِ الْمُنْحَنِ مِنَ الْخَرَفِ
وَلَا شَبُوبَ بَاتَتْ تَوَرَّقُهُ النَّثْرَةُ^(٣) مِنْهَا بِوَابِلِ قِصْفِ
دَائٍ عَلَى الْأَرْضِ وَالْوَصِيدِ وَفِي * بَهْوِ أَمِينِ الْإِبَادِ ذِي هَدَفِ^(٤)
دِيدْنُهُ ذَاكَ طَوَّلَ لَيْلَتِهِ * حَتَّى إِذَا أَنْجَابَ حَاجِبُ السَّدَفِ
غَدَا كَوَقْفِ الْمَلُوكِ يَنْهَفُ^(٥) الْقِطْقُطُ مِنْ مَنِيَّتِهِ وَالْكَتِيفِ
كَأَنَّ شَذْرًا وَهَتْ مَعَاقِدُهُ * بَيْنَ صَلَاةِ فَلَعَبِ الشَّيْفِ
وَأَخْدَرَى صُلْبِ النَّوَاهِقِ صَلَاصَالِ أَمِينِ الْقُصُوصِ وَالْوُطْفِ
مَنْفَرْدٍ فِي الْفَلَاةِ تُوسِعُهُ * رِيًّا وَمَا يَحْتَلِيهِ مِنْ عَلَفِ
مَا تَرَكَ الْمَوْتَ مِنْ أَوْلَى شَبَحًا * بَادَتْ بِتِلْكَ الْقِلَالِ وَالشَّعَفِ
لَمَّا رَأَيْتُ الْمَنُوسَ آخِذَةً * كُلَّ شَدِيدٍ وَكُلَّ ذِي ضَعْفِ
بَتْ أُعْزَى الْفَرَادِ عَنْ خَلْفِ * وَبَاتَ دَمْعِي إِلَّا يَفِضُ يَكِيفِ
أَنْسَى الرِّزَايَا مَيِّتٌ جُمِعَتْ بِهِ * أَمْسَى رَهِينَ التُّرَابِ فِي جَدَفِ

(١) القليل : البئر الغزيرة . والعالم : جمع عيلم وهو البئر الكثيرة الماء . والخسف جمع خسف ينفث
وهو البئر التي حفرت في حجارة فنبع منها ماء غزير لا ينقطع . (٢) الجوشوش : الصدر . والضم :
فرخ العقاب . (٣) الشوب : الشاب من الثيران والغنم . والنثرة : منزلة من منازل القمر .
(٤) الوصيد : بيت كالحظيرة يتخذ من الحجارة لئلا أى الغنم وغيرها في الجبال . والإباد : التراب يجعل حول
الحوض أو انجباء يقوى به أو يمنع ماء المطر . والهدف : كل مرتفع من بناء أو كتيب رمل أو جبل .
(٥) ينهف : يتساقط ويخفف . والقطقط : المطر الصغير أو المتتابع العظيم القطر وقيل هو دون الرذاذ وقيل
البرد أو صفاره .

كَانَ يُسَمِّنِي بِرَفْقِهِ غُلَقًا ^(١) * فِي غَيْرِ عِيٍّ مِنْهُ وَلَا عُنْفٍ
يَجُوبُ عَنْكَ الَّتِي غُشِيَتْ بِهَا * مِنْ قَبْلُ حَتَّى يَشْفِيكَ فِي لَطْفٍ
لَا يَهْمُ الْحَاءَ فِي الْقِرَاءَةِ بِالْخَا * وَلَا لَامَهَا مَعَ الْأَلْفِ
وَلَا يُعَمِّي مَعْنَى الْكَلَامِ وَلَا * يَكُونُ لِإِنْشَادِهِ عَنِ الصُّحُفِ
وَكَانَ مِمَّنْ مَضَى لَنَا خَلْفًا * فَلَيْسَ مِنْهُ إِذْ بَانَ مِنْ خَلْفٍ

واختلف أبو نواس الى أبي زيد فكتب الغريب من الألفاظ ، ثم نظر في نحو سيبويه ،
ثم طلب الحديث فكتب عن عبد الواحد بن زياد ويحيى القطان وأزهر السَّمان وغيرهم ،
فلم يتخلف عن أحد منهم ، وأدرك الناس فعلم ، ثم قدم بغداد بعد ذلك .

وكان أيضا يتنَزَّرُ ويدعى للفرزدق ، ثم وقع بينه وبين الحكم بن قنبر المازني ، فهجاه
الحكم وذكر برية العود وبغى عليه ونكبه . ولما قال أبو نواس قصيدته التي يهجو بها
خنيدف ، وهى :

أَلَمْ تَرَبِّعْ عَلَى الطَّلَلِ الطَّاسِ * عَفَاهُ كُلُّ اسْمٍ ذِي ارْتِجَاسِ ^(٢)
وَذَارَى التُّرْبِ مُرْتِكِمٍ حَصَاهُ * نَسِيجِ الْمِيثِ مِعْتَقَةِ الدَّهَاسِ ^(٣)
سَوَى سَفْعٍ أَعَارَتْهَا اللَّيَالَى * سَوَادَ اللَّيْلِ مِنْ بَعْدِ آغْبَاسِ ^(٤)
وَأُورِقِ حَالِفِ الْمُشَاوَةِ هَابِ * كَضَاوَى الْفِرَاحِ مِنَ الْهَلَاسِ ^(٥)
مَنَازِلُ مِنْ عُفَيْرَةٍ أَوْ سُلَيْمَى * أَوْ الدِّهْمَاءِ أَخِيَتْ بَنَى الْجِمَاسِ
كَأَنَّ مَعَاقِدَ الْأَوْضَاحِ مِنْهَا * بِبَيْعِيدٍ أَغْنَى تَوْمَ فِي الْيَكَّاسِ
وَتَبَسُّمٍ عَنْ أَغْرَ كَأَنَّ فِيهِ * مُجَاجَ سُلَافَةٍ مِنْ بَيْتِ رَاسِ ^(٦)
فَنَ ذَا مَبْلَغٍ عَمْرًا رَسُولًا * فَقَدْ ذَكَّرْتُ وَدَّكَ غَيْرَ نَاسِ

(١) سناه تسنية : سهله وفتحته . (٢) طاس بالكسر : دارس . والأسم : السحاب . والارتجاس :
الرمد . (٣) المعتقة : حبل في الرمل . (٤) الاغباس : بياض فيه كدرة . والسفع : يريد بها الأثافي . (٥) الهلاس : الضمور وهاب :
لونه لون الهباء . (٦) بلدة بالشام تنسب اليها النجر .

فلم أهُجُرْكَ هَجْرَ قَلِيٍّ وَلَكِنْ * نَوَائِبُ لَا تَزَالُ لَهَا تُقَاسِي
 نَوَائِبُ تَعِجْزُ الْأَدْبَاءُ عَنْهَا * وَيَعْيَا دُونَهَا اللَّيْنُ النَّطَاسِي
 وَقَدْ نَافَتْ عَنْ أَحْسَابِ قَوْمٍ * هُمْ وَرَثُوا مَكَارِمَ ذِي نُوَّاسٍ
 فَإِنْ تَكُ أَوْقَدْتَ لِلْحَرْبِ نَارُ * فَمَا غَطَّيْتُ خَوْفَ الْحَرْبِ رَاسِي
 سَابِلِي خَيْرَ مَا أَبْلَى مُحَارِمٍ * إِذَا مَا النَّبْلُ أُلْجِمَ بِالْقِيَاسِ^(١)
 وَتَمَّتْ الْوَائِلِينَ بِفَاقِرَاتٍ * بَهَنَ وَسَمَتْ رَهْطُ أَبِي فِرَاسٍ
 وَقَالَتْ كَاهِلٌ وَبَنُو قُعَيْنٍ * حَنَانِكَ إِنَّمَا لَسْنَا بِنَاسٍ
 فَمَا بَالُ النَّعَاجِ تَفَّتْ بِشَتْمِي * وَفِي زَمَعَاتِهِنَّ دُمُ الْفِرَاسِ
 وَمَا حَامَتْ عَنِ الْأَحْسَابِ إِلَّا * لَتَرْفَعَ ذِكْرَهَا بِأَبِي نُوَّاسٍ

عارضه الحكم وهجاه ، فانقلب على الترابية وأدعى أنه من حاء وحكم ؛ فزجره يزيد بن منصور الحميريّ خال المهدي وقال له : أنت خوزي ، فمالك ولحاء وحكم ! فقال له : أنا مولّي لهم ، فتركوه ، وقال بعضهم لبعض : إنه لظريف اللسان غزير العلوم فدعوه ، وبهذا الولاء يتعصب لنا ويكابد عنا ويهجو الترابية ؛ فكان كما قالوا وكما ظنوا ، فانقلب الى اليمن ومَدَل عن كنيته بأبي فراس واكتنى بأبي نوّاس ، تشبهاً بكنية ذِي نُوَّاسٍ كما كانت اليمن تكني ، وندم على هجاء ايمن ، ووجدتهم له أنصر ولدعوته أقبل ، فاعتذر الى هاشم بن حُديج الكندي من هجائه ، ومَدَحَ اليمن فقال :

أَهَاشِمُ خَذْ مِنِّْي رِضَاكَ وَإِنْ أَتَى * رِضَاكَ عَلَى نَفْسِي فَغَيْرُ مُلُومٍ
 فَأَقْسَمُ مَا جَاوَزْتُ بِالشِّتْمِ وَالِدِي * وَعِرضِي وَمَا مَزَقْتُ غَيْرَ أَدِيمِي
 فَعُدْتُ بِحَقْوِي هَاشِمٍ فَأَعَاذَنِي * كَرِيمٌ أَرَاهُ فَوْقَ كُلِّ كَرِيمٍ
 وَإِنْ أَمْرًا أَغْضَى عَلَى مِثْلِ زَاتِي * وَإِنْ جَرَحْتُ فِيهِ لِحْدُ حَلِيمٍ
 تَطَاوَلَ فَوْقَ النَّاسِ حَتَّى كَأَنَّمَا * يَرُونَ بِهِ نَجْمًا أَمَامَ نُجُومِ

إذا أمتازت الأحسابُ يوماً بأهلها * أناخ إلى عاديةٍ وصميم
إلى كلِّ معصوبٍ به التاجُ مَقَوٍ * إليه أيادي عامرٍ وتميم

وكان قبل أن ينتهي لليمن ويدعى لزاريتعاجم في شعره، فمن ذلك قوله :

فاسقنيها وغرَّ صَو * تَاءَ لك الخيرُ، أعجبا
ليس في نعتِ دُنيةٍ * لا ولا زَجَرِ أشأما

وكان الجاحظ يقول : ما أعرف لأبي نواس شعرا يفضل هذه القصيدة وهي :

ودارِ ندائى عطلوها وأدبلحوا * بها أثرُ منهم جديدٌ ودارسُ
مَسَاحِبُ من جرَّ الرِّقاقِ على التَّرى * وأضغاثُ ريحانٍ جنىً ويابسُ
حبستُ بها صحبي فجددتُ عهدهم * ولأنى على أمثال تلك الحابسُ
ولم أدر منهم غير ما شهدت به * بشرقى ساباطٍ الديارُ البسابسُ
أقننا بها يوماً ويوماً وثالثاً * ويوماً له يومُ الترحلِ خامسُ
تُدار علينا الراحُ في عَسجديةٍ * حَبَّتْها بأنواعِ التَّصاويرِ فارسُ
قَرَّارُها كَسَرى وفي جَنابِها * مَهَّأَ "لَرِيها بالقِسي" الفوارسُ
فَلَحْخَمَ ما زُرَّت عليه جُيوبُها * وللاء ما دارت عليه القلائسُ^(١)

وقوله يصف كرامة وعبر عنها بالهجمة وهو يريد الدنان :

لنا هجمةٌ لا يُدرك الذئبُ سَعْلَها * ولا راعها نزو الفحالة والخطر
إذا امتحنَت ألوانُها مالَ صفوها * إلى النكتِ إلا أن أوبارها خُضرُ
وإن قام فيها الخالبون اتَّقَتهم * بنجلاء ثقب الجوفِ دَرَّتْها النُجُرُ
مَسارحها الغربى من نهر صرصر * فَنُقْطِرُ بُلَّ فالصالحيةُ فالعَمُرُ

(١) يعني أن الخمر مصبوب فيها إلى خلوق الصور صرفاً . وقوله : وللاء ، يعني أنهم صبروا الماء في مزجها حتى

علا روسها .

ثُرْتُ أَبِي سَاسَانَ كَسْرِي وَلَمْ تَكُنْ * مَوَارِيثَ مَا أَبْقَتْ تَمِيمٌ وَلَا بَكْرُ
قَصَرْتُ بِهَا لَيْلِي وَلَيْلَ ابْنِ حُرَّةٍ * لَهُ حَسْبُ زَالِكٍ وَلَيْسَ لَهُ وَفَرُ

وَفِي تَعَاظِمِ أَبِي نَوَاسٍ فِي شَعْرِهِ يَقُولُ الرَّقَاشِيُّ يَهْجُوهُ :

نَبَطِيٌّ فَإِذَا قِيلَ لَهُ * أَنْتَ مَوْلَى حَكَمٍ قَالَ أَجَلُ
هُوَ مَوْلَى اللَّهِ إِذَا كَانَ بِهِ * لِاحِقًا فَاللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُ
وَأَضْعَا نَسَبَتَهُ حَيْثُ اشْتَمَى * فَإِذَا مَا رَأَاهُ رَبُّ رَحَلُ

فَقَالَ أَبُو نَوَاسٍ يَهْجُوهُ :

هَجُوتُ الْفَضْلَ دَهْرِيٌّ وَهُوَ عِنْدِي * رَقَاشِيٌّ كَمَا زَعَمَ الْمَسْئُولُ
فَلَمَّا سُئِلْتُ عَنْهُ رَقَاشٌ * لَنَعْلَمَ مَا تَقُولُ وَمَا يَقُولُ
وَلَمَّا أَنْ نَصَّصْنَاهُ إِلَيْهَا * لَنَعْلَمَ مَا يُقَالُ وَمَا نَقُولُ
وَجَدْنَا الْفَضْلَ أَبْعَدَ مِنْ رَقَاشٍ * مِنَ الْأَثْنِ آدَعَتْ فِيهَا الْفَيْسُولُ
وَجَدْنَا الْفَضْلَ أَكْرَمَ مِنْ رَقَاشٍ * لِأَنَّ الْفَضْلَ مَوْلَاهُ الرَّسُولُ
يُرِيدُ بِذَلِكَ قَوْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَنَا مَوْلَى مَنْ لَا مَوْلَى لَهُ» .

وَقَالَ أَيْضًا يَهْجُوهُ :

قُلْ لِلرَّقَاشِيِّ إِذَا جُمْتُهُ * لَوْ مَتَّ يَا أَحْمَقُ لَمْ أَهْجُكَ
لَأَتْنِي أَكْرِمُ عَرْضِي وَلَا * أَقْرُنُهُ يَوْمًا إِلَى عِرْضِكَ
إِنْ تَهْجُنِي تَهْجُ فَقِي مَا جَدَا * لَا يَرْفَعُ الطَّرْفُ إِلَى مِثْلِكَ
دُونَكَ عِرْضِي فَاهْجُهِ رَاشِدًا * لَا تَدْنُسُ الْأَعْرَاضُ مِنْ هَجْوِكَ
وَاللَّهُ لَوْ كُنْتُ جَرِيرًا لَمَّا * كُنْتُ بِأَهْيَ لَكَ مِنْ أَصْلِكَ

وَقَالَ أَيْضًا يَهْجُوهُ :

يَا عَرَبِيَّاهُ مِنَ صَنِيعَةِ السُّوقِ * وَصَنِيعَةُ السُّوقِ ذَاتُ تَشْقِيقِ
مَا رَأَيْتُكُمْ يَنْزَارُ فِي رَجُلٍ * يَدْخُلُ فِيكُمْ مِنْ خَلْقِ مَخْلُوقِ

ويحمل الوطْبَ والعَلَابَ ولا * يصالح إلا لحمل إبريق
لقد ضربنا بالطبل أنك في السَّقوم صحیح وصيَح في البوق
قد أخذ الله من رَقَاش على * تركهم المجد بالمواثيق
فالناس يسعون للعلا قُدَمَا * وهم وراء مكسرو السُّوق
هذا كذا كم وفي الهياج اذا * هيج فما شئت من بواشيق^(١)

وقال أيضا يهجو :

أصبح الفضلُ ظاهرَ التَّيه * وذاك مذ صرتُ أهاجيه
لله شعري، أي مفوَاهيه * لكل من دوني قوافيه
كم بين فضل منذ هاجيته * وبلنته قبل أهاجيه
فالحمد لله وإن كنتُ لم * أحفل بقوم نصّحوا فيه
رضيت أن يشتمني ساقط * شسعي خير من مواليه

وكان أبو نواس في دعاويه يتماجن ويعبت ويخفى نسبه واسم أمه لئلا يهجي ، وذلك مشهور عنه . ولو غضب هو نفسه على أبيه لهجاه ولم يتحشم . والمذكور من أمره أنه كان مولى الحكميين ، يفتخر بآبائهم ويمدحهم لذلك ، ويمدح العجم ويذكرهم لأنه منهم ، فلذلك قال في العجم ما قال .

قال أبو الفرج الأصفهاني : كان أبو عبيدة يقول : ذهب اليمنُ بجيد الشعر وهزله : امرؤ القيس بجده ، وأبو نواس بهزله . وكان يقول : ذهب اليمنُ بجيد الشعر في قديمه وحديثه : امرؤ القيس في الأوائل ، وأبو نواس في المحدثين . وكان يقول : شعراء اليمن ثلاثة : امرؤ القيس وحسان بن ثابت وأبو نواس . وقال أيضا : أبو نواس في المحدثين مثل امرئ القيس في المتقدمين ، فتح لهم هذه الفطن ودلهم على المعاني وأرشدهم إلى طريق الأدب والتصرف في فنونه . وكان يقول : يعجبني من شعر أبي نواس قوله :

(١) جمع باشق وهو اسم طائر، أعجمي معرب .

بَنَيْنَا عَلَى كَسْرَى سَمَاءَ مُدَامَةٍ * مَكَلَّلَةً حَافِئُهَا بِنَجُومٍ
فَلَوْرَدٌ فِي كَسْرَى بْنِ سَاسَانَ رُوحَهُ * إِذَا لِأَصْطَفَانِي دُونَ كُلِّ نَدِيمٍ

وسئل يعقوب بن السكيت عما يختار روايته من أشعار الشعراء، فقال: إذا أردت من الجاهليين فالمرء القيس والأعشى، ومن الإسلاميين فلجربير والفرزدق، ومن المحدثين فلا أبي نواس فحسب. وقيل: للعتبي من أشعر الناس؟ قال: عند الناس أم عندي؟ قيل عند الناس؟ قال: امرؤ القيس؛ قيل: فعندك؟ قال: أبو نواس.

وقال عبد الله بن محمد بن عائشة: من طلب الأدب فلم ير شوعر أبي نواس فليس بتأم الأدب. وسئل: من أشعر المحدثين؟ فقال: الذي يقول:

كَأَنَّ ثِيَابَهُ أَطْلَعَتْ * مِنْ مَنْ أَرْزَارُهُ قَرَأَ
يَزِيدُكَ وَجْهَهُ حَسَنًا * إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظْرًا
بَعِينَ خَاطِطِ التَّفْتِي * رُ مِنْ أَجْفَانِهَا الْحَوْرَا
وَوَجْهٍ سَائِرٍ لَوْ * تَصَوَّبَ مَأْوَهِ قَطْرَا
وَقَدْ خَطَّتْ حَوَاضَتُهُ * لَهُ مِنْ عَنَبٍ طُرَرَا

وقال إبراهيم بن العباس الطويل: إذا رأيت الرجل يحفظ شعر أبي نواس علمت أن ذلك عنوان أدبه ورائد ظرفه.

وكان أبو نواس يقول عن نفسه: سَفَلْتُ عَنْ طَبَقَةٍ مِنْ تَقَدَّمَنِي مِنَ الشُّعْرَاءِ وَعَلَوْتُ عَنْ طَبَقَةٍ مَعِيَ وَمِنْ يَحْيَى بَعْدِي، فَأَنَا نَسِيحٌ وَحْدِي.
وحدث جماعة من الرواة ممن شاهدوا نواس قالوا: كان أقل ما في أبي نواس قول الشعر، وكان فلا راوية عالم.

وقال أبو عبيدة: بلغني أن أبا نواس يتعاطى قُرْصَ الشعر فتلقاني وهو سكران ماطر شاربه بعد، فقلت له: كيف فلان عندك؟ فقال: ثقيل الظل، جامد النسيم؛ فقلت: زد؛ فقال: مظلم الهواء؛ منتن الفناء؛ فقلت: زد؛ فقال: غليظ الطبع، بارد الشكل؛

قلت : زد ، فقال : وَخَمِ الطَّلْعَةَ بِعَصِيرِ الْقَلْعَةِ ؛ قلت : زد ، قال : نَأَى الْجَنَابَاتِ ، بارد الحركات ؛ قال : نَخَفَقْتُ عَنْهُ ؛ فقال : زدنى سؤالاً ؛ أزدك جواباً ؛ فقلت : « كفى من القلادة ما أحاط بالعنق » .

وقال سليمان بن أبي سَهْلٍ لأبي نواس : ما الذى استجيد من أجناس شعرك ؟ فقال : أشعارى فى الخمر لم يُقَلْ مثُلُها ، وأشعارى فى الغزل فوق أشعار الناس ، وهما أجود شعرى إن لم يراحم غزلى ما قلته فى الطرد .

وكان يقول : ما قلت الشعر حتى رَوَيْتُ لستين امرأة من العرب منهن الخنساء وليلى ، فما ظنك بالرجال ؟ وانى لأروى سبعائة أرجوزة ما تُعرف .

وكان قد استأذن خَلْفًا فى نظم الشعر ، فقال : لا آذَنُ لك فى عمل الشعر إلا أن تحفظ ألف مقطوع للعرب ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة ؛ فغاب عنه مدة وحضر إليه فقال له : قد حفظتها ؛ فقال : أنشدّها ، فأنشده أكثرها فى عدة أيام ، ثم سأله أن يأذن له فى نظم الشعر ، فقال له : لا آذَنُ لك إلا أن تنسى هذه الألف أرجوزة كأنك لم تحفظها ، فقال له : هذا أمر يصعب علىّ فإنى قد أتقنت حفظها ، فقال له : لا آذن لك إلا أن تنساها ، فذهب الى بعض الديرة وخلا بنفسه وأقام مدة حتى نسيها ، ثم حضر فقال : قد نسيتها حتى كأن لم أكن قد حفظتها قط ؛ فقال له : الان فانظم الشعر .

وكان أبو نواس يقول : لا أكاد أقول شعراً جيداً حتى تكون نفسى طيبة ، وأكون فى بستان موزق ، وعلى حال ارتضيها من صلة أوصل بها أو وعد بصلة ، وقد قلت وأنا على غير هذه الحال أشعاراً لا أرضاها . وكان يعمل القصيدة ثم يتركها أياماً ، ثم يعرضها على نفسه فيسقط كثيراً منها ويترك صافيها ، ولا يسره كل ما يقذف به خاطره . وكان يهمله الشعر فى الخمر فلا يعملهُ إلا فى وقت نشاطه . ولم يكن فى الشعر بالبطيء ولا بالسريع بل كان فى منزلة وَسْطَى .

وكان الأصمعي يقول : يعجبني من شعر الشاعر بيتٌ واحد قد أجاد قائله وهو :
 ضعيفَةٌ كَرَّ الطَّرْفُ تَحَسَّبَ أَنَهَا * قَرِيْبَةٌ عَهْدُ الْإِفاقةِ مِنْ سُقْمِ
 وَإِنِّي لَأَتِي الْأَمْرَ مِنْ حَيْثُ يُتَّقَى * وَيَعْلَمُ سَهْمِي حِينَ أَنْزِعَ مَنْ أَرَى
 قال العنابي لرجلين تناظرا في شعر أبي نواس : والله لو أدرك الخبيثُ الجاهليةَ ما فُضِّلَ
 عليه أحد .

وقال أبو عمرو الشيباني : أشعرُ الناس في وصف النمر ثلاثة : الأعشى والأخطل
 وأبو نُوَّاس .

قال محمد بن عمر : لم يكن شاعرٌ في عصر أبي نواس إلا وهو يحسده لميل الناس إليه
 وشهورتهم لمعاشرته ، وبعْدَ صَبِيْتهِ وَطَرَفِ لِسَانِهِ .

وقال أبو حاتم : سئل أبو نواس عن شعره فقال : إذا أردتُ أن أجِدَّ ، قلتُ مثل
 قصيدى « أَيُّهَا الْمَتَابُ عَنْ عُفْرِهْ » ، وإذا أردت العيثَ قلتُ مثل قصيدى : « طاب
 الهوى لعميده » ، فأما الذى أنا فيه وحدى وكلُّه جيْدٌ فاذا وصفت النمر .

وقال أبو ذُكْوَانَ : كما عند التَّوْزِيّ فذكرتُ عنده أبا نواس ، فوضع منه بعضُ
 الحاضرين ؛ فقال له التَّوْزِيّ : أتقول هذا لرجل يقول :

يَخَافُهُ النَّاسُ وَيَرْجُوْنَهُ * كَأَنَّهُ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ

ويقول :

فَمَا جَاذَهُ جَوْدٌ وَلَا حَلَّ دَوْنَهُ * وَلَكِنْ يَصْبِرُ الْجَوْدُ حَيْثُ يَصْبِرُ

ويقول :

فَتَمَشَّتْ فِي مَقَاصِلِهِمْ * كَتَمَشَّى الْبُرِّ فِي السَّقَمِ

قال ابن الأعرابي يوما جلسائه : ما أشعرُ ما قال أبو نواس في النمر؟ فقال بعضهم :

إِذَا عَبَّ فِيهَا شَارِبُ الْقَوْمِ خَلَّتْ * يُقْبَلُ فِي دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ كَوَكَا

وقال آخر :

كأن كُبْرَى وصُغْرَى من فَقَاقِعِهَا * حصباءُ دُرٍّ على أرضٍ من الذَّهَبِ

وقال آخر :

تَرَى حيث ما كانت من البيت مَشْرِقًا * وما لم تكن فيه من البيت مَغْرِبًا

وقال آخر :

فكَأَنَّ الكَوْسَ فِينَا نَجْمٌ * دَائِرَاتُ بَرُوجِهَا أَيْدِينَا

وقال آخر :

صفراءُ لا تنزلُ الاَحْزَانُ سَاحَتَهَا * لو مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاءُ

فقال ابن الأعرابي : إن هذا كله لشاعر أنفرد بالإحسان فيه ، وتقدم من سبقه ومن تأخر عنه ، ولكنه أشعر من هذا كله في قوله :

لا يَنْزِلُ اللَّيْلُ حيث حَلَّتْ * فَدَهْرُ شُرَاهِبِهَا نَهَارُ

قال مسلم بن بهرام : لَقِيتُ أبا العَتَاهِيَةَ فقالت له : من أشعر الناس ؟ قال : تريد

جاهليًّا أو إسلاميًّا أو مولدها ؟ قال : كُلُّا أريد ، قال : الذي يقول في المديح :

إذا نحن أَثْنِينَا عليك بِصَاحٍ * فأنت كما نُثْنِي وفوق الذي نُثْنِي

وإن جَرَّتِ الألفاظُ يومًا بِمَدْحَةٍ * لغيرك إنسانًا فأنت الذي نَعْنِي

والذي يقول في الزهد :

ألا ربَّ وجهٍ في التُّرابِ عَتِيقٍ * وياربَّ حُسْنٍ في التُّرابِ رَقِيقٍ

وياربَّ حَرَمٍ في التُّرابِ وَتَجْدِيدٍ * وياربَّ رأيٍ في التُّرابِ وَثِيقٍ

فقل لقريب الدار إنك رَاحِلٌ * إلى منزِلٍ نالِي المَحَلِّ سَحيقٍ

وما النَّاسُ إلا هَالِكٌ وابنُ هَالِكٍ * وذُو نَسَبٍ في الهَالِكِينَ عَرِيقٍ

إذا امتحن الدنيا لَيْبٌ تَكْشِفُ * له عن عَدُوٍّ ثِيَابَ صَدِيقٍ

وكان يقول : سبقني أبو نواس الى ثلاثة أبيات وددتُ انى سبقته اليها بكل ما قاتسه
فإنه أشعر الناس فيها ، منها قوله :

يا كبير الذنب عفو الله * من ذنبك أكبر

وقوله :

من لم يكن لله متبهما * لم يُيس محتاجا الى أحد

وقوله :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت * له عن عدو في ثياب صديق

ثم قال : قلت فى الزهد ستة عشر ألف بيت وددتُ أن أبا نواس له ثلثها بهذه الأبيات .

وقال الجاحظ : سمعت النّظام يقول ، وقد أنشد شعراً لأبى نواس : كأن هذا الفقى
جُمع له الكلام فاختار أحسنه . وقال بعضهم : كأن المعانى حُبست عليه ، فأخذ حاجته
وفترق الباقي على الناس . وقال أبو حاتم : كانت المعانى مدفونة حتى أثارها أبو نواس .

حدث الحسين بن الحبيب الكاتب ، قال : قال أحمد بن يوسف الكاتب : كنتُ
أنا وعبدُ الله بن طاهر عند المأمون ، وهو مستلق على قفاه ، فقال لعبد الله بن طاهر :
يا أبا العباس ، مَنْ أشعر مَنْ قال الشعر فى خلافة بنى هاشم ؟ فقال : أمير المؤمنين أعرِفُ
بهذا وأعلى عينا ، فقال له المأمون : على ذلك قَفَلْ ، تكلم أنت يا أحمد بن يوسف ،
فقال عبد الله بن طاهر : أشعرهم الذى يقول :

ويا قبرٍ معين كنت أول حُفرة * من الأرض خُطت للسّاحة منزلا

قال أحمد بن يوسف الكاتب : فقات : بل أشعرهم الذى يقول :
أشبهت أعدائى فصرْتُ أحيهم * إذ كان حظى منك حظى منهم

فقال المأمون : يا أحمد أبيت إلا غزلا ! أين أنتم عن الذى يقول :

يا شقيق النفس من حَكَم * نمت عن ليلٍ ولم أتم

فقلنا : صدقت يا أمير المؤمنين .

وكان المأمون يقول : لو سُئِلت الدنيا عن نفسها فنطقت ، لما وصفت نفسها
كما وصفها أبو نواس في قوله :

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تَكشَّفَتْ * له عن عدوٍّ في ثياب صديق
وَرَدَ على العتَابِ بِحَلَبِ عِدَّةٍ من البِكار من أهل قَنَسرين ، فدخلوا وسَلَمُوا ، وكان في يده
رُقعة ينظر إليها ، فقال لهم : لقد سَأَلَكَ صاحبُ هذه الرُقعة وادياً ما سَلَكَه أحدٌ قبله ؛
فنظروا فإذا هو شعر أبي نواس في جَنانِ جارية آل عبد الوهَّاب النقفى ، وهو قوله :
رَبْعُ الكَرَى بين الجفونِ مُجْمِلٌ * عَفَى عليه بُكْيٌ عليك طويلٌ
يا ناظراً ما أَقْلَعْتُ لخطأه * حتى تَشْحَطَ بينهن قَتِيلٌ
أَحْلَلْتُ قَلِي من هـوَاكِ مَحِلَّةً * ما حَلَّها المشروبُ والمأكولُ
بكمالِ صورتك التي من دونها * يتخيَّرُ التشبيهُ والتَّمثِيلُ
فوقَ القصيرةِ والقصيرةِ فوقها * دون السَّمينِ ودونها المهزولُ

ومما أُنشده العتابي لأبي نواس فقال أحسن وأجاد :

متأيهٌ بِجِماله صَليفٌ * لا يَسْتَطاعُ كَلَامُهُ تِيهاً
للحسنِ في وَجَناته يَدْعُ * ما إن يَمَلُّ الدرسَ قاريها
لو كانت الأشياءُ تعقله * أَجَلَلَنَّهُ إِجْلالَ باريها
لو تَسْتَطيعُ الأرضُ لَأَتَقَبَضَتْ * حتى يصيرَ جميعه فيها

وقوله :

إن السحابَ لتستحي إذا نظرتُ * إلى نَدائك فقااسته بما فيها
حتى تَهْمَ بِإِقْلاعِ فيمنعها * خوفاً من السُّخْطِ من إِجْلالِ منشيا

قال محمد بن صالح بن يَهِيس الكلابي : لما دخلتُ العراقَ صرْتُ الى مدينة السلام
فسألت عَمَّن بها من الشعراء المحسنين ، وذلك في أيام خلافة الأمين أو عند موته قبل
دخول المأمون بيسير ، فقلت لى : قد غلب عليهم فتى من أهل البصرة يقال له الحسن

ابن هاني ويعرف بأبي نواس ، وقد كنت سمعتُ شيئاً من شعره ، فأتاني فتي كان من أهل
الأدب ، فقلت له : هل تروى لأبي نواسكم هذا شيئاً؟ قال : أروى له أبياتا في الزهد
وليس هو من طريقته ، فقلت أنشدنيها ، فأنشدني :

أخى ما بال قلبك ليس ينقى * كأنك لا تظن الموت حقا
ألا يا بن الذين فنوا وبادوا * أما والله ما ذهبوا لتبقى
وما للنفس عندك من مقام * إذا ما استكملت أجلا ورزقا
وما أحدٌ بذاك منك أحظى * ولا أحدٌ بذنبك منك أشقى
ولا لك غير تقوى الله زاد * إذا جعلت إلى اللهوات ترقى

فقلت له : أحسن والله ! قال : أفلا أنشدك أحسن من هذا؟ قلت بلى ، فأنشدني
في رثاء محمد الأمين :

طوى الموت ما بيني وبين محمد * وليس لما تطوى المنيّة ناسرُ
فلا وصل إلا عبرة تستديمها * أحاديث نفيس ما لها الدهر ذاكرُ
لئن عمّرت دور بن لا أودّه * لقد عمّرت من أحب المقابرُ
وكنّت عليه أحذر الموت وحده * فلم يبق لي شيءٌ عليه أحاذرُ

فقال : بحق ما غلب هذا على أهل الأدب وقدّموه على غيره .

قال محمد بن جعفر الأصم : كنا عند أبي نُعيم ، فتذاكرنا قول عائشة أم المؤمنين
رضي الله عنها حين ذكرت شعركي يدري أخاه أربد :

ذهب الذين يعاش في أكافهم * وبقيت في خلف بكلد الأجر

ولقد أنشدني أبو نعيم أبياتا ، قلنا : أنشدناها ، فقال :

ذهب الناس فاستقلوا وصرنا * خلقا في أرادل التناس
في أناس نعدّهم من عديد * فاذا فتشوا فليسوا بناس

كلما جئتُ أبتغي الفضل منهم * بدروني قبل السؤال بباس
وبكوا لي حتى تمنيتُ أني * مُفلتٌ عند ذاك رأساً براس

ثم قال : أتدرون لمن الشعر؟ قلنا : لا، قال : للحسن بن هانيء .
قال أبو عبد الرحمن الضرير : رأيتُ مسلم بن الوليد يُخرجان وهو يتولأها، فسألني عن
خَلْفَتِ من الشعراء؛ فقلت له : أما من الكوفيين فأبو نواس، وهو مقدّم عندهم؛ فقال :
ويحك ! كيف يتقدّم وهو يقول : رُوَيْدَكَ يا إنسانُ لا أنتَ تَقْفِزُ رأيتُ قوله : « تقفز »
نخرجتُ من بين فكي شاعرٍ قط ! ثم قال : ويلك ! وكيف يكون كذلك وهو يُحِيل ويتخطى
من صفة المخلوق الى صفة الخالق؟ فقلت : مثل ماذا من قوله؟ قال : أما فيما أحال فكقوله :
وأخفتَ أهلَ الشُّركِ حتى إنه * تَخَافُكَ النُّطْفُ التي لم تُخَلَقِ
وهذا من الإغراق المستحيل في القول ومما ليس على مذهب القوم ؛ وأما في تخطيه
بصفة المخلوق الى صفة الخالق فكقوله :

يَجِلُّ أن تلحق الصفاتُ به * فكلُّ خُلُقٍ خُلِقَ مثله

وكقوله :

* برىء من الأشباه ليس له مثل *

ومما قيل عن أبي نواس إن الشعر إنما هو بين المدح والهجاء وأبو نواس لا يُحسِنهما،
وأجودُ شعره في النجر والطرد ، وأحسنُ ما فيهما مأخوذ ليس له وإنما سرّقه ، وحُسْبُك من
رجل يريد المعنى ليأخذه فلا يُحسن أن يبنى عليه حتى يبيء به قبيحا، مثل قوله : « ودأوني
بالتى كانت هي الداء » أخذه من قول الأعشى : « وأخرى تداويتُ منها بها » والذي أخذه منه
أحسن . ومنها أيضا قوله : « إن الشبابَ مطيّةُ الجهيل » أخذه من قول النابغة الجعدي :
« فإن مطيّةُ الجهيلِ الشبابُ » . وقوله : « كطلعة الأشمط من إهابه » أخذه من قول أبي النجم :
« كطلعة الأشمط من كِسائه » . ولكن رُزِقَ أبو نواس في شعره أن سار وحمّله الناس وقَدّمه
أهلُ عصره، وإن له على ذلك لأشياءَ حسنا لا يدفعها ولا يطرحها إلا جاهلٌ بالكلام
أو حاسد .

ومن أحسن مدائح أبي نواس قوله من أرجوزته التي يمدح بها الفضل بن الربيع وهي :

وبلدة فيها زور * صغراء تحظى في صعر
مرت إذا الذئب افتقر * بها من القوم الأثر^(١)
كان له من الجزر * كل جين ما اشتكر^(٢)
ولا تملأه شعر * ميت النساء الثغر
عسفتها على خطر * وغرر من الغرر^(٣)
بباز حين فطر * يهزه جرب الأثر
لا متشك من سدر * ولا قريب من خور^(٤)
كأنه بعد الضمر * وبعد ما جال الضفر^(٥)
وأمنح في خسر : * جاب رباع المثغر^(٦)
يحدو بحقب كالأكر * ترى بأشباح القصر^(٧)
منه توشم الجدر * رعين أبكار الخضر
شهرى ربيع وصفر * حتى إذا الفحل جفر^(٨)
وأشبهه السفى الإبر * ونش أذخار النقر^(٩)
قلن له : ما تأتمر ؟ * وهن إذ قلن : أثر
غير عواص ما أمر * كأنها لمن نظر
ركب يشيمون مطر * حتى إذا الظل قصر

- (١) المرت : الأرض لا نبات فيها ، واقتفر الأثر : اقتفاه وتبعه . (٢) الجزر (بفتحين) : ما يذبح من الشاء ذكرا كان أو أنثى . واحدة : جرة . وما اشكر : لم يثبت له الشكر وهو الضعيف من الشعر الذي لا يكاد يظهر . (٣) عسفتها : سلكها منخبطا ، والغرر : الخطر . (٤) السدر : التحير . (٥) الضمر (بالضم وبضميتين) : الهزال . والضفر : جمع ضفار (بالفتح) وهو ما يشد به البعير من شعر مضفور . (٦) الجاب : الحمار الغليظ من حمرا الوحش . (٧) الأشباح جمع شبح وهو وسط الشيء ، والقصر جمع قصرة وهي أصل العنق . (٨) جفر : امتنع عن الضراب . (٩) السفى : كل شجر له شوك ، ونش : نضب ، والنقر : جمع نقرة وهي الوهدة المستديرة من الأرض .

يَمْنَنَ مِنْ جَنبِي هَجَرَ * أَخْضَرَ طَمَامَ الْعَكَرَ
 وَيَبِينُ أَحْقَافَ الْقَتَرِ * سَارَ وَابَسَ لِلْسَمَرِ
 وَلَا تِلَاوَاتِ السُّورِ * يَمْسَحُ مِرْنَانًا يَسِرُ^(١)
 زُمْتُ بِمَشْزُورِ الْمِرْرِ * لَأَيْمُ كُفْقُومِ النَّغْرِ^(٢)
 حَتَّى إِذَا اصْطَفَى السَّطْرُ * أَهْدَى لَهَا لَوْ لَمْ يُجْزِرْ
 دَهْيَاءَ يَحْدُوها الْقَدَرُ * فِتْلِكَ عَنَسٌ لَمْ تُدْرِ
 شَهَبًا إِذَا الْآلُ ظَهَرَ * إِلَيْكَ كَلَفْنَا السَّفَرُ
 خُوصًا يُجَاذِبُنِ النَّظْرُ * قَدْ انْطَوَتْ مِنْهَا السَّرَرُ
 طَى الْقَرَارَى الْحَبَرُ^(٣) * لَمْ تَتَقَعَّذْهَا الطَّيَرُ
 وَلَا السَّيْنِجُ الْمَزْدَجَرُ * يَافُضُلُ الْقَوْمِ الْبَطَرُ
 إِذْ لَيْسَ فِي النَّاسِ عَصَرُ * وَلَا مِنْ الْخَوْفِ وَزَرُ
 وَنَزَلَتْ لِاحْدَى الْكُبَرِ * وَقِيلَ صَمَاءُ الْغَيْرِ
 فَالنَّاسُ أَبْنَاءُ الْحَسَدَرِ * فَرَجَّتْ هَاتِيكَ الْغُمَرُ
 عَنَّا « وَقَدْ صَابَتْ بِقَرٍّ »^(٤) * كَالشَّمْسِ فِي شَخِصٍ بَشَرُ
 أَعْيَا مُجَارِيكَ الْخَطَرُ * أَبُوكَ جَلَى عَنْ مُضَرُ
 يَوْمَ الرِّوَاقِ الْمُحْتَضَرِ * وَالْخَوْفُ يَفْرِى وَيَنْزُرُ
 لَهَا رَأَى الْأَمْرَ اقْطُرُ^(٥) * قَامَ كَرِيمًا فَانْتَصَرُ
 كَهْزَةِ الْعَضْبِ الدَّكْرِ * مَا مَسَّ مِنْ شَيْءٍ هَبَرُ^(٦)

(١) المرتان : القوس . (٢) زمت : شددت ، ومشزور معتل ، والمرر : جمع مرة وهى قوة الفتل ،

واللألم : الشديد ، والنغر : كسر البابل ، والعرب تشبه الدقيق بالأتار وحلاقيم النفران . (٣) القرارى : الخياط

(٤) القر : القرار ، يقال اذا وقع الأمر موقعه : صابت بقرو وقعت بقرو . قال طرفة بن العبد البكرى :

كنت منهم كالملغى رأسه * فأنجلى اليوم غطافى ونحر

سادرا أحسب غي رشدا * فتناهيت وقد صابت بقرو

(٥) اشتد . (٦) هبر : قطع .

وَأَنْتَ تَقْتَأُ الْأَثَرَ * مِنْ ذِي مُجْجُولٍ وَغُرَرٍ
 مَعِيدٍ وَرِزْدٍ وَصَدَرٍ * وَإِنْ عَلَا الْأَمْرَ اقْتَدِرْ
 فَأَيْنَ أَصْحَابُ الْغَمْرِ * أَذْشَرُوا كَأْسَ الْمَقْرِ^(١)
 وَقُصُرُوا فِيمَنْ قُصِرَ * هِيَاهُ لَا يَخْفَى الْقَمَرُ
 أَصْحَرَتْ أَذْذَبُوا الْخَمْرَ * شَكَرًا ، وَحُرٌّ مَنْ شَكَرَ^(٢)
 فَاللَّهُ يُعْطِيكَ الشَّيْبَ * وَفِي أَعَادِيكَ الظَّنُّ^(٣)
 وَاللَّهُ مَنْ شَاءَ نَصَرَ * وَأَنْتَ إِنْ خِفْنَا الْحَصَرَ^(٤)
 وَهَرَّ دَهْرٌ وَكَشَرَ * عَنْ نَاجِدِيهِ وَبَسَرَ^(٥)
 أَغْنَيْتَ مَا أَغْنَى الْمَطَرُ * وَفِيكَ أَخْلَاقُ الْيَسَرِ
 فَانْ أَبَوْا إِلَّا الْعَسَرَ * أَمَرْتُ حَبَلًا فَاسْتَمَرَّ^(٦)
 حَتَّى تَرَى تِلْكَ الزَّمَرَ * تَهْوِي لِأَذْقَانِ النَّعْرِ^(٧)
 مَنْ جَذِبَ الْأَوَى لَوْ تَرَى * إِلَيْهِ طَوْدًا لَأَنَاطَرَ^(٨)
 صَعِبَ إِذَا لَاقَى أَبَرَ * وَإِنْ هَفَا الْقَوْمُ وَقَرَّ
 أَوْ رَهَبُوا الْأَمْرَ جَسَرَ * ثُمَّ تَسَامَى فَفَغَرَ
 عَنْ شَقِيقٍ ثُمَّ هَدَرَ * ثُمَّ تَنَاجَى فَنَظَرَ^(٩)
 بِذِي سَيْبٍ وَعُدَّرَ * يَمْضِعُ أَطْرَافَ الْوَبَرِ^(١٠)
 هَلْ لَكَ وَالْهَلْ خَيْرٌ * فِيمَنْ إِذَا غَبَتِ حَضَرُ^(١١)
 أَوْ نَالِكَ الْقَوْمُ نَارُ * وَإِنْ رَأَى خَيْرًا شَكَرَ
 * أَوْ كَانَ تَقْصِيرٌ عَدَّرَ *

(١) المقر: المر . (٢) أصحرت: رزت الى الصحراء . ودبوا الخمر: مشوا مخففين . والخمر: ما سترك من شجر أو بناء أو نحوه . (٣) الخير والقوة . (٤) الضيق . (٥) كشرأبدى عن ناجديه ، وبسر: عبس . (٦) أى أحكمت قتله . (٧) جمع نقرة وهى نقرة النحر . (٨) الأوى: الشديد الخوصومة . (٩) اعوج وانثنى . (١٠) السيب: شعر الذنب والعرف والناصية ، والدر جمع عذار . (١١) قصد لفظ هل الاستفهامية فأدخل عليها الألف واللام .

ولما عمل أبو نواس القصيدة التي أولها : * ومستعبد إخوانه بثرائه * بلغت
الأمين، فبعث إليه، وعنده سليمان بن جعفر . فلما دخل عليه قال له : يا عاض بظُر أمه
العاهرة ، ويا مدعى ولاء حاء وحكم ! أتدرى يا بن الخناء من توليت وإلى من ادّعت ؟
إلى الأُم قبيلتين في اليمن ، علّوج باغين . أنت تكتسب بشرك أوساخ أيدي الناس اللثام ،
وتقول : * ولا صاحب التاج المحجّب في القصر * أما والله ما نلت مني شيئاً بعد ذلك
أبداً ! فقال له سليمان بن أبي جعفر : إى والله ! نعم هو مع هذا من كبار الشنوية (١) (وكان يرى
بذلك) ، فقال له محمد الأمين : وهل يشهد عليه شاهد بشيء من ذلك ؟ فأتاه سليمان بعدة
نقر ، فشهدوا عليه أنه شرب في يوم مطير فوضع قدحه تحت السماء في المطر فوقع فيه
المطر ، فقالوا له : ما تصنع بذلك ويحك ؟ قال : أنتم تزعمون أنه ينزل مع كل قطرة
ملك ، فكم ترائي أشرب من الملائكة ! ثم شرب ما في القدر ، فغضب محمد ، وأمر به
إلى السجن . فذلك قول أبي نواس :

ياربّ إن القوم قد ظموني * وبلا اقتراف معطل حبسوني
وإلى الجحود بما عرفت خلافة * ربّي إليك بكنهم تسبوني
ما كان إلّا الجري في ميدانهم * في كلّ خزي والمجانة ديني
لا العذر يقبل لي ويفرق شاهدي * منهم ، ولا يرضون حلف يميني
ما كان — لو يدرون — أول تحباً * في دار منقصة ومنزل هوين
أما الأمين فلست أرجو دفعه * غنى ، فمن لي اليوم بالمأمون
فبلغت أبيتاه المأمون ، فقال : والله لئن لحقته لأغنيته غنى لا يؤمله . فمات قبل دخول
المأمون بغداد .

ولما وصلت الخلافة إلى محمد الأمين وولّى الفضل بن الربيع الوزارة ، تفرغ محمد
للّهو والصيد والنزهة ، وكان لا يخرج إلّا لصيد أو لنزهة . فخرج ذات يوم وقد أمر الجند
(١) الشنوية أصحاب الاثنين الأزليين وهم الذين يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان ، بخلاف المجوس
فانهم قالوا بحدوث الظلام .

والقوَادَ فركبوا ، ولبس ثيابَه وتقلد سِيفه ، وأعدت الحَرَاقَات والزَّلَاجَاتُ في دِجَلَة ؛ فقال له اسماعيلُ بنُ صَيْيَحٍ - وكان كاتبَ سِرِّه - : يا أمير المؤمنين ان قوَادَكَ وجُنْدَكَ وعَامَّةَ رعيتِكَ قد خُبِلَتْ نفوسُهُم ، وساءت ظَنُونُهُم ، وكَبُرَ عندهم ما يرون من احتِجَاكِ عنهم ، فلو جَلَسْتَ لهم ساعة من نهار فدخلوا عليك ! فإن في ذلك تسكيناً لهم ومراجعة لآمالهم ! فجلس في مجلسه وأذن للناس عامةً فدخلوا على مراتبهم ومنازلهم ، وقام الخطباء فخطبوا ، والشعراء فأنشدوا ، فلم يكن أحد منهم يتعدى إلى الاطناب والتطويل ، إلا أُمِر بالسكوت ومُنِع من القول .

وقام فيمن قام أبو نواس ، فقال : يا أمير المؤمنين ! هؤلاء الشعراء أهل حَجَرٍ ومَدَرٍ ، وإبلٍ ووصفٍ للبقر وبيوت الشَّعَر ، قد جَفَتْ أَلْفَاظُهُم ، وغُلِظَتْ معانيهم ، ليس لهم بَصَرٌ بمدح الخلفاء ونُشْرِ مكارمهم ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في إنشاده فليفعل ، فأذن له فأنشده :

أيا دارها بالماء حتى تُلبِنَا * فلن تُكرم القَمْهَاءَ حتى تُهَيِّنَا
أُغَالِي بها حتى إذا ما ملكْتُنَا * أهنتُ لإكرام الخليل مَصُونَنَا
وصفراء قبل المَرْجِ بيضاء بعده * كأن شعاع الشمس يلقاك دونها
ترى العين تستعفيك من المَعَانَا * وتحسُرُ حتى ما تُقِلَّ جفونُهَا
تُزَوِّعُ بنفس المرء عما يَسُوهُ * ويُخْذِلُهُ ألا يزالَ قَرِينَا
كأن يواقينا رواكدُ حَوْلَا * وزُرْقَ سَنَانِيرٍ تدير عُيُونَا
وتُثْمِطَاءَ حلَّ الدهر منها بَحْوَةً * دلفتُ إليها فاستلْتُ جَبِينَا
كأنَّا حُلُولٌ بين أَكْثَافِ رَوْضَةٍ * إذا ما سَلَبْنَاهَا مع الليل طِينَا

إلى أن أكمل القصيدة . فقال له محمد : ألم أَمَّاكَ عن شرب الخمر ! قال : بلى يا أمير المؤمنين ، والله ما شربْتُها منذ نهيتني عنها ومنعتني من شُرْبِهَا ، وأنا الذي أقول :

(١) الحَرَاقَات : ضرب من السفن فيها مراى نيران يرمى بها العدو في البحر .

أيها الرائي باللوم لوما * لا أذوق المدام إلا شميمًا
 نالني بالسلام فيها إمام * لا أرى لى خلافه مستقيمًا
 فاصيرفاها الى يسواى فإنى * لست إلا على الحديث نديمًا
 كبر حظى منها إذا هي دارت * أن أراها وأن أشم النسيما
 فكأنى وما ازين منها * قعدى^(١) يحسن التحكيما
 كل عن حملة السلاح الى الحر * ب فأوصى الميطيق ألا يقيما

فتبسم محمد، وقال له : أحسنت ! وقام بعض الشعراء فأنشد :

ترقى فى فضائله الامين * وزايله المشاكل والقارين
 وأورق زهرة التقوى وعزت * خلافته وصدق الظنون
 تمس منابر الخلفاء منه * يد بخلاف طاعتها المنور
 يخاف الخوف صولته ويرجو * نداه الجود فهو له خدين

فقال عتبة مَن حضر : قد أوجز وأجاد، أكرم الله أمير المؤمنين ! فقال أبو نواس : أشعر
 منه يا أمير المؤمنين الذى يقول :

ألا يا خير من رأت العيون * نظيرك لا يحس ولا يكون
 وفضلك لا يحسد ولا يجارى * ولا تحوى حيازته الظنون
 فأنت تسبج وحديك لا شبيهه * تحاشيه عليك ولا خدين
 خلقت بلا مشاكلة لشيء * فأنت الفوق والفلان دون
 كأن الملك لم يك قبل شيئاً * الى أن قام بالملك الامين

قال : ففضله محمد وأحسن جائزته . ويقال : إنه قالها بديها .

(١) القعدى من الخوارج : الذى يرى رأى القعدة الذين يرون التحكيم حقاً ، غير أنهم قعدوا عن الخروج

على الناس .

ثم نهض محمد من مجلسه ذلك ، فركب الحَرَّاقَةَ الى الشَّامِسيَّة ، واصطَفَّتْ له الخيل وعليها الرجال على شاطئ دجلة ، وُحِّمَتْ معه المطايحُ والخزائن . وكان ركوبه حَرَّاقَةً^(١) على مثال الأسد . فما رأى الناس منظراً كان أبهى ولا مسيراً كان أحسن من ذلك المنظر والمسير . وركب أبو نواس معه يومئذ وهو ينادمه ، فقال :

سَخَّرَ اللهُ لِلْأَمِينِ مطايا * لم تسخَّرْ لصاحب المحراب^(٢)
فاذا ما ركابه سَرَنَ بحراً * سار في الماء راجاً لَيْثَ غَاب
أَسَدًا باسِطاً ذراعيه يعدو * أَهْرَتَ الشَّدَقِ كَالِجِ الْأَنْيَابِ^(٣)
لا يعانیه بِالْجِئَامِ ولا السَّوِ * طِ ولا تَهْمِزُ رجله في الرِّكَابِ
تَحِبُّ النَّاسَ إِذْ رَأَوْكَ على صو * رة لَيْثٍ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ
سَبَّحُوا إِذْ رَأَوْكَ سَرَتَ عَلَيْهِ * كَيْفَ لو أَبْصَرُوكَ فَوْقَ الْعُقَابِ
ذاتَ زَوَرٍ وَمِنْسِرٍ وجناحه * يَبِينُ تَشَقُّقُ الْعُبَابِ بَعْدَ الْعُبَابِ
تَسْبِقُ الطَّيْرَ في السَّمَاءِ إِذَا مَاسَ * تَعْبَلُوهَا بِجَيْئَةٍ وَذَهَابِ
بَارَكَ اللهُ لِلْأَمِينِ وَأَبْقَا * هَ وَأَبْقَى لَهُ رِذَاءَ الشَّبَابِ
مَلِكٌ تَقْصُرُ الْمَدَائِحُ عَنْهُ * هَامِيٌّ مَوْفِقٌ لِلصَّوَابِ

ويقال : ان هذا الشعر قاله أبو نواس في محمد ، وقد ركب حَرَّاقَتَهُ الدُّلْفَيْنِ ؛ فقال له شيخٌ الى جانبه : اتَّقِ الله يا هذا ! فقال له أبو نواس : يا شيخ ، إن الله لم يسخَّرْ لصاحب المحراب الدُّلْفَيْنِ ، وقد سَخَّرَ له ما هو خير من الدلفين ، فأى شئ تنكر من هذا ؟

قال ابن حبيب : كنت مع مؤنس بن عِمْران ، ونحن نريد الفضل بن الربيع ببغداد ، فقال مؤنس : لو دخلنا على أبي نواس في السجن فسلمنا عليه ! ففعلنا ؛ فقال أبو نواس

(١) وذلك أنه كان للامين ثلاث من السفن المعروفة بالحراقات لركوبه خاصة ، وهى الليث والعقاب والدلفين . (٢) صاحب المحراب هو سليمان بن داود عليه السلام لأنه بنى بيت المقدس . (٣) أهرت الشدق : واسعه . وكان الخيل الأنياب : كاشرها .

لمؤنس: أين تريد ؟ فقال : أريد أبا العباس الفضل بن الربيع ، قال فبلغه رقعة أعطيها ، قال : نعم ، فأعطاه رقعة فيها :

ما من يد في الناس واجدة * كيد أبو العباس مولاها
نام البغاة على مضاجعهم * وسرى الى نفسى فأحياها
قد كنت خفتك ثم أمتنى * من أن أخافك خوفاً الله
فعفوت عني عفواً مقتدر * وجبت له نقيم فالغاها

فكانت هذه الأبيات سبب خروجه من السجن .

انصرف أبو نواس من بعض المواخير سكراناً ، فمر بمسجد قد حضرت فيه الصلاة ، فدخل فقام في الصف الأول ، فقرأ الإمام : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ فقال أبو نواس من خلفه : لبيك ، فلما قضيت الصلاة لبيوه وقالوا له : يا كافر نشهد عليك بالكفر ودفعوه . فبلغ خبره الرشيد ، فدعا له حمدويه صاحب الزندقة ، وأحضر أبا نواس فقال له حمدويه : يا أمير المؤمنين ، إن هذا ماجن ، وليس هو بحيث يُطقَّ ، فقال له الرشيد : ويحك ! إنه وقع في نفسى منه شيء ، فامتنحنه . قال : نخط له صورة مائى ، وقال له : أبصق عليها ، فأهوى أبو نواس بفيه ليقى عليها ، فقال له حمدويه : قد قلت لك يا أمير المؤمنين إنه ماجن . قال : ودعا برجل من الزنادقة مشهور ، وقال له : ابصق عليها ، فقال : وما معنى البصاق ! إنه من أخلاق الشرك ولا أفعله ، وأبى أن يفعل . فقال الرشيد لبعض خدام القصر : امض بهذا (يعنى أبا نواس) الى السندى ، فقل له : أذبه وأطلقه ،

(١) لبيوه : أخذوا بلبيه ، وهو موضع القلادة في الصدر . (٢) هو مائى بن فاتك الحكيم ، الذى ظهر في زمن سابورذى الاثكاف بن أزدشير ، وقتله بهرام بن هرم بن سابور ، وذلك بعد عيسى عليه السلام . اتخذ له ديناً بين المجوسية والنصرانية . وكان يقول بنوة المسيح عليه السلام ، ولا يقول بنوة موسى عليه السلام . حكى محمد بن هارون المعروف بأبي عيسى الوراق ، وكان في الأصل مجوسياً عارفاً بمذاهب القوم ، أن الحكيم مائى زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين : أحدهما نور والأخر ظلمة ، وأنهما أزليان لم يزالا وان يزالا ، وأنكر وجود شيء الا من أصل قديم ، وأنهما لا يزالان قوتين حساستين سميعتين بصيرتين ، وهما مع ذلك في النفس والصورة والفعل والتدبير متضادتان ، وفي الحيز متعاذيتان تحاذى الشخص والظل .
(انظر الملل والنحل للشهرستاني)

وبهذا (يعنى الزنديق) فقل له : احبسك قبلك الى أن تستتيبه ، فان تاب وإلا قتلناه .
 قال : فمضى بهما الخادم ، فلما صار في آخر الصحن ، قال أبو نواس للخادم : الى أين
 تذهب بنا ؟ قال : الى السندی ؛ قال : فما تقول له ؟ قال : أقول له : يحبسك قبله
 حتى تستتاب أو تقتل ، ويؤدب هذا ويطلقه . قال : فرفع أبو نواس يده ولطمه ، وقال
 له : يا بن الزانية ، من الساعة نسيت ! . وبصر بهم الرشيد ، فقال : ردوهم ؛ فقال
 لأبي نواس : ما هذا الذي رأيت منك ؟ قال : أراد والله أن يهلكني ويطرحنى بحيث
 أنسى أبدا أو أبقى مخلدا ، سألته يا أمير المؤمنين عن الرسالة ، فاذا هو قد غيرها ؛ فضحك
 من أبي نواس وأطلقه .

قال رزين الكاتب : اجتمعنا يوما أنا وأبو نواس وعلي بن الخليل في سوق الكرخ ،
 وكنا نجتمع ونتناشد الأشعار ونتذاكر الأخبار ونحدث بها . فقال أبو نواس : أدبر من
 كان في نفسي وكان أسرع الخلق في طاعتي ، فما أدري ما أحتال له ؟ فقال علي بن الخليل
 يمازحه : يا أبا علي ، سل شيخك وأستاذك يعطفه عليك ؛ فقال له أبو نواس : من تعني ؟
 قال : من أنت في طاعته ليلاك ونهارك (يعنى ابليس) فان لم يقض لك هذه الحاجة ،
 فما ينبغي لك أن تسأله مسألة ولا أن تقر عينه بمصيبة ؛ فقال : هو أسد لرأيه من أن يخل
 بي أو يخذلني ؛ وانقضى مجلسنا ذلك . فلما كان بعد أيام اجتمعنا في ذلك الموضع ، وأخذنا
 في أحاديثنا ، فضحك أبو نواس ؛ فقلنا له : ما أضحكك ؟ فقال : ذكرت قول علي بن
 الخليل يومئذ : سل شيخك يعطفه عليك . حينئذ قد سألته يا أبا الحسن فقضى الحاجة ،
 وما مضت والله ثالثة حتى أتاني من غير أن أبعث اليه ومن غير أن أستريه ، فعاتبني
 واسترضاني ، وكان الغضب منه والتجني ، وأحسب الشيخ (يعنى ابليس) كان يتسمع علينا
 في وقت كلامنا ؛ وقد قلت أبياتا في ذلك ؛ فقلنا : هاتها ، فأنشد :

لما جفاني الحبيب وامتنعت * عنى الرسالات منه والخبر
 واشتد شوقي فكاد يقتلني * ذكر حبيبي والهـم والفكر

دعوتُ إبليسَ ثم قلتُ له * في خلوة والدموع تتحدر:
أما ترى كيف قد بُليتُ وقد * أقرح جفنى البكاء والسهير؟
إن أنت لم تُلقِ لى المودة في * صدر حبيبي وأنت مقتدر
لا قلتُ شعرا ولا سمعتُ غنّا * ولا جرى في مفاصلي السَّكر
ولا آزال القرآنَ أدْرُسَه * أروح في دريسه وأبتكر
وألزم الصوم والصلاة ولا * أزال دهرى بالخير آتمر
فما مضتُ بعد ذاك ثالثة * حتى أتاني الحبيب يعتذر
ويطلب الودَّ والوصالَ على * أفضل ما كان قبلَ يهتجر
فيها لمنّةٌ لقد عظمتُ * عندي لإبليس ما لها خطر

(١)

لما قدم أبو نواس على الخَصِيب بمصر أذن له وعنده جماعة من الشعراء فاستنشدوه ، فقال له : هنا جماعة من الشعراء هم أقدم مني وأسنّ ، فأذن لهم في الإنشاد ، فان كان شعري نظيراً أشعارهم أنشدتُ وإلا أمسكتُ ، فاستنشدهم الخَصِيبُ ، فأنشدوا مديحاً في الخَصِيب ، فلم تكن أشعارهم مقاربةً لشعر أبي نواس ، فتنبّه أبو نواس ثم قال : أنشدك أيها الأمير قصيدةً هي بمنزلة عصا موسى لتلقف ما يافكون؟ قال هات ، فأنشده قصيدته التي أولها :
أجارة بيتينا أبوك غيور * وميسور ما يرجى لديك عسير
حتى أتى على آخرها ، فانفضّ الشعراء من حوله .

(٢)

ويقال : إن أبا نواس كان خرج الى مصر في زى الشُّطَّار وتقطيعهم بطرّة قد صَفَفَها وكُمّين واسعين وذيل مجرور ونعل مطبق ، وكان خروجه مع سليمان بن أبي سهل ، فلما دخل على الخَصِيب بهذه الصورة ازدراه واستخفّ به ، وكان تُورد عليه كتبُ الجِلَّة ممن

(١) هو الخَصِيب بن عبد الحميد العجمي أمير مصر على الخراج . واليه تنسب منبة الخَصِيب بالوجه القليل وليس بابن صاحب نهر أبي الخَصِيب ، ذلك عبد للصور يقال له مرزوق . وكان هذا رئيساً في أراضيه .
فانتقل الى بغداد وصار كاتب مهوريه الرازي ، ثم انتقل الى الامارة .
(٢) الشُّطَّار : جمع شاطر وهو من أعيان أهله خبثا .

بباب السلطان، ووردت كتب أبي نواس فيها فقرأها ولم يستشده، فانصرف مهموما .
 وجاءه أهل الأدب فاستمعوا شعره وكتبوه وأنشدوه للخصيب :
 أجارة يَتَيْنَا أبوك غيور * وميسور ما يُرجى لديك عسير
 فان كنت لا خِلما ولا أنت زوجة ^(١) * فلا برحت دوني عليك سُتور
 وجاورت قوما لا تراور بينهم * ولا وصل إلا أن يكون نُسور
 فما أنا بالمشغوف ضربة لازب * ولا كل سلطان على قدير
 وائي لطرف العين بالعين زاجر * فقد كدت لا يخفى على ضمير
 كما نظرت والريح ساكنة لها * عقاب بأرساغ اليمين ندور ^(٢)
 طوت ليلتين القوت عن ذي ضرورة * أزيغ لم ينبت عليه شكير ^(٣)
 فأوفت على علياء حين بدا لها * من الشمس قرن والضرب يمور ^(٤)
 تقلب طرفا في حجابي مغارة * من الرأس لم يدخل عليه ذرور ^(٥)
 ولما قال أبو نواس :

تقول التي من بيتها خف مركبي : * عزيز علينا أن نراك تسير
 أما دون مصير للغنى متطلب ؟ * بلى إن أسباب الغنى لكثير
 فقلت لها واستعجلتها بوادر * جرت فجري في جريهن عير
 ذريني أكثر حاسديك رحلة * الى بلد فيه الخصيب أمير
 قال له الخصيب : اذا يكثر حسادها وتبلغ أملها، وأمر له بألف دينار .

(١) الخلم : الصديق . (٢) الندور : خروج العظم من موضعه أو زواله في البيت من سوء التركيب
 ما فيه ، والتقدير فيه كما نظرت عقاب لها بأرساغ اليمين ندور والريح ساكنة . (٣) أزيغ تصغير أزعج
 وهو الفرخ ذو الرغب أي الريش الدقيق اللين . والشكير : الريش أول ما ينبت . (٤) الضرب :
 الثلج أو الجليد . ويمور : يحولك أو يحى . ويذهب أو يسيل على وجه الأرض . (٥) الحجاجان منى حجاج
 وهو العظم الذى ينبت عليه شعر الحاجب . والذرور : ما يذو في العين من الدواء .

وتماها :

إذا لم تَزُرْ أرضَ الخصبِ ركابنا * فأى نقي بعدَ الخصبِ تزور !
 فما جازه جودٌ ولا حلّ دونه * ولكن يصير الجودُ حيث يصير
 فقي يشتري حسنَ الثناء بماله * ويعلم أن الدائرات تدورُ
 ولم ترعني سوددًا مثلَ سوددٍ * يحلُّ أبو نصير به ويسير
 وأطرق حَيَّات البلاد لحيةً * خَصِيبةً التصميم حين تسور^(١)
 سموت لأهل الجور في حال أمنهم * فأخروا وكلُّ في الوثاق أسيرُ
 إذا قام غتته على الساق حليةً * لها خطوه عند القيام قصيرُ
 فن يك أمسى جاهلاً بمقالتي * فان أمير المؤمنين خيرُ
 فما زلت تُوليه النصيحة يافعاً * الى أن بدا في العارضين قتيرو^(٢)
 إذا غاله أمرٌ فإما كفيته * وإما عليه بالكفاء تُشيرُ
 إليك رمت بالقوم هوجاً كأنما * جماجمها تحت الرّحال قبور
 رحنَ بنا من عقرقوف^(٣) وقد بدا * من الصبح مفتوق الأديم شهيرُ
 فما نجدت^(٤) بالماء حتى رأيتها * مع الشمس في عيني أباغ تغورُ
 وعُمرن من ماء النقيب بشربةٍ * وقد حان من ديك الصباح زميرُ
 ووافين^(٥) إشراقاً كائنس تدمرٍ * وهنّ الى رُغن المدخن صور^(٦)
 يؤمّن أهل الغوطتين كأنما * لها عند أهل الغوطتين ثورُ
 وأصبحن بالجلولان يرصحن^(٦) صخرها * ولم يبق من أجراحهن شطورُ
 وقاسين ليلا دون يلسان لم يكد * سنّا صبحه للناظرين ينيرُ
 وأصبحن قد فوزن من نهر فطرس * وهنّ عن البيت المقدس زور^(٧)

(١) تسور : تثب . (٢) القتير : الشيب . (٣) عقرقوف : اسم موضع .

(٤) نجدت : عرقت .

(٥) صور : مائلات . (٦) يرصحن : يكسرن . (٧) زور : جمع زورا بمعنى مائلة .

طوالب بالركبان غرة هاشم * وفي القرم من حاجهن شقور^(١)
ولما أتت فسطاط مصر أجارها * على ركبها أن لا تزال مجير
من القوم بئسأ كانب جبينه * سنا الفجر يسرى ضوءه وينير
زها بالخصيب السيف والرمح في الوغى * وفي السلم يزهو منبر وسرير
جواد إذا الأيدي كففت عن الندى * ومن دون عورات النساء غيور
له سلف في الأعجمين كأنهم * إذا استؤذنوا يوم السلام بدور
وما في جدير إذ بلغتك بالمنى * وأنت بما أملت منك جدير
فان تولني منك الجميل فأهله * وإلا فلاني عاذر وشكور

وقال يمدح العباس بن الفضل بن الربيع وأجاد :

ساد الملوك ثلاثة ما منهم * إن حصّلوا إلا أغر قريع
ساد الربيع وساد فضل بعده * وعلت بعباس الكريم فروع
عباس إذا احتدم الوغى * والفضل فضل الربيع ربيع

وقال يعاتب عمر الوراق :

يا من جفاني وملا * نسيت أهلا وسهلا
ومات مرحب لما * رأيت مالى قالا
انى أظنك تحبى * فيما فعلت القيرلى^(٢)
تلقاه في الشر ينأى * وفي الرخا يتدل

وله في عزة النفس :

ومستعبد إخوانه يثرائه * لبست له كبرا أبر على الكبر
إذا ضمّنى يوما وإياه محفل * يرى جانبي وعرا يزيد على الوعر

(١) جمع شقر وهو الأمر الملتصق بالقلب المهم له .

(٢) القرلى : كان لحير وكان لا يسمع لأحد شيئا إلا جاء إليه ودخله ولا يخالف عن طعام لأحد ، وإذا سمع

بخصوصة لم يقرب ذلك ، فضرب به المثل حتى قيل لطير من طيور الماء يوفى عليه : القرلى .

أُخَالَفَهُ فِي شَكْلِهِ وَأَجْرَهُ * عَلَى الْمُنْطَقِ الْمَبْرُورِ وَالنَّظَرِ الشَّرِيرِ
 وَقَدْ زَادَنِي تَيْهًا عَلَى النَّاسِ أَنِّي * أَرَانِي أَغْنَاهُمْ وَإِن كُنْتُ ذَا فَقِيرِ
 فَوَاللَّهِ لَا يُبْدِي لِسَانِي بِحَاجَةٍ * إِلَى أَحَدٍ حَتَّى أُغَيَّبَ فِي قَهْرِي
 فَلَا يَطْمَعُنَ فِي ذَلِكَ مَنِّي طَامِعٌ * وَلَا صَاحِبُ التَّاجِ الْمُحِجَّبُ فِي الْقَصْرِ
 فَلَوْلَمْ أَرِثْ نَخْرًا لَكَانَتْ صَيَانَتِي * عَنِ النَّاسِ حَسْبِي مِنْ سَوْأَى مِنَ الْقَهْرِ
 دَخَلَ أَبُو نَوَاسٍ بَعْدَ مَا نَسَكَ عَلَى قَوْمٍ مِنْ إِخْوَانِهِ عِنْدَهُمْ شَرَابٌ وَمُغْنٌ ، فَعَرَضُوا عَلَيْهِ
 الْجُلُوسَ فَأَبَى ، وَأَخَذَ الدَّوَاةَ وَالْقِرطَاسَ وَكَتَبَ :

إِذَا لَمْ تَنْهَ نَفْسَكَ عَنْ هَوَاهَا * وَتُحْسِنَ صَوْنَهَا فَالْيَاكَ عَنِّي
 فَإِنِّي قَدْ شَبِعْتُ مِنَ الْمَعَاصِي * وَمِنْ إِدْمَانِهَا وَشِعْنِ مَنِّي
 وَمَنْ أَسَاوَا أَقْبَحَ مِنْ لَبِيبٍ * يَرَى مُتَطَنًّا فِي مِثَالِ سَنِّي

وَمِنْ شَعْرَ أَبِي نَوَاسٍ :

عَنِّي الْمَصْلَى وَأَقْوَتِ الْكُشْبُ * مِثْنِي فَاَلْمِرْبَدَانِ فَالْلَهَبُ
 مَنَازِلُ قَدْ عَمَرَتْهَا يَقَعَا * حَتَّى بَدَا فِي عِذَارِي الشُّهْبُ
 فِي فِتْيَةٍ كَالسِّيَوفِ هَزَّهُمْ * شَرِخُ شَبَابٍ وَزَانَهُمُ أَدَبُ
 ثُمَّ أَرَابَ الزَّمَانُ فَانْقَسَمُوا * أَيْدِي سَبَا فِي الْبِلَادِ فَانْشَعَبُوا
 لَنْ يُخْلِفَ الدَّهْرُ مِثْلَهُمْ أَبَدًا * عَلَى هِيَاةٍ شَانُهُمْ عَجَبُ
 لَمَّا تَيَقَّنْتُ أَنَّ رَوْحَهُمْ * لَيْسَ لَهَا مَا حَيِّتُ مُتَقَلِّبُ
 أَبْلَيْتُ صَبْرًا لَمْ يُبْلِهِ أَحَدٌ * وَاقْتَسَمْتَنِي مَآرِبُ شُعْبُ
 لِذَاكَ أَتَى إِذَا رُزْتُ أَخَا * فَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَسَبُ
 قُطْرُبُلُ مَرْبَعِي وَلِي بَقْرَى الْ * كَرِخِ مَصِيفٍ وَأُمِّي الْعَنْبُ
 تُرْضَعُنِي دَرَّهَا وَتُلْحِقُنِي * بَطْلَهَا وَالْهَجِيرُ يَلْتَهَبُ
 إِذَا تَنَتَّهِ الْغُصُونُ جَلَّتَنِي * فَيَنَانُ^(١) مَا فِي أَدِيمِهِ جَرَبُ

(١) الفينان : الظل الكثيف ، والجرب ، أى لا خال فيه .

تَبَيَّتْ فِي مَأْتَمٍ حَمَائِمُهُ * كَمَا تَرَأَى الْفَوَاقِدُ السُّلْبُ
يُهْبُ شَوْقِي وَشَوْقُهُنَّ مَعًا * كَأَنَّمَا يَسْتَخِفُّنَا الطَّرَبُ
فَقَمْتُ أَحْبُوَالِي الرِّضَاعِ كَمَا * تَحَامِلُ الْبَطْلُ مَسَّهُ السَّغَبُ
حَتَّى تَخِيرْتُ بِنْتَ دَسَكِرَةٍ * قَدْ عَجَمَتْهَا السَّنُونُ وَالْحَقَبُ
هَتَكْتُ عَنْهَا وَاللَّيْلُ مَعْتَكُرٌ * مَهْلَهُلُ النَّسِجِ مَالَهُ هُدْبُ
مَنْ نَسِجَ نَرَقَاءَ لَا تُتَسَدَّلُهَا * أَخِيَّةٌ فِي الثَّرَى وَلَا طُبُّ
ثُمَّ تَوَجَّأْتُ خَضَرَهَا بِشَبَابِهَا * بِإِشْنَى بَحَاءَتْ كَأَنَّهَا لَهَبُ
فَاسْتَوْسَقَ الشَّرْبُ لِلنَّدَامِ وَأَجِدُ * رَاهَا عَلَيْنَا الْجُبْنُ وَالْغَرْبُ
أَقُولُ لِمَا تَحَايَا شَبَابًا * أَيُّهَا لَلتَّشَابُهِ الذَّهَبُ
هَمًّا سَوَاءً وَفَرْقٌ بَيْنَهُمَا * أَنَّهُمَا جَامِدٌ وَمُنْصَبِكُ
مُلْسٌ وَأَمْتَاهُا مُحْفَرَةٌ * صُورٌ فِيهَا الْقُسُوسُ وَالصُّلْبُ
يَتَلَوْنَ لِمَجْلَيْهِمْ وَفَوْقَهُمْ * سَمَاءٌ نَحْمِرُ نِجْمُومَهَا حَبَبُ
كَأَنَّهَا لَوْلَوْ تَبَدَّدَتْ * أَيَّدَى عَذَارَى أَفْضَى بِهَا اللَّيْبُ

ومن جيد شعره قوله لما منعه الأيمن من شرب الحجر، وذلك أن المأمون أمر الخطباء
بخراسان أن يعيّنوا الأيمن بشعر أبي نواس ويقولوا هو جليسه وتديمه وينشدوا على المنابر
شعره، فمنعه الأيمن فقال :

غَنَّا بِالطَّلُولِ كَيْفَ بَايَنَّا * وَأَسْقَيْنَا نُعْطِكَ الثَّنَاءَ الثَمِينَا
مَنْ سَلَّافٍ كَأَنَّهُ كُلُّ طَيْبٍ * يَتَّقِيْ خَيْرَ أَنْ يَكُونَا
أَكَلَ الدَّهْرُ مَا تَجَسَّمُ مِنْهَا * وَتَبَقَّى لُبَّابُهَا الْمَكُونَا
ثُمَّ تُجْتَفَا فَاسْتَضَحَكَتْ عَنْ لَالٍ * لَوْ تَجَمَّرَنَ فِي يَدٍ لَأَقْتُنِينَا
وَإِذَا مَا لَمَسَتْهَا فَهَبَاءٌ * تَمْنَعُ الْكَفَّ مَا يُبَيِّحُ الْعُيُونَا

في كؤوس كأنهن مجوم * جاريات بروجها أيدينا
 طالعات من السقاء علينا * فإذا ما غربن يغربن فينا
 لو ترى الشرب حولها من بعيد * قلت قوم من قرية يضطلونا
 وغزاي يديرها بنبان * ناعمات يزيها العسرلينان
 ذاك عيش لو دام لي غير أتي * عفته مكرها وخفت الأمينان
 أدير الكأس حان أن تسقيننا * وأنقر العود إنه يلهيننا
 ودع الذكر للطلوب إذا ما * دارت الكأس يئسرة ويميننا

ومن قول أبي نواس يمدح العباس بن عبد الله بن جعفر بن أبي جعفر :

غرد الديك الصدوح * فاسقني طاب الصبوح
 اسقني حتى تراني * حسنا عندي القبيح
 قهوة تذكر نوحا * حين شاد الفلك فوح
 نحن نخفيها ويأبى * طيب عريف فيفوح
 فكان القوم نهبي * بينهم مسك ذبيح
 أنا في دنيا من العبد * ماس أغدو وأروح
 هاشمي عبدي * عنده يغلو المديح
 علم الجود كتاب * بين عينيه يلوح
 كل جو يا أميري * ما خلا جودك ريح
 إنما أنت عطايا * أبدا ما تستريح
 ببح صوت الماء مما * منك يشكو ويصبح
 ما لهذا أحد فو * ق يديه أو نصيح
 جذت بالأموال حتى * قيل ما هذا صحيح
 فهو بالمال جواد * وهو بالعرض شحيح
 صور الجود مثالا * وله العباس روح

قال محمد بن عيينة : لقيت أبا نُوَاسٍ بعسكرٍ مُكْرَمٍ فقلت له : أحبُّ أنْ تنشدني من شعرك شيئاً تَضَنُّ به على غيري ، فأنشدني :

يَكْفِي الكَرِيمَ مِنَ الْكَلَا * مَ لِمَ يَمَادِنُهُ أَقْلُهُ
وَالشَّيْءُ شَيْءٌ لَمْ يَزَلْ * بِأَدَقِّهِ يَأْتِي أَجَلُهُ
إِنْ لَمْ يُصِبْكَ مِنَ الْكَرْدِ * مَ الْحُرُّ وَابِلُهُ فَطَلُّهُ
يُبْسِدِي مَكَارِمَهُ كَمَا * يُبْسِدِي فِرْنَدَ السَّيْفِ سَلُّهُ
وَالنَّذْلُ يُوقِعُ نَفْسَهُ * مَتَعَمِّدًا فِيمَا يُبْذَلُهُ
وَالْحُرُّ يَكْرِمُ نَفْسَهُ * بِالصَّفْحِ عَمَّنْ لَا يُجِلُّهُ

وقال أبو نواس يمدح الأمين :

صَبِيتُ عَلَى الْأَمِينِ ثِيَابَ مَدْحِي * فَكُلُّ النَّاسِ حَسَنٌ وَاسْتِجَادَا
وَلَوْلَا فَضْلُهُ مَا جَادَ شِعْرِي * وَلَا أَعْطَنِي الْفِطْرُنُ الْقِيَادَا
وَقَالُوا قَدْ أَجَدْتَ فَقُلْتُ إِنِّي * وَجَدْتُ الْقَوْلَ يُمْكِنُنِي بِفَادَا

ومن نحرياته :

ذَكَرَ الصُّبُوحَ بِسُحْرَةِ فَارَتَا حَا * وَأَمْسَلَهُ دِيكَ الصَّبَاحَ صَبَا حَا
أَوْفَى عَلَى شَرَفِ الْجِدَارِ بِسُدْفَةٍ * غَرِذَا يَصْفُقُ بِالْجَنَاحِ جَنَا حَا
فَأِدِرْ صَبَاحَكَ بِالصُّبُوحِ وَلَا تَكُنْ * كَسُوفَيْنِ غَدَا عَلِيكَ شَحَا حَا
إِنَّ الصُّبُوحَ جَلَاءُ كُلِّ مَحَر * بَدَرْتُ يَدَاهُ بِكَاسِهِ الْإِصْبَا حَا
وَحَيْدِينَ لَذَاتِ مَعَلِّ صَاحِبِ * تَفْتَاتُ مِنْهُ فَكَاهَةٌ وَمَزَا حَا
نَهْنَهُ وَاللَّيْلُ مَلْتَبَسٌ بِهِ * وَأَزْحَتْ عَنْهُ نَعَاسُهُ فَانْزَا حَا
قَالَ ابْنُ أَبِي الْمُبَارَكِ ، قُلْتُ لَهُ أَتَبْدُ * حَسَنِي وَحَسْبُكَ ضَوْؤُهَا مَصْبَا حَا
فَسَكَبْتُ مِنْهَا فِي الزَّجَاجَةِ شَرْبَةً * كَانَتْ لَهُ حَقِّي الصَّبَاحَ صَبَا حَا

من قهوة جاءتك قبل مزاجها * عطلاً فألبسها المزاج وشاحاً
شك الزال فؤادها فكأنها * أهدت إليك بريحتها نفاحاً
صفراء تفرس النفوس فلا ترى * منها بهن سوى السبات جراحاً

ومنها :

لا تترك ليلى ولا تطرب الى همد * وأشرب على الورد من حمراء كالورد
كأساً اذا انحدرت في حلق شاربها * أجدته حمرتها في العين والحد
فالخمر يا قوته والكأس لؤلؤة * من كف لؤلؤة مشوقة القدد
تسقيك من طرفها حمرا ومن يدها * حمرا فاك من سكرين من بد
لى نشوتان وللندمان واحدة * شئ خصصت به من دونهم وحدي

كان الأصمعي يفضل أبا نواس على شعراء زمانه بهذه القصيدة :

أما ترى الشمس حلت الحمال * وطاب وقت الزمان واعتدلاً
وغنت الطير بعد عجمتها * واستوفت الخمر حولها كمالاً
واكتست الأرض من زخارفها * وشى ثياب نخاله حلالاً
فاشرب على جدة الزمان فقد * أصبح وجه الزمان مقبلاً
من قهوة تذهب الهموم فلا * أرهب فيها الملام والعدلاً
كرخية ترك الطويل من العيد * ش قصيراً وتبسط الأملا
تلمع لمع السراب في قدح الـ * مقوم اذا ما حباها اتصلا
يقول صرّف اذا مزجت له * من لم يكن للكثير محتملا
فسق هذا بقدر طاقته * وأحمل على ذا بقدر ما احتملا
نحنا بشيئين من طبائعها * حسن وطيب ترى به المشلا

كان أبو نواس لا يُستَشَدُّ شيئاً من شعره إلا أنشد هذه القصيدة :

وَحَيْمَةٌ نَاطُورٌ بِرَأْسِ مُنِيفَةٍ * تَهْمُ يَدًا مِنْ رَامِهَا بَزْلِيلٍ ^(٢)
 إِذَا عَارَضَتْهَا الشَّمْسُ فَأَظْلَامُهَا * وَإِنْ وَاجَهَتْهَا آذَنْتْ بِدُخُوبِ
 حَظَطْنَا بِهَا الْأُنْقَالَ فَلْهِجْرَةٍ ^(٣) * عُبُورِيَّةٌ تُذَكِّي بَغِيرَ قَتِيلِ
 تَأْتَتْ قَلِيلًا ثُمَّ فَاءَتْ بِمَذْقَةٍ * مِنْ الظِّلِّ فِي رَثِّ الْأَبَاءِ ضَمِيلِ ^(٤)
 كَأَنَّا لَدَيْهَا بَيْنَ عِطْفَى نِعَامَةٍ * جَفَا زَوْرُهَا عَنْ مَبْرَكٍ وَمَقِيلِ
 حَلَبْتُ لِأَصْحَابِي بِهَا دِرَّةَ الصَّبَا * بِصَهْبَاءٍ مِنْ مَاءِ الْكُرُومِ شُمُولِ
 إِذَا مَا أُنْتُ دُونَ اللَّهِاءِ مِنَ الْفَقَى * دَعَا هُمُّهُ مِنْ صَدْرِهِ بِرَحِيلِ
 فَلَمَّا تَوَفَّى الشَّمْسَ جَنَحَ مِنَ الدُّجَى * نَصَابِيْتُ وَأَسْتَجَمَلْتُ غَيْرَ جَمِيلِ
 وَعَاطَيْتُ مِنْ أَهْوَى الْحَدِيثِ كَمَا بَدَا * وَذَلَلْتُ صَعْبًا كَانَ غَيْرَ ذَلِيلِ
 فَنَعَى وَقَدْ وَسَدْتُ يُسْرَى خَدَّهُ * أَلَا رَبِّمَا طَالِبْتُ غَيْرَ مُنِيلِ
 وَأَنْزَلْتُ حَاجَاتِي بِتَهَقُّوِيْ مَسَاعِدِ * وَإِنْ كَانَ أَدْنَى صَاحِبِ وَخَلِيلِ
 وَأَصْبَحْتُ أَلْحَى السَّكْرَ وَالسُّكْرَ مُحْسِنٌ * أَلَا رَبِّ إِحْسَانٍ عَلَيْكَ ثَقِيلِ
 كَفَى حَزَنًا أَنْ الْجَوَادَ مَقْتَرٌ * عَلَيْهِ وَلَا مَعْرُوفَ عِنْدَ بَحِيلِ
 سَأْبَغِي الْغَنَى إِمَّا جَلِيسَ خَلِيفَةٍ * يَقُومُ سِوَاءِ أَوْ خَيْفَ سَبِيلِ
 بِكُلِّ فِتْنَى لَا يُسْتَطَارُ جَنَانُهُ * إِذَا نَوَّهَ الرَّحْفَانِ بِاسْمِ قَتِيلِ
 لِنَحْمَسَ مَالِ اللَّهِ مِنْ كُلِّ فَاجِرٍ * أُنْمِي بَطْنَةَ اللَّطِيَّاتِ أَكُولِ
 أَلَمْ تَرَأِ الْمَالَ عَوْنٌ عَلَى النَّدَى * وَلَيْسَ جَوَادٌ مَقْتَرٌ كَبْخِيلِ

(١) الناطور : حافظ النخل والكرم والزرع وفي البارع : الناطر والناطور بالطاء المهملة حافظ الزرع ، من كلام أهل السواد وليس عربي محض . (٢) الزليل مصدر كالزلل . (٣) أى منزى هاجرة ، وعبرية نسبها الى الشعرى العبور وأيام طلوعها أيام الحر الشديد . (٤) يعنى الشمس ، أى توقفت فى البحر عند زوالها . وفاءت بمذقة ، أى دخلت عليهم من تلك الخيمة الخلقة التى ثبتت على الأبواء الضعيف من القصب الرث فلم تقو الشمس وعليهم لم تمنعهم الخيمة بستر قوى فيصير ظلا ولكنه شمس وظل ، فشبهت بالمذوق من اللبن ، أى المزوج .

فإن استريد أنشد هذه القصيدة الأخرى :

كان الشباب مطية الجهل * ومحسن الضحكات والمزحل
كان الجمال إذا أردت به * ومشيت أخطر صيت النعل
كان البليغ إذا نطق به * وأصاحت الأذان للملي
كان المشفق في مآربه * عند الفتاة ومدرك التبيل
والآمرى حتى إذا عزمت * نفسي أعان رى بالفعل
فالآن صرت إلى مقاربة * وحططت عن ظهر الصبار حلي
والراح أهواها وإن رزأت * ببلغ المماش وقللت فضلي
صفراء مجدها مرآزبها * جأت عن النظراء والمثيل
ذخرت لآدم قبل خلقته * فتقدمته بخطوة القبل
فأناك شيء لا تلاميسه * إلا بحسن غير يزة العقل
فترود منها العين في بشر * حر الصفيحة ناصع سهل
فاذا علاها الماء ألبسها * حباً شبيهة جلاجل العجل
حتى إذا سكنت جوائحها * خطت بمثل أكارع القمل
خطين من شئ ومجتمع * غفيل من الإعجام والشكل
فاعذر أخاك فإنه رجل * مرنت مسامحه على العذل

ومن طيب شعره، والشطر الأول من القصيدة لفظ ابن الدمينه :

أعاذل ما على وجهي قُتُوم * ولا عرضي لأوب من يسوم
يفضني على الفتيان أنى * أيت فلا ألام ولا ألوم
أعاذل إن يكن برداي رثا * فلا يمدك بينهما كريم
شقيقت من الصبا واشتق منى * كما اشتقت من الكرم الكروم
فلست أسوم للذات نفسي * مياومة كما دفع الغريم

ومتصّلٍ بأسباب المعالي * له في كل مكرمة قديمُ
 رفعتُ له النداءَ بقُمْ فخذها * وقد أخذتُ مطالعها النجومُ
 بتفديّةٍ تزال النفسُ فيها * ومُتمّنتن الخسولةُ والعمومُ
 فقام وقمتُ من أخوين هابجا * على طربٍ وليّهما بهيمُ
 أجزّ الزُّق وهو يحترّ رجلا * يحور به النعاسُ ويستقيمُ
 سَلِ النَّدمان ما أولته منها * وسلّها ما احتوى منها الكريمُ
 كلا الشخصين متصّيفٌ ولكن * قضتُ وطراَ وذا منها سقيمُ

وقال :

إني صرفتُ الطوى الى قَرير * لم تبسّذه العيونُ بالنظرِ
 اذا تأملتّه تعظّمك آلا * بإقرار أنه من البَشيرِ

ومن قـوله :

يا شقيقَ النفسِ من حَكَم * نمتَ عن ليلى ولم أنمِ
 فأسقني البكر الى آختمرت * بخمار الشيبِ في الرّحمِ
 نمتَ أنصاتِ الشباب لها * بعد ما جازتْ مدى الهرمِ
 فهمى لليوم التّقى بُزِلت * وهى ترُبُّ الدهيرِ في القِدَمِ
 عتقتُ حقّ لو اتصلتُ * بلسانِ ناطقٍ وقَمِ
 لا تحبّتْ في القومِ ماثلةً * ثم قصّتْ قصّةَ الأُمِ
 فرعتها بالمزاج يَدُ * خُلقتُ للسيفِ والقلمِ
 في ندأى سادة زُهَير * أخذوا اللذاتِ من أُمِ
 فتمشّتْ في مفاصلهم * كتمشّى البرء في السّقمِ
 فعلتُ في البيتِ اذ مُزِجَت * مثلَ فعلِ الصّبحِ في الطّلمِ
 فاهتدى سارى الظلام بها * كاهتداء السّفَرِ بالعَلَمِ

ومن طرديات أبي نواس في صفة الكلب :

أنعتُ كلباً أهله من كده * قد سَعِدَتْ جُودُهُمْ بِجَدِّه
فكلَّ خيرٍ عندهم من عنده * وكلَّ رِفْدٍ نالهم من رِفْدِه
يظلُّ مولاه له كعبده * بيتُ أدنى صاحبٍ من مهده
ولمِ عرى جلله ببرده * ذا غُرَّةٍ محجَّلا بزنده
تلذُّ منه العينُ حسنَ قدِّه * يا حُسْنَ شِدْقِيهِ وطولَ قدِّه
تلقَى الطبَّاءُ عتياً من طرده * يشربُ كأساً شَدها من شَدِّه
* يا لك من كلبٍ نسيجٍ وحده *

أبو نواس وجنان

قال أبو الفرج : كانت جنانُ هذه جارية آل عبد الوهاب بن عبد المجيد الثَّقَفِي ، وكانت حلوةً جميلةً المنظر أديبةً ، ويقال : إن أبا نواس لم يَصْدُقْ في حبِّ امرأةٍ غيرها ، وقيل له يوماً إن جنانَ قد عزمْتُ على الحجِّ ، فكان هذا سببَ حجه وقال : أما والله لا يفوتني المسيرُ معها والحجُّ عامي هذا إن أقامت على عزيمتها ، وقال وقد حج وعاد :

ألم تر أننى أفنيتُ عمرى * بمطلبها ومطلبها عسيرُ
فلما لم أجِدْ سبباً إليها * يقربنى وأعيثنى الأمورُ
حجَّجتُ وقلتُ قد حجَّجتُ جنانُ * فيجمعني وإياها المسيرُ

قال مَنْ شَهِدَهُ حين حجَّ مع جنان وقد أحرم : لما جَنَّهُ الليلُ جعل يابى بشعرٍ ويحدو به
ويطرب ، فغنى به كلُّ من سمعه وهو قوله :

الهنأ ما أعد لك * مَلِكٌ كلُّ من ملكَ
لبيك قد لبَّيتُ لك * لبيك إن الحمدَ لك
والملك لا شريك لك * والليل لما أن حلكَ

والساجحات في الفلك * على مجارى المأسلك
 ما خاب عبد أملك * أنت له حيث سلك
 لولاك يا رب هلك * كل نبى وملك
 وكل من أهل لك * سبح أو لى فلك
 يا مخطئ ما أغفلك * عجل وبادر أجلك
 واختم بخير عملك * لبيك ان الملك لك
 والحمد والنعمة لك * والعز لا شريك لك

وفيه يقول :

جفن عيني قد كاديس * قط من طوبى ما اختلج
 وفؤادى من حرّ حب * بك والهجر قد نضج
 خبرنى فدتك نفد * سى وأهلى متى الفرج
 كان ميعادنا خرو * ج زياد فقد خرج
 أنت من قتل عائذ * بك فى أضييق الحرج

قال الأصفهاني : قال محمد بن ابراهيم بن كثير الصوفى : دخلنا على أبى نواس نعوده
 فى علمته التى مات فيها ، فقال له على بن صالح الهاشمى : يا أبا على ، أنت فى أول يوم من أيام
 الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا ، وبينك وبين الله عز وجل هنأت ، فتب الى الله عز وجل ،
 فبكى ساعة ثم قال : ساندونى ساندونى ، ثم قال : أأخوف بالله عز وجل وقد حدثنى حماد
 ابن مسلم عن زيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « لكل نبى شفاعَةٌ وإنى اختبأتُ شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى يوم القيامة » أفترانى
 لا أكون منهم ؟

ومن قوله في مرض موته :

دَبَّ فِي السَّقَامِ عُلُوًّا وَسُفْلًا . وَأَرَانِي أَمُوتُ عُضْوًا فُعُضْوًا
 لَيْسَ تَمِضِي مِنْ لَحْظَةٍ بِي إِلَّا * نَقَصَتْ بِي بِرُّهَا فِي جُرُوءًا
 ذَهَبَتْ جِدَّتِي بِحَاجَةِ نَفْسِي * وَتَطَلَّبْتُ طَاعَةَ اللَّهِ نِضْوًا
 هَفَفَ نَفْسِي عَلَى لَيْالٍ وَأَيَّامٍ * مِ تَجَاوَزْتُهُنَّ لِعِبَاءٍ وَلَهْوًا
 قَدْ أَصَانَا كُلَّ الْإِسَاءَةِ فَالَلَا . * بِهِمْ صَفَحًا عَنَّا وَغَفَرًا وَعَفْوًا

ثم قال :

شِعْرِي أَتَاكَ مِنْ لَفْظِ مَيِّتٍ * صَارَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَقْفًا
 قَدْ بَرَتْ جِسْمَهُ الْخَوَادِثُ حَتَّى * كَادَ عَنْ عَيْنِ الْخَلَائِقِ يَخْفَى
 لَوْ تَأَمَّلْتَنِي لَتُبْصِرَ وَجْهِي * لَمْ تَبْنِ مِنْ كِتَابِ وَجْهِي حَرْفًا
 وَلَكَّرْتَ طَرَفَ عَيْنِكَ فِيمَنْ * قَدْ بَرَاهَ السَّقَامُ حَتَّى تَعْنَى

وكان عمر أبي نواس تسعا وخمسين سنة ، وكانت وفاته قبل دخول المأمون مدينة

السلام بست سنين (سنة ١٩٨) .

٢ - العتّابي^(١)

قال أحمد بن سَهْل: تذاكرنا شعرَ العتّابي فقال بعضنا: فيه تكلف، ونَصَره بعضنا،

فقال: شيخ حاضر، ويحكم! أيقال إن في شعره تكلفا وهو القائل:

رُسُلُ الضميرِ إليك تَنزِي * بالشوقِ ظالِمَةً وَحَسَرَى
مُتَرْجِّياتٍ ما يَلِي * نَ على الوَجانِ بعدَ مَسَرَى
ما جَفَّ للعَيْنينِ بع * سَدَكِ يَاقِرِ العَيْنِ بَحَرَى
فاسلَمَ سَلِمَتَ مَبْرَأ * من صَبَوِي أبدأ مُعَرَى

(١) هو كلثوم بن عمرو بن أيوب العتّابي التغلبي من ولد عتاب بن أسيد ثم من بني تغلب بن وائل، شاعر مترسل بليغ مطبوع متصرف في فنون الشعر مقدّم، من شعراء الدولة العباسية، وكان منقطعا إلى البرامكة فوصفه للرّشيد ووصلوه به، فبلغ عنده كل مبلغ وعظمت هوائده مه.

وكان حسن الاعتذار في شعره ورسائله وله مصنفات في المنطق والأدب واللغة وكان يقيم في رأس عين بعيدا عن دور الخلفاء والأمراء. وبلغ الرّشيد قصيدة قالها فأعجب بها فطالب بإشخاصه إليه بفاء وماليه قيص غليظ وفروة وخف، وعلى كتفه ملحة حافية بغير سراويل، فلما رفع الخبر بقدهه إلى الرّشيد أمر بأن تفرش له حجرة وتقام له وظيفة ففعلوا، فكانت المائدة إذا قدّمت إليه أخذها رقاقة ولها وخلط الملح بالتراب فأكلها، فإذا كان وقت النوم نام على الأرض، والخدم يتفقّدونه ويتمجّبون من فعله. وسأل الرّشيد عنه فأخبروه فأمر بطرده فخرج حتى أتى يحيى بن سعيد العقيلي وهو في منزله فسلم عليه وانتسب له فرحب به وقال له «ارتفع» فقال «لم آتلك للجلوس» قال «فا حاحتك» قال «دابة أبلغ عليها إلى رأس عين» فقال: يا غلام، أعطه الفرس الفلاني: فقال: لا حاجة لي في ذلك ولكن تأمر أن تشتري لي دابة أتبلغ عليها: فقال للغلام «امض معه فابتع له ما يريد» فضى معه فعدل به العتّابي إلى سوق الحبر فقال للغلام: إنما أمرني أن ابتاع لك دابة: فقال له: أنه أرسلك وهي ولم يرسلني معك فان عملت ما أريد والا انصرف: فضى معه فاشتري حمارا بمائة ونحسين درهما وقال: ادفع إليه ثمنه: فدفعه إليه فركب الحمار عريا بمرشحة عليه وبرذة وساقاه مكشوفتان، فقال له يحيى بن سعيد «فضحتني! أمثلي يحمل مثلك على هذا!» فضحك وقال «ما رأيت قدرك يستوجب أكثر من ذلك» ومضى إلى رأس عين.

توفي سنة ٢٢٠ هـ وتجد أحباره في الأغاني (ج ١٢ ص ٢) وفوات الوفيات (ج ٢ ص ١٣٧) .
(٢) أي متبلمات بالقليل حتى يصلن إليك .

إِن الصَّبَابَةَ لَمْ تَرَغْ * مَنَّى سَوَى عَظِيمٍ مُبَرَّى
وَمَدَامِيعَ عِبْرَى عَلَى * كَبِيدٍ عَلَيْكَ الدَّهْرَ حَرَّى

أُوَيَقَالُ إِنَّهُ مُتَكَفِّفٌ وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ :

فَلَوْ كَانَ لِلشُّكْرِ شَخْصٌ يَبِينُ * إِذَا مَا تَأَمَّلَهُ النَّاضِرُ
لَمَثَلْتُهُ لَكَ حَقِّي تَرَاهُ * لَتَعْلَمَ أَنَّي أَمْرٌ شَاكِرٌ

وَجَدَ الرَّشِيدُ عَلَى الْعَتَابِيِّ فِدْخَلَ سِرًّا مَعَ الْمُتَظَلِّمِينَ بِغَيْرِ إِذْنٍ ، فَثَلَّ بَيْنَ يَدَيِ الرَّشِيدِ وَقَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ أَذْنَبْتُ النَّاسَ لَكَ وَلِنَفْسِي فِيكَ ، وَرَدَّنِي أَبْتِلَاؤُهُمْ إِلَى شُرْكَكَ ، وَمَا مَعَ تَذَكُّرِكَ قَنَاعَةَ بَغِيرِكَ ، وَلِنِعَمِ الصَّائِنُ لِنَفْسِي كُنْتُ لَوْ أَعَانَنِي عَلَيْكَ الصَّبْرُ ، وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ :

أَخِضْنِي الْمَقَامَ الْعَمْرِيَّ إِنْ كَانَ غَرَّتْنِي * سَسَنَّا حُلْبِي أَوْ زَلَّتِ الْقَدَمَانِ
أَتَرَكْنِي جَذَبَ الْمَعِيشَةِ مُقْتَرًا * وَكَفَّاكَ مِنْ مَاءِ النَّدَى تِكْفَانِ
وَتَجْعَلُنِي سَهْمَ الْمَطَامِعِ بَعْدَ مَا * بَلَّغْتَ يَمِينِي بِالنَّدَى وَلِسَانِي
فَأَعْجَبَ الرَّشِيدَ قَوْلُهُ ، وَنَحَرَ حِجْلَهُ عَلَيْهِ الْخَلْعَ ، وَقَدْ أَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ .

كَلَّمَ الْعَتَابِيُّ بِحَيٍّ بَنَ خَالِدٌ فِي حَاجَةٍ بِكَلِمَاتٍ قَلِيلَةٍ ، فَقَالَ لَهُ بِحَيٍّ : لَقَدْ نَزُرُ كَلَامُكَ الْيَوْمَ وَقَلَّ ، فَقَالَ لَهُ : وَكَيْفَ لَا يَقَلُّ وَقَدْ تَكْنَفْنِي ذَلَّ الْمَسْأَلَةِ وَحَيْرَةُ الطَّلَبِ وَخَوْفُ الرَّدِّ ؟ فَقَالَ :

وَاللَّهِ لَئِنْ قَلَّ كَلَامُكَ لَقَدْ كَثُرَتْ فَوَائِدُهُ ، وَقَضَى حَاجَتَهُ .

قَالَ بِحَيٍّ بَنَ خَالِدَ الْبَرْمَكِيِّ لَوْلَا : إِنْ قَدَّرْتُمْ أَنْ تَكْتُبُوا أَنْفَاسَ كُلِّ نَفْسٍ مِنْ عَمْرِو الْعَتَابِيِّ فَضْلًا عَنْ رِسَائِلِهِ وَشَعْرِهِ ، فَلَنْ تَرَوْا أَبَدًا مِثْلَهُ .

وَقَفَّ الْعَتَابِيُّ بِيَابِ الْمُؤْمِنِينَ يَلْتَمِسُ الْوَصُولَ إِلَيْهِ ، فَصَادَفَ بِحَيٍّ بَنَ أَكْثَمَ جَالِسًا يَنْتَظِرُ الْإِذْنَ ، فَقَالَ لَهُ : إِنْ رَأَيْتَ أَعَزَّكَ اللَّهُ أَنْ تَذْكُرَ أَمْرِي لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دَخَلْتَ فَافْعَلْ ، قَالَ لَهُ : لَسْتُ أَعَزَّكَ اللَّهُ بِحَاجَتِهِ ، قَالَ : فَإِنْ لَمْ تَكُنْ حَاجِبًا فَقَدْ يَفْعَلْ مِثْلُكَ مَا سَأَلْتُ ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ زَكَاةً ، وَجَعَلَ زَكَاةَ الْمَالِ رِفْدَ الْمُسْتَعِينِ ، وَزَكَاةَ الْجَاهِ إِظَاهَةَ الْمُلْهَوفِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَقِيلٌ عَلَيْكَ بِالزِّيَادَةِ إِنْ شَكَرْتَ ، أَوِ التَّنْغِيرِ إِنْ كَفَرْتَ .

وإني لك اليوم أصلح منك لنفسك ، لأنني أدعوك الى ازدياد نعمتك وأنت تأتي ، فقال له يحيى : أفعل وكرامة ، ونخرج الإذن ليحيى ، فلما دخل لم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن استأذن المأمون للعتابي ، فأذن له .

وقيل له : لو تزوجت ، فقال : إني وجدت مكابدة العقبة أسير على من الاحتيال لمصلحة العيال .

قال دُعيل : ما حسدتُ أحدا قط على شعركا حسدتُ العتابي على قوله :

هَيْبَةُ الإِخْوَانِ قَاطِعَةٌ * لأننى الحاجات عن طلبه

فإذا ما هَيْبَتَ ذَا أَمَلٍ * مات ما أَمَلْتَ من سببه

كان العتابي جالسا ذات يوم ينظر في كتاب ، فتربه بعض جيرانه ، فقال : أيش ينفع العلم والأدب من لا مال له ؟ فأشدد العتابي قوله :

يَا قَاتِلَ اللَّهِ أَقْوَامًا إِذَا تَقَفُّوا * ذَا اللَّبِّ يَنْظُرُ فِي الْآدَابِ وَالْحِكَمِ

قَالُوا وَلَيْسَ بِهِمْ إِلَّا نَفَاسُهُ^(١) * أَنَافِعُ ذَا مِنْ الْإِقْتَارِ وَالْعُدْمِ

وَلَيْسَ يَدْرُونَ مَا الْحِظُّ الَّذِي حُرُمُوا * لِحَاهِمُ اللَّهِ — مِنْ عِلْمٍ وَمَنْ فَهَمِ

ومن قوله أيضا :

لَئِنْ كَانَتْ الدُّنْيَا أَنَا لَتُكَ ثَرَوَةٌ * فَأَصْبَحْتَ ذَا يُسْرِ وَقَدْ كُنْتَ ذَا عُسْرِ

لَقَدْ كَشَفَ الْإِثْرَاءُ مِنْكَ مَخَازِيَا * مِنْ اللُّؤْمِ كَانَتْ تَحْتَ سِتْرِ مِنَ الْفَقْرِ

وقال أيضا :

رَحَلَ الرَّجَاءُ إِلَيْكَ مَغْتَرِبًا * حُسِدَتْ عَلَيْهِ نَوَائِبُ الدَّهْرِ

رَدَّتْ إِلَيْكَ نَدَامَتِي أَمَلِي * وَثَبَا إِلَيْكَ عِنَانُهُ شَكْرِي

وَجَعَلْتُ عَتَبَكَ عَتَبَ مَوْعِظَةٍ * وَرَجَاءَ عَفْوِكَ مَتْنِي أَمَلِي

لما سعى منصور النمرى بالعتابي الى الرشيد آغتاظ عليه فطلبه ، فسأله جعفر بن يحيى

عنه مدة وجعل يستعطفه عليه حتى آستل ما في نفسه وأمنه ، فقال يمدح جعفر بن يحيى :

ما زلتُ في غَمَرَاتِ المِسْوَتِ مُطَرِّحًا * قد ضاق عني فسيحُ الأرض من حيلي
ولم تزل دائبًا تسمى بلطفك لي * حتى آخلتستَ حياتي من يدَيَّ أَجَلِي
عاد عبد الله بن طاهر وإسحاق بن إبراهيم بن مُصْعَبِ كَثُومِ بن عمرو العتّابي في علة
أعتلّها، فقال الناس : هذه خَطَرَةٌ خَطَرَتْ ، فبلغ ذلك العتّابي ، فكتب الى عبد الله بن
طاهر :

قالوا الزيارة خَطَرَةٌ خَطَرَتْ * ويحارُّ بِرِّكَ ليس بالخطر
أبطلُ مقالتهم بثانية * تستنقِدُ المعروف من شكري
فلما بلغت أبياتهُ عبد الله بن طاهر ضحك من قوله وركب هو وإسحاق فعاداه مرة
ثانية .

كانت له امرأة من باهلة ، فلما مضى الى رأس عَيْنٍ قالت له : هذا منصور النمرى :
قد أخذ الأموال فحلّى نساءه وبني داره وأشترى ضياعاً وأنت ههنا كما ترى ، فأنشأ يقول :
تلوم على ترك الغنى باهليّة * ذوى الفقر عنها كلّ طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن في الثرى * مقلّدة أعناقها بالقلائد
أسرك أنى نلت ما نال جعفر * من العيش أو ما نال يحيى بن خالد
وأنت أمير المؤمنين أغصني * مخصمهما بالمرهفات البوارد
رأيت رفيعات الأمور مشوبة * بمستودعات في بطون الأساود
دعيني تَجَنُّى ميتينى مطمئنة * ولم اتجشّم هول تلك الموارد

لما قَدِمَ العتّابي مدينة السلام على المأمون أذن له ، فدخل عليه وعنده إسحاق بن إبراهيم
الموصلى ، وكان العتّابي شيخاً جليلاً نبيلاً ، فسلم فردّ عليه وأدناه وقربه حتى قُرِبَ منه ، فقبل
يده ، ثم أمره بالجلوس بفلس ، وأقبل عليه يسأله عن حاله وهو يجيبه بلسان دُلّاق طُلّاق ،
فاستظرف المأمون ذلك وأقبل عليه بالمداحية والمزاح ، فظن الشيخ أنه استخفّ به ، فقال :
يا أمير المؤمنين ، الإيناس قبل الإبتساس^(١) ، فاشتبه على المأمون قوله ، فنظر الى إسحاق مستفهما ،

(١) الإبتساس : دحرة الناقة الى الحلب .

فأوما إليه وغمزه على معناه حتى فهم، فقال: يا غلام، ألف دينار، فأتي بذلك، فوضع بين يدي العتّابي وأخذوا في الحديث، وغمز المأمونُ إسحاقَ بن إبراهيم عليه، بفعل العتّابي لا يأخذ في شيء إلا عارضه إسحاق، فبقى العتّابي متعجبا، ثم قال: يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في سؤال هذا الشيخ عن اسمه؟ قال: نعم سل، فقال لإسحاق يا شيخ، من أنت وما اسمك؟ قال: أنا من الناس وأسمى كُلَّ بَصَلٍ، فتبسّم العتّابي وقال: أما أنت فعروف وأما الاسم فمُتَكْرٍ، فقال إسحاق: ما أقلّ إنصافك! أتتكرأن يكون اسمي كل بصل، واسمك كلثوم، وكلثوم من الأسماء، أوليس البصل أطيب من الثوم؟ فقال له العتّابي: لله ذلك! فما أَجَبَك، أتأذن لي يا أمير المؤمنين في أن أصله بما وصلتني به؟ فقال المأمون: بل ذلك موفّر عليك ونأمر له بمثله: فقال له إسحاق: أما إذ أقررت بهذه فتوهمني تجذني، فقال: ما أظنك إلا إسحاق الموصلي الذي يتناهى إلينا خبره، قال: أنا حيث ظننت، وأقبل عليه بالتحية والسلام، فقال المأمون — وقد طال الحديث بينهما —: أما إذ قد اتفقتما على المودة فانصرفا متنادمين، فانصرف العتّابي إلى منزل إسحاق فأقام عنده.

قال عثمان الورّاق: رأيت العتّابي يأكل خبزا على الطريق بسبب الشام، فقلت له: ويحك! أما تستحي؟ فقال لي: رأيت لو كنا في دار بها بقر كنت تستحي وتحشم أن تأكل وهي تراك؟ فقال: لا، قال: فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر، فقام فوعظ وقصّ ودعا حتى كثر الزحام عليه ثم قال لهم: روى لنا غير واحد أنه من بلغ لسانه أرنبه أنه لم يدخل النار، فما بقي أحد إلا أخرج لسانه يومئذ به نحو أرنبه أنه ويقدره حتى يبلغها أم لا، فلما تفرّقوا قال لي العتّابي: ألم أخبرك أنهم بقر؟

قال الفضل: رأيت العتّابي بين يدي المأمون وقد أسّ، فلما أراد القيام قام المأمون فأخذ بيده واعتمد الشيخ على المأمون، فما زال المأمون يُنمّضه رويدا رويدا حتى أقلّه فنمّض.

وكتب كلثوم بن عمرو العتّابي الى صديق له يستجديه :

أما بعد — أطل الله بقاءك وجعله يمتدّ بك الى رِضوانه والحنّة — فإنك كنت
عندنا روضة من رياض الكرم، تبهج النفوس بها، وتستريح القلوب اليها، وكنا نعيشها
من النجعة^(١) استتماماً لزهرتها، وشفقةً على خضرتها، وآذخارا لثمرتها، حتى أصابتنا سنة
كانت عندى قطعة من سني يوسف آشتدّ علينا كلبها^(٢)، وغابت قِطتها، وكذبنا غيومها،
وأخلفتنا بروقها، وفقدنا صالح الإخوان فيها، فانجبتك . وأنا بانتجاعي إياك شديد الشفقة
عليك، مع علمي بأنك موضع الرائد^(٣)، وأنت تغطي عين الحاسد . والله يعلم أني ما أعذك
إلا في حومة الأهل^(٤) . وأعلم أن الكريم اذا استحميا من إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير،
لم يعرف جوده ولم تظهر همته . وأنا أقول في ذلك :

إذا تكومت عن بذل القليل ولم * تقدر على سعة لم يظهر الجود
بث النوال ولا تمنعك قلة * فكل ما سدّ فقرا فهو محمود .

قيل فشأطره جميع ماله .

(١) النجعة : طلب الكلا في موضعه . (٢) الكلب : القحط وبلاء الشتاء ومرض يصيب
الكلاب . (٣) الرائد : الطالب . (٤) الحومة هنا : الجماعة والطائفة .

٣ - دَعْبِل^(١)

شاعر متقدم مطبوع هجاء خبيث اللسان، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذواتهاة أحسن اليه أم لم يحسن، ولا أفلت منه كبير أو صغير .
 وكان دعبل من الشيعة المشهورين بالميل الى على صلوات الله عليه . وقصيدته : «مدارس
 آيات خات من تلاوة» من أحسن الشعر وفانر المدايح المقلوة في أهل البيت عليهم السلام،
 وقصدها أبا على بن موسى الرضا بنخراسان، فأعطاه عشرة آلاف درهم من الدراهم المضروبة
 باسمه وخلع عليه خلعة من ثيابه، فأعطاه بها أهل قم ثلاثين ألف درهم، فلم يبيعها فقطعوا
 عليه الطريق فأخذوها، فقال لهم: إنما تُراد لله عز وجل وهي محرمة عليكم، فدفعوا اليه
 ثلاثين ألف درهم، فخلف ألا يبيعها أو يعطوه بعضها ليكون في كفنه، فأعطوه فردكم،
 فكان من أكفائه .

قال ابراهيم بن المهدي لأمون قولاً في دعبل يحترسه عليه؛ فضحك المأمون وقال :
 إنما تحترضني عليه لقوله فيك :

يا معشر الأجناد لا تقنطوا * وأرضوا بما كان ولا تسخطوا
 فسوف تُعطون حنينية^(٢) * يلتذها الأمرد والأشمت
 والمعبدات^(٣) لقوادكم * لا تدخل الكيس ولا تُربط
 وهكذا يرزق قوادّه * خليفة مصحفه الربط

(١) هو دعبل بن علي بن رزين من نخاعة، أصله من الكوفة وجاء بغداد بطلب من الرشيد . وهو شاعر
 مطبوع هجاء خبيث اللسان، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا وزرائهم ولا أولادهم ولا ذواتهاة أحسن اليه أو لم يحسن،
 ولا أفلت منه كبير أو صغير، فكان الناس يحافونه ويتقونه حتى المأمون فإنه هجاء شديداً واحتمل ذلك منه .
 توفي سنة ٢٤٦ هـ . وتجد أخباره في الاغانى ج ١٨ ص ٢٩ وابن خلكان ج ١ ص ١٧٨ والشعر والشعراء
 ص ٣٩٥ والفهرست (ص ١٦١) . (٢) يريد أصواتاً منسوبة الى حنين الحيرى المغنى .
 (٣) يريد أصواتاً منسوبة الى معبد المغنى .

قد ختم الصَّكَّ بأرزاقيكم * وصحَّح العزمَ فلا تسخطوا
بيعةَ ابراهيم مشؤومةً * يُقتل فيها الخلق أو يقحطوا

فقتل له ابراهيم : فقد والله هلاك أنت يا أمير المؤمنين ؛ فقال : دع هذا عنك فقد عفوت عنه في هجائه إياي لقوله هذا، وضحك . ثم دخل أبو عباد، فلما رآه المأمون من بُعد قال لإبراهيم : دعبل يحسر على أبي عباد في الهجاء ويحجم عن أحد! فقال له : وكان أبا عباد أبسط يدا منك يا أمير المؤمنين ؛ قال : لا ! ولكنك حديد جاهل لا يؤمن، وأنا أحلم وأصفح، والله ما رأيتُ أبا عباد مقبلا إلا أضحكني قول دعبل فيه :

أولى الأمور بضیعةٍ وفساد * أمرٌ يدبره أبو عباد
نحرَّق على جلسائه فكأنهم * حضروا لمحمة ويوم جلال
يسطو على كتابه يدواته * فضمخ بدم ونضح مداد
وكانه من دير هرقل مفلت * حرد يحتر سلاسل الأقياد
فاشدُّ أمير المؤمنين وثاقه * فأصح منه بقية الحداد
وكان «بقية» هذا مجنوناً في البهارستان .

قال أبو خالد الخزازي لدعبل : ويحك ! قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد ووترت الناس جميعاً، فأنت دهر لك كله شريد طريد هارب خائف، فلو كففت عن هذا وصرفت هذا الشر عن نفسك ! فقال : ويحك ! اني تأملتُ ما تقول فوجدت أكثر الناس لا يلتفع بهم إلا على الرهبة ، ولا يبالى الشاعر وإن كان يُجيدا إذا لم يُخف شره ، ولئن يتقيدك على عرضه أكثر ممن يرغب اليك في تشريفه ، وعبوبُ الناس أكثر من محاسنهم ، وليس كل من شرفته شرف ، ولا كل من وصفته بالحدود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه أنتفع بقولك ، فاذا رأك أوجعت عرض غيره وفضحتك آتقاك وخاف من مثل ما جرى على الآخر، ويحك يا أبا خالد ! إن الهجاء المقذع آخذٌ بضیع الشاعر من المديح المضرع ، فضحك أبو خالد وقال : هذا والله مقال من لا يموت حتف أنفه .

كان سببُ خروج دعبل من الكوفة أنه كان يتشطر وبصحب الشطار، نخرج هو ورجل من أجمع فيما بين العشاء والعتمّة، فجلسا على طريق رجل من الصّيارفة، وكان يروح كل ليلة بكيسه الى منزله، فلما طلع مقيلا اليهما وثبا اليه بخراجه وأخذ ما في كُبه، فاذا هي ثلاث رُمّانات في خرقة، ولم يكن كيسه ليلتئذ معه، ومات الرجل مكانه، وأسستردعبل وصاحبه وجَدَ أولياء الرجل في طلبهما وجَدَ السلطانُ في ذلك، فطال على دعبل الاستتار فاضطر الى أن هرب من الكوفة، فلما دخلها حتى لم يبق من أولياء الرجل أحد.

قال أحمد بن خالد: كنا يوما بدار صالح بن علي من عبد القيس ببغداد ومعنا جماعة من أصحابنا، فسقط على سطح البيت ديك طار من دار دعبل، فلما رأيناه قلنا: هذا صيّدنا، فأخذناه، فقال صالح: ما نصنع به؟ قلنا: نذبحه، فذبحناه وشوينا. ونخرج دعبل فسأل عن الديك فعرف أنه سقط في دار صالح، فطلبه منا فوجدناه وشربنا يومنا، فلما كان من الغد خرج دعبل فصلّى الغداة ثم جلس على باب المسجد— وكان ذلك المسجد مجمع الناس يجتمع فيه جماعة من العلماء ويتناهبهم الناس— فجلس دعبل على باب المسجد وقال:

أَسْرَ الْمُؤَذِّنَ صَالِحٌ وَضِيؤُهُ * أَسْرَ الْكَمَى هَفَا خِلَالِ الْمَاقِطِ

بَعَثُوا عَلَيْهِ بَنِيهِمْ وَبَنَاتِهِمْ * مِنْ بَيْنِ نَاتِفَةٍ وَأَنْخَرِ سَامِطِ

يَتَنَازَعُونَ كَأَنَّهُمْ قَدْ أَوْثَقُوا * خَاقَانُ أَوْ هَزَمُوا قِبَائِلَ نَاعِطِ^(١)

نَهَشُوهُ فَانْتَرَعَتْ لَهُ أَسْنَانُهُمْ * وَتَهَشَّمَتْ أَقْفَاؤُهُمْ بِالْحَائِطِ

فكتبها الناس عنه ومَضَوْا، فقال لى أبى، وقد رجع الى البيت: ويحكم! ضاقت عليكم المأكَل فلم تجدوا شيئا تأكلونه سوى ديك دعبل! ثم أنشدنا الشعر، وقال: لا تدع ديكا ولا دجاجة تقدر عليه إلا آشريته وبعثت به الى دعبل وإلا وقّعنا في لسانه، ففعلت ذلك. قال أحمد بن أبى كامل: كان دعبل ينشدي كثيرا هجاء له، فأقول له فيمن هذا؟ فيقول ما أستحقّه أحدٌ بعينه بعد، وليس له صاحب، فاذا وجد على رجل جعل ذلك الشعر فيه وذكر اسمه في الشعر.

(١) قبيلة من همدان، وأصله جبل نزلوا به ففسبوا اليه.

كان دعبل يختلف الى الفضل بن العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث، وهو خرجته وفهمه وأدبه، فظهر له منه جفاء وبلغه أنه يعيبه ويذكره وينال منه، فقال يهجوهُ :
يا بُؤس للفضل لو لم يأت ما عابَهُ * يستفرغ السَّم من صماء قِرْضَابَهُ
ما إن يزال وفيه العيبُ يجمعه * جهلا لأعراض أهل المجد عِيَابَهُ
إن عابني لم يعب إلا مؤدبه * ونفسه عاب لما عاب أَدَابَهُ
فكان كالكلب ضَرَاه مَكَلَبَهُ * لغيره فعدا فاصطاد كَلَابَهُ
كان دعبل يقول : ما كانت لأحد قط عندي مِنة إلا تَمَنَّتْ مَوْتَهُ .

كتب دعبل الى أبي نهشل بن حميد الطوسي قوله :
إنما العيشُ في مُنادمة الإخِوا * ن لا في الجلوس عند الكَماب
وبصرف كأنها أَلْسُنُ البر * قِ اذا استعرضت رقيق السحاب
إن تكونوا تركمُ لَذَّةَ العيد * ش حذار العِقاب يوم العقاب
فدعوني وما أَلَدَّ وأهوى * وأدفعوا بي في صدر يوم الحساب

قال محمد بن زكريا الفرغانى : سمعت دعبلا يقول فى كلام جرى «لَيْسَكَ» فأنكرته عليه ؛ فقال : دخل زيد الخيل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : «يا زيد ما وُصِفَ لى رجل إلا رأيتُه دون وصفه لَيْسَكَ» يريد غيرك .

قال عمرو بن مسعدة : حضرتُ أبا دُلف عند المأمون وقد قال له المأمون : أى شىء تروى لأخى خُزاعة يا قاسم ؟ فقال : وأى أخى خُزاعة يا أمير المؤمنين ؟ قال : ومن تعرف فيهم شاعرا ؟ فقال : أما من أنفُسهم فأبو الشَّيص ودعبل وابن أبي الشَّيص وداود بن أبى رزين ، وأما من مواليتهم فطاهر وأبنة عبد الله ، فقال : ومن عسى من هؤلاء أن يُسأل عن شعره سوى دعبل ! هات أى شىء عندك فيه ؟ فقال : وأى شىء أقول فى رجل لم يسلم عليه أهلُ بيته حتى هُجَّاهم ، فقرن إحسانهم بالإساءة وبذلهم بالمنع وجودهم بالبخل ، حتى جعل كل حسنة منهم بإزاء سيئة منه ؟ قال : حين يقول ماذا ؟ قال : حين يقول فى المطَّلب بن عبد الله

آبن مالك، وهو أصدق الناس له وأقربهم منه، وقد وفد إليه الى مصر فأعطاه الخزير
وولاه، ولم يمنعه ذلك أن قال فيه :

إِضْرِبْ نَدَى طَلْحَةِ الطَّلَحَاتِ مَتِيْدًا * بِأَوْمِ مَطْلَبٍ فِينَا وَكُنْ حَكَمًا

تُخْرِجُ نُرَاعَةً مِنْ لَوْمٍ وَمِنْ كَرَمٍ * فَلَا تَحْسَ لَهَا لَوْ مَا وَلَا كَرَمًا

فقال المأمون : قاتله الله ! ما أغوصه وأطفه وأدهاه، وجعل يضحك. ثم دخل عبد الله
آبن طاهر فقال : أى شىء تحفظ يا عبد الله لدعبل؟ فقال : أحفظ أبياتا له فى أهل بيت
أمير المؤمنين؛ قال : هاتها ويحك ! فأنشده :

سَقِيًّا وَرَعِيًّا لَأَيَّامِ الصَّبَابَاتِ * أَيَّامِ أَرْفُلٍ فِي أُنُوبٍ لَذَاتِي

أَيَّامِ غَصْنِي رَطِيْبٍ مِنْ لَيَّانَتِهِ * أَصْبُو إِلَى غَيْرِ جَارَاتٍ وَكُنَّاتِ

دَعِ عَنْكَ ذِكْرَ زَمَانٍ فَاتِ مَطْلَبُهُ * وَأَقْذِفْ بِرَحْلِكَ عَنْ مَتْنِ الْجَهَّالَاتِ

وَأَقْصِدْ بِكُلِّ مَدِيحٍ أَنْتَ قَائِلُهُ * نَحْنُ الْهُدَاةُ بَنَى بَيْتَ الْكَرَامَاتِ

فقال المأمون : إنه قد وجد والله مقالا فقال، ونال ببعيد ذكرهم ما لا يناله فى وصف غيرهم.

ومن قول دعبل وفيه غناء :

أَيُّ الشَّبَابِ وَأَيَّةُ سَلَكَا * لَا أَيْنَ يُطَلَبُ ضَلٌّ مِنْ هَلَكَا

لَا تَعِجْجِي يَا سَلَمَ مَنْ رَجُلٍ * ضَحِكُ الْمَشِيْبِ بِرَأْسِهِ فَبَكِي

يَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ يَوْمُكُمْ * يَا صَاحِبِي إِذَا دَمِي سَفِكََا

لَا تَأْخُذُوا بِظُلَامَتِي أَحَدًا * قَلْبِي وَطَرْفِي فِي دَمِي أَشْتَرَا

قال إبراهيم بن المدبر : لقيت دعبل بن على فقلت له : أنت أجسر الناس عندى

وأقدمهم حيث تقول :

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ سِيَوْفُهُمْ * قَتَلْتُ أَخَاكَ وَشَرَّفْتُكَ بِمَقْعَدِ

رَفَعُوا مَحَلَّكَ بَعْدَ طَوْلِ نَحْمُولِهِ * وَأَسْتَنْقِذُوكَ مِنَ الْحَضِيضِ الْأَوْهَدِ

وأولها :

أخذ المشيبُ من الشباب الأغيذ * والنائبُ من الأنام بمَرصد
فقال : يا أبا اسحاق ، أنا أحمل خَشْبِي منذ أربعين سنة ، فلا أجد من يصلبني عليها .

كان دعبل يخرج فيغيب سنين يدور الدنيا كلها ويرجع وقد أفاد وأثرى ، وكانت
الشراة والصعاليك يلقونه فلا يؤذونه ويؤاكلونه ويشاربونه ويبرون به ، وكان اذا لقيهم وضع
طعامه وشرا به ودعاهم اليه ودعا بغلاميه : ننف وشعف ، وكانا مغنيين ، فأقعدهما يغنيان
وسقاهم وشرب معهم وأنشداهم ، فكانوا قد عرفوه وألفوه لكثرة أسفاره ، وكانوا يواصلونه
ويصلونه . وأنشد دعبل لنفسه في بعد أسفاره :

حللت محلاً يقصر البرقُ دونه * ويعجز عنه الطيفُ أن يتجشأ

قال البحرى : دعبل بن على أشعر عندى من مسلم بن الوليد ، لأن كلام دعبل
أدخل في كلام العرب من كلام مسلم ، ومذهبه أشبه بمذاهبهم ؛ وكان يتعصب له .

كان المعتصم يُغض دعبلا لطول لسانه . وبلغ دعبلا أنه يريد اغتياله وقتله ، فهرب
الى الجبل ؛ وقال يهجو :

بكى ليشات الدين مكتئبٌ صب * وفاض بفرط الدمع من عينه غربُ
وقام إمام لم يكن ذا هداية * فليس له دين وليس له لب
وما كانت الأنبياء تأتي بمثله * يملك يوما أو تدين له العرب
ولكن كما قال الذين تتابعوا * من السلف الماضين اذ عظم الخطب
ملوك بنى العباس في الكُتُب سبعة * ولم تأتني عن ثامن لهم كُتب
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة * خيارٌ اذا عدوا وثامنهم كُتب
ولمى لأعلى كلبهم عنك رفعة * لأنك ذو ذنب وليس له ذنب
لقد ضاع ملك الناس اذ ساس ملوكهم * وصيفٌ وأشناس وقد عظم الكرب
وقضل بن مروان يُسلم ثامة * يظل لها الإسلام ليس له شعب

لمات المعتصم قال محمد بن عبد الملك الزيات يرثيه :

قد قلتُ إذ غيَّبوه وأنصرفوا * في خير قبر خير مدفون
لن يجبر الله أمةً فقدت * مثلك إلا بمثل هارون

فقال دعلج يعارضه :

قد قلتُ إذ غيَّبوه وأنصرفوا * في شر قبر شر مدفون
إذهب الى النار والعذاب فما * خلقتك إلا من الشياطين
مازلت حتى عقدت بيعة من * أضرت بالمسلمين والدين

وقال في ذلك وفي قيام الوائق :

الحمد لله لا صبر ولا جلد * ولا عزاء إذا أهل البلاء رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد * وأحرقام لم يفرح به أحد
ولقد أحسن في وصف سفر سافره ، فطال ذلك السفر عليه ، فقال فيه :

ألم يأن للسفر الذين تمحلوا * الى وطن قبل المات رجوع
فقلت ولم أملك سوابق عبدة * نطقن بما ضمت عليه ضلوع
تبين فكم دار تفرق شملها * وشمل شيت عاد وهو جميع
كذلك الليالي صرهن كما ترى * لكل أناس جاذبه وربييع

ثم قال : ما سافرت قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عيني في سفرى وهجرى ومسلقى
حتى أعود .

ومن قول دعلج وفيه غناء :

سرى طيف ليلي حين آن هبوب * وقضيت شوقا حين كاد يذوب
فلم أر مطروقا يحل برحلة * ولا طارقا يقيرى المني ويثيب

ومن قوله :

لقد عجت سلمي وذاك عجب * رأت بي شيئا عجته خطوب
وما شيتني كبرة غير أنى * بدهي به رأس الفطيم يشيب

وقال في صالح بن عطية الأحمم وكان من أفتح الناس وجهها، وخاطب فيها المعتصم :

قل للإمام إمام آل محمد * قول أمرئ حديب عليك تحام
أنكرت أن تفتزعك صنيعه * في صالح بن عطية الحجام
ليس الصنائع عنده بصنائع * لكنهن طوائف الإسلام
إضرب به جيش العدو فإنه * جيش من الطاعون واليرسام

قال أبو تمام : ما زال دعبل مائلا إلى مسلم بن الوليد مقرا بأستأذنيته، حتى ورد عليه
بجرجان بخفاء مسلم، وكان فيه بخل، فهجره دعبل وكتب إليه :

أبا تحلدي كنا عقيدي مودة * هوانا وقلبنا جميعا معا
أحوطك بالغيب الذي أنت حاطي * وأجزع إشفافا من أن تتوجعا
فصيرتني بعد انتكائك مني * لنفسى عليها أرهب الخلق أجمع
غششت الهوى حتى تداعت أصوله * بنا وأبتذلت الوصل حتى تقطعا
وأزلت من بين الجوانح والحشى * ذخيرة ود طالما قد تمنعا
فلا تلحني ليس لي فيك مطعم * تخزقت حتى لم أجد لك مرقعا
فهبك يميني استأكلت فقطعتها * وجشمت قلبي صبره فتشجعا
ثم تهاجرا فالتقيا بعد ذلك .

اجرى الرشيد على دعبل رزقا سنيا، فكان أول من حرّضه على قول الشعر، فوالله ما بلغه
أن الرشيد مات حتى كافأه على فعله من العطاء السنّي والغنى بعد الفقر والرفعة بعد الخمول
بأقبح مكافأة، وقال فيه يهجو من قصيدة مدح بها أهل البيت عليهم السلام :

وليس حي من الأحياء نعلمه * من ذى يمان ومن بكر ومن مضير
إلا وهم شركاء في دماهم * كما تشارك أيسار على جرد
قتل وأسروا وتحريق ومنهبة * فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
أرى أمة معذورين إن قتلوا * ولا أرى لبني العباس من حذر

أَرْبَعُ يُطُوسُ عَلَى الْقَبْرِ الزَّكِيِّ إِذَا * مَا كُنْتُ تَرَبِّعَ مِنْ دِينَ عَلَى وَطَرِ
قَبْرَانِ فِي طُوسٍ خَيْرُ النَّاسِ كُلِّهِمْ * وَقَبْرُ شَرِّهِمْ هَذَا مِنَ الْعِبَرِ
مَا يَنْفَعُ الرَّجْسَ مِنْ قَرَبِ الزَّكِيِّ وَلَا * عَلَى الزَّكِيِّ بِقَرَبِ الرَّجْسِ مِنْ ضَرَرِ
هِيَهَاتَ، كُلِّ أَمْرٍ رَهْنٌ بِمَا كَسَبَتْ * لَهُ يَاهُ نُحْدُ مَا شِئْتَ أَوْ فَدَّرَ

استدعى بعض بني هاشم دعبلا وهو يتولى للعتصم ناحية من نواحي الشام، فقصده
إليها فلم يقع منه بحسن ظن وجفاء، فكتب إليه دعبل :

دَلَّيْنِي بِغُرُورٍ وَعَدَكَ فِي * مُتَلَاظِمٍ مِنْ حَوْمَةِ الْغَرَقِ
حَتَّى إِذَا شِمْتَ الْعَدُوَّ وَقَدْ * شُهِرَ اتِّقَاصُكَ شُهْرَةَ الْبَلَقِ
أَنْشَأْتَ تَحْلَفُ أَنْ وَدَّكَ لِي * صَافٍ وَحَبْلِكَ غَيْرَ مَنْحَدِقِ
وَحَسْبَتَنِي فَقَعًا بِقَرْقَرَةٍ * فَوِطْنَتْنِي وَطَنًا عَلَى حَنْقِ
وَنَصَبَتْنِي عَالِمًا عَلَى غَرَضٍ * تَرْمِينِي الْأَعْدَاءُ بِالْحَدَقِ
وَضَنْنْتَ أَرْضَ اللَّهِ ضَيْقَةً * عَنِّي وَأَرْضُ اللَّهِ لَمْ تَضِقْ
مِنْ غَيْرِ مَا جُرِمَ سِوَى ثِقَةٍ * مَنِّي بُوْعَدَكَ حِينَ قُلْتَ ثِقِ
وَمُودَّةٍ تَحْنُو عَلَيْكَ بِهَا * نَفْسِي بِلَا مَنٍّ وَلَا مَلَقِ
فَمَتَّى سَأَلْتُكَ حَاجَةً أَبَدًا * فَاشْدُدْ بِهَا قُفْلًا عَلَى عَلَقِ
وَقَفَّ الْإِخَاءُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ * هَارٍ فَبِعَهْ بَيْعَةِ الْخَلْقِ
وَأَعَدَّ لِي قُفْلًا وَجَامِعَةً * فَاشْدُدْ يَدِي بِهَا إِلَى عُنُقِ
أَعْفِيكَ مِمَّا لَا تَحِبُّ بِهَا * وَأَسُدُّ عَلَى مَذَاهِبِ الْأُفُقِ
مَا أَطْوَلَ الدُّنْيَا وَأَعْبَرَضَهَا * وَأَدَلَّنِي بِمَسَالِكِ الطُّرُقِ

دخل دعبل على عبد الله بن طاهر فأنشده وهو ببغداد :

جِئْتُ بِلا حُرْمَةٍ وَلَا سَبَبٍ * إِلَيْكَ إِلَّا بِحُرْمَةِ الْأَدَبِ
فَاقْضِ ذِمَامِي فَإِنِّي رَجُلٌ * غَيْرُ مُبَلِّغٍ عَلَيْكَ فِي الطَّلَبِ

فانتقل عبد الله ودخل الحرم ووجه اليه بصره فيها ألف درهم ، وكتب اليه :

أعجلتنا فأناك عاجلٌ برّنا * ولو آتتظرت كثيره لم يقلل

نخذ القليل وكن كأنك لم تقل * ونكون نحن كأننا لم نفعل

مات دعبل بقرية من قرى السوس ، بعث اليه مالك بن طوق من ضرب ظهره

بعكاز لها زنج مسموم فمات من غد .

٤ - حسين بن الضحَّاك^(١)

« شاعرٌ ظريف شديد الظرف ، ربما أقطع نظيره في شعراء العصر العباسي كله ، وهو مع ظرفه وإسرافه في المحون ، قليلُ الفحش في اللفظ . غير مُتهالك على القول الآثم والألفاظ المنكرة ، لا يثخنها ولا يقصد إليها ، وإنما يعرض لها إذا اضطر إليها اضطراباً وهو على ظرفه ورقة حاشيته وحرصه على نقاء اللفظ وطهره شاعر بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، مجود إذا فكر ، مظفر إذا بحث ، موفق إلى اللفظ المتين ، والأسلوب الرصين في غير جفوة ولا غلظة ، لا يعرف التكلف في لفظ ولا معنى ، وإنما ينطلق لسانه مع سجيته ، وسجيته سهلة مرسلة غنية غزيرة المادة ، لا تكاد تنضب ، ولا ينالها إعياء أو كلال ، وحياته كلها عبر وعظات ولكنها عبر وعظات مبتسمة ليست بالمظلمة ولا العابسة ولا بالتي تزدك وتنفر ، وتجعل للحزن والأسى إلى قلبك سبيلاً ، ولعلك لا تجد من شعراء هذا العصر رجلاً مثله ، تقرأ أخباره فتظن مبتسماً منذ تبتدىء إلى أن تنتهى دون أن تعبس أو تنطب . وربما تجاوزت الابتسام إلى الإغراق في الضحك من حين إلى حين ، ولكك لن ترك الابتسام إلى الحزن الشديد . وربما اعترضتك في طريقك سحابة محزنة ولكن هذه السحابة رقيقة هادئة هينة ، فهي أضعف من أن تزيل ابتسامتك . وكان هذا الشاعر من المعمرين ، بلغ المائة أو كاد ، وعاصر طبقات من الشعراء ، وألواناً من حاشية الخلفاء ، ولكنه ظل محتفظاً بشخصيته الواحدة المبتسمة ، تغير الناس واختلفت الظروف ، وظل هو واحداً

(١) هو مولى باهلة ، ولد في البصرة ونشأ فيها ونادم الخلفاء من بنى العباس ، وكان خليعاً فاسداً وكان مع ذلك حسن التصرف في النظم ولشعره قبول ورونق ، فهو من المثقفين وله معان جديدة في النثر كان أبو نواس يأخذها عنه ، ومع أن أبا نواس مات سنة ١٦٨ هـ ، والضحاك مات سنة ٢٥٠ هـ فقد تعاصرا لأن مولدهما متقارب لأن ابن الضحاك عمر كثير . وهو أول من نادى الأمين وله فيه مدائح كثيرة ، وعمرهما طويلاً حتى قارب مائة السنة ومات في خلافة المستعين أو المنتصر . ومجد أخباره في الأغاني (ج ٦ ص ١٧٠) وابن خلكان (ج ١ ص ١٥٤) .

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية .

لم يتغير. كان خليعا، بل كان يُعرف بالخليع، وكان كثير المحجون مُسْرِفا فيه، وما أحسب أن أبانواس سبقه إلى لذة أو برز عليه في مأثم، وإِمكانه على خلاعته وإسرافه في المحجون وتهالكه على اللذات، احتفظ طول حياته بشيء من كرم الخلق وطهارة العنصر وجودة الأصل، كأنما كانت هذه اللذات والآثام تنزلق على نفسه وأخلاقه انزلاقا دون أن تترك فيها أثرا باقيا، وإنما كانت الآثار التي تتركها لياليه الساهرة، وأيامه المملوءة بالعَبَث، هذه الأشعار الجميلة الحلوة التي سأظهرك على طرف منها.

فلم يكن هذا الرجل كغيره من الشعراء الذين إنما كانوا يصلون إلى الخلفاء بعد الجهد والكَد، وبعد التلطف وحسن الحيلة؛ وإنما كان متصلا بالخلفاء اتصالا شديدا، يعاشرهم ويرافقهم ويتدخل في حياتهم الخاصة، وربما تدخل إلى أكثر مما ينبغي. وكان الخلفاء يحشون عنه، ويحرصون على عشرته ويبدلون في ذلك غير قليل من الإلاح والعطاء، وكان شعره كله أو أكثره مرآة لحياة القصر في أيام طائفة غير قليلة من الخلفاء.

فترى من هذا الوصف أنه شاعر أديب ظريف مطبوع، حسن التصرف في الشعر، حلو المذهب، لشعره قبول ورونق صاف، وكان أبو نواس يأخذ معانيه في الخمر فيغير عليها، وإذا شاع له شعر نادر في هذا المعنى نسبته للناس إلى أبي نواس، وله معان في صفتها أربع فيها، وهاجي مسلم بن الوليد فانتصف منه، وله غزل كثير جيد، وهو من المطبوعين الذين تخلو أشعارهم ومذاهبهم جملة من التكلف.

قال : أنشدت أبا نواس قصيدتي التي قلتها في الخمر وهي :

بُذِلَتْ مِنْ نَفْعَاتِ الْوَرْدِ بِالْآءِ^(١) * وَمِنْ صَبُوحِ دَرِّ الْإِنْبِلِ وَالشَّاءِ

فلما انتهيتُ منها إلى قولي

حتى إذا أَسْنَدْتُ فِي الْبَيْتِ وَأَحْتَضِرْتُ * عِنْدَ الصَّبُوحِ بَبْسَامِينَ أَكْفَاءِ

فُضِّتْ خَوَاتِمُهَا فِي نَعْتٍ وَأَصْفَهَا * عَنْ مِثْلِ رَقَاقَةٍ فِي جَفْنِ مَرْهَاءِ^(٢)

(١) الآء : ثمر شجر واحدة آءة . (٢) المرهاء : التي لا تكتمل .

فصعق صعقة أفزعني وقال : أحسنت والله يا أشقر، فقلت : ويلك يا حسن ، إنك أفزعني والله ، فقال : بلى والله أنت أفزعني ورُعيتي ، هذا معنى من المعاني التي كان فكري لا بد أن ينتهي إليها أو أغوص عليها وأقولها ، فسبقتني إليه واختلسته مني ، وستعلم لمن يروى إلى أم لك ؟ فكان والله كما قال ، سمعت من لا يعلم يرويه له :

لما قدم المأمون من خراسان أمر بأن يُستَمَى له قوم من أهل الأدب ليجالسوه ويسامروه ، فذكر له جماعة فيهم الحسين بن الضحّاك ، وكان من جلساء محمد المخلوع ، فلما رأى اسمه قال : أليس هو الذي يقول في محمد :

هلا بقيت لسدّ فاقتنا * أبداً وكان لغيرك التلّف
فلقد خلّفت خلائفا سلفوا * ولسوف يُعزّز بعدك الخلف

لا حاجة لي فيه ، والله ولا يراني أبداً إلا في الطريق ، ولم يعاقب الحسين على ما كان من هجائه له وتعريضه به ، وأنحدر حسين إلى البصرة فأقام بها طول أيام المأمون .

قال أبو صالح بن الرشيد : دخلت يوماً على المأمون ومعى بيتان للحسين بن الضحّاك ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أحب أن تسمع مني بيتين ، فقال : أنشدّهما ، فأنشدتهما :

حمدنا الله شكراً إذ حبّانا * بنصرك يا أمير المؤمنين
فأنت خليفة الرحمن حقاً * جمعت سماحة وجمعت ديناً

فقال : لمن هذان البيتان ؟ فقلت : لعمرك يا أمير المؤمنين حسين بن الضحّاك ، قال : قد أحسن ، فقلت : وله يا أمير المؤمنين أجود من هذا ، فقال : وما هو ؟ فأنشدته قوله :

أجرني فإنني قد ظمئت إلى الوعد * متى تُنجز الوعد المؤكد بالعهد
أعيدك من خلف المملوك وقد بدا * تقطع أنفاس عليك من الوجد
أيخيل فرد الحسن عنى بنائل * قليل وقد أفردته بهوى فرد
رأى الله عبداً خير عباده * فلكه والله أعلم بالعبد
ألا إنما المأمون للناس عصمة * مميزة بين الضلالة والرشد

فأطرق ساعة ثم قال : ما تطيب نفسي له بخير بعد ما قال في أخى محمد ما قال .

ومن قوله يرثى محمدا الأمين :

أَطْلَ حَزْنَا وَأَبَكَ الْإِمَامَ مُحَمَّدًا * بِحَزْنٍ وَإِنْ خِفَتِ الْحَسَامُ الْمَهْنَدَا
فَلَا تَمُتِ الْأَشْيَاءُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ * وَلَا زَالَ تَمَلُّ الْمَلِكُ مِنْهَا مُبَدَّدَا
وَلَا فَرِحَ الْمَأْمُونُ بِالْمَلِكِ بَعْدَهُ * وَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا طَرِيدَا مُشَرَّدَا

ولحسين في محمد الأمين مراثٍ كثيرة جيّادٌ، وكان كثير التحقّق به والمؤالاة له لكثرة إفضاله عليه، وميله إليه، وتقديمه إياه، وبلغ من جزعه عليه أنه خُوِطَ فكان يُنكر قتله لما بلغه ويدفعه ويقول: إنه مستر وأنه قد وقف على دُعائه في الأمصار يدعون إلى مراجعة أمره والوفاء ببيعته ضنّا به وشفقة عليه .

ومن جيّد مراثيه إياه قوله :

سَأَلُونَا أَنْ كَيْفَ نَحْنُ؟ فَقُلْنَا * مِنْ هَوَى نَجْمِهِ فَكَيْفَ يَكُونُ؟
نَحْنُ قَوْمٌ أَصَابَنَا حَدُّ الدَّهْرِ * رَفَظْنَا لِرَيْنِهِ نَسْتَكِينُ
نَقْمَى مِنَ الْأَمِينِ إِيَابَا * لَهْفَ نَفْسِي وَأَيْنَ مِنْهُ الْأَمِينُ

ومن جيّد قوله في مراثيه إياه .

أَعَزَّرِي يَا مُحَمَّدُ عَنْكَ نَفْسِي * مَعَاذَ اللَّهِ وَالْأَيْدِي الْحَسَامِ
فَهَلَّا مَاتَ قَوْمٌ لَمْ يَمُوتُوا * وَدُفِعَ عَنْكَ لِي يَوْمَ الْحِسَامِ
كَأَنَّ الْمَوْتَ صَادَفَ مِنْكَ غُثْمًا * أَوْ أَسْتَشْفَى بِقُرْبِكَ مِنْ سَقَامِ

وقال أيضا يرثيه :

يَا خَيْرَ أَسْرَتِهِ وَإِنْ زَعَمُوا * إِنِّي عَلَيْكَ لَمُثَبَّتٌ أَسِيفُ
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ لِي كَبَدًا * حَرَىٰ عَلَيْكَ وَمَقْلَةٌ تَكْفُ
وَلْتَن شَجِيتُ بِمَا رُزْتُ بِهِ * إِنِّي لِأُضْمَرُ فَوْقَ مَا أَصِفُ
هَلَّا بَقِيتَ لِسَبْدٍ فَاقْتَنَّا * أَبَدًا وَكَانَ لِفَيْرِكَ التَّلَفُ
فَلَقَدْ خَلَفْتَ خَلَائِفًا سَلَفُوا * وَلَسَوْفَ يُعْزِزُ بَعْدَكَ الْخَلَفُ

(١)
 لا بات رهطك بعد هفوتهم * إلى لرهطك بعدها شنف
 هتكوا بحرمتك التي هتكت * حرم الرسول ودونها السجف
 وثبت أقاربك التي خذات * وجميعها بالذل معترف
 لم يفعلوا بالشط إذ حضروا * ما تفعل الغيرة الأنف
 تركوا حريم أبيهم نفلا * والمحصنات صواريخ هتف
 أبدت مخلفها على دهش * أبكارهن ورت النصف
 سلبت معايرهن وأجليت (٢) * ذات النقاب ونوزع الشنف
 فكأنهن خلال منتهب * در تكشف دونه الصدف
 ملك تخوت ملكه قدر * فوهى وصرف الدهر مختلف
 هيئات بعدك أن يدوم لنا * عز وأن يبقى لنا شرف
 لا هيئوا صخفا مشرفة * للغادرين تحتها الجدف
 أقعد عهد الله تقتله * والقتل بعد أمانة سرف
 فستعرفون غدا بعاقبة * عز الإله فأوردوا وقفوا
 يامن يحنن نومه أرق * هدت الشجون وقلبه هف
 قد كنت لى أملا غيت به * فمضى وحل محله الأسف
 مارج النظام وعاد منكرا * عرفا وأنكر بعدك العرف
 فالشمل منتشر لفقدك وال * مدنيا سدى والبال منكسف

وقال أيضا يرثيه :

إذا ذكر الأمين نعى الأمين * وإن رقد انحلّى حمى الجفونا
 وما برحت منازل بين بصرى * وكلاؤدى شهيج لى شجونا
 عراض الملك خاوية تهادى * بها الأرواح تنسجها فنونا

(١) مبهض منكر . (٢) جمع معجر بالسر وهو ثوب تعتمر به المرأة أى تشده على رأسها .

تَخَوُّونَ عِزَّ سَاكِنِهَا زَمَانُ * تَلْعَبُ بِالْقُرُونِ الْأَوَّلِينَ
فَشَتَّتَ شَمْلَهُمْ بَعْدَ اجْتِمَاعِ * وَكُنْتُ بِمَحْسَنِ الْفَتَمِ ضَمِينَا
فَلَمْ أَرِ بَعْدَهُمْ حُسْنًا سِوَاهُمْ * وَلَمْ تَرَهُمْ عِوُنُ النَّاطِرِينَ
فَوَاسَفًا وَإِنْ شَتَّتَ الْأَعَادَى * وَآهٍ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
أَضَلَّ الْعُرْفَ بَعْدَكَ مُتَّبِعُوهُ * وَرُفَّهَ عَنِ مَطَايَا الرَّاغِبِينَ
وَكُنْتُ إِلَى جَنَابِكَ كُلِّ يَوْمٍ * يَرْحُنَ عَلَى السَّعُودِ وَيَعْتَدِينَا
هُوَ الْجَبَلُ الَّذِي هُوَتْ الْمَعَالَى * لِهَدَاتِهِ وَرِيْعِ الصَّالِحُونَ
سَتَنْدُبُ بَعْدَكَ الدُّنْيَا جَوَارَا * وَتَتَدَبُّ بِعَدِكَ الدِّينَ الْمُصَوَّنَا
فَقَدْ ذَهَبَتْ بِشَاشَةٍ كُلِّ شَيْءٍ * وَعَادَ الدِّينَ مَطْرُوحًا مَهِينَا
تَعْقِدُ عِزُّ مُتَّصِلٍ بِكَسْرَى * وَمِلَّتْهُ وَذَلَّ الْمُسْلِمُونَ^(١)

وقال أيضا يرثيه :

أَسَفًا عَلَيْكَ سَلَكَ أَقْرَبُ قُرْبَةٍ * مِنِّي وَأَحْزَانِي عَلَيْكَ تَزِيدُ

قال أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي : حسين بن الضحاك أشعر المحدثين حيث يقول :

أَيُّ دِيَاكِجَةٍ حُسَيْنِ * هَيَّجَتْ لَوْعَةً حَزَنِي
إِذْ رَمَانِي الْقَمَرُ الزَّا * هَرَّ عَنْ فَاتِرَةِ جَفْنِي
بِأَبِي شَمْسٍ نَهَارِ * بَرَزْتُ فِي يَوْمِ دَجْنِي
قَرَّبْتَنِي بِالْمَسْنَى حَتَّى * إِذَا مَا أَخْلَفْتَنِي
تَرَكْتَنِي بَيْنَ مَيْعَا * دُخُلَيْفٍ وَتَجَنِّ
مَا أَرَى فِيَّ مِنَ الصَّبِّ * وَهَلْ إِلَّا حَسَنَ ظَنِّي
إِنَّمَا دَامَتْ عَلَى الْغَدِ * رَلْمَا تَعْرِيفَ مَنِّي
أَسْتَعِذُّ اللَّهَ مِنْ إِعْرَا * ضٍ مِنْ أَعْرَاضِ عَنِّي

لما وَلى المَعْتَصِمُ أَمْرَ بِمَكَاتِبَتِهِ بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا دَخَلَ وَسَلَّمَ اسْتَأْذَنَهُ فِي الْإِنْشَادِ ،
فَإِذْنٌ لَهُ ، فَأَنشَدَهُ قَوْلَهُ :

هَلَّا سَأَلْتَ تِلْكَ الْمَشْتَاقَ * وَمَنْنْتَ قَبْلَ فِرَاقِهِ يَتَسَلَّقُ
إِنْ الرَّقِيبَ لَيْسَ تَرِيبُ تَنْفُسًا * صُعُودًا إِلَيْكَ وَظَاهِرَ الْإِفْلَاقِ
وَلَوْ أَنَّ أَرَبْتُ لَقَدْ نَظَرْتُ بِمَقْلَةٍ * عَبْرَى عَلَيْكَ سَيِّغِينَةَ الْآمَاقِ
نَفْسِي الْفَسَادُ لَخَائِفٌ مَتَرَّقٍ * جَعَلَ الْوَدَاعَ إِشَارَةً بَعْنَاقِ
إِذَا لَا جَوَابَ لِمُقْعَمٍ مَتَحِيرٍ * إِلَّا الدَّمُوعُ تُصَانُ بِالْإِطْرَاقِ

حتى آتتهى الى قوله :

خَيْرُ الْوَفُودِ مَبَشِّرٌ بِخِلَافَةٍ * خَصَّتْ بِبَهْجَتِهَا أَبَا إِسْحَاقِ
وَاقْتِهِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ سَلِيمَةً * مِنْ كُلِّ مَشْكَلَةٍ وَكُلِّ شِقَاقِ
أَعْطَتْهُ صَفْقَتَهَا الضَّمَاءُ طَاعَةً * قَبْلَ الْأَكْثَفِ بِأَوْكَدِ الْمِيثَاقِ
سَكَنَ الْأَنَامُ إِلَى إِمَامٍ سَلَامَةٍ * عَفَّ الضَّمِيرُ مَهْدَبَ الْأَخْلَاقِ
فَحَمَى رَعِيَّتَهُ وَدَافَعَ دَوْنَهَا * وَأَجَارَ مُمْلِقَهَا مِنَ الْإِمْلَاقِ

حتى أتمها ، فَقَالَ لَهُ الْمَعْتَصِمُ : آذُنُ مَنِي ، فَدَنَا مِنْهُ ، فَلَمَّا قَرَأَ جَوْهَرًا مِنْ جَوْهَرِ كَانَ بَيْنَ
يَدَيْهِ ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَخْرُجَهُ مِنْ فَمِهِ ، فَأَخْرَجَهُ وَأَمَرَ أَنْ يُنْظَمَ وَيُدْفَعَ إِلَيْهِ وَيُخْرَجَ إِلَى النَّاسِ
وَهُوَ فِي يَدِهِ ، لِيَعْلَمُوا مَوْقِعَهُ مِنْ رَأْيِهِ ، وَيَعْرِفُوا فَضْلَهُ ، فَكَانَ أَحْسَنَ مَا مُدِّحٌ بِهِ يَوْمَئِذٍ .

ومن شعره قوله :

أَمِينَ اللَّهِ تُقَى بِاللَّهِ * لَهُ تُعْطَى الصَّبْرُ وَالنُّصْرَةُ
كُلُّ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ * كَلَّاكَ اللَّهُ ذُو الْقُدْرَةِ
لَنَا النُّصْرُ بَعُونَ اللَّهِ * وَالْكُفْرَةُ لَا الْفَرَّةُ
وَلَا تَرَاقُ أَعْدَا * ثَلَاثُ يَوْمٍ السُّوءُ وَالْدَّيْرَةُ
وَكَأْسُ تَلْفِظِ الْمَوْتِ * كَرِيهُ طَعْمُهَا مُرٌّ

سَقُونَا وَسَقَيْنَاهُمْ * وَلَكِنْ بِهِمِ الْحَرَّةُ
كَذَاكَ الْحَرْبُ أَحْيَانَا * عَلَيْنَا وَلَنَا مَرَّةٌ

ومن قوله في غضب حظية للوائق من زيارته أخرى في نوبتها :

غَضِبْتُ أَنْ زَرْتُ أُخْرَى خِلْسَةً * فَلَهَا الْعُتَى لَدَيْنَا وَالرِّضَا
يَا قَدْتُكَ النَّفْسُ كَانَتْ هَفْوَةً * فَاغْفِرْهَا وَأَصْفَحْ عَمَّا مَضَى
وَأَتْرَكَ الْعَدْلَ عَلَى مَنْ قَالَه * وَأَنْسَى جَوْرِي إِلَى حَكَمِ الْقَضَا
فَلَقَدْ نَهَيْتَنِي مِنْ رَقْدَتِي * وَعَلَى قَلْبِي كَثِيرَانِ الْغَضَا

كان اللوائق يتحطى جارية له فماتت ، فجزع عليها وترك الشراب أياما ، ثم سلاها وعاد الى حاله ، فدعا الحسين ليلة وقال له : رأيت فلاة في النوم فليت نومي كان طال قليلا لا تمتع ببقائها ، فقل في هذا شيئا ، فقال :

لَيْتَ عَيْنَ الدَّهْرِ عَنَا غَفَلَتْ * وَرَقِيبَ اللَّيْلِ عَنَا رَقَدَا
وَأَقَامَ النَّوْمُ فِي مَدَّتِهِ * كَالَّذِي كَانَ وَكَمَا أَبَدَا
بِأَبِي زُورٌ تَلَفَّتْ لَهُ * فَتَنَفَّسْتُ إِلَيْهِ الصُّعَدَا
يَلِينَا أَضْحَكَ مَسْرُورًا بِهِ * إِذْ تَقَطَّعْتُ عَلَيْهِ كَيْدَا

لما أعيته الحيلة في رضا المأمون عنه رمى بأمره الى عمرو بن مسعدة وكتب اليه :

أَنْتَ طَوْدِي مِنْ بَيْنِ هَذِي الْهَضَابِ * وَشِهَابِي مِنْ دُونِ كُلِّ شِهَابِ
أَنْتَ يَا عَمْرُو قُوَّتِي وَحَيَاتِي * وَلِسَانِي وَأَنْتَ ظُفْرِي وَنَابِي
أَتُرَانِي أَنْسَى أَيْادِيكَ الْيَبِي * حُضْ إِذَا آسَوْدَ نَائِلُ الْأَصْحَابِ
أَيْنَ أَخَذَ فَكَّ الرِّضْيَةِ حَالَتْ * فِي أَمِّ أَيْنَ رِقَّةُ الْكُتَّابِ ؟
أَنَا فِي ذِمَّةِ السَّحَابِ وَأَطْمَأْ * إِنَّ هَذَا لَوْصَمَةٌ فِي السَّحَابِ
قُمْ إِلَى سَيِّدِ الْبَرِيَّةِ عَنِّي * قَوْمَةٌ تَسْتَجِزُّ حُسْنَ الْخَطَابِ
فَلْعَلَّ الْإِلَهِ يُطْفِئَ عَنِّي * بِكَ نَارًا عَلَى ذَاتِ الْتِهَابِ
فَلَمْ يَزَلْ عَمْرُو يُلْطِفُ لِلْمَأْمُونِ حَتَّى أَوْصَلَهُ إِلَيْهِ وَأَدَّرَ أَرْزَاقَهُ .

ولما عفا المأمون عنه أمر بإحضاره، فلما حضر سلم، فرد عليه السلام ردًا جافيا، ثم أقبل عليه فقال: أخبرني عنك، هل عرفت يوم قُتل أنى محمد هاشمية قُتلت أو هُتكت؟ قال: لا، قال: فما معنى قولك:

وسرّب ظباء من ذؤابة هاشم * هتّهن بدعوى خيرى وميت
أردّ يدًا متى إذا ما ذكرته * على كبد حرّى وفليب مُفتّت
فلا بات ليل الشامتين بغبطة * ولا بلغت آمالهم ما تمتّت

فقال: يا أمير المؤمنين، لوعة غلبتني، وروعة فاجأتني، ونعمة فقدتها بعد أن غمرتني، وإحسان شكرته فأنطقني، وسيد فقدته فأقلقني، فإن عاقبت فبحقك، وإن عطفت فبفضلك، فدمعت عينا المأمون وقال: قد عفوت عنك، وأمرت بإدراك رزقك، وإعطائك ما فات منه، وجعلت عقوبتك امتناعي من استخدامك.

ومن قوله:

وكالوردة الحمراء حيا بأحر * من الورد يمشى في قواطق كالورد
له عبثات عند كل تحية * بعينه تستدعى الحليم إلى الوجد
تمنيت أن أسقى بكفيه شربة * نذكرني ما قد نسيت من العهد
سقى الله دهرًا لم أت فيه ليلة * خليًا ولكن من حبيب على وعد

ومن قوله:

وابأبى مُفحّم لعزته * قلت له اذ خلوت مكثما
تُحبّ بالله من يخصك بال * بود فما قال لا ولا نعمًا
ثم تولى بمفلسي خجل * أراد رجع الجواب فاحتشما
فكنت كالمبتغى بحيلته * برءًا من السقم فابتدا سقمًا

وقال في هوّى له:

عالمٌ بحبيبه * مطريق من التيه
يوسف الجمال وفر * عون في تعديده

لا وحقّ ما انا فيه * به من عطفٍ أرجيه
ما الحياةُ نافعة * لى على تأبّيه
النعم يشغلّه * والجمال يطغيه
فهو غيرُ مكترث * للذى ألاقيه
تأبّيه تُزهدّه * فى رغبى فيه

ومن قوله فى هوى له :

إن من لا أرى وليس يرانى * نُصب عيني مُثّل بالأمانى
بأبى من ضميره وضميرى * أبدا بالمغيب يلتجيان
نحن شخصان إن نظرت ورو * حان اذا ما أختبرت يمتزجان
فاذا ما هممتُ بالأمر أو همّ * بشيء بدأه وبدانى
كان وفقاً ما كان منه ومنى * فكأنى حكيتُه وحكّانى
خطرات الجفون منّا سواء * وسواء تحرك الأبدان

ومن قوله :

فأديتُ من قال لى على خفّره * وغصّ من جفنه على حوره
سمّع بأشعارك المليح فما * ينفك شاد بها على وتره
حسبك بعضُ الذى أذعت ولا * حسب ليصّب لم يقص من وطره
وقلتُ يا مستعير سالفه الـ * يخشيف وحسن الفتور من نظره
لا تتكرّ الحبيب من طرب * عاود فيك الصّب على كبره

ومن قوله :

سائل بطيفك عن ليلى وعن سهرى * وعن تسابح أنفاسى وعن فكري
لم يتخلّ قلبى من ذكراك إذ نظرت * عيني اليك على صخوى ولا سكرى
سقياً ليوم سرورى إذ تُنازعى * صفو المدامة بين الألس والخفر

وفضّل كَأَسْكَ يَأْتِينِي فَأَشْرِبُهُ * جَهْرًا وَتَشْرَبُ كَأْسِي غَيْرَ مُسْتَتِرٍ
وَكَيْفَ أَشْمِلُهُ لَثِي وَأُلْزِمُهُ * نَحْرِي وَتَرْفَعُهُ كَفِّي إِلَى بَصْرِي
فَلَيْتَ مُدَّةَ يَوْمِي إِذْ مَضَى سَلَفًا * كَانَتْ وَمُدَّةَ أَيَّامِي عَلَى قَدَرٍ
حَتَّى إِذَا مَا آنَطَوْتُ عَنَّا بِشَاشَتِهِ * صِرْنَا جَمِيعًا كَذَا جَارَيْنِ فِي الْحُقَرِ
وَمِنْ قَوْلِهِ لَهْوِي كَانَ لَهُ :

تَعَزَّيْبِائِسَ عَنْ هَوَايَ فَإِنِّي * إِذَا آنَصَرَفْتُ نَفْسِي فَهِيَ بَاتٍ عَنْ رَدِّي
إِذَا خُنْثَمٌ بِالْغَيْبِ وَدَى فَمَالَكُمْ * تُدَلِّوْنَ إِدْلَالَ الْمَقِيمِ عَلَى الْعَهْدِ
وَلِي مِنْكَ بَدِّ فَاجْتَنِبْنِي مَدْمَمًا * وَإِنْ خِلْتَ أَنِّي لَيْسَ لِي مِنْكَ مِنْ بَدِّ
لَمَّا وَلِيَ الْوَائِقِ الْخِلَافَةَ أُنْشِدَهُ حُسَيْنٌ :

أَكَاثِمُ وَجَدِي فَمَا يَنْكُتُمْ * بَيْنَ لَوْ شَكُوتُ إِلَيْهِ رَحِمُ
وَأِنِّي عَلَى حَسَنِ ظَنِّي بِهِ * لِأَحْذَرُ إِنْ بُحْتُ أَنْ يَحْتَشِمُ
وَلِي عِنْدَ لِحْظَتِهِ رَوْعَةٌ * تَحَقِّقُ مَا ظَنَّنَاهُ الْمُتَّهَمُ
وَقَدْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّ لِي * مَحَبًّا وَأَحْسِبُهُ قَدْ عَلِمَ
وَأِنِّي لَمُنْخِصٌ عَلَى لَوْعَةٍ * مِنْ الشُّوقِ فِي كَبْدِي تَضْطَرِّمُ
عَشِيَّةً وَدَعَتْ عَنْ مَقْلَةٍ * سَفُوحٍ وَزُفْرَةٍ قَلْبٍ سَدِمُ
فَمَا كَانَ عِنْدَ النَّوَى مُسْعِدُ * سَوَى الْعَيْنِ تَمَزَّجَ دَمْعًا بِدَمِ
سَيِّدِكَرٍ مِنْ بَانَ أَوْطَانَهُ * وَيَبْكِي الْمَقِيمِينَ مِنْ لَمْ يُقِمِ

كُتِبَ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ رَجَاءٍ فِي يَوْمِ شَكٍّ، وَقَدْ أَمَرَ الْوَائِقِ بِالْإِفْطَارِ، فَقَالَ :
هَزَزْتُكَ لِلصَّبَوحِ وَقَدْ نَهَانِ * أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الصِّيَامِ
وَعِنْدِي مِنْ قِيَانِ الْمَصْرِ عَشْرٌ * تَطْيِبُ بِهِنَّ عَاتِقَةَ الْمَدَامِ
وَمِنْ أَمْثَالِهِنَّ إِذَا أَنْتَشِينَا * تَرَانَا نَجْتَنِي تَمَرُ الْفَرَامِ
فَمَنْ أَنْتَ الْجَوَابُ فَلَيْسَ تَنِي * أَحَبُّ إِلَيَّ مَنْ حَادَفَ الْكَلَامِ

فوردت رقعته ، وقد سبقه إليه محمد بن الحارث بن بُسْخَرُ ووجهه إليه بعلام نظيف الوجه
ومعه ثلاثة غلثة أقران حسان الوجه ، ومعهم رُقعة كتبها كما تكتب المناشير ، وختمها
في أسفلها وكتب فيها يقول :

سِرْ عَلَى أَسْمِ اللَّهِ يَا أَشْ * كُلْ مِنْ غَصَنِ الْجَيْنِ
فِي ثَلَاثٍ مِنْ بَنَى الرَّو * مِ إِلَى دَارِ حُسَيْنِ
أَشْخِصِ الْكَهْلَ إِلَى مَوْ * لَكَ يَا قُرَّةَ عَيْنِي
أَرِهِ الْعُنْفَ إِذَا أَسْتَع * صَى وَطَالِبَهُ بَدِينِ
وَدَعِ اللَّفْظَ وَخَاطِبِ * هِ بَغْمِزِ الْحَاجِبِينَ
وَأَحْذِرِ الرَّجْعَةَ مِنْ وَجْ * هِكَ فِي خُفَى حُنَيْنِ

فَضَى مَعَهُمْ .

وَمِنْ قَوْلِهِ لَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ :

تَتَبَّعْ عَلَيْنَا أَنْ رُزِقْتَ مَلَاخَةً * فَهَلَّا عَلَيْنَا بَعْضَ تِهْكَ يَا بَدْرُ
لَقَدْ طَالَ مَا كُنَّا مِلَاحًا وَرَبْمَا * صَدَدْنَا وَتَهْنَا ثُمَّ خَيْرْنَا الدَّهْرُ

وَلَهُ فِي هَوَى مُجِيبِ عَنْهُ :

ظَنَّ مِنْ لَا كَانَ ظَنُّ * مَا بِحَبِيبِي فَمَاءَ
أَرَصَدَ الْبَابَ رَقِيبِي * نِ لَهُ فَاصْتَفَاهُ
فَإِذَا مَا أَشْتَقَاقُ قَرِيبِي * وَلِقَائِي مَنَاءَ
جَعَلَ اللَّهُ رَقِيبِي * هِ مِنْ الشُّوْءِ فِدَاءَ
وَالَّذِي أَقْرِحَ فِي الشَّ * دَنِ قَلْبِي وَلَوَاهُ
كُلُّ مُشْتَقَاقٍ إِلَيْهِ * مِنْ الشُّوْءِ فِدَاءَ
يَتِيمًا مِنْ حَالَتِ الْأَحْ * رَاسِ مِنْ دُونِ مُنَاءَ

أمره المتوكل بأن ينادمه ويلازمه ، فلم يطق ذلك لكبر سنه ، فقال للتوكل بعض من حضر عنده : هو يطبق الذهاب إلى القرى والمواخير والسكر فيها ويعجز عن خدمتك ؛ فبلغه ذلك ، فدفع إلى أحمد بن محمد بن أبياتا قالها وسأله إيصالها ، فأوصلها إلى المتوكل ، وهي :

أما في ثمانين وفتيتها * عذير وإن أنا لم اعتذر
فكيف وقد جرت صاعدا * مع الصاعدين يتسع أعر
وقد رفع الله أقلامه * عن ابن ثمانين دون البهر
سوى من أصر على فتنة * وألحد في دينه أو كفر
وإني لمن أسراء الإله * له في الأرض نصب صروف القدر
فإن يقض لي عملا صالحا * أثاب وإن يقض شرا غفر
فلا تلح في كبير هدى * فلا ذنب لي أن بلغت الكبر
هو الشيب حل بعقب الشباب * فمن ذا يلوم إذا ما عذر
وإني لفي كنف مغدق * وعز بنصر أبي المتنصر
يبارى الرياح بفضل السما * ج حتى تبدل أو تتحسر
له أككد الوحي ميراثه * ومن ذا يخالف وحي السور
وما للحسود وأشباهه * ومن كذب الحق إلا الحجر

فلما أوصلها شيعها بكلام يعذره وقال : لو أطاق خدمة أمير المؤمنين لكان أسعد بها ؛

فقال المتوكل : صدقت ، وأمر له بعشرين ألف درهم .

٥ - محمد بن عبد الملك الزيَّات^(١)

كان محمد شاعرا مُجيدا لا يُقاس به أحد من الكُتَّاب ، وإن كان إبراهيم بن العباس مثله في ذلك ، فإن إبراهيم مُقلِّ وصاحب قصار ومقطَّعات . وكان محمد شاعرا يُطيل فيُجيد ، ويأتي بالقصار فيجيد ؛ وكان بليغا حسن اللفظ اذا تكلم واذا كتب .

ولما تولى محمد الوزارة اشترط ألا يلبس القباء ، وأن يلبس الدُّرَّاعة ويتقلد عليها سيفا بهما ، فأجيب الى ذلك .

وكان يقول : الرحمة خور في الطبيعة ، وضعف في المنَّة ، ما رحمت شيئا قط ؛ فكانوا يطعنون عليه في دينه بهذا القول ، فلما وُضع في الثَّقَل والحديد قال : أرحموني ، فقالوا له : وهل رحمت شيئا قط فترحم ؟ هذه شهادتك على نفسك وحُكْمك عليها .

لما ماتت أمُّ ابنه عمرو ثاها بقصيدة منها :

يقول لي الخللان لو زُرْتُ قبرها * فقلتُ وهل غير الفؤاد لها قبرُ
على حين لم أحدث فأجهل قبرها * ولم أبلغ السنَّ التي معها الصبر

ومن شعره قوله :

ما أعجب الشيءَ ترجوه فتحرَّمه * قد كنتُ أحسب أني قد ملات يدي
مالي اذا غبتُ لم أذكر بصاحلة * وإن مَرِضْتُ فطال السَّقمُ لم أعد

(١) هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة واشتهر بابن الزيَّات لأن جده (أبان) كان يجلب الزيت من مواضعه الى بغداد ، وكان أدبيا شاعرا عالما بالنحو واللغة ، وله ديوان شعر ومجموعة رسائل جيدة ، وكان في أول أمره من جملة الكُتَّاب ثم صار وزيرا لاعتهم ولأبنته الواثق . ولما تولى المنوكل قبض عليه وأمر بإدخاله في تنور من حديد كان ابن الزيَّات أعده لتعذيب المصادرين وأرباب الدواوين المطالبين بالاموال وقيدته بخمسة عشر رطلا من حديد ، ثم أمر بانواجه بعد أن مكث فيه أربعين يوما ، فوجدوه ميتا وذلك سنة ٢٣٣ هـ . ومجد ترجمته في الأغاني (ج ٢٠ ص ٤٦) وابن خلكان (ج ٢ ص ٧٨) .

ومن شعره قوله :

ألم تعجب لمكتئبٍ حزينٍ * خدين صبايةٍ وحليفٍ صبرٍ
يقول إذا سألت به بخيرٍ * وكيف يكون مهجورٌ بخيرٍ

وكان لمحمد يرذون أشهب لم ير مثله فراهة وحسنا، فسعى به محمد بن خالد الى المعتصم

ووصف له فراهته، فبعث اليه المعتصم فأخذه منه، فقال محمد بن عبد الملك يرثيه :

كيف العزاء وقد مضى لسبيله * عنا فودّعنا الأحسم الأشهب
دبّ الوشاة فأبعدوك وربما * بعد الفتى وهو الأحب الأقرب
لله يوم نأيت عني ظاعنا * وسليت قربك أي علق أسلب
نفس مفارقة أقام فريقيها * ومضى لطيفته فريق يحنّب
فالآن اذ كملت أداتك كلها * ودعا العيون اليك لون معجب
وأختير من سرّ الحداثد خيرها * لك خالصا ومن الحلّى الأغرب
وغدوت طنان الجمام كأنما * في كل عضو منك صنّج يضرب
وكان سرجك إذ علاك غمامة * وكأنا تحت الغمامة كوكب
ورأى على بك الصديق جلاله * وغدا العدو وصدره يتلهّب
أنسالك لا زالت اذا منيته * نفسى ولا زالت يمينى تنكب
أضمرت منك اليأس حين رأيتنى * وقوى حبلى من قواك تقصّب
ورجعت حين رجعت منك بحسرة * لله ما فعل الأحسم الأشهب

ولما وثب إبراهيم بن المهدي على الخلافة أقترض من مياسير التجار مالا، فأخذ من

عبد الملك أبي محمد عشرة آلاف درهم وقال له : أنا أردّها اذا جاءنى مال، ولم يتمّ أمره،

فاستخفى ثم ظهر ورضى عنه المأمون، فطالبه الناس بأموالهم، فقال : إنما أخذتها للمسلمين

وأردت قضاءها من فيئهم، والأمر الآن الى غيرى، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة

خاطب فيها المأمون ومضى الى إبراهيم بن المهدي فأقرأه إياها وقال : والله لئن لم تعطنى

المال الذى اقترضته من أبى لأوصلن هذه القصيدة الى المأمون، يخاف أن يقرأها المأمون
فيتسدر بما قاله ، فيوقع به ، فقال له : خذ منى بعض المال ونجم على بعضه ، ففعل ؛
والقصيدة قوله :

ألم تَرَأْنِ الشَّيْءَ لِلشَّيْءِ صَلََّةٌ * تكون له كالنار تُقَدِّحُ بِالزَّيْدِ
كذلك جَرَّبَتِ الأمورُ وإِنَّمَا * يَدُلُّكَ مَا قَدْ كَانَ قَبْلُ عَلَى الْبَعْدِ
وظَنَّنِي بِإِبْرَاهِيمَ أَنَّ مَكَانَهُ * سَيَبْعَثُ يَوْمًا مِثْلَ أَيَّامِهِ النُّكْرَ
رَأَيْتُ حُسَيْنًا حِينَ صَارَ مُحَمَّدٌ * بغير أمانٍ في يَدَيْهِ وَلَا عَقْدِ
فلو كان أَمْضَى السِّيفِ فِيهِ بِضْرَةٌ * فَصِيرَهُ بِالْقَاعِ مُنْعِفَرًا خَلَدُ
إِذَا لَمْ تَكُنْ لِلْجُنْدِ فِيهِ بَقِيَّةٌ * فَقَدْ كَانَ مَا بُلَّغْتُ مِنْ خَبَرِ الْجَنْدِ
هُمْ قَتَلُوهُ بَعْدَ أَنْ قَتَلُوا لَهُ * ثَلَاثِينَ أَلْفًا مِنْ كُھُولٍ وَمِنْ مُرْدِ
وَمَا نَصَرُوهُ عَنْ يَدِ سَلَفَتِ لَهُ * وَلَا قَتَلُوهُ يَوْمَ ذَلِكَ عَنْ حَقْدِ
وَلَكِنَّهُ الْعَذْرُ الصَّرَاحُ وَخِيفَةُ الدِّ * حُلُومٍ وَبُعْدُ الرَّأْيِ عَنْ سُنَنِ الْقَصْدِ
فَذَلِكَ يَوْمٌ كَانَ لِلنَّاسِ عِبْرَةً * سَيَبْقَى بَقَاءَ الْوَحْيِ فِي الْحَجَرِ الصَّلْدِ
وَمَا يَوْمَ إِبْرَاهِيمَ إِنْ طَالَ عَمْرُهُ * بِأَبْعَدَ فِي الْمَكْرُوهِ مِنْ يَوْمِهِ عِنْدِي
تَذَكَّرَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَقَامَهُ * وَأَيَّامَهُ فِي الْهَزْلِ مِنْهُ وَفِي الْحَدِّ
أَمَّا وَالَّذِي أَمْسَيْتَ عَبْدًا خَلِيفَةً * لَهُ شَرُّ إِيْمَانِ الْخَلِيفَةِ وَالْعَبْدِ
إِذَا هُنَّ أَعْوَادُ الْمَنَابِرِ بِأَسْنِيَّتِهِ * تَغْنَّى بِلَيْلَى أَوْ بِمَيْمَةِ أَوْ هِنْدِ
فَوَاللَّهِ مَا مِنْ تَوْبَةٍ نَزَعَتْ بِهِ * إِلَيْكَ وَلَا مَيْلٍ إِلَيْكَ وَلَا وَدِّ
وَلَكِنْ إِخْلَاصَ الضَّمِيرِ مَقْرَبٌ * إِلَى اللَّهِ زُلْفَى لَا تَيْبَسُ وَلَا تُكْدَى
أَتَاكَ بِهَا كَرَّهَا إِلَيْكَ بِأَنْفِهِ * عَلَى رَغْمِهِ وَأَسْتَأْذِرُ اللَّهَ بِالْحَمْدِ
فَلَا تَتَرَكَّنْ لِلنَّاسِ مَوْضِعَ شُبْهَةٍ * فَإِنَّكَ مَجْزَى يَحْسَبُ الَّذِي تُسَدَّى
فَقَدْ غَلَطُوا لِلنَّاسِ فِي نَصَبِ مِثْلِهِ * وَمَنْ لَيْسَ لِلنَّصُورِ بَابٌ وَلَا الْمَهْدَى

فكيف بمن قد بايع الناس وألقت بيعة الرُكبان غورا الى نجد
ومن سلك تسليما الخلافة سمعه * يسأدى به بين المهاطين من بعد
واى امرئ سمي بها قط نفسه * ففارقها حتى يغيب في اللحد
وتزعم هذى النابتية أنه * إمام لها فيما تسر وما تبدي
يقولون سنى وأية سنة * تيم بصعل الرأس جون القفا جعد
وقد جعلوا رخص الطعام بعهد * زعما له باليمن والكوكب السعد
إذا ما رأوا يوما غلاء رأيتهم * يحنون تحنانا الى ذلك العهد
واقباله في العيد يوجف حوله * وجيف الحيا دواصط كاك القنا الجرد
ورجاله يمشون بالبيض قبله * وقد تبعوه بالقضيب والبرد
فإن قلت قد رام الخلافة قبله * فلم يؤت فيما كان حاول من جد
فلم أجره إذ حيب الله سعيه * على خطأ إذ كان منه على عمد
ولم أرض بعد العفو حتى رفعه * ولعم أولى بالتغمم والرفد
فليس سوا خارجي رمى به * اليك سفاه الراى والراى قد يردى
تعدت له من كل أوب عصابة * متى يوردوا لا يصيدوه عن الورد
ومن هو في بيت الخلافة تلتقى * به وبك الآباء في ذروة المجيد
فهولاك مولاه وجندك جنده * وهل يجمع القين الحسامين في غمد
وقد رابى من أهل بيتك أنى * رأيت لهم وجدا به أيما وجد
يقولون لا تبعد من ابن ملية * صبور على اللاواء ذى مرة جلد
فداها وهانت نفسه دون ملكنا * عليه لدى الحال التى قل من يفدى
على حين أعطى الناس صفق أكفهم * على بن موسى بالولاية والعهد
فما كان فينا من أبى الضيم غيره * كريم كفى ما فى القبول وفى الرد
وجرد إبراهيم للوت نفسه * وأبدى سلاحا فوق ذى ميعه نهيد

وأبلى ومن يبلغ من الأمر جهده * فليس بمذموم وإن كان لم يُجِدْ
فهذه أمور قد يخاف ذوو النهى * مغبتها والله يهديك للرشيد
وكانت الخلافة في أيام الواثق تدور على إيتاخ وكتبه سليمان بن وهب ، وعلى أشناس
وكتبه أحمد بن الخصب ، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة وأوصلها الى الواثق على أنها
لبعض أهل العسكر، وهي :

يا بن الخلائف والأملك إن نُسبوا * حُرّت الخلافة عن آباءك الأول
أجرت أم رقدت عينك عن عجب * فيه البرية من خوف ومن وهل
وليت أربعة أمر العباد معا * وكلهم حاطب في جبل محتبيل
هذا سليمان قد ملكت راحته * مشارق الارض من سهل ومن جبل
ملكته السند والشجر من عدن * الى الجزيرة فالأطراف من ملل
خلافة قد حواها وحده فمضت * أحكامه في دماء القوم والنفل
وابن الخصب الذي ملكت راحته * خلافة الشام والغازين والقفل
فنيلى مصر فبحر الشام قد جرى * بما أراد من الاموال والحل
كانهم في الذى قسمت بينهم * بنو الرشيد زمان القسم للدول
حوى سليمان ما كان الأمين حوى * من الخلافة والتبليغ للأمل
وأحمد بن خصب في إمارته * كالقاسم بن الرشيد الجامع السبل
أصبحت لا ناصح يأتيك مستترا * ولا علانية خوفا من الحيل
سل بيت مالك أين المال تعرفه * وسل خراجك عن أموالك الجمل
كم في حبوسك من لا ذنوب لهم * أسرى التكذب في الأقياد والجمل
سميت باسم الرشيد المرتضى فيه * تُسمى الأمور التي تُنجى من الزلل
عش فيهم مثل ما عاثت يدها معا * على البرامك بالتهديم للقلال
فلما قرأ الواثق هذا الشعر غاظه ، ونكب سليمان بن وهب وأحمد بن الخصب ،
وأخذ منهما ومن أسبابهما ألفى ألف دينار فجعلها في بيت المال .

٦ - ابن البواب^(١)

لما أتى المأمون بشعر ابن البواب الذي يقول فيه :

أَيُّخْلَ قَرْدُ الْحَسَنِ قَرْدُ صِفَاتِهِ * عَلَى وَقْدِ أَفْرَدْتُهُ بِهِوَى قَرْدِ
رَأَى اللَّهُ عَبْدَ اللَّهِ خَيْرَ عِبَادِهِ * فَمَلَّكَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْعَبْدِ
أَلَا إِنَّمَا الْمَأْمُونُ لِلنَّاسِ عَصْمَةٌ * مِيزَةٌ بَيْنَ الضَّلَالَةِ وَالرَّشْدِ

فقال المأمون : أليس هو القائل :

أَعْنَيْ جُودًا وَأَيُّكَا لِي مُحَمَّدًا * وَلَا تَذَنَّا دَمْعًا عَلَيْهِ وَأُسْعِدَا
فَلَا فَرِحَ الْمَأْمُونُ بِالْمَلِكِ بَعْدَهُ * وَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا شَرِيذًا مُطَّرَّدَا
وَاحِدَةً بَوَاحِدَةٍ ، وَلَمْ يَصِلْهُ شَيْءٌ . وَلَمَّا سَخِطَ عَلَيْهِ قَالَ قَصِيدَةً يمدحه بها ، ودسَّ مَنْ
غَنَّاهُ فِي بَعْضِهَا لَهَا وَجَدَ مِنْهُ نَشَاطًا ، فَسَأَلَ : مَنْ قَائِلُهَا ، فَأُخْبِرَ بِهِ ، فَرَضِيَ عَنْهُ وَرَدَّهُ إِلَى رَسْمِهِ
مِنَ الْخِدْمَةِ ، وَهِيَ :

هَلْ لِلْحَبِّ مُعِينٌ * إِذْ شَطَّ عَنْهُ الْقَرِينُ
فَلَيْسَ يَبْكِي لَشَجْوَالٍ * يَحْزِينُ إِلَّا الْحَزِينُ
يَا ظَاعِنًا غَابَ عَنَّا * غَدَاةَ بَارِئِ الْقَطِينِ
أَبْكَى الْعَيُونَ وَكَانَتْ * بِهِ تَقَرَّرَ الْعَيُونَ
يَا يَهَا الْمَأْمُونُ إِلَهُ * سَمْبَارُكَ الْمِيمُونُ
لَقَدْ صَفَّتْ بِكَ دُنْيَا * لِلْسَّالِمِينَ وَدِينُ
عَلَيْكَ نُورٌ جَلَالٌ * وَنُورُ مُلْكٍ مُبِينِ

(١) هو عبد الله بن عتاب من أهل بخارى ، روى عنه جماعة معه رهينة إلى الحجاج بن يوسف ، فنزلوا
عنده بواسط ، فأقطعهم سكة بها ، فاخطوها ونزلوها طول أيام بني أمية ، ثم انقطعوا من الدولة العباسية إلى الربيع
نقدموه ، وكان عبد الله بن محمد هذا يخلف الفضل بن الربيع على حجة الخلفاء ، وكان صالح الشعر قليله ودرارية لا خيار
الخلفاء عالمًا بأمرهم .

القول منك فعال * والظن منك يقين
 ما من يديك شمال * كلتا يديك يمين
 كأنما أنت في الجوى * د والتقى هارون
 من نال من كل فضل * ما ناله المأمون
 تألف الناس منه * فضل وجود ولين
 كالبدري يدو عليه * سكينه وسكون
 فالرزق من راحتيه * مقسم مضمون
 وكل خصلة فضل * كانت فنه تكون

ومما يغنى فيه قوله :

أفنى أيها القلب المعبذب كم تصبؤ؟ * فلا النأي عن سمالك يسلى ولا القرب
 أقول غداة استخبرت م عتي ؟ * من الحب كرب ليس يشبهه كرب
 إذا أبصرتك العين من بعد غاية * فأدخلت شكائك أثبتك القلب
 ولو أن ركبا يملوك لقاوهم * نسيك حتى يستدل بك الركب

أملق ابن البواب حين جفاه الخليفة وصلت سنه عن الخدمة، فرحل الى أبي دلف
 القاسم بن عيسى ومدحه بقصيدة، فوهب له ثلاثين ألف درهم وعاد بها الى بغداد، فما
 نفدت حتى مات؛ وهى قوله :

طرقك صائدة القلوب رباب * ونأت فليس لها اليك ماب
 وتصرمت منها العهود وعُلقت * من دون نيل طلابها الأبواب
 فلا ضدفن عن الهوى وطلابه * فالحب فيه بليّة وعذاب
 وأخص بالمدح المهذب سيّدا * نفحاته للجنّدين^(١) رغب
 والى أبي دلف رحلت مطيقي * قد شفاها الإرقال والإتاع

(١) الارقال :؟ ضرب من الخشب .

تعلو بنا قُلَلُ الجبال ودونها * مما هَوَتْ أهوية وشعاب
 فاذا حللتُ لدى الأمير بأرضه * نلتُ المنى وتفَضَّتِ الآرابُ
 مَلِكٌ تأملُ عن أبيه وجده * مجَّدًا يقصرُ دونه الطُّلابُ
 وإذا وزَّنتُ قديمَ ذى حَسَبٍ به * خَضَعْتُ لفضلِ قديمه الأحسابُ
 قومَ علوا أُملاكُ كُلِّ قبيلة * فالنَّاسُ كُلُّهم له أذنان
 ضربتُ عليه المكرماتُ قباها * فعلا العمودُ وطالت الأطنابُ
 عَقِمَ النساءُ بمثله وتعطَّلت * من أن تُضَمَّنَ مثله الأصلابُ

٧ - الخُرَيْمِيُّ^(١)

كان متصلاً بمحمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة، وله فيه مدائح جَيَّاد، ثم رثاه بعد موته، فقليل له : يا أبا يعقوب، مدائحك لآل منصور بن زياد أحسن من مرثيتك وأجود؛ فقال : كُنَّا يومئذ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء، وبينهما بون بعيد .
وهو القائل في عيذه :

أَصْنِي. الى قائدى ليُخبرنى * إذا ألتقينا عَمَّنْ يُحْيِينِ
أريد أن أعِدِل السلام وأن * أَفْصِل بين الشريف والدُّون
أسمع ما لا أرى فَأَكْزَهُ أَنْ * أَخْطِئُ والسَّمْعُ غير مأمون
لله عيني التي يُفْعَتُ بها * لو أن دهرها بها يُواتِينِ
لو كنتُ خَيْرَتُ ما أخذتُ بها * تَعْمِيرَ نوح في مُلك قارون
حقَّ أَخْلَائِي أَنْ يَعُودُونِ * وَأَنْ يُعْزُوا عَنِّي وَيَكُونِ

وهو القائل :

إذا ما مات بعضُك فابكِ بعضًا * فإنَّ البعض عن بعض قريبُ
يُمْنِي الطَّيِّبُ شفاء عيني * وهل غير الإله لها طيب

(١) هو إسحاق بن حسان ويكنى أبا يعقوب، من العجم، وهو القائل :

لَمَّا أَمْرُكَ مِنْ سِرَاةِ الصَّفْدِ الْبَسْنَى * عَرِقَ الْأَعَاجِمُ جِلْدًا طَيْبَ الْخَبَرِ

وكان مولى ابن خريم الذي يقال لأبيه : خريم الناعم . وهو خريم بن عمرو بن يحيى مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان .
وعنى أبو يعقوب الخُرَيْمِيُّ بعد ما أسنَّ، وكان يقول في ذلك شعرا، فله قوله :

فإنَّ تلك عيني خبا نورها * فكم قبلها نور عين خبا
فلم يمس قلبى ولا كُفَّما * أرى نور عيني إليه سرى
فأسرج فيه إلى نوره * سراجا من العلم يشفى العمى

وقال يذكر بغداد والفتنة التي كانت بها :

قالوا ولم يلعب الزمان ببغداد * وتَعَثَّرَ بها عواثرها
إذ هي مثلُ العروسِ باديُّها * مَهْوُولٌ للفقى وحاضرها
جَنَّةٌ دُنْيَا ودارُ مَغْبَطَةٍ * قَلَّ مِنَ النَّائِبَاتِ وَاثَرُهَا
دَرَّتْ خُلُوفُ الدُّنْيَا لساكنها * وَقَلَّ مَعْسُورُهَا وَعَاسِرُهَا
وَأَنْفَرَجَتْ بِالنَّعِيمِ وَأَنْتَجَعَتْ * فِيهَا بِلْدَانُهَا حَوَاضِرُهَا
فَالْقَوْمُ مِنْهَا فِي رَوْضَةِ أَنْفٍ * أَشْرَقَ غَبَّ الْقِطَارِ زَاهِرُهَا
مِنْ غَرَمِ الْعَيْشِ فِي بُلَهْنِيَّةٍ * لَوْ أَنَّ دُنْيَا يَوْمَ عَامِرِهَا
دَارُ مَلُوكٍ رَسَتْ قَوَاعِدُهَا * فِيهَا وَقَسَّرَتْ بِهَا مَنَائِرُهَا
أَهْلُ الْعِلَا وَالْثَرَى وَأَنْدِيَةِ الْ * فَخِرَ إِذَا عُدَدَتْ مَفَاخِرُهَا
أَفْرَاحُ نَعَمَى فِي إِرْثِ مَمْلَكَةٍ * شَدَّ عُرَاها لَهَا أَكْبَارُهَا
فَلَمْ يَزَلْ وَالزَّمَانُ ذُو غَيْرٍ * يَقْدَحُ فِي مَلِكِهَا أَصَاغِرُهَا
حَتَّى تَسَاقَتْ كَأَسَا مُثْمَلَةٍ * مِنْ فِتْنَةٍ لَا يُقَالُ عَائِرُهَا
وَأَفْتَرَقَتْ بَعْدَ أَلْفَةِ شَبَعًا * مَقْطُوعَةً بَيْنَهَا وَأَوَاصِرُهَا
يَا هَلْ رَأَيْتِ الْأَمْلَاقَ مَا صَنَعَتْ * إِذْ لَمْ يَزَعْهَا بِالنَّصِيحِ زَاخِرُهَا
أُورِدَ أَمْلَاقُهَا نَفْسَهُمْ * هُوَّةٌ غَيَّيَتْ مَصَادِرُهَا
مَا ضَرَّهَا لَوْ وَقَتْ بِمَوَاقِفِهَا * وَأَسْتَحْكَمَتْ فِي التَّقَى بَصَائِرُهَا
وَلَمْ تُسَافِكْ دِمَاءَ شَيْعَتِهَا * وَتَبَتَّلَ فِتْنَةً تُكَايِرُهَا
وَأَفْتَنَتْهَا الدُّنْيَا الَّتِي جُمِعَتْ * لَهَا وَرَغْبُ النُّفُوسِ ضَائِرُهَا
مَازَالَ حَوْضُ الْأَمْلَاقِ [...] * مَسْجُورُهَا بِالْهَوَى وَسَاحِرُهَا
تُبْقَى فُضُولُ الدُّنْيَا مُكَاثِرَةً * حَتَّى أُبَيِّتَ كَرُّهَا ذَاخِرُهَا

تبيع ما جمع الأبوّة له * أبناء لا أربحت متاجرها
 يا هل رأيت الحنان زاهرة * يروق عين البصير زاهرها
 وهل رأيت القصور شارعة * تُمكن مثل الدمي مقاصرها
 وهل رأيت القرى التي غرس الـ * أملاكك مُحضرة دساکرها
 محفوفة بالكروم والنخل والـ * ريحان قد دُميت محاجرها^(١)
 فإنها أصبحت خلايا من الـ * بإنسان قد دُميت محاجرها^(١)
 قفراً خلاء تعوى الكلاب بها * يُنكر منها الرسوم دائرها
 وأصبح البؤس ما يفارقها * إلفاً لها والسرور هاجرها
 بزندورد والياسرية والـ * شطّين حيث انتهت معابرها
 وبالرحى والخيزرانية الـ * عاليا التي أشرفت قناطرها
 وقصر عبديوه عبرة وهدي * لكل نفس زكت سرائرها
 فأين حراسها وحارسها * وأين مجبورها وجابرها
 وأين خصيانها وحشوتها * وأين سكانها وعامرها
 أين الجرادية الصقالب والـ * أحبش تعدو هذلاً مشافرها
 ينصدع الجند عن مواكبها * تعدوها سرباً ضوامرها
 بالسند والهند والصقالب والـ * نوبة شيببت بها بربرها
 طيراً أباييل أرسلت عبثا * يقدم سودانها أحامرها
 أين الظباء الأبقار في روضة الـ * حُلك تهادى بها غرائرها
 أين غضاراتها ولذتها * وأين مجبورها وحابرها
 بالمسك والعنبر اليماني والـ * يلعجوج مشبوبة بجامرها
 يرقن في الخبز والمجاسد والـ * حوشى مخطومة مزامرها

(١) كذا في الطبري في حوادث سنة ١٩٧ هـ ، طبع بلاق وطبع أوربا .

فَايْنِ رَقَاصِهَا وَزَامِرِهَا * يُجِبْنِ حَيْثُ أَتَيْتِ حَنَاجِرِهَا
 تَكَادُ أَسْمَاعُهُمْ تُسَلِّ إِذَا * عَارِضُ عَيْدَانَهَا مَزَاهِرِهَا
 أَمْسَتْ بِكَوْفِ الْحِمَارِ خَالِيَةً * يَسْعَرُهَا بِالْجَحِيمِ سَاعِرِهَا
 كَأَنَّمَا أَصْبَحَتْ بِسَاحَتِهِمْ * عَادُ وَمَسَّتْهُمْ صَرَاصِرِهَا
 لَا تَعْلَمُ النَّفْسُ مَا يَبْأَيْتُهَا * مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ أَوْ يَبْأَكِرِهَا
 تُضْحِي وَتَمْسِي دَرِيَّةٌ غَرَضَا * حَيْثُ أَسْتَقَرَّتْ بِهَا شَرَاشِرِهَا
 لِأَسْهَمِ الدَّهْرِ وَهُوَ يَرْشُقُهَا * تُخْنِطُهَا مَرَّةً وَبَاقِرِهَا
 يَابُوسَ بَغْدَادَ دَارِ مَمْلُوكَةٍ * دَارَتْ عَلَى أَهْلِهَا دَوَائِرِهَا
 أَمَلَهَا اللَّهُ ثُمَّ عَاقَبَهَا * لَمَّا أَحَاطَتْ بِهَا كِبَائِرِهَا
 بِالْخَسْفِ وَالْقَذْفِ وَالْحَرِيقِ وَبَالَ * حَرْبِ الَّتِي أَصْبَحَتْ تُسَاوِرِهَا
 كَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنَ الْمَعَاصِي بِهَا * كَالْعَاهِرِ السَّوِّءِ
 حَلَّتْ بِبَغْدَادَ وَهِيَ آمِنَةٌ * دَاهِيَةٌ لَمْ تَكُنْ تُحَاذِرِهَا
 طَالَعَهَا السَّوِّءُ مِنْ مَطَالَعِهِ * وَأَدْرَكَتْ أَهْلَهَا جَرَائِرِهَا
 رَقَّ بِهَا الدِّينُ وَأَسْتِخَفَّ بَذَى الْإِلَ * فَضْلُ وَعَزَّ النَّسَاكُ فَاجِرِهَا
 وَخَطَمَ الْعَبْدُ أَنْفَ سَيِّدِهِ * بِالزَّغْمِ وَأَسْتَعْبَدَتْ مَخَادِرِهَا
 وَصَارَ رَبُّ الْحَيْرَانِ فَاسَقُهُمْ * وَأَبْتَرَّ أَمْرَ الدَّرُوبِ ذَاعِرِهَا
 مِنْ يَرِ بَغْدَادَ وَالْجَنُودُ بِهَا * قَدْ رَبَّقَتْ حَوْلَهَا عَسَاكِرِهَا
 كُلَّ طَحْوِيٍّ شَهْبَاءٍ بِأَسْلَةِ * تُسْقِطُ أَحْبَابَهَا زَمَاجِرِهَا
 تُلْقَى بَنَى الرَّدَى أَوَالِسَهَا * يُرْهَقُهَا لِقَاءُ طَاهِرِهَا
 وَالشَّيْخُ يَعْدُو حَزْمًا كَتَابُهُ * يُقَدِّمُ أَعْجَازَهَا يَعَاوِرِهَا
 وَلَزَهُيزُ بِالْقَوْلِ مَأْسَدَةٌ * مَرْقُومَةٌ صُلْبُهُ مَكَاسِرِهَا
 كِتَابُ الْمَوْتِ تَحْتَ أَلْوِيَّةٍ * أَبْرَحَ مَنْصُورُهَا وَنَاصِرِهَا

يعلم أن الأقدار واقعة * وقعنا على ما أحب قادرها
 فتلك بغداد ما بين من الـ * مدله في دورها عصارها
 مخوفة بالردى منطق * بالصقر مصورة جبارها
 وبين شط الفرات منه الى * دجلة حيث انتهت معابرها
 كهادى السفراء نافر * تركض من حولها أشاقرها
 يحرقها ذا وذاك يهدمها * ويشتنى بالنهاب شاطرها
 والكرخ أسواقها معطلة * يستن عيارها وعائرها
 أخرجت الحرب من سواقطها * آساد غيل غلبا ثساورها
 من البوارى ترأسها ومن الـ * خوص اذا استلأمت مغافرها
 تغدو الى الحرب في جواشنها الـ * مصوف اذا ما عدت أساورها
 كتائب الهرش تحت رايته * ساعد طرارها مقاسرها
 لا الرزق تبغى ولا العطاء ولا * يحشرها للقاء حاشرها
 فى كل درب وكل ناحية * خطارة يستهل خاطرها
 بمثل هام الرجال من فلق الـ * صخر يزود المقلاع باثرها
 كأنما فوق هامها عدف * من القضا الكدر هاج نافرها
 والقوم من تحتها لهم زجل * وهى ترمى بها خواطرها
 بل هل رأيت السيوف مضللة * أشهرها فى الأسواق شاهرها
 والخيل تستن فى أرقمتها * بالترك مسنونة خناجرها
 والنقط والنار فى طرائقها * وهابيا للدخان عامرها
 والنهب تعدو به الرجال وقد * أبدت خلايلها حرائرها
 معصوبات وسط الأزقة قد * أبرزها للعيون ساترها
 كل رعود الضحى مخبأة * لم تبد فى أهلها محاجرها

بَيْضَة خِذْر مَكْنُونَة بَرَزَتْ * للناس منشورة غداؤها
 تعثر في ثوبها وتُعْجِلُهَا * كَبَّةٌ خِيلَ زِيَعَتِ حَوَافِرُهَا
 تسأل أين الطريق والهبة * والنار من خلفها تبادرها
 لم تجتل الشمس حسن بهجتها * حتى آجلتها حرب تُبَاشِرُهَا
 ياهل رأيت الشكي مَوْلَاةً * في الطرق تسعى والجهد باهرها
 في إثر نعش عليه واحدها * في صدره طعنة يُسَاورُهَا
 فرغاء تُلْقِي النَّشَارَ مِنْ يَدِهَا ^(١) * يَهْزَاهُ بِالسَّانِفِ شَاجِرُهَا
 تنظر في وجهه وتهتف بال * شكل وعز الدموع خامرها
 غرغر بالنفس ثم أسأمتها * مطالوة لا يُخَافُ ثَائِرُهَا
 وقد رأيت الفتيان في عَرَصَةِ الـ * معرك معفورة منارها
 كل فتى مناع حقيقته * تشقى به في الوغى مساعرها
 بانت عليه الكلاب تنهشه * مخضوبة من ديم أظافرها
 أما رأيت الخيول جائلة * بالقوم منكوبة دوائرها
 تعثر بالأوجه الحسان من الـ * يقتلى وغلت دما أشاعرها
 يطأت أجاد فتية بُجْدٍ * يفلق هاماتهم حوافرها
 أما رأيت النساء تحت الحجا * نيق تعادى شعنا ضفائرها
 عقائل القوم والعجائز والـ * عئس لم تُخَاصِرَ معاصرها
 يحملن قوتا من الطحين على الـ * أكتاف معصوبة معاجرها
 وذات عيش ضحك ومُقْعِسة * تشدخها صخرة تُعَاورُهَا
 تسأل عن أهلها وقد سُلبت * وأبتر عن رأسها غفائرها
 ياليت ما والدهر ذو دُولٍ * تُرجى وأخرى تُخشى بوادرها

(١) كذا في هامش النسخة الأوربية من الطبري . وفي نسخة بولاق وأوربا (في صلبها) :

* فرغاء ينقي الشنار مردها * وهي رواية ظاهر عليها التحريف وفساد المعنى .

هل ترجعن أرضنا كما غنيت * وقد تهاوت بنا مصايرها
 من مبلغ ذا الرباسين رسا * لايت تأتى للنصح شاعرها
 بأن خير الولاة قد علم الله * سأس اذا عُددت مآثرها
 خليفة الله من بريته الـ * مأمون سأسئها وجابرها
 سميت اليه آمال أمتيه * منقادة برّها وفاجرها
 شاموا حيا العدل من تخايله * وأضحرت بالتقى بصايرها
 وأحمدوا منك سيرة جلّت الـ * شك وأخرى صحت معاذرها
 وأستجمعت طاعة برفقك للـ * مأمون نجديها وغايرها
 وأنت تتمتع في العالمين له * ومقلّة ما يكّل ناظرها
 فاشكر لذي العرش فضل نعمته * أوجب فضل المزيّد شاكرها
 وأحذر فداء لك الرعيّة والـ * أجناد مأمورها وآمرها
 لا تردن غمرة بنفسك لا * يصدر عنها بالرأى صادرها
 عليك صخضاحها فلا تلج الـ * غمر مئجّة زواجرها
 والقصد إن الطريق ذو شعيب * أشأمها وعثمها وجائرها
 أصبحت في أمة أوائلها * قد فارقت هذيهما أوأخرها
 وأنت سرسورها وسأسئها * فهل على الحق أنت قاسرها
 أدب رجالا رأيت سيرتهم * خالف حكم الكتاب سائرها
 وأمّدت الى الناس كف مرحمة * تسدّ منهم بها مفاقرها
 أمكك العدل إذ هممت به * ووافقت مدّه مقادرها
 وأبصر الناس قصد وجههم * وملكت أمة أخايرها
 تُشرع أعناقنا اليك اذا الـ * مادات يوما جمّت عشائرها
 كم عندنا من نصيحة لك في الـ * وقربى عزّت زوافرها

وحرمةٍ قُرْبَتْ أَوَاصِرُهَا * منك وأخرى هل أنت ذاكرها
سَمِيَّ رجالٍ في العلم مطبُّهم * رَأَتْهَا بَاكِرٌ وَبَاكِرُهَا
دونك غِرَاءَ كَالْوَذِيلَةِ لَا * تَفْقَدُ فِي بِلَدَةِ سَوَائِرِهَا
لَا طَمَعًا قَلْبُهَا وَلَا بَطْرًا * لِكُلِّ نَفْسٍ نَفْسٌ تُؤَامِرُهَا
سَيِّرُهَا اللَّهُ بِالنَّصِيحَةِ وَالْإِصْرَةِ * خَشْيَةٍ فَاسْتَدْبَجَتْ مَرَاتِرُهَا
جَاءَتْكَ تَحِيَّ لِكَ الْأُمُورِ كَمَا * يَنْشُرُ بَزَّ التَّجَارِ نَاشِرُهَا
حَمَلَتْهَا صَاحِبًا أَخَا ثِقَةٍ * يَظْلُ عَجَبًا بِهَا يُحَاضِرُهَا

ومن جيد شعره قوله :

النَّاسُ أَخْلَاقُهُمْ شَتَّى وَإِنْ جُبِلُوا * عَلَى تَشَابُهٍ أَرْوَاحٍ وَأَجْسَادِ
لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَهْلٌ وَكُلُّوهُمَا * كُلُّ لَهُ مِنْ دَوَاعِي نَفْسِهِ هَادِ
مِنْهُمْ خَلِيلٌ صَفَاءُ ذُو مَحَافِظَةٍ * أَرَسَى الْوَفَاءُ أَوَّلِيهِ بِأَوْتَادِ
وَمُشْعَرُ الْغَدْرِ مَخْنِيٌّ أَضْلَعُهُ * عَلَى سَرِيرَةٍ غَمَرَتْ غِلْفَهَا بَادِ
مُشَارِكُ خَدِيعِ جَمِّ غَوَائِلُهُ * يُبْدِي الصَّفَاءَ وَيَخْفِي ضَرْبَةَ الْهَادِي
يَأْتِيكَ بِالْبَغْيِ فِي أَهْلِ الصَّفَاءِ وَلَا * يَنْفَكَ يَسْمَعِي بِإِصْلَاحٍ لِإِفْسَادِ

ومن جيد شعر الخريمي قوله :

أَضَاحَكَ ضَيْفِي قَبْلَ إِتْزَالِ رَحْلِهِ * وَيُنْخَصِبُ عِنْدِي وَالْحَمْلُ جَدِيدِ
وَمَا لِحَصْبٍ لِلْأَضْيَافِ أَنْ يَكْثُرَ الْقَرَى * وَلَكِنَّا وَجْهَ الْكَرِيمِ خَصِيبِ

ومن جيد شعره قوله :

زَادَ مَعْرُوفَكَ عِنْدِي عِظًا * أَنَّهُ عِنْدَكَ مَحْقُورٌ صَغِيرِ
وَتَنَاسِيَهُ كَأَن لَمْ تَأْتِهِ * وَهُوَ عِنْدَ النَّاسِ مَشْهُورُ كَبِيرِ

وهو القائل :

وَأِنْ أَشَدَّ النَّاسِ فِي الْحَشْرِ حَسْرَةً * لِمُورِثٍ مَالٍ غَيْرِهِ وَهُوَ كَاسِبِهِ
كَفَى سَفَهًا بِالْكَهْلِ أَنْ يَتَّبِعَ الصَّبَا * وَأَنْ يَأْتِيَ الْأَمْرَ الَّذِي هُوَ عَائِبِهِ

ويُستجاد له قوله :

ودون الندى في كل قلب ثلّية * لها مصعدٌ وعمرٌ ومنحدرٌ سهل
 وودّ الفقى في كل نيل يُنيله * اذا ما أنقضى لو أن نائله جزل
 وأعلم علماً ليس بالظن أنه * لكل أناس من ضرائبهم شكل
 وأنّ أخلاء الزمان غناؤهم * قليل اذا الإنسان زلت به النعل
 تزود من الدنيا متاعاً لغيرها * فقد شمرت حذاء وأنصرم الحبل
 وهل أنت إلا هامة اليوم أو غد * لكل أناس من طوارقها آل شكل

وفي هذا الشعر يقول :

أبا لصغد بأس إذ تعيرني جمل * سفاهاً ومن أخلاق جارتني الجهل
 فإن تفخرى يا جمل أو تتجمل * فلا فخر إلا فوقه الدين والعقل
 أرى الناس شرّاً في الحياة ولا يرى * لقبر على قبر علاء ولا فضل
 وما ضرّني أن لم تلدني يحابر * ولم تشتمل جرم على ولا عكل

وهو القائل :

ما أحسن الغيرة في حينها * وأقبح الغيرة في كل حين
 من لم يزل متبهاً عرسه * مناصبها فيها لرب الظنون
 أوشك أن يُغريها بالذى * يخاف أن يبرزها للعيون
 حسبك من تحصينها وضعها * منك إلى عريض صحيح ودين
 لا تطلع منك على ربيعة * فيتبع المقرون حبل القرين

٨ - عبد الله بن طاهر^(١)

كان بحل من علو المنزلة وعِظَم القَدْر ولُطْف مكان من الخلفاء، يُستغنى به عن التقريظ له والدلالة عليه، وأمره في ذلك مشهورٌ عند الخاصّة والعامة، وله في الأدب مع ذلك المحل الذي لا يُدفع، وفي السماحة والشجاعة ما لا يقاربه فيه أحدٌ.

وكان أديبا ظريفا جيّد الغناء، نسب إليه صاحب الأغاني أصواتا كثيرة أحسن فيها وتَقَّاهَا أهل الصنعة عنه، وله شعر رائع ورسائل ظريفة، فمن شعره قوله :

نحن قومٌ نُليِّنُنا الحَدَقَ النُّجْجَ * لُ على أننا نُليِّن الحديد
طَوَّعُ أَيْدِي الطُّبَّاءِ تَقْتَادُنَا الْعِي * بن ونقتاد بالطَّعَانِ الْأَسْوَدَا
تَمْلِكُ الصَّيْدَ ثُمَّ تَمْلِكُنَا الْبَيْ * ضُ المصُونَاتُ أَعْيُنًا وَخَدُودَا
تَتَّقِي سَخَطَنَا الْأَسْوَدَ وَنَخْشِي * سَخَطَ الْخُشْفِ حِينَ يُبْدِي الصَّدُودَا
فَتَرَانَا يَوْمَ الْكَرِيهَةِ أَحْرَا * رَا وَفِي السَّلِيمِ لِلْغَوَانِي عَيْسِدَا
أَعْطَاهُ الْمَأْمُونُ مَالَ مِصْرَ لِسَنَةٍ، خَرَجَهَا وَضِيَاعَهَا، فَوَهَبَهُ كُلَّهُ وَفَرَّقَهُ فِي النَّاسِ وَرَجَعَ
صِفْرًا مِنْ ذَلِكَ، فَعَاظَ الْمَأْمُونُ فَعَلَّهُ، فَدَخَلَ إِلَيْهِ يَوْمَ مَقْدَمِهِ، فَأَنشَدَهُ أُبَيَّاتَا قَالَهَا فِي هَذَا
الْمَعْنَى، وَهِيَ :

(١) هو أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق كان سيّدا نبيلًا عالي الهمة شهما، وكان المأمون كثير الاعتماد عليه، حسن الالتفات إليه لذاته ورعاية لحق والده وما أسلفه من الطاعة في خدمته، وكان واليا على الديور فلما خرج بابك الخرمي على خراسان وأوقع الخوارج بأهل قرية الحمراء من أعمال نيسابور وأكثروا فيها الفساد واتصل الخبر بالمأمون بعث إلى عبد الله وهو بالديور بأمره بالخروج إلى خراسان، فخرج إليها وحارب الخوارج وقدم نيسابور في رجب سنة ٢١٥ هـ. وكان المطارق قد انقطع عنها تلك السنة، فلما دخلها مطرت مطرا كثيرا، فقام إليه رجل يزعم من حانوته وأنشده :

قد لحط الناس في زمانهم * حتى إذا جئت جئت بالدر

غيتان في ساعة لنا قدما * فرحبا بالأمر والمطر

تولى الشام والعراق ومصر. وتوفي سنة ٢٣٠ هـ. ومجد ترجمته في ابن خلكان (ج ١ ص ٣٦٩) والأغاني

(ج ١١ ص ١١) .

نَفْسِي فِدَاؤُكَ وَالْأَعْنَاقُ خَاضِعَةٌ * لِلنَّائِبَاتِ أَيْبَا غَيْرِ مُهْتَضَمٍ
إِلَيْكَ أَقْبَلْتُ مِنْ أَرْضِ أَقْمَتُهَا * حَوَلِينَ بَعْدَكَ فِي شَوْقِي وَفِي أَلَمِ
أَقْفُو مَسَاعِيكَ اللَّائِي خُصِمَتْ بِهَا * حَذَوُ الشَّرَاكِ عَلَى مِثْلِ مِنَ الْأَدَمِ
فَكَانَ قَضَائِي فِيهَا أَتْنَى تَبَعٌ * لِمَا سَنَنْتَ مِنَ الْإِنْعَامِ وَالنِّعَمِ
وَلَوْ وُكِّلْتُ إِلَى نَفْسِي عَيْنَتْ بِهَا * لَكِنْ بَدَأْتُ فَلَمْ أُعْجِزْ وَلَمْ أَلَمْ

فضحك المأمون وقال : والله ما نَفِسْتُ عليك مَكْرَمَةً نَلَّهَا ، ولا أُحْدِثُكَ حَسَنَ عِنْدَكَ
ذِكْرَهَا ، ولكن هذا شيء إذا عَوَّدْتَهُ نَفْسُكَ افْتَقَرْتُ ، ولم تقدر على لَمْ شَعْنِكَ وإصلاح
حالك . وزال ما كان في نفسه .

لَمَّا فَتَحَ عَبْدُ اللَّهِ مِصْرَ سَوْغَةِ الْمَأْمُونِ تَخْرَاجُهَا ، فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى أَجَازَ بِهَا
كُلَّهَا ثَلَاثَةَ آلَافٍ أَلْفٍ دِينَارٍ أَوْ نَحْوَهَا ، فَأَتَاهُ مُعَلَّى الطَّائِي وَقَدْ أَعْلَمُوهُ مَا صَنَعَ بِالنَّاسِ
فِي الْجَوَائِزِ وَكَانَ عَلَيْهِ وَاجِدًا ، فَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ تَحْتَ الْمِنْبَرِ فَقَالَ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، أَنَا مُعَلَّى
الطَّائِي وَقَدْ بَلَغَ مِنِّي مَا كَانَ مِنْكَ مِنْ جَفَاءٍ وَغِلَظٍ ، فَلَا يَغْلُظَنَّ عَلَى قَلْبِكَ ، وَلَا يَسْتَخْفِنَنَّكَ
الَّذِي بَلَغَكَ ، أَنَا الَّذِي أَقُولُ :

يَا أَعْظَمَ النَّاسِ عَفْوًا عِنْدَ مَقْدِرَةٍ * وَأَظْلَمَ النَّاسِ عِنْدَ الْجُودِ لِلَّالِ
لَوْ أَصْبَحَ النِّيلُ يَجْرِي مَاءَهُ ذَهَبًا * لَمَّا أَشْرْتَ إِلَى تَرْخِيْفِ يَمِينِكَ
تُعَلِّي بِمَا فِيهِ رِقَّ الْحَمْدُ تَمْلِكُهُ * وَلَيْسَ شَيْءٌ أَعَاضَ الْحَمْدَ بِالْغَالِي
تَفُكَّ بِالْيُسْرَكْفِ الْعُسْرُ مِنْ زَمَنِ * إِذَا اسْتَطَالَ عَلَى قَوْمٍ بِإِقْلَالِ
لَمْ تَخْلُ كُفُّكَ مِنْ جُودٍ مُخْتَبِطٍ * وَمُرْهَفٍ قَاتِلٍ فِي رَأْسِ قَتَالِ
وَمَا بَثَّتْ رَعِيْلَ الْخَيْلِ فِي بَلَدٍ * إِلَّا عَصَفْنَ بِأَرْزَاقٍ وَآجَالِ
إِنْ كُنْتُ مِنْكَ عَلَى بَابٍ مَنَنْتَ بِهِ * فَإِنَّ شُكْرَكَ مِنْ قَلْبِي عَلَى بَالِ
مَا زِلْتُ مُقْتَضِبًا لَوْلَا بَجَاهِرُهُ * مِنْ أَلْسِنٍ خُضْنَ فِي صَدْرِي بِأَقْوَالِ

فضحك عبد الله وسرَّ بما كان منه وقال : يا أبا السَّمراء، أَقْرِضْنِي عَشْرَةَ آلَافٍ دِينَارٍ فَمَا أَمْسَيْتُ أَمْلِكُهَا، فَأَقْرِضْهُ فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ .

كَانَ مُوسَى بْنُ خَاقَانَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ بِمِصْرَ، وَكَانَ نَدِيمَهُ وَجَلِيسَهُ، وَكَانَ لَهُ مُؤْتَرَاةٌ قَدِّمًا، فَأَصَابَ مِنْهُ مَعْرُوفًا كَثِيرًا وَأَجَازَهُ بِجَوَائِزٍ سَنِيَّةٍ هُنَاكَ وَقَبْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ إِنَّهُ وَجَدَ عَلَيْهِ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ بَخْفَاهُ وَظَهَرَ لَهُ مِنْهُ بَعْضُ مَا لَمْ يُحِبُّهُ، فَرَجَعَ حِينئِذٍ إِلَى بَغْدَادٍ وَقَالَ :

إِنْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ خَلَّانَا * لَا مُبْدِئًا عُرْفًا وَإِحْسَانًا
حَسَبْنَا اللَّهَ رَضِينَا بِهِ * ثُمَّ بَعَدَ اللَّهُ مَوْلَانَا

يَعْنَى بِهِ الْمَأْمُونُ، وَغَنَّتْ فِيهِ جَارِيَتُهُ وَسَمِعَهُ الْمَأْمُونُ، فَاسْتَحْسَنَهُ وَوَصَلَهُ وَإِيَّاهَا، فَبَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ، فَغَاضَهُ ذَلِكَ وَقَالَ : أَجَلُ ! صَنَعْنَا الْمَعْرُوفَ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَضَاعَ .

وَلَعَبَدَ اللَّهُ أَلْحَانَ صَاغَاهَا، فَفَنَّا وَمِنْ مَخْتَارِهَا وَصَدُورِهَا وَمَقْدَمِهَا لَحْنَهُ فِي شَعْرِ أُخْتِ عَاصِيَةٍ فَإِنَّهُ صَوْتٌ نَادِرٌ جَيِّدٌ صَحِيحُ الْعَمَلِ مُزْدَوِجُ النِّغَمِ ، بَيْنَ لَيْنٍ وَشِدَّةٍ عَلَى رَسْمِ الْحَدَّاقِ مِنَ الْقُدَمَاءِ، وَهُوَ :

هَلَّا سَقَيْتُمْ بَنِي سَهْمٍ أَسِيرَكُمْ * نَفْسِي فِدَاؤُكَ مِنْ ذِي غُلَّةٍ صَادِي
الطَّاعِنُ الطَّعْنَةَ النِّجَالَاءَ يَتَّبِعُهَا * مُضَرَّجٌ بَعْدَ مَا جَادَتْ بِإِزْبَادٍ

وَمِنْ غَنَائِهِ أَيْضًا :

رَاحَ صَحْبِي وَعَاوَدَ الْقَلْبَ دَاءُ * مِنْ حَبِيبِ طَلَّابُهُ لِي عَنَاءُ
حَسَنُ الرَّأْيِ وَالْمَوَاعِيدِ لَا يُنَلِّسُنِي لَشَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ وَفَاءُ
مَنْ تَعَزَّى عَمَّنْ يُحِبُّ فَإِنِّي * لَيْسَ لِي مَا حَيِّتُ عَنْهُ عَزَاءُ

ما قيل في هجاء الأمين ورثائه

قيل في هجائه :

لم نُبَيِّحْكَ لِمَاذَا لِلطَّرَبِ * يَا أَبَا مُوسَى وَتَرْوِيحِ اللَّعَبِ
وَلِتَرَكِ النَّهْسَ فِي أَوْقَاتِهَا * حَرَصًا مِنْهَا عَلَى مَاءِ الْعَنْبِ
وَشَيْفِ أَنَا لَا أَبْكِي لَهُ * وَعَلَى كَوْنِ لَا أَخْشَى الْعَطَبِ
لَمْ تَكُنْ تَعْرِفْ مَا حَدَّ الرِّضَا * لَا وَلَا تَعْرِفْ مَا حَدَّ الْغَضَبِ
لَمْ تَكُنْ تَصْلُحْ لِلْمَلِكِ وَلَمْ * تُعْطِكَ الطَّاعَةَ بِالْمَلِكِ الْعَرَبِ
أَيُّهَا الْبَاكِي عَلَيْهِ لَا بَكَتْ * عَيْنٌ مِنْ أَبْكَاءِ إِلَّا لِلْعَجَبِ
لَمْ نُبَيِّحْكَ لِمَا عَرَضْتَنَا * لِلْمَجَانِيقِ وَطُورِ السَّلَبِ
وَلَقُومِ صَيِّرُونَا أَعْبُدًا * لَهْمْ يَيْدُو عَلَى الرَّأْسِ الذَّنَبِ
فِي عَذَابٍ وَحِصَارٍ مُجْهِدٍ * سَدَّدَ الطَّرِيقَ فَلَا وَجْهَ طَلَبِ
زَعَمُوا أَنَّكَ حَيٌّ حَاشِرٌ * كُلٌّ مِنْ قَدْ قَالَ هَذَا قَدْ كَذَّبِ
لَيْتَ مَنْ قَدْ قَالَهُ فِي وَحْدَةٍ * مِنْ جَمِيعِ ذَاهِبٍ حَيْثُ ذَهَبِ
أَوْجِبَ اللَّهُ عَلَيْنَا قَتْلَهُ * فَإِذَا مَا أَوْجِبَ الْأَمْرَ وَجَبِ
كَانَ وَاللَّهُ عَلَيْنَا فِتْنَةً * غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَكَتَبِ

وقال عبد الرحمن بن أبي الهُداهد يرثيه :

يَا غَرْبُ جُودِي قَدْ بُتَّ مِنْ وَدَمِهِ * فَقَدْ فَقَدْنَا الْغَزِيرَ مِنْ دِيمِهِ
أَلَوْتُ بِدُنْيَاكَ كُفَّ نَائِبَةً * وَصِرْتَ مُغْضًى لَنَا عَلَى نِقَمِهِ
أَصْبَحَ لِلْمَوْتِ عِنْدَنَا عِلْمٌ * يَضْحَكُ سِنَّ الْمُنُونِ مِنْ عِلْمِهِ
مَا أَسْتَنْزَلَتْ دَرَّةُ الْمُنُونِ عَلَى * أَكْرَمِ مَنْ حَلَّ فِي ثَرَى رَجَمِهِ
خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي بَرِّيَّتِهِ * تَقْصُرُ أَيْدِي الْمُلُوكِ عَنْ شَيْمِهِ

يَفْتَرَّ عَنْ وَجْهِهِ سَنَا قَرَّ * يَنْشَقُّ عَنْ نَوْرِهِ دُجَى ظُلْمِهِ
 زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ مِنْ جَوَانِبِهَا * اذْأُولَغَ السَّيْفُ مَنْ نَجَّيْجَ دَمِهِ
 مَنْ سَكَنَتْ نَفْسُهُ لِمَصْرَعَةٍ * مِنْ عُمَمِ النَّاسِ أَوْ ذَوَى رَحِمِهِ
 رَأَيْتُهُ مِثْلَ مَا رَأَى بِهِ * حَتَّى تَذُوقَ الْأَمْرَ مِنْ سَقَمِهِ
 كَمْ قَدْ رَأَيْنَا عَزِيزَ مَمْلُوكَةٍ * يُنْقَلُ عَنْ أَهْلِهِ وَعَنْ خَدَمِهِ
 يَا مَلِكَا لَيْسَ بَعْدَهُ مَلِكٌ * نَحَاتَمُ الْأَنْبِيَاءَ فِي أُمَمِهِ
 جَادَ وَحَى الَّذِي أَقْبَتَ بِهِ * تَخَّ غَزِيرِ الْوَكَيْفِ مِنْ دِيَمِهِ
 لَوْ أَحْجَمَ الْمَوْتُ عَنْ أَخِي ثَقْبَةً * أَسْوَى فِي الْعِزِّ مُسْتَوَى قَدَمِهِ
 أَوْ مَلِكٍ لَا تَرَامُ سَطَوْتُهُ * إِلَّا مَرَامَ الشَّتِيمِ فِي أَجْمِهِ
 خَلَدَكَ الْعِزُّ مَا سَرَى سَدَفٌ * أَوْ قَامَ طِفْلُ الْعَشَى فِي قَدَمِهِ
 أَصْبَحَ مُلْكُكَ إِذَا أَثَرْتَ بِهِ * يَقْرَعُ سَنَ الشُّقَاةِ مِنْ نَدَمِهِ
 أَثَرْدُو الْعَرْشِ فِي عِدَاكَ كَمَا * أَثَرُ فِي عَادِهِ وَفِي لِمَارِمِهِ
 لَا يُبْعَدُ اللَّهُ صَيُّورَةً تَلَيْتَ * نَحِيرِ دَاخِ دَعَاهِ فِي حَرَمِهِ
 مَا كُنْتُ إِلَّا كَلِمُ ذِي حُلْمٍ * أَوْ لَجَّ بَابَ السَّرُورِ فِي حُلْمِهِ
 حَتَّى إِذَا أَطْلَقْتُهُ رَقْدَتُهُ * عَادَ إِلَى مَا آعْتَرَاهُ مِنْ عَدَمِهِ

وقال أيضا يرثيه :

أَقُولُ وَقَدْ دَنَوْتُ مِنَ الْفِرَارِ * سُقِيتَ الْغَيْثَ يَا قَصْرَ الْقَرَارِ
 رَمَتْكَ يَدُ الزَّمَانِ بِسَهْمِ عَيْنٍ * فَصِرْتَ مُتَوَحًّا بِدُخَانِ نَارِ
 أَيْنَ لِي عَنْ جَمِيعِكَ أَيْنَ حَلَّوْا * وَأَيْنَ مَزَارِهِمْ بَعْدَ الْمَزَارِ
 وَأَيْنَ مُحَمَّدٌ وَأَبْنَاهُ مَالِي * أَرَى أَطْلَاهُمْ سُودَ الدِّيَارِ
 كَانَ لَمْ يُؤْتَسُوا بِأَنْبِيَسٍ مُلْكٍ * يَطْوِلُ عَلَى الْمُلُوكِ بِخَيْرِ جَارِ
 إِمَامٌ كَانَ فِي الْحَدَثَانِ عَوْنًا * لَنَا وَالْغَيْثُ يَمْنَحُ بِالْقَطَارِ

لقد ترك الزمانُ بني أبيه * وقد غمرتهم سُود البحار
أضاعوا شمسهم بخرت بنحس * فصاروا في الظلام بلا نهار
وأجلوا عنهم قمرًا منيرا * وداسَتْهُمْ خيولُ بني الشرار
ولو كانوا لهم كفؤًا ومثلا * إذا ما تُوجوا تيجانَ عار
ألا بأن الأمامُ وآرائه * لقد خَيرَ الحشى منّا بنار
وقالوا الخُلدُ بيع فقلتُ دُلًّا * يصير بيائعيه الى صغار
كذلك الملكُ يُتبع أولييه * إذا قُطِعَ القرار من القرار

وقال مُقدّس بن صيفي يرثيه :

خليلي ما أُنشك به الخطوبُ * فقد أعطاك طاعته النجيب
تدلت من شماريخ المنايا * منّا ما تقوم لها القلوبُ
خلال مقابر البستان قبر * يُجاور قبره أسدٌ غريب
لقد عظمت مُصيبته على من * له في كل مَكْرمة نصيب
على أمثاله العبرات تُدرى * ونُنتك في ما تيمه الجيوب
وما آذنت زُبيدة عنه دمعا * تُخصّ به النسيبة والنسيب
دعوا موسى ابنه لبكاء دهر * على موسى ابنه دخل الحزيب
رأيتُ مَشاهد الخلفاء منه * خلاءً ما بساحتها يُجيب
لَينك أننى كهلٌ عليه * أذوبُ وفي الحشى كيد تَذوب
أُصيب به البعيد نُحَرَ حزنًا * وعَيْن يومه فيه المرّيب
أنادى من بطون الأرض شخصًا * يحركه النداء فما يُجيب
لئن نعت الحروب اليه نفسًا * لقد فُجعت بمصرعه الحروب

وقال نزيمة بن الحسن يرثيه على لسان أم جعفر :

لخبرِ أُمِّمٍ قام من خيرِ عُصْرٍ * وأفضِّلِ سائِمٍ فوق أَعوادِ مِنبرِ
لِوارِثِ علمِ الأولينِ وفهمهم * ولِللَّكِ المأمونِ من أُمِّ جَعْفَرِ
كَتَبْتُ وعيني مُسْتَهْلٌ دموعُها * اليك أبن عمي من جفوني ومخجَري
وقد مَسَّنِي ضُرٌّ وذُلٌّ كآبَةٍ * وأرَّقَ عيني يا ابن عمي تفكَّري
وهَمَّتْ لِمَا لاقِيتُ بعد مصابه * فأمرى عظيم مُنكَرٌ جدَّ مُنكَرِ
سأشكو الذي لاقِيتُه بعد فقدِه * اليك شكاةُ المسْتَهَامِ المُقَهَّرِ
وأرجو لما قد مرَّ بي مذ فقدتُه * فأنت لِبَنِي خيرِ رَبِّ مُغَيَّرِ
أَتَى طَاهِرٍ لا طَهَّرَ اللهُ طَاهِرَا * فما طاهرٍ فيما أَتَى بِطَهَّرِ
فأخرجني مكشوفةَ الوجه حاسِرا * وأنهبَ أموالِي وأحرقَ أدْري
يَعِزُّ على هارون ما قد لِقِيتُه * وما مرَّ بي من ناقصِ الخلقِ أعورِ
فان كان ما أسدى بأمرِ أمرته * صَبَرْتُ لأمرٍ من قديرٍ مُقَدَّرِ
تذكُرُ أميرَ المؤمنين قراجي * فديتُك من ذِي حرمةٍ مُتَدَكَّرِ

وقال أيضا يرثيه :

سبحان ربِّ العِزَّةِ الصَّمَدِ * ماذا أُصِيبْنَا به في صُبْحَةِ الأَحَدِ
وما أُصِيبَ به الإسلامُ قاطبةً * من التَّضَعُّعِ في رُكْنَيْهِ والأَوَدِ
مَنْ لَمْ يُصَبِّ بِأَمِيرِ المؤمنين ولم * يُصْبَحْ بِمَهْلَكَةٍ والْهَمُّ في صُعدِ
فقد أُصِيبْتُ به حتى تَبَيَّنَ في * عقلي وديني ودنياي وفي جسدي
يا لَيْلَةً يَشْتَكِي الإسلامُ مُدَّتْهَا * والعالمون جميعا آخِرَ الأَبَدِ
غَدَرَتْ بِالْمَلِكِ الميمونِ طائِرُهُ * وبالإمام وبالضَّرْغامةِ الأسدِ
سارَتْ إليه المنايا وهي تُرْهِبُهُ * فواجهته بأوغادِ ذوى عَدَدِ
بشُورِ حِينٍ وأَغْتَسِمَ يَقودهم * قُرَيْشٌ بالبيضِ في قُرَيْشٍ من الزَّردِ

فصَادَفُوهُ وَحِيدًا لَا مُعِينَ لَهُ * عَلَيْهِمْ غَائِبُ الْأَنْصَارِ بِالْمَدَدِ
 بِفُتْرَعُوهُ الْمَنَايَا غَيْرَ مُتَمَتِّنِع * قَرْدًا فَيَالِكَ مِنْ مُسْتَسِيلِمِ فَرْدِ
 يَلْقَى الْوُجُوهَ بِوَجْهِ غَيْرِ مُبْتَدِّل * أُبْهَى وَأَنْقَى مِنَ الْقُوْهِيَّةِ الْجُدِّ
 وَاحْسَرَتَا وَقْرِيشٌ قَدْ أَحَاطَ بِهِ * وَالسَيْفُ مُرْتَعِدٌ فِي كَفِّ مُرْتَعِدِ
 فَمَا تَحْزَنُكَ بَلْ مَا زَالَ مَتَّصِمًا * مِنْكَسَّ الرَّأْسُ لَمْ يُبْدَى وَلَمْ يُعَدِ
 حَتَّى إِذَا السَّيْفُ وَافَى وَسَطَ مَقْرِقِهِ * أَذْرَتْهُ عَنْهُ يَدَاهُ فَعَلَّ مُتَّيْدِ
 وَقَامَ فَاعْتَلَقَتْ كَفَّاهُ لَبَّتَهُ * كَضِيغِمِ شَرَسٍ مُسْتَسِيلِ لَبِدِ
 فَاجْتَرَتْهُ ثُمَّ أَهْوَى فَاسْتَقَلَّ بِهِ * لِلْأَرْضِ مِنْ كَفِّ لَيْثٍ مُخْرَجِ حَرِدِ
 فَكَادَ يَقْتُلُهُ لَوْ لَمْ يُكَاثِرْهُ * وَقَامَ مِنْقَلَبًا مِنْهُ وَلَمْ يَكْدِ
 هَذَا حَدِيثُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا * نَقَصْتُ مِنْ أَمْرِهِ حَرْفًا وَلَمْ أَزِدِ
 لَا زِلْتُ أَنْدُبُهُ حَتَّى الْمَمَاتِ وَإِنْ * أَخْفَى عَلَيْهِ الَّذِي أَخْفَى عَلَى لُبَدِ

وذكر عمر بن شبة أن محمد بن أحمد الهاشمي حدثه أن لبابة أبنة علي بن المهدي قالت

البيتين الآتين وقيل أنهما لابنة عيسى بن جعفر وكانت مملكة بمحمد :

أَبِيكَ لَا لِلنَّعِيمِ وَالْأُنْسِ * بَلْ لِلْعَالِي وَالرَّحِمِ وَالْأُتْرُسِ
 أَبْيَى عَلَى هَالِكٍ جُعْتُ بِهِ * أَرَمَلَنِي قَبْلَ لَيْلَةِ الْعُرْسِ

هـاء يحيى بن أكرم^(١)

ومذاك في المجلد الأول أن نذكر مثلاً من الهجاء قاله بعض الشعراء في يحيى بن أكرم، وها هو ذا :

أَرْقَهُ بَرْحُ الهوى وَسَدِمْهُ * وَمَلَّه الحُبُّ فَبَات يَأْلَمُهُ
طورا يُعَانِيهِ وطورا يَشْتُمُهُ * مثل الحريق في الحشا يُضْرَمُهُ
ففاضت العينُ بدمع تَسْجُمُهُ * نَمَّتْ عَلَيْهِ كُلُّ شوقٍ يَكْتُمُهُ
وباح بالحب الذي يُجْجِمُهُ * وبات والقلبُ يُسَامِي هَمَّهُ
من لمحِبٍّ قد تراه يَرْحُمُهُ * أَصْبَحَ بالبأساء عارِ أَنْعَمُهُ
طال تَصَابِيهِ وطال سَقَمُهُ * وَبَلَى الجِسمَ وَرَقَّتْ أَعْظَمُهُ
يَشْهَدُنِي الله على مَنْ يَظْلِمُهُ * يَمْنَعُهُ طَعَمَ الكَرَى وَيَحْرِمُهُ
وَاهًّا لَهُ يَصِرُ مَنْ لَا يَصِرُهُ * أَصْبَحَ هَذَا الدِّينَ رَنًّا رِمُهُ
عَظْلَهُ الجَوْرَ وطال قِدَمُهُ * تَحْتَمَّتْ مِنَ الجَوْرِ عَلَيْهِ دِيَمُهُ
فَبَادَ مَغْنَى رَبْعِهِ وَأَرْسَمُهُ * إِلَّا بَقَايا قَوْمِهِ وَجُمُهُ
أوطنه الجور فأضْحَى مَعْلَمُهُ * يَرُودُ فِيهِ شَاؤُهُ وَنَعَمُهُ
من يَشْهَدُ الجورَ فنحن نَعْلَمُهُ * أَنْوَكُ قَاضٍ فِي البِلَادِ نَعْلَمُهُ
يقول حقاً لَا تُعَيِّثْ تَرْحُمُهُ * مَذَّ وَلِيَ الحَكَمَ أُبَيِّحَ حَرَمُهُ
وَأَتُهِمْتُ مِنَ القَضَاءِ حُرْمُهُ * وَأَضْطَرَبَتْ أَرْكَانُهُ وَدَعَمُهُ
والله يَبْنِيهِ وَنَحْنُ نَهْدِمُهُ * يَا لَيْتَ يَحْيَى لَمْ يَلِدْهُ أَكْثَمُهُ
وَلَمْ تَطَأْ أَرْضَ العِراقِ قَدَمُهُ * مَلْعُونَةٌ أَخْلَاقُهُ وَشَيْمُهُ^(٢)

(١) أنظر ما كتبناه عن يحيى بن أكرم في المجلد الأول (ص ٤٤٠) .

(٢) حذفنا بعد هذا البيت

أربعة أبيات رأينا أنها تنافي الآداب العامة .

والله والله لقد حلّ دمه * لو أن للدين عمادا يدعمه
يعنل عنه الميل أو يقومه * لكان قد رنّ عليه مآتمه
أرجو ويقضى الله لا يسأله * من وجهه هذا ولكن يقصمه
* بالسيف إذ حلت عليه نغمه *

وصف ثورة بغداد وحريقها

أما ما أصاب بغداد من سلب ونهب وتحريق وتخريب وفتنة شعواء وقتل ودماء،
فانا نترك الكلمة في ذلك لشعراء ذلك العصر .

قال الأعمى يصف دمار الحرب :

تقطعت الأرحام بين العشائر * وأسلمهم أهل التقي والبصائر
فذاك انتقام الله من خلقه بهم * لما آجترموه من ركوب الكبائر
فلا نحن أظهرنا من الذنب توبة * ولا نحن أصلحنا فساد السرائر
ولم نستمع من واعظ ومدكر * فینجّع فینا وعظناه وأمر
فابك على الإسلام لما تقطعت * عراه وربى ضره كل كافر
فأصبح بعض الناس يقتل بعضهم * فمن بين مقهور عزيز وقاهر
وصار رئيس القوم يحمل نفسه * وصار رئيسا فيهم كل شاطر
فلا فاجر للبر يحفظ حرمة * ولا يستطيع البر دفعاً لفاجر
تراهم كأمثال الذئاب رأيت دماً * فأمنته لا تلوى على زجر زاجر
وأصبح فساق القبائل بينهم * تسلى على أقرانها بالخناجر
فابك لقتلى من صديق ومن أخ * كريم ومن جار شفيق مجاور
والدة تبكى بحزين على ابنها * فيبكي لها من رحمة كل ظائر
وذات حليل أصبحت هى أيم * وتبكي عليه بالدموع البوادر
تقول له قد كنت عزاً وناصراً * فغيب عنى اليوم عزى وناصرى
وأبك لإحراق وهدم منازل * وقتل وإنهاب اللهى والدخائر

وإبراز ربّات الخدور حواسرا * نخرجن بلا نَحْمِيرٍ ولا بَمَازِرِ
 تراها حَيَارَى لَيْسَ تَعْرِفُ مَذْهَبًا * نوافرَ أمثالَ الأطباءِ النوافِرِ
 كأن لم تكن بغدادُ أحسنَ مَنَظَرًا * ومَلَهَى رَأْيَهُ عَيْنُ لَآءٍ وَنَاطِرِ
 بلى هكذا كانت فَأَذْهَبَ حَسَنًا * وبَدَدَ مِنْهَا الشَّمْلَ حَكْمُ الْمَقَادِرِ
 وحلّ بهم ماحلّ بالناس قبلهم * فَأَضْحَوْا أَحَادِيثًا لَبَادٍ وَحَاضِرِ
 أَبْغَدَادُ يَا دَارَ الْمُلُوكِ وَمُحْتَمَى * صُرُوفُ الْمَنَآيَا مُسْتَقَرُّ الْمَنَاطِرِ
 وَيَا جَنَّةَ الدُّنْيَا وَمَطْلَبَ الْغِنَى * وَمُسْتَبْطَ الْأُمُوالِ عِنْدَ الضَّرَائِرِ
 أَبْنَى لَنَا إِنْ الذِّينَ عَهِدْتُهُمْ * يَحْلُونَ فِي رَوْضٍ مِنَ الْعَيْشِ زَاهِرِ
 وَأَيْنَ مُلُوكٍ فِي الْمَوَاقِبِ تَغْتَدَى * تُشَبِّهُ حَسَنًا بِالنَّجُومِ الزَّوَاهِرِ
 وَأَيْنَ الْقَضَاةِ الْحَاكِمُونَ بِرَأْيِهِمْ * لَوْ رَدَّ أُمُورَ مُشْكَلاتِ الْأَوَامِرِ
 أَوْ الْقَبَائِلُونَ النَّاطِقُونَ بِحِكْمَةٍ * وَرَضِيفَ كَلَامٍ مِنْ خُطِيبٍ وَشَاعِرِ
 وَأَيْنَ مَرَاكِحَ لِلْمُلُوكِ عَهِدَتُهَا ^(١) * مِنْ خُرْفَةٍ فِيهَا صَنُوفُ الْجَوَاهِرِ
 تُرَشِّقُ بِمَاءِ الْمِسْكِ وَالْوَرْدِ أَرْضُهَا * يَفُوحُ بِهَا مِنْ بَعْدِ رِيحِ الْجَمَامِرِ
 وَرَوْحُ النَّدَامَى فِيهِ كُلُّ عَشِيَّةٍ * إِلَى كُلِّ فَيَاضٍ كَرِيمِ الْعُنَاصِرِ
 وَأَيْنَ قِيَامٍ تَسْتَجِيبُ لِنَعْمِهَا * إِذَا هَوَّلَبَاها حَنِينُ الْمَزَامِرِ
 وَأَيْنَ الْمُلُوكِ الْغُرُّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ * وَأَشْيَاعُهُمْ فِيهَا اكْتَفَوْا بِالْمَعَاذِرِ
 يَرْوَحُونَ فِي سُلْطَانِهِمْ وَكَأَنَّهُمْ * يَرْوَحُونَ فِي سُلْطَانِ بَعْضِ الْعِشَائِرِ
 يَحَادِلُ عَمَّا نَالَهُمْ كِبَرَاؤُهُمْ * فَتَنَالَتْهُمُ بِالْكُرْهِ أَيْدِي الْأَصَاغِرِ
 فَأَقْسَمَ لَوْ أَنَّ الْمُلُوكَ تَنَاصَرُوا * كَزَلَّتْ لَهَا خَوْفًا رِقَابُ الْجَبَابِرِ

(١) كذا في الأصل ولعلها صروح .

وقال عمرو بن عبد الملك الوراق يبكى بغداد ويهجو طاهرا ويعرض به :

من ذا أصابك يا بغدادُ بالعينِ * ألم تكونى زمانا قُترة العينِ
 ألم يكن فيك أقوامٌ لهم شرف * بالصالحات والمعروف يلقونى
 ألم يكن فيك قومٌ كان مسكنهم * وكان قريهم زينا من الزين
 صاح الزمان بهم بالبين فانقضوا * ما ذا الذى جفعتنى لوعة البين
 أستورع الله قوما ما ذكرتهمو * ألا تحذر ماء العين من عيني
 كانوا ففرقهم دهرٌ وصدعهم * والتدهر يصدع ما بين الفريقين
 كم كان لى مسعد منهم على زمنى * كم كان منهم على المعروف من عون
 لله در زمان كان يجمعنا * أين الزمان الذى ولّى ومن أين
 يا من يُحزب بغداداً ليعمرها * أهلك نفسك ما بين الطريقين
 كانت قلوبُ جميع الناس واحدة * عينا وليس يكون العين كالدين
 لما استبيتهم فرقتهم فرقا * والناس طراً جميعا بين قلبين

ولبعض فتيان بغداد :

بكيت دماً على بغداد لما * فقدت غصارة العيش الأنيق
 تبدلنا هموماً من سرور * ومن سعة تبدلنا بضيق
 أصابتها من الحساد عين * فأفنت أهلها بالمنجنيق
 فقوم أحرقوا بالنار قسراً * ونائمة تنوح على غريق
 وصالحه تُنادى وأصحابها * وباكية لفقدان الشفيق
 وحوراء المدامع ذات دَل * مضمخة المجاسد بالخلوق
 تفر من الحريق الى انتهاب * ووالدها يفسر الى الحريق

وَسَالِبُهُ الْغَزَالَةَ مُقَاتِلَتِهَا * مَضَاهِجُهَا كَلَالَةُ الْبُرُوقِ
 حَيَارَى كَالْهَدَايَا مُبْهِكَرَاتِ * عَلَيْهِنَ الْقَلَائِدُ فِي الْحُلُوقِ
 يُبَادِينَ الشَّفِيقَ وَلَا شَفِيقُ * وَقَدْ فُقِدَ الشَّفِيقُ مِنَ الشَّفِيقِ
 وَقَوْمٌ أُخْرِجُوا مِنْ ظِلِّ دُنْيَا * مَتَاعُهُمْ يُبَاعُ بِكُلِّ سُوقِ
 وَمُعْتَرِبٌ قَرِيبُ الدَّارِ مُلَقًى * بِلَا رَأْسٍ بِقَارِعَةِ الطَّرِيقِ
 تَوْسَطَ مَنْ قَتَلَهُمْ جَمِيعَا * فَمَا يَدْرُونَ مِنْ أَى الْقَرِيقِ
 فَلَا وَلَدٌ يُقْسِمُ عَلَى أَبِيهِ * وَقَدْ هَرَبَ الصَّدِيقُ مِنْ صَدِيقِ
 وَمَهْمَا أَتَسَّ مِنْ شَيْءٍ تَوَلَّى * فَإِنِى ذَاكَرُ دَارِ الرَّقِيقِ

بيان المصادر العربية والافرنجية الهامة

التي عوّلتنا عليها في المراجعة لكتاب عصر المأمون

ثبتت لك هنا الهام من مراجع الكتاب عدا دواوين الشعراء ومعجمات اللغة التي أشرنا اليها في مواضعها من الكتاب وهوامشه . وهي :

المصادر باللغة العربية :

تاريخ دمشق لابن عساكر، مخطوط .	تاريخ الطبري ، طبعة مصر وليدن .
تاريخ المشاركة لصليبا بن يوحنا ، مخطوط .	تاريخ الكامل لابن الأثير، طبعة مصر.
تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، مخطوط .	تاريخ مروج الذهب للسعودى ، طبعة مصر وباريس .
تاريخ بغداد لابن طيفور (الجزء السادس طبعة أوروبا) .	تاريخ يعقوبى ، طبعة ليدن باشراف المسيوهتسما .
تاريخ التشريع الاسلامى للمرحوم الحضري بك، طبعة مصر .	تاريخ أبى الفدا للملك المؤيد ، طبعة الأستانة .
تاريخ الآداب السلطانية والدول الاسلامية لابن طباطبا ، طبعة أوروبا .	تاريخ علماء الأندلس لأبى الوليد عبدالله محمد بن يوسف ، طبعة أوروبا .
تاريخ النجوم الزاهرة لابن تغريبرى ، طبعة أوروبا .	تجارب الأمم لابن مسكويه ، طبعة مصر.
البدء والتاريخ لأبى زيد البلخى ، طبعة باريس سنة ١٨٩٩ «أرنست لرو» .	تاريخ العبر والمبتدا والخبر لابن خلدون ، طبعة مصر .
الآثار الباقية للبيرونى ، طبعة ليهسك .	الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى ، طبعة ليدن .
	نظم الجوهر لابن البطريق ، طبعة أكسفورد سنة ١٦٥٩ للمستشرق ادوار بوكوك .

- مختصر تاريخ الدول لأبي الفرج الملقب ،
طبعة بيروت .
- تاريخ الاسحاق ، طبعة أوروبا .
- فتوح الشام للواقدي ، طبعة مصر .
- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، طبعة
مصر .
- ولاة مصر وقضاها للكندي ، طبعة
بيروت .
- مختصر أخبار الخلفاء لابن الساعي ،
طبعة مصر .
- كشف الظنون لحاجي خليفة ، طبعة
الأستانة وليبسك ومصر .
- المستطرف للابشيبي ، طبعة بولاق .
- معجم البلدان لياقوت الحموي ، طبعة
ليبسك ومصر .
- المزهر للسيوطي ، طبعة بولاق .
- الأحكام السلطانية للوردى ، طبعة
أوروبا .
- أعلام الناس للاتليدي ، طبعة مصر .
- كتاب المعارف لابن قتيبة ، طبعة أوروبا .
- معجم الأدياء لياقوت الرومي ، طبعة
مصر واشراف مرجليوث .
- الفهرست لابن النديم ، طبعة ليبسك .
- طبقات الأئمة لابن صاعد ، طبعة بيروت .
- طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ،
طبعة مصر .
- تراجم الحكماء للقفطى ، طبعة مصر .
- طبقات الأدياء لعبد الرحمن الأنباري ،
طبعة مصر .
- وفيات الأعيان لابن خلكان ، طبعة
مصر .
- وفات الوفيات لابن شاعر الكندي ،
طبعة مصر .
- الملل والنحل للشهرستاني ، طبعة مصر .
- ألف باء ليوسف البلوي ، طبعة مصر .
- مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ،
طبعة دار الكتب .
- فتوح البلدان للبلاذري ، طبعة ليدن .
- كتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني ،
طبعة ليدن .
- كتاب البلدان لليعقوبي ، طبعة ليدن .
- مسالك الممالك للاصطخري ، طبعة
ليدن .
- المسالك والممالك لابن حوقل ، طبعة
ليدن .
- أحسن التقاسيم للقدسي ، طبعة ليدن .
- المسالك والممالك لابن خردادبه ، طبعة
ليدن .
- الأعلاق النفيسة لابن رسته ، طبعة ليدن .
- حسن المحاضرة للسيوطي ، طبعة مصر .
- بلوغ الأرب في أحوال العرب للأوسى
طبعة بغداد .
- مقدمة البياذة هو ميروس تعريب الإستاني
طبعة مصر .

- كتاب الكشكول للعامل ، طبعة مصر .
- سراج الملوك للطوطشي ، طبعة مصر .
- كتاب الخراج لقدامة بن جعفر ، طبعة لندن .
- كتاب الخراج لأبي يوسف ، طبعة بولاق .
- تاريخ الوزراء المنسوب للصولي ، طبعة بيروت .
- أشهر مشاهير الاسلام ، للرحوم رفيق العظم بك ، طبعة مصر .
- كتاب نفح الطيب ، طبعة مصر وأوربا .
- مفاتيح العلوم للخوارزمي ، طبعة مصر .
- مفيد العلوم للخوارزمي ، طبعة مصر .
- كتاب المواهب الفتحية للرحوم الشيخ حمزة فتح الله ، طبعة مصر .
- كتاب السيرة لابن هشام ، طبعة مصر .
- مقدمة ابن خلدون ، طبعة مصر .
- خطط الشام للاستاذ محمد كرد علي ، طبعة دمشق .
- مجموعة مجلة المشرق ، طبعة بيروت .
- مجموعة مجلة المجمع العلمي ، طبعة دمشق .
- مجموعة مجلة الهلال ، طبعة مصر .
- مجموعة مجلة المقتطف ، طبعة مصر .
- بعض فصول ومباحث من المجلة الأسبوعية .
- حديث الأربعاء للدكتور طه حسين ، طبعة مصر .
- حضارة الاسلام في دار السلام لجميل مدور ، طبعة مصر .
- كتاب الأغاني للاصبهاني ، طبعة بولاق والساسي .
- الجزء الأول من كتاب الأغاني ، طبع مطبعة دار الكتب المصرية .
- نهاية الأرب ، طبع مطبعة دار الكتب المصرية والنسخة الفتوغرافية بالدار .
- صبح الأعشى ، طبع مطبعة دار الكتب المصرية .
- كتاب التاج المنسوب للمحافظ ، طبع مطبعة دار الكتب المصرية .
- كتاب الأمانى لأبي على القالى ، طبع مطبعة دار الكتب المصرية .
- كتاب الكامل للبرد ، طبعة مصر .
- كتاب البيان والتبيين للمحافظ ، طبعة مصر .
- العمدة لابن رشيق ، طبعة مصر .
- كتاب المحاسن والمساوى للبيهقي ، طبعة فردرك شوالى .
- كتاب المحاسن والاضداد للمحافظ ، طبعة لندن .
- كتاب البخلاء للمحافظ ، طبعة مصر .
- كتاب الحيوان للمحافظ ، (نسخة فتوغرافية محفوظة بدار الكتب المصرية) .

- منهل الرواد في علم الانتقاد لقسطاكي
الحصى بك، طبعة مصر .
- محاضرات الأستاذ الاسكندري
المدرس بدار العلوم، طبعة مصر .
- الوسيط للأستاذ الاسكندري المدرس
بدار العلوم، طبعة مصر .
- أدبيات اللغة العربية للأستاذ مصطفى
صادق الرافعي، طبعة مصر .
- أدبيات اللغة العربية للرحوم عاطف
بركات بك وزملائه، طبعة مصر .
- مذهب الأغاني للرحوم الخضرى بك،
طبعة مصر .
- بلاغة العرب للدكتور أحمد ضيف،
طبعة مصر .
- الشعر والشعراء لابن قتيبة، طبعة ليدن .
- طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي،
طبعة ليدن ومصر
- كتاب الأذكياء لابن الجوزى، طبعة
مصر .
- العقد الفريد للملك السعيد، طبعة مصر .
- العقد الفريد لابن عبد ربه، طبعة
مصر .
- لطائف المعارف للثعالبي، طبعة ليدن .
- عيون الأخبار لابن قتيبة، طبعة
دار الكتب وأوربا .
- حلبة الكيت، طبعة بولاق .
- خزانة الأدب لابن حجة الجموي، طبعة.
بولاق .
- خزانة الأدب للبغدادى، طبعة بولاق .
- محاضرات الفلسفة لستلانه بالجامعة
المصرية .
- محاضرات علم الفلك بالجامعة المصرية
للسنيور كرولونينو، طبعة روما .
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة.
لطاشكبرى زاده، طبعة
حيدرآباد .
- محاضرات الشيخ عبد الوهاب النجار
بالجامعة المصرية .
- محاضرات المرحوم الشيخ محمد المهدي.
بالجامعة المصرية .
- محاضرات الأستاذ الخضرى بك في تاريخ
الأهم الإسلامية، طبعة مصر .
- محاضرات الأستاذ الخضرى بك في تاريخ
الدولة الأموية، طبعة مصر .
- التمدن الإسلامى للرحوم جورجى بك.
زيدان، طبعة مصر .
- تاريخ آداب اللغة العربية للرحوم
جورجى بك زيدان، طبعة مصر .
- طبقات ابن سعد، طبعة أوربا .
- طبقات الشافعية للسبكي، طبعة مصر .
- المنثور والمنظوم لابن طيفور .
- رسالة بنى أمية للمحافظ، خطية .

- | | |
|---|---|
| <p>رسائل البلغاء للأستاذ محمد كرد علي ،
طبع مصر .</p> <p>جمهرة أشعار العرب لأبي زيد ، طبعة
مصر .</p> <p>المفضليات للضبي ، طبعة مصر .</p> <p>حماسة البهترى ، طبعة بيروت .</p> <p>الصناعتين لأبي هلال العسكري ، طبعة
مصر .</p> <p>الموشى لأبي الطيب ، طبعة أوروبا .</p> <p>ديوان الحماسة لأبي تمام ، طبعة مصر .</p> <p>مجانى الأدب وشرحه ، طبعة بيروت .</p> <p>مختارات البارودى ، طبعة مصر .</p> <p>حياة الحيوان للدميرى ، طبعة مصر .</p> <p>عيون التواريخ لابن شاعر الكتبي
(أجزاء منه محفوظة بدار الكتب
المصرية) .</p> <p>الفرج بعد الشدة للتونجى ، طبعة مصر .</p> | <p>كتاب الوزراء والكتاب لأبي عبد الله
محمد بن عبدوس الجهشيارى طبعة
فيينا سنة ١٩٢٦</p> <p>كتاب الاشتقاق لابن دريد الأزدي
طبعه جوتنجن سنة ١٨٥٤</p> <p>الأوراق للصوى ، خطية .</p> <p>مطبوعات تذكاري جيب الانجليزية
وخاصة مؤلفات الأستاذين
مرجليوث وبرون .</p> <p>زهر الآداب للمصرى ، طبعة مصر .</p> <p>المشتبه في أسماء الرجال للذهبي ، طبعة
أوروبا .</p> <p>الوافى بالوفيات للصفدى (المحفوظ
بدار المكتب المصرية تحت
رقم ١٢١٩) .</p> <p>أخبار أبي نواس لابن منظور ، طبعة
مصر .</p> |
|---|---|

المصادر الأفرنجية :

- Histoire des Arabes par Cl. Huart: Paris.
 Life of Mohamet by Sir W. Muir. (London).
 The Life and Teachings of Mohammed and the Spirit of Islam by
 Ameer Ali. (London).
 D. S. Margoliouth: Mohammed and the Rise of Islam. (London)
 in "Heroes of the Nations' Series".
 H. Lammens: "Etudes sur les régnes des Califs Omayyades Moawia
 1^{er} et Yasid 1^{er}". (Beylouth).
 Library of Universal History (N. Y.).
 History of Arabic Literature: Cl. Huart. (London).
 A Literary History of Persia: Ed. G. Browne. (London).
 A Literary History of the Arabs by R. A. Nicholson. (London).
 Short History of the Saracens by Ameer Ali, (London).
 The Caliphate: its rise decline and fall by Sir W. Muir. (London).
 Annals of the Early Caliphate by Sir W. Muir. (London).
 Baghdad during the Abbasid Caliphate by G. le Strange. (Oxford).
 Encyclopaedia of Islam. (Luzac).
 Encyclopaedia Britannica. (London).
 La Grande Encyclopédie. Paris.
 The Historians' History of the World by H. S. Williams.
 (New York).
 Ency. of Religion & Ethics by I. Hastings. (London).
 The History of the Decline and Fall of the Roman Empire by
 Gibbon. (London).
 The History of Philosophy in Islam by J. de Boer translated by
 Jones. (London).
 Muhammedanische Studien by Ignaz Goldziher, (Halle).
 Histoire des Musulmans d'Espagne Jusqu' à la Conquête de l'Anda-
 lusie par les Almoravides by R. Dozy. (London).
 Development of Muslim Theology, Jurisprudence and Constitu-
 tional Theory by D. B. Macdonald. (London).
 Margoliouth's Works Etc.
 R. Dozy: Supplément aux Dictionnaires Arabes. 1927.
 Bibliothek Arabischer Historiker und Geographen: Hans V. Mzik,
 (Leipzig).

مطبعة دار الكتب المصرية ٥٤٩/١٩٢٨/٢٠٠٠

